الهلال

يناير ٢٠٠٣ الثمن ٤ جنيهات

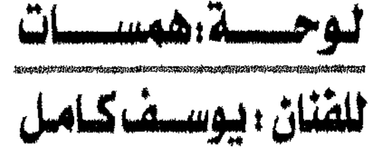
ماذا يحدث غدا ؟!

جزء خاص

اليمين والعنف

يهود ضد الصهيونية

مصر والعائلة المقدسة

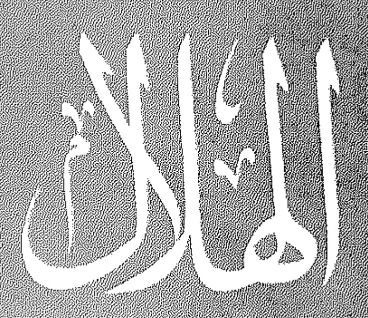


لوحة: همسات

للفنان: يوسف كامل



لوحة وفنان



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

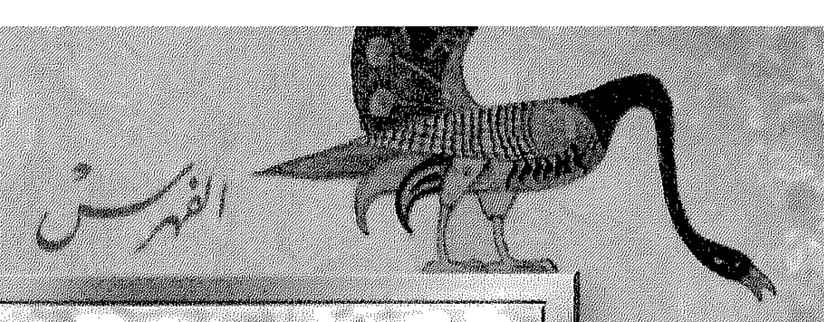
محمد أبو طالب — المستشار الفنى

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفنى

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة ـ الأردن ١,٥دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال- تونس ٣ دينارات ـ المغرب ٣٠ درهما ـ الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال ـ غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا ٤ يورو ـ سويسرا ٥ فرنكات ـ المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات



الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام الحادى عشر بعد المائة
ذو القعدة ١٤٢٣ هـ - يناير ٢٠٠٣م

الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

مفاجأة سارة مع بداية عام جديد

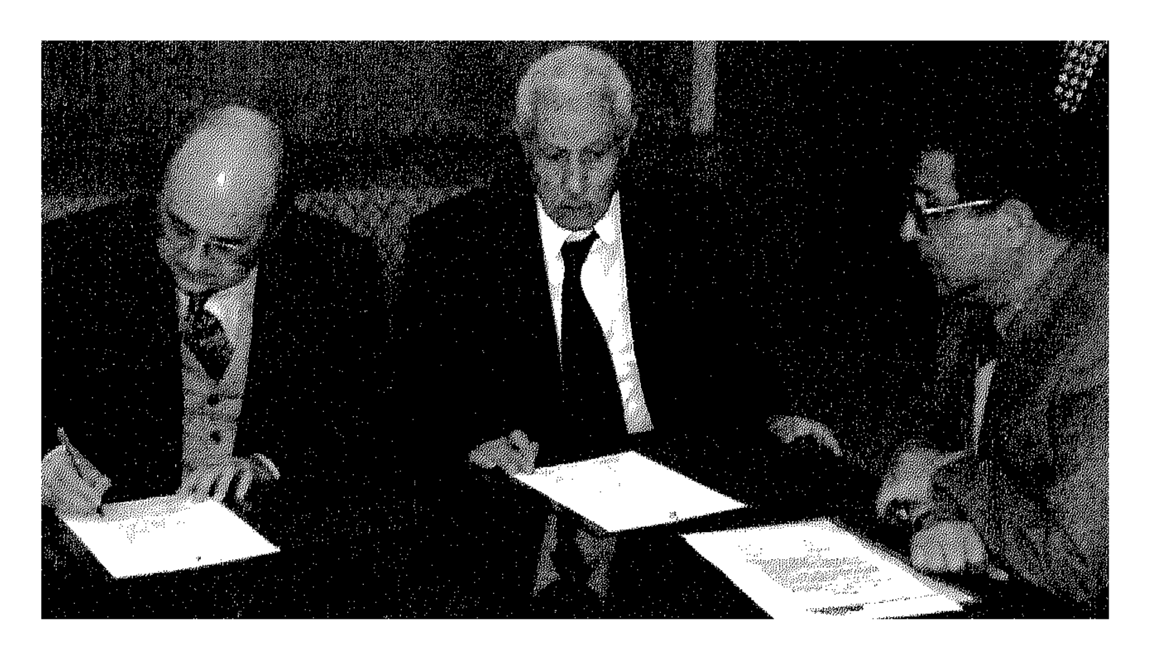
عزيزى القارئ

كل سنة وأنت طيب فى مناسبة بدء عام جديد يملؤنا التفاؤل والرغبة الحقيقية فى مواصلة الجد والاجتهاد فى ظل الطموحات التى نتمناها لوطننا الغالى .

وأحد هذه النجاحات التى نبدأ بها عامنا الجديد الاتفاق المهم الذى وقع فى دار الهلال يوم ١٧ ديسمبر الماضى بين الأستاذ مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة والأستاذ مصطفى نبيل رئيس التحرير وبين الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير مكتبة الاسكندرية. والذى قدمت فيه دار الهلال نسخة ميكروفيلم كاملة من مجلة الهلال منذ صدورها عام ١٨٩٢ وحتى الآن، ولكي تقوم المكتبة بدورها بعمل نسخة رقمية مصنفة ومبوبة على أسطوانة مدمجة C.D . وينص الاتفاق على أن تحصل دار الهلال على نسخة أصلية، كما تحتفظ مكتبة الاسكندرية بنسخة للباحثين المترددين على المكتبة للرجوع إلى مافيها من ذخائر الثقافة والأدب العربي الرفيع .

كانت مكتبة الاسكندرية قد تسلمت نسخة الميكروفيلم الخاصة بالهلال منذ منتصف نوفمبر ٢٠٠٢ م وتسلمها الدكتور يوسف زيدان والذى أشار إلى أن المكتبة قد تعاقدت بالفعل على معدات حديثة يصل ثمنها إلى ستمائة ألف جنيه ويتم وصولها سريعا وتم تدريب عدد من العاملين لأداء هذه المهمة، وبالفعل أشار الدكتور إسماعيل سراج الدين أثناء التوقيع إلى أن العمل بدأ بحماس شديد على أمل أن تكون الاسطوانات التى تضم أعداد الهلال فى أيدى الباحثين والدارسين خلال عام على أكثر تقدير. وقد بدأنا فى دار الهلال نتلقى طلبات كثيرة من الجامعات المصرية والعربية ومراكز البحوث لما للهلال من أهمية على مدى ١١٠ سنوات، حيث ساهم بالكتابة فيها عدد كبير من الأدباء والمفكرين المصريين والعرب ومن أبرزهم طه حسين الذى نشر بها «الأيام» على حلقات كما نشرت أول طبعة ظهرت من «عصفور من الشرق» عام ١٩٢٦ ، بالإضافة إلى مذكرات أحمد عرابى كما كتب فيها كبار الكتاب ومن بينهم عباس العقاد، أحمد أمين، أمين الخولى، محمد حسين هيكل، زكى مبارك، محمد فريد أبو حديد، خليل مطران، أحمد شوقى، حافظ إبراهيم، سلامة موسى، وصولا إلى زكى نجيب محمود ومحمود شاكر، وعبدالحميد يونس وسهير القلماوى ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وشكرى عياد وغيرهم من ألمع كتاب العرب ومفكريهم.





د. اسماعيل سراج الدين ومكرم محمد أحمد و مصطفى نبيل أثناء توقيع العقد

وكانت الأعداد الخاصة هى أكثر ما يميز الهلال، ومن بينها أعداد عن: طه حسين، أحمد شوقى، العقاد، نجيب محفوظ، كما نشرت الهلال مابين عامى ١٩٦٥ و١٩٧٠ موسوعتى «الهلال الاشتراكية – والأدب الشعبى» وكلها تفيد الباحث والدارس.

عزيزى القارئ

إن هذا العام الجديد، هو بداية سارة بحق لمجلة الهلال التى قدمت للفكر العربى ألوانا من الثقافات لم تتوافر لمجلة أخرى بفضل جهود رؤساء تحريرها بدءا من جرجى زيدان مؤسسها ومرورا بإميل وشكرى زيدان والدكتور أحمد زكى وعلى أمين وكامل زهيرى ورجاء النقاش وعلى الراعى وصالح جودت وحسين مؤنس وكمال النجمى، ثم رئيس تحريرها الحالى .

ويتيح المشروع الجديد لكل القراء الاستفادة من هذه المجلة العريقة التى ظلت منذ بداية صدورها فى حالة تجديد مستمر فى كل مجالات الثقافة وفنونها، ومضت طوال مسيرتها حاملة مشعل العدل والحرية، تتواصل مع الأجيال التى حرصت على قراءتها والاستفادة من نبع فياض لايتوقف من الثقافة والمعرفة.

ومسيرة الهلال تشهد بأنها كانت أول من اهتم بالحديث عن التكنولوجيا فى مجالات السينما والتليفزيون وحتى الصعود إلى القمر.. كما نحرص حاليا على الاهتمام بكل جديد فى عالم الكمبيوتر والانترنت والفضائيات، ونتفاعل ونتحاور مع الثقافات والأفكار الجديدة.

ودورنا الحقيقى لايتوقف عند تقديم كل جديد يهم القارئ، بل الحرص المستمر على مواصلة الجهد لكى تبقى الكلمة المقروءة هى المتعة الحقيقية لكل مهتم بالثقافة والعلوم المتطورة، كما حرصنا على تطوير مجلة الهلال، وبدأت منذ يناير ٢٠٠٢ م فى ثوبها الجديد مستفيدة من فن الإخراج الصحفى الراقى، وما وصلت إليه أحدث علوم التكنولوجيا فى فن الطباعة والكمبيوتر.

وكل عام وأنت بخير عزيزى القارىء . ■

المحـــــرر

أوائل التسعينيات

اليـــمين و العنـــف



بقلم

د. مصطفى سـويف



ذو القعدة ١٤٢٢هـ - يناير ٢٠٠٢م

على امتداد النصف الأول من تسعينيات القرن الماضى غلبت على العالم سمة التشدد اليمينى؛ وقد واجهت هذه الحقيقة باعتبارها مشكلة يصعب علي تفسيرها؛ هل جاء هذا التيار كرد فعل للسقوط السوفييتى وما يمكن أن يكون قد أثاره من انتعاش لآمال المحافظين فى العالم أجمع؟ أم أنه ينطوى على ما هو أكثر من ذلك؟ فقد بدت كثير من قوى اليمين متعجلة فى الوصول كل بعالمه إلى الصيغة التى يريد إقرارها. أم أنه لا هذا ولا ذاك، ولكنه تسارع طبيعى للأحداث يكتسب مزيدا من الزخم مع مرور الأعوام؟

على أية حال هذه هى الصورة الدينامية للعالم كما عاينته فى تلك الفترة.

المشهد الدولى

انتظمت أحداث العالم الكبرى فى تلك الفترة حول أربعة أبعاد رئيسية؛ أحدها خاص بتأكيد أفول النجم السوفييتى ، وآخر خاص بعمليات تشكل جديد للعالم ، وثالث يضم مظاهر التعجيل بفرض الهيمنة الأمريكية على بعض مضامين هذا التشكل، ورابع ينطق باعتماد العنف سبيلا إلى التغيير حيثما كان المطلب هو التغيير.

أفول النجم السوفييتى

فى أغسطس سنة ٩١ كانت مسيرة الحرب ضد العراق لاتزال تشغل الأذهان، وكانت الولايات المتحدة لا تكف عن إغراء حلفائها بتسديد ضربة جديدة إليه بحجة أنه لم يتخل بعد عن أسلحة الدمار الشامل، وكانت فى الوقت نفسه تلوح للعالم العربى بتقديم حل للقضية الفلسطينية لإغرائه بالانضمام إليها فى الجولة الجديدة. وإذا بالأنباء تأتى فجاءة بوقوع انقلاب ضد جورباتشوف فى الاتحاد السوفييتى؛ فقد قبض عليه جماعة من العسكريين وعينوا لإدارة شئون البلاد لجنة من بينهم. وسرعان ما أعلنت واشنطن ولندن وباريس صدمتهم إزاء هذه الأنباء. وأعلن يلتسين (وكان لايزال فى المراحل المبكرة من تقديم نفسه للغرب على أنه رجل الساعة) أنه يقف ضد هذا الانقلاب، وحاول فى هذا السبيل أن يستميل عددا من أعضاء مجلس الدوما للوقوف إلى جانبه، ودعا أفراد الشعب فى موسكو إلى الدفاع عن برلمانهم ضد الدبابات السوفييتية التى بدأت تتحرك لضربه. وتجمعت بالفعل أعداد كبيرة من المواطنين قدروا بخمسين ألفا، وصنعوا من أجسادهم حائطا بشريا لحماية البرلمان. واقتربت منهم الدبابات ، ولكن الجنود ترددوا وأحجموا عن الضرب، وكانت هذه هى اللحظات التى حسمت الأمر، وسرعان ما أعلن عن فشل الانقلاب. وبعد ٢٤ ساعة أفرج عن جورباتشوف، وقبض على قادة الانقلاب، واستقبل جورباتشوف فى البرلمان حيث ألقى خطابا ، ولكن كان واضحا للجميع أن يلتسين أفلح فى سرقة الكاميرا . وتداعت بعد ذلك أحداث بالغة الدلالة، إذ سرعان ما استقال جورباتشوف من منصبه كأمين عام للحزب الشيوعى، وأصدر عدة قرارات بوقف نشاط الحزب، وحل جميع تنظيماته.. واحتشدت حشود كبيرة فى موسكو تحتفل بهزيمة الرجال الذين قادوا الانقلاب.. ووقف على رأس هذه الحشود بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الروسية يبارك

أوائل التسعينيات

الحشود، ويجرى طقوس التكفير والحرمان لمن ثاروا على جورباتشوف!! ثم مالبث الاتحاد السوفييتي أن بدأ يتفكك. وفي أواخر أغسطس ٩١ كانت كل من إذربيجان وأوكرانيا، ومولدافيا، وروسيا الاتحادية قد أعلنت الاستقلال. وفي آخر ديسمبر من العام نفسه استقال جورباتشوف من منصبه كرئيس للاتحاد السوفييتي، وأعلن تسليم السلطة إلى بوريس يلتسين رئيس روسيا، كما أعلن تسليمه شفرة القوة النووية السوفييتية. وأعلنت روسيا أنها تسلمت مقعد الاتحاد السوفييتي في هيئة الأمم المتحدة، وأنزل العلم السوفييتي من فوق الكرملين، ورفع بدلا منه علم روسيا القيصرية، وأسدل الستار على أنقاض ما كان يسمى الاتحاد السوفييتي.

ملامح مبكرة لعالم جديد

فوق هذه الخلفية، خلفية احتضار الاتحاد السوفييتي، وزوال عالم الثنائية القطبية، بدأت تلوح في الأفق ملامح جديدة للنظام العالمي. وبغض النظر عن الديناميات الخاصة التي دفعت كل ملمح إلى الظهور، فقد تسارع بزوغ هذه القسمات في فترة زمنية محدودة لترسم معا صورة أولية لعالم على قدر ملحوظ من الجدة، ففي يونية سنة ٩١ أعلنت كوبا أنها باقتصادها إلى تبنى نظام اقتصاد السوق. وفي نوفمبر ٩٣ أذاع راديو لندن أنه تم التوقيع في جنوب أفريقيا على دستور جديد ينتهي بمقتضاه عهد التفرقة العنصرية ضد السود. وفي مايو ٩٤ جرت أول انتخابات في تاريخ البلاد على أساس غير عنصري، وفاز فيها حزب المؤتمر الأفريقي بزعامة نلسون مانديلا. كذلك حدث في ديسمبر ٩٣ أن أعلن في لندن عن تحقيق اتفاق بين الحكومة البريطانية والثوار في أيرلنده على إيجاد حل سياسي للمشكلة الأيرلندية. وأعلن أيضا عن التوصل إلى اتفاق مبادىء بين حكومة إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، كما أعلن في الجزائر أن الحكومة بدأت الدخول في مفاوضات مع جبهة الإنقاذ الإسلامية. وفي مايو ٩٥ وقعت حكومة أنجولا مع ثوار حركة يونيتا اتفاقا بوقف إطلاق النار بعد حرب أهلية استمرت لما يقرب من ثلاثين عاما. هكذا بدت صورة العالم في جانب منها ساعية نحو السلام وحقن الدماء.

لكن هذا الجانب ظل جزءا من كل، وبقى في الصورة جانب آخر لم تنقطع

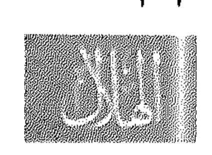


فيه الصراعات الدموية بأشكال ودرجات بالغة القبح؛ حدث ذلك فى البوسنة، وفى أفغانستان، وفى جنوب السودان، وفى اليمن؛ فى البوسنة جاءت الأنباء فى فبراير ٩٣ بأن الصراع بين البوسنيين المسلمين وجنود الصرب بلغ ذروة لم نسمع بها من قبل، فقد نظمت حملة اغتصاب جماعى للنساء البوسنيات، وأذاعت إحدى اللجان الدولية المدافعة عن حقوق الإنسان أنها تقدر عدد النساء اللاتى أغتصبن فى تلك الحملة بستين ألف امرأة. وفى أفغانستان ظلت الحرب مشتعلة بين المجاهدين بعضهم بعضا طمعا فى الحكم باسم انتماءاتهم القبلية / العرقية. وفى جنوب السودان اشتد سعير الحرب بين الشمال والجنوب، وكذلك فى اليمن. وفى الجزائر استمر مسلسل العنف الذى لم يهدأ حتى الآن بين الحكومة والجماعات الإسلامية.

على هذا النحو كانت الأمور تجرى فى العالم بطوله وعرضه، على خلفية تلاشى الثنائية القطبية فى العالم، مناطق تخرج من أتون الصراع الساخن فى العالم، ومناطق تزداد وطأة التناحر الساخن فيها. وحالات تشف عن تدخلات أجنبية سافرة، وحالات وقع التدخل فيها لكن ظل مستترا أو شديد التمويه، وحالات ثالثة غلب فيها نضج القيادات المحلية (كما فى جنوب أفريقيا) . وأخيرا وليس آخرا أعلنت فرنسا فى يونية ٩٥ أنها تعد لإجراء سلسلة تجارب نووية فى جنوب المحيط الهادى بهدف زيادة فاعليتها النووية.

أمركة العالم

وعلى الخلفية العالمية نفسها كانت فئة أخرى من الملامح تشق طريقها إلى الظهور، وكان ما يميز هذه الفئة أنها حملت على وجهها البصمة الأمريكية بالحفر البارز، وقد رصدت عن تيار الأمركة هذا أمورا كثيرة، منها المحاولات الدائبة لإقرار شكل من أشكال تقسيم العراق. وخاصة اعتبار جزء من شمال العراق شبه محمية، تقوم على مراقبة الأوضاع فيها قوات من الأمم المتحدة بدعوى حماية الأكراد من بطش الحكومة العراقية، فإذا لزم الأمر دعيت قوات التحالف (بقيادة أمريكية طبعا) للتدخل العسكرى. يضاف إلى ذلك المعارضة الأمريكية الشديدة ضد أى محاولة لرفع العقوبات الاقتصادية عن العراق. وجاءت الأخبار (فى أغسطس ٩١) بأن اتفاقية عقدت بين الولايات المتحدة



أوائل التسعينيات

الأمـــريكيـــة والكويت تقـــيم الأولى بمقتضـاها قاعدة عسكرية على أرض الثانيـة، وفى الوقت نفسـه دعت حكومة الكويت دول الخليج أن تحـذو حـذوها فـتـعـقـد اتفـاقـا مماثلا مع الولايات المتحدة ! وبعد شـهرين وجـهت الولايات المتحـدة الدعوة إلى من يعنيـهم الأمـر لحـضـو مـؤتمر لإحـلال السـلام فى الشرق الأوسط، وصيغت الدعوة بنغمة آمرة ناهية، فقد تحدد لقبولها مـهلة لا تتـعدى السـاعة السادسـة من مـسـاء الثالث والعشرين من أكتوبر ٩١، وأى تأخـيـر يعـتـبـر تنازلا عن الحق فى المشـاركة!! وبعد سنة واحـدة من هذا التـاريخ ظهـر ملمح آخـر من مـلامح الأمركة التى تفرض على العالم، فقد هبطت على شـاطـئ الصـومـال طلائع قوات أمريكية (٢٨ ألف جندى) بدعوى تأمين وصول المساعدات الإنسانية إلى ضـحـايا الحـرب الأهليـة فى البـلاد، وقـالت الأمم المتـحـدة إنهـا وراء هذا المشـروع ومن ثم فـإنهـا توجـه الدعوة إلى جميع الأعضـاء فى المنظمة الدولية إلى المشـاركة بقوات فى هـذا المشروع إذا شـــاءت، ولكن الولايات المتـــحـــدة أعلنت أنهـا لابد وأن تتولى القيـادة فى هذه الحـال. وفـى أكـتـوبر ٩٤ تفـجـرت الأنباء بوقـوع خلافات حـادة فى مجلس الأمن بين الولايات المتحـدة من ناحـيـة وفـرنسـا وروسـيـا والصـين من ناحـيـة أخرى، فـقـد رأت هذه الدول الثـلاث أن تدعـو إلى تخـفـيف القـيـود على النفط العـراقى، ورفـضـت الولايات المتـحـدة ذلك، بل وأضـــافت إلى الرفض أنهـــا تنظر فى أمر فرض حظر على الأسلحة الثقيلة فى جنوب العراق، وقبل إن هذا الإجراء مطلوب لحـمـاية الشـيـعـة فى الجنوب. هكذا كـان تيـار فرض الإرادة الأمريكية صريحـا وقويا، وكان متعدد الجـبـهـات. ويلاحظ أنه كـان منصـبـا بالدرجـة الأولى على منطقـة الشـرق الأوسط من العـــراق شــمـــالا إلى الصـــومـــال جنوبا، مـــرورا بالكويت وفلسطين!

وكـان هناك تسلسل آخر للأحـداث شبيه بالتيار السـابق لكنه كان أقل منه إفصـاحـا عن صفة الأمـركة التى ظلت مع ذلك موجودة فيه بالمواربة ولا يمكن إنكارها، وكان من مفردات هذا التـيار بدء التـحـرك العـقـابى (بمشـاركـة إنجليزية وفرنسية وقيادة أمريكية) ضد ليبيا جزاء لها على اتهام بتفجير طائرة «بان آم» فـوق قـرية لوكـيـربى فى اسكتلنده. وقد قـرر مـجلس الأمن فى هذا الشـأن (سنة ٩٢) فـرض عقـوبات



اقتصادية على ليبيا لإرغامها على تسليم الأشخاص الليبيين المشتبه فى تورطهم فى هذا الحادث. وكان من وقائع هذا التيار أيضا أن قبل الفلسطينيون والإسرائيليون (تحت ضغط أمريكى) التوقيع فى سبتمبر ٩٣ على وثيقة مؤقتة تعلن الاعتراف المتبادل بين السلطة ودولة إسرائيل. وفى مايو ٩٤ تم التوقيع النهائى (إكمالا للوثيقة السابقة) على ما عرف باسم اتفاق غزة / أريحا، يضاف إلى هذا التيار أيضا ما تكشفت عنه الأحداث على امتداد سنة ٩٤ من أصابع أمريكية وراء الأحداث فى الجزائر.

هكذا توالت الأحداث العالمية كما قرأتها فى النصف الأول من التسعينيات، أحداث تنبىء بأفول النجم السوفييتى، وأخرى تشى ببزوغ الملامح المبكرة لعالم جديد يختلف عن عالم الثنائية القطبية ، وفئة ثالثة من الأحداث تسفر عن محاولات جاهدة لأمركة ما يمكن أمركته من العالم الجديد (وخاصة منطقة الشرق الأوسط)، وكثير من هذه الأحداث تعتمد العنف سبيلا أساسيا للصياغات التى تستهدفها.

مصر فى خضم الأحداث

فى هذا الخضم كانت الأحداث تتوالى فى مصر كاشفة عن تنامى تيار التشدد اليمينى، وكان هذا التشدد يتذرع بذريعة التدين بصورة مباشرة أحيانا.

وغير مباشرة أحيانا أخرى، وكان يعلن عن نفسه بأحداث بالغة العنف (المادى أو المعنوى) أحيانا كثيرة. وقرأت فى هذه الصورة ملامح تناغم ملحوظ مع قسمات الصورة العالمية كما رصدتها، وكنت أتساءل فى سريرتى عن حقيقة هذا التناغم: هل يأتى نتيجة تخطيط مسبق بين رؤوس وأصابع فعلية؟ أم يتخلق مستقلا ولكنه على كل حال ناتج عن إدراك للمستجدات العالمية نفسها التى يدركها اليمين العالمى ويستجيب لها بما يناسبه؟ أم أنه ينطوى على العاملين معا، هذا الإدراك وذاك التخطيط كلاهما يعزز الآخر، أم أنه لا هذا ولا ذاك والمسألة كلها مسألة مصادفة تاريخية؟

تجليات التشدد

كانت السنوات الثلاث ٩٢، ٩٣، ٩٤ أسوأ سنوات التشدد فى مصر فى الفترة التى نحن بصددها؛ فى سنة ٩٢ قتل الأستاذ الدكتور فرج فوده أستاذ الاقتصاد الزراعى بكلية الزراعة بجامعة عين شمس، ، وجاء فى التحقيقات القضائية ان اغتياله تم على أيدى شابين من جماعة الجهاد.

وازدادت المواجهات المسلحة في الصعيد بين الجماعات الدينية والشرطة (روز اليوسف في يولية ٩٢). وفي سنة ٩٣ انفجرت عبوة ناسفة في ميدان الخازندارة في شبرا، وأسفر الانفجار عن مقتل سبعة أشخاص من المواطنين الأبرياء. وبعد أسبوعين عثر على حقيبة بمواد متفجرة في أحد الشوارع في حي المنيل (وأبطل مفعولها). وبعد أقل من شهرين في خلال العام نفسه وقعت محاولة لاغتيال اللواء حسن الألفي وزير الداخلية في ذلك الوقت وكان ذلك في وضح النهار في شارع الشيخ ريحان أمام الجامعة الأمريكية، ونجا اللواء الألفي وقتل عدد من المواطنين الأبرياء. وبعد ثلاثة أشهر في العام ذاته قتل في مدينة قنا ضابط شرطة وسائق سيارته وجندي مرور وسيدة كانت تعبر الطريق. ثم بعد يومين اثنين وقعت محاولة لاغتيال الدكتور عاطف صدقي رئيس مجلس الوزراء، ونجا الرجل ولكن قتلت طفلة وجرح عدة أشخاص تصادف مرورهم في موقع الحادث. ثم في يناير ٩٤ وقع اشتباك مسلح بين أفراد من الجماعات المتشددة ورجال الشرطة في قرية بالقرب من المعصرة في ضواحي القاهرة. ثم في يولية ٩٤ قتل ضابط شرطة برتبة رائد في مدينة أسيوط. وفي منتصف اكتوبر ٩٤ حاول شاب من المتشددين قتل الكاتب الكبير نجيب محفوظ بأن طعنه بسكين (قرن الغزال) في الجانب الأيمن من رقبته. وقال أحد كبار الجراحين الذين أشرفوا على علاج الأستاذ محفوظ إن الطعنة التي أصابته لا يتقنها إلا محترف. وبعد أقل من ساعة من وقوع الحادث كانت وكالات الانباء قد اذاعت النبأ في جميع انحاء العالم على أساس أن مصر تغتال النابهين من أبنائها. وفي يونية ٩٥ وقعت محاولة اغتيال الرئيس محمد حسني مبارك. ومع أن المحاولة وقعت على الأرض الأثيوبية بينما كان الرئيس في طريقه إلى مؤتمر يعقد في اثيوبيا، فقد رأيت ان اذكر ذلك في هذا الموضع من المقال لأن المحاولة تصنف داخل الانتماء الأيديولوجي نفسه الذي أملى تجليات التشدد السابق ذكرها، ولأنها على كل حال أريد بها رأس الدولة المصرية.

والى جانب هذه الأحداث الدموية كانت تقع أحداث أخرى تعتبر من بين إفصاحات التشدد باسم الدين، ولكنها لم تكن تحمل الطابع الدموي؛ ففي ٢٧



ديسمبر سنة ٩١ نشرت جريدة الأهرام أن محكمة أمن الدولة أصدرت حكما بالسجن لمدة ثماني سنوات على الكاتب الأستاذ علاء حامد لنشره كتابا بعنوان «مسافة فى عقل رجل» اعتبرته المحكمة متضمنا آراء «تسيء إلى الأنبياء والرسل». وفى ٣ فبراير ٩٤ أذاع راديو لندن أن الجماعة الإسلامية فى مصر وزعت (بالفاكس) على عدد من وكالات الأنباء الأجنبية فى القاهرة صيغة إنذار موجه منها الى الأجانب المقيمين فى مصر بضرورة المغادرة فى أقرب وقت ممكن لأنها على وشك القيام بعمليات بالغة العنف. وبين هذين التاريخين أخذت تتوالى وقائع قضية الأستاذ الدكتور نصر حامد أبو زيد الأستاذ المساعد بجامعة القاهرة، وقد اتهمته اللجنة العلمية الدائمة التى كانت تنظر اذ ذاك فى أمر ترقيته الى درجة الأستاذية بأن بعض مؤلفاته احتوت على آراء تتعارض مع مقتضيات الدين. ودار جدال حول هذا الموضوع على صفحة الحوار القومى بجريدة الأهرام بلغ ذروته فى شهر يولية سنة ٩٣ . وشاب طرح القضية أمور بالغة السوء داخل الجامعة وخارجها انتهت برفض ترقية الدكتور أبو زيد. ثم اذا بأحد المواطنين يتقدم برفع دعوى قضائية باسم (الحسبة) للتفرقة بين الرجل وزوجه لأنه يعتبره مرتدا عن الإسلام. وانتهى الأمر بأن غادر الرجل مصر لينفي نفسه فى بلد أوربى. واجتمعت فى بؤرة واحدة فى ذهنى قضايا ابو زيد وعلاء حامد ونجيب محفوظ وفرج فوده، وانبعثت فى البؤرة نفسها ذكريات دراسية قديمة، عن محاكم التفتيش فى أوربا فى العصور الوسطى، وقد حكمت على جيوردانو برونو الفيلسوف الإيطالى بأن يموت حرقا جزاء له على ما اعتبره الآباء الدومينيكان كفرا بالعقيدة. وقد أحرق الرجل فعلا سنة ١٦٠٠. ونحن ماذا فعلنا بمفكرينا وكتابنا بعد أربعة قرون؟! يبدو أن آخر شيء سوف يتعلمه الإنسان هو التسامح. ومن يدرى؟!.

مستوى الأداء

الحياة الاجتماعية أرحب وأغنى كثيرا من أن تستوعبها أمور السياسة وتدبير شئون الحكم، ومع ذلك فالاهتمام الأكبر لدى الساسة أو المواطنين الذين أوتوا قدرا من الانشغال بالأمور العامة ينصرف الى التفكير والجدال والفعل حول أمور السياسة اكثر مما يتجه الى العناية بمطالب الارتقاء بالحياة الاجتماعية الرحبة. ولعل أوضح دليل على ذلك أن

أوائل التسعينيات

أحزابنا،كانت ومازالت، أحزابا بلا برامج (بغض النظر عن كلمات غير مقنعة تقال هنا وهناك). وكأن الوصول الى الحكم سوف يتبعه مباشرة صلاح الأداء فى جميع مجالات حياتنا الاجتماعية، هكذا دون تخطيط ولا تدبير. وأنا شخصيا لم استطع طوال معايشتى لأحداث الوطن أن أغمض العين أو أسد الأذن عن كل ما أرى وأسمع مما يشهد بالكثير من القصور والقليل من الصلاح . والى القارئ بعض ما تشهد به العين والأذن. فى مايو ٩١ شب حريق فى احدى العمارات السكنية فى حى المعادى راح ضحيته عدد من السكان. وجاء فى وقائع هذا الحادث ما يأتى : تتكون العمارة من ١٤ طابقا، أربعة منها فقط رخص ببنائها، والعشرة الباقية أقيمت على غفلة من القانون، وكان أداء رجال المطافىء سيئا لدرجة استفزت المواطنين المتجمهرين للاعتداء عليهم. وصرح أحد كبار المسئولين بأن القاهرة كلها ليس فيها سوى سلم واحد يمكن ان يصل برجال المطافىء الى ارتفاع عشرين طابقا، وثلاثة سلالم تصل بهم الى الطابق الخامس عشر (الأهرام فى ١١ مايو) ! هكذا!

وفى يونيه ٩١ نشرت جريدة الاهرام ان النيابة قدمت الى محكمة أمن الدولة العليا التحقيقات الخاصة بما سمى كشوف البركة، وقد وردت بها اسماء ثلاثة عشر شخصا من كبار المسئولين وأقربائهم. وفى مايو ٩٣ توفى أحد أقربائى الأعزاء، وكانت وفاته فى واحدة من أكبر مستشفياتنا الاستثمارية فى القاهرة بعد أسبوعين قضاهما فى المستشفى، وأشهد أن الأداء الطبى والإدارى الذى لقيته الأسرة حول مريضها كان شديد السوء بدرجة تدين القائمين عليه مهنيا وأخلاقيا. وفى يونية ٩٥ وقع حادث غش جماعى فى مدرسة إعدادية بمركز قنا، اعتدى فيه جمع من أهالى التلاميذ على المراقبين فى اللجنة، وانتهى الأمر بأن اصدر وزير التربية والتعليم فى هذا الشأن قرارا بإلغاء الامتحان (الأهرام فى ٧ يونية) . هذه وأمثالها أحداث بالغة السوء فى معناها ومبناها، سواء بالنسبة لأجهزة الدولة، أو للكثيرين من رجال الدولة، أو للقطاع الخاص، أو لعينات من الأسر المصرية القائمة على تنشئة الصغار. ومع ذلك فالوقائع التى ذكرتها ليست سوى عينة شديدة المحدودية إذا قورنت بحجم جمهور الوقائع المماثلة فى دلالتها، ولكنها عينة صادقة التمثيل لهذا الجمهور، واضحة المعنى فى أن الواقع يمضى بمصر ومن على أرض

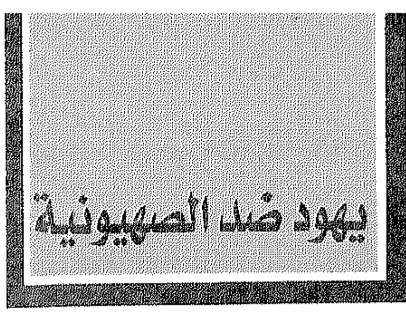


مصر فى طريق مضاد لما تقضى به إدارة الرقى بالمجتمع . ولا يعنى ذلك أننى لم اشهد قط شيئا ينطوى على حسن الأداء، ولكن يعنى أن الحجم النسبى لهذا الشيء الحسن يجعله يبدو وكأنه الكم المهمل فى معادلة حياتنا الاجتماعية اليومية.

عالم الذات داخل عالم الموضوع

كانت أحوال مصر من حولى لا تسر عدوا ولا حبيبا، ومع ذلك لا أستطيع أن أقول إنها كانت حالكة الظلمة، والأقرب الى الحقيقة ان أقر بأن أجواءها كانت رمادية، بلون هواء القاهرة فى ظل السحابة السوداء. وكان العالم من حولنا تسوده قتامة تنذر بالمزيد .

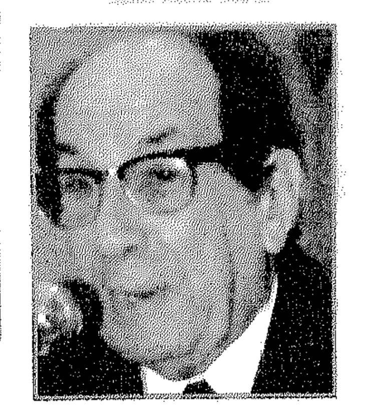
وفى داخل هذا الإطار كانت الذات كعادتها مصرّة على أن تلتمس الطريق الفارق بين الخيط الابيض والخيوط السوداء المتعددة، وأن تلتزم بهذا الطريق ما أمكن. فى هذه الفترة تقدمت بإنجازاتى شوطا لا بأس به، وازداد وعيى بحضور العلاقات الإنسانية السارة. فى هذه الفترة ازداد انتظامى فى الكتابة (شبه الشهرية) لمجلة الهلال الغراء، وأسهم فى انتظامى أننى بدأت اعتبر هذه الكتابة واجبا اجتماعيا ممتعا. وانتهيت كذلك من كتابة «استراتيجية قومية متكاملة لمكافحة المخدرات وعلاج التعاطى والادمان فى مصر»، وتم هذا بفضل التعاون الوثيق مع لجنة من كبار أساتذة التخصصات المعنية فى مصر كالطب النفسى، وعلم الأدوية، والعلوم الشرطية والقانونية.. الخ . وفى الفترة نفسها نشرت مع فريق آخر من الباحثين المتازين علما وخلقا ثلاثة مجلدات عن دراسات ميدانية حول تعاطى المخدرات بين الشباب فى واقعنا المصرى، وتم ذلك تحت الرعاية المادية والأدبية للمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية. وفى يولية ٩٤ صدر كتابى الموسوم «نحن والمستقبل» واستقر فى وجدانى بعد ذلك كله أن استمتاعى بالجانب الانسانى من علاقاتى مع تلامذتى الذين ألقاهم فى البحث، ومرضاى الذين ألقاهم فى العيادة، إنما يأتى تتويجا لنوع الحياة التى ارتضيتها، وهو يعطينى فوق المتعة قسطا لا بأس به من المناعة ضد مسببات المشقة فى عالمنا، ومرسبات الاكتئاب فى حياتنا الاجتماعية، التى مازلت أرجو لها أن تنفذ من الباب الضيق إلى عالم الجودة فى العمل، والسماحة فى التعايش، والجدية فى القصد، والصلابة فى الإرادة. ■





هنرى كوربيل



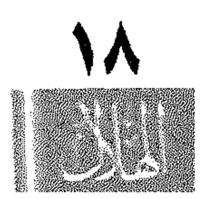


رفعت السعيد

محمد سيد أحمد

والحركة الشيوعية المصرية

بقلم
د. رءوف عباس



ذو القعدة ١٤٢٣هـ - يناير ٢٠٠٣م

منذ نشرت دراستنا عن «الحركة العمالية فى مصر» عام ١٩٦٧، واهتمامنا منصرف إلى محاولة الوقوف على المصادر الأساسية للحركة العمالية فى بعديها النضالى والسياسى، واستطعنا أن نجمع بعض الأوراق الهامة المتصلة بتاريخ الحركة حتى نستعين بها فى إعداد دراسة شاملة لتاريخ الحركة على ضوء ماتكشف من أوراق، وما توفر من شهادات بفضل الجهود التى يبذلها مركز البحوث العربية فيما ينشره من شهادات الكوادر العمالية واليسارية.

ولكن عندما وقعت فى أيدينا أوراق هنرى كورييل الذى لعب دوراً بارزاً فى الحركة الشيوعية المصرية منذ بداية الأربعينات حتى بادرنا بنشرها، وقدمنا لها بدراسة منذ نحو خمسة عشر عاماً، أثارت وقتها اهتمام «الهلال» فكتب محمد سيد أحمد وسعد زهران مقالين مهمين حول تجربتهما الذاتية عن دور الأجانب فى الحركة الشيوعية المصرية ، كما كتب طارق البشرى مقالا حول دور اليهود فى الحركة وما تحيط به من شبهات، وجاء ذلك كله تعقيباً وتعليقا على ماذهبنا إليه فى الدراسة التى قدمنا بها الأوراق من أن الحفاظ على إسرائيل كان يحتل بؤرة اهتمام هنرى كورييل الذى كانت له مواقف محددة تشى بهذا الاتجاه.

سر كورييل

ولما كانت الكتابة عن هنرى كورييل تثير حساسية فصيل معين من اليسار المصرى لأسباب سياسية محضة لاتستطيع أن تتسامح مع حقائق التاريخ ووضوح الدليل، فقد هاجمنى بعض رموز هذا الفصيل على صفحات «الأهالى» بعبارات تتفق مع حجم الحساسية التى خلفها وصفى للاتجاهات الصهيونية عند هنرى كورييل ، وحاولت أن أتابع الحوار مع هؤلاء فأغلقوا الباب، واتسع صدر «الهلال» فنشرت مقالا لى رداً على يوسف حزان الذى مول وأصدر طبعة مصرية من كتاب جيل پيرو عن هنرى كورييل الذى نشر بعنوان «رجل من نسيج فريد» وأضاف إليه ملحقا تضمن رسالة موجهة لى زعم أنه أرسلها لى ولم أرد عليها، دافع فيها عن موقف كورييل من الصهيونية وإسرائيل ، وقد قمت بتفنيد مزاعمه فى الرد الذى نشرته «الهلال».

***

لهذه المقدمة الطويلة نسبياً علاقة بموضوع هذا المقال ، وهو أوراق مارسيل شيريزى التى نشر محمد يوسف الجندى معظمها فى كتاب صدر حديثاً عن دار العالم الثالث بعنوان «أوراق مناضل إيطالى فى مصر».

وكان مارسيل شيريزى يعرف فى مصر باسم مارسيل إسرائيل ، ويعرف فى الحركة الشيوعية بالاسم الحركى «الرفيق مرسى» . وقد التقيت به لأول ولآخر مرة عام ١٩٨٤ فى مكتب راوية عبدالعظيم (دار سينا للنشر) بعد نشر كتاب «أوراق هنرى كورييل والحركة الشيوعية المصرية» بشهور قلائل. فقد جاء مارسيل إلى مصر، واتصل بالدار التى صدر عنها الكتاب وطلب مقابلتى، وعندما نقلت إلى الصديقة راوية عبدالعظيم هذه الرغبة، رحبت باللقاء



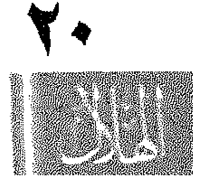
الذى كان مقرراً له ساعة واحدة، فامتد إلى سبع ساعات ، فاض فيها مارسيل بطوفان من الذكريات، بدأها بإبداء تأييده لما ذهبت إليه من اتجاهات صهيونية عند كوربيل . ودلل على ذلك بقوله إن كوربيل هو الذى كان وراء حل «الرابطة الإسرائيلية المناهضة للصهيونية» التى أسسها مارسيل وصاغ بيانها الذى طبع ووزعت منه ٦٠ ألف نسخة (على حد قوله).

وعلى مر الساعات السبع قدم مارسيل إجابات مستفيضة حول تساؤلات طرحتها عليه، وللأسف لم يكن معى جهاز تسجيل يحفظ هذا الحديث ، وانما اكتفيت بتدوين بعض الملاحظات ، وانتهى اللقاء على وعد من مارسيل بإرسال مالديه من أوراق إلى حتى أستعين بها فى إعداد دراسة لتاريخ الحركة الشيوعية المصرية . ولم يكن الوعد مشمولاً بتحديد زمن معين، بل شاء «الرفيق مرسى» أن يترك الموعد مفتوحاً حتى يتيسر له إعداد الأوراق .

وشغلتنى دوامة الحياة بالعديد من الأمور العلمية والثقافية الأخرى ، ونحيت جانباً ماجمعت من أوراق عن الحركة الشيوعية المصرية مما تيسر العثور عليه فى مصر ، ومما أمكن الاطلاع عليه بالأرشيفات البريطانية والأمريكية، حتى كان مارس عام ٢٠٠٠ عندما وجدت على مكتبى بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة ظرفا كبيراً أرسله مارسيل مع شخص ما، ومعه رسالة قصيرة جاء فيها :

«بعد مرور سنين من تاريخ طلبك، أرسل إليك - نظراً لشهرتك كمؤرخ موضوعى وكمساهمة تاريخية - بعض السندات والمكتوبات المتعلقة بكفاحى ضد الاستعمار والرجعية والصهيونية منذ سنة ١٩٣٥ إلى اليوم . ولسوء الحظ جزء كبير من مكتوباتى ينام - إذا كان لايزال حيا - فى أرشيف المحافظة ، ولا سيما كورس لتدريس الماركسية مكون من حوالى ٣٠٠ صفحة ، وهو الدور الأساسى الذى قمت به أثناء حياتى المصرية - سلام وتحية ، مارسيل شيريزى».

وتضمن الظروف الكبير الذى اشتمل على أوراق مارسيل شيريزى أو مارسيل إسرائيل (الرفيق مرسى) أوراقا سبق أن أرسل أصولها إلى د.رفعت السعيد هى : شهادة قدم فيها ملخصاً لدوره فى الحركة الشيوعية المصرية ، ورسالة مطولة تضمنت تصويباً لبعض ماذكره رفعت السعيد فى كتابه عن« الصحافة اليسارية فى مصر» ثم مذكرة مطولة لتصويب بعض ما جاء بكتاب «المنظمات اليسارية فى مصر ١٩٤٠ - ١٩٥٠». وكذلك رسالة مطولة أرسلها إلى چيل



بيرو مؤلف كتاب «رجل من نسيج خاص» عن سيرة هنرى كورييل حرص مارسيل أن يرسل لى نصا عربيا لها بخط يده صحح فيها بعض ماقدمه بيرو من أفكار عن كورييل وقال رأيه فيه بصراحة، وحمله مسئولية ماتعرضت له الحركة الشيوعية من نكبات.

كذلك تضمنت الأوراق تقريراً كتبه مارسيل لرفعت السعيد عن حقيقة الانقسامات والتكتلات داخل «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) وهو تقرير - فى رأيى - بالغ الأهمية .

وتضمنت الأوراق أيضاً مقالين بالإيطالية أحدهما بإحدى دوائر المعارف عن مارسيل ونضاله فى مصر وإيطاليا والآخر عن موقفه من العدوان الثلاثى على مصر ومساندته للموقف المصرى، ونص فرنسى يتضمن بيانات اللجنة المصرية للسلام عام ١٩٣٨، وبعض المقالات التى أرسلها للنشر فى مجلة «اليسار» ومجلة «أدب ونقد» بما فى ذلك حوار أجراه أحمد إسماعيل معه على صفحات المجلة الأخيرة .

ورغم أن الكثير من هذه الأوراق أرسل - أصلا - إلى رفعت السعيد إلا أن المعلومات الواردة به بالغة الأهمية ، ومجمل الأوراق يرسم صورة شبه كاملة لدور «الرفيق مرسى» ، ويلقى أضواء على العمل السياسى الماركسى فى الأربعينات . ولكنها ليست مذكرات، ولا تمثل كياناً واحداً، وبها تكرار للمعلومات هنا وهناك، لذلك فضلت الاحتفاظ بها لاستخدامها عند كتابتى لدراسة عن تاريخ الحركة .

أوراق الرفيق مرسى

ولكنى فوجئت الشهر الماضى بالكتاب الذى نشره محمد يوسف الجندى بدار العالم الثالث بعنوان «مارسيل شيريزى، أوراق مناضل إيطالى فى مصر» الذى سبقت الإشارة إليه، وبمراجعة الأوراق المنشورة على مابين يدى من أوراق أرسلها إلى مارسيل تبين لى أنه قد روعيت الدقة والأمانة فى نشر الأوراق، ولكن استبعد منها رد مارسيل على چيل بيرو المتعلق بهنرى كورييل ، وتقرير يقع فى سبع صفحات عن الانقسامات والتكتلات فى حدتو وعلى من تقع مسئوليتها ، كان قد أرسله إلى رفعت السعيد والتقرير الخاص باللجنة المصرية للسلام (عام ١٩٣٨) وكان نشر ترجمته أمراً بالغ الأهمية ، كذلك تضمنت المجموعة التى بين يدى صور خطابات شخصية مرسلة من العديد من الكوادر المصرية إلى مارسيل.

وقد حرص ناشر الكتاب أن يضمنه نص أعمال ورشة العمل التى عقدت فى مارس ١٩٩٩ بدعوة من لجنة توثيق

الحركة الشيوعية بمركز البحوث العربية والأفريقية بالقاهرة، وهى الجلسة التى تراجع فيها مارسيل شيريزى عما جاء بشهادته السابقة أمام اللجنة ذاتها والتى نشرت فى كتاب شهادات الأجانب فى الحركة الشيوعية المصرية ، والتى قال فيها إن هنرى كورييل كان نصف صهيونى، وهو تقييم يتسق، تماما مع ماسمعته منه بمكتب راوية عبد العظيم عام ١٩٨٤، ولكن الرجل تعرض لضغوط من رفاقه ورفاق كورييل القدامى فكان تراجعه عن تلك المقولة الذى حرص على أن يترك لى صورة منه بالأوراق التى أرسلها لى، وقراءة ماكتبه الرجل بخط يده توحى بأن هذا التراجع فيه قدر كبير من المجاملة للرفاق ، هذا إذا أمعنا النظر فى الصياغة وعلامات التعجب التى حرص على أن يضعها فى موضع له دلالته.

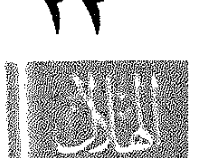
***

ومهما كان الأمر، فقد طالعتنا الصحف فى الأسبوع الأول من نوفمبر (٢٠٠٢) بنبأ وفاة مارسيل شيريزى، قبل أن يتم عامه التسعين بشهور قليلة، ولم يعد أمامنا سوى ماتركه من أوراق، شاء أن يحملنى أمانتها، رغم أنها - كما اتضح من نشر الكتاب - بين يدى «الرفاق» القدامى وبعض تلاميذهم، وكأن «الرفيق مرسى» شعر بالحاجة إلى طرف محايد، لايتعامل مع أوراق الرجل من منطلقات سياسية، وانما ضالته الحقيقة، والحقيقة وحدها، مهما بلغت درجة نسبيتها.

سر الرفيق مرسي

ومارسيل إيطالى الأصل، كان جده حاخاما لليهود القرائين بمصر، فى عهد محمد سعيد باشا، ومثل طائفته فى مجلس شورى النواب الذى أسسه الخديو إسماعيل عام ١٨٦٦، ولكن والده لم يسر على خطى الجد، ففضل الانخراط فى مجال الأعمال، مالكا لأرض ورثها عن الجد فى ميت غمر ، ومالكاً أيضاً لمحلج للقطن. ولأمر ما فقد الأب ثروته، وأصبح فرّازاً للقطن بأحد المحالج. كان الأب متمصراً، يتحدث العربية ، ويصادق بعض أعيان المصريين مثل يوسف الجندى الذى لعب دوراً بارزاً فى ثورة ١٩١٩ بزفتى، وكانت الأم يهودية - أيضاً - من أصول إيرانية ، متمصرة، تتحدث العربية .

من هذا الوسط جاء مارسيل، الذى ولد بحى الظاهر (١٩١٣) بالقاهرة، وتعلم بمدرسة الفرير، ثم حصل من الليسيه الفرنسية على دبلوم فى التجارة ، وانتسب إلى مدرسة الحقوق الفرنسية، ولكنه لم يكمل دراسته فيها، فقد تأثر بالماركسية واعتبر أن «السعى للحصول على شهادة عالية من جامعة استعمارية انحراف بورجوازى» وبدأ عمله



السياسى فى حركة السلام ، وكانت اللجنة المصرية للحركة تكاد تكون أجنبية خالصة ، ومنشوراتها تطبع بالفرنسية ، فطالب مارسيل بتمصير اللجنة وجعل مطبوعاتها عربية اللغة طالما كانت تعبر عن مصر، فأدى ذلك إلى إبعاده من اللجنة (١٩٣٧/١٩٣٨).

ولم يكن هذا هو الإقصاء الأخير من تنظيم يسارى بسبب التمسك بالتمصير ، فقد كانت مسألة ترك قيادة الحركة الشيوعية فى مصر للكوادر المصرية ، موضع خلاف شديد بينه وبين هنرى كورييل ، وهو منظم شيوعى ، إيطالى الأصل أيضاً، ظل متمسكا بقيادة الحركة حتى بعد خروجه من مصر. فقد رأى مارسيل إسرائيل، - الذى اتخذ لنفسه اسماً حركياً هو «الرفيق مرسى» - أن إصرار هنرى كورييل على قيادة «الحركة المصرية للتحرر الوطنى»، والاحتفاظ بموقعه عندما اتحدت منظمته مع بعض المنظمات الأخرى ، يضر بالحركة ، ويظهرها بأنها عمل أجنبى محض ، غريب على الحركة السياسية فى مصر، بل رأى مارسيل بقاء الأجانب فى القيادة يخدم السياسة البريطانية فى مصر، وينعكس سلبياً على الحركة الوطنية المصرية.

وإذا كان مارسيل (أو الرفيق مرسى) قد تعرف على الماركسية من خلال قراءاته بالمدرسة، وتأثرا باثنين من المدرسين الفرنسيين بالليسيه كانا ماركسيين، فإن انخراطه العملى فى هذا التوجه جاء من خلال معايشته للواقع المصرى، ومتابعته لأحوال العمال البائسة فى محالج القطن، وخاصة عمالة الأطفال، وما يتعرضون له من معاملة لا إنسانية إضافة إلى الإصابة بالسل دون أن تكون هناك مظلة قانونية تحميهم، كذلك جعلته الوظائف التى تقلب فيها - وكلها وظائف إدارية بسيطة - على صلة بالعمال المصريين ، وعلى معرفة بواقعهم التعس ، ومن بين أولئك العمال اختار «الرفيق مرسي» من لقنهم الماركسية ، ومن اشترك معهم فى تأسيس منظمة شيوعية سرية حملت اسم «تحرير الشعب» عام ١٩٤٠.

وعندما عمل «مرسى» على مساعدة زملائه المصريين لإقامة منظمة شيوعية مصرية ، كان ينفذ بذلك نصيحة تلقاها من قادة الحزب الشيوعى اللبنانى - الذى كان أول حزب خارج مصر يتصل به، أما الحزب الثانى فكان الحزب الشيوعى الفلسطينى وقد تلقى مارسيل نصيحة بأن يبذل جهده لتكوين تنظيم شيوعى مصرى من الحزبين الشيوعيين اللبنانى والفلسطينى ، وكان قادتهما - فى أواخر الثلاثينات - من العرب.

وبالإضافة إلى العمال الذين جمعهم

حوله فى حلقة لدراسة الماركسية ، التقط - أيضاً - بعض الشبان المصريين المتعلمين من «جماعة الفن والحرية» التى أسسها چورچ حنين وضمت بعض المصريين ذوى الثقافة الغربية ، وكذلك من «جمعية الشبان المسيحيين من بين الملتفين حول سلامة موسى ، وتتضمن صور الخطابات التى تضمها أوراق مارسيل شيريزى خطابات من بعض المثقفين المصريين الماركسيين يصف بعضهم فيها مارسيل بأنه كان أستاذه فى الماركسية ويشيد البعض الآخر بما تعلمه على يديه من دروس فى الماركسية، وهى خطابات تلقاها مارسيل من مصر على مدى نصف القرن بعد ترحيله من البلاد إلى إيطاليا عام ١٩٥٣.

ولعب مارسيل نفس الدور عندما أبعد عن مصر (١٩٤٢ - ١٩٤٣) وطرد إلى فلسطين ، حيث أقام بمعسكر للاجئين المعادين للفاشية أقيم فى بيت لحم ، وكلفه الحزب الشيوعى الفلسطينى بتدريس الماركسية للعمال العرب ، وأكسبته تلك التجربة صلات وثيقة قامت بينه وبين الشيوعيين الفلسطينيين والأردنيين.

وفى منظمة «تحرير الشعب» التى كونها بمعاونة رفاقه المصريين تولى القيادة ثلاثة من المصريين ، واقتصر دور «الرفيق مرسى» على التثقيف وأسست هذه المنظمة «جمعية الخبز والحرية» للنشاط العلنى وسط العمال والمثقفين ، و«جمعية الثقافة والفراغ» للنشاط العلنى وسط الأجانب والطلاب المصريين . وقد توقف نشاط «تحرير الشعب» بعد الضربة التى وجهها إليها البوليس (فى أكتوبر ١٩٤١) وسجن عشرة من قادتها المصريين ، وأعيد تكوينها عام ١٩٤٤ بعد خروج الكوادر المصرية من السجن وعودة مارسيل من فلسطين ، وظلت قيادة التنظيم مصرية، واقتصر دور «الرفيق مرسى» على التثقيف وإعداد الكوادر حتى عام ١٩٤٧، عندما تم تكوين «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو).

وقد لعب مارسيل دوراً هاماً فى الجهود التى بذلت لتوحيد المنظمات الشيوعية المصرية فى اطار تنظيمى واحد ، وكان من رأيه أن الظروف الموضوعية فى مصر منذ بداية الحرب العالمية الثانية كانت أكثر نضجاً لإقامة «الحزب الشيوعى المصرى» منها عام ١٩٢٢ عندما قام أول حزب شيوعى علنى فى تاريخ مصر. ولذلك ظلت فكرة تفادى التكتل والتشرذم ، وتوحيد العمل الماركسى فى تنظيم واحد شغله الشاغل، فقام بدور مهم بمعاونة من بعض «الرفاق» اللبنانيين والفلسطينيين فى الجهود التى بذلت عام ١٩٤٥ -

١٩٤٦ لتوحيد الحركة، وهى الجهود التى أدت إلى الوحدة بين «تحرير الشعب» و«اسكرا» أولاً ليكونا «الطليعة المتحدة» ثم الوحدة مع «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» وتكوين اتحاد «الحركة الوطنية للتحرر الوطنى (حدتو).

كما لعب مارسيل دورا هاما فى تنظيم مؤتمر ١٩٤٨ السرى الذى كان يعد لمؤتمر تأسيس الحزب المزمع عقده عام ١٩٤٩ وقدم لذلك المؤتمر (الذى عرف بمؤتمر الثلاثة والثلاثين) ورقة عن واقع الحركة الشيوعية المصرية والسبيل لتوحيد فصائلها واتخذ المؤتمر من تلك الورقة أساساً للتقرير الذى قام بإعداده ليطرح على المؤتمر التأسيسى للحزب والذى أخذ باقتراح مارسيل تكوين لجنة تحضيرية من كافة المنظمات تمهد للمؤتمر التأسيسى للحزب وتتولى مناقشة البرامج واللوائح والخط السياسى.

وكان مارسيل على رأس مؤسسى «الرابطة الإسرائيلية لمكافحة الصهيونية» فى يونيو ١٩٤٧، التى كان هنرى كورييل وراء حلها . وكان منطلق الرابطة الشعور بخطر الصهيونية على حل القضية اليهودية ، وذهبت إلى أن الصهيونية «ليست إلا أداة بين أيدى القوى الاستعمارية العالمية التى تريد استخدام اليهود لتأكيد سيطرتها على الشرق الأوسط» وأعلنت أنها تتهم «الإرهاب اليهودى فى فلسطين بأنه حركة فاشية موجهة أساساً ضد الجماهير اليهودية ولاتخدم فى الواقع سوى المستعمرين».

وظل موقف مارسيل من الصهيونية ثابتاً ، ففى حديث أجرته معه مجلة «أسرتى» الكويتية عام ١٩٨٩ ، قال : «دولة إسرائيل لم تحل ولن تحل المشكلة اليهودية .. إسرائيل لعبت دوراً فى تشويه الوعى اليهودى ... فأنا أقول إن الصهيونية أكبر كارثة فى تاريخ يهود العالم».

وبعد ما أبعد عن مصر عام ١٩٥٣، وانضم للحزب الشيوعى الإيطالى لعب دوراً بارزاً فى إدانة العدوان الثلاثى على مصر (١٩٥٦)، وظل يمد يد العون لكل من يلجأ اليه من «الرفاق» المصريين ، حتى من ينتمون إلى أجيال رأت النور بعد رحيله من مصر.

ولا شك أن حرص مارسيل شيريزى على أن تجمع أوراقه وتنشر ، ولجوءه إلى أصدقائه، وإلى شخصى بحكم اهتمامى بتاريخ الحركة الشيوعية المصرية ، دليل على اعتزازه بالمكون المصرى فى تاريخه النضالى وثقافته السياسية ، وعلى حرصه أن تبدو صورته سوية غير مشوهة فى ذلك التاريخ الذى يحتاج إلى التسجيل. ■

يهود ضد الصهيونية



القراءون والعودة إلى صهيون

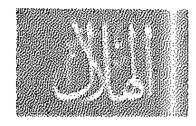
بقلم
د. عبد الوهاب المسيرى

سيطر على الفكر السياسى العربى تفكير اختزالى يفضل الطريق القصير السهل للمعرفة بدلاً من محاولة الوصول إلى خريطة معرفية مركّبة تعطينا صورة للواقع بكل نتوئه وتعرجاته. والتفكير الاختزالى يعطينا صورة سطحية ملساء يمكن استيعابها فى دقائق وتطبيقها فى ثوانٍ فعلى سبيل المثال يذهب التفكير الاختزالى إلى أن كل اليهود سواء، وأن اليهود صهاينة وكل الصهاينة يهود وأن الإسرائيليين والصهاينة واليهود كلهم يهود والسلام. مثل هذه الرواية تحجب عنا جوانب كثيرة من الواقع، فلا يمكن أن نميز بين العدو والصديق وبين المتهم بقضايا وغير المكترث بها.



خذ على سبيل المثال، التصور الاختزالى أن اليهود سواء، أى دارس لخريطة أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم سيكتشف عدم تجانسهم واختلافهم، ولذلك أسقطت من مصطلحي كلمة «يهود» فهى تعنى «اليهود على وجه العموم» و«اليهود بشكل مطلق» و«اليهود ككتلة بشرية واحدة متماسكة»، وبدلاً من ذلك أستخدم مصطلح «الجماعات اليهودية» فهذا المصطلح يؤكد عدم التجانس، كما يبين أن كل جماعة تستمد خطابها

مجموعة من القرائين فى القرم ، وتدل ملامحهم التركية على أصولهم الخزرية



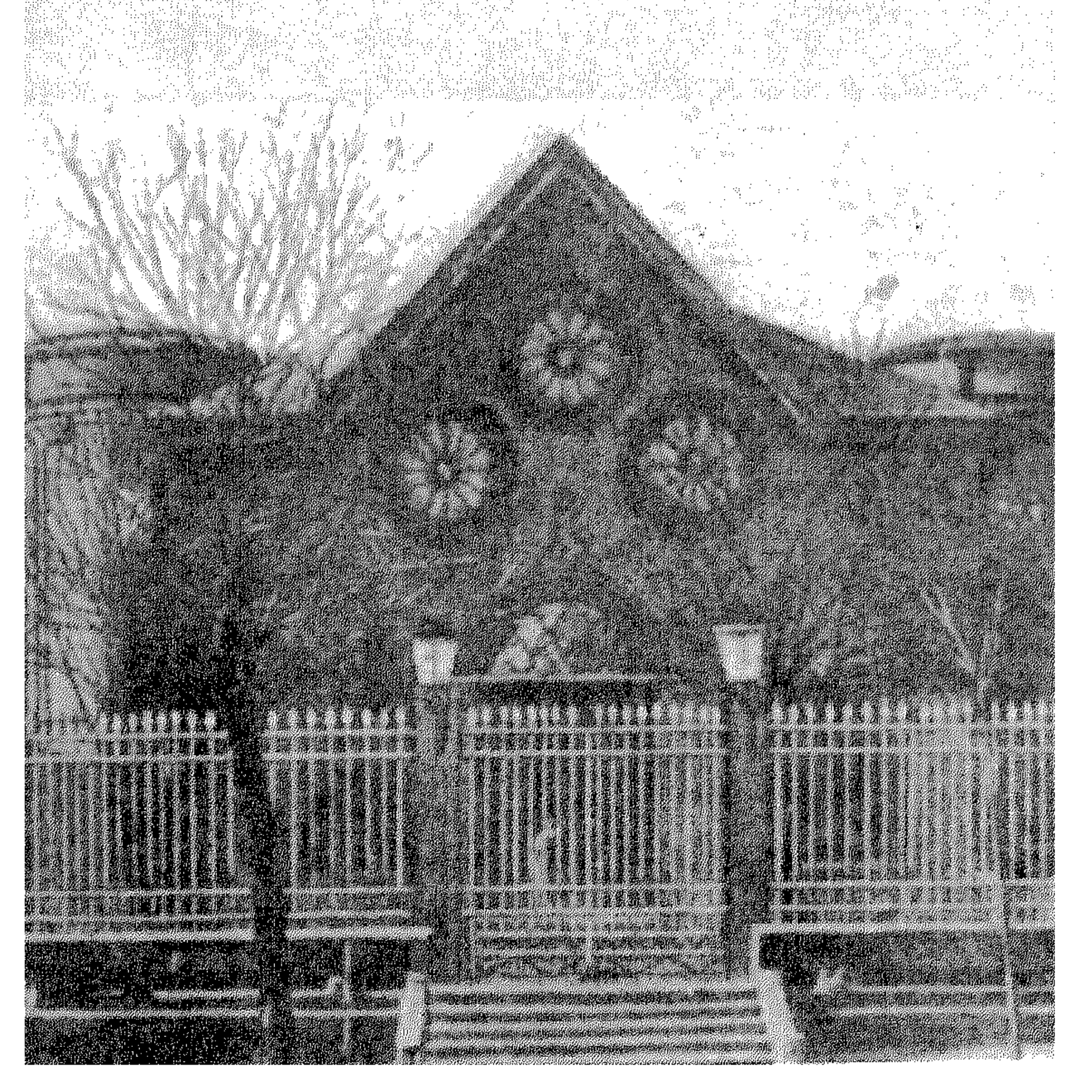
الحضارى من المجتمع الذى تعيش فيه. كما سنكتشف أن «ليس كل الصهاينة يهود»، فالمفكران الإنجليزيان إيرل أو شافتسبرى وسير لورانس أوليفانت اللذان بلورا الفكر الصهيونى لم يكونا يهوديين، وبلفور وجورج بوش ليسا يهوديين! كما سنكتشف أن «ليس كل اليهود صهاينة»، وأن بعضهم يعلن ولاءه لها جهراً ويتملص منها سراً، والبعض الآخر غير مكترث بها، والبعض الثالث يرفضها ويحارب ضدها. وقد أهديت أحد كتبى التى صدرت باللغة الإنجليزية The Land of Promise إلى صديقى الحاخام الأرثوذكسى يوسف بيخر، وهو يهودى من جماعة ناطورى كارتا (نواطير المدينة) رافض للصهيونية، ثابت على رفضه وصموده، أكثر من كثير من العرب !

فرق غير صهيونية

بل سنكتشف أنه يوجد داخل اليهودية ذاتها فرقا غير صهيونية بطبيعة تكوينها الدينى، ومع هذا نظرنا لأعضاء هذه الفرق على أنهم يهود «والسلام»، وطردناهم من بلادنا ليجدوا أنفسهم فى إسرائيل أو فى الولايات المتحدة. ومن هؤلاء أعضاء المذهب القُرّائى. ولكى نفهم هذا المذهب لابد أن نشير إلى خطأ شائع هو أننا حينما نتحدث عن اليهودية فإننا فى معظم الأحيان نتحدث عن اليهودية الحاخامية التى تسمى أيضاً «اليهودية الأرثوذكسية» لأنها أعرق أنواع اليهودية، وهى اليهودية التى آمن بها معظم أعضاء الجماعات اليهودية فى كل أنحاء العالم حتى أواخر القرن التاسع عشر. وهى تسمى أيضاً «اليهودية التلمودية»، لأنها تنطلق من التلمود، وهو إطارها المرجعى بعد الشريعة الشفوية، وتذهب اليهودية الحاخامية إلى أنه عندما ذهب موسى التوراتى إلى جبل سيناء لتلقى الوحى لم يعطه الإله توراة أو شريعة واحدة وإنما توراتين أو شريعتين: إحداهما مكتوبة وهى التوراة والأخرى شفوية. وقد تلقى موسى هذه الشريعة الشفوية وورثها عنه الأنبياء ثم الحاخامات وتم جمعها فى التلمود. فتعاليم هذه الشريعة ملزمة لليهود باعتبار أنها الكلمات الأزلية للإله. وتدريجياً أصبحت الشريعة الشفوية، أى التوراة أكثر أهمية من الشريعة المكتوبة.

اليهودية القرائية

واليهودية القَرائية هى من أهم الثورات اليهودية الحاخامية. وقد تأثر القراءون بعلم الكلام عند المسلمين، وبالعقلانية الإسلامية بشكل عام. وتأثر مؤسس الفرقة، عنان بن داود (القرن الثامن الميلادى)، بأصول الفقه على مذهب أبى حنيفة، وبفكر المعتزلة. وحجر الزاوية فى فكر عنان بن داود هو العودة إلى



أحد معابد أتباع المذهب القرائى فى روسيا - نهاية القرن التاسع عشر

النص المقدّس المكتوب نفسه، أى العهد القديم، مستخدماً طريقة القياس التى استقاها من الفقه الإسلامى، كما أنه رفض الشريعة الشفوية التى تعبر عن الحلولية اليهودية. وقد بذل ابن داود جهداً كبيراً فى تفسير التناقضات الموجودة فى العهد القديم. وكان يفضل التشدُّد فى كثير من الأمور، مثل الزواج وشعائر السبت. ومع هذا ، يظل المفتاح الأساسى لفهم فكره الدينى هو عبارته: «فلتبحث بعناية فائقة فى النص، ولا تعتمد على رأيى».

ويتضح تأثير الإسلام ككل فى واقع أن القرائين قد جعلوا النص المقدس المكتوب، أى العهد القديم، المرجع الأول والأخير فى الأمور الدينية كافة، والمنبع لكل عقيدة أو قانون. وقد هاجم القراءون التلمود، وهدموه، وفندوا تراثه الحاخامى باعتباره تفسيراً من وضع البشر (أى أنهم وضعوا التوراة التى يُقال لها «المقرا» [ومن هنا تسميتهم «القراءون»] مقابل المشناه بمعنى «التكرار الشفوى»). والواقع أن رفض الشريعة

الشفوية أو السماعية هو فى جوهره رفض النزعة الحلولية التى ترى أن الإله يحل بشكل دائم فى الحاخامات، ومن ثم يتساوى الاجتهاد الإنسانى والوحى الإلهى، والتمسك بالنص الإلهى المكتوب.

ومع هذا، كان للقرائين تراثهم التفسيرى الذى يقابل التلمود، ولكنه ظل مجرد اجتهادات خاضعة للنقاش لا تصطبغ بصبغة نهائية أو مقدسة . بل إن بعض القرائين كانوا يستعينون باجتهادات الشريعة الشفوية، ولكنهم كانوا ينظرون إليها باعتبارها اجتهادات دينية ليست لها قداسة، وبالتالى غير ملزمة دينياً. كما أنهم يرون أنه لا اجتهاد مع النص، بمعنى أنه إذا كان النص واضحاً، فينبغى عدم فرض أية تفسيرات عليه أو استعارة تفسيرات الآخرين، على عكس تفسيرات التراث الحاخامى التى كانت تتعامل مع النص بشكل متعسف لفرض المعنى المطلوب.

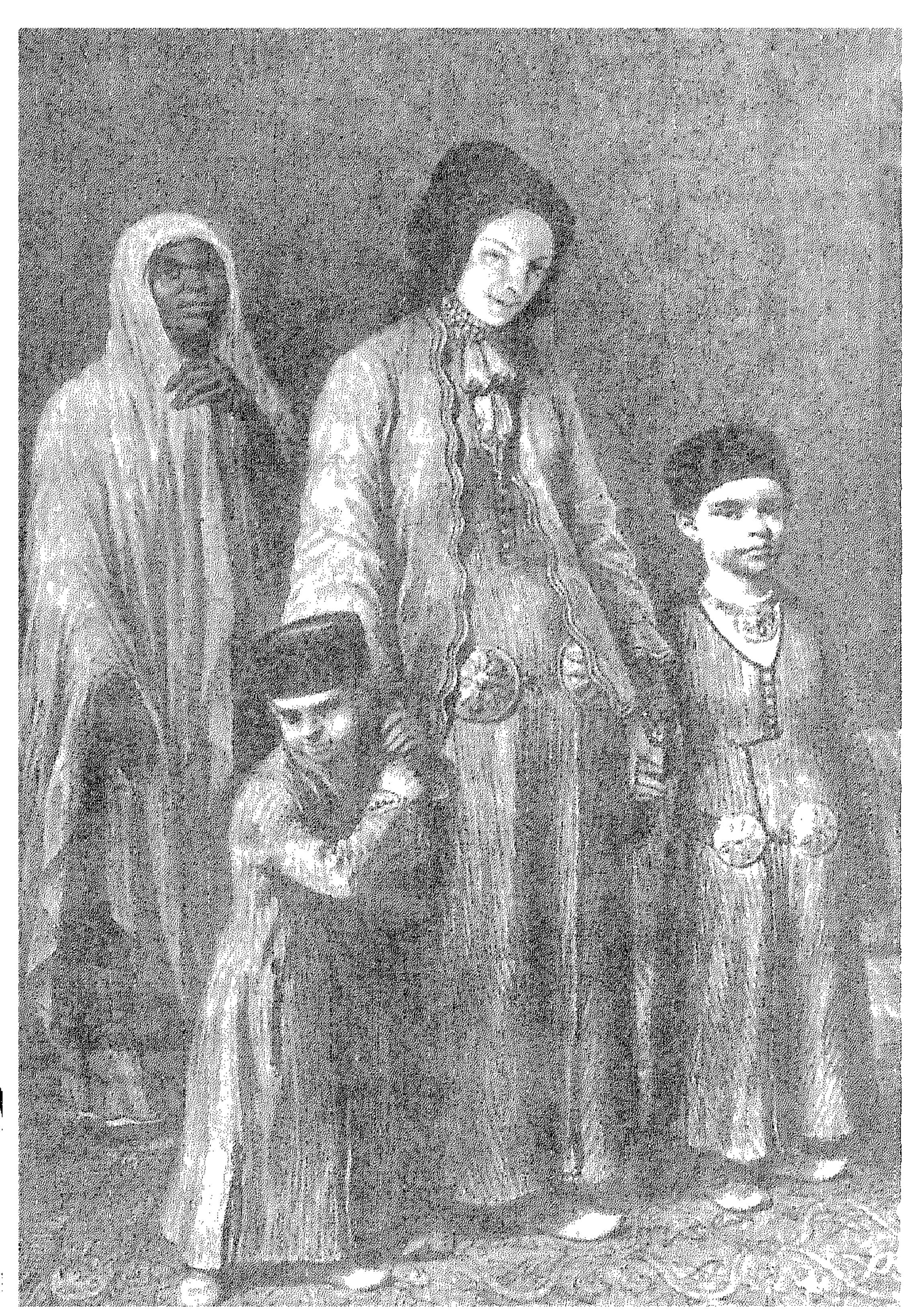
تأثير الفكر الاسلامي

وقد وضع القراءون أصولاً للتفسير يظهر فيها تأثير الفكر الإسلامى، فكان التفسير يستند إلى العناصر التالية بالترتيب:

١ - المعنى الحرفى.
٢ - الإجماع.
٣ - القياس.
٤ - العقل .

أما تصورهم للإله، فقد تم تطهيره تماماً من أية بقايا وثنية أو طبائع بشرية، فالإله هو خالق السماوات والأرض من العدم، وهو الخالق الذى لم يخلقه أحد، ولا شكل له ولا مثيل له، إله واحد أرسل نبيه موسى وأوحى إليه التوراة التى تنقل الحق الكامل الذى لا يمكن تغييره أو تعديله، خصوصاً من خلال العقيدة الشفوية. وعلى المؤمن أن يعرف المعنى الحق للتوراة. وقد أرسل الإله الوحى إلى أنبياء آخرين، ولكن درجة النبوة لديهم أقل منها عند موسى، وسيبعث الإله الموتى، ويحاسبهم يوم القيامة، ويعاقب المذنب ويكافىء المثيب. وكل هذا يعنى أن الإله عادل وسيحاسب كل فرد على أفعاله، وأن الإنسان خير، وأن الروح لا تفنى، ويؤمن القراءون بأن الإله لا يحتقر هؤلاء الذين يعيشون فى المنفى، بل هو على العكس يود أن يطهرهم من خلال عذابهم، بمعنى أن القرائين يقبلون وجود اليهود فى أنحاء العالم كحالة نهائية ولكن عليهم انتظار الماشيح (المسيح اليهودى المنتظر) لكن عقيدة الماشيح قد اختفت فى بعض صيغ الفكر القرائى الأولى. وغنى عن القول أن معظم العقائد السابقة تبين أثر الفكر الإسلامى التوحيدى وأن هذه العقائد تبتعد بهم تماماً عن اليهودية الحاخامية وعن الصهيونية، فمن يقبل



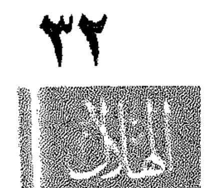


عـائلة قـرائيـة من القـرم ، ويلاحظ ارتداء الزى العـثـمـانى

حـالة «المنفى» كـحـالة نـهـائيـة، لا يطلب العودة.

ولا يوجد فى الفكر القرائى هذا العدد الضـخم من الأوامـر والنواهى التى حددها الفكر الحاخامى. وتختلف صلاة القرائين عن صلاة الحاخاميين فى عدة

أوجه. كما أن شكل الصلاة عند القرائين استقر وأخذ شكلاً نهائياً، على عكس الصلاة عند الحاخاميين، ويرتدى القراءون شال الصلاة (طاليت) أثناء أدائها، ولكنهم لا يرتدون تمائم الصلاة (تفيلّين)، ولا يضعون تمائم الباب (مزوزوت) على منازلهم لأن الإشارات الواردة بشأن هذه التمائم ذات معنى مجازى على عكس ما يتصور الحاخاميون الذين فسروا الإشارات تفسيراً حرفياً . ولا يحتفل القراءون بعيد التدشين لأنه ظهر بعد تدوين التوراة، ولهم تقويم خاص بهم. كما أن قوانين الطعام عند القرائين تختلف عنها لدى الحاخاميين، خصوصاً في القواعد الخاصة باللحم واللبن. وتتسم قواعد الزواج عند القرائين بالتزمت إذ زادوا عدد المحارم زيادة غير عادية. كما أن القرائين يصومون سبعين يوماً (من ١٣ نيسان إلى ٢٣ سيفان) على طريقة المسلمين، بل ويُحرم بعضهم استخدام الأدوية حيث لا شافى إلا الإله.



بين القرائين والحاخاميين

وقد اشتد الصراع بين القرائين والحاخاميين إلى حد أن كل طائفة قامت بتكفير الأخرى وإعلان نجاستها وحرمانها من رحمة الإله. وقد اعتبر الحاخاميون طائفة القرائين من الأغيار فى شئون الطعام والشراب والزواج.

ويبدو أن ظهور هذه الفرقة يعود إلى عدة أسباب وعوامل داخل التشكيل الدينى اليهودى وخارجه، من أهمها انتشار الإسلام فى الشرق الأدنى وطرحه مفاهيم دينية وأطراً فكرية جديدة كانت تشكل تحدياً حقيقياً للفكر الدينى اليهودى وبخاصة بعد أن غلبت عليه النزعة الحلولية الموجودة داخله. ويبدو أيضاً أنه كانت هناك، منذ هدم الهيكل عام ٧٠م، عناصر دينية رافضة لليهودية الحاخامية. وهناك نظرية تذهب إلى أن يهود الجزيرة العربية الذين وطنوا فى عهد عمر فى البصرة وغيرها من بقاع العالم الإسلامى، ولم يكونوا يعرفون التلمود، كانوا أهم العناصر التى ساعدت على انتشار المذهب القرائى.

وبعد انشقاقهم عن اليهودية الحاخامية، ظل القراءون (حتى بداية القرن العاشر) فى حالة جمود يختلفون فيما بينهم وينقسمون. ويُقال إن يهود الخزر اعتنقوا يهودية قرائية، وأنهم انتشروا فى شرق أوروبا بعد سقوط مملكة الخزر، ولذا نجد أن كثيراً من القرائين فى روسيا وبولندا يذكرون أن لغتهم هى التركية. ومع هذا ، دافع القرقسانى (أحد مفكريهم) عن هذا الانقسام بقوله: إن القرائين يصلون إلى آرائهم الدينية عن طريق العقل، ولذا فإن الاختلاف بينهم أمر طبيعى. أما

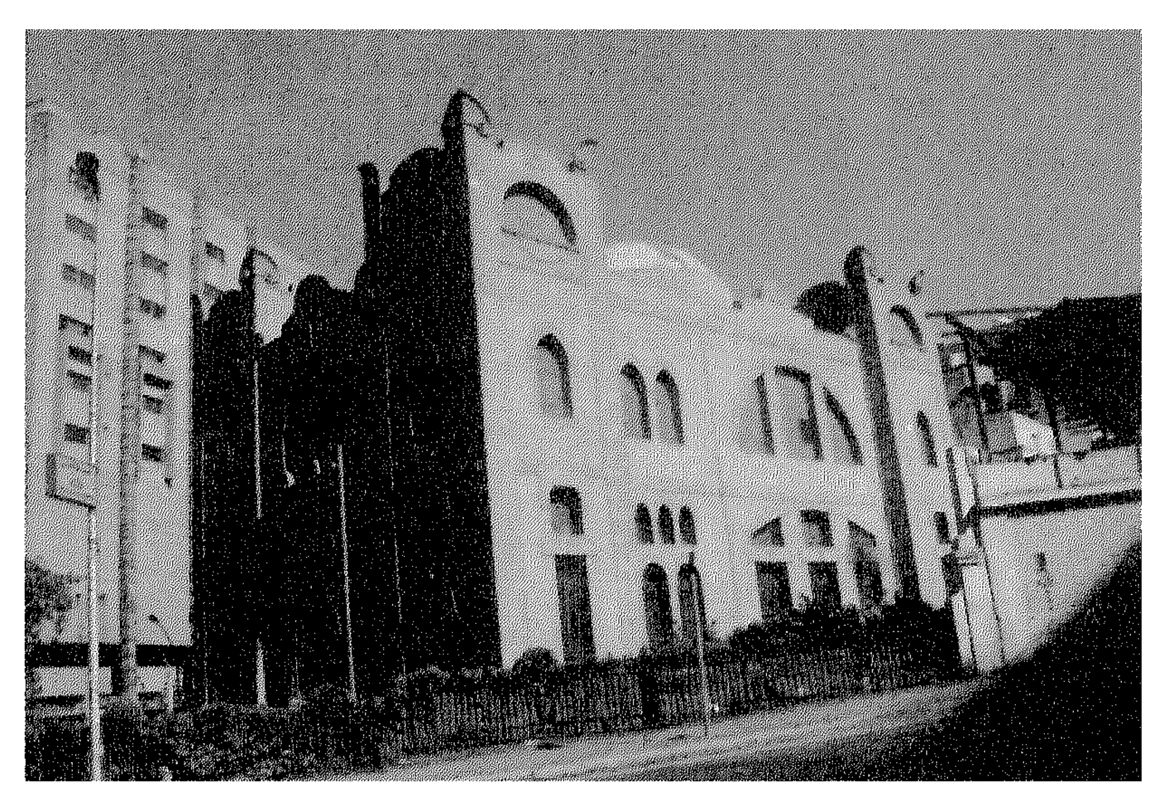
الحاخاميون، فإنهم يدعون أن آراءهم، أى الشريعة الشفوية، مصدرها الوحى الإلهى. فإن كان هذا هو الأمر حقاً، فلا مجال للاختلاف فى الرأى بينهم. ومن ثم، فإن وجود مثل هذه الاختلافات يدحض ادعاءاتهم التى تنسب الشريعة الشفوية لأصل إلهى.

وفى الفترة الممتدة بين القرنين الثانى عشر والسادس عشر، انتشر المذهب القرائى بين مختلف أعضاء الجماعات اليهودية، خصوصاً فى مصر وفلسطين وإسبانيا الإسلامية حيث عمل اليهود الحاخاميون على طردهم منها، وفى الإمبراطورية البيزنطية قبل الفتح العثمانى. ومع حلول القرن السابع عشر، انتقل مركز النشاط القرائى إلى ليتوانيا وشبه جزيرة القرم التى يعود استيطان القرائين إياها إلى القرن الثانى عشر.

وابتداء من القرن التاسع عشر، يبدأ


שדי
ספר המבחר
וטוב המסחר
СЕФЕРЪ ГАМИВХАРЪ
גוזלוו
ЭВПАТОРІЯ

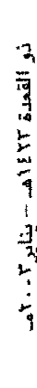
غلاف لأحد التعليقات القرائية على التوراة



معبد بن عزرا اليهودى بالعباسية - (من الملاحظات الجديرة بالتسجيل أن معظم اليهود القرائين الذين غادروا مصر بعد الاعتداء الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ لم يذهبوا إلى إسرائيل ، ويعيش عدد كبير منهم فى الولايات المتحدة الأمريكية وتحديدا فى سان فرانسيسكو)

فصل جديد فى تاريخ القرائين بعد ضم كل من ليتوانيا (عام ١٧٩٣) وشبه جزيرة القرم (عام ١٧٨٣) إلى روسيا فحتى ذلك الوقت كانت المجتمعات التقليدية التى وجد فيها اليهود تصنف كلا من اليهود الحاخاميين واليهود القرائين باعتبارهم يهوداً وحسب دون تمييز أو تفرقة، ولكن الدولة الروسية اتبعت سياسة مختلفة إذ بدأت تعامل القرائين كفرقة تختلف تماماً عن الحاخاميين، فأعفت أعضاء الجماعة القرائية من كثير من القوانين التى تطبق على اليهود، مثل : تحديد الأماكن التى يمكنهم السكنى فيها (منطقة الاستيطان) وتحديد عدد المسموح لهم بالزواج والخدمة العسكرية الإجبارية، وعدم امتلاك الأراضى الزراعية فى مناطق معينة وقد حاول القراءون قدر استطاعتهم أن يقيموا حاجزاً بينهم وبين الحاخاميين، فقدموا مذكرات للحكومة القيصرية يبينون فيها أنهم ليسوا كسالى أو طفيليين مثل اليهود الحاخاميين، وهى اتهامات كانت شائعة ضد اليهود فى ذلك الوقت. كما أن القرائين كانوا يؤكدون أنهم لا يؤمنون بالتلمود الذى كانت الحكومة الروسية ترى أنه العقبة الكأداء فى سبيل تحديث يهود روسيا وقد قام المؤرخ والعالم





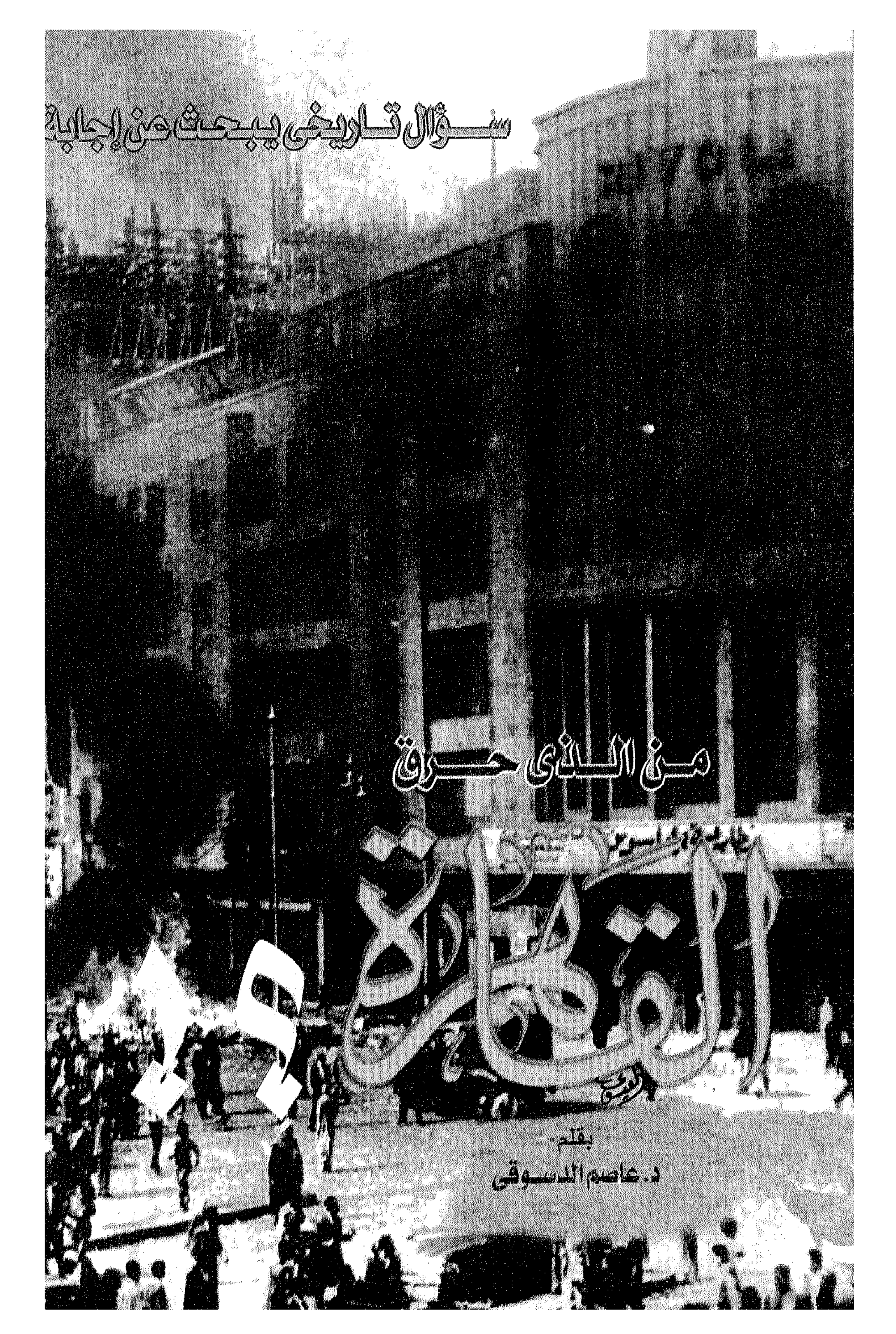
القرائى ابراهام فيركوفيش بإعداد مذكرة موثقة للحكومة القيصرية تبرهن على أن اليهود هاجروا من فلسطين قبل التهجير البابلى، وبالتالى فإن تطورهم الدينى والتاريخى مختلف تماما عن اليهود الحاخاميين وقد أعيد تصنيف اليهود القرائين بحيث اعتبروا قرائين روسيين من أتباع عقيدة العهد القديم وقد اثر هذا فى الهيكل الوظيفى للقرائين فبينما كان معظم اليهود الحاخاميين (فى القرم) من الباعة الجائلين والحرفيين وأعضاء فى جماعات وظيفية وسيطة، كان القراءون يحصلون على امتيازات استغلال مناجم الفحم، وكانوا من كبار الملاك الزراعيين الذين تخصصوا فى زراعة التبغ (وقد احتكروا تجارته فى أوديسا)، كما كانت تربطهم علاقة جيدة مع السلطات القيصرية .

وبلغ عدد اليهود القرائين فى القرم حين ضمها الروس نحو ٢٤٠٠، ووصل العدد إلى ١٢,٩٠٧ عام ١٩١٠، وإلى عشرة آلاف عام ١٩٣٢ ويصل عددهم الآن حوالى ٤٥٧١، وحينما ضمت القوات الألمانية القرم وأجزاء أخرى من أوروبا إبان الحرب العالمية الثانية، قرر النازيون أن القرائين يتمتعون بسيكولوجية عرقية غير يهودية، ولذا لم تطبق عليهم القوانين التى طبقت على الحاخاميين . وقد جاء فى بعض المصادر أن موقف القرائين من أحداث الحرب العالمية الثانية كان يتراوح بين عدم الاكتراث والتعاون مع النازيين ويوجد تجمع قرائى آخر فى ولاية كاليفورنيا يضم حوالى ١٢٠٠ يهودى معظمهم من أصل مصرى .

القراءون و الصهيونية

وعند إنشاء الدولة الصهيونية، كان القراءون معادين لها بطبيعة الحال، ولكن الدعاية السياسية التى انتهجتها بعض الحكومات العربية والمبنية على عدم إدراك الاختلافات بين الحاخاميين والقرائين جعلت معظمهم يهاجر من البلاد العربية إلى إسرائيل وغيرها من الدول ويبلغ عدد القرائين فى إسرائيل نحو عشرين ألفاً، توجد أعداد كبيرة منهم فى الرملة، وزعيمهم وحاخامهم الأكبر هو حاييم هاليفى، ويعيش بعضهم فى أشدود. وهناك إثنا عشر معبداً قرائياً ومحكمة شرعية . ويمكن القول أن معظم القرائين فى إسرائيل من أصل مصرى (حيث هاجروا إليها عام ١٩٥٠). والواقع أن انتماءهم الدينى القرائى لا يزال قوياً، ولذا فإن ثمة خلافات دائمة بينهم وبين اليهود الحاخاميين، الأمر الذى ينعكس على العلاقات فيما بينهم داخل المستوطنات المشتركة .

والله أعلم. ■

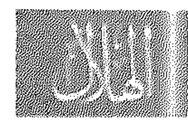

سؤال تاريخي يبحث عن إجابة
من الذي حرق
القاهرة
بقلم
د. عاصم الدسوقي

في منتصف نهار السادس والعشرين من يناير عام ١٩٥٢ المعروف بيوم السبت الأسود في تاريخ مصر اشتعلت الحرائق في وسط القاهرة المعروف شعبيا بوسط البلد حيث المحال التجارية الفخمة والبنوك والفنادق والمقاهي العامة والمسارح ودور السينما والأندية الخاصة وأماكن السهر واللهو للشرائح العليا من الطبقة الوسطى، آنذاك. وفي اليوم التالي أقيلت حكومة حزب الوفد بعد عامين من قيامها بالحكم (منذ يناير ١٩٥٠)، وبدأت النيابة العامة في إجراء التحقيقات للبحث عن الجاني، وازداد الموقف السياسي اضطرابا شديدا، وتعاقبت الحكومات بشكل سريع جعل المراقبين يعتقدون أن البلاد تسير إلى هاوية.

ولقد قيدت النيابة العامة الجريمة ضد مجهول، ومايزال الجاني الحقيقي طليقا حتى الآن وربما إلى الأبد رغم قاعدة أنه «لا توجد جريمة كاملة»، وهي قاعدة قانونية إجرائية يعمل بها رجال الشرطة والمحققون والقضاة في تحديد الجناة، وهذا يعني حتمية العثور على الجاني من خلال مسح مكان الجريمة والتقاط الأشياء الصغيرة المبعثرة هنا وهناك التي قد تدل على المستفيد الأساسي من الحادث. والحال كذلك فقد انفتح الباب واسعا للاجتهاد بحثا عن الحقيقة، واشترك في دائرة البحث كل المهتمين ابتداء من صفوة المثقفين والباحثين وانتهاء بعامة الناس وجهلاء القوم، وكل مجتهد يشير بإصبع الاتهام إلى طرف بعينه من عناصر القوى السياسية والشعبية القائمة آنذاك فاتسعت شبكة المتهمين في قفص الاتهام لتضم الإنجليز والملك والحزب الاشتراكي (أحمد حسين) والإخوان المسلمين والشيوعيين، وبعد قيام الضباط الأحرار بالثورة في يوليو ١٩٥٢ أضاف أحلاس المقاهي (أي الذين يلزمونها دوما) تنظيم الضباط إلى قائمة المتهمين بدعوى أن إيجاد الفوضى يساعد على الاستيلاء على الحكم. وهكذا عندما تغيب الوثائق يفقد الباحث بوصلة التوجه الصحيح وتضيع الحقيقة في النهاية.

من هو الجاني؟

على أن انتهاء تحقيقات النيابة العامة على ذلك النحو رغم كثرة الذين تم اعتقالهم وتنوع وظائفهم ومواقفهم يؤكد عندي ان الجاني شخصية كبيرة المقام والشأن والنفوذ والسلطة بحيث استحال على النائب العام توجيه الاتهام إليه. وفي تاريخ مصر



القريب من يناير هذا ما يؤكد هذا الظن : فحادثة مقتل أمين عثمان وزير مالية الوفد فى يناير ١٩٤٦ انتهت إلى عدم تحديد الجانى الحقيقى رغم أن الروايات التاريخية تؤكد أن الجانى هو الملك فاروق الرئيس الأعلى لمجموعة «الحرس الحديدى» التى شكلها للانتقام من خصومه الإنجليز ومن اعتقد أنهم أنصار الإنجليز وعلى رأسهم رجال حزب الوفد، ومن المعروف أن القصر الملكى هو الذى تولى الدفاع عن رجاله فى هذه القضية ودفع أتعاب المحامين. وكذلك الحال فى قضية محاولة اغتيال مصطفى النحاس باشا زعيم حزب الوفد فى ديسمبر ١٩٤٥ وفى أبريل ونوفمبر ١٩٤٨ حيث انتهت التحقيقات إلى لا شىء وذلك لعدم استطاعة النيابة العامة توجيه الاتهام إلى الجانى الحقيقى. وأيضا عندما فتح باب التحقيق فى قضية الأسلحة الفاسدة بحرب فلسطين (مايو ١٩٤٨) واقترب النائب العام محمد محمود عزمى بك من رجال القصر الملكى تم عزل الرجل من منصبه فى مايو ١٩٥١. وعلى هذا فليس ببعيد أن تقييد جريمة حرق القاهرة ضد مجهول جاء للسبب نفسه الذى جعل جرائم سابقة من نفس الدرجة تقيد ضد مجهول. أما لو كان الجانى شخصا عاديا وغير ذى شأن ولا حول له من سلطة ولا من قوة لأسرعت النيابة بتوجيه الاتهام إليه. وتم إغلاق الملف. ولعل الأعمال الدرامية التى تعرضها شاشة السينما أو التليفزيون عما يحدث فى المجتمع من جرائم تؤكد للمشاهد هذا الظن حين يتم التستر على الفاعل الحقيقى وإخفائه إذا كان هو الأقوى نفوذا والأكبر مقاما وتقديم الأضعف لينفذ العقوبة بدلا منه.. وهكذا الحال.. قوم إذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد!!

وإذا كان القضاء الجنائى انتهى إلى حفظ جريمة إحراق القاهرة وتقييدها ضد مجهول فإن محكمة التاريخ لا يمكن ان تفعل ما فعله ذلك القضاء لأنها لا تخضع لتهديد ذوى النفوذ وأصحاب الجاه والسلطان إلا إذا كان «المؤرخ» يعمل بالسياسة وفى هذه الحالة يخرج من زمرة الباحثين العلميين ليوضع فى صفوف السياسة التى تؤدى بأصحابها إلى تخريب التاريخ والتجنى على أشخاصه.

المستفيد الحقيقى

وإذا أخذنا بقاعدة البحث عن المستفيد من إحراق القاهرة للعثور على الجانى الحقيقى فينبغى علينا أن نتابع الحوادث التى سبقت الحريق نحو مائة يوم منذ قيام مصطفى النحاس رئيس الحكومة بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى بيانه

أمام البرلمان يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١ إذ تتابعت الحوادث وتشابكت خيوطها انطلاقا من ذلك اليوم حتى انتهت بالحريق.

والحاصل أن الحكومة المصرية كانت قد عقدت معاهدة مع إنجلترا فى أغسطس ١٩٣٦ بعد ستة أشهر من التفاوض لتنظيم وجود الإنجليز فى مصر وليس لجلائهم عن البلاد، ونصت فى المادة ١٦ على أنه بعد انقضاء عشر سنوات يمكن إعادة النظر بين الطرفين فى نصوصها ، أى فى عام ١٩٤٦، أو بعد عشرين عاما، أى فى عام ١٩٥٦ وبناء على هذا طلبت حكومة النقراشى فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٥ الدخول فى مفاوضات، ورد الإنجليز فى ٢٦ يناير ١٩٤٦ بعدم الحاجة للدخول فى مفاوضات «لأن مبادىء المعاهدة سليمة والتعاون وثيق بين البلدين بروح الصراحة والود..» ثم دخلت حكومة إسماعيل صدقى فى المفاوضات وفشلت ومن بعده طلب النقراشى عرض الأمر على مجلس الأمن (أغسطس - سبتمبر ١٩٤٧) لكن دون جدوى. ثم تأتى حكومة النحاس فى يناير ١٩٥٠ وتدخل فى دورة مفاوضات طويلة لأكثر من عام ونصف (من مارس ١٩٥٠ إلى سبتمبر ١٩٥١) ولكن دون جدوى أيضا لأن إنجلترا لا تريد أن تترك مصر رغم أن النحاس وافق فى التفاوض على التحالف العسكرى معها وعلى مبدأ عودة القوات البريطانية إلى قناة السويس وقت الحرب. وعندما أخفقت المفاوضات فى تحقيق الجلاء أو فى الحصول على شروط أفضل من الشروط التى قدمت قبلا فى التفاوض مع حكومة صدقى أقدم النحاس على إلغاء المعاهدة فى ٨ أكتوبر ١٩٥١.

وهنا بدأت أزمة حقيقية بين مصر وإنجلترا تداعت وقائعها يوما بعد يوم حتى يوم الحريق. فقد غضب الإنجليز غضبا شديدا لقيام النحاس بإلغاء المعاهدة، وما أصابهم بالجنون أن الإلغاء تضمن إلغاء الامتيازات التى كانت عساكرهم فى مصر تتمتع بها. وإنهاء العمل باتفاقية الحكم الثنائى البريطانى - المصرى للسودان عام ١٨٩٩ وإعلان فاروق ملكا لمصر والسودان بتعديل المادتين ١٥٩ - ١٦٠ من الدستور. وأكثر من هذا أن النحاس رفض بشدة وبإصرار الانضمام إلى مشروع الدفاع الرباعى عن الشرق الأوسط بين كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا وتركيا بديلا لإلغاء المعاهدة لتصبح مصر جزءا من التحالفات الغربية فى مواجهة المعسكر السوفييتى زمن الحرب الباردة. وتحسبا لرد الفعل من جانب الإنجليز قررت وزارة النحاس

(٢١ أكتوبر ١٩٥١) محاصرة القوات البريطانية في منطقة القنال وذلك بتشجيع العمال المصريين على الانسحاب من العمل في معسكرات الإنجليز ، وعدم توريد أية مواد تموينية للمعسكرات عن طريق المقاولين، بل ومقاومة هذه القوات إذا ما اجتازت خط القنال. وكان هذا وراء تشكيل كتائب التحرير الفدائية التي شاركت فيها قوى سياسية وشعبية لمواجهة الإنجليز.

ولم يجد الإنجليز آنذاك إلا أن يصفوا إلغاء المعاهدة بالتصرف اللاأخلاقي لأنه تم من طرف واحد خلافا لما تقضي به النصوص. وأمام تحرج موقفهم فكروا في التخلص من حكومة الوفد لإعادة الأمور لما كانت عليه. غير أن الإنجليز الذين كانوا قد فرضوا النحاس على الملك فاروق في ٤ فبراير ١٩٤٢ الشهير لم يكن ممكنا من باب الحياء على الأقل أن يطلبوا هم أنفسهم من الملك إقالته، لكن الممكن أن يضطروه للاستقالة أو أن يدفعوا الملك نحو إقالته. وهنا يأتي دور المخابرات البريطانية لوضع العقبات في طريق حكومة النحاس وخلق المشكلات أمامها حتى يظهر فشلها أمام الشعب وأمام الملك وكأنهم يصنعون القرار الذي على الملك اتخاذه. ومن هنا بدأت سلسلة أعمال استفزازية مقصودة كان أولها تدمير كفر أحمد عبده في السويس (ديسمبر ١٩٥١) وتشريد أهله ليكونوا عبئا على الحكومة، ثم تلاه إشعال النار في كنيسة السويس (٤ يناير ١٩٥٢) تحت ستار غارة بريطانية تبحث عن الفدائيين حتى تقع الفتنة بين المواطنين مثلما تفعل إسرائيل الآن في الأرض الفلسطينية، ثم قتل راهبة أمريكية (١٩ يناير) لإثارة العالم المسيحي الغربي وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية لكي تتحالف مع بريطانيا ضد مصر خاصة وأن الحكومة الأمريكية كانت قد عرضت على النحاس تأييده في إلغاء المعاهدة مقابل الانضمام لمنظمة الدفاع عن الشرق الأوسط ضد الشيوعية. وهذا أسلوب ليس بغريب على بريطانيا إذا صدقنا الروايات الخاصة بأن بريطانيا - وكان موقفها حرجا أمام ألمانيا في بداية الحرب العالمية الثانية - هي التي ضربت الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور لكي ترغم أمريكا لدخول الحرب معها ضد الفاشية، ولبست اليابان التهمة.

مجزرة الإسماعيلية

وكانت ذروة تلك الحوادث المتعاقبة محاصرة مبنى محافظة الإسماعيلية في ٢٥ يناير ١٩٥٢ بعد عدة مصادمات مع بلوكات النظام من البوليس المصري المحدودة السلاح والفدائيين في بورسعيد والإسماعيلية والسويس ابتداء من ١٧ نوفمبر ١٩٥١ وكانت بريطانيا

قد دفعت بثلاث ناقلات جنود لبورسعيد قبل ذلك بأكثر من شهر فى ١٣ أكتوبر ١٩٥١. ومن المعروف أن البوليس المصرى رفض الخروج من مبنى المحافظة استسلاما لأوامر الإنجليز بتشجيع من فؤاد سراج الدين وزير الداخلية آنذاك الذى أدرك نبرة الحماس فى صوت اليوزباشى مصطفى رفعت الذى اتصل به حوالى الساعة الثالثة صباحا فقال له: «اسمع يا ابنى.. لو أمرتكم تقاوموا.. هاتنفذوا هذا الأمر رغم عدم تكافؤ الفرص بينكم وبينهم..» فقال اليوزباشى: يا فندم أؤمر وسننفذ لآخر رجل.. فقال سراج الدين «توكلوا على الله والله معكم» (راجع خطبة فؤاد سراج الدين فى ٢٣ أغسطس ١٩٧٧ بشأن إعلان حزب الوفد الجديد ص ٦٥ - ٦٦، دار الشروق، سبتمبر ١٩٧٧) فكانت مجزرة الإسماعيلية التى أصبحت عيدا للشرطة سنويا.

وفى اليوم التالى لمجزرة الإسماعيلية أى يوم السبت ٢٦ يناير خرجت مظاهرات حاشدة للاحتجاج عمت شوارع وسط البلد وهى مظاهرات مدبرة فيما يبدو لاستغلالها فى إشعال الحرائق حتى يبدو الأمر وكأنه من فعل المتظاهرين. وهذه المظاهرات تحتاج إلى وقفة تأمل طويلة لمعرفة مدبريها إذ يترتب على معرفتهم كشف صاحب المصلحة. فإذا كانت المظاهرات احتجاجا على مجزرة الإسماعيلية فيبدو من غير المعقول ظاهريا أن يقوم الإنجليز بتدبيرها.. وفى هذه الحالة تكون القوى الوطنية وراءها استمرارا لمقاومة الإنجليز بعد إلغاء المعاهدة؟! لكن تراث الحركة الاستعمارية بالنسبة لمصر على الأقل يؤكد لنا أن الإنجليز يمكن أن يدبروا مثل هذا الأمر لتوفير ظروف إقالة حكومة النحاس التى خذلتهم بإلغاء المعاهدة.. وفى هذا الخصوص ينبغى أن نتذكر أن حادثة مذبحة الإسكندرية فى ١١ يونية ١٨٨٢ أحد هذه الحوادث المدبرة لخلق ظروف ضرب المدينة، إذ لا يعقل أن يستأجر أحد المالطيين من رعايا إنجلترا فى الإسكندرية حوذيا مصريا ويلف به شوارع المدينة فى مقابل مليما إلا إذا كان هذا الراكب المالطى يريد خلق مشاحنة بينه وبين المصرى يتجمهر الناس على أثرها وينقسمون بين أهالى وأجانب فتحدث المذبحة التى استغلتها بريطانيا.. وينبغى أن نتذكر أيضا أن إسرائيل كثيرا ما تقوم بتدبير حوادث من هذا النوع حين تحرق عناصر من جهاز مخابراتها أتوبيسا يقل إسرائيليين فتنصرف الأذهان بطبيعة الحال للمقاومة الفلسطينية فيتم توجيه الضربة المناسبة وهكذا.

غداء عابدين أثناء الحريق

وهنا يدخل شخص آخر إلى خشبة المسرح ألا وهو الملك فاروق إذ يدعو ضباط الجيش وشرطة العاصمة من رتبة «صاغ» فما فوقها للغداء بقصر عابدين على أن يحضروا قبل الساعة الثانية

عشرة ظهرا والحريق اشتعل بعد ذلك بنصف ساعة.. ترى متى وجهت الدعوة؟ هل قبل ذلك بيوم أو بيومين.. أم أنها تمت صباح اليوم نفسه؟؟.. وهل بمقتضى بطاقة أم كانت شفاهة؟. لا أحد يعرف يقينا . وسؤال آخر.. لماذا تقام دعوة من هذا النوع ظهرا وليس مساء كما هو متعارف عليه؟.. وعلى هذا فإن ظاهر الأمر يقول إن الملك فاروق وراء المظاهرات التى أوجدت الفوضى ومن ثم الحرائق، وأنه حرص على أن يكون ضباط الجيش والبوليس الذين بيدهم التصرف فى مثل هذه الحالات بعيدين عن الساحة حتى يتحقق الغرض. ومما يخدم هذا الاتهام أن التعليمات تصدر إلى اللواء إبراهيم إمام رئيس البوليس السياسى بعدم تفريق المظاهرات.. فلما يطلب وزير الداخلية (فؤاد سراج الدين) من الفريق حيدر باشا وزير الحربية تحريك الجيش لتفريق المتظاهرين ويعرض حيدر الأمر على الملك وهم مشغولون بحفل الغداء لا تصدر الأوامر بإنزال الجيش إلا فى الساعة الثالثة بعد الظهر بعد أن أتى الحريق على الأخضر واليابس.. ومن ناحية أخرى كانت حكومة الوفد قد جاءت إلى الحكم فى يناير ١٩٥٠ رغم أنف الملك وبمقتضى انتخابات عامة كان الملك قد توقف عن إجرائها منذ أقال حكومة النحاس فى أكتوبر ١٩٤٤ واتجه إلى تكليف رؤساء أحزاب الأقلية السياسية الموالين له والمعادين للوفد ابتداء من أحمد ماهر ثم النقراشى ثم إسماعيل صدقى وإبراهيم عبدالهادى وحسين سرى الذى يمت إلى البيت المالك بصلة النسب. فهل دبر الملك الحريق ليتخلص من حكومة النحاس التى طال بقاؤها دون أن تقدم على عمل يبرر إقالتها، إذ تذكر الروايات الخاصة أن زينب الوكيل حرم النحاس نصحته بعد العودة للحكم فى يناير ١٩٥٠ بعد إغضاب الملك حتى لا يقيله.

المدبر والمحرض

أما ما يؤكد أن الإنجليز وراء تدبير المظاهرات والحرائق أنه فى أثناء هتاف المتظاهرين بالجلاء انطلق مخربون ذوى ملامح غير مصرية بشهادة الشهود يلقون بمواد ملتهبة على المبانى ومسحوق أبيض سريع الاشتعال وهى مادة لا توجد إلا فى معسكرات الجيش الإنجليزى فى الهايكستب على طريق الإسماعيلية على حد رواية كمال الدين رفعت فى مذكراته (بعنوان معركة التحرير أعدها مصطفى طيبة). وسبق ذلك قيام السفارة البريطانية بإصدار تعليمات لموظفى المؤسسات البريطانية وأصحاب الشركات بمغادرة مكاتبهم وغلق محلاتهم فى الساعة العاشرة صباحا . ومن المعروف أن المحلات وسط البلد آنذاك كانت تعمل يوم السبت

نصف يوم فقط حتى الساعة الواحدة أو الثانية بعد الظهر ويوم الأحد إجازة. فما معنى هذه التعليمات إلا إذا كان هناك علم مسبق بما سوف يحدث إنقاذا للأرواح...

وهكذا تنعقد الأدلة الظاهرية على أن الملك أو الإنجليز منفردين أو كلاهما معا أحرقا القاهرة إذ اتفقت مصالحهما على التخلص من حكومة الوفد حتى ولو بدون ترتيب مسبق بينهما : الإنجليز بسبب إلغاء معاهدة ١٩٣٦، والملك للثأر القديم بينه وبين مصطفى النحاس منذ ٤ فبراير ١٩٤٢. والتقرير الذى أعدته لجنة تقصى الحقائق بالسفارة البريطانية فى الموضوع يشير بأصبع الاتهام إلى دور بريطانيا فى الحريق. أما حسن يوسف باشا رئيس الديوان الملكى عندما سئل فيما بعد وبزمن طويل عما إذا كان الملك هو الفاعل لإقالة الحكومة نفى ذلك قائلا إن هذا لم يكن يكلفه سوى إصدار أمر الإقالة من سطرين دون حاجة لمثل هذا العمل سواء تنفيذا لرغبته أم تنفيذا لرغبة الإنجليز.. فلما سئل عن الفاعل الحقيقى فى رأيه أجاب بأنه «الجو العام»!!.. ومن الغريب أن نجد من يصدق هذا التحليل «الملكى» للأمور..

ورغم أن الشبهات تحوم حول الإنجليز والملك أحدهما أو كلاهما فى جريمة حرق القاهرة لأن كليهما صاحب مصلحة ومستفيد، إلا أن الأدلة السببية القائمة على المقاربة بين الجزئيات لا تكفى فى نظر القضاة لتوجيه الاتهام ولا يرضون بديلا عن الأدلة المادية أو الاعتراف الذى هو سيد الأدلة. ولكن الباحثين فى التاريخ تكفيهم الأدلة السببية لأنهم تعلموا أن التاريخ دراسة سببية أى عقلية تقوم على الربط بين الجزئيات الشاردة هنا وهناك. فإذا لم يكن الدليل السببى العقلى كافيا فإن محكمة التاريخ تظل منعقدة حتى لا تقيد الجريمة تاريخيا ضد مجهول مثلما أنها ماتزال منعقدة لمعرفة قاتل جون كينيدى فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ وتنعقد للبحث عمن اقتحم برجي نيويورك الشهيرين فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وما قد يستجد من حوادث كبيرة تقلب مسيرة التاريخ رأسا على عقب. ■

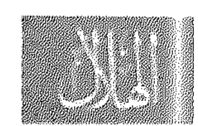
اقــوال

الحرية هي استقلال الإنسان عن أي شيء ، فيما عدا القانون الخلقي وحده

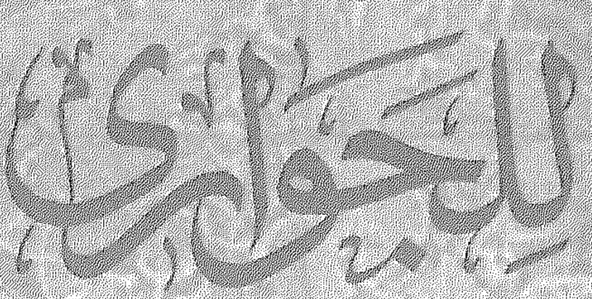
الجاحظ

إن الحكيم وحده هو الحر ، والشرير وحده هو العبد

فيلون – الفيلسوف السكندري



آخر صفحة



فى مصر

بقلم
د. محمد رجب البيومى

تقرأ عن الجوارى فى كتب الأدب والمسامرات . فتجد لهنّ من الحظوة والدلال والسيطرة على القلوب ما يرتفع بهن فوق الحرائر ، حتى نسب لبعض الخلفاء شعر ضارع يتزلف إلى مودتهن ، كما نسب لهن من التأثير البعيد فى مواقف الرؤساء ماجعلهن صاحبات الشورى! وقد يكون بعض ذلك صحيحا ، فللجمال سطوته القاهرة ، فإذا أضيف إليه النبوغ فى الشعر ، والقدرة على المطارحة الأدبية فى نوادى السمر ، فقد حق لهن التيه والاستعلاء وهذا فى كتب الأدب كما ذكرت ، أما كتب التاريخ ، فالصورة فى مجموعها غيرها فى كتب الأدب ، فهؤلاء الضحايا يخطفن خطفا من أقاصى البلاد ، فتمتلىء بهن السفن ليبعن فى الأسواق ، خاضعات لتعاليم صارمة فى المأكل والملبس والإقامة ، وقد يمتهن فى مشاق كادحة تأباها كرامة الإنسان ، فإذا جاء وقت الشراء كانت المسكينة كالحيوان تفحص فى كل موضع ، ويضرب على صدرها وجسدها بما يأباه الخلق النبيل ليعرف مكان الحظوة والصحة والمرض من جسمها! ثم تقاد إلى حيث لا تعلم .



الجوارى الحبشيات كن يقمن بخدمة ربات الخدور من الحرائر

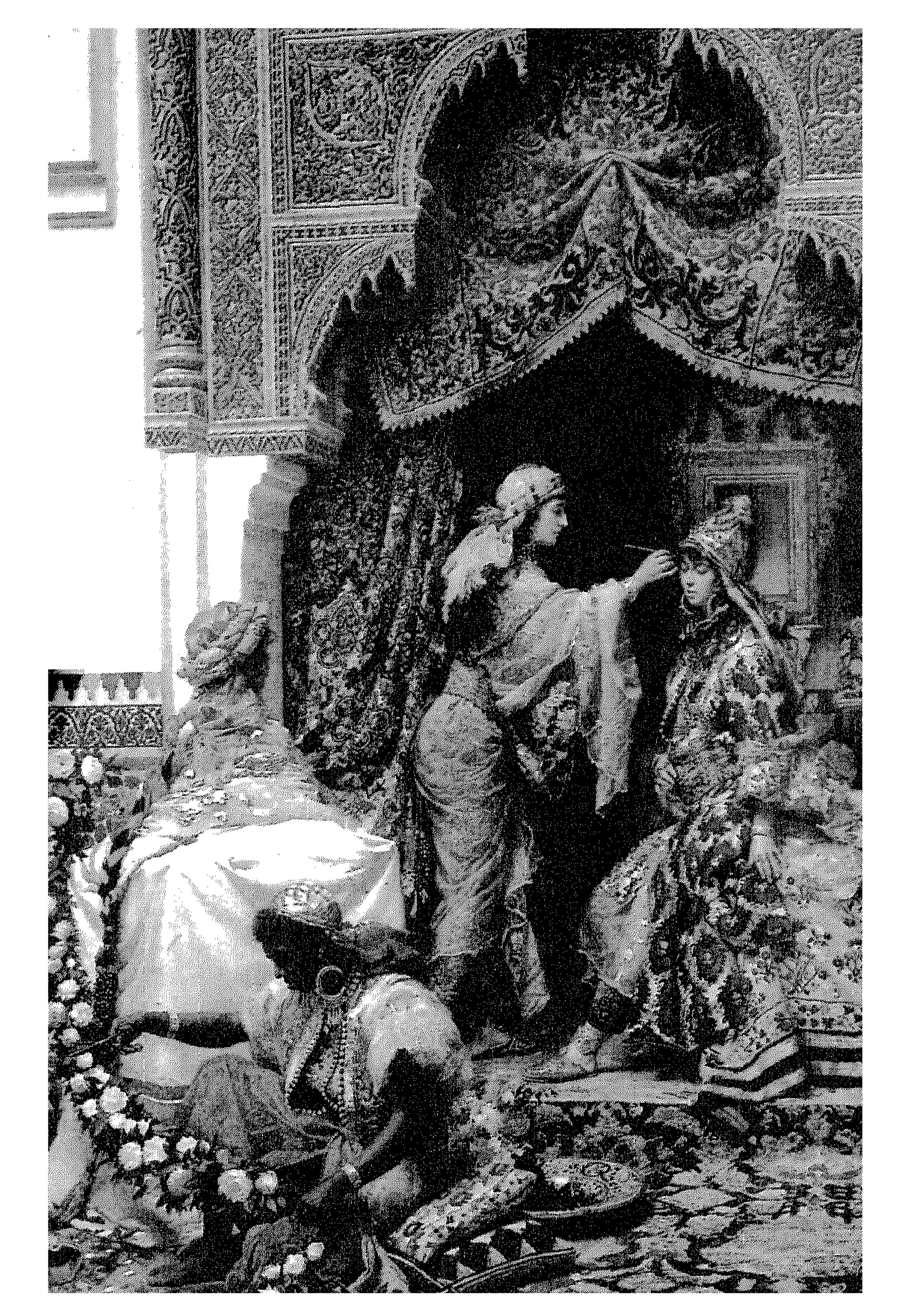
وبادئ ذى بدء أعلن أن الإسلام برئ كل البراءة من إباحة الخطف، والاستيلاء بالقهر على الإنسان وعده أسيرا ، لأن الرق لا يجوز فى الإسلام إلا فى الحرب وحدها ، مع استحسان المن أو الفداء، فكل عبد أو جارية جاءا من غير طريق الحرب المشروعة ، فهو حر فى رأى الإسلام، وقد اغتصبت حريته اغتصابا من قراصنة البغى ، وغصبه حرام ، وبيعه حرام ، وإذ ذاك فالجوارى فى أكثر أحوالهن حرائر لا يعترف الإسلام برقهن ، وكل سوق الرقيق يأتيها هؤلاء عن غير طريق الأسر فى سوق آثمة مجرمة ، وقد قلت ذات مرة إن أكثر سلاطين المماليك فى العهد الماضى لم يكونوا فى شرع الله أرقاء ، فقطز وبيبرس وطومنباى وقلاوون والغورى جلبوا من بلاد الجركس على أيدى النخاسين ، ولم يؤسروا فى حرب ، فكيف يكونون أرقاء وإن وصفوا وسموا بالمماليك! قلت ذلك من قبل ، وخالفنى من خالف مستندا إلى العز بن عبدالسلام ولكن أين الدليل من كتاب الله؟

فى عصر محمد على

لم تشهد المنازل المصرية ازدهارا واسعا فى اتخاذ الجوارى كما شهدته فى عهد محمد على ، نعم كان هذا النظام معروفا ومقررا فى مختلف العصور السابقة ، ولكن ظروفا خاصة امتدت به حتى كاد يشمل بيوت الطبقة الوسطى والطبقة العالية جميعها فى

عهد محمد على ، والسبب المباشر لهذا الازدهار المفاجئ، هو حروب الوالى الكبير فى المورة والسودان إذ أن طوائف الأسرى من الجانبين ، أخذت تنهال على مصر ، وكتب التاريخ تذكر أن اسماعيل باشا نجل محمد على قد طلب من ملك شندى ألفا من الرقيق فاستجاب ، كما ذكر الاستاذ عبدالرحمن الرافعى، أن محمد بك الدفتردار صهر محمد على وقائد الجيش بعد مصرع اسماعيل بالسودان سبى من النساء والصبيان آلافا وأرسلهم إلى القاهرة ، أما المستشرق الانجليزى أدور وليم لين فقد ذكر فى كتاب (المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم) عن حرب المورة باليونان أن الجيوش المصرية والتركية تحت قيادة ابراهيم باشا قد أسرت الكثير من الجوارى البيض ، وأرسلن إلى مصر . وقد شغلت الجوارى البيض مكانة أعلى من مكانة الحرائر ، عند الرأى العام فى مصر ، فكثيرات منهن كن رفيقات لعظماء الأتراك أو زوجاتهم وكان الأتراك يفضلونهن على الأخريات ، وتلبس أولئك الجوارى أفخر الملابس ، ويتقلدن الحلى النفيسة وينعمن تقريبا بكل ما يستطاع فإذا قلنا إن حروب السودان واليونان جلبت جيشا حافلا من هؤلاء إلى مصر فذلك ما تحدث عنه التاريخ ، هذا إلى وجود ما يسمى (بالجلاب) وهو تاجر الرقيق «النخاس» الذى يجد بضاعته فى بلاد النوبة من الجوارى الحبشيات، فيجمعهن فى السفن ليبعن فى القاهرة ، ومنهن من تأبى هذا النهب الشنيع من قوم لا يراعون حقوق الانسانية ، فترمى بنفسها فى النيل !! ومن أغرب آثار هذه النكسة الخلقية ما ذكره الاستاذ محمد شفيق غربال من أن ظاهرة تلبس الجن بالانسان لم تعرف بمصر من قبل إطلاقا ، بل عرفت من الرقيق القادم من السودان ، فأدى ذلك إلى وجود الزار لأول مرة فى مصر ، وهو كلام له دليله ، لأن الذين كتبوا عن مصر لم يتحدثوا عن الزار فى العصور السابقة ، وكل حديثهم مقصور على رؤية الجن واستماع حديثه أما تلبس الجن بالإنس وإقامة حفلات الزار فهذا ما أشاعته الجوارى المستوردات فى مصر ، ووجد رواجا حافلا بين الجمهور للآن ، إذ لاتزال بعض الأحياء الشعبية ترى فيه علاجا للأمراض النفسية المستعصية، وأكبر مأساة أن يقول الدجالون من أدعياء الطب النفسى إن انعاش المريض والمريضة بحركات الزار ، يخفف من شجونهما المكظومة فيعودان إلى الصواب ، ثم يجدون من يصدق ، وإذن فقد عرفنا كيف استفحل أمر الزار فى هذا الزمن ، ومن أين أتى؟ وكيف عمرت به مئات المنازل فى المدن والريف ، وكيف ترك من العواقب مالانزال نجد بلاءه للآن .

نسيت أن أقول إن من أسيرات



حرب المورة (تمراز) جدة أمير الشعراء أحمد شوقى فقد أسرها القائد ابراهيم باشا ، وضن بها اسماعيل ولده على غيره ، فكانت إحدى جوارى القصر ، زمنا ثم أعتقها وهى التى قامت بتربية الشاعر الكبير فى طفولته وقد قال فى رثائها هذه الأبيات :

تبناك الملوك وكنت منهم
بمنزلة البنين أو البنات
وما ملكوك فى سوق ولكن
لدى ظل القنا والمرهفات
عننت لهم بمورة بنت عشر
وسيف الموت فى هام الكماة
فكنت لهم وللرحمن صيدا
لدى ظل القنا والمرهفات

أما والدة عبدالله فكرى باشا زعيم الكتابة الأدبية فى عصره فهى أيضا من بنات «المورة» فكأن القدر شاء أن يكون زعيما الشعر والنثر فى عصرهما من أصول ترجع إلى اليونان !

إلغاء الرق

آذنت مأساة الرق بالغروب ، فقد ألغى فى كل بلاد العالم بموجب اتفاقية برلين سنة ١٨٥٥م، وحين تولى إسماعيل باشا خديوية مصر ، رأى أن يكسب تقدير الرأى العام الأوربى ، فأعلن إلغاء الرق فى مصر والسودان ، وكان إلغاء الرق فى مصر صوريا حينئذ، إذ لم يتم أى تغيير فى ،وضع الجوارى والعبيد بالقصور ، فالجوارى أكثرهن يقمن بالخدمة للسيدات ، وعليهن تقع أعباء المنزل جميعها ، والزوجة فى منازل العلية مكسال تؤوم الضحى ، لا تفكر فى غير زينتها ، ومكايدة ضرتها إن ابتليت بزوجة ثانية ، أما فى السودان فقد أصدر اسماعيل أمره إلى موسى باشا حمدى حكمدار السودان بتعقب تجار الرقيق وحربهم ، فضبط سبعين سفينة مشحونة بالأرقاء بين مدينتى كاكا وفاشودة، وسبعون سفينة تحمل هؤلاء التعساء تدلنا على ضخامة هذه التجارة الرائجة ، وقوة أصحابها الذين يستسهلون المال الوافر عن طريقها، وكل ما يصنعونه أن يدهموا القرى الآمنة بالأسلحة النارية ليجمعوا الشواب والشبان ويسوقونهم إلى السفن ، وكان هذا العمل يبدو طبيعيا لمن ألفوه وشبوا ينظرون إليه دون اعتراض ، ووالى حكام مصر تنفيذ الإلغاء بهمة صارمة ، وقد قال الاستاذ عبدالرحمن الرافعى فى الجزء الأول من كتاب عصر اسماعيل ، إن اسماعيل قام بعمل مجيد ، وأسدى إلى الإنسانية خدمة جليلة بمنع هذه التجارة المقوتة ص ١٣٢ .

ولكن الذى حيرنى أنه قال عقب ذلك ما ملخصه : «إن الأمر كان فى حاجة إلى الحكمة والتروى ،لأن تجارة الرقيق كان يقوم بها أناس أقوياء لهم أنصار وأعوان ، وأنها كانت مصدر ثروتهم ، فضلا عن أن الأيدى العاملة فى الزراعة ورعى الماشية كان معظمها من الرقيق ، وقد استخدمهم الأعيان باعتبارهم

خداما وأتباعا ، ونظموا حياتهم على هذا الأساس ، فمفاجأة السودان بإلغاء الرق دفعة واحدة كانت مجازفة لا تحمد عقباها ، وكان على اسماعيل أن يأخذ مشروعه بالهوادة، فضاق السودانيون أصحاب النفوذ بما صنع، واستهدف لعداء طبقة كبيرة منهم ، مما ظهر أثره فى نجاح ثورة المهدى» .

وهذا الكلام له وجه كبير من الحقيقة ، بدليل أن غوردون حين عين حاكما على السودان فيما بعد سنة ١٨٨٤هـ، كان أول منشور أذاعه يعلن أنه جاء ليخلص السودان من ظلم المصريين ، وأنه يعيد تجارة الرق من جديد، فيالله! انجلترا التى تدعى أنها أنقذت العالم من الرق هى التى أمرت غوردون بإعادة الرق!!

وقد جاء فى منشور غوردون قوله:

«بما أن تجارة الرقيق ضرورية ، وقد ساءكم إلغاءها ، فقد رأيت التماسا لراحتكم أن أبطل إلغاء هذه التجارة ولن يعترض عليكم أحد فى مزاولتها » .

وما كاد الأمر يذيع حتى اندفعت السفن بحركة جنونية إلى حمل الحشود التى اختطفت بالحديد والنار لتبيع (حيواناتها الآدمية) فيما جاورالسودان من بلاد ، ومن أولها مصر .

نعم من أولها مصر التى قلنا عنها إنها لم تقم بالإلغاء على وجه يوحى بالأهمية ، فالتركيات واليونانيات وبنات الأروام يملأن منازل السادة من الأمراء والوزراء دون تثريب ! وإسماعيل نفسه – ومن بعده توفيق – لم يشأ أن يبدأ بتحرير القصر الخديوى إذ كانت علاقاته بأكثر جواريه علاقة مودة وهوى قبل أن تكون علاقة إنسانية وثيقة ، فرأى أن يتغاضى عن تنفيذ ما قرر وأعلن، ولكن خطا خطوة تالية ، إذ جعل يرشح لأبناء الأعيان وموظفى الدولة من تليق بالزواج متحررة معتوقة ، وبذلك تخلص من الكثيرات ، وأذكر أن الاستاذ مصطفى نبيل كتب تلخيصا جيدا لمذكرات قلينى فهمى باشا بعدد يناير سنة ١٩٩١ من مجلة الهلال قال فيه :

« وكان من حظ الذين يتزوجون الجوارى البيض ، الإنعام السامى عليهم بالعطايا والهدايا ، وكان المقرر أن كل جارية تتزوج تتكفل السراى بجهازها وملابسها وحليها، وينعم عليها (بأبعادية) خمسمائة فدان تعيش من ريعها ، علاوة على مسكن فخم ، وعربة يجرها جوادان من الجياد الصافنات ، ويفضل زوجها على من سواه فى وظائف الحكومة ، فأدى ذلك الحال إلى إقبال القوم على الزواج منهن ، وكان الأزواج يعدون محاسيب السراى المقربين » .

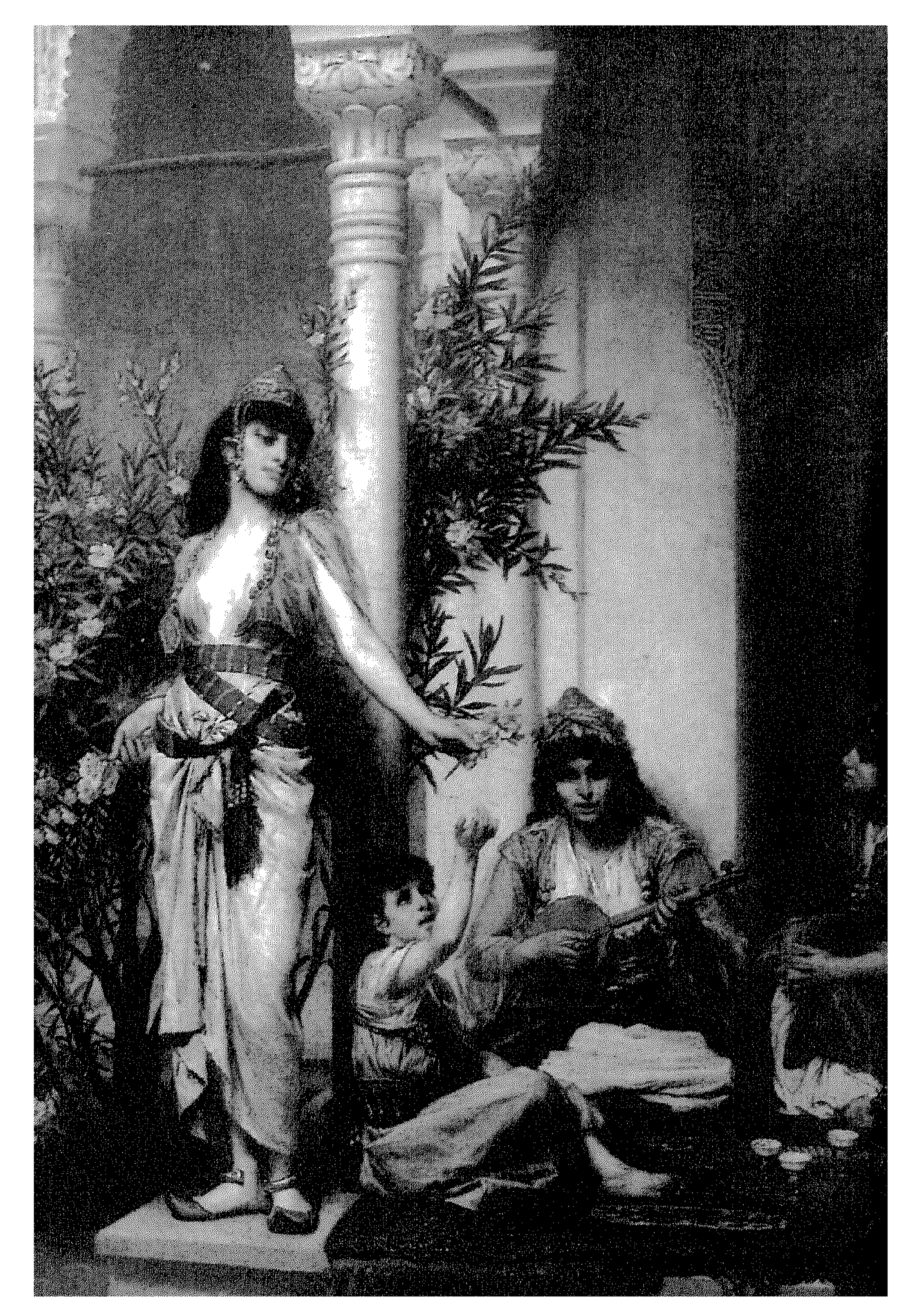
وبعد أن جاء الاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢، وأصبح كثير من الأعيان والباشوات لا يستطيعون الزلفى إليه ، كان من شواغل نظارة الداخلية أن تحارب تجارة الحشيش، وتجارة الرقيق ، وإذا كان الاحتلال مذموما فى كل وجوهه، فإن هذاالعمل الجاد يحسب له ، فقد تعقب المجرمين من أشقياء هذين الوباءين تعقبا جادا ، وقام رجال خفر السواحل بأدق مهمة فى ترصد الجناة ، وقد دوت فى هذه الآونة قضية عالية

الرنين ، لأن المتهمين فيها من كبار رجال الدولة ومنهم رئيس المجلس التشريعى فى البلاد . وقد اشتروا ستا من الجاريات السودانيات على رغم تحريم هذا الشراء قانونيا وعلمت بالأمر مصلحة الرقيق فلم تتوان عن القبض على هؤلاء! وكان فى صرامتها الباغتة ما أفزع الذين ظنوا إلغاء الرق مسألة صورية ؟ وكيف ورئيس المجلس التشريعى يحاكم !



خلاصة القضية

منذ أباح غوردون تجارة الرقيق، وعيون التجارة تتجه إلى مصر، لأنهم يعرفون من وجهائها من يروقهم شراء الحسناوات من هؤلاء، يعرفون الأسماء والمنازل والشوارع، وقد حذروا رجال الأمن فهم لا يأتون إلا فى الظلام ويرسلون من يضرب المواعيد للشراء بعد الفحص والمعاينة ، وقد شاء الحظ العاثر بالنسبة إليهم أن يقف البوليس على صفقة من حسناوات الجوارى يبلغ عددهن ستا ، وأن يعلم أسماء التجار وأماكنهم التى استأجروها ، وأسماء كبار الأعيان الذين اشتروا هؤلاء ! فقامت قوة برياسة وكيل مصلحة الرقيق ، وداهمت التجار على حين غفلة ، فسقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم سيسامون سوء العذاب إذا أنكروا ، فاعترفوا بما كان ، وأرشدوا على المساوم الذى عقد الصفقة ثم قام بتوزيع جواريهما على ثلاثة من الباشوات الكبار هم على باشا شريف رئيس المجلس التشريعى ، وقد اشترى منهن ثلاثا !! وعنده فى القصر أكثر من ثلاث ! على حين يزحف إلى الثمانين من عمره المديد ، والباقون هم الشواربى باشا ، وحسين واصف باشا ، وعبدالحميد الشافعى بك وقد اشترى كل منهم جارية ! وكان المنتظر لشريف باشا أن يتمتع بالحصانة البرلمانية ، فهو رئيس المجلس التشريعى، ولكن رئيس مصلحة الرقيق وهو الانجليزى شيفر بك ، أمر باستدعائه الفورى ، وكان يظن أنه حين يكشف عن منصبه سيرجع موفور الكرامة ، ولكن الرئيس الجهم قابله بانقباض وتركه أمام الباب مدى طويلا ، دون أن يسمح له بالدخول أو الذهاب ، ثم طلب شريف باشا السماح له بالاتصال بالخديو أو الإبراق له، فرفض الطلب فى غلظة! وتذكر الشيخ البائس أنه قدم طلبا من قبل للقنصلية الايطالية فحمل جنسيتها، وهذا يمتعه بالامتيازات الأجنبية، فاتصل شيفر بك بالقنصلية ، فجاء الرد بأنه قد قدم الطلب ، ولم يدفع الاشتراك فلم يتجنس ولذلك لن يحضر القنصل الايطالى استجوابه! ثم انعقدت محكمة عسكرية لمحاكمة تجار الرقيق الأربعة والباشوات الثلاثة وعبد الحميد الشافعى بك، وبعد أسبوع متصل الجلسات ، استطاع أحد المحامين أن يجد مخرجا قانونيا ، حين ذكر أن قانون إلغاء الرق يقصر العقاب على الاتجار دون الشراء ، وجاء الحكم بإدانة



تجار الرقيق الأربعة فسيقوا إلى الحبس مع الشغل ، وببراءة الباشوات الثلاثة . إذ اشتروا ولم يتاجروا ، أما الدكتور عبدالحميد فقد باع لهم فكان جزاؤه الحبس مع الشغل !

هذه قضية شغلت الرأى العام . ولكنها فى الوقت نفسه أنذرت كل من يجرؤ على شراء الرقيق بالعقاب الصارم ، كما اضطرت أصحاب الرقيق الذين يضمون فى منازلهم العبيد ، أن يعلنوا أنهم حرروهم من الرق ، وأنهم الآن يسكنون معهم باختيارهم ، باعتبارهم خدما لا عبيدا ، ولهم أن يذهبوا إلى أى مكان إذا أرادوا أن يبرحوا المنزل دون اعتراض ! والحق أن هؤلاء قد اضطروا إلى البقاء ، فأين يذهبون ؟ وهم لا يعرفون غير سادتهم ، ولا يطمئنون إلى مستقبل يعود عليهم بما يسد حاجاتهم الضرورية ! على أن الرائع فى المحاكمة أن الجوارى الست . قد أصبحن طليقات ، وقد كن على جانب رائع من الجمال فوجدن من رحبوا بهن كزوجات! وعقدوا عليهن فى الحال .

أديب من العبيد

وممن ولدوا فى ربقة الرق ، والد الشاعر البائس محمد إمام العبد ، وقد تركه حرا . بعد أن تحرر العبيد فتحرر معهم ، ولكن سواده الحالك ، ولقبه الأسود كانا يذكران الناس بأبيه ، وهو يشعر بذلك جيدا ، وقد رثى الإمام العظيم محمد عبده فقال فيما قال



(لبست عليك الحزن من قبل مولدى) يشير إلى سواده المشئوم وله هذا البيت الحزين :

أنا ليل وكل حسناء شمس
فاجتماعى بها من المستحيل

وحين مات رثاه الأستاذ أنطون الجميل فى مجلة الزهور ، فقال عنه «كان إمام بعيد الشهرة فى سوريا وأمريكا ، وكان يراسل عدة جرائد ، وقد أحرز عدة جوائز مالية فى مسابقات هناك ، وسيكون لنعيه أسف بالغ ، ولكن ذلك لا يجديه نفعا بعد مماته ، كما أن شهرته لم تدفع عنه بؤسه فى حياته وهكذا يعيش الأديب فى الشرق ويموت كحصاة تلقى فى الماء الراكد بعض تموجات ثم تضمحل» ، أما نوادره مع حافظ إبراهيم فتحتاج إلى مقال ، ومثل إمام الشاعر الشعبى خليل نظير ، وله ترجمة فى كتاب (أدب الشعب) وولده هو البطل على خليل نظير الذى حكم عليه بالإعدام ظلما فى مبدأ ثورة سنة ١٩١٩ وتلقى الحكم هاتفا بحياة مصر وسعد !

بنت الجارية

وأما قصة بنت الجارية فهى حادثة حقيقية ، لم يكن للخيال أن يبدعها على نحو ما جاءت به الأيام مهما تفنن صاحب الإبداع ، وقد جرت واقعتها فى إحدى عواصم الصعيد ، فما حديثها ؟

حين ألغى الرق ، بقى عبد وامرأته فى منزل السيد ، ولم يتخليا عما كانا يقومان به من الخدمة ، ثم ماتا وتركا

ابنة صغيرة عرفت فى المنزل ببنت الجارية . وسميت (زيتونة) .

ولكل أجل كتاب ، فقد رحل صاحب المنزل وزوجه ، ولم يتركا غير ولد واحد ، شب مدللا ، ثم صحب قرناء السوء فأهلك جسمه بالشراب والعبث ، وماله بالميسر والقمار ، وتزوج فتاة ساعدته على التبذير ، وكان ضعيف الرأى فى أمر نفسه ، فتحكمت فيه تحكما عاتيا، بحيث صارت كلمتها لا ترد ، ثم رأت (بنت الجارية) فتاة سمراء ذات رونق جاذب ، فضاقت بها ، وصممت على طردها ! وهى لا تعرف فى الدنيا الواسعة أحدا تأوى إليه ، لقد خرجت من المنزل حائرة كقطة جائعة ، ليس فى يدها غير خرقة تحمل ثوبا خلقا . واتجهت إلى باب المسجد دون تفكير !

وكان قارئ الكهف يتردد على منزل السيد ، وقد عرفها من قبل ، وهو شاب ذو نخوة ، فسألها عن بكائها ، ووقف على حقيقة مأساتها، فصحبها إلى أمه وأبيه ، وأصر على أن يتزوجها فى الحال ، ودعى المأذون وصارت الطريدة الباكية آمنة مطمئنة بعد ساعات! وقد رحب سيدها بما آلت إليه ، وكأنه تخلص من عبء إرضاء لزوجته المتغطرسة!

وقد شاء الله أن يسعد الزوج ، فاشتهر فى بيئته بجلاوة الصوت فى قراءة القرآن ، وأخذ يدعى فى المناسبات المتوالية فى القرى المجاورة ليحيى الليلات بالتلاوة ، فجرى الخير فى يده ، وأنجب ثلاثة أولاد . بعث بهم إلى المدارس ، واجتهدوا حتى أصبح منهم الطبيب والمدرس والمحامى ، واستقل كل ولد بمنزل خاص! فيالله ، فتاة طريدة كانت لا تعرف فى البلدة مكانا واحدا تأوى إليه ، ثم تصبح بعد حين سيدة ذات أولاد وأحفاد ، تزورهم عاطفة حانية ، إذ صارت أصلا أصيلا لهم ، وذات جذر ثابت فى أعماق الأرض ! تباركت يارب !

ونعود إلى الزوجة المتغطرسة ، فقد فقدت زوجها فى مرض مفاجئ. وأقبل الدائنون من رفاق الميسر والقمار فحجزوا على المنزل ، والعقار وخرجت المسكينة إلى العراء كما خرجت الجارية من قبل لا تجد غير حجرة ضيقة فى منزل أخيها الفقير ، وكانت معاملة زوج الأخ لها مما لا يحتمل ، فأخذت تبكى ، ولكى يتم القدر مسرحيته جعل منزل الأخ مجاورا لمنزل المقرئ فوقعت بنت الجارية الكريمة على مأساة سيدتها اللئيمة ، فأخذت تزورها وتمدها بالعون المتواصل ، ورأى الناس عجبا أى عجب! شاهدوا سيدة الأمس تسعى صاغرة إلى بنت الجارية ، فتقف على الباب ، وتتناول بين الحين والحين منها ما يعين على اطراد الحياة! تتناول ممن ذاقت الحنظل المرير على يدها ، وكان الظن بها أن تجوع وأن تتشرد حين قذفتها إلى العراء !

﴿ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ . ■

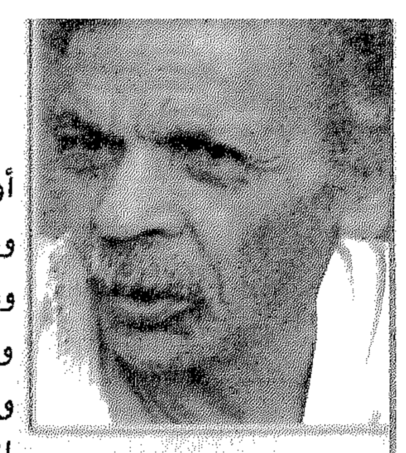


شاهد على عصره وعلى نفسه

بقلم
د. أحمد ابو زيد

كلفنى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى عام ١٩٨٩ بالإشراف على بحث عن (رؤى العالم فى مصر) أى نظرة الإنسان المصرى إلى ذاته وإلى الآخرين وإلى الكون الذى يحيط به والذى يؤلف هو نفسه أحد عناصره ، وقد اشترك فى إجراء البحوث الميدانية المتعلقة بالموضوع عدد من شباب الباحثين فى المركز نفسه وفى بعض الجامعات ممن لهم خبرة كافية بالبحوث الانثربولوجية التى تتطلب الإقامة فى المجتمعات المختارة لإجراء البحث فيها فترات طويلة من الزمن قد تصل إلى سنة كاملة أو أكثر حتى يمكن جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات من أشخاص معنيين بالذات يتم اختيارهم حسب معايير معينة وبحيث يمثلون فى الوقت ذاته شرائح وقطاعات المجتمع المختلفة وقد استعان الباحثون الميدانيون بدليل للعمل الميدانى قمت أنا نفسى بتصميمه بحيث يشتمل على أهم التساؤلات (وليس الاسئلة المحددة) التى تدور حول النقاط والموضوعات الأساسية التى تكفل الحصول على صورة متكاملة بقدر الإمكان عن رؤى الأشخاص التى يتم إجراء المقابلات المكثفة والمطولة معهم ، مع مراعاة عدم التقيد فى تحديد تلك التساؤلات بذكر التفاصيل الدقيقة التى قد تضع قيودا على حرية الباحث والشخص المبحوث على السواء وإنما تترك للطرفين حرية الحوار والتحاور وارتياد أية مناطق من الفكر والحياة بما فى ذلك الحياة الشخصية والخاصة بل والشديدة الخصوصية إن اقتضى الأمر ذلك .

وتدور معظم بحوث رؤى العالم حول محورين أساسيين هما : أولا إدراك الذات لذاتها بكل مقوماتها الغير حقيقية والترهلية والعاطفية والانفعالية وعلاقتها بالذوات الأخرى وتحديد أوجه الشبه أو الاختلاف بينهما ، ثانيا : نظرة الذات



أو الشخص المبحوث إلى الكون الذى يحيط به بكل مقوماته ومكوناته وتفسيره لما يحدث فى ذلك الكون من أحداث وظواهر قد يكون لها تأمين مباشر أو غير مباشر على حياته وحياة المجتمع الذى يعيش فيه ، ويدخل فى ذلك الأحداث والتغيرات الطبيعية والسياسية والاقتصادية التى تحدث فى العالم ، بل وأيضا التصورات الخاصة عن العوالم الخفية مثل عالم الجن وعالم الأرواح بل والعالم الآخر . وفى هذا كله يظهر الشخص المبحوث كما لو كان هو مركز الكون الذى تدور حوله كل هذه الأحداث والتى يصدر عنها حكمه وتقويمه لها وتفسيره لما يحدث حوله من وجهة نظره الذاتية الخاصة دون أن يتدخل الباحث فى ذلك التفسير كما يحدث فى البحوث الإنثربولوجية والإجتماعية الأخرى .

طفولة نجم

فى مقابلة مطولة مع أحمد فؤاد نجم بتاريخ ١٩٩١/٤/٢٩ تمت فى مسكنه القديم فى حوش قدم وذلك قبل أن ينتقل إلى مسكنه الحالى فى منطقة المقطم ، ذكر أنه كان يعيش فى إحدى فترات طفولته فى حى محرم بك بالأسكندرية وإن كان له عم طبيب مشهور فى المدينة اسمه الدكتور عطية نجم (وقد فرح فرحا شديدا حين أخبرته أننى عرفته شخصيا) وأن عمه كان يحبه حبا شديدا نظرا لما كان يبديه من شقاوة وكان يستثير مداعباته ومشاغبته ويقدم له بعض النقود نظير ذلك ، وأنه (أى أحمد فؤاد نجم) كان يعرف رغم طفولته كيف يستغل ذلك الحب وتلك المشاغبات للحصول على أكبر قدر من النقود من ذلك العم ، ثم يقول :

«كنا ساكنين فى محرم بك .. ما أعرفش فين بالضبط ولكن فى شارع كان كل بيوته لها بلكونات خشب كانوا يسمونها تراسينة ، وظهرت بعد ذلك أغنية فى الاسكندرية كانت تقول : يا تخينة يا تخينة .. وقعت بيكى التراسينة .. وكانت لنا جارة اسمها فردوس وكانت جميلة جدا وكانت تحبنى وتخطفنى من أمى إلى شقتها وتقدم لى الطعام وخصوصا السمان .. أنا نسيت دولوقت طعم السمان .. ويبدو أنها كانت تحب أبويا أيضا .. ما أعرفش إيه سبب تعلقها بى وهل كانت بتحبنى بصحيح والا بالتبعية لأننى كنت مجرد (كويرى) خصوصا وإن شكلى (وحش) .. فأنا (أوحش) أخواتى .. وإخواتى كلهم كانوا أجمل منى .. الوجه أحمر والشعر أصفر ، كذلك كانت أمى تحبنى أكثر من إخواتى رغم أننى كنت أعاكسها بل



وأشتمها أحيانا وأكلمها بقلة أدب وأذكر أننى دخلت مرة عليها البيت فى هدوء وكنا نعيش حين ذلك فى القرية وكان عمرى حوالى اتناشر سنة فقالت أمى : كفى الله الشر .. إنت عيان ؟.

وسبب وجودنا فى القرية هو أن أبويا كان معاون للبوليس فى شبرا البلد .. وكان عيد كبير وكان فى القسم يوم العيد .. ودخل عليه عسكرى ساحب راجل يحمل على كتفه خروف مدبوح خارج السلخانة وضبطه مفتش الصحة .. وقال الرجل لأبويا .. ده عيد وأنا راجل فقير ودبحت الخروف بره السلخانة علشان أبيعه لجيرانى وأطلع بقرشين . فصرفه أبويا .. وجاء مفتش الصحة وسأل أبويا عما فعله بالرجل، فقال له أبويا الحكاية وأنه تركه لحال سبيله .. وتقول أمى إن مفتش الصحة لم يكن يحس بالعيد فقال لأبويا أنت لازم أخذت رشوة من الراجل.. ودى عبارة كانت تكفى من معرفتى لأبويا إنه يقتل ، ولذلك قبض على مفتش الصحة وجعله يكنس تحت الخيل ويتولى إطعامه وبات ليلتها فى الحبس .. واشتكى مفتش الصحة وعملوا لأبويا مجلس عسكرى ، وكان رئيس المجلس العسكرى ضابط كان أبويا كتب كتابه على ابنته من قبل ثم طلقها قبل أن يدخل بها لسوء سلوكها ، وكان أبويا والضابط الكبير يعملان معا فى ذلك الحين فى مركز أبو الغيط .. الضابط مأمور المركز وأبويا معاون بوليس .. وحكم المجلس بتنزيل رتبة أبويا وخلع نجمة من على كتفه واستقال أبويا ورجع إلى القرية اشتغل فلاح فى أرض كان يملكها ثم عمل بعد ذلك فى وزارة المالية مندوبا لها فى عدد من المصالح فى كثير من الجهات بما فيها جمرك الاسكندرية .. وما أعرفش تفاصيل كثيرة عن ذلك ودى مسألة تعمل لى شىء من اللبس فى معرفتى» .

تعريفه للجمال

* لقد قلت أكثر من مرة إنك (أوحش) إخواتك . فما هى معايير الجمال عندك أنت ؟ أى رأيك أنت بالذات فى الجمال ومعاييره ومواصفاته ؟

- «فى مسألة الجمال أنا لا أنظر إلى السطح فقط .. الجمال يتصل باللى جوّه الإنسان لأن إللى بره ده مجرد غلاف بس وممكن الغلاف يكون جميل أو وحش بعكس إللى جوه ، وأنا شخصيا لا أهتم كثيرا بالجمال الخارجى وتكفينى نظرة واحدة وأبحث عن الداخل .. أنا يجذبنى البنى آدم اللى يدهشنى .. اللى يقول حاجة ، تثير دهشتى وتجذب انتباهى .. ده هو الجمال .. شوف مثلا الفتاة التى تجلس أمامك (وقد أصبحت زوجته) جواها جمال وجرأة ولكنها جرأة غير جارحة وغير مقتحمة .. المرأة اللى عندها



جرأة ظريفة تشد انتباهك ، ثم أن عندها بديهة حاضرة وحضور البديهية هو حضور الإنسان وهو مهم فى الجمال .. شوف فى المسرح مثلا إللى هوه أبو الفنون .. بعض الممثلين لهم حضور أكثر من الآخرين بصرف النظر عن الجمال الجسدى الخارجي . هناك مثلا (فلانة وفلانة وفلانة) دول ممثلات جميلات ولكن لو قارناهم بسناء جميل نجد لها حضور شديد يضفى عليها نوع من الجمال تفتقر إليه الأخريات .. وهذا الحضور هو الذى يثيرنى وهذه الاثارة هى الجمال بالنسبة لى .. وده طبعا لا يمنعنى من تقدير الجمال الظاهرى ولكننى لا أهتم له كثيرا بعد ذلك وخصوصا إن معظم الجمال الخارجى الآن فى المرأة جمال مجلوب بأدوات التجميل ، وصناعة التجميل صناعة مهولة فى العالم وكلها فى خدمة المرأة .. أنا طبعا يعجبنى الجمال الخارجى للمرأة فى هذه الحدود .. وأولاد البلد يقولوا الحب يتحب لأجل النبى – وإيش دخل النبى فى الموضوع ؟ أو يقولوا عن المرأة الجميلة يا أرض احفظى ما عليكى ، أو ربنا يحفظ المال لصحابه – يعنى الجمال مال كما لو كانت المرأة جاموسة مثلا .. أنا لا أهتم إذا كانت المرأة جميلة من الخارج وفيلسوفة ولكنها ثقيلة بعكس الحال بالنسبة للمرأة الأقل جمالا وتكون جاهلة ولكنها تشد انتباهى .

معايير المرأة الجميلة

* استاذ أحمد ، كل هذا رائع ولكنك حتى الآن لم تحدد معايير الجمال بوضوع ومن وجهة نظرك الخاصة ؟

– «أولا» : خفة الدم والذكاء ودى أمور من الداخل .. أنا لا تعجبنى المرأة المعقدة اللى دايما خايفة من المجتمع وعندها غم داخلى بينما تعجبنى المرأة الجريئة التى لا تكاد توجد فى مجتمعاتنا النايمة .. أنا طلعت بره ولفيت وشفت العالم ولكن الإنسان الأوربى أو حتى العربى تزغزغه الصبح يضحك العصر بعكس الإنسان المصرى اللى يفهم النكتة ويضحك لها بتلقائية .. الإنسان المصرى غريب فى المسألة دى ولا يوجد له مثيل ، فهو يضحك قبل أن تتم النكتة ، ويبدو أن الجغرافيا لها دخل فى ذلك وأن جواه حاجة فريدة لأن له أيضا دخل فى ذلك . والنيل ده حدوتة كبيرة قوى .. يبدو أن هذا النيل الجميل (الملوث) عمل حاجة فى المصريين .. أنا فاكر يا دكتور إن كان فيه مذيعة تليفزيونية مشهورة جدا اسمها ليلى رستم .. كان لها مرة برنامج ولقاء مع بعض المفكرين المشهورين حول موضوع (الكوميديا فى

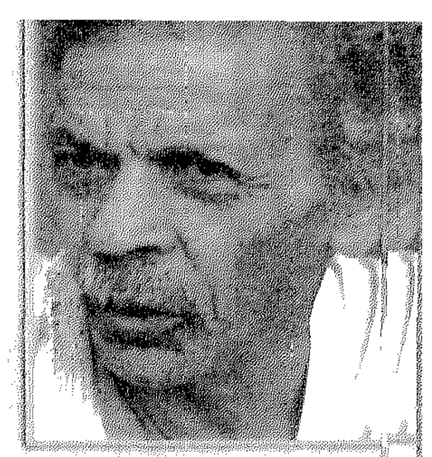
مصر) وهو غير برنامجها المشهور عن نجمك المفضل . وحضر اللقاء بعض أساطين المهتمين بالموضوع مثل ديريني خشبة وعلى الراعى وصافيناز كاظم وجابت وسط هؤلاء فؤاد المهندس ، ودارت المناقشات العميقة الجادة بين هؤلاء المفكرين وكنت مستنى أشوف فؤاد المهندس ها يقول إيه وسطهم ولكنه ظل ساكت طول الوقت وفجأة سألته المذيعة (بنت الحرام) .. يا استاذ فؤاد عايزين نسمع رأيك فقال لها .. شوفى يا ست ليلى ، أنا رأيى إن الكوميديان فى مصر غلبان .. فقالت له : يعنى إيه .. قال لها : يعنى غلبان .. فقالت : طيب ليه : قال لها : لأنه بيبيع المية فى حارة السقايين وكان هذا (الأفيه) أروع وأقوى شيء قيل فى هذه الندوة .. شيء جميل نابع من خفة الدم والبديهة .. ده هو الجمال عندى .

خفة الدم المصرية

خفة الدم دى خاصية فى مصر ورأيى إن ربنا اختص المصريين بها دون كل شعوب العالم .. أنا رحت باريس وبروكسل وأثينا وقبرص وغيرها من المدن الكبيرة .. الصبح يا دكتور نجد أن قطارات المترو تسير بين كل قطار والتانى نص دقيقة حتى لا يفوت العمال الوصول للعمل فى الوقت المحدد وهنا تلاقى الناس تجرى فى انفاق المترو زى الخيل اللى بتظهر فى أفلام الكاوبوى .. زى الفيران المذعورة بدون إنسانية .. ويركبوا العربيات ما حدش يكلم حد ، والعاقل منهم يقرأ فى كتاب فيركز وشه فيه بدون حركة ولا يكاد يرفعه ليرى ما حوله .. وكنت أتعمد أعمل بعض الأشياء المستفزة علشان أشوف رد الفعل ولكن مفيش .. عندنا هنا الشارع فيه قانونه الخاص .. لو حد مثلا ركب عربية فاخرة جدا وسار بها فى شارع ضيق زى ده وبسرعة فائقة فلابد أن نتوقع بعد ثانية واحدة طوبة تخبط زجاج العربية ودى أضعف الإيمان .. فيه قانون فى الشارع والناس تراعيه وتعبر عنه بسلوكه وهذا مالا يحدث فى الخارج حتى ولو عقل الإنسان أشياء مستفزة .. يمكن ده يكون سلوك متعالى منهم إزاء ما كنت أفعله ولكنه سلوك غبى .

* ألا يمكن يا أستاذ أحمد أن يكون ذلك السلوك ناجما عن احترام الحرية الفردية ؟

- الحرية الفردية على عينى وراسى ولكن فى حدود .. أول مرة ركبت فيها المترو فى باريس شاهدت اثنين يمارسون الجنس فى العربة ولا يثير ذلك اعتراض الآخرين فتساءلت هل هذه هى الحرية الفردية .. إن كانت هذه هى الحرية فملعون أبوها .. الحربة الفردية لابد أن يكون عليها قيود أولا من

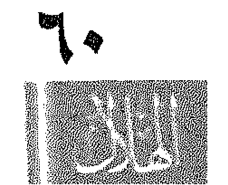


الداخل .. داخل الفرد نفسه ثم من الخارج .. قانون الشارع اللى بأقول لك عليه .. أنا أؤمن بالحرية وأعتبر نفسى الإنسان الحر رقم واحد فى العالم العربى .. وأنا شديد الاعتزاز بحريتى ولكننى أراعى مشاعر الأخرين .

حدود الحرية الفردية

* ولكنك قلت إن الشارع له قانونه فإلى أى حد يتفق هذا القانون أو يتعارض مع الحرية الفردية ؟ وأين حدود الحرية الفردية فى رأيك أنت ؟

– رأيى هو أن من الضرورى احترام إنسانية الإنسان والاحترام ده هو اللى يحدد حدود الحرية .. الإنسان كإنسان موجود فى الشارع المصرى وهذا الوجود يضع الحدود على السلوك الجنسى مثلا فلا يمكن أن يفعل الإنسان المصرى فى الشارع ما يفعله الفرنسى فى باريس مثلا باسم الحرية الفردية .. ربما كان للدين دخل فى ذلك أيضا .. ورأيى أن المصريين هم أشد الناس احتراما للدين ويتحركون فى حدود .. ليس صدفة إن أكبر رجال الدين الإسلامى وأكبر قراء القرآن خرجوا من مصر .. وليس صدفة أن المسيحيين المصريين هم الذين اخترعوا الرهبنة .. أنا فاكر إن كان عندى فى عيد الأضحى أحد كبار الموسيقيين اليونانيين وسمع تراتيل بتاعة الصبح فقال لى دى سيمفونية متكاملة وما حدش يقدر يعمل كده غير المصريين .. ما حدش يا دكتور ينقش كحك العيد زى المصريين ، وما حدش يعرف حنة الطرافة اللى كانوا بيحنوا بينها أصابع العروس زمان غير المصريين ودى كانت نقوش جميلة وظريفة بالحنة .. الإنسان المصرى (سخن) .. دافىء .. ممكن تلاقى واحد ماشى فى الشارع على الرصيف وقال نكتة أو (أوفيه) فيضحك لها واحد ما يعرفوش وماشى على الرصيف الأخر ويرد عليه بنكتة أخرى .. هنا فيه مودة بين الناس .. أنا أحببت باريس جدا ليس فقط لأنها باريس الجميلة ولكن لأن فيها (ريحة) من القاهرة .. القاهرة لا يمكن لأى إنسان أن يصنع مدينة أخرى مثلها ، وباريس فيها ريحة من هذه القاهرة العظيمة إللى الإنسان يلقى فيها كل شىء فى أى وقت .. فكر مثلا إنك عاوز تاكل فجأة فتجد طلبك فى أى شارع وبأرخص الأسعار .. والمحلات وعربات الأكل تتفنن فى شد الانتباه .. فيه راجل مثلا فى ميدان الجيزة واقف بعربية يبيع كبده وكاتب على العربية (طاوعنى يا عبده) . مين هوه عبده ده .. لابد للإنسان أن يضحك وأن يذهب للعربية ويشترى ساندوتش كبده .. هى دى الروح المصرية .. والكتابة على ظهر العربيات واللوريات



تعبر عن هذه الروح ومش ممكن تلاقى زيها فى غير مصر .. شوف مثلا سيارتين زى بعض يطلعوا فى يوم واحد من المصنع وواحدة تروح أوروبا والثانية تيجى القاهرة .. اللى راحت أوروبا تفضل زى ما هى بل إن السواق نفسه يصبح جزءا منها أى يصبح آلة .. أما اللى جاءت إلى مصر فالسواق يحولها إلى كائن آخر فيضع فيها جزمة ابنه مثلا أو يكتب عليها عبارات غريبة تثير الضحك زى (اللى ماشى ورايا حمار) فتسرع السيارات لكى تتجاوزها وصاحبها يضحك منهم .. هذه كلها عمليات لا تخرج إلا من مصر ومن الإنسان المصرى ، وأنا أحب المصريين بشكل غريب وكنت دائماً أحبهم لأنهم أبناء وطنى ، ولكن حين خرجت إلى الخارج أحببتهم أكثر .

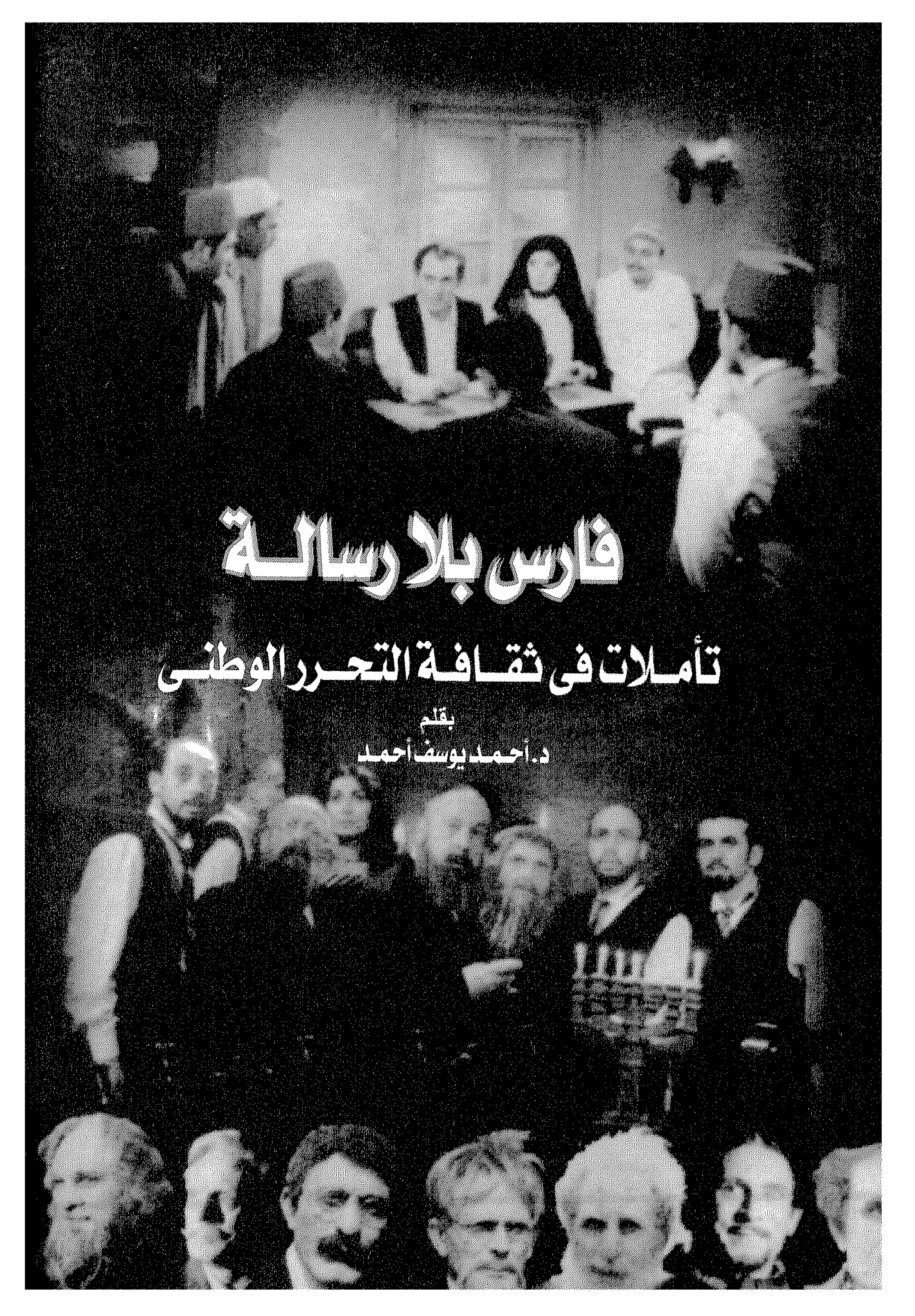
سمات الشخصية المصرية

* ولكن ما الذى يتفرد به المصريون عن غيرهم من الشعوب بما فى ذلك الشعوب العربية غير خفة الدم ؟

- الإنسانية والصبر إلى جانب ما قلته عن خفة الدم .. فيه شعب يقدر يعيش فى الظروف القاسية اللى يعيش فيها المصريين ويحتفظ بالنكتة . فيه إيه فى حياتنا تضحك ؟ ده هو الصبر (الغويط) .. الصبر على المكروه .. وهناك مواويل كثيرة عن الصبر ودى هى قمة الإنسانية .. صبر المصريين دمه خفيف وأى حاجة بتتعمل بالمصرى يكون دمها خفيف .. أنا فاكر إنى لما اتصلت بالشيوعيين فى أواخر الستينات سألتهم : قولوا لى إيه هى الشيوعية ؟ فقالوا لى كلام جميل قوى عن الكفاية وأن الإنسان يجب أن يجد كل ما يحتاج إليه .. طعام لأولاده وكرسى فى المدرسة وسرير فى المستشفى وكسوة وسكن والثقافة خدمة عامة وكلها بلاش .. وقلت لهم : برضه دمها ثقيل ، لأنها طلعت من روسيا .. تعرفوا لو الشيوعية كانت طلعت من مصر كانت تنفع لأن دمها كان يبقى خفيف وتبقى مقبولة ، أما من روسيا فأنها لن تنفع ولن تعيش .. صحيح أن الروس فلاحين زينا لكن دمهم تقيل وأغبياء لأنهم مش من مصر .

* * *

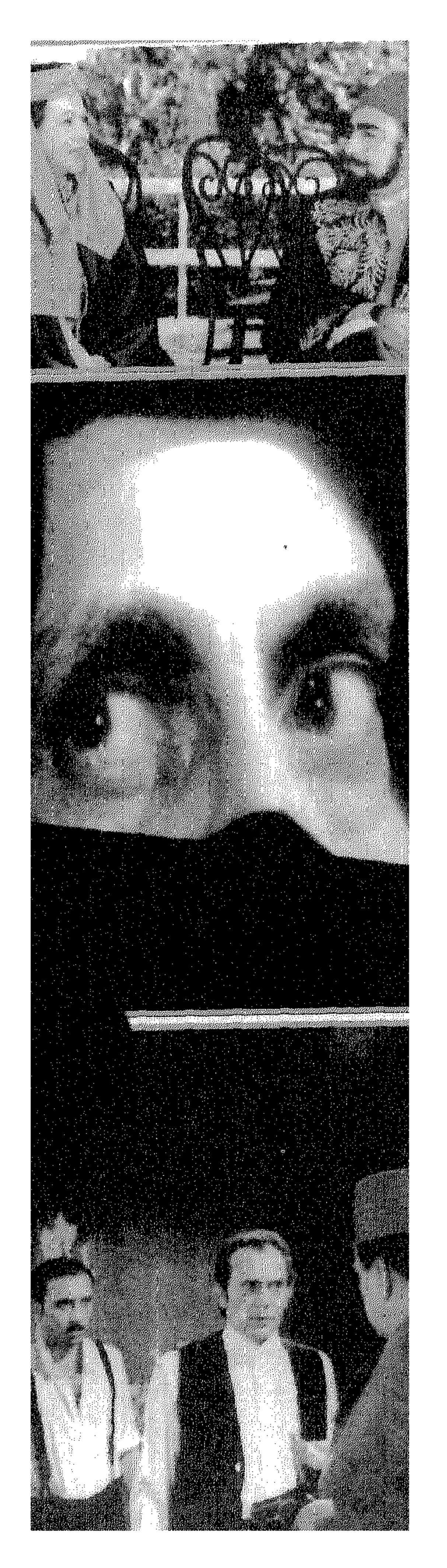
وبعد فهذه صفحات قليلة من حصيلة لقاء واحد مع الشاعر الإنسان الفنان أحمد فؤاد نجم ، رأيت أن أنقلها للقارىء للتعرف على بعض جوانب شخصيته وفكره كإنسان مصرى خفيف الدم ذكى وصابر وهى أهم الصفات التى يرى أنها أهم مقومات الإنسان المصرى خلال تاريخه الطويل الملىء بالمتاعب والمكاره والانجازات . ■



فارس بلا رسالة

تأملات فى ثقافة التحرر الوطنى

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد



لا اعتقد أن عملا دراميا تليفزيونيا قد حظى فى الآونة الأخيرة بلهفة على رؤيته كتلك التى حظى بها مسلسل «فارس بلا جواد» قبل بدء بثه على شاشات عديدة من محطات التليفزيون العربية، الرسمية منها والخاصة كان المسلسل قبل عرضه قد أصبح موضوعا لمعركة ذات دلالة حول الرغبة الأمريكية- الصهيونية المتصاعدة فى الهيمنة على المنطقة بما فى ذلك الهيمنة على عقلها ووجدانها، وهى رغبة تجلت في عديد من المؤشرات فى عقود زمنية سابقة لكنها اشتدت على نحو لافت ومقلق فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر الشهيرة فى هذا السياق اتهمت دوائر أمريكية وصهيونية المسلسل بالعداء للسامية والحث علي منع عرضه، وكان صمود القرار المصرى فى مواجهة الضغوط الأمريكية والصهيونية لمنع عرض المسلسل أو على الأقل تهذيبه مدعاة للاعجاب، والاعتزاز وعلى الرغم مما قيل عن تنازلات قدمت فى هذا الخصوص فإن ما بقى فى المسلسل بخصوص المسألة الصهيونية يشير إلى أن هذه التنازلات لم تكن جوهرية إن وجدت خاصة بالنظر الى المشهد الختامي للمسلسل الذى وصف الصهيونية بأنها مرض خبيث ».

تفسر هذه المعركة التى سبقت عرض المسلسل إذن اللهفة التى غلبت على قطاع عريض من المشاهدين العرب عامة والمصريين لمتابعته، خاصة وقد جاءت مقدمة أولى حلقاته قوية بالصوت المؤثر للفنان القدير محمد صبحى مصحوبا بمشاهد تمثيلية عن النزوح الهائل للفلسطينيين خارج أرضهم فى أعقاب نكبة ١٩٤٨ توقع الجميع عملا متميزا وغير مألوف يصب فى مجرى «ثقافة التحرر الوطنى» لكن تتابع حلقاته أصاب الغالبية على الأقل بخيبة أمل تدافعت معها الأقلام الى نقد قاس للمسلسل، سواء الأخطاء الفادحة فى المعالجة التاريخية أو لتجسيده سيرة شخص حقيقى عاش فى النطاق الزمنى لأحداث المسلسل بالاسم نفسه الذى ظهر به فى حلقاته دون أن يكون تناول المسلسل لهذه السيرة صادقا أو دقيقا . وغير ذلك من الانتقادات .

غير أننى أود أن أتناول الموضوع بمقاربة مختلفة تنطلق من مفهوم «ثقافة التحرر الوطنى» وتنقد المعالجة التى تضمنها المسلسل لقضية الكفاح من أجل الاستقلال، وتربط بين هذه المعالجة وبين السياق الزمنى الراهن . وأحسب أن هذه المقاربة مهمة لأننا نجتاز الآن مرحلة تحديات هائلة لا يمكننا مواجهتها بنهج سليم مالم نتسلح بثقافة تحرر وطنى متماسكة وصلبة واذا كنت قد تناولت قبلا مفهوم «ثقافة الخنوع» التى تحاول تطويع الارادة العربية لواقع التبعية محذرا من مراميه وتداعياته (الهلال، مارس ٢٠٠١ ص ٩ ، ١٥)فإن نشر مفهوم مشوه عن ثقافة التحرر الوطنى لا يقل خطورة ولا شك أن الفنان القدير الملتزم محمد صبحى يستحق منا مصارحة قد تسهم فى دعم الدور الجاد الذى قام به ومازال فى اتجاه بلورة ثقافة وطنية وقومية مستقلة .

عن السياق الزمنى :

لا نستطيع أن نفصل مسلسل «فارس بلا جواد» عن السياق الزمنى الذى عرض فيه : فهو سياق يشى على نحو صارخ بتحديات هائلة تواجهها الأمة العربية من جراء الرغبة الأمريكية - الصهيونية فى الهيمنة المباشرة على مقدراتها باستخدام أدوات تعود بنا الى عصر الاستعمار التقليدى، وأن ما يجرى فى فلسطين منذ أكثر من سنتين والاستفزازات المتصاعدة للعراق والتهديدات العلنية أو المبطنة لدول مثل سوريا ولبنان والسودان واليمن ومصر والسعودية ليست سوى شواهد على تلك الرغبة، وسوف يكون الموت أو حتى السكوت رعبا فى مواجهة هذه التحديات هو - دون شك - أسوأ المناهج التى يمكن اتباعها فى هذا الخصوص، إذ أننا نحتاج على العكس الى حفز كل ما لدينا من امكانات المقاومة، ولن يكون ذلك ممكننا دون ثقافة صحيحة للتحرر تكون بمثابة الاساس الذى تبنى عليه هذه المقاومة .

ومما يزيد فى أهمية ما سبق - أى

حفز إمكانات المقاومة - أن ثمة غيابا لدور فاعل للجماهير العربية فى مواجهة التحديات السابقة لا يوجد تفسير قاطع له حتى الآن، فضلا عن وجود محاولات متكررة لنشر أفكار مغلوطة تتصل بثقافة الخنوع ولا تنبع من «ثقافة التحرر» وتروج للاستسلام بدلا من أن تدعو للتصدى، وفى ظل هذه الافكار يصبح الانحناء حتى تمر العاصفة هو النهج الوحيد المطروح دونما أدنى إدراك لمخاطر اقتلاع العاصفة القادمة كل ما فى طريقها بما يجعل من نهج «الانحناء» مساويا لفعل الانتحار .

في إطار هذا السياق تناول مسلسل «فارس بلا جواد» كفاح الشعب المصرى للتحرر من الاحتلال البريطانى (ومقاومته المظاهر المبكرة للخطر الصهيونى !) استنادا إلى أسس من شأنها أن تشيد بناء مشوها لثقافة التحرر الوطنى، ويمكن أن نتبين ضمن هذه الأسس أعمدة ثلاثة عن الفردية والطابع الظاهر وصورة الخصم .

الطابع الفردى للمقاومة :

تناول المسلسل كفاح الشعب المصرى ضد الاحتلال البريطانى فى مرحلة زمنية معينة استنادا الى قدرات فردية فذة لرجل شاعت عنه تسمية الثعلب، وقد وصلت المبالغة فى هذه القدرات الى درجة أفضت إلى نوع من الانفصام بين المشاهد العاقل وبين ما يراه بحيث أصبح مقتنعا بأن المشاهد التى تتتابع أمامه ليست حقيقية .

لا ننكر أن للفرد دوره الاساسى فى قيادة الجماهير بصفة عامة ناهيك عن أن يكون ذلك فى عمل بالغ الصعوبة كمقاومة العدو. كان ثمة فارقا كبيرا بين دور الفرد فى قيادة الجماهير وبين اكتفائها بدور المتفرج على ما يفعله البطل والهتاف باسمه فى بلاهة بعد كل عمل خارق يقوم به ولا أدرى لماذا قفزت إلى ذهنى، على الرغم منى وأنا أتابع كمدا تلك المشاهد صورة المناضل الفلسطينى مروان البرغوثى الذى كنا نجده دائما بين الجماهير يعيش معها أجواء الخطر ولا ينفرد بمواجهة المخاطر وحده. يقودها ولا يناضل بالنيابة عنها ويوظف فى هذا كله قدرات فردية متميزة لكنها ليست خارقة انسانيا، وأطرا مؤسسية لا يمكن لنضال الفرد والقائد أن يستغنى عنها والا أصبحت ثمار نضاله عرضة دائما للتصفية والزوال.

عن المقاومة الفكاهية

اتسمت الأعمال الفنية التى تناولت نضال الشعوب من أجل الحرية بجدية فائقة دائما وصلت احيانا إلى حد المبالغة، وكانت هذه الجدية تعكس مكانة القضية التى تناولتها تلك الأعمال فى سلم الأولويات الوطنية والقومية صحيح أنها لم تكن تخلو من مشاهد مرحة أو ضاحكة فى بعض الأحيان لكن الجدية ظلت دائما هى السمة السائدة، وصحيح أيضا أن قلة قليلة من تلك الأعمال اتسمت بطابع فكاهى لكن الملاحظ أن هذه الفئة انتجت عادة بعد مرور وقت

طويل نسبيا على الانتصار فى معارك التحرر ولم تكن بؤرتها هى قضية النضال التحررى فى حد ذاته. ولنتأمل على سبيل المثال الطريقة التى تتناول بها الأفلام السينمائية التى تنتصر لوجهة نظر اليهود مرحلة الاضطهاد النازى لهم، وكذلك تناول الأفلام الغربية بصفة عامة الاحتلال النازى لعدد من البلدان الأوربية .

بل لنتأمل الأسلوب الذى عالجت به السينما المصرية ذاتها القضايا الوطنية والقومية والذى كان إلى التصوف أقرب، فليس مع الجد هزل. حدث هذا فى عمل بروعة فيلم جميلة بوحريد تلك المناضلة الجزائرية التى نذرت نفسها لمقاومة استعمار ليس أكثر منه شراسة الا شارون وعصبته، فلا هذا أثر فى مستوى التفاعل الجماهيرى معه ولا عابه الجد الذى ميزه والذى يفترض أن تؤخذ به قضايا الأمة والوطن . وتكرر الأمر نفسه فى نماذج عديدة بتنويعات مختلفة تداخلت فيها ومعها قصص إنسانية بالغة الرهافة والحساسية، لكنها لم تشوش على الخط الرئيسى للعمل ولا شوهت قيمة الرسالة التى يحملها، فكان أن أصبح فيلم فى بيتنا رجل هو نموذج لكل بيوتنا وكل أسرنا التى يحل بها مناضل وهى البعيدة عن هموم السياسة ومناورات السياسيين فينقلب حالها، لكن شعورا بالرضا يتملكها لانها آوت بطلا وحفظت له سره وهيأت له سبل التنكر والتحايل، لكن على غير شاكلة فارس بلا جواد .

فى هذا السياق نستطيع أن نفهم لماذا جاء تناول مسلسل «فارس بلا جواد» كفاح الشعب المصرى ضد الاحتلال البريطانى معيبا من هذا المنظور، ولاشك أن هذا العيب يرتبط بنيويا بالسبب السابق عليه وهو «الفردية»، فلما كان النضال قائما بصفة اساسية على فرد، ولما كان هذا الفرد يجيد التنكر على نحو لافت فان حجر الزاوية فى النضال تمثل فى القدرات التنكرية لبطلنا وليس واضحا لماذا كان التنكر دائما فى صورة شخصيات ذات ملامح «كاريكاتورية» فكاهية جعلت طابع التهريج هو السائد بصفة عامة عند ظهور هذه الشخصيات، خاصة مع بعض الحركات والمبالغات ذات الطابع المسرحى، الأمر الذى صرف المشاهد بصفة عامة عن القضية الاصلية، وجعل الجو العام للمسلسل بعيدا من الناحية الموضوعية عن الهدف منه. ولست أدرى للمرة الثانية لماذا قفز إلى ذهنى فى هذا السياق التناقض بين صورة الاستشهاديين الذين يسجلون رسائل مصورة قبل استشهادهم يظهرون فيها بملامحهم الحقيقية ويشرحون فيها دوافعهم، وبين الصورة التنكرية الفكاهية للثعلب التى تشيع جوا من التهريج فى مواقف لا تحتمل الهزل .

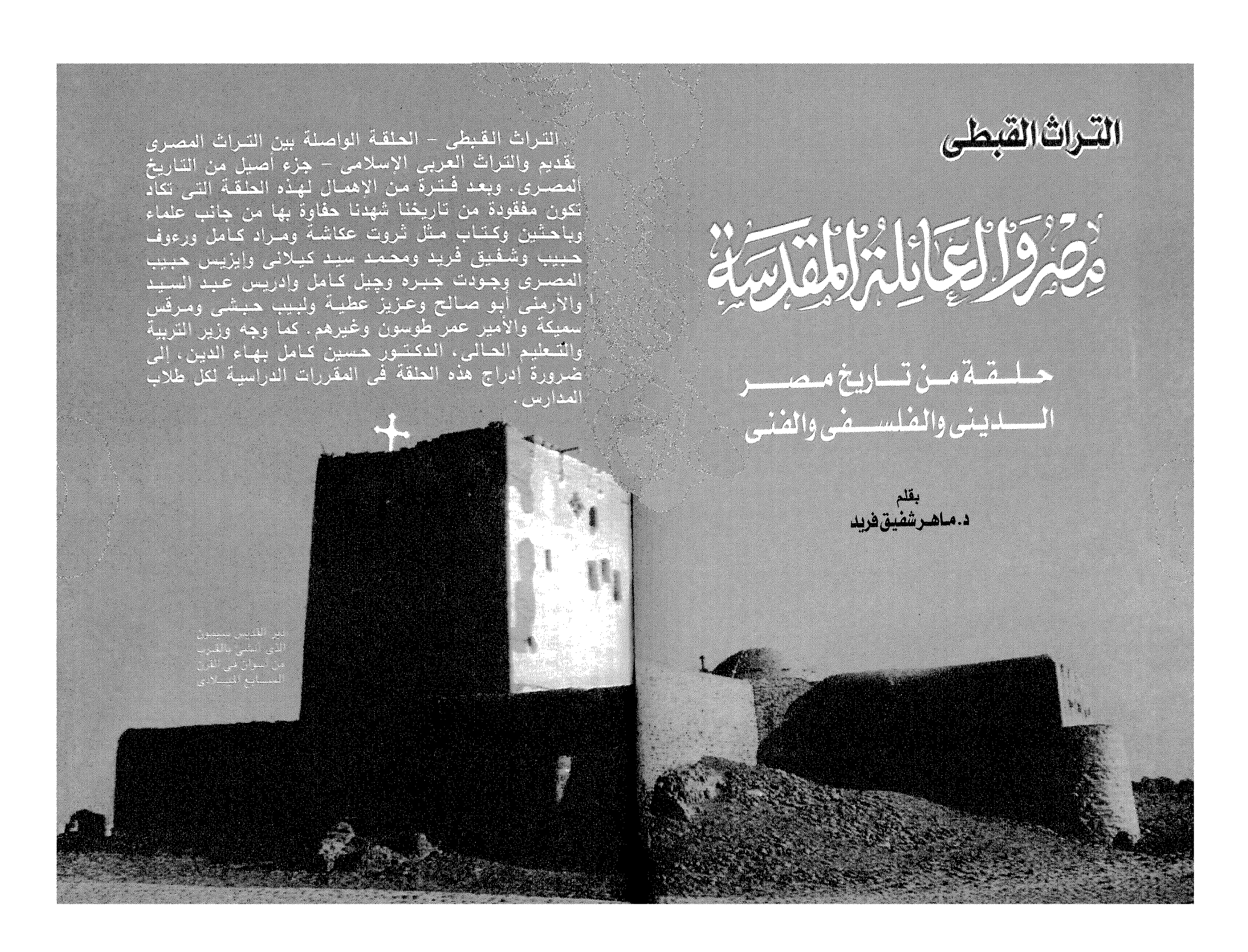
صورة هزلية للعدو :

اذا كان من أخطر الاشياء فى النضال التحررى أن تتملك المناضلين مشاعر الاعجاب بقدرات العدو والانبهار بها فانه لا يقل خطورة عن ذلك ان تشيع لديهم صورة هزلية عن العدو، وذلك أن النتيجة واحدة فى الحالتين وهى الهزيمة أما بسبب اليأس المتولد عن الانبهار بقدرة العدو وأما بسبب الاعتقاد غير

الصحيح ببلاهته . فى مسلسل «فارس بلا جواد» قدم رجال الاحتلال البريطانى الذين يفترض انهم يمثلون نخبة حاكمة فى أمبراطورية كانت تسود العالم فى حينه فى صورة مجموعة من البلهاء الذين يتسلل اليهم ثعلبنا المناضل متنكرا أينما وجدوا ويستدرج كبارهم، مستخدما شابين يرتديان ثيابا نسائية، ويتحاور معهم فى أدق خصائص عملهم، ويعاملهم على نحو لا يخلو من تهريج ذى طابع مسرحى، ويقدم لهم اقتراحات ساذجة للخروج من المآزق التى يتعرضون لها، ويتقمص شخصياتهم فى بعض الاحيان للقيام بعمليات خارقة، ويدفع واحدا من أخطرهم إلى أن يردد فى بلاهة بعض العبارات الهزلية التى تساق عادة فى مجال استحضار الارواح والعفاريت. ولم يكن رجال الاستعمار البريطانى فى مصر بالتأكيد بلهاء، ناهيك عن أن يكونوا على هذه الدرجة من البلاهة، فهم أصحاب امبراطورية أزدهرت فى القرن السابق على أحداث المسلسل واستمرت بعده لحوالى نصف قرن آخر .

امتد ذلك التصور ايضا وإن بشكل مختلف إلى الشخصيات اليهودية فى المسلسل، فقد تمكن صاحبنا دائما من خداعها والايقاع بها مع أن نتيجة مخططاتها معروفة لنا جميعا نعيش تداعياتها المأساوية منذ أكثر من نصف قرن وحتى هذه اللحظة تحديدا . لا يتكلم شارون وأمثاله من القيادات الراهنة للحركة الصهيونية اللكنة التى كان يتكلم بها زعماء اليهود فى المسلسل ولا يلبسون الاردية ذاتها التى كانوا يلبسونها لكنهم - أى شارون وأمثاله - يخططون بعقل بارد لادامة سيطرتهم على فلسطين وهيمنتهم على الأمة العربية ويعملون بدأب على التقوية الدائمة لجيش «دفاعهم» وعلى التعزيز المستمر لعلاقتهم بمراكز القوة العالمية، صحيح أن مشروعهم ينطوى على مفارقة تاريخية تسد سبل المستقبل أمامه، لكن تصويرهم على النحو الذى تضمنه المسلسل من شأنه أن يزيد وعينا بحقيقة الخطر الصهيونى الذى وصل إلى حد القتل الوحشى بدماء باردة للاطفال والنساء والشيوخ والتدمير العشوائى بدماء باردة أيضا لكل مظاهر العمران الفلسطينى .

لسنا بحاجة بكل تأكيد إلى الاعتقاد ببلاهة العدو وانما تمس حاجتنا إلى أن ندرك مدى قوته وأبعاد هذه القوة وطبيعة الخطر الذى يمثله وتداعيات هذا الخطر، وأثر هذا كله على حاضرنا ومستقبلنا لعلنا نهتدى إلى رؤية سليمة للمواجهة . لقد كانت نوايا فارسنا طيبة دون شك لكن المنظور الذى اختار أن يعالج به واحدة من أخطر قضايا الحاضر والمستقبل : النضال من أجل الحرية لم يكن موفقا بكل تأكيد . وما أحوجنا إلى القدرات التمثيلية الفائقة لبطل المسلسل كى توظف فى معالجة صحيحة لقضية الكفاح من أجل الاستقلال سعيا إلى بناء ثقافة متماسكة لتحرر وطنى فى هذه المرحلة العصيبة من مراحل تاريخنا ■



التراث القبطى – الحلقة الواصلة بين التراث المصرى القديم والتراث العربى الإسلامى – جزء أصيل من التاريخ المصرى. وبعد فترة من الإهمال لهذه الحلقة التى تكاد تكون مفقودة من تاريخنا شهدنا حفاوة بها من جانب علماء وباحثين وكتاب مثل ثروت عكاشة ومراد كامل ورءوف حبيب وشفيق فريد ومحمد سيد كيلانى وايزيس حبيب المصرى وجودت جبره وچيل كامل وادريس عبد السيد والأرمنى أبو صالح وعزيز عطية ولبيب حبشى ومرقس سميكة والأمير عمر طوسون وغيرهم. كما وجه وزير التربية والتعليم الحالى، الدكتور حسين كامل بهاء الدين، إلى ضرورة إدراج هذه الحلقة فى المقررات الدراسية لكل طلاب المدارس.
دير القديس سيمون
الذى المبنى بالقرب
من أسوان فى القرن
السابع الميلادى
التراث القبطى
مصر والعائلة المقدسة
حلقة من تاريخ مصر
الدينى والفلسفى والفنى
بقلم
د. ماهر شفيق فريد

وأحدث مظهر من مظاهر الاهتمام بهذا التراث - من جوانبه التاريخية والعقيدية والفنية - سفر جليل باللغة الإنجليزية ، فاخر الطباعة، محلى بالصور الملونة والخرائط ، من ٢٧٢ صفحة صدر عن مطبعة الجامعة الأمريكية في القاهرة (٢٠٠٢) تحت عنوان : «مصر في الحقبة المسيحية : الفن والآثار القبطية عبر ألفيتين»، شارك في تأليفه ماسيمو كاپوانى وأوتومينا ردوس ومارى - هيلين راتشو سكايا وجودت جبره . وما يلي إنما هو عرض لبعض ما جاء في هذا السفر مع إضافات قليلة من جانبي، على سبيل التوضيح، في هذا الموضع أو ذاك.

لمحة تاريخية

كلمة «قبط» مشتقة من الكلمة اليونانية Aigyptios ومعناها : مصرى، فالأقباط هم المصريون مسلمين ومسيحيين. والكنيسة القبطية هي الكنيسة المصرية التي ترجع أصولها إلى عهد حواريي السيد المسيح. فعلى أثر هروب العائلة المقدسة من بيت لحم إلى مصر كان عدد المصريين - فيما يقول القديس لوقا - حاضرين أول يوم من أيام عيد العنصرة الذى تنزّل فيه الروح القدس على المؤمنين في أورشليم. ويدين أوائل من اعتنقوا المسيحية من المصريين بالكثير للفيلسوف اليهودى فيلو الذى كان معاصرا للمسيح وحوارييه وكان أثره في الفكر السكندرى عميقا. وقد هيأ للجالية المسيحية في مصر سبل التوفيق بين عقيدتها المسيحية وخلفيتها الثقافية المصرية.

وقد زار القديس مرقص مدينة الاسكندرية حيث كرّز بالإنجيل، ونصب أنانيا - وكان حذاء - أسقفا للمدينة في مكانه . وقد ضايق ذلك الوثنيين فتربصوا لمرقص وشدوا حبلا حول عنقه وجروه في شوارع الاسكندرية. وفي اليوم التالي استأنفوا جره إلى أن لفظ أنفاسه. وهكذا اعتبره المصريون قديس الاسكندرية وراعيها على نحو ما يعد أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية القديس بطرس قديس روما وراعيها.

كانت السنوات الأول من حياة الكنيسة القبطية سنوات مجد وفاجعة معاً: مجد لأنها أنجبت لاهوتيين ورجال دين عظماء مثل أثناسيوس وكيرلس وآباء الصحراء مثل القديس أنطونيوس والقديس باخوم. وهي فاجعة لما تعرض له الدين الوليد من اضطهادات على أيدى الأباطرة الوثنيين مثل دقلديانوس.

ويسخر المؤخر البريطانى إدوارد جبون - صاحب «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها»، وكان عقلانيا على طريقة ڤولتير ورافضا للإيمان الديني- من عمق الروح الدينية المصرية وعكوفها على العبادة والنسك والزهادة فيقول: «قدمت لنا مصر - وهي مصدر خصب للخرافات - أول مثال على حياة الأديرة»» . ولكن الواقع أن نظام الرهبنة من أكبر إضافات المسيحية المصرية إلى التراث العقيدى العالمي؛ فقد نشأ في صحراء مصر ، وانتشر منها إلى سائر الأقطار. وفي البدء فر أوائل النساك إلى الصحراء من اضطهاد الامبراطور دقلديانوس في منتصف القرن الثالث، وكانوا أحيانا يلوذون بالمقابر المهجورة ويتخذون منها صوامع للخلوة والعبادة، وأبرز هؤلاء النساك هو القديس أنطونيوس الذى جمع حوله طائفة من الرهبان ومهّد بذلك لحياة الرهبنة الجماعية (لفلوبير رواية باكرة عنه عنوانها «تجربة (غواية) القديس أنطونيوس») . وبدأت الأديرة تقوم على حافة الأراضي المزروعة قرب القرى والبلدات، وفي البهنسا وحدها كان ثمة عشرة آلاف راهب واثنتا عشرة ألف راهبة. وامتدت الأديرة على كلا جانبي



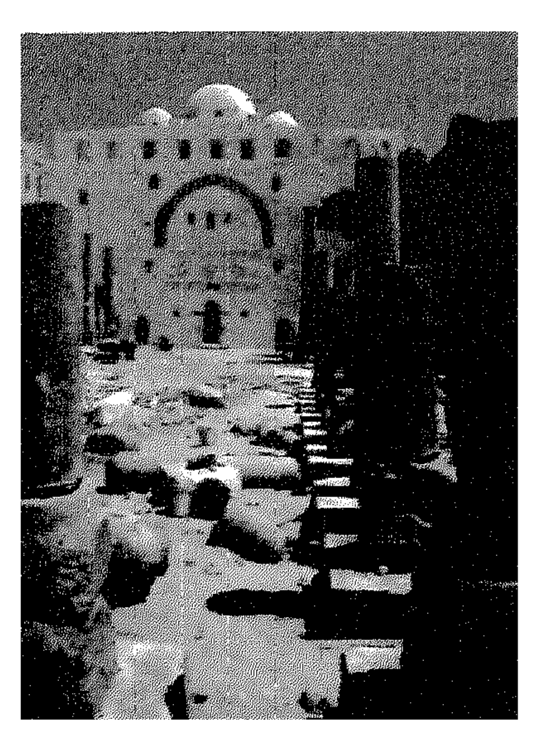
النيل من الفيوم إلى المنيا إلى الأشمونين.

وفى منتصف القرن الخامس لعبت الكنيسة المصرية دورا كبيرا فى المجادلات اللاهوتية بين القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح (المونوفيزيت) والقائلين بأن لاهوته قد انفصل - ولو مؤقتا - عن ناسوته. وقف بطاركة الاسكندرية ولاهوتيوها - وعلى رأسهم القديس كيرلس والقديس ديسقوروس - فى مواجهة القديس ليو، بابا روما، ومن تابعوه من رجال الدين فى القسطنطينية.

وقد كان الفتح العربى لمصر على يدىّ عمرو بن العاص، فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، عام ٦٣٩ م **موضع ترحيب من الأقباط، إذ وجدوا فيه خلاصا من** نير البيزنطيين واستغلالهم للبلاد، ولما أتاحه لهم العرب الفاتحون من حرية العبادة وما أبدوه من تسامح واحترام لدين المسيح. وسرعان ما دخل الآلاف من المصريين فى الإسلام وغدت اللغة العربية هى اللغة السائدة فى مصر على حين اقتصر تعلم اللغة القبطية على أقلية من رجال العلم وسدنة الدين ورجال الكنيسة.

وخلال حكم ابن طولون وخلفائه (٨٦٨ - ٩٠٥) والإخشيديين (٩٣٥ - ٩٦٠) والفاطميين (٩٦٩ - ١١٧١) استمر موروث التسامح الإسلامى مع عقائد المسيحيين وممارستهم لشعائر دينهم، وإن تخللته فترات من الاضطهاد على يدى الحاكم بأمر الله، لكن الطابع العام لحكم الفاطميين هو المشاركة فى الأعياد القبطية، واستخدام الأقباط فى وظائف الحكومة والدواوين، وإدماجهم فى بنية المجتمع الكبير.

وقد شهد القرنان الثالث عشر والرابع عشر صحوة - وإن كانت قصيرة الأمد - للفكر المسيحى فى ميادين اللاهوت والدفاع عن الدين وتاريخ الكنيسة وقوانينها، وكان من أكبر ممثلى هذه



الساحة الرئيسية لكنيسة القديس شنوت فى الدير الأبيض (دير الأنبا شنودة) بأخميم - منتصف القرن الخامس الميلادى

الصحوة رشيد أبو الخير ابن الطيب، القس الطبيب الذى استخدمه الوزير صلاح الدين (١١٩٣ - ١١٩٨). وحمل ثلاثة إخوة من آل العسال مشعل اللاهوت المسيحى.

وإذا كان محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٨) هو مؤسس مصر الحديثة فقد كان البطريرك كيرلس الرابع (١٨٥٤ - ١٨٦١) هو مؤسس الكنيسة القبطية الحديثة، لقد عنى بالتعليم وأنشأ عددا من المدارس - فى حارة السقايين وغيرها - كما عنى بتعليم الفتيات واشترى مطبعة من النمسا قطعت الطريق فى موكب حافل من محطة السكة الحديدية بالقاهرة إلى مقر البطريركية. واهتم كيرلس الرابع أيضا بإعداد دارسى اللاهوت وفرض على رجال الدين نظاما دقيقا وأعاد تنظيم أملاك الكنيسة وإمساك حساباتها.



وقد اتسم الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، وكذلك الجزء الأول من القرن العشرين، باحتدام الصراع بين البطاركة من ناحية والمجلس الملى من ناحية أخرى خاصة فيما يتعلق بمسألة إدارة الأوقاف الكنسية، وكثيراما كانت الحكومة تضطر إلى التدخل لتسوية هذه الخلافات الداخلية عن طريق حلول وسط.

ويشغل منصب البطريرك حاليا قداسة الأنبا شنودة الثالث، واسمه عند الميلاد نظير جيد روفائيل، وهو من مواليد أسيوط فى ٣ أغسطس ١٩٢٣. وقد تلقى دراسته فى المدرسة القبطية بدمنهور، والمدرسة الأمريكية فى بنها، ومدرسة الإيمان القبطية الثانوية فى شبرا. وفى ١٩٤٧ حصل على الليسانس من كلية الآداب بجامعة القاهرة بعد أن تخصص فى دراسة اللغة الإنجليزية والتاريخ. وأدى الخدمة العسكرية ضابطا احتياطيا حيث اشترك فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨. وأعقب ذلك تخرجه فى كلية اللاهوت وتعيينه محاضرا فى مدرسة اللاهوت للرهبان بحلوان. وفى ١٨ يونيه ١٩٥٤ انخرط فى سلك الرهبنة بوادى النطرون وغدا مشرفا على المكتبة. وتحت اسم أبونا أنطونيوس السريانى - اسمه الدينى - نبغ روحيا وعلميا. وفى ١٩٥٩ عينه البابا كيرلس السادس سكرتيرا شخصيا له، ولكنه آثر - بعد فترة - العودة إلى حياة الرهبنة والتوحد، واختار العيش فى كهف على مبعدة عشرة كيلومترات من أحد الأديرة. وفى سبتمبر ١٩٦٢ دعاه البابا إلى مقر البطريركية فى القاهرة حيث اختاره أسقفا لكلية الدراسات اللاهوتية ومدارس الأحد.

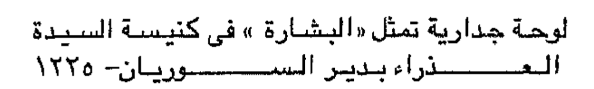
وفى عهد أسقفيته زاد عدد الطلاب دارسى اللاهوت، وسمح للفتيات لأول مرة بالالتحاق بالكلية حيث غدا عدد منهن - فيما بعد - مدرسات بها، وفى ١٩٦٩ انتخب رئيسا لرابطة كلية اللاهوت فى الشرق الأوسط، وبوصفه أسقفا للتعليم شرع فى عقد لقاءاته الأسبوعية مع الشعب المسيحى فكانت تجتذب الآلاف من مختلف الفئات والأعمار، وكان من عادته أن يخصص القسم الأول من كل لقاء للرد على استفسارات الحاضرين فى قضايا اللاهوت والمجتمع. ولكنه ظل مشدودا إلى حياة الرهبنة فكان يقضى نصف الأسبوع فى القاهرة، يحاضر ويعظ، والنصف الآخر فى ديره يصلى ويتأمل، وقد مثل الكنيسة القبطية فى عدة مؤتمرات عالمية، وفى أكتوبر ١٩٧١ انتخب بابا كنيسة الاسكندرية والكرازة المرقصية، وبذلك غدا البابا السابع عشر بعد المائة خلفا للقديس مرقص.

وفى ظل الأنبا شنودة ازدهرت مدارس الأحد، واكتسبت حياة الرهبنة رهبانا وراهبات جددا كثيرين، وحرص على تجنب كل ما من شأنه إثارة المشاعر الطائفية مؤكدا الوحدة الوطنية التى تربط بين المسلمين والمسيحيين، وأيد كفاح الأشقاء الفلسطينيين مؤكدا أن المسيحيين المصريين لن يدخلوا القدس إلا وأيديهم فى أيدى إخوانهم المسلمين.

يتمثل الفن القبطى فى رسوم على الجدران، وتصاوير ملونة على الخشب، وأيقونات، ورقش المخطوطات، والمنسوجات، كما يتمثل فى فن العمارة وبناء الكنائس وتصميم الأديرة والديكور الداخلى للبيت المسيحى.

ونبدأ بالكنائس فنجد أن مصر قد شهدت منذ القرن الرابع الميلادى - بعد أن استتب الانتصار للمسيحية على الوثنية - نشاطا معماريا واسع النطاق غدت الكنيسة معه محور الحياة الدينية، وتراجعت سائر مبانى العصر الهلنستى - الرومانى كالقصور والحمامات والملاعب





لوحة جدارية تمثل «البشارة» فى كنيسة السيدة العذراء بدير السوريان- ١٢٢٥



قاعدة عامود من بقايا إحدى المدن في مصر القبطية

والجمنازيوم إلى مكانة ثانوية .

وتنقسم كنائس مصر القبطية إلى كنائس حضرية وأخرى ديرية ، كما تختلف كنائس ساحل البحر المتوسط والدلتا عن كنائس وادى النيل . ففى وادى النيل يتبع معمار الكنائس موروثا ثقافيا وفنيا ومحليا ، أما كنائس الساحل الشمالي والدلتا - وهى أقرب إلى العالم البيزنطى وثقافته - فتشبه من بعض الوجوه كنائس القسطنطينية .

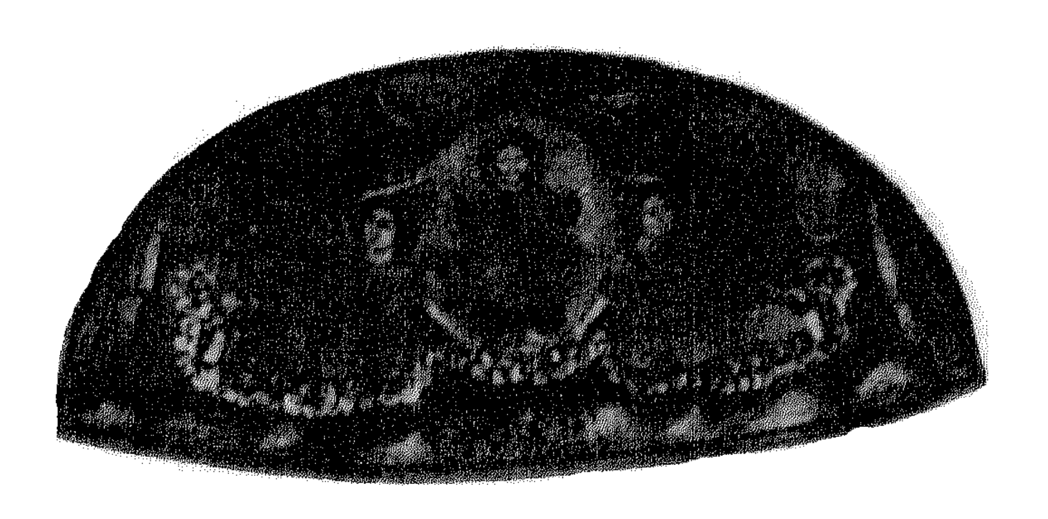
ويغلب على كنائس الأديرة طابع البساطة ، والبعد عن الفخامة الصرحية ، لأن حياة الرهبنة - تعريفا - نقيض الثراء والبهرج ، ولا يجب أن يتشتت انتباه الرهبان عن العبادة بفخامة المعمار ، وإنما يجب - على العكس - أن يكون هذا الأخير رمزا للعالم الروحى ومعوانا على التأمل والزهد .

منطقة الدلتا

اصطلحت أسباب تاريخية واقتصادية متنوعة على اختفاء كثير من الآثار القبطية من منطقة الدلتا اختفاء تدريجيا . وقد أدى استبحار العمران وحياة الحضر إلى هدم عدة مبان دينية ومدنية فخمة لا نكاد نجد لها أثرا إلا فى كتابات المؤرخين والأدباء .

وأهم كنائس الاسكندرية هى : بازيليكا الهوارية (ماريا) ، وكنائس أبو صير ، وبازيليكا مارينا العلمين، وكنيسة تل الفرما ، ودير أبو مينا. وتقع بقايا هذا الدير على بعد حوالى سبعين كيلو مترا جنوب غربى الاسكندرية فى إقليم مريوط . أما الدير فأنشأه فى ١٩٥٩ البطريرك كيرلس السادس وهو يحفظ بعض بقايا القديس الذى سمى الدير باسمه .

كان القديس مينا ينتمى إلى أسرة نبيلة المحتد . وقد ولد حوالى عام ٢٧٥ والأغلب أن يكون مولده فى ليبيا . نشأه أبواه تنشئة مسيحية وعند وفاتهما - حين كان فى سن المراهقة - ورث عنهما ثروة كبيرة وضياعا ولكنه كان مهتما - فى المحل الأول - بالصلاة وقراءة الكتاب



تفصيلة من لوحة جدارية فى كنيسة مارجرجس - مصر القديمة

المقدس . وحين أصدر الإمبراطور دقلديانوس والامبراطور ماكسيميانوس مرسوما يفرض على أهل مصر عبادة الآلهة الوثنية تبرع مينا بما يملك للفقراء ولاذ بالصحراء . وبعد بضع سنوات من العزلة سمع صوتا سماويا يتنبأ له بإكليل الشهادة فقرر أن يمثل أمام الحاكم الرومانى ويجهر أمامه بإيمانه المسيحى . وقد فعل ذلك أمام جمهور كبير فأوقع به الحاكم عذابات بدنية أليمة للرجوع عما قاله وتقديم القرابين لآلهة روما ولكنه أبى أن يتراجع إلى أن احتز رأسه وألقى به فى محرقة لحرق جثث الموتى .

كان ذلك فى عام ٢٩٦ . وما لبث رجل تقى يدعى أثناسيوس أن نقل رفات الشهيد ودفنها بالصحراء حيث أصبح الهيكل الصغير الذى بناه له مزارا للحجاج يقصده كل مريض أو معذب التماسا للشفاء أو للعزاء.

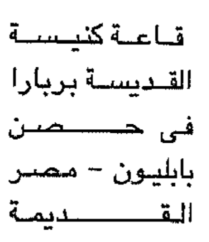


وادى النطرون

يقع وادى النطرون فى منتصف الطريق بين القاهرة والاسكندرية، غربى الطريق الصحراوى، وقد ازدهرت فيه حياة الرهبنة. وأبرز معالمه: دير أبو مقار. والقديس الذى يحمل الدير اسمه ولد حوالى عام ٣٠٠ فى احدى قرى الدلتا، حيث كان أبوه كاهنا، أما الابن فاشتغل فى شبابه جمّالاً كثيرا ما أوغل فى الصحراء ببعيره. وحين بلغ الثلاثين قرّ قراره على اعتزال الحياة الدنيوية، وما لبث أن رسم قساً بعدها بعشر سنوات. وفي البداية أقام فى كهف داخل صخور الصحراء كان يتوافد عليه من سمعوا بقداسته وتقواه، ولكنه عاود عام ٣٦٠ تقريبا العيش فى عزلة بعيدا عن الناس. واضطر - بعد أن شرع الإمبراطور فالنس، وكان من أتباع آريوس صاحب البدعة فى الدين، فى اضطهاد أصحاب العقيدة الأرثوذكسية - إلى أن يغادر قلايته، ثم كتب له أن يعود إليها مرة أخرى. وبها توفى عام ٣٩٠.

كما يضم وادى النطرون دير الأنبا بيشوى (معنى «بيشوى»: العالى) وهو من مواليد الدلتا، تذهب المأثورات إلى أن ملاكا ظهر له، وحثه على أن يذهب إلى الصحراء ويتفرغ للعبادة، وقد كان. ومن مبانى الدير - إلى جانب الجدران والبرج والمطعم - كنيسة القديس بيشوى، وكنيسة أبو اسخيرون، وكنيسة العذراء، وكنيسة مار جرجس، وبئر تدعى بئر القديسين يقال إن البربر غسلوا فيها سيوفهم الملوثة بالدماء بعد أن ذبحوا التسعة والأربعين





قاعة كنيسة القديسة بربارا فى حصن بابليون - مصر القديمة

راهبا الذين كانوا يعيشون فى الدير. ويبلغ عمق البئر اثنى عشر مترا، وماؤها صاف شفاف تنسب إليه القدرة على اجتراح المعجزات.

وهناك دير السريان الذى أنشأه فى القرن السادس الرهبان الأرثوذوكس المنتمون إلى دير الأنبا بيشوى وضم عددا من الرهبان السوريين. وتميز بمكتبته العامرة بالنصوص السورية وبكنوزه الفنية. وفى عهد البطريرك غبريال السابع (١٥٢٦ - ١٥٦٩) علت مكانة الدير. ويقول الرحالة الأوربيون - فرنسيون وألمان وإنجليز - الذين زاروه فى القرن السابع عشر إنه كان يضم كنيستين إحداهما سورية والأخرى قبطية. على أن الحضور السورى أخذ يتراجع تدريجيا إلى أن غدا الدير مصريا خالصا.

ودير البراموس - الذى ربما كان أول دير يبنى فى وادى النطرون - قد وصفه المقريزى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر، كما زاره القنصل الفرنسى كوبان عام ١٦٣٨ وخلف لنا وصفا له. ويعيش فيه اليوم حوالى خمسين راهبا. ومن مبانيه: كنيسة العذراء، ومكان المعمودية (الجرن)، وكنيسة القديس يوحنا المعمدان.

القاهرة وضواحيها

يقع حى مصر القديمة جنوبى العاصمة على الضفة اليمنى للنيل، فى مواجهة جزيرة الروضة. وقد كانت هذه المنطقة مأهولة بالسكان فى زمن الفراعنة تدعى «حزى أها» (مكان المعركة) إذ تذهب الأساطير إلى أنها شهدت الصراع بين الرب حورس والرب ست. وفى الحقبة الإغريقية عرف المكان باسم بابليون وظل محتفظا بهذا الاسم خلال احتلال الرومان لمصر، ولكنه - الاسم - أخذ يختفى تدريجيا بعد الفتح العربى. وثمة كنائس عديدة فى مصر القديمة، داخل حصن بابليون وفى المناطق المحيطة به على السواء.

وحصن بابليون القديم بناه الرومان وزودوه بأبراج للمراقبة، كما كانت تتقاطع بداخله شوارع ضيقة. ويذكر المؤرخ ديودور الصقلى أن تاريخه يرجع إلى القرن التاسع عشر ق.م. عندما هزم الفرعون سيزوستريس - من الأسرة الثانية عشرة - البابليين وحملهم إلى

مصر أسرى ليغدوا أرقاء ولكنهم ثاروا عليه وبنوا لأنفسهم حصونا يدافعون بها عن المنطقة التى أقاموا فيها، ومن ثم حملت اسم بابليون. ويذهب مؤرخ قبطي - هو يوحنا من القرن السابع - إلى أن نبوخذ نصر ملك بابل هو الذى بنى الحصن عندما استولى على مصر فى النصف الثانى من القرن السادس ق.م. أما المؤرخون المحدثون فمتفقون على أن اسم بابليون مشتق من كلمة مصرية قديمة هى Pr- Hapi-n-Iwnw (بيت النيل فى هليوبوليس) وكانت الكلمة تنطق على نحو قريب جدا من نطق كلمة بابليون. ويحتمل أن يكون مقياس للنيل قد أقيم فى هذه البقعة.

وفى منطقة حصن بابليون نجد دير البنات، وكنيسة مارجرجس، وكنيسة أبوسرجة، وكنيسة الست باربارا، ومعبد بن عزرا اليهودى، والكنيسة المعلقة.

وعلى مبعدة كيلو متر تقريبا جنوبى حصن بابليون ثمة حى من أفقر أحياء القاهرة يضم كنيسة السيدة العذراء، ودير تادرس، أما شمالى الحصن فيوجد دير أبى سيفين، قرب جامع عمرو.

ومن كنائس القاهرة الأخرى: كنيسة مارمينا فى فم الخليج، وكنائس حارة زويلة فى حى الخرنفش بالجزء الفاطمى من القاهرة، وكنائس حارة الروم قرب الغورية، وكاتدرائية القديس مرقص بالعباسية، مقر البابا ومثوى رفات القديس.

وبحسب ما تذكر المأثورات كانت رحلة العائلة المقدسة إلى مصر قد ألمتّ بمسطرد والمطرية. وهناك كنيسة للسيدة العذراء فى المعادى، على ضفاف النيل على بعد حوالى عشرة كيلو مترات جنوبى القاهرة، يقال إن العائلة المقدسة لبثت فى مكانها ثم استقلت قاربا إلى الصعيد مبحرة مع النهر. ويضم الركن الجنوبى الغربى من الكنيسة بئرا مقدسة يقال إن ماءها روى عطش العائلة المقدسة وتنسب إليه القدرة على القيام بمعجزات.

تضم سقارة - على بعد حوالى خمسة عشر كيلو مترا جنوبى أهرامات الجيزة، وحوالى ثلاثين كيلو مترا من القاهرة - أكبر جبانة للموتى فى مصر ابتداء بالأسرة الأولى (٣٠٠٠ ق.م.) إلى الحقبة القبطية. كما تضم بقايا دير أبا جرميا الذى بُنى فى القرن السادس ثم هجر ربما فى منتصف القرن التاسع.

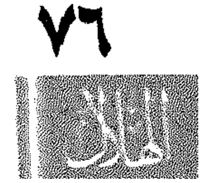
الفيوم منخفض طبيعى كبير فى صحراء مصر الغربية، يمتاز بخصب أرضه، ويقع تحت سطح البحر، ويضم جزؤه الشمالى بحيرة قارون التى يبلغ أقصى عمق لمياهها ثمانية أمتار.

وتضم المنطقة دير الملاك غبريال، ودير مارجرجس، وآثار أهناسيا المدينة، وكنائس أم البريجات، وكنائس مدينة ماضى، ودير الميمون، ودير الأنبا صموئيل.

يقع دير الأنبا انطونيوس ودير الأنبا بولا فى الصحراء الشرقية وهى الشريط الكبير الذى يفصل النيل عن البحر الأحمر، قرب جبل الجلالة القبلية وبجوار خليج السويس.

أما دير الأنبا انطونيوس فيحمل اسم القديس أنطونيوس أبى الرهبنة المصرية الذى كتب سيرته أثناسيوس بطريرك الاسكندرية.

ولد انطونيوس حوالى عام ٢٥٠ فى مصر الوسطى لأسرة ريفية على شىء من اليسار. وقبل أن يبلغ العشرين كان قد قر عزمه على أن يهجر الحياة المريحة التى





منظر عام لأسوار حصن بابليون وكنيسة السيدة العذراء (الكنيسة المعلقة) - مصر القديمة

تنتظره ويتخلى عن أملاكه. وفى البداية لاذ بحافة بلدته، ثم بجبانة مهجورة للموتى حيث أخضع جسده لنظام حديدى صارم وكل أنواع الحرمان. وفى سن الخامسة والثلاثين - إذ رغب فى أن ينسحب إلى مكان أكثر عزلة - استقر فى حصن مهجور بالصحراء يُعرف اليوم باسم دير الميمون، غير بعيد عن الضفة الشرقية للنيل، حيث قضى عشرين عاما من النسك مع بعض حوارييه. ولكن توافد الزوار عليه جعله ينشد مزيدا من العزلة فانضم إلى إحدى قوافل البدو وأوغل فى أعماق الصحراء الشرقية إلى أن ألهمه الله النزول ببقعة منها مكث بها خمسين عاما حتى وفاته فى عام ٣٥٦ عن ١٠٥ أعوام. ولكنه لم يقطع صلته بحوارييه الذين كانوا يزورونه أحيانا أو يزورهم، كما لم يقطع صلته برجال كنيسة الاسكندرية، وأيدّهم بعلمه وتقواه فى حربهم ضد أتباع آريوس، مما زاد مكانته تمكنا فى قلوب المؤمنين.

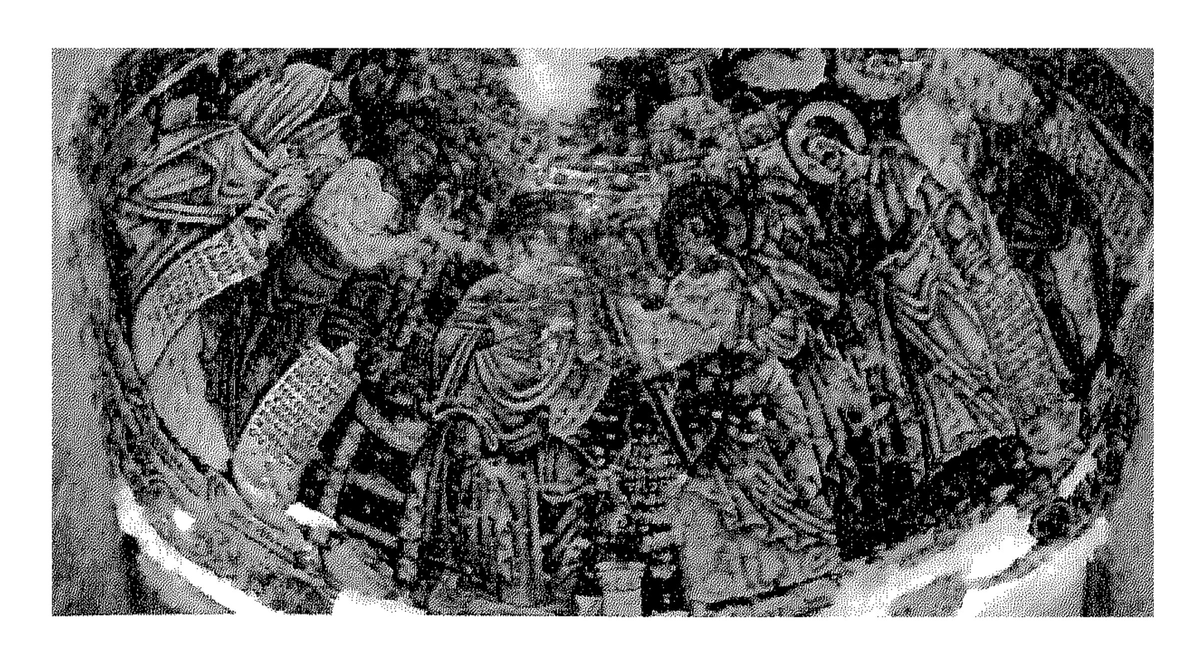
وترجع إقامة دير الأنبا انطونيوس إلى السنوات التى أعقبت وفاته. وقد وضع حجر الأساس له فى عهد الامبراطور يوليانوس المرتدّ (٣٦١ - ٣٦٣). بناه حواريوه عند سفح الجبل الذى قضى فيه آخر سنوات عمره.

أما دير الأنبا بولا فيرجع تاريخه - فيما يحتمل - إلي القرن الخامس ويحمل اسم القديس بولا الطيبى (نسبة إلي طيبة = الأقصر) الذى عاش هناك فى كهف لمدة ثمانين عاما تقريبا. وقد كتب سيرته القديس جيروم فى الفترة ما بين ٣٧٥ - ٣٨٠.

ولد بولا عام ٢٢٨ لأسرة غنية. وفقد أبويه فى سن السادسة عشرة، وقرر - عند ذلك - أن يتخلى عن ميراثه منهما ويكرس نفسه للعبادة. ولكن الاضطهادات المروعة التى أنزلها فالريان وغيره من الأباطرة الرومان بمسيحيى مصر اضطرته إلى الفرار إلى برية الصحراء الشرقية حيث عاش إلى سن المائة والثلاثين. وكان طعامه يقتصر على نصف رغيف يحمله إليه غراب فى كل يوم.

المنيا

تزخر منطقة المنيا - التى قام أثريون انجليز وإيطاليون بالتنقيب عن آثارها فى الفترة ما بين ١٨٩٦ - ١٩٠٧ - بآثار عديدة من مختلف فترات التاريخ المصرى. ومن الآثار القبطية التى تضمها: دير



لوحة جدارية تمثل بشارة الملاك جبريل للسيدة العذراء بميلاد السيد المسيح ، يحيطهما أنبياء البشارة : موسى ، أشعياء ، حزقيل و دانيال - كنيسة السيدة العذراء بدير السوريان - القرنين العاشر والحادى عشر

الجرنوس، وكوم نمرود، وكنيسة مارمينا، ودير أبوفانا الواقع فى الصحراء الشرقية، على حافة سهل خصب وقد كان أبوفانا ابنا لأسرة موسرة فى ممفيس ، اختار حياة الزهد وقضى ثمانية عشر عاما فى قلاية مظلمة، ممتنعا عن تناول أى طعام صنعته أيد بشرية. وقد وهبه الله القدرة على التنبؤ بالمستقبل، وتنبأ بوفاة الامبراطور ثيودوسيوس الأول عام ٣٩٥.

وعلى الضفة الشرقية للنيل توجد أيضا كنيسة دير العذراء، ودير أباهور، ومقابر بنى حسن فى مواجهة أبو قرقاص، وهى أهم جبانة وصلتنا من عصر المملكة الوسطى، فى المنطقة ما بين ممفيس وأسيوط. وتضم تسعا وثلاثين مقبرة دفن فيها النبلاء من عصر الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٣٠ - ١٧٨٥ق. م.)

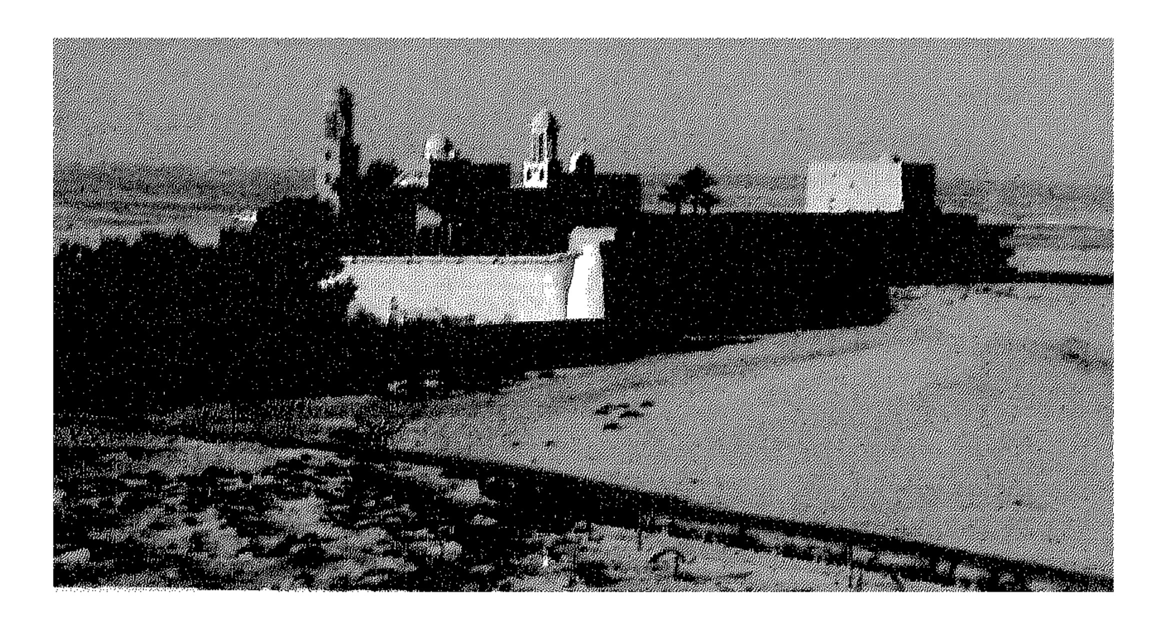
وهناك دير أبوفام وجبانة تل العمارنة التى جعل منها إخناتون (أمينوفيس الرابع) عاصمة لمصر ومقرا لعبادة أتون. وقد هجرت عقب وفاته، وعودة الآلهة القديمة إلى مكان الصدارة ، ولم يبق منها الآن سوى أطلال دارسة.

أسيوط

تضم محافظة أسيوط دير أبو أبولو فى باويط، على الضفة الغربية للنيل، على بعد حوالى خمسة عشر كيلو مترا من ديروط. ويستمد الدير اسمه من الراهب أبولو الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع ، ربما فى الفترة ما بين ٣٨٥ - ٣٩٠ .

وعند بداية القرن العشرين قام علماء آثار فرنسيون بأعمال تنقيب فى أطلال الدير فاكتشفوا كنيستين وبعض مجموعات من المبانى وجزءا من الحيطان. وقد نُقلت زخارف الدير المعمارية والمصورة إلى المتحف القبطى بالقاهرة ومتحف اللوفر بباريس. وفى ١٩٧٦ اكتشف عدد من تصاوير الجدران فى موقع الدير ونُقلت إلى المتحف القبطى.

وهناك دير المحرق، المخصص للسيدة العذراء، ويعتبر أهم أديرة مصر الوسطى والعليا، ويقوم فى المكان الذى تقول المأثورات إن العائلة المقدسة لبثت به ثلاث سنوات وستة أشهر وعشرة أيام إلى أن



دير السوريان بوادى النطرون

ظهر ملاك الرب ليوسف النجار في حلم وقال له : «قم وخذ الصبى وأمه واذهب إلى أرض اسرائيل» (إنجيل متى ٢:٢٠).

وتختلف الآراء فى سبب تسميته بدير المحرق، وربما كان ذلك راجعا إلى جدب المنطقة المحيطة به أو إلى عادة السكان حرق الحقول للتخلص من الأعشاب الضارة.

ومن الكنائس والأديرة الأخرى فى محافظة أسيوط: كنيسة العذراء، وكنيسة الملاك ميخائيل، ودير الأمير تادرس، وكنائس منقباد، ودير العذراء، وكنيسة القديس أثناسيوس فى دير الزاوية.

سوهاج واخميم

من أبرز الآثار القبطية هنا الدير الأبيض والدير الأحمر على بعد كيلو مترات قليلة من سوهاج، على حافة الصحراء. وللدير الأبيض اسم آخر هو دير الأنبا شنودة، كما أن الدير الأحمر يحمل اسم الأنبا بيشوى. ومدينة اخميم، على الضفة الشرقية للنيل، غنية ببقايا العصر القبطى من كنائس وأديرة محصنة مثل دير الأنبا باخوم ودير الأنبا توما ودير الأنبا شنودة الشرقى ودير الملاك ميخائيل ودير الشهداء ودير العذراء. أما جنوبى اخميم فيوجد دير مارجرجس ودير الأنبا بسادة.

طيبة

تضم طيبة (الأقصر) أديرة القديس باخوم المولود لأبوين وثنيين فى الصعيد حوالى ٢٩٢ - ٢٩٤ . وقد انخرط فى سلك جيش الامبراطور ولكن ما رآه من أخلاق المسيحيين العالية حببّه فى ديانتهم فعمدّ واتجه إلى حياة النسك مقتديا بمرشده الأب بالامون. وتقول المرويات إنه سمع صوتا يهتف به : «باخوم: ناضل وامكث فى هذا المكان وابن ديرا، لأن كثيرين سيأتون إليك ليغدوا رهبانا وفى ذلك نفع أرواحهم». وقد استجاب باخوم لهذا النداء ووضع أسس الدير الحالى.

ومن أهم وثائق العصر القبطى التى انحدرت إلينا مخطوطات نجع حمادى التى عثر عليها أحد الفلاحين - ويدعى محمد على السمان - فى ديسمبر ١٩٤٥ عندما اتجه مع إخوته إلى منحدرات الجبل لجمع الروث الذى يستخدم سمادا. ووقع

أحد هذه المخطوطات مصادفة بين يدى مدرس للتاريخ يدعى راغب اندراوس فحمله إلى القاهرة فى أكتوبر ١٩٤٦ وسلمه لتوجو مينا مدير المتحف القبطى. وفي العام التالى اطلعَ على المخطوط عالم الآثار الفرنسي الكبير جان دورس فأدرك على الفور ما له من قيمة علمية . وسرعان ما تسنى الحصول على الاثنى عشر مخطوطا الأخرى، وكان واحد منها قد آل إلى تاجر للآثار بالقاهرة. والمخطوطات الكاملة محفوظة اليوم فى المتحف القبطى، لا ينقصها سوى صفحات قليلة استخدمتها والدة محمد على السمان، للأسف، فى إيقاد النيران.

ومخطوطات نجع حمادى أكمل صورة لدينا لعقيدة الغنوصيين (نحلة العارفين كما يسميها العقاد) وهى حركة ثقافية انتشرت فى الفترة ما بين القرن الأول والقرن الرابع للميلاد وتعبر عن انقشاع أوهام أصحابها ممن يرون أن الألم والمعاناة والمرض والموت - إلى جانب انتصار الشر فى كثير من الحالات - تؤكد الطابع السلبى لهذا العالم الذى نعيش فيه، ومن ثم عدم اتسام صانعه بالكمال. وهذا الصانع - عندهم - كائن شرير. على أن ثمة ربا كاملا رحيما أرسل من لدنه إلى البشر مخلصا يكشف لهم عن وجوده فى علاه. والمعرفة عند الغنوصيين شرط للخلاص، ولكنها ليست متاحة لكل إنسان، فأغلب البشر أبدان بلا أرواح ، مقدر لها أن تموت دون أن تترك وراءها أثرا. وقلّ من الناس الروحانيون الذين يملكون داخل أنفسهم شرارة إلهية تتيح لهم الخلاص.

وتقع مخطوطات نجع حمادى فى ١٢٤٠ صفحة وتتسم مادتها بالتجانس والتكامل مما يثبت أنها بنية واحدة متصلة من الفكر الدينى والفلسفى.

وهناك معبد الإلهة هاتور - ربة السماء والحب، وزوجة الإله الصقر حورس - فى دندرة. وبالقرب منه بقايا كنيسة قبطية كبيرة من منتصف القرن السادس، بنيت بالحجر الرملى الملون على شكل مستطيل طوله ستة وثلاثون مترا، وعرضه ثمانية عشرمترا.

وفى منطقة الأقصر نجد دير نقادة ودير الأنبا بقطر ودير الأنبا باخوم. كما توجد فى معابد الأقصر والكرنك بعض أطلال مبان قبطية.

أما جبانة طيبة - فى مواجهة مدينة الأقصر - فتشهد بأن جماعات من الرهبان سكنوها، إذ توجد مثلا فى بعض مقابر وادى الملوك (مقابر رمسيس الثالث، ورمسيس الرابع، ورمسيس السادس) رسوم ونقوش قبطية. ويحمل معبد رمسيس الرابع صورا للقديس انطونيوس والقديس أمونيوس أسقف إسنا. ومعبد حتشبسوت الشهير (من الأسرة الثامنة عشرة) يحمل فى اللغة العربية اسم «الدير البحرى» مما يوحى بأن المعبد كانت تستخدمه طائفة من الرهبان الأقباط، وهو ما تؤكده الاكتشافات فى منطقة الشرفة (التراس) العليا من المعبد. وتوجد جنوبى المعبد آثار لأديرة أخرى هى دير المدينة ودير القديس أبيفانيوس ودير القديس قرياقص.

الصعيد

تضم منطقة إسنا أطلال كنيسة معبد إسنا. وفى شمال غربى إسنا يوجد دير الفاخورى . وهناك - بالإضافة إلى ذلك - دير الشهداء.

أما منطقة إدفو فتضم دير الأنبا باخوم، وتضم منطقة أسوان دير مارجرجس ودير الأنبا سمعان وكنائس جزيرة فيلة.

الواحات

ثمة آثار قبطية فى الواحات البحرية (أى الشمالية) على بعد ثلاثمائة كيلو متر





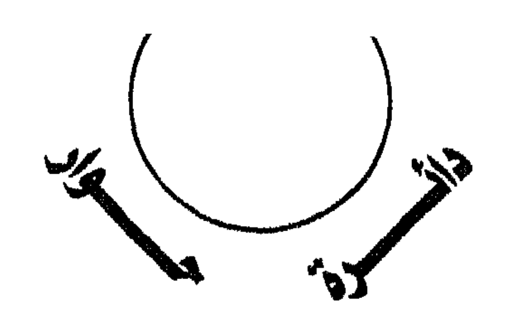
كنيسة القديس بشوى بوادى النطرون

جنوب غربى القاهرة، وفى الداخلة التى تقع على نفس خط عرض مدينة الأقصر، وفى الخارجة على بعد حوالى مائتى كيلو متر من مدينة الأقصر (تضم هذه الأخيرة جبانة البجاوات، وقصر عين مصطفى كاشف، وكنيسة عين شمس الدين).

خاتمة

تقلبت بالتراث القبطى الحظوظ، ما بين ازدهار وانكسار، فى مختلف عصور التاريخ المصرى: عصر البطالمة (٣٣٢ - ٣٠ ق.م.) والرومان (٣٠ ق.م - ٣٣٠م) والبيزنطيين (٣٣٠ - ٦١٩) والغزو الفارسى القصير (٦١٩ - ٦٢٩) والفتح العربى (٦٣٩ - ٦٦١) والأمويين (٦٦١ - ٧٥٠) والعباسيين والطولونيين (٧٥٠ - ٩٦٩) والفاطميين (٩٦٩ - ١١٧٣) والأيوبيين (١١٧٣ - ١٢٥٠) والمماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧) والعثمانيين (١٥١٧ - ١٧٩٨) والحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) وفترة الكفاح الوطنى ضد الغزو الأوربى (١٨٠٢ - ١٨٨١) ومصر تحت الاحتلال البريطانى (١٨٨٢ - ١٩٥٢) وقيام الجمهورية منذ عام ١٩٥٣ حتى يومنا هذا. ولكن مصر القبطية (التى اعتنق غالبية أهلها فيما بعد الإسلام دينا واتخذوا العربية لغة) ظلت محافظة على طابعها القومى وسماتها الخاصة المنحدرة إليها من قدماء المصريين، فالاستمرار - بلا انقطاع - هو أبرز ما يميز الشخصية المصرية عبر القرون.

والتراث القبطى - عقيدة وفلسفة وفنا - جزء أصيل من هذه الشخصية ، عاش قرابة الألفى سنة ومازال حيا فى بعض أعرافنا الاجتماعية وكلمات لغتنا العربية وتقاليد أهالينا فى أعماق الصعيد وفى أجزاء من الدلتا، مما يجعل العكوف على دراسته وإبراز قيمه الفكرية والإبداعية واجبا من ألزم الواجبات وفرض كفاية على كل من تهيأت له سبل البحث فيه من معرفة باللغة القبطية والتاريخ المصرى وعلم الآثار ومباحث الدين المقارن وتاريخ الأفكار، وصناعات النجارة والحدادة والسباكة والطباعة والنسيج، وفنون التصوير والنحت والرقش والترقين والمعمار والموسيقى والأدب. ■



الوجود المسيحى
بالشرق الأدنى والاراضى المقدسة

بقلم
د. رشدى سعيد

تزايد مشاكل الأقليات المسيحية بعد ظهور دولة اسرائيل والتى ناصبتها العداء السافر منذ نشأتها، وقد خططت لإبعادها عن المنطقة بأسرها. فمن جهة كان بينها وبين هذه الأقليات نزاع تاريخى ذى جذور عميقة، ومن جهة أخرى فقد كان مجرد وجودها مانعا من تصوير حربها للاستيلاء على كامل أرض فلسطين على أنها حرب ضد معاقل الارهاب الذى يقوم به المتطرفون ضدها، وعلى أنها تمثل القلعة الأمامية لحماية الحضارة الغربية من جحافل الارهابيين.

هذا مقال أضمنه بعض تأملاتى عن قضية مسيحيى العالم العربى الذى أزعج تراجع أعدادهم وعلى الأخص بالأراضى المقدسة الكثير من المهتمين بشئون هذا العالم ورخائه ومستقبله، وتتعلق هذه القضية فى الأساس بمنطقة الشام الكبرى التى تعتبر ومصر المنطقتين الوحيدتين فى هذا العالم الواسع الذى يوجد بها وجود مسيحى ظاهر له جذوره الممتدة فى التاريخ التى أتاحت له البقاء والنماء لكى يشكل جزءا مهما من المنظر العام لهذا العالم وأن يكون

له أثر كبير فى حياته الروحية والسياسية والثقافية.

أسباب التراجع

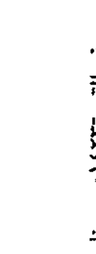
ويتعرض هذا الوجود ومنذ أن أدخل الى المنطقتين نظام الدولة الحديثة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى إلى مصاعب أدت الى تراجع كبير لهذا الوجود والى تناقص اعداده بمعدلات زادت سرعتها فى الفترة الأخيرة زيادة كبيرة . فحتى تاريخ ادخال هذه الأنظمة فى الحكم لمنطقة الشام الكبرى كان أكثر من نصف سكان لبنان كما كان ثلث سكان سوريا من المسيحيين كما كانت هناك مدن بكاملها كبيت لحم والناصرة والقدس وغيرها ذات أغلبية مسيحية ظاهرة - أما اليوم وبعد أكثر من خمسين سنة من دخول أنظمة الحكم الحديثة بمنطقة الشام فقد تناقص هذا الوجود تناقصا ظاهرا حتى درجة الاختفاء الكامل فى بعض هذه المدن.

وكانت منطقة الشرق الأوسط وعلى طول التاريخ واحدة من المناطق التى ظلت وحتى قيام نظام الدولة الحديثة تعج بالسكان من جميع الأجناس والأعراق والديانات فقد كانت بها بالإضافة الى المسحيين على اختلاف مللهم العديد من الأقليات العرقية والدينية التى استطاعت أن تقيم فيما بينها نظاما للإدارة والحكم يسمح لها بالعيش المستقر والآمن فيه قبول للآخر وقدر كبير من التسامح والاحترام المتبادل - وكان هذا النظام مبنيا فى أساسه على نظام الكيانات شبه المستقلة لكل من هذه المجموعات والتى تشابهت ولقدر كبير مع نظام الكانتونات الذى عرفته أوروبا فى العصر الوسيط والتى كان فيها لكل أقلية دينية أو عرقية مكانها الخاص لا تخرج منه الا حسب قواعد تنظم تبادل المصالح وتحكم علاقات حسن الجوار، وقد ظل هذا النظام سائدا لفترة طويلة من التاريخ وقادرا على العيش تحت الظروف القاسية التى تعرضت لها المنطقة نتيجة الغزو الخارجى او المظالم الصارخة التى شهدتها عبر هذا التاريخ.

فى بلاد الشام الكبرى

وحتى ظهور الدولة الحديثة فى بلاد الشام الكبرى مع مطلع القرن العشرين كانت المنطقة بمثابة موزاييك يعج بمختلف الاقليات العرقية التى يعود تاريخها إلى آلاف السنين كالأراميين والكلدان والاشوريين والأكراد والتركمان والأرمن والقبائل العربية التى كان من بينها من كان لا يزال يدين بالمسيحية وكذلك بمختلف الأقليات الدينية كاليهود على اختلاف مللهم والدروز والشيعة والاثنى عشرية وعبدة النار وغيرهم كثير.

ولم تكن منطقة الشام الكبرى فى الحقيقة فريدة فى هذا المجال فقد كان شأنها فى هذا التباين العرقى والدينى



شأن الكثير من البلاد الأخرى فى أوروبا والولايات المتحدة والتى استطاعت ان تخرج من عالم هذه الكيانات الصغيرة الى عالم الدولة الحديثة والجامعة دون أن تخسر تعدديتها وذلك ببناء دولة أسستها لتتسع لجميع هذه الكيانات الصغيرة التى انضمت إليها دون غبن او سيادة كيان على آخر .

الدولة الحديثة والجامعة

ولعل أحسن مثال لمثل هذه الدولة الحديثة والجامعة هو مثال الولايات المتحدة الأمريكية التى استطاع آباء الاستقلال ان يبنوها ليتجمع تحت لوائها جميع الكيانات التى كانت قد استقرت بالقارة الجديدة على أساس دستور يعتبر بحق أحد أهم الوثائق فى هذا المضمار. وشارك فى كتابة هذا الدستور خمسة وخمسون رجلا مثلوا مختلف هذه الكيانات وجاءوا بغرض بناء دولة مركزية لتضمها والتى كان لكل منها مصالحها الخاصة . ولذا فقد حرصوا على أن يأخذ الدستور الجديد فى الإعتبار هذه المصالح وألا يسود كيان فوق آخر وأن يكون الحكم متداولا وغير متوارث وأن يكون التشريع عن طريق ممثليهم وأن تكون هناك سلطة قضائية قوية ومستقلة تكون حكما بين مختلف السلطات .

وعلى الرغم من أنه يصعب وصف واضعى الدستور الامريكى على أنهم كانوا يمثلون أغلبية السكان الا انهم كانوا نخبة منتقاة من أصحاب المصالح الخاصة من تجار الشمال وأصحاب الاقطاعيات الزراعية المستخدمة للعبيد فى الجنوب والذين كانوا على درجة كبيرة من المعرفة بالتاريخ ودروسه وبتطور المجتمعات والفكر السياسى ونظم الحكم عبر التاريخ فقد قرأوا عن نماذج الحكم التى حلم بها فلاسفة الأغريق وبتجارب الحكم أيام الرومان وبالتطورات التى أدخلتها بريطانيا على نظم حكمها منذ الماجنا كارتا وحتى وثيقة الحقوق الاساسية فى سنة ١٦٨٩ كما كانوا على معرفة تامة وتأثر كبير بفكر فلاسفة التنوير فى أوروبا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر من اثناء هيوم ولوك ورسو، وفولتير، وكانت، وهو الفكر الذى كان له اكبر الأثر فى إعمال العقل وفى الخلاص من حكومات الاستبداد . ولعل من اهم النصوص التى جاءت فى الدستور الامريكى ووثيقة الحقوق المكملة والتى ساهمت فى بناء الدولة المركزية الحديثة والمتماسكة هو النص على فصل الدين عن الدولة وعلى تأكيد حرية العبادة وحرية الكلام والتعبير والتجمع ومن طلب تغيير

القوانين ـ وقد كان لهذا النص بالذات أكبر الأثر فى دخول مختلف الكيانات ذات العقائد الدينية المختلفة فى المجتمع الكبير والجديد دون خوف من الاضطهاد او الادماج القسرى فى الكيان الأقوى .

بين الشرق والغرب

وقد نقلت اوروبا عن الولايات المتحدة مبدئى الديمقراطية فى الحكم وفصل الدين عن الدولة عندما بدأت فى انشاء دولها الحديثة والجامعة ونجحت فى بناء هذه الدول عندما طبقتها وفشلت عندما اوقفت تطبيقها .

أما فى عالم الشرق الأدنى فقد نشأت دوله الحديثة عن طريق دمج الكيانات العرقية والدينية القائمة داخل دول رسمت حدودها وفرض عليها حكامها بواسطة قوى أجنبية ودون أى اعتبار للأسس التى يمكن ان تصون لهذه الكيانات هويتها . ولم يحدث اى تغيير للأفضل بعد أن استقلت هذه البلاد بل وعلى العكس من ذلك فقد راح منها القليل من مقومات الدولة القومية الجامعة لمختلف الأعراق والديانات مما كانت قد ادخلته القوى الأجنبية المسيطرة عندما رسمت حدود هذه الدول ـ فبعد وقت قليل من حصولها على الاستقلال فإنها لم تأخذ طريق الديمقراطية أو بفكرة فصل الدين عن الدولة على الرغم من كثرة ما قيل عن محاسنها الا ان التطبيق الفعلى كان مناقضا للشعارات التى رفعت بشأنهما .

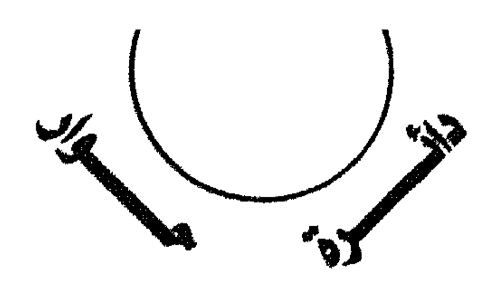
ولابد من التنويه هنا بأن فشل الدولة الحديثة فى الشرق الأدنى فى تطبيق الديمقراطية او فى الفصل بين الدين والدولة كان وبالا على الجميع وخسارة على المجتمع كله فقد تأخرت هذه الدول فى سلم التقدم الاقتصادى والاجتماعى وفى الاستفادة من طاقات أبنائها أو امكاناتها وتأثرت بالتالى حياة جميع ابنائها يتساوى فى ذلك من انتمى معهم الى الأكثرية الغالبة أو إلى الأقليات على اختلافها. ■

كلمات عاشت

ليس في حياة الأفراد ، ولا في حياة الشعوب خطأ لا يمكن إصلاحه ، فالرجوع الي الصواب يمحوا جميع الأخطاء
غاندي

يا جاهل العلم تعلم العلم ، فإن قلباً ليس فيه شوق للعلم ، كالبيت الخراب الذي لا عامر له

أبوذر الغفاري



خرافة التقدم والتأخر

بقلم
د. جلال أمين

لكل عصر خرافاته وأساطيره ومن خرافات العصر الحديث فكرة التقدم (Progress) أي الاعتقاد بأن التاريخ الإنسانى تاريخ تقدم متصل من الأسوأ إلى الأفضل وكأننا نرتقى درجات سلم، كل درجة أعلى وأفضل مما قبلها إذا كان الأمر كذلك فالحاضر لابد أن يكون أفضل من الماضى والمستقبل أفضل منهما جميعا.

إنى لا أقصد باعتناق فكرة التقدم مجرد الاعتقاد بأن الإنسان يحقق تقدما فى أشياء معينة بل الاعتقاد بأنه يحقق تقدما بوجه عام وفى حياته كلها مأخوذة ككل والتفضيل العام للحاضر علي الماضى وللمستقبل على الحاضر ليس فى هذا الشئ بعينه أو ذاك بل بصفة عامة أى الاعتقاد أن الإنسان لا يطرأ عليه فقط مع مرور الوقت التغير المستمر (والتغير قد يشمل التحسن فى أشياء والتدهور فى أشياء أخرى) بل أنه يتحسن باستمرار.

إني أزعم أن هذا الاعتقاد في فكرة التقدم هو اعتقاد شائع يكاد أن يكون في الهواء الذي نتنفسه يتسرب إلينا دون أن نشعر مع المقررات المدرسية ونحن صغار ونتجرعه من الكتب ووسائل الإعلام ومن الخطب السياسية عن خطط المستقبل ومعدلات التنمية والاستثمار.. إلخ

التاريخ نقسمه إلي قديم ووسيط وحديث والحديث هو بالطبع (هذا هو المفهوم دائما) أفضلها جميعا والنظم السياسية نقسمها إلي تقليدي Tradi-tional أي قديم وعصري (modern) أو حديث والانتقال من هذا إلي ذاك هو انتقال محمود بالطبع، ومطلوب أن لم يكن حدث بعد والتطور الاقتصادي يقسم إلي مراحل منها أيضا مرحلة الاقتصاد «التقليدي» ثم يعقبها التمهيد للانطلاق ثم الانطلاق وبعد هذا يحدث «النضوج» الذي لا يكتمل إلا بالوصول إلي نمط الحياة

الأمريكية الحالي، الذي هو أفضل مراحل التطور الاقتصادي طرا. صحيح أن هناك من قال مؤخرا وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية، «بنهاية التاريخ» وكأن الإنسان لن يكون له مستقبل ولكن الاسم الذي أعطي لهذا الكتاب لا يفصح بالضبط عن قصد المؤلف (فوكوياما) فهو لا يقصد بالمرة دحض فكرة التقدم بل العكس بالضبط يقصد أن الإنسان قد وصل أخيرا إلي الحكمة المتمثلة في إدراك أن النظام الاقتصادي والسياسي الأمثل هو نظام الحرية الاقتصادية والليبرالية السياسية المطبق حاليا في الولايات المتحدة ولايزال المستقبل يعد بمزيد من التحسن ولكن ليس في مجال الأيديولوجيات واختيار النظام الاقتصادي أو السياسي فقد وصلنا بالفعل إلي الكمال في هذا الصدد ولكن في أشياء أخري.

هل هناك وصف يمكن أن تصف به شخصا أو شيئا أفضل من وصفه بأنه عصري أو مودرن modern؟ وهل هناك وصف يمكن أن تطلقه أسوأ من وصف «رجعي» أو لايجاري العصر أو «متخلف عنه» أو «معاد لتيار التاريخ» أو أنه من «مخلفات الماضي»؟

صخب استقبال القرن الجديد

ثم ما هذا الاحتفاء البالغ بدخولنا قرنا جديدا وكل هذا الصخب الذي نستقبل به هذا القرن الحادي والعشرين؟ إن السياسيين لا يجدون شيئا يثيرون به الحماسة للعمل والاصلاح أفضل من قولهم بضرورة تأهيل أنفسنا لاستقبال القرن الجديد وأننا إن لم نفعل هذا أو ذاك فسنعود أدراجنا إلي القرن التاسع عشر أو حتي إلي العصور الوسطي بينما يدخل غيرنا القرن الحادي والعشرين بجدارة واستحقاق!

لا شك أن للإيمان بفكرة التقدم علاقة وثيقة أيضا بموقفنا من الأطفال حيث نكاد نظن أنهم لابد أن يصبحوا أفضل منا، وننظر إليهم باعجاب عندما نراهم يتعاملون مع أجهزة الكمبيوتر بمهارة تفوق مهارتنا ويتقنون استخدام أجهزة الموسيقي الحديثة أو يميزون بين الأنواع المختلفة من السيارات ويعرفون علي الفور فيم يختلف أحدث طراز عن سابقه، بينما نظهر نحن جهلا فاضحا بهذا كله والأطفال يعاملون كبار السن كما يعامل الجميع الماضي وبينما كان كبار السن يحظون في عصور سابقة بكل أنواع الاحترام والتبجيل ويتوقعون من الأطفال وصغار السن أن يلتزموا غاية الأدب في معاملتهم انعكس الأمر الآن وأصبح الأدب واللطف كله شيئا مطلوبا ومحمودا في معاملة الأطفال ولا يهم كثيرا في معاملة الكبار.

بل حتي في تقييم الفنون والآداب وهي التي يفترض أنها لا تخضع لما يخضع له العلم من تقييم موضوعي والمقارنة بين المتخلف والمتقدم نجد أن من أقوي عبارات الثناء التي يمكن أن تقال في وصف لوحة رسم قديمة أو إناء من الفخار صنع منذ قرون سحيقة أو قصيدة شعر قالها شاعر قديم، أن نقول إن هذا أو ذاك يبدو عصريا بدرجة مدهشة! أي أنه يقترب من نمط رسومنا وفنوننا الحالية بدرجة تدعو إلي الاعجاب حقا!، أو أن يقال في مدح هذا العمل الفني أو ذاك بأنه كان «يمهد بدرجة مدهشة لما حدث بعد ذلك من تطور» أو أنه



كان «سابقا لعصره»!.

لا شك في أن مثل هذا التقديس للمستقبل والتسليم الأعمي بفكرة التقدم لا نجدهما بنفس الدرجة بل وقد لا نجده علي الاطلاق لدي الكثيرين من البسطاء بسطاء التعليم وبسطاء الدخل وهي ظاهرة لا تدل بالمرة علي أن هؤلاء هم بالضرورة: بسطاء أيضا في الحكمة أو أنهم أقل إدراكا لحقيقة الأشياء كل ما هناك هو أن هؤلاء لم يتعرضوا كما تعرض غيرهم لهذه الجرعات القوية من عقيدة التقدم وتقديس المستقبل واحتقار كل ما هو قديم، بسبب قلة حظهم من التعليم وضعف قدرتهم علي متابعة وسائل الاعلام والثقافة الحديثة إني لا أدافع بالطبع عن الأمية أو عن انخفاض مستوي التعليم ولكن أريد فقط أن ألفت النظر إلي ما ينطوي عليه التعليم الحديث من بعض الأفكار المسبقة ومن المسلمات والعقائد التي تغرس في أذهان التلاميذ وكأنها حقائق دون أن تكون بالضرورة كذلك ومن بين هذه الأفكار المسبقة ومما يؤخذ كمسلمات وهي مشكوك في صحتها هذا الاعتقاد بفكرة التقدم.

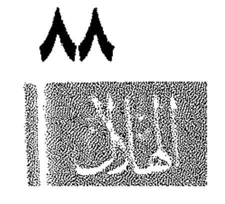
الإيمان بالتقدم ظاهرة حديثة

هذه الفكرة، فكرة التقدم، الراسخة الآن في أعماقنا قد يدهشنا أن يلفت أحد نظرنا إلي أنها ليست من الأفكار الموغلة في القدم ولا هي بالفكرة البديهية التي يدركها الإنسان بالفطرة أو بالقليل من التأمل أو باتباع قواعد المنطق السليم.

أما أنها فكرة حديثة نسبيا فيتضح من أننا لا نكاد نعثر لها علي أثر قبل خمسة قرون فقط أي قبل ما يسمي بعصر النهضة الأوروبي (بل إن اطلاق هذا الوصف غير المحايد أي «عصر النهضة» علي ذلك العصر دون غيره قد يرجع إلي حد كبير إلي اعتناق هذه الفكرة نفسها: فكرة التقدم) ولكن وصف ذلك العصر بأنه كان عصر نهضة هو علي أي حال وصف أحدث كثيرا من ذلك العصر نفسه من الاستثناءات القليلة التي تنطوي علي الاعتقاد بفكرة التقدم قبل قدوم عصر النهضة الأوروبي قصة حي بن يقظان لابن طفيل، التي كتبت في القرن الثاني عشر الميلادي ولكن حتي قصة حي بن يقظان قد تفهم علي أنها تتضمن القول بالتقدم في أشياء دون أخري ولا يقصد بها القول بالتقدم الإنساني بصفة عامة.

لم تكن فكرة التقدم من الأفكار المسلم بها عند اليونانيين القدماء الذين كانوا أكثر ميلا إلي النظر إلي التاريخ كدورات من الصعود والهبوط وليس كخط صاعد وإنما إلي أعلي أو كسلم كل درجة منه أعلي وأرقي من سابقتها.

والفكر المسيحي الذي ساد في أوروبا في العصور الوسطي كان أقرب إلي النظر إلي التاريخ الإنساني علي أنه مسيرة انحطاط مستمر منه إلي اعتباره مسيرة تقدم مطرد. وابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي كان أقرب إلي موقف مفكري اليونان من حيث النظر إلي التاريخ كتطور دائري، نقطة النهاية فيه هي نفس نقطة البداية، منه إلي فكرة الصعود المستمر إلي أعلي، فكان هو



والفلاسفة اليونانيون أكثر ميلا إلي تشبيه التاريخ الإنساني بتاريخ الشخص الواحد إذ يولد وينمو وينضج ثم يضعف ويذوي مقتربا من الموت، ثم يولد غيره وينمو وينضج ولكنه ليس بالضرورة أفضل من سابقه ومصيره هو بدوره الموت.

فكرة التقدم ليست بديهية

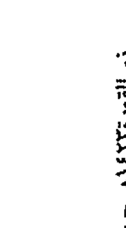
وأما أن فكرة التقدم المستمر ليست بالبديهية التي يؤدي إليها أي تأمل بسيط أو الادراك الفطري فيؤيده إن هذا التأمل البسيط والملاحظة المحايدة لما يجري أمام أعيننا من تطورات يقدمان حججا لصالح عكس هذه الفكرة بالضبط. ففضلا عما ذكرته حالا عن تاريخ الإنسان الواحد من الميلاد حتي الموت حيث يعقب النمو والنضوج تراجع وذبول وهو ما قد يعتبر مؤشرا لما يحدث لتطور الإنسان ككل هناك أيضا ما نلاحظه من أمثلة عديدة علي أن تقدم الإنسان، سواء في ذلك الشخص الواحد أو الإنسانية ككل في شئ بعينه كثيرا ما يصحبه تدهور في شئ أو أشياء أخري. إن الطفل قد يكون أقوي في مخيلته أو في قدرته علي تصور ما لا يمكن أن يحدث في الواقع من الرجل أو المرأة الأكبر سنا، ونمو قدرته العقلية ومعلوماته قد يكون علي حساب قدرته علي التخيل.

ومن المعترف به أن قدرة الإنسان علي حل المشكلات الرياضية المعقدة تبلغ أقصاها في سن مبكرة نسبيا قد لا تتجاوز سن العشرين ولكن قدراته العقلية الأخري قد تستمر في النمو بعد ذلك مع ميل هذه القدرة بالذات علي حل المشكلات الرياضية إلي التضاؤل وهناك من الدلائل أيضا ما يشير إلي أن مرور الطفل بسنوات من التعليم المدرسي قد يقوي بعض ملكاته علي حساب ملكات أخري وكل هذه الأمثلة تبدو معقولة تماما ومنطقية فالإنسان علي أي حال كائن ذو قدرات محدودة ومن ثم يصعب أن نتصور أن إحرازه لتقدم في جانب معين لا يكون علي حساب جوانب أخري فإذا كان هذا هو ما نلاحظه ويجب أن نتوقعه في الشخص الواحد فلماذا لا يصح فيما يتعلق بتطور الإنسانية ككل؟

رحلة عبر الزمن

سوف أستأذن القارئ الآن في أن يصحبني في رحلة قصيرة نحاول فيها أن نتخيل ما يمكن أن يدور بذهن رجل عربي كان يعيش في مدينة بغداد في القرن التاسع أو العاشر الميلادي حينما كانت هذه المدينة مزدهرة ماديا وثقافيا إذا قدر له أن يولد من جديد في عصرنا الحالي، وراح يطوف بشوارع مدينة أوروبية أو أمريكية حديثة ويلاحظ نمط الحياة فيها ويقارنه بنمط الحياة الذي كان سائدا في بغداد منذ نحو عشرة قرون إن من المشكوك فيه جدا أن مثل هذا الرجل سوف يحكم علي كل شئ يراه في المدينة الحديثة حكما إيجابيا بالمقارنة بما عهده في مدينته العربية القديمة.

إنه علي الأرجح سوف يحكم حكما إيجابيا علي حالة الشوارع والطرق، من حيث استوائها وسهولة السير فيها ولكنه لن يكون من السهل عليه أن يفهم ولا حتي أن يقبل إذا فهم ذلك الشئ المصنوع من كتلة معدنية ويسير علي أربع عجلات مطاطية والمسمى بالسيارة إذ يجلس في هذه السيارة الفارهة في كثير من الأحيان شخص واحد وراء عجلة القيادة بينما



تتسع لأربعة أو خمسة ولا تكاد تتقدم من فرط ازدحام الشارع الضيق بعشرات السيارات في وقت واحد وقد يدهشه أيضا أن يري صاحب السيارة وهو يمسح بيده علي سيارته برقة بالغة وحنان شديد يفوقان ما يبديه من رقة وحنان لزوجته وأطفاله قد يعجب هذا الشخص القادم من القرن التاسع أو العاشر بنظافة ودقة صناعة البيوت المصفوفة في الشارع الأوروبي أو الأمريكي لكنه قد يدهش لتماثلها الشديد الباعث علي الملل أو قد يدهشه ألا يري أطفالا تلعب في الحديقة الجميلة المحيطة بكل بيت بل وقد تمر به أيام وأسابيع دون أن يري شخصا واحدا يجلس في هذه الحديقة الجميلة وقد يتعجب أشد العجب عندما يقال له أن السبب في هذا الانخفاض في الكثافة السكانية أن الناس هنا يفضلون حيازة سلع أكثر علي أن يكون لهم عدد أكبر من الأطفال قد يدهش هذا الرجل أيضا منظر شخص يجري في الشوارع بخطوات سريعة منتظمة، وقد وضع علي أذنيه سماعتين يسمع من خلالها الموسيقي المسجلة أو نشرات الأخبار، حرصا علي عدم ضياع الوقت وهو حرص قد يمنع من الوقوف لتحية جاره إذا رآه أثناء جدية علي هذا النحو.

دهشة العصرية

كما قد يدهش الرجل العربي القادم من ذلك العصر السحيق أن يلاحظ الطريقة الحديثة في كتابة الخطابات حيث يذهب من يريد كتابة خطاب إلي محل متخصص في هذه الأمور فيجد بطاقات من الورق المقوي مقسمة إلي أنواع كثيرة علي حسب ما إذا كان المطلوب خطاب تهنئة توجه إلي زوج أو زوجة ابن أو بنت، جد أو جدة فلكل من هؤلاء بطاقة تناسبه ولكل سن أيضا ما يلائمها وكل ما علي مرسل الخطاب أن يفعله هو أن يختار البطاقة الملائمة فيجد الكلام جاهزا ومطبوعا عليها لا يحتاج إلا إلي طابع بريد لإرساله.

قد يدهش هذا الرجل أيضا أن يري الناس في أيام الأحد وهم يحملون شيئا يسمي الصحيفة الأسبوعية ويكاد البعض أن ينوء بحملها من فرط ضخامتها ويقال له أنها تحمل للناس أخبار العالم في الأسبوع السابق فإذا بأغلب صفحاتها يخصص لاعلانات عن سلع تستخدم في ترويجها صور النساء الحسان ولابد أنه سيدهش أكثر إذا عرف أن كل عدد من هذه الأعداد الأسبوعية قد ضحي من أجله بكمية ضخمة من أشجار الغابات تشغل عدة أفدنة قطعت وحولت إلي ورق لإصدار هذه الجريدة.

فإذا دعي هذا الزائر الآتي من عصر سحيق لمشاهدة مباراة رياضية في التنس مثلا، قد تدهشه تلك العادة الغريبة التي يرتدي لها الناس زيا معينا ويعطي الفائز فيها جائزة قد تتجاوز المليون جنيه أو دولار، وقد وصلت قيمة هذه الجائزة إلي هذا المبلغ المدهش ليس بسبب كفاءة أو مهارة منقطعة النظير، بل لمجرد كثرة عدد مشاهدي المباراة علي شاشة التليفزيون ذلك أن المطلوب من المتبارين لا يزيد علي ضرب كرة صغيرة لنقلها من مربع رسم علي الأرض إلي مربع مجاور فإذا قيل له من باب الشرح والتوضيح أن هذا النشاط العضلي ضروري للمحافظة علي الصحة



بعد ساعات طويلة كل يوم لا يقوم فيها معظم الناس بأي نشاط جسماني (كأن يقضوها مثلا جالسين في سياراتهم) تساءل هذا الزائر في داخل نفسه لماذا إذن كانت كل هذه الأموال التي تنفق لتجنب الناس أي تعب جسماني كالاستعاضة مثلا عن المشي بالسيارة أو عن المكنسة اليدوية بالمكنسة الكهربائية أو عن الغسيل باليد بالغسالة الأتوماتيكية.. إلخ؟

فإذا دعي الرجل إلي وليمة ورأي الملعقة والشوكة والسكين التي يعتبر استخدامه سمة من سمات التحضر والتقدم فقد يتساءل عن ضرورتها فإذا قيل له إنها تمنع من اتساخ اليد إذا استخدمت اليد المجردة في تناول الطعام قال: ولكن الملعقة والشوكة والسكين هي نفسها سوف تتسخ؟ فإذا قيل له إن من الممكن غسل هذه الأشياء بعد تناول الطعام قال: إن اليد أيضا يمكن غسلها بعد تناول الطعام وقبله؟

لابد أن هذا الزائر الغريب سوف يشاهد أشياء كثيرة مثيرة للاعجاب والتقدير. سوف يسره مثلا كثرة عدد قارئي الكتب والمجلات في وسائل المواصلات العامة مما يستشف منه انتشار معرفة القراءة والكتابة والحساب وإن كان اكتشافه لموضوعات الكتب والمقالات التي يقرأها معظمهم قد لا يسره بالضرورة وسوف يسره أن يسمع عن التقدم الذي أحرزه هذا المجتمع الحديث في الكشف عن أسباب عدد كبير من الأمراض ومن ثم نجاحه في إطالة عمر الإنسان وإن كان لن يسره أن يعرف حجم الانفاق السنوي علي الأدوية غير الضرورية وعدد الأدوية التي تكتشف في كل عام خطورتها ومن ثم يحظر تداولها وأن يسمع عن زيادة سيطرة دافع الربح علي سلوك عدد من الأطباء يزيد كل عام عما كان في العام السابق وربما أثارت إعجابه القدرة التكنولوجية والعلمية التي تكمن وراء اختراع جهاز التليفزيون، وإن كان من الممكن أن يتساءل عما جعل انتشار استخدام هذا الجهاز بهذه الدرجة ضروريا إلي هذا الحد.

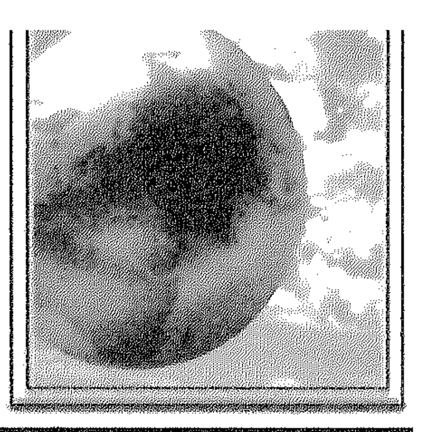
فكرة التقدم والتأخر

سيعود الرجل من رحلته وفي ذهنه أفكار كثيرة عن التقدم والتأخر فقد رأى أمثلة كثيرة لهذا وذاك ولا أظن أن من الممكن أن يخطر بباله قط، كما نظن الآن أن من المسلم به ومما لا يمكن أن يتطرق إليه الشك أن هذه الدولة التي قام بزيارتها لتوه أكثر تقدما بصفة عامة من تلك التي كان يعيش فيها منذ ألف سنة أو أكثر.

إذا كان الأمر كذلك، فمن أين تسربت إلينا إذن هذه الفكرة: فكرة التقدم والتأخر، فتشربت بها عقولنا إلي هذه الدرجة ولم يعد يخامرنا أدني شك في أنهم متقدمون ونحن متأخرون ليس في هذا الشئ أو في ذلك الميدان بعينه ولكن بصفة عامة حتي بدأنا نتساءل خفية أو صراحة عما إذا كان فينا عيب متأصل أو نقائص تمنعنا أصلا من التقدم مثلهم عيوب أو نقائص تعود إما إلي لون البشرة أو نوع الجينات أو طبيعة اللغة أو العقيدة الدينية أو المناخ وحتميات الجغرافيا، أو أشياء سخيفة حدثت في التاريخ نتيجة لتفاعل كل هذه العوامل مجتمعة؟

كيف تسربت إلي عقولنا هذه الخرافة خرافة التقدم والتأخر؟

الإجابة علي هذا السؤال قد تحتاج إلي مقال آخر. ■



ماذا يحدث غداً ؟!

جزء خاص

الدراسات المستقبلية

فى خطر!

بقلم

د. ابراهيم العيسوى

إن الغاية النهائية من دراسة المستقبل هى التأثير فى صناعته، حتى يأتى موافقا لمصالحنا، مواتيا لما نريده لنا وللأجيال القادمة، ولو بقدر. فلاشك فى أن حرية البشر فى صناعة مستقبلهم ليست مطلقة، حيث تتداخل محددات تاريخية وموضوعية، داخلية وخارجية، متعددة فى تشكيل صورة المستقبل. ومع ذلك، فخير لنا أن نبادر بالمشاركة فى صنع مستقبلنا، بدلا من أن نتركه للمصادفات أو لأطماع الآخرين. فعندما لا تبادر أمة ما إلى صنع مستقبلها، ينشأ فراغ. ومن طبيعة الأشياء أن يسارع الآخرون إلى ملء هذا الفراغ. ومن ثم فإنهم سيصنعون لتلك الأمة مستقبلها، ولكن على هواهم - لا على هوى أهلها، وحسب ما تقضى به مصالحهم - لا وفق مصالح شعبها.

أستاذ الاقتصاد بمعهد التخطيط القومى والباحث الرئيسى لمشروع «مصر ٢٠٢٠» بمنتدى العالم الثالث - مكتب الشرق الأوسط بالقاهرة

والخطوة الأولى نحو المشاركة الإيجابية فى صناعة المستقبل هى الانغماس فى دراسة مستقبلية جادة. فمثل هذه الدراسة هى البوصلة التى نهتدى بها فى التعرف على الطريق إلى المستقبل الذى نريده. ذلك أن الدراسة المستقبلية توفر لنا إطارا زمنيا طويل المدى لما قد نتخذه اليوم من قرارات، بحيث تأتى هذه القرارات، وما سيتبعها من تداعيات عبر الزمن، منسجمة مع صورة المستقبل المرغوب فيه من جانبنا.

أضف إلى ذلك أن للدراسات المستقبلية فوائد أخرى مهمة. منها أنها تساعدنا على اكتشاف المشكلات قبل وقوعها. ومن ثم التهيؤ لمواجهتها، أو حتى قطع الطريق عليها والحيلولة دون وقوعها. ومن ثم فالدراسات المستقبلية يمكن أن تؤدى وظيفة الانذار المبكر، ومن ثم الاستعداد المبكر للمستقبل، والتأهل للتحكم فيه بدرجة أو بأخرى. ومنها أن الدراسات المستقبلية تعيننا على إعادة اكتشاف أنفسنا ومواردنا وطاقاتنا، وبخاصة ما هو كامن منها، والذى يمكن أن يتحول بفضل العلم إلى موارد وطاقات فعلية. وهذا بدوره يساعدنا فى التعرف على مسارات جديدة لتحقيق ما نبتغيه من تنمية شاملة سريعة ومطردة. ومن خلال إعادة اكتشاف الذات يسترد القوم ثقتهم بأنفسهم ويستجمعون قواهم لمواجهة ما يطرحه المستقبل من تحديات.

ومن الفوائد العظيمة للدراسات المستقبلية - وهو ما يركز عليه مشروع مصر ٢٠٢٠ - أنها تمثل أداة مهمة لبلورة الاختيارات الممكنة والمتاحة للمجتمع، ولترشيد عملية المفاضلة بينها، وذلك بإخضاع كل اختيار منها للدرس والفحص، واستطلاع ما يمكن أن يؤدى إليه من تداعيات، وما يسفر عنه من نتائج، وما ينطوى عليه من تكاليف أو تضحيات. ومؤدى ذلك أن تتوافر قاعدة معرفية رصينة حول البدائل المستقبلية، يمكن للناس أن يستعينوا بها فى تحديد اختياراتهم السياسية والاجتماعيةوالاقتصادية، ولاشك فى أن هذا أفضل مما يحصل عادة، حيث تتحدد هذه الخيارات من خلال مجادلات أيديولوجية ومنازعات سياسية يختلط فيها الذاتى بالموضوعى، ولا يسهل التمييز فيها بين الأسباب والنتائج.

الوضع الراهن

وواقع الحال فى مصر والدول

العربية الأخرى، أن النهوض بواجبات البحث فى المستقبل لم يزل من قبيل الفريضة الغائبة. ولم تزل الدراسات المستقبلية كاليتيم على مائدة البحث العلمى عندنا، حظها قليل من التفكير وحظها أقل من التمويل. ولذا تندر البحوث المستقبلية عندنا ندرة شديدة، ويفصل بين الواحد منها والآخر سنوات طوال تكون قد استجدت خلالها أحداث جسام. بل وكثيرا ما يتعذر إتمام البحوث المستقبلية الكبيرة عندنا على النحو الذى يجرى التخطيط له عند البدء فيها، وذلك بفعل صعوبات إدارية ومالية تعكس ضمن ما تعكس الوضع المتدنى للبحوث المستقبلية على سلم أولوياتنا.

ولا يهون من ذلك وجود عدد من المراكز فى الجامعات ، وكذا المراكز الخاصة، التى تحمل لافتات مستقبلية. فالكثير منها معطل لا نشاط له. والقليل الذى ينشط منها بزاول أنشطة قد لا تمت للمستقبل بصلة، وذلك جلبا للموارد وتأمينا لاستمرارية هذه المراكز. والأقل منها وهو الذى يسعى مخلصا للحفاظ على نسبه للمستقبليات لم يزل يحوم حول مجال البحث المستقبلى دون أن يقتحمه ويتعمق فى مناهجه ويمارس أساليبه، ودون أن ينتج بحوثا مستقبلية بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة. ومما يزيد الأمر صعوبة، أن هذه المراكز لا اتصال بينها، ولا تتحاور حول المستقبل وهمومه.

مصر ٢٠٢٠

وقد كان الإحساس بمدى تخلفنا فى مجال البحوث المستقبلية، فضلا عن مضى فترة تناهز عشرين عاما على آخر دراسة مستقبلية أجريت فى مصر، هو ما دعا مجموعة صغيرة من الباحثين المصريين للالتفاف حول المبادرة الجسورة التى قدمها أستاذنا الجليل وعالمنا الكبير د. إسماعيل صبرى عبدالله فى خريف ١٩٩٥، والتحمس لتحويل رغبته فى دراسة مستقبل مصر إلى مشروع بحثى كبير، وهو مشروع مصر ٢٠٢٠. وقد قضت هذه المجموعة الصغيرة نحو عامين فى التحضير لهذا المشروع، وإعداد خطته وبرامج عمله، بما فى ذلك التحاور مع نخبة من المفكرين والعلماء حول توجهات المشروع ومحاوره والقضايا التى سيتناولها البحث فيه، والسيناريوهات التى يرى فيها خيارات رئيسية أمام مصر فى المستقبل. ثم بدأ العمل فى المشروع بشكل ودى اعتبارا من خريف ١٩٩٧،

وبشكل رسمى فى أول يناير ١٩٩٨. ولم يزل العمل مستمرا فى استكمال عدد من الدراسات القطاعية ونشرها، وذلك برغم نضوب الموارد المالية للمشروع منذ مارس ٢٠٠٠ ولم يزل أمر إصدار تقرير عام عن «مستقبل مصر حتى عام ٢٠٢٠» وعقد مؤتمر عام حوله معلقا على توافر الموارد المالية.

الأهداف

ليس من أهداف مشروع مصر ٢٠٢٠ رسم مستقبل بذاته، ولا وضع استراتيجية أو خطة بعينها للمجتمع المصرى. وإنما يهدف المشروع إلى إضفاء طابع مستقبلى على تفكيرنا، وتوفير أفق زمنى طويل لما قد يتخذ اليوم من قرارات، بحيث تخرج هذه القرارات مستهدية بما تحمله آفاق المستقبل من فرص وتحديات، ولا تظهر كانفعالات وقتية بهذا الحدث الآنى أو ذاك. الهدف بعبارة أخرى، هو أن يقدم مشروع مصر ٢٠٢٠ إلى الناس بعامة، ومتخذى القرارات بخاصة، قاعدة معلومات تساعدهم على اختيار المستقبل الأفضل لمصر. وتتكون هذه القاعدة المعلوماتية من شقين:

الشق الأول: تصورات بديلة لحركة المجتمع المصرى فى مختلف المجالات، وهو ما يطلق عليه سيناريوهات.

والشق الثانى: تقدير لمنافع وتكاليف كل سيناريو، وتصور لحالة الإنسان والمجتمع المصرى التى يتمخض عنها كل سيناريو فى عام ٢٠٢٠، مقارنة بالوضع المناظر فى مجتمعات أخرى ذات أهمية من المنظور المصرى.

وفى ضوء هذه المعلومات يمكن للناس أن يحبذوا مسارا أو آخر من المسارات البديلة لمستقبل مصر، ويلتفوا حوله، أو يرشحوا بديلا آخر فى ضوء دراستهم لسيناريوهات المشروع، يكون جديرا بالبحث فى دراسات مستقبلية قادمة. ومن خلال التفاعل مع هذه المعلومات يتحقق أمران على قدر عظيم من الأهمية. أولهما: تنمية رأى عام مهتم بالمستقبل، ورفع مستوى الوعى العام بالقضايا والتحديات التى يحملها المستقبل فى طياته، والنهوض بالحوار الوطنى حولها. وثانيهما: بلورة منهج جديد فى إدارة شئون المجتمع والدولة، تتأسس فيه عملية اتخاذ القرارات على ركائز متينة من المعرفة الشاملة والمركبة بالواقع والنظرة

متعددة ومتفاعلة التخصصات إلى المستقبل.

مجالات البحث

وتوخيا للشمول والتركيبية، فقد تعددت مجالات البحث في المشروع حتى بلغت اثنى عشر مجالا، شملت البيئة والسكان، والغذاء والزراعة، والتصنيع والمصنوعات، والإسكان والمستوطنات البشرية، والنقل والاتصالات والمعلوماتية، والتعليم والبحث العلمي والتطوير التكنولوجي، والقطاع المالي وتمويل التنمية، والمعاملات الاقتصادية الخارجية، والحكم أو إدارة شئون المجتمع، والثقافة والإعلام، والبنية الاجتماعية وقوى التغيير الاجتماعي، والتكامل الإقليمي والأوضاع العالمية.

وقد تفرع عن هذه المجالات البحثية ٣٨ دراسة في موضوعات أكثر تخصصا. وتحقيقا لمفهوم العمل الجماعي، كان ينهض بكل دراسة من هذه الدراسات فريق عمل يضم في المتوسط نحو سبعة من كبار الباحثين في الموضوع، يعاونهم عدد من شباب الباحثين. وبذلك اقترب عدد الباحثين في المشروع من ٣٠٠ باحث في شتى مجالات البحث العلمي. كما اشترك في ورش العمل والندوات التي عقدت حول منتجات هذه الفرق البحثية ما يربو على ٤٠٠ من الباحثين والممارسين وأهل الرأي ورجال الإعلام. وبذلك حقق المشروع انفتاحا كبيرا على الجماعة العلمية المصرية، وأسفر عن تعبئة جيدة لجهودها، كما تواصل مع قطاع غير صغير من قادة الفكر والرأي في المجتمع.

المنهجية

وقد اعتمد المشروع منهجية للبحث في التطورات الماضية واستشراف المستقبل تقوم على عدة أسس ومبادىء مهمة، وهي: الشمول والنظرة الكلية والتركيبية للأمور التي تنطلق من تعددية التخصصات وتفاعليتها، وإعادة قراءة الماضي من منظور مستقبلي، والمقارنة بخبرات الآخرين والتعلم منها، وتجاوز محدودية النظريات وقصورها عن الإحاطة بالواقع وتفصيلاته المعقدة بالاتجاه إلى محاكاة الواقع ذاته، والمزج بين الأساليب الكمية والأساليب الكيفية، والانفتاح على المدارس الفكرية المختلفة والتفاعل معها، وإتاحة الفرصة للقوى الاجتماعية والسياسية المختلفة للتعبير عن اختياراتها كما تراها هي بنفسها كلما كان ذلك



ممكنا، ونشدان الإبداع لاسيما من خلال العمل الجماعى، والتعلم الذاتى والتصحيح المتتابع للتحليلات والنتائج من خلال الحوار وتلقى التعليقات والاقتراحات من خلال ورشات العمل والندوات واللقاءات المباشرة، ووسائل الاتصال الأخرى، شاملة البريد الإلكترونى، و«الدردشة» من خلال موقع المشروع على الإنترنت (WWW. egypt 2020. org). ومن أسف أن المصاعب الفنية والمالية التى واجهت المشروع قد حالت دون التطبيق الكامل لهذه المنهجية.

ويبحث المشروع فى خمسة خيارات مستقبلية لمصر حتى عام ٢٠٢٠ ، أى خمسة سيناريوهات بديلة، حيث يعبر كل سيناريو منها عن الرؤية المستقبلية التى تطرحها مجموعة معينة من القوى الاجتماعية والسياسية الفاعلة فى ساحة العمل الوطنى فى مصر، ويعكس خياراتها فى معالجة أهم المشكلات والتحديات التى تواجه مصر فى مطلع القرن الواحد والعشرين.

ويطلق على السيناريو الأول السيناريو المرجعى. وهو يعبر عما قد تؤول إليه الأوضاع على امتداد العشرين عاما القادمة إذا ما استمر المنهج السائد حاليا فى التعامل مع مشكلات مصر. ويطلق على السيناريو الثانى سيناريو الرأسمالية الجديدة. وهو يعبر عن رؤية القوى الليبرالية التى ترى أن أفضل مستقبل لمصر هو ذلك الذى يقوم على تطبيق نظام رأسمالى أكثر رشدا وعقلانية، وأكثر انتفاعا بالعلم ومنجزات التكنولوجيا، وأكثر تطبيقا للديمقراطية من النظام الحالى الذى يعتبرونه رأسمالية مشوهة أو متخلفة.

أما السيناريو الثالث فهو يطرح رؤية القوى الاجتماعية والسياسية التى ترى أن خلاص مصر إنما يكمن فى الأخذ بنظام حكم إسلامى، يترجم أحكام الكتاب والسنة إلى سياسات للتنمية وبرامج للتعامل مع القوى الأجنبية تحفظ لمصر هويتها الإسلامية المتميزة. وقد أطلقنا عليه سيناريو الدولة الإسلامية. ثم تأتى بعد ذلك إلى السيناريو الرابع الذى يعبر عن رؤية متطورة للقوى الاجتماعية والسياسية ذات التوجه الاشتراكى، تركز على ضرورة الجمع بين الاشتراكية والديمقراطية وترفض المقايضة بين الحقوق الاجتماعية والحريات السياسية. وهذا ما أطلقنا

عليه سيناريو الاشتراكية الجديدة.
وأخيرا، هناك سيناريو خامس يطلق عليه سيناريو التآزر الاجتماعى أو السيناريو الشعبى. وهو يعبر عن وجهة نظر قوى متعددة فى المجتمع ترى أن السبيل الأفضل لتقدم مصر هو الوفاق الوطنى والتراضى على حل وسط يوفق بين رغبات الأطراف المختلفة للعمل الوطنى.

وبالطبع فإن اختيار مشروع مصر ٢٠٢٠ لهذه السيناريوهات لا يغلق باب الاجتهاد أمام تجربة سيناريوهات أخرى قد يرى بعض الباحثين أنها أولى بالبحث والتحليل. فاختيارنا للسيناريوهات لم يكن إلا واحدا من ضمن اختيارات كثيرة ممكنة، ولم تكن سوى مجرد خطوة على طريق طويل. ومن المفيد أن تتلوها خطوات أخرى، أى دراسات أخرى تتنوع فيها معايير اختيار السيناريوهات ، وتتباين معها صور المستقبلات الممكنة. فلا ريب أن ذلك يتيح إثراء أكبر لمعرفتنا بالمستقبل، ويطرح أمام المجتمع خيارات متنوعة، ويترك أمامه فرصا أوسع للاختيار والمفاضلة فيما بينها على أساس حساب الأرباح والخسائر المجتمعية لكل منها.

المنتجات

لقد مضى ما يربو على ثلاث سنوات منذ بدء العمل فى الدراسة المستقبلية «مصر ٢٠٢٠» . وقد بذلت خلال تلك الفترة جهود بحثية مضنية من جانب القيادة المركزية للمشروع ومن جانب الفرق البحثية التى تعاونت معها. وأنتج المشروع عددا من الدراسات النظرية والجزئية أو القطاعية يزيد على الثلاثين، نشر بعضها فى صور أوراق وكراسات، ونشر بعضها الخير فى صورة كتب صدرت عن أربع دور نشر مصرية (دار الشروق - المكتبة الأكاديمية - مكتبة الأنجلو المصرية - دار ميريت). كما نشرت طائفة من الأوراق الفنية المتعلقة بالنمذجة على موقع المشروع على الإنترنت. وسوف يزداد رصيد المشروع من المنتجات المنشورة بظهور الدراسات التى لم يزل العمل جاريا فى استكمالها، وكذلك بظهور التقرير العام عن المشروع إذا ما توافرت للموارد اللازمة لإعداده.

ولاشك فى أن المشروع قد أتاح لعدد كبير من الباحثين الانفتاح على مجال الدراسات المستقبلية، والتدريب على أعمالها وأساليبها ، واكتساب خبرات قيمة فى ممارسة البحث

المستقبلى، وذلك من خلال ما نظمه من ندوات استهلالية، وورشات عمل أثناء تنفيذ البحوث، وندوات ما بعد إتمام البحوث، ومن خلال اللقاءات بين الفريق المركزى للمشروع والفرق البحثية، وذلك فضلا عن المران من خلال العمل البحثى الموكول إلى كل فرقة بحثية.

ومن النتائج الإيجابية لمشروع مصر ٢٠٢٠ صار مثلا وقدوة فى المحيط العربى، وأن الخبرات المكتسبة فيه صارت تقدم إلى دول عربية أخرى أدركت ضرورة الدخول فى دراسة المستقبلات، وعلى رأسها الأردن التى قطعت شوطا طويلا فى تنفيذ مشروعها: «الأردن ٢٠٢٠»، وسوريا التى شرعت أخيراً فى بلورة مشروعها : «سوريا ٢٠٢٠».

الدروس والعبر

غير أن هذه الإنجازات - على أهميتها - ينبغى ألا تجعلنا نصرف النظر عن عدد من الصعوبات والعراقيل التى أظهر لنا مشروع مصر ٢٠٢٠ أنها تقف فى طريق الدراسات المستقبلية فى مصر، وتعوق تقدمها. فإدراك هذه الصعوبات والتعرف على هذه العراقيل أمر ضرورى للتصدى لها، ولوضع أساس مكين للنهوض بالدراسات المستقبلية المصرية. ويمكن تقسيم هذه الصعوبات والعراقيل إلى أربعة أنواع، وذلك بحسب أسبابها ومصادرها.

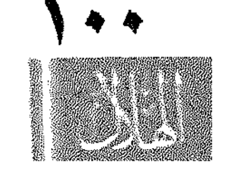
يتمثل النوع الأول من الصعوبات فى أن مجال البحث المستقبلى فى مصر، وإن لم يكن حديث النشأة تماما، إلا أن ما أنجز فيه من بحوث كان قليل العدد وجرى فى فترات متباعدة، بل وكثيرا ما كان يتوقف قبل أن يكتمل نموه وفق ما أعد له من خطط. ولذلك لم يتراكم للبحوث المستقبلية تراث كبير يمكن لمن يتصدى لها الرجوع إليها والاغتراف منه. ولا عجب، والحال كذلك أن تندر الكتابات المتوافرة فى المكتبات المصرية عن المستقبليات ندرة شديدة، وأن يظل عدد الباحثين المصريين ذوى الدراية والخبرة بالدراسات المستقبلية - ولا أقول المحترفين - محصورا فى خانة الآحاد، وغير قادر على تجاوزها حتى إلى خانة العشرات، ولذا فإن ثمة حاجة ملحة لتنمية القدرات البشرية والمعرفية اللازمة لإنتاج دراسات مستقبلية جديرة حقا بهذا الاسم. وليس من سبيل سوى الممارسة والمزيد من الممارسة، وليس هناك من

سبيل أمام انتظام الممارسة فى هذا المجال واستمراريتها سوى توافر أطر مؤسسية فعالة ترعى البحوث المستقبلية ، تخطيطا وتنفيذا وتمويلا وترويجا.

ويرتبط النوع الثانى من العراقيل بعدد من السمات السلبية التى أصبحت مميزة لبيئة البحث العلمى فى مصر. ومن أبرز هذه السمات: عدم تفرغ معظم الباحثين للبحث العلمى الجاد وتشتت جهودهم فى أمور ذات مردود علمى ضعيف ، وشيوع ظاهرة عدم الالتزام بالتعاقدات البحثية سواء من حيث المضمون العلمى أم من حيث مواعيد التنفيذ، وغياب تقاليد العمل العلمى الجماعى، وندرة الحوار البناء والتفاعل الصحى بين الباحثين ، وذلك بالرغم من الإفراط فى عقد الندوات والمؤتمرات. وهذه العوامل تؤدى مجتمعة إلى تواضع مستويات الأداء وندرة حالات الابتكار والإبداع فى البحوث بعامة، وفى بحوث المستقبليات بخاصة، كما أنها حالت دون إنجاز الدراسات المخططة لمشروع مصر ٢٠٢٠ فى بعض المجالات، لاسيما فى مجال التطورات فى المحيط العالمى والمحيط الاقليمى وفى مجال إدارة شئون المجتمع والدولة.

ويتصل النوع الثالث من الصعوبات التى تواجه البحوث المستقبلية بالطبيعة الخاصة لهذه البحوث ذاتها. فهى بحوث شاقة ذات متطلبات غير يسيرة فيما يتعلق بالمنهجية ، وكذلك فيما يتعلق بقواعد المعلومات اللازمة لها. ومعنى ذلك أنها تتطلب أيضا باحثين ذوى تأهيل علمى متميز وذوى قدرات عالية على تحمل الأعباء البحثية الثقيلة للدراسات المستقبلية. كما أن هذه الدراسات لا تؤدى على خير وجه إلا من خلال العمل الجماعى التفاعلى. وفضلا عن صعوبة هذه المتطلبات ، فإن تدبيرها يستلزم توافر موارد مالية عالية الاستهلاك ليس فقط للمال، بل وللوقت أيضا. ومن أسف، فإن عقبة المال قد حالت دون تنفيذ مشروع مصر ٢٠٢٠ وفق الخطط العلمية الطموح التى وضعت له فى البداية.

أما النوع الرابع من العراقيل التى تعترض البحث المستقبلى فهو يتصل بالمناخ العام السائد فى بلادنا، والذى يفرز الكثير من الأفكار الخاطئة التى تنعكس بالسلب على ترتيب الدراسات المستقبلية على سلم



أولويات البحث العلمى. إذ يشيع وهم أن السوق قادر على تحقيق التنمية فقط لو ابتعدت الدولة عن التدخل فى مجرياته. كما يروج فكر معاد للتخطيط ، ولدور البشر فى صناعة المستقبل (طالما أن السوق سيتكفل بهذه المهمة !كما تشيع أوهام حول العولمة تضع الدول النامية في موضع العاجز الذى تتحكم فى مستقبله قوى خارجية لا قبل له بالتأثير فيها، والتى لا يملك غير الاستسلام لها. وفى مثل هذا المناخ تشيع افكار انهزامية، وتضعف الثقة بالقدرات الذاتية، بما فيها القدرات الذاتية على صنع مستقبلنا، أو على الأقل التأثير فى صناعته. وبالطبع ليس فى هذا المناخ ما يشجع على القيام بالدراسات المستقبلية التى تستهدف مشاركة الناس فى صنع مستقبلهم، وليس فيه ما يحرض على تخصيص موارد كبيرة لمثل هذه الدراسات. وليت الذين يروجون لهذه الأوهام يدركون أن الدراسات المستقبلية قد ازدهرت فى دول اقتصاد السوق أيما ازدهار، وان للشركات الرأسمالية الكبرى دورا ضخما فى نمو هذه الدراسات وتطورها.

وبديهى ان النهوض بالدراسات المستقبلية فى مصر وتحولها إلى نشاط منتظم ترعاه وتمارسه هيئات علمية دائمة مرهون بمواجهة الصعوبات والعراقيل التى أشرنا إليها. والتى كان لمشروع مصر ٢٠٢٠ نصيب وفير منها. ■

قالوا

من كان لا يبصر غير محاسنه ومساويء الغير فالضرير خير منه
ميخائيل نعيمة

لو لم يكن صواب ، لم يكن خطأ، ولو لم يكن برهان ، لم يكن شغب مخالف للبرهان
إبن حزم

إن موضوع الأدب هو الحياة ، التي إذا وقفنا علي شيء من أسرارها ، تفتحت لنا أبواب المعاني ، وانقادت لنا اللغة في التعبير عنها
سلامة موسي



ماذا يحدث غداً ؟!

جزء خاص

العراق

ومستقبل الشرق الأوسط

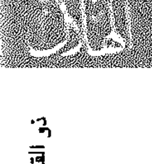
بقلم
مصطفى نبيل

بدأت آلة الحرب الجهنمية فى الدوران ، وتحركت حاملات الطائرات والأساطيل ، وحشدت القوات الأمريكية حول العراق ، وانطلقت آلة الحرب ، وأخذت أكثر درجات اندفاعها ، فمن الذى يستطيع أن يوقفها ؟!

تراجع الرئيس الأمريكى بوش سيكلفه ثمنا باهظا ، واندفاعه إلى الحرب سيجعله يدفع ثمنا غالياً ، ويصيب النظام الدولى فى مقتل .

وتقضى الخطة الأمريكية على استخدام المفتشين ، مثل الزناد وعلامة البدء بانطلاق تلك القوات .

وبالتوازى مع آلة الحرب ، تتحرك آلة الدبلوماسية وآلة الإعلام تمهيداً للحرب .



هذا ما أكده كتاب جديد بعنوان «بوش ضد العراق .. لماذا ؟!» ، والذى ترجمته دار سطور ، واسمه الأجنبى «كشف المستور» ، تأليف عدد من الكتاب الأمريكيين ، وما أكثر الكتب التى صدرت تتناول الأزمة العراقية ، وهذا الكتاب موقفه واضح ضد هذه الحرب ، ومن موقع الحرص على المصالح الأمريكية ، وأحدهم سكوت ريتر ، أحد المفتشين السابقين فى العراق ، وويليم رينز بيت وإدوارد سعيد الأمريكى الجنسية والفلسطينى الأصل ، وليڤن أناتول ، ومايكل بايرز ، ونقلته إلى العربية د. فاطمة نصر .

ويقدم هذا الكتاب شهادة صادقة ، لا تحمل شبهة التحامل أو مناهضة أمريكا ، وفى نفس الوقت يرد ما جاء فى الكتاب على كل الادعاءات التى تزعم أن هذه الحرب جزء من المعركة ضد الإرهاب ، وأن مايجرى مخالفة صريحة للقانون الدولى ، وأن فى عزمها على إشعال الحرب تحدى معظم دول العالم ، الذى بدا واضحا فى قيام المظاهرات فى معظم عواصم العالم وحتى داخل الولايات الأمريكية ذاتها .

ورغم كل ذلك تمضى الاستعدادات على قدم وساق .

ولم يكن هذا الكتاب هو الصوت الوحيد ضد إشعال الحروب ، بل أدان عدد كبير من المفكرين الأمريكيين هذه الحرب ، ووصفوها بأنها عدوانية تقوم بدافع المباهاة بالذات ، فلا شرعية لحروب تنشب فى مواجهة أخطار صغيرة ، وغير محققة ، وعندما تشن حرب غير واضحة النتائج ، وليست مضمونة العواقب .

وأصدر مائة وأربعون مفكراً عالميا وثيقة موقعة ، يستنكرون خلالها الحرب ضد العراق ، ويندون بفكرة الحرب «الاستباقية» أو الوقائية ، وأدان البيان استعراض القوة الأمريكية ، وظاهرة الاستعلاء والاحتفاء بالنفس كأحد الملامح المرذولة فى الحضارة الأمريكية

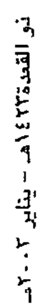
واستنكر المثقفون - أيضا - أن تخطط الولايات المتحدة علانية لحرب شاملة ، ولا تستثنى خلال هذه الحرب الأسلحة النووية ضد العراق ، ذلك البلد الذى تلقى عليه القنابل - وتشن عليه الغارات منذ عقد من الزمان ، ويؤكدون أن حروب الرئيس الأمريكى بوش تهدف إلى الدفاع عن قوة الولايات المتحدة فى العالم ، والعمل على زيادة هذه القوة ، ودفاعاً عن الهيمنة العالمية ، وليست دفاعاً عن القيم والحريات وطريقة الحياة الأمريكية !

وتأخذ الفجوة فى الاتساع بين القوة المادية والحكم الإنسانية .

وفى بداية الكتاب تقرأ كلمه كارل كراوس :

«يكذب الدبلوماسيون على الصحفيين، ويصدق الدبلوماسيون أكاذيبهم لدى رؤيتهم لها مطبوعة» !

ويتحدث المؤلف عمّا أطلق عليه



«عقدة العراق» وهى العقدة التى تشكلت مع الزمن وأصابت الأمريكيين ، وساهم فى ذلك كل من الحرب الباردة والنفط والدماء المراقة والقوة الغاشمة ، ويبدو أن هذه العقد سوف تقود إدارة بوش نحو فوضى عارمة !

وتقوم حجة إشعال هذه الحرب على تبريرات واهية ، وذريعة غير مقبولة فبعد سبع سنوات من عمل مفتشى الأمم المتحدة الذين يعملون دون أى حد زمنى ، وبلا أى ضوابط ، بزعم أن العراق سيعطى أسلحة دمار شامل إلى تنظيم «القاعدة» ! وهى الأسلحة التى لايوجد أى دليل على وجودها .

وتجاهلت الولايات المتحدة أن العراق كان أداتها للقضاء على قوة أصولية وهى الثورة الإسلامية فى إيران ، كما تجاهلت هذه المزاعم أن القاعدة تستهدف النظام البعثى فى العراق .. وتتجاهل أيضا أنه بحربها ضد العراق تحقق أحد أهداف تنظيم «القاعدة» والذى يسعى إلى صراع بين الحضارات ، وهو التنظيم «الشبح» الذى تعلق عليه السياسية الأمريكية كل أعمالها .

وينقل الكتاب آراء دبليو سكوت ريتر .. والذى يصفه الكتاب ، أنه أحد رجلين لايطيقهم بوش ، ولايريد أن يعرفهما أحد، أو يسمع كلامهما أحد ، وهو مفتش سابق فى العراق ، كان ضمن قوات المارينز وضابط مخابرات سابق ، وينتمى إلى الحزب الجمهورى ، ويعارض شن الحرب ضد العراق ، وفى أغسطس ١٩٩٠ تولى قيادة فرقة من المارينز ، وترك المارينز فى يونيو ١٩٩١ وانضم إلى التفتيش واستقال منه عام ١٩٩٨ .

وعندما أخذ يدعو لضرورة وقف الحرب ضد العراق ، اتهم فى ولائه وحققت معه المباحث الفيدرالية F.B.I، وأخذت عليه زواجه من روسية ، وهو مايكشف الجو الخانق الذى يخيم على الحياة فى الولايات المتحدة .

ومع بداية الحوار مع سكوت يستشهد بأحد أقوال هيمنجواى : «الدواء الناجع للبلد سيئة الإدارة هو التضخم يصيب عملتها ، ثم الحرب ، ويأتى الاثنان بازدهار وقتى يعقبهما الانهيار ، وهما ملاذ السياسيين الانتهازيين» .

ويؤكد سكوت : «إن قدراً كبيراً من الشواهد يوضح أن العراق لا يملك المواد الضرورية ولا الإمكانية لإنتاج أسلحة الدمار الشامل» ويقول : « حينما غادرت العراق عام ١٩٩٨ عند انتهاء برنامج الأمم المتحدة للتفتيش ، كان قد تم القضاء على البنية التحتية والإمكانات التى تسهل إنتاج تلك الأسلحة بنسبة ١٠٠٪ .

فقد دمرت كل الآلات والإمكانيات المحتملة التى يمكن أن تسهل إنتاج تلك الأسلحة ، وتم تتبع التجهيزات ورصدها ، ثم تدميرها ، ويمكن القول باقتناع كامل إن البنية التحتية التى يحتاج لها العراق لإنتاج أسلحة نووية قد تم القضاء عليها .



وفشل العراق في الحصول على شهادة تؤكد خلوه من أسلحة الدمار الشامل ، وفي ذات الوقت انتهك دعاة الحرب مع العراق ، قرارات مجلس الأمن عندما استخدموا مقدرتهم في القيام بعمليات تناقض قرارات مجلس الأمن بالتجسس والسماح بجمع معلومات مخابراتية لا تتعلق بالتفويض الممنوح للمفتشين ، مما يدين نظام التفتيش بأكمله.

أما بالنسبة للأسلحة الكيميائية - مازالت الشهادة لسكوت - فلم يعد في العراق عامل كيميائي واحد يمكن أن يؤدي إلى القلق ، كما أن العراق لا تملك قدرة تعدد مراحل الصواريخ ، فهي تحتاج إلى اختبارات وتجارب لابد وأن تجري في الخلاء ، ولايمكن تحاشي رصدها والكشف عنها » .

وفي هذا الحوار يضع سكوت يده على نقاط بالغة الأهمية ، ويصل إلى أنه في حالة مقاومة العراق وانفجار الشرق الأوسط ، ستكون هذه الحرب أعنف ما شهده العالم ونقلته الصحافة .

أمريكا والعراق

يستعرض فصل تاريخ الصراع ، بعض جوانب تاريخ العلاقات الأمريكية ، ويظهر هذا التاريخ مدى تقلب السياسة الأمريكية ، وقدرتها الفائقة ودأبها على تحويل أدواتها إلى أعداء .

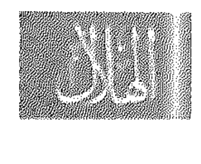
فالبداية من أجل فهم السياسة الأمريكية وحل ألغازها ، التي كثيراً ماتبدو متضاربة ، ويحيطها الغموض ، ولا يجمعها رابط، وتفسير ذلك تقدمه كلمات «چورچ كينان» مهندس الاستراتيجية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية ، ورسم خطوط الحرب الباردة .

يقول راسماً هدف السياسة الأمريكية سنة ١٩٤٨ : «تملك الولايات المتحدة ٥٠٪ من ثروات العالم ، وعدد سكانها لايتجاوز ٦.٣٪ من سكان العالم ، وسياستنا هي كيفية الحفاظ على هذا الوضع ..» .

هذا التصريح أذيع عام ١٩٤٨ ، أما اليوم فهل زادت نسبة ما تملكه الولايات المتحدة من ثروات العالم ؟! وبالتالي ظهرت سياستها الهجومية أكثر وضوحاً .. وفي هذا السياق يمكن فهم تأييد أمريكا لإسرائيل ؟!

ويذكر الكتاب أن المخابرات المركزية الأمريكية ساهمت في انقلاب عام ١٩٦٨ الذي أطاح بعبدالكريم قاسم ، والذي تولى بعده حزب البعث مقاليد الأمور ، ولا يفصل الكتاب ذلك ، ولكن ما ذكره سبق وصرح به علي صالح السعدي الذي كان نائبا لرئيس الوزراء العراقي في حوار مع مجلة الطليعة . ويعترف أيضا أنه عقب تأميم البترول العراقي ، استعان الرئيس نيكسون بشاه إيران من أجل تسليح الأكراد وحثهم على التمرد على بغداد .

وعندما قامت الثورة الإسلامية في إيران ، وضع بريجنسكي مستشار الأمن القومي أيامها خطة لمهاجمة



العراق لإيران من أجل استردادها شط العرب ، وبدأت حرب مدمرة بين البلدين الجارين بتحريض وتأييد أمريكى ، واستمرت مدة ثمان سنوات ، وبحلول عام ١٩٨٢ استبعد العراق من قائمة الدول المؤيدة للإرهاب ، وأعادت أمريكا العلاقات الدبلوماسية مع العراق عام ١٩٨٤ ، وعندما حذرت أمريكا العراق فى عام ١٩٩٠ بعدم القيام بأعمال استفزازية ضد الجيران ، كانت تقصد احتمال هجوم العراق على إسرائيل .

خطة الهجوم

ويورد الكتاب مخططات الحرب ضد العراق ، فيذكر أن تركيا تسمح باستخدام قواعدها العسكرية ، بعد تعهد أمريكى بعدم قيام دولة كردية فى شمال العراق ، ويكشف أن هناك بالفعل قوات أمريكية فى مطارات وقواعد إمداد عسكرية فى كردستان .

أما الهجوم الأمريكى الرئيسى ، فسيأتى من الجنوب ، وتحديداً من الكويت ودول الخليج الأخرى ، من القواعد الجوية الأمريكية التى طورت فى كل من قطر والامارات والبحرين ، أما عدد القوات الأمريكية فيذكر أنها تصل إلى ١٥٠ ألف جندى . ويلاحظ هنا ، أنه سبق وحشدت أمريكا خلال عاصفة الصحراء حوالى نصف مليون جندى أمريكى ، فى ظل تحالف دولى واسع ، أما هذه المرة فيقل رقم القوات الأمريكية إلى حوالى الربع ، ألا يعنى ذلك أنها ستعتمد على قوات أخرى ، مثل قوات التحالف فى أفغانستان . فهل ستعتمد على «البشمرجه» أى القوات الكردية فى الشمال ، خاصة وأن قوات المعارضة العراقية لاتشكل تهديداً عسكرياً . والأرجح عندى أنها ستستخدم قوات إسرائيلية بملابس أمريكية .

ويهدف الهجوم القادم من الجنوب إلى التقدم نحو بغداد ، التى يقطنها خمسة ملايين نسمة أى ربع سكان العراق ، وتسعى إلى حصار بغداد وعدم اقتحامها تجنبا لقتال المدن التى تزيد من خسائر القوات المهاجمة .

وخلال مراحل الهجوم ، تأمل القوات المهاجمة سقوط صدام ، وأظن أن مايجرى فى فلسطين هو تجربة أو (بروفة) لما يمكن أن يقع فى بغداد ، ومن ناحية أخرى تتحرك قوات عمليات خاصة من الأردن إلى غرب العراق تحسبا لاحتمال إطلاق صواريخ على إسرائيل !

وهناك وثائق ودراسات تقدم إلى أطراف المعارضة العراقية ، وتتناول طرق سد الولايات المتحدة للفراغ الذى سينتج من سقوط النظام العراقى ، وتتراوح بين إدارة عسكرية أمريكية ، وبين إدارة دولية مؤقتة . وهذه مجرد وصفات جاهزة ، تقفز على الواقع ، وليست أكثر من محاولات تجريبية ، لايعنيها رأى الشعب العراقى !

الاحتلال والديمقراطية !

ويا أيتها الديمقراطية ، كم من الجرائم ترتكب باسمك ، وتردد مراكز



الأبحاث الأمريكية والبريطانية ، والندوات والمؤتمرات ، أن أحـد أغـراض الغـزو الأمريكى إقامة الديمقراطية ، ولا يتساءل أحد ، هل يمكن أن تفرض الديمقراطية من الخارج ، وبقوات احتلال أجنبية ؟!

ويزعمون أن العراق ستصبح نموذجاً يحتذى للديمقراطية ، تشع على كل ما حولها ، باعتبارها الأقدر على القيام بهذا الدور ، فهى بلد غنى بين المياه والنفط أى الزراعة والصناعة ، وسيصبح بعد إعادة تعميره ركيزه الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ، ويقوم هذا المشروع الأمريكى على أهمية موقع العراق ، الذى يحيط به كل من سوريا وتركيا وإيران والذى يطل على دول الخليج .

فهل ستغلب المواطنة كل ماعداها فى الوقت الذى يعمل فيه الأمريكيون على تكريس الانقسام العرقى والطائفى والعشائرى ، ويذكر أحد مؤلفى الكتاب . «أن الديمقراطية فى الواقع تتناقض بوضوح مع المصالح الأمريكية ، فغالبية سكان العراق من الشيعة ، الذين يرتبطون بإيران (هكذا) ، مما يخلق رباطاً أصوليا بين جنوب العراق وإيران ويسيطر على حقول النفط الضرورية لأمريكا ، كما لايمكننا السماح للأكراد الذين يشكلون نسبة ٢٣٪ من السكان بحكم العراق ، أما نسبة الـ ١٧٪ من السنة فهى التى تضم الرئيس العراقى ».

ويضيف .. «نحن فى الحقيقة لا نريد ديمقراطية فى العراق ، لأننا لا نريد صعود الشيعة إلى السلطة ، ولا نريد استقلال الأكراد مثلما لايريد ذلك الأتراك».

ويضيف سكوت فى حواره : «يبلغ تعداد عشيرة الرئيس العراقى ، وهى عشيرة أبو ناصر ٢٠ ألف فرد ، وتحكم بلداً يبلغ تعداد سكانه حوالى ٢٠ مليون نسمة »، ويرى أن الطريق الصحيح هو السماح للعراق بإعادة بناء نفسه ، ورفع وإلغاء العقوبات الاقتصادية ، ونمو طبقة وسطى تتخطى الحواجز الدينية والإثنية والعشائرية ، وذلك وحده الذى يمكن أن يأتى بالديمقراطية .

الدم والنفط

ويفوت الكثيرين أن العراق ليست طالبان ..

يقول إدوارد سعيد : «فى حملة الدعاية الراهنة التى تدعو إلى إسقاط النظام العراقى ، غاب عن الأنظار الشعب العراقى ، الذى يعانى من الفقر وسوء التغذية ، وعشر سنوات قاسية من العقوبات . وكل ذلك من أجل أمن إسرائيل والحصول على نفط رخيص .».

واختفت صورة العراق الذى يملك أكبر عدد من القراء فى البلدان العربية ، والذى لديه طبقة وسطى عريقة ومثقفة ذات كفاءة مهنية عالية ، والتى تشكل أحد مراكز العالم العربى الثقافية .

ويتساءل : كيف للأمريكيين أن يعيدوا بناء أمة ذات ثقافة عريقة وتاريخ مجيد مثل العراق !

وتتجاهل العديد من الكتابات

الخطورة على الاقتصاد فى مصر ، منها أن مصر تحصل على نفط من العراق بما قيمته ٢ مليار جنيه ، وتدفع مقابله ٥٠٠ مليون جنيه ، والباقى سلع مصرية ، فالعراق أحد البلاد التى تستوعب الصادرات المصرية المتعددة ، فما هى آثار حرب العراق على الاقتصاد المصرى؟!

ومما يجدر ذكره أنه لايتحقق الحد الأدنى من التضامن مع الشعب العراقى ، مع غياب التضامن بين البلدان العربية ولو فى حده الأدنى .

فلماذا - مثلا - لا تعلن الدول المجاورة أن العراق لايمثل تهديداً عليها ؟! .. ولماذا أيضا لاتعقد اجتماعات ومؤتمرات عربية مختلفة فى بغداد ، وخاصة الاتحادات والنقابات والجمعيات الأهلية ؟! تعبيراً عن المساندة والتضامن مع الشعب العراقى ..

هذا .. بعد أن نجحت إسرائيل فى توظيف المنازعات العربية لصالحها ، ألم يحن الوقت بعد لإدراك ذلك ، وحل المنازعات التى تستفيد منها القوى الدولية؟!

وإذا التقت كل من القاهرة ودمشق وبغداد ، لتغير الكثير فى عالمنا العربى .

مستقبل التنظيم الدولى !

ستكون تلك الحرب هى الكلمة الأخيرة فى حياة الأمم المتحدة كمحافظة للسلام ، ويصبح مصيرها مثل عصبة الأمم ، هذا مايؤكده كتاب «بوش ضد العراق» فيطالب ميثاق الأمم المتحدة كل دول العالم، بـ «الامتناع عن التهديد بالقوة أو استعمالها» ، واليوم تستخدم الولايات المتحدة الأمم المتحدة كأداة للحرب ، والتهديد باستعمال القوة .

فالفجوة تتسع بين القوى المادية الساعية إلى التدمير وبين الحكمة الإنسانية، بعد أن راود الكثيرون فى أنحاء العالم الأمل فى أن يبدأ عهد جديد من العلاقات الدولية يسودها الحكمة والتفاهم والحوار بين الثقافات ، ويظهر عصر جديد يتحرر فيه ملايين البشر من الفقر والذل والجوع ، وأن يضع الغرب كل إمكانياته من أجل القضاء على الفقر، والوقوف ضد تدمير البيئة .

ولكن سرعان ما ظهر أن ذلك مجرد سراب وأضعاث أحلام .!

وأخيراً .. تحية واجبه لـ «سطور» المجلة ودار النشر ، التى لم تترك مؤلفاً مهماً إلا وسارعت إلى نقله إلى اللغة العربية ، من كتاب «صدام الحضارات» لهنتنجتون إلى كتاب «عصر الجينات» و«القدس» و«خدعة التكنولوجيا» وغيرها من الكتب المهمة . ■

الخطورة على الاقتصاد فى مصر ، منها أن مصر تحصل على نفط من العراق بما قيمته ٢ مليار جنيه ، وتدفع مقابله ٥٠٠ مليون جنيه ، والباقى سلع مصرية ، فالعراق أحد البلاد التى تستوعب الصادرات المصرية المتعددة ، فما هى آثار حرب العراق على الاقتصاد المصرى؟!

ومما يجدر ذكره أنه لايتحقق الحد الأدنى من التضامن مع الشعب العراقى ، مع غياب التضامن بين البلدان العربية ولو فى حده الأدنى .

فلماذا - مثلا - لا تعلن الدول المجاورة أن العراق لايمثل تهديداً عليها ؟! .. ولماذا أيضا لاتعقد اجتماعات ومؤتمرات عربية مختلفة فى بغداد ، وخاصة الاتحادات والنقابات والجمعيات الأهلية ؟! تعبيراً عن المساندة والتضامن مع الشعب العراقى ..

هذا .. بعد أن نجحت إسرائيل فى توظيف المنازعات العربية لصالحها ، ألم يحن الوقت بعد لإدراك ذلك ، وحل المنازعات التى تستفيد منها القوى الدولية؟!

وإذا التقت كل من القاهرة ودمشق وبغداد ، لتغير الكثير فى عالمنا العربى .

مستقبل التنظيم الدولى !

ستكون تلك الحرب هى الكلمة الأخيرة فى حياة الأمم المتحدة كمحافظة للسلام ، ويصبح مصيرها مثل عصبة الأمم ، هذا مايؤكده كتاب «بوش ضد العراق» فيطالب ميثاق الأمم المتحدة كل دول العالم، بـ «الامتناع عن التهديد بالقوة أو استعمالها» ، واليوم تستخدم الولايات المتحدة الأمم المتحدة كأداة للحرب ، والتهديد باستعمال القوة .

فالفجوة تتسع بين القوى المادية الساعية إلى التدمير وبين الحكمة الإنسانية، بعد أن راود الكثيرون فى أنحاء العالم الأمل فى أن يبدأ عهد جديد من العلاقات الدولية يسودها الحكمة والتفاهم والحوار بين الثقافات ، ويظهر عصر جديد يتحرر فيه ملايين البشر من الفقر والذل والجوع ، وأن يضع الغرب كل إمكانياته من أجل القضاء على الفقر، والوقوف ضد تدمير البيئة .

ولكن سرعان ما ظهر أن ذلك مجرد سراب وأضعاث أحلام .!

وأخيراً .. تحية واجبه لـ «سطور» المجلة ودار النشر ، التى لم تترك مؤلفاً مهماً إلا وسارعت إلى نقله إلى اللغة العربية ، من كتاب «صدام الحضارات» لهنتنجتون إلى كتاب «عصر الجينات» و«القدس» و«خدعة التكنولوجيا» وغيرها من الكتب المهمة . ■

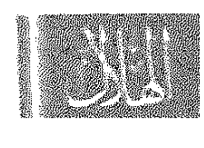
ماذا يحدث غداً ؟!

جزء خاص

أخطار التقدم التكنولوجى فـى القــرن الحــادى والعشــرين

بقلم
حسين أحمد أمين

ذهب دارون - كما ذهب غيره من قبله - إلى أن كافة أشكال الحـيـاة تطورت عـبـر سلسلة طويلة من الصـور المتعاقبة. ويعنى هذا أن تطور الحياة مستمر وسيستمر، وأن مـا نحسبه ثباتا فى صورة أى كـائن حى مـا هو إلا وهم ناجم عن اختلاف فى المقاييس الزمنية. فإن كان الإنسان قد تطور من نوع من الكائنات سابق عليه، فلنا أن نتوقع تطوره هو نفسه إلى نوع لاحق له.



وهاهم علماء البيولوجيا يذهبون اليوم إلى أن بعض التغيرات سيطرأ على الطبيعة البشرية فى زمن ليس بالبعيد . ذلك أن توصل الإنسان إلى تحقيق انشطار الذرة قد يؤثر فى جيناته عن غير قصد منه . غير أن مثل هذا التأثير قد يقدم الإنسان عليه عامدا متعمدا فيحدث بذلك نقلة ضخمة فى عملية التطور ، وتكون هذه هى المرة الأولى التى يتمكن فيها كائن حى من تطوير نوع جديد من الكائنات الحية عن قصد ، وعن تخطيط واع .

مثل هذه القدرة على توجيه تطورنا والتحكم فيه سيكون له من الآثار على

مستقبل البشرية ما يفوق آثار أي من قدراتنا الراهنة .

وقد علمنا التاريخ أن كافة القدرات المكتسبة لابد من أن يستخدمها الإنسان عاجلا أو آجلا . وهو ما ينطبق أيضا على هذه القدرة البيولوجية الجديدة . ذلك أننا قد ندرك في زمن لاحق - إن لم نكن قد أدركنا بالفعل . أنه مع امتلاك الأسلحة النووية والكيمائية ، وتصاعد أعمال العنف واتساع نطاق المجازر البشرية المروعة ، قد يكون السبيل الأوحد إلى تجنب تصفية الجنس البشرى لنفسه هو تكييف الطبيعة البشرية بحيث تغدو عاجزة عن اللجوء إلى العنف وأعمال الشر . وفى هذه الحالة نكون قد جردنا الانسان من جانب كبير من حرية الإرادة إذ نحوله إلى كائن أشبه بالملائكة أو بالنمل أو النحل وأغلب الظن أن العلم الحديث سيلجأ خلال القرن الحادى والعشرين إلى مثل هذا التطوير لطبائع البشر بدعوى الحق فى اختيار أهون الشرين . غير أنه من المحتمل أيضا أن يستخدم علماء بعض الدول القوية هذه القدرة البيولوجية - شأن سائر القدرات - فى تحقيق مآرب شريرة تجاه أعدائها ، وهو ما يجعل الأمر فى هذه الحالة محفوفا بالأخطار .

لقد استغرق تطور الثدييات من الأشكال البدائية للحياة قرابة ألفى مليون سنة ، فى حين استغرق تطور الإنسان من الأشكال الأولى للثدييات نحو مائة وخمسين مليون سنة فحسب. وها هو الآن وقد مر على ظهوره ما يقرب من مليون سنة ، وهو زمن قصير إن قورن بالرقمين السابقين .. وقد كان بوسعنا أن نستنتج من هذا أن زمنا يقل بكثير عن مائة ، وخمسين مليون سنة كاف لتطوير سلالة جديدة هى أرقى فى سلم الكائنات من الإنسان .. غير أن أهم ما يميز الإنسان هو الوعى، بنفسه وبالكون حوله ، وهو ما حقق له الهيمنة ، والتفوق على سائر الكائنات الحية ، بل وسلحه بالقدرة على أن يتحكم - بمحض إرادته - فى مسيرة ونوعية تطوره هو ذاته ، دون انتظار للتغيير الحتمى الذى تأتى الطبيعة به . ويعنى كل هذا أن مستقبل التطور البيولوجى سيتوقف من الآن فصاعدا على مستقبل نمو التكنولوجيا الذى بدأ بدخول «الإنسان الصانع» مسرح الحياة .

ومع ذلك ، فإنه مع ما شهده القرن العشرون من ازدهار هائل فى المجال التكنولوجى ، ومع ما تتوقعه الكافة من ازدهار أعظم خلال القرن الحادى والعشرين ، فقد واجه هذا التقدم الإنسان بتحد جديد ربما كان أكبر ما واجهه من تحديات فى تاريخه كله . فرغم أن التكنولوجيا من انجاز الإنسان ، فإنها اليوم تتحدى قدرته على الاستمرار فى التخطيط والتوجيه والتحكم فى مستقبله هو ذاته ، وتهدد استمرار استخدامه لحريته فى الاختيار

.. باتت تلك الأداة المخلوقة ، أو هذه الآلة غير الحية التى ابتدعها لخدمة مقاصده ، على وشك أن تعلن استقلالها عن مخترعها وأن تجرفه إلى حيث لا يريد أن يذهب ، شأن ذلك الكائن البشع الذى صنعه العالم فرانكنشتاين فى معمله .

هل يفقد الانسان سلطانه ؟

فكيف بزغ إذن ذلك الاحتمال أن يفقد الانسان سلطانه فى مجال من مجالات نشاطه حقق فيه أعجب الانجازات ؟ قد تكون الإجابة سهلة على هذا السؤال : وهى أن السرعة الضخمة المخيفة التى يتحقق بها التقدم التكنولوجى فى زماننا هذا خلقت هوة سحيقة بين القشرة الواعية فى الروح البشرية وبين ما تحتها من طبقة سميكة عميقة من اللاشعور ..

لقد كانت هناك دائما هوة بين الشعور واللاشعور منذ تكون لدى الإنسان وعيه بذاته وبالكون حوله . وكانت هذه الهوة هى الثمن الواجب دفعه حتى يصبح إنسانا . غير أنها الآن باتت من الضخامة بسبب تسارع وتعاظم انجازاته التكنولوجية بحيث أضحى من المحتمل أن يؤدى الأمر إلى كارثة ... كان على الإنسان فيما مضى أن يكيف نفسه حتى يعيش فى عالمين مختلفين فى آن واحد : عالمى الشعور واللاشعور ، وكان بمقدوره إلى حد ما أن يجمع بين الحصانين ليجرا العربة التى تحمل الروح البشرية . وقد كان هذان الحصانان (ولنسمهما العقل والقلب) يسببان دائما المتاعب والقلق لقائد العربة من جراء عدوهما فى اتجاهين مختلفين ، وركضهما بسرعتين متفاوتتين . فقد كانت سرعة العقل دائما أكبر من سرعة القلب . غير أن الإنسان ظل مع ذلك . وطوال الشطر الأعظم من ماضيه ، قادرا إلى حد ما على التحكم فى قيادة العربة ، وعلى التعايش مع تفاوت سرعة الحصانين .. لكن الحال وصل اليوم ، مع التزايد الهائل فى سرعة أحدهما – وهو العقل – والثبات النسبى فى سرعة الآخر – وهو القلب – حدا يهدد بإفلات الزمام من يد الإنسان ، وانقلاب العربة به .

تمزق الروح البشرية

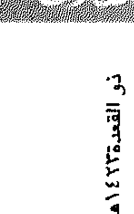
ظل اللاشعور فى الإنسان (أى تلك الطبقة العاطفية غير العقلانية من الروح البشرية) قادرا حتى عهد قريب، وإلى درجة ما ، على هضم واستيعاب البدع التكنولوجية التى فرضها العقل الواعى عليه فرضا ، وظل بالإمكان – بالرغم من مشقة الأمر – إجراء التغييرات والتعديلات المطلوبة فى تقاليد المجتمعات وقيمها وثقافاتها وأخلاقياتها وأديانها حتى تتفق مع هذه البدع .. غير أن هذه القدرة لها حدودها التى تبدو وكأنما رسمتها الطبيعة سلفا وأصرت على

إبقائها على ما هى عليه ، فى حين تبدو سرعة العقل وقدراته وكأنها لا تعرف حدودا . وكانت النتيجة كما بدأنا نخبرها اليوم، وكما سنراها فى القرن الحادى والعشرين واضحة جلية . هى تمزق الروح البشرية ، وإصابة شخصية الإنسان بالفصام .

ولا شك فى أن التمزق يكون أكثر وضوحا حين تفرض حضارة متنامية قوية إرادتها ومفاهيمها وقيمها على مجتمعات غريبة عنها هى أقل ديناميكية وأضعف شأنا - ففى المجتمع الأضعف نجد الجهد المطلوب من أجل التكيف وفق مقتضيات الحضارة المعتدية الأقوى (أو وفق مقتضيات العولمة) هو من القسوة بحيث يتطلب ثمنا نفسيا وروحيا فادحا .. غير أن ما حدث للمصريين فى ظل حكم الإغريق ، وليهود فلسطين فى ظل حكم الرومان (بسبب فرض مفاهيم الحضارة الهيلينية نفسها على هذين الشعبين) ، وما حدث للآسيويين والأفارقة والشعوب الإسلامية فى ظل حكم الأوروبيين ، هو بالضبط ما يحدث للجنس البشرى كله اليوم فى ظل الشكل الحديث للحضارة الغربية فالبشرية بأسرها تترنح ، لا الغالبية من الشعوب غير الغربية وحدها .. ذلك أن نوعية التغير الحضارى التى يتطلبها التقدم السريع فى التكنولوجيا اليوم ، هى من الغرابة بحيث بتنا نرى مبتدعى هذه الثورة التكنولوجية أنفسهم من الغربيين وقد إختل توازنهم إزاء هذا المد الجارف الذى كانوا هم السبب فيه .

إن أى تغيير جوهرى يطرأ على جانب من جوانب الحياة يقتضى تغييرا مناسبا فى الجوانب الأخرى حتى تظل الحياة البشرية متناسقة متوازنة . فاختراع البندقية والمدفع مثلا لا يغنى صاحبهما عن استخدام القوس والسهم والرمح والسيف فحسب، وإنما ينسخ أيضا تقاليد وعادات ومناهج فكر ، وتتولد عنه قيم وأساليب حياة تختلف عن تلك المعروفة وقت استخدام القوس والسهم ، ومع التوسع فى إقامة المصانع فى بداية الثورة الصناعية ، تغير نمط الحياة العائلية فى بحر سنوات قلائل تغيرا يناسب انتشار التصنيع ، وكذا تغير وضع المرأة تغيرا مهما مع تعليب المأكولات المحفوظة واختراع الأفران والغسالات والثلاجات الكهربائية ثم اختراع وسائل منع الحمل .

هذه الحقيقة يدركها العقل جيدا . ويدرك أنه مع كل ثورة يحققها فى مجال التكنولوجيا لابد من إجراء التعديلات الموائمة فى الميادين الاجتماعية والسياسية والحضارية والثقافية من أجل ضمان جدوى التغير التكنولوجى ونفعه ، أو على الأقل ، لتجنب ضرره ودرء شره . غير أن العقل فى تلك الميادين - عكسه فى المجال التكنولوجى - يعجز عن تحويل المعرفة إلى عمل ما لم تقنع القلب بالتعاون معه وبوسع القلب أحيانا أن يتجاوب ، (وإلا لما ظلت البشرية قائمة



حـــتى الآن) ، غير أنه مـهـمـا كـانت قـدرته علي التجاوب ، فـإن هذا التـجـاوب يـأتي دائمـا مـتـأخـرا . وفي هذا التـأخـيـر يكمن الخطر ، خـاصــة في ظل التـزايد الرهيب الراهن في سـرعـة التقدم التكنولوجي .

علاقة الانسان بنفسه وبغيره

هذا عن الخطر .. أمـا عن الخطأ فيكمن في ظني في فشل البشرية فشلا ذريعا في ميدان ذي أهمية قصوى ، ألا وهو عـلاقة الانسان بنفسه وبغيره من البـشـر . وهو فـشل يتناقض تناقـضـا فاضـحا ومحزنا مع نجاحه الباهر في عـلاقتـه بالطبيعة الصماء حوله . ففي فترات التغير الاجتماعي الضخم الناجم عن الانجازات العلمية والتكنولوجية ، ينحسر سلطان الدين والتقاليد والقوانين الأخلاقية لتحل محله مشاعر الفردية والأنانيـة والتناحر وتكالب الأفراد على طلب المنفعة المادية، دون أن تتوفر لدى القـائمين على الثـورة التكنولوجيـة أية عناية ذات شأن بسبل التربية والتثقيف الكفيلة باتقـاء هذه الشـرور . ومن هنا جاءت حدة التصارع بين القلب والعقل ، بين الشـعـور واللاشـعـور المكونين للروح البـشرية ، في حين كان من الواجب أن يعـمـلا في تآلف واتحـاد مـتـى أراد الإنسـان التـحكم في المواقف التي تواجهـه ، والمعضلات التي يقحم نفسه فيها .. ويزيد من ضرورة هذا التآلف أن لدى كل من العنصـرين القـدرة على إفشال مسعى الآخر ، وأن يصيب الروح البشرية بالشلل ، متى حاول التصرف بمنأى عن الآخر ، ومستقلا عنه ، ودون أن يوليه أي اعتبار .

إن قدرة الله إنما تتجلى في إسدال الحجاب ، بينما تتجلى قدرة الإنسان في كشف النقاب .. فكأنما تتمثل العملية إذن في إخفاء يعقبه استجلاء ، وما من تكريم من الخـالق للمـخلوق أعظم من إشراكه في هذه العملية معه .. غير أن الانسان تمادى في سـعـيـه إلى كـشف النقاب عن أسرار الكون من حوله تماديا اتسم بقـدر هائل من الشطط ، ومن الحـماية والافـتـقـار إلى الحكمـة وإلى التـأني الواجب ، ومن الزهـو بنفـسـه والمبالغة في تقويم قدراته ، تماديا أفقده الحق في الاشتراك في اللعبة ، خاصة إذ بات العـقل يلعب لحـسـابه وعلى مسـئوليته ، ويتحمل وحـده ما قد يسـفـر عنه خطل الرأي من عـواقب . وربما كان هذا هو بعض ما تعنيه الآية القرآنية الكريمة :

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فـأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) . ■

● «كل جديد يهاجم الجيل الراسخ».

الأديب نجيب محفوظ

● « لا غرب بلا شرق يؤسس الحضارة الإنسانية ولا شرق بلا غرب يواصل البناء على الأسس الأولى»

عبدالعزيز المقالح
رئيس مركز الدراسات والبحوث اليمني

● «من حقنا أن نريد برنامج عمل إسلامى ينطق لعصرنا وحاجاتنا.. من دون إرهاب طالبان، ودون تهديد الأمريكان».

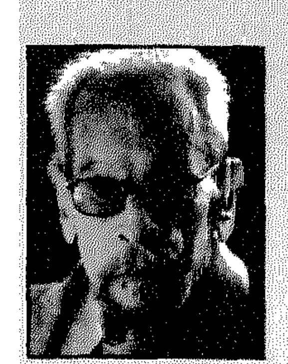
المفكر البحريني محمد جابر الأنصاري

● «العداء لأمريكا لا يحول دون الألتقاء على تحقيق مصالح مشتركة».

محسن ميردا مادي
رئيس لجنة الشئون الخارجية في البرلمان الإيراني

● «أرانى ميالا إلى بيان اللغة، وليس إلى بديعها وزخرفها، وإلى شفافيتها وسهلها الممتنع، وليس إلى وعرها وغريبها».

الأديب المغربي بنسالم عميشن
الفائز بجائزة نجيب محفوظ لهذا العام عن روايته «العلامة»


نجيب محفوظ

● «إن الحرب قد تكون شرا لابد منه، ولكنها دائما شر، ولم تكن خيرا أبداً».

الرئيس الأمريكي جيمي كارتر


جيمى كارتر

● «الكاتب الحقيقى لا يكتب من أجل مجد وشهرة، وإنما لأنه لا يستطيع ألا يكتب».

الأديب ربيع جابر

● «ما يجرى على الأرض العربية باسم العرب، مادة أساسية من مواد التحولات الكبرى فى القرن الحادى والعشرين، ان لم أقل المادة الأولى».

الشاعر السوري أدونيس


أحمد زويل

● «لو كانت نوبل أيام الفراعنة لحصلوا على ٩٠٪ من جوائزها».

الدكتور أحمد زويل
العالم المصري الفائز بنوبل

● «عندما تتصاعد أصوات رافضة من مرقدى الأخير، فخمنوا انه أنا ما أزال».

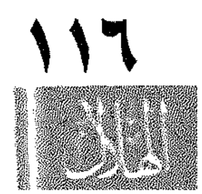
جونتر جراس
الأديب الألمانى الفائز بنوبل

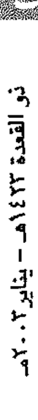
ماذا يحدث غداً ؟!

جزء خاص

مستقبل الإنترنت

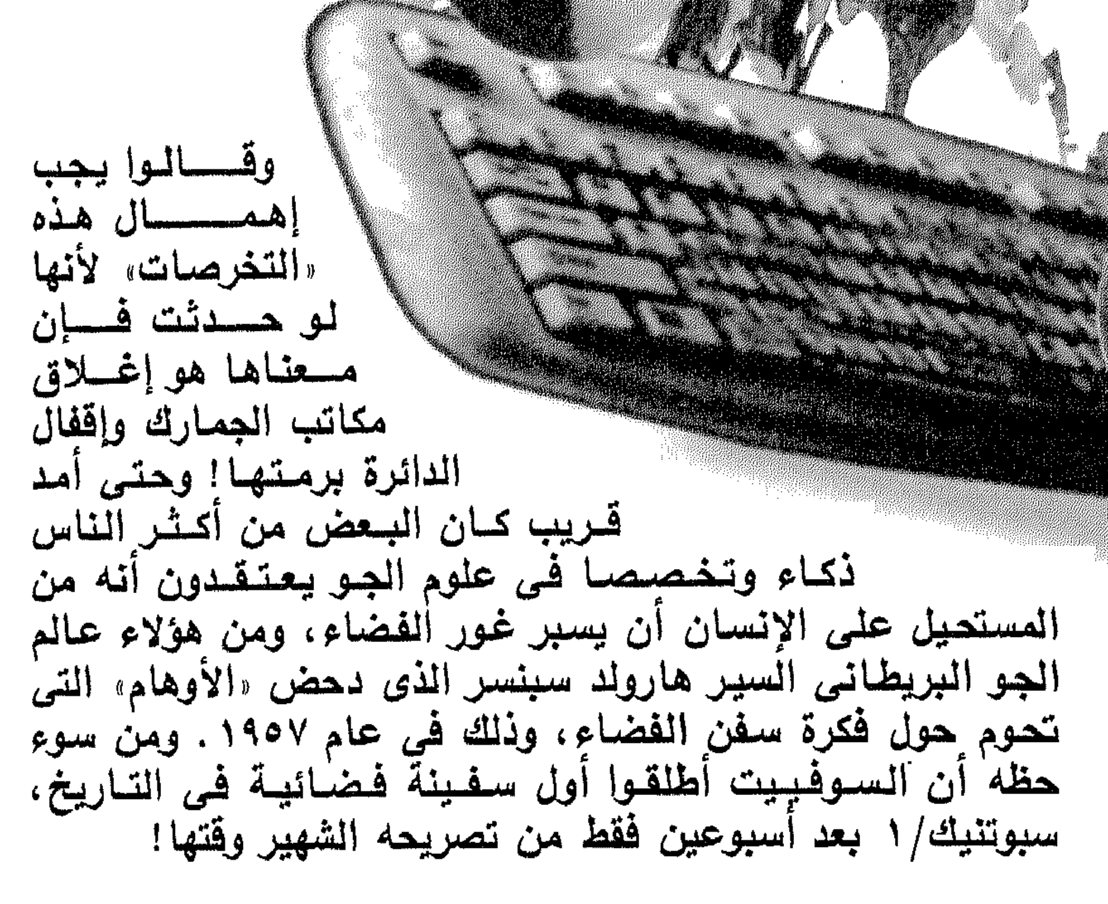
بقلم
د. أحمد محمد صالح





يذكر فى عام ١٩٢٠ فى الولايات المتحدة، كانت هناك مقترحات جدية لإقفال باب الاختراع وعدم براءات اختراع جديدة! لأن كل مايمكن اختراعه قد تم اختراعه، كما برر مسئول مكتب براءات الاختراع آنذاك تشارلز نيول.

وفى عام ١٩٠٩ استهزأ موظفو الجمارك البريطانيون بمقولة «احتمال تنقل المسافرين والبضائع عبر الجو»،



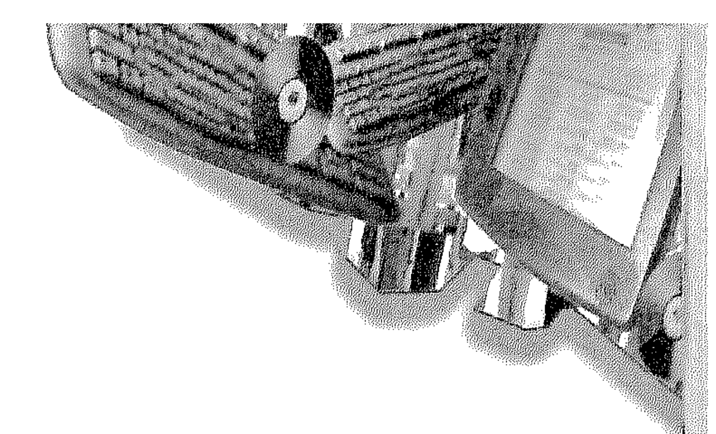
وقالوا يجب إهمال هذه «التخرصات» لأنها لو حدثت فإن معناها هو إغلاق مكاتب الجمارك وإقفال الدائرة برمتها! وحتى أمد قريب كان البعض من أكثر الناس ذكاء وتخصصا فى علوم الجو يعتقدون أنه من المستحيل على الإنسان أن يسبر غور الفضاء، ومن هؤلاء عالم الجو البريطانى السير هارولد سبنسر الذى دحض «الأوهام» التى تحوم حول فكرة سفن الفضاء، وذلك في عام ١٩٥٧. ومن سوء حظه أن السوفييت أطلقوا أول سفينة فضائية فى التاريخ، سبوتنيك/١ بعد أسبوعين فقط من تصريحه الشهير وقتها!

وعندما فكرت شركة أى. بى. أم الأمريكية الشهيرة المتخصصة فى صناعة الكمبيوتر بإنتاج كمبيوترات، وبيعها فى الأسواق، أواخر الأربعينات من القرن الماضى، صرح مديرها آنذاك توماس واتسون، أنه لايعتقد أن السوق يمكن أن يستوعب أكثر من خمسة أجهزة كمبيوتر على الأكثر. والآن كلنا نعلم أن بعض البيوت فيها هذا العدد من أجهزة الكمبيوتر.

ومنذ عشر سنوات تقريباً، كان لايمكن أن نتخيل الإنترنت عام ٢٠٠٣، والتى أصبحت اليوم طوفان من المعلومات بلا حدود تتقاسمها مع أى شخص، يستطيع الوصول إلى هناك، من خلال وسيط فريد فى نوعه، ومع ذلك هناك من يقول: أن زمن الإنترنت انتهى!

فمنذ التسعينات بدأت الإنترنت بخمسة أجهزة كمبيوتر متشابكة، حتى يوليه ٢٠٠٢ وصل عدد الكمبيوترات الرئيسية المزودة والمكونة الشبكة (host computer) ١٦٢١٢٨٤٩٢ جهازا. ووصل إجمالى رسائل البريد الإلكترونى التى ترسل يومياً حول العالم ٦٠ مليون رسالة، وهناك ٢٧٥ مليون شخص على الإنترنت يستخدمون آلات البحث عن المعلومات يومياً، وتعداد مجتمع الإنترنت فى العالم كله حوالي ٨٠٠ مليون مستخدم الآن، وكان حوالى ٣٩١ مليوناً حتى ٣١ مارس عام ٢٠٠١، ويتوقع أن يبلغوا أكثر من ٩٤٠ مليون مستخدم عام ٢٠٠٤.

لم ينته زمن الإنترنت، ولم يأفل نجمه بعد، رغم الكساد والخسائر التى لحقت بالعديد من شركات الإنترنت المسماة (دوت



كومز) وتلاشى الثقة فى شركات تكنولوجيا شبكة المعلومات الدولية . هذا ماقاله عدد ممن تحدثوا أثناء مؤتمر كبير عقد فى لندن أخيراً حول موضوع تأثيرات الإنترنت على المجتمع، وأفضل السبل لجعل هذا الأداة الجبارة تساهم فى التغيير وقد نظمت هذا المؤتمر جمعيات بحوث ودراسات بريطانية حاولت فتح النقاش من جديد، حول مدى تأثير الإنترنت على المجتمع وكيف يمكن التحكم فيه، لجعله فى خدمة البشرية.

الخطوة القادمة

ورغم أن حمى الإنترنت كانت قد اعترت فى البداية رجال الأعمال وأسواق المال، فإن عدداً من المحاورين أثناء المؤتمر أعربوا عن اقتناعهم بأن التأثير الأكبر سيكون على حياة الأشخاص، والمجتمع ، وليس الأعمال والشركات . فهذه التقنية الرائعة المتمردة اندفعت فى ثنى عضلاتها ، واستعراض قوتها! وأصبح السؤال الكبير الواضح فى هذه الألفية الجديدة: ماهو مستقبل الإنترنت، وما هى خطوتها القادمة؟ وللإجابة على هذا السؤال، أنفقت المجلة الأمريكية العلمية المشهورة باسم Discover ، منذ عدة شهور مضت مع معهد ديزنى العلمى Disney Institute فى الولايات المتحدة الأمريكية، على تشكيل لجنة من المبدعين التقنيين والتى اثبتت التجربة بأنهم جيدون جداً فى توقع المستقبل، للإجابة على هذا السؤال ! ونوقشت فى تلك اللجنة ، نقاط متعددة حول الخطوة القادمة للإنترنت. وكان السؤال الرئيسى فى تلك الحوارات حول نوع العالم الجديد الذى ستخلقه الإنترنت؟ وهل ستقودنا الإنترنت فعلاً إلى عالم مترابط ومتشابك، وهل سوف تنهار الحدود القومية بين دول العالم؟ وهل هناك أشكال جديدة من الحدود سوف تظهر بين الكيانات والتجمعات الافتراضية ، التى يندمج تحتها الناس من خلال تجاربهم وتفاعلهم على الشبكة؟

وناقش هؤلاء المبدعون أيضاً دراسة تأثيرات التقنية على المجتمع، وبالأخص على الثقافة . ونزعم هنا أن دراسة تأثير الإنترنت على الثقافة فى منتهى الصعوبة، لأن «الثقافة» مفهوم معقد للغاية، وأيضاً لأن التغييرات الثقافية بطيئة عادة ، لكن هناك العديد من مؤسسات المجتمع ، والتى تعتبر جزءاً من التراث الثقافى – مثل أشكال السلطة ، والمعايير المختلفة للفن المبدع ، يفضل دراستها بشكل منفصل، بسبب تغييرات التقنية العميقة والسريعة على تلك المؤسسات. على أية حال، عدد كبير من المؤشرات الثقافية الأخرى التى تتطور ببطء أكثر مثل معتقداتنا، ولغاتنا وعاداتنا، يصعب جداً ملاحظة تغييرات التقنية عليها! وبصفة عامة يصعب قياس الاختراق المحتمل الأعمق للملكية فى حياتنا الاجتماعية.

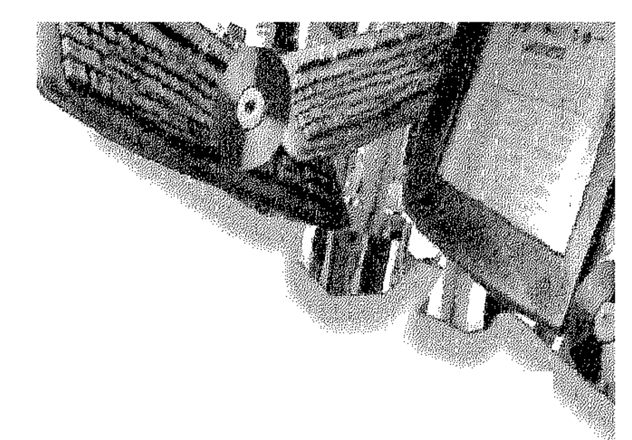
والجهد المبذول لدراسة تأثير التقنية على الثقافة يطرح فى الحقيقة المزيد من الأسئلة! أكثر من كونه يقدم إجابات شافية. لكن الأسئلة تنير لنا الفهم بطريقة ما، لأن كل وقفة سؤال يقدم لنا سلسلة من الاحتمالات المثيرة، ويعرضنا لطرق جديدة للتفكير، وفهم التغييرات التى تحدث حولنا، ونبدأ بطرح بعض الأسئلة ، التى نزعم أنها تقدم لنا مزيداً من الأسئلة لفهم تأثيرات تقنيات المعلومات، خاصة الإنترنت وموجاتها القادمة على الثقافة:

١ - هل سوف نتكلم كلنا فى العالم لغة واحدة يوما، أو عدة لغات؟ ان تقنيات الاتصالات والنقل - بالإضافة إلى الهجرة والغزو، بالطبع - ذهبت بعيداً لتقليل العزلة الجغرافية التى انتجت بغزارة اللغات الإنسانية المختلفة، فهل ستختفى تلك اللغات المختلفة يوما ما؟ وهل سيتعلم تلاميذ المدارس حول العالم الإنجليزية أو لغة التعارف القادمة!؟ هل ستنجح تكنولوچيات المعلومات فى تسهيل عبء الترجمة، وتقلل الاختلافات بين العالم؟ هل سيتكرر السيناريو التوراتى لبابل - بتبعثر القبائل فى الكلام بألسنة غير مفهومة، أم ان مهارتنا العالية فى التقنية تشجعنا للارتفاع إلى مستويات جديدة؟

٢ - تصبح الأديان على حد سواء ويزداد التسامح بين أصحابها ، وتتقارب أكثر؟ هل سوف يتفق أصحابها أو سيتباعدون؟ كان هناك دفع عظيم فى السنوات الأخيرة لإثارة التشابهات بين الأديان المختلفة، بدلاً من اختلافاتها. هل تنجح تقنية المعلومات فى تقديم الأديان المختلفة إلى العديد من الناس؟ وهل الناس سيكونون أحرارا لاختيار دينهم من بين الخيارات المطروحة؟ إذا كان الأمر كذلك، ما معنى الجوهر العميق للمعتقد الدينى إذا تحولت الأديان للاختيارات مجردة؟ هل تجعل تقنية المعلومات الأمر أكثر سهولة على الأديان لجذب وتجنيد الأعضاء الجدد، أو تصعب الموقف، بسبب عدد الخيارات المتوافرة؟ هل يمكن أن تتماثل وتندمج الأديان؟

٣ - هل ستقلل الإنترنت الاختلافات بين الثقافات، أو ستصبح تلك الاختلافات أكثر تعقيداً؟ وإذا كانت الثقافات تملك أنماطا وممارسات متميزة، وأن تلك الفروق والتمايزات مهمة للإنسانية، فهل ستتوافر فرص متساوية توفر للناس إمكانية الوصول السهل والرخيص إلى ثقافات أخرى على الإنترنت؟ هل سيتعلم الناس أن يتحملوا ثقافات أخرى، ويتسامحون معها على حساب ثقافتهم ؟ هل يصبح كوكبنا متجانساً أو أكثر تنوعاً ثقافياً؟

٤ - هل يتباطأ التطور الثقافى أو يسرع؟ فالثقافات تتغير ببطء، ويعتقد بعض الناس أن تقنية المعلومات ستساعد جيداً على إبقاء وصيانة وإبلاغ العناصر الرئيسية للثقافة! وانها يمكن أن توقف التغيرات فى العديد من المعتقدات والممارسات التى يمكن أن تأتى من الآخر! لكن ألا يحتمل أن التعرض المستمر إلى المعتقدات والممارسات البديلة



، يسرع فعلاً من سرعة التغيير الثقافي؟

٥ - هل سوف يزيد تفاعلنا مع بعضنا البعض، أم يقل ذلك التفاعل؟ تتضارب نتائج الدراسات التى نشرت حول الكيفية التى تجعل تقنية معلومات تميل إلى عزل الناس أو تنجح فى تجمعهم سوياً. وتحت هذه الادعاءات السهلة، هناك أسئلة مهمة حول تأثيرات التكنولوچيا على كمية الوقت الذى نقضيه مع الناس الآخرين؟ وماذا نعنى «بقضاء الوقت مع الآخرين».

ولأن الثقافة تميل إلى التطوير والنمو ببطء فمحاولة الإجابة على هذه الأسئلة ستأخذ دائماً تقريباً شكل الاستنتاجات الضخمة التى نتوصل إليها من الأدلة الصغيرة جداً. وهذا يزيد تقريباً شكل الاستنتاجات الضخمة التى نتوصل إليها من الأدلة الصغيرة جداً . وهذا يزيد التناقضات حول الثقافة، وحقيقتها، فالثقافة هى المجال الوحيد الذى نمارس فيه فى نفس الوقت أقل وأكثر تحكم وسيطرة على التكنولوچي! فبينما نحن نمارس إجراءات نهائية للسيطرة على الاعتقادات واللغات والعادات ، التى نمارسها، نجد أن الثقافة يشترك فيها ويؤثر عليها الاختيارات المستقلة للملايين الآخرين.

فى عالم ماقبل الإنترنت ، كنا جميعاً عندما نهاتف أحدا بالتليفون، لابد أن نكون على معرفة به، ونبحث عن رقمه للاتصال به! المدهش الآن أن الصداقات والاتصالات والروابط والكيانات الاجتماعية ، تتشكل بطريقة آنية وعفوية على الإنترنت، قد تكون من خلال المشاركة فى هواية، أو اهتمامات مهنية ، أو معتقدات دينية! فهى جاهزة التكوين فى أى وقت، فهناك آلاف من الكيانات الاجتماعية فى فضاء الإنترنت! والذى يبهرنى شخصياً الكيفية التى دمرت بها الإنترنت الجغرافيا! فعندما كنت طفلاً، ما حتى تخيلت الكلام مع الناس فى البلاد الأخرى، الآن ابنى يلعب لعبة تفاعلية على الإنترنت، مع خصوم فى فرنسا واليابان! والناس الآن يتواصلون عبر الإنترنت، رغم اختلاف لغاتهم من خلال آليات الترجمة الإلكترونية الفورية! ومع ذلك نحن بالكاد بدأنا الآن مع هذه الإنترنت، وهى تسرع ، ونحن نلهث وراءها ، فالموجة التكنولوچية القادمة من الإنترنت، تسمح للناس بالتواصل بدون خسارة وفقدان التفاصيل الدقيقة فى الاتصال ، سواء كان ذلك فى تعبيرات الوجه مثل الحاجب المرفوع علامة على التعجب ، أو الوفاء بتفاصيل المسرحية الكوميدية التى تشاهدها!

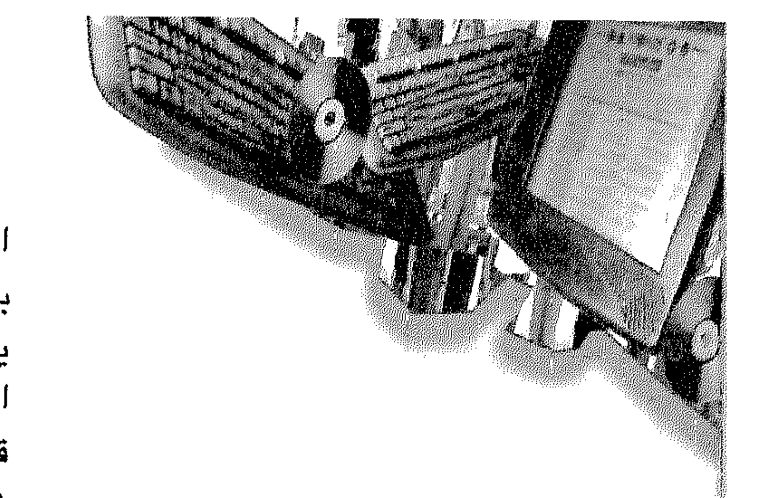
فهناك أكثر من موجة قادمة فى تكنولوچيات الإنترنت! على سبيل المثال يعكف العلماء الآن على أن تكون التكنولوچيا الرئيسية فى الإنترنت هى الصوت والفيديو ، بدلا من النص المتكلم

المنتشر الآن! فالفيديو هو المستقبل الحتمى للإنترنت، لكن يجب أن تبذل الجهود فى أن يكون استخدام الفيديو فى الإنترنت فى سهولة استعمالات معالجات الكلمات المنتشرة الآن! فعلماء الفلك عندما يطالبون علماء تقنيات الإنترنت، أن يوفروا لهم إمكانية الدخول على التلسكوب الإلكترونى الموجود على قمة جبل موناكى Mauna Kea فى هاواى ، بدون أن يضطروا إلى صعود ١٤٠٠٠ قدم، يكون الحل ، أن نوفر الفيديو عند اطراف أصابع الناس من خلال الانترنت، فيمكن لعلماء الفلك، وهم فى معاملهم أن يدخلوا على صور وبيانات التلسكوب التى يرصدها وهو موضوع على قمة الجبل! ويتشاركون بالصوت والصورة مع الفلكيين الآخرين، ويناقشون دراساتهم ، وأيضاً فى إمكانهم أن يدخلوا على المراصد الفلكية المنتشرة فى العالم، وهم جالسون فى قاعات الدرس مع طلابهم! لكن المشكلة فى كيفية وصول موجة إنترنت الجديدة إلى المستعمل النهائى، ونذكر أن أحلام البشرية تتحقق عادة فى وقتها المناسب. والشىء السحرى فى الإنترنت الآن،أن فى إمكان شخص ما فى أى بلد أن ينشر برنامجه المجانى على الإنترنت ذات مساء، وفى الصباح وبسبب ذلك البرنامج تتغير انماط عمل وتجارة الكثير من الأفراد حول العالم! فتصميم الإنترنت وفر عفوية رائعة أدت إلى الكثير من المرونة ، بحيث يمكن أن يصمم فيها أى شىء! وهنا معجزة وعبقرية الشبكة، ولكن فيها خطر عظيم! وظهر الكثير من السياسيين الذين يطالبون بعدم تمكين دخول الأطفال على الإنترنت للتزود بالمعرفة ، فى الوقت الذى يمكن فيه أن يتعرضوا لصور للبرنوجراف والأدب المكشوف!

التحدي في عصر الإنترنت

وهذه قضية جوهرية، فهذه التقنية ستصبح أكثر انتشاراً فى حياتنا، وستظهر تداعياتها على الأشياء التى نلبسها ، والتى نراها، وفى سياراتنا! وفى كافة مجالات حياتنا اليومية، وستجلب معها تلك التقنية الصالح والطالح! فهى تحمل كلاهما! فلا يمضى أسبوع بدون أن تقرأ الآن أن هناك فيروس دمر البيانات الموجودة على اقراص أجهزة الكمبيوتر فى مؤسسة ما، ويكلفنا ملايين الدولارات! وهناك إرهابيو الإنترنت، الذين يمكنهم شل وتعطيل قوة مسلحة متقدمة ، وهم على بعد فى أجزاء من الألف من الثانية! وهكذا تمكنت تنظيمات اجتماعية فى الظهور فى فضاء الإنترنت! فالمشكلة أن تقنيات الإنترنت تركض أسرع من أعرافنا، وعاداتنا الاجتماعية، وتقاليدنا ومعاييرنا الأخلاقية! التى نلهث وراءها ولا نستطيع اللحاق بها! فالإنترنت توفر لنا فرصة السرية، وتجهيل وإخفاء الهوية التى تشجع على السلوكيات السيئة! ونحن فى حاجة إلى قوانين جديدة تناسب متغيرات فضاء الإنترنت.

وأهتم العلم بدراسات التفاعل بين تكنولوچيات المعلوماتية والإنسان، والتى تستهدف جعل تلك التكنولوچيات أكثر



فائدة وأكثر صلاحية للاستعمال، وتزود المستخدمين بالتجارب التى تلائم خلفيتهم المعرفية وأهدافهم . والتحدى الآن فى عصر المعلومات، ليس فقط جعل المعلومات متوفرة ومتاحة للناس فى أى وقت، وفى أى مكان، وفى أى شكل لكن بشكل محدد، التحدى هو قول الحق فى الوقت الصحيح وبالشكل الملائم. ومصممو أنظمة الكمبيوتر فى تفاعلها مع الإنسان يواجهون مهمة هائلة، ومرعبة فى كتابة برامج الكمبيوتر، فأثناء التصميم مطالبين بكتابة برامج تناسب الملايين من المستعملين بخصائصهم المختلفة ، وفى وقت استعمال تلك البرامج يجب أن تبدو وكأنها صممت خصيصاً لكل مستعمل لوحده! وبحوث نموذجة المستعمل User modeling تحاول عنونة تلك القضايا، وهى أحد مجالات البحث التى يشكل فيها أساس المقترحات والاستثمارات الدافعة، ومستندة على حاجات المستعملين الواضحة وأرباحاهم المحتملة.

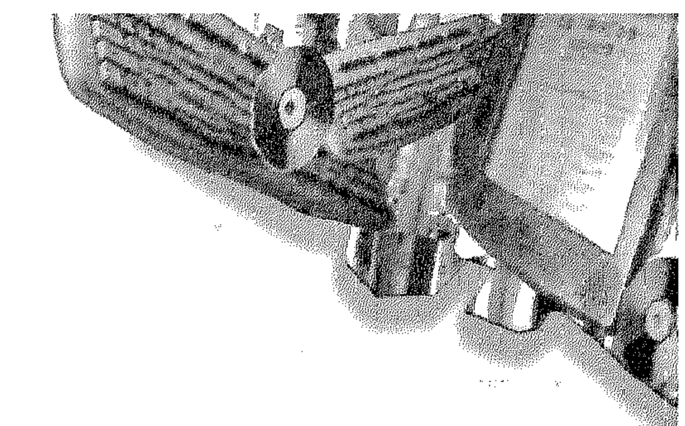
الموجة القادمة للإنترنت

عندما بدأت شبكة الويب العالمية فى ١٩٩٠، كان مشكوكاً فى نجاحها ومستقبلها . الآن هناك ملايين مواقع الويب، وبلايين صفحات الويب. لكن العديد من الناس يدركون جيداً، أن الويب بطىء بشكل مؤلم لأن أكثر الناس مازالوا يوصلون إلى الإنترنت من خلال استعمال المودمات وخطوط الهواتف. والمعروف أن قدرة خطوط الهواتف، (مدى التردد bandwidth) على حمل البيانات الإلكترونية، منخفضة، ونحتاج وقتاً طويلاً فى استلامها . لذلك وعدت التقنيات الجديدة الموجة القادمة للإنترنت بمعالجة هذه المشكلة . فمن خلال استعمال خطوط الألياف الضوئية، واستخدام تقنية كابل التليفزيون للاتصال بالإنترنت، تزداد سرعة الوصول بشكل مثير، وتجعل الويب أكثر فائدة، ويتوقع رؤية انفجار فى التجارة الإلكترونية، والمشروعات التعاونية، ومؤتمرات الفيديو، والبيانات التخيلية . والكثير من تلك التطبيقات تحت التطوير النهائى، وبعضها جاهز فعلا وقيد الاستعمال الآن فى بعض الأشكال، مثل «إنترنت٢» هو مشروع أمريكى بدأ من خلال اتحاد أكثر من ١٣٠ جامعة أمريكية مع الحكومة وشركات تقنية المعلومات لتطوير تقنيات إنترنت متقدمة، وتطبيقات عالية المستوى لايمكن أن تعمل على شبكة الإنترنت المستخدمة حالياً مثل تقنية «Iearning» (وهوبرنامج سيتم استخدامه فى الفصول الدراسية والتعليم عن بعد)، وكذلك المكاتب الإلكترونية، وعقد الاجتماعات عن بعد بكفاءة أعلى مما سيؤدى إلى اختفاء الحد الفاصل بين الإنترنت كتقنية والتليفزيون. ولتحقيق ذلك يعتمد إنترنت٢ على استخدام بروتوكول إنترنت (الإصدار ٦) بدلاً من (الإصدار

٤) المستخدم حالياً. ومشروع شبكة إنترنت ٢، حالياً، غير مفتوح للعامة، لكنه ليس شبكة منفصلة، فهو يعتمد على بروتوكولIP، وتشترك به حالياً ١١٧ جامعة أمريكية، بالإضافة إلى الإدارات الحكومية، وحوالى ٢٥ مؤسسة. ويوفر المشروع سرعة نقل عالية جداً، يبلغ معدلها ٦٢٢ ميجابت فى الثانية، فترسل نسخة من كتاب بحجم ٣٠٠ صفحة فى ٧ ثوان فقط. وتكمن إحدى فوائد شبكة إنترنت٢، فى تخفيف حمل حركة مرور البيانات الحكومية، والبيانات الخاصة بالأبحاث الأكاديمية، عن شبكة إنترنت العامة، مما يسرع استخدام الشبكة لجميع المستخدمين ، بما فيهم مستخدمى شبكة إنترنت٢، وعندما يكتمل الائتلاف بين مئات الشبكات السريعة، التى ترتبط بكوابل الألياف الضوئية، سوف ترسل البيانات فى سرعة بحدود ٢.٤ gigabits فى الثانية، يعنى أكبر ٤٥ ألف مرة، من سرعة المودم المعتاد والمستعمل الآن، حيث تقدر سرعته بـ ٥٦ كيلو بت بالثانية ، وتسمح للعلماء لاختبار اكتشافات مختبرهم الافتراضى، وكأنهم فى العالم الحقيقى.

وهذا الجيل الجديد من الإنترنت بدأ يصبح على الخط فى فبراير ١٩٩٩، وارتبطت به عدد من الجامعات حول العالم. وسيتوفر للاستعمال التجارى فى بضع سنوات. ثم يستعد لخدمات القرن الحادى والعشرين مثل التليفزيون التفاعلى، ومؤتمرات الفيديو التخيلية ثلاثية الأبعاد، والأفلام عند الطلب، وأكثر بكثير. وتلك الشبكات السريعة ستوفر الفرصة للمهنيين المحترفين العمل بطرق كانت مستحيلة من قبل، وكما أوضحنا فى البداية مثال علماء الفلك، فإن علماء العالم فى إمكانهم أن يشتركوا فى الأجهزة المتخصصة مثل المجاهر الإلكترونية ، وقد طورت وكالة ناسا الأمريكية عيادة تعاونية تخيلية، توصل من خلالها كافة التسهيلات الطبية حول الولايات المتحدة بالكامل! وتسمح للأطباء من على بعد بالتعامل ومعالجة الاختبارات الطبية مثل صور أشعة بالرنين المغناطيسى ثلاثية الأبعاد وذات درجة وضوح عالية جداً. والأطباء يستطيعون أيضاً غير الاستشارة والتشخيص القيام بالجراحة من على بعد باستعمال Cyberscalpel «سيبير سكالبيل»، بمعنى المحاكاة للعملية الجراحية، حيث تعطى الجراحة التخيلية الجراحين الفرصة للمزاولة قبل البدء الفعلى بدخول غرفة العمليات الحقيقية ، فتوفر الوقت المطلوب لإجراء العملية.

وإذا كان الكمبيوتر الشخصى اليوم هو الوسيلة الأساسية لدخول الإنترنت، فنحن نرى الآن بشائر وجود أجهزة أخرى للدخول عن طريقها للإنترنت مثل أجهزة البيجر والهواتف المحمولة، التى ترسل وتستلم البريد الإلكترونى ويدخلان الويب. وقريباً، كل شىء من سيارتك إلى ثلاجتك سيكون مرتبط إلى الشبكة العالمية، وتتصل مع بعضها البعض لاسلكيا! فالمكنسة الكهربائية فى منزلك ستبين لك على شاشتها جدول العمل الذى



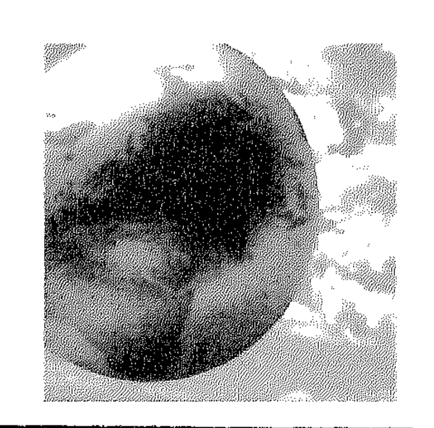
ستقوم به بالدقيقة والثانية، حتى تترك لها المنزل لتعمل براحتها، وثلاجتك ستدير مخزونك من الأطعمة، وترسل قائمة التسوق بالبريد الإلكترونى إلى سوقك المركزى المحلى، وتحدد وقت تسليم المشتروات، بحيث لاتعطل عمل المكنسة وتنسق معها! إن إنترنت ٢ ليست منفصلة عن الإنترنت، ولن تكون بديلاً عنها، فهى فى تواز معها. وبخلاف ماعليه الحال فى مشروع إنترنت ٢ الذى تقوده الجامعات، فإن الحكومة الأمريكية هى التى تقود وتمول مشروع إنترنت الجيل المقبل (NGI) إنترنت الجيل المقبل (the Next Generation Internet-NGI) التى انطلقت فى الأول من أكتوبر ١٩٩٧- هى مبادرة تشترك فيها عدة هيئات ومؤسسات، سعياً لمضاعفة السرعة الحالية للإنترنت ١٠٠-١٠٠٠ مرة، ولإيجاد تقنيات تشبيك أقوى كثيرا من تلك الموجودة حالياً على الإنترنت. وعلى كل حال فإن المشروعين يتقدمان بشكل متواز ويكمل كل منهما الآخر. ويهدف مشروع إنترنت الجيل المقبل (NGI) إلى تطوير تقنيات تشبيك شاملة (end-to-end) متقدمة تحفز على تطوير تطبيقات ثورية ستستخدم فى الشركات والأعمال، والجامعات، والمدارس، كما سيستخدمها أيضاً عموم الناس. ومن هذه التطبيقات - على سبيل المثال لا الحصر - المكتبات الرقمية وتطبيقات متقدمة للتعليم، والعناية الصحية، والخصوصية والأمن إضافة إلى تطبيقات صناعية وبيئية .

إسرائيل والعرب

كشفت مجلة «إنترنت شوبر» فى عددها الصادر فى مايو عام ٢٠٠٠ عن أن إسرائيل انضمت للمشروع الأمريكى «إنترنت٢» وانتهت من إعداد إجراءات الاتصال بهذه الشبكة الجديدة بعد أن وقعت فى وقت سابق - فى أوائل عام ١٩٩٩ - على اتفاقية لتوصيلها بشبكة «إنترنت٢» الأوروبية، وهى شبكة مثيلة للشبكة الأمريكية. ويسمى المشروع الأوروبى «الإنترنت٢» باسم كوانتم، ويسمح بتبادل المعلومات بين الدول الأوروبية بسرعة تصل إلى ١٥٥ ميجابايت فى الثانية، معتمدة فى ذلك على تقنية جديدة مشابهة للإصدار ٦ الأمريكى أما المشروع الأمريكى فأكثر تطوراً. وهناك من يقول إن إسرائيل ستعد أول دولة فى العالم بعد أمريكا تستخدم «إنترنت٢»، وأن الحكومة الإسرائيلية ستقوم بدعم المشروع الأمريكى والمشروع الأوروبى لمدة ٤ سنوات من أجل الاستفادة منه فى تطبيقات خاصة بالأبحاث المتعددة على الهواء مثل عقد الاجتماعات المرئية والبث المباشر عبر الإنترنت والطب الهاتفى أو أى تطبيقات تحتاج إلى سرعات هائلة. وفى تعليق لرئيس تحرير المجلة على تأثير انضمام

إسرائيل «لإنترنت ٢» الأمريكى والأوروبى قال : «إنترنت ٢ ستجعل من شبكة الإنترنت الحالية التى يستخدمها العرب والعالم شبكة عقيمة مثلها مثل الطائرات الشراعية القديمة، مقارنة بالطائرات النفاثة العملاقة المستخدمة حالياً. ولما كانت الاستفادة من شبكة إنترنت ٢ مقتصرة فقط على أمريكا وكذا الشبكة المثيلة الأوروبية مقتصرة على عدة بلاد أوروبية - فإن انضمام إسرائيل للشبكة الأمريكية ومثيلتها الأوروبية لايعنى سوى مزيد من انعزال العرب وتخلفهم وراء أسوار الشبكة القديمة ، فى حين ستتميز إسرائيل بكونها الوحيدة فى منطقة الشرق الأوسط التى ستستفيد من التقنيات الجديدة وما سيتبعها من تطبيقات لن يتمكن العرب من استخدامها أو الاستفادة منها». ومن ناحية أخرى يلاحظ أن النظرة فى الشرق الأوسط نحو الإنترنت مختلفة من بلد لآخر، فهناك تخلف واضح: فسبعة بالألف فقط من المنطقة الـ ٢٨٠ مليون عربى يستخدمون الإنترنت. بينما فى إسرائيل تعد التكنولوچيا العسكرية واحدة من أهم مجالات التطور التكنولوچى ودوافعه، حيث تتفوق إسرائيل على أوروبا وتقف بين أول خمسة مراكز عالمية فى إنتاج برمجيات تكنولوچيا المعلومات. واستثمارات أمريكا فى التكنولوچيا فى إسرائيل تفوق مافى بريطانيا أو آسيا مجتمعة وشرق أوروبا.

بالعكس من إسرائيل هناك تردد عال فى الدول العربية لتبنى تكنولوچيا المعلومات ، وخاصة الإنترنت. ويقفون موقفاً سلبياً منها متخوفين كالعادة من المحرمات الثلاثة: السياسة والدين والجنس، لكن التخوف الأكبر بين الحكام العرب من الأثر السياسى للإنترنت! وإذا كانت هناك محاولات مشكورة تبذل فى مصر، لتوفير أجهزة كمبيوتر فى كل أسرة بأقساط معقولة، وتوفير إمكانية الوصول إلى الإنترنت بتكلفة متوازنة، فإن الحواسيب وحدها ليست كافية للانضمام إلى الاقتصاد الإلكترونى، فمحو الأمية الرقمية عنصر أساسى أيضاً . لقد أصبح واضحاً خلال السنتين الماضيتين أن توفير خط هاتف وجهاز حاسوب لكل سكان مصر لن يكون بحد ذاته قادراً على تجسير الفجوة الرقمية التى باتت تتسع بين مصر والعالم المتقدم فالموضوع يحتاج أولاً عقلية جديدة تكسر منظومة التخلف السياسى والاقتصادى والاجتماعى، لأن التكنولوچيا الرقمية، تكون عديمة القيمة عملياً إذا وجدت فى مجتمع يسيطر عليه منظومة التخلف، وبين ناس غير مؤهلين بالمعرفة الكافية للعمل عليها وكذلك الرغبة لاستخدامها . وهؤلاء الذين لايستطيعون استخدامها بثقة سواء كانوا دولا كاملة أو مجموعات أو أشخاصاً سيصبحون تدريجياً مهمشين فى القرن الجديد ■



ماذا يحدث غداً ؟!

جزء خاص

السينما المصرية

رؤية مستقبلية

بقلم
مصطفى درويش

نتساءل فى هذه الأيام العصيبة من عمر لسينما المصرية، ما مصيرها، وماذا ينبغي أن تكون، فيما لو كتب لها أن تواصل فى مستقبل الأيام مسيرتها، التى بدأت قبل أكثر من خمسة وسبعين عاما، من عمر الزمان.

فمعروف أن ماجرى عرضه من انتاجها فى أثناء العام الذى ودعناه قبل ساعات، قد انحدر إلى سبعة وعشرين فيلما، يدخل فى عدادها خمسة أفلام. جرى عرضها على عجل، بمناسبة عيد الفطر المبارك، ومن بينها فيلمان اتخذا هذين الاسمين خللى الدماغ صاحى وكذلك فى الزمالك وأغلب الظن أنه لن يبقى منها على شاشة ذاكرتنا سوى فيلم أو فيلمين، أحدهما اللمبى، لا لسبب سوى أنه فيلم فاصل وفاضح فى آن معا .

استديو جلال !



فاصل بين سينما لاتقول شيئا، وأخرى تواجه مشكلات الحياة كما نواجهها، وتصورها فى أفلامها تصويرا دقيقا، خصبا ، مجديا. وفاضحا لسينمائيين ونقاد منفصلين عن حياة معاصريهم، أو اعتزلوهم ليعيشوا فى أبراج عاجية، حيث ينتجون أفلاما لاتتصل بآلام الناس وآمالهم، ومايعرض لهم من بؤس ونعيم، ويكتبون مشيدين بهذا النوع من الأفلام.

انعدام البشائر

أما عن انتاجها على مدار العام الجديد، فالراجح أنه، ومع التفاؤل الشديد، سيجنح نحو الانحدار إلى النصف، وربما أقل، فى ظل المشاكل التى تقيم صانعى الأفلام وتقعدهم، منذ حين، ودون سعى منهم إلى إيجاد حلول جذرية لها فى المستقبل القريب.

هذا ، وليس ثمة فى الأفق مايبشر بأنها مقبلة، ورغم الكم الضئيل، على إنتاج أفلام، فى أثناء العام الحالى، تصور حياتنا الواقعة على نحو يؤهلها للبقاء على شاشة ذاكرتنا.

ولقد تصادف، وأنا حائر اتساءل مع المتسائلين عن مآل السينما عندنا، وماذا تدخر لها الأيام، أن وقع بصرى،. وأنا أقلب صفحات العدد الأخير من مجلة ستديو الفرنسية (عدد ديسمبر ٢٠٠٢) وعلى بضع صور مأخوذة من معرض فى باريس، التقطتها لورى فاسكونتى لاستديوهات عتيقة فى برلين وروما والقاهرة ولوس أنجلس، حيث لاتزال تصنع الأحلام، أو كانت تصنع فى سالف الزمان.

وتحت كل صورة لاستديو فى واحدة من تلك المدن، وجميعها عدا لوس أنجلس عواصم لبلادها المانيا وإيطاليا ومصر، كتبت صاحبة المعرض تعليقا من بضعة أسطر، كاشفة فيه ما آل إليه حال الاستديو، تحت تأثير عاديات الزمان.

وكان استديو «شينى شيتا» (وتعنى بالإيطالية مدينة السينما) فى روما واستديو جلال فى القاهرة، كان كلاهما أكثر استديوهات المدن الأربع تأثرا.

الغزو الكبير

فوفقا لتعليق فاسكونتى على صورته فى مدينة السينما الايطالية أثناء عام ٢٠٠٠ غزا التليفزيون الإيطالى المدينة بجميع استديوهاتها، عدا استديو رقم خمسة، حيث كان يصور فيللينى روائعه

أما لماذا حدث هذا الاستثناء فذلك لأن اتساع استديو فيللينى فاق بكثير طاقة التليفزيون على الإرسال.

وعلى كل، فلم يبق من عصر السينما الايطالية الذهبى سوى نفر من الفنيين المسنين، أرباب المعاشات، ونفر آخر من قدامى الممثلين المؤدين لأدوار هزلية، والعاطلين عن العمل.

ويكاد لايمر يوم دون أن يتوجه كلاهما إلى الكافيتيريا، حيث يبدو تجمعهما العفوى، وكأنه اجتماع لقدماء المحاربين.

وفى طرقات المدينة - يتعثر المرء فى



بينوكيو ونهضة السينما الإيطالية

بقايا ديكورات متروكة وشأنها منذ سنوات.

ولعل خير مثل على ذلك رأس ضخمة ومتوجة استعملها فيللينى فى فيلمه كازانوفا.

وهنا لا أحد يقدم أية خدمة لأى من كان، ولاشىء مسلطة عليه الأضواء.

فمدينة السينما غارقة ليلا فى بحر من الظلام، وكان على حتى أتمكن من القيام بعملى الاستفادة فى بعض الأحيان من أنوار كشافات السيارات.

بأس ورثاء

فإذا ما انتقلنا إلى صورة استديو جلال التى جرى التقاطها فى فبراير لعام ٢٠٠٢، فسنجد أنفسنا إزاء تعليق لفاسكونتى يقطر يأسا من مستقبل السينما فى أرض الفراعين.

ففيه ترثى حال الاستديو قائلة : إنه لم يبق منه شىء، أى أثر.

كل ما هنالك حظيرتان ضخمتان بأرضية جرداء، وأسلاك كهربائية عالقة بالأسقف، وكأنها ديدان.

السينما فى مصر ماتت، ولم يعد فى الإمكان العثور على معمل لتحميض الأفلام.

إنه الخراب ، الإهمال والتبذير بغير حساب ويحاول نفر من الشباب مدفوعا بالحماس، العمل من أجل إعادة بناء استديوهات مصر، وهى فعلا تقع على عتبة الأهرامات، وكانت تعتبر أكبر استديوهات سنوات الثلاثينات.

غير أن رسوخ الأخلاقيات المتشددة

والرقابة والضرائب رسوخ الجبال جعل تنفيذ هذه المهمة أمرا من الصعوبة بمكان.

ولأن صناعة السينما عالمها مليء بالمفاجآت، فقد حدثت فيما بين تصوير فاسكونتي لاستديوهات مدينة السينما في روما، قبل عامين ، وصدور العدد الأخير من مجلة استديو، أمور لم تكن في الحسبان.

عودة الروح

فبسحر ساحر عادت الروح إلى استديوهات مدينة السينما في روما، تلك الاستديوهات الضخمة التي بناها بنيتو موسوليني، ديكتاتور إيطاليا، قبل خمسة وستين عاما، لتكون بوق دعاية لنظامه الفاشي البغيض والحق، أن الروح لم تعد إلى تلك الاستديوهات إلا بفضل خصخصتها، وتزويدها بأحدث التقنيات الرقمية، وتبني الدولة لسياسة ضرائبية أكثر جنوحا لحماية صناعة السينما، هذا إلى تحرير جميع وسائل التعبير، ووسائط الإعلام الجماهيرية من رق الخضوع لاستبداد الرقابة سواء كانت رسمية أو أهلية، متمثلة في فضوليين من عامة الناس، اعتادوا الاستمتاع باستعداء القضاء ضد فن السينما، وذلك عن إيمان ساذج بأنهم على علم ومعرفة بمسائل الأخلاق، ومن ثم بما يضر وينفع الناس من الأفلام.

وما أن استردت السينما الإيطالية عافيتها، بفضل عودة الروح إلى استديوهات مدينة السينما، حتى بدأ تصوير بينوكيو أغلى فيلم في تاريخ السينما الإيطالية، إذ بلغت تكلفته حوالي أربعين مليونا من عزيز الدولارات.

وبينوكيو مأخوذ عن قصة بنفس الاسم، تدور أحداثها حول صبي كلما نطق لسانه بكذبة، طال أنفه.

والقصة من تأليف الأديب الايطالي كارلو كوللودي ويرجع نشرها إلى عام١٨٨١.

ومنذ هذا التاريخ أتيح لها من النجاح والانتشار مالم يتح لقصة إيطالية في العصر الحديث.

وثمة إجماع من النقاد في مشارق الأرض ومغاربها على الإعجاب بها.

وهذا الانتشار والإعجاب دفع السينمائيين إلى ترجمتها للغة السينما أكثر من مرة، كانت أولاها في فيلم رسوم متحركة طويل، من إنتاج استديوهات والت ديزني، قبل اثنين وستين عاما .

أما بينوكيو الايطالي، فقد اخرجه روبرتو بينيني صاحب الحياة الجميلة، ذلك الفيلم الفائز بثلاث جوائز أوسكار، من بينها أوسكار أفضل فيلم أجنبي.

هوليوود وروما

وأعود إلى التصوير في استديوهات مدينة السينما، بعد عودة الروح إليها، لأقول : إنه لم يقتصر على أفلام السينما الايطالية، بل تجاوزها ممتدا إلى أفلام السينما الأمريكية.

فقبل بضعة أشهر صور فيها مارتن سكورسيزي المخرج الأمريكي الذائع

الصيت فيلمه «عصابات نيويورك» بطولة ليوناردو دى كابريو، دانى داى لويس، وكاميرون دياز.

وخلال الأشهر الأولى من العام الجديد يزمع النجم ميل جيبسون صاحب قلب شجاع تصوير فيلمه عن الأثنتى عشرة ساعة الأخيرة من حياة السيد المسيح.

وكما استردت السينما الايطالية عافيتها يرجى للسينما المصرية أن تسترد هى الأخرى عافتيها فى مستقبل قريب.

مرض وشفاء

فهى لم يجئها الموت بعد، كما غالت فاسكونتى فى تصورها لحالها، من واقع اكتفائها حسب البادى من تعقيبها، بما رأته عيناها فى استوديو جلال فهذا الاستديو توقف فيه التصوير منذ زمن بعيد ورغم ذلك، استمر عطاء السينما المصرية من الأفلام الروائية والتسجيلية دون انقطاع.

وهى إذا كانت عليلة، فعلتها ليست من النوع الخبيث، المميت.

ولعلى لست بعيدا عن الصواب إذا ما جنحت الى القول بأنه لاخوف على صناعة السينما فى مصر، فيما لو تحقق لها ما تحقق لصناعة السينما فى ايطاليا، بفضل عودة الروح إلى استديوهات مدينة السينما.

وفيما لو اتيح للسينمائيين المصريين أن ينزلوا بأفلامهم متحررة



مدينة السينما فى روما

من الرقابة، إلى الحياة الواقعة، وأن يشاركوا الناس فى آلامهم وآمالهم .

انتصار الشباب

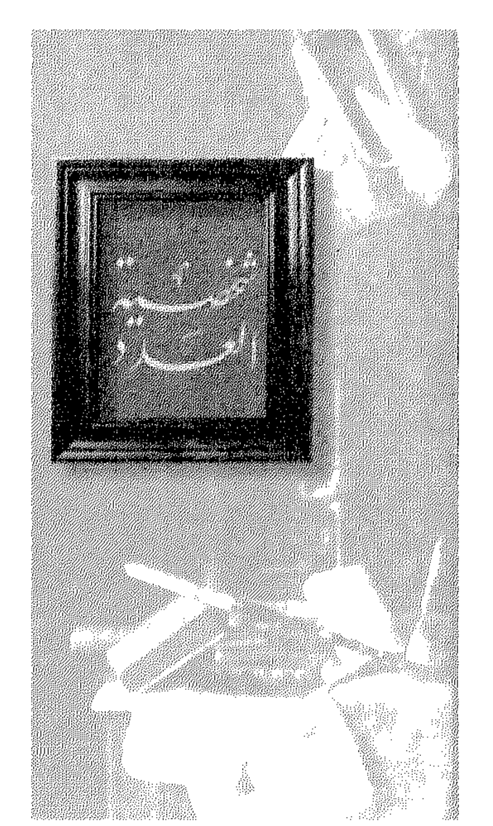
وفيما لو فتحت الأبواب أمام جيل من المواهب الشابة، أثبت من ناحية قدرات تقنية متميزة، ومن ناحية أخرى ولعا بالابتكار.

جيل سينمائى جديد، لاينقصه سوى أن تتاح له فرص الاقتحام.

والحق أنه ليس فى وسع أية قوة أن تقاومه، فهو جيل المستقبل.

وهذا المستقبل سيكون قريبا فيما لو أسرع أولو الأمر فى مجال الثقافة، بفتح الأبواب، وبعيدا فيما لو أبطأوا.

ولكنه سيكون على كل حال. ■

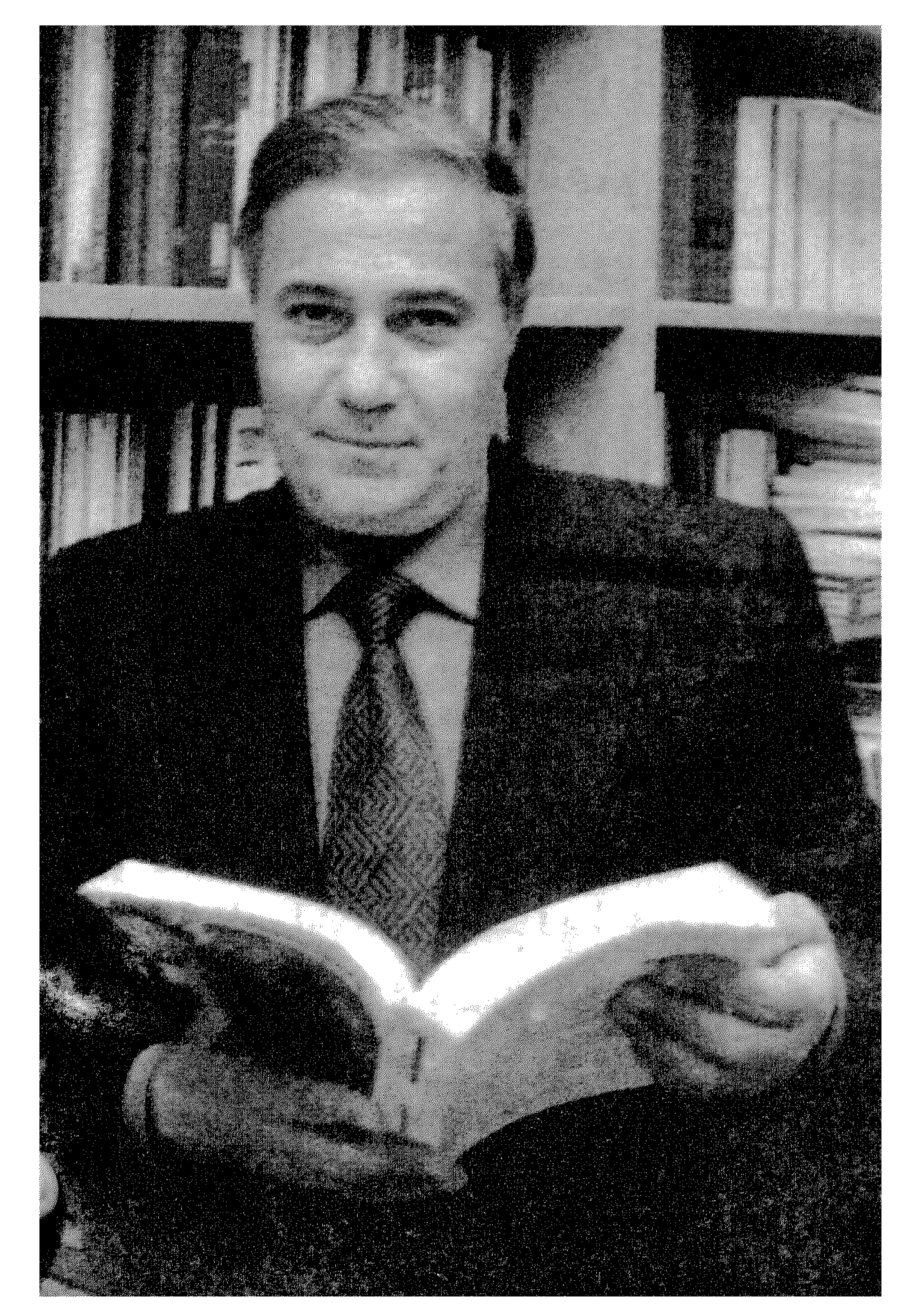


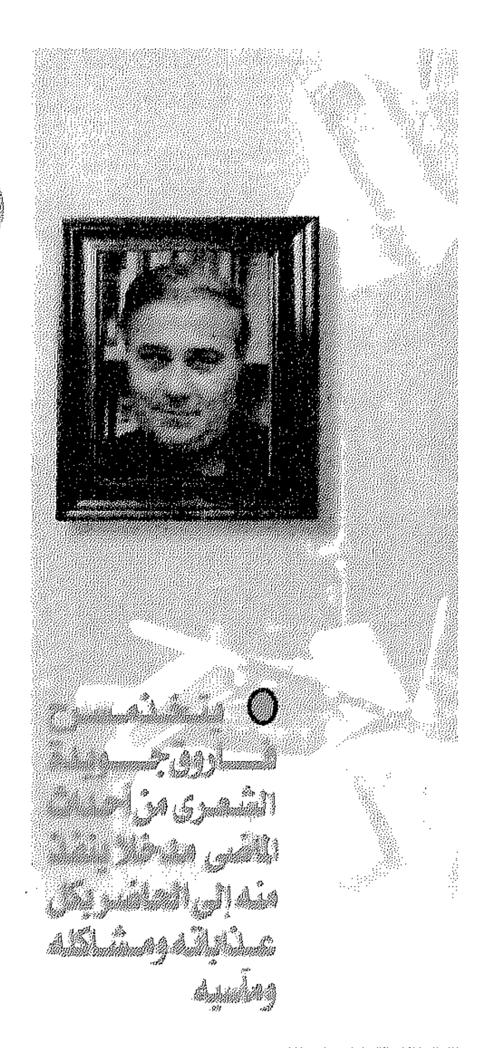
فاروق جويدة

شاعر الحب والحياة

بقلم
د. أحمد السيد عوضين

هذا القلم لم يخط سوى الشعر، حتى ليخيل إلىّ أنه لو طلب إليه أن يستوفى البيانات اللازمة لاستخراج «بطاقة تموين» لصاغ تلك البيانات فى عبارات هى إلى الشعر أقرب منها إلى النثر، وإن جاءت في صياغة نثرية، فلن تفارقها روح الشعر، فهو شاعر بالسليقة، حتى فى أحاديثه العادية.. ولا يتمثل الشعر عنده فى اختيار ألفاظ معينة لا يعدوها. فكل الألفاظ عنده تصلح أدوات لأشعاره، وليست الأوزان والقوافى هى من لوازمه الدائمة، فكثيراً ما يتحرر من القوافى، وفى بعض الأحيان لا يلتزم حتى بالأوزان، فضلاً عما يعمد إليه فى جانب كبير من إبداعاته إلى أسلوب النثر، وهو يتناول القضايا الحياتية، والمشاكل اليومية.. ومع ذلك كله فأنت لا ترى فيه إلا شاعراً، فروح الشعر قد تملكته فى كل إبداعاته.. تلك الروح التى لا تظهر فى الألفاظ والعبارات والتركيبات بقدر ما تظهر فى المعنى الكامل الذى يعبر عنه، فى الغاية السامية التى يهدف إلى تحقيقها، فى الصورة الكاملة التى يود أن يرسمها، فى النغمة الرقيقة التى يحب دائما أن يعزفها، فى اللحن الشجى الذى لا يفتأ يردده، فى الآفاق العلوية التى يود أن يسمو إليها، فى معاني الصفاء والنقاء والطهر والشفافية التى يتمنى أن ينشرها ، فتسود وتصبح هى ديدننا فى الحياة، تقود خطانا، وتنير أمامنا الطريق، وتفتح لنا الآفاق.





إنه الشاعر: فاروق جويدة.. لا نصفه بأنه الشاعر الكبير، أو المبدع، أو بغير ذلك من الأوصاف، فيكفى أن نذكر اسمه ليتمثل أمام عشاقه ومحبيه: بوجهه الباسم، البشوش، بنظرته الرقيقة ، بكلماته الحلوة المؤثرة .. وما تلبث أغانيه وقصائده وأشعاره أن تتردد فى السمع ألحانا عذبة، ونغمات آسرة، فإذا بك فى عالمه الجميل، تردد معه أجمل المعانى، وتعيش معه الحب الصادق، والسماحة الصافية، فى صحبة كل ما هو جميل.

حب الحقيقة

والحقيقة أن شاعرنا قد اجتاز بأشعاره كل العوالم التى اجتازها من قبله الشعراء، ولكنه تفوق على من قبله بإخلاصه الصادق لكل ما يعبر عنه، وبتجرده الكامل لحب الحقيقة فى كل ما تغني به.. وليست الحقائق كلها عنده وردية، فنظرته للأمور هى دائماً نظرة متعمقة تنفذ إلى الجوهر، ولا تقف عند الظاهر، بل ولا يمكن أن تخدع عن الحقائق أيا ما كانت المغريات.. ومع ذلك فأنت تحس به دائماً يخاطب قلبك، وينفذ إلى سريرتك .

فهو - كما ذكر - لا يجلس فى برج عاجى ويكتب .. بل هو كما تحدث عن نفسه قائلاً : «أنا لا أرسم رسماً هندسياً لعمارة .. أنا إنسان يتفاعل مع مجتمعه وظروفه وتكوينه ومتغيراته وأنمى نفسى فكرياً وثقافياً وأحاول استيعاب تجربة عصرى وجيلى ومن خلال كل هذا يأتى الإبداع.. أنا لا أجلس فى برج عاجى وأكتب.. أنا أدعى أننى مهموم حتى النخاع بقضايا وطنى وأمتى.. وقد يكون هذا منحنى مشاركة الناس سواء فى مسرحياتى أو شعرى أو مقالاتى..».

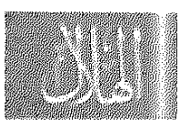
وللشاعر فاروق جويدة مسرحيات ثلاث مطبوعة ومنشورة بل وجرى تمثيلها على مسارح الدولة، وشاهدها الآلاف من المشاهدين وصفقوا لها رضا واعجاباً وانبهاراً، وقد أذيعت اثنتان منها فى التليفزيون أكثر من مرة فاتسع بذلك نطاق المشاهدين.. أما الثالثة، فلم يؤذن لها بأن تتخطى عتبات المسرح إلى الشاشة الصغيرة حتى الآن ، وقد تساءل الشاعر أكثر من مرة عن السر فى حجبها عن الجمهور العريض، وما أحسبه جاداً فى تساؤله، فهو يعرف قبل غيره - بل وأكثر من غيره - حقيقة ذلك السر الذى لا يفتأ يتساءل عنه!

وثمة مسرحية رابعة فى الطريق، وهى - على ما يبدو قد اكتملت ملامحها ، وربما تمت فصولها واستوت خلقاً سوياً، ولكنها لا تزال أسيرة صاحبها لم يأذن بعد بأن يرفع عنها الستار.. وأحسب أنه قد حان أوان ظهورها..!

والجامع بين المسرحيات الأربع أنها جمعت بين ماض وبين وحاضر، فهى وإن كانت ترجع بأحداثها إلى ماض بعيد - أو قريب - إلا أنك ما إن تدخل إلى عالمها، وتعيش مع أبطالها حتى ترى نفسك وكأنك فى مجتمعك المعاصر، تعيش أحداثه، وتواجه مشاكله، تفرح بأفراحه، وتتعذب بعذاباته.. وكأن كل ما هنالك من فروق لا يعدو اختلاف الأزياء، وما يطلق على أولئك الأبطال من أسماء معروفة تاريخياً.

وذلك هو ما أشار إليه الشاعر نفسه - بصراحة ووضوح - فى حديث عقب فوزه بجائزة الدولة التقديرية.. ففى حديثه عن «المسرح الشعرى» الذى كان من أرق من ارتادوه، وأبدعوا فى مجاله.. كان مما ذكره: عشت فى مسرحية (الوزير العاشق) ضياع الأندلس وضياع القدس.. سميت التاريخ وخلعت عليه الواقع، واستشرفت من خلاله المستقبل وحذرت.. و(الوزير العاشق) كانت نبوءة لما يحدث فى الوطن العربى الآن برغم أنها نبوءة سيئة تحققت ولم أكن أتمناها..! وفى مسرحية (دماء على ستار الكعبة) أخرجت الطغاة العرب - وما أكثرهم فى التاريخ الحديث - وأخرجت الحجاج من قبره، ونصبت له محاكمة، وحاكمت كل الطغاة..!! وفى مسرحية (الخديو) أنصفت الأسرة العلوية ضمن السياق الموجود ، وقلت إذا كانت هذه الأسرة لها أخطاء، فلها أيضاً مكاسب، وأن الأشياء القليلة الباقية الآن فى حياتنا كانت من صنع الخديو إسماعيل ومن صنع محمد على، وأنصفت الخديو إسماعيل برغم أننى مختلف معه كثيراً، وناقشت قضية الديون وناقشت قضية الدين والسياسة، والمدى الذى يجب أن تتوقف عنده الشعوب من حيث التبعة، ومسرحيتى الرابعة الجديدة أناقش فيها مسألة دخول (هولاكو) بغداد وما يحدث فى الوطن العربى الآن، واخترت (هولاكو) كنموذج للقوة الجبارة المتغطرسة الغاشمة الجاهلة، ويمكن أن تكون قوة جاهلة وهى تحمل كل أساليب التكنولوجيا، وناقشت جزءاً من التاريخ المعاصر فى شارون وبوش، وأدنت الحكام العرب، والجبروت باسم القوة لحظة تاريخية مخيفة .. اجتياح بغداد والخيانات التى حدثت وسقوط العرب ، للأسف لم يحكم العرب باسم الإسلام أبداً بعد دخول هولاكو بغداد، كانت آخر علاقة للعرب بالدولة الإسلامية هى سقوط بغداد، وأدنت العرب، أنهم للأسف الشديد كانوا عبئاً على الإسلام».

وهكذا نرى أنه فى مسرحه الشعرى يتخذ من أحداث الماضى مجرد مدخل ينفذ منه إلى الحاضر بكل عذاباته ومشاكله ومآسيه بكل صراعاته وخلافاته ومظالمه وبكل ما نعانيه..!



وصوت الشاعر العاطفى لم يخفت أبداً، فالمجموعة الكاملة لأعمال فاروق جويدة - فى طبعتها السادسة - تضم اثنتى عشرة مجموعة شعرية - إضافة إلى مسرحياته الثلاث - وقد أصدر ذلك أكثر من مجموعة شعرية كانت الأخيرة منها هى «قصائدى فى رحاب القدس» وهى تضم عشرين قصيدة جاءت جميعها من وحى القدس، فالشاعر لم تستهوه ولم تستثره عواطفه الذاتية وعوالمه الشخصية وحدها، بل شغلته، وأهمته، وعذبته - كذلك وفى الوقت نفسه - هموم الوطن، وآلام العرب ، وعاش ينزف معهم دماً حاراً، فالجرح أصبح غائراً، بل لقد أصبح جروحاً عديدة تنزف فى كل مكان من الوطن العربى، ومن أسف أننا لا نملك حيالها غير الصراخ..

والبكاء.. على أمل أن يشرق صبح قريب تنقشع فيه الظلمة، وينمحى الظلم، وترتفع راية العدل والحرية.

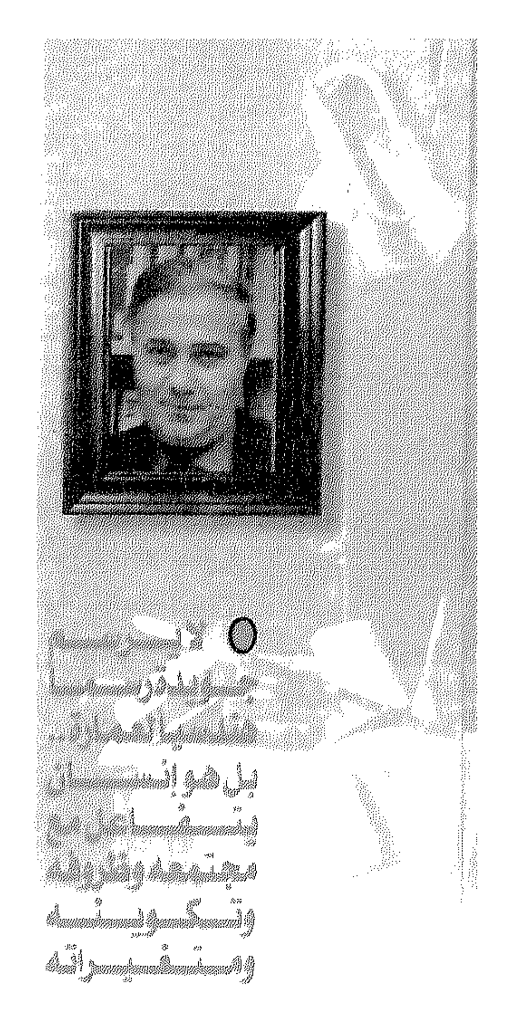
فزمانك حقاً يا ولدى..
زمن الإيمان .. الإيمان..
واجعل من حجرك مئذنة..
ودعاء مسيح ..
أو رهبان ..
واجعل من حجرك مقصلة..
واخرس تعويذة كل جبان..
فالزمن القادم..
يا ولدى،
زمن الإنسان..
زمن الإنسان

- ولتوجه خطابك مع شاعرنا - إلى شارون - وهويقول له بعد أن فضح مساوئه:

أنا من طين هذى الأرض..
أعرفها وتعرفنى..
وأسكنها وتسكننى..
ويجرى حبها المجنون نهراً فى حنايانا.
أنا العمر الذى ولىٍ..
أنا الفجر الذى هل..
ليحيى كل ما كانا..

والشاعر فى دواوينه العاطفية تلمس فى قصائده سمات ما تلبث أن تتكشف لك منذ أشعاره الأولى.. وإذا كان حرصه شديداً على سلامة اللغة ، وحسن انتقاء مفرداتها - فأنت لا تجد فى كل أشعاره لفظاً نابياً أو جملة مستهجنة - فقد حرص وبنفس الدقة على رقة أسلوبه ، وبساطة لغته، حتى ليستوى فى قراءته القارىء المبتدىء مع العالم المتخصص ، فلا يجد أولهما صعوبة فى فهم مراده أو الوصول إلى مقاصده ، كما لا يصادف ثانيهما ما قد يدعوه إلى الانصراف عن هذه الأشعار لأى سبب مما قد يدعو إلى ذلك .. بل هو مفتون بها، مقبل عليها فى حب وانبهار.

ولعله مما كان له أثر فى ذلك - تلك السمة التى تميزت بها لغة فاروق، وهى النزعة الشاعرية التى تحكمه وتتحكم فيها. وتسيطر عليها سواء فى اختيار المفردات أو فى رسم الصور، أو فيما يلهم من تشبيهات وصور بلاغية، أو فيما يطرق من موضوعات فهو فى ذلك كله الشاعر الرقيق، صاحب الكلمة



الموحية، والنبضة الشاعرة، والصورة الناطقة، بل والمتحركة..

التجديد مع الأصالة

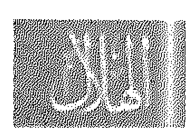
وشاعرنا - وإن تحرر من قواعد العروض فى بعض القصائد، إلا أنه لم يهملها أبداً فقد حرص على أوزانه الشعرية، وعلى موسيقاه الداخلية، وعلى تناغم الألفاظ مع المعانى، مع الأوزان.. حتى لتجد عنده اللحن الراقص كما تجد اللحن الضاحك بل وقد تجد اللحن المتقافز الذى يصور لك حالات النشوة والسرور غير انه فى المواضع الأخرى التى يكشف فيها عن أحزانه ، وآلامه، نجده لا يغالى، ولا يندفع ، بل يحرص على هدوء النبرة وكأنه يريد أن يقول : الحزن لن يدوم .. وغداً سوف يشرق الأمل العريض..

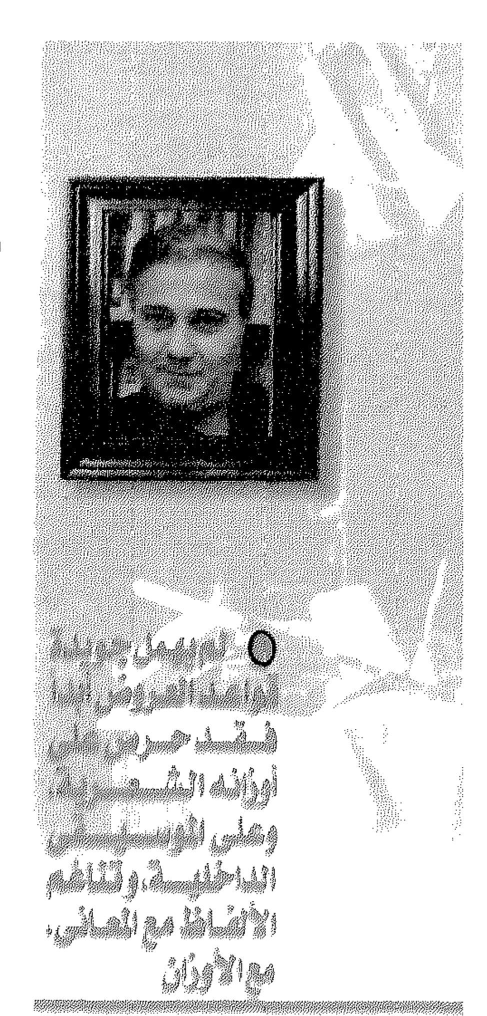
جاء الرحيل حبيبتى جاء الرحيل..
فغدا سيضحك ضوؤها بين النخيل.
ولتذكرينى كل يوم عندما..
يشتاق قلبك للأصيل..
وستشرق الأزهار رغم دموعها..
وتعود ترقص مثلما كانت على الغصن الجميل..
إن ضاق العمر بأحزانى..
أو تاه الدمع بأجفانى..
أو صرت وحيداً فى نفسى..
وغدوت بقايا إنسان..
سأعود أداعب أيكتنا..
وأعانق درباً يعرفنى..
وعليه ستهدأ أحزانى..

- وهو لا ينسي مصر أبداً.. لا ينساها في كل أشعاره .. فتراه يهتف في ديوانه «للأشواق عودة» :

مصر الحبيبة يا رفاقى كعبة..
لا تتركوها مرتع الأوثان..
فالعمر ليس بضاعة مسلوبة..
والعمر ليس بدرهم وغوانى.
الله يشهد أننا رغم الأسى..
لم ننس يوماً قبلة الرحمن..
يا من سكرتم من رحيق دمائها..
وغزوتم الدنيا بزيف لسان..
عندى لكم رغم الجراح نصيحة..
لا خير فى مالٍ بلا إنسان..

والحب عند شاعرنا هو دائماً معنى ربما يكون مجرداً .. يدور حول صراع العواطف، تصوير الأشواق، عذابات النفس، مشاعر القلوب . هو أقرب إلى حديث





النفس منه إلى الحديث إلى الحبيبة.. فنادراً ما نرى وصفاً يجسد تلك الحبيبة أو يصف محاسنها ومفاتنها .. فهى مقبلة أو معرضة، واصلة أو هاجرة، وفيَّة أو خائنة .. هى فى جميع هذه الأحوال معنىً هائماً، أو طيرا مغردا أو ربما كانت طيراً مهاجراً..

ولكنها في جميع أحوالها هي الشوق والحنين، وهي الوهم ، وهي العذاب:

دعينى أقاوم شوقى إليك..
وأهرب منك ولو فى الخيال..
لأنى أحبك وهماً طويلاً..
وحلماً بعينى بعيد المنال..
دعينى آراك هداية عمرى..
وإن كنت فى العمر بعض الضلال..
دعينى أقاوم شوقى إليك ..
فأني كرهت قصور الرمال..
نحب كثيراً ونبنى قصوراً..
وتغدو مع البعد بعض الظلال..
دعينى أراك كما شئت يوماً..
وإن كنت طيفاً سريع الزوال ..
فما زلت كالحلم يبدو قريباً..
وتطويه منا دروب المحال..

وأشعاره بعد ذلك متنوعة الأغراض، تتناول الكثير من أحوال الوطن - ومن مآسيه - وتخاطب الطغاة، وفى الوقت نفسه تناجى الضعفاء، فكما تتحدث عن «لصوص العصر» فإنها تخاطب «سيد بوش العظيم»

وتصرخ في وجهه :

كل العصافير الجريحة فى بلادى ..
تلعن الزمن القبيح..
ماتت على الأغصان..
كم كانت تغنى كل صبح هل ترى..
يبكيك عصفور جريح..
ودمى يسيل على ثيابى هل ترى..
يبكيك إنسان ذبيح..
انت وحدك ما بكيت..

ولفاروق جويدة كتابات نثرية عديدة، بل إن عمله الأساسى هو الصحافة، ولقد تدرج فى أعمالها، حتى أصبح مديراً لتحرير

الأهرام ومشرفاً على الأقسام الثقافية والأدبية بها، وله أسلوب سهل، وكتاباته النثرية بقدر ما هى متدفقة، فهى متنوعة ، وهو يتناول فى بعضها مواضيع تتصل بمشاكلنا المعاصرة - ومن أمثلة ذلك: أموال مصر كيف ضاعت ؟ - شباب الزمن الخطأ ، آثار مصر كيف هانت..! من يكتب تاريخ ثورة يوليو؟ وهو فى تناوله لتلك المواضيع - ولغيرها مما لم تضمه كتب بعد - يتميز بالجرأة والصراحة والموضوعية - غير أنه دائماً منحاز إلى الوطن تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً.. وكأنى به لا يخط حرفاً ، إلا والوطن أمامه فهو قبلته ومرتجاه ، وخيره هو أمله ومبتغاه، وهمومه هى ما يثقل كاهله ويشقيه .. وأنت لا تجد فى سطر مما كتبه مجاملة أو مخالفة لوجه الحق، أو عدولاً ولو يسيراً عن الحقيقة، فكتاباته تتميز جميعها بالعمق - والإخلاص والصدق.. والعجيب أنه فى كل ما كتب ويكتب حتى فى هذه المواضيع ذات الطابع الواقعى، والتى تتصل بالحياة اليومية اتصالاً مباشرا لا يتخلى أبداً عن الأسلوب الشعرى، الذى لا يتمثل فقط فى العبارة الجميلة، بل إنه ليحرص على أن يكون له جرسه الموسيقى على السمع ونبضه الفياض بالإحساس فيمس القلب والشعور .. استمع إليه وهو يتحدث عن استيرادنا - فى البناء - لنماذج من الغرب - فيقول :

«وجاءت المرحلة الثانية من تدمير ثروة مصر المعمارية مع السبعينيات حيث بدأ استيراد النموذج الأمريكى فى العمارة. وهنا شهدت العواصم الكبرى فى محافظات مصر إنشاء عدد كبير من ناطحات السحاب، وقد جاء ذلك على حساب ما بقى من القصور والفيلات حيث تم هدمها وتحويلها إلى عمارات قبيحة، وأمام الجشع المادى الرهيب والرغبة فى الكسب السريع توارت على شواطىء النيل عشرات القصور والفيلات لكى نشهد هذه المظاهرة الفجة من المبانى القبيحة.. واستمر مسلسل القبح يطارد كل ما هو جميل - ولم يقتصر الأمر على المبانى ولكنه اتجه إلى العقول حيث كانت الهجمة الشرسة على ذاكرة الأمة والتى شوهت رموزنا التاريخية من البشر، وألقت بهم جميعاً إلى الهاوية.. ولا شك فى أن المعركة كانت لصالح مروجى القبح. فقد حققوا انتصارات كثيرة .. كسبوا الأموال، وغيروا أذواق الناس. وشوهوا الشوارع، واستباحوا حرمة التاريخ..»

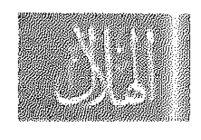
●●●

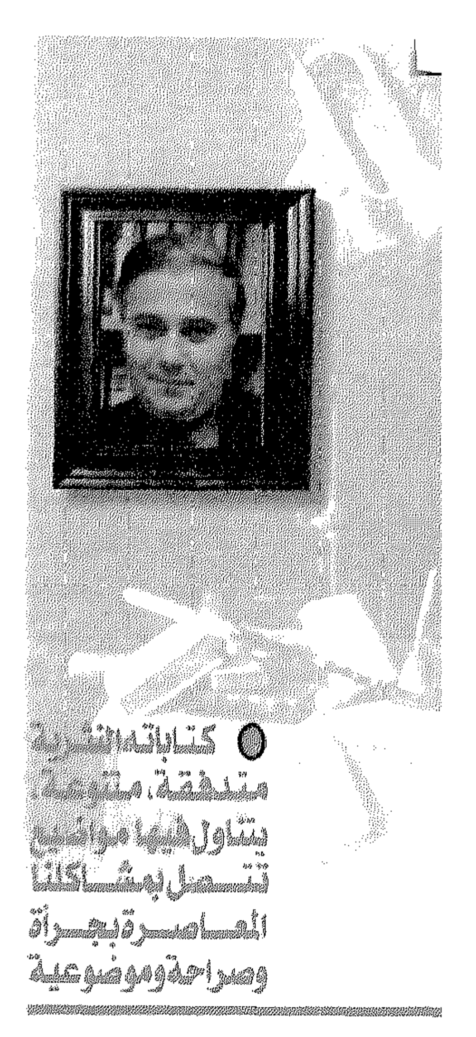
وهكذا تراه فى هذه الفقرة حريصاً على التعمق والشمول فى نظرته، بقدر حرصه على الجمال فى تعبيراته وعباراته، وكأنى به لايكتفى بأن تكون عبارته واضحة ومعبرة عن رأيه، بل ومطروحة فى ثوب قشيب يجعلها معبرة بألفاظها ، وموحية بجمالها ، ومؤثرة بعمقها وتعبيراتها.

وإلى جانب هذه الكتابات المباشرة - فلفاروق جويدة عدد من المؤلفات الأخرى التى لا يمكن اعتبارها كتابات نثرية .. هو يسميها «خواطر نثرية» - ويحق لنا أن نضيف إلى هذا الوصف أنها لوحات أو صور نثرية ..منها كتبه الرقيقة الأنيقة: قالت . عمر من ورق ، عبد الوهاب وأوراقه الخاصة. ليس للحب أوان. حبيبتى ولكن .. وهى فى رقتها وعذوبتها وسلاسة عباراتها لا تختلف كثيراً عن دواوينه الشعرية..

ولنقرأ له هذه السطور:

جلست احتفل بعيد ميلادى ..





نامت كل الأشياء حولى..
كان الليل صامتاً .. والجدران تنظر إلى ملامح وجهى .. وأثاث الغرفة يتثاءب فى كسل غريب.
كانت حولى آلاف الكتب.. كل كتاب أخذ شيئاً من عمرى .. وكان معى آلاف الأصدقاء .. كل واحد منهم قدم لى شيئاً.. فأنا مدين لهم جميعاً ، ولكنه الدين الذى لا أستطيع أن أرده لهم يوماً، لقد أعطونى عصارة فكرهم، ورحيق عمرهم، وضوء عيونهم ، وتجارب أيامهم..».

فهل بعد فى هذه السطور عن عامله الشعرى كثيراً؟
ألم نقل فى مطلع حديثنا أنه لا يعرف سوى الشعر أسلوب حياة ، ومنهاج فكر وأداة تعبير - حتى لو كان مكلفاً بملء بيانات «بطاقة التموين»..؟

سيرة وثقافة

بقى أن نذكر أنه من أبناء شمال الدلتا - ولد فى قرية «أفلاطون» بمحافظة كفر الشيخ فى عام ١٩٤٥. ولكنه قضى طفولته وصباه فى محافظة كفرالشيخ .. إلى أن انتقل إلى القاهرة للدراسة فى كلية الآداب - قسم الصحافة - الذى تخرج منه عام ١٩٦٨ وكان الأول على دفعته.. ومنذ بداية حياته العملية وهو يعمل فى جريدة الأهرام، مارس العمل فى معظم أقسامها بدءاً من القسم الاقتصادى، ثم سكرتيراً للتحرير، ثم مشرفاً على الصفحة الثقافية إلى أن أصبح يحتل مكانته الدقيقة الحالية مشرفاً على الأقسام الثقافية والأدبية بالأهرام، فأنت تلمس إبداعاته ليس فقط يؤلف ويكتب بل فيما يقدمه الأهرام من صفحات يشرف عليها فاروق جويدة، ففيها روحه الشاعرة، واعلاؤه لكل ما هو جميل وصادق وجميل.. ومازال يثير العديد من المعارك الثقافية والفكرية دفاعاً عن الحرية والتاريخ والآثار وتراث مصر المعمارى.. وليس لمنصف أن ينكر أو ينسى ما كان للمعارك التى آثارها فاروق جويدة من صدى فى انقاذ مجموعة من المواقع التاريخية: كان منها : قصر محمد على بالمنيل، ومشروع باب العزب فى قلعة صلاح الدين، وكوبرى أبو العلا، ومجموعة كبيرة من القصور والفيلات التاريخية.

وسوف نذكر له طويلاً ما خاض من معارك حول قضايا التطرف الفكرى التى ضمن كتاباته حولها فى كتاب بعنوان :« شباب فى الزمن الخطأ» حاول فيه أن يقترب من قضية التطرف الفكرى من حيث الأسباب والدوافع والظواهر والحلول.. ونذكر له سلسلة المقالات التى نشرها حول تاريخ ثورة يوليو والتى آثارت جدلاً كبيراً بين رجال الفكر والسياسة.

كذلك نذكر له تناوله لقضايا الإعلام والتعليم وأساتذة



الجامعات والتنوير والاحتفال بذكرى غزو نابليون لمصر والتطبيع مع إسرائيل والفن الهابط ومسئولية الإعلام فى ظل العولمة، وقضايا الهوية والغزو الثقافى، ودور المثقفين فى كل هذه القضايا، والواقع الذى تنطق به كل كتاباته يؤكد أنه إنما كان يدافع عن جذور مصر الثقافية ودورها العربى والإسلامى والإنسانى كمركز ثقافى وحضارة له خصوصيته وتميزه الفريد.

ترجمة شعره

ومما نذكره كذلك أنه قد ترجمت بعض دواوين فاروق جويدة - وبعض قصائد أخرى - إلى اللغة الإنجليزية واللغة الأسبانية، كما ترجمت مسرحيتاه «الوزير العاشق» و«دماء على ستار الكعبة» إلى اللغة الإنجليزية كذلك.. وكان شعر فاروق جويدة - وبخاصة شعره المسرحي - موضوعاً للعديد من الرسائل والدراسات الجامعية.. وموضوعاً لدراسات الكثيرين من كبار النقاد حيث حفلت مؤلفاتهم النقدية بفصول عديدة عن فاروق جويدة: شاعراً ومسرحياً وكاتباً . .وكان من أرق تلك الكتابات ما كتبه الناقد الكبير رجاء النقاش فى دراسة عنوانها : «فاروق جويدة وعودة إلى الصفاء والبساطة» ولن نقف طويلاً عند تقييم الناقد الكبير لأشعار فاروق جويدة. فمكانة فاروق بين شعراء عصره لم تعد موضوعاً لجدل أو نقاش، فهو واحد ممن يمثلون القمة.. ومن هنا يحق لنا أن ننقل عن الناقد الكبير قوله : «سرعان ما تبينت أن فاروق جويدة ليس بحاجة منى ولا من غيرى إلى المجاملة، فهو واحد من أنجح شعراء الجيل الجديد فى مصر والوطن العربى كله، وهو يتمتع بشعبية واسعة بين آلاف القراء الذين يتخاطفون شعره، ويقبلون عليه بحب وحماس.. وسر نجاح فاروق جويدة يتلخص فى كلمتين هما : «الصفاء والبساطة» ففى عالمه الفنى لا يشعر الإنسان بأى تعقيد ولايحس بأنه مدفوع إلى دهاليز مظلمة غامضة .. ولا يصطدم الإنسان فى قراءته للشاعر بألفاظ خشنة .. وهو شاعر مهتم إلى أبعد حد بأن يملأ عالمه الفنى بالموسيقى العذبة الجميلة البعيدة كل البعد عن الصخب والضجيج..».

●●●

وفى موضع آخر يقول الناقد الكبير عن فاروق جويدة: «أنه النغمة الحنون فى عصر القسوة ، والعاطفة البسيطة فى عصر التعقيد والعنف، والموسيقى الهادفة المنسابة فى عصر الصخب، وصوت الناى بين أصوات الطبول العالية، وهذا هو الذى يميز شعر فاروق جويدة هو سر آخر من أسرار التجاوب بينه وبين جماهير الشعر..».

ولعل هذا هو خير ما نختم به الحديث عن فاروق جويدة، وإن كان لنا أن نضيف كلمة فهى قولنا .. أننا مازلنا ننتظر من فاروق جويدة الكثير .. وكما قدم لنا ديوانه الذى ضمنه كتاباته عن القدس، فإننا فى شوق إلى ديوانه الذى يتغنى فيه بيوم النصر الكبير.. وإنه لآت عما قريب، فبهذا يبشرنا فاروق كما يبشرنا به كل المخلصين . ■



عن الصحافة والأدب

بقلم
وديع فلسطين

المتأمل لحياتنا الأدبية المعاصرة يلاحظ أن هناك حشدا ضخما من المجلات الأدبية التي تصدر في أنحاء العالم العربي حتي استحال علي الراصدين أن يتابعوا كل ماتنشره من مقالات وبحوث وأقاصيص وشعر، بل استحال عليهم أن يتذكروا حتي أسماء المشرفين عليها، ولأن عددا غير قليل من هذه المجلات يصدر عن جهات داعمة لها، فلابد إذن من أن يكون المسئولون عنها منتمين إلي أركان هذه الجهات بصفاتهم الوظيفية أو الاجتماعية، ولعل هذا يفسر سبب التغيير المفاجيء الذي يطرأ علي محرري هذه المجلات، وكأنهم بيادق علي رقعة الشطرنج، مع ما يترتب علي هذا التغيير من تقريب أو تنحية لكتاب اقترن نشاطهم بالعهد الذي انقضي بانقضاء المحرر المسئول والإتيان بمحرر جديد.

كان صديقنا الأديب المهجرى الراحل «نظير زيتون» مولعا بالتجديد فى اللغة إلى جانب قدرته الفذة على كتابة صفحات وصفحات من العبارات المسجوعة بحكم ما تحصل لديه من ذخيرة لغوية واسعة، ومن الألفاظ التى ابتدعها لفظة «المهابيط» على وزن المهابيل!، للدلالة على الذين يهبطون من مظلات الباراشوت على المواقع التى تحدد لهم.

ووصف «المهابيط» ينطبق على أدباء جيء بهم من حيث لانعلم، وهبطوا من عل على مواقع الرياسات الأدبية، وتصدرت أسماؤهم «ترويسات» المجلات الأدبية «من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر!حتى إذا ما فقدوا مسوغات تعيينهم كمهابيط، عادوا إلى المجهول الذى جاءوا منه، ولم نعد نقرأ لهم أدبا منشورا أو نقع على آثار لهم تدل على ما أسبغ عليهم من عبقريات، إذ أن الأدب قد اعتبر وظيفة لها فى سلك البيروقراط «كادر»، يرقى إليها كل من جاء عليه الدور فى الترقية إلى درجة أعلى، أو كل من تمتع بثقة رفعته درجات فوق أهل الخبرة والدراية، دون أن يتوافر لهم الحد الأدنى المفترض فى الأديب، وهو أن يكون ذا موهبة واستعداد، وأن تسبق ذلك مطالعات واسعة وممارسات فعلية جادة، حتى ولو تجاوزنا عن الشهادة الجامعية باعتبارها أساسا راسخا للتكوين الأدبى، ومتى غامت الرؤية، وانقلبت الموازين، اعتبر الأدب فرعا من فروع السلم الوظيفى، يضطلع برسالته أى كان مادام موصول الأسباب بالجهة التى اختارته.

ولدى مجموعة كبيرة من المجلات الأدبية الصادرة فى العالم العربى، أرجع إليها فى الحين بعد الحين بحثا عن ضالة، وأتوقف عند «ترويساتها» التى تزدان بأسماء السادة النجب من محرريها، ثم أسأل: أين ذهبوا؟ وكيف توقفوا عن الكتابة بمجرد أن زالت عنهم الوظيفة؟ فإن كانوا ذوى موهبة واستعداد، فلم وأدوا هذه الموهبة وذلك الاستعداد؟ ولم أصبح عمرهم الأدبى معادلا لعمرهم الوظيفى لايزيد عليه يوما أو بعض يوم؟ وكيف تاهوا عن المجتمعات الأدبية، فلم يعد أحد يعرفهم أو يشير إلى ماضيهم؟ ولقد جاءوا أصلا هابطين من المجهول، فلم عادوا إليه بعد ما نالوا قدرا من الشهرة والنفوذ الأدبى؟ وهل كانت المقالات الممهورة بإمضاءاتهم هى من وحى قريحتهم أو أن هناك أشباحا من الكُتاب دبجوا لهم هذه المقالات مداراة لعجزهم؟.

بعض تجاربي مع الصحافة الأدبية

كنت فى فترة الإزاحة من عملى فى الصحافة المصرية أمثل مجلة تصدرها إحدى المؤسسات فى بلد عربى، وكنت بهذه الصفة موكلا فى استكتاب أدباء



مصر والعالم العربى فى المجلة، فاختار لهم الموضوعات المناسبة وأتوافق معهم على النأى عن المحظورات المقررة فى هذا البلد، واستطعت بذلك أن أستكتب العقاد والزيات وعزيز أباظة ومنصور فهمى ومندور ومحمد عبدالله عنان والدكتور صبرى السوربونى والأمير مصطفى الشهابى وفؤاد صروف ومحمد عبدالغنى حسن وعشرات غيرهم من كبار الكُتاب، وكانت المجلة تلح علىَّ فى أن أوافيها بمقالاتى فتلقى منها كل ترحيب، ودارت الأيام، وأخليت مكانى فى المجلة، وجاء «طاقم» جديد من الذين حل عليهم الدور فى الترقية ولعلهم كانوا يعملون أصلا فى مخازن المؤسسة أو فى إدارات حساباتها أو فى أقسام كمبيوترها ـ وصار هذا الجيل الجديد يعيد إلىَّ مقالاتى بدعوى أنها «غير مناسبة»! لقد كنت فى الماضى اختار بنفسى المقالات المناسبة للعقاد والزيات وغيرهما، ولابد طبعا بعد ٦٠ سنة من العمل فى الصحافة والأدب أن تكون معاييرى تغيرت ولم أعد أعرف ماهو المناسب وغير المناسب!.

وهناك مجلة شهرية أخرى تصدر فى بلد عربى آخر، هاتفنى سكرتير تحريرها على غير معرفة سابقة قائلا أنه يعتب علىَّ لأننى لا أكتب فى هذه المجلة الشهرية أربع مقالات فى السنة على الأقل، فرويت له أن مجلته أجرت معى حوارا مازال «مركونا» عندها منذ ثلاث سنوات، فقال إنه عند وعده فى الاحتفاء بكل ما أكتب، واستجبت لدعوته، ووافيت المجلة بمقال أدبى لأننى لا أكتب فى السياسة، وتزامن وصول مقالى مع نقل سكرتير التحرير إلى عمل آخر، وكانت النتيجة أن مقالى الأدبى الذى أرسل من شهر نوفمبر ٢٠٠١ مازال «مركونا»، ولعله أهمل بسبب هذا التغيير فى الرياسات وبالتالى فى معرفة أقدار الكاتبين من جانب المهابيط الجدد!.

الحوارات الصحفية

وكنا فى العهد الذى باتوا يسمونه بالعهد البائد البغيض نجرى أحاديث مع أعلام عصرنا، ونبادر بنشرها فى الصحف مراعين الأمانة المطلقة فى تسجيل أقوالهم، على الرغم من أننا كنا نعتمد على الذاكرة ولم تكن أجهزة التسجيل قد عرفت بعد، وكنا نحرص بعد النشر على موافاة أصحاب الأحاديث بنسخة من الجريدة، سواء أكانوا فى مصر أم كانوا زوارا غادروها إلى بلادهم، أما اليوم، فقد صار عدد من الصحفيين الشبان يطرقون بابى راغبين فى إجراء حوار معى، ولأننى بوصفى مدرسا سابقا لعلوم الصحافة كنت أحتفى بالناشئة وأشجعهم ولا أوصد بابى أمامهم، فقد رحبت باستقبال عدد من طالبى الحوارات الذين أصبحوا بعد ذلك «فص ملح وذاب» بالتعبير العامى، فلا رأيت الحوار منشورا، ولاتكرموا هم بموافاتى بنسخة



منه، إن كان قد نشر حتى ضقت بزياراتهم، وبت أرفض التعامل مع من كنت أحب أن أشجعهم وأمسك بيمينهم إلى أن تستقيم أدواتهم.

ماذا بقى من العقاد؟

وفى أحد هذه الحوارات سألنى السائل: هل بقى شىء مازال مجهولا عن العقاد بعد مرور أكثر من ثلاثين عاما على وفاته؟ فقلت للسائل:

كثيرون تناولوا العقاد بعد وفاته ممن كانوا على اتصال وثيق به، فظهرت كتب للدكتور شوقى ضيف والدكتورة نعمات أحمد فؤاد ولمحمد خليفة التونسى ولطاهر الجبلاوى وللعوضى الوكيل ولعامر العقاد وعبدالحى دياب وغيرهم، عدا المسلسل التليفزيونى الذى أساء إلى العقاد أعظم إساءة وكأنما كان هناك سباق بين حواريى العقاد على ظهور كل منهم بمظهر الأقرب للعقاد من سواه، والأكثر وقوفا على أسرار حياته الشخصية من جميع الذين عرفوه.

والعقاد، الذى يوصف بالكاتب الجبار والعملاق، هو من قبل ومن بعد إنسان يسرى عليه ما يسرى على أى إنسان آخر من حب وبغض وفرح وحزن ونجاح وفشل وشك وإيمان وصحة ومرض وهلم جرا، وليس من الصواب أن يركز كاتب على ناحية من نواحى العقاد ليرسم له صورة هى بالتأكيد صورة شائهة فى أذهان القراء، فالتركيز مثلا على «غراميات العقاد» فيه ظلم شديد لهذا الكاتب العبقرى الذى أخرج نفائس الكتب بأكثر من سنى عمره، فلسنا ننكر أن فى حياة العقاد «غراميات»، ولعل عددا من الذين كتبوا عن غرامياته كانت لهم بدورهم غراميات، ولكن الإلحاح فى هذا الجانب والتوسع فى إيراد أسماء النساء اللائى عرفهن فى حياة العقاد وهو فى اعتقادى ابتذال لا يصح، حتى ولو صدر عن ابن أخيه عامر العقاد، مهما قيل من أن الحياة الشخصية للأدباء هى حياة عامة مباحة أسرارها للكافة.

فإن كان هناك شىء مازال خافيا من حياة العقاد ولايعرفه الناس، فإننى أؤثر أن يبقى هذا الشىء مطويا حتى لا يساء إلى هذا العملاق بأكثر مما أسىء إليه فى حياته، فلنقل لعارفى الأسرار الحقيقيين أو المزيفين - إن وجدوا - اتقوا الله فى الحديث عن أعلامنا، واتركوا الناس يستشفون صورهم من كتاباتهم وآثارهم المنشورة، أو فلنقل لهم: من كان بيته من زجاج فلا يرمى الناس بالحجارة.

وعندما توفى العقاد قررت أسرته نقل جثمانه بسكة الحديد إلى مسقط رأسه فى أسوان ليدفن هناك، وكان المسئولون عن الثقافة والإعلام قد أعلنوا أنهم سيقيمون له ضريحا يليق بمقامه، فدفن العقاد هناك دفنا مؤقتا فى أرض بلقع ريثما يشيد له الضريح الموعود ولكن محافظ أسوان فى ذلك الوقت،

وكان قادما لتوه من الثكنة رفض تكريم العقاد قائلا إنه لاينفق أموال المحافظة على الموتى، لأن الأحياء بها أحق، فأهمل قبر العقاد، واستحال إلى مباءة فى عهد هذا المحافظ الغيور على أموال المحافظة، فلما همّت أسرة العقاد بالقيام بهذه المهمة على نفقتها الخاصة، وكان محافظ جديد هو الدكتور عزت سلامة - وزير التعليم العالى الأسبق - قد عين محافظا للإقليم، فأقام للعقاد ضريحا لائقا مع تمثال يتراءى فيه شموخ هذا الأديب الكبير، وبات ضريح العقاد معلما من أبرز معالم أسوان.

وإلى هذا اليوم، مازال بيت العقاد فى مصر الجديدة يتعرض لمخاطر الهدم، والقضايا متداولة فى المحاكم لإخلاء البيت من ساكنيه (بعد وفاة عامر العقاد وزوجته) وإقامة ناطحة سحاب فى مكانه، أما مشروعات تحويل البيت إلى متحف للعقاد يضاهى متحف رامتان لطه حسين، فهى مشروعات يسمع عنها ولايرى منها شىء عملى.

وإن الباقين على قيد الحياة من أصدقاء العقاد، وهم قلة، ليأسون لأن هذا الرجل العظيم لايكاد يكون مذكورا فى حياتنا العامة، باستثناء ذلك الشارع (البوليفار) العريض الذى أطلق عليه اسم العقاد فى مدينة نصر، عوضا عن إطلاقه على شارع سليم الأول الذى كان يقيم فى رقم ١٣ منه، وقد انتشرت المتاجر الضخام فى بوليفار العقاد فطغت شهرتها على شهرة العقاد، ولو سئل اليوم الناس عما يعرفونه عن العقاد لقالوا إنه الشارع الذى يقع فيه متجر كذا أو مطعم كذا أو سينما كذا أو محل أحذية كذا!، وهكذا اختصرت حياة العقاد إلى شارع يموج بالحركة والنشاط ليلا ونهارا.

الحركة الفكرية المعاصرة

وسألنى سائل آخر عن رأيى فى الحركة المعاصرة فقلت:

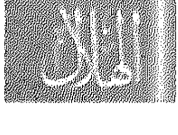
لابد ابتداء من الإقرار بأن متابعة الحركة الأدبية والفكرية المعاصرة على الصعيد العربى الواسع تكاد تكون متعذرة أو مستحيلة لأن البيروقراطيات المتعبقرة الضيقة تتحكم فى أسباب التقارب من الأدباء والمشتغلين بالفكر، وحسب المرء أن يشير إلى القيود المفروضة على تداول الكتب بين البلدان العربية ليدرك علة القطيعة الفكرية من أدباء الأقطار العربية، ابحث فى القاهرة مثلا عن الكتب الصادرة فى المغرب العربى، فلن تجد شيئا منها بين يديك، وقل نفس الشىء عن الكتب الصادرة فى السعودية وسوريا ولبنان والأردن والكويت واليمن وموريتانيا وسائر البلدان من أعضاء جامعة الدول العربية الموقرة، فإن طلبت الكتب الصادرة فى المهاجر الأمريكية أو فى سواها أعياك الجهد، وعدت لابخفين اثنين لحنين بل بأخفاف كثيرة تنوء بحملها بغال الأرض!!.

من فترة قريبة زارنى طالب يعد

أطروحة ماجستير عن الشاعر حسن كامل الصيرفى الذى كان حتى عام ١٩٨٤ يعيش بيننا ويغنى الضاد بشعره وكتبه فى تحقيق التراث، ولكن الطالب قال إنه لم يجد شيئا من آثار هذا الشاعر فى مكتبات الجامعات وفى دار الكتب الوطنية، فقلت له: إذا كانت كتب هذا الشاعر المعاصر، وكلها مطبوعة فى مصر، عسيرة المنال، فماذا نقول عن دواوين لشعراء رحلوا من سنوات سحيقة وطبعوا آثارهم خارج مصر؟ إن هذا الوضع الأدبى هو والمأساة سواء، إذ كيف تستقيم دراسة جامعية أو أدبية مراجعها غير متوافرة بين أيدى الباحثين، ولهذا أعذر الناشرين اللبنانيين «الشطار» الذين يقومون باستحياء الكتب النافدة بإعادة طباعتها بالتصوير دون استئذان أحد، وبهذا يوفرونها للباحثين الذين لاتهمهم أن تكون الطبعة أصلية أو مزورة، وكل ما يعنيهم أن يكون الكتاب المطلوب بين أيديهم.

والغريب أن جميع المحاولات التى بذلت لإنهاء القطيعة الأدبية والفكرية بين البلدان العربية باءت بخيبة مريرة ومادام البيروقراطيون يعاملون الكتاب بوصفه «بضاعة»، شأنها شأن البصل والثوم والفسيخ، فقل السلام على الألفة الفكرية المنشودة فى دنيا الضاد، على أن هناك ظواهر فى دنيانا الأدبية فرضت نفسها على المتابعين، واخترقت الحواجز والتخوم المنتصبة كأعلى السدود بين أقطار العالم العربى، ومن هذه الظواهر التفتيش فى ضمائر الأدباء وملاحقتهم واستعداء السلطات عليهم، مع أن الأسلوب الطبيعى والحضارى للتصدى لأى رأى هو تفنيده فى كتب منشورة ومقارعة الحجة بالحجة ولست أبرىء الكتاب والمفكرين من الإنزلاق إلى الشطط أحيانا، ولكن ردعهم يتأتى بالرد عليهم فى كتب منشورة وليس بمذكرات المحامين وأوراق المحضرين وبإحراج القضاة للبت فى قضايا أدبية ليست من اختصاصهم الأصيل.

ومن تلك الظواهر المحاولات المبذولة لإحياء ما يسمى بالأدب الشعبى المتمثل فى اللهجة العامية المحلية التى تنبهم إلا على أصحابها، ولنا أن نتصور حال الثقافة فى وطننا العربى إذا كان كل قطر فيه يتحدث بلهجة لاتفهمها سائر الأقطار، عوضا عن أن يتحدث باللغة العربية الفصحى ولو فى مستواها السهل الذى يطلق عليه «لغة الصحافة»، ولو كتب الشاعر أحمد شوقى مسرحياته الشعرية وقصائده باللهجة العامية المصرية أو التركية التى كان يجيدها، فهل كان يحظى بالمنزلة الرفيعة التى احتلها فى عالمنا العربى فى عصره وإلى هذا اليوم؟، والخطر الأكبر هو دخول هذه اللهجات العامية المحلية إلى الحرم الجامعى على ألسنة الأساتذة، بما فيهم أساتذة الأدب العربى، فعندئذ تنهار كثير من القيم الأكاديمية التى



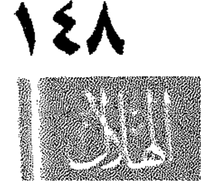
لايصح التفريط فيها تحت أى مقولة، وحسبنا ما نعانيه من نشوء هذه اللهجات العامية فى الإذاعات والتليفزيونات العربية بل فى المجلات المحسوبة على الأدب، وهو وباء ينبغى التصدى له.

ومن الظواهر التى رأيناها فى عالمنا الثقافى محاولة إخضاع القيم العربية للأيديولوجيات الغربية عن تقاليدنا، فقد مر علينا عهد كنا نتعسف فيه فى رد كل قيمة أدبية إلى مذهب أيديولوجى، فوضعت مؤلفات عن «الاشتراكية» فى شعر شوقى، و«المعجم المفهرس لألفاظ الميثاق» و«المعجم المفهرس لألفاظ الكتاب الأخضر» إلى آخر هذه الاتجاهات الذميمة التى كان ينبغى أن يتعفف عنها المفكرون وأهل الثقافة فى الوطن العربى.

وإذا كنت قد ألمحت إلى بعض الظواهر السلبية - وهى غالبة - فى الحركة الفكرية الحديثة، فهناك ظواهر أخرى ايجابية ينبغى الترحيب بها، وإن تكن فى معظمها اجتهادات فردية ليس لها ما يوازيها من جهود المؤسسات، ومن ذلك ما يقوم به بعض الأريحيين لتكريم رواد الفكر فى حياتهم، سواء بمنحهم الجوائز السخية، أو بإصدار كتب تذكارية عنهم، أو بإخراج أعمالهم فى طبعات جديدة أو بالتعريف بهم على النطاق العالمى بترجمة آثارهم إلى اللغات الأجنبية، ولكن هذا التكريم لا يصل إلا إلى قلة قليلة من الأفراد، ويتخطى بالتالى كثيرين ممن انحسرت عنهم الأضواء برغم كفاءتهم وعطائهم المبذول سنوات طوال، وفى وسعى أن أحصى عشرين اسما على الأقل ممن يستحقون التكريم قبل أن تغيب عنا وجوههم، ولكن الموضوعية تملى علىَّ أن أعفى القارىء من تحيزاتى الخاصة، فأمتنع عن إيراد هذه الأسماء فى هذه المقام.

من الظواهر الإيجابية أن معارض الكتب باتت تنتقل من بلد عربى إلى بلد عربى، وأن المؤتمرات الثقافية باتت تتسع لممثلين من بلدان عربية مختلفة، وأن المجامع اللغوية العربية تضم أعضاء عاملين ومراسلين من البلدان الشقيقة، وأن الأنشطة التى يقام فى إطار إعلان عاصمة عربية عاصمة للثقافة تتسع لدعوة ممثلين من البلدان العربية الأخرى، وكنا فى وقت مضى نعرف مؤتمرا سنويا للأدباء العرب ومؤتمرا للشعراء العرب، ولكن الاعتبارات السياسية انعكست على هذا النشاط فأوقفته، وكل محاولة للتقريب بين أدباء العالم العربى ومفكريه، أيا كان الشكل الذى تتخذه، هى محاولة تستحق التأييد والمؤازرة لاعتقادى بأن الفكر والثقافة والأدب هى الجامعة الكبرى التى تؤلف بين أعضاء الأمة العربية، فى حين أن السياسة هى أكبر عوامل التفريق والمباعدة بين أقطار العرب.

هذه خواطر نقلتها من الحوارات الموءودة والتى لم تر النور لاعتبارات أجهلها ويُسأل عنها الأدباء المهابيط المشار إليهم!. ■



جـــارتى

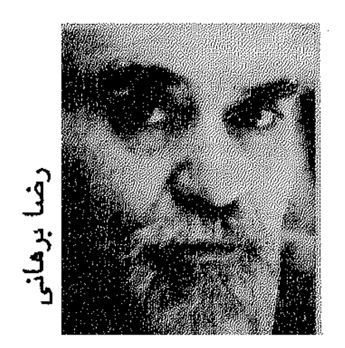
شعــــر
محيى الدين عطية

هيـفـاء يمنحـهـا الندى فى كل فـجـر قـبلتين
ممشـوقـة تعلو بقـامـتـهـا البناء بطابقين
قد شاركت نجم السماء سجوده ، متلازمين *
تخـتـال نشـوى بالنسـيم يهـزها من جـانبين
ترخى جدائلها على الشرفات خضر الخصلتين
وتمد كـفـا للنوافـذ حـامـلا عـصـفـورتين
تتبـادلان الشـدو والتسـبيح ملء الخافقين
حـتـى إذا حل الخـريف ومس منهـا الوجنتين
احـمـرتا خـفـرا وقد سـقط الخمار عن الغصين
وتطايرت أوراقـهـا ، فـبكت بماء المقلتين
روت بأدمـعـهـا بسـاطا من نسـيج الراحـتين
واسـتـقبلت برد الشـتـاء كـمارد صـفـر اليدين
سـبحـان ربى ، قـد وهبت لنا الهـداية مـرتين
وحـيـا تتـرل مـعـجـزا ، والكون يبـهـر كل عين
بـروائع الآيات فى الآفـاق ملء الناظرين

* إشــــارة إلــى الآيـة الكـريمــة ﴿والنجــم والشـجر يسـجـدان﴾ (الرحمن ٦) .



فاريبا هشترودى



رضا برهانى

أدباء من أفغانستان

المنفى والوطن

بقلم
محمـــود قاســـم

هل تشارك الانظمة الديكتاتورية فى صناعة الأداب العظيمة داخل الأقبية والأبواب الخلفية ؟!

الاجابة معروفة سلفا ، فمثلما ساهمت الحريات والديمقراطيات فى خلق إبداعات إنسانية بالغة الأهمية ، خاصة فى أوروبا ، فإن سيادة الديكتاتوريات فى فترة بعينها فى دول أمريكا اللاتينية ساعدت فى ظهور هذا الابداع الشديد التميز الذى كتبه الادباء فى القارة اللاتينية .

والغريب أن هذه الجذوة المتقدة من الابداع الراقى قد بردت بشكل واضح فى السنوات الأخيرة، بعد أن عرفت أوطان جديدة فى هذه البلاد دروب الديمقراطية ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما حدث فى «بيرو» نفسها، حين راح الكاتب ماريوفارجاس يوسا يراهن على معترك السياسة، فرشح نفسه رئيسا للجمهورية، فلما عزف الشعب الذى كتب من أجله عن اختياره، قرر ان يغير جنسيته، وهاجر إلى اسبانيا واقام بها .

وكانت هذه ظاهرة جديدة، وغريبة .

فالكاتب الذى نادى دوماً بالديمقراطية، لم يحتمل أن تهب رياحها على وطنه ولا عليه، وهجر الوطن وغضب عليه، وتوقف عن الكتابة .

وبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، فتحت دور النشر الأوروبية أبوابها لمبدعين كانوا دوما فى دائرة الظل، عانوا من قسوة الديكتاتورية، او ما شابه، وذلك بعد أن خفت حدة الآداب المضادة فى بقاع عديدة من العالم .

هذه المرة، تم إلقاء الضوء على أدباء من أفغانستان، ويبدو هذا غريبا فالمرء يمكن أن يتساءل : ترى هل هناك أدب فى أفغانستان، وماهى ملامح هذا الأدب ؟

الاجابة تجئ فى المقام الأول اننا لم نسمع عن أدب افغاني، لا داخل الحدود ولا خارجه، بالطبع هناك كُتاب، وابداع، فى عصور مختلفة، لكنه لم يصلنا بأى حال، لكن الناشرين فى فرنسا استطاعوا الحصول على نصوص أفغانية، لكتاب هربوا من المعارك والحرائق، والقوانين المتعسفة، خاصة فى زمن طالبان، وبدا هذا الادب، فى المنفى ذا طعم مختلف تماما عن الأدب المكتوب فى الوطن، ببساطة، لأنه ليس هناك أدباً منشور فى داخل الحدود الافغانية.

قبل أحداث سبتمبر، بأسابيع قليلة، اصدرت دور النشر الفرنسية مجموعة من الكتب لكاتبين من أفغانستان، يكتبان باللغة الفارسية، وهما كاتبان معاصران من جيل الشباب، اختارا الإقامة فى باريس بعيدا عن الدموية المتناثرة فى أنحاء البلاد. الكاتبان هما عتيق رحيمى صاحب روايات «أرض ورماد» و هذه الجدران تسمعنا» . ثم سبو حجاى زرايب

تقول مجلة الاكبريس وهى تقدم هذين الكاتبين أنه ليس مطلوبا من المبدع ان يحمل السلاح، لكن لأن القلم سلاحه فإنه يستخدمه، من أجل أن يعبر عن الاحتقان النفسى الداخلى لشعب بأكمله أصابته المحنة، فهو يروى شعبه بالكلمة تلو الأخرى، وذلك فى مواجهة الهمجية. ومن أجل أفضل استخدام للفعل .

الادباء الذين هاجروا لم يكتبوا منشورات دعائية ضد طالبان، لكنهم اختاروا الكتابة عن مرارة المنفى، وهم ليسوا حاملى رايات النضال، بقدر ما هم يعبرون عن محنة الانسان غير القادر

في التعبير عن مشاعره إلى ابناء وطنه بشكل مباشر، فاختار أن يكتب لهم من خارج الحدود .

وتقول المجلة لقارئها إنك لو لم تقرأ كتابا واحدا قادما من الشرق هذا العام فيكفي ان تقرأ رواية «أرض ورماد» لعتيق رحيمي، وتثنى المجلة على الكاتب، وعلى عطائه، فهو مبدع موهوب، وجد نفسه إلى جوار نهر أجدبت مياهه .

من هو بطل الرواية ؟؟

وبطل هذه الرواية، رجل عجوز تلفحه الرياح، والغبار، عند مفترق طريق صحراوى، ينتظر أن تمر به سيارة من أجل أن تصحبه الى الجانب الآخر من الوادى، إلى حيث يوجد المنجم الذى يعمل به ابنه، وتمر الساعات ببطء شديد ولا تأتى السيارات ويقف إلى جوار العجوز حفيده الصغير الأبكم، وفى أعماق هذا الصغير تكمن مأساة الحرب الأفغانية، فقد أصيب بالصمم والبكم عقب قيام القوات السوفيتية بقذف قريته بالمدافع الثقيلة (مثلما يحدث فى الأرض الفلسطينية المحتلة). والطفل الذى لا يعرف سوى اللعب لم يفهم قط السبب الذى من أجله فقد الآخرون أصواتهم، فهو لم يعد يسمعهم .

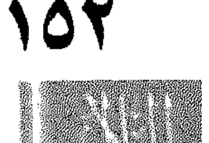
هذا الطفل هو مأساة بالنسبة لجده ، إنه شديد البراءة، ويحترق قلب الجد حين يسأله الصغير: جدى . هل الروس سلبوا أصوات كل الناس؟ ترى ماذا سيفعلون بكل هذه الأصوات ؟

ويفكر العجوز، ويستعيد رؤية القنابل المتساقطة فوق القرية، وصراخات ذويه عندما التهمت النيران أسرته، فماتت الزوجة، واشتعلت النيران فى أجساد الجيران وأعلن الخوف عن نفسه، وبدا ماثلا فى ابنه الذى ذهب إلى الجانب الأخر من الوادى للعمل فى المنجم .

وهذا الابن نموذج للانسان الافغانى، فهو ملئ بالكبرياء، والاعتزاز بالذات وهو صاحب رؤية محددة لحياته، رغم انه لم يتلق اى قدر من التعلم فى المدارس، لكنه يفكر بشكل موضوعى فى جدوى الحرب، وهو يرى أن الدماء تجلب العنف، وعندما يفكر فى الانتقام فإنه يضع حياته أمام عينيه، فهذه الحياة لا تأتى سوى مرة واحدة. ورغم هذا فإن الدماء تتسرب إليه كى تصبح اللغة الوحيدة للإنتقام ويقرر أن الموت هو السبيل .الوحيد لمجابهة العار الذى لحق بالوطن .

ثلاثة أجيال

ويتناول الكاتب ثلاثة أجيال، مثلما فعل غسان كنفانى فى روايته «رجال تحت الشمس»: العجوز يرمز للماضى مع مفهومه للشرف، ويقينه، أما الابن فهو صاحب مبادئ لديه دائما الرغبة فى الانتقام من جميع الخونة، ابتداء بالموللوات، وانتهاء بالشيوعيين والحلفاء الغربيين، حيث أن كلاً منهم جرى وراء مصالحه الشخصية التى تمثلها هذه الحرب، أما الحفيد فإنه يمثل الجيل الثالث، وهو غارق فى الصمم، كما أنه يرمز إلى المستقبل الابكم، الأصم .





يقول الكاتب أن أفغان المستقبل أصابهم الصمم بالفعل، بعد أن قبلوا الامر الواقع، وحين لم يقاطعوا الصور القديمة، فامتلاء الحاضر بالمساجين والأسرى من المعارضين، بل والقتلى. كما أن الكاتب يطلب من مواطنيه التخلص من أهازيجه، وأن يعقد صداقة حقيقية مع الواقع، إنه من أجل اكتشاف الواقع، يحب ان يبدأ في مخاطبة الموتى في مقابرهم .

والحقيقة تتمثل في قيام العجوز بابلاغ ابنه وقائع ما حدث، وأن زوجته، وأمه واخاه قد ماتوا في المذبحة، وانه من الأفضل الهروب، ويرى الناقد الفرنسي فرانسوا بوسفل أننا أمام رواية رائعة، تسعى للتخلص من الملحمية التي تعتبر من أهم سمات الأدب المكتوب بالفارسية سواء في ايران أو أفغانستان

وحسب النقاد، فإن هذه الكتابات تبدو جافة المفردات، رغم بساطتها وبدائيتها، حتى وان كان المؤلف امرأة من طراز سبوحجاي زرايب، المولودة في كابول عام ١٩٤٩ والتي سافرت إلى فرنسا في أواخر الثمانينات ودرست اللغة الفرنسية، وفي مجموعتها القصصية «سهل قابيل» تنشر ثلاث عشر قصة قصيرة سبق ان قامت بتأليفها حين كانت تعيش في كابول،

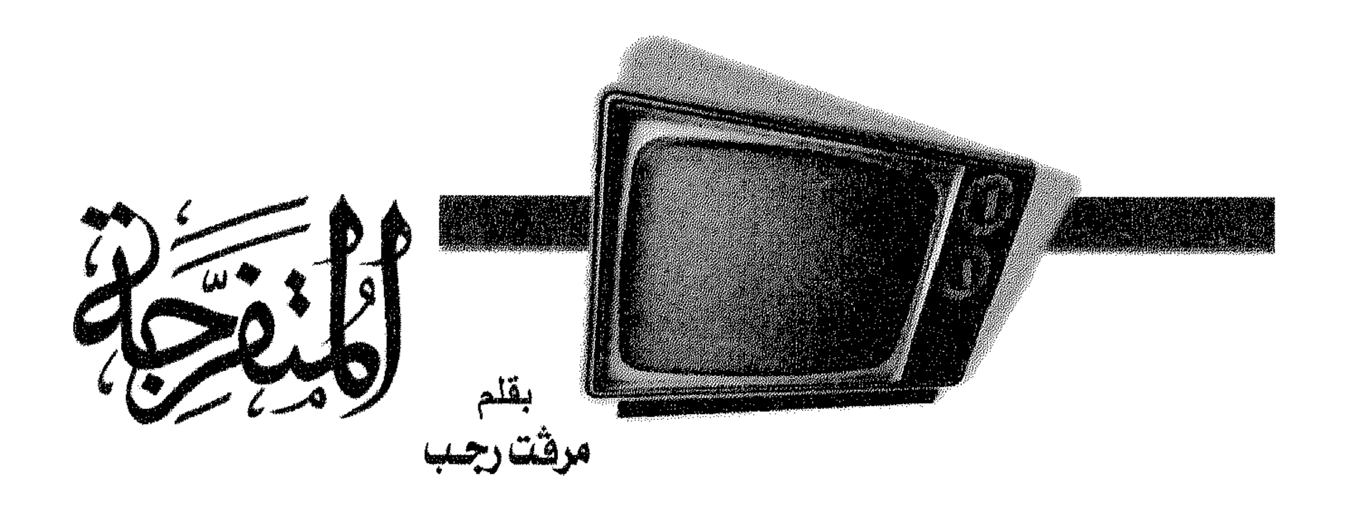
موقف الكاتبة

وفي ابداع الكاتبة هناك حس نضالي أشد وأعمق مما رأينا عند رحيمي، فقد قامت زرايب بتأليفها إبان قمة الصراع الأفغاني ضد الاحتلال السوفييتي، في تلك الآونة شاركت المرأة الافغانية بمناهضة العدو الشيوعي، وأبطال هذه القصص من النساء اللاتي فررن دفع العار عن البلاد، مما يعكس موقف المرأة الافغانية إبان هذه الحقبة .

والكاتبة التي تعيش في مدينة مونبيليه كانت ضد السوفييت، وطالبان معا، الروس الغزاة وطالبان هم من الديكتاتوريين الذين ألغوا جميع سبل مشاركة المرأة في بناء المجتمع. لكن المجموعتين القصصتين اللتين نشرتهما الكاتبة، وترجمتا إلى اللغة الفرنسية، ليس فيهما ما فعله طالبان في البلاد، لأن الفترة قصيرة نسبيا، ولأن الكاتبة كانت قد تركت بلادها قبل استيلاء هؤلاء العسكر على مقدرات السلطة في البلاد

●●●

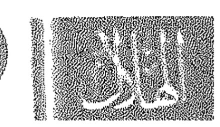
نحن أمام كاتبين اختارا المنفى، نفس المكان، واختارا الابداع ايضا بديلاً عن المنفى. لكن لكل منهما اسلوبه الخاص في التعبير عن هذا المنفى، ومن الواضح انه بعد احداث سبتمبر، فإنه قد تم اكتشاف المزيد من الادباء، لكن لاشك ان الصورة ستكون متغيرة تماما . ■



بقلم
مرفت رجب

الشاطر حسن

حين لمحت الآلة الموسيقية ملقاة على الرصيف ، ظننت أن صاحبها المكور على نفسه ملاصقا لسور المعبر يلتقط شيئا ربما قد سقط منه على الحافة . ولما طال تكوره على نفسه ، استحثنى ذلك لأسرع الخطي نحوه أكثر . وما إن طرأ السؤال علي ذهني «ترى، هل هو؟!» ، «معقول ؟!» ، حتى قطعت المسافة التى كانت تفصلنى عنه فى سرعة خطو مذهلة .



وقفت أمامه منتظرة أن يرفع رأسه لأتأكد؛ هل هو حقا من ظننت؟، ولما تبين لى من انعدام تحركه وانتظام تنفسه أنه نائم، قربت وجهى منه لأتأكد ، واللحظات تزدحم بالأسئلة تتعاقب على ذهنى تكاد توجعه، ما الذى أتى به إلى جنيف، ولماذا ترك أمستردام ، هل جاء هاربا ، أم مطرودا . أم مجرد الضجر حمله إلى هذا المكان ؟ لكن، كيف حصل على الإذن بدخول البلد والإقامة؟!! صدمنى النظر إلى كفيه إذ وجدتهما خاليتين من آثار الحروق، ومع ذلك ، ملت أكثر لأتأكد تماما من النظر إلى وجهه ، إنه ليس من ظننت ..

تابعت السير ، ساخرة من سذاجة تفكيري، لكنني قلت ، على كل حال ، هذا الآخر عربي ، وهو على الأرجح في ورطة مماثلة لورطة من جاء ببالي ، وكاد بحلول مأساته على رأسي أن يصرفه عن حمد الله الذي لبى دعائي ، وأرسل أشعة الشمس تنير نهار جنيف ، بعد أيام متتالية من الظلمة والمطر المستمر .. يا سبحان الله ، ها هي البجعات البيضاء الرشيقة تتألق ناعمة بدفء مياه بحيرة «ليمان» ، تشد البصر إليها متألقة ، منها السابحات في كسل ، ومنها المتدافعات تتقافز صوب فتات من الخبز يقذف به بعض من يمر ، وأخر في حركة طيران يتباين ارتفاعه عن سطح المياه ، ولا يظهر فيه اتفاق في توجيه الحركة إلى يمين أو شمال ، وإن بدا إجماع على عدم تجاوز حد لا نراه .. ملأني السرور ، وبعد برهة استدرت ، أعطي ظهري للبحيرة ، متوجهة إلى حي جنيف العتيق ، مثبتة في الذاكرة صور البجع الذي أغبط خلاصه من همّ البشر . وما إن وصلت إلى محطة الترام في شارع «الرون» اللازم عبوره للوصول للحي العتيق حتى تسمرت عيناي على شاب يبدو من ملامحه هو الآخر أنه عربي . وما سمرني في المكان سوى أن وقوفه في الركن على بعد خطوات من المحطةِ يعزف نايه ، يضمه بلا عناء إلى الآخر الذي تركته مقعيا على المعبر يغط في سباته العميق .. لم أتوقف ، وإنما اتجهت يسارا بعد عبور الشارع ، لأسير بمحاذاة نوافذ المحلات التجارية ، غير ملتفتة إلى ما تعرض، فأنا أعرف وجهتي..

ياسلام .. في نفس البقعة من الرصيف الواسع وجدت ضالتي ، وبلعت ريقي ، فقد أكد المشهد ما أؤكده دوما من أن هذه الصيغة من بيع الموهبة أو «التسول » – أو كيفما تصدق الصفة في هذا الاتجاه ، بما يوحي بحفظ الكرامة أو إهدارها – ليست مقصورة على أبناء العروبة .. فالشابان اللذان استوقفاني بعزفهما المشترك على آلة الكمان يقفان في نفس البقعة التي طالما شغلها رسام، اعتدت رؤيته ، يفترش الأرض ، يرسم عليها لوحته التي قد تتجاوز مساحتها أربعة أمتار مربعة ، مستخدما في إبدا ع تشكيلاته كل ما يخطر لك على البال من متجانس الألوان ، وعلى بعد خطوة أو خطوتين من الرسم ، نجده واضعا طبقا أو علبة فيها بعض القطع المعدنية من الفرنكات السويسرية ، في دعوة صريحة لك أن تضيف للمبلغ إن شئت . لكن رؤيتي لذلك الرسام لا تتاح إلا في أيام



الصيف، إن كانت خالية من تساقط الأمطار، ولا أعرف، ولا يهمنى أصلا أن أعرف إن كان تبادل الفنانين على الموقع يتم باتفاق بينهم، أم أنه نتيجة تلقائية لتغير الفصول . لكن المهم تأكدى من أنهم فى هذه الناحية من المدينة ، ليسوا من أبناء العرب..

مشهد الغروب

مضيت فى طريقى ، وقد عدلت المسار ، لأحكم استخدام الوقت المتبقى لى فى المدينة قبل أن يحل الظلام ، ويفلت منى مشهد الغروب.. والحمد لله أن قد نجحت ، وعلى الأريكة الخشبية التى تتوسط المعبر جلست ، معطية ظهرى لنهر الرون ، ووجهى للبحيرة الواسعة . وما إن رفعت النظر إلى جبال الألب المطلة على البحيرة ، حتى وجدت القمم متفاوتة الارتفاع وقد انتشر عليها الجليد يعلن إحكام قبضة الشتاء على أجواء أوربا . ورغم أن لسعة البرد التى استشعرتها تحثنى على مغادرة المكان ، إلا أننى بقيت أمعن النظر إلى تلك السحابة البيضاء ، تزاحم أخوات لها رماديات يسيطرن على سماء البحيرة..

أما تلك البيضاء ، فقد واصلت تهاديها ، مقتربة من قمة الجبل فى حنو ، تتدرج على بياضها ظلال حمرة الشمس الغاربة .

ياسبحان الله ، لك يارب فى خلقك شئون وشئون ، ما أجمل هذا النور ، يخترق الظلمة ، يقاومها ، مؤكدا أن فى الكفاح الأمل .

التسول وقبح الواقع!

يا سبحان الله ، لم يارب حكمت على هذا الرجل بالهوان ؟! أم أنه يارب حكمه على نفسه ، هروبا من الكفاح أو عن كسل ، من منا ، مهما أوتى من حكمة أو علم فلاسفة أو علماء نفس ، من منا يستطيع أن يقطع برأى فـ اصل لا يرد فى شأن كل ممن سـ بقت الإشارة إليهم ، لماذا تأخذ حياتهم ذلك المسار ؟!! وإن كنا جميعا لا نستطيع ، فلماذا استطاع مخرج الفيلم التسجيلى الذى اختار أن يكون العربى المتسول فى شوارع أمستردام موضوعه !!! ولماذا اختار المخرج الفلسطينى أن يغفل كل المتسولين من جميع أجناس البشر ينتشرون فى عواصم الأرض شرقا وغربا ، لماذا يختار المخرج أن يكون المتسول فى شوارع أمستردام – موضوع فيلمه التسجيلى – عربيا آتيا

من المغرب ، بعد ارتباطه بالهولندية التى أقنعته أن الزواج منها ، والهجرة إلى بلادها كفيلان بفتح كل الأبواب ، وما إن نفذ لها المراد ، حتى اطلع على قبح الواقع الذى لم يتح له سوى أدنى الأشغال وبأحط الأجور وإذ أحكمت الكآبة خيوطها ، لم تترك له من المنافذ إلا العزف على ناى خشبى ، يطلعنا الفيلم على مشاهد تثبت موهبة العازف التى تتخطى إصدار حلو النغمات ، إلى إتقان صنع الناى بيديه ، والارتزاق من جود مستحسنى النغمات من المارة إن أمكن .. ولماذا اختار المخرج من مفردات حياة بطله ما يجعل المشاهد يراه صاحب القرار فى كل ما ألم به، بدءا من قراره ترك بلاده بصحبة الزوجة الهولندية التى لم يشأ المخرج أن نراها ، إلى قرار اختيار التسول بالعزف فى الشوارع ، إلى قرار تعاطى المخدرات .. إلى قرار ترك مكانه إلى آخر .. ولماذا لا يعطينا المخرج ما يبرر حروقا أصابت كفى الرجل من إحراق متعمد حدث له بليل ، لماذا لم يقدم لنا المخرج إجابة السؤال ، من الذى تعمد إحراق كفى بطله؟ ولماذا أحرقهما ؟ ولماذا مع ذلك يصر على افتعال مشاهد توحى بأن الناس فى المكان ، تفتقد العازف البائس حين يختفى ؟!! ولماذا يطلعنا المخرج على حنو موجع على طفل يلعب فى فناء مدرسة ، بينما يحجم عن تقديم ما يعيننا على الفهم ، لماذا يسعى الرجل لرؤية الطفل ، ومتابعته على البعد ، وهل هو ابنه ، وهل تلك الذراع الضخمة التى تنتهى بيد تشد الطفل بعيدا هى لزوجة الرجل، أم لمن ؟.. لماذا اختار المخرج أن يجمع من وقائع حياة الرجل ما يستبعد أى شبهة إدانة للطرف الآخر ، الزوجة مثلا ، ألهذه الدرجة يخشى المخرج عليها من أى تفسير سلبى قد يطرأ على ذهن المشاهد؟ .. هل لمثل هذا المسلك فى الإخراج صلة بالجهة الهولندية المشاركة فى إنتاج الفيلم ، وما علاقة كل ذلك ببداية الفيلم بمشهد درامى يصور أما تحكى لطفلها عن بطولات الشاطر حسن .. وبأن يقرر المخرج أن يختم الفيلم بصوت يتحسر على بطولات الشاطر حسن التى انتهت فى فيلمه إلى السراب الذى تاه فيه العربى المتسول فى شوارع أمستردام يعزف نايه مهزوما مطحونا بفعل الواقع المخلوط بالمخدرات .. وكأن المخرج لم يكتف بما استباح لنفسه من أدوات الفيلم التسجيلى ، يختار منها ما يشاء ، ويستبعد من القواعد على هواه ، المهم أن يحدث الأثر

الشعورى الذى قرر أن يفرضه علينا ، بل يذهب إلى ما هو أبعد ويقرر استباحة رمز حميم فى ثقافتنا العربية «الشاطر حسن» ، فبدلا من أن يتركه لنا ليبقى اسما على مسمى ، قرر المخرج أن يمسخه إذ يربطه ببطله الذى أظهره الفيلم خاليا من أى من سمات بطولة أو شطارة .

ومع ذلك فاز الفيلم بواحدة من أبرز جوائز المهرجان الدولى للأفلام التسجيلية بالإسماعيلية (٢٠٠٢) ، لكن تلك الجائزة ليست بالتحديد موضوعنا وليست وحدها ما ظل يلح على تفكيرى ، وما جعلنى فى سذاجة أتوقع أن يكون المكور على نفسه على معبر فى جنيف هو عازف الناى التعيس فى الفيلم التسجيلى الذى يشغلنى من وقت مشاهدته فى الاسماعيلية (٢٠٠٢) وما كان الظن إلا لرغبتى القوية فى إيجاد إجابات عن الأسئلة السابق طرحها.

ولكن هل نتعجب أن يفوز مثل ذلك الفيلم بجائزة؟ وقد يفترض البعض أن يكون أفضل أو من أفضل ما تضمنته المسابقة من أفلام. والإجابة عندى بالنفى ، وما لتفسير ذلك شرعت فى كتابة هذا المقال .. وإنما الأمر عندى أنه لا عجب ، فقد اعتدنا على تجنب تطبيق المواصفات والمعايير المهنية ، والنتيجة أن يفوز مثل ذلك الفيلم أو غيره فى المسابقات اعتمادا على عامل واحد أو عاملين رأت فيهما لجنة التحكيم الكفاية ، لحسن استخدام الاضاءة - مثلا - أو براعة التصرف فى أنواع اللقطات أو لغير ذلك من اعتبارات أخرى قد نستطيع أن نتكهن بها ... ومرة أخرى ليس هذا مربط الفرس وإنما مربطه هو شيوع عدم مطابقة المواصفات المهنية والنتيجة لا تقتصر على نتائج المسابقات ، وإنما النتيجة هى ما تمتلئ به شاشاتنا وأثيرنا من أخطاء فنية فادحة تشمل استخدام اللغة والموسيقى واللقطات والإضاءة وحركة الكاميرا ، تلك التى كان ارتعاشها فى أيدى مصورى معظم الحلقات المذاعة خلال شهر رمضان المعظم أمرا يصيبنا بالدوخة ونعجب، هل هم حقا مصورون محترفون ؟ وإن كانوا كذلك فكيف يخفقون فى حساب سرعة انتقال الكاميرا تستعرض المشهد من أقصى يمين إلى أقصى يسار ، ثم ما هى الضرورة الفنية التى تجبر المخرج على مواصلة استخدام هذا الأسلوب المعذب للمشاهد ، الفاضح للضعف المهنى ،

ولماذا يعجز عن استخدام أجهزة المونتاج الالكترونى باهظة الثمن وهى بين يديه جاهزة ومعها كبار المهندسين الذين تظهر أسماؤهم فى بداية ونهاية كل حلقة والعمل كله ينفى مبرر وجودهم أصلا .. إننى اكتفى بهذه الإشارة إلى عيب ربما لم ينج منه فى العدد الكبير الذى تابعته من الحلقات سوى فارس بلا جواد للفنان الواعى برسالة الفن محمد صبحى فى مصر ومسلسل المتنبى من إخراج فيصل الزغبى .. فى أبو ظبى .. فكما نجد عند محمد صبحى فريقا فنيا رفيع المستوى فى التمثيل والتصوير والموسيقى والإضاءة واختيار الملابس وتحريك المناظر وسلاسة تتابع اللقطات وضبط إيقاع الصورة نجد نفس الشئ عند فيصل الزغبى فى مسلسل المتنبى الذى حشدت له شركة الإنتاج السورية فريقا فنيا على أعلى مستوى جاء أفراده من سوريا ولبنان والأردن والسعودية والعراق وإيران فى نموذج رائع على إمكان نجاح الإنتاج العربى المشترك وإن كنت أؤجل التفصيل فى عوامل القوة والجمال والبراعة فى مطابقة المواصفات الفنية إلى مقال آخر أما الآن فهو أوان طرح السؤال ، كيف ندرك أبعاد عصر الفضائيات ؟.. هل مازلنا نركن إلى فكرة أن المصرى لا يستطيع الاستغناء عن أثيره المسموع والمرئى ، حيث يرى نفسه وناسه ومشاكله ؟

اقتصادنا الوطنى والجات

أخشى أن يكون الواقع قد بدل الساكنين فى خانات السذاجة . وحتى على افتراض أن ذلك لم يحدث بعد بالقدر الذى يلغى مبرر وجود الكثيرين ، كيف يرى طارحو الإنتاج المعيب أنفسهم فى مثل هذا اليوم من العام القادم إن شاء الله، حين يأتينا عام ٢٠٠٤ ومعه الرفع الملزم للحواجز الجمركية طبقا لقواعد منظمة التجارة العالمية المطبقة لاتفاقيات (الجات) ، وإلى أى حد يحتمل اقتصادنا وكرامتنا الوطنية كل ما هو متوقع من توابع بالقطع منطقية إن - لا قدر الله - تواصلت الغفلة عن أهمية الالتزام بالمواصفات وصولا للجودة التى هى الضمان الوحيد لإقبال المصرى على المنتج الوطنى ، سواء كان برنامجا فى الإذاعة المسموعة أو المرئية أو حذاء أو قميصا معروضا للبيع فى الأسواق . صحيح أن لا شأن للجمارك بالمنتج المذاع ، لكن ما يصدق عليه يصدق على المنتج المباع فى السوق إن كان للأمر صلة باختيار الجيد والانصراف عن الردئ . وهل من المنطقى أن نطالب المصريين بشراء المنتج الوطنى لمجرد أنه



مصرى ويصرف النظر عن جودته ؟.. وهل من العقل أن نصدق أن الدافع الوطنى يكفى لحدوث ذلك مهما شرحنا وأكدنا العلاقة بين شراء المنتج الوطنى وسلامة الاقتصاد ، وتشغيل الناس والحد من البطالة وشيوع الجريمة والانحراف ..؟!!

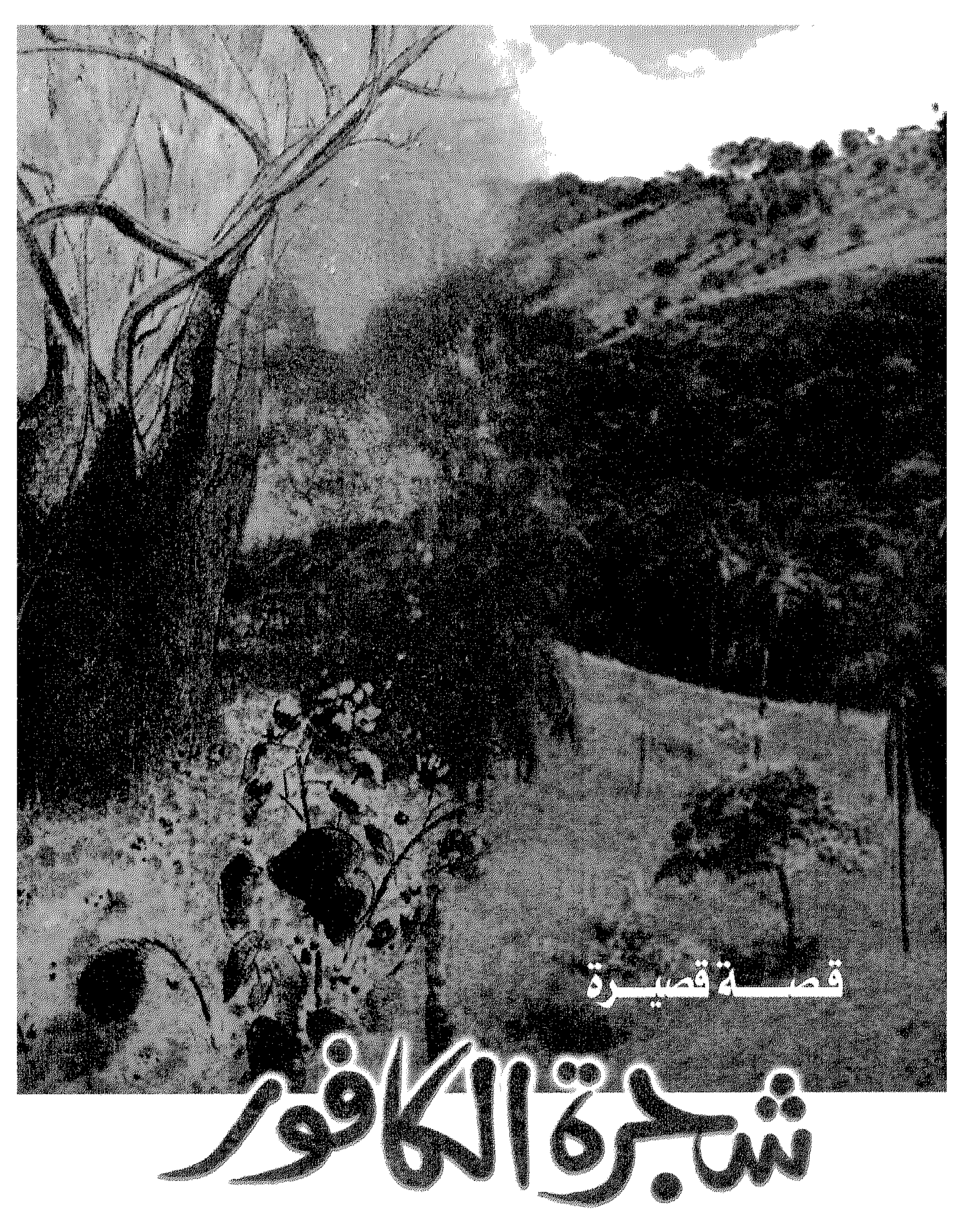
وهل يصدق الناس من تشى كلماته وأفعاله بالكذب ؟!

هل ينفع أن نترك الساقط فى نكبة الأخطاء اللغوية - نحوا وصرفا - ونسند إليه الدعوة للحفاظ على سلامة اللغة العربية ، من يصدقه؟ لن يكون رد الفعل سوى السخرية والتندر بحال المتكلم وموضوع الكلام . نفس الشئ يصدق على البرامج والتمثيليات والأغانى وكل أنواع المنتجات التى يحملها الأثير إلى مستمع ومشاهد هو فى بلادنا صاحب ذوق رفيع ، وحس يفهم فى السياسة والفن بالفطرة وبفعل تراكم الخبرة الإنسانية وصقلها عبر آلاف السنين .

وبعد ، فالأمر لا يقف عند تزييف الواقع ، ولكنه يتجاوزه إلى الغفلة عن المسئولية الأصيلة لكل من يرتضى لنفسه مهمة لها بالإعلام المعاصر صلة .. إذ يفرض الواجب أن نفهم مسئوليتنا فى إعداد الناس لما هو آت . وإذ نذكر بما حكاه المستشار الألمانى الأسبق (كول) عن أمه التى نصحته إن جلس للأكل أن يركز البصر على ما فى طبقه ، وألا ينظر إلى مافى أطباق الآخرين ..

فدعوتنا لتذكر هذا المثال إنما هى للاقتناع والقناعة بأن ما عندنا فيض من نعم المولى عز وجل ، وبأننا إن لم نحسن التأمل والتقدير لما بين أيدينا من نعم فسيكون العقاب مهولا .. وليس أمامنا إلى النجاة من سبيل سوى عن طريق التطبيق الكامل المحكم للمواصفات وصولا للجودة المحققة لرواج المنتج، أى منتج .

ولأننى لا أريد لنفسى أو لأى من أبناء وطنى ، أن نكون فى حال البجع المتقافز لالتقاط فتات يتعطف به من يمر ، ولا فى حال البجع المتحرك فى كسل يمد منقاره إلى سمك صغير قريب من سطح الماء ، وإنما يجدر بنا دوما أن نشحذ كل قوة فينا أو مهارة أو إبداع ، لنكون، على العمر ، فى حال البجع المرتفع عن سطح الماء ، محلقا إلى أبعد مدى يستطيع الوصول إليه ، ليكون جديرا بنوع الأكل على هواه . ■

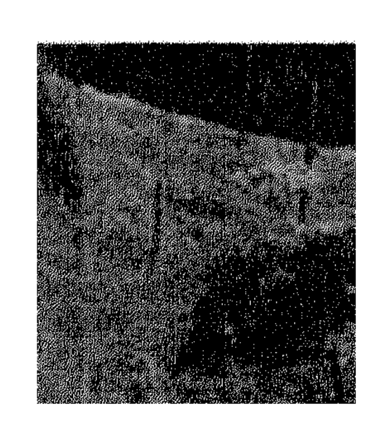


شجرة الكافور

بقلم
هدى العقبى

شجرة الكافور

أمي لها قلب جميل وحنون، أحن من كل القلوب، لها قلب ضارب الى أعماق الأرض يتخلل جذورها، لها ملايين الأبناء. إنها شجرة الكافور الجميل. قد تندهشون ما الذى يجعلنى متأكد من ذلك.. ولكنى أحد أبنائها، من أنا؟ أنا عصفور أخضر صغير أعيش فى أحضان أمى شجرة الكافور. أقصد أمى الحاضنة. أعيش أنا وأبى وأمى وأخوتى الصغار، كم أحب الحدائق والبساتين. يا الله، ما كل هذا الجمال؟ تلك الشجرة العتيقة أحبها أكثر من أى شىء آخر. لقد أبدع الله سبحانه فى صنعها . تقف متحدية الزمان والمكان . انها تزداد جمالا كلما تقدم بها الزمن، خاصة فى لحظات الفجر حيث



تتساقط على أوراقها حبات الندى اللؤلؤية المضيئة التى سرعان ما تتحول الى اللون الفضى.

هل هى وحيدة ؟ . لا ليست وحيده فهى الملجأ لنا نحن معشر الطيور، لا تبخل علينا بشئ، يمكن لأى عصفور أيا كان لونه أو شكله أن يسكن فيها. فليختار أى فرع أو غصن من الشجرة يبنى له منزلاً فيه . أو كما تقولون أنتم معشر البشر «عش» سؤال يشغلنى «من قام بزراعتها ؟ أقصد شجرة الكافور إنها تبلغ من العمر مائة وخمسين عاما هكذا حدثنى أمى اين هو الآن أرغب فى شكره لأنه أهدى العالم هذه الشجرة الطيبة البشوش

إنها جميلة فى كل فصول السنة، حتى فى فصل الخريف ... فى هذا الفصل لا تسقط جميع أوراقها مثل باقى الأشجار والشجيرات الأخرى ... بل لها خاصية جميلة تميزها عن باقى الأشجار ... أوراقها تسقط من كل فرع أو غصن على حده على مدار السنة . شجرة الكافور كل يوم ترتدى فستاناً جديداً أخضر اللون له كرانيش خضراء جميلة، كل ورقة تستبدل تزيد الورقة جمالاً. أوراق طويلة مسحوبة للأمام ... بها عرف صغيرة كأنها ممالك تختفى وراء زجاج أخضر غامق .. أمى العزيزة شجرة الكافور ذات رائحة جميلة تعطر الجر طوال فصول السنة الأربعة حتى فى فصل الخريف فيه تقوم بتوديع آخر أوراق

قديمة لديها ورقة تلو الأخرى وتصبح مستعدة لفرصتها الثانية أو الثالثة

أو المائة والخمسين فى انتظار الحياة إن شبابها متجدد يا عظمة الخالق الجميل، إن الله جميل يحب الجمال ... حقا إن الله جميل خالق الجمال يقول البعض إن شجرة الكافور بدون ثمار ، إنه أحد أسرارها وسر تألقها وتميزها .. هى أم رحيم بارة بجميع أولادها من الطيور .

ومع ذلك فى بعض الأحيان تكون وحيدة فى يوم من أيام الخريف هاجر جميع أولادها بحثاً عن الرزق، ما عدا عصفور أخضر اللون صغير عصفور رقيق القلب رأسه وجسمه فى لون الأوراق الخضراء أما ذيله ففى لون الثلج، هل عرفت من يكون هذا الصغير؟ أنه أنا ... كل يوم أخرج بحثاً عن الرزق وأعود لأطمئن على أمى شجرة الكافور .

فى أحد الأيام عدت وأحسست بأنينها ، بدموعها التى تسيل عصارة على فروعها قلبى الرقيق رفرف داخل صدرى الصغير طرت بعيداً وأنا أنادى وأزقزق على أخوتى عصافير الجنة وعلى عصافير الكناريا وعلى العصافير الرمادية... إن أمنا شجرة الكافور حزينة . جاءت كل العصافير الحمراء والخضراء وعصافير الكناريا وحتى العصفور الأزرق جاء من آخر الكون أخذ كل عصفور ريشة من ريشه ووضعها فى منقاره ليقدمها هدية لأمنا طار كل منا ليواسى أمنا الحنون ويعرفها إننا مازلنا أبناءها استقر كل عصفور على فرع من الفروع أصبحت الشجرة كرنفال ألوان ...وتساقط الريش بألوانه المختلفة فى منظر بالغ الروعة إذا نظرت لشجرة الكافور فى ذلك اليوم لرأيت قوس قزح متمثل فى شجرة ... ولعرفت معنى الوفاء والإخلاص . ■



قصاقيص

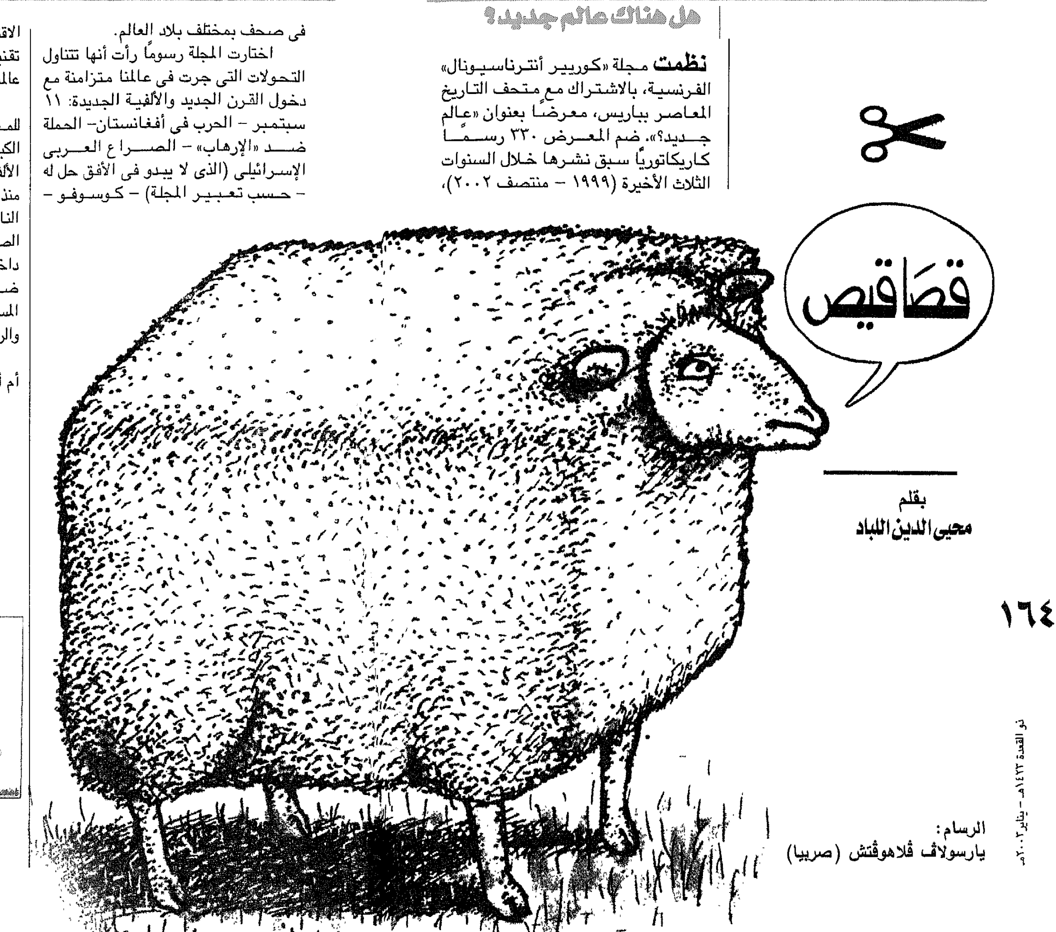
بقلم
محيى الدين اللباد

نظمت مجلة «كورييـر أنتـرناسـيونال» الفرنسية، بالاشتراك مع متحف التاريخ المعاصر بباريس، معرضًا بعنوان «عالم جـديد؟». ضم المعـرض ٣٣٠ رسـمًـا كاريكاتوريًا سبق نشرها خلال السنوات الثلاث الأخيرة (١٩٩٩ - منتصف ٢٠٠٢)، في صحف بمختلف بلاد العالم.

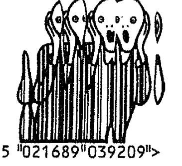
اختارت المجلة رسومًا رأت أنها تتناول التحولات التى جرت فى عالمنا متزامنة مع دخول القرن الجديد والألفية الجديدة: ١١ سبتمبر - الحرب فى أفغانستان- الحملة ضـد «الإرهاب» - الصـراع العـربى الإسرائيلى (الذى لا يبدو فى الأفق حل له - حسب تعبير المجلة) - كوسوفو - الاقتصاد الإلكترونى - الوحدة الأوروبية - تقنيات البيولوجيا - الظلم والعدل فى عالمنا.

الموضوع طريف، لكن الرسوم المختارة للمعرض لم تستطع التعبير عن الجنون الكبير الذى صاحب لفة القرن ودوران عجلة الألفية، وبدا -أغلبها- وكأنها رسوم رأيناها منذ ٣٠ عامًا مضت، أو كأن «إبرة ضرب النار قد نزعت منها». هل السبب هو أن الصدمات التى أصابت الرؤوس وما فى داخلها كانت شديدة الوقع على العقل، ولذا ضعفت استجاباته لأحداث الواقع؟، أم أن المسائل باخت، وجداول الضرب ضاعت، والرؤية غامت، والعبارة ضاقت؟

هل هى المجلة التى لم تحسن الاختيار أم أن الدنيـا باظت؟



الرسام: يارسولاڤ ڤلاهوڤتش (صربيا)



الرسام: بيريت (اسبانيا)

- أبوك فى الصالون وعاوز يتكلم معاك!
- طيب ما هو معاه نمرة الموبايل!

الرسام: باريج (سويسرا)

الكاريكاتور الصحفى مهدد بالانقراض؟

نشرت مجلة «أميركان چورناليزم ريڤيو American Journalism Review» مقالا بنفس العنوان الذى اتخذته هذه الفقرة عنوانًا لها، ذكر كاتبه أن الصحف الأمريكية لم تعد تهتم بتشغيل رسامى الكاريكاتور لأسباب أغلبها اقتصادى. ولاحظ الكاتب أن الصحيفة التى يموت رسامها الكاريكاتورى لا توظف رساماً بدلاً عنه، وتترك مكانه فى الصحيفة شاغراً.

منذ عامين، توفى «چيف ماكنيللى» رسام الافتتاحية الكاريكاتورية لصحيفة «شيكاغو تريبيون» (حصل على جائزة «بوليتزر» للكاريكاتور ٣ مرات). ونعت الصحيفة رسامها بحزن عميق، وجاء فى نعيها: «كم سنفتقدك يا ماكنيللى، وكم سيفتقد القراء رسمك!». ومرّ عامان، ولم تهتم الصحيفة بأن يشغل مساحة الكاريكاتور السياسى فيها رسام آخر!

ولم يكن هذا حال «شيكاغو تريبيون» وحدها، بل يعدد المقال خمسة صحف أخرى على نفس الحال. ويذكر أن صحيفة سادسة هى «ديلى نيوز» النيويوركية أعلنت إلغاء مساحة الكاريكاتور السياسى فيها ضمن خطتها لخفض المصروفات.

ويدافع رئيس «رابطة رسامى الكاريكاتور الأمريكان» الرسام «بروس بلانت» عن المهنة، نافيًا صحة «إعلان وفاة الكاريكاتور». ويزعم الرسام النقابى أنه «لا يوجد على الأرض فن له شعبية الكاريكاتور»، وأن «على الرسامين أن يواصلو الدقّ على أدمغة رؤساء التحرير بأن فنهم لا يزال حيًّا يرزق!».

وعلى الرصيف الآخر، يبدى رسامون آخرون خوفهم من حالة «التنميط» التى يغرق فيها الكاريكاتور السياسى الأمريكى حاليًا، ومن الخفة المتزايدة فى تناوله للموضوعات. ويرى هؤلاء أن الأجيال الجديدة من الرسامين تخضع لضغوط



عينة من اختيارات «نيوزويك» من الكاريكاتور الأمريكي



رؤساء التحرير المطالبة -دائمًا- بكاريكاتور أشبه ببرامج التسلية التليفزيونية، ويرون أن هؤلاء الرسامين الجدد يستسلمون لطلب رؤساهم المتكرر بأن تكون رسومهم مثل تلك الرسوم الساقعة التى تختارها مجلة «نيوزويك» من الصحافة الأمريكية وتنشرها، أو تلك التى تظهر على صفحات جريدة «يو - إس - توداى».

ويتحدث الرسام «سكوت ساتانتيس» (الرئيس السابق للرابطة) مؤكدًا تزايد ظاهرة «تنميط» الكاريكاتور وانتشار محاكاة رسوم مجلة «النيوزويك»، ويقول [إن ظاهرة «نزوكة» المهنة (نسبة إلى «نيوزويك») تهدد بموت الكاريكاتور السياسى]!

قد تكون تلك أخبارًا جديدة وكلامًا جديدًا على بعض القراء، ولكن حال الكاريكاتور الأمريكى كان واضحًا منذ زمن طويل. ولكن اللافت للنظر -هذه الأيام- أن هذا الحال أصبح متكررًا فى بلاد كثيرة غير أمريكا (هل تدخل بلادنا الآن ضمن تلك البلاد؟)، فالأمر يبدو كما لو كان «شوطة» شاطت فى العالم.

تغيير «ماركة» دولة!

تعدّ بولندا واحدة من أهم دول العالم فى ميدان التصميم الجرافيكى. ومؤخرًا، أُعلن فوز وكالة إعلان بولندية فى مسابقة مغلقة نظمتها وزارة الخارجية البولندية لتصميم شعار بصرى لدولة بولندا «بناء على معايير حددتها الوزارة بدقة»، كما صرح المتحدث باسمها.

سيكون التصميم شعارًا غير رسمى لبولندا، يظهر على مطبوعات وزارة الخارجية، وفى موقعها على الإنترنت، وعلى لوحات عملاقة عند الحدود البرية، وعلى شاشات التليفزيون، وشاشات التليفون المحمول، وغير ذلك. أما الشعار الرسمى الحالى (نسر متجهم شرس يخرج لسانه من منقاره المفتوح، وينشر مخالبه وجناحيه)، فسيكتفى بظهوره فى الحالات الفائقة الرسمية والمتجهمة مثله.

كان على الشعار الجديد أن يجمع بين إظهار بولندا كبلد عريق، وتقديمها -فى الوقت ذاته- كدولة حديثة وشابة غير محافظة. اختار المصممون أن يكتب اسم «بولندا» كما تكتبه اللغة البولندية: POLSKA (وليس Poland أو Pologne كما يكتبها الإنجليز والفرنسيس)، بينما اختاروا -بتعمد- أسلوبًا جرافيكيا لكتابة اسم الدولة يذكرنا بالشعار البصرى لمنظمة «تضامن solidarinoc» العمالية البولندية المعارضة التى ذاعت شهرتها فى العالم، وقت أن كانت تناهض الحكم الشيوعى قبل سقوطه عام ١٩٩٠..

كان شعار



«تضامن» هو مجرد اسمها مكتوباً بطريقة يدوية حرة، وهي الطريقة ذاتها التي حاولوا أن يكتبوا بها الشعار الجديد تيمناً وتمحكاً في «تضامن». ويبدو أنهم يتوقعون تأثيراً طيباً عند الأوروبيين لهذه الإشارة الخفية إلى منظمة «تضامن» ورئيسها «ليخ ڤاونسا».

وتمادى المصممون، وجعلوا من حرف «K» في اسم بولندا شخصاً يرقص، ثم تبحبحوا ووضعوا في يده طيارة ورقية تلعب في الهواء. وجعلوا الشعار الجديد بلوني العلم البولندي : الأحمر والأبيض.

وفي مقابلة أجرتها صحيفة «الفاينانشيال تايمز» البريطانية مع الفريق الذي صمم الشعار، ذكر هؤلاء أن وكالتهم قامت بإجراء استطلاع للرأي في الدول الأوروبية، خارج بولندا، سألتهم فيه عما يتداعى إلى أذهانهم عند سماعهم لاسم «بولندا»، ووضعت نتائج هذا الاستفتاء تحت تصرف فريق التصميم قبل شروعهم في العمل.

وقال أحد المصممين: «إن تبديل [ماركة] أمة هو عملية ليست بالهينة. فالمطلوب ليس مجرد [ماركة] جديدة بهدف تنشيط مبيعات سلعة ما، إنما المطلوب [ماركة] تسرع بإلحاق بولندا بالاتحاد الأوروبي، والإقرار بأوروبيتها مثل باقي الدول أعضاء الاتحاد!».

«تان-تان» ومكاسبه

باعت مجلدات المغامرات المرسومة للشخصية الكارتونية الشهيرة «تان-تان» الصحفي الفتى وكلبه «ميلو» عشرات الملايين من النسخ في طبعاتها بمختلف لغات العالم (من بينها العربية). وفي السويد -وحدها- حققت مبيعات الطبعة السويدية من مجلدات «تان-تان» الثلاثة والعشرين أرباحاً تفوق العشرين مليونا من الجنيهات المصرية، دخلت جيوب ناشرها في الفترة ما بين ١٩٦٠ و١٩٧٦.

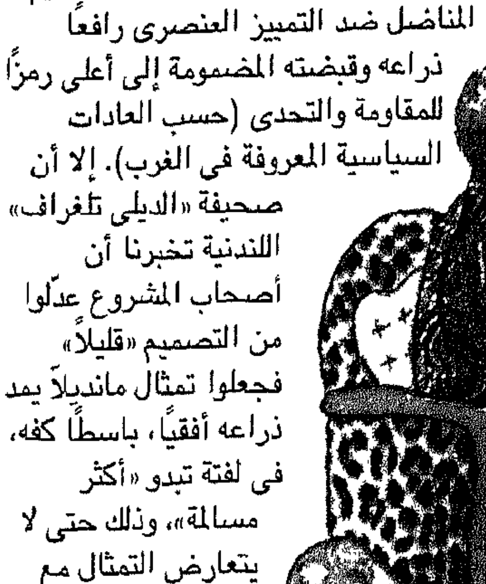
أما المترجم الذي قام بترجمة تلك المجلدات إلى اللغة السويدية، فكان قد تقاضى أجراً مقطوعاً عن ترجمته بلغ ما يعادل ٨ جنيهات مصرية عن الصفحة الواحدة، أي حوالي ١١٠٠٠ ألف جنيه مصري لا غير عن الثلاثة والعشرين مجلداً (بمعدل ٦٠ صفحة في المجلد الواحد).

وعندما بلغت المترجم أرقام المبيعات المذكورة، قام برفع قضية أمام المحاكم السويدية يطالب فيها الناشر بتعويض يليق بجهده الذي كان أحد أسباب تحقيق كل هذه الأرباح. رفضت المحكمة الدعوى، وحكمت بأن يتحمل المترجم مصروفات قضيته.

مضمومة رأسية أم مبسوطة أفقية؟

يجري العمل بهمة لإقامة تمثال صرحى لنيلسون مانديلا فى مسقط رأسه ميناء «بورت إليزابيث» بجنوب أفريقيا. التمثال المزمع إقامته سيصب من معادن مستخرجة من مناجم البلاد، وبارتفاع ٦٥ متراً (بزيادة ١٩ متراً عن تمثال الحرية القائم فى نيويورك).

ترعى مشروع التمثال جماعة من رجال الأعمال الأفارقة، فكروا أن ينصب التمثال عند مدخل الميناء ليستقبل السفن القادمة، مثلما يفعل نظيره النيويوركى. وقد شجعت الحكومة الإقليمية الفكرة، وقدمت لها التسهيلات اللازمة.

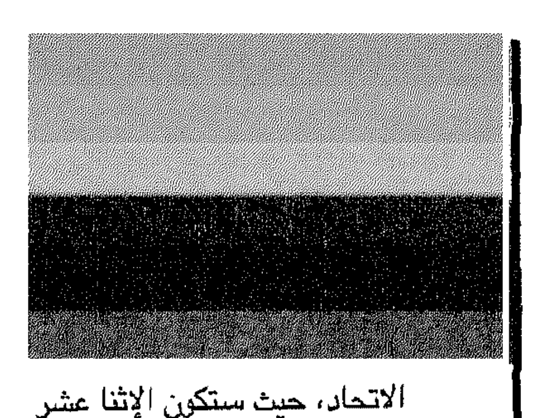


التصميم الأول للتمثال صور الزعيم المناضل ضد التمييز العنصرى رافعاً ذراعه وقبضته المضمومة إلى أعلى رمزاً للمقاومة والتحدى (حسب العادات السياسية المعروفة فى الغرب). إلا أن صحيفة «الديلى تلغراف» اللندنية تخبرنا أن أصحاب المشروع عدّلوا من التصميم «قليلاً» فجعلوا تمثال مانديلا يمد ذراعه أفقياً، باسطاً كفه، فى لفتة تبدو «أكثر مسالمة»، وذلك حتى لا يتعارض التمثال مع الهدف المقام من أجله، وهو: تنشيط السياحة!

علم جديد!

علم الاتحاد الأوروبى الحالى (أرضية زرقاء عليها ١٢ نجمة ذهبية) أصبح يمثل مشكلة ومأزقاً للاتحاد. فقد كانت فكرته الأولى أن يحمل نجوماً بعدد الدول الأعضاء فى الاتحاد. وكانت تضاف إلى نجومه نجمة كلما انضمت دولة جديدة إلى الاتحاد، حتى وصل عدد النجوم ١٢ نجماً. وهنا قرر الاتحاد عدم إضافة نجوم جديدة، وتجميد عدد النجوم عند الرقم ١٢، رغم توالى انضمام دول جديدة إلى الاتحاد.

وقد كشف «رومانو برودى» رئيس الاتحاد الحالى أكثر من مرة عن حيرته، إذ أنه لا يعلم كيف سيواجه -خلال العام الحالى والعام القادم- مأزق انضمام عدد كبير من الدول الاشتراكية (سابقاً) إلى الاتحاد، حيث ستكون الإثنا عشر نجمة -عندئذ- غير معبّرة (ولو رمزياً) عن عدد الدول الأعضاء. والبديل الوحيد هو ازدحام مساحة العلم بنجوم أكثر مما تطيق.



ومؤخراً، تقدم الرسام البرتغالى الشاب «نون أنتونيو جاى آتا» بمشروع تصميم من ●●●

٦ شرائط أفقية من الألوان الزاهية المبهجة. ولقى التصميم ترحيبًا مبدئيًا من ممثلى الدول الأعضاء، إلى أن اكتشف بعضهم أن هناك تشابهًا، يكاد يكون تطابقًا، بين العلم المقترح وبين «راية قوس قزح» المتعددة الألوان التى يعرفها الكثيرون فى مختلف أنحاء العالم كراية يرفعها الشواذ جنسيًا فى اجتماعاتهم ومظاهراتهم.لعلم جديد للاتحاد الأوروبى، مكون

فن «الشوبنج» !

انتقل المعرض الكبير المعنون «شوبنج» من فرانكفورت، إلى لندن وأعيد افتتاحه فى ٢٠ ديسمبر الماضى بقاعة «التيت جاليرى» الشهيرة بلندن. يعرض المعرض ٢٠٠ عمل لسبعين فنانًا تدور موضوعاتهم حول التسوق والسلع والاستهلاك: صور فوتوغرافية لڤتارين محلات من مطلع القرن الماضى، وأعمال «أندى ڤارهول» الصادمة التى رسم فيها علبة شوربة الطماطم ماركة «كامبل» وزجاجات الكوكاكولا وعلب صابون «بريللو»، ولوحة سندوتش الهوت دوج الشهير الذى رسمه «ليشتنشتاين»، والعمل المعروف للأمريكية «بربارا كروجر» الذى يمثل كفًا تحمل لافتة: «أنا أشترى، إذن أنا موجود» (!)، وغيرها من الأعمال التى تندرج تحت شتى أشكال التعبير البصرى.

انفجرت موجة فن «البوب» Pop Art فى منتصف الخمسينيات وبداية ستينيات القرن العشرين، واستعار الفن الجديد أساليب تصميم السلع ورسوم لوحات الدعاية على الطرق، والإعلانات الصحفية، وملصقات الترويج، والرسوم الصحفية التجارية. وشمل الانفجار –غير الفنون التشكيلية– فنون الموسيقى، والغناء، والسينما، والتصميم المعمارى، وشقيقه الصناعى، والعمارة الداخلية. وانتشر الفن الجديد على جانبى المحيط الأطلنطى: أمريكا وأوروبا.

اعتبر فن «البوب» امتدادًا لفن «الدادا»، إذ كان كلاهما يعمل على صدم ذوق الطبقة البورجوازية «الماسخ»، وهزّ قيمها الجمالية. وكان كل فن منهما يعتبر نفسه معارضًا، و–بالتحديد– اعتبر «البوب» نفسه فنًا جاء ليجهز على الفن التجريدى وزميله التعبيرى، باعتبارهما فنين بورجوازيين. وقال منظرو «البوب» أن فنانيه يعملون على إنزال الفن التشكيلى من سماواته العُلى إلى أسفلت الشوارع وبلاط السوبر ماركت. وزادوا على ذلك بأن فن «البوب» يحمل سمة هامة هى «محو وجود الفنان وذاتيته المدّعاة»!

وفتح فن «البوب» –بخطابه المباشر الصريح– الطريق أمام فن المعارضة السياسية والاحتجاج، فى بداية ستينيات القرن العشرين، ذلك الفن الذى بلغ ذروته عام ١٩٦٨، سنة «ثورة» شباب الشمال الثرى، التى نادت بحياة جديدة، وقيم جديدة، وثقافة جديدة.

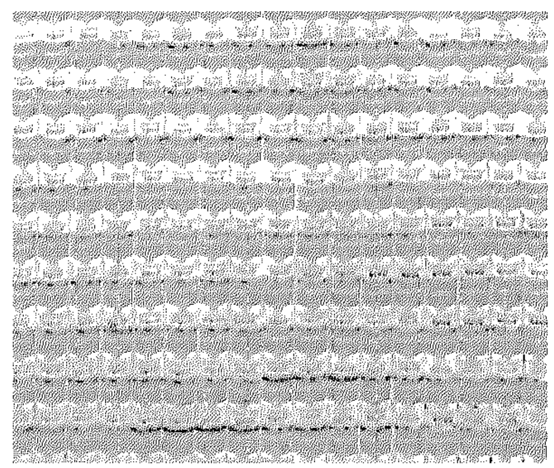
أما اليوم، بعد جنون الاستهلاك المفرط الذى يسود عالم الشمال، أصبحت أعمال فن «البوب» المستمدة من رموز الاستهلاك لا تعنى للشباب، الذين لم يعاصروا أوج ظهور فن «البوب»، سوى إشادة بمجتمع الاستهلاك الذى يعيشون الآن «أوج» قوته.

لقد أصبح التسوق، فى المجتمعات الغربية المرفهة، ضربًا من ضروب الترويح واللهو، بل أصبح النشاط الرئيسى فى تلك المجتمعات، وأصبح مجال اللقاء والاتصال بين الناس وميدانًا لحياتهم المشتركة. أصبح التسوق محور وجودنا المدينى. ونجح فى أن يعبر حدود الخلافات السياسية والعقائدية والعرقية، وأصبح مقياسًا لطبيعة الحياة اليومية وسلامتها.

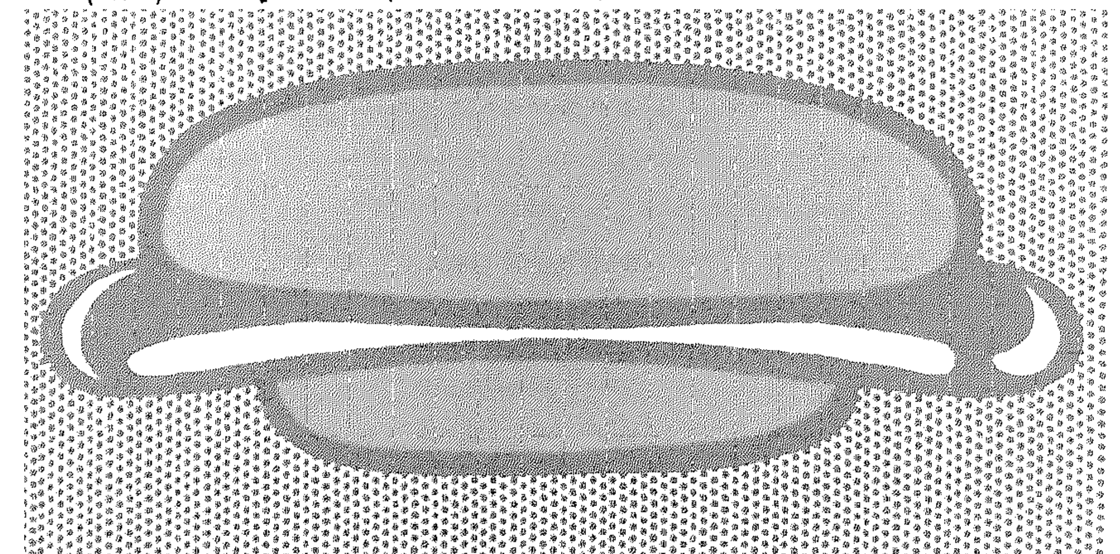
وعندما تمر الأمم –الآن– بضائقة أو أزمة، لا يدعو أحد إلى الاقتصاد فى الإنفاق أو إلى الحد من الاستهلاك، بل تكون الدعوة عكس ذلك. ولعل منا من يذكر طلب عمدة نيويورك السابق «رودلف



«أنا أشتري، إذن أنا موجود»، باربارا كروجر (أمريكا)



شوربة طماطم كامبل، أندي ڤارهول (أمريكا)



سندوتش، روي ليشتنشتاين (أمريكا)

جوليانى» من مواطنى مدينته -بعد نكبة ١١ سبتمبر- بأن يصعدوا من تسوقهم بهدف إنعاش اقتصاد المدينة.

المعرض حافل بمظاهر الاستهلاك المفرط، والدعايات العملاقة للسلع، وتفاصيل المحلات الكبرى، ووتصميمات المراكز التجارية، التى بهرت فنانى منتصف القرن العشرين فنقلوها إلى سطوح لوحاتهم، وجعلوا منها أساطير حديثة رسخت فى الثقافة الشعبية المعاصرة.

توست بالزبدة، كلايس أولدنبرج (أمريكا)



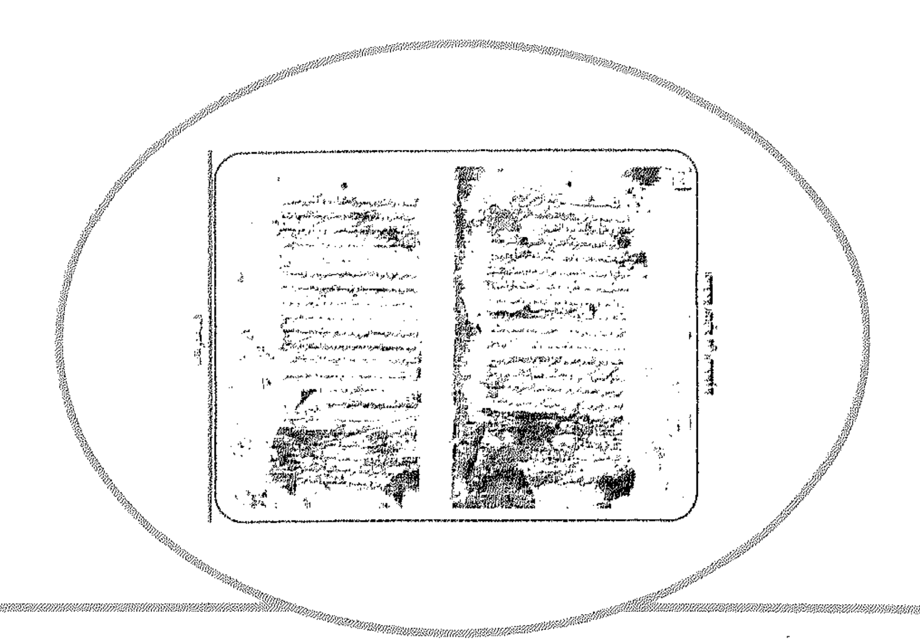
الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة

الأدب المصرى فى العصر العثمانى

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

اشتبكت في نقاش - قبل سنوات - مع زميل من أساتذة الجامعة ، بدأ النقاش عندما راعه وصفى لفترة الحكم العثمانى من تاريخ مصر بأنها «فترة الاحتلال العثمانى لمصر» ، جاء نعتى هذا لسنوات الحكم العثمانى لمصر نتاجا لما قرأت عنها من تاريخ ابن إياس المعروف : «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»، بينما كان ارتياع الزميل لما أطلقت من نعت على الحكم العثمانى لمصر وليد اعتناقه لفكر جماعات الإسلام السياسى عن الخلافة، وبالرغم من أننى حملت الجزء الخامس من كتاب ابن إياس - والذى جاء فيه وصف سقوط مصر أمام العثمانيين - إلى الزميل ليقرأ أسبابى فيما نعت به حقبة الحكم العثمانى لمصر، إلا أن الزميل أبى أن يصدق رواية ابن إياس عن هذه الحقبة ، ولم يزدنى إباء الزميل إلا إيماناً بما وصفت به تلك الحقبة.

يسجل ابن إياس فى تاريخه ماكان من أمر العثمانيين فى مصر بعد أن دانت لهم مقاليدها فى مستهل سنة ٩٢٣هـ ، فيقول فى أحداث شهر ربيع الآخر من سنة ٩٢٣هـ مايلى : «وفى يوم الجمعة سابع عشرة رسم الدفتردار بإخراج طائفة من اليهود ممن كان تعين إلى السفر لاسطنبول، فخرجوا فى ذلك اليوم جملة واحدة فنزلوا من المراكب وتوجهوا إلى ثغر الاسكندرية إلى أن يمضوا إلى اسطنبول، فأخذوا نساءهم وأولادهم ومضوا ، وفى عقيب ذلك خرجت طائفة من البنائين والمهندسين والنجارين والحجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين، ومنهم من مسلمين ونصارى، حتى



طائفة من الفعلة» (١) ، هكذا بدأ العثمانيون من نقل فئات المهنيين المصريين بعد أيام من سقوط مصر أمام جحافلهم إلى اسطنبول عاصمة ملكهم، ولم يقف الأمر عند حد تهجير تلك الأعداد من أهل الحرف ، ولكنه امتد ليشمل كل المهرة من أبناء مصر .. بل إنه بلغ حد تهجير القضاة .

إن ما ارتكبه العثمانيون بعد دخولهم مصر لم يقف عند حد تفريغها من الأكفاء من أبنائها ، وإنما سبق ذلك ولحقه فك البنية الأساسية لبعض الصروح المصرية وإرسالها إلى اسطنبول، ومن ذلك ماذكره ابن إياس - أيضاً - فى أخبار شهر ربيع الأول من سنة ٩٢٣ هـ حيث يقول : «وفى هذا الشهر وقع أن ابن عثمان (أى سليم الأول) شرع فى فك الرخام الذى بالقلعة ، فى قاعة البيسرية والدهيشة وقاعة البحرة والقصر الكبير وغير ذلك من أماكن بالقلعة، وفك العواميد السماقى التى كانت فى الايوان الكبير، وقيل إنه قصد أن ينشىء له مدرسة فى اسطنبول مثل مدرسة السلطان الغورى، فلا تقبل الله منه ذلك»(٣)، فلكل ماسبق .. فإن ابن إياس يصف سنة ٩٢٣هـ التى شهدت استيلاء العثمانيين على مصر بقوله : «وكانت سنة صعبة شديدة على الناس، كثيرة الحوادث والفتن، جرى فيها أمور شنيعة لم تجر فى سالف الأزمان»(٤)، لقد لعب ماتخذه سليم الأول من إجراءات - إضافة إلى ماعانته مصر على يد قانصوه الغورى قبل الاحتلال العثمانى - الدور الحاسم فى دخول مصر إلى فترة ظلام حضارى ، فتراجعت بمصر ولسنوات طوال كل مظاهر التميز التى وسمت مظاهر الحضارة بها، إن ذلك يتجلى فى أوضح صورة فيما أصاب الحركة الأدبية المصرية على يد الغزاة من بنى عثمان، فبعد أن فرغت مصر من صناعها وعلمائها وقضاتها والوجهاء من رجالها، فإن الناتج الوحيد لذلك تمثل فى انهيار مراكز التعليم بمصر ، وهو ماانسحب بشكل مباشر فيما بعد على الإنتاج الأدبى ... فأصابه بالرتابة وأورثه الضعف والهزال ، فبعد أن شهد تاريخ الأدب العربى العديد من الموسوعات الأدبية

والتاريخية فى دولة المماليك.

المؤلف والكتاب

مؤلف كتابنا هذا هو محمد بن زين العابدين بن محمد بن أبى الحسن بن محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى، ولد بالقاهرة فى عام ٩٩٨ هـ (١٥٨٩م) على أرجح الأقوال.. وتوفى بها فى ليلة الجمعة الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١٠٨٧هـ -(١٦٧٦م) (٥ ،٦)، وهو حفيد أبو المكارم شمس الدين محمد بن محمد ابن أبى الحسن بن محمد بن أبى السرور البكرى الصديقى (٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م - ٩٩٤هـ/ ١٥٨٦م)، وقد قال من ترجموا لجد المؤلف إنه هو المنعوت فى كتب التاريخ أو الطبقات باسم القطب البكرى أو سيدى محمد البكرى وقد عد من علماء المتصوفين(٦) ، نشأ المؤلف الذى عرف بمحمد بن أبى السرور البكرى فى بيت السادة البكرية المطل على بركة الرطلى، وهو بيت عز وثراء ... عرف أهله بالنفوذ المادى والدينى لدى العامة والحكام، اشتغل المؤلف بالتدريس لعلوم الحديث والتفسير والتصوف والتاريخ فى الجامع الأزهر، ويستطيع القارىء لما خلفه محمد بن أبى السرور البكرى أن يلمس أنه ربما عمل لفترة في بلاط الحكم العثمانى بالقاهرة، ولكن المؤكد أنه اعتزل التدريس بالأزهر فى أواخر سنوات عمره، وإن ظل يفتى الناس فى منزله ويتولى عمادة السادة البكرية حتى وافته المنية(٧).

لم يكن كتابنا الحالى هو المؤلف الوحيد لمحمد بن أبى السرور البكرى، ولكن هناك العديد من الكتب التى خلفها نذكر منها : «عيون الأخبار ونزهة الأبصار» - «النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية» - «المنح الرحمانية فى تاريخ الدولة العثمانية» - «كشف الكربة فى رفع الطلبة» - «قطف الأزهار» و«درر المعالى الجلية فى التصوف» (٨ ،٩)، ومما يؤسف له أن جل هذه الكتب مازال مخطوطاً لم ير نور النشر بعد لاهم كتابنا هذا وكتاب «كشف الكربة فى رفع الطلبة» الذى قام الدكتور/ عبد الرحيم عبد الرحمن على تحقيقه ونشره فى المجلد رقم ٢٣ لسنة ١٩٧٦م من «المجلة التاريخية».

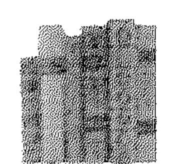
يعد إبن أبى السرور البكرى مؤرخاً تقليديا مثل المسعودى ومن سار على نهجه فى كتابة التاريخ، ويتصف أسلوبه فى الكتابة بنفس الخصائص التى ميزت الكثرة الغالبة من كتابات الحقبة الأخيرة من العصر المملوكى، تلك الخصائص التى يمكن إجمالها فى تدنى الصنعة اللغوية مع شيوع الألفاظ العامية والمصطلحات التركية فى ثنائيا تلك الأساليب، وفيما يختص بشيوع المصطلحات التركية - التى تشى بتغلغل الاحتلال فى دقائق حياة الشعب - فى اسلوب المؤلف ، فإنه يمكن القول بأن تلك المصطلحات قد طفحت فى بعض المواضع من الكتاب بصورة يعجز عن فهمها القارىء المعاصر ، من ذلك ماذكره ابن أبى السرور فى ترجمته للوزير أحمد باشا الذى كان دفتردار بمصر، وقد دامت ولاية هذا الوزير فى الفترة مابين ٦ ربيع الثانى ١٠٢٤هـ و١٢ صفر ١٠٢٧هـ ، يقول ابن أبى السرور فى وصف خروج تجريدة من العسكر إلى بلاد العجم فى ولاية هذا الوزير : «ثم أنه أخرجهم من مصر على أسلوب ما وقع ترتيبه لأحد من الوزراء، أنه جعل فى مقدم العسكر أمير التوسخانة وأمامه لوندا السويس

والريساه، ثم من بعدهم جبجى باشا وأمامه جميع الجبجية، ثم من بعدهم أغاة العزب وأمامه جميع العزب، ثم من بعدهم أغاة النيكرجية وأمامه جميع النيكرجية ثم من بعدهم أغاة الجراكسة وأمامه جميع الجراكسة، ثم من بعدهم أغاة التفكجية وأمامه جميع التفكجية....»(١٠).

يقسم ابن أبى السرور كتابه الحالى إلى ثلاثة أبواب، يتحدث فى الباب الأول عن «ذكر فضائل مصر من الكتاب الكريم ومن سنة النبى العظيم (صلى الله عليه وسلم) - «ذكر (دعا) الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لمصر وأهلها» - «ذكر وصف العلماء لمصر ودعاهم لها واختيارها للصحابة والملوك بعدهم وإلى وقتنا هذا» و«ذكر فتوح مصر المحروسة»، ينهج ابن أبى السرور فى كتابة الباب الأول نهج قدامى المؤرخين، ويذكر فى كثير من المواضع بهذا الباب أسماء من استعان برواياتهم وكتبهم من رواة ومؤرخين، فمن الرواة والمؤرخين .. يجد القارى أسماء مثل : سعيد بن أبى هلال - أبو رهم السماعى - الخطيب البغدادي - القضاعى وابن زولاق، ومن الكتب .. يذكر ابن أبى السرور كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» للمسعودي وكتاب «الخبر عن البشر» للمقريزي، أما الباب الثانى فقد جعله ابن أبى السرور» فيمن تولى مصر المحمية من الوزراء البكلربكية»، ويختتم ابن أبى السرور كتابه بالباب الثالث الذى كان «فى ذكرى من وليها (أى مصر) من قضاة العساكر أهل المقام الباهر»، ويعد كل من البابين الثانى والثالث من الكتاب أهم ماجاء به ابن أبى السرور فى تاريخه هذا، إذ يؤرخ فى الباب الثانى لمن تولى حكم مصر من وزراء بنى عثمان فى الفترة الزمنية الممتدة بين عامى ٩٢٣هـ/١٥١٧م و١٠٥٣هـ/١٦٤٣م وهم الذين ينعتهم بالبكلربكية، والبكلربك لقب تركي يسبغ على الأمراء وقادة الجيوش وكبار رجال الإدارة(١١)، ويعد الباب الثالث من كتاب ابن أبى السرور البكرى هذا أهم ماتضمنته روايته لتاريخ تلك الفترة، وذلك لأنه يعد من الروايات النادرة التى وصلت إلى عصرنا الحالى عن النظام القضائى لمصر فى ظل الحكم العثمانى ، وفيه يسجل المؤلف أسماء القضاة العثمانيين الذين تولوا قضاء مصر منذ سنة ٩٢٩هـ/١٥٢٢م وحتى سنة ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م، إن المطالع لهذين البابين - الثانى والثالث - من الكتاب يستطيع أن يلمس مدى اعتماد ابن أبى السرور على مشاهداته ومصادره الخاصة فى صياغتهما، وهو ماجعل من هذين البابين سبب أهمية الكتاب ومصدر نفاسته بين ماوصل إلينا من كتب عن هذه الحقبة من تاريخ مصر.

الوزراء البكلربكية

واحد وخمسون هو عدد من ترجم لهم ابن أبى السرور البكرى من وزراء مصر البكلربكية فى الباب الثانى، أولهم خاير بك الذى لقب بملك الأمراء فى عهد السلطان الغورى .. وأطلق عليه سليم الأول لقب (خاين بك) لأنه كان سبب انكسار الجيش المصرى أمام العثمانيين بمرج دابق عندما انخزل وولى بميسرة الجيش ، دامت ولاية خاير بك على مصر أكثر من خمس سنوات ، وامتدت تلك الولاية منذ أن قرره السلطان العثمانى سليم الأول نائباً للسلطنة العثمانية بمصر فى شهر شعبان من سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م وحتى وفاته فى الرابع عشر من ذى القعدة سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م، وكان آخر من ترجم له ابن أبى السرور من وزراء هو مقصود



باشا الذى تولى حكم مصر فى صبيحة يوم السبت ثامن شعبان سنة ١٠٥٢هـ/١٦٤٢م، وقد بلغت مدة بقائه فى الحكم سنة واحدة وستة أشهر وستة أيام كما ذكر ابن أبى السرور، يقدم ابن أبى السرور وصفاً عجيباً لمقصود باشا هذا فى أول ترجمته يقول فيه : «وكان قدومه إلى بكلربكية (أى إمارة) مصر من بكلربكية ديار بكر، وقدم إلى مصر براً، وحين قدم إلى مصر لم يلبس فى موكبه كلبس غيره من البكلربكية، بل كان لابسا الجوزة الصغيرة من غير ريشتين بخلاف غيره من الوزراء ، وعليه جوخة دم الغزال عليها فروة سمور جعلت لنصف ظهره، وتحتها قفطان قطنى هندى تبنى من غير سروال ولا تركاش بل بالسيف مقلد به، فتعجبت الناس به (من) ذلك، وحصل لهم غاية الرعب»(١٢).

يمكن لقارى كتاب ابن أبى السرور أن يستنبط مااستنه المؤلف من منهج التزمه فى تراجمه لوزراء مصر، يبدأ ابن أبى السرور ترجمته بذكر تاريخ استيلاء (هكذا ينعت المؤلف ولاية الوزير) مولانا (كذا) الوزير! على حكم مصر وتاريخ عزله، ولعل أكثر مايبعث على الأسى فى نفس القارىء أن ينعت المؤلف وغيره من الكتاب والى الغازى بلقب (مولانا) ، ثم يتبع المؤلف ذلك بتحديد مدة بقاء الوزير فى الحكم بالسنة والشهر واليوم، بعد ذلك يعرض ابن أبى السرور لأهم ما وقع من أحداث فى ولاية الوزير، فإن لم تكن هناك أحداث هامة قد نمت إلى علم ابن أبى السرور من ولاية هذا الوزير، فان ختام الترجمة غالباً مايكون بذكر محاسن الوزير، ومن ذلك ماجاء فى ترجمة الوزير سنان باشا فى ولايته الثانية (بين أول صفر ٩٧٩هـ/١٥٧١م وآخر ذى الحجة ٩٨١هـ/١٥٧٤م)، يقول ابن أبى السرور واصفا محاسن سنان باشا مايلى : «ومن محاسنه الثابتة تعمير الخليج ، فعاد على أحسن مايكون، وعمر بثغر بولاق مسجداً عظيماً وقيسارية وبالثغر السكندرى مسجداً وسوقاً وحمام»(١٣)، ان اختلاف منهج المؤلف فى الترجمة للولاة العثمانيين يمكن أن يغرى إلى حجم المعلومات المتاحة لديه، وهو مايبدو واضحاً فى تراجمه للثلاثين الأول من وزراء مصر فى العهد العثمانى، فقد جاءت تلك التراجم مختصرة لاعتماد ابن أبى السرور على ماحفظته عنهم كتابات معاصريهم، وهى كتابات يبدو من ارتكان ابن أبى السرور إليها أنها كانت فقيرة ومعبرة عن عصر اضمحلال ثقافى ، أما ماتبقى من تراجم لواحد وعشرين وزيراً .. أولهم محمد باشا الكرجى الخادم الذى تولى حكم مصر فيما بين رجب ١٠١٣هـ/١٦٠٤م وصفر ١٠١٤هـ/١٦٠٥م وآخرهم مقصود باشا الذى كانت ولايته من ٨ شعبان ١٠٥٢هـ/١٦٤٢م وحتى ١٤ صفر ١٠٥٣هـ/١٦٤٣م، فقد تميزت تلك التراجم بوفرة المادة التاريخية التى عرضت بها، وهو مايمكن أن يعزى - كما سبق القول - إلى معاصرة المؤلف لأحداث ولايات أولئك الوزراء.

إن أول مايجذب انتباه القارىء للباب الثانى هو قصر فترة ولايات الكثرة الغالبة ممن تولى حكم مصر من ولاة بنى عثمان ، حتى أن أى سلطان عثمانى كان يقوم بتولية وعزل العديد من الولاة على مصر خلال مدة سلطنته، وهو ماتؤكده الاحصائية التالية لأعداد الولاة ممن تولوا

حكم مصر باسم السلطان العثمانى خلال فترات زمنية محددة ، فقد كان عدد الوزراء الذين حكموا مصر لفترات أقل من عام واحد هو ثلاثة عشر وزيرا، أما الوزراء الذين دامت ولاياتهم فيما بين سنة إلى سنتين فقد بلغ عددهم واحدا وعشرين وزيراً، وذلك فى مقابل عشرة وزراء دامت ولاياتهم مابين أكثر من سنتين وإلى أربع سنوات، بالإضافة أيضاً إلى سبعة وزراء استمرت فترات حكمهم لمصر أكثر من أربع سنوات، إن تلك الاحصائية توضح أن أربعة وثلاثين من وزراء أو ولاة العثمانيين على مصر قد دامت فترة استيلاء كل منهم - بنص تعبير المؤلف - على حكم مصر مابين أقل من سنة واحدة وحتى سنتين، وهو مايخلص منه القارىء للكتاب إلى أن تلك السمة كانت من سياسات الحكم العثمانى، وذلك كى لايتاح لمن يجلس على كرسى الحكم بمصر زمن كاف لتوسيع علاقاته بأهل البلاد وتوطيدها ، ومن ثم لقطع الطريق على من تسول له نفسه من أولئك الولاة فى الاستقلال بحكم مصر.

تتراوح الأحداث التى يضمنها ابن أبى السرور بعض تراجمه لوزراء مصر بين الفتن والغلاء والأوبئة والرخاء، ومن ذلك فتنة الجنود الذين تمردوا فى طنطا وتعاهدوا على عدم دفع الطلبة (وهى ضريبة فرضتها طائفة السباهية على الفلاحين)، وهى الفتنة التى دارت أحداثها فى ولاية الوزير محمد باشا الملقب «معمر مصر ومبطل الطلبة»، وكانت ولاية محمد باشا وهو الثالث والثلاثين من وزراء مصر فيما بين ١٨ صفر ١٠١٦هـ/١٦٠٧م و١٨ جمادى الآخرة ١٠٢٠هـ/١٦١١م، أما حكايات الغلاء فى كتاب ابن أبى السرور فما أكثرها ، فمثلا .. يصف ابن أبى السرور ولاية الوزير محمد باشا الشهير بدقادن زادة (من أول صفر ٩٦١هـ/١٥٥٤م إلى ١٠ ربيع الآخر ٩٦٣هـ/١٥٥٦م) فيقول : «ومن الحوادث فى زمنه الغلاء الأعظم حتى أن الناس أكلوا بذر الكتان»(١٤)، تترى فى أخبار الباب الثانى من الكتاب أنباء الأوبئة التى فتكت بأهل مصر خلال الفترة التى أرخ لها المؤلف، ولعل الوباء الذى عصف بالمصريين فى ولاية الوزير مقصود باشا - وهو آخر من ترجم لهم المؤلف من وزراء - هو الأفدح فيما أرخ له المؤلف من أوبئة، لذلك اهتم ابن أبى السرور بإحصاء عدد الجنازات التى كانت تخرج فى كل يوم من أيام الوباء من مساجد القاهرة المختلفة، فى محاولة منه للتعبير عن عدد ماأحدثه الوباء من وفيات ، على أن أعجب ماذكره ابن أبى السرور من أخبار تمثل فى خبر الرخاء الذى عم مصر فى عهد الوزير خليل باشا البستانجى (من ٤ ربيع الأول ١٠٤١هـ/١٦٣١م إلى ١٢ رمضان ١٠٤٢هـ/ ١٦٣٢م)، يقول المؤلف: «ومن محاسن أيامه (أى الوزير خليل باشا البستانجى) حصول الرخا بعد الغلو الزايد بحيث إن الأردب القمح كان وصل إلى ثمانية قروش فما خرج من مصر (أى الوزير) إلا وهو بقرشين الأردب»!(١٥)، فهل سمع كائن من كان بمثل هذه الأعجوبة فى تاريخ مصر القديم أو الحديث؟، حاكم يصل إلى سدة الحكم وثمن القمح قد بلغ المنتهى، فلا يترك الحاكم منصبه إلا وثمن القمح قد انخفض إلى الربع!.

قضاة العساكر

اهتم العثمانيون بتنظيم القضاء المصرى بعد قليل من استيلائهم على الحكم، ولما كان النظام القضائى بمصر

فى دولة المماليك يقوم على أربعة قضاة ... واحد لكل مذهب من المذاهب الأربعة : الشافعي والمالكى والحنفى والحنبلى، وكان إنجاز أعمال كل قاض يتم من خلال مجموعة من النواب تقف عند بابه، فإن القرار العثمانى الأول لتنظيم القضاء المصرى - من وجهة نظر الممثل - كان هو الحد من عدد النواب لكل قاض من القضاة الأربعة ، حدث ذلك فى ولاية خاير بك وعلى وجه التحديد فى شهر ذى الحجة من سنة ٩٢٧هـ/١٥٢٠م، ثم أتبع العثمانيون ذلك بإدخال نظام قاضى العسكر إلى القضاء المصرى فى عهد السلطان سليمان ابن السلطان سليم الأول (٩٢٦هـ/١٥٢٠م: ٩٧٥هـ/ ١٥٦٦م) وكان أول من تولى منصب قاضى العسكر هو مصطفى أفندى الرومى الذى وصل الديار المصرية فى المحرم من سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م كما ذكر ابن أبى السرور، وان كانت رواية المؤلف عن أول من تولى منصب قاضى العسكر بمصر تختلف عن رواية ابن إياس حول نفس الموضوع، فقد ذكر ابن إياس فى أحداث شهر رجب من سنة ٩٢٨هـ/١٥٢١م نبأ وصول سيدى جلبى إلى القاهرة كأول قاضى عسكر بمصر، بلغت عدة من أحصاهم ابن أبى السرور وترجم لهم من قضاة العسكر تسعة وسبعين قاضياً ، وكان آخر من ترجم له المؤلف من قضاة العسكر هو المولى أسعد أفندى الذى تولى القضاء فى ٢٥رجب ١٠٥٤هـ/ ١٦٤٤م وعزل منه فى ٢٠ رجب ١٠٥٥هـ/١٦٤٥م، إن هذا العدد من القضاة الذين أسند إليهم أمر القضاء المصرى فى الفترة التى أرخ لها ابن أبى السرور يكشف أن سياسة العثمانيين فى تعيين القضاة كانت هى نفس السياسة المتبعة فى تعيين الولاة أو الوزراء ، وهى السياسة التى تبلورت فى مبدأ واحد يقول بألا يطول بقاء الوزير أو القاضى فى منصبه.

لم تزد مادة التراجم التى قدمها ابن أبى السرور فى الباب الثالث من كتابه عن التعريف بالقاضى واثبات تاريخ بدء القاضى فى عمله وتاريخ عزله عنه، لذلك اتسمت تلك التراجم بالابتسار والاقتصار على حساب فترة عمل صاحب الترجمة بالقضاء، وبالرغم من ذلك .. فإن هذا الباب يكتسب أهمية كبرى لكونه أول سجل دقيق لتطور نظام القضاء المصرى فى عهد الاحتلال العثمانى لمصر، إن نظرة سريعة إلى قائمة التسعة والسبعين قاضياً التى حفظها كتاب إبن أبى السرور سوف تكشف للقارىء أن قضاة العسكر قد جاءوا جميعاً - عدا قاض واحد فقط - من عاصمة الدولة العثمانية، فلم يكن فى تلك القائمة سوى مصرى واحد هو قاضى العسكر الخامس والسبعين - منذ بدء العمل بهذا النظام - المولى شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجى، وقد تولى شهاب الدين الخفاجى - وهو ابن لواحد من كبار علماء الأزهر - القضاء فى ٢٢ صفر ١٠٥١هـ/١٦٤١م وعزل منه فى التاسع من ذى الحجة ١٠٥١هـ/ ١٦٤٢م، والقارىء للباب الثالث من الكتاب لايحتاج إلى جهد كبير حتى يتبين الأصل التركى لمن ترجم لهم ابن أبى السرور من قضاة العسكر، فإن أسماء مثل: السيد محمد أفندى مغلول زادة وعبد الغنى بن مير شاه وحسين أفندى بن قراجلبى وعثمان أفندى تقادن زاده وغير ذلك كثير ... لابد وأن تشى بأصل حاملها التركى، ونظرا

لصغر المادة التى حوتها تراجم قضاة العسكر فإن السمة التى ميزت الباب الثالث من الكتاب كانت خلوه من الأحداث والأخبار إلا فيما ندر، ولكن تبقى هنا حكاية جديرة بأن تحكى وهى عن القاضى الخامس عشر فى تلك القائمة التى قدمها ابن أبى السرور وهو المولى عرب زاده الغريق، فقد تولى هذا القاضى قضاء مصر بأمر سلطانى صدر فى ربيع الأول من سنة ٩٦٩هـ/ يناير ١٥٦١م، ولكنه غرق وهو فى طريقه لمصر فى ٢١ مارس من نفس السنة ، ولم يتول القضاء بمصر ولو ليوم واحد.

كلمة حق

تبقى هنا كلمة حق يجب أن تقال ، وهى أن هذا الكتاب لم يكن ليصل إلى يد القارىء الآن لولا مابذله محققه الاستاذ/عبد الرازق عبد الرازق عيسى من جهد لاينتقص منه بعض هنات قد تكون أخطاء طباعية، لقد بذل الأستاذ المحقق جهداً مضنياً فى قراءة مخطوطة الكتاب الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٣٩٥ تاريخ، وفى تحقيق ماتضمنته مادة الكتاب من أسماء ووقائع، ولعل أكثر مايلفت نظر القارىء هو مقابلة المحقق لتاريخ تولية الكثير من الوزراء والقضاة على ماجاء عنه فى كتب البعض من المؤرخين مثل الاسحاقى والملوانى والغزى، ونظراً لكثرة ما ورد بالكتاب من مصطلحات وتعبيرات تركية .. فقد اهتم المحقق بتعريبها وشرحها لإتمام جهده ولتيسير كل ماجاء بالكتاب من معلومات أمام القارىء المعاصر.

المصادر :

١ - محمد بن أحمد بن إياس : «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» - الجزء (٥) - ص ١٨٢.

٢ - محمد بن أحمد بن إياس : المصدر السابق - ص ١٧٩.

٣ - محمد بن أحمد بن إياس : المصدر السابق - ص ٢٢٨.

٤ - عبدالرازق عبدالرازق عيسى : مقدمة كتاب «الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة - ص ٢٨ .

٥ - د. فاطمة محجوب . الموسوعة الذهبية للعلوم الاسلامية - الجزء (٧) - ص ٢٧٨.

٦ - عبدالرازق عبدالرازق عيسى: المصدر السابق - ص ٣٠.

٧ - عبدالرازق عبدالرازق عيسى: المصدر السابق - ص ٣١ : ٣٢.

٨ - محمد عبد الله عنان : مؤرخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصرى - ص ١٦٩ : ١٧٦.

٩ - محمد بن أبى السرور البكرى : الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة - ص ١١٩.

١٠ - عبدالرازق عبدالرازق عيسى: هامش الصفحة ٦٥ من كتاب «الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة» .

١١ - محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق - ص ١٥٥.

١٢ - محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق - ص ٩٦.

١٣ - محمد بن أبى السرور البكرى : المصدر السابق - ص٨٨.

١٤ - محمد ابن أحمد بن إياس : المصدر السابق - ص ٤٥٨. ■

من أعلام الفن المصرى المعاصر




جمال السجينى   صلاح عبد الكريم

جمال السجينى وصلاح عبدالكريم

عبقرية التشكيل بالنحاس والحديد

بقلم
د. صبرى منصور

استأنف فن النحت المصرى مسيرته الإبداعية فى بدايات القرن العشرين على يد مثال مصر محمود مختار (١٨٩١ - ١٩٣٢)، وذلك بعد مرور قرون طويلة من الصمت والاحتجاب بسبب عوامل عديدة، ولقد كانت إنجازات مختار - رغم عمره القصير - ذات مستوى فنى رفيع، كما مثلت صحوة حقيقية لفن قدمت فيه مصر القديمة أعظم الآثار العالمية وأكثرها قيمة . وتلك القيمة العالية حافظ عليها مختار وأكدها فى أعماله وجعل منها المستوى الذى يجب بلوغه لمن يستكمل من بعده الطريق .

ولم تمض عدة سنوات حتي يظهر فى أفق النحت المصري مثالان من جيل واحد قدّر لهما أن يقدما أعمالا نحتية على درجة عالية من التميز فى الشخصية والتفوق فى الأداء، وهما جمال السجينى (١٩١٧ - ١٩٧٧) وصلاح عبدالكريم (١٩٢٥ - ١٩٨٨) .

السجينى وفن الطرق على النحاس

لوحة «شجرة المصير» من النحاس المطروق للفنان جمال السجيني- ١٩٦٢

السجينى وفن الطرق على النحاس

ولقد ارتبط اسم السجينى - الذى درس فن النحت بالفنون الجميلة ثم أكمل دراساته فى فرنسا ثم إيطاليا - بذلك الأسلوب الواقعى بتصرف وعمل بعض المبالغات التشكيلية التى تكسب العمل قوة فى بنائه وعمقا فى تعبيره ، كما تميز أسلوبه بتحليل الشكل إلى مسطحات تتسم بجرأة التلخيص وجرأة الأداء . وعايش السجينى فترة من أخصب فترات الثقافة المصرية المعاصرة حين امتلأت الساحة بمناقشات جادة حول الشخصية المصرية والفن القومى وقضايا التحديث فى الفن ، وتعددت الفرق والجماعات الفنية التى كان لكل منها منهجا مختلفا فى الفن والثقافة ، وكان هو نفسه عضوا فى إحدى هذه الجماعات (جماعة صوت الفنان) .

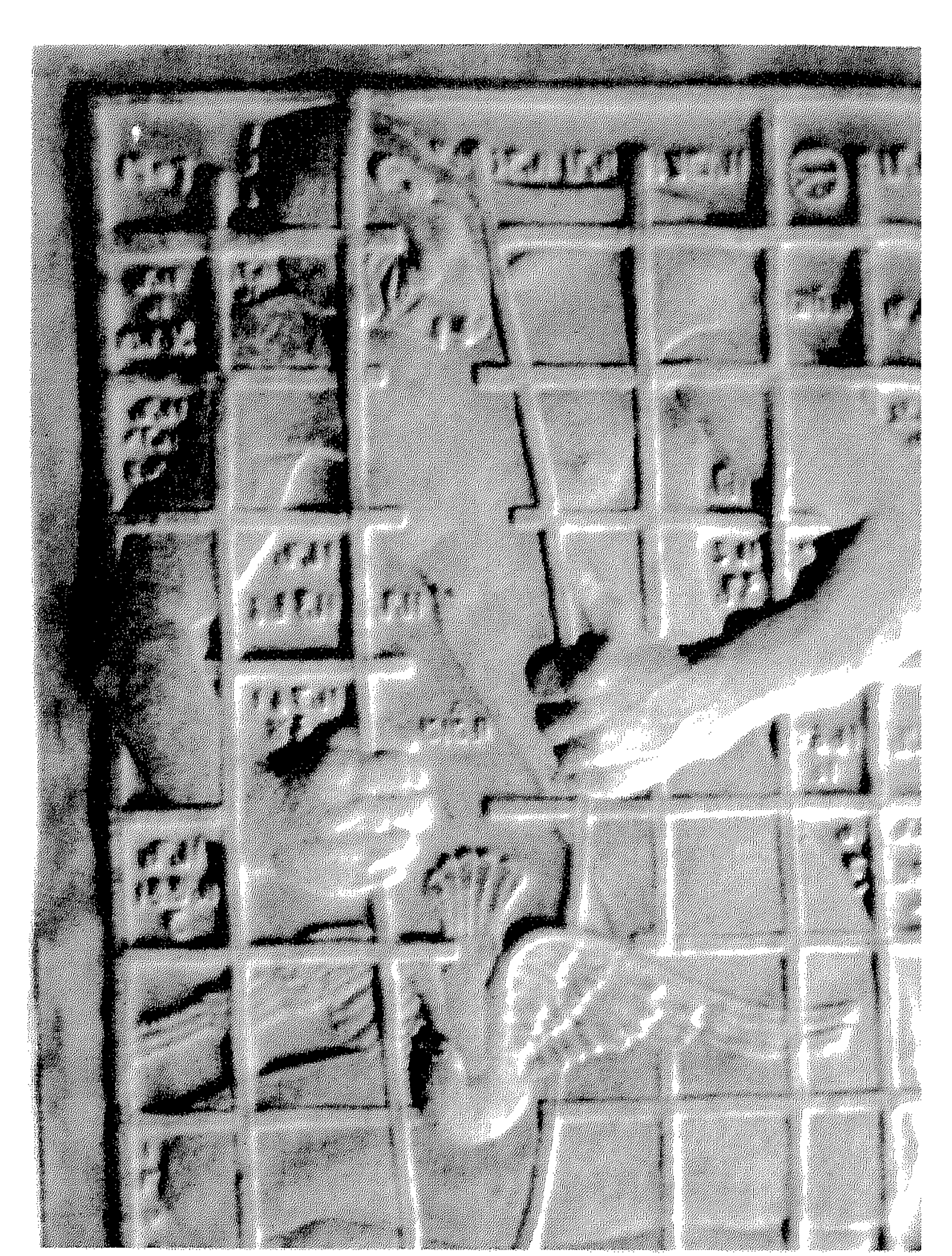
ولقد انعكس صدى هذا المناخ الثقافى النشط على التوجه الفنى للسجينى وساهم فى بلورة أسلوبه الذاتى المتفرد الذى كان أكثر اقترابا وتفهما لتلك الاتجاهات التى تنزع نحو الاتصال بالتراث الفنى المصرى كما تميل إلى تناول الموضوعات حميمة الصلة بالبيئة الشعبية ومفرداتها .ففى أعمال السجينى - الذى ولد بحى باب الشعرية - تلتقى بمظاهر متنوعة وعناصر عديدة من الحياة الشعبية المصرية، والتى ظلت لازمه أشكالها طوال تجربته الفنية ، ومن أهمها عروسة المولد بالإضافة إلى الوحدات والزخارف التى توشى المبانى الدينية والشعبية .

ولقد ظلَّ معظم انتاج السجينى منحصرا فى نطاق الأعمال صغيرة الحجم ، والوجوه الشخصية ، ولم تتح له - رغم إمكانياته الفنية الهائلة - فرصة القيام بتنفيذ التماثيل الميدانية الضخمة التى تكشف عن قدراته ، وذلك فيما عدا تمثال «أحمد شوقى» الذى أنجزه للأكاديمية المصرية بروما ، وتمثال آخر يمثل « العبور » أنجزه بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

ولعل إمكانيات السجينى المكبوتة قد وجدت طريقها للانطلاق من خلال خامة النحاس بأسلوب الطرق ، وهو أسلوب لم يكن يتخطي حرفية الأداء التقليدية المتوارثة التى يقوم بها الحرفيون فى المناطق السياحية .

وقد بلور السجينى أسلوبا فنيا متميزا فى التعامل مع خامة النحاس . واستطاع أن يستنطق تلك الخامة





لوحة «االحرية» من النحاس الأحمر المطروق

الصعبة شتى المعانى والأفكار ، واتسمت أعماله بالرقة والقوة فى آن واحد ، وجمع فيها عناصر الفنون المصرية التراثية ، ومزج بين الكتابة والتشكيل فى تكوينات فنية شديدة التفرد ، ومن بين تلك الأعمال لوحة « الرجل والثعبان » عام ١٩٥٢ التى ترمز للصراع بين الإنسان وقوى الشر ، ويلاحظ استعارة الفنان للمعالجة المصرية القديمة لشكل الثعبان والتفافاته المتكررة . ولوحة «شجرة المصير » ١٩٦٢ والتى يتضح فيها أسلوب السجينى الذى يميل نحو الرمزية ، كما تكشف عن قدراته الفنية المتمثلة فى المعالجات القوية للجسم الإنسانى ، والمبالغة فى النسب لتكثيف الإحساس بالقوة والفخامة ، وفى لوحة «النيل» ١٩٦٣ تذكرة بلوحات النحت البارز الفرعونية ، وقد مثل النيل فى هيئة رجل امتد جسده ليحتضن تنوع الثقافات فى البلاد التى يمر بها ويمنحها الحياة ، وذلك فى صياغة نحتية تتسم بقوة التحليل وبلاغة الخطوط .

وتلك السمات تتضح أيضا فى لوحته «الإسكندرية» ١٩٦٣ التى جسدها فى هيئة عروس البحر محتضنة عبقرى الاسكندرية سيد درويش ، وتحيط بها عناصر تتميز بها الاسكندرية كمدينة بحرية ذات تاريخ حافل .

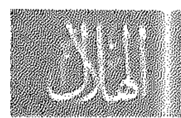
إن الأسلوب الذى يتصف بالصبر ودقة التنفيذ يؤكد أن السجينى قد وجد فى خامة النحاس مادته المفضلة للإبداع والتعبير الفنى ، فكانت سبيله إلى خلق نوع فنى جديد يضاف إلى رصيد الفن المصرى المعاصر .



صلاح عبد الكريم .. وتطويع الحديد

تعددت الجوانب الفنية فى شخصية صلاح عبدالكريم، فعلى الرغم من اختياره فن الديكور مجالا لدراسته فى الفنون الجميلة الذى كان تفوقه فيه مدعاة لتعيينه معيدا بها ، إلا أنه مارس إلى جانب ذلك العديد من الأنواع الفنية الأخرى ومن بينها التصوير والخزف والنحت، وبين كل هذه الممارسات تبرز أعمال صلاح عبدالكريم النحتية المنفذة من خامة الحديد وبقاياه وتتضح بتمكن الأداء وقوة التعبير وتفرد الأسلوب، وهى تمثل الإضافة الحقيقية للفنان لرصيد

١٨٥



ذو القعدة ١٤٢٣هـ - يناير ٢٠٠٣م

«المسيح» تمثال من
الحديد للفنان صلاح
عبد الكريم - ١٩٦٣

الفن المصرى المعاصر ، ويبدو أنه كان المجال الأقرب إلى نفسه وروحه ، مارسه بقدر كبير من الحب انعكس على الأعمال ذاتها .

وبعد عودته من دراسته بالخارج فى كل من باريس التى درس فيها الديكور المسرحى وروما التى درس فيها ديكور السينما ، بدأ يمارس حياة فنية نشطة فى مجالات فنية متعددة تراوحت - كما ذكرنا - ما بين تصميم العمارة الداخلية الذى أثبت من خلاله تفوق المصريين وقدرتهم على الإبداع فيه ، وديكور المسرح والباليه ولوحات التصوير والرسوم الصحفية ، وقد نال عن بعض هذه الأنشطة المتنوعة العديد من الجوائز فى مصر والخارج .

ولكن يظل انتاج صلاح عبدالكريم فى مجال النحت ظاهرة فريدة فى حياتنا التشكيلية ، والإنجاز الذى قام به فى هذا المجال هو انجاز عظيم القيمة رفيع المستوى .

فمن فضلات الحديد - أو ما يطلق عليه (الخردة) صاغ الفنان أعمالا نحتية تنطق بالمعانى وتوحى بالدلالات وتشى بالرموز . ومن أهم تلك الأعمال تماثيل «الوحش » ١٩٦٢ و«صلب المسيح» ١٩٦٣ «البومه» ١٩٦٢ و«الحصان» ١٩٧٠، وقد شكلها من عدد لا يحصى من المواسير والصواميل والمفكات والمسامير والسلاسل والتروس ، واضعا كل جزئية فى مكانها السليم بذكاء مصحوب بحس فنى راق ، محافظا على الأشكال التقليدية ، مع إدخال بعض التحويرات التى تؤكد المعنى وتشير للمضمون . مستغلا الفراغات الناتجة عن لحام أجزاء العمل لتجرى حوارا بصريا بين الشكل والفراغ بما يثرى العمل ويمنحه قيمة تشكيلية مميزة . ولقد تجنب الفنان إشكاليات الهوية والاتصال بالتراث الفنى ، كما ابتعد عن تناول موضوعات حميمة الصلة بالواقع المصرى ، ولم تكن له مشاركة فى ساحة الفكر التشكيلى وما يطرحه من قضايا فنية ، فهو لم يكن مؤمنا - كما صرح بذلك - بخلق فن قومى ، ولهذا لم ينتم إلى جماعة فنية أو ينطو تحت لواء اتجاه بعينه ، بل ظل محلقا وحده فى عالم الفن ، منفذا أفكاره الخاصة بأسلوبه الخاص ، حتى ليبدو هاويا لا تربطه صلة بفنه غير المتعة الشخصية التى يجنيها من إبداعه .

لقد كان صلاح عبدالكريم يرى أننا نعيش عصر المعادن لذلك يجب أن تحدث تغييرات جذرية فى فن النحت ،



«الحصان» تمثال من الحديد - ١٩٧٠

وهى رؤية حاول أن يحققها، وتوجه جديد أراد أن يواجه به الاتجاه التقليدى ، وقد وظف فى سبيل ذلك خبراته وكل ما يملك من مقدرة فنية مصحوبة بحب وتفان تنطق به بقايا الحديد الذى شكل منه تماثيله ، وتؤكد فى نفس الوقت قدرة فنان مصرى معاصر على الإضافة والابتكار فى مجال لم يستأنف المصريون نشاطهم فيه إلا منذ عقود قليلة ■

مدرسة أوربينو

الأصالة مقابل العولمة

بقلم
عز الدين نجيب

المدن كالنساء ، لكل منهن جمال خاص وفتنة غامضة ، لكن أكثرهن جمالا وفتنة : تلك التي يتجدد جمالها كلما تقدم بها العمر، فيصبح لها سحر الزمن وغموض الأسرار.. ومدينة أوربينو الإيطالية من هذا النوع، بتاريخها الذي يعود إلي القرن الخامس عشر، وموقعها كلؤلؤة معلقة فوق قمة الجبل.. وقصر الدوقية يتألق في صدر ميدانها الفسيح، وكنوزها من الفن والفنانين - التي تستمد وهجها من فنون عصر النهضة وتعكسه علي العصور التالية - تزيدها ثراء، فأصبحت قبلة الفنانين من إيطاليا ودول العالم ، يعيشون فيها ويتأملون بهاء طبيعتها وتجليات عمارتها وأطياف حسانها، وينصتون إلي همس الصمت بين جبالها ووديانها، ويمارسون إبداعهم الفني في هدأة النساك، والمتصوفة..



تكوين للفنان محمود عبد الله

وللفنانين المصريين شأن قديم مع هذه المدينة، حتى احتلت في قلوبهم منزلة فريدة على مدى نصف القرن الأخير من القرن الماضي، وكونت ركنا أساسيا من ذكريات شبابهم الغض ومنابع خبرتهم الأولى بأوروبا، دون أن يشعروا بالصدمة الحضارية التي تصيب عادة أبناء الشرق عند احتكاكهم بثقافة الغرب، فكانت تحتويهم في حضنها كما احتضنت كل الغرباء من شتى دول العالم، بطيبة أهلها وبساطتهم الفطرية وطبيعتهم الحضارية منذ القدم، وتأسرهم ببيوتها المتعانقة في تلاصق حميم مكونة حوارى ضيقة وساحات للتلاقى والسمر والحب، في مقابل قصر الدوقية الشامخ، فوق أنها بيت الخبرة الأول في العالم لفنون الحفر أو الطبعة الفنية اليدوية، حيث تلقوا أسرار هذا الفن من منابعه الأولى التي أسست أزهى عصوره عبر التاريخ.

وفى الشهر الماضى جاءت أوربينو بنفسها إلى مصر، حاملة معها كبار فنانيها ومعلميها بالمعهد العتيد لفن الكتاب والطبعة الفنية، وفى جعبتهم كنوزهم الفنية من أعمال الحفر بتقنياته الطباعية المختلفة، وفى هذه المرة كانت تستضيفهم مكتبة الاسكندرية وتنسق معرضا لأعمالهم، يحيط بهم تلاميذهم وزملاؤهم من الفنانين المصريين الذين درسوا بهذا المعهد منذ الأربعينيات حتى السبعينيات، وكان مهندس الدعوة والمعرض أحد تلاميذ أوربينو المخلصين وهو الفنان السكندرى صبرى حجازى أستاذ التصميم والطبعة الفنية بكلية فنون الاسكندرية .. وقد شارك الفنانون المصريون في الحفاوة بزملائهم الايطاليين مرتين: الأولى بعرض نماذج من لوحاتهم مع اللوحات الايطالية فى نفس المعرض مندمجة بغير فاصل، والثانية بالمشاركة فى ندوة استمرت ثلاثة أيام حول هذه المدرسة الفنية المهمة وأثرها فى الماضى والحاضر، ودورها فى الحفاظ على الصيغة الذهبية الفريدة للعلاقة بين التراث والحداثة، وهذا نجاح جديد يحسب لمكتبة الاسكندرية، فهى تعمل على تحقيق أحد أهدافها التى كانت من أجلها وهو مد جسور الحوار بين الثقافات والحضارات وتوثيق الروابط الإنسانية بين الشعوب عبر المعرفة وتعميق القيم والتاريخ المشترك، وبقدر نبل هذا الهدف وحسن النوايا لتحقيقه، فإن التطبيق على أرض الواقع لايزال بعيدا عن مستواه، ولنا عودة إلى هذه النقطة.

كان المعرض - الذى افتتح يوم ١٠ ديسمبر - تعبيرا صادقا عن مدرسة أوربينو بمنهجها التعليمى الرصين وتوجهاتها الفنية المتجانسة ورؤى فنانيها المتفردة، على خلفية بانورامية ثلاثية الأبعاد: تراث عصر النهضة الايطالية ومعالم الطبيعة الخلابة بين القمم والوديان والجبال والأنهار

قطع بارز لينو للفنان صبرى حجازى



والصخور والحقول، وأخيرا حس الوجود الإنساني الذي يعمر هذا الكون الفسيح ويضفي عليه مضمونه ومعناه، سواء ظهر الإنسان بجسمه في الأعمال الفنية أو لم يظهر، بل حتى ولو كان العمل تجريديا محضا، وكما يقول جوليانو سانيتي - ممثل مؤسسة «ديدا لو آرت» الراعية للمعرض - فإن المدرسة تواجه تحدى التقدم التكنولوجي المتلاحق الذي يسعى إلى تمييع التميز والخصوصية الثقافية للشباب سواد في الغرب أو في الشرق، ما يستدعي بالضرورة إعادة اكتشاف القيمة والروح في الأداء اليدوي للعمل الفني، حتى يكون هناك توازن صحيح بين الاكتشاف والتجديد وبين التراث سواء في المحتوى التعبيري أو المحتوى الأدائي .

المسألة إذن ليست مجرد اكتساب مهارات وتقنيات عالية في الممارسة الفنية كما قد يتصور البعض، خاصة بعد مشاهدة هذا المستوى المتفوق في أساليب الطباعة الغائرة والبارزة، وليست مجرد أسرار وحيل تقنية يحتفظ بها أصحابها أو يتناقلونها عبر الأجيال كأسرار كهنة المعبد ، ذلك أن جميع الأسرار والخبرات متاحة ومشاع لمن يريد في هذا المعهد، بل إنه يوفر المحترفين المهرة الذين تقتصر مهمتهم على تنفيذ كل ما يريده الفنان من خلال قوالب الزنك أو الخشب أو الجلد أو غيرها فيما لو اكتفى الفنان بوضع التصميم الأصلي، ويصبح من حقه التوقيع بعد ذلك على النتائج المنفذة بعد ترقيم نسخها ، إنما المسألة هي: ماذا وراء هذه المهارات من فكر، ومن شحنة تعبيرية ونبض انسائي وتواصل مع التراث والجذور؟

إن هذه المدرسة التي عرفت معنى العالمية في الفن من قديم الزمان، تبدو اليوم اقرب إلى الخصوصية أو الأصالة الثقافية المقاومة لزحف العولمة، وربما يتم ذلك بشكل بسيط وتقليدي ، لكنه أقوى تأثيرا وأنضج خطابا ممن يتعصبون ضد الحداثة بمفهومها الغربي وينادون بأن يظل الشرق شرقا والغرب غربا، فها هما الشرق والغرب يجتمعان من خلال عشرات البعثات الفنية من مختلف القارات إلى قلب الحداثة الأوروبية دون أن يفقد أي فنان يتمسك بها هويته، كل ما هنالك أنه يعرف كيف يجد المدخل الصحيح إلى هويته في إطار عصر جديد ورؤى جديدة ، وكيف يجعل من هويته الوطنية وعاء كبيرا يحتوى الإنسانية جمعاء، وكيف يشكل من الطبيعة والإنسان وملمس الأشياء الأصلية لغة قابلة للتواصل الحميم بين البشر في كل مكان ، بقدر ما يتواصل بها هذا الفنان مع أبناء وطنه.. وذلك هو المعنى العميق للعالمية.

إن الفنان عبدالله جوهر - أحد رواد فن الحفر للطبعة الفنية في مصر، وأحد المشاركين في المعرض - استطاع أن

يوظف خبراته التقنية العالية فى التعبير عن قضايا الإنسان المصرى والفلسطينى وعن دراما القهر والتشريد والسوق للحرية، فأصبحت لوحاته فصولا فى ملحمة إنسانية تتجاوز حدود الزمان والمكان.

والفنان حسين الجبالى - أستاذ الحفر بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة - جعل من تقنياته المتميزة فى الحفر على قوالب الخشب أداة لخلق منظومة جمالية بحروف الخط العربى، فبدت كإيقاعات نغمية متشابكة فى لحن أرابسكى صداح لكنه قادر على امتاع الآذان فى كل مكان.

تجليات بغير حصر

والفنان سعيد حداية - أستاذ الحفر بكلية فنون الاسكندرية - استثمر مهاراته الطباعية المرهفة التى تعلمها فى أوربينو لصنع عالم من الطفولة البريئة والحكايات الشعبية والرموز الفلكلورية، فتلاقى بخصوصيته مع عالم الطفولة والأسطورة لدى كل الشعوب.

والفنان مجدى قناوى - ابن الاسكندرية والاستاذ بها وخريج أوربينو أيضا - ترجم مشاعره التأملية المطلقة إلى نسيج تجريدى متذبذب بأصداء كالموسيقى الشرقية أو المخطوطات القديمة أو العلامات الشفرية التى تتردد فى ترتيل لا نهائى.

وتتوالى الأسماء والتجليات والرؤى بغير حصر، ممن شارك أصحابها فى



احد أعمال الفنان فريد فاضل

معرض أوربينو بالاسكندرية: صبرى حجازى، محمود عبدالله، عطية حسين، حازم فتح الله، عادل المصرى، عبدالسلام عيد.. تقابلهم أسماء أقرانهم الايطاليين ، منهم الأساتذة التاريخيون مثل: كارنيفالى، كاستيلانى، فرانشى، بياتشيزى ، زانكينى، باتيستونى، ريتشى، بروسكاليا، بوداس.. ومن المعاصرين: كالافالى، بارتلوميولى، روسانو جويرا.. إلخ، وبقدر ما تنوعت وتعددت أساليبهم جميعا واتخذ كل منهم سماته المتفردة، فإن رباطا قويا يجمع بينهم من عشق الطبيعة ونبض الإنسان وملامح التراث وطزاجة اللمسة الفنية .

ولا ننسى أن مدرسة أوربينو تلبى

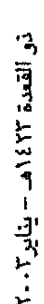
فى الأساس مطلب تخريج صناع الكتاب بواسطة الطبعة الفنية اليدوية، قبل أن يكون هدفها خلق الفنان ، لأن الفنان لا تصنعه مدرسة، بينما تحتاج «الطبعة الفنية» الى ذلك، ولم يشعر الفنان الإيطالى بتلك المدرسة قط بأى مركب نقص إزاء اعتباره تلميذا فى مدرسة حرفية مهمتها تخريج «أسطوات» مهرة يقومون بتنفيذ رسوم الكتب أو بتعليم أجيال جديدة من الدارسين كمهمة تربوية تعمل على النهوض بالإنسان والأوطان، لهذا يواصل كبار الفنانين دورهم كمدرسين للأجيال المتلاحقة فى مدرسة أوربينو. بكل تواضع، ويعملون كمدرسين فى دورات تدريبية وورش عمل منتظمة لشباب يأتون إلى أوربينو من شتى أنحاء العالم ويعملون معهم يدا بيد.

ولا ننسى كذلك أن «الطبعة الفنية» أداة من أدوات كسر احتكار الأغنياء للفن الأصلى وتحقيق ديمقراطية الاقتناء ، بما تتيحه من مستنسخات أصلية عديدة للعمل الفنى الواحد، تجعل من الممكن اقتناؤه بسعر يسير، على عكس أعمال التصوير ذات الأسعار الباهظة، غير أن الفنانين المصريين لا يعترفون بذلك، بل حولوا سعر نسخة الطبعة الفنية إلى أرقام مذهلة، وحددوا عدد النسخ المطبوعة على أصابع اليد الواحدة كى يصلوا إلى هذا الهدف.

وقد أقيمت على هامش المعرض ندوة مصرية إيطالية مشتركة بمكتبة الاسكندرية تحدث فيها من الجانب الإيطالى أستاذة تاريخ الفن سيلفيا كوميتر، وأستاذ «الطبعة الفنية» جوليانو سانتينى كما ينبغى أن يتحدث الأساتذة عما يؤمنون به، لكن المؤسف أن أغلب المصريين المدعوين للحديث فيها من الأساتذة والمسئولين لم يحضروا (بمن فيهم منظم الندوة) إما لسفرهم خارج البلاد أو بلا أسباب معروفة ، واتسمت أغلب أحاديث المتحدثين بالعمومية الفضفاضة بعيدا عن صلب الموضوع.

أما الظاهرة الأكثر مدعاة للأسف فهى ارتباك التنظيم وعدم الاستقرار على مكان تقام به الندوة حتى آخر لحظة ، وتحويلها من مكان إلى آخر يوما بعد يوم، وأخيرا فقد كانت المنصة تتوجه بخطابها إلى مقاعد شبه خالية، لا أدرى هل لعدم الإعلان بدرجة كافية عن هذا الحدث الثقافى الهام، أم لانصراف الجمهور عن التردد على أنشطة مكتبة الاسكندرية رغم كل ما يحيط بها من هالة إعلامية واهتمام رسمى كبير، وما تضمه المدينة من كليات للفنون ونقابة للتشكيليين وحركة فنية وثقافية عريضة، ويبدو الأمر وكأن هناك تناسبا عكسيا بين تضاعف الاهتمام بالفنون والثقافة فى الثغر وبين تزايد الانكماش فى عدد المقبلين على أنشطتها.

إنه جرس إنذار من مصير فاجع





يهدد أكبر المشروعات والصروح الثقافية في مصر.. هذه رسالة إلى من يهمه الأمر!!

دراسات ورسوم

بالرغم مما يبدو في الظاهر أنه معرض يحاكي معرض «مختلفون ومتحدون» بمجمع الفنون بالزمالك الذى عرضنا له هنا فى مقالنا بالعدد الماضى، من حيث احتوائه على أعمال ثلاثة فنانين يشكل الاختلاف بينهم مساحة تعادل الاتحاد، فإن الحقيقة غير ذلك ، لأن المعرض الأخير بقاعة بيكاسو للفنانين «فريد فاضل» و«سيد سعد الدين » و«رضا عبدالسلام» لا يقدم منظوراً بانوراميا لرحلة كل منهم وعلاقاته المتغيرة بأساليب الفن، مثلما كان المعرض الأول، بل يقدمون أعمالا طازجة أنتجت فى العام الأخير كدراسات ورسوم تبدو وكأنها قطفت لتوها من بستان الواقع وإن احتفظ كل منهم بأسلوبه ومذاقه الخاص وبعالمه الذى عرف به.

غير أن مفاجأة المعرض الحقيقية هى أعمال فريد فاضل ، طبيب العيون وعازف البيانو المتمكن ، فقد خرج على ما تعودناه منه فى معارضه السابقة من محاكاة فوتوغرافية وأناقة مثالية فى نقل صورة الواقع ملامسا تخوم «السوبر رياليزم»، ليقدم لنا هذه المرة رؤى محفوفة بالشاعرية والدهشة وعدم الاكتمال لصورة الواقع الخارجي الذى نعرفه، لقد اعتبرها مجرد رسوم ودراسات ، أو بكلمة أخرى «عجالات خطية» من الطبيعة، لكنها تحتوى قدرا كبيرا من الفطرة والفطنة معا: الفطرة فى التعبير التلقائى الحر والهادىء عما يصوره من حياة النهر والصيادين ما بين الحركة والسكون، مفسحا كل مسام نسيج اللوحات للهواء الطلق لتتنفس من خلالها المرئيات بغير «حسوكة» الصنعة والمحسنات البديعية للوقار الكلاسيكى، أما الفطنة فتكمن فى استخدام أقلام التحبير الدقيقة إلى جانب ألوان الباستل والصبغات والجواش فى نفس العمل أحيانا، وذلك بإيقاعات مرهفة ومتصاعدة كالعزف الموسيقى من السوبرانو إلى البريتون أو العكس ، وأخيرا تكمن فى الاقتصاد الذكى فى وضع التفاصيل الواقعية، وفى القدرة على التوقف عند حد معين، حتى ولو بدا الشكل غير مكتمل، فهذا فى حد ذاته سر جماله.

وبالنسبة لأعمال الفنان الراسخ سيد سعد الدين فهى عزف على لحن قديم، ليس فقط فى الموضوع الريفى خاصة الحصاد والعلاقة بين الإنسان والحيوان بل كذلك فى أسلوب البناء الرياضى الصارم الذى يخضع كل العناصر لهندسة التوليف والتصفيف والتقابل بين حركة الخطوط المستقيمة والقوسية، وهو أحد الأبناء المخلصين لمدرسة الفنان الكبير الراحل حسين بيكار، بشاعريته



الغنائيـة وترديده الزخـرفى وإحكامـه الهندسى وتأثره بالمثالية الفرعونية ، وكم امتعنا في معارضه السابقة بقوة معماره مع شحنة التعبير النابضة، لكنه فى هذا المعـرض يركـز على الجـانب البنائى المهندس بقسوة قد لا يحتملها الواقع، بالرغم مما حـاوله من إضـفـاء لمسـة العفوية على خطوطه وحركاته القوسية وحجومه الطائرة والراقصة، لكنها جاءت متماثلة فى سيمترية مبالغ فيها .

إن أكبر خطر على عمل الفنان هو سيطرة القالب الذهنى، وهنا نجد القالب لدى سيد سعد الدين مهيمنا على فطرية الحياة.

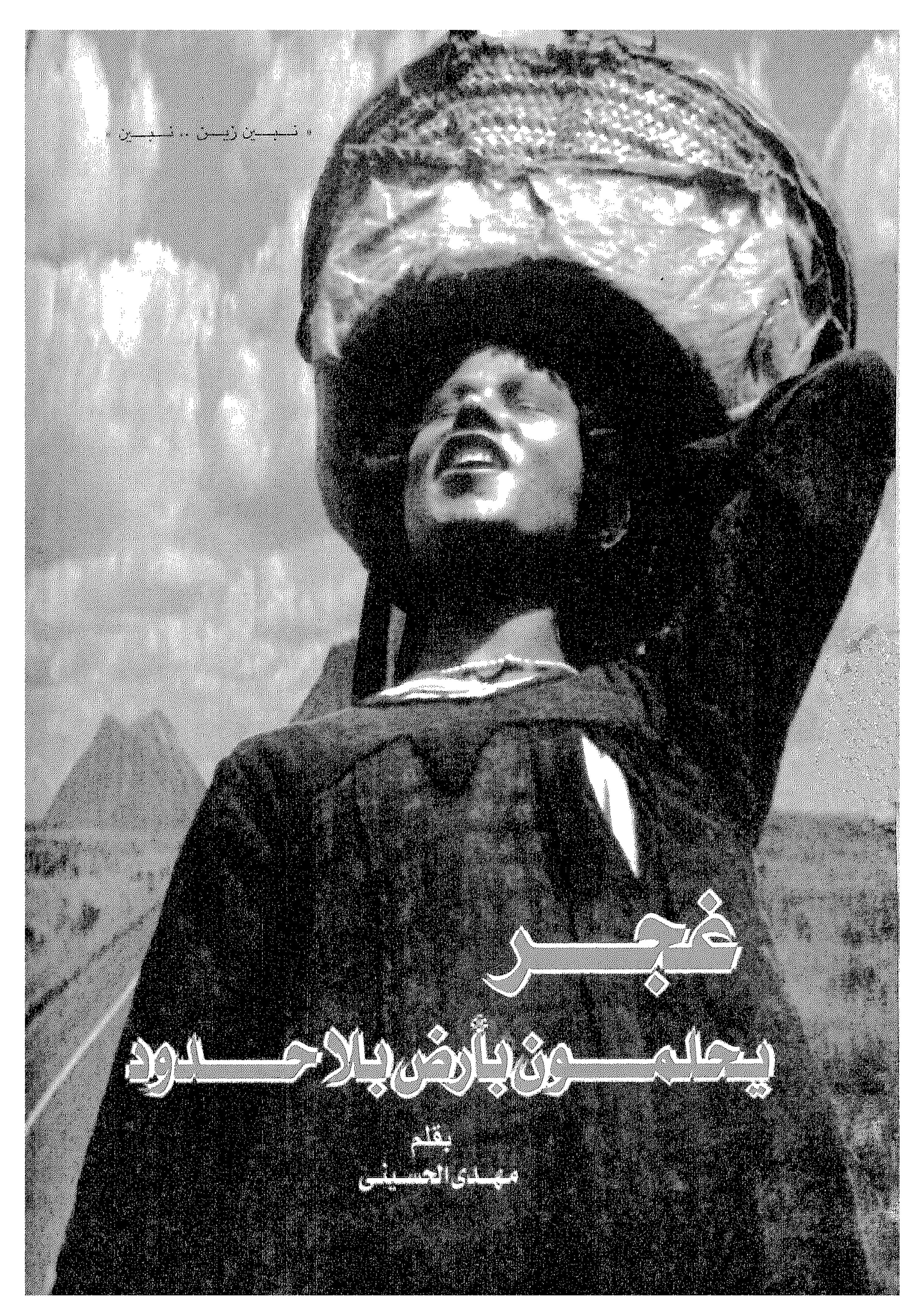
فهل يخفف من هيمنته ؟..

أما الفنان رضا عبدالسلام فإنه يعود بنا إلى جرأته المعهودة فى الرسم المباشر من الواقع بالفلوماستر الأسود السميك، خاصة للحركات العفوية للجسم البشرى، وتحتل المرأة مكانا رئيسيا بين نماذجه المرسومة.. إنه يعالجها بعيدا عن دوافع الأنوثة والجـمـال المثـالى، بل كتضاريس من الشكل الحر المتماوج بين الحـركـة والسكون ، يتـراقص الخط الخارجى على تخومها فى رشاقة حينا وفى تهور نزق حينا آخر، مفصحا عن درجة عالية من التمكن فى اقتناص سر اللحظة الفارقة للحركة الدالة، لكن هذه الثقة قد تقوده إلى التعجل اللامبالى حتى عدم التفرقة بين التدريبات الخاصة داخل مرسم الفنان وبين العمل المكتمل

من أعمال الفنان رضا عبد السلام

للعرض على الجمهور حتى ولو كان اسكتشا. لكن ما أنقذ الكثير من لوحات المعـرض هو أن الفنان رسـمـها فـوق سطح مكون من قصاصات الصحف المتلاصقة والمغلفة بطبقة من اللون الأبيض الشـفـاف، مما ترك تأثيرات متداخلة من الصور الفوتوغرافية والكتابات الطباعية، فخلق بذلك جواً من الغموض والذبذبة البصرية خلف خطوط الرسم السوداء.

لكن على الرغم مما يجمع بين الفنانين الثلاثة من طزاجة التجربة لكل منهم ، ومن عفوية التعامل مع الواقع، يظل لكل منهم استقلاله الكامل عن زميليه، ربما إلى حد عدم التجانس معهما، خاصة فى أعمال الفنان رضا عبدالسلام. ■


"نبين زين .. نبين"
غجر
يحلمون بأرض بلا حدود
بقلم
مهدى الحسينى

يعتبر أ. د. نبيل صبحى حنا رائد الدراسات الغجرية الأكاديمية في مصر ، وقد أصدر كتابين مهمين فى هذا الموضوع المثير الأول سنة ١٩٨٠ بعنوان «جماعات الغجر مع إشارة لغجر مصر والبلاد العربية» ، والثانى سنة ١٩٨٣ بعنوان «البناء الاجتماعى والثقافة فى مجتمع الغجر» والكتابان متشابهان متفاوتان مختلفان ولكنهما متكاملان فى حدود موضوعهما العام ، يعرض فيهما النظريات السائدة عن أصول الغجر وعن ارتحالهم الدائم عبر العالم ومعايشتهم لكافة الشعوب والأجناس والعقائد والأديان ، كما يعرض لأساليب حياتهم ولغتهم وثقافاتهم وفنونهم ، كل ذلك عبر منهج النقد والتحليل العلمى محاولا فرز الصائب من الخاطئ من الغائم أو غير الدقيق ، بعد قراءات متوسعة حول الموضوع لما كتبه المؤرخون والرحالة والانثربولوچيون والفولكلوريون والاجتماعيون من الأجانب والعرب قدامى ومحدثين .. فضلا عن ممارسته المباشرة لبحوث ميدانية مضنية فى مناطق وجودهم فى وادى النيل والدلتا .

وللأسف رحل الباحث الكبير عن دنيانا قبل أن يصدر كتابه الثالث فى ذات الموضوع ، وكأنه نذر جهده وعمره من أجل إزالة الغموض عن هذه الجماعة ، وتصحيح اللبس ، ووضعها تحت مجهر البحث العلمى النظرى والميدانى معا ، بدلا من الضبابية أو التخمين ، وبديلا عن الأفكار الموروثة على علاتها أو التعجل والانطباعات العاطفية ، ولعل مجتمع النشر العلمى يعثر مخطوط كتابه الأخير ليضعه بين أيدى خاصة الباحثين والمهتمين وعامة القراء، خاصة وأن الباحث فى محاولته الإلمام بجماعات الغجر المصرية تزداد أهميتها حيث قام بها فى وقت زاد فيه اضطراب - بل فوضى - الحراك الاجتماعى ، فى مصر وفى المناطق المحيطة بها من البلاد العربية والافريقية .

ولعل هذا العالم الباحث الدءوب ، كان موفقا حين أدرك النقص فى هذا المجال ، وكانت كل الابحاث التى سبقته ولحقته أيضا - من رسائل جامعية وأبحاث نظمها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية وأهمها دراسة أ. د. أحمد المجدوب عن غجر طهواج بالدقهلية - تتفق مع ما ذهب إليه د.

نبيل صبحى حنا من أنها جماعات شعبية هامشية لابد من الاهتمام بها من كافة النواحى الخدمية والإنسانية كحقوق طبيعية لها مثلها مثل أى جماعة شعبية وطنية ، قد يكون هناك فروق بين بحث وآخر ، أو بين رسالة جامعية وأخرى ، أو ثمة إضافات معلوماتية جديدة هنا أو هناك ، أو أن تركيزا زائدا وقع على زاوية خاصة اهتم بها هذا الباحث أو ذاك الأمر الذى يتطلب جمع هذه الأبحاث معا وتصنيفها ، والتقديم لها بدراسة علمية وافية ، ثم النظر إليها ككل موحد ومن منظور شامل وممتد ، هذا كى تفيد منها الدولة – لا الحكومة فقط – فى ترتيب أوراقها الاجتماعية والسكانية بما يخدم التنمية والسلام الاجتماعى ووحدة النسيج الوطنى متعدد الألوان .

ولكنها .. لا تكفى ..

على الرغم من أن كل هذه الدراسات الاجتماعية والعرقية للغجر ذات أهمية كبرى فى فهم هذه الجماعات ، إلا أنها – في حد ذاتها – لا تكفي لـ «فهم» هؤلاء القوم ، خاصة إذا كنت ممن واتتهم ظروف معاشرتهم أو الجيرة الودودة الطيبة أو العمل المشترك فإنك ستجد فيهم أناسا يطيب لك الاتصال بهم والتعرف على حياتهم .. بل وقد تعنى بمعاونتهم إذا كانت لديك إمكانيات أو صفات تؤهلك لذلك .. ومن جانبهم لن يستقبلوك كرجل من رجال الإدارة أو كأخصائى اجتماعى غريب عنهم أو كمستغل أو متعهد أو تاجر أو كشخص عابر أو كزبون أو كضحية .. أو مجرد باحث يتعامل معهم كـ «عينات» أو كميدان للبحث العلمى أو الفولكلورى ، بعد أن يتيقنوا من أنهم موضع ثقتك واحترامك ، وأنك لا «تتعالى» عليهم ، هنا سوف يستقبلونك كصديق أو «ميشتو» بلغة الغجر .

حرية الصقور ومراوغة الحرباء

على الباحث فى الغجر أو الراغب فى التعامل معهم ، أن يضع فى اعتباره ما يلى :

١ – أن وطنهم الأول هو ثقافتهم الغجرية ، وثقافتهم هى وطنهم الأول ، أى ثقافتهم المتوازنة المدمجة مع ثقافتهم المستعارة المنتقاة من كل وطن جغرافى وبشرى عاشوا فى كنفه ، وهى – فى اللغة – تعنى «السيم» أو «الرُوم» Rom؛ وفى التاريخ لا تعنى سوى الملاحم والسير والحكايات ، وفى الحكمة دليل العمل والحياة .. فإنها تعنى الأمثلة الشعبية الأثيرة النافعة لهم ، وفى الحرفة كما فى الفن فينظمها الإيقاع السمعى والبصرى والحركى ، أما فى الخبرة الإنسانية والتكوين النفسى فتقوم على الحذر والتطير





جماعة من الغجر اتهموا فى جريمة سرقة بالتخدير فى بلدة مليج

والاستعداد لمواجهة كل مستجد .. بل أقسى المتغيرات بمرونة فائقة يظللها شئ من عدم الوثوق وظلال من الحزن الدفين القديم .

٢ - الوطن بمعناه الجغرافى يعنى بالنسبة لهم المكان الذى يقيمون فيه ويتعايشون مع سكانه ويتبادلون معهم بضائعهم ومهاراتهم وثقافتهم وفنونهم وحرفهم . ولقد تأكد هذا البعد الجغرافى السكانى مع ازدياد حدود الدول قوة وصدودا ومنعة .

٣ - أن التاريخ - بمعناه المعروف - لا يعنى شيئا بالنسبة لهم ، فقط تبقى فى ذاكرتهم بعض الوقائع الكبيرة والصغيرة الخاصة بهم فقط ، لأشياء سيئة أو طيبة ، وفقط تبقى الأساطير والملاحم والسير والحكايات هى التاريخ الحقيقى عندهم .

٤ - متأقلمون على نحو شديد السرعة والمهارة مع كل ظرف أو واقع جديد أو متغير يعرضون له ، سواء من ناحية العقيدة أو أساليب العيش ، فهم وسط السنة سنيون ، وعند الشيعة هم شيعة ، وفى اليونان أرثوذوكس ، وفى ايطاليا كاثوليك ، وفى أمريكا بروتستانت .. وهكذا ، على أن أصولهم البعيدة تمتد إلى فئة من المنبوذين بوسط وشمال غرب الهند.

وجدير بالذكر أن الدولة القومية الحديثة ، بنظمها الأمنية والاقتصادية التى تتميز بسيطرة للفئة الغالبة - عرقية أو

غجريتان مصريتان تقرآن الطالع لأحد القرويين

دينية أو طبقية أو سياسية - ومن ثم تأمينها الصارم لحدودها ، قد وضعت لحرية الغجر قيودا لا يستريحون إليها ، كقوم جبلوا على السفر والترحال ، فهم - فى حقيقة الأمر - لا يرغبون فى تسجيل مواليدهم مدنيا ، ولا يميلون إلى استخراج بطاقات الهوية والسجل المدنى ، ولا جوازات السفر .. ولكن للضرورة أحكام .

ولا يعدم الأمر من كثير أو قليل من الاضطهاد ، الذى عانوه عبر التاريخ منذ أن تركوا بلادهم ، وتذكر المراجع شيئا عن المذابح والمطاردات التى عانوها فى إيران والعراق وأوروبا فى العصر الوسيط ، أما فى العصر الحديث فحدث ولا حرج عن روسيا الستالينية والمانيا النازية وايطاليا الفاشية .. وأخيرا من افغانستان الطالبانية وكوسوفو الالبانية ، ولا تزال أفضل المجتمعات «المتسامحة» تنظر إليهم باحتقار بالغ كأدنى فئة اجتماعية !!

وقد لا يدرك كثيرون ممن يستخدمون لفظة «يا غجر» كسبة أو شتيمة ، أنهم يأتون بعمل عنصرى ، بل هم لم يقابلوا غجريا واحدا فى حياتهم ، وإذا ما صادفوه فانهم لن يتعرفوا عليه ، ولا يدركون أنه يعيش بين ظهرانينا أشخاص



... وللأطفال طالع أيضا !

مرموقون من أصول غجرية منهم من اشتهر كفنان وأثرى ، أو من رجال الأعمال المرموقين أو فى كبرى الوظائف الإدارية الحكومية ، وهؤلاء - من جانبهم - غالبا ما ينكرون مضطرين هويتهم الغجرية تفاديا لاستعلاء المجتمع عليهم وسخريته منهم ، بل وأحيانا يزيدون فيشاركون هذا المجتمع مواقفه المخطئة تلك ، وإذا كان ثمة سبب موضوعى تاريخى لهذه المواقف ، فهو قوة الدولة المركزية المصرية منذ فجر التاريخ وخضوعها للأيديولوجية التى يعتنقها الحاكم ، والتى تتغير بتغير القوى الحاكمة ، ولكن فى جميع الحالات كان الغجر - كأقلية وافدة غير مستقرة - جماعة مهمشة .

وكأن المجتمع الزراعى المستقر وجد فيهم مساعدا ماهرا ، كما وجد فيهم مجتمع السادة وسيلة وحيلة ، فمهنة الحدادة هى مهنتهم الرئيسية التى تجمع بين القوة والمهارة ومعايشة الخطر والايقاع بأنواعه ، ثم رعاية الماشية وتأهيلها للعمل والبيطرة ، وإعداد أوانى الطهو وتبييضها ، وشحذ الأسلحة والسكاكين والمقصات إن لم يكن صناعتها ، وأعمال الجزارة والسلخ ودباغة الجلود ،



فنانون من غجر جنوب إيطاليا

وصناعة السلال ، وأعمال البناء ، وتجارة الفحم، وصناعة النوارج والمحاريث والسواقى الخشبية والعربات الكارو ، وأعمال الدهان والزخرفة والنقاشة ، وصناعة أدوات اللعب التى تستخدم فى الموالد مثل المراجيح وعربة التنشين وغرفة العفاريت ، وصياغة الحلى الشعبى من الشفتشى والفضة والذهب ، وتجارة التجزئة الجائلة فى الريف والأحياء الشعبية بالمدينة ، وتجارة الكتاكيت وشتلات الأشجار ، أما فى مجال خدمة النساء فهم يبيعون للنساء أنواع الكحل واللبان والعطور والبخور والخيوط والأقمشة وأدوات الزينة والحلى ، وأما النساء فيقمن بمساعدة العرائس فى الاستعداد للزواج من حيث اعداد الملابس والمفروشات ومنهن الماشطة والبلانة والداية والمساعدة فى شئون إعداد البيت الجديد ، وكذا ترتيب الطقوس السرية والسحرية للنساء مثل قراءة الطالع والتلقيح بالنقل إذا كان الزوج عاقرا «خدعة الصوفة» .. وأيضا أعمال الزار ، والاستعداد لاستقبال الوليد الجديد وإقامة سبوعه وارضاعه إذا لزم الأمر . أما بالنسبة للغجر كفنانين ، فإن الأمر يلزم له مقال خاص به نستطيع التعرض فيه لهذا الموضوع الممتع عن سعة وتفصيل ، وأما عن اتهامهم بأعمالهم مشينة أو خارجة عن القانون أو العرف ، فهذه أعمال قد تشاركهم فيها باقى فئات المجتمع - حتى أرقاها - ولكنها - فى العرف الاجتماعى السائد والمحافظ - تشهر عن الغجر أو تلصق بهم وحدهم ،



النورية تراقص النار

وتخفى بالنسبة للآخرين أو تخفف ، كنوع من أنواع التطهر الزائف والاستعلاء بلا منطق أو مبرر معقول .

متى دخلوا مصر ؟

ليس ثمة تاريخ قاطع يحدد موعد دخول الغجر إلى مصر ، فمازالت هذه المسألة بحاجة لمزيد من البحث والتوثيق ، فمن قائل أنهم دلفوا إليها مع جيوش الاسكندر حيث عملوا كحدادين وصناع سيوف وآلات قتال ورعاة ومربين للخيول والماشية ، وهناك من قال إنهم كاسيويين قدموا فى خدمة الجيوش والهجرات

العربية التى وفدت إلينا قبل الفتح العربى لمصـــر وأثنائه وبعـــده ، وذلك عن طريق سيناء والبحر الأحمر وباب المندب والقرن الافريقى ، وقيل إنهم لجأوا إليها هربا من انقلاب هارون الرشيـد عليهم بعد نكبة البرامكة ، وقد كانوا من موالى جـعـفـر البرمكى وهناك من يقول إنهم وجدوا فى قيام الدولة الفاطمية فى مصر فرصتهم للحياة المترفة المليئة بالمتع وهم أهل ترف وحرف وفن ، وذكـر أنهم جاءوا مع وفود الجماعات المملوكية الأولى فى أواخر عهد الأيوبيين فـوجـدوا سماحة وترحيبا فى عـصـر الظاهر بيبرس المؤسس الفعلى لدولة المماليك فكانوا رواة سيرته الشعبية الشهيرة .. وقد يكونوا منشئيها ومبدعيها

ولما كان المؤرخون والبحاثة يختلفون فـيـمـا بينهم هذا الاختـلاف البين حـول توقيت هجرتهم إلى مصر ، فالأرجح - فى ظنى - أنهم وفـدوا إلينا مـوجـات إثر موجات ، لذا اختلفت الأسماء التى أطلقت عليهم نظرا لتعدد جماعاتهم ، وتناثر مواطن إقامتهم ، وتعدد حرفهم .. ومنها : هنجرانية - مسلاف - مساليب - برمكية - سيجونا - تتر - غز - حُمْر-حلب - نور - غـجـر ..... وغـيـر ذلك .. ويرى د. نبيل صبحى أن التسميات الثلاثة الأخيرة هى التـسـمـيـات الأسـاسـيـة وأن لفظة



راقـــصـــة غـــجـــرية من الدانوب

«الغجر» تطلق على جماعة بعينها كما تطلق عليهم جميعا بكل تسمياتهم وأصنافهم .

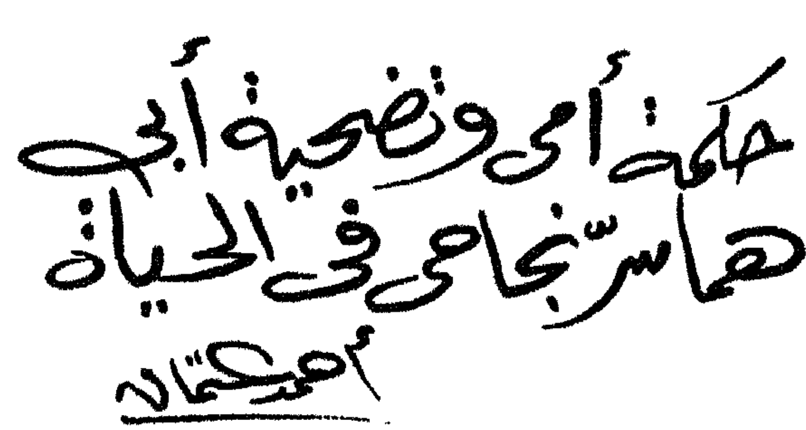
مصر .. والغجر .. والعالم

واليـوم .. ومع التـحـولات العـالمـيـة الطاحنة لكل ماهو خاص أو قليل أو ضئيل أو مميز أو مستقل ؛ ما هو موضع الغجر المصريين من هذه التـحـولات الاجـتـمـاعـيـة والطبقـيـة المحلية فى ضوء عالمنا الجديد الذى يتجـه إلى مـحـو اللغات القـومـيـة واللهجـات المحلية، بل إلى مـحـو الاقليات والقوميات والشعوب .. بل والحدود الدولية أيضـا . هـل يبقون غـجرا ؟ أم سيرغمون على التخلى عن هذه الهوية العـرقـيـة /



مازال بعض الغجر يحتفظون بأصولهم الهندية القديمة

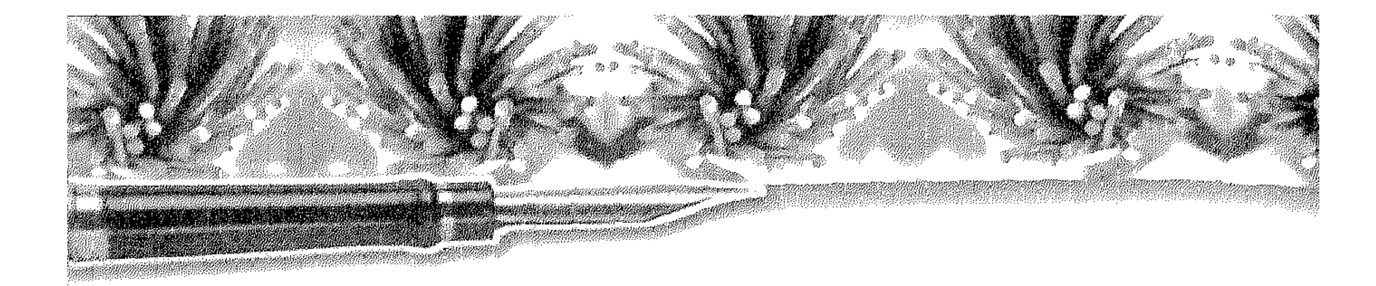
الثقافية المميزة ؟ وإذا كان اندماجهم فى نسيج البنية الاجتماعية مطلبا قوميا ؟ كيف ؟ هل يعنى ذلك تخليهم - وتخلينا أيضا - عن خصوصيتهم وتميزهم ؟ هل هذا الاندماج يعنى الذوبان التام والمحو النهائى ؟ أم يعنى التعدد والتجاور فى إطار الوحدة ؟ أو بمعنى آخر .... هل نساعد الثقافة الغجرية على البقاء والنمو والازدهار - كأحد مصادر الثقافة المصرية وملامحها الحية - خاصة وأنها ثقافة تتميز بتعدد المصادر والألوان ؟ أم نهملها حتى تتآكل وتفنى ؟ هل نتبع منهجا ديمقراطيا عميقا وإنسانيا فى التعامل مع كافة القوى العديدة التى تشكل معا ملامحنا كمصريين ؟ أم نقهر كل هذه القوى لحساب مركزية حاكمة ؟ (القاهرة - الطبقة الجديدة - البيروقراطية - الهيمنة الإعلامية الموحَّدة الموحَّدة - الخطة الثقافية القائلة بأن مصر قطعة من أوروبا - التبعية الثقافية للقطبية الجديدة - الفولكلور مجرد مصنف سياحى - الثقافتان العربية والافريقية ثقافتان متخلفتان - الثقافة التاريخية للقومية المصرية نوع من النوستالجيا .... إلخ) وفى الإطار السابق يتم النظر إلى الثقافة الغجرية والبدوية والنوبية والسيوية الأمازيغية والجنوبية كخزعبلات لا قيمة لها ، ومن هنا تصبح لفظة «يا غجر» شتيمة تستوجب الغضب . ■



ولد أحمد محمد عتمان فى قرية بنى عتمان – مركز ببا – محافظة بنى سويف . ذهب للمدرسة – مع أخوته الأكبر – قبل السن القانونى للتعليم بعامين ، حيث تلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة بنى أحمد المجاورة . كان يعرف القراءة والكتابة وجدول الضرب قبل الذهاب إلى المدرسة . وعندما تسلم الكتاب المدرسى الأول فى حياته لم ينم قبل إتمام قراءته ، وعندما أخبر المدرس فى اليوم التالى بذلك قال له :

– تقرأ كتاب السنة كلها فى يوم واحد .. وماذا ستفعل بقية السنة ؟

أنهى التعليم الاعدادى والثانوى فى مدينة بنى سويف وأنهى الثانوية العامة فى سن السادسة عشر وكان من أوائل الجمهورية على القسم الأدبى وصافح جمال عبدالناصر فى يوم ٢١ ديسمبر ١٩٦١ . أنهى التعليم الجامعى وعين معيدا بكلية الآداب – جامعة القاهرة فى سن العشرين وكان أصغر معيد بالجامعة حيث قام بالتدريس لطلبة يكبرونه سنا . تخصص فى الدراسات اليونانية واللاتينية وتتلمذ على د. محمد صقر خفاجة ود. عبداللطيف أحمد على وأستاذهما د. إبراهيم نصحى ، سافر فى بعثة لليونان وحصل على الدكتوراه من جامعة أثينا فى يونيو ١٩٧٤ بتقدير ممتاز ، وطبعت الرسالة باليونانية ونفدت .



وعندما شرع صاحبنا يتحدث عن مكوناته الثقافية أدرك أن الموضوع يحتاج إلى مجال أرحب . ولما كان بالفعل يعد سيرة حياته للنشر فقد رأى أن يسلط الضوء على أسرته القروية والبيئة الأولى التى شكلت وجدانه ، ووجهته إلى التمسك بقيم أخلاقية ودينية ، هى التى دفعته للاخلاص فى عمله الجامعى والأدبى والثقافى . فأمه التى كانت أمية هى التى لايزال حتى يومنا هذا يستلهم حكمتها وعقلانيتها وتمسكها بالحق والعدل والصبر على الشدائد والتواضع . أما الوالد فقد كان مثال التضحية والفداء ، باع كل ممتلكاته من الأرض فى سبيل تعليم كل أولاده .

بيت العز

لا أحد فى قرية بنى عتمان يشك فى أن بيت الشيخ محمد عتمان هو بيت العز بحق . فهو من العائلة الحاكمة والأغنى فى القرية ، وهو شيخ بلد ويقوم بأعمال العمدة بين الحين والحين . ولقد شهد هذا البيت ما يدل على العز والسيادة ، فكم من مرة استدعى الشيخ محمد عتمان هؤلاء القرويين الذين اختصموا وحقق فى الأمر وانهال ضربا على المخطىء بعصى خيزران لم تكن تفارق يمينه .

وكم من مرة استقبل الشيخ محمد عتمان أكابر القوم فى منزله ، سواء من أعيان القرى المجاورة ، أو من الحكام مثل مأمور المركز ووكيل النيابة ومأمور الضرائب والصراف ، وما إلى ذلك . وعندئذ تقام الولائم الفاخرة فيذبح الخروف أو الديك الرومى أو عدد من الفراخ وما شابه . وتقدم الوليمة على صينية نحاسية دائرية وكبيرة جدا ، يرفعها أربعة رجال على الأقل . وفى مثل هذه الولائم يقدم صنفان أو ثلاثة من الخضار مثل البامية والملوخية والمسقعة . أما الأرز فيقدم مسلوقا ومحمرا ، وهو فى كلا الحالتين غارق فى السمن . ويقدم الحلو مثل المهلبية والمشمشية بالإضافة إلى فاكهة الموسم .

وهذه الولائم تسعد أطفال العائلة مثل الضيوف تماما ، كما أن خيراتها تعم كل القرويين والقرويات ممن يعملون فى منزل الشيخ محمد عتمان ، علاوة على بعض الفقراء المعوزين فى القرية ، الذين يرسل لهم نصيبهم من الوليمة دائما . ولا تنساهم أبدا أم عتمان ربة البيت ، كما أن الشيخ محمد عتمان دائما يسألها بعد كل وليمة عن هؤلاء المحتاجين ، فإذا نست أحدهم تعرضت للوم .

تعاون بعض القرويات أم عتمان فى عملها اليومى بالبيت . وهن يتعاملن معها بكل احترام وتقدير ، ولكنهن صديقات أكثر من كونهن خادمات . وهن يؤدين الأعمال غير المتصلة مباشرة



بالطعام والشراب ، فهذا من شأن أم عتمان . فهى التى تذهب بنفسها كل صباح وكل مساء لتحلب البقرة أو الجاموسة فى الزريبة . وتعود بالقدر المملوء لبنا على رأسها أو فى حضنها . وقد تقدم للأسرة منه طعاما شهيا متمثلا فى لبن ساخن عليه سكر أو عسل النحل مع بعض العيش البلدى الجاف (البتاو) . وقد تصنع لهم عصيدة وهى مكونة من قطع من عجين القمح فى اللبن الساخن المحلى بالعسل والمزود بالزبد .

★★★

وبعد الإفطار وخروج الشيخ محمد عتمان لشئونه خارج المنزل تضع أم عتمان اللبن فى القربة ، والتى لها فتحتان وتعلق بالحبال فى قائم له ثلاثة أرجل . وبعد أن تضع أم عتمان اللبن فى القربة المربوطة من إحدى الفتحتين تنفخ فى الفتحة الثانية حتى تنتفخ القربة تماما فتربطها ، وتصير هكذا معلقة فى القائم . تجلس أم عتمان أمامها وتمد رجليها وتمسك بالقربة بيمناها وتحركها إلى اليمين وإلى الخلف فى حركة بطيئة منظمة ، وتظل هكذا وهى جالسة تحت أشعة الشمس الشتوية أو فى ظل أحد جدران البيت إذا كان الوقت صيفا . وتظل تحرك القربة هكذا حوالى ساعة ، وهى تحدث أولادها وتحكى لهم الحواديت وعندما تحس أن المهمة انتهت تفتح القربة فتحة صغيرة وتصفى اللبن فى وعاء معد لذلك . وهذا اللبن يسمى شرش ، أما ما يبقى فى القربة فهو الزبد ، فتضعه أم عتمان فى قدر فاخر مصقول بنى اللون مخصص لذلك .

وبعد ذلك تفرغ الشرش ، بعد إضافة بعض الملح ، فى قطعة مستطيلة من شىء يشبه الحصير ويقال له «السدة» ، وهو فى الغالب مصنوع من نبات البردى . وبعد تفريغ الشرش فى السدة تلم طرفيها وتعلقهما فى حبل الغسيل ، فيصفى الشرش هكذا ، إذ ينسال السائل على الأرض نقطة نقطة . وبعد حوالى نصف ساعة تفتح أم عتمان السدة فتجد قالبا طويلا من الجبن الأبيض الطازج . فتقطعه قطعا متساوية بالسكين ، وتحفظه فى قدر خاص أعد لذلك ، أما إذا أريد تخزين هذا الجبن لصنع ما نسميه «الجبنة القديمة» فيتم زيادة الملح والفلفل وقشر البرتقال والليمون وغير ذلك ، وعندئذ يوضع فى «بلاص» ويغلق غلقا جيدا .

نشأ صاحبنا الصبى على هذا الطعام الطازج الذى تصنعه الأم بيديها وبكل الحب . حتى إن صاحبنا لم يعد يحب الجبن والزبد إلا الذى يأتى من يدى أمه . وظل هكذا ولم يتغير إلا بعد السفر إلى القاهرة ثم إلى الخارج ، واضطر لأكل

أشياء أخرى لم يكن يقبل مجرد رائحتها من قبل . ولا يزال صاحبنا إلى يومنا هذا ميالا للطزاجة فى كل شىء .

وكان الشيخ محمد عتمان يساعد زوجته أم عتمان فى أعمال المنزل ، إذا رأى لذلك ضرورة كأن يكون فى عجلة من أمره لسبب أو لآخر . عندئذ يأمر كل أولاده بالجلوس والعمل على مساعدة الأم ، ولاسيما إنجاز أعمال تأخذ وقتا طويلا مثل تنقية الأرز أو القمح من الشوائب أو قرطفة الملوخية وما شابه ذلك من أعمال ثانوية ولكنها ضرورية لاعداد الطعام . وإذا أصدر الأب أمرا بإنجاز هذا العمل أو ذاك فلا مجال لأحد من الأبناء أن يتكاسل أو يتملص وإلا فالعقوبة صارمة وفورية .

بل هناك عمل منزلى ارتبط بالوالد ارتباطا تلازميا . فطالما أنه غير مرتبط بأحد الضيوف أو أى شأن آخر فهو الذى يصنع الشاى بنفسه لجميع أفراد الأسرة دون استثناء . وفى العادة يشربون الشاى ثلاث مرات عقب الوجبات الثلاث التى تجمع كل أفراد الأسرة .

★★★

وجرت العادة أن توضع الطبلية الكبيرة على البساط أو الحصيرة ويلتف كل أفراد الأسرة حولها . ويوضع الطعام فيبدأ الجميع معا وينتهون منه معا . ومجلس الأب على الطبلية يقع قرب حافة الحصيرة وحيث توضع عدة الشاى . فما أن ينتهى الطعام حتى يستدير هو دورة كاملة فتكون عدة الشاى أمامه جاهزة . فعلى يمينه يوجد وابور الجاز من نوع بريموس ، والذى يمكن أن يحل محله فى ليالى الشتاء منقد (مدفأة) من النحاس تشعل فيه قوالح الذرة التى تحل محل الفحم فى المدن .

وأمامه مباشرة ما يسمونه كرسى الشاى وعليه توضع غلاية الشاى والبراد والأكواب البللورية الصغيرة . وعلى اليسار ابريق نحاسى مملوء بالماء . وأمام كرسى الشاى يوضع طست صغير مغطى بغطاء كالمصفاه ، وفى جزء علوى من الغطاء توضع قطعة من الصابون . يستخدم هذا الطست لغسل الأيادى قبل الطعام وبعده ولكنه بعد ذلك يوضع فى خدمة عملية صنع الشاى وغسل الأكواب بعد استعمالها . توضع غلاية الشاى على النار ويصب منها فى البراد ذى البزبوز حيث يصب منه فى الأكواب لكل أفراد الأسرة . ويحدث ذلك مرتين على التوالى ، ففى المرة الأولى يكون الشاى «ثقيلا» ومرا، أما فى المرة الثانية فيكون أكثر حلاوة ويضاف إليه النعناع . وهكذا تأخذ عملية صنع الشاى وتوزيعه وشربه فى المرتين وقتا طويلا مما يتيح للوالد الشيخ

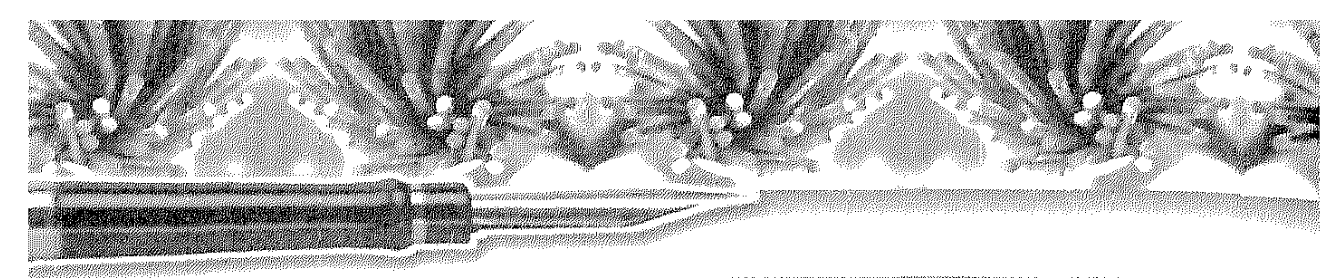
محمد عتمان أن يحكى الحكايات أو يلقى الفكاهات ، أو يتداول الرأى فى مختلف الأمور مع زوجه وأولاده ، فهى أحاديث عذبة فى معظم الحالات . وإذا لم تكن هناك موضوعات للتداول يرفع الشيخ محمد عتمان صوته وهو يتلو القرآن ومن السور التى ارتبطت فى ذهن الصبى بهذه الجلسة سورة الواقعة والقارعة والزلزلة وقوله سبحانه وتعالى «إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها» ولم يعرف معانى هذه السور بدقة إلا بعد عدة سنوات .

صناعة النعناع

ويعمل الوالد للشاى ألف حساب ويوفر له كل الامكانات ، ولاسيما الشاى والسكر والنعناع أو روح النعناع ، إذ كان رجلا معمماً يضع على عينيه عدسات طبية يزور البيت مرة كل صيف ويقضى يوما كاملا يحضر فيه روح النعناع . حيث كانوا يحضرون له كميات ضخمة جدا من نبات النعناع . وبعد تنظيفها يغلونها فى أوعية ضخمة جدا ، وكانوا فى العادة يبعدون الأطفال الصغار عن هذه العملية الخطرة التى يسمونها «التقطير» وكانت خلاصة النعناع تعبأ فى زجاجات يستخدمها الشيخ محمد عتمان طوال العام ، إما فى صنع الشاى ، أو تستخدمها ربة البيت فى صنع الحلويات المختلفة .

ومن باب التغيير كان الشيخ محمد عتمان أحيانا يستعيض عن روح النعناع بشىء آخر . إذ كان يحتفظ فى جيبه دائما بعلبة بلاستيك صغيرة جدا كعقلة الاصبع مملوءة بالعنبر يفتحها ويغمس فيها عودا من الكبريت يضعه بعد ذلك فى براد الشاى . فيفوح الشاى برائحة العنبر ، ويقبل الجميع على رشف هذا الشاى المعطر بالعنبر .

ومن الزيارات الموسمية المحببة لدى الصغار والكبار زيارة «الدلال» أو «الدلالة» أى الشخص الذى يأتى ومعه كمية ضخمة من الأقمشة بمختلف الأصناف والألوان . يجلس فى فناء المنزل أو فى الشكمة ، ويفرد كل الأقمشة الرجالى والحريمى من القطن والصوف والحرير . يختار كل فرد ما يشاء واللون الذى يروق له ، فتقص له القطعة التى تتناسب مع مقاساته . أما إذا كانت هناك طلبات خاصة ، فإن الدلال أو الدلالة يعد باحضارها فى المرة القادمة . وبعد انتهاء الشراء يرتب الدلال أو الدلالة بضاعته المتبقية بثنى الأثواب على قطعة من الورق المقوى ، ثم رصها الواحدة فوق الأخرى ، ثم لفها جميعا بقماش وربطها بالحبل ويرفعها ليحملها على كتفه بالنسبة للدلال ، وعلى رأسها بالنسبة للدلالة . ولم يبق إلا المتر الخشبى الذى يقيس به ، فهو





د. أحمد عتمان مع رئيس جامعة أثينا - سبتمبر ٢٠٠١

يظل فى اليد دائما .

★★★

ومن الزيارات المحببة للجميع أيضا تلك التى يقوم بها الجزمجى . إذ يأتى وعلى ظهره جوال (زكيبة) يخرج منها لكل فرد من أفراد العائلة زوجا من الأحذية أو الصنادل أو الشباشب . فبعضها كان مطلوبا ، ومن ثم فمتفق عليه ومعروف من هو صاحبه ولكن الزكيبة مليئة ببضاعة أخرى يعرضها الرجل ، فإذا راق لأحد شىء منها أخذها على الفور وكان الشيخ محمد عتمان ينصح أولاده دائما ، ولاسيما الصغار بتوخى الحذر والتأكد من أن الأحذية مريحة ، لا هى ضيقة ولا هى واسعة لأنها فى الحالتين تسبب آلاما مبرحة . لكن بعض الأطفال الصغار لايسمعون الكلام ، ويفرحون بما هو جديد، وبعد يوم واحد من لبس الحذاء الضيق يعانون الأمرين ، وربما لا تحل هذه المشكلة العويصة إلا بإعطاء هذا الحذاء للأخ الأصغر .

المدائح النبوية

وهناك زيارات خاطفة ، ولكنها مؤثرة وباقية فى الذاكرة مثل زيارة بعض الأفراد ووقوفهم عند البوابة دون الدخول . وأكثرهم رسوخا فى الذاكرة ذلك الشخص الذى يرتدى ملابس غير معتادة ، ويمسك مزمارا وقد يصاحبه ضارب على الدف أو

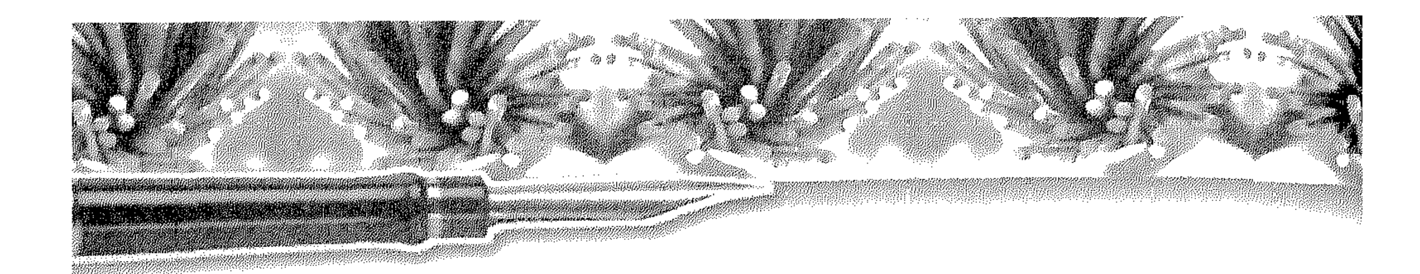
الصنج وما أن يصل إلى البوابة ويكون أهل البيت في الشكمة أو فى هذه الغرفة أو تلك حتى يبدأ فى الغناء . إذ يغنى بعض الكلمات وينفخ بعدها فى المزمار بمصاحبة الدف أو الصنج ، وهكذا ويكون غناؤه خليطا من الفولكلور والمدائح النبوية والمديح لافراد البيت الذى يقف أمامه ، إذ يذكرهم بالاسم ويخلع عليهم بعض الصفات ، ويعتنى بأسماء الأطفال بصفة خاصة . ويظل هكذا يغنى ويعزف الموسيقى حتى يخرج إليه أحد من أهل البيت ومعه بعض ما تيسر من المال أو الغلال وما شابه ، وفى كثير من الحالات يتباطأ أهل البيت فى الخروج إلى المغنى طمعا فى المزيد من الغناء . أما إذا نسى اسم أحد الأطفال فيذكرونه به وفى غالب الأحوال يلتف الأطفال حوله ويصاحبونه فى جولته .

يعرف هذا الزائر باسم «الأدباتى» ، ولقد انشغل صاحبنا الصبى ولاسيما بعد تقدم السن فى أصل هذه التسمية ، ووجد أن الأمر محير فى مسألة أصل هذه التسمية فهل هى من «المأدب» والتطفل عليها» ، وهو تراث معروف لدى جميع الشعوب ولاسيما الشعب العربى أم هى على علاقة بكلمة الأدب ؟ ولعلها ترتبط بالمعنيين معا .

ولا ينسى أحد من أفراد الأسرة حلقات الذكر حيث فى بعض المناسبات يحتشد أهل القرية فى البيت مساء ، حيث تبسط الحصر فى الساحة ويضاء المكان اضاءة قوية باستخدام عدد هائل من الفوانيس والكلوبات . فى البداية يجلس الناس على الحصر ، أما أهل البيت فهم يحتشدون فى الشكمة . ثم ينتظم شكل الجالسين على الحصر على هيئة دائرة واسعة وفى مركزها يتربع شيخ ، هو فى الغالب الأكبر سنا والأكثر علما بشئون الدين .

وتبدأ حلقة الذكر بالقرآن الكريم سواء ألقاه هذا الشيخ أو شخص آخر أكثر تجويدا وترنيما . وبعد ذلك يقود الشيخ حلقة الذكر فهو يبدأ بتراتيل دينية وابتهالات ودعوات لأهل البيت وأهل القرية والمسلمين كافة .. ثم ينهض ويبدأ فى تنغيم ما يقوله على إيقاع ما ، سواء بالتصفيق بشكل منظم ، أو بالدق بآلة معدنية صغيرة (كالمفتاح) على عصاه وهو يتمايل يمينا ويسارا . وأحيانا يقفز إلى أعلى قفزة قصيرة . والمتحلقون حوله يفعلون وراءه ما يفعل ويرددون ما يقول بنفس الطريقة وبنفس النغم ، ويظل الأمر كذلك حتى يغير الشيخ الكلام والطريقة والنغم والحركة فينسجون على منواله . والكلمات التى يقولها الشيخ تتمحور حول «الله أكبر ، الله حى ، مدد ..... ! الخ ولكن الطريقة التى





يخرجون بها هذه الكلمات من حناجرهم تعطى لهذه الكلمات معنى طقوسيا خاصا ، ثم يدخل حاملو البخور فى مباخر نحاسية فاخرة ، فيعطى دخان البخور والمسك لحلقة الذكر نفاذ الطقس الدينى وهيمنة الخشوع على كل النفوس .

حالة التجلى !

وفى إحدى المرات خرج أحد المتحلقين فى حلقة الذكر عن طوره ، بل خرج عن المجموعة وأخذ يقوم ببعض الحركات غير العادية ، بل نطق بألفاظ غير مفهومة ، ولا يعرف أحد من أية لغة هى . وأشار الشيخ للجميع بعدم التعرض له وتركه يفعل ما يشاء فهو الآن «فى حالة تجلى ، ولا يملك ارادته وربنا يسهل له !» .

وفيما بعد شرح أحد الضالعين فى تلك المسائل من أهل القرية أن حالة التجلى هذه تصيب من «يركبهم» الجان . المهم عندما يبلغ الذكر قمة الجزل يبدأ الشيخ فى تغيير النغمة وتهدئة الايقاع ثم يجلس ويجلس بعده الجميع ويشرع فى قراءة القرآن وإسداء الدعوات لأهل البيت. وينتهى الذكر بقراءة الفاتحة . ثم يقدم الطعام والشاى للجميع .

ولكن الذى لا يعرفه الكثيرون من أهل القرية أن هذا البيت الذى ذاق الحلو ذاق

د. أحمد عتمان

- **رئيس قسم الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب جامعة القاهرة (١٩٨٩-٢٠٠٠)**
- **رئيس الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية ورئيس الجمعية المصرية للأدب المقارن**
- **عضو اللجنة الأستشارية باليونسكو الخاصة بالتعددية اللغوية فى مشروع السلام اللغوى**
- **من أهم مؤلفاته فى الدراسات الأدبية :**

- **الموسوعة الكلاسيكية.**
- **الأدب الأغريقى تراثا إنسانيا وعالميا.**
- **الأدب اللاتينى ودوره الحضارى.**
- **كليوباترا وأنطونيوس : (دراسة فى فن بلوتارخوس وشكسبير وشوقى).**
- **المصادر الكلاسيكية لمسرح الحكيم ومن أهم مؤلفاته الإبداعية :**
- **كليوباترا تعشق السلام.**
- **الحكيم لا يمشى فى الزفة**
- **معيز الهنسا**
- **زفاف عروس الكتبات.**



المر أيضا . فمن كثرة الأولاد وكثرة مصاريفهم فى المدارس حلت الضائقة المالية بالبيت وأهله . ومع أن صاحبنا الصبى سمع أمه غير مرة تعاتب أباه على الاسراف ، إلا أنه بشهادة الجميع ليس مسرفا . إنه إذا أتاه الرزق يريد أن يوسع على أبنائه وأهله فلا يبخل عليهم بشىء قط . وهو يعطى الأولوية لأولاده ومطالبهم على احتياجاته هو الخاصة .

لقد بدأ الرجل سنة بعد أخرى يبيع من أطيانه لينفق على أولاده الذين يذهبون جميعا إلى المدارس ولم يستثن منهم أحدا. وبتناقص الملكية يتناقص الدخل السنوى مع زيادة فى المصروفات . ووجد الرجل نفسه فى بعض الأحيان فى ضائقة مالية قاسية تصل إلى حد احتياج لقمة العيش .

وصاحبنا لا ينسى قط عندما كان فى التعليم الاعدادى وفى اجازة الصيف وكان الجميع موجودين بالمنزل . ولا يوجد بالمنزل العيش البلدى (البتاو) الذى يخبزونه ويرصونه فى «عواميد» أى أعمدة عالية يأكلون منها حتى تنفد ثم يعيدون الكرة . هذا فى الأيام العادية أما حيث أن الشيخ محمد عتمان يعانى من ضيق ذات اليد فإنه لم يتوافر عمود العيش هذا ، وبالتالى أصبحوا فيما يشبه الافلاس يأكلون يوما بيوم من الأرغفة التى يشترونها ، وذات يوم لم توجد حتى النقود التى يشترون بها الأرغفة ، فأخذ كل ولد من الأولاد ركنا من أركان البيت الشكمة أو الصالة أو الغرفة الغربية أو الشرقية . وكلهم صامتون فى انتظار حل ما لهذه الأزمة . وخرج الشيخ محمد عتمان سعيا وراء حل هذه الأزمة ، وهو حل طبعا يقوم على بيع أرض أو بيع شىء ما من المنزل أو الاقتراض . ولكنه لم يعد حتى قرب آذان العصر وبدأ الجوع يقرص أمعاء الأبناء ولاسيما الصغار . وفجأة جاء أحد القرويين يجرى ومعه عشرة أرغفة سلمها لأم عتمان وقال :

– الشيخ أبو عتمان أرسل هذا الخبز وسيعود هو بعد قليل .

ووزعت الأم الأرغفة على أبنائها ليسدوا رمقهم ، وبحثت عن صاحبنا الصبى فوجدته فى ركن من الغرفة الشرقية يبكى ، فأعطته نصيبه من الخبز وضمته إلى صدرها وقالت له :

– لماذا البكاء ؟ الصبر طيب يا حبيبى.

– أنا لا أبكى من شدة الجوع .. ولكن لماذا نجوع ؟ ■



مذهب ذى النون المصرى فى الولاية

أعجبت بالمقال الذى نشر فى عدد نوفمبر ٢٠٠٢ للعالم الجليل الدكتور أحمد الطيب مفتى الديار المصرية حول أحد كتب ابن عربى عن ذى النون المصرى .. لكننى وجدت بعض الهنات فى المقال ، لو خلت منه لكان أكثر جمالاً ومن بينها :

أولا : عند حديث الدكتور عن العلاقة بين ذى النون المصري وكل من الغزالى وابن عربى مؤلف الكتاب ، يكتفى بأن ينقل ما أورده ابن عربى من أن ذا النون يعرف حقيقة التوكل بأنها «علم العبد بأن الله يعلم ويرى ماهو فيه» ويشير إلى أن ذا النون لايقصد من العلم «المعرفة» بل العمل ، وهو بذلك يخالف كثيرين من المتصوفة فى تعريف التوكل ، ويتابعه معه العلماء أبوحامد الغزالى وابن عربى نفسه.

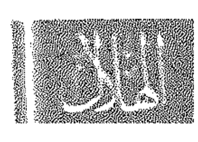
وسيكون المقال أوفى لو كان الكاتب قد أشار إلى مذهب ذى النون فى الولاية عن طريق الاصطفاء ، وهو المذهب الذى سار عليه أبوحامد الغزالى وابن عربى ، وهذا الاتجاه هو الأثر البارز الذى أضافته المدرسة المصرية للتصوف الإسلامى .

ثانيا : فى ص ٦٧ يقول الدكتور الطيب : «ولم يكن حال ذى النون بعد أن انتقل إلى القاهرة بأسعد حظا .

ويقول فى ص٦٩ .. وإذا كان ذو النون قد نسى آلامه ومتاعبه ومأساته بين القاهرة وبغداد

ولم يكن فى ذلك الوقت شىء اسمه القاهرة ، فلم تنشأ هذه المدينة إلا بعد موت ذى النون بمائة وخمس عشرة سنة .

أ.د عبدالرحيم الكردى
عميد كلية التربية - بورسعيد

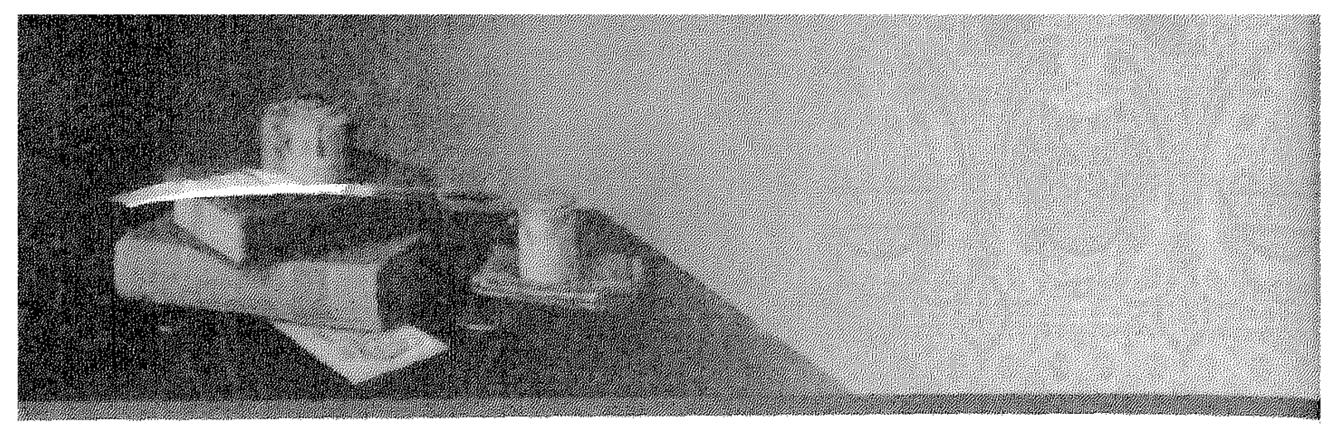


العصافير .. تعشق أوكارها

قفت على الباب يوماً
أعافر حظى
وكنت كما تعلمون أبيا يرد العطايا
ويزداد حاجبكم فى ازدرائى
وأجتر شعرى
وشعرى تنام على ساعديه رؤايا
فكل الصباحات حطت عليه
دموعاً ،
وزهراً يغطى دماء خطايا

أقيموا على الشعر حدا
فليست تخاف لحونى المنايا
فهل تستقيل العصافير من حلمها ذات يوم؟!
وكيف تموت من العشق يوماً
قلوب الصبايا ؟!

عبدالناصر أحمد الجوهرى
دكرنس - دقهلية



نحن والهلال

هذه القصيدة جاءت من الكاتب عبدالرحمن شاكر تحية للهلال بمناسبة مرور ١١٠ سنوات على صدوره .

شعر : عبدالرحمن شاكر

ذا الهلال لنا ، قد صار مونلنا — في ظلمة الدهر ، أفكارا وتبيانا
قد كان رمزا لعثمان ودولته — وصار نبراس ما قد فات عثمانا
تربعت أبرع الأبحاث ساحته — كذاك هيأ للأشعار ديوانا
أما الفنون فقد أهدى روائعها — بالقول والرسم والأوراق أفنانا
تكاد تلمس أزهارا منورة — فيها وتنشق عطر الزهر ألوانا
أما الحوادث فالمقصود عبرتها — تبقى إذا ما طواها الدهر نسيانا
لاشيء يعدل عند العرب حكمته — خلا القداسة إنجيلا وقرآنا
ثقافة العرب صار عنده نسبا — موحدا البلاد العرب أوطانا
يحس من صافحت عيناه صفحته — كم صار أكثر من ذى قبل إنسانا
«شوقى» دعا لاكتمال كان بالغه — ألا يعانى طوال الدهر نقصانا
واليوم عشر مضت ، من قبلها مائة — من السنين ، فما أقوى ولاهانا
ولم تنل منه ، أو من عز موقعه — وقائع زلزلت من قبل أركانا
ألف وثلث من الأعداد أترعها — دفق الهلال ، ولكن ظل ظمآنا
يطالب الناس أن يأتوا لشرعته — كى يستزيدوا من العلم الذى كانا
أو ما يكون ، فنحن اليوم فى زمن — الساعة الآن تسوى فيه أزمانا
تهانئى «مصطفى» والصحب : من سهروا — بهمة بهرت أحلام «زيدانا» !

الاحتفال بثورة يوليو

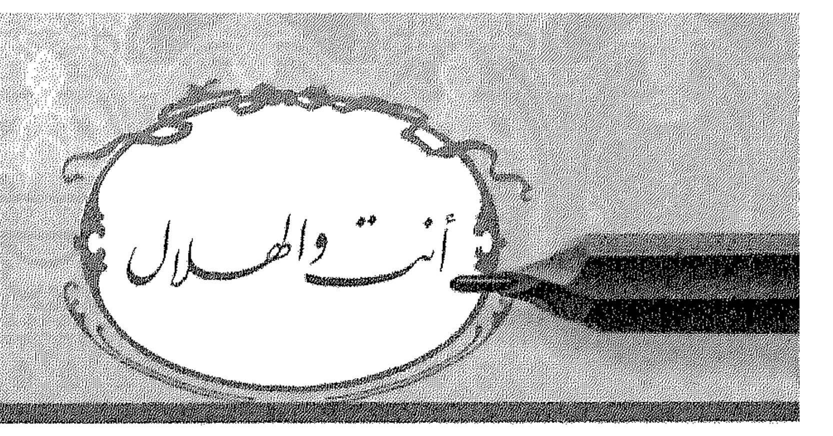
كعهدها كانت الهلال سباقة بالاحتفال بالذكرى الخمسين لثورة يوليو ١٩٥٢ ، ورأينا عدد يوليو . الذى يعد بحق وثيقة للاحتفاء بهذه المناسبة الغالية على كل مصرى وعربى .. لكننى أتساءل لم هذا التناقض فى تناول الثورة ومكانتها فى تاريخ مصر المعاصر .

وهذا يدفعنى إلى القول بأن فى ذلك تشكيك لأجيال المستقبل ، فبعض الأقلام تتعامل مع الثورة باعتبارها كل الخير ، والبعض الآخر يرى عكس ذلك تماما ، ونفس الشيء يحدث مع نصر أكتوبر العظيم هذا التناقض يجعلنى أتساءل .. كيف نثق إذن فى روايات المؤرخين لأحداث العصور القديمة ؟

أحمد السيد حامد السرى - دمياط - عزبة البرج

الهلال : لقد حرصنا على أن تكون هناك كل الآراء ، وثورة يوليو لها مكانتها فى التاريخ ، كما أن نصر أكتوبر بحق هو عودة الكرامة ورد اعتبار للمقاتل المصرى.

ولابد من خروج الوثائق الخاصة بثورة يوليو وأن يلتزم المؤرخون بالحيدة وهم يكتبون تاريخ بلادهم .



مفتاح الحياة

رف القدماء حقيقة الخلود .

عند الحضارة المصرية القديمة أقدم الحضارات التى تركت أثرا لنا وجد مفتاح الحياة فى نقوشهم على الأحجار وفى البرديات وكان رمزا لخلود الأحياء فى حياة أخرى تالية للحياة الدنيا المؤقتة .

الوجود هو مفهوم الحياة الدنيا . ولولا هذا الوجود ما كان هناك خلود .. فالدنيا هى البداية وهى المعبر ، بل هى الحضانة التى تتربى فيها النفس البشرية كى تثرى الشخصية الإنسانية بما يؤهلها للحياة الأخرى الخالدة .

الكون ابتكار وصنعة الخالق العظيم .

الكون كروى ونتاج الانفجار الكبير .

هو مادة وحركة . المادة هى المكان والحركة هى الزمان .

هو شئ موجود يحاط باللاشئ واللاوجود

هذا الكون عامر بخلق الله وقد توجه بخلق الإنسان .

التطوير هو نظامه وهو القانون الذى يحكمه ويحكم مايجرى فيه إلى هدف يرمى إليه الخالق .

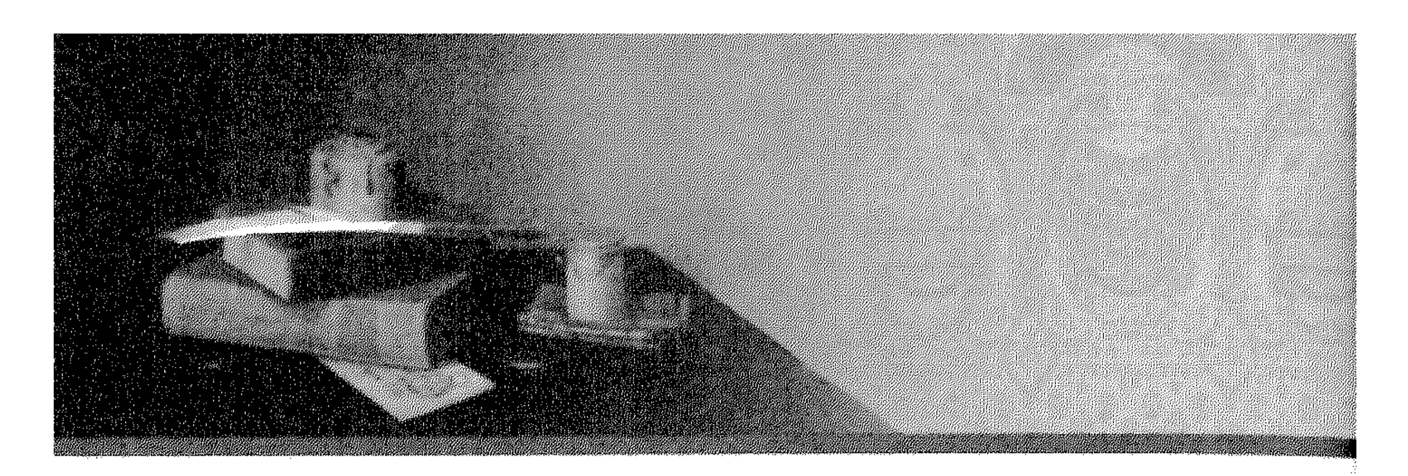
ولأن الإنسان خليفة الله فى الأرض ، ولأنه خلق لحمل الرسالة كانت إرادة الله أن يتخذ منه وسيلته لتحقيق مايرمى إليه من هدف رائع جميل للوصول إلى قمة الابتكار والجمال والروعة ورغم صغر حجم الفرد الإنسانى نسبة للكون ، وقصر مدة وجوده فى الحياة الدنيا المحدودة نسبيا ، إلا أنه فى الواقع أكبر من حجمه وأكبر من قدراته التى نراها محدودة بكثير .

وأن ما يؤمل منه أعظم من الخيال المتصور . وأن الله قد أعده لمهام أعظم فى لحياة الآخره لتحقيق مالا عين رأت . ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

مهندس رستم غالب
صديق الهلال

ماهذا الإهمال فى مدارسنا وجامعاتنا ؟!

لايمل الناس من الحديث حول تدهور العملية التعليمية فى مصر ، سواء فى المدارس أو الجامعات .. وعلى الرغم من دق نواقيس الخطر ، فإن الجميع أصبح لايسمع ولا يعى كل مايكتب وما يقال .. فالإهمال أصبح هو السمة الأساسية فى مدارسنا الحكومية وحتى العدد الأكبر من المدارس الخاصة ، فناء المدرسة لم يعد هو (الملعب) الذى يخرج لنا الأبطال الرياضيين ، سادته الفوضى وامتلأ بالأعداد الغفيرة من التلاميذ ، خاصة غير الملتزمين .. ألفاظ خارجه واكتساب عادات غريبة من بينها التدخين



وإدارات المدارس فى واد والتلاميذ يمرحون ويفعلون مايريدون دون رقابة ، وضاعت هيبة زمان، ولم نعد نذكر هذا البيت الشهير

قم للمعلم وفه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا

ونسينا تلك النصائح التى كانت تكتب على كراسات المدارس الحكومية فى تعلم النظافة والالتزام بالآداب العامة وطاعة الكبار .

كما لم تعد هناك تلك الاهتمامات المطلوبة بتعلم الخط العربى ، وتنمية هواية الرسم والتصوير ، والاشتراك فى فرق الكشافة و«القسم المخصوص» والذهاب إلى حصة «الفلاحة» والعناية بالبساتين والزهور .

وهذا الإهمال استشرى بدوره فى الجامعات ، ويعيش الطلاب والطالبات داخل جدران الجامعات بلا حساب ، ولا رقابة ..

والكل هنا وهناك من مسئولين وإداريين وعلى أعلى المستويات يعيش حالة من اللامبالاة .. لماذا ؟

د. جمال العطار

الأسكندرية - كامب شيزار

عيد ميلاد نجيب محفوظ



لاحظنا أن الهلال فى عدده الماضى لم يشر إلى وصول أديبنا العالمي الكبير نجيب محفوظ عامه الثانى والتسعين ، وما يعنينى هنا أن مجلة الهلال هى مجلة العرب الثقافية والرائدة ، فكيف تمر هذه المناسبة دون تقديم التحية لمحفوظ .

ابراهيم مجاهد

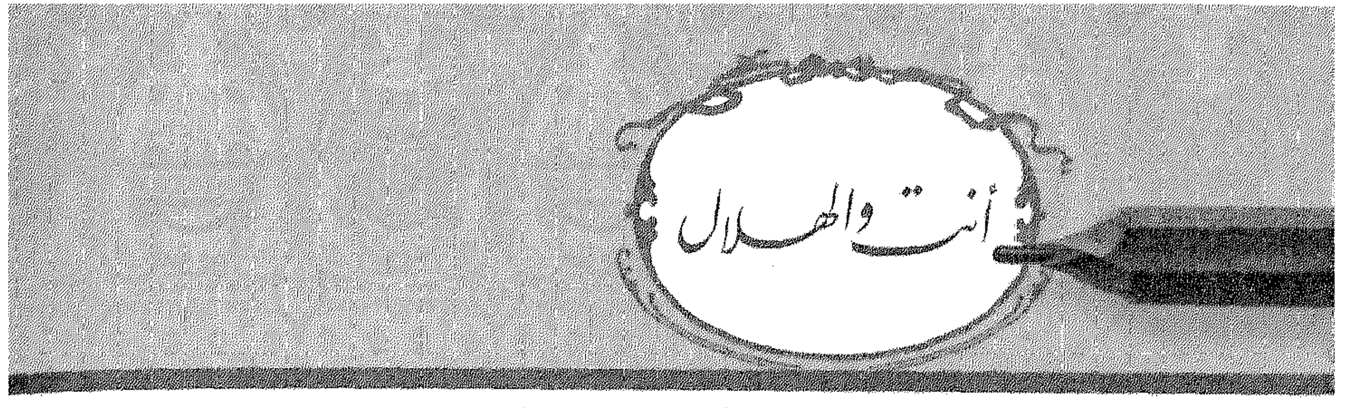
الزيتون - القاهرة

الهلال: في مسيرة الهلال منذ بدايات نجيب محفوظ ونحن نحتفي بكل ما يكتبة سواء ما ينشر منه أو من خلال الدراسات التي يكتبها كبار الكتاب أو الاستشهادات بأدد هذا القاص العالمي .

ولقد أصدرنا عدداً خاص عن نجيب محفوظ حيث تناوله كتاب كبار ومبدعون مصريون وعرب، فضلاً عن أجزاء خاصة نشرت في اعداد متفرقة بالهلال ومن بينها جزء خاص عنه بعد حصولة علي جائزة نوبل عام ١٩٨٨ .

تحية للكاتب الكبير في عيد ميلاده ونتمني أن يمتعه الله بالصحة ويمد في عمره.





تباً للحساسية

لحساس ضعيف جداً ... وذيه زفير الجلاس
تؤذيه وساوس ليس لها ... معنى فى أعماق الراس
يتأود في الليل ، يعانى ... أرقاً أعيا كل نطاسى (١)
كلمات الناس سيوف فى ... قلب الإنسان الحساس
ما أقسى كلمات طارت ... من ثغر حبيب متناسى
نسى الأشواق وألقاها ... فى رمس بين الأرماس (٢)
ألقى مكتوباً ، كاتبه ... بحر .. بحر من إحساس
السعد بعيد جداً عن ... عصبى فى دنيا الناس
يتهاوى في الخمر ليسلو ... حباً سحرى الأنفاس
يكتب شعراً يحرق شمساً ... ويعانق قيثار الياس
لكن اللحن يذكره ... بالفقر ، جيوم الإفلاس
يكره كل الناس ويحيا ... بين الوحدة والوسواس
الطب يقول بأن به ... مرضاً نفسياً ى الناس
لن يشفى حتي يتعاطي ... أدوية أقسى من اس
ويزور طبيباً نفسياً ... فيراه خبيثاً كسياسى
ويقول : طبيبى مختل ... مجنون يحسو من كاسى
مثلى يحتاج نطاسياً ... ليحلله .. أين الآسى ؟ (٣)

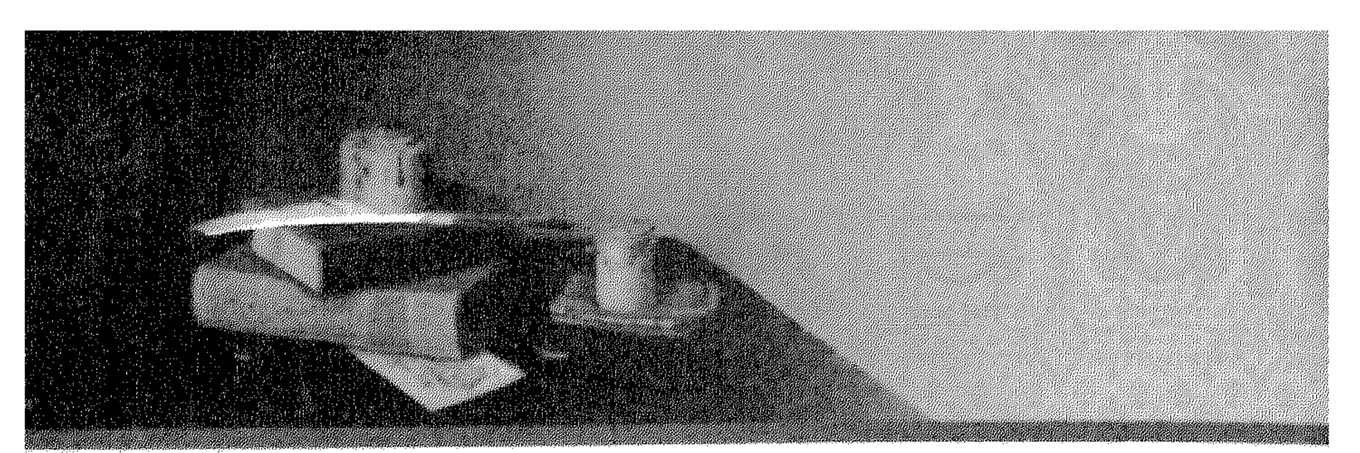
١) النطاسى : الطبيب العبقرى (٢) الأرماس : القبور
(٣) الآسى الطبيب

د/ هيثم الحويج العمر – دمشق

«شكشكة» شعرية

جلة شعرية غير دورية بالفصحى والعامية يصدرها الشاعر سمير عبدالباقى ، سعر النسخة «ربع جنيه ومضاعفاته» وتضم فى عددها الثامن مجموعة من قصائد الشاعر ، من بينها هذه القصيدة التى نجتزئ بعض أبياتها :

الشعرا فى مذهبى أشجار بعدد الشجر
فيهم الكبير والصغير المستحيل لأنحاء
واللى حداه كبرياء فيهم



وصاحب داء
والفارغ طويل الساق
جنب القصير الحشيشه
ومهدل الغصن فيهم والعديم لأوراق
حيث الكثيف الورق والدايم الخضرة
فيهم عديم الخشب يزحف على طينه
ومن ينام باللمس
ومن يخاف الشمس
ومن يدور فى فلكها بحكم تكوينه
وفيهم النادر اللى بلا مواعيد غصون طارحه
ناعم .. تطبطب عليه يعطيك على استحياء
بلسم يداوى برقته لمسته الجارحة

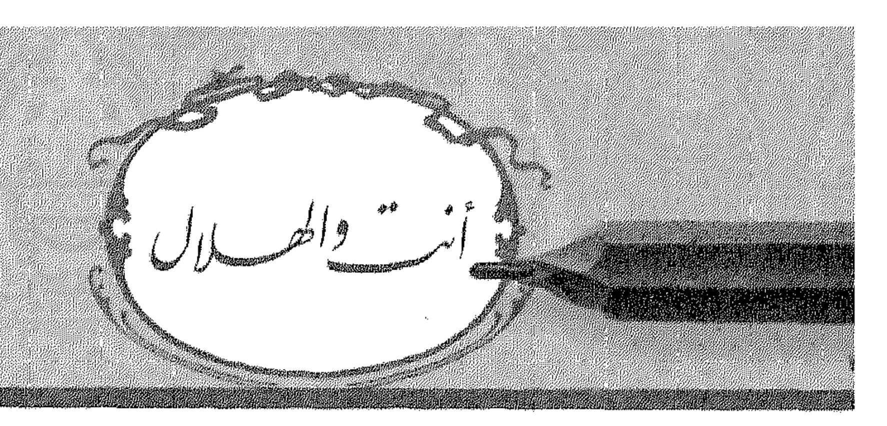
عودة

عـــــــود إلـيك ومـن لـى ســــــواكـــــــا
أعـــــــود يـبـلـل عـــــــمـــــــرى نـداكـــــــا
أعـــــــود إلـيك أجب من دعـــــــاكـــــــا
وهـبـنـى شـــــــهـــــــادة نـصـــــــر هـنـاكـــــــا

###

أعـــــــود وكـم تـهـت فـــــــوق الـدروب
أجـــــــرجـــــــر ذنـبـى وكـلـى عـــــــيـــــــون
فـــــــأنـت الأمـــــــان لـكـل الـقـلـوب
وأنت السلام يزيل الكروب أعود لتغفر كل الذنوب !!
أعود ..
لتغفر .. كل الذنوب

محمود أحمد المصلى
شربين - دقهلية



اشتراك الهلال

أرغب فى الاشتراك الشهرى بمجلة الهلال ، تلك المجلة العريقة التى يعتز بها كل قارىء فى الوطن العربى ، وقد حرصت منذ عام ١٩٧٦ باقتناء كل أعدادها .. وحرصا منى على وصولها بانتظام فقد قررت الاشتراك ابتداء من عدد يناير ٢٠٠٣ ولمدة عام كامل ، فما هى الوسيلة لضمان وصول الاشتراك وأيضا حصولى على المجلة .

عبدالكريم حسن الحليلي
السعودية – المنطقة الشرقية

الهلال : نعتز بهذه الثقة الغالية ، ويمكن ارسال حوالة بالاشتراك السنوى إلى قسم الاشتراكات بدار الهلال وبالتالى تصلكم الأعداد تباعا .

إذا أردت إهداء الهلال إلى صديق أو أضفته إلى مكتبتك فإنه يمكنك الحصول على خصم ١٠ ٪ من قيمة الاشتراك فى مجلة الهلال؛ بإرسال هذا الكوبون مرفقا به حواله بريديه غير حكوميه داخل (ج.م.ع.) أو بشيك مصرفى (باقى دول العالم) بقيمة الاشتراك لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل بخطاب مسجل لإدارة الاشتراكات .

الاسم : ....

العنوان : ....

مدة الاشتراك : .... التليفون ....

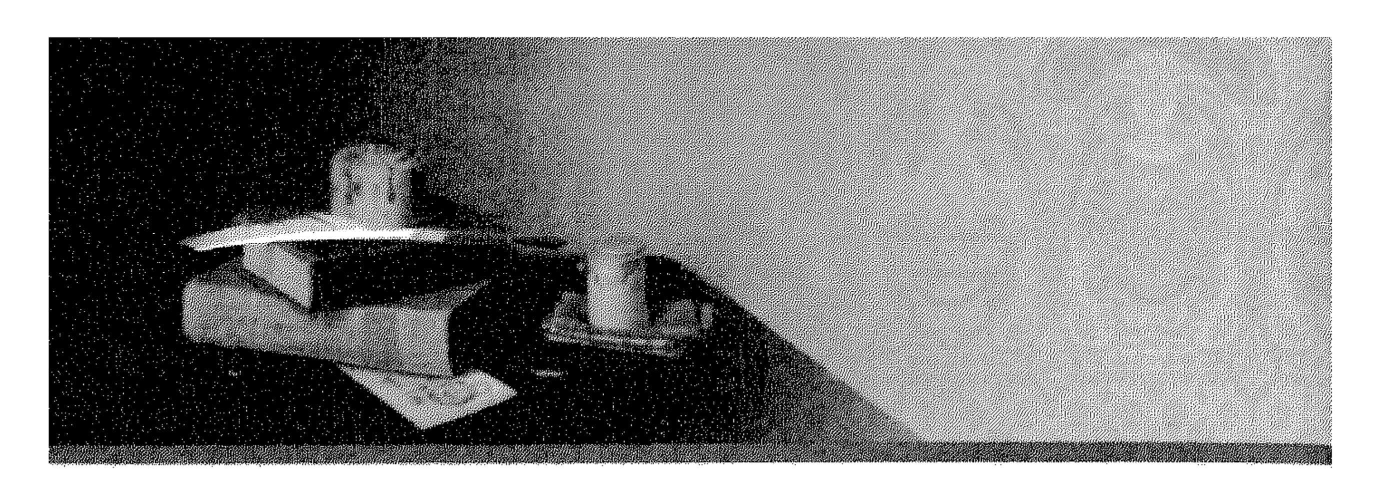
قيمة الاشتراك بعد خصم ١٠ ٪	داخل ج.م.ع جنيه	البلاد العربية دولار	أسيا- أوربا أفريقيا دولار	أمريكا الهند - كندا دولار	باقى دول العالم دولار
اشتراك سنوى	٤٣	٢٢	٣١	٣١	٤٠
اشتراك ٦ شهور	٢٢	١١	١٦	١٦	٢٠

بريد القراء

●● مروان محمود – منيا القمح – شرقية : لماذا توقف نشر مذكرات سعد زغلول ، وكم من الوقت يستغرق نشرها .

الهلال : لابد أن يستمر هذا المشروع، فزعيم مثل سعد كان له دور مهم فى تاريخ الحركة السياسية المصرية .

●● أحمد داود على – بنها : أتوقف طويلا أمام مقالات الدكتور محمد رجب البيومى ، خاصة مقاله الأخير عن الطفل الضائع . وهذه المشكلة الخطيرة .. وهل يعرف القراء أنه يوجد ٢ مليون طفل



يعيشون فى القاهرة بلا مأوى ؟!

●● إبراهيم العبابده : رفح - قرأت مقالا فى عدد ديسمبر بعنوان «الدين والسياسة فى الولايات المتحدة» للدكتورة منار الشويحى وتعجبت أنها تعتبر أن دور الولايات المتحدة الأمريكية هو رسالة دينية وأخلاقية .. واسأل الكاتبة وما رأيها فى التأييد المطلق لإسرائيل ، ومايحدث منها تجاه المعتقلين من الفلسطينيين فى سجونها بلا محاكمة وفى مقدمتهم مصطفى البرغوثى ، فضلا عن سياسات القتل وهدم البيوت والمساجد والكنائس .

وما رأى أمريكا فى معتقل جوانتانابو الذى يعيش فيه المتهمون ، أو المعتقلون بلا محاكمة حتى الآن

● طارق حسنى على - مصر الجديدة - نرحب بالأبواب الجديدة التى أضيفت فى الأعداد الأخيرة خاصة الباب الجديد الذى يتناول برامج التليفزيون والفضائيات ، كما نرحب بالكاتبة مرفت رجب ذات الخبرة الطويلة فى التليفزيون .

● إبراهيم المراكبى - المنصورة : أعجبتنى بشدة غلاف العدد الماضى وانبهرت جدا وأنا أرى منيرة المهدية بهذا الإخراج الجميل . فمزيدا من التفوق والتقدم للهلال .

● عاصم البرقوقى - الأسكندرية وصديق الهلال الدائم : لماذا لانجد الهلال عند الباعة فى الأسكندرية ، فلقد ذهبت للبحث عن الهلال الحبيب فى بداية نوفمبر ولم أجده ، أرجو أن تزاد الكمية المعروضة للبيع حتى تتمكن من الحصول على الأعداد .

● الهلال : طلبنا من إدارة التوزيع مراعاة هذا المطلب العزيز ونتمنى أن تكون المجلة بين أيدى قرائها بشكل دائم .

● على سليم - بورسعيد : وصلت رسالتك «هل أخطأت العنوان - اسمها وطنية .. وأقول لك يا أخى لماذا هذا التشاؤم ، مطلوب من كل مصرى أن يبدأ بنفسه .. يعمل ويجد ويكافح ويعطى لوطنه لكن لو أصبحنا نعيش بهذا المفهوم الذى تقصده ،فعلى الدنيا السلام !

عيد ميلاد نجيب

ولا حظنا أن الهلال في عدده الماضى لم يشر إلي وصول أوبينا العالمى الكبير نجيب محفوظ عامة الثانى والتسعيين، وما يعنينى هنا أن مجلة الهلال هى مجلة العرب الثقافة والرائدة فكيف تم هذه المناسبة المهمة دون تقديم التحية المحفوظ

ابراهيم مجاهد

الزيتون - القاهرة

الهلال . فى مسيرة الهلال منذ بداياتة نجيب ما ينشر منه أو من خلال الدراسات سواء يكتبها كبار الكتاب، أو الاستشهادات بأدب هذا القاضي العالمى

ولقد أصدرنا عودا خاصا عن نجيب محفوظ حيث عن أجزاء خاصة نشرت في اعداد متفرقة بالهلال ومن بينها جزء خاص عنه بعد حصوله علي نوبل ١٩٨٨

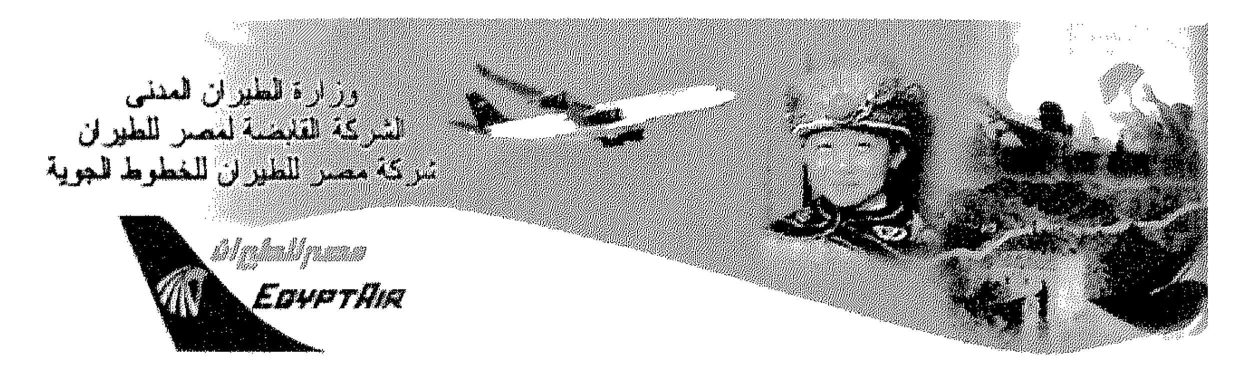
تحية للكاتب الكبير في عيد ميلاده ونتمنى أن يمتعه الله بالصحة ويمد فى عمره .

فارس بلا جواد



بقلم: صافي ناز كاظم

مزاح الجدية وجدية المزاح. قلت هذه الجملة بعد انتهائى من مشاهدة مسلسل «فارس بلا جواد» ، الذى قدمه الفنان محمد صبحى كتابة وتمثيلا، مع المخرج أحمد بدر الدين وكتيبة هائلة من أفذاذ الفنانين على رأسهم جميل راتب وسيمون وأيمن عزب، إن هذا العمل الفنى الذى استغرق إعداده العملى عامين ، ظل هاجسا يلاحق محمد صبحى طويلا، منذ قدم عرضه المسرحى البديع «ماما أمريكا» منذ سنوات. إن «فن المزاح» هو ذلك الفن الذى يشق طريقه فى كتلة الهموم ليتمكن من حملها وتقديمها من غير وطأة الآلام الخانقة. ولقد استطاع محمد صبحى فى مسلسله أن يجسد مدلولات «مقاومة الاحتلال» بزمن هو كل «الأزمنة» و«وحشية محتل لص» هو كل «القوى» الباغية ماضيا وحاضرا ومستقبلا. فشخصية «حافظ نجيب» فى هذا المسلسل لم تكن أكثر من إطار تم اقتباسه من شخص حقيقى كان يجيد التخفى والمراوغة ، ليعنى أن تلجأ «مقاومة الباطل» إلى الكياسة والفطنة والتخفى والراوغة ، حين تكون أسلحة العدو الماكر الشرير هى: الخداع والكذب والتستر وراء نبل الشعارات للوصول إلى الهيمنة المغتصبة للأوطان والحقوق والحريات، والاختباء وراء لافتات «محاربة الإرهاب» لممارسة أبشع أشكال الإرهاب الذى يسعى لقمع الكرامة الإنسانية بالإذلال وإشاعة اليأس والتخاذل، وتغيير المسميات ليصبح كل اسم نقيض دلالته الحقيقية، فيصير المجاهد إرهابيا، ويصبح الإرهابى رجل سلام. لم يكن من الممكن تقديم كل هذه المعانى فى مسلسل «فارس بلا جواد» إلا عبر ما يبدو مزاحا وفكاهة ولعبا وطرافة. لم يكن المسلسل مجرد نقل لصفحات من «تاريخ» عهد الاحتلال الإنجليزى لمصر، ولم يكن فى أى لحظة رصدا وتصويرا لشخصية ذاع صيتها فى مطلع القرن العشرين لمغامر اسمه «حافظ نجيب»، لكنه بكل ايحاءاته كان عينا على ما يجرى حولنا وأمامنا ونتابعه يوميا ولحظيا فى نشرات الأخبار المفجعة. ■



الصين

خط جديد ... و رحلات جديدة

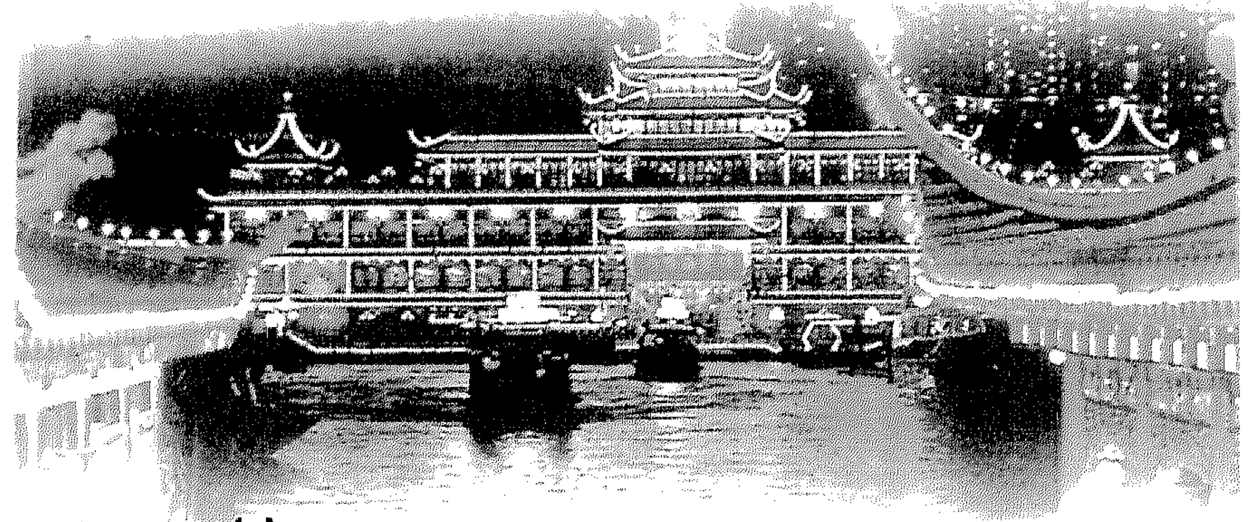
مع مصر للطيران

أعتباراً من ٢٨ يناير

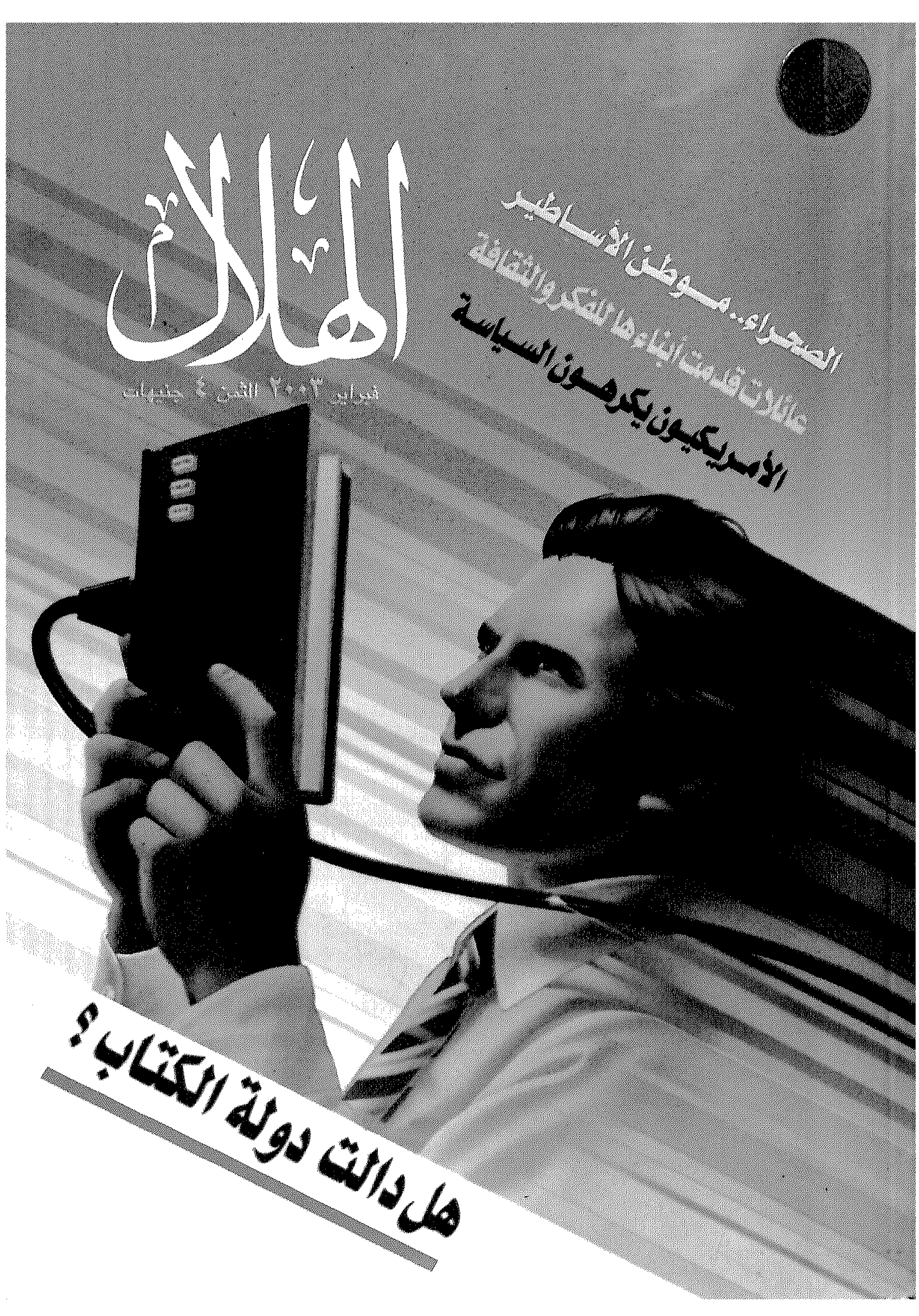
القاهرة / بكين / القاهرة

الثلاثاء و الجمعة

بأحدث طرازات الطائرات

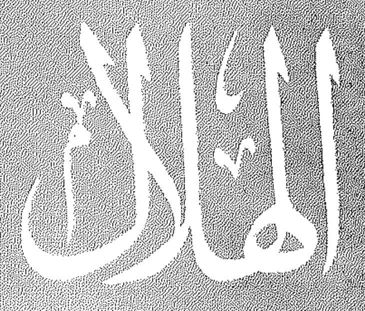


www.egypfair.com.eg


الهلال
فبراير ٢٠٠٣ الثمن ٤ جنيهات
الصحراء.. موطن الأساطير
عائلات قدمت أبناءها للفكر والثقافة
الأمريكيون يكرهون السياسة
هل دالت دولة الكتاب؟



لوحـــة :لاعبة القيثارة - للفنان: سانتير - مقتنيات متحف الجزيرة



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب. ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت.٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفنى

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفنى

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال- تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات



الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@yahoo.com

العام الحادي عشر بعد المائة
ذو الحجة ١٤٢٣ هـ - فبراير ٢٠٠٣م

عائلات ثقافية

الأبواب الثابتة



عزيزى القارئ

عالم الحرية يتهاوى

تهاوى حق الإنسان فى أن لا يقتحم أحد خصوصيته، وضاعت خصوصية الإنسان فى عالم مراقب، يحسب على المرء سكناته وحركاته، وأصبحت حياة المواطن الأمريكي اليوم كتابا مفتوحا يطل عليه من يشاء ويكشف تفاصيله من يريد.

وتحولت ظاهرة كشف الخصوصية، التى كانت فى الماضى مشكلة تقتصر على بعض المهووسين والمرضى التى تشغلهم خصوصية غيرهم، إلى ظاهرة باتت تهدد المجتمعات الحرة والليبرالية، رغم أن احترام الخصوصيةحق إنسانى عام، يرتبط بحياة المواطن العادى اليومية.

واحترام خصوصية المرء أصل الحقوق المدنية، وهى أحد المكونات التى لا تنفصل عن الحرية الشخصية، وجزء من حق الإنسان أن يعيش، كما أن الخصوصية قرينة حرية التعبير، فهما حقان متساويان ومتوافقان، وهى من أهم الركائز الأساسية للمجتمع الحر.

فأفقر إنسان يستطيع داخل كوخه المتهاوى الذى يدخله المطر والرياح، أن يفعل داخل كوخه ما يشاء ، وأن يتحدى السلطة كما يريد. ولا يستطيع رجال السلطة أن يتخطوا عتبة كوخه المتهالك.

وعاد من جديد التوازن بين استقلال الفرد وسلطة الدولة لكى يختل.

● وسقطت ادعاءات فاكوياما اليابانى الأصل والأمريكى الجنسية الذى يعمل فى وزارة الخارجية الأمريكية، عندما الف كتابه «نهاية التاريخ» والذى قرر بغرور وغطرسة بالغة، انتصار الحرية والديمقراطية وهى نهاية حلقات الصراع فى التاريخ.

ولكن سرعان ما تبين غياب الحرية فى إحدى قلاع الحرية، وتناسى اجهزة الدولة القمعية التى تعمل فى الظلام، والتى تحصى على كل فرد همساته وتحركاته. مستخدمة التقدم العلمى المذهل، وخاصة التقدم الالكترونى والرقمى، فى فرض السيطرة الكاملة على المواطنين وعدم الاكتراث بخصوصيتهم بحجة مقاومة الإرهاب.

ووصلت الحرية إلى ذروة مأزقها فى الولايات المتحدة، وأخذ المعلقون فى الصحف الأمريكية يتساءلون، لقد فقدنا الشعور بالأمن، مرة بسبب الإرهاب ومرة بسبب مقاومة الإرهاب!

وتحقق ما سبق وحذر منه الكاتب البريطانى هكسلى. بقوله : فى ظل التقدم العلمى المذهل، لن تستطيع قوة شعبية أن تقاوم أو تختلف مع السلطة التى تملك أدوات العلم الحديث.

وطاشت تنبؤات جورج أورويلز فى روايته ١٩٨٤، أن النظم الشمولية هى وحدها التى ستختفى فيها الحرية ، وتنتهك فيها الخصوصية، وانتهكت الخصوصية الفردية فى قلعة الليبرالية وما تمثله من خرق لحقوق الإنسان وحقوق الدول والجماعات.

● وأصبحت حياة الأفراد فى أمريكا ليس لها حصانه وأخذوا يقتحمون البيوت وغرف النوم، وأماكن خلع الملابس ولا يشعر بهم احد عن طريق الدوائر التليفزيونية المغلقة وعن طريق بطاقة الائتمان يظهر ما الذى اشتريته ومتى. وعن طريق الكاميرات يمكن التعرف على أرقام لوحات السيارات، ووضعت الشرطة الأمريكية نظاما للتنصت على الهواتف، وعلى الانترنت والفاكس ويحدد الهاتف المحمول مكان صاحبه، ويتضمن هذا النظام - كما تنشر الصحف الأمريكية - ليس فقط الأسماء والعناوين وأرقام تليفونات الاشخاص المتابعين، ومن يتعاملون معهم، بل وعناوين البريد الالكترونى ، وأرقام البطاقات الائتمانية وكلمات المرور فى الانترنت.

ويتبع نظام التعرف على المتابعين الكترونيا من خلال بصمة الإصبع أو العين، ومسح الكف الكترونيا دون ان يدرى المتابع وأصبح التليفون المحمول جهاز تتبع جغرافيا .

ويقول دافيد يورك تحت عنوان التليفزيون الجاسوس انه يمكن عمل ملف «حالة نفسية» لكل مشاهد من خلال شركات آى . تى فى. فسيقوم التليفزيون الرقمى بمراقبة رد فعل المشاهد لما يقدمه من مواد وبرامج.

ومن ناحية اخرى يسمح لصاحب العمل بوضع العاملين تحت الرقابة الدائمة خلال عيون الكترونية لا ترى. بل ويحصلون على عينات بول منهم، للتأكد من عدم تعاطيهم المخدرات!

وتفاقمت الظاهرة بعد ١١ سبتمبر رغم ان المواطنين فى الولايات المتحدة، من أكثر شعوب العالم حرصا عى الخصوصية، فمثلا فى بعض الولايات مثل نيفادا نجد نصف اصحاب التليفونات لا يسجلون ارقامهم فى الدليل، وعادة لا تجد رقم الهاتف على البطاقة الشخصية.

وها هى تنتهك الخصوصية بالكامل فى أمريكا ويعود الصراع بين المنادين بالحرية وخصومها.

● وتتنصت وكالة الأمن القومى الأمريكى على الاتصالات الحديثة فى العالم كله، والتى تجتاز الحدود السياسية ، وتصل الى التنصت على اى مواطن فى أى مكان، وتعتمد على أجهزة المخابرات الأخرى، وتقوم بالتنصت على الشخصيات الأمريكية نيابة عن وكالة الأمن القومى لتتخلص من أية مساءلة داخل الولايات المتحدة.

وتعتمد هذه الوكالة على التكنولوجيا رفيعة المستوى فى تحليل البيانات ومراقبة وسائل الاتصال، كما انها تقوم بتحليل البيانات ومراقبة وسائل الاتصال، كما تقوم بتحليل اللغات والبحوث الانثروبولوجية وتقوم بحل اى شفرة مهما تعقدت.

ويبدأ احد معالم الحرية يتهاوى : ركيزة وراء أخرى، اختراق الخصوصية من اجل «النظام والقانون»، والاعتقال دون محاكم، واشاعة مناخ العنصرية . والتعالى على الشعوب الأخرى.

ويستمر الصراع بين الواقع والأفكار ، بين الطبائع والشرائع.■

المحـــرر



هل دالت دولة الكتاب ؟!

بقلم
مصطفى نبيل

حان الوقت لتناول قضية الكتاب، القضية التى ترتبط إرتباطا وثيقا بالحاضر والمستقبل، والمحور الرئيسى فى الدورة الخامسة والثلاثين لمعرض القاهرة الدولى للكتاب، سواء تأليفا أو قراءة أو ترجمة أو تسويقا.

هذا بعد أن أخذت مكانته تتراجع، وانزوى فى مكان قصى، وقلت قراءته وتوزيعه.. فهل قضى على عالم الكتب بالزوال ؟!

إن الفارق الأهم بين الدول المتقدمة وتلك المتخلفة، هو الكتابة والقراءة. ففى مصر يكاد يكون من النادر رؤية راكب يقرأ كتابا فى مترو الانفاق أو خلال الانتظار فى عيادة طبيب أو فى محطة السكك الحديدية.

ويكاد يكون من النادر أيضا وجود من يمتلك مكتبة فى بيته، مع أن المعرفة قوة، يمتلكها المرء إذا عرف ذاته، ويزداد قوة إن أدرك ما يواجهه من تحديات، وهو الطريق من أجل الدفاع الحقيقى عن الثقافة الذى يكون بالتفاعل والنقد، وبالتخلص من الانغلاق والعزلة..

وفى الوقت الذى يظهر فيه التحدى السافر للكتاب الورقى، ويتدفق سيل المعلومات من خلال الكمبيوتر والأنترنت . يتناقص القراء فى البلاد العربية ويزيدون فى الدول الغربية.

وفى الوقت الذى يزيد فيه عدد السكان، ويزيد فيه الطلبة فى المدارس والجامعات. يتناقص توزيع الكتب.

وحتى الأدوات التى استحدثت مؤخرا كالكمبيوتر والانترنت والكتاب الالكترونى هى فى الواقع أدوات مساعدة للقراءة وتقوم عليها..

وللقراءة أعداء وخصوم ذوى بأس شديد، يسعون الى الاكتفاء بالمعلومة بديلا عن الفكرة، يتسامحون مع المعلومات ويرون فى الأفكار اخطارا محدقة، ويأملون أن تحل المعلومات يوما محل الأفكار ، ويرى البعض كما صرح يوما الخديو عباس، أن حكم شعب جاهل أيسر من حكم شعب متعلم، وردد نفس المعنى أحد المحافظين فى إحدى محافظات الصعيد..!

فمازالت القراءة عملية مركبة يتشابك فيها الاستبداد مع الفقر، لذا ليس غريبا أن تتوالى الملخصات . ويعقبها ملخصات



للملخصات، حتى يستطيع القارىء أن يقرأ في خمسين سطرا على الكمبيوتر. ما كان يقرؤة في ثلاثمائة صفحة من صفحات الكتاب.

وساهم صخب المدن الحديثة.. وأبعدت. النوادى الرياضية والاجتماعية القراء عن الكتاب، كما استغرقهم التليفزيون، ولم يعد هناك وقت للتأمل، ولا أن يقود الفضول للقراءة إلى عوالم ساحرة ومن المؤكد أن أحد أبعاد أزمة نقص القراءة فى أحد جوانبها غياب الكتاب الجيد، فمعظم الكتب التى تصدر هذه الأيام، أما اجترار لكلام سابق، أو عبارة عن تجميع مقالات متفرقة، أو محاضرات سبق القاؤها، والقليل النادر هو الذى عكف عليه صاحبه يجمع مادته، ولديه رسالة يسعى إلى تقديمها للقارىء، ومن ظواهر الخواء الثقافى أن البعض يكتبون المقالات فى الصحف، ثم يصدرونها فى كتب ، ولا يقرأ لهم أحد، ولا يوجد نقد يلاحقهم، ولا معايير تردعهم. ويستمرون فى تسويد الصفحات إما استغلالا لنفوذهم أو فلوسهم!

لذا لا تعجب كثيرا عندما ترى القارىء يحجم عن قراءة بعض الكتب أو المجلات المتخصصة، لأنه فقد الثقة بعد سيل الكتب التى لانفع من ورائها مثل الوجبات السريعة وبعد امتلاء الساحة بالصخب والاصوات العالية!

غياب الكتب

والمؤسف حقا أنه حتى إذا أحسن إنتاج الكتب، وتخلينا عن عشوائية النشر، فلا نحسن فن تسويق الكتاب، وغياب مؤسسات قادرة على توزيع الكتب على أسس علمية، وبمبادرات وأساليب مبتكرة، مما أدى إلى اختفاء الكتاب المصرى من معظم الأسواق العربية، اما بسبب القيود التى تفرضها الحكومات على تنقل الكتاب، وأما بسبب إرتفاع أسعار نقله، وغياب الخيال الذى يبحث عنه كل من يتحدث اللغة العربية، وأن يصله الكتاب فى أقصى الأرض بسهولة ويسر.

وغنى عن القول .. أن الكتاب هو أساس الثقافة، وهو المحرك للارتقاء على المستوى الشخصى، والمستوى العام، ويزيد معرفة القارىء بالعصر الذى يعيش فيه، وهو خزانة الذاكرة الوفية، والحافظ للهوية.. وقدرة المواطن على القراءة والكتابة هى ضمان تحقيق النهضة كما أن القراءة هى الأداة من أجل التعليم الذاتى.

ويلاحظ أنه مازالت كل من العراق والسودان والمغرب من أكثر البلدان العربية قراءة للكتب مقارنة بعدد السكان فى كل منها. وبالتالى فإن ظاهرة نقص القراءة تدعو إلى العمل الجاد لمعالجتها، فهى التى ستحرم كل من يتابع أو يسعى إلى تطور عمله من هذه الإمكانية. فالمرء الذى يعيش على فنه أو مهنته يحتاج دائما إلى تجديد معارفه. ويستفيد من التغيرات التى وقعت فى مهنته كما أن غياب القراءة معناه الحرمان من التعرف على العصر الذى نعيش فيه.

إذن.. فأزمة القراءة، وقلة توزيع الكتب لها أسباب عديدة، ويبقى أن هناك كتبا تصدر وتلقى رواجا كبيرا، وهى مثل الدواء يبحث عنها القارىء الذى يطلبها حتى يعثر عليها و.. «تسمع من كان به صمم» وهناك كتب تطبع اكثر من طبعة، وكتب تنفد بعد وقت قليل من طرحها فى السوق، وعلى سبيل المثال كتاب «شخصية مصر» للدكتور جمال حمدان، وكتاب «النيل» للدكتور رشدى سعيد، وكتاب «فى الطريق إلى ثقافتنا» للأستاذ محمود شاكر، وكتاب «ماذا حدث للمصريين» للدكتور جلال امين، وكتاب «التاريخ الذى احمله على ظهرى» للاستاذ سيد عويس. و«حواراتى مع السادات» للاستاذ احمد بهاء الدين و« فاروق: بداية ونهاية» للاستاذ محمد عودة و«هجرة اليهود السوفييت» للدكتور عبدالوهاب المسيرى وغيرها من الكتب التى تمكنت من تخطى كل عقبات التوزيع ونقص الاعلان .

كما تروج الكتب التى تلقى الضوء على حدث معاصر، وعقب هزيمة ١٩٦٧ راجت كتب التاريخ الحديث وكتب تعالج الشخصية المصريةهذا غير الروايات التى تنفد ساعة صدورها.

تقول الأرقام

لا نجد ما هو أكثر دلالة من الأرقام. فهى كاشفة وتفصح عن الكثير من ابعاد أزمة الكتاب.

والمدعاة للتساؤل، أن معرض الكتاب لم يعلن يوما أية أرقام حول توزيع الكتب ، ولا حتى خلال انعقاده، ولا اى فرع من فروع المعرفة أكثر توزيعا، رغم أن ذلك معمول به فى كل معارض الكتب.

وضرورة ذلك لمعرفة أسباب غياب القارىء، وأسباب قلة القراءة وطرق علاجها.

أما الأرقام التى أعلنتها دار الكتب فتقول إن المطبوع من الكتب يتناقص. فلم يصدر أكثر من اثنى عشر الفا ومائة وستة وتسعين كتابا خلال عام ٢٠٠٢، وهذا الرقم لسكان يبلغ تعدادهم ٦٨ مليون نسمة فتكون النسبةبمعدل وكتاب واحد لكل الف مواطن، وهى نسبة جد ضئيلة، وهذه الأرقام تمثل ٣٧٪ من إنتاج الكتب فى البلدان العربية.

ويقل هذا الرقم عن العام السابق بمقدار الفين وثلاثمائة وتسعة وسبعون كتابا.

ولا تظهر هذه الأرقام نوعيات الكتب، وما يصدر لأول مرة، وما يعاد طبعه، كما لا تكشف عن عدد الكتب المدرسية او الجامعية!!

وأرقام ما يصدر من كتب كانت تعلنها اليونسكو او مكتبة الكونجرس، وتوقفت اليونسكو عن اعلان ارقام الكتب بعد أن أكدت ندرة الكتب العلمية، وزيادة كتب الانسانيات اى الموضوعات الاجتماعية والأدب.

واستمرت ظاهرة تراجع عدد الكتب رغم تزايد السكان، وزيادة الكتب التى تتناول الماضى عن الكتب التى تتناول الحاضر والمستقبل، وابرزت احصائية دار الكتب الاخيرة والمستمدة من ارقام

الايداع، جانبا من أزمة النشر وأزمة القراءة، فهى ترصد انخفاض نشر الكتب العلمية وزيادة الكتب التراثية، وجاءت نسبة العلوم الاجتماعية فى صدارة القائمة، وبلغ عددها ٣٧٣٠ كتابا اى ٣٠٪ من مجموع ما نشر، وهو يقل عن العام السابق بمقدار ١٥١١ كتابا، وجاءت الكتب الدينية فى المرتبة الثانية وصدر منها ٣٢٣٥ كتابا وهى تمثل ٢٦٪ من اجمالى الكتب وتزيد عن العام السابق بمقدار ٢٤٥ كتابا، ومن هذه الكتب ٢٥٦٧ كتابا فى العلوم الإسلامية و ٦٦٦ كتابا فى العلوم المسيحية.

وفى مجال الأدب والنقد بلغ عدد ما صدر من الاعمال الأدبية، شعر ورواية ومسرح ودراسات لغوية وأدبية ٢٥٥٧ كتابا تمثل ٢١٪ من مجموع الكتب الصادرة عام ٢٠٠٢ ، ينقص ٤٧١ كتابا عن العام السابق! وصدر من كتب الشعر ٥٧١ ديوانا ودراسة، بينما لا تتجاوز القصص والروايات ٢٩٧ كتابا، و ٤٩ مسرحية فقط.

أما الكتب العصرية او العلمية فقد صدر منها ١٦٦٥ كتابا بنسبة ١٤٪ من مجموع الكتب وتقل ٥٨١ كتابا عن العام السابق، ومعظم هذه الكتب كتب دراسية.

وصدر من كتب المعارف العامة ٥٨١كتابا بنسبة ٥٪ وينقص ٨٣ كتابا عن العام السابق وأخطر ما فى هذه الإحصائية هو زيادة السكان وتناقص القراءة.

ورغم أن هذه الأرقام لا تفصح عن أرقام المطبوع ولا عن أرقام التوزيع، ولا تظهر أكثر الموضوعات رواجا لدى القراء.

ويصل البعض فى التعبير عن أزمة الكتاب الى القول أن مجموع ما تم ترجمته فى اللغات الاجنبية الى اللغة العربية من أيام المأمون فى العصر العباسى وحتى اليوم، لا يعادل ما تترجمه دولة أوربية مثل اسبانيا خلال عام واحد، وهو قول مردود. فمن يملك ارقام الكتب التى ترجمت منذ عصر المأمون حتى اليوم ، الا انه فى الوقت الذى تترجم فيه الكتب العلمية فى كل عواصم العالم فور صدورها تتعدد عندنا المؤسسات التى تتولى الترجمة،ويغيب التنسيق بين هذه المؤسسات وتتسم بقدر كبير من العشوائية ويتكرر ترجمة الكتاب فى اكثر من مؤسسة ولأكثر من مترجم وتسقط كتب هامة كثيرة ولا يتم ترجمتها وتعتمد كل مؤسسة على الأخرى ولا يفوتنى ان انوه بالمشروع القومى للترجمة فى المجلس الأعلى للثقافة والذى يشرف عليه د. جابر عصفور والكتب المهمة التى اصدرها حتى اليوم، وهى تسد نقصا فادحا، ولكن عليها ان تقوم بدور المنسق بين دور النشر التى تصدر الكتب المترجمة.

وقد ظهرت عقبة جديدة، وتتمثل فى حقوق الملكية الفكرية، وتتصور دور

النشر الكبرى، ان دور النشر العربية توزع بالملايين فتبالغ فى مطالبها وتسقط الدور الثقافى لدور النشر العربية.

الأمية !

ولا يجوز فصل أزمة الكتاب عن مجمل الحالة الثقافية.

فثلث العرب لا يفكون الخط، ولا يعرفون القراءة والكتابة رغم اننا نعيش فى ظل ثورة المعلومات. وهى ظاهرة تنتقص بالضرورة من إنسانية الانسان.

يقول رئيس المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم المنجى ابو سنينه.

فى الوطن العربى ما بين ٦٠ الى ٧٠ مليون امى لا يعرفون القراءة والكتابة. وثلثاهما من النساء».

فلا يمكن ونحن نتناول أزمة الكتاب ونقص القراء أن نتجاهل، ما تواجهه البلاد العربية من تحدى الامية. وقد صمدت الأمية بعناد امام محاولات القضاء عليها. وكان القضاءعلى الأمية هو الهدف المعلن خلال نصف القرن الاخير . وكلما اقتربنا من تحقيق هذا الهدف يعود ويبتعد من جديد.. وأثبتت البرامج الحكومية فشلها الكامل ولم نتصور ان هذه «العاهة» ستصحبنا الى القرن الحادى والعشرين.

فمازال معدل الإلمام بالقراءة والكتابة فى مصر عام ١٩٩٨ لا يزيد عن ٥٧.٧ فى المائة وتزداد فى الريف وبين النساء، وبرزت تساؤلات حقيقيةحول فاعلية البرامج الخاصة بمحو الأمية.

فمعدلات الأمية اعلى كثيرا مما هى عليه فى بلدان افقر كثيرا من البلدان العربية. ولا تزال الأمية فى العالم العربى أعلى من المتوسط الدولى حتى فى البلدان النامية.

ورغم حاجتنا الملحة لمحو الأمية لكى يتواصل الأهالى مع العصر والعالم، فنحن فى حاجة اليها حتى نقضى على تلك الفجوةالقائمة بين المثقف والجماهير.

وحان الوقت لقيام حركة اجتماعية اهلية نشيطة تشارك فيما يجرى من حولنا، ويحول دون ذلك استمرار ارتفاع نسبة الأمية ولا نتجاهل ان الثروة الحقيقية لاية أمة هم ناسها، وتحرير المواطنين من الحرمان، ولايوجد حرمان اكثر من الحرمان من القراءة والكتابة وزيادة قدرتهم على الاختيار هى الخطوة الأولى فى هذا الطريق.

ويسبق الحديث عن الكمبيوتر والانترنت والكتاب الالكترونى ضرورة قيام بنية أساسية ثقافية على القراءة فهناك نوعان من المعرفة، احدهما عن طريق الانترنت والاخرى عن طريق الكتاب.

وثبت بالتجربة، ان لا أحد يقرأ على الكمبيوتر أية اعمال ابداعية من شعر ورواية أو حتى الفلسفة ، كما تأكد أيضا أنه مع انتشار الوسائط الحديثة ازداد توزيع الكتب فى الدول المتقدمة. تصل بنا هذه العوامل الى تلمس ابعاد ازمة

الكتاب، والتعرف على اسباب غياب القارئ.

المربع الذهبي

ولم يبق سوى ذكر بعض الملاحظات على أمل تأملها لارتباطها بظاهرة نقص القراءة.

يرتكز «المربع الذهبى» على أربعة أركان: التعليم. وهو الركن الأول الذى يلتحق به الطفل صغيرا، ويتخرج منه شابا يافعا، والذى يشكل خلال فترة تعليمه وجدانه وقيمه وعاداته . ويأتى بعده الركن الثانى وهو الإعلام واجهزة الإتصال من تليفزيون واذاعةوصحف. والتى تمثل اتصال المتلقى بما يجرى فى بلده و فى العالم من حوله، ثم تأتى الثقافة التى تغذى معارفه وذوقه.. أما الركن الرابع الذى لا يمكن تجاهله، فهو ما يتلقاه المسلم فى الجامع، وما يتلقاه المسيحى فى الكنيسة.

ويمد الكتاب الاركان الأربعة بالمعرفة ، كما تستمد ظاهرة القراءة حيويتها من هذا المربع الذهبى.

ونقطة البداية هى إعادة النظر فى مضمون ما يقدمه التعليم والإعلام، فنظام التعليم الحالى يؤدى إلى كراهية الكتاب، وما أسرع ما يتخلص منه التلميذ بعد نهاية السنة الدراسية، فلا يقرأ الطالب فى مدارسنا سوى صفحات قليلة، من كتاب المطالعة فى حين يقرأ زميله فى العالم المتقدم عشرات الكتب، فكيف يتذوق الصغار حلاوة المطالعة، وهو لم يتعود سوى على قراءة الكتاب الذى سيمتحن فيه. وهو كتاب اذا قورن بزميله فى المدارس الأوربية وجدته خاليا من الذوق وبعيدا عن فن الاخراج وكل ما يجذب القارئ من عناصر جمالية.

وعلينا بعد ذلك الا نعجب عندما نرى القارئ يحجم عن قراءةالكتب العلمية او المجلات المتخصصة فمعلوماتهم التى تلقوها فى التعليم لا تمكنهم من ذلك، وليس غريبا ان تروج بعد ذلك كتب الخرافة والجنس بدلا من الكتب النافعة.

وبداية التغيير من التعليم الأساسى على ان يكون شاملا وعالى الجودة وحتى تختفى اسباب التسرب الذى يدل على عجز نظام التعليم على ان يكون مقنعا وهناك الكثير الذى يمكن عمله لاصلاح التعليم، وعودة الدور القديم لمكتبة المدرسة.

وإذا تناولنا الإعلام الذى اصبح التليفزيون اهم ادواته، واصبح له السبق على سواه من أدوات الاتصال، وتراجعت فى المنافسة امامه كل من الصحافة والإذاعة والكتب والمجلات المصورة، وأصبح شريكا لكل من البيت والمدرسةفى غرس القيم وتحديد انماط السلوك للاجيال الصاعدة.

وغدا هذا الجهاز السحرى يمسك بين يديه بعقول الناس وقلوبهم، وبفكر المشاهد وعواطفه. ولم يعد امام المتلقى سوى الاستسلام «فالعين ترى والاذن تسمع» ولا توجد اى فرصة للمراجعة، او المناقشة..

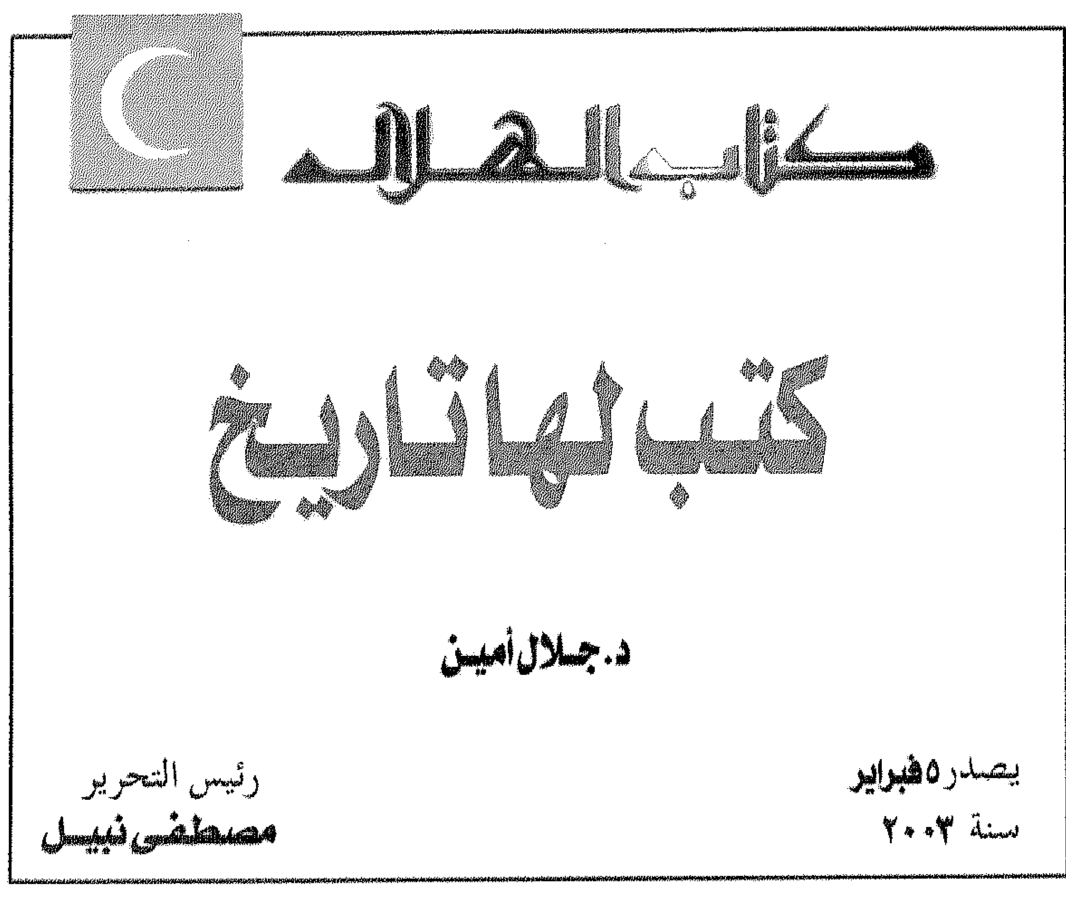
ويكفى ان تسمع ما يدور على ألسنة الناس وترى أزياءهم . فتلمس تأثير برامج

ومسلسلات بعينها على سلوكهم ونمط حياتهم.

والمثير للاستغراب لماذا لا يوظف التليفزيون ذلك التأثير لصالح الارتقاء بمعارف وسلوك وذوق المشاهدين؟ ولماذا لا يساهم فى بناء نظام للقيم عن طريق تقديم نماذج مشرفة؟ وبدلا من أن يشجع التليفزيون القراءه، يعلى من فن التسلية واضاعة الوقت، وحتى الاعلان عن الكتاب مرة واحدة لبضع دقائق فى التليفزيون يعادل بيع ثلاثة آلاف نسخة من كتاب متوسط الحجم.

ويختلف تأثير التليفزيون من مجتمع إلى آخر، تزداد وظيفته وأهميته فى مجتمع تنتشر فيه الأمية، اما فى البلاد المتقدمة فيحكم المشاهدون التليفزيون ولا يحكمهم، فلكل عمله وهوايته يحدد ساعات جلوسه امام الشاشة الصغيرة، لذا بقيت عادة القراءة لديهم مزدهرة، ويتعايش القديم مع الجديد وتحتفى برامج التليفزيون بالكتب والكتاب ، وتفرد مكانا بارزا فى برامجها. وهى برامج ليست متجهمة ولكنها شيقة ومفيدة.

فلنعيد النظر فيما يقدمه التعليم والثقافة والاعلام. ولنتغلب على الامية حتى نتواصل مع العصر، ويعود للكتاب دولته وللكلمة قدسيتها، ويرجع للقراءة سلطانها وقوتها الكامنة. ■

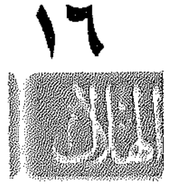


مستقبل الكتب في القرن الجديد

مكائن الكتب الرقمية

بقلم
د. أحمد محمد صالح

إن الكلمة قوة، يدركها الطغاة أكثر من المستضعفين، ويدركون أيضا أن الشعب الأمي يكون سهل الانقياد، فكانت عمليات حرق الكتب، وحظرها والرقابة عليها، وكانت الرقابة علي الكتب ومازالت تابعة للحكم . وفى القرن الخامس قبل الميلاد، أحرقت كتب بروتاغودراس فى أثينا، وفى القرن الثالث قبل الميلاد، أمر الإمبراطور الصينى شيهوانغ تى بإحراق جميع الكتب فى البلاد، وكان يشرف على عمليات الإعدام هذه، ويتابعها بنفسه، وفى منتصف القرن التاسع عشر، أسس كومستوك جمعية لملاحقة الكتب وناشريها التى تشجع على الرذيلة بمقياسه ومفهومه، وقد نجح فى دفع الحكومة إلى اعتقال العشرات من المؤلفين والمثقفين ، وقد انتحر ١٥ منهم على الأقل فى السجون ، وأتلفت مئات الأطنان من الكتب، وكان من أقوال كومستوك أن العالم سيكون أفضل لو لم تكن ثمة كتب وقراءة .



ونذكر قتل الحلاج وحرق كتبه ، ومؤلفات ابن رشد التى أحرقت، وإحراق أبى حيان التوحيدى لكتبه . هذا غير مئات الآلاف من الكتب التى أحرقها المغول . أو ألقوها فى نهر دجلة عندما احتلوا بغداد، ومئات الآلاف من الكتب والقطع الأثرية التى سرقها الصليبيون ثم الأوروبيون المستعمرون من الدول العربية والإسلامية . وتنوعت أساليب التخلص من كتب التراث العربى فمنها : الحرق، الدفن، الغسل بالماء والإغراق، التقطيع والتخريق ! لكن السؤال ماذا عن الكتب الرقمية؟ هل يستطيع الطغاة الآن أن يحرقوا الكتب الرقمية على الإنترنت!؟ هل يستطيعوا فرض الرقابة عليها، وحظر نشرها!؟ أزعم أن الإجابة بالنفى! لكن ما هو الكتاب الرقمى؟

ماهية الكتاب الرقمى

مع الثورة المعلوماتية، وحوسبة المعرفة، ظهرت أشكال جديدة من الكتب مختلفة عن الشكل التقليدى المعروف ، الورقى المطبوع، وأطلق على هذا النوع الجديد تسمية الكتب الإلكترونية Elcc-tronic Books أو E-Books أو الكتاب الرقمى، Digital Book، والكتاب المحوسب، Computerized Book وغيرها ، وأصبحت الكتب بشكلها الجديد الإلكترونى المحوسب، خصوصا، مع ظهور تقنية الوسائط، قادرة على استيعاب جميع أنواع المعرفة. والكتاب الرقمى يملك بعض السمات العامة التى يتميز بها، فهو كتاب غير ورقى Paper-less Book ، لا يكتب، ولا يطبع، ولا يقرأ بالوسائل والطرق التقليدية، وإنما بوسائل خاصة تعتمد على تكنولوجيات للكمبيوتر، وقد يكون له أصل ورقى (أغلب الكتب الالكترونية حاليا)، أو لا يكون، مثل موسوعة انكارتا، وغيرها من المؤلفات الرقمية المنتشرة الآن على الإنترنت. وهو قابل للنشر، والنقل والتحميل Downloading عبر الشبكات .

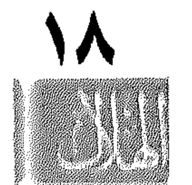
أنواع الكتب الرقمية

وتتوفر الكتب الرقمية الإلكترونية المتاحة حاليا فى أشكال متعددة، تبعا لنوع، أو طبيعة المنصة Platform التى تحملها. فهناك كتب رقمية الكترونية على أقراص ليزر مدمجة CD ROM وهى الأكثر انتشارا، وتداولا، ويحتاج هذا النوع من الكتب «لقراء تها» بالطبع، إلى جهاز حاسوب شخصى أو ما يعادله. وهى تتمتع بسعة تخزين كبيرة ، وبالتالى الإمكانية الواسعة، فى استيعاب تقنية الوسائط المتعددة ضمن مواد الكتاب الذى تحمله . لذلك لاقت استخداما واسعا فى المصاحف، والموسوعات الالكترونية، والمعاجم، والمجلدات، وغيرها من الكتب التى تتطلب سعات تخزين كبيرة ، وتعتمد على تقنية الوسائط السمعية البصرية ، على وجه الخصوص. النوع الثانى كتب رقمية إلكترونية مخزنة على شرائح رقمية على شكل ذاكرة قراءة فقط ROM، و«تقرأ» بواسطة أجهزة كمبيوتر خاصة، وتطلق على هذا النوع من الكتب تسمية «الكتب الإلكترونية المكرسة Dcdicatcd E-Books مثل القواميس الناطقة والمترجمة، منها، على سبيل المثال، قاموس فرانكلين الناطق إنكليزى - عربى، القادر على تحميل

وعرض شرائح ذاكرة رقمية لكتب أخرى مثل الموسوعة البريطانية وغيرها . تعتبر مثل هذه المنصات مع شرائحها مناسبة ككتب جيب إلكترنية ، Pocket E-Books، وخاصة للأعمال الأدبية، إلا أنها تبقى محدودة بما ينتج من شرائح تصنع وفق معايير معينة، قد لا تصلح للاستخدام على منصات من إنتاج شركات أخرى (أجهزة قراءة أخرى Reading Devices)، وتعتبر من حيث الكلفة مرتفعة نظرا لمحدودية تطبيقاتها ، الشكل الثالث، الكتب الالكترونية المخزنة على شبكة الانترنت والقابلة للتحميل مجانا، أو مدفوعة الثمن للمشتركين فقط، وهنك العديد من المواقع التى تعرض آلاف الكتب ، الأدبية على وجه الخصوص ، دون مقابل سوى تحقيق هدف تأدية رسالة اجتماعية أو أدبية إضافة إلى ذلك، هناك العديد من المواقع التى تعرض كتبا علمية متخصصة ، وخاصة ، تلك المسماة كتب تعليمية ، أيضا دون مقابل ، ويمكن تحميلها إلى الكمبيوتر الشخصى عن طريق شبكة الانترنت ، التى تشكل موردا هائلا ، ومتجددا باستمرار لمختلف أنواع المعارف والعلوم . فاستخدام شبكة الانترنت لتخزين ونشر وتحميل الكتب قد جعل المعرفة فى متناول الجميع ، كل حسب اهتمامه ، واختصاصه ، وقد أحدثت الانترنت ثورة فى مجال تبادل المعارف والعلوم ، وأدت إلى تسهيل ممارسة أشكال جديدة من التعلم ، مثل التعليم عن بعد وغيرها، ويجب أن نذكر بعض سلبيات تحميل الكتب عبر شبكة الانترنت ، مثل سرعة النقل المنخفضة مما يجعلها غير ملائمة ، لتحميل الكتب ذات السعات الكبيرة ، وخاصة المزودة بتقنية الوسائط المتعددة ، إضافة إلى احتمال التلوث ، والإصابة بالفيروسات المعلوماتية، أما فيما يخص الناشرين والمؤلفين فإنه لا تتوفر بعد ، وبشكل كامل ضمانة حماية الملكية الفكرية،من حيث التشريعات ، أو نشاط القرصنة المعلوماتية .

مميزات الكتب الرقمية

والكتب الإلكترونية بالمقارنة مع الكتب الورقية ، تتمتع بمجموعة من الميزات منها القدرة الهائلة على تخزين كميات كبيرة من الصفحات ، والمعلومات ، صغيرة الحجم ، والوزن ، لذلك فهى سهلة الحمل ، والنقل، ولا تحتاج المكتبات الإلكترونية إلى منشآت واسعة ومكلفة ، رخيصة الثمن نسبيا ، وخاصة ، تلك المحمولة على أقراص ليزر مدمجة ، وتملك قابلية وسهولة الإضافة ، والتعديل ، والنسخ، والاقتباس، مما يختصر ، وبشكل كبير، الفاصل الزمنى بين إصدار وآخر أحدث ، مع المرونة العالية ، والقابلية للتكيف، والتفاعلية وفق متطلبات القارئ، وإمكانية تنفيذ الإجراءات والارتباطات التشعبية Hyp-er Links الداخلية (ضمن حدود الكتاب نفسه)، أو الخارجية (مع كتب أخرى مرفقة، أو مع مصادر المعلومات ، وقواعد البيانات على الشبكة المحلية، أو الانترنت ذات الصلة بالمواضيع المدروسة. مما يتيح التجول والإبحار بسهولة وسرعة بين هذه الموارد، مع قابلية وسهولة الترجمة إلى لغات أخرى (الجزء من الكتاب ، أو كله)، فى حال



توفر برامج الترجمة المناسبة. وإمكانية إضافة ميزة البحث ، التى تتيح إيجاد المعلومات المطلوبة بسرعة وسهولة . وقابلية الحماية بالتشفير، بحيث لا يتاح الاطلاع على محتويات الكتاب إلا للمخولين بذلك. علاوة على إمكانية النشر ، والعرض، والتحميل عبر الشبكات الحاسوبية ، وخاصة الانترنت ، مما يتيح نقلها ووصولها إلى القارئ بسرعة . وبالتالى متابعة مستجدات العلم والمعرفة في مجال الزمن الحقيقى تقريبا ، وإمكانية الجمع بين النص ، والصوت والصورة، والحركة وعروض الفيديو ضمن الكتاب الواحد . وتعددية الوظائف والمهام ، أو تعددية الأدوار التى يمكن أن تقوم بها في النظام التعليمى، فهى مصدر معرفة ، ووسيلة اختيار مؤتمنة، أداة محاكاة.. الخ، ويمكن تحويلها ، عند الحاجة ، بسهولة وسرعة إلى الشكل التقليدى (الورقى) .. وهذه الميزات مجتمعة لا تتوفر فى جميع الكتب الالكترنية مطلقا، حيث يتعلق ذلك بوظيفة الكتاب ، ونوعية القراء (المستخدمين) ومتطلباتهم ، وعدم الحاجة دوما لمثل هذه الميزات معا بالمقابل هناك بعض المصاعب التى تعيق ، أو تؤخر انتشار الكتب الرقمية الالكترونية ، أهمها مواصفات ومعايير غير متوافقة مع بعضها ، خصوصا فى تلك الكتب التى تقرأ بواسطة أجهزة قراءة خاصة . ليس هناك عدد كاف من عناوين الكتب الالكترونية المتوفرة لتلبية جميع اهتمامات ، واختصاصات ، «وأذواق» جموع القراء ، عدم ملاءمة تقنيات عرض الكتب الالكترونية ، وخاصة عند قراءة المواد النصية (النصوص) الكبيرة، مما يؤدى إلى صعوبة قراءتها وتصفحها ، والإبحار فى محتوياتها ، وبالتالى ، الشعور بعدم الراحة والتعب . عدم إمكانية قراءة الكتب الالكترونية فى مختلف الأماكن ، والوضعيات (فى السرير، أو على الشاطئ..الخ) باعتبارها تحتاج إلى أجهزة قراءة خاصة لها متطلباتها ، صعوبة حماية الملكية الفكرية ، سهولة نسخ الكتب الالكترونية ، وتداولها تفرض متطلبات صارمة على نظام أمن المعلومات بالنسبة للكتب ذات الاستخدام المحدود للمخولين فقط، عدم تقبل ، أو ممانعة القراء للكتب الالكترونية ، بحكم العادة ، أو بسبب عدم امتلاك ناصية التعامل مع التقنيات الحاسوبية ، وعدم مراعاة الخصائص النفسية والفيزيولوجية للمتلقى (القارئ) ، كاستخدام واجهات غير مريحة، أو المبالغة فى استخدام تقنيات الوسائط المتعددة مما يشتت انتباه المتلقى، أو يؤدى إلى نفور القارئ وابتعاده عنها ، الإفراط فى استخدام الإرتباطات التشعبية مما يدخل القارئ أحيانا فى متاهة يصعب الخروج منها ، عدم بناء هيكلية الكتاب وارتباطاته بشكل مناسب مما يعيق استيعاب مواد الكتاب بشكل منظومى .

مستقبل الكتب الرقمية

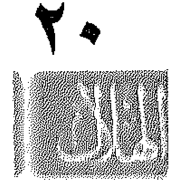
ولو عاش بيننا اليوم ساحر يحب الأدب ! سوف يفتح فمه متعجبا مندهشا

من قراء اليوم الذين تفوقوا على سحره! فالقراء اليوم فى استطاعتهم توظيف تكنولوجيات الكمبيوتر والانترنت للوصول وتنزيل وقراءة النصوص التى تعجبهم إينما كانت ! ويقرأونها أما على الشاشة ، أو فى كتاب ذو غلاف ورقى ، والباحثون اليوم ممكن أن يجدوا مصادرهم ومراجعهم فورا ضمن مكتبة تخيلية واسعة متعددة اللغات ! بينما بعض طلبة الكليات الآن يختارون أن يقرأوا الكتب الدراسية على الخط ، بالتحسينات السمعية البصرية ، وبشكل تفاعلى مع أساتذتهم ! واليوم بشكل واسع نجد الكتب الرقمية ، والنصوص الرقمية الأخرى تقرأ بشكل رئيسى على شاشات الحاسوب ، أو على أدوات القراءة الرقمية يدويا مثل أجهزة Palm Pilots و Gcmstar rcadcrs، لكن حتى الآن لم تظهر سوقا هامة للكتب الرقمية التى تقرأ على الشاشات ! ومن المحتمل ألا يصبح ذلك النمط الرئيسى لتوزيع الكتب العلى الخط! بل من المرجح والمتوقع أن النصوص الرقمية ستطبع وتجلد فى صورتها الورقية ، عند نقط الطلب والبيع بالمكائن! والآن هناك فى الدول الصناعية المتقدمة ، نماذج آلية تطبع النسخة الواحدة خلال دقائق ، ورخيصة التكلفة وفى شكل كتب ورقية يصعب تميزها عن الكتب التى أخرجتها المطابع المعتادة !

وهذه المكائن المتلاصقة لجعل الكتب الإليكترونية ، كتبا ذات غلاف ورقى يمكن أن تكون مثل مكائن سحب النقود ، أو مكائن تقديم المشروبات الساخنة والباردة المنتشرة فى الشوارع وتكون موجودة فى أى مكان بشرط توفر الكهرباء ، ومخزون لتجهيزات الورق ، حيث يمكن وضع مثل تلك المكائن فى المدارس والجامعات وقاعات سكن الطلاب والمكتبات الجامعية والمكتبات العامة ، وهناك الكثير من المواقع المحتملة ، فالقراء المحتملين موجودين فى كل مكان ، يستطيعون فيه الوصول إلى شاشة حاسوب ، ويبحثون بلا حدود فى قواعد البيانات والملفات الرقمية مخزونة ، ويسترجعون ويتصفحون العناوين التى تثير إهتماماتهم ، ويرسلون الملفات التى يختارونها إلى أقرب ماكينة طباعة لهم! والتى ستشعرهم أن كتبهم جاهزة لكى يلتقطوها أو يستلموها وهم فى طريقهم ! ومع الوقت ، يمكن للقارئ اختيار ، كامل المعاملات المطلوبة خلال دقائق ، ويختار نوعية ورق الطباعة ، والغلاف وشكل التجليد ومواصفاته ! خاصة الكتب المقدسة عند معظم الثقافات، فالقراء قد يفضلون لها شكل دائم وثابت – خصوصا الكتب ذات القيمة الدائمة – فيرغبون فى حجم معين ، وطباعة مميزة ، وتجليد متين ، وربطها على هذه المكائن مع الصور العابرة على شاشة الكترونية، الاستثناء سيكون فى القواميس ، والأطالس ، والموسوعات ، والأدلة ، الخ، التى يجب أن تتجدد بشكل مستمر . وبياناتها الحالية ، من المحتمل ستقرأ على الشاشات حسب الحاجة .

التحول التاريخى

إن التقارب الذى أحدثته الإنترنت بين الإرسال الآنى ، واسترجاع النص الرقمى يعتبر تحولا تاريخيا ، مقارنة



بتأثير قابلية الحضارة الأوربية للتحرك والانتشار ، على مستوى العالم فى منتصف القرن العشرين . فى المستقبل سوف نجد مجموعات الكتاب ، والمحررين ، والمروجين والناشرين ، ومدراء مواقع الويب فى أى مكان فى العالم سيندمجون لتشكيل شركات خاصة للنشر على الانترنت، ويبيعون كتبهم مباشرة إلى القراء، والبعض قد يتعاقد مع الشركات المتخصصة لصناعة وتوزيع الكتب الطبيعية إلى الباعة التقليديين، وسوف تتعايش الكتب الرقمية، مع الكتب الورقية المعتادة، مثلما تتعايش اليوم المكتبات الطبيعية فى منافسة مع المكتبات المدرجة على الخط فى الانترنت.

ولو أن مطابع الكتب الطبيعية ذات الأغلفة الورقية الصنع باعت بالتجزئة فى المكتبات وقتها، فستقع فى ضرر تنافسى، بالمقارنة مع الكتب ذات الاغلفة الورقية التى تطبع عند الطلب فى المكائن ومن الصعب التنبؤ بثمن وقيمة الاسهم فى تجارة المكتبات فى المستقبل الرقمى القادم!!

لكن من المحتمل أن تعرض محلات الكتب معروضاتها بعناية دقيقة، فتختار قوائم من عناوين الكتب الجديدة والمستعملة، خاصة الكتب ذات الأغلفة الصلبة، وكتب الفنون، والعديد من أنواع كتب الأطفال، التى لا يمكن أن تكون اقتصادية عند طلب طبعها على المكائن! وستصبح أماكن تجمع أبناء الحى الواحد، هى أنسب أماكن لمخارج الكتب ومكائنها واعلاناتها والعديد من القراء، الذين لا يمكنهم الوصول إلى مكتبات مجهزة بشكل جيد، سيعتمدون على الأدلة الرقمية ومكائن الكتب فى الاحياء، ولا يبقى أمامهم غير الاتجاه إلى موقع أمازون للكتب وباعة بالتجزئة على الانترنت ونقط مكائن بيع الكتب ستكون مفيدة، خصوصا فى الدول النامية لندرة المكتبات، وارتفاع تكاليف النسخة الواحدة عالية، وحتى اليوم هناك نواة لسوق رقمى مترابط نسبيا، فبعض المؤلفين يربطون مواقعهم على الويب، مع مواقع لها نفس الاهتمام، وهم يأملون خلق مجتمعات موسعة خاصة للقراء الموالين بكل كتاب جديد يكتبونه والتعديلات التقنية البسيطة ستمكن الكتاب قريبا من بيع كتبهم الى القراء مباشرة فى كافة انحاء العالم من شبكة الويب، لكن هناك خوفا دائما من الناشرين والكتاب المتشككين لفكرة بيع الكتب على الخط، تحسبا لإهدار حقوق الملكية الفكرية، وضمان الآمان على مواقعهم فى الشبكة، واليوم أصبح نشر المقالات والمخطوطات منظما بأحكام، من قبل الناشرين والوكلاء، وذلك قبل أن يتخذ القراء القرار النهائى!

والمستقبل الرقمى للكتب، قد يبدو تهديدا للقراء المتعودين على سوق أدبى منظم، وقد يبدو ذلك تهديدا للثقافة عامة مثل كهنة القرن الخامس عشر! لكن القدرة الانسانية للتمييز بين الكتب المقروءة ، وغير المقروءة، ستكون أهم عامل محدد فى المستقبل الرقمى للكتب، وبمرور الوقت سوف يستطيع القراء التمييز

بسهولة بين الكتب الثمينة حقا، من تلك المقروءة، فقط ، وعلى الأرجح وقتها، ولن يستطيع أحد المغامرة ويدعى أنه كاتب! ويغمر السوق الرقمى بأفكاره الرخيصة، والكتب الرقمية لن تحتل أى فضاء لرفوف الكتب، او تشغل مساحة، بل هى دائما جاهزة للطبع فى أى وقت، طالما هى فى مخازنها الرقمية، التى يمكن أن تبقى فيها لمدد طويلة، ولأن النصوص الرقمية يمكن أن ترسل مباشرة إلى المستهلكين فى أى وقت ، فهى يمكن أن تباع بكميات أقل من الكتب الطبيعية، التى تشحن فيزيقيا من المطابع فى الهند أو الصين إلى مخازن الناشرين فى ماريلاند أو أوهايو، ومن هناك إلى المستودعات أو مخازن تجار المتجر المتعدد الفروع الإقليميين، وأخيرا إلى آلاف مكتبات البيع بالتجزئة، وبعد بضعة شهور، ترجع النسخ غير المباعة إلى ناشريها وتدمر! ولأن الكتب التى نشرت إلكترونيا لن تتطلب أى نوع من عمليات الجرد المكلفة، ولا تكلف الناشرين عمليا شيئا فى الإنتاج والتسليم، وقتها تصبح مساهمة المؤلفين فى المنتج النهائى ذات قيمة أكبر نسبيا من الناشرين، ويمكن أن تعود عليهم بأرباح أكثر من إيرادات بيع الكتب بصورتها الطبيعية!

إلى حد أن التوزيع الأصغر من المتوسط من الكتب الرقمية التى تطبع عند الطلب من مكائن البيع، يكون أعظم كفاءة وأقل كلفة بالمقارنة بالنظام القديم، واليوم ناشرو الكتب سيتحولون مع مرور الوقت ليكونوا من الكتاب، والمحررين ، والمروجين (وكلاء الدعاية)، ومدراء مواقع الويب! وهكذا قد ترجع عملية نشر الكتب لتصبح صناعة منزلية! قائمة على البيع بالتجزئة، معتمدة على تجهيز ثابت من العناوين الترويجية.

لكن ليس هناك ساحر يمكن بإشارة من يده، أن يخلق تلك الموجة الجديدة من المستقبل الرقمى للكتب، هناك البشر هم الوحيدون الذين يجدون طريقهم، بالوسائل المجهولة وغير المباشرة والبطيئة، والتى يوظفون فيها النماذج السابقة التى أنجزت ، ولتوقع خطة لتجارة عملية النشر الإلكترونية ، يجب عدم تجاهل المساعى والمحاولات الإنسانية السابقة، وتعقيدات المستقبل الرقمى الصاعد، والقدرة على فهمه وإدراكه ، مع الاصرار والإبداع الذى استطاع البشر اختراع عالمهم حتى الآن، وهذا لا يعنى أن كل تقنية جديدة وقوية تصبح من الضرورة عملا ناجحا، وقد لا تتغلب أى تقنية متقدمة على المنافسة من الاختيارات السهلة والأرخص، فالسكك الحديدية فائقة السرعة فى الولايات المتحدة الامريكية لم تتغلب على منافستها الأرخص، وكذلك الغذاء المعدل وراثيا، يتجنبه الكثير من المستهلكين! وهذه العقبات لن تواجه عملية إرسال الملفات الرقمية لمكائن الكتب، فتكلفة الوحدة فى تلك العملية أقل بالمقارنة مع تكلفة التوزيع الطبيعى للكتب، مادام هناك سهولة فى عملية إرسال الكلمات اليكترونيا، إلى أى واحد يمكنه إنزال ملحقات البريد الالكترونى ، أو تسلم الفاكسات أو شراء كتاب رقمي. والمستهلك الذى ملك تجربة شراء كتاب رقمى، واختار عنوانه من كتالوج على

الشاشة، وطبعه فى أقرب ماكينة كتب، سوف تختلف وجهة نظره، عن وجهة نظر الذى يشترى نسخة طبيعية من نفس الكتاب، من بائع تجزئة على الأنترنت، ويأتى الاختلاف فى الفورية أو الآنية التى يحصل بها المشترى على الكتاب، والنتيجة المحتملة محبطة للكتاب الطبيعى، خاصة إذا كانت النسخ المتوفرة نفدت، وفى السعر الذى يذهب منه جزء بسيط للبائع للتجزئة.

والعقبات التى تواجه المستقبل، ليست تكنولوجية ، بل هى مؤسساتية وعاطفية، والتحول الحتمى سيكون مثيرا للجدل، كأشكال جديدة من الانتاج تتحدى فرضيات وممارسات قديمة.

وقد لاحظ وكلاء الأدباء قيمة النصوص الرقمية، عندما توقعوا مكاسب مادية مستقبلية للمؤلف من الطبعات الرقمية. لكن لزيادة نصيب المؤلف من العائد، يجب المحافظة على الحد الادنى من تكلفة الانتاج والتوزيع الرقمى، وعند التحول من عملية النشر التقليدى إلى النشر الرقمى، ليس من الضرورى انخفاض تكلفة النشر، ان تقلل من أرباحهم الصافية.

ولتدعيم الارباح، يجب على الناشرين على أية حال أن يخفضوا أو يصفوا ويتخلصوا من الوسائل والتسهيلات العاطلة ، المرتبطة بتقنيات سابقة خصوصا فى مجالات التسويق والبيع والتخزين والانتاج، وناشروا الكتب خاصة المسيطرون على البيع والتسويق، سيحاولون الدفاع عن مكانتهم ومكاسبهم، عادة فى عملية انتاج الكتب الطبيعية، حقوق المؤلفين التقليدية تمثل بين ١٠٪ - ١٥٪ من أسعار البيع بالتجزئة ، أو تمثل ٢٠٪ - ٣٠٪ من صافى عائد الناشر، وحوالى ٤٠٪ فى تكاليف إدارية تنفيذية وفى تكاليف الطباعة والبيع والتوزيع، وهى كلها تكاليف غير ذات علاقة بعملية النشر الرقمى، لذلك يطالب وكلاء المؤلفون بـ ٧٠٪ وأكثر من عائد النشر الرقمى للمؤلفين، وهذا سوف يفتح الفرصة لظهور عناوين جديدة. وشركات جديدة، لا يتطلب ذلك بنية تحتية قوية للبقاء، وتحت ضغط هذه المنافسة القوية، الناشرون التقليديون سوف يقللون الوظائف العاطلة لديهم، لكى تسوى وتتلائم مع عوائد المؤلف المرتفعة، والا سوف يفقدون مؤلفيهم ، الذين يعيشون فى سوق ثقافى عدوانى وشرس، وضعف ولاء المؤلفين الناشرين، والعكس صحيح، مثل هذه التحولات المثالية تمثل فترة انتقال بين نموذج اقتصادى مغادر، ووريثه النموذج الجديد القادم، وقد يساعد ذلك فى فهم الاقتراب الحذر لمؤسسات النشر الكبيرة فى العالم اليوم من المستقبل الرقمى.

السوق الجديد:

إن الوظيفة الثورية للإنترنت كوسيط تجارى، هى الترويج بالوسائل الالكترونية بدلا من المواجهة المباشرة، كما كانت قبل اليوم، فألغيت السمسرة، وتطور السوق من التجارة البدائية القائمة على المبادلات إلى الانتاج والتوزيع المركزى، وكان الناشرون قد استغلوا الانترنت منذ العقد الماضى،

وقاموا بتشكيل ائتلاف واتحاد، يضم كل الناشرين بشروط متساوية لخلق دليل عالمى، ومخزن مشترك، ومنه تباع الكتب مباشرة إلى القراء، الذين بادروا لشراء الكتب من خلال الانترنت! وكانت بداية تبشر بسوق إليكترونية رقمية، لكن مع الرؤية غير السليمة لصحافة البيزنس لهذا السوق، والتقيد بسلاسل الكتب، وربما أيضا بإعتناء باعة بالماضى المجيد، ضيعوا هذه الفرصة لإقامة بداية لسوق رقمية للكتب .

وتتطلب سوق الكتب الرقمية التى تطبع عند الطلب، الآلاف من مكائن الكتب تكون مبقية فى المواقع البعيدة . وهذا لن يحدث بالشكل المطلوب، حتى يتم تجاوز المرحلة الحرجة لترويج المحتوى الرقمى الذى جمع منذ منتصف التسعينات،فكل الكتب التى نشرت، فى غالبية البلدان تقريبا، جمعت وصفت من ملفات رقمية، التى يمكن بالتعديلات التقنية البسيطة أن ترسل حول العالم، وتنزل فى الشكل المقروء على الشاشات، أو يمكن طبعها عند الطلب علاوة على ذلك، العديد من عناوين الكتب القديمة، والتى نفذت طباعة بعضها من مدة طويلة وانتهت حقوق نشرها، بالإضافة إلى النشرات العلمية والمجلات البحثية ، وأوراق وابحاث المؤتمرات، والتقارير الإقتصادية العالمية، حولت الآن إلى ملفات رقمية!وإذا حول ناشرى القصص الخيالية والواقعية الآن ما يمتلكونه من عناوين ومطبوعات إلى صورة رقمية، ويعرضونها سوية مع عناوينهم الرقمية الحالية، مباشرة إلى المستهلكين على الخط، مع وضع دليل رقمى متعدد اللغات، سيكون أمرا كافيا وكبيرا كبناء تحتى لسوق رقمية للكتب التى تطبع عند الطلب وذلك البناء التحتى يتضمن قواعد بيانات، الناشرين، ورغبات العديد من القراء وأماكن نقطة البيع أو مكائن. الناشرين، كانوا بطيئون فى تحويل مطبوعاتهم إلى الصورة الرقمية . ومن ناحية أخرى، مع بدايات تحويل الكتب فى الشكل الرقمى، طالب الناشرون، ومنحهم المؤلفون حق النشر للطبعات الرقمية ، تحت عقود وقعت منذ منتصف التسعينات وبذلك يعترف الناشرون ضمنيا بالحق فى نشر الطبعة الرقمية، مثل الحق فى نشر طبعة سمعية أو أجنبية أو ذات غلاف ورقى، ويشكل ذلك ما يسمى بالحق التابع لشروط الملكية، ولم يحاول الناشرون إكتساب الحقوق الرقمية كحقوق منفصلة ومستقلة لقوائم مطبوعاتهم حتى منتصف التسعينيات، وهو سبب آخر لتأخير وجود سوقا اليكترونيا للكتب الرقمية ! من المفضل على الكتاب والقراء، أن يتذرعوا بالصبر، بينما ينتظرون كفاح ولادة سوق اليكترونية للكتب الرقمية، التى تعد تعبيرا مثاليا وتاريخيا، لن يمحو الماضى، لكن سيستغل بعض إمكانياته غير المدركة ويجب على المكتبات العامة والمستودعات الأخرى للكتب، ألا يفكروا بالتخزين الرقمى، مثل ما فكروا بالميكرو فيلم كحل لمشكلة فضاء الرفوف، لكن كملحق إلى نشاطاتهم التقليدية والانتقال إلى الكتب الرقمية سيقلق بما فيه الكفاية لكن لا يجب أن يكون ذريعة لتقليم تراث عصر جوتينبرج .

الوضع العربى

تفيد إحصاءات ٢٠٠٢ للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم «الكسو»

بأن عدد الأميين فى الوطن العربى يصل إلى ٦٨ مليونا، وهو ما يؤكده تقرير التنمية الإنسانية للدول العربية عام ٢٠٠٢ من ارتفاع منسوب تفشى الأمية فيها عن نظيرتها فى البلدان الصاعدة فى شرق آسيا وأمريكا اللاتينية، وانخفاض معدلات الالتحاق بالتعليم خاصة العالى عن متوسط البلدان النامية، ويبلغ معدل الأمية فى منتصف التسعينات حوالى ٤٣ ٪ وهو أعلى من المتوسط الدولى، هذا عن الأمية الهجائية فما بالك عن الأمية الثقافية ! وأمية التعامل مع الكمبيوتر والإنترنت ! فهل يحق لنا أن نتساءل عن مستقبل الكتب الرقمية فى العالم العربى ؟! وإذا عرفنا أن المعلومات تنساب بكل أصنافها عبر وسائل الاتصال الحديثة فى هذا الفضاء السبرينى، بينما يواصل الرقيب العربى إمساكه القلم الأحمر ليضيف ويحذف من قائمة الممنوعات كتابا هنا ومطبوعة هناك فهل يحق لنا أن نتساءل عن مستقبل الكتب الرقمية فى العالم العربى ؟! وعلى افتراض أن الأنترنت آذنت بسقوط كثير من الأسوار والحواجز فإنه لايبدو من الواضح إمكانية تحقق لك على الصعيد العربى فهناك رغبة عربية جادة تنمو بالتوازى لفرض رقابة على منتوج الشبكة العنكبوتية لتطويق حدود امتدادها وتأثيراتها ! فهل يحق لنا أن نتساءل عن مستقبل الكتب الرقمية فى العالم العربى؟!

وإذا عرفنا أن الوجود العربى متواضع جدا على الإنترنت، وهناك شواهد عديدة كما جاء فى تقرير التنمية الإنسانية للدول العربية ٢٠٠٢ تؤكد النقص الشديد فى تأليف الكتب باستثناء الكتب الدينية والمدرسية، مع محدوديتها فيما يخص المحتوى الإبداعى الجديد، أما الكتب المترجمة فأرقامها هزيلة للغاية فالعالم العربى يترجم سنويا ما يقرب من ٣٣٠ كتابا وهو خمس ما تترجمة اليونان، والأجمالى التراكمى للكتب المترجمة منذ عصر المأمون حتى الآن يبلغ مائة ألف كتاب ! وهو ما يوازى تقريبا ما تترجمه اسبانيا فى عام واحد! وقرأت فى الأخبار الأدبية منذ غدة شهور، أن ما يستهلكه العالم العربىٰ من ورق طباعة الكتب، أيا كان نوع الكتب يكاد يساوى ذات الكمية التى تستهلكها دار نشر أوربية كبرى، وأن بلجيكا البلد الأوربى الذى لا يتجاوز عدد سكانه العشرة ملايين نسمة، أى أقل من عدد سكان عواصم عربية مثل القاهرة، هذا الشعب الصغير يستهلك من ورق القراءة والمتابعة الصحفية أكثر من جميع سكان العرب الـ ٢٩٠ مليون نسمة، أى الفارق ليس ضعفا إنما ثلاثون ضعفا بين الأوربى والعربى فى أداء هذه الممارسة الحضارية، علاوة على أن الفكر فى عالمنا العربى يزداد تهميشا، وتهميش أصحابه فماذا يعنى أن نكتب وننشر ونتجادل والشعوب العربية تدير ظهرها لكل الاصدارات الفكرية والأدبية ! فهل يعنينا بعد ذلك مستقبل الكتب الرقمية فى الوطن العربى ! ■



الثقافة
فى سياق التنمية والعولمة

بقلم
د. حامد عمار

اخترت مفهوم الثقافة محوراً للتنمية باعتباره العمود الفقرى الذى تدور حوله أنشطة التنمية كما يدور هو معها فى علاقات جدلية متطورة عبر الزمن. وتتفاعل ديناميات كل منهما فى داخل نطاقه ومع نطاق الآخر وتأثيراً وتأثراً، مداً وجزراً، ازدهاراً وانكساراً، تمدداً وانكماشاً. ومع ذلك فلم يلتفت المخططون للتنمية والممارسون لتنفيذ برامجها إلى الأهمية البالغة للوعى بهذا المحور الذى يتخلل - بوعى أو بغير وعى - مختلف الأنشطة الإنمائية، وتتأثر به عوائد التنمية وثمراتها، إيجاباً وسلباً.

ومحور الثقافة كمفهوم له مساحات متنوعة وعشرات من التعريفات والدلالات. ومن ثم كان من الضرورى الاهتمام بهذا المفهوم وما يتضمنه من المكونات والقيم الثقافية وأخذها بعين الاعتبار المستحق فى حسابات عوامل التنمية ومدى انجازاتها أو عوائقها ومن بين تلك التعريفات ، ما يلى :

المفهوم الانثروبولوجي الاجتماعي

ومن معانى الثقافة فى العلم الاجتماعى، وبخاصة كما صاغته الانثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology أنها تتمثل فى تلك الأنماط المختلفة من التفكير والقيم والسلوك والمعاملات والأنماط التنظيمية التى اصطلحت عليها جماعة فى مسيرة حياتها. وهى رصيد تتناقله الأجيال

المتعاقبة عن طريق التواصل الاجتماعى مما يتعلمه الخلف عن السلف، من خلال الاتصال اللغوى شفاهة وكتابة ورموزاً. ويندرج فى مضمونها طريقة الحصول على قوته وأدواته المادية والتكنولوجية المستخدمة، وما يتوافر ويشيع من أسلوب تعامل الفرد مع أبناء جماعته ومع الجماعات الأخرى. أضف إلى ذلك أنواع القيم والاتجاهات المادية والاجتماعية والمعنوية التى يحرص على التمسك بها ورعايتها، أو على نبذها ومقاومتها، وتلك التى تضع حدوداً وضوابط للفكر والسلوك والتعامل. ومن ثم يطلق على الثقافة أحياناً ما يعرف باسم (الوراثة الاجتماعية) تمييزاً لها عن الوراثة البيولوجية، أو كما يطلق عليها أحياناً (ضابط إشارات المرور الثقافية) .

وفى جميع الدلالات لمفهوم الثقافة يلتقى مفهومها كأسلوب حياة وفق ما يصيغه الإنسان فى تعامله مع الطبيعة، يكيفها ويتكيف معها، حسب أهدافه وتصوراته، فهى حصيلة للنشاط البشرى فى نهاية التحليل. وهى كذلك تميز جماعة عن جماعة، ومن ثم تجىء نسبية الرصيد الثقافى وخصوصياته. كما يتسم الرصيد الثقافى بعنصرين هامين أحدهما: ظاهرى فى السلوك والأفكار والعادات والممارسات، والمعبر عنها فى أحكام القيم مما يدخل فى نطاق المباح والممنوع، أو الحلال والحرام. وثانيهما ضمنى كامن فى بطانة السلوك والأفكار والطقوس والرموز، ويمكن التعرف عليه بالتأمل والاستدلال من الوقائع الظاهرة وديناميتها.

البنى الثقافية وتنوعاتها:

والثقافة كذلك ذات بنية من شرائح اجتماعية أو طبقية ، ومن تنظيمات اجتماعية تحدد علاقاتها ومدى تواصلها مع بعضها فى مختلف أنواع النشاط الإنسانى، ومن بينها النظم الثقافية والتعليمية والاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية . وهى متراكمة عبر التاريخ ومتواترة فى الزمان والمكان، كما أنها تتسم بالتغير نحو أنماط جديدة تصبح شائعة بعد ذلك . وإذا كانت فيما سبق محاولة لوصف الثقافة من وجهة نظر الأنثروبولوجية فسوف نجد أن هذا المفهوم قد تداخل فى كثير من العلوم كالتاريخ وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والعلوم الطبيعية والبيولوجية والتربوية فضلاً عن الآداب والفنون.

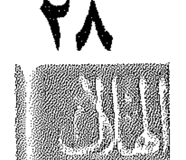
ويصف المؤرخون مثلاً ثقافة عصر معين بما هو شائع ومتكرر ومطرد فى فترة زمانية معينة فيما يعرف بالزمان الثقافى، وترتبط الثقافة بمسميات حضارات معينة كالثقافة الفرعونية أو البابلية أو الإسلامية أو العربية. وتستعمل فى التمايز الجغرافى فيما

يتواتر ويشيع من مصطلحات الفكر والاتجاهات فى مساحة جغرافية معينة، كأن يقال الثقافة الريفية أو الحضرية أو البدوية، أو فى التمايز الاجتماعى للتعبير عن الثقافة الطبقية لمختلف الشرائح الاجتماعية، أو كثقافة الأغنياء والفقراء، باعتبارها ثقافات نوعية داخل الإطار الثقافى العام.

ولدى علماء الآثار يجرى التركيز على ثقافة ما خلفه السلف من الآثار ومعداتها وأدواتها المعيشية وطقوسها المتمثلة فى معابدها وتماثيلها ونقوشها Artifacts. وكذلك يرى هربرت ريد Herbert Read مؤرخ تاريخ الفنون حين يشير إلى مفهوم ثقافة القوارير والأوعية Culture of pots and pans كدلالات على ثقافة قوم من الأقوام . وهناك مسميات الثقافة الغربية، والثقافة الشرقية، أو الشرق أوسطية، إلى غير ذلك من التقسيمات الكلية للحضارية.

ويأتى بعد ذلك أعم المستويات تجريداً فى مصطلح الثقافة الإنسانية فى الفكر الفلسفى بأنماط حياتها وقيمها العليا، وما تشترك فيه مختلف الشعوب والأجناس بحكم كونها إنسانية تتمايز عن بقية الكائنات الحية وذلك فى جوهرها وتواصلها اللغوى، أو فى تجاربها وخبراتها المتماثلة فى جذورها، ومرتكزاتها الروحية والإنسانية. ومن منظور الاقتصاد السياسى هناك ثقافة الرأسمالية وثقافة الاشتراكية وثقافة الليبرالية، وثقافة الطريق الثالث.

ومع المدرسة التحليلية لعلم النفس تبرز الثقافة فى ميكانزمات التكيف النفسى التى تفرضها معطيات الثقافة وما يرتبط بذلك من إعلاء وتسام أو كبت وإزاحة للغرائز. وفى علوم التربية يظهر دور الثقافة فى عمليات التعليم والتعلم وتشكيل شخصية الفرد. والنظرة البيولوجية تعنى بأساليب إشباع حاجات الفرد البيولوجية ومقومات بقائه وتفاعله مع العلم الطبيعى. ويرى المشتغلون بالعلم عامة أن وظيفة الثقافة هى محاولات لتحويل فوضى التنوع فى الظواهر الطبيعية والتنوع فى سجل الحياة الاجتماعية إلى كون ثقافى Cos-mos of Culture، باتساقه وتشخيص مقوماته وعلاقاته. ومن ثم يمكن القول بأن ثمة ثقافة علمية وثقافة أدبية، قد تلتقيان وتتكاملان أو قد تتباينان وتختلفان. ومن التقسيمات القائمة أيضاً ما هو شائع من ثقافة عامة شاملة (Common) وثقافة شعبية (Popu-lar) ومعظمها شفاهى، وثقافة رفيعة (High) مما يجرى فى عالم الفنون والآداب ومنتجاته المبدعة. ويدخل فى هذا التقسيم عنصر أحكام القيم فى



نوعية هذه الثقافة، ووصف الإنسان بالمثقف حيث يشارك فى مجالات الاشتغال بالثقافة الرفيعة ومستويات إنتاجه فيها.

مفاهيم المدرسة الإنسانية:

ونختم هذه التعريفات ومناظيرها المختلفة بتعريف ممن ينتمون إلى التقاليد الإنسانية Humanists، ومنهم الفرنسى أندرى مالرو Andre Mal-rau حين يركز على جانب المعانى والقيم، وبأنه يمكن تلخيص الثقافة فى كونها «تجسيداً لمنظومة من القيم». ويشاركه فى ذلك أورتيجا Jose Orte-ga Y Gasset الإسبانى حين يشير إلى أن الثقافة «منظومة من الاتجاهات والقيم التى لها معنى، وتتسم بالاتساق والكفاءة ورصيد من الحلول. لقد وجدت ولاتزال توجد ثقافات عديدة». ومع هؤلاء يأتى البريطانى ت.س اليوت T.S.Eliot ليؤكد بأن الثقافة «هى كل ما يجعل للحياة معنى». والقيم والتقاليد والمعتقدات الثقافية قابلة وخاضعة للتغيير، وليس كل الموروثات صحيحا بإطلاقه، مما يتطلب فرز مكوناته وتبين مرتكزاته الأيديولوجية - كما يقال - وبخاصة مضمون المعانى والرموز المرتبطة بمصادر القوة والسلطة . وأهمية هذا النقد والفرز تكمن فى أنه حين يتمكن الناس من كشف جذور تلك التقاليد الثقافية وتداعياتها السلطوية، وتشخيص أساليب التواصل المشوه فيها، تبدأ عملية تحررها من محددات وقيود الافتراضات القديمة، والتوجه إلى آفاق جديدة من المعانى والقيم الثقافية، مغايرة قليلاً أو كثيراً عن رصيد مورثات الحاضر.

وفى البحث عن مشروع متطور وجديد للمحور الثقافى وفى الأنشطة المجتمعية التنموية يتبلور موقع فى مكوناته يعرف بالثقافة الرفيعة، تتسم بقدرات النقد والتجديد والإنشاء والإبداع، بمختلف وسائل التعبير والفعل. ويتجلى ذلك فى المعانى والتوجهات الجديدة فى مجالات إنتاج الآداب والفنون والعلوم وإعادة قراءة الموروثات، وفى تطوير اللغة ذاتها، وفى التربية والتعليم، ووسائل الاتصال الإلكترونية، والإعلام، والمكتبات، وفى مكونات والخصوصيات الثقافية العربية، والأمن الثقافى وحقوق الإنسان وحرياته، إلى جانب الصناعات الثقافية من صناعة الكتب، ومختلف وسائل النشر، والتشريع الثقافى.

ويقال كذلك إن محور الثقافة هو طريقة الحياة التى يتم الاصطلاح على تجسيد معتقداتها وقيمها ومعانيها فى الممارسات الحالية (بالفعل)، فإنها تمثل فى الوقت ذاته مشروعاً مستقبلياً (بالقوة) لممارسة الحياة، حين تشبع ثقافة النقد للحاضر، تطلعاً لقيم ومعان



جديدة، وإجابات مغايرة للسيرورة الراهنة، وحينئذ يتم فرز مكونات المحور الثقافى وعلاقاته مع المنظومات المجتمعية الأخرى، وما يترتب على ذلك من نقد لمرتكزات المحور ودلالاته. ويحدث هذا التوجه من خلال ما تتمخض عنه مراجعة دروس الممارسة وتقويم نتائجها المعاشة استشرافاً لرؤية جديدة ومعانى متطورة متجددة.

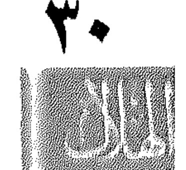
ويجرى التطوير أو التغيير فى المنظومة القيمية للمحور الثقافى حين يحتد التناقض والتفاوت فى دلالات تلك القيم بين الشرائح الاجتماعية، أو المصالح الفئوية، أو مصادر القوة، أو بين السلطة والمجتمع، أو بين المتغيرات الداخلية والمتغيرات الخارجية، ومن ثم فإن العمود الفقرى الثقافى ليس (معطى) ثابتاً فى علاقاته مع أنشطة التنمية، لكنه يتحرك معها كما تتحرك معه. وبهذا يتميز المحور الثقافى بالحركة الدينامية فى السياقات المجتمعية والتاريخية.

التنوع الإنسانى الخلاق:

وفى صدد تلك العلاقة بين الثقافة والتنمية والعولمة نسترجع ما ورد فى كتاب (التنوع الإنسانى المبدع) وهو تقرير اللجنة العالمية المعنية بالثقافة والتنمية، وهو المعروف بتقرير خافيير بيريز دى كويلار والذى صدر عن منظمة اليونسكو فى منتصف التسعينيات.

ويطرح هذا التقرير فى بدايته مختلف التعريفات لكل من التنمية والثقافة، فالتنمية المستدامة جوهرها التنمية البشرية «وهو الغاية القصوى للتنمية، كما أنه من أهم الوسائل المؤدية إليها».

بيد أن التغير فى مفاهيم التنمية وديناميتها وتحدياتها الكوكبية، أدى إلى أن يطرح السؤال ضمن مجموعة الأسئلة التى تواجه البشرية فى اليوم والغد، وهو ما ورد فى فاتحة ذلك التقرير (هل الثقافة مظهر للتنمية أو وسيلة لها أم هل الثقافة غاية وهدف للتنمية التى تفهم على أنها ازدهار للوجود البشرى) والإجابة فى ضوء ما سبق أنها غاية وهى وسيلة، بيد أن منظور الغاية والهدف هو الذى يركز عليه هذا التقرير باعتبار الثقافة غاية عليا، وليست مجرد وسيلة ذرائعية من وسائل التنمية حين يقتصر الحديث على الأنشطة الثقافية ضمن مشروعات التنمية، فهى التى تعطى بقيمها وتوجهاتها معنى لوجودنا فى مختلف جهودنا الإنمائية، فالثقافة على حد تعبير التقرير هى التى «توضح كيف ينتمى الناس إلى الطبيعة، وإلى الأرض وإلى الكون والتواصل بينهما». وكل نشاط إنسانى تحدده فى نهاية المطاف عوامل ثقافية لذلك «لايجوز أن تفسر الثقافة بكيفية تقتصر بها على دور أداة «تعزز» غاية أخرى أى اقتصارها على ما عرف بالأنشطة الثقافية، كما لا



يجوز تعريفها بحيث تستبعد إمكانات نموها وتطورها، ولا يجوز إعطاؤها معنى يدل على الصيانة المفرطة كالتأكيد فى تعبير الحفاظ على الثقافة وصيانتها. والثقافة بخلاف البنية الطبيعية.. هى ينبوع تقدمنا وإبداعنا وعلينا أن نمنحها دوراً بناءً إنشائياً وخلاقاً» ومن ثم تصبح التنمية فى هذا التصور معززة لقيم الحرية والمساواة، وحقوق المشاركة وواجباتها، ودعم مقومات العيش المشترك، وانعدام التفاوت بين الذكور والإناث، وغيرها من إشكاليات القيم الثقافية الهامة.

ويواصل التقرير تأكيده على أن الثقافة غاية وليست مجرد خادمة لغايات أخرى، بل إنها هى «الأساس الاجتماعى للغايات نفسها: التنمية والاقتصاد جزء من ثقافة الشعب فالاقتصاد جزء من ثقافة الناس. وليس إنتاج السلع والخدمات إلا بقيمتها فيما تسهم به من تمتع الأفراد بالحرية التى تمكنهم من اختيار أسلوب العيش الذى يرتضونه» والواقع أن التنمية دون اعتبار للقيم الثقافية تصبح تنمية بلا روح .

ولاشك فى أن الغايات والمعانى أساس فى فاعلية كل جهد فى الحياة الإنسانية، حيث إن الإنسان يريد أن يكون لما ينتجه ويستهلكه ويفعله ويعايشه دلالة وهدفاً. وهو ذلك يتميز عن سائر الكائنات الحية التى تعتمد على غرائزها الفطرية غير المكتسبة.

وهذا الهدف متضمن فيما يستخدم من مصطلحات تبدو محايدة مثل ثقافة التكنولوجيا، وثقافة الإدارة، أو واضحة فى مصطلحات مثل الثقافة الرأسمالية ثقافة الطريق الثالث، ثقافة السوق، والثقافة العالمية. وربط الثقافة بتلك الأنشطة إنما يعنى التساؤل عن القيم والمعانى والتوجهات الدافعة إلى اختيار الاقتصاد أو التكنولوجيا أو الإدارة بصورها المعينة. والقيم الثقافية تكمن وراء هذه التساؤلات مثل لماذا، وكيف، ولمصلحة من، وما التأثير المجتمعى.. إلخ.

وفى مجال عمليات التنمية وإجراءاتها وسياساتها ينبغى اعتبار الثقافة محوراً رئيسياً فى أهدافها وغاياتها بصفة عامة قبل أن تكون وسيلة. وفى تلك العمليات التنموية تتدخل القيم الثقافية فى : (١) صناعة القرار واتخاذه (لماذا)؟ (٢) وفى وسائل تنفيذ قرارات التنمية وسياساتها ومشروعاتها (كيف)؟ (٣) ومتابعة وتقييم الأداء (أى المعايير؟) (٤) وأخيراً توزيع عوائد التنمية ومغانمها وتضحياتها ومغارمها (أى أسس العدالة والإنصاف؟).

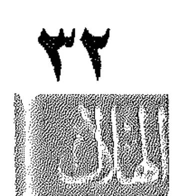
ثقافة العولمة والتنمية:

ومع ما سبق من مفاهيم ودلالات فى محور الثقافة مما يقتضى أن يؤخذ بعين الاعتبار فى عمليات التنمية ومعايير

أولوياتها وتقييم عوائدها، تطلبت المعالجة استكمال سياقات محور الثقافة في إطار ظاهرة العولمة وأبعادها المختلفة، ودون الدخول في هذه الظاهرة المركبة من أبعاد وقضايا، نود أن نشير إلى أن جوهر العولمة يكمن في تبنى سياسات الاقتصاد الحر والسوق الطليقة، غير أن ما يترتب على مجمل حصادها، حتى في بعض آثارها العلمية والتكنولوجية، كان سلبياً على أوضاع الدول النامية. لقد أفرزت أزمات متعددة في سياق التنمية والمال والاستثمار، كما حدث في دول جنوب شرقى آسيا وفي البرازيل. أضف إلى ذلك ما نجم عنها من اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، ومظاهر الاستبعاد الاجتماعى، واستمرار تدهور الظروف البيئية، وازدياد الفقر المادى والمعنوى لدى شرائح كثيرة من السكان. وصاحبها كذلك ما عرف باسم الاقتصاد الإجرامى في غسيل الأموال والفساد الأخلاقى والجشع المادى. وأحاط بذلك كله محاولة تشكيل الثقافات المتعددة وخصائصها المائزة إلى ثقافة موحدة monoculture، أي نحو ثقافة الاستهلاك والقيمة المادية للحياة، مما أدى إلى تفريغ العالم من المعنى، على تعبير روجيه جارودى، وحتى أصبحت الحياة ذاتها سلعة في كثير من مظاهرها.

وقد بلغ التعقيد والغموض في ثقافة العولمة مستويات لم تعُدْ كثير من مصادر المعرفة العلمية كالاقتصاد والاجتماع قادرة على فهم مجرياتها، كما لو كانت نوعاً من «ألعاب القمار في كازينو العولمة» أو نوعاً من الأصولية العقائدية العالمية في السوق وتجلياته، لا تقل خطراً عن غيرها من الأصوليات المغلقة القاطعة في قواعدها وممارساتها. وكان من نتاج ذلك ظهور التفكك في النسيج الثقافى، وشيوع البطالة، وبروز مظاهر العنف، وسلوك الاغتراب لدى الأفراد في توزع انتماءاتهم بين الثقافات التقليدية والثقافة الموحدة، بل وإلى التنكر أحياناً لقيمهم الثقافية الوطنية.

ولاشك أن تأثير الفضاء المفتوح لكل الرسائل التليفزيونية عبر الأقمار الاصطناعية، وما تبثه من برامج معلوماتية وترويحية، وما تقدمه من نماذج وصور ذات صبغة سياسية، قد أدى عن طريق تشربها واستدخالها في الوعى واللاوعى إلى تكوين قيم مضطربة، وخطاب سياسى متحيز، وتوجهات تهدد مقومات المواطنة، وتشوه في الحق والواجب، والنافع والفاسد. وقد كانت رسائل المعلوماتية بكل مصادرها وأنواعها وسائط لمعارك ثقافية، وهي معارك بين الوطنية والقومية من ناحية. وبين عالم بلا هوية من ناحية أخرى، على حد عنوان كتاب د. حسين كامل بهاء الدين (الوطنية في عالم بلا هوية).

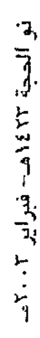


وفى مواجهة ثقافة العولمة وطغيانها بدأت تظهر توجهات لتغيير «قواعد اللعب» التى تفرضها الدول الثمانية أو ما عرف باسم (إجماع واشنطن) Washington Consensus، انطلاقاً من الوعى بأن ظاهرة العولمة قد أصبحت حقيقة موضوعية، وأن كثيراً من جوانبها قد تمت هندسته بتصميم من القوى العالمية المهيمنة، وأنه يمكن إعادة صياغتها لتعديل سياسات السوق التى يفرضها أصحاب تلك الهيمنة وسدنتها من المنظمات الدولية. ومن أجل ضمان تنمية مستدامة، بل من أجل الحفاظ على الحياة الإنسانية على سطح هذا الكوكب، تجىء مقاومة المجتمع المدنى على المستوى العالمى لمخاطر تلك العولمة. ولعل أبرز مظاهر تلك المقاومة ما عرف باسم «رابطة سياتل» التى بدأت بذلك الاحتجاج الصاخب فى مدينة سياتل نوفمبر ١٩٩٩، وتعددت مظاهراتها حيثما اجتمع أقطاب الرأسمالية المتوحشة فى دافوس وروما وجنيف ودربان. وتمخضت تلك الحركة عن تكوين (فريق عمل البدائل) Alternatives Task Force بقيادة (المنتدى العالمى حول الكوكبية «العولمة») International Forum on Globalization (IFG).

وأسندت إلى ذلك الفريق مهمة طرح توصيات واقتراحات لصياغة بدائل لمجريات العولمة الحالية. وقد تألف هذا الفريق من ممثلى جماعات وهيئات المجتمع المدنى السياسية والمدنية والعلمية والبيئية فى الولايات المتحدة وكندا وتايلاند وماليزيا والفلبين والهند. وقد استمر عملها لمدة عامين أعدت خلالهما مسودة تقرير (بدائل للعولمة الاقتصادية) وهو التقرير الذى عرض فى اجتماع بورتو اليجرو فى البرازيل عام ٢٠٠٠، والذى تم خلاله ما يشبه المحاكمة للدول الثمانى فيما يتعلق بديونها واحتكاراتها. ومن المنتظر أن يصدر التقرير النهائى للجنة البدائل خلال هذا العام. ويتضمن تقريرها ما يواجه مخاطر الليبرالية الجديدة فى (إجماع واشنطن)، ويتلخص مضمونه فى التحول والنقلة من حكومات تخدم المؤسسات المتعدية الجنسية إلى حكومات تخدم شعوبها، والسعى إلى وضع قواعد ومؤسسات جديدة تحقق احترام التنوع الثقافى وخصوصياته.

أما بعد:

يبقى بعد هذا الإطار العام لمحور الثقافة فى سياقات التنمية والعولمة، الحديث عن دور الثقافة والتعليم وعن الأزمة الثقافية العربية ومسئوليات المثقفين فى تلك السياقات. ونأمل فى متابعة تلك القضايا بمشيئة الله. ■





عالم باتريك بيسون

◆ الكتابة جنون..
◆ القراءة إدمان..

باتريك بيسون

بقلم
محمود قاسم

للأسف فإن أحداً لم ينتبه إلي المقال الذي كتبه باتريك بيسون.. إنه المقال الأهم الذي كتب، حسب رأيّ، حول ما أصاب الثقافة من فيروس في بداية القرن الحادي والعشرين..

باتريك بيسون، في كلمات مختصرة، وقبل أن نتعرف عليه، هو واحد من أبرز الأدباء الفرنسيين في الثلاثين عاما الماضية، رغم أنه مولود عام ١٩٥٦ وهو روائي، وكاتب مقال، ومتحدث تليفزيوني، وله نشاط ثقافي واجتماعي متسع منذ بدايته كروائي عام ١٩٧٤، وهو حاصل على العديد من الجوائز الأدبية المهمة.

المقال منشور في مجلة لويوان «١٥ نوفمبر الماضي» تحت عنوان «ضد القراءة»، حيث قال في بداية الكتابة: إن القراءة صارت صرعة في فرنسا، وأن هذه الصرعة صارت جنونا، بل هي حالة مجنونة من الإدمان، وربما أكثر، فهي أشد أنواع الإدمان تمسكا بالإنسان.

نعم، هذا هو ما قاله بيسون عن «القراءة» فإدمان القراءة متمسك بالبشر بقوة لأن مدمني المخدرات يمكنهم التخلي عنها بالعلاج الطبي، ومدمنو الكحول، أو السجائر يمكنهم الاقلاع عما أصابهم، لكن إلا إدمان القراءة، رغم ما به من إيجابيات.

القراءة هي الخطيئة الأكثر جسامة الآن في الغرب، ومع ذلك فهي العادة المتأصلة التي لا ينتج عنها أي مضاعفات، بل لعل لها فوائد عديدة: في سن الحادية عشرة، فتحت كتابا، وأنا أدرك أن ما أفعله أمر سيئ. ومع هذا استمررت في القراءة، وقد حاولت مراراً

أن اتوقف عن القـراءة واسـتطعت أن أمسك نفسى عنها أسبوعاً، وأحيانا عشرة أيام، لكننى ما كنت ألبث أن أعود إليها، ضعيفا، لم يتمكن أحد من مساعدتى أو إنقاذى، وتركنى زملائى فى حالى. وقد استطعت التوقف عن الشرب والتدخين، كما أننى لم أتعاط المخدرات، لكننى لم استطع التخلص من سطوة القراءة، لم يكن أمامى سوى أن أمتثل، والتهمت القراءة حياتي مثلما تلتهم حياتك إذا لم نجد سبيلا للتوقف عن فعلها.».

وقد حكى بيسون عن ولديه الصغيرين، بأن الأكبر يقرأ فى كتاب واحد هو «سيد الخاتم» منذ عام ١٩٩٩، ومن البادى إنه لن ينتهى منه قبل أن يتزوج، ولعله سيموت عجوزاً دون أن يستكمل قراءته، أما الإبن الأصغر، فهو لا يطيق أن يسمع عن شئ اسمه «كتاب».

قارئة.. باردة جداً

كتابة بالغة المرارة عن أحوال القراءة، ومصيرها الآن فى أوروبا، وبيسون لم يكن يمزح فيما يكتب، كما أنه لم يكن يبالغ، سواء عن الإدمان المستشرى فى كيانه تجاه القراءة، أو عن حال ولديه اللذين لايطيقان ما يمكن تسميته بـ«استيعاب الحضارة والتقدم»، وقد جاء حديث الكاتب عما يمكن تسميته بالكتاب الورقى، وهو الذى لايزال فى قمة ازدهاره، رغم جميع الآليات الإليكترونية، الصورة والكلمة، التى تناقش بقوة أشكال القراءة المألوفة.

نسوق هذه الكلمات التى كتبها بيسون، والتى تطابقت مع ما كتبناه مراراً أن القراءة غريزة حضارية، وأنها إدمان أوروبى، باعتباره ميراثا ينتقل بين الأجيال، علما بأن الهلال قد نشرت مقالا عن بيسون فى يناير ١٩٨٦، وهو واحد من كثيرين لم يسمع عنهم القارئ العربى، ولم تقم مؤسسة واحدة بترجمته، رغم مبيعات رواياته المتعددة وحصوله على العديد من الجوائز، وتجاوزته جوائز أخرى مهمة كان يستحقها عن جدارة.

حالة باتريك بيسون هذه ليست غريبة، وهناك عشرات الحالات المماثلة، ولعل أقربها إلي الجمهور الفرنسى هو بطلة الفيلم الشهير «القارئة»، فبطلة الفيلم المأخوذ عن رواية للكاتب ريموت جات - هذه المرأة مصابة بإدمان القراءة، إنها تعيش وحدها، لكنها ليست وحيدة تماما فأصدقاؤها الحقيقيون متجددون، إنهم موجودون فى الروايات التى تقرأها، وهى لا تكف عن القراءة منذ الصباح، وحتى تنام.

والقراءة بالنسبة لهذه المرأة هى «فعل»مع الآخر، وتواصل، وهى لا تتلذذ مع الواقع قدر شعورها بالتلذذ مع من تعرفهم على صفحات الروايات، وعندما تتعرف على رجل، ويحاول ملامستها، فإنها لا تستطيع التواصل معه، وهناك مشهد بالغ الأهمية، فالفتاة متمددة فوق الأرض، وقد ارتدت سترة بيجامة، وفى حالة استغراق حقيقى فى صفحات كتاب، تقلب هذه الصفحات بتمعن، بينما الرجل يقوم بتقبيل أطرافها السفلية، ويحاول «تسخين» جسدها، لكن هذا أمر بالغ الصعوبة بالنسبة لامرأة راحت مخيلتها مع ما جاء فى الرواية..

ترى هل هى امرأة باردة، أم عديمة التواصل؟ أم أنها ترى الحقيقة فى التخيل، بينما الواقع غير ملموس بالنسبة لها ؟ إنه الإدمان المجنون الذى أصاب بيسون، الذى قال فى مقاله إنه حاول التغلب على حالته، وبدأ يكتفى بقراءة كتاب واحد كل أسبوع، أى أكثر من

خمسين كتابا سنوياً لكنه اكتشف أن ما يحتاجه من الكتب، أكثر مما راح يفعل، فعاد مرة أخرى، إذن فالقراءة هنا ليست حالة إدمان خطير، بقدر ما هى «حاجة» إنسانية، أو هى غريزة يجب اشباعها من وقت لآخر.. هذه الغريزة تتهيج، وتحتاج إلى الاشباع، كلما مر المرء من أمام واجهات المكتبات، وتابع الإصدارات الجديدة.

احصاءات.. ملفقة

السؤال الذى لم يطرحه الكاتب، ولم يشر إليه، هو نوع الكتب التي يقرؤها. فباعتباره روائيا، فلا شك. فى أنه «يقرأ» الإبداع فى المقام الأول، لكن بالرجوع إلى هذه الروايات، والكتابات النقدية، فإن بيسون لديه خزانة معرفية ضخمة، تبدو زاخرة حين نقرأ رواياته الأخيرة، من طراز آه برلين و«تمثال القائد عام ١٩٨٨، والكسولة ١٩٩٠، وجوليوس واسحاق ١٩٩٢، والمرأة الثرية «١٩٩٣، وال بابان» ١٩٩٥ ثم علم القبلة١٩٩٧، «والجنس الضعيف ثم» أشقاء العزلة ١٩٩٨

رواية جوليوس واسحاق مأخوذة عن أحداث واقعية، تحتاج إلى من يكتبها أن يكون ملما بالحياة الاجتماعية والسياسية فى بولندا والأعراق التى عاشت فى أوروبا، وهاجرت إلى الولايات المتحدة، إنها رواية مزدحمة بالاشخاص، والسنوات، والمشاعر المتضاربة بين صديقين ربطتهما الشمولية فى الولايات المتحدة، واختلفا فقط فى التفسيرات. فصارا لدودين، رغم أن أحدهما قد تزوج من الأخرى..

كما أن بيسون حين أشار الى ولديه، لم يذكر البديل الذى يمارسه كل منهما، ولم يتحدث أن الكومبيوتر، أو أى وسائل اليكترونية أخرى كانت هى البديل الذى اختاره كل منهما، ولم يتحدث عن هواية بديلة، ومن الواضح أن بيسون لم ينظر قط إلى أن هذه الوسائل تشكل إدمانا، متناسياً أن الإدمان العصرى الذي أصاب ابناء هذا الجيل الجديد هو «الكومبيوتر».

كما لم يذكر بيسون أيضاً أن المدمنين بالقراءة يعانون منها، ويريدون التخلص منها، وأنهم فى حاجة إلى مصحات من نوع خاص، أو إلى مضاد للقراءة، فهو يستعذب ما وصل إليه ويفخر بما يفعله، مغلفاً زهوه بعبارات

بطلة فيلم «القارئة»، مصابة بإدمان القراءة، أصدقاؤها الحقيقيون موجودون فى الروايات التى تقرأها



تعكس المعاناة..

يمكن الوقوف عند ما كتبه بيسون بمناسبة ما نشر فى أوائل الشهر الماضى، يناير، حول الكتب الأكثر انقرائية فى مصر، وأن كتب العلوم الاجتماعية تجىء، فى المقدمة، تليها الكتب الدينية، ثم الكتب الأدبية، وأن القراءة بشكل عام. انحسرت بشكل ملحوظ، خاصة بالنسبة للقراءة فى عام ٢٠٠٢، عن سابقتها بنسبة ١٥٪.

لم يشر التقرير الخاص بأحوال القراءة فى مصر، عن آلية القراءة، فهل هذه النتائج صحيحة علمياً وكيف أمكن قياس معدل القراءة، هل حدث ذلك فيما يخص بيع الكتب، فبلا شك أن هناك مسافة واسعة بين شراء كتاب، ثم اقتنائه، أو قراءته، ولا شك أيضاً أن الكثير من الذين يمكن أن يجرى عليهم الاستقصاء، يلجأون إلى التباهى، والكذب على النفس وهم يجيبون على الاستمارات.

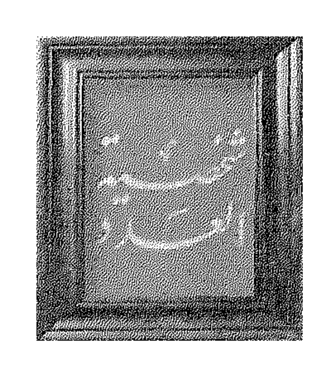
الكتب الاجتماعية.. أولا ؟!!

على كل فما نشر فى هذا التقرير، حول حالة القراءة، وليس الإدمان، لا يمكن أن يعتد به بالمرة، فالغريب أن العلوم الاجتماعية ترتفع مكانتها فى مصاف القراءة، لكن ما المقصود هنا بالعلوم الاجتماعية، هل يدخل فيها الكتب الدراسية التى تفرض على القراء، فهى بالطبع الأكثر مبيعاً، بل إنها تنفد فور طباعتها خلال أيام من صدورها كما أن مكتبة الأسرة اهتمت بهذا النوع من الكتب أكثر من غيرها.

ونحن نسوق هذا الأمر، بمناسبة معرض الكتاب الخامس والثلاثين، فرغم كل هذه السنوات فإنه لم تصدر إحصائية واحدة عن الكتب المباعة، ثم عن المقروء بالفعل من هذه الكتب. وكل ما نلاحظه و ما تنشره الصحف من أرقام قد تكون غير صادقة، عن عدد الرواد فى بعض الأيام، وهناك فارق واضح بين ارتياد المعرض، وشراء الكتب، وأيضاً بين حضور الانشطة المختلفة، وقراءة الكتب، ولننظر مثلا إلى رواد ندوات كاتب وكتاب، ولا نعرف لماذا لم تقم جهة مسئولة واحدة برصد هذه الحالات بجدية، وعمق

شئ آخر، نريد أن نسوقه فى نهاية المقال، فلا شك فى أن «حالة» الاعتراف التى أصابت بيسون، تشكل ظاهرة خاصة ببلاد تزدهر فيها صناعة النشر بقوة، وبالتالى فإن اقتناء الكتب أمر هامشى قياسا إلى قراءتها، ويمكن للمرء أن يلاحظ ذلك من خلال ما تعرضه اسواق الكتب القديمة فى المدن الأوروبية، حيث تبدو أوراقها المستخدمة، وكأن من كان يمكلها أولا أو ثانيا، قد قرأها بالفعل.

هذه الحالة التى أصابت بيسون لم نسمع قط أنها أصابت كاتباً عربياً، فالكثيرون يعتبرون القراءة «أمراً» عاديا لكنها ليست إدمانا.. ولم تعرف الصحافة العربية قارئا مدمناً كتب عن القراءة. بنفس التعبيرات التى تحدث عنها بيسون. ■

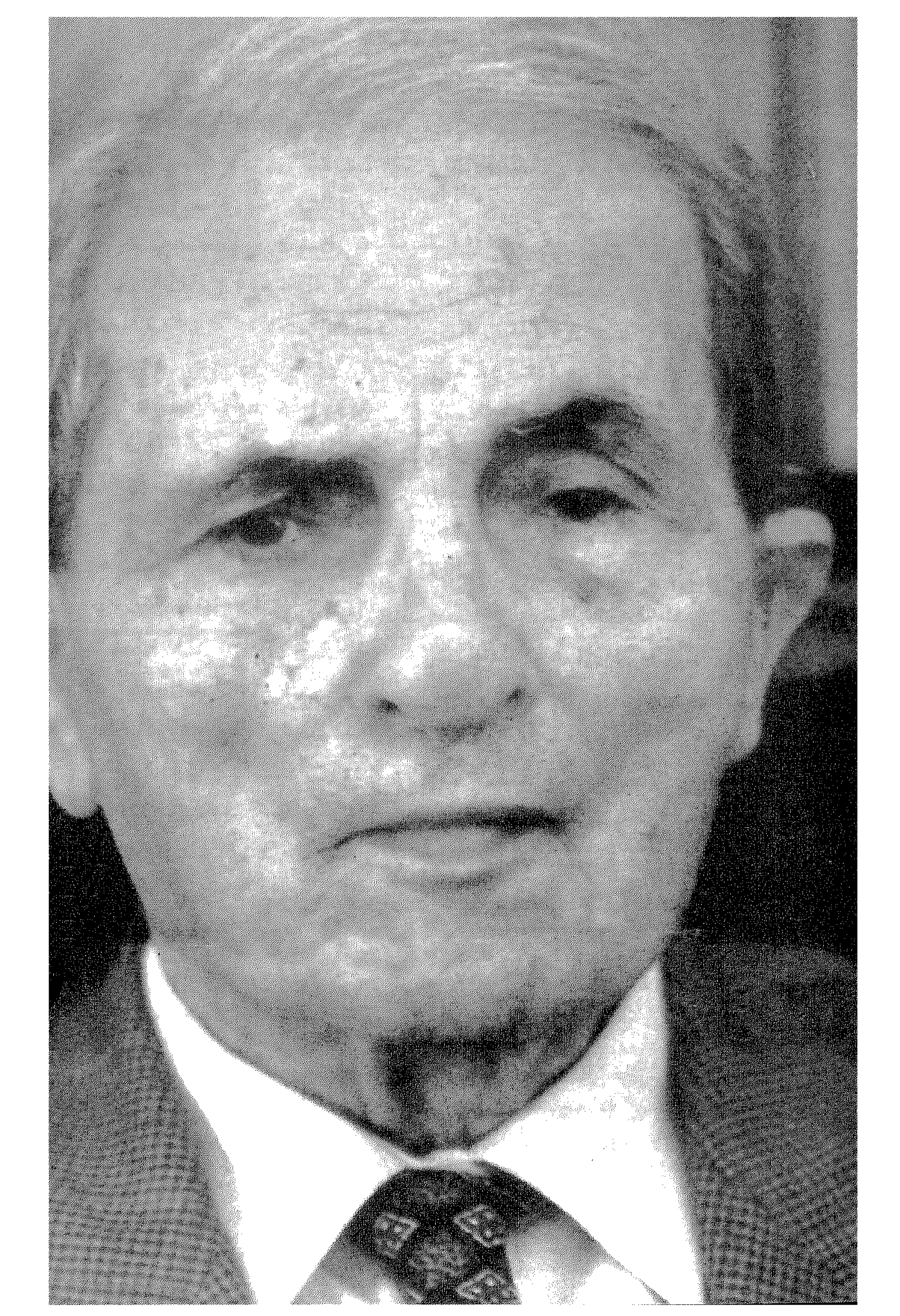


شوقي ضيف ومعجزات القرآن

بقلم
د. محمود علي مكي



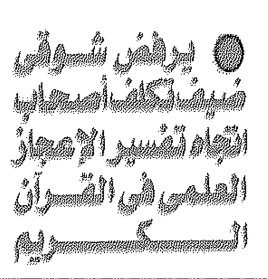
أستاذنا الجليل الدكتور شوقي ضيف - مد الله في عمره - يمثل في وسطنا العربي الثقافي والأكاديمي ظاهرة فريدة تستوقف النظر وتستثير العجب والإعجاب. فهو قد جاوز من عمره الذي بارك الله له فيه سنيه التسعين، ومع ذلك فإن عطاءه لم يتوقف منذ أن نذر نفسه لخدمة العلم على مدى السنوات الستين الماضية، وكأن التقدم في السن لم يزده إلا شباباً وحيوية وقدرة فائقة على العمل، وكأن مرور الزمن يجري في عروق قلمه كل يوم دماءً فتية جديدة. لقد عرفناه أستاذاً في الجامعة، يحاضر في كل فروع العربية على تنوعها واختلافها، من أدب ونقد وبلاغة ونحو وعلوم إسلامية، وكأنه إذا تناول كلاً من هذه الفروع لم يتخصص إلا فيه، وعلى يده تخرجت أجيال متعاقبة من تلاميذه يعدون بالمئات من سائر أنحاء الوطن العربي وغير العربي، وظل حتى سنوات قليلة مضت يباشر التدريس في الجامعة تطوعاً واختياراً. ورأيناه منذ انتخب رئيساً لمجمع اللغة العربية يواصل عمله في إدارة هذه المؤسسة وإثرائها ببحوثه في نشاط لا يعرف الكلل، وعرفناه مؤلفاً يجمع إنتاجه بين الغزارة والتميز، ويكفي أن نشير إلى المجلدات العشرة التي أرخ فيها للأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا الحاضر، إلى غير ذلك من كتبه.





وهو فى كل ذلك ملتزم بما أخذه الله على العلماء من ميثاق بأن ينشروا العلم وألا يكتموه.

آخر ما أصدره من مؤلفات، كتاب «معجزات القرآن» الذى نشرته دار المعارف فى أكثر من مائتين وخمسين صفحة. وعناية شوقى ضيف بالتأليف فى ميدان الإسلاميات ليست أمراً جديداً، وإنما هو اهتمام يرجع إلى سنوات طويلة مضت، منذ أن كان يدرس فى الجامعة تفسير القرآن ومذاهب المسلمين فيه فى الخمسينيات من القرن الماضى، فقد بدأ بكتاب فى تفسير سورة الرحمن وعدد من السور القصار، ثم أتبع ذلك بتفسيره «الوجيز» للقرآن كله فى أكثر من ألف صفحة. وقد كان عمله فى خدمة كتاب الله نابعاً من تدين عميق وفكر مستنير، إذ إنه مؤمن بأن الجمع بين هذين الجانبين هو الذى يكفل تقدم المجتمع الإسلامى المعاصر.



ولم تقف إسلاميات شوقى ضيف عند جهده فى التفسير، فقد عنى أيضاً بتحقيق اثنين من أجل كتب التراث الإسلامى، هما «السبعة» لابن مجاهد فى القراءات القرآنية، و«الدرر فى اختصار المغازى والسير» لابن عبدالبر النمرى الأندلسى، وهو فى سيرة الرسول «صلى الله عليه وسلم»، ثم أتبع ذلك بأربعة كتب تعد معالم مشرقة فى مسيرة شوقى ضيف العلمية، أولها «عالمية الإسلام» فى بيان تعاليم الإسلام بصفته رسالة موجهة للناس كافة، تكفل لهم السعادة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وثانيها «الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة»، وفيه يشرح الأسس العقيدية الاجتماعية والأخلاقية للإسلام فى صورة واضحة دقيقة لما يقوم عليه التقدم الحضارى من فضائل وقيم فى المفهوم الإسلامى، مستخلصاً ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. والكتاب الثالث «محمد خاتم المرسلين»، وفيه يقدم رؤية جديدة لسيرة الرسول «عليه الصلاة والسلام»، وهو حافل بنظرات لم يسبق إليها فى تفسير العديد من مواقف الرسول وملامح شخصيته نبياً وقائداً وإنساناً. والكتاب الرابع فى دراسة ظاهرة «القسم فى القرآن»: أدواته ووظيفته وقيمته البيانية والجمالية.

★ ★ ★

ونعود إلى الكتاب الخامس، آخر ما صدر من هذه السلسلة الإسلامية، وفيه يتناول معجزات القرآن. وقد وزعه على سبعة فصول يتراوح كل فصل منها ما بين ثلاثين وأربعين صفحة. ونود أن ننبه هنا إلى الميزان الدقيق الذى يتحكم شوقى ضيف من خلاله فى أحجام فصول كتبه وعدد صفحاتها، ثم فى

تسلسل سياقات المباحث فى الكتاب بصورة منطقية، بحيث يفضى كل مبحث إلى ما يليه، حتى كأنك تنظر منه إلى نهر يجرى فى يسر وسلاسة من منبعه إلى مصبه، وأخيراً فيما آخذ به نفسه من الإيجاز وتركيز الأفطار ووضوح التعبير عنها حتى لا يسعك أن تحذف منه أو تضيف إليه. وهذه فضيلة كبرى ندعو من يدرسون نتاج شوقى ضيف الفكرى إلى تأملها واستخلاص العبرة منها، فهى من قبيل السهل الممتنع الذى يعد نموذجاً جديراً بأن يحتذى فيما يمكن أن نسميه «حسن التأليف».

والفصل الأول يتناول معجزات كبار الرسل السابقين على الرسالة المحمدية، وهم: نوح ومعجزته فى الفلك الذى نجى به المؤمنين من قومه من الطوفان، ثم إبراهيم والنار التى قذف به فيها كفار قومه، فأحالها الله برداً وسلاماً، وموسى وعصاه التى استحالت ثعباناً يلقف ما ألقاه سحرة فرعون من حبال وعصى تحولت بدورها إلى أفاعٍ وحيات، وأخيراً عيسى وكلامه فى المهد ثم إبراؤه الأكمه والأبرص وإحياؤه الموتى. وحرص المؤلف فى الحديث عن هذه الخوارق على بيان الملاءمة بين هذه المعجزات والجو الذى كان يسود مجتمعات هؤلاء الرسل، وما كان يأخذ بألبابها من ظواهر تعد من العجائب، مثل السحر فى مصر الفرعونية على زمن موسى، ومن تقدم الطب فى عهد عيسى. كما حرص على التنويه بتفاصيل فى ذكر هذه المعجزات كانت مما أضافه القرآن الكريم ولم ترد فى الكتب السماوية السابقة فى نصوصها التى وصلت إلينا.

معجزة الإسلام

وينتقل المؤلف فى الفصل الثانى إلى معجزة محمد «صلى الله عليه وسلم»، وهى تختلف عن معجزات الرسل السابقين، فهى ليست خوارق للطبيعة مما قد يبهر الأنظار ثم يزول أثرها بعد ذلك. معجزة محمد كانت تتسق مع رسالة الإسلام التى تكمل الرسالات السابقة، وتهدف إلى إصلاح سلوك الفرد وتبشر بسعادة الجماعات الإنسانية فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، ثم إنها تلائم ما بلغته الأمة العربية والأمم المجاورة من رقى عقلى. ولهذا كانت معجزة الإسلام هى القرآن، وإعجازه كان معنوياً يدعو الإنسان إلى إعمال ما وهبه الله إياه من منَّة، وهو العقل المتدبر الذى بوسعه أن يصل إلى التوحيد الخالص والإيمان القادر على تحرير الإنسان من عبودية التقليد وأغلال الخرافة.

ويمضى الفصل الثالث فى بيان جانب من جوانب المعجزة القرآنية، متمثل فى تحديه للعرب بأن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن ، فيتناول ما نادى به بعض علماء السلف من القول بـ «الصرفة»، ومنهم النظام والأشعرى وابن حزم. والمقصود بهذه المقولة أن العرب كانوا قادرين - من الناحية النظرية - على الإتيان بما يقارب القرآن فى بلاغته لولا أن الله تعالى سلبهم هذه القدرة و«صرفهم» عنها ، وهى مقولة ينكرها شوقى ضيف ويفند ما احتج به أصحابها، ثم يذكر وجهاً ثانياً من الإعجاز، وهو الإنباء بالغيب. ويضرب على ذلك أمثلة منها تنبؤ القرآن بانتصار المسلمين على

(١) يمكن أن نضيف إلى هذه النبوءات إخبار القرآن بمصير أبى لهب فى نار جنهم، ونحن نعرف أن عدداً من ألدّ أعداء الرسول انتهى بهم الأمر إلى اعتناق الإسلام، بل وحسن إسلامهم، مثل أبى سفيان بن عبدالحارث بن عبدالمطلب، ووحشى قاتل حمزة عم الرسول، وعكرمة بن أبى جهل، ولم ترد فى القرآن إدانة لهم كما جاء بشأن أبى لهب، وكأن القرآن تنبأ ضمناً بحسن مصيرهم.

قريش في غزوة بدر قبل وقوعها بثماني سنوات، ومنها إخباره بانتصار الروم على الفرس «في بضع سنين»، وكان الفرس في وقت نزول آيات تلك النبوءة قد أوقعوا بالروم هزائم فادحة. ومنها أيضاً البشارة بفتح مكة قبل تحققه بسنتين (١).

والمعجزة القرآنية التي يتحدث عنها الكتاب في الفصل الرابع هي ما أضافه كتاب الله في قصص الرسول السابقين لمحمد «صلى الله عليه وسلم» مما لم يرد في التوراة كما وصلت إلينا في صورتها المحرفة. وفي هذه الإضافات أبلغ رد على ما أثاره بعض الطاعنين في الإسلام قديماً وتابعهم عدد من المستشرقين المحدثين في ادعاءات حول ما زعموه من أن الرسول «عليه صوات الله» نقل عن أحبار اليهود وغيرهم ما جاء في القصص القرآني. والقرآن يدحض هذه المزاعم في العديد من الآيات منها قوله تعالى: «وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا*» (سورة الفرقان/ ٤-٥)، بل إننا نجد سير أنبياء بني إسرائيل المتقدمين كما صورها القرآن أطهر وأنظف بكثير مما ورد في كتاب العهد القديم التي لا تليق بصلحاء الرجال فضلاً عن الأنبياء المرسلين. وقد تتبع شوقي ضيف ما أضافه القرآن في قصص آدم ونوح وإبراهيم وموسى ويوسف عليهم السلام.



● لم تقف إسلاميات شوقي ضيف عند جهده في التفسير، فقد عني أيضاً بتحقيق كتب التراث الإسلامي

قضية الإعجاز العلمي

ويعالج بعد ذلك قضية من أخطر ما يدور حوله الجدل بين العلماء قديماً وحديثاً، وهي قضية «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم». وذلك أن بعض علماء السلف رأوا أن القرآن يتضمن كل صنوف العلوم الدينية وغير الدينية، وذلك من منطلق قوله تعالى «مافرطنا في الكتاب من شيء» (سورة الأنعام /٣٨)، فأقبلوا يتأولون آياته ويستخرجون منها معارف طبيعية وطبية ورياضية وفلكية، وتابع بعض العلماء المحدثين والمعاصرين هذا الاتجاه، حتى نسبوا إلى القرآن إشارات لما وصل إليه العلم الحديث من مكتشفات معاصرة. وقد بدأ هذا الاتجاه لدى الإمام الغزالي خصوصاً في كتابه «جواهر القرآن»، وتابعه على ذلك تلميذه الأندلسي أبو بكر ابن العربي (توفي سنة ٥٤٣) والقاضي عياض المغربي (توفي ٥٤٤)، ثم توسع في ذلك الإمام فخر الدين الرازي (توفي ٦٠٦) الذي تحول كتابه «مفاتيح الغيب» إلى موسوعة علمية، إذ تتبع الإشارات الكونية في القرآن، فاتخذ منها منطلقاً لما يشبه أن يكون كتاباً كاملاً في الفلك بحسب ما انتهت إليه المعارف الفلكية في أيامه، وكان يرى في اجتهاداته

تلك ما يقوى الإيمان ويثبته. ومضى فى هذا الاتجاه أيضا المفسر الأندلسى محمد بن أبى الفضل المرسى (توفى ٦٥٥) الذى قال إن القرآن قد جمع علوم الأولين والآخرين، وإنه احتوى من علوم الأوائل «على الطب والجدل والهيئة - أى الفلك - والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة» كما أضاف إليها أصول صنائع وآلات لم يذكرها أحد غيره.

وأما المفسرون المحدثون فنجد فى طليعتهم الشيخ طنطاوى جوهرى (توفى ١٩٤٠م). وتفسيره الذى ألفه فى خمسة وعشرين جزءاً يحمل عنوان «جواهر القرآن»، فى إشارة واضحة إلى اتجاهه الذي يماثل اتجاه الفخر الرازى فى الإلحاح علي ما سماه «بدائع العلم» مستعيناً بالنظريات الحديثة فى الطبيعة والرياضيات وعلوم الحيوان والنبات والفلك والطب والتشريح والسحر والتنويم المغناطيسى.

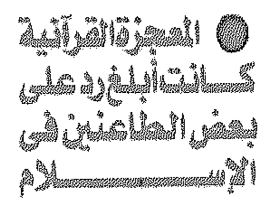
وشوقى ضيف لا يتردد فى إنكار هذا الاتجاه، وبيان مدى تكلف أصحابه فى تأويل الآيات القرآنية. فهو يقول : «وفى الحق أن تفسير الفخر الرازى القديم وتفسير الشيخ طنطاوى جوهرى الحديث يقنعاننا بأن التفسير العلمى للقرآن.. يخرجنا من دائرة القرآن إلى مباحث لا تفيدنا شيئاً فى فهم القرآن وغايته الإلهية الكبرى من هداية البشرية»، كما أنه «لا يستطيع أن يضيف لنا شيئاً فى معرفة أصل الكون وأصل الحياة».

ويعرض شوقى ضيف بعد ذلك للعلماء الذين اعترضوا على هذا الاتجاه «العلمى» فى التفسير، ومنهم الإمام الأندلسى إبراهيم بن موسى الشاطبى (توفى ٧٩٠) الذى وصف أصحاب ذلك الاتجاه فى كتابه «الموافقات» بأنهم «تجاوزوا الحد فى الدعوى على القرآن، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين». وهو يوافق الشاطبى على رأيه، فيقول إن الخطر فى ربط القرآن بالنظريات والمكتشفات العلمية يخرجه عن هدفه وتوجهه الأساسى، لاسيما وأن حقائق العلوم قد تتغير من عصر إلى عصر. صحيح أن من الممكن توجيه بعض آيات القرآن مع معطيات العلوم الحديثة عن حقائق الكون، غير أنه لا ينبغي التطرف فى هذا التوجيه، و«أولى من ذلك أن يوجه الإعجاز العلمى للقرآن توجيهاً آخر أكثر قبولاً، وهو نقله الأمة العربية من أمة بدوية إلى أمة ذات علم عظيم».

فالذى لاشك فيه هو أن القرآن فى دعوته المتكررة إلى إعمال العقل وتأمل آيات الله تعالى وحكمته فى خلق الكون واستكشاف مجاهله بعيداً عن الاعتداد بخوارق الطبيعة التى قامت عليها معجزات الرسل السابقين - هو أعظم ما قدمه الإسلام للبشرية، وهو الذى هيأ للمجتمع الإسلامى أن يكون له مكان الريادة فى تقدم العلوم بمختلف فروعها، حتى أسلمها إلى النهضة العلمية الحديثة والمعاصرة . (١).

ومن الواضح أن رأى شوقى ضيف فى هذه القضية قد لا يعجب الكثيرين من مسلمى اليوم الذين يفتتنون باجتهادات بعض العلماء المعاصرين ممن يتأولون إشارات القرآن فى الآيات الكونية، ويتلمسون موافقتها للمكتشفات الحديثة، وهى اجتهادات تشكر لهم بغير شك، غير أن كتاب الله ليس فى حاجة لإثبات حكمته إلى آراء علماء قد يصيبون وقد يخطئون.

ويستكمل حديثه عن هذا المفهوم لما سماه «معجزة القرآن الحضارية»، وهى أسمى وأوسع بكثير مما ذكرناه حول الإعجاز العلمى. فالإسلام تحول بالعرب من قبائل بدوية إلى مجتمع حضارى يقوم على إصلاح حياة الإنسان متدرجاً من الفرد إلى الأسرة إلى الأمة. ورسالته ليست موجهة إلى العرب، وإنما إلى المجتمع الإنسانى بأسره. فالقرآن يحدد بدقة حقوق الفرد وواجباته فى مجتمع يدين بالمساواة التامة بين أفراده على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، بل ويتسع أيضاً لمن يخالفونه فى الملة، فيعتبرهم أهل ذمة، وهو مجتمع يقوم على الشورى والتكافل الاجتماعى المستمد من تشريع الزكاة، ويدين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبإقامة العدل، ويأخذ بحرية العقيدة إذ يقوم على مبدأ واضح صريح : «لا إكراه فى الدين»، وهو فى ذلك يختلف عن المجتمعات السابقة التى أدت فيها الاختلافات الدينية والمذهبية إلى ألوان رهيبة من الاضطهاد وسفك الدماء. وهو يدعو إلى مكارم الأخلاق من وفاء بالعقود وأمانة وصدق وإخلاص نصيحة وحلم وعمل صالح. ولا يفوت شوقى ضيف أن يكرر فى هذا الفصل ما سبق أن أشار إليه فى الفصل السابق من عقلانية يسندها مبدأ الاجتهاد فى الفقه فى أحكام الدين والدنيا.



★★★

ونأتى إلى الفصل الأخير، وهو حول معجزة القرآن البلاغية. وقد استأثر موضوع الإعجاز البلاغى للقرآن بعناية علماء المسلمين قديماً وحديثاً حتى إن المؤلفات فيه تستعصى على الحصر، على أن شوقى ضيف - فى توخيه الإيجاز - يكتفى بعرض أبرز ما كتب فيه. وهو يبدأ بعرض رأى الجاحظ (توفى ٢٥٥)، وهو أن إعجاز القرآن يرجع إلى نظمه، أى حسن صياغاته وتراكيبه، ثم ينوه بآراء القاضى المعتزلى عبدالجبار بن أحمد (توفى ٤١٥) الذى ذهب فى كتابه «المغنى» إلى مفهوم مختلف للإعجاز القرآنى معتمد على معيار «الفصاحة» التى يتفاضل بها الكلام، والفصاحة عنده لاتظهر فى أفراد الكلام، وإنما فى الكلام كله بالضم على طريقة مخصوصة، وبكيفية إعراب كل كلمة وحركاتها وموقعها. وعلى أساس رؤية عبدالجبار أقام عبدالقاهر الجرجانى (توفى٤٧١) نظريته المشهورة فى «دلائل الإعجاز»، إذ رأى أن السر فى إعجاز القرآن يرجع إلى نظمه الذى توخى فيه معانى النحو. وقد كان شوقى ضيف أول من نبه إلى ما يدين به عبدالقاهر للقاضى عبدالجبار، وتلقف كثير من الباحثين التالين منه هذه الفكرة بغير أن يشيروا إلى سبقه إليها.

(وهو سلوك يعد من آفات حياتنا العلمية المعاصرة).

وعلى كل حال فإنه يظل لعبدالقاهر الفضل فى تفصيل تلك النظرية التى أصبحت أساساً لنضج علوم البلاغة العربية من معانٍ وبيان وبديع، إذ استمد من آرائه كل من أتى بعده. ولهذا فقد أفاض شوقى ضيف فى شرح آرائه التى استكملها عبدالقاهر فى كتابه الآخر «أسرار البلاغة».

ويختم المؤلف هذا الفصل بعرض ما كتبه حول الإعجاز القرآنى مصطفى صادق الرافعى (توفى ١٩٣٨م)، وهو أوفى الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع. وفيه يستعرض آراء من تناوله من علماء السلف، ويثنّى على ذلك برؤيته الخاصة التى تقترب فى جملتها من رؤية عبدالقاهر الجرجانى فى تحليله لألفاظ القرآن بدءاً من أصوات الحروف إلى المفردات إلى الجملة ثم الجمل، والنظر فى روابط الألفاظ والمعانى، وطريقة النسق، ووجوه الحذف، والإيجاز والتكرار، والوصل والفصل، حتى لا يمكن أن تجد فى النص القرآنى كلمة يمكن أن تبدل بغيرها.

إننا حينما نتأمل هذه الصفحات الأخيرة التى أشاد فيها أستاذنا بجهد الرافعى رحمه الله لايسعنا إلا التنويه بفضيلة أخرى له. فشوقى ضيف على الرغم من نقده المتزن الهادىء لبعض التفاصيل فى كتاب الرافعى فإنه عرف كيف ينصف ذلك العالم المظلوم الذى أخملت ذكره خصومته لبعض أعلام الوسط الأدبى فى أيامه مثل طه حسين والعقاد.

★ ★ ★

وأمر آخر جدير بالثناء، هو إخراج الكتاب فى الصورة الأنيقة التى أصدرته بها دار المعارف، وإن كانت قد وقعت فيه بعض الأخطاء المطبعية القليلة التى ننبه إليها حتى تتدارك فى الطبعات التالية.

– ومنها أخطاء فى بعض التواريخ :
– ص ٥ ، ص ١٦٥ : وفاة الشاطبى سنة ٩٧٠، والصواب ٧٩٠
– ص ٧١ : وفاة ابن حزم الظاهرى سنة ٣٥٦، والصواب ٤٥٦
– ص ٨٦ «ليعلما أهل المدينة القرآن ويفقهانهم فى الدين» . الصواب «يفقهاهم».
– ص ١١٦: «أنه – أى إسماعيل – رزق اثنا عشر ولداً» . الصواب «اثنى عشر».
– ص ١٢٦: «فقال لهما: ادعوانه لنقدم له طعاماً» . الصواب «ادعواه».
– ص ١٣١: «وانفرج – البحر الأحمر – لهم – لبنى إسرائيل – عن طريق عبره من الشاطىء الشرقى فى مصر إلى الشاطىء الغربى من سيناء». الصواب « ... من الشاطىء الغربى .. إلى الشاطىء الشرقى».

* * *

ونحن نهنىء أستاذنا الدكتور شوقى ضيف على هذا الكتاب الجليل، ونـدعو الله أن يجزل عليه ثوابه، ويكتبه فى ميزان حسناته، إنه سميع مجيب الدعاء. ■

(١) ينوه شوقى ضيف هنا – فى حرصه على نسبة كل رأى إلى صاحب الفضل فيه – بدراسة لواحد من نجباء تلاميذه، وهو الدكتور حسين نصار الذى ناقش أيضاً تلك القضية فى كتابه «الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم» (ص ١٥٢ – ١٥٣) . ورأيه فى هذا الكتاب يتفق مع رأى شوقى ضيف .



مضحكات ومبكيات

بقلم
د. محمد رجب البيومى

وهل تكون المآتم الحزينة مسرحا للمضحكات؟ تلك مفارقة مذهلة حقا اذا كانت كذلك، ولعلها بعض ما عناه ابو الطيب حين قال :

وكم ذا بمصر من المضحكات
ولكنه ضحك كالبكا !

لقد كتبت عدة مقالات حول ما يبدو فى المآتم المصرية من المضحكات، وآخرها ما نشرته فى صحيفة «صوت الأزهر» تحت عنوان (إعلانات التعازى) وكنت أظن أني أفرغت كل مافى نفسى فما بى من حاجة إلى إعادة القول. ولكن حادثا طريفا حتم علىّ أن أعود الى الموضوع من جديد، فقد رأيت ألا أحرم القارئ من طرافته النادرة، وللقارئ حق لا يغيب .

كان أحد المديرين العامين فى وزارة كبيرة ، ينتظر رحيل صهره المريض عن قريب، وحين جاء النعى، وتأهب للسفر معزيا أحضر سكرتير مكتبه. وأمره أن يتصل بكل مدرسة تتبع إدارته. ويطلب منها أن تكتب نعيا يحمل التعزية الصادقة لحضرته. وعدد أسماء المدارس طالبا أن يكون النشر بالأهرام. وأن يتتابع فى عمود واحد ليقع موقعه من التقدير، ولكن السكرتير فوجئ بمن يدعوه الى القرية لارتحال والده المفاجئ. فشغل عن المهم بالأهم وتوجه ليتلقى العزاء فى أبيه حين يقف مع أقربائه فى صف التشييع، وسافر المدير مترقبا ظهور التعازى الصادقة فلم ير شيئا. وضاعف من لوعته أن عديله قرين أخت زوجته، وهو مأمور بأحد المراكز قد قام بالتوصية الواجبة، وظهر العمود الباكى فى الأهرام يحمل التعازى لسيادته! فتضاعف الألم تضاعفا لا مزيد عليه، ولم يطق البقاء حتى تنقضى الأيام الثلاثة، وحين حضر الى مكتبه سأل عن السكرتير فعلم أنه فى القرية نظرا لوفاة أبيه ! وكان فى ذلك ما يشفع له لدى من يقدر مشاعر المرءوسين، ولكن المدير اشتعل غيظا وأصدر أمره بنقله الى مكان آخر فى غير مقر الإدارة. بعد أن كان صاحب الحظوة البالغة والتقدير الحفيل.

إن الاهتمام الكبير بهذه المسائلة الصغيرة، من كبار القادة فى الإدارات المختلفة، يذكرنا بحقيقة أليمة هى أن الارتقاء الى المناصب القيادية منذ قامت الثورة. وكذلك التعيين فى كثير من الوظائف. لا يخضع الى الكفاءة الذاتية. بل الى «تقارير داخلية» فكم من كفاءات أهدرت فى الترقية وفى التعيين، وتقدم مكانها من لا يبلغ مبلغها فى الدراية والإخلاص. لأن تقريرا مغرضا كاذبا قال عن المرشح المسكين، إنه وفدى. أو اخوانى أو شيوعى، فألغى كل مؤهل دراسى، وعصف بكل تقدم علمى،



وهكذا، أخذت القيادات تمتلئ بالإمعات ممن لا يشتهرون بنباهة أو كفاءة، فاذا رأينا ظواهر التفاهة والوصولية تنتشر فى كل مجال، فقد عرفنا علة العلل، وهى سوء الاختيار .

لماذا الإسراف ؟

وقبل أن اذكر طرفا من التبذير المسرف فى نفقات المآتم، أخالف بعض من يتحدثون عن هذا الموضوع من مدرسى علم الاجتماع حين يرجعون به الى شعائر إسلامية تجيز ذلك فى وهمهم وهذا هو الخطأ بعينه لأن رحلة الميت الى قبره فى الشريعة الإسلامية لا توجب غير الغسل والكفن على الميت، ثم التشييع الى حفرة يوضع عليها ما يشير الى أنها قبر، وهذا كل ماجاء فى كتب الفقه، وفى بلاد أخرى غير مصر يقتصر على هذه الأربعة! دون أن تقام السرادقات، أو يدعى المقرءون، إنما انحدرت هذه التقاليد من العصر الفرعونى. حين كانت الحياة الأولى فى عرف المصريين مقدمة للحياة الثانية بعد الموت. وهى الجديرة بالاهتمام، لذلك أعدت الأهرامات لتكون مقبرة. والمصاطب لتكون مقبرة والتوابيت لتكون مأوى للموميات! والتحنيط ليحمى الجسم من الفناء! وأدوات الطعام والشراب، وحاجات الملبس والنوم تدخر فى المقبرة الفسيحة لتجد الروح ما تطلب من الغذاء والشراب والكساء! وقد لاحظ المستشرق الانجليزى السير ادوارد وليم لين فى كتابه «المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم» ، أن ما شهده من تقاليد الجنائز وتشييع الموتى فى عصر محمد على تشابه فى أكثره مع ما روى عن المصريين القدماء ! فتلطيخ وجوه النسوة بالطين، والصراخ والندب واللطم، والابتعاد عن الغسل بالماء وعن التنظيف إظهارا للحزن.. كل ذلك مأخوذ، وممتد من العصر الفرعونى، إذن فالمسألة ذات تاريخ بعيد ولا تمت للإسلام بشىء!

ونترك تقاليد ما قبل القرن العشرين الى القرن العشرين نفسه، لنشير الى مقارنة بين ماحدث فى أوائله وبين ما انتهت اليه تقاليد المآتم فى أواخره، وقد كتب الأستاذ القانونى الكبير أحمد فتحى زغلول باشا فصلا اجتماعيا شافيا يصور هذه المزعجات كما رآها فى مفتتح هذا القرن، فعرفنا منه مالا نزال نرى بعضه الآن، وما حجبه الزمن بتقلبه السريع فى مناحى الاجتماع، وإن كان الإسراف المبذر أمرا مشتركا بين العهدين، لأنه مظهر الأبهة الكاذبة، وأول ما سطره الكاتب الكبير هو مالاحظه عن العامة حين يزورون المريض فى أيامه الأخيرة، إذ يوالون البكاء فيزعجونه

ويزيدونه مرضا على مرض! اذ ربما أمل الشفاء فأيأسوه! كما لاحظ أن القوم لا يدفنون الميت اذا كان من ذوى الثراء الا بعد ثلاثة أيام. حيث يقومون بنشر النبأ فى القرى المختلفة. ليحضر من المشيعين من يملئون السرادق الحافل، والطريق المنتهى الى القبر. وهذه العادة قد بطلت تماما، لأن انتشار الصحف صباحية ومسائية . جعل الإعلان يمتد الى أقصى الجهات فى مالايزيد عن يوم ! كما أن إقامة المآتم ثلاثة أيام تجمع عشرات الغرباء من الوافدين فيهيأ لهم الطعام والشراب والمثوى على مستوى يشرف عائلة الفقيد، هذه الإقامة بتكاليفها الباهظة ترهق وتزعج . وتلجئ الى الاستدانة فى كثير من الأحوال، فلا يكاد ينقضى المأتم، حتى يفاجأ أهل الميت بمصيبة ثانية هى مصيبة الدين الثقيل، وكيف يؤدى؟ وقد تباع الأرض فى سداده، فلا يكون للأيتام ما يكفيهم ضرورة الحياة!

ظاهرة الندابات

أما طوائف الندابات والمأجورات ممن يلطمن الخدود، ويشققن الجيوب ، وينادين بالصراخ المفجع، فأظن ذلك قد اختصر اختصارا بحيث لا تلحق بما سجله الكاتب فى هوله المفجع، وهذا مما نحمده دون شك، ولكن اختفاء بعض هذه المظاهر، قد أعقب ظهور منكرات أخرى، أشد منها خطرا، لأنها مصدر اسراف بغيض يأكل اليابس والأخضر، كما أن خطرها قد انتقل من أقارب الميت الى غير الأقارب ممن يلزمهم نشر المواساة فى الصحف على نحو ما نشير اليه ببعض التفصيل، يموت الميت فيكون أول ما يفكر فيه ذووه بعد تهيئة القبر طبعا هو الإعلان فى الصحيفة اليومية، وكان الإعلان سهل التأليف والأجر معا قبل أن نعيش عصر الانفتاح، وقبل أن تتدفق الأموال فى أيدى من كانوا مستورين من قبل، ثم أرادوا أن يظهروا ما غرقوا فيه من نعيم مفاجئ. فكان إعلان الوفاة أحد مظاهر هذا الثراء، فهم لا يقنعون بسطور متواضعة كبقية السطور التى تمتلئ بها الجريدة، ولكن لابد من حيز كبير، ومن اطار ضخم يملأ نصف الصفحة وأحيانا يشغل فراغها جميعه، وتتصدره صورة الفقيد أو الفقيدة، مكبرة مضخمة، وقد تكون الفقيدة عالية السن. وقد شوه الكبر وجهها مما يدعو الى حجب رؤيته عن الانظار. ولكن القوم يأبون إلا أن يطالعوا القراء بما ينفرهم، وكأنهم يستفزون مشاعرهم بما يفعلون، وتأتى السطور المتعاقبة مطبوعة بحروف كبيرة كى تشمل الفراغ الذى لابد أن

يتسع ليبهر الأنظار، وكان العقلاء فى الزمن الماضى يكتفون بذكر الأصول والفروع. اقتصادا وتواضعا، فأصبح المتباهون اليوم يذكرون الأصهار والأعمام والأخوال، وكأنهم يسجلون مفاخر أبطال سقطوا شهداء فى حومة الدفاع، ثم يحوط الإطار الفخم عدة أطر صغيرة يركب بعضها بعضا، قدمها المواسون ردا على جميل سبق به أهل الميت، أو زلفى لبعض من وردت اسماؤهم فى النعى، وكم تقلب كفا على كف حين ترى صفحة الأهرام ذات الأعْمدة الثمانية قد شغلت فضاءها بالراحلة العزيزة وحدها، بما لم يهيأ لمثل مارى كورى وغيرها من الفضليات! وفى النعى يحدد مكان العزاء فى موضع جهير، كى يتوافد عليه المعزون، واذا كان هذا الموضع المختار مما يضيق بعدد الراحلين والراحلات . فلا بأس أن يرجأ الموعد يوما أو يومين استكمالا للصورة الرائعة التى يجب أن يشهدها الناس، فان حان الموعد أخذ المهتمون بالمظهر التافه يرصدون من جاءوا من الكبار رصدا دقيقا ليكون لهم مجال فسيح فى الشكر التالى بمناسبة الأربعين ! وقد يذكر فى الشكر من لم يقم بالتعزية من الكبار اعتمادا على أنه لا يكذب أحدا يشكره! فأى مهزلة هذه؟!!

هذا ما يتعلق بالأسرة فى هذا المجال، والمسألة لا تقف عندها، وما كان لها أن تقف فى زمن التزلف والمحاباة، فقد وردت بالنعى أسماء شهيرة لبعض المرموقين من الرؤساء. وقد تكون قرابتهم قاصية، ولكنها حشرت حشرا، فلابد إذن من مشاطرة أصحاب هذه الأسماء فى تعزيات خاصة ترسل الى الجريدة، تعبيرا عن المشاركة الوجدانية فى هذا الخطب الجليل، لقد ذكر اسم الوزير أو المحافظ أو المدير العام أو وكيل الوزارة، وإذن فمن واجب كل ادارة تتبع هؤلاء الكبار أن تنهض بواجب المروءة تخفيفا لهول المصاب وبرح الفجيعة المشتعلة فى قلب الرئيس الحبيب! ولن تكون التعزية فى سطر أو اثنين أو ثلاثة بل لابد أن تكون فى اطار بارز. وبحروف لافتة للنظر، هكذا يريد من دعا .. للنشر العاجل، وكل ذلك يتطلب أجرا باهظا، فمن أين يجىء؟ أيدفع من قام بالدعوة للمواساة؟ انه اذكى من أن يتورط فى مليم واحد، ولكن الأمر سيظل مكتوما. حتى يجئ أول الشهر، فيفاجأ كل موظف فى مدرسة أو مستشفى أو مصنع باقتطاع عشرة جنيهات من مرتبه الذى لا يكفيه عشرة أيام من أيام الشهر ! فإذا سأل عن ذلك .. قيل انه اشترك فى مواساة السيد

الوزير أو السيد المحافظ. أو السيد الوكيل أو السيد المدير العام ، وهو لا يعرف شخصه، ولا يذكر أنه قابله مرة واحدة . فيعض على شفته، ولا يجد من يلتجئ اليه شاكيا، وقد يصرخ لجاره قائلا: انه اشترى الحذاء لابنه بالتقسيط. وأن ما حذف من مرتبه كان له موضعه المقرر من النفقات. فيجد الجار يشاركه بلواه، ويلعن أرباب النفاق من الوصولويين.

أذكر أنى كتبت معنى هذا الكلام فى جريدة صوت الأزهر فى المقال الذى أشرت اليه من قبل . فجاءنى من لا أعرفه من قبل وشد على يدى قائلا فى ألم : لقد خصموا منى فى شهر واحد مبلغا للتعزية ومبلغا لتهنئة محافظ جدد له، ومبلغا لشراء هدية لمدير عام رقى إلى درجة الوكيل! فليست التعزيات وحدها هى التى تروع! بل التهنئات!

نوادر العزاء

ومن النوادر أن يكتفى كاتب إعلان الوفاة ببعض الأسماء اقتصادا للنفقات، فلا يروق هذا من يتصلون بالميت من أبناء الأعمام والأخوال، ويأتون لائمين فى شبه غضب متوتر، فاذا اعتذر الكاتب بالنسيان، جابهوه بأنه ترك الكثيرين، والنسيان يعذر فى واحد، وهنا يضطر الى كتابة ملحق اضافى تحت عنوان (سقط سهوا) فيذكر كل من تناساه عامدا، والقارئ الذى يطالع العنوان «سقط سهوا» يعرف أن السهو غير وارد، وأن معركة كلامية اقتضت النشر السريع ، فيعجب لعقول بلغت مبلغ الرجولة ثم هى لا تزال فكريا فى دور المراهقة! على أن النشر التالى لا يشفى الجراح، اذ وقر لدى هؤلاء التالين، أنهم فى الدرجة الثانية، كما صرح أحدهم بذلك، أفلو كان لدينا تربية اجتماعية سديدة أكنا نشغل خواطرنا بهذه التوافه التى تتكرر دائما دون احتشام!

ومن الطرائف . إن عددت هذه طرائف، أن قريبا للمتوفى يحمل درجة (عميد) اذا ترقى اليها منذ أيام دون أن يعلم كاتب النعى خبر ترقيته، فذكر اسمه مقرونا بدرجة العقيد، فجاء صاحبنا ثائرا مهتاجا صاخبا، يقول : ماذا يظن الناس عنى، وأقاربى لا يعرفون من أنا؟ وثار اللجاج حتى لفت الأنظار فقام قروى ساذج يقول للعميد فى تبرم، افرض يا أخى أن اسمك لم يذكر . فهل ستقوم القيامة ، فضحك الناس فى مأتم العزاء!

وقد يقام للميت سرادقان، فى القرية وفى القاهرة، وطبيعى أن يكتفى أهل القرية بالسرادق المنصوب فى الليلة الأولى، تاركين لأهل القاهرة أن يقوموا

بالعزاء فى جامع عمر مكرم أو سواه، ولكن أقارب الميت الأدنين يصرون على أن يذهب كل من ينتمى الى الأسرة الى القاهرة ليقف فى صف العزاء فى الليلة التالية ، ليملئوا الفراغ الذى يجب أن يكتظ حتى يزدحم، ولا تسل عن الموظف المسكين حين يستجيب مكرها فيتكبد نفقات الذهاب والإياب. ثم المبيت ببعض الفنادق اذ لا يسع المنزل القاهرى هؤلاء الوافدين، ويصبح الصباح فيجر قدمه جرا الى قريته، وذلك كله ليقف فى الطابور فيسلم على من لا يعرف. ويظل منتصبا كالشادوف!

وهل ننسى المقرىء الكبير. إن أهل الريف يرون من باب الوجاهة أن يكون قارئ الليلة من شيوخ الصف الأول ممن يقرءون القرآن فى الإذاعة، ثم يعلنون ذلك فى القرى المجاورة فتتدافع الجموع حتى تغص بهم الحوارى والزقاق، والقارئ يعرف مكانته لدى هؤلاء، فيطلب من الأجر مايعتبر تعجيزا للكثيرين ، ولكنهم وراء الشغف بالمظهر الخادع يستجيبون ، ويدفعون الألفين والثلاثة فى الليلة الواحدة! وهو لا يكاد يصدق! ومما علمته عن أحد هؤلاء الكبار أنه حضر قبل الغروب فقرأ (ربعا) واحداً ثم استراح إلى بعد صلاة العشاء وقد تزاحمت الحشود لسماعه فقرأ ربعا آخر . ثم اتجه للرحيل اذا أثبت وجوده الشخصى، وهذا ما يكفى فى رأيه، ولكن أصحاب السرادق ثاروا عليه، وصمموا على أن يقرأ حتى ينتهى الحفل فقد أخذ ثلاثة آلاف من الجنيهات! وأصر الشيخ على الامتناع، ولكن شابا هدده بأنه سيحرق العربة (المرسيدس) التى جاء بها، لأنه لم يؤد واجبه، ورأى القارئ المرتبك أن الأمر جد، وماهو بالهزل، وقد تحرق العربة دون أن يعرف الفاعل. فيرجع على قدميه، ويفقد أضعاف ما أخذ، فاستكان، ورجع ليرتل، ولكن الاحترام مفقود! والشماتة واضحة!

ذكري الأربعين

نسيت أن أتحدث عن يوم الأربعين، وعن إعلان الشكر الجامع فى الصحف، اذا آن ذلك مما يكمل مظاهر الاحتفاء بالفقيد! وكلنا نعلم أن الفقيد قد ذهب الى ربه يتقدمه عمله، ولا يهمه أن يشكر الكبار أو الصغار، بل ذلك ما يهم الأسرة التى استجابت الى تقليد راسخ، ومن حقه أن يزول!

لقد فكر الأستاذ الجليل حسنين محمد مخلوف رحمه الله، حين كان مفتيا للديار المصرية فى الحد من مظاهر التبذير والبذخ فى مناسبات المآتم، فكتب مقالا بالأهرام يوضح ما سنه الشرع فى هذا المجال داعيا إلى الاكتفاء به، ثم امتحن بفقد ولده وكان من رجال القانون النابهين فكتب فى نعيه سطرا واحدا بالأهرام يقول فيه «احتسب حسنين مخلوف ولده فلان .

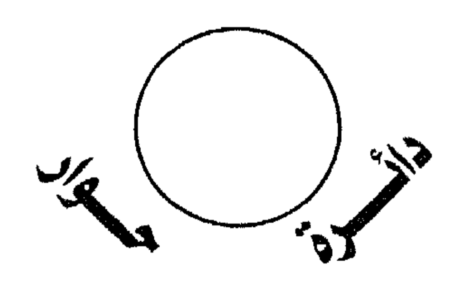
ولا مرد لقضاء الله. والعزاء بالمسجد»
وتوافد الناس لتعزيته بالمسجد. فألقى محاضرة يدعو فيها الى نبذ مظاهر الترف عند الرحيل، وقال لقد ضربت المثل وكنا نأمل أن يكون لما قام به الرجل الكبير قولا وفعلا أثر قوى فى كبح جماح المسرفين، ولكن الطباع الراسخة لا تنتقل فى يوم واحد.

ومما نقرؤه بين الحين والحين حديث عن وصية الراحل بالاكتفاء بتشييع جنازته دون سرادق، ودون إعلان صحفى، وهذا ما يحدث فعلا، ولكن ليس من الضرورى أن يكون التزام السلوك الحميد وقفا على الوصية وحدها ، بل تجب الدعوة المخلصة المتكررة. حتى تصبح عادة متبعة! واعتقد أنها ستجد القبول اذا قام بالتنفيذ ذوو الشخصيات البارزة فى المجتمع، ومن لؤم بعض الناس أن يتساءلوا : هل أوصى الميت حقا بالاكتفاء بتشييع الجنازة دون سرادق؟ وهو تساؤل يفقد معناه، لأن من حق كل إنسان أن يسير فيما يعتقد صوابه، وقد رأى من أعلن الوصية أنه لم يضر بأحد، بل رسم نهجا يجب أن يتبع، فكيف نظن به الظنون!

كنت أسمع من بعض الأصدقاء أنه لايقرأ من الجرائد غير صفحة الوفيات، ويعلل ذلك بأنه هى الصفحة الصادقة التى لا تحمل أخبارا كاذبة، وقد جاءنى عشية فقال لى : إن الكذب تطرق الى هذه الصفحة أيضا ! فقلت وكيف؟ قال : لقد ازدحمت بالتعازى الكاذبة، لأن أرباب الأهواء قد جعلوا من الموت ذريعة للملق الرخيص، فلم تنج الصفحة من النفاق وصارت كغيرها سواء بسواء! قلت وأعجب شىء أن تكون التعازى للأحياء وحدهم، فقد يموت قريب من الدرجة الثالثة لبعض الوزراء والمحافظين، فتنهال التعازى مواسية داعية، ثم يخرج الوزير أو المحافظ من منصبه، ويأتى يومه الموعود بعد حين، فلا يسارع أحد بنعيه، ولولا أن الأسرة قامت بمنعاه لما سمع به أحد!! فأين الذين واسوه من قبل فى قريب بعيد يمت اليه بأوهن الأسباب! أليس فى ذلك عبرة لأولى الأبصار

لم آت بجديد قطعا فى كل ما ذكرت ، فالقراء يعرفون جيدا أنى لم أبالغ فى شىء، ولكنى رأيت أن أنفس عن صدرى بعض ما يتقد به من جذوات، اذ أجد شيئا من الراحة حين أطالع أصدقائى بما أكن، زاعما أنى أديت فرضا يجب أن أتخفف من وخزه الأليم.

كما قد حملت العبء ثم طرحته ..
وقد كان صخرا فوق صدرك جاثيا! ■



العقلانية

وتشوية الرموز الوطنية

بقلم

د. عوض الغبارى*

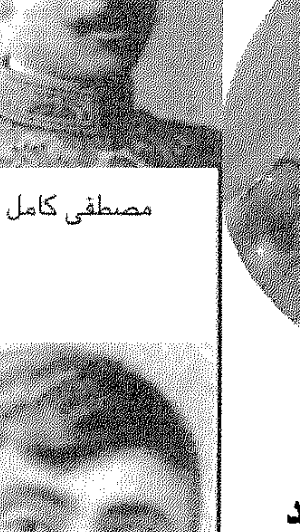
محمود العالم : يخلط بين عبد الناصر الشخص والأسطورة !

مصطفى كامل : تابع للخديو عباس حلمي وخادماً للسلطان !

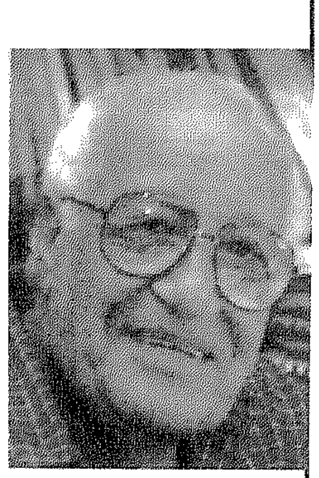
صلاح الدين الأيوبى : صنعنا منه بطلاً رغم قضائه علي الدولة الفاطمية !



مصطفى كامل



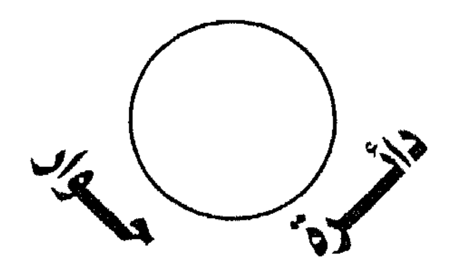
قاسم أمين



محمود أمين العالم

طالعت فى مجلة الهلال - عدد نوفمبر ٢٠٠٢ فى باب شخصية العدد مقالاً للدكتور صلاح قنصوه بعنوان : «محمود أمين العالم وتصعيد الواقع إلى مثال يحتفى فيه د. قنصوه بأستاذه العالم، وقد اندهشت لما جاء فيه من إسراف فى التأويل شوه تاريخ رموزنا الوطنية فى صدام لافت مع حقائق العلم والتاريخ والواقعية العلمية التى شاء د. قنصوه أن يفلسفها فجرد الشخصيات التاريخية البارزة مصرية وعربية قديمة ومعاصرة، من مضمونها سيرة شخصية أو رمزا جماهيريا.

* استاذ الادب بكلية الآداب -جامعة القاهرة



في هذا المقال أكد د. قنصوه أن الأستاذ محمود أمين العالم اليسارى الملتزم بالنظرة الماركسية قد انحاز إلى مصالح الجماهير ومطالب الشعوب بانحيازه الصارم إلى جمال عبد الناصر خلافا للنظرة الماركسية التى لا تولى الفرد البطل تلك الأهمية الخارقة فى حركة التاريخ حيث يرى أن هناك اختلافا بين السيرة الحقيقية للشخصيات التاريخية وبين السيرة الخارقة التى تصنعها الشعوب التى تحول هذه الشخصيات إلى رمز يشكل آمالها وتطلعاتها، ويغدو هذا الرمز مستقلا عن الوقائع الحقيقية للسيرة الشخصية للأبطال التاريخيين مما يوجب الفصل بين السيرة الشخصية (الحقيقية) لهم وبين صنع الجماهير لرموزهم وصياغة هذه الرموز صياغة مثالية خيالية .

ويرى د. قنصوه أن الأستاذ محمود أمين العالم قد استلهم روح الشعب فى انحيازه لهذا الكائن الرمزى الأسطورى لعبد الناصر حتى كاد يسقط الكائن الآخر التاريخى الشخصى من حسابه وتأملاته على حد تعبيره . وعد د. قنصوه هذا الموقف (للعالم) من عبد الناصر إيمانا وثقة ولعله حسن نية منه، إذ اعتقد بتجرده وإخلاصه، أن عبد الناصر محقق لنفس الأهداف السياسية التى شاركه فيها .

مصطفى كامل

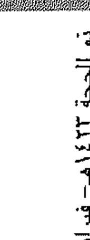
ولبيان زيف ما بين الصورة الحقيقية والصورة المثالية الرمزية للبطل الجماهيرى، ولتأكيد أهمية الفصل بين السيرة الشخصية والرمز ضرب د. قنصوة مثلا بمصطفى كامل الذى جعل المصريون منه رمزا على المستوى السياسى بينما كان حسبما يرى د. قنصوه تابعا للخديو عباس حلمى، وخادما للسلطان العثمانى الذى أنعم عليه بالباشوية، إضافة إلى ما ذكره د. قنصوه من حملة مصطفى كامل المغرضة على الثورة العرابية ، واحتقاره للمصريين ضد زواج على يوسف من كريمة السادات لأن على يوسف من عامة المصريين الذين لايملكون شرفا أو حسبا يؤهلهم لهذا النسب الرفيع وقد ذكر د. قنصوه، أيضا أن سعد زغلول - وقد عاصر مصطفى كامل - كان يصفه بأنه «نصاب» وأن قاسم أمين كان متفقا مع سعد زغلول فى ذلك، غير أن قاسم أمين غيَّر رأيه هذا بعد وفاة مصطفى كامل لما رأى من أثر وفاته فى المصريين فذهب إلى أنه «موجد الحركة الوطنية فى مصر» فصدم سعد زغلول بهذا الموقف الجديد، خاصة أن مصطفى كامل كان قد ناصب قاسم أمين العداء فى حياته، وشن عليه حملة غير نزيهة فى جريدته اللواء

قاسم أمين

والذى حدث، فى تأويل د. قنصوه أن قاسم أمين قد رأى أن اهتمام المصريين بوفاة مصطفى كامل كان دليلاً على انتباه عام، وحياة جديدة للناس، وهذه قيمة تستحق الإعجاب وقد رأى د. قنصوه أن الذى حدث هو أن قاسم أمين قد أسقط السيرة الشخصية لمصطفى كامل ووقف عند الرمز الباقى الذى صنعه الشعب المصرى له. وإذا كان د. قنصوه بهذا التأويل قد أسقط مصطفى كامل سيرة شخصية ورمزاً شعبياً سواء، بسواء فإنه قد اكتفى بالإشارة إلى أن (العالم) قد فعل ذلك مع عبد الناصر (يعنى أسقط السيرة الشخصية له وأبقى الرمز)، ولكن د. قنصوه يؤكد أن الرمز الخاص بعبد الناصر لا يعنى أكذوبة ملفقة فيخالف بذلك تأويله نفسه الذى رأى من خلاله التناقض بين الواقع والمثال فى شخصية مصطفى كامل بينما لم يره فى شخصية عبد الناصر مع أن كلتا الشخصيتين يسرى عليهما نفس الموقف حسب منهج د. قنصوه ولعله بهذا التناقض يجامل أستاذه العالم الذى انحاز إلى عبد الناصر فلم يطبق عليه الحكم الذى طبقه على مصطفى كامل فى مخالفة لمنهجه الذى إرتآه من ضرورة الفصل بين السيرة الحقيقية والرمز الجماهيرى وبين الحقيقة والخيال، وانحياز الشعب إلى الخيال دون الحقيقة. وقد فسر د. قنصوه مواقف (العالم) من مثل موقفه هذا من عبد الناصر بأنها دليل على أن (العالم) ذو نزعة مثالية فلسفية تتسلل إلى ماديته أو واقعيته عبر نواياه النبيلة فلا يقف من العقلانية موقفاً نقديا بل يصعدها من مستواها أو دلالتها الإجرائية إلى مستوى المثل الأعلى فى تصعيد للواقعى إلى المثالى .

صلاح الدين الأيوبي

ونحن وإن كنا لا نقف من رموزنا التاريخية موقف التقديس الذى ينزهها عن الوقوع فى الأخطاء الشخصية والسياسية فإننا لا ندرى ما هى الوثائق التاريخية التى اعتمد عليها د. قنصوه فى رسم هذه الصورة الشائهة للزعيم مصطفى كامل؟ ويسرى هذا أيضا على موقف د. قنصوه من بطولة صلاح الدين الأيوبى حسب منهجه الذى إرتآه فى هذا المقال، وذهب فيه إلى أن الجماهير تقوم بتصعيد الزعماء المحبوبين لهم من المستوى الواقعى إلى المستوى المثالى الذى يزيف الحقائق زاعماً أننا صنعنا من صلاح الدين الأيوبى بطلاً على المستوى السياسى بينما هو، فى نظره الشخص الذى كتم آخر أنفاس الدولة العربية بقضائه على الخلافة العربية الفاطمية، وإلحاقه مصر بالدويلة التركمانية التى كان يعمل لحسابها فى الشام والجزيرة تحت إمارة نور الدين



بن زنكى وبهذا التأويل يبدو صلاح الدين فى نظر د. قنصوه كأنه عميل أجنبى يعمل ضد الخلافة العربية، بل يرجع إليه الفضل، فى رأى د. قنصوه فى تمهيد السبيل لحكم المماليك فى مصر حتى تسلم التركمان الجدد من العثمانيين مقاليد الحكم ولم يكتف د. قنصوه بذلك بل جعله مسئولاً عن استسلام الجماهير لرقاد طويل تخللته الكوابيس، ورغم كل ذلك صنع الشعب من صلاح الدين ناصراً للعروبة وبطلاً لها تترقب وصوله لتحرير الوطن العربى على حد تعبيره

وهنا تزداد الدهشة لأن د. قنصوه بذلك يصادم حقائق التاريخ، ويؤِّل قيام الدول وسقوطها تأويلا لا يتفق مع منطق التاريخ وفلسفته فضلا عن اصطدامه بحقائق العلم التى ساقتها الشواهد التاريخية (الحقيقية)، إذ كيف يصبح صلاح الدين - وحده - مهما ألهم الشعب العربى من خيال - مسئولا عن بلاء العروبة من نهاية العصر الفاطمى إلى نهاية العصر العثمانى وما صحبه وتلاه من تخلف وجمود فى مصر؟ وماذا كانت حطين فى هذا السياق العدمى ؟

إننا لا نستطيع الوصول إلى هذا الحكم الظالم لشخصية صلاح الدين الأيوبى تاريخيا، ومرجعنا فى ذلك المؤرخون القدماء من الثقات مثل ابن واصل فى كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب وأبى شامة فى كتاب (الروضتين فى أخبار الدولتين) النورية والأيوبية وابن شداد فى كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» المعروف بسيرة صلاح الدين، وهى ليست سيرة فولكلورية، بل هى تأريخ لسيرة حياة صلاح الدين الأيوبى من شاهد عيان ثقة وقد اعتمد المؤرخ المعاصر جمال الدين سرور على هذه المصادر، وعلى المقريزى فى «الخطط» وعلى غيره فذكر فى كتابه (الدولة الفاطمية فى مصر) أن مصر فى مستهل العصر الفاطمى كانت تحتل مكاناً مرموقاً بين الدول المعاصرة لها، وكانت تنعم بالرخاء والاستقرار غير أن الأحداث التى طرأت على هذه البلاد أضعفت من شأنها، فقد اضمحل سلطان الخلافة الفاطمية، وأخذ نفوذ الوزراء فى الازدياد، وأصبح فى أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم، بل انصرف بعضهم عن الاحتفاظ بمظاهر المذهب الفاطمى، كما تنافس كبار رجال الحكومة الفاطمية على منصب الوزارة، واستعان بعض الطامعين فى هذا المنصب بأمراء الدول المجاورة مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى السيطرة على مصر، الأمر الذى مهد السبيل لزوال الخلافة الفاطمية هذا هو ما يتسق مع منطق التاريخ، ومنطق زوال دولة قيام دولة كما هى نظرية ابن خلدون

مؤسس علم التاريخ فى «مقدمته»لقد استعان الحكام الفاطميون المتنافسون على السلطة فى مصر فى أواخر دولتهم بالصليبيين مثل شاور - الوالى الفاطمى على الصعيد - الذى دعا جيوشهم إلى الحرب معه ضد منافسه ضرغام - أحد قواد الجيش الفاطمى - مما أدى إلى طمع الفرنجة الصليبيين فى مصر، واطلاعهم على ما وصلت إليه حالة هذه البلاد من الضعف والاضطراب، فتعددت غزواتهم، وأذلوا الحكام الفاطميين الذين استعانوا بهم، واضطروهم لدفع الأموال الطائلة لعقدالصلح معهم بعد أن شددوا الحصار على القاهرة، وهددوا بالاستيلاء على مصر .

وقد قام نور الدين محمود وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى- وقد استنجد بهم هؤلاء الحكام الفاطميون بعد أن أدركوا - أخيرا - خطورة الصليبيين على دولتهم فى مصر - بدور تاريخى مهم فى إبعاد الصليبيين عن مصر بعد حملات عديدة، وقد رحب المصريون بهم، ولخص الكامل بن شاور هذا الموقف التاريخى لنهاية الدولة الفاطمية وبداية الدولة الأيوبية فى مصر وقد عزم شاور على الغدر بأسد الدين شيركوه الذى أنقذه، ولكنه خاف منه، ورأى أن يقتله بعد أن تصور نتيجة هذا الخوف أن شيركوه سيقتل الحكام الفاطميين جميعاً، فقال له ابنه الكامل : «لئن نقتل ونحن مسلمين والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج». وهكذا انتهت الدولة الفاطمية لضعف الخليفة الفاطمى، والعجز السياسى للخلافة الفاطمية، واستبداد آخر وزرائها بالسلطة، واستعانته بالعناصر الأجنبية لتثبيت نفوذه فمن هو العميل هنا أهو الذى استعان بالصليبيين ودعاهم إلى احتلال مصر، أم هو الذى حررها منهم ؟ وهل كان صلاح الدين - فى السياق التاريخى الذى عرضناه - هو الذى كتم أخر أنفاس الدولة العربية الفاطمية ؟ أم أن تداعيات التاريخ كما عبر عنها الكامل بن شاور أبلغ تعبير هى التى جعلت حكم الأيوبيين المسلمين لمصر أفضل من احتلال الصليبيين الأجانب لهم؟.

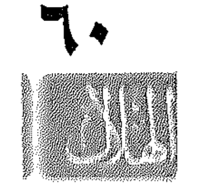
أما فيما يتعلق بما ذكره د. قنصوه من تمهيد صلاح الدين الأيوبى السبيل لحكم المماليك لمصر الذى أسلم بدوره إلى الحكم العثمانى البغيض وما تلاه من خمول وتخلف فى الحياة المصرية فإن ذلك الحكم يجافى حقائق التاريخ ، فتاريخ الأيوبيين والمماليك فى رأى د. قاسم عبده قاسم فى كتابه «فى تاريخ الأيوبيين والمماليك» يشكل وحدة تاريخية واحدة، وقد كان سقوطهما، وفق مسبباته ووقائعه التاريخية المختلفة، تجسيدا لنهاية دور المنطقة العربية فى الحضارة الإسلامية فقد كانت الدولة

الأيوبية تجسيداً للاستجابة السياسية العسكرية التى فرضتها الحروب الأوروبية الصليبية طوال القرن الثانى عشر الميلادى فهذه الدولة لم تظهر فجأة من غياهب المجهول، كما يقول د. قاسم وإنما حلت محل الدولة الزنكية التى قامت بالدور التمهيدى الرائع فى التصدى للخطر الصليبى، وقام صلاح الدين فيها بإكمال هذا الدور فى توحيد العالم العربى فى مواجهة شاملة ضد الصليبيين حتى حرر بيت المقدس فى فلسطين من أيديهم فى موقعة حطين ثم دار التاريخ دورته فخسر خلفاء صلاح الدين دولتهم لصالح مماليكهم الذين استحقوا مكانتهم فى التاريخ حين جعلوا مشروعهم الأساسى الدفاع عن المسلمين ضد العدوان الصليبى المستمر، والعدوان المغولى الطارئ وقد اكتسبت دولة سلاطين المماليك مع دولة سلاطين الأيوبيين شرعيتهما من تحمل مسئولية الدفاع عن الأرض والمقدسات فى المنطقة العربية وبنهاية دولة سلاطين المماليك التى سقطت فى أيدى العثمانيين انتقل محور الفعل ومركز الدفع فى الحضارة الإسلامية من المنطقة العربية إلى الدولة العثمانية بجناحيها الآسيوى والأوروبى، وتحولت المنطقة العربية إلى منطقة تابعة بعد أن كانت مركز الحضارة العربية الإسلامية .

هذا هو تفسير التاريخ بمنطقه العلمى الذى قدمه د. قاسم استنادا إلى الوثائق التاريخية الأصيلة، ومن سياقه يتضح الدور الفاعل للمنطقة العربية بحضارتها الإسلامية حتى نهاية دولة المماليك التى انحسر الدور العربى بعد سقوطها فى براثن العثمانيين فأين دور صلاح الدين هنا فى استسلام الجماهير لرقاد طويل كما عبرعنه د. قنصوه ؟

أين العقلانية ؟

وأين هى العقلانية التى قدمها د. قنصوه ببراعة علمية فلسفية رائعة فى هذا المقال ثم جافاها عند التطبيق على بطولة صلاح الدين ؟ إن المنطق العلمى والعقلانية والموضوعية المنهجية التى يمكن أن تتسق مع فكر د. قنصوه والتى خالفها فى هذا الحكم الجائر على صلاح الدين للأسف، تقضى بتجلى الدور التاريخى المهم الذى قامت به هاتان الدولتان (الأيوبية والمملوكية) فى الدفاع عن المقدسات العربية ضد أطماع الاحتلال الصليبى، كما تقضى بأن العروبة فقدت مكانتها فى تاريخ الحضارة بعد سقوطهما وحلول العثمانيين فمثلما ظهرت الدولة الأيوبية من طيات الصراع ضد الصليبيين فإن سقوطها جاء نتيجة لإخفاق الأيوبيين الأواخر فى توحيد الجهود ضد الصليبيين، كما رأى د. قاسم فبرزت قوة بديلة أثبتت أنها أكثر قدرة على



القيام بالدور التاريخى الذى كان مبررا لقيام دولة الأيوبيين من قبل .

لقد انصب الحكم الجائر للدكتور قنصوه علي شخصية صلاح الدين من الناحية السياسية، ولم يتناول جانب السيرة الشخصية، ربما لأنه لم يجد خلافا حول عظمة سيرته كما أثبتها التاريخ، وهنا لا نجد وفق مقاله تصعيدا لشخصية صلاح الدين من المستوى الواقعى إلى المستوى المثالي لأن صورة صلاح الدين الرمز مبنية على سيرته الشخصية العظيمة التى لا خلاف عليها شرقا وغربا، ومن الأعداء قبل الأصدقاء

أما الناحية السياسية التى انتقدها د. قنصوه فى شخصية صلاح الدين فقد أشاد بها الباحثون الغربيون ممثلة فى براعة إدارته لشئون الحرب والسياسة، وقد رأى ديفيد جاكسون مثلا أن صلاح الدين قد فعل ما استطاع به خلق الشروط التى أمكن فى ظلها إحراز النصر وقد أورد د. قاسم رأيه هذا ورأى آخرين من الباحثين الغربيين فى كتابه المشار إليه مؤكدا صحة هذه الآراء التى أبرزت الدور السياسى المهم لصلاح الدين، كما أكدتها المصادر العربية التاريخية الأصيلة وقد أورد د. قاسم أيضا رأى رنسيمان الذى قال : إن التاريخ لم يشهد حاكما فى مثل قوة صلاح الدين على مدى القرنين السابقين له . ويقرر التاريخ كما رصده د. قاسم أن النتائج المباشرة لمعركة حطين كانت بمثابة كارثة كاملة على الصليبيين إذ لم تكن حطين مجرد هزيمة عسكرية للصليبيين مكنت المسلمين من تدمير أكبر جيش أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبى على أرض فلسطين. ،لكنها - فوق ذلك - كانت تتويجا لتوحيد الجهود السياسية والعسكرية فى المنطقة العربية فى سبيل هزيمة الصليبيين وقد كان الجهاد لاسترداد القدس هو مفتاح شخصية صلاح الدين كما قررت كتب التاريخ عربية وأجنبية وكانت الظروف التاريخية تتطلب وجود قائد كصلاح الدين ليحقق النصر فى حطين بعد أن بات القضاء على الخطر الصليبى، واستعادة الأماكن المقدسة وتحرير الأرض العربية مطلبا شعبيا .

وهنا - وبهذا التفسير الذى تحكمه الآليات التاريخية - كان طبيعيا كما يقول د. قاسم أن يرتفع صلاح الدين الأيوبى من مجرد ضابط فى جيش أسد الدين شيركوه إلى بطل يملأ القلب والعقل، وهنا فى رأينا لا يكون هذا الانفصام الذى أقامه د. قنصوه بين المستوى الواقعى للبطل وبين الرمز الجماهيرى له. لقد وهب صلاح الدين نفسه للجهاد وتحرير بيت المقدس واسترداد الكرامة العربية وقد احترم العلماء والأدباء ووضعهم فى قمة إدارة الدولة وقال لجنوده «لاتظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضى الفاضل، وكان القاضى الفاضل وزيره،

وفي هذا إشارة إلى تقديره للعلماء والأدباء. ولم يكن المماليك - مع مفاسدهم في مصر - شرا مطلقا، فقد كان عصر الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقى لدولة المماليك عصرا فاصلا ابتلى بمحنة الصليبيين والمغول، ولولا بطولة بيبرس ودحره للمغول تحت إمرة السلطان قطز فى «عين جالوت» سنة ٦٥٨ هـ بعد سنتين فقط من اجتياحهم لعاصمة الخلافة بغداد سنة ٦٥٦هـ لضاعت معالم الحضارة العربية الإسلامية فلئن كان المماليك شرا على مصر فإن دحرهم للتتار على يد الظاهر بيبرس كان نقطة تحول حاسمة فى التاريخ العربى الإسلامى وفى تاريخ مصر من ثم. إذ صارت مصر عاصمة العالم العربى الإسلامى، ومركز العلم والحضارة ، يقصدها علماء المسلمين من كل مكان وكان دور المماليك - ممثلا فى دور سلطان من أعظم سلاطينهم فى الدولة المملوكية الأولى وهو الظاهر بيبرس، ودحره للتتار مماثلاً فى أهميته وفى حسمه التاريخى لدور البطل صلاح الدين الأيوبى فى دحره للصليبيين فى حطين سنة ٥٨٣ هـ وقد كانت بطولة الظاهر بيبرس رمزاً للكفاح ضد أعداء العروبة والإسلام مما خلد اسمه فى التاريخ وجعله ممثلاً للقوة الكبرى فى العالم الإسلامى وقد جاءت سيرته فى الأدب الشعبى لتصور ذلك فى الصورة التى أحبها الشعب العربى فجعلت منه البطل المخلص ، وهى الحقائق التى انتهى اليها المؤرخ المعاصر سعيد عاشور فى كتابه «الظاهر بيبرس» وأكدتها على مستوى السيرة الشعبية دراسة رائد الأدب الشعبى فى مصر عبد الحميد يونس فى كتابه الظاهر بيبرس فى القصص الشعبى» فى غير انفصال حاد بين السيرة الشخصية والرمز من خلال سلطان وصفه المقريزى بأنه كان من خير ملوك الإسلام.

لقد ظن د. قنصوه أن الأستاذ محمود أمين العالم المحتفى به فى هذا المقال قد تعتريه الدهشة عندما يتصفحه، فارجو ألا يندهش د. قنصوه إذا وجدنا نندهش نحن كذلك مما جاء فى مقاله وقد اعترف فى مقدمته بأحد أمراض مهنة اشتغاله بالفلسفة وهو الإسراع إلى التجريد واللهفة على التعميم واحتمال الانزلاق فى الإسراف فى التأويل، وهو وإن تواضع بهذا الاعتراف تواضع العلماء فإننا نحسب أنه قد حقق جانباً كبيراً منه فى تعميمه الحكم على رموزنا الوطنية وإسرافه فى تأويل ما يشوهها. تلك الرموز الوطنية التى دأبت الهلال الغراء على إبراز جوانبها المشرقة فى جميع الميادين . ■

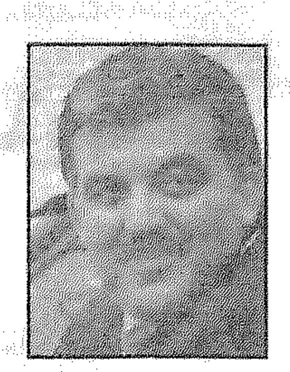


● «الأدب ليس وسيلة للتسلية وإنما أداة للدفاع عن القضايا الكبرى».

الأديب الفرنسي جان ماري ليكليزيو

● «نؤيد علمانية متصالحة مع الأديان، ونحن مسلمون ملتزمون طورنا أفكارنا».

عبدالله جول
رئيس وزراء تركيا

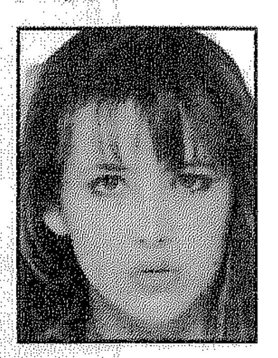

عبد الله جول

● «مكبل، غير منظور، كتوم، ومعرض للوقوع فى ممارسات جنسية مهينة»

عن تقرير الكنيسة الكاثوليكية في شأن النتائج النفسية لحياة العزوبة الرهبانية

● «إفراغ الإنسان المواطن من جوهره الإنسانى، الحرية، إنما هو إفراغ الوطن ذاته من الإنسان»

الشاعر السوري ادونيس


صوفى مارسو

● «الانجليزية هى لغة المستقبل، على الأقل فى عالم السينما»

النجمة الفرنسية صوفي مارسو
وبطلة قلب شجاع

● «أمريكا تريد لمصر أن تظل بين بين، لا هى مرتاحة ولا هى منهارة»

الأديب المصري مجيد طوبيا

● «لا يوجد مبدع حقيقى يضع الجوائز نصب عينيه»

الأديب المصري إبراهيم أصلان


إبراهيم اصلان

● «أنا لست إلا أفلامى»

المخرج الايطالي فرانشسكو روزي
بمناسبة بلوغه الثمانين

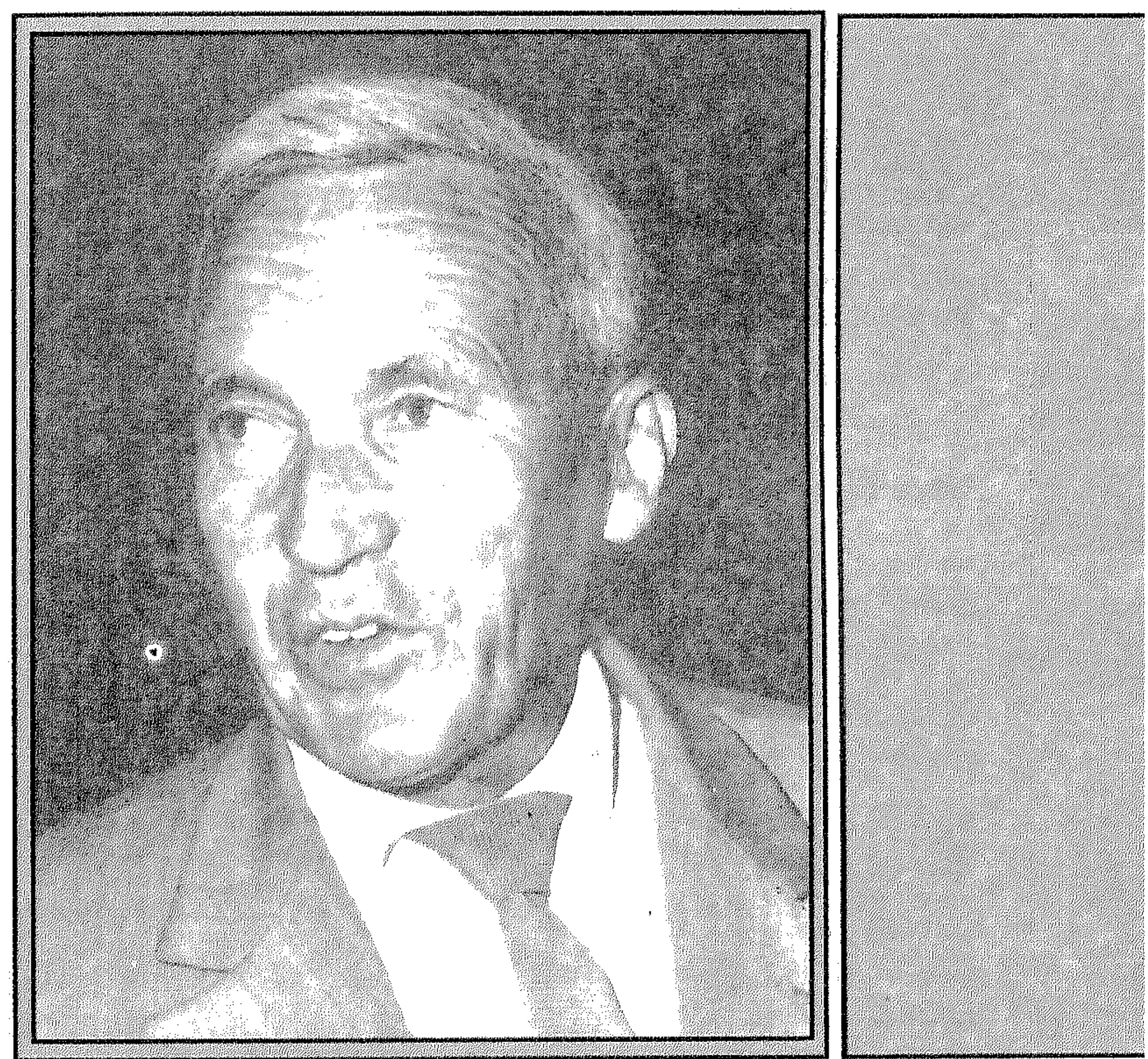
● «العلم بدون حكمة، مثل عضلات بدون مخ، يحط من شأن الإنسان»

الدكتور محمد النشائي
العالم المصري في الرياضيات
وعلم الفوضي المحددة

أندريه كولموجورف

(١٩٠٣-١٩٨٧)
واحد من أعظم خمسة علماء

بقلم
د. عبد العظيم أنيس



أندريه
كولموجورف

انتهت فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٨٧ حياة واحد من أعظم علماء الرياضيات فى تاريخ البشرية ، وهو العالم السوڤييتى أندريه كولموجورف ، كتب تلميذه أرنولد عنه فى رثائه إنه واحد من أعظم خمسة هم : نيوتن الانجليزى وجاوس الالمانى وأويلر السويسرى وبوانكريه الفرنسى ، ثم كولموجورف ، وهؤلاء الخمسة هم ممثلو خمسة أجيال تفصلنا عن بداية العلم ، ولا يتميز كل واحد من هؤلاء بغزارة إنتاجه العلمى فحسب ، وإنما بتنوعه أيضا ، فكل واحد من هؤلاء قدم إنتاجا عميقا فى فروع الرياضة البحتة وفى فروع الرياضة التطبيقية كذلك .

وعلى وجه التحديد برزت مساهمات كولموجورف أولا في وضع قواعد علم الاحتمال الحديث فى أوائل الثلاثينيات ، وكانت مساهماته فى هذا المجال هى استجابة لدعوة الرياضى الألمانى دافيد هلبرت فى مؤتمر الرياضيين فى باريس عام ١٩٠٠ الذى طرح ثلاثة وعشرين مشكلة رياضية دعا الرياضيين فى العالم إلى التركيز على حلها خلال القرن العشرين .

والمسألة رقم ٦ التى طرحها هلبرت وأجاب عنها كولموجورف هى : كيف بناء علم فيزياء حديث يقوم على مصادرات معينة بسيطة وخصوصا علم الاحتمال والميكانيكا . وقد أقام كولموجورف علم الاحتمال الحديث على مجموعة من المصادرات البسيطة مستعينا بنظرية المجموعات ونظرية القياس . ثم قدم مساهمات رئيسية فى نظرية العمليات العشوائية وفى سلاسل ماركوف وحركة براون ... وكل هذا يمثل أسس نظرية الاحتمال الحديثة .

إن القراء المهتمين بقضايا العلوم ربما يتذكرون كتاب جليك Glaik عن نظرية «الفوضى» : صناعة علم جديد ، وهو العلم الذى تأسس على أفكار التشابه الذاتى والمقايسة ، وفى هذا الكتاب يقول جليك : «إن تفتح فى الغرب قد ووجه بدرجة كبيرة من الدهشة فى الاتحاد السوفييتى لأن الكثير من هذا العلم «الجديد» معروف منذ زمن طويل فى موسكو . وجليك يفسر هذا الوضع بضعف الاتصال بين موسكو والغرب وبمشكلة التباين اللغوى والقيود التى فرضتها الحرب الباردة على النشر العلمى .

نظرية الفوضى فى الغرب

وهذا صحيح جزئيا ، ولكن ما هو




صحيح أيضا هو أن الذين اكتشفوا نظرية الفوضى في الغرب حديثا هم مجموعة غير متجانسة من علماء البيولوجيا والارصاد الجوية والفيزياء العملية ، وهؤلاء جميعا ليس لهم معرفة بالأسس الرياضية للنظرية التي كانت متاحة منذ زمن بعيد على يد أمثال كولموجورف في موسكو .

وينبغي القول أنه رغم تخلف البناء السفلي في الاتحاد السوفيتي مقارنة بالغرب (انظر مثلا استمرار الاساليب البدائية في النقل مثلا) إلا إنه كان في عهد الدولة الاشتراكية تنظيم صارم للبحث العلمي وإنشاء مدارس علمية ، مما أدى إلى تقدم عظيم في البحث العلمي النظري والتطبيقي ، الأمر الذي مكن الاتحاد السوفيتي من اللحاق بالغرب في بناء الأسلحة الذرية وفي تطوير أسلحة صاروخية تفوق الصواريخ الامريكية إلى حد كبير .

كتب العالم الأمريكي سمايل Smile المسئول الأول عن تطوير علم التربولوجيا في الولايات المتحدة يقول بعد زيارته للاتحاد السوفييتي عام ١٩٦١ .

«بعدكييف ذهبت إلى موسكو حيث عرفني أنوسوف بأرنولد وفوفيكوف وسيفا وينبغي أن أقول إنني تأثرت جدا من لقاء مجموعة من أربعة من الرياضيين الشبان النوابغ وفي السنوات التالية صرحت مراراً بأنه لا يوجد في الغرب شيء مثل هذا » .

إن الدور الذي لعبته مدرسة كولموجورف في البحث العلمي في جامعة موسكو وفي مراكز البحوث الأخرى كان محل تقدير واحترام المسئولين السياسيين هناك إلى درجة لم تكن معروفة في عهد الارهاب الستاليني .

ومن القصص التي تروى في هذا المجال قصة المعسكرات التي كان يقيمها تلاميذ كولموجرف في القوقاز للترويح عن النفس . وفي أحد هذه التجمعات تحدث بعض تلاميذه ومنهم جندنكه -Gnede ka عن الاوضاع السيئة في البلاد . وعند العودة قام واحد من المشاركين في هذه المعسكرات بإبلاغ هيئة المباحث الفيدرالية K.G.B فألقى القبض على جندنكه – وهو أحد مساعدي كولموجورف – وبقي في السجن ستة أشهر . وقد حاول المحققون الإيحاء له بأن يقول إن كولموجورف هو الذي حرضه . لكنه رفض ذلك وأفرج عنه بعد ستة أشهر بل أعيد إلى وظيفته في الجامعة أيضا . وبالطبع كان غريبا أن يحدث هذا في العهد الستاليني ، لولا المكانة التي كان يحظى بها كولموجرف .

***

والقصة الثانية التي تشير إلى هذا الوضع أيضا هي قصة الشجار الذي وقع بين كولمجورف وعالم سوفيتي آخر هو لوزين Luyin في اجتماع أكاديمية العلوم السوفيتية . وفي هذا

الاجتماع أثير موضوع ترشيح العالم الرياضى الكبير والصديق الحميم لكولموجورف لعضوية الاكاديمية . لكن لوزين عارض ترشيح الكسندر ف بعد أن كان قد وافق علي ذلك قبل الاجتماع . وفقد كولجورف أعصابه وصفع لوزين علي وجهه .

وقال فافلوف رئيس الأكاديمية لقد فعلت أيها الرجل العجوز شيئاً لم يحدث فى الاكاديمية منذ مائة وخمسين عاما » .

وبعد ذلك بأيام حكى رئيس الأكاديمية هذه الواقعة لستالين فلم يزد على أن قال «مثل هذه الأشياء تحدث حتى معنا » . وانتهى الموضوع بعد أن اعتذر كولجورف لزميله فى إبريل سنة ١٩٨٦ وبمناسبة عيد ميلاده الثالث والثمانين اجتمعت مجموعة من تلاميذه فى منزله الريفى الذى اشتراه هو والكسندرف ، وقدموا شهادات رائعة عن عملهم معه . لكن كولوجروف كان مريضا فى ذلك اليوم وعاجزا عن الكلام . لكنه فى اليوم التالى أملى الكلمة التالية .

«كانت هناك كلمات عن شبابى المتصل فى البحث ، وإننى شاكر لهذا التقدير ولكن يحسن أن أقدم حدودا لمثل هذا الكلام . فالشيخوخة هى ظاهرة موضوعية لا مهرب منها . فكيف يمكن أن تتحقق شيخوخة سعيدة ؟ من الممكن للعجوز أن ينظر إلى هذه الفترة كمرحلة سعيدة وإن شابها الشعور الحزين بأنه قد لا يستطيع عمل هذا أو ذاك » . ■



جويا



جاليليو فى أغلاله



جويا وحقوق الإنسان

بقلم
د. محمد مهدى

أصيب بالصمم فاستيقظ وعيه على مأساة القهر والحرب، والفقر

جويا: «أرى الطبيعة كتلا متألقة حرة، أو كتلا قاتمة مقيدة»!

ينتهى الفيلم الألمانى (الطريق الشاق إلى المعرفة» بإعلان مفتش محكمة التفتيش .. «إننى اسجل اسم (جويا) في سجل النسيان الأبدى، إننى ألعنه، وسوف يمحى اسمه إلى الأبد»

لانعرف اسم هذا المفتش، ولكننا نردد اسم (جويا) دوما، ونذكر الآن أنه عام ١٧٩٩ ، أى منذ أكثر من مائتى عام، كانت له مجموعة رسوم رائعة يذكرها التاريخ باسم حقوق الإنسان.

سجل فيها إدانة لعذاب الإنسان وتعذيبه فى سجون الاضطهاد والظلم، كما سجل إدانة صريحة للحرب، وما تمارسه من تقطيع وتمزيق بليد



في متحف (البرادو) بمدريد هناك قاعة كبيرة خصصت لأعمال (جويا)، تأمل فيها لوحته (الإله سارتون يفترس ابنه) رسمها عام ١٨٢٣ أى قبل وفاته بخمس سنوات وفى البرادو أيضا لوحته المشهورة (المايا) العارية، تجاورها (المايا) بملابسها، رسمهما عام ١٨٠٠، فماذا كان يشغل فرانشيسكو جويا؟

يمثل (جويا) فى حياته ، كما يمثل فى انتاجه عدة موجات عاتية، اعتملت فى خضم القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. بقايا الكلاسيكية الجديدة فى معاصره (دافيد) .. فنان نابليون الخاص، ومطلع الرومانسية فى مقدمات (جيته) الروائى و(بتهوفن) الموسيقى، و(ديلاكروا) الفنان الثائر، بل لقد احتوت أعماله إرهاصات تأثيرية، ومقدمات الجنوح السريالى ، انطبق عليه القول الوجودى «إننى أهوى الموجة العاتية التى تقذف بى إلى أعماق الهاوية، فإنها تقذف بى أيضا إلى ماوراء النجوم».

مايعنينا هنا وثيقته التشكيلية النادرة حول حقوق الإنسان، نقدمها



الثانيمن مايو ١٨٠٨

على محاور ثلاثة في الفترة الواعية من حياة (جويا).

أولا : القهر وثيقة الكبريشوس:

ولد (جويا) عام ١٧٤٦ ظهرت مواهبه الفنية مبكره، وبدأت طموحاته ساخنة انتقل إلى (سارجوسا) عاصمة مقاطعته ليدرس، ومنها سافر سيرا على الأقدام إلى مدريد بدأت مرحلة التمرد فقرر الرحيل إلى إيطاليا، عاش حياة ماجنة لاهية، يرتاد الكنائس يعاشر جموع الغجر، يدرس الفن في أكاديمية (بارما) في روما.

عاد إلى مدريد، وهناك تعرف على فنان البلاط الملكى (فرانشيسكو بايو) وتزوج اخته جوزينا، حاز شهرة واسعة في رسوم البورتريه، وشخصيات البلاط .. وحياة الترف واللهو، وانجز عدة لوحات تدور في فلك هذا العالم، اقترب من الملك شارل الثالث في سن الأربعين، صار عضوا في أكاديمية الفنون، ثم مديرا لها، في هذه الفترة تعرف على دوقة (البا) صاحبة لوحتى (المايا)، وتعرض لمرض أقعده لفترة،



الثالث من مايو ١٨٠٨

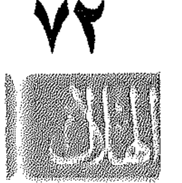
وخـرج منه وهو شـبـه أصـم، وكـانت مرحلة فارقة.

في عـام ١٧٩٩ تداخلت مـرحلة اللـهو بمرحلة الجـد، انتـج مجـمـوعـة اعـماله الحـفرية (الجـرافيك) المعروفة باسم Los, caprichos.

ورغم أن مـعنى هذه الكلمـة هو نزوات أو أهـواء، إلا أنهـا في المعنى الذي قصده (جويا) كانت تعني نزوات التـمرد على المحيط الإرهابي الخـانق، فـأقطاب الكنيسـة يفرضـون سلطانهم، ولا يسمحـون بالخروج على مايقررونه من المسـمـوح أو الممنوع، والسلطة الملكية توافق فالمصلحـة مشتـركـة .. سند ديني شـرعي للملك، مـقـابل سند سياسي مالي للكنيسة.

ويقول (كلود روي) عن هذه الرسوم الحفرية «إن الذي أدركه الاسبان عام ١٧٩٩ بكل وضـوح هو أن مـجـمـوعـة جـرافـيك (جـويا) المعـروفـة باسم كبريشـوس، هي وثيقة اجتماعـية، لا رؤية ميـتافيـزيقـية. ففي هذه الرسوم والتي تبلغ ٨٢ رسـمـا كـمـا في قـصـة رحـلات (جلفـر) للكاتب الإنجليـزي (سـويفت)، وكـمـا في قـصـة (كـانديد) للكاتب الفرنسي (فولتـير)، لايعـالج (جويا) قضية تتصل بالإنسان الخالد، وانما قضـايا الانسان الحي، والمجتمع المعـاش، قـضـايا العرش، والكنيـسة وقـضـايا الظلم، والكذب، واحـتـقـار الكائن البشـري، وبؤس المنكوبين، هنا نجد كما في (سويفت) أو (فولتير) حدا بين الهجاء الفج، والهجاء الهادف».

ويتـفق مـيل (جـويا) للأبيض والأسود، ومـا يمثـلان من صـراع بين الخير والشر، أو تداخلا بين الوضوح والغـمـوض، أو تمازجـا بين القطع والوصل، يتـفق مع جـحـيـمه الدنيـوي الجديد الذي كشف عنه. شـخـوصـه التي يضـعها في الظل عبارة عن رجال من لحم ودم، يدخل جـحـيم السـجن، سجون موبوءة بالجرذان، يتجول بين النزلاء، ارواحـهم تسبق اجسامـهم الى الجنون، والعفن، والعـذاب والضـيـاع، القيم الروحية تردت إلى هوة سحيقة ، يصـور (جاليليو) مـعذبا فقـد عارض مـحـاكم التـفـتـيش بقـوله إن الأرض كـروية، وهذا (زاباتا) من بلده الوليد (فلادوليد) يلفقون له تهمة الردة بسبب ابحاثه العلمية، وهذه البريئة مقيدة منذ سنوات، وهذا البائس لايقوى على حمل أغـلاله، نماذج عـديدة تذكـرنا بأدران زمـاننا، اضـفنا إليـهـا براءات العلم الحـديث، بما يفـوق تصـور الأديب (أورويـل) في روايتـه (١٩٨٤)، فـمـصـحـات التـأهيل التي انتـهت بـ (ونسـتـون) بطل الرواية هاتفـا للأخ الأكبر.



هذه المصحات باتت تقدم خدماتها بالمجان، ويتم توصيلها للمنازل بلا مقابل.

ثانيا : كوارث الحرب

وكما تذكرنا رواية (١٩٨٤) بالقهر كما صور (جويا)، تذكرنا رواية (أورويل) الثانية (مزرعة الحيوانات) بابتلاع الثورة لأولادها، وتحول بعضهم إلى دكتاتورية جديدة، لقد تحول نابليون ابن الثورة الفرنسية إلى امبراطور مستبد، بل نراه يغزو جيرانه. وفى ٢ مايو ١٨٠٨ يثور أهل مدريد على جنود نابليون. خلد (جويا) ذكرى الأيام الأولى من ثورة الاسبان فى لوحتين الأولى بعنوان (الثانى من مايو ١٨٠٨)، وتمثل فرقة نابليون المعروفة باسم المماليك تقاتل الثوار فى شراسة، والثانية بعنوان (الثالث من مايو.. إعدام المدافعين عن مدريد).

تستوقف النقد التشكيلى، وتستهويه دلالة البطل المتصدر وسط اللوحة، بمد ذراعيه، فى تشنج وغضب صيحته تطلق قذائف أشد هولا من رصاص البنادق المصوبة إلى صدره، ويجرى التساؤل هل هى دلالة استشهاد مسيحى جديد؟

استمرت أهوال الحرب فرسم (جويا) مجموعة حفرية (جرافيك) بعنوان (ويلات الحرب) ثم مجموعة (فظائع الحرب) .. جثث متراكمة .، بعضها هامد، فى غياهب العدو، وبعضها يتلوى من شدة الألم، ملامح الشراسة تتداخل مع خطوط القسوة، يد المقاتل تتشنج برغبة الحياة، ورغبة القتل فى آن واحد.

ثالثا : الفقر وجدران سان أنطونيو

يستكمل (جويا) إدانة الحرب، والقهر بتصوير قبة وجدران كنيسة (سان انطونيو دى فلوريدا) الجصية، لايصور الأجواء المسيحية المعتادة .. لا المسيح، ولا العذراء، ولا الملائكة المحلقة، يصور معجزة من معجزات القديس انطونيو، ولكن بطريقته، ومن خياله الخاص.

لقد أخرج ميتا من سباته لنراه فى الجدران يخرج فى سمت وسط العيون المتسائلة .. الميت الذى أعادت إليه المعجزة الحياة. لم يبعث ليحكى عن أجواء القبر، والعالم الآخر، لقد بعث ليبرىء ابيه من تهمة ظالمة، ونرى فى الرسم القاتل الحقيقى وقد هالته المعجزة، يفر هاربا تطارده عيون الدهشة، وعيون العرفان لإنصاف المظلوم. جدارية (سان انطونيو) تزدحم بالوجوه الفقيرة المطحونة من ابناء مدريد .. فتيات بملابس زاهية شعبية تجاور اجساد كالحة.. ملامح

ساذجة .. ضياع وذهول .. مشردين أوغاد .. عالم من قاع المدينة معجون بالفضائل والرذائل.

على أن الملمح المهم فى هذه الرسوم الجدارية هو الألوان، ألوان صامتة، صارمة تتفق مع ابخرة الفقر، ودلالات القهر، ألوان بنية داكنة تغلف الجو العام، ولون اصفر ذابل يغيم على مناظر الريف، ورقعه سريعة الزوال من اللون القرمزى اللامع، وخطوط لونية تمزج الأزرق بالأخضر.. وفى الأفق ينداح اللون الأرجوانى الصامت الفج. تتشبع العين بحوار حزين بين الأسود والأبيض.

أعمال (جويا) فى هذه المرحلة دار فيها جدل كثيف، وعنيف بين درامية السواد، ودرامية البياض، بياض هو أصل الحرية، يتطفل عليه السواد من طبائع الاستبداد، يتحاشى الفنان الخطوط الواضحة فى تشكيل الهيكل العام للوحة، وكان (جويا) يشكو من التقليدية التى تسعى لرسم الخطوط لا الكتل كان يقول «اين يجد الانسان الخطوط فى الطبيعة؟، إننى لا أرى فى الطبيعة سوى الكتل متألقة حرة، أو كتل قائمة مقيدة، مساحات مسطحة تتقدم للأمام، أو تتأخر إلى الوراء، أن عينى لاترى خطوطا أبدا، ولذلك يجب ألا ترى فرشتى مالا أراه. لايوجد فى الطبيعة سوى ضوء الشمس والظل».. ويقول أيضا أعطنى قلما فحميا أضع لك لوحة».

وبقدر ماشكلت هذه الرؤية الجامعة بين مأساة الإنسان المضطهد فى زمانه، وبين تجاذب عالم الضوء ، وعالم الظلام مجموعة رسوم الـ (كبريشوس) عام ١٧٩٩، بقدر ما شكلت جداريات وسقف كنيسة سان انطونيو، وفى ذلك يقول كلود روى «إن مايصوره منقاش (جويا) وحامضه فى هذه المستطيلات النحاسية هو صراع بين العقل وأحلامه، بين الحياة والموت، بين تخبط الظلام، وعقلانية الضوء، بين الليل والنهار».

توفى (جويا) عام ١٨٢٨، عام وفاة (بتهوفن) رفيق الرومانسية وفقدان السمع. دفن (جويا) فى مدينة (بوردو) الفرنسية بعد أن هاجر إليها طوعا نفورا من الاضطهاد الأسبانى، وبعد أن تخلصت فرنسا من دكتاتورية نابليون، وكان طبيعيا أن تنقل جثته بعد ذلك بسنوات قليلة إلى كنيسة (سان انطونيو) لتسكن روحه بين من أحب وصور، من أجلهم هجر النعيم وكابد، ولهم قدم وثيقته التشكيليه النادرة حول حقوق الإنسان. ■



المايا بملابسها ١٨٠٠



من ضحايا محاكم التفتيش



قضت حياتها في السجن



من ذخائر الكتب العربية

كتاب



للإمام الشافعي

بقلم

د. محمد بلتاجي

من هو الإمام الشافعي ؟

هو محمد بن إدريس بن العباس ، القرشى المطلبى الذى يلتقى نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جدّهما (عبد مناف) . ولد بغزة فى فلسطين سنة ١٥٠ هـ وتوفي بمصر سنة ٢٠٤ هـ .

وقد حفظ القرآن الكريم مبكرا (ويروى أنه حفظه وهو ابن سبع سنين) وليس هذا بأمر مستبعد علي ملكات الشافعى المتميزة التى سنعرض لها - كما يروى أنه حفظ كتاب (الموطأ) لشيخه الإمام مالك بن أنسى والشافعى (١) ابن عشر (وذلك لا يستبعد أيضا بالنسبه للشافعى عظيم المواهب ، وفى مقدمتها الذاكرة الفوتوغرافية فى الحفظ من أول مرة ، كما روى عن الشافعى) (٢) . كذلك فقد حفظ بعد ذلك أشعار هذيل ، وهى من دواوين العرب التى قال فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «حافظوا على ديوانِ شعركم فى الجاهلية ؛ فإن فيه تفسير كتابكم (القرآن) » (٣) .

قام الشافعي بالرحلة العلمية المعهودة عند العلماء في (فترة التكوين والتلقي) حيث قدم مكة فتلقى الفقه على مسلم بن خالد الزنجي مفتيها (المتوفى سنة ١٨٠هـ) وسفيان ابن عيينة الهلالي (المتوفى سنة ١٩٨ هـ) وغيرهما . ثم رحل إلى المدينة فلزم إمامها مالك بن أنس ، وقرأ عليه الموطأ ، وتلقى أيضا في المدينة عن علمائها الآخرين الذين عاصروا مالكا - ولم يكونوا في مثل علمه - ولقد عبر الشافعي عن أسفه الشديد لأنه لم يلق محمد بن عبدالرحمن بن أبي ذئب المخزومي فقيه المدينة (المتوفى سنة ١٥٩ هـ) .

ثم خرج الشافعي إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبها وجمعها ، كذلك كان يتردد على بوادي العرب ليتلقى الشعر أيضا ويزداد علما باللسان العربي. وتلقى في اليمن أيضا عن مطرف بن مازن الصنعاني (المتوفى سنة ١٩١ هـ) وعمرو بن أبي سلمة (المتوفى سنة ٢١٤ هـ) وهو صاحب إمام أهل الشام الأوزاعي (المتوفى سنة ١٤٨ هـ) وناقل علمه .

وكان للشافعي في مطلع حياته اهتمام بعلم النجوم (٤)، فطلب العلم فيها وبلغ فيه شأنا ، لكنه دفن كتب النجوم بعد ذلك..

وكان له أيضا علم بالطب ، وكان يعتبره ثلث العلم ويقول عن المسلمين : «إنهم ضيعوا ثلث العلم (٥) ووكلوه إلى اليهود والنصارى» .

ثم قدم الشافعي إلى بغداد سنة ١٨٤ هـ - بعد وفاة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة بسنتين - فلقي محمد بن الحسن (المتوفى سنة ١٨٩ هـ) ولازمه ، وأخذ عنه فقه مدرسة أبي حنيفة ، وروى عن أبي يوسف بطريقه ، كذلك أخذ في العراق عن وكيع بن الجراح الكوفي (المتوفى سنة ١٩٠ هـ) وحماد بن أسامة الكوفي (المتوفى سنة ٢١٠ هـ) وعبدالوهاب ابن عبدالمجيد البصري (المتوفى سنة ١٩٤ هـ) وغادر بغداد بعد ذلك إلى مكة ، ثم قدم العراق مرة ثانية سنة ١٩٥ هـ وأقام بها سنتين وأنشأ بها مذهبه العراقي ، واشتهر أمرة بها حيث أعاد تصنيف كتابه (الحجة) ، ثم خرج إلى مكة مرة أخرى حيث قدم إلى العراق مرة ثالثة سنة ١٩٨هـ وأقام بها أشهرا إلى أن خرج إلى مصر وأعاد التفكير في فقهه العراقي وأنشأ بمصر مذهبه الجديد حيث مات بها بعد ذلك في سنة ٢٠٤ هـ .

معلم في التشريع الإسلامي

.. وهكذا تلقى الشافعي فقه الأمصار الإسلامية كلها : مكة ، والمدينة ، واليمن ، والعراق ، ومصر «فاجتمع له علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث ، فتصرف في ذلك حتى أصل الأصول ، وقعد القواعد ، وأذعن له الموافق والمخالف ، واشتهر أمره وعلا ذكره وارتفع قدره .. حتى صار منه ما صار (٦)» .

ويعتبر الشافعي بحق معلما بارزا من

معالم تاريخ التشريع الإسلامي ؛ حيث يؤرخ به بدء حصر تدوين الأصول والقواعد فيه ؛ ذلك أن الشافعي هو أول من وضع (أصول التشريع الإسلامي) في صورة قواعد مقررة مدونة ، مصرحا به في وضوح وجلاء وتفصيل ؛ أعني في صورة (علم منهجي) . وكان عمل الشافعي هذا نتيجة ملاحظة دقيقة لما كان يراعيه الفقهاء من اعتبارات .. وإن لم يدونوها - في اجتهادهم واستنباطهم للأحكام الشرعية «فهو لم يبتدع منهاج الاستنباط الذي اهتدى إليه ، ولكن اسبقيته في أنه جمع بين هذه الأجزاء ، ومثله في ذلك مثل أرسطو في تدوينه لمنطق المشائين ، فما كان ابتداعه لأصل المنهاج ، بل كان ابتداعه في ضبط المنهاج (٧) .

وقد أشار أستاذنا الدكتور علي سامي النشار رحمه الله إلى أنه وجدت قبل أرسطو معارف منطقية ، كالاستقراء السقراطي أو القسمة الأفلاطونية كان لها أثر بالغ في تكوين (الأورجانون) ، كما وجدت قبل الشافعي معارف أصولية أثرت في تكوين منهجه في (الرسالة) ، لكن ذلك لا ينقص من فضل أرسطو والشافعي ، ولا ينفي نسبة وضع المنهج إلى كل منهما (٨) .

.. وبعد ، فذلك هو الشافعي .. الفقيه العظيم ومنشيء علم (أصول الفقه الإسلامي) ، ثالث أئمة أهل السنة الأربعة زمنا ، وتلميذ مالك (الإمام الثاني زمنا) ، وتلميذ محمد بن الحسن الشيباني (تلميذ أبي حنيفة الإمام الأول زمنا) ، كما كان الشافعي أستاذا لأحمد بن حنبل (المتوفى ٢٤١ هـ) الإمام الرابع زمنا .. فهي حلقة من العلم المتصل .

كتاب (الأم)

هو الكتاب الجامع لفقه الشافعي ، وقد ألفه بمصر في السنوات الأخيرة من حياته ، وهو يختلف بعض الاختلاف عما كان الشافعي قد كتبه في العراق من قبل، تطبيقا لأثر اختلاف الظروف باختلاف الزمان والمكان والأحداث ، وأثر هذا في نظرة الفقيه ووجهة استنباطه للحكم الشرعي وتنزيله النصوص عليها . وفي هذا السياق يطلق على قول الشافعي وهو بالعراق (القديم) وقوله المختلف وهو في مصر (الجديد) .

وقد روى الأم عن الشافعي تلميذه الربيع بن سليمان المرادي (المتوفى ٢٧٠ هـ) «والأخبار متضافرة ، والأسانيد متصلة مثبتة أن الشافعي رضي الله عنه كان يدون كتبه ، وأنه دون كتبا بالعراق ، ودون مثلها بمصر ، وكان يكتب ثم يقريء ما كتب تلاميذه ، ثم ينسخونه ، وأحيانا كان يملي ، وأن الربيع بن سليمان هو الذي روى كتب الشافعي التي انتهى إليها ، ودون آخر آرائه فيها ، وأن العلماء كانوا يشدون الرحال إليه لنقل كتب الشافعي» (٩) .

وقد طبع كتاب الأم طبعة قديمة غير محققة (وبهامشه مختصر إسماعيل بن يحيى المزني الشافعي المذهب المتوفى سنة ٢٦٤ هـ) . وجاءت هذه الطبعة في سبعة أجزاء على النحو التالي :

الجزء الأول (ويقع في ٢٦٤ صفحة) وجاء فيه : كتب الطهارة ، والصلاة .

والجزء الثانى (ويقع فى ٢٤٠ صفحة) وتضمن : كتب الزكاة ، والصيام ، والحج، والصيد والذبائح ، والنذر .

والجزء الثالث (ويقع فى ٣٠٢ صفحة) وتضمن : كتب البيوع ، وإحياء الموات ، والأحباس (الأوقاف) ، والهبة ، واللقطة واللقيط .

والجزء الرابع (ويقع فى ٢١٢ صفحة) وفيه كتب : الفرائض ، والوصايا والجزية، وقتال البغاة والمرتدين والسبق والنضال وقتال المشركين ، وسير الواقدى ..

والجزء الخامس (ويقع فى ٢٩٦ صفحة) وفيه كتب : النكاح ، والصداق ، والشغار ، والنفقات ، والطلاق والفرقة ، واللعان .

والجزء السادس (ويقع فى ٢٨٦ صفحة) وتضمن كتب : جراح العمد ، والحدود ، والأقضية .

« كما تضمن هامش هذا الجزء كتاب (مسند الإمام الشافعى) الذى استخرجه بعض الفقهاء من (الأم) باستخلاص الأحاديث التى استدل بها الشافعى ، وذكروها بأسانيدها » (١٠) .

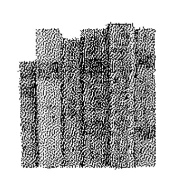
والجزء السابع (ويقع فى ٤٢٢ صفحة) وفيه بقية كتاب الأقضية ، وما اختلف فيه أبو حنيفة وابن أبى ليلى وهو مروى عن أبى يوسف ، وهو كتاب اختلاف العراقيين ، وكذلك كتاب اختلاف على وعبدالله بن مسعود رضى الله عنهما ، واختلاف مالك والشافعى ، وكتاب العتق ، وكتاب جماع العلم ، وكتاب صفة نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتاب إبطال الاستحسان ، وكتاب الرد على محمد بن الحسن فى باب الديات ، وكتاب سير الأوزاعى ، وكتاب القرعة .

(كذلك طبع فى هامش هذا الجزء كتاب (اختلاف الحديث) للإمام الشافعى)..

وجميع صفحات كتاب الأم فى هذه الطبعة غير المحققة يزيد على ألفى صفحة (٢٠٢٢) تتضمن فى مجموعها ثروة فقهية وحديثية هائلة ، كما تتضمن صورا متعددة من الخلاف الفقهى بين أكابر فقهاء القرن الثانى (وهو قرن ازدهار الاستنباط الفقهى) حيث أتيح للشافعى – كما سبق – أن يتلقى علم كافة الفقهاء أصحاب المناهج المتميزة فى القرن الثانى (١١) ، وأن يحفظ كثيرا من هذا الفقه ويضمنه كتابه (الأم) بعد ذلك مثل : اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى ، واختلاف الشافعى مع مالك ، وسير الواقدى، وسير الأوزاعى .. الخ ، كذلك نقل الشافعى الخلاف الفقهى فى القرن الأول الهجرى بين الصحابة الفقهاء حين ذكر طرفا من اختلاف على وابن مسعود وغيرهما من الصحابة رضى الله عنهم .

والشافعى فى هذا كله ليس مجرد ناقل أو مؤرخ أمين ، إنما هو الفقيه صاحب المنهج المتميز والنظرة المستقلة إلى وجهات النظر الفقهية المختلفة بين أكابر الفقهاء من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وقد كان الشافعى يوقر هؤلاء جميعا ، بيد أن هذا التوقير لم يكن ليمنعه من المفاضلة والترجيح والموازنة الدقيقة ، ومن هنا لم يتردد مثلا فى أن يقول : عن فقيه مصر الليث بن سعد (المتوفى ١٧٥ هـ) : «الليث أفقه من مالك » (١٢) وذلك مع جلالة قدر مالك عنده .

وهكذا فعل الشافعى مع فقه أبى حنيفة الذى نقل إليه عن طريق تلمذته على



محمد بن الحسن الشيباني مدون هذا الفقه (١٣) .

فالشافعي على وجه العموم يظهر في ثنايا صفحات كتابه (الأم) فقيها ذا منهج مستقل في النظر والاستدلال والموازنة والترجيح ، تلقى مختلف مناهج سابقيه ، لكنه استقل بعد ذلك بنظرته المتفردة .

محدث فقيه

كذلك يظهر الشافعي في ثنايا (الأم) - إلى جانب منهجه الفقهي المتميز - محدثا عليما بالسنة ومداخلها ودقائقها . ويبدو هذا أوضح ما يكون في مسنده المطبوع على هامش الجزء السادس من الأم ، فالشافعي فيه مثل شيخه الكبير مالك في (الموطأ) محدث فقيه عالي الكعب في العلمين اللذين لاغنى لأحدهما عن الآخر ؛ لأن كثيرا من أحكام الفقه مبنية على العلم بالحديث رواية ودراية ، وقد كان كل من الإمامين مالك والشافعي في مرتبة عالية من العلم بسنة النبي صلى الله عليه وسلم مما أتاح للشافعي (وليس هو ممن يهرف بالقول أو يقفو فيه ما ليس له به علم) أن يوازن بين شيخين جليلين في اتباع السنة هما : مالك والليث ، فيقول : « الليث ابن سعد أتبع للأثر من مالك بن أنس» وكما يقول الأستاذ مصطفى عبدالرازق بحق «وإنما وقعت المفاضلة بين الليث بن سعد ومالك بن أنس دون غيره من فقهاء العصر لأن الليث بن سعد معدود من أصحاب الحديث دون أصحاب الرأى ، ومالك بن أنس يعتبر زعيم أهل الحديث » (١٤) .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد ظهرت بالعراق في القرن الثاني ثلاث فئات تنتسب إلى الإسلام ويجمعها إنكار حجية سنة النبي صلى الله عليه وسلم .. أما الطائفة الأولى فقد انكرت حجية السنة كلها بإطلاق ، وأنكرت الطائفة الثانية حجية ما زاد على القرآن منها ، وأنكرت الطائفة الثالثة حجية أخبار الآحاد (أو أخبار الخاصة كما يسميها الشافعي) .

وقد تصدى الشافعي في كتابه (جماع العلم) (١٥) للرد على الطوائف الثلاث ، ومناظرتهم ، وإبطال ما تمسكوا به من وجهات عقلية لاتصمد أمام النظر الصحيح ... حتى بين لهم الشافعي بكل طريق أنهم إنما يستمسكون بأباطيل وأضاليل تخالف النص والعقل ، وقد قضى الشافعي على أحدوثتهم ، ورجع كثير منهم إلى الإيمان بالسنة مصدرا يتلو النص القرآني ويشاركه الحجية والإلزام للمسلمين . ولقد استحق الشافعي بهذا أن يكون (ناصر السنة) و (ناصر الحديث) .

.. وبعد ، فلقد كان الشافعي إماما في اللغة ، أديبا شاعرا ، إلى جانب إمامته في الحديث والفقه ، وريادته لأصول الفقه.. وكان يتميز بمجموعة الصفات العقلية التي تميز بها كل رائد علم نشأ العلم المنهجي على يديه في صورة قواعد منضبطة ضابطة لجزئياته ، بعد أن كان شذرات متفرقة تطبق دون منهج ضابط متحد الأركان .

وهكذا كان كتابه (الأم) صورة من هذه المواهب المتعددة ، رحم الله الشافعي، ونفع بكتابه العظيم .

(١) توالى التأسيس بمعالى ابن إدريس ، لابن حجر ، الطبعة الأميرية ببولاق ١٣٠١ هـ (ص ٥٠) .

(٢) وقد رأيت صورة معاصرة من هذه الذاكرة فى شيخنا محمد أبى زهرة رحمه الله .

(٣) الموافقات للشاطبى ١/٢١ طبع تونس ١٣٠٢ هـ .

(٤) علم الفلك .

(٥) ويقول الأستاذ مصطفى عبدالرازق : « وكان التنجيم يعتبر فرعا من فروع العلوم الرياضية ، وكان الطب فرعا من العلم الطبيعى والعلم الرياضى والعلم الطبيعى قسمان من أقسام الفلسفة التى كان مسلمو العراق يتنسمون ريحها » الإمام الشافعى ص ٥١ .

(٦) راجع : الانتقاء لابن عبدالبر ص ٦٧ ، ٦٩ ، ١٠١ وتوالى التأسيس ص ٥٠ - ٦٦ .

(٧) محاضرات فى أصول الفقه الجعفرى لأستاذنا الشيخ محمد أبى زهرة رحمه الله ص ٦ .

(٨) مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ص ٦٨ - ٦٩ دار المعارف ١٩٦٥ .

(٩) الشافعى لأبى زهرة ص ١٦٤ .

(١٠) راجع مثلا : تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٣/٢٩٦ ومراجعه .

(١١) انظر دراستنا الموسعة (فى مجلدين) : مناهج التشريع الإسلامى فى القرن الثانى الهجرى .

(١٢) شذرات الذهب لابن العماد الدمشقى ١/٢٨٥ والرحمة الغيثية لابن حجر ص ٦ - ٩ .

وراجع كتاب : اختلاف مالك والشافعى (الأم) ٧/١٧٧ وما بعدها .

(١٣) راجع مثلا كتاب (إبطال الاستحسان) فى (الأم) ٧/٢٦٧ وما بعدها.

(١٤) الإمام الشافعى ص ٨٣ ، وانظر منهج مالك فى دراستنا (مناهج التشريع فى القرن الثانى الهجرى ، ففيها وجهة نظر أخرى .

(١٥) وهو أحد الكتب المتضمنة فى (الأم) ٧/٢٥٠- ٢٦٧ كما سبق ، ولقد حققه الأستاذ أحمد محمد شاكر رحمه الله فى طبعة مستقلة ، مطبعة المعارف ١٩٤٠ ولاغنى عن كتاب الشافعى لمن يتصدى للرد على منكرى حجية السنة كلما أطلت الفتنة برأسها فى العالم الإسلامى !



قراءة فى عدد الحرب

هلال يوليو ١٩٤٠

بقلم
صافى ناز كاظم

الهلال

الجزء التاسع ـ السنة ٤٨
أول يوليه ١٩٤٠ ـ ٢٥ جمادى الأولى ١٣٥٨

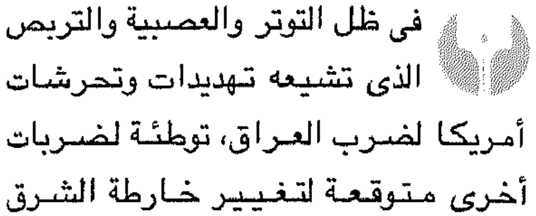
عنوان المكاتبات :
دار الهلال ، مصر ـ البوستة العمومية

قيمة الاشتراك : مصر والسودان ٨٥ قرشا ، سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن والعراق ١٠٠ قرش ، البلدان الأخرى ١٣٠ قرشا أو ١/٧/ـ جنيها انجليزيا ، أو ٦٫٥٠ دولارا أمريكيا أو ٩٠٠٠ قرش برازيلى

AL HILAL — Cairo, Egypt
(1 July 1940)

SUBSCRIPTION RATES : Egypt and Sudan P.T. 85. — Syria, Lebanon, Palestine, Transjordania and Irak P.T. 100. — Other countries P.T. 130 or £ 1-7-0 or $ 6.50 or 190 $. 000 (Brazilian Currency).

التاريخ يعيد نفسه إلى درجة الملل. لا أحد يتعظ . لا أحد يتعلم. لا أحد يستفيد. تعاقبت الحروب على بنى البشر، ونالوا من ويلاتها الكثير، لكنهم ما أن ينهضوا من حضيض كارثة حتى يبدأوا فى التخطيط لكارثة أسوأ، رغم معازف الحكماء والعقلاء الذين لم يتوقفوا عن ترديد ما خلاصته: «الحرب وبال للمنتصر وللمنهزم علي حد سواء»، وما صاح به الكورس اليوناني منذ ٢٦ قرنا: «ياويلتي ما أفدح انتصاري»!

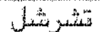


فى ظل التوتر والعصبية والتربص الذى تشيعه تهديدات وتحرشات أمريكا لضرب العراق، توطئة لضربات أخرى متوقعة لتغيير خارطة الشرق الأوسط، والوطن العربى، والأمة الإسلامية، وفقا لأهوائها الشريرة وشعاراتها السوقية الرخيصة تمهيداً لتأكيد هيمنتها الإمبراطورية على الكرة الأرضية والتحكم فى مقدرات سكانها، استغرقت فى قراءة عدد من أعداد الهلال صدر منذ أكثر من ٦٢ سنة، وجدته فى مكتبتى من ميراث مكتبة أبى بتاريخ أول يوليو ١٩٤٠. الواضح أنه كان عددا خاصا عن الحرب بمناسبة انضمام إيطاليا موسولينى إلى جانب ألمانيا هتلر، الذى أشعل الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ واستطاع أن يبقر بطن أوروبا ويتوغل فى أحشائها بدعوى إفساح المجال الحيوى للشعب الألمانى للقضاء على الوضع الجغرافى «المطوق» لألمانيا ، وفى خلال فترة وجيزة التهم هتلر النمسا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والدانيمرك والنرويج وبلچيكا وهولندا وفرنسا حتى تهددت إنجلترا، التى كانت فى ذلك الوقت الإمبراطورية العظمى المحتلة لبلاد عديدة لا تغرب عنها الشمس.

وكان هذا التطور قد دفع إنجلترا إلى اختيار ونستون تشرشل رئيساً للوزراء فى مايو ١٩٤٠ ليقود جبهة الحلفاء ضد ما تم تسميته دول المحور بقيادة ألمانيا



هتلر



تشرشل

هتلر، وكان تشرشل قد وقف يقول فى مجلس العموم البريطانى: «... فإنى لست أذكر يوما من أيام الحرب الماضية كنا فيه أدنى إلى الخطر وأقرب إلى الزوال مما نحن اليوم!».

★ ★ ★

كانت إنجلترا فى ذلك الوقت تحتل بلادنا «مصر»، ويقيم بالقاهرة مندوب احتلالها الرسمى «المعتمد البريطانى»، يدير بلادنا «مصر» علانية وفى الخفاء ويؤكد بوضوح لكل الأطراف أنه الحاكم الفعلى بها. ورغم أن الشعور الوطنى العام فى ذلك التاريخ - ١٩٤٠ - كان قد بلغ ذراه فى كراهية هذا المحتل الغاصب المذل لكرامتنا، ويرى أننا لا ناقة لنا ولا جمل فى صراع هذه الحرب بين معسكرين مجرمين يتنازعان الأسلاب والسرقات، وقد ترسخ فى أعماق أهل مصر، عبر السنوات المهينة المريرة، معرفة الكذبات المفضوحة للافتات «الحرية» و«الديمقراطية» و«الحضارة» التى كانت أجهزة الدعاية البريطانية تصرخ بها، مع حلفائها

وأذنابها، مؤكدة أنها تدخل الحرب لتحمى «الإنسانية» من بطش النازية ووحشية الفاشستية، إلا أن الأمر لم يخل من أصوات عربية ومصرية وقفت تساند «الإمبراطورية البريطانية»، ونشرت «الهلال»، فى عددها هذا الذى أتكلم عنه الخاص عن الحرب - (١٩٤٠/٧/١) - صوتا من تلك الأصوات النشاز - التى لا يخلو منها زمن من الأزمان - بقلم «الأستاذ سامى الجريدينى»، استغرق ٥ صفحات تحت عنوان : «سجل الأيام» يقول فى بعض أسطره المدهشة: «... هذا الملك الشاسع الذى بناه البريطانيون وأحكموا بناءه فرفعوه مكانا عليا قائم على ركن من الأخلاق عظيم وعلى قوة بحرية لم تحن ركبتها لبعل.... فأبناء الإمبراطورية البريطانية ... الموزعون فى الأرض حلفاء وأصدقاء وشركاء منفعة الذين يرون فى بقاء الإمبراطورية البريطانية بقاء لكل ما تواضع الناس على تسميته حرية.. كلهم هبوا وسيهبون لرد كيد من أراد باستقلال الناس شرا يبغى استعباد من ولدتهم أمهاتهم أحراراً... إن كان الجرمانيون يعدون بالملايين ينصرهم الإيطاليون فأبناء إنجلترا وأمريكا أكثر عددا وأعز نفرا...» (؟!).

★★★

انتخبت «الهلال» مجموعة من أصحاب الأقلام، نجوم عصرهم، وحددت لهم الكتابة فى موضوع «الحرب»، وبدأت الصفحات بـ «منظر رائع لإحدى طائرات سلاح الطيران المصرى وهى محلقة فوق ميناء الإسكندرية فى جولة استكشافية عقب اشتداد الحالة الدولية ودخول إيطاليا الحرب»، والصورة منشورة «بإذن من معالى وزير الدفاع المصرى». وجاء المقال الأول بقلم «الأستاذ عباس محمود العقاد» عن «الحرب الحديثة وما تلقيه على الشرق العربى من دروس»، لكن مقال الأستاذ العقاد، رغم صدارته، كان أقل كثيرا فى الأهمية والاتقان والحلاوة من مقالات : «*التطورات الاجتماعية المنتظرة* بعد الحرب الحاضرة، بقلم الدكتور أمير بقطر ، رئيس قسم التربية بالجامعة الأمريكية»، و«الجغرافيا توجه السياسة، بقلم الدكتور محمد عوض محمد، وكيل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول»، و«كيف نتقى أهوال الحرب، بقلم الأستاذ الشيخ عبدالعزيز البشرى»، و«الحياة الفكرية والحرب، بقلم الدكتور زكى مبارك»، و«هتلر ونابليون وجامعة المطامع بينهما، بقلم الأستاذ محمد عبدالله عنان»، و«التطبيق العملى لمشروع السلام الدائم، بقلم الأستاذ نقولا الحداد»، و«خطورة حشد الذهب فى الولايات المتحدة الأمريكية، بقلم الأستاذ فؤاد محمد شبل».



فى مقاله، الذى وصفته «الهلال» حقا بـ «النفيس»، لم يظهر الدكتور أمير

بقطر انحيازه لأى كتلة أو معسكر، بل إنه بدا فى مقاله مزدريا لكل مظاهر الحماس المواكب للعب الحرب ومقولات الزعماء فى عصره وما قبل عصره. إنه يكتب بسمت العلماء الهادئ وإن لم يخف شبح ابتسامة تهكم تعتريه بعد كل جملة طنانة يوردها مقتبسة من غيلان الحرب على كل جانب. يقول فى مطلع مقاله : «الحوادث التاريخية الجسام والتطورات الاجتماعية، كالمواد الكيميائية، تتفاعل بعضها مع بعض. فالحروب والثورات تليها عادة تطورات اجتماعية خطيرة، كما أن هذه التطورات تعقبها الحروب والثورات، وهكذا دواليك تأخذ بعضها بتلابيب البعض. فالحروب الصليبية ، والثورة الصناعية، والنهضة العلمية، والثورة الفرنسية، وحروب نابليون، والحرب العالمية الكبرى، كلها تمخضت عن تغييرات فاصلة حاسمة، فى السياسة والعلم ونظام الحكم والأخلاق والآداب العامة والحياة اليومية، كما أن هذه التغييرات الفاصلة الحاسمة التى تناولت جميع مرافق الحياة، كانت شديدة الوقع فى الأمم والأفراد، فسرعان ما تمخضت عن ثورات وحروب ... ».

ثم بعد أن يتساءل: «... إزاء ما بدا فى الحرب الحاضرة من العجائب، ما عسى أن نتوقعه من التغييرات الاجتماعية الخطيرة التى تطرأ على الأمم والأفراد؟»، يقسم إجاباته إلى: «أولاً: من ناحية الحرب والسلام والخلق الأممى»، ويورد من أقوال اللورد كتشنر فى الحرب العالمية الأولى قوله: «الاعتدال فى الحرب غباوة، فإذا ما خضنا غمارها وجب أن نوطد العزيمة على ربحها بأى ثمن كان، فلا الحقوق الشخصية، ولا شرف الفروسية، ولا وخز الضمير، يلزم أن يكون حائلا بيننا وبين النصر» - (؟!) - ويبين أن الناس فى مرحلة السلام تنسى الصيحات الخشنة «وكذلك تلك العاطفة الحيوانية الوحشية التى لايزال الإنسان يكنها نحو أخيه الإنسان رغم العلم والنور والمدنية... يقولون إن الكذب مباح فى ثلاثة : الحرب والصيد والانتخابات، بيد أن بعض الشعوب قد غالت أخيرا فى احترام القانون الدولى ومراعاة الآداب الاجتماعية، فكادت تروح ضحية غيرها من الشعوب التى لا ترعى للصدق حرمة، ولا للأمانة ذمة، والتى جاهرت فى مناسبات شتى أن الآداب الاجتماعية لا يمكن تطبيقها على الشئون الخارجية...».

وحين يعود ليتساءل: «فهل تسفر الحرب الحاضرة عن تطور فى الخلق الدولى، والعلائق الأممية...؟» يجيب: «... أعتقد أن العالم كله سيجعل البنادق والقنابل عمدته، والسيف أصدق أنباء من الكتب، شعاره .... يستمسك بقول نطق به سليمان الحكيم من نحو ثلاثة

آلاف سنة مضت وهو، فخر الشباب قوته، ويبعد كثيراً أن يأخذ كلام المسيح بحرفه، من ضربك على خدك الأيمن .....». وفى «ثانيا: من ناحية النظام الديمقراطى»، يرى : «.... هذه الأداة الديمقراطية، لابد أن تتمشى والعصر الحاضر، فيتناولها الكثير من الصقل والتعديل، سرعة وتنظيما، وتحديداً جديداً لمعنى الحرية، وستسفر الحرب الحاضرة عما أقول.» ! وفى «ثالثا: من الناحية الاقتصادية» يقول، ما صدقته سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهو فى معمعتها شاهد : «أما أن البؤس، والفقر المدقع، والقحط، والشقاء، وضيق العيش، وغيرها من الويلات ستضرب أطنابها فى بلدان العالم... فأمر لا شك فى وقوعه أسوة بما يحدث إثر سائر الحروب. إلا أن عوامل البؤس فى هذه المرة ستظل ناشبة أظفارها عشرات عديدة من السنين. وستقبض الحكومة بيد من حديد على موارد الثروة وتثقل كواهل ذويها بالضرائب الفادحة، وتتغلغل فى الحياة العامة..... وبتعبير أوضح ستضطر الحكومات ، حتى أشدها ديمقراطية، بالأخذ بشىء من المبادىء المشتركة بين الفاشية والنازية والشيوعية المعروفة اليوم.....» ثم ينتقل إلى «رابعا: من الناحية الخلقية» الذى يختم به توقعاته قائلا: «دل تاريخ الحروب على أنه سرعان ما تضع الحرب أوزارها حتى تكسح بلدانها موجة طاغية من الإنحلال الأدبى والتفكك الخلقى، خصوصا فى أعز ما يتمسك به الناس عادة من العناصر، وأشد ما يحرصون عليه من مبادىء. وكلما اشتدت أهوال الحروب، وامتد أجلها، واتسع نطاقها، اشتد انهيار المبادىء، واتسع انحلال الآداب الخلقية. وليس هذا بغريب من الناحية العلمية، إذ أن الطبائع الإنسانية الأصيلة الوحشية، التى صقلتها المدنية بعض الصقل، وهذبتها التربية بعض التهذيب، تأخذ فى الظهور فى أبشع صورها، وأخشن ملامسها، كلما طعنت الأزمات طمأنينة الإنسان فى الصميم، وهددت كيانه. وهذه الحرب لابد أن يختل فى ختامها ميزان العالم من الرجال والعتاد، فتصبح الملايين من النساء بغير رجال، ويصبح الملايين من الأطفال بغير آباء، وتباع الكرامة وعزة النفس بأبخس الأثمان، وينسى الأفراد ذلك الإرث الصالح، والتراث الغالى من المبادىء الخلقية التى جاءت إلينا أبا عن جد، فحرصنا عليها طويلا، وامتشق الكثيرون منا الحسام ذودا عن حياضها.... ستظل هذه الفوضى أعواما لا يعلم إلا علام الغيوب عددها، وتظل العناصر الاجتماعية تتفاعل كمواد الكيمياء حتى يصفو المزيج، ويتزن السائل وتعود المياه إلى مجاريها إلى حين ....
.... ومن

العبث أن نتوقع الاستقرار طويلا.... »

★ ★ ★

يستهل الدكتور محمد عوض محمد مقاله بما يمكن أن نستهل به مقالاتنا اليوم، ولو بتغيير طفيف، فمدخله مباشر إلى الحسم: «لا نريد أن نسرف فى القول، بأن نزعم أن الجغرافيا هى الموجه الوحيد للسياسة اليوم، فنحن فى زمن يتسلط فيه أفراد قلائل على مصير شعوب عظيمة، فيعملون على توجيهها بما توحى به أوهامهم أو آراؤهم أو شهواتهم، التى لا تستند إلى عقل حصيف، أو رأى سديد، أو فهم صحيح للأحوال والعوامل الجغرافية ، وبرغم هذا فإننا كثيرا ما نسمع من أفواه المستبدين ما يشير إلى أن سياستهم تمليها الظروف الجغرافية القاهرة . والحقيقة أن تلك السياسة تكون مما أملاه فهمهم الخاص للظروف الجغرافية، لكى يظهروا للعالم أن رغباتهم وشهواتهم ترتكز إلى أسس طبيعية، لا مفر منها....».

★ ★ ★

وينشغل الشيخ عبدالعزيز البشرى بكيف تدرأ مصر عن نفسها آثار الحرب و«تدفع المغير عن أرضها». وبأسلوبه الأدبى التأملى يقلب بين يديه كل الاحتمالات ويكتشف أن الاتقاء بالوسائل المادية لا يدفع «كفة الشر الراجحة» فيلتفت إلى الوسائل المعنوية: «هذه القوة المعنوية التى كثيراً ما تقهر القوى المادية وتظفر بها، وتفسد عليها حسابها، وتغلق دون الفوز أبوابها، هى


د. أمير بقطر


عبد العزيز البشرى

الصبر والاحتمال. فبالصبر يقهر الجيش من هم أكثر منه ، وأجزل عددا، وأوفى مددا، وقديما قيل: الشجاعة صبر ساعة...» وهو يتوقع أن يصاب أهل مصر بالغارات: «... نحن نتوقع غارات تعترينا من جو السماء. وقد تلحق بنا من الأذى قليلا أو كثيراً.

ومن ظنّ ممن يلاقي الحرو
ب بألا يصاب فقد ظن عجزا

ولنقدر ، لا أذن الله، أن يأخذنا الهلع والفزع، فماذا يكون الحال؟ لعمرى، ليس شرا على نفسه وشرا على غيره من الهلوع الذى ضل رشده، وفقد صوابه ....

.... الهلع والذعر، هما من أفتك الآلات فى يد العدو، بل لعلهما أفتك من كل ما تطوله يده من عدة وسلاح. ولا غرو على إذا دعوتهما من الآن بالطابور السادس. فعلينا أن ندرع بالصبر والاحتمال. ولا ندع للجزع إلى أنفسنا السبيل. وأن نستبقي الرشد، مهما يجشمنا من جهد. فهذه هى وسيلة النجاة، والتخفيف من ويلات هذه الحياة. أسأل الله تعالى أن

يثبت قلوبنا، ويشد متوننا. ويكشف عنا هذا البلاء، ويهون علينا مواقع الأرزاء، إنه سميع قريب مجيب الدعاء».

★★★

يختم الدكتور زكى مبارك مقاله الرشيق الأنيق سريع الإيقاع بجملة دعاء، تقترب من ابتهال الشيخ عبدالعزيز البشرى، حين يقول: «والله وحده هو المستعان على مكاره هذا الزمان». ذلك بعد أن ينوه: «أما بعد فهذا مقال اقترحه الهلال وذلك الاقتراح يشهد بأن الفكر قد يتأثر بالحرب، والهلال نفسه أصدر أعداداً خاصة بالحرب، لأن محرريه لا يملكون السكوت عما يشهدون من قلقلات التاريخ... أذكّر القراء بالصوت المشهور:

عشنا وشفنا سنين
ومين عاش ياعينى(يشوف العجب

فهو صوت خلقته إحدى الحروب، فما هى تلك الحرب؟ ومن هو صاحب ذلك الصوت؟ الدنيا هى الدنيا والناس هم الناس، وصدق بديع الزمان حين قال:

رأيت الناس خداعا
إلى جانب خداع
يعيشون مع الذئب
ويبكون مع الراعى

★★★

ويلخص الأستاذ محمد عبد الله عنان الحكمة النهائية فى السطر الأخير من مقاله: «ونحن نعرف من سير التاريخ ماذا كان مصير الفتوحات الناهبة المخربة، فهى دائما تحمل عناصر انهيارها». ويحلم الأستاذ نقولا الحداد بالسلام فى خضم الحرب وذلك بتكوين ما أسماه «حكومة الحكومات العليا» التى تخلف «جمعية الأمم» فى ذلك الوقت، «لأن فشل هذه الجمعية كان مبيتا لها فى نفس نظامها الذى لم تضمن فيه العدالة ولا سلم من التحيز ولا تُدورك فيه استبداد الدول القوية» - (بالذمة ألا ينطبق هذا بالنص على «الأمم المتحدة» التى تقف خائبة عاجزة أمام استبداد الولايات المتحدة الأمريكية الآن؟).

وينبه الأستاذ فؤاد محمد شبل، فى دراسته المستفيضة إلى أهمية الذهب فى النشاط الاقتصادى، إلى خطورة حشد الذهب فى الولايات المتحدة الأمريكية فيقول: «كانت الحرب الأوربية والمخاوف التى سبقت نشوبها أهم عامل أثر تأثيرا جديا وعمل على تجميع الذهب فى الولايات المتحدة الأمريكية. فقد دفعت هذه المخاوف الأفراد والهيئات والحكومات فى أوربا إلى نقل أموالهم إلى البنوك الأمريكية خشية من أن بقاءها حيث كانت يعرضها للضياع والمصادرة، كما عمدت الحكومات الأوربية إلى تحويل أموال طائلة لتتدارك بها احتياجاتها المستقبلية، وقد ترتب على ذلك زيادة ما فى حوزة البنوك من الذهب

خلال عام ١٩٣٩ بما يزيد على ثلاثة مليارات دولار، ونشأت هذه الزيادة بعد قيام الحرب الحالية بصفة خاصة، وقد لا نكون مغالين إذا قدرنا ما فى حوزة أمريكا الآن - (سنة ١٩٤٠) - بثلاثة أرباع الذهب العالمى - وهى نسبة مخيفة حقا. وليس هذا القدر من الذهب نتيجة لحركة الذعر السائدة فى أوربا فحسب، بل ناجم أيضا عن تسديد أثمان بضائع اشترتها أوربا من أمريكا تطبيقا لمبدأ Cash and Carry الذى يعمل به الأمريكيون اليوم، فهم يرفضون فتح اعتمادات لأوربا ويصرون على تقاضي أثمان ما تشتريه دولها نقدا مع توليها هى مهمة النقل. وعلى ذلك كلما اشتدت حاجة الدول المتحاربة وغيرها إلى السلع والخدمات الأمريكية زاد تدفق الذهب إلى الولايات المتحدة. هذا فضلا عن بقاء الميزان التجارى فى صالح أمريكا باستمرار . وهنا يحق لنا التساؤل عن مصير هذا القدر العظيم من الذهب المتجمع فى هذه البلاد وعن مستقبل المعدن النفيس كمعيار للقيمة. لا ريب أن العالم سيجابه بعد الحرب هذه المشكلة بقوة وعنف ....».

★★★

ولا تتوقف «الهلال» فى صفحات أخرى عن متابعة موضوع «الحرب» فتقول فى باب «العلم والعالم»: «الأرقام التى لا تكذب ولا تخدع لا تقدم لنا مبررا ماديا لهذه الحرب المروعة التى تأخذ الإنسانية أخذ المردة الجبابرة.. يريد الساسة أن يبرروا المجزرتين الرهيبتين اللتين قامتا فى سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٣٩ .... ولكن كلام الساسة يسوق دائما من الأكاذيب أكثر مما يورد من الحقائق. أما الذين يعتمدون على الوقائع والأرقام فيقولون إن نفقات الحرب الكبرى الأولى قد بلغت ٤٠٠ بليون من الدولارات - دع ثلاثين مليون نسمة من زهرة الشباب وصفوة الرجال قتلوا فى معاركها ....

....

فالأرقام تثبت أن ما يخسرونه فى ساحات القتال من المال أعظم وأكبر بكثير مما تأتي به الحرب من أملاك وغنائم!».

★★★

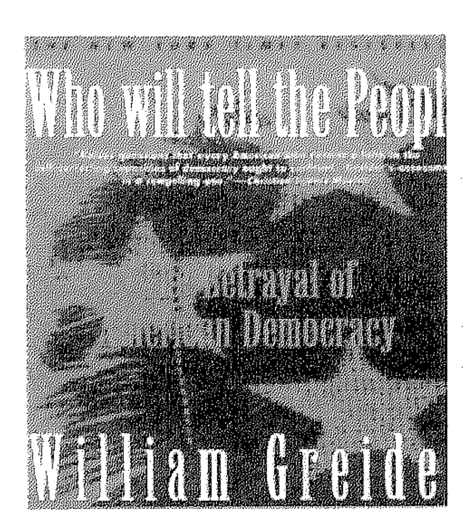
ويعلن باب الكتب الجديدة عن صدور كتاب «هتلر فى الميزان» بقلم عباس محمود العقاد، وعن «حمار الحكيم» للأستاذ توفيق الحكيم، وعن كتاب غريب عنوانه «قاموس الصحافة العربية المصرية للأساتذة موسى بريل و د. نويشتاط و ف . شوسر، طبع بمطبعة لجنة الجامعة العبرية للنشر بالقدس»!

★★★

ولا ينسى محرر الهلال أن يرفه عن قرائه بمقال طريف بقلم الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير، يتحدث عن تحضير الأرواح وعنوانه: «روح ماجن يملى مقالا ... وروح جاد يحققه ويصححه»!

★★★

وما أشبه الليلة بالبارحة! ■



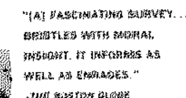
الأمريكيون يكرهون السياسة

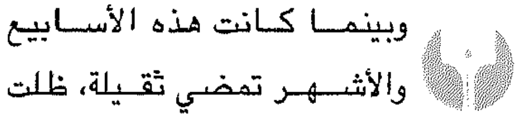
والعالم يدفع الثمن!!

بقلم
محمود أحمد

طوال الأشهر والأسابيع الماضية ، والتى عبرت بنا من العام السابق إلى العام الجديد ، ظلت شعوب (وحكومات) المنطقة المعروفة باسم «الشرق الأوسط» تتابع بمزيج من الحيرة وعدم التصديق ، تصاعد الحملة الشعواء التى تشنها الإدارة الأمريكية استعدادا لضرب العراق .

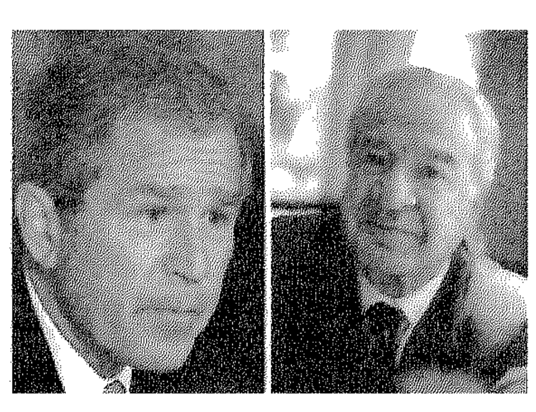
لم يصدق أحد ، بالطبع ، الدعاوى التى استندت إليها الادارة الأمريكية لتبرير هذا الفصل من حملتها على الإرهاب . ولم يتمكن العمل الدبلوماسى والإعلامى الأمريكى المكثف من بناء قناعة بأن العراق يمتلك من أسلحة الدمار الشامل ما يمكن أن يهدد به .. ليس جيرانه فقط ، وإنما الأمن القومى الأمريكي نفسه ، هكذا دفعة واحدة!





وبينما كانت هذه الأسابيع والأشهر تمضي ثقيلة، ظلت الإدارة الأمريكية، من جانبها، تتجاهل عدم الاقتناع الواضح لدي الشعوب والحكومات داخل المنطقة وخارجها.. بل إنها أبدت عدم اكتراث مذهل بكل التحذيرات والدعوات التي وجهت إليها في محاولة للتنبيه إلي الكوارث التي يمكن أن تنجم عن ضربتها القادمة.. سواء ما أطلقه الزعماء والسياسيون أو ما جاء من جانب رجال الدين بمن فيهم البابا يوحنا بولس في رسالته بمناسبة عيد الميلاد

وفى مواجهة الموقف الذى استمر يزداد سخونة، خرجت مظاهرات هنا وهناك - معظمها فى أوروبا - تحتج على هذا التوجه الذى يمضى بعناد نحو الحرب. ولكن كل ذلك ذهب أدراج الرياح أمام تصميم الإدارة الأمريكية وأخذت تترسخ القناعة بأن «الحرب ضد الإرهاب» «والعمل على» إزالة الخطر العراقى «ماهى» إلا ذرائع تحاول الولايات المتحدة أن تتستر وراءها وهى تعمل لتنفيذ خطط الهيمنة على العالم التى رسم خطوطها خبراء الاستراتيجية الأمريكية.. حتى قبل أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١.



محمد حقى — جورج بوش

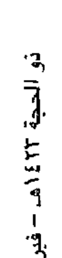
وتدريجيا، أخذت هذه الصورة تزداد وضوحا حتى أصبح يدركها رجل الشارع العادى، مهما تواضع وعيه السياسى، فى «المنطقة» وخارجها. ولكن سؤالا ظل معلقا بلا جواب، طوال الوقت، حول موقف الشارع الأمريكى نفسه، ومدى إدراكه لهذه الصورة، وبالتالى مدى إمكانية تأثيره على قرارات «الإدارة»، خاصة وأن الأخبار الواردة من الولايات المتحدة أكدت أن المدن الأمريكية شهدت هى أيضا مظاهرات وتجمعات سياسية تعلن رفضها للحرب وللدعاوى التى تستند إليها.

كان هذا التساؤل واحدا من الاسئلة العديدة التى طرحت أثناء لقاء تم مع زميل وصديق قديم مقيم فى الولايات المتحدة منذ أكثر من ربع قرن، وتصادف أن مر بالقاهرة مؤخرا وهو محمد حقى الصحفى المخضرم والرئيس الأسبق لهيئة الاستعلامات.. والذى ينتمى سياسيا إلى

الحزب الجمهوري.. حزب الرئيس جورج بوش وإدارته. وأكد محمد حقي أن المظاهرات لفتت الأنظار بالفعل، خاصة وأنها كانت شاملة بحيث لم تستثن منها مدينة أمريكية صغيرة كانت أو كبيرة. ولكن هذه المظاهرات والاحتجاجات السياسية التي رافقتها ما لبثت أن أخذت تخبو حدتها، خاصة مع اقتراب موسم العطلات (أعياد الميلاد ورأس السنة). وعلى أي حال، فإنه لم يبد أن أحدا قد أهتم بهذه الاحتجاجات - على مستوى الإدارة - أو توقع أن يكون لها تأثير ذو بال على السياسات والقرارات الخاصة بالعراق. وكان تفسير زميلنا محمد حقي هو أن «أزمة العراق» لم تصل إلى الحد الذي يهدد الأسرة الأمريكية.. على نحو ما جرى في تجربة الحرب في فيتنام مثلا عندما كانت نعوش الجنود القتلى تصل إلى أنحاء الولايات المتحدة فتسبب هزات كان لابد وأن تؤثر في القيادة وقراراتها.

وبالطبع ، فإننا إذا أضفنا إلى ذلك ما هو معروف عن تأثير الحملة الإعلامية الكاسحة التي استعانت بها الإدارة الأمريكية لصياغة وعي الرأي العام، لأدركنا أيضا سببا آخر من أسباب عدم اكتراث الرئيس بوش وإدارته بالاحتجاجات الداخلية لرجل الشارع الأمريكي المعروف عنه أصلا أنه لا يعبأ كثيرا بالشئون السياسية، ولايشغل نفسه بها، خاصة إذا كانت تتعلق بالشئون الدولية ولم تكن ذات تأثير مباشر علي حياته ومصالحه.. وفي أزمة العراق تحديدا، ولأنها صورت لرجل الشارع الأمريكي على أنها تأتي في إطار محاربة «الإرهاب» الذي هاجمه في عقر داره في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، لم يكن متصورا أن يتحول الفرد الأمريكي فجأة فيغير من طبائعه واهتماماته، وأن يبدأ بفحص أحوال السياسة والتدقيق فيها بحثا عما هو حق .. وما هو عدل!

على أن هذه الأزمة التي وضعت العالم العربي والإسلامي خصوصا في مواجهة واحدة من أشد الإدارات الأمريكية تطرفا، ربما تكون فرصة للتمعن في هذا الموقف التقليدي الذي يتخذه الأمريكي العادي من الشئون السياسية عامة.. ومن السياسة الخارجية على وجه الخصوص ! كما أنه قد يضاعف من الحاجة إلى تفحص هذا العزوف من جانب الأمريكيين عموما عن الاهتمام بالشئون السياسية - والشئون الدولية على وجه أخص - ما رافق حملة الإدارة الأمريكية من جهود مبالغ فيها لتلقين شعوب الشرق الأوسط دروسا في



الديمقراطية التى تخلفت فيها ، فبينما نجد أن كتابا أمريكيين مرموقين يوجهون انتقادات صريحة لما آلت إليه الديمقراطية الأمريكية ذاتها ، تعمد الإدارة الأمريكية ممثلة بوزير خارجيتها «كولن باول» إلى إطلاق مبادرتها التى تهدف إلى نشر الديمقراطية فى ربوع المنطقة . فقد اكتشف أركان الإدارة - وفى مقدمتهم باول نفسه و«جورج تنيت» مدير وكالة المخابرات المركزية» و«ريتشارد هاس» مدير التخطيط السياسى بوزارة الخارجية - أن الحاجة قد أصبحت ملحة لسد «الفجوة الديمقراطية » بين العالم العربى وبقية العالم .. على حد ما جاء فى افتتاحية صحيفة Democracy Gap «الواشنطن بوست» (فى ٢٩ ديسمبر ٢٠٠٢) !!

* * *

فى أعقاب الضربة الأولى التى قادت الولايات المتحدة تحالفا دوليا لتوجيهها إلى العراق ، فى مطلع التسعينيات ، لم تكن الظروف ولا مناخ العلاقات الدولية مماثله لما هى عليه الآن . ومع ذلك ، فقد كانت الأوضاع السائدة كافية لكى تحفز كاتبا صحفيا أمريكيا اسمه إى . جى ديون E . J. Dionne, Jr إلى تأليف كتاب يرصد ظاهرة عزوف الأمريكيين عن



جورج تينت

الانغماس فى «السياسة» وميلهم الواضح لإدارة ظهورهم للعمل السياسى . وقد لفت الكتاب الأنظار فى حينه ، حتى أنه صنف كواحد من أكثر الكتب مبيعا وانتشارا Bestseller ، ولا يزال يعد أحد أهم المراجع فى هذا الموضوع

واختار المؤلف لكتابه عنوانا مباشرا وصريح الدلالة هو : «لماذا يكره الأمريكيون السياسة Why Americans Hate Politics » .

أورد «ديون» فى صدر كتابه عبارة - حتى قبل فهرس المحتويات - من رسالة للرئيس التشيكى والأديب «فاسلاف هافل» كان قد وجهها إلى الكونجرس الأمريكى . والعبارة ذات مغزى لا يخفى على أحد ، فقد خاطب «هافل» أعضاء الكونجرس قائلا «إنه طالما أن الشعوب ستظل كما عرفناها دائما ، فإن الديمقراطية - بمعناها



الكامل - ستبقى مجرد فكرة مثالية .
وسوف يقترب منها البعض ، بدرجة أو بأخرى ، ويمارسها البعض بصورة أفضل أو أسوأ ، ولكن إحرازها بالكامل سيبقى دائما بعيد المنال . ومن هذا المنطلق ، فإنكم أنتم أيضا لا تفعلون أكثر من مجرد الاقتراب من الديمقراطية»

سنتجاوز ملاحظة «هافل» ومغزاها ، لننتقل إلى مضمون كتاب «ديون» الذى حاول أن يلقى الضوء على أسباب عزوف الأمريكيين عن السياسة وإدارتهم ظهورهم لها .

فى البداية ، يلاحظ الكاتب الأمريكى أنه فى مطلع التسعينيات ، وعندما كانت «الديمقراطية قد أخذت تتفتح من جديد فى بلدان شرق أوروبا (بعد انهيار الاتحاد السوفييتى والمعسكر الشرقى) ، كان العكس يحدث فى الولايات المتحدة حيث بد أن الديمقراطية تخبو تدريجيا ويعتريها ما يشبه الصدأ . وهو يقول إن الأمر كان قد بدا قبل ذلك بثلاثة عقود ، عندما أخذت ثقة الأمريكيين بمؤسساتهم الديمقراطية تتناقص وتتآكل تدريجيا وبدأ الشك يتسرب إلى نفوسهم إزاء قدرتهم على تحسين الأوضاع العالمية من خلال العمل السياسى .

وقد كان من المؤسف أن يحدث ذلك للأمريكيين وهم الذين ظلوا - على مدى قرنين كاملين منذ أواخر القرن الثامن عشر - يتباهون بـ «النموذج الأمريكى» الذى يمكن للفرد من خلاله أن يمارس «مواطنيته» ويحقق ذاته ويحرز المكاسب أيضا عن طريق العمل العام . وبدلا من أن يقوى هذا النموذج ويزداد زخما ، إذا بنا نرى الأمريكيين فى نهايات القرن العشرين وقد اعتراهم الملل من العمل السياسى وأخذ يدب فيهم التفكك بعد الجماعية والاحتشاد .

ويمضى «ديون» شارحا : بالنسبة للكثيرين منا ، أخذت السياسة تتحول إلى شىء مجرد ، أو إلى نوع من الألعاب الرياضية التى يكتفى المرء فيها بالمشاهدة دون المشاركة . وحتى الحملات الانتخابية التى اعتاد الأمريكيون الانغماس فيها بحماس ، بدأت هى أيضا - وبصورة متزايدة - تصبح أقل إثارة بالنسبة إليهم ، وعلى نحو لم يسبق له مثيل فى الحياة الأمريكية .. خاصة بعد ما بدا واضحا من خضوعها وتأثرها بالإعلانات التليفزيونية وعمليات استطلاع الرأى . وهكذا يجد الأمريكيون أنفسهم الآن يعاملون لا كأفراد لهم كياناتهم وكناخبين

عليهم المشاركة فى تقرير مصير بلادهم ، وإنما «مجموعات من البشر» تساق معا - حتى وإن تم ذلك أحيانا بالاسترضاء والملاطفة - من أجل تحقيق نتائج معدة سلفا بصورة محكمة .

والمفارقة ، كما يلاحظ الكاتب أيضا ، أنه فى الوقت الذى لا تزال الديمقراطية فيه تمثل شعارا يعتنقه الأمريكيون ويوصون به غيرهم فى أنحاء العالم شرقا وغربا ، فإن ما يبذل داخل الولايات المتحدة نفسها لتأكيد وتوطيد قيم المشاركة فى الحكم قد بدأ يتضاءل بشكل واضح . والنتيجة ، أن شكوك الأمريكيين تتزايد باستمرار فى أن العملية الانتخابية توفر لهم الوسيلة حقا للمشاركة فى إدارة حكوماتهم المحلية ، وكان من الطبيعى أن نصف الناخبين الأمريكيين على الأقل فقد الاهتمام بالتوجه إلى صناديق الاقتراع بأصواتهم عندما يحين موعد الانتخابات .

ويسجل «ديون» ، فى هذا السياق ، أن ابتعاد الأمريكيين عن المشاركة فى العمل العام قد أدى ، تدريجيا ، إلى أنهم أخذو يفقدون «الحس المجتمعى Sene of community » فضلا عن افتقادهم الهدف المشترك . وهو يقول إنه قد نجمت عن ذلك ثغرات أو فجوات اجتماعية ، لعل أخطرها يتمثل فى أن الانقسام بين البيض والسود قد ازداد اتساعا إلى درجة أن أدوات التعبير المباشر كاللغة والموسيقى التى يسمعها المرء فى داخل المدن قد غدت مختلفة عنها فى الضواحى أو المناطق النائية .

وهنا ، نجد أن المؤلف الأمريكى ينتهى إلى نتيجة هامة للغاية ، هى أن ابتعاد الأمريكيين أو عزوفهم عن الإنخراط فى الحياة العامة قد أدى إلى نوع من «الفراغ السياسى political void» الذى أخذت تملؤه ، وبصورة متزايدة ، السياسات الهجومية والقضايا غير المهمة وغير الحقيقية بالنسبة لجموع الأمريكيين .

فهل يمكن لنا ، إذن ، أن ندرج القضايا العالمية الخطيرة الراهنة ، وفى مقدمتها - بالنسبة للشعوب فى المنطقة العربية والشرق الأوسط - الحملة على العراق بصفة خاصة وسياسات الهيمنة الأمريكية بصفة عامة ، بين هذه القضايا «غير المهمة» بالنسبة لرجل الشارع الأمريكى ؟

إن «ديون» ينتقل من هذه النقطة ليقرر أن الأمريكيين لم يعودوا متأكدين حتى من مغزى إنتصارهم فى الحرب الباردة . ذلك أن انتهاء هذه الحرب قد

جلب معه قدرا محسوسا من «القلق» إزاء ما سيؤدى إليه ذلك من إضمحلال الدور العالمى للولايات المتحدة ، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار تناقص القوة الاقتصادية العالمية الأمريكية لصالح اليابان وأوروبا . كما أن القضايا الكبرى التى سيطرت على التفكير الأمريكى وتوجهاته على مدى عقود متعاقبة ، قد أضحت بغير معنى ولا علاقة لها بالعالم الذى تواجهه الولايات المتحدة الآن . بل إن «التحالف الدولى» الذى أقامه الرئيس الأسبق «جورج بوش» - الآن - ضد العراق ، فى مطلع التسعينيات ، لم يكن ليخطر على بال أحد لا فى الولايات المتحدة ولا خارجها قبل إقامته بوقت قصير . وهذا فضلا عن أنه من المسلم به أن الأسلحة التى استخدمتها الولايات المتحدة ضد العراق فى تلك الحرب كانت قد أنتجت أصلا «لكى تؤدى دورا فى صراع آخر ، وفى مكان آخر ، وضد عدو مختلف» .

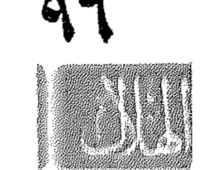
ويلاحظ «ديون» ، فى هذا السياق ، أن المنطق الذى اعتمدته الولايات المتحدة لمواجهة العراق فى ذات الوقت كانت قد تمت صياغته خلال سنوات الصراع فى فيتنام» كما لو كان استخدام القوات الأمريكية يعنى دائما الشىء نفسه فى كل مكان فى العالم وضد أى عدو أيا كان» .. على حد تعبيره .

أما بيت الداء هنا ، فيكمن فى جوهر الحياة السياسية الأمريكية ومشكلاتها المعقدة والمتشابكة والتى يتابعها المؤلف على مدى فصول الكتاب مؤكدا أنها ترجع كلها إلى فشل الأيديولوجيات التى تحكم السياسة الأمريكية .. سواء فى ذلك الأيديولوجيات الليبرالية التى يعتمدها الحزب الديمقراطى ، أم تلك التى يتبعها الجمهوريون المحافظون .

★★★

«إنها دعوة للشعب الأمريكى لكى يبادر فيستعيد مقاليد الحكم التى ضاعت من يديه».

بهذه العبارة، علق «هودنج كارتر»، المتحدث باسم البيت الأبيض أيام إدارة الرئيس الأسبق «جيمى كارتر» على كتاب صدر بعد نحو عامين من صدور كتاب «ديون» وأحدث بدوره ضجة حملته هو أيضا إلى قائمة أوسع الكتب انتشاراً وكان الكتاب يحمل هو «من الذى سيصارح الشعب Who will Tell the People»، كما أن مؤلفه «وليام جريدر William Greider» اختار له عنوانا فرعيا آخر، ربما كان أكثر



صراحة ووضوحا هو «خيانة الديمقراطية الأمريكية
The Betrayal Democracy of Americam».

ونحن نقرأ كتاب «جريدر» هذه الأيام، لابد أن يلح علينا سؤال حول «ماهية» الديمقراطية الأمريكية (فى صورتها الحالية) التى تريد إدارة الرئيس جورج دبليو بوش الإنعام بها - ولو بالقوة - على العالم أجمع.. وبلدان الشرق الأوسط العربية بصورة خاصة. فالمؤلف الأمريكى يقول لنا، منذ السطور الأولى لكتابه أن الديمقراطية الأمريكية تعانى حالة من «التآكل» لم تعد سرا لأن مظاهرها أصبحت موجودة يلمسها أى أمريكى ويراها حوله فى كل مكان. وقد نجم عن ذلك ظهور أعراض إحباط تتراكم بلا توقف فى جسم النظام السياسى، بينما أصيب المواطنون الأمريكيون بحالة من انهيار المعنويات بسبب شعورهم بأنه لا يوجد فى الأفق ما يبشر بعلاج ناجع لهذه الحالة!

وفى كلمات أكثر تحديدا، يقول «جريدر» إن ما خلق هذه الحالة هو أن الأمريكيين اكتشفوا منذ أواخر الثمانينيات ومطلع التسعينيات، أن كل ما تعلموه - ومازالوا يؤمنون به - عن «الحكم الذاتى» وقيم المجتمع المدنى.. أو ما يعرّفونه فى مجموعه بالديمقراطية، لم يعد مطابقا لواقع الحال الذى يعيشونه اليوم. وباختصار، أصبح هناك «انفصام» بين ما يؤمن به رجل الشارع الأمريكى العادى وبين حقائق الحياة القائمة التى تفرض نفسها عليه. وفى مواجهة ذلك، يوجد تردد من جانب الأمريكيين فى التصدى لهذه الحالة.. وهو تردد يقول مؤلف الكتاب أن سببه يعود إلى أن الحقائق القائمة فى الواقع السياسى الأمريكى اليوم أصبحت أشد إيلاما من القدرة على مواجهتها Too painful to face - على حد تعبيره حرفيا.

ويؤكد «جريدر» أن وراء الواجهة الكاذبة لإجراء الانتخابات فى مواعيدها، والإيهام بمشاركة الشعب فى حكم نفسه وما إلى ذلك، حقيقة لا يمكن التهرب من مواجهتها وهى أن الديمقراطية الأمريكية قد تم إفراغها من محتواها. وهو يقول صراحة إن تلك هى «الرسالة» التى أراد أن يبلغها للجميع من خلال هذا الكتاب - الصدمة!.. لأنه من المؤكد أن الواجهة الرسمية للعملية الديمقراطية تخفى وراءها ما يمكن وصفه بأنه «انهيار

منظم» لقواعد وقيم المجتمع المدنى التى يطلق عليـهـا الأمـريكيـون، فى مجموعها، كلمة «الديمقراطية».

أمـا كـيف حـدث ذلك للديمقـراطيـة الأمريكية العتيدة.. فإن «جريدر» يلخصه فى أنه كان عبارة عن تعرض نظام تمثيل الجمـاهيـر لعمليات تشـويه أدت به فى النهاية إلى الابتعاد عن الغرض الأصلى الذى أنشىء من أجله. وهو فى هذا يوجه اللوم إلى جـمـيع الأطراف: الأحـزاب السيـاسية، ووسائل الإعلام (الميديا)، والنظم التى تسمح بتدخل «وسطاء» فى العمليات الانتخابية.. وقد دمغ «جريدر» هذه الأطراف جميعها بأنها لم تعد جديرة بالثقة أو الاعتماد عليها. كما أنه لم يتـردد فى القـول أن الديمقـراطيـة الحقيقية فى أمريكا قد أفسحت مكانها لمظاهر زائفة أصبح المجتمع السياسى يعـتنقـهـا بديلا من المبـادىء القـديمة المعروفة.

وبالإضـافـة إلى ذلك، فـإن عـيبـا أساسيا قد طرأ على العملية الديمقراطية فى الولايات المتحدة وهو يتلخص فى أن الديمقراطية أصبحت تمارس من خلال «سياسات الحكم» وليس بالاستناد إلى السلطة التى تأتى نتيـجـة للنجـاح فى الانتخابات. هذا إلى جانب أن الممارسة الديمقـراطيـة تعـرضت لعـمليـة طويلة ومـعـقـدة أدت إلى أن المواطن الأمريكى فقد القدرة على أن يخاطب مباشرة هؤلاء الذين رفعهم إلى سدة الحكم واختارهم لتمثيله فيه.



أهمـيـة هذه الكتـابات وغيرها، وهى كثيرة، تأتى من أنها تلقى الضوء على حقائق الحياة السياسية الأمريكية كما يراها الأمريكيون أنفسهم - وهى حقائق قـد يكون جـوهرها خـافـيـا على الناس خارج الولايات المتحدة.

فـإذا كـان الأمـريكيـون اليـوم قـد أصبحوا يتعاملون مع الشئون السياسية كـمـا يتـعـاملون مع بعض الألعـاب الرياضية، يشاهدونها ولا يشاركون فيها كـمـا يقـول إى. جى. ديون. وإذا كـانت الديمقراطية الأمريكية - بكل ما لها من بريق - قـد تحولت فى الممارسة العملية إلى واجـهـات زائفـة كمـا يسـتنتج وليام جريدر.. فإنه يجدر بالعالم أن ينتبه إلى هذه «الآليات» التى تحمل إليه فى النهاية «إدارة» يكون لديها من الإمكانيات والقوة مـا يتيح لها التـحكم فى مـصـائر البـلاد والعباد!

ولن نذهب بعيـدا: فـالناس فى كـافـة أنحـاء المعمورة مـازالوا يذكـرون فصـول تلك المهـزلة المؤلمة التي جـرت فى ولاية

«فلوريدا» فى ختام سباق انتخابات الرئاسة فى نوفمبر عام ٢٠٠٢، حيث أصبح اختيار رئيس الولايات المتحدة الأمريكية معلقا على حكم محكمة كان عليها أن تفصل فى صحة فرز عدة مئات من الأصوات. وعندما انتهت فصول المهزلة - أو المأساة - جاءت «العملية الديمقراطية الأمريكية» إلى سدة الحكم فى الولايات المتحدة بإدارة احتشد وراءها تيار يمينى من أشد ما عرفت أمريكا تعصبا وتطرفا. وقد جاءت هذه الإدارة إلى الحكم وهى تحمل «أجندتها» التى أمضى غلاة المحافظين فى الحزب الجمهورى سنوات عديدة يعملون على إنجازها فى مراكز البحث وأروقة ودهاليز السياسة التى يسيطرون عليها داخل «الكونجرس» وخارجه. فلما وقعت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، انفتح الباب واسعا وأصبح الطريق ممهدا أمام هؤلاء لتنفيذ أكثر أفكارهم تطرفا وأبعدها طموحا. وهكذا وجد العالم إدارة الرئيس جورج دبليو بوش تعلن «الحملة على الإرهاب» لتعمل تحت مظلتها على تنفيذ خطط أقل ما توصف به أنها تتلاعب بمصائر البلاد والشعوب على نحو لم يخطر على بال بشر وظل الرئيس الأمريكى، حتى نهاية عام ٢٠٠٢ والأيام الأولى من العام الجديد مصمما على نحو غريب ولا معقول على المضى فيما اسماه الكاتب البريطانى «باتريك سيل» الانطلاق بخطى عمياء فى الاتجاه الخاطىء! (الحياة اللندنية - ٢٠٠٣/١/٣).

ولأن الشعب الأمريكى عازف عن المشاركة السياسية، خاصة فى الشئون الخارجية التى اختصرها الإعلام المكثف مؤخرا فى «الحرب على الإرهاب»، فإن أحدا لا يتوقع أن تبالى إدارة الرئيس بوش بأى احتجاج يأتيها من الداخل أو أن تقلق مع معارضة حقيقية يمكن أن تعرقل خططها، ولهذا تمضى القوة الأمريكية تعمل، بلا ضابط ، بدءا من اكتساح أفغانستان وحتى الإعداد لضرب العراق.. ومرورا بالتدخل فى فنزويلا والإعداد لفصل جنوب السودان وبسط الحماية على إسرائيل (باعتبارها شريكا فى «الحرب على الارهاب»). ووصولا إلى إعداد الخطط لتلقين شعوب الشرق الأوسط كيفية ممارسة الديمقراطية وتغيير برامج التعليم وطرق التفكير والعادات والتقاليد لشعوب بأكملها.

هكذا، يبتعد الأمريكيون عن ممارسة أى تأثير حقيقى على حكومتهم، ويبقى على العالم أن يدفع الثمن باهظا! ■



العرب واليهود في أمريكا

●● تاريخ هجراتهم.. وفاعليتهم.. وارتباطهم بقضايا بلادهم

●● يهود ضد إسرائيل يطالبون بإزالتها تماما من الوجود

لا توجد إحصاءات فى الولايات المتحدة عن العرب أو اليهود أو المسلمين أو حتى المسيحيين بعددهم أو مذاهبهم .. ذلك أن القانون الأمريكى يمنع تعريف المواطنين بأديانهم ومعتقداتهم ، كما يمنع أن تنص أية طلبات أو استمارات سواء للبيع أو العمل أو للمشاركة فى أى نشاط على الدين أو الجنس أو اللون ..

رسالة أمريكا

بقلم : صلاح المراكبى

يقول ريتشارد كيرتس وهو أستاذ لعلم الاجتماع في كتاب جديد له بعنوان «من نحن؟» نحن أمة تتكون من مئات الأجناس، والمفروض أن تجمعنا مفاهيم ورؤي ومصالح واحدة.. لكن مئات الأجناس لاتزال تحمل آلام شعوبها كما أن شعوبهم تنظر اليهم وتتوقع منهم أن يدافعوا عن قضاياهم ..

عدد الأمريكيين من أصول عربية يصل إلي ٣ ملايين ، وعدد اليهود ٥ ملايين ، أما عدد المسلمين من مختلف الأجناس فهم ٦ ملايين نسمة .. هذه الاحصاءات هي التي يقف عليها الجميع ، تقريبا .

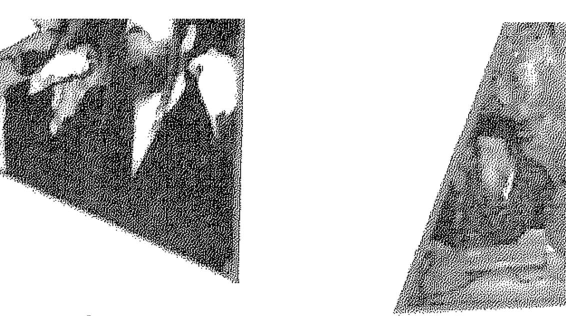
هجرات عربية قديمة

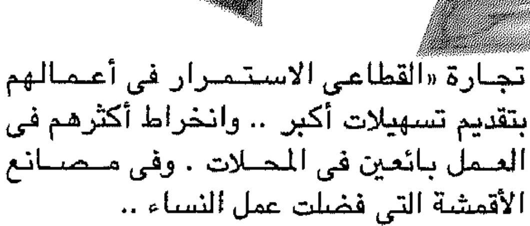
يظن كثيرون أن العرب لم يهاجروا إلى أمريكا إلا فى الثمانين عاما الأخيرة .. لكن تقارير تاريخية تشير إلى أنهم كانوا مع الحملات الاسبانية فى القرن الخامس عشر!. وفى نهاية القرن السابع عشر ناقش مجلس مدينة كارولينا الوضع القانونى لعرب من المغرب يقيمون فى الولاية ، وقرر أن يعاملوا مثل معاملة البيض، ويقال أنهم امتداد وتكاثر للذين جاءوا مع الحملات الأسبانية .. وفى المعرض المئوى بفلادلفيا عام ١٨٧٠ كان يشارك به تجار عرب، وكذلك فى المعرض الكولومبى بشيكاغو عام ١٨٩٣ .. وأول صحيفة عربية فى أمريكا بدأت الظهور فى عام ١٨٩٢ وفى عام ١٨٩٥ كانت للعرب المسيحيين ٣ كنائس فى نيويورك وزاد عددهم بشكل ملحوظ فى العشرين سنة التالية.. وأول مسجد أقيم فى أمريكا كان ديترويت بولاية ميتشجان عام ١٩٢٣ .

كانت أكبر الهجرات من العالم إلى الولايات المتحدة بين عامى ١٨٨٠، ١٩٢٤ ووصل عددها إلى ٢٠ مليون نسمة كان أكثرهم من شرق وجنوب أوروبا لكن الأقل فيهم كان من العرب ، من سوريا الكبرى التى كانت تضم لبنان ، وسوريا ، والأردن ، وفلسطين .. وتقول صحيفة عربية هنا فى ديترويت أن ٩٥ من العرب الذين هم من الأقارب والأصدقاء وصلوا فى يوم واحد على باخرة واحدة عام ١٩٢٠ ..

قليلون جدا جاءوا من مصر أو اليمن أو العراق أو المغرب فى تلك الفترة .. ويمكن القول أنه فى عام ١٩٢٤ كان يعيش هنا حوالى ٢٠٠ ألف عربى يسكنون فى نيويورك وبوسطن وويترويت وشيكاغو وكليفلاند.. وهناك مهاجرون عرب ذهبوا إلى كل الولايات وخاصة فى المدن والقرى الصغيرة ، وكان هؤلاء يعملون كباعة متجولين .. يبيعون بضائع منزلية - من الباب إلى الباب - وفى مناطق ليس بها محلات .. لكن هؤلاء التجار المتجولين وكلهم من سوريا الكبرى ، فقدوا أعمالهم التى كانت تعتمد على تسويق منتجات عربية كانوا يستوردونها إلى جانب منتجات محلية أمريكية ، عند إنشاء نظام إرسال البضائع بالبريد فى سنة ١٩٣٠ مثل محلات سيرز التى بدأت هذاالنظام ..

وعادت الهجرة بعد هدوء طويل وبقوة منذ عام ١٩٦٥ حيث بدأ العرب يتدفقون بالآلاف ، وكانوا مختلفين ، فبعضهم جاءوا بعائلاتهم للاستقرار، وبعضهم جاءوا يبحثون عن فرصة عمل مع قرار بأمل العودة ، بعضهم تجمعوا فى مدن وأحياء معينة ، وبعضهم يذهب إلى أى مكان ، بينما يحاول القدامى الذين كانوا يعملون فى





تجارة «القطاعى الاستمرار فى أعمالهم بتقديم تسهيلات أكبر .. وانخراط أكثرهم فى العمل بائعين فى المحلات . وفى مصانع الأقمشة التى فضلت عمل النساء ..

● السوريون واللبنانيون كانوا هم الأكثر عددا بشكل عام فى بدايات الهجرة وحتى بعد منتصف القرن الماضى .. كان ما بين ٨٠٪ ، ٩٠٪ منهم مسيحيون والباقون مسلمون .. أغلبهم كانوا من جبل لبنان وكانوا بغير عائلاتهم ، أجرت الصحف العربية فى ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضى ، لقاءات مع أعداد منهم ، قالوا: إنهم جاءوا سعيا إلى حياة أفضل وأكثرهم يعملون فى تجارة «القطاعى» سواء بالتجول أم بالاستقرار فى أماكن عامة فى الشوارع أم افتتحوا محلات صغيرة « التجول بالبيع كان أنجح مع النساء فقد كان يرحب بهم فى طرق أبواب البيوت .. المسلمون والدروز منهم لم يحضروا معهم عائلاتهم .. أكبر الهجرات بين عامى ١٩٦٥، ١٩٩٢ وعددهم ١٤٣٠١٠ نسمة .

● الفلسطينيون كانوا العدد التالى للسوريين أغلبهم مسيحيون ، يعملون فى التجارة الصغيرة أيضا، وكانوا يستوردون أكثر بضائعهم من بلادهم ، بينما كان السوريون واللبنانيون يركزون على استيراد الحرير والتيل والأحزمة.. وعلى الرغم من أن أكثر أعداد الهجرة الفلسطينية كانت إلى أمريكا .. إلا أن أعدادا أخرى هاجرت إلى معظم دول العالم ..

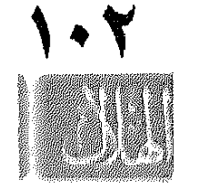
● المصريون هم الجالية الثالثة عددا ، أكثرهم جاء إلى أمريكا ما بين عامى ١٩٦٥، ١٩٩٢ وذلك من خلال برنامج محدد للهجرة، ولذلك كان الاحصاء دقيقا لأعدادهم التى بلغت ٨٠٨٨٤ فى تلك الفترة . العدد الأكبر كان عام ١٩٦٧ وحتى ١٩٧٠ وظل يتراوح بين ٣ آلاف و٣٢٠٠ كل سنة حتى ١٩٩١ أغلب المهاجرين المصريين متعلمون : أطباء ، محامون ، علماء ، أساتذة جامعات .. أكثرهم مسلمون لكن نحو ثلثهم مسيحيين منهم بروتستانت .. فى عام ١٩٩٢ قفز العدد كثيرا وكان أكثر المهاجرين فى ذلك العام ، من الذين كانوا يعملون بالخليج وغادروه..

● العراقيون هم العدد الرابع ويضمون عربا، وكلدانيين وآشوريين، وكان العرب منهم هم الأقل .. أكبر الهجرات المحصاة بين عامى ١٩٦٥، ١٩٩٢ وعددهم ٥٢٩١٣ والمسلمون كانوا أكثر تعليما .. الكلدانيون سكنوا ديترويت والأشوريون شيكاغو .

من الواضح أن أكبر الهجرات إلى الولايات المتحدة – ومن الواضح أنها كانت مبرمجة ، بين عامى ١٩٦٥، ١٩٩٢ والإحصاء العام يقول: إن عدد العرب فى تلك الفترة كان ٤٠٠ ألف مهاجر أكثرهم من ٦ دول عربية ، والجميع بالترتيب من لبنان ، وفلسطين ، ومصر ، والعراق، وسوريا ، واليمن ، والمغرب، وليبيا ، والبحرين ، وعمان، والسودان ، والسعودية ، وتونس والجزائر .

٥ ملايين.. لكنهم يملكون الكثير!

يذكرمؤرخو الهجرات إلى أمريكا أن بين حملات كريستوفر كولومبس الأولى كان هناك أعداد من اليهود ، ويزيدون القول بأن جزءا من التمويل لهذه الرحلات كان يهوديا ، لكن الثابت أن أول المهاجرين إلى الولايات المتحدة جاءوا من البرازيل، حيث كان يحكمها الهولنديون الذين كانوا أهل البلاد فبدءوا يضعفون ويغادرون ، بعض الهولنديين ومعهم أعداد من اليهود اتجهوا من البرازيل إلى نيويورك، حيث كان يحكمها بيتر ستايفسنت وهو هولندى ، الذى رحب بأبناء بلده الهولنديين لكنه تعسف فى تعامله مع اليهود وقاوم وجودهم .. لكنهم كما يقول مؤرخوهم : (أثبتوا أنهم قادرون ومعتادون على التعامل مع أى وسط يعاديهم)! فبينما منعهم الحاكم الهولندى من العمل بالتجارة



وافتتاح محلات للبيع بالتجزئة ، والاستيراد من أوروبا ، وتجارة الملابس والمنسوجات .. بدءوا يعملون فى تجارة الملابس المستعملة ، يشترونها ويبيعونها ، وكانت هذه أول مرة فى التاريخ لهذه التجارة ، وبدءوا التجارة فى المخلفات ، وجمعها من «الزبالة» والأنقاض .. وجلود الأرانب وفرو الحيوانات .. وهدأ الحاكم فى التعامل معهم فاستعان بهم فى إنشاء ميناء تجارى كبير فى نيويورك !

وقامت ثورة التحرير فى الولايات المتحدة ، فوصمهم ولاؤهم للحاكم الهولندى بمعاونة المستعمرين ففروا إلى فيلادلفيا ، لكنهم مع التحرير عادوا إلى نيويورك يعاونون السكان بحماس فى تعمير المدينة .. وبذلوا فى سبيل ذلك جهدا كبيرا ، وأصبحت نيويورك فردوس اليهود وملاذهم ، وبدأوا نشاطهم فى الاستيراد والتصدير والتجارة والتمويل والاقراض والصناعة والفنون والاعلام ، وأعلنوا بكل حماس أن أمريكا هى أرض الميعاد وأن نيويورك هى القدس الجديدة .

عندما أصبح جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة كان عدد اليهود فى أمريكا أربعة آلاف نسمة، ومن يومها بدأ العدد يتزايد بشكل لا مثيل له ، حتى أصبح عددهم بعد ذلك بخمسين سنة يصل إلى ثلاثة ملايين و٣٠٠ ألف .. وبدأوا يسيطرون على كل الأعمال والنشاطات ، بحيث لم يكن ولا يزال يستحيل أن تجد نشاطا لا يمتلك أو يتفوق فيه اليهود : الدعاية والاعلان ، المسرح ، الانتاج السينمائى ، صناعة السكر ، الدخان ، ٥٠٪ من صناعة تعليب اللحوم ، ٦٠٪ من صناعة الأحذية ، انتاج الموسيقى والتوزيع ، المجوهرات ، القمح ، القطن ، الزيت ، الكتب ، الصحافة ، الخمور ، البنوك

ويمتد نجاح اليهود فى الولايات المتحدة ليخرج من اطاره المحلى إلى الاطار العالمى .. فشركاتهم وأعمالهم هنا ترتبط بشركات وأعمال يهود فى كل أنحاء العالم ..

● وإذا كانت مواقف العرب الأمريكيين تفسدها وتفرقها انتماءاتهم القطرية وطبيعة خبراتهم وأعمالهم المكتبية التى لاتملك وسائل التعاون والتجمع اللهم الا مع إخوانهم المسلمين فى المساجد والندوات ، فإن طبيعة حياة اليهود سواء عندما كانوا يعيشون فى البلاد التى هاجروا منها أو هنا فى الولايات المتحدة ، وهى طبيعة تميل إلى التقوقع والالتصاق ببعضهم البعض ، إضافة إلى خبراتهم الكبيرة فى الأعمال الاستثمارية والصناعية زادت وجودهم قوة وتماسكا ، إلا أنهم من الناحية الدينية ينقسمون إلى محافظين ، وإصلاحيين ، وداعين إلى التمسك بأصول التوراة والتلمود .. والأخيرون يرفضون وجود دولة إسرائيل ، ويميلون إلى التعاون مع المسلمين والعرب فى كثير من اللقاءات والندوات .

حراس المدينة .. يهود ضد إسرائيل !؟

اسمهم بالعبرية نيتورى كارتا وهى كلمة آرامية قديمة تعنى (حراس المدينة) ويعتبرهم اليهود جزءا من المحافظين أو المتشددين، لكنهم يختلفون عن هؤلاء بأنهم لا يعترفون باسرائيل ، ولا بمواقفها وأعمالها ضد الفلسطينيين والعرب .. بل إنهم يختلفون مع الصهاينة فى أن الفكرة التى قامت عليها دولة إسرائيل بتجميع اليهود فى أرض ودولة ، هى فكرة مخالفة للتوراة والتلمود .

فالرب عاقب اليهود بارسالهم إلى الشتات والتفرق فى الأرض .. هذه إرادته ويجب استمرارها عبادة وتوبة .. نقبلها ونرضاها ولا نخالفها .. والذين يخالفونها ليسوا فقط يخالفون دعوة الرب إلى حب جميع الخلق والتعاون معم .. ولكنهم أساسا ملحدون)..

يقول حراس المدينة أو النيتورى كارتا كما يسمون أنفسهم : اليهودية هى عقيدتنا وهى تبدأ بمعجزات أخرجتنا من مصر ،

حيث أوحى الله توراته لأمتنا . التوراة تحتوى على أوامر عقيدتنا ووصايا الرب وقصص أوائل اليهود واللقاء المرتقب مع الله (هم يكتبون كلمة الله بدون الحرف الأوسط من الكلمة حتى إذا أهملت الأوراق التى يذكر فيها الله أو تمزقت لا يكونون قد تعرضوا لغضب الرب في إهانة اسمه) .

يقولون : تعهد اليهود طوال تاريخهم فى القرون الماضية بطاعة الرب حتى عندما أمرهم بالخروج والتفرق والشتات ، توبة وطاعة مما ارتكبوا من معاصٍ وذنوب.. الآن ومع الحسرة والأسف قام عدد من اليهود بعصيان الرب ، والخروج عن نصوص التوراة ، وبذلك يكونون قد زيفوا الدين .. إنه من الواجب العودة إلى التوراة ، والالتزام بنصوصها ، حتى يدرك العالم حقائق الدين اليهودى ، بشكله وحقائقه المشرقة الصافية من خلال سلوكنا .. نيتورى كارتا تقوم على مستوى العالم بتوضيح هذه الحقيقة .. من خلال ولائها الوحيد للرب ووحيه .. وتبعا لذلك فإننا نواجه ونعارض ونقاوم فكرة الصهيونية ، والتى ترفض الانصياع للدين .. الذى أراد لنا التفرق والحياة مع كل الأمم فى رضا وسلام .. نحن نؤمن بذلك .. ونؤمن أنه عندما يريد لنا الرب انتهاء الشتات .. ففى هذا الوقت سوف يريد الرب للبشرية جمعاء أن تتوحد فى صلاة عامة أخوية له .. وكما أننا نرفض قيام دولة اسرائيل ، فإننا نرفض المعاملة الوحشية ضد كل البشر .

إن «نيتورى كارتا» تنادى بالتوفيق والاصلاح بين الناس .. هذا هو واجبنا ومتطلباتنا فى علاقتنا نحو العالم الإسلامى والعربى ، حيث دمرت اسرائيل منذ ٥٥ سنة هذه العلاقات ولاتزال تدمرها .

إنه علينا وعلى كل الحاخامات ، وعلى كل الشعب اليهودى أن يعودوا إلى التوراة ، ويقرأوها ويتعمقوها ويرددوا كلماتها ويظلوا عليها قائمين فهى وحى الرب إلينا وهى ديننا وهى علاقتنا الوحيدة للسلوك والعمل والتعامل وكل نشاطات الحياة .. اندمجوا مع التوراة واجعلوها أيامكم ولياليكم حتى يراها الناس فيكم ويرونكم منها ..

* * *

وفى محاضرة ألقاها الحاخام ديفيد ويس أمام المركز الاسلامى فى واشنطن فى ١٤ يناير ٢٠٠١ عنوانها : «الفرق بين اليهودية والصهيونية» قال الحاخام داود :

باسم الله أستعين حتى تكون كلماتى مباركة ، وتدخل إلى قلوبكم لتؤكد الحق والسلام . أنا سعيد بهذا التجمع .. إنه خلال مئات السنين كانت الأرض المقدسة مجالا للنزاع والعنف . لكنها الآن فى أسوأ الأحوال .. آلاف القتلى من الرجال والنساء والأطفال .. إنهم يذبحون خلال الأشهر الماضية . ولا تبدو هناك نهاية قريبة لهذه المذابح .. أكثر المشاكل تتركز حول القدس والتى وصفها الكتاب المقدس بأنها أرض السلام .. كل المحاولات لوقف العنف قد فشلت منذ أيام الأتراك والعثمانيين والبريطانيين .. إننا نرى حتى نتفهم هذه المشكلة ونرى ما هو حلها ، أنه لا شئ نستعين به كيهود سوى التوراة .. نحن لا نفعل شيئا سوى أن نقرأها ونعمل بها .. إن أى محاولة من اليهود للهروب من الشتات ، هو خروج عن طاعة الرب وهى محاولة تسخر من الدين وتضحك على نصوصه .. وهى محاولة تصطدم بالدموية والمعاناة ..

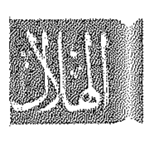
لقد اصطدمت حركتنا وتنامت بشكل محدد مع قيام ما يسمى بدولة اسرائيل .. ومنذ ذلك الوقت أصبح اليهود هم نحن ، أما الآخرون فصهاينة وليسوا يهودا ..

وإجابة عن السؤال : حول أى شئ يستمر الصراع وتتفاقم المشكلة فى الأرض المقدسة؟! وما الذى ينهى هذه المشكلة ويحقق السلام فى المنطقة ؟!

أقول أنه لا سلام إلا أن ينهى الصهاينة تلك الدولة ويتركوا الأرض للفلسطينيين .. لأنه مع استمرارهم لن يكون سلام .. فالرب قال فى التوراة إن عصيانه يجعل الدماء تسيل والعنف يستمر .. واستمرار المشكلة لا يحلها إلا إنهاؤها حتى يعود الحق الشرعى للفلسطينيين ■

العولمة فى رواية
الفنطاس

بقلم
د. مصطفى عبد الغنى



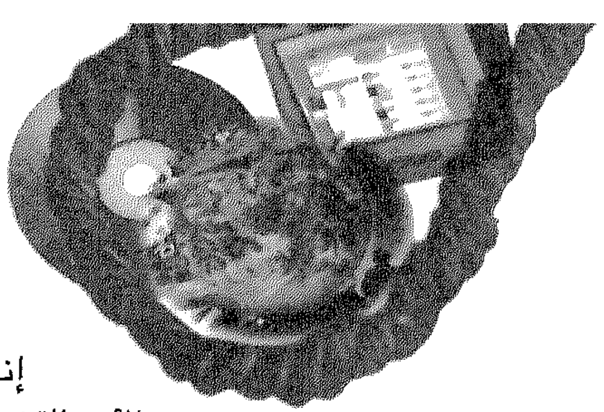
ها هو آخر نص روائى صدر فى نهاية عام ٢٠٠٢

ولا يمكن أن تقرأ هذا النص دون أن تبحث عن تجليات العولمة فى نص ساخر مثل هذا النص الذى بين أيدينا.

أو دون أن تصل بك الحيرة إلى أقصاها حين تسأل بشكل مباشر:

- ولكن ما هى العلاقة بين التراث والحديث؟ بين القديم والجديد؟

ورغم أن السؤال فى ظاهره غريب أو كالغريب والتردد بين الثنائيات يصل بنا إلى حالة من الغيم والحيرة.. فإن العودة إلى واقعنا يظل ضرورة للوصول إلى الإجابة يتحول الغيم إلى مطر ولا نلبث أن نصل - عبر التمثيل السردى - إلى إجابة، إنه نوع من الأسئلة الذى يحمل - لفرط طغيان الواقع ومرارته - إجابته..



إنها الإجابة البدهية رغم تعدد الشخصيات وتبدد السرد بشكل فني.

تظل الإجابة بدهية أو كالبدهية..

إنها شفيقة - الخصوصية الثقافية - التى تهدد الآن بالقضاء عليها تماما - كما كان مصير شفيقة فى التراث الشعبى.

وهى العولمة - الهيمنة الغربية - التى تهدد الآن بالقضاء على التراث والخصوصية لشعوبنا، هل وصلنا إلى الإجابة؟

مازال الغموض والحيرة يحيطان بنا.

والسؤال والجواب يدفع بنا إلى اللبس أكثر من الوضوح.

قصة حياة أمه

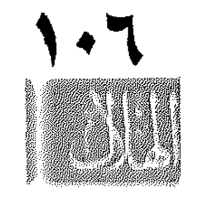
النص الذى بين أيدينا هو (الفنطاس - قصة حياة أمه) أراد صاحبه بعد عدة روايات ساخرة (ونحن نعلم أن عمرو عبدالسميع كاتب ساخر من الطراز الأول).. أن يلمس (وان يكن بقسوة) هذا الواقع الذى يهدد الأمة كلها فى الفترة الأخيرة.

إنها قصة سمير متولى الذى ينتمى إلى الأم شفيقة بنت عويس أبو نادى وعزبة الصفيح من الجنوب، وسرعان ما نلاحظ - عبر السرد - هذه العلاقة الرمزية بين شفيقة فى التراث الشعبى وشفيقة فى المضارع الشعبى.

إن سمير ينتمى لأم لم تستطع الصمود طويلا أمام قسوة الحياة فوقعت صريعة لها، وسمير لم يستطع تقبل هذا السقوط فجاء إلى القاهرة ليمضى فى نفس الطريق!! إنه التحول الذى يبدو غير مبرر لكن أدبيات علم النفس الحديث تبرره.

إنه يتحول بسرعة عبر عدة لوحات (ماما/ اولجا/ نهال/ لولا).. يتحول من عزبة الصفيح وبنى مزار فى الجنوب إلى علب الليل والضاهر أحد أحياء القاهرة الراقية حتى الستينات منتهيا بالقاهرة حيث يؤسس مركزا وطنيا للدراسات متعاونا مع إحدى المنظمات الأمريكية التى تعمل كواجهة للمخابرات المركزية الأمريكية فى بلدان الشرق الأوسط ويجد المناخ متاحا منذ السبعينات حيث تتعدد التغييرات كصعود وسقوط شركات توظيف الأموال، ثم إنه يجد مناخا ملائما أكثر ليغلو فى لعب هذا الدور خاصة عبر المشهد الاجتماعى الجديد فى مصر: طبقة التوكيلات والتعليمات التى تأتى من وراء البحار.. طبقة التطلع إلى الحكم أو السيطرة عليه إلى غير ذلك من تجليات ربع القرن الأخير من القرن العشرين حتى الآن.

ويظل سمير لاعبا ماهرا إنه كما نقرأ: «يضع يده فى يد الخارج بكل آفاق ذلك الارتباط الذى كان النظام فى تلك الأيام يثمنه جيدا ويراه دليلا على تمتع المرء بخصال ومواهب تمكنه من أن يصبح دوليا، فضلا عن كون ذلك الارتباط من جانب



آخر يسند صاحبه فى مواجهة السلطة المحلية ويسبغ عليه نعمة حماية الخارج ومساندته، وهو ليس أى خارج وإنما هو المخابرات الأمريكية ذاتها، الأمر الذى سيمكن سمير من أن يكبر جيدا ويستقوى جدا، على القمامات البشرية المصرية، المعتزة إلى حد الجنون - بعفافها وطهارتها وتساميها و..».

ثم إنه لا يتردد فى القيام بعدد من الاستطلاعات فى مصر حول قضايا مهمة تذكرنا بما يريده باول هذه الأيام بالقرار الذى صدر أخيرا باسمه، فهو يسعى لإجراء مثل هذه الاستطلاعات عن الديموقراطية والتغييرات فى الخريطة الاجتماعية وطبيعة إفراز النخبة فى مصر وما إلى ذلك من هذه التكليفات أو على حد قول الراوى هذه المروحة من التكليفات هى بروتوكول التعاون بين المركز الوطنى للدراسات وإحدى المنظمات الأمريكية البحثية التى تعمل كواجهة للمخابرات المركزية الأمريكية فى بلدان الشرق الأوسط، وتركز على جمع المعلومات عبر استطلاعات الرأى فيما يجرى تصنيفها وتحليلها فى المركز الأم بفرجينيا».

د. عمرو عبد السميع

وتمتد صور المتغيرات، وتمتد معها صور التعاون مع الغرب بشكل عنيف وبتباين الصور مع بقاء الهدف الذى يسعى للنيل من الأم، أمه. إلى آخر ما ينقله الراوى - الوسيط السردى - إلى النص.

إن الأمر ينتهى به ليقوم - هكذا وبوضوح - بدور أكثر فاعلية فى (ماراثون) النهب اليومى لمصر حتى ينتهى به الأمر إلى وراء البحار ليلعب دوره بشكل أكثر انتهازية وخسة. والراوى لا يريد أن يتركنا هنا مع القصة (الحكى بشكل كلاسى) فإنه يمضى بالأحداث بضمير المتكلم غير أن أكثر ما نلاحظه هنا أن هذا الراوى يقف فى الدائرة المقابلة، إنه النقيض لهذا النموذج الذى شاع حتى أصبحت عندنا جمعيات وتنظيمات أهلية وصلت إلى أكثر من ثلاثين ألف جمعية وتنظيم سجل فى وزارة الشئون الاجتماعية.

(تذكرت زمن سناء المصرى وكتابها تمويل وتطبيع، وحزنها اللا نهائى حين التقيت بها بعد الكتابة عنه ونشره بالأهرام، وحزنها الذى استمر فترة طويلة بعده حتى اختارت الرحيل بارادتها..)

غير أننا لا نستطيع أن نغادر النص - الطريق - دون أن نلاحظ ضمير الراوى ودلالته.. إنه الضمير الذى يسعى لتعريفنا بنفسه منذ أول النص ولا يلبث أن يظل حاضرا غائبا طيلة النص، غير أن غيابه أو حضوره يسعى إلى تأكيد هذه الصورة وتثبيت ملامحها وتأكيد دورها الغادر الذليل.

حكاية سمير متولي

إننا حين ندخل إلى الحكاية - في النص - نجدنا أمام هذا الوسيط السردي الذي يمثله الراوي نفسه فرغم أنه موجود بضمير المتكلم فإنه لا يلبث أن يختفي من آن لآخر لنجد أنفسنا أمام الأحداث بما تجسده من معنى دال على تطور الواقع وتغيره.

إننا نلتقي بالراوي منذ أول النص، ومع توالي الأحداث يختفي، حيث أنه يظل الغائب الحاضر دائما في تنشيط وعي المتلقي في استقبال (الخطاب) الروائي، إنه يتخذ رمزا دالا ولكنه تال لحركة السرد فيظل المعنى العام هو البطل الرئيسي للنص وليس الضمير المتكلم قط.

إننا أمام حكاية تبدو غير تقليدية قط - رغم أن رموزها تتوزع بين أسماء مغروسة في الذاكرة الوطنية - شفيقة ومتولي و... الجرجاوية - فالتحليل السردي داخل النص ليس محايدا تماما إنه يدفع - بشكل متوار - التخيل السردي الدال والتمثيل السردي الفني دون أن يحتل في الأمامية مركزا كبيرا.

إن الراوي يستخدم أدوات فنية كثيرة إنه يستخدم الكثير من الدفقة الشعورية لضمير المتكلم ثم إنه يتلمس الزمن ويحدده حتى يتراوح أمامنا الفعل داخل الزمن وخارجه ولكنه لا يخرج عن الاطار الواقعي بأية حال ثم إنه يوظف التراث الشعبي توظيفا دالا وأكثر عمقا.

كما أن السخرية التي تظهر منذ الغلاف الأول للنص (من الأدب الساخر) لا نخطئها طيلة السرد التمثيلي.

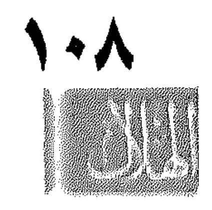
كذلك فإن الرمز الذي يرسم (الواقعية السحرية) أكثر من المجاز أو المعنى المتواري يبدو أكثر واقعية..

إننا أمام حكاية (الفنطاس) - لاحظ الرمز خاصة - ذلك الذي يتشكل بناؤه العام من الحركة الدائبة بين السرد المباشر والايهام الفني.

وإن كان علينا أن نتمهل عند الرمز أكثر من غيره - للتراث الشعبي والزمن والضمير وما إلى ذلك - مما يؤكد دور الراوي وقدرته على إعادة انتاج الحدث عبر النسيج التمثيلي (= الواقعي).

وعلى هذا النحو فإن السرد التقليدي للرواية (عند نجيب محفوظ) لا نجده هنا، وإنما يستفيد الكاتب من التقنيات الحديثة التي تلقي بالضوء على حركة انتاج السرد، صحيح أن السرد لا يخلو من ثنائية (الراوي/ السردي) غير أن التخيل السردي يتغلب فيبدو (الخطاب) الروائي أكثر وضوحا.

تتوارى السيرة الذاتية إلى السيرة القومية. لم تعد القضية أن ضمير الراوي



يتحدث عما حدث له وإنما يحكى - عبر تعدد التقنيات - عما يحدث للأمة كلها وليس لفرد بذاته.

إنها الومضات الفنية التى تختفى وراءها نرجسية الروائى لتحدد لنا المناخ العام الذى يظل طيلة النص يراكم الغيم ليأتى فى نهاية النص هذا المطر الذى لا يغيض معه كل الماء بقدر ما يفيض معه المضمون المخيف لهذا العالم الذى نحيا فيه اليوم.

إنها العلاقة الملتبسة التى تخرج بنا من دلالة فعل الأم شفيقة/ الماضى التى تشير على غياب الوعى إلى دلالة مأساة الواقع/ المضارع الذى يدل على حضور العولمة وآليات هيمنتها اليوم. وهو ما يعود بنا إلى الرمز ثانية.

الملهاة الهزلية

إنه الرمز المفتوح على نهايات لا نهائية. وربما كان أكثر ما يلفت النظر فى هذا النص - عبر تقنيات كثيرة - لعبة استخدام الرمز، إن العنوان الثانى للنص هو (قصة حياة أمة) ولا نحتار كثيرا أمام الكلمة الأخيرة فهى تأتى مرة أمه (ضمة على الألف) وتأتى مرة مع مراجعة النص أمه (ضمه على الميم) ولعل هذه المزاوجة المقصودة لدى الروائى أكثر ما يتلاشى عنده السرد التقليدى فتمنحنا المعنيين (أم سمير متولى وأمته) ويبقى المعنى الدال أكثر كثافة من التعبير المباشر، فالتوظيف هنا يعمق أكثر دلالة النص، ويعدد أكثر المضامين التى ترفد فى نهاية الأمر (الخطاب) العام للنص الروائى.

إنه الخطاب الذى يدفعنا دفعا الآن إلى نوع من الملهاة أو الملهاة الهزلية Slap-stick comedy وهو مصطلح مسرحى يغلب عليه حركات بهلوانية تثير الضحك أكثر مما تثير اليقظة، ويسلمنا إلى نوع آخر من الملهاة المفجعة Tragi-comedy التى قد تنتهى بنا إلى مصير شفيقة فى التراث الشعبى الواقعى إذا لم ننتبه إليه.

إن شفيقة الآن لا تملك الخطأ أو حرية الامتناع عنه بقدر ما يدفع بها إلى الخطيئة أمام هذا العم، العم سام، الذى مازال يقوم على صدر العالم ويرفض أن يبارح مكانه إلا بعد أن يصبح هذا العالم ملك بنانه.

تنتهى رواية (الفنطاس) ولا تنتهى.

إن هذا الرجل/ الرمز أصبح بيننا وعلينا وليس بيننا ومعنا إنه أصبح هو (الآخر) الداخلى الذى لا نعرفه جيدا فى حين نعرف (الآخر) البعيد ونتعامل معه.

***

وبعد .. إنها رواية الانذارات العنيفة، والدلالات الجارحة فى وجه هذا العالم الذى لا يحترم فيه غير من يحافظ على أمه وأمته.

إنها رواية شفيقة والعولمة. وهى رواية نعيش فيها جميعا، مازلنا. فمازالت شفيقة مقهورة ولازال سمير طليقا، ولازال العم سام حرا فى أن يفعل ما يشاء. ■

الصحراء الشرقية

موطن الأساطير والجمال

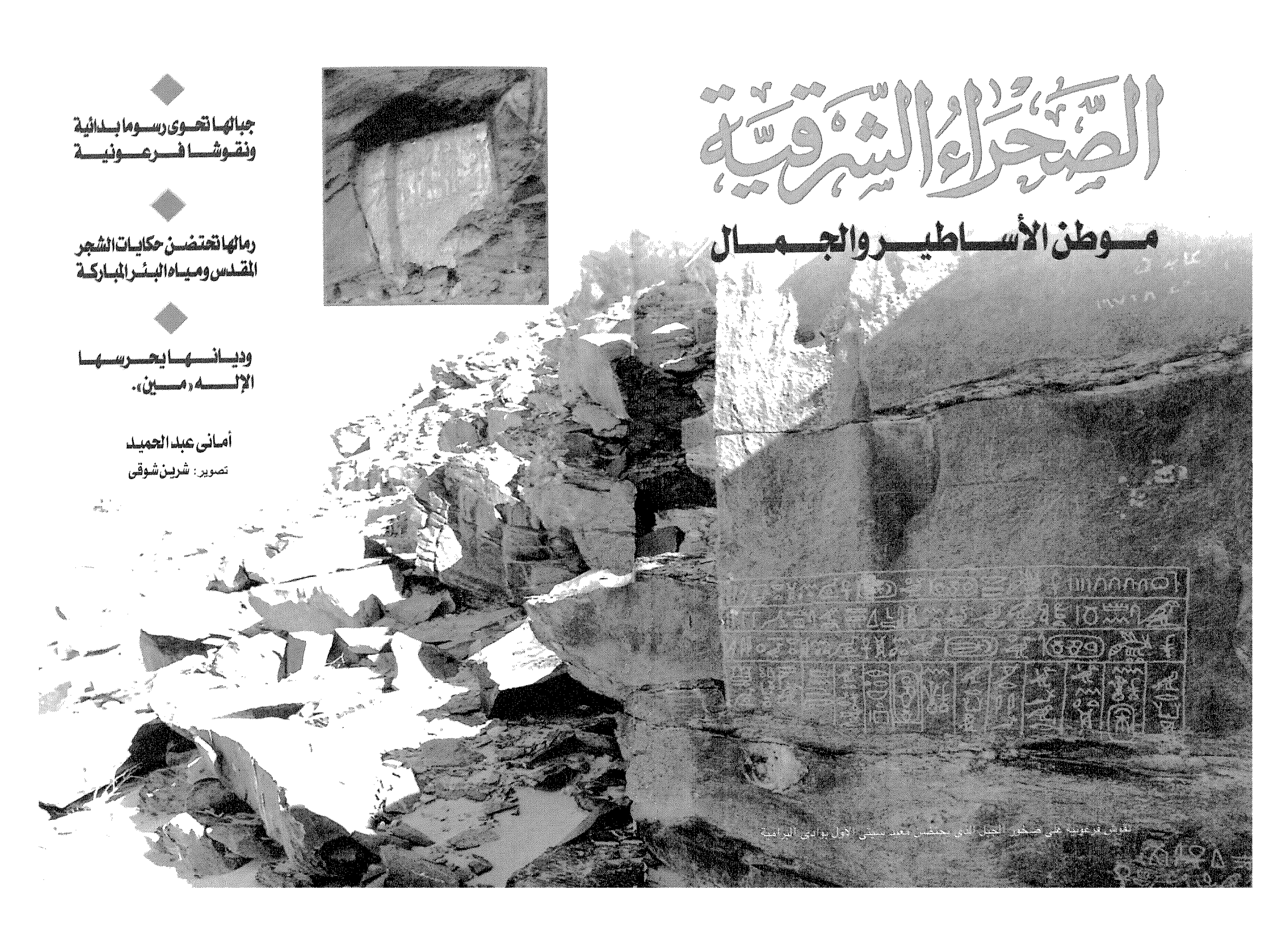
جبالها تحوى رسوما بدائية ونقوشا فرعونية

رمالها تحتضن حكايات الشجر المقدس ومياه البئر المباركة

ووديانها يحرسها الإله «مين».

أمانى عبد الحميد

تصوير: شرين شوقى



نقوش فرعونية على صخور الجبل الذى يحتضن معبد سيتى الأول بوادى البرامية

لم تكن زيارتى للصحراء الشرقية مجرد رحلة سفارى تصبو إليها الروح للهرب خارج جدران المدن . إنما جاءت للبحث عن كنوزها المنسية والتعرف على تاريخها القديم . ولكن بعد قيامنا بالرحلة داخل دروب وجبال الصحراء استحوذت علينا بجمالها الأخاذ حتى ظل صوت رياحها يلازم آذاننا حتى بعد الرحيل عنها.

ويكفى أن نعلم أنها من أثرى الأماكن فى مصر فهى موطن الذهب والأساطير والقبائل العربية القديمة لكنها للأسف لم تنل القدر الذى تستحقه من الرعاية .. ووقفت فى مهب الريح تتعرض لعمليات سرقة لتاريخ الانسان المصرى القديم منذ فجر العصور الحجرية .

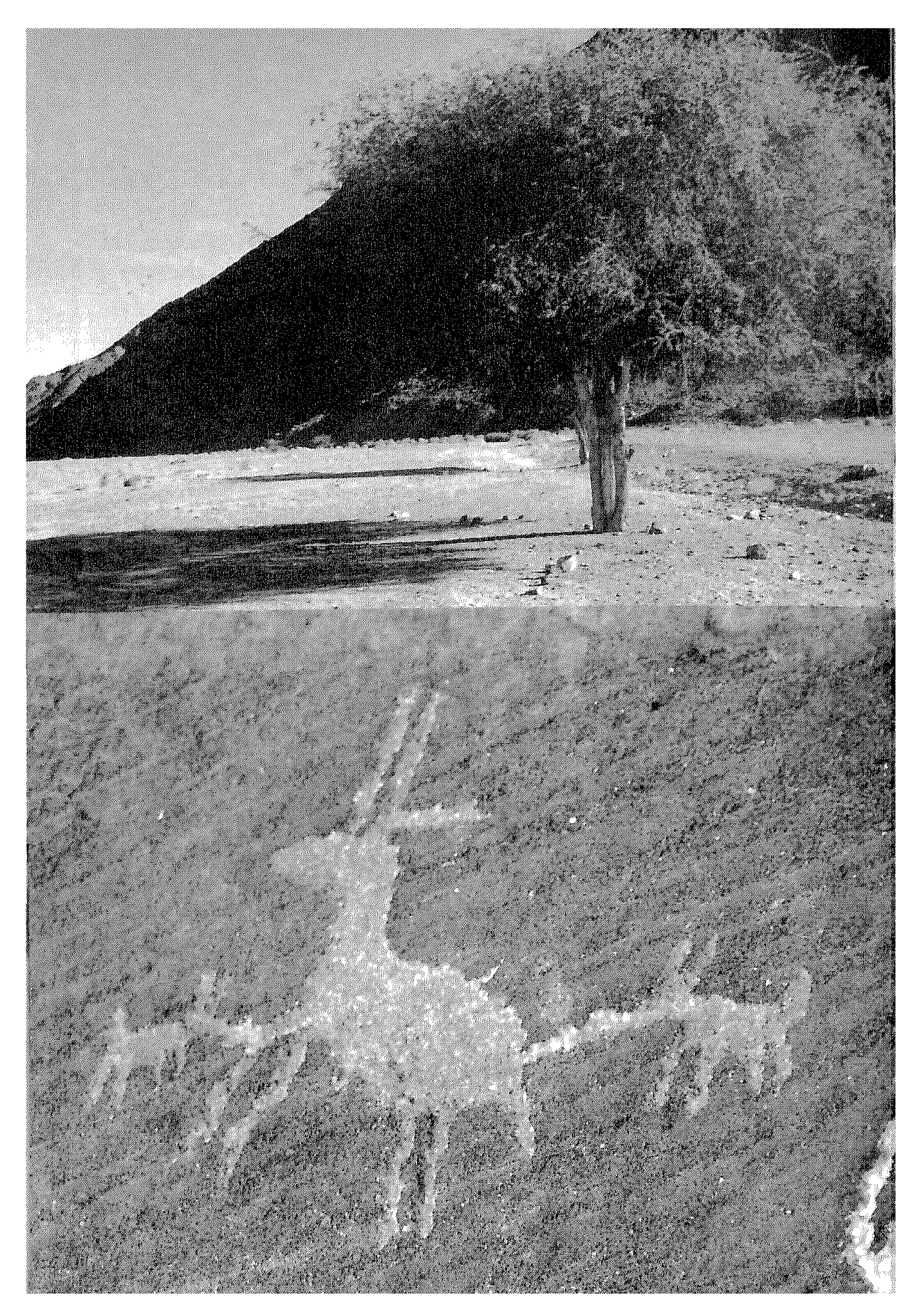
لذا جاءت رحلتنا لإنقاذ مايمكن انقاذه مما تبقى من كنوزها الثرية عن طريق رصد وتصوير بعضها قبل أن تنال منها رياح النسيان والاهمال والطمع.

كل شيء لدى وصولنا اكتسى بثوب جديد وعاش لحظة ميلاده على أيدينا . رحلة جديدة .. مطار جديد .. مدينة جديدة .. وصلنا مطار «مرسى علم» الساعة العاشرة مساء بعد رحلة طيران استمرت لمدة ساعتين تقريباً . رافقنى زميلى المصور شيرين شوقى والدكتور حسن بخيت الجيولوچى فى هيئة المساحة الجيولوچية . كنا صحبة تآلفنا سريعاً استعداداً لما هو قادم. كانت رحلتنا هى أول رحلة طيران تصل إلى تلك المدينة النائية التى تبعد عن القاهرة مايقرب الألف كيلو متر . وعلى متن الطائرة كنا حوالى ثلاثين راكباً . استقبلنا عدد من الشخصيات تبدو على ملابسهم وابتساماتهم صفة الرسمية . إنهم من أصحاب النفوذ داخل المدينة المطلة على البحر الأحمر. نخرج سريعاً من ذلك الحفل ذى النفوذ الطابع الهادىء كطابع المكان . لتستقبلنا الصحراء بصمتها المعهود إلا من صوت رياحها المتراقصة بين هنا وهناك.

خارج مطار «مرسى علم» الدولى الجديد استقبلنا عم عبد اللطيف رفيقنا الرابع والسائق العارف بكل الدروب الصحراوية. ملامحه تحمل ملامح الجبال التى عاش داخلها وبين وديانها. هو أحد أبناء قبيلة العبابدة . التى تضخمت مع الزمان وهجر بعض أهلها الصحراء وفضلوا العيش داخل المجتمعات المدنية الملاصقة لها. سكن مدينة «ادفوا» تزوج منها كغيره من أبناء القبيلة . لكن ظل حب الصحراء لايفارقه . فعمل بهيئة المساحة الجيولوچية ليكون دائماً قريباً من محبوبته. حتى أنه يروى لنا أنه لاينام بعمق إلا إذا حفر وسط رمالها «سرير اللحد» وهو عبارة عن حفرة بحجم جسم الانسان ينام فيها عادة» البدو الرحل داخل الصحراء . فيقول «حباب الرمل تدفىء جسدى وتحمينى



«غزلان الجرنوك» نقوش يرجع تاريخها إلى عصر ما قبل الأسرات



من شر العقارب والطريشة».

أخذنا عم عبد اللطيف بسيارة مجهزة تستطيع السير وسط الرمال والطرق الوعرة (المدقات). وكان ذلك أول لقاء لنا بالصحراء وأبنائها.

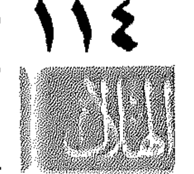
بدأت الرحله إلى الصحراء بعد حوار دار بينى وبين أحد الأصدقاء جاء يقترح القيام برحلة سفارى داخل قلب الصحراء الشرقية . الأمر الذى أثار فضولي. فسألته وما الهدف من وراء الرحلة، فكلمة الصحراء عندما نذكرها يتبادر إلى الأذهان شكل الصحارى وكثبانها الرملية المنسابة داخل أعماقها. لكن الأمر يختلف كثيراً عندما نتحدث عن الصحراء الشرقية نظراً لطبيعتها الجبلية ولوعورة وديانها. فجاء الرد مفزعاً . هى مكان يحتوى على كنوز أثرية لا حصر لها . وهى مكان مفتوح ومتاح أمام الجميع. يدخلها هواة الترحال وقد يرافقهم هواة جمع الآثار . وهنا توقف الحوار أمام استفسار ملح . ماذا تقصد بجمع الآثار؟ فأوضح أن الجبال هناك تمتلئ بالآثار وصخورها تزينها رسوم بدائية ونقوش هيروغليفية بدءاً من العصر الحجرى مرورا بعصر ماقبل الأسرات وحتى نهاية التاريخ المصرى القديم . وبالطبع لا يوجد حراسة أمنية ولا أثرية للمكان . فهى منطقة شاسعة تتداخل فيها الطرق الوعرة وسط الوديان الضيقة بين الجبال. انتهى الكلام ولم ينته تأثيره . بعدها بدأت رحلة البحث عن حقيقة أقواله لذا كان لابد من القيام برحلة إلى الصحراء الشرقية لزيارتها والتجول وسط جبالها والوقوف عند مناجمها وقلاعها ولقاء أهلها ومشاهدة رسوماتها ونقوشها القديمة ورصد حركة الحياة هناك .

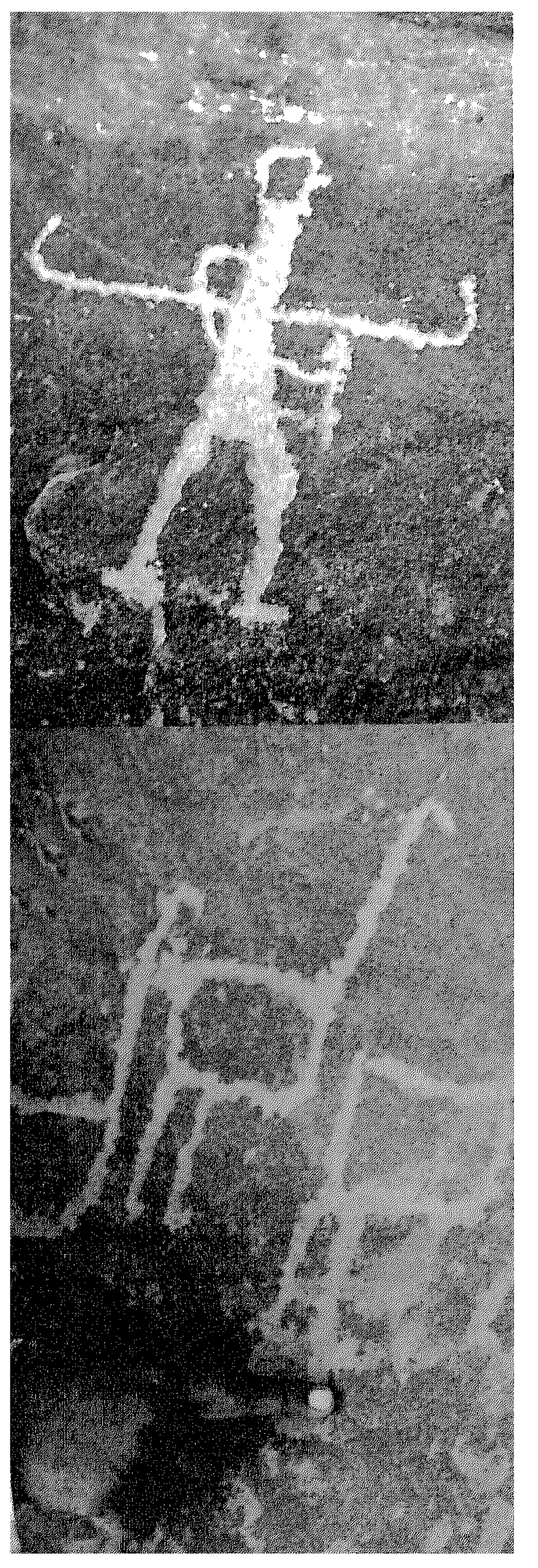
والسؤال الذى ظل يتردد طوال الطريق إلى المدينة. من يريد سرقة هذا الجمال الساكن والاحتفاظ به لنفسه فقط وحرماننا من الاستمتاع به؟ ولدى وصولنا استراحة «اللومبارجو» استراحة الملك فاروق التى تتبع هيئة المساحة الچيولوچية وتقف عند مشارف مدينة «مرسى علم» تبدى لنا جزءا من جمال الصحراء . فالجبل يحتضن عدة أكواخ خشبية متراصة تعلو سطح البحر. مبنية على تلة صغيرة . وأمامها شاطىء البحر وعنده مرسى لليخوت تنتظر محبى الغطس والراغبين فى الصيد

عشنا ليلتها أجواء احتفالية لم تكن فى حسباننا وانتهى يوم الوصول وبسعادة تخللتها تلك الحفاوة القدرية . ورقد كل منا إلى مهجعه وكله أمل فى الغد ورحلة الصحراء وما يمكن أن نقابله هناك.

فى أعماق الصحراء

مرسى علم مدينة صغيرة لاتملك من مقومات المدنية سوى شارعين رئيسيين وبعض الطرق الفرعية الصغيرة . أهلها اهتموا كثيراً بفتح محال البقالة والحلاقة. فنجد الشارعين قد ازدحما بهذين النوعين من النشاط التجارى . علاوة على المقاهى العديدة التى تربط بينهما. نهم بالرحيل مع طلوع الشمس . نأخذ طريقنا باتجاه الصحراء طريقاً متعرجاً بين سفوح الجبال يبدو كأنه غريب وتائه مثلنا يبحث عن هدف يستقر إليه. نسير وسط الوديان الواصلة مابين





مدينتى «مرسى علم» و«إدفو» على يميننا يرقد جبل «العتود» على يسارنا يحدنا جبل «أبو دياب» .. تلاحقنا بألوانها الداكنة والتى تتفاوت مابين السواد الشديد والأشد سواداً ..

لم نبتعد كثيراً عن المدينة .. توقفنا لنشاهد عن قرب رسوم الانسان المصرى القديم المحفورة على أحجار الجرانيت الضخمة . رسوم مختلفة لحيوانات مثل الفيل، النعام، غزلان الجرنوك، الجمال،، وبعض أنواع الطيور والأبقار والماعز بجوارها نقوش لمراكب بدائية تشبه إلى حد كبير المراكب الفرعونية .. وقد ذكرها الدكتور رشدى سعيد فى كتابه «نهر النيل» والدكتور على السكرى فى دراسة له حول «مصر ماقبل التاريخ» مؤكدين أن منطقة الصحراء الشرقية كانت منطقة زراعية تنتشر بها حشائش السفانا. وكانت تمتلىء بالمياه والآبار. ولم تكن صحراوية كما هى الآن . بل كانت مأهولة بالتجمعات البشرية لذا كان سكانها ينقشون على سفوح الجبال رسوما تعبر عن حياة الرعى والصيد . وتؤرخ لأنواع الحيوانات التى عاشت فى مصر القديمة خلال عصرما قبل الأسرات ، ويوضح الدكتور «سعيد» أن تلك الحيوانات عاشت خلال العصور المطيرة لكن هلك بعضها خلال فترات الجفاف التى كانت تتخلل الفترة المطيرة. ومع نهايتها هلكت جميع حيوانات السفانا مع قرب نهاية الأسرة الخامسة الفرعونية . وقد كانت كتابات الأثرى «وينكر» الذى زار المكان خلال بين العامين ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ميلادية قد أكدت أهمية تلك الرسومات البدائية لأنها تؤرخ

نقوش بدائية تؤرخ لحياة الإنسان الأول الذى عاش حياته بين جبال الصحراء الشرقية يرعى غنمه

لحياة الانسان الأول الذى عاش حياته بين جبال الصحراء الشرقية يرعى غنمه ، ومن أجمل الرسوم التى شاهدناها منظر لراع يرتدى جلد الحيوان ويمسك بعكازه يسوق أغنامه .

كثير من الرسوم يبدو أنها غير كاملة لا نعلم إذا كان نقصانها بسبب عوامل التعرية حين مضى عليها آلاف السنين أم بسبب بعض المتطفلين الذين قدموا لأغراضهم الخاصة . ويذكر لنا الدكتور محمد أبو بكر الهوارى المدير العام بهيئة المساحة الجيولوجية أن كثيراً من السرقات تتم على يد القادمين برحلات السفارى،.فهم على علم بقيمة الآثار والنقوش هناك ، قرأوا عنها ويعلمون مواقعها داخل الصحراء. علاوة على أنها أماكن بلا سور ومفتوحة أمام من يرغب فى زيارتها».، ويذكر لنا عن زيارته لأحد المواقع حيث عايش عن قرب تلك السرقات . فيقول «عند زيارتنا لأحد مواقع التعدين القديمة كنا نحصد فى البداية حوالى ٣٠٠ أو ٤٠٠ شاكوش حجر كان يستخدم فى حفر المناجم خلال العصور الحجرية والدولة الفرعونية القديمة . وفى الزيارة التى تليها نجد أن عدد الشواكيش قد اختفت منها أعداد كبيرة يفوق الخمسين شاكوشا . كما هو الحال فى وادى الفواخير ووادى البرامية».

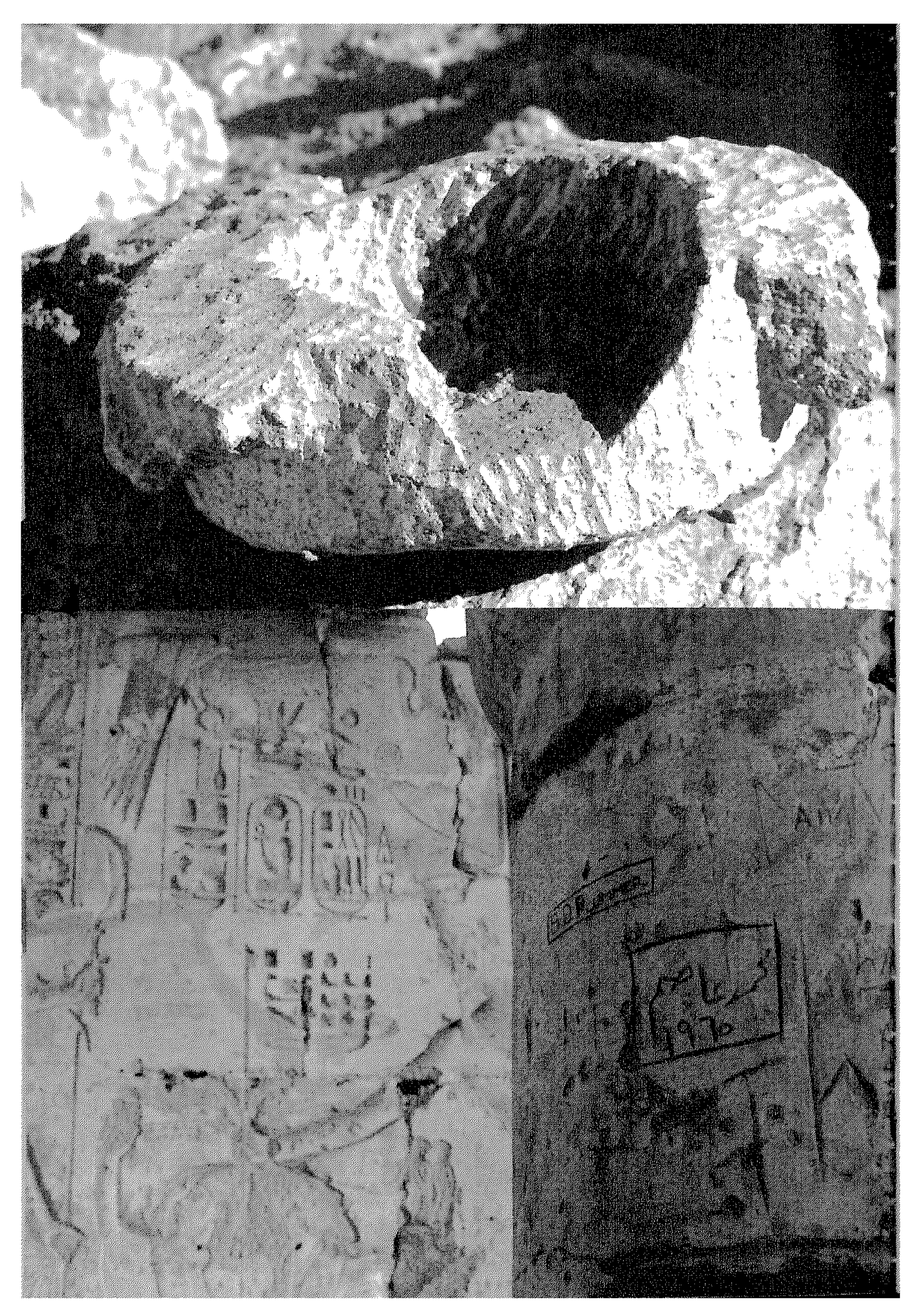
وقد شاهدنا عند سفح الجبل آلافا من الأوانى الحجرية والطواحين والرحى القديمة منحوتة من الصخور الرسوبية متراصة داخل أطلال قرية يطلقون عليها اسم «روض البرام» وهى مقر عمال ومهندسى التعدين خلال عصر الدولة الرومانية . لذا سمى المكان كله باسم «البرامية» نظرا لكثرة عددها على جانبى الوادى . وهى أيضا متاحة لكل من يرغب فى اقتنائها بلا حسيب ولا رقيب . وقد عرض علينا أحدهم اقتناء بعض منها لكننا رفضنا هذا العرض السخى .

وبالنظر للمكان نجد أنه تاريخ لا يتكرر فى أى مكان آخر . فالجو الجاف وحياة الصحراء حافظا على تاريخ تلك المنطقة القديمة كما هى . فالأمطار والرطوبة تدمر مناطق أثرية بأكملها . فنرى ذلك من مناطق آثار الدلتا المهددة بالتدمير الكامل خلال الخمسة وعشرين سنة المقبلة نظرا للأجواء الرطبة المحيطة بها . كما أن آثار الصحارى مناطق معزولة لا يحيط بها أناس بسطاء لا يهتمون بها وبقيمتها التاريخية فيهملونها أو يدمرونها دون دراسة أو فهم منهم . لذا فإن كل من يأتى إلى الصحراء فهو على علم ودراية كاملين بقيمة الصخور ونقوشها التى يجمعها .

وعلى بعد حوالى ٢٠ كيلو مترا فى الجهة المقابلة من وادى البرامية . قمنا بزيارة معبد سيتى الأول أشهر ملوك الأسرة التاسعة عشرة . المحفور داخل الجبل وبجواره عدد من النقوش القديمة بعضها بدائى يصور حيوانات كالماعز الجبلى والغزلان والثيران . وبعضها رسوم باللغة الهيروغليفية متناثرة على أسطح الصخور المحيطة بالمعبد بشكل غير منتظم دون أن يكون هناك رابط بينهم . وإن كان أهم ماشهدناه على أعمدة المعبد نقوش محفورة بأسماء كل من قام بزيارته .

وشاهدنا على امتداد الطريق بقايا





أبراج مراقبة وحصون وقلاع عسكرية ترجع إلى العصر الرومانى، نظرا لأهمية الوديان من الناحية الأمنية والعسكرية . كما انتشرت النقوش والرسوم المسجلة على الصخور بالقرب من جميع المناجم القديمة لتؤرخ للبعثات المكلفة بأعمال التعدين والتحجير منذ عصر الأسرة الخامسة وحتى نهاية عصر الأسرة الثلاثين .

البئر المقدسة والموت المجهول

على طريق الأسفلت قد يقابلك بعض البدو الرُحّل الذين خرجوا بحثاً عن مرعى جديد لأغنامهم ويصادف أن يكون المرعى قريبا من طريقك، فيبادلونك التحية الدافئة.. فترى فى عيونهم التى تترصدك فطرتهم التى تقوم على البساطة في المعيشة والزهد فى الحياة. فأجل أمانيهم هى المياه. لذا نراهم يقيمون بجوار آبار المياه أو فى بطون الوديان. ويقدسون البئر. يتباركون بها. حتى أن العريس قبل زفافه فإن عليه الذهاب إلى «البئر» كما يطلقون عليها، لينال بعضاً من بركتها، وتحرسه الملائكة التى تحرس البئر. بل إن أهل الصحراء يتجمعون حوله ليرووا الحكايات والأخبار. فهو مكان مجلسهم وتسامرهم وعن الأهل والأصدقاء يتحدثون. عن الفرح وعن الإنجاب وطرق الترحال حتى عن الموت. هذا ما يحكيه لنا بعض أبنائها الذين قابلناهم فى طريقنا.

وبين الحين والحين يبرز فجأة على طرف جبل أو عند انحدار تل، عصى أو غصن جاف ترفرف فى أعلاه قطعة صغيرة من القماش الأبيض.. إنها علامة الموت في الصحراء. الموت دائما مجهول فوق أرض غريبة. عندما يرحل أحدهم إلى الصحراء يأخذ كفنه معه. وعند الموت يوارونه التراب ومن حوله تتراص الأحجار المجلوبة من الجبل.. وهو نموذج للقبر الصحراوى . يمر عليه الغريب ولا يملك سوى قراءة الفاتحة على روح الميت المجهول. فلا أحد يعيش ويرحل داخلها فلا يملك سوى الانصياع للقدر المحتوم.

ويتجلى الاحترام أمام الشجرة ذلك العنصر الأخضر الذى يمثل رمز الحياة ونضارتها. فكما يقدسون الماء والبئر يقدسون شجرتهم حاملة الخير على فروعها.

فعلى الطريق نشاهد كثيراً من الأشجار وقد حملت غصونها قصاصات فى القماش وبعض الملابس البالية. فهم يعتقدون أن الشجر يحافظ على ذكراهم بعد رحيلهم، فيعلقون عليهم ملابسهم القديمة لتحميهم من الشرور. كما تحرص النساء على دفن المشيمة والخلاص بعد الولادة تحتها اعتقاداً بأنه يعطى المولود عمراً مديداً كعمرها.

وعند أحد السفوح حيث نبتت بعض النباتات الخضراء شاهدناها تسير الهوينى تجمع النباتات والأغصان اليابسة، تتلفح بثوب من الخضار وبطرفة تخبىء جزءا من وجهها وتمسكه بأسنانها ومن خلفها يسير ابنها وأغنامها فى طاعة عمياء يتوقفون لدى توقفها، ويسيرون مع سيرها. حاولت التقرب منها فرفضت، لكنها وافقت بعدما شاهدت «عبد اللطيف». جاء سؤالها لماذا تأخذون معكم ابننا ابن العبابدة؟ ولماذا تجمعون «الداموس» الصخر بلغة أهل الصحراء؟ والقلق يبدو عليها طمأنتها بأننا لن نأخذه إنما هو

يرافقنا فقط وأننا سنعيد «الداموس» إلى أماكنها بعد تصويرها، بعدها بدأت تحكى لنا عن حياتها البسيطة، فزوجها رحل إلى إدفو بحثا عن الرزق. وهى ترعى أسرتها المكونة من الأبناء والأغنام داخل الصحراء. ترحل بحثاً عن المرعى الجديد والماء. وإن كان أكثر ما يفزعها هو «السيل» الذى يجرف كل شىء أمامه. لذا كانت بفطرتها تختار مقر نوم الأسرة بعيداً عن مخرات السيول. وفى ختام لقائنا أهديناها علبتى تونة وكبريت . فبدت عليها علامات السعادة وكأنها عثرت على كنز الكنوز لكنها عادت وطالبت بترك الداموس وابن العبابدة فى حالهما والرحيل إلى بلادنا فى مصر. وتركتنا لتعلق ثوبها القديم على الشجرة استعداداً للرحيل مرة أخرى.

يحكى لنا عم «فراج» عن أحد أبناء قبيلة العبابدة عن قبيلته بفخر واعتزاز فهى قبيلة نزح أهلها من شبه الجزيرة العربية ينتسبون إلى عبدالله بن الزبير. ولا تهم دائما يكون لشيخ قبيلتهم. واليوم شيخهم هو الشاذلى توفيق الذى يقيم فى مدينة «القصير» يلبس أهل العبابدة العمامة البيضاء الملفوفة فوق الرأس. وكلما نزلنا جنوباً ازداد حجم لفائفها نظرا لازدياد الحرارة وأشعة الشمس. يعرفون بحدة البصر والقدرة على تحمل الجوع والعطش لفترات طويلة. وعند الرحيل يحمل كل منهم فى جرابه حفنة دقيق، وهذا هو طعامه فى الصحراء. عندما يقرصه الجوع يخلط الدقيق بالماء ويسويه بدفنه فى الرمل الساخن ليخرج بعد ذلك عيش «الجابورى»، وهو نوع من العيش لا يقدر على أكله سوى أهل العبابدة. لأنه يسبب عسر هضم شديدا.

يشارك العبابدة فى الصحراء قبيلتى البشارية والرشايدة البشارية لا يتحدثون العربية إنما اللغة البجاوية وسكنون مدن «برنيس» و«حلايب» و«شلاتين»، بعضهم يتزوج من العبابدة فيسكنون قنا وأسوان. يمتازون بشعورهم الطويلة فلا يلبسون العمامة. أما قبيلة الرشايدة فيتحدثون اللغة العربية يسكنون «شلاتين» لكنهم يرحلون باتجاه المطر. يمتازون بالبشرة البيضاء وزيهم المختلف. فيلبسون الجلباب الأزرق لون السماء ولا يتصلون بالعبايدة ولا البشارية.

أسطورة الصحراء

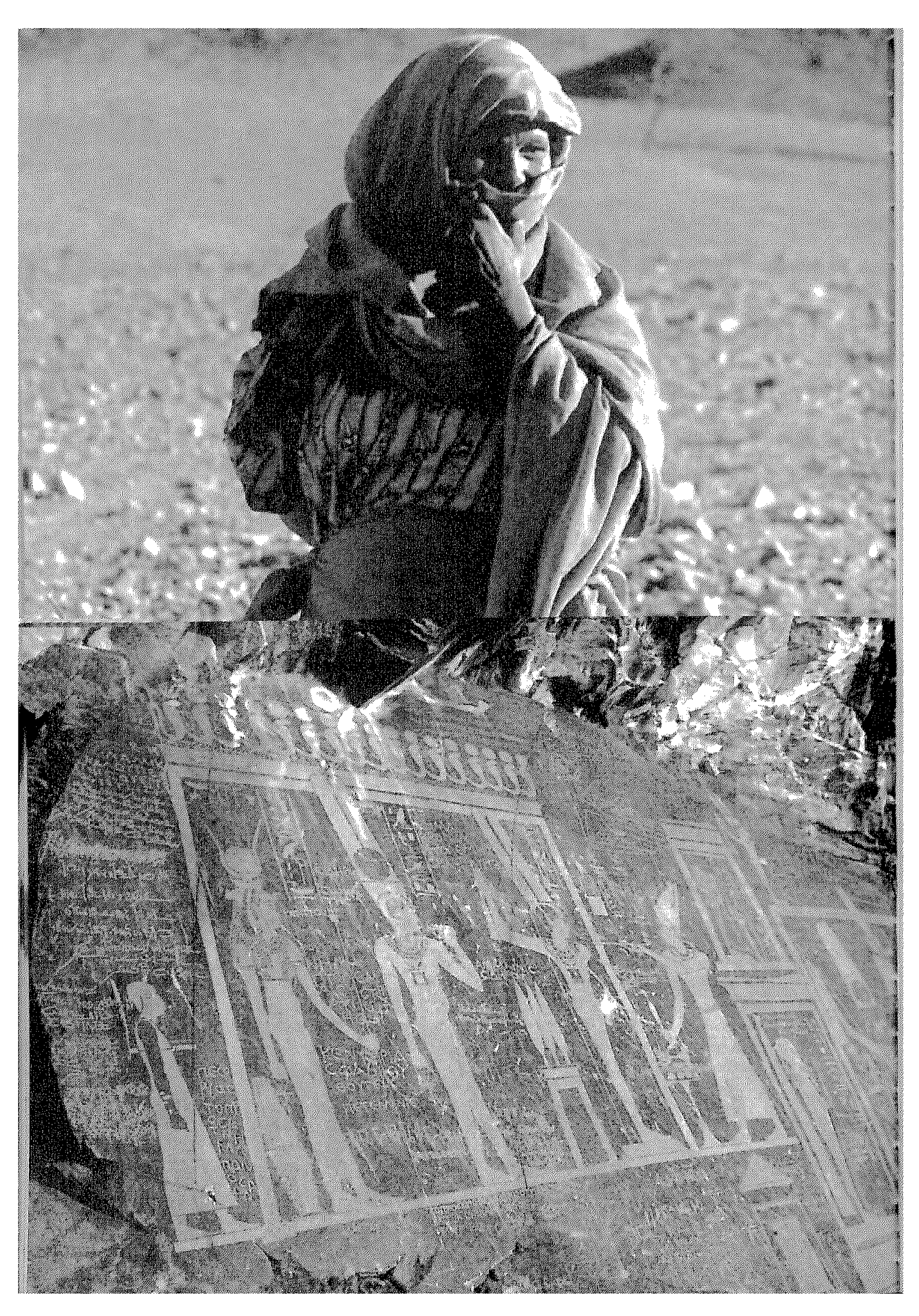
داخل الصحراء برمالها الصامتة. يتولد الإنسان الحر وعندها تتولد الحكايات. وهى حكايات تصل إلى حدود الأساطير، تتناقلها الألسن حول البئر المقدس تحكى عن أناس كانوا هنا ورحلوا، وأناس أصبحوا هنا بعدما قدموا.. لكنهم الراحلون والقادمون – لا يملكون سوى مواجهة أسطورة واحدة بشجاعة لا مثيل لها، أسطورة ثعبان الطريشة. فهى عن حق أسطورة أساطير الصحراء. كل من قابلناه يحكى لنا عنها وعن مدى قوتها الخارقة برغم صغر حجمها.. يحكون لنا عن رجل من العبابدة قطع ساقه بنفسه وكواها بالنار بعدما لدغته الطريشة، يقولون أن سمها لا مصل واق منه.. يقتل فى الحال. العلاج الوحيد هو بتر العضو المصاب قبل أن يصل السم إلى باقى الأعضاء . علاقتهم بها تملؤها الرهبة إلى حد التقديس. ويعتقدون أن قتلها وطحن جسدها وإعطاء رمادها للطفل الرضيع مع لبن أمه يمنحه بعضا من المناعة. لا

يحميه بشكل كامل لكن يقلل من خطورة سمها إذا لدغته . والعجيب أننا عندما نسألهم إذا كان أحدهم قد شاهدها يوما . فيذكرون أنهم شاهدوها لكنها لم تؤذهم. وأنهم يسمعون حفيفها ليلاً فقط فهى ثعبان أعمى يتأذى من ضوء النهار، ويرون آثارها على الرمال. حيث لها أثرمميز يختلف عن أثر أى ثعبان آخر. فهى لاتزحف كغيرها إنما تقذف جسدها فى الهواء عندما تنتقل من مكان لمكان، وبرغم ذلك ظلت الطريشة هى أسطورة الصحراء بلا منازع.

غادرنا وادى أم الفواخير باتجاه وادى الحمامات أشهر الأماكن التى تحوى النقوش الفرعونية من مختلف العصور كان فى الماضى يستخدم كمحجر لصخور «الجراى واكى» التى اقتطع منها الفراعنه الأحجار التى تحتوى منها أجمل تماثيلهم . فوق الكتل الصخرية شاهدنا مئات من النصوص الهيروغليفية لحيوانات مثل الثيران والبقر والوعول بالاضافة إلى رسوم لقوارب صيد ومن الملاحظ أن تلك الرسوم تضم أشكالاً متعددة من المراكب المختلفة والتى تعود إلى عصور متعددة ويؤكد لنا الاستاذ محمد عبد الفتاح مدير آثار وجه قبلى أن تلك النقوش والرسوم تضم بقايا ثلاث خراطيش ملكية تعود إلى عصر أخناتون كذلك تحوى نقشاً لثعبانين من الكوبرا على رأسهما قرص الشمس وقرنا حتحور وأمامهما مائدة قرابين ونقش آخر لعدد من الجمال والذى يعود للعصر الإسلامى ومقصورة صغيرة منحوتة وفى جانب منها نقش للإله «مين» حامى الطرق والقوافل الصحراوية، وفى الوادى قابلنا الغفير «محمد» المكلف من قبل المجلس الأعلى للآثار لحماية المكان سألناه ما حدود المكان الذى يحرسه أوضح أنها تمتد إلى حوالى ٢٠ كيلو متر على طريق القصير - قنا والغريب أن المنطقة التى تضم أهم النقوش والرسومات التى شاهدناها . ورغم أهميتها إلا أن الحارس البسيط والمكلف بالحفاظ على سلامتها لا يملك أية وسيله تأمينيه للقيام بواجبه على أكمل وجه وهو الأمر الذى يفتح الباب على مصراعيه أمام هواة جمع الآثار وأمام المتلصصين !! علماً بأن مشهد الحارس البسيط مشهد يتكرر عند كل واد وكل موقع يضم أثرا أو نقشا أو رسما شاهدناه طوال رحلتنا داخل بعض وديان الصحراء الشرقية والسؤال الذى بات يتردد لماذا كل هذا الاهمال والنسيان لمنطقة عاش داخلها أجدادنا ومارسوا فيها مظهرا من مظاهر حضارتهم آلا وهو البحث والتنقيب والتعدين لكنوزها الخفية داخل جبالها ؟

ولماذا حتى الآن لم تتحول تلك الوديان التى تحوى الرسوم والنقوش إلى محميات أثرية ويقوم على حمايتها والحفاظ عليها أفراد متخصصون وعلى دراية بتاريخها يستقبلون الزائرين لإرشادهم وكبح جماح بعض هواة جمع الآثار؟ ولماذا حتى اليوم .لانجد تنظيما ورصدا دقيقا لرحلات السفارى التى تزور الصحراء، حتى لاندع مجالاً للشك تجاه أفرادها وأغراضهم الحقيقية من وراء رحلاتهم ؟ ■

نقوش فرعونية على صخور الجرانيت بوادى الحمامات



سيرة ذاتية
تروى مأساة العراق
بين مدينتين
إحداهما للموتى والثانية للأحياء

بقلم
د.نيفين مسعد ★

لم تسدل «حياة شرارة» خمارا عليها، ولا تكيفت مع مأساة العراق، بل تساندت مع ابنتيها ، وقررن الانتحار بعد أن غاب الأمل، وتركن وراءهن مدينة الموتى ، وقررن الرحيل، وانقذ الحظ الإبنة زينب لتروى ما يعانيه شعب العراق

«إذا الأيام أغسقت» . ليس أبلغ من هذا العنوان فى دلالته على معاناة أسرة عراقية شاءت لها أقدارها أن تعيش فى الزمن الصعب . فلقد اختارت مؤلفة الرواية حياة شرارة لفظ «الغسق» للتعبير عن شدة الظلمة وحلكتها ولكن أيضا للتعبير عن مدى إطباقها وانتشارها ، وكأن الرسالة المباشرة التى يحملها عنوان روايتها هى أن اليأس قد بلغ مداه . هل يجب أن نندهش بعد ذلك عندما نعلم أن حياة قررت فى يوم من أيام شهر أغسطس الملتهبة وفى ذروة تملك شعور اليأس منها، أن تضع حدا لحياتها مع ابنتيها مها وزينب لتنتهى معاناتها الفردية كإنسان أما معاناة الوطن فلا؟... لنبدأ الرحلة من أولها ،

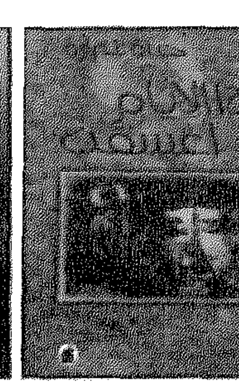
★ أستاذ العلوم السياسية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

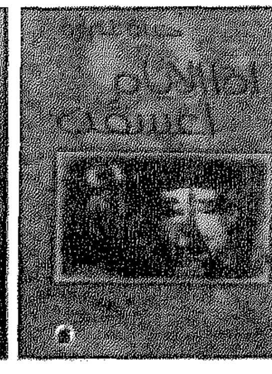
هذه الرحلة التى تختلط فيها سيرة حياة شرارة بتطور التاريخ السياسى للعراق .

سنوات النشأة والتكوين

ولدت حياة فى عام ١٩٣٥ لأب عراقى وأم لبنانية ، فكانت ثالثة بناتهما بعد كل من مريم وبلقيس . ولأن شيئا من أثر الجاهلية الأولى مازال يخالط أفكارنا ويتخللها ، وصفت المولودة الجديدة لأسرة شرارة بأنها «ثالثة الأثافى» . ولم يستطع الأبوان الطيبان أن يتخلصا من «التسمية الشائنة التى لصقت بهما: «أبو البنات وأم البنات» إلا عندما رزقا بمولود ذكر، وإن حارا هل يسميانه «عدنان» أم يسميانه «قحطان»، واستقرا آخر المطاف على أن يخلعا على قرة أعينهما اسم أبى الأنبياء: إبراهيم .

لكن على أى حال فإن شعور حياة بأنها جاءت فى التوقيت الخطأ ظل يلازمها بل يطاردها ويشبعها بحزن دفين . زاد حزن حياة وأساها أن مكان الميلاد كان فى النجف الأشرف، أحد المزارات الأقدس لطائفة الشيعة ، والمدينة التى تصفها بلقيس فى تقديمها لرواية شقيقتها بأنها مدينتان: مدينة الموتى التى تؤمها الجنائز من كل حدب وصوب طلبا لنهاية وادعة فى الثرى الطاهر . ومدينة الأحياء التى يتحلق طلاب العلم حول رجاله فى





حياة شرارة

مساجدها المنتشرة بين ربوعها . وعندما انتقلت حياة مع أسرتها لتستقر فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ومستقرها على عهد أبى جعفر المنصور ، كتب عليها أن تفارق كل من أحبت واحدا واحدا ، ليزيد بريق الأسى فى عينيها الواسعتين وتتكفئ على داخلها أكثر فأكثر .

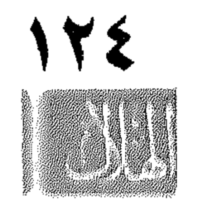
تأثرت حياة لفراق شقيقتيها بعد أن باعدت بينها وبينهما السبل ، فاستقرت مريم فى بريطانيا ولحقت بها بلقيس ، وعجزت عن أن تتواصل معهما بعدما صار الاتصال الهاتفى بين داخل العراق وخارجه شبه مستحيل . كما عجزت بالأحرى عن أن تسافر إليهما بعدما شمل الحصار الطيران المدنى حتى كان على المسافر إلى عمان أن يصل إلى بغيته بعد خمس عشرة ساعة كاملة أو يزيد . وإلى تلك الصعوبة ، تضيف حياة صعوبة أخرى: صدور قرار يحرم النساء دون سن الخامسة والأربعين من السفر بدون محرم . كان للقرار مبرره

من وجهة نظر السلطة، والمبرر هو مواجهة ظاهرة متاجرة الفتيات العراقيات بأجسادهن خارج الوطن بعدما أعياهن تدبير قوتهن اليومي بفعل الحصار . أما من وجهة نظر حياة فأى شئ لم يكن يبرر هذا القرار ، لأنه يعنى ببساطة أن تسافر هى وتبقى مها وزينب ، وكان هذا بعينه مالا يطاق .

وتأثرت حياة لموت زوجها محمد ذلك الطبيب العراقى الذى هرب من ملاحقة النظام الملكى فى بغداد إلى القاهرة ، وهناك التقته حياة فى واحدة من محطات حياتها عندما ذهبت لتدرس اللغة الانجليزية فى كلية الآداب جامعة القاهرة، وتزوجا بعد أكثر من ثلاثة عشر عاما على أول لقاء بينهما . لكن محمد الذى لم ينج من حملة الاعتقالات التى اجتاحت العراق بعد عودته هو إلى بغداد وعودة حزب البعث إلى السلطة ، رجع من معتقله شخصا آخر غير الذى عرفته حياة. فلا كف الحزب عن ملاحقته لضمه إلى كوادره، ولا كان هو بمستطيع أن ينسى أيام الهوان فى المعتقل .. ناهيك عن التفكير فى عضوية الحزب. وبين قوتى الجذب والمقاومة سقط الرجل فى شتاء عام ١٩٨٢ مصابا بجلطة فى الدماغ توفى على أثرها .

أما أكثر ما أثر فى حياة ، فكان هو رحيل والدها فى عام ١٩٧٩. لقد كان محمد شرارة بالنسبة لحياة هو المعلم والشاعر والمناضل الذى تشبعت منه بأكثر مما تشبع أى من أولاده الثلاثة الآخرين ، بمن فى ذلك إبراهيم ابنه الوحيد . بل من المفارقة أن الدور السياسى لابراهيم كما تعرضه بلقيس فى مقدمة الرواية كان هو دائما دور البديل ، فلم يقبض عليه إلا كرهينة أو على أساس البدل ، فأخذ تارة بدلا من الأب وأخذ تارة أخرى بدلا من الأب وحياة، أما هو إبراهيم فلم يطلب أبدا لذاته . هل يعنى ذلك أى شئ ؟

فتحت حياة عينيها فى بيت أسرتها على أب يشتغل بالتعليم ، وليس أكثر من أب مرب يحسن تنشئة أولاده. منه عشقت اللغة العربية الفصحى التى كان يخاطبهم بها فى غير افتعال . وفى صالونه الأدبى رأت شعراء وأدباء فى قامة بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وحسين مروة وبلند الحيدرى ، فانزوت فى أحد أركانه تتابع سجالاتهم حول تجديد الشعر العربى وتحريره من القوافى ورسخ فى أعماقها بعض ما تابعت . ومن صلابته تعلمت ألا تلين لها



قناة ، فلقد أخذ والدها بين من أخذوا في عام ١٩٤٩ وهو العام التالي على ضياع فلسطين وعلى الاضطرابات التي اجتاحت العراق وتسببت في إلغاء معاهدة بورتسموث بعدما وقعها رئيس الوزراء صالح جبر . وعلى الرغم من أن كل جريرة والدها أنه كان يعبر بقلمه عن بعض مايردده المتظاهرون في مظاهراتهم، إلا أنه اعتقل مع نفر كبير من مفكري العراق ، وفقد وظيفته ، وأغلق صالونه الأدبي ، ليعود السيناريو نفسه ويتكرر في مناسبة أخرى في عام ١٩٥٢ مع ما عرف «بانتفاضة تشرين» احتجاجا على معاهدة عام ١٩٣٠. وكم كان داعيا للسخرية أن تداهم الشرطة منزل آل شرارة في عام ١٩٥٣ لتقبض على الأب فتكتشف أنه قابع في سجونها!!. وفي عام ١٩٦٠ أعيد اعتقال محمد للمرة الثالثة وذلك في ذروة الصراع بين عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف، ومن ورائهما تيارات وقوى مختلفة الاتجاهات والأوزان ، حتى إذا ما أطلق سراحه لاحقا ترك العراق وراءه فلم يعد إليه إلا بعد أن هدأت نفسه فقضى سنواته الثلاث الأخيرة في بيت صغرى بناته . شئ من هذا التصميم ورثته حياة وتسرب إلى جيناتها ، وهذا ينقلنا إلى ملمح آخر من ملامح شخصيتها .

الوجه الآخر لحياة

لم تكن حياة هي فقط الإنسان المسكون بالأسى المائل إلى الانطواء والعزلة، لكنها في الوقت نفسه كانت هي الشخصية المحاربة التي جندها الحزب الشيوعي العراقي وهي لم تبلغ بعد السابعة عشرة من عمرها وأوفدها لحضور مؤتمر السلام الذي عقده في براغ عام ١٩٥٢. وكان إيمانها بالحزب الشيوعي بالذات مبعثه كراهتها للظلم الاجتماعي الذي أصاب أباها كما أصاب رفاقه. ولذلك فإنها عندما تبرمت من سياسات الشيوعيين في العراق، لم تدر ظهرها للفكر الشيوعي ولا هي قطعت مع رواده . بل كانت المفارقة أنه في اللحظة التي بلغ فيها تبرمها من تلك السياسات مداه ، لم تجد إلا الاتحاد السوفييتي لتسافر إليه في عام ١٩٦١ وتحصل منه على أطروحتها للدكتوراه التي حملت عنوان «تولستوي فنانا». ما أكثر المرات التي غادرت فيها حياة العراق وعادت إليه . تركته وعمرها لم يتجاوز العامين إلى لبنان وبقيت في

رعاية جدتها لأمها بعدماحالت إصابتها بالتيفوئيد دون أن تلحق بأسرتها المسافرة . وتركته إلى براغ ودمشق والقاهرة وموسكو ، وفى كل مرة عادت . جزء من هذا الارتباط بالوطن تعزوه شقيقتها بلقيس فى المقدمة إلى تكوين المواطن العراقي الذى «لا يحب الهجرة ، ويفضل الإقامة فى بلده مهما قست الظروف عليه » . لكن جزءا آخر منه يتصل بالطبيعة الخاصة لشخصية حياة كمحاربة وكامتداد طبيعى لشخصية الأب . فقط عندما أحكم الحصار خناقه على البشر ، واشتد سواد الأيام ، وجدت حياة قواها تخور وعزمها يضعف ، ففكرت فيما لا يمكن التفكير فيه ، فكرت فى أن تهاجر ، فلما رفض طلبها انتحرت بعد أقل من عام ، وتحديدا فى أول أغسطس ١٩٩٧ .

عندما تفسق الأيام

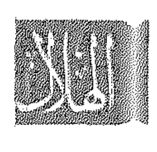
تنقل بلقيس عن رسائل حياة لها فى الغربة بعض ما فعل الحصار بأهلهما فى العراق . فتروى على لسانها كيف شحت المواد الغذائية الضرورية وأبسط أنواع الأدوية من أسواق العاصمة بغداد. تقول حياة « المشكلة هذه السنة (١٩٩٤) صعوبة الحصول على الخضرة بكل أنواعها لقلة وجودها فى السوق ... أغبش للحصول على المواد ، ومع ذلك لم نشم رائحة الطماطم (البندورة) منذ شهر تقريبا» . وتقتبس بلقيس من كتاب حياة عن «المتنبى بين البطولة والاغتراب» قولها «أصبح الجوع ماردا قهارا ، وحول البلاد إلى مسرح رعب وفزع يفغر فاه ويكشر عن أنيابه ويعتصر بين فكيه أرواح الناس » .

لكن أنكى من تفشى الجوع وشح الغذاء ، كان تلوثه بآثار اليورانيوم غير المخصب الذى استعملته الصواريخ الأمريكية فى حرب الخليج الثانية . تقول حياة «إضافة إلى أنواع الحساسية المزعجة التى بدأت تظهر عندنا مع تغير الفصول، وذلك بسبب تلوث الجو على ما يظهر، فقد أخذت شجيرات الورد (الجورى) تصفر أوراقها وتحترق فى الصيف وكذلك بعض الأشجار . ويبدو أن الجو أخذ يؤثر على المزروعات أيضا ، فلأول مرة كانت الباقلاء الخضراء يظل قسم منها متخشبا لا يستوى مهما غلى » .

أما أكثر ما آلم حياة وعذبها فكان انعكاس هذا الخراب المادى ، على أرواح الناس ونفوسهم ، حتى ما عاد عرف يردعهم ولا قيم تحميهم . ولأنها كانت أستاذة بجامعة بغداد تدرس

الأدب الذى عشقته قبل أن تمتهن تدريسه ، فإنها تحكى فى روايتها «إذا الأيام أغسقت » بعض مظاهر الخراب النفسى الذى أصاب مجتمع الجامعة ، وذلك من خلال سجالات أعضاء هيئة التدريس فيما بينهم ومع رئيس القسم وعميد الكلية (الآداب) ، ولأن أدب حياة هو أقرب ما يكون إلى البوح بخوالجها، فلقد تقمصت فى روايتها شخصية الدكتور نعمان فكان هى أو كانت بعضا منه ، كما سبق لخالد أن نطق باسمها فى قصتها القصيرة التى جاءت تحمل عنوان «وميض برق بعيد» .

فى «إذا الأيام أغسقت» تربط حياة بين تردى المستوى المادى للأستاذ الجامعى العراقى وانحرافه الأخلاقى الذى ألجأه إليه خوفه من فقدان العمل ، ومع أنه يمكن الاحتجاج بأن الفساد لا يلزمه فقر بالضرورة، إلا أن الفقر لا شك ييسر له الأسباب . وتابع معى بعض مظاهر هذا الفقر فى حياة الدكتور منير زميل نعمان فى القسم وشريكه فى غرفته ، هذا الذى باع قاموسه الخاص «المورد» حتى يشترى بثمنه شايا وأرزا ودهنا ويسدد بعض ديونه الصغيرة ، وينضم بذلك إلى طابور المثقفين الذين اضطروا لبيع مكتباتهم بأسعار بخس وكأنها بضاعة كاسدة يتفضل عليهم بشرائها أولئك الذين يأخذونها منهم بالجملة أو المفرد لقاء نقود زهيدة ». ولاحظ قيامه هو نفسه أى الدكتور منير بشراء بنطلون جينز لابنه من سوق الملابس المستعملة وإن طمأن نفسه بأنه «معطوب قليلا» فى بقعة غير مرئية فى الأعلى بين الفخذين ». هل كان يستطيع ألا يفعل وقد ضاقت ذات اليد وما عادت الهبة الحكومية الشهرية لأمثاله تشترى أكثر من كيلو جرام من الحمص، ناهيك عن مهانة الانتظار فى طابو له أول لكن ليس له آخر! . تأمل معى حال دكتور أكرم الزميل الآخر لنعمان الذى اتخذ فى لحظة تهور قرارا بالتقاعد ، فعانى الأمرين ما بين عمله كسائق تاكسى على سيارته الخاصة ، ومشاركة أخيه فى مخزن لبيع الحبوب . وانظر كم كان يغشاه الخجل بل يقتله كلما مر عليه طالب سابق وسأله أن يزن له كيلو جراما من السكر مخاطبا إياه بلقب «دكتور» . ترحم معى على الأستاذ عبدالرازق الذى رفض أن يرقى من لا يستحق فسربت أسئلة امتحاناته فى نهاية العام عمدا ، ودام التحقيق معه سنة كاملة حتى أصابته نوبة قلبية وهو قاعد فى غرفته ، فنقل إلى المستشفى



ولم يبارحه حيا . انظر تلك النماذج ولاحظها وتأملها، لتتبين معى طريق دكتور نعمان وسط هذه الظلمة الحالكة .

لم يرد نعمان أن يكرر مأساة زميله أكرم ، ولا شاء بالطبع لنفسه نهاية كنهاية الأستاذ عبدالرازق، لذلك فما أكثر ما ردد بينه وبين نفسه عبارة دستوفسكى «اخضع أيها الانسان الفخور» .

وقارئة تملكنى الفضول لأقف على جوانب الانفصال والاتصال بين شخصيتى حياة ونعمان ، فحياة كما ترسم صورتها مقدمة بلقيس لا تقبل الخضوع ولا تعرف الحلول الوسط . أما نعمان فإنه خضع فى حياته مرتين . خضع مرة لإرادة عميد الكلية عندما دعاه إلى تغيير نتيجة امتحان أحد أبناء كبار المسئولين ليتحول بها من راسب إلى ناجح . فى البدء قاوم نعمان واستنكر وثار، إلا أنه امتثل فى النهاية لرغبة العميد، وحاول أن يسيغ عبارته «كلنا لدينا ضمائر ولست أنت وحدك»، وقوله «الدرجات ليست ذهبا تعطيه بالمثاقيل، ويمكنك التصرف فيها إذا أردت» . وتصرف نعمان ، تصرف حتى لا يوصف فى التقرير السنوى عن أدائه بأنه «غير متعاون» ولهذا الوصف مدلوله ونتائجه، فأعطى طالبا لا يستحق إلا صفرا .. ثلاثين درجة كاملة . وهكذا زال حبل العميد الغليظ الملتف على عنقه ونال رضاه ، لكن الحبل التف حول ضميره وأشقاه.

وخضع نعمان مرة أخرى عندما دفع إليه زميله وجدى بمقال للدكتور صبحى رئيس القسم لتقويمه ، وكان يعلم علم اليقين أن مقالات صبحى فى العموم لاتصلح للنشر «لضعف قدرته على التفكير العلمى وترتيب أفكاره بشكل منطقى متسلسل» . لكنه كان يعلم فى الوقت نفسه من هو هذا الصبحى إن تحداه . إنه هتلر كما وصفه أحد الزملاء ، وكما يحب هو أن يوصف بلا خجل لأن «هتلر بنى الأمة الألمانية وعرف كيف يسوسها ، ولكن الحظ عاكسه» . ولأنه كان يعلم ما يعلم ، كان عليه أن يدون فى استمارة التقويم أن مقال صبحى «أصيل» ففعل مسرعا . كذلك ملأ كل البيانات المسجلة فى الاستمارة بما يتماشى مع استنتاج الأصالة ، وحصل صاحب المقال على مبلغ من المال يصرف لمن على شاكلته من «الأصلاء» ليسيروا به حياتهم اليومية المتعثرة .

قسوة ما بعدها قسوة أن يغير المعلم

ضميره ، أن يضطر إلى ذلك اضطرارا ، فالمعلم والقاضى اثنان لا يستقيم ميزان العدل إن اختل دورهما . على هذا نشأنا وتربينا ، « فكيف انهارت قيمة العلم ولم يعد سوى حاجة معنوية؟» يتساءل دكتور بدرى ويضيف «كيف انخفض مستوى معيشتنا إلى هذا الحد وكأنما ألقى بنا من قمة الجبل إلى أسفله؟... ترى كم ليلة وليلة يمكن أن يستمر الحصار؟». هرب الدكتور بدرى من تساؤلاته فى الدين ، وانتقل كما فعل كثيرون مثله من مربع اليسار إلى مربع اليمين (الدينى) ، وأكسبه تحوله هذا ربما قدرة أكبر على مقاومة الفساد بعد أن تلبسه الإحساس بأنه يؤدى دورا رساليا . أما دكتور نعمان فلم يكن عنده هذا الخيار واردا ، ربما لأن قناعاته اليسارية كانت أرسخ ، وربما لاعتقاده أن التنازل على قسوته قد يكون أهون الشرين فى انتظار يوم يتحسن فيه الحال . لكن باليقين فإن ما لم يعلمه نعمان وأمثاله أن الأوضاع لم تتغير بل هى لن تتغير إلى المدى الذى تطاوله أبصارهم وبصائرهم ، إلا إن كان التغيير المرتقب فى اتجاه الأسوأ . أو لعل الأرجح أن نعمان علم بهذه الحقيقة وحاول أن يتكيف معها ، وخضع فى محاولته لشئ من اللامعقول الذى بات ملازما لهذا الزمن الصعب ، فاستسلم لأوامر النظام بالحفاظ وطاقم التدريس بالكامل على رشاقتهم ، وخضع وإياهم لاختبارات دورية بهذا الخصوص ، وتألم مثلهم على سلبه الحرية الوحيدة التى بات يملكها ... هل بات أحد يملك فى بغداد فعلا الحق فى الامتلاء ؟

أما حياة كاتبة الرواية ، فلا هى أسدلت خمارا عليها ، ولا هى تكيفت مع واقعها ، لكنها أضمرت فى نفسها شيئا آخر تماما . تساندت حياة مع ابنتيها «مها» الباحثة عن وظيفة بلا جدوى و«زينب» المشغولة بلملمة تركة جدها الثقافية، واستجمعت ثلاثتهن شجاعتهن وقد غاب عن أفقهن كل بصيص أمل ، وتركن خلفهن مدينة غير التى عرفن وأحببن تفوح منها رائحة المجارى وجثث الموتى، وانتحين ركنا قصيا فى انتظار أن يتسرب الغاز إلى صدورهن ويميت مراكز الإحساس فى الأدمغة الثلاثة، فقضت حياة وقضت مها . أما زينب فقدر لها أن تعيش لتكون شاهدة على أيام أشد حلكة من كل حلكة تنتظر وطنها .. وطننا العراق. ■



بقلم
إبراهيم فتحى

ليس موضوعنا المعمار الروائى بل كيف تناولت الرواية المصرية المكان المعمارى بصلابته البادية ومرونته الداخلية، وفى بعض الأحيان رأى كتاب كبار أن المهندس المعمارى يضع حجرا فوق حجر أو طوبة فوق طوبة ليبنى كائنات جامدة تظل فى وضع ثابت، لذلك تكون الرواية التى تصف هذه الكائنات أو تشبهها بعيدة عن الحيوية والحركية (يحيى حقى فى مقالته الاستاتيكية والديناميكية عند نجيب محفوظ) . ويرى مفكرون آخرون رأيا معاكسا يبدو أقدر على تناول العمارة فى الأدب وتناول العمارة باعتبارها فنا، فالمكان المعمارى (الأبنية والبيوت والقصور والقلاع والمعابد) لايقف عند التصور الهندسى المجرد بل يمتد ليكون مشهدا محسوسا لتجاربنا الانسانية ولدائرة فاعلياتنا وعلاقاتنا بالبيئة. أى أن العمارة فن تشكيلى يبدع بالإضافة إلى نفعه العملى عالما تصوريا متخيلا أو شكلا وظيفيا حافلا بالانفعال عن المأوى والأمان والحماية القداسة، بالإضافة إلى احتواء الحياة فى المكان المتغاير وامتلاك ذلك المكان .

وهذا الفن التشكيلى يخلق مجالا ثقافيا بالمعنى الواسع للثقافة باعتبارها طريقة حياة ومنظومة عقائد وقيم. فكل من المسكن القروى أو البيت فى حى شعبى أو الشقة فى عمارة أو العمارة نفسها أو الوكالة أو المدرسة أو المستشفى كما يرد فى الروايات يمتلك مضمونا حسيا وانفعاليا فكريا واجتماعيا خاصا به فى تقابل مع برج سكنى إدارى أو قلعة أو مقام ولى وفى السرد الروائى كما فى الفن التشكيلى تفصح الأبنية المعمارية عن مجال ثقافى اجتماعى هو صورة رمزية لمكان متخيل وإن تكن تعالج إبداعيا مكانا فعليا.

وتؤكد سوزان لانجر (الشعور والشكل) أن البناء المعمارى لايتصف بالاستاتيكية بل يخلق صورة ثقافة ما مادية وروحية، صورة بيئة انسانية حاضرة ملموسة تعبر عن النماذج الوظيفية الإيقاعية المميزة للثقافات والأوضاع الانسانية.

الجبل

ولنبدأ برواية الجبل لفتحى غانم (فبراير ١٩٥٩)، إن حكومة ماقبل يوليه ١٩٥٢ تشيّد قرية نموذجية فى أقصى الصعيد فى أماكن السياحة يرفض الأهالى الانتقال إليها، وتبنى المدينة وفقا لمخيلة معمارية تقلد أوروبا تقليدا قرديا، فسقوف حجرات البيوت على شكل قباب والحدائق العقيمة الزخرفية داخل أسوار عالية وهناك ساحة عمومية وسط المبانى فيها الجامع والمدرسة ودوار العمدة. الجامع روعى فيه أن تنسجم مساقط الضوء داخله مع خطوط البناء وحركات المصلين كأنهم سيرقصون باليه على مسرح حديث الإضاءة، ويجب أن ترسم الفلاحة الحافية السائرة بجوار جدار الجامع المرتدية ملس الفلاحات الأسود صورة جميلة منسجمة من ألوان الجدار فعليها أن ترتدى فستانا برتقاليا من وجهة نظر المهندس المعمارى، أما دار العمودية الفخمة فلا علاقة لها بوظيفة العمدة فى قرية : حجرة مكتب وحمام أفرنجى ملحق به، وحجرات نوم للضيوف، والمدرسة مثل المدارس الإنجليزية الراقية تحوى فى مكان بارز منها كنيسة تثير الرهبة وتكون رمزا لتلاميذ مسلمين!! كما أن عمارة البيوت لاعلاقة لها بالمناخ المصرى، فالجدران سميكة تحفظ الحرارة داخل البيت (كأنها مصممة لمناخ بارد فتجعل الصيف الطويل فى مصر جحيما)، وتحفظ الرطوبة الخانقة فى الصيف. وهناك قبة فى السقف تعكس أشعة الشمس وتجعل من المستحيل تكديس الأحطاب والوقود عليها، وستبدو القباب قبابا لأضرحة فى أعين الفلاحين، وتجعل البيوت قبورا.

وبدلا من بيوت مرتبطة بتحضير السماد للحقل فى حظائر الماشية، هناك «چاراچ» كبير للمواشى والدواب يجمع فيه الأهالى حيواناتهم ليلا خارج الدور دون اعتبار لأن الجاموسة أو البقرة فى الدار تتطلب عناية النساء بعلفها وحلبها، وليست القرية الجديدة مكانا للعمل والرزق بل هى كائن طفيلى .. ومن ناحية أخرى هناك تصور معمارى عكسى «لتطوير» أبنية القرية، يعبر عن رومانسية الخواجات

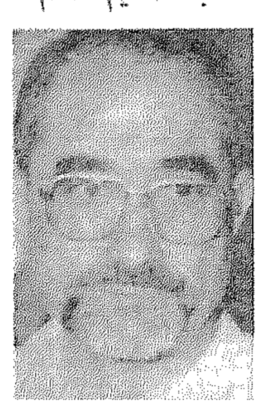
الذين أنهكتهم عمارة المدينة ويحلمون بالعودة إلى الطبيعة، وهذا التصور يريد أن يجعل بيوت القرية جزءا من طبيعة الأرض والصحراء وكهوف الجبال التى تحف بالحقول، وهذا القصور الآخر فى الرواية يريد استبقاء البدائية والتخلف وسعادة الحيوانات المزعومة لتكون منظرا يسر السائحين الناظرين.

وننتقل إلى معمار أبنية القرية والمدن المحلية الفعلية قبل ١٩٥٢ فى رواية عبدالحكيم قاسم «قدر الغرف المقبضة» (١٩٨٣).

إن دور القرية التى قضى فيها الراوى طفولته، تشبه السجن الخانق وراء الباب المغلق دائما، مقيدا الأم والأخوات، والدور متراصة تشكل معا سجنا واحدا وجدرانها المتزاحمة تفرض على الناس جمودا ولامبالاة وتعفنا ويرى البطل من القطار مبانى قرى ومدن مصر جميعا تقريبا سجنا ممتدا كبيرا ويبدو العمار كتلا سوداء معتمة، وبيوتا متلاحقة تسانده متواكبة قميئة شائهة وفى المدينة الإقليمية أيضا حيث يدرس الراوى نلمح غرفا هى زنازين، غرف الطلبة الكئيبة فى حارات لاتدخلها الشمس، الغرف التى بلا نوافذ، ومعمار المدرسة يجسد وضع الناس وطرائق حياتهم، فردهاتها أمام الفصول طويلة بلا نهاية ولا زخارف .. وفناؤها شاسع قحل تطل عليه جدران المدرسة العالية الجرباء، أما حجرات المدرسين فهى ضيقة معتمة يتم الوصول إليها باجتياز سرداب مظلم (د.حسين حمودة – الرواية والمدينة)، لقد كان الأمر دائما كذلك. وفى رواية سقوط النوار لمحمود ابراهيم طه (٢٠٠١) ذكريات طفولة تدور أثناء نفس الزمن فى قرية قديمة، دور الدرب متماثلة يكاد المار أن يلمس الأسطح بذراعه لو مدها، وهى عتيقة واطئة أبوابها كابية تنزل لها بدرجتين أو ثلاث، وباب دار الراوى يفضى لدهليز طويل يتجه نحو إحدى الدرجات، وفى نهاية الدهليز البحرى قبل مطلع السلم موضع الزير ليتلقى الهواء البارد.

وباب المندرة المطلة على الشارع بشباك بحرى ذى ضلفتين علويتين تفتحان للداخل فيرى الراوى قبة ولى، أما الضلفتان السفليتان فمغلقتان بشكل دائم لارتفاع الشارع وهبوط الدار حتى أصبح بإمكان الجالس فى المندرة أن يرى قدمى السائر فى الشارع، وبالمندرة ثلاث مصاطب للضيوف وبالحائط كوتان لمصباحى بترول نمرة ٥. وبالسقف عروق من خشب قديم وألواح حائلة اللون، فليس المعمار هنا معمار سجن، البيت مفتوح على الجيران مطل على مقامات الأولياء، وهناك دهليز ثان به سلم طينى تحته بيت راحة ضيق معتم، وكانون للطبخ وقاعة خبيز تعرشها جذوع أشجار قديمة وبوص صبغه الهباب، وتجسد هذه العمارة الهشة الفقيرة





طريقة حياة، فالفرن الذى يطعم الطوق تنام عليه الأم والأخوات، وعلى السطح صوامع لتخزين الذرة تقف على حافة الدار بكروشها المنتفخة كخفر نظاميين وبنيات للحمام وأقفاص وعشش للطيور، الدار هنا مأوى جمعى ووحدة إنتاج وعلاقة بالآخرين وبرب السماء وأوليائه.

الطوق والأسورة

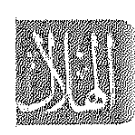
ويصور يحيى الطاهر عبدالله فى «الطوق والأسورة» (١٩٧٥) معمار المعبد الفرعونى وعلاقته بأرباب السماء فى المخيلة القروية الاسلامية رغم السرد الوصفى المحايد، لقد تهدم المعبد القديم المشيد من الحجر الكبير وسقط بعض جوانب السور بفعل الزمن، إلا أن بوابات المعبد السبع باقيات ومن فوق كل بوابة تطل شمس ذات جناحين يحيط بها ثعبانان حارسان، وتدفع الزوجة العاقر إلى داخل بهو الأعمدة، إلى غرفة إله النسل الضيقة، وهو إله مكشوف العورة بقربه مسلة لم تكتمل (هل كل ذلك رموز فرويدية؟)، وأمام بوابة المعبد القديم تساق العاقر تنقل عينيها بين تماثيل الكباش التى قال لها الشيخ أنها كانت بشرا غضب الله عليهم لوثنيتهم فتحولوا إلى أحجار، وستدخل على الرجل (فى معمار الدهليز) الذى كان يتفاخر برجولته فحوله الله إلى حجر أسود بارد وجعله مكشوف العورة إلى أبد الآبدين (وكان النحت جزءا لايتجزأ من العمارة القديمة).

بين القصرين

وماذا عن بيت السيد أحمد عبدالجواد فى بين «القصرين» من ثلاثية نجيب محفوظ فى بداية القرن العشرين؟

إنه بيت تاجر ميسور الحال فى القاهرة القديمة، واسع كبير بفنائه المترب وبئره العميقة وطابقيه وحجراته الواسعة العالية الأسقف، وفى الطابق الأسفل حجرة الفرن وحجرة الخزين، وتختلف حجرة الفرن عن حجرة فرن قرية سقوط النوار فهى تحتضن ثراء العيش، وتضم فرنا وكانونا يحتل الركن المقابل، فهذه الحجرة وبها عين الفرن المقوسة يلوح فى أعماقها وهج النار لجذوة السرور المشتعلة فى نفوس السكان، فتلك العين هى التى تنتج ألوان الطعام الشهية، وبالدور الأعلى حجرة الطعام وحجرة نوم الوالدين وحجرة الجلوس وحجرات نوم للأولاد ففى تلك الدار تخصص فى العمارة أتاحه الثراء، وهناك المشربية التى تحجب النساء وتتيح لهن من ثقوبها التطلع إلى الشارع وينتمى السطح إلى تزييف المدينة الشعبية، فقد بنيت فيه أكواخ خشبية للدجاج وأركان لأقفاص الحمام وأعد فيه بستان محروس من أصص جميلة زكية .

وتعكس عمارة البيت نمط حياة انتقالى بين التقليدية وبدايات النهضة، بين الألفة العائلية الجمعية وبزوغ الفردية. فالمعمار - حيث الطوابق تعكس أوضاع العلاقة المتناقضة بين الرجال والنساء (عزلتهم وفضولهم ومشاركتهن)، والسطح الذى تبنيه وتتعهده المرأة ليصبح رغما عنها ساحة لغزل الرجال مع بنات الجيران (فهمى ومريم) أو للاعتداء على الخادمات (ياسين ونور) - هو إطار للسلوك الانسانى، بكل تغايراته فى الزمان، ينغرس فى لحم هذا السلوك وحركته.



هليوبوليس

وفى نفس العشرينيات من القرن العشرين تصور رواية هليوبوليس لمى التلمسانى (٢٠٠٠) انتقالا معمارياً آخر مختلفا، بين الطرز المختلفة، فالبارون امبان ينفق أرباحه من شركة الترام فى بناء قصر له على الطراز الهندى، يشبه من الخارج معبدا من معابد مادورا ببرجه الشاهق المخروطى وتماثيله على هيئة الفيلة ومن الداخل كان كل شىء ينتمى إلى ذوق البورجوازية البلجيكية التى ينتمى إليها البارون، وفى الفترة نفسها أنشئت قصور الأرستقراطية التركية غير بعيد من قصر البارون (الأمير حسين والأمير إبراهيم والسلطانة ونوبار باشا)، وجميعها يعتمد على التصميم الأوروبى مع قشرة شرقية، وفى الوقت نفسه اجتذبت شركة مصر الجديدة الأهالى للبناء فى «الواحة» وبالمثل لم يكن المعمار عربيا فى شىء، كان خليطا من الطراز الأوروبى فى التصميم والزخرفة الإسلامية فى الواجهات الخارجية. وتشبه هذه البيوت بيوت القرية النموذجية المهجورة فى رواية الجبل، الغرف حارة فى الصيف ورطبة فى الشتاء الطراز الهجين الذى لا يأبه بالتوائم مع الطقس فى مصر.

ذات

ويتناول صنع الله إبراهيم فى رواية ذات (١٩٨٣) الحى الذى اقترن باسم البارون إمبان، وتغير شوارعه وعماراته وشققها،. فشوارع الخمسينيات وبداية الستينيات التى شقت لتؤوى أبناء القطاع العام فى عمارات متشابهة تصف الرواية ماحدث لها من عمليات هدم وبناء .

إن عمارة العرسان وأمثالها من عمارات موظفى الحكومة فى أطراف مصر الجديدة، تزحزحت إلى المركز فى السبعينيات، وصحب ذلك ضيق العمارات بسكانها وبنوافذها وشرفاتها ومداخلها لقد تحطم زجاج مناورها ونشعت جدرانها وأغبرت واجهاتها وتكدست مخلفات الأعوام فى أركان شرفاتها، أما قصور العروبة وڤيللات الأربعينيات وعماراتها الراسخة فقد تحول بعضها بعد تقفيلة بالألوميتال والفيمية إلى مكاتب بيزنيس. وما يحدث فى زمن الانفتاح من تغييرات فى طرائق الحياة ينعكس على معمار الشقق داخل العمارات، وكأن الطبقة الوسطى تلقت توجيها من التليفزيون الرسمى فى صورة ربة بيت تنهال بالمطرقة على جدران مطبخها وما أن تنتهى حتى تتألق الجدران بالسيراميك المستورد، وتعم حركة «سرمكة» للقادرين «وقشقشة» (طلاء بالقيشانى) للأقل قدرة وهناك حركة هدم للڤيللات والعمارات العتيقة المتينة وبناء لعمارات زجاجية الواجهات تنهدم من تلقاء نفسها.

أنتم يامن هناك

وليس الأمر مقصورا على مصر


نجيب محفوظ


فتحى غانم

الجديدة فى تتبع تأثر المعمار بانهيار طرائق حياة وقيم وظهور طرائق حياة لا تتعاطف معها الروايات ففى رواية ضياء الشرقاوى «أنتم يامن هناك» (١٩٨٧) تصوير لعمارة بلا وجه فى مدينة بلا اسم وكأنها تجسد ماحدث للهوية وللجماعية والتواصل والتضامن من اضمحلال فى المدينة، وهذه العمارة ذات الطوابق والشقق الكثيرة التى تضم شخصيات من جنسيات متعددة أو وافدة من الريف إلى المدينة تظل دون ملامح محددة فهى حزمة من أرقام وبابها يعزلها عن العالم الخارجى وعالم العمارة تنهشه تراتبات طبقية ضخمة وفواصل بين الغرف وبين السطح وسكانها من جهة والشقق وسكانها من جهة أخرى، وتشبه العمارة الشخصية الانسانية المغتربة المتشظية المختنقة فى عزلتها التى تنتجها العلاقات الاجتماعية والسياسية فى تلك الفترة من وجهة نظر الكاتب.

ومن الناحية نفسها يواصل ضياء الشرقاوى فى رواية أخرى «مأساة العصر الجميل (مجموعة بيت فى الريح ١٩٧٨) تيمة المسكن السجن عند عبدالحكيم قاسم بعد أن فقد المسكن ألفة البيت العائلى والتواصل الانسان، نحن إزاء شقة هى زنزانة معتمة رطبة معزولة تماما وحولها وفوقها أبواب كثيرة مغلقة، إنها تشبه فى معمارها ديكورا بين ديكورات مسرحية لعبة النهاية لصاموئيل بيكيت، مساحة شديدة الضيق عارية وتبدو أركانها صناديق قمامة تعيش داخلها الشخصيات مشلولة الحركة دون تواصل.

ويرثى جمال الغيطانى فى رواية «رسائل البصائر فى المصائر» (١٩٨٩) ما أصاب مبانى القاهرة القديمة فى السبعينيات من تدهور انسانى مع هجمة الانفتاح، دعك من احتراق مبنى الأوبرا، والقصور التى أصبحت إدارات حكومية مشوهة وركز على غزوة المال الجشع للمبانى الجميلة ذات الطابع الإنسانى الحميم الرائع لتحل محلها مبان صماء معدنية زجاجية (عمارة الحداثة اللاشخصية).

وما كان عاما فى الروايات السابقة نجده مكثفا عيانيا فى رواية يوسف القعيد «بلد المحبوب» (١٩٩٢) فهو يربط تدهور العمارة تدهورا فاجعا بالأعمال السياسية والاقتصادية الكدرة فكأن شيطانا يمسخ كل شىء، ويربط السرد تفاصيل التغيرات المعمارية والعواطف والأذواق.

(ويعرض د.حسين حمودة فى كتابه «الرواية والمدينة» نماذج دالة لمجمل التغيرات فى كتابات الستينيات من نواح أوسع كثيرا من العمارة وإن تضمنتها).

ولا يُرجع محمد إبراهيم طه فى «سقوط النوار» قسوة معمار المبانى إلى انفتاح السبعينيات بل يتعقبها إلى تاريخ طويل من البطش بالفقراء فهو يحكى عن مستشفى الدمرداش الضخم الجهم بطوابقه الستة، وعن زائره الذى ينتابه انقباض وهم بدءا من البوابة الكبيرة السوادى التى تقف حائلا أمام الريفيين نسوة ورجالا وأطفالا ومرضى ليظلوا خارج السور حتى موعد الزيارة، ويختلط المعمار بحركة الحياة والناس اختلاطا

تعيسا سلالم وطرقات ومداخل، قاعات ومكاتب طلبة وأطباء وممرضات، مرضى يتكئون على أصحاء وآخرون ممددون على تروليات، ضمادات ومصاعد، تومرجيات يمسحن الأرضيات والحوائط الكالحة، في مداخل الطرقات عمال يسدون منافذ الأقسام حتى جانب الزيارة، ويتوه الريفيون فرادى وجماعات فى الطرقات بحثا عن الأقسام والعنابر فى المتاهة الواسعة من التفرعات الكثيرة، فمعمار المستشفى المجانى كان لاعقلانيا مختلطا لايستهدف راحة المرضى الفقراء وزائريهم وحصولهم على أنواع العلاج الضرورية بل تكديسهم وتقديم العلاج شكليا.

عمارة يعقوبيان

ومن ناحية أخرى تختلف «عمارة يعقوبيان» لعلاء الأسوانى (٢٠٠٢) عن عمارة ضياء الشرقاوى فى «أنتم يامن هناك» فهى مفتوحة على شارع سليمان التجارى وحركته النابضة كما أن طرازها أوروبى يناسب طرق حياة الأجانب والنخبة من المصريين المتجهين إلى تقليد الأوروبيين، وسيظل طرازها كما هو ولن يتغير مع تغير مجتمع العمارة بعد حركة ١٩٥٢ وتقلباتها وانعطافاتها إلا معمار السطح. لقد كان ملحقا بخدمات الشقق ثم أصبحت حجراته تؤجر ويتم تطويع المكان لإقامة السكان وكذلك لوجود مشاغل للتفصيل وكان أبناء وبنات الفقراء على السطح يتطلعون إلى الصعود الطبقى ومغادرة السطح، ويصلح طراز العمارة لاحتواء طرائق الحياة المتغيرة فهو طراز مرن يتفق مع انتقالات المجتمع القديم إلى مجتمع عصرى.

وكالة عطية

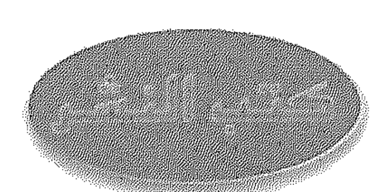
ويعى خيرى شلبى على نحو شديد العمق فى كل كتاباته وثوق الصلة بين المكان والنسيج الإنسانى وهو خير من يعبر عن تطابق معمار «وكالة عطية» ومجتمعه (١٩٩٢) .

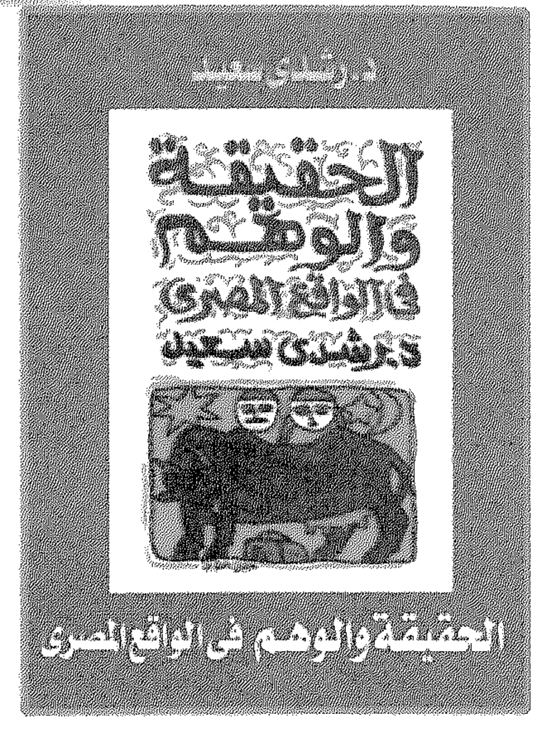
الوكالة تحفة هندسية معمارية اضمحلت إلى خرابة كعزيز قوم ذل، تؤوى الخارجين على القانون والشواذ والمطاردين، والوكالة تجسد قبضة سلطة متحكمة - استمرت من العصر العثمانى إلى الاحتلال البريطانى إلى حركة يوليه تسيطر على جماعات متباينة تريد الحرية والتحقق والانطلاق فتصبح خارجة على القانون، إن الوكالة ومجتمعها كما يقول خيرى شلبى ببراعة هما بكيات ومقرنصات وبلوكات وشرائح وحليات معمارية ومكونات سكانها النفسية والمعرفية تشبه سراديب الوكالة .. فالوكالة تعكس بمعمارها التشكيل الاجتماعى خارجها (فصول - العدد ٦٠).

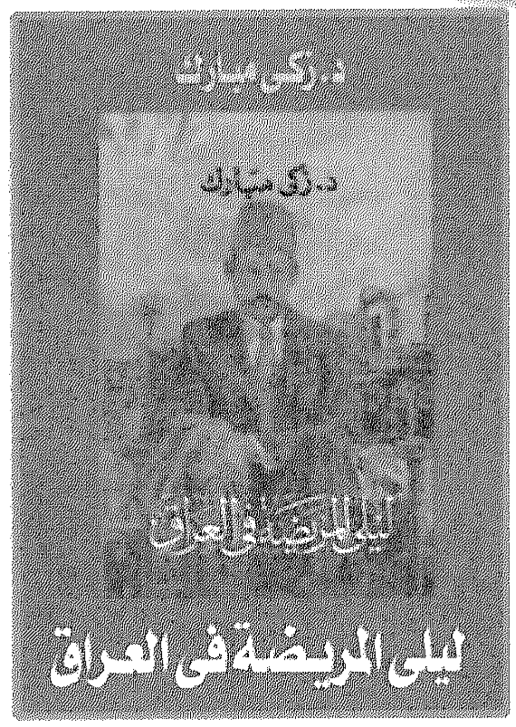
■

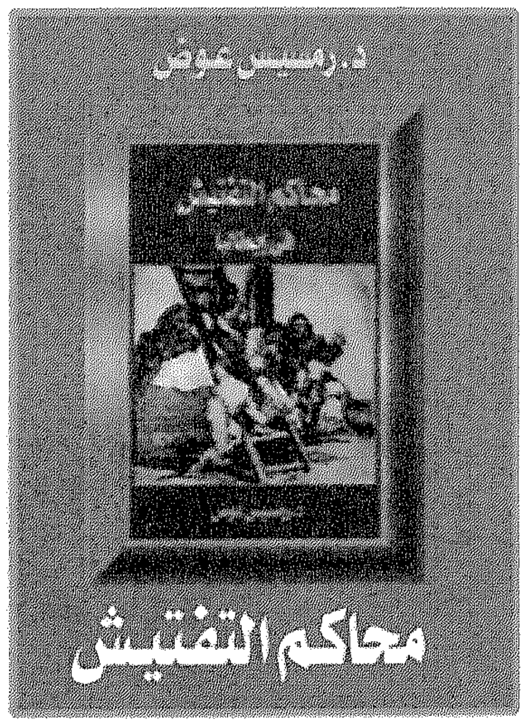

علاء الاسوانى

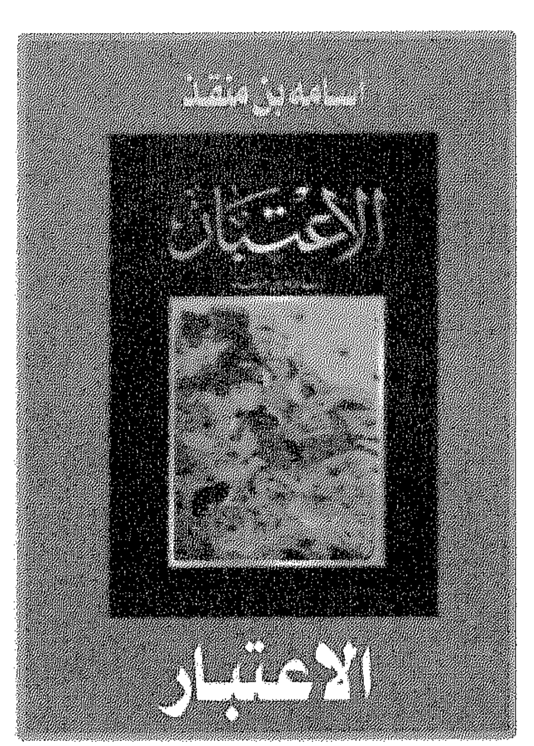

خيرى شلبى



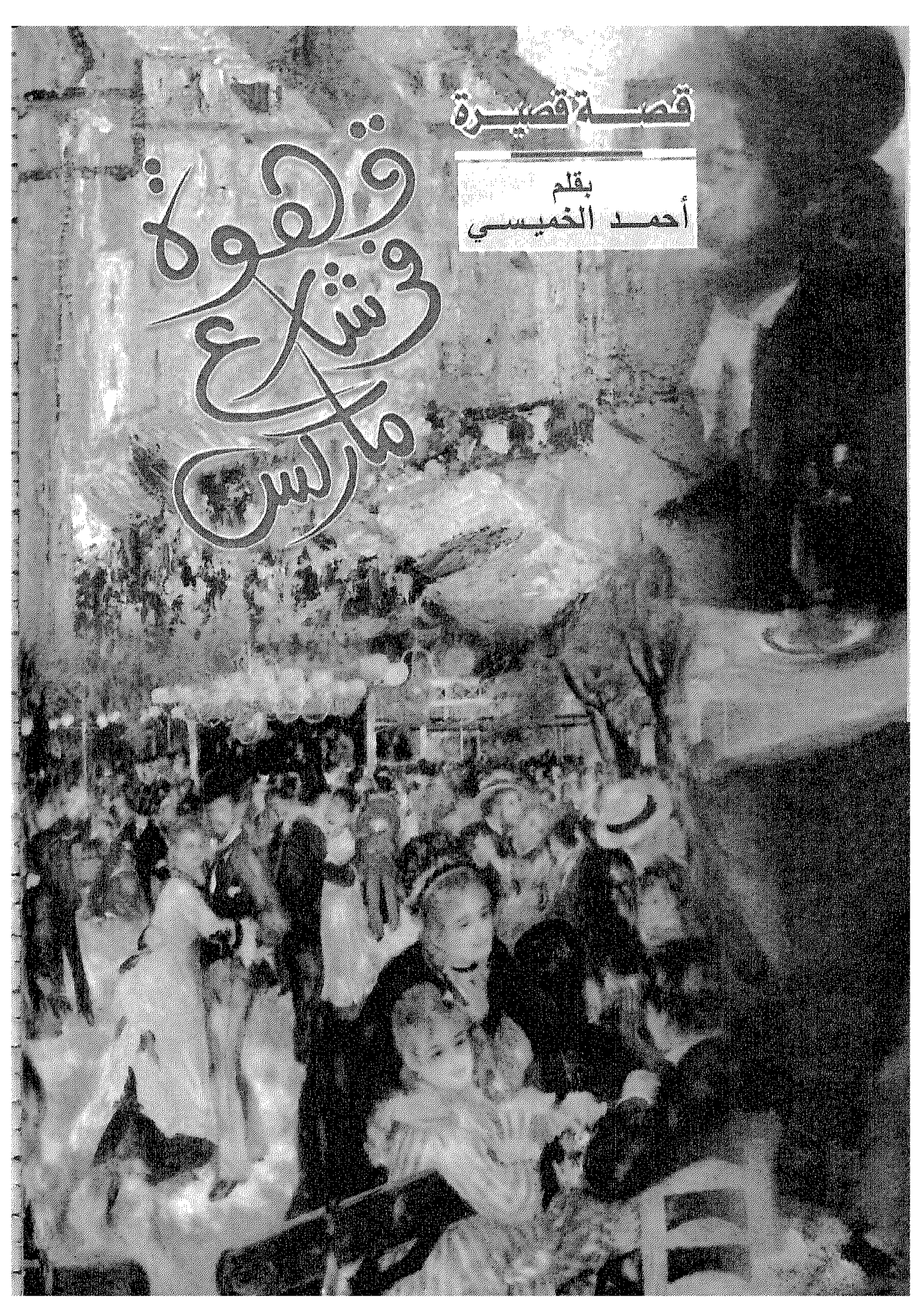

د. رشدى سعيد
الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى
د. رشدى سعيد
الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى


د. زكى مبارك
د. زكى مبارك
ليلى المريضة فى العراق
ليلى المريضة فى العراق


د. رمسيس عوض
محاكم التفتيش
محاكم التفتيش


اسامه بن منقذ
الاعتبار
الاعتبار


دار الهلال


قصة قصيرة
قهوة في شارع مارلس
بقلم
أحمد الخميسي

ثبتنا أقدامنا على السلم الكهربائي بمحطة المترو وهو يهبط بنا من سطح موسكو الى جوف المحطة التي بدت من أعلى كقفص حديدي ضخم تجمعت بداخله القطارات. تقدمتني في وقفتها على السلم والتصق ظهرها بصدري. انزلقت يداي من فوق كتفيها ورقدتا معقودتين على صدرها ونحن نهبط على مهل.

التفت أصوات الأقدام الراكضة الى القطارات وصرير العجلات الحديدية ودقات كعوب الأحذية النسائية وأنصاف الكلمات في سحابة تعلو ببطء فوق رءوس النازلين الى النفق. من على الجدار المقوس عن يميني أطل «جوركي» من صورة زيتية ضخمة ببسمته والنظرة المريرة القديمة.

كنا في طريقنا من محطة «جوركي» الى محطة «شارع ماركس» لتوديع صديق مسافر يسكن قرب مخرج المترو.

توقف بصري على وجه نحيل لشاب يقبل صديقته وسط جموع النازلين على السلم الكهربائي. بالتدريج بأن لنا حراس المترو تحت وهم في زيهم الأسود الخاص. شعرت بصدرها يتنهد ويرتفع بيدي المتقاطعتين فوقه كصليب. المصادفة وحدها جعلتنا نلتقي، رغم أنها كانت تحيا وتعمل في مدينة أخرى. كانت تنتهز أيام الإجازات لتسافر اليّ ونتقابل.

أحسست خلف رأسي بأنفاس رجل بدين يتنفس بصعوبة. ملت برأسي أتأمل صفحة وجهها المعذب. هل حل عليها التعب بعد أن تقطعت المحبة سنة بعد سنة الى خطابات ومكالمات؟ لم تبدو دائخة؟ هل أرهقها ضغط الوجوه التي تتبدل بمختلف التعبيرات؟

غاص بنا السلم الكهربائي الى الدرك الأخير حيث يجلس كل حارس في كابينة خاصة. قطعنا عدة خطوات بين الأكتاف والأيادي وأبدان المهرولين في كل اتجاه الى أن وصلنا الى رصيف القطار اللازم، فتوقفنا. رفعت نحوي وجهها بعينين دافئتين وقلق وقالت:

– أحس بنفسي متعبة.. لا أدري لماذا.

ثبت بصري على ملامحها الشاحبة الرقيقة وقفز لرأسي خاطر أنها قد تتخذ قرارها الآن بقطع كل ما بيننا. ضممتها اليّ، فلما أراحت رأسها على كتفي شعرت بأننا كتلة واحدة حارة انعدم من حولها النفق السقف المرتفع واللغط.

اطلت القاطرة من جوف الظلمة كوحش يساق بالسياط. وانفتحت أبواب العربات وانطلق الخارجون يتقاطعون بسرعة في كل الاتجاهات. وعندما لفظت القطارات ما بها دخلنا ولمحنا مكانين شاغرين فاندفعنا اليهما وقعدنا. أخذت عربة المترو التي ازدحمت من جديد تتحرك وتعوى كوحش بين جانبي النفق المظلم. مرقت الجدران المعتمة بسرعة من وراء زجاج النوافذ. وكان الفتى النحيل الوجه قد جلس قريباً ساهماً ورأس صديقته على كتفه.

مقابلنا قعدت امرأة أرسلت نظرتها في فراغ ، وبجوارها طفلة تخطف العين. بدا من الخاتمين الذهبيين أن الفتى وصديقته مقترنان. طبعت قبلة خفيفة على شعر صديقتي المرسل على كتفيها وطوقت خصرها. فتأملتني لحظة مبتسمة بوهن وصفاء .

توقف القطار. محطة «مايكوفسكي» . تدافع الخارجون. لاح بينهم الشاب النحيل الوجه وزوجته ملتصقين كموجة في بحر . وتدفقت لباطن العربة جموع أخرى. اتجه رجل قمحي اللون على أعتاب الخمسين الى المقعد بجوار الطفلة ثم أخرج صحيفة مطوية من جيب البالطو وأخذ يتصفحها. دخلت عربة المترو النفق المظلم ثانية. صديقتي مستغرقة في دنيا أخرى. هل هو نفس السؤال؟. كيف تحل هذه العقدة؟ قلب مقسم على مكانين. سنة وأكثر وخيط مشدود من أعصابنا وشبابنا يتوتر حتى يكاد ينقطع. والعمل؟



تحاول الطفلة الصغيرة بكل الطرق جذب انتباه أمها اليها لتتكلم معها. تأسر حركات البنت الرجل القمحي اللون. يتفتح في بسمة، وبكلمات هامسة في أذنها يسرق اهتمامها كله، فتعتدل ناحيته مسرورة. على مسافة ترنح رجل من الواقفين يزفر أنفاسا ثقيلة مخمورة. تعلقت يده بالعامود الحديدي، بينما مدت ذراعها تسنده امرأة روسية قصيرة صابرة. زعق فيها زعقة هائلة وراح يتحرش بالركاب مفتشا عن عدو له في نظراتهم . تطلع اليه البعض بدهشة وهدوء. أحسست بكفيها تحطان على يدي. التفت اليها . حدقت في بعينين مغرورقتين بسحابة دامعة. شعور ثقيل يواتينا بأن النهاية تحوم بجناحيها فتظلم الدنيا تحتهما. أردت أن أشغلها عما بخاطرها فهمست لها :

– ألا تتمنين بنتا جميلة كهذه؟

قالت :

– نعم .

واستجمعت أنفاسها لتضيف بما تيسر من مداعبة :

– أمها أيضا حلوة؟

ابتسمت لها في صمت . أي صراع يعتمل في روحها؟ وأية آمال؟. يلح عليها مشروع الإقامة في موسكو.. لكن ما الذي يخفيه الزمن لنا ؟

توقفت العربة. محطة «ساحة الثورة». غادرت المرأة القصيرة الصابرة وهي تسند الرجل الثمل. راح يتلفت من على الرصيف متطوحا يتفحص وجوه الركاب من خلال نوافذ العربة. كان مايزال يبحث عن عدو لا يعرفه .

واصلت العربة اندفاعها. المحطة القادمة «شارع ماركس» . وقع بصري على شاب يشبه صديقي بأنفه الحاد وجبينه العريض. الرجل قمحي اللون يضع حقيبته

الجلدية على ركبتيه ويفتحها. يخرج منها أقلاما ومجلات يناولها للطفلة لتتفرج. الطفلة تجذب المجلات بقوة وتضحك مشيرة بإصبعيها الى صورة ملونة. رمقت أمها الرجل باستغراب خفيف ثم انطفأ التعبير فى وجهها وعادت ذاهلة ترسل نظرتها الى فراغ أمامها .

سنهبط المحطة القادمة، ونتجه الى منزل صديقى لتوديعه قبل سفره الى الوطن .

كل وداع ينطوى على مرارة. قال لى ذات يوم : «الموت فى جحيم مصر أبقى من حياة فى جنة أوروبا» . لم حاجاته وقرر الرجوع . شعرت صديقتى أنى مستغرق فى شىء. رفعت رقبتها متطلعة الى وجهى. لم أعد أدرى بم سينتهى كل ذلك . هل تسافرين معى؟ أظل هنا؟ أم ننسى كل مابيننا؟

امرأة واقفة بكيس ثقيل من بطاطس وخبز فى يدها قالت ضاحكة للرجل القمحى:

– حلوة بنتك هذه .



تأملت الرجل والطفلة معا. ورأيت – كأنما فجأة - أنهما يبدوان كأب وابنته حقا . نقلت بصرى الى الأم وشاهدتها بعين أخرى: راكبة عابرة جلست مصادفة بالقرب منهما .

توقفت عربة المترو . محطة «كارل ماركس» . خرجنا فى موجة المتزاحمين ويدانا متشابكتين. التفتت الىّ وقالت بصوت مضطرب:

– سأبقى فى موسكو وأبحث عن عمل هنا .

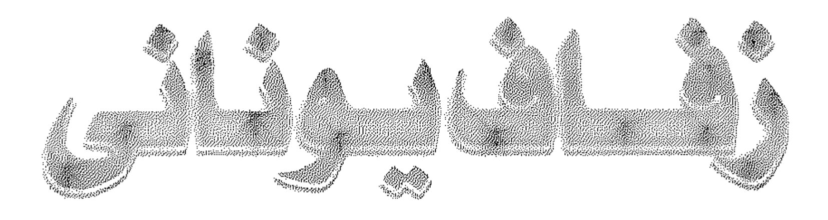
كان بصوتها رنة ضياع تفتش عن عزيمة. ضممتها الى صدرى ضمة خفيفة لكى لا ترى نظرتى. إلام ينتهى كل ذلك؟

صعد بنا السلم الكهربائى الى أعلى فى بطء. شيعتنا نظرات الحراس بثقالة من صوف الزى الأسود .

خرجنا من الجو المدفئ داخل محطة المترو الى برد الشارع. مرق المارة مسرعين فى مختلف الاتجاهات بمعاطف سميكة متشابهة. قرصتنا الريح الباردة تهب من فوق ثلوج وراء سور أشجار بعيدة . لاح كشك قريب فى هالة ضوء ضعيف. أمامه تناثرت على الرصيف عدة مناضد . جلس البعض اليها يحتسى المشروبات .

جمعت صديقتى أطراف معطفها على صدرها. تطلعنا معا الى الكشك . واتفقنا بنظرة على أن نحتسى فنجانى قهوة ساخنة قبل أن نصعد الى صديقى.

أسرعنا الخطو الى هناك، والأشجار العالية عن يميننا تلقى بظلالها المتعاقبة على الرصيف. فى ضوء أعمدة النور لمعت ندف الثلج البيضاء المتساقطة كشرارات متلاحقة فوق الاسفلت المبلول، وانطفأت. ■



زفاف يونانى

مولد سينما جديدة

بقلم
مصطفى درويش

كل ما هو متصل بالسينما على أرض مصر، أمره يدخل فى باب العجب العجاب.

فلم تنقض سوى بضعة أيام على وداع عيد الفطر، حتى أخذت الأفلام المصرية المعروضة فى دور السينما، بمناسبة العيد تختفى شيئا فشيئا، بحيث لم يبق منها، والعام الماضى على وشك الرحيل، سوى قلب جرىء ومعالى الوزير.

ومع ذلك الاختفاء، وتحت تهديد أعياد ومناسبات أخرى قد تنتهى بدور السينما، أما خالية من الجمهور، وأما محتكرة عروضها، بحكم القانون، بما تيسر انتاجه من أفلام مصرية.

لم يكن أمام أصحاب حق توزيع الأفلام الأجنبية، وجلها، إن لم تكن كلها من إنتاج هوليوود، من سبيل سوى الإسراع بعرض ما عندهم من بضاعة، معظمها لا ينفع الناس، فى جو مشحون بالتنافس المحموم، ضحاياه، أولا وأخيرا، نحن المتفرجين اللاهثين من دار سينما إلى دار أخرى، من أجل اللحاق بفيلم، قد لا يستمر عرضه سوى بضعة أيام.

عشوائية العروض

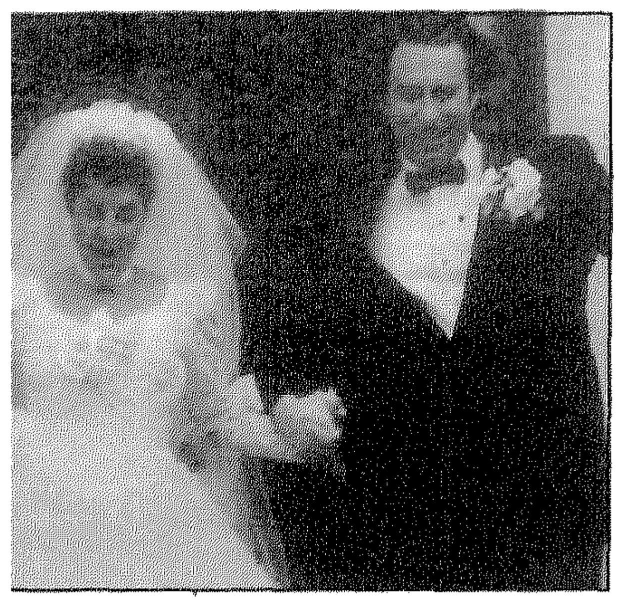
ومن بين هذه الأفلام الكثيرة التى جرى أطلاقها على دور السينما بعشوائية، منقطعة النظير، أذكر على سبيل التمثيل «الموت يوم آخر»، بطولة جيمس بوند و«التنين الأحمر»، بطولة السفاح آكل لحوم البشر «لكترهانيبال»، ثم «حفل زفاف يونانى كبير» الفيلم المعلن فوزه بجائزة اختيار الجمهور فى الحفل الذى يقام سنويا بضاحية باسادينا بولاية كاليفورنيا.

وعندى أنه لو وضع فى كفة الميزان الفيلم الأخير، وفى كفته الأخرى فيلما بوند وهانيبال، لرجحت كفته، لاريب، وذلك رغم أن عشرات الملايين من عزيز الدولارات لم تبذر على إنتاجه مثلما بذرت على إنتاج «بوند» و«هانيبال».

ورغم أن أحدا من نجوم هوليوود لم يسند إليه أى دور فيه، ولو صغير.

ورغم أن مبدعه «جويل زفيك» مخرج تليفزيونى، لم يسبق له إخراج أى فيلم لحساب مصنع الأحلام فى هوليوود، ذات الجلال ومن عجب أنه حقق ايرادات فى الولايات المتحدة وكندا فاقت المائتى مليون دولار، بكثير.

وبفضل هذا الرقم الفلكى، محسوبا إلى ما أنفق على إنتاجه، وهو مبلغ زهيد، بمعايير هوليوود، يكون حفل زفاف يونانى كبير، أعلى بكثير من النسبة التى حققها أى فيلم أمريكى آخر، على مدار العام الماضى، بما فى ذلك أفلام الإنتاج الضخم، مثل «الرجل العنكبوت»، «هارى بوتر وحجرة الأسرار» و«لورد الخواتم» «البرجان».



حفل زفاف يوناني كبير ..

سر النجاح

ومن الأكيد، أن نجاحه إنما يرجع إلى عدة عوامل، من بينها ولاشك، صدق أخاذ، وبساطة فى التناول، غير معهودة فى معظم الأفلام.

إنه، والحق يقال، درة سينمائية فريدة، فى غابة من أفلام مكررة، شديدة الافتعال والإملال.

ولعل خير مثال على ذلك، بوند و«هانيبال».

والأمر المحزن فى شأن هذه الدرّة، أن عرضها فى القاهرة مرّ مرور الكرام.

والآن إلى الفيلمين الناجحين عندنا «بوند» و«هانيبال» رغم أنهما فى الولايات المتحدة وكندا لم يحققا ايرادات مثل تلك التى حققها الفيلم الدرة «حفل زفاف».

وبداية، فبوند غنى عن التعريف، فليس كمثله قصة نجاح متصلة، نعرف لها أولا، وربما لن نعرف لها آخر.

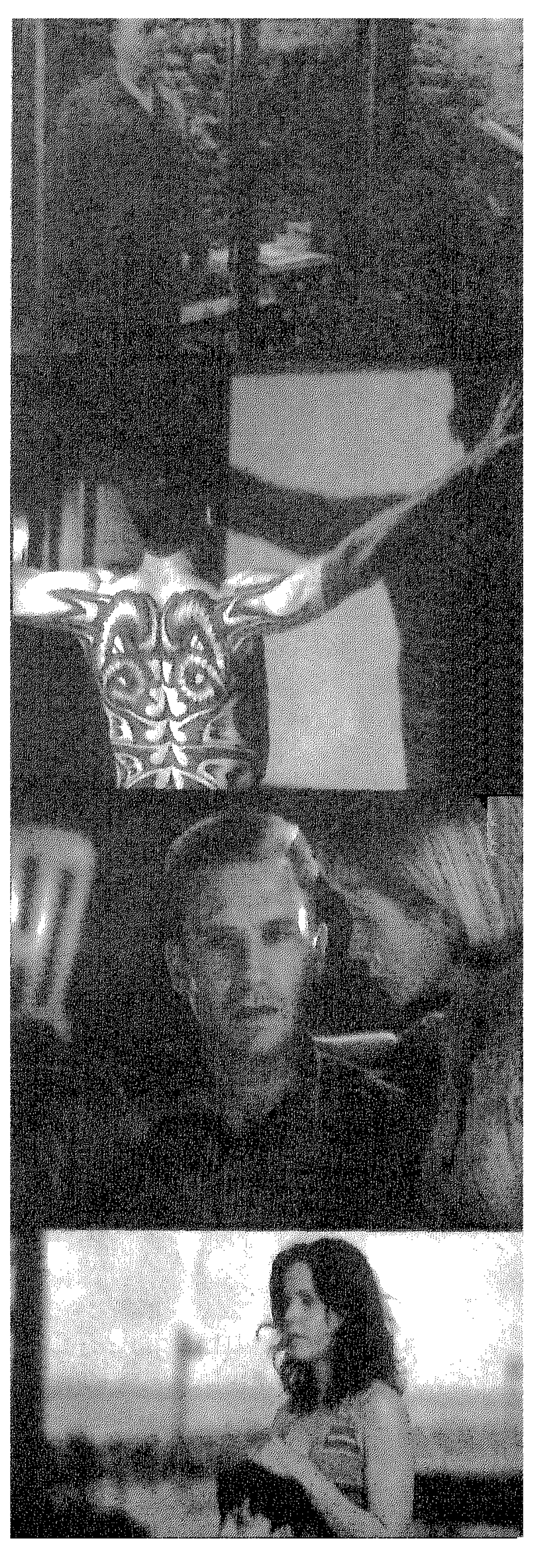
سمعت باسمه، قبل نصف قرن من عمر الزمان، وحينذاك حسبته اسما عابرا، سرعان ما يطويه النسيان، شأنه فى ذلك شأن اسماء كثيرة أبتدعها مصنع الأحلام، أو بعض أدباء العالم الجديد، أذكر من بينها علي سبيل المثال «طرزان» الذى كان بمغامراته فى مجاهل أفريقيا السمراء، حديث الناس إلى أن اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية، فشغلتهم عنه بأحداثها الجسام.

خيبة أمل

غير أن الأيام مرت أعواما بعد أعوام، وإذا «بجيمس بوند» الذى اختاره الأديب، ورجل المخابرات البريطانية «أيان فلمنج» اسما لبطل رواياته يخيب طنى، وذلك لان مغامراته فى مشارق الأرض ومغاربها، بوصفه العميل رقم «أو .. أو سفن» قد جرى ترجمتها إلى لغة السينما فى عشرين فيلما.

كما أن انتاجها ظل متواصلا، على امتداد أربعين عاما، بدءا من «الدكتور نو» (١٩٦٢)، وحتى «الموت يوم آخر» فيلم بوند الأخير (٢٠٠٢).

والحق، أنه بهذا العدد من الأفلام، يكون جيمس بوند قد ضرب رقما قياسيا فى طول العمر السينمائى، فاق بكثير عمر شخصية اسطورية مثل المتشرد الخالد، تلك الشخصية التى تقمصها شارلى شابلن» أيام أن كانت السينما عاجزة عن الكلام، فاسر بها قلوب الملايين والغريب فى أمر «بوند» أن يطول عمره على هذا النحو، رغم أنه منذ البداية، لم يكن خافيا على أحد أن



مشاهد من التنين الأحمر



انطونى هوبكنز فى التنين الأحمر

عمالته موظفة فى خدمة امبراطورية غربت شمسها بلا رجعة منذ العدوان الثلاثى (١٩٥٦)، وباتت بقاياها شظايا، تدور فى فلك امبراطورية فتية وليس فى الأفق ما يشير إلى أنها هى الأخرى على وشك الرحيل.

محور الشر

وأن أفلامه ذات طابع سياسى مباشر، اتخذ منه العالم المسمى بالعالم الحرّ، تحت زعامة العم سام، أداة دعاية موجهة ضد الاتحاد السوفييتى، أو امبراطورية الشر، حسب الوصف له فى بيان للرئيس الأمريكى الأسبق «رونالد ريجان».

والأكثر غرابة تحقيق أفلامه ايرادات مذهلة ارتفعت إلى آلاف الملايين من الدولارات، وذلك رغم أنها كانت ممنوعة من العرض العام فى بلاد سكانها يشكلون أكثر من ثلث سكان العالم.

ورغم أنها، فى حقيقة الأمر، لا تعدو أن تكون فيلما واحدا، وإن تغير العنوان.

والسؤال المطروح ، فى ضوء ما تقدم، هو كيف كتب «لبوند» الاستمرار محققا هذه الايرادات، بدءا من ستينات القرن العشرين، وحتى يومنا هذا، إذا كانت أفلامه مكررة، لا تقول شيئا، أو بمعنى أصح، تقول لغوا، قوامه مغامرات صبيانية، ودعايات فجة موجهة ضد امبراطورية زالت من الوجود، قبل عشرة أعوام أو يزيد، والآن ضد إحدى دول محور الشر «كوريا الشمالية» كما يبين من سباق «الموت يوم آخر» حيث ينحصر الأشرار فى الكوريين الشماليين، والأخيار فى رجال المخابرات البريطانية والأمريكية «بوند وجينكس»، ويؤدى دورهما النجمان «بيرس بروسنان» وهال بيرس «الفائزة بأوكسار أفضل ممثلة رئيسية قبل عام» ونفس السؤال، لا مندوحة من طرحه بالنسبة للسفاح «هانيبال» فهذا السفاح المتعطش لأكل لحوم البشر، لم يتردد اسمه الا بعد

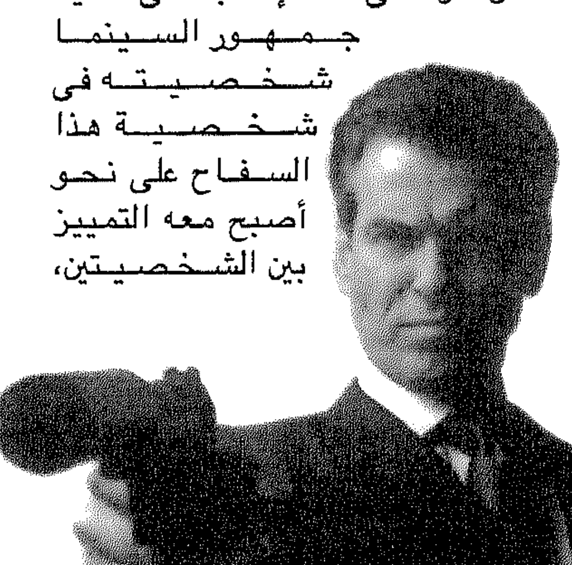
عرض فيلم «صائد الرجال» (١٩٨٦) المأخوذ عن قصة «التنين الأحمر» للأديب الأمريكى «توماس هاريس».

ودارت أعوام، كاد اسمه يختفى مع دوراتها، لولا فيلم تقمص فيه «انطونى هوبكنز» شخصية «هانيبال»، هذا الفيلم هو «صمت الحملان»، الفائز بخمس جوائز أوسكار، أفضل فيلم وإخراج «جوناثان وبيم» وتمثيل «هوبكنز وجودى فوستر».

غرام وهيام

وهكذا، اكتسب «هوبكنز» بفضل تقمصه شخصية هانيبال الاجرامية، قدرا كبيرا من التقدير، المصحوب بالإعجاب، مما حدا بملكة بريطانيا إلى منحه لقب سير.

وعلاوة على ذلك، إندمجت فى مخيلة جمهور السينما شخصيته فى شخصية هذا السفاح على نحو أصبح معه التمييز بين الشخصيتين، من الصعوبة بمكان.



ولأمر ما، لعلة منافسته شريحة من الرأى العام عادت بضراوة صمت الحملان، أعلن هوبكنز على الملأ أنه تاب وأناب، ولن يعود أبدا إلى تقمص شخصية هانيبال فيما هو آت من أفلام.

إلا أنه بعد عشرة أعوام، عاد فتقمصها فى فيلم بنفس اسم السفاح، أى «هانيبال» (٢٠٠١).

ولم يمر سوى عام على انتاج الفيلم الأخير، إلا وكان أمام الكاميرا متقمصا شخصية السفاح مرة ثالثة فى «التنين الأحمر» المأخوذ عن نفس القصة التى سبق ترجمتها إلى لغة السينما، قبل ستة عشر عاما، تحت اسم آخر.

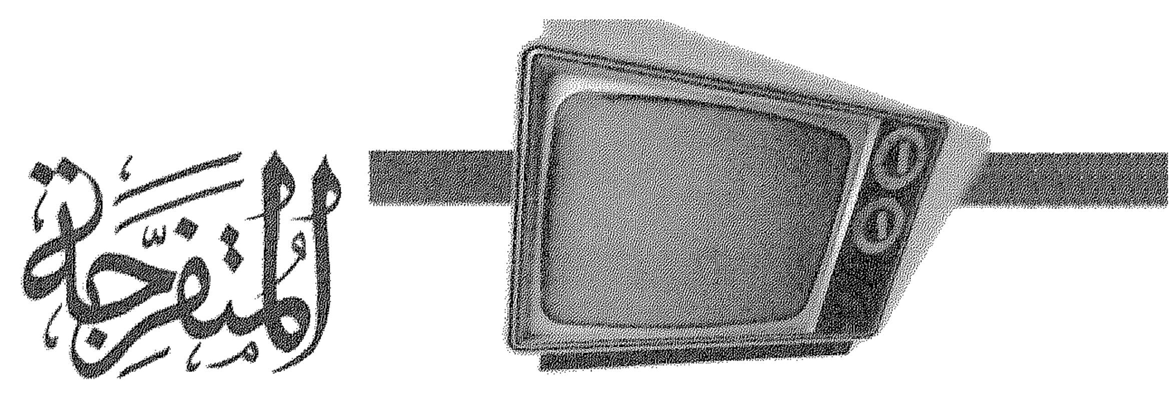
ومما يثير الدهشة فى شأنه، أن منتجيه «دينو ومارتادى لاورنتيس» هما نفس منتجى الفيلم القديم «صياد الرجال»، وقيامهما بانتاج فيلم مأخوذ عن نفس الرواية، مرتين، وفى مدة زمنية قصيرة، أمر غير مسبوق فى تاريخ السينما.

استغلال الرعب

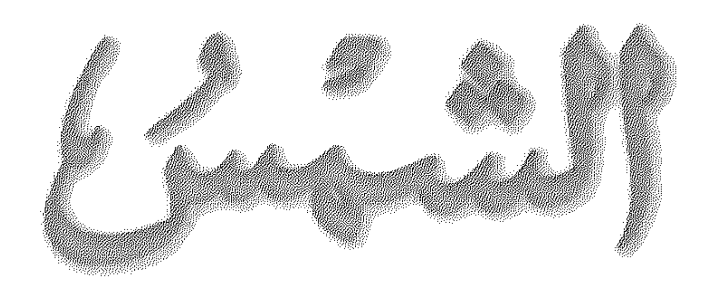
ولا تفسير لهذا الخروج عن المألوف إلا بأنه محاولة منهما لاستغلال شعبية «هوبكنز» فى دورهانيبال.

وأرجح الظن أنها شعبية لن تطول مثل شعبية «بوند» فى عالم الأطياف، بحيث تبلغ أربعين عاما.

فغربال الزمان لن يتيح لسفاح مثل «هانيبال» عمرا طويلا، وآية ذلك إندحار فيلمه الأخير أمام «حفل زفاف يونانى كبير» فى مضمار الإيرادات!! ■



بقلم
مرفت رجب



تظهر علينا الشمس بنورها الوضّاح .. وعلى الجانبين تتهادى فروع الشجر بفعل النسمات، والطريق فى الوسط تشقه شابتان يافعتان، فى غير التفات، لا إلى الهواء الخفيف يداعب الملبس وغطاء الرأس، ولا إلي ثقل ما تحمل كل منهما على رأسها.. وقبل أن نركن إلى سكينة وأمل بفعل سحر المشهد ، نجده ينقلنا إلى مكتبة الأستاذ الدكتور عبدالفتاح القصاص، يقف فى جمع من زملاء أو تلاميذ له يعرفهم بمحتويات مكتبته التى أهداها لجامعة القاهرة، بكل ما تحتويه من نفائس الكتب فى علوم البيئة وتشريعاتها الدولية وفروعها البحثية.

تقطع المشهد جملة واحدة على التليفون، بين الوزير والدكتور القصاص الذى يدعو له بطول العمر ومع بداية حديث د. القصاص عن مولده فى برج البرلس سنة ١٩٢١ تنقل لنا الصورة أحوال الصيادين وصانعى مراكب الصيد فى قرية برج البرلس، فالقصاص يحكى لنا أن أباه كان واحدا من هؤلاء الذين تخصصوا فى صناعة قوارب الصيد، الصغيرة أو الكبيرة، أو تلك التى تفوقها بتطور صناعتها على أيدى المعاصرين المهرة، يصدرونها إلى



ليبيا ودول الخليج العربى، بعد أن صاروا يصممونها معتمدين على إمكانات التكنولوجيا الحديثة، وليس رسماً باليد على عظام الخشب كما كان يفعل أبو القصاص ومعاصروه.

والشمس ساطعة

وقبل أن تنقلنا مشاهد الفيلم إلى ما عدا ذلك من ملامح ماطرأ على قرية برج البرلس وأهلها من تغيير، نكون قد تعرفنا على أطراف أخرى فاعلة، تتبادل التأثير على أطراف الحدث الرئيسيين، فمع الحضور المستمر للشمس وحركة الهواء فى كل اللقطات الخارجية للفيلم، نجد فى كل المشاهد الراصدة لأحوال الناس فى القرية، حضوراً فاعلا للإذاعة المسموعة والمرئية، وهو حضور مادى، بظهور أجهزة الراديو فى أماكن البيع والشراء وعلى قوارب الصيد، والتليفزيون القابع فى المقهى يكاد يخلو من الرواد لولا ذلك الذى تسمر أمامه، ولك أن تفسر حاله بالذهول أو التأمل المحتشد لما يصله عبر الشاشة وهو الحضور المعنوى وثيق الصلة بما يجرى لبحيرة البرلس، ومن ترتبط أسباب حياتهم بحياتها، ذلك أن الأثير يحمل التعليق على المشاهد ينقلها الفيلم رأسا من جوهانسبرج، وقمة الأرض فيها تعانى من ضعف تمثيل النساء اللائى قل عددهن فى معظم الوفود خاصة العربية والمشهد ينتقل بنا إلى نساء البرلس الكادحات الجميلات، والمعلقة تشرح لنا السبب الاجتماعى الاقتصادى لعزوف النساء عن قمة الأرض، لافتقاد الفهم الواضح لصلة ما يحدث بحياتهن اليومية، ولأن قرارات الأمم المتحدة لا تعنى لهن شيئا فى غياب الفهم لآليات التنفيذ، إن وجدت والشمس ساطعة.. تضىء وجوه الجميلات المكافحات من بنات البرلس، وترفع الغشاوة عن عيون من لا يرون الصلات العضوية بين ما يحدث فى البرلس ، وما يحدث على المستويين الإقليمى والدولى.

ويحكى لنا «القصاص» حكاية رياسته للاتحاد الدولى لصون الطبيعة والموارد الطبيعية Iucn وكيف يعتز ابن البرلس بكونه الأول من أبناء العالم الثالث الذى شغل هذا المركز الرفيع – منتخبا – ولفترتين متتاليتين.

أما وقد أحكم صاحب الفيلم حولنا القيد، فهو عازم على إتمام فعل الأسر، وقد ملك كل الأدوات، مهيمنا على إيقاع اللقطات وتسلسلها، مبقيا على الشمس ساطعة فى صحن السماء، أو منعكسة على أشرعة المراكب ، وإن لموها إلى السوارى، فصفحة مياه البحيرة مرآة.....

ويتطور دور المنقول عبر الأثير – والصورة ينقلها الفيلم من جوهانسبرج – والكلام عن اتفاق حول مصادر الطاقة المتجددة عجز فيه المجتمعون بجوهانسبرج فى قمة الأرض عن تحديد موعد مباشر أو نسب محددة لاستخدامها، والتعليق الوارد يحسبه على الاتحاد الأوربى، ويؤكد اعتبار

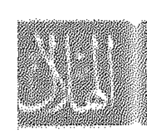
الاتفاق انتصارا لموقف أمريكا والأوبك، ويتعجب المعلق من حال العرب الذين ساندوا هذا الموقف الأمريكي مع أنه يتعارض مع مصالحهم «لو كان العرب يخططون على المدى البعيد، لأدركوا أن الطاقة الشمسية مستوطنة إلى حد كبير جدا في العالم العربي».

طيور البرلس

والشمس كما كانت من أول لقطة في الفيلم.. وعبر كل المشاهد الخارجية.. حاضرة، ومعها الحقائق تتكشف بتصاعد الصراع بين الأطراف الفاعلة، صاحبة المصالح المتعارضة، يرصد الفيلم تقاتلها، وتداعياته على حياة أهالي قرية برج البرلس بل وأهل مصر أجمعين ، في لحظة تاريخية فارقة، هي لحظة انعقاد قمة الأرض «البيئة والتنمية المستدامة، جوهانسبرج ٢٠٠٢» ويذكرنا العالم «القصاص» بالاتفاقية الدولية الخاصة بحماية الأراضي الرطبة والمعروفة باسم اتفاقية «رامسار»، تلك التي تُلزم الدول الموقعة عليها، ومنها مصر، باعتبار مناطقها الرطبة، ومنها برج البرلس، مناطق محمية، بكل ما فيها من مصادر طبيعية، وتنوع حيوي. ولأن منطقة البرلس في مصر تجتذب مئات الألوف من الطيور، تهاجر إليها من صقيع شمال أوربا، لاجئة لدفء مياهها تلقي إليه ببيضها، وبعضها يواصل الطيران عابرا إلى السودان وما عداها من دول القلب الإفريقي، ولأن هذه الطيور تعتبر من المكونات الحميمة في التراث الإنساني، فحمايتها – على هذا النحو – لازمة.

هذا ما نطق به الدكتور القصاص على مشاهد رائعة التصوير لأنواع من الطيور موضوع الكلام، وفي هذا، كما في ما عداه على مدى الدقائق الخمس والخمسين التي يستغرقها الفيلم، يصلك إدراك مباشر في استقامة أشعة الشمس والسماء صافية، وهو إدراك في قوة ووضوح وقدرة كشف الشمس لأي ظلمة أو التباس، يفهمنا – بين أمور أخرى – أن الرابطة والمصلحة عضوية بيننا وبين أهل أوربا حتى أقصى الشمال، وكأن الفيلم يرصد رحلة الطيور المهاجرة يدعونا أن نتأمل أحكام الخالق في خلقه ، لعلنا مع التسبيح بالحمد نهتدي.

والروابط العضوية والمصالح بيننا وبين الأوربيين ليست في أحوال صحة الأحياء وسلامة وجودهم ، كما في مثال الطيور المهاجرة وحسب، ولكنها كذلك تتضح مع اقتراب الأخطار، والفيلم ينبهنا إلى تماثل وترابط عضوي آخر، فالفيضانات وارتباكات المناخ التي تعصف بأوربا هي جزء من تغييرات مناخية أشمل، تتآكل بفعلها شواطيء المتوسط، وهو في منطقة البرلس لا يهدد دلتا نهر النيل وحدها ، ولكنه يهدد أمن مصر على كل المحاور، والخسائر في أوربا، لها ما يقابلها في مصر، بينما الأثير ينقل بالصورة من جوهانسبرج نص وعود باول التي «لم ترض المدافعين عن البيئة، فيما تمثل الولايات المتحدة العدو الأول لهم» وبالمثل ينقل الأثير الاتهامات الموجهة للولايات المتحدة الأمريكية بالكذب والنفاق حين تدعى





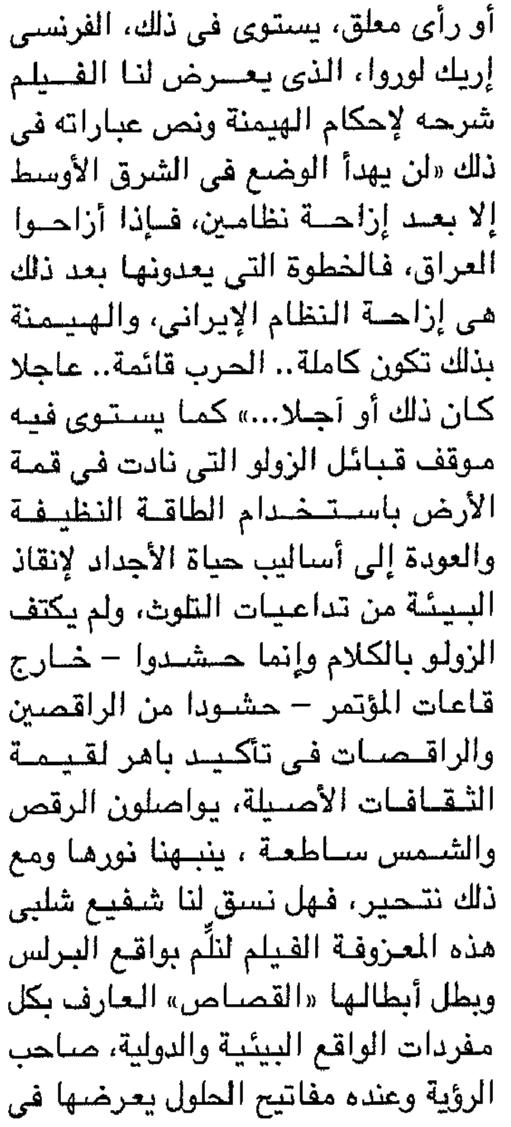
تحمل المسئولية تجاه التغيير المناخى بينما لا تفعل شيئا سوى تخريب بروتوكولات كيوتو.. والكذب والنفاق على المستوى الدولى له ما يعادله أذى وجرماً على المستوى المحلى.. فلقد صارت بحيرة البرلس مصرفا للأراضى التى استصلحت جنوبها على مدى العقدين الماضيين، ولم تسلم من آثار الصرف الصحى فيها، فانسد بوغازها، وإذا أضفنا إلى ذلك آثار عمليات ضبط النيل منذ بناء القناطر الخيرية (١٨١٠)، إلى بناء السد العالى متمثلة فى تضاؤل ما كان يحمله النيل من طمى مع الفيضان، يبنى به الدلتا ويغذى الشطآن بالغرين اللازم لحضانة سمك السردين، فها هى الصورة فى الفيلم تنطق بتبدل أحوال مياه البحيرة وما فيها من سمك ويفهمنا «القصاص» العلامة أن اختفاء السردين وأنواع الجمبرى وغيره من أنواع السمك التى كانت تميز البحيرة، إنما هو نتيجة طبيعية لما سبق شرحه من ممارسات سلبية حرمت البحيرة من تدفق مياه البحر إليها، فعزّ نوال خيراته إلا على أصحاب المراكب الكبيرة القادرة على الصيد فى مواضع فى البحر أبعد بكثير من الشواطىء القريبة من البحيرة التى اعتاد صيادو البرلس ارتيادها، وإذ يصل بنا الفيلم إلى هذه النقطة من تصعيد الدراما، تنقلنا الصورة إلى الرئيس الأمريكى جورج بوش الذى يلقى فى وجهنا بقنبلته الكاشفة «باعتبارى رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية، ومسئولا عن حماية رفاهية وخير المواطنين والقوى العاملة، فإننى لن ألزم دولتى باتفاقية دولية ستؤدى بالملايين من المواطنين إلى البطالة».

وهكذا، وبكل الحذق وإحكام السيطرة على كل أدواته الفنية.. نجد الفيلم يثبت لنا من كلام بوش، كيف أن هذا المنطق الأنانى المتجبر، هو الحاكم المتحكم فى كل ما يحدث فى عالمنا، وعلى كل المستويات، وينطبق الأمر على البرلس، حيث الحيتان الجبارة من كبار الملاك، يسيطرون على الحيازات الكبيرة من البحيرة وتطلق لهم الحرية على مساحات المياه كما على مساحات البوص الحاوى لكل أنواع الحشرات بينما تحكم القبضة على فقراء الصيادين، ينزل بهم العقاب على أصغر مخالفة ، مع كونهم فى كل الأحوال مضطرون، على حد شهادة «حمدين صباحى» نائب البرلس فى مجلس الشعب، وفى ظل منطق الهيمنة يشهدنا الفيلم عجز قمة جوهانسبرج عن حل مشكلة حرمان فقراء العالم من الخدمات الصحية والمياه النظيفة، ومعها يشهدنا على حرمان أهالى البرلس من وصول المياه بانتظام، كما يشهدنا على بؤس أحوال الأطفال ومنهم صبيان وبنات يشغلهم خبير الزواحف فى جمع السحالى - نيابة عنه - مقابل عشرة قروش لكل سحلية ، والدلالات فى الموضوع غير خافية.

وتظل الشمس ساطعة ، يأخذك

الفيلم بنورها الكاشف لتلم كل خيوط الحقيقة يغزلها شفيع شلبى بكل حنكة وقد محص ودقق قبل أن يضم كل سداة إلى لحمتها ليخرج نسيجه مضاهيا متانة الكتان، وتكاد نعومته تنافس حرير إخميم ، وهو على طول الخط يدهشنا، ولا عجب، إنه نفس شفيع شلبى الذى أدهش مشاهدى التليفزيون حين بدأ قراءة الأخبار فى عام ١٩٧١، وعيناه تخاطبان عيون المشاهدين وكأنه يرتجل، وهو نفس شفيع شلبى صاحب العديد من البرامج التسجيلية غير المسبوقة ومنها على سبيل المثال لا الحصر، الشارع المصرى، وسينما فى علب، وهو الحائز على جائزة أحسن مخرج من المهرجان القومى الرابع عشر للأفلام التسجيلية والقصيرة (١٩٩٠) عن فيلم «تحولات سيوة» ، وهو صاحب قرار العمل مستقلا من خلال مركزه العربى للإنتاج الوثائقى فأنتج - بمشاركة اللجنة الدولية للصليب الأحمر - «يا سلام ع المية» ولبرنامج الأمم المتحدة للسكان أخرج أربعة أفلام تسجيلية أخرى.

ويواصل شفيع شلبى إدهاشنا فنتحير. صحيح أنه أسمى فيلمه «البرلس فى قمة الأرض»، وصحيح أنه ثبت المكان وحدده بالبرلس، كما ثبت الزمان فى وقت انعقاد قمة جوهانسبرج ٢٠٠٢، وصحيح أنه رصد أفعال ومواقف وآراء كل الأطراف ذات الصلة، وصحيح أنه ترصد للبث المسموع والمرئى مكثفا وعينا بلاعبى الأدوار على مسرح الواقع ولم يفلت منه عنصر فاعل



د. محمد عبد الفتاح القصاص

أو رأى معلق، يستوى فى ذلك، الفرنسى إريك لورواء الذى يعرض لنا الفيلم شرحه لإحكام الهيمنة ونص عباراته فى ذلك «لن يهدأ الوضع فى الشرق الأوسط إلا بعد إزاحة نظامين، فإذا أزاحوا العراق، فالخطوة التى يعدونها بعد ذلك هى إزاحة النظام الإيرانى، والهيمنة بذلك تكون كاملة.. الحرب قائمة.. عاجلا كان ذلك أو آجلا...» كما يستوى فيه موقف قبائل الزولو التى نادت فى قمة الأرض باستخدام الطاقة النظيفة والعودة إلى أساليب حياة الأجداد لإنقاذ البيئة من تداعيات التلوث، ولم يكتف الزولو بالكلام وإنما حشدوا - خارج قاعات المؤتمر - حشودا من الراقصين والراقصات فى تأكيد باهر لقيمة الثقافات الأصيلة، يواصلون الرقص والشمس ساطعة ، ينبهنا نورها ومع ذلك نتحير، فهل نسق لنا شفيع شلبى هذه المعزوفة الفيلم لنلِّم بواقع البرلس وبطل أبطالها «القصاص» العارف بكل مفردات الواقع البيئية والدولية، صاحب الرؤية وعنده مفاتيح الحلول يعرضها فى



أسى، يشرح الواقع المؤلم وينبه للخطر القادم مع فتح الطريق الدولى السريع الموصل من رفح إلى السلوم إلى جبل طارق - مروراً بقرية برج البرلس، لينحبس منا النفس هلعا من الخطر القادم «والقصاص» لا يفقد قدرته على الاحتفاظ بالأمل وإحداث التوازن ولذلك يطفر الدمع من العين حين ينطق الرجل فى آخر الفيلم بالعبارة «إنك أنت.. كان ممكن طبعا الدول توظف وتستفيد من بروز أبنائها.. يعنى .. لكن ده مش بيحصل».

وإذ ينتهى الفيلم يرن فى الذهن السؤال مرة أخرى «أكان الفيلم عن البرلس وبطل أبطالها «القصاص».. أم أن البرلس والقصاص فى الفيلم للإلمام بأبعاد الهيمنة ؟!

وتلك الشمس الحاضرة دوما تضىء كل اللقطات الخارجية، أهى جزء من الوعى بالتشكيل الجمالى للصورة أم أنها حاضرة للتذكير دوما بما نملك من مصادر الطاقة المتجددة وفيها مجمل الحلول؟، أم أن الإشارة إلى القدرة على كشف الظلمة وبيان الحقيقة هى سر حضورها الباهر فى الفيلم؟! ولقد نجح شفيع شلبى فى أن يقدم لنا الفيلم الشمس، ولك يارب فى خلقك شئون وشئون .. يرزق من يشاء بغير حساب» ومن فيض رزقك أن تنعم على عبدك باستقامة الفكر والنفس، تدفع به، إلى كل صعب يستسهله، ويندفع رافعا لواء الحقيقة مهما كانت الأهوال.

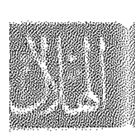
بين الشمس والأسرار

ولا أملك هنا إلا المقارنة بإبداع آخر هو كتاب «الأسرار» للبطل الأمريكى دانييل إيلزبرج Daniel Ellsberg الذى يطوف أرجاء الولايات المتحدة الأمريكية هذه الأيام عارضا كتابه Se-crets الذى يكشف فيه الأسرار المحيطة بكفاحه لإظهار الحقيقة وكشف أكاذيب الرؤساء الأمريكيين المتعاقبين حول سير المعارك فى حرب فيتنام قبل ثلاثين سنة.. يلقى صاحب «الأسرار» محاضراته فى كل الولايات المتحدة الأمريكية ويجتمع إلى رأيه مؤيدون من مختلف المشارب والمستويات، ومنهم السيناتور جون كيرى John Kerry المرشح الديمقراطى فى الانتخابات الأمريكية القادمة ، الذى يرى أن شجاعة دانييل ايلزبرج أنقذت حياة كثير من الأمريكيين» . فلقد كان دانييل إيلزبرج صاحب الدور الفاصل فى قيادة ثورة الأمريكيين على حرب فيتنام. يحكى صاحب «الأسرار» فى كتابه كيف أنه في ١٩٧١ قام بمخاطرة انتحارية كادت تكلفه حياته، ذلك حين قام بتسريب وثائق للبنتاجون تقع فى سبعمائة صفحة، وحين عجز عن اقناع الدبلوماسيين بنشر الوثائق لتنبيه الأمة الأمريكية إلى أن رؤساءهم المتعاقبين لا يقولون الحقيقة عما يدور فى معارك فيتنام، وأن كذب القيادات الأمريكية أودى بحياة مليون فيتنامى ومعهم خمسة وخمسون ألف مقاتل أمريكى، لم

يتراجع، بل دفع بالوثائق إلى صحيفة النيويورك تايمز الأمريكية يفضح كتاب «الأسرار» مؤامرات نيكسون للقضاء على دانييل إيلزبرج وكيف طلب رئيس الولايات المتحدة من وزير خارجيته كيسنجر أن يترك الصحافة تحاكمه معلنا ضرورة تدمير الرجل، وكيف تصاعدت المؤامرات لتصل إلى شراء ذمة القاضي بوعده برياسة الشرطة الفيدرالية FBI ، وفي المحكمة يواجه إيلزبرج باثنتي عشرة جريمة يصل مجمل الأحكام فيها إلى السجن لمائة وخمس عشرة سنة، لكن «من يتق الله يجعل له مخرجا». فبرغم ألوان العذاب التي ذاقها إيلزبرج ومنها هجوم البلطجية عليه وضربه حتى كسر عظام ساقه، ورغم قيام لصي واترجيت الشهيرين «جوردون ليدى Gordon Liddy» و«هوارد هنت Howard Hunt» بسرقة الأوراق الخاصة من مكتب المحلل النفسي لدانييل إيلزبرج، بتصريح مباشر من القيادة الأمريكية، إذ كانت بغية «نيكسون» أن يجد في الأوراق ما يفضح إيلزبرج فتسقط عنه المصداقية فلا يجد مخرجا سوى الانتحار.. وحين تقرأ ذلك في كتاب الأسرار لا تملك إلا تذكر قوله تعالى «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً» فقد انكشف أمر الوعد الرشوة للقاضي الذي يضطر للتنحي عن المحاكمة، ليطلق سراح إيلزبرج وقد أصبحت المستندات البنتاجونية التي قام بتسريبها هي أقوى المعاول المنهية لحرب فيتنام ومعها استقالة نيكسون ، ونزوله المهين من على مقعد رياسة الولايات المتحدة الأمريكية.

أما اندفاع إيلزبرج المحموم هذه الأيام لترويج كتابه «الأسرار» فلأنه يعتقد أن التاريخ أعاد نفسه، وأن الأمريكيين يجب أن يعرفوا حقيقة دوافع قيادتهم لضرب العراق، فهي كما يؤكد من أجل «البترول والبترول ثم البترول» وليس من أجل الديمقراطية المزعومة.. ويرى إيلزبرج أن الإقدام على المخاطرة مطلوب لإنقاذ العالم، وهو يستحث العارفين بحقائق الأمور أن يكشفوا كذب قياداتهم وهو القائل «لا أستطيع أن أتصور إنساناً، كائنا من كان، يستطيع التزام الصمت عما يعرف أنه خطأ»، ويلاحظ إيلزبرج أن الأخبار المتسربة عن أسرار الاستعدادات لضرب العراق ذات مغزى مهم، ألا وهو أن المقاتلين الأمريكيين غير راغبين في الحرب ولذلك فهم أنفسهم الذين يقومون بتسريب الأخبار ، كما يؤكد دانييل إيلزبرج (في أمر ضرب العراق) وكلامه منشور في صحيفة الجارديان ويكلي عدد ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٢ – ما نصه «إنني أعتقد أن رامسفيلد وشيني وفولفوتيز يستخدمون جنودنا كطعم».

فاللهم يا أرحم الراحمين ، وأنت الخالق من عبادك من يحملون شموسهم ، يسلطونها على كل زيف تفضحه ، اللهم أشدد أزرهم فلا يسرى لقلوبهم خوف أو جزع ، اللهم انصرهم. وأسبغ عليهم في الاستبسال في الحق المخرج. ■



جولة

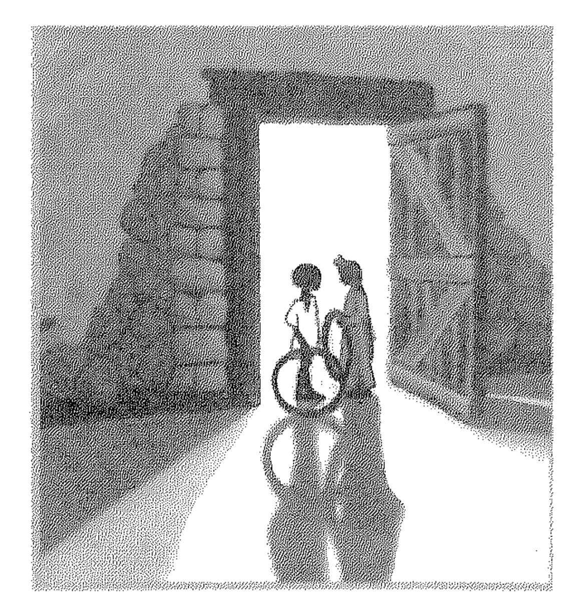


قراءة التاريخ - الفنان حسين يوسف

فنانون فوق الحصار

بقلم
عز الدين نجيب

الأسابيع المفصلية بين عامى ٢٠٠٢ / ٢٠٠٣ كانت فترة متوهجة بأضواء المعارض التشكيلية بالقاهرة والاسكندرية، بين معارض جماعية أو فردية أو استعادية لمسيرة فنانين راسخى الأقدام أو معارض حداثية لفنانين شباب يبحثون عن مكان تحت الشمس، أو معارض تقدم اكتشافات لتراث فنانين راحلين مجهولين.. ولعلها فترة توهج معتادة وسط الحياة التشكيلية فى مثل هذا الوقت من كل عام


لعبة الأطواق - عبد الفتاح البدرى


الذاكرة الآثمة - ضياء العزاوى

كأنها موسم الإخصاب الذي يتم خلاله التزاحم والتلاقح الإبداعي بين شتي الأجيال والاتجاهات الفنية ... لكن المحزن هو أن الموسم ينتهي عادة بأجنّة ميتة أو عليلة، ليس فقط لضعف في جينات الإبداع الوراثية من جيل إلي جيل، بل أساسا لجفاف البيئة الاجتماعية والثقافية المحيطة وعدم صلاحيتها كحضانة صحية تنمو فيها الأجنة وتتفاعل مع تيار الحياة، محدثة حركة جدلية تتخلق من خلالها التيارات الفنية والنقدية !

هكذا تمر هذه المعارض بحياتنا مر الكرام، ونادرا ما تثير حولها جدلا أو تشكل تراكما يؤدى إلى متغيرات كيفية، بل هى أقرب إلى التجاور الفسيفسائى لقطع صغيرة ملونة بشتى الألوان، لاتصل إلى تأليف هارمونى أو درامى للوحة متكاملة، حتى لوحظيت كل قطعة على حدة بتميز أو فرادة .

● رسالة بغداد للقاهرة

غير أن ثمة لوحة فسيفسائية مختلفة أتت إلى القاهرة أواخر ديسمبر الماضى من العراق الشقيق، تتمثل فى معرض لعشرة من فنانيه البارزين، أقيم بقصر الفنون بالأوبرا، كرسالة حضارية من شعب تحت الحصار والتهديد المستمر بالإبادة على مدى اثنى عشر عاما متصلة، تؤكد أنه مازال قويا صامدا مبدعا لقيم الجمال والسلام، ومواصلا لدوره التاريخى الريادى فى بناء الحضارة وإضاءة الإنسانية وهكذا نراهم - فى النهاية - فوق الحصار !

فى هذه اللوحة ذات الألوان والاتجاهات الفنية المتنوعة، لانسمع صوتا للحرب أو صيحة للنزال والتحدى

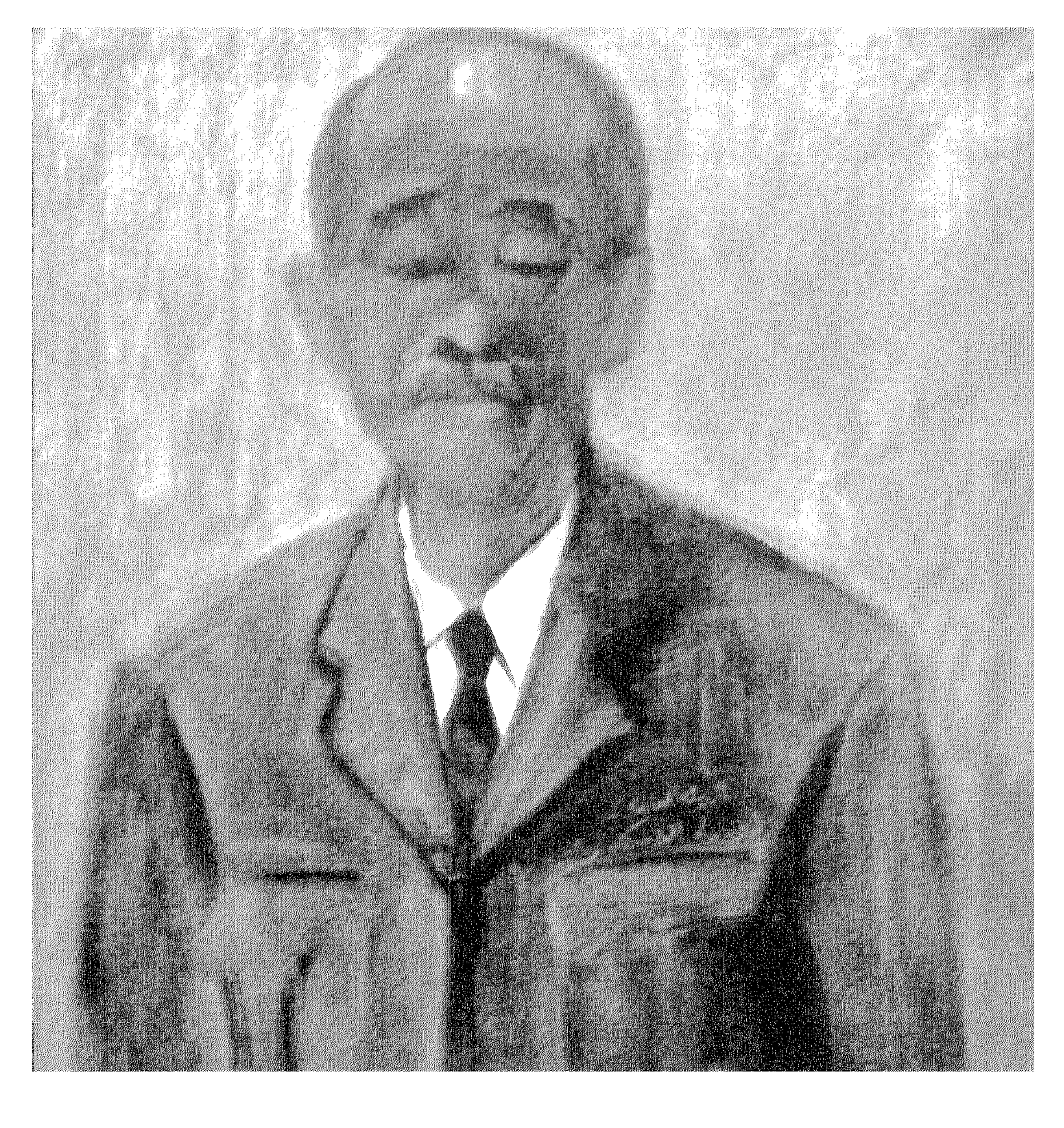
للهمجية الإمبريالية، أو تهنهة للنحيب، أو استدرارا للمساعدة، كما قد يتوقع البعض، بل نستشف انعكاسا دراميا مكتوما ومغلفا بحس درامى أو شعرى هامس وشامخ بالكبرياء فهنا جدار مخضب بنشع الدم وآثار القصف لكنه موشّى بكتابات الأطفال المعبرة عن الاصرار .. كل ذلك بأسلوب تعبيرى مجرد (مثل شاكر حسن) ، وهنا بناء حجرى شاهق يحاصر أنفاس الانسان لكنه يتطاول حتى يشق الجدار، ويتحقق ذلك بأسلوب ملحمى سريالى (مثل سعدى الكعبى)، وهنا أرض مشققة كأثر بركان أو زلزال لكنها تتماسك وتتلاحم من جديد، رغم أننا لانرى إلاّ أشكالا تجريدية (مثل على الجابرى)، وتلك أصابع بشرية تنبثق مشرعة من تحت الأنقاض فى أسلوب تكعيبى، إيماء للمقاومة لا للتسليم (مثل ضياء العزاوى)، وذلك صرح هندسى تتوالى فيه العلامات التجريدية والرمزية موحية بمعنى الاستشهاد (مثل رافع الناصرى)، وهناك فتيات كاعبات يحلقن فوق ميان اسطورية ذات قباب كحلم بغدادى بالحب والخصوبة (مثل لوحات نورى الراوى)، تلك تصميمات مجردة تعكس توتر حركة التنفس المرتعشة فى الصدور (مثل على طالب)، أو تعكس انطلاق الشهب والأطياف القزحية فى الفضاء (مثل سالم الدباغ)، وذاك تمزق الحلم الفلسطينى بين أطراف متنازعة تحت سماء مظلمة تخترقها خيوط مجهولة وأرض دموية يدور فوقها الصراع (مثل علاء بشير) .

لقد ابتعدت اللوحة العراقية المعاصرة عن لغة الخطاب المباشر، مضحية بالتأثير الآنى الذى تحدثه الشعارات والتوظيف الرسمى للفن فى خدمة القضايا، وذلك لصالح التأصيل الأعمق والتأثير الأبعد مدى للقيمة الرمزية بعد صهرها فى قالب جمالى يتوافق مع لغة الفن فى العصر الحديث ، فتصبح اللوحة بذلك أقدر على التواصل الإنسانى فى أى مكان من العالم، مؤكدة مشروعية هذا الابداع وأصحابه فى البقاء والانتصار، وإن كان الأمر محفوفا بخطر اقتصار التواصل المحلّى مع هذا الإبداع على النخبة المثقفة تشكيليا والقادرة على استيعاب الأساليب الفنية النائية عن المباشرة والمحاكاة والزينة، فى ظل ظروف العزله والقطيعة بين شعوبنا العربية وتيارات الفن الحديث..

● اكتشاف كنزين :

حدثان فنيان مهمان انطلقا بالقاهرة خلال يناير الماضى، كانا بمثابة شق فى جدار الصمت والاهمال الذى حاصر إبداع فنانين غابا عن عالمنا منذ سنوات بعيدة، حتى بدا المعرضان اللذان أقيما لأعمالها مثل اكتشاف لكنزين !

● الأول للفنانة زهرة أفلاطون (بضم الزين)، وهى الأخت الصغرى للفنانة الكبيرة الراحلة إنجى أفلاطون، وقد لقيت زهرة مصرعها فى حادث بطريق القاهرة الاسكندرية عام ١٩٧٨ مع



ابنتها وزوجها وهى فى الثانية والأربعين من عمرها، بعد أن أقامت معرضا واحدا للوحاتها بالاسكندرية عام ١٩٧١ ، وكانت قد تتلمذت بمرسم الفنانين الكبيرين أدهم وسيف وانلى ، وجاء معرضها الذى نظمته قاعة سفرخان بالزمالك مفاجأة مدهشة ، بما يحمله من مسحة شاعرية ونورانية مضيئة ، ومن تمكن تقني ومقدرة على إعادة صياغة الطبيعة والواقع بحس ذاتى لا يحاكيهما وإن بقى حضورهما الظاهرى.

ثمة نزعة إنسانية عميقة فى لوحاتها، تتجلى فى حدبها على الفئات الهامشية المتواضعة فى المجتمع : خادمة.. فتاة نوبية.. كمسارى أو ساعى.. موظف صغير ويتضح تعاطفها معهم خاصة من خلال وجوههم المغلفة بمسحة عميقة من المشاعر : بين الشموخ والانكسار بين العذوبة والحزن، بين الأنوثة والاستكانة لكنها فى مجملها تضفى على الجو رقة وعذوبة أنثوية .

وتتميز زهرة بخطوطها الموجزة ولمساتها الجريئة وألوانها الصريحة من خلال مساحات واسعة تشع بوهج الضوء الذى ينبع من ذات الفنانة، أو من ذات الشخصية التى تصورها، أو من داخل التكوين الفنى للوحة. إن الأبيض لديها ليس فراغا خاليا من الحياة والعمق وليس نقيضا مضادا للون الأسود، أو خلفية لإبراز الخطوط والألوان الأخرى، بل هو لون عميق غنى بطبقات من الدرجات الشفافة والهامشة، من الوردية والفيروزية والبنفسجية والسماوية، إنه فضاء منسوج بألوان الحلم والحنان والحنين، يحتوى الأشخاص والكائنات بنورانية آسرة، ويضفى على مشاهد الطبيعة ذلك النبض المرتعش فى غموض، وكأنك تراها من خلف ستارة من الدنتلا .

●أما المعرض الثانى فكان للفنان الراحل حسين محمد يوسف (١٩١٠-١٩٧٥) بقاعة إبداع بالمهندسين، وقد دأبت هذه القاعة على تقديم قراءات جديدة لبعض الرواد فى الحركة الفنية عبر أعمالهم المنسية أو المجهولة .. وهنا قدمت فنانا ذا أستاذية لافتة جرفه النسيان تماما، ومن الغريب أنه - هو نفسه - ساهم فى ذلك بتوقفه العمدى عن ممارسة الفن بقرار لا رجفة فيه وهو فى أوج عطائه فى سن السابعة والعشرين، بعد عشر سنوات من الإبداع، لأسباب لاتزال غامضة (وان كان كتالوج المعرض يفسر ذلك بتفرغه للتدريس بكلية الفنون التطبيقية والعمل السياسى) وهو تبرير غير مقنع !.

أعمال حسين يوسف تنتمى إلى الكلاسيكية العائدة، تمتزج فى لوحاته أساليب رواد عصر النهضة الإيطالية وأساليب الفنانين الفرنسيين دافيد وآنجر وأساليب المستشرقين الأوروبيين فى مصر والشرق إنه يملك درجة عالية من التمكن الحرفى فى تصوير الوجوه والنسب والأجواء الطبيعية المحيطة برصانة لا تجارى نسبة لأقرانه من



الفنان
مي رفقي

المصريين الدارسين بإيطاليا، حيث سافر إلى روما عام ١٩٢٨ فى بعثة دراسية لفن التصوير بعد حصوله على دبلوم مدرسة الفنون والزخارف بمصر، وأتم دراسته بإيطاليا عام ٣٢ بمعرض أقامه لأعماله بمدينة روما أشاد به النقاد فى الصحافة الايطالية، وعقب عودته إلى مصر أرسل فى بعثة أخرى إلى لندن بكلية الفنون الملكية، وبقى يدرس فيها حتى عام ١٩٣٥ وعاد إلى مصر بعد أن أقام معرضه الثانى بالنادى المصرى بلندن، وفى القاهرة أقام معرضه الثالث والأخير بنادى الفنون والصنايع، وبعده أعلن توقفه الدراماتيكى عن ممارسة الفن!

وبالرغم من غلبة الطابع الأوروبى على لوحاته الزيتية والخطية- موضوعا ومعالجة إلا أن الإضاءة فيها ذات حس شرقى أخاذ ، إذ تبدو وكأنها إضاءة (مفلترة) أو كأنها قبس داخلى يشع على وجوهه فيكسبها نوعا من القداسة والغموض، كما تبدد لمساته الحية المتدفقة باللون سكونية تكويناته وتخلع عنها عباءة الجمود الكلاسيكى .

وسواء اتفقنا أو اختلفنا مع أسلوبه أو حول ملاءمته لهذا العصر، فإن أعماله صارت جزءا من ذاكرة حركتنا الفنية وإضافة إليها، بما يجعلها جديرة بأن توضع فى مصاف أعمال الرواد تحت دائرة الضوء .

● البدرى .. ومثاليته الشعبية

مثلما يتغنى الشاعر الشعبى بالسير والمواويل ويشارك الشعب احتفاله بالحياة فإن الفنان عبد الفتاح البدرى - ابن أسوان الذى درس الفن بالقاهرة وعاش متنقلا بينها وبين مسقط رأسه - جعل رسالته التشكيلية هى التغنى بحياة الفلاحين البسطاء فى أفراحهم وعاداتهم وتقاليدهم، وكأنما ينسج لنا بالفرشاة والألوان موالا صامتا، لكنه صاخب بالحياة .

وفى معرضه الجديد بقاعة أرابيسك بشارع قصر النيل طوال يناير الماضى، قدم مجموعة متنوعة من رحلته الفنية الخصبة، يمثل النيل عنصر الاستمرار فيها، بما يمتد على شاطئيه من بيوت، اتخذت سماتها من معابد مصر القديمة وعمارة النوبة المتوارثة، وكذلك من العمارة الاسلامية تتناثر فتحات أبوابها ونوافذها كالعيون الساهرة، وتتوزع الخطوط والألوان فوق جدرانها فى إيقاع رشيق، كأنما تكتسى ثيابا مزركشة، وتتهادى القوارب راقصة فى انتظار ركابها، أو حاملة العابرين إلى الشاطئ الآخر، أو الصيادين الساعين إلى رزقهم

فى كل لوحاته احتفال بالحياة، مثل ألعاب الأطفال البريئة وهم يصنعون بأجسامهم قطاراً أو دائرة، أو وهم يسابقون الريح بأطوافهم، كما تمتلئ لوحاته بمشاهد أفراح الزفاف وجلسات السمر فى الساحات وأمام المنازل وحول العازفين الشعبيين .

لكن أكثر ما يستهويه هو رقصات

التـــحطيب، التى تجـــمع بين القـــوة والرشـاقـة، بينما تتحلق الجموع حول الفارسين المتبارزين وهمـا يتقـاطعـان ويتوازيان ويتباعدان ويتقاربان، وتتطاير فى الهواء ملابسهما الفضفاضة موحية بحركة عنيفة أو راقصة، لكنها فى كل الحالات تتسم بالرشاقة والخفة .

وللفنان اهـتمـام خـاص بعنصـرى الضـوء والظل، ليس بمفـهوم التجسيم الاسطوانى للأشكال، بل بتـأكيد الظلال المنعكسـة عن الأجـسـام على الأرض أمـامـها أو خلفها والناتجة عن مصدر ضوئى قوى، فتشكل ثنائية العنصر وظله والحـوارية البـصـرية بينهـمـا، إلا أن تأثيرها يتعدى المعنى الواقعى المباشر للضـوء، إلى المعنى الرمزى لطاقة النور، إذ تنفـتح فى الصـدور أمـلا وإشـراقـا، وتعكس درجات عليا من الحس الروحانى الشفيف .

بدندنات مى

ميـلاد فنانة جـديدة مـوهوبة حـدث ثقـافى مـهـم ، يتبـارى النقـاد وأجـهـزة الاعـلام في تسليط الضـوء عليـه وتتبع أعماله بل والمراهنة على مستقبله .. وهذا فى البلاد المتقدمة وليس فى مصر على أية حـال !.. وفى قاعة خان المغربى أقيم مع أول أيام العام الجديد مـعرض للفنانة الشابة مى رفقى (من مـواليد القـاهرة ١٩٧٦ وخـريجـة كليـة الفنون الجـمـيلة بالقـاهـرة ١٩٩٨) يجـعلنا نقف أمـامـه بانتـبـاه وترقب لما تفيض بـه مـوهبـتـهـا اللافـتـة، التى اسـتطاعت أن توظفـهـا بخبـرة تقنية لتحقيق حـالة خاصة أشبـه بدندنات العـــود، مـــا يحـيلك إلى جـــو المخطوطات العـربية والفارسية بمنمناتها الدقيقة وزخارفها المعقدة، لكنك تكتشف بعـد قليل أن ذلك ليس إلا خـدعـة بصـرية، فـهى فى الحـقـيـقـة تشكل بناء جـمـاليـا معـاصـرا، بكل علاقـاته البصـرية المجردة وانتـقـالاته الايقـاعـيـة المتـجـاوزة لصـورة الواقع وصورة التراث معا، محافظة - فى الوقت ذاته - على تلك التكهـة الشـرقـيـة والتطريب الخطى واللونـى المتــــوازن والمتكرر، بتلك الهندسـيـة العـقـلانيـة فى اللعب بالخطوط والمنمنمـات الزخـرفـيـة والشرائط اللونية المتجاورة أو المتقابلة .

إنهـا تضع لوحـتـهـا داخل القـالب التـقليدى السـاكن اسـتنادا إلى الجـمـاليـة العـربيـة ثم تتمـرد عليـهـا فـى ذات الوقت، وتصور مشـخصاتها الحية بأسلوب واقعى مـجـسم ثم تحـيط بجـو من التـجـريدات الزخـرفية المسطحة والمتعارضة مع منهج «التصـوير» .. هذه المفارقـات تبـدو للعين العـابرة تنافـرا، لكنهـا فى الحـقـيـقـة سـر جـاذبية أعمـال مى رفقى وجرأتهـا، كمـا تفتح أمامها طريق التواصل السلس أمام ذائقة الجـمـهور بمختلف مسـتـوياته وليس للمـثـقفين وحـدهم، بشـرط أن تعى الفارق الدقيق بين فن العامة والفن الرفيع، وتحذر من التقولب فى قالب نمطى قد يسـتـحسنه الجمهور، الأمر الذى يحتم عليها مداومة البحث والتجريب، والاسترشاد بتجارب عديدة سـابقـة - عـربيـة ودوليـة - حـاولت الجمع بين هذه المتناقضات . ■

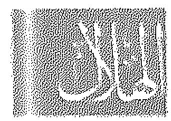
قصة مجلة الكاتب كاملة

● صدرت «الكاتب» فى حقبة واكبت أفكار عبد الناصر عن الاشتراكية والديمقراطية والوحدة العربية

بقلم

أحمد عباس صالح

كانت مبادئ ثورة ٢٣ يوليو الستة عامة وبدون تفاصيل ومن الصعب اعتبارها برنامجا سياسيا ولعله لهذا السبب انفتح الطريق أمام نمو وتركيب برنامج سياسى يتوالد من خلال الممارسة اليومية وتفاعلاتها مع المجتمع ومع القوى الخارجية. وراوحت اتجاهات الثورة ما بين اليمين المحافظ واليسار بدرجاته المختلفة. والتأثيرات التى أدت إلى تغيير الاتجاهات تنتمى إلى عدة مصادر منها الصراع بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذى تبلور بصفة خاصة بين عبدالحكيم عامر وبين جمال عبدالناصر والذى بلغ الذروة عندما تقدم عبدالحكيم عامر باستقالة مسببة واعتصم فى بيته ومعه قواد الجيش مما دفع عبدالناصر إلى الذهاب إليهم والاتفاق على مصالحة توسعت فيها اختصاصات المشير عامر بالنسبة للجيش. وفى هذا الصراع تحجج المشير بمطالب ديمقراطية ومن الوجهة النظرية كان على حق إذ تطورت الأمور منذ بدء الثورة فى سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٦٢ حيث توسعت سلطات جمال عبدالناصر بشكل متواصل على حساب زملائه الآخرين وفى السنة الأخيرة قرر المشير عامر تقديم استقالته لعدة أسباب من بينها الافتقار إلى الديمقراطية.



وربما كان ضعف صلة عبدالناصر بالجيش وقواده بسبب محاولة المشير عامر السيطرة المطلقة عليه هو المسئول عن التفات عبدالناصر إلى الشعب وكسب ثقته وبالتالى الاعتماد على تأييده عند حدوث أى اشتباك بسبب النزاع على السلطة. وقبل صدور قرارات التأميم الاشتراكية كنت أعرف - لصدفة ما - أن الجيش ينوى الانقلاب على عبدالناصر لصالح هيمنة عبدالحكيم عامر أو على الأقل كانت الأحاديث تجرى بين أنصار المشير حول وجوب اتخاذ خطوة عملية ضد انفراد عبدالناصر بالسلطة.

ومنذ سنة ١٩٦٠ والتوتر كان سائدا بين الطرفين وكانت الديمقراطية هى حجة المشير وأنصاره وعندما بلغ الصدام ذروته باستقالة المشير أعلن جمال عبدالناصر القرارات الاشتراكية فسيطر تماما على عواطف الشعب وعلى الأجنحة التقدمية بين المثقفين، وكانت أحلام الاشتراكية تدور فى أذهان الشعب المصرى منذ أيام الحكم الملكى وكانت من قبيل الأمنيات، ولذلك عندما أعلن عبدالناصر قراراته الاشتراكية سحب البساط من تحت أقدام جميع معارضيه أو منافسيه وأحس الناس أنهم مقبلون على عصر جديد توزع فيه الثروة توزيعا عادلا وبالفعل حسمت هذه القرارات النزاع بين المشير وبين عبدالناصر فضلا عن معارضات الآخرين من بين أعضاء مجلس الثورة وصار فى استطاعته أن يصفى أى قوة معارضة وهو الأمر الذى ظل معه حتى تمرد المشير الأخير بعد هزائم حرب سنة ١٩٦٧ والذى انتهى بانتحاره.

هناك مصادر أخرى مؤثرة فى تكوين البرنامج السياسى لجمال عبدالناصر والذى راح يتكون بواسطة أفعال وقرارات لعل من أهمها تحالفه الوثيق مع الاتحاد السوفيتى بعد سحب الولايات المتحدة لقرار تمويل مشروع السد العالى. وفى بدايات سنة ١٩٦٤ أفرج جمال عبدالناصر عن اليساريين المعتقلين وفكر فى إنشاء التنظيم الطليعى الذى اعتبره مدرسة الكادر داخل الاتحاد الاشتراكى واعتمد عليه إلى حد ما فى شغل بعض المراكز الحساسة.

الهجوم على التجربة الناصرية

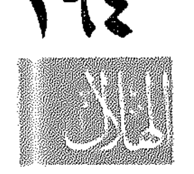
على أن عبدالناصر كان منذ سنواته الأولى يتمتع بحس برجماتى ولم تكن الايديولوجية تستهويه وكان مطلعا على كتابات كارل بوبر ولعل أهم ما أثر فيه هو نفور بوبر من الايديولوجية وصياغته المقنعة لنظرية التجربة والخطأ التى راحت تظهر كثيرا فى خطابات جمال عبدالناصر وربما كان هذا هو السر وراء رفض عبدالناصر للاستسلام الحرفى للنظرية الماركسية التى كانت سائدة وسط المثقفين المصريين وهكذا نشأت اشتراكيات متعددة وانفتح المجال للتيارات المختلفة أن تجتهد فى صياغة نوع ما من الفكر الايديولوجى المنسوب إلى الاشتراكية على أنه من الناحية الأخرى بدأت الخلافات الفكرية على مستوى العالم العربى كله وبدأ الهجوم على

التجربة الناصرية من نقطتها الضعيفة وهي الديمقراطية وشحذت الأجهزة الأمريكية قواها فأنشأت مجموعة من المجلات تحارب هذه الأفكار كان منها مجلة حوار فى العالم العربى فضلا عن دور نشر خاصة مثل مشروع فرانكلين وبالفعل أصبحت القاهرة ساحة للجدل الايديولوجى الذى تشترك فيها الدولتان العظميان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وكنت ومجموعة من الكتاب المصريين مثل محمد عودة وأحمد بهاء الدين ومحمد أنيس وكامل زهيرى ويوسف ادريس وشكرى عياد وغيرهم نشعر بأن تحديث المجتمع المصرى وتطويره ينبغى ألا يتقيد حرفيا بأى ايديولوجية وكان فى الماركسية الكثير مما يثير القلق مثل ديكتاتورية البروليتاريا وحزبها الواحد والحتميات الجازمة المختلفة بما فيها قوانين التطور الاجتماعى وكان أغلب أعضاء هذه المجموعة من الكتاب مؤمنا أيضا بالوحدة العربية باعتبارها الجامعة التى تربط أبناء العالم العربى والتى يصعب عمل أى تنمية اجتماعية دون توحيد هذه القوى فضلا عن المواجهة مع المشروع الصهيونى الذى تحقق فى شكل قيام الدولة الاسرائيلية.

وبالفعل بدا أن سنة ١٩٦٢ بداية لعهد جديد ولأسباب كثيرة أصبحنا نرى أن الحكم العسكرى بقيادة جمال عبدالناصر يتمتع بمرونة واسعة وقابلية للتطور وأنه يتوجه شيئا فشيئا إلى المفاهيم والأفعال الاشتراكية، وسواء كان هذا استجابة لرغبات الاصلاح الكامنة فى عقل قيادة الثورة أو كان أحد أساليب الصراع ضد المنافسين أو لاستجلاب التحالفات السياسية على المستوى الدولى أو لهذه الأسباب جميعا فإن النتيجة هى تحولات أساسية لمصلحة الشعب وقطاعاته الضعيفة بصفة خاصة.

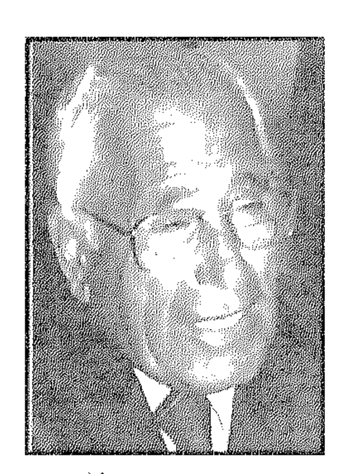
مشروع إصدار مجلة الكاتب

فى هذه الفترة كنت أعمل فى جريدة الجمهورية وفوجئت بتعيين كمال الدين الحناوى رئيسا لمجلس إدارة مؤسسة دار التحرير التى تصدر عنها جريدة الجمهورية وكنت أعرف الحناوى حتى قبيل الثورة وكان من الضباط الأحرار ويحسب على اليسار المصرى وكان شاعرا ومترجما تشارك مع ثروت عكاشة فى الكثير من الأنشطة الثقافية قبل الثورة وعندما جلسنا نناقش الأوضاع فى مؤسسة التحرير صارحنى بالمشاكل التى ورثها عن سابقيه مثل ضعف توزيع بعض منشورات الدار بما فيها جريدة الجمهورية ذاتها وكان قد قرر إغلاق مجلة الكاتب التى كانت قد صدرت منذ سنتين أو ثلاث وأشرف على تحريرها لويس عوض ومحمد مندور اللذان كانا من كتاب جريدة الجمهورية، لكنها بدأت تتدهور بعد انتقال لويس عوض إلى جريدة الأهرام ووفاة محمد مندور بعد ذلك وخرجنا من هذا الاجتماع بخطة كاملة لإصلاح الأوضاع فى منشورات الدار وإضافة مشروعات جديدة وأذكر أننى سألت الحناوى



الذى كان يتمتع بحس فكاهى رائع: هل أنت باق فى منصبك الفترة المعقولة لانجاز هذه التعديلات؟ فقال ضاحكا: أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا. وبالفعل بدأنا نعد الدراسات للمشروعات المختلفة إذ كان تنفيذ أى خطة يحتاج إلى موافقة الرئيس جمال عبدالناصر نفسه وأذكر أننى كتبت مشروع إصدار الكاتب واشتركت فى كتابة مشروع جريدة الجمهورية مع كامل زهيرى وكتب محمد عودة تقرير مشروع إصدار مجلة أسبوعية كما اشترك نعمان عاشور مع محى الدين اللباد الفنان التشكيلى فى كتابة تقرير إنشاء مجلة للأطفال بعنوان كروان وكذلك فعل الكاتب عبدالعزيز فهمى فى كتابة خطة إصدار سلاسل الكتب التى ستصدر عن الدار بعد قليل جاءتنا الموافقة على إصدار الكاتب فى صورتها الجديدة وكذلك بالنسبة لمجلة كروان ولم تأت الموافقة بعد على مشروع تجديد جريدة الجمهورية ومشروع المجلة الأسبوعية وكنا قد بذلنا جهدا كبيرا أنا وكامل زهيرى فى خطة تجديد جريدة الجمهورية ولعلنا تطوعنا فى إعطاء تصور عما يجب أن تكون عليه الصحف القومية تفاديا للتكرار وسعيا إلى تميز كل صحيفة عن الأخرى وكان لدينا اقتراحات عديدة بالنسبة لبناء أقسام جديدة مثل مركز للدراسات وللعلاقات الثقافية بين جريدة الجمهورية وكتاب من مختلف أرجاء العالم يمثلون الفكر الاشتراكى بدرجاته المختلفة وكانت الاشتراكية لدينا تتسع لكل درجاتها وبعيدة تماما عن الاختناق العقائدى الذى كان يحصر الاشتراكية فى اتجاه واحد أو اعتقاد واحد وحين طال انتظارنا سألت الحناوى أن يحصل على إجابة من الرئيس جمال عبدالناصر وجاءنا ذات يوم ضاحكا وقال أن الرئيس قال له أنه أعطى التقرير لمحمد حسنين هيكل الذى كان قد تسلم رئاسة التحرير فى جريدة الأهرام وأن الرئيس قال هذا القول ضاحكا.

جمال عبد الناصر



محمد حسنين هيكل

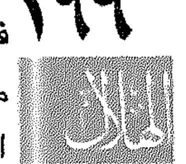
وعقب الحناوى قائلا: وكان رسول الله يمزح ولا يقول إلا جادا. وهو قول شائع فى أدبيات الحديث النبوى.

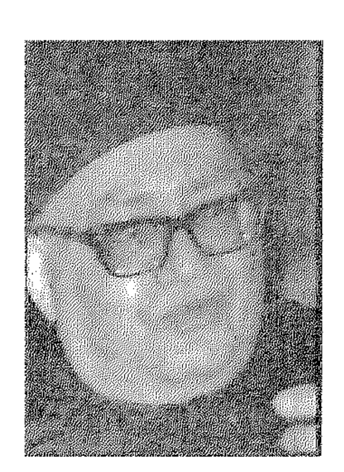
صدر العدد الأول من مجلة الكاتب بصورتها الجديدة فى يناير سنة ١٩٦٤ وحققت نجاحا مثيرا إذ تم توزيع كل المطبوع منها تقريبا مما دفعنا بعد ذلك إلى زيادة النسخ المطبوعة على أنه لم يمض إلا قليل من الوقت حتى عين كمال الحناوى وزير دولة وعضوا متفرغا فى مجلس الرئاسة المشترك مع العراق، وكان من ذيول

الخلاف بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر أن خصصت الجمهورية ودار التحرير بشكل عام للمشير عامر الذى عين شخصا من اتباعه سرعان ما فصل أكثر من ثلاثين كاتبا من كتاب الجمهورية وأغلبهم من الأسماء اللامعة على أن هذا الشخص لم يستطع أن ينتزع مجلة الكاتب من المجموعة التى تصدرها إذ أمكن إخراج المجلة من دار التحرير دون أن تنتسب لأى مؤسسة صحفية أو ثقافية ودون أى تمويل مما جعلنا نعتمد على التمويل الذاتى من الاعلانات بصفة خاصة ولم يكن الأمر سهلا على الرغم من أن كمال الدين رفعت وهو سياسى ومثقف من الضباط الأحرار وأحد المسئولين الكبار كان ضمن أعضاء مجلس التحرير منذ إصدارها وكان مثل سائر الأعضاء يحسب على اليسار المصرى الذى كان له بعد وحدوى، على أن كلا من المرتبطين بالمجلة استخدم علاقاته الشخصية فى تحصيل عقود اعلانات كافية لإصدار المجلة وأذكر أننا ظللنا نصدرها لمدة ثلاثة عشر شهرا دون أى مكافآت للتحرير وعندما عرضت علينا وزارة الثقافة أن ننضم إليها رحبنا بسبب الانهاك الاقتصادى الذى عانينا منه. فحتى توزيع الحصص الاعلانية على الصحف كان يمضى وفق نظام مركزى معين ولولا الصلات الخاصة التى كانت تربطنا ببعض رؤساء مجالس إدارة الشركات العامة لعجزنا بشكل كامل عن تمويل مجرد إصدار المجلة.

تحديث مصر

وعندما اتذكر هذه الفترة المشحونة بالعديد من الاحتمالات أعجب للحماسة الشديدة التى كانت مسيطرة علينا لإصدار المجلة والواقع أن المجتمع المصرى لم يكن مستقرا على رأى. نعم كانت هناك خطوط عامة لمشروع قومى ترتكز فكرته على التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتحديث مصر بشكل عام إلى جانب فكرة الوحدة العربية وإقامة دولة الوحدة الكبرى وكانت قابلية النظام للتجاوب مع الأفكار أو المؤثرات الاجتماعية المختلفة حافزا للكثير من القوى الاجتماعية أن تجاهد من أجل توصيل فكرها للقيادة المتنفذة وللشعب بطبيعة الحال ومنذ وقت مبكر أدركت هذه القيادة أن منابر الرأى والميديا بشكل عام ينبغى أن تحتوى على كل الأفكار ومع أنه كان من الممكن تمييز جريدة أو مجلة عن أخرى من حيث الاتجاه أو التصنيف السياسى إلا أنها جميعا كانت تحتوى على غالبية الاتجاهات الموجودة فى المجتمع ربما كان هذا هو السبب وراء إصرار التيارات الفكرية المختلفة على الوجود والصراع مع التيارات الأخرى المتعارضة معها بما فى ذلك كل أشكال الصراع التى تستهدف أبعاد المختلفين ولعل النظام اكتشف أن تعدد الآراء ووجودها فى المجال الاعلامى هو تعويض عن عدم وجود الأحزاب ولعل هذا كان وراء التعددية التى اشتمل عليها الاتحاد الاشتراكى مثل الفلاحين والعمال والمثقفين والرأسمالية الوطنية وكان كل من هذه التيارات يجاهد فى




د. شكري عياد

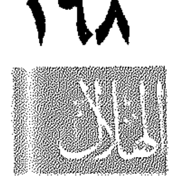
أن يؤثر برأيه على السلطة القيادية التى كانت تملك تمويل الأفكار والمقترحات إلى واقع فعلى وفى هذه الفترة كان اليسار يعتقد مثلا أن السلطة أقرب إلى محاباة اليمين بينما كان اليمين يعتقد أن مصر تحولت إلى دولة شيوعية وكان المثقفون المصريون على أية حال يعتقدون أنهم يخوضون معارك مقدسة من أجل تصويب الاتجاه فى السلطة التنفيذية فى مصر، سواء جاء ذلك من اليمين أو من الوسط أو من اليسار ولم يكن هذا الأسلوب الانتقائى يرضى التيارات المختلفة على أنه لم يغلق الباب أمام احتمالات الأخذ برأى هذا الاتجاه أو ذاك.

وكان من عادة جمال عبدالناصر منذ الأيام الأولى للثورة أن يكلف من يعتقد أنه متخصص فى موضوعه بصياغة لمشروع كان يفكر فيه، وقد فعل ذلك مثلا فى مشروع قانون الاصلاح الزراعى الأول، إذ طلب من المناضل الوفدى ابراهيم طلعت أن يكتب هذا المشروع (حسب ما ذكر ابراهيم طلعت فى المذكرات التى نشرتها له دار الهلال) وينطبق هذا على الكثير من المواثيق التى صدرت بعد ذلك وفى هذه الفترة كان يفكر فى إنشاء معهد للدراسات الاشتراكية يتبع الاتحاد الاشتراكى وكالعادة فكر فى تكليف أكثر من مجموعة من المثقفين المحيطين به بوضع برنامج الدراسة لهذا المعهد وكنت ومحمد أنيس مع كمال رفعت من بين من كلفوا بوضع هذا البرنامج وبالفعل وضعنا برنامجا يتمشى مع أفكارنا الأقرب إلى الاشتراكية الديمقراطية مع التنظير الذى اتبعناه فى الكاتب خاصا بفكرة الوحدة العربية التى لم تؤسس على الفكر القومي التقليدى الذى يهدف إلى توسيع رقعة الدولة أمام النشاط الرأسمالى وكنا نظن أننا أقرب إلى فكر جمال عبدالناصر على أن المشروع الذى اجازه عبدالناصر كان من وضع مجموعة أخرى كان من بينها ابراهيم سعد الدين استاذ الاقتصاد والذى كان ماركسيا بشكل كامل وبالتالى جاء برنامجه غير مختلف عن أى برنامج يوضع لكوادر حزب ماركسى وبالفعل عين سعدالدين عميدا لهذا المعهد الذى ضم العددين من الأساتذة بمختلف تخصصاتهم ومنهم كتاب الكاتب أيضا على أن الغريب أن قبول الطلبة لم يكن خالصا للجنة القبول بالمعهد بل كثيرا ما كان يفرض الطالب على المعهد وكنت فى أحيان كثيرة تجد بعض الطلبة وقد جاءوا إلى المعهد خصيصا ليحاجوا الأساتذة أكثر من قدومهم لتلقى دراسات فى المبادئ الاشتراكية وهى ظاهرة كانت بارزة فى كل شئ فعندما أممت الشركات وضع على

رأسها رجال لا يؤمنون بالاقتصاد الموجه وبالتالى يرفضون النظام الاشتراكى فى مجمله وهكذا نشأ فى صفوف اليسار شعار لا اشتراكية بغير الاشتراكيين ولست أدرى تفسير ذلك إلى هذه اللحظة، وكان هذا هو السبب فى المشاكل التى عانيناها إذ كان المسئولون الاداريون عن المجلة من موظفى وزارة الثقافة مثلا معادين لها ومعادين للفكر الاشتراكى نفسه، وكان علينا أن نتخطى العقبات الكثيرة التى توضع أمامنا وعندما يكون الوزير قريبا إلى اليسار تأتى المقاومة من الموظفين الكبار وقد حدث بالفعل أنه أثناء تولى ثروت عكاشة لوزارة الثقافة أن جاءه من أحد مسئولى الوزارة الكبار تقرير يفيد بأن الكاتب لاتكاد توزع شيئا واقترح على الوزير أن يغلقها وعندما استدعانى ليخبرنى بذلك ذهلت لهذه الجرأة من موظف مسئول يكذب على الوزير وعلى الحقيقة فأسرعت للحصول على كشوف التوزيع من المؤسسة الحكومية التى كانت تقوم بالتوزيع فى هذا الوقت وكان ثروت عكاشة قد ذكر لى اسم هذا الشخص وكان أحد المثقفين اليمنيين المتعصبين ولعله كان يعتقد أن الكذب شئ مقبول عندما يتعلق الأمر بمكافحة الشر الذى تجلبه الاشتراكية على المجتمع على أنه كان بين صفوف اليسار نفسه صراعات مختلفة وكان من الطبيعى أن تعتبر الكاتب منحرفة عن الاشتراكية الماركسية الارثوذكسية وربما كان الأمر أعمق من ذلك إذ أنه فى ظل الديكتاتورية الفردية تنعقد مراكز قوى متعددة حول الرئيس الشخصية الكاريزماتية التى تتبلور حولها السلطة وكل منها يحاول إبعاد الأخر عن الجذر الأساسى حتى تكون له الغلبة أو الأسبقية وهذا ما عنيناه أيضا إذ كان كمال الدين رفعت ليس عضوا فى مجلس التحرير فقط بل مركز قوة أيضا وكان يتوزع نشاطه ما بين لجنة الدعوة والفكر فى الاتحاد الاشتراكى وبين مسئوليته الوزارية ووضعه القيادى فى التنظيم الطليعى وكان له فى المقابل خصوم أو منافسون فى مراكز قوى أخرى وفى هذا الوقت بدأ الأهرام بقيادة محمد حسنين هيكل فى إنشاء مجلة للفكر الاشتراكى الماركسى، ولا أظن أن الأمر كان يتعلق بالإيمان بفكر هذا التيار أو ذاك بل بتقوية هذا المركز وتوسيع مجالاته وهكذا نشأت فكرة إصدار مجلة الطليعة برئاسة لطفى الخولى الذى كان له وضعه البارز فى التنظيمات الماركسية وكان فى نفس الوقت محررا فى جريدة الأهرام.

اعجاب عبدالناصر بالكاتب

وهنا بدأت أشعر بمشاكل داخل الكاتب من بين بعض المشاركين فى التحرير وانتهى الأمر إلى شبه انقسام داخل المجلة، وكان قد أعلن عن تاريخ صدور الطليعة ولكن بعد قليل أجل هذا التاريخ شهرا آخر، وأصبحت ألاحظ أن هناك علاقة بين



الانقسامات التى راحت تحدث فى المجلة وبين صدور المجلة الجديدة وكان من عيوب التربية الماركسية فى مصر طابعها السرى وبالتالى ما يمكن أن تنطوى عليه السرية من شرعية التآمر وهكذا كان الأمر بالنسبة لتنظيم الضباط الأحرار وكان مقبولا أخلاقيا - لهذا السبب - التآمر ضد الخصوم وبالفعل بدا أن الانقسام وصل إلى كمال رفعت نفسه وهكذا وجدت نفسى مضطرا لغلق المجلة على أن هذا اقتضى أن أؤجل هذا الغلق شهرا آخر حتى أنشر جميع الاعلانات التى تعاقدت عليها المجلة مع الشركة التجارية للأخشاب التى كان يرأس مجلس إدارتها صديق لى وكان قد دفع قيمة العقود كلها وعندما أصدرت العدد الأخير تنفست الصعداء فها هو ذا اثقل عبء تحملته طوال هذه السنوات يرفع عن كاهلى، ولعلى تساءلت مع نفسى علاما كل هذه المشقة وهذه العداوات والخصومات والتى أثرت بطبيعة الحال على صحتى العامة.

كمال الدين رفعت

وعندما ظهر العدد الأخير فى السوق وجدتنى طريح الفراش من الانهاك أو من نزلة برد أو منهما معا وكنت مسترخيا فى بيتى هذه الليلة عندما تلقيت مكالمة تليفونية من كمال الحناوى الذى أخبرنى بأنه يحادثنى من مكتب كمال رفعت الجالس إلى جواره وأنهما يريدانى أن أحضر فورا لأمر هام ولم ينفع اعتذارى بالمرض فذهبت إلى مبنى الاتحاد الاشتراكى الذى كان قريبا من بيتى وهناك عرفت قصة غاية فى الغرابة إذ كانت اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى منعقدة برئاسة جمال عبدالناصر وكان الحناوى ورفعت عضوين فيها كما كان محمد حسنين هيكل أيضا عضوا فيها وكان العدد الأول من مجلة الطليعة قد صدر ورأت سكرتارية اللجنة أن تضع أمام الأعضاء عدد الطليعة الجديد وعدد الكاتب الأخير أيضا وامتدت يدا عبدالناصر وأمسكت بكل عدد وراح يقلبه ثم قال موجها الحديث إلى الجميع: الكاتب ما هى شرحة أهه، وبهذا أبدى ارتياحه واعجابه بالمجلة واعتبر هذا نطقا ساميا وعندما فاتحه بعد ذلك كمال رفعت بأنها كانت على وشك الاغلاق حثه على استمرار صدورها وأضاف: لكن لا تطلب منى تمويلا.

وكان استدعائى ليطلبوا منى الاستمرار فى الصدور وهنا طالبت بتغييرات كثيرة وافقونى عليها على الفور، وهكذا عادت الكاتب لتصدر من جديد. ■

وللحديث بقية



عبد الله بلخير — د. عمر فروخ — سلمى الكزبري — ليلى رستم

شخصيات لا تنسى

بقلم

وديع فلسطين

أكرمني ربي فعرفت على مدى واحد وستين عاما من العمل بالصحافة والأدب أعلاماً من رجال السياسة والأدب ومن الشعراء في ربوع عالمنا العربي وفي المهاجر السحيقة، ولكن كثيرين منهم باتوا منسيين إلا من الذين عاصروهم وتابعوا انشطتهم . وإذا كان مسلسل قاسم أمين قد بعث إلى الحياة أفذاذاً استضاءت بهم الحياة المصرية في أوائل القرن الماضي ، فإن هناك كثيرين من الأعلام في الدنيا العربية الواسعة الذين صاروا نسياً منسياً ، فلا يذكرون في أي مقام ولا تعرف الناشئة شيئاً عنهم ، وما زلت أسخر من ذلك «المستشار الثقافي» الذي أجرت معه مذيعة تليفزيون حواراً فسألته عن رأيه في الأديب على أدهم ، وبعد تلعثم قال السيد المستشار : لعلك تقصدين الفنان عادل أدهم ؟ فقالت المذيعة : بل أقصد الأديب على أدهم ، وهنا قال السيد المستشار الثقافي : لعله من الأدباء الناشئين الذين لم أقرأ لهم شيئاً !

عبد الله بلخير

سقت هذه المقدمة وأنا أبحث في الصحف المصرية عن إشارة ولو عارضة إلى وفاة الشاعر الأديب السعودي الكبير عبد الله بلخير ، فأعياني البحث .. ولا عجب ، لأن الناس حظوظ حتى في الموت ، فمنهم من تفرد له صفحات وصفحات ، ومنهم من يعدم حتى سطرين في صفحة المناعي ، فلأحمل عن هذه الصحف عبء التعريف بهذا الرجل الذي توفي في الثامن من ديسمبر الماضي عن ٨٨ عاماً في مستشفى بالعاصمة اللبنانية حيث دفن بناء على وصيته .

ولد عبد الله بلخير في عام ١٩١٤ في حضرموت ونزح مع أبيه إلى السعودية حيث التحق بمدارس الفلاح - وهي أول مدارس نظامية تنشأ في المملكة على أيدي الشيخ عبدالله علي زينل . وكان عبد الله ينظم الشعر حتى وهو في المرحلة الابتدائية ، مما أدهش الملك عبد العزيز آل سعود فقربه منه ، ولما أكمل دراسته أوفده إلى بيروت لمتابعة الدراسة الجامعية في جامعة بيروت الامريكية. وعند عودته عمل في ديوان الملك عبد العزيز سكرتيراً ومترجماً ، وبهذه الصفة قام بالترجمة بين الملك عبد العزيز ورئيس الوزراء البريطاني ونستن تشرشل . ثم التحق بديوان ولي العهد الأمير سعود فكان سكرتيره ومترجمه ، وقام بالترجمة بينه وبين الرئيس الأمريكي جون كندي ، واختاره الملك سعود بعد ما خلف أبيه أول وزير للإعلام في المملكة ، فقام بتنظيم الوزارة وتنسيق أجهزتها بين عامي ١٩٦١ ، ١٩٦٣ ، واختار بلخير بعد ذلك أن يتقاعد لكي يتفرغ لسياحات عريضة في جميع أنحاء العالم ، حملته إلى القطب الشمالي وإلى أمريكا الجنوبية وإلى أدغال إفريقيا وإلى الشرق الأقصى . كما تفرغ لمآربه الأدبية ولموهبته الشعرية فأصدر هو والشيخ محمد سعيد عبد المقصود خوجة كتاب «وحي الصحراء» وهو أول دراسة لشعراء المملكة وأدبائها سبقت الكتاب الذي أصدره الشيخ محمد سرور الصبان وكتاب عبد الله بن إدريس. وفي سن مبكرة ألف عبدالله بلخير النشيد الوطني السعودي وهو :

شبه الجزيرة موطني وبلادي
من حضرموت إلى حمى بغداد
أشدو بذكراها وألقف اسمها
في كل جمع حافل أو نادي
فيها خلقت ، وفي سبيل حياتها
سعيي وفي اسعادها اسعادي
كل له في من أحب صبابه
وصبابتي في أمتي وبلادي

وله نشيد آخر يقول فيه :

بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يمن
إلى مصر فتطوان

وعندما ساءت العلاقات بين مصر

والسعودية ، نظم قصيدة جاء فيها :

لو مشت مصر نحو مكة شبراً
لمشت مكة إلى مصر ميلاً

وفي عام ١٩٩٨ أصدرت مؤسسة الإثنينية في جدة التي يرعاها الشيخ عبد المقصود خوجة كتابا في أكثر من ٧٠٠ صفحة بعنوان «عبدالله بلخير يتذكر» ضم حواراً أعده معه خالد محمد باطرفي مع دراسة نقدية بقلم محمود ردادي وفيه سجل بلخير ذكرياته السياسية والأدبية التي ترجع إلى بدايات تاريخ المملكة لأنه عمل مع أول ملكين لها وهما عبد العزيز وسعود، وفي هذه الذكريات أحاديث عن شخصيات سياسية تعامل معها بلخير مثل تشرشل وكندي والمرشال مونتجمري والامبراطور هيلا سلاسي والمستشرقة فرايا ستارك والحاج محمد أمين الحسيني مفتي القدس الأكبر والملك غازي العراقي وطلعت حرب والزعيم اليمني أحمد نعمان ، ومن الشخصيات التي التقى بها طنطاوي جوهري والدكتور محمد حسين هيكل باشا ومحمد الغنيمي التفتازاني والأمير شكيب ارسلان والمجاهد الفلسطيني محمد على الطاهر المكنى بأبي الحسن والصحفي اللبناني كامل مروة والشاعر السوري عمر أبو ريشة والأخطل الصغير بشارة الخوري والشاعر الفلسطيني عبد الكريم الكرمي المكنى بأبي سلمى وغيرهم . فقد كان دأب عبد الله بلخير أن يتواصل مع أعلام الفكر في عصره وأن يسعى إليهم في عقر الدار .

وكنت بدوري - على ضآلة شأني في الأربعينات - ممن قصدهم عبد الله بلخير حيث زارني في مكتبي في جريدة «المقطم» دون معرفة سابقة قاصداً التعرف بصحفي سخر قلمه للدفاع عن قضايا الأمة العربية التي كانت تعاني وقتها من صنوف الحكم الأجنبي بأسمائه ومسمياته المختلفة .

ومن طريف ما رواه عبد الله بلخير أنه رافق الملك سعود في زيارته الرسمية لواشنطن وكان الملك يحتضن طفلاً له مصاباً بشلل الأطفال حتى في مواكبه الرسمية وفي مقابلاته مع الرئيس كندي على أمل أن يعالجه في أمريكا . والتف الصحفيون حول عبدالله بلخير يسألونه عن اسم والدة الطفل ، وببديهته الحاضرة أجابهم قائلاً إن اسمها «أم طلال» - وهو اسم الطفل - وهكذا تخلص من هذا المأزق وتوهم الصحفيون الأمريكيون أنهم ظفروا بسبق صحفي !

وعندما كان بلخير وزيراً للإعلام ، زار مصر زيارة رسمية ورغب في مفاجأة صديقه ومواطنه الحضرمي الأديب على أحمد باكثير بزيارة في بيته في حي منيل الروضة . فتوجه بموكبه الرسمي إلى العمارة التي كان باكثير يقيم في طابق من طوابقها العليا ، ولأن

العمارة كانت تفتقر إلى مصعد ، وخشى بلخير أن يصعد الدرج ثم يكتشف أن باكثير ليس فى البيت ، فقد أوفد جندياً من طاقم حراسته للتأكد من أن باكثير قابع فى البيت ، وعندما دق الجندى الباب وسأل عما إذا كان باكثير موجوداً ، فزع باكثير ، وتوهم أن الجندى هو طليعة كتيبة جاءت لاعتقاله والزج به فى السجون ، فبادر بإخطار زوجته ، وأخذ يعد حقيبة ملابسه التى سيحملها معه إلى المعتقل . وإذ كان فى هذه الحال من الرعب ، دق باب البيت ، ولما فتحه وجد صديقه عبد الله بلخير يرتمى عليه ويأخذه بالأحضان !

واتفق عندما تقاعد بلخير من عمله الوزارى أن كنت فى الظهران فسعى إلى لقائى وقضينا نحو ثلاث ساعات فى أحاديث مشتهاة ، وقد أخبرنى أنه فكر فى إصدار جريدة يومية ، وسافر فعلاً إلى الخارج ، وتعاقد على شراء المطابع التى شحنت فعلا إلى ميناء الدمام ، ولكنه زهد فجأة فى هذا المشروع ، وترك الآلات فى صناديقها لتصدأ فى الميناء !

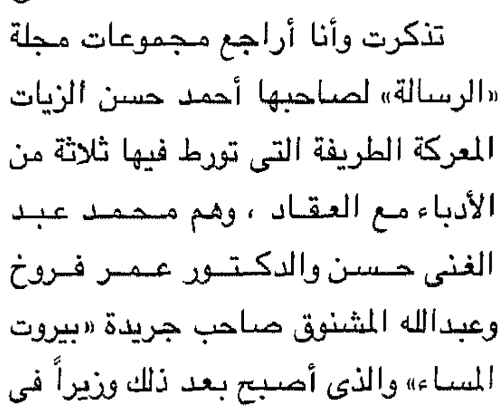
ومن فترة غير بعيدة تلقيت بطاقة من ماربيا بإسبانيا تحمل توقيعات ثلاثة من الأصدقاء يمثلون معاً جامعة عربية شعبية هم الأديبة السورية سلمى الحفار الكزبرى أطال الله بقاءها ، والمجاهد الفلسطينى أكرم زعيتر ، والأديب السعودى عبد الله بلخير ، فقد التقى ثلاثتهم فى هذه المدينة الساحلية الجميلة حيث تذكروا صديقهم المصرى فوجهوا إليه هذه البطاقة التى اعتبرها لفتة كريمة تومىء إلى الوحدة العربية الفكرية بين أصدقاء من سورية وفلسطين والسعودية ومصر .

ولعبد الله بلخير ديوان كبير غير منشور ، وعسى أن يعمل أنجاله يعرب وبلقيس وعمر وقحطان ومحمد سبا على نشره وفاء لهذه الشخصية الفذة . وأخبرنى الأديب السعودى سعد بن عايض العتيبى أن باحثة سعودية اسمها هدى عبد الرحمن الدريس نالت درجة الماجستير عن رسالة عنوانها «عبد الله عمر بلخير : حياته وشعره» ولكنها لم تنشر بعد .

وعندما زرت جدة فى شهر ابريل الماضى رجوت أن أجتمع بصديقين عتيقين هما عبد الله بلخير وسميه عبد الله عبد الجبار ، أطال الله عمره ، ولكن هذه الأمنيه لم تتحقق مع الأسف .

***

الدكتور عمر فروخ


تذكرت وأنا أراجع مجموعات مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات المعركة الطريفة التى تورط فيها ثلاثة من الأدباء مع العقاد ، وهم محمد عبد الغنى حسن والدكتور عمر فروخ وعبدالله المشنوق صاحب جريدة «بيروت المساء» والذى أصبح بعد ذلك وزيراً فى



لبنان ، وقد رد عليهم العقاد رداً ساخراً ، فقال عن الدكتور فروخ «تستطيع أن تقدم أو تؤخر من اسمه ما تشاء» وقال عن المشنوق أن العقاد لا يرد على المشنوقين !

وكنت التقيت بالدكتور فروخ فى المرة الأخيرة التى زار فيها مصر للمشاركة فى المؤتمر السنوى لمجمع القاهرة ، وكان قد انتخب عضواً فيه مزاملاً العقاد . وقلت للدكتور فروخ : هل تسمح لى بأن أوجه إليك سؤالا محرجاً ؟ فقال : هات ما عندك . فقلت له : هل تذكر حكايتك القديمة مع العقاد ؟ فقال : وكيف أنساها . ثم سألته : وكيف أصبحت علاقتك مع العقاد بعد ما جمعت بينكما زمالة المجمع ؟ فقال : من أصفى العلاقات : فالعقاد يجاملنى ويرحب بى ولا يحمل لى أى ضغينه بسبب المعركة القديمة .

وبعد انتهاء مؤتمر المجمع عاد الدكتور فروخ إلى بيروت وكانت الحرب الأهلية مازالت مشتعلة الأداء ، ولكن كانت هناك فجيعة فى انتظاره ، حيث كان نجله مازن المتخصص فى الفيزياء النووية يسير فى أحد شوارع بيروت ، فانطلقت شظية من قنبلة سقطت بجواره وأصابته فى رأسه فقضت عليه فى التو واللحظة . ولم يملك الأب المرزأ إلا أن يرثى ابنه بأبيات باكية جاء فيها

يا ولدى ، يا ولدى
يا قطعة من كبدى
يا فرحة الدنيا التى
لألاؤها لم يخمد
يا طلعة طافت على
عوالم من عسجد
يالمحة قد بقيت
من أمل مبدد
قد كنت أرجو مسعدا
آوى إليه فى غدى
لكننى ، ياأسفى
كفنت أمسى بيدى
فضاع ما أملته
من ملجأ أو سند

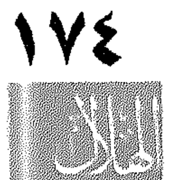
وقد حدثت هذه الفاجعة فى أول يناير ١٩٨٧ وقبل أن ينصرم العام لقى عمر فروخ وجه ربه فى ٨ نوفمبر ١٩٨٧ عن ٨٣ عاماً بعدما حطمه الحزن على ابنه المرجو الغد .

وللدكتور فروخ عشرات من المؤلفات من أهمها سلسلة «معالم الأدب العربى الحديث» وسلسلة «تاريخ الأدب العربى منذ الجاهلية إلى الفتح العثمانى» . وله فى السيرة الذاتية كتاب «غبار السنين» وكتاب «خمسة وستون عاماً فى الصحافة» .

***

ليلى رستم

أحاول فى هذه الكليمات أن أمحو شيئاً من الأثر السيىء الذى تركته فى نفس ليلى رستم عبارة طائشة وردت فى



هلال الشهر الماضى عنها على لسان أحمد فؤاد نجم .

عرفت ليلى رستم طالبة نابهة عندما كنت أدرس علوم الصحافة فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وكانت متمكنة تمكناً تاماً من ثلاث لغات هى العربية والإنجليزية والفرنسية . وكانت بشخصيتها المحبوبة وبمشاركتها فى الأنشطة الرياضية والفنية فى الجامعة طالبة لامعة حتى اختيرت الفتاة الجامعية المثالية . وعند تخرجها سافرت إلى الولايات المتحدة حيث ظفرت بدرجة الماجستير بتفوق . وعند عودتها كان التليفزيون المصرى فى بداية حياته ، فالتحقت به مذيعة وبرزت هى وزميلتها سلوى حجازى فى البرامج الناجحة التى كانتا تقدمانها . ولئن نسيت جميع برامجها ، فليس من اليسير نسيان برنامجها الذى صورته فى بيت الدكتور طه حسين مع جمع من الأدباء الشبان ، وأدارت فيه الحوار ببراعة فائقة شهد بها طه حسين نفسه . ولست أغالى إذا قلت إن ليلى رستم هى التى أرست مع زميلتها سلوى حجازى التقاليد الكريمة للعمل التليفزيونى الناجح ، وكانتا رائدتين فى ميدان جديد كل الجدة .

وعندما اضطرتها ظروفها العائلية للسفر إلى لبنان ، التحقت هناك بالتليفزيون اللبنانى وكانت تجرى مقابلات مع شخصيات سياسية وأدبية حتى اكتسح برنامجها كل البرامج الأخرى بلهجتها المصرية التى لم تتخل عنها . ولكن حدث فى مقابلة مع كريمة رئيس وزراء لبنانى سابق أن صدرت عن هذه السيدة عبارة مست المجلس التشريعى اللبنانى ، فاتخذت هذه الواقعة ذريعة لمنع ليلى رستم من مواصلة الظهور فى التليفزيون اللبنانى . ومن ثم استقلت بأمورها ، وصارت تسجل برامج ثقافية مع كبار الأدباء لحسابها الخاص وتروجها فى التليفزيونات العربية .

وعند عودتها من بيروت اختارتها جريدة النيويورك هرالد تريبيون الأمريكية العالمية ممثلة لها فى مصر اعترافاً بكفاءتها وحسن أدائها ، وهو عمل مازالت تؤديه بما يشرف بلادها .

فهذه الشخصية المرموقة ما كان ينبغى الإساءة إليها فى حديث أيا كان صاحبه ، ولا سيما لأنها لا تذكر شيئاً عن الواقعة التى وردت فى هذا الحديث والندوة التليفزيونية المزعومة التى قيل إنها أدارتها بحضور الممثل فؤاد المهندس وآخرين . فالواقعة مختلفة تماماً وهو ما أكدته لى ليلى رستم .

هذه كلمة أردت بها دفع بعض الأذى الذى لحق بهذه السيدة الجليلة بسبب عبارة غير مسئولة وردت على لسان زيدٍ من الناس . ■



ذكريات
شاهد
عيان

سؤال مازال يبحث عن إجابة:

من أحرق القاهرة

وذكريات عن قاهرة الخمسينيات

بقلم
حسن سليمان



سينما مصر فى شارع رمسيس أثناء حريق القاهرة

يظل سـؤال «من أحـرق القـاهرة؟» قائما..!
رغم مرور أكثر من نصف قرن مازالت هناك أسئلة حائرة تبحث عن إجابة حول هذا الحدث الكبير فى حياة مصر حين إحترقت القاهرة في يناير ١٩٥٢، ومن يومها تضاربت الاستنتاجات حول من له مصلحة في حرق القاهرة وأهدافه الخفية من وراء ذلك.

وإذا كان هذا السؤال مازال معلقا حتى اليوم فهذه رواية شاهد عيان، رأى بعينيه وقائع الحريق، وتجول فى شوارع وسط القاهرة، ورأى هذه الأحداث وقام بتسجيلها يومئذ حتى لاتزول مع مر الأيام.

ربما لا يعرف الجيل الجديد كيف كانت معالم القاهرة فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن العشرين.

قد لا يعرف أحد من الجيل الجديد شيئاً عن محل أحذية «بول فافر» الذى تقع مكان الآن محلات الشوربجى على ما أظن ولأن هذا المحل يعلق على واجهته حذاء ضخما، وتقوم ابنة صاحب المحل اليهودية الجميلة بعمل الديكورات والرسوم لواجهات المحلات، وقد ارتبطت معها بصداقة حميمة. حيث كنا نلتقى سويا عند الفنان «جارو هلبرت» لنتلقى على يديه فنون الرسم وكنت متعوداً على الالتقاء بها عند المحل عند الغروب وتعودت أن أحمل إليها فى يدى زهرة الزنبا «تبريز» وهى نفس الزهرة التى صورها الفنانون القدامى فى يد القديس «توما» ولذلك كان والدها يصيح عندما يلمحنى قادما من بعيد: لقد وصل القديس توما!

وكنا نقضى سويا أمسيات ثقافية وفنية فى إحدى المراكز الثقافية

الأوربية التى كانت تعج بها القاهرة فى تلك الحقبة.

وعن طريقها تعرفت على خالها الدكتور دولشن طبيب الأسنان الخاص للأسرة المالكة، وقد شجعنى وأنا مازالت فى بداية طريقى الفنى واشترى منى عدة لوحات، وأتذكر الحوارات الفنية والفكرية التى كانت تدور بيننا رغم حداثة سنى.

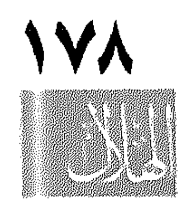
يوم الحريق!

وأذكر يوم حريق القاهرة، أننى كنت أسير فى منطقة «وسط البلد»، قابلت دولشن وهو بصحبة شخص يدعى «عبدالباسط بك» كان يعمل موظف بوزارة الداخلية كمسئول عن قسم اعطاء الجنسية المصرية للمتمصرين بعد عمل التحريات اللازمة عنهم، فى تلك اليوم المشهود شاهدت المحلات وهى تتحطم والحرائق وهى تشتعل، فأغلقت كل المحالات إلا ممر «الأمريكين» المطل على شارع سليمان باشا، ففية يقع المدخل الرئيسى للعمارة.

علمت فى هذا اليوم وأنا جالس فى مقهى «الأمريكين» أن رئيس القسم المخصوص بوزارة الداخلية «بمثابة جهاز المخابرات الآن» قد قام بجمع المقاعد من «كازينو بديعة مصابنى» ووضعها فى منتصف الميدان بجانب تمثال إبراهيم باشا وقال آمراً: أحرقوا هذه المقاعد، وكانت هذه الواقعة غالباً هى الشرارة الأولى فى ذلك الحريق النابض ولم تمض ساعة واحدة على ما سمعته حتى رأيت «أحمد حسين» زعيم حزب مصر الفتاة بطربوشه المعهود فى عربة مكشوفة يمضى عبر شارع سليمان باشا وهو يصيح: «أحرق.. أحرق.. أحرق».

وبينما كنت أتطلع إلى عشرات من زجاجات الخمور ومحتويات البقالة وهى تلقى فى الشارع رأيت جارى بالعباسية «من عائلة العشماوى» يتحدث عن مادة سريعة الاشتعال وصلت إليه لاشعال الحرائق!

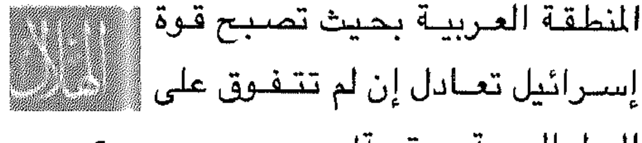
وحينما سألته عن هذه المادة أجاب بأنه تخلص من كل العبوات وسلمها لأحد الأشخاص من جماعة الأخوان المسلمين، ورأيت علامات الاضطراب تكتنفه وسرعان ما انصرف مسرعا فى الشوارع



الأخرى وبعد سنوات عديدة نشر هذا الشخص مذكراته بمجلة «روزاليوسف» ورفض الافصاح عن اسم الشخص الذى أعطى له هذه المادة السريعة الاشتعال!

كانت القاهرة فى ذلك اليوم فى حالة فوضى شديدة.. بينما لاحظت وأنا فى جلستى بالأمريكين «دولشن» وهو يتحدث مع عبدالباسط بك لمحاولة الحصول على الجنسية المصرية ورأيتهما وهما يغادران المكان سويا وسط طريق ملئ بالزجاجات والبضائع التى نهبت من المحلات وألقيت على قارعة الطريق، وبعد حوالى ساعتين عاد دولشن وأخبرنى أن كل شئ بالنسبة لإجراءات الحصول على الجنسية قد تم بسهولة، وتساءلت بينى وبين نفسى باستغراب ما سر إصراره على الحصول على الجنسية المصرية وهو من عائلة ثرية قد هاجر معظمها إلي أمريكا؟

سرنا أنا ودولشن سويا وأخذ يتحدث عن الأوضاع السياسية فى مصر فقال إن الإنجليز سيضطرون لتسليم منطقة الشرق الأوسط إلى أمريكا، بسبب حاجتها للنفط، وستسعى أمريكا حينئذ إلى رعاية وحماية كبار الرأسماليين ورجال المال لحماية مصالحها فقط، لأنها تهدف للسيطرة على المنطقة خاصة مصر لمالها من قوة بشرية واقتصادية.

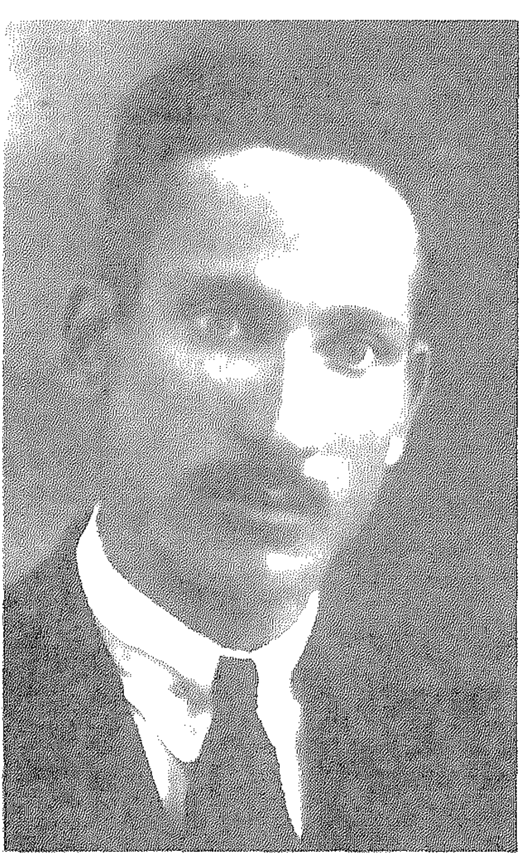


ثم أضاف دولشن: صحيح أننى يهودى لكننى ضد قيام دولة صهيونية لتكون رأس حربة فى المنطقة ولذلك ستدخل المنطقة فى دوامة من العنف وعدم الاستقرار، ولكن أمريكا ستظل تمول دولة إسرائيل وسط الملايين فى المنطقة العربية بحيث تصبح قوة إسرائيل تعادل إن لم تتفوق على الدول العربية مجتمعة!

وهناك نقطة أخرى فمصر تملك قوة ثقافية مؤثرة سيحاولون محاربتها بكل السبل. شعرت بالضيق والألم لتلك النظرة التشاؤمية

وتحليله الموضوعى لمسار الأحداث ويبدو أن الرجل لاحظ استغرابى ودهشتى من حديثه الصريح فقال:

- لا تعجب، فقد ولدت هنا وتعلمت بالخارج لكننى عدت لمصر ثانية، فهى وطنى الوحيد.. فيها دفن جدى، وعشت ذكرياتى بها، ولن يكون لى قبر إلا بها»!



د. زكى مبارك

وقد أدركت أن تحليل دولشن موضوعى رغم قسوته، واقترب تحليله من كاتب فرنسى اسمه «كارتييه» كنا أنا وأحمد بهاء الدين، ومحمد عودة، وكامل زهيرى ننتظر تحليلاته بفارغ الصبر فى مجلة «بارى ماتش» الفرنسية، فقد تنبأ بكل ما قاله دولشن لى!

الدكائرة زكى مبارك!

ومن بين ذكرياتى القاهرية أننى كنت أتردد على بار صغير جداً فى ميدان التوفيقية يملكه رجل روسى يفتح لنا منذ الصباح ليقدم فطورا فقط، ثم بعد ساعات قليلة يقدم المشروبات الروحية!

وكان الدكتور زكى مبارك يتردد على هذا البار، ونتحلق حوله أنا ود.يحيى عبدالله رئيس قسم الأدب القديم بجامعة فؤاد الأول القاهرة الآن ود.فاروق فريد أستاذ الكلاسيكيات الذى أصبح فيما بعد أستاذا بجامعة أثينا.

وكنا نسعد بأحاديث د.زكى مبارك وأسماره التى لا تنتهى، ويسعد عندما نناديه باسم «الدكاترة زكى مبارك» باعتباره حصل على ثلاث شهادات للدكتوراة! ويمضى ليحدثنا عن غرامياته ونوادره مع طه حسين والعقاد وغيرهما من أقطاب الأدب والفكر فى القاهرة وبغداد وكيف أن العقاد يحصل على ورق من

السفارة الإنجليزية ليطبع مؤلفاته، وكذلك طه حسين من السفارة الفرنسية وكان يوجد فى مواجهة هذا البار بار آخر اسمه «سيسل» كنت أتردد عليه أيضاً حيث يجتمع فيه عدد من أقطاب حزب السعديين ومنهم عبدالمجيد باشا بدر، وعبدالمجيد عبدالحق، ومحمد بك عبدالسلام، وعلى أيوب، وتوفيق بك عمر.

وسألتهم عما يدعيه د.زكى مبارك فأكدوا صلة العقاد بالسفارة الإنجليزية وصلة د.طه حسين بالسفارة الفرنسية كنا نحترم زكى مبارك لاعتزازه بكرامته ورفضه لاستلام أى مبالغ من أية جهة رغم ثقافته الفرنسية ومكانته الأدبية الشامخة، وقد أكد لى السعديون نزاهة زكى مبارك واعتصامه بكرامته ورفضه أخذ نقود من السعديين أو غيرهم من الأحزاب.

وذات ليلة أثناء خروجنا من بار التوفيقية سقط زكى مبارك وهو يصعد السلم أرضا، وتفجر الدم من رأسه، فارتبكنا وأصابنا الذعر، وأخيراً أوقفنا عربة حنطور وحملناه نحن الثلاثة وأجلسناه على المقعد، وقمت بشد ربطة العنق من رقبته إلى أسفل حتى أوصلناه إلى بيته بمصر الجديدة وتركناه، عند إسرته.

ثم فوجئنا فى اليوم التالى بنبأ موته وذلك يوم ٢٣ يناير ١٩٥٢ رحمه الله ■

كلمات عاشت

● آلة العيش صحة وشباب ، فإذا وليا عن المرء ولى .

المتنبى

● إنما النفس كالزجاجة والعلم سراج وكلمة الله زيتفإذا أشرقت فإنك حى وإذا أظلمت فإنك ميت

ابن سينا

● ما أزهر كثيرا من الناس فى الخير .. عجبت لرجل يجيئه أخوه فى حاجة فلا يرى نفسه أهلا للخير .

على بن أبى طالب

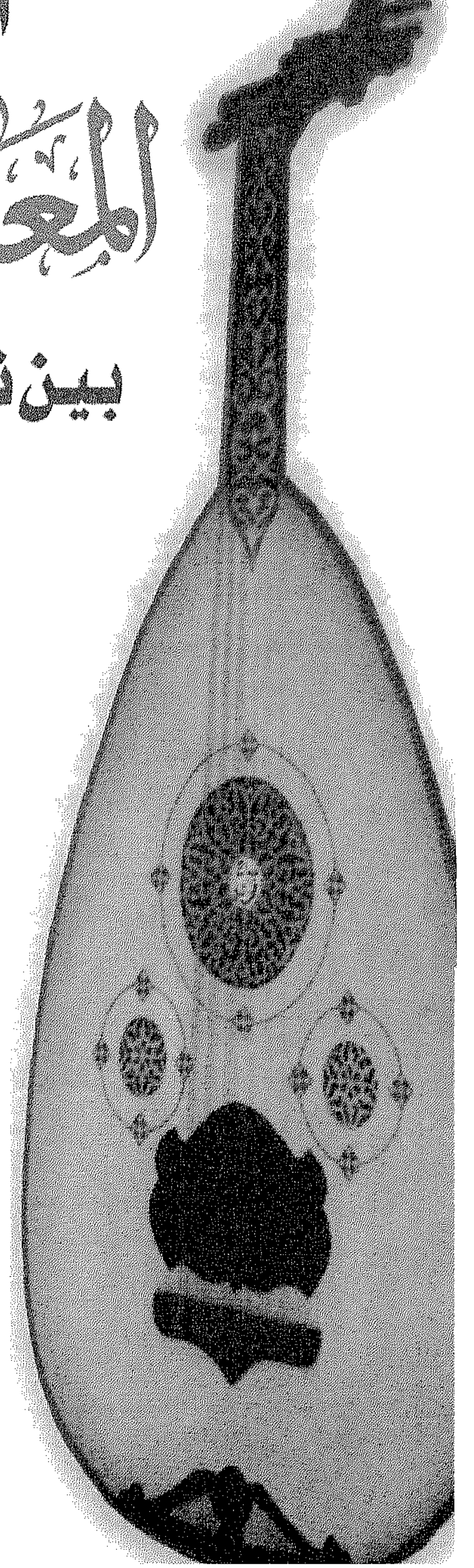
● من أحب المال تعب بجمعه ، ومن أحبه المال تعب بتبديده .

أمير الشعراء أحمد شوقى

أشهر المعارك الفنية

بين نجوم الغناء

بقلم
د. نبيل حنفي محمود



حفظ التاريخ لنا أحداث العديد من المعارك التى نشبت فى الوسط الفنى بمصر خلال سنوات القرن العشرين المنصرم ، تلك المعارك التى دارت وقائعها - الكلامية غالبا - بين نجوم الفن عبر وسائل الإعلام المتاحة ، فاجتذبت إليها البعض من أعلام الكتاب وأهل الفن .. إضافة إلى نخبة من القراء ، لتصبح حديث المجتمع مع تتابع حلقاتها وتصاعد حدة أحداثها ، لم تكن تلك المعارك وقفاً على الوسط الفنى ، ولكن التاريخ يسجل لنا كثيرا منها شهدته أوساط الصحافة والسياسة وحتى تجمعات المهنيين ، ولعل ما غشى مسيرة عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى عالم الإبداع والأدب من معارك يعد مصداقاً لذلك ، إن نشاطاً فكرياً ينضوى خلاله صنوف من البشر لابد وأن يشهد فى عديد من منعطفاته التاريخية مثيلاً لهذه المعارك .

تنشب تلك المعارك غالبا من جراء اختلاف مناهج الفكر أو حول بعض المكاسب والأهداف ، فمثلا ... يستطيع المدقق أن يلاحظ نشوب أغلب هذه المعارك الفنية بسبب التسابق على مكان الصدارة أو لأجل إزاحة من يراه البعض حجر عثرة فى طريق طموحاتهم ، وأيا ما كانت الأسباب ... فإن اسلوب تلك المعارك كان واحداً ،

أم كلثوم

المعركة الأولى :
حول قميص سيد درويش

بدأ زكريا أحمد (١٨٩٦ - ١٩٦١م) رحلته مع الغناء بالعمل كقارئ للقرآن الكريم فى منازل الأعيان والمآتم قرابة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، ولكنه تلقى دروسه الأولى فى فنون الغناء والتلحين والإنشاد على يد مجموعة من الشيوخ مثل : درويش الحريرى وعلى محمود وإسماعيل سكر ، كانت مصر تضطرم آنذاك بمخاض قادم تتجلى علاماته فى فورة من النشاط تلبست كل مظاهر الحياة فى مصر : سياسية واقتصادية واجتماعية وفنية ، فقد استمد هذا النشاط قوته من الروح الوطنية التى بثها الزعيم مصطفى كامل فى طول البلاد وعرضها عند مستهل القرن العشرين ، ففى مجال الفن .. انتشرت بمصر المسارح والفرق الفنية التى ملأت ليالى القاهرة والإسكندرية والعديد من مدن الأقاليم الكبرى مثل بورسعيد والمنصورة وطنطا بفيض من النشاط الفنى الذى شمل التمثيل والغناء والرقص ، فينطلق الفتى زكريا أحمد ليعب من هذا الفيض الزاخر من الفنون التى قدمتها مواهب حقيقية مثل الشيخ سلامة حجازى الذى كان يعمل فى الجوق العربى على مسرح التياترو المصرى ، إضافة إلى بعض نجوم الصف الثانى فى صالات الغناء والرقص مثل السيد قشطة وأحمد الفار وكامل المصرى وسيده الكمسارية وأختها أسماء والحاجة السويسية ونزهة واللاوندية وغيرهم (صبرى أبوالمجد : زكريا أحمد - ص ٨٨:٨٩) .

زكريا أحمد

لقاء الكبار

اتجه زكريا أحمد إلى التلحين بدءا من عام ١٩١٦م ، عندما أتاح له أستاذه الثانى الشيخ على محمود الفرصة لوضع بعض الألحان الدينية التى ترنم بها الشيخ على فساهمت فى تعريف الناس بالملحن الجديد وكانت الخطوة الأولى فى طريقه للشهرة ، ثم خطا زكريا خطوة أخرى فى مجال التلحين عندما قام فى نفس العام - ١٩١٦م - بتلحين رواية «فقراء نيويورك» التى بدأت بها عروضها فرقة مسرحية كونتها مجموعة من طلبة المدارس من هواة التمثيل ضمت حسين رياض وحسن فايق وحسن لاشين (صبرى أبوالمجد : زكريا أحمد - ص ١٦٨) ، ولكن عام ١٩١٦م ترك فى حياة زكريا أحمد أثرا لايمحى

سيد درويش

، إذ شهد يوم ٣ يناير من ذلك العام لقاء زكريا أحمد بسيد درويش (١٨٩٢ - ١٩٢٣م) فى أحد المقاهى البلدية بحى كوم الدكة بالإسكندرية ، حدث ذلك عندما سافر زكريا أحمد إلى الإسكندرية ليستمع إلى الموسيقار الذى طبقت شهرته ربوع مصر ، فوجده زكريا يغنى لمجموعة من المستمعين تتلهى بلعب النرد والورق لحنا بسيطا نظم كلماته الشاعر الغنائى الشيخ يونس القاضى ويقول مطلعه :

وأنا مالى هيه اللى قالتلى

روح اسكر وتعالى ع البهلى

ثم يقفل زكريا أحمد عائدا إلى القاهرة فى صباح اليوم التالى مصطحبا معه سيد درويش ، وليبدأ سيد درويش صعوده لقمة المجد الفنى من القاهرة ... بينما كان زكريا أحمد يتحسس أماكن خطواته الأولى فى عالم التلحين والغناء (صبرى أبوالمجد : زكريا أحمد - ص ١٩٣ : ٢٠٥) .

استمرت صداقة زكريا أحمد وسيد درويش طوال ماتبقى لسيد درويش من عمر وحتى وفاته فى ١٥ سبتمبر من عام ١٩٢٣م ، نيف وسبع من السنوات هو عمر تلك الصداقة بين الموسيقارين الكبيرين ، شهدت تلك الفترة القصيرة من عمر الزمن معظم إبداعات سيد درويش العبقرية ، وخلالها أيضا كان صديقه زكريا أحمد يبدأ أولى مراحل رحلته مع الفن ، كانت طقطوقة «أرخى الستارة اللى فى ريحنا» التى نظمها الشاعر الغنائى المعروف - آنذاك - الشيخ يونس القاضى وتغنت بها أصوات منيرة المهدية وعبداللطيف البنا من أوائل الألحان التى ذاعت وجاءت لزكريا أحمد بالشهرة فى شكل لعنات تصبها عليه الصحف لابتذال كلماتها ، قفزت هذه الطقطوقة وكثير غيرها، تغنت بها أصوات أخرى مثل صالح عبدالحى ونعيمة المصرية وزكى مراد ونرجس شوقى وحامد مرسى وعديلة المنصورية ورتيبة أحمد وغيرهم، باسم زكريا أحمد إلى صدارة الصف الأول من ملحنى هذه الفترة ، لقد اكتسب زكريا أحمد من صداقته مع سيد درويش «القدرة على المساجلة بألحان عميقة التأثير وعلى صياغة الألحان من مختلف مقامات الموسيقى العربية وبكل ألوان الغناء» (كمال النجمى : الغناء المصرى ... مطربون ومستمعون - ص ١٩٤) ، لذلك لم تكن تلك الطقاطيق هى كل إنتاج زكريا خلال هذه الفترة ، وإنما تنوع هذا الإنتاج ليشمل أيضا الأغنيات الوطنية وألحان الروايات المسرحية ، فعن الأغنيات الوطنية التى قدمها زكريا أحمد إبان ثورة الشعب الكبرى فى عام ١٩١٩ يقول صبرى أبوالمجد فى كتابه الموثق عن حياة زكريا أحمد وأعماله : «ولحن زكريا أحمد فى هذه الفترة ألحانا سرت فى الشعب مسرى النار فى الهشيم ، ومنها ما قد غناه عبداللطيف البنا (قال ياسعد من غيرك زعيم) و(يامصر دى أيام أنسك) و(لمصر فيك ياسعد) ، ومنها ماقد غناه زكى مراد كنشيد (مصر أولادها رجال) و(نار الوطنية فى القلب) ، وكان لزكريا أحمد نشيد اسمه (نشيد سعد زغلول) ، كان يلقى فى بداية العمل بمسرح الماجستيك ، حيث كان الجمهور والمنشدون والمطربون يرددونه جميعا وهم وقوف» !

شرارة البداية

بدأ زكريا أحمد يقطف ثمار كدحه وجنى موهبته ، وهو ما تمثل فى إقبال أهل الغناء وأصحاب الفرق المسرحية وشركات الاسطوانات على ألحانه ،

محمد القصبجي

هاجم محمد البحر الشيخ زكريا فى عدد مجلة المسرح فى ١٩-٧-١٩٢٦.

لم تكن شرارة بداية المعركة وقفا على «المسرح» فقط ... ولكنها انتقلت لتتخذ لها منطلقاً آخر، إذ صدر العدد رقم (٣٨) من مجلة «روزاليوسف» - التى كانت تحبو فى عامها الأول - صباح الأربعاء ١٩٢٦/٧/٢١ يحمل فى صفحته الرابعة عشرة نفس الرسالة أو الكلمة المنشورة قبل يومين بالعدد رقم (٣٣) من مجلة «المسرح»، فقد أرسل محمد البحر إلى «روزاليوسف» بنسخة أخرى من رسالته المنشورة فى «المسرح»، كانت الرسالة هى نفس الرسالة المنشورة فى «المسرح»، وإن اختلف العنوان فقط الذى أصبح فى «روزاليوسف» «سرقة فى أمان» بدلاً من سرقة فى «المسرح»، سارع زكريا أحمد بالرد على ماقذفه به محمد البحر من اتهامات على صفحات «المسرح» و«روزاليوسف»، نشرت «المسرح» رد زكريا أحمد فى العدد التالى وهو العدد رقم (٣٤) والذى صدر فى ٢٦ يوليو ١٩٢٦م، جاء رد زكريا فى باب «على الهامش» الذى شغل الصفحة السابعة من العدد

محمد عبد الوهاب

توزيع الأدوار

جاءت الطلقة الثانية فى المعركة لتكشف شخصية قائدها والمخطط لها، وكانت فى شكل رسالة بعث بها الشيخ يونس القاضى إلى مجلة «المسرح»، ومحمد يونس القاضى المعروف بالشيخ يونس القاضى (١٨٨٨ - ١٩٦٩م) هو شاعر غنائى معروف كتب العديد من الأغنيات التى لحنها كامل الخلعى وزكريا أحمد ومحمد القصبجى ومحمد عبدالوهاب وآخرين، وتغنت بهذه الأغنيات أصوات كثيرة مثل أم كلثوم ومنيرة المهدية وفتحية أحمد وعبداللطيف البنا وآخرين (محمد قابيل : موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين - ص ٣١٥ : ٣١٦)، وجه الشيخ يونس القاضى فى رسالته التى جاءت بعنوان «ليهدأ زكريا» ونشرت بالصفحة التاسعة من العدد رقم (٣٥) من مجلة «المسرح» والصادر فى ١٩٢٦/٨/٢٣م العديد من المطاعن إلى شخص زكريا أحمد وفنه، ويتحدى يونس القاضى - فى ختام رسالته - زكريا أحمد بقوله : «أما طلب الشيخ زكريا أحمد نشر النوتة، فهذا يحتاج إلى سؤال الملحن اللاحق هذه الأسئلة والإجابة عليها، وأنا أتبرع بحفر الكليشيهات الخاصة بالنوتة على حسابى، واليك الأسئلة : على يد من تعلمت الموسيقى ؟، هل تعرف النوتة الموسيقية ؟، هل يصدق الشيخ درويش الحريرى إذا قال إنك (بتهبش) كالغريق ؟، والشيخ على محمود إذا قال انك فاضى ؟، هل لم تتفق مع أحد أصدقائك على أنك تأخذ الحركات التى أهملت وتذيعها لتحييها من جديد ؟، حسبك اليوم هذه الأسئلة، ومتى أجبت عليها رجوت البحر أن يعتبرك موسيقياً وينشر النوتة».

حمل العدد رقم (٣٥) من مجلة «المسرح» فى ثنايا صفحته التاسعة رسالة أخرى من محمد البحر صاحب الشرارة الأولى والمصلحة الظاهرة فى هذه المعركة، كانت

رسالة محمد البحر تحمل عنواناً نصه «مش بس ده ؟» ، استهل البحر رسالته بقوله «كنت مع (روزاليوسف) وقرائها على ميعاد بأن أنشر لهم فى عددها القادم النوتة التى طلب إلي نشرها حضرة الأستاذ زكريا أحمد ، فأجبته إلى طلبه فضلا عن كونى وفرت عليه وعلى القراء نشر نوتته التى وعد بنشرها عقب نشرى مباشرة ، إن ما ألمح إليه محمد البحر في أول رسالته هذه عن نشر النوتة الموسيقية للحن سيد درويش «شوف بختك» فى نصف صفحة من «روزاليوسف» وإلى جوارها فى النصف الآخر من الصفحة النوتة الموسيقية للحن زكريا أحمد «آدى وقت البرنيطة» ، كان كافيا لحل القضية حلا نهائيا لايقبل الأستئناف أو النقض ، لأنه إما أن تثبت المقارنة تطابق اللحنين ... فينتهى زكريا ولا تقوم له بعدها قائمة، وإما أن تنتهى المقارنة إلى عدم تطابق اللحنين ... فتكون القضية حديث إفك أريد به النيل من موسيقار صاعد تتفتح أمامه المسالك إلى المجد .

قدم العدد رقم (٣٦) من مجلة «المسرح» والذى صدر فى صباح الاثنين ١٩٢٦/٨/٣٠م الدليل على أن المعركة التى تجرى وقائعها ضد زكريا أحمد على صفحات المجلة قد تم التخطيط لها وتوزيع أدوار المشاركين فيها بشكل مسبق .

بينما نجحت محاولات معسكر الشيخ يونس القاضى فى ضم مهاجمين جدد وفتح جبهات هجوم جديدة ضد زكريا أحمد فى صحيفة «كوكب الشرق» وبعض الصحف الأخرى ، فإن تلك المحاولات لقيت فشلاً ذريعاً عند أعتاب بعض المنابر الصحفية الأخرى التى لم ير أصحابها أو محرروها مثل رأى المعسكر المهاجم ، ومن هذه المنابر - إضافة إلى مجلة «روزاليوسف» السابق الإشارة إلى موقفها - مجلة «ألف صنف» التى أصدرها الأديب المعروف بديع خيرى فى وقت معاصر لصدور «المسرح» (شهر نوفمبر من عام ١٩٢٥م) وترأس هيئة تحريرها محمود طاهر العربى ، فقد وقفت «ألف صنف» فى بداية المعركة موقف المحايد ، ولكن عندما أرسل محمد محمود دوارة رسالة أخرى - غير رسالته المنشورة بالعدد (٣٦) من «المسرح» - إلى «ألف صنف» يكرر فيها اتهاماته لزكريا أحمد بالسطو على تراث سيد درويش ، ويحذو فى ذلك حذو محمد البحر الذى أرسل برسالته الأولى إلى المسرح» وبنسخة منها إلى «روزاليوسف» ، فإن هيئة تحرير «ألف صنف» رفضت نشرها وتحدثت عن ذلك تحت عنوان «الفن يهان : حول (آدى وقت البرنيطة)» بالصفحات التاسعة والعاشرة من العدد رقم (٣٥) الصادر فى ١٩٢٦/٧/٢٠م ، قالت «ألف صنف» فى معرض تبريرها لعدم نشر رسالة محمد دوارة : «وقد كان الواجب الصحفى يحتم علينا نشرها بحذافيرها ، لولا أن حضرة مرسلها يقول فى آخرها (واليوم نكتفى بهذا القدر على أن نعود أو لا نعود) ، وقد أدهشنا جداً أنه يتهم رجلا معروفا كالشيخ زكريا أحمد بسرقة ألحان غيره ، ثم يسبق بالوعد بأنه قد لايعود إلى البحث فى هذا الموضوع كأنه من الهنات الهينات، على أننا مازلنا نحتفظ لحضرته بحق نشر كلمته كلها فى هذا الموضوع متى وعد بأنه مستعد لمولاة الجدل والمناقشة بشأنها وإحضار كلام ونوتة القطعة المفروض سرقتها ، حتى يقتنع هو أو يلزم الشيخ زكريا أحمد الحجة بأنه سرق هذا اللحن ، وأما أن يصفعه بهذه التهمة ثم يتولى هاربا من الميدان .. فهذا ظلم وافتراء وليس من العدل أن نعينه عليه» .

كتيبة المدافعين

لم يقف زكريا أحمد موقف المتفرج مما يراد به وهدفت إليه تلك المعركة ، فقد

بادر -كما سبقت الإشارة إليه - بالرد على شرارة المعركة الأولى وهى رسالة محمد البحر التى نشرت بالعدد رقم (٣٣) من مجلة «المسرح» وبالعدد رقم (٣٨) من مجلة «روزاليوسف» ، كذلك فإن زكريا لم يكن وحيدا فى تلك المعركة ... فقد دافع عنه لفيف من أهل الغناء والأقلام الصحافية والجمهور ، نذكر من أهل الغناء الشيخ حامد مرسى مطرب فرقة الماجستيك - إبان المعركة - والذى حاول إثناء محمد البحر من خلال لقائه الشخصى به عن المضى قدما فى هذه المعركة .

منيرة المهدية

كان رد يونس القاضى على ما نقل عن حامد مرسى وليس ماكتبه حامد أو سجل عليه ... بمثابه إرهاب لمن تسول له نفسه الانحياز إلى جانب زكريا أحمد أو الدفاع عنه ، ولعل الهدف من ذلك - كما لايخفى على فطنة القارئ - هو تجريد زكريا أحمد من أنصاره كي يقف وحيدا ليسهل الإجهاز عليه تماما وإقصاؤه من الحياة العامة ومن ميدان عمله ... الغناء والتلحين .

جاء هجوم يونس القاضى على الفنان حامد مرسى فى رسالته المنشورة بالعدد رقم (٣٨) من مجلة «المسرح» مصاحبا للحلقة الثانية من سلسلة من المقالات نشرتها «المسرح» ليونس القاضى تحت عنوان واحد : «الشيخ - زكريا - أفندى»، ظهرت المقالة الأولى من هذه السلسلة في عدد «المسرح» رقم (٣٧) والصادر فى ١٩٢٦/٩/٦م ، واستمرت فى الظهور بانتظام فى كل أعداد المجلة التى صدرت طوال شهرى سبتمبر وأكتوبر من نفس العام ، وقد استعرض يونس القاضى فى مقالاته كل فنون الهجاء واستخدم - رحمه الله وغفر له - كل مافى وسعه من وسائل، وذلك من أجل هدف واحد ... هو هدم زكريا أحمد فنانا وإنسان ، وليطلع قارئ اليوم على عينة مما رمى يونس القاضى به زكريا أحمد من إتهامات وما أراد أن يلصق به من صفات ، فالشيخ - زكريا - أفندى كما يلقبه الشيخ يونس : «ضبط متلبسا بجريمة السرقة الفنية» - وهو «مات موتاً أدبيا» وفنيا - وهو لايترك شرب الخمر ولا يصوم ولا يصلى - وهو يأكل حقوق الناس - وهو «لايحفظ القرآن ولاينفع أكثر من تشريفاتى للزوار فى بيت الزبون» - وهو ... وهو ... إلى آخر ما جادت به قريحة الشيخ يونس .

فتحية أحمد

لم تكن مقالات يونس القاضى التى ظهرت فى مجلة «المسرح» طوال شهرى سبتمبر وأكتوبر من عام ١٩٢٦م هى مصدر الهجوم الوحيد على زكريا أحمد خلال ذروة المعركة ، وإنما صاحبتها مقالات أخرى مهاجمة لزكريا أرسل بها بعض القراء أو الكتاب الذين لايعلم إلا الله هل كانت الأسماء التى جاءت قرينة مقالاتهم حقيقية أم أنها من ابتداع يونس القاضى وعبدالمجيد حلمى ، فمن ذلك المقال الذى قدمته «المسرح» بتوقيع (ع. عامر) فى الصفحة الخامسة عشرة من عددها رقم (٣٩) الصادر فى ١٩٢٦/٩/٢٠م ، فكان مما قاله كاتب المقال : «وفى الواقع لست أدرى متى ولا كيف صار الشيخ زكريا ملحناً وموسيقاراً ، فلقد عهدناه فى الماضى القريب لايعرف غير القصة النبوية الشريفة

وقراءة البردة والذكر الحكيم» ، ثم يكتب جورج طنوس تحت عنوان «صور» في الصفحة السابعة بالعدد رقم (٤٢) من «المسرح» الصادر فى ١١/١٠/١٩٢٦م مهاجماً السرقات الفنية ، وفى نهاية مقاله يلعن جورج طنوس من يسرق لحناً من ألحان سيد درويش ويصفه بأنه كنابش القبور وسارق الأكفان ! ، وبتوالى صدور هذه السلسلة من مقالات الهجوم فى مجلة «المسرح» ... بات القراء ينتظرون كلمة الختام فى مشوار فنى للحن لاحت بداياته مبشرة وواعدة ، ولكن الرياح أتت بما لم تشته نفس يونس القاضى .

جاءت نهاية هذه المعركة التى شغلت الرأى العام بمصر قرابة سبعة أشهر على يد أحد هواة الموسيقى وهو السيد / محمد فاضل شاهين ، أرسل محمد فاضل برسالة حوت ملاحظاته حول هذه المعركة إلى مجلة «ألف صنف» ، وقد قامت المجلة بنشر رسالة القارىء – الذى عرف نفسه على أنه (ملازم ثان بالجيش المصرى) ويقيم بالعباسية بمصر – فى الصفحة الخامسة عشرة بعددها رقم (٤٤) الصادر فى يوم الثلاثاء ٢١/٩/١٩٢٦م ، انقسمت الرسالة التى جاءت بعنوان «حول الشيخ زكريا» إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، فى القسم الأول من الرسالة أبدى محمد فاضل بعض الملاحظات الممة على المعركة الدائرة بين مجموعة يونس القاضى وأنصار زكريا أحمد عبر صفحات «المسرح» و«ألف صنف» ، فمن ذلك قوله : «فما كان من المسرح إلا أنه (زودها) وبانت فيه الحكاية وظهرت ظهور الشمس بأنهم يريدون مهاجمة الشيخ زكريا وتشويه سمعته (لاسمح الله) ، وخصوصا ماكتبه الأديب الشيخ يونس القاضى عن الشيخ زكريا بالتتابع فكله ينافى بعضه ، لأنه قال عن الشيخ سيد درويش أنه وجد صوت الشيخ زكريا غير حسن ولا يليق وجوده فى جوقة الملحنين فى تلحين رواية (شهرزاد) ، ولم يتمكن الشيخ زكريا أن يحفظ (شطره) من لحن من الشيخ سيد (فى أربع ساعات) ، وفى مقال آخر يكتب أنه سارق من الشيخ سيد فى أربع ساعات ، وفى مقال آخر يكتب أنه سارق من الشيخ سيد ، ومن البديهى أن كل سارق يقظ أو نبيه جداً أو شاطر على الأقل ، فهذا ينافى ما قاله الشيخ يونس فى أن الشيخ زكريا غبى لدرجة عدم حفظه شطرة من لحن فى أربع ساعات ، وأخيرا قرأت فى المرسح (هكذا) الأخير (فى كلام للشيخ يونس) يقول أن الشيخ زكريا سارق لحن (مصطفاكى) وعمله لحن (تركى أفندم) وموجود أسطواناته فى محل كالدرون ، فذهبت إلى محل كالدرون من باب العلم وأشتريت أسطوانة الشيخ زكريا أحمد (تركى أفندم) وقارنت بين الأثنين فلم أجد غير الافتراء من الأديب الشيخ يونس» ، ولكى يوثق محمد فاضل ما أبداه من ملاحظات ويدعمها أمام مجموعة الشيخ يونس والقراء ، فإنه عرف نفسه وطرح سابق خبراته أمام القراء ، فقال فى القسم الثانى من رسالته : «وبما أنى من غواة الفن وأعزف على العود جيدا ، وكنت من تلاميذ المرحوم محمود أفندى الجمركشى وتعلمت أيضا على المرحوم (السيد أفندى الصغير) وكان زميلى فى التلمذة فى ذلك العهد (الدكتور زكى عبدالمجيد) فطبعاً على شىء من الفن ، والشيخ يونس وأنصاره لم يكونوا على شىء من فن الموسيقى مطلقاً» ، هكذا وضع القارىء الحصيف الأمور فى نصابها وأقام ميزان العدل فى ساحة هذه المعركة ، لذلك من الطبيعى أن يجلو هذا القارىء الخبير الحقيقة فى قضية السرقة المزعومة ، فيقول فى القسم الثالث والأخير من رسالته : «فأقرر انتصاراً للحقيقة بأن مايقوله (أى يونس القاضى)

على الأستاذ الشيخ زكريا أحمد من حيث سرقة الألحان فهو باطل ويشتم منه رائحة العداوة للأستاذ الشيخ زكريا أحمد ، وأقول للأديب الشيخ يونس من باب الاقتراح أنه يتعلم الموسيقى (أولا) ثم يكتب عن الموسيقيين (ثانيا) ، لأنه غلط غلطة فنية مدهشة حين مقارنته للقطعتين (مصطفاكى) و(تركى أفندم) ، والغلطة هى أن لحن (مصطفاكى) نغمتة نهاوند ولحن (تركى أفندم) نغمته حجازكاركورد ، والفرق بين الاثنين مثل الفرق بين الليل والنهار» ، أى أن ما أثاره يونس القاضى وشغل به الناس لأكثر من نصف عام ... كان عاريا من الصحة ولم يكن دفاعا عن تراث سيد درويش كما أوهم القراء وإنما كان لأسباب أخرى غير معلنة .

سرقات زكريا أحمد !

هكذا قيض لهذه المعركة أن تصل إلى نهايتها المحتومة على يد أحد هواة الموسيقى ، وإزاء قوة ماساقه محمد فاضل شاهين من رأى وتحليل ، كتب محمد عبدالمجيد حلمى تحت عنوان «حول سرقات زكريا ... أقفلوا الباب» فى الصفحة الثالثة عشرة بالعدد رقم (٤٢) من مجلة «المسرح» الصادر فى ١١/١٠/١٩٢٦م ملخصاً المعركة وما وصلت إليه ، ثم يختتم عبدالمجيد حلمى مقالة بقوله : «أما أنا فقد فكرت فى قفل باب المناقشة وإراحة أنفسنا وإراحة الناس من هذه المجادلات التى لاتثمر ولا تكون لها نتيجة» ، ثم يقدم عبدالمجيد حلمى فى نفس العدد من «المسرح» نقداً لرواية «أبوزعيزع» التى تقدمها – أنذاك – فرقة على الكسار على مسرح الماجستيك وكانت ألحانها لزكريا أحمد ، بدا عبدالمجيد حلمى مترفقا فى نقده لألحان زكريا أحمد فى تلك الرواية ... يشيد ببعضها ويهاجم البعض الآخر ، ولقد سبق لعبدالمجيد حلمى أن أشار إلى قفل باب النقاش حول قضية سرقات زكريا أحمد المزعومة من ألحان سيد درويش وذلك فى عدد سابق من «المسرح» ، وهو ماتصدى له محمد البحر فى مقال له نشر بمناسبة ذكرى سيد درويش فى الصفحة العشرين بالعدد رقم (٤٠) من «المسرح» والصادر فى ٢٧/٩/١٩٢٦ قال محمد البحر فى معرض احتجاجه على إشارة صاحب «المسرح» نحو غلق باب النقاش حول تلك القضية مايلى : «عليك ياسيدى أحتج وبلسان الكثيرين أصرح لك بأنك لا تملك حق قفل باب المناقشة فيما يدور حول الشيخ زكريا أحمد وسرقاته العديدة ، وأصرح لك أيضا أنك لاتملك أمر هذه المجلة ولا تملك نفسك، فأنت و(المسرح) ملك للشعب الشريف الذى أتشرف بأن أكون أحد أفراده» ! ، وليلاحظ القارىء مدى قوة خطاب محمد البحر و نصاعة بيانه ، وهو ما يجعل المرء يشك فى أن من تولى كتابة رسائل محمد البحر إلى «المسرح» كان كاتبا محترفاً وليس صبياً فى الخامسة عشرة من عمره.

جاءت طلقة النهاية من معسكر المهاجمين لزكريا أحمد من الأنواع المحرمة من القذائف ، تمثلت تلك الطلقة فى مقال نشرته «المسرح» بالصفحة التاسعة من عددها رقم (٤٥) والذى صدر فى صباح الاثنين ١/١١/١٩٢٦م ، صدر المقال بعنوان عجيب نصه الآتى : «الملحن والمغنية .. مذابح الغرام – زكريا – رتيبة أحمد» ، زودت المجلة مقالها المشين بصورتين ... إحداهما لزكريا أحمد يقف إلى جانب المطربة رتيبة أحمد أو يجلس بجوارها ... والأخرى لرتيبة أحمد تجلس فوق كرسى وتبدو وكأنها تفكر بينما تظهر صورة زكريا أحمد أعلى رأسها وكأنها معلقة على الجدار أو تحوم حولها ، إن نظرة سريعة إلى الصورتين تكشف أن الأولى أخذت فى مناسبة عمل أو لقاء عادى ... بينما تبدو سذاجة الاختلاق والتركيب واضحة للعيان فى الثانية ، كان الهدف من موضوع

كهذا - لم يتضمن أى معلومات عن العلاقة المزعومة التى ألمح إليها العنوان - نقل المعركة إلى منزل زكريا أحمد وب أهل بيته ، ولكن السيدة هانم زوجة زكريا كانت من الفطنة والأصالة بقدر لم تبتلع معه طعم «المسرح»، ولتثبت الأيام بعد ذلك زيف هذه الفرية كما أثبت صبرى أبوالمجد فى الصفحات (١٤٠ : ١٤٢) من كتابه «زكريا أحمد» .

ما وراء المعركة

لم تشر أى من المقالات العديدة التى شارك بها البعض من الكتاب أو القراء فى هذه المعركة إلى الأسباب الحقيقية لها ، وقد انتقلت عدوى غموض أسبابها إلى كل ماكتب عنها بعد انتهائها ، وهو ما يلمسه القارىء عند مطالعته - مثلا - لحديث الصحافى والكاتب الراحل صبرى أبوالمجد عنها فى الفصل التاسع من كتابه «زكريا أحمد» ، فقد اكتفى صبرى أبوالمجد بعرض وقائع هذه المعركة فى ذلك الفصل الذى جاء تحت عنوان «بين سيد درويش وزكريا أحمد» ، ودون أن يشير إلى أسبابها أو أن يحاول استجلاء ما وراء أحداثها ، وكان هذا بالضبط ماصنعه الباحث اللبنانى فكتور سحاب عندما لخص وقائع هذه المعركة فى فصل «زكريا أحمد» من كتابه «السبعة الكبار فى الموسيقى العربية المعاصرة» ، وهو نفس مافعله أيضا الناقد الراحل كمال النجمى عندما ألمح إلى هذه المعركة فى فقرة صغيرة من مقالة «زكريا بعد الذكرى» التى ضمنها مواد كتابه «الغناء المصرى ... مطربون ومستمعون» ، فهل كانت تلك المعركة بلا أسباب لكونها شجاراً مما يقع بين العامة فى الأسواق ؟، أم أنها كانت معركة فكرية لها أسبابها المنطقية وإن تكن خفية ؟ .

إن إعمال الفكر فيما شهدته تلك المعركة الصحفية من أحداث ... إذا ما دعمته بعض المعلومات عن أشخاص المشاركين الأساسيين فيها ، سوف يصل بالمرء إلى قناعة أن أسباب هذه المعركة تكمن فى سببين لا ثالث لهما ، وأول هذه الأسباب يمكن أن يعزى إلى حدوث بعض الضغائن الشخصية بين زكريا أحمد ويونس القاضى خلال مسيرتيهما فى عالم الفن ، فمن الثابت والمعروف أن الصلة بين زكريا ويونس بدأت منذ كان زكريا فى التاسعة من عمره ، وهو ماصرح به يونس القاضى فى الحلقة الأولى من سلسلة مقالاته عن زكريا أحمد والتى نشرت بمجلة «المسرح» - كما سبق الإشارة إليها - تحت عنوان «الشيخ - زكريا - أفندى» ، يقول يونس القاضى عن بداية هذه الصلة فى الصفحة السادسة والعشرين من العدد رقم (٣٧) من مجلة «المسرح» الصادر فى ١٩٢٦/٩/٦م ما نصه : «أول مرة وقع نظرى فيها على زكريا كنت طالبا بالأزهر وكان هو طفلاً فى التاسعة من عمره (أى حوالى عام ١٩٠٥م) يلبس جلبابا من الغزل المحلاوى المتين وطاقية شبيكة وفى أذنيه قرط» ! ، وعندما بدأ نجم زكريا أحمد يلمع فى عالم الغناء ... كانت كلمات يونس القاضى التى نظمت فى شكل أدوار وطقاطيق تغنت بها أشهر الأصوات الغنائية مثل منيرة المهدية وعبداللطيف البنا هى الأجنحة التى حلقت باسم زكريا عاليا ، ولكن زكريا أقلع عن الاستعانة بأزجال يونس القاضى بدءا من عام ١٩٢٤م - وعندما بدأ فى تلحين الروايات المسرحية - ليتعاون مع مجموعة من الشعراء والزجالين نذكر منهم بديع خيرى ويحيى محمد وحسن صبحى ، إن تحول زكريا عن الاستعانة بأغنيات يونس القاضى فى هذه الفترة ... يعد سبباً كافياً لإشعال صدر يونس القاضى بنيران الغيرة والضيق ، وذلك إذا ما أخذنا فى الاعتبار ماحققة زكريا أحمد خلال تلك الفترة من نجاحات جعلته

محمد البحر

صالح عبد الحي

المرشح الوحيد لاحتلال مكان الشيخ سيد درويش فى عالم الغناء والتلحين ، وهو مايعد سببا معقولا لدى يونس القاضى لشن مثل هذه المعركة تعبيرا عن غيرة مهنية وتحاسد بين الأقران ، وأما ثانى أسباب هذه المعركة ... فإنه يرتبط بالشيخ يونس القاضى فى المقام الأول ، إذ أثر عن يونس القاضى إتقانه الهجاء وشن الهجمات الصحفية ، وهاهو الصحافي والكاتب عبدالنور خليل يصف يونس القاضى فى كتابه «المعممون فى ساحة الطرب والغناء» فيقول : «بل إنه (أى يونس القاضى) أصبح حديث الأوساط الثقافية والفنية وهو ينشر بابا أطلق عليه محكمة الأدب والفن ... راح يتصيد فيه الأخطاء النحوية لكبار الكتاب ومشاهير الفنانين ويحاكمهم عليها ... وكان من بين من حاكمهم محمد سليمان عناره وكيل المحكمة الشرعية حينئذ وطه حسين ولطفى السيد» (ص١٩٨) ، ولتعدد مواهب يونس القاضى وكثرة صلاته بالفنانين والأدباء ، فإن وزارة الداخلية فى حكومة أحمد زيور باشا - والتى كان يتولى زيور باشا مناصب رئيس الوزراء ووزير الداخلية والخارجية فيها - قامت بتعيين يونس القاضى فى عام ١٩٢٦م بمنصب «الرقيب على الفنون» كما ذكر عبدالنور خليل فى الصفحة رقم (٢٢٠) من كتابه المشار إليه سابقا ، أو فى وظيفة «مدير المطبوعات» كما أوردها الفنان والكاتب محمد قابيل فى كتابه « موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين » (ص ٣١٦) ، ولما كان زكريا أحمد قد لحن فى أعقاب ثورة ١٩١٩م العديد من الأغنيات التى تضمنتها الروايات المسرحية ، وهى أغنيات قدمت تصويرا دقيقا للأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى مصر ، وقد سخر العديد من هذه الأغنيات باستخدام التورية والإسقاط من ملك مصر الذى لقب فى رواية «دولة الحظ - ١٩٢٤م» بجلالة الأمير بباظ الأول ، فإن معركة كالتى شنها يونس القاضى على زكريا أحمد يمكن أن تفسر على أنها شنت لتأديب أكبر الملحنين بمصر على ماتضمنته ألحانه من إسقاطات سياسية ، أو للتغطية على مصادرة البعض من أغنياته مثل أغنية «إرخى الستارة» ومنع إذاعتها أو تداولها ، تلك المصادرة التى قام بها يونس القاضى والتى تتواءم تماما مع سياسة حكومة زيور باشا التى حكمت مصر لسنة وبضعة أشهر ... قامت خلالها بتعطيل الدستور حتى أقالها الملك فؤاد الأول فى ١٩٢٦/٦/٧م.

وأيا ما كانت الأسباب وراء تلك المعركة التى استهدفت النيل من زكريا أحمد ، فإنه بحلول شهر نوفمبر من عام ١٩٢٦م ... أغلقت صفحات الصحف والمجلات التى خصصت لأحداث هذه المعركة : هجوما ودفاعا ، ولتكر الأيام وتتوالى الشهور وتتعاقب السنوات ، فإذا بأحداث هذه المعركة وقد غيبها النسيان وطوتها أوراق الصحف والمجلات القديمة ، ولكن الأمر المؤكد بشأنها ... أن زكريا أحمد قد خرج منها بأقوى مما كان عند بدئها ، وأن ما أثارته من زوابع حول موهبة زكريا أحمد لم تنل منها كما خطط لذلك المخططون لهذه المعركة ، وليمضى زكريا أحمد فى مسيرته الفنية التى عرفناها والتى وضعته عند منتهاها فى طليعة ثوار الموسيقى العربية فى القرن العشرين. ■



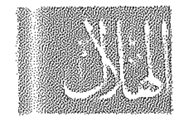
شعر

عبد اللطيف عبد الحليم

تألقى ، وابتهجى ، واشتعلى فى وهجى
وصافحينى فى الصباح، فى المساء ادّلجى
ورنمى من نغمى المحبوس ، لا تخرجى
ورفرفى أجنحة، شهية التموج
فتلتقى أجنحتى، بروضها المبتهج
وتحتسى من شرفات الضوء، غير مرتج
وتعتلى صهوة ريح، فى فضاء مسرج
تجذب سمع النجم، ترتعى الشعاع، تلتجى
تنشب فى العروق، تحيى غافيات المهج
تشب جذوتى إليك، يتنزى وهجى

* * *

تألقى كالنغم المشبوب فى الأفق الدجى
وهدهدى الطفل الذى تاق لظل الهودج
دعيه لغزل الدجى، بشعرك المموج
ينادم الخمرة من زهر الشفاه الأرج
يطير كالفراش فى شوق السنا المنبلج
ينتهب الرى، يغالى فى ارتشاف الهوج
يقتحم الشطآن، لايثنى بسد مرتج
أنت عذابات الرياح فى اللظى المؤجج
أنت ذهول النخل، أصداء الهوى المختلج
أنت عزيف الموج فى عمق الأسى المعتلج
ورقصة النار، تجن فى خيالات الشجى
تنشب فى العظام، فى ليل شقى السرج
تأججى - بلا ونى - يانارها، تأججى
وروضى منى جماحا، لائذا بالحرج
وسامرى منى رياحا فى ظلام مدلج
وزلزلى توقرى، ولا تبالى عوسجى
توقدى فى أضلعى، وفى الدما توشجى
تأرجى فرحة ورد، لا أسى بنفسج
واشتعلى ياجذوة فى النفس، لا تثلجى
وامتزجى، إن خلود الروح أن تمتزجى
وشعشعى كأسك باللحن، رخيم الهزج
شقيقة الموج، سفينى غارق فى اللجج
فيا سماء أقلعى، وياغيوم انفرجى



اعترافات آخر العنقود

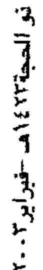
بقلم
د. جلال أمين

ليس لدى شك فى أن هناك علاقة وثيقة بين كون أبى «الأستاذ أحمد أمين» كاتبا معروفا، وبين إصرارى أنا على أن أصبح بدورى كاتبا معروفا ولكن هذه العلاقة بين الأمرين ليست على الإطلاق ما قد يتصوره القارىء، أى صورة أديب ومثقف كبير يجلس كل يوم مع أولاده ليعطيهم دروسا فى الثقافة والأدب، أو يضع لهم خطة لتثقيف أنفسهم ، أو يطالبهم بأن يقرأوا هذا الكتاب أو ذاك . فالحقيقة كانت غير هذا تماما .

إن أبى نادرا ما كان يسألنا عما نقرأ أو نكتب ، بل ولا أظن أنه كان من بين آماله أن يكون أحدنا كاتبا أو أديبا مثله . كان كل ما يتمناه لنا أن يمتهن كل من أولاده الذكور مهنة تضمن له حياة ميسورة أيا كانت هذه المهنة «ولكن بافتراض أنها مهنة شريفة بالطبع» وأن تتزوج كل من بنتيه زواجا مستقرا ، وسعيدا إذا أمكن. وفى حالتى أنا، كنت أعرف جيدا أنه كان يتمنى أن أكون طبيبا عسى أن يكون لى بعض الفائدة عندما تتقدم به وبأمى السن وتتدهور صحتهما، فخيبت أمله تماما فى هذا الصدد، واخترت أن أكون كاتبا ومدرسا فى الجامعة بدلا من ذلك .

وإنما تأتى العلاقة الوثيقة بين اشتغالى بالكتابة «إلى جانب التدريس بالجامعة»، وبين كون أبى كاتبا، من تضافر عاملين ، يتعلق أحدهما بمركز أبى فى المجتمع والثانى بمركزى أنا فى العائلة .

أما عن أبى ، فقد كان من الواضح



لكل أفراد الأسرة ، وابتداء من سن مبكرة للغاية ، ما كان يتمتع به أبى من مكانة مرموقة فى المجتمع ، وأن هذه المكانة لا تعود لشيء إلا الكتابة والتأليف. نعم ، لم تكن لأبى شهرة تضاهى شهرة طه حسين مثلا أو العقاد أو توفيق الحكيم، ولكنها فى نظرنا نحن الصبية الصغار، كانت تضاهى شهرة هؤلاء وتزيد عنها، كنا نرى له مقالا بعد آخر فى مجلة بعد أخرى ، ونرى صورته إلى جانب المقال، ونسمع صوته وهو يلقى حديثا فى الإذاعة ، ونسمع جرس التليفون يرن فإذا بالمتكلم هذا الكاتب الكبير أو ذاك ، وفى الأعياد نرى ساعى البريد يحمل له عددا كبيرا من بطاقات المعايدة، كثير منها لأسماء معروفة ومشهورة، وكل هذا أتى من الكتابة والتأليف، فما أعظمها من مهنة، وما أجدرها بالاقتداء !

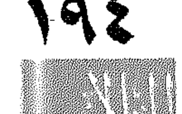
لابد أن كان لهذا صلة وثيقة بتصميمى على أن أكون كاتبا. ولكن كان هناك عامل آخر لا يقل قوة ويتعلق لابمركز ابى بل بمركزى أنا. كنت أنا أصغر أولاد أحمد أمين ، سبقنى إلى الوجود خمسة أولاد وبنتان . وقد كان من المفروض ، باعتبارى «آخر العنقود» ، أن أحظى بمعاملة متميزة عن المعاملة التى يلقاها بقية أولاد وبنات العائلة ، ولكنى لا أذكر أنى حظيت من أبى أو من أمى بأى معاملة متميزة على الإطلاق .

نعم، كانت أمى فى بعض اللحظات النادرة، من صفاء البال، تشير الىَّ بهذا الوصف «آخر العنقود»، ولكن هذا كان هو أقصى ما حصلت عليه من حسن المعاملة.

مشاغل أبى

كان أبى مشغولا على الدوام بأمور أكثر أهمية من المشاعر العارضة لهذا الابن أو ذاك - طالما أن الامر لم يصل إلى حد الأزمة النفسية أو المرض ، وكانت أمى مشغولة بتجنب غضب أبى، وبالطبيخ والغسيل لثمانية من الاطفال. بل زاد الطين بلة، أنها عندما قدمت أنا الى الوجود كانت قد أصابها الاعياء التام من الاطفال السبعة الذين أتوا قبلى، بالاضافة الى اثنين آخرين ماتا قبل أن يتما سنة واحدة من العمر .

صحيح إنها بذلت جهدا كبيرا ومشكورا لكى تجعل قدومى إلى الوجود ممكنا أصلا (فقد كان ابى مصمما على الاكتفاء بسبعة فخدعته حتى أصبحوا ثمانية) ولكنها بعد أن جئت الى الوجود بالفعل لم تبذل أى جهد للتخفيف من شعورى بالضآلة وسط هذا الجيش المخيف من الاولاد والبنات الكبار والصغار ، وبأنى أقلهم جميعا شأنا، ولا شك أن أبى قد ترك أمى، ما دامت هى التى أصرت على إتاحة الفرصة لى





للقدوم إلى هذه الدنيا، لتتصرف فى الأمر كيفما تشاء.

كان لابد لى أن أبحث عن منفذ للتنفس خارج البيت ، وقد وجدته بالفعل واستخدمته أقصى استخدام ممكن. فإذا فقدت أى أمل فى لفت انظار العائلة إلى ، لم يكن أمامى غير الأقران والمدرسين فى مدرسة بعد أخرى.

بدأ نشاطى فى هذا الأمر منذ البداية، أى منذ روضة الأطفال ، فأذكر جيدا كيف أنى وأنا فى التاسعة أو العاشرة من العمر، عندما التحقت بالمدرسة النموذجية الابتدائية بحدائق القبة (المسماة الآن بالنقراشى) التقيت فى أول أيام الدراسة بزميل قديم من زملائى بروضة الأطفال .

«هو نبيل العربى الذى صار فيما بعد دبلوماسيا مرموقا» . وكان قد مر على آخر لقائى به نحو ثلاث سنوات. نظر إلى وجهى مليا ونظرت إلى وجهه نحاول أن نتذكر بالضبط أين كان لقاؤنا السابق، وكان على رأسى طربوش أحمر وعلى رأسه طربوش مثله، مما جعل التذكر اكثر صعوبة. فإذا به يسألنى بعد لحظة تأمل: «مش انت اللى كنت بتعمل حرب جلال فى الروضة؟» قلت :«نعم». وكان معنى هذا أنى كنت أشن الحروب فى روضة الأطفال وأنظمها واختلق للحرب أسبابا، فأقسم الأولاد إلى جيشين، أحدهما يحمل اسمى ويواجه كل جيش الآخر وقد أمسك كل منا بطرف مريلة الطفل الذى يجرى أمامه. لا أذكر عن هذه الحرب أكثر من هذا ، ولكن فى هذا الكفاية، فالجيش كان اسمه جيش جلال ولم يكن اسمه جيش نبيل العربى، أو أى اسم آخر.

***

ربما كان تكوين الجيوش وشن الحروب عملا مناسبا لطفل فى روضة الأطفال ولكنه لم يكن ملائما تماما لصبى فى المدرسة الابتدائية .

على أى حال فسرعان ما اكتشفت فى نفسى القدرة على الظهور ولفت الأنظار الى بطريقة أخرى، وهى أن أصبح الأول فى الترتيب بين كل تلاميذ الفصل في كل امتحان نؤديه . وكان هذا هو بالفعل ما حدث فى كل امتحان دخلته حتى سنوات الجامعة . ربما حدث مرة أو مرتين أن كان ترتيبى الثانى ، ولكن من المؤكد أن هذا لم يتكرر كثيرا ، حتى أصبح حصولي على المركز الأول فى الامتحان هو ما يتوقعه الجميع منى فى البيت والمدرسة على السواء . الغريب فعلا فى الأمر ليس هو احتفاظى بهذا المركز طوال هذه السنوات ، بين تلاميذ ليس لدى أى منهم نفس الرغبة وبهذه القوة، فى التميز عن الآخرين ، وإنما الغريب والمدهش حقا هو تلك الأهمية

التى كنت أعلقها على هذا التميز . لم يكن حصولى فى الامتحان على المركز الثانى بدلا من الأول ، مجرد حادث مؤسف او محزن ، يتطلب بذل المزيد من الجهد فى الامتحان التالى، بل كان فى نظرى مأساة ومصيبة لاتعادلها أى مصيبة أخرى. لم يكن الاحتمالان المطروحان هما إما الحصول على المركز الأول أو على مركز أقل منه، بل كانا هما إما أن أكون الأول أو ألا أكون شيئا على الإطلاق . والمسألة بلا شك مرضية (بفتح الميم) وتحتاج الى بعض التأمل ، فهى تنطوى على اعتبار الاعتراف بأنى الأول على الجميع شرطا للاعتراف بوجودى أصلا، والأمر هنا شبيه جدا بشعور الرجل الذى يحب امرأة حبا جما ثم تأتى إليه هذه المرأة لتقول له انها تحترمه وتقدره ولكنها تحب رجلا غيره !فما جدوي الاحترام والتقدير فى هذه الحالة ؟

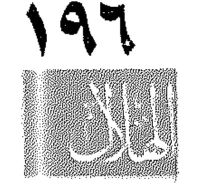
إن المطلوب هو الحب ولا شىء غيره، وفى الحب ليس هناك مركز أول ومركز ثان ، بل مركز واحد فقط .

عندما اكتشف هذه الخصلة فى لأول مرة انزعجت انزعاجا شديدا وقلقت قلقا بالغا، ولكن هذا الانزعاج والقلق زالا بعد بضع سنوات عندما أدركت ان هذا العيب لابد أن يكون شائعا بأكثر مما كنت أظن ، وهو عيب لا يخلو من منافع لنفسى ولغيرى. فالاستماته للحصول على المركز الأول فى كل امتحان ليس شيئا سيئا من كافة النواحى، ومن المؤكد ان كثيرين ممن حققوا أى نوع من التفوق فى حياتهم كانوا مدفوعين بشعور من هذا النوع، سواء كانوا من السياسيين أو العسكريين أو ممثلين أوكتابا .. الخ، مع اختلاف فى الدرجة بالطبع وفى الموهبة ألا يعشق الممثل البارز تصفيق الناس عشقا، ويفعل المستحيل لاستدراره منهم ؟ أليس هذا هو أيضا حال الخطيب المفوه والمدرس الناجح وقائد الثورة السياسية .. الخ ؟

ليس لدى إذن الآن ما أقلق بسببه فى هذا الصدد .. إن الشخص الوحيد الذى دفع ثمنا غاليا لهذه الرغبة العارمة فى التفوق هو أنا فلا أظن أنى أحدثت بسببها أذى كبيرا لغيرى من الناس دون أن يستحقوه ، أو على الأقل لا أظن أن الصفة العكسية، اى الرضا بأن أكون من اقل الناس شأنا، كان من الممكن أن تحدث ضررا أقل بالآخرين بل أظن أن هذه الرغبة العارمة فى التفوق قد جلبت بعض النفع لبعض الناس كما لو كان أحد قد استمع إلى محاضرة جيدة ألقيتها أو قرأ كتابا أو مقالا لى فأعجب به .

★★★

اقترنت هذه الرغبة العارمة فى



التفوق ، الناتجة فيما أظن عن ضآلة قيمتى فى هذه الأسرة الكبيرة، بالرغبة فى الاقتداء بأبى وتحقيق ما حققه من نجاح عن طريق الكتابة، فاندفعت احاول أن أتميز فى الكتابة أيضا. ولابد أن ساعدنى على ذلك استعداد طبيعى للتعامل مع الكلمات وبعض القدرة على تمييز الأسلوب الجميل عن القبيح .

هذا الاستعداد اتضح مبكرا لمدرسى اللغة العربية فى المدرسة الابتدائية فكانوا يعطوننى دائما درجة عالية على ما أكتبه من موضوعات الإنشاء أو التعبير ، كما كانت تسمى فى تلك الأيام ، وكثيرا ما كان المدرس يكتب إلى جانب الدرجة العالية بعض عبارات الثناء، وكان هذا يسرنى سرورا عظيما إذ لم أدرك وقتها أن كثيرا من عبارات الثناء . هذه كان المقصود بها أبى فى المقام الأول فقد كان كثيرون من مدرسى اللغة العربية حريصين على أن يحصلوا على رضاه، وأن يعرفوه بأنفسهم عسى أن يستطيعوا فى يوم من الأيام تحقيق بعض النفع من وراء ذلك .

بل إن هذه المحاولة للتفوق عن طريق الكتابة بدأت معى منذ سنوات روضة الأطفال (وكانت تبدأ حينئذ فى سن الخامسة) إذ من بين أولى ذكرياتى عزمى على كتابة قصة لكى أعرضها على مدرسة رقيقة فى روضة الأطفال كان اسمها ، «أبلة فاطمة»، وأنى كتبت هذه القصة بالفعل وذهبت فى اليوم التالى متلهفا اشد التلهف على إعطائها لها ومعرفة رأيها فيها، ولكنها لخيبة أملى الشديدة لم تحضر إلى المدرسة فى ذلك اليوم . بل ولم تظهر فى المدرسة بعد ذلك قط وبالتالى لم تقرأ قصتى ولا قرأها غيرها .

بعد هذا بسنتين أو ثلاث ، وكنت فى الثامنة أو التاسعة من عمرى اشتركت مع أخوى حسين وأحمد فى كتابة مجلد يتكون من عشر صفحات ، ويحتوى على ثلاث قصص قصيرة. كانت قصتى التى تقع فى نحو ثلاث صفحات تحمل هذا العنوان التراجيدى «دنيا» وكانت مأساوية بالفعل ، إذ كان موضوعها حلما زعمت أنى حلمته ، وتعرضت فيه لأحداث مأساوية متتالية، ، منها تعرضى للتعذيب البدنى القاسى من مختلف الأنوا ع على يد سيدة غليظة القلب بشعة المنظر ، دون أن يتبين فى الحلم أى سبب واضح لهذا التعذيب وتنتهى القصة بأن اسأل عن اسم هذه السيدة فأكتشف ان اسمها «دنيا» فأقول فى نفسى «نعم ، كم أنت قاسية يا دنيا » وبهذه الجملة تنتهى القصة، واستيقظ من نومى واكتشف أن كل هذا لم يكن أكثر من حلم. للقارىء أن يتصور الحالة النفسية التى يمكن أن تدفع طفلا فى

الثامنة أو التاسعة من عمره إلى كتابة قصة كهذه وان يصف «الدنيا» على هذا النحو . التفسير الوحيد الذى يمكن أن يخطر لى هو مركزى المتدنى فى سلم العائلة، مع تعرضى المستمر للإيذاء من جانب أخوى اللذين يكبرانى مباشرة ، حسين وأحمد، اذ كانا يحاولان تحسين مركزهما المتدنى هو الآخر ، بظلم من هو أصغر وأضعف منهما .

كانت القصة الوحيدة من بين القصص الثلاث التى تتمتع بأى قيمة أدبية على الإطلاق هى قصة اخى حسين . كانت تحمل عنوان «كهولة مرحة» ، وكانت على عكس قصتى خفيفة الظل مشوقة ، بل ولا تخلو من مغزى مازالت لدى حتى الان نسخة من هذا المجلد وهو مطبوع طباعة أنيقة فى مطبعة لجنة التاليف والترجمة . والنشر التى اسسها أبى ومجموعة من أصدقائه فى سنة ١٩١٤ وظل رئيسا لها حتى نهاية حياته . كما أنه كان «مجلدا» بمعنى الكلمة، اى كان له غلاف احمر اكثر سمكا من بقية صفحات الكتاب ، كتبت عليه اسماء القصص والمؤلفين وتحت اسمى كتبت عبارة تلميذ بالسنة الثانية أو الثالثة فى المدرسة الابتدائية. كنا نعتبر موافقة أبى على طباعة مثل هذه القصص بمطبعته امرا طبيعيا ولا ينطوى على أى تسامح او كرم من جانبه ، بل كنا نعتبره واجبا عليه. ولكن العكس بالطبع هو الحقيقة ، فقد كان من أسهل الأمور عليه أن ينهرنا ويأمرنا بالكف عن هذا الكلام الفارغ ولكنه لم يفعل .

وافق أبى أيضا بعد هذا بسنة أو سنتين ، عندما كنت فى نحو العاشرة من عمرى ، على أن تطبع فى مطابع اللجنة مجلة أسستها أنا وعدد من أصدقائى تحمل اسم «عصفور النيل»، صدرت منها ثلاثة أو اربعة اعداد ثم احتجبت عن الصدور عندما حققت الغرض الاساسى من إصدارها وهو أن نرى أسماءنا مطبوعة وموصوفة بألقاب مثل رئيس التحرير او حتى رئيس مجلس الادارة ، وهو منصب لم يكن من الممكن أن يحتله شخص غيرى ، ليس فقط لأن المجلة تطبع فى مطابع ابى ولكن لأنى أنا الذى كنت اكتب معظم مقالات المجلة .

الأغرب من هذا أن ابى، عندما بلغت أنا وأخى حسين سن الرابعة عشرة او الخامسة عشرة ، كان يسمح لنا بنشر بعض ما نكتبه فى مجلة الثقافة ، تلك المجلة الرفيعة التي كان يرأس تحريرها طوال عمرها، والتى لعبت دورا مهما فى الحياة الثقافية فى مصر فى الثلاثينات والاربعينات ولكن ما كنت أكتبه فى ذلك الوقت، عدا هذه المقالات التى نشرت فى مجلة الثقافة ، ومما لا يتصور نشره فى أى مجلة او كتاب ، كان أكثر بكثير .

كنت حتى دخولى الجامعة دائم التأليف للكتب، المخطوطة بخط اليد، لم تكن كتبا ضخمة بل إن بعضها لم يكن يزيد حجمه على عشرين صفحة يتكون معظمها من صفحة الغلاف ، وصفحة الإهداء، ثم صفحة المحتويات والمقدمة ، يليها خمس او عشر صفحات قبل أن تأتى الخاتمة . كان المهم هو بالطبع مراعاة القواعد الصارمة التى تراعى فى معظم الكتب :

فلا بد للكتاب من إهداء وصفحة المحتويات، وقد تأتى تحت عنوان الكتاب عبارة بليغة لكاتب مشهور ، بل وربما ذكرت على صفحة الغلاف أن هذا هو الجزء الأول أو الثانى من عدة أجزاء سوف تصدر تباعا . وقد يتضمن الكتاب قصصا وأشعارا ومجموعة من الأقوال المأثورة وبعض الخواطر الفلسفية، وقد يضم موضوعا للإنشاء كتبته لأحد المدرسين وعبر عن اعجابه به . كان من بين هذه المحاولات الطموح فى التأليف تأليف كتاب فلسفى اخترت له اسما ذا مغزى وهو «الحقيقة السعيدة» ، اعبر فيه عن رأيى بأن اكتشاف المرء للحقيقة لا يتعارض بالضرورة مع شعوره بالسعادة، إذ لا جدوى من إحداهما بدون الأخرى .وهى منحى للتفكير لابأس به من صبى فى الثانية عشرة من عمره

كما أذكر انى بعد هذا بسنتين «أو ثلاث قرأت الترجمة العربية لكتاب «آلام فيرتر» لجوته (ترجمة الأستاذ الزيات) فتأثرت به تأثرا شديدا جعلنى أقرر ان أكتب قصة مماثلة أصب فيها ما كنت أشعر به من حب لابنة الجيران، فصعدت إلى سطح المنزل، وجلست فى الشمس ومعى الورق والقلم وشرعت اكتب كتابا بأكمله دون أن يكون لدى أدنى فكرة عن موضوع القصة أو كيف تبدأ وكيف يمكن أن تنتهى . ومن ثم لم أكتب إلا سطرين ثم نسيت المشروع بأكمله .

كان من المحتم أيضا أن أجرب الشعر كما جربه غيرى ،قبل أن أكتشف مثلما اكتشف كثيرون غيرى انعدام الموهبة تماماً فى هذا المجال. وأظن أنى كنت فى نحو السابعة من عمرى عندما بدأت أكتب قصيدة أعبر فيها عن فرحى بعودة امى من سفرها إلى قريتها بالمنوفية فقلت في البيت الأول :

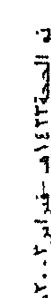
أمي العزيزة قد أتت *** أمى العريزة قد أتت

ثم توقف الإلهام عند هذا الحد. وعندما ذكرت لأبى ما حدث تصادف ان كان خالى البال فقرر تشجيعى بأن يؤلف بيتين إضافيين على أمل أن أضيف إليهما فيما بعد، فقال :

هيا بنا اليها *** نلقى السلام عليها

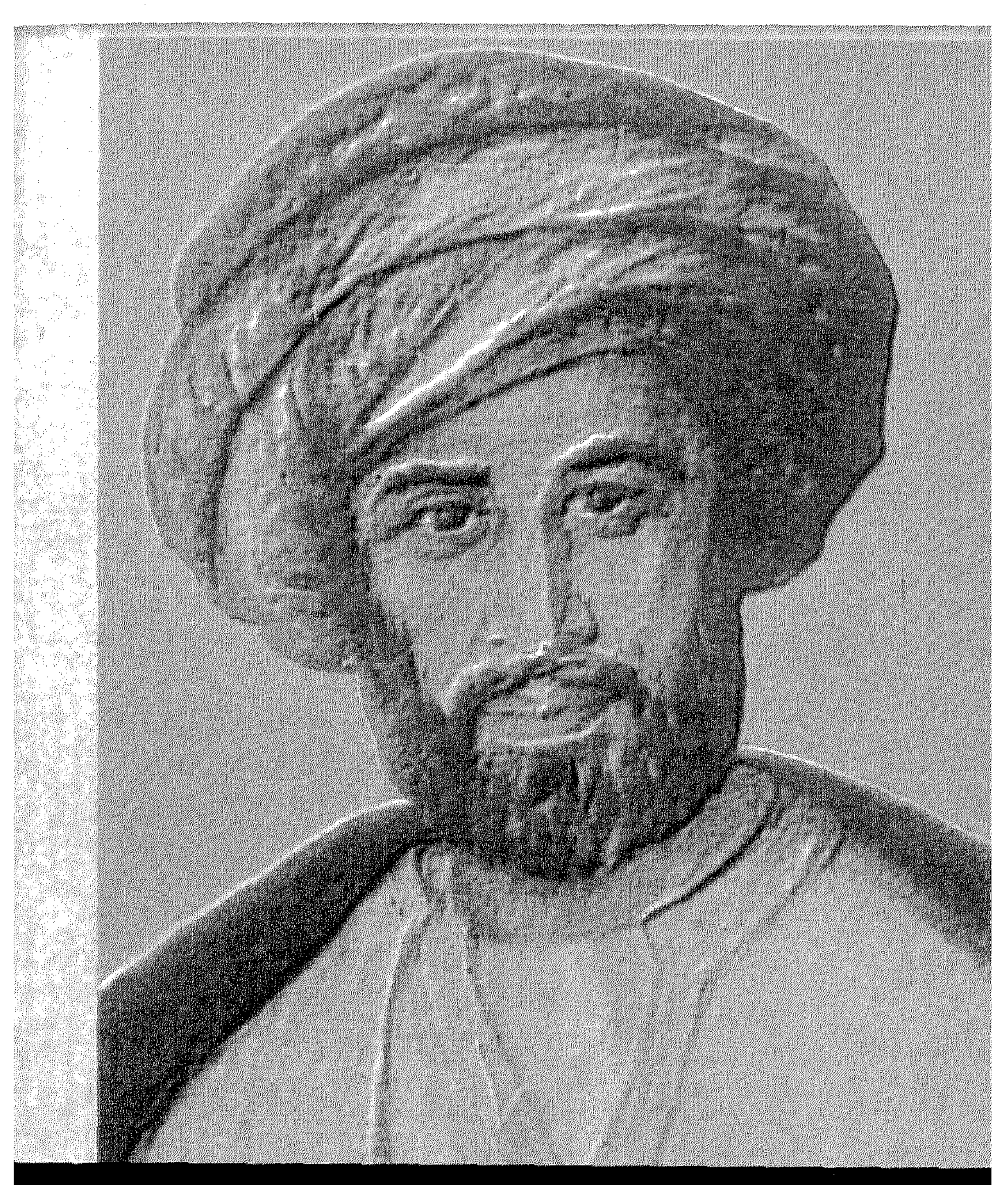
نقول يا أم أهلا *** ومرحبا وسهلا

ولكن هذه المساعدة السخية من جانبه لم تثمر أى شىء جديد من جانبى ■



عائلات ثقافية

أسرة الرافعي



الطهطاوى فى أسرته

بقلم
محمد رفاعة الطهطاوى

عندما توفى على باشا فهمى رفاعة، الإبن الأصغر لرفاعة الطهطاوى سنة ١٩٠٣ رثاه أمير الشعراء أحمد شوقى بك بقصيدة مطلعها:

أبكى رفـــاعـــة أبكى العلم والأدبا
أبكى المروءة والفضل الذى احتجبا

إلى أن يقول:

يابن من أحيت مصر معارفُه
أبوك كان لأبناء البلاد أبا

ويهمنى بصفة خاصة أن أشير إلى هذا البيت الأخير، لأن شوقى جعل من رفاعة أبا للمصريين وأبوته مناطها العلم.

وبعد ما يقرب من قرن من الزمان كتب الأستاذ بهاء طاهر كتابا عنوانه «أبناء رفاعة: الثقافة والحرية» وبيت شوقى وعنوان بهاء طاهر يوجزان بجلاء معنى أساسياً، هو أن أبناء رفاعة حقا هم أولئك الذين يتصلون به بصلة الفكر العلم وليس من يمتون إليه بصلة النسب والدم، وأن تراثه ليس مالاً ولا عقاراً.. وإنما علمُ يُنتفع به، وفكر أصيل حر يسعى إلى إقامة نهضة وإلى إحياء أمة، إن فكر رفاعة فكر نهضوى لا يرى الثقافة ترفاً، وإنما يراها وسيلة لازمة لبناء نهضة حقيقية جوهرها العلم والثقافة والدين، ومظهرها التقدم المادى الذى يحققه تضافر القوى الاجتماعية فى مناخ من العدل والحرية.

ومما سبق فإن محاولة تقصى أثر رفاعة فى أسرته إنما تعنى فى الحقيقة

محاولة تقصى أثره فى نهضة وطنه وأمته.. فأمته هى أسرته، ولقد لمست بنفسى أن هناك أُناساً لا يمتون لرفاعة بنسب.. ومع ذلك فهو أقرب إليهم وأحب لديهم من بعض من اتصل به بنسب.

ومع هذا وبحكم كونى أرشد الذكور الأحياء ممن يحملون اسم رفاعة فإننى أستطيع أن أقرر أن رفاعة له فى أسرته الصغيرة وفيمن يحيطون بها أثر فريد، فإنك تشعر به حياً ماثلاً بين كل جيل من أبنائه وأحفاده، وتراه شخصية محورية فى حياتهم، وتراهم وهم يتحدثون عنه يتحدثون عن شخص تمتلىء قلوبهم بحبه كما تمتلىء عقولهم بتقديره والاعتزاز به، كما يستشعرون على مر الزمان مسئولية خاصة عن الحفاظ على آثاره وتراثه، ولقد لمست هذا، أوضح ما لمست لدى والدى المغفور له السيد فتحى رفاعة، فقد كان يشعر أن مهمته الأولى فى حياته هى الحفاظ على تراث جده، والعمل على إحياء فكره ونشره.

وإذا تساءلنا عن لماذا ترك رفاعة هذا الأثر العميق فى أسرته، فلعلى أجيب بأن السبب الأول فى تقديرى هو أن رفاعة فى سلوكه كان مثالاً لرفاعة فى فكره، فهو رجل يفعل ما يقول ويقول ما يفعل.. ويلمس أبناء أسرته ذلك فى حياتهم معه كل يوم، فهم يرونه قدوة صادقة، ولا يجدون لديه ذلك التناقض بين العام والخاص الذى ميز حياة كثير من المشاهير، وسأحاول فيما يلى أن أضرب بعض الأمثلة على التوافق بين أفكار رفاعة وبين تصرفه فى حياته الخاصة.

رفاعة والمرأة..

يرى رفاعة أن احترام المرأة مقياس لدرجة تحضُر الأمم، فيقول «كلما كثر احترام النساء عند قوم.. كثر أدبهم وظرافتهم، فعدم توفية النساء حقوقهن، فيما ينبغى لهن الحرية فيه، دليل على الطبيعة المتبربرة..» وهو يرى المرأة أكثر صبراً على الفضائل من الرجل فيقول «إن درجة الفضيلة فى النساء كالعفة والعصمة، أشد منها فى الرجال، بحيث يبلغن فى درجة الحياة أوج الكمال، فإن المرأة العفيفة الكريمة تتحمل أثقال الحركات النفسانية عند الاحتياج إليها.. مما يعجز صناديد الرجال عليه».

ورفاعة يؤمن بأن المحبة الصادقة بين الزوجين هى المحبة القائمة على الشمائل المعنوية الباقية.. وليس على الجمال الظاهرى الزائل، وأن أساس العلاقة هو الاحترام فيقول: «وكما أن الرجل الكامل يرى زوجته بعين الإجلال والاحترام، كذلك الزوجة الكاملة المتحببة إلى زوجها لا ترى فى الدنيا رجلاً يساوى زوجها.. وربما أحبته حبين: حباً لذاته وحباً لحقوق الزوجية، فهذه هى المحبة الراشدة... فمن ذلك يعلم أن الواسطة الوحيدة فى استدامة الود بين

الزوجين ولو فقدت المحاسن الظاهرية، هى وجود الاحترام والإجلال بين النساء والرجال».

هذه العبارات تكشف بعض أفكار رفاعة تجاه المرأة، تعالوا بنا إلى حياته الخاصة لنرى كيف عامل زوجته وكيف كان سلوكه مصداقاً لفكره.

إن رفاعة رجل صادق فى مشاعره وثابت فى محبته، فهو رغم غيبته فى فرنسا لخمس سنوات تعرض فيها لتجربة حضارية هائلة فإنه بقى على خطبته لابنة خاله الفتاة الصعيدية التى لم تر ما رآه من أسباب الحضارة وفنونها، وهو بعد هذا يعطى زوجته عهداً شهيراً بألا يتزوج عليها وألا يتسرى بجارية.. وهو أمرٌ مستغرب نادر فى ذلك العصر، وقد ظل رفاعة على عهده لامرأة واحدة، لم يتغير ولم يتبدل.

وكان يعتبر امرأته شريكة له يثق فى رأيها ويعتمد عليها، فقد كانت زوجته طيلة غيبته فى السودان تضطلع بعبء تدبير شئون الأسرة وتصريف أحوالها، بل إنها وقد كانت مدبرة مقتصدة قامت بشراء عقارات عديدة أثناء غيابه، وكانت تذهب متخفية لمعاينة تلك العقارات قبل شرائها، ومن بين العقارات التى قامت بشرائها وظلت فى حوزة الأسرة إلى زمن قريب.. القلب التجارى القديم لمدينة طهطا والمسمى بالقيسارية أو الجوفار.

وقد سري احترام المرأة فى الأجيال المتعاقبة من آل رفاعة، وقد شاء الله أن تكون معظم ذرية رفاعة من السيدات وقد حظين دائماً بالتقدير، وكانت لهن شخصية معتبرة مستقلة وحقوق مصونة، ولقى عدد منهن تعليماً وثقافة بقدر ما سمحت به أوضاع العصر، ومن اللطائف التى تُذكر أن السيدة نفيسة حفيدة رفاعة الطهطاوى وكريمة على باشا رفاعة كانت تحضر فى بداية صباها مجالس أبيها وكانت مجالس علم وأدب. كانت تحضر هذه المجالس متخفية فى زى شاب مرتدية الطربوش، وكان أبوها يدعوها محمود أفندى، وقد داعبها والدها بأبيات من الشعر الظريف يقول فيها..

يا وردة بين الأزاهر ناضرة
اياك إن أباك صاحبُ شوكة
فيراك من بين الأزاهر ناضرة

ومعاملة رفاعة لأبنائه مثال آخر، فنراه يرق لهم رقة هائلة، وسفره وهو فى السودان يكشف عما يعانيه من بُعده عن أولاده، ولكنه مع ذلك يربيهم تربية تجمع بين العاطفة الأبوية وبين الحرص على أن يكون الأبناء أصحاب شخصية مستقلة، فنرى رفاعة يعامل أبناءه باحترام حقيقى، لا يتساهل معهم فى حق، ولا تدفعه عاطفته إلى إعطائهم ما ليس لهم بحق.

والقصة التى يرويها الرحالة الأمريكى بايررد تايلور الذى التقى برفاعة فى السودان وحمل منه رسالة لتسليمها إلى أسرته بطهطا، توضح شيئاً من أسلوب

رفاعة فى تنشئة أولاده، فقد استقبل ابن رفاعة الرحالة الأمريكى وكان له من العمر نحو أحد عشر عاماً، ونترك الرجل ليصف جزءًا من هذا اللقاء حيث يقول.. «حيانى فى وقار وجلال كما لو كان رجلاً له سمتٌ وأبهة... ثم دفعت بالكتاب إليه فوضعه على قلبه ثم قبله وفض غلافه، وأسر الصبى بكلمات إلى معلمه وبدأ على وجهيهما الاغتباط، وجيء بشراب لا شيء فيه سوى عصير الليمون وماء الورد وسألنى الصبى أن أشرفه بالبقاء لديه سائر اليوم، ولولا أنى كنت أرى وجهه وهو يحادثنى لظننت أننى أحادث رجلاً، فقد كان هذا الصغير من الجلال وقوة الأسر كعظماء الرجال وكان الناس حولنا وكأنهم معتادون مشاهدة هذا النضوج السابق لأوانه، وكنت مضطراً إلى أن اتخذ حياله من الاحتشام والكلفة.. كما لو كان هو حاكم المدينة...».

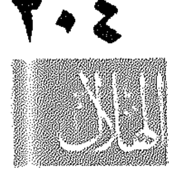
ومثال آخر نجده فى معاملة رفاعة لابنه الأكبر بدوى فتحى رفاعة، حيث لم يأنس منه اجتهادا فى عمله الحكومى، فرأى أن ينهى خدمته الحكومية وأن يفوضه فى إدارة شئونه الخاصة فى خطاب لا يزال أصله محفوظاً لدى الأسرة، ونص هذا الخطاب جدير بالدراسة والتأمل للكشف عن أسلوب رفاعة فى معاملة أبنائه .

«حضرة نجلنا العزيز بدوى بك فتحى».

لقد استصوبنا تفويض إدارة المنزل بطهطا إلى حضرتكم وجميع ما تجروه أنتم مفوضون فيه من تصدقات وإنعامات وتحسينات منزلية ومباشرة العمل والأشغال، ومعلومية الدخل والخرج والوارد والمنصرف. وعبدالله أغا تابعنا، إنما عليه إجراء أوامركم وتنفيذها ومساعدتكم على حفظ الأشياء وتنجيز الأشغال، فأنتم مثلنا سواء بسواء فى الأوامر والنواهى، ونؤمل آن الأشياء المترتبة بالمنزل بمعرفتنا تكون كما هى، وإذا زدتم عليها أشياء فباستحسان حضرتكم ويلزم المحافظة على كتابنا هذا».. وهو إذا كان يثق فى أولاده ويطلق يدهم فى ماله فإنه لا يحابيهم ويشدد عليهم إذا كان الأمر متعلقاً بمال الدولة.. فعندما طلب منه ابنه الأصغر وكان موظفاً مرؤسا له زيادة فى الراتب، كتب إليه رسالة يرفض فيها طلبه لأن الأوضاع العامة لا تسمح بالزيادة، وأن مجرد الإبقاء عليه فى وظيفته يساوى الزيادة .

ولقد ورث أبناء رفاعة وأحفاده عنه أسلوبه فى التربية، وعندما استرجع أسلوب أبى رحمه الله فى معاملتى.. فكأننى أراه يكرر أسلوب رفاعة فى معاملة أبنائه.

وكما قلت سابقاً فإن أبناء رفاعة وأحفاده يستشعرون مسئولية خاصة فى الحفاظ على تراثه، فقد خلفه ابنه الأصغر على باشا رفاعة فى رئاسة تحرير مجلة روضة المدارس، وعمل على



إكمال ومراجعة وطبع آخر أعماله وهو كتاب نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز، وقد حافظ على مكتبة والده وخصص لها مكاناً خاصاً فى منزل رفاعة بمنطقة مهمشة بجوار محطة السكك الحديدية (محطة مصر)، ومن الطرائف التى تروى أن عبدالله النديم فى سنوات اختفائه من مطاردة الإنجليز بعد الثورة العرابية والاحتلال البريطانى.. كان كثيراً ما يختبىء فى مكتبة رفاعة، فيتخفى عن العيان ويقضى وقته فى المطالعة.

مكتبة رفاعة

وقد ظلت مكتبة رفاعة وهى أعظم مكتبات مصر فى حوزة الأسرة إلى أن أهداها حفيده محمد بك بدوى رفاعة إلى الدولة سنة ١٩٣٢، وهى الآن تقع فى جزء من مبنى مجلس مدينة سوهاج، وتضم مجموعة نادرة من المخطوطات تبلغ نحو ١٠٦٠ مخطوطاً نادراً، بالإضافة إلى نحو خمسة عشر ألف كتاب مطبوع، وهذه المكتبة الآن فى حوزة محافظة سوهاج، ورغم الجهود الجادة التى بذلها السيد محافظ سوهاج والمسئولون فى المحافظة.. فإن المكتبة فى حاجة ماسة إلى مشروع علمى للحفاظ على المخطوطات وإتاحتها للباحثين ، ولربما كانت نواة لمشروع ثقافى كبير، يكون بمثابة منارة للعلم والثقافة فى صعيد مصر.

ولقد كانت أفكار رفاعة الاجتماعية أفكاراً متقدمة، بل يرى البعض أنها كانت أفكاراً اشتراكية، ويستندون فى هذا إلى أن رفاعة فى تحليله للعملية الاقتصادية ولعناصر الإنتاج اعتبر أن العمل هو العنصر الأساسى من عناصر الإنتاج وليس الأرض أو رأس المال.. وهو فى حياته الخاصة يعمل إلى حد كبير بمقتضى فكره، فكان يشارك الفلاحين فى زراعة أرضه بأفضل الشروط وأيسرها، أو بإيجار يقل كثيراً عن المستويات السائدة وظل هذا تقليداً معمولاً به من بعده.

وعندما أوقف بعض أرضه على ذريته .. قال: إنه يوقف هذه الأرض عليهم «لا ليدفع عنهم فقرا.. ولا ليضمن لهم غنى.. ولكن صدقة جارية...». وكان شرط الواقف المساواة بين كل طبقة من أولاده، بحيث يعاد تقسيم الثروة بالمساواة بين أفراد كل جيل، وجعل فى وقفه جزءاً لعتقائه الذين كان يعاملهم معاملة الأهل، ويحرص على تعليمهم حتى أن بعضهم أصبح من مشاهير أدباء مصر، وتولى أحدهم منصب وكيل وزارة المعارف.

ومما يروى عن رفاعة الطهطاوى أنه كان لا ينام الليل إلا قليلا، وكان يشغل معظم ليله بالقراءة والتأليف، وكانت له عادات ظريفة، إذ جعل فى حديقة منزله بمهمشة أكشاكا متناثرة، وجعل بكل كشك مصباحا وأوراقا وأقلاما وحبرا، فينتقل بين هذا الأكشاك ليروح عن نفسه، وليجدد طاقته على القراءة وعلى الكتابة والتأليف، ولقد ورث عنه معظم أبنائه إلى يومنا هذا عادة السهر حتى ساعة متأخرة من الليل، ولكنهم وللأسف لم يرثوا قدرته على إحياء الليل بالإنتاج العلمى وبالتأليف. ■



لم يتحقق هدفي في اليونسكو ورب ضارة نافعة

د. إسماعيل سراج الدين

يظل الإنسان يتعلم فى هذه الحياة، تدفعه الرغبة فى تحقيق طموحات كثيرة، لا توقفه العقبات، بل تزيده إصرارا على النجاح لخدمة البشرية.

دائما كان المناخ الثقافى الذى عشت فيه، وحرية الرأى هما الدافع القوى لمواصلة الطريق الصعب على مدى ثلاثين عاما.. ولكن ما أحمد الله عليه أن تكون خاتمة مشوار حياتى فى حضن الوطن لكى أعطيه كل خبراتى فى الحياة.





ليلي ابراهيم .. أمى التى كان لها أثر كبير فى تكوينى الثقافى ومعارفى المختلفة



جدى على باشا إبراهيم .. توفى وأنا صغير ، لكنى عرفت عنه الكثير من أمى وأخوالى

كنت محظوظا طوال حياتى، فقد تربيت فى بيت يملؤه الحب والحنان ويركز بشكل أساسى على التعليم والثقافة منذ الصغر .بدأت حياتى المدرسية وعمرى لا يتجاوز السنوات الأربع، وقتها سألت أمى الدكتور طه حسين قائلة: ابنى إسماعيل عمره أربع سنوات وأود أن ألحقه بالمدرسة.. فماذا أفعل؟

على الفور قال لها : دعيه يلتحق بالمدرسة وهو فى هذه السن الصغيرة، وإذا تأخر فى الدراسة لأى سبب من الأسباب، فلن يحدث شئ.

وفعلا التحقت بالمدرسة، وشاءت الظروف أن أسبق بسنة أخرى بعد ذلك. وبالتالى أنهيت دراستى وعمرى أصغر من أقرانى بثلاث سنوات!

فى البداية التحقت بمدرسة الأورمان الابتدائية، ثم بمدرسة الناصرية فى حى معروف، وتحولت هذه المدرسة إلى مدرسة إعدادية ثم التحقت بمدرسة الأورمان الثانوية بالدقى، وبعد الانتهاء من المرحلة الثانوية التحقت بكلية الهندسة جامعة القاهرة.

وعلى عكس ما كان يحدث فى الأوساط العليا فى ذلك الوقت بتعليم أبنائهم فى مدارس للغات، أصر والدى على أن يكون تعليمى كله فى المدارس





ابى وأمي كان يحرصان على تنميتى ثقافيا خلال رحلاتى المستمرة فى المتاحف والمكتبات العامة

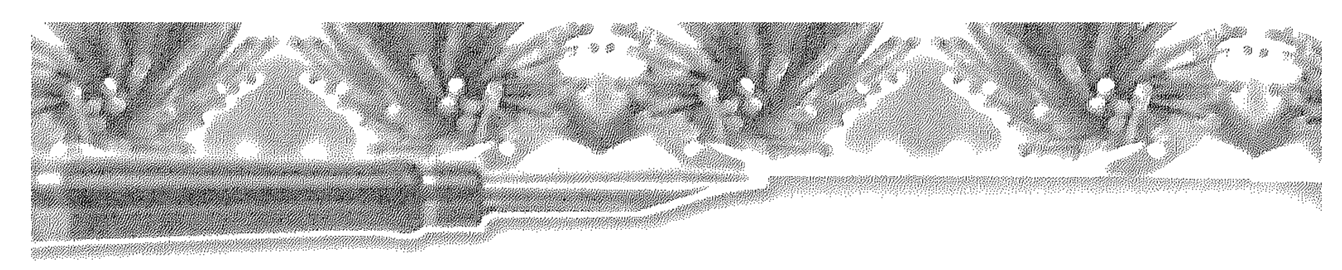
الحكومية، حتى أختلط بجميع قطاعات الطلاب فى هذه المدارس.. وذلك كان مثار سعادة خلال مشوار حياتى الدراسية، على أننى كنت أهتم بدراسة اللغات الأجنبية فى منزلى.

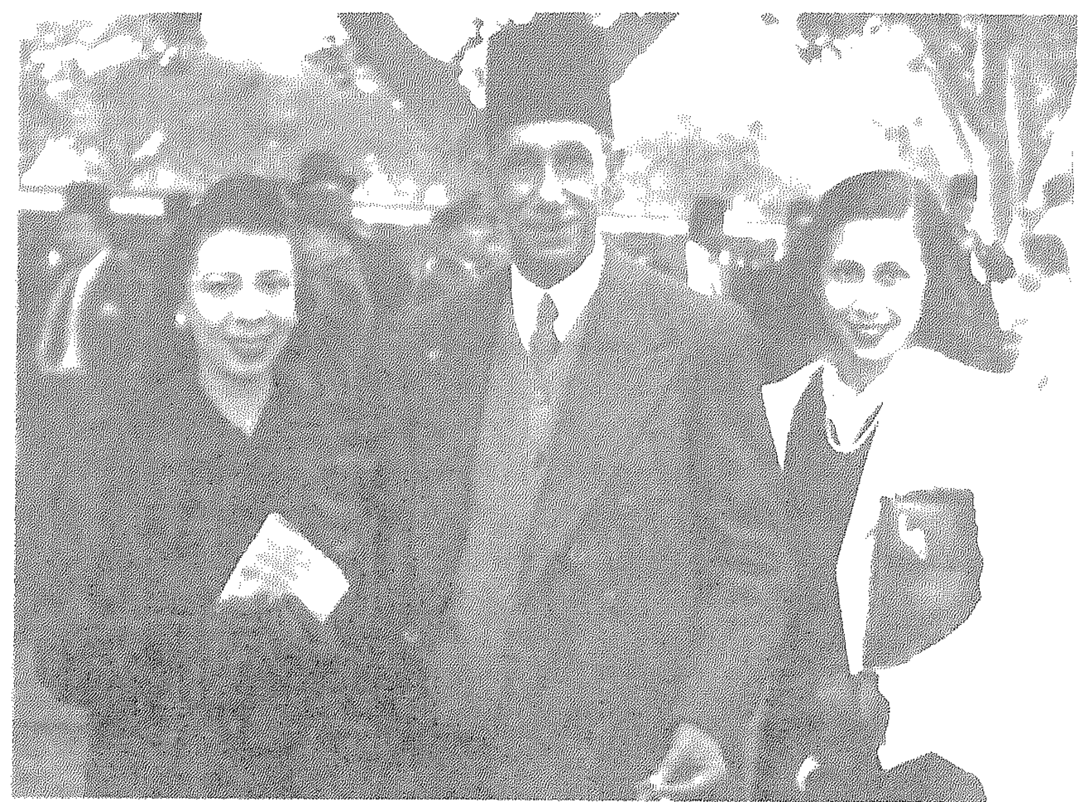
دور هام لأمى

أمي هى ليلى إبنة علي باشا إبراهيم، كانت لها اهتمامات ثقافية كبيرة جدا بالفن والتاريخ الإسلامى والآثار فيما بعد، وكان بيتنا يضم إلى جانب الكتب الثقافية التحف الإسلامية النادرة، وكانت لقاءاتنا على طعام الغداء فى كل يوم، أقرب ما تكون إلى (سيمنار) نتحدث فيه فى شتى الموضوعات المهمة ومن بينها على سبيل المثال سماع الآراء حول كتاب هام، أو قضية ثقافية أو علمية تشغل المجتمع... ولهذا فقد كنت فى بداية تكوينى منفتحا على ثقافات كثيرة جدا، ويعود الفضل فى ذلك كله إلى أمى التى آثرت أن تشجعنى، فأنشأت لى معملا كيميائيا صغيرا فوق سطح منزلنا، لكى أقوم بعمل بعض التجارب العلمية، حيث إن اهتمامها وحبها للعلوم، جعلها تحببنى فى هذا النوع من المعارف والثقافات المختلفة.

أحببت الشعر

كنت محظوظا جدا مع أساتذتى ومدرسىّ فى المدارس التى التحقت بها وكان من بينهم صفوة ممتازة، خاصة فى





صورة تجمع بين د. على باشا ابراهيم وكريمتيه

مدرسة الأورمان الثانوية وأذكر منهم أستاذ اللغة الانجليزية واسمه جرجس، وكان يقوم بعمل أنشطة مسرحية ومناظرات ثقافية بين الطلاب، كما أن أساتذة العلوم جعلونى أحب مادتى الرياضيات والعلوم. كما أحببت فى المرحلة الثانوية أيضا الشعر والأدب العربي، وكان يتم اختيار مواد الكتب المدرسية فى ذلك الوقت بعناية شديدة وأذكر من هذه الكتب - على سبيل المثال - كتاب فصول مختارة من كتب التاريخ وكان من بين مؤلفى هذا الكتاب د. طه حسين وعلى الجارم. فضلا عن أننى كنت فى هذه الفترة أحب جدا مؤلفات د. طه حسين والعقاد، ومازالت لدى حتى الآن مجموعات هذين الكاتبين الكبيرين.

وعلى الرغم من اتجاهى للجانب العلمي فقد كنت من محبى الأدب والشعر وكان هذا جزءا من اهتماماتى الكبيرة، وتكوينى ما بين المحبة الفنية والعلمية، كل جزء تدخل فيه اهتمامات أسرتى خاصة وأن والدى كان مهندسا معماريا.

فأمى كان لها تأثير كبير على وعلى إخوتى، وكانت تصر على أن نذهب أسبوعيا في رحلات إلى المتاحف وزيارة الآثار فغرست فينا حب الثقافة بشكل عميق جدا.

أما والدى فقد كان يمارس نشاطات مهنية متنوعة بالإضافة إلى حرصه على ممارسة الرياضة، وكان يحرص على أن



أذهب معه إلى المشروعات التى كان يقوم بتنفيذها كمقاول وكخبير، وهذا كله كان ينمى فى شخصيتى البعد الثقافى والبعد التاريخى.

أما جدى على باشا إبراهيم فقد توفى وأنا صغير جدا، لكننى عرفت عنه الكثير من أمى وأخوالى.

فى الجامعة

حينما التحقت بالجامعة كان أساتذتى يهتمون بشكل جيد بتربية الأجيال من طلاب الجامعة، وهذا يدعونى إلى التأثر الشديد حينما أرى أن دور الجامعة الآن أصبح مقصورا على حصول الطلاب على الشهادة الدراسية فقط..

فعندما التحقت بكلية الهندسة عام ١٩٥٩، كانت الحوارات التى تتم بينى وبين أساتذتى حول ما أقوم بقراءته، فقد كنت أناقشهم فيما أقرأ، وكانت الجلسات تطول فى مناقشة قضايا فكرية هامة كان شعورا بالتربية الكاملة، التربية الروحية، والتربية المنهجية ليس فى داخل المقرر، ولكن فى كل مجالات العلوم والحياة.

وأعتبر أجمل سنوات عمرى تلك التى قضيتها طالبا فى كلية الهندسة وكانت نهايتها سعيدة بحصولى علي البكالوريوس بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى والمركز الأول وحصولى أيضا على الجائزة فى عيد العلم.

لقاء مع وزير التعليم

بعد التخرج مباشرة حدث تحول كبير فى حياتى، فقد شاءت الظروف أن تتزوج شقيقتاى وتتركان المنزل، بل وتتركان القاهرة، فأختى «منى» ذهبت لدراسة الدكتوراه فى أمريكا، وأختى «هدى» تزوجت الأستاذ سامى طوقان وهو فلسطينى، وعاشا فى بيروت، وكان أبى قد توفى فى حادث سيارة، وجاءت لى منحة من جامعة هارفارد بولاية بوسطن فى أمريكا.

وفى هذه الأثناء كان كل خريج يأتيه أمر تكليف ولابد أن يلتزم به، ولا فكاك منه أبدا.

ذهبت لمقابلة وزير التعليم العالى وكان وقتها الدكتور عبدالعزيز السيد، وقلت له بعد أن سمح لى بمقابلته: لو أذنت لى بالسفر والحصول على هذه المنحة، فإننى سوف أكسب كما سأسافر على حساب هذه الجامعة، بينما لو انتظرت لحصولى على المنحة من الدولة، فسوف أتأخر لمدة عامين، وسوف أكلف الدولة حوالى ٣٠ ألف دولار من العملة الصعبة فى ذلك الوقت.

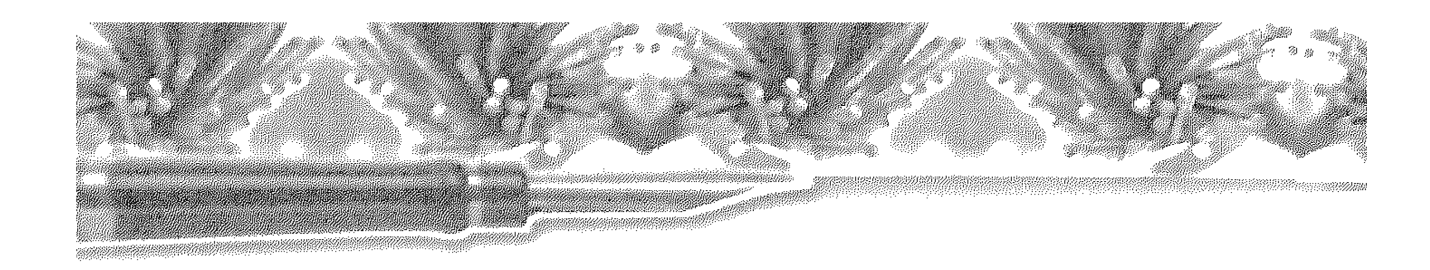
ورجوته بالموافقة حتى أوفر ذلك على الدولة، وأحصل فى نفس الوقت على ميزة هى توفير عامين من الزمن.

فنظر إلى الوزير قائلا: هذا كلام مقنع جدا.. وأنا من الممكن أن أرفع عنك أمر التكليف، لكن لابد أن تستقيل من الجامعة فقلت له : يمكننى فعلا الاستقالة!

قال: أتوافق بهذه السرعة..؟

قلت : حينما أحصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد وأحب الالتحاق بوظيفة فى الجامعة يمكننى ذلك!

عاد الوزير يسألنى قائلا: وما الذى يضمن لى أن تعود لمصر مرة ثانية؟ جاء ردى سريعا هذه المرة: افرض أن الدولة



قامت بتقديم هذه المنحة وصرفت على طوال المدة المقررة، فمن الذى يضمن لكم أن أعود مرة ثانية ؟

لاشيء يضمن سوى اهتمامى ومحبتى للوطن، وهو الذى سوف يدفعنى للعودة إلى بلدى.

وعلى الفور وافق وزير التعليم العالى على رفع أمر التكليف، وبدأت فى إجراءات استخراج تأشيرة الخروج من مصر للسفر، ووقتها كان والدى قد توفى وتفضل السيد زكريا محيى الدين نائب رئيس الجمهورية يومئذ بتسهيل هذه المهمة.

رحلتى إلى أمريكا

سافرت إلى أمريكا وأنا لا أملك سوى ٤٥ دولارا فقط وهو المبلغ المسموح بالخروج به من مصر.. وكانت أختى وزوجها يدرسان هناك فاستضافانى لعدة أشهر وكنت أنام على «كنبة» صغيرة فى «طرقة» شقتهم الصغيرة، حتى أتمكن من تثبيت قدمى فى جامعة هارفارد، ثم أحصل على عمل متمم لمنحتى مع هذه الجامعة، وحدث ذلك فى يناير عام ١٩٦٥ وكان أول التيرم ينتهى فى يونيه من هذا العام، وحققت النجاح، وتم تجديد المنحة، ووجدت عملا فى فصل الصيف فى عدد من الميادين البحثية المختلفة.

وقد كنت فى هذه الفترة مهتما بالعلم والثقافة ، وحدثت لى تجربة فريدة من نوعها، حيث اتجهت من العمارة إلى التخطيط، وجامعة هارفارد فى ذلك الوقت تعد من أعظم جامعات العالم ورأيت من حولى كل العلماء الحاصلين على جائزة نوبل وهم يقومون بالتدريس للطلاب وإعطاء المحاضرات، وكان بإمكانى مقابلة أى من هؤلاء العلماء فى أى وقت من الأوقات والتحدث معه. وأتوقف هنا عند نقطة مهمة خاصة بحصول الطالب على التعليم.. فقد كان المطلوب منى لكى أحصل على الماجستير دراسة ست عشرة مادة، لكننى تخرجت بعد دراسة سبع وعشرين مادة، بمعنى أننى ذاكرت إحدى عشرة مادة إضافية حبا فى العلم فضلا عن الاستفادة الكاملة من هؤلاء العلماء الموجودين من حولى، حيث كنت أنهل من فيض علمهم وثقافاتهم المتنوعة، وأحضر كل المحاضرات المهمة التى يدرسون فيها.

ولم يتوقف دورى عند الدراسة فقط للحصول على المؤهل العلمى، لكننى كنت أؤدى دورا سياسيا مهما، ففى منتصف العقد الثانى من الستينيات كانت «ثورة الطلاب» قد بدأت فى العالم، فى الوقت الذى قامت فيه حرب ڤيتنام وحرب ١٩٦٧ بين مصر وسوريا وإسرائيل، بالإضافة إلى قضايا التحرر الإفريقى.

.. فى هذه الفترة تعرفت على العديد من الأصدقاء، وكان من بينهم الدكتور أسامة الباز، حيث عملنا معا فى النشاط الطلابى وكانت منظمة الطلاب العرب فى ذلك الوقت منظمة فريدة من نوعها، حيث يلتقى فيها الناصريون والبعثيون والشيوعيون والقوميون العرب والإخوان المسلمون، على ساحة المساواة، فقد كانت الأنظمة العربية فى ذلك الوقت لا تسمح بوجود من يخالف النظام، وكانت الحوارات تتم فى نطاق معارك انتخابية،

وهى تجربة مثيرة بحق.. بالإضافة إلى أننى كنت أقوم بنشاطات سياسية على مستوى طلاب جامعة هارفارد، وكانت لى اهتمامات كثيرة جدا بإفريقيا كرئيس لمنظمة الطلاب الأفارقة، بالإضافة إلى العمل المهنى الذى كنت أعيش منه.

العمل فى البنك الدولى

فى أثناء فترة الدراسة والتى كانت ثرية جدا فى حياتى، تزوجت من ابنة المرحوم الدكتور إبراهيم بيومى مدكور رئيس مجمع اللغة العربية السابق وكنت قد تعرفت عليها فى جامعة القاهرة، واعتبرت الدكتور إبراهيم أبا لى بعد وفاة والدى، وتعلمت منه الكثير كما تعرفت على العديد من الشخصيات وأنا فى أمريكا، فى مقدمتهم الدكتور أحمد كمال أبو المجد مستشارنا الثقافى فى أمريكا فى تلك الفترة والدكتور مصطفى طلبة والدكتور أحمد القشيرى.

واخترت موضوع رسالتى للدكتوراه بعنوان «دور التعليم فى التنمية» حيث انتقلت من العمارة إلى تخطيط المدن، إلى التخطيط الإقليمى، ثم إلى التنمية ومنها إلى التركيز على التعليم.

فى هذه الأثناء سألنى أحد الأساتذة الذين أحبهم واسمه ادوارد ميسون، ماذا سوف تعمل الآن ؟

قلت له: إننى أنوى قبيل عودتى إلى مصر، الحصول على خبرة دولية وبالتالى فإننى أود أن أذهب إلى اليونسكو للحصول على هذه الخبرة.

فقال لى : عليك بالذهاب إلى البنك الدولى.

قلت له: لقد تركت الهندسة، فما جدوى ذهابى إلى هذا البنك، خاصة وأننى مثل كل المصريين كان لدى تحفظ على البنك الدولى منذ امتناعه عن تمويل مشروع السد العالى وما استتبع ذلك من تداعيات مؤلمة!.

قال ادوارد ميسون: إن البنك الدولى يهتم بالتعليم أكثر من اليونسكو ومن منظمة العمل الدولية.

وفعلا قدمت أوراقى إلى البنك الدولى، وقبلت فى برنامج خاص تقدم إليه حوالى خمسة آلاف، قبل منهم عشرين فقط، وكنت ضمن المختارين فى هذا البرنامج، ودخلت فى قطاع التعليم فى البنك الدولى، وكان الحوار فى تلك الأثناء ساخنا جدا وسيئا للغاية، وقررت ألا أظل فى هذا المكان أكثر من عامين، ثم أغادر إلى مصر.

كان الحوار حول: هل مسئولية البنك أن يهتم بتوزيع الدخل، وقضية الفقر، أم أن مسئولية البنك فقط أن ينمى دخل الدول ولا يهمه كيف يتم توزيع الدخل؟

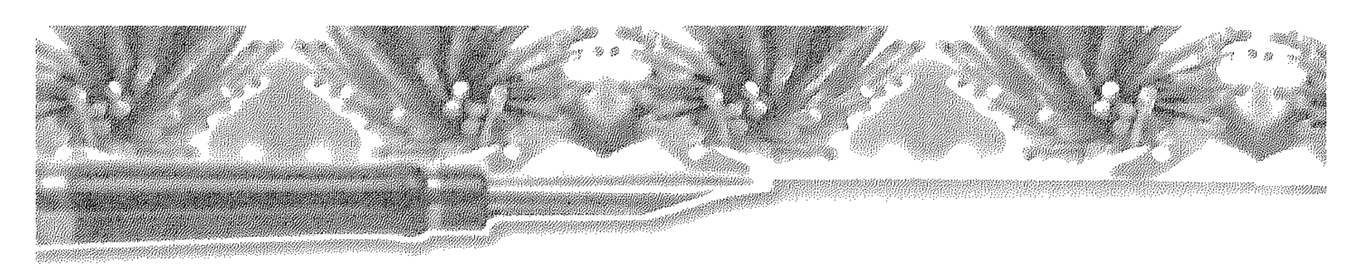
وبالنسبة لى فإن قضية التنمية لا تتم بهذا الشكل، فالبنك الدولى بالنسبة للتعليم، لا يمول إلا التعليم العالى والتعليم المهنى، ولا يهتم بقضية تعليم المرأة أو قضية تعليم الفقراء ومحو الأمية.

ولم تتوقف جهودى، فكنت أحرص على كتابة رأيى للبنك فى كل هذه القضايا وبإصرار شديد وتأكيد على أهميتها وحيويتها.

... وفى سنة ١٩٧٣ حينما كان روبرت مكنمارا رئيسا للبنك الدولى أصدر إعلانا







هاما وهو فى نيروبى قال فيه: من الآن فصاعدا، فإن قضية الفقر هى القضية الأساسية، وأن المطلوب من البنك هو الاهتمام بنسبة ٤٠٪ وهى المستويات الدنيا.. وسعدت جدا بهذا الإعلان، وأنه قد تحقق شىء مما ناديت به، وأصبحت فيما بعد صديقا لمكنمارا وذكرته بما فعله حينما كان رئيسا للبنك وكنت مازلت أعمل فى أولى درجات السلم الوظيفى فى البنك الدولى.

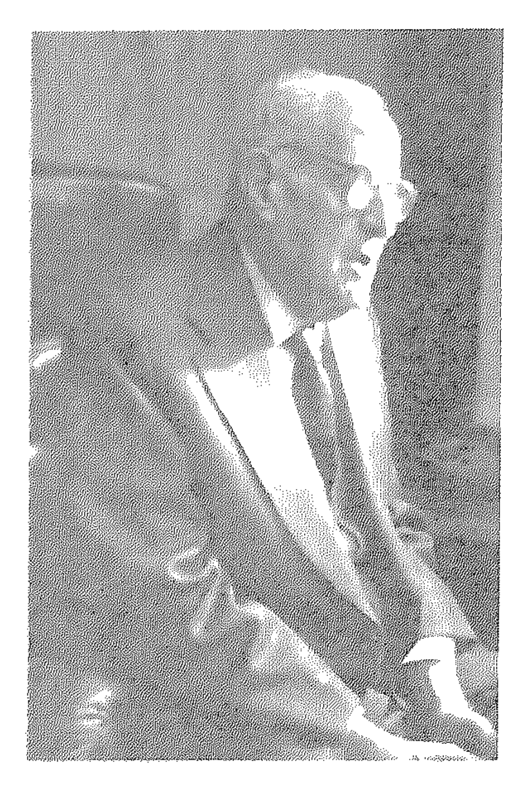
بعد إعلان مكنمارا اجتمع بحوالى مائة شاب من مختلف دول العالم وقال إننى أود تغيير هذه المنظمة ، وأود الاعتماد عليكم لكى تساندونى فى هذا التغيير ولكى نبدأ فى الاهتمام بالفقراء.

وبدلا من أن أترك البنك الدولى، قررت البقاء لمدة عامين ثم رقيت رئيسا لأحد الأقسام، وواصلت العمل بعد ذلك إلى أن وصلت المدة التى قضيتها فى البنك الدولى إلى ٢٨ عاما.

علاقة وطيدة بالدول العربية

والبنك الدولى فى رأيى يعد أهم مؤسسة فى الأمم المتحدة من حيث قدراتها المهنية، حيث يضم الكثير من التخصصات ومن بينها التعليم والزراعة والصحة والإسكان والطرق والكهرباء ، بالإضافة إلى الاقتصاد، وأتاح ذلك ممارسة نشاطات كثيرة فى مشروعات متنوعة.

وحرصت خلال الفترة التى عملتها فى البنك الدولى على استمرار علاقتى بشكل مكثف مع الدول العربية، فكنت مسئولا عن التعاون الفنى مع الدول البترولية فى



د. إبراهيم بيومي مدكور .. اعتبرته بمثابة والدى ، وتعلمت منه الكثير

السبعينيات، وكنت مسئولا أيضا عن بحث المشكلات العمرانية فى مناطق من أوربا والشرق الأوسط والبحر المتوسط وشمال إفريقيا وذلك فى أوائل الثمانينيات، بالإضافة إلى الاهتمام بالقضايا الإفريقية.

وكانت لى إلى جانب ذلك اهتمامات أخرى من بينها تعليم البنات ومحو الأمية والبيئة ومفاهيم التنمية، ومع مرور الأيام دخلت كل هذه المفردات فى سياق اهتمامات البنك الدولى وكان لى اسهامات فيها، وتدرجت فى الوظائف إلى أن وصلت إلى منصب نائب رئيس البنك الدولى.

حرب المياه

وفى سنة ١٩٩٢ طلب منى رئيس

البنك الدولى الاهتمام بأنشطة البنك ، وعملت بالفعل فى تأسيس مفهوم جديد فى البنك الدولى والتنمية المستدامة، وأنجزت بعض ما طلب منى، كما تم إنشاء عدد من بنوك الفقراء.

وكان أبرز ما قمنا به في هذه الفترة قضايا الاهتمام بالمياه، وكان شرفا أن شارك مع عدد من العلماء من بينهم الصديق العزيز الدكتور محمود أبوزيد وزير الرى الحالى.

وفى أغسطس ١٩٩٥ أطلقت عبارة صنعت دويا كبيرا فى المحافل الدولية وهى «أنه إذا كانت حروب القرن العشرين قد دارت حول البترول، فإن حروب القرن الحادى والعشرين سوف تكون حول المياه».

ثم أسست الشراكة الدولية للمياه، وكنت رئيسها، ومع الدكتور محمود أبوزيد أسسنا المجلس الدولى للمياه وكان هو رئيسه، وكنت رئيس *اللجنة العالمية* للمياه والتى قامت بعمل أولى ندواتها عام ٢٠٠٠م وحضرها حوالى ستة آلاف باحث وعالم، وكان أبرز ماتناولته هذه الندوة أهمية المياه فى التنمية.

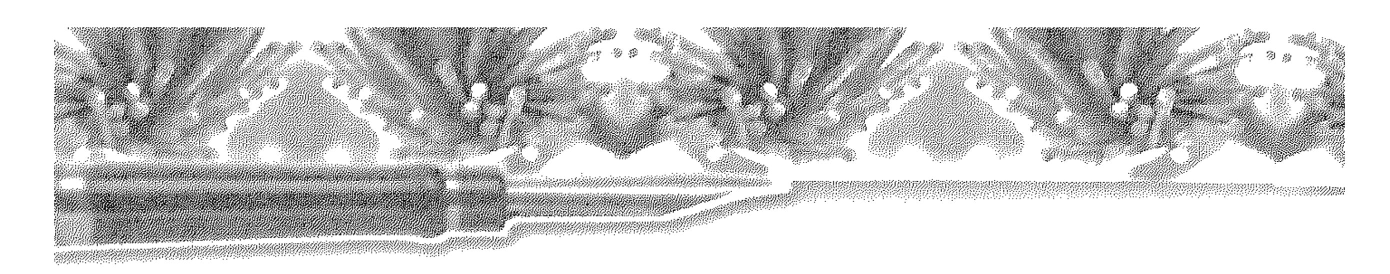
كما شاركت فى عمليات دعم فكرة بنوك الفقراء من خلال ندوة أقيمت فى عام ١٩٩٦، كما كنت رئيسا للجنة البحث الزراعى العالمى لمدة سبع سنوات، فضلا عن إسهاماتى العلمية فى مجالات عديدة.

ترشيحى رئيسا لليونسكو

وفى رحلتى ومع بداية تكوينى أشرت إلى حبى للثقافة، وتنوع الثقافة وبدا هذا واضحا خلال رحلة الثمانية والعشرين عاما التى قضيتها فى العمل فى البنك الدولى .. وبذلك شاعت الظروف وعلى الرغم من أن اسمى كان متداولا فى الأوساط العالمية، فلم أكن معروفا فى مصر، إلى أن جاء ترشيحى لتولى منظمة اليونسكو.

وقد تأثرت جدا بمدى التفاف الرأى العام والشعب المصرى بشكل خاص ومؤازرته لى فى هذا الترشيح.

وكثير من المصريين ذكروا لى بأنهم اندهشوا جدا لهذا العدد الكبير من الشخصيات العالمية الذين التفوا حولى يؤازرون ترشيحى وكان لذلك أثره الطيب فى نفسى، على الرغم من أن الدول لها حسابات سياسية أخرى مما أدى إلى نجاح المرشح اليابانى وهذه التجربة الفريدة لايمكن أن أدعها تمر دون التوقف عند محطات مهمة فيها من بينها على سبيل المثال، مؤازرة ٣٢٥ شخصا بارزا ومهما من ٦٣ دولة، فهم ٤٨ من الحاصلين على جائزة نوبل، قاموا بتوقيع وثيقة يساندون من خلالها ترشيحى لمنظمة اليونسكو ومن بينهم إثنان من الحاصلين على جائزة نوبل، أرسلا لى خطابات خاصة تؤيد ترشيحى والوقوف إلى جوارى ودعمى لتحقيق الهدف المنشود، ولذا حين طلب منى التنازل عن ترشيحى رفضت لأن هؤلاء الذين وقفوا بجانبى حملونى آمالا وطموحات لهذه المنظمة، وبالتالى كان ولابد من مواصلة ترشيحى حتى النهاية على الرغم من أنه استنزف الكثير من مدخراتى، وكل إجازاتى التى لم أحصل عليها طوال عملى فى البنك الدولى،





السيدة سوزان مبارك و د. اسماعيل يتسلمان مجموعة من الأقلام التذكارية من السيد فيدريكو فارول من جمعيات اصدقاء مكتبة الأسكندرية بايطاليا بالأشتراك مع منظمة اليونسكو

استنفدتها خلال حملة الانتخابات لليونسكو.

دروس مستفادة

كما أسلفت التف حولى كثيرون من العلماء والمثقفين من العالم كله ولقد كان تصورى مختلفا عن تصور الحسابات السياسية التى تحدث فى أغلب الأمم، فإذا لم يكن للمثقفين رأى فى اختيار رئيس منظمة الثقافة العالمية، فمتى ستكون لهم كلمة أو رأى يتخذونه؟

ولقد تأثرت بشكل كبير من هذا الموقف الرائع لكثير من مثقفى العالم ومن بينهم عدد كبير من الحاصلين على نوبل.

فبعد أن رشح جارف إيفانز وزير خارجية استراليا الأسبق نفسه فى انتخابات اليونسكو، كان رابع اسم من الذين وقعوا على وثيقة ترشيحى وهو استرالى حائز على جائزة نوبل أرسل لى خطابا يقول فيه : «عزيزى إسماعيل .. كما تعلم فإننى كنت أساندك فى هذه الانتخابات، وكما ترى فإن وزير خارجيتنا قد رشح نفسه، ولذلك فقد رأيت بأن أكتب لك هذه الرسالة مؤكدا على أن دعمى لك مستمر .. وهذه الفقرة من الممكن أن تستخدمها فى دعايتك الانتخابية ضد هذا الوزير!، لأن موقفى وموقف زملائى من الحاصلين على جائزة نوبل ومن المثقفين فى العالم أجمع أن قضية الاختيار يجب أن تكون على أساس الكفاءة، وليست على أساس «الباسبور» أى البلد الذى ينتمى إليه هذا المرشح أو ذاك، ونحن نساندك ونقف معك ليس لأنك مصرى أو عربى، ولكن لأننا نعرف توجهاتك وإمكانياتك الثقافية والعلمية فى جميع الميادين، وما

يمكن أن تضيفه لهذه المنظمة».

وقد تأثرت جدا بهذه المشاعر النبيلة من مثقفي العالم، والعديد منهم مازال يتعامل معي بنفس هذه المشاعر، بل ويدعمون كل الجهود لإعلاء شأن مكتبة الاسكندرية .

لكنني لابد وأن أشير وبعد أن انتهت قصة الانتخابات هذه إلى أن العلاقة بيني وبين الدكتور الشاعر غازى القصيبي تتسم بالمودة والصداقة، ولقد كان تعليقي على كتابه «دروس الفشل» بأن قلت له : أنا لا أختلف مع التحليل الذى تناولته فى الكتاب، ولكنني أختلف فى المنهج، والمنهج يكون أساسا على اختيار الكفاءة، وكل الذين وقفوا دعما لى فى هذه الانتخابات ، كان من منطلق الكفاءة، وليس على أساس أن المرشح من دولة ما. أو تسانده مجموعة معينة.

وكان من واجبي أيضا أن التقى برئيس منظمة اليونسكو بعد انتهاء الانتخابات ونجاحه، وقلت له: مهما حدث فى هذه الانتخابات فهى صفحة قد طويت ولقد كان من أهم أسباب ترشيحي وحملتي الانتخابية، هو إيماني الشديد برسالة اليونسكو، وأن نجاح منظمة اليونسكو مرهون بنجاحك فى إدارتها، وأن فشلك سوف يكون فشلا لليونسكو وعدم قدرتها على أداء الدور المطلوب منها، وتأكد تماما أن أية برامج تفيد هذه المنظمة العتيدة فيمكنك أن تعتمد على مساندتي لك لتحقيقها.

العودة إلى الوطن

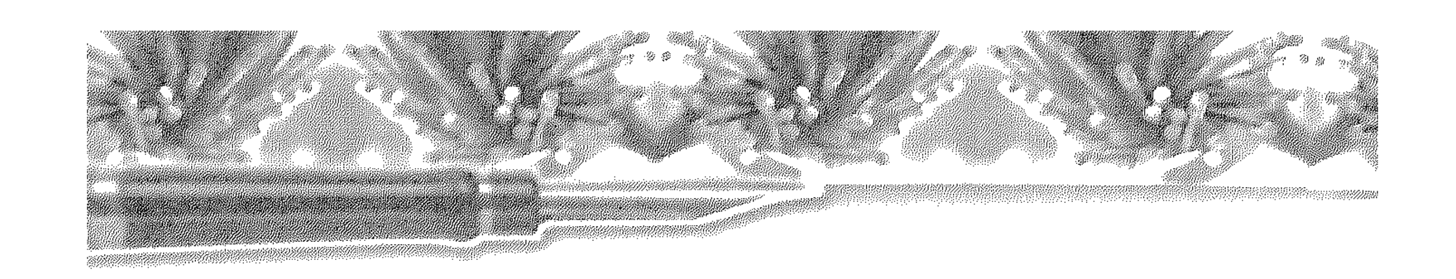
كانت طموحاتي من أجل دعم منظمة اليونسكو، ودعما للمبدأ الذى عشت أعمل من أجله، وهو المصلحة العليا، ولذلك ففي اعتقادي أن دوري عالميا مازالت بصمته موجودة حتى الآن .

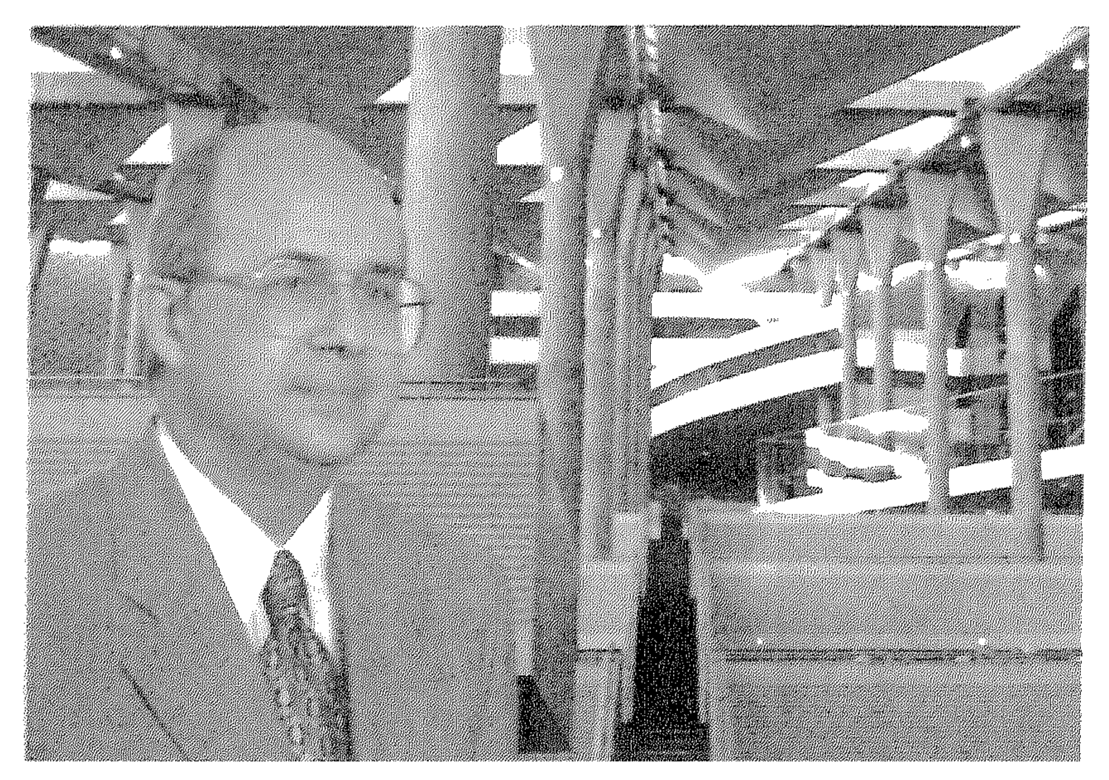
وكما يقولون: رب ضارة نافعة.

فبلدي ومكتبة الاسكندرية هذا المشروع الثقافي الكبير كان لايمكن أبدا أن أرفضه، حتى لو انتخبت رئيسا لمنظمة اليونسكو، وطلب مني أن أتولى مشروعا ثقافيا هو مكتبة الاسكندرية، فإنني كنت وعلى الفور سوف ألبي نداء وطني وبلدي قبل أى شيء آخر.

وأقول كلمة حق أن السيدة سوزان مبارك لها رؤية ثاقبة لهذا المشروع وهي تستحق الثناء والتقدير للدعم المستمر والمتابعة الدائمة ورؤيتها الواضحة ومساندتها الكاملة لهذا المشروع، وهذا الصرح الحضاري الكبير، ولإعادة دور مكتبة الاسكندرية كمنارة للثقافة والحضارة فى مصر .

وأستطيع القول بأن مشوار حياتي قد انتهى به المطاف إلى مكتبة الإسكندرية، وهي بلاشك مسئولية ضخمة جدا، لأن مكتبة الاسكندرية القديمة هي أعظم تجربة فكرية حدثت فى تاريخ الإنسانية، ونحن اليوم من حيث المضمون الثقافي نعيد إقامة المكتبة الجديدة لتصبح صرحا ثقافيا مشرفا لأى مثقف ولأى عالم، كما أنني كمصري أشعر بالفخر خاصة فى ظل الظروف الحالكة التى تعيشها منطقتنا العربية الآن فى ظل الحرب والكراهية والقتل والتشريد أن تقدم مصر إلى الإنسانية مكتبة الاسكندرية الجديدة، رمزا





« مكتبة الإسكندرية » أهم عندى من كل شئ .. حتى رئاسة اليونسكو

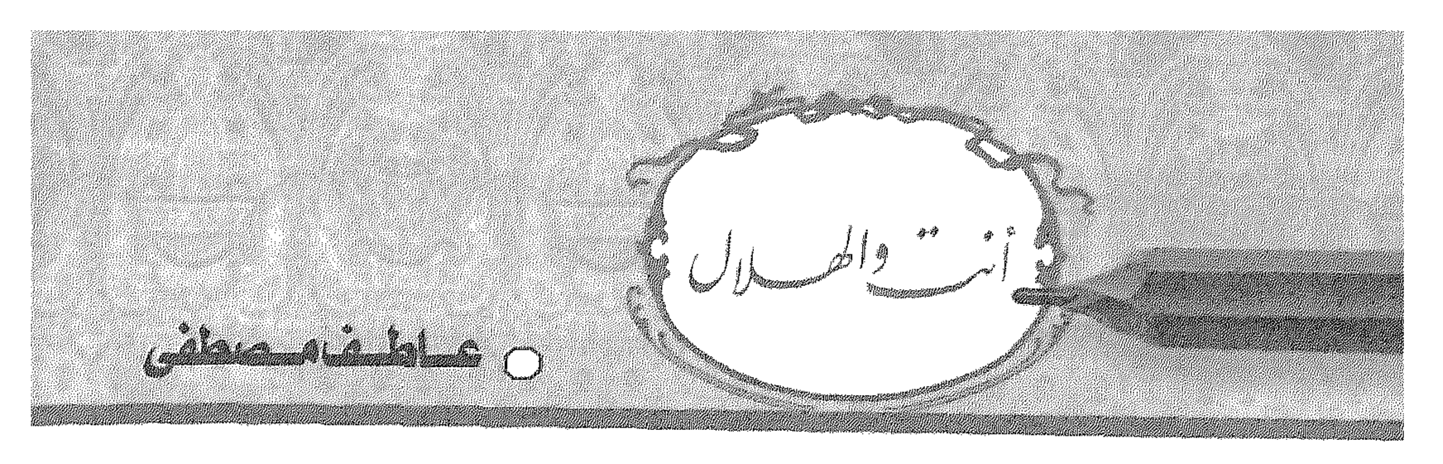
للتسامح والعقلانية والحوار والمعرفة، والعلم وذلك كله له مدلول ثقافى وحضارى كبير جدا، وأكثر ما أسعدني هو التفاف الشعب المصرى بكل طوائفه حول هذا المشروع الحضارى الكبير.

إن مكتبة الاسكندرية ينبغى أن تكون هى رأس الحربة لدخول مصر والثقافتين المصرية والعربية إلى القرن الحادى والعشرين تكنولوجيا وعلميا، خاصة وأن ثقافتنا سوف تعرض في عالم رقمي، وفى صورة رقمية وبالتالي لابد أن نطوع التقنيات الجديدة مثل الإنترنت والمفاهيم المعرفية الحديثة، بحيث يوجد الإبداع المصرى والإبداع العربى فى هذا العالم الجديد.

وباعتبار هذه المكتبة نافذة العالم على مصر ونافذة مصر على العلم، فسوف تكون هى الجسر الطبيعى لهذا، وسوف تكون ملتقى الحوار بين الشرق والغرب .

***

ويبدو أن تكوينى الثقافى .. ومشوار حياتى ربما كان استعدادا للقيام بهذا الدور فى مكتبة الاسكندرية .. فخبرتى الدولية وتعدد المجالات المختلفة التى عملت فيها سواء فى الإدارة الدولية والتمويل والمشروعات الثقافية والاهتمام باللغات المختلفة وعلاقاتى بكبار مثقفى العالم لاشك سوف تفيد كثيرا فى الرسالة الثقافية التى سوف تقوم بها مكتبة الإسكندرية . ■



تهنئة بطبع الهلال على أقراص ممغنطة

أهنئكم بالمشروع الثقافى الكبير الذى شرعتم فى إنجازه بنسخ المجموعة الكاملة من مجلة (الهلال)، منذ العدد الأول الصادر فى عام ١٨٩٢م، على أقراص مدمجة (C.D) ، بالتعاون مع مكتبة الإسكندرية، وقد قرأت فى العدد الأخير من (المصور) أن دار الكتب بصدد إصدار فهارس مجلة (الهلال) فى خمسة مجلدات.

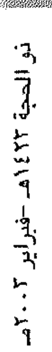
وكنت قد اقتنيت الجزءين من الفهارس اللذين أعدهما الهلال وانتهيا عام ١٩٣٦، وهذا عمل بالغ الأهمية. وإنجاز ثقافى توثيقى يستحق كل التقدير.

وأود أن أشير إلى أنكم كنتم قد أصدرتم بمناسبة الاحتفال بالعيد المئوى لمجلة الهلال فى عام ١٩٩٢، مجلدين عن أشهر مائة كتاب صدرت خلال القرن، ولم يستوف المجلدان الكتب المائة كاملة، وأرى أنه من المناسب أن تستكملوا هذا المشروع الثقافى المهم، بإصدار المجلد الثالث فى موعد قريب، وأدعوكم إلى التفكير فى هذا الأمر لأهميته.

متمنيا لكم كامل التوفيق وإطراد النجاح

عبدالله الإدريسى
مسئول الاعلام بالمنظمة الأسلامية للتربية والعلوم والثقافة - الرباط - المغرب.

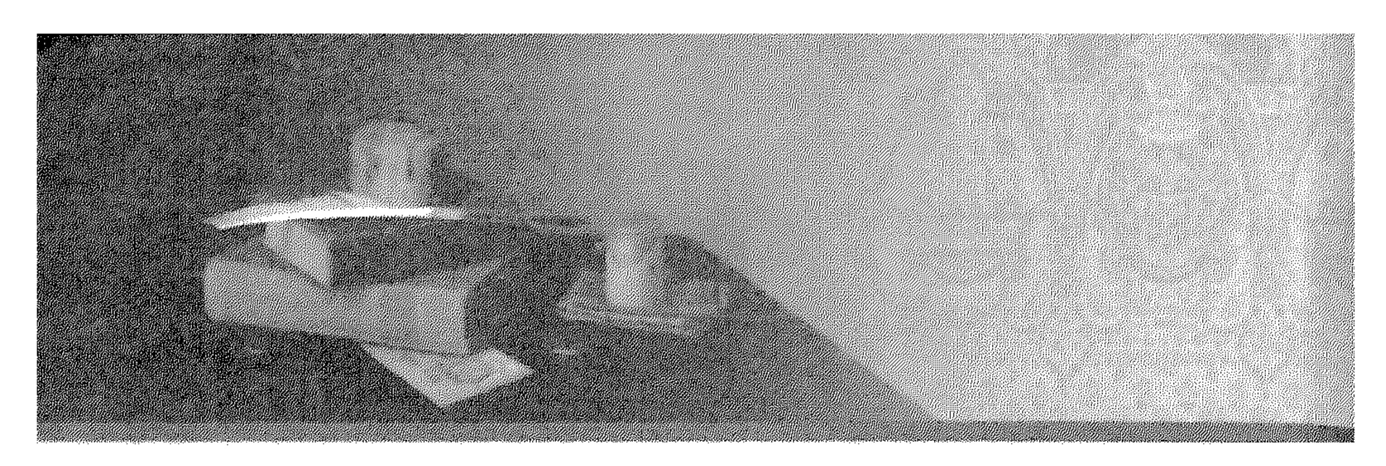




زحف الجليد



زحف الجليد
على قلوب العاشقين
على أسرة السكارى النائمين
على حبات العرق فى الهجير
على زروع الفلاحين
زحف الجليد على الممرات
والحارات ..
على أرصفة الشوارع والسيارات





على بحيرة السد والرمال الصفراء
زحف الجليد على الخليج
وخط الاستواء
على بيت جدرانه تفيض بالحنين
على قلوب الأمهات العاشقات
لنبضات الجنين
على أغطية المهد .. وحقيبة الكتب
فى كتف البنات والبنين
زحف الجليد على شمس أشرقت
فوق مآذن الأقصى فى فلسطين.

صباح عمر

فارس بلا جواد

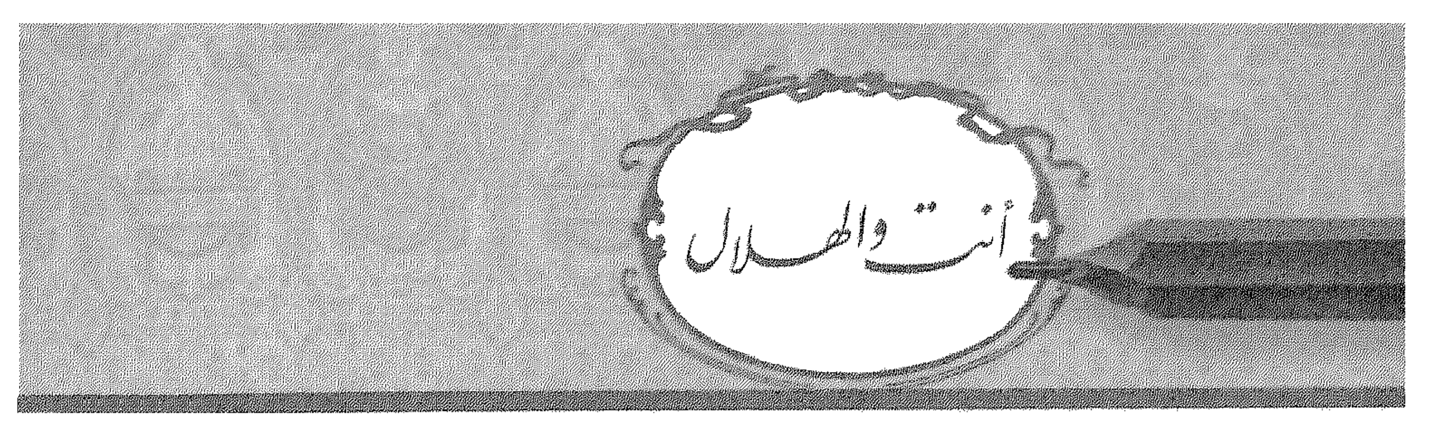
كلام كثير قيل حول مسلسل «فارس بلا جواد» .. وحمدت الله أن جاءت الأديبة الناقدة صافى ناز كاظم «بالكلمة الأخيرة» فى هلال يناير الماضى فى نقد هذا المسلسل محققة مفهوم الفنان محمد صبحى من وراء عمله ذى الرؤية التليفزيونية، مما كاد يغيب عن كثيرين ممن هاجموه بلا رحمة!.

إن جملتها فى بداية نقدها «مزاح الجدية وجدية المزاح» والتى فيها روح أسلوب عميد الأدب العربى، هذه الجملة بالرأى الأصوب لما هدف إليه هذا المسلسل.

وإن الناقدة صافى ناز كاظم وضعت الأمور فى نصابها حين قالت «لم يكن المسلسل مجرد نقل لصفحات من «تاريخ» عهد الاحتلال الإنجليزى، لكنه بكل إيحاءاته كان عينا على مايجرى حولنا ونتابعه يوميا فى نشرات الأخبار.

تحية للهلال لجدية ماتقدمه من خلال كتابها ذوى الآراء السديدة محققين مقولة د.شكرى عياد من أن «الناقد هو الفنان القارىء والقارىء الفنان».

د.سامي نصير
كلية التربية - جامعة الاسكندرية



زيارة سعد زغلول للصعيد

فخرى عبدالنور كان من أبرز المؤيدين والمناصرين لحزب الوفد، وهو مولود بمدينة جرجا فى ١٥ يونيو ١٨٨١م، وقد دعا سعد زغلول ومصطفى النحاس لزيارة الصعيد، وعلى الرغم من المشكلات التى حدثت وهو يعد لهذه الرحلة التى زار فيها زعيم الوفد محافظات أسيوط وجرجا وقنا وأسوان، فقد بذل «عبدالنور» جهدا كبيرا لكى تتم هذه الرحلة بشكل طيب، وفعلا نزل سعد باشا ضيفاً على فخرى عبدالنور وخطب فى الأهالى وكان الاستقبال حماسيا من كل القرى المحيطة بجرجا.

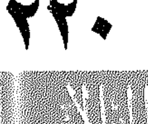
واستمرت الرحلة ثلاثة أسابيع هز فيها سعد زغلول مشاعر المصريين وهو يحثهم على حب الوطن وضرورة الاستقلال.

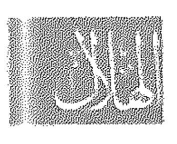
وعلى الرغم من محاولات وزارة الداخلية فى منع الأهالى من استقبال زعيم الأمة، فقد كانت المشاعر الوطنية من قبل صغار ضباط البوليس والجيش فياضة فقد أحسنوا معاملة الأهالى الذين كانوا يستقبلون زعيم مصر.

وأهم مايلفت النظر فى دعوة فخرى عبدالنور أن القبطى والمسلم فى ذلك الوقت كانا يحرصان على الوحدة الوطنية وحب مصر.

محمد طلعت أبوزيد
مصر الجديدة

تحية لوديع فلسطين



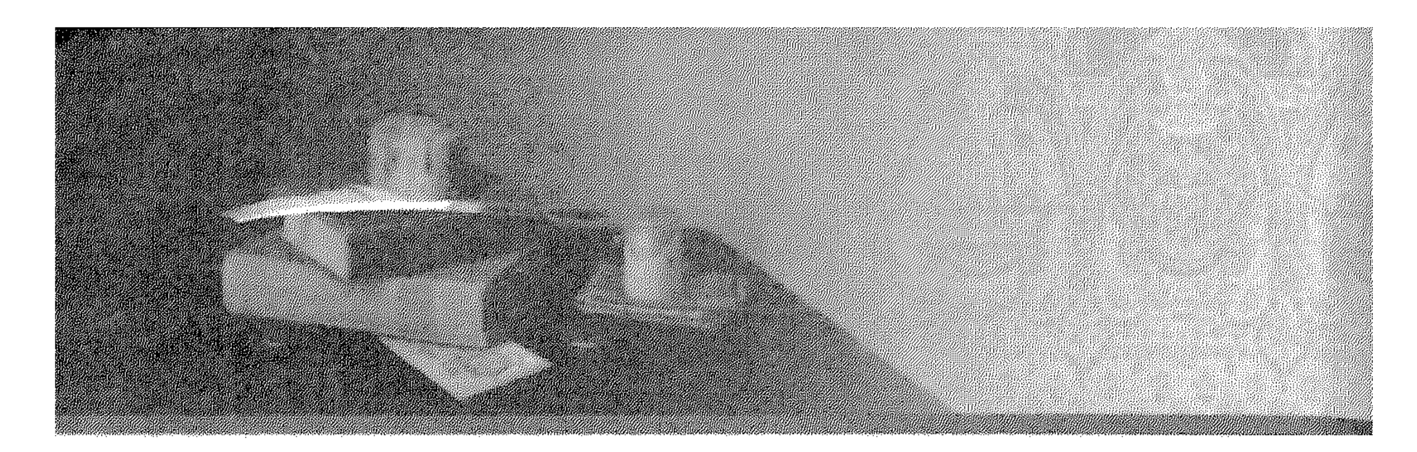


وديع فلسطين .. هذا الكاتب الجميل الذي يمتعنا بمقالاته الشيقة فى الهلال .. أشكره لاستجابته لرجائى عبر طلبى بأن يكتب عن الثائر الدكتور زكى مبارك وذلك فى عدد يونيه ٢٠٠٢.

وانتهز هذه الفرصة لكى أطلب من الكاتب الكبير أن يواصل كتاباته عن كبار الكتاب والمؤرخين ومن بينهم العقاد وأحمد حسن الزيات ومحمود شاكر ومحمد مندور وأنور المعداوى وغيرهم، فكتابته تتميز بالدقة والأمانة.

شىء آخر أشير إليه وهو وصول الهلال بصعوبة إلى ليبيا على الرغم من قربها إلى مصر.

صالح عمار النائلى
طرابلس - ليبيا



- أصدر كتاب الهلال، كتاب زكى مبارك ذكريات باريس.

كما أعادت دار الهلال نشر كتاب زكى مبارك «ليلى المريضة فى العراق» تضامنا مع الشعب العراقى.

عارأن نستكين

جلجلى : الله أكبر يامياه الرافدين
وارفضى يا أرض بغداد تعدى الغاصبين
واجعلى نخلك يابصرة درعا متين
لاتزعزعه صواريخ الأعادى القادمين
يمكر الأعداء ياربى بنا فاكفنا هم أنت خير الماكرين
مالنا إلاك يرجى نصره فانصر المظلوم وافن الظالمين

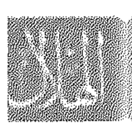
***

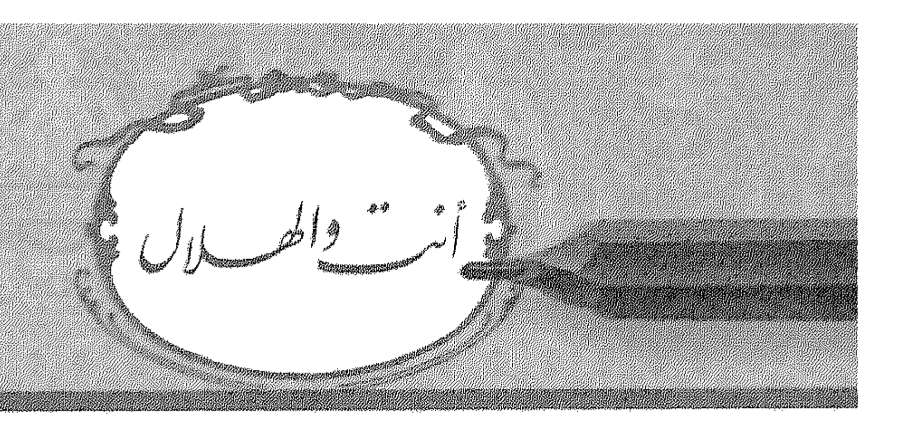
نحن صرنا فى زمان بائس ليس فيه سعة للبائسين
يابنى قومى افيقوا أدركوا لن يسود الكون قوم خاملون
هاهم الأعداء باتوا حولنا كل حين ولهم فينا كمين
ومن العار بأن نبقى على حالنا، فى الذل دوما غارقين
مخلب الغازين فى أجسادنا هل تركناها سدى للغازين؟
ويحنا إن لم نحصن أرضنا من سموم الغرب متنا أجمعين

درهم جبارى
سان فرانسيسكو - أمريكا



فى عدد هلال ديسمبر ٢٠٠٢ عرض الدكتور أحمد زكريا الشلق فى باب «من ذخائر الكتب العربية» كتاب تقويم النيل لأمين باشا سامى، عرضا نقديا شائقا، ومبيناً أهمية الكتاب فى تاريخنا الحديث، وهو بلاشك جهد مشكور لمؤرخنا الكبير ولمجلة الهلال التى حرصت من خلال هذا الباب على التعريف بأمهات الكتب العربية قديمها وحديثها.





وهناك كتاب مهم هو «تاريخ الحياة النيابية» من عهد ساكن الجنان محمد على باشا لمؤلفه محمد خليل صبحى رئيس قلم مكتب مجلس النواب وقد أخرجه مؤلفه بصور الأشخاص، والأعلام الذين أسهموا فى حياتنا النيابية والدستورية، وأيضا بالصور الزنكوغرافية للوثائق والقوانين والمضابط للهيئات النيابية المتعاقبة فى أصولها، أو منقولة عن جريدة «الوقائع المصرية».

ومن خلال الهلال أرجو أن تقوم الهيئة المصرية العامة للكتاب بإدراج كتابى «تقويم النيل» و«تاريخ الحياة النيابية» ضمن خطتها بإعادة نشرهما فى إطار مشروع مكتبة الأسرة، لكى يكونا بين أيدى محبى تاريخ مصر، والدارسين والباحثين.

عمرو عبدالمنعم حمودة

● **الهلال :**

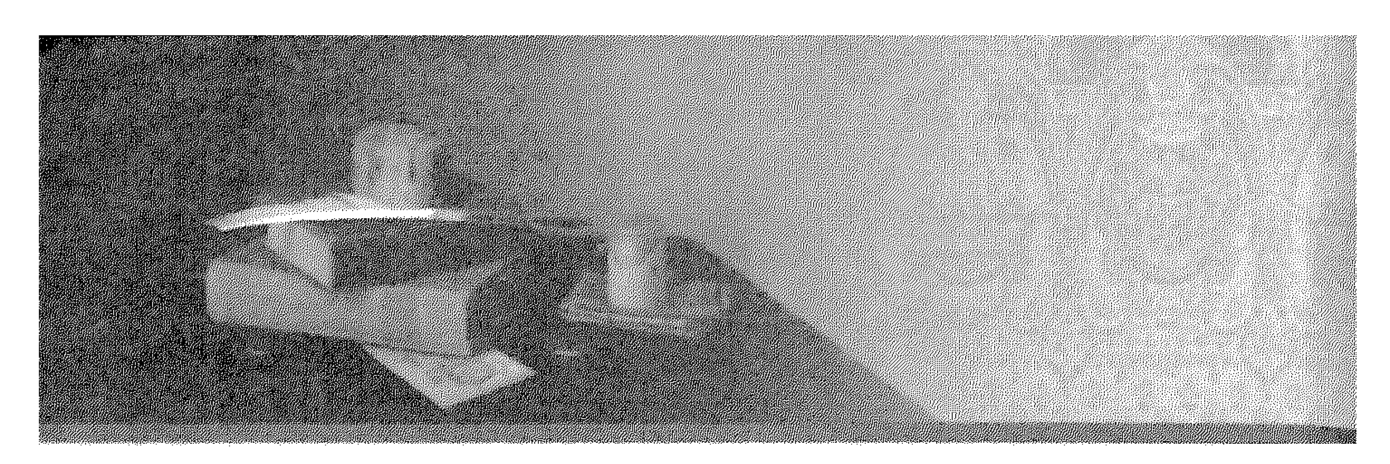
بدأت دار الكتب نشر كتاب «تقويم النيل» لأمين باشا سامى ونرجو أن يلبى الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة العامة للكتاب هذا المطلب.

العام الحزين!

من المؤلم جدا أن نتوقف أمام حصاد عام ٢٠٠٢ ، حيث نشهد هذا الانتشار الواسع للجيش الأمريكى سواء على سطح المعمورة من خلال رجاله وجنوده، أو أسطوله وهو «يسبح فى البحار والمحيطات وخصوصا فى مياه الخليج بحجة محاربة الإرهاب!

أيضا ما نشهده الآن من أخبار تزف إلينا فى كل يوم وفرق التفتيش فى العراق تبحث داخل مصانع الحليب عن أسلحة الدمار الشامل، كما شهدت أرض فلسطين تلك الأرض المقدسة، بلد المسيح كيف مر يوم ميلاد المسيح والناس يعيشون تحت حصار احتلال بغيض .. كما شهد عام ٢٠٠٢ مدى السيطرة الحقيقية للولايات المتحدة على الأمم المتحدة ومجلس الأمن، لدرجة أننا نقول الآن : الأمم المتحدة الأمريكية، فى وقت يقف فيه العالم كله مكتوف الأيدى أمام الهيمنة الأمريكية!

د.جمال علي العطار
الاسكندرية - كامب شيزار



ظبية وفن الغناء

عرف الغناء العربى فى مكة والمدينة بعد الإسلام على أيدى عدد من النوابغ فى هذا الفن ومنهم ابن مسجح والغريض وتتلمذ على أيديهما «معبد» الذي ذاع صيته فى الجزيرة العربية والشام وقيل إن النساء كن مفتونات بجمال غنائه وحسن طلعته أما هو فلم تفتنه وتأخذ بقلبه إلا جارية حسناء عذبة الصوت تدعى «ظبية» عهد بها سيدها إلى «معبد» ليعلمها فن العزف والغناء فأحبها من أول نظرة فقال لها :

– أيا ظبية فتنتنى وكأننى غلام غر بهره الجمال وعصف به.

– ياسيدى أتقبل أن تعلمنى فنك المتقن.

– هذا لك يا أميرة الحسن وسيدة الجمال أعلمك أصول الغناء وآخذ عليك عهدا ألا تلقنيها لأحد بل اجعليها سرا بيننا.

– إن سرك سيطوى فى الجوارح وأطوى عليها جفون القلب والله وحده يعلم مكنون الجوارح.

– إذن فغن وقولى بعدى :

تولع بالعشق حتى عشق

فلما استقل به لم يطق

رآه لجة ظنها موجة

فلما تمكن منها غرق

وتكررت حلقات الدرس وصار العشق سلطانا على قلب معبد وظبية التي برعت فى العزف والغناء فذاع صيتها مما جعل صاحبها يطمع فيها فباعها لأحد الأثرياء ورحل بها إلى البصرة وبها أحبها الناس وفرحوا بها لكن قلبها لم يتحول يوما عن «معبد» بل ظل مقيما به وكلما غنت تذكرته وهى تقول :

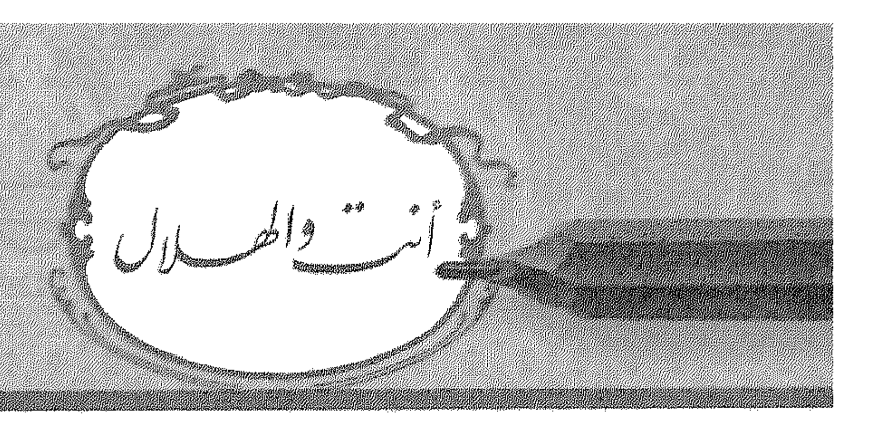
قالوا جننت بمن تهوى

قلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه

وعنا يصدع المجنون فى الحين

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية



مصر المحروسة

مصر مبروكة ومحظوظة من قديم الزمان، فيها وخلالها ومنها نشأت وانقسمت الرسالات السماوية الثلاث نشأ فيها موسى عليه السلام، وزارها ومر بأرضها عيسى عليه السلام وانتسب إليها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وسيدنا موسى ولد وتربى فيها وعايشها، وعيسى لجأ إليها واحتمى من الرومان. ومحمد جدته مصرية وكانت زوجة لإبراهيم عليه السلام جده الأكبر، كما تزوج من بناتها وأوصى بمصر ودعى لها بالخير والبركة.

باركها الله فأنشأ بها أقدم الحضارات وادخرها لخير البشرية والغريب القادم إليها يشعر فيها أنه قريب، وإذا غادرها رغب فى العودة إليها مرة ومرات.

لهذا حفظها الله من قديم الزمان ، وادخرها إلى يوم البعث الموعود، رمزا للسلام.

مهندس رستم غالب

يافؤادى

تمهل فــؤادى فــمـــهـــلا ومـــهـــلا
نـهـلت المعـــاصـى وداومت نـهـــلا
وأحـــيـــيـــتنى ثم أنجـبت جـــهـــلا
وضـلـلتنى حين أصـــبـــحت كـــهـــلا
تمهل فــؤادى فــمـــهـــلا ومـــهـــلا
وقـل يافـــــؤادى لـمن جـــاد: أهـلا!!

محمود المصلى

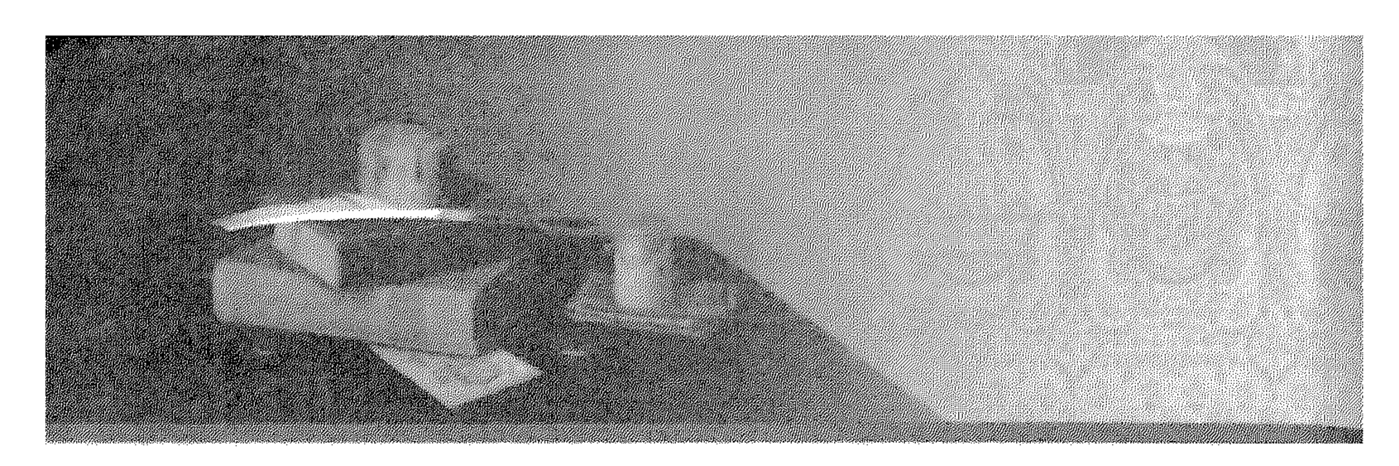
- شربين - دقهلية

تحديث مصر

قرأت كلمات الدكتور رشدى سعيد فى مقاله «نحو آفاق جديدة» والمنشور فى هلال ديسمبر ٢٠٠٠ والتى يقول فيها : هذه وعشرات الأسئلة الأخرى تحتاج إلى أن يدور حولها نقاش فى إطار ميثاق للعمل الوطنى يحدد المبادىء الأساسية لضوابط العمل الوطنى، حتى يجىء متمشيا مع بناء دولة ديمقراطية مدنية تأخذ بالطرق الحديثة فى الإدارة والتنظيم.

وهذا يدفعنى للقول بأن تحديث مصر يحتاج إلى جهد العلماء والمخلصين فالأحلام وحدها لاتكفى، بل إن التخطيط السليم، والعمل الدعوب وتنظيم النسل وتطوير التعليم، والإخلاص فى العمل .. كل ذلك سوف يكون وسيلتنا الحقيقية للنهوض بمصر.

حسين منتصر - فارسكور - دمياط



قسوة الليل

قد أقبل الليل بالأشجان يغشانا
والعقل يسبح فى الأفكار حيرانا
والقلب فى لظى الأشواق ثائرة
تعصى الكرى وتذيق الوجد نيرانا
فلا أرى عبرات العين تبررننى
ولا أرى لطريق الصبر عنوانا
ثارت هموم الدجى بالنفس تجزعها
فالهم يطغى على الأحلام ظمآنا
إلى هوانا ويسقى القلب حيرته
كى يحتويه ويرعى فيه آشجانا
ما عاد ليل الصفا بالحب يبهجنا
ويلتقى فى حمى الأسحار ألحانا
فالشعر أبكى فؤاد الحب أحزنه
ألقى الرثاء فذاق القلب أحزانا
نبكى على (عُمر) فالعدل منحسر
والظلم منتشر، قد بات نشوانا
يلهو بأرض الهوى، والنار رايته!!
عم البقاع ويسقى الأهل طغيانا!!!
فالظلم يسعى وصوت الخوف يطربه!!
يذيق من ذا اللظى برا وشطآنا
كم تشتكى ربوات الطهر ضارعة
عسى الإله يعيد الفرح ريانا
أحلام أطفالنا باتت مروعة
فالموت يمضى لها جورا وبهتانا

زكريا عبدالمحسن على
أسيوط - الفتح - جزيرة الواسطى

الكلمة الأخيرة





الطريق إلى الجنة..

بقلم: د. الطاهر أحمد مكي

شغل الإنسان منذ آن وعى بما وراء الموت، وحاولت الأديان سماوية وأرضية أن تقدم له جوابا: بعد الموت بعث وحياة أخرى، وإثابة على الأعمال الصالحات، جنة عرضها السماوات والأرض، وعذاب صارم، نار حامية على الذنوب والخطايا والمعاصى.

ولكن .. ما هو العمل الصالح الذى يحملك إلى الفردوس، وما الخطايا التى تقودك إلى جهنم وبئس المصير؟ هنا تختلف الرؤية، وليس ثمة ميزان واحد لا يختلف عليه أحد، ولا صلة لذلك بما هو متعارف عليه، أو يبشر به الدعاة ورجال الدين فى كل الملل والنحل والأديان.

لقد جاءت حكايات الأدب الشعبى فى كل اللغات تهدم هذه القواعد والنظريات، أقدمها ما كان فى الأدب القبطى، وأشهرها منه حكاية قرأتها فى كتاب «حياة الآباء Vitae Pat-yum» تقول: إن الكاهن أنطونيو اتخذ من صومعته مكانا لا يبرحه، يصوم نهاره، ويقوم ليله، ويحرم نفسه من كل طيبات الدنيا ، أملا فى رحمة الله، وطمعا فى جنته، وذات مساء سمع هاتفا يناديه: أنطونيو، لا يداخلك العجب والغرور، فأنت مع كل ما تفعل لم تحقق من الطيبات الصالحات ما حققه دبّاغ يعيش فى الإسكندرية.

اضطرب الكاهن العجوز أمام هذه الرؤيا، وعندما أشرق الفجر حمل عصاه وتوجه إلى الإسكندرية، وفيها راح يسأل عن الدبّاغ حتى اهتدى إليه، وزاره فى بيته المتواضع بناء وأثاثا.

أُخذ صاحب البيت وتجمد ، حين رأى ناسكا دينا وقورا يزوره فى داره، ويحاوره فى ود واحترام وتقدير:

من أجلك تركت صومعتى، وجئت لأراك، وأعرف من أمرك ما أجهل، وقد سألت الناس جميعاً عنك فلم يذكروك بأى خير، ورموك بكل القبائح والشرور، وأنك ترتكب كل المعاصى.

رد الدباغ: معهم كل الحق يا أبى، أنا لا أذكر أنى عملت فى حياتى كلها عملا صالحاً، وعندما تشرق الشمس فوق المدينة الكبيرة كل يوم، أعتقد أن كل سكانها ، الكبار والصغار، سوف يدخلون الجنة لصلاحهم، إلاّ أنا ، فطريقى إلى جهنم مباشرة بعد الموت! وعندما آوى إلى فراشى أحاسب نفسى، التى تمتلىء حزنا وغما وإحباطا ، والشىء الوحيد الذى يخفف من كربى أننى أبذل كل جهدى وطاقتى كى أبلغ بحرفتى حدا من الإتقان لا مزيد عليه.

قال الكاهن : يابنى ، إنك بدقتك فى عملك ، وإتقانك حرفتك، ربحت مملكة الله!.

أما أنا فأسرفت فى العبادة، وضيعت أيامى فى العُزلة، ولم أبلغ من رضا الرب ما بلغت أنت، هنيئا لك.. الجنة فى انتظارك!

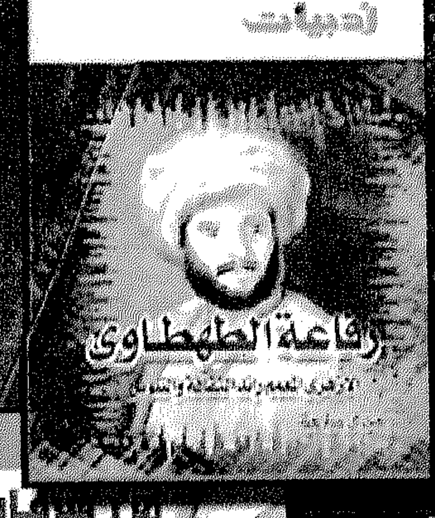
الحرص على دقة العمل ذاتيا عبادة كانت وراء نهضة مصر فى أيامها الخوالى، وهنت مع الزمن عندنا ، وذكرها وتمسك بها غيرنا فكان انهيارنا ، وكان تقدمهم! ■

أدبيات

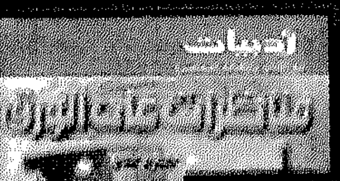
تعنى بالآداب والثقافة المعاصرة















طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع
تليفون: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس: ٦٨٢٧٠٠٢

الهلال

مارس ٢٠٠٣ الثمن ٤ جنيهات

من أب مصرى
إلى الرئيس الأمريكى

الأديان على الإنترنت

الذهب
فى بورصة الأحداث

لوحة وفنان



لوحة : رجل جالس

الفنان : حامد عبد الله

الهلال

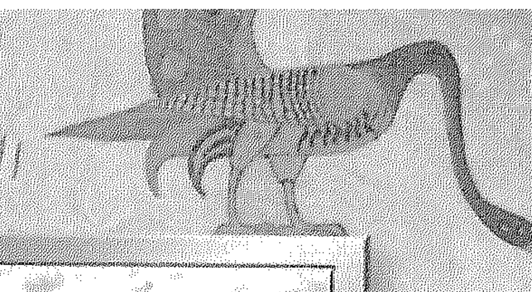
مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

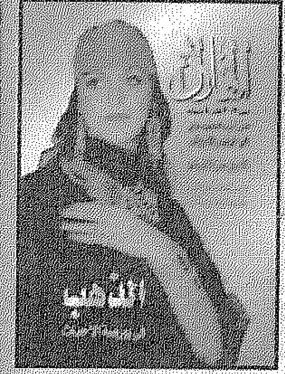
الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت.٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير
محمد أبوطالب المستشار الفني
عاطف مصطفى مدير التحرير
محمود الشيخ المدير الفني

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات
البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال- تونس ٣
دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار-
إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات



الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@yahoo.com

العام الحادى عشر بعد المائة

محرم ١٤٢٤ هـ -مارس ٢٠٠٣م

الأبواب الثابتة



سجل الهلال بين يدى القراء

إن التنسيق الذى يحدث بين المؤسسات الثقافية يرتقى بالعمل الثقافى، وينتج لهم المزيد من الإطلاع على الموضوعات الهامة فى مجالات الثقافة والإبداع والاقتصاد وفى العلوم وغيرها فمنذ ثلاثة أشهر تم عقد اتفاق مع مكتبة الاسكندرية على طبع الهلال منذ صدوره فى عام ١٨٩٢ وحتى الآن على أقراص مدمجة C.D والمشروع يسير سيرا حسنا، حيث بدأ فريق مدرب العمل على إنجاز هذا المرضوع الثقافى المهم، وبعد وصول الأجهزة المتقدمة والتى يصل ثمنها إلى ستمائة ألف جنيه، ومن المتوقع أن نتسلم باكورة هذا العمل خلال نهاية العام، ولتساعد الباحثين، وتكون خير هادٍ لهم فى مشوارهم الفكرى.

وفى النصف الأول من فبراير الماضى سلم الدكتور صلاح فضل رئيس مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية مجلة الهلال «كشاف الهلال» والذى أنجزته دار الكتب فى وقت قياسى بفضل مجموعة من العلماء والباحثين يتقدمهم فى الإعداد رضا صبحى الوزيرى، وبإشراف الدكتور محمد جلال غندور وعايدة حنفى ذكر الله.

وهذا الكشاف يضم فهارس تفصيلية لأعداد مجلة الهلال منذ سنة ١٩٣٦ وحتى سنة ١٩٥٢ فى مجلدين وصل أعداد صفحاتهما ١١٥٤ صفحة من القطع الكبير، وقد وضع خطة العمل فى المجلدين لجنة تضم ثمانية من كبار علماء البيلوجرافيا فى مصر ونفذ هذا المشروع الثقافى المتميز ٣٥ باحثا من العاملين بمركز البيلوجرافيا فى دار الكتب.

كانت دار الهلال قد أصدرت «كشاف الهلال» الأول والذى يبدأ من سبتمبر سنة ١٨٩٢ وحتى يوليو ١٩١٤ بإشراف الدكتور أحمد حسين الصاوى.

كانت زاخرة بعدد من الكتاب من بينهم طلعت حرب وقاسم أمين وفتحى زغلول ومصطفى صادق الرافعى، بالاضافة إلى تزويد القارئ بكل أخبار العلم ومنجزاته من شتى أنحاء العالم، فضلا عما نشر عن صورة المجتمع المصرى فى تلك الحقبة والتى برزت ملامحها من خلال ما نشر عن استخدام الكهرباء وتسيير الترام فى شوارع القاهرة، وما نشر عن الاقتصاد المصرى ومحصول القطن، وما عبرت عنه أقلام الكتاب من مختلف الاتجاهات الفكرية، حول موضوعات بالغة الأهمية مثل التعليم وتحرير المرأة، وإنشاء الجامعة، والثقافة العربية والغربية، فضلا عن اهتمام «الهلال» بالأدب العربى بشكل خاص، حيث حفلت صفحاتها بمختلف البحوث والمقالات التى تناولت عدة قضايا أدبية واحتفت بقصائد كبار الشعراء المعاصرين، فنشرتها مع دراسات نقدية لها.

وجاء الجزء الثانى من «كشاف الهلال» متضمنا الفترة من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩٣٦ وهو من إعداد وتحقيق د. أحمد حسين الصاوى، وقد صدر بعد عشر سنوات من ظهور الجزء الأول وهذه المرحلة لها أهميتها فى تاريخ مصر المعاصر، فهى تضم سنوات الحرب العالمية الأولى، ثم حقبة النهضة الوطنية التى جسدها الفنان التشكيلى محمود مختار بتمثاله الرائع «نهضة مصر» وقد بدأت هذه الحقبة بثورة ١٩١٩، وشملت مختلف النواحى من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وفنية، وكانت مرحلة خصبة لها انجازاتها المتعددة فى شتى جوانب الحياة المصرية.

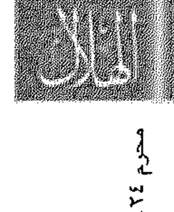
وكانت صفحات «الهلال» مرآة صادقة لكل ما تموج به الحياة الفكرية من اتجاهات وآراء، ومنبرا عاليا يعبر من خلاله أصحاب الأقلام عن معالم تلك الانطلاقة المصرية الفذة فى مختلف المجالات، ومعرضا فسيحا لنتاج الكتاب والمبدعين الذين ازدهرت بهم الحياة الأدبية والثقافية.

كانت «الهلال» سجلا أمينا لمعالم ذلك التطور الكبير بكل دلالاته ومؤشراته، وبالإضافة إلى مشاهير الكتاب المصريين فى ذلك الوقت فقد اجتذب الهلال عددا من الكتاب العرب فى مقدمتهم «جميل صدقى الزهاوى شاعر العراق المجيد ورشيد سليم الخورى (الشاعر القروى) وخليل مطران (شاعر القطرين) ومى زيادة.

وهذه الجهود التى يتم بذلها وخاصة إتمام فهرسة المجلة حتى عام ٢٠٠٢ والتى من المتوقع أن تصدر فى خمسة مجلدات يتم الانتهاء منها هذا العام تؤكد على دور مجلة الهلال فى الحياة الثقافية العربية، وتفيد الباحث الذى يهتم بفنون المعرفة الإنسانية من خلال عمالقة الكتاب والشعراء والأدباء.

وقد جاء الاتفاق بين دار الهلال ودار الكتب بأن تتولى دار الهلال توزيع مجلدات الفهارس، كما سيتم خلال هذا الشهر إقامة حفل استقبال بهذه المناسبة الثقافية الكبرى، يدعى إليه عدد من المثقفين والباحثين المصريين والعرب، وتقام ندوة فكرية على هامش هذا الاحتفال ولتتألق الهلال فى مجال الثقافة العربية، خاصة بعد التطوير الذى بدأناه فى عام ٢٠٠١ ونواصل بذل كل الجهود من أجل القارئ العزيز ولتظل دائما الهلال المجلة العربية الأولى فى مصر والعالم العربى. ■

المحـــرر



رسالة من أب مصرى

إلى الرئيس الأمريكى ترومان

شعر

عبد الرحمن الشرقاوى

هذه القصيدة كتبها الشاعر الكبير عبدالرحمن الشرقاوى منذ نصف قرن وقد وجهها إلى الرئيس الأمريكى.. ننشر مقتطفات منها تعبر عن الهيمنة الأمريكية وما يحدث الآن من حشود عسكرية امريكية وبريطانية لضرب العراق وتهديد أمن المنطقة العربية.

سألتك - لاضاحكا هازلا - فقد جمد الضحك فوق الشفاه
وما أنا بالسائل المستخف
وأنى لأوجس إن لم أخف
وأنت بيمناك سر الحياة
ألا تملك الذرة المفنية!
ولكن أنا
أنا وابنتى
وفتاتى التى أجن بشوقى إليها هنا
- أى زوجتى -
وهذا الصديق، وذاك الرفيق، وكل الرفاق بناة الغد
أنملك نحن سوى التضحية؟
ألا ننحنى لك يا سيدى
وأنت إله الزمان الجديد



وكالله أنت إله وحد؟!
معاذك!! بل أنت فوق الشبيه، وليس كمثلك شيء يكون
وفى الأشهر القلة الماضيات أبدت الذى لم يبد فى سنين!

★★★

على أننى قد أطلت الحديث ، ولم تدر يا سيدى من أنا
ولكن أنا.. أنا من أنا..!؟
.. ولدت لعشرين عام مضت على مطلع القرن ياسيدى
وقد فرغ العالم المستجير من الحرب.. ثم مضى آمنا:
يوزع أسواقه الباقيات
ويهزأ بالموت والتضحيات.
وبالذكريات.
وقامت شعوب تهز الظلام بمشرق أحلامها الهائلة
وتعلى على خربات الفساد بناء مدينتنا الفاضلة
فلما بدأت أعى ما يقال رأيتهم يملأون الطريق
تهز الفؤوس ركود الحقول وتغلى بما تحتويه العروق
وكانوا يقولون : «يحيا الوطن».
حفاة يهزون ريح الحياة ويستدفعون شراع الزمن
وساءلت أمى عما هناك «وماذا دهى القرية الساكنة»
فقالت : بنى هم الإنجليز يثيرون أيامنا الآمنة
وقد أخذوا كل غلاتنا.. وقد نضب الماء فى الساقية
ولم يبق شىء على حاله سوى حسرة مرة باقية؟

★★★

.. ولما كبرت لبست الحذاء ووليت وجهى إلى القاهرة
فأبصرت من تحت ثقل السلاح وجوههم الجهمة الحائرة
وكنت أراهم وهم يركلون فتى فى طريقهم..أو فتاة
وقد ينزعون حجاب امرأة
فتصرخ «ويلى من الانجليز».
وقد يعبثون بشيخ عجوز
فيملأنى الرعب مما أراه - ويرهق سمعى - ما لم أره.

★★★

ويأتى الخريف بأشباحه وتمشى التعاسات فوق الحقول
فأمضى لأطلب علم الكتاب وعلم الكتاب لدينا هزيل
وندرس «جغرافيا» ذات عام، ونعرف كل مناخ الدول

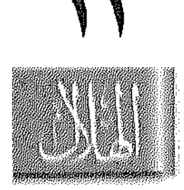
وألح فى «أطلسى» دولة ومن فوقها حمرة تشتعل
فإن كنت يا سيدى قد أطلت. وقد سقت هذا الحديث الحزين فإنى حزين
حزين شقى لبعد ابنتى.
حزين أخاف عليها المصير وأنت أب تعرف الوالدين
ولست أريد لها أن تموت.. فرفقا وأنت تخط المصير
أترمى حماماتنا بالنسور؟!
معاذ الأبوة يا سيدى.. فأنت أب : وكلانا حنون
ألست تصون حياة ابنتك.
فهل تصنع الموت للأخريات
وإنى لأدعوك باسم الأبوة؟؟ باسم الحياة.. باسم الصغار.
لتعقد حلفا يصون السلام ويرعى المودات بين الكبار
فأنت أب قد صنعت الحياة ولن تصنع الموت بعد الحياة
لماذا إذن يا إلهى الرحيم يذيعون حولك هذا الجنون!؟
ولكن لمن كل هذا العديد؟
وتلك الحشود؟
ولكن لمن كل هذا الهزيم؟
لمن هذه النافثات السموم؟
لمن هذه الناشرات الجحيم؟
لمن تسرق اليوم أقواتنا لتصنع ماشئت من فاتكات؟
لمن تحشد اليوم فى السابحات، وفى الغائصات ، وفى الطائرات
وفى الناشطات.
لمن هذه الذاريات الحطام؟.. لمن؟.. ولمن هذه النازعات؟؟!!
لمن كل هذا؟! لغزو السماء؟.. لتصنع معجزة؟!
بل لنا
لتحطيمنا
لتجويعنا
لتخريبنا
لتقوى سلاسل أصفادنا
ليرتفع السور من سجننا
لنشر السواد. على أرضنا
لتمزيق أجساد أطفالنا
لتمزيق أجساد أطفالنا!!؟؟
ولكن.. كفى ! لن تنال ابنتى
وأقسم أن لن تنال ابنتى!



أتطفىء نظرتها الباسمة
أتقطع أطرافها الناعمة؟
أتجرى دماء ابنتى فى غد كنافورة ثرة تنسكب
أتنتثر أشلاءها اليانعات علىَّ حيث تضحك بين اللعب؟!
أتمزج لحم ابنتى بالتراب!!
كفى أيهذا الإله الذى يلطخ بالوحل طهر السحاب!!
أتنهش هذا الكيان النضر!
كفى أيها الهمجى الرهيب!! كفى أيهذا الإله القذر!
إله يبول على التضحيات ويبصق فوق قبور البشر
يضمخ لحيته بالدماء وترقصه أنة المحتضر
ويسخر من ذكريات النضال ويهزأ بالأمل المزدهر
كفى أيها الهمجى الرهيب..!
ويالفحة من بقايا ذنوب
ويا خفقة من هوى الغروب
فليست دماء ابنتى كالنبيذ.. وليس نبيذا دماء الشعوب

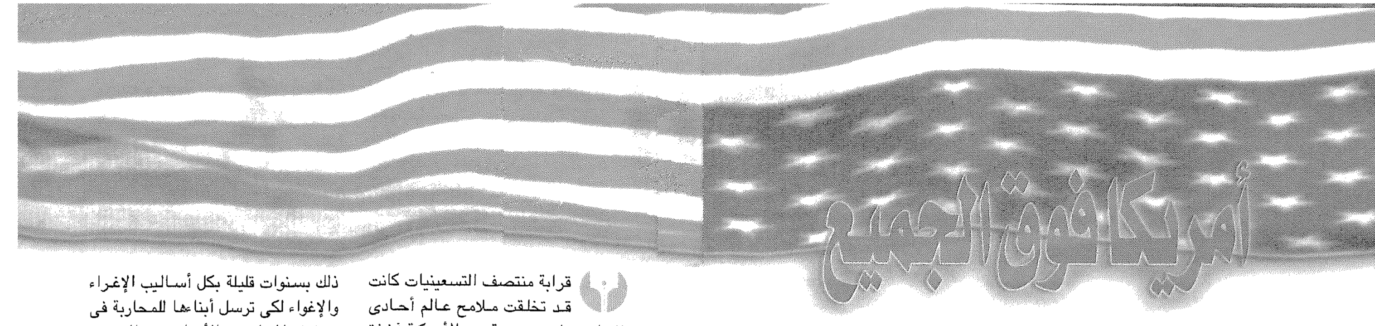
★★★

ستحيا ابنتى فى ظلال السلام.. وتنعم باللعب الوافرة
تمارس كل حقوق الحياة حقوق طفولتها الزاهرة
ستحيا انطلاقاتها كلها وأحلامها الحلوة الشاعرة
وأقسم أن لن تصير ابنتى غدا طفلة لشهيد قضى
أتسمعنى أيها الهمجى!! ستحيا ابنتى فى ظلالى أنا
كأسعد ما نتعاطى الحياة
أتسمعنى أيهذا الإله
ستحيا ابنتى فى ظلال السلام
وتصبح أنت مع التابعين هواجس من ذكريات الظلام
فإن تملكوا الذرة المفنية
فإنا لنمتلك التضحية
ونمتلك الذرة البانية
ونملك طاقاتنا كلها ونملك أيامنا الباقية
وتاريخ أجيالنا الآتية (١)



هوامش

(١) نشرت في كتاب مستقل سنة ١٩٥٣ بالقاهرة، ثم بيروت تحت عنوان خطاب مفتوح من أب مصري الي الرئيس ترومان.. وقد كتبت في باريس سنة ١٩٥١



أمريكا فوق الجميع

بقلم
د. مصطفى سويف

فى أواخر التسعينيات، عندما كانت شمس القرن العشرين تؤذن بالمغيب، كانت أصعدة الحياة العامة جميعا ملأى بالفواجع. ومع ذلك كانت تتخللها هنا وهناك بضعة شقوق ضيقة تنفذ منها ومضات لآمال تتعلق بالمستقبل. ولكن كيف؟ وبأى ثمن؟

على الصعيد العالمى كانت فاتحة النصف الثانى من التسعينيات تموج بمظاهر السخط على الهيمنة الأمريكية المتصاعدة، وجاءت الخاتمة بمزيد من التصعيد فى دلائل الهيمنة والسخط معا. وعلى الصعيد الإقليمى كان الاستهلال بوصول الليكود إلى رئاسة الحكومة الإسرائيلية، وجاء الختام باندلاع الانتفاضة الفلسطينية الثانية. وعلى المستوى المحلى كانت البداية مكئبة، وذلك بتأييد حكم قضائى بتكفير أحد رموز البحث العلمى فى الجامعة جزاء له على اجتهاده، ومن ثم فقد استحق التفرقة بينه وبين زوجه! ثم توالت الأحداث وأنباؤها تنذر بمزيد من التفاقم فى مشكلات لدينا تمس مبدأ الحياة نفسه، وفى مقدمتها العنف السياسى وتلوث البيئة.

قرابة منتصف التسعينيات كانت قد تخلقت ملامح عالم أحادى القطب تعلوه مسحة من الأمركة آخذة فى التنامى وكانت هذه المسحة تزداد فجاجة فى نظر من كان يرصد الأحداث من مرصد يقع فى الشرق الأوسط العربى، فالولايات المتحدة تقود حملة تدعو إلى تقسيم العراق، وتقود حملة أخرى ضد أى محاولة لرفع العقوبات الاقتصادية عنه، وتقيم قاعدة عسكرية فى الكويت، وتقود دعوة إلى عقد مؤتمر للنظر فى المشكلة الفلسطينية لصياغة الحل الذى ترضى عنه هى، وترسل حملة عسكرية إلى الصومال بدعوى تأمين وصول مساعدات إنسانية إلى ضحايا الحرب الأهلية، وتقود تحركا ضد ليبيا لمعاقبتها على تفجير طائرة أمريكية فوق لوكيربى، وتنصب نفسها شاهدة ووصية على اتفاق غزة/ أريحا بين إسرائيل والفلسطينيين. وكانت الدلالة الإجمالية لهذا الطوفان من الوقائع المتلاحقة التى تحمل خاتم «صنع فى أمريكا» أن مقدرات المنطقة تسحب من أيدى أبنائها بصيغة الأمر والنهى. ولكى تفهم هذه الدلالة بمالها من مستويات متعددة لابد من التنبه إلى أن هذه الوقائع جاءت على خلفية أن المنطقة كلها كانت تدفع قبل ذلك بسنوات قليلة بكل أساليب الإغراء والإغواء لكى ترسل أبناءها للمحاربة فى صفوف المجاهدين الأفغان ضد الجيوش السوفييتية، وكانت المنطقة تقبل الإغراء والإغواء نصا وروحا، وهو ما كان يعنى أن حكام هذه المنطقة وفرقاء عديدين من القادة والمؤدين السياسيين فيها كانوا يعتبرون أنفسهم حلفاء للولايات المتحدة فى وقفتها ضد الغزو السوفييتى، وكعادة الكثيرين من ساسة المنطقة كانوا يضفون على علاقة التحالف هذه صبغة العواطف الشخصية أكثر من مقتضيات المصالح المتبادلة. ويبدو أنهم كانوا يصدقون أنفسهم فيما يذهبون إليه وكانوا يريدون شعوبهم أن تصدق هذا الوهم، وهو أمر يخضع للتفسير الأنثروبولوجى أكثر مما يستقيم ومفاهيم السياسة الدولية المعاصرة.

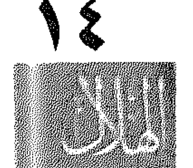
ردود الأفعال الغاضبة

والمحصلة لهذا كله أن هذه الأحداث كانت لها آثار شديدة السلبية على شعوب المنطقة، وكان القدر الأكبر من هذه الآثار آخذا فى التبلور فى شكل غضب متزايد على السياسة الأمريكية تجاه المنطقة، وقد كون هذا الغضب فى نهاية المطاف تربة صالحة لاستنبات كثير من الأعمال العدوانية العنيفة على

المصالح والرموز الأمريكية الواقعة في متناول الغاضبين، وساعد على ذلك أن الكثيرين من أبناء المنطقة كانوا قد تلقوا تدريبا عالي الكفاءة على طرق العدوان المسلح في الساحة الأفغانية. وهكذا وقع انفجار كبير في المملكة العربية السعودية في نوفمبر ٩٥ بالقرب من قاعدة عسكرية أمريكية لا تبعد كثيرا عن الرياض، وتلاه انفجار ثان في المملكة كذلك في يونيه ٩٦ بالقرب من قاعدة أخرى في ضواحي الظهران، وفي هذا الانفجار الأخير لقي ١٩ جنديا أمريكيا مصرعهم ثم وقع انفجاران ثالث ورابع في السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتانزانيا في أغسطس ٩٨، وأسفر هذان الانفجاران عن سقوط ما يقرب من ٢٣٠ قتيلا و٤٥٠٠ جريح. وردا على الانفجارين الأول والثاني في السعودية أعلنت الولايات المتحدة أنها ستشدد إجراءاتها الأمنية حول قواعدها ومعسكراتها. أما بالنسبة للتفجيرين الثالث والرابع فقد شنت الطائرات الأمريكية بعد أسبوعين غارتين إحداهما على مدينة الخرطوم والثانية على مدينة أفغانية تقع على الحدود مع باكستان وأعلنت الخارجية الأمريكية أن الغارتين وقعتا انتقاما ممن أسهموا في تفجير سفارتيها في نيروبي ودار السلام! وهكذا دخلت المواجهة بين مشاعر الغضب (الشعبي) في المنطقة والردود الأمريكية (الحكومية) باسم العقاب أو الانتقام طريقا دائريا متصاعدا لا تلوح له نهاية في المستقبل المنظور. وفي هذا الإطار ورغم كل النذر المشئومة التي كان يحملها في طياته استمرت الولايات المتحدة تصعد حملة دعائية ضد العراق تمهيدا لحملة عسكرية جديدة (غير مكتفية بالغارات الجوية اليومية التي ظلت تشنها عليه منذ حرب ٩١) وأخذت تحرض الدول العربية والأوروبية التي تحالفت معها من قبل (بدعوى تحرير الكويت) لكي تنضم إليها في هذه الحملة الجديدة التي أسمتها «ثعلب الصحراء» بتبرير أن العراق مازال يحتفظ بأسلحة دمار شامل وقد عادت نتيجة هذه الحملة بمزيد من السخط (الشعبي) في المنطقة على أمريكا. وشعر عدد من الحكام العرب الأذكياء أن الولايات المتحدة تدفعهم بهذا التحريض الجديد إلى مالا تحمد عقباه فيما يخص علاقاتهم مع محكوميهم. وحتى الحكام الأوروبيون تراجع عدد منهم عن الاستجابة الايجابية لهذه الدعوة الجديدة.

«ثعلب الصحراء» تجاوزت الحدود

ومع ذلك فقد فاجأت الولايات المتحدة (ومعها بريطانيا) العالم بشن هجوم جوي شامل على العراق مفتتحة بذلك الحملة الموعودة، وذلك في منتصف ليل ١٧ ديسمبر ٩٨. ويبدو أنها كانت تأمل في أن تجر وراءها عددا من الدول الأوروبية والعربية لمساندتها على أساس قبول الأمر الواقع، وكانت تأمل كذلك في أن تبقى الشعوب في هذه المعادلة كما مهملا، ولكن كانت النتيجة أن زاد الغضب في المنطقة على مستوى الشعوب والحكام، فقامت مظاهرة كبيرة ضد الهجوم في نابلس ومظاهرة أخرى في القاهرة، واندلعت مظاهرات في دمشق حيث هاجم المتظاهرون السفارة



الأمريكية وحطموا نوافذها وأنزلوا العلم الأمريكي وأشعلوا فيه النيران وكذلك اندلعت المظاهرات فى الرباط، بل وفى لندن. وامتد الغضب والحرج إلى الحكام، فأصدرت الحكومات المصرية والسورية والإماراتية والأردنية والسلطة الفلسطينية بيانات تعلن رفضها هذا الهجوم، وحتى بعض الدول الأجنبية لم تستطع أن تقبله أو تبرره فأصدرت الصين وروسيا بيانين شديدى اللهجة ترفضانه، كما طلبتا عقد اجتماع طارئ لمجلس الأمن للنظر فى تداعيات الموقف، وأعلنت الحكومة الروسية أنها قررت ألا توقع على معاهدة ستارت، الخاصة بتدمير الأسلحة النووية، وأبلغ وزير الخارجية الروسى نظيره البريطانى بأن هذا الذى يحدث فى العراق يمكن أن يدمر نظام العلاقات الدولية كلية.

وإذا بحملة «ثعلب الصحراء» تنتهى بأسرع مما توقع الجميع ففى ٢٠ ديسمبر ٩٨ صدر قرار الحكومة الأمريكية (والانجليزية) بوقف الهجوم الشامل على العراق. وقالت الحكومة الأمريكية فى تبرير ذلك إن الحملة حققت أغراضها! وكان هذا تراجعا مخزيا، وكان فى الوقت نفسه برهانا تاريخيا على أنه حتى الولايات المتحدة ليست بمنجاة من التراجع. وبدأت الصين وروسيا تحركا فى مجلس الأمن نحو المطالبة برفع العقوبات الاقتصادية عن العراق، وردت الولايات المتحدة بالتهديد باستخدام حق النقض. وتوقفت الأمور عند هذا الحد. وقرأت هذا التداعى للأحداث على أن الإدارة الأمريكية أدركت فى لحظة ما أن سياسة حافة الهاوية كانت على وشك أن تتجاوز الحدود المعقولة نتيجة لعبث بعض المغامرين الذين لا يحسنون قراءة ديناميات الحركة الدولية.

ثم عودة إلى الاستفزاز

تراجعت الحكومة الأمريكية عن التمادى فى حملة «ثعلب الصحراء» لكنها لم تتراجع عن سياسة الاستفزاز، فبعد يومين من توقف الحملة قام وزير الدفاع الأمريكي بزيارة للحكومة الكويتية بدعوى الشكر لأنها عاونته فى هذه المعركة ولولا هذا التعاون لما نجحت أمريكا فى مهمتها. وأعلن إضافة إلى ذلك أن بلاده سوف تظل على استعداد لضرب العراق مرة أخرى، وأنه لذلك قرر أن يترك ٢٠ ألف جندى أمريكى للبقاء فى المنطقة بصفة دائمة. وفى أوائل يناير ٩٩ قال قائد حملة «ثعلب الصحراء» ردا على سؤال وجه إليه بشأن التكلفة المالية للحملة إنه لا يعرف ولا يهتم بأن يعرف الإجابة عن هذا السؤال لأن أصدقاء الولايات المتحدة فى المنطقة يسددون الفاتورة بكل تعاون! وبعد أسبوعين أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية أنها اعتمدت حوالى ٩٠ مليون دولار لتمويل المعارضة العراقية. ثم بعد أقل من شهرين جاء فى تصريح لوزير خارجية قطر أن الولايات المتحدة تبنى فى بلاده أكبر مخزن للسلاح الأمريكي خارج الولايات المتحدة. وعندما سئل هل ستوجد فيه أسلحة دمار شامل؟ قال إن قطر ليست لديها الإمكانيات التكنولوجية لتستطيع الإجابة عن هذا السؤال!!

هكذا كان الاستفزاز يجرى بكفاءة عالية بالتحركات والتصريحات

وتصريحات الأصدقاء. وكلها عناصر محسوبة فى نهاية الأمر فى الاتجاه إلى تدمير معنويات الشعوب العربية، بمعنى كسر إرادتها أن تستقل بقرارها وسحق حقها فى أن تحلم بالسيطرة على مقدراتها.

الدور الإسرائيلى

أصبح توزيع الأدوار بين الإدارتين الأمريكية والإسرائيلية حقيقة من حقائق السياسة الدولية فى عالمنا المعاصر، على أن يفهم هذا التوزيع في ضوء حقيقة تاريخية أساسية هى أن نشوء الدولة العبرية ودلالتها فى الإطار الدولى المعاصر يوضحان معا أنها نقطة التقاء بين الطموحات الصهيونية والتوجهات الأمبريالية عامة والأمريكية بوجه خاص، فى هذا السياق أرى الدولة العبرية، ويعالج عقلى ما يصدر عنها (كدولة) من أفعال وردود أفعال.

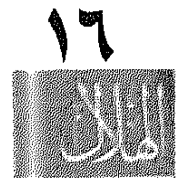
هكذا أدركت وفهمت وصول نيتانياهو (ومن ورائه الليكود) إلى رئاسة الوزارة الإسرائيلية فى يونيه ٩٦، وما أعقب ذلك من تعثر للمفاوضات بين اسرائيل والسلطة الفلسطينية واستشفقت ما وراء ذلك كله من تناغم لافت للنظر مع مجريات السياسة الأمريكية، فقد كانت الانتخابات الرئاسية فى الولايات المتحدة على الأبواب حينئذ وتخلل الاستعداد لهذه الانتخابات تعبيرات متعددة تعبر عن انتعاش لآمال الحزب الجمهورى (وهو المعادل الأمريكى لليكود) فى الوصول إلى الحكم. وفى هذا الصدد أرجو (إنصافا لمنطق التفكير العلمى) أن يلاحظ القارئ أننى أكتفى هنا برصد وجود التناغم، ولكننى لا أقدم تفسيرا له، لأن التحرك نحو التفسير تعترضه صعوبات متعددة. ولذلك أكتفى بالرصد، وأزيد عليه أن هذا التناغم يوظف عادة توظيفا شديد المهارة لصالح الطرفين.

وفى أواخر مايو ٢٠٠٠ انسحب الجيش الاسرائيلى من جنوب لبنان تحت جنح الظلام، وكان انسحابه مفاجئا ومخزيا معا. ترتبت عليه نتيجتان جديرتان بالتسجيل: الأولى ارتفاع أسهم حزب الله اللبنانى (الذى كان يقود المقاومة المسلحة ضد الجيش الإسرائيلى)، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أعلن ناطق باسم الفصيل من الجيش اللبنانى (بقيادة أنطوان لحد) الذى كان عميلا للاحتلال الإسرائيلى خيبة أمله فى الإسرائيليين لأنهم على حد تعبيره لم يعنوا باتخاذ التدابير اللازمة لحماية عملائهم من غضب الشعب اللبنانى!! (ولعل هذا أن يكون عبرة لمن يريد أن يعتبر). ومع بداية أكتوبر ٢٠٠٠ اندلعت أحداث الانتفاضة الثانية للشعب الفلسطينى. وجرت محاولات بتنسيق إسرائيلى/ أمريكى لإجهاضها، لكن هذه المحاولات أخفقت، وعبرت الانتفاضة الحدود إلى القرن الجديد.

هكذا جاءت خاتمة الأحداث السياسية العالمية والإقليمية فى نهاية القرن العشرين، وأنا أعنى هنا جملة الأحداث التى توقفت عندها، وحاولت من خلالها أن أحدد هوية القرن وما تحمل هذه الهوية فى صدرها من توجهات للمستقبل المنظور.

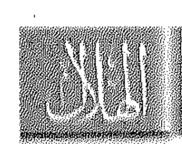
أحداث مصر وأجواؤها

لم تكن أحداث العام ١٩٩٦ فى داخل مصر أبهج منها فى الخارج، ففى صيف هذا العام اشتد الجدال بشأن قانون الصحافة رقم ٩٣ لسنة ١٩٩٥



بين نقابة الصحفيين والحكومة، رأت النقابة أنه جاء أقسى من قانون المطبوعات الذى كان معمولا به منذ سنة ١٩٣٦، ومن ثم طالبت بإلغائه. وفى مواجهة ذلك أصرت الحكومة على التمسك به. ووصلت المجابهة بين الطرفين إلى حد أن مجلس النقابة أعلن استقالة جماعية احتجاجا على القانون. وبعد أقل من شهرين من هذه الأحداث صدر قرار نيابة النقض (فى حضور عدد من مندوبى الصحف ووكالات الأنباء الأجنبية ومنظمات حقوق الإنسان) بتأييد حكم محكمة الاستئناف فى قضية الأستاذ الدكتور نصر أبو زيد أستاذ اللغة العربية وآدابها فى جامعة القاهرة باعتباره مرتدا عن الإسلام. وأكدت جريدة الأهرام أن لجنة من علماء الأزهر أوصت بمصادرة كتب الدكتور أبو زيد «ومنع تداولها بين طلاب الجامعة لخطورة الأفكار التى يروج لها فى كتاباته» (٦ أغسطس ١٩٩٦).

وفى منتصف سبتمبر ٩٧ هوجم أوتوبيس سياحى فى وضح النهار على مقربة من دار الآثار المصرية فى ميدان التحرير، وكان بالأتوبيس عشرة أشخاص (السائق وتسعة من السياح الألمانيين) فقتلوا جميعا، ثم أشعل المهاجمون النار فى الأتوبيس. وتبين فى التحقيقات بعد ذلك أن الجانى الرئيسى هو فى الوقت نفسه نزيل فى إحدى مصحاتنا العقلية، وأنه كان يخرج من المصحة ويعود إليها وقتما يشاء، كجزء من مناخ التسيب المقرون بالفساد. وعلى أثر ذلك تفجرت قضية تقديم رشوة مالية إلى أحد كبار الأطباء فى وزارة الصحة، وقيلت أقوال كثيرة. واستدعت سيرة هذه الرشوة فى ذاكرتى سيرتين اتهم فى كل منهما شخص من قيادات الصف الثانى فى الدولة، وصدرت أحكام قضائية بالإدانة فى كل منهم. وأثار هذا التجميع لسير الفساد على هذا المستوى سؤالا فى ذهنى حول ما يمكن أن يكون هناك من دلالة اجتماعية لفساد هؤلاء الرجال المحسوبين على قيادات الصف الثانى؟ أم أن هذه مجرد مصادفة كما يحب البعض أن يتصورها (أسوة بتصور البعض لمسلسل سقوط العمارات السكنية، ومسلسل تبوير الأراضى الزراعية، ومسلسل اغتصاب أراضى الدولة.. إلخ)؟ وفى نوفمبر ٩٧ وقع هجوم إرهابى فى مدينة الأقصر، استخدم المهاجمون فيه الرشاشات واستهدفوا مجموعة من السياح الأجانب أثناء وجودهم قرب معبد الدير البحرى (حتشبسوت)، وقع ذلك فى وضح النهار أيضا، فقتلوا ٥٧ سائحا بينهم يابانيون وإنجليز وسويسريون وألمان، كما قتل ستة من المصريين كان بعضهم من الحراس. وقالت مرشدة سياحية مصرية أصيبت برصاصة فى جسمها لكنها نجت من الموت إن الإرهابى الذى وقف يطلق الرصاص عليها هى والسياح كان فى الوقت نفسه يصوب بعض طلقاته إلى النقوش الأثرية القائمة على جدران المعبد. واجتمعت هذه الملحوظة فى ذهنى (فيما بعد) مع الأخبار التى جاءت بإصرار جماعة طالبان على تدمير



تماثيل بوذا الأثرية فى أفغانستان، وتساءلت: كيف أفهم هذا التلاقى؟ أهى وحدة المعنى؟ وإلى أى مدى أذهب فى تفسير وحدة المعنى هذه؟. وفى مساء يوم الحادث أقيل وزير الداخلية، وقال السيد رئيس الجمهورية ما معناه إن ما كان يؤكده له كبار رجال الوزير من وجود خطط تأمينية عالية الكفاءة كان «تهريجا» (وهو شئ بين الكذب والعبث غير المسئول)، وبعد ستة أيام من وقوع حادث الأقصر أذاع راديو لندن تلخيصا لمقال نشر فى جريدة الأوبزرفر اللندنية جاء فيه أن التخطيط لهذا الهجوم تم فى لندن، وجمعت له التبرعات من الجالية الإسلامية هناك، وبلغ مجموع التبرعات مليونين ونصف المليون جنيها استرلينيا.. وقد كان حادث الأقصر من أحداث العنف القليلة التى توسمت فيها كثيرا من معانى التهديد الحقيقى لحاضر مصر ومستقبلها.

ومع ذلك فالأحداث السيئة كما تتوالى عندنا يصدق عليها قول القائل كلما داويت جرحا سال جرح، وأنا أقف هنا أمام إحصائية عن حوادث الطرق لدينا أوردتها جريدة الأهرام فى ٦ مارس ٩٩ جاء فيها أن عدد حوادث الطرق فى مصر فى عام ٩٨ بلغ ٢٣ ألف حادث، أسفرت عن سقوط ٥ آلاف قتيل، و٢٢ ألف مصاب، وتلف ١٩ ألف سيارة... ورأيت فى هذه الإحصائية مشهدا مؤسفا من مشاهد الإهدار التى تقع من حولنا فى أمور المال والسلامة وحياة البشر... وبعد مشكلة المرور أعود فأقف أمام مشكلة أخرى هى مشكلة التلوث فى مدينة القاهرة (بغض النظر عن باقى مدن الجمهورية)، فقد جاء فى إذاعة لندن صباح يوم ٢٣ أبريل ٢٠٠٠ أن تقريرا صادرا عن السفارة الأمريكية فى القاهرة يقول إنه تبين من قياسات أجريت ميدانيا أن مقدار التلوث بالرصاص في هواء بعض الأحياء يزيد ٣٠٠ (ثلاثمائة) مرة عن المعدلات المقبولة عالميا! وفى ظل هذا كله طلعت علينا الأهرام فى ملحقها الأدبى صباح يوم ١٨ أغسطس ٢٠٠٠ بأنباء ندوة علمية يتعجب فيها عدد من علمائنا من الاهتمام الذى يبديه فريق من رجال الحكومة بإنشاء مدينة علمية! بدلا من الاهتمام الجاد بكيفية تنشئة البشر الذين سيشتغلون بإبداع علم حقيقى من النوع الذى يبقى فى الأرض فعلا بعد أن يذهب الزبد جفاء!

العالم، ومصر، وبينهما الأنا

بين مظاهر اللامبالاة المتفاقمة التى يبديها العالم نحو مشاعر الفرد وأحلامه وتجليات التبلد التى تغلب على رسائل المجتمع نحو معظم ما هو شخصى وثمين فى تقديرنا، قضيت فترة السنوات الخمس الأخيرة من القرن أجتهد فى إنجاز ما لابد من إنجازه وكان هذا هو سبيلى إلى مقاومة آثار التبلد واللامبالاة. ولكن اجتهادات الإنجاز كانت تجرى فى مستوى من النفس، بينما يشغلنى فى مستوى آخر جهد استخلاص الدلالات التى توحى بها نقاط التماس بين الذات من ناحية والمجتمع

والعالم من ناحية أخرى. وأعترف بأن شدة الرنين الانفعالى المنبعث عن إدراك هذه الدلالات كانت تعوقنى أحيانا عن مواصلة جهود الإنجاز لكنها لم تستطع أن تعطلنى تماما. وظللت على كل حال دائم التنبه لرصد الدلالات ورنينها وأبعاد كل منها.

وقد توقفت بصورة خاصة عند نقطتين للتماس بين الذات والعالم. كانت إحداهما حزينة، وحملت الثانية قدرا لا بأس به من البهجة، وقعت الأولى فى سبتمبر ٩٧ عندما بلغنى نبأ وفاة هانز أيزنك أستاذ علم النفس فى جامعة لندن الذى تحقق على يديه ميلادى فى التخصص. وجاءت الثانية فى يناير ٩٩، حينما طلبت إلى دورية «علم النفس فى العالم» التى تصدر فى الولايات المتحدة أن تجرى معى حوارا حول سيرتى العلمية، وتم إجراء الحوار فعلا ونشر على صفحاتها. وكانت النقطتان تشفان معا عن أن اللقاء الخالص لوجه الحق يمكن أن يتم عبر الحدود والسدود السياسية/ الحضارية.. بصعوبة؟ نعم. ولكنه يتم. ثم توقفت مرة ثانية عند نقطتين من نقاط التماس بين الذات ومصر التى أعيش فى رحابها، كانت إحداهما مبهجة، عندما دعيت إلى قبول العضوية فى المجالس القومية المتخصصة وذلك فى مايو ٩٥، وكانت الثانية مكئبة عندما قررت الانسحاب من أحد ميادين العمل العام فى نوفمبر ٩٦ لكى أنأى بنفسى عما اعتبرته خطوة أولى نحو نموذج من نماذج الفساد العام، وأدركت فى هذا السياق كيف يكون تواطؤ الكبار على الباطل، وكيف يجرى توزيع الأدوار والمغانم (الموعودة) بينهم بمهارة يحسدون عليها. وقد أضفت الموقف برمته إلى رصيد خبراتى تختمر فتلهمنى الحكمة (وذلك بعد أن عجز جهدى المحدود عن أن يزهق الباطل)، وكنت أردد فى سريرتى قولا يلح على من حين لآخر، ويل لمصر من بعض أبنائها، وأدعو للبررة من الأبناء بالمزيد من هدى البصيرة، وشحذ الهمة، وتعميق الإيمان بالحق.

***

وعلى هذا النحو أسدل الستار على السنوات الخمس الأخيرة من القرن العشرين كما عايشته، وكانت سنوات تنوء بما تحمل من أحداث جسام على جميع الأصعدة، العالمى والإقليمى والمحلى، بين سخط متنام على الهيمنة الأمريكية، ومقاومة مأساوية لشرور الاحتلال الإسرائيلى، وتشبث برفض كل ما يهدد حياة الفرد والجماعة. وكانت تتخلل توالى الأحداث الفاجعة، سواء هنا أو فى الإقليم أو فى العالم على اتساعه شقوق ضيقة تنفذ منها بالكاد ومضات الأمل فى مستقبل أفضل، حتى فى أحلك اللحظات. وكان واضحا لكل ذى بصيرة أن تكلفة الأمل كبيرة. وكان واضحا أيضا أن أعدادا متزايدة ترتضى هذه التكلفة. ولم لا؟ مادامت أشواك الشر تمتد مستهدفة حق الجميع فى الحياة الكريمة. ■

التنكيل بالشرعية الدولية

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

أحسب أن الكثيرين باتوا يكرهون متابعة الأحداث العالمية عبر وسائل الإعلام المختلفة من هول ما صارت تدل عليه من تنكيل بما اصطلح على تسميته بالشرعية الدولية، لم يعد الأمر بالتأكيد مجرد تجاهل لهذه الشرعية أو خروج عليها وإنما هو تنكيل حقيقى بها بل إمعان فى التنكيل.

قد يحسن بداية أن نتوقف قليلا عند المصطلح، فهو أصلا مصطلح ملتبس وغامض، ويحسب البعض عادة أنه يعكس معايير العدل والإنصاف غير أن ذلك ليس صحيحا بالضرورة، اذ يفرق أصحاب القانون والسياسة فى هذا الصدد بين مصطلحين : الشرعية القانونية والشرعية السياسية، وأحيانا يفضل البعض التعبير عن هذين المصطلحين بمفهومى المشروعية والشرعية على التوالى، حيث تكون المشروعية تعبيرا عن المطابقة للقانون بينما تكون الشرعية متضمنة لمعنى القبول والرضا، هكذا تكون الثورات أو حروب التحرر الوطنى غير مشروعة بمعنى مخالفتها للقوانين السائدة ولكنها شرعية لأنها تحظى بالقبول الطوعى من الشعوب ذات الصلة، وتتسم نظم استبدادية بالمشروعية لأنها تستند الى أوضاع قانونية قائمة بينما هى بالتأكيد غير شرعية لأنها منبوذة من شعوبها. على هذا النحو يقف مفهوم الشرعية الدولية حائرا بين المعنيين، فنحن عندما نستخدمه نشير على سبيل المثال الى قرارات صادرة عن مجلس الأمن بحكم السلطات المخولة له بموجب ميثاق الأمم المتحدة، فهى اذن قرارات مشروعة او تحظى بالشرعية القانونية ، بينما هى بالتأكيد فى بعض الأحيان - وإن لم يكن فى كثير منها - غير شرعية لأنها لا تحظى بقبول المجتمع الدولى لكل، ولنقارن على سبيل المثال بين قرارات مجلس الأمن ذات الصلة بالصراع العربى -



الاسرائيلى والتى تعامل اسرائيل بتدليل بالغ، وبين مثيلاتها الصادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة التى تعبر عن الجماعة الدولية ككل وتكون قراراتها عادة قريبة الى حد بعيد من معايير العدل والإنصاف، وهى من ثم تحظى بالمشروعية والشرعية معا، أو بعبارة أخرى تجمع بين الشرعيتين القانونية والسياسية، أخلص الى أن «الشرعية الدولية» التى ينكل بها الآن على نحو ما سنرى ليست بالضرورة تعبيرا عن قيم الحق والعدل كما هو فى القرار رقم ١٤٤١ الصادر عن مجلس الأمن بخصوص ما يسمى بنزع أسلحة الدمار الشامل العراقية، وعلى الرغم من هذا فإنه لا يسلم من التنكيل به. ماذا يبقى اذن من المنظومة الدولية؟

نظرة عامة الى تطور الشرعية الدولية

قد أتى على البشرية حين من الدهر لم تكن تعرف ما يسمى بالشرعية أصلا. كانت الشرعية للقوة وحدها اذا جاز التعبير، وهكذا كانت الحرب على سبيل المثال مشروعة، والاستعمار رسالة، وحتى الأديان السماوية التى تضمنت قيما رفيعة للتعامل الانسانى بما فى ذلك التعامل فى مجال العلاقات الدولية اساء اتباعها استغلالها فى غير موضع، فاستخدم الصليب لتبرير واحدة من اعتى الحملات الاستعمارية الأوربية على المشرق العربى فى العصور الوسطى، واتخذت الحركة الصهيونية من الديانة اليهودية ذريعة لمشروع استعمارى استيطانى عنصرى قل ان تجد له مثيلا فى عدوانيته، واقتتل المسلمون فيما بينهم فى أحيان كثيرة اشد مما قاتلوا أعداءهم .

ومع بزوغ فجر التنظيم الدولى الحديث فى اعقاب الحرب العالمية الأولى متمثلا فى عصبة الأمم بدا أن ثمة أملا فى تبلور شرعية دولية قريبة من معانى العدل والانصاف على ضوء ما بشر به الرئيس الأمريكى ويلسون فى ذلك الوقت من مبادئ جديدة كان على رأسها حق الشعوب فى تقرير مصيرها، غير أنه سرعان ما اتضح أن عصبة الأمم - خاصة وقد غابت الولايات المتحدة الأمريكية عن عضويتها - قد اعطت شرعية مزيفة للهيمنة الأوربية الاستعمارية على عديد من اجزاء الوطن العربى الذى كان أبناؤه يحلمون بالاستقلال فى أعقاب تفكك الدولة العثمانية.

ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية وبزوغ توازنات دولية جديدة على ضوء تآكل القوى الاستعمارية بالأوربية التقليدية لحساب الدور الأمريكى القيادى فى الشئون الاستعمارية، وبروز قوة المعسكر الاشتراكى بزعامة الاتحاد السوفييتى وصعود نجم حركات التحرر الوطنى بدا أن عهدا جديدا للشرعية الدولية يوشك أن يرى النور كان ميثاق الأمم المتحدة بما تضمنه من غايات ومبادئ سلمية خير مؤشر عليه .

غير أن الأمل فى هذا العهد الجديد

بدأ يتبخر تدريجيا تحت وطأة اكثر من عامل . كان أول هذه العوامل منبثقا من بنية الأم المتحدة ذاتها والتى حصرت سلطة اصدار القرار الدولى الملزم فى خمس من الدول الاعضاء فى الأمم المتحدة هم الأعضاء الدائمون فى مجلس الأمن، أو بالأحرى فى أى منهم، اذ تستطيع أية دولة من هذه الدول الخمس أن تحبط باستخدام حق النقض صدور اى قرار من المجلس مهما كان عادلا ، ومن ناحية ثانية شل الصراع بين المعسكرين الرأسمالى والاشتراكى بزعامة كل من الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتى قدرة المجلس على اصدار قرارات اصلا فى عديد من الازمات الدولية المهمة، او اختزال هذه القدرة فى اصدار قرارات باهتة عاجزة بعيدة عن العدل كالقرار ٢٤٢ الذى صدر فى أعقاب حرب ١٩٦٧ ليعالج قضايا الصراع العربى - الاسرائيلى بطريقة «الغموض البناء كما قيل ، بل ان توازنات القوى داخل المجلس أدت ثالثا الى العجز حتى عن تنفيذ هذه القرارات الهزيلة.. هكذا كانت المحصلة : شرعية مجروحة وآليات غائبة لتنفيذ ما تقضى به هذه الشرعية على تواضعه.

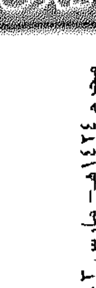
مرحلة التنكيل

مع بدء التحول فى سياسات الاتحاد السوفييتى بصعود ميخائيل جورباتشوف الى سدة الحكم فيه فى ١٩٨٥ بدأ عهد جديد فى النظام العالمى تميز أولا بوفاق حقيقى بين العملاقين وصولا الى تفكك الاتحاد السوفييتى ذاته فى ديسمبر ١٩٩١ ، ومع هذا العهد الجديد اصبح مجلس الأمن مرتهنا بالكامل لصالح الارادة الامريكية، اى انها اصبحت هى وحدها صانعة ما يسمى بالشرعية الدولية، وربما زادتها احداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ شراسة وعدوانية عندما خرجت الادارة الامريكية الحالية من ركام مركز التجارة العالمى بمدينة نيويورك تهدد الجميع وتتوعدهم. فى هذا الاطار تحديدا لم يعد الأمر متعلقا بشرعية دولية مجروحة يتم تجاهلها او الخروج عليها وانما بدأت عملية تنكيل فوضوية بها. فالادارة الامريكية لا تكتفى بما تستصدره من قرارات وفق ارادتها من مجلس الأمن فتعطى لنفسها حق تفسير هذه القرارات وتنشىء بالاتفاق مع بريطانيا دون سند ما مناطق للحظر الجوى على الحكومة العراقية، وتتدخل فى اعمال لجان التفتيش على أسلحة العراق وتضغط على اعضائها وتوظف بعضهم عيونا لها على تفاصيل التفاصيل فى الجسد العراقى، وترتب مسرحية هزلية مع رئيس اللجنة فى ١٩٩٨ كى يدعى بعدم تعاون العراق معه ويسحب مفتشيه بما يبرر ضربة امريكية «غير شرعية» للعراق، ولاتنسي بالمقابل ان تتجاهل كل افعال الاجرام فى السلوك الاسرائيلى تجاه ارض فلسطين وشعبها، وان تغفر لاسرائيل تحديها للقرارات الهزيلة التى تسمح الادارة الأمريكية

بمرورها من المجلس كالقرار القاضى بتشكيل لجنة لتقصى الحقائق فى جنين وتطالب العراق بالانصياع للشرعية الدولية كما يجسدها القرار ٦٨٧ الصادر عن مجلس الأمن فى ١٩٩١ بخصوص نزع أسلحته، وعندما يقبل الاتفاق مع الأمم المتحدة على عودة المفتشين ويتوصل له فى اكتوبر الماضى تخرج بمطالبة جديدة مؤداها ضرورة صدور قرار جديد ينظم عملية نزع أسلحة «الدمار الشامل» العراقية، وتنجح فى تمرير القرار ١٤٤١ وفق ارادتها باستثناء التعديل الذى تمكنت فرنسا من ادخاله، والذى ينص على عدم اللجوء الى الحرب تلقائيا قبل الرجوع الى مجلس الأمن للاحتكام اليه فى أية انتهاكات منسوبة للعراق للقرار ١٤٤١، وتؤكد بما لا يدع مجالا لأى شك أنها ماضية لا محالة فى طريق نزع أسلحة الدمار الشامل «العراقية» بالقوة والاطاحة بنظامه حتى ولو اضطرت الى العمل المنفرد اى دون غطاء من الشرعية الدولية المعيبة التى أوجدتها ، أغرب من ذلك محاولة التمويه التى تمارسها الحكومتان الأمريكية والبريطانية وتلبسان بها الباطل لبوس الحق بادعائهما ان امهال العراق مهلة تلو الأخرى هو الذي يخرق الشرعية الدولية ويعصف بهيبة الأمم المتحدة فى خلط غريب للأوراق عبر كولن باول وزير الخارجية الأمريكى عن هذا المعنى فى جلسة استماع مجلس الأمن لتقريرى ثنائى بليكس - البرداعى عندما قال ان القرار ١٤٤١ تحدث عن نزع أسلحة العراق وليس عن عمليات التفتيش، وكأن التفتيش منبت الصلة عن محاولة تجريد العراق من أسلحته أو كأنه يدور فى فراغ وليس آلية من آليات اعمال الارادة الدولية فى هذا الخصوص .

نحو شرعية دولية عادلة

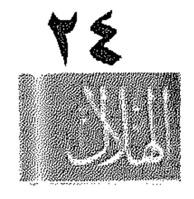
تمعن الادارة الامريكية الراهنة فيما يسمى بالشرعية الدولية قتلا وتنكيلا على الرغم من أنها هى صانعتها او على الأقل صاحبة اليد الطولى فى ذلك، ولو حدث انها اصرت على تنفيذ نواياها المبيتة ضد العراق والوطن العربى وقامت بعدوان شامل على العراق وتغيير لنظامه فأنها سوف توجه بذلك ضربة قاصمة جديدة «للشرعية الدولية» وقد تكون ازالة اثار هذه الضربة عملا مستحيلا . ويبقى الامل فى مواجهة التحدى الذى يفرضه تنكيل الولايات المتحدة بالشرعية الدولية متمثلا فى أمرين : نمو اقطاب عالمية جديدة وهو ما قد نكون قد شهدنا بداياته فى الآونة الأخيرة متمثلة فى الموقفين الفرنسى والألمانى بصفة خاصة، وتعاظم حركة الشارع العالمى كطابع لقرارات الحكام بعيدا عن المصالح الضيقة لهذه الدولة او تلك. على أن هذا كله لن يحمينا من تغول الآخرين على حقوقنا اذا بقينا مقتنعين بأن افضل الادوار هو دور التابعين. ■



نهاية الزمن

عقيدة الخوف والأمل فى العقل الأمريكى

بقلم
محمد يوسف عدس



محرم ١٤٢٤هـ - مارس ٢٠٠٣م

«الألفية السعيدة» في نهاية الزمن من أكثر الأفكار المسيحية تعقيدا وأعمقها أثرا فى تاريخ الحضارة الغربية، فقد ظلت على امتداد ألفى سنة مرجعا يستشهد به المتنبئون الألفيون فى تدعيم تأويلاتهم المختلفة لرؤيا القديس يوحنا (يوحنا اللاهوتى) أو «سفر النبوءات» كما يسميها البعض، وعلى الأخص ما يتعلق بعودة المسيح الثانية إلى الأرض وإقامة مملكته حيث يسود العدل والسلام.

يقول «داميان تومسون» صاحب كتاب «نهاية الزمن»: يخطىء من يظن أن أفكار العصور الوسطى قد اندثرت إلى الأبد خصوصا بعد سيادة التقدم العلمي والتكنولوجي وسيطرة العقلانية.. فلا تزال المعتقدات النبوئية تلعب دورا هاما فى المجتمع الغربي، ولا يزال الهيام بها عميق الأغوار إلى الحد الذى يستعصى على السيطرة ، وفى هذا الإطار يؤيد ماذهب إيه «نورمان كوهن» فى كتابه الذى يتتبع فيه العقيدة الألفية عبر التاريخ The Pursuit of the Millenium - أن النازية والماركسية رغم أنهما أيديولوجيتان علمانيتان إلا أن لهما جذورا دينية نبوئية، وهكذا ربط بين هذه العقيدة وبين أكثر الصراعات دموية وتدميرا فى القرن العشرين.

سفر النبوءات هو آخر ما جاء بالعهد الجديد ولكنه ينفرد بجاذبية خاصة، فقد كان دائما بمثابة طوق النجاة عندما تحل الكوارث ، وآية ذلك فى القرن الثانى للميلاد عندما حاصرت الإمبراطورية الرومانية رعاياها المسيحيين وأنزلت بهم أقسى أنواع الاضطهاد والعذاب كان هذا السفر هو أملهم الوحيد فى الخلاص.

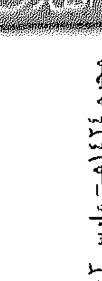
ومن ناحية أخرى أدّت تأويلات المتنبئين لهذا السفر إلى اضطرابات كبرى وثورات زلزلت المجتمعات الغربية، حتى أن السلطات الإمبراطورية فى بيزنطة اضطرت لحذفه من الكتاب المقدس لعدة قرون. وفى أوروبا الغربية أدرك مارتن لوثر خطورة وجود سفر النبوءات وتمنى لو استطاع إخفاءه أو حذفه فقد كان واعيا بدوره فى تمزيق نسيج الحياة فى بوهيميا فى بداية القرن الخامس عشر، وكان يخشى أن تتكرر نفس المأساة فى فترات الانهيار السياسى ، ولم يكن عليه أن ينتظر طويلا فقد حدث ما كان يخشاه عندما تفجرت ثورة الفلاحين عام ١٥٢٥م.

عقيدة الألفية

لعل أبرز سيناريو فى رؤيا يوحنا كما يصفها المتأولون النبوئيون ذلك المشهد الذى يتجلى فيه المسيح فى السماء ممتطيا صهوة جواده حاملا سيفه وقد انساب من عينيه سيال من نار ملتهبة، وعليه عباءة بيضاء مغموسة بالدم. فى هذا المشهد من الغضب العاصف تظهر خلف المسيح صفوف مهيبة من القديسين فى أثواب بيض.. بسيوفهم المشرعة يلتحمون مع جيش الشيطان عدو المسيح، فيتساقط جنوده تحت أقدام القديسين.. ثم يؤتى بالشيطان اللعين فيلقى به فى حفرة أو بحيرة من النار والكبريت ليبقى هناك ألف عام.

فإذا تطهرت الأرض من الشر والأشرار تهبط القدس الجديدة من السماء.. أحجارها من البللور المضىء.. كأنها عروس تزف إلى عريسها .. من هذه المملكة الإلهية يحكم المسيح العالم ألف عام من السلام والعدل . تلك هى الألفية السعيدة التى يتشوق إليها الملايين من البروتستانت ويستعجلون قدومها.

ليست عقيدة الألفية السعيدة بالبساطة التى أشرت إليها آنفا، فرؤيا يوحنا مكتوبة بلغة الأحلام والرؤى حافلة بالرموز والغموض لذلك فهى قابلة لشتى التأويلات، وكلما أوغلت فى قراءتها تشعر بأنك تدخل فى عالم غريب مخيف





يجلله الضباب فلا شيء فيه واضح يمكن التنبؤ به سوى أن النصر النهائي سيكون للخير على الشر ولكن بعد معركة كبرى مدمرة.

وقد توالى ظهور آلاف الكتب منذ القرن الثاني للميلاد حتى الوقت الراهن لاتصف فقط الأوضاع الجارية التى تمثل تحقيق النبوءات الدينية لكن استخدمت النبوءات أيضا للكشف عن طبيعة وترتيب وأزمنة الأحداث المؤدية إلى نهاية الزمن وبداية الألفية السعيدة .

وقد زاد الفكرة تعقيدا أن هذه الأحداث لابد لها أن تتوافق مع عبارات وردت فى «رؤيا دانيال» بالعهد القديم ومع رؤى إنجيلية أخرى بالعهد الجديد خصوصا ما قاله القديس بولس عن نهاية الزمن، هذه النهاية التى تواكبها كارثة كونية تدمر كل شيء ولكن ينجو منها المسيحيون الأتقياء برفعهم إلى السماء فيما عرف بمصطلح الجذب السماوى Rapture.

الاضطراب الأول

شاعت فى أوربا قرب نهاية الألفية الأولى لميلاد المسيح نبوءة عودة المسيح الثانية فهرع الناس لاستقباله فى أفواج كثيفة ، قاصدين بيت المقدس تاركين وراءهم الأهل والأصدقاء.. وقد عرف هذا النزوح الكبير للحجاج فى تاريخ أوروبا بجيش الخراب، ذلك لأن الناس تحت تأثير فكرة نهاية الزمن فقدوا الاهتمام ببناء منازلهم أو إصلاحها بل أهملوها حتى تحولت إلى خرائب وأنقاض، أما الذين لم يخرجوا إلى الحج فقد خرجوا بنسائهم وأبنائهم فى الطرقات ينشدون الأناشيد الدينية ويتطلعون إلى السماء بعيون الخوف والرجاء ، متوقعين فى أى لحظة أن يهبط عليهم ابن الإله فى بهائه ومجده السماوى.

وفى يوم ٣١ ديسمبر سنة ٩٩٩م خرج النبلاء والفلاحون جميعا يتحلقون حول الصلبان المنصوبة فى العراء ، وتحت تأثير الرهبة من لقاء المسيح قام الأغنياء بتوزيع ثرواتهم من الذهب والمجوهرات على الفقراء حتى يراهم المسيح وهم يقومون بأعمال خيرية ، وتنازل أصحاب الديون عن مديونياتهم للمتعسرين ، وأفرج عن المساجين بينما انتحر كثير من الناس الذين لم يستطيعوا تحمل هول الموقف ورهبته .

المسلمون هدف قديم

فى سنة ١١٨٠م ظهر فى أوروبا نص نبوئى ضد المسلمين عرف باسم رسالة «توليدو» ، استخدم المتنبيء فيه حساب المنجمين الذى كان شائعا فى ذلك الزمن. مؤلف النص غير معروف على وجه التحديد ولكن يرجح نسبته إلى منجم يسمى «كورامفيز» يقول فيه: «سوف تجتمع الكواكب العليا والسفلى فى برج الميزان خلال سبتمبر ١١٨٧م.. وسيترتب على ذلك هبوب عاصفة فى المناطق الشرقية فيسود الهواء ويفسد بروائح نتنة وسامة.. ويرتفع البكاء والعويل إلى عنان السماء، ثم تأتى رياح عاتية تحمل الرمال والغبار من وجه الأرض فتدفن المدن خصوصا فى المناطق الصحراوية وتصاب بالدمار مدن مكة وبغداد والبصرة ثم تختفى إلى الأبد...! أما فى الغرب فيكثر الهرج والمرج والعصيان المسلح بين الناس.. ويأتى من بينهم رجل يجمع حوله جيوشا كثيرة ثم يقاتل على طول السواحل البحرية.. وتكثر فى هذه الحرب المذابح وتتدفق الدماء كأمواج المحيط».



وتمضي النبوءة لتصور لنا تغيير الممالك والحدود، ويظهر نجم الفرنجة عاليا «بينما يحل الدمار بالأمم المسلمة، وتظهر العناية الإلهية في أوروبا ويرتفع قانون المسيح، وتطول حياة البشر الذين يولدون بعد ذلك».

عندما وصلت نبوءة توليدو إلى إنجلترا عام ١١٨٦ أمر كبير الأساقفة في كانتربري بالصيام ثلاثة أيام.. ولكن مر الوقت المحدد دون أن يحدث شيء.. ورغم ذلك ظلت هذه النبوءة تتردد في أوروبا لعدة قرون تالية مع تغييرات طفيفة في مواعيد نهاية الزمن، وبقي الموضوع الجوهري للنبوءة مستمراً.

ظهرت في أوروبا تحولات كبرى نتيجة لنمو الشعور القومي وللتقدم العلمي وسيادة العقلانية.. وأصبح فهم الناس للتطور التاريخي أعمق.. كما أصبح في الإمكان استشراف التطورات المستقبلية على أسس علمية، وبدا أن التفكير الديني قد تخلى عن مكانه في المجتمع للأيديولوجيات العلمانية المادية، وغلب الاعتقاد بأن هذا المناخ من شأنه أن يساعد في القضاء على نبوءات العصور الوسطى الدينية قضاء لا رجعة فيه.. ولكن هذا الاعتقاد لم يتحقق أبدا، ويصف هذه الحقيقة المؤرخ «روبرت ليرنر» فيقول : «إن عزل أي نص نبوئي ينتمي إلى العصور الوسطى أشبه ما يكون بمحاولة اقتلاع نبات عنيد من حديقة منزلك، تظن أنك قد قضيت عليه نهائيا ولكن سرعان ما تكتشف أنه قد تشعب بجذوره في الأرض وتعمق فيها راسخاً أكثر مما كان».

الولع الأمريكي بالنبوءات

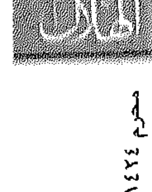
هذا الولع العجيب بالنبوءات الدينية انتقل إلى أكثر بلاد الدنيا تفاؤلا وأكثرها إيمانا بالعقيدة الألفية في العصر الحديث ألا وهي الولايات المتحدة الأمريكية. انتقل مع أتباع «أوليفر كرومويل» الذين عرفوا في التاريخ باسم المتطهرين «بيوريتانز».. هربوا من إنجلترا نجاة بأنفسهم من الاضطهاد الديني حيث استقروا في الأرض الجديدة التي وصفوها بأرض الميعاد.

حدثت الصحوة الدينية الكبرى الثانية في أول شهر من شهور عام ١٨٠١م (بداية القرن التاسع عشر) حيث اجتمع ٢٥ ألف شخص في مخيم «كين ريدج» Cane Ridge بولاية كنتكي يمارسون أشكالا غريبة من الشعائر الدينية، ثم تنتابهم نوبة من الضحك والصراخ عندما تحل بأجسامهم روح القدس بحسب زعمهم وإيمانهم فتهوي على الأرض.

وفي هذا يقول بعض شهود العيان: كان الصالحون والآثمون من كل صنف يصرخون صرخة مدوّية ثم يسقطون على الأرض كقطع من الخشب وتبدو على وجوههم علامات الموت.

الصحوة الدينية المعاصرة

بدأت الصحوة الدينية الكبرى الثالثة سنة ١٩٩٣م، فقد كان عقد التسعينات يمثل نهاية قرن ونهاية الألفية الثانية وأصبحت نهاية الزمن الإنجيلية – حسب تفسيرات المتنبئين البروتستانت – قاب قوسين أو أدني . وكالصحوة السابقة صاحبتها أحداث صاخبة: جماهير حاشدة من «المسيحيين العائدين» تهبط عليهم الروح القدس فيضحكون ويبكون بطريقة هستيرية ويتحولون إلى كائنات أو شخصيات مختلفة، فتتغير أصواتهم وتنطلق ألسنتهم بلغات غريبة لم يتعلموها ولم يألفوها من قبل.. وقد





عـــرفت هـذه الظاهـرة بـ«بركة تورنتو».

عندما انهار الاتحاد السـوفـيـيـتـي تراجـعت المخاوف التي تتعلق بحرب نووية ولكن ظهرت مـخـاوف لا تقل عن ذلك خطرا ورهبـة.. مـخـاوف من مـخـاطر ثقب الأوزون والتلوث البـيـئي والاحتباس الحراري.

ولكن من بين كل هذه المخـاطر تبـرز حادثتان تاريخيتان كان لهما أثر ساحق على مـلايين الأمـريكيين من البـروتسـتـانت الأصوليين، فقد أطلقت هاتان الحادثتان في العـقـول والمشاعر براكين من الخيـال الجامح: تتمـثل الحادثة الأولى في تفـجير أمـريكا لقنبلتين نوويتين على هيروشـيـما ونجازاكي في نهاية الحرب العالمية الثانية، هذا التفجير في حد ذاته وضع اللحم على عظم النبـوءات الدينيـة المتـعلقـة بنهـاية الزمن: «نار تسقط من السـمـاء فتدمر كل شيء في طريقـهـا» وإذن فـالنصـوص النبوئية يمكن أن تتحقق على الأرض.

أما الحادثة الثانية فتتمثل في إقامة دولة إسـرائيل سنة ١٩٤٨م.. فـقـد أكـدت الإيمان بأن السـاعـة الإلهيـة التي توقـفت لمدة ألفي عـام قـد بدأت تدق من جـديد، ومنذ تلك اللحظة بدأ البـروتسـتـانـت الأصـوليون زحـفهم التدريجي من هامش المجتمع إلى صميم التيار العام الثقافي والسياسي، وهو زحف يسـتـمـد طاقـتـه الدافعة وحوافزه من إحياء عقيدة «نهاية الزمن».

بركة تورنتو

ظاهرة مثيرة تستحق وقفة قصيرة للتـأمل والفهم لأنهـا تمثل تطورا هـامـا في العقيدة والممارسات الدينية للبروتستانت وعـلامـة على انطلاقة أو صـحـوة دينيـة جـديدة. تستند هذه الظاهرة على فكرة أن الروح القدس التي كـانت مـقـصـورة على المسيح أصبح من الممكن أن تتنزل على آلاف المسيحيين المخلصين الأتقياء الذين يطلق عليـهم وصف المسيـحـيين العائدين أو "Botn Again Chris-tians" ، تتـجلى هذه الظاهرة في الانهـمـار المفـاجيء للروح القـدس على المصلين فـيـسـقطون على الأرض وهم يقـهـقـهـون لا يملكون السيطرة عليـهـا وتصـدر عنهم أصوات غـريبـة وصـفـهـا بعضـهم بأنها أصوات نخير ونهيق كتلك الأصوات التي تصـدر عادة من حيوانات المزرعة.

سميت هذه الظاهرة «بركة تورنتو» لأنها بدأت في كنيسة قرب مطار تورنتو بكندا تابعة لمؤسسة تسمى «ڤينيارد» لها نشاط تبشيري عـالمي كانت تعلم الناس أن نهـاية القرن العـشرين سوف تشـهـد تجليات قوية للروح القدس أكثر من أي وقت مـضـى، وابتـداء من يناير ١٩٩٤م كـانت كنيسة تورنتو والكنائس الأخـرى التابعة لمؤسسة ڤينيارد تعقد سلسلة من الصلوات الخلوية لآلاف المصلين وفي كل ليلة كـان القسس بعـد انتـهـاء مـراسم الصـلاة يجـدون أمـامـهـم حـقـولا من الأجسام المنبطحة على الأرض ترقد في سبات عميق وتبدو على وجوه أصـحابها علامات السعادة والرضا.

انتشرت أخبار هذه الظاهرة انتشار النار في الهـشـيم، وأخـذ القـسـس البروتسـتانت يتقاطرون من أنحاء العالم ليشـهـدوا تجليات بركـة تورنتو ولينقلوا هـذه التـجـربة الروحـيـة إلى رعـايـا كنائسهم.

اهتمت الصحافة البريطانية اهتماما ملحوظا بهذه الظاهرة وكتب عنها صحفيون كثيرون منهم «أندرو براون» من صحيفة الإندبندنت.. كتب فى ٢١ يونية ١٩٩٤ عن مشاهداته وانطباعاته عندما زار الكنيسة قال:

«عندما هبطت الروح القدس فى كنيسة «سان بول» سمعت أربعة أصوات لاصطدامات ثقيلة على الأرض حيث سقط أربعة من المصلين.. ثم تلا ذلك نقر سريع كما تفعل الأرانب بأرجلها عندما ترسل إشارات تحذير لمجتمع الأرانب من خطر داهم.. ثم بدأ الناس يهتزون وينتفضون انتفاضات لا إرادية ويدقون بأقدامهم على الأرض.. رأيت امرأة تتواثب فى حركة منتظمة تشبه ذبذبات الآلة الكهربائية التى يستخدمها العمال فى حفر الطرقات.. وظلت المرأة تتواثب على هذا الحال لمدة عشرين دقيقة.. وفى مكان ما بالقاعة الفسيحة كان يصدر لهاث وخفق هائلان يشبهان تلك الأصوات التى تصاحب الحركات الجنسية.. وتأتى من مواقع متفرقة قهقهات خليعة تتفجر معها أحشاء الضاحكين، يقول أندرو براون معلقا: لم تكن هذه أصوات أشخاص بالغين إنما هى أشبه ما يكون بقهقهة أطفال سعداء عندما يدغدغ أجسامهم أشخاص آخرون.. ومع ذلك فقد كانت هذه الأصوات تصدر من سيدات محترمات لا تقل أعمارهن عن الثلاثين سنة.

تساءلت صحيفة «الديلى ميل» : ما هذا الذى يحدث باسم الرب؟، فجاءت لها إجابات متباينة:

قال رجال الكنيسة البروتستانتية «إنها رياح صحوة دينية هبت على الناس بعد زمن طويل من الركود والتدهور فى بلاد الغرب.. إنها تشبه تلك الصحوة الموصوفة فى الأناجيل والتى ستسبق عودة المسيح الثانية»، وقال علمانيون مثل «دوروثى راو» : «إن أعراض بركة تورنتو ليست أكثر من تدفق هرمون الأدرينالين فى الجسم البشرى وسط مناخ من العدوى الجماعية».

أما داميان تومسون صاحب كتاب «نهاية الزمن» فيرى أننا أمام ظاهرة هى أكبر وأسرع انتشارا للمسيحية فى التاريخ.. ويؤكد أن نمو البروتستانتية حديثا أعظم من نمو أى دين آخر بما فى ذلك الإسلام نفسه.. هو يعترف بأنه لا توجد إحصاءات دقيقة يمكن الاعتماد على صحتها مائة بالمائة، كما أن الأمر يزيد صعوبة وتعقيدا بسبب أن هذه الظاهرة ذات أطياف وأطراف كثيرة وتحمل أسماء كنائس وجماعات دينية يصعب حصرها مثل: المسيحيون العائدون، الأصوليون الجدد، الكاريزماتيون، الإنجيليون البروتستانت، والبنتكوست وكل اسم من هؤلاء له معنى متميز، ولكنها فئات متداخلة لدرجة مربكة.

ولكن استطاع تومسون أن يرصد بعض الحقائق المتميزة نوجزها فيما يلى:

■ كان عدد أتباع الكنيسة الكاريزماتية (البروتستانتية) سنة ١٩٨١ تسعين مليونا أصبح عددهم سنة ١٩٩٦ أربعمائة مليون.

■ انتشار مثير للبروتستانتية فى مناطق كثيرة بالعالم الثالث، شملت أمريكا اللاتينية التى كانت حكرا



مــــقـــصـــــورا على الكاثوليكية، الآن وصلت نسبة البروتستانتية فى بعض البلاد إلى ٤٠٪ من السكان.

■ من أبرز مـــلامح هذه الموجة المتنامية أن أصبح الإنجيل محور حياة الناس يحملونه فى نسخ صغيرة الحجم مغلقة «بسوستة» ليتسنى لهم قراءته فى أى مكان يذهبون إليه.

■ جميع هؤلاء الناس يؤمنون بعقيدة نهاية الزمن، وأن احتمال عودة المسيح إلى الأرض يمكن أن يكون خلال فترة حياتهم.

■ بدأت موجة جديدة من المتنبئين خلال ثمانينات القرن العشرين، نُشرت نبوءاتهم فى كتب ومجلات وبثت خلال محطات الإذاعة والتلفاز، من أشهر هؤلاء إدجار «هويسنانت»، لم يكن من رجال الدين وإنما مهندس سابق فى قاعدة ناسا الفضائية، كما أنه لم يكن الوحيد الذى حدد عودة المسيح بسنة ١٩٨٨م وإنما تابعه فى ذلك نفر غير قليل من المتنبئين، خصوصا بعد أن نشر «هال لينسى» كتابه الشهير سنة ١٩٧٣ بعنوان :

"Late Great Planet Earth"

الذى كان على رأس قائمة أكثر الكتب مبيعاً، أكد لينسى فى هذا الكتاب أن بيننا وبين دراما نهاية الزمن وعودة المسيح المجيدة جيل واحد.

رحلة إلى إسرائيل

من خصوصيات المشهد الأمريكى - ربما - امتزاج الدين «بالبزنيس»، ومن ثم لا نعجب أن يأتى أحد كبار المتنبئين الأمريكيين هو «تشارلز تيلر» لينظم رحلة إلى إسرائيل بحيث تتزامن مع تاريخ العودة الثانية للمسيح بلغت تكلفتها ١٨٥٠ دولارا، شاملة لرحلة العودة إذا دعت الضرورة!، وقد ورد فى إعلاناته عن الرحلة ما يلى: «سوف تنزل بفندق إنتركونتننتال على جبل الزيتون حيث يمكنك الإطلال على منظر بديع للبوابة الشرقية ولجبل المعبد «يقصد بيت المقدس».. فإذا كانت هذه هى سنة عودة المسيح كما نتوقع فسوف تتمكن من الصعود إلى الأمجاد السماوية على بعد أقدام من موقع صعود المسيح».

اهتم محلل نفسى أمريكى هو «تشارلز ستروزيير» بدراسة استغرقت منه خمسة أعوام أجرى فيها لقاءات مع أتباع الكنائس البروتستانتية حاول فيها أن يحدد المعتقدات المشتركة بينهم، ونستطيع أن نستنتج من هذه الدراسة أن الصورة قد لا تكون فى بعض جوانبها مكتملة الوضوح ولكن يمكن القول إن المعتقدات البروتستانتية النبوئية متجذرة تجذرا قويا فى الخبرة الشخصية لكل فرد وأنها تتشكل بالآمال والطموحات الشخصية بقدر ما تتشكل بالعقيدة الألفية.

البعثة العظمى

من المعتقدات المشتركة الراسخة عند جميع أفراد العينة التى درسها «ستروزيير» أن هيمنة المسيحية على العالم واجبة ومؤكدة قبل نهاية الزمن مستندين فى هذا إلى عبارة وردت فى إنجيل القديس متى (فصل ٢٤ فقرة ١٤) ، وقد وجد أن هذه الفقرة تتردد دائما على ألسنة البروتستانت، وهى تنطوى على فكرة أن انتشار المسيحية وسيادتها يساعد فى تقريب نهاية الزمن وبالتالى عودة المسيح، وليس هناك ما يخشاه المبشرون المخلصون من الكوارث

التى ستعم الكون قبل نهاية الزمن لأن الجذب السماوى لهم سوف يجنّبهم هذه الكوارث، وهذا فى حد ذاته أعظم حافز لهم على الاستماتة فى نشر المسيحية فى كل أركان الدنيا وهى مهمة ذات قداسة خاصة لذلك يسمونها «البعثة العظمى».

تنصير المسلمين

لقد تسلحت الموجة الثالثة للأصوليين لحرب روحية شديدة الوطأة، وهم يرفعون شعارا واضحا ومحددا تمام التحديد: «كنيسة لكل شعب وإنجيل لكل فرد».

وهم عندما يقولون إنجيل لكل فرد فإنهم يعنون على وجه التحديد زرع حركات تبشيرية فى قلب المناطق المستعصية التى يطلقون عليها مصطلح (نافذة ١٠/٤٠). وليس فى هذا لغز أو شبه لغز وإنما هو مستطيل يرسمونه على الكرة الأرضية يقع بين خطى عرض ١٠ و٤٠ شمال خط الاستواء يمتد من غرب أفريقيا حتى الشرق الأقصى ويضم كل بلاد المسلمين.

إنهم يرون أن تنصير المسلمين ضرورى لتحقيق وعد الرب ذلك لأنه «إذا انتشرت كلمة الرب فى أنحاء العالم فإن نهاية الزمن تكون قد أزفت»، ولكن المقاومة العنيدة للمسلمين من شأنها أن تؤجل تحقيق النبوءة الألفية، ولذلك اعتبروا هذه المقاومة سببا من أسباب الكراهية العمياء للإسلام والمسلمين وللنبى محمد (صلى الله عليه وسلم).

فى حمى التبشير البروتستانتى ظهرت أشكال جديدة من الكنائس تنحو فى نشاطها إلى الكتمان والسرية، مثل ذلك كنيسة البابتست بسنغافورة، فهى تنظم أتباعها فى خلايا تشبه المجموعات العسكرية، مبثوثة فى كل عمارة سكنية بالجمهورية، فى هذا النمط من التنظيم تنمو خلايا المؤمنين ثم تنقسم كما تنقسم الأميبا.. وهى فى نموها وانقسامها وانتشارها تحقق أهدافها المرسومة فى مواعيد وجداول زمنية صُممت بإحكام شديد.

ويتوقع الباحثون الإنجيليون أن الصين وهى من المناطق المستعصية سوف تشهد انفجارا مسيحيا عما قريب، وقد قدّر عدد المتحولين إلى البروتستانتية حتى الآن بعشرين مليون صينى.

هذه الأنباء الباهرة لدخول الناس فى البروتستانتية أفواجا تمثل دم الحياة الذى يتدفق فى عروق المسيحيين فى الولايات المتحدة وفى أوروبا وتثير فى النفوس شعورا بالفخر والاعتزاز.. وتحاول الكنائس بكل الوسائل تأجيج الحماس الدينى فى نفوس أتباعها، وحجتها فى ذلك: أنه إذا كانت المسيحية قد استطاعت أن تنتصر كل هذه الانتصارات على الشيطان فى العالم الخارجى فما الذى يمنعها أن تحقق النصر عليه فى عقر دارها؟.

عبادة الشيطان

إحدى الوسائل التى تستخدمها الكنائس البروتستانتية لإعادة المسيحيين إلى حظيرة الدين نشر شائعات عن ظهور عبادة الشيطان فى المجتمع الأمريكى وهى وسيلة قديمة طالما استخدمتها الكنيسة فى الماضى كلما شعرت بانصراف الناس عنها.. وفى إطار هذه الشائعات تنطلق قصص مروّعة عن سيدات حوامل تنتزع الأجنة



من أحشائهن لتقديمها قرابين للشيطان، ومع انتشار الهلع بين الجماهير ترتفع صيحات الدعاة بضرورة شن حرب على الشياطين والأشرار، ويتآزر مع هذا ظهور موجة من أفلام هوليود تدور حول القوى الشيطانية وفنون السحر الأسود، ثم يأتي في هذا السياق (بتنسيق عجيب) مؤلفات أدبية مثل رواية "This Present Darkness" لمؤلفها «فرانك بيرتى».. بيع منها مليون نسخة فى أول إصدار لها ثم توالت طبعات الرواية بعد ذلك تباعاً.. وتكتمل الدائرة الإعلامية بمؤلف موسيقى هو «جرام كيندريك» الذى وضع مجموعة من الألحان الدينية الجماعية لإنشادها فى المسيرات الحاشدة.

ولكن لا تكتفى الكنائس بالوسائل الروحية والإعلامية بل تتصدى لمعالجة المشكلات التى يعانى منها المجتمع الأمريكى، وفى هذا المجال أنشأت الكنائس برامج لإعادة تأهيل العاطلين عن العمل تفوقت على برامج الحكومة والمؤسسات المدنية الأخرى، فقد استطاع ٤٠٪ من المتدربين فى برامج الكنائس الحصول على وظائف جيدة بينما لم تزد نسبة الناجحين فى البرامج الأخرى على ٢٨٪ ، فماذا تعنى هذه الحقيقة؟:

إنها دليل قوى على أن الطاقات الجديدة لجنود المسيح لا تنفق كل وقتها فى التأمل وحسابات «نهاية الزمن»، وإنما تخطط بمقدرة وتنجح فى تحقيق إنجازات ملموسة على الأرض.

مسيرات المسيح

حمى النشاط البروتستانتىّ أصبحت ظاهرة شائعة ومألوفة فى المجتمع الأمريكى، تبثها فى كل لحظة من الليل والنهار ١٤٠٠ محطة تليفزيون وإذاعة يعمل بها ثمانون ألف قسيس، يعتقد بعضهم أنه يملك قدرة خارقة على شفاء الأمراض المستعصية من خلال تجليات الروح القدس.

ويعبر الأصوليون الجدد عن تعطشهم للإثارة عندما يتجمعون فى مسيرات حاشدة يُطلق عليها اسم «مسيرات المسيح» وهى عادة تضم مئات الألوف من البشر.. تنطلق فيها الطاقات الجمعية الكامنة وتتولد فى الجماهير رعشة فى القلوب تسرى بينهم كتيار كهربائى فيهدرون بوعد قاطع «أن يعودوا إلى التقاليد المسيحية النبيلة.. والنقاء الجنسى.. وبناء حياة زوجية قوية وأسر سعيدة». يطلق على هذه الفئة اسم «المحافظون على الوعد». إنهم يتبعون أسلوبا متميزا فى تغيير المجتمع وإعادته إلى حظيرة الإيمان، وهو أسلوب مختلف عن أسلوب «الكاريزماتيين» أصحاب «بركة تورنتو».. ولكن مع هذا الاختلاف يتجه الجميع إلى أهداف مشتركة على رأسها بعث المسيحية وسيادتها على العالم.

خلاصة

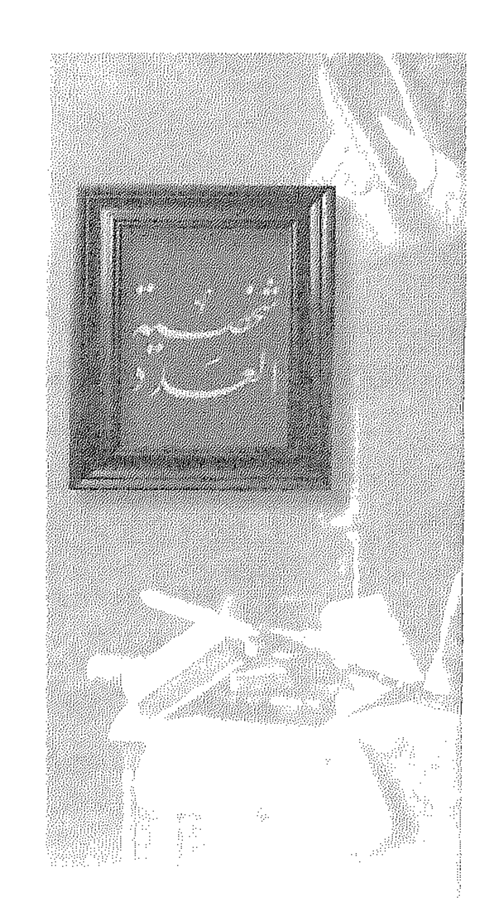
أولاً - لليهود عقيدة نبوئية تتعلق بنهاية الزمن يتحقق بها للشعب المختار وعد إلهى بعالم أبدى سعيد، ليس فى فردوس سماوى وإنما فى إمبراطورية

أرضية عاصمتها القدس، شرطها الأساسى أن يتمكن الشعب المختار من إبادة أعدائه وتجريدهم من أرضهم وكل ما يملكون، وهذا ما يقوم به الإسرائيليون الآن ضد الفلسطينيين فى حرب إبادة متواصلة.

ثانيا - بينما يتفق اليهود والمسيحيون النبوئيون على ظهور مخلّص فى نهاية الزمن، إلا أن الذى ينتظره اليهود هو «مشياح» أو مسيح من بينهم وليس المسيح الذى ينتظره المسيحيون البروتستانت، كذلك يؤمن اليهود بأن السيادة على العالم ستنعقد لهم فى نهاية الزمن من دون جميع البشر، فى حين يؤمن البروتستانت بأن المسيح العائد سيقوم بتنصير اليهود ومن يرفض منهم سيتم تدميره، ومعنى هذا أنه لن يكون هناك يهود فى نهاية الزمن، ولكن اليهود لا يجادلون فى هذه القضية، إذ يكفيهم الآن أن أقوى دولة على هذا الكوكب تؤيدهم وتمكن لهم وتمدهم بكل ما يلزمهم لتحقيق المشروع الصهيونى فى فلسطين وما حولها، وعندما تحل نهاية الزمن يكون لهم شأن آخر !.

ثالثاً - سطوة المعتقدات النبوئية الألفية على الفكر البروتستانتى الأصولى ونفاذها إلى التيار السياسى العام هى حالة أمريكية متفردة بين سائر المجتمعات المسيحية الأخرى فى العالم. لذلك ليس مستغربا أن تسود مفردات هذه العقيدة على الخطاب السياسى للإدارة الأمريكية الحالية لأن المسيطرين عليها من المنتمين إلى هذه العقيدة . فمنها صيغت عبارات : مثلث الشر، وإمبراطورية الشر والشيطان ، وغير ذلك من عبارات. والحقيقة أن التوجه السياسى الأمريكى العنيف ونزعته الإمبريالية الطاغية لا تقف وراءه فقط مصالح وأطماع اقتصادية وبترولية ورغبة فى النهب والسيطرة، وإنما تمتزج فيه أيضا مخاوف وآمال ضاربة بجذورها فى أعماق العقيدة النبوئية والألفية السعيدة التى تسبقها أهوال وكوارث كونية (قبل ألفية) أى قبل نهاية الزمن وعودة المسيح إلى الأرض.

رابعاً - القوة الأسطورية لما يسمى باللوبى الصهيونى لا تُعزى فقط إلى قدراته الذاتية الخاصة ونشاطه المحموم الذى يتغلغل فى كل مجال، وإنما تستند إلى قوى هائلة فى المجتمع الأمريكى البروتستانتى، هى أكثر تعصبا وأشد حماسا للمشروع الصهيونى فى فلسطين، وعندما يزايد «نتانياهو» على رئيسه شارون برفضه فكرة إقامة دولة فلسطينية بجوار إسرائيل، فإنه لا يقصد بذلك مناورة سياسية محلية فحسب، وإنما يخاطب فى الوقت نفسه هذه القوى التى تتمتع بنفوذ كاسح فى الحزب الجمهورى الحاكم وفى الكونجرس وفى الإعلام وفى كل مؤسسات المجتمع الأمريكى . أظن أننا بهذا الفهم نقترب كثيراً من نظرية الدكتور عبدالوهاب المسيرى الذى يعتبر إسرائيل دولة وظيفية وأداة لتحقيق السيطرة الأمريكية على العالم. ■





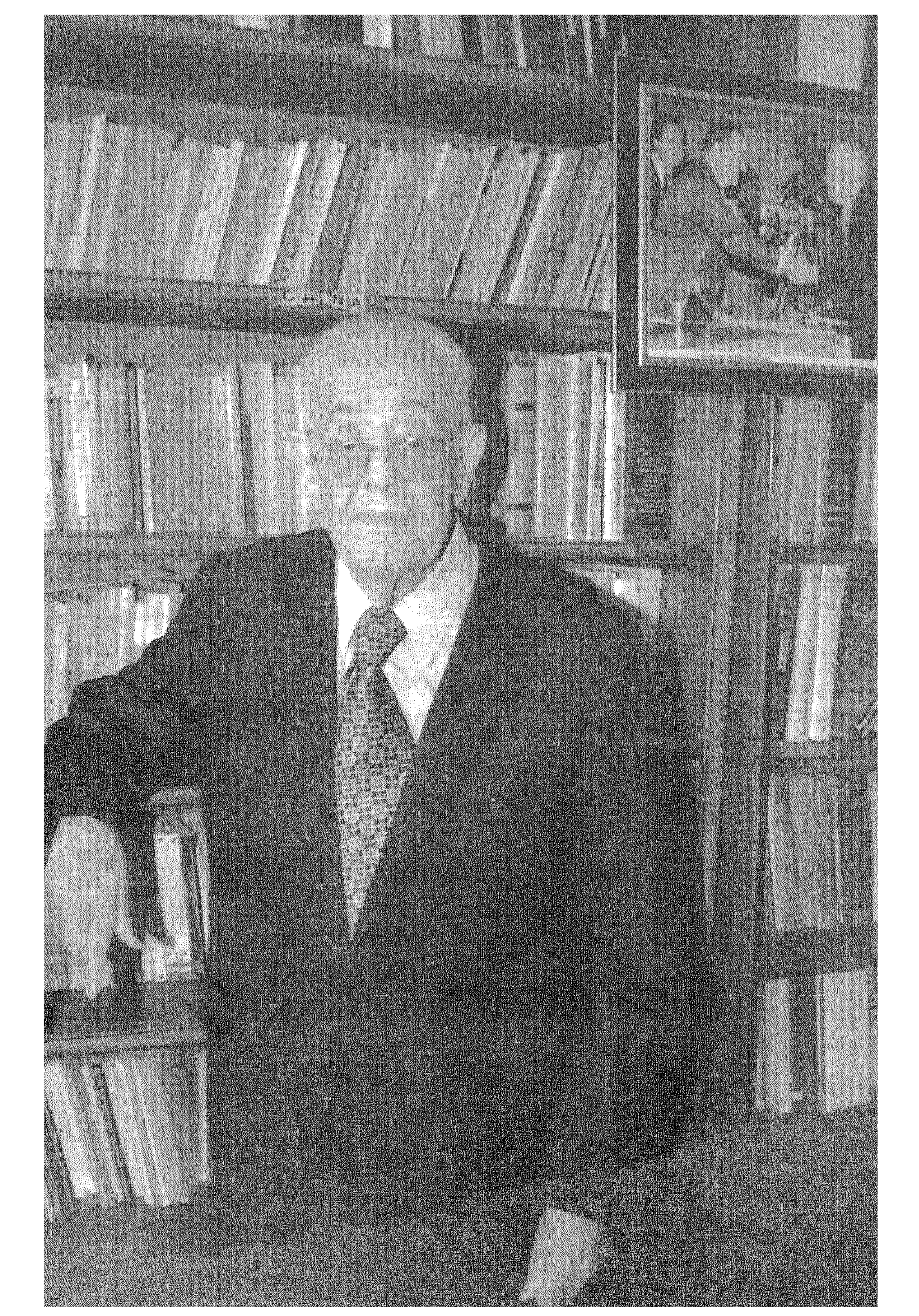
محمد عودة

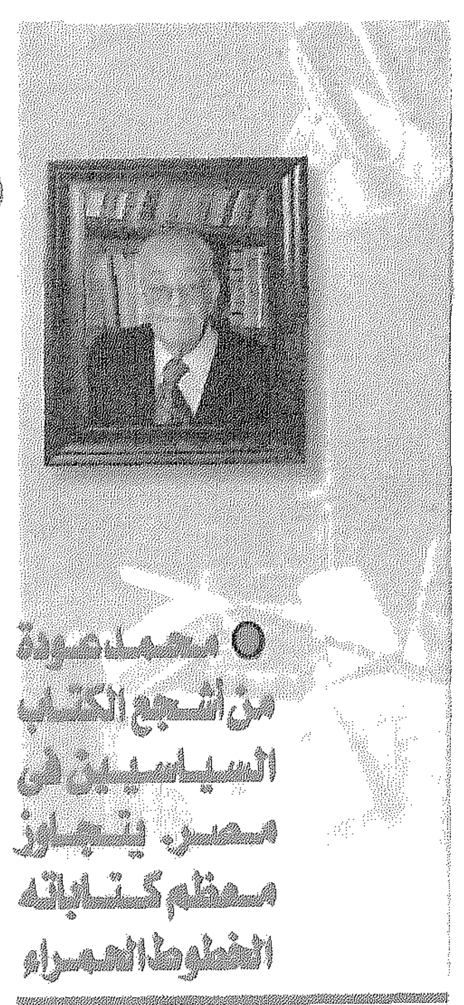
من "الصين الشعبية" إلى "كرومر فى مصر"

بقلم
حسين عبد الرازق

عندما قرأت كتاب «محمد عودة» الجديد «كرومر فى مصر» ، وجدتنى دون قصد منى أعود بالذاكرة إلى أول كتاب قرأته له وهو كتاب «الصين الشعبية» فى خمسينات القرن الماضى، فهذا الكتاب هو الذى عرفنى بمحمد عودة ودفعنى إلى حبه واحترامه قبل أن نلتقى.

التقيت به أول مرة مباشرة وكنت طالبا فى السنة النهائية بقسم العلوم السياسية بكلية التجارة جامعة القاهرة. وخلال الدراسة أعددت ورقة بحثية فى الكلية حول «سياسة الحياد الإيجابى» وفكرت فى نشرها فى صحيفة الشعب، أقرب الصحف إلى فى هذه الفترة ، وكان يرأس تحريرها أحمد بهاء الدين ويكتب فيها محمد عودة. وظللت حائرا لمن أرسل هذه الورقة، وأخيرا حسمت هذا التردد فأرسلتها لمحمد عودة.. وتشاء الظروف بعد ذلك أن أبدأ عملى الصحفى فى أخبار اليوم فى مارس ١٩٦١ مع أحمد بهاء الدين وأن يكون محمد عودة هو الذى صحبنى إلى أخبار اليوم وقدمنى إليه.





● محمد عودة من أشجع الكتاب السياسيين فى مصر، يتجاوز معظم كتاباته الخطوط الحمراء

بعد أيام قليلة من إرسالى ورقة سياسة «الحياد الايجابى» إلى عودة فوجئت به يتصل بى تليفونيا ويدعونى للقاء فى صحيفة الشعب صباح يوم الجمعة . ذهبت إلى هناك فى الموعد المحدد تماما. وجدته فى مكتب الزميلة زينب صادق مديرة مكتب الأستاذ بهاء وكان يتحدث فى التليفون. فانتظرت حتى ينتهى من مكالمته الطويلة، وعودة كما عرفت بعد ذلك يتبادل الأحاديث الطويلة الممتعة فى التليفون مع أصدقائه وصديقاته. صحبنى عودة إلى مكتب أحمد بهاء الدين - ولم يكن موجودا به - وعبر لى عن سعادته بما كتبت وبشرنى بمستقبل مشرق ينتظرنى فى الصحافة. منذ هذا اللقاء لم تنقطع صداقتنا، ولم أتوقف عن كونى تلميذا مخلصا لأستاذى محمد عودة. بعد إغلاق صحيفة الشعب انتقل عودة للعمل بصحيفة الجمهورية ورشحنى لصلاح سالم رئيس مجلس إدارة دار التحرير للعمل فى الجمهورية . وسافر عودة للهند فى مهمة صحفية طالت لعدة أشهر بعد أن فصله المرحوم صلاح سالم بعد سفره بفترة صغيرة لخلاف على البعد بينهما. وظللت أترقب عودته . وما أن علمت أنه يلتقى بأصدقائه وتلاميذه كل صباح فى شرفة فندق سميراميس القديم، حتى سارعت إليه ، وكنت أجلس معه كل يوم تقريبا، وكثيرا ما كنت أذهب إليه فى منزله فى المساء حيث كان يتجمع كثير من أصدقائه وصديقاته لنقضى ساعات فى حديث حول الأوضاع السياسية والسينما والمسرح والأدب والكتب الجديدة . وكان فارس هذه السهرات التى لا تعوض هو محمد عودة ، لالكونه صاحب المنزل ولكن لأن حَديثه كان يجمع بين العمق وصفاء الرؤية وقصص التاريخ وكثير من الضحكات و«القفشات».

تبني الناشئين

وبعد أشهر قليلة يترك محمد عودة صحيفة الجمهورية التى أعاده صلاح سالم إليها وينتقل للعمل فى الأخبار فى ظل قيادة كمال الدين رفعت الذى كان يسعى لتحويل صحف أخبار اليوم

إلى صحف اشتراكية. ولأول مرة أعمل تحت رئاسته فى الأخبار اليومية ومعى الصديقان «محمد العزب موسى» رحمه الله و«أحمد عبدالغنى». ولأكتشف في «عودة» واحدة من أهم وأجمل صفاته .. سعادته باكتشاف أى شاب جديد وحماسه بغير حدود له (أولها) والدعم الهائل الذى يقدمه له، ومعاملته كند له وهو مازال بعد فى أول الطريق.. وخلال عملى الطويل فى الصحافة «٤٢ عاما» لم أصادف هذا النوع من البشر الذى يتبنى الناشئين ويصادقهم ويدفعهم إلى التقدم.

وهناك عشرات من المواقف التى تحسب له معى ومع عشرات غيرى من الشباب الذين قدمهم للصحافة المصرية .أذكر أنه أعطانى الجزء الأول من كتاب «الحرب الباردة وأصولها ١٩١٧ - ١٩٦٠ » للكاتب الامريكى (د. إف فليمنج والذى يتناول فى ٥٤٠ صفحة باللغة الانجليزية الفترة من ١٩١٧ وحتى ١٩٤٥ ووعدنى بمجرد الانتهاء من قراءته أن يهديه لى ومعه جزؤه الثانى، والذى يتناول الفترة من ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٦٠ ويقع فى ٥٣٥ صفحة. وكان ثمن الجزء الواحد يتجاوز مرتبى فى شهر. ومازلت أحتفظ بهذا الكتاب الهام حتى اليوم.

الكاتب الشجاع

ورغم أن عودة كان يتصور أنه حريص على تجنبه المشاكل ، ويوهم نفسه ويوهم أصدقاءه انه «يمشى جنب الحيط» ويحرص على عدم تجاوز الخطوط الحمراء، إلا أنه فى الواقع العملى كان من أشجع من رأيت من الكتاب السياسيين فى مصر. وكثير من كتاباته تجاوزت الخطوط الحمراء فى جميع العهود، فهو كاتب مشاغب وقلمه يعكس عقلا ناقدا لا يحبه أصحاب السلطة . وأتذكر أنه كتب فى الستينات مقالا حول الأوضاع الاقتصادية فى مصر ، فأبلغه رئيس التحرير أن الرئيس جمال عبدالناصر يقول إن الأرقام التى اعتمد عليها غير صحيحة وأن الأرقام الصحيحة عند فلان من المسئولين وسيزود عودة بها. فما كان من محمد عودة إلا أن رد بمقال حكى فيه حادثة وقعت فى بريطانيا ملخصها أن رئيس وزراء المملكة المتحدة طلب من المسئولين أرقاما معينة يحتاجها فى إحدى القضايا ، فرد عليه المسئول .. قل لى ماذا تريد أن تثبت لأعطيك الأرقام المناسبة. وبعد هزيمة ١٩٦٧ كانت مقالاته فى الجمهورية فى نقد الأوضاع بالغة القوة

ونافذة. وقيل وقتها إن مقالا له نشر فى عدد الخميس (الاسبوعى) ومقالا آخر لسعيد خيال كان وراء فرض الرقابة على الصحف فى ذلك الحين.

البعد عن المناصب

وربما لأن عودة رغم انتمائه بكل قوة لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ودفاعه المجيد عنها بنقد أخطائها فى ظل الرئيس جمال عبدالناصر، لم يكن ملتزما إلا بما يؤمن به ، ولم يحسب أبدا على شخص أو جماعة، ولم يتقرب لأى حاكم أو مسئول، وبالتالى لم يتول أى منصب فى الصحافة القومية رغم تألقه ولمعانه . وكان يستحق هذه المناصب قبل كثيرين احتلوا مواقع القيادة دون أى إيمان بالثورة أو بالشعب . كنا نحن تلاميذه وأصدقاءه نشعر بالغيظ ولا نفهم كيف لا يتولى المسئولية فى صحيفة مصرية فى عهد الثورة، بينما عودة لا تشغله هذه القضية . فكل ما يهمه ان يكتب وان يصل برأيه وموقفه الى الناس الذين كان انتماؤه الحقيقى لهم وحدهم. ولم يقف الامر عند مجرد تجاهله فى المناصب الصحفية ، وإنما امتد إلى الاعتقال فى بداية الثورة (معتقل روض الفرج وسجن أسيوط) والفصل من العمل فى ظل الرئيس الراحل جمال عبدالناصر، والاعتقال فى سبتمبر ١٩٨١ (سجن أبوزعبل وملحق مزرعة طرة) فى عهد أنور السادات.

وعندما رحل عبدالناصر وبدأت الحملة الظالمة ضده «وضد الثورة» من بعض الذين لمعوا فى عصره واستفادوا من الثورة . كان عودة أصلب المدافعين عنها بإخلاص حقيقى، بدءا من كتابه «الوعى المفقود» وعشرات المقالات والدراسات ، وحتى اليوم . كان فى الواقع يدافع عن تاريخ مصر، وهو العاشق لمصر وتاريخها وزعمائها ونضال مثقفيها وفلاحيها وعمالها وناسها العاديين. لم يتوقف أمام أخطاء الثورة وخطاياها وعثراتها، ولكنه دافع عن جوهر الثورة المعادى للاستعمار والمنحاز للناس البسطاء والفقراء ، والتى اعتمدت على الطبقة الوسطى التى كان يراها عودة قائدة الثورة المصرية فى كل حلقاتها . وكان كالعادة

أغلب كتاباته مستمدة من التاريخ فهو عاشق للتاريخ وهو عاشق أيضا للترحال

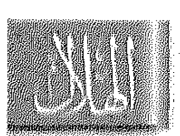
دفاعا حارا منحازا حتى النخاع.

الأديب والفنان

وعودة صاحب أسلوب وشخصية فى الكتابة يصعب تكرارها . لا تستطيع إن بدأت فى قراءة مقال أو كتاب له ان تتوقف قبل أن تصل إلى النهاية ، ليس فقط لأهمية الموضوع، ولكن لأن عودة يكتب بكل ذرة فى كيانه، فيدفع القارىء لأن يعيش القضية بكل جوارحه. وأسلوب عودة يختلف عن اساليب الكتابة السياسية المعتادة ، فجملته رغم بساطتها أقرب إلى كونها عبارات أدبية نابضة بالحياة، ومقالاته فيها قدر كبير من العاطفة رغم كثرة الحقائق والمعلومات والاستشهادات وأذكر اننى تناولت أحد الكتب من مكتبة عودة وكان كتابا أو ديوانا للشاعر احمدعبدالمعطى حجازى،. وقرأت الإهداء المكتوب عليه. وقد اكون نسيت الآن نص عبارات الإهداء، ولكن معناها الذى مازلت أذكره.. عودة أديب وفنان ضل طريقه للسياسة.

وعودة رغم أنه يكتب غالبا فى الحاضر ، فهو عاشق للتاريخ يستمد أغلب كتاباته من التاريخ ، سواء فى مصر أو الهند. أو الصين.. وهو عاشق أيضا للترحال ، زار كثيرا من بلاد العالم واحتك بشعوبها وقرأ تاريخها وفهم أسراره والتهام الكتب داء لا يستطيع عودة أن يبرأ منه، حتى لو تعبت عيناه واعتلت صحته . ويندر أن تجد محمد عودة لا يحمل كتابا جديدا يلتهم سطوره أينما كان.. فى المنزل أو فى سيارة أو فى مقهى ريش او فى أى مكان.

وكتابه الأخير رغم انه يدور على فترة وجود كرومر فى مصر وصراعه مع الحركة الوطنية ومشكلة الديون التى تسلمت مصر منها أقل من نصف المبالغ المستحقة وأن الباقى تبدد بين الوسطاء والسماسرة والمرابين، والنضال المصرى من أجل الديمقراطية والدستور وفى مواجهة هيمنة الامبراطورية البرلمانية.. إلا أن قراءة هذا الكتاب بعين مدققة لابد ان تقدم لنا دروسا لا تقدر بثمن لكيفية التعامل مع الحاضر، رغم اختلاف الوقائع والاسماء . وهذه هى عبقرية الكتابة فى التاريخ ونقله من الماضى إلى الحاضر. ■



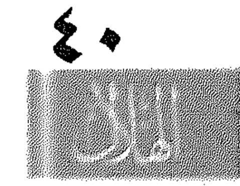
من أحكام المحاكم

المرأة والقضاء

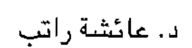
بقلم
طارق البشرى

كان أول ما أثير موضوع اشتغال المرأة بالقضاء - فى ظنى - فى يوليه سنة ١٩٤٩، عندما قدمت الآنسة عائشة راتب المتخرجة فى كلية الحقوق فى السنة ذاتها طلبا للالتحاق بالعمل فى مجلس الدولة، مستجيبة فى ذلك مع زملاء لها فى التخرج إلى ما أعلنه المجلس لشغل وظائف «مساعدى مندوبين حرف» «ب» من خريجى الحقوق الحاصلين على درجة ممتاز أو درجة جيد جدا.

وأثار الطلب جدلا فى داخل المجلس وفى خارجه وتكلمت عنه الصحافة وصار من شواغل الرأى العام، يدلى فيه ذوو الرأى بآرائهم وكانت الطالبة من الحاصلين على درجة جيد جدا وترتيبها الثامن فى درجة الناجحين، وكان المجلس يراعى ترتيب درجات طالبى التعيين به عند اختياره لهم، ولا يستبعد فى العادة من يؤهله ترتيبه للتعيين لأسباب تتعلق بأوضاع اجتماعية ولا يستبعد عادة إلا لظروف تتعلق بعدم القدرة الصحية مثلا أو ما يشبه ذلك، وكان فى هذه السنة يطلب عددا يبلغ أحد عشر وظيفة مما يندرج فيه ترتيب الطالبة، فلم يكن ثمة سبب قط يحول بينها وبين التعيين إلا أن يكون الجنس هو السبب.







د. عائشة راتب



سيزا نبراوى



عبد الرزاق السنهورى

تداول القائمون على التعيين فى شأن هذا الطلب، واستدعاها وكيل المجلس وذكر لها أن ليس ثمة مانع قانونى يحول دون تعيينها، ولكن من الوجهة « الواقعية فهذا شئ » جديد على المجلس وقابلها د. عبدالرازق السنهورى رئيس المجلس وفهمت من حديثه أنه يوافق ولكن الأمر ليس سهلا ، ثم طلبها الوكيل بعد ذلك وأعلمها أن وزير العدل تردد ولم يشأ أن يتحمل المسئولية وحده فعرض الأمر على رئيس الوزراء فطلب التريث فى التعيين لأنه يتنافى مع السياسة العامة للدولة وعرض الوكيل على الطالبة أن تعين فى وظيفة أخرى بالشهر العقارى مثلا أو المحاكم الحسبية أو وزارة الشئون الاجتماعية فرفضت.

وصدر قرار التعيين غير مشتمل عليها فأقامت دعواها أمام مجلس الدولة ذاته تطلب إلغاء قرار تخطيها فى التعيين مع استحقاقها له بحكم ترتيب درجات تخرجها.

(٢)

نظرت الدعوى أمام وكيل مجلس الدولة المستشار السيد على السيد وفى المحكمة أربعة مستشارين آخرين عرفناهم بعد ذلك من أحسن شيوخ المجلس ومؤسسيه فى علمهم وإحاطتهم.

وكان السيد على السيد قاضيا وعالما جليلا وكان هو الرجل الثانى بعد السنهورى وتولى رئاسة المجلس بعده لست سنوات ، وكانت أحكامه آية فى الأحكام والدقة والاتساق المنهجى وفصاحة التعبير الفقهى اللغوى، وكانت لديه القدرة على الصياغة المحكمة لقواعد فقهية منهجية على طريقة الفقهاء المشرعين القدامى وهى قواعد ترد فى عبارات يجرى بعد ذلك استخدامها على الأقلام.

حكى لى الأستاذ مصطفى مرعى فى أواخر السبعينات، وكان رحمه الله من قبل من نجوم المحاماة والقانون فى مصر

سياسيا مستقلا قبل ثورة ٢٣ يوليه، حكى لى عن المقارنة بين السنهورى والسيد على، وعن ذلك الوقت المبكر من تاريخ مجلس الدولة، وقبل قيام ثورة ٢٣ يوليه عندما كان المجلس قد صار بأحكامه من ضمانات حقوق الأفراد ومن حصون الحرية قال فى معرض المقارنة لقد « كان السنهورى أفقه والسيد على أقضى» وإذا كانت أحكام مجلس الدولة منذ ١٩٥٥ فى عهد رئاسة السيد على السيد قد فقدت الكثير من صفاتها السابقة ومالت إلى دعم السلطة المركزية على حساب ما كانت قررته من قبل فسيبقى للمستشار السيد على السيد رحمه الله هذه القدرات الفنية التى أغنت فقه الأحكام وصاغت عقولا ودربت ملكات قانونية. ولا يدرك أهمية ذلك إلا المتخصصون من أصحاب المهنة.

ويذكر أنه هو من حرر الحكم الشهير الذى صدر فى ١٠ فبراير ١٩٤٨ والذى قرر لأول مرة فى تاريخ القضاء المصرى حق القضاء فى مراقبة دستورية القوانين وكان وقتها عضوا فى الدائرة التى يرأسها المستشار د. محمد كامل مرسى أول رئيس لمجلس الدولة.

هذه القاعدة فيكون القرار مخالفا للقانون بمخالفته ما التزمت به إدارة مجلس الدولة من قواعد. كما أن مبدأ المساواة هو مبدأ نص عليه الدستور بالمعنى الذى أجمع عليه رجال الفقه، وهو يوجب المساواة بين كل من تساوت مراكزهم القانونية بصرف النظر عن الأصل أو اللغة أو الدين أو الجنس أو اللون وبصرف النظر عن أى اعتبار آخر.

وذكرت أنه لا يقال بأن اشتغال المرأة فى الوظائف الحكومية غير ملائم على اطلاقه، لأن هذا القول مردود بأن المرأة تشتغل فعلا فى جهات حكومية متعددة مثل وزارة الشئون الاجتماعية ووزارة المعارف العمومية ووزارة الصحة، وحتى فى وزارة العدل اشتغلت المرأة فى الشهر العقارى وفى المحاكم الحسبية أما بالنسبة لاشتغال المرأة بالقضاء، فإن مجلس الدولة فيه محاكم وقضاء وفيه مناصب للاستشارة أى للافتاء والقسم الاستشارى منه قسم مهم والآراء التى تبدى فيه هى آراء وليست أحكاماً.

تدخلت فى الدعوى السيدة سيزا نبراوى بوصفها رئيسة للاتحاد النسائى، والاتحاد جمعية قامت للدفاع عن حقوق

(٣)

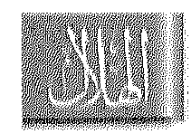
أمريكا وروسيا وفرنسا والدول الاسكندنافية وقدم بحثا عن مركز المرأة فى الشريعة الاسلامية وتسوية الشريعة بين الرجل والمرأة فى التكاليف وفى الحقوق حتى فى الحقوق السياسية ثم عرض للمرأة والقضاء بحسبان أن الشريعة الاسلامية ليس فيها ما يحول دون تقلد المرأة منصب القضاء وأن المذهب الحنفى الذى تقوم عليه الفتيا فى مصر يجيز توليها القضاء.

أما الدفاع عن الحكومة فقد أيد استبعاد الطالبة من التعيين باعتبار أن مجلس الدولة وإن كان يراعى فى تعيينات المرشحين ترتيبهم فى درجات النجاح فى الحصول على إجازة الحقوق فإن ثمة قاعدة أخرى مقررة هو عدم تعيين المرأة فى القضاء وهذه القاعدة لا تتنافى مع الدستور لأن الدستور (دستور ١٩٢٣ الذى كان ساريا وقتها) فى المادة الثالثة منه نص على المساواة بين المصريين فى الحقوق والواجبات وقرر أنه لا تمييز فى ذلك بسبب يرجع إلى الأصل أو إلى اللغة أو إلى الدين، ومن ثم يجوز التمييز فيما عدا هذه الأمور فيجوز التمييز بسبب الجنس مثلا وذكرت أن الشريعة الاسلامية لا تسوى بين الذكر والانثى وأن ثمة بيانا صدر من جبهة الأزهر يؤيد هذا النظر.

(٤)

أما بالنسبة لما انتهت إليه المحكمة فقد أصدرت حكمها فى ٢٠ فبراير ١٩٥٢ رفضت به الدعوى وأيدت بذلك قرار استبعاد المرأة من التعيين فى مجلس الدولة ، ولكن ما يسترعى النظر أن المحكمة لم تتعرض إلى أى من الحجج الفكرية التى أثارها أى من أطراف الدعوى، لا من ناحية حقوق المساواة التى نصت عليها القوانين والدستور أو تستخلص منها ولا من ناحية الشريعة الإسلامية، إنما بنت حكمها على أن من حق الجهة الادارية أن تراعى ظروف إصدار ما تصدره من قرارات وأن تراعى الملائم المناسب فى تقديرها لهذه الظروف وهى فى ذلك تعمل اختيارها للأفضل والآنسب والذى فيه تسيير العمل، وهى فى ذلك تراعى ظروف البيئة وأوضاع العرف والتقاليد دون أن يكون فى ذلك حط من قيمة المرأة ولا نيل من كرامتها ولا غض من مستواها الأدبى أو الثقافى ولا غمط لنبوغها وتفوقها ولا إجحاف، بها وذكرت أن درجة النجاح والترتيب فيه ليس وحده هو ما عليه المعول فى التعيين إنما ثمة نواح أخرى كالحالة الصحية والحالة الاجتماعية وظروف البيئة والعرف والتقاليد وشتى المناسبات الأخرى.

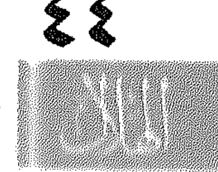
ويمكن أن نلحظ فى أسلوب كتابة هذا الحكم أنه تجنب الاستطراد وتجنب الاسهاب وعزف عن إبداء الآراء الذاتية وهذا بالضبط هو الأصوب فى طريقة كتابة الأحكام، ذلك أن القاضى فى حكمه كالطبيب الجراح فى غرفة الجراحة عليه أن يعمل المشرط فى أقل حيز ممكن، وأن يصل إلى غايته التى ارتأ الصواب فيها بأقصر طريق ممكن ، والوظيفة الموكلة إليه



هى إيصال الحق لصاحبه وأن يذكر ما بني عليه قراره بغير اسهاب ولا استطراد وبغير إبداء الآراء الشخصية وبغير استعراض للمعارف والمعلومات وبغير خطابه ولا اثارة بطبيعة الحال، ومن هنا يرد معنى كلمة مصطفى مرعي التى أشرت إليها من قبل «فلان أقضى» أى يعرف كيف يوازن بين الخصوم ويحايد فى النظر وكيف يسلك إلى قراره وكيف يكتب حكمه، بحيث أن ذكاءه لايرد فيما كتب فقط ولكنه يرد أيضا فيما لم يكتب وفيما لا يستدرج إلى الحديث فيه مما لا يلزم، ونحن نعرف بالمعايشة أن رجال هذه المحكمة ورئيسها كان فى مكنتهم العلمية والمعرفية أن يكتبوا العشرات من الصفحات والعشرات فى المبادئ الدستورية وفى حقوق الانسان وفى الشريعة الاسلامية وفقهها ومذاهب رجالها، ولكنهم لم يستدرجوا ولا أغراهم الموقف بأن ينسوا فى نظرهم هذا الأمر أنهم قضاة فقط.

ويمكن أن نلحظ أيضا أن الطالبة الأستاذة عائشة راتب لم يغرها حماسها لحقها وحماسها لدعواها ولا أغراها حماس الشباب لأن تنسى أو تتجاهل ما تراه ضوابط النظر القانونى الموضوعى فهى فى شرحها دعواها تقر أن هناك سلطة تقديرية لجهات الادارة فى تعيين المرشحين وتقر أن هناك نوعا من الملاءمات والتقديرات الواقعية المقبولة والتى تجمل الاشتغال فى بعض الأعمال مقصورا على جنس من البشر دون الجنس الآخر، مثل أعمال التمريض المقصورة على النساء وأعمال الآلة الكاتبة التى ثبت أن المرأة فيها أسرع وأدق. وهذا مما استخلصت منه المحكمة سندا تؤيد به سلطة التقدير الواجب توفيرها لصاحب القرار فيما يرتأيه من اعتبارات، وهذا النظر الموضوعى الذى نلحظه فى دفاع الطالبة عن حقها هو ما هيأ لها من بعد أن تتبوأ مكانها العلمي اللائق بين فقهاء القانون الدولى العام فى الجامعة وبين ممارسيه فى السلك السياسى وأن يعترف لها بأستاذيتها وطوال حياتها النافعة وأن يتخرج على يديها أجيال ممن يشغلون مناصب القضاء الكبرى اليوم.

كما يمكن لنا أن نلحظ أيضا أن قانون مجلس الدولة هو قانون وضعى ونظم التعيينات فيه وفى الحكومة وفى القضاء بعامة نظم وضعية وكان وقتها فى الأربعينات – الاستناد إلى أحكام مجلس الدولة الفرنسى وسوابق الفقه الفرنسى كثيرة. كما أن دستور ١٩٢٣ الذى كان ساريا وقتها، وإن كان ينص على أن دين الدولة هو الاسلام مثلما ينص دستورنا الحالى الصادر فى ١٩٧١ فإن هذا الدستور السابق لم يكن يتضمن نصا يماثل نص الدستور الحالى عن أن مبادئ الشريعة الاسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع ومع ذلك فإن الشريعة الاسلامية ومبادئها ألقت بظلها على قاعة المحكمة متقاضين وقضاة، فكان قسم من الحجج



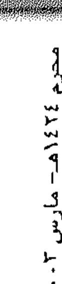
القانونية التى تبادلها أطراف القضية يتعلق بموقف الشريعة الاسلامية من تولى المرأة القضاء، وقدم الاتحاد النسائى بحثا كاملا عن موضوع المرأة فى الشريعة الاسلامية وأقوال مذاهب المسلمين فى هذا الأمر وموقف المذهب الحنفى فى شأنه.

(٥)

وقد عرضت دعوى مماثلة بعد ذلك على مجلس الدولة أيضا، وكانت لإحدى خريجات كلية الحقوق طلبت فى ابريل ١٩٥٠ تعيينها محامية فى إدارة قضايا الحكومة فرفض طلبها وأحيل إلى المحكمة الحسبية (محكمة الأحوال الشخصية) لتعيينها بها، أقامت الطالبة دعواها ونظرتها المحكمة برئاسة الدكتور عبدالرزاق السنهورى وأصدرت المحكمة حكمها فى ٢٢ ديسمبر ١٩٥٣ برفض الطلب، وذلك رغم أن الوظيفة هنا لم تكن من وظائف القضاء إنما كانت من وظائف المحاماة ، والمحاماة فى العلاقة القانونية ليست من جنس ولاية القضاء. مع ذلك رفضت المحكمة تعيين الطالبة فى وظيفة تعتبر من وظائف المحاماة واتبعت فى حكمها ذات الأسباب وذات المنهج الذى قرره الحكم السابق فى دعوى الأستاذة عائشة راتب وانتهت كسابقتها إلى ما انتهت إليه من الرفض.

ذكر الحكم أن المبادئ الدستورية، العليا تقضى بالمساواة بين المرأة والرجل فى الحقوق والواجبات وأن مقتضى ذلك أنه لا يجوز حرمان المرأة على وجه مطلق من تولى الوظائف والأعمال وإلا كان فى ذلك اخلال بهذا المبدأ الجوهرى من المبادئ العليا الدستورية ثم ذكر أن للهيئة التى تعين الموظف سلطة التقدير فيما إذا كانت المرأة بالنسبة إلى منصب معين أو إلى وظيفة بالذات قد انتهت بها مدارج التطور إلى حد الصلاحية فإذا انتهت إلى أن المرأة بلغت هذا الشوط كان عليها أن تفتح لها الباب الذى فتحته للرجل وأشار إلى ما ظهرت فيه صلاحية المرأة من أعمال وإلى ما رؤى أنها الأصلح له من الرجل بغير أن يحسب ذلك على أنه إخلال لصالحها بمبدأ المساواة بين الجنسين.

ثم ذكر أن للادارة أيضا أن تقدر فى غير تعسف ما إذا كان الوقت لم يحن بسبب بعض الاعتبارات الاجتماعية لأن تتولى بعض المناصب. وأنها فى تقديرها هذا تستهدى بظروف البيئة وما تفرضه التقاليد من أوضاع وحدود، وهى لا يجوز أن تنتهى إلى عدم صلاحية المرأة مطلقا وفى كل زمان لتولى مناصب معينة، وأشار إلى أن بالنسبة للشريعة الإسلامية فإن من نصوص الفقه الاسلامى مالا يمنع من تقليد المرأة المسلمة مناصب القضاء متى كانت صالحة لذلك ، وقد جاء فى البدائع للكاسانى (جزء ٧ ص٣) تعداد لشرائط الصلاحية فى متقلد القضاء ولم يرد منها شرط يقضى بأن يكون القاضى رجلا بل ورد العكس من ذلك إذ يقول صاحب البدائع وأما الذكورة فليست من شروط



التقليد فى الجملة لأن المرأة من أهل الشهادات فى الجملة.

ويمكن أن نلاحظ أن هذا الحكم الأخير اتبع ذات المنطق والنهج الذى قرره الحكم الأول رغم أن الحالة التى كانت معروضة عليه لا تتعلق بوظيفة قضائية إنما يتعلق بعمل من أعمال المحاماة فى الدولة والمحكمة، تعرف طبعا الفارق بين الوظيفتين من حيث نوع الولاية التى يملكها كل منهما فكان هذا الاتباع منها له دلالة مهمة جدا وهو أن اقرار المحكمة بعدم اشتغال المرأة فى أى من العملين ليس مبناه أن الوظيفة المطلوبة كانت وظيفة قضائية، وأن ليست الطبيعة القضائية للعمل هى السبب فى عدم اشتغال المرأة ،إنما السبب هو ما رأت الجهة صاحبة الوظيفة أن الأوضاع الاجتماعية والتقاليد والأعراف لا تجعل المرأة صالحة فى بيئة معينة لتولى الأمر، وأن تقدير ظروف البيئة وأوضاع المجتمع وضغوط التقاليد والأعراف هو أمر تملكه الجهة صاحبة الوظيفة متى كان تقديرها فى غير تعسف.

(٦)

وأن الحكمان حرصا على أن يجعلا هذا الأمر بعيدا عن المنع القاطع وعن الايجاب الجازم وحرراه من هذا الاستقطاب سواء بالنسبة لأحكام القانون الوضعى ومبادئه أو بالنسبة لمبادئ الشريعة الاسلامية، وربط الحكمان الأمر كله بعامل لا ينبغى تغافله وهو مدى تقبل البيئة الاجتماعية وأعراف الناس لوضع معين فى زمان معين وفى مكان معين وكلا الحكمين وضع المسألة فى موضع القبول النسبى أو الرفض النسبى وأوجب أن يراعى فى هذا الأمر ظروف البيئة وأوضاع المجتمع ومدى تقبل الناس فى زمانهم ومكانهم وفى إطار العادات السائدة بينهم.

والحكمان لم يقع أى منهما فى مجال المجافاة بين مبادئ القانون الوضعى وبين مبادئ الشريعة الاسلامية إنما نظرا للأمر فى ضوئهما معا متى كان ذلك ممكنا فمثلا بالنسبة للدستور فإن دستور ١٩٢٣ كان ينص فى المادة ٣ منه على «المصريون لدى القانون سواء وهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة». ثم ذكرت لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين وإليهم وحدهم يعهد بالوظائف العامة.

والنص بذلك لم يكن يحظر التمييز بين المصريين بسبب الجنس وقصر منع التمييز على الاختلاف فى الأصل من أجل نفى التميز الأسرى والاختلاف بسبب اللغة مراعاة لأهل النوبة والاختلاف بسبب الدين مراعاة لغير المسلمين من المصريين ومن هنا نفهم وجه اجتهاد المحكمة عندما أشارت إلى دستور ١٩٢٣ ولكن إلى المبادئ الدستورية العليا وهى مبادئ فقهية وفكرية تعلو على الدستور ذاته والواجب أن يفسر الدستور فى ضوئها.



ثم عـرجت المحكمـة إلى الشـريعـة الاسلاميـة وعرضت لها باجتهاد أيضا يتعلق بتثبتها الرأى الفقهى الذى قال به الحنفيـة والذى يجيـز تولى المرأة القضـاء وإلى ما ذكره الكاسانى من جواز توليها القضـاء فى الجملة أى جواز ذلك بشكل عام أما فى التفاصيل فالأمر فى شأن كل خصوصية يتصل بملائمتها ومناسبتها فالمحكمة جمعت بين المرجعتين حيث أمكن الجمع بينهمـا وأعملت الاجتـهـاد فى مجاليهمـا واجتـهـاد سائغ فى النطاق وبالكيفيـة التى أجرتها المحكمة ووقفت حيث أمكن التوفيق وبغير أن يتجافى ذلك مع أصول التفسير سواء التفسير للقانون الوضعى أو التفسير فى الفقه الاسلامى وبهذا أجازت التعيين فى الجملة ومن حيث المبدأ.

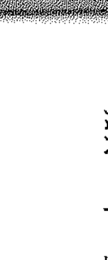
ثم هى فى النهاية، نظرت إلى ظروف الواقع وشـددت فى تبـين هذه الظروف وعبرت عن ذلك بوجوب مراعـاة البيئـة، التقاليد، الاعتبارات الاجتماعية، أوضـاع العرف ثم ما يتعلق بمدارج التطور للمرأة فكان النظر للأمر فى إطار الملاءمة بمعيار اجتماعى وتاريخى وهذه أمور تعبر عن الموقف المسئول لذى قرار يحمل تبعـة قراره ويعـرضـه على أوضـاع مجتمعـه ويختار لا بمعيـار الحقوق المطلقة ولكن بمعيار الأنفع والأرشد، مع احتمال التنوع والتغير فى المستقبل.

ولم نجـد أحدا فى هذا المجـال طالب بتعيين المرأة فى القضاء ليتجمل فى أعين الغربيين مثلا ، ولا أحدا أثار الموضوع ليثير معركة ثقافية أو سياسية ضد المرجعية الشرعية، ولا أحدا صور الأمر على أنه نصر حضارى أو هزيمة حضارية ولا أحدا نظر إليه على أنه أمر ذو أولوية مطلقة على ما يثور فى المجتمع من مشاكل وصعاب ولا أحد أراد به التفريق وأن نتشاغل بهذا الأمر ونغفل عن الأهم من مشاكلنا.

وحتى من طالب بالحق لم ينس أن ثمة ما يميز جنسا على جنس فى نوع أعمال وحتى من رفض الاستجابة لم ينس أن ذلك لا يفيد غمطا لنبوغ ولا إجحافا بتفوق ولا غضا من مستوى ولا حطا من قيمة ولا نيلا من كرامة.

أفلا نتعلم من هذا الدرس سعة أفق وصبرا وتقديرا للواقع الاجتماعى بغير تعال عنه ولا انكار له ومراجعة للآراء بغير اتهام بالرجعية ولا بالمروق ومع تقدير أن لدينا من المشاكل والصعاب والتحديات ما يفوق هذا الأمر أهمية وهو أولى أن نجتمع عليه وأنه حتى بالنسبة لمشاكل القضاء فلن يكون اشتغال المرأة فى القضاء هو ما يحل المشاكل القضائية وأنه حتى بالنسبة لمشاكل المرأة فلن يكون اشتغالها بالقضاء هو ما يحل مشاكلها.

والأمر كله يدور لا فى مجال الموانع والواجبات ولكنه يدور فى مجال الملائم والمناسب وهو فى أهميته يرد مسبوقا بغيره فى الأهمية وليس سابقا. ■



كيف نشأت عقدة الخواجة؟

بقلم
د. جلال أمين

إذا كان من الخطأ ترتيب الأمم بعضها فوق بعض، واعتبار بعضها متقدما «بصفة عامة» ، وفى كل شىء، وبعضها «متخلفا» ، بهذا المعنى، وإذا كان الصحيح هو أن كل أمة لديها ماتتيه به على غيرها، وأن أى عصر، إذا كان أفضل فى أشياء بعينها من العصور السابقة عليه، فلابد أن يكون أسوأ منها فى أشياء أخرى.. إذا كان كل هذا صحيحا (وأعتقد أنه صحيح) فمن أين يأتى هذا الشعور القوى جدا لدى أمة من الأمم بأنها أقل «رقيا» من غيرها؟ ومن أين يأتى هذا الشعور بالنقص، ليس فى صفة بعينها أو مجال معين بل الشعور بالنقص «بصفة عامة» ، وهو مايشار إليه أحيانا بالشعور بـ «الدونية» ، وأحيانا «بعقدة الخواجة» ؟، أى أن الخواجة لمجرد كونه خواجة، أفضل منى أنا المصرى أو العربى أو المسلم، لمجرد كونى مصريا أو عربيا أو مسلما؟.



من أول مايتبادر إلى الذهن كإجابة محتملة على هذا السؤال ملاحظة ابن خلدون الشهيرة، والتى لاشك أيضا فى صحتها، أن المغلوب مولع دائما بتقليد الغالب، فالانتصار

والغلبة فى أى ميدان من الميادين شىء مرغوب فيه دائما، والصفة المرغوب فيها تضفى على صاحبها جاذبية قد تخفى عن العين ماقد يتسم به من عيوب، فالقوى والغالب بقوة السلاح ليس

بالضرورة أفضل الناس خلقا، أو أخفهم دما، أو أجملهم منظرا، ولكن شدة الجاذبية التى يتمتع بها بسبب قوته وغلبته قد تخدع البصر فيظن الناظر إليه أنه ليس فقط أقوى الناس، بل أيضا أفضلهم وأجملهم وأخفهم ظلا.

وأظن أن هذا الاعتبار وحده ينطوى على تفسير مقنع للغاية لعقدة الخواجة، خاصة إذا اقترنت الغلبة والانتصار بالإلحاح المستمر بمختلف وسائل الدعاية التى يملكها المنتصر، على أنه يملك، إلى جانب القوة، سائر الفضائل الأخرى، فإذا لم ينخدع الناس لأول وهلة بأنه الأقوى هو أيضا الأفضل، قد ينخدعون مع مرور الوقت وإلحاح أبواق الدعاية وادعائها المستمر بأن هذه هى الحقيقة، دون أن تكون بالضرورة كذلك.

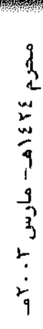
إذا كان محض القوة والغلبة سببا كافيا لتكوين عقدة الخواجة، فما بالك إذا اقترنت القوة بمزايا أخرى مرغوب فيها بدورها، كالرخاء المادى والكفاءة؟.

الرخاء والكفاءة

فلنأخذ الرخاء المادى أولا، إن نفس التقدم التكنولوجى الذى مكن الأوربى ثم الأمريكى من التفوق العسكرى والغلبة على الافريقى والآسيوى مكنهما من تحقيق الرخاء الاقتصادى، والرخاء ينطوى على كثير من الأشياء المرغوب فيها: الغذاء الكافى، والملبس النظيف، والمسكن الواسع، والراحة، ووقت الفراغ الطويل، أو على الأقل القدرة على إطالة وقت الفراغ، فإذا اجتمع كل هذا مع القوة العسكرية والقدرة على إملاء الإرادة على الآخرين، فما أسهل أن ينخدع المرء بالظن أن كل هذا لابد أن يعنى بالضرورة تقدما فى كل شىء آخر.

فما بالك إذا أضيف إلى كل هذا، التفوق فى الكفاءة، فالتقدم التكنولوجى يسمح بإتمام أعمال كثيرة فى وقت أقصر مما كان ممكنا من قبل، وبإنتاج مختلف السلع والخدمات بنفقة أقل، والفراغ الذى يتيحه التقدم التكنولوجى يسمح بمزيد من التقدم العلمى، أى مزيد من فهم القوانين التى تحكم الظواهر الطبيعية، وبمزيد من الاتقان فى الانتاج الفنى والأدبى والفلسفى، وكل هذا يعنى ارتفاعا فى الكفاءة.

فما أسهل أن ينخدع المرء بالظن بأن هذا الارتفاع فى الكفاءة فى الانتاج المادى والعلمى والأدبى والفنى والفلسفى لابد أن يعنى أيضا تقدما فى التنظيم الاجتماعى، وأنه لابد أن يعنى أيضا حرية أكبر، وارتفاعا فى مستوى الرفاهية الإنسانية بوجه عام وليس فقط فى مستوى الرفاهية المادية.



هكذا يشيع ويستقر فى النفوس ويدخل من مسام الجلد هذا الاعتقاد بأن التقدم فى مضمار القوة والرخاء المادى والكفاءة لابد أن يعنى أيضا تقدما فى سائر جوانب الحياة: العلاقات الاجتماعية، والتنظيم السياسى، والمستوى الأخلاقى والجمالي، والرفاهية الانسانية بكل عناصرها، مادية كانت أم غير مادية. فإذا كان الشخص الذى يحوز القوة والرخاء المادى والكفاءة «خواجة»، أصبنا جميعا بعقدة الخواجة، ولاحول ولا قوة إلا بالله.

المثقفون وعقدة الخواجة

هل ترى من ذلك لماذا كان المثقفون والمتعلمون بوجه عام أكثر تعرضا للإصابة بعقدة الخواجة من غيرهم؟، فعلى الرغم من أن الأمة بأسرها تشارك فى دفع تكاليف الاستعمار وسيطرة الأجنبى على مواردها، فإن المتعلمين فى أى أمة هم الذين يتعرضون تعرضا مباشرا للتعامل مع الأجنبى، يتلقون منه الأوامر، وينفذون طلباته، ويقومون بدور الوسيط بينه وبين الأقل شأنا من بنى قومهم، ويخالطونه ويسامرونه فى أوقات فراغه فى النوادى والحفلات، وهم، من خلال هذا التعامل المباشر مع الأجنبى يتعرضون أكثر من غيرهم لسطوته وجبروته، ويعرفون أكثر من غيرهم مدى رخائه وحجم ثروته، بينما لايعرف بسطاء الأمة وفقراؤهما مدى هذه السطوة وهذا الرخاء إلا بالسماع وعن طريق غير مباشر.

والمتعلمون يعاينون بأنفسهم ماحققه الأجنبى من تقدم فى العلم والتكنولوجيا والكفاءة، من خلال الاختلاط المباشر به، ومن خلال المدارس والجامعات التى تعلموا فيها، بل وربما من خلال مارأوه بأعينهم عندما تتاح لهم فرصة السفر إلى بلاد الأجنبى للدراسة أو العمل أو النزهة، بينما لايسمع بقية أهل البلد عن هذا العلم وهذه التكنولوجيا وتلك الكفاءة إلا من خلال قصص تروى وسرعان ماتنسى.

ولكن الأمر لايقتصر بأى حال على الفرجة والمعاينة، بل يمتد إلى ماهو أهم وأخطر فهناك أيضا «المكافأة» فالمتعلمون من أهل البلد التى يحتلها الأجنبى ليسوا فقط هم الذين يتلقون أوامر الأجنبى لتوصيلها إلى من هم دونهم شأنا، بل هم أيضا دون غيرهم الذين يتلقون جوائزه ومكافآته، إذ لضمان استمرار ولائهم لابد أن يمكنهم الأجنبى من بعض مايتمتع به من وسائل الراحة والنعيم، فيتاح لهؤلاء المتعلمين أن يعرفوا بالضبط ما الذى يمكن أن يجلبه التقدم التكنولوجى من حياة رغدة وأن

يتعرفوا على أشكال وألوان من السلع لاتخطر ببال بقية أفراد الأمة ولاحتى فى خيالهم، ويسمح لهم بمخالطة نساء جميلات، رقيقات زادهن الرخاء جمالا، والنعيم رقة، كيف لاتضعف إذن إرادة متعلمى الأمة ومثقفيها أمام كل هذه السطوة من ناحية وكل هذه المكافأة من ناحية أخرى؟.. الإرادة تضعف والأخلاق تلين، والتمسك بالتقاليد يغض البصر عنه شيئا فشيئا، ويسمح المتعلم أو المثقف لنفسه شيئا فشيئا بأن يتجاوز عما لم يكن من قبل يتجاوز عنه، فيفعل مثلما يفعل الأجنبى، ويقلده ما استطاع طلبا لرضاه، بل ويبدى استعدادا للضحك والسخرية من عادات قومه إذا ضحك وسخر الأجنبى منها.

كيف تضيع أشياء ثمينة ؟

فى غمار هذه العملية البائسة من التحول النفسى تضيع أشياء ثمينة جدا ليس من الواضح أن ثمة علاقة بينها وبين القوة العسكرية أو بالرخاء أو بالتقدم العلمى أو التكنولوجى.

إذ أين العلاقة بين كون أمتك أقوى من أمتى عسكريا، أو أكثر رخاء أو أكثر تقدما فى العلم والتكنولوجيا، وبين ما إذا كان دينك أقرب إلى الحقيقة من دينى؟ لغتك أرقى أم لغتى؟، أدبك فى عصر ازدهاره أجمل أو أقل جمالا من أدبى فى عصر ازدهاره؟ موسيقاك أقدر على تحريك المشاعر أم موسيقاى؟ شعبك أخف دما أم أثقل ظلا من شعبى؟ أسرع بديهة أو أكثر فصاحة؟ معاملتك للمرأة أكثر إنسانية أم معاملتى لها؟ حبك للأطفال أقوى أم أضعف من حبى لهم؟ ما العلاقة بين القوة العسكرية أو الرخاء المادى أو التقدم العلمى أو التكنولوجى بما إذا كنت أسرع إلى الصفح منى؟ أكثر أم أقل استعدادا للعفو عند المقدرة؟ أو أقدر أم أقل قدرة على ضبط النفس عند الغضب؟.

نعم، هناك علاقة، ولكنها أكثر تعقدا وأقل بساطة بكثير مما نظن، فالرخاء المادى قد يسمح لك بأن تكون أقل تطرفا وتشنجا فى موقفك من الدين، بل وربما أيضا أكثر تسامحا مع أصحاب الديانات الأخرى، ولكن هذا الرخاء المادى ليس إلا عاملا واحدا من العوامل المحددة لدرجة التطرف والتشنج والتسامح، وقد يكون الأهم من مستوى الرخاء المادى فى تحديد هذه الأمور عوامل أخرى مثل مدى تطلعك إلى درجة أعلى من هذا الرخاء، فإذا اقترنت زيادة درجة الرخاء مثلا بشيوع قيم المجتمع الاستهلاكى الأكثر نهما، والأشد تنافسا، والأقل رضا بما حققه المرء بالفعل من هذا الرخاء، فقد تكون

النتيجة تشنجا أكبر وتطرفا أشد وتسامحا أقل.

نعم، إن ارتفاع مستوى الرخاء يسمح بإطالة وقت الفراغ مما يسمح بتوخى درجة أعلى من الاتقان فى إنتاج الأعمال الأدبية والفنية، ولكن هذا بدوره ليس ضروريا فالرخاء يجعل إطالة وقت الفراغ أمرا ممكنا ولكنه لايجعلها حتمية، بل ها نحن نرى البلاد الأكثر رخاء يميل الناس فيها إلى تفضيل المزيد من السلع على المزيد من الفراغ، وإذا بنا كثيرا ما نرى الناس فى البلاد الأشد فقرا يتمتعون بوقت فراغ أطول، ثم ألا يتوقف نوع الأعمال الأدبية والفنية على عوامل أخرى أهم بكثير من حجم الفراغ ودرجة الرخاء؟ وهل المهم هو حجم الفراغ ودرجة الرخاء المتاحان للصفوة أم للمجتمع ككل؟ إذ فلننظر مثلا ماذا حدث للأدب الروسى فيما بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين، على الرغم من ارتفاع مستوى الرفاهية للمجتمع ككل، أو فلننظر إلى تأثير انتشار قيم المجتمع الاستهلاكى فى المجتمعات الغربية وارتفاع مستوى الرفاهية المادية على مستوى الآداب والفنون، هل يمكن الجزم بما إذا كان مستوى الآداب والفنون قد ارتفع أم انخفض مع عموم الرخاء وارتفاع مستوى الرفاهية المادية؟ لايمكن بالطبع الجزم، ومن الممكن لكثيرين أن يزعموا أن مستوى الأعمال الأدبية والفنية قد انخفض كنتيجة مباشرة لارتفاع مستوى الاستهلاك المادى وانتشاره بين الجماهير الغفيرة، بعد أن كان مقصورا على دائرة محدودة من القراء أو متذوقى الأعمال الفنية، وأن ما كسبناه على مستوى الكم قد خسرناه على مستوى الكيف، وأن الأعمال الأدبية والفنية الرديئة، كالعملة الرديئة، لها قدرة على طرد الأعمال الجيدة.

وهل نحن أقدر على القطع والجزم فيما يتعلق بأثر التقدم العلمى والتكنولوجى على سائر جوانب الحياة؟ كأثره على نوع الانتاج الأدبى والفنى، وأثره على اللغة ومستوى الفصاحة، وأثره على درجة الحرية والديمقراطية المتاحة للناس، وأثره على احتمالات الحرب والسلام، وأثره على العلاقات الاجتماعية وعلى الأخلاق وعلى العقيدة الدينية وعلى القدرة على الاتصال المباشر بالطبيعة.. إلخ.

لقد ساد الاعتقاد فترة طويلة من الزمن، ومازالت لهذا الاعتقاد آثار باقية حتى الآن، بأن الارتفاع بمستوى التعليم وانتشاره بين الطبقات لابد أن ينتج عنه فى النهاية ارتفاع فى مستوى الأخلاق،

هكذا ظن مفكرو حركة التنوير فى القرن الثامن عشر، وهكذا زعم المفكرون الاشتراكيون فى القرنين التاليين، فإذا بنا جميعا نفاجأ بأن التطور الخلقى له قانون خاص ضعيف الصلة بتطور العلم وانتشار التعليم.

أما أثر التقدم التكنولوجى على كل هذا فحدث عنه ولاحرج، إذ من الذى يستطيع الجزم بما إذا كانت آثار السيارة أو التليفزيون أو السينما أو التليفون المحمول أو الصحافة الحديثة أو البريد الإلكترونى... إلخ، على العلاقات الاجتماعية وعلاقة الرجل بالمرأة وعلى الأسرة وعلى الأعمال الفنية والأدبية... إلخ آثارا مرغوبا أو غير مرغوب فيها؟.

★★★

العلاقة إذن بين درجة القوة أو الغلبة، أو بين الرخاء المادى أو التقدم العلمى أو التكنولوجى، وبين التقدم أو التأخر فى سائر جوانب الحياة، علاقة هى أبعد ماتكون عن الوضوح والحسم. ولكن ما أسهل أن يقع الإنسان فى الفخ، وما أكثر طرق الخداع التى تستدرجك إلى توهم وجود علاقة أكيدة بين شيئين العلاقة بينهما جد واهية. والأمر هنا لايختلف كثيرا عن طرق الخداع فى البيع والشراء، حيث يستدرجك البائع إلى شراء سلعة تافهة ليست لديك أو فى حاجة إليها، بمجرد وضعها فى صندوق جميل يستهويك لونه ومنظره، أو بأن يجعل بائعة مشرقة الوجه جميلة الملامح هي التى تقدم إليك السلعة، فإذا بك تربط ربطا لاعقلانيا بين جمال وجه البائعة، وبين السلعة المباعة، أو بين لون الصندوق الجميل وبين قيمة السلعة الموضوعة فيه. ■

كلمات عاشت

● إن صباح الحياة يشبه الفجر، تسوده الطهارة والنقاوة والتخيلات الجذابة.

شاتوبريان

● ترك الفرصة غفلة

عمر بن الخطاب

● من عرف الحق عز عليه أن يراه مهضوما

محمد عبده

● العزيز النفس هو الذى لا يذل للفاقة

أفلاطون

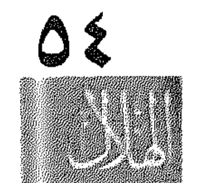
بين الشعر والسياسة

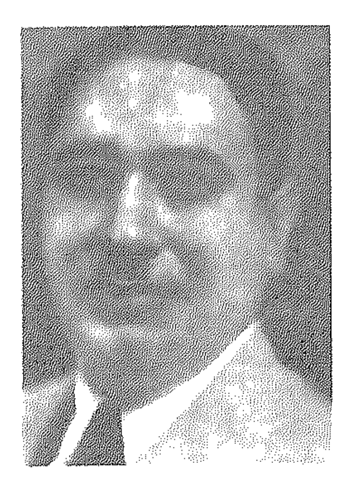
مأساة توفيق نسيم

ومروءة على محمود طه

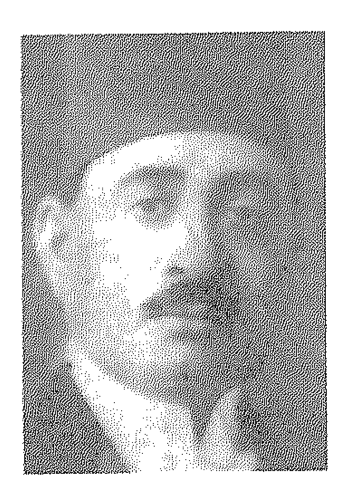
بقلم
د. محمد رجب البيومى

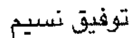
تكون فى مجلس حاشد، فيدور الحديث عن قضية تنشغل الأذهان، فتلمس اجماعا على رأى واحد، اذ يدلى كل متحدث بما يشبع القضية تحليلا وتعليلا، حتى لتظن أن الأمر قد اتضح وراء هذا الاجماع الناهض بالدليل، القائم بالحجة، ولكنك تفاجأ بمن يبدى مخالفة صريحة لما أطبق عليه المجتمعون، وتستمع اليه فاذا وجهة نظر أخرى لها دليلها، منطقيا أو خطابيا، فتعرف أن لو يشاء الله لجعل الناس أمة واحدة، وقد يكون الطرافة كل الطرافة حين يكون المعارض شاعرا، له مع براهينه الدافعة، خياله الملهم، وتصويره الكاشف، فلو فاتك حينئذ الاقتناع بمنطقه الجدلى، فإن إيحاءه الشعرى، وتصويره العاطفى يتيحان لك أن تعاود ما قال مقدرا له وجهة نظره، وان لم تكن فى موقع القبول لديك، لأنه نفحك بالجديد الطريف.





علي محمود طه





توفيق نسيم

استشهد مبدئيا بشاعر أمين صادق النية، قوي الإيمان هو الأستاذ الكبير أحمد محرم، حين هتف برأيه في مأساة السلطان عبدالحميد، بعد سقوطه علي أيدي الثائرين، فقد طفحت الجرائد والأندية في كل مكان بذكر مثالبه، وتعداد مساوئه، وأعلنت الهتافات الحادة تأييدا لمناوئيه، وكأنهم أنقذوا العالم الاسلامي من شر خطير، حتي أن شوقي رحمه الله لم يستطع أن يجابه التيار الكاسح مع تقديره للسطان عبدالحميد ، وما سبق أن ساق فى مدائحه من القصائد الطوال، فكان قصاري جهده أن يقول ..

نستغفر المولي له .. والله يعفو عن كثير

ونراه عند مصابه اولى ببباك او عزير

ونصونه ونجله من الشماتة والنكير!

أما أحمد محرم فقد جلجل جلجلة مرنة . حين واجه المبتهجين الناعقين بأخطاء السلطان، فقال في حماسة دافقة

كأن الألى زانوا المنابر باسمه أحلوا بدين الله ما لا يناسبه
ألم يك ظل الله بالأمس بيننا نلوذ به ، والخطب ضنك مذاهبه
انطريه قهارا ، ونؤذيه مرهقا كفى الليث شرا أن تفل مخالبه
أكل مآتيه ذنوب ؟ أكله عيوب . الا من منصف اذ يحاسبه
ألا راحم هل من شفيع أماكفى ؟ أكل بنى الدنيا عدو يغاضبه
اكل ذوى التيجان بالعدل قائم اما فيهو مالا تعد مثالبه
اليس الألى غشوه أجدر بالأذى وأولى الورى بالشر من هو جالبه
هم اكتنفوه بالدسائس وافتروا من القول ما يعمى عن الرشد كاذبه

والقصيدة تشارف الأربعين بيتا . ولكنها ذات نفس حار ملتهب، ونبض ساخن مستعر ويضيق المقام هنا عن سردها جميعها ، وهي في الجزء الأول من ديوانه، وكأن أحمد محرم رحمه الله كان يقرأ الغيب ، حين عرف أن المسألة ليست مسألة دستور يحرص الثائرون على التزامه، فقد خالفوا كل دستور، واضطهدوا بلاد العرب بما لا مزيد عليه ، ثم جروا البلاد الى الحرب العالمية الأولى فتمت الكارثة وتحطمت تركيا !

حكاية نسيم

أقول ، لقد مهدت بذكر محرم رحمه الله لأنتقل إلي حديث مأساة محمد توفيق نسيم باشا ، وقد رأس الوزارة المصرية ثلاث مرات ، كما كان رئيسا للديوان الملكي ورئيساً لمجلس الشيوخ ، وهي عليا المناصب السياسية في الدولة ، حيث يكون صاحبها في أرفع منزلة رسمية بين الناس ، ولكن ظروفه الخاصة ، وتكوينه النفسي قد قعدا به عن أن يكون محبوبا لدى الشعب المصري ، فوالده محمد نسيم باشا كان من كبار رجال القصر الخديوي ، وهو لا يرى الولاء لغير شخصية الحاكم وجده ، فشب ابنه مقتفيا منهجه ، مع أنه تخرج في مدرسة الحقوق التي تدرس القانون الدستوري فيما تدرس من القوانين ، وكان من زملائه في المدرسة من بلغوا مرتبة الوزارة فأدوا واجبهم الوطني دون انتماء لحاكم يرى مصلحته الشخصية فوق مصلحة الأمة لقد تولى الوزارة ثلاث مرات ، فكان في المرة الأولى خلفا ليوسف وهبه باشا الذي استقال مكرها لقيام المظاهرات ضد اتجاهه ، وقد قال الاستاذ عبد الرحمن الرافعي عن وزارة نسيم هذه : وأنها من الوزارات التي اصطنعتها السراى ، وقامت على أساس الاستخفاف بالحركة الوطنية . ومناهضتها ، فلا غرو أن قوبلت بالسخط العام ، لذلك وقع اعتداء على نسيم بإلقاء قنبلة على سيارته ، حطمت السيارة ، وأصيب السائق بجرح بليغ ، وكان للانفجار دوى مسموع في شتى نواحي القاهرة ، وقد تألم فؤاد لهذا الاعتداء ، حتى أنه لم يكتف بإرسال كبير أمنائه لتهنئة نسيم بالنجاة ، بل زاره شخصياً تقديراً لخضوعه له وامتثال كل ما يأمر !

أما الوزارة الثانية فقد جاءت بعد وزارة عبد الخالق ثروت ، وقد قال الرافعي عنها : إنها جاءت مكافأة لنسيم على الدسائس التي حاكها لإسقاط ثروت ، وهي وزارة لم تكن تعطف على الدستور ولا تبتغي أن يرى في وضح النهار ، وانتهزت السياسة البريطانية هذه الفرصة لتطلب حذف نصوص السودان من الدستور حين رأت من تلكؤ الوزارة بأمر القصر ما شجعها على ذلك . وقد أجابها نسيم إلى ما تطلب . فكان انقلابا على حساب الأمة وحقوق

البلاد ، وكرر الرافعى قوله : إن نسيم أختير للرياسة مكافأة له على الدسائس التى حاكها لإسقاط ثروت المتمسك بالدستور وقد ألفت وزارته بدون برامج ، ورجعت بالبلاد للوراء ، وأنك لتجد فى جواب نسيم الخاص بقبول تأليف الوزارة ، هذا الأسلوب الخالى من البرامج ، المجرد من المعانى السامية ، فهو لا يعتبر ولاية الوزارة إلا منحة من ولى الأمر ، ونعمة تقرن بالعبودية ، لمن وجه هذه النعمة للعبد الخاضع ، وأكبر ما وقعت فيه وزارة نسيم من المثالية ، هو تسليمها المطلق بالمطالب البريطانية ، وأهمها حذف لقب ملك مصر والسودان ، وجعله ملك مصر فقط ! وهذا ما حتم سقوطها السريع.

أما الوزارة الثالثة ، فكانت بعد إصرار الشعب على إعادة دستور ١٩٢٣ ، وإبطال الدستور الذى وضعه اسماعيل صدقى منتقصاً حقوق الأمة . وجاء نسيم ليعلن أنه سيضع للبلاد نظاماً دستورياً ! ولكن لم يشر إلى إعادة دستور سنة ١٩٢٣ ، وهو ما فطن له الأستاذ عباس محمود العقاد حين قال فى مقال نارى هاجم فيه سياسة توفيق نسيم .

«ولى نسيم الحكم ، وهو لا يقصد إلى إعادة دستور سنة ١٩٢٣ بالذات ، إذ آكتفى الأمر الملكى الذى استصدره فى ٣٠ نوفمبر ١٩٣٤ بأن يشير إلى أن البلاد سيوضع لها نظام دستورى ، ولما أراد نسيم باشا تنفيذ الأمر الملكى الصادر له ، أبلغه المندوب السامى أن الحكومة البريطانية ترى أن البلاد قد تستفيد من تأجيل هذه المسألة ، وأن مصلحة البلاد تقتضى أن يكون شكل الدستور الجديد موضع درس معهم يتناول جميع وجوه المسألة» .

هذه الانحناءات المتوالية لمطالب القصر الدكتاتورى تارة ، والحكم البريطانى تارة أخرى جعلت صورة نسيم غير مقبولة لدى الرأى العام ، وقد شاء أن يستريح من العمل السياسى ، حين داهمه المرض ، فذهب إلى أوربا للاستشفاء ! ثم عاد .

لماذا حاربوا زواجه ؟

لقد كان الرجل العجوز فى خريف حياته ، وحيداً دون مؤنس ، لم يتزوج فلم يلد ، وفاجأه المرض فريداً على مقعده الحاد ذى الآلام المتواصلة ، وهنا سنحت له فتاة أوربية جميلة شابة متمدنه ، هى الآنسة (هوبنر) قامت مقام الممرضة الحانية ! فماذا ينتظر المرء إزاء ذلك من شيخ لا ولد له ولا زوج ولا صديق ، لأن رفقاء الوصولية من محترفى السياسة قد انفضوا عنه حين غابت شمسه السياسية ، ليس من المستغرب أن يميل إلى الآنسة الحانية ، ويعلن خطوبتها وذلك أمر مشروع لا يعارض كتابا ، ولا يخالف سنة ، ولكن عواصف

الانتقام من مخالفى تاريخه السياسى قد هبت تثير الزعازع القاضعة . وتتهكم بالشيخ المريض ، وكأنه فسق عن أمر ربه ، وقل ما شئت فى الصحف الفكاهية التى رسمت الكاركاتير فى وضع مزر سىء ، فالمريض مرتم على الأرض ، والأنسة من فوقه تدوسه بالحذاء ، وهو يبتسم فى استخذاء ، وهناك صحيفة صورت (زينون) صورة عاشق كليو باتره العجوز الشائخ فى صورة توفيق نسيم ، وأتبعت ذلك بأبيات شوقى الشهيرة فى المسرحية الذائعة .

أفق زينون واصح من الغوانى — أبعد الشيب تخدعك النساء
كمحموم يبوح وليس يدرى — تكشف عن سرائره الغطاء
وما الحتمى الشيوخ إذا أحبوا؟ — وليس وراء غيرتهم بلاء
آلهى قد فضحت وضل شيبى — وضاعت حكمتى وخبا الذكاء

وقد تناولت الأقلام الساخرة مأساة المريض العجوز ، وكأنها قضية الموسم، ولم يحتمل الرجل الموقف فأرضى الأنسة بذخيرة من المال تكافىء تمريضها ، وتعوضها عن فسخ الخطبة ورحل إلى أوربا هارباً من هواء سام فتك بأنفاسه إلا قليلاً ، وجاءه القدر المحتوم هناك .

موقف على محمود طه

وكان الظن بأصحاب الأقلام الساخرة أن ينتهوا عن السخرية بالفقيد الراحل ، ولكن تاريخه الماضى لم يمح من صدورهم ضغائن الأمس ، وهنا انفرد الشاعر الوجدانى الرقيق على محمود طه حين رثى الفقيد رثاء حارا مصوراً عواطفه الشاجية فى أيامه الأخيرة قبل أن ينطفىء السراج ، وتقدم إلى جريدة الأهرام بقصيدة باكية فقالت الجريدة فى تقديمها للقراء «نظم الشاعر هذه القصيدة عقب وفاة المغفور له محمد توفيق نسيم باشا ، وكان فى نيته أن يطويها عن النشر لما تضمنته من الالتفاتات الخاصة بحياة الفقيد الكريم ، ولكن بعض أصدقائه أشار عليه أن ينشرها للذكرى والتاريخ» أجل كان صوت على طه غريباً فى الجو العام ، ولكنه غلب الأصوات جميعها ، فقد بدأ الشاعر مرتين متحدثا عمن أثاروا حوله الضجيج ، وبلغ حد الروعة حين صور مأساته العاطفية تصويراً مراً يقع من النفس المحايدة أقسى مواقع الألم والابتئاس ، ومن لا يعطف حنانا على هذا الشيخ الذى أطل على الشتاء ، وقلبه متوقد كالجمرة ، وقد طوى حياته الجديدة ، كدوحة عارية وحيدة فى القفر لم تنزل بساحتها الأطباء ، ولم تبن بها عشا للفرح والغناء ، حتى إذا داهمها الخريف الموحش مرت به حمامة غريبة ، صادقة اللحن فاسمعته لغة الهوى ! وما كان له غير أن يخفق قلبه بصبابة هذه القمرية البيضاء فكان ذلك توهج القبس الأخير ، وارتعاش الروح المضطربة أمام لألاء الحسن !

وللقارىء أن يصغى إلى بعض ما قال الشاعر الرقيق :

شيخ أطل على الشـــتاء وقلبه　　　متوقـــد كالجمرة الحمـــراء
مر الرفاق به فشـــــيع ركبهم　　　وأقام فردا فى المكـان النائى
وطوى الحياة كدوحة شــــرقية　　　أمست غريبة تربـــة وســماء
لم تنزل الأطيار فىء غصـــونها　　　من وشى تلك الحلة الخضراء
عبرت بها صداحة فى سجعها　　　لغة الهـــوى ورطانة الغرباء
وارحمتا للنســـــر يخفق قلبه　　　بصبابة للقمرية البيضـــــاء
هى لمعة القبس الأخير وقد خبا　　　نجم المساء ورعشة الأضواء
وتوثب الروح الحبيس وقد شدا　　　ثمـــلا بســحر الليلة القمراء
وجناية الحسن الغرير إذا رمى　　　فشريق دمع أو غريق دمـــاء

لقد رنت هذه القصيدة رنينا مشجيا ، نسمع القراء خلاف ما عهوده من اللغو الكارب بشأن هذا الهوى غير المنتظر ، وكأنى باللائمين وقد رجعوا إلى أنفسهم يتساءلون ، ماذا جنى الرجل من الآثام حين أحب فتاة حنت عليه ، ورفهت على نفسه فى أقسى غمرات المرض ؟ لقد شاء القدر أن تكون هذه الفتاة أجنبية ، وماذا فى ذلك وقد تزوج عشرات الأثرياء العابثين من عشرات الأجنبيات فما لامهم لائم ، ولو قد مرت على الرجل فتاة مصرية فى مثل حنان الآنسة «هوبنر» لكان الموقف هو الموقف ، ولعرض عليها الخطبة فى حركة ضارع ، أنا لا أشك لحظة فى أن القصيدة بتصويرها الحى ، وإيحائها الكاشف قد حولت عواطف كثير من اللائمين ، ورجعت بهم إلى التأمل الحيادى من جديد .

ولم يفت على محمود طه أن يرد على المهاجمين فى أمرين تعلقوا بهما وجعلوهما موضع الزراية والتأنيب ، فكان محاميا قديراً يعصف بالحجة التى تبدو للعين رانحة ، يعصف بما يقلقها كل مقلقل ، إن لم ينزع أصولها الراسخة فى الأعماق ، أما الأمر الأول الذى تعلق به الناقمون ، فهو المال الذى سترثه هذه الزوجة الغريبة ، والبلاد أحق بمال أثريائها الذين جمعوه من خيرها ! وقد تساءل [illegible] عن الأموال الكثيرة الفاضحة التى ينفقها الأثرياء كل عام فى أوربا فى [illegible] اللهو لم لم يرتفع صوت واحد بالتنوير بها ، حتى كانت خطبة [illegible] [illegible] الاستــسـ[illegible] [illegible] فيه [illegible]

[illegible]

حب بلوت به العـــذاب ومثله مقه السياسة وهى شر بلاء

نسيم والانجليز

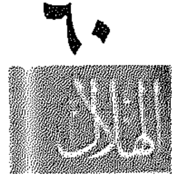
أما الأمر الثانى فهو ما رددوه من موالاة توفيق نسيم للإنجليز ، وهو مطعن يصعب تبريره إذا استمعنا إلى صوت الوطن الجريح ، ولكن الشاعر لجأ إلى الأسلوب الخطابى الذى يبهر السمع بدءا ثم ينجاب بريقه عند التأمل ، فقال فيما يشبه الاعتذار عن الجناية المحققة ، إننا عقدنا معاهدة الصداقة مع الانجليز ، وأنهم أصبحوا حلفاءنا ، مصالح من يصالح القوم ، وتغصب على من يغصبون ، ذكر ذلك فى قوله :

قـــالوا أحب الإنجـــليـــز وزادهم
ود الحـــمـــيم ، ومـــوثق القـــربـاء
ها قـــد أتى اليـــوم الذى صـــاروا به
أوفى الدعـــاة . وأكـــرم الحلفـــاء
بتنا نغـــاضـــب من يغـــاضـــبـــهم ولا
نأبى رعـــايتـــهم على الضـــراء
رأى أخـــــذت به وليس بعـــائب
ذمم الرجـــال مـــآخـــذ الآراء
لكن ســـكت فـقـيـــل إنك عـاجـز
عـــن رد عـــادية ودفـع بـلاء !

وهذا مالا أوافق عليه الشاعر فما كان الانجليز فى يوم ما أوفى الدعاة وأكرم الحلفاء ، ونحن لا نغاضب من غاضبهم الانجليز إلا مضطرين ، وذلك ما تحاشاه الإمام الأكبر محمد مصطفى المراغى حين أعلن أنهم يخوضون حرباً لاناقة لنا فيها ولا جمل ؟ وكان على الشاعر أن يلتمس وجها آخر للاعتذار ، وقد لا يجده .

على أن أحسن ما توحى به القصيدة أنها تعبر عن حقيقة إنسانية لابد من الاعتراف بها ، مهما خفيت ، فقد يتجاهل الانسان صبوته حينا من الدهر ، حتى يظن أنه نجا من تأثير العاطفة الوجدانية إلى الأبد ، ولكن هذه العاطفة الحبيسة تعيش فى أنحاء النفس هادئة وادعة حتى يتاح لها ما يجعلها فى لحظات تنقلب من الهدوء إلى الضجيج فتصطفق فجأة وراء الجدران القائمة من قبل ، فتنهار قواعدها ، ويندفع التيار كما يندفع سيل العرم ، فيضطر الكهل العجوز إلى الخضوع الضعيف والاستجابة القاهرة مهما حاول الاصطبار ، وهو غير ملوم ، فقد خرج الأمر عن مقدرته ، وصار فوق طاقته ، وليس عليه غير الإذعان ، وقديما قال القائل :

لقد كان فى الهجران ما يزغ الهوى ولكن شديد فى الطباع انتقالها!



● نقد الذات هو السلاح الامضى للحيلولة دون هدم الذات» .

كلوفيس مقصود

سفير الجامعة العربية لدى الامم المتحدة

● «إننا على المستوى الفكرى والثقافى لم ننجح الا فى تحقيق مزيد من العرى الفاضح للفكر الانسانى» .

آمال موسى

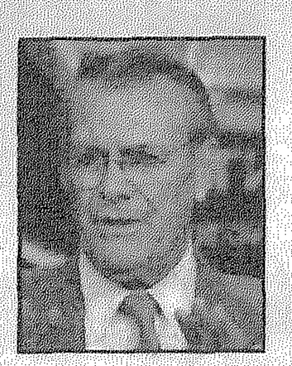
كاتبة وشاعرة تونسية

● العدو الأكبر للعرب وللخليج، هو الاستكانة والسلبية والانتظار».

السياسى القطرى حمد عبدالعزيز الكوارى

● «ألمانيا مشكلة ، فرنسا مشكلة ، انهما تمثلان اوروبا الهرمة»».

وزير دفاع الولايات المتحدة دونالد رامسفيلد



دونالد رامسفيلد

● الامريكيون من كوكب المريخ والاوربيون من كوكب الزهرة»

المؤرخ روبرت كاجان

صاحب كتاب «النعيم والسلطة»

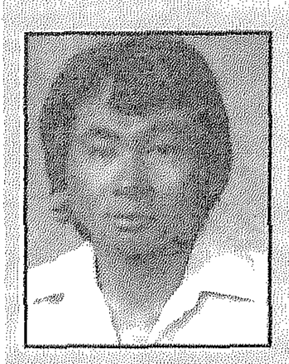
● «اى شيء تعتقده، افعله، اهتدى باحلامك»

رائدة الفضاء كالبانا شاوالا

● حضارتنا التكنولوجية المشدودة الى الأسرع والاكثر، والى ريادة التطور الى عالم مجهول، محكومة بمنهج فى الجنون يأخذ شكل صيغة صفقة مع الشيطان»

المؤرخ الامريكى فرانسيس فوكو ياما

وصاحب كتاب نهاية التاريخ



فرانسيس فوكو ياما

● «اليوم الذى سأفقد فيه اهتمامى بالأزياء وبأناقتى هو اليوم الذى ستكون فيه قدمى داخل المقبرة»

الأديبة والصحفية الفرنسية فرانسواز جيرو

وأول وزيرة لوزارة شئون المرأة

● مأساة الأدباء ليست حقا فى فراق شبابهم، بل فى عجز بعضهم عن ذلك!!»

الاديبة غادة السمان



غادة السمان

● الإدعاء بأن الإسلام مسئول عن الإرهابيين هو بنفس خطأ الجزم بأن المسيحية أفرزت النازيين .

برنارد لويس

الأستاذ المتقاعد لدراسات الشرق الأدنى

بجامعة برنستون فى الولايات المتحدة

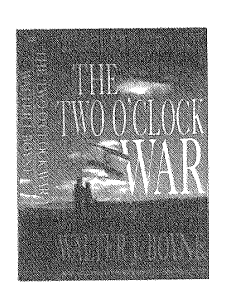
قراءة فى كتاب والتر بوين : حرب الساعة الثانية

الجيش المصرى

وضع اسرائيل علي حافة الهاوية

بقلم
د. عاصم الدسوقى

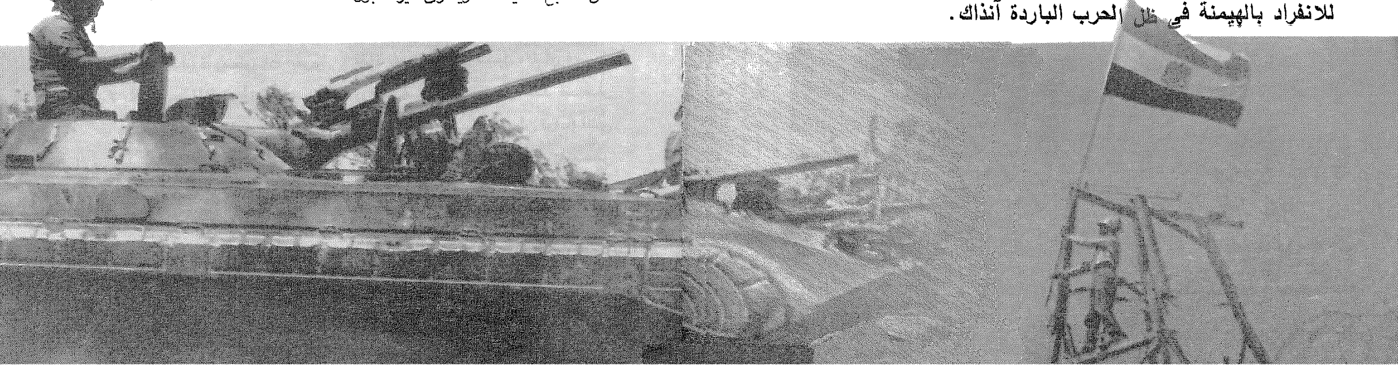
سوف تظل حرب أكتوبر شأن الحوادث الكبرى فى التاريخ مثار جدل عسكرى وسياسى لفترة طويلة قادمة قد تستغرق أجيالا طالما لا يتخلص الذين ينظرون إليها سلفا من كل انحيازهم السياسى والقومى والدينى. فرغم كثرة الكتابات التى صدرت حتى الآن بأقلام سياسيين وعسكريين سابقين وأيضا صحافيين ومراسلين عسكريين، تظل الحاجة قائمة لمزيد من الكتابات التى تكشف أكثر حقيقة ما دار، ليس فى ميدان القتال لأن معاركه شاهدة، وإنما ما دار فى كواليس السياسة حيث عملت القوتان الأعظم (حسب وصف محمد حسنين هيكل لكل من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية) على السيطرة على الموقف كله، وتحريك شخوصه هنا وهناك للانفراد بالهيمنة فى ظل الحرب الباردة آنذاك.



وهذا الكتاب الذى صدر فى سبتمبر العام الماضى فى نيويورك (فى ٣٣٤ صفحة) يكشف كثيرا من الأوراق السياسية التى صاغتها أجواء الحرب الباردة فى الكواليس بفضل وضعية قوى العالم الثالث التى أخفقت فى تقوية تيار الحياد الإيجابى وعدم الانحياز، ولم يكن أمامها من سبيل إلا الانحياز لإحدى القوتين بعد أن أصبح الحياد السويسرى غير مقبول.

أما صاحب الكتاب والتر بوين Boyne فهو كولونيل سابق بسلاح الطيران الأمريكى وعمل مديرا للمتحف القومى لشئون الفضاء (١٩٨٣ - ١٩٨٦) وله مؤلفات خاصة بشئون الحرب منها: أسلحة حرب الخليج ، ومصور عن تاريخ الطيران.

ويبدو من استعراضه للأمور أنه موضوعى فى تناولها، فنراه يشيد بالعسكرية المصرية فى العبور التى جعلت دولة إسرائيل على حافة الهاوية، ويعرض لأخطاء الطرفين سياسيا وعسكريا بل ولأخطاء القوى الكبرى فى التعامل. لكن نظرة على الغلاف الذى يحمل صورة علم إسرائيل يرفعه جنديان إسرائيليان أعلى ربوة تؤكد لنا أنه لا يعترف بانتصار العرب فى أكتوبر، ونظرة أخرى على العنوان الفرعى للكتاب «الطيران الأمريكى الذى



أنقذ إسرائيل» يؤكد أمريكيته ليقول من خلاله إنه لولا أمريكا لتغير الموقف لصالح العرب. وبينما يمتدح أسلوب السادات فى السرية والتمويه والمناورة، يقلل من شأن خطته فى الحرب التى استهدفت مجرد عبور القناة وانتظار القطبين الدوليين للتدخل لتسوية الموقف، وغير ذلك من مقابلات بين المديح وبين التجريح المستتر.

وبصرف النظر عن التراوح بين الشىء ونقيضه، والتردد بين الموضوعية والانحياز مما يلازم الكتابة غير العلمية، ويبقى جانب المعلومات التى أوردها المؤلف وهى موثقة فى أغلبها وبعضها أورده هيكل فى كتابه «أكتوبر ١٩٧٣ السلاح والسياسة»، وبعضها أورده الفريق عبد المنعم واصل فى مذكراته، مع اختلاف شديد فى التحليل. وفى كل الأحوال ينبغى أن يعرف القارىء العربى وجهات نظر مغايرة، ومعلومات أخرى حتى لا يظل أسير المفاهيم المطلقة.

.. بحلول عام ١٩٧٣ كان القادة الإسرائيليون على يقين من أن مصر لا يمكن أن تقوم بحرب إلا إذا كانت على يقين من قدرتها على تحطيم الطيران الإسرائيلى، وهو أمر بدا لهم غير ممكن إن لم يكن مستحيلا ولسنوات طويلة برغم المساعدات السوفيتية، وأن سوريا هى الأخرى لا يمكن أن تتحرك دون مصر.

المناورة

ومن ناحية أخرى عمد السادات إلى إيهام إسرائيل بأنه لن يحارب، واتبع فى ذلك قدرا كبيرا من التمويه، ومن ذلك إعلان الصحف عن قيام مئات من ضباط الجيش بأداء فريضة الحج، وتنظيم مباريات كرة قدم بين العساكر المصرية والسورية على مرمى بصر إسرائيل، وسباحة الجنود فى مياه القنال وصيد السمك، فضلا عن تعمده تسريب معلومات للمخابرات الإسرائيلية بشأن عدم استعداد القوات المصرية للحرب، مما جعل إسرائيل تطمئن على كفاءة جهاز الموساد. ولهذا فإن إسرائيل اعتبرت قيام مصر بنشر قواتها بطول قناة السويس من قبيل «المناورة» ، بل ورفض قادتها تصديق أحد صغار الضباط (بنيامين سيمان توف) الذى كتب تقريرا يقول أن ما تقوم به مصر ينبىء عن الاستعداد للحرب وليس العكس. وهكذا كما يقول المؤلف «لعب السادات بقيادات إسرائيل وبمخابراتها

كما يلعب على الكمان، إذ أسمعهم ما كانوا يحبون سماعه» (ص ١٨ -١٩).

وبالإضافة إلى التمويه على إسرائيل نجح السادات فى إحاطة ساعة الصفر بسرية تامة لم يعرف بها إلا عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وكان قد اختلف مع سوريا حول ساعة الهجوم إذ كانت سوريا تريده صباحا حيث تكون الشمس فى عين الإسرائيليين ومصر تريده بعد الظهر للسبب نفسه، كما لم يخبر حليفته سوريا بحقيقة خططه حتى اندلعت الحرب، وكان من «الشطارة» Clever بحيث التصق بهنرى كيسنجر حيث عرف أن الرئيس نيكسون يستمع إليه جيدا (ماسك ودانه) (ص ٢٠).

ولكن.. وبرغم كل هذه السرية والكتمان عرفت المخابرات الإسرائيلية بيوم الحرب دون الساعة المحددة. ففى الساعة الرابعة فجر يوم السادس من أكتوبر تلقى رئيس الموساد الجنرال زئيرا من أحد عملائه ما يفيد أن مصر وسوريا ستشنان حربا بعد ظهر اليوم. وعلى الفور تم ابلاغ جولدا مائير (رئيس الحكومة) التى دعت إلى اجتماع فى الساعة السابعة صباحا حضره وزير الدفاع (موشيه دايان)، ورئيس الأركان (اليعازر)، ونائبها ييجل آللون، ويسرائيل جاليلى أحد أركان المطبخ السياسى.

واختلف المجتمعون حول استدعاء الاحتياطى وتوجيه ضربة وقائية، إلا أن جولدا التى كانت «تفضل السياسة» اتصلت بالسفير الأمريكى فى تل أبيب (كينيث كيتنج) وأخبرته بأن إسرائيل لن تقوم بضربة أولية لكنها رجته أن تقوم الحكومة الأمريكية بإخبار كل من مصر وسوريا والاتحاد السوفييتى بأن إسرائيل على علم بنياتهم اعتقادا منها أن معرفة هؤلاء بانكشاف السر قد يجعلهم يتراجعون عما قرروه (ص ٢٧ - ٢٨). وهكذا عرفت الولايات المتحدة بخبر الحرب قبل وقوعها بنحو ست ساعات.

ساعة الصفر

أما الاتحاد السوفييتى فقد عرف بالنبأ فى الساعة الواحدة إلا ثلث بتوقيت مصر، أى قبل ساعة الصفر بحوالى ساعة وعن طريق سفيره فى

واشنطون (أناتولى دوبرنين) الذى كان كيسنجر قد أبلغه. وقد دهش المسئولون السوفييت كما سبق أن دهشوا عندما قام سفيريهما بالقاهرة (فينوجرادوف) وفى دمشق (موخيتدنوف) بإخبارهم بأن الحرب على وشك الوقوع. وعلى الفور جرت الاتصالات بين القطبين الدوليين على أساس أن يقوما بجمع المعلومات والعمل على أن تكون الحرب محلية مع سرعة استعادة حالة السلم.

وكانت هذه الاتصالات أحد مظاهر الحرب الباردة إذ استخدم كل من القطبين نفس الأليات من أجل استمرار السيطرة والتى تتمثل فى : العمل السياسى، والقروض المالية والمنح، والامدادات الغذائية والعسكرية. وهنا يحرص المؤلف على أن يؤكد أن تسليح أمريكا لإسرائيل كان مقابل تسليح السوفييت لمصر وسوريا والعراق الذى من شأنه أن يوازن التفوق الجوى الإسرائيلى (ص ١٧).

المهم.. فى الموعد المحدد عبرت القوات المصرية قناة السويس وحطمت [illegible] على [illegible]

[illegible]

بالهجوم. ولم يصدق الإسرائيليون ما كانوا يسمعونه فى الإذاعات الأجنبية، وكانوا ينتظرون آن يسمعوا أنباء قيام قواتهم الجوية بتحطيم المصريين إلى أن أعلن الجنرال أهارون ياريف فى يوم الأثنين (٨ أكتوبر) «أنها حرب وليست نزهة». واعتبر هذا اليوم يوما أسود فى تاريخ إسرائيل. وكان الهجوم المضاد الذى شنته إسرائيل على الجبهة المصرية فى ذلك اليوم قد فشل فشلا ذريعا ولم تعد هناك دبابة إسرائيلية واحدة بطول الجبهة حتى لقد وصف دايان ما حدث بأنه التدمير الثالث للهيكل وهى نبوءة تعنى تدمير إسرائيل (تم الأول على يد البابليين فى عام ٥٨٦ ق.م، والثانى على يد الرومان عام ٧٠ ميلادية)، على أن ما أزعج دايان على وجه الخصوص الاستنزاف المستمر للدبابات والطائرات والجنود والطيارين دون تعويض. وبناء على هذا الموقف السيىء انتهى دايان إلى أنه لا بديل عن استخدام السلاح النووى، وكانت إسرائيل قد أعدت حتى ذلك الوقت ثلاثة عشر قنبلة ذرية كل منها فى حجم قنبلة هيروشيما (ص [illegible]

[illegible]

من صباح اليوم التالى (٩ أكتوبر) عرض دايان على جولدا مائير استقالته. فلما رفضتها طلب التصريح باستخدام السلاح النووى، لكنها رأت أن الإعلان بوضوح عن نية إسرائيل فى استخدام هذا السلاح قد «يهمز» حكومة واشنطون للقيام بمد إسرائيل بالعتاد اللازم، وأن تسريب هذا الخبر للسوفييت قد يردع مصر وسوريا عن التوغل العسكرى أكثر، بل لقد ارتاح دايان لفكرة جولدا بأنها ستذهب لواشنطون لمقابلة نيكسون مباشرة دون حضور كيسنجر وتطلب منه أن «تعلن أمريكا للعالم أنها ستساند إسرائيل». وقد اعتبر دايان هذا الرأى نقطة الضوء الوحيدة فى يوم حالك السواد (ص ٦١ - ٦٢).

الخط الساخن

وبينما كانت القوات المتحاربة (العربية والإسرائيلية) تتصارع كعقربين فى زجاجة أحكمت سدادتها على حد قول المؤلف اشتغل الخط الساخن بين واشنطون وموسكو حيث انتهى الرئيسان إلى العمل على التقليل من خطر الحرب حتى لا تتأثر سياسة التهدئة بينهما. واقترح نيكسون انسحابا



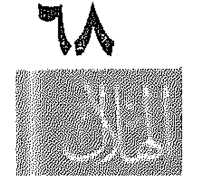
فوريا للقوات العربية إلى خطوط ما قبل الحرب، على حين كان برجينيف يفضل أن تتخلى إسرائيل عن كل الأراضى التى احتلتها (ص ٦٧).

فى تلك الأثناء علم كيسنجر من حافظ إسماعيل مستشار السادات للأمن القومى الذى كان على صلة به منذ ١٩٧١ أن السادات ينوى فقط عبور القناة والاكتفاء باستعادة قطاع محدود من الأرض شرق القناة، وهى معلومة لم تكن تعرفها سوريا. وقد جعلته هذه المعلومة يعيد ترتيب أوراقه الدبلوماسية بما يخدم مصالح بلاده (ص ٦٦). كما علم أن السوفييت يشجعون الأردن والجزائر على الدخول فى الحرب ضد إسرائيل مقابل مساعدات. وعلم أيضا أن جولدا مائير سوف تأتى لواشنطون لعرض فكرة استخدام السلاح النووى ما لم تقدم أمريكا كل المساعدة والدعم. كل هذا جعل كيسنجر يقتنع بعدم الموافقة على وقف إطلاق النار ما لم تكن

إسرائيل فى الموقف الأقوى. وعلى هذا وفى الاجتماع الذى عقده نيكسون فى مكتبه (الساعة الخامسة إلا ربعا مساء يوم ٩ أكتوبر بتوقيت واشنطون وهو الاجتماع الثانى بشأن الحرب) بحضور كيسنجر ونائبه للأمن القومى برنت سكوكروفت، والجنرال الكسندر هيج رئيس الأركان الجديد، وورنالد زيجلر رئيس المكتب الصحفى للبيت الأبيض. وفى الاجتماع أعلن نيكسون أنه لا ينبغى أن تخسر إسرائيل الحرب، وأنه سيوفر لها كل ما تجتاجه من أسلحة وعتاد وقطع غيار على أن تقوم بعملية النقل طائرات العال الإسرائيلية (ص ٧٨ - ٧٩). وكانت هذه الوسيلة مثار خلاف شديد بين رجال الرئيس (كيسنجر من ناحية وشليزنجر وزير الدفاع من ناحية أخرى) مما تسبب فى تأخير وصول الدعم الأمريكى لإسرائيل فى الوقت الذى أخذ الدعم السوفييتى يصل إلى سوريا ومصر عبر عواصم حلف وارسو وخاصة بودابست وبلجراد ومن القوقاز وأوكرانيا (ص ٨٦).

فى ١٤ أكتوبر وصلت طلائع الامدادات الأمريكية إلى إسرائيل وكانت الحكومة الأمريكية قد وجدت صعوبات بالغة فى هذه المهمة ذلك أن كل من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وألمانيا وإسبانيا رفضت السماح للطيران الأمريكى بالتحليق فى أجوائها أو الهبوط فوق أراضيها لأنها - كما يؤكد المؤلف - كانت تخشى انقطاع النفط العربى عنها. ثم يقول إنه لولا البرتغال التى قبلت أن تستخدم أمريكا جزر الأزور قواعد لطيرانها لخسرت إسرائيل الحرب بكل تأكيد ذلك أن البرتغال لم تكن تخشى انقطاع النفط الذى كانت آنجولا مستعمرتها فى إفريقيا تستطيع أن تمدها باحتياجاتها منه. ويعرب المؤلف عن أسفه وحزنه لموقف الدول الأوربية قائلا «إن الحرب كشفت الوجه الحقيقى لهذه الدول الذين أداروا ظهورهم لإسرائيل ولأمريكا (ص ١٥ - ١٢٠).

وقد بادر كيسنجر بإبلاغ «مراسله السرى» فى القاهرة حافظ إسماعيل بأن الإمداد الأمريكى لإسرائيل مجرد رد على الدعم السوفييتى لمصر وسوريا، وأكد له أن أمريكا مستعدة لإيقاف دعمها لإسرائيل فور وقف إطلاق النار، وأنها على استعداد للمساعدة فى تحقيق سلام فى الشرق الأوسط يكون مقبولا



لدى مصر.. وقد وافقه حافظ إسماعيل.

ثم حدثت الثغرة عندما نجح الكولونيل دانى مات فى الساعة الواحدة وخمس وثلاثين دقيقة عند منتصف ليل ١٦ أكتوبر فى عبور القناة إلى الضفة الغربية على رأس ستمائة عسكرى دون أن يدرى المصريون، وبعد عبوره بسبع ساعات لحقت به أول ثلاثين دبابة إسرائيلية. لكن قتال المصريين وجها لوجه بضراوة وخشونة حال دون إمداد دانى بقوات إضافية أخرى. وهنا هدد السادات فى مجلس الشعب بإطلاق صواريخ سكود على مدن إسرائيل، وقال إن أى وقف لإطلاق النار لابد وأن يرتبط بانسحاب إسرائيلى كامل إلى خطوط ٤ يونية ١٩٦٧. وردت جولدا مائير قائلة «إن كلام السادات غير مقبول لأنه يتجاهل عبور قوات إسرائيل إلى غرب القناة».

كانت الثغرة طوق النجاة لإسرائيل إذ أشعرتها بتحسن موقفها عن ذى قبل، ومن ثم بدأ التفكير فى كيفية استثمارها فى تحقيق نصر حاسم ونهائى على مصر خاصة وقد أصبحت الفرصة مهيأة بعد أن تحطمت منصات الصواريخ المصرية فى الضفة الغربية للقناة، ونصبت إسرائيل مدافعها هناك ليصبح بالإمكان قصف الجيش الثالث المتمركز بالضفة الشرقية، واتجهت قوات أخرى جنوبا إلى الأدبية على خليج السويس لتحاصر الجيش الثالث (ص ١٧٩ ، ٢٣٢). وأمام هذا التحول فى سير الحرب اقترح الفريق سعد الشاذلى انسحاب جماعى للقوات المصرية من الضفة الشرقية إلى الغربية لدك القوات الإسرائيلية فى الدفرسوار لكن دون جدوى. ويعلق المؤلف على هذا الموقف قائلا: إنه من حسن حظ إسرائيل أن الشاذلى لم يكن على وفاق مع السادات الذى كان يرفض اقتراحاته (ص ١٨٠) . وأكثر من هذا أن نيكسون فى يوم ١٩ أكتوبر طلب من الكونجرس اعتماد ٢,٢ بليون دولار مساعدة لإسرائيل بالإضافة إلى ٨٢٥ مليون دولارا سبق إرسالها.

وهنا لنا أن نتساءل.. ما الذى شجع الحكومة الأمريكية على الاستخفاف بالعرب والوقوف بكل عزم وقوة إلى جانب إسرائيل فى حرب حققت فيها

مصر وسوريا مفاجأة أذهلت العالم؟..

هناك عدة ظنون غير التحليل التقليدى عن العلاقة الاستراتيجية بين إسرائيل وأمريكا يمكن التقاطها عبر صفحات الكتاب.. ومن ذلك إدراك الولايات المتحدة عدم رغبة الاتحاد السوفييتى فى التورط فى حرب تؤثر على سياسة التهدئة التى كان يتمسك بها واكتفى باقتراح انسحاب إسرائيل إلى خطوط ٤ يونية ١٩٦٧، فضلا عن أن اكتشاف السوفييت فى وقت متأخر نسبيا وجود اتصال سرى بين مصر وأمريكا منذ ١٩٧١ من خلال حافظ إسماعيل رغم قطع العلاقات الدبلوماسية بينهما منذ حرب يونية ١٩٦٧، أغضبهم واتهموا السادات بالتعامل المزدوج فتركوا الأمر لأمريكا.

وكان لسماح المغرب والجزائر وليبيا بتحليق الطيران الأمريكى فى أجوائها أو بمحاذاة أجوائها فى الطريق لإسرائيل من جزر الأزور البرتغالية دون اعتراض أو احتجاج مثلما فعلت دول أوربا الغربية كما سبقت الإشارة حتى مصر التى هى فى حالة حرب مع إسرائيل لم تفعل شيئا رغم أنها تملك صواريخ أرض - جو قوية.. جعل كيسنجر يدرك حقيقة الموقف العربى (ص ١٣٨).

ومن ناحية أخرى أن كيسنجر استغرب أن السادات لم يحاول حشد العالم العربى ضد الولايات المتحدة فى حرب دينية مقدسة تتفق مع خطابه السياسى بعد توليته الحكم، وشعار دولة العلم والإيمان الذى رفعه فى مواجهة الشيوعيين والناصريين، ورئاسته للمؤتمر الإسلامى من قبل، بل على العكس أرسل رسالة سرية له من خلال حافظ إسماعيل يستهجن فيها الدعم الأمريكى لإسرائيل «فى لهجة حانية»، ثم دعاه لزيارة القاهرة للتوصل إلى ربط تسوية سياسية للحرب بتسوية عسكرية مما شجع كيسنجر على فرض شروطه.. فبعد أن خاطب «الأنا» عند السادات بامتداح العسكرية المصرية قال له «إنه بعد نهضة القوات الإسرائيلية من جديد (يشير إلى الثغرة) فإن الوقت لم يعد يسمح بمطالبة إسرائيل بالانسحاب إلى حدودها قبل حرب يونية ١٩٦٧، واشترط لزيارته القاهرة التوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار» (ص ١٦٥).

ثم سمع كيسنجر من حافظ إسماعيل ما شجعه أكثر إذ قال حافظ

«نحن المصريون عرب ولا تنس ذلك أبدا. لكننا لسنا مثل أولئك العرب الآخرين» (ص ١٦٦)، كما سمع ومعه نيكسون من إسماعيل فهمي يوم ١٩ أكتوبر «إن السادات ليس متحمسا فقط لتحسين العلاقات مع أمريكا بل مع إسرائيل أيضا.. وأن السادات لا يربط تحسين العلاقات مع إسرائيل بحل المشكلة الفلسطينية ، وكانت هذه أول مرة تسمع فيها الإدارة الأمريكية مثل هذا الكلام (ص ٢٦٩).

وعندما وصل كيسنجر إلى القاهرة والتقى بالسادات فى يوم ٧ نوفمبر بعد زيارة خاطفة لكل من المغرب وتونس وضع أمام السادات ست نقاط لبدء التسوية لم يعترض السادات على أحدها ومنها قيام إسرائيل بمراجعة المواد غير العسكرية التي ترسل للجيش الثالث حتى تطمئن على أنها لا تحمل سلاحا على حين أن إسرائيل وافقت على هذه النقاط في يوم ١١ نوفمبر بعد جدل طويل وتعنت (ص ٢٧٠) . وكانت جولدا مائير فى زيارتها لواشنطون (٣١ أكتوبر) قد طلبت عدم إرسال أية امدادات للجيش الثالث، كما رفضت أية اقتراحات بانسحاب إسرائيل إلى خطوط وقف إطلاق النار فى ٢٢ أكتوبر لأنها كانت قد تجاوزتها فى جنح الليل.

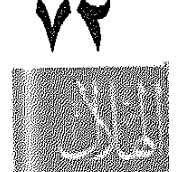
وفى لهجة ساخرة يقول المؤلف أن السادات هو الرجل الوحيد الذى حقق أهدافه من الحرب ولو أن التكاليف كانت كبيرة ومخاطرها أكبر لأنه سعى من البداية إلى حرب محدودة تمكنه من عبور القناة والاحتفاظ بقطاع محدود من الأرض ثم يدعو القوتين الأعظم بعد ذلك لإرغام إسرائيل على الدخول فى مفاوضات. وفى هذا نقل المؤلف عن جولدا مائير قولها: إن السادات بطل بالفعل «لأنه جرؤ على أن يبدأ الحرب بوسائل محدودة وأهداف محدودة، وإن كان قد نجح فى إحباط المخابرات الإسرائيلية طويلا (ص ٢٧٣).

لكن السادات من وجهة نظر أمريكا كما يذهب المؤلف «.. الرجل الذى أخرج مصر من فلك السوفييت ووضعها تحت جناح أمريكا» (ص ٢٧٤). ■

الأديان على الإنترنت!

بقلم
د. أحمد محمد صالح

إن المعلومات قبل عصر المعلومات، كانت متاحة فقط بين المهنيين والمحترفين أو المتخصصين، وكانت شبه مغلقة عليهم، وتحديدا كانت المعلومات تصل لطبقات اجتماعية معينة ولروابط المهنيين وأعضاء بعض المنظمات، بهذا المعنى، فإن الحدود الجغرافية والاجتماعية للمعلومات تحطمت بشكل كبير! فالمعلومات قبل عصر المعلومات كانت محصورة فقط فى عضوية محدودة لبعض المجموعات المغلقة، الآن الموقف اختلف حيث زادت فرص الحصول على المعلومات بوسائل مختلفة بين الغرباء عن تلك المجموعات المغلقة، وهذا الإتجاه مرئى فى الحقول الأكاديمية، والصحافة، وأنشطة المشروعات، وحتى الأسرار الدينية والوطنية اصبحت متاحة للجميع، وعالم الإنترنت الجديد، سيعجل هذا الاتجاه، وتقتضى تلك التغييرات إعادة النظر فى مفاهيم الجماعات والمؤسسات والتنظيمات، حيث ستجبر الجماعات والتنظيمات الدينية والعقائدية على التكيف مع تلك التغييرات .



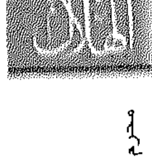
ولوحظ أيضا تغيرات في محتويات المعلومات والاتصالات، فمع تطور الوسائل الجديدة لتبادل المعلومات، وتأسيس الشبكات التي تختلف عن الشبكات الاجتماعية التقليدية، تميل طبيعة المعلومات المتبادلة لأن تكون أكثر تنوعا، وهي حبلى بإمكانيات وطاقات التغيير، لدرجة إمكانية تغير ترتيب الناس وتصنيفاتهم فيما يتعلق بمعارفهم ، على سبيل المثال، من المحتمل رؤية اعداد متزايدة من الناس، يمتلكون معرفة اختصاصية متقدمة أكثر من الخبراء المحترفين في الحقل نفسه .

وفيما يتعلق بالدين، أصبح ممكناً لهؤلاء الذين لم يتدربوا ولم يؤهلوا كمحترفين في الشئون الدينية أن يمتلكوا بسهولة معرفة دينية وفيرة أكثر من الكهنة والرهبان، أو القساوسة، والشيوخ والوعاظ، والحاخامات! ويمكن ان نسمي هذه الظاهرة مؤقتا بـ (التخصصات الثقافية المتغيرة) ، بمعنى أنه أصبح من السهولة تغيير التخصص والاهتمامات بين المفكرين والمثقفين والأكاديميين .

وكاتب المقال يزعم انه واحد من الذين مرورا بهذا التحول التخصصي في عصر المعلومات! فرغم ان تخصصه واهتمامه الأكاديمي في اجتماعيات التنمية الريفية، وبالأخص في التغيير المعلوماتي والمعرفي للريفيين، الا انه حدث تحول في الاهتمامات، أثناء الدراسة والتدريس والبحث في مجال تأثيرات التكنولوجيا على النسق الاجتماعي الريفي بداية من المحراث البلدي حتى الإنترنت.

واصبح مهتما أكثر بالتأثيرات السياسية والاجتماعية لثورة المعلومات، وخاصة بالفرع العلمي الجديد الذي بدأ ينمو، وموضوعه الأساسي التغير الاجتماعي الناشيء نتيجة تطبيقات وممارسات تكنولوجيات المعلومات والاتصال Social Informatics (Si) ، وهذا الاتجاه في التحول التخصصي للمثقفين والمفكرين سيزيد في المستقبل!.

ولمناقشة تأثير تكنولوجيات المعلومات على الأديان والعقائد في العالم، كان لابد من تقديم صورة إحصائية وجغرافية عامة للأديان والعقائد حول العالم في عصر المعلومات، واعتمدنا في ذلك على التسهيلات التي قدمتها تكنولوجيا المعلومات نفسها، وفي إطار التحول التخصصي الذي تكلمنا عنه، نجد مجموعة من المثقفين والمفكرين أنشأوا على الإنترنت قاعدة بيانات ضخمة حول الأديان والعقائد في العالم، وخصصوا لها موقعا فريدا في الإنترنت يسمى موقع التابعين Adherents.Com، وازعم انه موقع رئيسي على الإنترنت لكافة المعلومات عن أديان وعقائد البشر، وهو قاعدة بيانات إحصائية وجغرافية، اقام هذا الموقع بريستون هنتر وهو حاصل على درجة البكالوريوس في علم الأحياء البيولوجي ، مع تخصص فرعي في علم اللسانيات أو اللغة، ويكمل الآن درجة البكالوريوس في علم الكمبيوتر! ويعمل مبرمج كمبيوتر في تكساس ، ويستلزم عمله إنشاء برامج لقواعد بيانات ابحاث الطب الأحيائي والوراثي، واشترك قبل ذلك في تطوير بعض برامج قواعد البيانات مع شركة مايكروسوفت. وأرجو من القاريء أن يتأمل معي الخلفية المعرفية في نوعية تعليم هذا الباحث، الذي يقول عن موقعه الثمين، انه

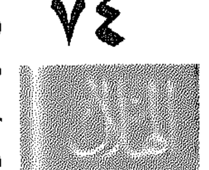


مشروع مستقل تماما عن أي انتماء أو تدعيم لهيئة دينية أو سياسية أو تجارية، أو حتى أكاديمية . ولكنه اعتمد على جهود ومساهمات فردية من باحثين أكاديميين ، واساتذة جامعات في الاجتماع والتاريخ، والأديان المقارنة، وممثلون للأديان والعقائد المختلفة المنتشرة في العالم والكل ساهم وأعطى من مساحة خبرته.

عقائد البشر

وموقع الأتباع هو قاعدة بيانات لمجموعة متنامية من الإحصائيات عن الأديان والعقائد حول العالم، جمع فيها أكثر من ٤٢ ألف إحصائية موثقة ومؤيدة باستشهادات جغرافية ومراجع منشورة، وصحف ودوريات أكاديمية، ومواقع ويب، لما يزيد علي اربعة آلاف ومائتي ديانة وعقيدة ما بين كنائس، وطوائف وملل وفرق وشيع ومجالس وهيئات دينية، ومذاهب، وعشائر، وثقافات وجماعات وحركات دينية .. الخ.. مع الحرص على تحديث تلك الإحصائيات بصورة دورية، وهذا الموقع يخدم أساسا الباحثين عن اسئلة مثل: كم عدد المسلمين أو اليهود في منطقة ما مثلا ؟! أو ما هي الديانات الرئيسية في نيجيريا؟ أو ما هي نسبة اتباع البوذية في العالم، وخدمات قاعدة البيانات موجهة إلى الطلبة، والباحثين والصحفيين والمفكرين أو أي شخص آخر يريد معلومات إحصائية عن حجم وانتشار دين أو عقيدة معينة، أو يأخذ فكرة عامة عن تركيبة ديانات دولة او اقليم او قارة معينة، ويقدم الموقع الاجابة موثقة بإحصائيات رسمية حكومية، ونتائج مسوح علمية، وتقارير المؤسسات والهيئات الدينية المختلفة، بالإضافة إلى استشهادات ثانوية من علوم مختلفة، وجاء هذا الموقع في الترتيب، الثاني على مستوى الإنترنت، كأكثر المواقع الدينية زيارة من قبل مستعملي الانترنت في العالم.

لكن السؤال لماذا قاعدة بيانات إحصائية وجغرافية عن الأديان والعقائد حول العالم؟ لأن الاهتمام بالأديان المقارنة خاصة من منظور سيسولوجي، يشغل دائما اهتمام الناس، وتحديدا المثقفين والمفكرين في فترة من اعمارهم ، وان لم يكن يشغلهم طوال الوقت، فتحاول قاعدة البيانات أن تقدم صورة كاملة المعالم الإحصائية المتماسكة عن أديان وعقائد العالم، ولوحظ من جميع المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها قاعدة البيانات ان الديانات والعقائد الرئيسية في العالم هي عشر كيانات: المسيحية، الإسلام، الهندوسية، البوذية، السيخية، اليهودية، عبادة القوى الطبيعية، الكونفوشيوسية، الطاوية، اليانية، والزرادشتية والغريب ان عدد التابعين لبعض هذه الديانات العالمية اصغر بكثير من بعض الكنائس الفردية أو بعض طوائف المسلمين الصغيرة ! كما سيتضح في بقية المقال، وان كان عدد التابعين لكل ديانة ليس هو الفيصل في الحكم عليها، ولا نستطيع ذلك لأننا هنا نتكلم عن الدين كظاهرة اجتماعية، وليس عن الدين نفسه! وتؤكد قاعدة البيانات حرصها على مراعاة الأسس العلمية من موضوعية وحياد.. وتلفت الانتباه بأن الاستشهادات والاقتباسات، والإشارات المتوفرة والمتاحة، والتي اعتمدت عليها القاعدة من المصادر والمراجع المختلفة، كانت بغرض محدد هو تبيان اعداد التابعين لكل عقيدة، ومجالس اجتماعاتهم وبلادهم وليس بأي غرض آخر للتأويل والتفسير، ومن يريد ان يعرف طبيعة كل عقيدة، ويمارس التأويل والتفسير والمقارنة، لن تستطيع هذه القاعدة ان تساعده، وعليه الاستعانة بمواقع وروابط تلك العقائد على الإنترنت، أو من مراجع وكتب كل عقيدة، وتؤكد قاعدة البيانات انها لم تقصد ابدا

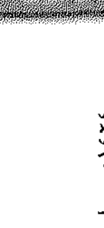


ان تكون مصدرا للمعلومات حول طبيعة وخصائص كل عقيدة، بل هي مصدر فقط لأعداد التابعين ومجالسهم وهيئاتهم ومؤسساتهم، وطوائفهم وبلادهم، وتعترف ان تعدد المصادر التى تعتمد عليها قد يعطى معلومات مختلفة أو حتى متناقضة، فهدف تلك القاعدة ليس فرض أى تفسير أو تأويل ، بل فلترة تلك المعلومات المتوفرة وتصفيتها اعتمادا على استشهادات تخدم الاهداف المعلنة لقاعدة البيانات، فوضعت آلاف الاحصائيات التى زودت بها القاعدة جنبا إلى جنب، حتى يصل الباحثون الى نتائجهم، مع حرصهم فى توثيق نتائجهم بكافة الاشارات إلى مصادرها الأصلية، ومراجعها.

واحصائيات قاعدة البيانات هذه ليست كلها متشابهة فى الدقة! فمثلا عندما نقول ان ٥٠٪ من سكان بلد أوربى كاثوليك، قد يعنى شيئا مختلف تماما عن القول ان ٥٠٪ من سكان بلد افريقى مسلمون، فهذه الاحصائيات الموثقة رسميا، معروضة بشكل مبسط من اجل سهولة القراءة، ولا يعنى ايضا الدلالة على ان البيانات جمعت من مصادر مختلفة، وان الاستشهادات أو الاقتباسات متشابهه الدقة.. وحرصت قاعدة البيانات على تدعيم الاحصائيات بكل المواد المساعدة لتجعلها واضحة، سواء كانت من الدراسات المسحية، أو التعداد السكانى، والتقارير الرسمية للتنظيمات المختلفة، أو أى مصادر اخرى، لأن معرفة مصادر الاحصاءات ، علاوة على انه يعطى معرفة إضافية خاصة للمجموعات الدينية والاقليمية والثقافية، فهو ضرورة للفهم المناسب للمضامين الاجتماعية لتلك البيانات، ورغم القائمة الطويلة للأديان والعقائد المرصودة فى القاعدة ، إلا انها لم تتضمن كل العقائد والكنائس والفلسفات والحركات الدينية الصغيرة الحجم، حيث صعوبة الحصول على بيانات عنها، ومن ناحية أخرى فهى تعتبر كيانات دينية غير منظمة، وإذا كان بعض علماء الاجتماع يعرفون الدين بأنه نظام او نسق عقائدى يتشارك فيه مجموعة من الأفراد، فإن قاعدة البيانات تمتلك آلاف التصنيفات الواسعة مثل الديانات، والفرق، والملل، والشيع، والكنائس.. الخ.. وتؤكد قاعدة البيانات بأنها لا تمتلك سياسة سرية، وتجمع معلومات عن مستخدمى تلك القاعدة، بأن تترك على اجهزتهم بعض الملفات التى تستطيع منها معرفة بيانات مستخدمى القاعدة، أو ما إلى ذلك، ولا تقبل إعلانات ودعاية، ولا تبيع المعلومات! وكل المداخلات والمناظرات التى وصلت الموقع، عوملت وعولجت بسرية تامة، والرسائل الاليكترونية التى تصل الموقع لا تستخدم أو توظف لأى غرض مهما كان الأمر، بدون إذن أصحابها.

فيض من الدراسات الإسلامية

والقاعدة مربوطة بمئات مواقع الإنترنت الخاصة بكل دين وعقيدة، علاوة على ارتباط القاعدة بالمكتبات العامة، ومواقع الويب التى ترعاها افرع ومذاهب وشيع الديانات والعقائد سواء كانت مسيحية، إسلامية ، بوذية، يهودية، الخ.. ومرتبطة ايضا بأقسام الاجتماع، والتاريخ، واللاهوت، والإسلام فى جامعات عديدة فى العالم الغربى .. والعديد من المعاهد اللاهوتية، ولوحظ أنها غير مرتبطة بأى مواقع لجامعات أو معاهد أو مؤسسات أكاديمية إسلامية فى المنطقة العربية والإسلامية الكلاسيكية! ونذكر القارئ إن الإنترنت تكثر فيها المواقع الجادة عن الإسلام، التى يغلب عليها الصفة الأكاديمية، وهى تصدر عن جامعات مثل اكسفورد، وبيركلى، وكورنيل وغيرها من الجامعات العالمية، وتتكلم لغات العالم المختلفة أغلبها الانجليزية، وهى غنية جدا بالكتب والدراسات الإسلامية، وفيض ضخم



من المعلومات الأكاديمية عن الإسلام، فهل يعرف دارسونا في الإسلاميات تلك المواقع فهي تحت أيديهم، هل يملكون المهارات التكنولوجية واللغوية في الدخول إلى تلك المواقع ونقد وتفنيد تلك الدراسات؟! مثل موقع جامعة كورنيل، وتحت عنوان الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية يوصلك إلى روابط اتصالية لمعظم المواقع الإسلامية في العالم ، ومنه مثلاً موقع الدراسات الدولية بجامعة كاليفورنيا بيركلي، تجد فيه سيولاً من عناوين الكتب والمراجع، بعضها محتاج إذن دخول، والآخر متاح لكل واحد، وفيها تقرأ أسماء كثيرة لمؤلفين ومفكرين في الإسلاميات لم نسمع عنهم شيئاً في المنطقة العربية. .

مصادر قاعدة البيانات

وكانت ٦٥٪ من الاستشهادات التي اعتمدت عليها القاعدة من الكتب، وتحديدا من الكتب الخاصة بكل ديانة، والأطالس، والموسوعات، والكتب الرسمية التي تحتوي على سجلات التعداد السكّاني، وكتب التّاريخ، والمراجع الجغرافية، والدراسات الأنثروبولوجيّة العلميّة، والمجلات الدورية، من الجرائد والمجلات والصّحف الأكاديميّة، ومواقع الإنترنت التي احتوت على الإحصاءات، والرسائل والمناظرات بين العقائد المختلفة، والمنشورة، في الإنترنت والكتب والمجلات وغيرها من المطبوعات.

وإذا سئلت قاعدة البيانات، كم عدد الأديان والعقائد في العالم؟ تظهر الإجابة المباشرة والسريعة تقول: طبقا للموسوعة المسيحية العالمية باريت طبعة ٢٠٠١، يوجد في العالم (١٠٠٠٠) عشرة آلاف دين متميز، منها ١٥٠ ديانة فقط عدد المؤمنين بها مليون فرد فأكثر، أما بقية الأديان فعدد تابعيها أقل من المليون! وتوجد ضمن المسيحية كديانة واحدة (٣٣٨٣٠) طائفة مختلفة، وهي تتضمن أكبر الطوائف مثل الكاثوليكية إلى أصغر الطوائف مثل Shakers؛ وأغلب هذه الديانات انحصرت في إقليم جغرافي معين، وفي مجموعة عرقية محددة! وبدراسة صفحات الويب على الإنترنت يمكن تمييز ٢٢ ديانة عالمية فقط، لأنها تتضمن الديانات التي لها وجود وحضور وأغلبية في الدولة الواحدة.

أما الإجابة المفصلة، فهي تنوه في البداية أن إجابة سؤال مثل كم عدد الأديان والعقائد في العالم؟ تعتمد على طريقة حسابنا للديانات! فالناس دائما تعني أشياء ومعاني مختلفة لما تقصده بمصطلح الدين! فهل تعني الملل والشيع والطوائف الفردية والمجالس أو المذاهب الدينية. أو الناس تقصد الأديان الواسعة الانتشار الكبيرة من حيث حجم التابعين مثل البوذية كدين أول والهندوسية دين ثانٍ، أو الأديان السماوية مثل المسيحية والإسلام واليهودية، ويفيد هنا الوثائق الخاصة بكل جماعة عقائدية، فهي التي تصنف الدين والطائفة والفرع تصنيفاً تقنياً! لكن الناس لا يستخدمون دائما مصطلح الدين بحس تصنيفي. وهناك أيضا تعريفات غير محدودة لكلمة دين religion ، فهل في حساب وإحصاء الأديان، تحسب فقط الجموعات التي تدعي وتطالب إنها أديان؟ أو تضيف لها الجماعات التي صنفها وميزها علماء دينيين كأديان؟ وهل تتضمن كل الجماعات التي صنفها علماء الاجتماع كأديان، أو أديان مزيفة وهمية؟ مثل جماعات حقوق الحيوان، وجماعات النجوم، والشيوعية، والإنسانية.. الخ، وهناك جماعات عقائدية يصر قادتها على انها فلسفة حياة أو حركة، هذا كله غير مفيد للمسح الاحصائي وهو هدف القاعدة التي رصدت وحصرت وحسبت ٤٢٠٠ ديانة وعقيدة، ما بين كنائس ، وطوائف ، وملل، وفرق، وشيع ، ومجالس وهيئات دينية، ومذاهب ، وعشائر، وثقافات، وحركات دينية،

ونحل وفلسفات.... الخ. واتبعت قاعدة البيانات عدة طرق رئيسية فى جمع أعداد التابعين لكل عقيدة، منها تقارير التنظيمات الدينية، وسجلات الإحصاء السكانية. وعندما قورنت إحصائيات المصادر المختلفة، والإحصائيات القادمة من الجماعات العقائدية نفسها، تظهر مفارقات، ترجع أن كل ديانة سواء كانت ديانة تقليدية أو أحزاب ومذاهب دينية، لها مستويات فى تصنيف المؤمنين بها والتابعين لها، فلا يوجد تعريف واحد متفق عليه لمن هو المؤمن أو التابع لديانة وعقيدة معينة، والإحصائيات لا تجعل الأمر واضحا دائما، ويجب أن نكون حذرين عند عمل مقارنات.

وأخذت القاعدة بالتعريف الواسع، وهو ما يدعيه الشخص انه مؤمن به، وهو نفس تعريف الأمم المتحدة للتابع أو نصير عقيدة معينة adherent ، ولا ننكر أن هناك عوامل أخرى مهمة مثل مدى المواظبة على الطقوس والشعائر والممارسات والاجتماعات الدينية، والعضوية فى المؤسسات الدينية، ولكنها عوامل تهم علماء الاجتماع والقيادات الدينية لقياس مدى التدين، ولا تستعمل أكاديميا لتعريف عضوية شخص فى دين معين. وقد استعمل التقرير الذاتى كتعريف للتابع فى الموسوعات الدينية العالمية، والمسوح والاحصائيات الرسمية، فالتقرير الذاتى بالتابعية لدين معين، هى الطريقة التى استعملت فى كل استطلاعات الرأى الوطنية والعالمية، وفى العديد من المجموعات الدينية. ويوجد تناقض بين الأرقام المخبر عنها وأرقام التعريف الذاتية، وهناك الكثير من المفارقات الاحصائية فى حساب عدد التابعين لكل ديانة، وتحسبا لكل ذلك اعتمدت القاعدة فى الحساب على كل الطرق مجتمعة فى تعريف التابع (المنتمين بالعضوية لمؤسسات دينية، التعريف الذاتى بالهوية الدينية، العضوية والانتماء لمجتمع معين، المشاركة فى الأنشطة الدينية الخ).



الإيمان بالله

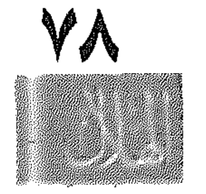
ويتضح من إحصائيات قاعدة البيانات عن الأديان، أن حوالى ٨٣ - ٩٠٪ من سكان العالم يؤمنون بوجود الله. وفى استطلاعات لمؤسسات قياس الرأى العام الموثوق فيها مثل جالوب، وهاريس، ومراكز اخرى، قاموا بمسح من ١١٣ ألف أمريكى، تبين أن حوالى ٩٢ - ٩٧٪ يؤمنون بالله.

فى الموسوعة البريطانية، وبقية المراجع التى اعتمدت عليها القاعدة تبين من التحليل الداخلى لاحصائياتها فى مجال الانتساب الدينى، انه يمكن القول أن حوالى ١٦٪ فقط من سكان العالم يصنفوا فى فئات الملحدين، بلا ديانة. ولوحظ أن الناس الذين اقروا انهم بلا ديانة، مختلفين عن الملحدين الذين لا يؤمنون بالله، فالذين بلا ديانة يؤمنون بالله، ولا يعتبرون أنفسهم منتمين لدين معين، بشكل فلسفى أو ثقافى، وعندهم شكل شخصى من الروحانية، أو يعتبرون الانتساب لدين معين غير ضرورى. وهناك تقديرات مختلفة عالمية تقول ما بين ٨٥٪- ٩٥٪ من الناس فى العالم يؤمنون بالله، أو بقوة عليا تسير الكون! وقاعدة البيانات وهى تركّز أوليا على بيانات الانتساب الدينى والعشائرى، رصدت أن الاعتقاد فى الله أو قوّة أعلى، ليس بالضرورة، يقابله انتساب لمجموعة دينية معينة! وتظهر المسوح ان اقل الأماكن إيمانا بوجود الله أو قوة عليا هى أوروبا بالاختيار! والدول الشيوعية السابقة بالقوة! وظهر أن كوبا وفيتنام، كلاهما يملك درجة أكبر من التدين والتمسك بالروحانيات والاعتقاد فى وجود الله، بالمقارنة بالدول المحيطة، حتى وهى مازالت تحت السيطرة

الشيوعية! حتى فى الصين، المسيحيون هناك رغم انهم أقلية من المحتمل أقل من ٤٪ من السكان، لكنهم الأكثر إيمانا فى العالم! وهناك مقاطعات كاملة في شرق البلاد الصينية مسلمة بالكامل! والمسوح فى الولايات المتّحدة تظهر بثبات إن حوالى ٩٢٪ إلى ٩٥٪ من السكان يظهرون اعتقادا فى الله، ويوجد فى العالم أكثر من ١ بليون مسلم، واكثر من ٢ بليون مسيحى، وكلهم مؤمنون بالله، وأكثر من ٧٥٠ مليون هندوسى، و٢٠ مليون من السيخ، و١٥ مليون يهودى، كلهم يؤمنون بوجود الله، أو قوة عليا!

الدين الأسرع انتشارا فى العالم

والناس يسألون فى أغلب الأحوال ما هو الدين الأسرع انتشارا فى العالم؟ وهو سؤال يتكرر طرحه، وتسأل الناس عن معدلات نمو الأديان! وقد يبدو غريبا وشاذا أن قاعدة بيانات بهذا الحجم والشمول، والتى جمعت عشرات الآلاف من الاحصائيات عن أديان وعقائد العالم، لا تخزن معلومات حول معدلات نمو الأديان، ولكن التفسير، أن تلك القاعدة اعتمدت فى عرض نتائجها على الإحصائيات المتماسكة الموثوق فيها، وعرضت معدلات النمو فى النصوص المرافقة لتلك الاحصائيات، وهى الهدف الرئيسى للقاعدة، بدون تقرير أى تأويلات وتفسيرات بالدين الأسرع انتشارا والأكبر حجما! وبالاضافة لاختلاف مصادر البيانات، وبالتالى اختلاف شروط وأطر جمع البيانات فى كل مصدر، واختلاف المعايير فى كل دين عند حساب اعداد تابعيه ، علاوة على اختلاف المضامين الاجتماعية للعضوية والانتساب الدينى فى المناطق والثقافات المختلفة، كل ذلك يصعب الإجابة على سؤال ما هو الدين الأسرع انتشارا فى العالم؟! وأيضا يصعب الجزم بالدين الذى ينتسب إليه أكبر عدد من التابعين! لكن عندما نناقش معدلات الأديان، هنا يدخل فى الاعتبار الكثير من المتغييرات ذات العلاقة! لأن مقارنة معدلات نمو الأديان من مصادر بيانات مختلفة تصبح بلا معنى، فالقول إن هذا الدين معدل نموه ١٥٪، وذلك الدين معدل نموه ٢٠ ٪ . مقارنة فى حقيقتها لاتحمل أى معنى مطلقا، مالم نعرف البارمترات والثوابت التى حسبت عليها كل نسبة، فيجب معرفة: ماهى المنطقة الجغرافية، هل العالم كله؟ أم دولة، مدينة، إقليم، منطقة، تجمع...الخ، ما هى السنوات التى استعملت كمؤشرات نهائية لحساب معدل النمو والمقارنة، فمعدل النمو ممكن حسابه من التغيير فى عدد السكان فى سنتين مختلفتين، أو معدل تراكمى من التغييرات التى حدثت على مدى سنوات . ويجب وصف آى نوع من النمو ، هل معدل نمو أعلى نتيجة زيادة المواليد فى ديانة معينة مثلا؟ أو زيادة فى مؤشرات التدين؟ وهل زيادة عدد معين من التابعين فى ديانة صغيرة الحجم ستعطى معدل نمو أكبر بالمقارنة بديانة كبيرة الحجم ؟ هل نحسب النمو فى كل طائفة داخل الدين الواحد؟ هل نقارن معدلات نمو انتزعت من دراسات مختلفة؟ هل نقارن أديانا كبيرة جدا مثل المسيحية والإسلام ، الذى يشكل ما بين ثلث أو سدس سكان العالم ، بالأديان الصغيرة جدا ، مثل اليانية، زرادشتية أو وثنية جديدة، الذى يمتلك فقط بضعة ملايين أو مئات آلاف من الأتباع . مثل هذه المقارنة قد تقود إلى معدل نمو سريع لديانة مثل لويكانس، ونمو درجته صفر كنسبة مئوية للمسيحية! لكن الرقمين المجردين لا يحملان معلومات ذات مغزى دقيق! صعوبات كبيرة فى حساب مقارنات ومعدلات نمو وانتشار الأديان، لأن كل طرف يتصور انه يمتلك الحقيقة المطلقة، ويتصور أن الله خصه

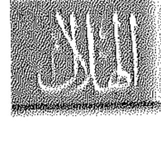


وحـده بالدين الحق ، ويجب أن يكون الدين الأسرع انتشارا ونموا فى العالم! وكل ما يمكن إقراره أن هناك مجموعة من الأديان والعقائد أسرع انتشارا ، وتزايدا على مستوى العالم، مثل الإسلام، وبعض طوائف المسيحية، ونشطاء حقوق حيوان ، المذهب البهائى، الهندوسية، أنصار البيئة، يهود هاسيديك لوبافيتتشير Lubavitcher Hasidic، سوكا غاكى ، الويكا Wicca، بوذية زين Zen Buddhism .

ترتيب الأديان وفقا لعدد التابعين

نعلم أن المليون يعنى ألف ألف . أما البليون يعنى مليون مليون (10^{12}) فى النظام الإنجليزى وبعض دول أوروبا مثل ألمانيا، أو ألف مليون ، أو مليار كما فى فرنسا والولايات المتحدة 10^{9} ، ونؤكد ثانيا أن المليار هو البليون أى ألف مليون فى فرنسا ، وفى الولايات المتحدة. وقاعدة البيانات هنا نستخدم مصطلح البليون بالمعنى الفرنسى والأمريكى، يعنى المليار ، أى ألف مليون .

فى آخر تعديل، فى ٦ سبتمبر عام ٢٠٠٢، أى منذ عدة شهور ، حددت قاعدة البيانات Adherents.com ، الأديان والعقائد الرئيسية فى العالم ، بأنها تلك التى لا يقل عدد المؤمنين بها عن ١٥٠ ألفا ، وتكون ديانة مستقلة، ووفقا لهذا التعريف ظهرت ٢٢ ديانة رئيسية، تم ترتيبها وفقا لعدد التابعين لها كالتالى على الترتيب: فى المرتبة الأولى جاءت المسيحية (٢ بليون تابع) ، ثم الإسلام (١.٣ بليون) ، وفى الترتيب الثالث ظهرت الهندوسية (٩٠٠ مليون) وهى ديانة يعتنقها أهل الهند، وقد تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر، وفى المرتبة الرابعة ظهرت مجموعة تتضمن فئات العلمانية وبلا ديانة ولا يدرون والملحدين /ecular/Nonreligious) Agnostic / Atheist وهم (٨٥٠ مليونا)، ثم البوذية (٣٦٠ مليونا)، وهى ديانة ظهرت فى الهند بعد الديانة البرهمية فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وفى المرتبة السادسة جاء الدين التقليدى الصينى (٢٢٥ مليونا)، مثل الكونفوشيوسية وغيرها، ثم مجموعة أديان محلية بدائية (١٥٠ مليونا) فى المرتبة السابعة، وفى الترتيب الثامن كانت الأديان التقليدية الأفريقية ودياسبوريك Diasporic (٩٥ مليونا)، وظهرت ديانة السيخية فى الترتيب التاسع، حيث بلغ عدد تابيعها (٢٣ مليونا) وهى مجموعة دينية من الهنود ، الذين ظهروا فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادى داعين إلى دين جديد فيه شئ من الديانتين الإسلامية والهندوسية تحت شعار (لا هندوس ولا مسلمين)، وفى الترتيب العاشر كانت ديانة جوتش Juche (١٩ مليون تابع)، وهى العقيدة المصدقة الوحيدة من حكومة كوريا الشمالية، وتعتمد على اللغة الكورية، وبعض الكتاب يصنفون الجوتش كشكل كورى شمالى من الشيوعية الماركسية. أما الترتيب الحادى عشر احتلته الأرواحية Spiritism (١٤ مليونا)، وتدعى استحضار أرواح الموتى بأساليب علمية ظهرت فى بداية هذه القرن فى أمريكا. واحتلت اليهودية (١٤ مليونا) الترتيب الثانى عشر، وفى الترتيب الثالث عشر ظهرت البهائية، التى بلغ عدد تابعيها (٦ ملايين)، ٩٨٪ منهم اتباع بابى والمذهب البهائى، ويعودان إلى نفس الكنيسة أو الطائفة بمقرها فى حيفا، وجاءت البانية Jainism (٤ ملايين) فى المرتبة الرابعة عشرة، وأحيانا تنطق الجانييه وهى ديانة منشقة من الهندوسية، هذا الدين تقريبا ينحصر كليا فى الهند، وفى الترتيب الخامس عشر ظهرت ديانة الشنتو Shinto (٤ملايين)



وهى ديانة أهلية فى اليابان، فحوالى ٧٥ إلى ٩٠٪ من السكان فى اليابان يؤمنون بها، والمرتبة السادسة عشرة احتلتها ديانة كاو دى Cao Dai (٣ ملايين) وهى حركة فيتنامية، ثم جاءت ديانة تيتريكيو Ten-rikyo (٢,٤ مليون) فى الترتيب السابع عشر، وهى أكثر المجالس الدينية النشيطة فى اليابان المعاصرة. وله أنصار فى جميع أنحاء العالم خارج اليابان، مثل الولايات المتحدة (خصوصا هاواى). كوريا الجنوبية، البرازيل، وتايوان، وفى الترتيب الثامن عشر ظهرت الوثنية الجديدة Neo-Paganism (مليون تابع فقط)، وهى مصطلح عام للعديد من الأديان المتباينة التى تؤمن بالسحر والأساطير، وفى الترتيب التاسع عشر كانت فئة الموحدين وخلاصيين (طائفة مسيحية) Unitarian - Uni-versalism (٨٠٠ ألف)، وجاءت ديانة راستافاريانيسم Rastafarianism (٧٠٠ ألف) فى المرتبة العشرين، وهى طائفة دينية فى جاميكا وبعض الدول الأفريقية، وفى الترتيب الحادى والعشرين جاءت العلموية Scientology (٦٠٠ ألف) وهى كنيسة مسيحية منتشرة فى ١٢٩ بلدا، وأخيرا فى الترتيب الثانى والعشرين كانت الزرادشتية Zoroastrianism (١٥٠ ألفا)، وهو الدين الذى كان منتشرا فى إيران (الفرس) قبل الإسلام، ومازال موجودا فى بعض المناطق القليلة جدا والمعزولة هناك وانتقل مع المهاجرين إلى الهند.

والقائمة السابقة تمثل ديانة ٩٨٪ من سكان العالم، ولا تمثل شاملة لكل أديان العالم، ولكنها تعرض الأديان والعقائد «الرئيسية» فقط! وهى مشتقة من بيانات الإحصائيات، بالتشاور مع أساتذة الجامعات فى الأديان المقارنة، والباحثين الأكاديميين، وعلماء الأديان المختلفة.

أديان وعقائد لا تذكر

وتوجد مجموعة من الأديان لم تضمها هذه القائمة لسبب أو أكثر، فهى ليست ديانة مستقلة ولكنها فرع من ديانة أوسع، أو تفتقر إلى التابعين خارج الوطن الأم، وعددهم صغير جدا أصغر من الزرادشتية، وهذه الأديان مثل: الماندينس Man-deans، وجماعة بى إل كيودان PL Kyodan، وديانة تشعوندوجيو Ch'ondogyo، وهناك أيضا ديانة ونبولجيو Wonbulgyo، وجماعة فودون Vodoun، ودين العصر الجديد New Age، ومنظمة سيتشو لا إى Seicho-No-Ie وحركة فالون دافا/ فالون كونج Falum Dafa/Falun Gong، وهناك ديانة التاويسم Taoism، وهناك أيضا الكونفوشيوسية Confucianism وهى الدين التقليدى الصينى، وجماعة روما Roma، وأخيرا هناك جماعة حقوق الحيوان Animal Rights.

أكبر الفروع الدينية فى العالم

وتضم قاعدة البيانات تفاصيل كثيرة عن أفرع وطوائف وفروع ومذاهب داخل كل ديانة وعقيدة، لا يتسع هذا المقال التمهيدى لها، لكن يهمنا منها أن نتعرف على أكبر الفروع عددا فى كل ديانة، وهى ٤٢ فرعا مرتبة على مستوى العالم وفقا لعدد التابعين، ولظروف مساحة المقال نستعرض أكبر عشر فروع دينية فى العالم فى ترتيب تنازلى وفقا لآخر تعديل إحصائى لقاعدة البيانات فى سبتمبر عام ٢٠٠٢. حيث بلغ عدد اتباع الكاثوليكية (المسيحية) ١,٠٣٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع، ثم أتباع المذهب السنى فى الإسلام (٩٤٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع)، ثم أتباع قاعدة الفيشنافيتيس وهى



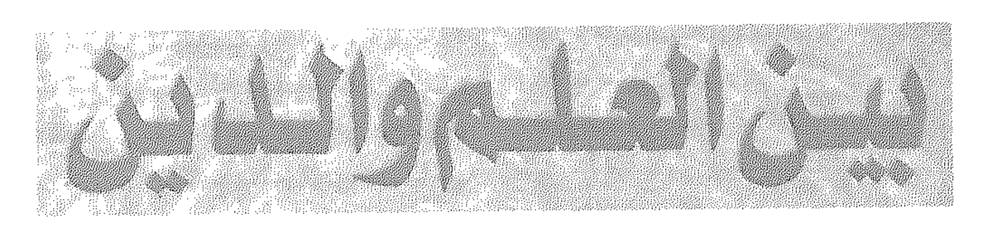
فـرع من الهندوسية (٥٨٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع)، ثم أتباع المذهب الأرثوذكسى/ مسيحى شرقى المسيحية (٢٤٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع) ، وفى المرتبة الخامسة كان اتباع عقيدة الشيفيتيس فى الهندوسية (٢٢٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع)، ثم البروتستانتى المحافظ فى المسيحية (٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع) ، وفى الترتيب السابع جاء أتباع الماهيانا فى البوذية (١٨٥,٠٠٠,٠٠٠) ثم البروتستانتى التحررى فى المسيحية (١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع) ، وفى الترتيب التاسع كان أتباع مذهب ثرافادا فى البوذية (١٢٤,٠٠٠,٠٠٠ تابع)، ثم فى الترتيب العاشر جاء اتباع الشيعة فى الإسلام (١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ تابع) .

ومن الحقائق المثيرة حول الأديان والعقائد الأكبر فى العالم يتضح أن المسلمين السنة والمسيحيين الكاثوليك يمثلان ٣٣٪ من سكان العالم (سكان العالم تجاوزا ٦.٥ بليون نسمة)، وأن حوالى ٤٧.٤٪ من سكان العالم يعتبرون من التابعين لمذاهب دينية وعقائدية لا يقل عدد تابعيها عن مليون تابع (أكثر من ١٢٠ مذهبا)، ويعنى هذا أن النصف الآخر من سكان العالم تقريبا تابعين لمذاهب دينية صغيرة الحجم نسبيا ، وأن ٨.٥٪ من سكان العالم ينتمون لمذاهب دينية يتراوح عدد تابعيها بين المليون وأقل من خمسين مليون !

الأديان السائدة فى دول العالم

فى معظم دول العالم ينتشر بين سكانها دين واحد ، وفى أكثر بلدان العالم ، أغلبية سكانها (أكثر من ٥٠٪) عادة يتبعون نفس الدين . وفى معظم الأمم التى يشكل فيها المسيحيون الأغلبية ، نجد أغلبية السكان أتباعا لمذهب دينى واحد (مثل الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية فى اليونان ، الكنيسة الكاثوليكية فى بولندا ، أوالكنيسة اللوثرية الإنجيلية فى النرويج) ، وفى أغلب دول العالم الدين السائد فيها واحد من أكبر ديانتين فى العالم المسيحية والإسلام ، وعدد الدول المسيحية أكبر ، فالإسلام منتشر فى العالم كله ، لكنه يمثل ديانة أغلبية سكان ٤٥ دولة ، مع ملاحظة أن أغلبية السكان المسلمين الشيعة ، موجودين فى إيران ، أذربيجان ، البحرين ، عمان والعراق ، والمسيحية بطوائفها وفروعها منتشرة فى العالم كله ، لكنها تمثل ديانة أغلبية سكان ١٢٠ دولة فى العالم ، والهندوسية تنتشر بين أغلبية سكان ٣ دول ، والبوذية تمثل غلبية سكان ١٠ دول ، والسيخية لا تكون الأغلبية من سكان أى أمم ، رغم أن عدد تابعيها حوالى ٢٣ مليونا ، يعنى أكبر من اليهودية (حوالى ١٤ مليونا) ، ولكنها تمثل أغلبية سكان اقليم هندى واحد هو البنجاب، واليهود يمثلون أغلبية سكان دولة واحدة فقط هى إسرائيل (٨٣٪)! وعدد كبير من سكان اسرائيل يعتبرون من فئة بلا ديانة وملحدين ، واليهود المتدينون يمثلون أقلية فى إسرائيل ، المثير للانتباه ، أن عدد اليهود الذين يعيشون فى الولايات المتحدة الأمريكية أكبر من عدد اليهود الذين يعيشون فى اسرائيل ، ونسبة اليهود المتدينين هناك أكبر من مثليتها فى اسرائيل!

وقاعدة بيانات أديان وعقائد العالم Adherents.com فيها آلاف التفاصيل الإحصائية والجغرافية الدقيقة عن كل ديانة وعقيدة، لا يتسع هذا المقال ، لبعض ملامحها، لكننا اكتفينا بعجالة مختصرة وسريعة وعامة عن أديان وعقائد العالم فى القرن الحادى والعشرين، وكانت مقدمة تمهيدية ، لابد منها لمناقشة مدى تأثير تكنولوجيات المعلومات ، وتحديدا الإنترنت على العقائد ، والتى سنتناولها فى المقال المقبل . ■



بقلم
د. التهامي محمد الوكيلي •

الدين وسيلة النجاة، والعلم وسيلة الدين
والتفكر وسيلة العلم، والبحث وسيلة التفكر

إن العلم من حيث كونه وسيلة الدين إلى إحقاق مطلب العبادة التى من أجلها خلق الحق عز وجل الثقلين «الجن والإنس» ، هو العلم الذى يتصف بالوحدة والوحدانية شأنه فى ذلك شأن الدين والديان جلت قدرته وجل علمه، فالعلم إذن علم واحد جامع مانع ،ويختص به كتاب الله العزيز الذى لم يفرط الله فيه من شئ مصداقا لقوله سبحانه وتعالى (.. ما فرطنا فى الكتاب من شئ...) .

وبالتالى فإن تعدد فروع العلم وشعبه ليس سوى عمل من فعل الإنسان الذى اختار منهاج التقسيم بهدف التخصص، ساعيا من وراء ذلك إلى التخفيف من وزن الحمولة المعرفية المراد صبها فى وعاء عقله . وقد أدى هذا التقسيم وذاك التخصص بالإنسان إلى فقدان النظرة الشاملة والمتكاملة إلى الأشياء والظواهر والمخلوقات، فصار كل عالم يرى جزءا من الحقيقة فيصعب عليه إصدار حكمه عليها من جانب واحد أو من جوانب دون أخرى. وهكذا فإن تعدد فروع العلم وتنوعها لايمسان بتاتا بوحدته وتناغمه وتكامله . وإن الإنسان فى سعيه المتعدد والمختلف باتجاه دروب العلم والمعرفة إنما يبحث بالتجربة وبالسبر والتمحيص وبالمقارنة والمقاربة عن نهايات الفروع، وكلما وجد إحداها أو بعضها ازداد اقتناعا بانتمائها على تعددها واختلافها إلى نفس اللحمة

• عضو رابطة علماء المغرب

العلمية الأصلية .

وإن منهاج التخصص الإنسانى هذا هو الذى جعل تحقيق مطلب العلم الحق يحتاج إلى الجمع والتأليف بين جيش غير يسير من العلماء للنظر فى الظاهرة الواحدة بقصد فهمها وتفسيرها وإدراك القانون المحكم لوجودها ولحركتها وسكونها، بينما كان هذا الأمر فى الماضى فى يد باحث واحد يجمع بين عدة شعب علمية فى آن واحد، وهذا ما يجعل العالم الملم بعدة فروع من العلم أقرب إلى فهم تكوينه وتكوين ما حوله .

وحتى نفصل بين هذا العلم العزيز وأنماط أخرى يطلق الإنسان عليها اسم العلم بينما هى ليست كذلك، سوف نتطرق فيما يلى إلى نوعين من العلم متمايزين ومتباينين تمام التباين .

إن« العلم الحق »ونسميه هنا «علم العلم»، عندما يتأكد وجوده بدليل المعرفة بوجود ما يثبته، فإنه يخبر عن سر الحياة وسر الموت، ويفك رموز ومشكلات الحياة وشفراتها ببيان حقيقة الأشياء وليس واقع الأشياء فحسب، ذلك أن الحقيقة لا تغيير فيها. وما دام الإنسان يغير آراءه ونظرياته وكذلك القوانين التى يجعلها لنفسه بناء على الواقع، فإن ذلك دليل على عدم توفره على العلم، الذى لا ينطوى ولا ينحنى أمام أى تعقيد أو إعجاز كما تفعل النظريات والفرضيات المبنية على ما يستنتج بالملاحظة والتجريب فحسب

ولو بحثنا فيما يدل على هذا العلم الشريف «علم العلم» فى آيات القرآن الكريم، أى فى تعاليم «الدين» الذى هو الأعرف بوسائله الأنجح، فإننا سنجد فى كتاب الله أربعة أوصاف دالة على هذا العلم يمكن ذكرها فيما يلى :-

١. يقول الحق جل جلاله (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .. الآية)

٢ . ويقول سبحانه وتعالى : (... كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم، الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ...).

٣ . ويقول جل وعلا : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم

٤ – ويقول وهو أصدق القائلين : (إنما يخشى الله من عباده العلماء). ◦

لقد أتينا بهذا الاستدلال من هذه الآيات الكريمة الأربع كسند لما نود اقتراحه لتحديد مفهوم العلم الحق، الذى سميناه «علم العلم» برغم كثرة الآيات الواصفة للعلم ووفرتها، ذلك أننا أحببنا أن نقف على حقيقة هذا العلم من خلال أربعة وجوه مقصودة :

الوجه الأول : يقضى بأن يكون العلم شاملا للأسماء كلها حتى تكون علما حقا . ذلك أن هذا الشرط هو الذى جعل توفره الملائكة يسجدون لآدم عن رضى واقتناع لما لهذا العلم من جلال ومن إحاطة والأسماء كلها لا يمكن أن تعنى بحكم لفظ الكلية إلا جميع المخلوقات بأسمائها أى بالمعارف المتعلقة بها، ما ظهر منها وما بطن .

ومن ثم، فإن إدراك بعض الوجود، أو الجزء الأعظم منه دون باقى الأجزاء، يشكل علما ناقصا، ذلك أن عدم العلم بالروابط القائمة بين البعض الكبير المعلوم والبعض اليسير المجهول يعتبر جهلا بالوجود فى كليته وشموليته التى تحصيها «الأسماء كلها» وتدل عليها .

نخلص من هذا إلى أن الوجود مترابط بين جميع مكوناته بما يدل على احتكامه إلى قانون واحد يدل هو الآخر على صانع واحد . ومن ثم فإن العلم بهذا الأمر، ظاهره وباطنه، لابد أن يكون علما واحدا موحدا فى أساسه .

الوجه الثاني : إن العلم هو من عند الله سبحانه وتعالى يتنزل من لدنه عز وجل على أنبيائه ورسله فيعلمون ذلك للناس ويعلمونهم ما لم يكونوا يعلمون . والمراد هنا بالتنزيل هو فواتح العلوم والمعارف ومفاتيحها، ذلك أن النبوءات والرسالات ما كان لها أن تخوض فى تفاصيل العلم وإنما ترك ذلك للإنسان كى يكد فى طلبه ولأن الحق عز وجل لا يحيط عباده بشئ من علمه إلا بما شاء فإنه يبين حدود ما يمكن العلم به من خلال ما يرسله إلى الناس عن طريق الأنبياء والرسل من مفاتيح علمية تهدى إلى نصيب معين من العلم فى كل حقبة ، فلا يستطيع الإنسان أن يتجاوز ذلك إلا إذا شاء الله سبحانه له أن يفعل .

هذا الوجه الثانى من العلم الحق إذن، هو كونه منزلا من عند الله العليم الخبير .

الوجه الثالث : إن العلم ينبغى أن يؤدى إلى التوحيد، أى إلى الاعتقاد الراسخ بأن الله سبحانه (لا إله إلا هو قائما بالقسط) أى الواحد الأحد العادل . ومعنى هذا أن كل علم لا يوصل إلى هذه القناعة بالدليل والبرهان فإنه ليس بعلم البتة، مهما تلبس بلباس العلم، ومهما حققه الإنسان على ضوئه من تقدم دنيوى زائل كالسراب .

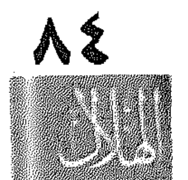
وإن الذنب هنا ليس ذنب المعرفة، وإنما هو ذنب الإنسان الذى ينحو بعلمه صوب المنحى المعاكس لما جاء به العلم الحق .

والوجه الرابع : يقتضى أن يكون العلم أداة ووسيلة لمعرفة الخالق سبحانه وتعالى معرفة وافية تدرك بها حقيقة عظمته وقوته وجبروته ويتحقق بها مقام «الخشية» الذى وصف الله عز وجل به العلماء .

علم واحد جامع

يفهم من هذه الرباعية أن العلم لا يعد علما حقا إلا إذا شمل الشعب العلمية كلها (الأسماء كلها) ومن ثم فهو علم واحد جامع ومتكامل، ولا يمكن لهذا العلم أن يأتى إلا من عندالله عز وجل ولذلك كلف سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله بتبليغ مفاتيحه إلى الناس فى مختلف العصور على مراحل، وينبغى أن يؤدى هذا العلم إلى الاعتقاد بوحدانية الحق عز وجل وبعدله المطلق (لا إله إلا هو قائما بالقسط) وأخيرا، أن تنتج عنه الخشية من بأس الله وغضبه ومن موجبات البعد عنه، سبحانه

وإن علما هذا شأنه الجليل، وتلك أبعاده الشاسعة غير المتناهية لا يعقل ولا يجوز أن يكون جزءا، فحسب ، من



الفلسفة . ومن ثم فإن القول : إن الفلسفة أم العلوم قول باطل، ذلك أن الفلسفة ما هى إلا أفعال وحركات العقل الإنسانى وتأملاته ونتاج من نتائج محاولاته طرق أبواب المطلق إذ الفلسفة محاولة لإدراك الكل بالجزء، والمطلق بالنسبى وذلك محال، بينما العلم الحق الذى تطرقنا إلى أوجهه الرئيسية هو من عند العليم الخبير، فشتان بين ما هو من عند الله العزيز العليم وبين ما هو من نتاج الفكر الإنسانى القاصر .

وإن كل علم لا يسير فى ذلك السياق الرحب يجوز أن نعتبره إبنا للفلسفة وبالتالى، أن ننظر إليه نظرتنا إلى وسائل العيش الدنيوى وأدواته المتغيرة والمتبدلة وغير الثابتة لأنه مهما حقق للإنسان من التطور المادى ومن التطاول والإثخان فى الأرض فإنه لا يسعه أن يجلب له الطمأنينة والاستقرار والسعادة الأخروية .

بهذا الفصل بين «علم العلم» كعلم ينفع فى الدارين معا، وعلم لا ينفع إلا فى الحياة الدنيا، ولذلك نسميه علم الجهل يمكننا أن ندرك كيف يشكل الأول ويجسد وسيلة الدين الأنجع والأشمل للوصول إلى الحقيقة، فكيف إذن يكون «التفكر» وسيلة العلم إلى الفوز بهذا المقام الرفيع العالى داخل النسق الدينى ؟

التفكير والتدبر

يقول الحق جل وعلا :(إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض .. الآية) ويدل قوله هذا على أن خلق السماوات والأرض مهما احتاج التعرف على مكوناته الأخذ بسبيل العلم والبحث فإن الأمر لا ينبغى أن يخلو من تفكر وتدبر يهدفان إلى استخلاص العبرة من نتائج البحث العلمى .، وهذا بالذات، ويدخل ضمن فعل القراءة، الذى ورد فى أول كلمة نزلت عن طريق الوحى على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (اقرأ) ويخطئ من يعتقد أن القراءة هنا لها نفس المعنى المتداول، والذى يفيد التلاوة سرا أو جهرا، ذلك أن معناها فى بداية الوحى إنما يدل على مطالعة كل ما هو موجود مطالعة المتفكر المتأمل المستقرئ والمستنبط للقوانين والأحكام، المستنتج للدروس والعبر، لأن هذه القراءة، بالتحديد، هى التى من شأنها أن تجعل العقل ينفتح على ما وراء الموجودات (المقروءات) من كوامن تدل على عظمة الخالق وعلمه وقدرته وإرادته وعلو جده وطوله المطلق وهكذا، يكون العلم دائما وأبدا، مهما اختزنه من المعلومات والمعطيات، فى حاجة إلى سبر الأغوار واستخراج المعادن النفيسة الموجودة خلف التجربة الميدانية والمخبرية، ورب عالم وقف على أسرار المادة وعلى مكنونات العناصر وعلائقها ببعضها والعلاقات القائمة بينها وبين باقى العناصر والأشياء فلم ينفعه كل ذلك لأنه لم يجعله يفطن إلى روح العلم وجوهره الخفى الذى يصرخ بكل الأشكال الممكنة وفى كل وقت وحين بلسان حال يقول (كل من عليها فان. ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)ويقول (الله لا إله إلا هو الحى القيوم..).. ويقول غير ذلك مما يؤكد قول

الحق عز وجل الذى لا يحتاج إلى التأكيد : (كل يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم).

إن التفكر إذن والمبني على الجهد العلمي وعلى رصد الظواهر وإخضاع الأشياء والأفعال للتجربة من أجل استخلاص الدرس الكامن والعبرة الخفية، هو وسيلة العلم الحق، الحقيقية، لإصابة الأهداف المرسومة والمستهدفة بعملية التعلم ولو قال قائل إن وسيلة العلم هي البحث والتجربة والنتائج المخبرية لقلنا له: فما نفع ذلك إذا لم يضعها العقل موضع تأمل وتدبر ليستشف خباياها وأسرارها الكامنة ؟.

غير أن التفكر وحده لا ينفع للوصول إلى نهاية سعيدة للتجربة العلمية الهادفة إلى تكريس الحقيقة الدينية، ذلك أنه بدوره في حاجة إلى أداة موضوعية تعمل في اتجاه تطويع الفكر وصقله، وأيضا باتجاه تحديد المجالات التى ينبغى أن يتم فيها إعمال العقل وتفعيل النظريات العلمية العالقة به، وتلك الأداة ليست إلا البحث والتقصي العلميين .

إننا هنا أمام مبنى واضح المعالم والطوابق ففى أعلاه وقمته القصوى تكمن النجاة وفى طابق رابع تحت القمة مباشرة يوجد الدين، الطريق الوحيد الموصل إلى النجاة، وتحت هذا يوجد طابق ثالث يحفل بالمعلومات والمعطيات هو عين العلم كأساس للمعرفة وتحت هذا الأخير يوجد طابق ثان مشحون بقوى عقلية مركزه تتأمل وتتفكر فى الخبايا والأسرار الكامنة خلف المعلومات والمعطيات المشكلة للنظرية العلمية، وقد اتصل على أرض الواقع تحته مباشرة بطابق أول حافل بالتجارب والبحوث والفحوص التى تشكل روافد لعملية التفكير والتدبر، وتحت كل هذه التركيبة الهرمية يوجد الإنسان، فى الطابق الأرضى، ملتصقا بالأرض متطلعا إلى أعلى وطامحا إلى الانعتاق من أرضيته ودونيته التى تجسدها دنياه .

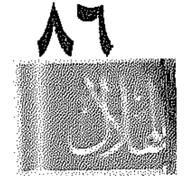
الحياة الدنيا فى الأسفل، والنجاة والخلاص فى الأعلى ، وبين المنزلتين يوجد العلم مسلحاً بالتجربة والبحث العلميين وبإعمال العقل المتفكر والمتدبر والمتذكر ، ويوجد الدين مهيمنا هيمنة كلية وشاملة على البناء كله باعتباره سيد وسائل الخلاص بلا جدال .

وإن هذا التصور ليجعلنا بدوره ننظر إلى الدين نظرة متجددة وقائمة على الحقائق التالية:

إن الدين ليس رديف العلم، ولا يشكل مع العلم وجهين لعملة واحدة، وإنما الدين مهيمن على العلم جاعل منه وسيلته الدنيوية إلى السعادة الأخروية .

إن القول بالدين العلماني، أو بعلمنة الدين، قول باطل ولا أساس له إلا فى الإلحاد، مهما زين ذلك القول للناس بشتى أسباب الزينة اللفظية والجمال البلاغى والأساليب المنطقية والكلامية المتاحة ، لأن ذلك يبقى مغلوطا عن آخره ولو جاز للدين أن يلبس لباس العلم للبس حلة العلم المطلق، أى العلم الإلهى البحت، وهذا أمر بعيد عن مجال إدراكنا الواعى .

ومن ثم فإن الذى ينبغى القول به هو أسلمة العلم أى إعادته إلى أساسه الأول والطبيعى كوسيلة للدين، أى إخضاعه لأحكام الدين فيصير بذلك، وكما كان



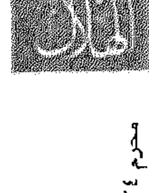
عند نزوله من عند العليم الخبير صافيا طاهرا، مرآة وجودية موضوعية تنعكس عليها الحقائق الدينية فيتم بذلك تأوليها على أرض الواقع .

الكرامات العلمية

إن كل علم لا يندرج ضـــمن هذا السياق الديني لا يعتبر علما البتة، مهما جاز أن يحققه فى عالم الحياة الدنيا، الذى مـا هو إلا عـالم سـرابى زائل لا مــحـالـة، من التطور التكنولوجي ومن «الكرامات العلمية الخارقة للعادة» ذلك لأنه لعدم التزامه بتحقيق الطمأنينة الروحية ولعجزه عن تحقيق السعادة الدنيوية، على تواضعها، فإنه لا يؤدى إلا إلى الهلاك فى الدارين معا، والعبرة بما ستنتهى إليه الحضارة المادية الوجودية الراهنة .

إن هذا الدين، كوسيلة للنجاة، وذاك العلم، كوسيلة لتكريس الحقيقة الدينية، أى لمطلب العبادة فى شموليته وكونيته وفى تنزهه عن حـدود الزمـان والمكان، ينبغى أن يخيـمـا بهذا المفهوم على المناهج العلمية والتعليمية فى المجتمع المسلم قبل غيره من المجتمعات، وفى المجتمع العربى قبل المجتمع المسلم، ذلك لأن العـرب أصحاب رسـالة، ولأن عبء نشر الدعوة ملقى بلا غرو على كواهلهم، يدل على ذلك بما لا يدع مـجـالا للشك نزول القرآن مجسدا لتمام النعمة وكمال الدين باللغة العربية، وفى قلب شـبـه جـزيرة العرب، وعلى يد نبى عربى هو سيد بنى آدم بلا جدال . وإن الاضطلاع بمسئولية نشر الدعوة فى عالم كعالمنا، وعصـر كـهـذا الذى يسوده نمط فكرى يجعل العلم هدفا وليس وسيلة وصمام أمان فـحـسب، يقتضى إبراز الجانب العلمى البحت فى الدين، أى فى النص القـرآني، والذى من شـأنه إذا أحـسن العـرب والمسلمون توظيفه أن يخـرص المتشدقـون باسم «العلم» و«العلم الحق» منهم براء.

وإنه ليس فى وسعنا أن نفعل ذلك، إذا لم نجعل كتاب الله أساس نشاطنا وبحثنا العلميين، وإذا لم نعده إلى مكانته الأولى التى تركه عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصـحـابتـه وخلفـاؤه الراشدون رضوان الله عليهم أجمعين ، والتى تختلف كل الاختلاف عما فعلناه به اليوم من تجميد وتحنيط، ومن إقصـار على شئون العبادات ونزر يسـير من المعاملات، مبعدين إياه عن أيدى طلاب الشعب العلمية والعلمية التجريبية والبحتة، ومقصرين تدارسه على طلبة الفلسـفـة والآداب وعلى الشـعـراء والبـلاغـيين والنحـاة من الذين ليس بوسعهم أن ينظروا إلى كتاب الله من جانبه العلمى التجريبي البحت، فخرجنا بذلك أفواجا من الطلبة نصفهم يحمل كتاب الله ولا يملك الدفاع عنه بوسيلة العلم الحديث، ونصـفـهم الآخر ممسك بأسباب هذا العلم الحديث دون معرفة ولو نسبية كافية بما جاء به كتاب الله من العلم الحق ! وفى هذا بالذات يكمن السر فيما عاد إليه أمر العرب والمسلمين من الضعف والتهالك والتآكل برغم كثرة عـددهم، ،وقـوة عـدتهم، واتسـاع ثرائهم،وبرغم التشريف والتكليف اللذين خصهم الله عز وجل بهما دون الناس كافة، المتمثلين فى نشر دعوة الإسلام فى تمامه وكماله . ■



الاستنساخ

ما يمكن أن يصل إليه العلم سيتحقق

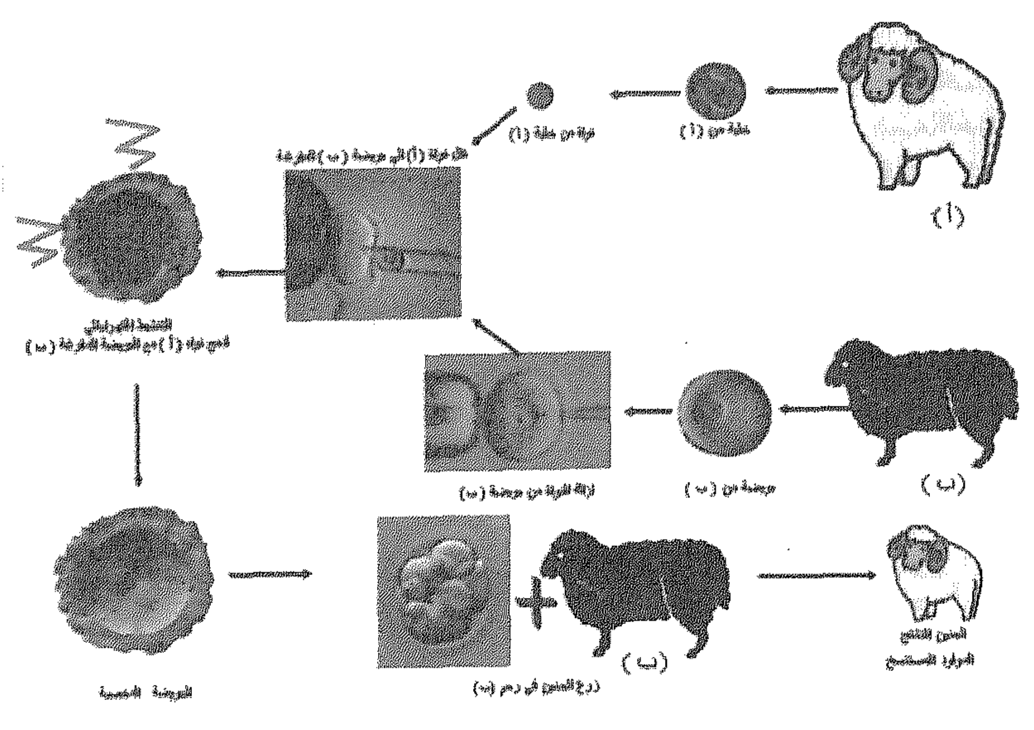
بقلم
د. رجاء منصور •

من أهم الموضوعات العلمية التى فرضت نفسها على الوسط العلمى والأوساط جميعاً فى السنوات القليلة الماضية وحتى الآن هو موضوع الاستنساخ.

وقد تحدث فى هذا الموضوع كثيرون سواء ممن لهم علاقة بالموضوع ومن ليس لهم دراية حتى بأبسط الموضوعات العلمية.

وأصبح أول ما يتبادر إلى ذهن معظم الناس بمجرد سماع كلمة «استنساخ» هو أن العلماء أصبحوا يتسابقون على أخذ خلية من أى إنسان وليكن أحد الأنبياء أو أحد المشاهير مثل «هتلر» لانتاج طفل هو نسخة طبق الأصل منه. وطبيعى أن يلى ذلك شعور تلقائى بالرفض ومهاجمة الفكرة كلية. وفى وسط هذا الانفعال العاطفى يصعب توصيل الحقائق العلمية لمعظم الناس. وسوف أحاول فى هذا المقال توضيح النقاط لإلقاء الضوء على الموضوع.

• مديرة المركز المصرى لأطفال الأنابيب



الاستنساخ للتكاثر

وكلمة «Cloning» أو استنساخ تعنى عمل نسخة جينية طبق الأصل للنسخة الجينية الأصلية لأى كائن سواء من النباتات أو الحيوانات، فمنذ بلايين السنين وحتى الآن يتم فى الطبيعة عمليات كثيرة للاستنساخ بدون تدخل الانسان.

فمثلاً بعض الحيوانات مثل اللافقريات الصغيرة من الديدان وبعض أنواع الأسماك والسحالى والضفادع تحدث لها فى الطبيعة عمليات استنساخ. إن البويضات غير المخصبة لهذه الحيوانات يمكن لها تحت ظروف معينة فى الطبيعة أن تنمو لتكون الحيوان الكامل وبذلك تعتبر نسخة «Clone» من الأنثى التى وضعت البويضات.

وأيضاً فى عالم النباتات تحدث عمليات استنساخ طبيعية لبعض النباتات مثل الفراولة والبطاطس والبصل. فعندما ينمو جزء من الجذع يسمى «runner» يمكن له أن يمتد بجوار النبات الأصلى ويتكون له جذور ثم يتحول إلى نبات كامل جديد يعتبر نسخة طبق الأصل من النبات الأصلى. وقد استفاد الانسان من هذه الظاهرة الطبيعية منذ آلاف السنين حيث يقوم بتقطيع جزء من النبات وزرعه لينمو نبات جديد هو نسخة طبق الأصل من النبات الذى قطع منه هذا الجزء. والجديد بالذكر أنه فى نهاية الجزء المقطوع تنمو كتلة من الخلايا غير المتخصصة تسمى «Callus» وهى قادرة على النمو عندما تزرع لتنتج خلايا متخصصة لتكون أجزاء النبات المختلفة مثل الساق والجذور.

أما ظاهرة الاستنساخ الطبيعية فى الانسان فهى موجودة بيننا ومألوفة للناس منذ قديم الأزل ألا وهى التوأم المتطابق.

إن التوأم المتطابق هو نسخة طبق الأصل من بعضها من حيث الموروث الجينى لكل منهما ولذلك يعتبر كل منهما «Clone» أو نسخة للآخر. وهذه الظاهرة الطبيعية تحدث نتيجة انقسام الجنين فى مراحله الأولى (عدة أيام فقد بعد اخصاب البويضة بالحيوان المنوى) . وينتج عن ذلك أن الجنين الواحد بعد تكوينه واستكمال الطبعة الجينية الكاملة له يتم انقسامه إلى اثنين فيصبح كلا الجنينين الناتجين نسخة طبق الأصل لبعضهما من حيث نفس المكونات الجينية للخلايا وينعكس ذلك على التشابة الكبير بينهما من حيث الشكل ووظائف الجسم.

تجارب ناجحة للاستنساخ في المعمل

لقد لاحظ العلماء ودرسوا ما يحدث من عمليات استنساخ فى الطبيعة وحاولوا أن يجروا تجارب مماثلة على النباتات والحيوانات اعتماداً على نفس الفكرة الأساسية للاستنساخ الطبيعى.

فى مجال الزراعة مثلاً قد لاحظ الانسان منذ آلاف السنوات ظاهرة الاستنساخ الطبيعى فى النباتات ونجح فى استخدامها والاستفادة منها. فمن الطرق الزراعية التى يستخدمها الانسان هو قطع جزء من النبات وزراعته لينمو نبات جديد . وهذه الطريقة ينتج بها بعض النباتات باهظة الثمن من الأوركيد.

أما فى المجال الحيوانى فنلاحظ أيضاً أن التجارب الأولى كانت مماثلة تماماً ومعتمدة على فكرة تكوين التوائم المتطابقة فى الطبيعة. وقد تمت هذه التجارب بنجاح كبير. ومن أهم هذه التجارب هو تقسيم الجنين المتكون من عدة خلايا وفصل هذه الخلايا عن بعضها البعض. ومن خصائص هذه الخلايا هو قدرتها على الانقسام لتكوين جنين آخر يعتبر نسخة طبق الأصل من حيث الموروث الجينى للجنين الأصلى الذى تم تقسيمه . وقد زرعت هذه الأجنة المتكونة فى رحم الحيوان ونتج من ذلك ولادة توائم متطابقة من البقر والخراف والخنازير وغيرها من الحيوانات.

تجربة دوللي ولماذا هي مختلفة؟

فى عام ١٩٩٧ أعلن علماء من معهد «روزلين» الاسكتلندى أنه تم ولادة النعجة «دوللى» المستنسخة ونشر هذا البحث الهام فى مجلة «Nature» وهى من أهم المجلات العلمية فى العالم. وقد لاقى هذا البحث العلمى ردود فعل واسعة النطاق وآثار اهتماماً كبيراً فى الأوساط العلمية. والسبب فى هذا أن الاستنساخ الذى تم هذه المرة كان عن طريق نقل نواة خلية «متخصصة» من جسم حيوان بالغ إلى داخل البويضة بعد تفريغها من النواة. وهذا يعتبر نجاحاً علمياً غير مسبوق.

والجديد بالذكر أن الفكرة التى استخدمت لاستنساخ النعجة «دوللى» يرجع الفضل فيها إلى العالم «جون جوردن» «John Gurdon» الذى نشر أبحاثه فى هذا المجال فى عام ١٩٧٠ فقد نجح هذا العالم فى استنساخ الضفادع فى مراحلها الأولى عن طريق نقل النواة الموجودة فى خلية من جلد أحد الضفادع البالغة إلى البويضة المفرغة من النواة لضفدعة أخرى.

وقد نجحت فعلاً التجربة وتكونت

الضفادع الصغيرة (أبو ذنيبة) التى تعتبر نسخة «Clone» من الضفدعة صاحبة النواة من الجلد. ولكن للأسف لم يكتمل نمو هذه الضفادع الصغيرة لتصل إلى مرحلة الحيوان البالغ.

وبعد نجاح عملية الاستنساخ للنعجة دوللى توالى الأبحاث فى المراكز المختلفة ونجح العلماء فى إعادة التجربة اعتماداً فى نفس الفكرة. وقد نشرت الأبحاث العلمية تعلن عن ولادة فئران مستنسخة فى عام ١٩٩٧ والبقر فى عام ١٩٩٨ والخنازير فى عام ٢٠٠٠ والقطط فى عام ٢٠٠٢.

والسؤال الآن هو : ما هو الداعى لاستنساخ الحيوانات حيث أنها تتكاثر طبيعياً؟ ويجب أن يتضح فى ذهن القارىء هنا أن العلماء يفكروا فى استنساخ الحيوان لمجرد أن تكون وسيلة أخرى للتكاثر بديلاً عن التناسل الطبيعى. إن السبب الرئيس وراء هذه التجارب لاستنساخ الحيوانات هو استنساخ أنواع نادرة من الحيوانات معدله وراثياً مثل البقر أو الغنم المعدل وراثياً لانتاج أنسولين انسانى أو البقر المعدل وراثياً لانتاج لبن انسانى شبيه بلبن الأم. إن التكنولوجيا والخبرة العلمية المستخدمة لانتاج حيوان معدل وراثياً أصعب وأعلى بكثير من التكنولوجيا المستخدمة لاستنساخ أحد هذه الحيوانات. ولذلك عندما ينجح العلماء فى انتاج بقرة معدلة وراثياً لانتاج اللبن الشبيه بلبن الأم أو حيوانات قادرة على إنتاج أجسام مضادة للأمراض التى تصيب الإنسان فيجب أن يأخذوا منها خلايا لعمل نسخ كثيرة. ويعتبر هذا النجاح من أهم الانجازات العلمية الحديثة التى سوف تعود على البشرية بفوائد عظيمة.



توأم متطابق (أطفال أنابيب)

التجارب التى أجريت على الإنسان

بعيداً عن الضجة الاعلامية والأضواء بدأت مجموعات مختلفة من العلماء فى إجراء التجارب على بويضات الإنسان. وحتى لا تثار العراقيل ضدهم فقد أطلقوا على هذه التجارب اسم «نقل النواة» أو «nuclear transfer» وحاولوا أن يتجنبوا لفظ «الاستنساخ». وقد نشرت أبحاث عديدة فى هذا المجال فى المؤتمرات العلمية وكذلك فى المجلات العلمية المتخصصة بين عامى ١٩٩٨ و ٢٠٠٢ . وهؤلاء العلماء لهم سمعة علمية طيبة وسجل من الأبحاث القيمة التى نشرت فى المجلات العلمية الهامة. وتوجد هذه المراكز البحثية فى استراليا، سنغافورة، أوروبا، وأمريكا.

وكان الهدف الأساسى لمعظم هذه الأبحاث هو إنتاج الجنين فى مراحله الأولى لأخذ خلاياه والتى تعتبر فى هذه

المرحلة غير متخصصة (خلايا جذعية) (Stem cells) ويجب هنا أن نفرق بين نوعين من الاستنساخ فى الانسان.

النوع الأول والذى يثار حوله الضجة الإعلامية يجرى بهدف ولادة طفل مستنسخ وهو ما يسمى «reproductive cloning» بمعنى الاستنساخ بهدف التكاثر والذى قد نجح فعلاً فى مجال الحيوانات منذ عام ١٩٩٧ وحتى الآن.

أما النوع الآخر والذى يعتبر ذو أهمية كبيرة فهو الاستنساخ بغرض تكوين خلايا جذعية يمكن أن تتحول إلى خلايا متخصصة لعلاج كثير من الأمراض. وهذا النوع يسمى «Therapeutic cloning» بمعنى الاستنساخ العلاجى.

والفكرة فى الاستنساخ يعتمد على تكوين خلايا جذعية (stem cell) يمكنها أن تخصص لانتاج خلايا معينة مثل خلايا القلب أو الجهاز العصبى أو الجهاز العصبى أو البنكرياس. وهذه الخلايا يمكن أن تزرع فى جسم الانسان فى المكان الذى به تلف لأحد هذه الأنسجة لاستعادة وظيفتها. والفكرة هنا أن يتم تكوين هذه الخلايا الجذعية (cells stem) بنقل نواة أحد خلايا الشخص المراد علاجه إلى البويضة المفرغة من النواة وبذلك تكون الخلايا الجذعية وما ينتج عنها من خلايا متخصصة نسخة طبق الأصل من التكوين الجينى للشخص المريض وهذا يعتبر شرط أساسى وحيوى لعدم لفظ أو طرد الأنسجة عندما تزرع فى جسم المريض. أن استخدام الاستنساخ لانتاج هذه الخلايا الجذعية يعتبر من أكبر الاكتشافات العلمية وأهمها خطورة فى هذا القرن وسوف يكون لها دور كبير فى علاج كثير من الأمراض. فمثلاً يمكن أن ينتج البنكرياس «islet cells» لاستعادة وظيفة البنكرياس للأشخاص المصابين بمرض السكر. وكذلك فإن إنتاج الخلايا العصبية يمكن أن تزرع لعلاج الأمراض مثل المصابين بالسكتة الدماغية أو المصابين فى العمود الفقرى نتيجة للحوادث وكذلك مرض الذهايمر وباركينسونيزم. ومن المجالات الحيوية التى يمكن أن يسهم فيها الاستنساخ العلاجى هو إنتاج خلايا الجلد لاستخدامها فى علاج المناطق التى دمر فيها الجلد نتيجة الحروق. وأيضاً نعقد الأمقل على انتاج الخلايا العضلية للقلب والتى يمكن زرعها فى الجزء التالف من عضلة القلب نتيجة لانسداد شرايين القلب.

لماذا يقحم موضوع أطفال الأنابيب عند ذكر كلمة الاستنساخ ؟

بمجرد ذكر كلمة الاستنساخ يربط كثير من الناس بينها وبين أطفال الأنابيب. والحقيقة أنه ليس هناك علاقة لأطفال الأنابيب بالاستنساخ. إن أطفال الأنابيب أو «الاخصاب خارج الجسم ونقل الأجنة» هو عملية اخصاب طبيعى للبويضة بواسطة الحيوان المنوى ولكنها تتم فى المعمل. والجنين المتكون هو مثل الجنين الذى يتم الحمل فيه تلقائياً فى الحياة الزوجية العادية ويحمل الموروث الجينى من الأب والأم ويتم زرعه إلى رحم الأم لينمو ويكمل تسعة أشهر حتى الولادة.

لكن السبب الرئيسى الذى أدى إلى الالتباس بين أطفال الأنابيب

والاستنساخ هو أن التكنولوجيا والأجهزة المستخدمة لنقل النواة فى عملية الاستنساخ هى نفسها الموجودة فى معامل أطفال الأنابيب لاجراء ما يسمى بعملية الحقن المجهرى السيتولازمى. ولولا التقدم التكنولوجى والخبرة المعملية فى معامل أطفال الأنابيب لاجراء المجهرى السيتوبلازمى ما كان لتكنولوجيا الاستنساخ أن تحدث أصلاً ابتداء من تفريغ البويضة من النواة وكذلك نقل خلية أخرى إليها.

هل البويضة بدون نواة مجرد وعاء؟

ذكر فى كل المقالات التى نشرت حديثاً عن موضوع الاستنساخ أن عملية نزع النواة من البويضة يجعلها (مفرغة) ومجرد وعاء لاستقبال النواة الجديدة المراد استنساخها .

ولكن الحقيقة أن الأمر ليس كذلك بهذه الصورة الساذجة. إن البويضة حتى بعد نزع النواة منها فهى تحتوى على السائل السيتوبلازمى المليء بمئات من الجسيمات المختلفة ذات وظائف فى غاية الأهمية والحيوية. ومن أهم هذه الجسيمات الحيوية مايعرف باسم الميتوكوندريا «mitochondria» والبالغ عددها عدة مئات فى كل خلية . وجدير بالذكر أنها تتكون أيضاً من الحامض النووى «DAN» مثل النواة وبذلك فهى الجسيم الوحيد فى الخلية المحتوى على «DAN» خارج النواة. وأيضاً من الحقائق الهامة أن الميتوكوندريا تورث عبر الأجيال من الأم فقط وليس من الأب. معنى ذلك أنه بالرغم من احتواء الجنين المتكون بالاستنساخ على النسخة الجينية الكاملة المطابقة للنواة المنقولة إلا أن خلاياه بها أيضاً DAN آخر موروث من البويضة التى يزعم أنها «مفرغة» وموجود فى عدة مئات من الجسيمات الصغيرة المسماة بالميتوكوندريا.

وتحتوى كل ميتوكوندريا على حوالى ٣٧ جين ومعظمها يتحكم فى عملية الأكسدة الفسفورية للخلية وهى وظيفة فى غاية الأهمية وقد وجد أن هناك علاقة بين أى خلل فى وظيفة الميتوكوندريا وبين الأمراض الوراثية العصبية وأمراض وهن العضلات.

كما أنه جدير بالذكر أن الجينات بالنواة ليست فقط مجرد ترتيب وتسلسل معين للحامض النووى (DNA se-quence) ولكنها تتحكم فى وظائف الخلية بالمشاركة التامة مع الجسيمات الصغيرة الموجودة فى السيتوبلازم عن طريق نوع معين من الحامض النووى يسمى «الرسول» أو (MRAN) الذى يحمل الرسالة أو الشفرة الجينية من داخل النواة إلى السيتوبلازم حيث تدخل فى أجسام أخرى تسمى ريبوزوم (ribo-somes) لتكوين البروتينات المختلفة التى تنعكس على وظائف الخلايا. ومن هنا نرى الدور الحيوى الذى يشارك به السيتوبلازم فى وظائف الخلية المختلفة عن طريق مئات الأجسام المحتوية على DNA وأيضاً mRNA بقدر لا يقل أهمية عن النواة نفسها. ويتضح مما سبق أنه من الخطأ أن نعتقد أن نقل النواة إلى البويضة المفرغة سوف ينتج عنه نسخة طبق الأصل من الشخص الذى أخذت منه النواة.

الاستنساخ من الناحية الأخلاقية والقانونية

منذ إعلان العلماء عن نجاح ولادة النعجة المستنسخة «دوللى» عام ١٩٩٧ وحتى الآن فتح باب النقاش والدراسة بين مختلف الجهات الدينية والقانونية والسياسية والأخلاقية لمعرفة مدى النفع

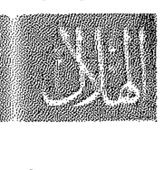
والضرر الذى سوف يعود على البشرية من الاستنساخ. وقد تفجر الموقف وزادت حدة الخوف والجدل بعد ما أعلنت شركة تكنولوجيا بيولوجية تسمى «كلونيد» «Clonaid» عن نجاح ولادة أول طفلة مستنسخة فى ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٢ وقد شكك كثيرون في صحة هذا الخبر حيث أنه قد رفضت لاشكة اعطاء الدليل الدامغ لصحة ادعائهم عن طريق اخضاع المولودة وصاحبة الخلية المستنسخة «DAN» الحامض النووى. وبالرغم من عدم وجود دليل على ولادة الطفلة المستنسخة إلا أن الدافع أصبح الآن أقوى لمحاولة وضع قوانين تمنع مثل هذه التجارب العلمية . وقد أجمعت الآراء على أنه من غير المسموح به إجراء التجارب للاستنساخ بغرض التكاثر بينما يمكن أن تجرى بغرض التكاثر بينما يمكن أن تجرى بغرض العلاج لإنتاج خلايا جذعية.

ولعل من أهم الأسباب التى يستند إليها معارضوا الاستنساخ هو أن الطفل المولود عن هذا الطريق قد حكم عليه مسبقاً أن يكون نسخة جينية متطابقة من إنسان آخر. على أن هذا الافتراض ليس دقيقاً حيث أن البويضة التى وضعت فيها النواة لها أكبر الأثر على وظيفة النواة نفسها كما أن البويضة تحتوى على DNA خارج النواة وتأثيرها كبير جداً كما ذكر سابقاً تحت عنوان «هل البويضة مجرد وعاء».

أما التخوف الثانى من الاستنساخ هو التشابهة المتوقع فى الشخصيات. وهذا أيضاً ليس صحيحاً حيث أن الجنين المتكون ليس نسخة طبق الأصل كما ذكر سابقاً بالاضافة انه سوف يتعرض لظروف مختلفة تماماً داخل الرحم حتى لحظة الولادة. كذلك فمن المعروف أن للبيئة التى سوف ينمو فيها الطفل وطريقة تربيته أكبر الأثر على تكوين شخصيته والتى ستكون مختلفة عن الأصل.

ولكن الخوف الحقيقى من الاستنساخ هو الجهل التام بما يمكن أن يصاب به هؤلاء الأطفال من تشوهات خلقية. وهل سيكون هناك خلل فى وظائف الخلايا وبالتالى وظائف الأعضاء والجسم ككل؟ لا أحد يمكنه الإجابة على هذه الأسئلة الآن.

وقد حاولت معظم الدول وضع حدود وضوابط لإجراء تجارب الاستنساخ . ففى الولايات المتحدة الأمريكية قد تم التصويت فى الكونجرس على تشريع جديد فى ٨ يناير ٢٠٠٣ يحذر الاستنساخ للتكاثر لكن النقاش مازال قائماً حول الاستنساخ العلاجى. أما فى انجلترا فقد صدر قانون فى ديسمبر ٢٠٠١ يمنع استنساخ التكاثر ويسمح بالأبحاث فى المجال العلاجى لانتاج الخلايا الجذعية. ولابد من أخذ ترخيص من «HFEA» وهى الجهة الطبية المشرفة على مراكز الاخصاب فى انجلترا. وفى الاتحاد الأوروبى تم التصويت على منع الاستنساخ والسماح فقط بالأبحاث العلمية للخلايا الجذعية للعلاج. وقد طالب الاتحاد الأوروبى فى ٣ يناير ٢٠٠٣ بضرورة اصدار اتفاق أو تشريع عالمى يحذر الاستنساخ البشرى. أما فى بلد مثل أيرلندا فإن الدستور يحذر ويمنع اجراء أى تجارب على الأجنة البشرية من قبل أن تثار قضية الاستنساخ. وفى اليابان صدر فى نوفمبر عام ٢٠٠٠ قانون لمنع الاستنساخ ومعاقبة المخالفين بالسجن لمدة عشرة سنوات أو غرامة تسعون ألف دولار أمريكى. وقد سارعت دول أمريكا



الجنوبية مثل كوستاريكا وبيرو واكوادور إلى اصدار قوانين لمنع الاستنساخ ربما لتخوفها من احتمال لجوء كثير من علماء الولايات المتحدة الأمريكية إلى انشاء معامل الاستنساخ في هذه البلاد. أما باقي البلاد مثل استراليا فليس هناك قانون يمنع الاستنساخ لكن هناك فقط تعليمات تنهى المعامل من الاستنساخ بغرض التكاثر وتسمح لهم بالدراسات على الخلايا الجذعية. وهذا هو الحال في معظم البلاد الأخرى حيث لا يوجد قانون في هذا المجال لكن يوجد تعليمات وأخلاقيات المهنة.

كلمة أخيرة

إذا جاز لنا أن نعتبر القرن الذي مضى هو عصر العلوم الفيزيائية وما نتج عنها من اكتشافات مذهلة مثل الكهرباء والقوة النووية، فإن هذا العصر سوف يشهد له بأنه عصر العلوم الحيوية (molecular biology). إن التعاون والاندماج الذي حدث بين علم الجينات وعلم الأجنة قد تخطى الحواجز والحدود. ويجب ألا ننزعج من هذا وعلينا أن نتذكر أنه على مدى التاريخ الانساني فإن معظم الاكتشافات العلمية قد قوبلت بالشك والخوف أولاً ثم ما لبث أن تقبلها الناس وأدركوا مدى أهميتها عندما لمسوا التطبيقات العلمية لها والفوائد التي عادت على البشرية. إن أبحاث نقل النواة والاستنساخ سوف تعود على البشرية بفوائد عظيمة ما كان لها أن تحدث قبل ذلك. إن علاج الأمراض عن طريق نقل خلايا سليمة إلى العضو المصاب (مع ضمان عدم لفظها بالجهاز المناعي) سوف يتحقق عن طريق نقل النواة لانتاج الخلايا الجذعية ثم تحويل هذه الخلايا إلى خلايا متخصصة مثل خلايا القلب أو الكبد أو البنكرياس أو الخلايا العصبية.

وفي مجال انتاج الأدوية مثل الأنسولين الانساني واللبن المثيل للبن الأم والأجسام المضادة للأمراض التي تصيب الإنسان يمكن أن يتم هذا بالهندسة الوراثية للحيوانات. ولزيادة عدد هذا النوع النادر من الحيوانات (المهندس وراثيا) تجرى لها عمليات استنساخ. وكذلك فإن استنساخ الأنواع النادرة من الحيوانات المهددة بالانقراض قد ينقذها من الفناء.

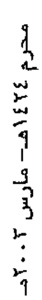
وفي مجال النباتات أيضاً يستخدم فعلاً الاستنساخ لانتاج الأنواع النادرة من النباتات مثل الأوركيد والنباتات الأخرى المهندسة وراثياً. وقد أصبح في العالم الآن مراكز بحثية كبيرة تسمى شركات التكنولوجيا الحيوية أو «biotechnology companies». وقد أعلن العالم «ايان ويلموت» «Ian Wilmut» الذي نجح في استنساخ النعجة دوللي أنه سوف يبدأ في العمل وأخذ ترخيص يسمح له بالقيام بالاستنساخ العلاجي في الإنسان.

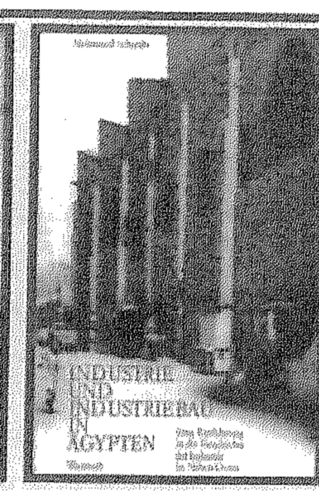
إن السنوات القادمة سوف تشهد مزيداً من الأبحاث العلمية والاكتشافات في مجال نقل النواة والاستنساخ ويجب ألا ننسى المقولة التي يرددها العلماء.

«في مجال العلم مايمكن أن يتم عمله سوف يتحقق»

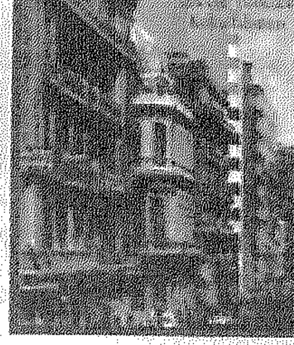
(In science what can done will be done)

وكذلك يجب أن نتذكر تعليمات الحكيم المصري القديم بتاح حوتب (الأسرة السادسة ٢٣٠٠ - ٢١٠٠ قبل الميلاد) الذي قال: «لا حدود يجب أن توضع على الفن (العلم)، كما أنه ليس هناك فنان أو عالم قد وصل إلى درجة الاتقان الكامل». ■





التصنيع فى مصر



القاهرة



السوق

حكاية أحد الطيور المهاجرة

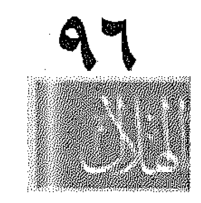
ذكريات وثلاثة كتب عن مصر

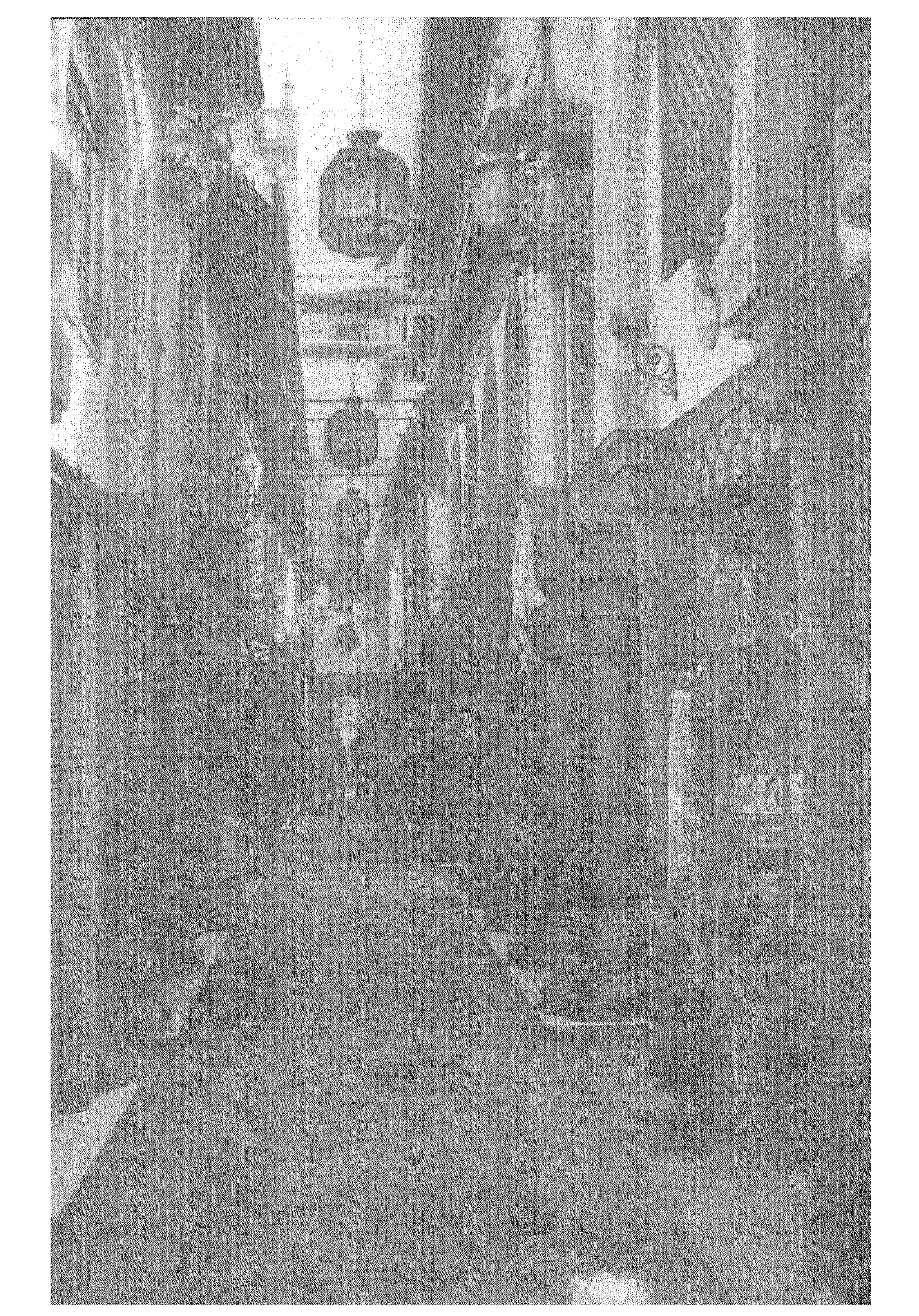
بقلم
مصطفى نبيل

الدكتور محمد شرابى، فنان كبير، ومعمارى قدير، له حكاية تستحق أن تروى..

إنه أحد أصحاب الوجوه السمراء، التى غادرت القاهرة إلى برلين، لأنه لم يحصل على مجموع يؤهله لدخول كلية الهندسة بالقاهرة، فأصبح أستاذا مرموقا فى جامعة «دارمشتات» فى ألمانيا، وحقق فيها مكانة كبيرة ونجاحا علميا وماديا ملموساً، وحصد الجوائز كأحد المعماريين المعروفين ..

القيصرية





أقام الكثير من الصروح المعمارية، وحصل من مصر على الجائزة الأولى فى مشروع بناء دار جديدة للأوبرا، والذى لم ينفذ بعدما استبدل به المشروع الياباني! .

له العديد من المؤلفات المهمة التى تدور حول مصر والشرق، وهى «القاهرة» و«البازار» و«الصناعة والتصنيع فى مصر»، وهذا المقال دعوة إلى د. جابر عصفور صاحب المشروع القومى للترجمة لنقل الكتب الثلاثة إلى اللغة العربية، بدلا من استمرار السطو عليها فى العديد من الأعمال التى ظهرت مؤخرا .

ولم يحصل على دكتوراه واحدة، بل أضاف إليها دكتوراه فى الفلسفة، وهو ما يؤكد عدم كفاءة نظام الالتحاق بالجامعة، الذى مازلنا نتمسك به، وكأنه أحد الثوابت التى لا فكاك منها.

كان محمد صديقا عزيزا، وزميلا منذ أيام الصبا، وهذه بعض لمحات من ذكرياتنا معا. زاملته فى المدرسة السعيدية وطوال المرحلة الثانوية، وعشنا أجمل مراحل العمر وأكثرها براءة، كان يفصل بينى وبينه كوبرى عباس، فكان يسكن فى الروضة، أصل إليه سيرا على الأقدام، نقضى معظم أوقات الفراغ معا.

تربطه بأبيه علاقة حميمة، والذى كان يعمل فى صناعة البناء، ومازلت أذكر أنه كلما عاد الى البيت ووجد أصحاب محمد معه، يصر على أن نبقى لتناول الطعام، وكان الأب يأمل أن يدخل ابنه كلية الهندسة. وكان الإبن يتمنى أن يعمل الى جوار أبيه، ولم يحصل عام ١٩٥٧ على المجموع الذى يؤهله للالتحاق بكلية الهندسة، واتخذ قرارا بالدراسة فى ألمانيا، وقبل بالفعل فى إحدى كليات الهندسة في برلين. وسافر إلى هناك لكى يواجه مجتمعا آخر، يحقق فيه النجاح ويحصل على بكالوريوس الهندسة بامتياز، ثم على الدكتوراه فى العمارة وأخرى فى الفلسفة، ويعين أستاذا فى جامعة «دارمشتات».

ولم تنقطع الاتصالات بيننا، ولم يتوقف الحوار .

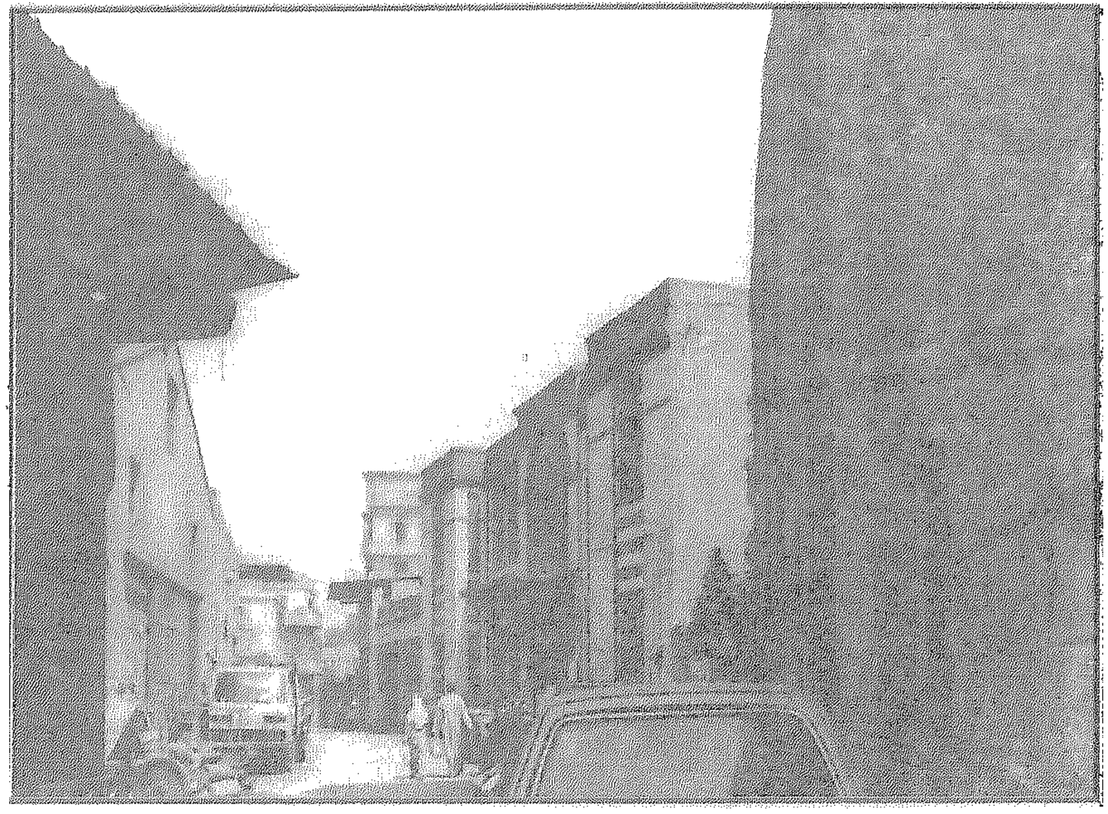
ذكريات الصبا

وقبل رحيله ، خضنا معا تجارب ومحاولات اكتشاف العالم والحياة من حولنا، وكان المناخ العام يساعد على ذلك، فمن حضور المحاضرات إلى المعارض والندوات، ومازلت أذكر قصر هدى شعراوى القريب من سينما قصر النيل والذى كان مثالا للنظام والجمال، وكأنه محراب يأتى إليه الشباب يستمعون إلى الموسيقى فى جو ساحر ويشاهدون لوحات كبار الفنانين، ومن المؤسف أنه تم هدم هذا القصر، والذى تحول إلى موقف للسيارات، ولم يفتنا فى هذه الفترة حضور حفلات الأوبرا التى كانت تقدم تذاكر مخفضة لا يتجاوز ثمنها عشرة قروش للطلبة صباح كل يوم جمعة.

وأصدرنا معا صحيفة حائط كان يقوم محمد بتصميمها وكتابة عناوينها. واستمعنا معا لمحاضرات كل من أحمد



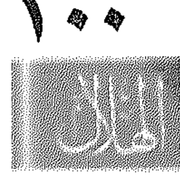
مصنع لاحتياجات القاطرات والسكك الحديدية فى السبتية

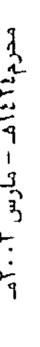


بوابة سراية السنانية

دكاكين عند الواجهة الشمالية لمدرسة السلطان قلاوون بالقاهرة

خان الخليلى





حسين وسيد قطب. كما اشتركنا فى نادى رياضى لبناء الأجسام فى شارع عماد الدين اسمه «كارللى» .

وكانت المدرسة السعيدية مليئة بالحيوية. ففى الرياضة كان فريق المدرسة يحصل على بطولة المدارس الثانوية، ويكفى أن تعرف - عزيزى القارئ - أن فريق المدرسة كان يضم كلا من صالح وطارق سليم، ولم تكن الفرق الرياضية وحدها، بل فى كل النشاطات الأخرى.

وكانت المدرسة تقيم ندوات فى موضوعات مختلفة، ومازلت أذكر ندوة موضوعها «الزواج وحقوق المرأة»، وانتهت بهتافات الطلبة وهم يطالبون بتسهيل الزواج، وندوة أخرى موضوعها «العمامة أم الطربوش» وبعدها بقليل خلعنا كليهما، ومازلنا نبحث عن غطاء مناسب للرأس .

وتعجبت كلما تذكرت ما كنا نعمله، فمثلا، كنا نقرر الامتناع عن الكلام لمدة أسبوع، فى صورة اختبار لقدراتنا وتحديا للذات، وفى مرة أخرى قررنا أن نعتزل الجميع ونعيش فى عزلة لمدة أسبوع، على أمل أن نقضى على حاجتنا الملحة إلى الصحبة.

كما كنا نقوم بجولات فى قرى الجيزة من حولنا ولا نكتفى بما نراه فى العاصمة.

حقا كنا جيلا تفجرت لديه الآمال، وذاق حلاوة الانتصار ومرارة الهزائم!

شارع الموسكى

قبة السوق فى العطارين،

وعشنا حياة سياسية زاخرة بالحيوية والنشاط، فقد قامت ثورة يوليو عندما كنا فى السنة الثالثة الثانوية، وقبلها وحتى سنة ١٩٥٤، كانت الأحزاب السياسية تمارس نشاطها واجتماعاتها داخل جدران المدرسة.

وشهدت المدرسة السعيدية الشرارة الأولى فى أحداث جسام، فقد قامت فيها أول مظاهرة تطالب بإلغاء معاهدة ١٩٣٦، وقد كنت شاهدا على هذه المظاهرة، وقد قادها ونظمها الحزب الاشتراكى، ومازلت أذكر الخطاب الحماسى الذى ألقاه الصحفى الراحل إبراهيم يونس وهو يرتدى الطربوش ويمسك فى يده المسبحة، وتوجهت هذه المظاهرة إلى حرم الجامعة فأشعلتها، وقامت بعدها المظاهرات فى كل مكان تطالب بإلغاء المعاهدة، حتى أعلن رئيس الوزراء فى هذا الوقت مصطفى النحاس إلغاءها .

وأخذت الأحداث تتوالى، وأقيمت معسكرات الفدائيين فى الجامعة بقيادة طالب الحقوق حسن دوح، وبتأييد من مدير الجامعة د. مورو الجراح المعروف، والتحقت مع محمد شرابى بهذا المعسكر رغم صغر عمرنا. ورأيت فى هذا المعسكر ياسر عرفات لأول مرة، كأحد الذين يقومون بالتدريب على «التكتيك العنيف» والذى كان يملأ المعسكر بحيويته وحماسه .

وعقب نهاية الدورة، طلب حسن دوح قائد المعسكر أن نشترك فى تدريب كتيبة باسم المدرسة السعيدية بدلا من السفر إلى القناة. وبالفعل أقيم معسكر للتدريب فى استاد المدرسة السعيدية، واشتعلت حرب الفدائيين ضد القاعدة البريطانية ، وكان أخطر جولاتها معركة «التل الكبير» وانتهى معسكر السعيدية قبل استكمال التدريب عند حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ . ثم قامت الثورة، وانتهت مرحلة وبدأت مرحلة جديدة.

الصدمة الحضارية !

ومن برلين توالت رسائل محمد شرابى إليّ تعبر عن الحنين وتروى رؤيته للعالم الجديد الذى وجد نفسه فيه، يشكو الاغتراب الذى كان حافزا على تأكيد الهوية، وكسر الحواجز وبعد المكان والتواصل مع ما ينتمى إلى بلاده.. وفى إحدى رسائله يقول «أخذت من على البعد أبحث عن أصلى وبيتى وتراثى، وأتذكر حى الروضة الذى عشت فيه طفولتى وصباى. فيمدنى بطاقة محركة لإثبات قيمة الحضارة الشرقية التى أنتمى إليها..» والمشكلة التى استحوذت على اهتمامه هى الالتقاء بين الحضارات لصعوبة التوفيق بين النهضة من ناحية والحفاظ على تقاليد الأمة وثقافتها من ناحية أخرى.

وحكاية محمد ورسائله تعبر بوضوح عن مجمل التجارب والمشاعر التى عاشها ، فعندما بدأت رحلته اتسم موقفه مما يدور حوله بالنفور، فأكثر مالفت انتباهه العلاقة بين الرجل والمرأة، وأصيب بصدمة عندما دُعى إلى أحد الاحتفالات التنكرية. وأذهله ما رآه فلا يظهر من الرجال والنساء إلا ما ينبغى ستره وسترما يجب ظهوره.

كما يروى فى إحدى رسائله أنه تبين عدم إمكانية الدخول فى المجتمع الألمانى إلا لمن يعرف الرقص، فذهب إلى مدرسة لتعلم الرقص، وصعب عليه هز وتحريك وسطه، فانصرف عن المدرسة، ولكن سرعان ما استسلم وتعلم الرقص

وبالتدريج تحولت رسائله من النفور إلى الإعجاب، ومن الاغتراب إلى الألفة، وأخذ يبدى إعجابه بعلو قيمة الإنسان وقيمة الوقت. ومدى حب وتقديس العمل، والحرص على كفاءة الأداء، ومواجهة المصاعب بإرادة حديدية وعقل بارد، ورأى على عكس مايقع فى بلادنا، الكثير من العمل والقليل من الكلام، والكل يعمل فى مجاله بروح الفريق، والإيمان العميق بحرية الفكر حتى وإن اتسمت بالشطط أحيانا، والإيمان بضرورة إعمال حكم القانون، وحتى اذا لم يرضيك.

القبح والجمال

وفى أول مرة يعود فيها إلى القاهرة، اتصلت به متلهفا على لقائه، فأمهلنى حتى يعرف مواعيده وارتباطاته وأدركت أن هذا تأثير المجتمع القادم منه . ولكن لم يغب بلده عن عقله ووجدانه لحظة واحدة .

لذا كانت محاوراته خصبة، نقل إليّ الكثير من تجاربه ومعاناته، وكثيرا ما كنت أصحبه فى جولاته فى القاهرة وخارجها، فهو متشوق لرؤية الجديد، يبدأ جولاته فى القاهرة من الصباح



مع حسن دوح قائد معسكر الفدائيين ١٩٥١

الباكر، ولا تنتهى إلا عندما يأتى المساء . وله عين فاحصة مدققة ومدربة، يلتقط عناصر الجمال، سواء كانت شرفة فى منزل ، أو مدخل مبنى جميل، ويصيبه الحزن من القبح وغياب الحدائق والمتنزهات .

روى لى الكثير عن أفكاره أثناء إعداد كتابه عن «القاهرة» وطلب منى أن أرسل إليه بعض المراجع المهمة، مثل «الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك» والأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى وكتاب عبدالرحمن الجبرتى «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» ومؤلفات عبدالرحمن الرافعى التاريخية، والتى أخذت أرسلها تباعا، وصحبته خلال جولاته فى شوارع القاهرة وأسواقها. وشغله البحث عن ظاهرة التفاعل بين الشرق والغرب وجودا وعدما، وأخذ يرسم ويسجل بالكلمة والصورة كل ملاحظاته، ورصد ما شهدته القاهرة من تغييرات .

وألف كتابه ٤١١ صفحة مزينة بالصور والرسوم الهندسية حتى يكون صيحة احتجاج من أجل إنقاذ القاهرة والحفاظ على شخصيتها المميزة، ويذكر فى كتابه.. أن عدد سكان القاهرة منذ أن غادرها حوالى مليونين من البشر، ثم أصبحت فى نهاية الثمانينات ـ تاريخ إعداد الكتاب – ما يقرب من عشرين مليون نسمة ، يعيشون فى أحياء مكتظة وعشوائية، ووصل الازدحام إلى حد أن سكن البعض المقابر!، وأخذت تظهر غمامة تحجب القاهرة التاريخية خلف عمارات أسمنتية، كما سبق أن اختفت تباعا العمارة الفرعونية ثم الإغريقية ثم الإسلامية.

ويؤكد فى سفره الضخم. أنه حان الوقت للتفكير فى قاهرة جديدة، قاهرة القرن الحادى والعشرين. على أن يكون ذلك بأسلوب جديد، وتصور خلاق، فتحتاج القاهرة رؤية جديدة، ومرافق جديدة، وما تحتاجه ليس بالقطع التقليد الأعمى لطرق تخطيط المدن الأوروبية أو الأمريكية. فقد كانت القاهرة حتى عام ١٨٧٠ مدينة واضحة الهوية، ذات طراز مميز، ثم نشأت أحياء على الطراز

الأوروبى فى القرن التاسع عشر، واضطربت الأحوال عند منتصف القرن العشرين، واختلط القديم والجديد، وتدهورت المدينة القديمة، وتغيرت المدينة الأوروبية ، وتغيرت معالم عمارتها، فانقرضت القديمة أو كادت، وتشوهت المبانى الحديثة، ووقع هذا كله بعد الاستقلال. وراءه التدهور الذى لحق بالقاهرة، وأكمل الازدحام الارتباك ونشر الفوضى فى كل مكان.

ورصد الكتاب مراحل ثلاثا مرت بها القاهرة، الأولى، قبل الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢، والمرحلة الثانية، من عام ١٨٨٢ وحتى عام ١٩٥٢ والمرحلة الثالثة، ما بعد عام ١٩٥٢ .

وبدلا من أن ينجز المصريون بعد الاستقلال مسألة تأكيد الهوية، زاد التأرجح بين الشرق والغرب، وظهرت أحياء لا هى الشرقية القديمة، ولا هى الأوروبية الحديثة، فهى خليط بينهما، أخذت عيوب كل منهما، ولا يمكن تعريفها أو تحديد هويتها أو معالمها .

شارع محمد علي

إذا كان نابليون قد وضع بذرة التغيير، بعدما غير النظام الإدارى الذى كان يلعب فيه الشيوخ الدور الرئيسى، كما اختصر نابليون الحارات من أربعمائة حارة إلى ثمانية أقسام فى نظام إدارى جديد، ولذلك أطلق على قسم البوليس «الثمن» وانتقل شيخ الحارة من مساعدة الأهالى إلى مراقبتهم .

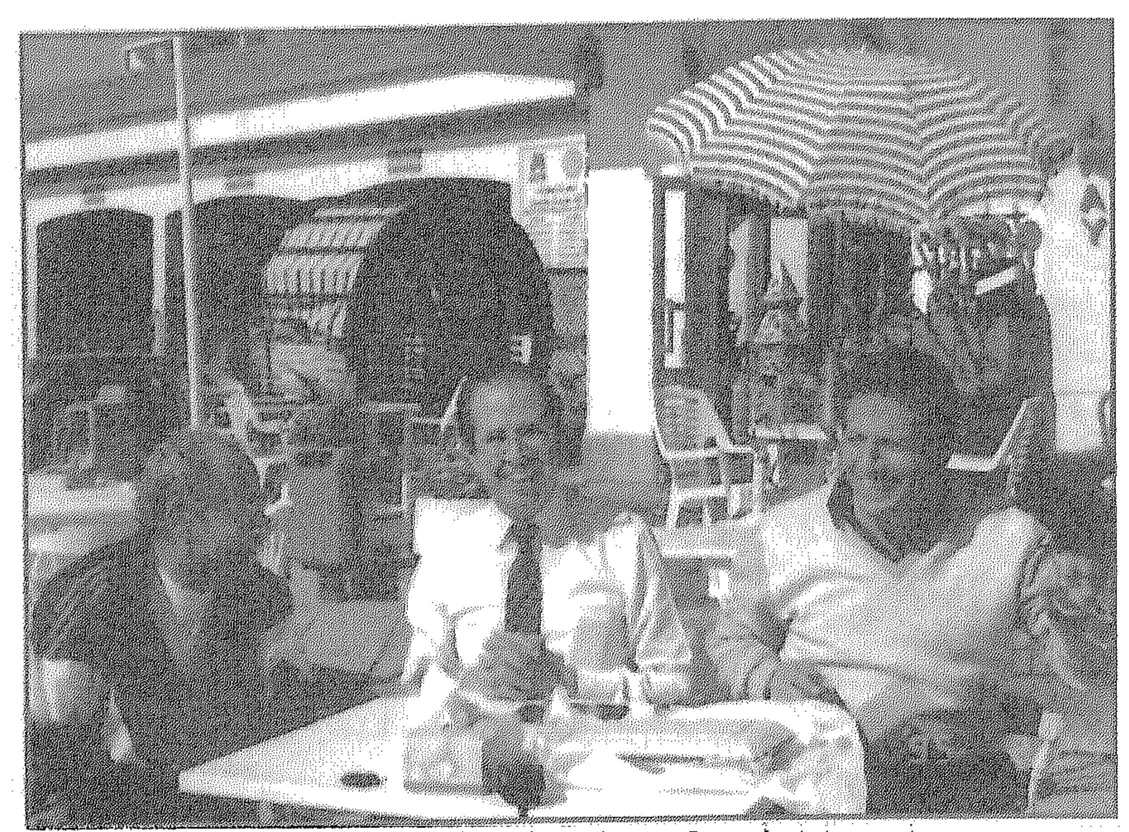
فقد قام محمد على طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر، بالأخذ بالمنهج الغربى، واشترك فى تجربته عدد من الأوروبيين، وأوفد البعثات إلى أوروبا فى كل من فرنسا وايطاليا وانجلترا، ونظم الجيش وأقام المدارس على النموذج الأوروبى .

وسار محمد علي على خطى نابليون في شق طريق عرضى على النمط الأوروبى يبلغ طوله حوالى كيلو مترين - شارع محمد على - يصل بين القلعة مقر الحكم وحى الأزبكية. حى الاستقراطية الجديدة، وقامت بذلك بؤرة عمرانية جديدة إلى جانب القاهرة القديمة.

وحدثت الطفرة الكبرى فى عصر إسماعيل، الذى تعلم فى كلية «سانت كير» فى باريس، وقرر بناء قاهرة جديدة، تصبح «باريس الشرق» فقدم الأراضى مجانا لمن يريد البناء عليها فى المدينة الحديثة.

وظل الحى الذى أطلق عليه «الإسماعيلية» قائما، بعد عزل إسماعيل وقدر عدد الأوروبيين والأجانب بعد الاحتلال الانجليزى بحوالى ثلاثين ألف نسمة، وفضل هؤلاء السكن فى المدينة الحديثة، وصمم الحى الجديد مهندسون فرنسيون وايطاليون وبريطانيون، وأصبحت عمارتها تضارع عمارات فرنسا وايطاليا، وقام المؤلف بتسجيل كل هذه المبانى، سواء بالكاميرا أو بالرسوم الهندسية .

وعند إقامتها لم يسكنها سوى عدد قليل من المصريين، وبعد فترة غير قصيرة تخلى أغنياء وأعيان القاهرة، عن



محمد شرابى ، سلمان أبو ستة و مصطفى نبيل .. لقاء زملاء المدرسة بعد نصف قرن

أحيائهم القديمة، حتى يستمتعوا بمستحدثات العصر، بعد استحالة أن تستوعب أزقتهم القديمة السيارات والمياه والكهرباء والصرف الصحى. أى لم تجذبهم القاهرة الحديثة ولكن طردتهم القاهرة العتيقة بنقص خدماتها ..

رجل الأعمال

ولم يكتف محمد شرابى بتحقيق مكانة علمية، بل أراد أن يسهم بخبرته فى البناء والعمران، فساهم مكتبه فى تخطيط وتصميم مدينة «جبيل» فى شمال السعودية، وأعاد تخطيط وإنشاء سوق مكة القديم. وغيرها من المشروعات، وشارك أحد أبناء عبدالرحمن عزام فى مكتب هندسى فى جنيف.

ولكنه ترك العمل وتفرغ للعمل الأكاديمى، فما جمعه من مال يكفيه حتى نهاية العمر، ويحقق له كل ما يرغب فيه، فاشترى أحد القصور الأثرية فى غابات سويسرا وعلى أحد بحيراتها، وقال .. « نفرت من عالم الأعمال الذى يتصارع فيه المتعاملون، ويغيب فيه الحس الإنسانى، لذا اشتقت من جديد إلى العمل والحياة الأكاديمية، بعدما أثبت وحدة الحياة الأكاديمية والحياة العملية، وعدت لأحقق ذاتى، وأقدم شيئا لبلادى ..

ووضع كتابا جديدا عن الأسواق الشرقية «البازار» باعتبارها قلب المدينة فى الشرق. وعالج وحدة الأسواق من فاس على المحيط الى البازار فى إيران،

وإلى السوق فى تركيا ومصر وطشقند وتلك الممتدة من المحيط الأطلسى حتى المحيط الهندى، وتناول الوظيفة وارتباطها بالشكل، سواء «الحميدية» فى دمشق، أو «خان الخليلى» فى القاهرة، أو «الوكيل» فى شيراز أو «شارشى» فى أدرنة.

ولفت انتباهه الوحدة مع التنوع، وقدرة هذه الأسواق على الاستمرار، فتساندها رؤية حضارية ونظام اجتماعى واحد، باعتبار أن السوق مركز التنظيم الاقتصادى والاجتماعى .

والشكل عنده لايخاصم الوظيفة، ويجمع السوق الثقافة والتجارة فى تناغم واضح، ويلاحظ أن معظم الأسواق، تعمل إما بين بوابتين من بوابات المدينة القديمة، أو تعمل بين إحدى البوابات وبين المسجد الجامع، أو بين مسجدين رئيسيين، أو بين المسجد الجامع وقلعة المدينة وحصنها. ويؤكد أنه لا يمكن معرفة المدينة الشرقية بعيدا عن السوق، ويقدم نظرة على كل من مفردات السوق، الخان والوكالة وغيرهما ويتتبع ذلك في المدن الإسلامية المختلفة.

ويضم الكتاب غير ذلك من تفاصيل دقيقة عن هذه الأسواق .

خبير فى اليونسكو

كما عمل محمد شرابى خبيرا للآثار فى منظمة اليونسكو، واشترك فى مشروع اليونسكو لإنقاذ مدينة فاس المغربية، واشترك فى ترميم أحد المبانى الأثرية المهمة فى لبنان، وأحزنه تدهور وإهمال الآثار المصرية.

وعندما التقى بمدير الآثار المصرية الأسبق د. محمد حسن بكر أبدى استعداده للعمل متطوعا فى ترميم الآثار ووضع خبرته للقيام بأى عمل. وذكر له أن اكبر المخاطر التى تهدد الآثار فى مصر هو ارتفاع منسوب المياه الجوفية. وتشبع المبانى الأثرية بالرطوبة . وأكد ان الإيطاليين قد توصلوا إلى جهاز قادر على تخليص الجدران من الرطوبة، مستخدما نظرية «الضغط الإسموزى»، وأن هذا الجهاز يزيد الأمل فى انقاذ ما تبقى من الآثار المصرية.

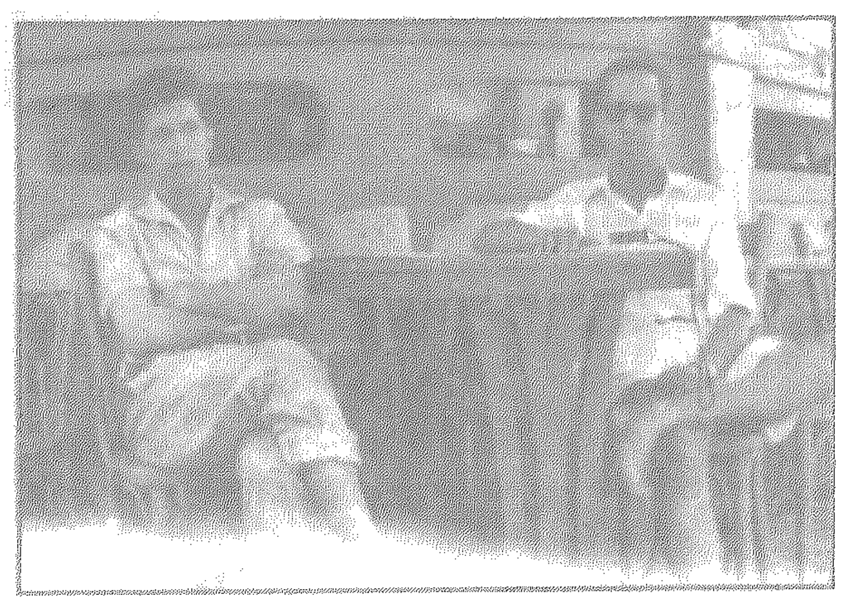
ولم يطلبه أحد، ولم يستعن به أحد!

وفى حوارنا المستمر، أبدى رفضه لهذا الفصل التعسفى بين الكليات العلمية والكليات النظرية، وأدهشه غياب دراسة الفلسفة من كل كليات الجامعة سواء الهندسة او الطب .

كما كان ينادى بضرورة ربط مؤسسات التعليم بحاجة المجتمع، وخاصة تلك الكليات ذات الطابع التطبيقى والعملى. والتى يطلق عليها فى الغرب «بوليتكنيك» ، وهو عكس مؤسسات التثقيف والتنوير، التى لا يجوز أن يقيد الالتحاق بها بأى قيود .

وكان يرفض الأخذ بفكرة التوسع فى نقل التكنولوجيا التى لاتحتاج سوى لعمالة قليلة، وينادى بإقامة الصناعات التى تحتاج إلى عمالة كبيرة ، مما يكسبنا ميزة نسبية فى رخص الأيدى العاملة، ويسهم فى حل مشكلة البطالة.

ويقدم خلاصة تجربته قائلا .. «اذا كان على المجتمع حماية أفراده من



محمد شرابى ومصطفى نبيل فى رأس البر - ١٩٥٨

الغزو، وواجب الدولة حمايته من الفوضى واختلال الأمن والنظام،فمن واجبها حمايته قبل ذلك وبعده من الجهل، فالجهل هو أداة الغزو الأجنبى، وهو الذى يؤدى الى اختلال الأمن والنظام».

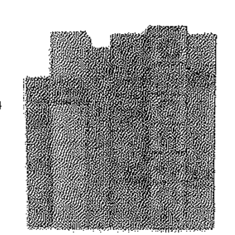
وآخر الكتب التى أصدرها ، كتاب «الصناعة والتصنيع فى مصر» ويتناول الكتاب نشأة التصنيع في مصر والشرق، وكيفية الانتقال من مرحلة الحرف إلى التصنيع، ودور الدول الأوروبية في ذلك ، وأخذ ينقب ويبحث عن الصناعات القديمة، فى حى بولاق والسبتية والاسكندرية، حتى يتابع تطور التصنيع فى مصر. وسجل الكثير من المصانع، واهتم اهتماما خاصا بعمارتها وشخصيتها المميزة. وصحبه إلى القاهرة فريق عمل من مصورين ورسامين، لتسجيل مابقى من هذه المصانع، وتابع المصانع منذ عصر محمد على وحتى منتصف القرن العشرين.

وكانت هذه هى كلمته الأخيرة ..

فبينما كان يعيش فى هدوء ، ويستغرقه عمله الاكاديمى، ويعمل وسط طلبته في جامعة دارمشتات، وأخذت أسرته الصغيرة، زوجته الألمانية ريجينا وولداه فريد وكريم تستمتع بوجوده معها وقتا أطول ، فاجأته فى يوم عاصف أزمة قلبية من إرهاق العمل، ووسط الحيرة بين الشرق والغرب، بين القديم والجديد، سافر على أثرها إلى أحد المستشفيات الشهيرة فى سويسرا بعمليات جراحة القلب المفتوح، باعتبارها من أفضل المستشفيات فى العالم.

ويبدو أن الأوكسجين لم يصل الى الدماغ بالقدر الكافى خلال إجراء العملية، فأصيب بما يشبه فقدان الذاكرة عقب العملية، ونسى ما يعرفه من اللغة الألمانية وأخذ يتحدث إلى من حوله باللغة العربية.

وكل ما نقدر عليه .. أن نتضرع لله العزيز القدير، أن يسترد ذاكرته، وأن تعود إليه عافيته، حتى يكمل أبحاثه ودراساته .. ■



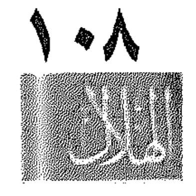
كتاب الأشباه والنظائر للخالديَّيْن

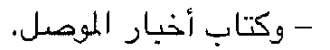
بقلم
د. عبد العزيز الدسوقى

من أهم كتب المختارات الشعرية، ألفه «الخالديَّان»: أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد، وهما شقيقان من الموصل من قرية من قراه. وهما كما يعرفهما الثعالبى «كان يجمعهما من أخوة الأدب، مثل ما ينظمهما من أخوة النسب. قصدا بغداد فى بداية حياتهما فى طلب العلم. وأخذا عن «ابن دريد» و«جحظة» و«الصولى» و«ابن الخياط النحوى» ثم راحا - بعد ذلك - يتصلان بكبراء الدولة والوزراء. ثم انضما إلى حاشية «سيف الدولة» الذى ملك «حلب» سنة ۳۲۳هـ. وأصبحا من خواص ندمائه وفى مقدمة شعرائه، واتصلا بالوزير المهلبى، وقويت صلتهما وتأكدت حينما تولي الصابى «ديوان الرسائل» وكان من المعجبين بهما ومن ثم ناصرهما عند الوزير المهلبى ضد «السرى الرفاء».

وهما من علماء القرن الرابع الهجري خاضا المعارك واشتبكا مع الأدباء والشعراء. ولم يمنعهما ذلك عن التأليف وابداع الشعر. ومن مؤلفاتهما:

- كتاب أخبار أبى تمام ومحاسن شعره..
- وكتاب الديارات.
- وحماسة شعر المحدثين.
- وكتب التحف والهدايا.





– وكتاب أخبار الموصل.

– واختيار شعر ابن المعتز، والتنبيه على معاتبه. وغيرها من الكتب. مثل «الأشباه والنظائر» الذى نتناوله فى هذه السطور. وهما شاعران مجيدان ولهما ديوان شعر مهم.

ومن هنا كانت مختاراتهما من شعر القدماء والمحدثين على قدر كبير من الجودة وكتاب «الأشباه والنظائر» صدر في طبعة جديدة، هذا العام فى سلسلة «الذخائر» التى تنشرها الهيئة العامة لقصور الثقافة. وقد حققه وعلق عليه الاستاذ الدكتور «محمد يوسف» وكتب له مقدمة علمية مستفيضة عرف فيها بالخالدين، وبالكتاب. وكتب الدكتور سيد حنفى مقدمة جديدة. أما الاستاذ الدكتور عبدالحكيم راضي – وهو المشرف على سلسلة الذخائر ورئيس تحريرها – فقد كتب فى بداية الكتاب تعريفا وافيا لطبيعة المختارات الشعرية وأنواعها وحدد قيمة هذه المختارات للخالدين فى سياق مختارات الشعر المتنوعة. ثم يبدأ المؤلفان بعد ذلك فى تقديم الكتاب وبيان منهجيهما فى تأليفه، يقولان «ونحن نضمن رسالتنا هذه مختار ما وقع إلينا من أشعار الجاهلية ومن تبعهم من المخضرمين ونجتنب أشعار المشاهير لكثرتها فى أيدى الناس. فلا نذكر منها إلا الشئ اليسير، ولا نخليها من غرر ما ورد للمحدثين، ونذكر أشياء من النظائر إذا وردت. والاجازات إذا عنت. ونتكلم على المعانى المخترعة والمتبعة، ولا نجمع نظائر البيت فى مكان واحد، ولا المعنى المسروق فى موضع، بل نجعل ذلك فى موضع ذكره» .

ثم يقولان «وإن كنا نعلم – أدام الله عزك وتأييدك– أنك أعلم منا بما نحمله إليك ونعرضه عليك، ومن أين لنا قرائح تنتج ما لا تزال تريناه وتسألنا عنه من دقيق المعانى وطرائف السرقات، وقد تأتى لك – أيدك الله – فى بيتى أبى تمام والبحترى على غموض المعنى وبعده فى النوعين، من دقة النظر، ولطيف الفكر ما لا يتوهم أنه يطرد لسواك ولا يعن لغيرك، وهو أنك – قلت لنا من أين أخذ البحترى قوله:

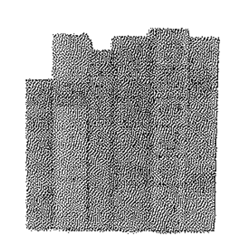
ركبنا القنا من بعدما حمل القنا ... فى عسكر متحامل فى عسكر

فلم يكن عندنا شئ غير الاستحسان والتقريظ فعرفتنا – أيدك الله – أنه مأخوذ من بيت ابن تمام».

رعته الفيافي بعدما كان حقبة ... رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

ولا نعرف فى النظر أدق من هذا، ولا ألطف».





ولا ندرى لمن يتوجهان بالخطاب؟ قد يكون «سيف الدولة» وقد يكون «المهلبى» إلا أنهما على أية حال بدآ ينسجان على هذا المنوال.

يأتيان بشعر لشاعر ويبحثان عن أشعار مثلها سبقتها ويقرران أنها الأصل.

ودراسة السرقات معروفة. ولكن الخالديين بما لهما من قدرة على الحفظ وموهبة فى التحليل والتعليل يأتيان - دائما - بجديد يلذ العقل ويثير الغبطة والمتاع.

ذكر أن المهلهل بن ربيعة قال فى معنى يطال الأقارب :

بكره قلوبنا يا آل بكر نفاديكم بمرهفة النصال
لها لون من الهامات جون وإن كانت تفادى بالصقال
ونبكى حين نذكركم عليكم ونقتلكم كأنا لا نبالى

أبيات المهلهل هى الأصل فى هذا المعنى، ومثله قول الحصين بن الحمام المرى:

نفلق هام من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وأخذه بعضهم فقال:

قومى هم قتلوا أميم أخى فإذا رميت أصابنى سهمى
فلأن عفوت لأعفون جللا ولئن قتلت لأوهنن عظمى

وأخذه مالك بن مطفوق السعدى فقال:

قتلنا بنى الأعمام يوم أوراه وعز علينا أن يكون كذلكا
هم أحرجونا يوم ذاك وجردوا علينا سيوفا لم يكن بوانكا

★★★

وعلى هذا النحو يمضى الخالدان فى هذا الكتاب، يذكرون أبياتا، ويوازنون بينها وبين أبيات أخرى أخذها أصحابها من الشعراء السابقين. وهذا مبحث من مباحث السرقات الشعرية معروف ومسبوق، ولكن الخالديين، أكثرا من هذه الأشعار على امتداد كتاب الهوامل والشوامل المكون من جزءين صفحاتهما ٦٨٥ صفحة.. توالت فى الجزء الأول موضوعات كثيرة اختار لها «الخالديان» أشعاراً ونظائر هذه الأشعار.. من هذه الموضوعات.

الحذق فى الشعر، معنى وصف الرجل والمرأة بالضعف والسلم. معنى سرعة تحدر الدموع.. معنى مشى المرأة. معنى الاستغناء بالسلاح عن الحصون.. معنى حديث النساء، معنى فضل الشيب على الشبان فى الحرب. معنى اقتحام الحرب والعفة عند المغنم أيضاً.. معنى وصف الثغورمعنى وصف المنهزمين. معنى التزوج فى غير الأقارب. فى صفة السيف. فى صفة الرمح. معنى وصف السيد بالطول وغيرها وغيرها من الموضوعات التى تناولها «الجزء الأول» أما الجزء الثانى فقد تناول موضوعات أكثر

منها: معنى حياة العشيرة. ونهضة المتقدمين ومعنى حمل النفس على المكروه. والسيادة بالحجى لا بالمال. ذكر الحبيب فى الصلاة. فى صفة الفرس، فى صفة الخباء. اختصار الحديث خشية الرقباء. مذمة النساء. العفة عند المغنم. وغيرها وغيرها وغيرها من مئات الموضوعات التى تناولها الشعراء واختارها الخالديان فى هذا الكتاب، الذى أصبح موسوعة للشعر العربى فى عصوره المختلفة.

ولكن لابد أن نقرر أن الكتاب كان انعكاساً للنزاع بين التعصب للقديم. والتحمس للمحدث. ودراسة «السرقات الشعرية» وهذه كانت ملمحاً من أهم ملامح النقد الأدبى، وبابا من أهم أبواب العلم بالشعر والأدب: وكتاب «الأشباه والنظائر» يتعلق بهذا الموضوع بالذات، وإبراز فضل السبق إلي المعانى الشعرية للمتقدمين والمخضرمين. والموازنة بينهم وبين المحدثين، وذلك عن طريق التتبع وإيراد الأشباه والنظائر.

ولاشك أن الكتاب أفاد من المعارف العامة التى كانت سائدة فى أيامها وإن لم يذكرا إلا البديع لابن المعتز والحاتمى وابن قتيبة، ومع ذلك فقد اعترفا فى آخر الكتاب بقولهما «وجميع ما أثبتاه فاختيار من أشعارهم المجهولة والمشهورة، ومالنا إلا الجمع والتاليف، ولعل غيرنا ممن يقرأ هذا الكتاب يرذل شيئاً مما اخترناه، ويهجن شيئا نقلناه. وهذا غير مزر بنا ولا ناقص لنا، لأن لكل إنسان اختيارا...»

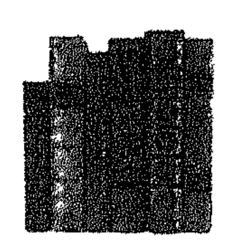
على أية حال لابد أن نقرر أن الكتاب قدم لنا «أشعاراً كثيرة» كانت مجهولة، ونقب عن شعراء ينشر شعرهم لأول مرة فى كتاب، وقدم شيئاً هاماً من خلال وضع النصوص الأصلية ونظائرها من النصوص التى تلتها، يكاد يمثل منهجا فى نقد الشعر لم يلتفت إليه أحد من النقاد القدامى ورواة الأخبار والشعر.

ولا ندرى لماذا أغفل «الخالديان» أبا الطيب المتنبى فلم يذكراه بالمرة ولم يوردا شيئاً من شعره، وعلى الرغم من أنهما عرفا «المتنبى» عن قرب وتناقشا معه أيام صلته «بسيف الدولة» ويقول الدكتور «محمد يوسف» محقق الكتاب فى مقدمته «أفلا يجدر بنا – إذا – أن نتساءل: هل يمكن لأحد أن يعمد إلى الموازنة بين المتقدمين والمحدثين فيسقط المتنبى من اعتباره، ويذكر الصنوبرى والنويختى مثلا، إنما يغلب على الظن أن إهمال المتنبى أمر متعمد، ولعل السبب فى ذلك واضح، أى ما هو معروف من كراهية الوزير المهلبى له. لقد كان الوزير المهلبى جاوز حد التعصب على المتنبى فى النقد العلمى، حتى إنه كان يعاديه عداء شخصيا».

★★★

بعد كل هذا أقع فى حيرة هل اكتفى بالتعريف بالكتاب على هذا النحو دون أن أذكر نماذج مما فيه من أشعار؟ وهو فى الأصل كتاب «مختارات من الأشعار».

ولكن لا بأس من أن نذكر بعض هذه الأبيات وما لها من أشباه ونظائر، وأن نذكر بعض الحكايات التى رواها الخالديان .



قال القفال العلابى:

لقد ولدت عوف الطعان ومالكا وعمرو العلى والحارث المتنجبا
رجال بأيديها دماء ونائل يكاد على الأعداء أن يتحلبا

ومن هذا أخذ البحترى قوله:

وصاعقة فى كفه ينكفى بها على أرؤس الأبطال خمس سحائب
يكاد الندى منها يفيض على العدى مع السيف فى ثنى قناة وقواضب

والبحترى وإن كان أخذ المعني وأتي به فى بيتين فقد جود وأحسن ولحميد بيت قد أكثر الشعراء فى القديم والمحدث فى معناه فما فيهم أحد أتى به إلا دون حميد، وهو قوله:

أرى بصرى قد خاننى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما

هذا بيت قد جمع من صحة المعنى جودة اللفظ. وحسن التقسيم. وملاحة الكلام. وأن كان أخذه ممن قبله فقد زاد عليه. لأن النمر بن تولب أول من أتى بهذا المعنى فى قوله.

ودعوت ربي بالسلامة جاهداً ليصحني فإذا السلامة داءُ

وهذا البيت وإن كان الأول فبيت حميد أحسن كلاما وأجود وصفا.

وقد جود أبو العتاهية هذا المعنى في قوله.

نهوى من الدنيا زيادتها وزيادة الدنيا هى النقص

وقال بشار:

دعتنى حين شبت إلى المعاصى محاسن زائر كالريم غض
كأن كلامه يوم التقينا رمى ضد فى طولى وعرضى

ومن أجود ما قيل فى هذا الحديث - قديما وحديثا - قول ابن الرومى

وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يملك وإن هى أوجزت ود المحدث أنها لم توجز
شرك القلوب ونزهة ما مثلها للمطمئن وعقلة المستوفز

قال الحصين بن الحمام المرى:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
وأطرق أطراق الشجاع ولو يرى مساغا لنابيه الشجاع لصمما
لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلما

قوله «تأخرت استبقى البين» مثل قوله الخنساء:

نهين النفوس وهون النفو   س يوم الكريهة أبقى لها

ومثله أيضاً.

ولا ينجى من الغمرات إلا   براكاء القتال أو الفرار

وقال ضرار بن عمرو الأسدى :

وكنا إذا نحن التقينا على النوى   وأبرزها نحوى حجاب يصونها
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا   وأوساطها حتى تميل فنونها

هذا يشبه قول الطرماح

مازلت افترص الحديث لهن من حق وباطل
وأحثهن عن الأيامن وعن الشمائل
إن اختصارك للحديث إذا خشيت من المحاول

وإليه نظر البحترى بقوله:

وزائر زار من أعقته   يميل وزنا بأنسه ذعره
كأنه جاء منجزاً عدة   وبت فى الراقيين انتظره
كأنما الكاشحون قد علموا   مكانه أو أتاهم خبره

أبيات البحترى هذه أجود ما قيل فى هذا المعنى، ظرف كلام واستغراق تشبيه

★★★

وفى (الأشباه والنظائر) حكايات كثيرة، وطرائف مثيرة نقلها «الخالديان» من كتب التراث فى الأدب والتاريخ. ومن أهم هذه القصص. قصة مالك بن نويره الذى قتله «خالد بن الوليد» وتزوج امرأته. ويقال إن خالدا قتل مالك ومن معه من المسلمين، ليتزوج امرأته. وكانت أجمل نساء العرب، وذلك قال مالك وهو يقاد إلى القتل- لامرأته: أنت والله قتلتنى بهذا الجمال. وكان مالك من فرسان العرب وفتيانهم، وقد رثاه أخوه «متمم» بقصائد كثيرة نقلها «الخالديان» فى الجزء الثانى من الكتاب.

وفى الأشياء والنظائر موازنات أدبية ونظرات نقدية تضارع أهم نظرات النقد الأدبى التى كانت شائعة حينذاك.

ولا يسعنى فى ختام هذه الحلقة إلا أن أنقل تعريف المشرف على سلسلة الذخائر ورئيس تحريرها العالم الشاعر الأديب عبدالحكيم راضى بهذا الكتاب يقول «من المؤكد أننا فى هذا الكتاب أمام ناقدين من نوع نادر. فقد جمعا بين قول الشعر وروايته والعلم به، ثم ممارسة نقده. بل ممارسة المستوى الأصعب من النقد، وهو النقد التطبيقى الذي يكشف عن قدرة الناقد واكتمال أدواته.. إن قارئ هذا الكتاب يجد نفسه محفوفاً بحديقة بديعة وافرة الثمار والأزهار.. يسعدنا أن ننقل إليك هذه الحديقة عبر هذه الحلقة من سلسلة الذخائر». ■



الصحراء الشرقية.. جبالها وحواشيها ذهب

الذهب فى بورصة الأحداث

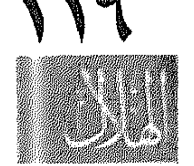
أمانى عبد الحميد
عدسة: شرين شوقى

رحلة بحث .. محطاتها طويلة وشاقة ولكن فى نهايتها يتحقق لمن يخوضها حلم الثراء.. تبدأ بمجرد ضوء لامع بين حبات الرمال وتتواصل لتبلغ موطن الذهب الخام فى الصحراء الشرقية.. فالدراسات الحديثة أكدت أنها صحراء حواشيها من الذهب ، تحوى ١٢٠ منجما تنتظر من يستخرج الذهب من باطنها.. وأن جبالها ووديانها ظلت على مدى التاريخ سخية ولاتزال ثرية لا تبخل على من يبحث وسط صخورها. فالذهب فيها كتراب الأرض.. يلمع لعيون من يقدر على قهر صعابها.. إنها رحلة تستحق بذل المزيد من الجهد والمشاق لسبر أغوار مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية واستعادة مكانتها القديمة

- محمد على أول من اهتم بها وتوت عنخ امون أشهر من تحمل به
- ١٢٠٠ موقعا للذهب.. تنتظر من يستخرجها
- السكرى والبرامية والفواخير أغنى البقاع فى مصر

استخراج الذهب من منجم السكرى

كان الهدف من رحلتنا للصحراء الشرقية هو التعرف على تاريخها القديم وما تحويه من رسوم بدائية ونقوش فرعونية وآثار تحكى تاريخ من عاش داخلها، وفى العدد الماضى نشرت «الهلال» تحقيقا مصورا عن الحياة داخل الصحراء وما تخفيه جبالها ووديانها من حياة بشر وأحلام ومخاوف ، وها نحن اليوم نستكمل الحوار مع الصحراء الشرقية ، نستكشف مجاهلها التى تخفيها وراء تلك التلال والربوات والجبال. وكلما اقتربنا منها ازداد إعجابنا بها أكثر فأكثر.. فتلك المنطقة المجهولة كانت ولاتزال موطن المعادن والأحجار الكريمة والزبرجد والقصدير والنحاس. وحوت جبالها المقالع والمحاجر للصخور والجرانيت ، وكانت معبر الطرق التجارية شرقا وغربا.. وظلت تحتفظ بمكانتها كموطن للذهب المصرى منذ أقدم العصور متباهية بكنوزها، ومعطاءة لا تبخل على من يأتيها راغبا فى الثراء..

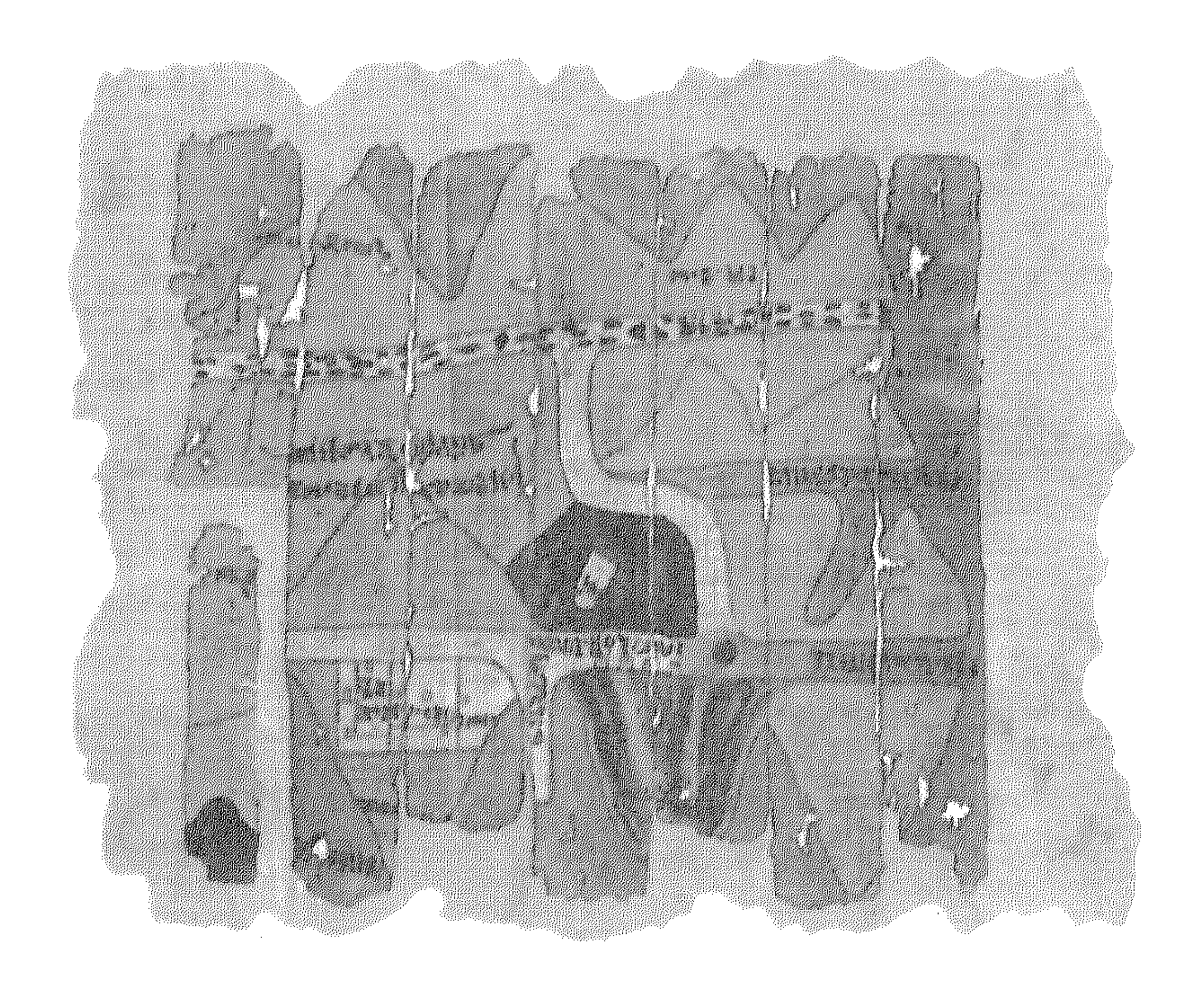


كثيرون طرقوا أبوابها وسبروا أغوارها بحثا عن الذهب بداية من الفرعون القديم مروراً بمحمد على باشا مؤسس الدولة الحديثة وحتى القرن الماضى حيث شهد محاولات عدد من المستثمرين الأجانب والمصريين أمثال الكونت جون دى لافيزون وأحمد فؤاد الدرمللى وغيرهما ممن أوصلوا انتاج الذهب المصرى إلى ٥٢٠ كيلو جراما خلال عام ١٩٥٧.

الذهب في عهد الفراعنة

أثناء زيارتنا للصحراء الشرقية توقفنا عند بعض مناجم الذهب القديمة والتى لها تاريخ طويل مع تعدين واستخراج الذهب على مر العصور ، مثل مناجم البرامية والسكرى وأم الفواخير والسد. كما شاهدنا عددا من أطلال القرى التى كانت تضم بيوت عمال المناجم بالقرب منها.

واكتشفنا خلال رحلتنا أن مصر لاتزال موطنا لخام الذهب لكن ضعف الامكانيات والاحتياج الى تكنولوجيا متقدمة باهظة التكاليف يعوق محاولات الاستثمار فى مجال استخراج وتعدين الذهب فى مصر .. وبرغم أن مصر وصحراءها الشرقية قد شهدا نشوء الفكر الجيولوجى والعلمى المتطور.. فكانت مناجم أبوالمروات والسكرى والبرامية خير دليل على توصل المصرى القديم إلى موقع الذهب واستخراجه ومع تطور الفكر العلمى، نجد أن المناجم ازداد عددها خلال عهد الفراعنة القدماء ومع قيام الدولة الحديثة، ومن بعدها جاء العصر البطلمى ليتبع ما توصلوا إليه دون أية



«بردية تورين » أقدم خريطة توضح موقعاً لأحد مناجم الذهب

اضافة منهم، ومن بعدهم جاءت الدولة الرومانية التى يغلب عليها الطابع العسكرى القائم على الغزو، لذا حرصت على إقامة أبراج أو تبات بها مرايا فوق قمم جبال الصحراء الشرقية لتقوم بحراسة مناجمها ولتنقل أية رسائل مهمة من البحر الأحمر إلى النيل، كما نشط الاستكشاف التعدينى خلال عهد محمد على طوال ٤٠ عاماً هى فترة حكمه فعرفت مناجم عطالله والفواخير وأم قرابة وأم الروس والدرهيب..

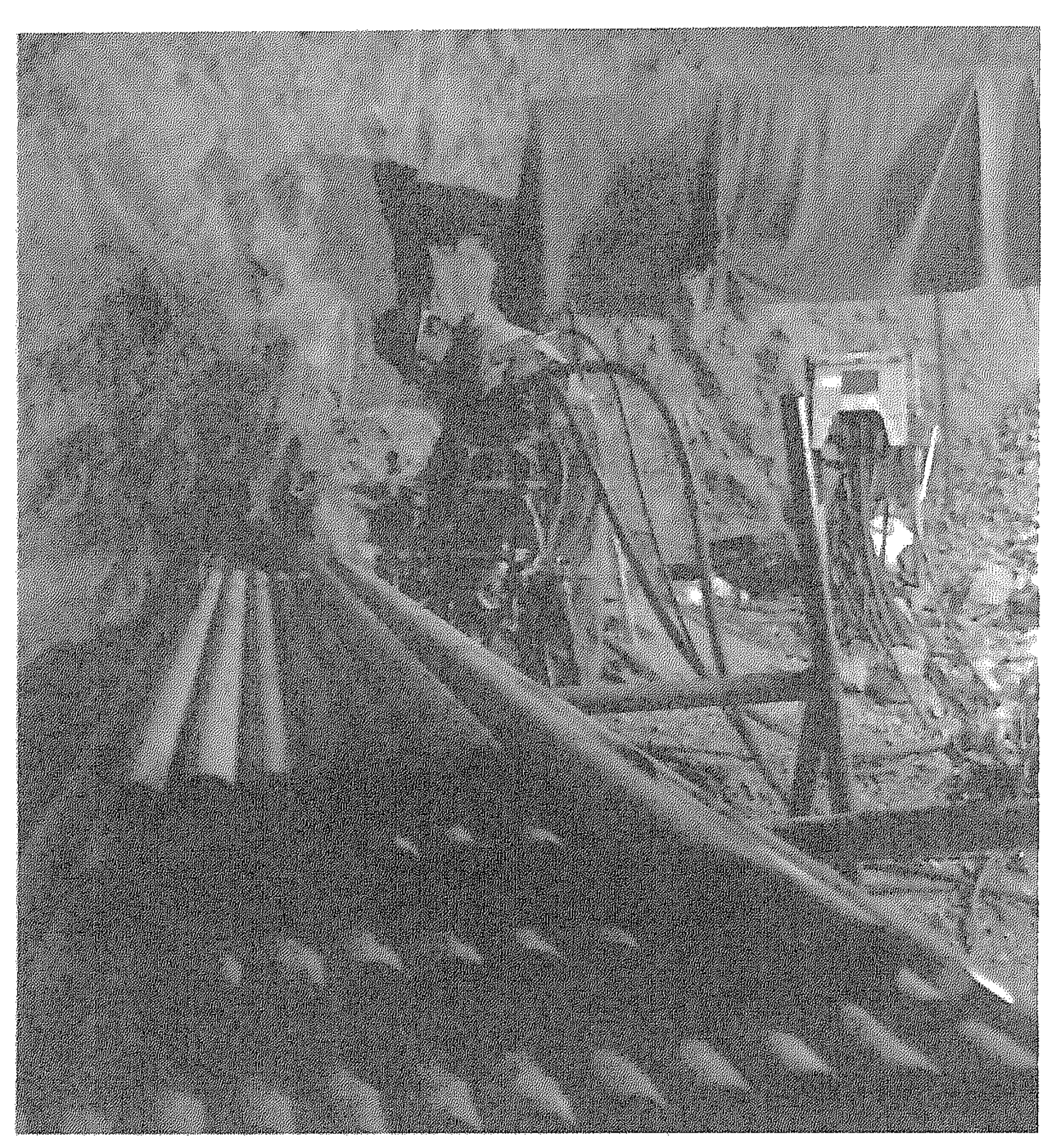
وتأسست هيئة المساحة الجيولوجية عام ١٨٩٦ ومصلحة المناجم والمحاجر المصرية عام ١٩٠٥ لتقوم بمتابعة النشاط التعدينى وذلك بعد أن ظهرت فى جميع أنحاء العالم، الدراسات العلمية التى تلقى الضوء على مناجم الذهب القديمة فى مصر وإمكانية إعادة تشغليها مرة أخرى.

رحلة البحث عن المرو

وادى البرامية يبعد عن مدينة مرسى علم حوالى ١٢٠ كيلو متراً

ويعتبر من أغنى بقاع مصر، فالبرامية اسم الجبل والوادى والمنجم فى آن واحد ويضم منجماً قديما لايزال يحوى كنوزا ذهبية تنتظر من يستخرجها ، وقد أعيد استغلاله فى عام ١٩٠٧، وكان يدار وقتها بالآلات البخارية ، ويحوى جيبا غنيا بالذهب الخام حتى أن الشركة التى كانت تستغله قدرته فى عام ١٩١٣ بحوالى الألف أوقيه من الذهب والتى يمكن فصلها ببساطة باليد المجردة، وهو الأمر المشجع والمربح.. ومن أهم ما يميز وادى البرامية أنه يحكى تاريخ التعدين فى مصر والعالم أجمع خاصة تعدين الذهب، بدءاً من رحلة التقاطه كحبات ذهب متناثرة على أسطح الصخور وحتى رحلة البحث عنه داخل عروق المرو «الكوارتز» الحجر الحامل لخام الذهب.

وهذا ما لفت نظر الإنسان الأول، الضوء اللامع بين حبات الرمال، ولكن مع ظهور الدولة القديمة بدأت عمليات تعدين الذهب تأخذ شكلها البسيط.. ويذكر لنا الدكتور محمد أبوبكر الهوارى المدير العام بهيئة المساحة الجيولوجية أن طرق البحث تطورت فلم تكن فتحة المنجم يتعدى عمقها من خمسة إلى عشرة أمتار ازدادت مع الوقت لتصل إلى ٥٠ أو ٦٠ مترا عمق.. خاصة خلال فترة الدولة الحديثة ، كما شهدت الأدوات المستخدمة فى استخراج الذهب تطوراً أيضا.. على سبيل المثال الشواكيش الحجرية التى تستخدم فى كسر الأحجار أصبح شكلها أكثر انسيابية يسهل الإمساك بها كذلك والطواحين التى تستخدم فى طحن فتات الأحجار الحاملة للذهب فكان المصرى القديم يستخدم الأدوات الحجرية كوسيلة للحفر أو الخوابير الخشبية المبللة بالماء وحشرها فى شقوق الحجر ثم تركها لتتمدد داخله لتفلقه وذلك لحفر أنفاق الدخول إلى المنجم، ويذكر أجاثاركيدس أقدم من كتب عن مناجم الذهب فى عام ١١٣ قبل الميلاد .. يقوم الحفارون بشق أنفاق متشعبه كجذور الأشجار يقطعون العروق البيضاء - المرو - ثم يفتتونها يطحنونها بالطواحين الحجرية الدائرة وتوضع على موائد ذات انحدار يصب فوقها الماء.. يخلط العجين فى بوتقة لعدة أجزاء من الرصاص والملح والفضة والشعير ثم توضع على النار مع خمسة أيام متصلة، بعدها يبرد الخليط فتظهر كتلة الذهب المنصهر.. وهذا ما رأيناه عند منجم الذهب بوادى البرامية ، بل شاهدنا عند سفح الجبل آلافا من الأوانى الحجرية والطواحين والرحى القديمة منحوتة من الصخور الرسوبية متراصة داخل أطلال قرية يطلقون عليها اسم «روض البرام» وهى مقر



الأدوات المستخدمة فى حفر المناجم

عمال ومهندسى التعدين.. ولذا سمى المكان كله باسمها «البرامية» وتضم الصحراء عددا من المواقع القديمة التى تضم بيوت العمال البعيدة عن طرق المواصلات مثال ذلك منطقة «دارة» غرب رأس غالب..

حواشى من الذهب

تركنا وادى البرامية حتى نتمكن من زيارة جبل السكرى انحرفنا عن الطريق الرئيسى باتجاه الصحراء إلى ما يزيد على ٤٠ كيلو مترا حتى بدأ سفح الجبل يتجلى أمامنا وسط سلسلة الجبال المتعاقبة .. تذكرت وصف الدكتور جمال حمدان بأن صحارينا «خرقة بالية حواشيها من الذهب»

الذهب حلية المرأة على مر الزمان



فتحت تلك القمة الشامخة - قمة جبل السكرى يكمن كنز أهم وأقدم مناجم الذهب فى مصر. أعيد استغلاله مرات عديدة، منذ عهد الفراعنة وحتى وقت الاحتلال الانجليزى ففى أوائل الثلاثينات من القرن الماضى، اعاد أحمد فؤاد الدرمللى تشغيل منجم السكرى خلال أعوام ١٩٢٩ ، ١٩٣٢ ، ولكن فى عام ١٩٣٣ قررت الحكومة المصرية الاحتفاظ به ومواصلة عملية الانتاج، فجهزت معدات المنجم وآلات الطحن والاستخلاص وتحول منجم السكرى إلى المنجم الحكومى والذى يغذيه بخامات المناجم الأخرى مثل أم الروس وأم عود والكردمان .. وانتقل موقع استخلاص الذهب إلى «مرسى علم» لتتحول المدينة من بعدها إلى قاعدة للخدمات وللبعثات الجيولوجية

خـريطة توضح مـواقع مناجم الذهب القـديمة فى مـصـر

والاستكشافية الحكومية.. واستمر انتاج المناجم الحكومية حتى بعد عام ١٩٥٢.

وعند أقـدام الجـبل تناثرت رمـال بيضـاء.. وعند سـؤالنا لأحد المشرفين على العـمل فى المنجم .. أكـد أن تلك الرمال البيضاء تحمل بين حباتها ذهبا تقـترب قـيمتـه من ١١ مليون جنيه.. وبرغم حلول الظلام اسـتطعنا زيارة منجم السكرى الذى تقوم باستثماره إحدى الشـركـات الأجنبـيـة .. العـمل مستمر طوال اليوم لا يتوقف، العينات التى يتم استخراجها من باطن الجبل تبشر بانتاج ضخم من الذهب.. يذكر لنا المهندس محمد فرغلى المسئول عن الموقع أن الدراسات الجيوستيتستك قدرت حجم الذهب المستخرج خلال المرحلة الأولى بحوالى ٢٠ ألف أوقية فى السنة، لكن بعد إجراء البحوث الميدانية وجدنا أن النسبة ارتفعت إلى حوالى ٨٠ ألف أوقية فى السنة ، كل

ذلك كمرحلة أولى فقط، مما شكل عائقا أمام مواصلة العمل - فكلما تعمقنا نجد أن انتاج السكرى يكون أكثر بكثير مما توقعناه.

لذا يعتبر جبل السكرى أغنى موقع للذهب داخل منطقة الصحراء الشرقية.. وكان الانتاج المصرى من الذهب قد وصل فى عام ١٩٥٧ إلى حوالى ٥٢٠ كيلو جراما فى السنة .. طبقا لإحصائيات هيئة المساحة الجيولوجية ، وفى أعقاب صدور قرارات التأميم ، وهجرت شركات التعدين الأجنبية التى كانت منتشرة فى الصحراء ونظراً لعدم وجود البديل المصرى تناقص الانتاج إلى حوالى ٥٧ كيلو جراما فى عام ١٩٥٨ ثم توقف تماما حتى يومنا هذا، أى أن مناجم مصر لاتزال تحوى كميات ذهب محفوظة تنتظر من يستخرجها.

فرص استثمار الذهب

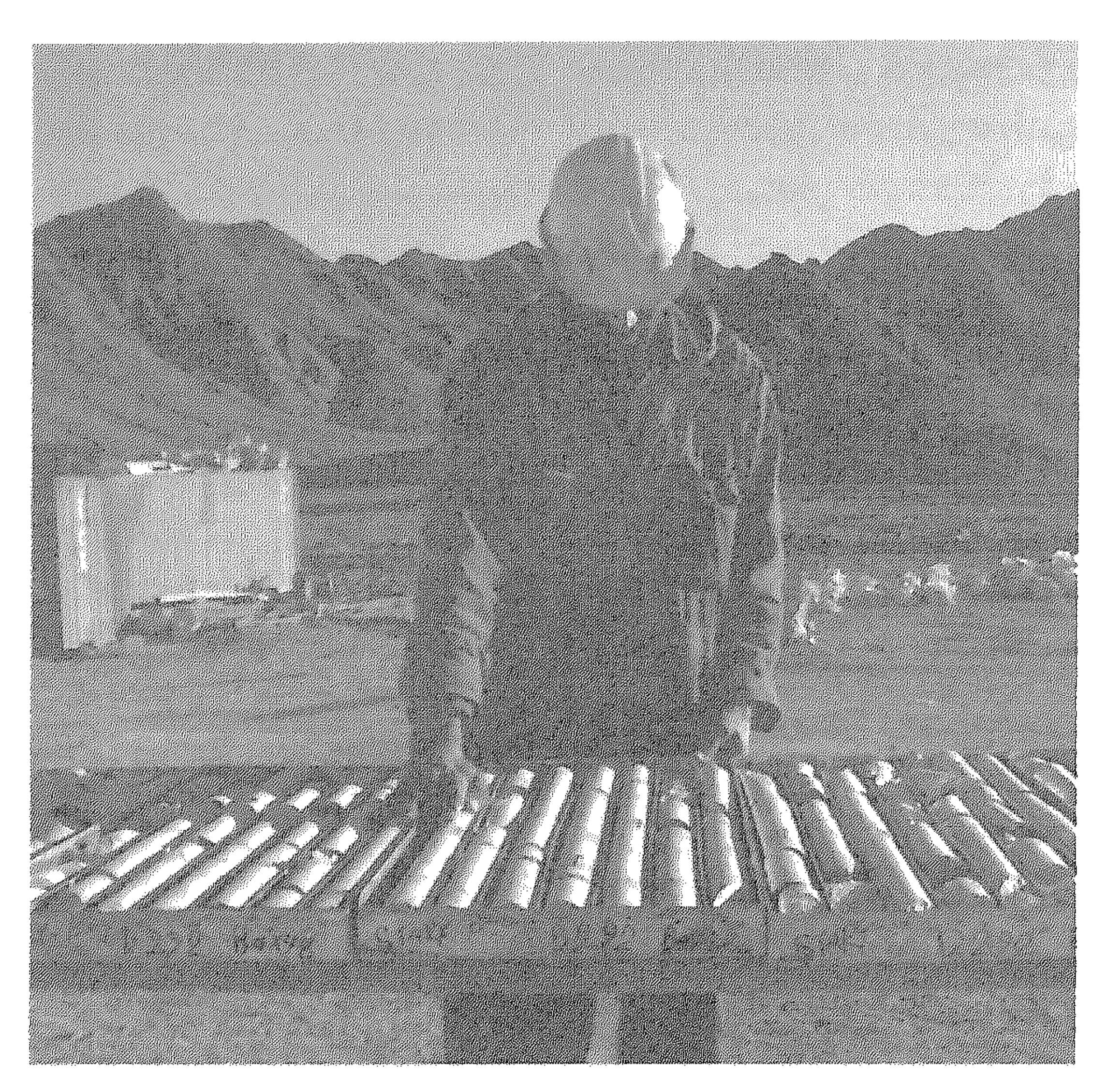
وكانت هيئة المساحة الجيولوجية قد عقدت اتفاقا مع جامعة «ميونخ» على مدى خمس سنوات حتى عام ١٩٨٩ بهدف دراسة واستكشاف جميع مناطق الذهب في مصر.. تمهيدا لطرح جميع المواقع التى تم اكتشاف الذهب بها للاستثمار أهم ما خلصت إليه الدراسات كما يذكر لنا د. «الهوارى» أنها أكدت حقيقة امتلاك مصر حوالى ١٢٠ منجم ذهب قديم يمكن استغلالها مرة أخرى

ويبرر بأن .. ضعف إمكانيات وقلة التكنولوجيا المتوافرة للمصرى القديم لم تمكنه سوى من استغلال الذهب الموجود على السطح فقط.. نظراً لصعوبة الدخول نحو أعماق كبيرة.. مما يبشر بكميات ذهب مخزونة بالداخل..

ومن ضمن الدراسات التى قام بها الجانبان دراسة الخصائص.

الجيولوجية والطبيعية والكيميائية والطيفية للصحارى وللصخور. ويوضح لنا الدكتور «الهوارى» «أن تلك الدراسات تكمن أهميتها فى التعرف على الخصائص المميزة للصخور الحاملة للذهب وبالتالى امكانية مقارنة صخور الأراضى المصرية كلها باستخدام الأقمار الصناعية والتوصل إلى مواقع الصخور الحاملة للذهب، وبالتالى إمكانية اكتشاف مناطق جديدة تحوى الذهب» وأكدت الدراسات أن مناطق البرامية والسكرى وأبو المروات وحمامة هى أكثرالأماكن تركيزاً للذهب.

ويقوم نظام الاستثمار على منح المستثمر حق امتياز لاستغلال أحد المناجم فيقوم بالبحث عن الخام أو المعدن ويتحمل خلالها جميع التكاليف. وبعد اكتشاف الذهب تتكون شراكة



عينات من الصخور الحاملة للذهب

مناصفة بين الهيئة والمستثمر طبقا لدرجة نقاء الخام داخل المنجم لقربه من مناطق العمران أو وجوده في مناطق نائية. على أن يسترد المستثمر تكاليف البحث خلال السنوات الثلاث الأولى في الانتاج.

أول خريطة للذهب

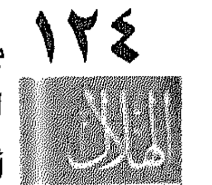
من أوائل من اهتم بإعادة اكتشاف مواطن الذهب بالصحراء الشرقية خلال العصر الحديث كان محمد على باشا. أرسل عام ١٨١٩ العالم الأثرى فورنى ومعه العالمان «يوركهارت» و«روبل» خاصة بعد تأثره بأعمال الحملة الفرنسية على مصر. فأرسل مبعوثه لمعرفة موارد الصحراء المصرية لتغذية نهضته الصناعية التي كان يحلم بإقامتها في مصر. كما استعان بعلماء من مختلف الجنسيات. مثل «كايو» أول

من وضع خريطة جيولوجية لجنوب الصحراء الشرقية عام ١٨٢٢. و«روسيجر» أول من رسم خريطة جيولوجية لمصر كلها.

وإن كان أقدم الخرائط لمواقع الذهب ترجع إلى عصر رمسيس الرابع (١١٥١ - ١١٤٥ق.م) حيث عثر عليها «دورڤيتى» أشهر الباحثين عن الآثار داخل مقبرة لعائلة «اميناخت بالأقصر. وهى عبارة عن لفائف بردى عليها رسم لخريطة توضح موقعاً لأحد مناجم الذهب وبعض المعالم الصحراوية وست طرق تحوطها الجبال وموقع لبيوت العمال ومعبد وبئر منقوش عليها إسم الملك «سيتى الأول» أطلقوا على البردية اسم تورين نظراً لتهريبها إلى متحف تورين بإيطاليا. وهى دليل على اهتمام المصريين القدماء بإقامة مكتبات للوثائق تكون ذات صلة بالمعالم الصحراوية وأنشطة التعدين فى مصر القديمة. تصاعد الاهتمام باكتشاف مواطن الذهب مع تزايد اكتشافات آثار قدماء المصريين فى أنحاء وادى النيل. وإن كان اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون وتابوته الذى وصل وزنه إلى ١٣٣ كيلو جرام من الذهب الخالص. مما صعد رغبات الشراء والبحث عن ذهب الفراعنة. ويكفينا ما كتبه ملك الميتان (جنوب بلاد ما بين النهرين) إلى صهر أمنحتب الثالث أحد ملوك الدولة الحديثة يرجو إرسال مزيد فى الذهب المصرى له فيقول له «أخى. أرجو أن تهدينى ذهباً كثيراً لا يحصى... أليس الذهب فى بلد آخر كتراب الأرض». بل إن المصريين القدماء اتخذوا من الذهب وحدة نقدية «الشعت» وزنها حوالى ٧.٥ جرام لتسهيل جبى ضرائب الدولة والتبادل التجارى. كل ذلك دفع الكثيرين إلى الحصول على تراخيص بحث وطلب عقود استغلال الذهب. مثل المهندس نوكس براون أول من قام بدراسة الجدوى الفنية والاقتصادية للقيام باستغلال مناطق الذهب أعقبه الثلاثى الفورد وفرانك وجونسون خلال عام ١٨٩٩ - ١٩٠٠. كما قام ليويلين بدراسات نشرت نتائجها التعدينية عام ١٩٠٣.

مدينة الذهب

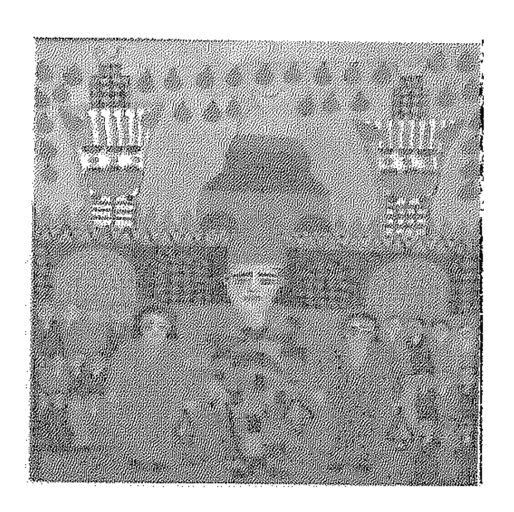
اتخذنا طريقنا نحو وادى أم الفواخير.. يقع فى منتصف الطريق ما بين مدينة القصير - قفط بالقرب من وادى الحمامات. اشتهرت المنطقة باسم مدينة الذهب. نظرا لكثرة مناجم الذهب بها وعلى مر التاريخ كانت تحوى تجمعات سكنية. عبارة عن منازل بسيطة ومشيدة من كسرات الجرانيت المتبقية فى المحاجر القديمة



مخصصة لسكنى العمال الذين يخدمون فى المناجم القديمة. توقفنا عند منجم الذهب القديم وعند سفحه أقام الاحتلال الانجليزى مصنعاً ضخماً لاستخراج الذهب من المنجم وتعدينه. وداخل المبنى والمنجم شاهدنا ماكينات المصنع التى لاتزال تحمل اسم بريطانيا العظمى، زرنا استراحة الكونت الانجليزى جون دى لافيزون، الذى كان يدير العمل فى المصنع، ولاتزال كنيسته الصغيرة تتصدر باب الدخول، وللأسف علا الصدأ جميع ماكينات المصنع بعد توقف العمل داخله منذ عام ١٩٦٨.

ويحكى لنا الدكتور محمد سميح عافية الجيولوجى بهيئة المساحة الجيولوجية فى كتابه عن تاريخ التعدين فى مصر. أن الكونت جون دى لافيزون اهتم بالاستفادة من نفايات التشغيل المتبقية فى العصر الفرعونى القديم والموجودة بالقرب من منجم الفواخير، وقام ببناء أحواض كبيرة أسمنتية لنقع تلك النفايات فى محلول «السيانيد» لاستخلاص الذهب منها مما حقق له أرباحا طائلة. وفى عام ١٩٤٣ نقل العمل إلى داخل المنجم وأقام بجواره طاحونة صغيرة. وفى عام ١٩٤٧ أقام آلات ومعدات طحن للخام وإذابته وتجميعه وتنقيته وصبه، وصل إنتاج مصنعه خلال العام الواحد من ٧ - ١٢ ألف طن من الذهب الخام المستخرج من منجم أم الفواخير.

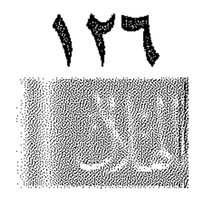
وخلال فترة الخمسينات من القرن الماضى شهدت الصحراء الشرقية ثلاثة من صغار المشتغلين فى مجال استخراج الذهب وتعدينه هم عبد الملك بك حمزة/ لبيب نسيم/بنايوتى سرباكيس. وعاماً بعد عام بدأ الإنتاج المصرى توقف تماما وبرغم محاولات الاستثمار الموجودة حاليا حيث تقوم ثلاث شركات أجنبية (بريطانية ، أمريكية ، أسترالية) فى مناطق أبو المروات وحمامة وحميش والسكرى إلا أن الصحراء الشرقية حتى الآن لم تشهد استخراج جرام ذهب واحد من جبالها ومناجمها. فكأن الشركات الموجودة تقوم بأعمال الاستكشاف والبحث دون اتخاذ الخطوات اللازمة للقيام باستخراج وتعدين الذهب. لذا فإن صحراءنا لاتزال تنتظر استثماراً حقيقيا لمناجم الذهب الذى فاق عددها المئة منجم واستغلالها حتى تستعيد مصر مكانتها كمصدرلخام الذهب. الأمر الذى سيعود علينا جميعا بالفائدة !! ■



الفنان محمد على
يزركش نفسه تلقائيا

صافى ناز كاظم

لم ألتق به منذ مدة طويلة. يهاتفني من حين لآخر لمعايدة وسلام. ترك لى رسالة يشكو من معد لبرنامج تليفزيونى أخذ منه أشرطة مسجلة لتراث الشيخ إمام على سبيل الإعارة ولم يردها. ضحكت من صوته الهادئ الذى لا يتناسب مع صياغته للشكوى. قلت له: «يا محمد ستظل هكذا مسروقا دائماً ولا تتعلم؟». بلا اهتمام قال: «ح أعمل إيه». جاء يزورنى لأرى صور لوحاته، آخر إنتاجه في فنه الرسم التلقائى صعد معه البواب متوجسا حتى باب شقتى، وما أن سمع ترحيبى: «أهلاااان يا محمد» حتى اختفى توجس البواب وتضاربت على وجهه، وهو ينصرف، تعبيرات الدهشة مع التعجب مع العجز الكامل عن تفسير حالة «محمد على»



قلل وقباب وعرائس فى تكوينات زخرفية متداخلة في مسامرات الحى الشعبى

كان الفنان «محمد على» قد بدا بملابسه وهيئته مزركشا زركشة تلقائية خليقة بأن يظنه من يجهله مجنونا أو مجذوبا فى أفضل الظنون. يرتكز على عصاه، مع البنطلون والسترة الجينز الفضفاضة ولونهما الأزرق الكالح، بدت تحت السترة أطراف متعددة الألوان، بين البمبى والبنفسجى والأخضر، لملابس كدسها فوقه لتقيه برد يوم السبت ٢٤ طوبة الموافق أول فبراير ٢٠٠٣، ووضع على رأسه طاقية مغربية جوخ حمراء طربوشية فاقعة الاحمرار تاركا شعره الأبيض من تحتها مسترسلاً طويلا، وعلى كتفه تعلقت حقيبة كبيرة سوداء بالغة الأناقة، تلك التى أخرج لى منها صور لوحاته التى مازالت تدور حول جلسته مع الشيخ إمام والشاعر نجم، وأهل حارته، وحجر رصف الطريق، وزخارف الشبابيك والقباب والمآذن والألوان الزاعقة الصاخبة يكسرها ثم يعقلها اللون الأزرق.

قلت: «قهوة يا محمد»؟

قال: «طيب».

قلت: «أو تفضل الشاى»؟

قال: «طيب».

قلت: «القهوة تركى أم نسكافيه»؟

قال: أى حاجة

قلت: باللبن؟

قال: «أى حاجة»

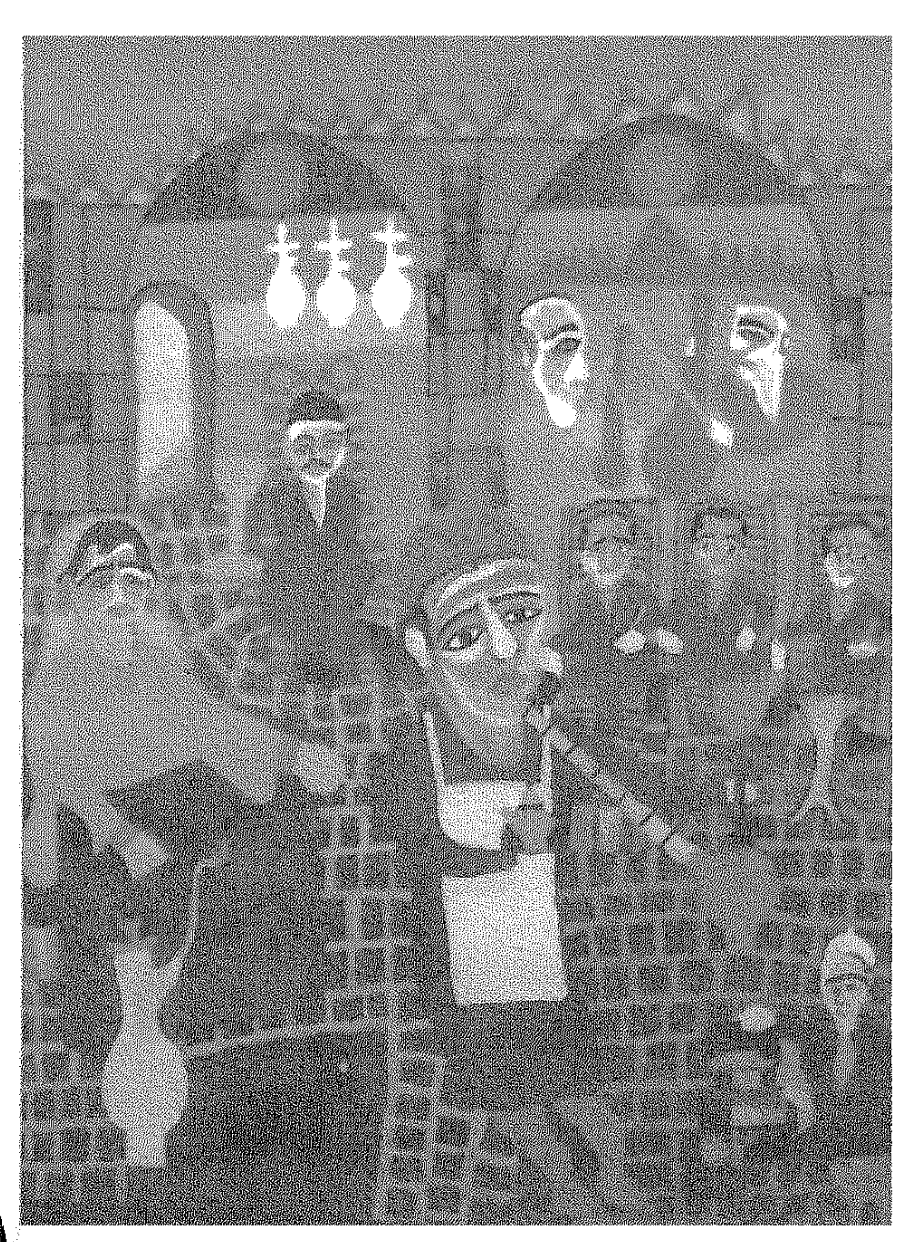
قلت: «ما رأيك أحضر غداء؟»

قال: «ولا حاجة»

كل إجاباته تأتى بهدوء وبلا اهتمام فالأمور عنده متساوية وضعت أمامه كوب القهوة باللبن والسكر الزائد حسب تقديرى لما يمكن أن تكون رغبته، مدركة أنه من الصعب تحديد رغبة من لم تعد لديه رغبة فى شئ.

* * *

محمد على مولود فى مايو ١٩٣٠. يسكن حالياً فى درب المقشات عند جامع الصالح طلائع عند باب زويلة بعد أن تهدم منزله العريق فى حارة «حوش قدم» المتفرعة من شارع «حوش قدم» المتفرع من شارع «الغورية». ولد وعاش وتغيرت به الأحوال وتبدلت معه الحرف، لكنه فى كل هذا لم يخرج عن عالم «الغورية». كان صائغاً حتى تعرف على الشيخ إمام عيسى، رحمه الله، ثم أصبح واحدا من ثلاثى فرقه «الكيان الفنى إمام – نجم». لم يتعلم القراءة أو الكتابة إلا رسم توقيع اسمه «محمد على». كان يمثل «بطانة» الشيخ إمام يأخذ بيده فى المشاوير، ويرتب له احتياجاته ويرعاه ويستضيف الجميع فى بيته، المكون من غرفة معيشة وغرفة نوم صغيرة جداً، ويحفظ ألحانه ويردد وراءه المقاطع المطلوب ترديدها مع الكورس. كان الشيخ إمام يشهد له بأذن موسيقية دقيقة تجيد «النشان» على «المقام» الموسيقى. يتحدث الشيخ إمام، يتكلم الشاعر أحمد فؤاد نجم ويصول ويجول مع الضيوف والمستمعين، ويظل «محمد على» صامتا معظم الوقت إلا فى



ايحاءات المقهى عند الفنان التلقائى

المقتضب مثل «تشرب شاى» و«اتفضل» وتبقى لديه وسط الضجيج ابتسامة لا تفارق عينيه كأنه على وشك الانفجار بضحكة ساخرة. حين التقيت به أول مرة عام ١٩٧٢، فى إطار «إمام - نجم»، كان فى الثانية والأربعين ووصفته بقولى «طفل» و«عجوز» مثل «الغورية» التى أنجبته ونشأته وعلمته وألهمته: مثلها «عجوز طفل» و«طفل عجوز». حين عرف الغناء والموسيقى عرف معهما الألوان والفرشاة فأصبح الرسم قراءته وكتابته وحديث صمته الطويل الدائم. لا يعرف الحماس إلا عندما يؤكد أنه حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى قبل توبته عن المعاصى التى تمنى أن تغسلها عنه فريضة الحج التى أداها منذ أربع سنوات، والتزامه بالصلاة فى مواقيتها فى جامع الصالح طلائع جار بيته الآن.

صنفه النقاد تحت لافتة «الفنان التلقائى»، ولكنى اخترت له «فنان النبض الشعبى» لأنه نهل من النبع الأصلى مباشرة بلا واسطة، فهو فى موقع ومن موقع التماس البكر مع رؤية الشعبيين

ونبضهم، وهذا هو الإنجاز الباهر الذى حققه «محمد على» فى تعبيره الفنى بلا جهد أو اصطناع لأنه كان «تماسا» حميما مع تكوينات نفسه وعينه وذاته. لوحاته الكثيرة كلها رجال ونساء وأطفال تعكس التعب والمشقة والقهر والصبر ولا عجب، فهى وجوه سواد الشعب المصرى المتعب العامل دأبا فى احتمال ونكتة تحت طحن الرحى. مع التعب والشقاء المنعكسين بإلحاح فى لوحاته، لا تجد اليأس أبداً، فالطفل والعجوز داخله يدركان بالبراءة والخبرة أن «دوام الحال من المحال» و«إن مع العسر يسرا»، لذلك تجد الفنان «محمد على» وقد أغرق لوحاته بالألوان الجياشة المرحة التى تحمل فى مرحها - «مثل ألوان ثيابه» - الفرح والشجن متلازمين.

* * *

سألته وهو يرشف قهوته: «ما أخبار الفنان محمود اللبان؟» قال: «مااات». قلت: «وما أخبار بيت الشيخ إمام؟» قال: «مش عارف» قلت: «أخته لاتزال تسكن فيه»؟ قال: «ماااتت». قلت: «أنا زرت حوش قدم وشفت أنقاض بيتكم القديم وقابلت صاحب القهوة جاركم حسن بطنجها..»قال: «مااااات».

كل مرة يخبرنى فيها بموت أحد ترتسم على وجهه ابتسامة متسعة «تتزأطط» فيها نظرة عينيه كأنه يعلن عن نيل المتوفى لجائزة «اكسب المليون» و«عقبال أملتك»!

ما كل هذه البشاشة مع سيرة الموت يا محمد؟

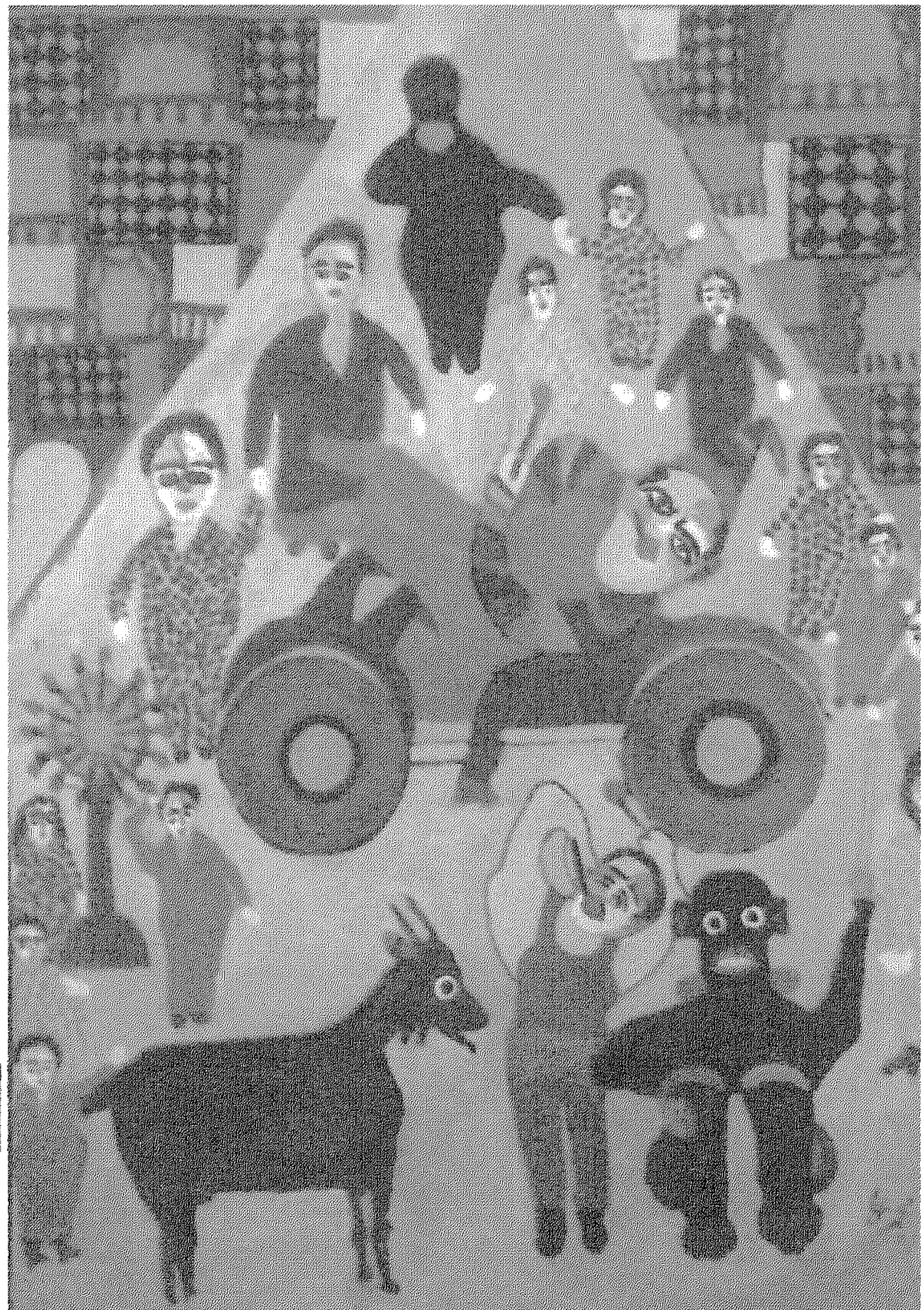
سعل ضاحكا، أو ضحك سعالاً وهو ينظر فى اغتباط أمامه إلى الأفق وراء زجاج النافذة. ثم استطرد: «محمود اللبان مات صباح حصوله على قرار منحة التفرغ». بعد قوله هذا ظل يهز رأسه بما يمكن أن يكون تعجبا من المفارقة أو أسفا لتأخر صدور القرار حتى مات محمود اللبان. ثم أردف بابتسامة واسعة:

«أنا مخدتش منحة تفرغ». قلت: «هل قدمت ؟».

كرر: «مخدتش تفرغ». لماذا تبدو السعادة كلها على وجهك يا محمد كلما ذكرت خبرا مؤسفا؟ هل أنت مسرور لأن توقعاتك كلها جاءت فى محلها؟

بادرته: «هل استطعت أن تبيع فى معرضك الأخير؟».

قال برضاء: «مابعتش حاجة.. أصل كل اللوحات كانت كبيرة... متر وعشرين فى تمانين.. سناء البيسى أخذت واحدة لمجلتها وأعطتنى ثمنها، ونوّار أخد تلات لوحات بس ماصرفتش... بتوع المقتنيات قالوا السنة الجاية الصرف.»، بعد قوله هذا انتابته حالة ولم أستطع أن أعرف هل كانت قهقهة عالية أم نوبة سعال حادة لرجل يخطو نحو الثالثة والسبعين! ■



فطرية التعبير والتكوين في تصوير السيرك

نبض الحياة

في عروق الحركة الفنية

بقلم
عز الدين نجيب

تواصل الحركة الفنية في مصر نبضها عبر مستويات إبداعية متتابعة من الشهيق والزفير، وهى تتنوع بين الخبرات التجريبية المستعادة من مسيرة الرحلة الممتدة للفنان متضمنة تجارب الشكل المتلاقحة مع النماذج التراثية والغربية معا، مثلما نرى فى المعرض البانورامى لرحلة الدكتور صالح رضا، وبين خبرة الاستبطان الشعرى السريالى المكثف، مثلما نرى فى أعمال الفنان المغترب أحمد مرسى، وبين حالة التكثيف الرومانسى المستلهم من تراث العمارة الإسلامية والشرقية مثلما نجد فى أعمال الفنانة وسام فهمى ، وبين فن الموقف السياسى الذى يقارب الشهادة المعبرة عن ضمير الفنان فى مواجهة الهيمنة الغاشمة للقوة العظمى التى تهدد العالم بالخراب والفوضي، مثلما نجد فى معرض الفنان عبدالرحيم شاهين .. إلى أن نصل إلى تجربة العزف بضوء الشمس فى إيقاعية صداحة ودافئة عبر مفردات الحياة اليومية من خلال معرض الفنان علي عزام. وتلك شهادات على اتساع مساحة الخصوبة والتدفق الابداعى فى عروق الحركة الفنية المصرية، تحمل إرهاصا بالخروج من خندق العزلة والرتابة الذى تقوقعت فيه طويلا.



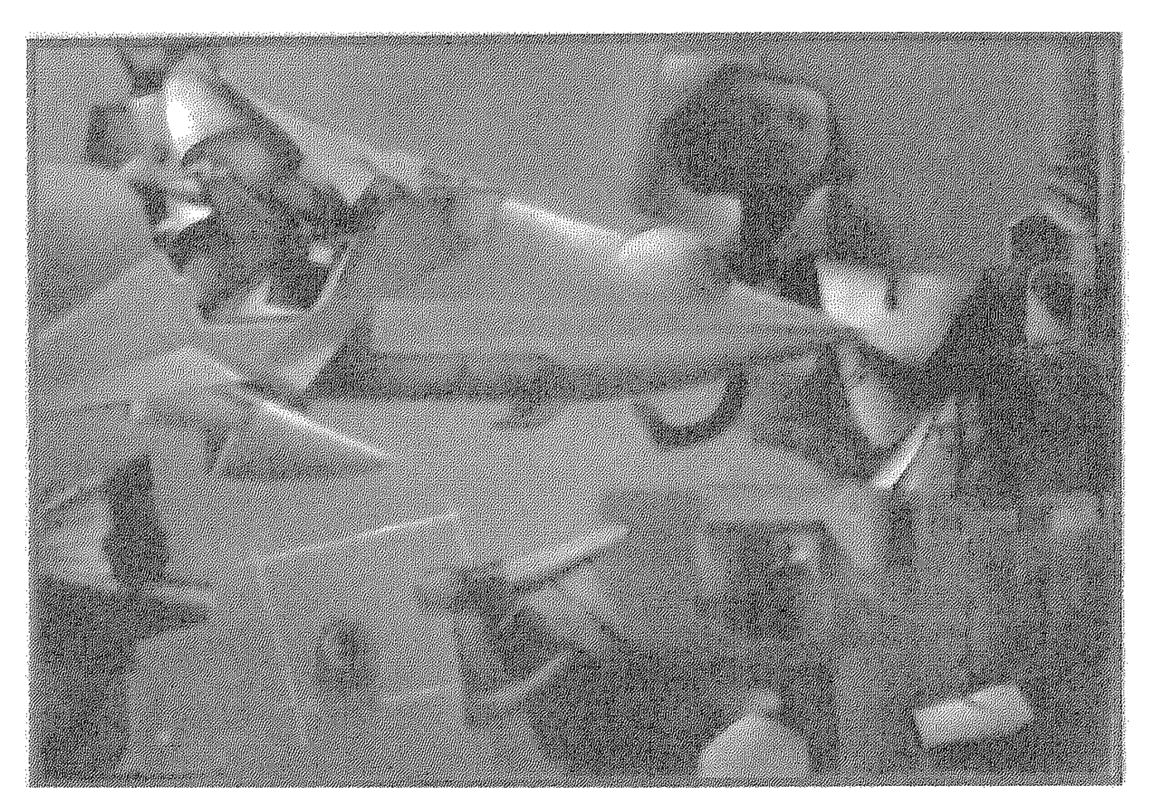
بورتريه إنسان ومدينة - وسام فهمي

صالح رضا
بين الأصالة والحداثة

لاتكاد الأجيال الجديدة تعرف من إبداعات الفنان صالح رضا إلا مرحلته التجريدية فى النحت، التى تمتد منذ أواخر الستينيات، وهى مرحلة يغلب عليها مايمكن أن نسميه : تفجير الطاقة فى الفضاء ويتم ذلك من خلال منظومة جمالية معاكسة لقوانين النحت الكلاسيكى، المرتكزة على قاعدة الرسوخ والتوازن للكتلة الهرمية أو العمودية، فيما نجد منظومته الجمالية تلاحق منجزات الحداثة الصناعية والتكنولوجية فى الغرب المعاصر، بعد أن يقلب موازين الكتلة بجعلها ترتكز على محور دقيق، ثم يتضاعف حجمها كلما ارتفع التمثال فى الفضاء بمتوالية هندسية، وهى منظومة تعكس حالة من التشكل البصرى للأجسام بديناميكية النمو الذاتى وفق ذبذبات تنبع من قوة الدفع الكامنة فيها، ولا علاقة لها بالواقع الخارجى، لكنها لاتجد مكنونها من المعنى الدلالى الذى يقبل الاتفاق عليه، إلا بمفهوم النظريات الهندسية عن تنامى الطاقة بقوة الحركة الميكانيكية مع سرعة الانطلاق، ويتشابه الفنان فى ذلك مع كثير من فنانى الحداثة فى الغرب، حتى تبدو أعماله أحيانا وكأنها اعادة انتاج لأساليب غربية بحتة تفتقد الروح المصرية.. وقد أثارت هذه المعرفة بإنجاز صالح رضا لدى الأجيال الجديدة من الفنانين والمتذوقين حالة من الالتباس والتناقض بين ما يرونه من اغتراب ابداعه وبين ما يتابعونه من آرائه حول فكرة الشخصية المصرية فى الفن.

لذلك جاء المعرض البانورامى الشامل لرحلة ابداع صالح رضا على امتداد نصف قرن، والذى أقيم أولا بالإسكندرية ثم انتقل إلى القاهرة بقصر الفنون فى الشهر الماضى، ليحاول ازالة هذا التناقض. فقد تعرفنا على بداياته الأولى التى آفصحت عن انشغاله العميق بالواقع الاجتماعى والسياسى من ناحية وبالتراث المصرى من ناحية أخرى. ويتجلى ذلك بشكل خاص فى مرحلة الخمسينيات. مصاحبا لحالة المد الثورى الاجتماعى لفترة النظام الناصرى ، لاسيما من خلال لوحاته الزيتية المعبرة عن واقع الطبقات المسحوقة والكادحة صاحبة المصلحة الحقيقية فى الثورة، بنزعة تعبيرية ومأساوية خطابية ينبع أسلوبها من عباءات الجماعات الثورية فى الأربعينيات مثل الفن والحرية (ويمثلها الفنانون رمسيس يونان وفؤاد كامل والتلمسانى» والفن الحديث (أمثال عويس ودواد عزيز ويوسف سيده وسعد الخادم) ، كما يستمد طابعها المستلهم من التراث من عباءة جماعة الفن المعاصر (على ايدى الجزار وحامد ندا وغيرهما) .. وكذلك استمده من رؤى فنانين آخرين أمثال السجينى وعبدالرسول .. وتم هذا التأثر بشقيه فى خضم موجة جديدة صاعدة من الفنانين الشباب من ابناء جيله امثال عمر النجدى واحمد عبدالوهاب وكمال خليفة .. وتتجلى محاولاته الأولى من خلال وسائط مختلفة كالنحت والتصوير والحفر والخزف والكولاج .

لكن المتأمل تجربته الممتدة التى يضمها المعرض يلاحظ أن تلك المرحلة



محاولة أخرى للقتل - د. عبد الرحيم شاهين

بشقيها الدراماتيكي والفلكلوري - تتسم بالطابع الاستعاري من مختلف المنابع المشار اليها اكثر مما تتسم بالابتكار المتفرد، سواء في مجال الأعمال التعبيرية السياسية بلهجة خطابية زاعقة ، أو في مجال الاستلهام من عناصر التراث، بل تبدو معالجاته لعناصر الفلكلور (خاصة عروسة المولد والعمارة الفطرية) في أوضاع جامدة، وكأنها تأبيد للسكون أو تمائم او طواطم مقولبة أقرب الى الرموز القبائلية، على عكس ما استقر عليه منهجه التشكيلي والتعبيري بعد اكتمال نضجه الفني.

فيما نلاحظ ان الهاجس التجريبي والتجريدي هو الاكثر عمقا واصالة على مدار رحلته الممتدة، حيث لا يعنيه فيها الجمال الوصفي والتمثيل لعناصر الطبيعة، ولا تعنيه فيها الرسالة الفكرية او السياسية المتجهة من صلب العمل الفني الى وعي المتلقي، بقدر ما يعنيني فيها تفجير الشكل البنائي والطاقة الكامنة فيه من منظور ذهني مجرد، وصولا الى الحرية المطلقة، وبقدر ما يعنيه تحقيق البنية الشكلية البصرية المتفاعلة في المكان (وان بدت خارج الزمان) سعيا الى اعلان حالة صدامية مع الذوق التقليدي، والى خلق منظومة جمالية تقتفي أثر - وقد تحاور بندية أحيانا - منجزات الفن الحديث في الغرب، بدءا من ابداعات هنرى وبيكاسو وارميتاج، حتى تجارب ما بعد الحداثة..

ويبقى الاصيل والثورى عند صالح رضا هو حالة التمرد الدائمة، التي تتمثل في ولعه بالتجريب بالخامات المختلفة حتى الاستعراض المبهر بالتقنية، كما تتمثل في انتقالاته الفجائية

من وسيط الى آخر، برؤى حداثية مثيرة للجدل .

بورتريه مدينة

هذا هو عنوان المعرض الذى اقامته الفنانة وسام فهمى الشهر الماضى بقاعة المركز المصرى للتعاون الثقافى الدولى بالقاهرة، متضمنا مجموعة اشبه بالمنمنمات الفارسية او الهندية المتماوجة بالقصور والقلاع والقباب والأقواس والجوامع والمآذن والبوابات والنوافذ والمدرجات والحدائق، وكأنها صفحات من كتاب الف ليلة وليلة، شغلتها يد الفنانة برقة بالغة كما لو كانت منسوجة بإبر الكروشيه وليس بفرشاة وألوان زيتية او أكريليك.

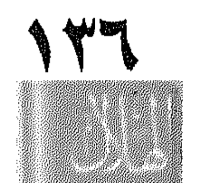
غير أن طموح وسام عبر العديد من معارضها السابقة وحتى الآن، يتجاوز هذا المعنى الأدبى، ويتطلع الى خلق نسيج تجريدى عبر شرائح لونية تتحاور وتتقاطع وتتعامد افقيا ورأسيا الى مالانهاية ، وربما تقودها السليقة الى احالة الجمادات فى الطبيعة الى كائنات حية متفاعلة كأعضاء الجسد لا تخلو من تكورات انثوية او ايماءات ذكورية.. موحية بتفجر الحياة والخصوبة.. وقد تقبل ـ على النقيض من ذلك - التأويل نحو ايحاءات روحانية تتردد فيها اصداء الذكر واصوات الأذان، لكنها فى جميع الأحوال اقرب الى معزوفات شرقية عذبة، صداحة بنعومة الوتريات حينا، وبرنين النحاسيات حينا آخر، وبدوى الطبول حينا ثالثا .

غير أن وسام لم تكتف بعرض تلك اللوحات عن مدينتها الخيالية، بل أضافت اليها مجموعة من الوجوه الواقعية لنسوة ورجال تعايشت معهم عبر سنين العمر، ينتمى اغلبهم الى اصول شعبية ونوبية، وقد لفحت الشمس وجوههم فأحالتها الى لون برونزى متوهج، وعكست ملامح النسوة خاصة ذلك الحس الاستوائى البدائى الذى يذكرنا بنساء جوجان فى جزر تاهيتى، وقد أحاطتهن ـ كما أحاطهم جوجان - برموز من السحر وعناصر من الاثاث والمفروشات ومن الألوان البنية والطينية والزرقاء ، ما اضفى عليهن الروح المصرية الصميمة. وبرغم قدم الزمن على هذه المجموعة من الوجوه، وبرغم أسلوبها الواقعى المباشر، فان المرء لا يستطيع مقاومة سحرها وجاذبيتها، ربما فاقت فى ذلك لوحات مدينتها السحرية.. لماذا؟.. هل يكمن السبب فى الفرق بين الخيال الرومانسى المحلق وبين دفء الصدق على ارض الواقع؟.. أم أنه يكمن فى درجة التفرد فى كل بورتريه عن الآخر، فيما يصعب التمييز بين لوحات المدينة التى تتشابه كوجوه الصينيين.؟..

لكن تلك مسألة نسبية على أية حال، لأنها تتعلق بالذوق.. الذى يختلف من مستقبل الى آخر .

الفن موقف .. ولكن ..

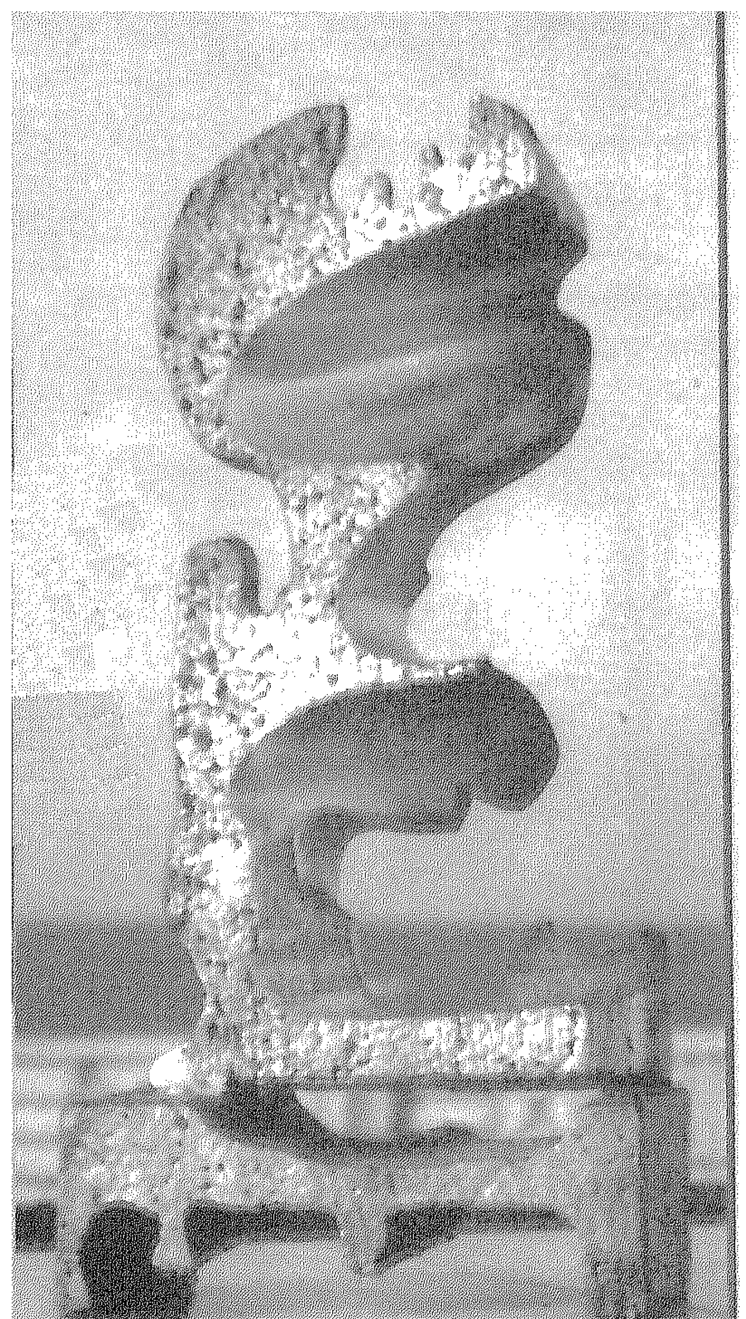
تتميز الاتجاهات السريالية والميتافيزيقية فى الفن بدرجة مكثفة من الغموض وتعدد التأويلات ومداخل الرؤية لأعمالها، لكونها تنبع من حس جوانى



مـركب فى أعـمـاق الفنان، أو من حس تأملى للوجـود والكون، يتـجـاوز الحـدود المعـرفـية المتـعـارف عليـها بين البـشـر، ويصبح الحدس والشفافية الخاصة لدى المتلقى هما مدخله الاساسى للتواصل مع هذه الأعـمـال، ومن ثم تخـتـلف مستويات التلقى لها . ويعد ذلك عامل ثراء لمثل هذه الأعـمـال بقـدر التـأويلات المخـتلفـة بل والمتناقـضة أحـيانا تبـعا لمنظور كل مشاهد .

كان ذلك هو ما يميز أعمال الفنان عـبـدالرحـيم شـاهين فى مـعـرضـيـه السـابقين فى العـامين الماضيين، حيث طرح من خـلالهـمـا هـمـومـا وجـودية للانسـان فى عـالم كـابوس خـانق يعكس معـانى وارهـاصات مـتعددة، بأداء فنى يتـخـذ سمـة الكلاسـيكيـة التى تتـلاعب بالضـوء وهو ينبـجس من كـتل الظلام، لكن بغير التزام بقيم الثبات والتوازن والمثـاليـة فى تصـوير الانسـان وتمركـزه كمحور للوحة.

لكنه فى مـعـرضـه الأخـير بأتيليه القـاهرة الشـهـر الماضى يسـعى الى تأسيس مساحة أكبر من الاتفاق بينه وبين الجمهور حول قاعدة فكرية محددة، تعكس ما آلت اليه شئون الحياة فى هذه اللحظة التـاريخـيـة الفـارقـة، الممزقة بالعنف والعـدوان، والمهـددة بالحـرب والدمـار لشـعـوبنا العـربيـة بل وللعـالم اجـمـع، على يد القـوة العظمى الوحـيدة المهيمنة بقـانون الغـاب وقد باتت تتسيد العـالم بجنون لا راد له، وتدفع به دفـعـا نحو هوة الدمار والفوضى، انه – اذن ـ

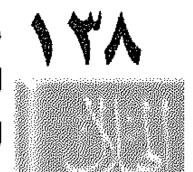


عروس النيل –صالح رضا

يحـاول أن يتـخطى الهم الجـمـالى التجريبى، والتأمل الوجودى الميتافيزيقى الذى يعبر عن الإنسان كقيمة شمولية مجردة فى أى زمان وأى مكان، إلى نوع من الخطاب السيـاسـى المباشـر، فى محاولة لاتخاذ موقف إيجابى ضد هذا الوضع التاريخى المهين للبشرية محددا فى مكان بعينه وزمان بعينه، وهـذا أمر مشروع ومستحب يؤكد مصداقية الدور

الطليعى للفنان بوقوفه ضد القهر والهمجية، وسعيه إلى تعبئة الشعور الجمعي إلى جانب قوى المقاومة للعدوان، وتاريخ الفن العالمى ملىء بالشواهد المضيئة لأعمال الفنانين التى باتت رموزا حية للنضال الإنساني وللدفاع عن قيم الحضارة والحرية.

وفى هذا المعرض تتعدد رؤى التعبير عن ظواهر القهر والعدوان والخنق والاغتصاب والصلب والتمزيق، وهى وإن لم تتخذ سمات واضحة تدل على أشكال ووسائل معينة لهذه الظواهر الإرهابية، فإنها لم تخل من إشارات غامضة تومىء إلى القوة المدججة بالعتاد الحربى والحصار العسكرى، ومع ذلك فقد عمل الفنان على تغليف كل ذلك بهالات من الظلام تخفى أكثر مما تفصح، بل يصل فى بعض لوحاته الزيتية إلى مشارف التجريد، وفى بعضها الآخر يستخرج من الذاكرة الجمعية عددا من الرموز الدلالية كالحيوانات والحشرات والأسماك والوجوه المذهولة أو المملوءة بالرعب، أو يستحضر نماذج من النسوة الحوامل المهددات بالإجهاض، أو المساقات إلى مصير التهتك والسقوط.



إنه معرض يشبه الشهادة على العصر، يدلى بها ضمير فنان معذب بمصير مظلم للبشرية، غير أنها شهادة ملتبسة بنزعة التجريب التقنى الذى أفقد المعرض وحدته الأسلوبية، فتعددت الأساليب وتفاوتت فيما بينها المستويات والنبرات بين الخطابية والغموض، الذى تتوه من خلاله الرؤية ويحول دون وصول الرسالة المنشودة.. وتلك إشكالية كثيرا ما يقع فيها الفنان حين يكون الموقف الذى يتخذه بشأن قضية ما: قرارا مسبقا قبل أن تنضج التجربة وتصل إلى الوحدة العضوية بين الشكل والمضمون لمجمل لوحات المعرض، وليس ذلك من قبيل الترف الجمالى فى غير زمانه، وموضعه كما قد يتصور البعض، بل هو فى الحقيقة جوهر الإبداع الفنى الذى تؤكده مسيرة الأعمال العظيمة على مر التاريخ.

معزوفات الضوء

بزغ إبداع الفنان على عزام فى العامين الأخيرين بقوة لافتة، بعد ان غاب عن الساحة الفنية سنوات طويلة خلال عمله خارج البلاد، ويبدو انها كانت فترة كمون واختزان لخبرات تقنية نضجت على مهل، حتى جاء معرضه الأخير .. بمجمع الفنون الشهر الماضى إضافة ساطعة إلى رصيده الفنى تنقله من مستوى الهواية إلى مستوى الاحتراف والتميز.

إن عزام ابن مخلص لتراث الواقعية المصرية، التى تتخذ من الطبيعة والإنسان ومفردات الحياة اليومية فى محيطها البيئى والأنثروبولوجى مصدرها المباشر، بدءا من تجارب جيل الرواد الأوائل فى مطلع القرن الماضى حتى تجربة الفنان حسن سليمان التى تركت بصمات واضحة على خبرة على عزام.

ويقوم الضوء فى لوحاته الزيتية بدور البطولة، وهو ضوء شمس يبلغ درجة الوهج ويوحى بطبيعة مصر التى تختزل



الحصاد - على عـزام

فيها الألوان إلى أقل حد، مؤكدا تباينا شديد القوة بين الضوء والظل، ما يصنع حوارية ثنائية الأطراف صاخبة الإيقاع مدوية الصدى، لا مجال فيها للذبذبات النغمية والهمهمات اللونية الزائدة عن الحاجة ، حتى تصل إلى مستوى البلاغة للكتلة النحتية، لكن كلا من مساحات الضوء ومساحات الظل تكتنز طبقات كامنة من الدرجات البينية التى تعكس ألوان الأرض والطمى والنيل والنخيل والمحاصيل المشعة كالذهب والقلوع الفضية على سطح الماء والخيول الجامحة فى اندفاع السباق.

هكذا تتماهى قيم الشكل والمضمون فى نسيج عضوى لا ينفصم، وتتوحد الطاقة التعبيرية والحركة التشريحية للإنسان والحيوان، والوسائل المستخدمة فى حياة الناس كالمراكب وعربات الباعة الجائلين وأزياء الفلاحين والنسوة فى الأحياء الشعبية ومشاهد العمل فى الحصاد والانتظار على الشاطئ، محققه إيقاعا بصريا سريعا ومتدفقا، وإن غلبت عليه فى كثير من الأحيان طبيعة اللقطة الفوتوغرافية الموقوتة فى موقف خاطف يجتزأ من السياق الكلى للحياة ، ما يقلل من شمولية التعبير عن طبيعة الجمال الفنى التى تختلف عن طبيعة الجمال الواقعى بما يحمله من تسجيل مباشر لما تراه العين.

لكن المعرض لم يخل من أعمال تجاوزت هذه النظرة الجزئية التسجيلية، خاصة لوحات الخيول المندفعة والحصاد والانتظار فى الشرفة، وهو ما يبشر بانطلاق الفنان نحو آفاق تعبيرية وبناء جمالى مركب. ■





شاعر تشكيلي

بقلم

ادوار الخراط



منذ بداياته المبكرة فى مطالع الخمسينيات كانت حدود فن أحمد مرسى، فى نهاية التحليل، هى اللون، والمساحة: الحدود المثلى للفنان الذى أداته الفرشاة واللوحة، مهما قيل عن «الرمزية» عنده. أنه لاينفى عن فنه «الشاعرية ولكنه ينفى عنه، بقدر مايسعه، صيغ الفنون الأخرى. فلن تجد عنده التجسيم الذى هو من خصائص النحت، ولن تجد التصورات العقلية، ولا قضايا الأدب والخطابة، كما عساك تجدها فى «صور» كثيرة، ولن تجد تلك العناية السكينة بالنقل الخارجى الدقيق للأشكال والحجوم، ولن تجد الانصياع الخانع لقواعد «المنظور». وانما هو، كما قلت، لون ومساحة، أصفى عناصر التصوير.

ذلك يفسر لنا مافي أغلب أعماله من إهمال للإيحاء بالعمق المكاني، عن طريق الحيل التشكيلية المألوفة من تكبير وتصغير، أو تظليل وتنوير وتركيز مثلا، أنه يوميء إلي عمق مكاني، مجرد ايماء فقط ولكنه مع ذلك يوحي بعمق للرؤية، الفنان هنا يسبر غوراً في «الصورة» الداخلية لا في المشهد «الخارجي» ومن ثم فإن أبعاد صوره هي ، حرفياً، أبعاد الصورة: طول وعرض.

عند أحمد مرسى ملامح أو خصائص ثابتة مستمرة من ناحية، وتطور، سواء فى الرؤية الفنية نفسها أو التكنيك، من ناحية أخرى. فمن الملامح الثابتة، منذ البداية، أنه لم يهتم أبداً بالقواعد الأكاديمية في السفن، لم يعن بتقليد الطبيعة أو أن يعطينا «مايشبه الطبيعة»، وبالتالى كان منذ البداية يهمل قواعد المنظور مثلا، ولا يلجأ إلى خدع الإنارة، واعطاء العمق الثالث، والتجسيم، والظلال. أنه يحدد مساحات عمله بمساحات الصورة باستمرار: الطول والعرض، فقط فى داخل هذه المساحة، وبالاعتماد على اللون ، والتكوين فقط يعطينا مايريد أن «يقول». إذن فهو يوميء إلى العمق الثالث بمجرد توزيع اللون، ومساحاته، والتجاوبات أو المقابلات بين الألوان، ومن تركيبات التكوين نفسه.

من الخصائص أو الملامح الثابتة

رصانة الألوان وتعبيريتها، وصياغة الملامح الانسانية فى أحد أعمال أحمد مرسى

أيضاً استخدام رموز أدبية أو شاعرية، والعمل على ادماج هذه الرموز باللغة التشكيلية البحتة التى هى بالتحديد الألوان والمساحات والتكوين والايقاع.. إلى آخره.

الألوان المعبرة

الشاعرية الرقيقة الساذجة أعنى فى التلوين أو فى اللون المصفى اختفت نهائياً، نجد الآن كثافة فى التلوين، مازال هناك البحث عن الألوان الخاصة الأصيلة المعبرة عن رؤيا خاصة أصيلة، لكن فيها «هارمونية» الآن جديدة متعددة الأصوات بدلاً من الميلودى الغنائى الأحادى القديم

- يعنى فيها تراكب، عجينتها أثقل، فيها خصوبة، وفيها طبقات عديدة مختلفة كل طبقة أو جزء من طبقة ينعكس على الطبقة التى تحته، ويعطيه - ويكتسب منه - تأثراً أو «معنى» أعمق . نلاحظ نفس التطور فى التصميم ، أو تكوين اللوحة : كان فى الأول فيه بساطة - أحياناً بساطة مسرفة فى التصميم : دوائر أو أقواس، أو مثلثات متجاوبة تجاوباً واضحاً جداً وقريباً جداً . والآن أصبح التصميم أشد تعقيداً، بل هو أحياناً معقد أكثر مما ينبغى فيما أتصور (إن صح أن هناك فى الفن ماينبغى ومالا ينبغى).

الميزة التى يتميز بها عمله، أساساً، هى مشكلة البحث عن الألوان الأصيلة، التى يسهم فيها مساهمة خاصة منه، أعنى ابتداع ألوان، أو الوصول إلى ألوان معبرة عنه، تلتصق به هو، التصاقا حميماً، وتعطى رؤياه الخاصة. وهنا، أساساً، أعتقد أن هناك تطوراً ملموساً يسير جنب إلى جنبا مع تطور فى التكوين أو فى تصميم اللوحة.

من الممكن أن القيم التشكيلية تؤدى بالفنان إلى التجريد . ولكن أحمد مرسى لايصل إلى التجريد أبداً، بالرغم من أنه يقترب منه اقتراباً كبيراً وإذن فهو يريد أن ينقل الينا، عبر القيم التشكيلية، «بالمعنى» الذى يريد أن ينقله، اندماجاً تاماً، عضوياً، وفى نطاق الحدود التشكيلية، معنى توفيقه أو عدم توفيقه يتأتى بالضبط من مدى نجاحه فى إدماج القيم التشكيلى على اعتبار أن الإيحاء الأدبى هو مجرد واحد من عناصر العمل التشكلى: يستخدمه الفنان كما يستخدم أى عنصر آخر.

عناصر تجريدية

لاشك أن أحمد مرسى قد تمثل السيرالية، وجنح إلى التعبيرية، ونزع إلى عناصر تجريدية، هذا كله صحيح، وفى فنه مايومىء إلى استيعابه للفن القبطى وخاصة فى لوحات الفيوم، وإلى معرفته بفن شاجال، وبراك، ورووه، وموديلياني، وصراعه معهم وخروجه من مجالدتهم إلى صياغات هى له وحده ، لكن ذلك كله يدخل فى تكوين كل فنان، كما تدخل «تأشيرات» الحياة.

سوف أخلص إلى بعض القيم التشكيلية فى مجمل عمل هذا الفنان وخاصة فى لوحاته الأخيرة.

فمن حيث التكوين : تتسم تكوينات أحمد مرسى بالسعة والانفساح العريض وبقسمة صرحية أو معمارية واضحة - فى الفترة الأخيرة على الأخص ، وإن كانت تلك القسمة كامنة بالقوة فى أعماله الأولى - مهما كان من مساحة هذه الأعمال.

ومازالت الوحدات البنائية فى عمله - على اتساعها - هى :

أولاً : وأساساً الدائرة بأشكالها ودرجات اكتمالها أو نقصانها، وظهورها أو تخفيها ، واستوائها أو انبعاجها، والدائرة مع ذلك عنده دائماً توحى بقدر

من النعومة والانسياب، وتوحى، من ثم، بقدر من التصالح مع العالم. والتوافق معه، بدرجات مختلفة، والاتساق فى داخل قانونه الأساسى، قانون الدوران والصيرورة المستمرة.

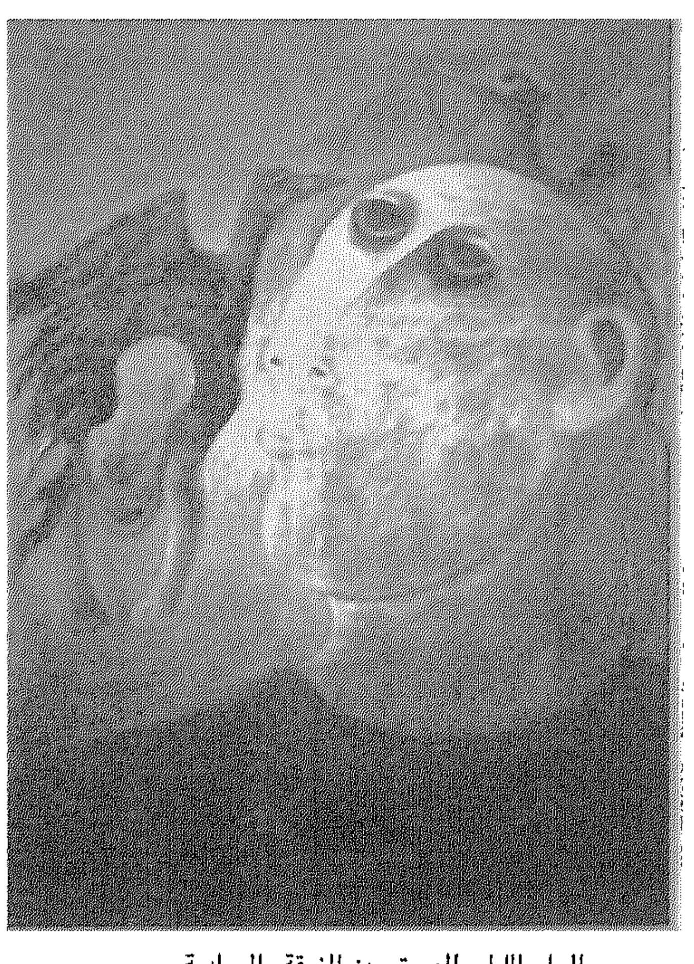
المثلث وتنويعاته هو الوحدة التالية فى الأهمية ، سواء كان مبتوراً أو صحيحاً، سواء كان متطاولاً مسحوباً أو مضغوطاً مسطحاً، سواء كان جليا.

أما من حيث التلوين فإن الخصيصة الأولى فى أعمال هذا الفنان هى قتامة أو دكنة الألوان، من ناحية، وقيمة الصدمة فيها، من ناحية أخرى.

فهذه ألوان الحلم الليلى العميق، أو ألوان الكابوس المطهرة المصفاة ، أو ألوان هواجس النفس الخفية: الأزرق بكل تدرجاته، والرمادى، والأسود، أما الصدمة فتأتى إذ تجد الأحمر القانى، مثلاً، فى قلب الأخضر الخام، على خلفية من البنفسجى القاتم أو ذلك الضرب من الأزرق الداكن أو العتمة المزرقة الكامدة ، وهكذا.

إن زرقات ورماديات هذا الفنان جديرة وحدها بدراسة تفصيلية، فهى فى تراوحاتها وتبايناتها وتآلف نغمياتها تدعوك للتأمل الطويل، وكأنما هى أصداء مفصحة وشجية عن أنواع من الشجن متآخية أو متنافرة، تنبثق فى قلبها بهجات غير متوقعة.

والتدرج اللونى ، أو «الموسيقى - التشكيلى»، من الأزرق إلى الرمادى



الحلم الليلى العميق بين الزرقة والرمادية

الفاتح أو الداكن أصبح الآن من الملامح الثابتة - المتغيرة باستمرار - فى عمل هذا الفنان.

انظر مثلاً ورديات - أو حمرات - اللحم الانثوى وما يجرى مجراه من علامات الأنوثة فى العالم - السمكة على سبيل المثال - وقارن ذلك بدكنات أو قتامات أو غبرات أجسام الذكورة - رجالاً أو جيادا.

وعلى طول هذه السلالم اللونية بمختلف تنغيماتها لن تجد «حلاوة» أو عذوبة سكرية ما، فلن تجد ، بالتالى، تهافتا انفعاليا قط.

مفردات اللغة التشكيلية

وفيما يتعلق بالعلامات أو الشفرات التشكيلية الأثيرة عند هذا الفنان ، أو إذا شئت، لك أن تسميها مفردات لغته التشكيلية ، فسوف أشير بسرعة أولاً إلى وجوه شخوصه، اذ هي أقرب إلى الأقنعة المبتورة الفاغرة عيونها مع ذلك عن حياة عميقة تفيض مأساوية على نحو ما، وهي على الأغلب مثلثة حتى لتكاد تكون نمطية في هندسيتها، ولكنها عارمة الحيوية في داخل هذه القالبية، اذ تثقبها تلك العيون الشاسعة الفسيحة.

لاشك أن لوجود الحصان معنى رمزياً واكاد أقول معنى ميتافيزيقيا، يتأتى عن هذه القيم التشكيلية: الجسامة والرسوخ ورصانة الألوان وتعبيريتها، وصياغة الملامح الانسانية وما وراء الانسانية معا.

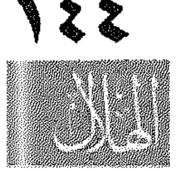
والصقر الفخور - هل هو حورس العريق ؟ - يمت بصلة وثيقة إلى هذا التصور وذلك التصوير، بل هو يأتى أحياناً كأنه كيان شامل يظلل الكون ويهيمن عليه، كأنه رخ الهى، ويأتى فى معظم الأحيان إما على شكل وحدة مثلثة، مركبة المثلثات، أو فى تكوين أفقى مسيطر.

يقوم البحر السياجى العريض الداكن الزرقة، عادة، بدور أساسى فى تكوين اللوحة، بأفقيته الفسيحة المترامية، تقسم اللوحة أحياناً وتلائم بين مقوماتها أحياناً أخرى، تقطعها قطعاً أو تدور فى داخل بنيتها بدائرية ناقصة ومتعرجة أحياناً أخرى، ان حرية هذا الفنان فى تكوين لوحاته «الجدارية» تقترن فيها البساطة والتركيب.

يعدل الفنان إذن من أفقية البحر بأن يجعله دائريا أو مثلثا هو خليج أو بوغاز مرة، وبأن يجعل العلاقة بينه وبين الوحدات الأخرى علاقة حرية وتنوع، فالشخوص أو الحيوانات أو الطيور أو الاسماك كلها ترتبط بالبحر بعلاقات تشكيلية متنوعة، فلا حرج عند الفنان من أن تسير القامات البشرية أو تطير على مياه البحر وأن تخوض القامات الحيوانية فى غمراته، بل قد يكون ذلك ضرورة فنية ، كأن البحر عنصر جوهرى من عناصر الوجود بالنسبة للوحة وبالنسبة للرؤية الشاملة من وراء اللوحة.

قامات صرحية

فى معرضه الأخير يتفجر ابداع أحمد مرسى فى لوحات جدارية شاهقة قد تبلغ ارتفاعاتها فى بعض الأحيان نحو ثلاثة أمتار وعرضها نحو أربعة أمتار، وقد تزيد عن ذلك فى أحيان أخرى، وهى تذكرنى أحيانا بسيمفونيات سيبليوس العاصفة المحتشدة، ترتفع فيها قامات صرحية قد أخذت مداها حتى النهاية - ليس ثم من نهاية - فى أوضاع نحتية ساكنة وليست إستاتيكية اذ تدور بينها بعضها بعضا، وبينها وبيننا حوارات لعلها تقع فى مستويات السر .





إحـدى جـداريات أحـمـد مـرسى ترتفع فـيـهـا قـامـات صـرحـيـة ذكـورية وأنثـوية

هذه القامات، ذكورية وأنثوية على السواء عارية وطهرانية فى الوقت نفسه،سامقة المقاييس، تطفو أو ترسو فى نوع من السكينة الصافية، متناقضة، وكونترابنطية مع خلفيات مدومة قد تكون سماء رمادية ملبدة بالسحاب المتلاطم، أو قد تكون أمواجا ضاربة إلى زرقة خضراء مرتطمة خلف جداراً أشهب، وقد تكون خلفية مضطرمة بلهب مكتوم الاحتدام، محمر وبرتقالى وغائم، وتدخل فى هذا الحوار متعدد الألوان متعدد النغمات كائنات أحمد مرسى الأثيرة رأس الحصان المائل بحيوانية عالية الحضور أو ذلك الصقر حوريس الإلهى المعاصر الهائل الحجم،أو رأس تطاول السماء شموخا أو هرم كأنه شراع مركب خرافية الحجم، أو على العكس شراع مركب هرمى يتحدى لجج الغمر، أو أخيرا السمكة - الحوت ذات العين النجلاء الضخمة المستديرة التى لا تغمض أبداً.

فى هذه اللوحات الضخمة اتساق فى التكوين يؤكد ضخامتها ويلغيها فى الوقت نفسه، لأنه محكوم ومسيطر عليه، فليست الضخامة هنا مما يفلت من انضباط العمل، ومن ثم فإنها مع وجودها تكاد تنسى، ولا يعود هناك عند المتلقى حس بالتشتت، مع أن شساعة اللوحة واتساع عالمها، وانفساح أفقها، وهى من المقومات الرئيسية فى العمل،يمكن أن تشتت وعى المتلقى، لكن العكس تماما هو ما يحدث، أى أن ذلك كله يفضى إلى نوع من التركيز والتقطير، بل التكثيف . ■

عمرو واكد.. كشاف نور

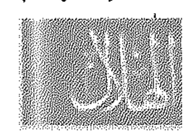


ديل السمكة ومعالي الوزير

بقلم
مصطفى درويش



أحمد زكي .. معالي الوزير



هذان فيلمان للثنائى السينمائى وحيد حامد وسمير سيف ويرجع تعاون هذا الثنائى إلى عشرين سنة مضت عندما كتب «وحيد» قصة وسيناريو فيلم «غريب فى بيتى»، وقام «سيف» بترجمة كتابات «وحيد» إلى لغة السينما.
و«ديل السمكة» وان جاء عرضه فى دور السينما لاحقا لعرض معالى الوزير، بفارق زمنى يعد بالأيام، إلا ان انتاجه سابق عليه بحوالى ثلاثة أعوام

ورغم هذه المدة الفارقة بين الفيلمين، وهى طويلة بكل المعايير، فكلاهما بطله مسكون بالكوابيس.

فالأول، ذيل السمكة، يبدأ، ومع ظهور العناوين، فبطله «أحمد» يعدو لاهثا.

ولا يتوقف عن العدو الا مع اختفاء العناوين، عندئذ نراه فى السرير، وقد هب من النوم مرعوبا، يتصبب عرقا.

البداية كابوس

وهكذا تكتشف أن عدوه لم يكن الا كابوسا.

وان يبدأ الفيلم بكابوس امر نادر الحدوث فى عالم الأطياف.

وفيما لو اسعفتنى الذاكرة، فالفيلم الذى بدأ على هذا النحو، أى ببطلة يعانى من كابوس، كان ثمانيه ونصف رائعة المخرج الإيطالى «فيديريكو فيلليني».

فمع اللقطات الأولى يظهر البطل «جيدو»، ويؤدى دوره «مارشيللو ماسترويانى» داخل سيارة محبوسا، وسط حشد من السيارات، يحاول الخروج دون جدوى.

وانطلاقا من هذا الكابوس اخذت احداث فيلم «فيللينى» تتسلسل تباعا.. متراوحة بين وقائع من الحاضر.. واخرى من الماضى، تتخللها أضغاث احلام.

وفيما عدا الكابوس المشترك فى فاتحتى الفيلمين، فليس ثمة اوجه شبه أخرى.

«فثمانية ونصف» يعرض لمعاناة مخرج سينمائى، أثناء ازمة عجز عن الإبداع.

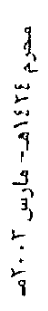
فى حين ان «ديل السمكة» لا يعرض لمعاناة بطله «أحمد»، وهو كشاف نور، إلا فى أقل القليل، وإنما يعرض لشرائح من الناس فى مدينة بدينة، تزداد ترهلا على مر الأيام.

فهو إذا كان يشترك مع «ديل السمكة» فى تعرض بطله لمحنة الكوابيس، إلا إنه، فيما عدا ذلك يختلف تماما فبداية، بطله وزير، فى حين ان بطل الفيلم الآخر كشاف نور، وطبعا لا تستوى معاناة الأخير والوزير.

كما ان كشاف النور لم يتعرض طوال الفيلم، إلا لكابوس الفاتحة.

سر المعاناة

أما معالى الوزير، فقد استغرقت



الكوابيس حياته الفيلمية ، بحيث بدت وكأنها كابوس متصل، وما عداه استثناء .

وان تطول الكوابيس حياة بطلى فيلمى وحيد وسيف، ويزداد امرها تفاقما على هذا النحو ، خلال المدة الفارقة بين الفيلمين، وهى مدة لا تزيد عن ثلاثة أعوام، ليس بالأمر الغريب، فى زمن كزماننا، حيث كل شيء يصد الإنسان عن العمل، ويرده عن الأمل، ويدفعه إلى نشاط عقلى عقيم.

ومهما يكن من أمر السبب فى تزايد الكوابيس وتكاثرها فدور أحمد صاحب الكابوس اليتيم ، قد لعبه بجدارة، ممثل شاب لم يكن له ، قبل «ديل السمكة» رصيد من أفلام روائية طويلة، سوى فيلم واحد، لم يحقق أى نجاح، واختفى من العروض السينمائية، ومن سوق الفيديو، دون ان يترك أثراً.

هذا الفيلم الشبح هو «جنة الشياطين»، وممثله شاب اسمه «عمرو واكد».

ضياع وتعويض

ورغم نجاح ديل السمكة فى مهرجان الاسكندرية السينمائى ، حيث حصد العديد من جوائزه وحيث فاز «واكد» بجائزة أفضل ممثل إلا ان نجاح الفيلم وفوزه، كلاهما لم يغنه شيئا.

أولا لسوء سمعة جوائز هذا المهرجان.

ثانيا: لبقاء الفيلم حبيس الظلام، لا تتاح له فرصة الخروج إلى النور، بأى عرض عام، زهاء ثلاثة أعوام.

وهكذا ضاعت عبثا سنوات عزيزة من عمر فنان واعد..

إلا انه عوضها أو كاد بدور قصير فى فيلم «أصحاب والا بيزنس» حيث تقمص شخصية شاب فلسطينى آثر افتداء وطنه بتفجير نفسه فى نفر من جنود الاحتلال.

فبفضل حسن تقمصه لتلك الشخصية ، خطف الأضواء من بطل الفيلم «مصطفى قمر»، ونال من استحسان النقاد الشيء الكثير .

الحوارى الزائفة

و«ديل السمكة» يبدأ به، بعد العناوين بكابوسها، بداية تقليدية لا تبشر بأى خير، فى حارة ، ارجح الظن انهامصطنعة فى مدينة الإعلام.

وتبدو المفارقة واضحة فاضحة، فى غير حاجة لبيان ، عندما تنتقل الكاميرا مع أحمد (واكد) أثناء ادائه لمهام وظيفته، إلى أحياء القاهرة بحواريها وبشوارعها وبيوتها الحقيقية، كما هى فى الحياة، فينكشف أمر الاصطناع.

وكعهدنا بالأفلام التى تبدأ فى الحوارى البطل هيمان ببنت الجيران (حنان ترك)، والبنت حبوبة، تشع جمالاً ودلالا.

وبطبيعة الحال هناك عزول، عبارة عن شاب شرير (سرى النجار).

غير ان ثمة شيئا انفردت به بنت حارة «ديل السمكة» دون سائر بنات الحوارى، وما أكثرها بدءاً من حارة العزيمة، وحتى يومنا هذا.

هى آخر صيحة فى المودة، وبين كل البنات الوحيدة غير المحجبة وأغرب العجب ، انها تعمل ليلا فى فندق خمس نجوم وأين؟

فى نادى قمار، لا يؤمه سوى اثرياء

العرب .

وباستثناء هذا المسخ، فلا شيء آخر جديد في «ديل السمكة» سوى ان بطله أحمد فضلا عن انه كشاف نور، فهو شاعر .

ومن هنا اهداء الفيلم الى روح «صلاح جاهين».

وأحمد ، بحكم طبيعة مهنته، اتيح له الالتقاء بنماذج مختلفة من الناس.

المدينة البدينة

كما اتيح لنا، من خلال تجواله بين بيوت المناطق العشوائية وشقق الناس اللي فوق، ان نلقى نظرة على غرائب وعجائب في قاهرتنا، لا ترد على بال، مثل مشهد صاحبة محل المخلل، حيث يسقط أحمد، أثناء محاولته قراءة عداد النور في أحد البراميل.

ومشهد الشقة الفاخرة، حيث يقيم ثرى شاذ (رءوف مصطفى) يحاول جاهداً أغراء أحمد بما لذ وطاب من طعام وبحبوب منشطة لعلها الفياجرا .

ولا يعيب هذا المشهد سوى الإطالة، وتوظيف موسيقى باليه بحيرة البجع، وقطعة من احدى سيمفونيات تشايكوفسكي كخلفية للاشتهاء والاغراء.

وكأن الذي اختار موسيقى البالية والسيمفونية ، أراد بذلك ان يقول ان سماع الموسيقى الكلاسيكية عنوان على جنوح متذوقيها إلى ألوان من السلوك غير المألوف.

كوكبة رائعة

ولا يفوتني، قبل ان انتقل بالحديث إلى معالى الوزير وكوابيسه، ان اشيد بأداء كل من عبدالرحمن أبوزهرة وسرى النجار الأول لدور صاحب مكتب في الحارة، وشاهد على زمن وغد والثاني لدور فتى الحارة الشرير.

كما لا يفوتني ان اقف قليلا عند كل من محسنة توفيق وسوسن بدر وعمرو واكد.

لاقول ان محسنة جسدت بأدائها الرائع لدور الأم القعيدة الوحيدة، ورغم كثرة الأولاد الناجحين ، جسدت محسنة الأمهات، وهن في نهاية العمر، بلا جليس ولا ونيس.

وان سوسن بدر بأدائها لدور مطربة درجة ثانية، تحيط رأسها بباروكة شقراء وهي تغنى في ملهى ليلى أمام جمهور من السكارى، برزت لنا ممثلة عظيمة، في وسعها أداء أى دور تشاء.

وان «واكد» لو استمر في الاعتماد لا على الكلام ، بل على ملامح الوجه، وقدرة جسمه غير المترهل على التعبير، لو استمر على هذا النهج، لساهم في إنشاء مدرسة جديدة، ومعاصرة للتمثيل، ولارتفع إلى مصاف النجوم بخطى سريعة، قد تعوضه بعض ما فاته.

معالي الوزير

والآن إلى معالي الوزير وكوابيسة الآخذة بخناق آخر فيلم للثنائي وحيد وسيف.

معالي الوزير كما رسم شخصيته السيناريو استاذ جامعي طموح.

تبدأ به الاحداث مع نفر من الزملاء وزوجاتهم ، وهم يسخرون، بعد تناول طعام العشاء، من وزارة يجرى تشكيلها

أحد أقطاب النظام (عمر الحريرى).

وفى مشهد آخر يأمر القطب المكلف بتشكيل الوزارة الجديدة، احد مرؤوسيه بالاتصال هاتفيا بشخص اسمه «رأفت رستم» لا بلاغه بترشيحه لشغل احد المناصب فى الوزارة الجارى تشكيلها، وبضرورة مجيئه على وجه السرعة، لحلف اليمين.

وزير بالصدفة

وهنا، يدق جرس الهاتف فى منزل الاستاذ الجامعى الطموح (احمد زكى)، حيث يزف إليه، وهو لايزال مع ضيوفه، خبر اختياره لشغل منصب وزير.

ولم تمر سوى دقائق على ابلاغه بالخبر السار، إلا وكان فى حضرة القطب الكبير، الذى فوجىء بانه غير الشخص الذى وقع عليه الاختيار، والخطأ سببه تطابق الاسماء .

ولضيق الوقت، جرى اسناد المنصب إليه مؤقتا .

وهكذا ، بالصدفة، وجد رأفت رستم نفسه وزيراً .

وتمر الأيام، أعواما بعد أعوام، يحدث أثناءها اكثر من تغيير وزارى، وأكثر من تغيير لرئيس الوزراء، ومع ذلك يبقى «رستم» وزيرا بمنأى عن التغيير.

أما لماذا بقى وزيرا صامدا، صاعدا نجمة على الدوام، فذلك سؤال أجاب عليه السيناريو ، بتحويل معظم الأحداث إلى أحلام، أو بمعنى أصح كوابيس.

القاعدة والاستثناء

فباستثناء البداية التى انتهت برستم وزيراً بالصدفة، والنهاية التى جعلت منه قاتلا: ومع ذلك بريئا من دماء القتيل، مدير مكتبه وامين سره وتابعه الذليل «عطية عصفور» (هشام عبدالحميد).

وباستثناء بضع لقطات فيما بين البداية والنهاية، عرض السيناريو فى بعضها لمشاكل الحياة اليومية لمعالى الوزير، مع زوجته (لبلبلة) وأولاده الذين يمقتونه مقتاً شديدا.

وفى بعضها الآخر لحوارات جرت فى أماكن مختلفة بينه وبين مدير مكتبه ومستودع اسراره «عصفور».

وباستثناء مشهد يتيم للنجمة «يسرا» لا تظهر فيه سوى بضع دقائق، خلالها تلتقى صدفة بمعالى الوزير فى احد المطاعم ، حيث يكشف الحوار القصير الذى جرى بينهما عن انها كانت زوجته الأولى.. وألقى القبض عليها نتيجة بلاغ منه إلى المباحث وشى فيه بها بمقولة انها تمارس نشاطا معاديا للنظام.

وفيما عدا، هذه الاستثناءات اختزل السيناريو احداث الفيلم إلى خمسة كوابيس ، تؤرق منام معالى الوزير.

الصمت المميت

ومن بين كوابيس معاليه، أكتفى بالحديث عن كابوس فقدانه القدرة على النطق، لا لشيء سوى انه اكثر كوابيسه قربا من الواقع، بحكم ان وقائعه انطلقت بها الشائعات قبل بضعة اعوام، شماته وتندرا باحد الوزراء.

ففى مشهد هذا الكابوس، فتح معالى الوزير فمه، ليجيب على سؤال موجه إليه من احدى المذيعات.

فإذا بلسانه عاجز عن الكلام..

وما ان عاد إلى منزله حتى انقض

عليه أفراد اسرته، محاولين اعـادة النطق إليـه، بكل الوسائل الممكنة ، الى حد الضغط على عنقه، حتى كادوا يزهقون روحه.

أما لماذا لجأوا إلى هذا القدر من العنف معه، فذلك لأن انحباس صوته، يعنى فيما لو استمر ضياع ثروة طائلة تقدر بمائة وخمسين مليون دولار، جرى جمعها بالحرام.

وحماية لها، عمل على ايداعها فى أحد مصارف سويسرا، حيث يتوفر الأمن والأمان.



سوسن بدر مطربة درجة ثانية

وليس فى وسع احد سواه ان يصرفها الا بذكر الرقم السرى للحساب.

وزير أم بهلوان

والاكتفاء بكابوس انحباس صوت معالى الوزير موضوعا للحديث، إنما يرجع إلى ان الكوابيس الاخرى مفتعله اشد افتعال.

ولعل خير مثال على ذلك الكابوس الذى أظهره ساحرا فى ملهى ليلى، تساعده امرأتان، زوجته وابنته.

وفى نمرة الختام، نراهما بدلا من ان تفتحا الصندوق الفارغ الذى اغمدتا فى فتحاته سيفهما، بعد ان دلف إليه الساحر ليخرج منه سليما، كالمعتاد.

بدلا من ذلك، تقومان بتغيير تلك النهاية التقليدية للنمرة، فتعملان فيه سيفيهما ضربا وقتلا ، حتى تنسلخ رأسه عن رقبته وتطير فى الهواء امام المتفرجين.

فكابوس كهذا، قد يتصور مجيئه الى فنان أو عامل فى سيرك لا إلى وزير.

والحق ان ما يؤخذ على كوابيس معالى الوزير، هو مجيء معظمها مشوبا بعيب رسم شخصيته، بما فى ذلك حالته النفسية، على نحو مماثل لرسم شخصية الناس العاديين.

فهذا الخلط الذى لا يقيم وزنا للبناء النفسى الخاص بالحكام، كان لابد وان يضعف من مصداقية معالى الوزير.

ويتحول به فى نهاية المطاف إلى فيلم غير مقنع، للمتفرج مهما كان ساذجا. ■

ميرامار...

البنسيون والرواية

بقلم
شوقى بدر يوسف

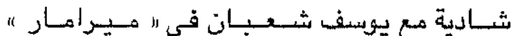
الأسكندرية أخيراً .
الأسكندرية قطر الندى
نفثة السحابة البيضاء،
مهبط الشعاع المغسول بماء السماء، وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع
عامر وجدى فى «ميرامار»

عندما أقامت مكتبة الأسكندرية احتفالية الريشة والقلم وفاء لقمم الأدب الفن «نجيب محفوظ وصلاح طاهر» فى مستهل شهر أكتوبر ٢٠٠١ ، حضر هذه الاحتفالية عدد كبير من نقاد وأدباء العالم العربى للمشاركة فى فاعلياتها الأدبية والفنية وفاء منهم لهذين العلمين الكبيرين اللذين أثريا الحياة الأدبية والفنية باعمالهما الخالدة حيث أقامت المكتبة هذه الاحتفالية الرائدة فى مستهل الإعلان عن بدء انشطتها الثقافية والأدبية فى أول الألفية الثالثة من التقويم الميلادى بعد الافتتاح التجريبى للمكتبة والذى تم فى ابريل من العام نفسه



نجيب محفوظ : فى الإسكندرية كانت بداية «ميرامار»





شادية مع يوسف شعبان فى « ميرامار »

وكان من بين من حضروا هذا التجمع الكبير الادباء وفنانو العالم العربى ، الناقدة اللبنانية الدكتورة يمنى العيد والكاتب محمد دكروب رئيس تحرير مجلة «الطريق» البيروتية ومعرفتى بالدكتورة يمنى العيد جاءت من خلال كتاباتها النقدية المتميزة التى ظهرت فى العديد من الدوريات،وأيضا من كتبها النقدية التى كثيرا ما كنت ارجع إليها للاسترشاد بها، كما كانت معرفتى بالأستاذ محمد دكروب من خلال متابعتى الدائمة لمجلة الطريق البيروتية الذى يرأس تحريرها

وقد طلبت منى الدكتورة يمنى العيد والأستاذ محمد دكروب زيارة بعض معالم الإسكندرية ومواقعها الأثرية المهمة للتعرف عليها عن قرب، ومشاهدة أهم ملامح تميزها فقمنا بزيارة بعض الأماكن السياحية والشعبية المعروفة بها المدينة، مثل قلعة قايتباى والسوق الشعبى الشهير بالمنشية والمعروف ب «زنقة الستات» ومنطقة كوم الدكة مسقط رأس فنان الشعب سيد درويش كما قمنا أيضا بزيارة بعض الأماكن التى ارتبطت بابداعات بعض كبار مبدعينا وكان أهمها البناية التى كان موجودا فيها بنسيون «ميرامار» الذى استوحى منه الكاتب الكبير نجيب محفوظ روايته الشهيرة التى تحمل الاسم نفسه وكلمة« «ميرامار» هى كلمة من أصل لاتينى ولكنها حاضرة اليوم فى اللغة الأسبانية وتتركب الكلمة من الفعل ميرا ويعنى يشاهد باعجاب ومن الاسم مار ويعنى البحر، ومعنى الكلمة ايضا ينسحب على بعض المفردات مثل المسكن والفندق

الجميل ، وأيضا المكان الجميل القائم على الشاطىء والتجارة والسياحة والحياة السهلة وبنسيون ميرامار يحتل الطابق الثانى من البناية التى تقع فى مكان قريب يتوسط المنطقة بين محطة الرمل والسلسلة وهو يواجه شاطئ البحر مباشرة ويطل على كورنيش الأسكندرية، وقد وصفه عامر وجدى «أحد شخصيات الرواية باعتباره أول صوت يتحدث فى الرواية ضمن الأصوات الأربعة التى تحكى الرواية بقوله» العمارة الضخمة الشاهقة تطالعك كوجه قديم، يستقر فى ذاكرتك فأنت تعرفه ولكنه ينظر إلى لا شئ فى لا مبالاة فلا يعرفك كلحت الجدران المقشرة من طول ما استكنت بها الرطوبة وأطلت بجماع بنيانها على اللسان المغروس فى البحر الأبيض، يجلل جنباته النخيل واشجار اللبخ ثم يمتد حتى طرف قصى حيث تفرقع فى المواسم بنادق الصيد والهواء المنعش القوى يكاد يقوض قامتى النحيلة المقوسة ولا مقاومة جدية كالأيام الخالية، وقد وقفت الدكتور يمنى العيد والأستاذ محمد دكروب طويلا أمام هذه البناية الضخمة المبنية على الطراز الإنجليزى والمعروف بفسيفسائه الحمراء التى تمثل طرز المبانى الأنجليزية الكلاسكية وكانت تأملاتهما لهذا المكان وانبهارهما بموقعه المتميز وتداعى خواطر الدكتوره يمنى بين ما تراه وبين ما سبق لها أن عبرت عنه فى كتاباتها النقدية عن نجيب محفوظ واعماله الروائية قد أثار شهيتى لمناقشتهما عن الرواية باحداثها وشخوصها وكل ما يحيط بها من ظروف أدبية ومكانية وفكرية ، خاصة وأنى اعرف أن الدكتورة يمنى العيد سبق لها وان قامت بدراسة الرواية فى كتابين من كتبها النقدية صدرا فى بيروت . الدراسة الأولى كانت بعنوان تعدد المواقع فى ميرامار ونشرت فى كتاب الراوى الموقع والشكل الصادر عن مؤسسة الأبحاث العربية والدراسة الثانية كانت بعنوان «لعبة البدائل» ونشرت فى كتاب «فى الرواية العربية بين الخصوصية وتميز الخطاب» الصادر عن دار الآداب البيروتية ولعل التأمل الذى مارسته د. يمنى العيد وهى تقف أمام هذه البناية الضخمة التى شهدت الأيام الغابرة التى عاشها بنسيون «ميرامار» فى هذه المنطقة قد أعاد إلى خواطرها فى الوقت نفسه ما سبق أن تناولته فى كتبها النقدية عن شخصيات الرواية زهرة ، عامر وجدى ، سرحان البحيرى، طلبه مرزوق، حسنى علام، باهى منصور، مدام مريانه صاحبة البنسيون حين قالت:«سته أشخاص فى

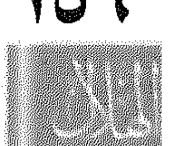
الرواية يمثلون مجتمع البنسيون العائلى، ينتمون إلى جيلين، إلى زمنين سياسيين زمن الملكية وفيه الوفد وسعد زغلول وزمن الثورة الناصرية، ومع الشخصيات الست تبدو الفتاة زهرة واسطة العقد، صبية صغيرة زهرة، هربت من القرية متمردة على جور جدها وشقاء حياتها وجاءت المدينة راغبة فى الحب والتعلم والنظافة والأم» فقصدت البنسيون الذى كان يقصده والدها ليبيع لصاحبته ما يبيعه فلاح من جبن وبيض ودجاج لكن هى جاءت لتعمل ولم يكنْ أمامها سوى أن تكون خادمة ، خادمة للجميع وقد صرح نجيب محفوظ عن ظروف كتابته لهذه الرواية بقوله رواية ميرامار «كانت بدايتها فى الأسكندرية فى أثناء زيارتى لبعض الأصدقاء، وقد أعجبت بشخصية خادمة كانت تعمل لديهم وهى التى ظهرت فى الرواية باسم زهرة وبعد ذلك بعشر سنوات تبلورت لدى فكرة الرواية فجلست وكتبتها

وتبدو «ميرامار» كما قدمها نجيب محفوظ وكأنها تشكيل مكانى بما يضمه من شخصيات تمثل المجتمع المصرى بفئاته المتعددة فى فترة محددة من تاريخه السياسى والاجتماعى المعروف بصراعاته الطبقية وتناحره النفعى ، ومشاعره ومواجهاته التى تعبر عن موقف كل فئة تجاه الأخرى ، لهذا قدم المؤلف بناء روائيا له تصميم خاص يعتمد على طرح أربع وجهات نظر متباينة تمثل أهم أربع فئات من تكوينات المجتمع المصرى، وكاشفا من خلالها عن موقف كل فئة من هذه الفئات تجاه نفسها وتجاه الوطن، لهذا يمكننا أن نطلق على رواية «ميرامار» على أنها بمثابة رواية صوتية تستهدف تعرية المجتمع المصرى وإدانة مظاهر الفساد المستشرية فى جسده بكل صوره وهى تعكس وجها خاصا من وجوه الحياة، وجها مختارا بعناية وقد صقل هذا الاختيار وتكثف من خلال الصراع الدائر فى جسد المجتمع وأصبح غنيا بالمعانى الإيحائية التى تساعد على بلورة نفسها وتأويل ما وراء السطور وإيضاحه تماما، إننا لا نواجه فى «ميرامار» قطاعا مستويا من الحياة العادية التى يمكن أن نجدها فى روايات أخرى لنجيب محفوظ مثل الثلاثية وغيرها من الروايات إنما نواجه قطاعا أفقيا تحكمة الأصوات التى تعبر عن وجهة نظرها الخاصة أولا ، ثم تنسحب بعد ذلك إلى العموميات ، لذا نجد أن الإيقاع الروائى فى هذه الرواية يتسم بمعدل السرعة الذى يتماشى مع معدل سرعة وإيقاعات الحياة فيها، وهو أمر ينسحب أيضا على الحياة داخل البنسيون، فالجميع فى لهاث دائم نحو تحقيق تطلعاتهم النفعية وغير النفعية ونجد

أيضا إن كل شئ في «ميرامار» يلهث ويستوعب في فترة «وجيزة» ما يمكن أن يستوعب في عمل واقعي، في حياة بأكملها يدل على ذلك أن السكينة الظاهرة عند «عامر وجدى»، أو «ماريانا» أو «طلبة مرزوق» إنها تعكس في الواقع سفرا داخليا حافلا بالحركة وسريعا ومضنيا يذكيه وقود الذكريات الذى لا ينفك يقتلع الحاضر حركته بين وقت وآخر، كما يقويه أيضا اختيار الكاتب للبنسيون كمكان مناسب تجتمع فيه طبقات المجتمع لتعبر عن الحيرة التي يعيشها الجميع، والأحداث في «ميرامار» مروية من وجهة نظر أربع شخصيات من مجموع شخصياتها وكل شخصية تروى نفس الأحداث بضمير المتكلم، وعلى النحو الذى تراها عليه ، ولا تختلف هذه الأحداث من شخصية إلى أخرى إلاّ بمقدار ما يتاح لهذه الشخصية أو تلك من مجال رؤية غير متاح للشخصيات الأخرى، وإلا بمقدار اختلاف المشاعر الخاصة أو الفهم الخاص الذى تضفيه كل شخصية بالضرورة على مجرى الأحداث .

والمكان في رواية «ميرامار» وهو البنسيون من الداخل يذخر بالحركة المستمدة من الذكريات عند بعض الشخصيات وبالواقع الملموس عند البعض الآخر ، لذا نجد أن عامر وجدى يعود إلى «بنسيون ميرامار »الذى عادت الحركة تنتعش فيه والزمن يتكرر ، تقتل الثورة الأولى (ثورة ١٩١٩) زوج مريانا الأول، وتجردها الثورة الثانية (ثورة ١٩٥٢) من مالها وأهلها ومع ذلك فهى تتمسك بالحياة بشدة من خلال هذ العالم المتبقى لها وهو عالم البنسيون ، والبنسيون عادة يمتلئ بالنزلاء يخلو ثم يمتلئ «كان بنسيون السادة»، ينعمون فيه بالراحة والرفاهية والهدوء ، يتاجرون ويربحون يأتون من الخارج ليلتقوا على شاطئ المتوسط في الأسكندرية في «ميرامار» عند مريانا وتحت تمثال العذراء وها هو المسكن الجميل يستقبل اليوم وبعد خلائه ممثلى الثورة المصرية ومعهم من يمثل العهد السابق، جاء الجميع إليه ليس في غياب الرفاهية ولكن طلبا للراحة والهدوء وبحثا عن سبل الحصول على المال يلتقون أيضا وعلى خلاف انتماءاتهم الاجتماعية والسياسية والفكرية على شاطئ المتوسط، في «ميرامار» عند مريانا ..

لا شك في أن نجيب محفوظ باختياره لبنسيون ميرامار المواجه للبحر مباشرة مكانا لروايته التي تمثل بالنسبة له نموذجا جديدا من الفن الروائي ، كذلك هي تعبير عن رحلة إلى المجتمع الجديد بأكمله ، بمختلف نماذجه القديمة الباقية والانتقالية والجديدة ولعل هذا



يفسر لنا استعانته بتنوع الشخصيات والمواقف التى أحيانا تكون ذاخرة بالصراعات الغاضبة، ولعل تأثير المكان أيضا على مواقف الرواية قد صوره الكاتب على انه نابع من تأثير المكان ومناخ الأسكندرية، والبحر الذى يقع البنسيون في مواجهته مباشرة، وهو ما جاء على لسان منصور باهى حول الأسكندرية وبحرها، يعجبنى جو الأسكندرية ، لا فى صفائه واشعاعاته الذهبية الدافئة ولكن فى غضباته الموسمية، عندما تتراكم السحب وتنعقد جبال الغيوم ويكتسى لون الصباح المشرق بدكنة المغيب ويمتلئ رواق السماء بلحظة صمت مريب ، ثم تتهادى دفقة هواء فتجوب الفراغ كنذير أو كنحنحة الخطيب عند ذاك يتمايل غصن أو ينحسر ذيل .. وتتابع الدفقات ثم تنقض الرياح ثملة بالجنون .. ويدوى عزيفها في الآفاق ويجلجل الهدير ويعلو الزبد حتى حافة الطريق .. ويجعجع الرعد حاملا نشوات فائرة من عالم مجهول وتتدلع شرارات البرق فتخطف الأبصار وتكهرب القلوب (ص ١٨٢) لقد عبر منصور باهى بهذه العبارة التى جاءت على لسانه بنفس الجو الموجود داخل البنسيون والذى يكون أحداث الرواية على لسان أبطالها تماما ، إنه جو يشبه إلى حد كبير جو البحر حين يكشر عن أنيابه وتتلاطم أمواجه ويعلو الزبد، وتتصارع فيه الأنواء وتسرى الأحداث الرئيسية فى نسيج الرواية من شخصية إلى أخرى بتوهج خاص، مما يمنح الشكل الفنى للنص وحدة عضوية قل أن توجد فى الروايات التى تتبع نفس التكنيك الهندسى الدقيق حيث تبدو «زهرة» وهى الشخصية التى اختارها الكاتب لتمثل بؤرة الحدث كنقطة مركزية فى الرواية فهى فى حركة التكرار التى يمارسها الرواة، الشبان الثلاثة، الثلاثة يحبون «زهرة» لكن لا للزواج منها ، زهرة نقطة فى دائرة وفضاء الدائرة تنسجه مجموعة من العلاقات التى تنهض بين هذه الصبية من جهة ونزلاء البنسيون من جهة أخرى، بمن فيهم مريانا صاحبة البنسيون، وطلبة مرزوق بهوية انتمائة إلى نظام العهد القديم، وعامر وجدى نفسه تكشف مجموعة العلاقات هذه عن هوية ما يربط كلا من الشخصيات ب «زهرة» وعن علاقة زهرة بهذه الشخصيات وموقفها منها داخل المكان الواحد نفسه «البنسيون» وتبدو زهرة رمزا لشعب مصر فى زمن الثورة رمزا لبدايات التحول والنمو ، وللتطلع نحو الأفضل، إنها الرغبة لبناء زمنها القادم فى إطار المدينة وما تعنيه من شروط عيش ومستوى حياة لكن زهرة تبدو فى مجموعة العلاقات هذه ضحية للجميع ، مأساتها تنهض على حد علاقتها بشكل خاص ب سرحان

البحيرى فهو كما نقرأ فى الرواية على لسان منصور باهى «التفسير المادى للثورة» (ص١٠٧) زهرة ضحية للجميع ما عدا «عامر وجدى ، لأن المجتمع يستغل زهرة أو يفيد منها دون أن يفيدها والاحساس بنهاية المجتمع الذى تمثل فى بنسيون ميرامار لا يعنى نهاية الحياة ، فالحياة قادرة على التجدد ومقاومة التحلل والتعفن والاندثار ولكن كمية الصراعات التى جسدها نجيب محفوظ فى هذا النص جعلت الشخصيات تتخيل وكأن الحياة على وشك التوقف، لذلك كان وجود «زهرة» فى البنسيون بمثابة النغمة المناقضة لكل النغمات الأخرى الموجودة فى حيز البنسيون وما حوله،والتى تمثلت فى سلبية عامر وجدى واندثاره .. وشماتة طلبه مرزوق واجتراره لأمجاد الماضى ونقمة حسنى علام ومحاولته التمشى مع الأوضاع الجديدة دون جدوى وانتهازية سرحان البحرى ونرجسيته إلى حد الاستهانة بكل الأخلاقيات وتعلق مدام مريانا بتلابيب أمجاد الماضى أيام الأنجليز والاحتلال والملكية وتطلعات محمود أبو العباس الطبقية ونجاحه فى شراء مطعم بنايوتى وإيمانه بان المرأة مخلوق ناقص كل هذه النغمات المناقضة لوجود «زهرة» اندثرت أو كادت بنهاية الراوية لأنها كانت تحمل فى داخلها الكثير من عوامل الانهيار والتحلل ، أما زهرة فهى الشخصية الوحيدة التى تعرف طريقها دون تردد أو حيرة، واستطاعت أن تقاوم هجمات ومحاولات كل من طلبة مرزوق وحسنى علام ومحمود أبو العياس ، حتى عندما مال قلبها الى سرحان البحيرى لم تسلم قيادها إليه عندما اكتشف أن كل ما يريده منها هو اللذة الوقتية والمتعة الحسية، رغم أن «مدام مريانا الأجنبية» كانت تزين لها الاستسلام لنزوات سكان البنسيون حتى ينعموا باقامتهم ويزداد دخلها فى الوقت نفسه ، ولا شك فى أن تجربة الحياة فى البنسيون لم تضع هباءً بالنسبة لزهرة فقد استفادت الكثير من الخبرة وسعة الأفق وبعد النظر ونضوج التفكير بحيث حصلت على أسلحة جديدة تواجه بها المستقبل وتضاف إلى اسلحتها القديمة المتمثلة فى الذكاء الفطرى والإرادة القوية والثقة فى النفس واحترام الذات والتمسك باهداب العلم والمعرفة ، لذلك يضع «عامر وجدى» اللمسة النهائية من الرواية ، ها هى زهرة كما رأيتها أو ل مرة لولا مسحة من الحزن أنضجتها الأيام الأخيرة أكثر مما انضجتها أعوام العمر السابقة جميعا ، تناولت الفنجال من يدها وأنا أدارى اتقباضى بابتسامة، ولعل المنهج الرمزى الذى اتبعه نجيب محفوظ فى «ميرامار» يمتاز بالخصوبة الدرامية بمعنى أن الرمز لا يفرض على



الشخصية أو الموقف بقدر ما يساهم فى بلورتها وتجسيدها ، فالقارئ يدرك تماما أن «زهرة» ترمز إلى مصر رغم أن الكاتب لم يذكر هذا صراحة أو تلميحا ولكن منهجية الرمز من خلال الصراعات والمواقف الدرامية تؤكد لنا هذه الدلالة إذ أن زهرة كانت السبب الكامن وراء هذه الصراعات أو كما يقول عامر وجدى كان الجميع يميلون إليها فيما اعتقد ، كل على طريقته (ص ٦٥) وفى الحوار التالى بينهما وبين شقيقتها وزوجها عندما حضرا إلى البنسيون فى محاولة لارجاعها للقرية مرة أخرى دليل على الرمز المتجسد فى شخصية زهرة

كان الرجل يقول :

– حسن أن تذهبى إلى المدام ولكن عار أن تهربى

وقالت أختها :

– فضحتنا يا زهرة فى الزيادية كلها

فقالت زهرة بغضب وحدة

– انا حرة ولا شان لأحد بى

– لو كان جدك يستطيع السفر

– لا أحد لى بعد أبى .

– يا للعيب هل كفر لأنه أراد أن يزوجك من رجل مستور ؟

– اراد أن يبيعنى

– الله يسامحك قومى معنا

– لن ارجع ولو رجع الأموات ص (٦٨)

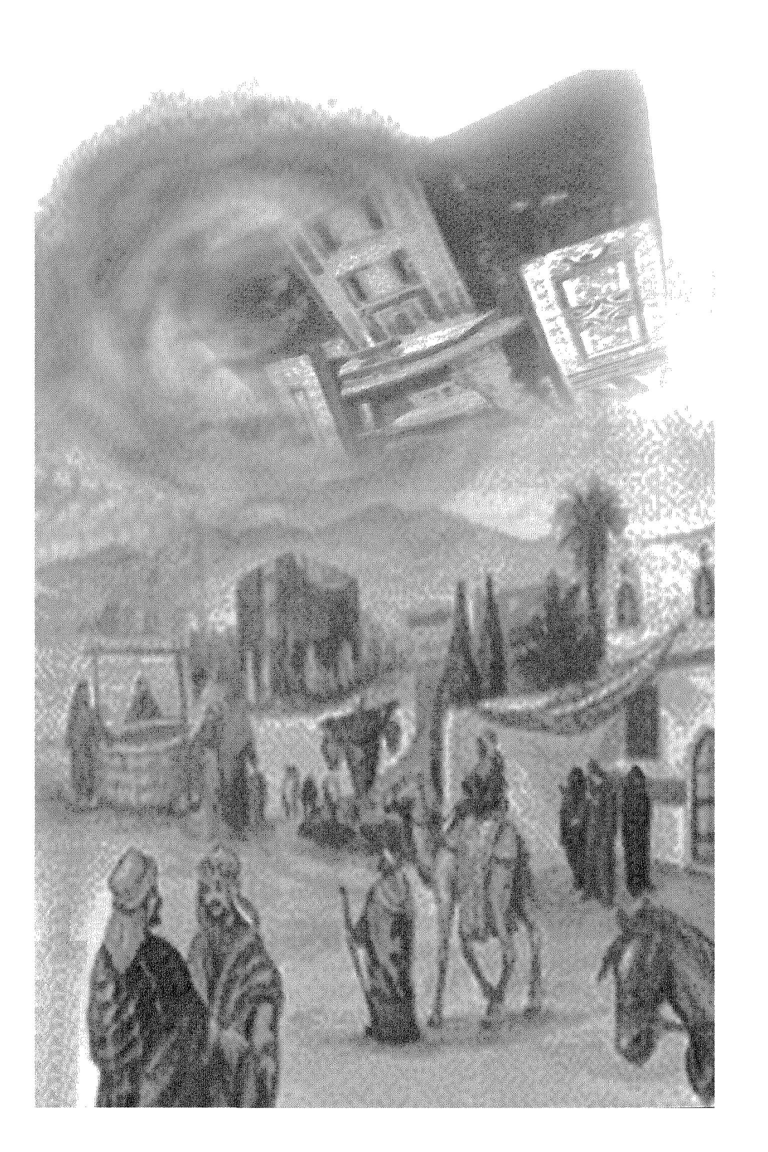
فى مثل هذا الحوار تبدو شخصية مصر القوية وارادتها الحديدية التى رفضت الرجوع إلى مجتمع القرية العفن وهى الارادة الحديدية التى كانت الشرارة التى اندلعت منها كل الصراعات حتى نهاية الرواية فمثلا نجد منصور باهى يقول : إن الأحداث التى تقع فى البنسيون تكفى قارة باكملها . وحدث قلبى بان زهرة محورها كالعادة . (ص ١٨٣)

لعل هذه الإطلالة الخاصة برواية ميرامار والتى فجرها الموقف الذى وقفته الدكتورة يمنى العيد والأستاذ محمد دكروب وأنا أمام المكان والبناية التى كان موجودا فيها بنسيون ميرامار كان هو الذى أعاد إلى الأذهان شخصيات الرواية والبحر والبنسيون وهذا العالم الزاخر من الصراعات والمواقف الباحثة عن القيم الحية فى حياتنا الاجتماعية وفى تقديرى أن شخصية زهرة وهى نمودج فريد فى أدب نجيب محفوظ بل إنها أول فلاحة تتحرك فى رواياته تبحث عن الاستقرار والآمان على كثرة النماذج النسائية فى أدبه إنما كانت تمثل الرمز الحى لنفس المكان المستوحاة منه الرواية وهو الأسكندرية . ■

قصــة قصيـرة

المخطوطة البغدادية

قصة
جبار ياسين



(فى مجلده المخطوط «المروج السماوية» - التى يعتقد البعض أن مخطوطته تلفت فى ركام المخطوطات الراقدة دون عناية فى مكتبة المتحف العراقى فى بغداد * - يتحفنا أبوالحسن البغدادى بحكاية نادرة. وأبوالحسن، كما تخبرنا موسوعة أعلام بغداد هو عالم عاش فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، وألف فى مدينة دار السلام، كما كانت تسمى، الكثير من الكتب فى علوم البلدان والملاحة والفلكيات وأسرار المعادن النادرة، حتى أنه، كما يخبرنا ابن النديم صاحب موسوعة «الفهرست» ، أفرد كتابا لخصائص الزئبق واستعمالاته. ذلك قبل أن يهرب إلى البصرة بعد أن اتهمه قاضى بغداد بالزندقة. فى هذه المدينة تحول للتأليف فى أحوال الصوفية وأعلامها. وتروى المصادر أنه انصرف إلى هذا الصراط بعد لقائه بشيخ من المتصوفة اسمه أبوجعفر الغزنى قدم من كابل فى السنة ٣٨٨ من

الهجرة. لكننا لا نتوفر اليوم على كتب له غير مروجه السماوية المخطوط، فمجمل كتبه قد ضاعت يوم غزت العساكر المغولية مدينة الزوراء، فأعملت في المكتبات حرقا أو اغراقا في دجلة الذي صار لون مياهه بلون الحبر كما تذكر كتب الاخباريين.

في مخطوطته يخبرنا العالم البغدادي بما يلي: «في مساء يوم قائظ صادف اليوم الأول من شهر رمضان كنت متجها إلى المسجد لأؤدي فريضة المغرب، حينما اعترضني دلالا بيده مجلد متوسلا بي أن آخذه بثلاثة دراهم ليشترى بها فطور ذلك المساء رددته بتبرم، فقد كنت على عجالة من أمري، لكنه ذكرني بأننا في أول الشهر الكريم أعطيته ثلاثة دراهم وتصدقت عليه بدرهمين أفتتح بها الشهر المبارك،



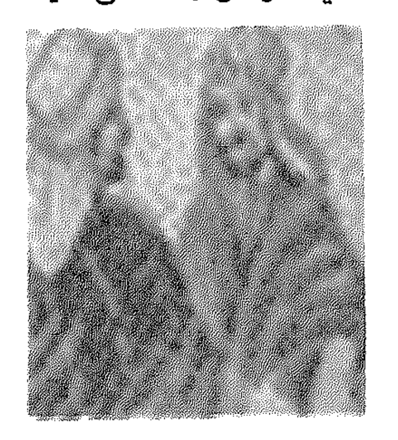
كانت هي كل ما في جيب جبتي ذلك المساء».

يضيف في المخطوطة المكتوبة بخط يده كما هو مشار أسفل الصفحة بعبارة «خطها الحقير إلى ربه أبوالحسن البغدادي»: «أديت الفريضة وعدت إلى داري، وكان الرجل قد غادر المكان. فطرت بعد أن نويت بمرق حلو من فواكهة مجففة من طائفة المشمش والعنجاص المخلوط باللوز والعسل وليمون البصرة القوي النكهة مع شيء من الرز وقرص من خبز تنور البيت الذي خبزته زوجتي الشابة، التي كانت قبل زواجي منها جارية من رومية. بعد الفطور انصرفت إلى فسقية الدار لأنعش نفسي بسماع رقرقة سقوط الماء في حوض النافورة. تذكرت المجلد الذي اشتريته في طريقي إلى المسجد فبحثت عنه ساعة قبل أن أجده تحت عمامتي. فتحته بعد أن استلقيت على أريكتي. قلبت صفحاته فوجدت فيها تسع وعشرون حكاية، خطت عناوينها بحذاقة خطاط يعرف أنواع الخطوط التي صنفها الوزير بن مقلة شيخ الخطاطين ببغداد. بحثت عن اسم المؤلف أو الناسخ في آخر الكتاب فلم أجده، غير أني وجدت تاريخا مكتوبا بأرقام بيزنطية يشير إلى السنة ١٠٠٢ حسب تقويم رومية. خمنت أن كاتبه نصراني أو لعله من فئة المترجمين الذين يسافرون إلى رومية بحثا عن كتب أرسطو وأفلاطون التي شاعت تراجمها في بغداد هذه الأيام. ألقيت نظرة فاحصة على الحكايات

فوجدت أن أسلوبها يختلف عما ألفنا نحن العرب فى تسطيره ونسجه، فلا أشعار للأقدمين يحتذى بها ولا بسملة أو آيات من الذكر الحكيم تفتتح الكتاب ولا تصنيفات وتبويب حسب الموضوع والمناسبة، بل مجرد حكايات، عابرة، يحكيها المرء عن نفسه، مثل حكايات المجانين فى بغداد الذين صنف لهم التوحيدى رحمه الله كتابا. حينذاك فهمت أن كاتبها رومى أو ممن لرومية وأساليب أهلها فى الخيال أثر فى أسلوبه. عزمت على اخفاء المجلد عن زوجتى كى لا أثير حنينها لمسقط رأسها البعيدة عنه. قلت لنفسى الحمد لله الذى وفر لى فرصة شراء هذه المخطوطة كى أتصدق بدرهمين لمحتاج فى أول هذا الشهر الكريم وأغسل بعضا من ذنوبى . حيث أنى دفعت ثلاثة دراهم لهذه البضاعة فلم أجد شرا فى قراءة ما ورد فيها، فمعرفة أحوال المجانين وتقلبات نفوسهم وأهوائهم، هى معرفة وكل معرفة بركة.

عكفت على قراءة الحكاية الأولى التى تتحدث عن طفل أصابته الحمى وأخذت بتلابيبه حتى حارت أمه فى أمره. حالما أنجزتها كانت الحمى قد سرت فى جسدى كالنار فى الهشيم حتى أنى، لضعفى وبلبلة لسانى، لم أتمكن من مناداة زوجتى لتجلب لى دثارا أو شيئا من اليانسون المغلى بالماء. انطرحت على الوسائد وما لبث النعاس والحمى أن غلبانى فنمت.

حلمت ليلتها أننى كنت الطفل ذاك الذى قرأت هذيانه وأهوال الحمى عليه.



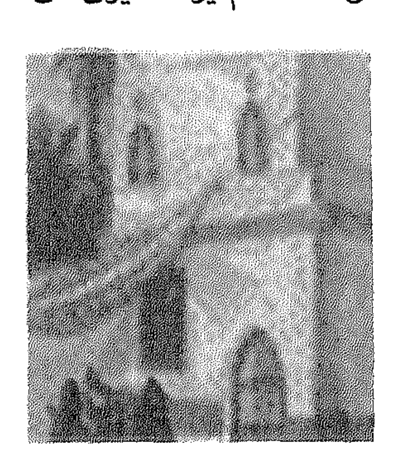
رأيت ما رأى من أفراس حديدية تعوم فى النهر وجذوع أشجار كسلاحف عملاقة تطفو فى أنهار سريعة الجريان. خضت فى مياه مستنقعات آسنة تعج بالتماسيح والطير العجيب. فزعت كما فزع حين وجدت نفسى أطير وقد نبت فى جانبى جناحين وصرت مثل طائر الرخ. تألمت كما تألم وانطرحت فى المكان الذى كان منطرحا فيه تحت سوباط من جذوع الأشجار . أمه كانت أمى وخالته خالتى وأخاه أخى وصورته صورتى.

فى الفجر استيقظت للصلاة وكان الحلم فى رأسى، غير أن الحمى ولت، وشعرت بأنى فى أحسن حال كما لو أنى قضيت ليلى عند جرف دجلة.

فى الليلة التالية لم أقاوم رغبتى فى قراءة الحكاية الثانية. بعد

الفطور، صليت العشاء في باحة المنزل فقد هبت عجاجة منعتني من الذهاب إلى المسجد. بعد الصلاة خفتت الريح وانقشع الغبار وازدانت السماء بنجومها، فانطرحت على أريكتي وفتحت المجلد حيث توقفت بالأمس. وجدت الطفل وسط عيد عجيب وفى مدينة غريبة وفد إليها البشر زرافات كي يبتهجوا بألعاب كأنها سحر أهل الهند. كانت أمه معه تقوده من تكية إلى أخرى فيها أجناس من بشر بسحنات سود وصفر وحمر لهم عصائب مثل عصائب صغار الحي. المدينة منورة بمصابيح شدت إلى أغصان الشجر وفى وسطها نصب القوم وليمة تجمع حولها الحواة وصانعى الأصنام والصور وباعة الحلوى والخبز المشوى على أسياخ حمراء. حالما انتهيت منها غلبنى النعاس، كما غلب الطفل فى الحكاية، ومضيت إلى طبقات الحلم أعيش فى عالم مسحور فيه العجائب التى لا يعقلها عاقل. وقع لى كل ما وقع للطفل حتى استيقظت مفزوعا من هذا الجيثوم. لكن جسمي كان فى أحسن حال على رغم ما قطعت من مسافات وما سمعت من أصوات .

هكذا كل مساء كنت أقضى ليلى فى روح أخرى وفى جسد آخر وفى مكان آخر، يعلم الله كم كانت غربتى فيه، رغم أنه محض مكان حلم. كل ليلة بعد الفطور كنت أغرق فى المجلد ثم أسافر بعدها، فى نومى، إلى حيث يعلم الله من أمكنة لم يرها غيرى من



البشر. دام الأمر مادام وأنا أقرأ حكاية كل ليلة حتى ظهر هلال العيد فى الليلة التاسعة والعشرين ، فاستبشرت كما استبشر الناس وأطمأنت نفسى؛ كنت قد أنجزت قراءة التسع وعشرين حكاية فى تسع وعشرين ليلة من ليالى الشهر المبارك.

فى صباح العيد اغتسلت وتعمرت بالبياض وتعطرت بالمسك ومضيت قبل الظهر إلى المسجد لأؤدى فريضة صلاة العيد. أخذت المجلد معى بعد أن قررت بيعه بنفس الثمن الذى اشتريته به وقد عرفت الآن سره. لم يكن صعبا على ذلك فى هذا اليوم، الأول من أيام العيد، الذى ازدحم فيه سوق الوراقين ببغداد بجامعى المجلدات والدواوين ونفائس الكتب. ما أن خرجت من المسجد حتى وجدت شابا يقف فى ذات المكان الذى رأيت فيه الدلال قبل تسع وعشرين

يوما. تلقف المجلد منى. دسه تحت أبطه بعد أن ناولنى ثلاثة دراهم كأنه أعدها لذلك منذ زمن طويل، ومضى بعيدا. دون أن يلتفت. مازلت إلى اليوم أذكر سحنته. كان على عتبة الثلاثين من عمره وقد شذب لحيته، التى لم يخالطها بياض، على طريقة أهل فارس. كان فارع الطول لكن فى مشيته شيء من أنوثة. حين عدت إلى الدار أول الظهيرة، كان الصبيان يلعبون فى الجادة لعبة الجمدان. وزعت عليهم بعضا من الحلوى المطعمة بالفستق التى تبضعتها لزوجتى. حين دخلت الدار وجدتها منحنية على صينية من النحاس تلمعها برماد التنور البارد. حالما أبصرتنى تركت الصينية فى مكانها ونهضت مقبلة نحوى وهى تنفض الرماد عن يديها. قبلتنى، ليس على عادتها وقدمت لى ضفيرة من الفل اشترتها فى غيابى. حين سألتها عن سر هذه القبلة والهدية وكأنها وقعت فى عشقى من جديد، قالت إن ذلك من تقاليد أهل رومية حين يصادف ذكرى ميلاد الرجل. تذكرت الحكاية السابعة فى المجلد وزهرة الفل التى كان يشمها الطفل كل صباح. عرفت أن حياة الطفل فى المجلد هى بعضا من حياتى التى أعيش فصولها متأخرا.. ابتسمت وحدى فقد كنت قد بلغت ذاك اليوم التسع وعشرون عاما من عمرى، وهو عدد القصص التى قرأتها فى أيام شهر رمضان الذى صادف ذلك العام تسع وعشرون ليلة قمرية. ■

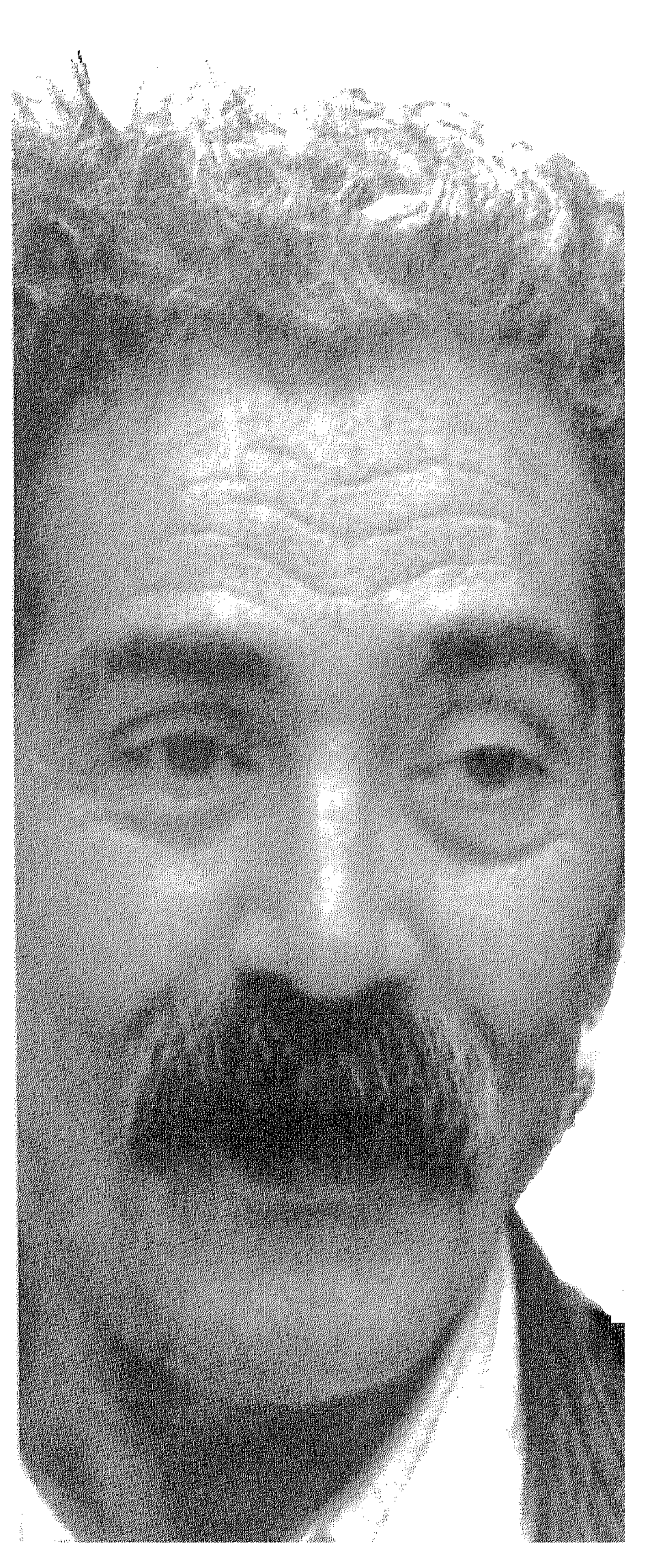
---

* أسر لنا البعض ممن انكبوا على دراسة المخطوطات وتحقيقها أن نسخة من المخطوطة محفوظة بعناية فى مكتبة جامعة ليدن فى هولندا. ولا ندرى كيف وصلت هذه النسخة حتى رفوف هذه المكتبة العتيدة!.

إبراهيم أصلان

يؤسس لقصة حالمة

بقلم
عذاب الركابي



إبراهيم أصلان .. فى قصصه القصيرة فنان يشكل ، بل يرسم بحب ، ومهارة ، وشاعرية ، وتقنية عالية ، وكأنه يؤلف صورا وأنغاما بواسطة الكلمات - حسب تعبير ميشال بوتور .. وهو يريد لقصصه القصيرة أن تكون لوحات تشكيلية ، ترتدى عمق ودفء وشفافية اللوحة والقصيدة معا ..!!

إبراهيم أصلان .. ببساطة شديدة يؤسس لقصة حالمة من مميزاتها امتاع القارىء، والارتقاء به ، والتحليق فى عوالم جديدة ، وهادئة ، لاتمطر إلا نيازك من الكلمات الحميمة ، وصورا ، وأنغاما ، وبنفسجا..!!

فى قصة (ولد وبنت) وهى القصة الأولى فى مجموعته القصصية : «يوسف والرداء» بساطة ، وشفافية يثبتان قدرة القاص ، وحنكته فى ترويض حروفه لتتسع لهمومه المتشابكة والكثيرة .. فهذه اللغة الجميلة المتقنة .. والشاعرية الرقيقة قد جسدت حالة العشق هذه التى اتسمت بالبساطة أيضا .. والخفة والنقاء :

« ماما قالت لى : إنهم سيتركون لنا الشقة إذا وافق أبى على زواجنا ، إيجارها رخيص جدا ، إنها تحبك الآن ، وعندما أخبرتها إنك لم تعد تدخن لأنى طلبت منك ذلك ، أحبتك أكثر ...» .

هذه البساطة المحببة ، والحروف الآسرة التى ينسج بها قصصه تضئ الحدث بتلقائية جميلة ، وأسلوب قصصى دافئ ، حميمى ، وجذاب يرغمك على الاستمرار فى القراءة والمتابعة ، والتأمل ، والمضى مع المزيد من الجمل القصصية المشغولة بحنكة ، والهادفة ، ذات التأثير .. والظلال .. والشاعرية .. والعمق ..!!

فى قصة « الضوء فى الخارج » يتمكن القاص من سحر القارئ وجذبه بخيط من الخيال الرقيق ، ومن خلال جملته القصصية البارعة ، والمتناسقة ، يضعه فى زورق ملون وسط أمواج طويلة من التفكير .. والتأمل .. والتمتع بحرية :

« كنت أشعر بالاطمئنان وأنا جالس بجوارها فى الظلام . لقد مضى وقت طويل قبل أن أجد الرغبة فى ترتيب شئ ما » . ص١٩

وفى قصة «بندول من نحاس » ما يقوم به القاص هو انفعال لحظة ذكى ، تطهره حركة شغب ضرورية .. فالكلمات البسيطة الدافئة يلونها القلق ، لترسم خارطة من المشاعر الجياشة بين بطلى القصة ، وتصبح الأحاسيس الصادقة هى وسيلة التفاهم .. واللغة الأنقى والأقدس ، ونرى القاص إبراهيم أصلان ، وبمهارة يبنى جسرا هادئا من هذه الأحاسيس النبيلة ليكون جادا .. مقنعا .. ومثيرا :

« احتضنها بذراعه الوحيدة وقبّلها وقبّلته ، وابتسما كثيرا جدا وهما واقفان بين الجدران العارية ، تحت الساعة الخشبية ذات البندول النحاسى الثابت . ومشط لها شعرها بأصابعه الطويلة النحيلة ، وتحسس ظهرها لفترة من الوقت، وعندما أوصلها إلى الباب كانت ذراعه مازالت على كتفها ..» . ص٢٨

فى قصة «رياح الشمال» يحرص القاص إبراهيم أصلان على إرساء دعائم نص قصصى مغاير ، فموضوعاته لا تأتى متكلفة ، ولا تخرج من حالتها الشفافة ، فهو لا يعيش مع أبطاله روحيا وشعريا فحسب إنما يضفى نوعا متفردا ، ومتميزا من الحب ، والاهتمام ، والدفء ، والحميمية عليهم ، فتراهم

يحبّون على سجيتهم ، ويتحدثون ويغضبون كذلك .. ، وأحيانا يبكون دون أن يتنازلوا عن حالة العشق الجارحة التي يعيشونها :

« وأمنيتي هي أن أسمع صوتك الحبيب الذي يشبه حفيف ريح الشمال .. إن الحب سيعيد الشباب إلى أطرافي ، اعطني يدك التي تمسك بروحك .. وسوف احتضنها وأعيش بها .. ناديني باسمي ، وإلى الأبد .. لن يصدر نداؤك أبدا دون إجابة عنه» .ص٣٤

في قصة «*يوسف والرداء*» يغرق القاص في واقع شائك مرير .. لا يريد أن ينفصل عنه ، بل يذوب فيه ، في لحظة حلم لا يؤدي إلاّ إلى يقظة سارة مبهجة .. وغامضة أحيانا :

« في الشمس ، التقيت به ، كان يحمل حقيبة جلدية خفيفة ، وحزاما من الجلد الأسود المجدول قال :

– سوف أريك شيئا ..!!

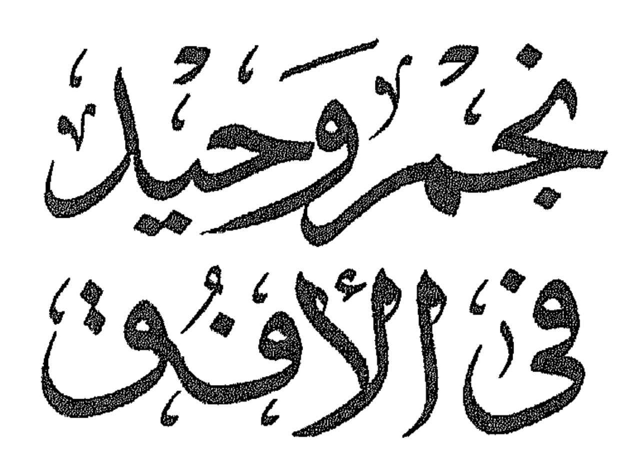
وقفنا أمام النافذة الكبيرة ، واقتربنا من القضبان السوداء كان يجلس وحيدا في ركن القاعة الحجرية العارية ..» . ص٤٨

في قصة «القيام» شئ من المغامرة ، أداة القاص لغة مموسقة واثقة، فالكلمات لا تفلت من بين أصابعه مجانا .. وهي ليست مبعثرة مهدورة ، بل تشكل كونا قصصيا ساحرا ، جذابا ، وموحيا ، فهذا التداعي الجميل من نسيج القصة ، وليس طارئا عليها ، وقد أراد به القاص عنصر تشويق .. وجذب .. وإغراء للقارئ :

« ورحت أشرب الشاي ، وأنظر عبر المدخل الزجاجي الكبير إلى الرجال والنساء الذين يمضون في الضوء الغارب ، لفترة قصيرة ، ثم يختفون » . ص٥٩

شاعرية عالية

في قصص «*إبراهيم أصلان*» شاعرية عالية ، تجعلك تتعامل مع أحداث القصة بحذر ، وخشوع ، وشفافية .. وهذا يتطلب منك قلبا موجعا ، وذاكرة صافية ، فتصير الكلمات ملكك ، من نسيج ذاكرتك أيضا ، وفيها من حرارة ودم أصابعك شيئا ، وأنت الغائب – الحاضر عبر جملة قصصية مشغولة بتأن ، وصبر ، ومهارة،.. تغير فيك الكثير ، وتفتح شهيتك إلى الإصغاء ، والتأمل في كل حرف فسفوري ساخن دحرجته أصابع القاص أمامك ، شغبا وحبا ، وهذا إن دل على شئ إنما يدل على التقنية القصصية التي تميز بها القاص إبراهيم أصلان ، فحولته من شاهد وراو إلى بطل مغامر من أبطال قصصه .. وربما هو الانفعال الذكي والمنظم لديه ، وهو يرصد حركة البطل ، أو وهو يخترق عليه زمنه الصعب ...!! ■



نجم وحيد في الأفق

بقلم
حسنى سيد لبيب

نلتقى بطل الرواية أو الشخصية المحورية التى تعمد الكاتب إغفال اسمه، من باب التجهيل أو بيان تفاهة الدنيا التى نحياها إذا ما قورنت بعالم آخر مجهول للإنسان.. عالم ينسى فيه المرء ما عاشه فى دنياه.. ينسى المكان، أو انه يضيع.. ينسى الأحداث المهمة والتافهة على حد سواء.. ينسى الأهل والصحاب، أو أنهم يغيبون من ذاكرته.. وفى القرآن الكريم، يحذرنا الله - عز وجل - من غواية الشيطان، ودعانا إلى عبادته سبحانه وتعالى.. الجنة ثواب لمن دخل فى طاعة الله والنار لمن عصاه.. يحاسب الإنسان فى آخرته على ما اقترفه فى دنياه.. إلا أنه يقف حائرا امام لغز الموت، الحقيقة المجهولة المؤكدة.. وقد نسج دانتى الليجيرى (الكوميديا الإلهية) وأعطى تصورا للحساب الذى سيواجه به الإنسان بعد الممات.. ومن قبله كتب أبو العلاء المعرى (رسالة الغفران).. وهناك (المدينة الفاضلة) و(اليوتوبيا) و(جمهورية) أفلاطون .. فى محاولة لتصور عالم مثالى غير عالمنا الذى نحياه.!

الذى لاحظته على محمد جبريل فى روايته القصيرة «نجم وحيد فى الأفق» أنه أورد نصوصا قرآنية، ودمجها فى النسيج الروائى، منها : «..ألزمناه طائره فى عنقه...» وتلقى هذه الآيات الضوء على اتجاه الكاتب الى تبيان ما بعد حياتنا الدنيا.. النزعة الإيمانية تستحوذ على صاحبنا بطل الرواية، ولنسمّه «صاحبنا» حتى لا يكون هناك خلط بينه وبين شخصيات اخرى سماها الكاتب وعرّفها.. لجأ إلى الصلاة للخروج من الحالة المرضية التى يعانيها، ولا يجدى معها علاج ، فالمرض نفسى وليس عضويا.. مثل هذه الحالة تجدى معها الصلاة والتقرب إلى الله.. لكنه فيما يبدو قلق ومتعب، مما اضطره الى اللجوء الى الشيخ نجاتى.. وكما يتوقع المرء قبل موته نجد صاحبنا قد تصاعد فى داخله احساس بأن حدثا قاسيا على وشك أن يحدث.. لم يخمن صورته، ولا حدود قسماته.. وتردد على المقامات والأضرحة ، وشارك فى حلقات الذكر والموالد، لعله ينسى غربته.. و«استوحش من الناس، وانقطع الى الله يصوم النهار، ويقوم الليل» .. اقتصرت حياته على البيت والجامع. ويبدو أن صاحبنا انعزالى بطبعه، مما أدى به الى الإحساس بالغربة، والتفكير فى الحياة الأخرى. وما حكاية نجمه الوحيد الذى يزامله من الميلاد حتى الممات إلا سجلا خاصا بالإنسان، يفتح عند الميلاد ويطوى بعد الممات! مشهد الجنازة المتكرر من يوم لآخر يكثف حدة الإحساس بفاجعة الموت، أو عبثية الحياة الدنيا. وثمة ايماءة أخرى بإحساس صاحبنا بأنه يساق الى قدره المحتوم، عندما نوى القيام بالرحلة إلى الجزيرة التى شهدت مولده، واستعان بخبرة الكابتن وحنكته فى ركوب البحر. لكنه اخفى عن الكابتن الباعث الحقيقى للرحلة.. خشية ان يرفض الفكرة، لما عرف عن الكابتن حبه للحياة. وفى هذا إشارة غير مباشرة بإحساسه بدنو الأجل.. بُعد آخر مهم فى حياته هو أن مرضه ليس له دواء عند الأطباء ، الذين بذلوا بدورهم كل ما فى وسعهم، ولم يبق الا رحمة الله وهى حالة نعرفها فى واقعنا بأن الشخص يشرف على الموت.. كما أن رحلته التى ينتويها لم يخبر اهله بها، وهى تلبية لنداء سماوى.. وما يُنمى إحساسه بدنو الأجل ما اشترطه عليه الشيخ نجاتى بأن يقوم بالرحلة بمفرده: «لا أحد يذهب مع آخرين.. كل واحد يذهب بمفرده»..

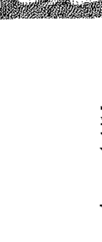
دلالات مهمة

للعنوان «نجم وحيد فى الأفق» دلالة مهمة، إذ تأسس عليه البناء الفنى للرواية. تدور الرواية حول صاحبنا الذى



مرض ولم ينفع معه طب الحكماء، فلجأ إلى المقامات والأولياء والعبادة.. كما لجأ الى الشيخ نجاتي الذى نصحه بأن يبحث عن نجمه، فلكل انسان - كما قيل له - نجم خاص به يظهر عند ولادته ويختفي عند وفاته.

تقدم الرواية فنا متميزا ، إذ تدور احداثها حول اعتلال الروح والسعى الدءوب للخروج من شرنقة الحياة الرتيبة المملة، صاحبنا نموذج إنسانى عادى نشأ ودرس وتزوج وانجب، ولم يبن الكاتب أشياء حادة او فواجع حدثت له. حياة عادية ولعل الداء يكمن فى هذه الحياة الخالية من الصراع، حين يمتد العمر بالإنسان ، تغيب الدهشة ويكون أميل إلى الصمت، ويرجع ذلك الى لحظات الاكتشاف التى ذوت.. والبطل هنا يتأمل تلاحق الامواج، وما تبوح به من اسرار . عانى حالة من الضيق والملل واللامبالاة والتحدى تردد على المستشفى والاطباء ومعامل التحاليل والاشعات.. ليس ثمة مرض عضوى يشكو منه! تردد على عيادات الطب النفسى ولا فائدة.. اخيرا لجأ الى الشيخ نجاتي الذى فطن الى اعتلال روحه، وان لم يكاشفه، لكنه رسم له سبيل الخروج من الأزمة . فقد شعر صاحبنا بثقل اعضائه وضيق روحه. قل نومه.. «ظل ذهنه فى تشوشه وروحه قلقة والطمأنينة غائبة عن قلبه» .. مثل هذه الحالة لا تجدى معها الصلاة؟ (..ألا بذكر الله تطمئن القلوب). انتابه احساس بان حدثا غير عادى على وشك الحدوث .. تردد على المقامات والأضرحة ، وشارك فى حلقات الذكر والموالد يلازمه احساس بالغربة لا يدرى منشأه لا مفر من اللجوء إلى الشيخ نجاتي الذى قال له: «اذا عرف المرء نجمه، ووصل اليه حيث يكون.. اتصل ماضى حياته بما هو قائم، بملامح الآتى» .. وافهمه انه عندما يموت الإنسان يذوى نجمه حالا ويأفل، نصحه برؤية نجمه الآن،. قال له: «لن يغادر النجم مكانه حتى يأتي موعد الرحيل» .. عليه التجرد من كل ما هو دنيوى حتى يبدأ رحلة التعرف الى النجم.. كما يتذكر مقولته: «ربما يتجسد النجم فى هيئة سمكة او طائر» . ويرى ان الطائر الذى يشاهده فى الجزيرة قد يكون هو نجمه الذى يبحث عنه.. فالانسان « ..ألزمناه طائره فى عنقه..».. يسأل نفسه ان كان المعنى هو ذلك الطائر النجم الذى يرافقه منذ الميلاد الى الممات! والمعنى الذى رسخ فى ذهن صاحبنا غير المعنى المقصود فى الآية القرانية التى اجتزئ منها هذا الجزء قال الله تعالى : «وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم



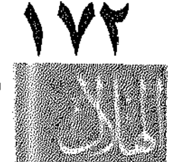
القيامة كتابا يلقاه منشورا».. والمعنى كما ورد فى احد كتب التفاسير الطائر عند العرب الحظ، ويقال له البخت، واصله انهم كانوا يتطيرون بمرور الطير، ويزعمون انهم يعرفون الخير والشر منها. فبيّن الله تعالى فى هذه الآية ان حظ الانسان معه بصلاح قلبه وفعله او فسادهما ولا علم للطير بذلك».

يتذكر ما كان يقوله له ابوه من انه ابن بحر.. ولدته امه فى (بلانس) حرصت على شم هواء البحر فى شهرها الأخير، وفاجأتها الولادة قبل وصولها الى الشاطىء، بالقرب من جزيرة خارج البوغاز.. يستعيد لقاءه بامه قبيل بدء الرحلة، وجزعها عليه. حين سألها : «اين ولدت» اجابت «ولدت فى جزيرة بعد الانفوشى»،، وقالت: «كان البحر حصيرة .. تنزهت مع أبيك فى الجزيرة ثم فاجأنى الم الولادة . لعل الكاتب يضع يده على مفاتيح الرحلة وبواعثها، هل نستطيع الجزم بأن الحنين الى مكان الميلاد دفعه الى القيام بالرحلة؟ هل نستطيع الجزم — ايضا – بأن إبداعات جبريل عن الحى السكندرى «بحرى» تأخذ المفهوم نفسه، بأن الدافع لهذه الكتابات هو الحنين الجارف الى مسقط رأسه؟ لكل منا حنين وشوق مستبد إلى مكان الميلاد، والعودة الى الجذور، او البحث عنها. فالوطن او مسقط الرأس .عنصر اساسى فى بلورة شخصية الإنسان.

أخال صاحبنا بتأثير الشيخ نجاتى عليه، اصبح يحمل مصباح ديوجين للبحث عن الحقيقة! أو أنه تتحدد علاقته بالنجم من حيث ولد يوم ولادته.. «هو قادم من نجمه ، ولابد ان يذهب إليه» .. وقد يكون الفضول هو الدافع القوى للبحث عن نجمه ورؤيته.

رحلة النهاية

الرحلة غامضة . شقها المادى الملموس ينحصر فى الوصول إلى المكان الذى شهد ولادته.. والتطلع إلى نجمه.. يقوم بالرحلة بمفرده، فى إشارة واضحة لدنو الاجل.. هى اذن رحلة النهاية .. والطائر الوحيد او النجم الوحيد هو النفس فى طموحها الدنيوى وفى صعودها إلى بارئها، وان كانت الفكرة مشبعة بجو اسطورى، والمعنى الذى قد يستغلق على البعض بأن المكان الذى شهد البداية، هو المكان الذى يشهد النهاية.. هو معنى مجازى.. لأن النفس لا تدرى على أى أرض ستلاقى ربها، يتدبر الكاتب قدره الله – عز وجل – على أن يعيد الخلق كما بدأه أول مرة والآيات القرآنية فى هذا عديدة.. والنجم أو الطائر أو الروح ما هى إلا مرادفات



للدلالة على أن الإنسان جسد وروح. الكاتب لا يطرح فكرة جاهزة لكنه يطرح تساؤلات تثرى خيال القارئ وتدفعه إلى التفكير قد لا يجد طائره الذى يبحث عنه وفى رحلة مثيرة محفوفة بالمخاطر تطلع إلى نجمه وخمن أى نجم يكون.. غالب الأمواج العاتية وهو وحيد داخل القارب الصغير. أحس بأن القارب تحول إلى قبر وأنه وحيد لا بشر ولا طير ولا صوت تساءل: أين ذهب الطائر الذى كان يحلق وحيدا فى الأفق؟ هل مات؟ وهل كان هو نجمه؟ وهل أومأ موته - إن حدث - بالسر والإشارة والمعنى؟ . اختفى الطائر قبل أن يعرف منه السر وإن لم يفسر لنا الكاتب أى سر هذا الذى يبحث عنه صاحبه هل هو سر الحياة أم سر الموت؟ يلتقى الشيخ نجاتى الذى سأل عما إذا كان التقى نجمه.. فأوضح له أنه فى لحظة رؤيته له كان يودعه وكان قد رافقه منذ ولادته وأن النجم لا يبعد عن ذاته وأن رحلته بدأت مع شرق شمسه وانتهت مع غروبها ولكل امرئ شمسه الخاصة.

الرواية من حيث كونها وسيلة من وسائل المعرفة مليئة أو هى مكتظة بمعلومات عن البحر والصيادين والأسماك والنوات... إلخ تكاد تطغى على مشكلة صاحبنا وما يهدف إليه من القيام برحلته وهذا اللون من الكتابة الروائية أغرم به جبريل وقطع فيه أشواطا بعيدة يذكرنا بألبير كامى وكونديرا وغيرهما من أعمدة الرواية الحديثة وجبريل برز فى العديد من رواياته وخاصة (رباعية بحرى)، كما برز فى العديد من قصصه القصيرة مثل قصة (سندس) و(الخسوف) و(القرصان) و(موت قارع الأجراس) وغيرها.

البحر واللغز

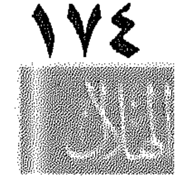
الغريب فى هذه الرواية وما سبقها من روايات عن حى (بحرى) أنها تؤكد قاعدة أن كل ما لا يعرفه المرء يتوق إليه فما سمعنا عن محمد جبريل أنه مارس الصيد أو أمسك بمجداف أو سعى إلى صيد سمكة واحدة بسنارة أو شبكة وفى أحاديثى المتبادلة معه لا يذكر شيئا من هذا.. لعله فى الجانب الإبداعى يتحول إلى عوالم غير مألوفة له أو إلى الضد هادفا إلى إظهار غرامه بالبحر وتوقه إلى عالمه الموار.. نعم هو يعرف المكان - حى (بحرى) - معرفة جيدة.. لكن البحر هو اللغز الذى يقف أمامه مبهورا مندهشا فكانت هذه الكتابات وكان هذا الغوص فى تفاصيل حياة الصيادين وعالم البحار الملئ بالكنوز والأسرار يتعرض لذكر (سيم) الصيادين

والبحارة. وتواريخ النوات . وأنواع الأسماك . يقول على لسان صاحبنا: «أنا سكندرى وإن كنت لم أنزل البحر» . كأنه - دون أن يقصد - يحدثنا عن نفسه! وصاحبنا سعى إلى ممارسة الصيد وركوب البحر واكتسب مهارة من الكابتن الذى أسهب فى سرد التعليمات والنصائح وأعطاه خبرته.

ثم ينقلنا الكاتب إلى جو أسطورى إلى عالم غير عالمنا ولعب الخيال لعبته فى رسم هذا العالم، كأنه الجنة.. مما أشعرنا بأن صاحبنا قد عبر البرزخ وانتقل إلى حياة أخرى نسى فيها أهله وأصحابه فأشعة الشمس تحولت إلى قبس أضاء الموجودات وتداخل الضياء فى الضياء النور فى كل اتجاه ساطعا قويا كما لم ير من قبل.. لا نهاية لآفاقه.. لا سماء ولا أرض ولا ضفاف «طالعة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»٢٠. ويصف النور بأنه، «مسكون بقداسة نورانية علوية لم يسبق له رؤيته» ٢١. «كأن المرض قد ذهب ذوت الآلام فى جسده وتلاشت وصفا الذهن» ٢٢.

وتعد رواية (نجم وحيد فى الأفق) امتدادا لإبداعات الكاتب عن الاسكندرية وحى (بحرى) على وجه الخصوص سبقها روايات: (قاضى البهار ينزل البحر) عام ١٩٨٩ و(الصهبة) عام ١٩٩٠ و(النظر إلى أسفل) عام ١٩٩٢ و(الشاطئ الآخر) عام ١٩٩٦ (ورباعية بحرى) عامى ٩٧ و١٩٩٨ و(المينا الشرقية) و(مد الموج) عام ٢٠٠٠.. بالإضافة إلى كتابين آخرين فى السيرة الذاتية: (حكايات عن جزيرة فاروس) عام ١٩٩٨ و(الحياة ثانية) عام ١٩٩٩ وإن كانت (مد الموج) تنتمى إلى السيرة الذاتية أيضا.

وقد حققت رواية (نجم وحيد فى الأفق) التدوير إذ نجد صفحاتها الأولى امتدادا لصفحاتها الأخيرة إلا أنه فى بداية الرواية أحس بحنين إلى حى(بحرى) وناسه، وأحس بملل ورتابة، رغم أن المرض الذى يشكو منه قد زالت أعراضه وآلامه وصور صاحبنا - فى نهاية الرواية - يحيا فى مكان أشبه بالجنة، دون حساب أو تطهير لنفسه مما شابها فى الحياة الدنيا كأنما الكاتب أشفق على صاحبه بعدما واجه أهوالا وصعابا كفيلة بأن تشفع له، وقد غامت من ذاكرته وقائع حياته فى (بحرى) وارتباطه بالأهل والصحاب والرواية - رغم كل شئ - محاولة جادة للخروج من شرنقة الماديات والتطلع إلى عالم شفيف الرؤى، طاهر الأيادى! ■

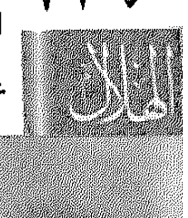


من الجفاوة إلى التجاهل

بقلم
محمود قاسم

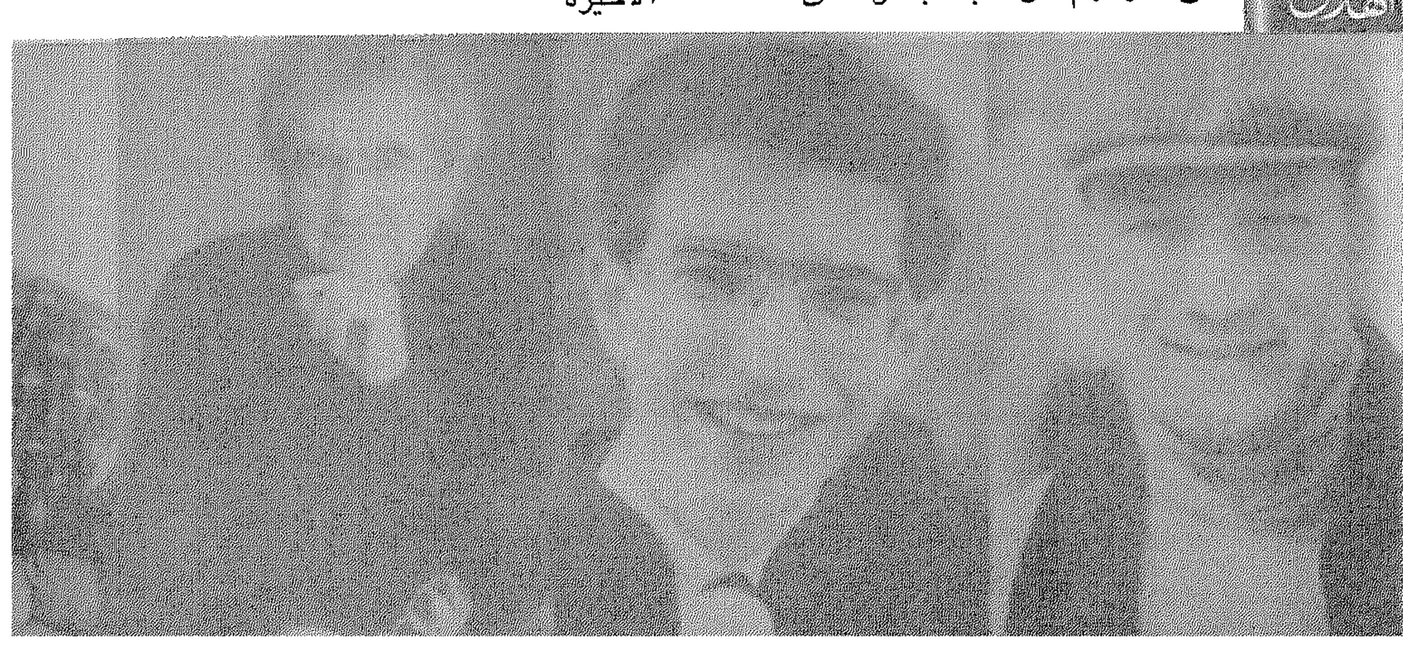
جاء عشرة أدباء ، يكتبون باللغة الفرنسية ، الى مصر فى بداية الشهر الماضى ، بهدف إلقاء بعض من إبداعهم على جمهور القراء وانتقلوا فى احتفالية ملحوظة بين أكثر من قاعة فى القاهرة والأسكندرية .

أغلب هؤلاء الادباء مقروءون فى بلادهم ، ومعروفون للقراء المهتمين بالثقافة المكتوبة باللغة الفرنسية ، وحاصلون على جوائز أدبية مهمة عديدة ، وموجودون فى الساحة منذ سنوات طويلة ، وأكثرهم تجاوز سن الشباب منذ فترة .



نشاط ثقافي مكثف تم فى إطار معرض الكتاب بما يعني أن علي المهتمين بالثقافة، خاصة الادباء ، ان يجدوا فيما حدث فرصة للتعارف على أقرانهم من أدباء جاءو ا من أنحاء متفرقة من العالم لكن شتان بين المأمول ، والواقع ..

فما حدث يعكس أحوال الثقافة الأجنبية في مصر ، خاصة في السنوات الأخيرة



عندما قام برناردشو بزيارة مصر في أوائل الثلاثينات ، ظلت زيارته تلقي صداها لسنوات طويلة ، وعندما جاء كل من اندريه جيد وجان كوكتو في نهاية الاربعينات الي القاهرة أحاط بهما المثقفون والادباء طوال زيارة كل منهما ، وفي الستينيات كانت زيارة ايفتشنكو ، ثم جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار بمثابة أحداث تدخل التاريخ وقامت مجلة «الهلال» بعمل ملفات واعداد خاصة عن كل منهم .

وفي نهاية السبعينيات جاء جونتر جراس بصحبة فيلم « الطبلة الصفيح » والتقي بالمهتمين بالادب الالماني الحديث وفي بداية الثمانينات جاء آرثر ميلر ضمن وفد أدبي ضم أدباء يهود أو ، متعاطفين مع إسرائيل منهم ايلي فيسل (نوبل ١٩٨٦ فرع السلام) ، ووليام ستايرون صاحب رواية اختيار صوفى ولم ينتبه أحد الي خطورة هذه الزيارة التي تمت لمباركة معاهدة السلام .. باختصار الآن بعض المثقفين يعرفون ميلر ككاتب مسرحي أو ربما كزوج سابق للراحلة مارلين مونرو ، لكن الآن فإن فيسل ، وستايرون لهما أهمية أكثر من ميلر.

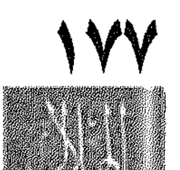
وفي عام ١٩٨٦ قام ويليام جولدنج (نوبل ١٩٨٣) بزيارة الريف المصري ، ولم يقابله أحد الا صديق مصري ، والف جولدنج كتابا عن مصر ، لم يقرأه أحد منا بالمرة .

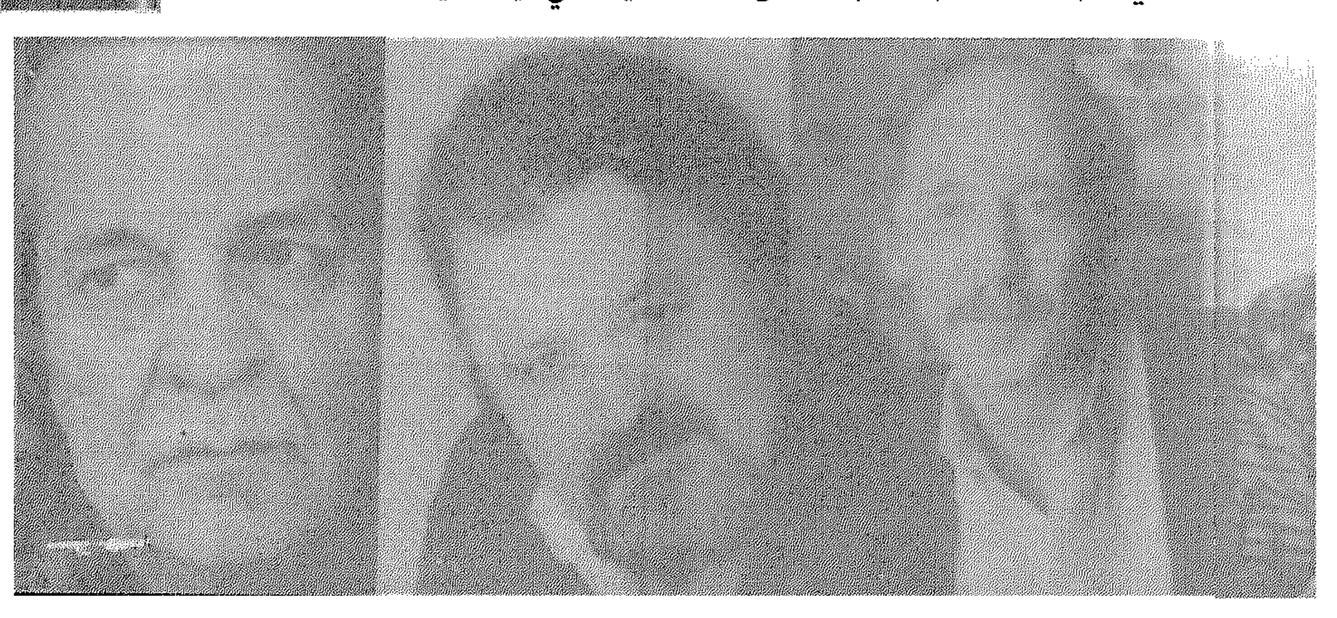
هل قرأت الادب المصرى ؟

وفي منتصف التسعينيات ، جاءت نادين جورديمر (نوبل ١٩٩٣) لحضور مؤتمر القمة الافريقى، وفي ندوة عقدت لها بهيئة الكتاب انكشف كبار المثقفين في مصر وهم يطرحون عليها أسئلة لا تقل سذاجة عما يطرحه صحفيون مبتدئون من طراز : هل قرأت الادب المصري ؟ ما انطباعك حول أول زيارة تقومين بها إلي بلادنا ؟

ورغم أن اعمال جورديمر كانت منشورة باللغة العربية ، علي الاقل روايتها المهمة « ابنة برجر »، فإن أحدا في القاعة المزدحمة لم يسألها سؤالا واحداً عن إبداعها..

وفي السنوات الاخيرة زار مصر كتاب مشهورون في بلادهم ، منهم الامريكي ريتشارد فورد، الذي أصر علي عدم استخدام سيارة ، والتجول في الشوارع للاحتكاك مباشرة بالناس، ومنهم التركية كينزة مراد. ومنذ شهرين تقريبا جاءنا لوكيلزيو اهم ادباء فرنسا الذين علي قيد الحياة ،





والآن هـا هـم أدبـاء بـارزون مـن سـويسـرا : جـان لوك بنزليـو، ومن الكونجـو هنري لوبيـز ، ومن كندا : روجيه بلاي ، وبرونوروا ، ومن فرنسا : آني سـومـون ، وغـيـرهـم ، وحـسـب البـرنامج المسمي «قراءات متقاطعة» كان علي جمال الغيطاني ، وأحمد عبد المعطي حـجـازي وأدورد الخـراط أن ينضموا الي هذه القراءات لكن «حجازي» شـارك وحـده في إحـدي جلسـات القراءة،روجان نوبل بلان وماري فرانس بيـزران وقـرأ الغـيطانى اقصوصته«الترام» فى جلسة أخرى

قبل الحديث عن أهمية هذا اللقاء ، فإننا يجب التعرف علي القاعات التي ذهب هؤلاء الادباء لالقاء قرائتهم فيها في القاعة الرئيسية بالمركز الثقافي الفرنسي جلس في المقاعد الخلفية طلاب وطالبات بعض اقسام اللغة الفرنسية بكليات متعددة بناء علي تعليمات من اساتذتهم بينما امتلأت المقاعد الاولي بأطقم بعض محطات التليفزيون ووالإذاعة لعمل لقاءات مع الضيوف عقب انتهاء القراءات ، وفي الندوة التي عقدت في قاعة بالمجلس الاعلي للثقافة كان الحضور تقريبا صفراً .. وفي الندوة الثالثة التي قرأفيها كل من أني سومون وجمال الغيطاني قصصهما قد خلت القاعة تماماً من الرواد ، الا بعض الموظفين.. .

لو كان المثقفون المصريون الذين غابوا تماما عن هذا الملتقي ، قد سمعوا الي الكلمات الحادة والمليئة بالرؤى والموضوعية تحت عنوان «لماذا أكتب؟» التي ألقاها لوبيز لقام الكثيرون منهم بتغيير مسيرته ولتغيرت أشياء كثيرة مهمة في حياتنا الثقافية ، ولكن الرجل المتحمس القي كلمته لترتد اليه ولزملائه الذين جلسوا معه علي المنصة من أجل التعرف على أهمية هذا اللقاء ، من المهم تقديم هؤلاء الادباء ، وعلى رأسهم هنري لوبيز، البالغ من العمر ٦٥ عاما.. فهو من مواليد ليو بولد فيل بالكونجو عام ١٩٣٧ . وقد تولى العديد من المناصب الوزارية فى بلاده، بالاضافة إلى منصب رئيس الوزراء ، وذلك بين عامى ١٩٦٩ و١٩٨١ ، ثم تولى منصب المدير العام لمنظمة اليونسكو بالنيابة فى الثمانينات، معروف بنشاطه السياسى ، والأدبى ، حصل على جائزة الاكاديمية الفرنسية عام ١٩٨٣ ، وهو الآن سفير للكونجو فى فرنسا .

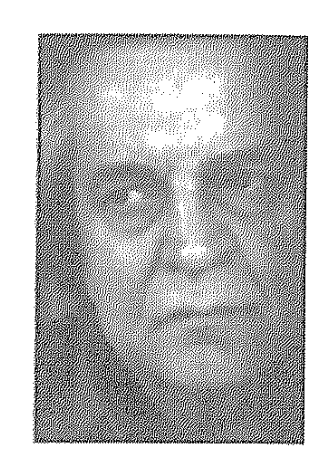
من رواياته «الرومانسية الجديدة» ١٩٦٠ «تحت التـمـام تام» ١٩٧٧ ، «الضاحك الباكى» ١٩٨٢ و«الباحث عن قارات افريقيا » ١٩٩٠ و«على الضفة الاخرى» ١٩٩٢ و«ملف مرتب» ٢٠٠٢.

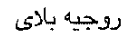
امرأة مولعة بالرسم

كل هذه الخبرات الثقافية والحياتية، والسياسية ، انعكست فى القراءة المتقاطعة التى قدمها لوبيز، سواء فى اختيار النصوص القصيرة، أو الاستفادة من الوقت ، أو فى بلاغته اللغوية ، وقدرته فى التعبير عما يريد توصيله إلى القارىء.

كان لوبيز قد تحدث عن اندريه فى روايته «الباحث عن قارات افريقيا» وهو رجل زنجى أخضر العينين، يقول انه اثناء طفولته أمتلات افريقيا بالضحكات





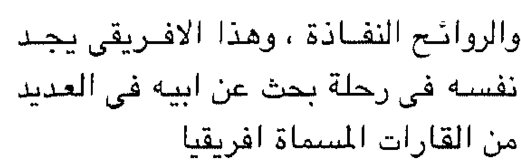


روجيه بلاى



أحمد عبد المعطى حجازى

إدوار الخراط



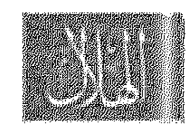
والروائح النفاذة ، وهذا الافريقي يجد نفسه فى رحلة بحث عن ابيه فى العديد من القارات المسماة افريقيا

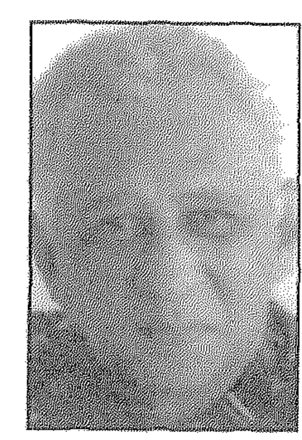
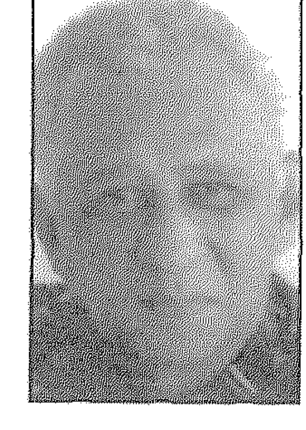
أما روجيه بلاى ١٩٣٧ ، فهو حالة خاصة من الابداع، جمع بين التأليف الروائي ، والتمثيل والاخراج فى السينما والمسرح ، انتقل للعمل فى العديد من البلاد، فقد سافر إلى الجابون وعمل مديراً لفرقة مسرحية، كما عمل ممثلا فى أفلام سينمائية وتليفزيونية بكندا .. كتب للاذاعة والمسرح ، والغريب آنه اتجه مؤخرا فقط لتأليف الرواية ، حيث نشر عام ٢٠٠٠ روايته الاولى «طيران الكوندور» ، ثم جاءت روايته الثانية... إختارت ان تموت» عام ٢٠٠٢ التى تدور أحداثها فى أندونسيا، وهى رواية تدور أحداثها فى المقابر ، وتتعامل مع الموت على أنه كائن حى.

أما الكاتب السويسرى جان لوك بنزوليو، فهو حاصل على أكثر من جائزة أدبية ، منها جائزة مدسيس عام ١٩٨٠ عن روايته «بورتريه لغرفة» هو من مواليد مونتى عام ١٩٤١ ، ابوه طبيب نفسى، وامه ايطالية الاصل، درس الحقوق والعلوم السياسية بجامعة لوزان، وقد اختار الكاتب ان يعيش فى باريس باعتبارها بؤرة للنشر، اصدر روايته الاولى عام ١٩٧٢ باسم «واحد آخر مات»، ثم «العلبة السوداء» ١٩٧٤، و«ذهب بيتو إلى الحرب» ١٩٧٦ و«الكاتب الشبح» ١٩٧٨ ، و«رسم مع مسدس» ١٩٩٣ و«نيران البحيرة» ١٩٩٨ و «الهرم الدائرى» ٢٠٠١.

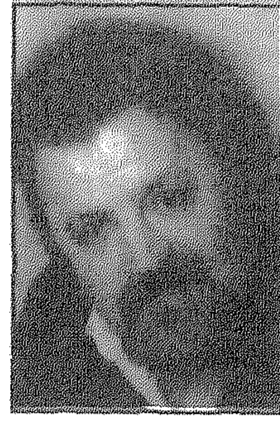
تدور روايته «بورتريه لغرفة »حول رجل يحاول اخفاء رسوماته تحت ستار واحد من الجليد الداكن . ولكن من العبث ان يفعل المرء ذلك. يتعرف على امرأة ترسله إلى مكان بعيد بهدف التفرغ للرسم يحس ان روحه فى هذا المكان قد خبت ، وانه يعيش فى منفى، ولذا لايرسم خطا واحدا.

أما روايته «لوحات لامرأة سابقة» عام ١٩٨٩ ، فالكاتب فيها يسير على خطى الرواية التجريبية، حول ولع امرأة بالفن التشكيلى ، والموت داخل النفس، والبحث عن منفى ملائم من خلال



هنري لوبيز



برونو روى

جان لوك بينوزيجليو

عاشقين افترقا بلا عودة

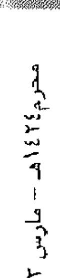
اللبن سائل أبيض

لم تكن للمرأة مكانة كبيرة وسط هذا العـــدد من الأدباء الذين يكتـــبـــون بالفـــرنســـيـــة ، وفى اطار القـــراءات المتقاطعة للقصة القصيرة، مثلت آنى سومون المولودة عام ١٩٤٠ ، عالمها السوداوى المليء بالأحزان وهى تقرأ بعضا من ابداعها القصصى وسومون حازت على جائزة جونكور فى القصة القصيرة عام ١٩٨١ عن مجموعتها «أحيانا فى الاحتفالات» وهى جائزة لاتمنح الا نادراً وليس لها صدى اعلامى قياسا إلى جائزة جونكور فى الرواية .. ورغم ذلك فان سومون نشرت العديد من المجموعات القصصية منها «الارض لنا ١٩٨٧» ولست شاحنة «١٩٨٩ ، وشيء ما فى الحياة ١٩٩١ و«اللبن سائل ابيض» ١٩٩٥.

ابطال سومون تائهون فى الحب ، تحطمهم اقدارهم ، ولهم طفولة معذبة ، كما ان لهم مفرداتهم اللغوية الشعبية، الخاصة بهم ، ورغم الآلام التى يعيشها الناس فى هذه القصص ، فإنهم يحبون الحياة بدليل تعلقهم بها.

بدا الشعر ، فى هذه الامسيات ، تائها، غير مطلوب ، خال من الصدى ، سواء ذلك الذى القاه الكندى برونو روى ، أو أحمد عبد المعطي حجازى، لذا جاءت قراءات حجازى فى غير مكانها، وعكس القاؤه أحوال الشعر المعاصر، فبالاضافة إلى لجوئه للتأثير على الجمهور بتنغيم الحروف والكلمات حين القى قصيدة له باللغة العربية، فانه افتقد إلى الحيوية والرصانة وهو يقرأ على الناس ترجمة نفس القصيدة إلى اللغة الفرنسية ، وكأنه بذلك يؤكد ، بما لارجعة فيه، ان الشعر قد مات.. بلاعودة...

السؤال الآن .. من هو الشخص الذى اختار الساعة العاشرة والنصف صباح الرابع من فبراير الماضى لإلقاء ندوة «الكتابة بالفرانكفونية» .. وسط هذا الخضم من الاحداث الثقافية ، ولماذا لم يتم ذلك داخل ارض المعرض نفسه؟... سؤال ..... ■



قصة مجلة الكاتب «٢»

صعوبة الاختيار

بقلم
أحمد عباس صالح

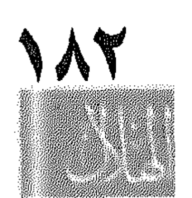
مضت اثنتا عشرة سنة علي قيام الثورة فى يوليو سنة ١٩٥٢ وصدور العدد الأول من مجلة الكاتب سنة ١٩٦٤. وخلال هذه السنوات جرت تحولات عديدة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى مصر. كان القانون الثالث للاصلاح الزراعى قد صدر وكان التعليم بكل مراحله اصبح مجانيا حتى الجامعة وكانت حكومة الوفد وبمبادرة من طه حسين قد جعلت التعليم مجانيا حتى الثانوية. وكانت القرارات الاشتراكية بتأميم الشركات قد استقرت بحيث أصبح الاقتصاد تحت اشراف الدولة. وكان الإعلام كله تحت هيمنة الدولة وكذلك أمكن استيعاب كل القوى العاملة فى المشاريع الجديدة المختلفة بحيث لم تعد هناك بطالة، ولم يتعثر من مشروعات الثورة إلا الخدمة الطبية التى يجرى البحث فيها عن طريقه لتشمل كل المواطنين.

في هذه الفترة كانت خصومات السلطة الجديدة مع اليسار المصرى بدرجاته المختلفة قد انتهت تقريبا وافرج عن جميع المعتقلين واسندت إلى بعض قيادات الحركات اليسارية وظائف هامة. وكانت فكرة الحزب الواحد مقبولة الى حد ما خاصة بعد تخصيص نصف مقاعد البرلمان للعمال والفلاحين. وصدرت تنظيرات متعددة لتبرير هيمنة الدولة على الاقتصاد والنظام السياسى. وبالنسبة للجدل حول طبيعة قرارات التأميم واتهامها خلسة بأنها نوع من رأسمالية الدولة صار اصباغ الطابع الاشتراكى الديمقراطى عليها بأن العبرة من أى قرار اقتصادى هو بالكشف عن الطبقة المستفيدة من القرار فإذا كان المستفيدون هم الطبقة العاملة والفلاحين، أى الأغلبية العظمى من فئات الشعب، يصبح القرار ديمقراطيا وتنتفى صفة رأسمالية الدولة، وكذلك الأمر بالنسبة للحرية السياسية بما تقتضيه من حق الانتخاب والترشيح، إذ صارت الديمقراطية الاقتصادية أساسا للديمقراطية السياسية وبدون تحرير القوى الشعبية من الاسترقاق لرأس المال تنعدم الديمقراطية السياسية أصلا. وهكذا صار هناك نوع من القبول بالتحولات فى صفوف الغالبية العظمى من الشعب.

وعلى الرغم من أن تركيز السلطة فى القيادة السياسية وصل الى أقصى تطرفه إلا أن الاصلاحات الاجتماعية كانت كفيلة بقبول تصرفات هذه القيادة وأوشك مفهوم النظام الابوى أن يكون حقيقة مقبولة. وفى هذا الوقت كان النظام الشمولى فى الدول الاشتراكية وخلفياته الفكرية يقدم تبريرا آخر لقبول تركيز السلطة. ومن بين القضايا التى كانت مثارة فى المجتمع المصرى حتى قبل قيام الثورة قضية التغيير الذى كانت الكثير من القوي الاجتماعية فى مصر ترى ضرورته، هل يتم التغيير بواسطة الديمقراطية عن طريق التطور التدريجى أم عن طريق الثورة. وكانت التجارب المصرية السابقة تؤيد التغيير بالثورة، وربما كانت هذه الخلفيات أيضا عاملا مساعدا آخر للسلطات الواسعة التى اعطيت للقيادة السياسية دون أن تواجه بمعارضة قوية.

ابتكار فكر جديد

فى هذا المناخ السياسى والاجتماعى وضعت الكاتب برنامجها الذى تركز فى عدة نقاط بلورتها مقدمة العدد الأول الذى صدر فى الأول من يناير سنة ١٩٦٤. فقد اختارت أولا أن تكون مجلة ثقافية بما تشتمل عليه كلمة ثقافة من اتساع. فهى ليست مجلة للتعامل مع الاقتصاد أو الفكر السياسى أو الاجتماعى أو الأدبى بل تشمل كل ذلك جميعا، وكان هناك ادراك لدى جميع المؤسسين لأهمية الأدب والفن. ولم تكن مصادفة أن الاعداد الأولى اشتملت على محاولات لابتكار فكر جديد فى كل هذه المجالات فمحمد عودة مثلا بدأ سلسلة مقالات بعنوان «حول البحث عن نظرية» وبالتالى صار لدى كتاب المجلة احساس بأنهم مطالبون باكتشاف فكر سياسى اصيل، وبالفعل صار استعراض شامل للنظريات المطروحة واهتم كامل زهيرى بتأصيل فكر الاشتراكية الديمقراطية وراح يتابع أفكار أهم مفكرى هذه الاشتراكية مثل هارولد لاسكى ومؤسسى جماعة الفيبيان وغيرهم، فضلا عن الكتابات حول النظرية الماركسية بدرجاتها المختلفة. كان الأحساس بحاجة المجتمع المصرى الى خلق ثقافة اصيلة فى كل المجالات هو الذى يقود



كتابها. وكان من الضرورى أن تستعرض المجلة الأفكار الحديثة المتداولة فى المجال الثقافى على مستوى العالم، لم يقتصر هذا الاستعراض على الفكر السياسى النظرى بل شمل كل شىء بما فى ذلك الفلسفة وكان على المجلة أن تعرض على قرائها المذاهب الفلسفية الحديثة تشرحها وتناقشها وقام بالجهد الأكبر فى هذا المجال فؤاد كامل الذي كان دارسا للفلسفة ذا قدرة خاصة على متابعة الجدل المحتدم فى العالم وبالنسبة للأدب كان «يوسف أدريس» يبحث عن شكل جديد فى المسرح بصفة خاصة يستمد عناصره من التراث الشعبى فراح يكتب مجموعة من المقالات بعنوان «نحو مسرح مصري» وكذلك بالنسبة لزكى نجيب محمود الذى راح يعالج موضوع الشعر الحديث.

كان لدى المجلة بشكل عام احساس بأنها عملية بحث فى كل المطروح من ثقافات بما فى ذلك أو فى مقدمة ذلك التراث الثقافى المصرى والعربى وفى مقدمة العدد الأول ورد هذا النص: «بصراحة ننوى أن نتكلم، أن نضع كل النقاط على كل الحروف، أن نشق بين التيارات الكثيرة التى تندفع نحو وطننا العربى من كل الجهات مجرى جديدا، نحاول أن يكون نقيا وخالصا لوجه الحقيقة.

لن نخفى، ولن ندعى أننا كنا على صواب دائما، ولكننا سنحاول الا نخدع انفسنا قبل أن نخدع غيرنا».

والواقع أنه حتى أول يناير سنة ١٩٦٤ كانت هناك تيارات فكرية ذات ثبات نسبى مثل التيار الدينى السياسى الذى يمتد من أزمة انتهاء الدولة العثمانية والفراغ الذى نشأ عن ذلك وبحث مسلمى الشرق الأوسط أو قل العرب بشكل اساسى عن جامعة اخرى تربط شعوبهم أو عن التمسك بالرابطة الإسلامية التى تنصل منها الثوار الاتراك وتركوا العالم الإسلامى بدون أى مظلة، ومن هذه الأزمة انبثق تيار الأخوان المسلمين الذى كان هدفه الاساسى اعادة الخلافة وقيام الدولة الدينية. وكان لهذا التيار وجود قوى داخل مجموعة الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة، على أنه فى المقابل كان هناك التيار التحديثى وهو ذو طابع ليبرالى توزع على الأحزاب السياسية طوال الفترة الملكية وكان له مفكروه وادباؤه وفنانوه الأقوياء، وكانت عناصره موزعة على كل مجالات الابداع والحياة الاجتماعية بشكل عام. ولكن بالنسبة للأجيال الجديدة التى ينتمى إليها كتاب الكاتب فى هذا الوقت كانت قضية العدل الاجتماعى غائبة أو لم تؤخذ بالجدية المناسبة، وكانت الصراعات السياسية بالغة الحدة بين الأحزاب الليبرالية والقصر الملكى الذى كان يسعى بكل جهده الى فرض هيمنة كاملة عن طريق شق هذه الأحزاب واستمالة بعضها الى سياسته ، وكانت بالتالى تؤثر فى تكويناتها وتؤرجحها بين المحافظة وأحيانا الجمود وبين التطور ومزيد من التحديث، وكذلك سلطة الاحتلال التى كانت تتلاعب بالاتجاهات المختلفة لتثبيت وجودها ورعاية مصالحها. كل هذا ادى إلى انقسامات كثيرة سواء على مستوى الفكر الدينى السياسى أو على المستوى الليبرالى. وكانت الوطنية المصرية فكرة اساسية طالما دفعت بالسياسة المصرية الى الاستقلال والرغبة فى الانسلاخ عن الحكم العثمانى وازدادت قوتها بعد الاحتلال البريطانى ونجحت بالفعل فى تغذية الثورة الوطنية واثراء الحس الوطنى بين طوائف المصريين.

ومن هذا التيار انبثقت التيارات اليسارية منذ العشرينات وكانت البروليتاريا الأجنبية من العمال اليونانيين والأرمن والايطاليين إلى جانب المصريين بالطبع بدأت التعرف على الأفكار الاشتراكية خاصة بعد الثورة البلشفية فى روسيا. أما المثقفون من أبناء الطبقة الوسطى المصرية فكانوا أميل الى الاشتراكية الديمقراطية حيث اصدروا العديد من الكتب المترجمة وغير المترجمة، بينما تكاتف آخرون من أجل الاشتراكية «العلمية» أو الماركسية بمفهومها اللينينى.

الشك فى الديمقراطية

على أن مصر الملكية والمحتلة كانت فى حالة رعب مرضى من الأفكار الاشتراكية وقد سلطت اجهزتها الأمنية ضد منظماتها بشكل مبالغ فيه وأودعت الكثير من شباب هذه المنظمات السجون، والغريب أنه كان لدى سلطة القصر احساس بأن النظام الملكى مهدد بالزوال وأن زواله سوف يكون على أيدى هذه القوي الجديدة، ولذلك حاربت هذه التيارات بقسوة شديدة وكانت حذرة جدا ومتنبهة الى أقصى درجة لما يدور فى المراكز الثقافية سواء فى الجامعات أو فى الصحافة أو منابر الأدب والفن. على أن ثورة الضباط الأحرار عندما قامت كانت تحمل معها بذور كل هذه التيارات، وكان الأعضاء الاساسيون أو قل المؤسسون ينتمون الى التيارين الراديكاليين من بينها: الأخوان المسلمين والاشتراكيين، وكلاهما لم يلتفت بشكل تفصيلى أو قل بشكل جدى إلى الديمقراطية أو كان لكل منهما منظور ديمقراطى خاص مختلف عن المفهوم السائد فى الديمقراطيات الغربية. وبصرف النظر عن الحديث عن اتجاهات ديمقراطية بين بعض قيادات الثورة والتى كثيرا ما تظهر الآن فى هذه الوثيقة أو تلك من الوثائق، فان فكرة الثورة نفسها كانت تنطوى على الشك فى الديمقراطية ذاتها كأداة صالحة للتغيير. وسرعان ما جرى نقاش نظرى حول الأشكال «الديمقراطية المناسبة».

فى وسط هذه الفسيفساء الايديولوجية ظهرت الكاتب وفى اعتقاد مؤسسيها أنه يجب الخروج منها الى فكر واضح متماسك وعلمى موضوعى. وكان من منجزات الحركة الثقافية المصرية – على أية حال – منذ رفاعة الطهطاوى حتى طه حسين وسلامة موسي ظهور حالة من الثقة الثقافية بالنفس، والجرأة على مناقشة كل المطروح من ابداعات الفكر العالمى وبصفة خاصة فى الاستشراق الذى صار محل شك ثم جرى عليه الفحص والنقد والتصحيح، منذ الشيخ الأكبر مصطفى عبدالرازق وطه حسين وتلاميذهما.

حضارة عريقة

والواقع أن العالم العربى لم ينس ابدا أنه منشىء الحضارة الإسلامية الكبرى التى سبقت الحضارة الغربية الحديثة مباشرة وأنهم حتى اللحظة الأخيرة – الى سقوط الدولة العثمانية – كانوا يشكلون مركزاً أساسيا لحضارة عريقة مازال تأثيرها قائما. وكان من الطبيعي أن تثور الشكوك فى صحة المفاهيم الثقافية التى يتلقونها من العالم الغربى الذى كان قد صار العدو الرئيسى الذى يواجهونه منذ سقوط الدولة الاندلسية فى نهاية القرن الخامس عشر حتى السقوط الأخير للدولة العثمانية فى نهاية الربع الأول من القرن العشرين. ولم يكن صدفة أن بدأت دراسات تاريخية موسوعية للمرحلة الفرعونية

أنظر موسوعة سليم حسن، ثم موسوعة التاريخ الأندلسى لمحمد عبدالله عنان، ثم دراسات أحمد أمين وطه حسين والعبادى وهيكل والعقاد وغيرهم بالنسبة للتاريخ الإسلامى بشكل عام.

والآن يبدو أن كل هذا الانجاز كان فى الخلفية الفكرية لمؤسسى مجلة الكاتب ففى مقال مقدمة العدد الأول من المجلة جاء هذا النص فى سطورها الأولى: «كنا الى زمن غير بعيد قد أعدنا البحث فى التراث العربى، وقمنا بحركة احياء على ايدى الاساتذة الطليعيين الكبار امثال طه حسين والعقاد وأحمد أمين وغيرهم من الكتاب، الا أن هذه الحركة كانت تنظيما للتراث على منهج علمى حديث، ولكنها لم تكن حركة للتقويم والتصحيح. وهو الأمر الذى يطالب به المناخ الفكرى الآن، لا لمجرد الرغبة فى تصحيح الأوضا ع أو اعادة النظر بل لضرورة تاريخية حتى نقضى على الفصام الثقافى فى ثقافتنا الحديثة والتراث. فبدون اكتشاف عناصر الاستمرار بيننا وبين تراثنا، سنظل غرقي تلك الأزمة الروحية، أزمة عدم الانتماء الى كيان ثقافى ليس غريبا عن بيئتنا، أو ليس أجنبيا عنها».

نقد لكل شيء

وربما يمكن القول أن الفكرة الأساسية التى كانت وراء اصدار الكاتب هى القيام بعملية نقد وتمحيص لكل شيء. الى غربلة كل ما لدينا من انجاز ثقافى سواء فى الفكر الغربى منذ عصر النهضة الى اليوم وكذلك، وربما فى الدرجة الأولى بالنسبة للتراث، وبالفعل سوف نرى أن الكاتب لم تكف عن اعادة النظر فى التراث ونقده، ولاشك أن كتابة كتاب «اليمين واليسار فى الإسلام» كانت وليدة هذا الحافز وكذلك الدراسات الأخرى التى قام بها كتاب آخرون مثل حسن حنفى وطارق البشرى وعبدالجليل حسن وغيرهم. وكذلك الأمر بالنسبة لنقد المذاهب والأفكار الغربية المعاصرة لقد اهتممنا بنقد التجربة السوفيتية لا من باب المراجعة أو العداء بل بروح النقد والتمحيص التى كانت هى الرسالة الحقيقية للمجلة، ولهذا كان اهتمامنا بأشكال النقد المختلفة وعرضها ومناقشتها ونقدها، وكنا على أى حال نبحث عن نظرية عربية خالصة على حد تعبير محمد عودة فى دراسته «حول البحث عن نظرية» وهكذا وضع التراث والفكر الغربى المعاصر تحت مجهر البحث بعيدا عن روح الدوجما العقائدية التى ربما كان لها وجود قوي فى المجتمع المصرى والعربى بشكل عام.

والواقع أن العالم كله كان فى حالة مخاض فكرى فمنذ الستينات كانت تحولات عديدة تحدث فى العالم بدءا من ثورة الجنس فى أوائل الستينات الى ظهور فكرة الديمقراطيات الشعبية وهى تعديل على الرؤية الماركسية اللينينية بما يتناسب مع أوضا ع أوربا الشرقية ثم إلى الشيوعية الأوربية التى راحت تتبلور فى شكل نقدى فى الأحزاب الشيوعية فى الدول الأوربية المتقدمة الى ثورة الطلبة فى نهاية الستينات وخلفياتها الثقافية الناقدة فى الواقع للمفاهيم الماركسية التقليدية. كانت حركة النقد هى طابع العصر وأن كان كل منظومة ثقافية لها دوافعها الخاصة الى جانب الدافع العام والمشترك الذى يشغل سكان المدن الرئيسية على ظهر هذا الكوكب.

وحين أنظر الآن الى مجموعة الكاتب ارى أن الغالبية العظمى منهم كانوا يصنفون في اليسار وكانوا يستفيدون من أدوات البحث التى انتجتها الدراسات الماركسية بما في ذلك التقسيمات الطبقية التى صنفتها الاشتراكية وأشكال الصراع الطبقى وما يسمى بالقوانين الاجتماعية. ولكنهم لم يكونوا دجماتيين أى حرفيين ونصيين، وكانت لديهم متابعات للدراسات النقدية في صفوف اليسار سواء داخل الاتحاد السوفييتى نفسه والمعسكر اليسارى بشكل عام أم في العالم الغربي. وكان أغلبهم مطلعا على الكتابات النقدية التى صدرت من مفكرى الاشتراكية الديمقراطية أو من نقاد الماركسية الأقوياء مثل كارل بوبر أو من الفلاسفة الوجوديين والباحثين المجددين من أمثال التوسير الفرنسى. وربما بهذا المعنى الواسع لليسار كانت الكاتب اقدر على جذب الكثيرين من المثقفين وخاصة من الشباب. ومنذ العدد الأول فتحت الكاتب صفحاتها للكتاب الشيوعيين الذين خرجوا من المعتقلات حديثا وكانوا في الواقع ذوى طبيعية نقدية ولهم تأملاتهم الخاصة في الكثير من القضايا النظرية، وبعد قليل من الوقت استقرت الأوضاع في المجلة على مجموعة متناسقة. وأتذكر الآن بشيء من الدهشة أن سكرتارية التحرير انحصرت في ثلاثة أشخاص ظلوا ملازمين المجلة حتى أكتوبر سنة ١٩٧٤ حيث قدموا جميعا استقالاتهم، وهم عبدالجليل حسن وهو دارس للفلسفة شده الفكر الديني فترة من فترات حياته ثم شده البحث الى ملامسة رؤية جديدة للتراث ثم جلال السيد وهو دارس للتاريخ وكان تلميذا وفيا لمحمد أنيس الذى كان أكثر اعضاء مجلس التحرير اندماجا في العمل واهتماما بالمجلة، وكان لجلال السيد دقة وصبر الباحث الدوب الذى يعتصر موضوع بحثه حتى آخر قطرة فيه. وكانت اهتماماته ثقافية بحثية أكثر منها سياسية ولكنه فيما أعلم لا يحسب على الشيوعيين التقليديين وأن كانت خلفياته يسارية أما أدوات بحثه فكانت أوسع من أدوات الباحث الماركسى التقليدى، وكان الثالث هو نبيل زكى وهو دارس للفلسفة وذو اهتمامات سياسية وله خط ماركسي واضح وكان قد امضى في المعتقل خمس سنوات بسبب انتماءاته الماركسية، ولكنه كان جريئا في التفكير وارتياد طرق جديدة ومتابعة عمليات التجديد الفكرية في الثقافة الاشتراكية وكان من اسبق الناس الى الاهتمام بالصين وكوبا وأمريكا اللاتينية بشكل عام. كان هذا الثالوث هو النواة الصلبة الاساسية للمجلة وكانت تركيباتهم الثقافية متعددة ويكمل بعضها البعض. والحق أن هذا كان هو طابع المجلة بشكل عام. فأنت تجد كتابها يختلفون في المنابع التى وردوا منها لكنهم يلتقون في الولع بالتجديد والنقد والبحث عن شيء جديد. وكذلك كان الأمر بالنسبة لمجلس التحرير الذي استقر لفترة طويلة حتي القرار الجماعي بالاستقالة في أكتوبر سنة ١٩٧٤ والذى كان يتكون من كمال رفعت وعبدالعزيز الاهوانى وعبدالكريم أحمد ومحمد أنيس ومصطفى سويف.

هذا الطابع النقدي والميل الى التجديد كان مسئولا عن الحرية في التفكير وعدم التمسك بمرجعية مسبقة وكانت له انعكاسات على كل المواضيع فلقد رأت المجلة أن عليها أن تقتصر في نشر القصص والشعر والمسرحيات على الشبان في مصر والعالم



العربي وعلى المجددين فى العالم الغربى وكان أول نشر لجمال الغيطانى ومحمد البساطى وجميل عطية ويوسف القعيد وبهاء طاهر وغيرهم فى مجلة الكاتب وكان يختار القصص ويعلق عليها يوسف أدريس ثم لطيفة الزيات وفاطمة موسى. وكذلك الأمر فى الشعر وأذكر أن الشاعر العراقى عبدالوهاب البياتى والذي كان مقيما فى مصر قد صار لفترة ما مسئولا عن الشعر فى المجلة وقد استدعانى عبدالقادر حاتم الذى كان مسئولا ايضا عن وزارة الثقافة فى هذا الوقت والتى تصدر عنها مجلة الكاتب وقال لى أن الرئيس العراقي عبدالسلام عارف اشتكى من قصائد البياتى التى كانت تغمز فى النظام وأن الحكومة العراقية بسبب صداقتها مع مصر لم تصادر اعداد المجلة واكتفت بنزع الصفحات التى تحتوى على القصيدة وطلب أن نتوقف عن نشر شعر البياتي ولكننى اعتذرت وأوضحت أن مثل هذا الاجراء يتناقض مع رسالة المجلة ولعلى دافعت عن الشعر والحرية التى ينبغى أن تتوفر للشاعر. وبالفعل ظللنا ننشر للبياتى الى مدى طويل.

والغريب اننا لم ننشر على مدى السنوات الاحدى عشر التى ظلت المجلة تصدر خلالها الا الشعر الحديث فيما عدا بعض القصائد للشاعر كامل الشناوى والتى كانت فى الواقع تنتمى الى مدرسة أبولو وكان لم يزل فيها طابع التجديد.

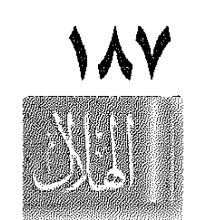
وفى الكاتب تم اكتشاف الشاعر اليونانى السكندري كفافيس والذى كان مجهولا تماما الى أن تم الالتفات اليه فى الخمسينات والستينات من القرن العشرين بعد أن اكتشفه الكتاب الانجليز الذين عاشوا فى الإسكندرية مثل ج. م. فوستر ولورانس داريل وعرفوه شخصيا وذاع صيته كأعظم شاعر يونانى فى فترة مابين الحربين، وقد استقطبت الكاتب نعيم عطية المصرى من أم يونانية والذى كان مستشارا فى مجلس الدولة وكان اهتمامه بالأدب اليونانى الحديث جعله يتعرف على الشعراء اليونانيين العظام المحدثين وعلى رأسهم كفافيس الذى قدم ترجمات رائعة لشعره وكان لها صدى قوي فى شعر الشعراء العرب الجدد.

وفى الفنون التشكيلية كان فى الكاتب مجموعة من كبار الفنانين ونقاد الفن أيضا، عمل فى الكاتب منذ صدور عددها الأول حسن فؤاد وصلاح كامل ومحمد محبوب ثم حسن سليمان وسعد عبدالوهاب ورمسيس يونان، ورغم ضعف الامكانيات الطباعية إلا أن الفنون التشكيلية كان لها وجود بارز وخاصة أعمال حسن سليمان وسعد عبدالوهاب.

عندما اتأمل مجلدات الكاتب اليوم محاولا تجميع خيوط مشروعها الثقافي أجد أنه يعني الحداثة بمعناها الواسع، فهو مشروع عقلاني متحرر من أي مرجعيات سابقة وقائم علي النقد واعادة البحث ومراجعة كل المسلمات السابقة واعادة فحصها والسعي الملح نحو زمن جديد من حرية التفكير والاكتشاف والرغبة الجامحة في الأمساك بالحقيقة الملتبسة في الكثير من مجالات الحياة القائمة.

لكن كيف قابل المجتمع المصري هذا المشروع؟

هذا هو موضوع الحديث القادم. ■

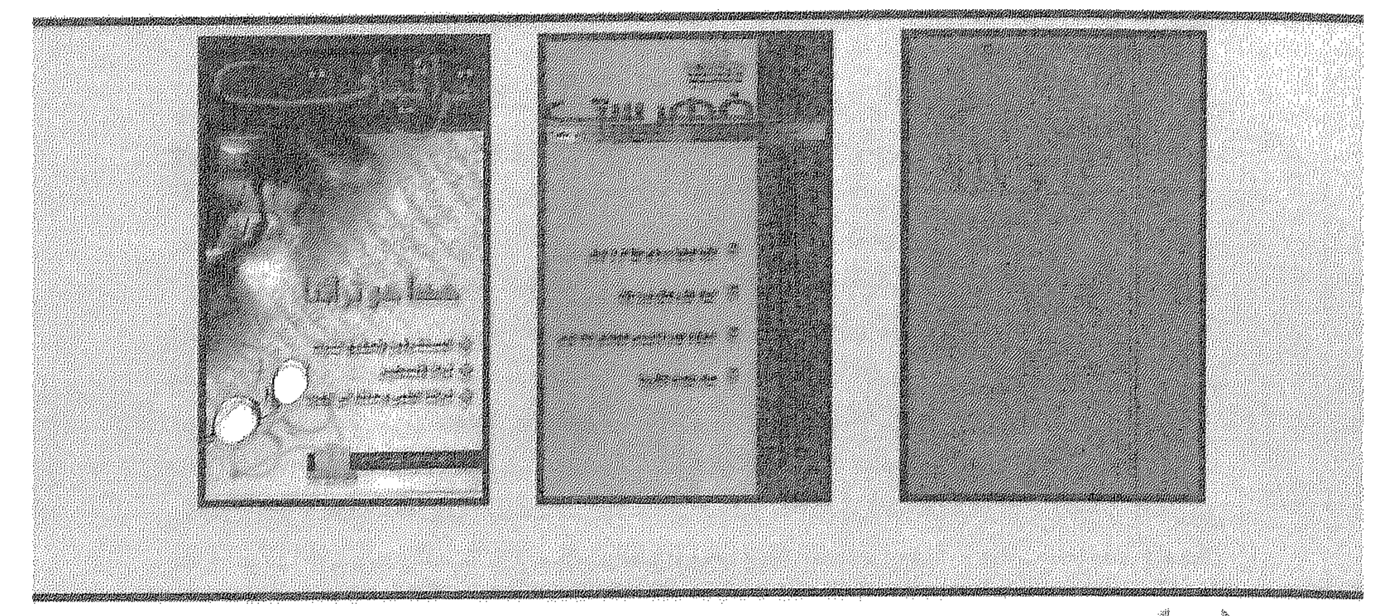



مكرم محمد أحمد ومصطفى نبيل ود. صلاح فضل وحديث حول كشاف الهلال

آفاق جديدة تشهدها دار الكتب

- التعاون بين الهلال ودار الكتب إنجاز كبير للباحثين
- كشاف للباحثين علي أقراص الكترونية للحصول بسهولة علي تراث الهلال

لاشك أن دار الكتب والوثائق القومية تشهد فى الآونة الأخيرة طفرة يتوقف عندها كل منصف ومحب للثقافة ، خصوصا بعد أن استقلت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، وبدأت تؤدى دوراً متميزاً فى مجالات عديدة نحسب أنها ستحقق المطلوب منها لكل الباحثين، وتسترد مكانتها العريقة التى كان يشهد بها كل المثقفين العرب.



وفى هذا الصدد يشير الدكتور صلاح فضل رئيس مجلس إدارتها إلى أن ما يحدث في دار الكتب من نشاط ملحوظ، هو استمرار للجهود التى كانت مبذولة من قبل على طريق التواصل الخلاق، فليس بوسع أحد أن يلغى ما بدأه الآخرون.

ويضيف: وأعتقد أن مؤسسة فى عراقة دار الكتب والوثائق القومية لابد أن تكون قد صنعت عبر هذه الأعوام الطويلة تقاليدها، والمطلوب منا أن نعمق ونؤصل هذه التقاليد، ثم أن ننتهى بها إلى ثمارها الطيبة.

ومن التقاليد الجميلة التى وجدتها فى دار الكتب، اللجان العلمية المتخصصة التى تضم خيرة العلماء والمثقفين فى مصر، برعاية الجوانب المتصلة برسالة دار الكتب والوثائق القومية.. وأخص بالذكر منها أربع لجان:

● لجنة تحقيق التراث: وهى أقدم لجان دار الكتب وأهمها ، لأنها هى التى ترعى عمليات تحقيق المخطوطات ونشرها، وهى التى راعت إصدار موسوعات التراث العربى فى دار الكتب منذ ما يربو على قرن من الزمان. وكانت هذه اللجنة بصدد إعداد مشروع لمجلة دورية، تتناول قضايا التراث لنشر أخباره، وتحقيق شذرات منه وعمل نوع من التواصل مع المؤسسات والهيئات المعنية بالتراث العربى فى الوطن العربى وخارجه وأتيح لى أن أشهد مولد العدد الأول من المجلة، وأن نطلق عليها اسم «تراثيات»، وأظن أنها تقع فى صلب رسالة الدار ويرأس هذه اللجنة الدكتور حسين نصار.

● وهناك لجنة أخرى اسمها لجنة تاريخ مصر المعاصر، ويرأسها الدكتور يونان لبيب رزق، وتعنى بجمع الوثائق والمواد المتصلة بتاريخ مصر المعاصر وأتيح لى أيضا أن أشهد ولادة العدد الأول منها، وأيضا العدد الثانى من مجلة «مصر المعاصرة».

● أما اللجنة الثالثة والتى لا يمكن أن تقوم الا فى دار الكتب ، فهى لجنة الدراسات الببلوجرافية لأن دار الكتب هى المرصد الثقافى لحركة الكتب فى مصر والوطن العربى.. والعمل الببلوجرافى الذى تقوم به على قدر كبير من الأهمية.

ويكفى أن أشير فى هذا الصدد إلى عدة أعمال أدتها هذه اللجنة، وهى على قدر كبير من الخطورة، آخرها.. «كشاف الهلال» الذى أصدرنا مجلدين منه، وسبقه كشاف مجلة «الرسالة» الذى صدر فى ستة مجلدات..

وهذا العام أيضا نشرنا سبعة كتب للمجموعة الببلوجرافية الكاملة ، بكل ما ترجم من اللغات الحية: الانجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها إلى اللغة العربية عبر القرنين التاسع عشر والعشرين، فى مائتى عام.

وهذا مشروع بالنسبة للباحثين والدارسين على قدر كبير من الأهمية.

وتواصل لجنة الببلوجرافيا جهودها لرصد حركة النشر، وإعداد الببلوجرافيات المتخصصة ، سواء من الظواهر الكبرى، مثل الترجمة، أو المجلات الكبرى، مثل الهلال والرسالة وغيرهما، أو الشخصيات الكبرى ، مثل تلك الببلوجرافيا التى نعدها عن نجيب محفوظ، وغير ذلك من الشخصيات المؤثرة في حياتنا الأدبية والثقافية.

وهذه اللجنة أصدرت أيضا باكورة مجلاتها وأطلقنا عليها اسم «الفهرست» تيمنا بكتاب ابن النديم الشهير «الفهرست» الذى يعتبر: أول تراث جامع فى التراث العربى لدراسات الببلوجرافيا والإعلام والتواريخ، وما يتصل بها ، وهى بصدد إعداد مجموعات متخصصة من الببلوجرافيات الضرورية للباحثين والدارسين.

ويواصل د. صلاح فضل قوله: وأنا أظن أن هذه اللجنة لا يمكن أن تمارس عملها إلا فى دار الكتب ، لأن المادة التى تنظمها وتعمل عليها، تتميز بها دار الكتب دون غيرها من المؤسسات.

وبهذا تكتمل لنا منظومة من المجلات المتخصصة هى: مجلة مصر المعاصرة، ومجلة التراثيات ومجلة الفهرست.. أما المجلة الرابعة والتى نضع اللمسات الأخيرة لعددها الأول، والذى أرجو أن يصدر قريبا فقد أطلقنا عليها اسم «الرزنامة» وتصدرها لجنة الوثائق، وهى لجنة مكونة من كبار العلماء ويرأسها د. رءوف عباس

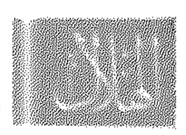
ولدينا إلى جانب ذلك لجنتان علميتان أخريان.. احداهما لجنة دار الكتب ، وهى تقوم بإعداد مجلة من نوع خاص ، لأنها ألكترونية ، توضع على الانترنت وتقدم صورة لأنشطة دار الكتب المختلفة وقواعد المعلومات بها، تتواصل بها مع نظيراتها من دور الكتب والوثائق فى الوطن العربى والعالم، وتقدم الاقتراحات لتطوير الأداء، والعمل وزيادة حجم الاتصال، وعقد المواثيق الجديدة مع هذه المؤسسات.

● أما اللجنة السادسة: فهى لجنة الترميم ويضطلع بها عدد من العلماء المتخصصين فى ترميم الورقيات والجلديات، وغير ذلك من المقتنيات الثمينة التى تقتنيها دار الكتب والوثائق القومية.

وتحتاج جهداً مضاعفا ومستمرا ودءوبا للحفاظ على سلامتها، وتهيئة الظروف العلمية والبيئية المناسبة لصلاحيتها للتداول، دون أن يمسها ذلك بضرر وإخضاع ما يحتاج الترميم منها إلى ترميم، فيما نطلق عليه معامل الترميم المتخصصة... ولدينا معملان إحداهما يعمل منذ عدة سنوات وهو مركز ترميم الكتب، والآخر ننشئه بمعونة من صندوق التنمية العربية، وهو الخاص بالوثائق.. وعمل هذه اللجنة فنى علمى بالدرجة الأولى.

عمليات الإنتاج المعرفى

.. وبذلك فإن هيكلة العمل فى دار الكتب لا تقف عند حدود قاعات الإطلاع.. ولا تصوير المصادر والمراجع، ولا مخازن المخطوطات وما نملكه من ميكرو فيلمات لها، ولا تيسير الاطلاع على ذلك للباحثين والقراء من مصريين وعرب وأجانب، وإنما تتجاوز ذلك إلى ما يمكن أن أطلق عليه الإسهام النشط الفعال فى عمليات الإنتاج المعرفى



والثقافى المعززة لدور الدار ذاتها:

هذا بالإضافة إلى المطبعة الصغيرة والمتواضعة التى نملكها، والتى آلت إلى الدار بعد اقتسام التركة مع الهيئة العامة للكتاب منذ ثمانى سنوات والتى نجتهد الآن فى مشروع طموح لتطويرها ومضاعفة كفاءتها ، وإن كنا قد استطعنا أن نرتفع بعدد انتاجها من الكتب، من ثلاثة عشر كتابا جملة ما طبعته من مراجع كبيرة عام ٢٠٠١ إلى ٨٣ كتابا. هى جملة ما طبعناه عام ٢٠٠٢ بنفس الطاقة البشرية والآلات ، لكن مع مضاعفة ساعات العمل ليل نهار، واختيار الكتب الضرورية لاعادة طبعها.

وقد انتهينا بالفعل من طبع الجزء الثانى من «تقويم النيل» ومن الجزء الثانى من «تراث طه حسين» وهو المجلد الخاص بالنقد الأدبى والإسلاميات وانتهينا من طبع عدد من الكتب الثمينة، أعدنا فيها طباعة جملة من الدواوين التى نفدت من الشعر القديم.

ونحن الآن بصدد إعادة طباعة «ألف ليلة وليلة» وبصدد مشروع آخر هو اعادة طباعة «الرسالة» فى أربعين مجلدا، لأنها دامت عشرين عاما، وكانت تصدر اسبوعية ، وبهذا يتضمن المجلد الواحد خمسا وعشرين عددا من أعداد الرسالة.

وتحقيق هذا المشروع سوف يسد فراغا فى المكتبة العربية «لدى القراء فى مصر لأن الطبعة التى تمت لمجلة الرسالة، وقامت بها مؤسسة سعاد الصباح ، كانت باهظة الثمن، لم يستطع القراء المصريون الإفادة بها، ودار الكتب هى الأولى بأن ترعى تراث التنوير والفكر المحدث الذى قدمته مجلة الرسالة، لسان حال جيل طه حسين وأحمد حسن الزيات

الهلال .. وتبنى الفكر المستنير

● نود أن نتوقف عند التعاون بين مؤسسة دار الهلال ودار الكتب فى طباعة كشاف الهلال ابتداء من عام ١٩٣٦ وحتى عام ٢٠٠٢، وما سوف يتيحه من فائدة للباحثين والدارسين.

– يقول د. «صلاح فضل»: أود الاشارة إلى أن أهمية مجلة الهلال تكمن فى أمرين:

الأول: أنها حافظت على مستواها الرفيع فى الفكر المستنير والمنطق العلمى والروح القومى، والثقافة الرفيعة، عبر ما يزيد على قرن من الزمان، وهذا يندر حدوثه فى أى ثقافة أو لغة، لأنه غالبا ما يلاحظ تفاوت شديد فى المستوى فى فترات محدودة.

لكن مجلة «الهلال» استطاعت بفضل استراتيجيتها وصواب توجهها أن تحافظ على مستواها، وأن تظل نموذجا تتولد منه نماذج أخرى تتفاوت فى قيمتها ، وتظل «الهلال» شامخة، لا يهبط مستواها فى أى فترة ولا نستطيع أن ننسى أن مجلة الهلال، كانت هى النموذج الذى تأسست على نمطه مجلات عربية أخرى مثل «العربى» وغيرها.

وأنها مازالت تمثل المدرسة الأولى والمستمرة فى الصحافة العربية كاملة فى المشرق والمغرب، وبالتالى فإن الاهتمام بمواد مجلة الهلال واصدارها فى كشاف، لابد أن يستكمل ، وهذا ما نفعله الآن من سنوات الخمسينيات حتى اليوم، وقد تمكنا فعلا أن نوفر المادة بأكملها وسندفعها تباعا للطباعة فى مجلدين، حتى تكتمل كشافات الهلال، وتصبح أداة فعالة للباحثين فى تاريخ الفكر والسياسة والثقافة والاقتصاد والمعرفة العربية.

وسوف تقرن هذه الكشافات بأقراص مدمجة، مجهزة بحثيا لكى يستطيع الباحث الذى تعود على استخدام هذه الوسائط التنكولوجية.. الجديدة أن يدخل بأى مفتاح بالاسم مثلا لكى يعرف مقالات طه حسين أو مقالات جرجى زيدان، أو مقالات أحمد زكى بالأسماء.. أو يدخل بالموضوعات..

وإذا أراد تصوير بعض الصفحات التى يحتاج إليها فيمكنه ذلك.

وإذا أراد أن يقرأ على مهل من المجلدات المطبوعة فيمكنه ذلك.

لأننا فى يقينى، لابد أن نشجع ما أطلق عليه النشر المزدوج الورقى والالكترونى.. وبخاصة فى تلك الفترة التى نجد فيها أجيالاً لا تستطيع أن تستغنى عن شم عبير الورق وعطره وأن تمسك بكتلته، فالكتاب له متعة وأنت تمسكه لأنه جسد المعرفة ، وفى نفس الوقت لا تستطيع أن نغض الطرف عن هذا التيار الشبابى الجديد الذى ولجنة بعض الشيوخ، والذى يؤدى إلى استخدام التقنيات الأسرع فى البحث ، والأسهل فى العثور على المعلومات ، وهى التقنيات الرقمية فى الأقراص المدمجة والسديهيات.

وإذن يصبح المجلد بشكله الكتابى الورقى جنبا إلى جنب مع شكله الالكترونى المعلوماتى.

وهناك سؤال يطرح نفسه.. كيف يستفيد الباحث من كشاف الهلال؟

وبطبيعة الحال مثل كل مطبوعات دار الكتب وغيرها ، لابد أن يكون هذا الكشاف موجودا فى قاعاتنا تحت يدى الباحثين.. لكن لأننا نطبعه ونسوقه ونعول كثيرا على التعاون الجميل من مؤسسة دار الهلال فى عمليات التسويق هذه، فسيصبح فى متناول كل الباحثين، الذين يريدون اقتناءه، وبسعر ميسر جدا، وبالتالى نتيح الفرصة لهؤلاء الباحثين بطرائق مختلفة للإفادة منه.

ونحن الآن نستعد لطبع المجلدين التاليين ، وفى عدة شهور، يكون المشروع قد اكتمل ، لأن الجانب العلمى فيه قد تم، وهو إعداد الببلوجرافيات ذاتها، وبقى التوضيب والطباعة، وهذه تستغرق بعض الوقت .

ويؤكد د. صلاح فضل أن دار الهلال فى موقفها الحيوى النشط فى هذه الفترة، تشبه كثيرا دار الكتب، فهما مؤسستان يبدوان للوهلة الأولى أنهما عجوزان.. لكن العراقة لها قيمتها وأهميتها إذا اتسقت بالحيوية والنضج، وأفادت من تاريخها بالتواصل المبدع مع المؤسسات الأخرى، ولمتابعة التطور الفكرى والفنى والأيديولوجى، وتهيئة السبل أمام القراء والمتلقين للإفادة منه، وهذا ما تجتهد دار الكتب أيضا فى صناعته.

وإذا كانت دار الهلال تعقد هذه الاتفاقيات النشطة مع مكتبة الاسكندرية من ناحية ، ومع دار الكتب والوثائق القومية من ناحية أخرى، فإنها بذلك تخطو خطوات فعاله، وأتوقع أن تتبعها بخطوات أخرى، بأن توضع مجلات وكتب وروايات دار الهلال على مواقع نشطة فى الانترنت وعلى تقنية المعلومات لكى نتيح للاطلاع عليها لا للمقيمين فى الوطن العربى فحسب، وإنما للمغتربين أيضا .

وهنا أدعو دار الهلال إلى أن تأخذ بنظام التوزيع الالكترونى الذى تأخذ به المجلات العالمية الكبرى، حتى يمكن أن نمد شبكة توزيعنا إلى الكرة الأرضية بأكملها . ■

عاطف مصطفى



بقلم
د.الطاهر مكى

كان الخليفة الواثق مثقفا واسع الإطلاع، تفتنه الموسيقا، ويطربه الغناء، ويحب حوار العلماء، حول قضايا الأدب والنقد واللغة.

في جلسة سمر غنته جارية:

أظلوم إن مصابكم رجلا
أهدى السلام تحية ظلم

فقال لها : قولى رجل فقالت : لا أقول إلا كما علمت فقال الخليفة للفتح بن خاقان، كيف هو يافتح؟ فرد : هو بالرفع خبر إن كما قال أمير المؤمنين .

قالت الجارية : أخذت هذا الشعر من أعلم الناس بالعربية، شيخ نحاة البصرة، أبى عثمان بكر المازنى، وكان يعرب لى شعر غنائى .

واختلف الحاضرون فى إعراب «رجل»، منهم من نصبه اسم إن، ومنهم من رفعه على أنه خبرها، والجارية مصرة على رأيها، لأن شيخها المازنى لقنها إياه بالنصب .

فأمر الخليفة باشخاصه إليه، فلما مثل بين يديه قال له : ممن الرجل؟ فرد : من بني مازن قال : من أى الموازن؟ أمازن تميم، أم مازن قيس، أم مازن ربيعة؟ فرد من مازن ربيعة، فكلمه بلهجة قومه، وكانت ربيعة تقلب الميم باء، والباء ميما إذا كانت فى اول الأسماء، وسأله باسمك؟ (بدل ما اسمك) ؟. فكره أن يجيبه على لغة قومه لئلا يواجهه بالمكر، فقال بكر يا أمير المؤمنين. ففطن الواثق لما قصده، وأعجب به، وسأله ما تقول فى قول الشاعر :

أظلوم إن مصابكم رجلا
أهدى السلام تحية ظلم

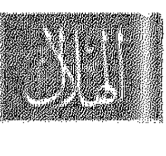
أترفع رجلا أم تنصبه؟ فرد الوجه النصب يا أمير المؤمنين .

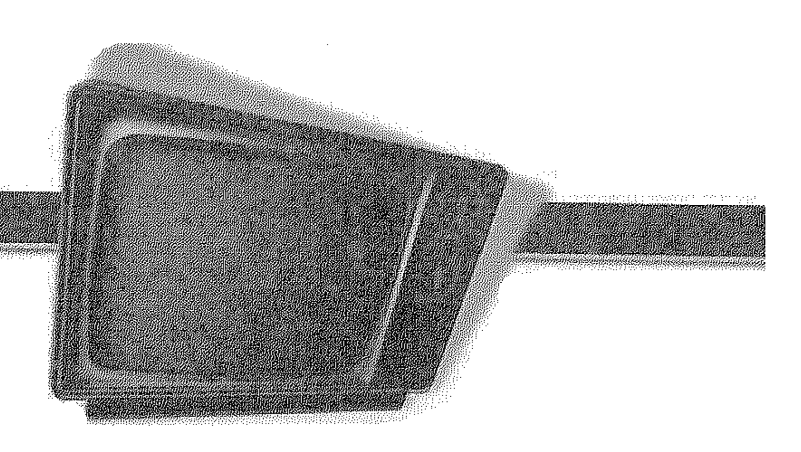
– ولم ذاك؟

أجاب المازنى : إن مصابكم مصدر ميمى بمعنى إصابتكم، فعارضه ابراهيم اليزيدى بشدة، فقال المازنى هو بمنزلة قولك: إن ضربك زيدا ظلم، فرجلا مفعول مصابكم ، والدليل عليه أن الكلام معلق لم يكمل الى أن تقول : ظلم فيتم المعنى .

فالهمزة حرف نداء، وظلوم اسم أم عمران المذكورة فى أول القصيدة منادى ومصابكم مصدر ميمى، عملت عمل الفعل، والتقدير : «إن اصابتكم رجلا ، وأهدى السلام جملة فعلية فى محل نصب صفة «لرجلا» وتحية مفعول مطلق لكلمة السلام جاءت على معناها، وظلم خبر إن .

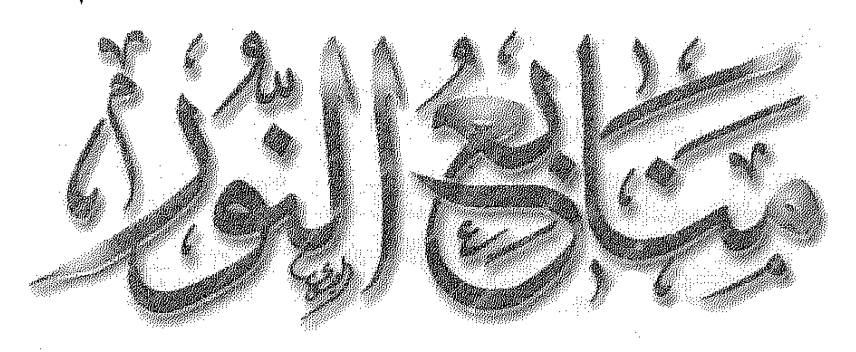
أعجب الواثق بالمازنى، وكافأه على علمه بالفى دينار ذهبا. ■







بقلم : مرفت رجب



لم تكن سوى لحظة رفعت فيها عينى عن سطور الكتاب أتأمل دقة العبارة، وإذ بمصادر الإدراك فى وعيى تحتشد، لعلها تلم بكنه ذلك الوجود المهيب.. ياسبحان الله العظيم.. أبهذه الضخامة يمكن أن يكون تمساح، يتمدد منه الكيان يكاد يسد أفق النظر، والفكان منفتحان وقد انشدت العضلات فيهما تنذران بانفتاق، تتتابع حلقات الشد تنقل التوتر من الفكين المتأهبين للإطباق على الفريسة، إلى كافة حنايا الجسد المهول حتى آخر نقطة فى الذيل..

ياأرحم الراحمين، ألطف بخلقك يا الله.. يتحرك الجسد الآخر الفريسة فى ارتعاش خفيف يحبس النفس. ورغم رهبة الترقب، يجرؤ العقل على طرح السؤال: هل سيفلت؟!! نعم، نعم، إنه يتحرك .. وكأنما بحلاوة الروح يشد قواه هو الآخر يتحرك، ويزيد إيقاع الحركة، يقوى، يتسارع .. فينفلت، ومع ارتخاء توتر عضلات فكى التمساح سرى الهدوء إلى نفسى وابتسمت .

لفتنى زحام الأصوات المرحة ولما استدرت وجدت واحدا من كبار مراكب الرحلات القصيرة، يتهادى على صفحة نيل القاهرة يحمل العشرات من أبنائها وقد انطلقوا فى رابع أيام عيدالأضحى محتفين بأول ظهور للشمس، بعد أيام طويلة أطبقت فيها عليهم سحب أمشير الداكنة ينذر تكاثفها بهبات ريح متربة أو بعض من مطر..

وها هى ذى شمس الأصيل التى غنت لها أم كلثوم، تتربع فى صحن السماء وإذ تتهادى الرياح الخفيفة تلملم ما تبقى من تكومات السحابة ناصعة البياض، ينفرط كيان التمساح المهول فتنبعث البهجة تشملنى، وأتأمل .. ما أجمل صنع الله.. لو لم تتقدم تلك النسمات الرقيقة، لبدت لى كتلة السحاب فى شكلها «التمساح» جاثمة.. ولربما أدركت التشكيل الساكن على أنه إحكام لهيمنة التمساح على الفريسة .. لكن الله سلَّم .. وإذ تشدنى أصوات المرح من عديد من المراكب التى بدت وكأنها تتزاحم على صفحة مياه النيل .. تمرق بينها القوارب وقد انتشرت أشرعتها البيضاء. أواصل التسبيح والدعاء لهؤلاء الذين يملأون المكان بهجة وكأنهم يتحدون بها تمساح العصر الوحشى الذى يحاول أن يطبق على البشر أجمعين بنذر حرب غبية تكاد تطيح بكل ما أنجز البشر من شعر وموسيقى أو فلسفة وعلم، جاءت على مر العصور شاهدا على كفاح البشرية المستمر فى مواجهة كل أنواع التماسيح، تشكلها عبر العصور نوازع الطمع والتكالب وحب السيطرة، وتتفاوت على الأيام قدرة البشر على استبصار منابع النور فى أنفسهم وفى أوطانهم ليرشد جهادهم فيصبحوا بالفوز غانمين ..

مطلق صفارة الإنذار

داعبت النسمات صفحات الكتاب الذى صرفتنى عنه لحظة تأمل نبعت أصلا من صفحاته .. فالأبطال الثلاثة المسئولون عن وجود هذا الكتاب، هم من القابضين على منابع النور فى وجدانهم .

أما الأول فهو «مورد خاى فعنونو»، المواطن الاسرائيلى الذى قرر أن يكون مطلق صفارة الإنذار، ويتحدث لصحيفة الساندى تايمز البريطانية، عن المفاعل السرى للأسلحة النووية بصحراء النقب في اسرائيل حيث كان يعمل، كان دافع «فعنونو» الوحيد هو أن يخبر شعبه كيف أن طغمة صغيرة من السياسيين والجنرالات قد أنفقوا سرا مبالغ هائلة من المال العام . تزعم اسرائيل أنها دولة ديمقراطية إلا أنها فيما يتعلق الأمر بمسائل الأمن تميل لأن تكون دولة ديكتاتورية ولم يكن «فعنونو» ينتظر أى مقابل لعمله، فلم يكن من «طلاب الثروة أو على ما يبدو من طلاب الشهرة»، وقد ورد فى الكتاب على لسانه «ماذا لو أعطيتك الصور وجميع المعلومات دون أن تنشروا اسمى . سوف أكتفى بالاختفاء إذ لست مهتما بكسب أى مال من هذا الأمر . كل ما أريده هو أن تعلم الدنيا عن وجود ديمونة» ويعقب المؤلف «كان فعنونو رجلا ذا ضمير وصاحب قضية»

المفاعل السرى بالنقب

وأما الثانى فهو الصحفى «بيتر هونام» مؤلف كتاب «امرأة الموساد» يروى فيه الأحداث المخيفة التى وقعت فى شهر سبتمبر من عام ١٩٨٦ حين قرر «موردخاى فعنونو» أن يصبح مطلق



صفارة الانذار . فحينئذ، تم تعقبه بواسطة فريق استهداف من الموساد .
«فى إحدى الدقائق كان يخطو خارج إحدى الطائرات من روما وهو يترقب مبتهجا قضاء عطلة قصيرة مع امرأة أمريكية شابة شقراء ، كان قد التقى بها فى لندن . وفى الدقيقة التالية تلقى ضربة أوقعته على الأرض وكبلت يداه وتم حقنه بمخدر قوى. عندها أصيب برضوض وكدمات فشعر بحالة من الذهول غاب على أثرها عن الوعى . وفى تلك اللحظة انتهت حياته كإنسان حر . ودون أن يدرى هل هو موشك على القتل ، تم تهريبه إلى اسرائيل - حيث هو اليوم - يقضى مدة حكم تصل إلى ثمانى عشرة سنة ، فى أشد الظروف قسوة ويمضى بيترهونام مؤلف الكتاب فيتساءل : «ماذا تراه قد فعل حتى يستحق مثل هذه المعاملة؟! هل قام بتدبير مؤامرة لاغتيال الرئيس ، أم باع أسرار الدولة لدولة معادية . لقد كانت ما تسمى بجريمة موردخاى فعنونو ، هى التحدث إلى الساندى تايمز ، وعلى الأخص إلى أنا ، عن المفاعل السرى للأسلحة النووية بصحراء النقب الإسرائيلية حيث كان يعمل ». وتستحث منابع النور همة الصحفى بيترهونام فيعرض دفاعه عن فعنونو، فيقول فى تقديمه لكتابه « امرأة الموساد » ، «يرى معظم العقلاء أنه قام بعمل شجاع غير أنانى . كذلك فإن عملية اختطافه ، وقبل محاكمته ، على أراضى دولة متحضرة أوروبية ، من جانب عملاء قوة صديقة ، لواحدة من فضائح الجاسوسية الكبرى فى فترة ما بعد الحرب . ومما يدعو للأسف ، أن ايطاليا وبريطانيا وحليفة إسرائيل، أى الولايات المتحدة ، ليست مستعدة لإثارة هذا الأمر . ذلك أن هذه الدول لديها أسباب وجيهة تجعلها تلتزم الصمت ، إذ إنه حسبما يبين هذا الكتاب ، هناك بلاد كثيرة ساعدت إسرائيل على حشد ترسانة نووية متقدمة ضخمة ، فبينما يتم قصف الدول التى تجرب هذا التكتيك مثل العراق ، إلى درجة الإنهاك التام، تتلقى إسرائيل مساعدة مالية ضخمة، وكذلك قدرا من الحماية والتدليل ... كانت جميع الحسابات السابقة توحى بأن إسرائيل لا تمتلك سوى حفنة من القنابل الذرية . فإذا بفعنونو يبين أنه قد تم إنتاج ما بين مائة ومائتى جهاز أو وسيلة خطرة، وأن إسرائيل بعد أن أنتجت القنابل ، انتقلت إلى تصنيع رؤوس حربية نووية حرارية . وتزهو هذه المجمعات النووية بإنتاج القنابل النيوترونية التى تتسبب فى خسائر أقل نتيجة لانفجارها ، غير أنها تقضى على كل كائن عضوى حى . وكذلك القنابل الهيدروجينية التى تفنى المدن... واليوم وفى نهاية عام ١٩٩٩، مازال مفاعل ديمونة يعمل ، ويمكن للمرء أن يقدر ما فى ترسانة إسرائيل بما يزيد على أربعمائة قنبلة ... إن قصة فعنونو التى تفجرت فى السنداى تايمز اللندنية فى الخامس من أكتوبر من عام ١٩٨٦، أخبرت العالم دون تجمل فى استخدام الألفاظ، أن إسرائيل كاذبة فى هذه القضية الحيوية. وحين تنكر اسرائيل أنها سادس أكبر قوة نووية فى

العالم، أو حتى أنها لا تمتلك مجرد قنبلة ذرية بدائية واحدة، فهي بذلك تتحدى القوى الغربية بسخرية كي تصدر عنها استجابة . ولقد أمكنها أن تتوقع بوضوح الاستجابة المحتملة ... لذا فإن هذا الكتاب هو محاولة لعرض الأحداث التي وقعت ، وفضح أفعال المسئولين عن سقوط موردخاي فعنونو المأساوي، بسبب محاولته إلقاء الضوء على دور الحكومات التي ساندت عملا من الأعمال المنافية للشرعية والإنسانية ، بل وغضت النظر عنه ، رغم ما يصيب به النفس من غثيان ، أو تلك الدول التي ساعدت إسرائيل على تطوير القنبلة . كذلك يكشف هذا الكتاب عن جوانب خفية من قصة فعنونو إذ كيف تم على وجه الدقة انتشاله من إيطاليا وإعادته إلى اسرائيل . وآمل أن يشعل هذا الكتاب شرارة تؤدى إلى محاولة جديدة من أجل فتح ملف قضية فعنونو ... إنى أعتبر موردخاي فعنونو صديقا واجه التعذيب الناتج عن فترة العزلة الطويلة وسوء المعاملة ، دون إظهار أى تبرم أو ألم ، بل بشجاعة مدهشة. لقد عانى فعنونو بما فيه الكفاية فإذا تأثر القراء بهذه القصة ، فنى آمل أنهم لن يظلوا صامتين ، وإنما سوف يحتجون على هذاالظلم».

تحدى كل تهديد محتمل

وهكذا يحاول بيترهونام أن يحرك منابع النور فى وجدان كل قارئ لكتابه ، لعلها تستنهضهم لانتشال «فعنونو» من قبضة ظالميه. وهكذا نجد أن كتاب بيتر هونام «امرأة الموساد » يكشف لنا عن قوى الدفع التى تولدها منابع النور ، فهى التى جعلته لا يكتفى فى كتابه بكشف ما كشف من أسرار بطولة وسقوط فعنونو المأساوى ، وإنما نجده فى سبيل ذلك يطلعنا - دون قصد - على بطولته هو فى تحدى كل تهديد محتمل ، أو خطر جاثم ويكفى فى هذا الصدد أن نقرأ «لم يكن فعنونو هو الوحيد الذى يعد دوره محوريا فى هذه القضية . ذلك أن العميلة السرية الشقراء التى عرفها باسم سيندى، لعبت دورا حساسا فى الحد من الضرر الذى كان يمكن أن يتسبب فيه ما أفشاه من أسرار . إذ كانت تعمل لصالح الموساد... وكالة المخابرات الاسرائيلية التى أوقعت فى إحدى المرات بالمجرم النازى أدولف ايخمان، والتى اغتالت بطريقة منهجية الفلسطينيين ... وقتلت مخترع المدفع الفائق الكندى جيرالد بول . لو أن فعنونو ظل مطلق الصراح كى يدلى بشهادته أمام الكونجرس فى الولايات المتحدة، لكانت الآثار السياسية والدبلوماسية المترتبة على هذه الشهادة آثارا هائلة. لذا كانت مهمة الموساد هى إيقافه ، كما كانت مهمة سيندى هى أن تستغل ما كان يشعر به من وحدة ، وأن تغريه حتى تشتت اهتمامه بهدفه، مستعملة أقدم الحيل - إغراء الجنس».

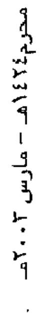
ورغم تأكد بيتر هونام، على هذا النحو ، من أن أجهزة التخابر تستهدف كل من يعرف الحقيقة ويهدد بكشفها ، نجده لا يتوانى فى نضاله .. «لم تتمكن سوى من تحقيق نجاح جزئى كما يصف هذا الكتاب بالتفصيل . إذ إن الساندى تايمز استمرت فى نشر الأسرار التى كشف عنها مورد ، برغم ما بذلته سيندى هى والفريق المساند لها من جهود . وفى نهاية الأمر فشلت ببساطة



فى أن تتوارى بعد أن أكملت مهمتها ، وأن تجعل شخصيتها لغزا للأبد . « لقد استغرق الأمر منى شهورا من الجهد المضنى ، غير أنى فى النهاية اكتشفت حقيقتها ، وتعقبتها فى اسرائيل ، وحين رأيت رد فعلها المرتعد ، كان ذلك نوعا من التعويض، عندما ظهرت أمامها دون سابق إنذار أمام عتبة باب مسكنها فى نتانيا كى أخبرها بأن اسمها على وشك أن يذكر، وبذلك أصبحت عديمة الجدوى ، من حيث القيام بأى دور فى المستقبل كعميلة تحت ستار أو غطاء . أما عن كونها أمريكية ، فهذا أمر أكثر أهمية مما يعترف به البعض ففعنونو يشك فى أنها كانت تعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية ، وكان لدى الولايات المتحدة حقا الكثير مما تحتاج إلى إخفائه ، كما يتضح فى الفصول اللاحقة . فالنفاق الذى تبديه بشأن امتلاك إسرائيل للأسلحة النووية ، نفاق خارق للعادة . إذ إن الولايات المتحدة ظلت لوقت طويل تظهر علامات عدم الموافقة ، غير أنها ساعدت اسرائيل بالفعل على استكمال ديمونة ، وكشف هذا الأمر لابد له أن يتسبب فى قدر من حساب النفس»..

ولربما يكون ما سبق هو التقديم المنطقى للطرف الرئيسى فى ثلاثية القابضين على منابع النور فى قلوبهم، ذلك هو الاستاذ ابراهيم محمد ابراهيم مترجم كتاب بيترهونام «امرأة الموساد» ولعلكم بقراءة الاستشهادات التى أوردتها من الكتاب تكونون قد تذوقتم براعة المترجم فى نقل الكتاب من اللغة الانجليزية ، إلى لغة عربية سليمة سلسة، ترفع عن المكتوب أيا مما قد يصادفنا من منغصات قراءة الأعمال المترجمة ، وبإحكام السيطرة على اللغتين ، المنقول منها ، والمنقول إليها، من حق الاستاذ إبراهيم محمد إبراهيم أن يفاخر بضم هذا الكتاب الشيق ، إلى قائمة الكتب التى أضافها للمكتبة العربية بكل اقتدار .. فقد قرأنا من ترجمة الاستاذ ابراهيم محمد ابراهيم كتاب الصرخة الصامتة لمؤلفه اليابانى كينزابورو أوى Kenzaburo Oe الحاصل على جائزة نوبل ١٩٩٤، إذ قام بترجمته عن النص الانجليزى لدار الهلال ١٩٩٥ ثم قرأنا له ترجمته لدار الشروق ١٩٩٩ لكتاب «الجمعيات السرية لنورمان ماكينزى Norman Mack-enzi ثم قرأنا ترجمته لكتاب «حين تبكى الأفيال» للهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠ .

وبعد ذلك قرأنا ترجمته لكتاب مايكل وينتر Micheal Winter «المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى للهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٢ ثم لدار الشروق ترجم كتاب ناعوم شومسكى Naom Chomsky ١١ /٢٠٠٢/٩ وها نحن نقرأ ترجمته لكتاب بيترهونام Peter Hounam «امرأة الموساد» ولانجد وجها للعجب من أسرار إبداع الاستاذ ابراهيم محمد ابراهيم فى ترجماته ، ذلك أنه بعد أن حصل على الثانوية العامة من المركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين (طه حسين) فى عام ١٩٦٥ نجده يلتحق بمدرسة الألسن

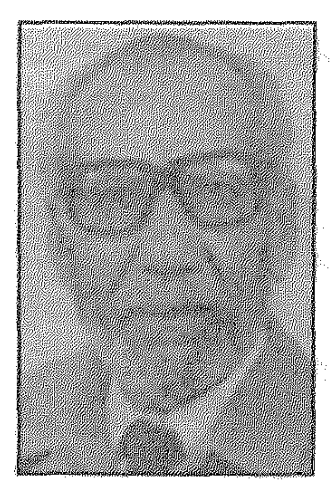


العليا ليتخرج من قسم اللغة الانجليزية فيها (كلية الألسن ١٩٦٩)، ولطموحه آنذاك لاستكمال دراساته العليا التى لم تكن بعد قد أدخلت إلى كلية الألسن، نجده يلتحق بكلية الآداب جامعة عين شمس، ليتخرج من قسم اللغة الانجليزية فيها حاصلا على الليسانس ١٩٧٣، وأثناء ذلك يكتشف فتح الباب للقيد فى الدراسات العليا بكلية الألسن، ويحصل على شهادة إتمام الدراسات التمهيدية للماجستير ١٩٧٢ .. وإذ تحول فكا التمساح بين ابراهيم محمد ابراهيم وبين إتمامه للدراسات العليا التى كان يبتغيها ليصبح أستاذا فى الجامعة نجده لا يستسلم لقبضة الفكين على مصيره، وإنما يواصل الكفاح متلمسا منابع النور فى وجدانه، وبعد أن يتنقل بين أعمال أمانة المكتبة فى دار الكتب وتدريس اللغة الانجليزية لطلبة المعهد العالى للباليه، والعمل مع المؤسسة الدولية Oxfam، إذ به يحط الرحال على أعتاب مملكة الترجمة مثبتا جدارة بمرتبة الأستاذ التى إليها طمح ..

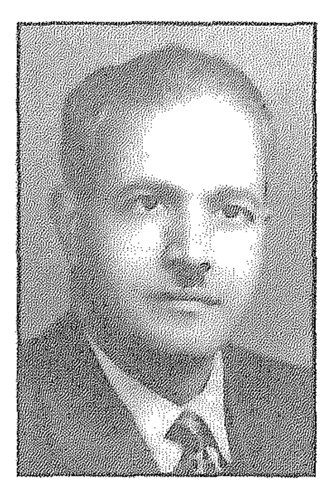
وإذ تسعد المكتبة العربية بإضافات الأستاذ ابراهيم محمد ابراهيم لا أظننا نفوت فرصة تأمل اختياراته، وتوقيتاتها، أما وقد سردت قبلا القائمة، فلعلنى هنا أكتفى بالإشارة إلى الكتاب قبل الأخير، وهو كتاب أهم المفكرين الأمريكيين المعاصرين الأستاذ نعوم شومسكى الذى تعرفت بشكل شخصى على هدوء ونفاذ منطقه من خلال حوار أجريته معه للبرنامج الذى كنت أقدمه للقناة الثانية باللغة الانجليزية Kalei-doscope ذلك حين زار شومسكى مصر أواسط التسعينات من القرن الماضى..!! المهم أن العلامة شومسكى لم يكن ليفوت أحداث التاسع من سبتمبر ٢٠٠١ دون أن يضع فيها كتابا، وإذ بمترجمنا ينجز ترجمته فور صدور الكتاب وهو ما كان يمكن أن يكون موضوعا لدوائر الحوار على الأثير المسموع والمرئى لو أن أحدا قد انتبه..

وإن لم يكن ذلك كذلك، فها أنا ذا أدعو الجميع للالتفات إلى ترجمته لكتاب «امرأة الموساد» فهو نص شهى، يغرى بالقراءة من النص على أثير الإذاعة المسموعة، كما يغرى كتاب الدراما للشاشة المرئية لعلهم من ناحيته، يريحوننا من أنواع الأعمال المدبلجة التى تظهر فيها عبارات «أرجو أن تكونى أكيدة .. فهكذا جاءت الوصية» بدلا من أرجو أن تكون متأكدة أو مطمئنة !!!.

ومن ناحية أخرى فهى للاستفادة من نص ثرى بكل عناصر التشويق البوليسية والإنسانية والدراما السياسية، وإذاعة مثل هذه النصوص تهدينا إلى منابع النور فى أنفسنا وفى الآخرين، وتعيننا جميعا على أن نضم الصفوف مع كل القابضين على منابع النور فى وجدان البشر، ومنهم علماء وفنانون وأدباء وموسيقيون وأفراد من عموم الشعب الأمريكى، يخرجون بمئات الألوف في الشوارع يتظاهرون، لتصلنا أصداء أصواتهم تقوى قلوبنا القابضة على منابع النور فيها لعلنا، بعون الله، أن نوجد لأنفسنا من فكى التمساح الانفلات . ■



قاسم الخطاط





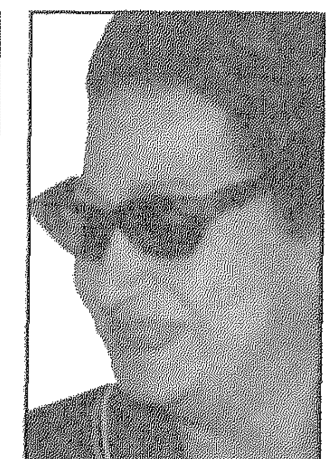
حسن كامل الصيرفي

ذكريات تستعيدها الأسماء

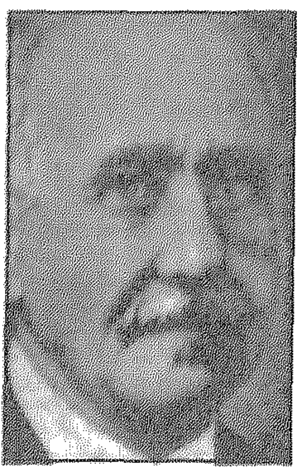
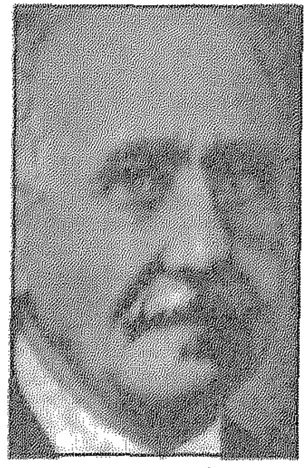
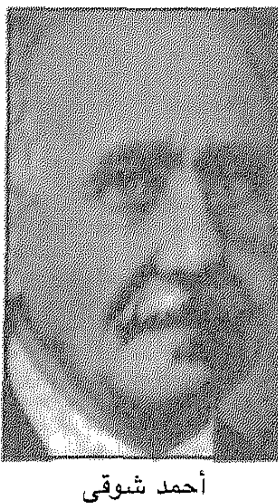
بقلم

وديع فلسطين

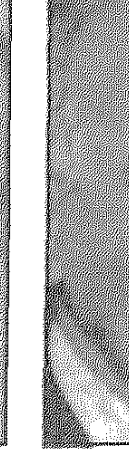
فى زحام الحياة الخانق وضجيجها الزاعق وهديرها الصاخب تتوه أسماء كأن لأصحابها كيان ووجود لا سبيل إلى نسيانها ، وإذا كانت الأجيال الطالعة تجهل أخبار بعض الذين أسدوا إلى الجماعة خدمات جلى فى ميادين الفكر والثقافة ، فإن الذاكرة - مهما خانتهما وسائلها - ترى من الواجب عليها أن تستعيد ذكرى هؤلاء الراحلين وأن تصور بعض ما استأثر باهتمامهم فعبروا عنه شعراً ونثراً يكاد أكثره يضيع . وصاحب هذا القلم المتواضع قد نذر البقية الباقية من عمره لمحاولة إنصاف الذين ظلمتهم حظوظهم فى دنيا الفكر والثقافة فيمن عرفهم فى رحلة الحياة ، أما الذين لم يعرفهم فأمرهم موكل بمؤرخى الأدب ومحترفيه .



أم كلثوم

أحمد شوقي



إبراهيم طوقان

قاسم الخطاط

كان الأديب العراقى قاسم الخطاط يحرر عموداً يومياً فى جريدة عربية تصدر فى لندن بعنوان «شمعة» فلما وافته المنية فى تونس فى ١٧ يناير الماضى ظهر العمود وقد كتبت عبارة «انطفأت» تحت عنوانه الأثير «شمعة» .

وقاسم الخطاط تعرفه مجتمعات الأدب فى مصر منذ ما نزح إليها من العراق فى عام ١٩٥٣ لاستكمال دراسته القانونية فى معهد الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية . وعين وقتها ملحقاً بجامعة الدول العربية وتقلد فيها وظائف شتى سواء فى قسم الصحافة أو فى مركز البحوث إلى أن تولى رياسة معهد المخطوطات العربية عام ١٩٧٦ بدرجة مستشار . وعندما انتقلت الجامعة العربية إلى تونس ، انتقل معها واستقر هناك إلى آخر العمر وقد هيأت له إقامته الطويلة فى القاهرة على مدى عشرين عاماً أن يوطد علاقاته مع كثيرين من رجال الفكر والأدب ، وكان مكتبه وبيته ملتقى لأبناء أمة العرب كلما هبطوا القاهرة . ومما يذكر لقاسم الخطاط ويشاد أنه فى أثناء تدهور العلاقات بين مصر والعراق ، كان بشخصيته المشبعة بحب العروبة ، وبثقافته التى تتسامى فوق الصغائر السياسية ، يعد السفير الدائم للعراق فى مصر ، لا بتكليف رسمى ، بل بأريحية من نفس ترى مستقبل العرب فى تآلفهم لا فى تنافرهم .

وقد عرفت الخطاط عن قرب طوال هذه السنوات ، وحرصت عندما زرت تونس من نحو عشرة أعوام على الاتصال به وزيارته فى بيته ، وكان قد تزوج سيدة فاضلة من القيروان – هى السيدة هدى الخطاط – بعد وفاة زوجته

الأولى .

ولئن استغرقت الأعمال الإدارية فى الجامعة العربية قاسم الخطاط ، فلم يصرفه ذلك عن العناية بالتأليف فأصدر مع زميليه مصطفى عبد اللطيف السحرى (١٩٠٢ - ١٩٨٣) والدكتور محمد عبد المنعم خفاجى أطال الله بقاءه كتاباً عن «معروف الرصافى شاعر العرب الكبير : حياته وشعره» كما أصدر رواية «الملكة الكادحة» وشفعها بعد ذلك برواية «البقعة الخضراء» .

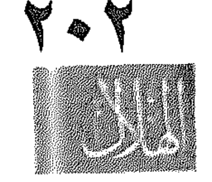
وقبل مجىء الخطاط إلى القاهرة - وهو من مواليد بغداد عام ١٩٢٣ - تعرض للسجن وهى ضريبة يؤديها كل حر لأنه تعاطف مع ثورة رشيد عالى الكيلانى فى عام ١٩٤١ . وعمل بعد خروجه من السجن فى وزارة الأوقاف وديوان مجلس النواب ومديرية التقاعد ، وأصدر فى عام ١٩٤٥ مجلة «إخوان الصفاء» وحرر فى عدد من الصحف العراقية . وبفضل دراسته القانونية اختارته الدولة لتمثيلها أمام المحاكم العراقية وتقديم الاستشارات القانونية .

وعندما أسندت إليه إدارة معهد المخطوطات فى الجامعة العربية - وهو أصلا غير متخصص فى هذا الميدان - كان ساعده الأول والأكبر محمد رشاد عبد المطلب (١٩١٧ - ١٩٧٥) الخبير المتعمق فى المخطوطات وفى يناير ١٩٧٥ تلقى قاسم الخطاط من بغداد نبأ وفاة أبيه ، فأقام سرادقاً لتقبل العزاء فى جامع عمر مكرم وافتقدنا بين المعزين رشاد عبد المطلب وتوهمنا أن جفوة حدثت بين مدير المخطوطات ووكيلها ، ولكننا عرفنا فى اليوم التالى أنه بينما كان عبد المطلب يرتدى ثيابه للتوجه إلى سرادق العزاء سقط ميتاً ولم يكن عمره يزيد على ٥٨ عاماً .

وكانت الجامعة العربية قد قررت افتتاح مكتب إعلامى لها فى أديس أبابا ، واختارت قاسم الخطاط لرياسته ، فأقامت رابطة الأدب الحديث فى القاهرة حفلاً لتوديعه ، وسافر إلى هناك . ولكننا فوجئنا بعد أيام بعودته إلى القاهرة لأن حكومة إثيوبيا رفضت افتتاح هذا المكتب

وقد خلف قاسم الخطاط مشروعات لم يتسن لها النشر ، منها رواية «امبراطورية الزنزانة رقم ١٢» وقصة فى رسائل عنوانها «لبلابتى العزيزة» ومجموعة من الأقاصيص وجمهرة كبيرة من المقالات التى كان ينشرها فى بغداد بعنوان «همسة» ثم بات ينشرها فى لندن بعنوان «شمعة» .

ولئن تولت شئون المخطوطات أجيال جديدة ربما جهلت قاسم الخطاط ، فإن تاريخ معهد المخطوطات يسجل له ما أحرزه من فتوحات فى أثناء اضطلاعه



بإدارته .

الشاعر حسن كامل الصيرفى

كنت أسير من أيام فى ميدان التحرير ، وكانت تتقدمنى فتاة ترتدى ثوباً يتراقص يمنة ويسرة . ومع أننى لست من خبراء «الموضة» فقد نسبت هذا الثوب إلى «موضة الكلوش» التى كانت معروفة فى زمن مضى ، وقد أطلق وقتها على هذه الأثواب الراقصة لفظة «كلوش» الفرنسية التى تعنى الناقوس ، مع أن التسمية الأدق هى «البندول» الذى لا يكف عن التأرجح جيئة وذهاباً .

ذكرتنى هذه الواقعة بقصيدة جميلة لصديقى الشاعر حسن كامل الصيرفى نظمها على لسان لابسة لثوب من هذا الطراز ، وقد أسمعنى إياها فى حينها ومازلت أذكر منها قوله :

آشير إليك بطرف ردائى
تعال ورائى ، تعال ورائى
هنالك عند الحديقة نقضى
سويعات أنس بأجمل روض
حديقة «مورو» إليها سأمضى
فهيا اتبعنى لتقطف منى
أزاهير حسنى وطلع روائى
أشير إليك بطرف ردائى
تعال ورائى ، تعال ورائى

أما حديقة «مورو» فهى حديقة الأندلس المعروفة .

وللشاعر قصيدة طريفة أخرى فى لاعبة الورق (الكوتشينة) أهداها «إلى التى كان سحر عينيها يلهو بى وهى تلهو بلعب الورق» جاء فيها قوله :

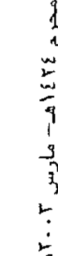
نولينى الحظ مرة ، واغلبينى ألف مرة
سحر عينيك هو الغالب ، لا غالب غيره
وابتسام ساحر كالنور لا يبرح ثغره
كلما استوحيت نظره ، كانت النظرة (بصره)
فامنحينى اليوم حظا ، واستردى الحظ (بكره)

وقد اخترت أبياتاً من هذه القصيدة الطويلة مراعاة للحيز المتاح .

والصيرفى ولد فى دمياط فى ٦ سبتمبر ١٩٠٨ وتعلم فى المدارس الثانوية ، واستكمل دراسته بالمراسلة وعمل موظفاً فى وزارة الزراعة ، ثم انتقل إلى مجلس الأمة (مجلس الشعب حاليا) مديراً لإدارة الصحافة وظل يشغل هذا المنصب إلى تقاعده فى عام ١٩٦٨ ، وإن كان انتدب فى خلال ذلك سكرتيراً لتحرير مجلة «المجلة» عند إنشائها على يدى الدكتور محمد عوض محمد (١٨٩٥ - ١٩٧٢) وسكرتيراً لمجلة «الكتاب العربى» .

والصيرفى من شعراء جماعة أبولو الموسسين لها وقد اختاره مجمع اللغة العربية بدمشق عضواً مراسلاً فيه .

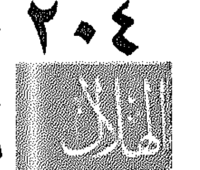
اشتهر الصيرفى بكونه شاعراً حيث



صدر ديوانه الأول «الألحان الضائعة» فى عام ١٩٣٤ وله ديوان سابق عليه عنوانه «قطرات الندى» لم ينشر حتى الآن . ثم أصدر ديوان «الشروق» وأتبعه بثلاثة دواوين فى مجلد واحد بعنوان «صدى ونور ودموع» وأعد للنشر عشرة دواوين صغيرة نسبياً لكل ديوان موضوع يستقل به كديوان لشهر زاد وآخر للمراثى وثالث للغزل وهلم جرا ، وحار فى أمر نشرها إلى أن اتصلت به السيدة جيهان السادات عندما كانت تعد رسالة الماجستير عن الشاعر الإنجليزى شلى وأثره فى جماعة أبولو، فأعرب لها الصيرفى عما يلقاه من صعوبة فى نشر هذه الدواوين العشرة . فما كان منها إلا أن اتصلت هاتفياً بأنيس منصور فى دار المعارف ، وأشارت عليه بنشرها ، وعلى الفور دب النشاط فى الدار ، وأنجزت فعلاً طبع ستة دواوين هى «عودة الوحى» - وقد أهداه الشاعر إلى السيدة «التى تفضلت فمنحت دواوين شعرى نسمة أمل فى أن ترى النور ، أقدم نفحة وفاء تصدر عن صادق الشعور» . وديوان «النبع» و«نوافذ الضياء» و«شهر زاد» و«صلواتى أنا» و«زاد المسافر» . ولكن لما تراخى نفوذ السيدة الأولى ، وخرج أنيس منصور من درار المعارف ، توقف نشر الدواوين الأربعة الباقية ، ولعلها - بعد وفاة الصيرفى فى ١٩ مايو ١٩٨٤ - مازالت «مركونة» فى إحدى الزوايا ، ربما إلى آخر الدهر !

غير أن تحولا كبيراً طرأ على اهتمامات الصيرفى الأدبية ، ولعل ذلك كان استطراداً للمقالات الأدبية والدراسات النقدية التى كان ينشرها فى مجلات «أبولو» و«المقتطف» و«المجلة» وغيرها ، فنشر دراسة عن «حافظ وشوقى» ثم اتجه بجمع قواه إلى تحقيق كتب التراث ، فحقق «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسى و«طيف الخيال» للشريف المرتضى و«لطائف المعارف» للثعالبى ، ثم تصدى لديوان البحترى فنشره فى طبعه ضخمة فى خمسة أجزاء مثقلة بالهوامش والتعليقات ، وهو عمل جاد مجهد ، ومع ذلك انبرى له محقق زميل هو عبدالسلام هارون (١٩٠٩ - ١٩٨٨) متناولاً إياه بالنقد والتعليقات فى كتاب مستقل أصدره بعد ذلك .

ولم يكد الصيرفى يفرغ من تحقيق ديوان البحترى ، حتى عكف على إصدار ثلاثة دواوين ضخام لثلاثة من الشعراء الذين لم يلتفت إليهم المحققون ، وهم «عمرو بن قميئة» و«المتلمس الضبعى» و«المثقب العبدى». وقد آثار صدور هذه



الدواوين بديلاً عن الأعداد الدورية لمجلة معهد المخطوطات العربية انتقادات وجهت إلى مدير المعهد قاسم الخطاط على زعم أنه بهذا التصرف قد ألغى المجلة وحولها إلى كتب . ولكن الخطاط رد على منتقديه قائلاً إن لنشر التراث أولوية على المقالات المعقودة على كتب التراث والتى تنشرها المجلة عادة ، وإن هذا العمل الباذخ الذى قام به الصيرفى هو كسب كبير للمجلة ولقرائها المتخصصين .

عرفت الصيرفى لأول مرة فى ندوة «المقتطف» إذ كان حريصاً على الانتظام فى حضورها . كان على شيء من القصر مع اعتدال فى القوام ، وكان جميل الصورة ، وإذا مشى جر ساقيه جراربما لعلة قديمة فى ساقيه . وكان خفيض الصوت إلا أن عابثته فكاهة لم يستطع كتمانها ، وعندئذ يعلو صوته مجلجلا فى القاعة. وكان رجلا ودوداً ، يفتح صدره للناس ويستقبلهم بحفاوة ولا سيما عندما عمل سكرتيراً لتحرير مجلات وزارة الثقافة .

وعندما ظهر ديوان الشاعر ابراهيم ناجى عن وزارة الثقافة بتحقيق محمد ناجى ، شقيق الشاعر وكان ضريراً ، وصالح جودت (١٩١٢ - ١٩٧٦) ، وأحمد رامى (١٨٩٢ - ١٩٨١) وأحمد عبد المقصود هيكل أطال الله بقاءه ، تبينت أن الديوان المنشور أغفل كثيراً من شعر ناجى ، فكتبت سلسلة من المقالات فى مجلة «الأديب» اللبنانية بعنوان «شعر ناجى المضيع» رصدت فيها طائفة من القصائد التى سقطت من هذا الديوان فكان الصيرفى يتتبع هذه الفصول ويحصر عدد الأبيات التى اهتديت إليها ويسجل ذلك فى مقاله الشهرى بمجلة «المجلة» مع تصويب أى أخطاء مطبعية وقعت فى هذه الأبيات أثناء الطبع .

وعندما أصدر الشاعر نزار قبانى (١٩٢٣ - ١٩٩٨) ديوانه «طفولة نهد» فى القاهرة أهدانى نسخة منه وتلقيت بعد ذلك من الصيرفى ديوانه «الشروق» ، فعقدت على الديوانين مقالا تناولت فى قسمه الأول ديوان نزار وفى قسمه الثانى ديوان الصيرفى ونشرته فى إحدى المجلات ولعلها «منبر الشرق» لصاحبها على الغاياتى (١٨٨٥ - ١٩٥٦) . وعند صدور المقال ، عاتبنى الصيرفى عتاباً شديداً لأننى قدمت ديوان الشاعر الناشيء نزار على ديوانه وهو الذى له أسبقية مقررة فى ميدان الشعر . فقلت له إننى راعيت تواريخ وصول الديوانين إلى ، فقد تلقيت ديوان نزار قبل ديوانه . فسخر من دفاعى الهزيل ، وإن كان تسامح معى لأن رأيى فى شعره كان طيباً .

تزوج الصيرفى من السيدة نعمت حسيب شقيقة السيدة زينب حسيب التى كانت الحب الأول للشاعر أحمد زكى أبى شادى (١٨٩٢ - ١٩٥٥) والتى أفرد لها ديوانا كاملاً يحمل اسمها . ولكن الصيرفى لم ينجب وعندما توفيت شقيقته بعدما وضعت طفلها ، تولت زوجة الصيرفى رعاية هذا الطفل (يحيى قدرى) إلى أن أصبح اليوم محامياً مرموقاً

أم كلثوم والشاعر أبو الوفا

مرت يوم ٣ فبراير ذكرى وفاة المطربة أم كلثوم التى خلدها كثير من الشعراء فى شعرهم . أما الشاعر محمود أبو الوفا (١٩٠١ - ١٩٧٩) فقد تناولها فى إحدى قصائده التى نظمها بعد احتراق القاهرة فى عام ١٩٥٢ وسخر فيها من الأوضاع الاجتماعية التى جعلت فقراء مصر ينتقمون من أغنيائها بإحراق العاصمة وفيها يقول :

تسمعون الآن شكوى الفقراء
دائما يشكون ظلم الأغنياء
ما الذى تشكونه ، يا جحداء ؟
عندنا الراديو وسهرات المساء
وليالى أم كلثوم الوضاء
ليلة واحدة فيها الغناء
عن غذاء وكساد ودواء
بل عن السودان أيضا والجلاء
قل لهم : استشعروا بعض الحياء!
من يقول اليوم إن الأغنياء
ليس فيهم رحمة بالفقراء ؟
وهمو - لو لم يكونوا رحماء
بكمو ، يا هؤلاء الضعفاء
لاقتنوا الأرض جميعا والسماء
فإذا أنتم عبيد أو إماء
عندهم ، لا تستحقون البقاء
فاحمدوه ، واشكروا للأوصياء
أنهم «حلوا» لكم هذا الهواء!

ترى هل يصدق هذا الوصف على ما يكابده الناس فى أوضاعنا الحالية ؟

الشاعران شوقى وابراهيم طوقان

لم يزاول الشاعر أحمد شوقى (١٨٦٨ - ١٩٣٢) التدريس فى حياته ، وإن كنا عرفنا عددا من الشعراء فى مصر عملوا بالتدريس ثم تركوه إلى أعمال أخرى مثل محمود غنيم (١٩٠٢ - ١٩٧٣) ومحمد عبدالغنى حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) وسيد قطب (وقد كان شاعرا) (١٩٠٦ - ١٩٦٦) والعوضى الوكيل (١٩١٥ - ١٩٨٣) وعامر محمد بحيرى (١٩١٢ - ١٩٨٨) وغيرهم . فقد كانت وظيفة المعلم تستحق التبجيل والاختراع قبل أن تتفاقم آثار مدرسة المشاغبين» وتنعكس على العملية التربوية الحالية.

ولأن شوقيا كان يرى فى التدريس

مهنة سامية فقد وصف المعلم بقوله :

قم للمعلم وفه التبجيلا
كاد المعلم أن يكون رسولا

ولئن كنا في يومنا الحاضر نفتقد هذا التبجيل للمعلمين ولا نراهم رسلا للثقافة أو الاخلاق ، فإن الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان (١٩٠٥ - ١٩٤١) الذي اشتغل بالتدريس وعاني من متاعبه ، عارض أمير الشعراء في ما ذهب إليه بقوله:

«شوقي» يقول وما درى بمصيبتي
«قم للمعلم وفه التبجيلا»
أقعد ، فديتك ، هل يكون مبجلا
من كان للنشء الصغار خليلا ؟
ويكاد يفلقني الأمير بقوله
«كاد المعلم أن يكون رسولا»
لو جرب التعليم شوقي ساعة
لقضى الحياة شقاوة وخمولا!

والذي بيده في النار ليس كالذي بيده في الماء .. كما يقولون .

الأدب العربي في استراليا

أدت الأوضاع غير المستقرة في عالمنا العربي إلى نزوح كثيرين من الشباب إلى أنحاء العالم المختلفة ينشدون هناك العيش الآمن والحرية المكفولة ، والكرامة المصونة ، والمستقبل العريض و«وكل مكان ينبت العز موطن» كما قال الشاعر ولكن إذا كانت مآرب الحياة تفرض على كثيرين من النازحين البحث عن عمل مهني يتفق مع تخصص كل منهم ، فالمهندس يتفرغ للمهندسة ، والطبيب للطب ، والصيدلي للصيدلة ، والتاجر للمتاجرة ، فإن البعض إختار لنفسه ميداناً يحفر فيه الصخر هو ميدان الأدب العربي في مجتمع تهيمن عليه لغات أجنبية تكاد تنسى المرء لسانه العربي .

وقد أدهشني أن أتلقى من الأديبة السورية مني الدروبي بعض أعداد فاخرة من مجلة تصدر في أستراليا في طبعتين عربية وإنجليزية عنوانها «كلمات» يحررها رغيد النحاس ويستعين بهيئة استشارية من أدباء سوريا ولبنان ومصر وأمريكا ودول الخليج وجزر المحيط الهادي . وهي مجلة مطبوعة طباعة أنيقة في قطع الكتب المتوسطة الحجم ، وتتناول موضوعات أدبية وثقافية وعلمية ، عدا قصائد الشعراء . وقد صادفت بين كتاب المجلة والمسئولين عنها أسماء أعرفها منها عيسى فتوح ويوسف عبدالأحد ومنى الدروبي ونهاد شبوع ونوبل عبد الأحد إلى جانب أسماء أخرى تكتشف من متابعة آثارها . فهل ينتقل إشعاع الأدب المهجري إلى استراليا بعدما كاد يخبو في العالم الجديد بأمريكتيه الشمالية والجنوبية والوسطى أيضاً ؟ ■

كيف جاءت مصر إليّ ولم أرحل إليها..

خليفة محمد التليسي

بعد دخول جيوش الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية وانفتاح الحدود الشرقية الليبية تدفق سيل كبير من الصحف المصرية بمختلف أنواعها وتعدد اتجاهاتها وكان منها الصحافة اليومية كالأهرام، والصحافة الأسبوعية كالمصور والاثنين، والصحافة الأسبوعية أو نصف شهرية مثل مجلة الرسالة والثقافة، أو الشهرية مثل الهلال، أو الفصلية مثل الكاتب المصرى. وكان هذا شيئا رائعا ومذهلا أن تتوفر بهذا الحجم والتعدد.

كان ذلك مفاجأة سارة لنا نحن عشاق القراءة. وربما كانت فرحتنا بها أكبر من فرحتنا بانفراج أزمات الحرب الخانقة. وقد ارتبطت ارتباطا أسبوعيا أو شبه أسبوعي بمجلة الرسالة وأخذت أتابعها منذ ذلك الحين أي منذ الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري حتي توقفها أفهم منها ما أفهم وأقرأ منها ما هو قريب إلي عقلي ووجداني . ومازلت أذكر المقال المحزن الذي كتبه الزيات في رثائها والإعلان عن قفلها. وقد نشر في العدد الأخير منها. كما نشر في جريدة الأهرام اليومية.

وفيه ينسب تعطيلها إلى الضرائب وتوقف الاشتراكات الرسمية أما الأعداد التى صدرت منها أيام طفولتى الباكرة، فقد تكفلت بها بعض المجاميع الموجودة فى مكتبة الأوقاف. وفى الرسالة التقيت لأول مرة بكتابها البارزين آنذاك مثل أحمد حسن الزيات ومصطفى صادق الرافعى وعلى طنطاوى وسيد قطب ومحمد عبدالله عنان وكذلك طه حسين وأحمد أمين اللذين كانت لهما مشاركة أولى فيها ثم تحولا إلى إصدارات أخرى خاصة بهما مثل الثقافة التى أضعف صدورها من قوة الرسالة ولم ينشىء قوة تنافسها، أى أن مجلة الثقافة كانت ضعيفة إذا قورنت بالرسالة فى المراحل الأولى من صدورها. ولم أذكر الأستاذ العقاد ضمن الأوائل من كتابها. فالمعروف أنه لم ينتم إلى الرسالة انتماء تاما إلا بعد وفاة خصمه الأدبى اللدود مصطفى صادق الرافعى وقد أوضح ذلك أحمد حسن الزيات فى رثائه لمصطفى صادق الرافعى.

نيتشه والشعر

وكان أهم ما التقيت به فى هذه الأعداد الأولى التى فاتتنى بحكم السن عملين استأثرا بلبى، أولهما «هكذا تكلم زرادشت» الذى كان ينشر مفرقاً بترجمة المترجم العظيم فليكس فارس. ثم ديوان (جيتنجالى) الذى نال به طاغور جائزة نوبل للآداب، من ترجمة الأستاذ محمود حبيب وكان ذلك أول لقاء لى بهذين العملاقين، نيتشه، وطاغور فى هذين العملين الشعريين الرائعين وأقول الشعريين، وأنا عالم بالاعتراض الذى قد يقوم فى ذهن القارىء حين يتساءل عن صلة نيتشه بالشعر، وهو فيلسوف معروف بمبادئه الفلسفية ومواقفه من فلسفة القوة ودعوته إلى السوبر مان.

فأقول إن صفة الشاعر الفيلسوف أو الفيلسوف الشاعر لم تتحقق لأحد من فلاسفة العصور الحديثة كما تحققت فى شخصية نيتشه، ويعد أفلاطون الذى كان شاعرا فى تصوره لجمهوريته التى نفى منها الشعراء، لم تعرف الفلسفة إنسانا جمع بين الملكتين ملكة الفلسفة وملكة الشعر كما تحقق ذلك لنيتشه. ولذا كان لكتابه هذا من التأثير العميق فى الشعر العالمى - بما فى ذلك الشعر العربى الحديث ما لم يكن لأى كتاب فلسفى. فيندر أن تقرأ لشاعر مشهور مذكور لا تجده قد تأثر بهذا الكتاب الرائع. بما فى ذلك الأدب العربى. وأثر نيتشه فى جبران أثر متفق عليه من جميع الباحثين والدارسين، وكذلك فى الشابى عن طريق جبران وظاهر فى قصيدة إرادة الحياة. أما فى الآداب العالمية فيحضرنى أثره فى الشاعر الإيطالى دانتريو، ثم أثره فى الشاعر الكريتلى اليونانى المعروف كزانتزاكيس صاحب «زوربا» ولو ذهبت أحصى أثره فيمن قرأت لهم أو قرأت عنهم، لانتهيت

إلى كتاب .

دور مهم لمجلة الرسالة

ومن الشعراء العرب المحدثين صلاح عبدالصبور الذى تحدث عنه فى كتابه (حياتى فى الشعر). وتواصلت متابعتى للرسالة بعد ذلك. ولكن من الواضح أن خطها الذى بلغ قمته فى السنوات الأولى أخذ يميل إلى النزول، فضعفت قوتها بظهور القوى الأدبية الجديدة فى مصر والوطن العربى التى احتاجت إلى وسائل أخرى للتعبير عن إبداعها واتجاهاتها الفكرية الجديدة، وكان واضحا أن دور مجلة الرسالة، قد انتهى ، أو أوشك على الانتهاء. وأن الساحة ستمتلىء فيما بعد بمجلات بديلة فى بيروت، وهى الأديب ثم الأداب ثم المجلات التى صدرت بعد عن وزارة الثقافة. أى أن القارىء العربى وجد تعويضا يستوعب المراحل التالية التى لم تكن الرسالة قادرة على استيعابها. وللرسالة فضل كبير فى تكوينى الأدبى. كما كان فضلها كبيراً على كل من صاحبها منذ بداياتها، وقلما ظفرت مجلة عربية قبل الرسالة وبعدها، بذلك الانتشار الذى ظفرت به. وكانت تصل بانتظام إلى كل العواصم العربية والإسلامية وكانت تباع فى ليبيا أثناء العهد الإيطالى. وقد تتبعت آثار اجتماع القوم حولها وتعصبهم لكتابها. فقد كان فى ليبيا. كما كان فى تونس. كما كان فى المغرب. والسودان تعصب لهذا الكاتب أو ذاك. فيهم المتعصبون للرافعى والمتعصبون للعقاد وطه حسين. على أن التقييم العام للمجلة بنظرتنا الموضوعية المحايدة يقرر أن مجلة الرسالة قد أسهمت بلا شك إسهاما كبيرا فى ترسيخ المفهوم القومى العربى الإسلامى فى مصر. فى وقت لم يكن هناك أصوات فى مثل جهارة صوتها وعلوه. وكانت فعلا مؤسسة ثقافية ضخمة يديرها فرد بإمكانياته المادية المحدودة وقدراته الفنية ، وقد تجمعت فيها أقوى أقلام الأدب، كما فتحت الباب للكتاب والشعراء العرب، كانت بذلك مدرسة لأدباء العرب من مختلف الأقطار العربية. وظلت مخلصة لهذا الاتجاه حتى نهاية عمرها. عَرَّفت بالإبداع العربى شعراً ونثراً. وكان النشر فيها «إجازة» أدبية كبرى يحصل عليها المبدع والباحث. وقد رأيناهم يباهون ويفاخرون ويرددون أنهم كانوا من كتاب الرسالة أو شعرائها. مثل الشيخ على الطنطاوى الذى لا يفتأ يذكرنا فى أحاديثه الرمضانية بانتمائه إلى أسرة الرسالة. وقد عدت إلى المجموعة الكاملة لها التى صدرت فى السنوات الماضية بعناية الدكتورة سعاد الصباح. وعنيت عناية خاصة بتتبع أثر الرسالة فى الحركة الشعرية الحديثة، فانتهيت إلى حكم قد يفاجىء الكثيرين. وهو أن أثر الرسالة فى الحركة الشعرية، بمعناها التقليدى أو الحديث، كان محدودا جدا على عكس ما يتصور البعض، فلم يعرف شاعر يمكن أنَ يقال أنه نشأ فى ظلها سوى «محمود حسن إسماعيل» أما الأسماء الأخرى التى نشرت لها لم تكن أسماء ذات شأن كبير فى حركة الشعر وهى تكون شبه أسرة احتكرت وتسلَّطت على أنهار الشعر بها. وليس فيهم شاعر مذكور اليوم بشاعرية ضخمة ولا يحتج بما

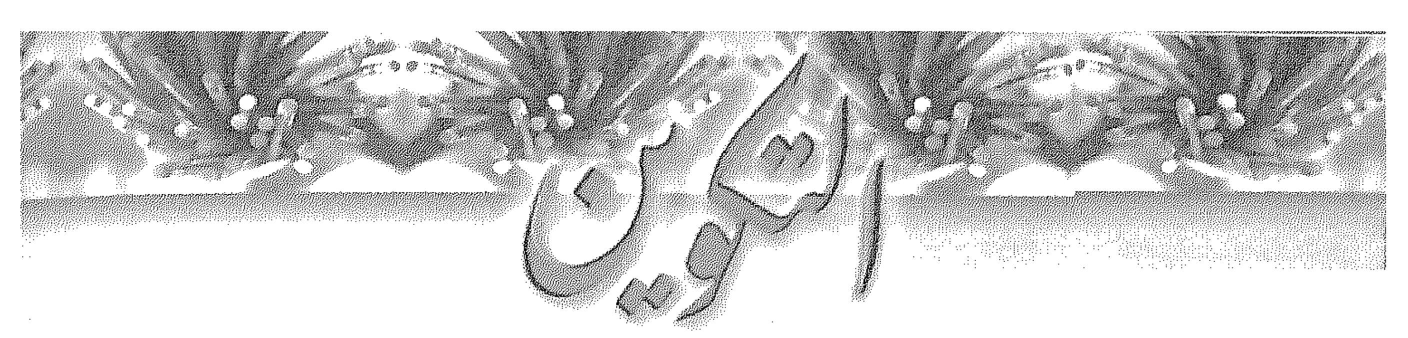


نشرته أعوامها الأولى الأخيرة من قصائد لإيليا أبو ماضى أو الشابى فهى منشورة من قبل فى مجلات أو دواوين، أرادت بها الرسالة إرضاء طموحات القارىء ، حتى على محمود طه. وهو من أصدقاء الزيات أهداه أحد دواوينه ورثاه الزيات رثاء حارا. وكان من بلدياته «المنصورة» لم يكن من الشعراء الذين أنجبتهم الرسالة .

إنما أثر الرسالة الكبير الذى ينبغى أن يتسلط عليه الاهتمام، هو دورها المهم والعظيم فى تطور المقالة الأدبية، بجميع أشكالها وضروبها. فقد كتب فيها الرافعى مقالاته الرائعة التى جمعت فيما بعد فى كتابه الخالد «وحى القلم» وهو خير إبداعه عندى، وعند الجميع، كما نشر فيها طه حسين فصولاً من كتابه الرائع أيضا «على هامش السيرة» ونشر بها أحمد أمين جملة من المقالات جمعها فيما بعد فى مجموعة مقالاته التى بلغت عشرة أجزاء «فيض الخاطر» وعندى أن أحمد أمين من أهم كتَّاب المقالة، على عكس ما يعتقد الكثير بأن الرجل لم تكن له صلة بالأدب، وأنه باحث دارس لا غير، ففى «فيض الخاطر» من المقالات الجميلة ما ينافس كتَّاب المقالة المشهورين بها. وفيها نشر إبراهيم المازنى العظيم كثيراً من مقالاته التى تقوم على الصورة الذاتية ولا أعرف أديبا عربيا بلغ براعته أو مستواه فى توظيف حياته الخاصة مادة لأدبه يعشقها القارىء ولا يسأم منها بل ويحبه من أجلها. كما هو عند هذا الأديب الذى لم يظفر حتى اليوم بجمع أعماله الكاملة. وفيها عرفنا على الطنطاى بمقالاته الخطابية النارية وسيد قطب بمقالاته النقدية الممتازة التى جمعها فى كتابه المهم «كتب وشخصيات» وكذلك بحماسه لأدب العقاد، ودخوله فى معارك من أجله كمعركته مع الدكتور مندور حول «الشعر المهموس». وتعقبه فى مقالات رائعة «المرأة فى شعر العقاد» لقد خسر فيه الأدب ناقدا كبيراً، وكان أستاذاً كبيراً لكثير من النقاد الذين جاءوا بعده ومنهم أنور المعداوى ورجاء النقاش. وكان أول من بشر بميلاد عبقرية نجيب محفوظ الروائية ولكن نجيب محفوظ صوره صورة غير كريمة فى كتابه «المرايا» وقد ذكرت الهلال أن المقصود بهذه الصورة سيد قطب. وعرفنا فيها الكاتب العربى الرائع المحبوب بظرفه ومشاغباته ودعاواه الدكتور زكى مبارك فقد خص الرسالة بكثير من الكتابات الرائعة «كليلى المريضة فى العراق» و«جناية أحمد أمين على الأدب العربى» و«الحديث ذو شجون» وأشد ما شدنى إليه صحة تذوقه للنص الشعرى العربى القديم وتحمسه له ولكل ما هو عربى. إن زكى مبارك ظاهرة فريدة فى بابها فى ذلك الوقت، فى مصر والوطن العربى.

أدباء كثيرون تأثروا بالرسالة

ولا أظن أن أحدا من كتاب الرسالة كان له من الأتباع والتلاميذ فى الوطن العربى مثل زكى مبارك. وعرفنا فيها العلامة الأستاذ شاكر الذى يسلكه البعض ضمن مدرسة الرافعى ولهذا الرجل ولع بالشعر العربى القديم وله منهج فى دراسته فريد يسميه «الفن الصعب». ومن الذى عرفناهم عن طريق الرسالة درينى خشبة فيما كان يقدم من فصول رائعة عن

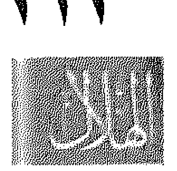


الأساطير اليونانية. وأعتقد أن أساطيره هذه قد أثرت فى الشعر العربى الحديث، ونجد أثرها المباشر عند «على محمود طه» فى ولعه بذكر الرموز اليونانية. ويمكن التماس خط تأثيرها حتى في شعراء جاءوا بعد ذلك، حين جمعت هذه الأساطير فى كتابين. وهذا الرجل كريم معطاء قدم للمكتبة العربية كثيرا من الدراسات والترجمات عن المسرح تكون مكتبة غنية سخية. وعرفنا فيها العريان فى مقالاته الرائعة سيرة حياة الرافعى التى صدرت فيما بعد فى كتاب وكان هو أخلص تلاميذه ومريديه. وله مشاركات إبداعية فى القصة والرواية معروفة .

أما المراحل الأخيرة. وربما كانت تمثل محاولة من الزيات، لإنقاذها وربطها بالإنتاج الجديد، فقد تميزت ببروز شخصية الناقد اللامع أنور المعداوى الذى لفت انتباه شباب العرب المبدعين، بقوة أسلوبه واعتداده بشخصيته، وأهم من ذلك مثل المحاولة الأولى للانفتاح على الإبداع العربى التى نراها تتأكد وتتوسع وترسخ لدى ناقد شاب يحبه ويتتلمذ عليه، هو رجاء النقاش. وفيها ينشر مقالاته الجميلة عن «الأداء النفسى» وفصول كتابه عن الشاعر على محمود طه الذى نشرت أول مرة بالعراق وفى هذا دلالة على الحظوة التى كانت للشاعر والناقد فى العراق والكتاب المذكور دراسة جميلة الأسلوب تفيض بالحب والحماس لهذا الشاعر الكبير، ولكنها لا تبلغ شيئا مما بلغته دراسة نازك الملائكة عنه، فى كتابها الذى صدرت طبعته الأولى من المعهد العالى للدراسات العربية فى طبعة سيئة، ثم أعادت دار العلم للملايين طبعه بعنوان «الصومعة الحمراء» ولعله أجمل دراسة كتبت عن شاعر حديث.

كان المعداوى صاحب أسلوب جذاب يشدك إليه، شديد الاعتداد بنفسه يتحدث عن طه حسين وتوفيق الحكيم والمازنى حديث الند للند كأنه «أكل عيش الزرع معهم» كما يقول المثل، أى كأنه كان زميلا لهم فى الزرع فيستحق الجلوس إليهم على قدم المساواة لأكل عيش الحصاد. كما كان يشرف من علٍ فى حديثه عن بعض المبدعين الجدد. ولم يكن وراء هذا الأسلوب علم بالنقد كما لم يكن وراءه علم واسع بالتراث وهذا ما جعل صوته يخفت حين طغت على الساحة النقدية اتجاهات الواقعية الاشتراكية بكفاءاتها النقدية العالية.

وكان الزيات يتبع بروتوكولا خاصا فى التقديم والتأخير حسب مراتب الأدباء لديه. ومن الطرائف التى كنا نلاحظها الدرجات التى يتبعها فى صفات الأدباء فيغدق أوصاف الأستاذية على كبارهم كما يسخو بأوصاف يبدو أنه ساير فيها أصحابها، مثل وصفه للزهاوى فى جميع ما نشر له من قصائد «بالشاعر الفيلسوف» وقبوله من عبدالرحمن شكرى وصف نفسه فى مقالاته ذات الاسم المستعار «أحد أساطين الأدب» أو محاولته اليائسة لإنصاف أحمد الزين بوصفه «الشاعر الراوية» أما «الأديب» فصفة يخلعها الزيات على الذين ينشرون لديه للمرة الأولى أو الثانية حتى إذا استوثق منهم، وتيقن من قدراتهم، تحول



بهم إلى مرتبة الأستاذية وكان الزيات مجاملا أحيانا فى بعض ما ينشر. فبعض القصائد التى كان ينشرها للزهاوى تحت صفة الشاعر الفيلسوف لو قدمت اليوم إلى رئيس تحرير مجلة-أدبية لرفض نشرها. ولذا ينبغى التنبيه إلى الفرق بين الظروف القديمة والظروف الحالية، وقد كان القوم يتبادلون المجاملات ويغدقون على بعضهم من الألقاب ما يذكر بأوصاف عصور الانحطاط ربما كان ذلك تعويضا عن الوجاهة السياسية المفقودة. وفى مصر بالذات ولع بالألقاب شهد ازدهاره فى عهد الملكية فى ألقاب صاحب المقام الرفيع وصاحب العزة وصاحب المعالى وصاحبة العصمة وكلها تعويض عن السطحية والخواء والتفاهة والسخافة ولم يكن لأصحابها فى كثير من الأحوال شىء من هذا الذى تخلقه الألقاب ولكنها لعبة الملوك بعقول التافهين. وقد فرح الزيات بلقب البكوية. كما فرح طه حسين بلقب البكوية، ثم الباشوية. وظل عباس محمود العقاد شامخا لا تلحقه الألقاب سوى تلك التى يبثها فى النفوس اسمه العظيم الموحى فى حد ذاته بالرهبوت والجبروت العلمى الأدبى «عباس محمود العقاد» هذا لا يمنع من القول بأنه ما كان ليرفضها لو جاءته وكان من الذين سجل عليهم مدح الملك فاروق ودخول الانتخابات فى دائرة صنعت له وليس من أبنائها. ولكنه كان مرض العصر كله فى جميع الأحوال، ولو عشنا عصرهم لكان إيقاعنا على إيقاع ذلك الزمان كما يقول البستى. أما المجلة الثانية التى ارتبطت بها ارتباطا شهريا منذ دخولها إلى البلاد فهى مجلة الهلال. ولم أتعقب أعدادها السابقة على ذلك التاريخ كما فعلت مع الرسالة.

●●●

وفى يقينى أن أعظم اسهامات هذه المجلة هو دورها فى تطور المقالة بجميع أشكالها الفنية والأدبية والتاريخية والاجتماعية والعلمية والوجدانية الذاتية ولا أعتقد أن هناك مجلة أدبية فى مصر أو الوطن العربى كان لها الدور الذى كان للهلال فى تطور المقالة. وما تزال حتى اليوم تسهم ربما وحدها فى تطور هذه المقالة بجميع أنواعها. وهذا جانب جدير فعلا وحده بالدراسة. وحين تلقيت الدعوة لحضور مئوية الهلال كان فى عزمى الحديث عن هذا الجانب بالذات. وقد تعذر علىّ الحضور فتعطل الإسهام بهذا العنوان الذى مازال قائما ينتظر من يعكف عليه من طلاب الدراسات العليا وفى رأيى أنه سيأتى من هذه الرحلة بغنائم كثيرة . ولقد تعاقب على الهلال خلال هذه الفترة عدد من رؤساء التحرير أذكر منهم الدكتور أحمد زكى، وأحمد بهاء الدين، وكامل زهيرى، ورجاء النقاش، وصالح جودت، والدكتور حسين مؤنس، حتى رست أخيرا عند مصطفى نبيل. وقد تأثرت الهلال بشخصيات رؤساء التحرير وغلب عليها ما غلب عليهم من صفات واهتمامات قطفت عليها موسوعة المبادىء والمفاهيم الاشتراكية أيام كامل زهيرى وانفتحت على الساحة الأدبية العربية أيام رجاء النقاش وهبطت هبوطا ذريعا أيام صالح جودت ولا أدرى إذا كان ذلك بسببه أم بسبب الظروف. وأدركتها الأكاديمية الجامعية أيام حسين مؤنس وغلبت عليها «المصرية» أيام مصطفى نبيل ولكنها ليست المصرية الإقليمية بقدر ما هى

المصرية الراحلة نحو اكتشاف الذات التى طمستها العهود السابقة. ومازالت تسهم فى تقديم المقالة الجيدة.

لقد نشرت الهلال فى مختلف عهودها شعرا. ونشرت لبعض المشاهير من الأحياء وأذكر أنى قرأت بها بعض قصائد الشابى التى أعادت نشرها مثل «صلوات فى هيكل الحب» و«أغانى الرعاة». وربما كانت لها مساهمة فى التعريف بالشعر المهجرى فيما فاتنى من أعداد عند مراحلها الأولى. ولكنى أشعر أن الهلال لم تكن تعنى عناية كبرى بالشعر ولا تهتم به وأن ذوقها الشعرى وخاصة فى سنواتها الأخيرة كان هابطا إلى أدنى مستوى تدل عليه ما نشرته من قصائد سواء كانت حديثة أو تقليدية عمودية وهى فى هذا الباب لا تتورع عن نشر أى نظم كان ينبغى أن تترفع عن نشره مجلة فى مستوى تاريخية «الهلال» ويبدو أن المسئولين عن القسم الأدبى فيها لا يعرفون من مصطلحات الشعر إلا مصطلحه القديم «هو الكلام الموزون المقفى» فليتها راجعت نفسها فى هذا الباب مراجعة دقيقة وأنا أعتقد أن، الهلال لن تخسر شيئا بإسقاط هذا الشعر، ولو بخلو بعض الأعداد خلوا تاما من المادة الشعرية. وقد صاحبت طوال هذه المسيرة الدكتور طه حسين فيما كان ينشر من مقالات جمعها فيما بعد فى كتابه «مرآة الضمير الحديث» وكذلك ما كان ينشره أحمد أمين من رسائل إلى ولده وعن (حياته) وقد جمعها فى كتابين وتابعت ما نشره العقاد عن سيرته التى جمعها فى كتابيه «أنا» و«حياة القلم» وتابعت كمال النجمى فيما كان ينشر من مقالات عن الفن وهو كاتب مقالة فى هذا المجال من طراز نادر، وما كان ينشره الناقد محمد شكرى عياد فى الأعوام الأخيرة من مقالات نقدية ممتازة وكذلك عبدالرحمن صدقي في فصول من سيرته الذاتية . وأنا أعتمد فى سردى هذا على الذاكرة فى أكثر الأسماء التى عرفناها عن طريق الهلال.

وبقاء الهلال هذه المدة الطويلة التى تجاوزت المائة عام يدل على أنها مثلت حاجة قائمة فى جميع العهود فهى الآن أعرق المجلات الشهرية العربية وأطولها عمرا. ولم يقتصر تأثيرها على ما نشرت من أعمال فكرية أنها تاريخ لتطور حركة الفكر والحياة فى مصر، أولا ثم فى الوطن العربى إلى حد ما. إنها جامعة كبرى ظلت مفتوحة لأعلام الأدب وعشاقه ما يزيد على مائة عام. كما كانت مدرسة لما صدر من مجلات متشابهة مثل «مجلة العربى» التى مثلت فى الواقع امتداداً أو شكلا آخر من مجلة الهلال وليس من الصدف أن يكون أول رئيس تحرير لها هو أحمد زكى وخليفته أحمد بهاء الدين وهما من رؤساء تحرير الهلال.

الهلال وأعلام الكتاب

وتظل مجلة الهلال مجلة «مغلقة» خاصة بالكتّاب المصريين ولا تكاد تعثر فيها على كاتب عربى إلا صدفة أو حين يكتب عن شيء يهم مصر والمصريين بخلاف بداياتها الأولى فقد كانت متفتحة على مساهمات أعلام العرب وهذا يعود إلى سياسة مؤسسها العلامة جورجي زيدان اللبناني الأصل. وفى هذا الجانب تتفوق عليها

ربيبتها مجلة «العربى» بساحتها المفتوحة لكل العرب.

ونذكر للهلال فيما نذكر من مآثر وأفضال إصدارها لأعداد تكريمية مرجعية عن طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ. وهى أعداد مرجعية بحق اقتصرت فيها على أعلام المصريين، وقد يكون الأمر هنا طبيعيا غير مستنكر عليها أن تعنى بأعلام المصريين، فهى بالأصل مجلة مصرية تخاطب القارىء المصرى. وهناك عيب مصرى في كتابها ومؤسساتها هو عدم الشعور بأبعادهم العربية، ومدى التأثير الواسع لهم فى القارىء العربى فهم يكتبون ويغلب عليهم الشعور بمخاطبة القارىء المصرى فقط بل جاءت فترة كان يشعر المرء أن لا مكان لغير القارىء المصرى فى أذهانهم . وقد قلت وأقول إن مصر فى حاجة إلى احتضان العقول والمواهب العربية والإلقاء بها من جديد إلى الوطن العربى كما كانت فى مطلع نهضتها. فصناع النهضة الحديثة فى مصر كانوا من السوريين واللبنانيين . لقد حكمت مصر فى مطلع القرن بنوعين من الأجانب، الأجانب العرب، والأجانب الأوروبيون «الخواجات». ولكن الوجود العربى كان من وجوده خير كثير جعل من مصر رائدة النهضة العربية الحديثة. ولعلها فى حاجة إلى أن تلعب من جديد هذا الدور ولكن بقيادات من داخلها.

● ● ●

وكان إلى جانب الرسالة مجلة الرواية تعنى بالقصة المؤلفة والمترجمة عن لغات وإن غلبت عليها القصص المترجمة، وقد نشر بها الزيات نفسه بعض ترجماته لكتاب فرنسيين، جمعها فيما بعد فى كتاب «فى الأدب الفرنسى» ولم أحصل منها إلا على أعداد متفرقة، لفت نظرى منها «اعترافات فتى العصر» لموسيه ترجمة المترجم العظيم فليكس فارس. وقد نشرها فيما بعد فى كتاب بهذا العنوان. وذكر فى مستهل فصولها المنشورة أنه ترجمها بناء على اقتراح الأستاذ حسن الزيات ولم يطل عمر الرواية إذا توقفت عن الصدور.

وقد نسب الزيات تعطيل الرسالة إلى توقف الاشتراكات التى كانت تتلقاها من وزارة المعارف وإلى ما يشبه ذلك من الأسباب والواقع أن دور الرسالة بالتحولات الجديدة الطارئة على المجتمع المصرى والعربى قد انتهى. وقد كنا نحن قراءها الأوفياء لها نشعر بسريان الشيخوخة فى أوصالها وخذلان القوى لها وأنها لم تعد تلك الرسالة التى كانت والتى تعرف يؤكد هذا الدور المنتهى عودتها الفاشلة بعد التوقف.. فليتها لم تعد حتى تبقى لها أسطورتها الخالدة!!

وقد أنشأ يوسف السباعى مجلة الرسالة الجديدة سدا للفراغ الحاصل بتوقف رسالة الزيات فلم يكن لها ما كان للرسالة من شأن. على أن صدور مجلات أخرى أدبية فى الوطن العربى شخصيا مثل «الأديب» و«الآداب» ورسمية مثل المجلات التى كانت تصدر عن وزارات الثقافة العربية قد سد الفراغ الحاصل عن تعطل الرسالة والثقافة، بل يمكن القول بأن بعض هذه المجلات قد تجاوزت الرسالة مثل مجلة «الآداب» البيروتية لصاحبها الدكتور سهيل إدريس وهى ماتزال منارة عالية للآداب والثقافة العربية

وعاشت عمرا أطول من الرسالة وقامت بمجهود لم تقم به المنظمات العربية المدعومة بملايين الدولارات. ولا تعجبنى نغمة التحسر على الرسالة والقول بأن أمر المجلات الأدبية قد انهار بعدها. فهذا الأمر مردود بما نشرته هذه المجلات من إبداع. وفى مصر نفسها نشرت مجلات تجاوزت الرسالة منها مجلة «المجلة» ومجلة «الكاتب» ومجلة «الفصول» فضلا عن المجلات المتخصصة بالقصة والشعر والمسرح والنقد والفكر المعاصر.

ولم يكن أثر هذه المجلات فينا كأثر المجلات التى التقينا بها فى مرحلة التكوين لقد التقينا بكُتّابها لقاء الصحبة والصداقة والزمالة والاهتمام المشترك والاختصاص ولم نلتق بهم لقاء الأساتذة والمعلمين وهذا فرق ما بين الحالين وبين الجيلين.

مجلة أبوللو

ومن المجلات القديمة التى التقيت بها فى أعداد متفرقة فى مكتبة الأوقاف مجلة «أبوللو» لصاحبها الشاعر أحمد زكى أبوشادى وفيها التقيت ولأول مرة بشعر أبى القاسم الشابى واكتشفت على الفور وأنا فتى فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة أنه أقوى صوت شعرى بين مجموعة الشعراء الذين نشرت لهم المجلة وفيهم أعلام كبار. ومايزال رأيى حتى هذه اللحظة على حاله وأدعو القارىء إلى أن يختبر بنفسه صحة هذا القول.

عانقت الرسالة منذ أعدادها الأولى شعر الشاعر المهجرى الكبير إيليا أبوماضى ونشرت له عدة قصائد استهلتها بقصيدته الذائعة الصيت «كن جميلا تر الوجود جميلا». ودأبت على اتحاف قرائها من حين إلى آخر ببعض روائع هذا الشاعر العظيم حتى سنواتها الأخيرة، ولعل احتفاء أنور المعداوى بقصيدة «وطن النجوم» التى طبق عليها نظريته فى الأداء النفسى يدخل فى سياق احتفاء الرسالة بهذا الشاعر التأملى، ومن آخر ما نشرت له قصيدته التأملية «الحكاية الأزلية».

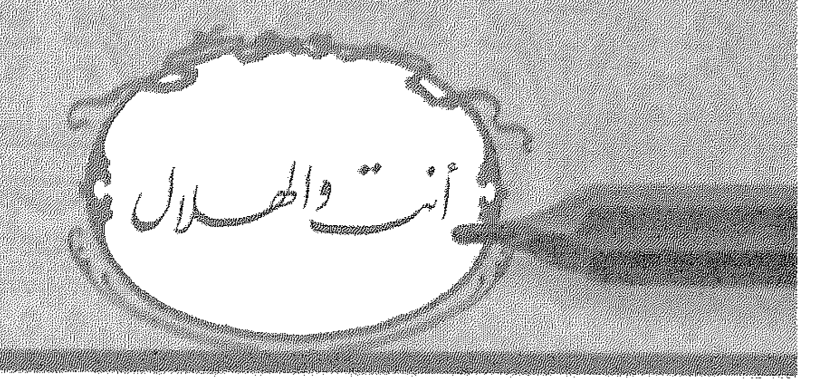
ولسنا ندرى ما إذا كان الشاعر نفسه هو الذى يبعث إليها بشعره أم أنها كانت تنقل هذا الشعر عن الصحافة الأدبية المهجرية، فى محاولة منها للتنبيه إلى التجديد فى الشعر المهجرى الذى نهض به إيليا أبو ماضى بعبء كبير وقدم بشعره التأملى تعويضا عن مئات الأعوام، خبت فيه النزعة التأملية فى الشعر العربى الذى لم يعرف بعد المعرى شاعرا فى حجم ووزن الشاعر العظيم إيليا أبوماضى. وهو شاعر لم ينل حظه من الدراسة الجادة لهذا الجانب خاصة وهو الجانب الذى عثر فيه على نفسه بعد رحلة شعرية شاقة تعبر عنها قصائد المرحلة الأولى من حياته، والتى كان يحتذى فيها طريق الشعراء الإحيائيين، وقد عاش بمصر أثناء بروز شوقى وحافظ ومطران فى الساحة الشعرية. وموقف الرسالة من شعر إيليا أبوماضى يختلف عن موقف الدكتور طه حسين منه فى كتابه «حديث الأربعاء» حيث تناوله فى مقال من مقالاته تناولا قاسيا لا يخلو من غيرة يجدها فى نفسه نحو هذا الشعر المهجرى. ولكن مصر أدركت فيما بعد أهمية هذا الشعر، فتناوله نقادها

بالدراسة والنقد ويبرز فى هذا المجال موقف الدكتور مندور فى دراساته عن الشعر المهموس، وتبنيه لمحاضرات جورج صيدح فى معهد الدراسات العربية العالى وقيام محمد عبدالغنى بنشر مختارات من الأدب المهجرى ونشر دراسة عيسى الناعورى المهمة فى دار المعارف إلى غير ذلك من الدراسات الجامعية التى توالت بعد ذلك . بما أنصف هذا الأدب وأبرز دوره فى حركة التجديد فى الشعر العربى الحديث. ومايزال الشعر المهجرى يمثل أثمن ما قدم الإبداع الشعرى فى القرن العشرين ولا يدانيه فى قيمة هذا العطاء وتأثيره اللاحق إلا الشعر العذرى الذى جادت به العبقرية الشعرية العربية فى العهود الإسلامية الأولى. ويظل إيليا أبوماضى أكبر شاعر أنجبه المهجر.

وقد خصت الرسالة بهذه العناية شعر أبى ماضى. ولا نراها تنشر لغيره من شعراء المهجر. وكأن ذلك عندى ينطوى على تحريض لشعرائها بأن يسلكوا هذا السبيل إذا أرادوا أن يكون لهم شأن يذكر فى الحركة الشعرية الحديثة. وربما كانت لصلته التاريخية بمصر أثر فى ذلك، إذ عاش الشاعر فى مصر فى الفترات الأولى من حياته ، وفى مرحلة حاسمة من تاريخها الوطنى وتأثر بأعلام الشعر فيها وسار على طريقتهم، فيما نظم من شعر مرتبط بالأحداث السياسية آنذاك.

وكان من الممكن أن يكون كبعض شعراء تلك الفترة بمن فيهم الكبار شوقى وحافظ بأن يكون مسجل حوادث سياسية وناظما للشعر الصحفى هذا الذى يتابع الأحداث بالنظم بدل أن يتابعها نثرا وقد ظل إيليا أبوماضى على هذا الخط فى أعماله الشعرية حتى إذا هاجر إلى أمريكا اكتشف نفسه، ووجدها بصفة خاصة فى ديوانيه الخمائل والجداول ومن أراد نموذجا للشاعر الذى يقدم صورة للتلمذة على المدرسة الحديثة ثم ينفصل عنها بتجديده الخاص ونموذجه الخاص وشخصيته المتفردة كما يتجاوز الأعلام الذين تأثر بهم فى مطلع حياته فإن إيليا أبو ماضى يقدم النموذج الحى على ذلك حتى ليبدو أنه لم يكن له صلة بماضيه.

رحلة طويلة شاقة فى عالم الشعر قطعها إيليا أبو ماضى لكى يصل إلى نفسه وإلى الشعر الذى هو شعر. وإذا تأملت الركام من القصائد الأولى التى نظمها فى مصر وتأثر فيها بأعلام الشعر فى تلك المرحلة أدركت أى شاعر كان سيضيع علينا لو ظل يسير على ذلك الطريق. ولكن من حسن الحظ أن ذلك الطريق كان طريق النشأة ومحاولة العثور على النفس. وحين عثر إيليا أبوماضى على نفسه تحقق فيه التعويض عن قرون طويلة من غيبة أو ضعف الشعر التأملى الفلسفى. فبعد المعرى لم يأت أحد لسد الفراغ سوى الشاعر إيليا أبوماضى فهو تعويض عن قرون طويلة غاب فيها الشعر التأملى عن الساحة غيابا يوشك أن يكون تاما. وفى الشعر الحديث أعنى الشعر الذى بدأت به النهضة انفرد إيليا أبوماضى بهذا اللون الذى لم يشاركه فيه أحد لا فى المدرسة المهجرية ولا فى جماعة الديوان ولا فى جماعة أبوللو وهذا ديوانه يشهد على صحة ما أقول. إنه الشاعر الأكبر الذى فتح للشعر الحديث باب التأمل فى الذات وفى الكون. ■



عاطف مصطفى

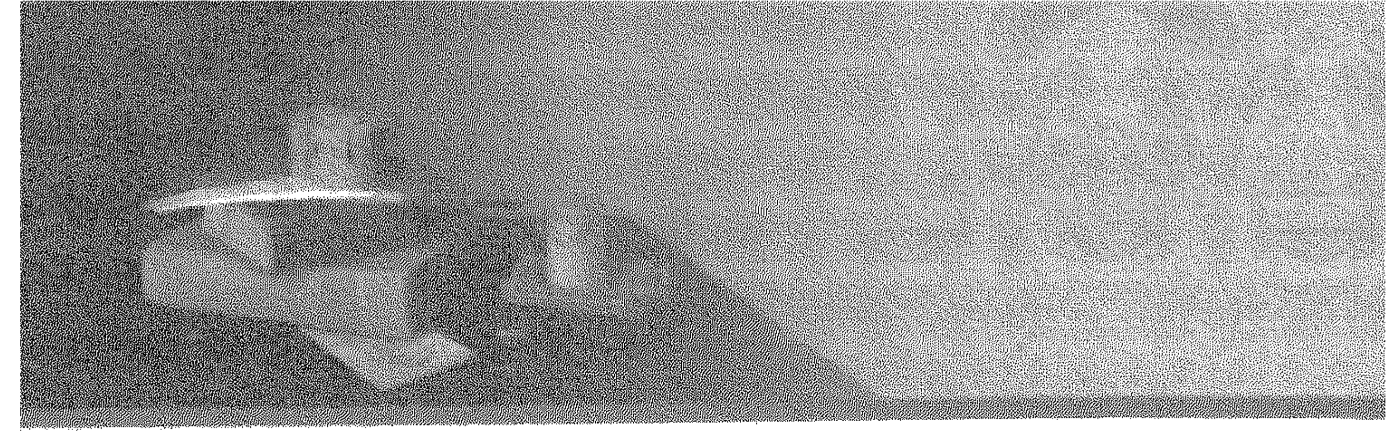
العودة إلى رواد التنوير

دق الاستاذ مصطفى نبيل أجراس الخطر، فى مقاله « أمة فى خطر: هل دالت دولة الكتاب» فى هلال فبراير سنة ٢٠٠٣، متناولا فيه قضية القراءة وأزمتها، وأزمة الكتاب العربى تأليفاونشرا وتوزيعا ، وعطفا على ما كتبه الاستاذ فان قضية القراءة وأزمة الكتاب هى بالدرجة الأولى نتاج لحالة عامة تسود حياتنا الثقافية والفكرية من السأم والملل والضياع والاغتراب وفقدان التوازن والخواء العقلى والنفسى والروحى ، والأزمة هى أزمة تنشئة اجتماعية على التعامل مع الكتاب والقراءة فيه ، قراءة واعية مستنيرة، تبنى العقل، وتهذب الروح ، شبابنا لا يقرأ.. وإذا قرأ فانه يقرأ قراءات سطحية تهدم ولا تبنى فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى كانت كتب المطالعة والقراءة المقررة فى مدارسنا الثانوية تحتوى على موضوعات من التراث العربى ، وانجازات التكنولوجيا ، وروائع الثقافة من كل حدب وصوب واسألوا الاستاذ الكبير الدكتور محمد رجب البيومى الذى كتب عن المنتخب من أدب العرب والمفصل فى تاريخ الأدب العربى فى اعداد «الهلال» . كتب القراءة فى المرحلة الاعدادية والثانوية بمدارسنا ضعفت وضمرت ، ولم تعد تضم من ابداعات طه حسين أو العقاد أو غيرهم من رواد عصر التنوير سوى النذر اليسير ، نريد لكتب القراءة فى مدارسنا أن تضم ابداعات هؤلاء الى جانب مختارات لعبد الرحمن الرافعى، وسلامة موسى، وجمال حمدان ، وغيرهم كثيرون .. ولماذا لا تخصص وزارة التربية والتعليم كتبا قائمة بذاتها توزع على طلاب المدارس الإعدادية والثانوية ، ولماذا لاتشترك مكتبات المدارس فى «الهلال» كما كانت مدارسنا فى الثلاثينيات والأربعينيات تشترك فى « الثقافة» و«الرسالة»؟ ولماذا لا تعقد فى مدارسنا الثانوية الندوات الثقافية التى تنمى فى شبابنا أدب الحوار وأدب المناظرة؟

عمرو عبدالمنعم حموده - برما - مركز طنطا

تحية إلى الهلال

«لولا الهلال لهاجنى استعبار» لقلت إن قريضنا أصفار
الشعر مثل الزيزفون على الربا بمجلة قراؤها الأنهار
«زيدان» أسسهاوأقسم أنها شمس العروبة، أنها الأوتار
حييت ياشمسا ستسكب دفئها مليون عام.. هكذا الإصرار
لولا « الهلال » لمات شعر رائع نشرته فوق المقلتين بحار
كم أهملته جرائد أدبية تهوى الأحاجى قالها ثرثار
هل صاغ «بودلير» و«رامبو» شعرنا أم أننا العقيان والإعصار



بيداؤنا مثل السماء إذا انتشت ... بين الرمال كواكب ومدار
والشعر فى دمنا وفى دم خيلنا ... فى الليل تغسل وجهه الأمطار
للعرب فن الشعر كان ولم يزل ... للآخرين مصانع ونجار
ماهذه الألغاز تضحك يعربا؟ ... لا البحر يفهمها ولا البحار
وكأن «فيثاغورس» يكتبها، بها ... جبر وهندسة، بها أسرار
هذا الفرزدق غاضب فى قبره ... وأبو العلاء وأحمد ونزار
والنيل يلطم خده وفراتنا ... لو تعلمون نحيبه أشعار
عن ابن برد فتشت أنهارنا ... عن بحترى فى يديه شرار
لم تستسغ شعرا بلا معنى بلا ... روح أتى من عالم ينهار
أبحرت ياسفن الحداثة صوب من ... وأدوا السنى.. ما هكذا الإبحار
الغرب مات فكيف نعزف لحننا ... فى ظل قبر .. كيف يا أطيار؟
إن القريض بأرضنا مستورد ... دمع العيون حجارة وغبار

د . هيثم الحويج العمر
دمشق

(١) شاعران فرنسيان
(٢) الذهب الخالص

ملاحظات حول الموسوعة الميسرة

لاحظنا فى موضوع الكاتب وديع فلسطين فى ديسمبر ٢٠٠٢ أن الموسوعة العربية الميسرة لم تكن ضمن الموسوعات التى أشار إليها ، رغم أنها الموسوعة الوحيدة فى المكتبة العربية والتى احتوت على معلومات عالمية فى ستين فى المائة من موادها مترجمة من موسوعة كولومبيا الأمريكية ، وكانت مؤسسة فرنكلين للنشر قد أصدرتها فى الستينيات باشراف الأساتذة الدكاترة ابراهيم بيومى مدكور وسهير القلماوى وزكى نجيب محمود وأرى فى اغفال اسمها فرصة قد لا تتكرر لتصويب خطأ فى الترجمة للاعب المصرى حسين حجازى المولود فى ١٨٨٩ .

وهو لم يلعب أثناء دراسته فى كمبردج مع منتخب انجلترا فى مباراتها مع اسبانيا المباراة الأولى بينهما جرت فى عام ١٩٢٩، وكان قد عاد إلى مصر واعتزل الكرة بعد دورتى ١٩٢٠، ١٩٢٤ الأولمبيتين، فلم يكن بين لاعبى منتخب مصر فى أولمبياد ١٩٢٨.

أحمد عزيز
عمان الأردن

* الهلال : اتصلنا بالكاتب الكبير وديع فلسطين ، والذى قال إن كلامى كان منصبا



على موسوعات الاعلام ، ولذلك لم أتوسع فى ذكر الموسوعات العامة ، ومنها الموسوعة العربية الميسرة وقال إن الموسوعة العربية الميسرة كانت تحت اشراف الدكتور محمد شفيق غربال ، وكان رئيس تحريرها اسماعيل مظهر ، ثم تولى رئاستها من بعده الدكتور عبدالرحمن زكى، وقد شاركت فى هذه الموسوعة حيث قمت بعمل البنود المتعلقة بالصحافة والصحفيين العرب .

المجد مجد من اهتدى

جهز سلاحك واليدا ... لترد أسلحة العدا
وكأى عال «راسخ» ... كن فى الحياة على المدى
متيقظا قم لا تنم ... قاوم قيامات الردى
متجردا قم مثلما ... قام الردى وتجردا
هذا دفاعك انه ... حق يدين من اعتدى
هو رد فعل قبله ... سيدان فيه من ابتدا

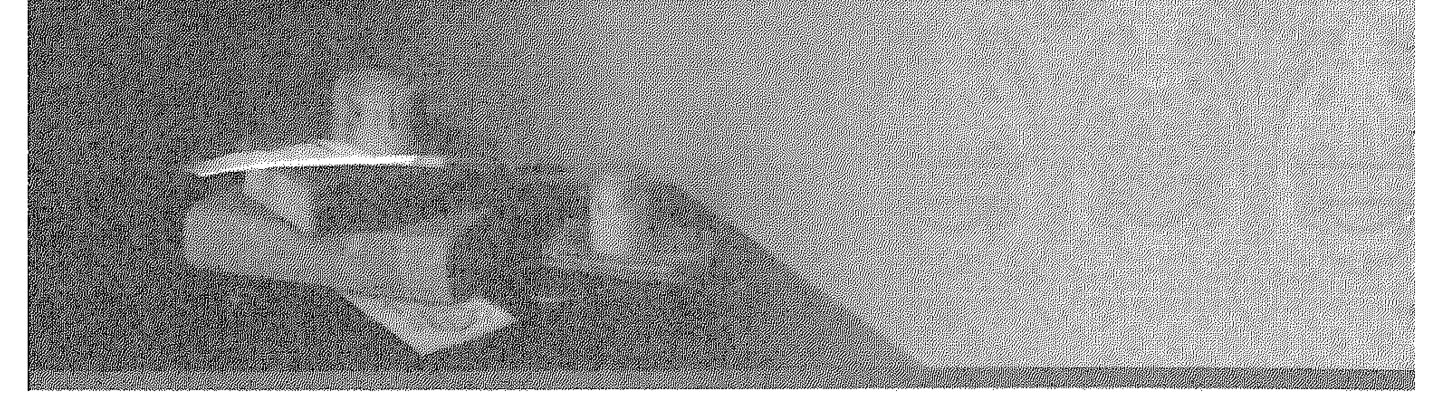
★★★

جهز سلاحك مسرعا ... ليل الأعادى قد بدا
وأعد نفسك طائعا ... لله وارض «محمدا»
لابد ينصرك الذى ... نصر الكثير وأسعدا
كم قرب المولى هنا ... ولكم كذلك أبعدا
يكفيك أنك عابد ... لله جئت لتعبدا
يكفيك أنك واحد ... لله عشت موحدا

★★★

من خير ناس كنت فى ... هذى الدنا متولدا
يابعض أمتك التى ... هى خير من عرف الهدى
جهز وجاهد واستلم ... علم الهدى طول المدى
ما بال من ضلت بهم ... دنياهمو طالوا يدا؟!
المجد مجدك ما لهم ... لا يعرفون الأمجدا؟!
المجد مجد من اهتدى ... لا من يريدون الردى

حسن أبو الغيط
المصيلحة - منوفية



الدكتور زكي مبارك

فى عدد الهلال الماضى قال الفنان حسن سليمان ، إن زكى مبارك رفض أن يأخذ نقودا من السعديين أو غيرهم من الأحزاب، وأقول : إن زكى مبارك قد ذكر هذا المعنى أكثر من مرة على صفحات جريدة البلاغ ، وبتاريخ ٣٠ يوليو عام ١٩٥٠ قال : ألف صدقى باشا حزب الشعب، وأنشأ له جريدة الشعب، وكان الاستاذ صادق عنبر صديقا عزيزا ، فاقترح أن أحرر فى جريدة الشعب فعندها أموال .. فقلت: التحول من مبدأ إلى مبدأ غاية فى الصعوبة، وأنا أحرر فى جريدة البلاغ بمبادئ الحزب الوطنى، مع أنها جريدة الوفد المصرى .

فشكرا جزيلا للفنان حسن سليمان .

ولكننى أحب أن أذكر سبب وفاة زكى مبارك ، لأن السبب ذكر أكثر من مرة ، ولكن بطريقة تبعد عما حدث ..

والسبب هو عربة حنطور كما أشار حسن سليمان ، ولكن هى التى اصطدمت بزكى مبارك وهو بصحبة أصدقائه فى طريقه إلى «المترو » فسقط على الأرض وحملوه فى تاكسى إلى بيتنا فى مصر الجديدة، وكنت يومها فى «التوجيهية» أى الثانوية العامة ، ودق جرس الباب ففتحت ووجدتهم يسندون أبى وكان من بينهم صديقه حسين كامل الذى أخبرنا بأن عربة الحنطور صدمته ، وأدخله أخوتى إلى الفراش ، وكان يتأوه وهو فى شبه غيبوبة ، فنقلناه إلى مستشفى الدمرداش ، وأجريت له عملية جراحية وبعد نجاحها بساعات توفى ، وهذا مثبت فى محضر قسم الشرطة بمصر الجديدة بتاريخ ١٩٥٢/١/٢٣ .

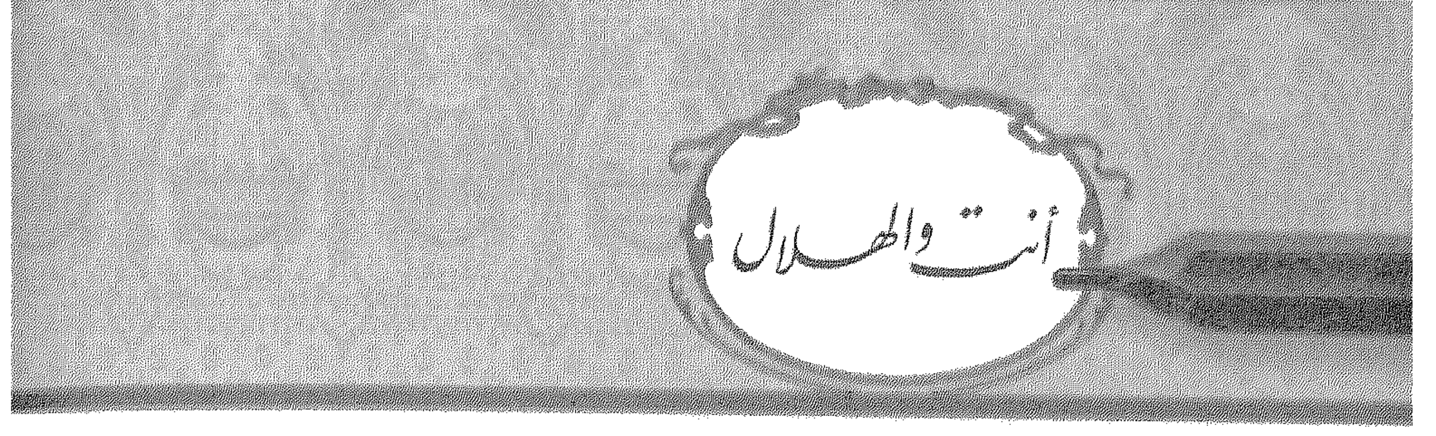
كريمة زكى مبارك





أسائل عنها ضياء النهار — واسأل عنها بريق القمر
واسأل حتى نجوم السماء — ويسأل قلبى هدوء السحر
واسأل عنها صبايا صغار — واسأل عنها فروع الشجر
واسأل حتى الليالى الطوال — ويذكر قلبى سقوط المطر
ويذكر قلبى ظلال النخيل — وهذا الحديث وتلك الصور
إلام تعيشين منى بعيدا — وتوهمى قلبك بانى الخطر
إلام تعيشين فى واحتى — ولكن بعيدا كبعد القمر
ولست بميت كى لا أكون — لحبك ذليلا عظيم الفكر
ولكن أعيش بدنيا العذاب — وتلك الآلام وذاك الخطر

أحمد نادى بهلول ديروط - أسيوط



كراهية تحت الجلد

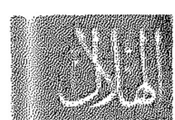
عنوان الكتاب الجديد للكاتب صلاح الدين حافظ ويتناول فيه طبيعة العلاقات المركبة بين العرب والولايات المتحدة الأمريكية، ويبحث فى الأسباب التاريخية والسياسية التى أججت موجات الكراهية بين الطرفين .

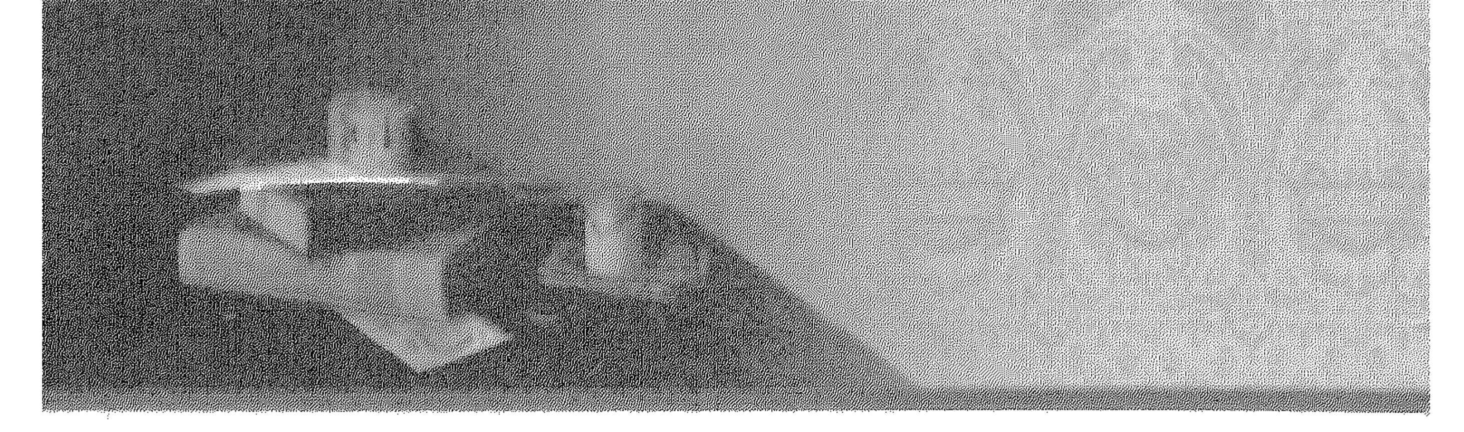
وفى تقديمه للكتاب يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل انه كتاب جاد لكاتب جاد، فعلى امتداد فصوله وتوالى صفحاته تظهر أبرز صفات الصديق والزميل صلاح الدين حافظ كاتبا جادا بكل خصائص الكاتب الجاد وأهمها التوازن ، وكذلك يظهر جهده غير الهين فى تحقيق هذه الخصائص، وهو يصحب قارئه إلى رحلة كشف للأفق الأمريكى القريب والبعيد بتضاريسه الصعبة، ومذاهبه التى تتصارع ظواهره ، وتتدافع إليه الفصول الأربعة فى دقيقة أو أقل..

المؤلف يطرح فى كتابه الذى يضم ثمانية فصول، والذى صدر عن دارالشروق رؤى وتحليلات عديدة عن مستقبل العلاقات العربية الأمريكية، وكيفية اصلاحها، بدلا من تركها فى قبضة القوة الصهيونية والصقور المتشددين الأمريكيين .

المدى لا يساوم!!

وكل العطور ..
الطيور ..
المشاعر ..
وكل الأماني .. الغمام
وكل التفاصيل .. كل النجوم
وكل الحكايا
وكل الفصول ..
تسافر دوما ..
تحط لديك
فترسم عمرا
ونهرا
وشمسا
مدى لا يساوم
وطفلا يقاوم
قصيدا ..
وفيه تقول السواسن لا
لصوت المدافع.. صوت القنابل
.. لا
لكل اليهود الأسافل .. لا
لقتل الأيائل.. لا
ولا لاغتيال السواحل .. لا
لكل شيوخ القبائل .. لا
لكل البلاد التى عذبتنا
وتقضى بموت البلابل .. لا
وتقضى بحرق السنابل .. لا
فهل يا ترى ..
نعيد انتصارات كل الأوائل؟!
وهل ياترى ..
نعيد لقدسى الطهارة
نشن الحروب وراء الحروب





ونحمل بين اليدين الحجارة !!
وهل ياترى ..
نعيد تواريخ بابل ؟!
ويروى صحارى فؤادى ..
مطر
فيورق كل الشجر
وهل يا ترى ..
يعود إلينا ..
« صلاح »
« على »
ويأتى «عمر !!!!»

محمود أحمد المصلى
شربين - دقهلية

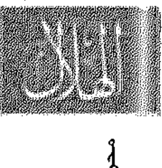
د. يوسف عز الدين موهبة نادرة

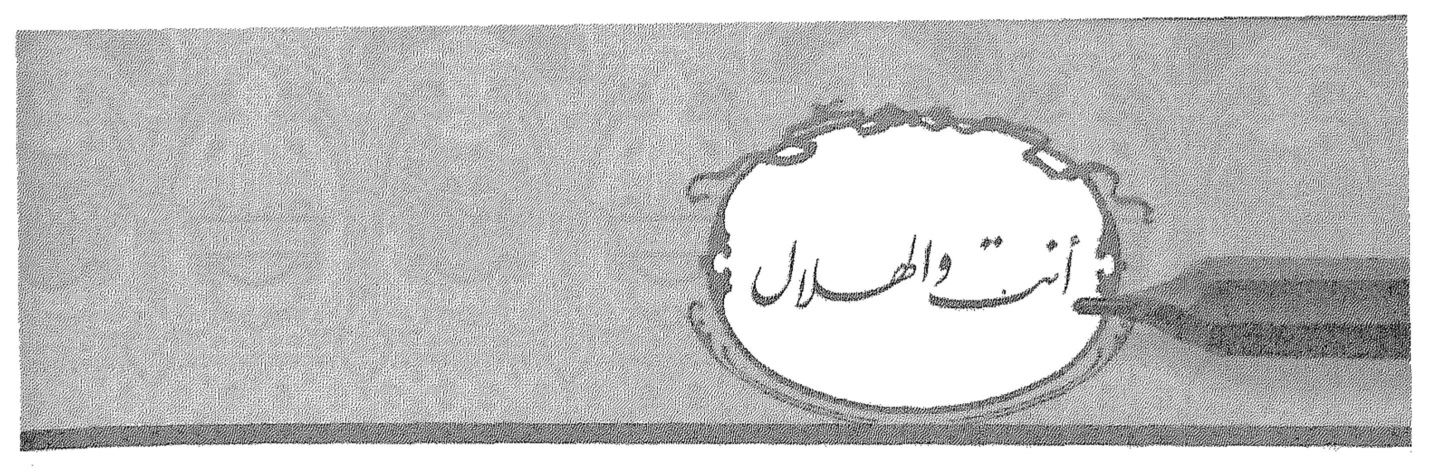
ولد د. يوسف عز الدين عيسى فى ١٤ يولية ١٩١٤ بقرية العصلوجى بالشرقية وتعلم مبادئ القراءة وحفظ بعض آيات القرآن الكريم بكتاب القرية ثم أكمل تعليمه الابتدائى والثانوى بالزقازيق ، وانتقل للقاهرة حيث التحق بكلية العلوم نظرا لاعجابه الشديد بالعالم المصرى د . على مصطفى مشرفة ونال البكالوريوس مع مرتبة الشرف هعام ١٩٣٨ ونال الماجستير ثم حصل على الدكتوراه من لندن ١٩٥٢ فى علم الحشرات .

بدأت علاقته بالأدب فى سن مبكرة من خلال مكتبة والده ومكتبة البلدية فى الزقازيق وكتب الشعر وهو فى العاشرة كما كتب القصص والمقالات الأدبية فى مجلة الكلية وهو طالب .

قدم للاذاعة مسلسلا للأطفال بعنوان (بنوره الأميرة المسحورة) تناول فيه المعلومات العلمية فى صورة قصصية مبسطة للأطفال ، كما كتب عددا كبيرا من الأعمال الدرامية عن حياة مشاهير العلماء مثل « مدام كورى» «داروين» «نيوتن» وقدمت له الاذاعة على مدى عامين برنامجا يوميا بعنوان «العلم والحياة» قدم فيه الحقائق العلمية بصورة مبسطة ويعد أحد أعلام الدراما الإذاعية، حيث كتب ما يقرب من أربعمائة عمل درامى ما بين قصة قصيرة ورواية وسهرة .

ورغم حبه للشعر إلا أنه لم يصدر له ديوان شعرى، وقد أثرت الدراما الإذاعية على كتبه فلم ينشر سوى ١٢ كتابا ، وكان ينوى فى السنوات الأخيرة من حياته أن





يجمع قصصه ورواياته التى نشرها فى الصحف والتى تزيد على مائتى قصة فى ستة عشر مجلدا إلا أن القدر لم يمهله لتحقيق هذاالحلم حيث توفى فى ١٨ سبتمبر ١٩٩٩، ولتفقد مصر واحدا من أبرز كتاب القصة والدراما الإذاعية .

بهاء الدين قشطى

الاسكندرية

مع القراء

دروع بشرية فى بغداد

بعدما ذهب الأجانب إلى بغداد لكي يصنعوا من أجسامهم دروعا بشرية في مواجهة العدوان الأمريكى المرتقب ، وبعدما فعلوا نفس الشىء حينما حوصر ياسر عرفات فى مقره فى رام الله فى العام الماضى .. ألا نسمع عن اتحاداتنا العربية ، مثل اتحاد المحامين العرب ، واتحاد الصحفيين العرب وغيرهما بقيامهم برحلات إلى العراق لكى يفعلوا نفس الشىء !

محسن علام طنطا

متى تحل مشكلات التوزيع فى الخارج

تعليقا على الحوار الذى تم حول القومية للتوزيع ودورها بالنسبة لتوزيع الصحف والمجلات وغير ذلك .. فقد كان مجلس إدارتها يتكون من أعضاء كل عضو عن مؤسسة صحفية ، ثم حل مجلس الإدارة ، ولم تعد هناك علاقة مباشرة بين مؤسسات النشر وبين هذه الشركة

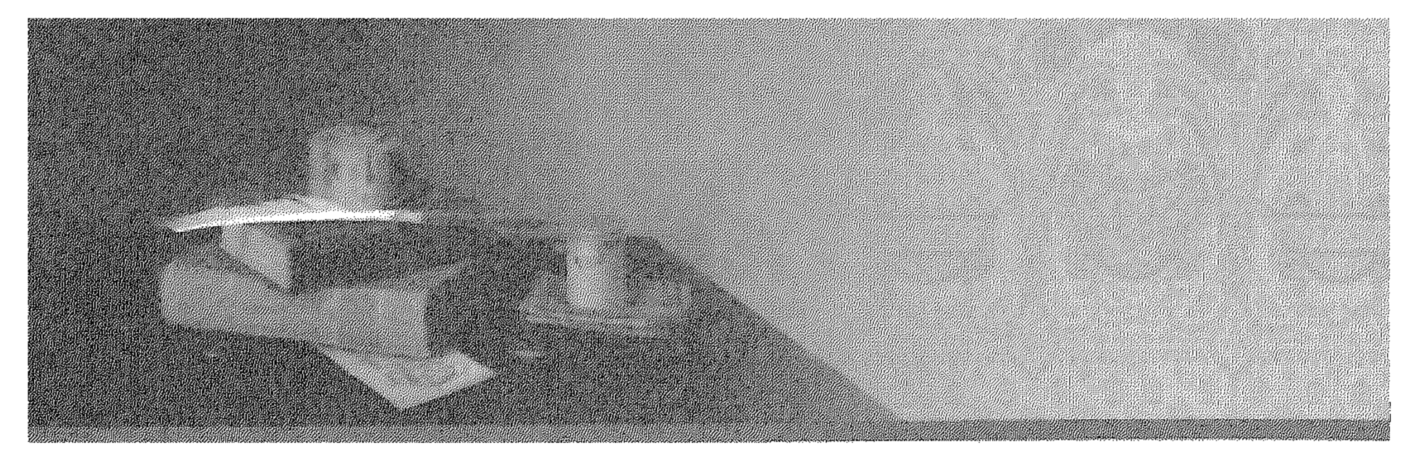
ترى كيف يكون الاهتمام بالتوزيع وعدالته ، وكيف تحل المشكلات التى تنشأ بين هذه الشركة ودور النشر .

ابراهيم أحمد القاهرة

الهلال : نتمنى أن نسمع ردا من المسئولين عن الشركة القومية للتوزيع .

مساهمات الأدباء العرب

ألاحظ أن الهلال فى الآونة الأخيرة لم تعد تنشر مقالات أو بحوث لكتاب عرب ،



كما كنا نشاهد ذلك فى الماضى ؟

مصطفى أمين المنصورة

الهلال : ننشر ما يصلنا من إنتاج شعرى وغيره من المقالات وفى هذا العدد على سبيل المثال ننشر التكوين للأديب محمد خليفة التليسى من ليبيا، ودراسة عن الأديب القاص ابراهيم أصلان للكاتب العراقى عذاب الركابى ، وأيضا قصة بعنوان المخطوطة البغدادية للقاص العراقى أيضا جبار ياسين ، كما ننشر شعر السورى هيثم الحويج .

التطوير مستمر

من ضفاف الخليج أبعث أليكم بأرق تحية، معبراً عن شكرى وبشكل خاص وعن جميع القراء على التطوير المستمر فى مجلة الهلال لقد كانت ومازالت مؤسسة دار الهلال هى المعبرة عن نبض الأمة العربية خلال المائة سنة الماضية ، ولذا أرجو أن يتم التطوير أيضا فى كتاب وروايات الهلال .

أدعو الله أن يحفظكم ويحفظ مصر للعرب .

على بن متروك السادة
جيهات - السعودية

الهلال : شكرا على رسالتك أيها الصديق ، وقد بدأنا بالفعل فى هذا التطوير ، وبدأنا بأغلفة الكتاب والرواية ويقوم كبار الرسامين برسمها .

مبكيات الأفراح !

أود إبداء إعجابى الشديد بكل ما يكتب الكاتب القدير الدكتور محمد رجب البيومى ، فقد قرأت مقاله فى العدد الماضى من الهلال «مضحكات ومبكيات» خمس مرات .

أستحلفه بالله أن يكتب لقراء الهلال مقالا عن «مبكيات الأفراح» كما تناول مضحكات المآتم ، لأن الحال من بعضه تماماً .

عباس يس النجار
الزقازيق



العالم فى مواجهة العدوان

بقلم: د. محمود علي مكي

هذه المظاهرات التى انطلقت فى شوارع نيويورك ولندن رافعة شعار السلام ومنددة بالحرب التى يدق طبولها صقور السياسة .. أليست ظاهرة تدل على أن قسماً كبيراً من الرأى العالمى يقف معنا فى مواجهة العدوان؟ وعلى أن من بين من نتصور أنهم فى معسكر الأعداء أصدقاء كثيرين لايترددون فى مناصرتنا حتى فى مواجهة حكوماتهم؟ إن واجبنا هو أن نستثمر هذه الصداقات بقدر مانستطيع.

من أمثلة هؤلاء الأصدقاء رجل لاينتمى إلى عالم السياسة، وإنما هو موسيقى كرمته إسبانيا هذا العام فمنحته جائزة «أمير أستورياس للسلام» مناصفة بينه وبين الكاتب الفلسطينى المعروف إدوارد سعيد .. هذا الرجل هو دانييل بارنبوم DANIEL BARINBOEM عازف البيانو وقائد الأوركسترا بشيكاغو ثم أوركسترا الأوبرا الحكومية فى برلين. وهو يهودى ولد فى الأرجنتين سنة ١٩٤٢ وظهرت عبقريته المبكرة حينما قدم حفلته الموسيقية الأولى وهو فى السابعة من عمره فى بوينوس أيرس. ثم انتقل مع أسرته إلى إسرائيل. وواصل دراسته حتى أصبح اليوم فى طليعة المؤلفين الموسيقيين على مستوى العالم.

غير أن بارنبويم له أيضاً آراؤه فى السياسة، ينادى بها فى إيمان وشجاعة، وقد أودعها كتابه الأخير «حياتى فى الموسيقى» (بالألمانية، وقد ترجم إلى الإسبانية) ، وفيها لايكف عن إدانة سياسة بلاده، حتى إن الحكومة الإسرائيلية عدته «معادياً للسامية» ومنعته من ممارسة عمله فى إسرائيل، فتحداها وأقام حفلاته للفلسطينيين فى رام الله، مثيراً بذلك غضب صقور السياسة الإسرائيلية . وهو يعيش اليوم فى برلين . ويذكر أنه أنشأ منذ أربع سنوات «ورشة عمل موسيقية» سماها «الديوان» بالتعاون مع إدوارد سعيد ، وهى تضم تلاميذه من عرب ويهود وألمان، ومنهم كون فرقة تحيى حفلاتها فى عواصم العالم. ألا يستحق هذ الرجل الشجاع منا لفتة تقدير وتكريم؟ ■





مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg

الهلال

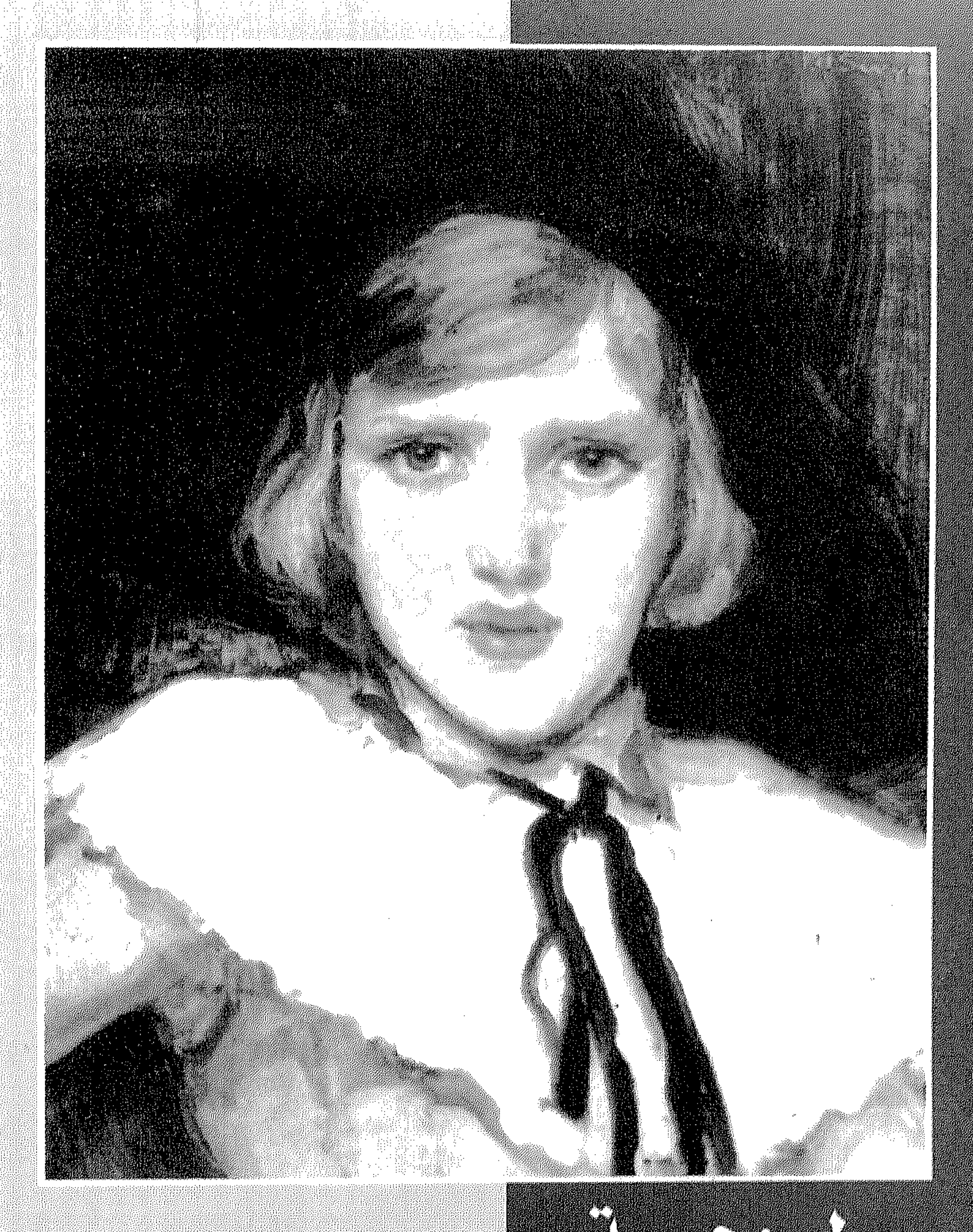
• الفرنجة يقصفون بلد صلاح الدين

• طلقات الرصاص وخيوط العنكبوت

• غياب المرأة عن مجمع اللغة العربية .. لماذا؟!

ابريل ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

فلسطين وعزف المرأة



لوحة وفنان

فتاة شقراء

سوان كوب فيليب - زيت على خشب
من مقتنيات متحف الجزيرة

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات
البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣
دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار -
إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولارا، باقى دول العالم ٤٥ دولارا.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@yahoo.com

العام الحادى عشر بعد المائة
محرم ١٤٢٤ هـ - ابريل ٢٠٠٣م

الأبواب الثابتة



عزيزي القارئ

الحرب ومسئولية المثقف العربي

حرب العراق تحمل بالنسبة لنا أكثر من معنى خطير، ولعل أهم ما تحمله يرتبط بمستقبل النظامين العالمى والعربي، والأمر الذى لاشك فيه أن شن الولايات المتحدة الأمريكية لحربها على العراق على هذا النحو الغاشم يتضمن تقويضا حقيقيا لمنظمة الأمم المتحدة إذ تجيء دون سند من أى قرار لأى من أجهزة هذه المنظمة، الأمر الذى سيعنى أن كسب الأمريكيين لهذه الحرب - لا قدر الله - سوف يسمح إما بتكرار هذه السابقة الخطيرة، أو بتحول الأمم المتحدة إلى أداة لتنفيذ السياسة الخارجية الأمريكية، وذلك بالإضافة إلى أن هذا الكسب سوف يعنى تعزيز الهيمنة الأمريكية الأحادية على النظام العالمى ولو إلى حين، وهى نتائج يمكن تفاديها، لو استطاع الشعب العراقى أن يصمد فى وجه العدوان الأمريكى وقواته الغازية لمدة معقولة، ومن ثم يرفع تكلفة الحرب من وجهة النظر الأمريكية، إلى الحد الذى قد يساعد الجبهة المعادية لهذه الحرب على العمل على إيقافها.

لن يعود العالم بعد العدوان الأمريكى على العراق كما كان قبل الغزو..

تهاوت المنظمة الدولية، وسقط القانون والشرعية الدولية، واختل التوازن القائم منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وسادت شريعة الغاب، وأعطت أمريكا نفسها الحق فى تشكيل العالم على هواها وتبعا لمصالحها، فهى أقوى دول العالم، وغابت قوة القانون وساد قانون القوة.



فلم تعد القوة العظمى تفرق بين الأصدقاء والأعداء، ولا تقيم أى اعتبار للحلفاء، وغدت قوة دولية باطشة يحكمها غرور القوة، وهى بهذا تشبه فى التاريخ إعصار المغول أو هجمة الفايكنج، إلا أنها مدججة بالقنابل الذكية وأسلحة الدمار الشامل وأحدث ما أنتجته التكنولوجيا الحديثة.

وانقسم الغرب انقساما لم يحدث من قبل، ووقفت كل من فرنسا وألمانيا وبلچيكا ضد الحرب، تدافع عن العدل وحقوق الإنسان، وتقف ضد هيمنة قوة دولية وحيدة على العالم.

وشهدت معظم مدن العالم، شرقه وغربه، شماله وجنوبه، مظاهرات تعلن رفض الحرب وتطالب بحل المشاكل بالطرق السلمية، وأدان بابا روما هذه الحرب البعيدة عن روح المسيحية الحقه.

وأظهرت أمريكا وجوهاً متعددة، فادعت أن هدف الحرب، نزع أسلحة الدمار الشامل، وعندما اقتربت الساعة، تبين أن هدفها القضاء على النظام العراقى، واعادة صياغة نظام جديد على أسس ديمقراطية.

ولأول مرة نسمع عن نشر قيم الحرية والديمقراطية بالقوة المسلحة، وهى التى تقوم على الإدارة الحرة، وليس للحرية أية علاقة بما يجرى. إنما هى إدعاءات وأقنعة مزيفة لاتقنع أحداً..

وتقدر التكلفة المباشرة لهذه الحرب بما يزيد عن مائتى مليار دولار، فماذا لو أنفق هذا المبلغ الضخم فى مكافحة الفقر فى العالم، أو فى نشر التعليم؛ أو من أجل سد الفجوة بين الدول الغنية والفقيرة؟ لتغير العالم وأصبح أكثر أمناً.

إن مهمة كل أنصار السلام فى العالم، العمل على وقف هذه الحرب غير العادلة بأسرع وقت ممكن، حفاظا على أرواح الشعب العراقى العربى، فهذا العدوان على الشعب العراقى، يحمل فى طياته تهديدا للشعب العربى كله!

أما على صعيد النظام العربى، فإن الكسب السريع للولايات المتحدة لهذه الحرب، سوف يعنى إطلاق يدها إلى حين فى عملية إعادة تشكيل النظام العربى، وفق مصالحها، الأمر الذى سيصب بطبيعة الحال لصالح إسرائيل، ويؤدى إلى مصاعب هائلة تعترض الجامعة العربية، كتعبير عن هذا النظام، بالإضافة إلى عدم الاستقرار المتزايد الذى ستشهده المنطقة نتيجة مضى الولايات المتحدة الأمريكية قدما فى تنفيذ مخططها.

فهل من موقف عربى قوى وفاعل وقادر، يستطيع أن يلعب دورا فى دعم الجبهة المعادية للحرب، وهى الشعب العراقى الذى يقف وحده - وهو يضرب ليل نهار بكل أنواع القنابل والصواريخ، وأسلحة الدمار الشامل التى أوهموا العالم بأنهم يبحثون عنها، وهى فى أيديهم تقتل الشعب العربى المسلم فى العراق - وبما يفتح الباب للأمل فى وقف تلك الحرب، بما يسمح لنا بالتفكير فى حماية البقية الباقية من أمننا القومى العربى، والوقوف صفا واحدا وراء هذه الغاية.

لقد انتفضت بعض شعوبنا العربية فى مظاهرات ، ليست هى التى تضمد جراح شعب عربى ضرب بأعتى أنواع القنابل فى معركة غير متكافئة على الإطلاق، بدعاوى غربية بدأنا نسمع عنها فى بدايات القرن الحادى والعشرين، ربما من منطلق صياغة جديدة لهذه المنطقة المنكوبة والمغلوبة على أمرها، والتى ينبغى عليها ان تستجيب لرغبات السيد الجديد و«القطب الواحد»!

ولاشك أن المثقف العربى يتحمل مسئولية خاصة وتاريخية فى هذه الظروف المصيرية، لا ينبغى ان نشهد فيها اى تخاذل أو تهرب من المسئولية.

لكن الأمر الذى سيستعصى على الفهم، هو ان يتخاذل المثقفون العرب أمام هذه المسئولية التاريخية! ■

مستقبل فلسطين والمسألة العراقية

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

ها نحن نرى بأعيننا ذلك النضال البطولى الذى يخوضه شعب فلسطين من أجل استعادة حقوقه الوطنية المشروعة من براثن حركة استعمارية عنصرية بغيضة وقد تراجع إلى الخلف فى قائمة الاهتمامات السياسية والإعلامية بفعل الاندفاعة الأمريكية العدوانية الشرسة تجاه العراق. فهل يكون هذا تطورا مؤقتا سرعان ما ينتهى بانتهاء الصراع الراهن حول العراق؟ أم يكون خطوة تتلوها خطوات باتجاه تهميش المسألة الفلسطينية ومن ثم التمهيد لتصفيتها على نحو نهائى؟



اهالى كربلاء يهللون لسقوط طائرة الاباتشى الامريكية التى اسقطها مزارع ببندقيته العتيقة

لا تبدو الإجابة على أسئلة كهذه سهلة بطبيعة الحال، ليس فقط لأنها ذات طابع مستقبلى تصعب عادة الحسابات بشأنه خاصة عندما يرتبط بظواهر سياسية شديدة التعقيد كالصراع العربى - الإسرائيلى ولكن لأن مستقبل فلسطين لا يتوقف بداهة على تطور «المسألة العراقية» وحدها، وإنما أيضا - وربما أساسا - على مجموعة بالغة التشابك من العوامل المرتبطة بطرفى الصراع المباشرين والبيئة الإقليمية المحيطة بهما والسياق العالمى الذى يدور فيه الصراع بينهما. وتتضمن هذه الصفحات محاولة للاجتهاد فى العثور على مفاتيح أساسية تفيد فى التفكير بشأن مستقبل فلسطين..

ميزان القوى الفلسطينى - الإسرائيلى من التحليل النظرى إلى الخبرة الواقعية

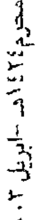
يتصايح المطالبون بالاستسلام لإسرائيل - وإن غلفوا مطالبهم بغطاء من ادعاء العقلانية - بأن ميزان القوى الفلسطينى والإسرائيلى مختل إلى الحد الذى لا يمكننا من مجرد التفكير فى النضال، وليس بعيدا عن ذاكرتنا ذلك اليوم الكئيب الذى طالبنا فيه مسئول عربى بارز بالتوسل إلى الولايات المتحدة الأمريكية كى تجد لنا حلا لا نملك

مقومات التوصل إليه بأنفسنا.

لا ينكر سوى مكابر بطبيعة الحال أن ميزان القوى الفلسطيني - الإسرائيلي بمعايير الحسابات المادية بالغ الاختلال لصالح المستعمر الصهيوني إلى الحد الذي قد يجعل من استخدام مصطلح «ميزان القوى» بحد ذاته منطويا على قدر من المفارقة للواقع. غير أنه من الحقيقي من ناحية أخرى أن الكيان الصهيوني يعاني من نقاط ضعف يمكن استغلالها لو كانت هناك استراتيجية عربية أو حتى فلسطينية سليمة للمواجهة، وعلى سبيل المثال فإن فكرة الدولة اليهودية بحد ذاتها قد أفضت إلى مجتمع غريب قد يصعب استمرار تماسكه في ظروف عادية، والاقتصاد الإسرائيلي يعاني من مشكلات بنيوية لم يكن ممكنا مواجهتها حتى الآن دون دعم خارجي مؤثر سواء من الحلفاء أو من يهود العالم الذين فضلوا البقاء خارج إسرائيل.



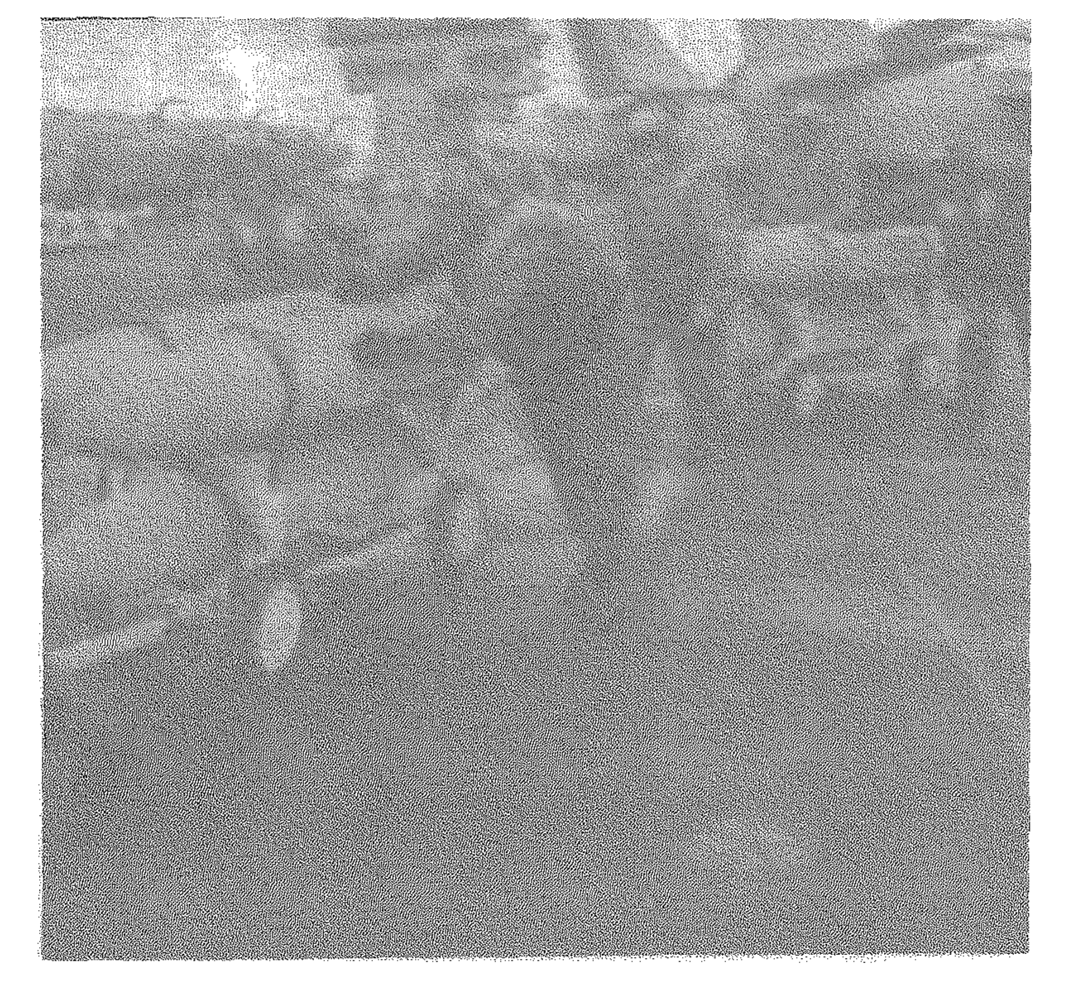
لكن الأهم من ذلك كله أن كافة حركات التحرر الوطني المعاصرة - ومنها حركة التحرر الفلسطيني - قد بدأت نضالها ضد المستعمر في ظل ميزان للقوى بالغ الاختلال، غير انها دائما طورت من قدراتها وأبدعت من الأساليب ما أمكنها أن تواجه هذا الخلل



بنجاح متزايد سواء اعتمدت على الوسائل السلمية إلى حد المثالية كما فى حركة التحرر الهندى بزعامة المهاتما غاندى أو ذروة الكفاح المسلح كما فى الحالة الفيتنامية ، دفعت تلك الحركات عادة ثمنا باهظا على الصعيدين الانسانى والمادى لكنها نجحت بالمقابل فى توليد آلية لتآكل القوة الاستعمارية أخذت تعمل بفاعلية متزايدة باتجاه رفع تكلفة العملية الاستعمارية حتى وصلت إلى النقطة التى أصبحت فيها تكلفتها أكبر من عائدها ، وهنا أعيدت الحسابات واضطر صانعو القرار فى المركز الاستعمارى إلى التسليم باستقلال المستعمرات.

العمق الاستراتيجي البشرى

لا ننكر بطبيعة الحال أن الحالة الفلسطينية أكثر تعقيدا بكثير من غيرها من خبرات التحرر الوطنى المعاصرة، فهى الحالة الوحيدة التى نجح فيها الاستعمار الاستيطانى فى أن تكون له الاغلبية العددية فى الأراضى المستعمرة، غير أن هذا مردود عليه بأكثر من حجة، منها مثلا أن حركة التحرر الفلسطينى ما عادت بدورها تصر على تحرير كامل التراب الفلسطينى «باستثناءات معروفة» ، وأن العمق الاستراتيجي البشرى لها المتمثل فى ملايين اللاجئين الذين



احدث الصواريخ و القنابل الامريكية لضرب الشعب العراقي !

يحيطون بوطنهم الأصلي من مخيماتهم فى الأردن ولبنان وسوريا ناهيك عن عشرات الملايين من العرب يمكن أن يدخل فى حسابات الصراع، وأن حركة المقاومة الفلسطينية المنظمة قد ظهرت مبكرة عن غيرها من حركات التحرر العربية الأخرى على سبيل المثال «بعد أقل من عشرين سنة من احتلال فلسطين فى مقابل ما يزيد على القرن فى الحالتين الجزائرية واليمنية»، وأنها مازالت صامدة بل متصاعدة على الرغم من ظروفها الذاتية وسياقها الإقليمى والعالمى غير المواتيين لها بالمرة على نحو ما سيجىء بيئة إقليمية مواتية وحد أدنى من الدعم:

عندما نصل إلى تحليل البيئة الإقليمية للصراع الفلسطينى - الإسرائيلى نجد أن ملامح الصورة سوف تختلف إلى حد بعيد. تتكون هذه البيئة من النظام العربى وبعض القوى المحيطة به وأهمها إيران وتركيا. وعلى الصعيد العربى تعتبر فلسطين أصلا قضية العرب الأولى، حاربوا من أجلها فى عام ١٩٤٨ وإن فشلوا. وشارك العرب فى صفوف النضال الفلسطينى منذ بدايته وإن بوتائر مختلفة، كما أعطى الشارع العربى دعمه الفائق غير مرة للنضال الفلسطينى كان آخرها الأسابيع والشهور الأولى التى تلت

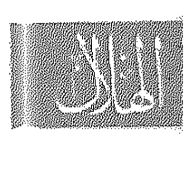
انتفاضة الأقصى. ونشأ الكيان الفلسطيني - منظمة التحرير وجيشها، برعاية عربية رسمية، وقدمت دول عربية بعينها دعما عسكريا واقتصاديا للمقاومة الفلسطينية في أوقات متفاوتة، وأجمعت الدول العربية على الموقف نفسه في الدفاع عن قضية فلسطين في المحافل الدولية دائما على الرغم مما كان يشجر بينها من خلافات في أحيان عديدة.

اختلاف الدعم للقضية الفلسطينية

غير أن النظام العربي شهد أيضا من التطورات ما جعل دعمه للقضية الفلسطينية يصل الى حده الأدنى أو يكاد، فقد اختلفت الوحدات المكونة لهذا النظام على الطريقة المثلى لحل الصراع أو تسويته، كما في حالات ضم الملك عبدالله للضفة الغربية عام ١٩٥٠ مكونا بذلك المملكة الاردنية الهاشمية، ومناداة الرئيس بورقيبة بتسوية سلمية في ذروة المد القومي في منتصف ستينات القرن العشرين، والتسوية المصرية - الإسرائيلية في السنوات التي اعقبت حرب اكتوبر ١٩٧٣، وقد أدت هذه الاختلافات دون شك إلى إضعاف قدرة النظام العربي على تقديم الدعم الكافي للنضال الفلسطيني.

من ناحية أخرى لاشك أن الهزيمة العسكرية الثقيلة التي لقيتها مصر وسوريا والأردن في مواجهتها للعدوان الإسرائيلي في ١٩٦٧ قد احدثت تراجعا في الاستراتيجية العربية تجاه الصراع لغير صالح القضية الفلسطينية، ففي أعقاب تلك الهزيمة ظهر هدف «إزالة آثار العدوان» ليحل واقعيا محل «تحرير فلسطين» أو على الأقل « استعادة حقوق شعبها»، ولما كان ذلك الهدف - أي إزالة آثار العدوان - بحد ذاته عسير المنال - بدليل أن تحقيقه لم يكتمل حتى الآن - لم يعد مهما ما اذا كانت طبيعته تكتيكية أم استراتيجية، فآثاره في الحالتين وخيمة على القضية الفلسطينية.

هكذا وصلنا في هذه المرحلة إلى الحد الأدنى من تأييد النظام العربي للقضية الفلسطينية بثلاث علاقات دبلوماسية عربية كاملة مع إسرائيل وأربع علاقات واقعية على الأقل، وتبن لموقف عام مؤيد لحقوق الشعب الفلسطيني وإن تباينت سبل تنفيذه إلى الحد الذي يفرغ هذا الموقف من محتواه في كثير من الأحيان، ودعم اقتصادي لا يرقى بحال إلى مستوى التحدي الراهن في الأراضي الفلسطينية، وفتور غير مفهومة أسبابه في همة الشارع العربي الذي يفترض ان يكون مشتعلا بالغضب لما يجرى من قبل إسرائيل في الأراضي





أعاد الكيان الاستعمارى الصهيونى بمسلكه العدوانى غرس قيم الصراع فى كل شاب أو طفل فلسطينى

الفلسطينية.

غياب التنسيق العربي

وعلى صعيد القوى المحيطة بالنظام العربى مثل سقوط نظام الشاه فى إيران فى ١٩٧٩ نقلة نوعية لصالح النضال الفلسطينى، وقدم الدعم الإيرانى لحزب الله فى لبنان نموذجا لفعالية دور إقليمى غير عربى، ومع ذلك فإن ثمة قيودا حالية ومستقبلية على الموقف الإيرانى منها مثلا غياب التنسيق العربى - الإيرانى فى هذا الصدد، وهو أمر بديهى إذا كان التنسيق العربى - العربى غائبا أصلا، والتطورات السلبية المحتملة فى الموقف الإيرانى الراهن على ضوء ملامح «براجماتية» تظهر على سطح السياسة الإيرانية من آن لآخر.

وأخيرا فإن تركيا صارت تمثل عبئا استراتيجيا على العرب بعد تطور علاقاتها مع إسرائيل - خاصة على الصعيد العسكرى - فى السنوات الأخيرة وإن بقى الموقف السياسى التركى من القضية الفلسطينية مشابها

لمواقف الدول العربية المعتدلة، كما أن التطورات السياسية الداخلية فى تركيا تفتح الباب للأمل فى بدء صفحة جديدة فى العلاقات العربية - التركية شريطة أن يملك الطرف العربى - أو بالأحرى الاطراف العربية - رؤية استراتيجية سليمة لعلاقاته مع تركيا، ويحسن إحصاء الأوراق المتاحة له لوضع هذه الرؤية موضع التطبيق . ويجيد استخدامها.

نظام عالمى جائر واستراتيجية إسرائيلية سليمة

تميز السياق العالمى للقضية الفلسطينية منذ البداية بجور واضح على الحقوق الفلسطينية لاشك أن مرده تلك العلاقة العضوية بين إسرائيل والقوى الاستعمارية الكبرى المهيمنة على النظام من جانب، والإدراك الاستراتيجى السليم من قبل الحركة الصهيونية للأهمية الفائقة للدعم الدولى ومن ثم الحرص على إدامته وتعزيزه دوما من جانب آخر.

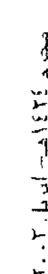
هكذا حصلت الحركة الصهيونية من القوى المهيمنة فى النظام العالمى على وعد بلفور فى ١٩١٧ وتمكنت من استغلال الانتداب البريطانى على فلسطين فى أعقاب الحرب العالمية الأولى للتمكين من تدفق الهجرة اليهودية إلى أرضها وبناء التكوينات الجنينية للدولة العبرية، وانتزعت من الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار التقسيم فى ١٩٤٧ الذى أعطاها شرعية الوجود وإن على جزء من فلسطين وليس عليها كلها، وهو القرار الوحيد من نوعه حتى الآن فى تلك المنظمة الدولية، ونجحت فى اكتساب عضوية الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٩ على الرغم من أزمة العضوية التى كانت على أشدها فى ذلك الوقت بسبب تطورات الحرب الباردة، وربطت نفسها تماما بالعجلة الأمريكية بعد أن ثبت وثوبها إلى مقعد قيادة المعسكر الرأسمالى الغربى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، ولم تعط لنفسها أبدا برفاهية التهجم على الاتحاد السوفييتى حتى فى ذروة تأييده للعرب، ومدت خطوط التعاون مع قوى دولية بازغة ينتظر لها أن تتبوأ مكان الصدارة فى النظام العالمى ولو بعد حين كالصين واليابان وروسيا والهند، وهذا فى الوقت الذى تكتفى فيه معظم النظم العربية باسترضاء الولايات المتحدة الأمريكية، وتعجز غالبيتها عن بلورة علاقات متوازنة مع مختلف القوى الدولية. وفى الآونة الأخيرة وتحديدا فى عهد الرئيس الأمريكى الحالى وفى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ حدثت

طفرة نوعية فى التأييد الأمريكى لإسرائيل تجلت فى خطاب الرئيس الأمريكى فى يونيو الماضى والذى أعاد فيه تكييف الصراع الفلسطينى - الإسرائيلى باعتباره صراعا ضد الإرهاب، والإرهاب هنا هو المقاومة الفلسطينية، وقيادة هذا الإرهاب، وهى هنا ياسر عرفات. من هنا ينبغى ان يبدأ الحل بالقضاء على الإرهابيين وقيادتهم ، وهو طعم ابتعله الجانب الفلسطينى الرسمى للأسف لتتقلص القضية الفلسطينية ، أو حتى قضية الإصلاح الفلسطينى فى استحداث منصب رئيس وزراء لفلسطين والجدل حول اختصاصاته.

موقع المسألة العراقية من مستقبل فلسطين

فى عقد السبعينات من القرن الماضى وفى أعقاب طفرة أسعار النفط واستخدامه كسلاح من قبل العرب فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ ظهر تيار فى الفكر الاستراتيجى الغربى ذهب إلى أن بؤرة الصراع فى الشرق الأوسط سوف تنتقل من فلسطين إلى الخليج. فى حينه رفضت دوائر عربية عديدة فكرية وسياسية هذا الطرح مؤكدة على أن القضية الفلسطينية ستبقى هى البؤرة الأساسية للصراع فى المنطقة. كانت هذه الدوائر تنظر للمسألة نظرة أيديولوجية غير أن التطورات الواقعية آتت على نحو معاكس. صحيح أن القضية الفلسطينية بقيت مهمة لكن حربين رئيسيتين وقعتا فى المنطقة بعد ذلك، إحداهما نشبت بين القوتين الإقليميتين الكبريين فى الخليج، وطال آمدها عن الحرب العالمية الثانية، وهى الحرب العراقية - الإيرانية ، والثانية ترتبت على الغزو العراقى للكويت، واتسمت بالمشاركة الدولية المباشرة فيها. وفى الحالتين تأثرت القضية الفلسطينية سلبا كما ظهر على سبيل المثال فى قمة عمان ١٩٨٧ التى احتلت فيها هذه القضية موقعا متدنيا بسبب التطورات المقلقة من المنظور العربى فى الحرب العراقية - الإيرانية بالإضافة إلى أن تلك التطورات ذاتها كانت وراء القبول العربى غير المباشر بنهج التسوية المصرية - الإسرائيلية ، وكما ظهر أيضا فى تأثير حرب الخليج الثانية على انتفاضة أواخر ثمانينات القرن العشرين.

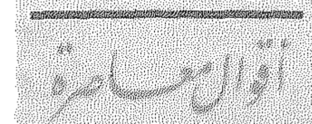
أما وقد وقعت الحرب . كما كان معظم المحللين يتنبأون بأن ثمة تأثيرات حتمية لما جرى ويجرى على مستقبل فلسطين. من ذلك أن القضية الفلسطينية قد تراجعت بالفعل فى قائمة



الاهتمامات السياسية والإعلامية عربيا ودوليا منذ تبلورت النوايا العدوانية الأمريكية ضد العراق، ولعل فى هذا بعض من أسباب الحماسة الإسرائيلية الظاهرة للعدوان الأمريكى على العراق، ومنها أيضا أن البعد المتيقن من نتائج العدوان على العراق والمتمثل فى تدمير واسع للقدرات العراقية سوف يمثل خصما من امكانيات القوة العربية المستقبلية ومن ثم زيادة نسبية فى القوة الإسرائيلية ، ولعل فى هذا سببا إضافيا لتلك الحماسة الإسرائيلية.

غير أن التأثير الحقيقى للمسألة العراقية على مستقبل فلسطين لن يتضح الا بعد ان ينتهى العدوان فى الأجل القصير بطبيعة الحال، فإن انتهى لا قدر الله بهزيمة عراقية سريعة فسوف يمثل هذا عبئا مضافا على النضال الفلسطينى على الأقل بقدر ما سيؤدى الى مزيد من الوهن فى النظام العربى ومن الانكسار فى الروح المعنوية العربية عامة والفلسطينية خاصة - أما اذا صمد العراق بحيث تتعثر خطى العدوان الأمريكى فيه وترتفع تكلفته البشرية والمادية بما قد يؤدى إلى ضغوط تفضى إلى توقفه دون أن يحقق أهدافه أو كامل هذه الأهداف فإن الأثر الايجابى على النظام العربى وعلى حركة التحرر الفلسطينى سوف يكون عظيماً .

ومع ذلك ففى الأجلين المتوسط والطويل لن يصح إلا الصحيح إذ لا يجب أن ننسى أن هذه الحركة الصهيونية الاستعمارية العنصرية بكل مصادر قوتها التى سبقت الإشارة إليها قد اخفقت فى أن تحقق لنفسها وجودا مستقرا على كامل أرض فلسطين حتى الآن. وأن الهزائم والنكسات قد افضت دائما الى مزيد من صلابة المقاومة الفلسطينية، كما حدث فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ ، وفى تفجر الانتفاضة الفلسطينية كرد فعل على التجاهل العربى لقضية فلسطين. وان الكيان الاستعمارى الاستيطانى الصهيونى قد ارتكب مؤخرا واحدا من اكبر اخطائه الاستراتيجية بالطريقة التى تعامل بها مع نضال الشعب الفلسطينى . فقد أعاد بمسلكه هذا غرس قيم الصراع فى كل شاب أو طفل فلسطينى بل فى أجيال جديدة من شباب العرب وأطفالهم.. وسوف يدفع هذا الكيان ثمن هذا الخطأ فادحا. عندما يشاهد غير مصدق لو بعد حين رايات النضال ترتفع فى كل مكان من أرض فلسطين ان لم يكن فى الأرض العربية برمتها إيذانا بقرب لحظة النصر فى معركة طال أمدها وآن لها ان تنتهى بالحق والعدل. ■



● «أن نخدم الدين أحسن خدمة هو أن نقول أن الدين والحريات متلازمان» .

الرئيس الايراني محمد خاتمي

● «المعركة الدائرة الآن فى ايران، من بين اهدافها اتقاذ عقيدة، تحاول اطراف متعددة، منذ قرون متتالية أن تجعل منها مناهضة للحرية والارادة الإنسانية» .

الكاتب والصحفى التونسى صلاح الدين الجورشى

● « لا أعتقد انه امر بناء أن تكبر لتجد لديك المليارات ولا اعتقد ان فكرة اقتطاعى جزءا كبيرا من ثروتي وتوريثه لأولادى ستكون ذات نفع للمجتمع، أو لهم» .

بيل جيتس رئيس مؤسسة ميكروسوفت للبرمجيات

● «االتنوير معناه أن تؤمن أن حريتك تبدأ من حرية الآخر »

الدكتور جابر منصور

● « ليس هناك «أنا» بمعزل عن الآخر» .

الدكتور فؤاد زكريا

● «نحن الآن أمام مأزق تاريخى للشعوب العربية لديها حيوية، ولكن لا توجد مرجعية تستند اليها، هذه هى المفارقة التى تكاد تصبح شبه مأساة» .

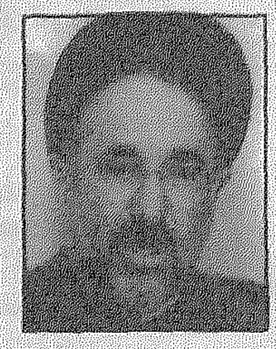
الدكتور كلوڤيس مقصود

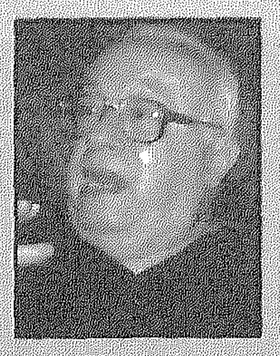
● « من بين احتمالات المستقبل القائمة أن تتحول امريكا فتصبح جمهورية موز كبرى، يتحكم جيشها فى حياة الامريكيين »

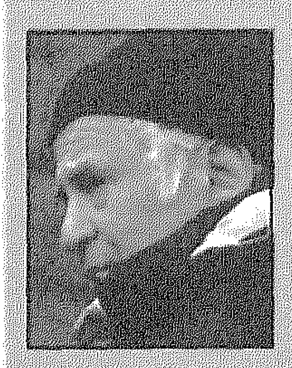
الاديب الامريكى نورمان ميلر

● « أختطت بوس عواطف ١١ سبتمبر ٢٠٠١ من أجل تحقيق أهدافة » .

سوزان ساراندون
النجمة الأمريكية الفائزة
باوسكار أفضل ممثلة رئيسية


محمد خاتمي

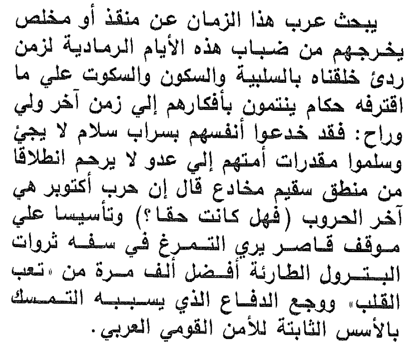

د. فؤاد زكريا


نورمان ميلر

صلاح الدين الأيوبي

هل صنع عصره، أم صنعه عصره؟!

بقلم
د. قاسم عبده قاسم



يبحث عرب هذا الزمان عن منقذ أو مخلص يخرجهم من ضباب هذه الأيام الرمادية لزمن ردئ خلقناه بالسلبية والسكون والسكوت علي ما اقترفه حكام ينتمون بأفكارهم إلي زمن آخر ولي وراح: فقد خدعوا أنفسهم بسراب سلام لا يجئ وسلموا مقدرات أمتهم إلي عدو لا يرحم انطلاقا من منطق سقيم مخادع قال إن حرب أكتوبر هي آخر الحروب (فهل كانت حقا؟) وتأسيسا علي موقف قاصر يري التمرغ في سفه ثروات البترول الطارئة أفضل ألف مرة من «تعب القلب» ووجع الدفاع الذي يسببه التمسك بالأسس الثابتة للأمن القومي العربي.



إن من يعرف قليلا من حقائق التاريخ وتوجهات الجغرافيا فى المنطقة العربية يدرك بسهولة أن إقامة المشروع الصهيونى الإمبريالى برعاية غربية متواصلة فى منطقة الفصل بين مشرق العالم العربى ومغربه وفى المنطقة التى تعزل مصر عن الشام والعراق كان مقصودا بها إجهاض منطق التاريخ، وإرباك حقائق الجغرافيا لصالح القوى القادمة من خارج المنطقة بقصد السيطرة والهيمنة وبعد مقاومة عنيدة للمشروع الصهيونى الإمبريالى كانت موازين القوى فيها تميل لصالح العدو لأسباب موضوعية كثيرة جاءت حرب أكتوبر المجيدة ولكن الإدارة السياسية لهذه الحرب ونتائجها عاكست المنطق وبدلا من استثمار النصر الذى تحقق سلم أنور السادات بكل مطالب العدو (أنظر مذكرات هنرى كيسنجر) ثم جاء ارتفاع أسعار البترول ليخلق أزمة لاتزال الأمة العربية تعانيها حتى اليوم.

ويمكن تفسير أزمة أمة العرب فى ضوء الخصام بين التاريخ والجغرافيا فى زماننا هذا الذى نشكوه ويشكونا هذا الزمن ضحية لنا ولسنا أبدا من ضحاياه:

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا

وتفسير ذلك أن الجغرافيا كانت سخية وكريمة مع بعض مناطق فى العالم العربى بحيث أدخلت السكان فى هذه المناطق إلى القرن الحادى والعشرين على المستوى المادى فالطرق والبنايات والأجهزة والسيارات ومظاهر الرفاهية تدفقت بشكل متسارع على هذه المناطق بشكل يعكس درجة سخاء الجغرافيا التى منحتها الموارد البترولية الهائلة على حين وقف التاريخ ممسكا شحيحا ووقف بالناس فى هذه المناطق عند حدود التطور السياسى والاجتماعى والثقافى الذى ينتمى إلى عالم العصور الوسطى فمازالت القبيلة هى الأساس على الرغم من الأعلام والأناشيد الوطنية وعلى الجانب الآخر، كان التاريخ كريما مع المناطق ذات التراث الحضارى العربية فى العالم العربى، فوصل سكانها إلى درجة من التطور التاريخى بلغت ذروتها فى النصف الأول من القرن العشرين حيث تكاثرت حركات التحرر الوطنى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى وعرفت هذه المناطق التاريخية تقدما فى شتى أساليب الحياة بحيث صارت عواصمها قبلة لسكان المناطق الجغرافية التى لم يكن البترول قد لعب دوره فيما بعد. أن التاريخ لم يجد مؤازرة من الجغرافيا فى هذه المناطق التاريخية وظلت الجغرافيا شحيحة مع سكان تلك المناطق.

التاريخ فى خدمة الجغرافيا

واستمر خصام الجغرافيا والتاريخ فى الوطن العربى كامنا تحت السطح حتى سبعينات القرن العشرين فظهرت قوة الجغرافيا حين ارتفعت أسعار البترول فى أعقاب حرب أكتوبر وتحولت إلى قوة جذب تشد الخبرات وقوة العمل إلى المناطق الجغرافية وهكذا صار التاريخ فى خدمة الجغرافيا بشكل يعاكس المنطق والأساس الذى تقوم عليه حركة الإنسان فى الكون فالمعلوم أن الجغرافيا فى خدمة التاريخ

وليس العكس (أى أن الجغرافيا بمعطياتها تمثل المسرح الذى تجرى عليه العملية التاريخية كما أن البيئة - المكان - تشكل أحد أركان العملية التاريخية الثلاثة أى الإنسان والزمان والمكان).

وبهذا المنطق المقلوب سارت الأمور فى العالم العربى منذ السبعينات حتى اليوم فاستسلم أهل التاريخ (الأكثر تقدما) لأهل الجغرافيا (الأكثر بداوة) وعملوا فى خدمة هذه المناطق تحت تأثير قوة الثروة وسلبياتها فخضعوا لأشد مفاهيم العمل غلظة وبدائية تقربا من السخرة (تأمل مسألة الكفيل التى لا يوجد مثيل لها فى أى مكان بالعالم) كما استسلموا لسياق ثقافى متخلف يرتكز على القبيلة والتمايز الطبقى، والعنصرية البدوية الشهيرة وكان حتما أن تتوارى مفاهيم الثورة أمام إفرازات الثروة، لاسيما وأن الثروة لم تكن نتاج مشروع تنموى وطنى فى أى من هذه البلاد، وتدفقت إلى العالم العربى أموال كانت تكفى لبناء دولة إقليمية كبرى تصل فى قوتها إلى سبعة أمثال الدولة العباسية فى عز مجدها ومع هذه الأموال المتدفقة جاءت قيم استهلاكية وتدفقت مواقف انتهازية وآراء استسلامية وبدلا من أن يصبح المال مصدر قوة بات مصدر ضعف وخوف.

كما بات المال مصدر إغراء لبعض القوى لمحاولة زعامة العالم العربى ظنا منها أن موارد الجغرافيا تغنى عن حقائق التاريخ وانتفخ بعض الصغار بالمال فظنوا أنهم كبار، ولكن تصرفاتهم السياسية كانت هى تصرفات الصغار فقد حاولوا شراء الدور من أهل التاريخ بأموالهم ولعبوا دورا فى إشاعة الفرقة بين مناطق العالم العربى وساد منطق العزلة والقطرية بسبب خوف أصحاب الموارد الجغرافية على ثرواتهم من مطامع أهل الخبرة التاريخية.

تراجع مشروع العمل العربى

فى ظل هذه الأوضاع المقلوبة الناجمة عن الخصام بين الجغرافيا والتاريخ تراجعت كل دعاوى العروبة والقومية والتقدم القائم على أساس التعاون بين الشعوب العربية ومعها تراجعت كل مشروع العمل العربى المشترك وأخذت كل مجموعة متجاورة تحاول أن تجعل من نفسها كتلة فى مواجهة العرب الآخرين وكانت النتيجة الحتمية لهذا التشرذم السياسى والضياع الاقتصادى (أنظر إلى حجم العلاقات الاقتصادية البينية فى العالم العربى ومدى ضآلتها مقارنة بالعالم الخارجى) أن سقطت كل الدول العربية فى براثن المشكلات الداخلية وعلاقات التبعية بالقوى الخارجية والاستسلام المفرط لرغبات العدو الأمريكى - الصهيونى.

وكان ما جرى خلال العقد الأخير من القرن العشرين (بدءا من الغزو العراقى للكويت وانتهاء بمشهد سيل الدماء المتدفق على أرض فلسطين يوميا، ومسرحية الإذلال اليومى للحكام العرب فى الشأن الفلسطينى والهم العراقى، ومرورا بكل ما بين هذا وذاك من مشاهد التدهور والانكسار) نتيجة حتمية لمنطق مقلوب،

ومعايير سقيمة وأنانية لحكام ظن كل منهم أنه يقدر بالثروة أن يكون زعيما.

أين أنت يا صلاح الدين؟

هذا المشهد العربى الكئيب هو الذى جعل البعض يصرخون أين أنت يا صلاح الدين؟. لقد كان صراخ البعض ناجما عن حيرة وارتباك وعدم رؤية الطريق للخروج من الأزمة التى تمسك بخناق العالم العربى على حين كان صراخ البعض الآخر نوعا من البحث عن منقذ ومخلص يخرج بالأمة من أزمتها فهل نحن - حقا - بحاجة إلى صلاح الدين؟

قد يبدو هذا السؤال نوعا من العبثية الفكرية إذ أنه لا يمكن استعارة أحد الأشخاص من التاريخ كما أنه لا يمكن - طبعا - إعادة التاريخ من أول السطر ولكن هذا السؤال يحاول استكشاف الدور التاريخى لصلاح الدين الأيوبى فى فترة مرت بها الأمة العرية بأزمة خانقة تشبه أزمته الحالية، بل إنها كانت السابقة التاريخية لهذه الأزمة الناجمة عن وجود كيان استيطانى غريب يسانده ظهير غربى قوى.

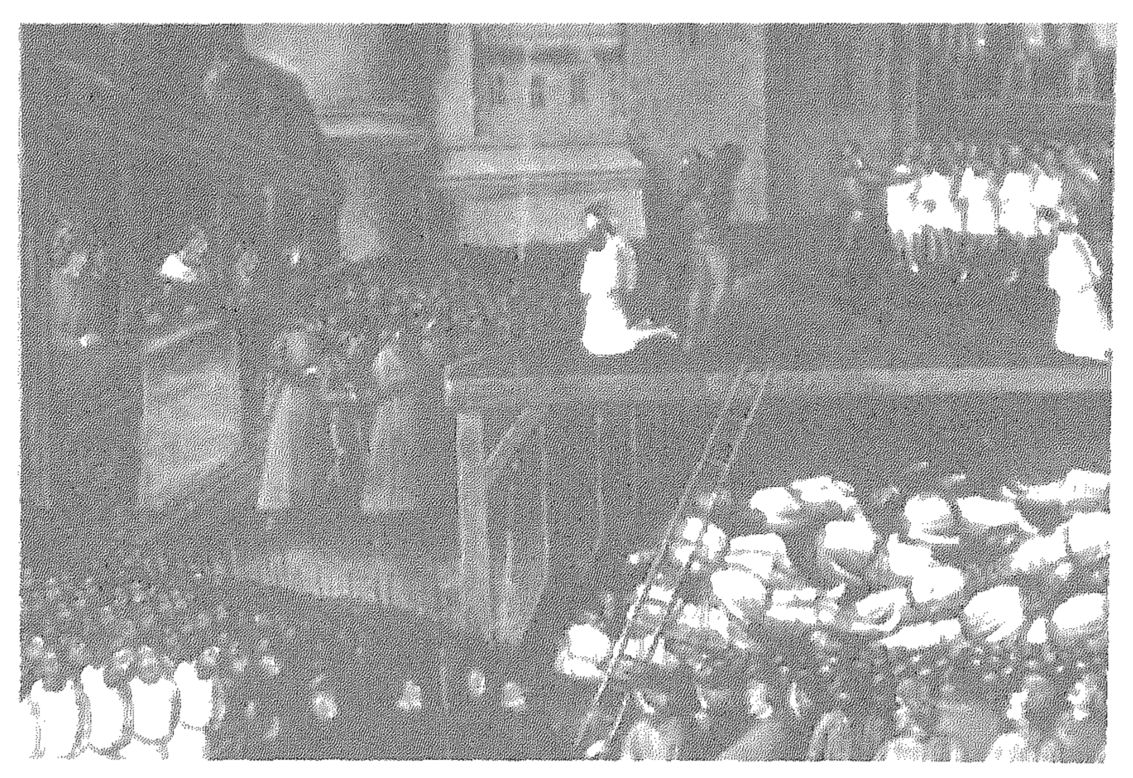
إن البحث عن دور صلاح الدين فى التاريخ يمكن أن يكون إجابة صحيحة عن السؤال الذى يبدو نوعا من العبثية الفكرية هل نحن - حقا - بحاجة إلى صلاح الدين؟

***

كان المسرح السياسى فى المنطقة العربية قبل ظهور صلاح الدين الأيوبى ينطق بكل التناقضات السياسية التى أفرزت الهزيمة التى أدت إلى قيام الكيان الصليبى فى قلب هذه المنطقة إذ أن نجاح الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩م خلق عدة حقائق سياسية وعسكرية وسكانية مؤلمة بالنسبة للمسلمين والعرب فعلى مدى نصف قرن من الزمان تقريبا استطاع الفرنج الصليبيون التوسع على حساب العرب ليمدوا حدود الكيان الصليبى إلى البحر الموسط غربا، والعريش جنوبا، والرها وأنطاكية (فى تركيا حاليا) شمالا وخليج العقبة على البحر الأحمر شرقا.

لقد كانت الصدمة السياسية والثقافية والنفسية الناجمة عن النجاح الصليبى قاسية ومؤلمة على الناس فى العالم العربى إذ أنها كشفت عن مدى التشرذم والفرقة السياسية فى المنطقة العربية من ناحية كما فضحت ضعف حكام المنطقة وتخاذلهم من ناحية آخرى. إذ كان الصراع بين حكام المنطقة العربية أشد فى تأثيراته السلبية من كل اعتبارات الحضارة المشتركة والدين الواحد والمصير المشترك ومن ثم لم يكن عجبا أن فشل هؤلاء الحكام فى كل محاولاتهم المتهافتة للوقوف فى وجه التوسع الصليبى أو بناء جبهة متحدة ضد العدو.

ولكن الناس أصحاب المصلحة الحقيقية فى هذا الصراع كان لهم رأى آخر وموقف مختلف عن رأى الحكام وموقفهم المتخاذل ذلك أن حكايات الفظائع التى ارتكبها المستوطنون القادمون من أوروبا ضد عرب فلسطين والشام وموجات اللاجئين الفارين من المذابح الصليبية الشهيرة راجت فى الأوساط الثقافية والشعبية لتخلق رأيا عاما قويا وضاغطا على الحكام الذين بات



راجت الفظائع والمذابح الصليبية ضد عرب فلسطين والشام فى الأوساط الثقافية والشعبية لتخلق رأيا عاما قويا وضاغطا على الحكام

بقاؤهم على كراسى الحكم رهنا بقيامهم بواجبهم الجهادى وخرج الجهاد من بطون الكتب ليصير حقيقة يومية فى حياة الناس الذين راعهم تخاذل الحكام فى مواجهة الغطرسة الصليبية والعدوان المستمر على الناس والأرض والمقدسات وفى ساحات المساجد والتجمعات فى الأسواق وحلقات الدروس أخذ المثقفون يتحدثون عن فضل الجهاد والمجاهدين ومكانة بيت المقدس والمسجد الأقصى.

حقيقة إن الجهاد لم يتوقف يوما ضد الكيان الصليبى ولكن عدم التنسيق والفرقة والتنافس بين الحكام أدى فى معظم الأحوال إلى الفشل والإخفاق ومن عباءة الفشل السياسى والعسكرى للحكام برزت الاستجابة السياسية العسكرية للحروب الصليبية وتوارت خجلا أو عجزا نظم الحكم السياسية التقليدية وفى مكانها نشأ نمط جديد من نظم الحكم يتبلور حول الأمير المحارب أو الملك المحارب الذى يقود الناس فى ساحة الجهاد ويخرج للقتال ضد الفرنج الصليبيين.

نموذج الدولة العسكرية

وبدأت هذه الاستجابة السياسية العسكرية على استحياء فى بيت أتابكة الموصل الذين نجحوا فى الاستجابة للتحدى الذى طرحته الحملات الصليبية على الوطن العربى وحينما نجح عماد الدين زنكى فى توطيد مركزه السياسى والعسكرى تجسد فيه وفى دولته نموذج الدولة العسكرية التى يقودها أمراء يقاتلون فى حركة الجهاد ضد الصليبيين

وبعد أن استقرت له الأمور نجح فى استرداد إمارة الرها من الصليبيين وكانت أول إمارة أقاموها على الأرض العربية وقد أعاد استردادها الطابع العربى الإسلامى إلى منطقة الفرات كلها، وضمن للمسلمين السيطرة على طرق المواصلات بين شمال الشام وأعالى للعراق.

وكانت دولة عماد الدين زنكى التى ارتكزت على محور الموصل حلب هى السابقة التاريخية أو التجربة الأولى فى صياغة الدولة العسكرية الموحدة التى يقودها ملك محارب يقود جيشه بنفسه فى ميدان القتال كما كانت هى البذرة التى نمت منها شجرة الدولة التى بناها صلاح الدين الأيوبى وقد سار نور الدين محمود - ابن عماد الدين زنكى وخليفته على نفس المنهج الذى سار عليه أبوه وعزز اتجاهات توحيد القوى العربية فى مواجهة الصليبيين ومن هذا المنطلق انضمت إليه دمشق سنة ٥٤٩هـ - ١١٥٤م بعد فشل الحملة الصليبية الثانية فى اقتحامها ولتنهى بذلك فترة التعايش الشاذ بين حكامها وبين الصليبيين.

فى هذه الظروف السياسية والعسكرية والثقافية ولد صلاح الدين الأيوبى ونشأ وفى خضم الصراع الذى نشب بين المسلمين بقيادة نور الدين محمود والفرنج بقيادة أو الريكوس (عمورى) ملك بيت المقدس للسيطرة على مصر التى كانت آنذاك أشبه بالرجل المريض الراقد على ضفاف النيل، تعلم صلاح الدين الأيوبى دروسه السياسية الأولى عن حقائق الصراع وقد جاء صلاح الدين ضابطا فى جيش نور الدين محمود الذى يقوده عمه أسد الدين شيركوه.

الدرس السياسى الأول

ولن ندخل فى تفاصيل القصة التعسة للصراع بين شاور وضرغام والذى تحول إلى صراع بين المسلمين والصليبيين على أرض مصر ولكننا نشير إلى أن انتقال الصراع من بلاد الشام والجزيرة إلى وادى النيل لم يكن مجرد انتقال جغرافى وإنما كان تحولا فى المفاهيم فرضه منطق التاريخ وحقائق الجغرافيا فلم يكن ممكنا لمصر أن تعزل نفسها أو يعزلها أحد بحيث يكون دورها هامشيا فى ذلك الصراع الطويل المضنى وكان هذا هو الدرس السياسى الأول الذى تعلمه صلاح الدين ولذلك اتخذ مصر قاعدة لملكه ولتحركاته العسكرية والسياسية.

وقد تم حسم هذا الصراع لصالح القوى الاسلامية ثم شاءت التطورات السياسية أن ينفرد صلاح الدين بالوزارة ثم يعلن نهاية الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية التى سعت ونجحت فى توحيد المنطقة العربية ثم سارت الأمور فى مسارها المعروف بحيث جاءت معركة حطين (٤ يوليو ١١٨٧م) لتشهد تدمير أكبر جيش أمكن للصليبيين أن يجمعوه ثم تحرير القدس بعد أسر دام بضعا وثمانين سنة (٢ أكتوبر ١١٨٧م).

ولكن يبقى أن نلقى نظرة جماعية على الدور التاريخى لصلاح الدين الأيوبى فى محاولة للإجابة عن السؤال الذى طرحناه فى البداية هل نحن - حقا - بحاجة إلى صلاح الدين.

هل جاء صلاح الدين فردا ذا صفات خارقة ليحيي أمة ميتة؟ هل يمكن للفرد أن يغير من اتجاه التاريخ؟ وهل الانسان هو الذى يصنع التاريخ أم أن التاريخ هو الذى يصنعه؟

هذه الأسئلة وما يتفرع عنها بالضرورة - هى التى تواجهنا حينما نبحث فى مجمل الدور التاريخى لصلاح الدين الأيوبى وفى تقديرى أن التاريخ صناعة جماعية أى أن فردا مهما كانت قدراته لا يمكن أن يصنع التاريخ بيد أن وجود شخص ذى صفات ومواهب معينة متوافقة مع متطلبات المرحلة التاريخية التى يظهر فيها يجعل منه شخصية تاريخية بارزة وبمعنى آخر فإن البطل التاريخى نتاج للعصر التاريخى وليس صانعا له، وإذا ما حاولنا تطبيق هذا الكلام على الناصر صلاح الدين الأيوبى لوجدناه صادقا وصحيحا إلى أبعد الحدود فقد كان الرجل إبنا لعصره وحين وظف مواهبه وقدراته لتحقيق الأهداف الجماعية لأمته احتل مكانته فى التاريخ لقد ولد صلاح الدين فى زمن شهدت فيه المنطقة العربية حالة من البعث الدينى والأخلاقى والسياسى جعلت الجهاد محور الحياة العربية، وجعلت أحاديث الخاصة والعامة تدور حول الجهاد والمجاهدين وفضائل بيت المقدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة وبقية المقدسات الإسلامية فى فلسطين وبات القضاء على الخطر الصليبى وتحرير الأماكن المقدسة والأرض العربية مطلبا شعبيا يمثل نوعا من الضغط السياسى والأخلاقى على حكام ذلك الزمان.

الجهاد عمل جماعى

وهذا فى تصورى مفتاح الدور التاريخى لصلاح الدين الأيوبى إذ كان اهتمامه منصبا على الجهاد، والجهاد عمل جماعى بطبيعة الحال ولكنه يحتاج دائما إلى قائد يؤمن به ويوجه طاقاته ومواهبه فى سبيل توجيه الأمة على طريقه ومن هنا كسب صلاح الدين الأيوبى وأمثاله شهرته التاريخية ومن هنا ينبغى أن ننظر إلى شخصية صلاح الدين ودوره التاريخى فى ضوء الظروف التاريخية الموضوعية التى أفرزته ومعطيات العصر الذى عاش فيه.

لم تكن الأمة ميتة حين ظهر صلاح الدين ولكنه كان إفرازا لحيويتها وهى فى حالة نضال مستمر ضد عدوها وكان عشرات من العلماء والفقهاء الذين هم المثقفون فى ذلك الزمان يمهدون الأرض لظهوره من ناحية، كما كان دوره من ناحية أخرى استمرارا لأدوار مودود وعماد الدين زنكى ونورالدين محمود ولم يكن أبدا انقطاعا تاريخيا لقد كانت الظروف التاريخية تتطلب وجود قائد يواصل دور نور الدين محمود ويطوره وكان تقلب صلاح الدين فى تطورات السياسة والحرب مذ جاء فى جيش عمه أسد الدين شيركوه حتى الانتصار الرائع فى حطين بمثابة المدرسة السياسية التى تلقى فيها دروسه حول حقائق الصراع الدائر على أرض المنطقة العربية بين أصحاب الأرض والحق والتاريخ وأولئك الغزاة القادمين من أوروبا للاستيطان فى

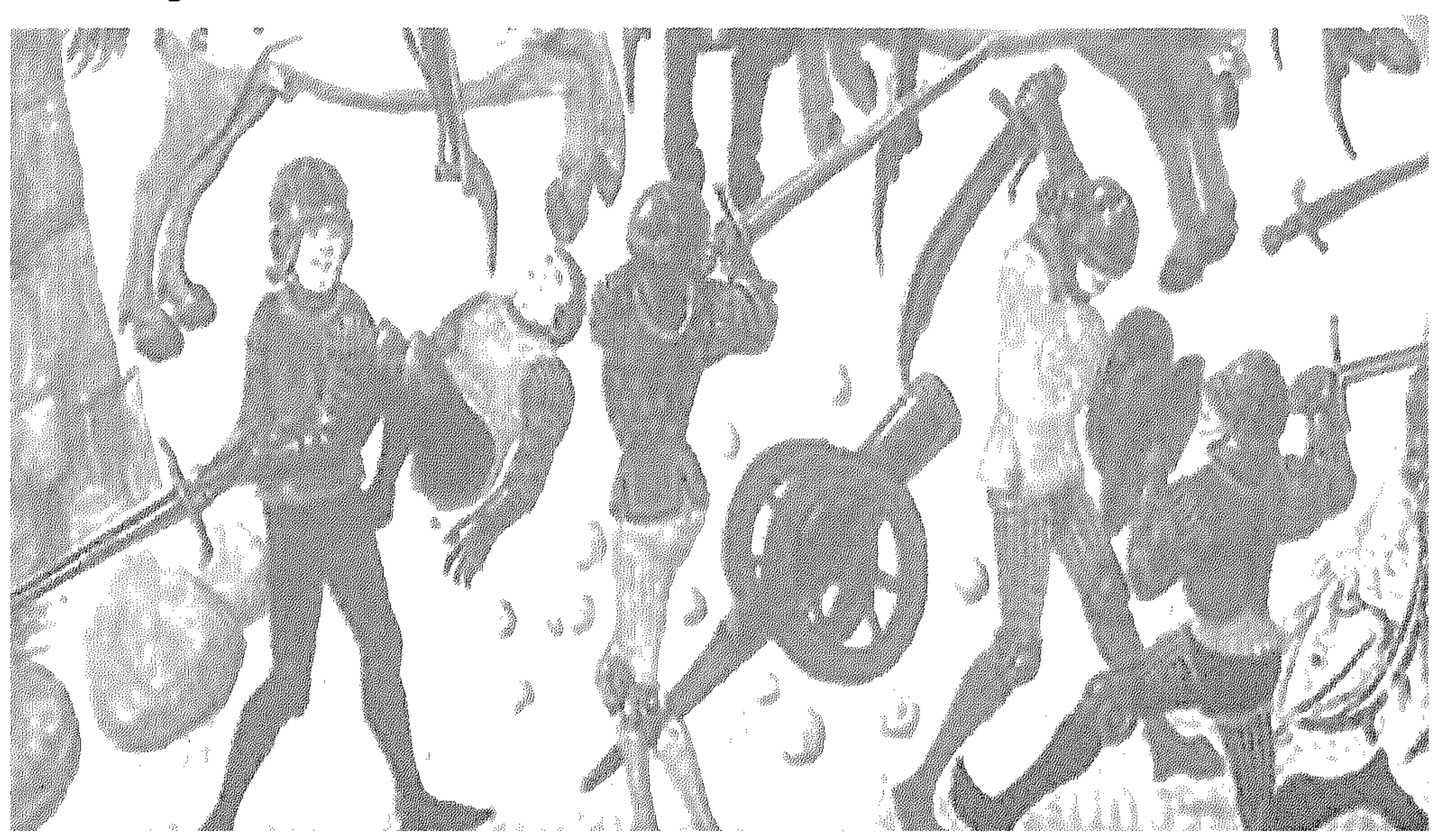
الأرض العربية بفلسطين.

وعندما وضع صلاح الدين نفسه فى خدمة مصالح أمته (لم يمنع كونه كرديا من أن يعتبر نفسه من أبناء الحضارة العربية الإسلامية بل إنه حاول أن ينتحل لنفسه نسبا قرشيا) كان طبيعيا أن يرتقى من مجرد ضابط فى جيش أسد الدين شيركوه إلى بطل يملأ القلب والعقل بالنسبة لكل المسلمين وقد وضعه التاريخ فى مكانه زعيما مثاليا للمسلمين تمكن من توحيد المنطقة العربية فى جبهة النضال ضد الصليبيين وقد بنى صلاح الدين الأيوبى دولته على أساس من الوحدة الأخلاقية والدينية للعالم الاسلامى تحت راية الجهاد وكان يحمل من المناقب والسجايا ما يؤهله لبناء هذه الدولة الإقليمية الكبرى بفضل التأييد والمساندة التى لقيها من المسلمين فى العالم وتميز صلاح الدين الأيوبى بالطموح والإخلاص للمبادئ التى اعتنقها وكان بسيطا فى أخلاقه واضحا فى رؤيته حاسما فى أداء دوره.

من ناحية أخرى لم يكن صلاح الدين الأيوبى ملاكا وإنما كان حاكما من الحكام الذين تزخر بهم صفحات التاريخ وسطوره وكانت له بطبيعة الحال أخطاء ومواقف ضعف يفضل كثيرون ممن يكتبون عنه أن يتجاهلوها ولكن هذه الأخطاء ومواقف الضعف تتوارى أمام حقيقة أنه كان تجسيدا لدور الحاكم الذى يتبنى مطالب الأمة فترفعه أمته إلى مصاف الأبطال.

البطل الفرد والتاريخ

والأهم من هذا كله أنه حينما توفى صلاح الين الأيوبى كانت الظروف التاريخية التى أفرزت زعامته لاتزال قائمة فى المنطقة العربية، إذ كانت بقايا الوجود الصليبى موجودين فى فلسطين وكان خطرهم لايزال يهدد المنطقة، وكانت وفاة صلاح الدين نهاية مرحلة تاريخية وبداية مرحلة تاريخية غيرها وكانت تلك لحظة تكررت كثيرا فى مختلف عصور التاريخ



عندما يختفى البطل الفرد حين تكون مهمته التاريخية لاتزال بحاجة إلى أن تستكمل، ولذلك فإن حكام الأيوبيين الذين ورثوا دولته ولكنهم لم يرثوا دوره التاريخى انصرفوا إلى المنازعات الداخلية مما أطال عمر الكيان الصليبى مائة سنة أخرى، وربما يؤكد هذا ما ذهبنا إليه من أن البطل الفرد لا يصنع التاريخ بقدر ما يصنعه التاريخ لقد سار التاريخ مساره الطبيعى لأن صلاح الدين لم يستطع ولم يكن ليستطيع بأى حال من الأحوال أن يحول مسار التاريخ وسقطت الأسرة الأيوبية حين فشلت فى أداء الدور التاريخى الذى بدأه صلاح الدين وحين انتزع فرسان المماليك هذا الدور لأنفسهم انتزعوا معه شرعية الحكم الذى انتزعوه من الأيوبيين الصغار.

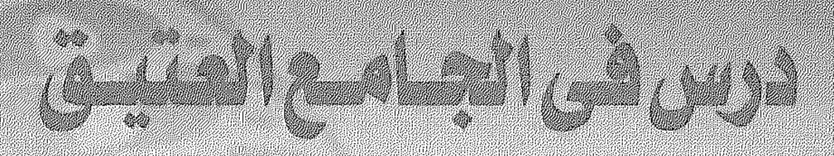
***

ويبقى السؤال: هل نحن - حقا - بحاجة إلى صلاح الدين؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ستكون بالنفى طبعا لأننا بحاجة إلى تغيير الوضع المزرى الذى تعيشه الأمة العربية ولا يمكن أن يحدث ذلك بإرادة الحكام الذين تسببوا فى هذا الوضع وإنما يأتى الحل وهو آت حتما - من قبل الناس أصحاب المصلحة الحقيقية صحيح أن أدوات النضال قد تغيرت مع تبدل الأزمان ولكن جوهر الحقائق لا يمكن أن تبدله الأيام فالمثقفون ومؤسسات المجتمع المدنى عليهم قيادة مجتمعاتهم صوب الخروج من نفق الأزمة لأن هذه مسئوليتهم التاريخية فنحن لسنا بحاجة إلى صلاح الدين، وإنما نحن بحاجة إلى الوعى بحقيقة الموقف وإلى إدراك قدرتنا على الصمود وعلى الخروج من هذه الأزمة.

فالأمم العريقة لا تنتحر ولا تستسلم للموت. ■





درس فى الجامع العتيق

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

انتظم الطلاب فى المسجد حلقا، وتوسطهم أبو بكر الكندى، عالم عصره، وبدأ درسه على غير العادة غاضبا مكفهر الوجه يصيح : اسمعوا يأأهل المعرفة ورالفهم ما يقوله المتنبى فى مديحة لأميرنا :

وما طربى لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

أرايتم شاعرا منذ كان الشعر العربى يقول لمدوحه، إنى لم أعجب لطربى عند رؤيتك أيها الأمير، لأننى كنت أؤمل أنى سأملأ الدنيا ضحكا عندما أراك . إن المتنبى أيها الطلاب قدم إلى مصر ليفرج عن نفسه برؤية أميرنا المضحك

ثم ، من علم هذا الشاعر العربية حين يقول : «لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب؟ فيرفع الفعل أطرب، وهو منصوب

لامناص، لأنك إن جعلت الغاء حرف عطف وجب ونصبه

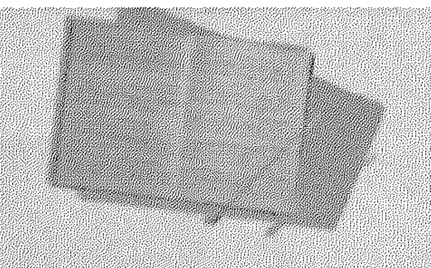
بالعطف على أرى، وإن جعلتها فاء السببيه وجب نصبه بأن مضمرة فكيف ساغ لهذا الرجل رفعه ؟

من أخر الحلقة صاح طالب : قد يكون الفعل معطوفا على «أرجو» وهو مرفوع .

رد الشيخ : هذه حيلة العاجز يابنى، وتخرج نحوى ضعيف فى الصناعة ، أو محب للمتنبى دوره فى العلم أن يبرر أخطاء هذا الشاعر ويدافع عنها، لأن الطرب مترتب على رؤية كافور لا على رجاء رؤيته .

– معك الحق شيخى، ولست أدرى كيف غاب عنى هذا المعنى الدقيق البعيد .

عندما انتهى الدرس بدأ الطلاب يعاودون رأيهم فى المتنبى، لا بوصفه شاعرا عظيما، فذلك أمر لا يختلف عليه أثنان، مهما أخذنا عليه من هنات، ولكن فى موقفه من أمير مصر، فمصر وطنهم، وكافور أميرهم مهما اختلف الرأى فيه . ■



الشباب والكوكايين

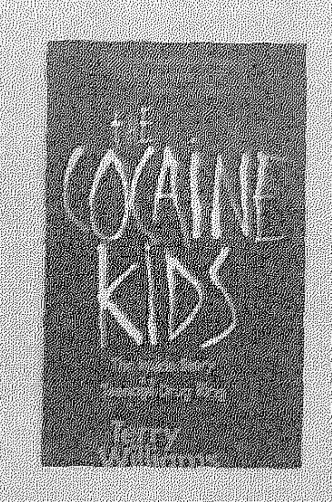
بقلم
د. مصطفى سويف

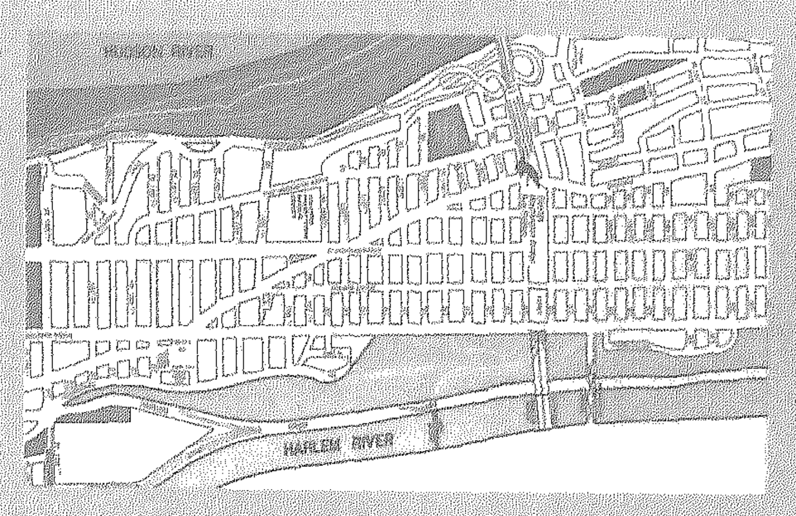
هذا كتاب على جانب كبير من الأهمية، لأنه يتناول موضوعا شديد الجدية فى حياتنا الاجتماعية، وهو موضوع المخدرات كما يتعاطاها ويتداولها صغار الشباب، ونظراً لأن المؤلف تناول الموضوع بأسلوب علمى هادىء، بعيداً عن الإثارة فقد وفق فى أن يقدم لنا كتاباً يهم فئات عديدة من القراء الجادين، منهم الآباء والمربّون بوجه عام، والمصلحون الاجتماعيون، والمشّرعون، والأطباء النفسيون، هذا بالإضافة إلى الدارسين والباحثين فى حقل العلوم النفسية والاجتماعية.

ويضم الكتاب خمسة فصول تؤلف فى مجموعها جولة شارحة وشافية حول الموضوع الذى يتصدى الكاتب لمعالجته، وهو: كيف يدخل الفتيان المراهقون عالم المخدرات بغرض التعاطى والتوزيع، وكيف يخرج بعضهم منه، وما هى الذرائع المباشرة التى تقف وراء هذه الحركة دخولا وخروجا، وما هى السياقات العامة والخاصة (الحى والطبقة، والجيران، والأسرة، والأصدقاء) التى يعيش فى كنفها هؤلاء الفتيان.

وقد استعان المؤلف فى إنجاز عمله هذا بما يعرف عند أهل الاختصاص بأسلوب «دراسة الحالة»، وهو أسلوب معترف بجدواه







رسم تخطيطي للأحياء المكدسة بتجارة الكوكايين

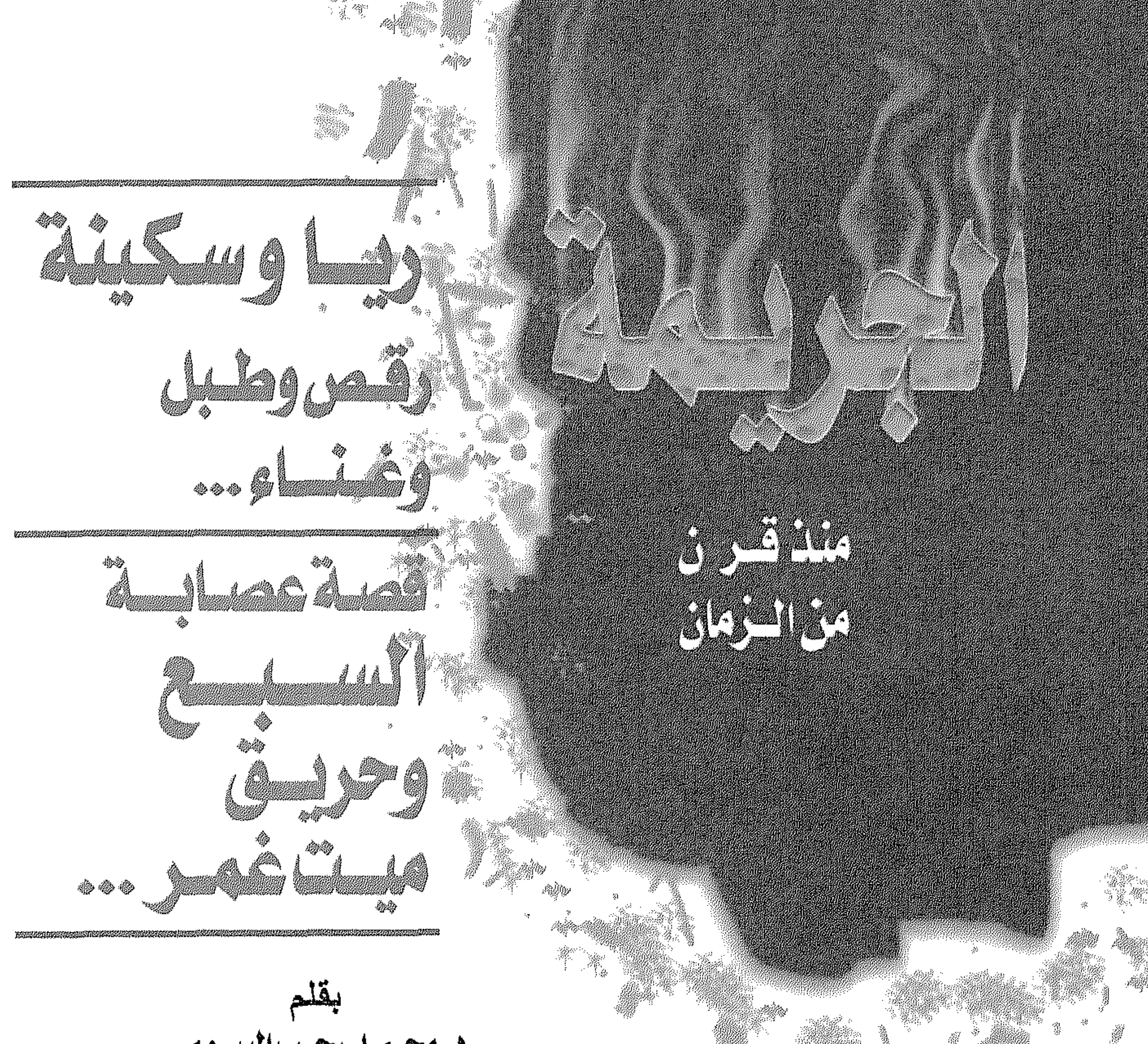
في مجالات الطب النفسي، وعلم النفس العيادي، وعلم النفس القانوني، والانثروبولوجيا (علم الحضارات والسلالات البشرية)، وفيه يقدم الدارس وصفا كيفيا دقيقا لعدد من الحالات التي يمكن تصنيفها تحت بعض الاضطرابات النفسية، أو بعض السلوكيات الإجرامية، أي تحت بعض الأطر الحضارية، ومع أن هذا الأسلوب لا يغني عن التحليل العلمي في إقامة المعرفة العلمية، فإنه خطوة هامة على الطريق، لأنه شكل من أشكال المشاهدة النظامية للظاهرة موضع الدراسة، والقيام بهذه المشاهدة النظامية عدة اجراءات عملية، وقد اختار المؤلف من بين هذه الاجراءات ما يعرف باسم «المشاهدة بالمشاركة»، ويقتضي هذا الإجراء أن يعايش الدارس مجموعة الأفراد الذين يزمع دراسة سلوكياتهم، لكي يشاهد (عن قرب) جوانب هذه السلوكيات لا من حيث شكلها الخارجي فحسب ولكن من حيث ما تنطوي عليه من معان ودلالات، وهذا بالضبط ما فعله المؤلف بالنسبة لجموعة الشباب الذين اتخذ منهم موضوعا لدراسته.

ومن خلال هذه المقاربة (وهي دراسة الحالة، بطريقة المشاهدة بالمشاركة) يعرض المؤلف عددا من الحالات، هيكتور، وجيك، وشيلي، وكيتي.. إلخ، بعضها ينتمي إلى أسفل السلم الاجتماعي، والبعض الآخر ينتمي إلى الشرائح الدنيا من الطبقة المتوسطة، ومعظمهم من الأقليات العرقية في المجتمع الأمريكي. وقد اختار المؤلف هؤلاء الفتيان لأنهم يكوّنون في جملتهم تشكيلاً عصابيا متكاملا، ومن خلال متابعة المؤلف أدوارهم المختلفة وكيف يؤدونها داخل هذا التشكيل استطاع أن يقدم لنا صورة حية تجمع بين أنماط الأشخاص وديناميات النموذج التجمعي (العصابي) الذي يؤلف بينهم، وقد حرص المؤلف على أن يقدم لنا أولئك الشبان لا من خلال أفعالهم فحسب ولكن من خلال أقوالهم كذلك، وفي معظم المادة التي قدمها في هذا الصدد نجد الأفعال والأقوال ثرية في دلالاتها النفسية الاجتماعية. وإلى القارئ مثالا أو مثالين في هذا الصدد: يتعلق هذا

المثال بشاب يدعي ماستر راب، «... وهو الذى يحل محل شيلى عندما يغيب عن المكتب، معنى ذلك أنه... يُعد الرجل الثانى بعد شيلى.. إلا أنه هو الرجل الأول فى الطاقم بكامله الذى يتبين الصورة الأكبر ويفهمها، وهو يعلم جيدا أن الوقت يعمل ضد كل أولئك الذين يعملون فى تجارة الكوكايين، وهو ليس من أولئك الذين يسرفون فى تعاطيه..» يقول ماستر راب «الكوكايين هو مجرد طريق أسلكه لجمع شيء من المال وإنجاز بعض الأشياء التى لن تسنح الفرصة بإنجازها من غير هذا الطريق فى هذا العالم الذى نعيش فيه. الكوكايين ليس حقيقة.. أنا أود أن أحكى لك قصة حياتى فى يوم من الأيام، وبعد أن تدونها أود الاطلاع عليها. وربما عندئذ أصدق أن ذلك الذى يحدث إنما هو واقع فعلا وليس من قبيل الأحلام»، وفى موقف آخر يقول ماستر راب (موجّها كلامه إلى المؤلف) «شريكى هنا يظن أن أفضل الطرق لجمع المال هو الاتجار فى المخدرات، ولكن ذلك يختلف تماما عما تعلمته من خبرتى.. كل الناس يظنون أن بوسعهم أن يجمعوا مبالغ كبيرة بسرعة كبيرة... ولكن هذه الظنون خاطئة، لأن الأمر لا يسير على هذه الشاكلة.. إن تعاطى الكوكايين يمكن أن يصيب الإنسان بالارتباك وعدم النظام، لقد أدار الكوكايين عقول الناس .. وإن فئة كبيرة من أولئك الناس أشرفت الآن على الجنون، والسبب فى ذلك أنهم .. لا يدركون أو يفهمون الآثار السيئة التى تحدث لعقولهم وأجسادهم من جراء تعاطيهم الكوكايين.. إنهم ليست لديهم أية فكرة عن هذا الموضوع. أرجو أن تصدقنى فى ذلك، وتأخذ كلامى على محمل اليقين». هذه الأحاديث وغيرها كثير مما لا يقل عنها دلالة، ومع الأحاديث كثير من وصف شخصيات أصحابها وأفعالهم تملأ حيزاً كبيرا من الكتاب، وتسهم بنصيب وافر فى إقرار قيمته العلمية وربما التربوية كذلك.

يحتوى الكتاب أيضا على مادة علمية عن مخدر الكوكايين، وهذه المادة ليست غزيرة، ولكنها سليمة علميا. ويتكلم المؤلف عن أشكال التعاطى وكيف تطورت عبر سنوات الثمانينيات، وعن تطور أسعار المخدر فى السوق غير المشروعة ما بين سنتى ١٩٨٠ و١٩٨٨، كما يتكلم عن تجارة الكوكايين بوجه عام، ولكنه يقتصد فى تقديم هذه المعلومات بحيث لا تزيد على أن تظل مجرد خلفية تبرز فوقها شخصيات الشباب وأفعالهم وأقوالهم، وهو ما يحفظ للكتاب شخصيته ككتاب فى السيكولوجيا الاجتماعية للشباب الذين يتعاملون مع المجتمع ومع بعضهم بعضا من خلال المخدر.

جدير بالذكر هنا أن أسلوب المترجم فى ترجمته يستحق الثناء لما يتميز به من الوضوح والسلاسة، وقد حرص المترجم على أن يزودنا فى نهاية الكتاب بقائمة بالمصطلحات الإنجليزية وترجمتها العربية، ولهذه القائمة قيمة خاصة لأن المصطلحات الواردة بها ليست مجرد كلمات بمعانيها المعتادة ولكنها كلمات تحددت معانيها حسب حياتها الاجتماعية على أفواه الشباب الذين يدرس المؤلف حالاتهم، وكما أن بعض هذه الكلمات لا تنتمى إلى مفردات الإنجليزية الفصحى ولكنها من مفردات الأمريكية العامية فقد اتجه المترجم إلى ترجمتها بالعامية المصرية. ■

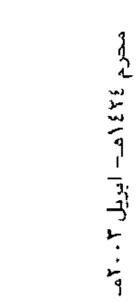


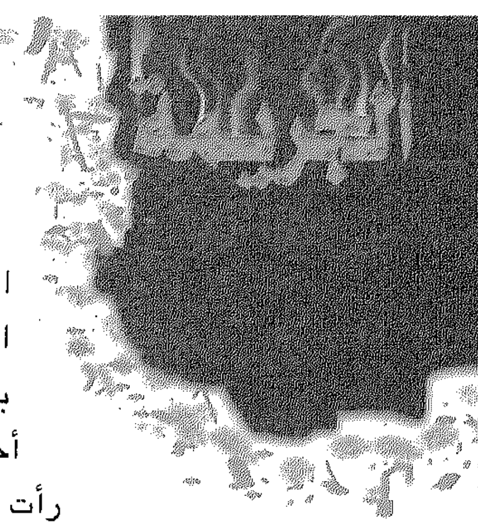
ريا وسكينة
رقص وطبل وغناء...
قصة عصابة السبع وحريق ميت غمر...

بقلم
د.محمد رجب البيومى

شغف المؤرخون بتسجيل الأحداث السياسية، كبيرة كانت أو صغيرة، وبالغ الكثيرون منهم فى تضخيم الأحداث عن بعض الشخصيات التى تمثل دورا هامشيا، لحاجات فى نفوسهم، وفى الجهة المقابلة نجد قصورا كبيرا فى تسجيل الأحداث الاجتماعية، وهى من التأثير في المجتمع المصرى بحيث تتغلغل فى صميم الصميم، وما أنكر أن بعض الفضلاء قد خص هذه الناحية بالتفاته الفكرى، ولكن ذلك وشل ناضب جوار بحر مائج! وقل لى بربك، كم كتابا صدر عن الزعيم الاقتصادى العظيم محمد طلعت حرب، وأثره ماثل بين عيوننا فى كل مكان! وكم صحيفة يومية أو أسبوعية أو شهرية اهتمت بإحياء ذكراه، كما تفرد الصحف وتضج الإذاعات كل عام بإحياء ذكرى الصغار من المطربين والمطربات!.

جرائم ريا وسكينة البشعة هزت
المجتمع المصرى فى الثلاثينات





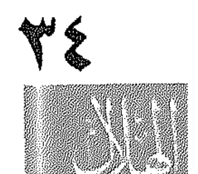
وحـــوادث الإجرام التى روعت القطر المصـرى بحريه وقبليه فى أحقاب متكررة، هل رأت من يرصـدها باحـثـا عن أسـبابها، ومهـتـديا إلى نتائجها، هل رأت من كاتبى المسرحيات من يعرضها فى سياق توجيهى ناجع؟ إن القصص البوليسية التى تترجم فى لغة ركيكة عن أوربا وأمريكا أخذت تنتشر كالوباء منذ عهد بعيد، ولاتزال الأسماء الرنانة تخترع لها مثل «قصص الرعب» وما يدور مدارها، فلماذا لايكتب الروائيون قصصا عن إجرام الأشقياء فى مصر، تُرى الناس كيف يتقون حيل هؤلاء الأشرار؟! .. كل مالدينا قصة عن «ريا وسكينة»، استهلكت سينمائيا وإذاعيا، وأعيدت صياغتها مرة بعد مرة فى أعوام متقاربة، بل تحولت فى بعض ماكتب إلى فكاهات عامية ذات رقص وطبل وغناء، فخرجت عن مدلولها الاجتماعى، ومغزاها الخلقى إلى شذوذ باركه الناقدون الذين يصفقون للممثلين فى كل دور يؤدونه، فهم حملة المباخر، لا هداة الطريق ..

وأتعرض اليوم للحديث عن عصابة من أكبر عصابات الإجرام روعت الناس فى إقليمى الشرقية والدقهلية على مدى ربع قرن، وكان من فظائعها الرهيبة أنها أحرقت مدينة بأكملها هى مدينة «ميت غمر» وأذكر أن طلاب المدارس إلى عهود قريبة كانوا يحفظون قصيدة حافظ ابراهيم التى يقول فى مطلعها.

سائلوا الليل عنهموا والنهارا
كيف باتت نساؤهم والعذارى
أين طوفان صاحب الفلك يروى
هذه النار فهي تشكو الأوارا

كما كانوا يدرسون مقال الاستاذ الإمام محمد عبده الذى وجهه إلى الأمة المصرية فى هذه المناسبة الحزينة داعيا إلى التبرع العاجل لبناء المدينة من جديد، فاستجاب أولو الفضل لندائه، وبتأثيره الشخصى جُمعت التبرعات، وبدأ التنفيذ.

على أن الذى دفعنى إلى تسجيل بعض الأحداث الخاصة بهذه العصابة عودى إلى قراءة قصة أدبية تحت عنوان «الشيخ الصالح» كتبها الأستاذ «على حسنين على» أحد خريجى دار العلوم وقد أتم تعليمه فى انجلترا،. وحاز درجة علمية فى أصول التربية، وعاد ليدرسها فى دار العلوم والمعلمين العليا حينا من الزمن ثم انتقل إلى التفتيش بوزارة المعارف، وله ترجمة موجزة فى كتاب «تقويم دار العلوم» وهى فى إيجازها مفيدة شافية، وقد ظهرت الطبعة الثانية للكتاب سنة ١٩٣٨، وأظن أن الطبعة الأولى ظهرت قبل ذلك بأكثر من عشر سنوات، لأنه يقول فى المقدمة : إن القصة الأدبية فى مصر مفقودة تماما، وأنه يتقدم بهذه القصة بعثا لهذا الركن المفقود، وسدا لفراغ يتطلب أقلاما



متضافرة وعقولا مفكرة، وأخيلة واسعة، ! فعو إذن قد أصدر الطبعة الأولى قبل ظهور «إبراهيم الكاتب» للمازني و«عودة الروح» لتوفيق الحكيم و«الأيام» لطه حسين و«باب القمر» لابراهيم رمزى! وكلها قد نشرت قبل سنة ١٩٣٨، ومع نشر هذه القصة مرتين لم أجد من التفت إليها من مؤرخي القصص الحديثة، وأظن أسلوبها الأدبى المتأثر بمحمد المويلحى فى تشبيهاته وازدواجه، لا بالمنفلوطى فى تدفقه وانسيابه قد باعد بينها وبين الذيوع المدوى، وهى جديرة به عن يقين!

إن العصابة التى أتحدث عنها هى عصابة «السبع» أكبر العصابات خطرا على الأمن وترويعا للأبرياء، وزعيمها «محمد السبع» نشأ فى أسرة ميسورة يحتل عميدها المركز الأول فى قريته، وقد دلل ابنه تدليلا جعله نافذ الأمر والنهى فى القرية دون معارض على حداثة سنه، ثم أجبره على الالتحاق بالأزهر ليستكمل وجاهة علمية تؤهله لرئاسة القرية من بعده، ولكنه لم يحضر دروسه العلمية بل التحق بفريقى الفتوة فى الجمالية والحسينية، وظهرت مواهبه الجسمية والخلقية فى زمن وجيز، فسار له اسم ذائع بين الفتوات، وقام بأعمال إجرامية أوجبت مطاردته فارتحل سرا إلى قريته «كفر الجهنمى» ليجد والده قد رحل عن قريب، وليجد أطيانه التى تبلغ ثمانين فدانا قد خرجت من يد الأسرة إذ كانت رهنا لديون باهظة تضاعفت قيمتها بتوالى الزمن بناء على الأرباح المستحقة، ولم يبق منها قيراط واحد، وهنا صمم الولد على تأليف عصابة إجرامية تجمع بعض فتوات القاهرة الذين استعان بهم كبذرة أولى، وإذا كانوا لايعرفون شيئا عن طرق البلاد ودروبها التى تصلح للاختفاء فقد بحث عمن سمع عنهم من عتاة المجرمين فى العصابات الأخرى، وشجعهم بما بذل لهم من الوعود حتى أصبحت عصابته الأولى فى ميدانها الخطير. وبدأت بالتنفيذ دون إمهال.

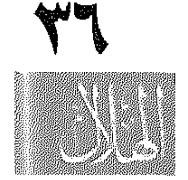
وكان الطريق الممتد بين ميت غمر والزقازيق هو ميدان العمل الأول فهذا الطريق بين المزارع المتشابكة ضيق فى أكثر مراميه، ويحفل بالمرتفعات والمنخفضات والمنعطفات وقد نبتت الأشواك على شتى جوانبه، فمثلت عوائق شديدة لايتجنبها غير ذوى الدربة ممن سلكوا الطريق مرات بعد مرات وفى كثير من متعرجاته مستنقعات مائية تغطيها الأعشاب والحشائش، وهى ملأى بالأفاعى والحيات القاتلة التى كونت عصابة أخرى لاغتيال الأرواح الآدمية إذ أكثرها سام قاتل، أما الحقول الجانبية ذات الأشجار والزروع الممتدة دون انقطاع فهى أوكار اللصوص فى أثناء النهار، ومسرحهم الذى ينطلقون منه فى غياهب الليل، وقد ترك الفلاحون بعض ممتلكاتهم فيها، خضوعا لشر هذه العصابة، فصار منهم من يتولى تثميرها باستحضار من يجبر على زراعتها دون

مقابل وإلا دبر اغتياله الفورى بأيسر الوسائل، وبعد أن أتم «السبع» اختيار العتاة من زملائه عرض عليهم طريق العمل الإجرامي ووسائله، وكان من بعض وسائله اختيار بعض من يحفظون آيات القرآن ليكونوا كرجال الطرق الصوفية يلبسون العمائم الملونة من سوداء وحمراء وخضراء ويزورون بيوت الأثرياء من سكان المنطقة، ليعرفوا دخائل الثراء، ومواعيد البيع والشراء للمحصولات وأماكن التجارة فى الرواح والغدو، بل ليحاولوا أن يعرفوا أماكن المال المدخر، أفى أطباق الأرض تحت البلاط، أو بين الجدران المطلية بالجير الرقيق أو الصفيق، أو فى صناديق تحت الأسرة والأرائك، وربما عاود الشيخ زياراته مرات ومرات، وفى يده المسبحة الطويلة، وعصاه التى يتوكأ عليها اصطناعا للعجز البدنى، مع لحيته الممتدة إلى أسفل رقبته، وزبيبته التى أكلت جبهته من كثرة السجود، وشفته التى لاتفتر عن التسبيح الصامت فوق حبات المسبحة، وبهذه الحيل الشيطانية ألمّ رئيس العصابة ومستشاروه الأشرار بكثير من مصادر النهب والاغتصاب وقد جعلوا القتل السريع لمن يحاول الاعتراض حلا واحدا لامحيد عنه، وذلك هو البند الأول فى وثيقة العدوان.

المأساة!

وكان من الملاحظ أن يختفى الشيخ الزائر فجأة، فيغير زيه الصوفى، ويرتدى جلبابا ريفيا، ثم يذهب إلى رئيس العصابة فيخبره بأن فلانا سيذهب إلى المدينة ليبيع المحصول يوم كذا، وسيرجع من طريق كذا حاملا ثمن المحصول، فإذا أتم رسالته رجع إلى مثوى الضحية متعللا بأنه كان يذكر الله فى الخلاء أو يجلس فى رحاب المقابر أنسا واعتبارا بمن سبقوا إلى رحمة الله، فيقابل بالتجلة والاحتفال، ويسأله السانجون دعواته الصالحة، وألا ينساهم عند ابتهالاته وتسبيحه فدعاؤه مقبول، ورجاؤه مأمول، ثم تتم المأساة حين يذهب الرجل الآمن بمحصوله، ويرجع فى الطريق، فيدهمه من لايرحم ، يسلبه ماله وحيوانه وكساءه ، وكثيرا ما يقضى عليه إذا حاول الاعتراض، ويكون الشيخ فى تسبيحه حين يأتى الخبر إلى أهل المنزل، ويرتفع الصراخ بالبكاء على الراحل أو التوجع لما سلب واغتصب إن سمح له بالعودة خالى الوفاض، والمجرم معهم يتألم ويتوجع!

ومن السذاجة التى تصل إلى حد البله أن يطلب الشيخ الزائر معرفة أماكن الثروة ليقرأ عليها آيات تحفظها من السرقة، وهذا الطلب فى ذاته مصدر ريبة حقيقية فى دخيلة هذا الرجل الآثم، ولكنه يقع موقع الرضا والابتهاج من رب البيت، فيسارع باصطحابه إلى أماكن الذهب والحلى ويبدأ الماكر بالتوضؤ ثم الصلاة ويقبل على القراءة فى طمأنينة كاذبة، وطبيعى



ألا يترك الثرى المغفل باطنا من الثروة إلا أظهره، وأن تتوالى الدعوات والآيات فى كل مكان يضم الذخيرة، والماكر الخادع يعرف من شئون المنزل الداخلية والخارجية ما يسهل نفاذ الجريمة عند حدوثها، فيعرف متى ينام صاحب البيت، ومن الذى يحرس المنزل من الخارج، ومن يسهر داخلا على مراقبة كل من تسمح له نفسه بالولوج إلى مكان محظور، حتى إذا استكمل أمره، غير ملبسه وفر إلى رئيس العصابة فيطلعه على كل خاف، ويتهيأ الأشرار إلى تنفيذ الجريمة عاجلا غير آجل، فيبدأون بقتل الحارس بعد أن يكمموا فاه كيلا يصيح ويسيرون فى منافذ البيت وفق خطة دبرها الشيخ الآثم حتى يصلوا إلى حجرة الثروة فيفتحوها فى هدوء، فإذا تيقظ صاحب المنزل هدد بالاغتيال إن حاول الضجيج وإذا صرخت الزوجة عوجلت بالمسدس المسكت، وفى ساعة أو ساعتين فى غسق الليل تكون الخزينة المالية قد نهبت ، ويكون الذهب والأساور والأقراط والخلاخيل قد غصبت، ويكون نفر من القتلى البائسين قد سالت دماؤهم فى غير مبالاة، فإذا ارتفع الصباح، وكشف الأمر، وقام البوليس بتحرياته التقليدية يوما بعد يوم، قيدت القضية (ضد مجهول) ونجا الأشرار بما يأثمون!

حيل أخرى

هذه بعض حيل رئيس العصابة، ومن الحيل الأخرى أن يرسل تابعا من مجرميه إلى السوق الريفى العام فى يومه الأسبوعى ، فيعرف من يشترى ومن يبيع، ومن يرجع بالمال الكثير ويتابعه حيث اتجه فإذا عرف أنه يرجع فى طريق العصابة الزراعى ادعى أنه مثله يسلك طريقه إلى بلده، وأنه فى حاجة إلى رفيق كريم مثله يعاونه على مصاعب السير وإن حدث حادث، ويقيه شرور الأفاعى القاتلة، وصعاب الأشواك الممتدة التى تداهم السائر إذا لم يكن متيقظا، ويسر صاحبنا برفيق الرحلة، ويبدأ معه الحديث عن عمله الآنف فى السوق، ماذا باع، وماذا ربح، ويسهب الرجل البرىء فى سرد الإجابات غير محترز حتى يعرف صاحبه ما معه على وجه التحديد، فإذا انقضت ساعة، وخاض الرجلان فى ظلال الشجر الممتد وتوسطا الحقول المترامية عن شمال ويمين، أخذ المجرم فجأة بتلابيب الرجل، وصاح صيحة يعرفها من دبروا الأمر معه، فيخرجون أرسالا، وكأنهم فى كتيبة حربية تحيط بالرجلين، فيصيح المجرم الشريك قائلا : هذا الرجل سلبنى حقى، ومعه كذا وكذا من النقود التى بعت بها محصولى، ويتبرأ المسكين من الاتهام الفاجر، فيجد التكذيب والتسفيه من العصابة، ويصيح قائد الكتيبة: «إلى المحكة إلى المحكمة» فيتعجب المسكين ويتساءل: أى محكمة هنا فيقودونه كراهية إلى قاعة الحكم، ونترك المؤلف ليصف الجلسة القضائية فيقول بتصرف لا يمنع الدقة فى وصف ما كان :

«ساروا نحو خمس دقائق فى أدغال من القصب والشجر الملتف، حتى وصلوا إلى ساحة مربعة الشكل قام على رأسها حاجب المحكمة، وجنود مبثوثون من هنا وهناك، ثم صاح الحاجب فجأة فتحت الجلسة، فنهض الكل إجلالا للقاضى ساعة دخوله، وأخذ يستفهم عما كان، وأعاد المجرم اتهامه باغتصاب ماله، والبرىء تنصله مما لحق به من افتراء، وبعد أخذ ورد، يظهر القاضى اقتناعه بكذب المتهم ، ويصدر الحكم بتجريده من كل ما معه من النقود تأديبا له، ثم بالإعدام حرقا!!

ويصيح الفلاح المغلوب على أمره صيحة اليأس ويرمى نفسه عند قدم القاضى العادل طالبا الرحمة، فلا ينطق القاضى بكلمة، وهنا يقول له الحاجب: استأنف الحكم، فهنا محكمة أخرى، فلايجد المغلوب على أمره غير أن يقول : أستأنف أستأنف.

فيأمر القاضى بأخذه إلى المحكمة العليا، فيساق فى ممر ضيق متشابك الأغصان من أعلاه وكثير العثرات من أسفله، حتى يصل إلى ساحة القضاء، وهى شبيهة بساحة المحكمة الابتدائية تماما، وقد جلس على المنصة ثلاثة قضاة لاقاض واحد والرئيس ضخم هائل المنظر أسود الوجه، يحدق بعينيه فى الفريسة وكأنه يريد أن يأكلها أكلا، ويستمع إلى شكوى المجنى عليه فى اشمئزاز وإلى رد الجانى فى بشاشة وترحيب، ثم يقول بعد اصطناع مداولة موهومة حكمت المحكمة بتثبيت الحكم من حيث تجريد المتهم من النقود وإلغاء الحكم بالإعدام رحمة بأسرته وأولاده! فلا يصدق المسكين بنجاته ويصيح مستعطفا: يحيا العدل، يحيا العدل: ويدفع به صفعا ولكما إلى الطريق، وهو لايصدق بالنجاة، ويسأل الله ألا يُستأنف الحكم من جديد!

معجزة السبع!

ومعجزة السبع، إن عد التفوق فى الإجرام والبراعة فى التنصل.معجزة، أنه لاتثبت عليه شبهة فى كل مايرتكب من الأعمال، لأن أعوانه ينسبون الجريمة لأنفسهم إذا وقعوا فى قبضة القضاء وينفون كل علاقة تجمعهم وإياه، كما أن المجنى عليهم يحاذرون اتهامه العلنى كيلا يتعرضوا لكيده إذ يُسلط عليهم من زبانيته من يسومهم سوء العذاب، وهو لذلك يسير فى الطرقات آمنا مرهوبا ويقابل بالاحتفاء تقية وخيفة، أما رؤساء العصابات الأخرى فلا يملكون موهبته السحرية فى رياسة اتباعه، وفى السير علانية فى الطريق دون أن تأخذهم أعين الرقباء، لذلك نجد منهم الرئيس الذى يسكن المقابر ويتخذها مقرا لاجتماع الاتباع، وموضعا لتسلمماينهبون من الأموال، ولتفريق هذه الأموال على جنوده الناهبين، وكان أول من اتخذ المقابر موضعا للاجتماع السرى هو

السبع نفسه قبل أن تندلع شهرته كالحريق فيصبح البعد عن صاحبها غنيمة الغنائم، وقد وصف مؤلف (الشيخ الصالح) أحد هذه اللقاءات في فصل قوى الإيحاء، رائع الدلالة، فذكر عن رئيس العصابة محمد السبع ووكيله عيسى الكومي ما أحاول إيجازه قدر المستطاع فأقول :

بدا شخصان يزحفان من جوف قبر مفتوح. كأنهما شيطانان رجيمان، فقال أحدهما وهو الرئيس، هل اكتمل العدد؟ فردوا بالإيجاب، فانطلق يقول: كنت أنتظر أن تزداد أرباحنا، ولكن طرأ من الأحداث ماتعرفون، وقد أكلت هذه الأحداث الشيء الكثير مما جمعنا وجمعتم، وقد أتممت الحساب الدقيق فوجدت نصيب كل واحد منكم مائتين وخمسة وسبعين جنيها!! وأنا والوكيل مثلكم تماما لانزيد عنكم مليما واحدا، وأذكر لكم أني أدخلت في الحساب أسر شهدائنا الأبرار الذين استشهدوا في المعارك مع البوليس، فأخذت كل أسرة ماكان يستحقه فقيدها وخالفت قانون الجماعة الذي يجعل للرئيس نصيبين وللوكيل نصيبا ونصفا، لأني لا أحب أن أتميز عنكم في شيء، فصاح المجتمعون: كلا كلا، لابد أن يتميز الرئيس فهو صاحب الفضل في التوجيه ورسم الخطة، وحصول النجاح، فرد قائلا، أشكر لكم هذا الشعور ولكني متمسك بالمساواة المطلقة في الأمور المادية إذ لا رئيس ولا وكيل، بل أعلن لكم إني تبرعت وتبرع الوكيل معي بالنصيبين الخاصين بنا لأسر الشهداء، فهم بعد استشهادهم أعز علينا من نفوسنا جميعا! فصفق الحاضرون مبتهجين!.

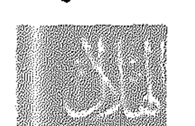
والذي يستنكر وصف هؤلاء المجرمين بالاستشهاد، له ألا يعجب إطلاقا من انحراف هؤلاء الأشرار في فهم معنى الشهادة لأن انجلترا المتحضرة في هذا الوقت بالذات، كانت في حرب (البوير) الظالمة تسلط نيران المدافع على الإفريقيين العزل فتحصد آلاف الأرواح دون مبالاة فإذا سقط من جنودها بعض المعتدين منحوا أوسمة الشرف، ونشرت الجرائد الإنجليزية صورهم الآثمة باعتبارهم أبطالا يؤدون رسالة الحضارة في افريقيا السوداء، وهم في صميم أفعالهم لصوص معتدون أزهقوا أرواح الأبرياء ليستولوا على كنوز الأرض من معادن وآبار، ولم يرحموا الأسر الآمنة حين سلطوا عليها القذائف من السماء، والمدافع من الأرض، فالذي لايستسيغ وصف قتلى عصابة الصبع بالشهداء يجب أن يتذكر أن هؤلاء الأشرار الجهلة ليسوا أسوأ من ممثلي الحضارة الإنسانية في أعظم دول العالم حينئذ! فكلهم مجرمون سفاحون.

توجيه دنيء

على أن شر رئيس العصابة وأشياعه لم يقتصر على السطو الغادر نهارا وليلا، بل تعداه إلى تنفيذ أوامر الاغتيال بأجر مكافيء، إذ دأب رؤساء القرى على التخلص من خصومهم على يد هؤلاء

القتلة، فيقومون بالتنفيذ العاجل لقاء أجر ثمين، ورئيس العصابة يستغل هذه الثقة من الأعيان والوجهاء كي يكونوا طوع يده إذا احتاج إلى شهادتهم الآثمة فى بعض مواقف القضاء حين يقع أحد أفراد العصابة في الشرك، ويتلمس النصير، ومما رواه المؤلف مثالا لهذا التوجيه الدنيء إلى اتخاذ أفراد العصابة أداة للاغتيال، ما قام به شيخ إحدى القرى من التصميم على اغتيال شقيقه العمدة: شقيقه من أمه وأبيه كي يكون العمدة من بعده، وصاحب الأمر والنهى من دون سلطة تعلو عليه، وإن كانت سلطة أخيه المدعو (محمد بك شهاب) فلما وسوس له الشيطان بجريمته ، اتصل بفردين من عتاة العصابة بعيدا عن علم رئيسها، وأجزل لهما العطاء فقاما بالتنفيذ فى حندس الليل بإتقان ماكر من الأخ المجرم، حيث رسم لهم طريق الاغتيال بأن سهل ارتياد المنزل وعين حجرة النوم، فتمت المؤامرة على وجه سريع، ثم دفن الميت فى حديقة المنزل قبل أن يبزغ نور الفجر وادعى الشقيق أن أخاه سافر فى المساء دون أن يدرى وجهته، ولما ارتاب الناس فى غيبته جعل يصرخ ويبلغ دوائر الشرطة لتنهض فى البحث عنه! أما ما لم يكن يعلمه الأخ الغادر فهو أن عضوى العصابة قد أبلغا السبع بكل شيء وقدما له ما أخذا من المال وأراد السبع أن يستغل الموقف لنفسه فاتجه إلى العمدة الجديد يخبره بعزمه على خطبة بنت أخيه الراحل، وكانت ذات ميراث هائل، ففوجيء الرجل بما لايمكن أن يوافق عليه، ودار النقاش رقيقا فى البدء، ثم عنيفا حادا حين قال العمدة للسبع إن عائلة العمدة لاتنحدر إلى الشبهات حين تصاهر شخصا مثله! وكاد الرد المباغت أن قال له السبع وسينحدر العمدة إلى السجن فالقتل حين يخرج جثة أخيه من الحديقة، وحين يشهد الشاهدان بمؤامرته الخسيسة، فكاد يسقط على الأرض، وأعلن الموافقة التامة دون اعتراض.

على أن الهواجس قد ركبت العمدة الآثم، فاعتقد ألا أمان له مع وجود الصهر الجديد، فبذل جهد الجن كي يسترضى شخصين من أفراد العصابة بعد أن منحهما من المال مايكفيهما مهما امتد بها العمر، وتعهدا أن يخبراه عن السبع، حين يهاجم بالليل بعض الدور ليأخذ العمدة أهبته فيهاجم بالبوليس العصابة وعلى رأسها السبع، وتدور المعركة التى تنتهى حتما بمصرعه، وتحقق الوعد بعد قرابة شهر إذ عمد السبع إلى مهاجمة إحدى الدور بقرية قريبة، وجمع عصبته الباغية لتأخذ للأمر أهبته، وعلم العمدة بالموعد. وكان البوليس ينتظر مثل هذه الفرصة لينجو من قلاعه الداخلية فى القاهرة التى



رصدت الجوائز لمن يأتى بالسبع متلبسا! واشتدت الرقابة الدقيقة على المنزل المشار إليه منذ الغروب بحيث لايشعر أحد بالمراقبة فتنكل العصابة عن مشروعها، وما أن انتصف الليل حتى هجم السبع بعصابته، وكان من قبل سنوات يترك القيادة لغيره كما أسلفنا من قبل، ولكنه شاء بعد مصرع الكثيرين أن يشجع أنصاره الباغين بوجوده، وانتظرت الحملة حتى ولجت العصابة داخل المنزل، وهنا أطبقت العساكر بعددها الكثيف وسلاحها المتأهب على اللصوص، فصدموا بما لايتوقعون وأمر السبع بإطلاق النار فى كل اتجاه، فلاقى أضعاف ما أطلق،وسقط أكثر جنوده، كما قتل من رجال الشرطة نفر من المستبسلين، ثم رأى السبع فى جحيم المعركة أن يصعد إلى أعلى المنزل هاربا، ليسقط على منزل مجاور، ويلجأ إلى الفرار، وتم له ما أراد بعد أن أسخن بالجراح! وانتصر البوليس وقيد المحاصرون من اتباعه إلى دار الشرطة فلاقوا من صنوف العذاب ما جعلهم يعترفون على أسماء كثيرة من رجال العصابة، فقبض عليهم، وجاءت الأنباء إلى السبع فى مخبئه، وكانت لديه وسائل التخفى والتمويه، كالعيون الزجاجية، والحواجب الكثيفة والشارب المصبوغ، واللحية البيضاء فبرع فى ارتداء مالايشير إليه إذ اجتاز الطريق فى حندس الليل، ففاز بنفسه حين توجه إلى طنطا فى زى درويش من اتباع السيد البدوى، ثم اكتشف أمره فى حديث يطول، فقبض عليه ليجد كشفا بأسماء القتلى الذين أصابهم من قبل وفر من التبعة ولكن من قتلهم ليلة المحاصرة الأخيرة بمسدسه، تتعلق دماؤهم برقبته عن يقين!! ولم تطل المحاكمة، لأن الجرم واضح شنيع والمجرم شيطان بعث الرعب والفوضى والموت فى الإقليم أكثر من عشرين عاما!! فصدر الحكم بإعدامه الفورى وحاول الفرار ليلة التنفيذ فخابت أمانيه! وبموته تشتت الجمع الأثيم إلا بعض العتاة!

قلت فى صدر المقال إن إحدى هذه العصابات هى التى أحرقت مدينة ميت غمر، وتفصيل ذلك أن جماعة من تلاميذ السبع بعد وفاته لم يتركوا إجرامهم البغيض فساروا سيرته فى اقتحام المنازل ليلا وترويع السائرين فى الطرقات الزراعية نهارا، ثم داهمهم البوليس ذات ليلة، وقد هاجموا بعض المنازل، فلاذوا بالهرب، ورأوا من دواعى الانتقام أن يشعلوا النار بعد ليلة واحدة فى أرجاء المدينة، وكانت المنازل حينئذ متخمة بالقش والحطب فى أعلاها، فتآمروا على إلقاء الغاز فوق القش فى أكثر الأحياء، وأشعلوا النيران فتلاقت ألسنتها الملتهبة من كل مكان، حتى صارت البلدة المسكينة، كما قال حافظ إبراهيم عن نارها المشبوبة

أكلت دورهم فلما استقبلت
لم تغادر صغارهم والكبارا

عشرات العمال الحملة فى وادى بئر السبع ينتظر الأوامر، تمر أمامهم الخيالة الاسترالية تجر المدافع

من دوافع ثورة ١٩١٩

العمال المصريون بناة الإمبراطورية

بقلم
سلمان أبو ستة *



محرم ١٤٢٤هـ - أبريل ٢٠٠٣م

* باحث فلسطينى

العمال الغلابة بجلابيبهم الزرقاء البهيجة (حسب التعبير الإنجليزي المتهكم) يحفرون الأرض لشق السكة الحديد

قرية دير سنيد قرية فلسطينية قديمة تقع على الساحل الفلسطينى الجنوبى. دخلت دير سنيد التاريخ المصرى مرتين خلال القرن العشرين. المرة الثانية عندما احتلت القوات المصرية مستعمرة يد مردخاى القريبة من القرية فى ١٩٤٨/٥/٢٣. كان ذلك أول انتصار للجيش، ومن أهم الانتصارات القليلة فى حرب ١٩٤٨. ولم يكن ذلك غريباً لأن الكتيبة التى اقتحمت الموقع الإسرائيلى كانت بقيادة السيد طه، بطل الصمود وقمة الشرف العسكرى الذى رفض التسليم فى حصار الفالوجة مع مساعده جمال عبدالناصر.

أمـــا المرة الأولى - وتـركـنـاهـا متأخرة لأن هذا موضوع المقال - فهو عند مرور آلاف العمال المصريين التابعين لجيش اللنبى الذى غزا فلسطين قادماً من مصر عام ١٩١٧ بها وإقامتهم معسكراً للعمل هناك.

اليوم محت الصهيونية آثار قرية دير سنيد، ولم يبق إلا نصب تذكارى بسيط ارتفاعه ٣ أمتار وكتب عليه بالانجليزية «هنا يرقد ١٩٢ عامل مصرى من قوات العـــمل المصـــرية، ١٩١٤ - ١٩١٨»، وبالعربية «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

مجرد رقم، لا أسماء ولا تعريف ولا إسم البلدة التى جاءوا منها. ربما كانوا من الصعيد، جاءوا للقمة العيش، وربما جُلبوا كعمال للسخرة أو شبه السخرة. لم يحظوا بأى تكريم أو احترام يكنه الجيش البريطانى لجنوده حتى لو كانوا من جنود المستعمرات فى الهند ونيبال. لو كانوا كذلك، لبنت لهم «هيئة مقابر الحرب» البريطانية مقابر منظمة كاملة التسجيل وبها حدائق ولها أسوار ولها موظفين للصيانة، يعملون حتى اليوم، فى بقاع كثيرة من العالم الذى داست عليه أقدام جنود الامبراطورية البريطانية، وعلى كل قبر شاهد عليه اسم الجندى وتاريخ ميلاده ووفاته وجنسيته وبلد المنشأ. أما هؤلاء العمال، فقد ردموا فى حفرة كبيرة أو عدة حفر صغيرة، ولم يبق من آثارهم إلا هذا العمود الحجرى الجماعى. لابد أن أحـــدهم أوصى زمـيله وهو يعـــانى سكرات الموت بعائلته الباقية فى أقصى الصعيد أو أطراف الدلتا. لابد أن ريس العمال أو أحدهم ممن يقرأ القرآن صلّى عليهم صلاة الجنازة، قبل دفنهم على عجل. لابد أن ابن عم المتوفى أو صديقه حمل الأنباء المؤلمة للعائلة المنكوبة بعد شهور عديدة أو سنوات من الوفاة، عندما سُمح للرسول أن يعود إلى بلده.

حملة اللنبى

كيف حدث هذا؟ فى صيف ١٩١٧، تسلّم الجنرال اللنبى قيادة «قوات الحملة المصرية» بعد فشل الجنرال موراى فى احتلال غزة مرتين المحصنة بالدفاعات التركية. وفى ٣١ أكتوبر ١٩١٧، استطاع اللنبى احتلال مدينة بئر السبع شرق غزة بحركة التفاف مفاجئة. وعندما سقطت بئر السبع، أبرق اللنبى إلى لندن قائلاً «أخذنا بئر السبع. ستكون القدس هدية عيد الميلاد لكم». وبهذا انتهى ألف وأربعمائة عام - عدا فترة الصليبيين القصيرة - من الحكم العربى الإسلامى لتلك البلاد. وصلت البرقية فى ١ نوفمبر فأصدرت لندن فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ وعد بلفور المشئوم، الذى كان مخبأ فى أدراج الوزارة بعد الاتفاق عليه بين الاستعمار البريطانى والصهيونية العالمية قبل ذلك بشهور. أعطى وعد بلفور موافقة بريطانيا لليهود على إقامة «وطن قومى» لليهود فى فلسطين. وهذا وعـــد من لا يملك لمن لا يســـتـــحق دون علم صـــاحب الحق أو موافقته.

لم يكن بالامكان تحقيق انتصار اللنبى دون قواته الانجليزية والاسترالية والنيوزلندية والهندية بالطبع. لكن كان على الجيش أن يقطع صحراء سيناء الخالية من المياه اللازمة لجيش عرمرم،

فاستلزم ذلك جر مياه النيل إلى فلسطين! لقد قام العمال المصريون بهذا العمل الجبار. لقد مدوا أنابيب المياه أمام القوات البريطانية بسرعة كبيرة حتى يتمكن الجيش من التقدم. أما العتاد والأسلحة الثقيلة، فقد بنى لها العمال السكة الحديد من القنطرة إلى العريش وغزة مع التفرع بخط نحو بئر السبع. لقد كان الجيش البريطانى يقبع خلف جحافل العمال المصريين الذين يمدونه بالماء والذخيرة، وسرعة تقدمه متوقفة على سرعة إنجازهم للعمل. لقد شقوا الطرق أيضا، بما فيها طرق الاسفلت والطرق الصحراوية ذات الشبك. لقد بنوا المبانى المؤقتة والدائمة، وانشئوا ورشات للحدادة والنجارة، وقطعوا الأحجار من المحاجر، وأقاموا المخازن للمؤن ونقلوها من موقع إلى موقع. لقد نقلوا على ظهورهم الذخائر والقنابل، ويعلم الله كم عشرات منهم قد تفتتت اشلاؤهم عند انفجار إحداها. لقد نقلوا على ظهورهم مئات الأطنان من المؤن من البواخر إلى البر، ويعلم الله كم عشرات منهم قد غرقوا فى البحر. ورجال البحر والصياون منهم نقلوا المؤن والعتاد فى مراكب صغيرة لترسو فى أماكن خطرة تحت قنبال المدفعية وتفرغ حمولتها فى سرّية. لقد حفروا الآبار فى الصحراء، وجففوا المستنقعات، ويعلم الله كم منهم مات من الملاريا. لقد رماهم الانجليز فى ساحة الحرب، فحملوا النقالات لإخلاء الجرحى وفى عمليات الإنقاذ. وأمشى على ضفاف التيمس فى لندن، أتأمل هذه المأساة، وأنزل فى قبو تحت الأرض، وأقلّب فى صور هؤلاء العمال، أخذها مصور «مجلة لندن المصورة» التى كانت تصدر فى الحرب العالمية الأولى. لا أعتقد أن المصور أخذ هذه الصور احتفاء بجهد العمال، لكن ربما لأنهم كانوا «خلفية» مناسبة لصور الجنود البريطانيين. وأجد فى الصورة رقم ١ هؤلاء العمال الغلابة بجلابيبهم الزرقاء البهيجة (حسب التعبير الانجليزى المتهكم) وهم يحفرون الأرض طبقات طبقات لشق السكة الحديد على المستوى المناسب. وأرى فى الصورة رقم ٢ عشرات الجمال المحملة وبجانب كل واحد جماله قابع جنب الجمل البارك على قاع وادى بئر السبع ينتظر الأوامر للتحرك، بينما تمر أمامهم قوات الخيالة الاسترالية تجر عربات المدافع.

العمال نواة الجيش

لقد كان هذا هو الجيش الحقيقى، بجانب الجيش المحارب. بجانب كل جندى بريطانى كان يقابله عامل مصرى، نفس العدد تقريباً. لقد بلغ عدد العمال المصريين الذين اشتركوا فى حملة فلسطين البريطانية مائة وخمسة وثلاثون ألفاً. بل لقد وصل عدد المشتركين ما يزيد على ربع مليون (حوالى ٢٧٠,٠٠٠) أخذاً فى الاعتبار هؤلاء الذين استبدلوا أو الذى سقطوا أثناء العمل. ويسجل لنا التاريخ الرسمى البريطانى أعداد هؤلاء فى وثيقة بعنوان «التاريخ المختصر لتقدم قوات الحملة المصرية (إلى فلسطين) من يوليه ١٩١٧ إلى أكتوبر ١٩١٨». تقول الوثيقة أن توزيع ١٣٥,٠٠٠ عامل كان كالآتى: ١٠٠,٠٠٢ عامل من بينهم ٦٤٠٦ عامل ماهر أو شبه ماهر،

والباقون عمال عاديون، و٢٣,٤٥٢ جمالاً لنقل الأحمال و١٩٩٦ مكارياً (سائق حمار) و١٤٣٣ سايساً و٤,٣٤٩ لخدمة الخيل و٣,٤٩٦ للخدمات البيطرية و٢٤٧ جمالاً لفرقة الهجانة الامبراطورية.

كيف تم تجنيد هذا الجيش؟ بالطبع لا تذكر الوثيقة البريطانية. كيفية جمع عمال السخرة وجلب العمال بالقوة. تقول فقط إنها فتحت مكاتب للعمل فى سوهاج وأسيوط وجزيرة الروضة، وسيق كل ٢٠٠٠ عامل فى القطار إلى القنطرة حيث رشوهم بالمبيدات وسلموهم جلابيب زرقاء وجهزوهم بالمعاول والفئوس، ونظموهم فى فرق عمل كل فرقة من ٥٠ عاملا عليها «ريس» غالبا من أهل البلد التى جاء منها العمال. وصرف لكل عامل مبلغ ٣ جنيهات مقدماً للصرف على عائلته، وهذا مبلغ كبير، لكن ربما كان آخر مبلغ يستلمه العامل قبل وفاته.

واتسع العمل، ففتحت مكاتب أخرى للعمل، وسعى الجيش سيعاً حثيثا للبحث عن ضباط إنجليز غير مهمين للجيش، أو أوربيين يعيشون فى مصر يعرفون بعض العربية. وأعطوهم دورات سريعة فيها، لكى يشرفوا على العمال. وتوزع العمال على نسق نظام الجيش. فأصغر وحدة هى خمسون عاملاً برئاسة الريس المصرى. وكل ١٢ وحدة من هؤلاء تساوى كتيبة عددها ٦٠٠ شخص، أو ربما ضعفها (١٢٠٠) بقيادة ضابط انجليزى أو أوربى لا يصلح للحرب.

وبغطرسة إنجليزية ونظرة سفلية، يقول التقرير إن هؤلاء العمال بجلاليبهم الزرقاء البهيجة وغنائهم وحدائهم وبابتساماتهم الطيبة المشرقة كانوا يقومون بأكثر الأعمال مشقة دون كلل أو شكوى. ووصل إنجازهم (وهذا بيت القصيد) إلى مستوى عال فى بناء الطرق والسكك الحديد وأنابيب المياه مما مكن الجيش من القيام بواجبه على الوجه الأكمل.

والثمن الإنسانى لهذا الإنجاز؟ لقد مات عدد كبير من الإرهاق والاجهاد والعمل فى الصحراء تحت أشعة الشمس الحارقة. تقول الوثيقة البريطانية إنه فى عامى ١٩١٧ و١٩١٨ فقط توفى ٢٦٨ عاملاً منهم ٢٣٥ من الإجهاد و١٤ قتلوا فى المعركة و١٩ ماتوا من جروحهم. وتعترف الوثيقة بأن هؤلاء العمال قد «ساهموا بشكل كبير فى العمليات العسكرية»، وأنهم تحملوا المشاق «بنفسية الشرقى التى تؤمن بأن كل شىء مقدّر ومكتوب».

ضحايا الحملات

ولا شك إن أعداد الذين سقطوا فى خدمة الامبراطورية أكبر بكثير. ففى دير سنيد وحدها توجد مقبرة جماعية لعدد ١٩٢ عاملاً. فكيف إذن إذا أخذنا باقى المحطات التى سقط فيها هؤلاء العمال ودفنوا جماعياً. تذكروا هذه الأسماء للبلاد التى توفى فيها العمال المصريون فى مقبرة معروفة أو غير معروفة: إسدود، الرملة، غزة، بئر السبع، أبو إقيّق غرب بئر السبع، النبى يونس، يبنه، عرطوف، يافا، بيت نبالا، الشيخ مونس، ملّبس، إجليل، أريحا، السلط، نابلس، حيفا، بيروت، دمشق، بعلبك، طرابلس ، حمص



عبد الناصر أثناء حصار الفالوجة

وغيرها.

صحيح أن بعض هؤلاء العمال كانوا من البلاد الشامية، ولكن عددهم لا يقاس بالعمال المصريين، فلم يتجاوز عددهم ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف)، من بينهم ١٥٠٠ عامل ماهر. وهؤلاء كانت تدفع أجورهم كل أسبوع، وينامون فى قراهم كل ليلة، ويمكنهم ترك العمل فى أى لحظة. بينما يغيب العامل المصرى عن عائلته سنة أو سنتين، مع أن عقد العمل ٦ شهور فقط. وليس لدينا علم بأن دفعت أجورهم كاملة أم لا، وربما كان هناك وسطاء وفاسدون وقعوا بالاستلام بالنيابة عنهم أو دفعوا لهم أجورهم منقوصة. وبالقطع لا يوجد أى دليل على دفع تعويض لعائلة المتوفين أثناء العمل.

وكم من القهر والإجبار تحمله هؤلاء العمال قبل إدخالهم سلك العمل. لقد كانت سياسة الكرباج سائدة. لقد كان مدير المديرية يجمع العمد ويأمرهم بإحضار العمال بالتهديد وبالرشوة وبالبلاغات عن المختفين.

يقول عبدالرحمن الرافعى فى كتابه «ثورة ١٩١٩» إن السلطات البريطانية كانت توهم العمال أن عقدهم لبضعة شهور، ولكنهم يرغمون على البقاء لمدة أطول بكثير، ويعاملون أحياناً كمساجين وعندما يتحركون، يربطون بالحبال ويوضعون فى عربات الماشية تحت حراسة شديدة. لقد كان منهم أطفال فى سن الرابعة عشرة وعجزة فى سن الستين. ويقول الرافعى إن عمال السخرة أو ما شابهها قد وصل عددهم إلى المليون.

أما عدد المتوفين الحقيقى، فهو أكبر بكثير من العدد الرسمى (٢٦٨). إذا كانت مقبرة دير سنيد تضم ١٩٢ رفاتاً،

فإن أكبر مقبرة توجد عند إم كلخة وهى تقاطع السكة الحديد القادم من مصر والقدس ويافا. وهناك مقبرة أخرى فى باب الرحمة فى القدس، وعند محطة سكة حديد طولكرم وفى شاطىء الكرمل فى حيفا. وفى مقبرة اللد وحدها يرقد رفات ٩٦٦ عاملاً مصرياً، عديم الاسم والهوية والأصل. وفى اللطرون فى الطريق إلى القدس من يافا يرقد رفات، ٦٨ عاملاً، وعليها نصب تذكارى، لكن الاسرائيليين أزالوه بعد حرب ١٩٦٧.

لقد قام الباحث الإسرائيلى أمرام شاير، اثناء بحثه فى تاريخ لورنس العرب، بالبحث عن مواقع مقابر العمال المصريين فوجد أن معظمها أزيل واندثر، لان النصب، حتى لو أقيمت، لا تعدو عموداً من الحجر ولا تشير إلى مواقع القبور أو اسماء المتوفين.

وحسب وثائق «هيئة مقابر الحرب» البريطانية فإن المصريين دفنوا فى ١٧ موقعاً. وعدد المتوفين لا يقل عن ٢,٢٠٠ شخص. وهذا أقل تقدير.

أين الحكومة المصرية من كل هذا؟ لقد عارضت الحكومة السلطات البريطانية آنذاك فى تجنيد العمال بالقوة والاستيلاء على عشرات الآلاف من الجمال والخيل والحمير، ولكنها لم تعلن عن ذلك فى الصحافة.

وجاء ذكر اعتراض الحكومة فى تقرير اللورد الفرد ملنر وعنوانه: «تقرير البعثة الخاصة لمصر عام ١٩٢١». وعند عودة باقى العمال، واكتشاف آلاف العائلات أن أولادهم قد قضوا نحبهم فى خدمة الامبراطورية البريطانية، ثار المصريون، واضطرت بريطانيا إلى إعلان الأحكام العرفية وحل البرلمان وفرض الرقابة على الصحافة. كل هذا أدى، من بين المظالم الأخرى، إلى ثورة ١٩١٩، التى قادها سعد زغلول، قائد الثورة وعلى إثر ذلك، فى سعد زغلول إلى سيشل، وأتت بريطانيا بضابط لحكم مصر، ما هو إلا قائد الجيش البريطانى الذى استخدمت قواته جيشاً آخر من عمال السخرة، وهو اللورد اللنبى. وقد سعت الحكومة المصرية لمعرفة المزيد عن مصير العمال المصريين المفقودين. لكن هيئة مقابر الحرب رفضت اعطاء الحكومة قوائم باسماء المتوفين، ربما لأنها لم تكترث حتى بتسجيل اسمائهم، لكن الأهم أنها رفضت اعطائهم منحاً أو معاشات لعائلاتهم، وهذا هو السبب العملى فى عدم تزويد مصر بسجلات الأسماء. وهناك سبب آخر، لم ترغب بريطانيا فى عقد المقارنة الفاضحة بين المعاملة التى يتلقاها جندى بريطانى سقط فى المعركة، من قبر عليه شاهد باسمه ومعلومات عنه فى حدائق ترعاها بريطانيا إلى اليوم ومعاش لأسرته سارى المفعول حتى وفاة والديه أو زوجته، وعامل مصرى سقط فى نفس المعركة، وليس له قبر ولا شاهد ولا ذكر ولا معاش.

أما آن الآوان للاقتصاص من بريطانيا عن هذه الوحشية؟ أليس هذا خرقاً لأبسط حقوق الإنسان التى تتشدق بها بريطانيا؟ ألا يقع الواجب على الحكومة اليوم أن تكرم هؤلاء وترغم بريطانيا على الاعتراف بدورهم معنوياً ومادياً؟ ■

قدام البحر

شعر
عماد غزالى

من سنوات
عرف البحر صبانا
قلت :
سأصل هناك سريعا
وأحادثك ،
ذهبت إليه،
تواجهنا
أياما أربعة
.. ..
كنت خجولا
والعرى الكونى
يفض بكارة أيامى .
الهاتف لم ينطق أبداً
والساعات
تدلت كالحبل المعقوف
ودرت حواليه
ثرثرت كثيرا
وحكيت حكايتنا
للرجل الجالس قدامى
نظارته السوداء
مرايا للبحر
وجوه تأتى وتروح

وأنت - كما أنت - هناك
والهاتف لا ينطق .
.. ..
عدت من البحر
النظارات السوداء
على وجهى
وصبانا
وارته الموجة
أنت أمام البحر الآن
نرجيلة أيامى بين
شفاهك
فيما أجلس وحدى
- كالعادة -
خاصمت البحر
وخاصمنى
حتى إذ لاقيتك
لم يدر الغفران بخاطره
فتخاصرنا حينا
والرقصة خانتها الأنغام
ووجهانا
حملا توقيع البحر

الشيخان الشقيقان

بقلم
السفير: ممدوح عبد الرازق

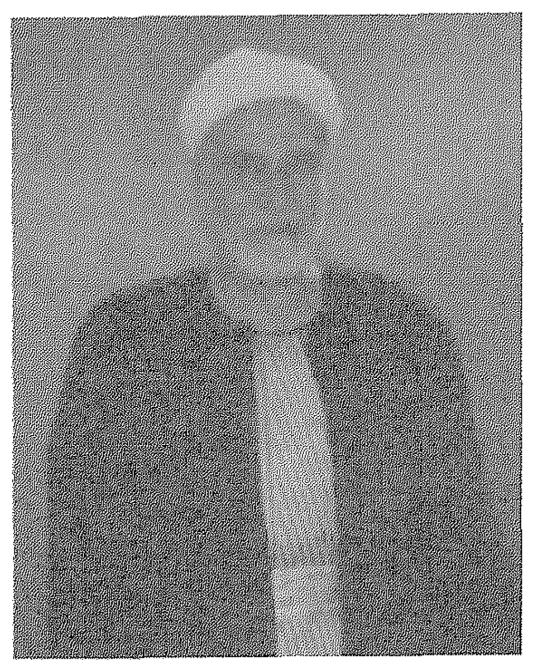
ولو اتسع المجال لأضفت إلى العنوان «بالروح» فوق أنهما شقيقان بالدم، وإلا لما كان للكتابة عنهما مجتمعين وجه ولأفردنا لكل واحد منهما مقالا، وهو ما جرى عليه العرف حتى اليوم فى ذكر الشيخين مصطفى وعلى عبدالرازق.

أما الذى أهلنى للتصدى لمثل هذا الحديث، الذى أشهد أنه لا يلبث أن يتجدد كلما طال العهد بانتقال صاحبيه إلى الرفيق الأعلى، فهو أننى ولدت لمصطفى وعشت فى كنفه إلى أن توفى، رحمة الله عليه فى الخامس عشر من فبراير ١٩٤٧، فكفلنى وأخوتى وأخواتى من بعده عمنا على عبدالرازق طيب الله ثراه، وكنت وقتها صبيا لم يجاوز الرابعة عشرة من العمر إلا بشهور قليلة.

ولا أزال أذكر إلى اليوم كيف انهار عمنا على عبدالرازق إلى جوار فراش شقيقه حينما أبلغ بنبأ وفاته وحضر إلى دارنا على عجل، وكانت صورته لدينا حتى تلك اللحظة أنه قادر على أن لا يظهر عواطفه وانفعالاته فى العلن وإلا لكان أظهرها يوم غرق ابنه البكر فى النيل قبل ذلك بسنوات ولخانه تجلده وهو يستقبل جثمانه بعد أن جرفه التيار بعيدا فلم يظهر إلا بعد الحادث بأيام وفى موقع يبعد عن قريتنا إلى الشمال بأميال.



الشيخ على عبد الرازق



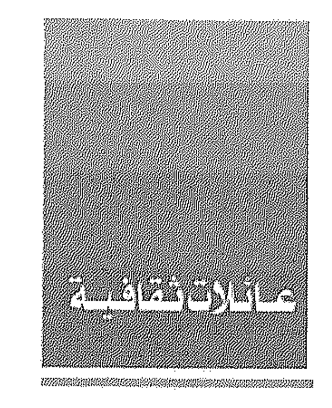
الشيخ مصطفى عبد الرازق

ثم تكرر المشهد أمامى مرة أخرى فى حفل التأبين الذى أقيم على ما أذكر بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة، إذ وقف على عبدالرازق ليشكر المتحدثين باسم الأسرة إلا أن التأثر غلبه فلم يستطع أن ينطق بأكثر من كلمتى «أخى شقيق روحى» ثم احتبس صوته، وكانت هذه الكلمات عندى أبلغ فى التعبير عما يعتمل داخله من كل ما كان يمكن أن يقوله لو استطاع أن يغالب تأثره ويكمل الكلام.

وما كان جديدا علينا، أهل بيت مصطفى وأهل بيت على ونحن بعد فى سن مبكرة أن نلحظ بين الشقيقين علاقة خاصة ترقى إلى مراتب الصداقة فى أسمى صورها، وما كان غائبا علينا أيضا أن هذه الصورة من الصداقة بين الأشقاء تكررت من قبل بين عمينا حسين ومحمود وكلاهما يسبق مصطفى وعلى فى السن مباشرة، وكلاهما كان من خريجى مدرسة الحقوق العليا فى ذلك الوقت مثلما تجمع الدراسة بالأزهر بين مصطفى وعلى.

ولست أريد أن أثقل على القارئ بتتبع جذور النشأة إلى أبعد مما يحتمله السياق وإلا لتوقفت عند تأثير البيئة العائلية التى نشأ فيها الشيخان ودور أبيهما وأمهما فى تهيئة هذه البيئة التربوية والتعليمية التى غرست فى هؤلاء الأشقاء روح الفريق وجعلتهم أصدقاء فوق أنهم أخوة.

هذه الروح التى تجعلنى أقطع بأنه إذا كان التاريخ قد شاء إلا أن يحتفظ بذكرى أطول لاثنين منهما، فإن ذلك لا يجب أن يغفل حقيقة أنه لولا مؤازرة الآخرين بل وتضحياتهم ربما لما أتيح لمصطفى وعلى أن يكملا تعليمهما بالخارج بل ولا أن يلعبا الدور الذى



لعباه فى الحركة الاجتماعية والإصلاحية والثقافية التى شهدتها مصر فى النصف الأول من القرن الماضى.

أما أن الأخوة كانوا يعملون كفريق أمرهم شورى بينهم، منذ وفاة أبيهم عام ١٩٠٧ فلم أجد فى تصويره أفضل مما خطه مصطفى عبدالرازق فى مذكراته الخاصة حول موضوع عودته لاستكمال دراسته بأوروبا، وكان قد عاد إلى مصر فى إجازة إذ يكتب بتاريخ ٢٨ سبتمبر ١٩١٢.

«رجعت مع أخوتى إلى منزلنا نصف الليل فاجتمعنا فى الحجرة التى ينام فيها أخواى على وإسماعيل وجعلنا نتحدث فى ذلك الموضوع الذى كررنا الحديث فيه على غير جدوى موضوع عودتى إلى ليون لتتميم دراستى.

وقد أخذوا يثبتون لى أن لا معنى لهذا السفر وأنه مضيعة لشطر من العمر، وفهمت من أعراض كلامهم أنهم يعدون رغبتى فى السفر نوعا من التشهى للذات أوروبا، وأننى أطيل أيام بقائى هناك فرارا من تكاليف الحياة العملية.

وإنى لمقتنع برجحان الفائدة من سفرى على ما يكون من مبادرتى بالبقاء هنا، ولكن الجماعة لا يريدون أن يقتنعوا.

وقد قلت لهم أخيرا: إنكم لو قررتم أن لا أسافر استبدادا بالأمر أو شعورا بضرورة وجودى فى مصر لمصلحة العائلة لكان فى المسألة موضع لتضحية أقدمها على وجه ما، أما محاولة إقناعى بأن مصلحتى أنا هى التى تتطلب ذلك فهى أضعف الوسائل لما تريدون».

ولا تمضى أيام إلا ونجده يدون فى مذكراته بتاريخ أول أكتوبر من العام نفسه: «عزمت على السفر إلى أوروبا بإذن الله يوم ٧ من هذا الشهر وسيسافر معى أخى على.

صممت على السفر بعد أن كان سفرى موضعا لمناقشة كادت تيئسنى منه لأن أخوتى يرونه غير لازم بل وفيهم من ينكر فائدته لى.

كنت أكره أن أقطع دراستى قبل تمامها وكنت أخشى أن تبقى من ذلك حسرة فى نفسى، فلما تقرر سفرى ورضى به أخوتى لم أشعر بلذة العودة إلى تتميم مسعاى وحدها ولكننى صرت أحس بأننى أمد فى حياتى الدراسية ومجال الحياة العملية يحتاج إلىَّ.

فمن الحق علىَّ أن أضاعف من نشاطى وأعمل على جعل فائدتى من رحلتى متناسبة مع ما أضحية فى سبيل عودتى إلى أوروبا.

فأنا أشعر بثقل الواجب فى ثنايا لذتى بأن سيرى إلى أمانىَّ زال ما كان يهدده من انحراف».

***

أما عن العلاقة الخاصة بين على ومصطفى داخل هذا الإطار الأخوى المتماسك فلاشك أنه من عوامل توثقها انتماء الاثنين إبان دراستهما بالأزهر إلى مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

وقد كان انتماء مصطفى عن طريق

التقائه بالأستاذ الإمام وجها لوجه ووقوعه في دائرة تلك الجاذبية الروحانية التى كان يرى أن أستاذه يتمتع بها وكان يتمتع بها قبله السيد جمال الدين الأفغانى شأن العلماء الذين يحبون العلم لذاته.

أما على فقد كان انتماؤه عن طريق التأثر عن البعد بروح الأستاذ الإمام وتشربه لمبادئه وآرائه الإصلاحية فهو قد كان يصغر شقيقه بسنوات أربع ولم يتسن له بحكم سنه أن يجلس إلى الأستاذ الإمام فى مجالس أبيه مثل شقيقه الأكبر أو يحضر الدروس التى كان يلقيها الإمام بالأزهر.

وربما كان فيما كتبه مصطفى فى مذكراته بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩١٥ ما يوضح أثر هذا البعد الأزهرى فى تذكية روح التقارب بين الشقيقين إذ يقول:

«خلع أخى على صبح اليوم لبسة الأفندية وعاد إلى لباس الشيوخ، وأرسل لحيته بعدما كان حلقها فى إنجلترا وظل يحلقها بعد مجيئه إلى مصر.

ولقد كان أناس كثيرون يعيبون على عليّ رغبته عن لباس زملائه الأزهريين ويخشون أن يوجد ذلك وحشة بينهم وبينه فيذهب ما يرجى من نفعه لهم وعمله فيهم.

وكنت أنا فى الحقيقة راضيا عن عمل أخى فى تغيير ملبسه لعلمى بما فى ثياب الشيوخ من المعايب وقلة المعونة على النشاط.

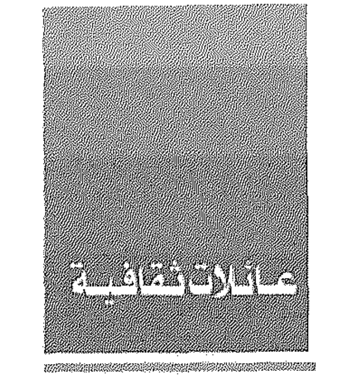
ولكننى وجدت اليوم شيئا من السرور حينما رأيت عمامة على إلى جانب عمامتى لأن والدنا رحمة الله عليه كان يريد أن يجعل بين أولاده شيخين يمثلان التقاليد القديمة المتوارثة إزاء العنصر الجديد حتى يبقى لبيتنا مظهر قدمه وتدينه ويسرنى أن نحقق رغبة ذلك الأب العزيز».

ورغم أن ظروف السفر والدراسة فى الخارج أدت إلى تباعد بين الشقيقين مكانيا وثقافيا، باعتبار أن أحدهما درس فى فرنسا والآخر فى إنجلترا إلا أن الذى بين يدى من أثر مكتوب يكاد يثبت أنه رغم المسحة التى يتركها عادة التعرض لتأثير بيئات ثقافية متباينة على سلوكيات الأشخاص ومنازعهم الفكرية فإن الشقيقين لم تزدهم سنوات الاغتراب إلا تقاربا روحيا وفكريا عبر عنه مصطفى عبدالرازق أفضل تعبير فيما وجدته مدونا بمذكراته بتاريخ ١٣ أبريل ١٩١٤ وكان وقتها نزيل مصحة خارج ليون إثر إصابته بمرض صدرى وحضر شقيقه على من إنجلترا ليعوده فيها فهو يقول:

«حينما يكون معى أخى على نصرف وقتنا فى الحديث والمزاح ولا نستطيع أن يخلو كل واحد منا لحظة إلى عمل خاص، أعنى أننا نريد أن نجعل كل حركة وسكون شركة بيننا ما دمنا معا، لهذا أترك ما كان بيدى من الكتب أقرأه وأكاد لا أجد فرصة حتى لمطالعة جريدة.

وأحسب ذلك من قوة العاطفة الأخوية فينا واتفاقنا فى كثر من وجوه الإحساس واختلافنا فى نزعات طبيعية يحفظ التوازن بيننا ويجعل فى مجموع قوانا ومشاعرنا انسجاما من غير اتحاد فى عناصرها ولا تنافر.

أتممت مع أخى المقال الذى أشرت إليه فى صحيفة أمس (فى رثاء المرحوم فتحى باشا زغلول) ويخيل إلينا أنه مقال حسن، وهو فى الحقيقة يعلو على متوسط



ما يكتب عادة في الرثاء والطريقة التي سلكناها في كتابة تلك الجملة حيث كنا نفكر معا ونختار الألفاظ والمعاني معا، مما تدل على ما أسلفته من تقارب الذوق العقلي بين أخي وبيني.

فإنني لا أستطيع أن أشارك كثيرين على هذا النمط في التفكير والبيان مهما كان شريكي ذكيا كفؤا، وليس هذا التشارك عاديا في الناس».

لم يكن إذن ما بين الشقيقين توحد في الذاتية وتطابق في الشخصية بكل مقوماتها بقدر ما كان تكاملا بين ذاتيتين مستقلتين لكل منها مقوماتها ومنهجها، وإن اتفقتا في كثير من المبادئ والمثل والأفكار.

ونعود مرة أخرى إلى ما دونه مصطفى في مذكراته إذ يتبين منها أنه كان على بينة من نواحي الاختلاف في الشخصية بينه وبين شقيقه فهو يكتب بتاريخ ٢٨ مايو ١٩١٤:

«قرأت في عدد من الجريدة وصلني اليوم رسالة لأخي علي يحي بها الدكتور طه حسين بمناسبة نجاحه في الجامعة وهي حسنة الأسلوب مختارة العبارة جيدة المعنى.

وقد تنبهت بهذه المناسبة إلى أن أخي يكتب دائما ما يكتبه في الجرائد بتوقيعه الصريح، أما أنا فأرمز إلى اسمي أو اختار لي اسما مستعارا وذلك يدل على ما في فطرة علي من الجراءة وما في غريزتي من التهيب».

وأستأذن القارئ في أن أقف وقفة عند تهيب مصطفى هذا الذي يشير في مواقع كثيرة من مذكراته إلى أنه يعده نقصا عليه أن يعمل على تلافيه من ضمن جهوده لتهذيب النفس وتلافي عيوبها.

فهو يكتب في مذكراته بتاريخ ٤ سبتمبر ١٩١٢ ما قد يلقي الضوء على أبعاد هذا التهيب وجذوره في أعماق النفس اللوامة التي اعتادت محاسبة الضمير لها عند نهاية كل يوم حسابا صارما.

وكان وقتها يمضي أجازته بمصر وتصادف وجود زوجة زميله في التدريس بجامعة ليون الأستاذ فييت بمصر وأرادت أن تزور الجامعة التي درس بها مصطفى فدبر لها زيارة للأزهر كان من نتيجتها ما دونه على الوجه الآتي:

«يظهر أن خروجي وأخي علي مع مدام فييت وصاحبتها حين ذهبنا إلى الأزهر قد استرعى أنظار كثير من الناس وحرك أرسلتهم بالنقد، وتناقل الأزهريون فيما بينهم هذا الحديث ونقل إلينا عنهم من وجوه متعددة.

ومع أنني لا أجد في الأمر ما يجدون من دواعي الاستنكار فإنني شعرت بشئ من التأثر أحلله في نفسي فأراه يرجع إلى التألم من التعرض لذم الجمهور فيما له مساس بالآداب المحترمة بينهم.

كلا، لم أحسن التعبير ما في نفسي، فإن أكثر ما أشعر به يرجع إلى رقة يبعثها الإشفاق من إيلام الناس في إحساسهم الديني أو المقدس عندهم تقديس الدين.

وعلى الحالين، فإن ضعفى أمام كلام الناس فى عمل لا أنظر إليه كما ينظرون دليل على أن حظى من الرسوخ فى مبادئى يحتاج إلى تمحيص فى ميدان العمل بتلك المبادئ.

أنا من الداعين إلى إصلاح شأن المرأة عندنا، المعتقدين بأن آراءنا وعاداتنا فيما يتعلق بالنساء تحول دون كل تقدم نريد أن نصل بالأمة إليه.

ومع شيوع هذه الدعوة بين معظم الشباب المصرى المتعلم فإن كل حركة إلى تحقيق هذه الأمانى تلقى من الناس ما تلقى البدع، لأن دعوة الإصلاح لاتزال بيننا أضعف من أن تغلب الناس على تهيبهم لمس القديم».

بل نجده يعود ليصور الاختلاف فى درجة الإقدام على الفعل بينه وبين علىّ بعد أن عاد الشقيقان إلى مصر وقد اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ فيكتب بتاريخ ١١ فبراير ١٩١٥ من مسقط رأسيهما بأبو جرج:

«سافر على إلى مصر بعد ظهر اليوم ليتولى بنفسه العمل فى مسألة (الجريدة) بعد أن كان فى أول الأمر يعدنى أنا لهذا المركز ولما يئس من تحريك رغبتى قويت فى نفسه الفكرة وتحفز لها بجد حتى صار يختار العاملين معه ويعد لكل عامل عمله مصمما العزيمة على أن يشتغل بالإدارة أو بالتحرير بصفة رسمية. وقد أعجبتنى من أخى تلك الطريقة فى المضى إلى رغائبه مسرعا غير معط للنظر الفكرى إلا بمقدار ما يرمى السائر بنظره إلى الجهة التى يتوخاها.

ولو كنت مكانه لاحتاج انعقاد عزيمتى بمثل ما صمم إلى إسراف فى التدبر يذهب بحرارة الهمة الأولى فى جدتها ويضيع بعض الزمن».

وقد يكون مما تكتمل به الصورة أن نورد تقدير مصطفى لموقع علىّ عبدالرازق فى الإطار الأوسع للأشقاء مجتمعين كما جاء فى مذكراته بتاريخ ٣١ ديسمبر ١٩١٤ حيث يقول:

«وصل أخى علىّ مغرب اليوم من غير أن يؤذننا بحضوره فلم ينتظره أحد فى المحطة ولم ندر إلا وهو بيننا، على أننا كنا نقدر مجيئه فى هذا النهار.

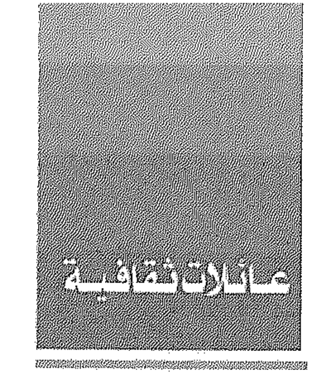
جمعيتنا محتاجة إلى ما فى على من رزانة وحسن تصرف فى شئون الحياة فموضعه بيننا موضع عامل ذى أثر.

نحن صنوف من الطبائع والميول ويخيل إلىّ أن تمام الانسجام يحتاج إلى وجود علىّ فى مجموعتنا يكمل به عنصر لا يستغنى عنه بغيره.

وكذلك أحس الليلة براحة وطيب نفس، وأرجو أن يتهيأ لنا حظ جديد من السعادة العائلية باعتبارنا مجموعا عائليا».

***

ولأننى أخشى أن يمضى بنا سياق الحديث حتى يضيق الوقت وتفرغ السطور فسوف أحاول أن أجيب الآن على تساؤل يدور بأذهان الكثيرين إذا أتى ذكر الشيخين، ألا وهو: ما السبب فيما يبدو كسمة مشتركة بينهما من ندرة آثارهما المكتوبة إذا قورنا بكثيرين من أبناء جيلهم من المفكرين والمصلحين. وفى تقديرى أن السبب ليس واحدا بل أسباب، بعضها يتعلق بما أسلفنا من انتمائهما القوى إلى أسرة مترابطة لها تقاليدها المتوارثة ولها



دورها السياسى والاجتماعى فى الريف والحضر والتزام أبنائها بما يفرضه هذا الدور من اعتبارات قد تتعارض أحيانا مع منازعهم وآرائهم الفردية.

وليس السبب الآخر ببعيد عن هذا الالتزام العائلى، فتجربة على عبدالرازق عندما نشر كتابه « الإسلام وأصول الحكم» ولم يكن وقتها قد بلغ الثلاثين من عمره، قد أثبتت فى وقت مبكر أن تداعيات نشر آراء جديدة فى مجتمع لم يكن مستعدا بعد لتقبل التجديد لا يمكن أن تقف بسبب الانتماء الأسرى والحزبى لصاحبها، عند حدود قضايا الفكر وحرية الرأى بل لابد من مضاعفات سياسية أدت إلى حالة الكتاب إلى نشوب أزمة وزارية انتهت بسقوط الحكومة القائمة وباقى القصة معروف للقراء.

وربما كانت تجربة مصطفى عبدالرازق ذاته أسبق على تجربة شقيقه فى مواجهة المناخ السياسى الذى كان سائدا وقت عودته إلى مصر عام ١٩١٤ فنجده يسجل بمذكراته بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٩١٤:

«كنت بالأمس أتحدث فى الشئون السياسية الحاضرة مع على باشا شعراوى وطلعت بك حرب وأخى حسن، فقال لى الأول: خفف من حدة لهجتك ويحسن بك أن تسافر إلى البلد وتقضى هذه الأيام فى الريف.

وسمعت اليوم من طلعت بك وأخى حسن أنهما كانا عند الأمير حسين كامل فذكرنى مرارا بذكر حسن وأشار إلى أننى أتطرف فى القول.

ومن العجيب أننى أبوح بآرائى السياسية المتطرفة - إن صح أن لى آراء من هذا الطراز - بين من لا تعرض لى شبهة فيهم.

فياليت شعرى هل فسد الناس جميعا فى هذا البلد؟».

إلا أنه لابد أن نكمل للإنصاف أن ذلك مجرد جانب من الإجابة على السؤال والجانب الآخر يتعلق بما إذا كانت ندرة الأثر المكتوب تعنى التوقف أو الإحجام جملة عن المشاركة فى حركات الإصلاح السياسى والثقافى والاجتماعى التى كانت تشهدها مصر فى النصف الأول من القرن الماضى؟.

والواقع يشهد أنه على العكس فإن الاستغراق فى كل نواحى هذا النشاط كان بالنسبة لمصطفى عبدالرازق عائقا عن أن يفرغ نفسه ولو لدقائق أحيانا ليدون مذكراته اليومية التى اعتاد أن يخطها فى أواخر كل يوم بانتظام منذ عام ١٩٠٩.

فإذا أضفنا إلى ذلك نظرته الخاصة المدققة إلى الكتابة ووظيفتها والتى أتركه يعبر عنها بقلمه فيما دونه بمذكراته بتاريخ ١٤ أبريل ١٩١٤ حيث يقول:

«أخاف أن يغلب على أسلوبى الكتابى نزوع جماعة اللفظيين بحيث تكون بهجة ما أكتبه لفظية أكثر مما هى معنوية وهذا العيب الكتابى شائع عند قومنا حتى لتجد بين الأذكياء منا من يرى قيمة البلاغة كلها فى اختيار الألفاظ وكنت أنا نفسى فى حداثتى أجرى بالرغم عنى فى هذا التيار،

أنظر إلى ديباجة القول من قبل أن أمتحن معانيه ثم ارتقى ذوقى الإنشائى قليلا فصرت أشعر بأن الجمال اللفظى ليس إلا زينة لحسن المعانى ودخل فى أمانى العلمية أن أعدل ذوق قومى من هذه الجهة.

شعرت كما قلت بأن ما نفهمه من معنى البلاغة ليس صحيحا ولكننى أشفق من أن يكون للرأى السائد عندنا أثر خفى فى ذوقى ولهذا أريد أن أراعى من نفسى هذه النزعة وأعنى بتهذيبها، وسآخذ بذلك فى هذه الصحائف».

والحق إنك لا تجد تجمعا من التجمعات الفكرية أو التعليمية أو الإصلاحية مما يعرف الآن بالجمعيات الأهلية أو غير الحكومية إلا وكان مصطفى عبدالرازق شريكا فيه، حتى أنه كان يتلقى وهو بعد يدرس بفرنسا، من أصدقائه فى مصر دعوات لقبول المشاركة فى مثل هذا النشاط عند عودته، ومثال ذلك ما يدونه بمذكراته بتاريخ ٢٥ فبراير ١٩١٤، وكان وقتها مازال بليون:

«وصلنى رقيم من هيكل وكامل حسين وطه حسين ومنصور فهمى ومحمود عزمى يبلغوننى فيه أنهم اجتمعوا مرتين للمفاوضة فى إنشاء مجلة علمية وكنت أنا أول من فكروا فيه للاشتراك معهم ويسألوننى رأىّ.

كتبت إليهم شاكرا لهم تفكيرهم فىّ عند اجتماعهم لعمل جليل هو من أكبر أمانىّ وقلت لهم أننى أعرفكم أفرادا ولى فيكم ملء الثقة فإن وثقتم من أنفسكم جماعة فإنى معكم».

ولا يأت عام ١٩١٨ أى بعد سنوات أربع من عودة مصطفى عبدالرازق من فرنسا إلا ونجده يدون فى مذكراته بتاريخ يونيه من ذلك العام:

«يقول بعض أصدقائى عنى أننى برزخ بين رجال الدين وبين الناشئة الحديثة وعسى أن أحقق بقدر ما أضحيه من ذاتى صلة بين القديم والحديث تمحصهما جميعا حتى يبقى ما هو خير للأمة فى رقيها المنشود».

وأعتقد أننى لست بحاجة لأن أعيد الحديث عن صالون أولاد عبدالرازق بحى عابدين ودوره كندوة أدبية وثقافية وسياسية أمدت النهضة المصرية فى النصف الأول من هذا القرن بروافد من الحيوية والرقى والتجديد ولا كدور الشقيقين كقطبى الرحى فى تلك الندوة وإلا لاحتجت إلى أضعاف هذه الصفحات.

لم يبق لى إلا أن أضيف أنه بالنسبة لعلى عبدالرازق الذى قال كلمته فى وقت مبكر من حياته وتحمل فى سبيلها ما تحمل فلقد شاء الله إلا أن يمد فى حياته حتى رأى العروش تتهاوى فى مصر وبعض أقطار العالم الإسلامى وتقوم محلها نظما جمهورية لا تشبه من قريب أو من بعيد نظام الخلافة، حتى وإن أضيف إلى بعضها لقب الإسلامية ولم ترتفع لقيامها أصوات احتجاج ولا عقدت محاكمات ولا أتهم أحد فى دينه.

وكأنى بالشيخ الحكيم يتمثل وقتها فيما بينه وبين نفسه بقول الشاعر العربى القديم:

نصحتكمو أمرى بمنعرج اللوى
فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد. ■

عقدة الخواجة .. (٢/٢)
عنـد المصـــريـين

بقلم
د. جلال أميـن

من المفيد أن نذكر أنفسنا بأن عقدة الخواجة عند المصريين (أى شعورهم بالدونية إزاء الأوربى أو الأمريكى) ليست شيئا عريقا فى القدم، بل ظاهرة لا ترجع أكثر كثيرا من مائة عام.
فـأنا لا أشك مـثـلا فى أن جـدى لم يكن يعـانى من هذه العـقـدة على الإطلاق، بل ولا حـتى أمى. نعم ، لابد أن المرض قـد أصـاب أبى بدرجـة أو بأخرى، وأنه انـتقل منه إلى وإلى بقـيـة إخـوتى، بل لعله انـتـقل أيضـا منى إلى أولادى . ولكن القصة تحتاج إلى بعض التفصيل .

لقـد ولد جـدى لأبى فى منتـصف القـرن التـاسـع عـشـر، أى قـبل بداية الاحتلال الانجليزى لمصر بنحو ثلث قرن. كانت واقعة الاحتلال صدمة كبيرة بالطبع له ولجـيله من المصـريين، إذ لم يصـدقـوا أن هـؤلاء «الكفـرة» يمكن بهـذه الســهـولة أن يوطدوا أقـدامــهـم فى بلد مسلم، وأن يفرضـوا إرادتهم على شعب يؤمن بالله ورسوله، ويدين بالولاء والطاعة للسلطان المسلم فى اسـتـانبول . لم يجد جـدى تفـسـيـرا لما حـدث إلا خـروج المصـريين على قـواعـد الدين الصـحـيح وتنكرهم لما فرضـه الله عليـهم من واجبات ، فـجاء عـقـاب الله لهم فى صـورة تمكين

الانجليز منهم. كان الأمر فى نظر جدى سهلا وواضحا ولا يقبل المناقشة. فعندما تجرأ أبى مرة وسأله «وهل هؤلاء الانجليز مطيعون لله حتى ينصرهم علينا ويمكن لهم فى بلادنا؟» زجره جدى ولم يجب .

ولكن من المؤكد أيضا أن جدى لم يفقد للحظة واحدة ثقته بأنه هو وقومه أفضل وأرقى من هؤلاء الخواجات الذين ، وإن كانت فى أيديهم البنادق والمدافع، لا يفضلوننا فى أى شئ آخر. بل إنه وقومه أسعد حظا من الانجليز إذ ولد هو وقومه مسلمين ولم يولد الانجليز كذلك.

ليس من الصعب تفسير هذه الثقة التامة بالنفس عند جدى. نعم، لقد كان لدى الانجليز القوة العسكرية وتوفرت لديهم السيطرة على مقدراتنا، كما أن مستوى معيشة الأوربيين كان أعلى بلا شك من مستوى معيشة المصريين، حتى فى أيام جدى، ولكن ما الذى شاهده جدى من مظاهر هذه القوة والسيطرة خلال حياته؟ وكم شهد من وسائل الراحة وبحبوحة العيش التى كان يتمتع بها الأجنبى؟ وما الذى رآه من آثارالتقدم العلمى والتكنولوجى ؟

لقد ظلت نسبة المصريين الذين يتصلون اتصالا مباشرا بالأجنبى، خلال الجزء الأكبر من حياة جدى، أى منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى قيام الحرب العالمية الأولى، ضئيلة للغاية، لا يمكن أن تكون أكبر من ٢٪ أو ٣٪ من إجمالى السكان، بالنظر إلى قلة عدد الأجانب الوافدين إلى مصر فى ذلك الوقت وتركزهم فى المدن الكبرى . طبعا كان للسياسة الاقتصادية التى فرضها الاحتلال الانجليزى على مصر آثار مهمة على حياة جميع المصريين ، ولكن هذا شئ والمعاينة المباشرة والاتصال الشخصى شئ آخر . نعم، كان جدى متعلما ولكن تعليمه ، مثل تعليم الغالبية الساحقة من المتعلمين المصريين فى ذلك الوقت، كان تعليما دينيا وأزهريا، وكان هذا يمنع جدى، كما كان يمنع أغلبية المصريين من التعرض لأى شك فى عقيدته أو نمط حياته .

أما عن التكنولوجيا ، فما الذى عرفه أو سمعه عنها جدى؟ إنه لم يسمع الراديو إلا عاما فى أواخر حياته ، ولم يعرف التليفون ولا رأى فى حياته فيلما سينمائيا، ولا كانت قراءة الصحف قد أصبحت عادة يومية، وقد عاش معظم حياته بدون مصباح كهربائى. وهو وإن كان ركب الترام فقد كان فى الجزء الأكبر

من حياته تراما يجره حصان، وكان ركوب القطار يعتبر فى حد ذاته حدثا خطيرا. وغنى عن البيان أن جدى لم يغادر مصر قط، فلم ير كيف يعيش الأجنبى فى بلاده، ولا قابل أحدا ممن كان يمكن أن يصف له ذلك .

ولكن بصرف النظر عن هذا كله، ما الذى كان يعرفه الأجنبى نفسه من كل هذا قبل وفاة جدى فى مطلع الثلاثينات من القرن العشرين ؟ لقد كان الكثير من وسائل الراحة ورغد العيش الشائعة الآن مجهولا للأجنبى نفسه. ومعظم ما كان معروفا منها كان استخدامه مقصورا على نسبة ضئيلة للغاية من الأجانب أنفسهم ، حتى فى داخل بلادهم . فمن أين كان يمكن أن تأتى عقدة الخواجة ؟

أمى وعقدة الخواجة!

كانت حال أمى - فيما يتعلق بعقدة الخواجة، قريبة جدا من حال جدى. كانت أمى امرأة «تقليدية» بمعنى الكلمة، لاتعرف عن الغرب إلا أقل القليل، ولم تتمتع بأكثر كثيرا مما تمتع به جدى من وسائل الراحة والترفيه. إنها لم تسافر غربا أو شمالا إلى أبعد من مدينة الاسكندرية، ولم تعرف من اللغات الأجنبية إلا ست أو سبع كلمات انجليزية كلها على وزن واحد (cat, rat, sat, fat) لم تكن تقولها إلا ضاحكة ومن باب السخرية بنفسها ولكن دون أن تشعر بأى نقص حقيقى بسبب ذلك.

إنى أستطيع أن أجزم بأنها مثل جدى لم تكن تشعر قط بأى شعور بالدونية إزاء الأجنبى، وإن كانت أيضا لم تشعر بأنها أفضل من الأجانب . فمثلا عندما تزوج أحد إخوتى الكبار من فتاة نمساوية وأتى بها إلى مصر لم ألاحظ من أمى أى شئ يدل لا على الشعور بأنها تفضل هذه المرأة الأوربية أو بأن هذه المرأة الأوربية أفضل منها. كانت فقط تعبر عن إشفاقها على هذه الفتاة القادمة من أوربا لتعيش فى مصر إذ اضطرت إلى الابتعاد عن أمها المقيمة بالنمسا، أو بالأحرى كانت أمى تشعر بالاشفاق على تلك الأم النمساوية التى سافرت ابنتها بعيدا عنها .

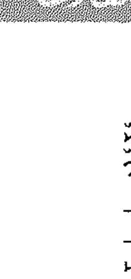
البرد والسمن البلدى

ربما كان الشيئان الوحيدان اللذان

كانا يعيبان الغرب فى نظر أمى هما: أولا البرد الشديد، من فرط الشكوى التى كانت تسمعها من ابنها الذى سافر للدراسة هناك، وثانيا عادة الأوربيين القليلين الذين صادفتهم فى مصر فى طهى الطعام بغير استخدام السمن البلدى الذى اعتادت هى استخدامه، مما كان ينتج عنه فى رأيها تدهور ملحوظ فى لذة الطعام الذى يتناوله الأجنبى، (أو «طعامته») بل وتدهور أيضا فى مستوى التغذية والصحة . فيما عدا هذين الأمرين أظن أن شعور أمى نحو الأوربيين أو الأجانب بصفة عامة لم يكن يختلف عما عبر عنه الراوى فى رواية الطيب صالح المشهورة (موسم الهجرة إلى الشمال) عندما عاد من أوربا إلى قريته السودانية وسأله أهل القرية عما إذا كان حال الأوربيين أفضل من حالنا، فكانت إجابته أنهم : «مثلنا تماما . مولودون ويموتون وفى الرحلة من المهد إلى اللحد يحلمون أحلاما بعضها يصدق وبعضها يخيب» .

عقدة الخواجة عند أبى

كان أبى، الذى عاش حتى منتصف القرن العشرين، معرضا لاهتزاز ثقته بنفسه بأكثر بكثير مما كان جدى معرضا له . لقد دخل الراديو بيته ، وكذلك الثلاجة الكهربائية (وإن كان دخولها بعد أن بلغ الستين من عمره) . وركب أبى الطائرة، (وإن كان هذا لم يحدث أكثر من مرتين وبعد أن بلغ الستين أيضا) . وقد رأى الانجليز والفرنسيين والهولنديين فى بلادهم ، ورأى بعينيه معنى أن يكون البلد صناعيا ، وإن كان هذا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية عندما كان هؤلاء جميعا مازالوا يدفعون ثمن الحرب ويعيدون بناء ما دمرته ، ولا يحصلون على بعض السلع إلا بالبطاقات . الأهم من ذلك أن نسبة المصريين الذين أصبحوا على اتصال مباشر بالأجنبى فى داخل مصر ، أو على الأقل بنمط حياة الأجنبى، كانت قد تضاعفت عدة مرات بين بداية القرن العشرين ومنتصفه . لم يكن هذا فقط بسبب الزيادة السريعة فى أعداد الأجانب المقيمين والعاملين فى مصر، بل وأيضا بسبب نمو الطبقة المتوسطة المصرية التى كان لديها أكثر من سبب للاتصال بالأجانب، فى البيع والشراء، وفى البنوك والشركات، وفى المدارس والجامعات، وفى النوادى الرياضية وأماكن الترفيه..



الخ وقد رأوا من الأجنبى فى كل هذا ما يبهر العين ويسحر القلب . رأوا طريقته فى عقد الصفقات ، وشاهدوا عاداته فى الجد واللهو. وإذ اقترن كل هذا بمستوى أعلى من المعيشة والقدرة على فرض إرادته على المصريين زاد الإعجاب والتقدير ، وإن اقترن بالغيظ والغضب المكبوت . بل لقد بلغ الأمر بأبى، وهو يصف مدرسا للغة العربية أعجب به وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، أن قال عنه فى كتابه (حياتى) بعد أن أثنى عليه ثناء جما، أن «تلاميذه كانوا يسمونه الشيخ الانجليزى ، لترفعه وحريته ، وصدق قوله وسعة فكره» .

التعليم وعقدة الخواجة

لابد أن نوع التعليم الذى تلقاه أبى بالمقارنة بماتلقاه جدى، كان له أثر بالغ العمق على شعوره نحو الأجنبى، مما ساهم بلا شك فى نمو عقدة الخواجة لديه . ولا يمكن أن يعفى جدى تماما من المسئولية عن ذلك . نعم لقد كان جدى محصنا حصانة شبه كاملة ضد الشعور بعقدة الخواجة، ولكن يبدو أن بعض الشكوك بدأت تعتريه فيما إذا كان ما تلقاه من تعليم هو أفضل أنواع التعليم لابنه أيضا. لابد أنه كان قد بدأ يسمح عن افتتاح مدارس حديثة تعلم ، إلى جانب أصول الدين وقواعد اللغة العربية وبعض الحساب، علوما «عصرية» قد تكون ثمة فائدة من الإلمام بها بما فى ذلك خدمة الدين نفسه . فإذا بجدى يسأل كل من يتوسم فيهم الحكمة وسداد الرأى عما إذا كان من الأفضل أن يرسل أبى إلى هذا النوع الجديد من المدارس أو يرسله إلى نفس ما تعلم فيه هو من معاهد. وحيث إنه سمع من هؤلاء كل الآراء المكنة فإنه أخذ يخرج أبى من أحد النوعين من المدارس ليلحقه بالنوع الآخر . ثم يعيده مرة أخرى إلى النوع الأول. وكان هذا يعنى، فضلا عن تخبط أبى واضطراب تعليمه فى سنواته الأولى اضطرابا شديدا ، اضطرار أبى إلى تغيير ملابسه المرة تلو المرة، من الزى الأزهرى من جبة وقفطان إلى الزى المدنى من قميص وبنطلون ،ثم بالعكس، مما أثار سخرية بعض رفاقه منه خاصة ممن كانوا يدرسون بالمدارس الحديثة، إذ رأوه فى أحد الأيام وقد خلع الزى الأوربى وارتدى

الجبة والقفطان وهو ما زال صبيا صغيرا. وقد تركت هذه السخرية ألما فى نفسه ، وربما كانت هذه هى بداية عقدة الخواجة لديه .

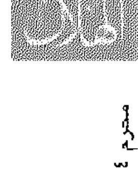
كانت هذه الصدمة الأولى تتعلق بشئ مادى بحت، وهو الزى، ولكن الأهم من ذلك، هو ما تعرض له أبى من صدمات «فكرية» بحتة . كان من أكبر هذه الصدمات اكتشافه أن من الممكن جدا أن يكون ما كتبه بعض المستشرقين «الخواجات» عن تاريخ الاسلام أفضل مما كتبه كثيرون من المؤرخين المسلمين . ويحكى أبى قصة هذه الصدمة الجديدة على النحو التالى :

«ويوما قابلت صديقى ، وجلسنا فى مقهى، وذهب الحديث فنونا إلى أن وجدته يقول إنه عثر على كتاب انجليزى قيم لمستشرق أمريكى اسمه ماكدولاند (واسم الكتاب Theology of Islam) .

وأنه قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام، قسم يتعلق بنظام الحكم فى الإسلام، وقسم فى تاريخ الفقه الإسلامى ، وقسم فى المذهب والعقائد الإسلامية ، وأخذ يطرى الكتاب ويحكى بعض آرائه فاستفزنى الموضوع وقلت : هل تستطيع الآن أن تذهب معى إلى مدرسة (برليتز) لأرتب دروسا لى فى الانجليزية؟ فقبل. وأقسمت أن أتعلم وأن أقرأ هذا الكتاب بلغته» .

مرت سنوات كثيرة على هذه الصدمات المتتالية ، ولابد أن أبى قد واجه بعد ذلك الكثير من الصدمات المماثلة ، ولا شك أنه حاول بقدر ما استطاع أن يتكيف معها . فهو يتعلم الانجليزية ولكن يبقى على ولائه واحترامه للغة العربية . ويستخدم المنهج العلمى فى بحث تاريخ الإسلام ولكن يبقى على إيمانه وإخلاصه لتعاليم دينه . ويقوم بتدريس الأدب العربى فى كلية الآداب ولكنه يخلع الزى الأزهرى مسايرة للمناخ العام فى هذه الجامعة الجديدة (جامعة فؤاد الأول أو القاهرة الآن) التى تتخذ الجامعات الأوربية مثالا وقدوة .

ولكن على الرغم من كل هذه المحاولات الدءوب للتكيف والمواءمة، لا أظن أن أبى قد استطاع أن يتخلص تماما من عقدة الخواجة . لقد دخلت الجرثومة فى جسمه فلم ينج منها مثلما نجا منها جدى ونجت منها أمى. وقد انتقلت العدوى منه إلى وإلى بقية إخوتى . ولعلها انتقلت أيضا إلى جيل أولادى ، ولكن هذه قصة أخرى . ■



عن مجمع اللغة العربية وغياب المرأة...

بقلم
وديع فلسطين

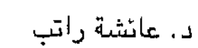
يواصل مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى اوائل الشهر الحالى مؤتمره السنوى الذى يشهده أعضاؤه الدائمون وأعضاؤه المراسلون من عرب ومستعربين للتداول فى موضوع المعاجم، وهو ما أوحى الىّ بأن أدير القسم الأول من هذا الحديث عن المجمع الذى بلغ الآن من العمر واحدا وسبعين عاما منذ انشائه فى عام ١٩٣٢.

هناك تعبير جديد خرجت به علينا منظمات الأمم المتحدة وهو «إعادة الهيكلة» وهو وإن انصرف الى ميدان الاقتصاد بما يقضى باعادة تشكيل مؤسساته والقواعد المنظمة لها تحقيقا لأنجع النتائج، الا أنه يصلح ايضا للنظر فى أوضاع الهيئات العلمية والثقافية لاكسابها مزيدا من الفاعلية والقدرة على أداء الرسالة المنوطة بها .

وليأذن لى أساتذتنا الكبار من أعضاء مجمع القاهرة - ولو بحكم زمالتى المتواضعة لهم كعضو مراسل فى مجمع دمشق وعضو مؤازر فى المجمع الأردنى - أن أسوق بعض المقترحات التى أعتقد أن من شأنها تعظيم قدرة المجمع على النهوض بالتبعات العلمية الجسام المسندة اليه فى ضوء نظرية «إعادة الهيكلة».

فعندما كان عدد السكان فى مصر ثلاثين مليونا أو نحو ذلك، رُئى أن يكون عدد الأعضاء المصريين الدائمين فى المجمع ثلاثين عضوا، وبقى هذا الوضع متجمدا الى يومنا الى هذا بعدما وصل عدد السكان الى ما يقرب من سبعين مليونا، فغدا العدد الحالى للمجمعيين غير متناسب مع عدد السكان مع تزايد عدد العلماء الذين تؤهلهم مكانتهم العلمية لدخول المجمع، ولكنهم يبقون مع ذلك





د. عائشة راتب



د.فرخندة حسن

خارجه بسبب هذا العدد المحدود من الأعضاء. وفى اعتقادى انه بات حتما تغيير قانون المجمع بحيث تتسع دائرته، وذلك بمضاعفة عدد اعضائه الحاليين نشدانا لضم الكفاءات التي مازالت شبه مطرودة من عضوية المجمع .

وحبذا أن ينص القانون الجديد على أن يكون شغل أى مكان يشغر في عضوية المجمع حجرا على نفس التخصص الذى كان يحمله العضو الراحل، بمعنى أنه اذا شغر مكان كان يشغله عالم فى الطب، اختير لخلافته عالم فى الطب، وهكذا يحل فيزيائى محل فيزيائى واستاذ لغة محل أستاذ لغة وهكذا، مراعاة لاستمرار التنوع فى الاختصاصات داخل المجمع، فلا يتغلب تخصص معين على تخصصات أخرى مطلوبة.

ومما يلاحظ أن المجمع بتشكيله الحالى يخلو من تخصصات لها أهميتها فى الحياة، وهى علوم الفضاء والذرة وعلوم البحار والصحافة والفنون المختلفة وعلوم الاتصالات وعلم النفس، وكلها علوم لايصح أن تبقى بمعزل عن المجمع .

وثمة ملاحظة تتعلق بغياب المرأة عن عضوية المجمع. لقد كان مجمع اللغة العربية بدمشق من أسبق المجامع الى فتح الباب أمام عضوية المرأة فانتخب استاذة التاريخ الدكتورة ليلى صباغ ضمن أعضائه العاملين كما اختار الأستاذة المصرية الدكتورة وفاء كامل فايد والسورية الدكتورة فاتن حجازى ضمن أعضائه المراسلين. ولم يتخلف المجمع العلمى العربى العراقى بدوره عن ضم المرأة الى عضويته، فاختار سيدة لتكون ضمن أعضائه العاملين .

أما مجمع القاهرة فمازالت أبوابه موصدة أمام المرأة، وعندما رشحت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد فى انتخاباته الأخيرة، لم تظفر بالنصاب القانونى الذى يؤهلها للعضوية مع أن فى مصر كثيرات تتوافر فيهن مؤهلات العضوية اذكر منهن الدكتورة عائشة راتب استاذة القانون والوزيرة والسفيرة السابقة والدكتورة فينيس كامل جودة وزيرة البحث العلمى السابقة والدكتورة هدى وصفى استاذة اللغة الفرنسية فى الجامعة والدكتورة فاطمة موسى استاذة اللغة الانجليزية بالجامعة والدكتورة فرخندة حسن أستاذة علم الجوامد بالجامعة الامريكية والدكتورة مديحة خطاب عميدة كلية

الطب بجامعة القاهرة والدكتورة أميرة مطر أستاذة علم الجمال بجامعة القاهرة وغيرهن.

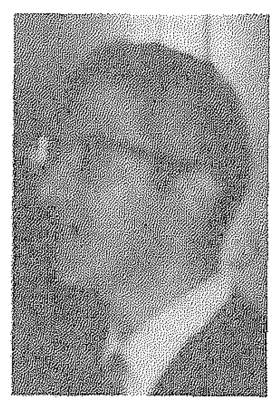
ومن المفارقات انه فى حين يمتنع على المرأة المصرية دخول المجمع بين أعضائه، فإن الجهاز الادارى للمجمع يضم نسبة كبيرة من السيدات .

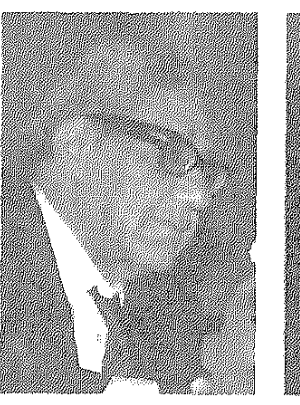
الشاعر خليل جرجس خليل

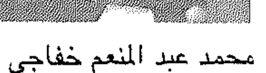
توفى فى الولايات المتحدة مؤخرا الشاعر المصرى الصعيدى خليل جرجس خليل عن ثمانية وثمانين عاما، فهو من مواليد ٨ نوفمبر ١٩١٥ وجاء مولده فى مدينة المنيا التى استكمل فيها دراسته الثانوية ثم نزح الى القاهرة فى الاربعينيات حيث عمل فى عدة صحف منها مجلة «الدنيا الجديدة» التى كان يحررها عبدالمنعم حسن. وقد عرفت الشاعر عندما اتصل بى فى عام ١٩٤٥ مبديا رغبته فى انشاء رابطة للأدباء، فرحبت بفكرته من حيث المبدأ ولاسيما عندما علمت منه ان الشاعر الدكتور ابراهيم ناجى (١٨٩٨ - ١٩٥٣) قد وافق على الانضمام اليها وانه يسعى الى ضم آخرين من أدباء تلك الفترة. وقد نجح فعلا فى عقد اول اجتماع للرابطة فى بيت متهالك فى شارع شبرا، واسفر الاجتماع عن انتخاب الدكتور ناجى رئيسا لرابطة الادباء وانتخابى وكيلا لها وانتخاب خليل سكرتيرا لها، وظل هذا التشكيل يحظى بثقة الاعضاء سنويا الى أن انفضت الرابطة فى عام ١٩٥٢. وشارك خليل بعد ذلك فى تأسيس رابطة الأدب الحديث بدعوة من محمد ناجى وهو شقيق ضرير للدكتور ابراهيم ناجى، واختير لرياستها الناقد مصطفى عبداللطيف السحرتى (١٩٠٢ - ١٩٨٣) وخلفه أستاذنا الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى اطال الله بقاءه .

وكان الشاعر خالد الجرنوسى قد أنشأ رابطة شعراء العروبة التى كانت تجتمع شهريا فى جمعية الشبان المسيحية، فلما توفى خلفه الشاعر عبدالله شمس الدين (١٩٢١ - ١٩٧٧) وآلت رياستها بعد وفاته الى خليل جرجس خليل الذى بقى يضطلع بهذه المهمة الى أن قرر الهجرة الى امريكا للحاق بأنجاله الذين سبقوه إلى هناك. أما عمله الدائم الذى استمر طويلا، فهو رياسته لتحرير مجلة «صوت الشرق» الهندية بعد وفاة محررها الأول أحمد قاسم جودة فى ١٧ فبراير ١٩٦٦ وحوّل هذه المجلة من نشرة للدعاية الهندية الى مجلة ادبية يكتب فيها كثيرون من الادباء والشعراء.

اصدر خليل ديوانه الأول عام ١٩٣٩ بعنوان «الصيدح» وفى عام ١٩٥٨ اصدر







خليل جرجس خليل — محمد عبد المنعم خفاجى

ديوانه الثانى ايام عشناها» بمقدمة للشاعر عزيز اباظة (١٩٩٨ - ١٩٧٣) وترجم ديوان شعر عن هانز كريستيان اندرسن بعنوان ملحمة الاسرار) - حكمة الله) وله ديوان من الشعر الأخلاقى والدينى عنوانه «محفليات العهد الجديد». وترجم «أقاصيص من الهند» نشرت بمقدمة لعباس محمود العقاد (١٩٨٩ - ١٩٧٤) ومسرحية تشيترا» التى ترجمها عن الشاعر رابندرانات طاغور .

كان خليل جرجس خليل يقيم فى جزيرة بدران بدوران شبرا، وهى منطقة ما من مرة زرتها الا خضت فى الاوحال حتى فى غير مواسم الامطار. ولهذا كنت من اكبر المحمسين له على الهجرة الى امريكا ولو تغييرا لهذه البيئة الكئيبة التى تكتنفه من كل جانب.

وعندما أصدر خليل ديوانه «أيام عشناها» كان قد حطم الاربعين من العمر، وعجب كيف سرقته الأيام فلم يحس بها وهى تنسل من حياته، فعبر عن ذلك فى قصيدة «وحى الأربعين» قائلا فى مطلعها :

الأربعون بلغتها بالله كيف بلغتها
أنا لست أذكر أننى صافيتها وأطقتها
ما كنت أنهى ساعة إلا حسبت المنتهى
وحمدت أنى ذاهب وعجبت أنى عشتها
هل فى الحياة مبرر للعيش؟ إنى ذقتها
سفر طويل والسبيل تروع ، كيف طويتها ؟
الأربعون بلغتها بالله كيف بلغتها ؟

ومما قاله فى هذه القصيرة الطويلة التى تذكرنا بلا أدريات الشاعر المهجرى إيليا أبى ماضى (١٨٨٩ - ١٩٥٧)

لى فى الحياة تجاربى ومتاعبى وبنون سبعه
يسرت خلقهمو باذن الله، هل أسطيع منعه؟

شدوا إلى عنقى فما من لقمة بد وجرعه
شحذوا قواى ووكدوا كدحى وأضحى الكدح شرعه
أنسوا إلى، وقد أنست بهم ، أأتركهم بلوعه؟.

إلى أن قال :

ما كنت استانى الردى إلا لدفع بنى دفعه

كان خليل ممن ينطبق عليهم قول الشاعر:

أشكو اليك عيالاً لست أحصرهم إلا بتثبيت عداد على الباب !

فأبناؤه السبعة أصبحوا ثمانية بعد مارزق بمولود جديد، فقلت له مداعبا : يا خليل، لقد انكسر البيت فى قصيدتك، ولكن المهم الا ينكسر البيت الذى تقيم فيه .

وكانما شاءت المقادير الاينكسر البيتان فقد فجع خليل فى ابنته منى التى وصلت إلى السنة النهائية فى كلية الهندسة عندما افترستها عجلات المترو، وجاء الوالد المكلوم يلملم أشلاءها

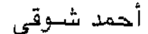
ومنذ هجرة خليل إلى أمريكا أنقطعت عنى أخباره إلا من نتف كنت أسمعها من بعض مراسليه أو من قصيدة يتيمة أو أثنتين نشرهما فى «الأهرام» ولكننى صادفته من نحو خمسة عشر عاماً فى أحد شوارع القاهرة، وكان بصحبة واحدة من بناته، ولم أصدق عينى تلقاء هذه المفاجأة : وسألته عن أحواله، فقال إنه الآن خبير فى الكمبيوتر - الذى يسميه المجمعيون بالحاسوب - ولم يعد لديه وقت لترف الشعر وقال إنه برغم تجاوزه سن العمل فى أمريكا، مازال يواصل الاشتغال فى تخصصه بعدماأتقن اللغة الإنجليزية . وقا إنه فى زيارة سريعة للقاهرة وسيعود فوراً إلى وطنه الجديد فودعته وتمنيت له الصحة والتوفيق .،

لقد توهم وهو فى الأربعين أن الردى له بالمرصاد، ومع ذلك مد فى عمره حتى أشرف على التسعين. ولابد هنا من أن أصحح ما قرأته مؤخراً من أن العقاد كان يطلق على خليل جرجس خليل عبارة « لوبيا فجل لوبيا » فالذى أعرفه من اتصالى بالعقاد وخليل أنه كان يعجب بشعره، بل جرت بينهما مطارحات فى مناسبات اجتماعية، كما أن العقاد كتب مقدمة للأقاصيص الهندية التى ترجمها خليل، كما أسلفت ثم أن صلة خليل بجميع المشتغلين بالأدب كانت صلة طيبة، ولا يذكره عارفوه إلا بكل الحب والإعزاز والتقدير..



وصية الشاعر نزار قباني


نزار قباني


أحمد شوقى

مع أن الشاعر نزار قبانى (١٩٢٣ - ١٩٩٨) قضى معظم عمره بعيداً عن دمشق حتى بعدما هجر وظائفه الدبلوماسية، وتوهم الناس أنه مطرود من وطنه سورية أو مهاجر منه، مرة إلى بيروت ومرة إلى القاهرة، وأخيراً إلى لندن حيث استقر بها بصورة دائمة فإن دمشق لم تغب أبداً عن حياته وخاطره، وقد حياها فى إحدى قصائدة واصفا اياها بانها « كنز أحلامى وفاتنتى ودعا هذه الحبيبة إلى أن تستلقى على ذراعه ولا تستوضح السببا وفى قصيدة أخرى قال عن دمشق :

هذى دمشق، وهذى الكأس والراح
أنى أحب، وبعض الحب ذباح

أنا الدمشقى، لو شرحتمو جسدى
لسال منه عناقيد وتفاح

ولو فتحتم شرايينى بمديتكم
سمعتم فى دمى أصوات من رحلوا

***

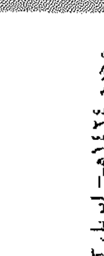
زراعة القلب تشفى بعض من عشقوا
وما لقلبى إذا أحببت جراح

ألا تزال بخير دار فاطمة
فالنهد مستنفر والكحل صداح

إن النبيذ هنا نار معطرة
فهل عيون نساء الشام أقداح ؟

مآذن الشام تبكى إذ تعانقنى
وللمآذن كالأشجار أرواح

وعندما تقرر إطلاق اسم نزار على أحد شوارع دمشق فى حى أبو رمانة فى منطقة المهاجرين بين شارعى أحمد شوقى والمهدى بن بر كة وصف نزار هذا الخبر



بأنه «هدية العمر، وهو أجمل بيت أمتلكه في تراب الجنة . فالسكنى في الجنة والسكنى في دمشق شئ واحد، الأولى تجرى من تحتها الأنهار، والثانية تجرى من تحتها القصائد والأشعار».. وفى الأسكندرية أيضاً أطلق اسم نزار على أحد شوارعها .

كان من الطبيعى إذن أن يكتب الشاعر وهو على فراش المرض في لندن وصية يتوق فيها إلى العودة بجثمانه إلى دمشق، وهى وصية وافانى بنصها الصديق الروائى السورى الدكتور عبد السلام العجيلى كما كتبها نزار بخط يده، وفيها يقول

« **لندن ٢ تشرين الثاني ١٩٩٧**

وصية

أنا الموقع أدناه الشاعر والكاتب العربي نزار توفيق قباني، أعلن وأنا علي سرير المرض في لندن عن رغبتي في أن ينقل جثماني بعد وفاتي إلي العاصمة السورية دمشق ، ويدفن فيها في مقبرة الأهل فأرجو من جميع إخوتي وأهلي تنفيذ هذه الرغبة التي أعتبرها نهائية، لأن دمشق هي الرحم الذي علّمني الشعر، وعلّمني الإبداع، وأهداني أبجدية الياسمين.

وهكذا يعود الطائر إلي بيته، والطفل إلي صدر أمه.

نزار توفيق قباني

وقد حققت الدولة السورية وصيته، فأمر الرئيس حافظ الأسد بنقل جثمانه من لندن – حيث امتنع جامع لندن عن الصلاة عليه – إلى دمشق،ووري الثرى في مشهد رسمي وشعبي لا يتكرر.



عود إلي موسوعات الأعلام

من آفات الاعتماد على الذاكرة النسيان، ولست أعفى نفسى من هذه الآفة، وإن كنت أحاول دائماً استدراك ما فاتنى.

وعندما تحدثت عن موسوعات الأعلام في عدد ديسمبر الماضى من «الهلال» ذكرت شيئاً وفاتتنى أشياء، ومن الأمانة أن أقرر أن الأديب الأردنى أحمد العلاونة والأديب الكويتى فهد محمد نايف الدبوس قد نبّهانى إلى بعض ما فاتنى.

فمن الموسوعات التى ظهرت في مصر «الموسوعة القومية» التى نشرتها وكالة أنباء

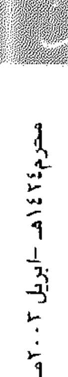
الشـرق الأوسط في عـهـد مـصطفى نجيب وموسوعة «المستشرقين» لنجيب العقيقى وله أيضاً موسوعة عن الأدباء ضـمن الجزء الثـانى من كتـابه «الأدب المقارن» وموسوعة «أعلام الإسكندرية» وموسوعة «أعلام دمياط» للأديب نقولا يوسف ومـوسـوعـة «أعلام مـضيئـة فى تاريخ مصر» للدكتور مينا بديع عبد الملك


جرجي زيدان ابراهيم المازنى

وموسوعة «الأعلام الشرقية» لزكى محمد مجاهد وإن كانت نشرت مؤخراً فى بيروت.

أما الموسوعات الخاصة بالأعلام التى نشرت فى البلاد العربية فهى «المعاصرون» للعلامة محمد كرد على وقد صنفها محمد المصرى، و«تتمة الأعلام» لمحمد خير رمضان وله أيضاً تكملة معجم المؤلفين «الذى أصدره عمر رضا كحالة، ولهذا الأخير معجم خاص بالنساء العربيات. وللأديب السورى عيسى فتوح موسوعة من ثلاثة أجزاء عن الأديبات العربيات، وثانية عن الأدباء المعاصرين. وللأديب السورى حسّان الكاتب «الموسوعة الصغيرة»، وللأديب العراقى جعفر الخليلى موسوعة صدرت بعنوان «هكذا عرفتهم» نشر فى حياته سبعة أجزاء منها ونشرت ابنته فريدة جزءاً ثامناً بمقدمة لروكس بن زائد العزيزى. ولأدهم آل الجندى موسوعة عنوانها «أعلام الأدب والفن»، ولعبد القادر عياش السورى «معجم المؤلفين السوريين فى القرن العشرين». ولإبراهيم الحازمى موسوعة «أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر الهجرى». وللأديب الكويتى خالد سعود الزيد «معجم أدباء الكويت فى قرنين». وللأديب العراقى المغترب مير بصرى موسوعة عنوانها «أعلام الأدب فى العراق الحديث». وللأديب السعودى عبد الكريم الحقيل موسوعة «شعراء العصر الحديث فى جزيرة العرب».. ولجرجى زيدان مؤسس دار الهلال موسوعة «مشاهير الشرق» وقد تكون هناك موسوعات أخرى لا أعرف أخبارها.

وكان قد وقع تحريف فى اسم صاحب «قاموس المؤلفين فى شرقى الأردن» وصوابه كايد مصطفى هاشم. ■



تأثير عصر المعلومات على الأديان

بقلم
د. أحمد محمد صالح

إن ما يسمى عصر المعلومات نشر تأثيره بشكل تدريجى إلي مجال الدين ونعنى تحديدا فى الطرق والوسائل التى تستعملها الاديان للتعليم والهداية والإرشاد ومجمل انشطة

التحويل العقائدى وأيضا فى أنظمة المعتقدات وحدثت تطورات بارزة جدا تضمن فى الحقيقة إمكانية الفرصة لأى دين الآن للانتشار إلى ما بعد حدوده الوطنية وتسمح لحركات دينية جديدة وصغيرة فى القيام بأنشطة الهداية والإرشاد للتحويل من عقيدة إلى أخرى خارج الحدود الوطنية ويؤدى ذلك إلى تطورات دينية غير مرئية حتى الآن ومع الايقاع السريع فى الانغماس فى عصر المعلومات تنتج ظاهرة الآن يمكن أن نسميها عولمة الدين

والكلام هنا عن الدين كظاهرة وليس الدين نفسه ولو أنه من المستحيل التخمين كيف ستتطور هذه العملية فى المستقبل لكن من الأرجح أن المعلوماتيه الدينية ستنتشر وتوزع باستفاضة، وعلى نحو متزايد وبطرق مختلفة لم تكن معهودة وستتشكل أنماط جديدة من المؤسسات الدينية محتويات نشاطاتها وتعاليمها أكثر خبرة وتجربة وأكثر تمردا وتغييرا من قبل بهذا المعنى الاديان عموما ستواجه نقطة تحول كبيرة

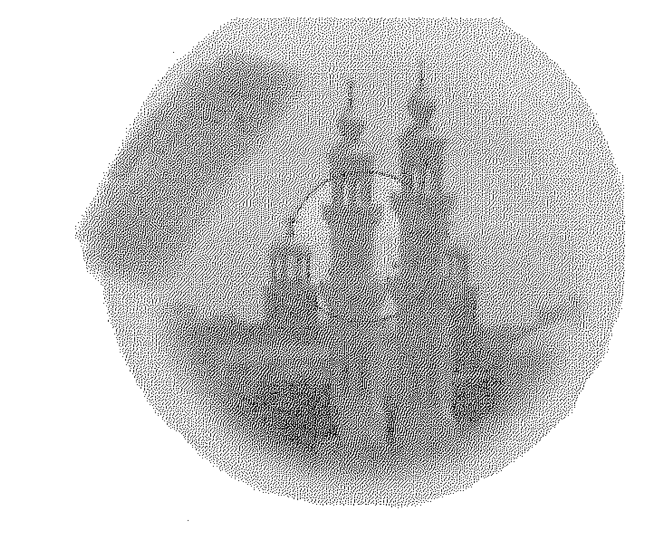
بيئة المعلومات

لمناقشة هذه القضايا نبدأ بوصف شامل حول معنى عصر المعلومات بينما هذا التعبير يسمع فى أغلب الأحيان ، فهو يعكس مفاهيم لأشخاص مختلفين لهم مجالات متباينة من الاهتمامات الخاصة وبالتالى يختلف معنى عصر المعلومات وفقا لاهتمامات صاحبه وإذا امتد السؤال حول طبيعة المعلومات نفسها يصبح تورطنا فى الاجابة أكثر تعقيدا .

على أية حال لايمكن أن ننكر بأن بيئة المعلومات تغيرت بشدة على مدى السنوات العشرين الماضية ويمكن أن نبدأ مناقشتنا بالتذكير بالخصائص الرئيسية لهذا التغيير، أولا : بيئة المعلومات نعني بها طريقة توليد المعلومات وتحديدا الوسائل المادية مثل أجهزة الكمبيوتر وتكنولوجياتها وثانيا : المدى الجغرافي والاجتماعى لتوليد المعلومات، وثالثا : كمية محتوى المعلومات المتولدة وعلى ذلك فإن عصر المعلومات يشير إلى الاختلافات النوعية العظيمة التى حدثت فى طريقة توليد المعلومات واتساعها الجغرافى والاجتماعى وايضا في كمية ومحتوى المعلومات المتولدة بالمقارنة بالفترات السابقة وهذه التطورات كانت سريعة وثابتة لدرجة كان من المستحيل توقع أنواع التغييرات التى ستؤثر على مجتمعنا فيما بعد !

أساليب جديدة للاتصال

ولا يمكن إنكار ظهور أساليب جديدة للاتصال نجمت عن التطوير الهائل فى التقنيات واجهزة الإعلام الجديدة وكان لها تأثير حاسم على التغييرات الاجتماعية الحالية فالكميات الهائلة للمعلومات والتى يمكن أن تكون مرسلة الآن بصورة فورية ودقيقة وفى أشكال



متعددة وإلى مقاصد واتجاهات عديدة هذا التقدم التكنولوجي حتى الآن يغير نظمنا الاجتماعية ويمتد تأثير هذا التطوير حتما إلى الظواهر الدينية .

فالتغيير الحاسم فى وسائل الاتصالات بواسطة اختراع الكمبيوتر وانتشاره الجماهيرى والتطوير المذهل فى وسائل الميديا السمعية والبصرية مثل الأقمار الصناعية المذاعة والانتشار المستمر لأجهزة الميديا الشخصية مثل الهواتف النقالة جعلنا نعيش فى عالم متعدد الوسائط أو المالتى ميديا التى تتسع وتنتشر الآن بسرعة متزايدة ومن أول النتائج التى لوحظت أن الجماعات الدينية المختلفة استعملت تكنولوجيا الاتصال الحديثة فى أنشطة التحويل العقائدى مثل الدعوة والتبشير لعقائدها والكثير من المؤسسات الدينية الان توظف تلك الميديا الجديدة فى انشطة الهداية والارشاد والميزة الأخرى لعصر المعلومات هى المدى أو النطاق الجغرافى والاجتماعى الجديد أو يسمى بوصول المعلومات ،وأحدث التنوع الشديد فى المعلومات وانسيابها قلقا شديدا بين المهتمين بالسيطرة على المعلومات والتحكم فيها لأغراض سياسية أو اقتصادية وثقافية وأصبحت عمليات السيطرة تمثل عبئا ثقيلا جدا ويزيد على ذلك أن انفجار المعلومات جعل من معرفة كيفية جمع واستعمال المعلومات ذات العلاقة الأكثر بالموضوع المستهدف أكثر أهمية من معرفة كيفية مقابلة أكبر عدد من الناس وتعميق الثقة المتبادلة معهم وفى ضوء الرؤية السابقة لمفهوم عصر المعلومات، أصبحنا مجبرين على الاعتراف بأن عصر المعلومات مهد الطريق إلى تحويل عميق فى الثقافة الإنسانية

حقائق جديدة

والكيانات الدينية تكافح الآن من أجل موازنة تقاليدهم الأصلية فى أغلب الأحيان بالحقائق الجديدة لعصر المعلومات لكنهم فى بعض الحالات يصرون على أهمية عمل الأشياء بالطريق التقليدى كما هو الحال مع قضايا الطلاق للمسلمين فى مصر التى حكمت المحكمة بأن مراسيم الطلاق لا تسلم بالبريد الالكترونى بينما هناك آخرون حاولوا استعمال الفرص التى وفرتها التقنيات الجديدة فى محاولة لتقوية مؤسساتها الحالية فقد بدأت كنائس ايرلندا الكاثوليكية بتجنيد الكهنة على الانترنت بعد أن واجهت نقصا فى الكهنة فحرصت على توظيف التقنية لجذب شباب أكثر للتدريب ككهنة ،واصبح للعديد من الكنائس والمساجد والمعابد فى الولايات المتحدة مواقع على شبكة الويب ووظفوا التجارة الالكترونية لجمع الأموال لنشاطاتهم الدينية وللأغراض الخيرية، وفى نفس الإطار

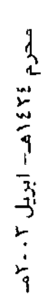
استغل المسلمون البريطانيون التليفون المحمول للأذان للصلاة وأذاعت وكالة رويتر في مايو ٢٠٠٢ في مدينة مشهد بشمال ايران حيث دفن الإمام رضا الإمام الثامن المتوفى عام ١٨١٧ م ويحج إلى هذه المدينة ٢ مليون مسلم شيعي سنويا ليزوروا قبره وقد أقيم أخيرا مركز للاتصالات لخدمة هذا العدد الضخم وقد رأى مندوب وكالة رويتر في التليفزيون المحلي عمالا يمسكون بسماعات التليفون من خلال النوافذ لكي يتمكن الراغبون من بث صلواتهم !!

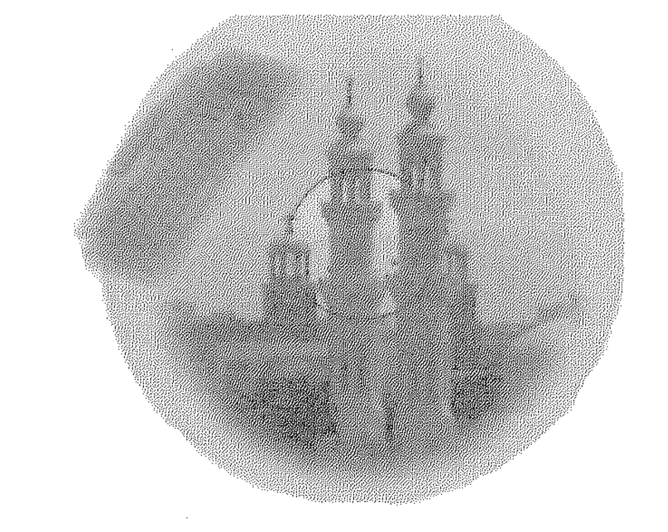
الدين والإنترنت

توم بيودوين عالم ديني كاثوليكي ومؤلف كتاب الإيمان التخيلي (١٩٩٨) قال «الإنترنت دعوة للناس الشكاكة لتلقي كافة الإجابات عن أسئلتهم الدينية التي يريدون بها استكشاف جوهر الدين فقد استلم رسائل بريدية الكترونية في الساعة ٣ صباحا من ناس عمرهم ما دخلوا كنيسة في حياتهم» ، السيد بيودوين قلق جدا من مواقع الأديان على الإنترنت يقول بأنهم يساهمون في جعل الدين مثل قوائم برامج الكمبيوتر تختار منها ما يفيدك أو مثل قائمة الطعام تختار منها ما يعجبك ! مجرد اختيار شخصي فالإنترنت توسع النطاق الجغرافي الذي يمكن أن تصل اليه الاديان ولكنها في نفس الوقت تعمل على تآكل جذور تلك الأديان ! وكل المعتقدات خلقت لها على الشبكة بيوتا روحية لكن بعض المواقع خلطت بين الصلاة والربح لقد أحدث الإنترنت تحولات كبيرة في الاستثمار والتسوق،والآن تؤثر على الكيفية التي يمارس بها الناس عقائدهم ! إن النجاح العظيم الآخر للإنترنت بأنّه يوصل بين الناس المتباعدين جدا، حيث تستعمل الإنترنت لتوسيع النطاق الجغرافي لوصول وانتشار شعبية الكهنة، والشيوخ، والرهبان، والوعاظ، والقساوسة، والحاخامات سواء التقليديين منهم أو نجوم التليفزيون والاعلام! بل وسمحت لهم بالوصول إلى المنحرفين اجتماعيا في جميع أنحاء العالم، والذين يتجنبون دخول المساجد والكنائس والمعابد وبقية دور العبادة.

عولمة الدين

يبدو وكأن هناك إجماعاً على أن تلك العولمة - سواء الثقافية، أو السياسية، أو الاقتصادية، أو البيئية، تعرف بأنها زيادة مستويات التكافل والتكامل والاندماج عبر المسافات الواسعة. وإذا كان من الممكن قياس تأثيرات تقنيات المعلومات على الاقتصاد، فهناك صعوبة شديدة في قياس تأثيرها الكامل على الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية! فالعولمة في الظواهر الثقافية تبرز في خصائص مختلفة ترتبط بالمجال المعنى من الثقافة والذى اقتحمته العولمة. فخصائص العولمة في مجال اللغة، على سبيل المثال، من أدب ومخطوطات وطنية، تختلف عن خصائص العولمة في مجال آخر من الثقافة، مثل الحقول الفنية للموسيقى والرقص. والشكل الدقيق لخصائص العولمة في مجال الدين ليست واضحة بدقة حتى الآن، وإن بدأت بوادرها، رغم صعوبة رصدها! فقد رصد اتّجاه التغييرالقادم من منطلق إن العولمة





الثقافية تشترك فى بعض خصائص العولمة فى مجالات الاقتصاد والسياسة الأخرى مثل إضعاف أو تكسير الحدود بين الأمم والمجتمعات والمجموعات العرقية، وآنية نشرالأحداث على مقياس عالمى، وسيادة مبدأ المنافسة على أساس السوق الحرة. وعند تطبيق هذه الرؤية عن العولمة على مجال الدين، نزعم بأنّنا سنرى تغييرا فى الشكل التقليدى الثابت للدين المرتبط ارتباطاً حميماً بالتاريخ، والثقافات الخاصة للأمم، والمجموعات العرقية، فبدلا من ذلك الشكل، رصدت عالميا زيادة نشاطات وتنافس بين جماعات دينية فردية، هناك أيضا إشارات مستقبلية، تحوى إمكانية مشاهدة تحويلات كبيرة فى التركيب التقليدى للأديان التاريخية. فهناك ظاهرة جديدة هى توسع وانتشار الدين، بدون أن يكون ذلك مرتبطاً بأمة معينة، أو مجتمع بالذات، أو مجموعة عرقية خاصة! فالدين أساسا موهوب بصفة الديمومة والبقاء. على سبيل المثال، بوذية الماهايانا طوّرت لنفسها وظائف اجتماعية مختلفة بشكل كبير جدا فى البلدان المجاورة لكوريا واليابان التى نشأت فيهاهذه الديانة، ومن جانب آخر

هناك الكثير من ذوى الجنسيات الأمريكية والأوروبية، الذين أسلموا فى بلادهم، أو انحدروا من أسر مسلمة تعيش هناك، وأغلبهم من الزنوج، لهم كتبهم ومطبوعاتهم ومجلاتهم ودعاتهم ومشايخهم وأغانيهم وأناشيدهم الخاصة، إنهم لا يعرفون أى مؤسسة دينية رسمية أو أهلية من المنطقة الإسلامية الكلاسيكية، بل لهم منظماتهم، وهيئاتهم، وهم هناك لهم همومهم كأقليات، وتفسيراتهم وفقا لعاداتهم وتقاليدهم هناك، والبعض منهم يطالب بفقه إسلامى خاص بهم يناسب احتياجاتهم، بهذه الطريقة، كلّ منطقة فى العالم يمكن أن تعرّف وتميز بواسطة خريطة توزيع مجموعاتها الدينية الرئيسية، بينما الدين فى الوقت نفسه ضمن كلّ أمة أو مجموعة عرقية يمتلك خصائصه الفريدة المميزة.

فى هذا السياق، يمكن أن تفهم عولمة الدين كعملية إعادة اصطفاف وتدعيم للموقف العالمى للاديان، وهذه العملية تتضمن ثلاث حقائق: الأولى تتضمن تحولات وتغييرات فى المؤسسات الدينية، والثانية هو إمكانية توقع إنتاج وإظهار خصائص جديدة فى محتويات المذاهب، والطقوس، والممارسات، والثالثة العولمة ستكون مصحوبة بتغييرات فى المنظومة الفكرية - الثقافية المساندة لأديان البشر.

التحولات فى المؤسسات الدينية

والسؤال الأول ماهى أشكال المؤسسات الدينية التى لها أسبقية وأولوية فى زمن العولمة؟ لقد ظهر مفهوم

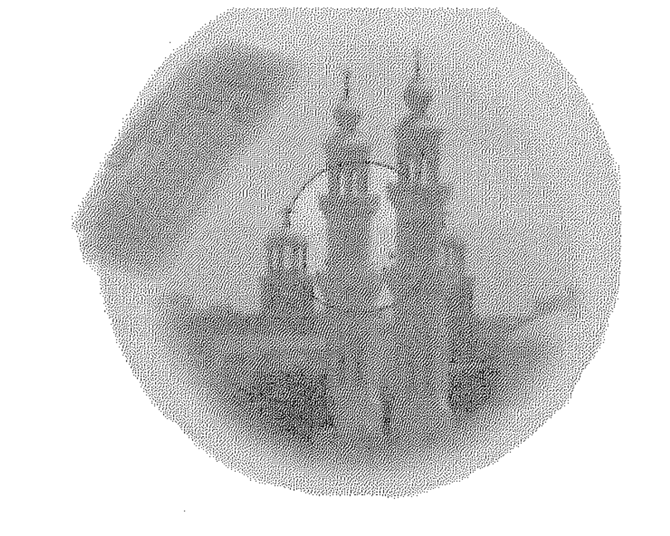
«الدين الدولى أو متعدد الجنسيات multinational religion متناظرا مع مفهوم «الشركات المتعددة الجنسيات» هو ليس فقط شكل من أشكال التناظر، لكنه يستند إلى نفس الشروط العالمية الحالية التى تؤثّر، بالطريقة نفسها على كلتا النشاطات الاقتصادية فى الشركات المتعددة الجنسيات، ونشاطات التحويل والهداية للمؤسسات الدينية. ومن الطبيعى للشركات لنجاح استراتيجياتها على مستوى العالمية، أن تصبح شركات متعددة جنسيات! وبالطرّيقة نفسها يصبح من الطبيعى للكيانات الدينية فى سعيها للانتشار العالمى أن تختار منظوراً متعدد الجنسيات، بغض النظر عن كونها مجموعة دينية تقليدية أو جديدة. ومن ناحية الخصائص التنظيمية، يمكن وصف الدين المتعدد الجنسيات بأنه مجموعة نظّمت ووظفت أنظمة حديثة لعمليات الهداية والارشاد من خلال عملية تنظيمية شبه مستقلة فى كلّ بلد وفقا للحالة الثقافية والاجتماعية المميزة لكل دولة، ويتميز أيضا بوجود علاقات عضوية متبادلة بين الفروع الوطنية المختلفة، وموجه نحو التوسع المستمر من قبل المنظمة ككل.

وفى عصر «الملتى ميديا» أو الأوساط المتعددة، ظهرت أشكال جديدة إضافية للاتصال الإلكترونى مستند على الحاسبات، وأصبحت المعلومات الدينية يتم تبادلها باستعمال البريد الإلكترونى، وغرف الدردشة ، وبينما نحن لا نستطيع توقّع مستقبل اتصالات الحاسوب، نجد أن المؤسسات الدينية التى تستند على مثل هذه الاتصالات الحاسوبية تعطى إمكانية أيضا لظهور «أديان بلا وطن» لا ترتبط ببلد المنشأ أو لها مقر واضح، ونذكر هنا أن الفجوة بين العقلية التقنية ووجهة النظر الدينية قد لا تكون كبيرة كما تبدو! . فالذين يعتنقون كل التقدم التقنى الجديد فى تكنولوجيات المعلومات، ويوظفونه فى خدمة الأديان، غالبا ما يكونون مدفوعين بأحاسيس دينية.

التوفيقية الجديدة

من الظواهر الاجتماعية الطبيعية فى المجتمعات، هى حالة التعايش وأحيانا الاندماج والمزج بين مجموعات العناصر المختلفة من التيارات العقائدية، حيث تتعايش تقاليد دينية متعددة مثل العلاقة التوفيقية بين عقيدة الشنتو والبوذية المعروفة فى اليابان، بينما توفيقية أخرى وجدت بين ديانة تاويسم، والكونفوشيوسية والبوذية فى الصين، وبين البوذية والهندوسية فى المناطق الواسعة من جنوب وبلدان جنوب شرق آسيا، لكن ما هو الاختلاف بين هذه الأشكال الكلاسيكية للتوفيقية وبين التوفيقية الجديدة التى نقصدها فى عصر المعلومات؟ الاختلاف فى أن التوفيقية الجديدة حدثت باندماج بين المذاهب والطقوس والشعائر بحماس شديد على أساس المعلومات التى توفرت من خلال تكنولوجيات المعلومات والاتصال الجديدة، وفى نفس الوقت ليس شرطا بالضرورة حدوث أىّ اتصال فعلى بين تلك المجموعات الدينية، لأن أهم تأثير لعصر معلومات على الظاهرة الدينية، أنه جعل





الأمر أكثر سهولة فى الوصول إلى المعلومات المتعلقة بالتعليمات والنشاطات والشعائر والطقوس للأديان الأخرى، وأصبح فى إمكان أولئك الذين لا يملكون التأهيل والتدريب الدينى المحترف، يمكنهم أن يحصلوا على المعلومات بيسر، وهذا يجعل الأمر أكثر سهولة لتشكيل حركات دينية جديدة، بدون ضرورة الاصطدام بتقاليد مجتمعية، بل من خلال تبنٍ شخصى عبر مصادر الاتصال المتعددة! ورصدت ظواهر مشابهة فى الأديان الجديدة فى الولايات المتحدة، والتعبير «الأديان الجديدة» هناك يستعمل للإشارة إلى الأديان التوفيقية التى تتضمن قاعدة مسيحية بإضافة عناصر استعيرت من الهندوسية، والبوذية أو أى فكر شرقى آخر، وكانت بداية هذه الأنواع من الحركات الدينية على الساحل الغربى الأمريكى فى الفترة بعد الحرب العالمية الثانية، مثال حركة معبد الناس المشهور، بالانتحار الجماعى فى جويانا عام ١٩٧٨، وكانت بقيادة جيم جونز، الذى قيل بأنه كان متأثرا بشدة بالفكر الماوى الصينى.

من الناحية الأخرى، العديد من البلدان فى الشرق وجنوب شرق آسيا كانت من الناحية التاريخية مفتوحة إلى حركات دينية توفيقية. وفى العديد من المناطق الإسلامية، والمسيحية، والبوذية، والهندوسية، ومناطق ديانات تاويسم، والكونفوشيوسية، توفرت فيها بيئة ثقافية تسمح لفترات طويلة من التعايش والسماحة بين الأديان المختلفة، بما يتيح فى المستقبل كما يقول علماء الاجتماع الدينى، زيادة فرص التعايش والسماحة فى تلك المناطق التاريخية مع انتشار تكنولوجيات المعلومات والاتصال، ويوفر ذلك تربة مناسبة لظهور حركات دينية توفيقية جديدة!

التحولات فى البيئة الثقافية

والتوسع فى تقنيات المعلومات يضيف إلى العولمة عادات جديدة أكثر من كونها تسهل الاتصال فقط. وتخاف بعض الأمم من الانترنت، ويعتبرونها محركا يقود هيمنة الثقافة الأمريكية. ويرى الآخرون أن الإنترنت يعتبر محفزا لخلق المجتمعات الثقافية العالمية، فمن متحمسى الألعاب الرياضية المغاربة الذين يشجعون فريق الهوكى الجليدى الكندى إلى مناهضى العولمة والمحتجين على الحرب ضد العراق ويتظاهرون ضد الولايات المتحدة الأمريكية، تعتبر الإنترنت وسيلة غير مسبوقة وليس لها مثيل لنشر العقائد والأيديولوجيات إلى جمهور العالم الواسع، حيث نرى مواقع نشطاء مناصرين للديمقراطية فى صربيا يعيدون توجيه مواد مذاعة معارضة إلى الشبكة العالمية الويب، أو ثوار الشيشان يبثون خدمة أخبارهم

الخاصة على الإنترنت، واستغل الأصوليون المسلمون أرباح النفط فى توظيف مكثف لتكنولوجيات المعلومات والاتصال الجديدة لنشر أفكارهم وممارساتهم (٧٠٪ من المواقع العربية على الإنترنت مواقع لجماعات أصولية).

والسؤال كيف تغير عمليات العولمة حالة أولئك المهتمين والمشغولين بالدين؟ هنا، البيئة الثقافية التى يعيش فيها هؤلاء المشغولون تكون هى الحاسمة! حيث تأثير عصر المعلومات بالغ الأهمية على تغيير البيئة الثقافية، بمعنى أن عصر المعلومات حول تلك الأعداد المتزايدة من الناس يصبحوا ليس فقط مستهلكين للمعلومات، لكن أيضا مرسلين للمعلومات بحكم حقهم الشخصى. وتقنيات المعلوماتية تساعد على رفع المستوى الثقافى والفكرى الدينية على نفس النمط، لا يمكن أن تحتكر فى عصر المعلومات من قبل المحترفين الدينيين، فكل شخص عنده فرصة الآن بأن يكون مرسلاً، ومستلماً، ووسيطاً للخطاب الدينى، وأعطيت الفرصة لأعداد متزايدة من الأشخاص، تظهر من الخلفية الشعبية، ويصبحون زعماء دينيين، يعظون ويبشرون برسالة الهداية، ليس فقط لبسطاء الناس، بل يلتف حولهم آخرون، وأولئك الأتباع يمكن أن يستديروا بسهولة ويرسلون الرسالة إلى الآخرين. ضمن هذه الحالة، نجد السلطة والقوة التقليدية المسيطرة على المؤسسات والمنظمات الدينية ستميل إلى الضعف والتحول! وفى عملية العولمة الدينية، تظهر السوق الدينية الموجهة من قبل المستعمل، إلى جانب نظام المنتج الموجه! الأخير يعنى تحديدا، استمرار السلطة الدينية التقليدية فى المحافظة على تعاليم وشعائر وتقاليد كل دين، فيقوم الكهنة، والشيوخ والرهبان، والوعاظ، والقساوسة والحاخامات بترجمة وتفسير وتأويل المعلومات الدينية إلى المؤمنين، وعلى المؤمنين فقط أن يقبلوا تلك الترجمة وذلك التفسير والتأويل، فهو دورهم الوحيد المقبول فى هذا الوضع، وعلى الجانب الآخر نجد السوق الدينية الموجهة من قبل المستعمل، ونعنى بها استجابة الشخص لقيمه الشخصية وأحاسيسه ومشاعره، وافكاره واعتباراته واختياراته، ويفكر مليا، ويختبر ويجرب تلك العناصر التى يجدها مناسبة وأكثر جاذبية من كتلة الأديان المتنافسة المعروضة عليه من خلال تكنولوجيات المعلومات والاتصال! وهذا السلوك من منظور نظام المنتج الموجه مركزيا، يقيم كعدم جدية دينية واستخفاف، أو تردد وضعف فى الإيمان، لكنه منطقى فقط من وجهة نظر المستعمل الدينى، الذى يجد من حقه فى المحاولة لاختيار أفضل البدائل القائمة على المنطق والعقل! وعلى هذا الأساس تصبح الفروق والتميزات بين المرسل للمعلومات الدينية، وبين مستقبل المعلومات الدينية، فروقا غير واضحة وغامضة، حتى الفروق بين الزعيم الدينى، والتابع، من المحتمل أيضا أن تصبح غامضة جدا، وغير مميزة فى عصر المعلومات!

وزادت الأمثلة والنماذج فى الأديان المختلفة التى نرى فيها تلك الأديان تنتشر بدون الاعتماد على المحترفين الدينيين فى



أنشطة التبشير والدعوة، على سبيل المثال، تكسب الأديان الجديدة فى اليابان أعضاء أجانب كثيرة بالجهود غير الرسمية للأعضاء العاملين اليابانيين الذين يرسلون للعمل فى الشركات أو المصانع فى البلدان الآسيوية الأخرى. وفى الاسلام أيضا نجد الكثير من الأجانب يسلمون وهم فى أوطانهم، بدون جهود رسمية من المؤسسات الدينية الاسلامية، بل نتيجة اختلاطهم بالمسلمين المهاجرين هناك للعمل أو الدراسة. ففى عصر المعلومات، نجد عمليات التوسع العالمى للأديان تتم بدون الاعتماد على رجال دين محترفين! وهذا الموقف يعكس انكماش وضعف سلطة المحترفين الدينيين فى الأديان القائمة، وهى ظاهرة نتجت تحت تأثير عصر المعلومات، حيث يخسر المحترفون الدينيون سلطتهم وهيبتهم التقليدية مثل الكهنة، والشيوخ والرهبان، والوعاظ، والقساوسة، والحاخامات!

نحن دخلنا فعلا فى عصر لن تتوفر الفرصة والقدرة للمجموعات الصغيرة من المحترفين الدينيين على احتكار المعلومات الدينية. وأصبح المؤمنون العاميون الآن عندهم القدرة المتزايدة على الوصول للمعلومات الدينية والاستفادة منها، حتى تلك المعلومات الباطنية أو الأسرار فى بعض الأديان غير المسموح لأحد بمعرفتها ما عدا رجال الدين المخولين خصيصا، وليس من الضرورى أن نذكر مرة ثانية أن ذلك يعتبر خسارة فى السلطة والهيبة التقليدية للمؤسسات الدينية التى حافظت وصانت طوال العصور على هيبة وكرامة رجال الدين، رغم وجود رجال الدين المحترمين والفاسدين على مر العصور، فى كل دين وفى كل منطقة.

خلاصة القول إن عصر المعلومات يؤدى إلى انعدام المسافة بين المحترفين الدينيين والأتباع العاميين، ولم يعد ذلك حالة استثنائية أن نجد ناساً عاديين يمتلكون فهماً أعمق لفلسفة الأديان أكثر من الكهنة، والشيوخ والرهبان، والوعاظ، والقساوسة، والحاخامات! وعلى الأرجح هذه النزعة ستتنامى فى المستقبل، ففى مجتمع المعلومات عموما ستزول الفروق بين أهل الخبرة والمتخصصين والأفراد العاديين! ومعنى هذا التطور أن الأديان التاريخية، والأديان السماوية من المحتمل أن تجد صعوبة لتطوير أنظمة لتدريب أجيال جديدة من المحترفين الدينيين. وتصبح هناك صعوبة متزايدة جدا لأى مذهب أو مجموعة داخل أى دين لادعاء الشرعية الدينية الفريدة! وبينما عصر المعلومات يتقدم، سيتزايد أعداد الناس الذين ينظرون إلى الخطاب الدينى فى أى دين من خلال منظور نقدى، ورؤية نسبية! ■

حرير العنكبوت

أقوى خمس مرات

من الصلب

نسج الملابس الواقية

من الطلقات من خيوط العنكبوت

بقلم
د.نبيل حنفي محمود

تصاعد الاهتمام بالعناكب في السنوات الأخيرة، وهو ما يلمسه المتصفح للمواقع التي تعرض الدراسات الخاصة أو الموضوعات المتصلة بالعناكب على شبكة الانترنت، إذ تحوي بعض هذه المواقع مئات بل وآلاف من الدراسات والموضوعات، تلك الدراسات والموضوعات التي صفت من هذه المواقع طبقاً لترتيب خاص للمدخلات، إن مدخلا مثل «حرير العنكبوت» Spider Silk توافق في منتصف شهر فبراير الماضي من خلال محرك البحث Yahoo في شبكة الانترنت مع ٩٠,٦٠٠ (تسعون ألفا وستمائة) من الموضوعات والدراسات، يزخر هذا الفيض من الموضوعات والدراسات بكل ما هو قديم وجديد من المعلومات عن العناكب، ولكن أعجب ما جاء في هذا العدد الهائل من الموضوعات هو ما نشرته صحيفة «الواشنطن بوست» الأمريكية الشهيرة بعددها الصادر في يوم الجمعة ٣١ مايو ٢٠٠٢، وهو موضوع كتبه تيرنس شياو حمل العنوان التالي: «شركة للتقنية الحيوية تغزل خيطاً أقوى خمس مرات من الصلب»!، لقد أثارني العنوان ولفت انتباهي بحكم تخصصي

كأستاذ فى الهندسة الميكانيكية ، فمضيت أتصفح ما حوته بعض المواقع على الانترنت من موضوعات، وعدت إلى مكتبتى الخاصة لأجلو بعض ما غمض علىّ من معلومات، وفى النهاية وجدت أنه من الواجب علىّ أن أشرك قراء «الهلال» فيما علمته عن موضوع أراه مثيراً ومبشراً بآفاق جديدة يرتادها العلماء.

تنتمى العناكب إلى طائفة العنكبوتات وهى إحدى فصائل المملكة الحيوانية، وتنتشر تلك الطائفة - التى تطورت عبر ملايين السنين - وبأعداد هائلة فى كل البيئات بأنحاء الأرض المختلفة فيما عدا إنتاركتيكا (القارة القطبية الجنوبية)، ومن طرائف تلك الأعداد ما ذكره أحد العلماء البريطانيون من أن فداناً واحدا بأحد الحقول فى مقاطعة سكس قد حوى أكثر من مليونين من العناكب!، ويشير العديد من المصادر العلمية مثل موسوعة هاتشينسون البريطانية إلى وجود حوالى ٣٠,٠٠٠ (ثلاثون ألفا نوع معروف من العناكب فى العالم، بينما تذكر موسوعة «المعرفة» فى نسختها العربية إلى أن هذا العدد يرتفع إلى ٤٠,٠٠٠ (أربعون ألف) نوع، ومن أشهر هذه الأنواع: عنكبوت المنزل - عنكبوت الحديقة - عنكبوت الماء - عنكبوت مجالومورف (وهو أكبر العناكب حجماً) - وعنكبوت الأرملة السوداء الذى يعيش فى أمريكا الشمالية ويتميز بعضته القاتلة والتى يتميز بها أيضا عنكبوت أتراكس الاسترالى.

يتراوح حجم العناكب بين بضعة ملليمترات كما فى حالة العناكب المنزلية وحتى تسعة سنتيمتر لبعض الأنواع التى تعيش فى المناطق الحارة، ويتكون جسم العنكبوت من منطقتين.. الأمامية وهى الرأس - صدر ... والخلفية وهى البطن ويفصل بينهما خصر نحيل يسمى العنق، تبرز من أعلى المنطقة الأمامية ثلاثة أو أربعة أزواج من الأعين ويتصل بها من أسفل أربعة أزواج من الأرجل، بينما تحوى بطن العنكبوت الرئة وأعضاء الهضم والتكاثر إضافة إلى غدة الحرير.

العناكب ناسجة الحرير

تعد قدرة البعض من العناكب على نسج الحرير أهم الخصائص المميزة لهذا الفصيل من المملكة الحيوانية، ومما هو جدير بالذكر أن العناكب المنتجة للحرير تشكل عددا صغيرا من الأعداد الكبيرة المعروفة للعناكب، وأن صناعة هذا الحرير تعد مهمة أنثوية تضطلع بها إناث العناكب أثناء تجول الذكور بحثا عن التزواج، ولعل ذلك هو مصدر الايحاء فى الأسطورة اليونانية القديمة عن أصل العناكب، إذ تقول تلك الأسطورة بأن فتاة تدعى أراكن رغبت فى أن تكون نسّاجة، فما كان من آلهة الحكمة أثينة الاّ أن حولتها - عندما غضبت منها - إلى عنكبوت كى تمارس مهنة النسيج إلى الأبد، فإذا ما تركنا تهاويم الأساطير وعدنا إلى أرض الواقع.. لوجدنا أن أنثى العنكبوت تقوم بافراز الحرير على هيئة سائل صمغى



من ست من الغدد تفتح عند أقصى السطح السفلى لمنطقة البطن، تقوم تلك الغدد ببثق سائل الحرير - الذى يتجمد عند ملامسته هواء الجو - من خلال عدد كبير من الفتحات، وهو ما يعنى أن الخيط من حرير العناكب يتكون فى حقيقة الأمر من عديد من الخيوط التى تلتف معا لتكون خيطا واحدا يماثل فى تكوينه سلك الكهرباء الذى يصنع بتضفير العديد من الشعيرات الدقيقة المقطع!.

بدأ الاهتمام بحرير العناكب - الذى يعد المادة الأولية فى نسيجها المعروف Web - خلال عقدى السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، إذ أكدت نتائج العديد من الاختبارات التى أجريت فى كثير من مراكز الأبحاث المنتشرة بأمريكا وأوروبا أن حرير العناكب يتميز بمقاومة للشد أكبر من مثيلتها للصلب، سواء كانت تلك المقاومة منسوبة لوحدة الحجوم أو لوحدة الوزن من الخيط المختبر، بل إن دراسات أخرى أوضحت أن الخيط من حرير فصيل عناكب نيفيلا Nephila وهو من نوع الحائل الدوار Orb weaver يعد أقوى ثلاث مرات من مثيله المصنوع من كفلر Kevlar (وهى مادة ذات أساس بترولى تستخدم فى صناعة الصدارى الواقية من طلقات الرصاص). لذلك يعد حرير العناكب واحدا من أقوى المواد الموجودة على سطح الأرض والتى يمكن أن تغزل فى شكل خيوط، وقد أمكن للباحثين الجزم بأن حرير العناكب الجيد يمكن أن يتحمل شداً حتى ٦٠٠.٠٠٠ (ستمائة ألف) رطل على البوصة المربعة وهو ما يعادل حوالى ٤٢.٠٠٠ (اثنان وأربعون ألفا) من الكيلو جرامات على السنتيمتر المربع!، إن تلك القدرة الفائقة على احتمال الشد لدى حرير العناكب هى التى أكسبت النسيج المصنوع منها قابليته المدهشة للمط Stretching ، مما ترتب عليه قدرة هذا النسيج على الايقاع بالحشرات دون أن يتمزق، إن مادة كحرير العناكب تعد الأمثل لإنتاج خيوط تصلح لبعض الأغراض الخاصة والحيوية فى آن واحد، من ذلك صناعة السترات المقاومة لطلقات الرصاص- بعض التجهيزات الطبية مثل الأربطة وخيوط الجراحة فائقة المتانة - إضافة إلى بعض المنتجات الأخرى مثل خيوط الصيد والملابس الخاصة ، إن تلك الآفاق الطموحة لاستخدامات حرير العناكب تتطلب البحث والتفكير فى كيفية إنتاج هذا الحرير بكميات كبيرة تكفى لمواجهة معدلات الطلب التجارية عليه، وذلك إذا ما أخذنا فى الاعتبار وجود مفارقة طبيعية فى إنتاج هذه الكميات الكبيرة، تلك المفارقة مفادها أن العناكب المعروفة مثل عناكب الحقل أو المنزل لا يمكن تربيتها أو إكثارها للاعتماد عليها فى إنجاز هذه المهمة، وذلك لأنها يفترس بعضها البعض!، لذا كان من الطبيعى أن يتجه البحث إلى محاولة إنتاج حرير العناكب صناعياً.

قبل أن تبدأ محاولات العلماء لإنتاج حرير العناكب صناعيا، فإن أبحاثا عديدة أجريت لمعرفة تكوين حرير العناكب وفهم الأسباب الكامنة وراء مقاومة هذا الحرير الهائلة للشد، وقد

أجريت بعض هذه الأبحاث على النوع الأقوى من حرير العناكب والمسمى بحبل السحب Dragline silk يشكل حبل السحب الإطار الخارجي لنسيج العنكبوت والذى يقوم العنكبوت باستخدامه ليغزل بسرعات فائقة - تقدر بحوالى متر واحد فى الثانية - خيطا من الحرير يهبط به شجرة أو جدار منزل هرباً من عدو يلاحقه، يبلغ قطر هذا النوع من غزل العنكبوت حوالى من ثلاثة إلى خمسة ميكرونات (الميكرون جزء من مليون جزء من المتر)، أتاح التقدم المذهل فى أجهزة الفحص المجهرى للعلماء أن يشاهدوا رأى العين التركيب الدقيق لخيط حبل السحب، إذ أوضحت الصور المأخوذة من هذه الأجهزة المتقدمة أن الخيط الواحد مكّون من آلاف من الشعيرات أو الخيوط الدقيقة التى يبلغ قطر الواحد منها بضعة نانومترات (النانومتر جزء من مليار جزء من المتر)، مما يجعل من مشاهدتها بالمجهر الضوئى العادى أمراً مستحيلا، إن هذه البنية المركبة للخيط من حرير العناكب تعد السبب الظاهرى لمقاومة الشد الهائلة التى تميزه، لكن السبب الحقيقى والخفى وراء هذه المقاومة يكمن فى جزئيات بروتين الحرير نفسها، وهو ما توصل إليه جون جاتس وشيريل هاياش ومساعديهما فى جامعة كاليفورنيا خلال عام ٢٠٠١م، من أن الأحماض الأمينية من نوع السلسلة الطويلة هى التى تعطى حرير العناكب من نوع الحائك الدوار تلك القابلية المدهشة للمط أو الاستطالة ، حيث تسمح تلك السلسلة من الأحماض الأمينية لجزئيات بروتين الحرير بالاصطفاف جنبا إلى جنب وكأنها جذوع من الشجر تكوّن طوفاً خشبيا، ومن ثم لتكون صفائح (ألواح) الكريستالات الصلبة التى تعد قلب شعيرات الحرير، إن تلك البروتينات لا تصنع وحدها حريرا قويا.. كما أن تلك الشعيرات لا يمكن أن تعد مادة ذاتية الاتصال، هنا... فإن الخصائص الفائقة لخيط الحرير يمكن أن تعزى إلى أنه قد غزل بطريقة غاية فى التعقيد.

غزل حرير العناكب

يمكن إيجاز طريقة غزل خيط حرير العناكب كما يلى: إن البروتينات التى تكون حرير حبل السحب فى نسيج العنكبوت تفرز من خلايا تقع على جدار كيس طويل يشبه الغدة فى الجزء الخلفى من البطن، تتشكل هذه البروتينات التى تكون على شكل محلول مائى فى هيئة مخروطية خلال ممر يتخذ شكل عروة أو حلقة طويلة، بعد ذلك تصطف جزئيات البروتين لتتخذ اتجاه تدفق المحلول ومن ثم لتغدو كريستالات سائلة، يتم مط معجون الكريستالات السائلة خلال تدفقه فى الممر المخروطى وبالتالى يتم تخفيض سمكه، وفى النهاية.. يغمر هذا المعجون فى حامض لينزع منه الماء.. فيتماسك ويتجمد ويتحول إلى خيط الحرير بشكله المألوف، إن تلك العمليات التشكيلية والكيميائية المعقدة - التى لا يستطيع الإنسان محاكاتها إلا بمصنع ملىء بالمضخات والمعدات والأحواض والسوائل المختلفة - تتم فى جزء من بطن هذا الكائن المدهش لا تستطيع العين المجردة أن تتبينه، فسبحان الخالق

العظيم الذى نظم فأبدع وأعجز!.

عندما اكتشفت تلك الحقائق عن حرير العناكب مؤخرا، وفى وجود العديد من الحوافز الاقتصادية والبيئية ، فإن الحاجة لإنتاج هذا الحرير بمعدلات صناعية.. باتت هى الشغل الشاغل لمراكز البحث المنتشرة فى العديد من جامعات الدول المتقدمة ، وقد تصادف أن تزامنت تلك الحاجة مع بداية ثورة التقنية الحيوية التى بدأت فى أواخر السبعينيات من القرن العشرين، تلك الثورة التى دفعت الرئيس الفرنسى السابق فاليرى جيسكار ديستان للتصريح آنذاك بأن القرن العشرين هو قرن العلوم الحياتية (البيولوجية)، تلك العلوم التى حوت العديد من الأفكار الثورية فى بعض فروعها مثل علم الجينات - علم الأعصاب - وبيولوجيا الخلية ، دأب العلماء العاملون فى مهمة إنتاج حرير العناكب صناعيا منذ أواخر السبعينيات على محاولة الاستفادة بفكرة إدخال جينات غريبة إلى البكتريا - والتى كانت تستخدم لإنتاج كميات كبيرة من الأدوية ذات الأساس البروتينى - فى مجال إنتاج حرير العناكب صناعيا، لذلك اتجهت الجهود طوال عقد الثمانينيات إلى تطوير الهندسة الجينية، لتثمر تلك الجهود عن تمكن راندى لويس (المتخصص فى الأحياء الجزيئية بجامعة وايومنج من لارامى بالولايات المتحدة الأمريكية) فى عام ١٩٩٠م - وبدعم يتمثل فى منحة بحثية من الجيش الأمريكى - من تمييز اثنين من الجينات المطلوبة لافراز بروتين حرير العناكب، وبهذه المعلومات الجينية أمكن لعلماء الجيش الأمريكى وفرقة الكيمياء الحيوية فى ناتيك بولاية ماسوتشوتس بالإضافة إلى جامعة وايومنج وشركة للصناعات الكيميائية أن يقوموا بإنتاج كميات كبيرة من بروتين حرير العناكب باستخدام البكتريا، ولكن نوعية الحرير المنتج لم تكن بالجودة المطلوبة، وذلك لأن البكتريا تعمل على قطع وحدات الجين.. مما يترتب عليه تخليق بروتينات صغيرة تنتج الخيط الردىء.

إنتاج بروتين الحرير

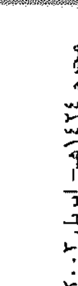
لتحسين نوعية خيط الحرير المنتج.. بدأ تيرنر (وهو باحث فى علم وراثة الحيوان بجامعة ماكجيل فى مونتريال بكندا) فى عام ١٩٩٣م أبحاثا لتطوير الأبقار جينياً كى تنتج بروتين حرير العناكب فى لبنها، وعندما أخفقت تلك الفكرة فى إنتاج بروتين الحرير بنوعية جيدة، فإن محاولات إحدى شركات التقنية الحيوية بكندا جذبت انتباه تيرنر لحل تلك المشكلة التى فتنته وملكت عليه حواسه ، كانت الشركة الكندية قد قامت بتربية المئات من الماعز المهجنة جينيا فى حقول بضواحى مونتريال وفى شمال نيويورك، استهدفت الشركة الكندية بمحاولاتها الأولى لتهجين ماعز حلوب أن تحضر دواءً مبدداً للسعال فى لبنها، بعد ذلك بدأت الشركة - بعد أن حصلت على ترخيص من جامعة وايومنج لاستخدام تقنية فصل واستنساخ جينات حرير العناكب - بحثاً مشتركاً مع مركز أبحاث الجيش الأمريكى فى ناتيك لإنتاج

حرير العناكب بكميات كبيرة وبنوعية جيدة، ثم قامت الشركة بعد ذلك بترويج الفكرة لدى المستثمرين بالإعلان فى ديسمبر ٢٠٠٠ م عن أن السوق سوف يستوعب إنتاجها من خيوط حرير العناكب المنتجة صناعيا والتى اختارت لها اسم «الصلب الحيوى» Biosteel تمييزا لها عن معدن الصلب، فكان أن حققت أسهم الشركة مبيعات قدرت بمبلغ ٤٠ مليون دولار كندى (أى ما يعادل ٢٦ مليون دولار أمريكى) فى واحد من أكبر عروض البيع لأسهم شركات التقنية الحيوية فى كندا.

بعد ثلاثة أعوام من البحث.. تمكن علماء الشركة الكندية وبمعونة علماء الجيش الأمريكى من تحقيق أهدافهم، فقد تمكن هذا الفريق البحثى من إنتاج بروتين حرير العناكب بنوعية جيدة وذلك بإدخال جينات حرير العناكب فى خلايا غدد ضروع البقر وكلى الهمستر Hamster (وهو حيوان من القوارض يشبه الفأر)، بعد ذلك يقوم علماء مركز أبحاث الجيش الأمريكى بتنقية بروتين الحرير المنتج وكبسه داخل أنابيب بالغة الصغر، ليتحول إلى خيوط فائقة القوة من الحرير ذات مقاومة تعادل قيمة مثيلتها من حرير العناكب الطبيعى، وعندما نشرت الشركة فى شهر يناير ٢٠٠٢م أنباء إنجازاتها فى مجال إنتاج حرير العناكب صناعيا وذلك بمجلة «العلم» Science .. فإن رأسمال الشركة حقق زيادة قدرت بحوالى ٤٠٪.

جينات حرير العناكب

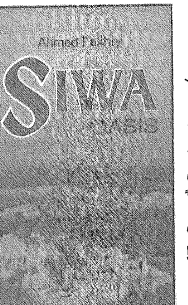
تعكف الشركة الكندية الآن على تربية أعداد من الماعز المعدلة جينياً بطريقة جديدة، تعتمد هذه الطريقة على إدخال جينات حرير العناكب فى أجنة الماعز، لتقوم الماعز المولودة والمعدلة جينياً والتى كانت أجنة فى بطون أمهاتها عند بدء التجربة وتشبه الماعز العادية تماما بإنتاج بروتين الحرير فى لبنها، ومن الجدير بالذكر أن تلك السمة الجينية الخاصة لأجنة الماعز المعدلة جينياً فى بداية التجربة تتلاشى فى نسلها من خلال التكاثر الطبيعى، إن تلك النتائج الباهرة التى تحققت من خلال البحث المشترك بين الشركة الكندية والجيش الأمريكى كانت حافزا للعلماء فى العديد من الدول على الادلاء بدلوهم فى هذا النبع الجديد للعلم والمعرفة، وها هى مجموعة من العلماء الألمان تعلن مؤخرا أنها قد نجحت فى إنتاج حرير العناكب من البطاطس، وفى نفس الوقت فإن الشركة الكندية الرائدة فى هذا المجال تعلن مؤخرا أنها بصدد البدء فى إنشاء مصنع كبير للأنسجة الطبية المصنوعة من حرير العناكب المنتج بالتقنية التى كان للشركة فضل ابتكارها، وتأمل الشركة مع وجود جينات لمختلف أنواع حرير العناكب أن تنتج أنواعا متعددة من غزل العناكب وبمواصفات مختلفة ، فأين نحن من تلك الثورات العلمية والتقنية؟ ■



واحة سيوة

بين العزلة والاتصال

بقلم
مصطفى نبيل



أقبلت بشغف على قراءة كتاب «واحة سيوة» للدكتور أحمد فخرى، فقد سبق وزرت تلك الواحة الساحرة، أجمل وأصغر وأبعد واحاتنا السبع.

ورأيت خلال هذه الزيارة أن الواحة تمثل نموذجاً فذا للفرق بين العزلة والاتصال، وشاهدت رأى العين كيف تقتحم موجات المدنية مجتمعا تقليدياً مغلقا، عندما لا يتم كبح جماح تلك الحداثة أو السيطرة عليها وضبط حركتها! وهو موضوع جدير بالتأمل والمناقشة.



رسم لواحة سيوة «عام ١٨٢٠» تظهر فيه أطلال مدينة «شالى» القديمة

والكتب التى تتناول مناطق نائية أو مميزة فى مصر، مثل هذا الكتاب، تستحق أن تقرأ، وهى جديرة بالاهتمام، وتشير إلى إحدى وسائل الخروج من الوادى الضيق إلى تلك الصحراء الواسعة . وكما يوجه د. أحمد فخرى كتابه الذى أصدره فى السبعينيات إلى الأجانب يحثهم على القيام برحلات فى الصحراء، يزيد الاحتياج لكتب تقدم المناطق المختلفة من مصر، وفرص التنمية فى كل منها.

والواحة التى قدمها د. أحمد فخرى هى التى أطلق عليها قديما أرض جوبتر آمون، والتى كان كهنتها هم الأقدر فى العالم على التنبؤ بالمستقبل، ومكشوفا عنهم الغيب، يأتى إليهم الفراعين والقياصرة والأباطرة، عسى أن يطمئن كل منهم على مستقبله.

قرية شالى

كان يعيش أهالى سيوة قديما وخلال عزلتهم فى عالمهم الخاص، الذى تشكل من خلال تراكم الخبرة الإنسانية، وفى تعاملهم المستمر مع البيئة التى تحيط بهم، وهى أبعد الواحات المصرية عن الوادى، تصل إليها القوافل من خلال دروب الصحراء، وكانت محطة ونقطة التقاء القوافل ، تنتهى القوافل الخارجة منها والمتجهة إلى الوادى فى كرداسة، والواحة إحدى النقاط الهامة على درب الأربعين الشهير والقائم منذ أيام الرومان، والذى توجد على طوله محطات بها آبار رومانية قديمة، وسيوة أيضا إحدى محطات قوافل الحج القادمة من دول شمال أفريقيا، ينتقلون من سيوة إلى الواحات البحرية ثم الفرافرة والداخلة ثم الخارجة، ومنها إلى أسيوط أو فرشوط وتنتهى عند قوص أو قفط.

وأقرب المعمور إليها هو واحة جغبوب إلى الغرب، الواحة المصرية حتى سنة ١٩٢٦، وبعدها انتقلت السيادة الليبية إليها، وكلتا الواحتين تقعان فى منخفض واحد، يومها كان الجمل والحمار وسيلتى الانتقال من الواحة وإليها، أحد الدروب يصلها إلى مسرب الاسطبل على البحر الأبيض بجوار مرسى مطروح، ودرب آخر يصل القوافل الخارجة منها إلى العلمين، ودرب يقطع الصحراء فى طريقه إلى الفيوم ومنها إلى كرداسة، وكانت القافلة تستغرق نحو تسعة أيام من مرسى مطروح إلى سيوة.

وفى هذه العزلة عاش الأهالى حياة راضية، أقاموا بيوتهم على ربوة عالية فوق جبل شالى، فى عمارة مميزة قليلة الفتحات، وبمادة خاصة هى الفورشيف وهو طين طفلى رملى مما حولهم، وهو فى متانة الأسمنت أو أشد، أما السقوف

والأبواب والشبابيك وحتى الأثاث فمن جذوع وجريد النخيل، ولهذا البناء ميزة فريدة فهو طارد للذباب والحشرات، التى كان يعانى منها الأهالى نتيجة وفرة التمر، وعلى طريقة المذهب الأباضى (أحد المذاهب الإسلامية)، يتحلقون حول الجامع الذى أقيم على أعلى نقطة فى الجبل، ولم أتبين اتباعهم لهذا المذهب إلا عند زيارتى لوادى مزاب فى جنوب الجزائر، فلفت انتباهى النظام الاجتماعى المتماثل ووحدة التقاليد بينهما، وأكد كبيرهم فى مزاب وجود المذهب الأباضى فى سيوة وأنه كثيراً ما يزورها، وأن أتباع المذهب الأباضى يمتدون حتى واحة سيوة مروراً بجبل نفوسه فى ليبيا، فالأقليات المذهبية تحتمى بالواحات المعزولة وقمم الجبال الوعرة، والغريب حقا غياب هذه المعلومات فى أى كتاب مدرسى عن مصر.

ويتحدث أهل سيوة لغة خاصة غير مكتوبة، يقول عنها د. أحمد فخرى اللغة السيوية، وهى لغة البربر والقبائل، وبالطبع فهم يتحدثونها إلى جانب اللغة العربية.

والمدينة العتيقة التى كانت تقوم فوق قمة جبل شالى ، ذات بوابة كبيرة محكمة المتاريس. حتى تصمد أمام هجمات البدو، ولا يسمحون للغرباء بالدخول إليها، ولا يسمح حراس تلك البوابة لأحد بالدخول سوى سكانها العائدين من العمل من أرض النخيل والزيتون.

وينظم العلاقات بين الأهالى الأعراف والتقاليد العريقة، ويلجأون للتحكيم فيما يحدث بينهم من منازعات، وقد حصلت خلال زيارتى للواحة سنة ١٩٧٩ على مخطوط يسجل القواعد التى تنظم العلاقات بينهم وكأنه الدستور، إن النظام الداخلى للواحة يحدد حقوق وواجبات كل طرف، وهو يقوم فى معظمه على الأعراف والتقاليد ، فمثلا يحكم على الأرملة التى توفى زوجها أن تظل فى منزلها لا تبرحه مدة أربعين يوماً، وعليها لكى تعود إلى الحياة أن تغتسل فى عين مياه بذاتها.

وعندما كانت الواحة تعيش فى عزلتها، تعرضت بيوتها للانهيار أكثر من مرة، حيث تكثر الأملاح فى مادة البناء، رغم ندرة سقوط الأمطار فى الواحة، وقد حدث ذلك مرتين فى عامى ١٩٣٠ و١٩٧٠.

ومازالت قرية شالى شاهداً على الزمن القديم، وبقيت أطلال القرية بأزقتها وزخارفها.

العزلة والاتصال

هكذا كانت الحياة فى الواحة فى أرض النخيل ووسط سحر الصحراء، وألق نجومها فى الليل.. علاقاتهم بالسلطة المركزية واهية، لا يكاد يصل إليها سوى القليل من التجار، يشترون زيت الزيتون

وتمر الواحة المميز، ولا تصلهم الطرق المعبدة، فلا سيارات ولا كهرباء، ولا إذاعة أو تليفزيون، ولهم فنونهم وموسيقاهم وأغانيهم.. وهناك رسالة دكتوراه تتناول الموسيقى الشعبية فى واحة سيوة للباحثة الألمانية بريچيت شيفر انتهت منها سنة ١٩٢٣، وسجلت العديد من الأغاني والإيقاعات ورصدت الآلات الموسيقية، ومنها أغاني تطهير مياه العيون، وأغاني تلقيح النخيل وخروج القوافل من الواحة، وهم يستخدمون الطبول والنايات، كما تناولت الباحثة العمارة ودلالة الأزياء والزخارف، والأساطير، وربطت بين أنواع الحلى والزخارف وبين الموسيقى والرقص، وأكدت أن هناك فرقا بين موسيقى سيوة وموسيقى البدو من حولها. ووجدت اتصالا بين موسيقى سيوة وموسيقى البربر. وبقيت الواحة حافظة للتاريخ وحاضنة للتقاليد. وانصهرت داخل الواحة تيارات مختلفة فى سبيكة واحدة.

وينقل د. أحمد فخرى بعض صور الماضى كما قدمها المؤرخون والرحالة، والتى تقدم ملامح ذلك المجتمع التقليدى، وجاء فى كتاب الخطط للمقريزى ذكر للواحة التى أطلق عليها سانتريه، وهو الاسم الذى أطلقته عليها المراجع الرومانية والإغريقية القديمة، كما نقشت على جدران معبد إدفو صور من الواحة الواقعة جنوب غرب وادى النطرون، وقال العلامة ابن خلدون عن أهلها إنهم يعودون إلى قبيلة لوانه البربرية.

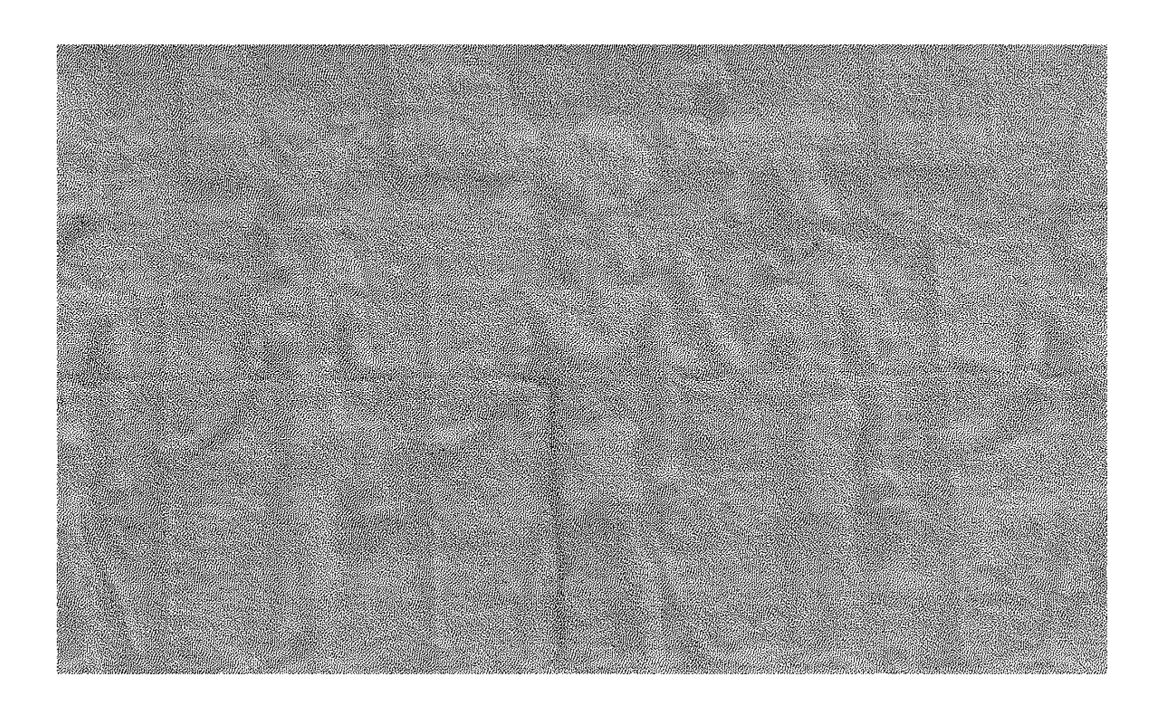
أما عندما زارها الرحالة الإنجليزى براون فى القرن الثامن عشر وتحديداً فى ٢٤ فبراير سنة ١٧٩٢، فقد لاحظ أن أهل سيوة لا يحتسون القهوة ولا يدخنون، وأن النفوذ فى الواحة يملكه خمسة من شيوخ القبائل.

ويذكر الرحالة بلجريف.. «كان أهل سيوة يسكنون الحصون، ويعيشون وراء أسوار عالية، وكانت المدينة مقامة فوق ربوة عالية ، ومبنية فى خطوط هندسية مستقيمة، ويبلغ ارتفاع أسوارها ٢٠٠ قدم..»، ووصفها الرحالة الألمانى فريدريك هورنمان سنة ١٧٩٨، أنها مجتمع صغير مستقل، لا يدفع ضرائب للسلطان العثمانى، وثروته تقوم على التمر وعلى تجارة القوافل».

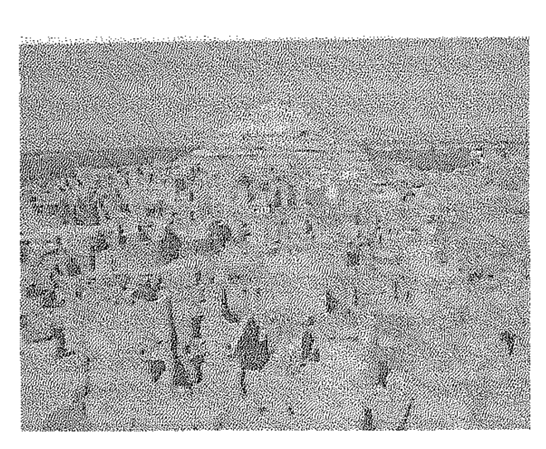
وهذا يؤكد ما خلفته قرية شالى من أطلال.

المدنية الحديثة

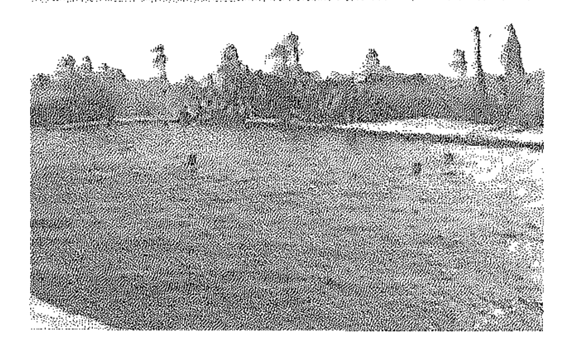
وعادة لا يبقى شىء على حاله، ولا يفلت أحد من الزمن وتقلباته، ولنتابع ماذا جرى فى واحة سيوة، عندما انتهت عزلتها واستبدلت السيارات بالقوافل.. والطرق المعبدة بدروب الصحراء. ونتابع معاً كيف



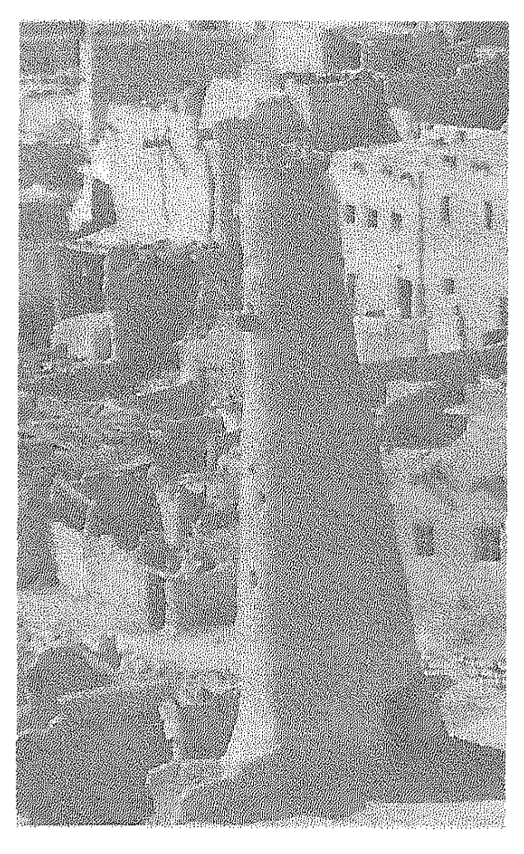
نقوش فرعونية على جدران معبد أمون بواحة سيوة



اطلال سيوة القديمة



عين كليوباترا



منارة مسجد بين بقايا «شالى» القديمة

وصل إليها ممثلو المدنية الحديثة.. بعد أن اختارت السلطة المركزية العمدة والمأمور، فأقيم قسم الشرطة قبل المدرسة والمستشفى والمتحف.

وما أدى إليه ذلك من تبدل حياة أهالى سيوة، واختلال التوازن البيئى القائم، واستبدال الأسمنت بالفورشيف المستمد من البيئة ، واستبدلت الأوانى البلاستيكية بالفخارية.

وتخلى الأهالى عن خبرتهم التاريخية المتراكمة، وهبطوا من التلال إلى السهل حول العيون، وبدأت متاعب من نوع آخر.. هل ذلك بسبب النموذج الذى قدمه الزحف الإعلانى الذى تعرضوا إليه عن طريق الصحف والإذاعة والتليفزيون؟!!

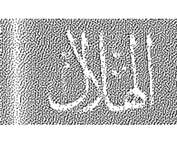
وها هو الكتاب يتناول التحول من العزلة إلى الاتصال ومن القرون الوسطى إلى العصر الحديث، بادئا من فترة حكم محمد على باشا، وأرسل الوالى العسكر إلى الواحة عام ١٨٢٠ بقيادة حسن بك الشمشرجى، ولم يجد وسيلة للسيطرة سوى عن طريق إطلاق البنادق، ولقى عدد من الأهالى مصرعهم، ووصلت فى النهاية السلطة المركزية إلى الواحة، ولم يكتف الشمشرجى بإطلاق البنادق وإنما فرض على الواحة دفع ١٢ ألف ريال غرامة وثمنا لعصيانها ، واختير «على بالى» عمدة للواحة، معززاً بأربعين جنديا، وأعقب ذلك تعيين «فرج الكاشف» مأموراً للواحة!.

وأقيم أول بيت حكومى، خارج قرية شالى وعلى الطراز الحديث، والأدهى من ذلك أن المأمور الجديد «محمود عزمى»، هدم معبد «أم عبيده»، حتى يقيم بحجارته مركزاً للشرطة!.

وتعتبر سيوة بالنسبة للمواطنين إحدى المناطق النائية التى لا يسعدهم العمل أو الانتقال إليها، ومنذ أيام محمد على تكررت أعمال العصيان والتمرد، والصدامات بين الشرطة والأهالى.

وأخذت موجات المدنية تزحف، وظهرت السيارة القادرة على اقتحام الصحراء، وكانت الواحة ساحة لصراع مسلح عنيف، لا ناقة لها فيه ولا جمل، خلال الحربين الأولى والثانية، ودخلتها القوات البريطانية فى ٥ فبراير ١٩١٧، ووصلتها قوات استرالية وإنجليزية ونيوزيلاندية خلال الحرب الثانية، كما تعرضت للقصف بالطائرات وتم احتلالها من القوات الإيطالية ثم القوات الألمانية، ودُعى القائد الألمانى الشهير روميل لشرب الشاى فى أحد بساتينها ، وبقيت القوات الغازية مدة ثلاثة شهور وثمانية عشر يوماً.

وكما ترى لم تر الواحة من المدنية إلا القهر والحروب وجباية الضرائب، وحتى عندما وصلها ممثلو الإدارة، لم يعرفوا عنها سوى أنها نائية عن الوادى، وأن



طلقات الرصاص هى وسيلة التعامل معها، وعندما أقيمت المدرسة، طاقة النور، قامت دون أدنى علاقة بالبيئة من حولها.

وأخذ هذا المجتمع يتداعى، واختل توازنه البيئى والتناغم القائم بين الإنسان والطبيعة، وانهارت شالى وهبط سكانها من الجبل إلى الوادى، وأقاموا بيوتهم بعيداً عن الطابع القديم، ولأول مرة تصبح المشكلة فى واحة وسط الصحراء هى الغرق، فيمكن أن تغرق جزيرة وسط البحر، أما أن تغرق واحة وسط الصحراء، فهذا هو العجب العجاب، والمشكلة ليست الرى بقدر ما هى الصرف، واستخدام المياه بلا ضابط، مما أدى إلى ارتفاع منسوب المياه الجوفية، وزيادة ملوحة بعض عيونها، ومن ناحية أخرى زحفت كثبان الرمال على أرض الواحة المزروعة.

ورغم سهولة الحل، فمازال بعيداً، فهو يكمن فى عودة الأهالى إلى سكن التلال، وزرع أنواع خاصة من الأشجار تثبت الكثبان الرملية، وتركيب محابس على العيون، لعدم تجاوز ما تحتاجه الأرض من المياه.

وهناك أيضا مشروع على الورق، لم ينفذ بعد والذى يقضى بتصريف المياه فى منخفض القطارة.

ومن ناحية أخرى يهدد النمل الأبيض النخيل فى الواحة، وبدلاً من مواجهة هذه المعضلات الحقيقية، يتركز الاهتمام على إنعاش السياحة فى الواحة، ولدى البنك الدولى استعداد لتمويل المشروعات السياحية، ومازالت محاولات نقل الواحة إلى العصر الحديث مستمرة، واكتمل الطريق البرى الذى يصل مرسى مطروح بسيوة منذ عام ١٩٨١، وهناك طرق أخرى تصل سيوة بالفيوم، وقد تم تعبيد الطرق التى كانت فى الماضى دروباً للصحراء، كما أقيم العديد من الفنادق، وبعضها أدرك روح الواحة وطبيعتها، مستبعداً كل المستحدثات، من الهواتف إلى الكهرباء، ويقدم جمال الحياة الفطرية، وعمارة الواحة المميزة وحتى يشعر الزائر بسحر الصحراء.

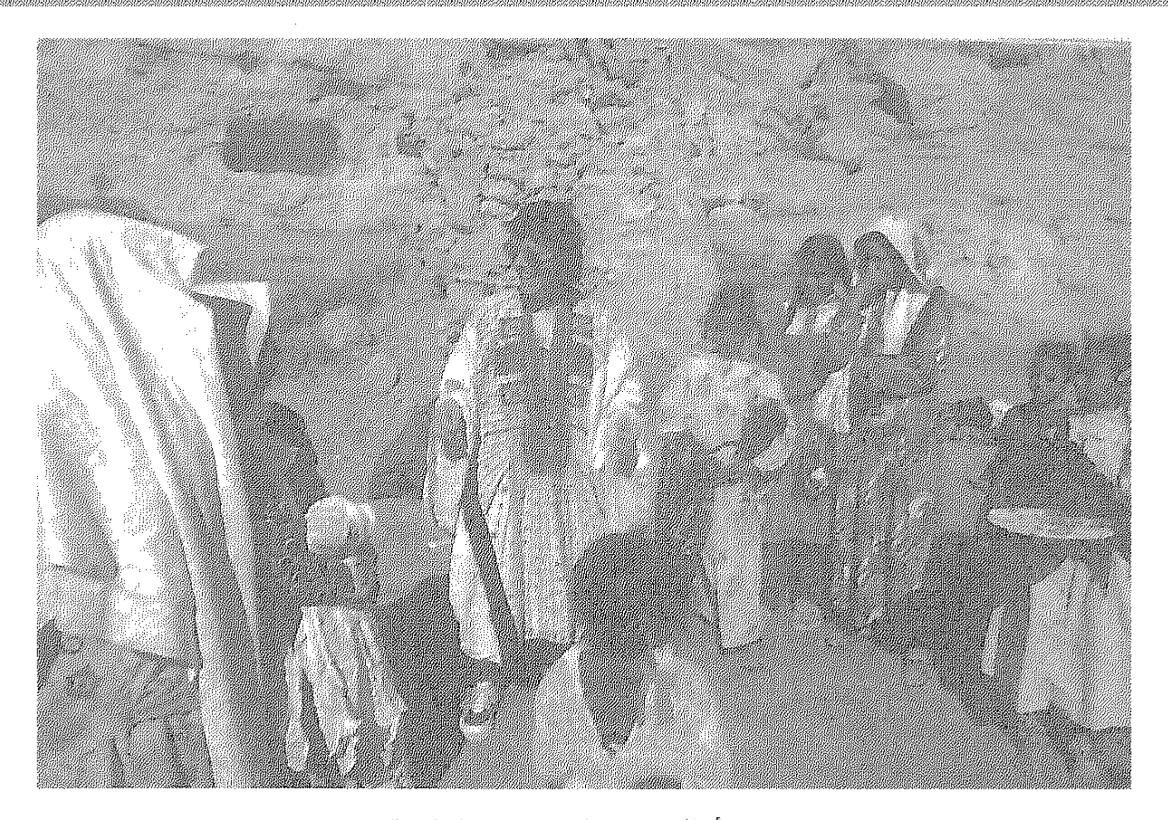
وتقدم العديد من الدول مساعداتها فى هذا الإطار، مثل ألمانيا وإيطاليا وكندا التى أقامت بيت التراث السيوى جمعت فيه المنتجات اليدوية المحلية.

مخاصمة الحداثة !

هل معنى ذلك العرض، أنه دعوة مستحيلة إلى العودة إلى الوراء ورفض صور المدنية الحديثة؟!، أى أنه دعوة ضد إقامة المدارس والمستشفيات، ورفض مستحدثات العصر التى ظهرت حتى ترتقى بالإنسان؟!

قطعا.. ليس هذا هو المقصود ولكن الهدف هو التنبيه إلى خطورة تلك المدنية





بعض من أهالي سيوة ابملابسهم التقليدية

المصحوبة بالعشوائية، والتى لا تفهم ولا تلتزم روح المكان، ولا تقوم على خطة علمية مدروسة، وأهداف واضحة، وألا تسير الحداثة مثل العربة الطائشة التى لا مقصد لها، ولا تعرف مع أية قيم قائمة تصطدم!

فلابد أن تسير خطة التحديث على دراسة عميقة للواقع، ومعرفة بمتطلباته حتى لا تعود بالمجتمع إلى الخلف، وبدلاً من التقدم إلى الوراء.

ولا يجوز أن يصبح المدخل إلى تطور هذه المناطق البعيدة عن طريق البدء بجباية الضرائب قبل تقديم الخدمات، وضرورة العمل على التنمية القائمة على الحفاظ على خصائص وطابع هذه الواحة وأن تراعى روح المكان وروعته وحرمته.

وغنى عن البيان أن السياحة رغم أهميتها، لا تنتعش ما لم تكن جزءاً عضويا من تنمية شاملة ، ولابد أن يشمل النهوض كل الاتجاهات.

وجاذبية الواحة للسياحة لا تنكر، فقد زارها الإسكندر حتى يعرف من الإله آمون المستقبل، وغرق فى رمال صحرائها جيش قمبيز.

لؤلؤة الصحراء

نعود إلى الكتاب المهم للدكتور أحمد

فخرى، الذى ينقل تجربته الحية فى الواحة، عندما كان ينقب عن الآثار، والتى سحرته بغموضها، فهى لؤلؤة وسط الصحراء وهى أغنى وأبعد نقطة بعيداً عن الوادى .

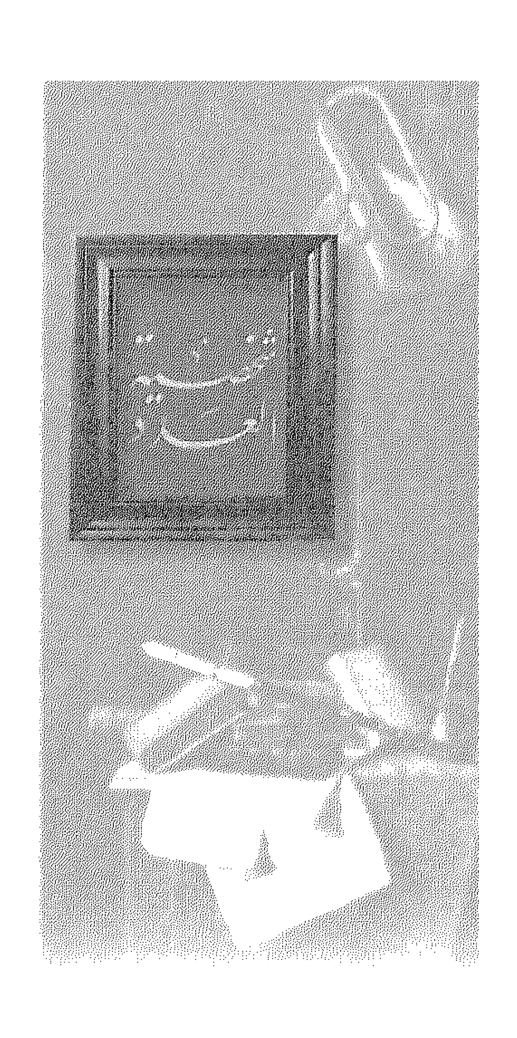
وهذه هى معالم الواحة كما يصفها د. جمال حمدان، تقع سيوة فى نصف منخفض نصفه الآخر هو واحة جغبوب، وهى مفتوحة غرباً على جغبوب، أعمق نقطة فى المنخفض ١٧ مترا تحت سطح البحر، مساحة الواحة حوالى ألف كيلو متر، بطول ٧٥ كيلو مترا وعرض فى المتوسط ١٥ كيلو مترا، يبدو قاع الواحة مثل الغربال المثقوب، تنتشر فيه العيون ، ويظهر أن قاع المنخفض كانت تحتله بحيرة واحدة، وهناك نحو ٥٠٠ عين نصفها صالح للشرب والرى، وبعضها ساخن والآخر بارد، يتجاور أحيانا الحلو والمالح، والبارد والساخن، وبها نحو ١٨٠ ألف نخلة و ٢٠ ألف شجرة زيتون وهى أكبر مزرعة زيتون فى مصر، ومتوسط دخل الفرد فى سيوة أعلى من متوسط دخل الفرد فى الوادى، وتتوسط مدينة سيوة جبل الموتى وجبل التكرور وآغورمى فى الشمال والذى يقع فوقه معبد آمون .

وبعد هذا الاستعراض يلح علىّ سؤال يبحث عن إجابة.. وهو لماذا يرتبط سكان الصحراء الغربية بمن فيهم سكان الواحة وما حولها من قبائل أولاد على بالمغرب، ويتجهون غرباً نحو ليبيا والمغرب؟.. ولماذا أيضا يرتبط بدو سيناء بالشرق ويرتبطون بامتدادهم فى النقب ومعان والجزيرة العربية؟!. ولماذا ثالثا يتجه أهل النوبة وقبائل العبابدة والبشارية جنوباً إلى السودان رغم أن وادى النيل هو أقدم كيان حضارى على مر التاريخ، شكل على الدوام إشعاعا حضارياً؟!!.

ربما كان ذلك نتيجة غياب المعرفة من أهل الوادى لطبيعة سكان الصحراء وخصوصيتهم، أو ربما بسبب ما يجلبه سكان الوادى إليهم من مدينة منقوصة أو مغشوشة، ولعل ذلك هو السبب الذى من أجله أقامت وزارة الدفاع مركزاً ثقافيا كبيراً فى سيوة، كخطوة مهمة على طريق الفهم المتبادل.

وأخيرا ..

لقد أصدرت الجامعة الأمريكية هذا الكتاب، والأجدر أن ينشر هذا النوع من الكتب من خلال الجامعات المصرية، ولا أدرى لماذا يدفع المتبرعون خمسة وخمسين مليونا من الدولارات من أجل بناء مبنى جديد للجامعة الأمريكية، والجامعات المصرية هى الأكثر حاجة إلى تجديد مبانيها. ■



كامل زهيري

مثقف مصري

بلا مطامع ولا خيانات

بقلم

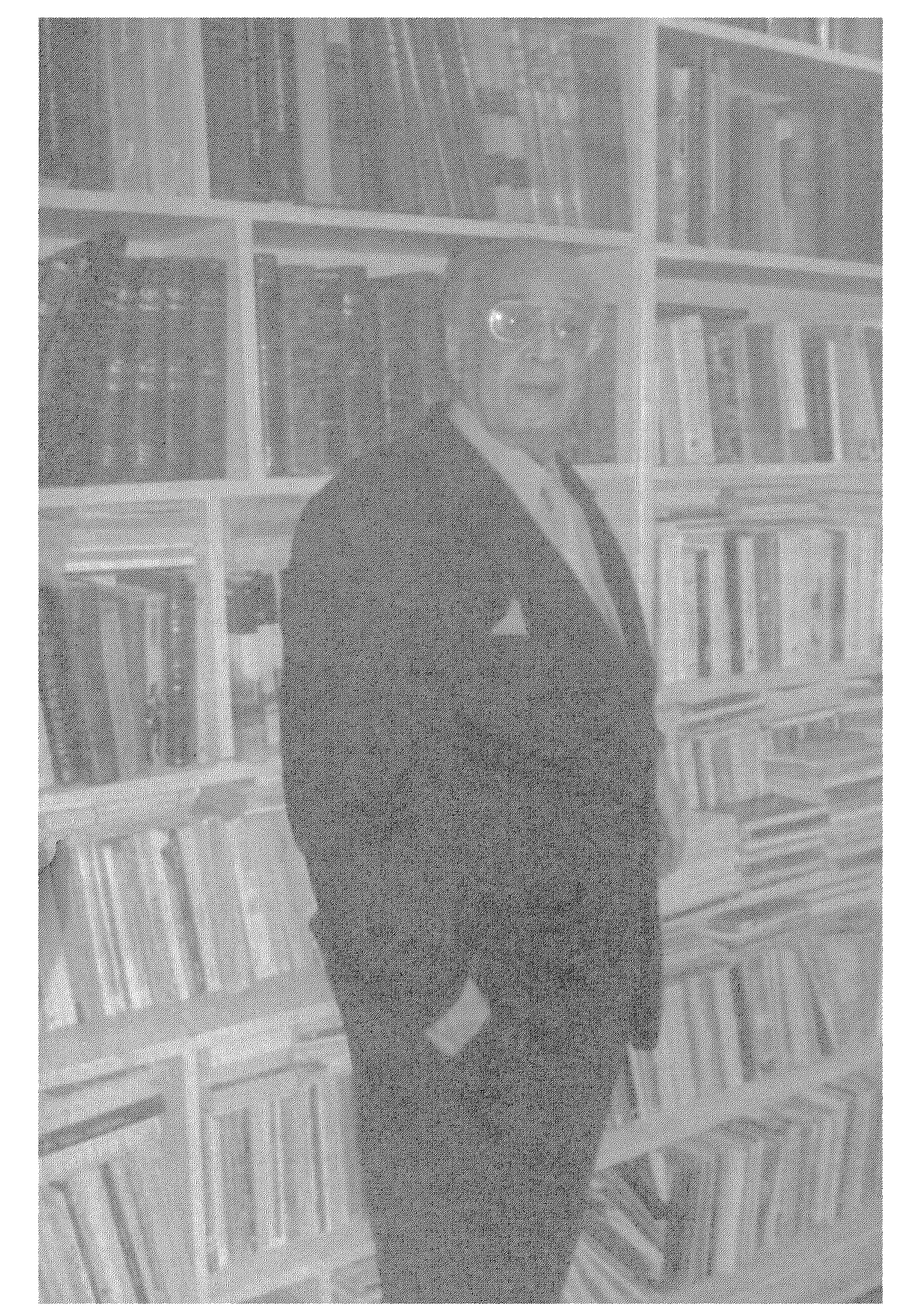
علاء الديب

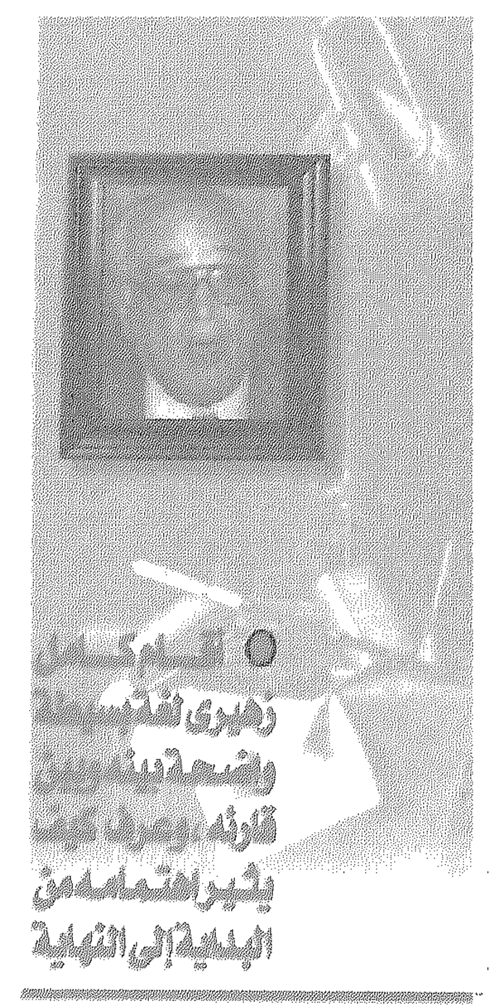
محمد كامل زهيري «أستاذ كامل». هكذا أحب أن أناديه. أعطاه الله بسطة في الجسد والروح والحضور. ظله أمامه وخلفه. يمشي وسط محبة من الزملاء والحواريين. له في العقل والقلب مكانة - رغم بعد الشقة وندرة اللقاء. آثاره باقية في نقابة الصحفيين المصريين، رغم تغيير البناء، وباقية أيضا في المؤسسات الصحفية التي عمل بها رغم التغيير والتبديل (دار روز اليوسف - دار الهلال - دار التحرير).

مكانته خاصة عصية علي التصنيف. لا يشبهه أحد ولا يقف في طابور. هو الأستاذ والصديق، وبالنسبة للقارئ الذي يعرفه من كتابته هو محرك للفكر، داعية للحرية.

لو أن الزمن غير الزمن، لكتبنا قصائد مديح في شخصه ورحلة فكره وحياته. يكفي الآن أنه ظل واقفا بيننا شامخا هكذا، وصلبا.







مثقف مصري بلا مطامع ولا خيانات.

يحب النيل وأم كلثوم

ابن عائلة قاهرية، عريقة في قاهريتها. يقال أنه السابع الذى يحمل اسم محمد. والده تاجر ناحية الأزهر. تقلب بين الغنى والستر. لم يرث إلاً حب المعرفة والعلم، والتطلع الشغوف في كتاب الكون. على خلاف أكثر المثقفين فإن علاقته بالشارع وبالناس وبالعمارة والفن جزء من وجوده. ضاحك، سمح بسيط، يحب النيل، وأم كلثوم (أليس قاهريا) إذا حضر مجلسا لا يمكن أن تنسى وجوده.

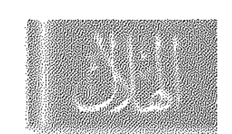
ولد ١٩٢٧ وتخرج في حقوق القاهرة ١٩٤٧. سافر عقب تخرجه إلى الهند ليعمل في الإذاعة. هناك كان هو «الجالية المصرية» هكذا أطلق على نفسه أو أسماه السفير. لعل السفر في هذا الاتجاه كان بداية التفرد. فعلى الرغم من معرفته بالثقافة الفرنسية، ومحبته لباريس، فلم يكن من المنبهرين الواقعين في شباكها. «علمته الهند أن لا ينبهر بشيء. أعطاه السفر إلى هناك أولا، مناعة وحصانة، وتقديرا لن يزول بعد ذلك أبدا: للروح والتقاليد، والذوق، ومعنى اتساع التجربة الانسانية وتنوعها. فظل واحدا من الاشتراكيين المصريين القلائل الذى لم يرتد بدلة جامدة، أو يسير فى فكره على قضبان حديد.

●●●

أول صورة أذكرها له، هى صورته وهو يخرج باب «خارج الحدود» أوائل الستينات، وقتها كان الباب والمجلة نافذة حقيقية على الحركات والتيارات السياسية والثقافية فى الخارج، فى ذلك الحين كان الاطلاع أو الاتصال بالخارج صعبا ومقلقا. كان يؤدى دوره بإمكانيات قليلة وبمساعدين أقل (كان من بين مساعديه قرينته الزميلة خديجة قاسم). كان مكتبه – كما فى الصور – أكواما من الورق والكتب والمجلات. لكنها لا تستطيع أن تخفى جسده الفاره، ولا حيويته المتدفقة. كان موجودا فى مجلة روز اليوسف كلها بالرأى والفكر وبالروح «الأستاذية الصديقة» التى اختلف بها عن غيره من أساتذة ذلك الزمن.

وهذه موهبة ربانية لا تكتسب.

جيل الأساتذة هذا الذى شاهدته فى مجلة روز اليوسف لعبوا – مع قليل غيرهم – لعبوا الكراسى الموسيقية فى شغل كراسى قيادة المؤسسات الصحفية. تولى كل منهم أكثر من منصب فى مواقع مختلفة. اقترب بعضهم جدا من السلطة،



وابتعد البعض قليلا أو توارى فى الظلام.

أعتقد أن الأستاذ كامل يظل هو الوحيد الذى لم يرتد ثيابا غير ثيابه، ولم يقم بدور غير الدور الذى اختاره لنفسه وأراده لها. اقترب كثيرا وابتعد من مراكز القوى والسلطة والنفوذ. ولكنه ظل الأستاذ كامل.

دخل انتخابات نقيب الصحفيين ونجح مرة وهو «مرشح الحكومة» كما نجح مرة أخرى وهو «ليس كذلك». يذكر تاريخ النقابة له مواقفه وأداءه القوى والحذر فى وسط أجواء عاصفة حول حرية الصحافة ودور النقابة. كما أحسبه أيضا آخر رئيس لاتحاد الصحفيين العرب قبل عصر التكتلات والانقسامات العربية، عندما كان هناك أمل واحد يعمل له الجميع.

●●●

«قارئ محترف.. وكاتب هاو» هكذا يحب أن يقول عن نفسه، ومع ذلك فقد ظل يكتب بقلم واحد فى كل مكان وكل موقع. أقام لغة بسيطة واضحة بينه وبين قارئه. عامل القارئ بنفس روح الأستاذية الصديقة، فقدم له معرفة جديدة. ورأى واضح دون تقعر أو تعالٍ. كتب المقال السياسى، والاجتماعى، والثقافى والفنى، وكتب «العامود الصحفى» والتحقيق والدراسة. وعندما أراجع ما قرأت له، أجد الخاصية المميزة، أننى لم أمل أبدا، ولم أقفز فوق السطور. عرف دائما كيف يمسك باهتمام قارئه فى البداية كما فى النهاية.

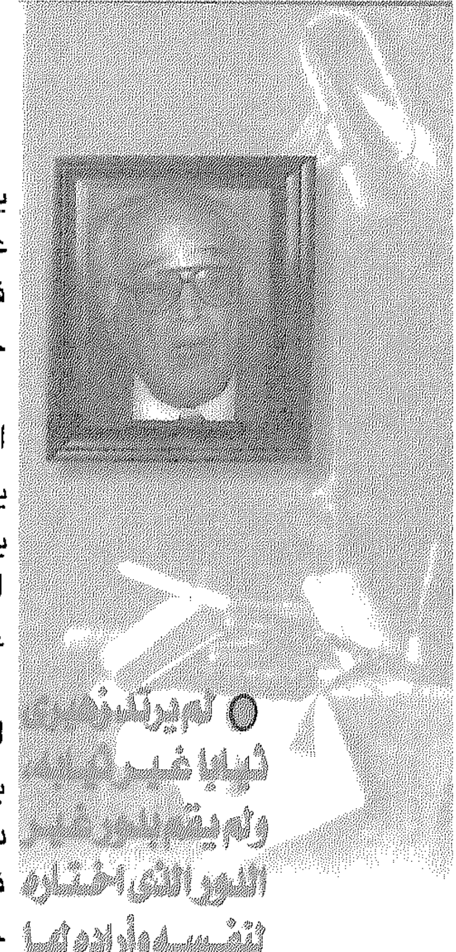
أعرف أنه ضد المقال الطويل فى الجريدة أو المجلة، كما أعرف أنه ضد الخطاب «الدرامتيكى» فى المقال السياسى. ولعله واحد من كتابنا السياسيين القلائل الذين ظلوا يكتبون «للقارئ» وليس «للمسئول» أو صاحب السلطة، لا تصريحا ولاتلميحا . وأظنه كتب مرة – أو ردد – أنه يتمنى أن يكون هناك مقعد خال فى مجلس تحرير الجريدة أو المجلة لكى يشغله.. القارئ.

فى كتابة الأستاذ كامل ملمح أخير هو أنك ترى خلف خطوط السياسة وحساباتها عين الأديب.. والفنان، وترى فى كتابته عن الثقافة والفن حس من يحمل بوعى المسئولية الاجتماعية.

●●●

تنير كثير من أفكار الأستاذ كامل عن طريق الصياغة الخاصة المحكمة التى يقدمها فيها. براعة خاصة مليئة باللماحية والسخرية لعل أوضح دليل على ما أقول هى صورته أو فكرته عن المياه الجوفية». فقد تصور أن تلك الأغلبية الصامتة التى تبدو لا مبالية وغير مهتمة لا بالسياسة ولا بالشأن العام.. هى مياه جوفية نسبح فوقها. تشكل خطورة غير منظورة، وبالرجوع إلى التاريخ القريب، نرى أن هذه المياه الجوفية تفاجئنا كل عدد من السنين بحركة أو انفجار مفاجىء، بعد أن كنا نحسب أن خطرها الوحيد هو مجرد «النشع».

كلمات مثل «الشعب» أو «الجماهير» اختفت من القاموس السياسى ولم



يعد الكتاب يستعملونها كثيرا، حتى حسبنا أن المعانى التى تدل عليها قد اختفت أو تبدلت، حتى تقع فى صياغة للأستاذ يقول فيها ببساطة الشعب والجماهير هم «كل من ليس لهم مصلحة خاصة ضد الصالح العام» .

وعلى الرغم من أنه أطلق على صحافة السنوات التى أعقبت الثورة «صحافة التعبئة» فإنه - وقليل غيره - استطاعوا أن يتمسكوا بنبرة موضوعية عاقلة محاولين قدر المستطاع التمسك بخدمة القارئ وليس مجرد المسئول أو النظام «موسوعة الاشتراكية» التى صدرت عن دار الهلال تحت إشرافه أوضح دليل على ما أحاول أن أقول.

عندما يحتار فى توصيف حال البلد يقول «علينا أن نخرج من النهر إلى البحر» عاكسا شعار فلسطين التاريخى، وعندما يلتقى بالشباب الذى يلقى بكل المسئولية على ثورة يوليو يقول «لقد دخلوا الفيلم من نصفه». كما كان له اعتراض أساسى متكرر على فكرة «أوراق اللعبة» التى فى يد أمريكا وحدها. وله تعليق ساخر حقيقى على من يتفاوض فى السياسة والاقتصاد فى وقت واحد.

يعرف «الأستاذ» دائما كيف يضع فكرته السياسية المجردة فى صورة مجسمة تصل إلى القارئ وتبقى معه .

يعود بنا كثيرا فى كتابته وحديثه إلى مظاهرة أحمد حلمى (خال صلاح جاهين) من أجل حرية الصحافة، تلك المظاهرة التى وقعت ١٩٠٩ واستمرت لمدة ٤ أيام واشترك فيها (١٠ آلاف مصرى.!).



هو ذلك المثقف العارف بحضارة الغرب. لكنك لا تلمس لا فى الكتابة ولا فى السلوك. ذلك الذى يقال عنه «فرنجه». تجد عنده معنى حقيقيا للتحضر يجمع فى خصوصية فريدة بين الأصالة، والذوق، وسماحة المعرفة، والقدرة على قبول الآخر.

الأستاذ كامل فوق ذلك كله، رسام يحب ألوان الباستيل، ويتقن الرسم بألوان الزيت الصعبة موضوعه المفضل فى الرسم هو النساء والورد، وعلاقته ومعرفته بالعمارة القاهرية والإسلامية علاقة مكملة لبنائه الفكرى والثقافى.

هو يسكن جوار النيل قريبا جدا من المكان الذى سقطت فيه «فيللا أم كلثوم» العريقة - واحدة من جرائمنا التى لا تغتفر. ولعله يحاول أن يعوضنا عنها بذلك المكان البديع الذى يتولى إدارته: مكتبة القاهرة الكبرى بالزمالك. ■



يادجلة الخير

للشاعر العراقي الكبير
محمد مهدى الجواهرى

حَيَّيْتُ سفحَكِ عن بُعْدٍ فحيّيني   يادجلةَ الخيرِ، يا أُمَّ البساتينِ
حَيَّيْتُ سفحَكِ ظمآناً ألوذُ به   لوذَ الحمائمِ بين الماءِ والطينِ
يادجلةَ الخيرِ ياَنبعاً أفارقُهُ   على الكراهةِ بين الحِينِ والحينِ
إنّي وردتُ عُيونَ الماءِ صافيةً   نَبْعاً فنبعاً فما كانت لتَرْويني
وأنتَ ياقارَباً تَلْوي الرياحُ به   لَيَّ النسائمِ أطرافَ الأفانينِ
وددتُ ذاكَ الشِراعَ الرخصَ لوكفني   يُحاكُ منه غداةَ البَينِ يَطويني
يادجلةَ الخيرِ: قد هانت مطامحُنا   حتى لأدنى طِماحٍ غيرُ مضمونِ
أتَضْمنين مَقيلاً لي سَواسيةً   بين الحشائشِ أوبين الرياحينِ؟
خِلْواً من الهمِّ إلاّ همَّ خافقةٍ   بينَ الجوانحِ أعنيها وتَعنيني
تَهُزُّني فأُجاريها فتدفعُني   كالريحِ تُعجِلُ في دفعِ الطواحينِ

* * *

يادجلةَ الخيرِ: ياأطيافَ ساحرةٍ   يا خمرَ خابيةٍ في ظلِّ عُرْجونِ
ياأُمَّ بغدادَ، من ظَرفٍ، ومن غَنَجٍ   مشى التبغدُدُ حتى في الدهاقينِ
ياأُمَّ تلكَ التي من «ألفِ ليلتِها»   للآنَ يعبِقُ عِطرٌ في التلاحينِ
يامُستَجمَ «النُّوَاسيِّ» الذي لبِستْ   به الحضارةُ ثوباً وشيَ «هارونِ»



أحمد طه

ونصف قرن من النضال

بقلم

د. رءوف عباس

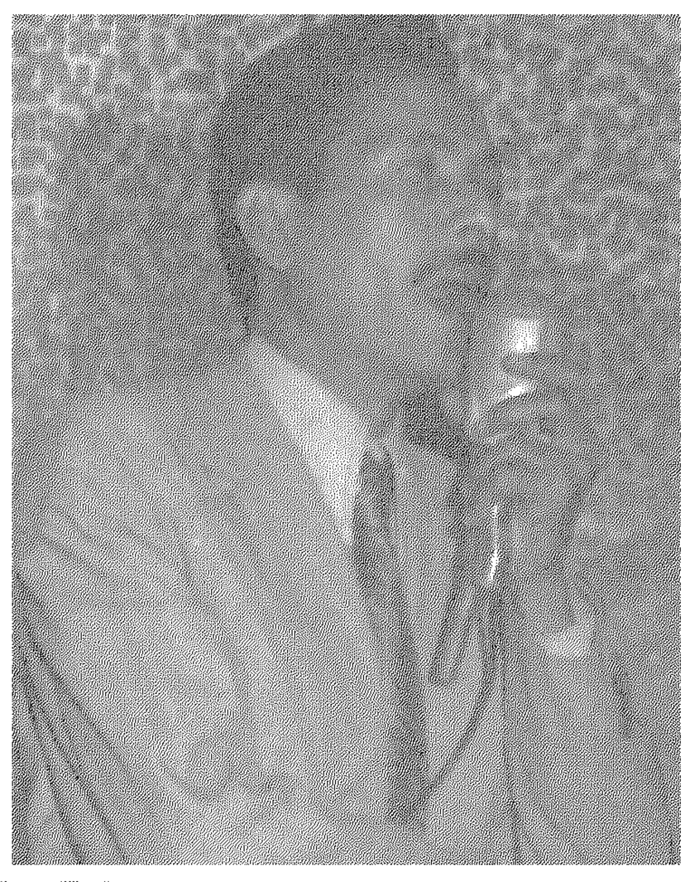
فقدت مصر ، بل فقد النيل أحد أبنائه المناضلين من أجل حياة حرة كريمة للكادحين من أبناء وادى النيل ، ومن أجل رفع راية الاستقلال الوطنى على مصر والسودان . فقدت مصر ، وفقد النيل أحمد طه المناضل النقابى ، والنائب المدافع عن قضايا وطنه وقضايا جماهيره . ارتبط بالنيل وواديه منذ مولده فى منتصف عشرينات القرن العشرين . والده الريس طه أحمد الذى عاش حياته على صفحة النهر المبارك ، يقود المراكب الشراعية التى تقطع النهر صعودا وهبوطاً ، كما كانت تفعل منذ كانت الحضارة لاتزال فى مهدها ، وقدم هذا الإنسان المصرى البسيط لوطنه ولدين تعلما تعليما فنيا ، التحق أكبرهما «عبدالقادر طه» بخدمة الجيش المصرى ، وأصبح ضابطا من الضباط الأحرار ، واغتاله «الحرس الحديدى» ، قبيل قيام ثورة يوليو . وكان ولده الثانى «أحمد طه» مناضلا وطنيا يعمل بين الجماهير ، ويعيش قضاياهم ، وقضايا الوطن ، حتى وافاه الآجل فى نهاية الشهر الماضى .



عرفت أحمد طه فى شتاء عام ١٩٦٥، كنت - عندئذ - أعد أطروحة الماجستير حول «الحركة العمالية المصرية» ، واستطعت خلال عام ١٩٦٤ أن ألتقى النبيل عباس حليم ، وأن أضع يدى على الخيوط التى قادتنى إلى مجموعة النقابيين الذين تعاونوا معه ، وكانوا يمثلون «اليمين» فى الحركة العمالية . أما اليسار، فلم يكن هناك سبيل للتعرف على أقطابه فقد كان معظمهم قد خرج من المعتقل قبل شهور معدودة ، ولم يطمئن أولئك الذين طرقت أبوابهم إلى ذلك الشاب المجهول الهوية ، الذى يطرح الكثير من الأسئلة ، ويستعلم عن كيفية الوصول إلى دوريات وأوراق الجناح اليسارى فى الحركة العمالية .

وشاءت الصدفة أن ألتقى زميلا قديما بكلية الآداب جامعة عين شمس ، هو الصديق سعد صمويل ، بينما كنت أتفحص الكتب على سور الأزبكية ، وكنت لم أسمع عنه منذ سنوات ، وعندما علم بموضوع أطروحتى وما أعانيه من صعوبة العثور على مادة عن الجناح اليسارى فى الحركة العمالية ، رحب بمساعدتى على الفور وتقديمى لبعض الشخصيات المهمة فى هذا الفصيل من الحركة العمالية .

لم أكن أعرف أن غيبة الزميل التى طالت لسنوات كان سببها الاعتقال ضمن الموجة الشهيرة التى وقعت عشية ختام عام ١٩٥٨ وجمعت كل نشطاء وكوادر التنظيمات الشيوعية . وبعد أن سرنا معا إلى إحدى العمارات القديمة بالقرب من حديقة الأزبكية ، صعدنا إلى إحدى الشقق تؤجر غرفها كمكاتب ، وفى إحدى تلك الغرف كان مكتب «دار الجماهير للنشر» ، وهناك قدمنى سعد



كان أحمد طه من الكوادر النشطة التى أسست «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» - ديسمبر ١٩٤٥

صمويل إلى أحمد طه ، الذى قدمنى - بدوره - إلى محمود يوسف المدرك ، ومحمود العسكرى، وعن طريق هؤلاء المناضلين الثلاثة ، استطعت أن أتعرف على الدور البارز الذى لعبه اليسار فى الحركة العمالية.

وقد فتح لى «أحمد طه» بيته (برقم (١) شارع طاهر - قسم الساحل) حيث كنت ألتقيه عدة ساعات صباح الجمعة فى الأسبوع الأول من الشهر ، ولمدة أربعة شهور ، قدم لى فيها معظم ما حصلت عليه من معلومات حول «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» الذى تأسس فى أواخر الحرب العالمية الثانية ، «واللجنة التحضيرية لمؤتمر نقابات عمال مصر» التى شكلت فى ١٩٥٠ ، والجهود التى بذلت لتمثيل مصر فى المؤتمر التأسيسى لاتحاد النقابات العالمى عام ١٩٥٤ . مما شجع

المدرك والعسكرى على مدى بالمعلومات وبعض الأوراق الخاصة «بلجنة العمال للتحرير القومى» ، وأتاح لى فرصة إبراز دور اليسار فى الحركة العمالية : وتبين - من خلال حديثى مع آخرين من مختلف فصائل اليسار - أن الرجل كان موضوعيا ، أمينا ، فى كل ما قدمه لى من معلومات ، لم يحاول خلالها أن يبالغ فى الدور الذى لعبته كوادر «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو) نفى الحركة العمالية على حساب غيرهم من المنتمين إلى الفصائل الأخرى ، رغم انتمائه إلى الفريق الأول .

★★★

جاء أحمد طه إلى الحركة العمالية من خلال نضاله شابا فى مطلع العقد الثالث من عمره من خلال نقابة عمال ماركونى ، وهى شركة الاتصالات التليفونية الدولية التى احتكرت هذه الخدمة فى مصر وغيرها من بلاد البحر المتوسط لنصف القرن ، قبل أن يلتحق أحمد طه بها كفنى اتصالات . فلا غرابة أن يتفتح وعيه على هيمنة رأس المال الأجنبى على الاقتصاد المصرى فى مختلف القطاعات ، وما تعرضت له الطبقة العاملة المصرية من التعرض لأسوأ ظروف العمل وشروطه فى تلك الشركات الأجنبية التى مارست كل أشكال التمييز بين المصريين والأجانب من ناحية ، وبين المصريين وبعضهم البعض ، أى بين العمال والفنيين المصريين والنفر القليل من موظفى الإدارة من مواطنيهم ، وكان ذلك التمييز واضحا فى الأجور وساعات العمل ونظام الأجازات على وجه الخصوص .

وعندما نزل أحمد طه سوق العمل فى نهاية الأربعينات كانت مصر تموج بحركة سياسية وطنية نشطة تطالب بالتخلص من ربقة معاهدة ١٩٣٦ التى وضعت مصر ومواردها وشعبها فى خدمة «الحليفة» بريطانيا فى حرب عاد غنمها على الحلفاء وبقى غرمها للمصريين . ولذلك نشطت التنظيمات السياسية الرافضة للممارسات السياسية للأحزاب الليبرالية التقليدية التى تقلبت على الحكم فى ظل دستور ١٩٢٣ ، تجاه القضية الوطنية (الاستقلال الوطنى) ، وقضية الإصلاح الاجتماعى ، ونعنى بها المنظمات الشيوعية ، ومصر الفتاة ، والأخوان المسلمين . فما أن وضعت الحرب أوزارها فى ١٩٤٥ ، حتى عمت مصر من أقصاها إلى أقصاها حركة تطالب بالاستقلال التام ، وتحقيق العدالة الاجتماعية ، كانت حركات الرفض السياسى والطليعة الوفدية فى مقدمتها» .

وهكذا أضاف أحمد طه إلى وعيه بما لهيمنة رأس المال الأجنبى من خطر على مصر ، وعيا أعمق ، بأصل هذه الظاهرة ، وهو الوجود الاستعمارى البريطانى فى مصر . وكان طبيعيا أن يختار الوقوف فى خندق اليسار . ورغم اختياره النضال فى صفوف الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى ، إلا أنه كان حريصا على الالتحام بالجناح اليسارى للحركة العمالية، والتعاون مع النقابيين من الفصائل الشيوعية الأخرى من أجل تحقيق الأهداف المشتركة للحركة العمالية المصرية .

ولا أعرف - تحديدا - متى انضم أحمد طه إلى «حدتو» ، فلم أسأله عن ذلك، وكان الرجل لايحب الكلام عن نفسه.

ولكننا نجده بين الكوادر النشطة التى شاركت فى تأسيس «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» الذى تكون فى ديسمبر ١٩٤٥ . فقد كان

قانون الاعتراف بنقابات العمال الصادر فى ١٩٤٢ يحرم تشكيل اتحاد عام لنقابات العمال ، ومن ثم كان التحايل على القانون بإطلاق اسم «مؤتمر» على تجمع مايزيد على ٢٥ نقابة من نقابات عمال القاهرة فى قطاعات النقل والصناعة والخدمات فى شكل اتحاد هدفه المطالبة بتحسين أحوال العمل والعمال ، وخاصة مواجهة مشاكل الغلاء وانخفاض الأجور والبطالة وعدم توفر التشريعات التى توفر الحماية للعمال وتؤمنهم ضد مختلف الأخطار .

***

وقد لعب النقابيون اليساريون دورا مهما فى حشد النقابات وراء هذا التنظيم العمالى فى خريف ١٩٤٥ ، عندما نجحوا فى الترويج لفكرة اشتراك النقابات المصرية فى الاجتماع التأسيسى للاتحاد العالمى لنقابات العمال (W.F.T.U) ، واستطاعوا جمع التبرعات الكافية لإيفاد ممثلين عن عمال مصر إلى الإجتماع التأسيسى المزمع عقده بباريس ، فتم إختيار محمد يوسف المدرك ، ودافيد ناحوم ، ومراد القليوبى ، ومحمد عبدالحليم ، ممثلين لمجموعة من النقابات التى تقودها عناصر يسارية ذات توجهات مختلفة .

وتم اختيار محمد يوسف المدرك عضوا بمجلس الاتحاد العالمى للنقابات ، كما تجدد انتخابه - مرة أخرى - فى المؤتمر الثانى الذى عقد بميلانو فى يوليو ١٩٤٩ ، رغم غيابه وعدم وجود غيره ممثلا لمصر فى ذلك المؤتمر . أما المؤتمر الثالث الذى عقد فى برلين عام ١٩٥١ فقد شارك فيه أحمد طه وحسن عبدالرحمن ممثلين «للجنة التحضيرية للاتحاد العام لنقابات عمال مصر» .

وخلال تلك السنوات الست (١٩٤٥ - ١٩٥١) كان أحمد طه ، الشاب الذى بدأ نضاله النقابى مع عمال ماركونى قد أصبح كادرا نقابيا متميزا بفضل الخبرات التى اكتسبها من العمل النقابى والسياسى فى تلك الفترة .

فلم يقتصر دور «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية» - الذى كان أحمد طه من بين قياداته - على تبنى المطالب العمالية فحسب ، بل شارك فى العمل السياسى المطالب بتحقيق الاستقلال الوطنى ، وانضم «المؤتمر» إلى «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» ، ومن ثم اشترك فى تنظيم الاضرابات التى دعت إليها اللجنة ، ومن بينها إضراب «يوم الجلاء» (٢١ فبراير ١٩٤٦) وطالب المؤتمر من خلال نشرته التى كان يصدرها تحت اسم «المؤتمر» بتحقيق الجلاء عن وادى النيل ، وتخليص الاقتصاد الوطنى من السيطرة الأجنبية ، وبين للعمال أن الكفاح ضد الاستعمار يؤدى إلى تحقيق المطالب الاقتصادية والاجتماعية للعمال ، وأن «إنتصار قضية الوطن إنتصار لقضية العمال» .

وكان التحام «مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية بالنضال السياسى الوطنى عام ١٩٤٦ ، مشجعا لتوسيع نطاقه ، وتحويله إلى تنظيم يضم جميع نقابات العمال فى مصر ، فأعلن «المؤتمر» عن تنظيم احتفال كبير بعيد العمال فى الأول من مايو ١٩٤٦ ، يعلن فيه تأسيس «مؤتمر نقابات عمال مصر . وعبثا حاولت الحكومة إجهاض المحاولة بمحاصرة مقر الاجتماع ، ومنع العمال من دخوله ، فتم عقد الاجتماع فى مكان بديل ، حيث أقرت لائحة التنظيم الجديد . وبدأ المؤتمر ينظم حركة للمطالبة بتحقيق

الجلاء التام «سياسيا واقتصاديا وعسكريا عن وادى النيل» ، والمطالبة بتحسين الأجور ومكافحة البطالة والتأمين ضد البطالة ، والافراج عن المعتقلين من القادة النقابيين .

وسعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر لتنفيذ إضراب عام (فى ٢٥ يونيو ١٩٤٦) إذا لم تستجب حكومة إسماعيل صدقى باشا لمطالبهم . ولكن الحكومة نجحت فى إقناع عمال النقل بالعدول عن فكرة الاضراب ، على وعد ببحث مطالب العمال والاستجابة لها ، وبذلك فشلت محاولة الاضراب العام . ثم جاءت ضربة ١١ يوليو ١٩٤٦ عندما ألقت حكومة صدقى القبض على كل العناصر النشطة فى الحركة السياسية من المثقفين والطلبة والعمال على اختلاف إنتماءاتهم وتوجهاتهم السياسية ، وكان قادة «مؤتمر نقابات عمال مصر» من بين المعتقلين ، وبذلك تم القضاء على تلك المحاولة التى استهدفت إقامة تنظيم موحد لقيادة الحركة العمالية .

كان أحمد طه - المناضل الشاب - طرفا فى تلك الأحداث ، شريكا فيها فى حدود موقعه بين عناصر الصف الثانى من القيادات النقابية ، ولكنه برز إلى الصف الأول فى المحاولة الثانية التى تزعمها كوادر «حدتو» لتأسيس اتحاد عام للعمال، فكان من قيادات «اللجنة التحضيرية للاتحاد العام لنقابات العمال بالقطر المصرى» التى شكلت عام ١٩٥١ ، ورفعت المطالب المزمنة للعمال المتعلقة بالأجور وساعات العمل ، وتشريعات العمل ، إضافة إلى الاعتراف القانونى بحق الإضراب العام باعتباره حقا مشروعا ، والاعتراف بحق العمال فى إقامة اتحاد عام يجمع شمل النقابات ويدافع عن مصالح العمال .

وكان أحمد طه من بين القيادات التى نشطت لحشد النقابات وراء هذه اللجنة ، فتم ضم أكثر من مائة نقابة إليها ، وتحدد مساء الأحد ٢٧ من يناير ١٩٥٢ لعقد مؤتمر عام بمقر نقابة عمال ترام القاهرة ، لتبادل الرأى حول النظام السياسى ، وكانت النية متجهة إلى إعلان تأسيس «الاتحاد العام لنقابات عمال القطر المصرى» .

وكانت الأحداث تخبىء مالم يكن فى الحسبان ، فقد شب حريق القاهرة فى صباح السبت ٢٦ من يناير عام ١٩٥٢ ، وأعلنت الأحكام العرفية ، وبذلك أصبح انعقاد المؤتمر مستحيلا ، وخاصة أن السلطات ألقت القبض على معظم زعماء النقابات وقادة اللجنة التحضيرية ، وأفلت أحمد طه من الاعتقال ليشارك بعض زملائه إصدار وتوزيع بيان باسم «اللجنة التحضيرية» تستنكر فيه حريق القاهرة ، وتنبه إلى أن أعمال التخريب والشغب لا تخدم إلا الاستعمار ، وأنه «لا سبيل إلى إجلاء الاستعمار إلاَّ بالكفاح الإيجابى والمحدد الأهداف وبتوحيد الصفوف» .

★★★

قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وكان من بين المحاكمات التى تمت فى شهورها الأولى محاكمة قتلة «الشهيد عبدالقادر طه» الملازم الفنى ، عضو الضباط الأحرار ، وشقيق أحمد طه ، وجاءت الإنجازات الأولى للثورة وما أعلنته من مبادىء محققة لما كافح من أجله أحمد طه وجيله من المناضلين النقابيين ، ولكن الطريقة التى عومل بها عمال كفر الدوار عام ١٩٥٣ وإعدام خميس والبقرى ، وتغير موقف (حدتو) من مساندة «حركة الجيش» إلى إتهامها بالفاشية ، وارتباط أحمد طه بالتنظيم جعله يتعرض للاعتقال طوال عقد الخمسينات ، لايترك المعتقل إلا هاربا تارة ومفرجا عنه أخرى حتى كانت

سنوات الأعتقال الخمس التى التقيت به بعدها بشهور قلائل .

★★★

ولكن سنوات السجن لم تزده إلا صلابة ، واستمرارا فى النضال الوطنى بطريقته الخاصة . وعندما بدأ مشروعه الصغير الذى لم يقدر له النجاح أو الاستمرار ، وهو «دار الجماهير للنشر» بدأ بكتابين أحدهما بعنوان «المرأة .. كفاحها وعملها» . تناول فيه قضية المرأة ، ودورها فى العمل الوطنى ، ونصيبها من سوق العمل ، ونضالها النقابى . والكتاب الآخر شاركه فى تأليفه بعض زملائه من «حدتو» ، وحمل عنوان «الطبقة العاملة والكفاح السودانى المصرى المشترك» ، ولا أعرف شيئا عن الظروف التى دفعته إلى التوقف عن المضى قدما فى المشروع ، ولكنى استطيع أن أتصور المضايقات التى قد تتعرض لها مثل هذه الدار ، وخاصة أنها كانت ملتقى رفاق نضال الأربعينات

وتمضى السنوات ، وأحمد طه لايكف عن العمل العام ، فكان من بين المؤسسين الأوائل لحزب التجمع ، ثم فترت علاقته به لظروف ما ، وظهر اسمه بين مؤسسى «الوفد الجديد» ولعل ذلك يرجع إلى وجود بعض كوادر «الطليعة الوفدية» بين المؤسسين ، وعندما اختلفوا مع فؤاد سراج الدين حول طريقة إدارته للحزب وتركوه ، كان أحمد طه فى مقدمتهم .

وأخيرا ، رأى الرجل أن يعمل مستقلا فى خدمة أبناء حى الساحل الذى قضى حياته كلها فيه ، وعندما رشح نفسه فى أول انتخابات تعددية تم إجراؤها فى عهد أنور السادات اختار أن يرشح نفسه مستقلا ، ولكنه ظل ينسق مواقفه داخل المجلس مع ممثلى اليسار ، وخاصة فى معارضة كامب ديفيد ومعاهدة السلام مع إسرائيل والتطبيع وضاقت الحكومة ذرعا بمواقفه وإستجواباته ، فلفقت له قضية تخابر مع بلغاريا ، ووقف وزير الداخلية ليعلن بيانا زعم فيه أن لدى الحكومة أدلة دامغة على الاتهام ، وتم القبض عليه والقائه فى سجن القلعة مع بعض رفاقه حتى تكتمل ملامح القضية .

ولم تهن عزيمة أحمد طه . فرشح نفسه في الانتخابات بدائرة الساحل وهو فى السجن ، واكتشف بعد خروجه من السجن عندما برأ القضاء المصرى النزيه ساحته وساحة زملائه ، اكتشف أنه نجح فى المرحلة الأولى ، وأن النتيجة زورت لتتم الإعادة بالدائرة ، وهو الهدف الحقيقى من تلفيق قضية التخابر له لإبعاده عن مجلس الشعب .

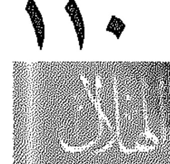
ولكن النفس التى جبلت على النضال جعلته يخوض الانتخابات معتمدا على رصيده الكبير فى خدمة الجماهير الذين عاش بينهم طوال حياته ، فاستعاد مقعد الدائرة بمجلس الشعب ، وظل يلعب دور المعارض الوطنى الملتزم بقضايا أمته ، طوال وجوده بالمجلس .

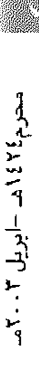
وعلى صعيد العمل العام أسس «جمعية الشهيد للإسكان التعاونى» وقام ببناء عمارات سكنية تعاونية حقة ، ولم يتخذ منها – كما فعل غيره – وسيلة للإثراء غير المشروع ، بل اتخذ منها رسالة لخدمة أبناء دائرته ، ولذلك خرج أبناء الساحل عن بكرة أبيهم لوداعه يوم الرحيل ، تاركا ذكرى عطرة لإنسان نبيل ، أوقف حياته لخدمة جماهير شعبه بإخلاص . ■

قراءة معاصرة في رحلة ابن بطوطة

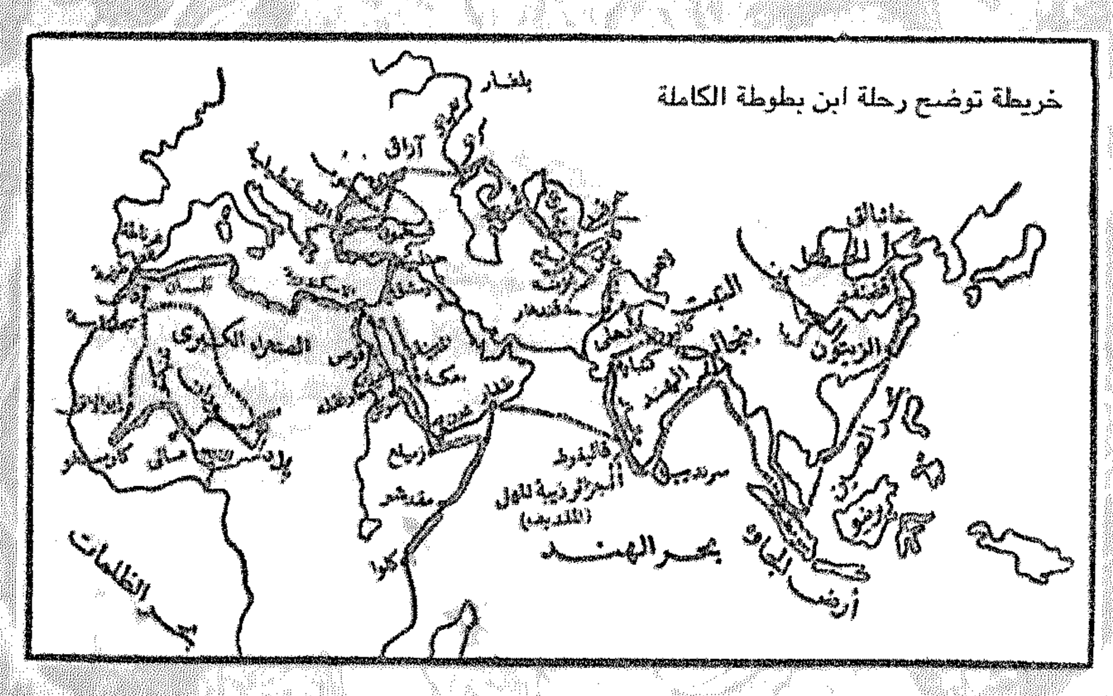
بقلم

د. صلاح عبد اللطيف





الرحالة العربى المغربى ابن بطوطة يبدو فى مخطوطه الضخم الذى سجل فيه وقائع وأحداث رحلاته منذ سبعمائة عام كمراسل صحفى بمفهوم العصر الذى نعيشه، فهو ينقل كل ما يراه وما يسمعه ويحاول أن يبدو محايدا يبدى كثيرا من المجاملة والإشادة بمن التقى بهم من سلاطين وولاة وفقهاء، وينسب رواياته وأخباره لمصادرها كأن يقول «حدثنى فلان» وإذا نقل رواية مشكوكا فيها قدمها بكلمة «يزعمون» أو «فى زعمهم»، ولكى يستكمل وضعه الصحفى فهو عندما يذكر الأخبار وسرد الروايات، يهتم بالوصف بديلا عن الصورة، ويصف المساجد والزوايا والأشخاص الذين التقى بهم من سلاطين وحكام وقضاة وولاة كأنه يمسك بكاميرا.



خريطة توضح رحلة ابن بطوطة الكاملة

في هذه الرحلات ينقل ابن بطوطة صورة كاملة للحياة في الدول العربية والإسلامية سواء في آسيا أو أفريقيا منذ سبعمائة عام.. كيف كانت الحياة وعلاقات الناس وعاداتهم وملابسهم وتقاليدهم فهو لم يهدف من رحلاته هذه كعالم أو مكتشف وإنما كفقيه مسلم كانت وجهته في أول الأمر السفر إلى الأراضي المقدسة وأداء فريضة الحج عن طريق مصر، لكنه وجد نفسه منساقا إلى السفر هنا وهناك، خاصة أنه لم تكن هناك تلك القيود والحواجز التي نواجهها الآن بعد ٧٠٠ سنة من حدود بين الدول، وجوازات سفر، وتأشيرات دخول، وبدل سفر.. المواصلات كانت هي الخيل والبغال والجمال أو السفن والمراكب في البحار والأنهار، والناس تسافر معا في جماعات ، يساعدون بعضهم بعضا، وبينهم تكافل اجتماعي قائم على الدين والزوايا الدينية والولاة والقضاة يتكلفون بهم طالما أنهم يؤدون الشعائر الدينية، ويقرأون القرآن ، ويحافظون على الصلاة، فهو لم يحتج إلى بدل سفر أو صحيفة تنفق عليه بل أنه حصل على هدايا كثيرة من السلاطين الذين التقى بهم، وأهديت له الجواري خاصة في بلاد آسيا، وتزوج أكثر من مرة وأسندت إليه مهام القضاء في الهند والصين.

أقام في حاشية السلطان «أبي عنان» من أمراء بني مريره يحدث الناس بما رآه وسمعه فأمره السلطان بأن يكتب هذه الأخبار، وكان الهنود قد سلبوه كل ما يملك في بعض رحلاته بما فيها مذكراته التي دون فيها ما شاهده وأطلع عليه، فأملى عن ظهر قلب ما تذكره على كاتب عينه له السلطان يدعى «محمد بن جزي الكلبي» وذلك يفسر ما يؤخذ عليه من مبالغات وهفوات جغرافية، وبلغ مجموع ما أملاه على كاتب السلطان ٧٠٠ صفحة سميت «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» التي عرفت بعد ذلك

برحلة ابن بطوطة. قد اهتم بها المستشرقون فى إنجلترا وفرنسا والبرتغال وألمانيا وترجموها أو ترجموا معظمها إلى لغاتهم وطبعوها، ولقبه المستشرق «ووزى» «بالرحالة الأمين».

لم يهتم به أحد في تونس .. فبكى

كانت أول محطة له فى الجزائر بمدينة تلمسان، ومن هناك خرج مع بعض التجار إلى تونس فاهتم أهلها بهم ولم يسلم عليه أحد لعدم تعرفهم به فتأثر وعبر عن ذلك بقوله «فوجدت من ذلك فى النفس ما لم أملك معه سوابق العبرة، واشتد بكائى فشعر بحالى بعض الحجاج فأقبلوا علىّ بالسلام والإيناس».

كانت هذه أول صدمة له فى بداية رحلته فكانت بمثابة الترياق الذى مكنه بعد ذلك من احتمال الشدائد ومواجهة الأهوال التى رآها وتعرض لها وخاصة فى الهند. فواصل رحلته بعد ذلك إلى تونس وطاف بمدنها على الساحل وتزوج فتاة من تونس لكنه فارقها بعد مشاجرة وقعت بينه وبين صهره. ومن تونس خرج إلى طرابلس فى صحبة نحو مائة فارس.

الإسكندرية منذ سبعمائة عام

وصل إلى مدينة الإسكندرية أول جمادى الأولى عام ٧٢٦ هـ فانبهر بها.. ووصفها بقوله «هى الثغر المحروس، والقطر المانوس. العجيبة الشأن، الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين، كرمت مغانيها ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والأحكام مبانيها، فهى الفريدة فى تجلى سناها، والخريدة تجلى فى حلاها، الزاهية بجمالها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب فكل بديعة بها اجتلاءها، وكل طرفة فإليها انتهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا وصنفوا فى عجائبها فأغربوا».

ويواصل وصف المدينة وفنارها بتفصيل دقيق كأنه رسام أو مصور لا يترك صغيرة أو كبيرة ولا ينسى أن يتحدث عن أمير الإسكندرية وعلمائها مثل القاضى «عماد الدين الكندى» ذى العمامة الكبيرة، والشيخ «ياقوت الحبشى» تلميذ أبى العباس المرسى الذى هو تلميذ أبى الحسن الشاذلى، والشيخ «أبى عبدالله المرشدى»، وكلهم كما يقول أصحاب كرامات ومقامات عالية.

قرى ومدن الدلتا

يخرج من الإسكندرية فى طريقه إلى القاهرة فيطوف بقرى ومدن الدلتا ويصف كل قرية ومدينة بإسهاب، ومن وصفه لا تخلو قرية أو مدينة من المساجد والزوايا ورجال الدين وأولياء الله الصالحين، ويصف بلاد البرلس ونبروة بأنها «بلاد الصالحين، كثيرة النخل والثمار والطير البحرى والسمك المعروف بالبورى»، ومنها يسافر إلى دمياط «وهى مدينة فسيحة الأقطار، متنوعة الثمار، عجيبة الترتيب، وشجر الموز بها كثير»، ويواصل طريقه إلى «فارسكور» و«أشمون» المشهورة بالرمان وهى مدينة على النيل ترسو عليها المراكب. ومنها إلى سمنود وهى على شاطىء النيل ومنها إلى «المحلة الكبرى»، ومن هذه المدينة ركب النيل وصعد إلى مدينة مصر «القاهرة» ما بين مدائن وقرى منتظمة ومتصل بعضها ببعض.

مصر .. كما وصفها ابن بطوطة

ويبدو أنه وقع فى حب مصر فكتب عنها أحلى ما كتب.. يقول «هى أم البلاد

وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة، المتناهية فى كثرة العمارة، المتباهية بالحسن والنضارة، مجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه ووضيع ونبيه، وشريف ومشدون، ومنكر ومعرون، تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها، وشبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد، فهزت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها نواصى العرب والعجم، ولها خصوصية النيل الذى أجل خطرها، وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها وأرضها ومسيرة شهر لمجدّ السير، وكريمة التربة، مؤنسة لذوى القربة، وفيها يقول الشاعر:

لعمرك يا مصر بمصر، وإنما
هى الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان، والحور عينها
وروضتها الفردوس، والنيل كوثر

ثم يتحدث عن الحياة فى مصر وعادات المصريين فى ذلك الوقت، والمساجد والزوايا فيقول «إن بمصر من السقائين على الجمال أثنى عشر ألف سقاء، وبها ٣٠ ألف مكار (الذين يؤجرون الحمير لركوبها كوسيلة مواصلات)، وأن نيلها به من المراكب ٣٦ ألف للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية».. لم يذكر كيف استقى هذه المعلومات والأرقام لكنه كمن يكتب تقريرا صحفيا، ويصف المصريين قائلا «وأهل مصر ذو طرب وسرور ولهو، شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر (السلطان قلاوون) من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياما».

ويصف مسجد «عمرو بن العاص» بأنه مسجد شريف كبير القدر، شهير الذكر، يقام فيه الجمعة والطريق يعترضه من شرق إلى غرب وبشرقه الزاوية، حيث كان يدرس «أبوعبدالله الشافعى»، وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها، وأما الزواية فكثيرة ويسمونها الخوانق، والأمراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا، وكل زاوية معنية بطائفة من الفقراء.. وأكثرهم الأعاجم، ولكل زاوية شيخ وحارس ومن عوائدهم فى الطعام أن يأتى خادم الزاوية إلى الفقراء صباحا فيعين له كل يوم واحد ما يشتهيه من طعام فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه فى أناء على حدة، لا يشاركه فيها أحد، وطعامهم مرتان فى اليوم، ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف، ومرتب شهرين ٣٠ درهما للواحد، ولهم الحلاوة من سكر فى كل ليلة جمعة والصابون لغسل ثيابهم، والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح، وهم أعزاب، وللمتزوجين زوايا على حدة، ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزواية».

ويصف المقابر فيقول.. «ولمصر القرافة العظيمة الشأن فى التبرك بها، وقد جاء فى فضلها أثر إخراجه القرطبى وغيره لأنها من جملة الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة

، وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة، ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور، ويبنون بها البيوت، ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة إلى جانبى التربة ويخرجون كل ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم ونسائهم ويطوفون على الأسواق بصنوف الأكل، ويرفعون القرآن، ويقرأون ليلا ونهارا بالأصوات الحسان.

ويواصل وصفه لمساجد القاهرة، ولا ينسى أن يتوقف عند نهر النيل والأهرامات، ويصف نهر النيل بأنه «أفضل أنهار الدنيا عذوبة ومذاق واتساع قطر وعظيم منفعة، والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس فى المعمور مثلها، ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل وليس فى الأرض نهر يسمى بحرا غيره». وهنا يتدخل الجانب الدينى فيه كفقيه فيقول أنه فى الحديث الصحيح فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الإسراء إلى سدرة المنتهى، فإذا فى أصلها أربعة أنهار، نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال أما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فهما النيل والفرات، وفى الحديث أيضا إن النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة، ومجرى النيل من الجنوب إلى الشمال خلافا لجميع الأنهار.

ويتحدث عن الأهرامات فيقول عنها «أنها من العجائب المذكورة على مر الدهور»، «ويزعمون» أن جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان أخذت عن «هرمس» الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى، وسمى «اخنوخ» وهو «إدريس» عليه السلام، وأنه أول من تكلم فى الحركات الفلكية والجواهر العلوية، وأنه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الأهرام والبرابى وصور فيها الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة.

وقد شغلت الأهرام عقول الناس واهتماماتهم فى الزمن القديم فيقول ابن بطوطة أنه مما يذكر فى شأنها أن ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته وأوجبت عنده أنه بنى تلك الأهرام بالجانب الغربى من النيل لتكون مستودعا للعلوم ولجثة الملوك، وأنه سأل المنجمين هل يفتح منها موضع فأخبروه أنها تفتح من الجانب الشمالى، وعينوا له الموضع الذى تفتح منه، واشتد فى البناء فأتمه فى ستين سنة وكتب عليها «بنينا هذه الأهرام فى ستين سنة» فليهدها من يريد ذلك فى ستمائة سنة فإن الهدم أيسر من البناء فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المأمون أراد هدمها فأشار عليه بعض مشايخ مصر ألا يفعل فلج فى ذلك وأمر أن يفتح من الجانب الشمالى فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التى بها إلى اليوم، ووجدوا بازاء الثقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه. ولا ينسى أن يذكر أنه عندما وصل مصر كان الحاكم هو السلطان قلاوون المعتصم بالملك الناصر، وكان يعرف بالألفى لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهبا وكان له أفعال البر وخدمة الحرمين الشريفين.

رحلة إلى صعيد مصر

يواصل ابن بطوطة رحلته فى مصر بعد أن يترك القاهرة ويتحدث عن ولاة



الأمر فيها من قضاة ومشايخ وأصحاب كرامات ولا ينسى أن يأتى بأسماء عدد من الصحابة غير المشهورين المدفونين فى مصر، وهو فى انطلاقه إلى صعيد مصر إنما يهدف إلى الوصول إلى ميناء عيذاب فى أقصى الجنوب ليصل عن طريقه إلى جدة ومنها إلى مكة والأراضى المقدسة، يمر على مدن وقرى الصعيد ويذكرها بالاسم واصفا كل واحدة منها بما تستحق وما تشتهر به، «فالمنيا» أكثر بلاد مصر كتانا ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية ، ومدينة «البهنسا مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة، «وأسيوط» «مدينة رفيعة أسواقها بديعة، ومدينة «أخميم» عظيمة أصيلة البنيان عجيبة الشأن» يلتقى بأحد الأولياء وهو السيد الشريف أبو محمد عبدالله الحسينى فيسأله عن وجهته فيجيبه بأنه يريد الحج للبيت الحرام عن طريق جدة فقال له «لا يحصل لك هذا فى هذا الوقت فأرجع وأتم الحج أول حجة على الدرب الشامى».

وهكذا عاد مرة أخرى من أقصى جنوب مصر سالكا نفس الطريق الذى جاء منها مارا بمدينة قنا وبها قبر «الشريف الصالح الولى عبدالرحيم القناوى». ومنها إلى مدينة قوص لها خيرات عميمة ، بساتينها مورقة، وبها مساجد كثيرة، ومدارس وفيرة ثم سافر إلى الأقصر وهى صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد «أبى الحجاج الأقصرى» ومنها إلى «أرمنت» و«هى صغيرة ذات بساتين»، ومنها إلى «إسنا» وهى «مدينة عظيمة متسقة الشوارع ضخمة المنافع كبيرة الزوايا والمزارات والجوامع»، ومنها إلى «إدفو».

وتختلف ملامح رحلة ابن بطوطة فى الأقاليم العربية عنها فى الأقاليم الأسيوية الصغيرة سواء كانت فى تركيا أو الهند أو الصين فقد مرت سنوات طوافه بالعالم العربى فى مصر والشام والعراق واليمن والجزيرة العربية فى سلام وأمان ولم نر فيها أشياء غريبة سوى تلك الحياة الإسلامية السمحة والاهتمام بالمساجد والزوايا والأولياء والفقهاء ، أما فى أجواء تركيا أو الهند والصين فإن الصورة تختلف وتناقض بين الكرم الشديد لملوك الهند والقسوة المتناهية فى التعامل مع الخصوم.

من مصر إلى فلسطين والشام

خرج من مصر إلى فلسطين عن طريق بلبيس وكانت غزة هى أول بلاد الشام مما يلى مصر متسعة الاقطار، «كثيرة الأعمار حسنة الأسواق بها المساجد العديدة والأسوار عليها»، ومن غزة خرج إلى مدينة الخليل وخطيب مسجدها هو «برهان الدين الجعبرى» و – هكذا تمتد أصول عائلة الجعبرى فى الخليل – وبداخل المسجد قبر يوسف، ومن الخليل خرج إلى القدس، وزار بيت لحم ووصف المسجد الأقصى وصفا مسهبا «ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه»، من القدس إلى عسقلان ومنها إلى مدينة «الرملة» ثم إلى «نابلس»، «وهى مدينة عظيمة كثيرة الأشجار، من أكبر بلاد الشام زيتا ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق وبها تصنع حلواء «الخروب»، ومن «نابلس» إلى «عجلون» شرقى الأردن وبها قلعة كبيرة وهى «قلعة

الربض» التى يشقها نهر ماءه عذب، ومنها إلى اللاذقية فى سوريا وبها قبر «أبى عبيدة بن الجراح»، ومن اللاذقية إلى «عكا» وكانت قاعدة بلاد الإفرنج فى الشام ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمى بها عين ماء تسمى عين البقر، وبها قبر النبى صالح»، ومن عكا إلى صور وصيدا ثم العودة إلى مدينة طبرية «التى بها الحمامات الصحية وبها البحيرة الشهيرة وبها مسجد يعرف بمسجد الأنبياء وفيه قبر النبى شعيب»، ثم عاد ابن بطوطة إلى بيروت ووصفها بأنها «مدينة صغيرة حسنة الأسواق». واصل رحلته إلى طرابلس وإلى جبل لبنان «وهو أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوارفة» وبعدها إلى بعلبك ثم إلى مدينة دمشق، يتوقف كثيرا فى دمشق ويقدم وصفا تفصيليا للمسجد الأموى والقضاء فى دمشق ويروى حكايات عن المشايخ والقضاة ويصف أهل دمشق أنهم يتنافسون فى عمارة المساجد والزوايا والمدارس وهم يحسنون الظن بالمغاربة.

فى الأراضى المقدسة

ولما جاء شهر شوال بدأ يعد عدته للحج إلى الأراضى الحجازية فسلك طريق الشام والأردن ووصل إلى الكرك ومعان آخر بلاد الشام ومنها واصل سيره إلى المدينة المنورة وقدم وصفا كاملا لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروضته الشريفة والبقيع. «ويحكى أن معاوية أراد نقل المنبر إلى الشام فضج المسلمون، وعصفت ريح شديدة وكسفت الشمس وبدأت النجوم نهارا، وأظلمت الأرض، فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله فبلغ ٩ درجات».

ثم سافر إلى مكة وقدم وصفا للمسجد الحرام والكعبة الشريفة والحجر الأسود والصفا والمروة والجبانة المباركة. والجبال المحيطة بمكة ولا يفوته أن يذكر أن الملك الناصر السلطان قلاوون حاكم مصر هو الذى يتولى كسوة الكعبة ويبعث مرتبات القاضى والخطيب والأئمة وما يحتاجه الحرم الشريف من الشمع والزيت فى كل سنة.

خرج من مكة إلى العراق وطاف بمدن العراق حتى وصل إلى فارس وأصفهان ووصف أهلها بأنهم «حسان الصور» ألوانهم بيضاء زاهرة مشربة بالحمرة يغلب عليهم الشجاعة والنجدة وفيهم كرم «ومن بلاد فارس سافر إلى جزيرة سيلان» ودخل جزيرة سيلان هذه «وهم يقيمون على الكفر إلا أنهم يعظمون فقراء المسلمين ويؤونهم إلى دورهم ويطعمونهم الطعام ويكونون فى بيوتهم بين أهاليهم وأولادهم خلافا لسائر كفار الهند فإنهم لا يؤون المسلمين ولا يطعمونهم فى آبيتهم».

ثم يعود إلى الكوفة ويزور دار الإمام على ابن أبى طالب وبالقرب منه موضع يقال إنه موضع إنشاء سفينة نوح وينتقل إلى بغداد ويصف مساجدها ومدارسها ويقول عن حماماتها «أنها كبيرة ومن أبدع الحمامات وأكبرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل للناظر أنه رخام أسود» وبعد أن يطوف بمدن العراق يعود إلى جدة ومنها إلى اليمن ويزور مدينة تعز وصنعاء، ويصف مدينة صنعاء فيقول عنها «أنها مفروشة كلها بالبلاط فإذا ما نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها»، أما مدينة عدن فهى مدينة كبيرة لا زرع



بداية رحلة ابن بطوطة إلى مصر

بها ولا شجر ولا ماء وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر ، الجبال تحف بها وهى مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر، وهى مرسى أهل الهند» ومن عدن سافر إلى زيلغ ومنها إلى مقديشيو فى الصومال ثم مدينة ممباسا فى كينيا.

إلى تركيا والهند والصين

واصل رحلته بعد ذلك إلى تركيا ثم إلى الهند والصين ويحكى عن غرائب الحياة فى هذه الأقاليم وعن حياة السلاطين والفقهاء، ويدهشه العربات التى رآها فى تركيا قال عنها «هم يسمون العجلة عربة، وهى عجلات تكون للواحدة منهم أربع بكرات كبار ومنها ما يجره فرسان ومنها ما يجره أكثر من ذلك وتجرها أيضا البقر والجمال فى ثقلها أو خفتها، والذى يخدم العربة يركب أحد الأفراس التى تجرها ويكون عليها سرج وفى يده سوط يحركها به للمشى وعود كبير يصوبها به إذا عاجت عن القصد، ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها إلى بعض بسور جلد رقيق وهى خفيفة الحمل تكسى باللبد أو باللف ويكون فيها طيقان مشبكة ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه، ويتقلب فيها كما يحب، وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو فى حال سيره والتى تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا، وعليها قفل»، وهم يشربون النبيذ وهو عندهم حلال، ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقى البوظة.

وسجل ابن بطوطة ظاهرة كتاب التقارير فى الهند بقوله «أما فى الهند فملك الهند له فى كل بلد من بلاده صاحب الخبر يكتب له بكل ما يجرى من الأمور وما يرد عليه من الواردين، وإذا آتى الوارد من أى البلاد كتبوا اسمه ونعته وثيابه وأصحابه وخيله وخدمه وهيئته من الجلوس والمأكل وجميع شئون تصرفاته وما يظهر منه من فضيلة أو ضدها، فلا يصل الوارد إلى الملك إلا وهو عارف بجميع أحواله فتكون كرامته على قدر ما يستمعه».

يصف أهل الهند وعاداتهم وانقساماتهم بين كفار ومسلمين، والهند

عنده تشمل الهند وباكستان وبنجلاديش وأفغانستان ويحكى عن مشاهداته فى هذه البلاد ما يشيب له الولدان.. رأى جلودا بشرية محشوة تبنا ومعلقة فى الأشجار، ورءوسا مقطوعة مكومة مثل تل، وتحدث عن الصراعات بين السلاطين فى الهند، وبين الأخ وأخيه، والأب وابنه، ويتحدث عن هذه الصراعات نقلا عما يسمعه كأن يقول «حدثنى الشيخ الإمام الصالح العالم العامل العابد ركن الدين ابن الشيخ الصالح شمس الدين أبى عبدالله ابن الولى الإمام العالم العابد بهاء الدين زكريا القرشى».

شاهد الأهوال فى الهند، وكذلك نعم بالهدايا والعطايا من السلاطين من جوارى وغلمان وذهب وفضة، لكنه فقد كل ذلك عندما خرج إليه جماعة من قطاع الطرق واستولوا على ما معه هو ورفاقه أثناء خروجهم من الهند ليعود من جديد يستكمل رحلته فى الهند، وبعدها يسافر إلى الصين ويقول عنهم «أنهم أعظم الأمم أحكاما للصناعات وأشدهم اتقانا، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى أحكامه من الروم ولا من سواهم، وجميع أهل الصين إنما يحتفلون فى أوانى الذهب والفضة ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه فى المشى ويقولون هو الرجل الثالثة، والحرير عندهم كثير وهو لباس الفقراء والمساكين ويباع التوب الواحد من القطن عندهم بالأتواب الكثيرة من الحرير».

ويشير إلى أن الصين سبقت غيرها فى نظام الجمارك وقوائم السفر فيتم تسجيل أسماء المسافرين فى البحر من الرماة والخدم والبحرية وحينئذ يتاح لهم السفر، وعلى صاحب المركب أن يملى ما يحمله من سلع وينزل ما فيه والسلع الممنوعة يغرم صاحبها، وأهل الصين جميعا يبيعون بناتهم وأولادهم وليس ذلك عيبا عندهم، والمسافر فيه يشعر بالأمان فى كل منزل، وفى كل بلد يوجد فندق عليه حاكم يسكن به فى جماعة من الفرسان والرجال، فإذا كان بعد المغرب أو العشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه يكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين، وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم، وفى هذه الفنادق جميع ما يحتاجه المسافر من الزاد وخصوصا الدجاج والأوز وأما الغنم فهى قليلة عندهم».

والتجار المسلمون فى الصين إذا أقدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الإسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم، ويواصل حكايته عن غرائب الحياة من سحر وخوارق وكلها حكايات منقولة عما يسمعه وإنما يرويها دون مراجعة أو تدقيق، وإنما يرويها كما سمعها، ويعود من الصين إلى الهند ثم إلى ظفار ومسقط فى عمان ثم إلى فارس، ومنها إلى البصرة وهناك يزور قبر «الزبير بن العوام».. و«طلحة بن عبدالله» و«حليمة السعدية»، «وأنس بن مالك»، «والحسن البصرى»، ويواصل أسفاره إلى الكوفة والحلة وبغداد، ثم يواصل سفره إلى سوريا، وإلى مدينة تدمر ودمشق التى

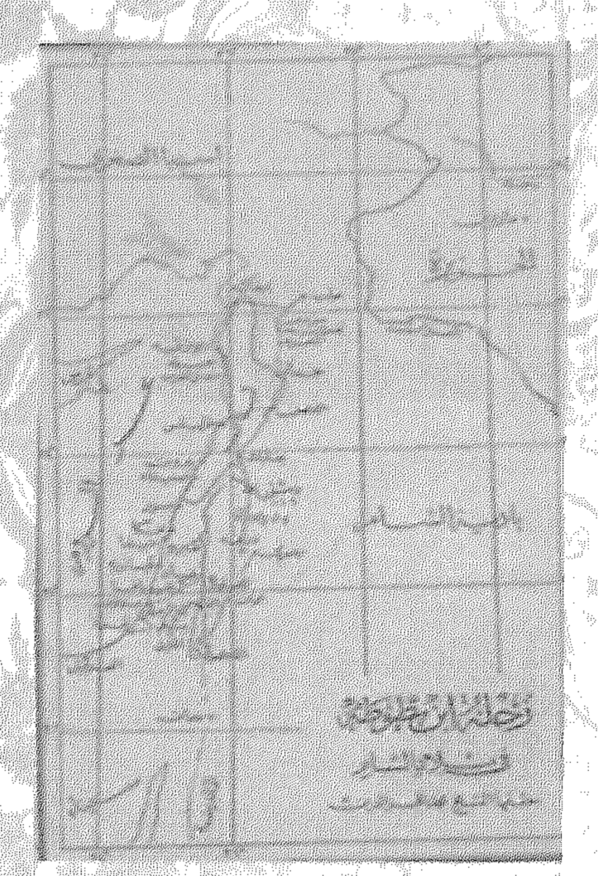
يعود إليها بعد غياب عشرين عاما، ويطوف بمدن الشام فى حمص وحماة وحلب.

الأوبئة تحاصر الناس

وفى الصين شهد كثيرا من حالات الأوبئة وحالات الموت بالطاعون والموت بالحمى وعمليات القتل والاغتيالات بين السلاطين والأمراء، وانتقل الوباء إلى البلاد العربية ، يقول فى عام ٧٤٩ علمت أن الوباء وقع بغزة ومات ألف فى يوم واحد وانتقل الوباء إلى حمص، ويوم دخولى إليها مات ٣٠٠ إنسان، ثم سافر إلى دمشق وفيها مات ٢٤٠٠ من الوباء، ثم سافر إلى عجلون، ومنها إلى بيت المقدس، وإلى الخليل، ثم إلى غزة، ومنها إلى دمياط، ثم فارسكور، وسمنود، ثم إلى المحلة ، ثم إلى دمنهور، والإسكندرية، ثم سافر إلى القاهرة ومن القاهرة إلى صعيد مصر حتى ميناء عيذاب ومنه إلى جدة ومكة والمدينة المنورة ومن الجزيرة العربية سافر مرة أخرى إلى بيت المقدس ثم الخليل وغزة ثم إلى مصر.

العودة إلى أرض الوطن

ومن مصر ركبت البحر إلى تونس والجزائر وهناك عرف بموت والدته بسبب الوباء، وكان والده قد توفى منذ خمسة عشر عاما، ثم وصل مدينة فاس عام ٧٥٠ وهناك امتثل أمام الإمام أمير المؤمنين، وهنا أفاض فى وصفه ومدحه ووصفه بالعدل والشجاعة والعلم والفقه ورفع المظالم، وأما بلده المغرب فقد انطلق فى ذكر محاسنها فهى «أرخص



مواصلة الرحلة إلى بلاد الشام

أسعارا وأكثرها خيرات وأعظمها مرافق وفوائد» وبعد «فاس» وصل إلى «طنجة» وزار قبر والدته ومنها إلى مدينة «سبته» التى مرض بها لمدة ثلاثة أشهر، ثم واصل رحلته إلى بلاد الأندلس وعاد إلى مراكش، ثم سافر إلى السودان ومالى وبلاد النوبة ودنقلة وانتهت رحلته عام ٧٥٦ هـ التى حرص فيها على أن يكتب تقارير وأخبار البلاد التى زارها كما لو كان مراسلا صحفيا يحتفظ بهذه الأخبار والتقارير ليجمعها كلها فى كتابه الذى انتهى منه فى شهر صفر عام ٧٥٨ والذى عرف برحلة ابن بطوطة. ■

ماذا نقصد بالنقد الثقافى؟

بقلم
د. صلاح قنصوه

النقد الثقافى مصطلح حديث جدا ، ولم يقدر له الذيوع أخيرا إلا بمقدم المتغيرات والعوامل التى أدت إلى العولمة وما بعد الحداثة . فلا يعد نتيجة لهما بقدر ماهو شريك ينبع من نفس المصادر ، وينتسب إلى ذات المناخ .

وهو ليس منهجا بين مناهج أخرى ، أو مذهبا أو نظرية . كما أنه ليس فرعا أو مجالا متخصصا من بين فروع المعرفة ومجالاتها . بل هو ممارسة أو فاعلية تتوفر على درس كل ما تنتجه الثقافة من نصوص سواء كانت مادية أو فكرية . ويعنى النص هنا كل ممارسة قولا أو فعلا ، تولد معنى أو دلالة .

فالجديد فى النقد الثقافى هو رفع الحواجز بين التخصصات والمستويات فى الممارسات الإنسانية لأنها تنتمى جميعا إلى الثقافة التى هى مجمل صنيع الإنسان فى البيئة الطبيعية . ومن ثم ينكر النقد الثقافى التفرقة التقليدية المألوفة بين القاعدة (البناء التحتى) والبناء الفوقى ، وكذلك التمييز بين الواقعى والايديولوجى ، أو بين المادى والروحى . فالثقافة «اسم جمع» يصدق على أمور متباينة تضمها تسمية واحدة .

ولا يعنى النقد كشف الايجابيات والسلبيات ، بل يشير إلى ما يقصده الفيلسوف «كانط» بالنقد وهو بيان الإمكانيات المتاحة ، والحدود التى ينبغى الوقوف عندها فى إنتاج أو استقبال الدلالات للممارسات التى تحمل معنى فى كل السياقات الثقافية ويتبدى ذلك فى إجراءات التفكيك والتحليل والتفسير . فمجال النقد الثقافى إذن هو ما يسمى «الدراسات الثقافية» وهى مفهوم حديث

نسبياً بما ينطوى عليه من دراسة الثقافات الرفيعة والشعبية والفرعية والايديولوجيات والأدب وعلم العلامات ، والحركات الاجتماعية ، والحياة اليومية ، ووسائل الإعلام ، والنظريات الفلسفية والاجتماعية ونحوها ، على أن يتخذ من كل ذلك أدوات للتحليل والتفسير دون هيمنة لإحداها على سائرها، أو استبعاد متعمد لبعضها . بعبارة أخرى ، لايمارس النقد الثقافي عمله وكأنه «خطاب» متخصص مثل الخطاب الفلسفي أو السياسي أو الاقتصادي الخ : الذي يتناول الواقع القائم بمنظوره وأدواته ، فلا يمكن التسليم بوجود واقع خارج الممارسات المولدة للمعنى ، وهي جميعا وسائط ثقافية .

وقد نشأ مصطلح «الدراسات الثقافية» عام ١٩٧١ عندما بدأ مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة بيرنجهام فى نشر صحيفة « أوراق عمل فى الدراسات الثقافية» ولكنها لم تستمر طويلا . ولقد سبق ذلك ما استخدمه عالم الاجتماع «بيرنباوم» ، وهو من اليسار الجديد فى ستينات القرن الماضى ، من مصطلح «التحليل الثقافى» ، وقصد به دراسة التعبيرات أو التمثلات الرمزية والايديولوجية عن موقف تاريخى معين، بوصفها جزءا متكاملا ومحددا لهذا الموقف . فهو يرى أن هذه التمثلات «لاتعكس» ببساطة الضغوط المادية ، بل قد تستبق أو ترهص ، أو ربما تخلق إمكانيات مادية جديدة للمواقف التاريخية ولا يعنى التحليل الثقافى فى نظره مجرد تكرار للقول القديم بالتفاعل بين القاعدة والبنية الفوقية ، بل هو يمثل تأثيرا على الماركسية نفسها ، واكتشافا جديدا ، فبدلا من تحليل الوعى ، ينبغى تحليل الثقافة .

ولم يقدر للتحليل الثقافى أن يكون ذا خطر أو أهمية إلا عندما تحددت القسمات الحديثة للمناخ الفكرى فى التسعينات ، فخبا حماس الماركسيين الجدد فى التفرقة بين القاعدة والبناء العلوى ، فعندئذ أقبلوا على النقد الثقافى دون تصريح بالمصطلح . فهذا «تيرى ايجلتون» عام ٢٠٠٠ يؤلف كتابا بعنوان «فكرة الثقافة» ومن قبله بخمسة أعوام يختار «فردريك جيمسون» عنوان «المنعطف الثقافى» لمجموعة مقالاته عن ما بعد الحداثة التى يعتبرها «المنطق الثقافى» للمرحلة الأخيرة للرأسمالية .

ولا يهم الموقف أو وجهة النظر التى يتخذها المفكر لكى يشتغل بالنقد الثقافى . ففى ساحته الفسيحة تختلف الآراء ، ولكن يبقى فى النهاية أسلوب المواجهة للموضوعات ، وكذلك الاتفاق إلى حد كبير على استعمال الأدوات نفسها .

بعبارة موجزة ، يعمل النقد الثقافى على مهاد متسع من منجزات وتطورات العلوم الاجتماعية والإنسانيات والعولمة وما بعد الحداثة . ولانبالغ كثيرا إذا ما زعمنا أنه المرحلة الراهنة الأخيرة للاشتغال بالفلسفة .

العولمة والنظام العالمي الجديد

نخلط كثيرا بين العولمة والنظام العالمى الجديد ونجعل منهما شيئا واحدا . فمصطلح النظام العالمى الجديد يعود إلى الرئيس «بوش» الأب بعد أن فرغ من تأديب النظام العراقى فى حرب

الخليج الثانية ، وخلو المسرح السياسى من الشرير السوفييتى . وكلمة نظام orderالتى استخدمت تعنى أيضا الترتيب ، والأمر ، ومعنى هذا أن العالم على امتداد تاريخه حتى اليوم يمثل تعاقبا للنظم العالمية التى تسيطر فيه دولة ما على دول أخرى كثيرة . فهنا يشير الترتيب بين الدول إلى مركز وأطراف . كما يعنى الأمر هيمنة دولة ما على آخريات .

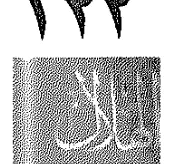
وهو نظام «جديد» لأنه جاء بعد اختفاء قطب آخر منافس كان هو المركز بالنسبة لأطراف أخرى ، وكان يمثل هيمنة على دول تابعة له .

أما العولمة ، فهى صيغة أخرى ومختلفة تماما عن النظام العالمى . فعلى حين تهيمن دولة ما على غيرها بما تملك من نفوذ اقتصادى بشركاتها القومية وبنصيبها الكبير فى الشركات المتعددة الجنسيات أو القوميات : تعتمد العولمة على الشركة المتعدية أو المتجاوزة للقوميات، أى التى لايهم أصحابها مصالح دولهم حيث يكون انتماؤهم رهنا بتلك الكيانات المستقلة الجديدة .

وللعولمة ، وجهان ، الأول هو الاقتصادى وما يتبعه سياسيا ، والثانى ثقافى ، فأما الوجه الأول فلم ينجز مهامه بعد التى تتمثل فى سيادة الشركات المتعدية الجنسية ، وليس المتعددة ، وهذا من شأنه ، إذا ما تم ، أن يؤدى إلى تحولات فادحة فى دور الشركات والمصالح القومية ، فضلا عن مؤسسات الدولة الراهنة مما يفضى بدوره إلى التأثير فى سائر المؤسسات .

أما الجانب الثقافى فقد كان حظه موفوراً بما حققته الأدوات العولمية التكنولوچية من تغيير بالغ الخطر فى قنوات التواصل والتداول بين الأفراد حيث أوشكت على نسف المسافات بين أطراف العالم .. وتسمى هذه الأدوات «بالنانوتكنولوجيا» أى التكنولوجيا خاطفة السرعة (النانوثانية = جزء من بليون من الثانية) ، وكذلك «التيلنكنولوجيا» أى المؤثرة عن بعد ، ومن ثم أوشك الإنسان على قهر فاصل الزمن وبعد المكان كما تبتدى بعض آثاره فى السماوات المفتوحة ، والتعامل مع برامج الكومبيوتر ، والانترنت على سبيل المثال .

غير أننا اليوم ، وهذا سر الخلط بين الأمركة (أى النظام العالمى الجديد) وبين العولمة ، نجتاز مرحلة «تمفصل » مازالم مشتبكا فيها مع السائد القديم . فثمة مفصل يربط بينها وهو ما نتبينه فى تطور الرأسمالية إلى الاقتصاد المالى بدلا من الاقتصاد العينى لسهولة نقله وتداوله ، وسرعة معدلات دوران العملات والتوظيفات المالية ، والاتجار فى العملات استنادا إلى المضاربات وألعاب الخط والمصادفة مما حفز على تسميته باقتصاد «الكازينو» أحيانا واقتصاد الفقاعات أحيانا أخرى . وكان من نتيجة ذلك تركز الأصول المالية والانتاجية بتأثير حركة الاندماجات بينها فى صور نشاط مشترك ، وتقسيم الأسواق ، وتخليق كيانات عملاقة تضم مصارف وشركات تابعة للعمل فى مجالات متنوعة



. وكان لابد لهذه الاندماجات أن تسلم إلى انخفاض المنافسة فى بعض ميادين الاقتصاد العالمى بسبب سيطرة قلة من الشركات على هذه الميادين ، وبطبيعة الحال مازالت الدول الغربية وعلى رأسها أمريكا تستأثر بالغلبة والنفوذ فى نطاق مصالحها القومية.

وبينما تتضاءل المسافات والفواصل فى هذا الاقتصاد المالى ، تتسع الهوة بين الأغنياء والفقراء ، وتزداد البطالة بين الشباب .

وحينئذ يمكن أن نتفهم مقاومة الشباب ومظاهراتهم المتندة بالعولمة . فالعدو الحقيقى ليس العولمة ، بل هو النظام العالمى بقيادة أمريكا الذى يستغل أدوات العولمة ووسائطها . ولا يعنى هذا أن العولمة أفضل من النظام العالمى الجديد ولكنها تعنى أنها تؤدى نتائج أخرى : إذا ما أنجزت شقها الاقتصادى : أهمها نهاية الهيمنة القومية على توابعها ، وانفراط المركزية الغربية ، وزوال القبضة القومية للدولة ، وانحسار وظائفها ، وبدلا من الهيمنة أو التبعية ، سيكون الاختيار بين المشاركة أو التميش .

ومهما يكن من أمر ، فقد تحقق الكثير من نتائج العولمة الثقافية مما تنبىء به حال السيولة والفوضى ، وغياب المعايير ، فالعالم ، كما يقول برجنسكى يغلب عليه الشمول والتفتت معا مما أدى إلى نشأة العديد من «الجيتو» داخل إطار البلد الواحد ، فقد أحدثت الثورة فى التكنولوجيا الالكترونية أزمة توتر بين الإنسان الداخلى والإنسان الخارجى . كما أن تدفق المعلومات أو انفجار المعرفة يؤذن بخطر التشظى الفكرى بازدياد حالة عدم اليقين كلما ازداد التوسع المتاح للمعرفة . وربما تسمح الخشية من عجز الإنسان على التكيف مع التعايش بين المجتمعات أو الثقافات المتفاوتة ، ربما تسمح بتقويض ما كان يعد من قبل جوهرا إنسانيا واحدا لا يمكن المساس به.

ومن هنا يشتد حنين الإنسان المعاصر إلى خصوصية حميمة حينما يحيا فى بيئة متشابكة مربكة وخالية من الخصوصية أو الهوية القومية ، وذلك إزاء الزوال القريب للدولة - الأمة .

كما يؤكد «توفلر» على ذلك بتنويعة مختلفة بقوله ببزوغ الخصوصيات الثقافية لكل اقليم أو منطقة مع اثارة المشكلات العرقية ونشوب الحروب الأهلية . ويرد ذلك إلى تفكك المجتمع الجماهيرى ، أى مجتمع الجملة المتكتل ، وقيام ما أسماه بديموقراطية الموزايكو ، وكأننا إزاء «طبق سلاطة» تختلط فيه المكونات محتفظة بتفردها ضد التجانس القديم ، أو ضد ما يسمى «ببوتقة الانصهار» التى تواجه مقاومة متزايدة .

وربما كان من علامات الانشقاق عالية النبرة ما نصادفه اليوم من الأهمية المتصاعدة للمجتمع المدنى المحلى والعالمى، وجماعات حقوق الإنسان ، وكذلك النزعات الجديدة مثل النسوية وغيرها ويضاف إلى ذلك النزعات الأصولية الدينية.

العلوم الاجتماعية وما بعد الحداثة

كان علم النفس وعلم الاجتماع

والانثروبولوجيا أشد فروع العلوم الاجتماعية تأثرا بالعولمة وما بعد الحداثة في السنوات الأخيرة من القرن الماضي وبدايات هذا القرن ويفصح علم النفس عن ذلك التأثير في مجالين ، الأول في الفروع العلمية الجديدة التي توصف بأنها ثقافية ، مثل علم النفس الثقافي ، وعلم النفس عبر الثقافي (أو التبادل الثقافي) الذي يستند إلى علم نفس الشعوب، وعلم النفس المجتمعي (وليس الاجتماعي) وعلم النفس البين ثقافي ، وكذلك علم النفس الانثروبولوجي ، والانثروبولوجيا المقارنة . وتتفق هذه الفروع جميعا على أن الثقافة مكون رئيسي في فهم السلوك الإنساني . ويقول أصحاب علم النفس عبر البين الثقافي، أن علم النفس (دون أن نضيف إليه وصفاً أو تخصصاً بعينه) إذا ما وضع في الاعتبار آثر الثقافة على السلوك الإنساني (وكذلك العكس) فلن نغدو في حاجة إلى تخصيص علم نفس ثقافي لأن علم النفس، بوصفه كذلك، سيتعهد بهذه المهمة.

والمجال الثاني لعلم النفس هو نظرية الشخص، أو الذات. ولقد برزت نظريات جديدة تماماً في هذه الصدد، وانقلبت على المفهوم التقليدي الذي كان يجعل منهما هوية وذاتاً مكتفية بذاتها على نحو ما تكون متجانسة داخلياً، ومتميزة عن غيرها خارجياً. فلقد كان هذا امتداداً وتطبيقاً لفكر النزعة الإنسانية المتمثلة في «الأنا» الديكارتية، والفكر الفردي النزعة.

ولهذا خرجت نظرية «الذات الحوارية» التي تتجاوز الفردية والعقلانية كما يقول أصحابها «هرمانس»، و«كمين»، و«فان لون» من هولندا. فهم يرون أن الطابع الفردي والعقلاني للنظريات السيكولوجية عن الذات (Self) إنما تعكس نظرة المركزية العرقية الأوروبية للشخصية. بينما يرون على نقيض ذلك أن الذات يمكن أن تدرك بوصفها، حوارية بحيث تمثل أصواتاً متعددة داخلها مما يتجاوز كلا النزعتين الفردية والعقلانية كما يقدم «سامبسون» مراجعة وتنقيحاً لمفهوم النظام الشخصي والاجتماعي تحت ما يسميه لا مركزية الهوية (أو الذاتية المنقسمة)، وهو بذلك باحث ينتمي إلى «ما بعد البنيوية» لأنه يرفض البنية المركزية والمتوازنة للشخصية التي هي في صيرورة متصلة. وأسهم «هازل ماركوس» و«باولا نوربوس» في طرح مفهوم «الذوات الممكنة» في مجال معرفة الذات. وتشتق «الذوات الممكنة» من تمثلات (أفكار) الذات عن نفسها في الماضي وفي المستقبل، وهي تختلف وتنفصل عن ذوات اللحظة الراهنة. والفرد حر في خلق تنوع من الذوات الممكنة، ولكن الحوض الذي تتجمع فيه يتألف من المقدرات التي يجعلها الفرد مهمة رفيعة الشأن عن طريق السياق الاجتماعي - الثقافي والتاريخي الخاص بالفرد، وبوساطة النماذج والصور والرموز التي تتيحها له وسائل الإعلام،

وبمقتضى خبراته الاجتماعية المباشرة.

ويبدو من تلك التطورات الأخيرة فى علم النفس سمة مشتركة وهى تفكك الذات وانقسامها، وخروجها من عزلتها الداخلية إلى فضاء الثقافة المتعدد لجوانب.

ونجد مثل ذلك فى علم الاجتماع والأنثروبولوچيا. فيعتقد «ويلسون» فى أن الحوار والتعاون فى البحث مع الزملاء من البلدان الأخرى يمكن أن يعجل بتحقيق ما يسميه «بالمقافزة» Consilience التى تعنى «القفز معاً» للخروج من التخصصات المعزولة لتحقيق النتيجة التى يثمرها ربط الوقائع بالنظرية المؤسسة على الوقائع عبر الفروع المختلفة والمنوعة لخلق إطار مشترك للتفسير. فالقفز معاً أو المقافزة العولمية هى التحدى الذى يواجه الباحثين فى الألفية الراهنة كما يقول.

ويطرح «أبا دوراى» مفهوماً عن الانديناح (أو اتساع المشهد) الثقافى من ثنايا الانديناح الإعلامى medias-cape، والفكرى، والتكنولوچى، والعرقى، والمالى. ولابد فى نظره من درس المشهد العام بأسره وليس فى بلد دون الآخر أو ثقافة دون أخرى.

ويوثق «روبرتسون» بين العولمة المحلية فى مصطلح واحد هو العولمحلية، لأنه يرى أن العولمة لا تمتد بنفوذها إلا من خلال ما هو محلى.

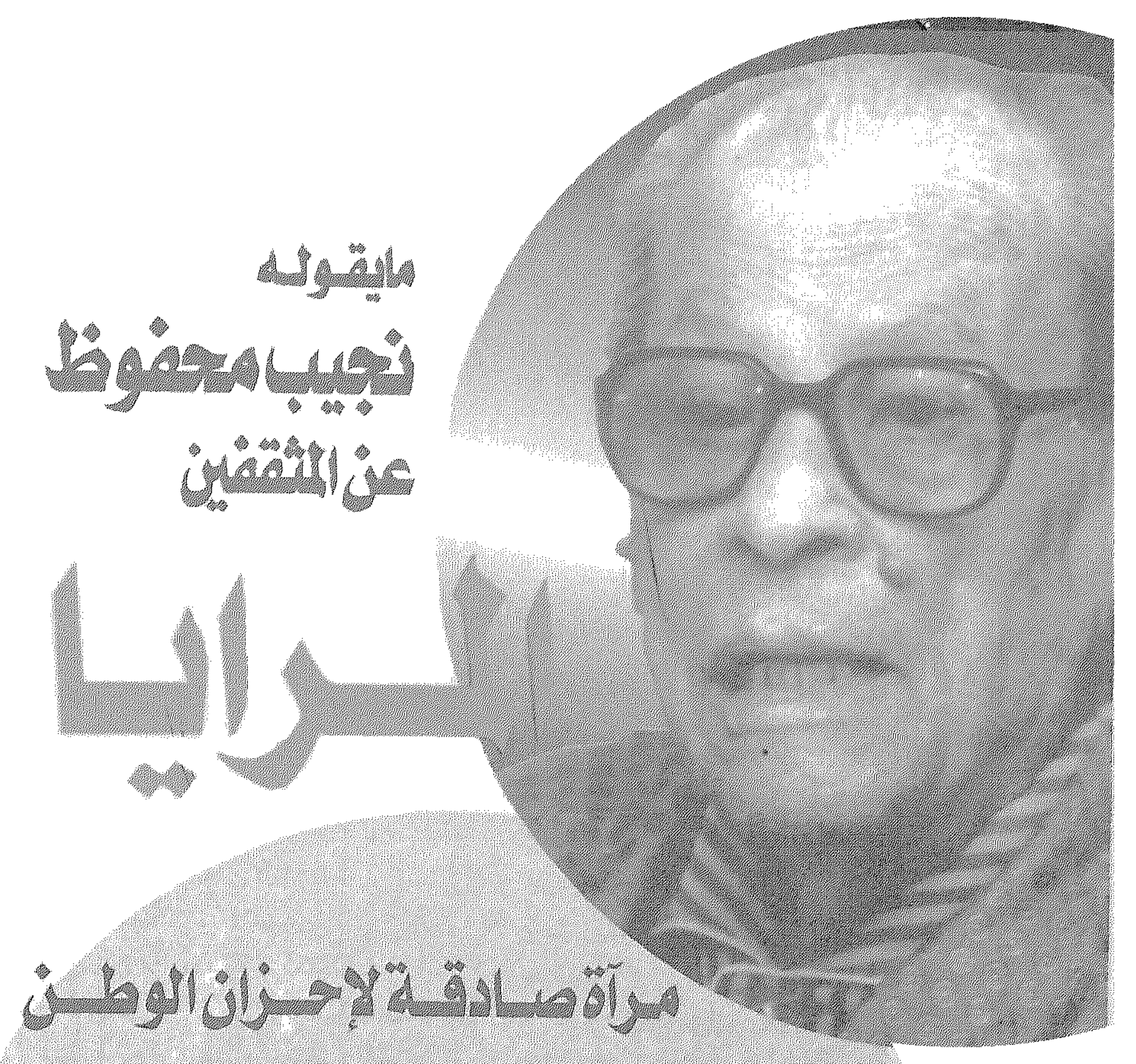
ويتفق الباحثون فى تلك العلوم على أن الفردية أو الأنا لم تعد الوحدة الاجتماعية للتحليل والتفسير. فالإنسان ليس فرداً يملك أدواراً، بل هو مجموع أدواره، كما أن الأشخاص كيانات تتحدد هوياتهم بمواقعهم الاجتماعية.

كما يعترفون بأن اجتهاداتهم واكتشافاتهم مساوقة لحقبة ما بعد الحداثة فهى تعبر عن مناخ افتقد فيه اليقين، والتحديد، وتحللت فيه النظريات الكبرى. فهى إذن مجموعة النتائج المترتبة على انقشاع الأوهام التى كانت تحكمنا كحقائق مطلقة تنتظم وفقاً لها الأمور جميعاً، وتدور حول مركزها.

فلم تعد ثمة سلطة نهائية، ومن هنا سادت «الأناركيا» أى اللاحاكمية، أو اللاسلطة. كما ذاعت «البارالوچيا» أى الخروج عن مركز التخصيص إلى الهوامش التى تشتبك بسائر الأشياء، وضد التصنيف الذى هو مهم وتحديد مسبق، لأنه تقرير جازم، وتكرار ملح.

ولئن كان الواقع متعدد الأبعاد، فإن اللغة التى تعبر عنه، ونتواصل بها أحادية البعد، ولا سبيل إلى تطابقها، ولا يمكن فهم ذلك الواقع عن طريق التفكير فيه أو التفاعل معه دون شفرات السياق الثقافى ووسائطه وأعرافه.

ولأننا فى مرحلة انقشاع الأوهام فقد انصرفنا عن تشييد صروح من المذاهب أو النظريات الكبرى، كما كان الحال سابقاً. وليس فى مقدورنا، إن آثرنا الأمانة والمصارحة إلا أن نغرس أوتادنا بثقة وثبات فى تلك الأرض الزلقة بما يتيسر لنا من النقد الثقافى. ■



مايقوله

نجيب محفوظ عن المثقفين

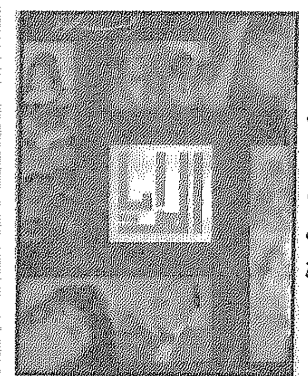
مرايا

مرآة صادقة لإحزان الوطن

بقلم
د. فهمى عبد السلام

المسيرة الروائية عند أديبنا الرائع نجيب محفوظ مسيرة طويلة تتميز بعطاء غزير فى الكم وتنوع هائل فى الشكل الروائى وفى الرؤية الفنية وفى التوجهات النهائية للعمل، فعلى سبيل المثال فى روايتى الشحات والطريق تطرحان متاهات فلسفية، إذ يتعرض بطلا العمل لمتاهات وجودية تتعلق بجدوى الحياة والصراع الأزلى بين الخير والشر، والحب تحت المطر مغامرة إبداعية خاضها نجيب محفوظ لاستعراض العضلات، وإظهار القدرة على التجريب ومحاكاة اللا معقول والعبث كصيحة أدبية كانت تسود الكتابة آنذك. وفى ميرامار يتغير الشكل الفنى محاكياً شكل رباعيات الاسكندرية لداريل، عندما تتحدث عدة شخصيات وكل منها على حدة، وتروى الحدث نفسه من وجهة نظرها، محققاً نسبية الحقيقة التى تمتلك أكثر من وجه. وكتب محفوظ الروايات التى تدين أوضاعاً أو تحولات سياسية واجتماعية برصد مباشر لا

رمز فيه ولا مجاز كما فى «الكرنك» و«أهل القمة» و«الحب فوق هضبة الأهرام» . كل هذه الأشكال والتوجهات تأتى فى إطار الإحكام الشديد والقدرة الهائلة على التثقيف والسمو الرائع باللغة الروائية التى كثيراً ما تصل إلى درجة الشعر، فنسمع خلال الكلمات إلى الجرس الموسيقى العذب الذى يضفى شجناً إضافياً إلى تلك الروائع بسردها العبقرى .







هناك اعمال لنجيب محفوظ كان شاغلها الفن الجميل، وتصوير الشخصيات النابضة بالحياة

وإذا كانت هناك أعمال طغت عليها توجهات - أديبنا الكبير - السياسية أو الفلسفية أو الوجودية أو مغامرات الشكل الأدبى، إلا أن هناك مجموعة من الأعمال لم يكن لمحفوظ شاغل سوى وجه الفن الجميل، فن الشخصيات الحية التى تنبض بالحياة، فن المصائر وضربات القدر الموجعة والآمال وخيبات الآمال، وكل هذا بلا نية مبيتة ولا هدف إلاوجه الفن الجميل. وتلك المجموعة تتربع على قمة العطاء الروائى عند محفوظ، وكأنها جواهر ثمينة فى تاج زاخر بالأحجار الكريمة. إنها روايات الثلاثية وخان الخليلى وزقاق المدق ورابعتهم درة زمانها.. رواية المرايا.

فى المرايا سنستمع إلى هدير الحياة وتلاطماتها العنيفة، وسنجد اندفاع الأبطال إلى مصائر مروعة، وسنرى الحياة اللغز وهى تغدق على أوغاد بلا خلاق وتنهال بالضربات على قديسين بلا منطق سوى منطقها المجنون، وفى المرايا تتبدى قدرة الكاتب الفذة على استبطان الشخصيات والنطق بمنطقها، وألف باء العمل الأدبى الذى يظهر براعة الكاتب وموهبته هى قدرته على أن يجعل القارئ يتوحد مع الشخصيات التى أبدعها ، وأن يرثى لها، وهذا جانب يقدر عليه الكثير من كبار الكتاب، إلا أن هناك قلة قليلة من العمالقة تدخل بالقارئ إلى منطقة الإبداع الأعظم، فتجعل القارئ يغبط البطل الدرامى على أحزانه النبيلة ويتمنى أن يكابد القارئ الانعطافات الروحية الحادة التى تعصف به، وانظر إلى هاملت ولير وإيڤان كرامازوف وكمال عبد الجواد وجوليان سوريل فى الأحمر والأسود لـ ستندال ، وفى ڤيرتر التى كان نابليون العظيم لا يرتوى من قراءتها. هذه القدرة لا تتأتى إلا للقلة النادرة من كبار الكتاب، الذين وهبهم الخالق عز وجل منحة ملكية عظمى، ألا وهى موهبة الإنحناء أمام الحياة تواضعاً وإكباراً. وهذا التواضع الجليل أمام الواقعة المعاشة بقدسيتها وبجلالها هو مكمن العظمة الأدبية ولبها. وفى حوار بين الراوى (وهو الروائى والكاتب) وبين عبده البسيونى وهو كاتب أيضاً - وسنعود إليه فى حينه - وكان الحوار يدور حول هجرة الطبيب بلال بن عبده البسيونى إلى أمريكا، يقول الراوى: إن بلال الطبيب يملك لغة العلم وهى لغة عالمية، أما مهنتنا فهى «ألغاز محلية». وإذا عرفنا أن المرايا مكتوبة عام ٧٠ تقريباً، سترى مدى تواضع أديبنا العظيم الذى لا يرى فى كل انتاجه الهائل من عام ٣٨ حتى

عام ٧٠ سوى ألغازا محلية، ولا يسع المرء أمام هذا التواضع النبيل الذى يعبر عن نفس صافية جميلة إلا الاعزاز والإكبار.

شكل أدبي جديد

وروايـة المرايا من تلك الرواية التى أخلص فيها كاتبنا العظيم لوجه الفن، وهى سيرة ذاتية، وتلك السيرة الذاتية الرائعة فى جانب من جوانبها المتعددة، هى إلا اعتراف حميم حزين بالعجز والحيرة أمام الحياة وأهوالها، تلك «الفاتنة المجنونة» كما يقول عنها فى أكثر من موضع. فالمرايا قصة التواضع أمام الحياة وهذا الهول العظيم الذى تقف فيه النفس حائرة عاجزة.

... وفى المرايا ينحنى أديبنا الكبير إلى شكل أدبى لم يعرفه الأدب الروائى من قبل، على المستوى المحلى أو الأدب العالمى، فالأشكال الأدبية الروائية المعروفة أن تحكى الرواية تاريخ أسرة مثل الثلاثية أو كرامازوف، أو حياة بطل فرد محورى وصراعه مع المجتمع والحياة، مثل «الأبله» أو «اللص والكلاب»، أو مكان يضم مجموعة من الشخصيات مثل «زقاق المدق» أو «خان الخليلى»، أو حكاية مكان مادى حتى لو كان جسراً كما فى جسر على نهر درينا. لكن فى المرايا اعتمد محفوظ شكلاً أدبياً يعتبر بكل المقاييس من المغامرات الكبرى وابتكاراً خالصاً ينسب إليه. فقد اعتمد شكل البورتريهات القصيرة المكثفة، بورتيرهات منفصلة وفى الوقت نفسه متصلة ببقية البورتيراهات . وكل بورتريه منها يصلح لأن يكون عملاً أدبياً مكتملاً فى حد ذاته . وآية ذلك أن أهل السينما أخذوا بورتريه «عبده سليمان» وفصلوه عن بقية العمل فصلاً تاماً وصنعوا منه فيلم «أميرة حبى أنا»، تلك البورتيريهات الشجية وعددها بالعشرات، إذا ما أتم القارئ قراءتها إكتملت الرؤية الفنية ووصلت المتعة الفنية إلى منتهاها. وكل هذا فى انسجام لا طاقة لكاتب به إلا من دانت له الصنعة وكشفت له أدق أسرارها. فالوحدة الفنية فى العمل والبورتريه تضىء نفسها، وهى فى الوقت نفسه تضىء زاوية جديدة لشخصيات أخرى لتكون فى النهاية بانوراما عريضة طويلة (الزمن من عام ٢٠ تقريباً حتى عام ٧٠ تقريباً) حافلة بالبؤر المتوهجة والظلال الشاحبة والبين بين، وهى بانوراما شجية وتأريخاً فنياً رائعاً ينبض بالحب للحياة وللإنسان وللوطن.

أما عن الأشخاص والأبطال فهم خليط هائل جميل حيث ننتقل من قادة الفكر فى الصالونات الأدبية والسياسية والفكرية إلى أوكار البغايا ومناطحات القوادين ودنيا المومس فى درب طياب. وننتقل من شخصية د. ماهر عبد الكريم أستاذ الآداب وقطب الحزب الوطنى العتيد إلى «صبرية الحشمة» صاحبة بيت الدعارة فى السكاكينى، يقدم لنا الكاتب الكبير أشكالاً وألواناً من النماذج الإنسانية المتفردة والعجيبة، ونستطيع أن نحصرها داخل مجموعات، والمجموعة الأولى هى مجموعة رفاق الصبا والشباب الأول فى العباسية، ونرى من بورتريهات تلك الفترة كيف تفاوتت الحظوظ، وحين يجتمعون فى جنازة أحدهم إذا بالحياة قد جعلت منهم الطبيب اللامع (سرور عبد الباقى) مع تاجر المخدرات سيد شعير، وجعلت من رضا حمادة مناضلاً متقشفاً زاهداً متطهراً وهى نفسها الأقدار التى جعلت من خليل زكى قواداً رهيباً يسيطر على بيوت دعارة منطقة السكاكينى كلها، وبينما يتقلب رضا حمادة بعد ٦٧ فى نار الهزيمة كأنه الملسوع بالنار حزناً، فإذا برفيق الصبا وزميل المدرسة السابق سيد شعير وتاجر المخدرات الحالى يسأل الراوى نجيب محفوظ هل صحيح أن تهريب المخدرات سيتوقف بعد إحتلال سيناء!؟ وهذا يطلق عليه الراوى «غاية الإستلقاء خارج الزمن»... إذا ما خرجنا من أقدار ومصائر شلة العباسية سنجد مجموعة بورتريهات يجمعها خيط واحد أساسى، وهى خاصة بالجامعة والمناخ الجامعى من أساتذة إلى طلاب إلى موظفين بإدارة جامعة القاهرة، ولأن كاتبنا عمل موظفاً بوزارة الأوقاف، لفترة طويلة، يقدم لنا نماذج من الموظفين وعالمهم العجيب، ومن هذه العجائب مثلاً أن هذه الوزارة التى



تعتبر مؤسسة دينية عريقة، يكشف لنا الراوى أن الشذوذ الجنسي كان يرتع داخلها بشكل مدهش . وكاتبنا منذ مطلع شبابه وهب نفسه للمعرفة والكتابة والثقافة (كتب روايته الأولى عام ٣٨) ، سنجد بورتريهات عجيبة من الوسط الثقافى والفكرى والأدبى، تشكل مجموعة رابعة من الرواية الفاتنة، والرواية الجميلة مكتوبه بلسان الراوى، وهو الروائى نجيب محفوظ، ونستطيع أن نتعرف بشكل حقيقى على أعماق كاتبنا وعلى أرائه السياسية وعلى حسه الأخلاقى الرفيع من خلال مرآته الناصعة التى تنضح بالصدق وبالجمال وطيبة القلب، وإذا كان محفوظ فى المرايا أخلص للفن، وهو الفنان الكبير سنجد أن كاتبنا لم يبعد لحظة عن هموم مصر السياسية، وطيلة العمل فهو الوفدى المخلص، فإذا ضربت الثورة كل مثله العليا التى نشأ عليها مثل الديمقراطية والحرية (مع حس عميق بالعدل الاجتماعى) إلا أنه وهو صاحب الضمير المرهف ينصفها فى الاستقلال وفى بعدها الإجتماعى وتحسين معيشة الفقراء، وعندما وقعت الهزيمة عام ٦٧ يحترق بها ويكتب «عقب النكسة كنت فى تلك الأيام ألتمس مجامع الزملاء والأصدقاء كما يلتمس المحترق مادة – غطاء أو تراباً أوماء – ليطفىء به النار المشتعلة فى ملابسه». حرقته ٦٧ رغم أن الثورة أهالت التراب على معبوده الأول سعد زغلول، فيكتب عن سرور عبد الباقى وغيره ممن أضمروا الشماتة آنذاك» وشد ما جزعت عندما آنست فى نبرته شماتة عقب هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ »، وعندما يزور كاتبنا أحمد قدرى جلاد الشرطة فى عهد إبراهيم عبد الهادى وإسماعيل صدقى والذى أحالته ثورة يوليو ٥٢ إلى المعاش، يعرب أحمد قدرى عن شماتته ، فيكتب أديبنا الرائع .

«ففطنت على البداهة إلى من يعنى. كان ٥ يونيو مازال ممتزجاً بريقنا كالعلقم. وأدركت من فورى مدى الحقد الذى عاشره منذ إحالته على المعاش. وكرهت مناقشة شماتته المنغصة بسوء حاله لتحديدها الجارح لعواطفى الشخصية» أما عن تواضع أديبنا الرائع فيذكر فى حوار له مع عبده البسيونى بعد ٦٧، وكلاهما من الكتاب (الراوى وعبده) بصدد هجرة بلال بن عبده وهو طبيب كفر بالوطن وبالوطنية.

– العلم لغة عالمية أما مهنتنا يقصد (الأدب والثقافة) فهى ألغاز محلية..

هذه الجملة عام ٦٧ تقريباً أو بعدها بقليل، بعد أن كتب أديبنا الكبير روائعه الخالدة، بعد ذلك العطاء الغزير، فلا يرى فيه أديبنا من فرط التواضع سوى «ألغازاً محلية»، ونتأمل فى أفسال لم يكد الواحد منهم يخرج من البيضة وظهر له كتاب أو إثنان فإذا به يصعد على العالمين زهواً وتطاوساً يدعيان للرثاء.

من نماذج المرايا

لأن المجال لا يتسع لتقديم كل تلك النماذج الفريدة والتى لا تنسى التى أبدعها محفوظ فى عمله الهائل المرايا، سأقدم للقارئ، نموذجين ناصعين، النموذج الأول من عالم الجامعة، عام ٣٠ حينما تولى صدقى باشا الوزارة وحل البرلمان وانقض بقبضته الحديدية على الحرية لصالح الملك والإنجليز سنوات يرى فيها محفوظ بعين الشاب العشرينى » كانت أزمة تهاوت فيها القيم إلى الحضيض. وتقوضت كرامات الكثيرين من الرجال . ورمى الأبرياء المهزلة بأعين حمراء ولكن صفوفهم لم تبرأ من فساد. عصر البراكين المتفجرة والزلازل. عصر إحباط الأحلام وانبعاث شياطين الإنتهازية والجريمة. عصر الشهداء من جميع الطبقات».

وفى هذا الجو الذى يشهد غلياناً سياسياً، يقدم لنا محفوظ فى عالم الجامعة بورتريهات لحماس نبيل من أجل الحرية والاستقلال الوطنى، وجوه رضا حمادة وماهر عبد الكريم وعجلان ثابت وسالم جبر، وهى وجوه مضيئة لأساتذة وطلاب منهم من تعرض للإعتقال ومنهم من أوذى من أجل مبادئه، ويقدم وجوها إنتهازية منحطة، بل وجوه لطلاب مخبرين يكتبون التقارير على

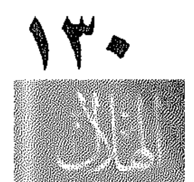
زملائهم. وفي هذا الجو المكفهر يقدم لنا نجيب محفوظ وجه سعاد وهبي ليرطب به الوهج السياسي اللافح، يأتي وجه سعاد وهبي كما يقول أمل دنقل «كنا بذكراك نرطب الشفاة اليابسة». أنثى جميلة طويلة القامة «تضيق الفستان حتى ينطق»، وهي جريئة تتحدث إلى الأساتذة بصوت مسموع، وفي بعض الأحيان كانت تتلو ماتيسر من عطيل في نعومة ساحرة فتشعل الصفوف بالرغبات المكبوتة، وكانت تتعمد أن تدخل إلى المدرج متأخرة ريثما يجلس الطلاب ويقف الأستاذ على المنصة، فتتظاهر باللهفة وتهرول كالمعتذرة، فيرتج ثدياها النافران فتشتعل الفتنة في الصفوف وتند عنها همهمات كطنين النحل» - انظر يا عزيزي القارئ إلى اللغة الشعرية المصقولة كقطعة الماس الخالص في دقتها وروعتها وبهائها».

... أتت لهم سعاد «كنجم هبط من السماء» في جو مكبوت متزمت وعدد طالبات الكلية لا يزيد على العشر عداً، محتشمات في الثياب والسلوك يجلسن علينا منكمشات في الصف الأول «كأنهن في غرفة الحريم بالترام». أما سعاد وهبي ذات الجسد الذي يضج بالأنوثة فهي مستعدة لأن تتحدث مع الزملاء في جرأة ومن القوة بحيث إذا ما حاول أحدهم إنشاء علاقات معها فهي قادرة على أن توقفه عند حده. وأصبح إسمها على كل لسان، وكان طلاب الكليات الأخرى يحضرون لمشاهدة سعاد، ونحتت لها الأسماء والأوصاف فهي «أبلة سعاد» و«كلية سعاد» و«بانت سعاد». ويلخص كاتبنا الموقف بأنها «وبالجملة تحدت الزمان والمكان».

كان لابد وأن يحدث الصدام، فالظاهرة السعادية تمادت أكثر مما تسمح به التقاليد والمناخ، وتصدى لها د.إبراهيم عقل أستاذ الآداب الذي كان يفرض سلطته الأبوية على طلابه ذات مرة دخلت سعاد وهرولت واشتعلت الصفوف، فوجه الدكتور إلى سعاد توبيخاً جارحاً «أن هناك فرقا بين صالة بديعة وبين مدرجات الجامعة» بصوت عال، ثم طلب منها المثول في حجرته، ووقف جموع الطلاب على باب الغرفة في انتظار ما سيحدث، وخرجت غاضبة وقالت بتحد وبصوت مسموع «إنها لن تسمح بمصادرة حريتها الشخصية»، واستمرت متحدية الأستاذ والتقاليد الفستان الذي ينطق ، تلوين الوجه، هرولة المدرج والثديين النافرين وإشعال الصفوف فأصدرت إدارة الكلية قراراً بفصلها، وبعد فترة حضر والدها إلى الكلية ولازال بالعميد حتى حمله على سحب قرار الفصل بعد أن تعهد والدها بتحقيق مطالب الكلية.

وعادت سعاد «واستقبلناها بالتصفيق» هذه المرة بوجهها الطبيعي بلا مساحيق وبفستان محتشم طولاً وعرضاً «أما ثدياها فلم يستطع تعهد الوالد بتغيير موضعهما ولا فتنتهما فظلا نافرين يتحديان العميد والتقاليد جميعا»، وانظر يا عزيزي القارئ إلى خفة ظل الكاتب المطورة أن ثديا سعاد وهبي النافرتين أقوى من العميد ومن التقاليد جميعاً» ... نالت سعاد هزيمة مريرة، وهي كما يوحي لنا الراوي خلقت لتتحدى لتزهو بنفسها وبجمالها وبأنوثتها، وأثبتت الأيام أن هزيمة سعاد كانت مؤقتة، إذ سرعان ما تحدت الجميع من جديد، وتحدتهم عندما رآها البعض مع مدرس اللغة الإنجليزية وهو الإنجليزي الجنسية والشاب الحديث السن، شاهدوهما يسيران في الحديقة اليابانية، وعندما سألها الطلاب أجابت أنهما تقابلا في الحديقة مصادفة فسارا معاً يتحدثان. سددت لهم سعاد ضربة مزدوجة مروعة، فها هي تقيم علاقة علنية والأدهى والأمر أن علاقتها كانت مع إنجليزي محتل للبلاد، وبلغ الخبر جميع المسئولين في الكلية، و«تبودلت السخريات على مسمع من العميد»، لم يكن بمقدور العميد أن يتخذ إجراء مع المدرس، خشية إغضاب المندوب السامي، أوجع سعاد خشية اغضاب المدرس. وقال أحد الظرفاء من الطلاب.

«إنجلترا ازدادت من تحفظات ٢٨ فبراير تحفظاً جديداً خاصاً بسعاد وهبي».



وقال آخر «الأسطول البريطاني يهدد باحتلال الجمارك إذا تعرضت سعاد وهبى لأى ضغط».

وتسببت سعاد فى مشكلة «تحدث الجميع بقوة لا مثيل لها».

[illegible]

... بقية بورتريه سعاد وهبى أن العطلة الصيفية أتت، وفى بدء العام الدراسى الجديد فوجىء الطلاب أن المدرس لم يشأ أن يجدد عقده، وسعاد لم ترجع إلى الكلية، «وكان السؤال أين ذهبت سعاد، قيل أنها سافرت مع المدرس الإنجليزى، وقيل إنها تزوجت، وقيل أنها أصبحت غانية فى شارع الألفى ومع كثرة تقلبى فى أنحاء القاهرة لم تقع عيناى عليها منذ ذلك التاريخ». وإذا ما تأمل المرء هذه المصائر الأربعة لسعاد وهبى يرجح القارئ من السياق أن سعاد تزوجت وسافرت مع الإنجليزى الذى لم يأخذ غلوة فى يد سعاد، لأن هذا الجمال الخارق عادة ما ينتظره مصير خارق، أما حكاية غانية وفى الألفى فهذا خيال موتور ناقم، ومصدر هذه النقمة هى رغبة مستعرة فى هذا الجمال العصى والمستحيل المنال.

... ولا يجد القارئ ذكراً لسعاد وهبى فى بقية العمل، اللهم إلامرة واحدة أخرى فى بورتريه محمود درويش وكيف كان أول الواشين بسعاد عند العميد وكان يهتف حين يراها «إنها غانية».

وإذا كان هناك لغط يدور حول الوسط الثقافى وكيف تحول إلى مستنقع كريه يطفح بالانتهازيين والوصوليين والأفاقين وتجار المبادىء والانحلال الجنسى الفاحش، فيبدو أن المسألة قديمة، بالجاحظ العظيم يكتب فى رسائله عن الكتاب، وأن أهل المهن والحرف يتكاتفون إذا تعثر أحدهم كى يقيلوه من عثرته، إلا أن أهل حرفة الأدب أهل تحاسد وإحن ولدد فى الخصومة، لأن صنعتهم هى فهم النفس البشرية، فهم يعلمون كيف يضربون فى مقتل، فمن خلال مجموعة بورتريهات الوسط الثقافى يقدم لنا محفوظ العظيم صورة روائية فنية رائعة للوسط الثقافى فى الأعوام من ٤٠ تقريباً (وقبلها بقليل) حتى بعد النكسة بقليل، وهى تضم مجاهدين أفذاذ إلى حوار حشرات دنيئة، قديسون عظماء وأوغاد بلا خلاق، ويكشف لنا محفوظ بالمرة عن حسه الأخلاقى الرفيع، فنرى لوحته الجبارة الخالدة ونتأمل حياتنا الثقافية، فنصل إلى تأكيد مقولة أن لا جديد تحت شمس مصرنا الغالية فى مناخها الثقافى..

عدة بورتريهات تتلاقى كلها فى بورتريه أمانى محمد، لها بورتريه خاص، لكن ذكرها (بخلاف بورتريه - سعاد وهبى) يأتى فى بورتريهات كل من بلال عبده البسيونى، جاد أبو العلا ، درية سالم سالم، د. صادق عبد الحميد، عجلان ثابت، وخلالها وتأتى أمانى محمد على بهيئة معلومة، أو حديث عن شخص له علاقة بها.. وتظهر أمانى محمد فى بورتريه خاص بها عندما تتلفن امرأة إلى الراوى الروائى الموظف بالأوقاف فى مقر العمل، والمرأة تطلب لقاء للنصح والمشورة فى دنيا الأدب والثقافة، ولأنها لا تفضل جو العمل (وزارة الأوقاف) فتقترح إستراحة الهرم مكاناً للقاء، فيقول الراوى إن هاجساً يقول له «أن الفن - وحده - لن يكون ثالثنا» ، وعندما يرى الراوى أمانى محمد يصفها بأنها امرأة أربعينية ناضجة» تتأرجح فى الحد الفاصل بين حرية المرأة العصرية وبهرج الغانية»، وهذه الجملة المسبوكة كسلاسل الذهب تجعلنا نرى أمانى محمد ونتعرف عليها. وفى الاستراحة إذ بيد أمانى البضة تتسلل كى تستريح على يد الراوى، فيقول لها الراوى .

- «هل إلى هذه الدرجة تحبين الفن (....)» ، فترد ضاحكة .

- بل الفن والحياة ...

وأثناء تجوالهما فى صحراء الهرم، وهما الإتيان لمناقشة التاريخ فإذا بهما يناقشان الواقع المعاصر، وإذا بهما يتركان الواقع المعاصركله ولا يناقشا منه سوى واقع الشقة الصغيرة التى تعيش فيها مع خالتها المسنة، تحديداً ساعات نومها.. انظر إلى السخرية العذبة وخفة الظل المفطورة

والتى لا أعرف كاتباً عظيماً إلا وجدتها سمة من سماته، وأمانى تخبره أنها مطلقة، ويتم اللقاء وتقدم أمانى أداء رائعاً فى المودة وتعبر عن تعطشها الهائل للحب.. وللحنان.

وفى بورتريه أمانى محمد الرائع – كما فى الحياة – تذهب السكرة وتجىء الفكرة، وتأتى الفكرة على هيئة رجل يحضر إلى الوزارة ويجلس أمام الراوى، وعندما يسأله الراوى عن قصد الزيارة إذا بالرجل يقول له

– جئتك بصفتى زوج أمانى محمد... فأنا زوج المرأة التى كنت عندها بالأمس» .. فيقول الراوى واصفاً مشاعره «الحق أننى غبت عن الوجود بمعنى ما، تلاشى الزمان والمكان»... وعبده البسيونى زوج أمانى ليس فرداً من الشارع، فالذى يضاعف بشاعة الموقف وقسوته ووطأته الشديدة شيئان، أولهما أن الراوى تعرف فى شخص عبده البسيونى على زميل الآداب اللامع والثرى المدلل، والشىء الثانى أن عبده قبل أن يلقى قنبلته الرهيبة حكى للراوى كيف غلبته الدنيا أولا – على أمره، كيف أوفدته أسرته إلى باريس وعاد بدون شهادة، وكيف فاز بعضوية البرلمان وتزوج من أمانى، وقامت الثورة لتنقلب حياة عبده من الجاه والثروة والنفوذ إلى البؤس والعذر، فقد تعاون عبده فى البداية مع الثورة، ونتيجة لوشاية وجد نفسه فى المعتقل، ليخرج بعد فترة قصيرة وقد صورت ممتلكاته ليجد نفسه متسولاً فى الشارع، وإبان المحنة ساءت علاقتهما هو وأمانى ، ووجد نفسه مضطراً ينحت فى الصخر ينفق على أسرته، وهو مضطر للكتابة من الباطن لنقاد ومترجمين ومسلسلات إذاعية لأنه بلا واسطة.

... كان مطلب عبده من الراوى أن يقطع علاقته بأمانى، يشعر الراوى بعاصفة من الرثاء حيال الزميل القديم وبالحيرة عندما يقول له عبده «لا تنزعج فلست أول صيد لها.. وفى كل مرة أسارع بإنقاذها».

فيقول الراوى «لم لا تطلقها».

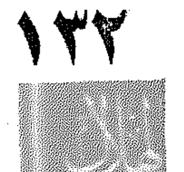
فيرد عبده أنه لو طلقها ستتمادى وستصل إلى الاحتراف وأنهما لهما ابن وابنة فى طور المراهقة وعبده يخشى على صورتها لو طلقها ستتدهور حتى الإحتراف.

بورتريه لكل وجه

... على الفور وفى أول لقاء يقطع الراوى علاقته بأمانى محمد، ويقول الراوى صاحب الحس الأخلاقى الرفيع لأمانى معاتباً كيف أخفيت عنى أنك متزوجة، وتعبر عن كرهيتها العميقة لزوجها بأنه «لا غيره عنده ولا يحب إلا نفسه» وتصف زوجها «بالوحش»، ويعتذر الراوى فى أدب بأنه «لم يعد أهلاً للحب» ويكتب «ورجعت وفى أعماقى شعور بالتحرر والنجاة والندم. ثم إجتاحنى حزن عميق وظل إحساس حاد بالرثاء يطاردنى نحو زميلى القديم عبده البسيونى وزوجه أمانى محمد «، وصفت بهما السياسة المتقلبة وحولت حياتهما إلى جحيم من الفقر والإحباط والكراهية ...

... ثم يأتى بورتريه جاد أبو العلا ليكشف لنا بقية حكاية أمانى محمد وعبده البسيونى وماذا فعلت بهما الأيام...، البورتريه الأساسى يخص جاد أبو العلا – ويحكى عنه الراوى الآتى، تاجر تحف عادى الذكاء كثير المرح أقرب إلى السطحية ذا طلاء ثقافى بلا أعماق. سافر إلى فرنسا حيث قضى هناك ثلاثة أعوام. آثر أن ينهل من منابع الفن الحر وأن يتزود من التجارب الإنسانية الحية ومعرفة الإنسان، ودون ارتباط بدراسة منتظمة، وأنه عاد مضطراً لوفاة والده تاجر التحف ليدير تجارته، وقسم وقته الضيق بين الأدب والتجارة. وهذه هى المعلومات التى قالها جاد أبو العلا إلى الراوى.

أما الحقيقة التى كونها الراوى من استنتاجاته ومعلومات الآخرين، أن رحلة فرنسا قضاها جاد فى المجون والعبث واللهو بحجة التزود بالتجارب الحية. قبل أن يقابله الراوى كان جاد قد أصدر خمس روايات طبعها على حسابه طبعات فاخرة، وكانت المقالات النقدية تنهال بالثناء والتمجيد وكلها تترجم إلى لغات أجنبية، وتعد للإذاعة والتليفزيون وكأنها الدرر، ولم يستطع الراوى أن يكمل واحدة فانصرف



عنها جميعاً. واكتشف الراوى أن كل هذا الضجيج الذى لا يصدر إلا لكاتب ذى خطر وشأن مسألة تزييف فى تزييف، فذلك الضحك لا يكتب ولا يقرأ، فقد صمم على أن يكون أديباً وأن يكمل ما ينقصه من الموهبة بالمال. فهناك من يكتبون له من الباطن، وكله بالهدايا وبالنقود، والنقد كذلك، وبنفس الأسلوب شق طريقه إلى السينما وإلى التليفزيون ويحكم الراوى عليه بأنه محب للفن وربما للشهرة أكثر ولكن بلا موهبة يعتد بها مما دفع به الى طريق ملىء بالمتاعب، فقد صمم على أن يكون أديباً. وهو يحتقر بيئة التجار وهى مصدر جاهه وثرائه وهو فيها كركب محترم، ويغرس نفسه غرساً شيطانياً فى بيئة الفن وهى تأباه وهو فيها غريب محتقر.

... هذا الأديب الزائف الذى لم يرتح الراوى له يكمل لنا بروتريه أمانى محمد، وسرعان ما ترامت الأخبار إلى الراوى، وكان قد شاهد عبده البسيونى فى صالون جاد أبو العلا فقال الراوى لنفسه (وفى ذهنه الكتابة من الباطن) «على عبده قد ظفر بصيد ثمين»، فقال عبده للراوى أنه تعرف على جاد أبو العلا منذ عامين، وأن أغلب مسلسلات جاد الإذاعية والتليفزيونية من تأليف عبده، ثم يهمس عبده ساخراً ومع هذا لم أوفق حتى الآن إلى بيع مسلسلة باسمى، ثم تأتى مفاجأة كبرى على لسان أحد الكتاب وهو عجلان ثابت، إذ يفوز أبو العلا بجائزة الدولة التشجيعية (!!)، فيكتب د. زهير كامل الناقد الملوث رسالة فى أدب أبو العلا، تلقى فيها الناقد زهير طاقم تحف عربى وألف جنيه، فيقول عبده عن الرسالة «هذا كتاب لا يجرؤ على تأليفه سوى مومس».

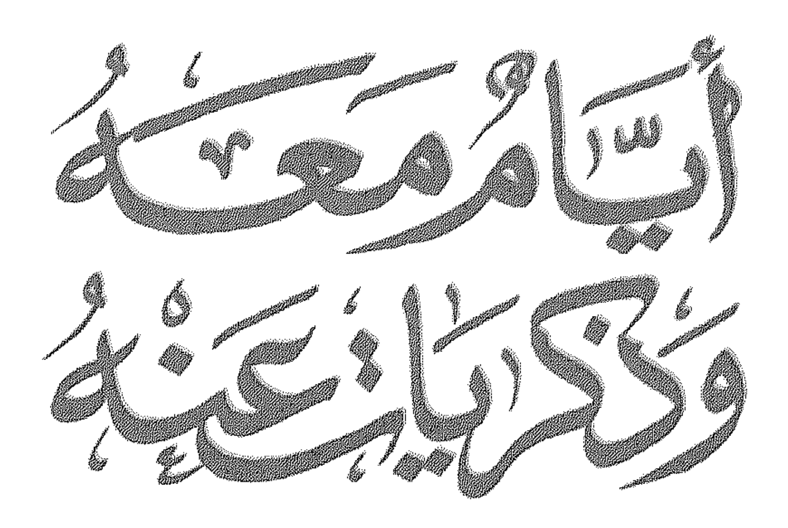
... كيف بدأت الصلة بين عبده البسيونى المؤلف الملاكى وللأديب المزيف جاد أبو العلا، تأتى الإجابة على لسان عجلان ثابت الذى يخبر الراوى أن الحكاية بدأت بعلاقة آثمة بين جاد أبو العلا وبين أمانى محمد، وأن عبده اكتشف العلاقة فسارع عبده إلى ضبطهما فى ڤيلا جاد بالهرم، و«اكتفى عبده بقطع العلاقة وتسلم حرمه، ثم أعقب ذلك صداقة وطيدة (....) بين الزوج والعشيق السابق» والأعجب أن هذه الصداقة أثمرت عن عهر أدبى - هو امتداد للعهر السابق، والأعجب والأعجب يسجله الراوى الجميل على لسان عجلان ثابت إذ يقول «العجب أن أبطال روايات جاد مُثل للصدق والكرامة والفضيلة».

أما ما أسفرت عنه علاقة عبده بزوجته، نعلم أنهما تعايشا (....)، ويقدم لنا الراوى ثمرة هذه الزيجة المضطربة الممزقة بالمشاحنات وبالعداءات وبالكراهية، أنه بلال عبده البسيونى (صاحب بورتريه خاص) وابن عبده وأمانى هو ، طبيب الامتياز النابه الغاضب الناقم على كل شىء، وهو مصر على الهجرة إلى أمريكا ونعلم أن شقيقته الصيدلانية الصغيرة ستلحق به فى أسرع وقت، أما آخر مرة يرى الراوى أمانى محمد، كان اللقاء بالصدفة أمام سنترال رمسيس، وكان العمر قد تقدم بهما، وبدت له أكثر رزانة وقد أفرطت فى البدانة ومد الراوى يده غير أن ارتباكها أقنعنى بأنها تعانى مسئولية السيدة المتزمتة إذا ما ورطتها ظروف خارجة عن الإرادة فى مصافحة رجل «غريب»!!..

عمل ثرى

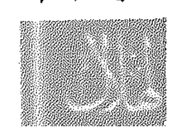
المرايا عمل رائع ثرى، تتعدد فيه الحكايات والمصائر والوجوه، كما يكشف محفوظ فى مراياه عن الفضيلة والفسق والنهايات والمصائر وصرعى الحياة وعبدة الشهوة والسلطة، يكشف فيها عن مرآة نفسه الرائعة كمصرى أصيل فى طيبة القلب وفى حب الناس والوطن وفى التسامح والغفران للضعف البشرى، ويظهر وطنية صادقة مخلصة وروحا جميلة تلقى بالنكتة الحلوة وتطرب لها... متع الله شيخنا الجليل بالصحة وبالسعادة كما أمتعنا. ■

الدكتور: محمد محمود شرابى



بقلم
يوسف الشريف

نشر الهلال فى العدد الماضي مقالا بعنوان الطيور المهاجرة ذكريات وثلاثة كتب عن مصر تناول فيه كاتبه مصطفي نبيل علاقته الوثيقة بالدكتور شرابى وعشقه لبلده برغم هجرته إلى ألمانيا وابتعاده عن مصر.
ننشر مقالا آخر لواحد من أصدقائه ليتحدث عن هذه الشخصية المميزة



مع بداية الخمسينات عرفت الدكتور محمد محمود شرابى النابغة المعمارى والأستاذ بجامعة دار مشتاد بألمانيا فيما بعد وكانت العلاقة قد توثقت بيننا عبر جيرة السكنى فى جزيرة الروضة، ثم نمت وترعرعت بعدما ذاكرنا معا دروس شهادة الثقافة ثم الشهادة التوجيهية في بيتى وبيته بالتناوب، فكان من الطبيعى أن يتعرف كل منا على أسرة صديقه، وأذكر أن الألفة جمعتنى على صغر سنى آنذاك بوالده إذ يبدو أن الحاج محمود شرابى رجل الأعمال العصامى كان حريصا على الاطمئنان على أنه عبر التأكد من حسن سير وسلوك أصدقائه وأننى نجحت فى الاختبار إلى حد زياراتى الدورية له فى ورشة تشكيل الحديد التى كان يملكها ويديرها وشقيقه الأكبر فى السبتية!

د. محمد شرابى مع كاتب المقال

كانت بيننا هوايات أثيرة مشتركة إبان مرحلة الدراسة الثانوية، بينها نهم اقتناء وقراءة كتب التاريخ والاسلاميات وروايات نجيب محفوظ وبينما حببت إليه لعبة التنس وتدريباتها فى نادى التوفيقية، حبب إلى لعبة المصارعة وتدريباتها بجمعية الشبان المسلمين ورغم أن الحاج مصطفى مدرب المصارعة نصحنى أولا بأداء تمرينات رياضية معينة لتنمية عضلات الكتفين الهشة حتى تتحملان السقوط إلا أننى واصلت التدريب مع محمد شرابى بعدما أفضى لى بسر إقباله على هذه الرياضة تحديدا إذ كان همه القصاص من زميل له بالمدرسة السعيدية اسمه سامى أصبح فيما بعد طبيبا للأسنان ومن عجب أن يتوقف عن تدريبات المصارعة فجأة بعد أن تصالح معه أثر تدخلى لإزالة سوء الفهم الذى نشب بينهما ومن يومها أدركت كم هو صبور وعنيد ومستبسل فى تحقيق ذاته ونيل مآربه ودفاعه عن كرامته واشهد أنه لم تصادفه مشكلة إلا وتغلب عليها عبر شحذ إرادته واعتماده التخطيط الجيد والعمل الدؤوب!

على أنه كانت بيننا هواية أخرى أحسب أنها كانت من معالم تكويننا الثقافى المبكر إذ كنا نمشى على أقدامنا ساعات ومسافات بعيدة نستمتع خلالها بمصافحة عيوننا لملامح الناس وتكوينهم الجسمانى وملابسهم وحركاتهم وسكناتهم ثم يدور بيننا الحوار من باب تدريب عضلات الخيال أو التخمين حول مهنهم أو أوضاعهم الاجتماعية ومدى سعادتهم أو تعاستهم كما لو أننا نشترك معا فى كتابة قصة أو سيناريو فيلم سينمائى وأحيانا كانت الفرجة وجولات المشى تشدنا تارة إلى ربوع القاهرة الفاطمة والملوكية وتأمل عمارتها الإسلامية وربما الإعجاب والحسرة على ما آلت إليه بقايا العمارة الأوربية البديعة فى وسط البلد والزمالك والحلمية القديمة والعباسية.

فلما ظهرت نتيجة الشهادة التوجيهية عام ١٩٥٤ قرر والد محمد شرابى إرساله لدراسة الهندسة المعمارية لأنه لم يحرز الدرجات التى تؤهله للالتحاق بكلية الهندسة، بينما كان الطريق أمامى سالكا للالتحاق بكلية الحقوق والعمل محرراً تحت التمرين فى عدد من الصحف والمجلات عهدئذ لكن محمد شرابى لم يستمر فى الدراسة بالنمسا سوى عام واحد وبعدها قرر استكمال دراسة فى ألمانيا وكتب لى

خطابا شائقا مثيرا يروى فيه الحكاية وأنه تعرض لهجمة عاطفية حادة من طرف واحد وكانت ربة الأسرة التى سكن معها وكيف أدرك وهو المسلم الشديد التدين أنه هالك حتما أمام جمالها واندفاعها الجنونى نحوه كما لو أنها امرأة العزيز التى راودت سيدنا يوسف عن نفسها لولا أن رأى برهان ربه. رغم علم زوجها المسن بمسلكها الشائن أو ادعائه الجهل.

خطاب آخر وصلنى منه كان أكثر إثارة فقد التقى فى القطار الذى حمله من النمسا لألمانيا بشاب أفريقى رائع واسع الثقافة ورياضى مفتول العضلات، وخلال حديثهما المتبادل عرف أنه تنزانى الجنسية وأنه هارب من بلده وأسرته متوجها لألمانيا حتى يجرب حظه فى الدراسة والعمل والثراء.

هكذا ظل الحوار بيننا حميما متصلا فترة اغترابه عن مصر، فكنت دائما أتخيله أمامى بلحمه وشحمه وابتسامته الهادئة وتوهانه لحظات عن الدنيا وما فيها، وعادته التى ظلت تلازمه فى قضم إبهامه لا إراديا ثم انكفئ على الورق وأكتب له صفحات مطولة عن أطوال مصر وأخبار أهله وأصدقائه وتلخيصا وافيا عن الاهتمامات العامة والشواغل الغالبة فى الصحف والمجلات المصرية ثم أروى له آخر نكتة وآخر فيلم وآخر أغنية أو كتاب، ثم أطرح عليه قضية سياسية أو اجتماعية أو ثقافية للمناقشة، أو أرد على سؤال أو قضية طرحها على فى آخر خطاب وصلنى منه!



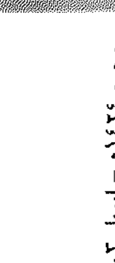
ومن هنا ظلت الصداقة تجمعنا على الود والاحترام المتبادل عبر الخطابات إرسالا واستقبالا وحتى عاد لأول مرة إلى القاهرة بعد أن نال بكالوريوس الهندسة المعمارية وعاد معه اثنان من أصدقائه المصريين الجدد الذين تعرف عليهم فى ألمانيا وهما الدكتور حسن رجب الكاتب الآن بصحيفة الأخبار، والمهندس إسماعيل الشافعى وسافرنا جميعا فى إجازة قصيرة إلى بورسعيد وهناك لاحظت أن بعضا من طباع محمد شرابى قد تغيرت إلى حد ما، فقد غادرنا وهو يصلى وعاد متزمتا دينيا وكان يطرب للنكتة والدعابة وعاد وقورا ومتحفظا وهو كان لا يمل الحوار شدا وجذبا بشغف وحرارة فأصبح يفضل الاستماع أكثر وتأجيج الحوار عن بعد ولاحظت كذلك وبأثر رجعى أن ولعى بكتابة المطولات إليه كان يرد عليه بكتابات مختصرة وتقريرية على غرار القول المأثور ما قل ودل ويبدو أنه لم يعد يملك ترف استهلاك الوقت فى الثرثرة إذ كان مشغولا لشوشته فى التحضير لنيل شهادة الدكتوراه وحتى نال مأربه ليتفوق وكان موضوع رسالته على ما أذكر عن العمارة الإسلامية الفاطمية أو المملوكية التى كان يعشقها فى شرخ شبابه ثم ثنى عليها تباعا بنيل الدكتوراه فى الفلسفة!

أذكر فى إحدى إجازاته القاهرية أنه عمل من باب التدريب بعد حصوله على البكالوريوس فى مشروع هندسى تشرف على تنفيذه شركة كروب الألمانية

فكان يصحب معه إلى بيوت عائلته أو بيوت أصدقائه بعض زملائه من المهندسين الألمان، ثم يتركنا ليراقب من بعيد كيف نتبادل معهم التعارف والمعرفة والمناقشات السياسية، وكنا نصحبهم بدونه أحيانا إلى المعالم الأثرية أو الترفيهية، ثم يعرض على مسامعنا طرفا من آرائهم ورؤاهم حول أفكارنا دون رتوش خاصة أن القضية الفلسطينية والبؤرة الصهيونية الاستيطانية التى زرعت فى قلبها وعلى أشلائها كانت تفرض نفسها على الحوار مع هؤلاء الألمان، وبينهم من كان يلتقى معنا فى الرأى عند منتصف الطريق ومعظمهم كان يظل على حياده أو إعلان انحيازه لاسرائيل بدعوى انتهاجها للديمقراطية وتقدمها العلمى رغم محاولتهم جميعا إخفاء كراهيتهم الدفينة لليهود وقال لى محمد شرابى أنه مضطر مهنيا للتعامل مع الجميع بحذر ولا يستبعد أن يكون نشاطه وعلاقاته وغيره كثر من المصريين والعرب فى ألمانيا موضع مراقبة اليهود وقد تتطور إلى ملاحقة ومالا يحمد عقباه!

والحقيقة أن محمد شرابى كان أول من سمعت منه تعبير «الصراع الحضارى» وهو الوصف الذى أطلقه فى الستينات على الصراع العربى الاسرائيلى، إذ كان يعتقد أن اسرائيل كما هى مشروع صهيونى إلا أنها أيضا مشروع غريب أمريكى لاستلاب الإرادة العربية وخلب لب العرب عبر تفوقها العسكرى والاقتصادى والتكنولوجى حتى يشعرون بعقدة النقص أو العجز عن مواجهتها ،وكان يرى أن اعتماد العرب فحسب على جعجعة السياسة أو السلاح لن يجرى على المدى القصير فى مواجهة اسرائيل وردعها أو الانتصار عليها وأن المطلوب أن ينطلق العرب فى صراعهم الحضارى مع اسرائيل عبر بناء قاعدة علمية مؤسسية تعتمد خطة استراتيجية بعيدة المدى لإنقاذ فلسطين وإنقاذ الأمة العربية مما تبغية الصهيونية وأمريكا لها، بل وكان يدعو إلى ضرورات استقراء واستيعاب نفس المنهج والمنوال الذى اتبعته الحركة الصهيونية فى زرع اسرائيل أولا، ثم تنمية قدراتها الذاتية علميا وعسكريا واقتصاديا كمرحلة ثانية ولابد كذلك من تمتين اللحمة بين الشعوب والأنظمة العربية وأنظمتها ومؤسساتها كبديل عن الاحتماء بقوة دولية فى مواجهة احتماء اسرائيل بأمريكا ولعله من هنا كان دأبه فى معظم رسائله على ضرورة العناية القصوى بالتعليم والبحث العلمى فى مصر من حيث النوعية وليس من حيث انتشار التعليم وكم المتعلمين والخريجين، بل وكان يطالب كذلك بأن تكون مراقبة ومتابعة أحدث النظم فى مجال العلم والتعليم والبحث العلمى ضمن اهتمامات السفارات وأجهزة المخابرات العربية!

وكان قد وصلنى منه خطاب عام ١٩٦٨ من بلدة دار مشتاد حيث كان يعيش ويعمل بعد أن أصبح أستاذا لمادة الهندسية الوصفية بجامعتها وفوجئت به يطرح على سؤالا: لماذا لا نلتقى؟ ثم قال: إذا سمحت ظروفك فأنا على



استعداد لاستضافتك وكان قد تزوج بفتاة ألمانية أسلمت على يديه تدعى ريجينا وأنجب منها طفلين!

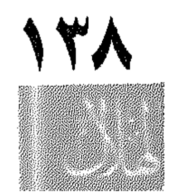


ولأن اليد كانت قصيرة والعين بصيرة، من هنا تدبرت أمر الرحلة مع ثلاثة من الأصدقاء بينهم الكاتب المسرحي الراحل عبدالرحمن شوقي صيف عام ١٩٦٩ وسافرنا بالطائرة إلى بيروت ومنها بالسيارة إلى دمشق، ثم دخلنا إلى تركيا عبر النقطة الحدودية المعروفة باسم باب الهوا حتى وصلنا إلى استانبول وعندئذ عاودتني آلام الحصوة التي راحت تضرب في كليتي وبدني ونافوخي إلى حد الصراخ، فلما توقف الألم تلقائيا ركبنا قطار الشرق السريع إلى بلغاريا ومنها إلى يوغسلافيا، ثم النمسا حيث تفرق الأصدقاء كل إلى سبيله بينما واصلت الرحلة إلى ميونخ ومنها بالقطار الداخلي إلى بلدة دارمشتاد حيث وجدت الدكتور محمد شرابي في انتظاري وهات يا أحضان.

في منزله البسيط المريح تعرفت على زوجته وأولاده وعلى الفور صحبني إلى مكان مبيتي ثم تركني حتى أستريح من عناء الرحلة، وبعدها تناولت العشاء مع أسرته، ثم انتحينا جانبا ورحنا نسبح ونغوص في بحر الذكريات وعندما أدرك مدى الألم الذي يعتصرني صحبني في الصباح إلى عيادة طبيب ألماني وبادرته بتشخيص مرضي ثم صارحته من البداية بأنني غير مستعد لتجرع شراب الصبغة الذي يسبق أشعة الكلى ومن ثم كتب لي روشتة لتناول حبوب مسكنة وأخرى مدرة للبول ونصحني بشرب الماء قدر استطاعتي تباعا.

فلما خرجنا من العيادة وركبت معه في سيارته إذا بصديقي الدكتور محمد محمود شرابي يلتفت إلي فجأة ويقول في لهجة جادة: يوسف إياك أن تمرض في ألمانيا العلاج هنا مكلف جدا، وفهمت من حديثه أمرين: الأول أنه على غير استعداد لأن يشغله شئ عن عمله، والثاني أنه وهو الأستاذ الجامعي يصرف مرتبه على داير فرنك في التأمينات والضرائب والمعيشة وشراء الكتب، ومن جهتي برمجت نفسي في ضوء هذه الحقائق.

كان يتركني صباحا في وسط دارمشتاد ويتوجه إلى عمله في الجامعة وعلى أن أدبر حالي في التسكع والمعرفة على هدى خريطة تفصيلية لمعالم المدينة وحين يحين موعد أوبته من العمل، على أن أتصل به تليفونيا لتحديد مكاني في المدينة حتى يمر علي ويصحبني إلى منزله وفي المساء وأنا الذي لم يسبق لي النوم منذ عشرينات العمر قبيل انبلاج ضياء الفجر، كان علي النوم مبكرا وعندما ضقت ذرعا باحتباسه لحريتي وأدرك رغبتي في العودة راجعا إلى القاهرة، من هنا عهد إلى أحد طلبته واسمه فريدريك أن يتدبر معي مهام السهر وكان عند حسن ظنه به، فقد كان خبيرا في كل كافتيريات وملاهي الاندرجراوند التي يرتادها الشباب تحت الأرض!



فريديك كان واحدا من أربعة أبناء للمليونير ألمانى يملك مصنعا ضخما فى ميناء هامبورج لبناء السفن وناقلات البترول، وحكى لى أن والده كان يمنح أشقائه بعد تخرجهم تباعا من الجامعة مبلغا من المال وجواز سفر، وعلى كل منهم أن يجوب العالم ويخوض التجارب حتى تمتلئ صفحاته بأختام الوصول والمغادرة للدول التى يختار زيارتها بحرية تامة، وعندئذ فقط يعهد والده إليه شغل الوظيفة أو القيام بمهام متباينة فى شركته، ووعدنى أن تكون مصر فاتحة زياراته بعد تخرجه من الجامعة.. وقد بر بوعده!

وعلى ما يبدو أنه أدرك ثمة اختلاف ما فى أفكارى أو سلوكى مع أستاذه الدكتور شرابى، من هنا أفضى إلى أنه يشعر دائما بحرصه الشديد على أن تظل شخصيته وطباعه شرقية ومستقلة عن النمط الألمانى رغم تفوق العلمى ونبوغه وأسلوبه الشائق والمبتكر فى تلقين مادته لطلبته وتفانيه فى مساعدتهم وحكى لى أنه كان قد صحب طلبته فى رحلة علمية وترفيهية إلى باريس فكان يغمض عينيه حتى لا يرى مشاهد الراقصات العاريات حين يرتاد معهم الملاهى الليلية فكانوا يداعبونه حتى يضطر إلى فتح عينيه لمشاهدة الراقصات غصبا عنه.

على أن الدكتور شرابى كان كريما ومضيافا كما عرفته فى مقتبل شبابنا الغض الإهاب وكان يصحبنى وزوجته وأولاده فى رحلات خارج مدينة دارمشتاد خلال إجازته الأسبوعية.

وأظنه كان يعانى آنذاك وطأة الصدمة الحضارية وهو المتدين المحافظ الشديد الولاء لمصريته وعروبته واسلامه!

فلما عدت إلى مصر كتبت له خطابا أشكره على الأيام السعيدة التى عشتها معه فى ألمانيا، لكنه لم يرد على خطابى، وعبثا كتبت له ولكنه ظل عند موقفه حتى بعثت له عام ١٩٨١ بكتابى آخر ظرفاء ذلك الزمان حول سيرة حياة أستاذنا لشاعر كامل الشناوى وعندئذ فقد أرسل إلى خطابا مطولا لأول مرة يرد فيه على كل خطاباتى السابقة ويعلن اعتذاره عما بدر منه أمامى مع زوجته وعن سوء ظنه فى إجاباتى على تساؤلاتها حول الرقص الشرقى والغربى!

وحين قدر للدكتور محمد محمد شرابى أن يعود إلى مصر فى إجازة طويلة لأول مرة أواخر السبعينات كان قد تغيرت بعض طباعه بنحو ١٨٠ درجة، فكان أكثر نضجا وأكثر ميلا للتسامح والتوافق الفكرى والمزاجى مع الآخرين، وكان أيضا قد أصبح من الأثرياء فقد صحبنى ذات مساء بالقاهرة للقاء بالأمير محمد الفيصل وأدركت أنه سمع بنجاحاته فى تشييد العديد من الصروح العمرانية الحضارية فى السعودية والكويت، ويتطلع لاسهامه فى تصميم بعض مقرات البنك الاسلامى ومشاريعه التنموية فى ربوع العالم الاسلامى وتمنيت له التوفيق ولم التق به مجددا حتى عرفت من صديقنا المشترك الأستاذ مصطفى نبيل رئيس تحرير الهلال بقصة مرضه العضال والخطأ الفادح الذى ارتكبه الأطباء السويسريين فى علاجه إلى حد فقدانه للذاكرة شفاه الله وعافاه! ■

الفن والفنانون الغجر

فى مصر

بقلم

مهدى الحسينى



ثلاث غوازى
من غجر مصر
١٨٩٠



«دق» عين الحسود وطيور وعرائس

تمائم سحرية .. تطريز على ثوب

لن نتحدث هنا عن «الغجر» الذين «وصلوا» ، فكلهم ينكرون هويتهم الغجرية ويخفون أصولهم، وبعضهم يتنكر لها بل ويستنكرها إلى حد أن يعلن انتسابه إلى هوّيات مصرية أخرى أصيلة، أو وافدة، أو منتحلة ومزعومة!! فالمركزية المصرية القاهرة لن تعترف إلا بهوية الحكام وطبقتهم المهيمنة والتى تتغير بتغير هوية الحاكم. هنا فقط نتحدث عن «عامة» الغجر وهؤلاء أيضا يصمتون عن غجريتهم - خلافا للغجر فى الدانوب وفرنسا وغيرها - بل يتركون غيرهم يطلقون عليهم ما شاءوا من المسميات.

فنانون غجر من الأقصر يطوفون اوروبا

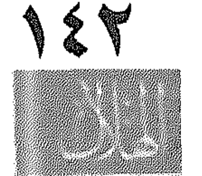
غير أنه من واجب الإنصاف لمركزيتنا المحافظة، خاصة السنة المسلمة والأورثوذوكسية المسيحية واليهودية المصرية، أن الغجر هنا لم يتعرضوا للمذابح والمعتقلات والمطاردات مثلما تعرضوا في أوروبا خاصة في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية والاتحاد السوفيتي وإسبانيا فرانكو وأخيرا في بعض دويلات البلقان ثم أخيرا في كوسوفو على يد المتشددين العنصريين الألبان. إلا أن هذه المسألة هنا في مصر تاخذ أبعادا اعتبارية ومعنوية: نفسية أو قيمية أو ثقافية أو طبقية أو اجتماعية وكلها أمور أخف وطأة مما حدث لهم في بلاد تزعم أنها أكثر تقدما وإنسانية وتمدنا وحضارة.

وأظن أن الغجر المصريين قد وجدوا شيئا من الرحابة والتسامح لدى المجتمع المصرى في مراحل التحول الكبرى، فلعلهم لقوا من الفاطميين الشيعة المغاربة متسعا لفنونهم وحرفهم وأساليب حياتهم الخاصة التي كان السنة المشارقة يتشددون إزاءها، ولعلهم حين رددوا أو - أنشأوا - سيرة الظاهر بيبرس وأشاعوها في ربوع مصر كلها، كانوا يمجدون لحظات البداية في الدولة المملوكية الفتية ولعلهم أيضا أشاعوا السيرة الهلالية بأبعادها البطولية بعد هزيمة عرابي، قد أفادوا من خلخلة قبضة المركزية (الخديوية) بينما لم تكن السلطة المستجدة الانجليزية قد تمكنت بعد.

أما أثناء الحرب الأولى حين زلزل الصراع الوطني السلطة الانجليزية المتحالفة مع السراي، كما تم شل تردد حكومة حسين رشدي وحسم مناوراتها، وتهيأت البلاد لثورة ١٩١٩ فقد اندفع عدد كبير من الفنانين الغجر إلى الحياة الفنية في الريف والمدينة، سواء في أفراح القرى حيث لعب موسم جني القطن والمحاصيل الزراعية رغم جرائم الانجليز دورا في إنعاش فرص الاحتفالات الريفية وتعدد مناسباتها وأسبابها أو في حياة المدن في صورة نشاط اقتصادي وتجاري وحرفي وصناعي أسهم في تمويل أنشطة فنية وثقافية تتسم بالطابع القومي والثوري ولا شك في أن شخصية غجرية مثل الشيخ محمد عبدالرحيم المسلوب (من المساليب بقنا) والذي لعب دورا كبيرا في إنشاء قوالب الدور والموشح والمقطوعات الموسيقية المصرية ودفع إلى الحياة الفنية بألمظ وعبده الحامولي ومحمد عثمان وعازفين مشهورين كبار مثل العقاد وكامل الأُصلي وغيرهما، كما أسهم في تكوين العديد من الفرق والجوقات الموسيقية المؤثرة، لأكبر دليل على الدور المرموق للفنانين الغجر في نشأة وتكوين الحياة الفنية المصرية منذ منتصف القرن ١٩ تقريبا وحتى مطلع القرن العشرين.

الحدادة حرفة الايقاع

لا ينظر السمكرى إلى رفرف السيارة المهشمة بعينيه حين يصلحه بل يتحسسه بكفه ويظل يضرب عليه بشاكوشه في إيقاعات متدرجة من الخشن فالأقل خشونة فالناعم فالأنعم ويظل يتحسسه بعد كل مرحلة حتى يتلمس ما تم إنجازه وما تبقى إلى أن يصل إلى نعومة الفابريقة وهو مطمئن إلى سلامة عمله لأنه مطمئن إلى سلامة أذنيه من ناحية حسها الايقاعي فهم أهل حدادة وحرفة وإيقاع، دقة على الوتد، ودقة على السندال وايقاع صانع الذهب غير ايقاع صانع الفضة.. غير صانع النحاس والحديد والخشبة، وهو لا يخشى دقة الأجنة على إصبعيه ولاحد المنشار ولا لهيب النار طالما أن إيقاعه سليم لأن معلمه حين لقنه أنواع الايقاع وألوانه حتى وصل به إلى حدود الإتقان وأبعده عن المخاطر لذا لا تدهش حين تجد هذا السمكرى أو الحداد أو النجار أو الصنايعي يرقص في أحد الأفراح على الايقاع بمنتهى التوافق



والانضباط أو يمسك بطبلة ويدق عليها كطبال محترف.

وليس إلى مهنة الحدادة وحدها يرجع الفضل إلى دخولهم مجتمعنا المحافظ. فهم أهل حرف عديدة يمارسونها مستندة إلى مختلف الإيقاعات وأنواع الغناء الأمر الذى يساعد على قبولها وقبولهم اجتماعيا، وهم أهل حكمة أيضا ولعلهم أصحاب المثل السائر «سبع صنايع والبخت ضايع» إلا أن هناك ملاحظات أربع لابد من وضعها فى الاعتبار:

الأولى : أن ليس كل من يعمل فى هذه المجالات المنسوبة للغجر يكون حتما غجريا بل المقصود هنا فقط أن هذه هى الحقول التى برع فيها هؤلاء الغجر أو المتغجرون الذين تربوا لديهم وتعلموا الكار على أيديهم وهى مجالات بطبيعتها تبرز مهاراتهم الخاصة سيما أعمال الخطر كالحدادة والسيرك وصيد الحيات والرقص مع الثعابين إلخ.

الثانية : أن أغلب هذه الأعمال تمارس مصحوبة بأنواع الإيقاع وفنونه وبألوان الغناء الغفل أو المصحوب بالعزف وأحيانا بألوان من الأداء الحركى.

الثالثة : أن أنشطة الغجر الفنية والإبداعية والحرفية والتجارية مبررها الأساسى هو خدمة القرية وحرفتها الأم أى الزراعة والتى ورثها الفلاحون المصريون عن أجدادهم الفراعنة كما تقوم على مساعدة الحرفيين المصريين بالمدينة فى ممارسة مهنهم كى تعفيهم من ممارسة الأنشطة المحفوفة بالأخطار مثل الحدادة، وفى الحالين فى القرية والمدينة فقد تولوا مهمة الترفيه عن جميع طبقات المجتمع خاصة الطبقات الشعبية أى أنهم تحملوا عنهم مسئولية القيام بالأعمال التى أنف أو شق على مجتمعنا ذى الطبيعة المحافظة والذى ألف مهنه التقليدية المستقرة.. القيام بها.

الرابعة : لعل سر توافق جماعات الغجر مع البنية الاجتماعية الشعبية خاصة المصرية وعناصرها الأصيلة والقديمة الفلاحية الحرفية، منذ مجيئهم إلينا وفقا للتأريخ المفترض وغير الأكيد كصناع سيوف وعجلات وعربات وبيطرية فى جيوش الاسكندر أو بعد ذلك حسب ما سوف يثبته البحث الأنثربولوجي والتاريخى الذى نرجوه، سر هذا أنهم جاءوا إلى مجتمع مستقر راسخ له نظمه وتقاليده التى لا يؤثر فيه غريب أو وافد، بل هى تستوعبه فتجعله جزءا من منظومتها ونظامها بل ونظرا للتشابه الكبير بين مهارات الغجر ومهارات المصريين. فقد لبت فنون الغجر وآدابهم بعض حاجات الوجدان المصرى.

الغجر والآلة الموسيقية

فى إسبانيا يحملون الجيتار وترقص نساؤهن بالكاستانيت والتارة ذات الشخاليل ويدق الرجال بكعوب أحذيتهم الصلبة على الأرض الجافة. وفى جبال البرانس يستخدمون الـ «أود» وهو عود ضخم للغاية. وفى الدانوب يحملون الكمان الصغير والربابة ذات العلبة المستطيلة الكبيرة كما يعزفون على الشبابة (الصفارة الخشبية متعددة الأنابيب مثل تلك التى اشتهر بها العازف الغجرى زامفير وهذه الآلة أصلها مصرى وموجودة بمتحف الاسكندرية من مقتنيات طريق الاسكندرية الفيوم من القرن الثانى الميلادى وفى روسيا يحملون مختلف أنواع الاكورديون وأحجامه وفى انجلترا يهتمون بالصلاصل وبالصفارة المزدوجة (صفارتان متماثلتان متساويتان فى الحجم والطول ومنفردتان مختلفتان فى مواضع الثقوب وعددها) يعزف بها العازف معا أو منفردتين أو بالتبادل وهى من أصل مصرى أيضا إذ نراهما فى لوحة العازفات المصرية الشهيرة من مقبرة رعموزا بالبر الغربى بالأقصر، وفى تركيا يستخدمون آلة



البونجوش وهى عبارة عن عود كبير ذو قصعة من النحاس، وفى اليونان يستخدمون البوزوكيا والسنتورى، أما فى الشام فآلتهم المفضلة هى البوزوق ثم الصفارة وأحيانا الشبابة، وفى العراق يعزفون على الشبابة والربابة ذات الصندوق الكبير والصلاصل من الحديد والصدف والمحار والعود والكولة (وهى صفارة تتميز فصيلتها عن الناى بخلوها من ثقب خلفى «الغمّاز» وقد سميت كولة نسبة إلى كابول بزعم أنها جاءت إلى العراق من أفغانستان وهذا مخالف لتاريخ هذه الآلة المصرية القديمة من قبل التاريخ وكما جاء فى قصة العازف الأخرس، أما فى الموطن الأصلى أى الهند فهم الذين أبدعوا آلة السيتار وغيرها من الآلات الموسيقية والطبول فى الهند القديمة. ولا يوجد غجرى فى هذا العالم لا يعشق آلة موسيقية ما ولعله يصنعها بيديه إذا لم يجدها وبالطبع ليس كل عازفى هذه الآلات وصناعها يكون بالقطع غجريا.

غجر مصر والموسيقى

وأما فى مصر فهم يعزفون على آلات عديدة أهمها الربابة والتى يقال أنها دخلت إلى مصر مع الفتح العربى، والكولة ولها مسميات عديدة أخرى كالسلامية والعفاطة والستاوية والصفارة وتتعدد أصواتها بتعدد أحجامها وأطوالها وعقدها وثقوبها وسمك جدارها، وجميعها ليس له ثقب «غمّاز»، من الخلف، أما أنواع الأرغول ألغاب المردوج فهو قصير جدا يسمى مجرونة أى أنبوب من البوص مقرون إلى أنبوب ثان وأحيانا ما يضيفون إلى نهاية إحدى قصبتيه بوقا من قرن غزال أو من الصفيح، ومنها الجورمة وهو أرغول متوسط الطول، وأما الأرغول الطويل فيرسل صوتا عريضا وقويا (باص بارتيون) وكذا يتقنون العزف على أنواع عديدة من المزمار الخشبى من خشب المشمش فى الأغلب ذو البوق، أحيانا مطعم بالنحاس، ويسمى القصير الحاد منه بالسبيس والمتوسط بالصعيدى فى الصعيد والتركى فى الدلتا أما الطويل فيسمى بالأبا أما عن أنواع الطبول والدفوف فهى أكثر من أن تحصى فمنها طبلة الحوش أى الدهله ومنها طبول الزار ومنها الصغيرة «الحُق» ومنها البلدى متوسطة الحجم وهناك الدفوف ذوات الأقطار المختلفة الأطوال والتى تستخدم فى الأفراح والأحزان (الندابات) والموالد والمواكب وطقوس الزار، وهناك المزاهر وهى عبارة عن دفوف ذات شخاليل نحاسية وهى تعزف فقط فى الزار والمناسبات السعيدة وكذلك آلات الطرق المعدنية من النحاس والنيكل وأهمها التورة والصاجات والكاسات والنواقيس والأجراس والمثلثات وهى بطلة حلقات الذكر ومقدمة الطرق الصوفية وعازفة ضبط التون والإيقاع فى الكنائس والمعابد اليهودية وهناك أشكال أخرى من الإيقاعات منها البازة وهى آلة مشدودة على طبق من الفخار أو النحاس أو الصاج بأحجام مختلفة وأحيانا تسمى النُقارة والصغير منها يستخدمها المسحراتى وبعضها يستخدمها الراقصون فى المواكب حين يعلقونها على صدورهم وينقرون عليها نقرا رفيقا موقعا مؤثرا وهناك الطبل المزدوج (النقرزان) الكبير منه تحمله الجمال يدقون عليه بعنف حين يرحلون مع الحجاج ولعلها كانت طبلة حرب والصغير فيه يرقص عليه أهل الفن والعدوة وبيا ومغاغة وما حولها ويسمونها «العلبة».

أما أهل النوبة فهم لا يستخدمون الطبول بل الدفوف فقط (فرقة النوبة الحالية تستخدم الطبل وهذا خطأ) وآلة الطنبورة وهى بعض من بقايا الهارب الفرعونى الذى هجرنا وقد استعار منها أهل بورسعيد (العمليون) آلة السمسمية فحولوا الطبق الفخارى إلى طبق معدنى كصندوق رنان

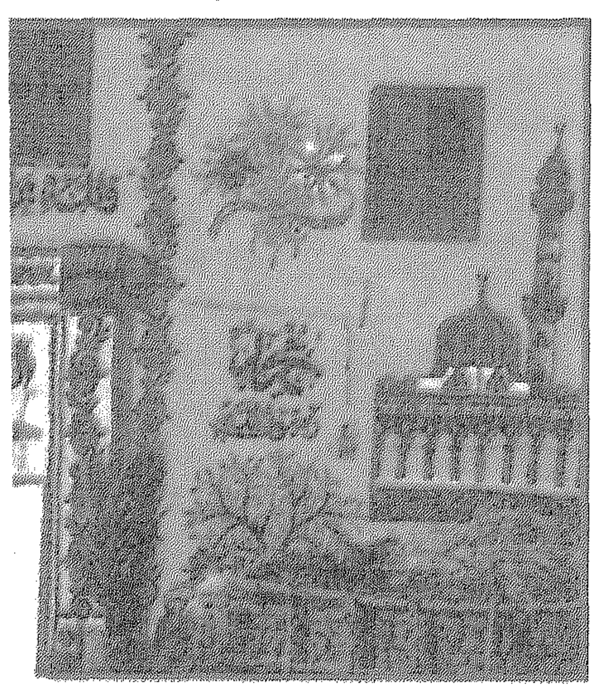
وغيروا الجلد من حيواني إلى بلاستيك واستبدلوا الأوتار الطبيعية بأوتار من النحاس.

الغجر والأغنية والقصص الشعبي

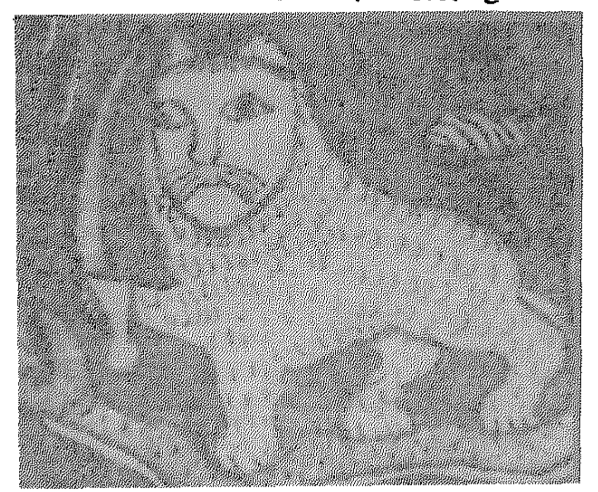
«جرجا.. وبرديس.. والبليذا.. آهه.. آاه.. هاه.. آه..» يغنيها غجر الجنوب في حزن وشجن وعشق حلو ومر مصبوب في لحن ممتد عميق مرسل إلى أفق لا نراه، وهناك أغان شهيرة تفنن المغنون الغجر في أدائها مثل: (يابو العيون السود ياللي جمالك زين ومثل: أيازين العابدين، وآمنت بالله، يا نخلتين في العلالي، ويا حسن يا خولي الجنينة.. وغيرها من الأغنيات الشائعة والتي غذت الوجدان بالشجن والجمال لسنوات وسنوات ومازالت. وهناك تيمات ملحمية وقصصية ودرامية حملها الفنانون الغجر وداروا بها في القرى والأسواق والسوامر والأجران يروونها أو يحكونها أو يغنونها وأحيانا يشخصونها ولكن أحدا لم يستطع إثبات أصولها الغجرية أو غير الغجرية!! فهي تيمات مصرية ولا شك، فقصة سعد اليتيم أحد تنويعات صراع حورس مع عمه الآله ست، وقصة حسن ونعيمة تنويعة أخرى على حب ايزيس للآلة الذبيح أو زوريس، وقصة بهية وياسين تشكل احتجاج قبائل العبابدة – حراس الجنوب – على مصرع بطلهم المتمرد ياسين واغلاق الحدود المصرية السودانية بأمر الانجليز، وأدهم الشرقاوي المثقف العفوي في مواجهة كبار الملاك والرجعيين والانجليز، وشفيقة ومتولي بصيغها العديدة تشكل احتجاجا على الفقر والانحدار الانساني، وهكذا كانت كلها نابعة من التراث المصري وصميم حياتنا الاجتماعية ومع ذلك تبناها الغجر، وكأنما اتخذوا موقع المدافع عن الفقراء والضحايا والمظلومين والأبطال، لهذا لا توجد صيغة واحدة (موحدة) لهذه التيمات، بل هناك عشرات من الصيغ الأدبية والأشكال الفنية والألحان والأصوات الداخلية التي يطرحها الفنان الغجري على الجمع المتحلق حوله في سامر أو مولد أو عرس وأحيانا في عزاء. ولا يفوتني هنا أن أُنَوِّه إلى أن كتابا مسرحيين أبرزهم نجيب سرور وشوقي عبدالحكيم قد استوحيا هذه التيمات الأثيرة في نصوصهما، كما استوحاها كتاب ومخرجون سينمائيون مثل الشاعر عبدالرحمن الخميسي والمخرج هنري بركات في فيلمها الشهير



جدارية من النقش الغجرى



«حج مبرور وذنب مغفور» هكذا



تميمة القوة والفروسية

حسن ونعيمة، كما استوحاها وغيرها فنانون آخرون موسيقيون وشعراء ورسامون، فهل يستطيع ناقد محنك تمييز العناصر المصرية من الغجرية فى ثنايا الموال القصصى الغنائى وفى الأغانى والحكايا والأمثلة الشعبية؟ أظن هذا أمرا عسيرا للغاية فبقدر ما كانت المركزية سدا صارما عابسا فى وجوه الغجر كانت الحياة الشعبية حقلا فسيحا تسرح فيه أرواحهم وتنطلق فيه إبداعاتهم والجماعة الشعبية دفئا وعباءة يتدثرون بها.

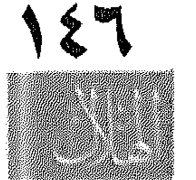
الغجر والسيرة الشعبية

هم فرسان السيرة وشعراؤها يتفننون فيها بقدر ما يحافظون عليها ينطلقون جميعا من متن متفق عليه، ولكن لكل شاعر طريقة ولكل شاعر تفسيره، ولكل شاعر لغته ولهجته ولكنته، بعضهم يحكى حكيا قصصيا أو شعريا مرسلا دون أن يستخدم آلة موسيقية وبعضهم يوقع بكفه وبعضهم يوقع بدف صغير ذو قبضة وفيهم من يحمل الربابة وحده، ومنهم من يقول الشعر بالربابة وسط صحبة من المرددين، بعضهم هلالى وبعضهم زغابى وبعضهم زناتى إذا كانوا يحكون السيرة الهلالية (أو السير الهلالية) ومازال هناك بعض الرواة يحفظون سيرا أخرى أكثرها بقاء للآن هى سيرة الزير سالم لارتباطها بالتاريخ المزعوم للغجر. المهم هل شاعر الربابة مجرد راو أو مردد أو ناقل أم هو مبدع؟ لو ظل النص على ما هو عليه فى بدايته التى لا ندريها متى وكيف.. لما أصبح بهذا الثراء والتفريع والتعدد والتركيب. فدراسة تاريخ السيرة وفنون أدائها يكشف بشفافية كبيرة كيف يتكون الفولكلور ويتبلور، إنه يتكون بالتراكم طويل المدى، فلكل شاعر إضافة ولكل شاعر تعديل ولكل شاعر بيت شعر على الأقل قد أضافه مرتجلا فى نوبة حماس أو ابداع أو كشف وهكذا.. وهكذا.. تبلورت هذه السيرة الشعبية أو تلك فى صيغتها النهائية غير النهائية، ولقد سمعت خطوطا بعينها كانت قد استهوتنى من أكثر من شاعر فلم أجد بينها تطابقا حرفيا لا فى النص الشفهى ولا فى فنون الأداء ولا فى المزاج العام ولا فى التأثير الجماهيرى الذى لا تكمل السيرة بغيره، هنا صدق استاذنا عبدالحميد يونس حين وصفها بأنها فن الممثل الفرد.

الغجر والسيرك

وتكاد العائلات الغجرية المصرية تسيطر على فنون السيرك المصرى المتجول من مئات السنين بفنونه المختلفة ابتداء من التهريج إلى اللعب مع الأسود والنمور والأفيال والكلاب والقرود والخيول والحمير والعنز والثعابين ومهارات ركوب العجل والدراجات النارية والمشى فوق الحبال وألعاب الأكروبات والترابيز وهى لعبة خطأها يعنى الموت المحقق.

أما عن مجموعات السيرك الصغيرة الجائلة وعازفى ومغنى الشوارع ولاعبى البيانولا والنقرزان والحواة والأراجوزات ولاعبى خيال الظل وفنانى المولد، فقد قامت سلطات الأمن المصرية فى الستينيات بالتضييق عليهم بحجج أنهم متسولون أو لصوص، يفضحوننا أمام الأجانب فقبضوا عليهم بقرار من زكريا محيى الدين ومن بعده عبدالعظيم فهمى وزير الداخلية حينذاك مع مصادرة حيواناتهم وأدواتهم فازدحمت بهم السجون، بدلا من إعانتهم اجتماعيا ورعايتهم إنسانيا، وترويجهم فنيا بحكم أنهم يملكون قدرات فريدة ومهارات نادرة من خلال أجهزة الدولة (الشئون الاجتماعية والجامعة الشعبية ومصلحة الفنون) مثلما حدث فى المجر ويوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا وتشيكو سلوفاكيا وأسبانيا وفرنسا أو كما حول الفنان الكبير الراحل زكريا



الحجاوى أن يفعل فى ساحات الحسين والسيد البدوى وغيرها بعد ذلك.

الغجر والاحتفالات الشعبية

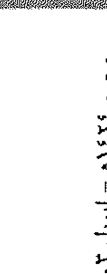
فى الموالد والأفراح والمناسبات الدينية والاجتماعية والوطنية والشعبية يجد الفنانون الغجر متسعا لفنونهم ولأنشطتهم التجارية أيضا من جنوب مصر إلى شمالها قراها ومدنها وأحياؤها الشعبية، وتعتبر الصورة الفنية الشهيرة الليلة الكبيرة التى أبدعها الشاعر صلاح جاهين والموسيقار سيد مكاوى وثيقة فنية دقيقة لحياة المولد، وهى رغم قصرها البالغ إلا أن إيحاءاتها لا تنتهى مهما تأملت فيها وكذا عكست أعمال فنية سابقة لكامل الخلعى وزكريا أحمد هذه الحياة الشعبية كما صورت السينما المصرية جوانب عديدة منها ولم يبق سوى أن ينكب باحث جاء على كل هذه المواد «الجاهزة» لصفها ودرسها والخروج منها بصورة راصدة محللة مستنتجة - ويعتبر الذكر - الذى اهتم تشكيليون كبار بتصويره - من أهم فنون الأداء الحركى الذى يمارسه المصريون فى الموالد حيث تقوم المنشدة أو المنشد بصحبة عازفى التورة والمزهر والكولة بأداء أجمل الأشعار الصوفية ويعتبر الفنان محمد عبدالنبى الرنان من اسنا والفنان ياسين التهامى من منفلوط من أهم الذين أدوا الشعر الصوفى فى أيامنا هذه وهناك فى الدلتا كانت هنايات شعبان الراحلة والحاجة روحية وفى الاسكندرية كانت الراحلة بدرية السيد من أبرز الفنانات اللاتى قمن بإحياء ليالى الغناء الصوفى فى مولد المرسى أبو العباس وابراهيم الدسوقى والسيد البدوى وغيرهم من الأولياء.

أما باقى المظاهر الاحتفالية فكلنا لسنا غرباء عنها ولا حاجة لنا هنا بالتوقف عندها، هذا وتتكفل المغنيات الغجريات بأغانى العرس والميلاد والطهور كما تتكفل الندابات المحترفات بأداء نصوص موروثه - وبعضهن يرتجلن الأشعار - فى نعى المتوفى ووداعه - بل قد تتجاوزن ذلك إلى موضوعات الموت والحياة والوجود والآخرة.

الغجر والفن التشكيلي

وهم يتمتعون بذوق بصرى رفيع وفريد وغريب، فقد رسموا على صندوق مغلق ضخم محمول على عربة تجرها البغال أطلقوا عليها أودة العفاريت وتستخدم ضمن مفردات السيرك أو الملاهى، رسموا أجسادا عارية (بلا عورات) مستطيلة استطالة كاريكاتورية.. وكأنها تسبح فى مكان ما.. ليس فضاء ولا بحرا ولا سماء ولا أرضا.. وقد تشاركهم عقارب وحياة وأنياب تماسيح (كلها فى بعد واحد) لهم عيون جاحظة مندهشة أو مذعورة أو ساخرة أو متظاهرة بالخوف وشفاه مبتسمة فى مرارة أو عبث أونهم أو ندم، والسؤال هنا: من رسم هذا الرسم؟ من هو أول من رسم الذى تناقله (نقاشوا) الغجر واحدا جنب أو بعد الآخر؟ ومن هذا الذى بثه هذه المعانى المدهشة والأحاسيس العجيبة؟ وبالمثل فإن الرسومات التى على جدران عربات السيرك من وجوه (أقنعة) مفترسة فإنك لو تأملتها فلسوف تجد فيها (أرواحا) بشرية وكذا العربة التى تنقل مسرح الأراجوز وكذا بارافانة وعدة خيال الظل وأشكاله وعرائسه وستائره ولوحة النيشان (فتح عينك تاكل ملبن) ومسرح الفتاة الكهربائية، وزخرفة المراجيح كلها مزخرفة إما بأشكال ممكن أن تسميها بالسيريالية أو تضاهيها بالأشكال الـ أويتكال آرت عند فازاريللى إنك لا تستطيع أن تنسى كيف صور النقاش/ الرسام الغجرى الأراجوز وسط أسرته وهو يضرب خصومه ملقيا بهم على الأرض مهددا إياهم بعصاه «النبوت».

ولا ننسى رسومات الحج والأعراس بألوان الجير الطباشيريه أو الترابية من درجات الأزرق والأصفر والأحمر غير





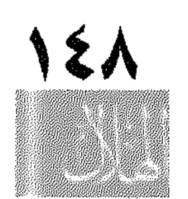
الصريحة وتنم عن ذوق مصرى/ هندى متسق وكذا زخرفة مقابر «الهو» الشهيرة بمحافظة قنا وكذا زخرفة قوارب الصيد وعربات الكارو وهى فى حالات التشخيص تكتفى برسم الموضوع فى ملامح عامة وفى حالات التجريد فإنها تستخدم المثلثات والدوائر وفى حالات التصريح فهى تلجأ إلى الكتابات الدينية والأحاديث والأقوال والأشعار والدعوات وفى حالات التعبير تستخدم أشكالا كالهلال والثعبان والتمساح والعقرب والقمر والشمس والسمكة رمز الخصوبة وكف اليد (خمسة وخميسه) وعين الحسود وشكل الساعة والنخل والشجرة وحوا وآدم والثعبان والفتاة التى ترقص حاملة سيفين والعصفورة إلى غير ذلك وهذه الأشكال نفسها استخدمها الوشامون وقد أفردت له د. سوسن عامر كتابا رائدا وفريدا.

غجريات فنانات

أما نسائهن فهن بارعات فى أنواع الزينة يتقن رسم الكحل لكل عين وشكل الحلق لكل أذن ووجه وشكل التسريحة اللكة والقصة والكعكة والضفيرة والضفائر المستعارة بمنديل أو بدون منديل كما يصممن الحردة والقمطة والطرحة وكلها من أغطية الرأس ويزينها بورود الصوف أو خيوط الحرير أو الخرز أو الترتر ولقد قابلت فى الأقصر فتاتين (فايزة وسامية) متفننتان فى التطريز اليدوى على الفساتين بالخرز والخيوط الملونة وخرج النجف حيث شهدت على أيديهما أفكارا تصميمية مبتكرة وجميلة علما بأنهما لم تتلقيا تعليما ولم تخرجا إلا نادرا خارج المدينة والتقيت مغنية وراقصة فى دشنا وقد صنعت لنفسها فستانا من مالها الخاص كى تظهر به دقائق فى إحدى مسرحيات قصر الثقافة لا أبالغ حين أظن أن هذا الفستان يتفوق فى تصميمه وجماله وذوقه عن أرقى بيوت الأزياء المصرية والعربية والأجنبية.

وفى زمان الرواج للاقتصاد الفلاحى تنافست الفلاحات على الزينة بالذهب والفضة وشهدت عديدا من القطع صيغت على يد الصاغة الغجر والقبط فى قيسارية (قيصرية) جرجا.. وأيضا فى ميدان الشيخ جبارة بالعريش حيث يعيش الـ «سيجونا» أى غجر العريش ورفح وجنوب فلسطين، ولقد بهرنى عقد ذهبى شهدته على صدر الفنانة الأقصرية الكبيرة سعاد مازن كانت بمثابة تحفه لا تقدر بمال عبارة عن ميزان بسلاسل فإذا هى مالت فإن الميزان لا يميل بل يتخذ شكلا أفقيا مستقيما دائما: جمال وقيمة ومعنى، وفى أحد الأيام طرقت بابى شحاذة غجرية تخطت السبعين أو الثمانين ولحظت على الفور قطعتين فضيتين تغطيان مساحة كبيرة من ساعديها (يسمونها ظرف) مشغولة بأشكال ووحدات نباتية ومفردات رمزية كثيرة فعرضت عليها شراءها فكان ردها علىّ مشمولا بابتسامة ساحرة معناه لقد طلبت منك طعاما لا أن تأخذ منى كل ما أملك فى هذه الدنيا.

والنساء الغجريات ماهرات فى العمل على المغازل والأنوال بالصوف والحرير والقطن يصنعن أثواب السودانيات التى تشبه السارى الهندى كما يصنعن الملاءة والبردة وأقمشة الأثواب النسائية ومفروشات الأسرة والستائر وذلك فى أخميم والزوك الغربية بسوهاج ونقاده بقنا وجراجوس بالأقصر جنبا إلى جنب سيدات آخر من غير الغجر من المسلمات والقبطيات ولعل دراسة فى هذه الثقافة الشعبية المادية تقدمها الباحثة وداد حامد فى هذا المجال سوف تفيدنا كثيرا وكذا دراسة مشتركة من الفنانتين المثقفتين الكبيرتين: عزة فهمى وشهيرة محرز سوف تستكمل هذا الموضوع



الرائع حيث أعلم أن لهما دراية واسعة به وأن لديهما مقتنيات نموذجية وصور نادرة.

هل عندنا مسرح غجرى؟

ليس مثل كارمن ولابوهيم وغيرها من التيمات الغجرية الخالصة والتى استوحاها الفنانون الأوروبيون «الرومانسيون» من ثقافة الغجر خاصة في الدانوب ووسط وشرق أوروبا وروسيا والأندلس وجبال البرانس ليس مثل هذه المسرحيات والأوبرات والباليهات الأوروبية التى تنفرد بطعم حريف ونكهة ساخنة ورائحة نفاذة وملمس شديد الخصوصية والانسانية معا، فهى تتميز بتأثير عاطفى روحى خاص للغاية حيث الحب حتى الموت والعنف حتى يسيل الدم، والقتل حتى الفناء والصداقة. حتى الفداء: لا.. ليس عندنا مثل هذه الأشياء فالأمر جد مختلف.

لا يوجد عندنا مسرح غجرى مصرى أو عربى.. أو إفريقى، ولكن هناك فنانين غجر عملوا بفنون المسرح المختلفة وكذا السينما، ممثلون ومؤلفون ومخرجون وموسيقيون وعازفون ورسامون ومصممون وراقصون ولكن هؤلاء لم يصنعوا فنا مسرحيا غجريا وإن كان حضورهم بداخله كثيف ومؤثر للغاية، لا أستطيع أن أسمى فنانة أو فنانة منهم هنا، لأن هذا أمر شبه محرم منهم ومن الغير فى آن واحد!! حتى المسرحيات التى تعرضت لشخصيات أو تيمات غجرية لم تكن مسرحيات غجرية بل هى مسرحيات ترد ضمن السياق العادى للمسرح المصرى فى سياقه العادى إن كان منتظما أو مضطربا هناك مؤثرات غجرية على بعض ملامح المسرح المصرى فى أحيانا الموسيقى وأحيانا فى الاستعراض وأحيانا فى الملابس ولكنها فى النهاية لا تشكل مسرحا غجريا.

إلا أننا يجدر بنا أن ننوه بأن الزار يشكل عرضا مسرحيا متكاملا هكذا كتب الباحث الكبير الراحل عبدالمنعم شميس فى كتابه الصغير المهم «الجن والعفاريت فى الأدب الشعبى» وكذا أ.د. فاطمة المصرى وأخيرا د. عادل العليمى فى كتابيهما المهمين عن الزار، وهو طقس شفائى سحرى شعبى يشارك فى صياغته خليط من الغجر والجماعات الشعبية ابتداء من غجر الحبشة وأم درمان أى الفلاّتة إلى غجر الدلتا من برمكية وخُمْرْ ومسلاف وغوازى وغز.

ولنا فى فنون الأراجوز ومسرح خيال الظل والمجبذين/ المحبظين/ المحبظاتية وفى الحكائين وشعراء السيرة المشخِّصين وغير ذلك من فنون الشعب مصدر ولا ينضب من الأشكال والمضامين المسرحية الشعبية التى يمكن أن تشكل مسرحا مصريا/ غجريا أو غجريا مصريا.

الأكاديميون والغجر

أظننى فى هذا المجال لم أثر إلا تساؤلات وخواطر وليس هذا بالعلم العليم، وفى ظنى أن الإجابات الدقيقة لاتجئ إلا بالانكباب والبحث والتنقيب والتحليل وفقا لمناهج علوم الأنثريولوجى الثقافية والتاريخ والاجتماع والمصريات والفولكلور معا، الأمر الذى لن يتحقق إلا بعد إنشاء معهد للدراسات الشعبية والفولكلورية على أنقاض معهد الفنون الشعبية الحالى شرط أن يخصص كرسى للدراسات المصرية الغجرية وأن يقيم صلة أكيدة وعميقة ومنظمة ودائمة مع الفنانين الشعبيين وأهل الحرف اليدوية والجميلة أصحاب الفنون التطبيقية منصتا وناظرا إليهم كبشر - لا كعينات للفرجة أو للفحص أو كمادة لتدبيج أكوام من رسائل الماجستير والدكتوراه - فيشركهم معه فى برامجه كأصحاب حق أصلاء، معهد منحاز للشعب المصرى وتاريخه وحياته وقضاياه ومستقبله.



من ذخائر الكتب العربية

منهل اللطائف في الكنافة والقطائف

الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي عالم الدين والدنيا

بقلم
د. عوض على الغباري

كان الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى - نسبة إلى أسيوط بصعيد مصر (٨٤٩ هـ - ٩١١ هـ) مؤلفا موسوعيا، وكان تجسيداً للتأليف الموسوعي الذى كان من السمات المميزة للعصر المملوكى الذى عاش فيه. وقد امتلك السيوطى ثقافة دينية ولغوية وأدبية واسعة أهلته لأن يكون مجدد عصره، وعلما من أعلام الثقافة العربية الإسلامية. تبحر السيوطى فى سبعة علوم هى : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع. وقد اشتغل السيوطى بالعلم والتأليف، ولكنه لم ينعزل عن الحياة فكانت له رحلات داخل مصر وخارجها وقد حج

*أستاذ مساعد الأدب المصرى لكلية الآداب جامعة القاهرة - قسم اللغة العربية

وأقام سنة بالحجاز، وتواصل مع علماء عصره فأثر فيهم، وتأثر بهم. وقد عين قاضيا على كل القضاة لمكانته العلمية والأخلاقية ، كما أشرف على المدارس التى اهتمت بتدريس العلوم الدينية فتولى إدارة المدرسة البيبرسية وهى أكبر مدرسة مصرية فى عصره . كما تولى كثيرا من المناصب الرسمية الرفيعة فى التدريس والإفتاء، ولكنه عزف عن كل هذه المناصب الهامة لما واجهه من حسد وأحقاد المنافسين له من العلماء، ومن أشهرهم السخاوى الذى تحامل عليه وجرحه فى (الضوء اللامع) وقد كان السيوطى عالما جليلا صالحا فترفع عن هذه الصغائر، وتفرغ للعلم والتأليف والعبادة، وانعزل عن هذه الحياة الفاسدة متخذا «الروضة» سكنا له وأبدع فى وصفها فى «مقامة الروضة» تعبيرا عن حبه لوطنه مصر، وإن جار عليه أهلها. وقد قمت بدراسة مقامات السيوطي فى كتاب بعنوان مقامات السيوطي دراسة فى المقامة المصرية» وهو أول دراسة لمقامات السيوطى، حيث لم يسبق أن قدم أحد هذا الموضوع فى كتاب .

وقد أثرى السيوطى المكتبة العربية بأكثر من ستمائة كتاب، ذكر كثيرا منها في ترجمته لنفسه في كتاب (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة،) الذي أرخ فيه للحركة العلمية والأدبية والثقافية لمصر حتى عصره، كما ألف كتابا فى سيرته الذاتيه هو كتاب (التحدث بنعمة الله)، وذكر فيه، كذلك، كثيرا من مؤلفاته .

أهم حفاظ الحديث

ويعد السيوطى مرجعا فى علوم القرآن فى كتابه الفذ (الإتقان فى علوم القرآن) وهو من أهم الكتب فى الدراسات القرآنية، كما يعد إمام الحديث فى عصره فهو من أهم حفاظ الحديث فى مصر بعد الحافظ ابن حجر والحافظ – فى مصطلح الحديث – هو الذى أحاط علمه بمائة ألف حديث متنا وسندا ، وأحوال رواته جرحا

وتعديلا، وقد ألف السيوطى فى علوم الحديث أكثر من مائة كتاب، ويعد كتابه «جمع الجوامع أو «الجامع الكبير» نموذجا فريدا فى علم الحديث، كما يعد موسوعة للسنة النبوية، فهو دائرة معارف كبرى فى الحديث مع رواياته وأسانيده، إضافة إلى أنه المعجم الوحيد المتداول بين المسلمين حتى الآن فى الحديث النبوى رواية ودراية. ويعد «تفسير الجلالين» الذى بدأه جلال الدين المحلى وأتمه جلال الدين السيوطى أشهر التفاسير تداولا بين المسلمين حتى الآن، وله أيضا تفسير كبير يسمى (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور). وقد كان السيوطى مرجعا أصيلا ومصدرا مهما من مصادر اللغة العربية وقد قدم كثيرا من الكتب اللغوية والنحوية، أهمها «المزهر فى علوم اللغة» الذى يعد من أنفس كتب اللغة فى المكتبة العربية. ويعد كتاب (الأشباه والنظائر) فى النحو من أهم الكتب فى هذا الميدان. وقد كان السيوطى من أهم مجتهدى القضاء فى عصره، وكانت فتاواه ممثلة لشخصيته العلمية والدينية العظيمة. ومن أهم هذه الفتاوى التى تمثل حسه الحضارى فتواه بعدم جواز البناء على النيل حفاظا على جمال طبيعة هذا النهر العظيم. وقد جرت عليه جرأته فى الحق كثيرا من ألوان الشدة والعناء. ووصل الأمر إلى حد محاولة قتله من قبل السلطان والعلماء وذوى المصالح الذين اعترضتهم مواقفه إلى جانب العدل والحق .

إثراء الثقافة

لقد كان للسيوطى أثر عظيم فى إثراء الثقافة العربية والإسلامية بمؤلفاته الموسوعية التى كانت من أهم إسهامات العلماء والأدباء من أبناء مصر فى ازدهار الثقافة العربية التى كان إنجاز مصر فيها تعبيرا عن الأصالة العربية، وانعكاسا لمظاهر الحضارة العربية الإسلامية فى الثقافة والفكر والفن والأدب فى مصر على امتداد عصورها، خاصة عندما أصبحت مصر بعد سقوط بغداد عل يد جحافل التتار ملاذا للثقافة العربية، وكعبة قصدها العلماء والأدباء من كل حدب وصوب، ومصدرا لعطاء الحضارة الإسلامية، وإسهامها فى بناء الحضارة الإنسانية.

ولكن السيوطى عالم الدين لم ينغلق على نفسه، اذ تتجلى روحه المصرية الفكهة المحبة للحياة جامعة فى توازن فريد بين حب الدين وحب الدنيا، مما يعد

من أهم ظواهر الشخصية المصرية .

ويتضح من الجانب الأدبى فى شخصية السيوطى هذه الروح المصرية المولعة بالتورية وما يرتبط بها من فكاهة، وهو ما توازيه (القفشة) فى العامية مما يعكس حب المصريين للتلاعب بالألفاظ. وقد اتضح ذلك فى مقامات السيوطى من مثل مقامة النساء التى صور بها على لسان عشرين عالما فى علوم مختلفة وصف ليلة الزواج الأولى، وتسمى هذه المقامة أيضا «رشف الزلال من السحر الحلال» وهى مقامة فريدة أنشأها السيوطى لهدف أخلاقى اجتماعى هو التحبيب فى الزواج، إذ فشا فى عصره مرض أخلاقى خطير هو الشذوذ بين الرجال. وتتضح المفارقة اللفظية للتورية بين ظاهر العبارات التى يوردها كل عالم فى مجاله، ولا يقصد مصطلحاتها العلمية، وإنما يقصد ما وراءها من معان أرادها للتحبيب فى الزواج .

المقامة النيلية

وعلى ذلك جاءت «المقامة النيلية» التى تصور ارتباط حياة المصريين بالنيل فى حالتى وفائه ونقص مائه، واضطراب هذه الحياة، تبعا لذلك، بين الرخاء والغلاء. لقد تحدث السيوطى بأسلوب التورية فى المقامة النيلية على لسان عشرين عالما هم المقرئ والمحدث والفقيه والفرضى - وهو العالم الذى يبحث عن كيفية قسمة تركة الميت بين الورثة - والأصولى - عالم أصول الفقه - والجدلى - وعلم الجدل عند المنطقيين هو القياس المؤلف من مقدمات مشهورة أو مسلمة. وصاحب هذا القياس يسمى جدليا- والصوفى والنحوى والتصريفى واللغوى والمعنوى والبيانى والبديعى والعروضى والشاعر (عربيا ومولدا) والكاتب والطبيب والمنطقى والموسيقى والميقاتى. ويقول على لسان النحوى، مثلا، فى التعبير عن نقص الغذاء، وارتفاع الأسعار حال الشدة الناتجة عن جفاف النيل «السعر ممدود والمال مقصور، وانا وكتبى للبيع جار ومجرور، قد كسر باب الإنافة، ورفع باب الإضافة - تعبيرا عن توقف الرخاء، وقلة الضيافة -، لقد لقينا أمر إمرا وضرب زيدا عمرا ! فيعبر تعبيرا مرحا، رغم الأزمة، ويحقق دلالة التورية على أصالة الشخصية المصرية المولعة بالتورية بالألفاظ .وتتناقض هذه الصورة مع صورة وفاء النيل، وعموم الخير كما رسمها على لسان هذا النحوى أيضا، وقد «ضم» إليه كتبه وقال : «قد زال الغم والهم

وصار البر - القمح - الكر قفيز بدرهم، وسئل الشعيرا تريد أم برا؟ فقال كليهما وتمرا !»

وقد عبر السيوطى بمثل هذا على لسان العلماء العشرين بصور تعبيرية مرحة، فى موازنة بين الجد والهزل مما تتصف به الشخصية المصرية تصبر وتتجمل وتعبر من روح الأمل والتفاؤل رغم الشدة والضيق .

وتتضح هذه الرؤية كذلك فى المقامة الطاعونية التى تصور الطاعون الذى اجتاح مصر سنة ٨٩٧هـ، وأفنى نصف سكان القاهرة فوصفه على لسان العلماء بأسلوب تورية مزج بين الإحساس بالمأساة الإنسانية التى سببها الطاعون وبين الفرح بعد زواله مما عكس بعض جوانب الحياة المصرية فى عصره .

تجسيد روح العلم

وكتاب (منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف) وقد حققه محمود نصار مجلى آخر من مجالى شخصية السيوطى الذى يجسد روح العالم حتى فى تناوله للكنافة والقطايف، وهما من أحب أنواع الحلوى للمصريين فى شهر رمضان المبارك مما يتبين معه امتزاج روح العلم بروح الأهالى الحلوة الفكهة. وقد ذكر محقق هذا الكتاب أن هذا الموضوع فريد فى مجال الأدب، وقد قدم له السيوطى بمعنى المادة اللغوية للقطايف فى صحاح الجوهرى والقاموس المحيط للفيروز آبادى فهى فى الصحاح «القطيفة دثار مخمل، والجمع قطايف وقطف ومنه القطيفة التى تؤكل» وهى فى القاموس «القطيفة دثار مخمل والجمع قطائف». ويبين السيوطى خصوصية القطايف المصرية بقوله: «والقطائف المأكولة لا تعرفها العرب». وأما الكنافة فلم يذكرها - على حد قول السيوطى «أحد من أئمة اللغة، ولا فى الألفاظ اللغوية ما يصلح أن يكون مادة لها، والذى يظهر لى أنها لفظ أعجمى أو يونانى، فإن الأطباء أكثر ما يستعملون الألفاظ اليونانية والأعجمية». ويروى السيوطى قصة ابتداء الكنافة، ويردها إلى معاوية بن أبن سفيان الذى كان يجوع فى رمضان جوعا شديدا فشكا ذلك إلى محمد بن أثال الطبيب فاتخذ له الكنافة فكان يأكلها فى السحر - أى فى السحور قبل الفجر - فهو أول من اتخذها. ويخصص السيوطى القسم الأول من الكتاب لما قاله الشعراء فى الكنافة مبتدئا

بقول الشاعر المصرى أبى الحسين الجزار فيها :

سـقى الله أكناف الكنافـة بالقطر
وجـاد عليـهـا سكرا دائم الذر
وتبـا لأوقـات المخلل إنهـا
تمر بلا نفع وتحـسب من عـمـرى
أهيم غـرامـا كلمـا ذكـر الحـمى
وليس الحـمى إلا القطارة بالسـعـر
وأشتاق إن هبت رياح قطائف
السحور سحيرا وهى عاطرة النشر

ويقول فيها جمال الدين ابن نباتة أمير شعراء المشرق فى العصر المملوكى:

ذكرتك والأسماء تذكر بالكنى
فلله يا أسما الكنافة والذكر
ولم أنس ليلات الكنافة قطرها
هو الحلو إلا أنه السحب الغر
تجود على ضعفى فأهتز فرحة
كما انتفض العصفور بلله القطر

وفى البيت الأخير تضمين جميل للبيت الشعرى المشهور

وإنى لتعرونى لذكراك هزة
كما انتفض العصفور بلله القطر

وتتجلى التورية بالقطر يعنى ظاهرا المطر، ويريد به الشاعر السكر المذاب فى الكنافة.

أمـا القسم الثـانى من كتـاب «منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف » فيذكر فيه السيوطى مـا قاله الشعراء فى القطائف مثل قول الشاعر :

لله در قطائف محشوة
من فستق دعت النواظر واليدا
شبهتها لما بدت فى صحنها
بحقاق عاج قد حشين زبرجدا

ومن الشعـر الذى جمع بين الكنافـة والقطائف قول الشاعر :

وقطائف مقرونة بكنافة
من فوقهن السكر المدور
هاتيك تطربنى بنظم رائق
ويروقنى من هذه المنثور

ويقـول ابن عـربى الصـوفى الأندلسى الشهير:

غـدت الكنافـة بالقطائف تسـخـر
وتقـول : إنى بالفـضـيلة أجـدر
طويت مـحـاسنهـا لنشـر مـحـاسنى
كم بين من يطوى وآخـر ينشـر
لحـلاوتى تبـدو وتلك خـفـيـة
وكـذا الحـلاوة فى البـوادى أشـهـر

فالكنافة تفضل نفسها على القطائف لأن حلاوتها منشورة ظاهرة أما حلاوة القطائف فخفية غير ظاهرة، والحلاوة البادية أفضل من الخفية !

ويورد السيوطى لغزين كتبهما الأديب

برهان الدين القيراطي إلى الشيخ تاج الدين السبكي، أحدهما في الكنافة، والآخر في القطائف، في قصيدة طويلة تزيد أبياتها على أربعين بيتا يقول فيها عن الكنافة والقطائف ملغزا.

اسمان كل خماسي قد اكتتبت
حروفه وهما لاشك خدنان

فحروف كل من الكنافة والقطائف خمسة، وهما خدنان أي حبيبان وصاحبان ويشير الشاعر إلى الكنافة ملغزا بقوله :

ثبت أرى النار قد أبدت لنا ورقا
فأعجب له ورقا ينمو لنيران
فقدها خيط فجر أبيضا عجل
بالبرق يسطو عليها سطوة الجاني

فيجعل الكنافة سلوكا من ورق - فضة - تنضجها النيران فيعجبه ذلك، ويجعل قدها خيط فجر يعجله البرق. أما القطائف فيلغزها قائلا :

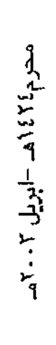
بالطي والنشر في حال قد اتضحت
والطي والنشر فيما قيل ضدان
كم سكرت ففتحنا للدخول لها أبوابها
فتلقتنا بإحسان

ويتلاعب الشاعر بالنشر والطي ضدين تتضح بهما حلاوة القطائف في إشارة إلى طريقة صنعهما، وبالتورية عنها بباب بلاغي بديعي هو اللف والنشر، أو التلفيف وهو كما ذكر ابن أبي الإصبع المصري في كتاب (تحريرالتحبير) أن «يقصد المتكلم التعبير عن معنى خطر له أو سئل عنه فيلف معه معنى آخر يلازم كلمة المعنى الذي سئل عنه». ويصور الشاعر القطائف أبوابا مغلقة تتلقى فاتحيها بإحسان. وقد أجاب القاضي تاج الدين السبكي على هذا اللغز بستة عشر بيتا بدأها بقوله حلا له، مخاطبا برهان الدين القيراطي :

لك الحلاوة في قلبي بإيمان
وفي لساني بإفصاح وتبيان
وفي الصحون إذا مدت قطائفها
مع الكنافة من صين لأسوان

ويورد السيوطي أبياتا لظافر الحداد شاعر الإسكندرية في العصر الفاطمي من قوله في القطائف :

قطائف لواطف روابي
لم تحش بل رصت على اصطحاب
في المسك والفستق والجلاب
كأنها السنة الأحباب
في الشكل والنكهة والرضاب
ملمسها كوجنة الكعاب
فطعمها كلذة العتاب
من بعد صد طال واجتناب



تنزل فى الحلق بلا حجاب

وهى طعام وهى كالشراب

كأنها زيارة الأحباب

والعمر فى الصحة والشباب

أما القسم الثالث من كتاب (منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف) فيقدم فيه السيوطى ألغازا فى القطائف والكنافة كهذا اللغز الذى تلقاه الصلاح الصفدى فى القطائف يقول صاحبه : «ما اسم يعتنى الصائمون غالبا بتحصيله، وتتنافس الأكابر فى جملته وتفصيله، خماسى الحروف فى الترصيف والترتيب، مسطح الشكالة فى البساطة عند التركيب، وإن حذف خمساه رأيته طائرا وسيما طالما قص الأثر فاهتدى به «وفى هذا إشارة إلى القائف الذى يقتفى الأثر..

ويشير اللغز أيضا إلى حذف الحرف الأول من كلمة قطائف موريا بقوله تعالى «فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم »(القلم، ١٩ ، ٢٠) ويرد الصفدى مجيبا على هذا اللغز، واصفا القطائف وصفا بديعا بقوله «قد راقت للعيون ملاحته، وحشيت بالقلوب حلاوته، مختص بشهر رمضان، لأن فى قلبه حلاوة كحلاوة الإيمان).

ويورد السيوطى ألغازا أخرى فى القطائف يختمها بلغز من إنشائه، كما يورد، أيضا، لغزا من إنشائه فى الكنافة يقول منه « ما اسم خماسى الحروف، ليس بمألوف فى اللغة العربية ولا معروف .. وإن طرحت أوله وصحفت ثانيه كان حقيراً، أو رابعه صار بعيرا ... هو فى المائدة آية، وفى الأنفال غاية، يشابه بيت العنكبوت، وله فى النحل رغبوت». ويشير السيوطى إلى أن حذف أول حرف من كنافة وتصحيف الحرف الثانى بجعله تاء بدلا من النون يعنى تافه، وتصحيف الرابع وجعله قافا بدلا من الفاء يعنى ناقة ويشير إلى بعض سور القرآن كالمائدة والأنفال والنحل والعنكبوت ليصف الكنافة أجمل وصف. وقد اختلف فى صحة نسبة كتاب (منهل اللطايف فى الكنافة والقطايف) إلى السيوطى، ولكنى أرجح أن يكون صحيح النسبة إليه، لأن أسلوبه ومنهجه هو أسلوب ومنهج السيوطى فى التأليف، وهذا يسلمنا إلى أمر آخر متعلق بتصنيف هذا الكتاب، من حيث النوع الأدبى، والحق أنه يمكن أن يندرج تحت نوع الكتاب، كما يمكن إدراجه تحت نوع الرسالة، وكذلك المقامة، وقد كانت هذه الأنواع الأدبية متداخلة فى التراث العربى. ■



قصة مجلة الكاتب (٣/٣)

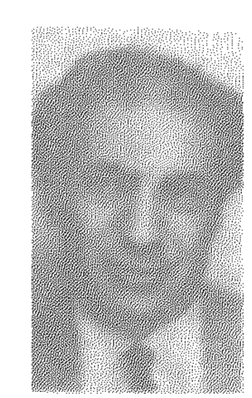
السباحة في بحر من العصور الوسطى

بقلم
أحمد عباس صالح

منذ أيام قليلة شاهدت المفكر والمستشرق الفرنسى ماكسيم رودونسون فى مقابلة تليفزيونية يقول أن مشكلة العالم العربى أنه مازال يعيش بفكر القرون الوسطى، وعلى الرغم مما فى هذه العبارة من تعميم وربما شىء من التسرع إلا أنها تستحق التأمل.

فالواقع أن ماكسيم رودونسون ليس معاديا للعرب، وهو من اليهود القلائل الذين لم يشدهم انتماؤهم الدينى أو العرقى إلى القبول بالأفكار الشائعة فى إسرائيل، وفى هذا اللقاء بالذات نصح اليهود بأن يهجروا الدولة الإسرائيلية متنبئا بأن مصير هذه الدولة إلى زوال بسبب قيامها غصبا وفى محيط عربى بالغ الاتساع.

وفكرة أننا نعيش بعقليات العصور الوسطى تحتاج إلى تفسير ولعله يقصد أن مجتمعاتنا لم تعرف الحداثة بمعناها الجارى، بل لعله يتجاوز هذا إلى مابعد الحداثة فهو ينظر إلى قيام الدولة الإسرائيلية من زاويتها القومية التى يرفضها أصلا ويرجعها إلى ظروف وملابسات النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ولعل خلفيات هذا الرفض ترجع إلى تخليص الانتماءات المعاصرة من القومية ومن الطائفية الدينية على حد سواء، وهو مع كونه فرنسيا من حيث المولد والجنسية واللغة يفكر فى المصير البشرى أكثر مما يفكر من زاوية كونه فرنسيا أو يهوديا، وهو كدارس للحضارات وبصفة خاصة الحضارة الإسلامية وما تتطلبه الدراسة من التدريب على الموضوعية والحياد وبالتالى الانسلاخ من كل الانتماءات المفسدة للرؤية الصائبة صار فى استطاعته النظر إلى العالم بحرية وحياد، وسواء تم تحرره العقلى بسبب



ماكسيم رودونسون

آحمد عباس صالح

اجتهاده الشخصى أو التحولات التى حدثت فى العالم الأوربى المتقدم على المستوى الاجتماعى والثقافى، فإنه صار يشعر ببعده عن العوالم أو المجتمعات التى تهيمن عليها الثقافة القومية أو الدينية أو الاقليمية، وبالتالى فعلى الرغم من قسوة ملاحظته فإنه ينبغى النظر إليها باحترام ومراجعتها بدقة.

أسباب التعثر

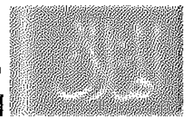
وتجربة «الكاتب» تثير هذه القضية بقوة، فهل كنا نسبح فى بحر من أفكار العصور الوسطى؟ أى ما قبل تحرير العقل من المرجعيات المسبقة مهما يضفى عليها الاتباع من قداسة؟ وهل كنا نتأرجح فى مجتمع ما قبل صناعى ينتمى تقسيم العمل فيه إلي ماقبل الثورة الصناعية؟ لقد سقط النظام الإقطاعى فى أوروبا منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر أما نحن فقد كان على ثورة ٢٣ يوليو أن تسقط الإقطاع فى بداية النصف الثانى من القرن العشرين، وكان عليها أن تنتظر طويلا لتؤتى البنى التحتية الجديدة ثمارها الثقافية أو الفكرية، وحتى مع وجود الثورة كانت عمليات التنمية الاقتصادية أو قل التصنيع كما كانت العبارة السائدة، تتعثر ذات اليمين وذات الشمال وتتجاذبها نظريات وأفكار متعددة كلها أو أغلبهاعلى الأقل مستمدة من خبرات الدول الصناعية الكبرى ويغلب عليها الطابع الأكاديمى غير العملى أو التجريبى، وإلى اليوم لانعلم على وجه الدقة أسباب فشل التجربة، هل هو الاقتصاد الموجه الذى كان يفتقر إلى الحافز الفردى أو قل حافز الربح؟ هل هو الافتقار إلى الكوادر سواء على المستوى التكنوقراطى أو البيروقراطى؟ أم هو فى النهاية بسبب سيادة فكر القرون الوسطى وسيطرته على غالبية المجتمع ابتداء من العمالة البسيطة إلى القيادات العليا؟.

عندما بدأت الكاتب فى الصدور من أول يناير سنة ١٩٦٤ لم نكن نفكر بهذه الطريقة، لم نكن نعتقد أن الجزء الأكبر من المجتمع يفكر بعقلية القرون الوسطى، كان الفكر العقلانى موجودا بصورة أو بأخرى، وكانت حركة الاستنارة تمضى على قدم وساق وشارك فيها عدد من الكتاب البارزين ذوي التأثير القوى بدءا من الشيخ محمد عبده حتى طه حسين وتوفيق الحكيم، حقا كانت مهمة الأستاذ الإمام هى الكشف عن الجوانب العقلية فى الفكر الإسلامى، وربما يمكن اعتباره مفكرا كبيرا فى سلسلة «التوفيقيين» التى عرفها تاريخ الفلسفة الإسلامية منذ ابن رشد والتى كانت تسعى بشكل دائم إلى التوفيق بين اجتهادات العقل والنص الشرعى، ولعله كان أكثر صراحة من ابن رشد فهو لم يخض معركة التأويل كما فعل الفيلسوف العظيم إذ كان حاسما فى حكمه عند اصطدام النص الشرعى بالعقل أن ينفذ الاجتهاد العقلى، وعلى الأرجح كان محمد عبده يجتهد وأمامه منجزات عصر النهضة فى أوروبا من العقلانية إلى التنوير وربما كان مطلعا بشكل جيد على الفلسفة الأوربية السائدة فى زمنه ابتداءا من هيجل إلى كارل ماركس، وهو على أية حال تراسل مع ليو تولستوى الروائى الروسى العظيم وكان منغمسا فى المشكلات الفكرية العالمية إلى جانب اهتماماته المحلية الاقليمية والقومية، وقد أدهشنا الأستاذ الإمام برأى له نشر ضمن مجموعة من المقالات اعتبرتها دارالهلال مذكراته أو سيرته الذاتية ونشرتها فى بداية الستينات هاجم فيها

تجربة محمد على واعتبرها ردة ضد حركة التطور المصرية والتى كانت توشك، منذ أواخر القرن الثامن عشر، أن تتحول من النظام الإقطاعى إلى النظام الرأسمالى أو البورجوازى على نفس النمط الذى تحولت أو تطورت به الدول الأوروبية فى زمن قريب من الزمن المصرى، واعتبر هيمنة محمد على على الاقتصاد المصرى فى الزراعة والصناعة نوعا من المصادرة على حركة التطور الطبيعية التى كان يتجه إليها النظام الاجتماعى المصرى، وهى مقولة مدهشة وتأتى على العكس من غالبية الآراء السائدة حول تجربة القائد الألبانى، والغريب أن باحثا أمريكيا هو بيتر جران وصل إلى نفس النتيجة من خلال دراسته للحركة الفكرية المصرية فى مصر قبيل الحملة الفرنسية على مصر فى كتابه «الجذور الإسلامية للرأسمالية» واعتمد فى دراسته على الكتب والمخطوطات والوثائق المتداولة فى فترة بحثه، ولم يكن بيتر جران يعلم شيئا عن رأى محمد عبده فى الموضوع لأننى الذى نبهه إليه بعد نشر كتابه، والحق أن قصة التطور فى مصر لا يمكن إدراكها والحكم عليها دون مراجعة تفصيلية للانتكاسات التى أصابتها فأغلب العوامل المضادة لحركة التطور جاءت من القوى الخارجية ومحاولات قمعها للنهوض المصرى، وأعرف أن هذا رأى قد لايوافق عليه كثير من الدارسين، ولكن قراءة متأنية أو مستريبة ربما تكشف أن المجتمعات قد تمضى فى التطور الاجتماعى وفقا لظروفها الذاتية ولكنها لاتلبث أن تتعثر بفعل التدخل الخارجى خاصة عند تفشى الظاهرة الاستعمارية وجنوحها المدمر نحو الهيمنة السياسية والاقتصادية بطبيعة الحال، حقا إن الانكسار أمام القوى الاستعمارية هو انكسار للقوى الذاتية أو أن هذه القوى لم تكن من النضج والتطور المناسب لتتوقى الهجمة الاستعمارية، وبالتالى يصبح تفسير التخلف الآتى بعد ذلك على أنه كامن فى القوى الذاتية للمجتمع.

تحطيم مراكز التعليم

لم تكن مجموعة «الكاتب» تنطلق نحو التنوير أو قل الفكر الحداثى من فراغ، حقا كان التخريب الاستعمارى للاقتصاد المصرى وما تبعه من تأثير على الأفكار والثقافات قد أصاب المجتمع بالجمود فى الكثير من جوانب الحياة الفكرية والاقتصادية، كانت سياسة التعليم تهدف إلى انتاج ثقافة كتبة وموظفين إداريين تتحدد أعمالهم فى الاجراءات الإدارية اليومية، وبالفعل تم تحطيم مراكز التعليم العليا مابعد الدراسات الأولية أو الثانوية، وانحصر التعليم فى أضيق الحدود وكانت معركة التعليم هى التى خاضها سعد زغلول فى بداية حياته السياسية ولعلها التى كونت وعيه السياسى الذى قاد به بعد ذلك معركة الاستقلال التى عرفت بثورة ١٩١٩، على أن التجربة المصرية تثير تساؤلات عديدة، فغالبا ما كانت البنية التحتية تضرب وهو ماحدث بانقلاب محمد على الذي ألغى التحولات إلى المجتمع الرأسمالى بهيمنته الكاملة على الاقتصاد المصرى، وهو أسلوب كان غريبا على زمنه ولعلى لهذا أصدق زعما يقول أن محمد على كان تلميذا نجيبا لجماعة السان سيمونيين الذين كانوا يؤمنون بضرورة هيمنة العلماء على النشاط الاجتماعى وممارسة نشاط جماعى منظم أشبه بالنظام الشمولى قبل ظهوره فكرا وعملا، وكان الذين قاموا بالنهضة الصناعية هم من أعضاء هذه الجماعة الناشطين من الفرنسيين، وكان محمد على لايثق كثيرا فى المصريين وقدراتهم على القيام بنهضة شاملة تساعده على الحلول محل الامبراطورية العثمانية المتآكلة، وكان اعتماده أساسا على الفرنسيين كقيادة عليا ثم على الأتراك والألبان والشركس والأرمن وقصته مع الجنرال سيف الذى كلفه بتكوين جيش كبير معروفة، فلم يفكر على الإطلاق فى المصريين وكان الجنرال سيف هو الذى اقترح عليه أن يجند المصريين وأن يدربهم ويجعلهم جوهر



الجيش المأمول، وهذا الجنرال الفرنسي هو الذي عرف بعد ذلك بسليمان باشا الفرنساوي وهو الجد المباشر للملكة نازلي زوجة أول ملك لمصر نصبه الاستعمار البريطاني وهو الملك فؤاد وأم الملك الثاني فاروق.

وهذه الفترة في حاجة إلى مراجعة جيدة وقراءة جديدة لكل الانجازات التي تمت في عهد محمد علي وفي مقدمتها البعثات التي أرسلت إلى فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية والمراجعة السريعة والتي تحتاج إلي تأكيد علمي أن عدد المصريين في هذه البعثات كان قليلا جدا دعك من رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك بعد ذلك فالقوائم المتاحة كانت الأسماء المصرية فيها نادرة جدا، ومحمد علي على أية حال لم يستفد جيدا من القيادات المصرية التي كانت موجودة قبل تسلمه السلطة ومن أشهرهم الشيخ عبدالرحمن الجبرتي والسيد عمر مكرم، وللجبرتي معه قصة مؤلمة تشير إلى أن محمد على قتل ابن الشيخ الجبرتي ليحرق قلبه وهي قصة أوردها باحث معاصر هو محمود الشرقاوي في دراسته عن الشيخ وإن كان قد شكك فيها، دعك من المشايخ المستنيرين الكبار مثل الشيخ الزبيدي وتلاميذه ومنهم الجبرتي بصفة خاصة، أما قصة عمر مكرم فمعروفة، وإذا تفحصنا قراءة بيتر جران لثقافة المرحلة واتجاه دراسة الحديث وجهة عصرية معبرة عن المفاهيم التي شجع عليها التحول إلى نظام رأسمالي جديد، لوجدنا أنه لم ينضم إلى محمد علي إلا الشيخ حسن العطار الذي كان أكثر تفاؤلا بمشروع محمد علي في تحديث مصر.

ثورة القطن

مهما يكن الأمر فإن هذه النهضة العريضة التي تمت في عهد محمد علي سرعان ما انتهت تماما بعد هزيمته حيث ضربت صناعة القطن والتي كانت في هذا الزمن أهم اكتشاف وأروج تجارة تنافست فيها مصر مع انجلترا وأمريكا واليابان

ويرى مؤرخ فرنسي عظيم هو برودل أن ثورة القطن هي التي صنعت الانقلاب الصناعي ثم بريطانيا العظمى، وقل الشيء نفسه عن الصناعات الأخرى كالسفن والسلاح وغير ذلك من الصناعات التي استحدثها نظام محمد على من أجل بناء جيش قوى في الأساس، كل هذا اندثر بمنتهى البساطة، وانكمشت مصر على ذاتها سريعا ورجعت إلى العصور الوسطى في عهد عباس الأول، فأين ذهبت ثقافة التحول الصناعي وكيف تندثر بمجرد تغيير في البنية التحتية؟ أنها أسئلة جديرة بالتأمل وهو ما كنا نفكر فيه بالفعل أثناء صدور الكاتب والتفكير في موضوعات البحث الواجب تناولها، حقا إن فكرة التحديث لم تختف تماما من ثقافة المجتمع المصري،ولكنها كانت أشبه بقشرة سطحية، ربما لأن أغلب عمليات التحديث قام بها أجانب لصلحة سلطة قائمة سواء كانت هذه السلطة محلية مثل سلطة محمد على وأبنائه أو أجنبية مثل سلطة الاحتلال البريطاني وحلفائه وبمجرد أن تنفض رغبة السلطان في المشروع الحداثي وتنسحب قواها المساعدة من الأجانب تعود الحالة إلى ما كانت عليه حيث تكمن جذور ثقافة العصور الوسطى المتغلغلة في التركيب الطبقي والاجتماعي وتبقي الأفكار الحداثية مع حامليها من الوارثين المصريين لكن بلا سند من قوى اجتماعية ترتبط بها وتسعى إلى التغيير بواسطتها.

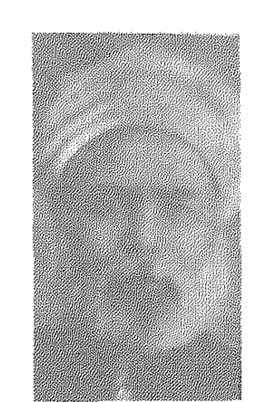
وكثيرا ما كنا نظن أن جذورنا في الأرض الثقافية ليست ثابتة تماما،وكانت بالتالي ثقافة الحداثة بأبعادها المختلفة تحتاج إلى وقت طويل حتى بعد التغيير في البنى التحتية الذي كان في أحسن حالاته في ظل وجود نظام أبوي يتصدره الرئيس جمال عبدالناصر مما يتناقض مع جوهر فكرة الحداثة ذاتها، ولذلك لم ترحب قوى اجتماعية كثيرة في المجتمع المصري بفكر «الكاتب الحداثي»، وهي في مجملها قوى

محافظة تستمد شرعيتها أو قل تأثيراتها الثقافية والاجتماعية من مرجعيات تعود إلى ثقافة تمت إلى العصور الوسطى فى أغلب تصوراتها أو مفاهيمها، وهكذا كنا نجد مقاومات فى الإدارات الثقافية المختلفة التى كانت جذورها اليمينية المحافظة متغلغلة فيها، ولم يكن طردنا من مؤسسة التحرير أو قل خروجنا منها آخر عمليات الأبعاد التى عانيناها من المؤسسات الثقافية التابعة للدولة على الرغم من موافقة القيادة العليا لاتجاهات الكاتب الحداثية، على أنه ورغم كل هذه المشكلات كانت «الكاتب» تشق طريقها بين التيارات المختلفة فى هذا البحر العميق من أفكار القرون الوسطى، فعندما تولى الرئيس أنور السادات وقرر الانقلاب على مشروع عبدالناصر الاشتراكى وأبعاده الحداثية إلى حد ما، كان من الطبيعى أن تغتال القوى المحافظة التى استند إليها السادات أو تحالف معها قوى التحديث ومرجعيتها الحداثية.

لم يكن انقلاب السادات سريعا إذ كان عليه أن يخوض حرب سنة ١٩٧٣ قبل أن يقلب الأوراق جميعا بعد ذلك، ولاشك فى أن انتصارات حرب أكتوبر وفرت للسادات أرضية شعبية لتصفية المجتمع المصرى من الأفكار الحداثية سواء كانت تتحرك بمرجعية اشتراكية أو ليبرالية، وبالفعل بدأنا نصطدم مع وزير الثقافة الجديد يوسف السباعى، فى البداية طلب منى تعيين أحد أتباعه مديرا للتحرير ولكنى رفضت بطبيعة الحال لأننا لم نكن بحاجة إلى ملء مثل هذه الوظيفة، ثم جاءنا عمال المطبعة للوزارة والذين كانوا متعاطفين معنا تماما بخطاب موجه إلى مدير المطبعة من وزير الثقافة يطلب منه عدم طبع أى مقالة تخص مجلة الكاتب إلا بعد أن يراها هذا الشخص ويوافق على نشرها، وهو اجراء لم يفاتحنى فيه الوزير واجتمع مجلس التحرير ثم قرر ندب ثلاثة أو أربعة منا هم على ما أذكر كمال رفعت ومحمد أنيس وعبدالعزيز الأهوانى وكاتب هذه السطور، وكان من الواضح أن هناك قرارا أكيدا بالرقابة على الكاتب مهما يكن موقف مجلس تحريرها، وبالفعل انتهت المقابلة العاصفة بتقديم استقالة جماعية.

التنقل بين الثقافات

على أننى كلما تأملت فترة نشر الكاتب الطويلة والتى امتدت إلى حوالى اثنتى عشر سنة نجد أن المجتمع المصرى كان محتفلا بها، فهل كنا نتحرك فى دائرة المثقفين أكثر من أى دائرة أخرى فى المجتمع؟ حقا عرفت مصر بصورة ملفتة للنظر نقلات نوعية من ثقافة إلى ثقافة أو قل انقطاعا لتيار ثقافى ما انقطاعا تاما أحيانا، ولكنى أعتقد أن هناك خيطا مستمرا دائما ينتقل من جيل إلى جيل داخل الحركة الثقافية وبالتالى فإن حركة التحديث لم تتوقف أو تنطفىء طوال المائتى سنة الماضية على الأقل، ولقد جرت مياه كثيرة تحت الجسور كما يقال منذ رفاعة الطهطاوى حتى اليوم إلا أن التواصل بين أفكار هذه الطلائع المفكرة لم يكد ينقطع على الرغم من الاضطرابات المختلفة التى مست البنى التحتية وقلبت النظم الاجتماعية رأسا على عقب، لقد انقطع الفكر التحديثى الذى ازدهر فى الفترة قبيل الحملة الفرنسية ثم محمد على، ثم انقطع فكر الثورة العرابية الذى كان حداثيا تماما، ومن عجائب المكتشفات مقالة ترجمها الشاعر محمود سامى البارودى الذى رأس الوزارة فى عهد الثورة العرابية تشرح أحدث مناهج نظريات المعرفة الحديثة ونشر هذه الوثيقة المخطوطة محمود الشنيطى الذى رأس الهيئة المصرية للكتاب والذى كان احد ثالوث من المفكرين المصريين ذوى النزعة اليسارية أو قل الحداثية هم شكرى عياد ومحمود عبد المنعم مراد، وهو نفسه الذى نشر أيضا كتاب «الكلمات الثمان» للشيخ حسين المرصفى والتى كانت تشرح كلمات حديثة دخلت القاموس الثقافى مثل



محمد عبده

رفاعة الطهطاوى

الحرية والديموقراطية والمساواة، ولم تكن الثورة العرابية ذاتها بعيدة عن ميراث الفكر الليبرالى الذى انتشر فى فترة حكم الخديوى اسماعيل واصطدامه مع الوزيرين الفرنسى والإنجليزى اللذين فرضا على السلطة المصرية بحجة الاشراف على موارد مصر لتسديد الديون التى استدانها الخديوى المذكور، وهى فترة عرفت التمثيل النيابى ودستورا ديموقراطيا بالغ التقدم فى زمانه، وأدت فى النهاية الى اشتعال الثورة . ولقد اخمدت الثورة وانتكس الفكر الحداثى او قل حركة التحديث ذاتها فى الواقع الاجتماعى المصرى، وكانت هزيمة الثورة وفكرها انقطاعا ثانيا او ثالثا فى تيار التحولات الحداثية، على أنه لم يمض الاثلاثون عاما او اكثر قليلا وقامت ثورة أجتماعية اخرى هى ثورة الاستقلال سنة١٩١٩ رالتى كانت تقوم بشكل صريح على فكر تحريرى ليبرالى يمتد الى المفاهيم العلمانية ويتسع لتسامح دينى لم تكد تعرفه مصر من قبل وربما من بعد أيضا وبعد اكثر قليلا من ثلاثين عاما أخرى قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة و١٩٥٢ التى خاضت جولات من التجربة والخطأ خلال عقد واحد او اكثر قليلا حتى وضعت أقدامها على أول أبواب الفكر الحداثى. ولكن بعد عقد آخر أمكن الانقلاب على هذا الفكر وذهبت الى ابعد مدى فى الفكر الدينى السياسى الذى انتج بعد ذلك أجنحة متعددة للفكر المتطرف والذى رد مصر بالفعل الى العصور الوسطى.

بين التخلف والتقدم

ربما كان الفكر المصرى العربى أسبق من التحولات الاجتماعية ونظم الانتاج، او ربما كان النهوض الاجتماعى والتدهورموجات متلاحقة بشكل ملفت للنظر اكثر من اى بلد آخر وبالتالى كانت تأرجحات الفكر بين التخلف والتقدم ظاهرة غريبة فى هذا المجتمع. ولكن «الكاتب» لم تكن وحيدة على اية حال فى المجتمع وكانت ـ حتى دون أن نعى ذلك ـ استمرارا لتلك الحركة النشيطة المتطلعة الى الحرية والفكر التنويرى منذ القرن الثامن عشر حتى الزمن الحاضر . وربما كان هذا هو السبب وراء تعلق المثقفين المصريين بها . لكن الشى. الذى ينبغى أن يدرس بشكل تفصيلى هو تعلق المثقفين العرب ـ بشكل عام ـ بالمجلة اذ كنا نوزع فى بلد مثل العراق وحدها فى أواخر الستينيات أكثر من عشرة آلاف نسخة . وكان لإستقالة مسئولى المجلة دوى فى العالم العربى وكان أشبه بضربة انتكاسية لمد ثورى وحداثى شمل المنطقة العربية بأسرها ، وكان من بين العلامات البالغة الدلالة على انتهاء زمن بأسره وبداية زمن جديد زحفت فيه أفكار العصور الوسطى على الوطن العربى كله .

بالفعل صفيت كل المجلات الثقافية الاخرى مثل مجلة المجلة ومجلة الفكر المعاصر ومجلة الطليعة . وشهدت مصر بالفعل وليس مجازا انقلابا ثقافيا هو الذى انجب بعد ذلك فكر التعصب المنغلق وفكر الكراهية والارهاب

ربما كان من الأفضل أن أروى قصة الكاتب بشئ من التفاصيل، وخاصة الانجازات او قل الفتوحات الفكرية التى قام بها كتابها فى مجالات الثقافة المختلفة ، لكنى فى الحقيقة كنت فى حاجة ـ مثلى مثل القراءة ـ أن أحاول فهم ما حدث فى إجماله اكثر من تفاصيله. وهو امر لم يزل مفتوحا على أية حال . ■



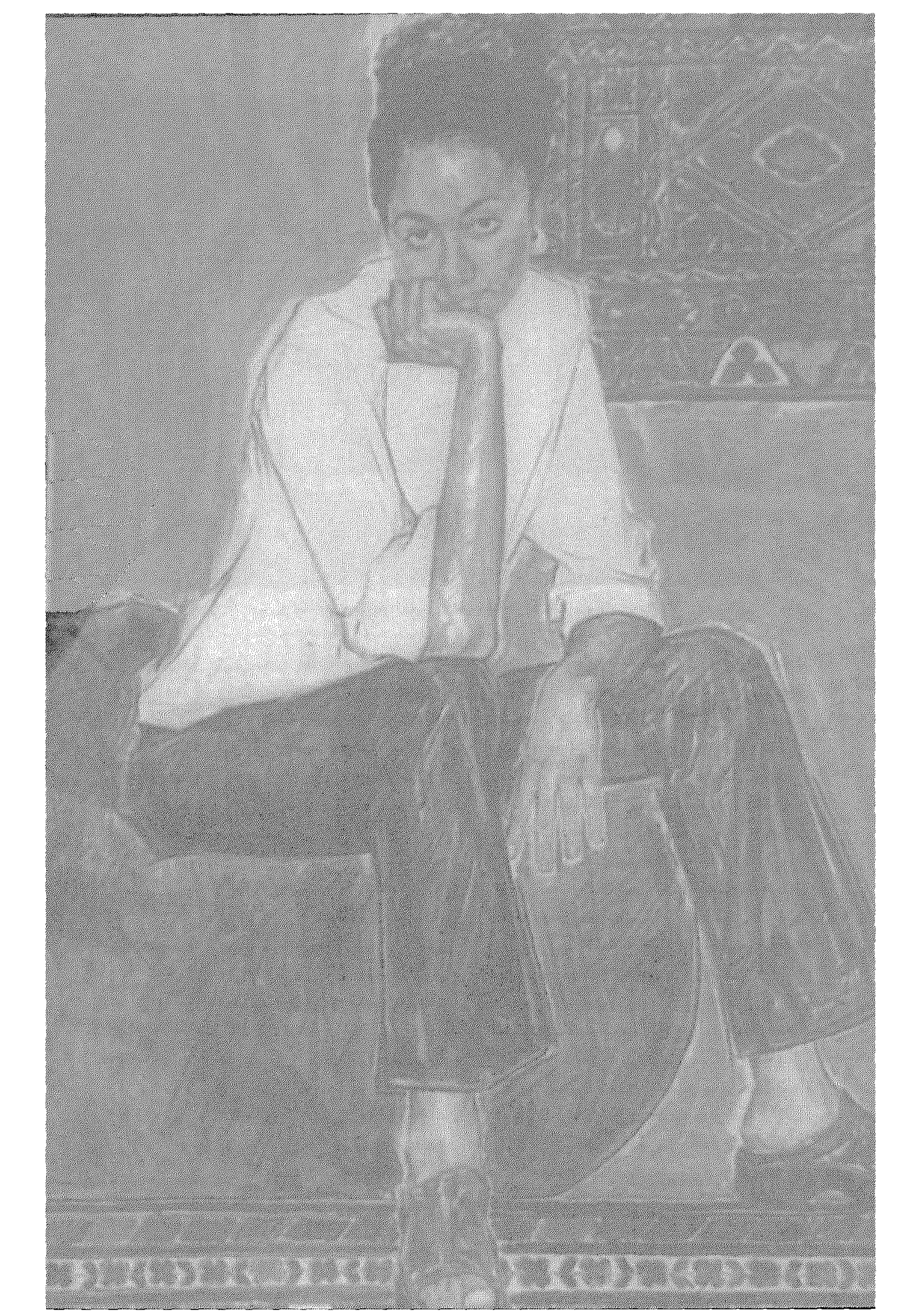
الفنانه مى رفقى وتحديات الجيل الجديد

بقلم

صبرى منصور

على الرغم من انصراف الجمهور، وعزوف النخبة المثقفة عن متابعة نشاط الحركة الفنية التشكيلية المعاصرة، والذى كان يمكن أن يؤدى إلى تقلص الإبداع التشكيلى وانحسار موجته، بل وجفاف منابعه، إلا أن إصرار الأجيال الجديدة على متابعة إنتاجهم، وإقامة معارضهم، وتقديم رؤاهم، إنما يعكس رغبة المصريين فى مواصلة ارتياد هذا النوع من الإبداع الإنسانى، استكمالاً لمسيرة فنية صاحبت صحوة مصر الثقافية والحضارية منذ حوالى مائة عام. فمازال الفن التشكيلى يجتذب إلى عالمه المواهب والطاقات، وتمثل فترة التسعينات فترة الازدياد الوافر فى عدد الممارسين لأنواع الفنون وفروعها المتعددة ، ودخلت إلي حلبة الخلق الفنى مواهب جديدة واعدة - بما قدمته فى خطواتها الأولى - بإثراء الفن المصرى واستمرارية عطائه .

من أعمال الفنانة مى رفقى





التلقائية وبساطة الأسلوب فى عالم مى رفقى

عالم مىّ رفقى

ومن بين المواهب الجديدة المتميزة المصورة مىّ رفقى، التى درست فن التصوير فى الفنون الجميلة ،وتخرجت منها عام ١٩٩٨، ولقد فضلت التفرغ للعمل الفنى على وظيفة المعيدة، وبدأت تشارك بهمة ونشاط فى العديد من المعارض، حيث لفتت موهبتها الانتباه كوجه جديد يقتحم عالم الإبداع بقوة وجرأة، وهى على عكس العديد من جيلها اختارت أن تقدم أسلوبها الفنى المختلف عن التيار السائد حالياً، والذى يضع النماذج الغربية فى فنون الحداثة وما بعد الحداثة هدفاً يرمى إلى تحقيق ما يماثلها، على اعتقاد بأن فى ذلك مواكبة لروح العصر.

ولقد استفادت مىّ من الأساس الأكاديمى الذى كونته خلال دراستها بالفنون الجميلة، فهى حاذقة فى الرسم، وتمتلك ناصية الخطوط التى تطوعها فى سلاسة ويسر، كما أن مقدرتها واضحة فى التلوين بدرجات قوية من خلال مجموعة لونية ساخنة ، وكل ذلك فى صياغة تشكيلية اتسمت بجرأة المعالجة التشكيلية، حين برعت فى إجراء حوار ذكى بين المساحات المسطحة والأشكال المجسمة، وكذلك بين المناطق الخالية وبين المناطق الموشاة بزخارف متنوعة تجيد اختيار وحداتها بما يثرى العمل ويضفى عليه مسحة غنائية رقيقة .

والفنانة بهذا المزيج الفنى الذى تكمن قوته فى صدقه وبساطته وعدم افتعاله تؤكد أنها قد اختارت الطريق السليم نحو التعبير الفنى، وأن خطواتها الأولى فيه خطوات واثقة ومنطقية، وقد انتقلت بها من مرحلة دراسية كان



برعت الفنانة فى إجراء حوار بين المناطق الخالية وبين المناطق الموشاة بزخارف لإثراء العمل

هدفها الإلمام بقواعد فن التصوير وأصوله ، إلى مرحلة البحث عن ملامح شخصيتها الفنية ومعالمها الذاتية التى ستزداد وضوحاً ورسوخاً من خلال التجربة والعمل الدائبين.

العلاقة بإبداع الماضى البعيد والقريب

وفى محاولة للاقتراب من فكر جيل جديد، ناقشت مع الفنانة مىّ بعض النقاط الأساسية التى نعتقد بأنها يجب أن تكون ضمن اهتمام هذا الجيل، وكان أولها العلاقة بالتجارب الفنية السابقة فى فن التصوير المصرى المعاصر منذ جيل الرواد وحتى اليوم، وأجابت مىّ بأنها منذ فترة طفولتها - ومن خلال مكتبة أسرتها - أتيحت لها الفرصة للتعرف على أعمال جيل الرواد، حيث انجذبت لأعمال محمود سعيد ومختار وسيف وانلى، وكذلك اطلعت على أعمال الفنانة تحية حليم التى قدّرت فيها التلقائية وبساطة الأسلوب وصدق التعبير، وأيضاً تعرفت على أعمال الفنانة إنچى أفلاطون وأعجبت بمعالجاتها الفنية، وعبرت مىّ عن أملها فى أن تأتى تجربتها منتمية إلى مجمل الإبداع الفنى المصرى وليست منفصلة عنه.

وقد تكون تلك الرؤية غائبة عن فنانى الجيل الجديد، الذى يبدو معظم إنتاجه الفنى منقطع الصلة بالماضى الفنى القريب، ناهيك عن الماضى الفنى البعيد الممثل فى فنون التراث المصرى خلال حقبه الأساسية، المصرية القديمة والإسلامية والقبطية، ويهمنا التأكيد على أن الاتصال بالتراث لا يعنى التقليد والعودة إلى طرز فنية سابقة، وإنما

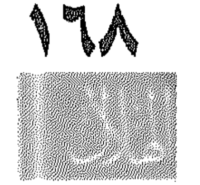
يعنى حسن استيعاب هذا التراث، وفهم أصوله، وإدراك جمالياته . فليس طبيعيا أن يلجأ فنانو الغرب لاستقاء عناصر تغذى فنونهم وتثريها من هذا التراث، ونحن أصحاب الشيء لا ندرى عنه شيئاً ، وهناك أمثلة لا تحصى لفنانين أوربيين استفادوا وبشكل صريح وواضح من جماليات الفن المصرى القديم والإسلامى والقبطى ، ومزجوا عناصرة ومعالجاته بأساليبهم ، ثم نأتى نحن لنمتد ونتصل بهذه الأساليب، غافلين عن النبع والكنز الثمين بين أيدينا ، والذى يمثل - لو أن هناك وعياً كافياً - جزءاً أصيلاً وعميقا من أصول تكويننا الثقافى والوجدانى.

نحن والفن الغربى

وعن تساؤل حول مدى ارتباطها بأساليب فنية أثبتت وجودها فى الفن الأوربى، وهل تضعها الفنانة نصب عينيها كنماذج تسعى إلى الوصول لنتائج مماثلة لها؟ خاصة وأن التجربة التى تقدمها تحمل تأثيرات واضحة من أسلوب «جوجان» فى وضعيات الأشخاص المرسومة ، وكذلك «ماتيس» فى استخدامه للزخرفة الإسلامية من أجل خلق إيقاعات غنائية ؟ أجابت مى بأنها فى هذه المرحلة مازالت تكتشف امكانياتها بأسلوب تلقائى حرّ، ولا تريد أن تعمل تحت عنوان محدد بطريقة مغلقة، وذلك لأنها تحب الحرية وتعشق الانطلاق والتعرف على كل ما هو ممكن، وتذوق كل قيمة فنية تحققت، ومع ذلك فهى تنظر إلى إبداع الفن الغربى فى حدود التجربة الإنسانية التى يمكن الاستفادة منها، وليس بفرض احتذائها وتقليدها، كما أنها فى الوقت نفسه لا يعنيها اللهاث وراء الجديد فى الفن لمجرد أنه جديد، وإنما تقدره وفقا لما يحدث فى نفسها من تأثير ، وما يحتويه من قيمة .

والفنانة فى إجابتها تثير قضايا ذات أهمية فى عالم الإبداع الفنى، حين ترى أهمية الاستفادة من خبرات وتجارب الآخرين، لكنها استفادة يحكمها الوعى، وتخضع لمبدأ الاختيار والانتخاب وليس لمبدأ المحاكاة والنقل، وأيضاً الحرية التى يجب أن يحظى بها الفنان فى بداية تجربته، التى يجب أن تنأى عن الانطواء تحت «المانشيتات» المغرية بحداثتها ، إذ أن تجربته الحرّة يمكن أن تقوده إلى آفاق أوسع وأرحب لو أنه منحها فرصة النضج الكافى، فإذا كان الانتماء تحت أسلوب معين سبق وأن أرسيت دعائمه ونال شهرته أسهل لفنان حديث التجربة ، مما قد يزيف له نضجاً مبكراً أو نجاحاً مضموناً، فإن هذا الانتماء قد يقضى - بالتقليد - على معالم ذاتيته الفنية، ويطمس رؤيته الشخصية، والتى يمكن أن تبدأ بسيطة متواضعة ، ولكنها تنضج عبر التجربة وبمرور الوقت، لتكتسب فى النهاية استقلالية واضحة ، وتميزا وتفرداً يكون سبباً فى قيمتها الحقيقية كإضافة مختلفة تثرى عالم الإبداع الفنى.

ومما يؤسف له أن هذه الحقيقة البسيطة التى تحكم الإبداع الفنى فى أى مجال وفى أى مكان، لا تلق اهتماماً حول قيمة الأعمال الفنية من خلال منح الجوائز وإقامة المعارض، حيث يتجه تقديرهم إلى تلك التجارب التى تماثل نماذج مسبق لهم رؤيتها ويطمئنون إلى قيمتها الفنية، فهم لا يملكون - ولا يسعون لامتلاك - أدوات الكشف التى تساعد على التعرف والتقاط كل ما هو أصيل ومبتكر، ويعتقدون بأن قدرة الفنان الشاب وموهبته تتجلى فى إنتاج العمل الفنى المشابه لتلك القوالب التى



يعرفونها ومجاراتها وإعادة تقديم معالجاتها، وهنا يحدث التشتت والتضليل الذى يوجه الشباب توجيهاً خاطئاً فيفسد مبدأه وفطرته، ويقضى على أصالة شخصيته وهو مازال فى بداية تجربته.

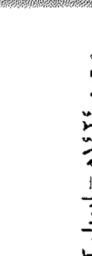
الثقافة الفنية للفنان

وفى سؤال عن مقدار الأهمية التى توليها الفنانة مىّ لتذوق الفنون الأخرى، والاقتراب من جمالياتها وأسس ابداعها ، كفنون السينما والمسرح والموسيقى والأدب بفروعه المختلفة من شعر ورواية وقصة قصيرة، أجابت الفنانة بأن صلتها بفن الموسيقى صلة حميمة، إذ كانت تعزف البيانو وتمارس فن الباليه فى طفولتها، كما أن لها علاقة محدودة بفنون الأدب والمسرح، ويبدو لنا أن معظم الفنانين الشباب يعزل تجربته عن مجالات الإبداع الفنية الأخرى، غافلاً عن أن الفنون جميعاً تشترك فى أصول واحدة وإن اختلفت وسائط التعبير، ولذلك فعلى شباب الفنانين أن يقاوم تلك النظرة المتخلفة التى كانت سائدة فى فترات زمنية سابقة ، والتى ترى أن الفنان التشكيلى ما هو إلاّ مجرد صانع محترف ، أو موهبة فنية حرة لا ترتبط بفكرة عميقة، أو تحمل رؤيا ثقافية ذات قيمة رفيعة ، واعتماداً على ذلك فإنه يندر أن تجد فناناً معنياً بأمور الثقافة والمعرفة، معتقداً أن فى موهبته ما يكفى لخلق أعمال فنية ذات قيمة، وهو وهم تجدر الإفاقة منه، لأنه لا قيمة تنبع من نفس مسطحة جاهلة بمعرفة كل ما يمكن إدراكه عن قضايا الفن الذى يمارسه ، ومعزولة عن عوالم الإبداع الأخرى، ليس فى وطنه فقط وإما فى الأوطان الأخرى كذلك. فعلى الفنان أن يعرف نظرياً ماهية الفن الذى يبدعه والمبادىء التى تقوم عليها جمالياته، كما أن عليه الإلمام بقمم الإبداع الفنى الإنسانى عبر التاريخ ما وسع إلى ذلك سبيلاً، وليس ذلك مجرد وجاهة ثقافية ، وإنما لأن تعرّفه هذا سوف ينضج تجربته ويعمقها ويزيدها ثراء ، ويمنحها بعداً إنسانياً مطلوباً لكل تجربة فنية أصيلة.

إننا إذا كنا نريد فعلاً الاقتداء بالفن الأوربى الذى وصل إبداعه التشكيلى إلى قمم رفيعة، فلنقتد بطريقة إيجابية، ليس بتقليد ومحاكاة نماذجه، وإما فى الكيفية التى تساعد على انضاج المواهب الفنية وتغذيتها دائماً بما يساعدها على النمو السليم والعطاء الصحيح، فالفنان التشكيلى لا ينفصل عن المجالات الفنية الأخرى، بل هو جزء من كل متكامل، ومن هنا جاءت حركات التجديد فى كل الفنون متزامنة يسهم فيها الجميع كل فى مجاله، فلم تكن المدرسة التأثيرية مقصورة على فن التصوير فقط، وإنما كانت هناك موسيقى تأثيرية أيضاً، وكذلك المدرسة السيريالية فى الأدب والسينما إلى جانب الفن التشكيلى .

المناخ الثقافى المطلوب

كم من مرة لاحظنا مواهب مبشرة، تملك من رهافة الحس ما يؤهلها لأن تكون إضافة مميزة لحياتنا الفنية، ولكنها سرعان ما تختفى حين تجرفها ظروف الحياة إلى مسارات بعيدة، وإذا ما تهيأت لها الأحوال التى تساعدها على الاستمرار فى عالم الفن، فإنه يضحى استمراراً مشوباً بعوامل النقص وعدم النضوج، والاختيار الخاطىء الذى لا يؤدى إلاّ إلى إنتاج أعمال لا تساوى حتى قيمة الخامة التى استعملت فيها، إذ لابد من خلق المناخ الثقافى الملائم ، الذى يساعد على بلورة التجربة الشابة،

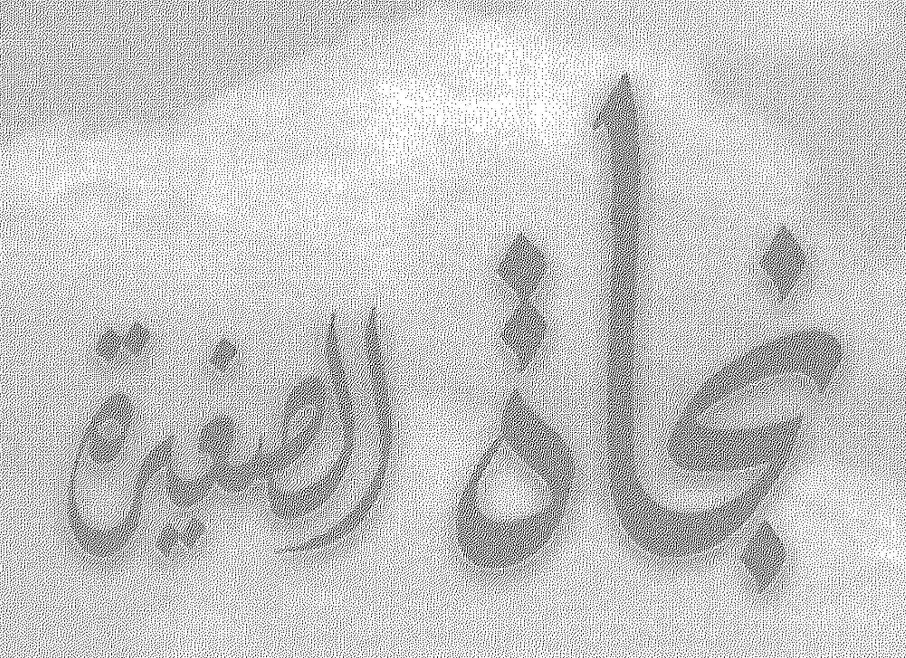




التلوين بدرجات قوية من خلال مجموعات لونية ساخنة

وتوجيهها التوجه السليم، فالتجربة البادئة تكون بمثابة الطفل الوليد الذى يحتاج إلى رعاية وعناية وتغذية سليمة بعناصر تساعده على النمو الصحيح المعافى، والعناصر المفيدة والمناسبة لإنماء التجربة الفنية وإنضاجها تتمثل فى توفير حلقات البحث والمناقشة وعقد المقارنات، وإجراء الحوار الخلاق، وتوضيح الحقائق حول الفن وأهميته، وإتاحة الفرصة لنشر الدراسات الفنية النظرية المفيدة ، والتى تلقى الضوء على قضايا الفن وتكشف أسراره وخفاياه، كما تتمثل أيضا فى تشجيع المواهب التى تمتلك بالفعل علامات الأصالة ، وتتمتع بعناصر ذاتية مهما كانت بسيطة.

وعلى الرغم من أن كل ذلك يبدو مستحيلاً فى مجتمع أصبحت العوامل السطحية والمظهرية هى المسيطرة على مناخه الثقافى، الذى تتوه فيه القيم الأصيلة فى زحام القيم الهابطة والمزيفة، إلا أن ذلك لن يمنعنا من مطالبة جيل الفنانين الجديد الذى اختار الفن التشكيلى مهنة وعملاً نبيلاً - مثل الفنانة مىّ رفقى - أن يقاوم هذه العوامل السلبية ، وألا يدعها تؤثر فيه، أو تثبط من عزيمته فى السعى الجاد والمسلح بالوعى والمعرفة ، نحو إبداع فن مصرى يليق ببلدنا وتاريخه الفنى العريق ، ليكون إضافة حقيقية لمسيرة الإبداع الفنى للإنسان.



صوتها قرر لها الاعتزال

بقلم
صافي ناز كاظم

عندما ظهرت «نجاة حسنى» ، فى منتصف أربعينيات القرن الماضى، طفلة صغيرة قصيرة ونحيلة تغنى ببراعة وإعجاز كل أغنيات أم كلثوم، كانت هناك، على ساحة الغناء، مغنية كبيرة ذائعة الصيت اسمها «نجاة على» ، مثلت وغنت أمام ومع محمد عبد الوهاب فى فيلم «دموع الحب» .وكان الخطاط الفنان محمد حسنى من هواة السمع والغناء والفن والموسيقى، وقد أنجب الكثير من الصبيان والبنات الذين يملكون كل مواهب الفن، وراثة عنه وغراما، يعزفون الآلات الموسيقية المتنوعة، ويغنون بأصوات تتفاوت درجات حلاوتها لكنها، جميعها، قادرة على الغناء بحساسية أذن موسيقية بالغة الدقة.

تعرفنا فى طفولتنا على مواهب هذه الأسرة من خلال برنامج «حديث الأطفال»، وكان يقدمه الرائد الإذاعى الفذ «محمد محمود شعبان»، الذى اشتهر بلقبه «بابا شارو». قدم «بابا شارو» الأسرة الفنية: سميرة وسامى وعز الدين ونجاة وسعاد وخلافه تحت اسم «بيت الفن»، بقيادة أجمل وأعظم وأفضل من ألف ولحن أغنيات الأطفال الأستاذ «أحمد خيرت»، مفتش الموسيقى بالمدارس، وكان قد تزوج من ابنة الموسيقى أستاذ أم كلثوم الفنان «الشيخ أبو العلا محمد»، غير أنه ما لبث أن تزوج «سميرة حسنى» التى تبلورت لتصبح «نجاته» خارجة من فرقة «بيت الفن». تحت جناحيه احتضن «أحمد خيرت» بيت الفن، الذى ناسبه، وبروز فى بؤرة اهتمامه «نجاة»، التى ألحقوا باسمها صفة «الصغيرة» حتى لا تختلط أوراقها الفنية بالمغنية الكبيرة «نجاة على».

والتصقت «الصغيرة» بالطفلة الموهوبة المعجزة «نجاة حسنى» حتى سن الشباب والنضج فى الخمسينيات إلى أن بدأت تنسلت منها شيئا فشيئا حين أصبح اسم «نجاة» لا يعنى على الساحة الغنائية سوى المطربة الشابة المتألقة «نجاة» صاحبة أشهر الأغانى القريبة من وجدان الناس: « ليه خلتنى أحبك»، «طاير يا حمام مرسال الغرام»«ساكن قصادى وبحبه»، «كلمنى عن بكره وابعد عن إمبارح أخاف من الذكرى وسهمها الجارح»، «وطنى وصباى وأحلامى»، «أيظن»، و«وحديه وحديه أيامى سهد وليالى».. إلخ .

وأصبح اسم «نجاة» واحداً من أهم ركائز الغناء بين جيل «فايزة أحمد» و«شريفة فاضل» ونجاح سلام صامدة أمام من سبقها مثل «صباح» و«شادية» و«فايدة كامل» ومتحدية من بزغ بعدها مثل «وردة» و«مها صبرى» ومختارة دائما من عبد الوهاب لتقف فى الصف الأول لغناء «وطنى حبيبى الوطن الأكبر».

* * *

لم يكن جيلى يندهش من الصعود الوثاب لبنت جيله «نجاة الصغيرة» التى صارت «نجاة» وحدها على سن ورمح، فهى لم تزل بآذاننا منذ طفولتها وطفولتنا تغنى : «طوفوا ببيت الله يا معشر الحجاج» اللحن الملعلع بالمدات والفرد الصوتى والنفس الطويل، اللحن الذى كنا نعجز عن غنائه وترديده وراءها، كما كان يحلو لنا مع أغنيتها «ياهجرة المختاار الله حياك، تتلألأ الأنواار. فى يوم ذكراك .... إلى آخر بقية أغنيات بيت الفن، والذى جعلنا نتوقع أنها تخرج من عباءته «مغنية» محترفة وليس مجرد طفلة تغنى لنا فى حديث الأطفال، وقد تأكد لنا هذا التوقع عندما بشّرنا «بابا شارو» بمفاجأة الأغنية الجديدة التى تقدمها «أختكم نجاة الصغيرة» وكانت الأغنية تقول: «أنا عاوزة ألعب وأغنى، مادام فؤادى متهنى ، غنى يا بلبل فوق غصنك، وريني فنك

من فنى، وحياة عينيك تسأل عنى، ده أنا عاوزة ألعب، ده أنا عاوزة ألعب وأغنى..»، وقتها ربما كان الزمان عام ١٩٤٧، ونجاة قد بلغت ١٢ سنة - (مولودة أغسطس ١٩٣٥) - وكنت أنا فى العاشرة - (أنا مولودة ١٧ أغسطس ١٩٣٧) - حين استمعنا إليها وضعنا أكفنا على فمنا وقلنا فى المدرسة: «نجاة الصغيرة غنت كلام عيب، إزاى تقول وحياة عينيك؟». اعتبرنا هذه الأغنية العتبة التى نقلت «نجاة الصغيرة» من «حديث الأطفال» إلى حفلات غناء محترفى الغناء: صارت «مغنية» وبدا لنا ذلك الأمر كأنها انجرفت إلى «الضلال»! لم يكن هناك مانع لدينا أن يغنى الطفل لكن أن تصبح «أختنا نجاة الصغيرة » مغنية فى حفلات فهذا يؤكد تحذيرات الآباء والأمهات - فى تلك السنوات - من الإسراف فى تشجيع الأطفال أصحاب المواهب الصوتية لأن هذا «قد» يؤدى إلى «احتراف» الفن، الذى كان لايزال «فضيحة» فى العائلات، والأسر المصرية الكريمة. غير أن هذا الإحساس لم يتملكنا، نحن الأطفال، طويلا، بل بدأنا ندافع عن «أختنا نجاة الصغيرة» ونقول إنها تغنى قصائد أم كلثوم «سلوا قلبى» و«زهر الربيع يرى أم سادة نجب، وروضة أينعت أم حفلة عجب»، التى غنتها أم كلثوم فى حفل افتتاح جامعة الدول العربية! وظلت «نجاة» تغنى من داخل ثوب أم كلثوم، تقف على الكرسى أو الطاولة وتمسك المنديل وتحاكى طبق الأصل كوكب الشرق. فى البداية تلطفت معها أم كلثوم، لكن أم كلثوم لم تكن تكره أحداً قدر كراهيتها لمن يحاكيها ويستنسخها - (ربما لأن هذا يثبت أنها يمكن أن تتكرر) - وكان لابد أن تخرج «نجاة» من «الصغيرة» ومن «أم كلثوم» لتكون نفسها فكانت. أصبحت لها بصمتها الصوتية الخاصة، وأصبحت المثال الرومانسى للشباب فى جيلى، لكن صوتها الحنون المميز «القيثارة» جنح إلى الانغلاق بعد وصولها ووصوله إلى أعلى قمم التألق والتوهج. أصبح «صوت» نجاة ذكرى «صوت» جميل يعيش على رصيد غزير متنوع وعلى مشوار فنى خصب وإذا كان لابد لراقصة الباليه أن تعتزل فى الثلاثين، وللاعب الكرة والسباح والعداء والفارس والمصارع أن يتوقفوا فى لحظة يفقدون فيها لياقتهم البدنية، فهكذا كان لابد لصوت «نجاة» أن يرغمها على «الاعتزال» الذى أخبرت به الأستاذة سناء البيسى رئيس تحرير مجلة «نصف الدنيا» فناشدتها بحرارة فى افتتاحية مجلتها أن تتراجع عن القرار، وكان على الأستاذة سناء البيسى أن تعرف أن «نجاة» لم تملك «القرار» ليمكنها أن تملك «التراجع»

هكذا: يجب على كل مغنية بلغت الخمسين أن تقنع بما وصلت إليه من مجد، قبل أن يشيح الناس عنها آذانهم، الاستثناء الوحيد كانت أم كلثوم، والنصيحة مقدمة بدون مجاملة وتخص الرجال والنساء على حد سواء. ■


نجاة فى السادسة من عمرها تغني لأم كلثوم

◆ قراءة فى دراسة ممتعة





صوت مصر فى القرن العشرين

بقلم
محمد سعيد

هذا كتاب يغوص فى أعماق المجتمع المصرى بصفة خاصة والمجتمع العربى بصفة عامة من خلال منهاج يعتمد على التحليل الانثروبولوجى لعلاقة الفرد بالمجتمع والعكس ، وذلك عبر التناول العميق لشخصية سيدة الغناء العربى وعلاقات التأثير والتأثر فى حياتها وحياة المجتمع الذى تنتمى إليه.

الكتاب هو (صوت



من طماى الزهايرة الى الكوكبية .. شدت أم كلثوم ومن ورائها جيل من عظماء الموسيقيين

مصر.. أم كلثوم.. الأغنية العربية والمجتمع المصرى فى القرن العشرين) من تأليف فرجينيا دانيلسون وترجم الكتاب من اللغة الانجليزية إلى اللغة العربية عادل هلال عنانى.

الكتاب من إصدارات المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة عن واحدة من إصدارات الجامعة الأمريكية فى مصر .

تمهد الكاتبة لمؤلفها بالإشارة إلى أنها تعنى بموضوع الفاعلية فى المجتمعات الانسانية وخاصة الدور الذى يضطلع به الفرد الفذ فى الثقافة التعبيرية، وتوضح الكاتبة أنها أمضت ما يزيد على خمس سنوات من المتابعة والاستماع والبحث الميدانى فى مصر تجمع مادتها من الموسيقيين ووسطاء الثقافة والمستمعين والتعرف على آراء عامة الناس من مختلف الفئات فى الاسكندرية والقاهرة وأيضا فى محافظة المنيا التى عاشت بها نحو عامين ، كما تشير لبعض من أعانوها فى فهم النشاط الموسيقى المصرى وحيث ذكرت بالاسم بعضا منهم مثل الدكتورة بثينة فريد

والمرحوم سامى الليثى نائب رئيس تحرير «المصور» السابق ومصطفى نبيل رئيس تحرير «الهلال» والملحن الراحل بليغ حمدى وعدد آخر من كبار الموسيقيين فى مصر، كما تشير الكاتبة أيضا إلى جهد زوجها الذى أقام معها فى مصر وهو «جيم توت» الذى أحب معها غناء أم كلثوم وأسماء نجوم الغناء العربى فى عصرها الذهبى ولهذا أهدته إصدار هذا الكتاب .

تحويل الثقافة إلى أيديولوجية

ترى الكاتبة أن أم كلثوم كانت بلا شك أوسع المغنين شهرة فى العالم العربى فى القرن العشرين، وكانت أيضا رائدا ثقافيا بالمعنى الكامل للكلمة ، وكانت فى جميع جوانب حياتها العامة تبرز قيما تعد قيما قومية فقد ساعدت على تشكيل الحياة الثقافية والاجتماعية، وكانت فى جميع جوانب حياتها العامة التى تساعد على تشكيل الحياة الثقافية والاجتماعية وعلى التعجيل بتحويل الثقافة المصرية إلى أيديولوجية، كانت أقوى وسيلة لديها للتعبير هى أسلوبها الغنائى ، فقد استنبطت لنفسها أسلوبا شخصيا من أساليب سابقة من بين الأساليب العربية والإسلامية .

تشرح فرچينيا دانيلسون منهاجها فى الكتابة فتقول: إنها كانت على دراية بعدد من الحقائق عن أم كلثوم فإنها باشرت العمل فى دراساتها بطرح أسئلة بسيطة مثل ما هى الأسباب التى مكنت هذه الشخصية من الحفاظ على تلك الشعبية على مدى هذه الفترة الطويلة؟ وكيف تمكنت من ذلك؟ وتجيب : أنه سرعان ما قادتها أسئلتها عن أم كلثوم إلى أسئلة أوسع عن الثقافة فى مصر وعن الثقافة العربية وعن المجتمع المصرى والمجتمع العربى.

تقول المؤلفة : إن أم كلثوم بحديثها الراقى وأناقتها كانت أيضا بنت بلد بالفعل، ولم يكن صوتها السبب الوحيد فى نجاحها ، لكن السبب الأعمق هو فى شخصها، فالمصريون لا يحبون صوتها فقط لكنهم أيضا يحترمونها ، وحول هذا الفن وتلك الشخصية التى تتحدث عنها المؤلفة باحترام قوى المؤلفة أنها مع من يستخدمون صفات مثل «أصيل» - «تراثى» - «كلاسيكى» و«متطور» فى مناقشة رصيد أم كلثوم الغنائى وهى كلمات ذات دلالة لأن معظمها يحمل فى طياته إشارات إلى جماعات اجتماعية ، فكلاسيكية تتصل بالنخبة وأصيل يرتبط بالالتزام السلوكى والمبدئى والمستمد من التقليد العربى المميز، وترى الكاتبة أن تطبيق التصنيفات الغربية ترهق من يحاولون رصد غناء أم كلثوم عبر هذه التصنيفات ، وحيث يستعصى ما قدمت من غناء وما لديها من رصيد على المفاهيم المتعلقة بتطبيقات الموسيقى الفنية والجماهيرية والشعبية وما إليها وغيرها .

متحدث باسم أمة

وانطلاقا من قيمة الفرد كمتغير حيوى فى هذه الدراسة ترى الكاتبة أن المكانة التى تحتلها أم كلثوم كمغنية

محترفة ليست بالأمر غير العادى فى ثقافة القرن العشرين وحيث صقلت مواهبها ومهاراتها وصارت متحدثا باسم أمة كبيرة أو ممثلة لهذه الأمة على نحو ملحوظ أدركه علماء الانثروبولوجيا حيث أن دراسة حياة الفرد النجم تكشف أيضا عن حياة المجتمع ، الأمر الذى يوضح أن حياة أم كلثوم وكذلك حياة بعض المغنيات المعاصرات لها تتحدى التصورات الغربية الشائعة عن النساء العربيات ووصفهن بأنهن نساء مزعنات صامتات، وهؤلاء الذين ليسوا على علم بالشرق العربى قد يتساءلون : كيف لامرأة أن تكون مثالا على ماتحقق فى تلك المنطقة من انجازات ثقافية؟!

وتشير المؤلفة فى كتابها الذى يضم ٣٣٥ صفحة من القطع الكبير إلى تاريخ ميلاد أم كلثوم وتوفق فى التدقيق فى تاريخ ميلادها الذى يعود إلى ٤ مايو ١٩٠٤ والمدون فى سجلات المواليد فى محافظة الدقهلية وهو ما أمكننا قبل ذلك من توثيقه فى فصل من كتابنا {أشهر مائة فى الغناء العربى} بعنوان «سيدة الغناء لا قبل .. لا بعد» وحيث يذهب البعض إلى تواريخ أخرى لعيد ميلادها غير موثقة، الأمر الذى جعل بعض المؤسسات الثقافية والفنية تحتفل بمئويتها (مائة عام على ميلادها) قبل ٦ أعوام كاملة من قدوم هذه المناسبة المهمة التى تحل - فى الواقع - فى النصف الأول من العام الميلادى القادم ٢٠٠٤ .

عبقرية أم كلثوم

وتتطرق الكاتبة فى دراستها إلى عوامل التأثير التى صعدت بأم كلثوم إلى الصفوف الأولى فى بداياتها وبعد انتقالها من مسقط رأسها فى طماى الزهايرة إلى العاصمة فى النصف الثامن من عشرينات القرن العشرين فتعود إلى كمال نجل الموسيقار المصرى (يهودى الديانة) داود حسنى الذى يوضح لها أن أم كلثوم كانت سريعة الحفظ وذلك بفضل مرانها على حفظ القرآن الكريم ، وأن من بين أهم مقومات عبقرية أم كلثوم ما تعلمته بجهدها الخاص ومثابرتها ، فالمدى الذى ذهبت إليه فى تدريباتها الغنائية والموسيقية هو الذى جعلها تتميز عن غالبية نظرائها من أهل الطرب ومن تلك النتيجة الاشارة لبعض ما قيل فى أم كلثوم فى بداياتها والذى أوردته الكاتبة نقلا عن وسائل الاعلام التى أشارت إلى الأسلوب واللهجة الخاصة فى فن وشخصية أم كلثوم ، فقد أعربت الملكة السابقة نازلى عن إعجابها باختيار الآنسة أم كلثوم لأزيائها فهى تجمع الاحتشام مع الأناقة فى ذوق رفيع وحسن انتقاء وكذلك فى اختيار مجوهراتها والحلى التى تتزين بها ، وعلق فضيلة الشيخ المراغى على ثقافتها قائلا: إنه لاحظ أن الآنسة أم كلثوم هى المطربة الوحيدة التى لا تستخدم لغة عربية غير

محمد القصبجى



بيرم التونسى



سليمة فى غنائها وأنها تلتزم أشد الالتزام بما هو مكتوب من حيث النطق والنحو والاعراب .

وتصل الباحثة فرجينيا دانيلسون إلى أسلوب أم كلثوم الغنائى فترى أنها اعتمدت الأسلوب الرومانسى الذى أسهمت فى صياغته تجديدا وتطويرا لأشكال غنائية مطروقة ، فكانت أغانيها كلها من الأنواع الراقية من الغناء وسواء الدور أو مناجاة النفس (المونولوج) وعلى النحو الذى كان فى غنائية «ان كنت أسامح وأنسى الأسية» التى كتبها رامى ولحنها القصبجي، وقد وصل الأسلوب الموسيقى الذى استحدثه محمد القصبجي من أجل أم كلثوم إلى ذروته فى الأغانى التى لحنها لفيلم «نشيد الأمل» وبعد ذلك مالت أم كلثوم إلى التنويع فى أساليب غنائها فاتجهت إلى أعمال زكريا أحمد بطابعها العامى المصرى والشرقى، وأعمال رياض السنباطى بطابعها المستحدث والذى يميل إلى التجديد الكلاسيكى وحيث قام بتحديث أسس التأليف الموسيقى العربى بالتجديدات الإيقاعية والآلية (توظيف الآلات الموسيقية) والحرص على المذاق العربى والشرقى فى وقت كان فيه محمد عبدالوهاب فى ألحانه وغنائه عنصرا فعالا بما ينهل باقتباساته الكثيرة من الموسيقى الأجنبية .

وترى الكاتبة أن وسائل الاتصال الجماهيرى أسهمت فى نشر القدر الأكبر من غناء أم كلثوم وخاصة فى تسجيلات الاذاعة الرسمية بعد عام ١٩٣٤ ومن خلال السينما الغنائية، إضافة إلى الحفلات ومن قبل تسجيلات الاسطوانات وهى التى جعلت لها جماهيرية فائقة فى أرجاء الوطن العربى .

أدبية تدرك معنى ماتقول

وتتساءل الكاتبة إلى أين وصلت أم كلثوم بفضل مواهبها وتدريباتها الصوتية الشاملة؟ وتجيب بأنها نجحت فى تأدية الأسلوب الرومانسى المعتمد على براعتها حتى برغم أن أخريات غيرها من بينهن ليلى مراد واسمهان ونجاة على ونادرة وفتحية أحمد ولورد كاش وغيرهن أجدن هذا الأسلوب، لكن أم كلثوم تفوقت عليهن حيث اعتمد الأسلوب المميز لها أو لهجتها الخاصة فى الآداء على حجم صدقها وعلى سيطرتها عليه بدقة فائقة ، كما كان التلوين فى خروج الصوت ونوعيته وسيلة من وسائل الزخرفة واظهار البراعة فى الأداء أيضا وفى الأسلوب المميز لها فكان فى هذا التلوين يمكنها من تصوير المعنى ، وحيث أقامت أم كلثوم مقدرتها الغنائية على أسس من هذا النسق الجمالى الذى جعل الشاعر أحمد شوقى يقول قبيل رحيله عن الحياة فى عام ١٩٣٥ أن أم كلثوم بجانب روعة وجمال صوتها أدبية تدرك معنى ما تغنى له، وفى إشارة أخرى إلى عدد خاص من مجلة «الموسيقى» التى صحب صدورها عقد أول مؤتمر للموسيقى العربية فى مصر، أجمع المتخصصون المشاركون فيه وهم يتناولون بالتحليل أساليب الغناء

أن أسلوب أم كلثوم هو الأفضل فهى تنطق القصائد وجميع ألوان الغناء وسواء باللغة الفصحى أو العامية بقدرة غير مسبوقة ، وتكاد تكون الوحيدة التى تنفذ إلى المعنى وتكشف أسرار النص الشعرى.

وتتوقف المؤلفة فرچينيا دانيلسون عند العصر الذهبى لغناء أم كلثوم فتشير إلى تميز أسلوب زكريا أحمد فى ألحانه لها عبر اهتمامه بالطابع العربى الأصيل، فهو لم يقتبس أو يضم إلى موسيقاه أى استعارة من لون آخر لأن موسيقاه كانت تنبع من روحه ومن مصريته ، ومع موسيقى زكريا أحمد تشير الكاتبة إلى أشعار بيرم التونسى العامية فتقول لقد ألف بيرم نصوصا لأم كلثوم استخدم فيها عبارات التقطها من مفردات الشارع ومأثورات الشعب ووضعها فى تراكيب حديثة بارعة، كما هو الحال فى معظم أشعاره ، لكن المؤلفة تخص من روائعه أغنية «الأولة فى الغرام» بوقفة خاصة فهى تشير إلى تناول النص الغنائى الذى يمضى عبر الأشكال المتعارف عليها فى الموال المصرى من حيث استخدام صيغة الأولة والثانية والثالثة وعبر تدرج يقول فى مطلعه: «الأولة فى الغرام والحب شبكونى بنظرة عين... ...» وحتى آخر كلمات النص الغنائى والتناول اللحنى .

مع رياض السنباطى

وتبحر الكاتبة فى تراث أم كلثوم ويكون لها وقفة متأنية مع ألحان العملاق رياض السنباطى وخاصة فى القصائد والذى كان من أبرزها ما قدمته فى سنوات الأربعينيات من القرن العشرين وخاصة ما قدمته فى العام ١٩٤٦ من شعر أحمد شوقى. وتشير الكاتبة بالكلمة وعبر التدوين الموسيقى (النوت الموسيقية) إلى القصائد العشر التى قدمتها أم كلثوم وتتميز بنهجها المجدد فى التراث الموسيقى العربى والذى استمر بعد ذلك حتى مع تقديم أغنيات بالعامية المصرية ثم ما جاء بعد ذلك من قصائد أخرى تحيى فى الاسماع ما كان لأم كلثوم من تفوق وتألق فى بداياتها ومنذ قصائد أستاذها الشيخ أبو العلا محمد .

وتشير فرچينيا دانيلسون بعد ذلك إلى قصائد أم كلثوم ورياض السنباطى وأحمد شوقى التى كان أولها «سلوا قلبى» فى القدوة الحسنة للرسول محمد عليه الصلاة والسلام ثم قصيدة «سلوا كؤوس الطلا» وهى قصيدة رومانسية كتبها شوقى خصيصا لها لمعرفته بأنها لم تذق أبدا طعم المسكرات وبعدها اختارت من شعر شوقى أيضا «ولد الهدى» ثم «نهج البردة» وحتى قصيدة «السودان» وصولا إلى قصيدة «النيل» وحتى تأتى نهاية الأربعينيات بلون آخر رائع من القصائد الكلثومية السنباطية وعبر مختارات من رباعيات عمر المختار


رياض السنباطى


زكريا أحمد

والتى ترجم قصائدها إلى اللغة العربية الشاعر أحمد رامى .

الشكل المعمارى

وعلى الرغم من المحتوى الدينى لبعض هذه القصائد مثل «سلوا قلبى» صارت القصيدة تعرف بأنها تعبير وطنى مثلما تعرف أيضا بأنها تلامس الوجد الدينى وهى اعتبارات استوعبتها أم كلثوم وأجاد رياض السنباطى فهمها وحيث أخذ بالنزعة الكلاسيكية التجديدية فابتدع شكلا موسيقيا يعادل التعبير الشعرى وأدى نجاح السنباطى كما توصلت الكاتبة إلى وضع هذا التناول الشعرى فى قوالب جديدة أدت إلى فتح سبل الابداع فى أغانى أم كلثوم حتى صارت القصيدة السنباطية اللحن عماد رصيد أم كلثوم الغنائى فى بقية مسيرتها الفنية وحيث أبقى السنباطى على الشكل المعمارى المعقود الذى اتصفت به الألحان العربية الرصينة فاللحن يبدأ عادة بالطبقات المنخفضة من المقام الموسيقى المستخدم ، ويستمر اللحن على هذا النحو وداخل هذا المدى حتى يصعد إلى الطبقات الأعلى من المقام نفسه، ثم تأتى الانتقالات إلى مقامات أخرى، وتشكل تلك الانتقالات المقامية الجزء الأوسط من اللحن وحتى تنتهى القصيدة بالعودة إلى المقام الذى بدأت فيه.. هذا المعمار اللحنى استخدمه السنباطى فى تأليف ألحان صعبة يصعب على المطرب العادى تأديتها، ولكنها تتلاءم تماما مع عبقرية أم كلثوم ، وقد أدخل السنباطى تجديدات من بينها خطوط «الباص» كما اشتملت موسيقاه من آن إلى آخر على مسحة من الهارمونية كما فى صياغاته الموجزة للائتلاف الثلاثية فى اللحن أو الموسيقى المصاحبة للغناء ، إضافة إلى قفلات أم كلثوم الساخنة التى تلهب العواطف وتسحر الحضور من جمهور حفلاتها بفضل طريقتها فى الأداء ونطقها الواضح لمخارج الألفاظ وسيطرتها المتمكنة على كل نقلات مقاطع أغنياتها .

أم كلثوم وعبدالناصر

وتمضى فرجينيا دانيلسون فى بحثها القيم وهى ترصد علامات ابداع أم كلثوم العاطفية والدينية والوطنية والوصفية وتتوقف أمام روائعها الوطنية فى سنوات الثورة وتعارفها مع جيل جديد من الملحنين كمال الطويل ومحمد الموجى وبليغ حمدى وسيد مكاوى ، وتتناول الصداقة والاعجاب المتبادل فى علاقة زعيمة الغناء العربى أم كلثوم بالزعيم قائد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ جمال عبدالناصر ومنذ قيام الثورة فى بدايات الخمسينيات بل وقبلها ومنذ عودته من حصار الفالوجا فى فلسطين ، وترى المؤلفة أن الارتباط بين الشخصيتين مازال ماثلا فى الذاكرة الجماعية وإلى اليوم، وتقول فرجينيا دانيلسون ان بين أم كلثوم وعبدالناصر الكثير من الأمور


جمال عبد الناصر

المشتركة فكل منهما خرجا من بين صفوف الشعب واستفاد من فرص الحراك الاجتماعى الصاعد، وكل منهما كان شخصية قوية له مكانة متميزة برعت فى الوصول إلى جميع أفراد الشعب المصرى ثم إلى الشعب العربى بأكمله .

يتفوق كتاب «صوت مصر» أم كلثوم « فى أنه اهتم بكل كبيرة وصغيرة فى منحنى الابداع البيانى لأم كلثوم فهى تشير إلى التعاون الذى جرى متأخرا بين أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب منذ أغنية «أنت عمرى» والتغطية الاعلامية غير المسبوقة وحتى ماتلاها من أعمال مثلما «أنت الحب» - «أغدا ألقاك» - «فكرونى» - «أمل حياتى» وغيرها لكن الباحثة من خلال ضمير الكاتب ومنهاجيته وموضوعيته تعود بعد ذلك إلى ألحان رياض السنباطى متحدثة عن مرونة وحيوية هذه الألحان وخاصة فى رائعة «الأطلال» شعر د . ابراهيم ناجى وتصف الكاتبة السنباطى بأنه يتصف بالعبقرية ، كما أنه عملاق برغم تعمده عدم جذب الكثير من الانتباه إليه وإلى شخصه العابد فى محراب فنه ، ومع ذلك نال احترام الجميع وأدت قدراته البارعة وقوة شخصيته الموسيقية إلى إجبار أم كلثوم على احتماله خلال تعاونهما الطويل وعلى العكس مع الآخرين ممن انقطع تعاملها معهم!

صوت وقلب مصر

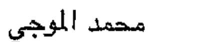
ويمضى عطاء أم كلثوم حتى صارت صاحبة مكانه مرموقة جعلتها ملتزمة بطموحات وطنها وعلى النحو الذى كان فى حفلاتها من أجل مصر فى الداخل والخارج فيما عرف بدعم المجهود الحربى لإذاعة آثار عدوان ١٩٦٧ وحتى صارت ثومة صوت وقلب مصر الذى لم يزل يدفع الحرارة والوطنية والانتماء فى وجدان الشعوب العربية كلها وليس شعب مصر فقط ، وترى الكاتبة أنها لاحظت فى جولاتها فى أوروبا وأمريكا الشمالية أن حقبة التسعينيات الأخيرة ومع تطور تقنيات التسجيل وطبع الغناء على اسطوانات «السى دى» "CD" صار لثومة معجبون فى العالم كله يقبلون على اقتناء روائعها واتسع متابعو فنها فصار لها جمهور فى مختلف القارات .

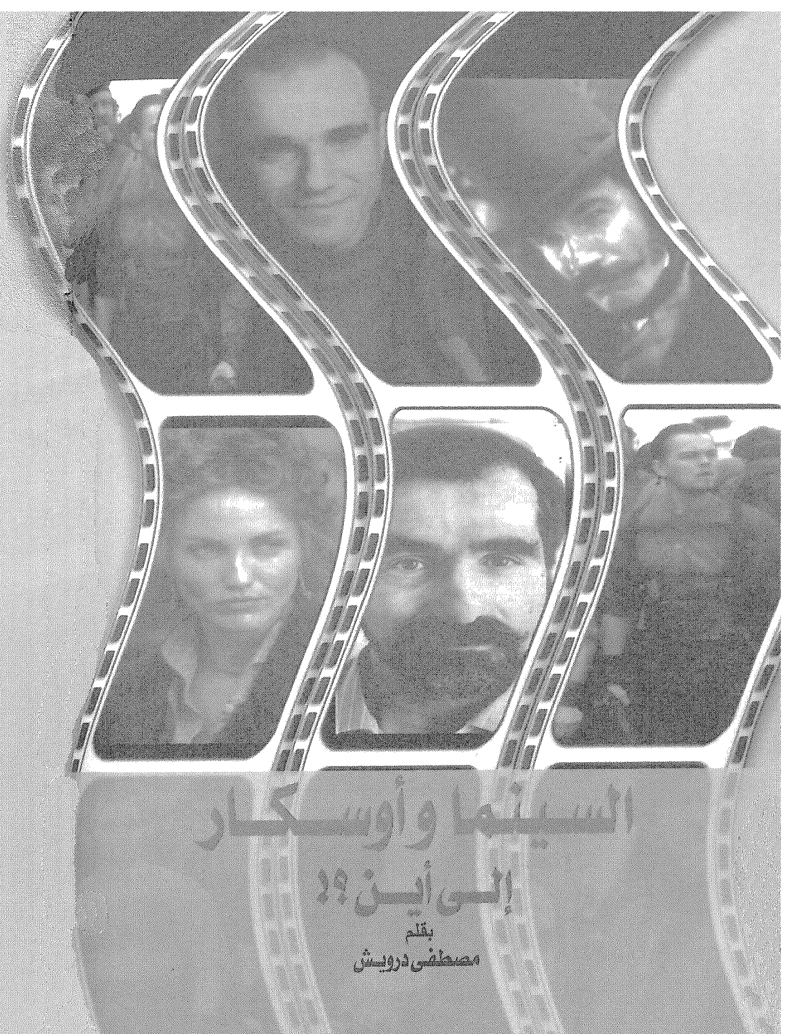
ومع كل هذا التألق مازالت أم كلثوم إلى اليوم نموذجا يقيم على أساسه أهل المغنى، وكما حدث مع عبدالناصر صارت فى نظر الناس جزءا من زمن فات بحلوه ومره، وكثيرا ما يبدى الناس حنينا إليه وعبر أعمال تدفع بالأمل إلى مشاعرهم، والناس يواجهون من حولهم متغيرات صعبة وتحولات أصعب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وحتى على المستوى الثقافى . ■

أحمد شوقى



محمد الموجي





السينما وأوسكار

إلى أين ؟!

بقلم
مصطفى درويش

شاء القدر أن يجيء فى وقت واحد عيد الأضحى وإعلان أكاديمية الفنون والعلوم السينمائية بهوليوود ترشيحاتها لجوائز أوسكار .

وكلا المناسبتين وثيق الصلة بعالم الأطياف فالعيد تحتكر فيه الأفلام المصرية الجديدة جميع شاشات السينما، بطول وعرض البلاد.

والاعلان يكشف ما أسفرت عنه مداولات تلك الأكاديمية، أى الأفلام ارتأت ترشيحها، وحظ كل واحد من الترشيحات.

وبقدر ما كانت الأفلام المصرية التى جرى طرحها فى دور السينما، بمناسبة العيد ، مخيبة لأمل كل من يهمه أمر انتشال السينما الوطنية من عثرتها، والنهوض بها فى مستقبل قريب .

بقدر ما كانت الترشيحات لأوسكار باعثة على اطمئنان نفس كل من يهمه أمر استمرار هيمنة هوليوود على أسواق السينما فى مشارق الأرض ومغاربها ، وامتداد نفوذها، وازدياده رسوخا، على مر الأيام .

وأبدأ بطرح الأفلام المصرية فى العيد الكبير، لأقول أن عددها قد انحدر ، على غير عادة، إلى ثلاثة لا غير، وهى «حرامية فى تايلاند»، «ازاى البنات تحبك» و«ميدو مشاكل» .

ومن الأكيد، أن هذا الانحدار أمر غير مسبوق فى تاريخ السينما المصرية، منذ أصبحت صناعة ذات بأس وتأثير، فى الأسواق العربية، وغيرها من أسواق أسيا وافريقيا وحدوثه على هذا النحو الفاجع، غير المتوقع، وفى وقت عيد، أى فى ذلك الوقت الذى أباح فيه الشارع للسينمائيين المصريين الحق فى احتكار جميع عروض دور السينما، دون استئثار، وذلك حتى تنفرد أفلامهم بإيراداتها، دون الأفلام الأجنبية، الأكثر عدة وعددا .

حدوثه على هذا النحو، إنما يدل دلالة قاطعة على لون من ألوان الطيش البين ، والاستهتار الفاضح، قل أن يكون له مثيل .

صراع بلا رحمة

وكل هذا الطيش، والاستهتار بالمصير، حدث متى؟

فى زمن عصيب، اشتدت فيه المنافسة بين صناعات السينما، على مدار كرتنا الأرضية، كل واحدة منها تسعى إلى أحكام السيطرة على سوقها، فضلا عن فتح أسواق أخرى خارجية .

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف ، تعمل بكل ما فى وسعها من جهد، من أجل النهوض بمستوى إنتاجها السينمائى ، حتى تستطيع الصمود والتصدى فى مضمار تشتد فيه المنافسة ضراوة .

فهم وعزم

ولم تسلم هوليود ، وهى من هى، بما لها من هيمنة وسلطان ، من التهديد الذى يشكله اشتداد المنافسة، ولزوم مواجهته بمزيد من الفهم والعزم .

الفهم لما طرأ على سوق السينما العالمية من تغييرات، لم تكن ، إلى عهد قريب، فى الحسبان .

والعزم على رسم سياسة جديدة، تضع فى الاعتبار الآثار الناجمة عن هذه المتغيرات ، لا سيما ما كان منها متصلا بثورتى الاتصالات والمعلومات .

ولقد بدأ انتهاج هوليوود لهذه السياسة الجديدة، يؤتى أكله، فى شكل أفلام متنوعة، ترضى جميع الأذواق، مما ظهر أثره فى الترشيحات التى أعلنتها الأكاديمية، قبل بضعة أسابيع .

سنوات عجاف

وقبل الحديث عن هذه الترشيحات

ومغزاها، اختتم الحديث عن الأفلام الثلاثة التى أهداها لنا السينمائيون المصريون، احتفالا بالعيد ، لا قول أن أيا منها لم يأت بجديد ، وأيا من أصحابها لم يبذل جهدا، ولو ضئيلا، لعله به يعيد إلى السينما المصرية، بعضا من وهجها الذى فقدته شيئا فشيئا، على امتداد سنوات عجاف، غاب فيها الوعى بأهميتها فى معركة الحفاظ على هويتنا .

والسؤال الذى تردد فى خاطرى، وأنا أشاهد الأفلام الثلاثة، هو عن مدى المام مخرجيها بالتحديات التى تواجه السينما الآن .

وأرجح الظن أن الجهل بها كان – فيما أعتقد – سبب وقوعهم فى أخطاء كثيرة، مرة بعد مرة ، دون أن يتعظوا من هذه الأخطاء .

ومن بينها، على سبيل المثال ، توهم المخرجة « ساندرا » صاحبة «حرامية فى تايلاند» أن تجديد السينما المصرية ، قد يكون بشد الرحال ، مع طقم فيلمها السابق «حرامية كى جى تو» إلى بلاد تركب الأفيال

والأكثر غرابة ، تصديقها ما توهمته ، بالذهاب فعلا مع أبطال فيلمها الثلاثة «كريم عبدالعزيز» ، «حنان ترك»، و«ماجد الكدرانى»، إلى تايلاند ، حيث تكثر الأفيال وبطبيعة الحال لم يبدأ أبطال فيلمها مغامراتهم فى تايلاند، وإنما بدأوها فى مصر، ومنها انتقلوا إلى «بانجوك» العاصمة التايلاندية، والفيلم يقترب من الانتصاف، ومعهم صورة مسروقة للفنان فان جوخ، مخبأة فى فستان زفة «ترك» «لكريم».

وفى بانجوك تستمر مغامراتهم ، مكررة، باهتة، بلا لون وبلا طعم، وطبعا بلا قبلات، لأن «ترك» أفتت بأنها حرام .

أين المفر؟

وعلى كل ، فبعد الانتهاء من مشاهدة الأفلام الثلاثة، تساءلت أين يقع من صناعة السينما عندنا مكمن الداء الذى إذاما رفعنا عنه جرثومة العلة، شفيت الصناعة من عوامل تقصيرها الابداعى وقصورها؟

وانسابت فى رأسى الخواطر، بادئة بهمسة فيها حسرة، ثم عتاب على تأخرى فى طرح السؤال ، حتى انتهى الأمر إلى استفحال الداء، على نحو قد يتعذر معه العثور على جواب ، إن لم يكن يستحيل!!

وانتقل إلى ترشيحات أوسكار ، لاقول إن الأفلام التى أعلن عن ترشيحها يوم الحادى عشر من شهر فبراير ، إما لجائزة أفضل فيلم، أو لغيرها من الجوائز المتصلة بعملية الابداع السينمائى ، كالاخراج والتمثيل، والتصوير والموسيقى والتوليف، هذه الأفلام وصل عددها إلى خمسين .

وفيما عدا قارتنا السمراء، جميع القارات ممثلة بفيلم أو أكثر .

فآسيا ، على سبيل المثال، لها أكثر من فيلم فى قائمة الترشيحات، من بينها «بطل» انتاج الصين الشعبية، و«الروح الهاربة، لصاحبه مخرج الرسوم المتحركة اليابانى هايا أو يازاكى» .

وأول ما يلاحظ على أفلام تلك القائمة، بالنسبة لنا، أنه لم يعرض منها فى مصر، حتى الآن ، سوى عشرة أفلام ، أحدثها « عصابات نيويورك»، الذى جرى عرضه بعد إعلان ترشيحه لعشر جوائز أوسكار، بسبعة أيام .

وهو من بين أفلام أربعة مرشحة لجائزتى أفضل فيلم وإخراج معا.

والأفلام الثلاثة الأخرى «شيكاغو»، «الساعات» «عازف البيانو» .

والفيلم الأخير مرشح لست جوائز أوسكار من بينها علاوة على جائزتى أفضل فيلم واخراج «رومان بولانسكى» ، جائزة أفضل ممثل رئيسى «أدريين برودى» .

وينافس «برودى» على تلك الجائزة كل من «نيكولاس كيج» عن (التكييف) والسيرمايكيل كين» عن «الامريكى الهادئ» و«دانييل دى لويس» عن « عصابات نيويورك» و«جاك نيلكسون» عن «عن شميت» وباستثناء «برودى» فجميع المرشحين لأوسكار أفضل ممثل رئيسى سبق لهم الفوز بها، وبعضهم فاز بها أكثر من



مرة .

وهذا قد يرجح كفة «برودى» ، خاصة وأنه يؤدى فى الفيلم دور عازف بيانو يهودى فى أحد معسكرات الاعتقال النازية، حيث يكتب له بفضل عزفه كلاسيكيات الموسيقى أمام الضباط الألمان، النجاة من موت أكيد فى إحدى محارق اليهود .

الهوى الجامح

وإن كان ترجيح كفته من الصعوبة بمكان امام روعة أداء «دانى داى لويس» لدور بيل الجزار البروتستنتى الانجلو سكسونى فى «عصابات نيويورك» .

ولو كانت الجوائز توزع بالعدل والقسطاس لكانت جائزة أفضل مخرج من حظ «سكورسيزى» صاحب «عصابات نيويورك»، لا ريب.

غير أنه مما قد يضعف من رجحان كفته، سابقة فوز «عازف البيانو» وصاحبه «بولانسكى» ، عكس كل التوقعات ، بجائزتى «بافتا» لأفضل فيلم ومخرج، ومعروف أن «بافتا» هى المعادل البريطانى لأوسكار .

وفوز نفس الفيلم بست جوائز سيزار المعادلة لأوسكار ، من بينها جائزتا أفضل فيلم ومخرج وأعود إلى «عصابات نيويورك» لأقول أنه فيلم ملحمى دموى، ترتد أحداثه إلى منتصف القرن الثامن عشر وأين ؟

فى نيويورك ، وبالتحديد فى ميدان « باراديز» (الفردوس)، ملتقى شوارع افقر أحياء مانهاتان «فايف بوينتس» - (خمس نقاط) ، حيث أرأنا «سكورسيزى» صراعا لم نر له مثيلا، من قبل، على الشاشات، صراعا دمويا، يشيب من هوله الولدان، بين مهاجرين جدد قادمين من ايرلندا، فرارا من الموت جوعا، وأبناء البلدالمستوطنين العالم الجديد، منذ عشرات السنين، حيث أباد أجدادهم الهنود الحمر، سكان أمريكا الشمالية الأصليين، وحيث ثار أباؤهم ضد الاحتلال البريطانى، مطالبين بالاستقلال .

مشهد لا ينسى

و«سكورسيزى» يعرض فى فيلمه لهذاالصراع من البداية، بعد الدقيقة الثالثة، من بدء اللقطات ، وذلك من خلال مشهد مرت دقائقه التسع، مرا سريعا، وكأنها ثوان .

والحق أن هذا المشهد، بسيوفه، وسكاكينه وسواطيره، تسيل الدماء انهارا، يعد ، بحق خير فاتحة لفيلم رأته عيناى حتى الآن.

أنه ، وغيره من المشاهد الزاخر بها الفيلم ، بمدته التى قاربت الثلاث ساعات ، إنما يذكرنى بمذبحة سلالم أوديسا فى رائعة «سيرجيبى ايزنشتين» «المدرعة بوتيمكين» .

القضاء المحتوم

وأن نسيت فلن أنسى ، تداخل الصراع الدموى بين فئتى الانجلو سكسون البروتستانت والايرلنديين الكاثوليك» الوافدين بألوفهم المؤلفة إلى أرض الميعاد، مع صراع آخر أكثر دموية، الحرب الأهلية بين الجنوب الأمريكى القديم المتمسك بنظام الرق ، والشمال المتحرر، تحت قيادة الرئيس ابراهام لينكولن ، محرر العبيد .

وكأى صراع دموى لم يفلت من قضائه أحد، لا أوباش نيويورك، ولا أعيانها فى ذلك الزمان الموغل فى القدم ، ولا حتى محرر العبيد إنه الزمان الموغل فى القدم، ولا حتى محرر العبيد .

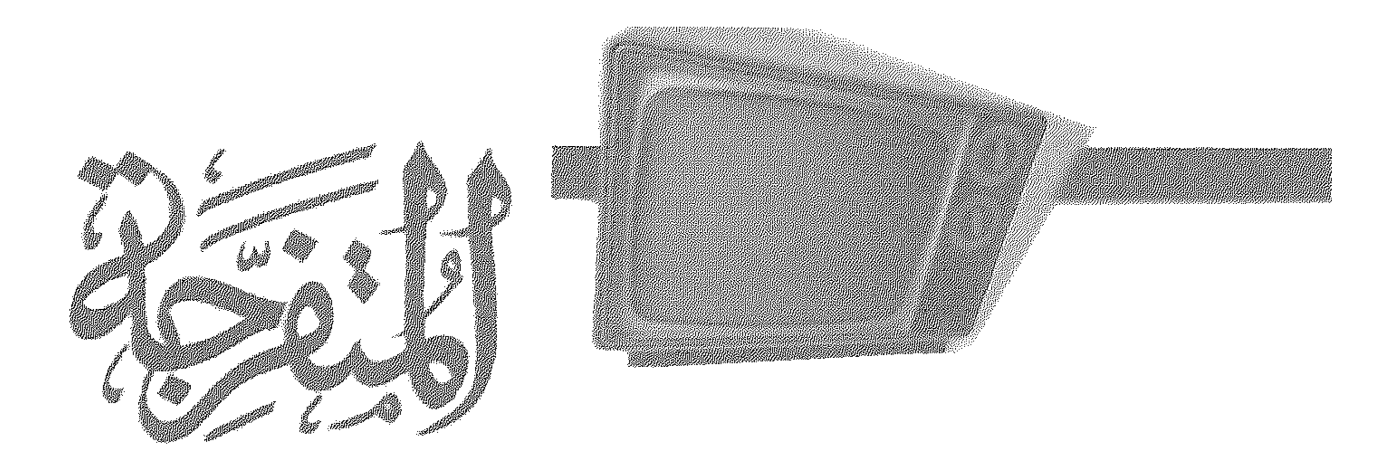
انه القضاء المحتوم الذى لا يستطيع أحد لأحكامه نقضا، ولا تغييرا.

حتى حى «الخمس نقاط» حق عليه حكم هذا القضاء، دمرته مدافع اسطول محرر العبيد، لم تبق منه شيئا .

اختفى تماما ، كما اختفى برجا نيويورك، يوم الحادى عشر من سبتمبر .

،مكانه تم تشييد مانهاتان أخرى، من أول وجديد .

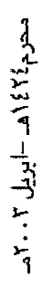
والسؤال هل سيفوز «سكورسيزى» بجائزة أوسكار أفضل مخرج عن ملحمته «عصابات نيويورك» ، أم ستقتلع منه كما افلتت منه أكثر من مرة، على امتداد ربع قرن من عمر الزمان . ■



بقلم : ميرفت رجب



كنت قد جهزت القلم والأوراق، عازمة على الجلوس للكتابة بعد أن اكتملت فى رأسى خطة المقال ومحتواه، ولأن الأيام غير الأيام، وشأنى فيها شأن غيرى ممن ينطبق عليهم حالى فى الدنيا، فقد امتدت يدى تفتح باب الإطلال على نافذتى الأثيرة، لمتابعة مجريات ما يعصف بعالمنا من أحداث، ومن القناة الخامسة الفرنسية «TV5» أطل على الرئيس چاك شيراك وهو يعلن على العالم تصميم فرنسا على عدم الموافقة على الحرب طريقا لحل المشكلات الدولية، وعلى الفور تبينت أن هذه أول إذاعة لهذا الحديث الذى يجريه أمام عينى مذيعان فرنسيان نابهان، من المتمرسين فى شئون السياسة الدولية، بقدر تمرسهما فى حذق طرح الأسئلة على الزعماء من قامة رئيسهم چاك شيراك. ورغم وضوح عبارات الرئيس الفرنسى فى بيان الأسس المنطقية التى بنى عليها موقف بلاده، إلا أن أسئلة محاورِيْة جاءت وكأن كلا منهما قد أخذ لنفسه موقفا من مواقف المعارضة من سياسته فى أزمة العراق، علما بأن هذه المعارضة لا تجاوز العشرة فى المائة من أبناء الشعب الفرنسى.



ولأن هذا الحديث التاريخى للرئيس الفرنسى ليس فى حد ذاته موضوع ما أكتبه اليوم لحضراتكم، فسأكتفى بالإشارة إلى سؤالين، فقد سأله أحد محاوريه عن الأزمة التى تعانيها أوربا الآن وقد تسببت مشكلة العراق فى حدوث انقسام واضح فى مواقف دول الاتحاد الأوربى قد يخشى منه على مستقبل الاتحاد، ويأتى الرد الواثق من چاك شيراك الذى يؤكد أن مثل هذه الخلافات فى الرأى حدثت من قبل، وأنه، وهو العارف بشئون أوربا، يؤكد أن أوربا تخرج دائما من مثل تلك الأزمات وهى أكثر قوة. وإذ بالمحاور الثانى يسأل رئيس جمهوريته، وماذا لو شرعت الولايات المتحدة الأمريكية فى اتخاذ اجراءات، من قبيل مقاطعة المنتجات مثلا؟، ويرد چاك شيراك بالحديث عن مكانة العلاقات الاقتصادية وعن أواصر الصداقة والالتقاء فى الفكر والقيم، والتى طالما جمعت بين البلدين.

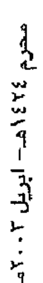
ولا أخفى عليكم أننى من فرط إعجابى وتقديرى لكل كلمة صدرت عن شيراك فى هذا الحديث، لم أكن أريد أن أسمع أحدا يقاطعه أو يطرح أى سؤال.. ومع ذلك، فبوصفى «متفرجة» محترفة، ربما يتوجب على تسجيل بعض الملاحظات .. أولا: جاء المحاور الأول من جيل رجال الأخبار المخضرمين فى التليفزيون الفرنسى، له من الخبرة ما يتجاوز ربع القرن، بينما جاء المحاور الثانى من جيل أصغر فى السن وفى الخبرة بالتالى، وربما يفسر ذلك أن اختيار الكلمات فى الأسئلة التى طرحها، لم يكن فى دقة ولا إحكام العبارة عند الأول.

ثانيا: حرص المحاوران على الانتباه لكل ما يرد فى إجابات شيراك فلم يصدر عن أى منهما سؤال يضطره إلى تكرار ما لا يلزم تكراره.

ثالثا : انتبه المحاوران إلى أن چاك شيراك فى هذا الحديث لا يخاطب الفرنسيين وحدهم، كما لايقف كلامه عند حدود ما يهم دول الاتحاد الأوربى وحسب، وإنما، ولأن الأمر مرتبط بتزعم فرنسا للرأى الرافض لشن حرب على العراق، فقد اجتهد المحاوران فى ألا تقتصر أسئلتهما على وجهات نظر المعارضة الفرنسية أو حتى الأوربية، وإنما غطى الأمر جوانب الموقف الأمريكى برمته، فخطورة الأمر تمس مستقبل كل بنى البشر..

حب الأوطان

وحين بدأ المحاوران فى توجيه الشكر للرئيس شيراك، هممت بمغادرة مقعدى الذى ثبت فيه لا أقوى على حراك، وقبل أن يتشكل فى ذهنى السؤال، عن كيفية الرجوع للموضوع الذى نويت الكتابة فيه، كانت القناة الفرنسية «TV5» قد بدأت على الفور حواراً آخر لم يفصله عن الحوار مع شيراك أى فاصل، وإنما بعد آخر كلمة شُكر تغير المشهد، من مكتب الرئيس الفرنسى إلى استوديو الأخبار، والمائدة المستديرة تجمع ثلاثة يقدمهم مدير الندوة واحدا فواحدا، وهم من كبار الصحفيين المختصين بالشئون الدولية، وممن يتكرر حضورهم للندوات رفيعة المستوى، أحدهم فرنسى، والثانى روسى والثالث أمريكى. وبدلا من أى فاصل موسيقى أو غنائى من النوع المألوف لدينا فى مثل تلك المناسبات، ومع أننى





واثقة أن قلب كل فرنسي كان في تلك الساعة يهتف Vive la France إلا أن حب الأوطان عندهم لا يستبدل به الغناء،!!

وإنما على الفور احتدم الحوار بين أطراف الندوة، فالموضوع المطروح على مائدة الحوار، هو ذروة الخلاف الفرنسي الأمريكي، كما يتأكد من الاستشهادات المتتالية التي تخللت الكلام، وقد جاءت في جمل محددة الإيجاز لتثبت في الأذهان أن فرنسا ستقول في مجلس الأمن «لا» لضرب العراق، كما تثبت في الأذهان شرح الرئيس الفرنسي لكيفية التصويت على أي قرار، ومعنى تحقق الأغلبية، إن تحققت، ومغزى استخدام حق الفيتو لعرقلة القرار الذي يستهدف استبدال أسلوب التفتيش بأسلوب النسف، كذلك اشتمل الحوار على استشهادات من تصريحات رئيس الوزراء الروسي الذي يبلور موقف روسيا المعارض للجوء للقوة ضد العراق. ولكم أن تتصوروا نوع الكلام حين يشرح الصحفي الأمريكي مبررات الرئيس الأمريكي الراهن في ضرورة تغيير نظام الحكم في العراق، أو حين يدلل على وجود تأييد لرئيس جمهوريته من دول يبادر الصحفي الفرنسي بشرح موقفها وهو يمثل بيده شكل المسدس المصوب للرأس وبأوضح عبارة يحدد ما هو معروف عن الضغوط التي تمارسها الإدارة الأمريكية على الدول غير المنصاعة لرأيها.

وقبل أن يتبلور في ذهني السؤال: هل شاهدت حوارا بمثل هذه السخونة من قبل على أي من شاشات التليفزيون؟ كان مدير الندوة قد وجه الشكر لأطرافها وإذ بعناوين أخرى تتوالى

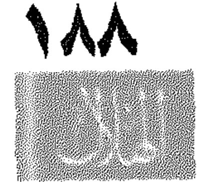
100 minutes pour comprendre

«مائة دقيقة من أجل الفهم»، والبرنامج يذاع على الهواء مباشرة شأن الندوة التي سبقته. ولكنه في نفس الوقت يبث على القناة الثانية الفرنسية بالاشتراك مع الخامسة TV5 التي أتابعه من خلالها..

ذكاء المخرج

ولقد صدق حدسي، وألزمني البرنامج بالفرجة المدققة، وفرض نفسه ليكون موضوع كتابتي اليوم، فكيف أنجز مهمته، وسيطر على مشاهده بهذا الإحكام؟

أولا: نجح البرنامج من أول لقطة في شد الانتباه بخلفية ظهر عليها العلم الأمريكي والعبارة المكتوبة بأقصى وضوح تقول Planet Us?، وكأن السؤال هو ، هل تملك الولايات المتحدة هذا الكوكب، ومقدم البرنامج يظهر على لقطة تسمح بظهور الضيف الرئيسي الذي يقدمه لنا على أنه السيد هيوبرت فيدرين Hubert Vidrine وزير خارجية فرنسا السابق الذي كان أول من وصف الولايات المتحدة الأمريكية بأنها hyper potente أي مغالية في القوة، وعلى الفور تتسع اللقطة لتبين وجود جمهور من المشاهدين يصطفون جلوسا على مسافة كبيرة من الضيف الرئيسي وعلى اليسار مقاعد خالية بما يوحي بحضور آخرين للمشاركة.

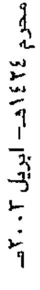


ثانيا: أبدع المخرج فى اختيار اللقطات التى تعطى عمقا للصورة، وقد جعل مذيع البرنامج الواقف فى مركز وسيط من الخلفية قادرا على الالتفاف بكل جسده، إما ناحية الضيف الرئيسى، السيد ڤيدرين، أو ناحية الضيوف الذين يتتابع ظهورهم فى البرنامج، تصلنا صورتهم بالقمر الصناعى لتظهر فى مربعين كبيرين على يمين ويسار الخلفية «العلم الأمريكى»، كما حرص المخرج على استخدام اللقطات البعيدة أثناء إلقاء المذيع لأسئلته، وفى سلاسة تتحول اللقطة إلى التركيز على المتحدث فقط، إما باستخدام اللقطة المتوسطة أو التحول إلى اللقطة المقربة حين يقتضى الحال التركيز على وجه المتحدث فقط، فى مثل حال تلقى د. هنرى كيسنچر لسؤال السيد ڤيدرين عن تقييمه لأداء الإدارة الأمريكية الراهنة لأزمة العراق رداً على حسراته التى أبداها بأكثر من تعبير على الصداقة والحميمية التى كانت بين فرنسا والولايات المتحدة، أو حين أحرجه السيد ڤيدرين مرة أخرى فاضطر للقول بأنه يشترك فى البرنامج على أساس أنه سيتحدث عن كتابه الجديد القوة الأمريكية الجديدة La Nouvelle Puissance Americaine ويدور ويلف فى الكلام، وفى حذق ينقل لنا المخرج بلقطة أخرى مقربة على «ڤيدرين» سؤاله لكيسنجر، ولكن هل أمريكا تريد شريكا، هل تقبل أمريكا أن يكون لها شريك؟ كذلك لم ينس المخرج أن ينقل لنا لقطات ذكية تتيح لنا قراءة وجوه جمهور المشاهدين الحاضرين فى الاستوديو، ولقد فعل ذلك على مدى المائة دقيقة التى استغرقها البرنامج، والتى استضاف فيها ثلاثة عشر شخصا، ومشهد الجمهور حاضر، فى اللحظات المناسبة فقط، ولثوان معدودة، ودونما أى إسراف.

ثالثا: صدر عن كل متحدث من الكلام مايثبت تخصصه فى فرعه، وتبنيه لوجهة النظر التى يعرضها، يصدق ذلك على هيوبرت ڤيدرين الذى فند العديد من الحجج المنطقية الداعمة لموقف فرنسا المؤيد لإتاحة الوقت والإمكانات الملائمة لإنجاز مهمة المفتشين الدوليين المكلفين بنزع أسلحة العراق، كما يصدق على وزيرة خارجية إسبانيا ANA PALACIO، وكذلك ينطبق الحال على كل المشاركين فى البرنامج .

رابعا: أن البرنامج الذى يذاع بعد أقل من ساعة واحدة من إذاعة واحد من أخطر أحاديث الرئيس الفرنسى چاك شيراك، فى أعقد مشكلة تواجه العالم بعد الحرب العالمية الثانية، يرتفع إلى مستوى الأهمية، فيشرك فى الحوار والنقاش أربعة وزراء، فقد اشترك وزير بولندى سابق هو المؤرخ برونيسلاف جيريميك Bronislaw Germek إضافة ڤيدرين وكيسنچر وبلاسيو الإسبانية.. ومعهم مستشاران للرئاسة الأمريكية، واحد من إدارة كلينتون، والثانى من الإدارة الراهنة..

خامسا: أطلعنا هذا البرنامج - الذى استمر للمائة دقيقة التى ألزم مقدمه نفسه بها فى أول عبارة - على نوع فريد من تقسيم المهام لا يجعلك تتأكد هل جاء تلقائيا، أم أنه معد سلفا؟! ذلك أننى لاحظت أن الضيف الرئيسى، وهو السيد روبرت ڤيدرين وزير خارجية





فرنسا، هو الذى يحاور كيسنجر وهو الذى يحاور السيدة بلاسيو وزيرة خارجية إسبانيا.. كما أنه هو الذى يحاور النائب الفرنسى آلان مادلين ALAIN Madelin، قرب نهاية البرنامج ، كما أنه هو الذى يجيب على أسئلة الصحفيين، أما مقدم البرنامج، فهو الذى يحاور، داڤيد فروم David Frum مستشار الرئيس الأمريكى الراهن ويسأله عن القوى الدينية المتشددة المسيطرة على الرئيس الأمريكى وحين يجيب المستشار بأن الحرب دفاع عن الحق وضد الباطل، يحرجه مقدم البرنامج بالسؤال، ومن الذى يحدد ما هو الحق، وماذا عن بن لادن وجماعته والذين يقولون نفس الكلام، إنهم يدافعون عن الحق ويحاربون الباطل؟!!

وبنفس الجدارة يسأل مقدم البرنامج مستشارالرئيس الأمريكى السابق كلينتون «روبرت مالى Robert Maley» عن العلاقة بين تمكنه من اللغة الفرنسية وموافقته على الآراء الفرنسية بشأن الأزمة موضوع البحث (لا لضرب العراق) يرد روبرت مالى بأنه خصص ست سنوات لدراسة اللغة الفرنسية - بين أمور أخرى بالطبع - أما مسألة التوافق بين رأيه ورأى الفرنسيين فى شأن أزمة العراق، فهى لأنه، ومعه جناح كبير من رجال السياسة والفكر والفن وأبناء الشعب الأمريكى، يدركون فداحة الأخطار التى تنتظر العالم إن أقدمت حكومة بلاده على ضرب العراق، ويؤكد أن الولايات المتحدة على هذا النحو غير مقدرة للاستفزاز المباشر الذى ستشكله هذه الضربة لعناصر الإرهاب فى العالم كافة. كذلك فإن مقدم البرنامج هو الذى يدير الحوار مع المؤرخ والوزير السابق الذى اشترك فى الحوار من بولندا وجاهد ليشرح التناقض فى الموقف البولندى كما بلوره له مقدم البرنامج فى سؤاله..

المهم أن البرنامج يمضى فى سلاسة مدهشة ساعد على تحقيقها الاكتفاء بلغة واحدة على مدى المائة دقيقة، وبدلا من طباعة الترجمة أسفل الكادر، وصلتنا ترجمة دقيقة باللغة الفرنسية - لكل ما جاء على ألسنة المتحدثين باللغة الانجليزية وبدرجة من الجودة تنسيك أصلا أنها ترجمة.

سادسا : قدم البرنامج ثلاثة تقارير تسجيلية، الأول عن الرئيس الأمريكى الراهن چورچ بوش، والثانى عن خطة الإدارة الأمريكية لتغيير الأنظمة الحاكمة فى الشرق الأوسط، والثالث عن الدولار المستخدم لترغيب وترهيب الدول المترددة!!.

حرفية الأداء الفنى

ويكفى للتدليل على أن كل تقرير جاء فى أنسب موضع، أن أشير هنا إلى أن التقرير الخاص بالرئيس الأمريكى الراهن أذيع أثناء حديث مستشاره David Frum والذى وصلتنا صورته من مينا بوليس ليدافع عن التوجهات الدينية المتشددة للرئيس الأمريكى الراهن، وأما التقرير المسجل فهو الذى نقل لنا صورة لچورچ بوش من أيام أن كان مدمنا

للخمور إلى أن أصبح الرئيس الأمريكى الراهن الذى يفاخر بالقول we are the finest people «نحن أروع شعب».

سابعاً : انتظم إيقاع البرنامج وجاء اتساقه مدهشا، ذلك أن أحداً لم يعط فرصة للتكرار أو الإملال، فأى كلمة تنم عن نية فى تكرار ما سبق قوله تكون فرصة لطرح سؤال جديد يكون أكثر إحراجا للمتحدث، ولقد كان هذا الضغط ومواصلة الإحراج فى صالحنا كمشاهدين إذ أمتعنا على مدى المائة دقيقة بتنوع جوانب وجهات النظر، سواء المؤيدة لموقف فرنسا المجيد ، أو المعارضة له.. وسواء جاءت تلك المعارضة من أطراف أمريكيين أو من أطراف فرنسيين كما هو الحال بالنسبة للصحفيَيْن الفرنسيَيْن اللذين ظهرا فى أحد مراحل البرنامج جالسيْن قبالة وزير خارجيتهم السابق روبرت ڤيدرين ليسألاه عن مغزى اختلاف موقف فرنسا من أزمة العراق الراهنة عن موقفها فى أزمات تم فيها من قبل التصرف بعيدا عن مجلس الأمن كما فى حالة كوسوڤو، وكان ذلك فرصة لڤيدرين ليشرح للعالم أهمية وثقل العراق، وأهمية وثقل وخطورة بلدان الشرق الأوسط وثقافة شعوبه، .. وفوق كل عوامل الجذب والتفوق السابق الإشارة إليها، لا يفوتنى أن أشير إلى الدقائق الأولى من البرنامج.. مقابل الدقائق الأخيرة منه.. فبينما طرحت الدقائق الأولى أكثر الأمور جذبا وشدا للانتباه، حيث حضر رئيس إحدى مؤسسات استطلاع الرأى الفرنسية ومعه نتيجة أحدث الاستطلاعات لرأى الفرنسيين ويسأل السيد ڤيدرين عن رأيه فى أن اثنين وثمانين فى المائة من الفرنسيين يبغضون أسلوب الإدارة الأمريكية الراهنة، وتبدأ إجابة ڤيدرين بأن معهم الحق... إلخ. وأما عن نهاية البرنامج فقد ادخر لها معدوه أقوى سجال بين السيد ڤيدرين والنائب الفرنسى الان مادلين Alain Madelin وهو من أشد المعارضين لموقف الرئيس الفرنسى المجيد برفض ضرب العراق والانحياز للطريق السلمى لنزع سلاح العراق وبالتالى أسلوبا معتمدا لفض المنازعات.. وهكذا ظل البرنامج محتفظا بقدرته على جذب أقصى اهتمام من مشاهديه حتى آخر دقيقة، ذلك أن الدقائق الأخيرة، كانت تلخيصا محددا لكل جوانب الاتفاق والاختلاف وكان التوتر على أشده بين الجانبين المتقارعين بأقوى منطق للكلام.

وصحيح أن هذا البرنامج، وما سبقه بدءاً من حديث الرئيس الفرنسى چاك شيراك ، كان السبب فى أننى انصرفت إليها بالكلية، والدافع لأن أخصها بكتابتى للسطور السابقة بدلا مما نويته أصلا موضوعا للمقال إلا أننى أعترف أن انبهارى بحرفية الأداء الفنى والسياسى بلغ حدا لا تستدعى ذاكرتى له الآن أى مثيل ومن أجل ذلك أبقيت على العنوان، لأن تفسيرى لهذه الرفعة فى الإتقان والتجويد، وسرعة الاستجابة لمجريات الأحداث إنما هو عندى يرجع إلى احترام الفرنسيين لأنفسهم، وعشقهم لوطنهم، وهو العشق الذى يترجمونه عملا وهدفا ومهارة.

أما الآخرون الذين يتغنون بحب الأوطان وتأتى أفعالهم مخاصمة للكلام الذى به ينطقون، فلنا فيهم كلام ، وكلام. ■



وحكاية مسجد النورى

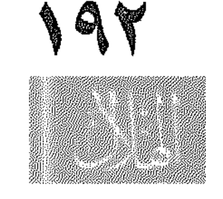
بقلم
سهيلة الحسينى *

الموصل.. مدينة موغلة فى العراقة.. اتسم أهلها منذ فجر التاريخ بالابداع والابتكار فى مجالات الفن والابداع .

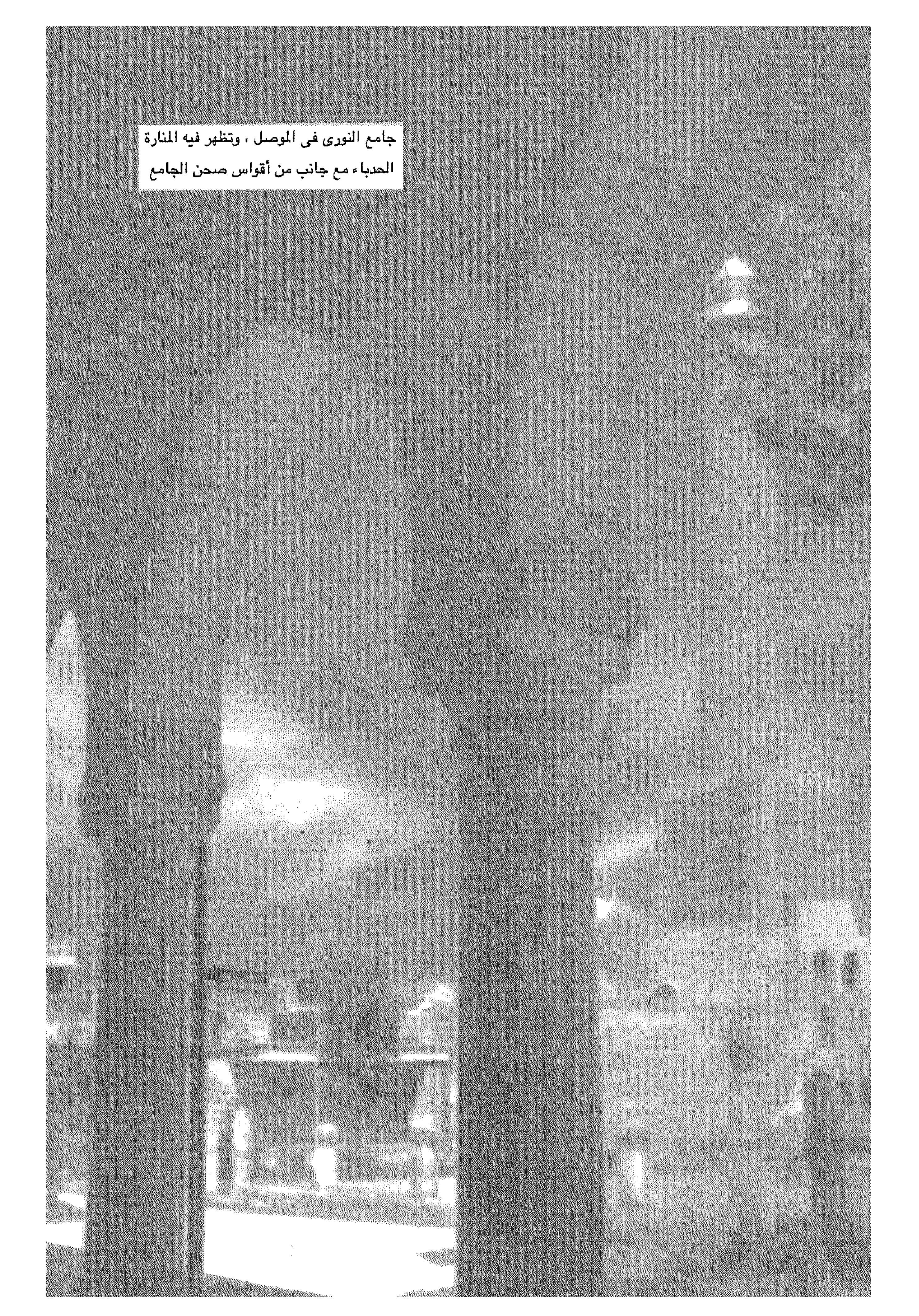
وقد حملت أسماء «نينوى» و«الحدباء» و«أم الربيعين» فكلها أسماء لمدينة جمعت أمجاد الحضارة من طرفيها، ففى العصر القديم كانت حاضرة الدولة الأشورية بعاصمتها «نينوى» و«نمرود» التى غدت العاصمة الثانية لها «١٢٨٣ ق.م» .

وفى العصر الاسلامى الأول كانت تمثل سلة الخبزوالمعبر والبوابة للجيوش الإسلامية المجاهدة وهى تنطلق فى فتوحاتها شرقا وغربا .

كما عرفت بأنها كانت من أهم مدن العراق حضاريا وثقافيا وتاريخيا بعد العاصمة بغداد وكانت أول من تصدى بشجاعة للزحف الصليبى على أرضنا العربية الإسلامية منذ أول حملة انطلقت من أوروبا سنة ١٠٩٧م.



* كاتبة وباحثة عراقية



جامع النورى فى الموصل ، وتظهر فيه المنارة
الحدباء مع جانب من أقواس صحن الجامع

ورغم حروبها الطويلة المتواصلة عبر التاريخ.. لم تكن لتميت روح فنانها المتعشق للجمال، ففى عبقريته رأينا فنه فى العمارة الهندسية يسامى فنه فى «التكفيت» أى تطعيم الأوانى النحاسية بخيوط الفضة والذهب والعاج، ومازالت هذه التحف من أسلوب مدرسة الموصل وأعمال فنانيها موجودة (للأسف) فى متحف المتروبوليتان فى أمريكا واللوفر فى باريس ، وفى انجلترا واليونان وتركيا، مدموغة بأسماء صانعيها ومساعديهم .

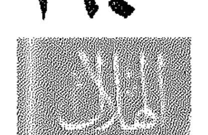
لقد بقيت «الموصل» متفردة فى هذا الفن تهدى تحفها للرؤساء والأمراء والحكام خارج العراق حتى دخول «التتار» وتدميرهم حضارة دار الخلافة، مما ألجأ الكثير من أمهر صناعها للهجرة إلى دمشق ومصر.. حيث نقلوا فنهم المتميز إليها .

على أن ما يعنينا من عبقريات هذه المدينة هو فن عمارة المساجد، وبالذات ثانى أقدم مساجدها (الجامعة) وهو الجامع«النورى»..!.

وطبيعى أن للمسجد خصوصية القداسة.. لذا أولاه الخلفاء والحكام اهتماما كبيرا، وتطور من البناء البسيط فى صدر الإسلام إلى العمارة الفارهة فى نهاية القرن الأول تخليدا لذكرى بناته من الحكام حتى بلغوا قمة الإبداع فى العصور العباسية، ويصنف «الجامع النورى» كثالث أروع أعمدة المعمار فى هذه الفترة .

صاحب الأثر ..

لا يمكن الحديث عن هذا الصرح الشامخ دون المرور على صاحب الأثر، فقد عرفت «الموصل» حكم الأسرة الأتابكية ٥١١هـ - ٥٦٩هـ - ١١٢٧ - ١٢٦٢م. وكان قدر ملوكها الشجعان المنحدرين من أصول سلجوقية والتى «تعد من أعظم رعاة الفنون والصناعة فى عصرها». إضافة إلى بسالتها فى الحروب ، مما جعل ملوكها وأتابكتها التصدى لغارات الصليبيين بحملاتهم العديدة ، ليبرز المجاهد الكبير «نور الدين محمود زنكى» (٥١١ - ٥٦٩هـ) ابن المجاهد عمادالدين، الذى غادر الموصل تاركا ملكها لإخوانه ومتخذا من حلب ودمشق عواصم وقواعد لجهاده، وإنزال أفدح الضربات بالصليبيين. ويكفى من صفاته استشهادنا بالمؤرخ الكبير « ابن الأثير» عندما ذكر: «طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز، ملكا



أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه» .

حتى قيل فيه:

جمع الشجاعة والخشوع لربه

ما أحسن المحرابُ في المحرابِ

لقد أوقف هذا الزاهد البطل حياته لجهاد الصليبيين - اسوة بأبيه وأجداده - من خلال إخضاعه الإمارات العربية المستسلمة للفرنج، كذلك ضمه للإمارات الضعيفة تحت نفوذه حتى اتسع ملكه .. فلم يرحل عن دنيانا إلا وقد أرسى قواعد الوحدة بين المسلمين ، حتى خفقت أعلامه فوق الموصل والجزيرة والشام ومصر. ليسلم راية الجهاد إلى البطل صلاح الدين الذى توج هذه الملحمة باسترداده القدس الشريف!..

والحق .. لم تكن حروبه الطاحنة لتصرفه عن بناء المنشآت الخيرية العديدة فى معظم مملكته والتفكير فى المدينة التى شهدت مولده وملاعب طفولته وصباه وصدرا من شبابه، فكان دائم الحنين لزيارتها وتفقد أحوالها رغم ضيق وقته فى الجهاد حتى أهداها «درة المساجد» الذى ارتفع شامخا حتى اليوم فى قلب المدينة الأثريةِ العتيقة المعروفة بوفرة الآثار الإسلامية النفيسة .

بقصة الأثر ..

فى سنة ٥٦٦هـ زار نور الدين الموصل، ولمس ضيق مسجدها الجامع المنشأ منذ العصر الأموى بمصليه. فاختار موقعا يتوسط المدينة ومعروف بكثافته السكانية وأسواقه ليقصده أكبر عدد من المصلين ، وكان الموقع و(خرابة)، فاستحسن ذلك كى لا يشرد أحدا من بيته كما أمر «ألا يؤخذ شئ بغير اختيار أصحابها، وشرائها منهم بأوفى الأثمان».

وعندما عوتب نور الدين من بعض أجناده ممن طمع فى بنائه، باسناد البناء للشيخ الزاهد عمر الملا، قال:

«إذا وليت هذاالشيخ غلب على ظنى أنه لا يظلم، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا علىَّ». واستغرقت مدة بنائه العامين . حتى إذا تم بهر مرآه المؤرخين فذكره ابن شداد والعماد الحنبلى وابن الأثير والذهبى بالقول « إليه الغاية فى الحسن والاتقان» .

إن سر خصوصيته التى لم تتوفر فى سائر مساجد العالم يومها ، هو (قبته وزخارفه ومنارته) و«أما قبته فتمتاز أنها فى الحقيقة قبتين إحداهما داخل الأخرى وبينهما فراغ!!» .

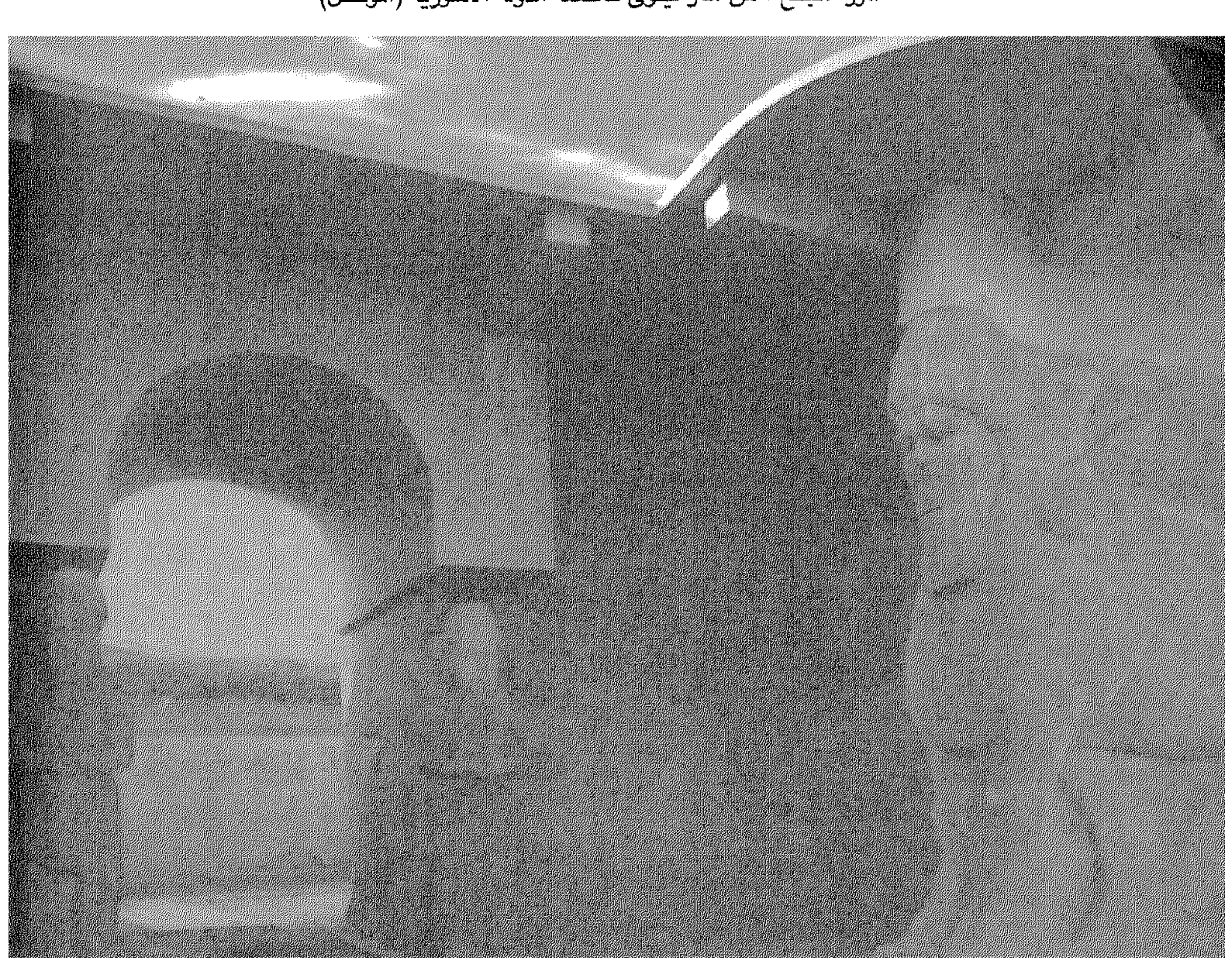
وأما زخرفته فمن أجملها ما يشاهد على محرابيه، أحدهما كان فى (المصلى الصيفى) للجامع وهو من المحاريب

الرائعة لما يحويه من زخارف نباتية وكتابات جميلة «لكن للإسف لم يحتفظوا عند تجديده بأكثر آثاره النفيسة . فبعضها نقل إلى المتحف العراقى فى بغداد، وبعضها تلف ، وبعضها احتفظ به فى الجامع » . ويحف من جانبيه زخارف نباتية دقيقة كل وحدة منها يشبه المحراب وهى تستمر إلى أعلى المحراب مما «يدل على تطور كبير فى رسم الأرابسك ونضوج فى عمل الزخارف الهندسية» . كما أن المسجد قائم على دعائم مثمنة .

وهناك محراب ثان قام بعده فى الصحن الذى استعمل من ثم فى المصلى ، ويقابل الباب الرئيسى له مزيدة بزخارف وكتابات جميلة، «وتظهر آثار تقليد الفنانين لزخارف هذا الجامع فى المحاريب التى انشئت بعد هذاالتاريخ» مما يدل على روح الابتكار والإبداع .

أما (منارته) التى تباهى الزمن بصمودها وشموخها فتعد من أطول

«الثور المجنح » من آثار نينوى عاصمة الدولة الأشورية (الموصل)

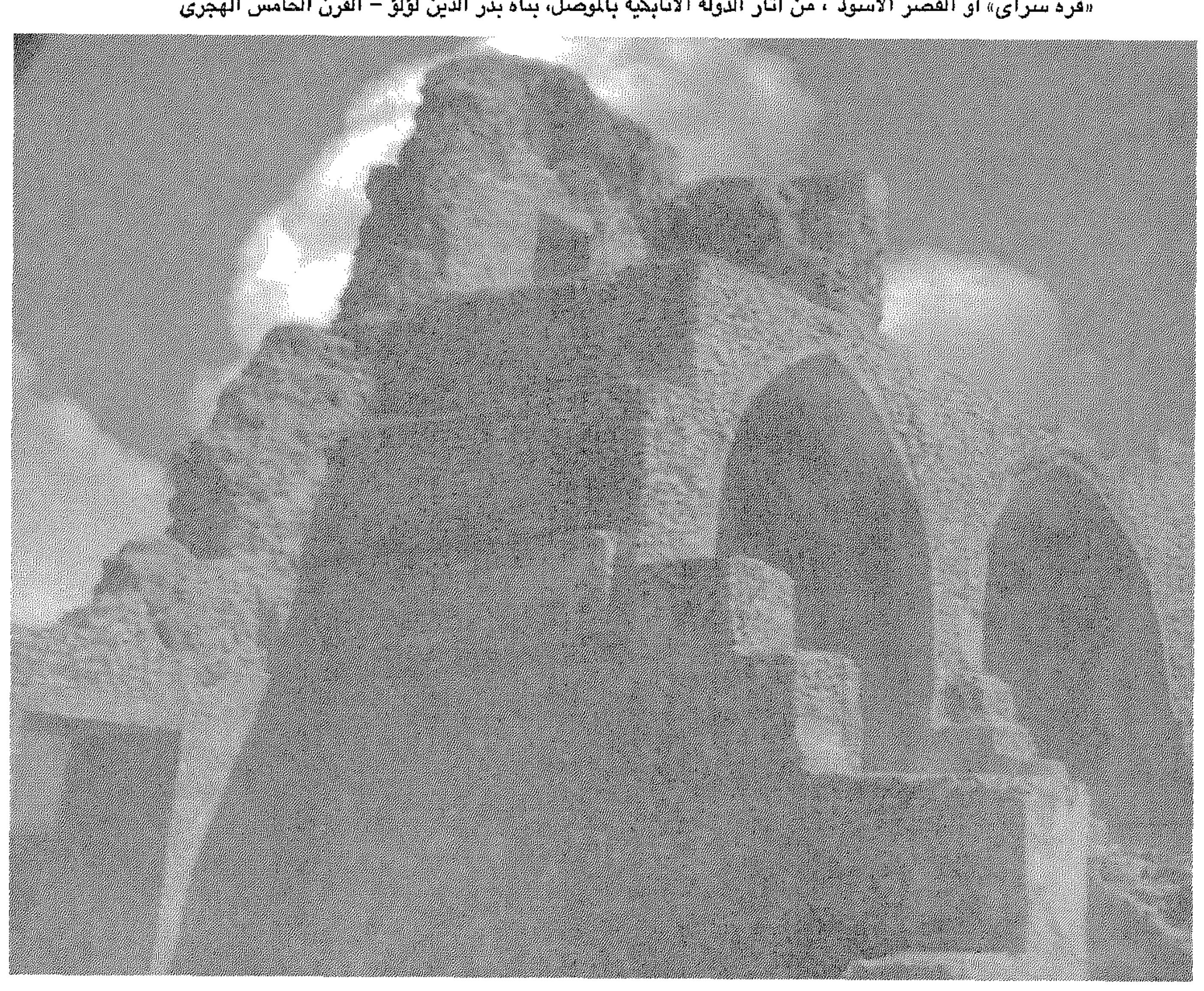


منائر العراق حتى عهد قريب، «إذ يبلغ ارتفاعها ٥٥ مترا وتمتاز بما يزينها من زخارف أجرية نافرة على شكل حلقات تحف بظاهرها» وهى تتألف من قسمين أحدهما منشورى يسند الجزء الأعلى منها بقاعدة رباعية ضلعها ٧٠ و٥٠ مترا وارتفاعها ١٥.٨٠ مترا مبنى بالحجر، أما الجزء الذى يعلوه فمشيد بالأجر وهو «بدن اسطوانى ينتهى بقمة تشبه الخوذة» وهذا البدن « تزينه سبعة أشكال زخرفية» وفى عالمية تفرد هذا البدن أو المنارة دون غيرها، «وجود درجين داخلها لا يلتقيان إلا فى أعلاها عند الحوض الذى يقف عليه المؤذن» .

كذلك بانحنائها انحناء واضحا نحو الشرق!.

ومن الطريف تعليل أهل الموصل لأسلوب درج المنارة «إذ يقولون بأن بانى هذه المنارة قد حسده استاذه على عمله الجميل هذا وأضمر له الشر، ولما انتهى البناء من عمله استدعى استاذه ليطلعه عليه، وعندما صعدا معا داخل المنارة،

«قره سراى» أو القصر الأسود ، من آثار الدولة الأتابكية بالموصل، بناه بدر الدين لؤلؤ – القرن الخامس الهجرى



أغلق الاستاذ الباب وسار خلف تلميذه وهو يضمر أن يلقيه من أعلى المنارة، لكن البناء عندما وصل إلى الحوض نزل من الدرج الثاني دون أن يعلم به استاذه، وهكذا نجا من الموت، واعترف له استاذه بالمهارة» .

مدرسة المسجد!..

رأى الملك (نورالدين زنكى) إقامة مدرسة لهذا الجامع، هدفها الجمع بين العلوم الدينية والعلوم المعرفية الأخرى. فبنى مدرسة ذكر أنها «من أحسن المدارس وأوسعها، جعلها وقفا على الفقهاء الشافعية والحنفية نصفين»، ورغم كون نورالدين شافعى المذهب ، لكن التدريس فيها على المذهب الحنفى أيضا ، مما يعتبر مؤشرا حول عدم تعصب بانيها لمذهبه أمام المذاهب الإسلامية الأخرى ، وهذا من أخلاق القادة العظام .

هذه المدرسة جعلها ملحقا لمسجده الجامع، وتشاء الصدف بعد اكتمالها مرور الفقيه «عماد الدين أبو بكر التوقانى الشافعى، وهو من أصحاب الإمام محمد بن يحيى» فى الموصل، فسأله نورالدين الإشراف والتدريس فيها. والحق أن نورالدين قد أكثر من إنشاء المدارس الدينية «المقامة بين الموصل ودمشق» حتى وصفه الشاعر :

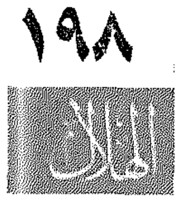
ومدرسة سيفنى كل شئ
وتبقى فى نمو علم ونسك
تضوّع ذكرها شرقا وغربا
بنورالدين محمود بن زنكى

لكن بكل أسف أن هذه المدرسة درست بفعل التغيرات والتجديد الذى نال ساحات وأروقة المسجد، فلم تتوصل بحوث علماء الآثار من تحديد موقعها الأصلى .

إن هذا المسجد أو التحفة المعمارية قيل فى تكاليفه : « وبنى بالموصل جامعا غرم عليه ستين ألف دينار» ولعل مبلغا كهذا يومها ثروة ضخمة!

أما ما أوقفه نورالدين على المسجد، فتذكر المصادر التاريخية أنه أوقف «قرية من قرى الموصل بغلّتها»، أوقف أيضا «أعظم قيسريات الموصل وذكر أن عدد دكاكينها ٦٩٩ دكانا» .

إن وقع منارة الجامع من القلب والوجدان، لايدركه سوى أبناء «الموصل الحدباء» .. ففى توسطها فى قلب المدينة، وارتفاعها السامق، تبدو كالأم الحنون التى ما تفتأ تتفقد أبناءها حيث تواجدوا فوق أرض الموصل.. رغم شيخوختها وانحناء قامتها، فهم يرونها من بعيد فتحتضنها عيونهم وقلوبهم معا بدءا من



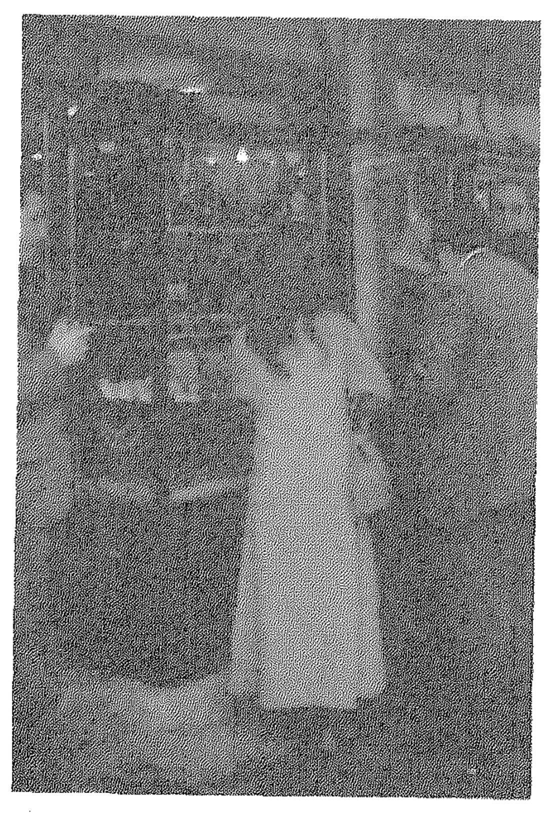
قبيل الساحل الأيسر «لدجلة» الموصل، فتمتلئ نفوسهم غبطة وتفاؤلا واطمئنانا

هذا المسجد الجامع مازالت تقام فيه الصلوات الخمس والجمع، ويمارس دوره فى الاشعاع الدينى من عقد ندوات، وتحفيظ القرآن الكريم على مدار السنة، كما يعتبر مزارا سياحيا مهما لعلماء وطلاب الآثار والثقافة الاسلامية .

رحم الله هذا المجاهد البطل الملك نورالدين عماد الدين زنكى، فقد أهدى الموصل «درة المساجد» يومها .

بقيت إشارة لابد من التنويه إليها ..

إن نورالدين هذا الفنان الإسلامى الورع ، له فى كل بقعة من دولته أثر إسلامى جميل يشيد بمآثره، ففى حرصه على إظهار الإسلام بأبهى حلة، قرر صنع منبر للمسجد الأقصى ، حيث مسرى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأولى القبلتين وثالث الحرمين، فنورالدين لفرط تفاؤله وشدة ورعه رأى إقامته ليضعه بنفسه فى مسجد الأقصى عندما «عزم على فتح بيت المقدس» فكلف لصنعه أمهر فنانى النجارة، ولدقة المنبر قيل: « فعمله النجارون فى عدة سنين لم يعمل فى الإسلام مثله». ليأتى كتحفة فنية لانظير لها فى كل مساجد العالم .



احد المحال فى مدينة الموصل

لكن المنية وافته، على أن حلمه تحقق عندما فتح المجاهد صلاح الدين الأيوبى القدس. عندها «حمل من حلب ونصب فى القدس وكان بدء عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة، وهذا من كرامات نورالدين وحسن مقاصده رحمه الله» . لكن مما يؤسف له حقا أن هذا المنبر والأثر الإسلامى العريق أحرقه اليهود ضمن حريق المسجد الأقصى (١٩٦٩/٨/٢١م) بعدما بقى يحمل خطباء الجمعة مؤديا أنبل رسالة ولمدة (٨١٣سنة) . ■

قصة قصيرة

إخفاق

قصة
محمد جبريل

بريشة الفنانة
سميحة حسنين

خطرت الفكرة فى باله كالومضة لم يكن - فى تلك اللحظة تحديداً - يفكر إلا فى اللقاءات التى تملأ أيامه الأربعة فى بيروت محاضرتان، وربما ثلاث،فى اليوم الواحد، وأحاديث فى وسائل الإعلام ولقاءات بمسئولين لم يعد نفسه حتى لمجرد السير فى شارع الحمراء الذى يحب محاله ومقاهيه وصخب الحياة فيه ..

ومضت الفكرة استعادها أزمع أن يخضعها للمحاولة إذا جاوز الإخفاق، فهو يستعيد الثقة الغائبة وإذا لقيت المحاولة صدوداً فعليه أن يظل السر مقيداً داخل حجرته بالفندق، القيد نفسه الذى خلفه فى حجرته بالشقة المطلة على نيل الزمالك ..

قال الطبيب : التردد يؤدى إلى الحوادث كان يقصد حوادث المرور، لكنه لاحظ أن المعنى ينسحب على كل شئ .. تحسس - بعفوية - موضع العملية الجراحية فى صدره كيف يواجه النظرات المشفقة، أو المشمئزة؟

وبخ نفسه لأنه استدعى الفكرة، وقلبها يدعو المرأة إلى زيارته فى حجرته يقضيان معاً وقتاً لم يستمتع بمثله من قبل ..

خادمة الغرف ؟!..

يفر من المشكلة الحقيقية، فيثير مشكلات هو فى غنى عنها ..

قضى موظف الاستقبال على تردده : هل يقدم نفسه باسمه الحقيقى، أو يخترع اسماً يختفى وراءه ؟..

طلب الموظف جواز السفر تأمل البيانات وأودعه خانة مفتاح الحجرة :

- سنعيده عند نزولك..

أضاف الموظف بلهجة مرحبة :

- عدد الأيام ؟

- ثلاثة أيام أو أربعة..

ثم وهو يتكلف ابتسامة :

- مهمة عاجلة ..

استشرقت نفسه حياة غير التى يحياها غلبته الحيرة، فهو لا يقدر أن يفعل شيئا، ما يؤلمه أنه لا يقوى على البوح، السر فى داخله لا يكشف عنه يقاوم الرغبة فى أن يتكلم مع أحد يفضى عما بنفسه، يحكى ، ويحكى لا يسكت حتى يهدأ قيمة الصمت أنه يخفى ما نعانيه لو أن الملامح أظهرت ما فى النفس، ما قدم من القاهرة العجز معه يصحبه إلى أى مكان يقصده ليس فى جسده، وإنما فى مواجهة الظروف التى تواجهه .

قالت فادية :

- ماجد يستهلك نفسه في إظهار الغضب لكنه لا يؤذى ..

وعلت ضحكتها فاهتز صدرها :

- ماجد كائن مسالم..

ينظر - فى استياء - إلى نظرتها المستخفة تجيش مشاعره يعلو صوته بما يمور فى داخله يبدى رأيه ويعلن ما ينوى فعله الابتسامة على شفتيها تزيد من إحساسه بالغضب، يغلبه ارتباك لا يفلح معه فى أن يقول شيئاً، يغمض عينيه يروح فى عوالم يصعب عليه تبينها ، خليط من المشاعر والذكريات والميل إلى الفضفضة حتى المواقف التى لم تشغله فى وقتها ونسيها ، تستعيدها ذاكرته وتملأها ..

أهمل النصيحة بأن يلغى سفره إلى بيروت، أو يؤجله، تحدث على عبيد عن اتساع حرب الميليشيات والقتل على الهوية. داخله شعور لم يستطيع تفسيره كأنه التحدى أو الرغبة فى المغامرة تأكيد ما يطمئن إليه فى نفسه، ولايراه فى أعين الآخرين حتى ضابط الجوازات فى مجمع التحرير لم يوقع بالموافقة إلا بعد أن دفع إليه على عبيد ببطاقة التوصية ..

أدار الولد النوبى الملامح مفتاح الحجرة، ودفع جرار الشرفة الزجاجى أطل من الطابق التاسع فى الفندق ذى الطوابق العشرة فى أسفل طريق الكورنيش فى زاويته المطلة على صخرة الروشة، كأنها ساقا عملاق فى قلب المياه



وأكشاك الملابس والكاسيتات والطعام وعربات الفول والترمس والذرة متجاورة فوق الرصيف ويتقافز فى الزحام باعة الورد والفل والياسمين ومياه البحر تمتد إلى نهاية الأفق ، فوقها سماء صافية تتخللها سحب بيضاء ..

تأمل وجهه فى مرآة الحمام ..

التجاعيد دوائر أسفل العينين، وحول الفم، وتتباين مع شعره المصبوغ بالسواد، والبشرة باهتة والوجنتان غائرتان ..

استعاد الفكرة فى وقوفه أمام المصعد حرص على أن يتجه بنظراته – فور خروجه من المصعد – إلى الناحية المقابلة الكاونتر الاستقبال يفطن الموظف إلى مكانته، فلا يهبه الفرصة كى يلقى اسئلة أو يعرض خدمات، هو واحد من نزلاء الفندق لا شأن له بأحد، ولاشأن للآخرين به، لكن كيف يجد ما يطلبه ؟ كيف تنشأ العلاقة ؟..

لو أن موظف الاستقبال، أو أى عامل فى الفندق فطن إلى ما أزمع فعله فستؤذيه الفضيحة بما لا يتصوره..

لحقة صوت عادل :

– أريد نقوداً ..

اتجة ناحيته بنظرة غاضبة :

– أنا أنفق على البيت كله وليس عليك وحدك

– أردت أن تصبح أباً لذلك ثمنه ..

ثم وهو يطرقع



أصابعه :

- أريد نقوداً..

هز رأسه دلالة الرفض..

قال عادل :

- إذا لم أحصل على ما أريد لن أضمن تصرفى .. تفجرت فى داخله رغبة فى الشتم أو فى العراك .

- أفعل ما تشاء !

وهو يزيح شهادات التقدير والأوسمة والميداليات عن الأرفف والجدران، ويقذف بها من النافذة المطلة على بقايا بناية متهدمة :

- هذا ما أفعله ..

اكتفى بنظرة الذهول تملأ ملامحه فكر فى أن يمنعه، يصرخ فيه أو يدفعه أو يصفعه، لكن العجز شل تفكيره وتصرفه خشى تصرفاً لايتوقعه ماذا يفعل لو أن الولد رد إليه أذيته ؟!.. يصفعه فيرد عادل الصفعة بمثلها ينتهى كل شئ لا أبوة ولا بنوة ولا أسرة لا أى شئ.. يتمنى الموت ..

قال لنبرة الإشفاق فى قول على عبيد :

- أنت لا تعمل حساباً للمستقبل..

- معى ما يكفى المستقبل ..

وتلكأت الكلمات :

- يهمنى أن أنفق ما أملكه فى حياتى ..

ثم وهو يصر على أضراسه:

- لا أريد أن يرثنى ابنى فى مليم واحد ..

- أعطاك الله العمر لكن الحرص على ألا يرثك عادل يثير التأمل .

- لماذا ؟

يقلب الكلمات فى ذهنه، فلا يجد إجابة محددة يرفض لأنه يريد ذلك. ما معنى أن أعمل وأكسب ثم يرث أى أحد ما ضيعت العمر لتدبيره يجب أن يعلم عادل وفادية أنه قادر على اتخاذ القرار، أنا أرفض وأقبل وامنع وأعطى اتخذ قرارى بكل الثقة، أملى إرادتى لا تشغلنى ردود الأفعال، ما افعله هو حقى..

اعتذر عن المرافقة بأنه يريد السير فى شوارع الكويت بمفرده ، سأل عن السوق استعاد التسمية:

- واجف ؟

- إنها مجرد سوق شعبية ..

أهمل التحذير وسأل عن الطريق ..

مضى من ساحة الصفا الأسقف الشبيهة بالقيساريات دفعت معظم المحال إلى إضاءة الداخل. غالبية البضائع قديمة، أو مستعملة ، فى الوسط طاولات خشبية فوقها ملابس نسائية ومفروشات وسجاجيد ،



استعاد زحام وكالة البلح..

قال الرجل :

– أفهم ماتريد التعبير عنه ..

ثم وهو يحدجه بنظره تتوقع رد الفعل :

– سأعد لك وصفة لا تخيب !

غلبه الارتباك ادرك أن الرجل خمن عكس ما يعانيه قال :

– أنا لا أشكو ضعفا. ابتسم الرجل بالحيرة :

– ماذا تشكو إذن ؟

كان يضايقه التقاط تلميحه بما يعانيه بمعنى لا يتغير تقتصر الأحاديث على ما يضيف إلى حيويته، تقترن بالإيماءات والكلمات الملتفة بالغموض ما يعانيه كائن فى داخله لا دخل له بمرض، ولا يحتاج إلى شيء مما يشيرون عليه به، شيء لا يدري مصدره ، وإن استقر في داخله، يثيره ويشقيه بالإحباط بأنه غير قادر على التصرف وعاجز ..

قال البائع فى شارع الحبيب بورقية :

– أفهم ما تريد التعبير عنه ..

أضاف وهو يقدم له حبة صغيرة:

– خذ هذه .. تجعل ما تعانيه من الماضى ..

وضع الحبة بين شفتيه تبعها بجرعة ماء تصاعد فى اللحظات التالية مالم يخطر له ببال : خيالات ومشاهد ونشوة تقربه من الغيبوبة، سرى ما يشبه الخدر فى أعصابه أغمض عينيه فى استسلام، تصور– بتأثير النشوة – أن أنفه طال فكاد يسد الطريق أبطأ من خطواته حتى لا يصطدم بالمارة أو العربات، داهمه التوجس فعوج أنفه باصابعه ليحقق انتظام المرور خطر له أن يصرخ ، ويغنى ويرقص ويجرى إلى حيث تذهب به قدماه، عبر الطريق إلى الناحية المقابلة، استبدل البائع شرائط كثيرة حتى هز رأسة بالموافقة الصوت الأنثوى يتغنى بالعلاقة منذ بداياتها يتعمد المط والتلكؤ والبحة المتحشرجة والأنفاس اللاهثة مالت الرءوس وتقاربت الأجساد، وتعالت الهمسات الصاخبة ..

قال البائع وهو يقلب الشريط على الوجه الآخر:

– أثق أن هذا ما تريده ..

ابتسم للتعبيرات والتعليقات التى علقت

على الدكاكين المجاورة للكاتدرائية بشارع الحبيب بورقيبة دفع - في زيارته الأخيرة إلى تونس أربعة دولارات لكي يكتب له البائع أمنية على بطاقة مزينة بالورود أطال التفكير فيما يتمناه لها، طلب البائع أن يترك العبارة الأمنية، استقبلته بما اعتاد من الجفاء، فلم يتذكر البطاقة إلا عندما فتشت في جيوبه قبل أن يبعث البدلة إلى المغسلة..

نسي حتى ما قدم من أجله إلى بيروت وهو يجلس في كازينو لبنان ينصت إلى المغنية الصغيرة المتلئة تردد أغنية فيروز باحبك يا لبنان، وثمة آلاف النقاط الضوئية تفترش مساحات السواد فوق الجبل حرص على تناول ما يميز الطعام اللبناني الكبة والتبولة والفتوش والحمص بالطحينة واللحم بالجبن وورق العنب والمحاشي والمتبلات حتى الحلويات - رغم الضغط والسكر - أكل البقلاوة والقطائف وعيش السرايه والعثمانلية وزنود الست..

عاني كثرة الحواجز على مفارق الطرق مدرعات وسيارات جيب، وبزات عسكرية وذات الوان متباينة والميكروفونات يتعالى منها التعليمات والأوامر والشعارات مكتوبة بالبويات الملونة والطباشير تملأ الحوائط وأسفلت الطريق وأبواب الدكاكين المغلقة وسواتر البنايات، المتهدمة والملصقات على الجدران ولافتات القماش تصل ما بين أعمدة النور في تقاطعات الشوارع تؤيد وتستنكر وتحيي وتبايع وتبشر بالخلاص وصور الزعماء والقادة معلقة على النوافذ والمشربيات والأعلام التي تنتمي إلى تنظيمات يسمع عنها أو لا يعرفها أذهله الدمار في وسط بيروت سوق الطويلة وباب إدريس وساحة البرج البنايات المتهدمة، وفجوات الصواريخ وتقوب الرصاص ..

أشار سائق التاكسي إلى النافذة التي كان يقف وراءها وبيده بندقية يصعد بها إلى من يحدده التلسكوب لم يعد القتل على الهوية ولا بعد القاء الأسئلة من يجري بسرعة أو يمشي ببطء، أو يتلفت يصوب عليه دون أن يتلقى أمراً أو يعطي إنذاراً استعاد التسمية :

- قبرص ؟

أعاد فاروق معوض القول :

- قربص وهي غير قبرص ..

ثم بلهجة محرضة :

- بها نبع ماء ساخن يتدفق من الصخر لو أنك أكثرت من الغطس فيها فالنتيجة مؤكدة أشفق من الارتفاع الهائل الذي بلغته السيارة على

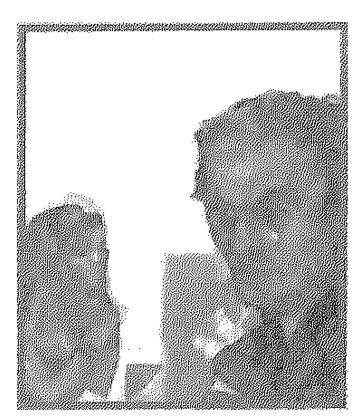
الطريق الصاعدة بدا الوادى فى أسفل مفروشاً بالخضرة تنتهى بالشريط الساحلى الجبل الصاعد المتعرج نفسه ارتقته السيارة فى قريات وإن تسربل الجبل العمانى بالصخور والوحشة واختلطت - فى الوادى - مساحات الصخور والرمال وبقع الخضرة القليلة ..

المياة تجرى ساخنة إلى الدائرة الحجرية المتصلة بالبحر تبلغ مستوى الركبة تظل السخونة على ارتفاعها إلى خارج الدائرة، على عشرات الأمتار فى اختلاطها بموج البحر ..

- من أين تأتى هذه العين ؟

- من الصخور البداية لا يعرفها أحد، لكنها تنبثق من الصخور

دلى قدميه فى مياه الدائرة الحجرية، لسعته السخونة فرفعها تشجع



عندما أبقت الفتاة قدمها فى الماء دلى قدميه، وتحمل الحرارة .

تنبه على صيحة اربكته . كان الشاب ذو الأفرول الكاكى يتفحصة بنظرة مرتابة :

- ماذا تريد ؟

أدرك أنه أكثر من التلفت فيما يثير التأمل والأسئلة غالب إحساسه بالارتباك :

- أنا أنتزه ..

وهو يزغده بكعب البندقية فى جنبه :

- تتنزه فى منطقة عسكرية

المناطق متشابهة : الحواجز والمتاريس واللافتات والشعارات والميلشيات العسكرية تعمد ألا يواجهه بعينيه يخشى أن يلمح التخاذل فى نظرته :

- لم أكن أعرف .

لم يعد قادراً على الفهم، ولا الاستيعاب، ولا التصرف ثمة شئ ينقصه، وإن لم يدركه على وجه التحديد، عانى ما يشبه شلل الإرادة اختلطت الرؤى، والخيالات والأصوات التى يغيب مصدرها ..

أعاد الشاب دفعه بكعب البندقية تأوه وسقط واصل الشاب دفعه وهو يزحف اعتمد على راحتيه وركبتيه، حتى توقفت الضربات، وانحسر ظل الشاب، زم شفتيه، وإن ظل على تألمة، وهو يرقب الشاب مبتعداً، فى وقفته المنعزلة وسط الميدان الصغير ..

كان ذهنه قد خلا من كل شئ . ■

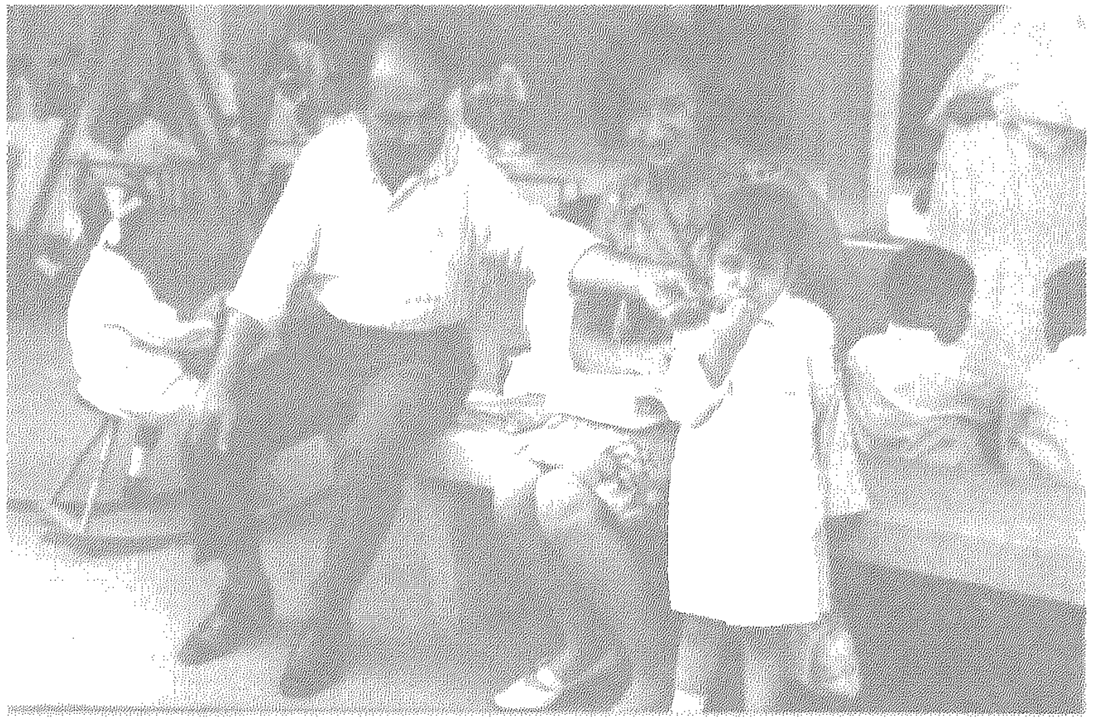
التكوين

هرولة الحياة

سناء البيسي

عندما طلب مني «الهلال» الكتابة عن التكوين ـ تكويني ـ شعرت بأنه يدفعني إلي كرسي الاعتراف.. ساءلت نفسي هل أستطيع الجلوس إليه بنيّة خالصة لقول ما لم أفصح عنه من قبل؟.. في أن أفتح درج الأسرار وأمزّق الشرانق ليلتقي المخبَّأ الدفين الراقد المتقوقع في دهاليز الغفلة بوهج الكشف وعري اللا تخفي وفيض الوضوح نافضا عن كاهله تراب الكمون والاحتواء والاختفاء والتواري والمكوث في الركن الظليل البعيد؟.. قرار البوح؟.. النية في تذوق حلاوة التصريح؟.. نزع الخوف من القلب؟.. خروج الساحة الخلفية إلي المسرح الأمامي؟.. مواجهة ما قد كان ليكون؟.. حسم الاكتواء بنار الانغلاق والهداية لنعيم الإفصاح؟.. النظر إلي الماضي بعين الحاضر؟.. إزماع وضع النقاط علي الحروف؟.. محو الشطب وإباحة المغلق؟.. نية السرد وتأصيل ما قد أوجز وأختصر وبتر في هرولة الحياة؟.. الفضفضة بعد الخصخصة؟.. جواز المرور لحقائق كان قد صدر القرار من قبل بعدم جدواها أو أهميتها أو أثرها وكان قرارنا بمنعها من السفر والترحال والتجوال؟.. الآن مرحبا بخروج الصرخة المكتومة بالأعماق، ونزول الدمعة المحبوسة في المآقي، وجلجلة الضحكة التي قطعها حادث أليم... أن يقرأ أحد تاريخي. أن يدخل آخر أعماقي. أن أغدو مرشدة للقارىء ليسيح في ثنايا دهاليزي ويطرق غرفي الخاصة.. هذا قدري، ولتفتح كل الأبواب علي مصراعيها لنشر الغسيل تحت عين الشمس ليداعبه الهواء يطهره من أشواك النميمة وملاحقات الكدر وفضول المتلصصين، ورواسب إحباطات وسأم..





هشام فى اليوم الأول بالحضانة

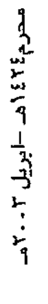
التكوين.. لابد وأن تكويني قد ارتبط ارتباطا وثيقا بحكم موقعي الأسرى كالابنة الوسطى بين الشقيقتين. لا أنا الكبرى لألقى حُظوة الصدارة ولا أنا الصغرى المدللة كآخر العنقود، هذا وإن كنت بحكم صحة الإنجاب قد جئت بعد ميلاد شقيقتين: البكرية رجاء التى توفيت إثر إصابتها بحمي التيفود ، وكانت حكاياتهم الموجعة من حولى أن العدوى قد انتقلت منى اليها، لتسللها إلى فراشى لتقبِّلني فى غفلة من الجميع، فذهبتْ هى ونجوتُ أنا ليبقى الإحساس بالذنب مسيطرا على طفولتى . كلما أتى ذكرها ولمعت الدمعة فى عيون والدى الذى كان يخبىء حقيبتها الوردية الصدفية، ذات السلسلة الذهبية الطويلة ، فى درجه الخاص لأفاجئه مرات وقد ضمها إلى صدره ورفعها يتشممها الى أنفه كأنه يستعيدها إليه..

أنا السبب.. أنا السبب.. ومع رحيل الأيام وخفوت حدة الآلام، خرجت الحقيبة الى النور بعد العديد من الرجاوات لتعلقها شقيقتى الكبرى فى كتفها، ولا أجسر أنا أن ألمسها بيدى.. وأصبح وضعى المؤكد بحكم التسلسل الابنة الوسطى التى تريد أن ينسى الجميع فعلتها، وأن تشد إليها الانتباه بأى شكل.. أن تقول للمحيطين اللاهين من حولها أنا هنا.. أن تشب على أقدامها لترتفع بحكم ذكائها، أو

موهبتها، أو شدة طاعتها أو دبلوماسيتها أو مداهنتها للسيد الوالد أو السيدة الوالدة.. أنا بحبك يا بابا أكثر.. أنا بحبك أكثر ياماما.. أن تلفت إليها الأنظار فلا يمرون عليها مرور الكرام، بعدما يمدحون آمال الكبيرة ويصطفون بثينة الصغيرة.. لكن حقيقة شيئا من الغيرة من أى منهما، لم يتطرق يوما إلى مشاعرى . فقد نشأنا إلى جانب صلة الدم الوثقى صديقات لا يستقيم يوم إحدانا إلا بسماع صوت الأخرى فى التليفون مرات، أو رؤيتها بالعين، وإن كان فى زيارة متعجلة للاطمئنان، وربما أتى هذا الترابط نتاج التربية الصارمة لأمى فى هذا الاتجاه بالذات: «مش عايزه أسمع واحدة منكم بتقول كلمة إشمعنى.. لازم تعرفوا وتحطوها حلقة فى ودانكم أنا ماعنديش فى بناتى خيار وفاقوس»..

ومكثت حتى يومنا هذا لم ألتق بهذا الفاقوس ولا بشخوص وعفاريت طفولتى بدءا من «أبو رجل مسلوخة» الذى اكتملت أسباب سلخه فى خيالى بوقوع الماء المغلى عليها ومن هنا لم أعد أخافه، والشمّامة التى تأتى لتشم أى واحدة منا إذا لم تغسل يديها وأسنانها قبل النوم، وأُمّنا الغولة التى تطرح كتاكيتها وتُقعد تسرّح شعرها إذا ما انعدل مزاجها أو تلملمه وتنكش شعرها إذا ما نوت على الشر، والسيد زوجها الغول الذى لا نجاة من سطوة جبروته إلا بأن ترخى ست الحسن والجمال ضفائرها الطوال ليتسلقها الشاطر حسن، فترفعه إليها قبل أن تناله أنياب الغول فى حر الجبال، وتوته توته فرغت الحدوتة، حلوة يا روحى ولاّ ملتوتة.. كمان يا ماما حدوتة.. صلى على النبى. اللهم زد النبى صلاة.. كان ياما كان يا سعد يا إكرام ما يحلى الكلام إلا بذكر النبى عليه أفضل الصلاة والسلام.. ونغفو على حواديت كلها ملوك وشطّار وأمراء وبنات الحور، وارتفاع قيم الخير وقهر قوى الشر. وخيال كله جمال بنخلة فضة ، ونخلة دهب، وبحيرة متلئلئة تحت ضوء القمر وفسقية حصاها لآلىء، وفيروز ومرجان ومراكب محملة زاد وزّواد وبلاد تشيلك وبلاد تحطك، وبرنسيسات وصولجانات وتيجان، وعلى بابا والأميرة ذات الهمة وسندريلا والعروسة للعريس والجرى للمتاعيس، وعاشوا فى تبات ونبات وخلفّوا صبيان وبنات... وبين مجلدات مكتبة، والدى الزاخرة وجدتها.. ألف ليلة وليلة بطبعتها القديمة غير المنقّحة ولا المحتشمة.. لم يعترض قراءتى لها بل تركها لى، وزاد، على ذلك بأن دعانى بعقلية متفتحة لأنتقى ما يحلو لى من رفوف الكتب والمجلدات والمخطوطات والموسوعات.. غطست بين صفحات التاريخ والتراث والتفسيروالأدب والشعر.. فى سن مبكرة نهلت المعرفة فى، جميع الاتجاهات.. قرأت الأدب الروسى والروايات المترجمة لكبار الكتاب، ومازلت

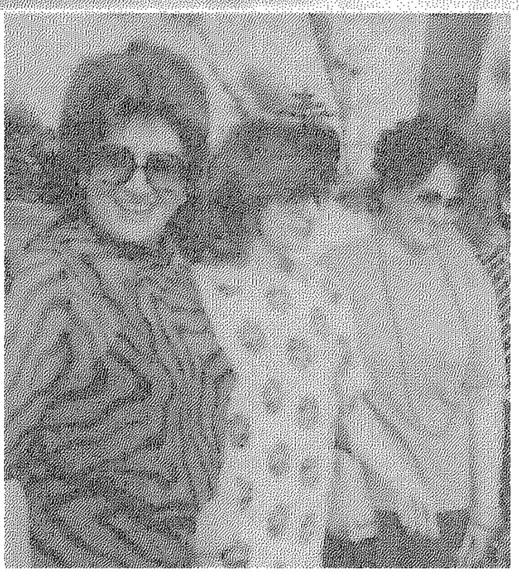






فى ظلال لوحة تجريدية لكنعان ..
صافي ناز كاظم وسناء وكنعان

حتى الآن أستعيد - ربما سنويا - مجموعات دستويفسكي وتشيكوف ومكسيم جورجى وجوجول وتورجنيف، وقرأت مجلدات مجلة الرسالة والفصول والمختار، وروايات جورجى زيدان، وكنت الابنة المتُعِبة فى العائلة التى لا تهوى الزيارات أو المصاحبة لحفل أو عيد ميلاد، فمتعتى الوحيدة هى، القراءة، وكانت أجمل، هدية تصلنى ما كان يحمله لى عبدالحميد إبن عمتى بين وقت وآخر من حقيبة سفر ضخمة تضم عشرات الروايات الأجنبية التى تستغرقنى وألبى أثناء قراءتها صوت أمى الصارخ لتناول الغذاء وأنا كالمنوِّمة أبتلع اللقيمات شاردة



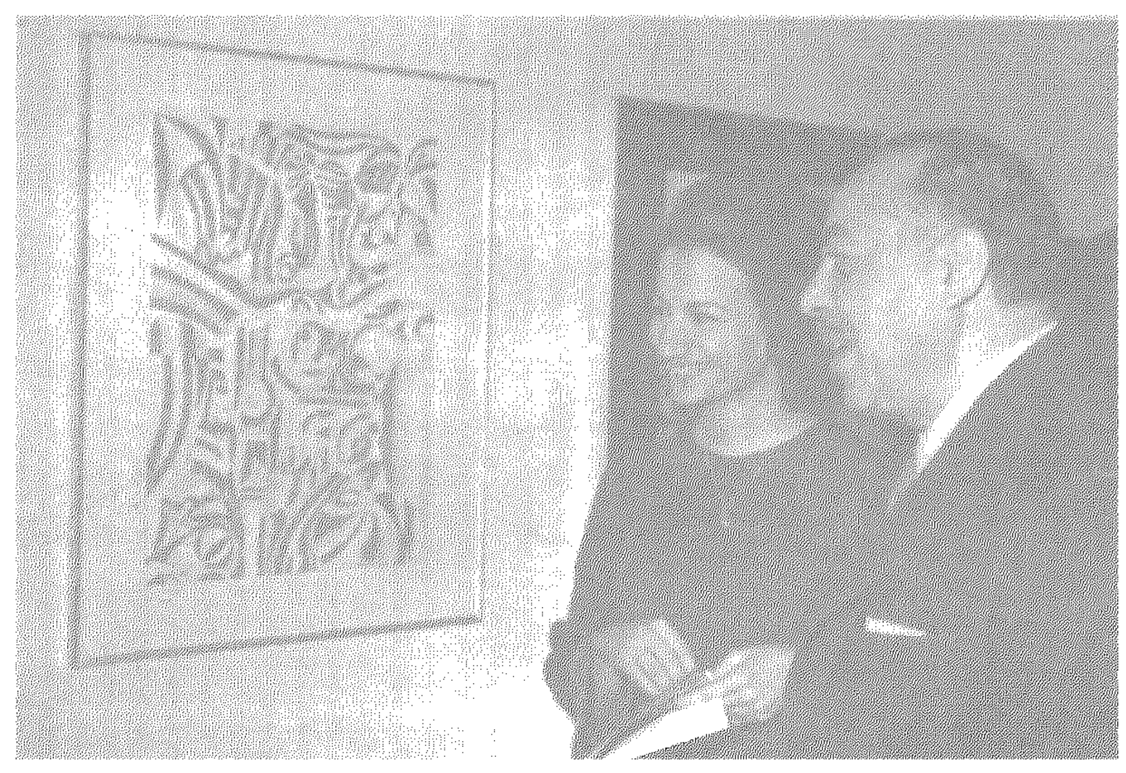
الشقيقات الثلاث آمال وسناء وبثينة

وذهنى على ما قد تركته من سرد لم يكتمل وأحداث لم أصل لنهايتها...

عشق الآثار

كان الوالد يشغل منصب مدير مصلحة الآثار العربية، وكان أقرب الأصدقاء ، إليه هو عالم الآثار الإسلامية حسن عبدالوهاب الذي قام بتجديد وتحديث قبة الصخرة فى القدس، وأشرف على غطائها الذهبى ،وأيضا جامع محمد على بالقلعة فى زمن الملك فاروق.. كان لى بمثابة جامعة تاريخية تمدنى وقت الحاجة بما لا يملكه أحد من معلومات نادرة.. أسأله: يا عم حسن هل كانت هناك سكرتيرات فى الإسلام؟!.. ولا تمضى الدقائق ،إلا ويطلبنى ليملى على قلمى عشرات الأسماء فى الدولة العباسية والفاطمية والأيوبية.. والمرأة الفنانة فى التاريخ الإسلامى؟!.. فيأتى لى عالم الآثار - الذى أُطلق اسمه





فى معرض الفنانة سناء البيسى الذى افتتحه د. عبد القادر حاتم

على أحد شوارع مصر القديمة ـ من الفنانات بالعشرات ويدعم علمه باللوحات والصور الفوتوغرافية التى التقطها بنفسه فقد سجلت عدسته الرائعة جميع الآثار الإسلامية فى مصر بقاهرتها ومحافظاتها ووجهيها البحرى والقبلى، وأيضا الأثر الإسلامى فى العديد من البلاد المجاورة وقد تم جمعها فى عدة مؤلفات للأسف اختفت وسط ركام الأدعياء.. هذا الرجل العظيم حسن عبدالوهاب الذى احتلت مكتبته النفيسة ثلاثة أدوار فى منزله بشبرا وكان الصاعد إليه يمر بين صفوفها المتراصة على كلا جانبى السلم..

عمى حسن من ترك له والدى أمر تسميتى عند ميلادى كان فيما بعد أول من بارك ارتباطى العاطفى بالفنان منير كنعان وأقنع والدى بأنه أصلح من يكون لى زوجا وشريكا..

مع الكتاب وعوالمه

ولابد وأنها الجينات التى جعلتنى أعشق الكتاب وصحبته وأندس بين صفحاته وعوالمه أتآخى مع شخوصه. أحيا تاريخه وتنطبع سطوره على شاشات لا مرئية بداخلى لا علم لى بمكانها أو محتواها ظاهريا، حتى أننى أحيا بمشاعر الصفحة





تورتة الاحتفال بعيد ميلاد مصطفى أمين

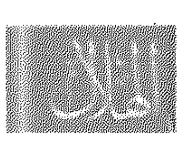
البيضاء المسطحة والفراغات المجوَّفة،و وكأن لا سطرا قرأته ولا اسما طالعت نقشه، ولا كتابا فتحته، ولا كاتبا أعجبت به.. إلى أن.. إلى أن تجيش عواطفى.. إلى أن تلمع الشرارة.. إلى أن تدوى دقات المسرح لينكشف الستار عن كلماتى.. لحظة الكشف هذه التى قد تفاجئنى، أُوقد لاستحضارها غابات بخورى تدفعنى لأمسك بالقلم، لأجد ما كان مشتورا غائبا فى الخفاء المكنون قد انهمر يتسابق يتلاحق يتوالى ليهبط على الأوراق صيَغا وجملا ومحتوى كأن شخصا متعجلا هناك واقفا من خلفى يملى على قلمى، وغالبا ما أعانى من فيض كلمات بنفس المعنى ومرادفات ليس لها حصر تتسع دوائرها لتبتلعنى، وتحملنى الغواية اللغوية إلى ماليس له مدى، فبحور اللغة العربية الغاطس فيها مولود والزاهد فيها مفقود، لكنى حتى لا يتوه القصد الذى كتبت من أجله فى البداية أتوقف، أهمد لأجنب الكثير وأشطب السطور بمشاعر قاتلة.. تلك الحصيلة الكنز لابد وأن تكون سكنتنى لنهمى وولعى بالقراءة، فمنذ طفولتى وكتابى قائم نائم فى فراشى

لا تزورني الغفلة ولا أسقط في جُبِّ النوم إلا بعدما يسقط على صدري.. ولا أفتح كتابا جديدا إلا وتحضرني نصيحة أمي مدمنة القراءة التي ما كان يغادرنا والدي إلى عمله إلا وتهرع إلى نظَّارتها ذات الشنبر المكسور لتجلس تقرأ تقرأ إلى قرب موعد عودته فتهرع إلى المطبخ لتجهيز وجبة " نيّ في نيّ» بمساعدة الشغالة لا مكان فيها لصنوف المحشى أو الصوانى المسبِّكة.. كانت نصيحتها الغالية بألا تصدقى بدايات الكتب فتسد نفسك عن قراءتها ، فما البداية سوى رصف الطريق لمدخل مدينة عامرة زاخرة وعالم ينبض بالحياة والتجارب والحكم، وكلما توغلت في الصفحات تأتي الحلاوة أكثر فأكثَر، وأهم شيء فيما بعد النهاية الجلوس إلى النفس لاستعادة المفاهيم التي عرضها الكتاب ومدى أهمية موضوعه، ومراجعة كيفية نقلاته واستهلالات فصوله.. كانت أمي قد مارست هوايتها في القراءة منذ الصغر على ضوء البطارية تحت اللحاف حتى لا تُكتشف مخالفتها وطيشها ورعونتها فتنال العقاب، وكانت تكتب القصة القصيرة في الخفاء وترسلها لمجلات وصحف عصرها مذيلة باسم «لولو» وتحتها عبارة «مترجمة عن الفرنسية» ومازلت للآن أحتفظ بإحدى أعداد مجلة «الصباح» التي نشرت إحدى قصصها الناعمة.. كانت رحمها الله لا تترك سطرا في الجرنال إلا وتقرأه عاشقة للمقالات والتحليلات السياسية وكانت من المعجبات بالمقال الافتتاحي لعمي الدكتور سيد البيسي لجريدة «الزمان» وذلك قبل أن ترى والدي بسنوات، وأذكر جلستها بالروب الستان ذي الوردات الكبيرة أمام عمي العائد من باريس بعد حصوله على الدكتوراه من جامعة مونبيلييه حول علاقة السياسة بالاقتصاد .. كانت توجه إليه سؤالها الدائم إيه رأيك يا دكتور في الأوضاع؟!.. وتجادله وتعرض رأيها المتواضع بثقة بالغة في مسائل السلام والحرب والاحتلال البريطاني والكومنولث..

أمي وحضورها الطاغي

كم روت لنا أمي عن أحداث ثورة سنة ١٩١٩ وخروج المرأة في المظاهرات تطالب بالاستقلال التام أو الموت الزؤام، ومنها عرفت أن الزعيم سعد زغلول كما سمعَته كان ينطق حرف القاف كاف في خطبه الحماسية، وأن أمتع متحدث إذاعي كان الكاتب الصحفي فكري أباظة.. وكانت من عشاق روايات مصطفى لطفي المنفلوطي «في سبيل التاج» و «تحت ظلال الزيزفون» وبالذات «الفضيلة» التي قاربت أن تجعلني أحفظها عن ظهر قلب لمحتواها الأخلاقي..

كانت تستهل أوتوجراف الذكرى لنا بجملتها المعهودة «وإنما الأمم الأخلاق مابقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا» وإذا ما استرسلت في مهمتها التربوية المدوَّنة تضيف عبارة «الغواني يغرهن



الثناء».. وليتنى كنت فى مثل شخصيتها وقوة حجتها وحسن بيانها وحضورها الطاغى الذى مازال أفراد أبناء ذوى القرابة حتى البعيدة منها يحكون عنها بإعجاب بالغ ويروون عنها مواقف كلها شهامة قامت بها معهم.. ذلك الحضور الذى جعلها فى زمانها رغم تعليمها المنزلى ترأس لجان الأوقاف الأهلية التى تنادى بحل الوقف على أساس الشرع لا كما أوقفه بعض أصحاب الثروات الضخمة الذين أصيبوا بما يشبه العتة فقد كان منهم من حرم الأبناء والأحفاد من الميراث ليتركه للقطط، ومن أوقف أمواله على مجاذيب سيدنا الحسين، ومن أوصى بكافة ممتلكاته لأحد الأبناء تاركا عائلته تعانى الفقر، وكانت والدتى نفسها تعانى من جور عقلية جدها ووالدها اللذان أوقفا ثرواتهما على الذكور دون الإناث بحجة أن الأنثى سوف تتزوج حتما وبالتالى لا يجب أن تذهب الثروة إلى الرجل الغريب وأبنائه ..

كانت أمى تدافع عن قضيتها بجسارة وتعود من جولاتها تروى كيف استقبلها الرئيس جمال عبدالناصر بحفاوة فى بيته بمنشية البكرى وإنصاته وتعاطفه مع وجهة نظرها، وكيف حادثت الكاتب أحمد الصاوى محمد فى مكتبه بالأهرام ، ليتبنى فى عاموده «ما قل ودل» قضية الحق، وكيف اندفعت تدخل مكتب الشيخ



في معرض كنعان ودردشة ضاحكة
مع أحمد بهاء الدين ود. رفعت كامل

الباقورى ليناصر الشرع، وكان يلازمها فى جولاتها لطفى الخولى ـ الكاتب الشهير فيما بعد ـ أحد المتدربين فى مكتب المحامى المعروف موريس أرقش والذى تزوج ابنته فيما بعد، وكانت تتنبأ للشاب الوسيم لطفى بمستقبل مرموق من حيث كتابته للمذكرات القانونية، وتناوله لبنود الدفاع، وكان يحضر اجتماعاتها بصفة دائمة النبيل عباس حليم الذى يرسل لها المذكرات المذيَّلة بتوقيعه على عنوان بيتنا.. و.. يتمادى إعجابى بوالدى الذى كان يشجعها وينصت بإعجاب بالغ لشجاعتها ويعضد إنجازاتها، ولم أجده يوما معها متزمتا أو ممارسا تعسفات سى السيد أو ضيق أفق الكثير من الأزواج الذين مازلت أراهم ونحن فى القرن الواحد والعشرين..

فى عالم القلم

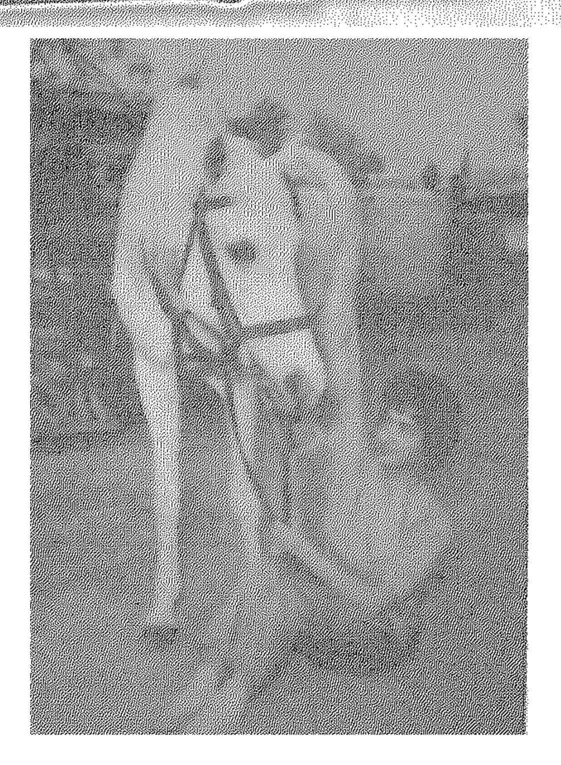
على نهج سعة الصدر والأفق نشأت فى



محيط يحترم المرأة وكنت معجبة بأمى مسترشدة بثقافة والدى وثقته البالغة فى تربية بناته حيث لم يزج بنا يوما فى حظيرة الحريم أو يحرمنا من ممارسة أى نشاط اجتماعى أو ترفيهى أو رياضى بحجة أنه وقفٌ على صنف الذكور وحدهم، ومازلت أذكر الشقيقة الصغرى بثينة التى كانت تهوى التمثيل وتقوم بأداء دور البطولة على المسرح المدرسى ومن قبلها تجرى البروفات فى حجرة والدى الذى يصفق لها إذا ما أجادت ويستعيد معها دورها مرات ومرات، ولقد مارستُ هواية ركوب الخيل وشجعنى لأكون أول فتاة تقوم بمهمة الجوكى مادامت هذه رغبتى لكن الدراسة منعتنى من أن أحققها، وقد توقع لى مبكرا نجاحا فى عالم القلم خاصة عندما نلت جائزة اللغة العربية وأنا فى السنة الثالثة من المرحلة الابتدائية ،عن موضوع للإنشاء تخيلت فيه غروب الشمس مشهدا دمويا بعرض السماء تقاتل فيه جيوش الظلام المغيرة فلول جيوش النور المنسحقة، لتنتصر عليها فى ساحة القتال لمعركة الأزل وتعاقب الليل والنهار.. كانت أمنيته أن يرانى يوما مثل الدكتورة بنت الشاطىء، وابتلعت غصتى بعد سنوات عديدة عندما كانت سيارة الأهرام تقلنا معا أنا والأستاذة القديرة عائشة عبدالرحمن فتمدح كلمات كتيبتُها فأحكى لها عن أمنية والدى.. فتتذكر الدكتورة تلك الواقعة فى إحدى مقالاتها..

والدى كان قد ارتأى لى فى البداية أن أغدو محامية لأستعين بمكتبته القانونية العامرة فيما بعد، وبالفعل قدمتُ أوراق التوجيهية التى حصلت على نجاحى فيها بدرجة تفوق عالية تمنحنى المجانية، قدمتها لكلية حقوق عين شمس الواقعة فى آخر شارعنا بالعباسية. وانتظرت مشوار القانون، وقبل الدخول بأيام سمعت النداء على اسمى يأتينى من مدخل عمارتنا.. صديقة العمر منذ الطفولة صافى ناز كاظم من كانت تدخل معى فى مضمار السباق التفوقى فى الإنشاء والتعبير وتتهمنى بأن أبى هو الذى يكتب لى مايعجب به أستاذ اللغة العربية.. كانت تصرخ لأسمع نبأ حلم حياتى.. فتحوا قسم جديد للصحافة بجامعة القاهرة، ولم أكمل طلبى من أبى الذى سارع ليلحقنى به لنلتقى أنا وصافى ناز بجهابذة الأساتذة .. الدكتور محمد مندور والدكتور عبداللطيف حمزة والدكتور خليل صابات والدكتور يوسف مراد والدكتورة عائشة راتب والدكتور ابراهيم إمام والدكتور أحمد الصاوى.. أساتذة المعرفة فى كل مجال، لأن الصحافة موسوعة تشمل جميع الميادين، وعلى من يمارس العمل فى بلاطها أن يكون ملِّما بما يدور فى كل الأمور واعيا للسياسة والثقافة والرياضة والتصوير والطب والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس والتصوف والموسيقى والأدب والشعر و.. الخ.. ولقد مهدنى والدى بالفعل ودون أن يدرى لعملى

الصحفى داخل روح الفريق ،وذلك بأن كان يشترك لي أنا والشقيقات فى جميع الرحلات والمخيمات المدرسية والجامعية فى الداخل والخارج، وكان اسم أى زميل يأتى على لسانى بشكل طبيعى لأروى لأبى نوادره وتفوقه، فيبارك الروح الجامعية ومرح الشباب، وكان أعذب حديث على سمعه عند عودتى من عملى الصحفى لأجلس أحكى له ماجرى مع مصطفى أمين وعلى أمين، وماسمعته فى ندوة العقاد ، وعن فنجان الشاى مع الأديب محمود تيمور، الذى يدعونا إلى محاضرته ببطاقات مطبوعة تذكر عنوان موضوع المحاضرة وبعدها عبارة «ويعقبها شاى» لهذا كنا نسأل بعضنا «حتروح النهاردة يعقبه؟» وتذهب الشلة وتستمع وتناقش وتشرب الشاى وتأكل الجاتوة، وكانت ابتسامة والدى المشجعة تُكسبنى بخيلاء لا نظير لها عندما ينصت للتفاصيل الدقيقة المصاحبة لحواراتى العديدة مع عمالقة الجيل أمثال عبدالرحمن صدقى وتوفيق الحكيم وأحمد رامى وطه حسين ومحمد عبدالوهاب وأحمد لطفى السيد وسيف وانلى و.. وكانت آذان استشعار والدى شديدة الوعى لأى بادرة تفوق لدى بناته لهذا كان يدعو صديقه الفنان الحسين فوزى لبيتنا ليطلعه على مدى استعدادنا للرسم فيقوم معه بتشجيع جذوة الفن فى دمائنا مما جعل لوحات شقيقتى الكبرى آمال تغطى جدران المدرسة، وتحلم بمستقبل تلتحق



عالم الفروسية الذى عشقته

فيه بأكاديميتنا فى روما لدراسة الفن، وعلى الجانب الآخر فقد آرسى التشجيع فى دمائى عشق الفرشاه وأصحابها ليقودنى العشق إلى مرتبة الارتباط العاطفى بالفنان كنعان، قبل أن تراه عيونى فقد كنت أقوم مع آمال بقص رسومه الصحفية فى مجلات وإصدارات دار الهلال - الإثنين والمصور والإيماج وروايات الهلال - لجمعها داخل مجلد خاص به وحده ،مع مجلدات أخرى للرسامات أمثال عزيزة وسميحة..وبعد ارتباطنا الفعلى عرفت أن الفنانتين كانتا تلميذات لكنعان الذى أصبح أستاذى فى الفن والحياة..

وللتكوين بقية

• عاطف مصطفى

الهلال .. ووحدة الثقافة العربية

التهنئة واجبة على قراء الهلال لمجلتهم العريقة بعد أن أصبح سجل الهلال فى أكثر من ١١٠ أعوام بين يدى القراء خدمة للفكر والثقافة العربية ، ولابد لهذه الخطوة أن تتبعها خطوات أخرى لنشر روائع تراثه الخالد .. وبين يدى كتاب «أحسن ما كتبت» «علم . فن . فلسفة . اجتماع باقلام طائفة من خيرة العلماء والأدباء فى الشرق العربى عنيت بنشره دار الهلال سنة ١٩٣٤».

وانقسمت مقالات هذا الكتاب إلى قسمين : قسم اختار اصحابه مقالاتهم باعتبار انها أحسن ما كتبوا فى الماضى ، وقد اكتمل لنا من عملية الاختيار نحو ٧٣ - مقاله - فى موضوعات شتى لنحو ٦٧ كاتبا وشاعرا من أعلام الكتاب والشعراء فى البلاد العربية ، وفى طليعتهم : عبدالعزيز البشري ، عبدالرحمن شهبندر ، أمير بقطر ، خليل مطران ، فريد وجدى ، عباس العقاد وغيرهم.

وكتاب «أحسن ما كتبت» ، يكشف بعمق عن وحدة الثقافة العربية والتى أرست «الهلال» قواعدها منذ أن صدر فى سنة ١٨٩٢ ، ولقد ضربت مثلا واحدا على أن كنوز الهلال وروائعه لم تنشر بعد ، والمطلوب أن يكون من بين إصدارات الهلال كتاب شهرى بعنوان «تراث الهلال» لنشر روائع كنوزه وتراثه الخالد .

عمرو عبدالمنعم حموده
برما - مركز طنطا

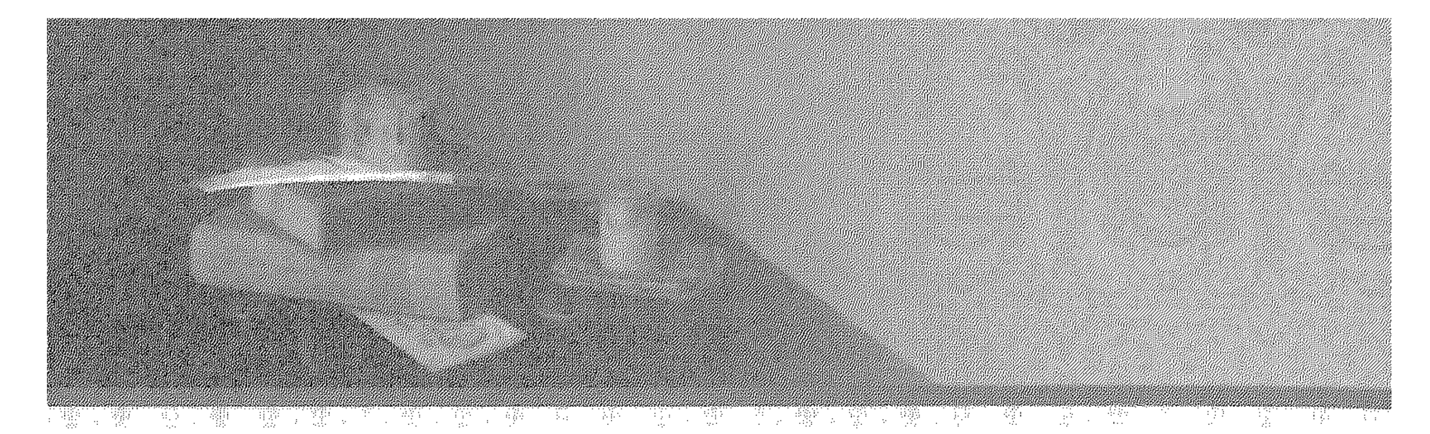
الهلال : نحرص علي طبع تراث الهلال وابرازه فعلا ، وذلك من خلال التعاون مع دار الكتب ، وبعد الانتهاء من الجزءين المتبقيين من «سجل الهلال» والمتوقع طبعهما هذا العام ، وندرس فعلا نشر إصدارات من تراث الهلال وما أكثرها .



متى نتخلص من العقلية البيروقراطية ؟

هل يمكن لأحد أن يصدق ذلك ، مقال أرسله الدكتور سلمان حسين أبو ستة الباحث الفلسطيني للنشر فى الهلال ، وبعثه عن طريق D.H.L حرصا على وصوله ، فإذا حامل الرسالة يرفض تسليمها إلا بعد أن يحصل على خمسين جنيها جمارك ، وهى رسالة صحفية ستنشر فى مجلة مصرية ، ولأول مرة نرى تحصيل جمارك على الكلام الذى سينشر فى إحدى مجلاتنا القومية ..!

فهل هناك عقل وراء هذه الاجراءات ...



ثم نتحدث عن الدور الثقافى العربى لمصر .. ونشكو من غلبة المحلية وتقلص الدور العربى للقاهرة ..

قل لى بالله عليك .. متى نتخلص من تلك العقلية البيروقراطية الجاثمة على صدرنا ...

تحرير مجلة الهلال

الجواهرى يناجي الفرات

وكأن الشاعر العراقى الكبير محمد مهدى الجواهرى يناجى العراق فى محنته من وراء الغيب ، من خلال شعره الذى تغنى فيه بوطنه ، هذا الوطن الذى يتعرض الآن لمحنة قاسية تتمثل فى العدوان الأنجلو أمريكى على أرض العراق ، وهذه أبيات قرأتها من ديوانه ، وكأنه معنا الآن

طغى فضوعف منه الحسن والخطر ... وفاض فالأرض والأشجار تنغمر
وراعت الطائر والظمآن هيبته ... فمر وهو جبان فوقه حذر
كأنما هو فى آذيه جبل ... على الضفاف مطل وهى تنحدر

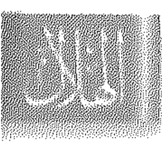
* * *

هو الفرات وكم في أمره عجب ... فى حالتيه وكم فى آيه عبر
بينا هو البحر ولا تسطاع غضبته ... إذا استشاط فلا يبقي ولا يذر
إذا به واهن المجرى يعارضه ... عود ، ويمنعه عن سيره حجر
وصفحة من بديع الشعر منظره ... طامى العباب مطلا فوقه القمر
وقد بدت خضرة الأشجار لامعة ... مغمورة بسناه فهى تزدهر
ومن على ضفتيه انصاع منغمرا ... فى الماء نصف ، ونصف فوقه الشجر
باتت على خطر ناس بثورته ... وراح يؤنسنا فى المنظر الخطر
وهكذا الناس يغريهم تخيلهم ... حتى يجيئوا إلى البلوى فيختبروا
كما أتى الحرب فنان ليرسمها ... فى حين آخر يصلى جسمه الشرر

* * *

كان العراق سوادا من مزارعه ... على بنيه يفئ الظل والثمر
تفيض خيرا على الأقطار غلته ... موفورة لسنين الجوع تدخر

من قصيدة «الفرات الطاغى»
نشرت فى ٧ مايو ١٩٣٥



ويل لمن لا يشهد

مــا عــاد يخـفى المشــهـد	ويل لمن لا يشـــهـــد
عـــاد الأعـــادى عـــودة	لبـــلادنا لا تحـــمـــد
عـــادوا بكل ســلاحـهم	وســلاحنا يســتـبـعـد
يتـسـلحـون ومـا لنا	هـذا ولا حـتى يد
ويفـتـشـون على الذى	هـو عـندنـا ليـبـددوا
فـى آرضـنا فى عـرضـنا	سـادوا هنا واسـتـعـبـدوا
صـرنا لهم ولأمـرهم	وعلى الجـمـيع السـيـد
سـبـحـان من هـو ناظر	لعـبـاده لا يبـعـد
لابـد مـن عـــود لـه	حـتى تعـود لنا اليـد

*

عـــودوا إليـــه فـــإنه	رب يـعـين ويـنـجـد
عـــودوا إليـه بضـعـفكم	فـهـو القـوى المنجـد
وتوحـــدوا فـــعــدوكم	كم فـلـه المتـــوحـد

حسن أبو الغيط
المصيلحة - منوفية

٢٢٠ الخوف من الاستنساخ

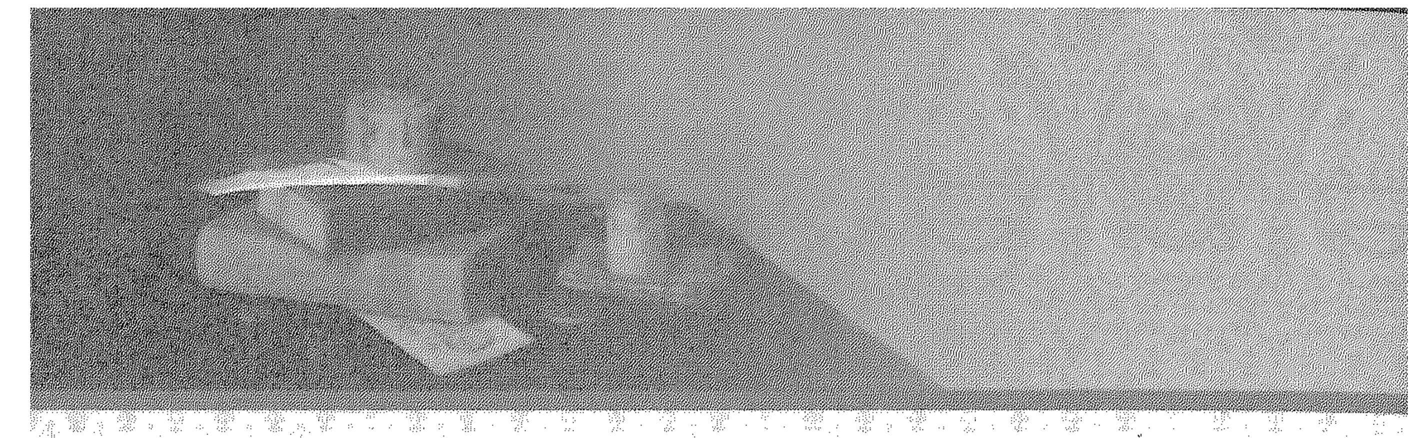
العلم هو من عند الله . ولا يمكن لبشر أن يحيط بأسرار علمه ولا بمشيئته . فلا داع إذا من الخوف من الخوض فى أسرار الحياة خاصة وقد كلفنا بالنظر فى كيفية بدء الخلق . فهذه هى مهمة الإنسان التى خلق من أجلها دون باقى المخلوقات . وفى ذلك العمل عبادة خالصة .

قد تحدث خلال الاكتشافات العلمية بعض الأضرار لكن من الممكن دائما تفاديها بمعونة من الله كى تعم الفائدة .

حدث ذلك فى أبحاث الذرة ، ورغم خطورتها لا يمكن إنكار ما أحدثته من تقدم وفائدة .

مثلها أبحاث الفضاء رغم الأخطار المحدقة بها . كما وينطبق ذلك أيضا على أبحاث الكروموزمات والجينات وبالتالى علوم الاستنساخ وما قد يستجد من أبحاث





فى علوم أخرى لم تطرق بعد .

إن العلم يحتاج منا إلى التشجيع وإلى الاهتمام ، وتلافى الأضرار ، ويحتاج إلى صبر وتماسك وهدوء حكيم ، حتى لا يحدث الإحباط وحتى نكون مساهمين فى الخيرات .

وثقتنا فى الله كبيرة فهو خير حافظ ، كما لا يؤده حفظ السماوات والأرض وما فيها . ولم يوجد ولن يوجد من يتحدى الله فكل شئ يجرى بإذنه ومشيئته فلتطمئن النفوس .

مهندس رستم غالب
القاهرة - مصر الجديدة

لماذا الصمت تجاه العدوان علينا ؟!

إن مصير بوش وهيبة واشنطن أصبحا مرتبطين بمصير الحرب على العراق والتى يشتد أوارها على الجبهة العراقية الآن.

والمسألة لم تعد قضية أسلحة دمار شامل ، ولكنها تتمحور فى سمعة أمريكا وقدرتها على فرض القرارات ، حرصا على مصالحها وبعث الرعب فى قلوب الآخرين ، ورسم مستقبل الدول والشعوب فى منطقة الشرق الأوسط .

والغريب أننا نقف صامتين لا ندرى ماذا نفعل إزاء هذا العدوان ، ويحضرنى هنا بيتان لشاعر قديم يقول فيهما :

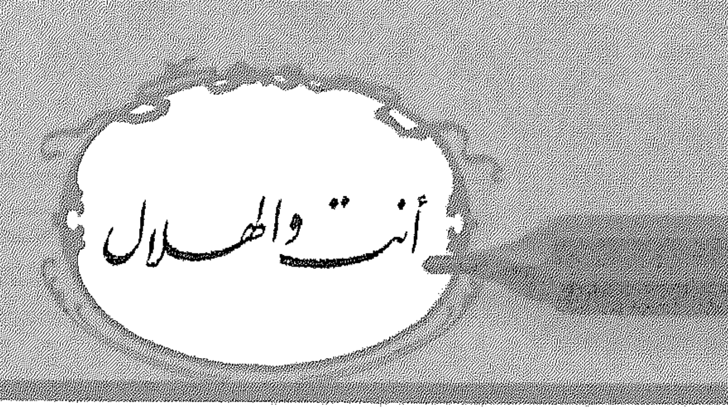
مالى أراكم نياما فى بلهنية وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا
فاشفوا غليلى برأى منكم حصد يصبح فؤادى له ريان قد نفعا

والشاعر هنا يعجب أن قومه ينعمون بما هم فيه من رغد العيش وقد غفلوا عما يرون من نذر الحرب ، ومن ثم يدعوهم إلى الأخذ برأى حازم من موقعهم هذا حتى تطمئن نفسه ويرتاح باله !

إن ما شجع بوش على إعلان الحرب ، ذلك الضعف الواضح فى جبهة مناهضة الحرب ، وموقفها هذا يتيح لأمريكا وإسرائيل العمل على تبديل حدود ومعالم المنطقة العربية ..

ولا ينبغى أن نقف مكتوفى الأيدى إزاء هذه الهجمة الأمريكية الصهيونية الشرسة ، حتى نسلم من شرها وننجو من عار الهزيمة !

د. صموئيل لبيب سيحه
باحث تاريخى - المنيا



استجابة فورية من المجلس الأعلى للثقافة

قرأت موضوع رئيس التحرير والمنشور فى عدد مارس بعنوان : حكاية أحد الطيور المهاجرة : ذكريات وثلاثة كتب عن مصر وتعجبت كثيرا لماذا لم تقوموا بترجمة كتاب «القاهرة» لمؤلفه البروفسير محمد شرابى خاصة أنه يسجل أهم نواحى العمارة فى مصر .

أحمد ابراهيم
ميونيخ

الهلال : فعلا هذا الكتاب له أهمية خاصة ، وقد قرر الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة بترجمته ودخل بالفعل ضمن خطة الترجمة.

ونتمنى أن تتم أيضًا ترجمة الكتابين الآخرين للدكتور محمد شرابى وهما «البازار» و«الصناعة والتصنيع فى مصر» .

الربيع

تلألأ الضوء فى وجه الزمان وقال ... هذا الربيع القادم الفتان

هذا الربيع كسا الأشجار من حلل ... وألبس الورد ألوانا فألوان

فيهتف الطير فوق الغصن مبتسما ... فتسمع الصوت ألحانا فألحان

ما أبدع الكون والألوان تغمره ... والورد صفق مثل الطير فرحان

تطيب الكون من تلك العطور فما ... أمست بقاع إلا فيها ريحان

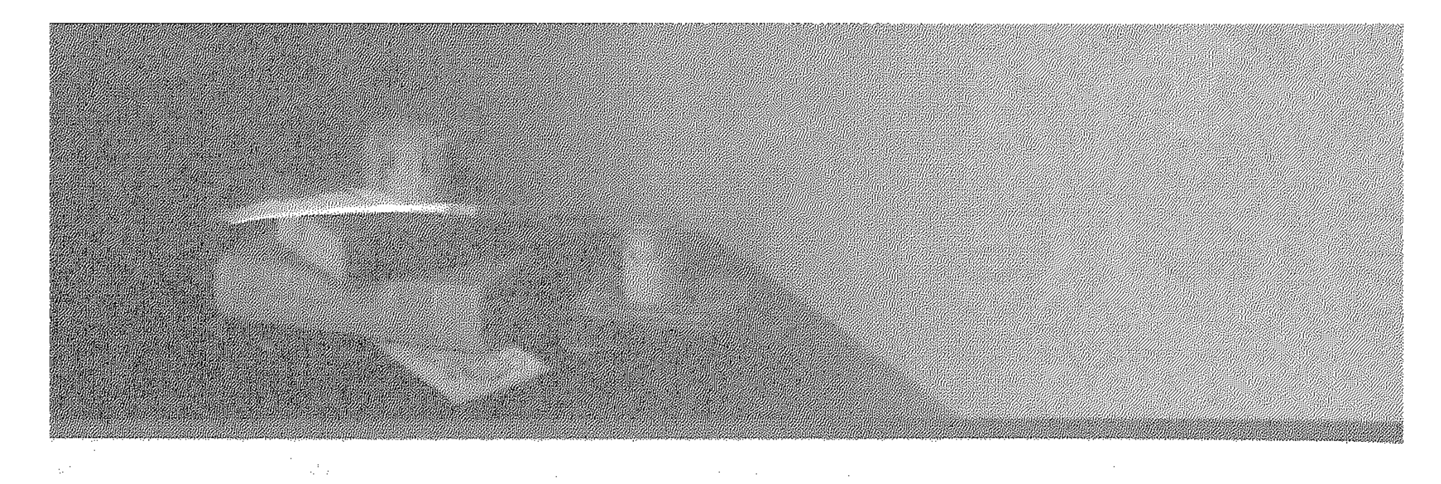
ما أبدع الله فى آلائه حكم ... كأن كل الدنا تهتف بإيمان

فسبح الله فى احجاره النمل ... وقدس الله تحت الماء حيتان

نرى الربيع وقد عمت حدائقنا ... بهجة ونرجس فيها وسنان

ما أروع الحق والإيمان إن نظرت ... عين اللبيب بلا زور وبهتان

أحمد نادى عبدالرحمن
أسيوط - ديروط



الفطير والأرز باللبن في مدارسنا !

بدأت تنتشر فى هذه الأيام إعلانات على سور المدارس فى القاهرة والاسكندرية وغيرها «المدرسة نظيفة ومنتجة ومتطورة» ولكونى عملت طبيبا بالمدارس لعدة سنوات تساءلت ما هو إنتاج المدارس ؟ .. والجميع أجاب بقوله هل اشتريت الفطير والأرز باللبن صناعة مدرسات المدرسة ؟ ولأن المهنة ، مهنة الطب تغلب على ، تساءلت ، هل لدى هؤلاء المدرسات شهادات صحية ؟ ثم هل توضع مدة صلاحية على ما تقوم به تلك المدرسات ؟

إن كانتين المدرسة يقدم أغذية مغلفة مضمونة وعليها مدة الصلاحية وهذا يجنب الطلاب أية أضرار من الممكن أن تحدث لهم .

لماذا يكون نشاط المدارس فى هذا النوع ، فقط ، وهل انتهى الإنتاج عن حد ملء البطون ؟ ..

أين النشاطات الأخرى .. إننا نرغب فى ملء العقول بأنشطة عديدة مأمونة ومتنوعة أيضا .

د. جمال على العطار
الأسكندرية - كامب شيزار

حكايا المحبين والعشاق

تعترى المحبين أعراض وعلامات ، ويضفى عليهم الحب صفات وعادات ، ومع شدة الجوى يكثر الأرق والسهر ، بل وقد تصل إلى حد مصرع العشاق .

يقول الشاعر :

أسهرتمونى أنام الله أعينكم   لسنا نبالى إذا ما لمت من سهر

وللشعراء العشاق مبررات للبكا وذرف للدموع ، وفى ذلك يقول الشريف الرضى :

يقولون ما بقيت بالعين عبرة   فقلت جوا لو تعلمون أليم

لو بخلت عينى إذن لعتبتها   فكيف ودمع الناظرين كريم

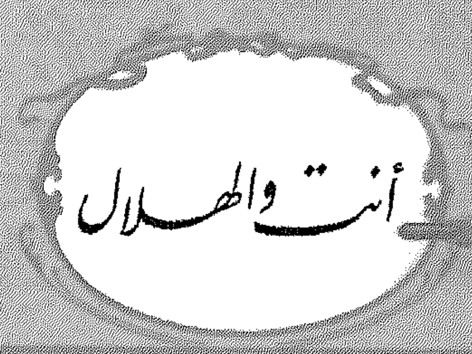
وقال ابن الدمينة مخاطبا محبوبته مى :

وهل للحب إلا زفرة بعد زفرة   وحر على الأحشاء ليس له برد

وفيض دموع العين يامى كلما   بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

سأل المأمون كل من ثمامه ويحيى بن أكثم : ما هو العشق ؟

فقال يحيى : العشق سوانح تسنح للمرء يهتم بها القلب وتأسرها النفس .



وقال ثمامه : العشق جليس ممتع وأليف مؤنس ، وصاحب ملك مسالكه لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جائرة ، ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآرائها ، توارى عن الأبصار مدخله وعمى فى القلوب مسكله !

محمد أمين العيسوى -الاسماعيلية

حبيبتى

حبيبتى ..
أشكوك يا حبيبتى إليك ..
لأنك فى سجن صمتى
غاضب عليك ..
هل تعلمين كيف أقتل الكلام
ولا أبوح يا حبيبتى
بحرقة الغرام
فتارة يصرعنى الضياء
وتارة
يقتلنى الظلام
لأننا لا نلتقى
ولا نقول ما نريد
مثل كل عاشق
لأننا .. لأننا
لأن حبنا حرام
إذا ضحكت مرة
تعذب القمر
وإن حزنت مرة
تهاطل المطر
يا قبلة لذيذة فى خاطرى ..
متى يكون الموعد ؟

اليوم فات وانقضى ..
فهل يفوتنا الغد ؟

***

حبيبتى
هل تعلمين كم أنا أحب
وأننى لا أستطيع أن أقول
وأن الحب فيك قصة جديدة
فصولها تطول
والقول فيك لعبة خطيرة
والصمت فيك حيرة كبيرة
وأنت يا حبيبتى
ندية
كزهرة الحقول
وأنت يا حبيبتى
قاهرة
كدورة الفصول
وأنت يا حبيبتى
شهية
كنكهة الحياة فى حشاشة القتيل.
ما أجمل الصباح فى خديك ..
وأرحب السماء فى عينيك

الشاذلى زوكار - تونس

عاصم فريد البرقوقى - الاسكندرية - جليم

إن أصدقاء السلام يحتاجون منا إلى وقفة لكى نوفيهم حقهم فى موقفهم الشجاع ، ولقد كان أملنا أن تحدث المعجزة ، وينقذ حاكم العراق شعبه بدلا من الحرب المدمرة .

محمود أحمد عيد - بيلا

الرجاء عودة باب «لغويات» وهو باب مفيد جدا ومهم فى التعرف على جمال وثراء لغتنا العربية ، والتى تعانى من الغربة بين أبنائها ، على حين يعتز الآخرون بلغتهم .

أيها الصديق : بدأ الهلال من الشهر الماضى بعودة هذا الباب ويكتبه الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكى ، ولا تخف على لغتنا العربية لغة القرآن الكريم ، فهى أبدا لن تكون غريبة بين أبنائها .

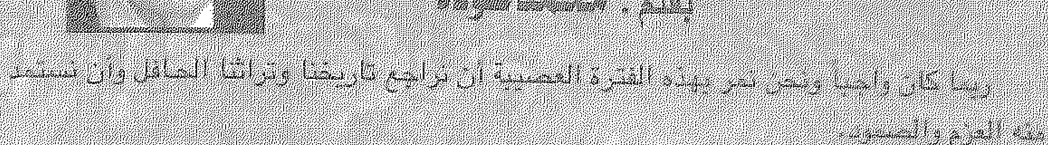
رمضان ابراهيم بشير - قنا - دشنا - أبو دياب

شكرا على مساهمتك والتى نجتزئ منها هذه السطور

للبنت التى أشعلت فى الحرائق
ثم أعلنت فجأة الرحيل
للبنت التى ابتسمت
لوجهى دقائق
ثم تركته عليل
للبنت التى لوثت
ورد الحدائق
وخلفته ذابلا ذليلا
لتلك البنت
أهدى دفاتر شعرى كلها
وقبلة من جمر قلبى
التى احرقته منذ سنين

الكلمة الأخيرة





محنة العراق

بقلم : محمد عودة

ربما كان واجباً ونحن نمر بهذه الفترة العصيبة أن نراجع تاريخنا وتراثنا الحافل وأن نستمد منه العزم والصمود.

وقد خرج العرب إلى التاريخ بعقيدة وشريعة غيرت حياة الانسانية وتفتح العرب وتشربوا كل الحضارات والثقافات بلا تحيز وبذلك أضافوا وأبدعوا في كل الميادين : الفلسفة والعلوم والفنون والاداب والسياسة والحرب بالطبع.

وقدر للعرب على مر تاريخهم أن يواجهوا أشق التحديات وأثقل المواجهات وأصبح ذلك محور كفاحهم ومجدهم ايضا.

واجه العرب مسلمين ونصارى مائتى عام من رفعت راية الصليب ، وزعمت أنها سوف تحرر وتسترد قبر المسيح ولم يخدعوا أحداً وعرفها العرب باسمها الصحيح «حروب الفرنجة» والذين تدفقوا لسلب ونهب كنوز الشرق بعد أن ضاقت بهم أوروبا، وتخلل تلك الحروب ست حملات مكثفة حفلت بكل الفظائع والكبائر وانتهت اخرها بأسر الملك «القديس لويس التاسع» ملك فرنسا فى دار ابن لقمان في المنصورة . وقدر للعرب أن يواجهوا تحديا تاليا أشد هولاً ووطأة دام خمسمائة عام واطلقوا عليه عصر السيادة الاوروبية وبدأ من سقوط غرناطة عام ١٤٥٩ حتى سقوط الامبراطوريتين الأوربيتين الأعظم البريطانية والفرنسية فى حرب السويس عام ١٩٥٦.

وخلال تلك الحقبة المريرة تقاسمت الدول الاوربية الاستعمارية الوطن العربى مثل الكعكة وخاضت فيما بينها حربين عالميتين لإعادة القسمة، كانتا أشنع حروب التاريخ عامة وانتهت سيادة أوروبا نهاية ذليلة وانتصرت ثورة التحرير العربية انتصاراً مجيداً وبقيادة بطل شاب غير تاريخ العرب واسمه جمال عبدالناصر.

ولم يقدر للعرب ان يهنأوا طويلاً بالنصر اذ خرج صوت من الشاطىء الآخر للأطلنطى ينعق بأن سقوط الامبراطوريتين «الغربيتين» ترك فراغا خطيراً فى النظام والميزان الدولى وأن على القوة الوريثة الأعظم أن تملأه على الفور وتمت صياغة الافتراء فى نظرية استراتيجية اطلق عليها اسم الرئيس الأمريكى «إيزنهاور» وأصبح قدر العرب أن يواصلوا المواجهة غير المتكافئة والتى تضاعفت وطأتها وضراوتها إلى أقصاها والمحنة التى تواجهها العراق الآن هى استمرار للنظرية وتحقيق لها فى ثوب جديد.

وتقول القاعدة الاستراتيجية التى وضعها نابليون بونابرت ولاتزال سارية ثابتة، من يريد السيطرة على العالم لابد ان يسيطر على الشرق، ومن يريد ذلك لابد أن يبدأ من الشرق الأوسط.

ولم يشتهر الرئيس بوش بالثقافة أو المعرفة ولم يصارحه أحد بأن الأرض العربية تحفل بمقابر الغزاة!! ■



وزارة الطيران المدني
الشركة القابضة لمصر للطيران
مصر للطيران للخطوط الجوية
تعلن عن
تخصيص خدمة تليفونية للجمهور
٣٩٠٣٤٤٤
(ثمانية خطوط) من ١٠ ص حتى ٥ م
لسرعة الرد على استفساراتكم في الحجز و تأكيد الحجز
و معرفة اسعار و مواعيد الرحلات
كما تعلن عن تخصيص ارقام التليفونات
التالية للرد على استفسارات شركات السياحة
ت: ٣٩٢٩٧٨٧ - ٣٩٢٧٤٤٤
٣٩٢٧٤١٧ - ٣٩٢٧٣٣٦
و للاستعلام عن مواعيد الاقلاع
و وصول رحلات مصر للطيران
يمكن الاتصال باستعلامات المطار ارقام :
ت: ٦٣٥٠٢٦٠ - ٦٣٥٠٢٧٠
www.egyptair.com.eg

الهلال

رموز مصر الفكرية فى الميادين

يهود العراق والغزو الامريكى

دفاع عن تراث طه حسين

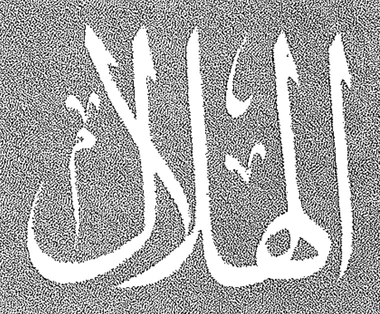
وكيف ننقي تراثه من السلبيات؟

لوحة وفنان



فتاتان
زيت على خشب
للفنان العالمي
روبنز

من مقتنيات - متحف الجزيرة



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جورجي زيدان عام ١٨٩٢

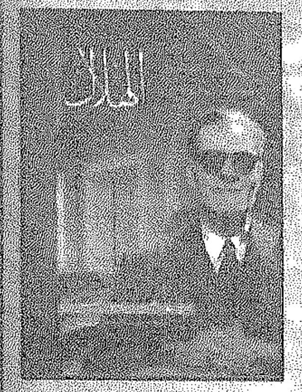
[illegible] عشر بعد المائة ربيع ثاني ١٤٢٤ هـ - يونيه ٢٠٠٣م

الإدارة: القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).

[illegible] ١١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال

[illegible] ٣٦٢٥ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥ ,١ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي / أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة / الضفة / القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٥ ,٢ جنيه - أمريكا ٨ دولارات



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص.ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

إقامة تمثال للأديب العالمى نجيب محفوظ يعد عملاً حضارياً غير مسبوق، حيث لم يحدث من قبل أن أقيم تمثال يعيش صاحبه بيننا، ذلك لأن مكانة هذا الأديب الكبير الذى يعتز به المصريون والعرب على حد سواء، دعت المسئولين فى محافظة الجيزة والتى تضم أعرق آثار مصر القديمة ، لأن يفكروا فى إقامة هذا التمثال لمحفوظ الذى يستحق التكريم فعلاً .

وفى الوقت الذى يكرم فيه نجيب محفوظ ، كان هناك حرص على وضع تمثاله فى منطقة مهمة تتوسط شارعا يؤدى إلى النيل الذى يعشقه، والذى طالما شق طريقه فيه كل صباح سيراً على الأقدام، وهو يشهد هذا النبع الخالد الذى يروى تراب مصر وإنسانها، فى رحلته اليومية المحببة إلى نفسه من منزله إلى عمله، أو إلى المقهى الذى يذهب إليه بالقاهرة للقاء أصدقائه ومحبيه.

وضمن خطة تكريم رموزنا الثقافية والتى يحرص عليها محافظ الجيزة النشط يقام تمثال لعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى ميدان الجلاء.

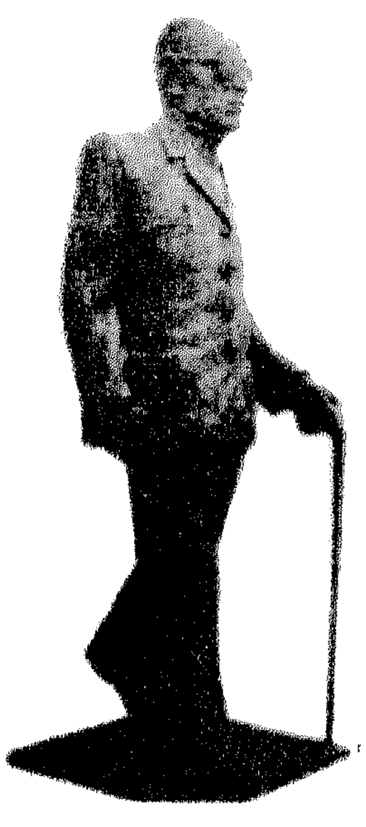
فعلى مبعدة أمتار قليلة ونحن نغادر محافظة القاهرة إلى الجيزة تلمح العين واحداً من أبرز مفكرينا العظام، وأحد الرموز الثقافية فى عصرنا الحديث ، صاحب مقولة إن التعليم كالماء والهواء ، ينبغى أن يتاح لكل مصرى ومصرية ... وعلى الرغم من أنه فقد نعمة البصر، إلا أن نعمة البصيرة كانت عالية لديه، فعاش يبدع ويؤلف فى كل مجالات الفكر والثقافة العربية، وصنع لنفسه مكاناً بين عظماء الأدب فى العالم كله.

والذى يتوقف أمام هذه الظاهرة الجيدة، يجد تمثالاً لأمير الشعراء أحمد شوقى ، يقف شامخاً فى حديقة بيته «كرمة بن هانىء» على نيل الجيزة أيضاً، بالإضافة إلى تمثال آخر له ، وضع إلى جوار فنان الشعب الموسيقار محمد عبد الوهاب بجوار الأوبرا.

إن من الظواهر الطيبة فى عهد الرئيس محمد حسنى مبارك أن يتم مثل هذا التكريم لرموز الفكر والثقافة والفن، وحتى بشهدائنا الأبرار الذين بذلوا دماءهم الغالية فداء وحباً لوطنهم ومن أبرزهم الشهيد عبد المنعم رياض.

وضمن هذه الخطة الطموحة يتم حالياً بأسوان توسعة الميدان الذى يضم تمثالاً للعقاد، وعلى الرغم من إقامة تمثال لأم كلثوم بمدينتها المنصورة، فقد أبدع الفنان آدم حنين تمثالاً رائعاً لها سيوضع بحديقة متحفها بالروضة بالقاهرة ، كما أقيم تمثال





رموز مصر الثقافية تزدان بها الميادين

العالم مصطفى مشرفة ، تم وضعه بمدينة دمياط مسقط رأسه.

لقد سبق أن طالبنا بوضع تمثال لأحمد لطفى السيد أمام جامعة القاهرة أول جامعة مصرية أنشئت وكان أول مدير مصرى لها. فضلاً عن أننا نبدى الدهشة من أن حكام مصر لاتوجد لهم تماثيل، فعلى سبيل المثال لانجد تمثالاً لجمال عبد الناصر ، وكانت قد أعدت له قاعدة لكى يوضع عليها بميدان التحرير، وتم عمل اكتتاب ليساهم كل المصريين فى إقامة هذا التمثال بعد وفاته المفاجئة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، وأزيلت هذه القاعدة، وتغير شكل الميدان.

كما لم يتم عمل تمثال لأنور السادات صاحب قرار العبور العظيم فى أكتوبر عام ١٩٧٣ وتحقيق النصر للجيش المصرى على إسرائيل.

ولابد من الاهتمام بتكريم الرموز التى لاتتكرر فى حياتنا وإقامة تمثال لكل واحد منهم يذكر الأجيال بالدور الكبير الذى قام به من أجل وطنه وهنا يكمن المعنى والمغزى فى إقامة هذه التماثيل.

إن مانراه الآن، نشاط محمود ومطلوب بالفعل ولكنه يحتاج إلى اشراف فنى على مستوى عال، ويخضع لآراء مجموعة من المتخصصين، لديهم القدرة على اختيار الموقع المناسب ، ووضعية التمثال، لأن هذا العمل يستمر لعقود من الزمن، وبالتالى لابد أن يتسم بمسحة من الجمال والجاذبية للمشاهد ولنا أن نتأمل ذلك من خلال المكان الذى وضع فيه تمثال الشهيد عبد المنعم رياض، والآراء المتباينة التى قيلت عنه!

إن القاهرة واحدة من أكبر العواصم العربية والعالمية ولذلك لابد أن نضع فى الاعتبار، ضرورة ايجاد هيئة قومية ، تضم عدداً من المتخصصين من فنانينا فى الناحية المعمارية للطريقة التى نجمل بها ميادينا العامة ، ولا يتم عمل أى مشروع، إلا بعد إقراره من هذه الهيئة والموافقة عليه، فكثيراً ماشاهدنا مسلات توضع فى ميادين ثم يتم إزالتها، أو تماثيل يقوم فنانون بعملها ، ثم تستبدل بغيرها كما حدث لتمثال أم كلثوم بالمنصورة .

شىء واحد لابد أن يستوقفنا ، هو تلك التماثيل التى صممها فناننا المبدع محمود مختار كتمثال نهضة مصر وتمثال سعد زغلول فى الجيزة والاسكندرية .. مثل هذه الأعمال الجيدة ينبغى أن تكون هى النماذج التى يحذو حذوها فنانونا فى هذا المجال .. مجال «فن التمثال» إذا صح التعبير! ■

المحـــرر

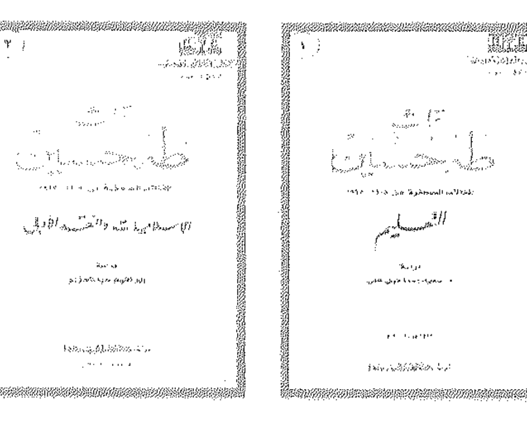
دفاعا عن تراث طه حسين

وكيف ننقى تراثه من السلبيات

بقلم

د. عبد الرشيد الصادق محمودى

فى مقالة كتبتها منذ سنين عن «الكتابات المجهولة لطة حسين ومتى نصدر أعماله الكاملة فى طبعة موحدة؟» (الأهرام ١٨ أكتوبر ١٩٨٥) دعوت إلى الاضطلاع بمشروع لنشر الأعمال الكاملة لعميد الأدب العربى. وكان من رأيى عندئذ أن يوضع المشروع تحت إشراف لجنة من الباحثين المتخصصين، وأن تكون هذه الطبعة الكاملة كاملة من حيث الكم (أى أن تكون شاملة) ومن حيث الكيف (أى أن تكون علمية نقدية) وذلك أننى كنت - ومازلت - أرى أن ما يسمى بمجموعة الأعمال الكاملة للدكتور طه حسين التى تصدر فى بيروت ليست كاملة بأى المعنيين . وكان المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات يحاول فى تلك الفترة أن يسد بعض جوانب النقص فيها بأن يضيف إليها مزيدا من كتابات طه حسين التى لم تكن قد جمعت من قبل ولكن المجموعة تظل رغم ذلك ناقصة كما وكيفا .



أما أنها مازالت ناقصة من حيث الكيف ، فهذا أمر واضح لأن النصوص التى تتضمنها لم تخضع لأى تحقيق دقيق ولم توضع لها فهارس يعتد بها ولم تصنف على أى نحو معقول . أما من حيث الكم، فإن المجموعة مازالت ناقصة لأنها لم ترتكز على حصر منظم لأعمال طه حسين وهى فى واقع الأمر أبعد ما تكون عن الشمول والدليل على ذلك صدور مجلدات عديدة لباحثين مختلفين جمعوا فيها مقادير ضخمة من كتابات طه حسين المهملة أو المنسية ومن بين هذه المجلدات أربعة نشرها المرحوم سيد محمد كيلانى وجمع فيها عددا ضخما من مقالات طه حسين السياسية وقد نشر كاتب هذه السطور مجلدا جمع فيه وترجم كتابات طه حسين الفرنسية (طه حسين، من الشاطئ الآخر القاهرة ١٩٩٧) ومجلدا آخر ضم منتخبات من الكتابات المبكرة لطة حسين (طه حسين الكتابات الأولى، القاهرة ٢٠٠٢) وإن نظرة سريعة على القائمة الببليوجرافية التى أعدها الدكتور حمدى السكوت والدكتور مارسدن جونز (أعلام الأدب المعاصر فى مصر، ١، طه حسين) لتبين أن هناك المزيد من مقالات طه حسين التى مازالت تنتظر الجمع ويبدو أن طه حسين كان أكثر معاصريه إهمالا فى حق نفسه، لأنه كان أقلهم عناية بجمع مقالاته كان كاتبا غزير الإنتاج، فقد كان وافر النشاط خصب القريحة حريصا على تلبية الدعوة إلى التأليف سواء صدرت عن نفسه أم أملتها الضرورات الخارجية ولم يكن من ثم قادرا على تعهد إنتاجه الوفير بالمراجعة والتنسيق، وكان يؤثر انتخاب بعضه للجمع وإعادة النشر

وإهمال بعضه الآخر حتى يفرغ بسرعة للتأليف من جديد .

رعاية خاصة

ومن المعروف أيضا أن طه حسين قد تعمد أن يضرب صفحا عن كل ما كتب من شعر ونثر فى الفترة المبكرة من حياته الأدبية، أى قبل تأليفه لرسالة الدكتوراه التى خصصها لأبى العلاء (ذكرى أبى العلاء ١٩١٥) وذلك لسوء رأيه فى تلك الكتابات وحصر هذه الأعمال وجمعها لابد أن يواجه الباحثين بمشكلة ضخمة لأن بعض الصحف والمجلات التى نشرت فيها لم تعد متاحة فى دار الكتب أما لأنها اندثرت أو تسربت أو لأنها فى حالة يرثى لها . ومن المعروف أيضا أن طه حسين قد أهمل جمع كتاباته الفرنسية لسبب نجهله ويضاف إلى ذلك أن الرجل فى نهاية المطاف كان معتمدا بغيره - كما كان يقول نقلا عن أبى العلاء فلم يكن باستطاعته أن يصحح بنفسه نصوص أعماله بعد تأليفها مباشرة أو فى مرحلة الطباعة ولكل هذه الأسباب كانت أعماله التى خلفها، ما جمع منها وما لم يجمع، جديرة برعاية خاصة حتى تحفظ من الضياع وتنقى من الشوائب التى لحقت بها .

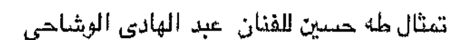
وإنه لما يثلج صدرى إذن أن أرى أن الدعوة التى أطلقتها فى سنة ١٩٨٥ كان لها أصداء مسموعة وأن الجهود المبذولة لجمع تراث طه حسين قد أخذت تتسم بشئ من التنظيم فقد بدأت دار الكتب والوثائق القومية تنشر سلسلة من المجلدات تحت عنوان تراث طه حسين وقد نشر من هذه السلسلة حتى الآن مجلدان ضخمان يضم أولهما المقالات الصحفية التى نشرها طه حسين عن التعليم من سنه ١٩٠٨ حتى سنة ١٩٦٧ بينما يضم ثانيهما المقالات الصحفية التى نشرها فى إسلاميات والنقد الأدبى فى حدود نفس الفترة ويتضح من المقدمة التى صدر بها الدكتور رءوف عباس حامد (المشرف على المشروع) المجلد الأول أن المشروع فى البداية كان يستهدف جمع ما نشر لطه حسين من مقالات سياسية متناثرة فى الصحف والدوريات. كما يتضح أن التركيز على هذا الجانب من إنتاج طه حسين كان يستند إلى أهمية الدور الذى أداه طه حسين فى مجال الشأن العام فهو كما يصرح الأستاذ المشرف لم يكن يتخذ لنفسه برجا عاجيا يعيش فيه بمعزل عن مجتمعه الذى تربى فيه وتمثل ثقافته وتراثه وقد ينبغى أن نضيف إلى ذلك فكرة ترد ضمنا فى حديث الأستاذ وتتعلق بالأهمية التاريخية لمقالات طه حسين السياسية وذلك أنه رصد فيها أحوال مصر والعالم طيلة عدة عقود ويستطيع المؤرخ إذن أن يجد فيها «مرآة» لتلك الأحوال ثم هناك شئ لم يقله الأستاذ لاصراحة ولا ضمنا - وهو شئ جدير بالتنوير - وهو أن المبدأ الرئيسى المتبع فى نشر السلسلة هو جمع مالم يجمع من أعمال طه حسين .

مجلدات تتناول مقالات سياسية

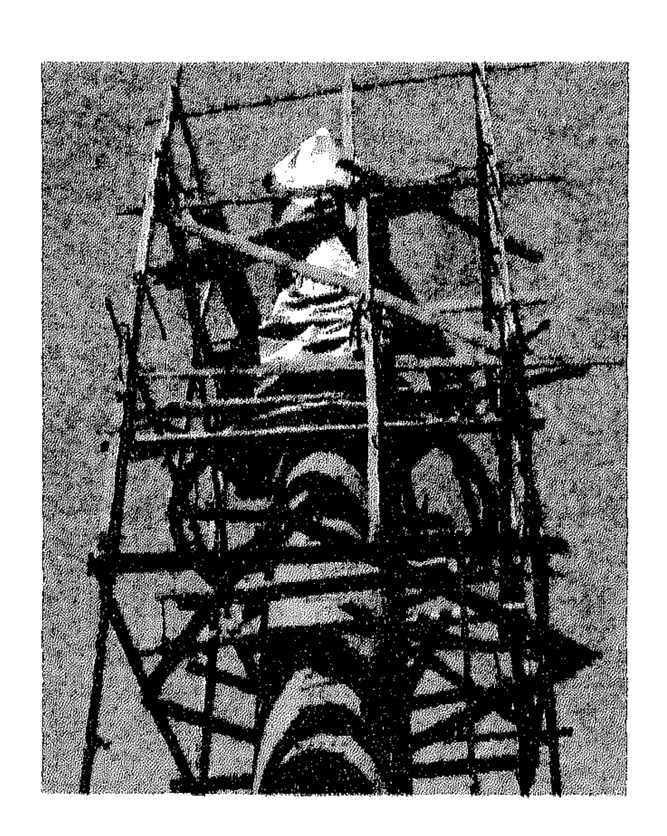
وإنه لمن حسن الحظ أن المشروع فى مرحلة التنفيذ قد تجاوز ذلك المنحى السياسى وأخذ يمتد إلى ميادين أخرى ومن نشاط طه حسين الهائل فقد رأينا أن المجلد الأول يعنى بمقالات طه حسين فى التعليم بينما عنى المجلد الثانى بمقالات طه حسين فى الإسلاميات والنقد الأدبى وبذلك أرجئ نشر المقالات السياسية إلى المجلدات الأربعة التالية من السلسلة فلكأن القائمين على تنفيذ المشروع قد أكتشفوا عند فتح باب الكتابات السياسية أن ثمة أنواعا أخرى من الصيد فى بحار طه حسين فقرروا من ثم أن ينشروا شباكهم على نطاق أوسع وحسنا فعلوا .

كما أحسن القائمون على هذا المشروع صنعا عندما طبقوا المبدأ السالف الذكر





تمثال طه حسين للفنان عبد الهادى الوشاحي



التمثال الجديد للفنان حسين كامل قبل ازاحة الستار عنه

بصورة مرنة فقد أخبرني الدكتور رءوف عباس أنه تقرر أن يتضمن أحد المجلدات بعض المقالات التى سبق أن جمعها الأستاذ الراحل محمد سيد كيلانى لأن أصول هذه المقالات لم تعد موجودة فى دار الكتب .

أما الجهاز الذى قام على تنفيذ المشروع فهو يتألف من الأستاذ المشرف ومستشارين (هما الأستاذ نبيل فرج والأستاذ إبراهيم عبد العزيز) وفريق للبحث يبلغ عدد أعضائه ثمانية، وهم الذين يضطلعون بمهمة البحث عن المقالات وجمعها ومراجعة التجارب المطبعية وعند الفراغ من هذه المهمة يعهد بالمقالات إلى أحد الباحثين لتصنيفها فى نطاق مجلد والتقديم لها بدراسة . من هنا نرى أن المجلد الأول يتضمن دراسة للدكتور سعيد إسماعيل على عن «رؤية طه الثقافية للمسألة التعليمية»، بينما تضمن المجلد الثانى مقدمتين بقلم الأستاذ إبراهيم عبد العزيز إحداهما خاصة بالإسلاميات وثانيتهما خاصة بالجزء الأدبى .

ومن الواضح أن هذا الجهد الحميد يقتصر على جمع سد النقص من ناحية الكم وهو يعد إذن امتدادا لجهود الدكتور الزيات وجهود غيره من الباحثين الأفراد العاملين فى هذا المجال ومن الواضح أيضا أن إعداد طبعة كاملة كما وكيفا لاعمال طه حسين مازال أمرا بعيد المنال ولكن المشروع جدير بالترحيب لأن من شأنه أن يقربنا خطوة أو خطوات من هذا المطلب البعيد ومما يبعث على السرور بصفة خاصة أن تتاح لدراسي طه حسين ومحبيه كل مقالاته فى التعليم وفى السياسة .

وسوف يجد القارئ بعض المفاجآت السارة فى المجلد المخصص للإسلاميات والنقد الأدبى فالمقالات التى جمعت فى الجزء الأول، أى الجزء الخاص بالإسلاميات ستكمل ما نعرفه من كتابات طه حسين الكبرى فى هذا المجال . وسوف يجد المهتمون بالأدب ما يثير إهتمامهم فى الجزء الثانى من المجلد وصحيح أن بعض

الكتابات المجموعة في الجزئين ذو قيمة ثانوية، ولكن ذلك لن يثني الدارسين والمعجبين عن قراءة هذه الكتابات بحثا عن فائدة تستفاد أو طلبا للمتعة الخالصة .

غير أنني أستميح القراء والقائمين على هذا المشروع الجليل عذرا إذا نقدت ما نشر منه حتى الآن وأود أن أؤكد لهؤلاء السادة أنني أقدم على هذا النقد على مضض وفي حزن ثقيل فليس يمكنني أن أغض الطرف عن العيوب التى تشوب تنفيذ المشروع وتحط من قيمته فالغرض منه كما أفهمه متواضع نسبيا ولكنه ضرورى وشديد الأهمية على تواضعه فهو لا يرمى إلى إعداد طبعة نهائية من الأعمال التى يشملها وإنما يرمى إلى تقديم هذه الأعمال فى أفضل صورة ممكنة فى ظروف البحث الراهنة غير أن تنفيذ المشروع كما رأيناه حتى الآن يقصر تقصيرا شديدا فى تحقيق هذا الغرض والعيوب التى سأشير إليها تندرج فى هذا الإطار .

مواد دخيلة

أود أن أقول إن المجلدين اللذين صدرا حتى الآن يحملان بعض المفاجآت غير السارة خذ مثلا المجلد الذى يضم مقالات طه حسين فى التعليم لماذا يخصص جزء من هذا المجلد لنشر النصوص الكاملة لمقالات كتبها آخرون مثل عباس فضلي ومصطفى صادق الرافعي ومحمود غنيم وعبد المنعم الصاوى؟ ولست أريد أن أبدى رأيا فى مضمون هذه المقالات أو قيمتها الذاتية ولا أنكر أنها تتصل على نحو أو آخر بأعمال طه حسين وتعد جزءا من سياقها الفكرى ،والتاريخى. ولكنها فى نهاية المطاف مواد دخيلة وينبغي أن توضع فى مكانها الصحيح إذ يكفى أن يشار إليها فى مصادرها أو أن تدرج على أحسن تقدير فى ملحق خاص فى نهاية المجلد .

أما المجلد الخاص بالإسلاميات والأدب فإنه يتضمن مقالة لتوفيق الحكيم وكان ينبغى أن تدرج بدورها فى ملحق إذا رئى أن هذا هو الوضع الأمثل يضاف إلى ذلك أن المجلد يتضمن عددا لا بأس به من المقاولات التى سبق أن جمعت فى كتب معروفة لطة حسين ولم يكن هناك ما يدعو إلى نشرها من جديد والمقالات التى أعنيها هى : الفأل ومن عمل الشيطان وهما قطعتان من النثر تردان فى باب القصص ولكن سبق نشرها فى كتاب أحاديث وكان طه حسين أكثر توفيقا عندما وضعهما فى باب الأحاديث ومقالة مؤتمر العلوم التاريخية التى سبق نشرها فى كتاب من بعيد والمقالتان المخصصتان للبحترى وابن الرومى على التوالى واللتان سبق نشرهما في كتاب من حديث الشعر والنثر ومقاله عن سلمى وقريتهما لأمى خير وأهل الكهف لتوفيق الحكيم، وهى مقالة سبق نشرها فى كتاب فصول فى الأدب والنقد

والمجلدان فضلا عن ذلك مليئان بالأخطاء المطبيعية والأخطاء الناجمة عن الجهل باستخدام الكمبيوتر (ومثال ذلك أن علامات التنصيص المستخدمة عند الاستشهاد تخدش البصر إن لم تخدش الحياء) وأنا أعلم أننا فى مصر قد أصبحنا نتسامح فى هذه العيوب ونتعايش معها ونعدها جزءا لا يتجزأ من المشاهد الطباعية، تماما كما نتعايش مع القمامة والدمامة كجزء لا يتجزأ من المشاهد الطبيعية والحضرية ولكننى لا أرتضي لمشروع جليل كالمشروع الذى نحن بصدده أن ينفذ فى ظل ذلك التسامح البغيض.

ومن المفاجآت غير السارة مقدمة الدكتور سعيد إسماعيل على، فهى مليئة بالحشو واللغو والعبارات المفككة التى تصك الآذان ولست أنكر أن الكاتب يورد هنا وهناك فكرة نيرة تجعلنى أتهلل وأستبشر خيرا ومثال ذلك ما يقوله فى مستهل المقدمة

عن إهتمام كبار المفكرين بهموم أممهم والعمل على أصلاحها وما يقوله فى هذا الصدد عن جمهورية أفلاطون ونداءات فختة إلى الأمة الألمانية وآراء مصطفى كامل عن أهمية التعليم وتربية العقول فى مقاومة الاستعمار مثل هذه الإشارات تبعث على التهلل والاستبشار لأنها توحى بأن الكاتب قد أهتدى إلى المستوى المناسب لتقديم أفكار طه فى التربية والتعليم ولو أن طه حسين أتيح له أن يقرأ هذه الإشارات لشعر بالرضا والاغتباط لأنه وجد أخيرا من يضعه فى تلك الصحبة الكريمة وشبيه بذلك إشارة الكاتب إلى مقالة ألفها طه حسين عن الابتهاج بالمعرفة الخالصة المجردة من الغرض فواقع الأمر أن الابتهاج بالمعرفة موضوع أساسى فى فهم طه حسين .

آراء ساذجة

ولكن هذه البوادر سرعان ما تتبدد بفضل استطرادات لا داعى لها وحشو لا طائل من ورائه وآراء ساذجة خذ مثلا هذه الفقرة التى يستهل بها الكاتب حديثا (من أربع صفحات تقريبا) عن مقالات طه حسين التى أشاد فيها بالملك فاروق فهو يقول لعمالقة المفكرين وكذلك الزعماء التاريخيين سحرا كذا على النفوس إلى الدرجة التى نراهم عندها وقد أوتوا من الكمال والرفعة والعظمة بحيث يتصور الإنسان أنهم بشر قد يخطئون أو على أقل تقدير قد يسرفون فى حبهم أو يغالون فى بغضهم، ومن هنا فإن المرء عندما يرى من أحدهم أمرا ينكره قلبه، أو لا يقبله عقله يشعر وكأن خللا كبيرا قد حدث فى نواميس الكون ! ولعل هذا يفسر الموقف العكسى أى أنه لو حدث وأن وجه أحد نقدا إلى عملاق من عمالقة الفكر، انبرى له كثيرون /فزعين وكأنه قد كفر، ويدافعون ويتطرفون فى الدفاع فهل ينبغى للمرء أن يكتب هذه الفقرة المطولة المتعثرة الساذجة للتعبير عن معنى بسيط هو أن الإنسان ليعجب أحيانا لسقطات العظماء الذين يجلهم - من الواضح أن الكاتب يريد أن يعرب عن شئ من الحرج لأن طه حسين كان - فيما يقول - يتملق الملك فاروق ولكن هل هناك ضرورة للجوء إلى عبارات مثل « إلى الدرجة التى نراهم عندها وقد .. بحيث ولعل هذا يفسر الموقف العكسى أى أنه لو حدث ؟ ولماذا يشعر أن نواميس الكون ستختل إذا تشجع ونقد طه حسين وهل يستدعى الأمر شجاعة حقا؟ ألم يعلم أن النقد التاريخى يتخذ من العظماء هدفا مشروعا وضروريا لسهامه ؟

والواقع أن موقف الكاتب فى هذا الصدد مختلط ومتناقض فالرجل الذى يتخوف من تصدع السماء والأرض إذا هو انتقد طه حسين يطيل القول فى منافقة هذا الأخير للملك، بل ولا يرى غضاضة فى أن ينقل دون تثبت رواية عن مصدر لا يوثق به فى مجال التاريخ ومفادها أن طه حسين أقدم على تقبيل يد فاروق . أنا لا أفهم كيف يسمح بنشر هذا اللغو فى معرض تقديم أعمال طه حسين وهل هان طه حسين على أهله إلى هذا الحد بحيث يجاز تصدير أعماله بذلك النثر السمج، ولو أننا تفكرنا قليلا لأدركنا أن الموضوع لا يستحق كل تلك المعاناة، وقد كان الأجدر بالكاتب إذا رأى ضرورة لنقد طه حسين أن يؤدى مهمته بوضوح وإيجاز وموضوعية .

طلب العلم لذاته

أما فيما يتعلق بالإشارة إلى ابتهاج طه حسين بالمعرفة لذاتها، فقد بددها الكاتب عندما أرجع آراء طه حسين فى الصدد إلى تأثره بالفكر اليونانى وهو رأى ينطوى على تبسيط مخل ويرجع إلى جهل بالسياق الذى وردت فيه تلك الآراء فليس من الممكن فهم هذه الآراء دون أن نتذكر أولا أن طه عرف عن طريق التجربة الحية



معنى الحرمان من المعرفة ومعنى الفرح بها عندما تصبح متاحة لا يقف دونها حجاب وقارئ الأيام لا يفوته ما رواه طه عن جذله عندما خيل إليه أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من «بحر» العلم فى الأزهر وعن يأسه فى نهاية المطاف من هذا العلم الأزهرى الذى تراكمت عليه الشروح والحواشى والتقارير وعن انتشائه بالعلم الذى يقدمه الأساتذة المصريون والأوربيون فى الجامعة المصرية الناشئة كلا وليس من الممكن فهم الدعوة إلى طلب العلم لذاته دون أن نتذكر ثانيا المناخ الفكرى والإصلاحى الذى أحاط بنشأة الجامعة فقد كان أنصار الجامعة ومؤسسوها من الزعماء المصريين مثل أحمد لطفى السيد وعبد الخالق ثروت وأحمد زكى يتبنون تلك الدعوة مقاومة للنزعة المنفعية السائدة والتى كانت ترمى إلى تخريج موظفين أو تروس فى الجهاز الحكومى وكان طه حسين متأثرا بأولئك الرواد وهو عندما ذهب إلى فرنسا والتحق بالسوربون تأكدت لديه الفكرة الداعية إلى طلب العلم لذاته فقد كانت يد الإصلاح قد إمتدت إلى هذه الجامعة فنحت بها نحو الدراسة الأكاديمية وإعداد نخبة تقوم على الجدارة الفكرية بدلا من إعداد المعلمين لمدارس الدولة كما كان الوضع فى السابق ولم يكن النموذج المحتذى فى ذلك الإصلاح يونانيا، بل كان ألمانيا فهل تأثر طه أيضا بالنموذج اليونانى؟ ربما الموضوع جدير بالبحث ولكن بحثه لا يأتى إلا بعد مراعاة المؤثرات ذات الأولوية

أما فيما يتعلق بالمجلد الثانى الذى خصص للإسلاميات والنقد الأدبى فهو بدوره أشبه بالمخلاة أو الزكيبة التى نلقى فيها بالمواد كيفما اتفق دون مراعاة لمدى تجانسها فلم يكن من المناسب فى رأيى الجمع بين الإسلاميات والنقد الأدبى فى مجلد واحد. وكان الأحرى تخصيص المجلد يأكمله للجزء الخاص بالأدب لأنه يحتل الحيز الأكبر ولعله أن يكون الأهم، على أن ينظر فى حل آخر لجانب الإسلاميات وسوف يلاحظ القارئ أننى أقول النقد الأدبى تارة وأقول الجزء الخاص بالأدب تارة أخرى وشتان ما بين هذا وذاك ولكن هذا الاضطراب مصدره الكتاب ذاته العنوان الأول هو ما نجده على الغلاف أما العنوان الثانى فهو ما نراه فى المتن وحقيقة الأمر أن العنوان الثانى هو الأدق لأن الجزء المعنى يحتوى على أشعار وقصص وتعليقات على الكتب وخواطر ونقد وما إلى ذلك من ألوان الكتابة الأدبية .

ويتضمن هذا المجلد الثانى مقدمتين للأستاذ إبراهيم عبد العزيز إحداهما للجزء المخصص للإسلاميات وثانيتهما للجزء المخصص للأدب ورغم أننى أقدر الجهود التي يبذلها فى نشر تراث طه حسين فإننى لا أعتقد أنه قد حقق الهدف المرجو من مقدمتيه على أفضل وجه فالهدف الذى يحدده لنفسه فى المقدمة الأولى هو الإجابة على هذا السؤال ما الذى أضافه طه حسين باسلامياته المنشورة والمجهولة المتناثرة فى الصحف والتى هى موضوع هذا الكتاب غير أن هذا الهدف الذى أصاب الكاتب فى تحديده يضيع فى ركام من الهواجس والأفكار المشتتة ويكاد يختفى عن الأنظار فالكاتب مشغول مهموم بالدفاع عن صدق ايمان طه حسين ضد الذين يتهمونه بالمروق والإلحاد وهو يذهب فى ذلك كل مذهب بحيث لا يقتصر الأمر على طه حسين بل يمتد الحديث إلى قضية الشعر الجاهلى بل وإلى زوجة طه حسين وأبنائه وأحفاده فهم أيضا فى حاجة إلى من يثبت صحة إيمانهم ومن حق الكاتب بطبيعة الحال أن يعرض آراءه هذه وأن يدافع عنها، ولكن هذا ليس هو المكان المناسب فالهدف الأول فى هذا المقام هو التعريف بالكتابات

المقدمة وتحديد ما تحتويه من إضافة ولا ينبغى للكاتب أن يشغله عن هذا الهدف أى شاغل حتى ولو كان ذلك هو نواياه الطيبة تجاه طه لحسين وأسرته وكأنه قد نسى أن طه حسين نفسه هو الذى قرر فى أول دراسة علمية له عن أبى العلاء أنه لا يريد أن يحشر موضوع الدراسة فى زمرة المؤمنين أو الملحدين

أما المقدمة الثانية التى مهد بها الأستاذ إبراهيم عبد العزيز للجزء الخاص بالأدب، فيعيبها بدورها الاستطراد الذى يخل بالتوازن وينحرف بالأبصار عن الأمور الأساسية فهذه المقدمة التى تتألف من ثلاثين صفحة تتضمن إحدى عشرة صفحة كاملة عن أشعار طه حسين وهو تطويل مخل ومشتت للانتباه إذا لاحظنا أن المجلد لا يتضمن إلا أربع قصائد لطه حسين وإن الشعر الذى نظمه طه فى مطلع حياته الأدبية وتوقف عن قوله فى سن مبكرة ليس له إلا قيمة تاريخية وأن كاتب المقدمة لم يأت فى هذا الباب بشئ جدير بالنظر إلا بعض الآراء التى يمكن /آن تسجل فى فقرة أو فقرتين . ومن ذلك ما يقوله عن الشاعرية فى نثر طه حسين وتأثير خبرته فى قرض الشعر على نقده للشعراء

تحقيق النصوص

والواقع أن مستشارى المشروع كانا فى غنى عن الكلام الكثير فما دام الغرض من المشروع هو تقديم تراث طه حسين فى أحسن صورة ممكنة فإن مهمتهما الأولى هى - أو ينبغى أن تكون - مهمة المحرر وهى مهمة متواضعة ولكنها أكثر ملاءمة للغرض فهى تقتضى تحقيق النصوص وتطهيرها من الأخطاء المطبعية والتعريف بها عن طريق تزويدها بالحواشى الشارحة والنبذ التى توضح أهميتها بصفة عامة وتربط بينها وبين ما كتبه طه حسين فى نفس المجال، وتضعها فى سياقها الفكرى والتاريخى ويقتضى أداء هذه المهمة من مؤديها شيئا من إنكار الذات والامتناع عن السجال واللغط ومساعدة القارئ على استقبال النصوص دون عائق .

وينتهى بنا كل ذلك إلى المسألة العامة المهمة، مسألة توزيع الأدوار وتحديد المهام فى هذا المشروع الجليل هناك كما قلت فريق للبحث مهمته هى التنقيب عن أعمال طه حسين وجمعها ولكن يتضح مما سبق أن عمل هذا الفريق ينبغى أن يتم تحت إشراف وتوجيه دقيقين ولا يكفى أن يجمع هذا الفريق مجموعة من الأعمال التى تعطى لمستشار ليكتب لها مقدمة فقد رأينا كيف أن مجموعة من هذا القبيل يمكن أن تتضمن أعمالا دخيلة أو أعمالا سبق أن جمعت فى كتب أخرى بل ينبغى لشخص آخر- قد يكون هو المستشار الحالى أو قد لا يكون - أن يشرف على عمل الفريق ويوجهه وينبغى لهذا الشخص أن يهتم فى المقام الأول بأداء مهمة التحرير التى سلف شرحها وينبغى الحرص فى جميع الحالات على أن تأتى المجموعة فى النهاية حسنة التبويب خالية من الأخطاء جذابة إلى أقصى حد ممكن عندئذ يمكننا أن نقول : الآن قد فرغنا من وضع لبنة سليمة راسخة فى البناء ككل .

أقول هذا وأنا أعلم أن ما أقوله لن يروق الكثير من الناس فقد تعودنا فى هذا البلد على التساهل والتراخى فى كل شئ وعلى إفساد كل عمل نأتيه بالتهرب من التجويد والإتقان ولكننى لا أبتغى مما أقول إلا أن تأتى المجلدات التالية أفضل من المجلدين الأولين وأن يكون العمل عند إكتماله خطوة على الطريق الصحيح ونقطة انطلاق لمزيد من الأعمال . ■

دور المرأة فى حياة طه حسين

بقلم
د. محمد الدسوقى

مما لا مراء فيه ولا اختلاف عليه أن طه حسين طاقة فكرية متميزة، وقد تجلت إرهاصات هذه الطاقة منذ التحق عميد الأدب العربى بالأزهر طالبا به، فقد ضاق ذرعا بالمنهج الذى كان الشيوخ يأخذون به فى دروسهم، لأنه تقليدى، ينفر من التجديد، ويردد ما قاله الأقدمون دون نقد له أو إضافة إليه، وكانوا إلى هذا يعدون الخروج على منهجهم مروقا من الدين وتطاولا على ما قدمه السلف من الآراء والاجتهادات..

ونمت تلك الطاقة المبدعة بمرور الأيام عن طريق القراءة مع زميليه أحمد حسن الزيات، ومحمود زناتى، ثم الدراسة فى الجامعة الأهلية، والجامعات الفرنسية ليجمع العميد فى ثقافته بين الشرق والغرب، ويكون له بهذا الزاد الفكرى دور فاعل فى النهضة العربية المعاصرة.




والعميد الذى فقد بصره فى طفولته الباكرة عاش فى دائرة ضيقة من حيث علاقاته الاجتماعية، وبخاصة بالنسبة للمرأة، فلم تتجاوز علاقته محيط الأسرة ، ومن ثم لم يخفق قلبه بالمشاعر الطبيعية نحو المرأة، فلما أوفدته الجامعة الأهلية لمواصلة دراسته فى فرنسا، ولأن الحياة فى الغرب فى القرن الميلادى المنصرم كانت تختلف اختلافا واضحا عن الحياة فى الشرق من حيث مشاركة المرأة فى الحياة العامة، وتمتعها بحق العلم والعمل، وحضورها فى المجالات العامة – وجد العميد نفسه فى بيئة لها أعرافها الاجتماعية التى لم يألفها من قبل، بيد أنه لم يضق لها، أو يزور عنها. بل رأى فيها ما ينبغى أن تحظى به المرأة العربية، حتى تسهم بجانب الرجل فى تطوير الأمة ونهضتها، لتقوى شوكتها ، وتحرر إرادتها من سطوة المحتل، وغطرسة الدخيل، ولا ريب فى أن ما قرأه العميد لقاسم أمين فى تحرير المرأة، والمرأة الجديدة ، وما سمعه فى دار الجريدة من أحمد لطفى السيد وغيره، وما وقف عليه من أفكار الإمام محمد عبده – كانت للعميد زادا فكريا اجتماعيا متطورا وجد له تطبيقا عمليا فى فرنسا، فرحب به، وتكيف معه، ومع هذا ظلت عاطفته نحو المرأة فى حالة من الكون، حتى وقع الاختيار على فتاة فرنسية، لتكون مساعدة له فى القراءة، والتنقل، وكان لسلوك هذه الفتاة مع العميد – وهو سلوك اتسم بالرقة والحنو والاهتمام بأبحاثه ودراساته – أثره فى تحريك مشاعره نحو المرأة، وقويت هذه المشاعر شيئا فشيئا حتى دفعت بالعميد إلى أن يصرح لهذه الفتاة بما خفق قلبه به نحوها، ولم يجد منها ما يصدم عاطفته أو يخيب آماله، ولعل عطفها عليه تحول إلى حب له بعد ان عرفته عن كثب وآنست منه نبوغا وعبقرية تعد بمستقبل مشرق، ومن ثم لم ترفض ما عرضه العميد عليها من رغبته فى البناء بها، وإن كانت قد آثرت ان تستشير بعض أهلها، وهؤلاء أبوا أن تتزوج امرأة فرنسية مسيحية رجلا ضريرا شرقيا مسلما، بيد أنها لم تصغ لما أشاروا به. وتم الزواج الذى سعد به العميد، وكان بداية مرحلة جديدة فى حياته.

صراعات فكرية

ورجع العميد الى مصر بعد ان حصل على درجة الدكتوراه ومعه زوجته وابنته، وبدأ حياته الجامعية التى امتدت أكثر من ربع قرن، وشهدت هذه الحياة ما شهدت من صراعات فكرية كان من أهمها قضية



انتحال الشعر الجاهلى، ومستقبل الثقافة فى مصر، ولست فى هذه الكلمة بصدد تفصيل القول فى تلك الصراعات وما تمخض عنها من قضايا ومشكلات، وإنما أومأت إليها للإشارة إلى أن العميد خرج من كل هذه الصراعات مظفرا وإن أثارت حوله بعض الشبهات التى تجاوزت تأثره بالفكر الاستشراقى إلى النيل من عقيدته ووطنيته، ولا ريب فى أن حياته الأسرية المستقرة وما تبذله زوجته من أجل راحته والوقوف فى شجاعة أمام خصومه أو المتحاملين عليه كان من أهم العوامل التى جعلته يواصل حياته الفكرية دون أن يعبأ بالسهام التى انطلقت فى غير موضوعية نحوه، والتى حاولت أن تقلل من مكانته الفكرية والأدبية، أو تزرى بمؤلفاته وآرائه التجديدية.

ولأنى دخلت بيت العميد فى العقد الأخير من عمره، وأتيح لى أن أطلع على طرف من حياته المنزلية والعائلية فإنى أقصر الحديث عن زوجة العميد مالها وما عليها على ما عرفته عنها فى تلك الفترة الزمنية التى كان العميد يعانى فيها من ضعف فى صحته. وعجز عن السير على قدميه بصورة طبيعية، وما أورثه ذلك من اضطراب فى معدته حمله على أن يقلل من طعامه، وكانت زوجته تحاول إكراهه على الأكل حتى تقوى مناعة الجسم ليقاوم ضعف الشيخوخة ، وكان العميد فى بعض الأحيان ينزل عند إرادتها ، وأحيانا أخرى لا يستجيب لما ترغب فيه، فكانت لا تملك غير العزوف عن الطعام أو البكاء كما أخبرنى العميد.

وكانت لزوجة العميد فى العقد الأخير من عمره الكلمة الأولى فى البيت حتى فى علاقة العميد ببعض أصدقائه . فقد سألت يوما الأستاذ الزيات عن أسباب فتور علاقة الصداقة بينه وبين العميد، فقال: إن زوجة العميد هى المسئولة عن فتور هذه العلاقة، لأننا كنا إذا ذهبنا إليه ليخرج معنا فى نزهة أو الجلوس فى مكان خاص فإن زوجته كانت تزعم أن حرارته غير مستقرة، ولا يستطيع الخروج، وكان العميد لا يعقب على قولها، فكنا بعد ذلك لا نذهب إليه حتى فترت العلاقة وأصبحنا لا نراه إلا فى المجمع اللغوى.

وكان من مظاهر هيمنة زوجة العميد على البيت أنها كانت ترفض أن يعطى بعض المال لمن يطرق باب «رامتان» كما كانت تعارض أن يساعد أقرب الناس إليه بالمال. وأذكر أن العميد طلب منى يوما أن أزيد فى الصك الذى أصرفه من البنك مبلغ عشرين جنيها، وأخذ منى هذا المبلغ



بعد عودتى من البنك. وتسلمت زوجته النقود التى تعود صرفها كل شهر، ولكنها طلبت منى أن أقرأ لها رقم المبلغ المسجل فى الصك، ولم أجد بداً من أن أقرأ العدد الصحيح، وهنا انفجرت فى عصبية تخاطب العميد، ولم أفهم مما قالت شيئا وإن كان كل كلامها دار حول الزيادة التى وردت فى الصك وإلى أين تذهب، وظل العميد صامتا حتى انتهت ثورة الزوجة وخرجت من حجرة المكتب، وأخذنا فى قراءة الصحف.

لم تتعلم العربية

وزوجة العميد التى عاشت فى مصر أكثر من نصف قرن لم تكن تعرف اللغة العربية قراءة وكتابة، وكل ما تعرفه منها بضع كلمات عامية تنطقها فى لكنة أعجمية تخاطب بها العاملين فى البيت، فلماذا لم تدرس هذه اللغة، وهى تعيش فى مجتمع عربى وزوجها كفيف، وقد يحتاج إلى من يقرأ له فى أى وقت رسالة أو برقية بالعربية مع أن أولادها تعلموا منذ الصغر العربية فى البيت، وكان يمكنها أن تدرس مع أولادها لو رغبت، ولكنها لم تفعل . فهل يدل هذا فى نظرها على اعتبار العربية لغة ليست جديرة بتعلمها ، وأن ما كتب بها من علم وأدب لا يستحق أن يقرأ أو أنه التعصب للفرنسية وعدم الاعتراف بلغة سواها.

وكانت صحيفة الأهرام قد نشرت يوم الجمعة الموافق ١٩٨٩/٧/٢٨ أن زوجة العميد توفيت ليلة الخميس الموافق ١٩٨٩/٧/٢٧ عن عمر بلغ الرابعة والتسعين، وقالت الصحيفة بعد هذا: وكانت السيدة سوزان قد أعلنت إسلامها بعد زواجها من عميد الأدب العربى، وتركت باريس لتعيش معه فى القاهرة.

والصحيح أن السيدة سوزان لم تعلن إسلامها بعد زواجها من العميد وظلت على عقيدتها المسيحية إلى وفاتها ، وكانت تذهب كل يوم أحد إلى الكنيسة، وما كانت تتخلف عن هذا إلا لضرورة. كما كانت تستقبل فى رامتان بعض رجال الدين المسيحى. وكان أصدقاؤها من المصريين والذين كانوا يحافظون على زيارتها مسيحيين. بالإضافة إلى بعض المسلمين الذين غلبت عليهم الثقافة والتقاليد الفرنسية.

وتؤكد اللوحات الزيتية التى كانت تزين جدران رامتان الطابع الفرنسى فى الفن، ولم يكن يوجد بين هذه اللوحات ما يعبر عن الطابع الفرعونى أو العربى أو الإسلامى.

تلك بعض الجوانب السلبية فى حياة زوجة العميد أما الجوانب الايجابية فيأتى



في مقدمتها عناية الزوجة الفائقة بزوجها، واهتمامها بمظهره. ومراعاتها لمشاعره، فقد كانت ترعاه من حيث غذائه في مواعيد ثابتة وما كانت تدعه يذهب لقضاء حاجته وحده ، خوفا من أن تزل قدمه. وكانت في بعض الأحيان تقف عاجزة عن مساعدته في ترك فراشه ومرافقته الى الحمام، فتلجأ إلى بعض الخدم لمعاونتها. وكان من المألوف في طلب أحد هؤلاء أن يُدق الجرس مرة واحدة، فإذا دُق مرتين فإن هذا يعني أن على السكرتير أن يصعد إلى حجرة نوم العميد، وكنت أجلس في حجرة المكتب، فدق الجرس مرتين فصعدت إلى الطابق الثاني وطرقت باب الحجرة ففتحت لي زوجته ظنا منها أني أحد الخدم ونسيت انها دقت الجرس مرتين لا مرة واحدة، ومع هذا أذنت لي بالدخول، ورأيت العميد يجلس في أرض الحجرة مسندا ظهره الى السرير ، وساعدت الزوجة في حمل العميد إلى فراشه، وقرأت في وجهها مظاهر الإجهاد، ويبدو أنها حاولت وحدها أن ترفع زوجها فلم تقدر.

تحمل المسئولية كاملة

ومن شواهد اهتمام السيدة سوزان بزوجها ورعايتها له أنها كانت تحمل معها كل الأدوية التي قد يحتاج إليها العميد سواء في التجول بالسيارة في بعض المناطق الزراعية بعيدا عن المدينة، أو في انعقاد جلسات المجمع اللغوي وكانت تعهد إليّ بحمل هذه الأدوية في أثناء الجلسة مع إرشادي إلى كيفية استعمالها عند الضرورة.

ولم يكن حرص زوجة العميد على جمال مظهره أقل من حرصها على رعايته صحيا، فالثياب منتقاة، وهي دائما نظيفة، ويبدو العميد في ارتدائها أنيقا، لا تقتحمه العيون، بل تهش لرؤيته، وتسعد بلقائه.

وأما عن مراعاة زوجة العميد لمشاعره، فقد قال لي العميد: لقد فشلت في اقناع زوجتي بشراء جهاز تليفزيون..

إن زوجة العميد قامت بمسئوليتها نحو زوجها في صدق وإخلاص وعطف وإحسان، وقد صور العميد في آخر الجزء الأول من الأيام ما طرأ على حياته بعد زواجه فقد قال وهو يخاطب ابنته: فإن سألتني كيف انتهى إلى حيث هو الآن، وكيف أصبح شكله مقبولا لا تقتحمه العين ولا تزدريه، وكيف استطاع أن يهيىء لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياة راضية، وكيف استطاع أن يثير في نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة، وأن يثير في نفوس ناس آخرين ما يثير من رضا عنه وإكرام له وتشجيع – إن سألت كيف انتقل من تلك الحال إلى هذه الحال فلست أستطيع أن

أجيبك، وإنما هناك شخص آخر هو الذى يستطيع هذا الجواب فسليه ينبئك.

أتعرفينه، انظرى إليه ، هو هذا الملك القائم الذى يحنو على سريرك إذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ . ويحنو على سريرك إذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وابتهاج، ألست مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار.

لقد حنا يا ابنتى هذا الملك على أبيك فبدله من البؤس نعيما، ومن اليأس أملا، ومن الفقر غنى، ومن الشقاء سعادة وصفوا.

صحيح أن السيدة سوزان تمتعت بخير زوجها ، وهى مع هذا أحسنت إليه وغيرت حياته، وكانت له كما شبهها بالملك الذى أغدق عليه من الحنان والرعاية ما أغدق، وإن كانت قد عاشت معتصمة بعقيدتها المسيحية فلا تثريب عليها فى هذا ، لأنه لا إكــراه فى الدين، ولكن عزوفها عن تعلم العربية هو الذى يطرح أكثر من سؤال.

وبعد فهذه كلمات مجملة عن زوجة العميد، وأطمع أن أقدم مستقبلا، إن شاء الله، دراسة أكثر وفاء بحياة هذه الزوجة ودورها فى حياة عميد الأدب العربى رحمه الله. ■

قالوا

● إن واجبنا أن نمنع الغرب من الانتحار، وأن نمنعه من أن يسوقنا معه نحو الهاوية.

د.محمد شفيق غربال

● القلق أشبه بالرمل داخل قواقع اللؤلؤ القليل منه يساعد على إنتاج اللؤلؤ والكثير منه يقتل الحيوان بداخلها.

● الإرادة التى لا تنثنى تعلو كل شىء وحتى على الدهر.

شاتوبريان

● الإنسان سيد طالعه وفى غالب أحوال الفشل يكون هو نفسه المسئول عن فشله لانجمه وطالعه.

شكسبير

● ليس من الصعب أن تعثر علي الحقيقة .. ولكن المشاكل الكبرى شى ألا تحاول الهروب منها إذا وجدتها.

اتيين جلسوت



● «أزمة المسلمين تكمن في أنهم فسروا الشريعة الغراء بمفهوم ضيق، وحصروها في العبادات والتواكل من دون فعل إيجابي»

مهاتير محمد حوت
رئيس وزراء ماليزيا


مهاتير محمد

● «الحكام العرب أفراد يسهل التأثير الأمريكى فيهم ترهيباً وترغيباً»

د. سعيد النجار

● «لن يعرف العرب الديمقراطية الاعندما يتجرأ رئيس الحكومة فيلف ساقا على ساق فى حضرة رئيس الدولة»

المفكر اللبنانى غسان الامام


د. سعيد النجار

● «أن نقول أن رواية ماغير أخلاقية هو الإيمان بأن الروايات يفترض أن تكون أخلاقيه، وهذا أقرب أن يكون محض هراء»

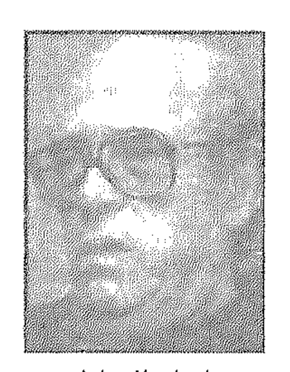
المفكر الدكتور ادوارد سعيد

● «نحن نتحرك باسترخاء عباسي، ونباهى بما ثرنا، دون تردد، وكأننا أباطرة العقل، وسادة المنجزات»

الروائية العراقية لطيفه الدليمى

● «أحس الرقابة وحسن كامن تارة، وسافر كاشر انيابه تارة أخرى، انه يترصد الكتابة، ولا اتوقف عن مجالدته، أو الغاء وجوده»

الروائى المصرى ادوار الخراط

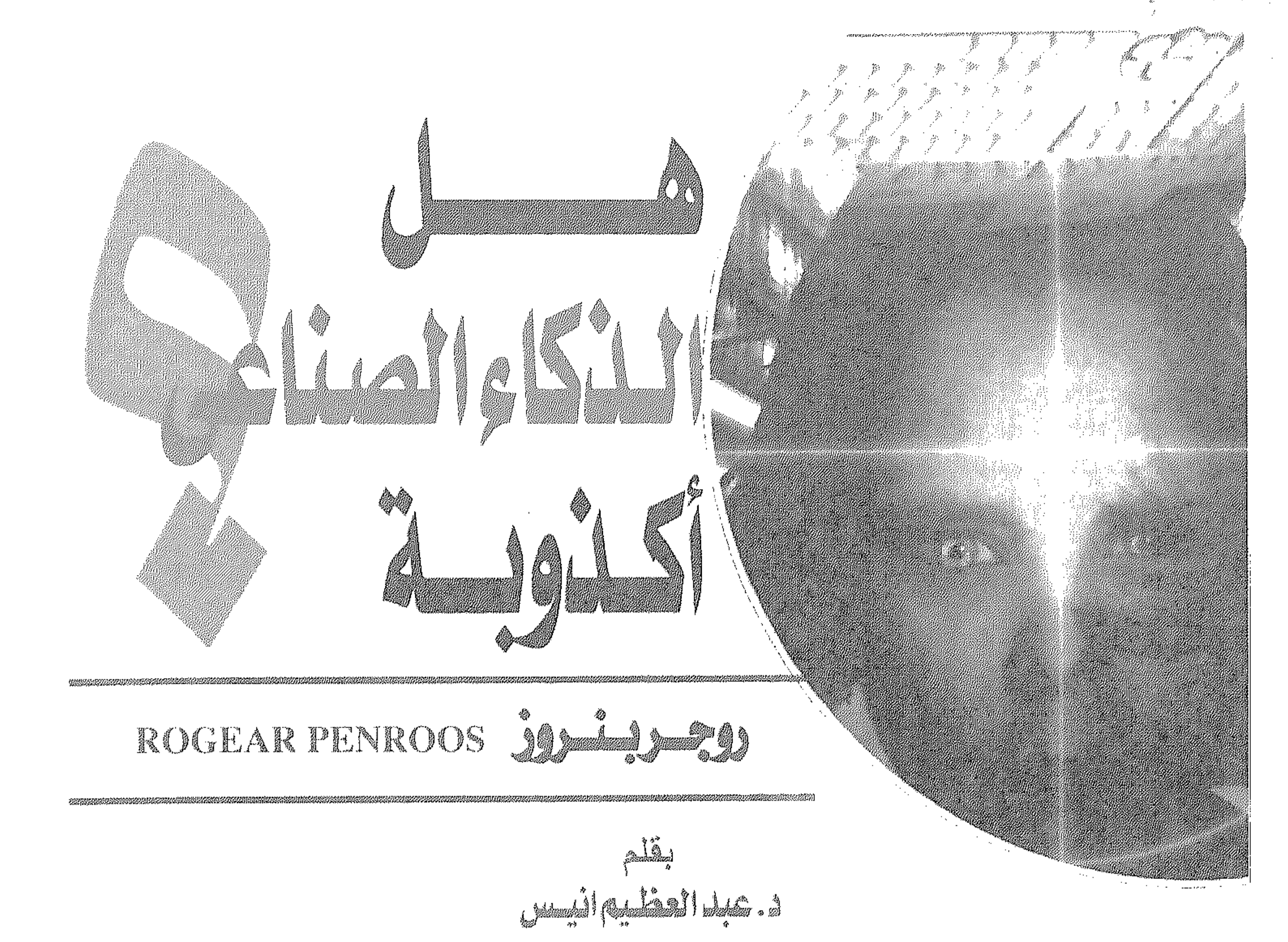

إدوار الخراط

● «سندرس في الجامعة مجلات سمير وميكى عما قريب حتى نحافظ على ثوابت الأمة !!»

د. سامية محرز
استاذة الادب العربى فى
الجامعة الامريكية بالقاهرة

● «القضية الانسانية حقا هى التى تحيى الذات، وتحيا بها الذات وتساعد الآخر على الحياة»

الشاعر السورى أدونيس



بقلم
د. عبد العظيم انيس

روجر بنروز عالم رياضي فيزيائى واسع الاهتمامات، كان أستاذا للعلوم الكونية (الكوزمولوجى) في جامعة أكسفورد لكنه الآن أستاذ علم الهندسة فى جامعة لندن .

نشأ فى عائلة علم جامعى، فأبوه كان أستاذا للوراثة البشرية Human gonetics بالكلية الجامعية University Cullege بجامعة لندن، وأمه كانت طبيبة مرموقة ، وكان لوالده اهتمام بالرياضيات (الاحتمالات) بطبيعة تخصصه ، وأخوه أوليفر كان يسبقه فى الدراسة بأربع سنوات، تعلم الرياضيات فى الكلية التى يعمل بها والده وأصبح أستاذا بها . وهكذا فعل روجر بعد أخيه أوليفر. وإن كان والده وأمه يرجوان أن يتخصص فى الطب، لكن روجر اختار أن يدرس الرياضيات لأنه كان شغوفا بهاويرسم الأشكال الهندسية متعددة السطوح منذ كان فى العاشرة .

ولد روجر فى مدينة كولشستر (مقاطعة إسكس) حيث كان أبوه آنذاك مسئولا عن مشروع يسمى «مسح كولشستر» وكان المطلوب دراسة تحديد ما إذا كانت عوامل الوراثة أم عوامل البيئة هى الأهم فى ظهور الاضطرابات العقلية لدى الانسان، وكانت نتيجة هذا البحث ما تبين من أن المشكلة أكثر تعقيدا من هذا التبسيط .

ومع أن روجر درس الرياضيات فى كلية والده فى لندن إلا أنه التحق بجامعة كمبردج لإجراء أبحاث فى الهندسة الجبرية تحت إشراف وليم هودج . وبعد سنة من الدراسة قرر هودج أن المسائل التى تشغل روجر ليست محل اهتمامه ، وخلال تلك الفترة أصبح أكثر اهتماما بالفيزياء بفضل صداقته مع دينس سكياما Dennis Sciama الذى كان صديقا لشقيقة أوليفر. ولقد تأثر دينس من الأسئلة التى وجهها له روجر عن وضع الكون فى حالة الاتزان الدائم ، وهى أسئلة ربما لم يفكر بها هو من قبل . وهكذا أثار هو اهتمام بنروز بالبحث فى الفيزياء وفى المسائل الكونية بالذات.

ويتذكر روجر أنه حضر فى جامعة كمبردج ثلاث مقررات ليس لأى واحد منها علاقة مباشرة بالبحث الذى كان من المفترض أن يقوم به فى الفيزياء وأولها مقرر هرمان بوندى عن النظرية النسبية العامة، والثانى مقرر لبول ديراك عن ميكانيكا الكم، والمقرر الثالث عن المنطق الرياضى، وهو موضوع بدا بعيدا جدا من مجال أبحاثه أن أثبت أنه ذو تأثير هائل على تفكيره فيما بعد، وكان المحاضر هو استين Steen .

ويقول روجر إنه تعلم من المقرر الاخير (المنطق الرياضى) شيئا عن ماكينة تورنج Turing Machine وعن نظرية جودل Godel. وربما كان من المهم أن نتوقف هنا لإلقاء نظرة على نظريات جودل هذه (فى عام ١٩٣١ أثبت شاب نمساوى صغير السن يدعى كيرت جودل نظريتين أحدثتا دويا هائلا فى البحث الرياضى وبين الرياضيين ، وقد قضت هذه النظريات الجديدة على برنامج الرياضى الألمانى الكبير دافيد هلبرت الذى طالب فى عام ١٩٠٠ رياضيى العالم بإثبات أن مسلمات علم الحساب متسقة أى أنها لا تؤدى إلى تناقض. ثم جاء جودل وأثبت أن محاولة عمل نظام رياضى كامل ومتسق هو عمل مستحيل. ومن الممكن تلخيص اكتشافاته فى تقريرين. أولهما أنه إذا كانت نظرية المجموعات ذات المصادرات (أى المسلمات) متسقة فإن هناك نظريات لا يمكن إثبات صحتها أو خطئها .

وثانيهما أنه لا توجد طريقة عملية

• أعتقد أننى أكثر تأييدا لوجهة النظر الدينية عن رجال العلم

لإثبات أن النظرية ذات المصادرات متسقة .

وفى الجوهر فإن التقرير الأول لجودل يقول إنه مهما كانت مجموعة المصادرات المستخدمة فى الرياضيات فهناك مسائل لا تستطيع الرياضيات الإجاب عليها أى أن الاكتمال غير محقق والأسوأ من ذلك فإن التقرير الثانى يقول إنه مهما فعل الرياضيون فإنهم لن يستطيعوا التأكيد من أن اختيارهم للمصادرات (المسلمات) لن يؤدى إلى تناقض أى أن الاتساق لا يمكن تحقيقه . وهكذا أثبت جودل أن برنامج هلبرت الذى أشار إليه فى محاضرته فى المؤتمر الرياضى الدولى فى باريس عام ١٩٠٠ هو عمل مستحيل .

هذه الأفكار جالت فى ذهن روجر منذ ذلك الوقت وأقنعته بالفكرة التى لازال متمسكا بها إلى اليوم، وهى أن هناك شيئا ما فى ظاهرة العقل البشرى (وعلى وجه الخصوص فى فهمنا للرياضيات) لايمكن حصره (تغليفه) بأى نوع من الحسابات . وقد أدى هذا به - كما سيرد فيما بعد - إلى تأليف كتاب (العقل الجديد للامبراطور) الذى رد فيه على علماء الذكاء الصناعى الذين يتصورون أن العقل البشرى يعمل مثل الكومبيوتر تماما.

* * *

لقد عمل روجر بنروز فى ميادين بحثية عديدة ، ولنبدأ بأعماله فى الكوزمولوجى مع ستيفين هوكنج الذى اكتشف نظريات المفردات (جمع مفردة Pingularity)، وهى النظريات التى اكسبتهما جائزة وولف.. عن ماذا تتحدث هذه المفردات وماذا تقول عن الزمكان؟

المفردات هى مناطق فى الزمكان حيث لاتعمل قوانين الفيزياء. والمفردة الأساسية التى يكثر الحديث عنها هى (الخبطة الكبرى) Big Bong التى تمثل أصل الكون فى نظر البعض .

ويقول روجر : إن بعض العلماء - وهو منهم - كانوا قلقين من هذه النتيجة لأنها تمثل نهاية لما يمكن فهمه عن علم الفيزياء . ونفس هذا الوضع نشأ فيما بعد عندما بدأ البعض يقلق مما يمكن أن يحدث لنجم شديد الثقل بحيث لا يستطيع حمل نفسه ثم تنشأ مفردات . وفى عام ١٩٣٠ أوضح العالم الهندى شاندرا سيكار أن نجما قزما أبيض - وهو جسم شديد التركيز - يمكن أن تكون له كتلة الشمس وربما أكبر. ونحن نعلم أن مثل هذه الأجسام موجودة .

ومع ذلك أوضح شاندرا أن الجاذبية سوف تتغلب فى النهاية إذا أصبح النجم أكثر تركيزا. ولذا فإن نجما له ضعف كتلة الشمس لن يكون له فيما يبدو وضع استقرار حيث هو، بل سيبدأ فى الانهيار إلا إذا استطاع أن يتخلص من بعض مكوناته، لكن من غير المحتمل أن يتخلص من مادة كافية لا سيما إذا بدأ بكتلة ضعف كتلة الشمس مثلا. وإذن ماذا يحدث؟

لقد أنشأ روبرت أوبنهايمر وتلاميذه نموذجا لانهيار جسم. لقد بحثوا فى أجسام مماثلة كرويا وليس بها ضغوط وأثبتوا أنها عندما تنهار تنتج ما نسميه اليوم (الثقب الأسود) Black Hole هل الثقوب السوداء موجودة مثلا فى الكون ؟

إنها نتائج نظرية تخضع للمناقشة.

* * *

اهتم روجر بنروز بوضع نظرية الملغفات وهى محاولة للتوفيق بين نظرية الكم والنظرية النسبية العامة. كما اهتم اهتماما شديدا بمشاكل «القرمدة» Tiling، وهى اهتمامات تبدأ عنده منذ الصغر لمجرد الفكاهة. فإذا شعر بالملل من عمل ما حاول أن يوفق عن طريق القرمدة العديد من الأشكال لأى سبب علمى، على الرغم من أنه لابد أن يكون هناك صلة ما بين هذا واهتمامه بعلم الكوزمولوجى حيث تبدو مركبات كبيرة فى الكون شديد التعقيد وإن كان لابد أن تحكمها قوانين بسيطة فى الجوهر.

وفى عام ١٩٨٩ نشر بنروز كتابا جديدا اسمه (العقل الجديد للامبراطور) Empror's new mind تناول فيه قضية الحاسبات والذكاء الصناعى وقوانين الفيزياء. وكان هذا الكتاب ردا على برنامج أذيع فى محطة الاذاعة البريطانية B. B. C لاثنين من العلماء مارتين منسكى، وإدوارد فريدكن، وهما يحاولات تصوير العقل البشرى وكأنه يعمل مثل الحاسب الآلى، وبالتالى تنشأ نظرية الذكاء الصناعى.

ويقول روجر بنروز أنه فى أول شبابه كان متعاطفا مع الفكرة التى تقول إننا جميعا آلات حاسبة We are all Computers. لكنه بدا له من التأمل فى نظرية جودل أن هناك جوانب فى إدراكنا لا يمكن حصرها فى صورة محسوبة. «ومع ذلك لازلت احتفظ بنظرة

• كل الأسئلة العميقة تطالبنا أن نعرف كيفية تركيب هذا الكون، وما نعلمه فى هذا المجال قليل جدا!

علمية تقول إن هناك شيئا فى قوانين الفيزياء يسمح لنا أن نتصرف كما نفعل ، وإن كانت معرفتنا عن هذه القوانين أقل مما يظن الكثيرون» .

وهكذا كان روجر مستعدا للاعتقاد أن هناك ثمة شئ خارج الحسابات . كان روجر مهتما لمدة طويلة بالمنطق الرياضى، ومنه عرف أن هناك أشياء ذات طبيعة رياضية وإن كانت خارج الحسابات. ولم تفزعه هذه النتيجة ، حتى رأى برنامج الـ B.B.C. فأفزعه أن يقول المتحدثان إن الحاسبات سوف تتفوق على كل شئ نصنعه ، واعتبرا هذا قولا مستفزا .

وما كانا يقولانه يكون منطقيا إذا كنا فعلا حاسبات . وحيث أنه لا يؤمن بذلك بعد اكتشافه جودل ونظرياته فقد بدا له أن هناك شيئا ما فاتهم . ومن هنا نشأت فكرة الكتاب .

ويقول روجر إنه فى أول الأمر فكر أن يكتب كتابا شعبيا (أو نصف شعبى) عن الفيزياء وصورة الكون قدر ما تعرف ، ولكن من بؤرة مختلفة، أن بحث قوانين الفيزياء لرؤية إن كان هناك شئ ذو طبيعة غير حسابية. وحيث أنه لم يجد إنسانا يقوم بهذا العمل من قبل فقد ألف هذا الكتاب لهذا الغرض .

ولقد رد عليه البعض هذا الهجوم على الذكاء الصناعى بتذكيره ماقاله إن علم ميكانيكا الكم غير مكتمل، ولذا فإن فهم قوانين الفيزياء يجب أن يسبق فهم كيف يعمل العقل .

وهو يوافق على ذلك ويقول إنه شعر أنه إذا كان هناك شئ ذو طبيعة غير حسابية فلابد أن يكون خارج القوانين التى نفهمها اليوم عن الفيزياء لأنها جميعا قوانين حسابية . ولذا تبدو له أن أعظم فجوة فى فهمنا الحالى ترتبط بعلاقة نظرية الكم بالأجسام الكبيرة . فقوانين ميكانيكا الكم تقول لنا إن القطة يمكن أن تكون حية وميتة فى نفس الوقت – وهو كلام سخيف طبعا – لأننا لا نرى كوننا على هذا الشكل . والحقيقى أنه يبدو له أن نظرية الكم لا يمكن أن تكون دقيقة عندما تصطدم بأجسام كبيرة الحجم فلابد أن يكون هناك تغير ما.

ثم ألف بعد كتابه الأول كتابا آخر يدعى (ظلال العقل) هو بمثابة رد على الانتقادات التى وجهت للكتاب الأول .

مثلا قيل إنه فى الكتاب الأول لم يهتم بذكر أن النظام الرياضى الذى

تحدث عنه تتوفر فيه كل الخصائص المذكورة فى نظرية جودل وإن لم يهتم بالتأكيد على هذا .

إن الكتاب الأخير (ظلال العقل) هو كتاب فنى قصد به الرد على التساؤلات والافتراضات التى أثارها الكتاب الأول (العقل الجديد للامبراطور) .

سئل روجر بنروز بعد صدور هذين الكتابين: أنت الآن تقدم نقدا كفيلسوف هل وصلت إلى تفاهم مع اللغز الكبير وكيف ؟

وكانت إجابته على النحو التالى :

هناك عدد كبير من الاسئلة التى لا نعرف لها إجابة. فحتى لو كان كل ما أقوله عن طريقة عمل المخ صحيح تماما فإنه لن يجيب على هذه الأسئلة .

لقد حدث تقدم صغير فى طريق الاجابة على الأسئلة العميقة التى تدور فى عقولنا: من نحن؟ وماهو الوعى؟ لماذا نحن هنا؟ هل هناك حياة بعد الموت؟

كل الأسئلة من هذا النوع يبدو لروجر أنها تطالبنا أن نعرف كيفية تركيب هذا الكون، ومانعلمه فى هذا المجال قليل جدا .

إن الفيزيائيين يقولون إن نظرية الكم جميلة وتعمل بشكل جيد وتشرح كيف تعمل الذرات الدقيقة . ولكن لنتحدث بصراحة .. إنها تعطينا الاجابة ، الخاطئة . ما تقوله هذه النظرية أنه إذا كانت لديك قطة شرودنجر الشهيرة فإنها يمكن أن تكون حية وميتة فى نفس الوقت . وهذا خطأ فاضح .

لذا يعتقد بنروز أن ثمة شيئا كبيرا غائب عنا فى هذا العالم .

سؤال : وماعلاقة نظرتك هذه بما يقوله رجال الدين ؟

أجاب بنروز : أعتقد أننى أكثر تأييدا لوجهة النظر الدينية عن رجال العلم . لا يعنى هذا أننى أؤمن بالدوجما المرتبطة بكل الأديان. إننى لم أكن كذلك فى الماضى ولست كذلك الآن . لكنى أنظر إلى الدين نظرة إيجابية لدوره فى القيم ، وهى الشئ الذى لاينشغل به العلم .

إن الديانات تحاول أن تجيب على أسئلة لا يجيب عنها العلم ، وعلى وجه الخصوص مسألة القيم .

وإننى أعتبر الاخلاق شيئا مطلقا له مركبة أفلاطونية تقع خارجنا ، هل هناك مفهوم مطلق أفلاطونى عن «الخير» .

يجيب روجر بنروز : نعم إننى أميل قبول هذا الرأى .

من أمراض المجتمع

مبكيات الأفراح

بقلم
د. محمد رجب البيومى

تكلمت فى مقال سابق عن مضحكات المآتم، فعرضت بعض مايرهق المجتمع المصرى من التقاليد الجائرة التى يضيق بها الناس، ثم يخضعون للعرف الشائع فلا يملكون عنها حولا، وإذا كانت المآتم ذات مضحكات، فالأفراح لدينا ذات مبكيات، لأنها أبهظت الناس بما ينوءون به من أثقال، فرضت عليهم فرضا، وهم أيضا لايستطيعون عنها حولا لأن مجاراة العرف الطارىء أصبحت قانونا لازما، ومن يخالفه يقع فى عذاب نفسى، دونه عذاب القانون القضائى: وألسنة الناس فى مثل هذه المناسبات أقوى من السياط



وأطرف القارىء بواقعة مشهورة فى بعض الإدارات الحكومية لها مدلولها الصريح، حيث ضمت هذه الإدارة فيمن ضمت من الموظفين والموظفات، أربعا يحملن الدرجة الجامعية العالية، وقد تجاوزن الخامسة والثلاثين، وهن عانسات، كما ضمت خمسا من العاملات المتواضعات اللاتى يقمن بالفراشة، ولم يتجاوزن الخامسة

والعشرين وكلهن متزوجات مع أن الجامعيات ذوات رونق لافت فى الهيئة والملبس والمظهر العام، والعاملات ليس معهن غير الشباب المتدفق بالحياة، الجياش بالأمل، فكيف وقعت هذه المفارقة، وماتعليلها؟.

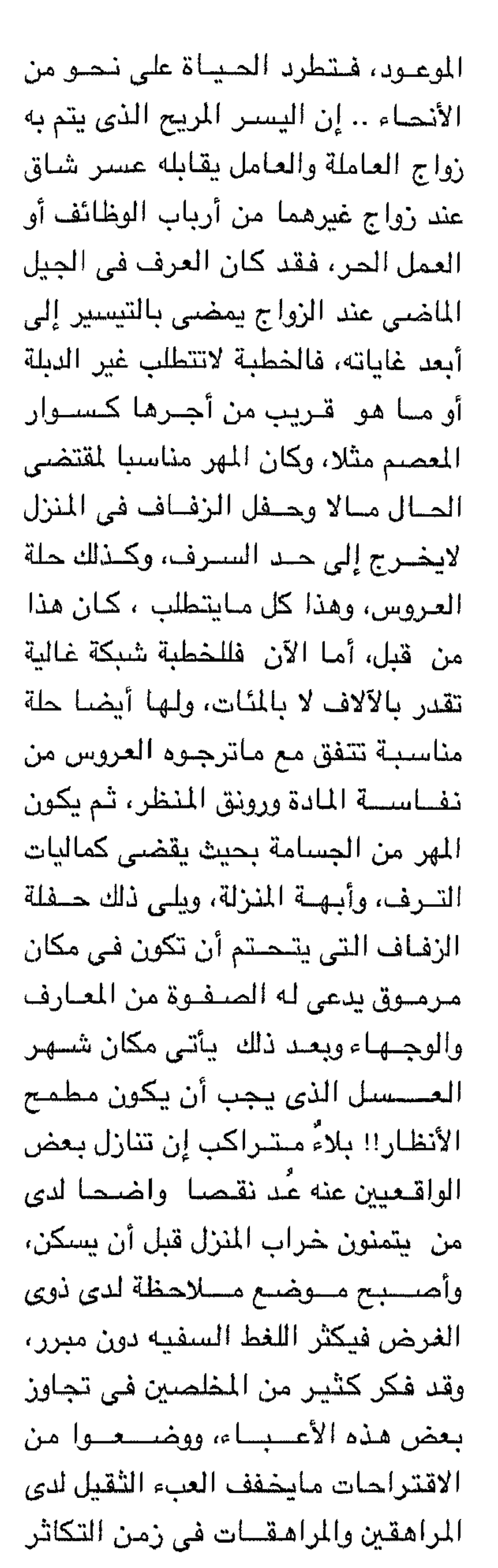
تعليلها هو الالتزام بالتقاليد الصارمة التى ارتضاها المجتمع، وجعلها سورا حديديا منيعا لا يكاد أحد من الشباب المتطلع يخرج عن دائرته، فالموظفة الجامعية تريد شقة ذات حجرات متعددة وأثاثا يملأ الحجرات والتزاما بالكماليات الوافدة التى أصبحت مجال المباهاة، والزوج إن وجد ليس فى يده مايرضى فتاة أحلامه: أما الموظفة العاملة فترضى بمن هو فى مستواها الاجتماعى وكلاهما يبحث عن الستر فى حجرة أو حجرتين وعن الأحياء المتواضعة المناسبة، وكل ذلك ميسور .. ى تلاقت الرغبتان، واتفق الطرفان! لذلك نعمت الثانية بالاستقرار، وظلت الأولى فى مهب الرياح قلت إن الزوج إن وجد ليس فى يده مايرضى فتاة أحلامه، وإن هذه كما يقول النحاة للشك لا لليقين، إذ أن وجود الزوج الشاب القادر فى هذه البطالة المكتسحة قليل قليل لأن هذا المسكين يبحث عن المأكل لا عن المنزل، يبحث عن المأكل فإذا وجده فى بيت أبيه فقد حمد الله أن وجده حيث لايستطيع أن يرهقه بما فوق ذلك، وقد بذل الشيخ جهده الجاهد حتى أتم تعليمه وتعليم بعض أخوته، فماذا يفعل بعد ذلك وهو لايملك خزائن الأرض، أما إذا لم يجد المأكل - وكثيرا مايحدث - فهو يتطلب مالم يهيأ له من المهن التى لم يكن يعرف من أمرها شيئا، وقد نشرت الجرائد اليومية آهات حارة لبعض المتخرجين فى الجامعات، وقد أصبحوا يغسلون الأطباق ويمسحون الموائد فى الفنادق الراقية بالمصايف يجدون هذا العمل فى أيام وينقطع فى أيام ، تبعا لارتياد الوافدين وانقطاعهم، وهم أحسن حالا ممن لايجد عملا بالمرة، وهم كثير كثير، وأنا أعرف بنّاءً أميا عصاميا بالمنصورة قد أتقن عمله. فأصبح رابح السوق فى المدينة هذا البنّاء لديه سبعة من خريجى كلية الهندسة يعملون لديه أجراء يعملون ما يعمل الأمى الذى لم يتعلم شيئا ولم يفك الخط فى مدرسة فيحملون الطوب على الظهر ويفحرون الأرض ويرصفون البلاط، وهم حامدون شاكرون إذ يتقاضون راتبا يوميا من هذا البنّاء العصامى، وقد حسدهم زملاؤهم ممن لايجدون مثل حظهم فى العمل، فجعلوا يتوسلون للبنّاء كى يلحقهم بإخوانهم والرجل يأخذ الأسماء لديه مع العناوين، واعدا من يتوسم فيه النشاط بالعمل إذا خلا مكان لسبب من الأسباب.. وهيهات أن يخلو! وأنا أرثى لهؤلاء

• غلاء المهور مشكلة مزمنة لا تتقيد بجيل دون جيل

المساكين حين انتشوا بالفرحة الغامرة يوم ظهرت نتيجة الثانوية وأخذوا من الدرجات ما فوق الخامسة والتسعين وقدموا الأوراق للالتحاق بإحدى كليات القمة كلية الهندسة. ثم أصبحوا بعد التخرج فى وضع سواء مع من لم يقرأ صحيفة، أو يدخل مدرسة! فكيف يوجد الزوج المناسب فى هذا المأزق الأليم! كيف يوجد؟

التيسير مطلوب

وقد ييسر الله فيكون الأب على شىء من القدرة، أو يكون الشاب قد سعد بعمل حكومى بعد الكدح الطويل، فيبحث عن المسكن والزوجة ولكن هل يبحث عمن يشتهى ويرغب لصفات تجذب نفسه، ذلك مما يتعسر فى كثير من الأحيان، ولكنه يبحث عن شريكة فى محل تجارى تماما، يبحث عن موظفة يعرف راتبها على حقيقته، وهى أيضا تبحث عنه عارفة مايتناول من الأجر، وبدل أن تكون أيام الخطوبة مسرحا للأحلام الدافئة والأشواق الحارة فإنها تكون فى الحديث عن الوضع المادى المنتظر، وعما يجب نحو الشقة والأثاث وضروريات الحياة، وتطل أوجه الخلاف فى الرأى كثيرا كثيرا حتى يتوسط أولو الأمر فى تذليل العقبات! ثم يأتى اليوم



الموعود، فتطرد الحياة على نحو من الأنحاء .. إن اليسر المريح الذى يتم به زواج العاملة والعامل يقابله عسر شاق عند زواج غيرهما من أرباب الوظائف أو العمل الحر، فقد كان العرف فى الجيل الماضى عند الزواج يمضى بالتيسير إلى أبعد غاياته، فالخطبة لاتتطلب غير الدبلة أو ما هو قريب من أجرها كسوار المعصم مثلا، وكان المهر مناسبا لمقتضى الحال مالا وحفل الزفاف فى المنزل لايخرج إلى حد السرف، وكذلك حلة العروس، وهذا كل مايتطلب ، كان هذا من قبل، أما الآن فللخطبة شبكة غالية تقدر بالآلاف لا بالمئات، ولها أيضا حلة مناسبة تتفق مع ماترجوه العروس من نفاسة المادة ورونق المنظر، ثم يكون المهر من الجسامة بحيث يقضى كماليات الترف، وأبهة المنزلة، ويلى ذلك حفلة الزفاف التى يتحتم أن تكون فى مكان مرموق يدعى له الصفوة من المعارف والوجهاء وبعد ذلك يأتى مكان شهر العسل الذى يجب أن يكون مطمح الأنظار!! بلاءٌ متراكب إن تنازل بعض الواقعيين عنه عُد نقصا واضحا لدى من يتمنون خراب المنزل قبل أن يسكن، وأصبح موضع ملاحظة لدى ذوى الغرض فيكثر اللغط السفيه دون مبرر، وقد فكر كثير من المخلصين فى تجاوز بعض هذه الأعباء، ووضعوا من الاقتراحات مايخفف العبء الثقيل لدى المراهقين والمراهقات فى زمن التكاثر

بالأموال والمناصب، ويحضرني في هذا اقتراحان واقعيان أحدهما خاص بالشقة، وثانيهما خاص بالأثاث، وهما عماد الأسرة الضروري مما لايمكن الاستغناء عنه إذا استغنينا عن سواهما في جراءة تحمد ولا تذم بحال، أما اقتراح الشقة فقد تقدم به المهندس الكبير الدكتور ميلاد حنا، حين استنكر وجود هذه الأبراج العالية التي تهيأ لنفر من الخاصة وهم قلة لاتسد هذا الفراغ الذي اتسع اتساعا كانت عقباه أن تظل الشقق الفسيحة خاوية على عروشها، وأن يبحث أصحابها عن ذوي الجيب الثقيل فلا يجدون غير أن يعضوا بنان الندم آسفين، هذا الاقتراح يقضي أن تبنى عمائر خاصة بالشباب الطامح للزواج، على أن تكون نوعين، نوع يحتاجه من تزوج منذ ثلاثة أعوام ورزق طفلا أو اثنين وهما حسبه دون أن يزيد ونوع آخر لمن ينشيء الأسرة السعيدة عقب الزفاف ، فالفريق الأول في حاجة إلى العمارة التي تضم ثلاث حجر فحسب والفريق الثاني في حاجة إلى العمارة التي تضم حجرتين يظل بهما حتى يأتي الطفلان فيتركهما لعروس جديدة ثم يلحق بالعمارة ذات الحجر الثلاث! وعلى هذا النحو تسير مشكلة الإسكان نحو الحل المناسب دون بهرجة أو اتساع! وقانون المساكن الجديد يعطي الحق في تحديد المدة وجواز الانتقال من مكان إلى مكان، ولو عرف أصحاب الأبراج العالية أن الكسب الشره لايتيسر دائما. وأن المسألة لاتخرج عن حدود العرض والطلب، لأعدوا الشقق المتواضعة لمن يتطلب اليسر دون إرهاق، ولما أصبحوا الآن يعرضون الشقق للإيجار بنصف ما كانوا يفرضون من الأجر بعد أن أعياهم التمليك الدائم كما كان من قبل، وقاتل الله الأطماع!.

غلاء المهور

أما غلاء المهور فهو مشكلة مزمنة، لاتتقيد بجيل دون جيل، وفي السنوات الأولى من الثلاثينيات كانت الأزمة المالية آخذة برقاب الدول جميعها، إذ كانت أزمة عالمية وقد تأثرت بها مصر تأثرا بالغا، وهنا ظهرت أزمة المهور بصورة أوجبت الوقوف لديها من كبار المفكرين وكان في طليعتهم الاستاذ الكبير محمد مظهر سعيد الذي درس علم النفس في أرقى مدارس انجلترا وكان عضوا من أعضاء المجمع العلمي البريطاني ثم عميدا لدار المعلمين العالية ببغداد، وأستاذا لعلم النفس بالجامعة الأزهرية وله صيته المدوي حينئذ في الندوات والصحف وكان من حظه أن تشاركه زوجته المربية الاستاذة نظلة الحكيم في اتجاهاته الاجتماعية وهي متخرجة في كلية اكسترا الإنجليزية، وأستاذة بمعهد البنات العالي بمصر، وقد راعهما تفاقم أزمة الزواج لغلاء المهور، فعقدا ندوة علمية توضح علاج هذه الأزمة بما فعلاه



لماذا تصرف آلاف الجنيهات فى حفلة يهدر فيها المال وتنتهي برقص ماجن كريه ؟

فلما حين قرر ا زواجهما السعيد، وقد نشرت مجلة المعرفة الصادرة بتاريخ اكتوبر سنة ١٩٣٢ خلاصة ما قاما به معا لحل هذه الأزمة، وكان مما قاله الاستاذ محمد مظهر سعيد إن غلاء المهور هو العامل الحقيقي فى تصاعد هذه الأزمة، وقد اتفق مع السيدة نظلة الحكيم قبل الزفاف على أن يشتركا فى شراء أثاث المنزل قطعة قطعة بعد الاقتران الذى لم يكلفهما غير الضرورى من الفراش، وقد قاما بشراء مايلزم بالتدريج شهرا بعد شهر دون أن يثقلا على نفسيهما بشراء كل مايلزم مرة واحدة، إذ تعودا على ادخار جزء من الراتب الشهرى لكل منهما يقوم بشراء شيء جديد يحتاجه المنزل، وقدرا للاكتفاء عامين يتم فيهما الأثاث على أفضل مايريدان دون إرهاق! وهذا ما كان.

وقد أسهب الاستاذ محمد مظهر سعيد فى توضيح فكرته كى تحوز القبول من السامعين، وترك المنبر لزوجته الفاضلة الاستاذة نظلة الحكيم، فأيدت كل ما قاله الاستاذ مظهر وفاخرت به زوجا مدبرا، ثم تطرقت إلى نقد ما عرف بين الخطيبين من ضرورة الشبكة الذهبية ، فقالت إنه لاضرورة لها على الإطلاق، لأنها تقف عائقا دون إتمام الزواج على وجه سريع، لأن الذى دفع ثمن الشبكة سيحتاج إلى أمد طويل حتى يجد المهر المتفق عليه، والذين يتباهون بغلاء ثمن الشبكة وارتفاع قيمة المهر، يخضعون لعقل مادى لايلتفت إلى المعانى الروحية الجميلة التى يجب أن تكون فى اعتبار الزوجين كما أنها لاتقبل هذا التبذير الفاضح فى نفقات ليلة الزفاف إذ الأحرى أن تصان هذه النفقات لإسعاد الأسرة مستقبلا حين نضطر إلى مزاولة أسلوب الحياة على وجه منطقى مريح، وكانت السيدة نظلة الحكيم قد درست من قبل بعض المرهقات ذات العبء الملموس فشنت حملة على مايسمي بالنقوط وهو أمر لايزال مستمرا فى كثير من الأوساط فقيرة أو مثرية، لأن النقوط دين سيسترد فيما بعد، وسيحاسب عليه العروسان بعد أن يبيداه فى كماليات غير ضرورية وقد يفاجآن برده فى وقت لاتسمح ظروفهما بالسداد عند مناسبة تطرأ دون موعد محدد ، وبذلك أصبح النقوط دينا، ومن يتأخر عن سداده يقابل بالتقريع وكأنه أتى جرما شديدا..

التغلب على شقاء الحياة

وقد قالت مجلة المعرفة بعد أن نشرت كل ماقيل فى هذا المجال «إن هذه الآراء لو وجدت طريقها للذيوع لحققت لمن يريد الزواج أسباب التغلب على صعوبة المهر وشقاء الحياة الزوجية التى مازالت انباؤها تؤلف لنا أفجع

المآسي وتظهر حياتنا فى أسوأ الصور».

وهذا الكلام الذي قيل منذ سبعين عاما لم يشمل ما جدّ من تطور باهظ فى الإسراف البالغ حد السفه، إذ لو امتدت الحياة بالاستاذين مظهر سعيد ونظلة الحكيم.. لتحدثا عن الفنادق الرفيعة التى تقام بها حفلات الزفاف ويحدد لكل مدعو ثمنا للمأكل والسهرة لايقل عن مئة جنيه، فإذا كان المدعوون مائة فهذه عشرة آلاف مع أن هؤلاء المتظاهرين بالوجاهة يدعون فى كثير من الأحيان من لايكترث بدعوتهم لكنهم يلحون فى حضوره استكمالا لما يتوهمونه من الوجاهة الكاذبة ثم يأتى بعد ذلك النشر فى الجرائد فى مساحات تقل وتزيد وفوق مايدفع من الأجر الفادح أو اليسير فلابد أن يظهر العروسان فى أجمل مظهر، وقد يذكر من شرّف الحفل بالحضور، والمكانة الذى سيقضى فيه العروسان أيام الهناء الأولى، ثم يلحق ذلك تهنئات من الأحبة يقدر حسابها فيما بعد إذ أنها كالنقوط دين يجب أن يسترد! فبالله ، فيم هذا العناء فيما لاطائل تحته غير الولوع بالتقليد السفيه!.

لقد كان الريف بعيدا عن هذه المظاهر الكاذبة قبل أن يتصل بالمدينة اتصالا تؤكده أدوات الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون، حيث ساعد ذلك على إحكام التقليد من المدينة والقرية بحيث يرى أثرياء القرية من النباهة أن تقام الأفراح فى المدينة، وفى أفخم قاعاتها المعدة لذلك والخاسر فى هذا المجال هم الفقراء وحدهم، إذ كان من عادات الأثرياء فى القرية من قبل أن تذبح الذبائح يوم الفرح، وأن يحضر الفقراء صفوفا لأخذ ما يلذ لهم من اللحم الطيب، وهم يترقبون هذه المناسبات ويعدونها عيدا ينفحهم بالخير، فبطل ذلك، وقام مقامه التباهى بالذهاب إلى المدينة وإذا لم تكن عاصمة المحافظة لائقة فالعاصمة الكبرى وهى القاهرة أفخم وأروع، وكم يتكلف ذلك ولكنه التكاثر بالمال والجاه.

لكم تطورت الأيام فى أقل من نصف قرن فقد كان احتفال الزفاف فى كثير من حالاته يتجه فى إحدى ليلتيه إلى قراءة كتاب الله من تلاوة قارئ حسن الصوت يقوم مقام الطبل والرقص والمزمار، وقد شاهدت فى الخمسينيات بمدن الصعيد، هذه الظاهرة الحميدة التى تذكر الناس بالتقوى والبر وتبعد بهم عن سفاف اللهو والعبث، وهى ظاهرة تمتد بعروقها إلى زمن متقدم، ولعل قراء الهلال يذكرون أنى أشرت فى بعض مقالاتى إلى وصف شائق بديع كتبه الشاعر الكبير خليل مطران عن حفلة زفاف، اكتفى صاحب أمرها، وهو من وجهاء القاهرة وكبراء أثريائها، بإقامة حفل قرآنى تتصدره قارئة ذات صوت مؤثر بلغت من نفوس السامعين أشجى وأعذب ما يبلغه مغرد

والمطلوب أن نعود للسنن الحميدة بقراءة كتاب الله بدلا من الطبل والرقص والمزمار!

طروب ، وأنقل هنا بعض ما هتف به الشاعر الكبير فى مقاله الفريد بعد أن ذكر اسم صاحب الاحتفال، واسم القارئة المجيدة اسمهان».

«كان صوتها يسلسل الآيات كعقد الجواهر، على صفاء ، وكان تلحينها مستويا كأنه يمهد لما سيتلوه، وأخذ الصوت يتنقل بين الحزن والمفرح، والترغيب والترهيب والزجر والوعد، وكلما تمادت فى القراءة عظم الشعور فى نفوس الحاضرين وجميعهم من ذوى المقام، فيكون صدى شعورهم التكبير والتهليل».

إهدار المال

ولا أطيل فى اقتباس ماذكره الاستاذ خليل مطران، حيث أشرت إليه فى مقال سابق، ولكنى أتساءل: أيهما أدعى إلى الروعة والتسامى فى هذه المناسبة قارئة حسنة الصوت تتلو كتاب الله فتقابل بالتكبير والتهليل، أم بذل آلاف الجنيهات فى حفلة تنتهى برقص ماجن كريه ثم تكون العاقبة إهدار المال فى أحسن وجوه الإنفاق! وإذا كان كثير من المدعوين ذوى الوجاهات المزعومة لا يحضرون فإن ما يترك من الطعام يضيع ثمنه على الداعى الفخور إذ لو كان هذا المال أو بعضه تبرعا لعائلة مسكينة أخنى عليها الدهر، أو جمعية خيرية تعين أرباب الحاجات، أو نقودا مجزية تعود على الأسر الكادحة فى القرية التى أنجبت صاحب هذه الوليمة، أفما كان ذلك جميل الأثر لدى الله ولدي الناس؟

على أننى قرأت منذ شهور مايدعو إلى العجب حقا، فقد ذكرت باحثة اجتماعية فى رسالة تحدثت الصحف عن بعض نتائجها، وإن نسبة كبيرة من زوجات هذه المحافل قد طلبن الطلاق بعد أقل من عام، كما أن إحصائية دقيقة ذكرت أن نسبة المطلقات من المتعلمات أضعاف أضعاف نسبة غير المتعلمات؟ فما معنى ذلك؟ معناه فى الحالة الأولى أن الزواج كان صفقة بيع لا ثمرة حب وتقدير وأن الأيام القليلة التى أعقبت الزواج قد كشفت مطامع أحدهما فدب الخلاف لدرجة لم تحتمل الصلح إذ كان أبغض الحلال لدى الله هو الحل، ومعناه فى الحالة الثانية أن المتعلمة ذات الوظيفة المحسوبة قد أفاقت من غشيتها فعلمت أنها تقوم بما يجب أن يقوم به الزوج من أعباء! وإذا كانت ذات استقلال مادى مضمون، فلم تتحمل نفقات كان من الواجب على الزوج الطامع أن يقوم بها؟ وقد كنا فى الماضى قبل أن تكثر وظائف المتعلمات نرجع فى تعليل هذه الظاهرة ظاهرة الطلاق إلى أمية الزوجة، وعدم ثقافتها التى توجب عليها أن تكون زوجة ذات رسالة فماذا يقول الآن أصحاب هذا التعليل حين يرون أن غير المتعلمة

المخلصة تؤدى دور الزوجة فى رضا وابتسام، وتعرف أن سعادة الأسرة لاتتم بغير التسامح والاحتمال، وبذلك تستمر الحياة العائلية دون شقاق، ويعيش الابناء فى جو طبيعى لاتعصف به الأهواء! حيث يرون فى الناحية الأخرى بواعث الشقاق تحتدم عند المتعلمات، لقد كانت الأمية مظلومة كل الظلم حين أرجعنا إليها السبب فى الشقاق! على أننا فى الحقيقة نجهل معنى الأمية حين نحصرها دائما فى التعليم المدرسى وحده. وهو حصر لايجد مدلوله المنطبق تماما، لأن الأمية الخلقية أدهى عاقبة، وأشد نكالا من الأمية التعليمية، فإلى حين نستطيع أن نمحو الأمية فترتفع بالسلوك الإنسانى إلى مستوى لائق، نكون قد عرفنا الأمية بمعناها الشامل الأكيد، وأقول بعد ذلك إن من ذوى الشهادات الجامعية أميين وأميات، لأنهم لم يجدوا التربية الخلقية الدافعة إلى التسامح والحلم والإيثار! وأن مناهج الدراسة فى حاجة إلى توجيه جديد !!

إن التواضع المعقول فى حفلات الزواج يعطى الزوجين درسا نافعا فى ضرورة الاعتدال، والبعد عن التبذير فيستقبلان الحياة استقبالا طبيعيا لامجال فيه للتزيد والادعاء، كما يفهمان منه أن السعادة الحقيقة تنبع من داخل الإنسان ولن تأتى من المظاهر الخارجية الجوفاء، فإذا استشعرا السعادة الداخلية فإنهما بها يتغلبان على العقبات دون عناء، ويكونان من الذين قال الله فيهم.

(والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما).■

كلمات عاشت

● ما أيسر أن تفقد الخرافة سطوتها حين تعترض غرورنا بدلا من أن تتملقه، وشأن الخرافة فى ذلك شأن وهميات أخرى كثيرة.

جيته

● أربع صحف معادية يخشى بأسها أكثر من ألف حربة!

نابليون الأول

● حتى اغتراف الماء بالمصفاة، تستطيع أن تحققه ، إذا صبرنا حتى يتجمد الماء.

محمد رفعت

● الكلمة أسيرة فى وثائق الرجل، فإذا تكلم بها صار فى وثاقها.

● دقات قلب المرء قائلة له

إن الحياة دقائق وثوان

شوقى

على هامش رحلة

أبو الغار

بقلم

د. جلال أمين





د. محمد أبو الغار

لاشىء فى رأيى، أفضل للكاتب الذى يريد أن يصل إلي قلب القارىء ويحظى بتعاطفه، من أن يترك نفسه على سجيته، فإذا كان هذا شيئاً محموداً ومطلوباً في مختلف أنواع الكتابة الأدبية، فهو أوجب وأفضل فى كتابة السيرة الذاتية. وهذا بالضبط مافعله الدكتور محمد أبو الغار فى كتابه الذى صدر أخيراً عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بعنوان (على هامش الرحلة).

ليس فى هذا الكتاب أى مظهر للتحذلق أو التقعر أو التظاهر بغير الحقيقة، بل يكتب المؤلف وكأنه يتكلم يحكى لك قصة حياته، وعلى الأخص ماتعلق منها بتطور مصر السياسى والاجتماعى، بصدق وإنصاف وتلقائية تامة ، فكانت النتيجة كتاباً جميلاً يأسرك ويحظى على الفور بتعاطفك ، ولكنه أيضاً يمدك بمادة غزيرة للتفكير فى آلام مصر وأوجاعها.

الدكتور محمد أبو الغار يظهر من هذا الكتاب كحكاء عظيم ، يجيد رواية ماحدث له، فلا يغرقك فى تفاصيل لاحاجة لك بها ولا مغزى لها، ويمتلىء حديثه بالطرائف الغنية بدورها بالمعنى والمغزى (وإلا ماستحقت أن تروى بل وربما ماكتسبت طرافتها) ، كما ينم حديثه عن تعاطف إنسانى عميق مع مآسى الآخرين.

لقد عرفت فى حياتى عدداً من الحكائين العظام، كان يدهشنى منهم دائماً قدرتهم على الاستحواذ على اهتمام الناس بما يقولون، والاحتفاظ بهذا الاهتمام حتى وهم يروون أدق تفاصيل حياتهم أو تفاصيل حادث طارىء مر بهم، إذ كنت أتعجب كيف يقبل المرء على الاستماع إلى هذه التفاصيل منهم بشغف، مهما كانت تفاصيل صغيرة وقليلة الشأن، بينما ينفر تمام النفور من الاستماع إلى أمثال هذه التفاصيل من أشخاص آخرين؟ وقد توصلت إلى التفسير الآتى: إن الأمر لايتعلق بمجرد طريقتهم فى رواية هذه التفاصيل بل يتعلق فى الأساس باختيارهم لما يروى ومالا يروى، والأهم من ذلك، أنه يتعلق بالمغزى الذى فهموه من هذه التفاصيل ويريدون توصيله إليك. إن نفس الحادث يصادفه شخصان فيفهمه كل منهما على نحو مختلف عن فهم الآخر، ويستخلص منه معنى غير الذى يستخلصه غيره . فإذا روى الشخصان نفس الحادث فلا مفر من أن تقترن رواية الحادث بالمعنى الذى فهمه الراوى منه، فإذا كان معنى تافهاً كانت القصة كلها تافهة، والأرجح أن تثير فى نفس سامعها السأم والضجر.

ليست هكذا رواية الدكتور أبو الغار لما مر به من أحداث مصر فى النصف الثانى من القرن العشرين، فالمعانى التى يستخلصها هى دائماً معان ذات قيمة تثير الاهتمام، وأكثرها معان نبيلة تثير الاحترام.

ولكن رواية د. أبو الغار لقصة تطور مصر السياسى خلال الخمسين عاماً الماضية، لاتأسرك فقط بعمق معانيها ونبلها بل وأيضاً بإنصافها. فسرعان ماتدرك، بعد أن تقرأ بضع صفحات من تعليقاته على أحداث ثورة يوليو، أنه لايحكم على أحداث الثورة من وجهة نظهر رجل صاحب ثأر، أو رجل له حساب يريد تسويته . إن له طبعاً تفضيلاته وتحيزاته (فمن يستطيع أن يتخلص من جميع التحيزات أو حتى يحب أن يتخلص منها؟).

ولكن تحيزاته ليست تحيزات أنانية، بل مستمدة من انتماء قوى لبلده وقومه، وعلى الأخص للمضطهدين منهم. ومن ثم فالأرجح أن تكسب روايته تعاطف معظم من يقرأونها، إذ إن معظمهم ليس لديهم ذلك الثأر أو تلك الحسابات المطلوب تسويتها.

الحقبة الناصرية

إن لدى الدكتور أبو الغار انتقادات مرة للحقبة الناصرية ولكنه يدرك بوضوح



ماحققته السياسة الناصرية من منافع للجماهير الغفيرة للمصريين فى الريف والمدن، ممن لم يلتفت إليهم أحد لا قبل ١٩٥٢ ولا بعد انتهاء الحقبة الناصرية فى ١٩٧٠. فلنقرأ مثلاً ماكتبه عن الوحدات الصحية التى انشئت فى الريف المصرى فى عهد عبدالناصر:

«أعتقد أن مشروع الوحدات الريفية كان أحد المشروعات الصحية التى بدأت بفكرة عظيمة وخطط لها جيداً ونفذت بسرعة وكفاءة وأدت خدمات صحية جليلة للمواطنين فى الريف المصرى، لكن تغير استراتيجية الدولة قضى تماماً على هذا المشروع. وأعتقد أن كل القرى قد بنيت فيها وحدات ريفية، وكان بكل وحدة طبيب، وكانت الأدوية تكفى المرضى فى القرية ، وكان التطعيم ضد الأمراض المعدية وعلاج الأمراض المتوطنة يتم مجاناً بكفاءة معقولة ، وكانت الحالات التى تستدعى علاجاً أو تدخلاً جراحياً ليس فى مقدور طبيب الوحدة تحول إلى المستشفى المركزى، وكانت معظم الوحدات منتظمة، وكان الأطباء فى أغلبهم سعداء بالعمل فى هذه الوحدات، وبالتأكيد كان لهذه الوحدات الفضل الأكبر فى رفع المستوى الصحى للفلاح المصرى، وللأسف مع انهيار النظام الاشتراكى وضعف المخصصات الصحية وارتفاع أسعار الدواء، أصبحت معظم الأدوية المطلوبة غير موجودة بالوحدات الريفية ، وتحولت الوحدات الريفية بالتدريج إلى عيادة خاصة للطبيب الذى يتقاضى مرتباً ضعيفاً بالنسبة لارتفاع مستوى المعيشة ، فأصبح يكشف فيها بالأجر ويصرف للمريض الدواء من الصيدلية الخاصة، وهكذا انتهى مشروع الوحدات الريفية العظيم إلى مشروع إنشاء عيادات خاصة للأطباء على حساب الدولة فى عهد الاقتصاد الليبرالى المفتوح» (ص١٩١).

نقد عصر السادات

والكتاب يحتوى على نقد لاذع وشديد المرارة لما جلبه انفتاح عصر السادات على المجتمع المصرى. يظهر هذا من الفقرة التى اقتطفتها حالا عما جرى للوحدات الصحية فى الريف، ولكنه يظهر

أيضاً عند حديثه عن أثر الانفتاح على مجالات أخرى، كهذه الفقرة المؤثرة جداً عما أصاب تعليم الطب فى عصر السادات:

«فى تلك الفترة بدأ أعضاء هيئة التدريس بكلية الطب فى التخلى بالتدريج عن العمل فى قصر العينى، وأصبح هذا المكان الذى يعطيك المكانة العلمية والوجاهة الأكاديمية ويمكنك أن تستغله فى رفع أسهمك فى العمل فى القطاع الخاص ... ودخلت لغة الإعلام، وأصبحت الشهرة فى العمل الخاص تأتى من الصحف ومن التليفزيون ومن العلاقات العامة ... وسمعنا عن قضايا دفع فيها الأطباء رشوة ليظهروا فى البرامج التليفزيونية .. وفى سنوات بسيطة فى تلك الفترة تم تفريغ قصر العينى من معظم أعضاء هيئة التدريس وأصبح الأمر لاضابط له ولا رابط ، وأصبح الحضور منعدماً، فهناك مدرسون وأساتذة يذهبون لقصر العينى مرة كل شهر أو شهرين أو أكثر، وأحياناً لايذهبون إطلاقاً، وفقد العلم أهميته ، وبالتالى فقد قصر العينى مكانته كمؤسسة علمية ... ولم يعد يهتم العميد أو رئيس القسم بأى مجهود علمى. وتدريجياً تم إلغاء المرور الاكلينكى لهيئة التدريس على المرضى وفى بعض الأقسام، وتدريجياً اختفى الاجتماع العلمى الأسبوعى وبالتدريج توقف البحث العلمى، وتبقى الأبحاث التى تنشر فى المجلات العالمية فى القليل النادر ومن أفراد معدودين يقومون بمجهودات فردية لوضع اسم مصر على الخريطة العالمية .....» (ص ٢٨٥ - ٧).

ولكن المؤلف لديه أشياء طيبة أيضاً ليقولها عن السادات (لا أوافقه فى بعضها، ولكن هذا ليس موضوعى الآن) وانتقادات مرة لعصر عبدالناصر، تتعلق أساساً بافتقاد الديمقراطية السياسية وتقييد الحريات الفردية . وللدكتور أبو الغار نفس الموقف المنصف من الجماعات الإسلامية بمناسبة نشاطها فى نقابة الأطباء واكتساحها لجميع مقاعد مجلس إدارتها، فيعقب على ذلك بقوله:

«يجب أن أعترف بأنه بالرغم من سلبيات وجود نقابة يتحكم فيها بالكامل تيار دينى، إلا أن هذا المجلس كان له السبق فى القيام بخدمات كثيرة للأطباء من أهمها مشروع التأمين الصحى على الأطباء وعائلاتهم والذى حقق نجاحاً كبيراً وكان المثال الذى طبقته باقى النقابات ، وهذا النظام لم يخدم الأطباء وعائلاتهم فقط بل منع المغالاة فى أجور الأطباء وحد من رفع أسعار العلاج بالمستشفيات الخاصة... وقامت النقابة أيضاً بعمل دورات تدريبية طبية وسلسلة من المحاضرات



العلمية وكذلك مؤتمر علمي سنوى ...» (ص ٢٩٨).

هكذا يستقر لدى القارئ، شيئاً فشيئاً، شعور راسخ بأن هذا المؤلف رجل منصف، لن يمنعه حب غامر لشخص من أن يذكر أخطاءه، أو سخط شديد على آخر من أن يذكر محاسنه. وترتب على ذلك نتيجة طيبة للغاية ، إذ عندما جاء دور الكلام عما أنجزه المؤلف نفسه فى مجال تخصصه ، وهو الطب، ودفعه الانصاف نفسه إلى أن يذكر ماقام به هو من أعمال جليلة، تعاطف القارئ معه كل التعاطف، إذ إنه لم يعهد من المؤلف محاباة الغير فلماذا يأتى الآن ويحابى نفسه؟ إن روح الانصاف قد جعلته يعطى لنفسه أيضاً حقها، ولكن الحس السليم جعله يتكلم عن إنجازاته هو بسرعة ودون إطناب، إذ لابد أنه يعرف جيداً أن من الأفضل والأحكم أن يترك المرء الإطناب فى الحديث عن مآثره لغيره ، حتى وهو بصدد كتابة سيرته الذاتية، وهذا هو مافعله المؤلف بالضبط.

شاهد علي تطور المجتمع المصري

والكتاب غنى بالمعلومات عن تطور المجتمع المصرى فى النصف الثانى من القرن العشرين، وخاصة خلال الستينات والسبعينات، ومن ثم أجده مصدراً ثميناً لأى دارس لحياة مصر الاجتماعية والسياسية فى هذه الفترة . فوصفه للفترة التى عمل فيها المؤلف مسئولاً عن الوحدة الصحية فى إحدى قرى المنوفية فى الستينات، يخرج منه القارئ بصورة بالغة الوضوح والدلالة للحياة الاقتصادية لسكان الريف المصرى وعلاقاتهم الاجتماعية وعلاقتهم بالحكومة فى القاهرة.

ولكن القارئ لابد أن تصيبه الدهشة (والحزن أيضاً) لما يظهر من ثنايا الحديث، من سمات إيجابية للغاية، كانت تطبع حياة الطبقة الوسطى المصرية قبل نصف قرن، وأخذت تتلاشى بالتدريج وحلت محلها سمات مناقضة تماماً وبعضها كريه جداً . تتعلق هذه السمات بما كانت عليه العلاقة بين المسلمين والاقباط فى مصر منذ

خمسين عاماً وما آلت إليه بالتدريج، وموقف المصريين من الأجانب الذى كان يتسم بثقة أكبر بالنفس منه الآن ، مع تسامح أكبر، وموقف المصريين من الدين الذى كان بدوره أكثر تسامحاً وأشد عقلانية مما نراه الآن .. الخ.

التلقائية والبساطة

لا أستطيع أن أزعم أن ترك المؤلف نفسه على سجيتها، وتلقائيته فى الكتابة، مع كل مالهما من مزايا وآثار طيبة على الكتاب، لم يكن لهما أى ثمن على الإطلاق. ذلك أن ترك المرء لنفسه على سجيتها تماماً لابد أن يكون ثمنه التضحية ببعض الأناقة . من مظاهر هذه التضحية فى هذا الكتاب مايلاحظه القارىء من تشعب الحديث فى الفصل الواحد إلى موضوعات متعددة لايربطها إلا حدوثها فى نفس الفترة من حياة المؤلف، ومن ثم جاءت عناوين بعض الفصول ضعيفة الدلالة على محتوياتها. ومن مظاهر هذه التضحية أيضاً التخلى أحياناً عن اعتبارات البلاغة فى سبيل مراعاة الصدق التام فى التعبير عن المشاعر أو ذكر حقيقة الحدث كما وقع بالضبط. ولكن هــذا الثمن الذى دفعه الكتاب فى سبيل أن يحتفظ الكاتب بالحرية الكاملة فى التعبير عن نفسه ، كان ثمنا زهيداً جداً فى رأيى، وقد حصل القارىء فى مقابله على كتاب على درجة عالية من الحيوية والجاذبية. بل إن ترك المؤلف لنفسه على سجيته قد سمح له أيضاً بفرص أكبر للتعبير عن معانى مبتكرة وأفكار جديدة حتى أثناء تطرقه لموضوعات تناولها من قبله.

***

فى الصفحات الأخيرة من الكتاب وتحت عنوان «خاتمة»، قد يتوقع القارىء أن يتكلم الكاتب عن آخر إنجازاته وأعماله، أو أن يلقى نظرة عامة على حياته فيلخص أهم أحداثها أو يستخلص منها العبر ولكن الكاتب هنا أيضاً يطلق لنفسه الحرية فيختار أن يتكلم عن آخر أيام أبيه ثم وفاته ، والأحداث هنا عادية ، ولكنها تكتسب من حب المؤلف لأبيه وحدبه عليه وتقديره له مذاقاً خاصاً وتترك فى القارىء أثراً قوياً.

نحن إذن مدينون للدكتور محمد أبو الغار بكتاب جميل، يجلب المتعة والفائدة، ويثير فى النفس مشاعر نبيلة، ويجعلنا نتطلع إلى المستقبل بأمل أكبر. ■

يهود العراق والاحتلال الأمريكى

بقلم

مصطفى نبيل

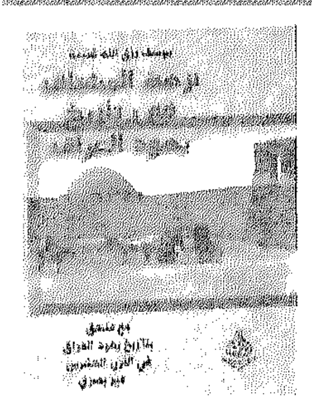
حان الوقت لكى نفتح ملف يهود العراق..

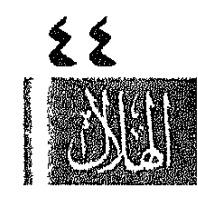
خاصة بعد أن انهمرت على سلطات الاحتلال الأمريكية طلبات يهود العراق من أجل زيارة العراق، أحيانا من أجل الحصول على تعويضات عن أملاكهم، وأحيانا، حنينا للمناطق التى ولدوا فيها.

وجاء زمن استرداد ثمن الدور الذى لعبه يهود العراق قبل وخلال غزو العراق، والذى كشفت بعض جوانبه وبقى الكثير منها فى طى الكتمان!

وبدأت - على الفور - المطالبة بإعادة تشغيل خط الأنابيب الموصل - حيفا والذى توقف سنة ١٩٤٨.

والسؤال الذى يطرح نفسه بإلحاح اليوم هو .. هل تبعث من جديد تلك المقايضة التى طرحت عام ١٩٤٩ بين بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل ونورى السعيد رجل العراق القوى؟!







الملك فيصل الأول فى زيارة للطائفة اليهودية -١٩٢٤

وهو اللقاء الذى كشف عنه مؤخراً نعيم جيلاوى اليهودى العراقى المقيم فى نيويورك. والذى كشف عن جانب من نشاط الحركة الصهيونية فى العراق، والذى يقول فيه.. «تم لقاء بين بن جوريون ونورى السعيد سنة ١٩٤٨ فى فيينا بترتيب خاص من السلطات البريطانية.

وطرح خلال هذا اللقاء طلب بن جوريون تسهيل هجرة اليهود العراقيين إلى إسرائيل، واستقبال العراق عدد من الفلسطينيين.. وأن ينقل يهود العراق بشاحنات عراقية عن طريق الأردن.

وكان رأى الإنجليز أن هذه مقايضة لم يحن أوانها بعد.

وبعدها أرسلت إسرائيل مردخاى بن بورات إلى بغداد، الذى وعد نورى السعيد بمساعدات مالية كبيرة، إذا صدر قانون يجرد اليهود العراقيين من الجنسية..».

وهو ما وقع بالفعل بعد ذلك عام ١٩٥٠، عندما شكل توفيق السويدى وزارته، وكان صالح جبر وزيرا للداخلية، وأصدرت الحكومة قانون إسقاط الجنسية عن اليهود الراغبين فى ترك العراق!

ويلقى الماضى الضوء على الحاضر والمستقبل.

ولم يبق اليوم من اليهود فى العراق سوى أعداد قليلة لا تتجاوز العشرات من كبار السن. رغم أن عدد يهود



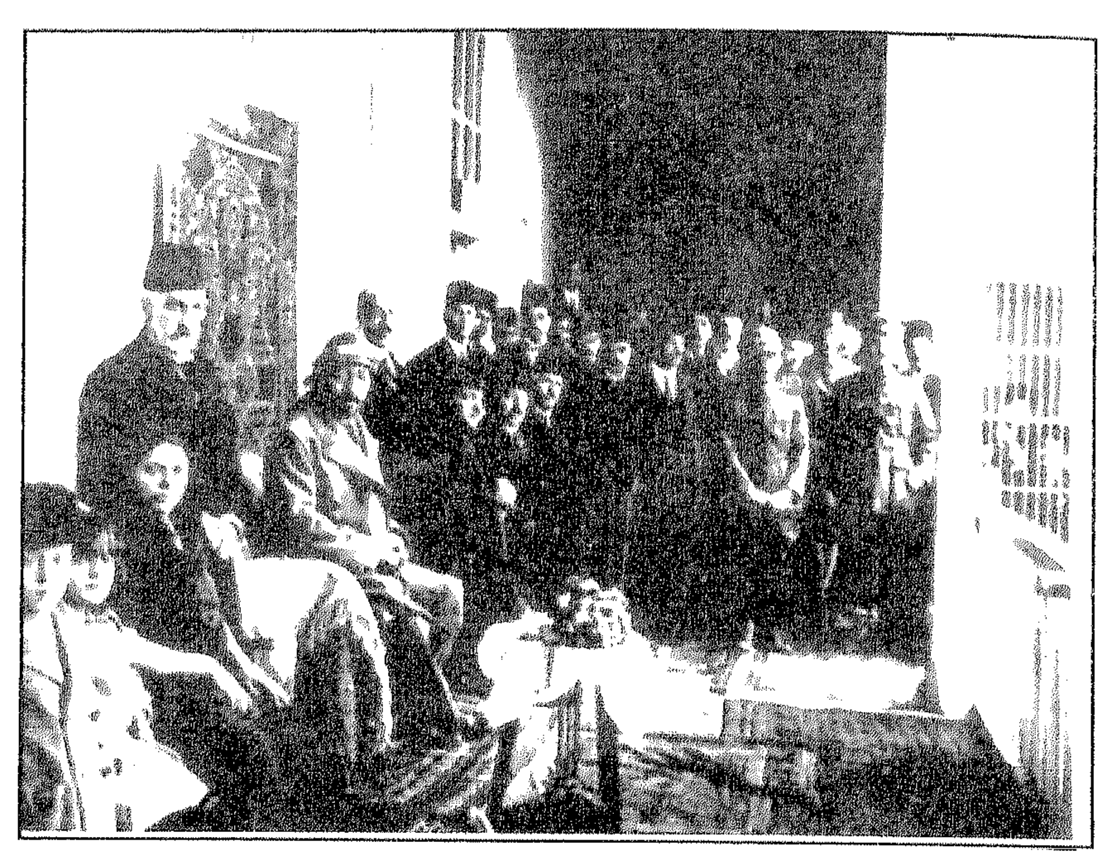
مجموعة من المدرسين فى مدرسة الاليانس التى أسستها جمعية الاليانس الإسرائيليه الفرنسيه - ١٩٢٦

العراق، كان يأتى فى المرتبة الثانية من عدد اليهود العرب بعد يهود المغرب، وبلغ تعداد يهود العراق فى منتصف القرن الماضى ، أى بعد قيام إسرائيل نحو ١٢٠ ألف يهودى، وتراجعوا سنة ١٩٥٨ إلى ستة آلاف، ثم تناقصوا سنة ١٩٦٩ إلى ألفين وخمسمائة يهودى!

هذا غير اليهود الأكراد الذين بلغ عددهم ١٠٠ ألف (موسوعة اليهود واليهودية د. عبدالوهاب المسيرى)، وفى المقابل كان يهود البلاد العربية يشكلون أقلية صغيرة بالنسبة ليهود العالم، وأصبح اليهود العرب يشكلون أغلبية سكان إسرائيل.

نزهة المشتاق

وصدر كتاب قديم سنة ١٩٢٤ ، يستعرض أوضاع يهود العراق، كتبه يوسف رزق الله غنيمة، أحد المثقفين والوزراء السابقين ، وعنوانه «نزهة المشتاق.. فى تاريخ يهود العراق»، يمكن أن يعتبر هذا الكتاب مدخل ملف يهود العراق، فالرجوع إلى ما جاء فيه يلقى الضوء على الكثير من الحقائق.. ولا ينال من موضوعية الكتاب أى مأخذ، فهو مسيحى عراقى، وقد أبرز خلال كتابه أن يهود العراق ليسوا مثل غيرهم من اليهود، فهم يعيشون على أرض العراق منذ العصر البابلى، أى منذ ٢٥٠٠ سنة وقبل ميلاد المسيح بستمائة سنة، ويعتبرون .. «العراق وطن أجدادهم



الملك فيصل الأول فى زيارته لمدرسة الأليانس - ١٩٢٤

ومنشأ آبائهم ومهد لغتهم»، ولعبوا على الدوام أدواراً حيوية فى المجالات المختلفة، ودليله على ذلك تولى ساسون حسقيل منصب وزير المالية، وإعلان الملك فيصل فى لقاء مع ممثلى يهود العراق، المساواة بين العراقيين على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم».

وهذا لا يعنى بالطبع، أن أيامهم كلها كانت «لبنا وعسلا»، فأى تجمع بشرى، يمر بأيام سعد وأيام ضيق.. ففى أيام الضيق أجبر غير المسلمين على ارتداء أزياء مميزة، فمثلا أجبر بعض الولاة النساء اليهوديات على ارتداء أحذية ألوانها مختلفة ، إحداها سوداء والثانية بيضاء !.

وقد أصدر الفقهاء فتاوى يدينون فيها التفرقة بين البشر..

ونعود إلى ما جاء فى كتاب «نزهة المشتاق».. «تواصل دور يهود العراق من العصر البابلى إلى العصر العباسى، وفى العصر العباسى اشتهر من اليهود سعديا بن يوسف الفيومى، وهو من أصل مصرى والمتوفى سنة ٩٤٢م ، والذى ترك خلفه العديد من المؤلفات القيمة، وعلى رأسها الترجمة العربية للعهد القديم، والتى سماها «تفسير» تواضعاً وتحاشيا لسوء الفهم، وتولى منصب الرئيس الروحى لليهود، وتحولت ترجمته إلى نص مقدس.

وأورد الكتاب عددا غفيرا من اليهود الذين لعبوا أدواراً هامة فى مجالات مختلفة.

ومن أسباب رضاهم أن الشريعة الإسلامية لا تفرق بين اليهود والنصارى، لذا استمرت العراق مركزا للتشريع اليهودى سواء أيام بابل أو بغداد.

في العصر العثماني

أما أيام الدولة العثمانية، فيورد قول أحد اليهود هو إسحق زرفاتى الذى يبعث رسالة حول يهود العراق ويرسلها إلى يهود كل من ألمانيا والمجر، يدعوهم خلالها إلى القدوم إلى بلاده، ويصف ما يتمتع به اليهود من امتيازات.. «فى أرض الدولة العثمانية لا ينقصكم شىء، وإن شئتم وافتكم كل الأحوال وفق رغباتكم.. أفليس الأفضل لكم أن تسكنوا تحت حكم المسلمين، فهنا ترتدون أفخر الثياب، ويتمكن كل واحد منكم من الجلوس تحت كرمته أو شجرة تينه. أما هناك فلا تجسرون على إلباس أبنائكم اللون الأحمر أو اللون الأزرق!».

ظهر التسامح جليا أيام العثمانيين فى القرن السادس عشر، فسمحوا مثلا للاجئين اليهود الذين طردوا من إسبانيا عام ١٤٩٢ بالعيش فى بلادهم، فكان وضع اليهود داخل المجتمع المسلم أحسن من وضعهم فى أوروبا القرون الوسطى.

ويذكر الرحالة «نيبور» خلال رحلته التى قام بها إلى العراق سنة ١٧٦٦.. «يكسب القوم (اليهود) معيشتهم بحرية تفوق الحرية التى يتمتعون بها فى أوروبا، التى يحظر عليهم فيها السير فى الطريق!».

ومن ولاة بغداد الذين يذكرهم اليهود بالخير الوالى مدحت باشا الذى نزل بغداد سنة ١٨٦٨م ، وبث فيها روح المساواة والحرية والعدالة، وانتعشت أيام ولايته الحالة الاقتصادية.

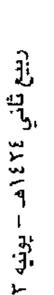
ويمضى يوسف رزق الله قائلا.. «عندما بدأ مجلس المبعوثين فى الأستانة عمله عام ١٨٧٦، انتخب من يهود بغداد «مناحيم دانيال»، كما انتخب «ساسون أفندى» حاخام حسقيل لمجلس المبعوثين بعد إعلان المشروطية «الدستور»، وتجدد انتخابه فى دورات المجلس جميعها وحتى قيام الحرب العالمية الأولى.

وهو أول وزير مالية فى حكومة العراق، شغل الوزارة من ٢٠ حتى ١٩٢٥ مع انقطاع عام ، واشترك فى وزارتى عبدالمحسن السعدون وعبدالرحمن النقيب.

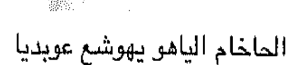
عليا وعصام

ويكمل كتاب «نزهة المشتاق» مير بصرى الذى استعرض ما جرى ليهود العراق فيما تبقى من القرن العشرين، عندما ظل معظم يهود العراق بمنأى عن التهميش وتمتعوا بقدر كبير من الاستقرار والرخاء الاقتصادى.

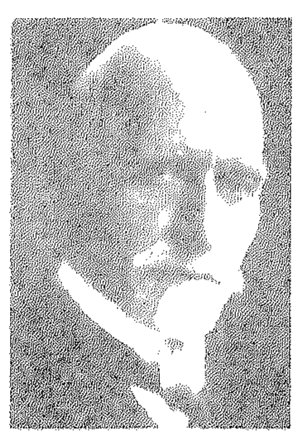
.. كل فرد من اليهود ينتمى بعربيته إلى السموأل اليهودى العربى، فقد ساهم اليهود فى نهضة العراق، فمثلا جلبت إحدى شركاتهم أول استوديو للإخراج السينمائى، التى أخرجت أول فيلم سينمائى فى العراق «عليا وعصام» سنة ١٩٤٨، كما أسس اليهود المصارف والتى كان فى طليعتها بنك زلخة الذى امتدت







الحاخام الياهو يهوشع عوبديا



ساسون حزقيل



مناحم دنيال

فروعه من العراق إلى سوريا ولبنان ومصر وباريس ونيويورك.

وعندما انتخب المجلس التأسيسى العراقى سنة ١٩٢٤، كان عدد ممثلى اليهود خمسة نواب، وفى سنة ١٩٤٦ زيد عدد النواب اليهود إلى ستة نواب، (٣ من بغداد و ٢ من البصرة و١ من الموصل) وانعكست هذه الفترة فى كتاب السير أرنولد ولسن «عــواطف الولاد: بلاد الرافدين»، وجاء فيه.. «أنه حين علم بصدور وعد بلفور ، دعى إلى مكتبه بعض وجهاء اليهود ليبشرهم بالخبر، لكنه لاحظ الوجوم على وجوههم، وقالوا: إن فلسطين مركز روحى لنا، ولكن وطننا هو العراق، وهى البلاد التى عشنا فى ربوعها آلاف السنين وعملنا فيها وتمتعنا بخيراتها..».

وأعلن يهود العراق دائما وفى مختلف المناسبات معارضتهم للحركة الصهيونية وتمسكهم وولاءهم للعراق.

وكان هناك وجود يهودى ملحوظ فى الحياة السياسية، وكذلك وجود فى الحزب الشيوعى العراقى كالصحفى اليهودى نعيم قطان ومراد العمارى، اللذين تبنيا موقفا معاديا للصهيونية، بل وأسسا منظمة «عصبة مكافحة الصهيونية»، كما طلبت الحركة الشيوعية العراقية استقالة أعضاء القيادة من اليهود عندما احتدم الصراع فى فلسطين.

ويقول د. عبد الوهاب المسيرى فى موسوعته.. «فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وبعد احتلال بريطانيا العراق، أقامت الوكالة اليهودية جهاز مخابرات يتبعه قسم عربى، ويترأسه «موسى شاريت» ، وبعدها قام الموساد عام ١٩٣٧ بتأسيس مركز تدريب يدرب يهود العراق على أعمال الجاسوسية».

وزرعت بذور الشقاق!

نعيم يتكلم

وكتب نعيم جيلاوى اليهودى العراقى، مقالاً حول «يهود العراق»، وهو الذى أصدر كتاب «فضائح بن جوريون» وكيف أخرجت الموساد والهاجانا اليهود من ديارهم»، والذى اعترضت عليه الرقابة فى إسرائيل، ونشره على نفقته فى أمريكا، وهو يبلغ من العمر تسعة وستين عاماً، ويعترف أنه ارتكب أعمالاً فى صباه

عندما كان فى الثامنة عشرة من عمره ، اشترك مع الحركة الصهيونية فى أعمال عنف بهدف دفع يهود العراق إلى الرحيل، وهو يعتبر نفسه ينتمى إلى الثقافة العربية فهو عربى الثقافة ، يهودى الديانة، أمريكى الجنسية.. «فنحن اليهود القادمين من البلاد الإسلامية لم نغادر ديارنا نتيجة أى صورة من صور العداء للسامية، لذا أطالب الولايات المتحدة بوقف تأييدها للعنصرية فى إسرائيل ، والمتمثلة فى التفرقة بين اليهود والفلسطينيين ، وبين اليهود الاشكناز والسفارديم، ووقف تأييدها للاستيلاء على أراضى الغير..».

ويروى قصته أو قل اعترافاته.. وكيف ألقى القبض عليه خلال قيامه بتهريب اليهود من الحدود العراقية الإيرانية سنة ١٩٤٧ ، «رغم أنى كنت أعيش سعيداً مع عائلتى فى مدينة الحلة القريبة من مدينة بابليون، ورفضت عائلتى الحركة الصهيونية، وتمكنت من الهرب من سجون العراق فى سبتمبر ١٩٤٩، واستقر بى المقام فى إسرائيل ، حيث عانيت من العنصرية، وهناك اختفى الحلم الصهيونى أمام ضراوة العنصرية، وتبينت أن الاشكناز يعملون على تشجيع اليهود العرب على الهجرة إلى إسرائيل، حتى يوفروا لهم عمالة رخيصة.

ونجحت الحركة الصهيونية فى تهجير ١٢٥ ألف يهودى من العراق ، بين سنتى ١٩٤٠ و١٩٥٢، عن طريق ترويعهم ، وبقيت أسرتى ضمن ستة آلاف يهودى تمسكوا بالبقاء فى العراق.

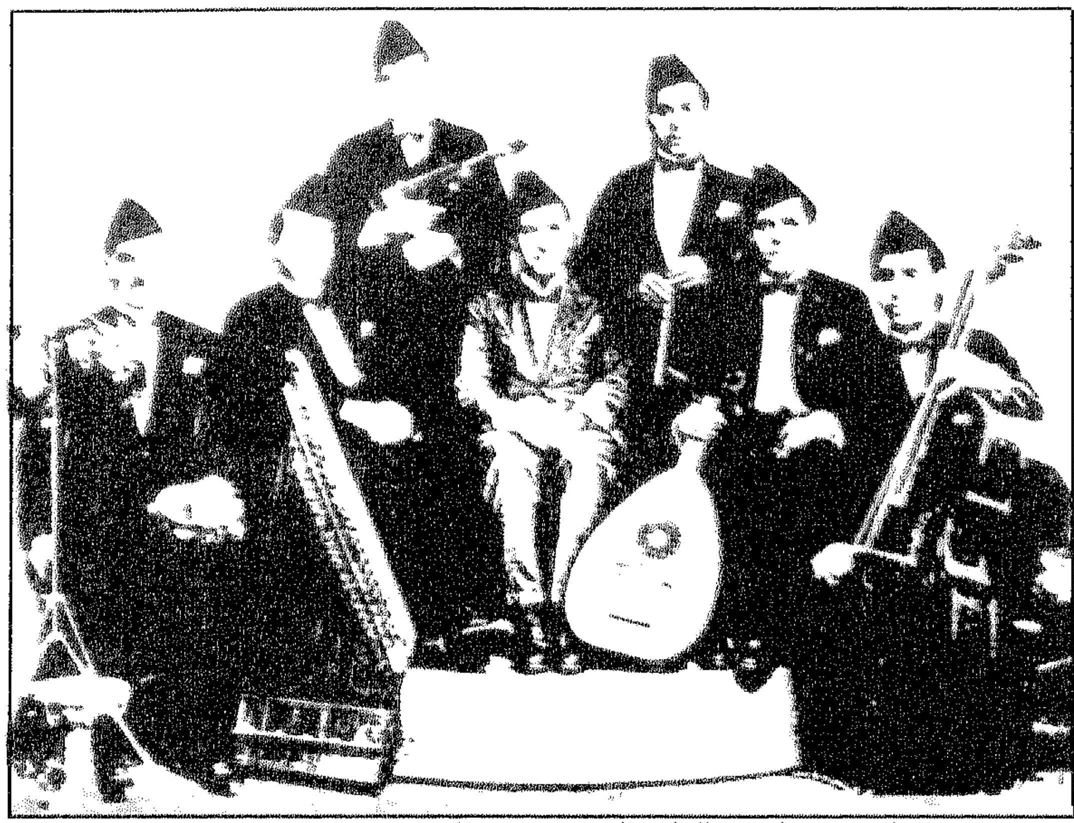
وقادته تجاربه المريرة ومعاناته من العنصرية إلى الانضمام إلى حركة «الفهود السود» ، ثم يستعرض ما قامت به الصهيونية بجبر يهود العراق على الهجرة، ولا يكتفى بذكر أقوال مرسلة بل يقدم معلومة موثقة، وشهادة شهود عاشوا جانبا من هذه الأحداث.

ثورة الكيلانى

ويقدم تحقيقا موثقاً عن وقائع «المذبحة» التى وقعت لليهود فى منتصف سنة ١٩٤١ أثناء الحرب العالمية الثانية، مؤكداً أن السلطات البريطانية هى التى دبرت وحرضت عليها، واشترك فيها عدد من رجالها، حتى يصبح التوتر العنصرى ذريعة لتدخل القوات البريطانية بحجة فرض القانون والنظام.

ووقعت تلك المذبحة فى ظل صراع حاد بين السلطات الاستعمارية والحركة الوطنية، عقب قيام ثورة رشيد عالى الكيلانى سنة ١٩٤٠ ، وسقوط وزارة نورى السعيد.

وبدأت الاضطرابات بعد سقوط رشيد عالى الكيلانى وفراره إلى إيران، وحصل التمهيد لهذه الفتنة، من البصرة ثانى أكبر المدن العراقية، والتى كان يعيش بها ثلاثون ألف يهودى، عندما نشرت الصحف فى عناوين كبيرة على الصفحات الأولى، «يهود البصرة يستقبلون القوات البريطانية بالورود»! وعندما بدأ الشغب ، وأغار الغوغاء على أحياء اليهود ومحلاتهم ، ووقعت مذبحة استمرت يومين فى أول



المطرب محمد القبانجي يتوسط بعض الفنانين اليهود في مؤتمر الموسيقى الشرقية المنعقد في القاهرة - ١٩٣٢

يونيو سنة ١٩٤١.

هذه هى الوقائع التى يحققها ويعلق عليها نعيم جيلاوى ويقول.. «كانت العلاقات بين يهود العراق وبقية المجتمع العربى جيدة، واشترك عدد من اليهود فى ثورة رشيد الكيلانى. فكيف انقلبت الصورة؟

ويستشهد بأقوال الصهيونى يوسف ماير، اليهودى العراقى الذى يعيش فى إسرائيل، .. «بعد فشل ثورة رشيد الكيلانى، قامت السلطات البريطانية بإشعال الفتنة فى بغداد، حتى تتدخل قوات الاحتلال..». ويعلق نعيم جيلاوى.. «إن أقوال ماير صحيحة، وتأكدت منها، عندما التقيت فى الأربعينيات فى إيران، بأحد الممرضين الذى كان يعمل فى مستشفى بغداد، خلال وقوع هذه الأحداث، وهو أرمنى اسمه ميشيل تومسيان، والذى قال له، أثار اهتمامه اثنان من المصابين استقبلهما المستشفى، وكلاهما ادعى الصمم وعدم القدرة على الكلام، أحدهما أصيب بطلقة فى كتفه والآخر فى قدمه، ورفض كل منهما خلع ملابسه لإزالة آثار الدماء، وتبين أنه حول رقبة أحدهما أداة التعريف بشخصيته والتى تستخدمها القوات البريطانية، والثانى لديه وشم هندى على كتفه، أى أنه من القوات الهندية المصاحبة للقوات البريطانية، وأخرجهما من المستشفى فى الصباح

الباكر لليوم التالى أحد الضباط البريطانيين.

ولا يكتفى بهذا الدليل على ما وقع ولكنه يستشهد بإحدى محاضرات دافيد كيمحى فى لندن، عندما سئل عن المذابح التى ترتكبها القوات الإسرائيلية ضد المدنيين، استفزه السؤال فقام بتذكير الحضور بما قامت به القوات البريطانية فى مذبحة بغداد سنة ١٩٤١.

ويضيف «إنه رجل يعرف الحقيقة، فقد عمل فى المخابرات البريطانية ثم فى الموساد وأخيراً مديراً لوزارة الخارجية الإسرائيلية..» لذا لم يعد لدى شك أن الطلقات التى أطلقت على اليهود عام ٤١ كانت مخططة من السلطات البريطانية بدوافع سياسية».

قنابل صهيونية

ويستعرض بعد ذلك أحداث ١٩ مارس سنة ١٩٥٠ ، عندما انفجرت القنابل فى أماكن تجمع اليهود فى بغداد. فانفجرت المتفجرات فى المركز الثقافى الأمريكى والمكتبة الأمريكية، مما أدى إلى تدمير وإصابة عدد من المواطنين .

ويؤكد أن هذه العمليات كانت بتدبير المنظمات الصهيونية لحث اليهود على الهجرة، وهى وقائع تشبه وقائع فضيحة «لافون» فى مصر، عندما سعى الموساد إلى تفجير بعض المراكز الأمريكية حتى يوقع بين حكومة الثورة فى مصر والولايات المتحدة، وانفجرت المتفجرات فى بغداد لدوافع سياسية أيضا.

وبعدها قامت سيارة فى ٨ أبريل


يهوديات من بغداد يرتدين « الإزار » - ١٩٢٠

١٩٥٠ يقودها ثلاثة شبان، وألقت قنبلة على مقهى الدار البيضاء فى بغداد، وهو المقهى الذى اعتاد اليهود اللقاء فيه، وأصيب أربعة منهم بإصابات خطيرة.

ويقول «أهارون بريجمان» فى كتابه «تاريخ إسرائيل».. إن اليهود كانوا ينقلون من العراق إلى إسرائيل فى عملية تسمى «عزرا ونحميا» والتى استمرت من مايو ١٩٥٠ حتى ديسمبر ١٩٥١.

واللافت للنظر قول السير فرانس همفرى السفير البريطانى فى بغداد.. «يتمتع اليهود فى العراق بامتيازات فريدة ، تزيد عن أى أقلية أخرى فى أى بلد آخر حتى تدخلت الصهيونية ، بين العرب واليهود.

لذلك سارع الصهاينة بتوزيع منشورات فى المعابد تحتوى على شعارات تسىء إلى العلاقات بين اليهود وباقى شعب العراق، مثل «لا تشتروا من المسلمين»، ثم تحريضهم على الهجرة إلى إسرائيل.

وتتابع إلقاء المتفجرات وإطلاق الرصاص ومع تتابعها تزايدت هجرة اليهود إلى إسرائيل.

والملاحظة الجديرة بالتسجيل - ومازال الكلام للسيد نعيم جيلاوى - أنه خلال حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ، لم يمس أى يهودى، ولم تكن هناك أحداث جديدة فى سنتى ١٩٥٠ و١٩٥١ تثير الضغينة والمشاعر ضد يهود العراق.. والحقيقة المرعبة أن القنابل التى انفجرت، والمدافع التى أطلقت، كانت بأيد صهيونية.

وقد نشرت مجلة هحولام هازيه عام ١٩٦٦ مقالا بقلم يورى أفنيرى، اتهم فيه صراحة مردخاى بن بورات بالمسئولية عن انفجارات بغداد، ومازال يهود العراق يطلقون عليه «مراد أبو القنابل» ومراد هى مردخاى بالعبرى.

وتتوالى الأسرار، وأن الكثير من المعلن غير ما هو خفى، والظاهر ليس مثل الباطن، ويؤكد جيلاوى أن عبدالكريم قاسم بعد ثورة ١٩٥٨، أرسل وفدا عراقيا للاتفاق مع إسرائيل ، ويزعم أن بن جوريون رفض استقبال الوفد، لحرصه على استمرار التوتر بين العرب وإسرائيل لكى يخدم سياسته فى هذه الفترة.

* هلال أكتوبر ١٩٩٨

وفى هذه المرحلة، رفعت ثورة ١٩٥٨ عن اليهود كل القيود، بل وألغى قانون إسقاط الجنسية.

ومن ناحية أخرى أصدر محسن الحكيم مرجع الشيعة الأعلى، ووالد محمد باقر الحكيم - فتوى بضرورة حسن معاملة اليهود ورفع أى ظلم عنهم.

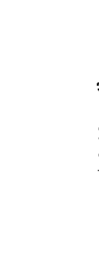
وسمحت العراق لليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل بحق العودة .

ويختم نعيم جيلاوى مقاله بالقول.. «لقد سجلت تلك الحقائق التاريخية مع علمى أن الأسهل على العالم أن يقبل كذبة بسيطة على أن يقبل حقيقة مركبة، فأسهل على العالم أن يقبل ادعاءات الصهيونية بهجرة اليهود نتيجة العداء للسامية، وأن يقبلوا أن الإسرائيليين وليس العرب، هم طلاب السلام!

يهود أكراد

وبقى فى ملف يهود العراق، اليهود الأكراد، والذين تبين أنهم لاعبون أساسيون فى إثارة المسألة الكردية، والعاملون على إثارة الشقاق بين العرب والكرد، كما تبين أن «الموساد» المخابرات الإسرائيلية لها وجود ومحطة دائمة فى شمال العراق، وقامت هذه المحطة بدور كبير خلال الغزو الأمريكى للعراق، ويقف اليوم بين الستر والإعلان خاصة بعد الإعلان عن زيارة وفد من يهود الأكراد للعراق!

ويكشف الكاتب الأمريكى «جوناثان راندل» فى كتابه «أمة فى شقاق» * والذى يتناول فيه القضية الكردية، والذى



يكشف خفايا دور اليهود الأكراد.. «قدمت إسرائيل مستعينة باليهود الأكراد الدعم والمساندة لأكراد العراق فى قتالهم مع حكومة بغداد، حتى تحول دون التفات بغداد للصراع العربى الإسرائيلى..» .. «هاجر معظم اليهود الأكراد الذين يبلغ تعدادهم نحو مائة ألف كردى إلى إسرائيل».

ومعروف أن إسحق مردخاى وزير الدفاع الأسبق من يهود الأكراد، فؤاد أو بن اليعازر وزير الدفاع الذى يليه ورئيس حزب العمل السابق من يهود العراق.

تقرير بايك

وينشر كتاب «أمة فى شقاق» ما يطلق عليه تقرير بايك السرى، الذى يصف تفاصيل التنسيق الذى تم بين السافاك والموساد فى شمال العراق، ويروى الكتاب على لسان دافيد كيمحى أحد رجال الموساد - والذى سبق ذكره - أنه «تم إطلاع كيسنجر على الجهود الإسرائيلية والإيرانية (أيام الشاه) لدعم مصطفى البرزانى وتشجيعه ، وأن الشاه طلب من كل من «نيكسون» و«كيسنجر» إقامة صلة دائمة ووثيقة مع البرزانى.. وقام بالفعل خبراء إسرائيليون وأمريكيون بتدريب الأكراد فى معسكرات خاصة.

وزار البرزانى إسرائيل ، وأبلغ شيمون بيريز أن الأكراد مستعدون للعمل على الإطاحة بنظام البعث فى العراق.

والتقى البرزانى فى إسرائيل مع عدد من وزراء وجنرالات إسرائيل.

وهناك كتاب إسرائيلى آخر كتبه شلوم نكديمون وترجم للعربية فى عمان يرصد العلاقات بين البرزانى والموساد، وبه عدة لقطات للبرزانى مع كل من اليهودى الكردى دافيد حباى، ومع ليفى آشكول ومع موشى ديان.

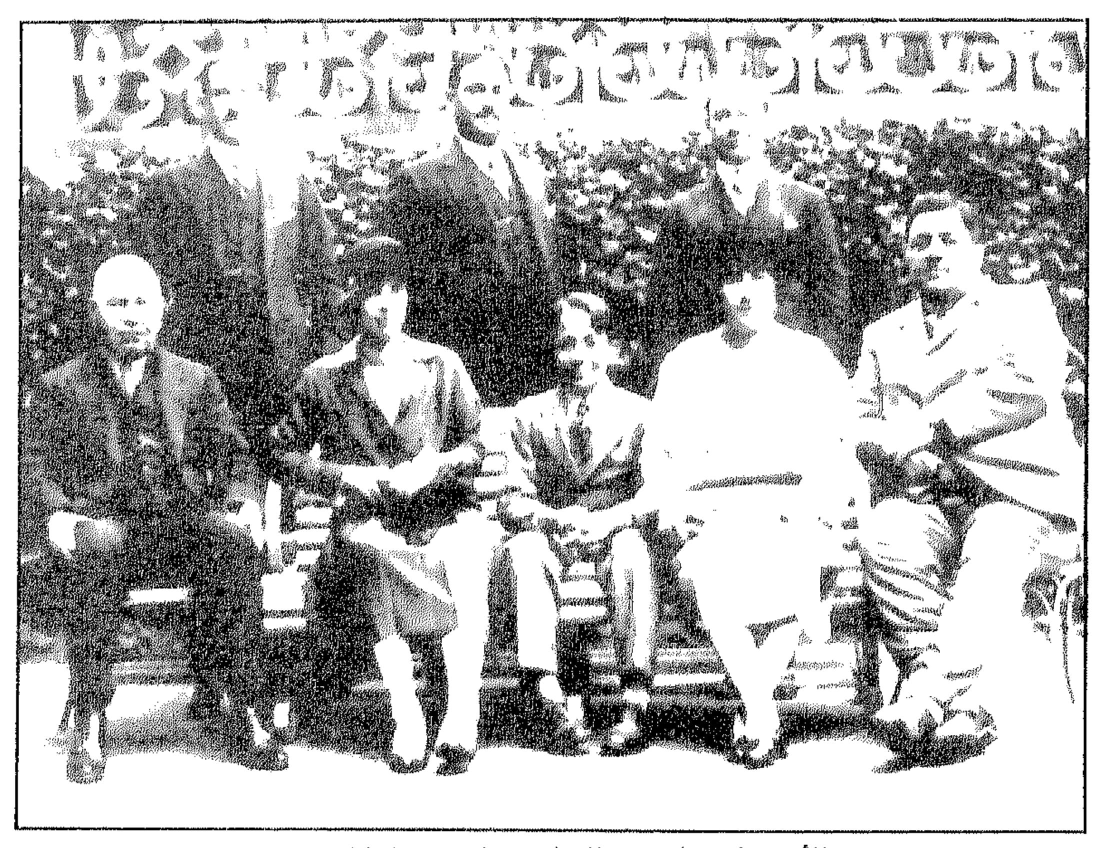
وأجاب البرزانى على تساؤل وفد النساء الفلسطينيات حول علاقاته بإسرائيل .. فقال : «أنا مثل الشحاذ الأعمى الواقف على باب الله، لا أعرف من الذى يضع فى يدى ما أحتاجه من النقود!».

ويبدو نجاح يهود الأكراد فى إقامة العلاقة مع قيادة أكراد العراق، فى مشهد الاحتفال الكبير بتأبين مصطفى البرزانى فى أبريل ٧٩، بوصفه حليف إسرائيل على مدى عقدين من الزمان، وحضر حفل التأبين إسحق رابين، ورؤساء الموساد وعدد من زعماء الأكراد، وعدد من ضباط الجيش الإسرائيلى الذين اشتركوا فى العمليات السرية فى شمال العراق!

وينقل الكاتب عن دافيد كيمحي قوله .. «تهدف إسرائيل من عدم تمكين الجيش العراقى فى الاشتراك فى أى صراع مقبل مع العرب»!!

الموساد

ويروى راندل حكايات مثل الروايات البوليسية عن تطور العلاقة بين الموساد والأكراد، نقلا عن حديث عميل الموساد «مناحيم نافون» حول بداية لقاء إبراهيم أحمد سكرتير حزب البارتى بالسفير الإسرائيلى والتر إيتان، وعندما قرأت جولدا مائير فحوى اللقاء أصدرت تعليماتها بإقامة علاقات وثيقة ودائمة مع



الأمير غازى ولى عهد العراق فى لندن - ١٩٢٦

الأكراد، وعاد أحمد يحمل عشرين ألف دولار قدمتها له الموساد وتبعته أول شحنة من الأسلحة الإسرائيلية مقدمة من إسرائيل إلى حزب البارتى، وتوالت بعد ذلك أوجه التعاون فى مختلف المجالات وتكررت زيارة المسئولين الإسرائيليين للشمال، ومن ناحية أخرى ساهم الموساد فى إنشاء جهاز المخابرات الكردية الذى يحمل اسم «بارا ستين».

وعادت العلاقات بين الموساد والأكراد بنفع كبير على إسرائيل، ففى ١٥ أغسطس ١٩٦٦ ساعد الأكراد الموساد على تهريب طيار عراقى هو منير روفا بطائرته الميج ٢١ إلى إسرائيل، وهى أول طائرة سوفييتية تخضع لبحث الولايات المتحدة، كما أسهم الأكراد فى تهريب ما تبقى من يهود العراق!

وهنا ليس من الممكن تجنب السؤال التالى، لماذا تغلبت اليهودية على القومية الكردية، وهاجر اليهود الأكراد إلى إسرائيل..؟ ولم تتغلب الديانة على القومية، ويقبل الأكراد العيش فى سلام مع أبناء دينهم فى العراق؟!

وبعد..

ماذا سنفعل عندما تبدأ إسرائيل فى ترحيل عدد من الفلسطينيين إلى العراق الخاضع للسيطرة الأمريكية؟!

وهل كتب علينا أن نعيش فى مرحلة تقضم خلالها حقوقنا قضمة بعد قضمة؟! ■

دور مصر
في حفظ الذاكرة العربية

بقلم
د.يوسف زيدان

فى مقالنا السابق، كان حديثنا ذا شجون وآفاق حزينة، إذ استدعت مقالنا (سقوط بغداد) وقائع متماثلة لما تمر به هذه الأمة التى فقدت - وسط الأنواء - بوصلتها .. ولم تكن غايتنا نبش الأحزان، وإنما أردنا توجيه الأنظار إلى تلك (البنيات) المتماثلة فى تاريخ هذه الأمة، المتماثلة على نحو عجيب مشعر بتطابق لحظتين بينهما قرابة ثمانية قرون ممتدة من سقوط بغداد (الأول) بيد هولاكو سنة ٦٥٦ هجرية (١٢٥٨ ميلادية) وسقوطها (الأخير) الذى أكتوينا جميعاً بناره ولهيبه.

وما هذه المقالة إلا امتداد يستبصر امتداد اللحظة التاريخية التى أعقبت السقوط الأول لبغداد .. وهاكم طرف مما جرى.

مدير المخطوطات والإهداءات بمكتبة الاسكندرية

في النصف الأول من القرن العشرين، كتب المستشرق الألماني الشهير ماكس مايرهوف، الذى كان يعيش بمصر منذ مطلع هذا القرن (توفى سنة ١٩٤٥) مقالة بديعة، تعد مثالاً نموذجياً للكتابات الاستشراقية : العميقة ، المكثفة، الرائدة.. التى لاتخلو من غرض خفى! وطارت المقالة فى الآفاق، وحذا حذوها كثيرون من الدارسين العرب والأجانب، وأسهبوا فى تفصيلاتها.

كان عنوان المقالة (من الإسكندرية إلى بغداد) وكان موضوعها، انتقال التعليم الطبى - والعلمى بوجه عام - من الإسكندرية القديمة، حيث تمركزت خلاصة الحضارة اليونانية؛ إلى بغداد عاصمة الحضارة العربية الإسلامية فى الفترة الممتدة منذ تأسيسها سنة ١٤٦ هجرية حتى سقوطها سنة ٦٥٦ هجرية . ومن الإسكندرية إلى بغداد، مروراً ببعض مدن الشام؛ كان الانتقال المؤكد أثر الحضارة اليونانية فى التراث العربى الإسلامى. وهو أثر لم ينكره العرب المسلمون يوماً، سواء فى الطب أو فى غيره من العلوم؛ ففى المجالات الطبية والصيدلانية، ظل علماؤنا عبر القرون، يشهدون بفضل أبقراط وجالينوس، ولا يذكرون اسم أحدهما إلا مسبوقاً بلقب (الفاضل) .. كما عرفوا فضل المتأخرين من أهل الحضارة اليونانية، من أمثال ديسقوريدس العشاب الشهير، وعكفوا على كتابة (الحشائش) بالدرس والشرح والتحشية. وفى غير الطب، طالما اعترف العلماء العرب بفضل فلاسفة وعلماء اليونان ، وتناولوا تراثهم بالشروح والتحريرات والتنقيحات، حتى إن كثيراً من النصوص اليونانية القديمة، لم تعرفها أوروبا الحديثة، إلا من خلال ترجماتها وشروحها العربية.

وهكذا صار الكلام عن الأثر اليونانى فى حضارتنا، مشهوراً؛ خاصة أنه لم يكن منكوراً عند أجدادنا.. أما المنكور المستور، اليوم، فهو أمران الأول منهما : الأثر الكبير للحضارة العربية الإسلامية فى أوروبا إبان عصر نهضتها الحديثة .. والأمر الثانى ، هو الدور الذى قامت به مصر فى الحفاظ على التراث العربى الإسلامى، من بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هجرية؛ ولعدة قرون تالية .

ولما كان الكلام عن الأثر العربى الإسلامى فى أوروبا، له تفصيل يطول، وليس هذا بموضعه.. فسوف نقتصر فيما يلى على تباين النقطة الأخرى، الأكثر استتاراً وغموضاً لدى معاصرينا؛ أعنى دور القاهرة المملوكية فى استلام مشعل الحضارة من بغداد عقيب انهيار الخلافة العباسية. وهو ما كان مقدمة لانتقال تراثنا - بعد ذلك - إلى أوروبا، عبر معابير حضارية نشطت فى الترجمة العربية إلى اللاتينية: باليرمو، صقلية ، قرطبة .. وغيرها . فنقول وعلى الله قصد السبيل:

من بغداد والأندلس إلي القاهرة

لما اهتز كرسى الخلافة العباسية تحت وطأة الشيخوخة العباسية، ومؤامرات القصور وتهديدات المغول .. بدأت المجالس العلمية تتسرب من بغداد،

إلى الشام ومصر .. كان ذلك منذ مطلع القرن السابع الهجرى، حتى كان اليوم المشئوم فى منتصف هذا القرن - أعنى سنة ٦٥٦ هجرية - الذى دخل فيه هولاكو بغداد . فطمس وجهها على نحو لم يسمح لها باستعادة دورها من بعد ذلك قط.

وعلى الطرف الآخر من العالم الإسلامى (الطرف المغربى) آذنت شمس الأندلس بالمغيب، مع عصر ملوك الطوائف الذين حكموا بقاع الدولة الإسلامية هناك، واقتتلوا فيما بينهم طمعاً فى وراثة الدولة الأموية المتشظية .. وامتد نزاعهم حتى كاد يذهب بريحهم وريح المسلمين فى الأندلس، لولا أن عبر إليهم سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين من ساحل المغرب سنة ٤٧٩ هجرية - ١٠٨٦ ميلادية) وأحيا الوجود الإسلامى من جديد، وأقام دولته التى ورثها بعد ضعف المرابطين ملوك الموحدين الذين تغلبوا على المرابطين فى عدة مواقع عسكرية بمدن الساحل الأفريقى (من سنة ١١٥٢ إلى سنة ١١٦٠ ميلادية) ثم عبروا إلى الأندلس وورثوا دولة الإسلام هناك ، بعد انتصارهم على هلال ألفونسو الثامن فى موقعة الأرك، سنة (٥٩١ هجرية - ١١٩٥ ميلادية).

وهكذا توالت دول الإسلام على حكم بقاع الأندلس، حتى أفلت شمس العرب المسلمين هناك. وضعف الحكام وتفرقت بهم السبل .. وما أن تزوج الملك فرديناند الخامس بالملكة إيزابيلا واتحدا ضد المسلمين، حتى أخرجوا العرب من الأندلس، وكان خروج الإسلام من هناك خاتمة قرون بوقائع الزمان ، وجدلية النصر والهزيمة . ففى سنة ١٤٩٢ ميلادية، سقطت غرناطة - آخر معقل للمسلمين - فى يد فرناندو ملك قشتالة (وإيزابيلا)، بعدما تخلف المماليك فى مصر والعثمانيون فى البلقان والحفصيون فى تونس، عن إغاثة غرناطة .. وسدوا آذانهم عن استغاثاتها الأخيرة ... وخرج آخر الحكام المسلمين (أبو عبد الله الصغير) من آخر مدينة مسلمة فى الأندلس (غرناطة) سنة ٨٩٧ هجرية - ١٤٩٢ ميلادية .. عند صخرة مشرفة على غرناطة، وبكى طويلاً .. ثم مضى بعدما تنهد تلك التنهيدة الحرى التى عرفت فى التاريخ باسم : زفرة العربى الأخيرة.

الأفق القاهري

على النحو السابق ، كان الاضطراب - والدمار المتوالى - يلف مشرق العالم الإسلامى ومغاربه، ولم تعد هناك بقعة آمنة إلا ديار مصر، خاصة بعدما نجح المصريون فى سد التقدم المغولى وتوالى على حكم البلاد جماعة من المماليك الذين حرصوا على بيان (مشروعية) سلطاتهم، برعاية الدين والعلوم وعمارة المساجد ودور العلم.

فى العقود الأخيرة من القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وجدت القاهرة نفسها وحدة، وسط عالم يرتج؛ فالمشرق الإسلامى - بلاد فارس وما بعدها - لايزال يترنح من الضربات المغولية طيلة خمسين سنة ابتدأت بخروج جنكيزخان للثأر من محمد خوارزمشاه، وانتهت بتأسيس الدولة الإسلامية المغولية على يد بركة خان - حفيد جنكيزخان، زعيم القبيلة الذهبية - بعد انكسار هولاكو على يديه .. والمغرب الإسلامى انزوى، وصار منطقة طرد حضارى واجتماعى، وفزع منه الناس إلى مصر والشام، مثلما التجأ العلماء والصوفية؛ أمثال: ابن عربى، التلمسانى، الششترى، الشاذلى، المرسى. ومن قبلهم - من العلماء - موسى بن ميمون الطبيب الفيلسوف ابن البيطار العشاب المعروف؛ وغيرهما.

وكان على مصر أن تقوم بدور كبير لإنقاذ الكيان الحضارى العربى/الإسلامى، فكما تعين عليها عسكريا، صد فلول المغول وجحافل الصليبيين. وكما تعين عليها سياسياً، إحياء الخلافة الإسلامية (ولو كان إحياء رمزياً) وكما تعين عليها اجتماعياً واقتصادياً، أن تستوعب الهجرات الوافدة عليها من المغرب، ومن العراق والشام.. تعين عليها حضارياً، أن تقوم بدور كبير فى حفظ الحضارة العربية الآيلة للاندثار مع دمار المماليك الإسلامية ومراكز التحضر.

أدت مصر ما عليها فى ذلك كله ، حتى دخل القرن الثامن الهجرى، وقد استتب الحل فى مصر، وصارت القاهرة - آنذاك - أهم مركز حضارى فى العالم الإسلامى، وأكثر العواصم العربية أمناً وازدهاراً .. حتى إن ابن خلدون، كتب فى أواخر القرن الثامن الهجرى، قائلاً إن من أراد أن يرى (عز الإسلام) فليذهب إلى القاهرة.

كانت ذاكر الأمة قد هددها الاندثار، فقد ضاعت ألوف المخطوطات - كتاب الحضارة - فى المشرق والمغرب، وكان المغول والصليبيون - كلاهما يحرصون على طمس التراث العربى/ الإسلامى بالتخريب وإفناء المخطوطات، وقد اشتهرت فى التاريخ واقعة إفراغ هولاكو لمخطوطات بغداد فى نهر دجلة، لغسل ما دونته الأمة، ومحو ما خلفته القرون.

حفظ الذاكرة

من هنا، كان على مصر أن تقوم بدور كبير لحفظ ذاكرة الأمة، وإنقاذ هويتها من الانطماس. فبدا علماء مصر، من بعد سقوط بغداد، فى تدوين المطولات والكتب الضخمة والموسوعات - فى مجالات العلم - مع أن كتابات المصريين كانت دوماً، على هيئة كتب صغار، ورسائل، ومساجلات علمية. لكن الحال تغير مع جهود علماء من أمثال علاء الدين القرشى (ابن النفيس) الذى وضع مايقرب من عشرة شروح على موسوعة ابن سينا (القانون فى الطب) بغية إعادة بعثها مرة أخرى إلى أذهان المشتغلين بالطب، حتى إن ابن فضل الله العمرى، فى ترجمته لابن النفيس

بكتابه (مسالك الأبصار) يقول عنه : هو الذى جسر الناس على قانون ابن سينا.

ومن بعد بعثه للقانون، يعكف العلاء (ابن النفيس) على تدوين أكبر موسوعة علمية فى التاريخ الإنسانى، يكتبها شخص واحد: الشامل فى الصناعة الطبية. فيضع المسودات بحيث يأتى (الشامل) فى ثلاثمائة مجلد، بيّض منها ثمانين؛ ثم وافته المنية - عن ثمانين سنة - سنة ٦٨٠ هجرية بالقاهرة، وأهدى المجلدات الثمانين، بل كل مكتبته وداره وأمواله، إلى البيمارستان المنصورى بالقاهرة - مستشفى قلاوون حالياً - الذى كان مشرفاً عليه، بحكم أنه أكبر مستشفيات القاهرة آنذاك ، ومحل عمل رئيس أطباء مصر.. وهو المنصب الذى شغله العلاء (ابن النفيس) حتى وفاته فى السنة المذكورة.

وقريب من هذا (النمط) من الكتابة الموسوعية الحافظة للذاكرة ، وفى مجال آخر غير الطب؛ سوف يضع ابن فضل الله العمرى - المتوفى ٧٤٩ هجرية - موسوعته التاريخية (مسالك الأبصار) فيؤرخ لكل شىء : الملوك، العلماء، الوقائع؛ ويتحدث عن كل شىء: الأقاليم، النبات، الحيوان.. إلخ. وقد كان ابن فضل الله من أصل شامى، ثم توطن فى مصر وارتبط بها بقية عمره، حتى إن الناصر محمد بن قلاوون، لما أراد أن يعاقبه، نفاه إلى الشام .. ولما رضى عنه، بعد حين؛ أعاده إلى القاهرة!

وفى القرن الثامن الهجرى، فى القاهرة؛ يكتب شهاب الدين النويرى - المتوفى ٧٧٢ هجرية - موسوعته الأدبية الضخمة : نهاية الارب فى فنون الأدب. فيقع الكتاب فى ثلاثين مجلداً تشتمل على خمسة فنون، الأول : فى السماء والآثار العلوية والأرض والمسالم السفلية، والثانى : فى التاريخ .. وقد لخص النويرى فى كتابه، كتباً متوناً من التراث السابق عليه، منها : إحياء علوم الدين، اللمعة النورانية، الملل والنحل، فقه اللغة، نزهة المشتاق فى افتراق الآفاق، القصيدة العبدونية - قصيدة ابن عبدون فى التاريخ - وشرحها لابن بدرون، مباهج العبر .. بالإضافة إلى ديوان الحماسة لأبى تمام، ودواوين الشعراء: المتنبى، البحترى،، البستى؛ وغيرهم.

وفى القرن الثامن الهجرى، عاش فى القاهرة - وكتب - واحد من أغزر المؤلفين فى تاريخ الإسلام : ابن حجر العسقلانى، وكلنا نعرف ضخامة - وأهمية - مؤلفاته فى التاريخ وعلوم الدين ، وقد كانت لأعماله أصدقاء واسعة فى أرجاء الأرض. وقد حكى لنا المقريزى، أنه حين انتهى ابن حجر من (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) عمل حفل خارج سور القاهرة، أنفقت فيه على الذبائح وحدها خمسمائة دينار! ويوم الحفل وصلت وفود من ملوك الأرض، تطلب نسخاً من الكتاب.



ولم يقف هذا الدور المصرى، التدوينى، الحافظ للذاكرة؛ عند حدود القرن الثامن الهجرى، فقد تعداه إلى القرن التاسع الهجرى، الذى عاش فيه بمصر، مؤلف من أغزر المؤلفين مادة – فى التاريخ الإنسانى – كله – أعنى به: جلال الدين السيوطى، المتوفى ٩١١ هجرية، ذلك الرجل كتب فى علوم اللغة (المزهر) وفى علوم الدين (جمع الجوامع) وفى التاريخ (حسن المحاضرة).. وكلها مجلدات كبار، وله مؤلفات صغار الحجم، جاءت على شكل رسائل حافظة للملامح الثقافية فى تفصيلاتها، فكتب : منهل اللطائف فى الكنافة والقطائف، در الغمامة فى الطيلسان والعمامة، الدوران الفلكى على ابن الكركى .. ولم يخرج، وهو العالم الجليل ، عن كتابه أعمال عنوانها: الوشاح فى فوائد النكاح، الجواهر الثمينة فى فضائل السمينة، نواضر الأيك فى نوادر (...)!

وهكذا كان السيوطى حلقة من حلقات المشروع المصرى لحفظ ذاكرة الأمة وتدوين ثقافتها – فى أجل الصفات وأدق التفصيلات – وهو مانجح علماء مصر فى تحقيقه، بجهود تأليفية جبارة ، لولاها لكان تراثنا قد انطمس.

والعجيب فى الأمر، أن مصر لم تتخل عن دورها الحافظ، حتى فى زمن التراجع الحضارى. فما كادت تفيق من دخولها تحت سلطان العثمانين، حتى استعادت دورها القديم – الذى لم تقم به الآستانة : عاصمة الخلافة الجديدة – وبدأ العلماء المصريون من القرن الحادى عشر الهجرى فى استكمال دورهم الحافظ، عبر جهود نخبة من أمثال عبد القادر البغدادى (المتوفى ١٠٩٣ هجرية) صاحب : خزانة الأدب، والشيخ أحمد الدمنهورى (المتوفى ١١٩٢ هجرية) صاحب الثلاثين كتاباً فى اللغة والدين والطب والطبيعيات – وهو شيخ الأزهر! – والإمام محمد مرتضى الزبيدى (المتوفى ١٢٠٥) هجرية) صاحب : إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (عشرة مجلدات) تاج العروس من جواهر القاموس.

ثم تبدأ مصر مرحلة جديدة فى مسيرتها الحافظة لتراث الأمة، مع ابتداء مطبعة بولاق – الرائدة سنة ١٨٢١ (ميلادية) ثم افتتاح الكتبخانة الخديوية المعروفة اليوم بدار الكتب المصرية.

وبالطبع ، فما تلك إلا محض إشارات للدور المصرى الباهر، فى حمل (الأمانة) التراثية عبر قرون ممتدة من سقوط بغداد (الأول) إلى عصرنا الحالى. وما من شك فى أن هناك تفصيلات لاحصر لها ، تحت تلك (الإشارات) الموجزة؛ غير أن المقام لايتسع لذلك هنا، ولا يسمح الزمان إلا بإشارة أخيرة، أو بالأحرى (أمنية) مفادها : هل ستقدر مصر اليوم، على القيام بدورها التاريخى الذى (قدرت) عليه قبلا حين (قدر) عليها؟ ■

٦٥ عاماً على سفور

أول طالبة فى بغداد

بقلم
د. عدنان الرشيد *

تمر هذه الأيام ذكرى مرور ٦٥ عاماً على سفور أول طالبة فى كلية الحقوق فى بغداد ، وكان ذلك فى عام ١٩٣٤ عندما خلعت الطالبة (صبيحة الشيخ داود) العباءة ودخلت الكلية فانبهر الطلاب من هذا المشهد الذى لم يألفوه .

وتعود هذه الحركة الحضارية إلى أوائل العشرينات عندما ناشد الشاعر معروف الرصافى فى قصائده المرأة بضرورة خلع العباءة (يطلق عليها العراقيون العباية) لأنها دخيلة علينا كما ناشد الشاعر الزهاوى المرأة بضرورة خلع العباءة .

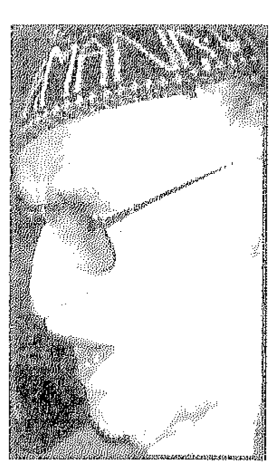
وقد بدأت هذه الظاهرة الحضارية تبرز على سطح المجتمع البغدادى عام ١٩٢٢ عندما أصدرت فتاة مسيحية اسمها (يوليانا حسون) أول مجلة نسائية وكانت هذه البادرة قفزة نوعية فى مسيرة تحرر المرأة من عبودية الجهل والتخلف ، وكانت المرأة البغدادية تلبسها أمها فى ليلة الزواج ستة لبسات لكى تثبت أن ابنتها فى حرز حريز ويصعب

* أكاديمى وكاتب عراقى





الملك فيصل الأول



محمد مهدى الجواهرى

معروف الرصافى

على الرجل أن ينالها بسهولة .... كان ذلك فى العشرينات من القرن الماضى ..

كما أسست شقيقة الشاعر الزهاوى واسمها (أسماء الزهاوى) أول ناد نسائى أطلقت عليه نادى النهضة النسائى وكان من إفرازات هذه الحركة النسائية ظهور الطالبة «صبيحة الشيخ داود» فى كلية الحقوق فى بغداد عام ١٩٣٤ .

فقد دخلت قاعة المحاضرات وهى سافرة حيث أحدث منظرها ضجة ولغطا بين أوساط الطلبة الذين كانوا يضعون على رءوسهم الفيصلية (نسبة إلى الملك فيصل) وهى عبارة عن سدارة سوداء كانت تصنع في إيطاليا وكان الهدف من ذلك تعويد العراقيين على التخلى عن الجراوية والكشيدة وراح الطلبة يرسمون الطالبة صبيحة الشيخ على السبورة ويلوكون سمعتها ولكن والدها سلمان الشيخ داود شجعها على المضى ، وبدأ الطلاب يتقبلون هذه الثورة الجديدة وتبعتها فتاة أخرى هى خالدة الرحال وشيئاً فشيئاً أدركت النساء البغداديات المغزى الحضارى من السفور .

المرأة في العصر العباسي

وإذا رجعنا إلى عهود التاريخ العراقى القديم وجدنا أن مكانة المرأة لم تكن سيئة لاسيما فى العصر العباسى إذ لم يكن الحجاب الحالى معروفا فقد كانت المرأة المصونة تشد حول خصرها وشاحاً أسود لكى تتميز به عن الجارية ثم تطور ذلك أثناء غزوات الفرس للعراق من ١٥٠٨ و١٧٤٩ وحتى سقوط مملكة بابل على يد قورش الفارسى عام ٥٣٨ (قبل الميلاد) وحتى مجىء الإسلام عام ٦٣٨ ميلادية (١٧) هجرية وكان عاملا من عوامل التحرر .

في العهد العثماني

وفى عهد الحكم التركى المتخلف كانت المرأة تعانى المهانة والإذلال بعد أن شوه

العثمانيون المغزى الإنسانى والتقدمى للدين الإسلامى فكان الجندرمة الاتراك فى بغداد يفرضون على المرأة أن تتلفح بالسواد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها وإذا ماظهر جزء يسير من ثوبها من تحت العباءة ، فإن الجندرمة الاتراك يضعونها فوق ظهر الحمار بالمعكوس ويهتف الناس حولها «متبرجة .. متبرجة» .. ثم يرمونها بالحجارة وقشور الفاكهة لإهانتها .

في الحضارة الآشورية والبابلية

وكانت للمرأة مكانة عالية فى حضارة العراق الآشورية والبابلية إذ لم تعرف الحجاب الحالى فقد كانت «المرأة سيئة السمعة» تغطي وجهها ببرقع أسود لتميزها عن المرأة الحرة ولكى لايتعرف عليها الرجال ويتحرشون بها ..

وعندما كانت المرأة البابلية تشعر أن زوجها أخذ يشعر بالملل منها تذهب إلى سوق الجوارى وتشترى له جارية وتتركها له فى الطابق الأسفل وتذهب هى إلى الطابق الأعلى لتنام لأن بيوت البابليين كانت تتألف من طابقين .

أسباب اضطهاد المرأة

وعقب تدفق المد البدوى على أرض العراق انتشرت المفاهيم المتخلفة عن المرأة ولايزال سكان الجنوب فى العراق يقولون عن المرأة (حشى قدرك مرة) أى حاشى أن تصل إلى مقامك المرأة ..

غريب جداً أن يفكر الرجل البدوى بهذا الأسلوب الساذج رغم أنه خرج إلى الدنيا من بطن المرأة ..

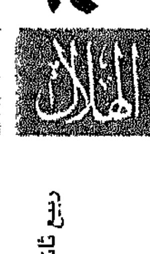
ويبدو لى أن سبب تخلف العرب يعود إلى تخلف اللغة العربية فكلمة مهنة مشتقة من مهانة (إذلال) وكلمة ثقافة مشتقة من ثقاف وهى آلة لتعديل السهم المعوج فى حين كلمة ثقافة فى اللغة اللاتينية مشتقة من كلمة (كولتونس) وتعنى حقلاً زراعياً مليئاً بالخضار وانتقلت إلى اللغات الأوروبية وأصبحت تسمى كلشر وفى الألمانية (كولتور) وفى الفرنسية واليونانية الشىء نفسه وكلمة امرأة مشتقة فى العربية من (مرارة) وكلمة نساء مشتقة من (النسيان) وهكذا فإن الاشتقاقات فى اللغة هى التى تحدد معانى الكلمات .

وكانت المرأة فى العهدين الآشورى والبابلى تملك حقوقاً كبيرة وكان الرجل يدفع مبلغاً كبيراً فى حالة طلاق زوجته ولا تقل هذه الحقوق عن حقوق المرأة اليوم فى المجتمعات المتقدمة باستثناء سويسرا التى ظل دستورها حتى نهاية الخمسينيات يحمل النص الذى جاء به دستور (١٧٥٠) والذى ينص «على أن المرأة واللص صنوان» .

وقد أرادت الولايات المتحدة الأمريكية فى أوائل الخمسينيات أن تسخر من سويسرا فعينت إمرأة سفيرة لها فى جنيف الأمر الذى جعل سويسرا تغير دستورها وتمنح المرأة السويسرية جميع الحقوق .

في عهد الملك فيصل الأول

وقد كانت للملك فيصل الأول ملك



العراق مواقف حضارية جيدة فى هذا المضمار فأثناء زيارته لمدينة النجف الاشرف عام ١٩٢٥ طلب من المسئولين تأسيس مدرسة لتعليم البنات ولكن مظاهرات واحتجاجات المتزمتين أفشلت المشروع وكان الملك فيصل ذا عقلية حضارية بمقاييس ذلك الزمان فقد طلب من الشاعر الكبير (محمد مهدى الجواهرى) خلع (الجبة) و(العمامة) وارتداء الزى الأوروبى وعندما رأى الملك فيصل الأول أن الجواهرى التزم بالنصيحة طلب من خياطه الخاص أن يخيط له خمس بدلات على حسابه تشجيعاً لخطوة الجواهرى ... وكان الجواهرى يعمل عام ١٩٢٨ فى البلاط الملكى .

وقد أساء العثمانيون للمرأة كثيراً وكانت تصرفاتهم تتناقض مع مبادىء الدين الإسلامى ، فقد كان منصب الوالى التركى يباع فى المزاد العلنى فى اسطنبول وعندما يتسلم منصبه فى بغداد يحاول أن يسترجع مادفعه للسلطان من رشوة وعندما كان هذا الوالى يصلى بالمسلمين يوم الجمعة يسقط أرضا من شدة السكر فيهرع حراسه إليه ويحملونه وهم يهتفون .. «الله أكبر سقط الوالى من خشية الله .....» ..

ومن هنا ندرك السر فى تخلف المرأة ، بل والمجتمع بأسره لأن النساء يشكلن فى مجتمعاتنا العربية نصف سكانه .

وفى أواخر الحكم العثمانى فى العراق أى فى عام ١٩١٤ صدرت فتوى «الاصابة فى منع النساء من الكتابة ...» ..

ومن السخرية أن رئيس الوزراء فى العراق عام ١٩٢٥ يحذر النساء من خلع العباءة وهن فى داره من أن يراهن الطيار !؟.

أول مدرسة لتعليم البنات

وفى أوائل العشرينيات من القرن العشرين تأسست أول مدرسة لتعليم البنات وكانت تقع قرب جامع سوق الغزل (يقع حالياً فى شارع الجمهورية) ، وكانت غرفة الدراسة عالية بحيث يتعذر على المارين من أمام المدرسة رؤية الطالبات من النوافذ .. ولعلنا فى هذا المقام نذكر دور الفتيات المسيحيات واليهوديات فى إحياء حركة السفور فى بغداد وقد برزت نساء شيدن اللبنات الأولى للحركة النسوية فى العراق وكن متأثرات بصبيحة الشيخ داود منهن فطينة النائب وسليمة الملائكة وخالدة الرحال وراشيل ساسون وايفين سمحيرى وغيرهن .

لقد انعكس الصراع بين القديم والجديد فى الأغانى العراقية حينذاك فنرى المطربة سليمة مراد تغنى فى الثلاثينات أغنية تقول فيها «لبنية بنت البيت كصت شعرها على المودة تمشى دلوع عافت سترها ....» .

لقد كان قص الشعر الطويل يعد عيباً

في مفاهيم الناس .

ومما يثير الدهشة في أخلاق الرجال حينذاك أنهم يعارضون المساواة والتحرر الاجتماعي للمرأة ، لكنهم كانوا يمضون شطرا من الليالي في مواخير الفساد والملاهي الليلية وعندما تحين عودتهم إلى البيت وقد تعتهم السكر يطالبون بناتهن بضرورة ستر سيقانهن وصدورهن فنرى بوضوح ازدواجية الرجل الشرقي في العشرينات والثلاثينات وترجع هذه المفاهيم إلى أيام الحكم التركي الذى استمر من عام ١٥٣٤ وحتى عام ١٩١٧ عند دخول الانجليز وكان هذا الحكم عاملا من عوامل التحرر فعرف العراقيون الصحافة الحرة والبرلمان والمظاهرات وتنظيم الأحزاب وحرية الرأى والفكر . وقد ادركت المرأة العراقية المغزى الايجابي للسفور فإذا كنت المرأة سمينة تلجأ إلى نظام (الچيم) لتصبح رشيقة ووجدت المرأة العراقية في السفور مزية صحية فإن الرجال يرمقونها بإعجاب أيضاً .

المد البدوي

إن أغلب المفاهيم عن المرأة وصلت إلينا مع المد البدوى فرسخت في أذهان الناس رسوخ الراحتين في الأصابع (على مايقول قيس بن ذريح) ولكن تيار الحضارة اليوم بدأ يجرف أمامه الأفكار القديمة لتحل محلها المفاهيم الجديدة وما كان مستحيلاً قبل (٧٠) عاماً اضحى اليوم مقبولا عند الناس ، بل جزءاً من تفكيرهم الناضج وأصبحت المرأة العربية تتمتع بحقوق كثيرة وتقود سيارة شحن (اللورى) وتقود التاكسي في بعض دول الخليج وأصبحت بوليس مرور . المرأة كانت تقيم في سوق عكاظ المطارحات الشعرية وتحارب مع الرجال وتضمد جراحهم ولم يكن الحجاب معروفاً ومن هذا الواقع انطلقت صيحات رائدات الحركة النسائية لأن المجتمعات الحالية تغير تركيبها الاقتصادى والاجتماعي فما كان موجوداً قبل (١٤٠٠) سنة اختلف الآن وقال النبى صلى الله عليه وسلم للأعراب الذين كانوا يكثرون السؤآل فمثلا يأتيه نفر يسألونه قائلين .. وأنا أصلى مرت من أمامى امرأة فهل تبطل صلاتى ؟ وآخر يسأله وأثناء الصلاة مرق من أمامى كلب أسود فهل يبطل صلاتى ؟

وكان يجيبهم .. ما يراه المسلمون حسناً فهو حسن عند الله .. ورغم مرور (١٤٠٠) عام على الدين الإسلامى فلازال الرجال يجهلون المحتوى التقدمى والإنسانى للدين فهم يفرضون على زوجاتهن أن يضعن القفازات (الكفوف) على ساعدهن وراحاتهن لكى لايظهر شيء منها وبعض رجال الدين يروجون بين النساء أحاديث مختلفة مثلا .. إن المرأة التى لاترضى زوجها في الليل وتعانده فإن الملائكة يوم القيامة يحملونها من شعرها

ويغطسونها فى الماء المغلى وهكذا سخر هؤلاء الدين لمصلحتهم الشخصية مثلما حدث فى أوروبا عندما كان القساوسة يبيعون صكوك الغفران فى الجنة لقاء قطع من الذهب ويأخذون نصف مايحصلون عليه لهم والنصف الآخر يسلمونه للفاتيكان !!.

النظرة المتخلفة للمرأة

كما أن أحد الوعاظ تحدث مرة قائلاً : «إن الزواج بأكثر من واحدة هو رأفة من الزوج على زوجته الأولى فإذا مرضت ولا توجد من تسهر على صحتها وراحتها ولذلك يتزوج المسلم بامرأة ثانية لكى تقوم بخدمة الزوجة الأولى إذا مرضت الثانية يتزوج بثالثة لكى تقوم الأخيرة بالسهر على الثانية وهكذا وجد هؤلاء تخريجات بعيدة عن روح الإسلام إذ أن المجتمع فى الجزيرة العربية كانت نسبة النساء فيه أكثر من نسبة الرجال وقبل الإسلام كانت المسألة معكوسة فعدد الرجال كان أكثر من عدد النساء فلم يجد المجتمع حلا سوى السماح للمرأة بالزواج من ثلاثة رجال فى وقت واحد والطفل يأخذ اسم الأم مثلا (شرحبيل بن حسنة) أخذ اسم أمه حسنة لأنها متزوجة من ثلاثة رجال وهكذا وجد المجتمع حلا لهذه الظاهرة مثلما كان موجوداً فى التبت والهند ودول أخرى .

فـإذا كانت المرأة نصف المجتمع ، فلماذا فشل نصفه ؟

ثم إن كثيراً من الدول الإسلامية وضعت المرأة فى المقام الأول وساوتها مع الرجال فالباكستان تملك منذ عام ١٩٥٠ فرقة للمظليات اللائى يقفزن من الطائرة إلى الأرض بشجاعة وماذا ستصنع الدول الإسلامية إذا هاجمتها إسرائيل بجيش من النساء ؟ أليس من العار أن يستهين بنا الأعداء ؟ والمرأة فى السعودية وصلت مرحلة عالية من التطور ففى أوائل الستينات سمح الملك فيصل بن عبدالعزيز (رحمه الله) بتعليم البنات ، وهاج وماج المتعصبون عليه وقال لهم .. وهذه المدارس مفتوحة من يريد ارسال بناته هو حر ومن لايريد فهو أيضاً حر وبعد سنة وجد هؤلاء مزايا تعليم البنات وقد تطور تعليم البنات وتخرجت فى الجامعات مهندسات وطبيبات ومحاسبات يبلغ عددهن اليوم بالآلاف وقد سار الملك فهد بن عبدالعزيز على خطى أخيه الملك فيصل ونشر التعليم فى كل مكان وقفزت المملكة قفزات حضارية قل أن تجد مثلها فى دول المنطقة ودخلت المرأة فى الخليج العربى مجلس الشورى وقال النبى صلى الله عليه وسلم ... «الجنة تحت أقدام الأمهات» .

وقال نابليون «إن المرأة التى تهز المهد بيمينها لابد من أن تهز العالم بيسارها» .



كابوس جورج أورويل يخيم على العراق

بقلم
ابراهيم فتحى

فى يونية ٢٠٠٣ تحل مئوية الكاتب البريطانى جورج أورويل (١٩٠٣ - ١٩٥٠) وقد أصبح اسمه مرادفا لفضح كابوس ما يسمى بالحكم الشمولى وسياسته القائمة علي الحرب الدائمة ولغته المنافقة: «الحرب هى السلام»، «الحرية هى العبودية». وتنطبق هذه الأوصاف علي الوضع العالمى اليوم وتبرير غزو البلاد العربية والإسلامية فى أفغانستان وفلسطين والعراق بالإضافة إلى الغزوات القادمة المحتملة، إن كلمات مثل المجتمع الدولى أصبحت تعنى تصفية الأمم المتحدة وقوانين الشرعية الدولية. وأصبح الإرهاب يعنى أى حركة معارضة لسياسة الولايات المتحدة أو أحد عملائها، وتستبيح «الحرب على الإرهاب» قتل المدنيين واغتيال القيادات السياسية وقتل وتشويه عشرات الآلاف من المدنيين وتدمير كل مرافق الحياة أما «تحرير العراق» فأصبح يعنى، بالإضافة إلى ذلك التدمير المغولى لأمة بكاملها تاريخها ورموز حضارتها ومتاحفها، وإحراق مكتباتها، وقد استلزم هذا «التحرير» قصف الأحياء وتدمير مرافق المياه والكهرباء والمستشفيات والأحياء السكنية، إن آلاف الأطفال

القتلى مبتورى الأذرع والأرجل والذين أسالت القنابل العنقودية أمخاخهم يقول عنهم وزير الحرب البريطاني إن امهاتهم ستشكر القوات الأنجلو أمريكية على استخدام هذه القنابل التى تواصل الانفجار لأزمنة غير محددة، ويبدو هذا التصريح كأنه صادر من رواية «١٩٨٤» لأورويل الحافلة بالمفارقات الدامية

وما الغرض من هذا «التحرير» الذى سيكون نبراساً لشرق أوسط جديد؟ الغرض هو تصفية أى حكومة ذات سيادة وتعيين القادة «الديمقراطيين» من جانب الولايات المتحدة فى انتخابات شكلية «حرة» ويقول بعض المحللين البريطانيين (مثل ناعومى كلاين فى كتابه «حواجز ونوافذ» !!. جريدة الجارديان ١٤ أبريل ٢٠٠٣ - إن الهدف هو إقامة اقتصاد كامل الخصخصة تنهبه الشركات الأمريكية بالاشتراك مع نخبة عراقية فاسدة مستوردة من الخارج، لقد أبرمت شركة خدمات الشحن والتفريغ الأمريكية تعاقداً لبناء ميناء أم القصر الذى دمره القصف، والمناقصات الكثيرة مطروحة، فقد دعت وكالة الولايات المتحدة للتنمية العالمية الشركات الأمريكية متعددة القومية ان تقدم عطاءاتها لكل شىء، فليس الغزو من أجل النفط وحده، بل من أجل إعادة بناء الطرق والكبارى والمياه والكهرباء والتليفونات بعد التأكد من تدميرها بالكامل بالقنابل «الذكية» وهناك رجال اعمال عراقيون فى المنفى يفدون مع قوات تدمير العراق مطالبين بأن تستولى شركات إكسون موبيل وشل على صناعة النفط العراقية بعد إلغاء تأميمها، وقد وعدهم بوش بمناصب فى الحكومة «الديمقراطية» المعينة، ويقول الكاتب إن تدمير البلاد واحتلالها هو أسهل طريقة «لإعادة بنائها» بالطريقة التى تريدها المصالح الأمريكية الاقتصادية والاستراتيجية، فمذهب بوش هو «إقصف بالقنابل قبل أن تشترى»، ونفس هذا النوع من الخصخصة ستشقه قاذفات أمريكا التحريرية إلى بلاد البترول، ومزاد «الديمقراطية» فى عملية النهب يتم إقصاء الشعب العراقى عنه بعد عقوبات الجوع والمرض والسحق التى استمرت ما يزيد على عقد كامل، وبعد تدمير الحرب، إن عراقا «حرا» جاهز الآن للبيع بالكامل، وسيجد الشعب بلده مقيداً بقرارات اقتصادية اتخذت أثناء القصف، وسيجد نفسه مطالباً، بالتصويت «لزعماء جدد» من الأفاقين والنصابين سبق «انتخابهم» من جانب البنتاجون مطلقين أغنية «مرحبا بالشعب العراقى فى عالم الحرية والديمقراطية».

إن عالم أورويل بسخريته من استخدام الكلمات بعكس معناها يتجلى الآن فى أبشع صوره باستخدام كلمات التحرير والديمقراطية، فقد أصبحت تعنى تصفية أى حقوق ومشاركة سياسية لأغلبية المواطنين الذين يرفضون الهيكل المفروض عليهم لامتيازات أقلية ضئيلة العدد لها علاقات تبعية وثيقة بالشركات الأمريكية واستراتيجيتها العسكرية.

وأورويل هو مبتكر اسم «الأخ

مذهب بوش هو «القصف بالقنابل قبل أن تشترى، وبعد تدمير العراق سوف تجد عراقاً حراً جاهزاً الآن للبيع.»

الكبير» الذى أصبح يطلق على نوع خاص من الديكتاتوريين (ستالين وهتلر وحكام العالم الثالث (من أمثال صدام حسين) فى القاموس الليبرالى الغربى، وأول أشهر أعماله هو «مزرعة الحيوان» ١٩٤٥ - الذى باعت طبعاته المبكرة فى انجلترا وأمريكا ما يزيد على مليون نسخة، وترجم إلى أكثر من ١٤ لغة (منها العربية)، وقد فسر باعتباره الخيانة الحتمية لأى ثورة يقوم بها العاملون من جانب سلطة خنازير ستالينية، وثانى أشهر اعماله هو ١٩٨٤ وقد لقى الحفاوة نفسها باعتباره تحذيرا هجائيا ساخراً من أى دولة اشتراكية فى المستقبل لابد أن يحكمها حزب مطلق السيطرة يلغى الحريات الشخصية ويفرض ايديولوجية واحدة خانقة لا تسمح بأى تعددية أو معارضة وقد جرى إعداد هذين العملين تليفزيونيا وسينمائيا بنجاح تجارى كبير، وقد أسهمت وسائل الإعلام الأنجلو أمريكية، ومعها بيروقراطيتها الأكاديمية الأدبية فى تحويل اسمه وعبارات روايتيه إلى سهام حادة ضد أى شكل من أشكال الثورات القومية أو الاجتماعية فى أى مكان من العالم ، وكأنه كاهن المشروع الرأسمالى الحر وليبراليته الكوكبية ضد الشمولية الحتمية للاشتراكية والقومية، ولكن مفارقة ساخرة واصلت عملها فى قراءة كتاباته وتمزيق الأكفان الصفراء التى لفت حول اسمه، ولم يكن اليساريين هم الذين قاموا بهذه القراءة الجديدة فى مجال النقد الأدبى، بل قام بها مفكرون أبعد ما يكونون عن اليسار فى تشخيصهم للنظام الرأسمالى العالمى منذ نشأته وحتى النظام العالمى الجديد اليوم، إن العالم «الشمولى» الذى تصوره ١٩٨٤ عند هؤلاء هو عالم اليوم الذى يسمونه «أوروبليا» لنأخذ كتابات ميشيل فوكو عن «المجتمع الانضباطى» وكتابات مفكر حزب العمال الجديد الآن أنتونى جيدينز فى الثمانينات «الدولة القومية والعنف فى أوروبا» - ١٩٨٥ - أى دولة البيروقراطيات الضخمة والمراقبة الشاملة ، ثم كتابات مارشال ماك لوهان عن هيمنة أساطير الإعلام المعاصرة فى تحديد الذوات الفردية وقيم سلوكها.

جورج أورويل والعالم الحر

ولد جورج أورويل فى الهند، وكان أبوه موظفا فى «مصلحة الأفيون» البريطانية بعد انتصار «حرية» تجارة الأفيون فى حربين شنتهما بريطانيا، الأولى ١٩٣٩ - ١٨٤٢ والثانية ١٨٥٦ - ١٨٦٠، على الصين فى أوج الليبرالية البريطانية من أجل مشروعية تجارة الأفيون، وكانت «حرية» تجارة العبيد من افريقيا إلى أمريكا قد امتدت من القرن السادس إلى منتصف القرن التاسع عشر. على أيدى البريطانيين ، وحققت تراكما رأسماليا ضخما، فالتجارة هى أسمى قيمة إنسانية . وقد عمل جورج أورويل فى بوليس بورما ، وهو جانب قليل المكانة من الخدمة المدنية الامبراطورية، لمدة خمس سنوات . وهاجم ادعاءات الاستعمار

البريطاني في روايته الأولى «أيام بورمية» ١٩٣٥ ، ثم طرح تساؤلاً في محاولاته المستمرة لجمع مواد لرواياته حول معاناة العمال البريطانيين كأمثالهم من أهل بورما، وعاش حياة التشرد والفقر بين لندن وباريس وعمل غاسلاً للأطباق، وهو يكتب كما جاء في كتابه «ملقى على الأرض مطروداً في باريس ولندن». ١٩٣٣، وفي رواية أخرى كتب عن كيف يعيش العاطلون الانجليز في مناطق المناجم «الطريق إلى ويجان بير» ثم حمل السلاح في إسبانيا ضد هجوم فرانكو الوحشي على الجمهورية الديمقراطية هناك ورفض لامبالاة الديمقراطيات الغربية ورفعها شعار عدم التدخل أو المساعدة رغم التدخل السافر لقوات موسوليني وإلقائها الغازات السامة على مقاتلي الجمهورية، واخترقت رصاصة جسمه. وفي رواية «تحية إلى كتالونيا» رفض المحاولة الستالينية للسيطرة على اليسار العالمي، كما نقد مواقف حزب العمال البريطاني ورفض أن يدافع عن «ديمقراطية منافقة زائفة دعية مصنوعة من نفايات ومواد ردئية باسم معاداة الفاشية، وفي عمله «الأسد ووحيد القرن» – ١٩٤١ – توهم أثناء الحرب، التي أعفي من التجنيد فيها لأنه كان مصدوراً، أن ثورة اشتراكية تتشكل وتمضي في طريقها داخل صفوف الجيش البريطاني وظلت اشتراكية ترفض الانساق النظرية . وفي وقت مبكر من الحرب وضع خطة ضخمة لثلاثية روائية تقوم على التحليل الاجتماعي وتصور مأزقه الخاص بين تعفن النظام «الديمقراطي» في بريطانيا وخيانة الثورة من جانب الستالينية، وكيف ستكون الشمولية البريطانية إذا وثبت إلى السلطة؟ ولم ينجز من هذه الخطة إلا «مزرعة الحيوان» و١٩٨٤ وقد قام النقاد الأمريكيون بقراءة الروايتين بمعنى عكسي، ذلك أنه ظل دائما اشتراكيا ديمقراطيا (البرفيسور برنارد كريك في «معجم الثقافة الحديثة» تحرير جوستين وينتيل) .

ماذا عن «مزرعة الحيوان» ؟

هي أمثولة تنتمي إلى كوميديا الأفكار وتستمد أساليبها من سويفت وديكنز، وتعتمد على حدة الذهن اللماح ونفاذ البصيرة والمبالغة الميلودرامية التهكمية لا على البناء المحكم أو تصوير الشخصيات الحية. ويرى النقاد أن ضعف البناء تعوضه وفرة طافحة من الأفكار وخصوصية في الاستطرادات والمواقف المضحكة اللامعقولة وتعليقات المؤلف الذكية (كل الأفراد متساوون ولكن بعضهم أكثر تساويا من الباقين) ، وكان نقد الخنازير الستالينية قائما على أنها تعيد من جديد أساليب صاحب المزرعة الرأسمالي في التحكم والاستغلال والامتيازات ، وتنتهي الرواية بالخنزير الأعظم حاملاً السوط منتصبا على قائمتيه الخلفيتين متقبلا التهاني من الرجال الرأسماليين (وقد أصبح يشبههم) الذين يعجبون بأساليبه الاستبدادية في استغلال الحيوانات الكادحة، فالنغمة الرئيسية في الرواية هي إدانة الشمولية الستالينية لأنها الطريقة المؤدية إلى عودة الرأسمالية ، وهو تنبؤ أثبتته الأيام، إن الاتحاد السوفييتي لم تقم فيه ثورة من أجل الديمقراطية، ولم يتعرض لحرب مسلحة من جانب الرأسمالية العالمية، بل لقد تحولت قيادة الحزب فيه تدريجيا «اعضاء

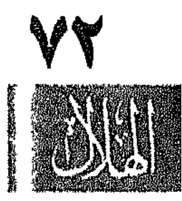
رواية ١٩٨٤ لأورويل تبرز سخرية نظام الأخ الكبير من النازية والستالينية صراحة

المكتب السياسي واللجنة المركزية» إلى الاقتصاد الرأسمالي، وأبرز حكام الاتحاد الروسي، ورجال أعماله اليوم قادمون من صفوف الحزب ومؤسسات الاستخبارية والاقتصادية والإعلامية. ومن الشائع السكوت عن معاداة الرواية الرأسمالية ، وكان جورج أورويل قد كتب مقدمة لمزرعة الحيوان انتقد فيها المجتمعات الحرة التي لا ترهقها كوابح الدولة، وأوضح حقيقة بشعة عن الرقابة في انجلترا أيامه فهي تطوعية إلى حد كبير. فالأفكار المعارضة غير المقبولة يمكن اسكاتها والحقائق غير المريحة يمكن إلقاؤها في الظلام دون حاجة إلى حظر رسمي، هناك التحكم في الصحافة بواسطة ملاك أغنياء لديهم كل الدوافع ليكونوا مضللين بلا نزاهة فيما يتعلق بمسائل شديدة الأهمية، وهؤلاء يلقون دعما من اتفاق صامت راسخ يؤسسه ويراكمه نظام تعليمي وثقافي قوى التأثير، ومن يخطر بباله أن يتحدى «العقائد القويمة» سيجد نفسه وقد جرى إسكاته بقوة مدهشة .. فهل استطاع أورويل أن ينشر هذه المقدمة ؟ لقد ظلت بدون نشر لمدة ثلاثين عاماً ، وأشار إليها البروفيسور برنارد كريك سابق الذكر في الملحق الأدبي للتايمز ١٩٧٢/٩/١٥ ، ثم نشرت في طبعة مكتبة إفرى مان.. ولم يعتبر أورويل ان الدولة وحدها هي قوة الرقابة. فالشركات الخاصة المتحكمة في وسائل الإعلام والنظام التعليمي تفرض بيئة من المعتقدات والتحيزات الراسخة النابعة من إيديولوجية المشاريع التجارية تحت ضغط المعلنين ،ورجال الأعمال الذين يبيعون الأفكار والمواقف.

من هو الأخ الكبير وما هو نظامه الحزبي ؟

لم تذكر رواية ١٩٨٤، وهي عن بريطانيا متخيلة بعد حرب ذرية في الخمسينات وثورة اعقبها نظام غاشم، أن الأخ الكبير شخص معين هو الديكتاتور.. إن أحدا لم يره قط ولا يعرف أحد متى ولد وهو لا يستطيع أن يموت أبدا، وتبرز الرواية سخرية نظام الأخ الكبير من النازية والستالينية السوفييتية صراحة، فهذا الأخ تجسيد رمزى لتنظيم ضخم يسيطر على كل شئون الحياة الاقتصادية والسياسية، والفكرية والعاطفية، والجسدية والجنسية والادبية والفنية، وهو لا يوجد على نحو ما يوجد أى فرد فهو لا يشغل مكانا محددا ولا زمنا محددا، إنه يختلف عن هتلر وستالين فلا يوجد إلا على لوحات الإعلانات الضخمة باعتباره روح النظام كلية القدرة والانجازات والانتصارات والمعرفة وصورته توجد على شاشات التليفزيون تراقب الكثيرين. إنها لا تراقب البروليتاريا والكتل العجماء أغلبية الناس أو ٨٥٪ من المجتمع، بل تراقب ما يسمى بالحلقة الداخلية للحزب اقل من ٢٪ من السكان، والحلقة الخارجية أى اقل من ١٥٪ من السكان، فالعالم في هذه الشمولية ليس عالم الماركسية والمجتمع اللاطبقي وسلطة العاملين، بل عالم شمولية تراتبية طبقية سافرة.

إن نظريتها المعلنة تقوم على أن



المجتمع ينقسم - كما كان دائما - إلى ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا، وتدعو إلى امتلاك الاقلية العليا للثروة والامتياز والسيطرة امتلاكا لا فرديا شخصيا، فهو إرهاص بعالم الشركات المساهمة ومجالس الإدارات واتحادات المصارف والصناعة واتفاقيات التسعير والتسويق والبيروقراطيات القائدة، أما الطبقة الوسطى (الحلقة الخارجية) فتأتى بعد طبقة المخ والتوجية بوصفها الأيدى المنفذة ذات الكفاءة المتشربة لعقلية النظام. وهاتان الطبقتان ليستا وراثيتين ولا ينقل أفرادها السلطة إلى ابنائهم بل إلى ابنائهم بالتبنى، أى الأكفاء الذين يؤمنون بمنطق النظام التراتبى ويمارسون طرائق حياته وعمله وفقا لقواعده وهناك حراك وتداخل بين الطبقة العليا والوسطى لتدعيم هيكل الامتيازات التراتبية، أما «الجماهير» فسيعمل ملايينها ويتناسلون ويموتون دون دافع للتمرد، فكل المعتقدات والأذواق والعواطف والمواقف المبثوثة مصممة لحجب الطبيعة الحقيقية لهذا المجتمع عن الإدراك.

فالجماهير قد فقدت المقدرة على إدراك أن النظام الاجتماعي يمكن ان يكون شيئا مختلفا عما هو قائم، ويمكن إعطاؤهم الحرية العقلية فلا عقل لهم، وأمامهم تشكيلة منتقاة من الصيغ والقوالب يمكنهم الثرثرة حولها، على العكس من افراد اقلية القمة والاقلية الوسطى الذين يجب أن يكون خضوعهم كاملا.

شمولية العالم الحديث:

يذكر أنتونى جيدينز توازيا بين عالم أورويل وعالم الحداثة فمجتمع اليوم منظم بشكل لم يسبق له مثيل مراقب إلى أعلى درجة فالحياة اليومية مخططة ومرتبة بواسطة مؤسسات بيروقراطية تجعلها كعالم الأخ الأكبر مداره روتينيا على نحو منهجي وليست عالم الافراد الأحرار فى الايديولوجية الليبرالية أيام الانتاج العائلى الصغير والمشروع الحر، فنحن فى عصر البيروقراطية الهائلة، أنظمة خبراء ومؤسسات محكمة لتنظيم جداول الأوتوبيسات والقطارات والطائرات وإمدادات الكهرباء والتليفزيون وانتاج الأطعمة والملابس وتوزيعها وحسابات البنوك، ويتطلب ذلك جمع معلومات دقيقة عن الناس وانشطتهم، فالرقابة الروتينية شرط ضرورى للتنظيم الاجتماعى الكفء، إن التحجر الميكانيكي يصاحب القفص الحديدى للتنظيم العقلانى القانونى (الصورة الأوروبلية للمجتمع)، فكل المعلومات عن كل شخص مسجلة.. ميلاده سكنه، تاريخ اعماله ومكالماته، وكل ذلك ضرورى فالمعلومات عن الافراد بالغة الضخامة دون حاجة إلى مراقبين شخصيين يتجسسون عليه، وكل هذه المعلومات عن الافراد بالغة الضخامة دون الرقابة الموجهة ضد الاعداء الخارجيين والاعداء فى الداخل معارضى النظام من وجهة نظر تلك الأجهزة ان جهاز الاستخبارات العسكرية البريطانى القسم الخامس إم أى فايف MI5 لديه فى مقره مكتب كومبيوتر مشترك له طاقة حفظ عشرين مليون سجل، ولديه ملفات حتى الثمانينات تخص مليونا من الأشخاص (دنكان كامبل وستيف كونور «الرقابة والكمبيوترات والخصوصية ١٩٨٦)، وقد كشفت التسريبات أن الرقابة تشمل النقابيين ونواب حزب العمال ونشطاء نزع السلاح النووى ورجال الجامعات

وشخصيات وسائل الإعلام ، الأعداء المحتملين ويذكر ستانسفيلد تيرنر مدير مخابرات كارتر فى مقاله المخابرات لنظام عالمى جديد ضرورة التجسس الصناعى والعسكرى والعلمى على الدول الصديقة فى الخارج والتكافل بين المخابرات والبزنس فى الداخل ، أما الحداثة فرمزها الآن شبح الأخ الكبير العليم بكل شىء جهاز رؤية كل شىء «البان أوبتيكون (وفقا لفوكو) فى المجتمع الانضباطى الحديث حيث يحيا الناس فى بيوت من زجاج وليست تلك قصة خيال علمى أو ادبى لأن الشمولية ورقابتها تبلغ حدها الاقصى فى الدولة الديمقراطية الحديثة، فالرقابة فى المشروع الرأسمالى مفتاح الإدارة والإدارة تعتمد على المعلومات وتتدخل فى الحياة الشخصية لموظفيها وتتلصص على المنافسين وكيف تبيع الشركات منتجاتها دون دعم اعلانات الميديا ورعاية برامج تليفزيونية إثارية تجمع ملايين المشاهدين حول حوارات ومسلسلات ومناقشات رياضية لتجميل اسلوب حياة مناسب مفترض؟

وفى عالم الأخ الكبير فى رواية أورويل تمنح الجماهير برامج ترفيهية مماثلة لبرامج اليوم، فليس المطلوب منها الاهتمام الحقيقى بالسياسة، بل وطنية بدائية متعصبة ضد اعداء ما ومتابعة لكرة القدم وخصوصيات نجوم المجتمع وكانت هناك إدارة لتأليف الروايات الخيالية، فالكتب سلع مثل أربطة الاحذية، وهذه الروايات (مثل مسلسلات عالم اليوم) لها ست حبكات وتباديلها: قصص جريمة وحب ومغامرات يصنعها جهاز الكاليدوسكوب وبعضها بورنو (فاحش جنسيا) مثل لمسات على المؤخرة وليلة فى مدرسة بنات تباع سراً للشباب الذين يظنون انهم يتمردون ويشترون شيئا غير قانونى، وكل التوقعات عن السلوك الإنسانى تقدم داخل قوالب تبسيطية جدا كيف تقع فى الحب وما هى الأوضاع المختلفة للحياة العاطفية الناجحة والفاشلة، وفى عالم الأخ الكبير إنتاج بالجملة للموسيقى والاغانى لاستهلاك الجماهير يتم فيها تثبيت الحياة العاطفية فى صيغ محددة للولع والانطفاء وطرز معروفة من الانفعالات ، علامات مصطلح عليها لمجالات العاطفة وامثلة جاهزة للحب والرغبة والأسى تتضمن موت الشخصية الدينامية، وتغنى امرأة من البوليتاريا اغنية مصطنعة على آلة النظم «يقولون إن الزمن يشفى كل الأشياء، وأنت تستطيع دائما النسيان، ولكن الابتسامات والدموع عبر السنين ماتزال تعصر أوتار قلبى»، فتذكرك بما تكتبه حنا أرندت فى نقدها لأغنيات عالم اليوم (الوضع البشرى - ١٩٥٨) .

ويناظر اعداد منتجات الشباب الروائية والغنائية والموسيقية فى الكابوس الأورويلى ايماءات حنا آرندت الى التشجيع التجارى والسياسى لما يسمى بثورة الشباب اليوم وبتمردهم ، هنا وهناك مغازلة لأهميتهم المنتحلة المخادعة، وترويج سوق ضخمة للشباب، ملابسهم وقصات شعرهم وأغنياتهم واشعارهم وقاموسهم، والجيل الشبابى قصير العمر جدا فى ذلك ولا داعى لأن يبذل احد أى جهد لمناقشة هذه الموضات السلوكية والفنية فستموت من تلقاء نفسها، وكان الأخ الكبير يسمح بالحرية الجنسية الكاملة عند الجماهير فهم والحيوانات أحرار تماما، ومجتمع الإباحة ضرورى

للسلطة القمعية مثل ضرورة الانضباط الحديدي للكادر.

ماذا عن التقييدات ومنع حرية التفكير وإبداء الرأى فى مجتمع الأخ الكبير ومجتمع الحداثة اليوم ؟

ينصب ذلك كله على الأقليـة من التكنوقراطيين والبيروقراطيين أصحاب الامتيازات فى القمة والمرتبة الوسطى . ومن الواضح أن أورويل يكتب عن مجتمع متخيل دمرته الحرب الذرية ومازال فقيراً جداً فى قواه الإنتاجية . وتكاد الأخلاقيات الرسمية المعلنة لقياداته تشبه الأخلاقيات البروتستانية فى مطلع الرأسمالية وأخلاقيات اليمين المحافظ فى أمريكا اليوم (العفة الجنسية والتمسك بمظاهر التفانى فى العمل والشخصية المحترمة والعقائدية القويمة السياسية المعادية لأى هرطقة) . وبطبيعة الحال كان كابوس الشمولية عند أورويل يقوم على محاور بوليس التفكير ، أى التحكم فيه من جانب «وزارة الحقيقة» ، وكراهية العدو الذى يكره مبادئنا وعملائه الذين يشكلون «أخوية» معارضة ، واللغة الجديدة والتفكير المزدوج : فالحرب هى السلام ، والحرية هى العبودية ، والجهل قوة ، وإعادة بناء الذاكرة والماضى (الحقائق التاريخية يقذف بها إلى حفرة سوداء فى الذاكرة) . وكان الخط «الحزبى» كما يقول ناعوم تشومسكى فى هذا السياق واضحاً صريحاً تعلنه وزارة الحقيقة (أكاذيب الدعاية) تجب إطاعته ومن يعارضه تسجنه وتعذبه «وزارة الحب» . أما مجتمع الحداثة ، مجتمع الأحزاب الانتخابية المتعددة ، فله خط مؤسسى واحدى لجوهر النظام ليس معلناً ولكنه مفترض مسبقاً . إن المعارضين لا يسجنون ولا يقتلون ، ولكن هرطقاتهم يقذف بها دائماً وخاصة بعد سقوط المنظومة السوفيتية - إلى هامش الهامش ، فمعظم الناس يجدون من الصعب فهم ما يقوله معارضو النظام حتى فى المناسبات الاحتفالية التنفيسية لسماعهم ، لأن الناس محشوون من الطفولة فى المدرسة والكنيسة وبواسطة أجهزة الإعلام بصور وقوالب تفكير وبديهيات وصيغ لغوية وأفعال منعكسة تتعرف بالرفض الفورى على أى نقد لأسس النظام باعتباره بلاهة غريبة الأطوار لا تستحق أى مناقشة . أما الحوار فليس ممكناً إلا حول التنويعات الفرعية لمذهب الايمان بالرأسمالية وأشكالها السياسية . ومن الصعب لديهم تصور عالم معقول لا يقوم على هذا النظام كما كان من الصعب تصور بلد بدون ملك مطلق فى القرون الوسطى . ويختلف مجتمع الحداثة عن الكابوس الأورويلى فى أنه لا يجد ضرورة للرقابة الصريحة لأن التحكم فى التفكير أصبح صناعة مزدهرة ضرورية لمجتمع يقوم مثل مجتمع الأخ الكبير على احتكار نخبة قليلة العدد للقرار ، وهى التى تعين نمط من يمكن أن يتقدموا للترشيح وتمول حملاتهم الانتخابية بالملايين وتفبرك صورهم التليفزيونية وتقوم بتبديلهم . وما على أغلبية المجتمع إلا المناصرة السلبية . لقد كف «الأخ الكبير» عن أن يكون قناعاً شخصياً وأصبح سلسلة لا شخصية من القوى الاقتصادية والسياسية والعسكرية والجامعية والإعلامية . وتحولت «وزارة الحقيقة» إلى بيزنس العلاقات العامة وفبركة التوافق

الفكرى القسرى . فليس الناس العاديون فى هذا الزعم أفضل من يعرف مصلحتهم الخاصة ، وعلى بعض الاكاديميين وإعلاميى المؤسسة تقديم الأوهام الأوروبلية لتقويض المشاركة الديمقراطية الحقيقية فى تشكيل السياسة العامة . حقاً إن الطبقات الشعبية والمثقفين انتزعوا حقوقاً ديمقراطية حقيقية ، ابتداء من حق الانتخاب والترشيح وتشكيل الأحزاب والنقابات وإصدار الصحف وحرية التفكير والتعبير وانتهاء بحق الاجتماع والتظاهر والإضراب ، وما تزال هذه المكاسب قائمة رغم محاولة الانقضاض عليها وتظل تشكل حصوناً لمقاومة الشمولية الجديدة .

أما «اللغة الجديدة» وقاموسها فى رواية «١٩٨٤» ، فتقوم على اختزال اللغة إلى أقصى حد وتدمير الكلمات ومفاهيمها بالمئات واختراع كلمات جديدة عبارة عن حروف للإشارة إلى مؤسسات وأفكار وتوجيهات لتضييق نطاق الوعى ، وصياغة عبارات شعارية عقائدية هى عموميات فارغة فارغة طنانة تتكلم داخل الناس تفكر بدلاً من عقولهم وتمحو إمكان التفكير المستقل . وهذه اللغة الجديدة القائمة على التفكير المزدوج تعتمد على إثارة مستمرة للشعور بالخطر والتهديد من جانب دول شريرة معادية وعملائها فى الداخل وتشكيل حالة عقلية أو لا عقلية عن الانخراط فى حرب أو سلسلة حروب مفروضة تجعل المواطنين مهووسين سهلى التصديق فى بلاهة . وشعور الناس بالخطر تنفخ فيه أبواق السلطة دائماً ليجعل من تسليم كل السلطة لأجهزة الأمن والتنازل عن الحقوق أمراً طبيعياً عقلانياً . فحالة الحرب ينبغى افتعالها ، والحرب المستمرة تصبح شرطاً للسلام (الحرب هى السلام) . كما أن التنازل عن الحريات والخضوع للأوامر والعبودية للثوابت الزائفة فى القول والفعل تؤدى جميعها إلى حرية أعمق وأنبل (الحرية هى العبودية) . وهذا الوضع المحفوف بالمخاطر الداعى إلى أن يأخذ كل فرد موقعه الذى حدد له من أعلى ، وأن تقتصر معرفته على تخصصه الضيق وإجراءات مزاولته لعمله لكى يجيدها يفترض ألا يشغل ذهنه بتخصصات الآخرين وألا يسأل عن أسرار الوضع العام والسياسة العامة والنظريات (الكلام الكبير) ، ولذلك يصبح الشعار الثالث هو «الجهل قوة» الناس يخضعون بكامل إرادتهم الحرة ويتم تفريغهم وحشوهم بالخردة المؤسسية طوال النهار والليل .

وما هى أوجه الشبه والاختلاف بين الشمولية القديمة والجديدة ؟ الكابوس الأورويلى القديم كان اشتراكية مزعومة فى أوضاع تخلف اقتصادى (بعد حرب ذرية أو إنتاجية ضئيلة للعمل) ، ولم تكن النازية بعنصريتها وسيادة العرق الجرمانى بواسطة الحرب على العالم وتحالف احتكارات رأسمالية ضخمة مع منظمات الهتلرية هى موضع اهتمام أورويل . فقد كانت الشمولية القديمة تتخذ من الاشتراكية قناعاً .

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الشمولية الرأسمالية قد أحكمت الآن سيطرتها وأن بربريتها انتصرت بالكامل ، فالمقاومة ممكنة ومن البلاهة اعتبار الشمولية قالباً موحداً لا علاقة له بمضمون الحكم وتركيبه الطبقى وتغيرات الزمان والمكان .

ولنبدأ «باللغة الجديدة» فى عالم اليوم

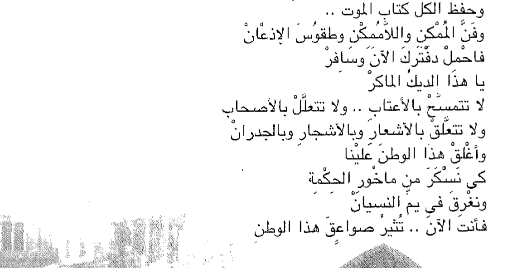
، عالم فبركة التوافق والرأى العام التى تتضمن تصميم صيغ وألفاظ لها معنى اصطلاحى معزول عن معناها «القديم» . وتعتمد هذه اللغة الجديدة على «الهندسة التاريخية» أى تزييف صور الماضى العالمى ، وفبركة ذاكرة وهمية ، تلقى بالأحداث والحقائق إلى حفرة سوداء للنسيان ، إلى فقدان الذاكرة . وأول كليشيهات اللغة الجديدة «القيم الديمقراطية الانسانية للعالم الحر» ، بريطانيا وأمريكا يحاربان النازية من أجل الحرية ، الدول المستنيرة كرست وستكرس نفسها بإنكار ذات للدفاع عن حقوق الانسان ترشدها مبادىء وقيم «الديمقراطية وحقوق الانسان والتحرير» . ولنأخذ كليشيه استخدام أسلحة الدمار الشامل ضد المدنيين والأبرياء من جانب الديكاتوريين الذى شكل مبرراً لغزو العراق . إن الوثائق التى لم تعد سرية وقدمها معهد استوكهولم العالمى لأبحاث السلام كشفت عن أن القيادة البريطانية اعتبرت أن استخدام الأسلحة الكيمائية فى شمال روسيا فى حرب التدخل ضد الثورة الاشتراكية عام ١٩١٩ تم بنجاح عظيم . أما الديمقراطى العظيم وينستون تشرشل وكان وزير دولة الحرب عام ١٩١٩ فكان متحمساً لآفاق استخدام الغاز السام ضد القبائل غير المتحضرة ، وما هى تلك القبائل ؟ إنها لمفارقة تاريخية إن تلك القبائل غير المتحضرة ليست سوى القبائل الكردية والأفغانية ! وما أوقح مزاعم اليوم . وقد صرح تشرشل لقيادة سلاح الطيران الملكى فى الشرق الأوسط باستخدام الأسلحة الكيميائية ضد العرب المتمردين على الامبراطورية كتجربة ، وأعلن عن رفضه لأى اعتراضات على ذلك باعتبارها «غير معقولة» وعن أسفه لفرط الحساسية والوسوسة حول استخدام الغاز السام ، فهذه الأسلحة وفقا لتشرشل ليست إلا تطبيق للعلم الغربى على الحرب الحديثة . ولم يعد سراً استخدام سلاح الجو الملكى البريطانى للغازات السامة ضد تمردات الأكراد طوال الثلاثينات ، كما استخدمت الولايات المتحدة هذه الأسلحة فى جنوب فيتنام ١٩٦١ - ١٩٦٢ ضد المدنيين واستخدمت أسلحة بيولوجية ضد كوبا ، ١٩٧٧ وقد بررت حالة الحرب الدائمة (الحرب هى السلام) ضد العدوان الشيوعى (كل الوثائق السوفيتية السابقة بين أيدى الأمريكان الآن ولم ينشر شىء ينفى العجز العسكرى الكامل عن التحرك خارج حدود المجال الحيوى الجغرافى لمنطقة النفوذ السوفيتى)تدبير الانقلابات العسكرية ضد الأنظمة الديمقراطية وتأييد أبشع أنظمة الحكم فى العالم .

وكما تمت أحياناً صياغة رمزية اسم أورويل ليناسب إيديولوجية الذين قضى حياته فى معارضتهم ، استمرت المفارقة الكوميدية فى شىء اسمه جائزة أورويل للصحافة . فعلى الرغم من أن واحداً من أعضاء اللجنة التى تمنح الجائزة سير برنارد كريك سابق الذكر أستاذ خبير فى أدبه ، فإن العضوين الآخرين سير ديفيا هير وكارمن كاليل ينتميان إلى ذلك النوع من الناس الذى لم يكن أورويل يشعر قط بالود تجاهه ، ومن حصل على الجائزة هذا العام ؟ كاتب شديد الرجعية فى إيفننج ستاندرد اللندنية اسمه بريان سويل ، ما كان من الممكن قط أن يكون صديقاً له . لقد أدخلوا اسم أورويل إلى «اللغة الجديدة» للشمولية الحديثة التى كان أول من فضح زيفها . ■

البكاء على شط العرب

شعر
جلال عابدين

يا ديكَ الجنِّ بربِّك دعْنا .. ولا تخدعْنا ..
واخلعْ نعليكَ بعيداً عنَّا ..
واخرجْ ما شئْت من الرِّئتين ..
من العينين .. من الكعبينِ .. ومن دمِنا
فصهيلُ جيادكَ .. أوجعنا
ولهيبُ مدادكَ أوقعَنا دُونَ ذنْوبٍ ..
في حلْق الشَّيطانْ
ولْتعلَمْ انَكَ مُقْتَحَمٌ يا ديكَ الجنِّ.. ودمُكَ مُباحٌ..
من رأسكَ حتَّى الشِّريانْ
ولن يحْمَيَكَ الورَّاقونَ الشدَّاقُونَ الحزَّاقُون..
ولن يُنْصفكَ الوزَّانونَ .. ولا الميزانْ
ونحنُ الآنَ هلكْنا .. فيما بيْنَ البيْن ..
فنحْنُ نُدينُ سيُوفَ العرَبِ.. وفيما بيْنَ البيْن ..
نصونُ القُدْسَ ونحنُ جلُوسٌ فى خيمتنا..
ونزرعُ دجلةَ بالصبَّارِ وبالتَّذْكارِ وبالأكَفانْ
وحفظ الكل كتابَ الموت ..
وفَنَّ المُمْكنِ واللاَّمُمكْنِ وطقوسَ الإذعانْ
فاحْملْ دفْترَكَ الآنَ وسافرْ
يا هذَا الديكُ الماكرْ
لا تتمسَّحْ بالأعتابِ .. ولا تتعلَّلْ بالأصحاب
ولا تتعلَّقْ بالأشعارِ وبالأشجارِ وبالجدرانْ
وأغْلقْ هذا الوطنَ علَيْنا
كي نَسْكَرَ من ماخُورِ الحكْمةِ
ونغْرقَ في يمِّ النسيانْ
فأنت الآنَ .. تُثيرُ صواعقَ هذا الوطنِ



وتعبثُ دوْماً بالأجْراس ..
وتلعبُ بالأحْبارِ وبالأخْبارِ وبالألوانْ
وتْرسمُ وطناً بالطبْشُورِ وماءِ النَّارِ .. على الحيطانْ
فابْعدْ بصِياحكَ عنَّا ..
فأنْتَ مُهرِّجُ عصْرِ الحكْمةِ .. فى زمنِ الحيتانْ
وأنت المُضحكُ والدَّرويشُ ..
وشيْخُ البكائينَ .. وملكُ الجانْ
وحيثُ تسيرُ .. يسيرُ وراءَكَ
أهلُ الخُطْوةِ والغلْمانْ
وحيثُ تسيرُ .. تُثيرُ غُباراَ .. وشراراً ودُخَانْ
وأنت تُشاغبُ طوبَ الأرْضِ .. وتحترفُ العصْيانْ
أنت مُدانٌ .. ودمُكَ مُباحٌ بالامرْ المَلَكيِّ..
ويطلُب رأسكَ صبْيةُ هذا الوطنِ جميعاً
وتبْحثُ عنك زبانيةُ السلْطانْ
دمُكَ مُباحٌ .. منذَ كسوْتَ كفُوفكَ ريشاً..
يا هذا الديكُ المارقُ ..
من قال بأنَّ غريراً مثلكَ .. يحترفُ الطَّيرانْ
أنت مدانٌ ..
منذ نقرْتَ رؤوس الدِّيكة .. ديكاً .. ديكاً
وعقرْتَ رقابَ الكهنة والأوثان
وحينَ وقفْتَ عنيداً كالعصفُورِ الأحمقِ..
فى وجْه البركانْ .. أنت مدانْ
يا هذا الَّديكُ المغْرُورْ
لا تَقفزْ منْ فوْقِ السُّورْ
وابعدْ بصَياحكَ عنَّا .. فَنحنُ قبلْنا
أن نَعْبُدَ ذَا القَرنين .. ونقتل ذَا النّوريْنِ..
وننامَ علي سيْفٍ مكسورْ
ونحن اعتدْنا منذُ سنين ..
أنْ نلِّعقَ سيْفَ مُعاويةٍ.. ونبيعَ عباءةَ عثْمانْ..
ونُوسِّدَ رأسَ الوطنِ .. على سهْمٍ مسموم ..
وتعودنا .. أن نَشْرَبَ قهْوتنا ..
دفونَ حياءٍ .. فى شَقِّ الثُّعبْان ..

عمرو موسى
ودوره فى النظام العربى

بقلم
سيد أبو زيد عمر

مشاهد من الذاكرة:

استدعت الحملة الاعلامية الموجهة إلى أمين عام الجامعة العربية مؤخرا لدى شريطا من المشاهد، قد تبدو متناقضة ولا صلة مباشرة لها بالموضوع إلا أن الذاكرة تمزج عادة بين الحدث والموقف، ولا تستطيع بأى حال أن تتحايد فيما لا مراء فى وضوحه وصدقه، فإن لم يكن بمقدورنا أن نسير فى دروب هذا الزمن الردىء، الذى ركب فيه القوم فى أغلب الأحوال أسافلهم، إلا ونحمل غصة فى حلوقنا تكاد تخنق أنفاسنا. ونشعر بثقل فى نفوسنا يكاد يوهن عزائمنا، فإن مشاهد الماضى على الأقل تهدىء بعض الخواطر وتلقى الضوء على بعض جوانب الأمور التى تحاول قوى الظلام تزييفها ولى الحقائق حولها.

المشهد الأول... حين تبادلت الكويت مع الحكومة البريطانية رسائل ألغت بمقتضاها معاهدة ١٨٩٩ وأعترفت فيها بريطانيا بالكيان المستقل لدولة الكويت، وكان انضمامها إلى الجامعة العربية فى ١٩٦١/٧/٢٠ تأكيدا لوضعها كدولة كاملة الاستقلال والسيادة. وشجب وزير الخارجية الكويتى فى أول بيان له أمام مجلس الأمة الكويتية كل تكتل من شأنه أضعاف جامعة الدول العربية، وذلك خلال تحديده لسياسة بلاده الخارجية، وهو الموقف الذى حظى بموافقة المجلس الكويتى بالاجماع.

ولم تهنأ الكويت كثيرا باحتفالات استقلالها، فى ظل تحرك نظام قاسم فى العراق للمطالبة بحقوق تاريخية لهم فى الكويت، مجددا مطالب العراق المعروفة فى هذا الصدد منذ العهد الملكى. ووقفت مصر منفردة ومن خلال الجامعة العربية بصلابة فى مواجهة هذه الأطماع، وكانت



وقفتها التى تكررت بعد ذلك عام ۱۹۹۱/۹۰ عاملا فيصلا فى وأدها.

المشهد الثاني... عند التحاق عمرو موسى بالخارجية المصرية عام ١٩٥٧ - أى قبل أربع سنوات من تلك الأحداث - فقد كان قريبا من صنع القرار بالخارجية منذ بدايته مؤثرا فيه ومنفذا أمينا له، إلى أن تولى رئاسة جهاز الدبلوماسية المصرية، هذا الجهاز الذى كان وسيظل خزانا بشريا للوطنية والعروبة، أثبتت الأحداث الجسام التى مرت على منطقتنا مدى إخلاصه وجديته وصلابته، لقد قدمت مصر عند ترشيح الوزير عمرو موسى لرئاسة الأمانة العامة لجامعة الدول العربية أبرز فرسانها وأفضل رجال قلعتها الحصينة، والتى سبق أن أهدت إلى الجامعة العربية أمنائها الأجلاء الذين نجحوا فى الحفاظ على كيان الجامعة العربية والسير بها رغم الأنواء العاتية داخلها ومن حولها.

المشهد الثالث ... فى نيودلهى عام ١٩٩٦، فقد وقف وزير الخارجية الهندى يرحب بوزير الخارجية المصرى فى حفل عشاء أقيم على شرفه قائلاً إن «الصديق عمرو موسى رجل دولة مرموق من طراز فريد له تقديره على المستوى الدولى وأنه يتعلم منه الكثير..»

ورد الوزير المصرى بكلمة

مرتجلة بلغة إنجليزية رفيعة المستوى. عقب بعدها جارى على طاولة العشاء من الخارجية الهندية بأنه كان يأمل أن تكون الكلمة مكتوبة حيث اعتاد أن يحتفظ بكلمات من هذا المستوى لكي يقتطف منها بعض تعبيراتها.

وتصادفت معى كثيرا مثل هذه المواقف وفى العديد من العواصم.

المشهد الرابع.. فى مطار إحدى العواصم العربية عام ٢٠٠١. وكنا مع وزير خارجية دولة عربية شقيقة فى انتظار الوزير المصرى لبدء أعمال لجنة مشتركة، وتأخرت الطائرة بضع دقائق، توقف الوزير العربى خلالها أمام خبر تناقلناه عن أن مصر قد رشحت عمرو موسى لمنصب أمين عام الجامعة، وقال بعد فترة صمت وتأمل، أن رئيس دولته قد طلب عند الأتصال به لاستمزاج رأيه فى هذا الترشيح، بأن يقدم كمرشح ليس عن مصر فقط وإنما عن بلده العربى أيضا.

وأضاف وزير خارجية الدولة الشقيقة أن عمرو موسى بأنتقاله إلى الجامعة العربية سوف يفتقد أمرين. أولهما مبنى وزارة الخارجية المنيف باضوائه المسلطة على زهرة اللوتس على صفاف النيل، فليس هناك من كائن لا يتمنى أن يقف فى ردهته فخورا لاستقبال الضيوف الأجانب، وثانيهما وضعه بين قرنائه من وزراء الخارجية العرب. ويبدو أنه كان يستشرف المستقبل..

المشهد الخامس.. عشية القمة العربية فى عمان فى مارس ٢٠٠١ والتى قررت بالإجماع.فى ختام أعمالها الموافقة على تعيين عمرو موسى أمينا عاما للجامعة وتكليفه باتخاذ الخطوات اللازمة لأعادة هيكلة الأمانة العامة بما يمكنها من الاضطلاع بمهامها، ووافق أيضا على المستويين الوزارى والقمة على القرارات الخاصة بتطوير الجامعة وتفعيل دورها، تلك القرارات التى كان الأمين العام الجديد قد تقدم بصياغات لمشاريعها. وكانت المفاجأة لى أن الموافقة على هذا المستوى قد تمت بيسر وسرعة، وذلك أننى كنت قد أمضيت ليلة كاملة فى مناقشات صعبة حولها فى اللجنة التحضيرية والمكونة من وكلاء وزارة الخارجية وكنت أترأس وفد مصر خلالها. ووضح خلال المناقشات أن دولا بعينها كانت تعمل على عرقلة صدور هذه القرارات أو على الأقل عدم أعطاء الأمين العام صلاحية كاملة لإجراء الإصلاحات المطلوبة، ولم ينقذ الموقف بالنسبة لى سوى التعليمات التى جاءتنى من الوزير موسى بإغلاق المناقشة وإحالة الموضوع إلى المستوى الوزارى. واجتماع كبار المسئولين عادة هو المطبخ الذى يكشف المواقف الحقيقية الكامنة فى الضمائر.

مشكلات الجامعة الحالية تعود إلى نقطة البداية

تكسرت النصال على صدر كل من الجامعة العربية وأمينها العام فى الآونة الأخيرة، إذ تتهم المنظمة بالضعف، والانقسام، وأن مواقفها أصبحت عديمة الأثر على المستويين الإقليمى والدولى، وتهاجم الأمين العام من جانب آخر بأنه يتجاوز اختصاصاته وسلطاته التى تراها أحد الدول الأعضاء بأنها لا يجب ألا

تتجاوز شئون إدارة جهاز الجامعة وبانه قد أنحاز بهواه إلى صف النظام العراقى خلال الأزمة الأخيرة.

وفى الواقع فأنه يصعب الفصل بين الأمرين سواء فى أسباب هذه الحملة أو أهدافها النهائية. ولعل من المفيد أن نعود بإيجاز إلى نقطة البداية فى رحلة أنشاء الجامعة، ذلك أن فكرة إقامة تنظيم عربى واحد يجمع شمل البلاد العربية، لم تتجسد بغرض تلبية الدعوة إلى الوحدة العربية التى تنامت منذ بداية القرن الماضى، بقدر ما كان الغرض منها أجهاض تلك المشاعر وتحويلها إلى قنوات يمكن السيطرة عليها والتحكم فى توجهاتها.

ولعل الاستعراض المتأنى للمشاورات التمهيدية التى تمت منذ يوليو ١٩٤٣ بين بعض الزعامات العربية، والتى سميت «بمباحثات الوحدة العربية» وحتى توقيع الميثاق فى مارس ١٩٤٥، قد كشفت بوضوح مدى البراعة فى إذابة توجهات الوحدة الاندماجية المطروحة فى ذلك الوقت (مشاريع سوريا الكبرى/ الهلال الخصيب / الوحدة الشاملة) لكى ينتهى الأمر إلى أتفاق على أنشاء «جامعة للدول» تراعى بدقة سيادة الدول العربية واستقلالها عن بعضها البعض وبأن لا تكون الجامعة سلطة عليا تفوق سلطات أعضائها .

وكرست المادة السابقة من الميثاق هذا التوجه من خلال النص على أن ما يقرره المجلس بالأجماع يكون ملزما لجميع الدول المشاركة فى الجامعة، وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزما لمن يقبله. وفى الحالتين تنفذ قرارات المجلس، فى كل دولة وفقا لنظامها الأساسى. ولا يتضمن الميثاق أو النظام الداخلى مساءلة أى عضو لا يلتزم بقرارات المجلس عدا ما جاء فى النظام الداخلى متعلقا بتأخر الأعضاء فى تسديد المبالغ المستحقة عليها، وهو النص الذى لم يحدث أن طبق على أى دولة عضو.

هذه هى القواعد القانونية التى يتحرك فى نطاقها الأمين العام، والتى عبر عن صعوبتها أحد فقهاء القانون الدولى «بأن جماعة أو منظمة من المنظمات لا توفق إلى وسيلة غير الاجماع للتعبير عن ارادتها لهى جماعة أو منظمة مهددة بالفناء».

ورغم ذلك فقد استطاع الامناء العامون للجامعة على مدار تاريخها الحفاظ على المنظمة بل وأن يصدر عنها مجموعة من القرارات والاتفاقات والمواثيق، لو توفرت الارادة السياسية لدى الدول الاعضاء لوضعها موضع التنفيذ، لتسببت فى اتاحة النهوض لهذه الامة.

دور واختصاص الأمين العام

يعد أمين عام الجامعة، طبقا للميثاق ولوائح النظم الداخلية، شخصية اتحادية عربية دولية ، لا يمثل أية دولة عضو على انفراد، يشغل منصبه بالتعيين السياسى POLITICAL APPOINTEE ينوب عن الجامعة فيما تتخذه من اجراءات مستندا على نصوص الميثاق وقرارات مجلس الجامعة وميزانيتها، وهو غير مسئول إلا أمام مجلس الجامعة عن جميع أعمال الامانة العامة، وتمثل اختصاصاته الادارية نسبة ضئيلة مما هو مطلوب منه، إذ أنه يحق له أن يوجه نظر المجلس إلى أية مسألة يرى أنها قد تسىء إلى العلاقات بين الدول الاعضاء أو

بينها وبين الدول الأخرى، وله أن يقدم فى كل وقت اقتراحات فى موضوعات غير مدرجة على جدول الأعمال، وأن يعرض على المجلس تقارير أو بيانات شفوية عن أية مسألة يكون المجلس فى صدد بحثها، وأصبح من المعتاد طبقا للوائح الداخلية أن يعد الأمين العام مشروع جدول الأعمال لمجلس الجامعة على مختلف مستوياته ويبلغه مع المذكرات التفسيرية والوثائق ذات العلاقة للدول الاعضاء.

وقيمة القرارات تتوقف إلى حد كبير على مستوى العمل التحضيرى، كما أن محتوى الاتفاقات التى تصاغ فى نطاق الجامعة يعتمد على مدى نجاح الجهد التنظيمى ومساهمة الامانة العامة.

فالامانة العامة فى الواقع أداة لاتخاذ القرارات والاتفاقات ولا يقل دورها فى تنفيذ قرارات المجلس عن دور التحضير لها. ولا يخلو قرار يصدر عن المجلس على المستوى الوزارى أو القمة عن الطلب فى عجزه من الأمين العام بمتابعته أو تنفيذه وتقديم تقرير فيما يتم بشأنه.

وفى اطار ما سبق لم يخرج الأمين العام الحالى عن اختصاصه عندما حاول أن يرأب الصدع بين دولتين عربيتين أدى النزاع بينهما إلى شرخ عميق وخطير فى لجسد العربى، ولم يخرج الرجل فى تحركه عن اطار ما قررته القمتين العربيتين فى بيروت وشرم الشيخ.

ألم ترفض القمة فى بيروت - رفضا مطلقا - ضرب العراق أو تهديد أمن وسلامة أية دولة عربية باعتباره تهديدا للأمن القومى لجميع الدول العربية؟

وطالبت القمة فى موضع آخر باحترام استقلال وسيادة العراق وأمنه ووحدة أراضيه وسلامته الاقليمية.

ألم تعد القمة فى شرم الشيخ تأكيد نفس المعانى السابقة، وتأكيد القمة على الامتناع عن المشاركة فى أى عمل عسكرى يستهدف أمن وسلامة ووحدة أراضى العراق؟، وإقرار القمة بأن شئون الوطن العربى وتطوير نظمه أمر تقرره شعوب المنطقة بما يتفق مع مصالحها الوطنية والقومية بعيدا عن أى تدخل خارجى، وفى هذا الاطار استنكر القادة ما يتردد من محاولات رامية إلى فرض تغييرات على المنطقة أو التدخل فى شئونها الداخلية وتجاهل مصالحها وقضاياها العادلة.

الأمناء العامون السابقون.. تاريخ مشرف

أول أمين عام للجامعة هو السيد عبدالرحمن عزام فى الفترة من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٢، وكان يتولى قبل تعيينه عدة مناصب سياسية مهمة، وقد لعب دورا بارزا فى المشاورات والمباحثات، التى توجت بأعداد الصياغة النهائية للميثاق وذلك بصفته عضوا بالوفد الرسمى المصرى لاجتماعات اللجنة التحضيرية. وفى عهده صدر قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧ ووقعت الحرب العربية الاسرائيلية الأولى عام ١٩٤٨، والتى أشرفت خلالها الجامعة العربية على الدفع بجماعات المتطوعين لمساندة الجيوش العربية.

وقد يمكن أن نطلق على هذه الفترة مسمى مرحلة التأسيس، فقد اتفق خلالها على عدة اتفاقات فى المجال الثقافى والطيران المدنى والبريد والهاتف ومكافحة المخدرات والقضاء. وتوجت بالتوقيع على معاهدة الدفاع المشترك والتعاون

الاقتصادى عام ١٩٥٠.

وخلفه السيد عبدالخالق حسونة فى الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٧٢ والذى سبق أن عمل فى السلك الدبلوماسى المصرى ومحافظا للإسكندرية ووزيرا للشئون الاجتماعية ثم المعارف ثم الخارجية. وقد قاد أمانة الجامعة بحكمة فى فترة هامة شهدت فيها المنطقة متغيرات جذرية، واتسعت قاعدة العضوية بعد أن حظيت العديد من الدول العربية باستقلالها حيث انضمت ليبيا والسودان وتونس والمغرب والكويت والجزائر واليمن والبحرين وقطر وسلطنة عمان والأمارات العربية.

وكان للجامعة العربية دور فى دعم الجهود نحو الأستقلال وتحقق خلال هذين العقدين من الزمن الكثير من الأنجازات سواء بعقد الأتفاقات، فى المجالات الأقتصادية والثقافية والأجتماعية، وفتح سبل التعاون مع المنظمات الدولية وإنشاء اتحادات عربية نوعية، وأنشأت خلالها مجلس الوحدة الاقتصادية الذى أقر مشروع إنشاء السوق العربية المشتركة. وعقد خلالها خمس قمم عربية.

وتولى السيد محمود رياض منصب الأمين العام لجامعة الدول العربية فى الفترة من ٧٢ - ١٩٧٩، عمل قبل ذلك بالسلك الدبلوماسى المصرى ومندوبا دائما لمصر لدى الأمم المتحدة ثم مستشارا سياسيا لرئيس الجمهورية ثم نائبا لرئيس الوزراء ووزير الخارجية. وحفلت فترته أيضا بالإنجازات رغم قصرها. فقد أنشأت الصندوق العربى لمعونة أفريقيا، وأكاديكية النقل البحرى وصندوق النقد العربى، والمؤسسة العربية للاتصالات.. وغيرها.

وعقد خلالها أربع قمم عربية عادية، حيث قررت قمة ١٩٧٤ اعتماد منظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطينى، والموافقة على إقامة السلطة الوطنية المستقلة بقيادة المنظمة على أية أرض فلسطينية يتم تحريرها.

وتقدم رياض باستقالته عقب القمة العربية والاجتماع الوزارى العربى الذى قرر نقل الأمانة العامة بصفة مؤقتة إلى تونس، وخلفه السيد الشاذلى القليبى فى ١٩٧٩/٦/٢٨ والذى كان يشغل منصب وزير الأعلام والثقافة فى تونس، وهو الوضع الذى أستمر حتى ١٩٩٠/٣/١١ حين قرر مجلس الجامعة عودة الأمانة العامة إلى مقرها الدائم بالقاهرة طبقا للميثاق فى سبتمبر من نفس العام.

وتولى الدكتور أحمد عصمت عبدالمجيد أمينا عاما فى الفترة من مايو ١٩٩١ إلى مايو ٢٠٠١ والذى كان يشغل منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية، وسبق أن تقلد عدة مناصب دبلوماسية رفيعة فى باريس ونيويرك، وهو من رجال القانون الدولى المرموقين وقد ترك خلال فترته بصمات مميزة يأتى فى مقدمتها ترسيخ مبدأ دورية أنعقاد القمة العربية.

وبدأ تنفيذ أتفاقية تيسير وتنمية التبادل التجارى بين الدول العربية. وأطلاق مبادرة المصالحة العربية الشاملة عام ١٩٩٣.

لم نتطرق خلال هذا السرد لكثير من تفاصيل ما تم التوصل إليه فى اطار الجامعة من أتفاقات وقرارات، ولكن النظرة المتجردة لما سبق تبين أن الأمناء العامين للجامعة لم يكونوا موظفين فى دائرة جامدة، فقد كانت مستوياتهم قبل تولى مناصبهم بالجامعة العربية لا تقل

● هل المطلوب الآن ألغاء الجامعة العربية واستبدالها بكيان شرق أوسطي؟!

عن المستوى الوزارى المتميز، وكانوا أساتذة أجلاء فى الدبلوماسية والعلاقات الدولية، وكانت لهم أسهاماتهم العملية والفكرية فيما توصلت إليه الجامعة العربية من أدبيات وأتفاقيات خلال الفترة الماضية.

بيت القصيد..

لم يتوقف النقد الموجه إلى الجامعة العربية منذ أنشائًا، وكان هذا النقض يأخذ صورا تختلف بأختلاف الظروف والأهداف، وكان يتراوح بين التعبير عن الضيق لسيطرة دولة ما على توجهات الجامعة، أو إن أمينها العام ينحاز قليلا إلى طرف دون الآخر فى نزاع من النزاعات التى تملأ أروقة هذه المنظمة، ويتصل النقد دون أنقطاع للجامعة عن الحصيلة الضئيلة لنتائج أعمالها.

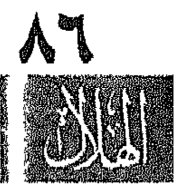
وفى ظنى أن الحملة الموجهة إلى الجامعة وأمينها العام هذه المرة تتخذ نفس الصور، إلا أنها جاءت بأسلوب مختلف يصل إلى حد التجريح الشخصى الذى هبط بمستوى الحوار إلى حضيض لم نألفه من قبل، كذلك فقد جاءت لأهداف تتجاوز مسألة الضغط على الأمين العام لترويضه وتحجيمه. وفى اعتقادى أن أهدافها لا تخرج عن أحد الاحتمالات التالية:

- تجميد الجامعة تماما بحيث يلغى وجودها كبيت يمكن أن يجتمع فيه العرب للخروج بموقف موحد ضد ما يرتب للمنظمة العربية من مخططات خارجية، وليس هناك ما يمنع فى ظل هذا الاحتمال من بقاء الجامعة كمبنى دون محتوى أو مفهوم.
- تطويع الجامعة بحيث يصدر منها ما يخدم هذه المخططات.
- فض الجامعة كمنظمة وإلغائها من الوجود استنادا إلى أنها لم تقم بدور فى الماضى أو يصبح هناك حاجة لها فى المستقبل.
- إعادة صياغتها فى منظمة جديدة تحمل عنوان الشرق الأوسط بحيث يمكن أن تضم إسرائيل وقد يمكن أن تقتصر على التعاون الاقتصادى الإنمائى!!

الأسباب...

وفى تصورى أن هذه الاحتمالات تأتى فى سياق المخططات التى وضعت لإعادة ترتيب المنطقة من جديد، وبخاصة أن الجامعة وأمينها العام الجديد أبديا بعض الحركة التى دعت إلى تركيز الحملة ضدهما فى الأونة الأخيرة.

فمنذ قمة القاهرة ١٩٩٦ على وجه التحديد . أخذ البرنامج التنفيذى لاتفاقية تيسير وتنمية التبادل التجارى بين الدول العربية طريقا للتنفيذ العملى منذ يناير ١٩٩٨ وبحيث قطعت جهود إنشاء المنطقة التجارية العربية الحرة شوطاً أصبح ملموسا بما يتيح الأمل بأن تضع هذه المنطقة أقدامها على الطريق لتعاون اقتصادى حقيقى، كذلك فإن اتفاقات انشاء السوق المشتركة الرباعية فى بغداد، والرباعية الثانية فى اجادير انما تمثل علامات مهمة على نفس الطريق. وجاء قرار القمة بالموافقة على عقد مؤتمر اقتصادى عربى لكى يوضح رغبة عربية حقيقية لعمل اقتصادى عربى مشترك.



وننتظر أن تبادر مصر بتجسيد هذا الهدف.

إن الاتفاق على دورية القمة العربية لم يبق أسيرا للملحق الذى تم ضمه إلى الميثاق، وانما أخذ طريقه الفعلى بعقد أكثر من قمة فى نطاق هذا الاتفاق.

ولقد صدر عن القمم الثلاثة الأخيرة (عمان / بيروت / شرم الشيخ) قرارات تبعث على عدم الارتياح لدى الجانب الآخر، الذى يسوءه كثيرا أن يصل العرب إلى مواقف هذه القوة، رغم اختلافهم العلنى، ورغم أن هذه القررات لم تجد طريقها إلى التنفيذ الفعلى.

هذا فضلا عن جهود الأمين العام الجديد فى تطوير الأمانة العامة للجامعة، وتفعيل حركتها ، والتنسيق مع الاتحادات والمنظمات العربية، وإدخال العمل العربى المشترك فى مجالات جديدة تمس خطوطاً حمراء معروفة، كالالتقاء بالمنظمات العربية الأمريكية، والدعوة إلى التركيز على التكنولوجيا والاتصالات والمعلوماتية. ومواجهة دعاوى صراع الحضارات والثقافات.

ما العمل

إن المتغيرات الدولية الجارية والمخططات التى رسمت للمنطقة، وبدأت بالاحتلال العسكرى للعراق، تجعل من الجامعة العربية ضرورة للتنسيق العربى فى مواجهة هذه التحديات التى تهدد كينونة الدول العربية ومصالحها الحيوية.

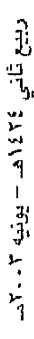
ومن ثم فإن الأمر يتطلب أن نقف ابتداء للدفاع عن كيان الجامعة العربية وشخص الأمين العام، فالهجوم على الأمين العام ليس موجها ضده بقدر ما هو موجه إلى قواعد الجامعة ذاتها.

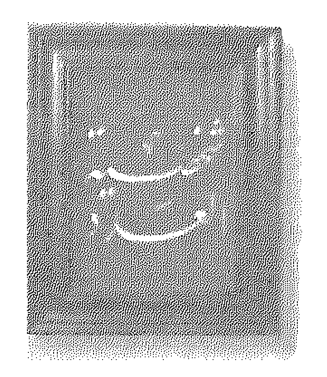
ولا سبيل إلا بمواصلة العمل العربى المشترك بنفس القوة والاندفاع، بما يلقى مسئولية خاصة على مصر بأن تواصل عملها كدولة محورية ضابطة لايقاع العمل العربى بالتعاون مع دول الارتكاز العربية الأخرى، بغية التوصل إلى تنسيق سياسى كامل يصل بنا إلى مواقف سياسية واضحة من مختلف القضايا التى تواجه أمتنا حاليا، تلك المواقف التى تخلق عادة رأيا عاماً عربى شعبى يكون مساندا وداعما للموقف الرسمى، وما أعظم أن يلتحم الموقفان.

وكذلك التوصل إلى تنسيق عسكرى بأحياء اتفاقية الدفاع العربى المشترك، ترهبون بهذا التنسيق عدو الله وعدوكم، وتعاون أقتصادى حقيقى قطعنا بالفعل خطوات هامة على طريقه.

إن هذا يمكن أن يحقق الغرض منه إذا ما تم بين مجموعة دول عربية صادقة النية والعزم، فلم تعد الظروف تسمح بأن يترك للدول العربية الهامشية أن تواصل عملها كمخلب قط لهدم النظام العربى.

وقد حان الوقت أيضا للتحرك عربيا على الصعيد الإقليمى لاقامة حوار مع إيران بعد أن هبت عليها رياح من الاعتدال، ومع تركيا بعد أن أبدت التفاتة إلى العالم العربى، وكانت تضع كل أوراقها فى الملعب الأوروبى، وأن ننطلق من هذا الوضع الإقليمى إلى ساحة دولية تتطلب دعم التحالف الرامى إلى الحفاظ على كيان الأمم المتحدة وإقامة علاقات دولية أكثر توازنا ومقاومة المخططات الامبراطورية للاحادية القطبية. ■





كوفى أنان

ودوره فى النظام الدولى

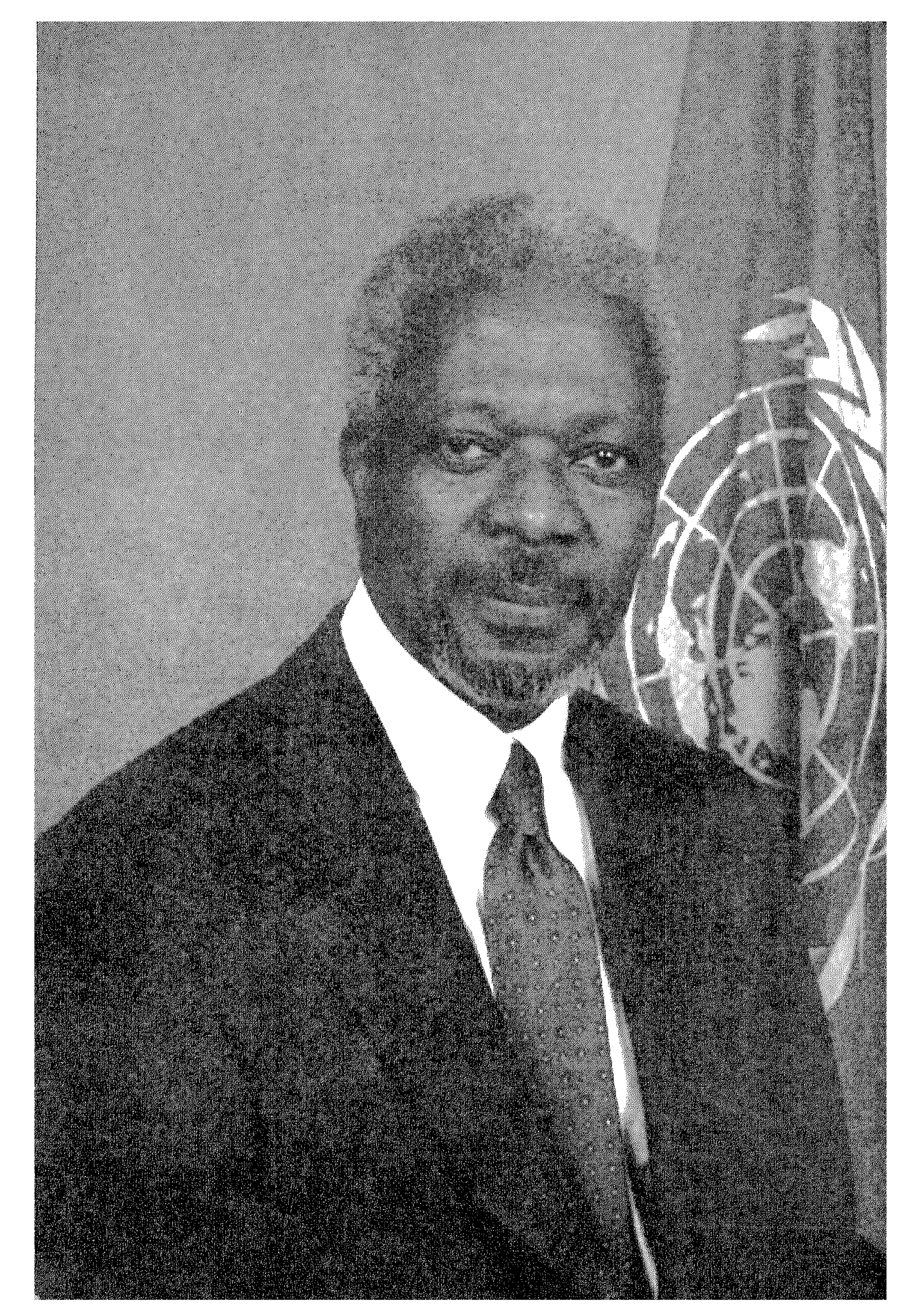
أثار الدور الذى قامت به الأمم المتحدة وأمينها العام كوفى أنان علامات الاستفهام فى الأوساط الدبلوماسية والإعلامية ، وهو الدور الذى عمل على تصعيد العقوبات والحصار ضد الشعب العراقى، وإنتهاك سيادته بمختلف الذرائع ، وبصفة خاصة تدمير أسلحة الدمار الشامل ، ثم التمهيد لغزو العراق .

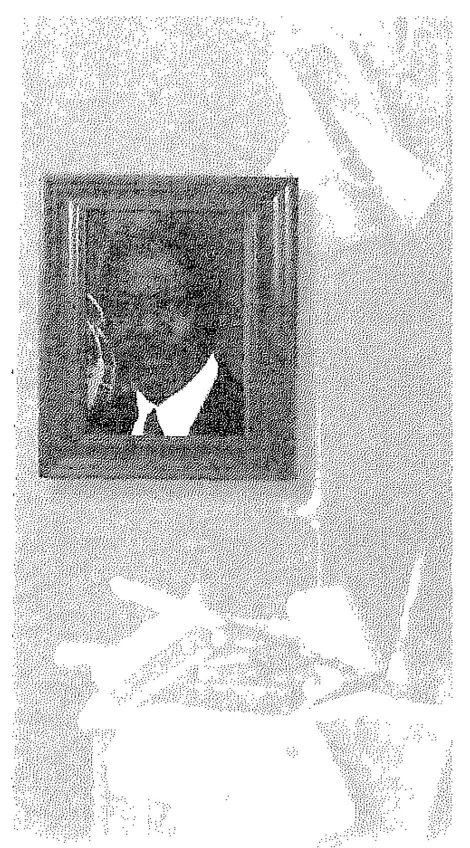
لقد سهل أنان للولايات المتحدة القيام بالتدخل فى الشئون الداخلية للعراق والتأثير على العلاقات الدولية ، إلى الحد الذى أصبح معه بلا شخصية، بل بدا كعروسة قفاز فى يد آمريكا ، يفكر بعقلها ، وينطق بلسانها، وأضحى الأمر ملتبسا على مشاهدى المسرح السياسى .. هل الأمين العام هو رجل الأمم المتحدة الذى يرعى السلم والأمن الدوليين، وحقوق الإنسان ، وإقامة القانون الدولى ، أم هو رجل أمريكا القائم برعاية مصالحها ولو على حساب ميثاق الأمم المتحدة ؟!

كانت البداية عندما استخدمت الولايات المتحدة حق النقض للاعتراض على إعادة انتخاب الدكتور بطرس غالى ، ودفعت بترشيح كوفى أنان لكى تنتخبه الجمعية العامة للأمم المتحدة ، بناء على توصية مجلس الأمن ، لمنصب الأمين العام لمدة خمس سنوات اعتبارا من أول يناير ١٩٩٧ . وكان السبب غير المعلن لاعتراض الولايات المتحدة على إعادة انتخاب الدكتور غالى ، هو سماحه بنشر تقرير التحقيق فى المذبحة التى تعرض لها مخيم اللاجئين الفلسطينيين فى قانا ، التابع للأمم المتحدة فى جنوب لبنان ، والذى حمل اسرائيل المسئولية عن قصف المخيم .

وكوفى أنان هو الأمين العام السابع للأمم المتحدة ، شغل قبل تعيينه فى هذا







المنصب وظيفة وكيل للأمين العام لشئون عمليات حفظ السلام ، وهو يعمل فى الأمم المتحدة منذ ما يزيد على ثلاثين عاما ، عمل خلالها فى عدة مناصب متنوعة بالاضافة للإدارة والميزانية وشئون الموظفين ، كما عمل فى قضايا اللاجئين وحفظ السلام ، وأسندت له عدة مهام دبلوماسية شملت التفاوض من أجل عودة تسعمائة من الموظفين الدوليين إلى أوطانهم وإطلاق سراح الرهائن الغربيين فى العراق عقب غزوه للكويت سنة ١٩٩٠ ، وبدء المناقشات بشأن صيغة «النفط مقابل الغذاء» .

بعد إشراف الأمم المتحدة على إجراء استفتاء فى تيمور الشرقية ، والذى انتهى باستقلال ذلك الإقليم عن اندونيسيا ، حصل كوفى أنان والأمم المتحدة على جائزة نوبل للسلام . ومن المعروف الدور الذى دفعت به الدول الغربية ، وعلى رأسها الولايات المتحدة واستراليا ، نحو تنظيم الاستفتاء فى تيمور الشرقية تمهيدا لانفصالها بعد زوال الخطر الشيوعى ، بينما كانت نفس هذه الدول تؤكد على انضمام تيمور الشرقية لاندونيسيا بعد انسحاب البرتغال منها فى السبعينات خشية وقوع الإقليم تحت نفوذ الاتحاد السوفييتى .

● كوفى أنان.. هل هو أمين الأمم المتحدة أم رجل أمريكا المطيع؟

غير أن مواقف كوفى أنان اتسمت بالميل الواضح لأمريكا ، وظهر هذا من خلال مجموعة من التصريحات والمبادرات ، خاصة فى تعامله مع الأزمة العراقية ، التى صبت كلها فى تسهيل غزو العراق .

لقد طالب أنان فى ٢٠ سبتمبر ١٩٩٩ بتعبئة التأييد الدولى لمواجهة الانتهاكات الجسيمة والمستمرة لحقوق الإنسان ، والتى تعتبر فى نظره سببا لممارسة حق التدخل لاعتبارات إنسانية، وهو إحدى الذرائع التى استخدمتها كل من امريكا وبريطانيا فى غزو العراق . وقد هاجمت الدول النامية هذا الاقتراح ، وكان على رأس الدول التى رفضت هذه المبادرة الدول اللاتينية ، والدول الأفريقية والدول العربية ، باعتبار أن مثل هذه المبادرة تعتبر انتهاكا صريحا لأحكام الميثاق ، وبصفة خاصة لمبادئ وأهداف المنظمة التى نصت عليها المادتان الأولى والثانية من الميثاق .

ثم كان ما جاء فى تقرير الأمين العام المعروض على قمة الجمعية العامة لعام ٢٠٠٠ والتى سميت بقمة الألفية والتى وصف فيها الأسلحة الصغيرة والخفيفة بأسلحة الدمار الشامل . فخلط بذلك الأوراق مع أسلحة الدمار الشامل ، التى عرفتها قرارات الجمعية العامة ، والتى حددت تلك الأسلحة بالنووية والكيماوية والبيولوجية ، واعتبرت السلاح النووى أكثر فتكا

ودمارا ، وكانت هذه المبادرة غطاء لتهرب الدول النووية ، وعلى رأسها الولايات المتحدة ، من التزامها بإزالة السلاح النووى .

كما كان موقف الأمين العام محيرا عندما أبلغ مجلس الأمن يوم ١٧ مارس ٢٠٠٣ بأنه قرر سحب الموظفين الدوليين العاملين فى العراق ، بما فى ذلك فرق التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل ، وبعثة حفظ السلام بين الكويت والعراق ، وذلك حفاظا على سلامتهم ، وبناء على ما تلقاه من الولايات المتحدة وبريطانيا . وهكذا أفسح الطريق أمام قوات الغزو الأمريكى البريطانى لقصف العراق تحت سمع وبصر العالم . وكان هذا الموقف مثار تعجب وتساؤل إضافى ، خاصة أن قرار السكرتير العام جاء عقب قمة الحرب التى انعقدت فى جزر الآزور يوم ١٦ مارس ٢٠٠٣ بين بوش وبلير ورئيس وزراء إسبانيا .

فى يوم ١٧ مارس ٢٠٠٣ ، وأثناء اجتماع مجلس الأمن ، قدم كوفى أنان بصفته أمينا عاما للمنظمة اقتراحا لتفويضه فى بعض السلطات لبيع نفط العراق واستخدام جانب من حصيلة المبيعات فى شراء الاحتياجات الضرورية من المواد الغذائية والطبية للشعب العراقى ، تمهيدا لما بعد العمليات العسكرية ، والتى كان من المتوقع أن تؤدى إلى كوارث إنسانية فى العراق .

وفى الوقت الذى برر فيه الأمين العام تصرفه بمسئوليته عن حماية وضمان سلامة الموظفين الدوليين مادام قد تم إخطاره بذلك ، فإن عدة دول انتقدت تصرف الأمين العام ، واعتبرت تصرفه خروجا عن صلاحياته باعتبار أن مجلس الأمن هو صاحب الاختصاص الأصيل فى هذا الشأن ، وقد قابل سفير العراق ، ومندوبها الدائم لدى الأمم المتحدة ، الأمين العام يوم ٢١ مارس ، وسلم له رسالة مطولة من العراق ، يحتج فيها على تصرفات الأمين العام ويوضح له حدود مسئولياته وفقا للمادة ١٠٠ من ميثاق الأمم المتحدة ، والتى تنص على أنه ليس للأمين العام ولا لأحد الموظفين أن يتلقوا فى تأدية واجباتهم تعليمات من أية حكومة أو من أية سلطة خارجية عن الهيئة ، وعليهم أن يمتنعوا عن القيام بأى عمل يسئ إلى مراكزهم بوصفهم موظفين دوليين مسئولين أمام الهيئة وحدها .



لقد سمح سحب بعثة الأمم المتحدة للمراقبة بين العراق والكويت باستخدام القوات الغازية المنطقة منزوعة السلاح بين البلدين كممر لقواتها الغازية ، كما أدى سحب موظفى برنامج «النفط مقابل الغذاء» إلى توقف البرنامج عن تلبية الحاجات الإنسانية الأساسية لشعب العراق ، وسحب موظفى وكالات الأمم المتحدة المتخصصة أوقف أنشطة هذه الوكالات الصحية والتنموية فى العراق ، كما أدى سحب مفتشى الأمم المتحدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية إلى وقف عمل هاتين المنظمتين الذى هو أساسى ليس فقط لإكمال التحقق من خلو العراق من أسلحة الدمار الشامل

بل أساسى لتنفيذ بقية متطلبات قرارات مجلس الأمن التى يرتبط تنفيذها بانجاز أعمال التفتيش ، وفى مقدمة ذلك رفع الحصار الجائر المفروض على العراق .

لقد اتضح للمجتمع الدولى أن سحب موظفى الأمم المتحدة جاء انسياقا من الأمانة العامة وراء المخطط العدوانى الأمريكى - البريطانى الذى ينتهك القانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن بشأن العراق ، ولم يكن له مسوغ قانونى أو أخلاقى ، كما أنه جرى خلافا للآليات المتبعة ، وبدون موافقة مجلس الأمن .

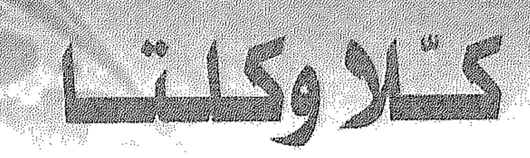
وأخيرا يقف السيد أنان صامتا أمام الغزو ، ولم يحرك ساكنا لمدة أسبوع ، رغم الولاية التى منحه إياها ميثاق المنظمة فى المادة ٩٩ التى تنص على أن «للأمين العام أن ينبه مجلس الأمن إلى أية مسألة يرى أنها تهدد حفظ السلام والأمن الدوليين» ، ظل آنان صامتا إلى أن اجتمع مجلس الأمن بناء على مبادرة جامعة الدول العربية وحركة عدم الانحياز يوم ٢٧ مارس ٢٠٠٣ ، وافتتح الجلسة ببيان عبر فيه عن الحزن لبدء الحرب والعزاء للضحايا ، وأشار إلى أن غزو العراق تم بدون تصريح من مجلس الأمن وهو ما يطرح التساؤل حول مشروعية هذا الغزو ، واكتفى بأن يقتصر دور الأمم المتحدة على تنسيق تقديم المساعدات الإنسانية للسكان المدنيين وهو أقصى ما سمحت به سلطته !!

● لماذا وقف أنان صامتا أمام غزو امريكا للعراق؟

مؤمن حسين

كوفى آنان

- من مواليد ٨ أبريل عام ١٩٣٨ فى كوماسى - غانا .
- متزوج من «نانى أنان» وهى محامية وفنانة سويدية ولها ثلاثة أولاد .
- درس آنان فى جامعة العلوم والتكنولوجيا فى كوماسى ، وأكمل دراسته الجامعية فى الاقتصاد فى كلية «ماك ألستر» فى سانت بول مينيسوتا عام ١٩٦١ ، كما أجرى دراسات عليا فى الاقتصاد بالمعهد الجامعى للدراسات العليا الدولية فى جنيف .
- نال درجة الماجستير فى الإدارة من معهد ماساتشوستس .
- إلى جانب أنه أمين عام مجلس الأمن ، يعمل حاليا فى مجلس أمناء كلية «ماك أستر» ، وهو أيضا عضو فى مجلس أمناء معهد المستقبل فى «مينلوباك» بكاليفورنيا .
- يعمل فى الأمم المتحدة منذ ما يزيد على ٣٠ عاما .



كلا وكلتا

لغويات

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

اجتمع قوم على شراب فغنتهم جارية بشعر لحسان بن ثابت:

وإن التى ناولتنى فرددتها
قتلت، قتلت! فهاتها لم تقتل
كلتاهما حلب العصير فعاطنى
بزجاجة أرخاهما للمفصل

قال أحدهم: امرأتى طالق إن لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضى، وكان عالما مرموقا، عن علة هذا الشعر، لم قال: «إن التى فوحد»، ثم قال: «كلتاهما» فثنى؟، فتوجهوا إليه، وشرحوا له خبرهم، وسألوه الجواب فقال:

«إن التى ناولتنى فرددتها عنى بها الخمر الممزوجة بالماء» ثم قال من بعد: كلتاهما حلب العصير يريد الخمر المتحلبة من العنب، والماء المتحلب من السحاب، المكنى عنه بالمعصرات فى قوله تعالى: «وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا».

وبقى فى الشعر ما يحتاج إلى كشف سره: إن قوله: «التى ناولتنى فرددتها قتلت، قتلت!» خاطب به الساقى، الذى ناوله كأسا ممزوجة بالماء، تقول العرب: قتلت الخمر، أى مزجت بالماء، وأراد الشارب أن يخبر الساقى أنه فطن لما قام به، فدعا عليه بالقتل، وبين قتل الخمر وقتل الساقى جناس، اتفقا لفظا، واختلفا معنى، الأولى على معناها الحقيقى والثانية تعنى المزج.

ثم عقب الشارب فاستعطى الساقى كأسا صرفا لم تقتل، أى لم تمزج بالماء، وأما قوله أرخاهما للمفصل فعنى به اللسان، لأنه يفصل بين الحق والباطل، والكأس الصرف أقوى، ومعها يصبح اللسان أشد ارتخاء.

البحث بقية

تفكيك الشخصية وممارسة العنف

بقلم
محمد يوسف عدس

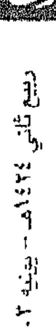
• لماذا يستلذ البعض تعذيب الآخرين؟

• أسباب شهوة المارينز للعنف والتدمير

كنت أطالع صحيفة التايمز اللندنية يوم ٢ أغسطس ٢٠٠٢م عندما وقع بصرى على عنوان بالبنط الكبير: ما الذى لا يقدرون عليه؟ يليه عنوان فرعى: أربعة من القوات الخاصة الأمريكية قتلوا زوجاتهم الشهر الماضى.

لست من هواة قراءة حوادث القتل المثير ولكن موضوع القوات الخاصة وجنود المارينز الأمريكيين كان هو الذى يشغل ذهنى منذ فترة، وربما ترجع إلى الغزو الأمريكى للصومال الذى سمى حينذاك «بعثة الأمل»

تسمَّر فى ذاكرتى مشهد تلفازى من هذه الغزوة لا يفارقنى: قدم جندى من المارينز تضرب رأس صبى صومالى لعله كان يتطلع إلى طعام يسد به رمقه. فذهب إلى الميناء ليحظى بهدية من القادمين فى بعثة الأمل فكانت هديته هذه الركلة.. لم يكن فى جعبة المارينز سوى القتل والقصف والتدمير وكانت هذه هديتهم فى بعثة الأمل إلى الصومال، وهى نفس الهدية التى حملوها معهم إلى أفغانستان ولكن على نطاق أوسع وأشد فتكا، ثم زادوا عليها من أحدث مخترعاتهم فى الغزوة العراقية.



مثل هذه الخواطر كانت تدور في عقلي وأنا أبحث عن إجابة لسؤال ملح: من أي نسيج بشرى صنع هؤلاء الناس!؟، لذلك استوقفني عنوان التحقيق الصحفي الذي أشرت إليه آنفا.

المارينز وقتل الزوجات

يتناول التحقيق قصة عدد من جنود المارينز الذين أقدموا على قتل زوجاتهم بشكل مفاجيء ولأسباب غير مفهومة. خذ مثلا حالة «براندون فلويد» وهو أحد أفراد مجموعة الصفوة في القوات الخاصة تسمى «قوة دلتا» اشتهرت بأنها تحيط أعمالها بدرجة عالية من السرية. وقد عرف براندون فلويد بين أصدقائه بأنه شخصية قتالية متميزة، يصفه زملاؤه بأنه النموذج الأمثل لآلة القتل، ويسمونه «السيد U.S.A الكامل». يتمتع ببناء جسدي متين وهيأة جميلة وله زوجة على قسط وافر من الجمال، أنجب منها ثلاثة أطفال خلال تسع



سنوات من الزواج المستقر، مما جعله فى أعين الجميع أسعد رجل فى فرقته فكانوا ينظرون إليه بمزيج من الإعجاب والحسد.

ولكن فى ظهيرة يوم قائظ «١٩ من يولية» وكان فى مسكنه بمعسكر القوات الخاصة فى «فورت براج» تفجر شىء فى رأس براندون بعد مناقشة حادة بينه وبين زوجته «أندريا» فاندفع إلى حقيبته وأخرج مسدسه الأوتوماتيكى وأطلق الرصاص على زوجته فصرعها ثم وضع المسدس فى فمه وأطلق الرصاص على جمجمته ففجرها.

وقع هذا الحادث فور عودة براندون من رحلة عمل طويلة شملت هاييتى والبوسنة وحرب الخليج «١٩٩١» والصومال وكان آخرها فى أفغانستان..

وهكذا يمضى التحقيق الصحفى يحكى لنا تفاصيل جرائم قتل الزوجات التى ارتكبها «وليام رايت» و«ديفيد شانون» (٤٠ سنة وقائد عمليات) و«ريجو برتو نيفيز» و«سيدريك جريفين» الذى طعن زوجته خمسين طعنة بالسكين.

بعضهم انتحر بعد قتل زوجته ولكنهم – فيما يذكر التحقيق – يشتركون جميعا فى كونهم من القوات الخاصة وأنهم عائدون من مهمات قتالية فى أفغانستان، وأن جميع هذه الحوادث كانت مسبوقة بمشاحنات بين الزوجين سمعها الجيران وشاهدها بعض الأصدقاء.

اللافت للنظر هنا هو أن بعض الشهود فى تحقيقات الشرطة من الخبراء ومن أقارب الضحايا نبَّهوا إلى جوانب أخرى ذات أهمية بالغة، حيث قالت أم «أندريا» زوجة الضابط «براندون فلويد»: «أعتقد أن أسلوب تدريبه وطبيعة هذا التدريب هما السبب الذى أدى إلى هذه الجريمة.. فقد تدرب براندون على فكرة (إذا لم تستطع السيطرة على شخص ما فاقتله).. وكان براندون يتمتع بسيطرة كاملة على حياته الزوجية..».

آلات قتل

تقول الخبيرة «دوروثى ماكاى» وكانت كابتن سابق فى القوات الجوية: «إن القوات المسلحة الأمريكية تدرب قواتها الخاصة ليتحول أفرادها إلى آلات قتل Kiling Machines غير عابئة بآثار مثل هذه العقلية على تدمير الحياة الزوجية» وتؤكد الشاهدة أن هذه الحوادث لم تثر دهشتها وإنما كانت متوقعة فقد شهدت السنوات الأربعة الماضية تصعيدا غير مسبوق بين أفراد القوات المسلحة فى الإساءة إلى زوجاتهم.. «ولا أظن أن تتحسن هذه الحالة فى المستقبل طالما أن القيادات العسكرية تتجاهل إشارات الخطر هذه.. إنهم يدربون الأفراد على ممارسة العنف المفرط دون أن يجعلوا له صمام أمان للتنفيث.



وقد كشفت دراسة أجريت سنة ١٩٩٩ إلى أن العنف الأسرى بين القوات المسلحة ارتفع بنسبة أكثر من الثلث مقارنة بحالة العنف الأسرى بين المدنيين.. وأن تسارع هذه الحالة كان ملحوظا بوضوح منذ واقعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ م.

قالت إحدى الزوجات التى عاشت مع زوجها أربعة عشر عاما فى حالة من الرضا والسكينة: «عاد زوجى من أفغانستان منسحبا من الحياة الاجتماعية منعزلا بنفسه عن الجميع.. لا يتحدث عن خبراته فى أفغانستان لأنه غير مسموح لأحد بالحديث عن ذلك! ولكنى عرفت من زملائه العائدين أنه قتل أناسا كثيرين هناك.. وقد أصبح مزاجه متقلبا سيئا بدرجة مخيفة».

هنا يتبادر إلى أذهاننا هذا السؤال كيف يتحول شخص عادى سعيد فى أسرته إلى مجرم يمارس أبشع أنواع القتل بلا رحمة؟

تعليم التعذيب (النموذج اليوناني)

فى دراسة كاشفة حول موضوع «تعليم التعذيب» قام بها باحثان هما «جانيس جيبسون» و«ميكا هاريتوس - فاتيوراس» ربما نجد إجابة تتصل بهذا السؤال.

العينة التى أجرت عليها الباحثتان دراستهما كانت تتألف من ٢١ جنديا من قوات الشرطة العسكرية اليونانية حوكموا سنة ١٩٧٥ بعد إسقاط النظام العسكرى الذى كان يحكم اليونان، وكانت تهمتهم أنهم انخرطوا فى عمليات تعذيب وحشى لمدة سبع سنوات من (١٩٦٧ - ١٩٧٤).

اعتمدت الباحثتان على اعترافات المتهمين أمام المحكمة ثم على سلسلة من المقابلات الشخصية معهم. ولم تجدا فى الحياة السابقة للمجرمين أى نزوع أو اتجاه للعنف ولا اضطرابات نفسية ولا جنوح فى السلوك.

وتبيّن لهما أن اختيار هؤلاء الأشخاص للقيام بالتعذيب قد تم بناء على عنصرين: أنهم جميعا كانوا يتمتعون ببنية جسدية قوية وأنهم نشأوا فى أسر تكن للشيوعية كراهية ملحوظة.. فيما عدا هذا فقد تمثلت فيهم القيم العسكرية السائدة في الجيش: الكتمان والطاعة العمياء لرؤسائهم.. بعد ذلك يأتى دور التدريب الذى يعزز هذه الاستعدادات ويؤكد على الحوافز لتعذيب المعتقلين.

خلال برنامج التدريب الأساسى كان المتدربون يتعرضون لمعاملات قاسية فيركلون بالأقدام ، وتصوّب إليهم



اللكمات الموجعة بمناسبة وبغير مناسبة وتصب عليـــهم اللعنات والإهانات بلا حساب، ويجبرون على الجرى ساعات طويلة حتى تنهار قواهم فيسقطون على الأرض.

فإذا انتهى برنامج التدريب الأساسى كان عليهم أن يقسموا يمين الولاء المطلق لرؤسائهم وهم راكعون على ركبهم، ولتشجيعهم على ممارسة التعذيب عمليا كان يسمح لهم بمشاهدة عمليات التعذيب والمشاركة فى توجيه بعض اللكمات إلى المعذبين كنوع من التدريب العملى.. وفى نهاية الجولة تشترك مجموعة المتدربين فى حلقة تعذيب جماعى للمعتقلين تحت إشراف الضابط المدرِّب.

العصى والجزرة

كانت هناك عقوبات رادعة لمن يتردد فى إطاعة الأوامر أو التراخى فى تعذيب المعتقلين.. وكان التهديد مستمرا «أن كل من يخفق أو يتوانى فى إيقاع أشد الآلام بالمعذبين سوف يتعرض هو نفسه للتعذيب الأليم» - كذلك كان الضباط يحرضون كلا منهم على أن يكون جاسوسا على الآخرين ويشجعونه على تقديم تقارير عن كل بادرة يتراخى فيها أحدهم عن تعذيب السجناء.

من ناحية أخرى كان هناك إلى جانب العصى جزرة مؤكدة، فقد كان القادة يفاخرون بالمبتدئين ويقولون لهم: كم أنتم محظوظون لأنكم أصبحتم أعضاء فى مجموعة الأقوياء المهمين الذين يدافعون عن النظام، ويوحى إليهم القادة بأنهم قد أصبحوا من صنف آخر من الناس مستثنون من الأخلاقيات والفضائل الشائعة بين العوام، وأن لديهم - بحكم وضعهم الجديد - حصانة أن يتصرفوا بجرأة ضد أى شخص حتى ولو كان من الضباط الأعلى رتبة إذا تشككوا فى ولائه للنظام.

كان شعورهم بالانتماء إلى مجموعة خاصة من النخبة المتميزة يتأكد من خلال اللغة الخاصة المتداولة حولهم والمحاضرات اليومية التى يجرى فيها التأكيد على خطورة الأعداء الذين يحاربهم النظام، وأن الشيوعيين ليسوا إلا ديدان وحشرات ينبغى سحقها بالأقدام.

أساليب التعذيب البغيضة كان يطلق عليها أسماء لطيفة تجعلها محببة إلى قلوب القائمين بالتعذيب: فالضرب العادى لأحد المعتقلين باللكمات الجماعية هو «حفلة شاى»، أما إذا كان الضرب المطلوب بالعصى الغليظة فهذه «حفلة شاى بالجاتوه»!..

والطاعة التامة والإخلاص فى تنفيذ أوامر الضابط المختص هما المعيار الذى توزن به كفاءة القائمين بالتعذيب، فالذين



يثبتون طاعتهم وإخلاصهم على طول الخط يعفون من قواعد النظام الصارم الذى تخضع له حياة الجنود العاديين، حيث يسمح لهم بإطالة شعر الرأس كما يحلو لهم، وأن يغادروا المعسكر حين يرغبون دون استئذان أو تصريح، وأن يستخدموا سيارات الجيش الرسمية لقضاء شئونهم الخاصة، ويستطيعون الحصول على وجبات غذائية متميزة بالمجان من المطاعم، وكانوا يحصلون على وعود مؤكدة بمنحهم وظائف مدنية محترمة بعد انتهاء مدة الخدمة العسكرية.

منظومة متكاملة

هكذا نجد أنفسنا أمام منظومة حياة كاملة مقطوعة الصلة تماما عن سياق الحياة العامة.. منظومة لها أسرارها وقوانينها الخاصة ولها لغتها ومصطلحاتها الخاصة.. ولها قيمها ومعاييرها وأساليبها فى العمل المختلفة عما تعارف عليه الناس فى المجتمع العام.

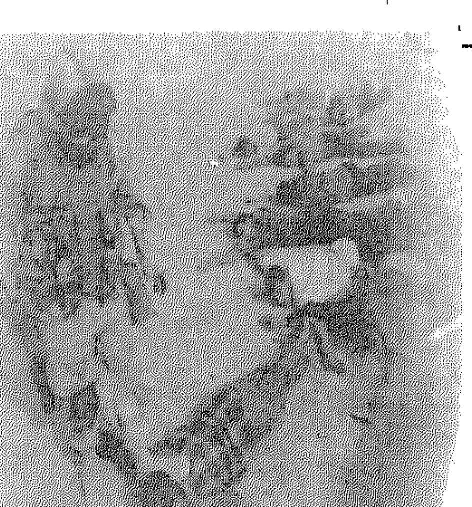
الوظيفة الوحيدة لهذه المنظومة هى القمع والتعذيب، فيها تتم صناعة فئة من البشر ليكونوا أدوات تعذيب وحشى إلى حد القتل.. أدوات تجردت من العقل والشعور والضمير، ثم أطلقت على طائفة أخرى من البشر قدر لهم - بلا ذنب ولا جريرة - أن يخضعوا لأهوال من التعذيب والآلام البدنية والنفسية المروعة.. لا حدود لها ولا أمل فى توقفها.. لا شاهد هناك يشهد ولا قانون يردع، فالقانون الوحيد السائد هو قانون زبانية الجحيم.

استطاعت جانيس وميكا شرح قدرة هؤلاء الرجال على تعذيب كائنات بشرية كل يوم على مدى سبعة أعوام كاملة، فى ضوء عاملين: الأول أن هؤلاء الرجال تم إدخالهم فى عالم التعذيب الرهيب بالتدريج خلال برنامج ذى مراحل، والثانى أن قادتهم قد اتخذوا من الإجراءات ما يكفل ترجيح كفة المكافآت «أو الثواب» المصاحبة للطاعة على كفة التوتر النفسى الذى قد ينتج من ممارسة تعذيب الآخرين.

المارينز (النموذج الأمريكى)

تنتقل «جانيس» و«ميكا» إلى موضوعنا الأساسى وهو «المجندون فى البحرية الأمريكية»، فقد وجدنا تشابها ملحوظا بين برامج التدريب التى يمارسونها وبرامج التدريب التى سجلتها فى دراستها لجنود الشرطة العسكرية اليونانية، فكلها برامج مبنية على العنف والإرهاق المفرطين.

فالمارينز الجدد يتم عزلهم عزلا تماما عن أسرهم وأصدقائهم وعن المجتمع الخارجى بأثره أثناء فترة التدريب، وذلك



لتمكين مجموعة من القواعد والقيم الجديدة في نفوسهم.. فهم معرضون لعمليات إنهاك مستمر واضطهاد وإهانات لفظية وشتائم.. لإشعارهم بأنهم لا قيمة لهم.. لا شيء.. ! ويخضعون لتدريبات بدنية بالغة القسوة مشتملة على الجرى الإجبارى مع الحرمان من النوم.. إنهم دائما مرهقون بدرجة لا تسمح لهم بالتفكير الواضح في القيم الجديدة التي يتم غرسها في عقولهم.

أبسط المخالفات يترتب عليها عقوبات قاسية تتمثل في ساعات إضافية من التدريبات البدنية الشاقة وفقدان الامتيازات المتعلقة بالطعام والنوم.. وهم يتعلمون الإشارة إلى العدو بأسماء ازدرائية، ويخصهم المدربون على الصياح بأعلى أصواتهم أثناء طوابير السير أو الجرى بأناشيد وعبارات تمجد القتل.

عندما ينجح المجندون المتدربون يتم الترحيب بهم أعضاء في مجموعة النخبة المتميزة، وتتغير أساليب المعاملة، فبعد أن كان يقال لهم أنكم لا قيمة لكم يبدأ ضباطهم في تمجيد المارينز ويشعرونهم بانتمائهم إلى الفئة الممتازة، لأنهم استطاعوا أن (يفعلوها!) كأنهم قد حققوا المعجزة، لقد استطاعوا تحقيق ذواتهم «الجديدة» بصبرهم على المعاناة وتحملهم الإهانات وبصرامتهم وخشونتهم.

نلاحظ أن العنصر الأساسي أو المفتاح لخلق شخصية آلة التعذيب أو آلة القتل كما في النموذجين اليوناني والأمريكي هو التدمير المنظم للهوية الشخصية والاحترام الذاتي عند الفرد المتدرب. وإحلال بديل عنهما يتمثل في الشعور المتعالي وتقدير الذات على أساس من العنف. بمعنى آخر أن هؤلاء الأفراد يتم تفكيكهم بواسطة التدريب المنظم ثم يعاد تركيبهم في شخصية أخرى مختلفة، يعتقدون أنها أفضل من شخصيتهم السابقة، لمجرد أنهم استطاعوا تحمل وحشية التدريب وعنفه، ومن ثم يشعرون بأنهم قد أصبحوا مقبولين في مجتمع النخبة المتميزة.

إنها نفس العملية التي أنتجت من قبل ضباط الرايخ الثالث في عهد النازية الهتلرية، الذين ارتكبوا عمليات قتل وإبادة جماعية بدم بارد. وقد سجل الأطباء النفسيون الذين أجروا دراسات على هؤلاء الضباط بعد الحرب العالمية الثانية أنهم لم يجدوا لديهم أى علامة تشير إلى اضطرابات عقلية، ومرجع الأمر كله هو عملية التفكيك والتركيب التي أشرنا إليها.

لعل من المفيد هنا أن نشير إلى أهم نظرية في تفسير الإبادة الجماعية التي ارتكبها النازيون والستاليون ثم الأمريكيون في الوقت الراهن، وهي نظرية عالم النفس المشهور «روبرت جاى



ليفتون» وسوف نجد أنه يؤكد على أن الإبادة الجماعية تستند دائما إلى أيديولوجيات شمولية تقوم على أساس فكر متصلب مطلق.. قد يتغير محتوى هذه الأيديولوجيات ولكنها تنطوى على ملامح مشتركة للسيطرة على الآخرين وتجيز القضاء على غير الأنقياء.. وأزعم أن هذا ليس بعيدا عن الفكر الإمبريالى الأمريكى الجديد، ولقد عالجت النقطة فى عدد من المقالات المنشورة، والإرهاب – حسب المفهوم الأمريكى – هو المرض الذى يلوث العالم ولابد من القضاء عليه، فإذا تم القضاء على هذا المرض الذى تفشى «بيننا» تعود الأساليب التقليدية للتفاهم العالمى ويسود الشعور بالأمن والعافية!

ولكن ليفتون يحذر من أن عملية التنقية هذه لن تكتمل أبدا وستظل حملات القتل والإبادة تتفجر فى كل مكان حيث يسقط مزيد من الضحايا والأبرياء، فالقضاء التام على هذا المرض عملية مستحيلة طالما أن المرض حالة جوّانية، ومن ثم تظل التعاسة مسيطرة والرغبة فى القتل والإبادة متزايدة، وتصبح عملية تطهير العالم نوعا من تدمير الذات أو الانتحار الجماعى. ■

قالوا

● إسمان متضادان بمعنى واحد: التواضع والشرف وقيل إذا ارتفع الشريف تواضع، وإذا ارتفع الوضيع تكبر.

القيروانى

● سئل سقراط: لماذا لاتتكلم أجاب: خلق لى أذنان وفم واحد لكيما يسمع الانسان أكثر مما يتكلم.

● لاتفرح بالغنى والرخاء، ولا تغتم بالفقر والبلاد، فإن الذهب يجرب بالنار والمومن يجرب بالبلاء.

الإمام على

● قال لقمان لابنه : لايكونن الديك أكيس منك ينادى وقت السحر وأنت نائم

● سئل أعرابى: هل لك فى الزواج؟

فقال: لو استطعت لطلقت نفسى

المحافظون الجدد
الأصول والمفاهيم

بقلم
د. السيد أمين شلبي

لماذا زادت سطوة المحافظين الجدد في عهد بوش الأب؟!

على الرغم مما يبدو أن تيار المحافظين الجدد New Conser -vatism وشخصياته وسيطرتهم على مفاهيم وتوجهات السياسة الخارجية الأمريكية إنما يرتبط بالإدارة الجمهورية الحالية منذ أن جاءت إلى الحكم فى يناير ٢٠٠٠، إلا أنه فى الواقع فإن جذور هذا التيار تعود إلى الفترات المبكرة للحرب الباردة وتصاعد المد المعادى للشيوعية

وقد تبلور هذا التيار حول عدد من المنابر والمؤسسات والشخصيات الثقافية مثل: The Co-nyvess Culture Freedom، ودوريات مثل : Commentary im-counter، وفى السبعينيات بدأ هذا التيار يؤكد نفسه ويلتقى أساسا حول معارضة التوجه الذى بدأ يتطور فى السياسة الخارجية الأمريكية الذى تبنته إدارة نيكسون وكيسنجر لإعادة ترتيب العلاقات مع الاتحاد السوفيتى وهو ما تبلور فى مفهوم سومر الوفاق بهدف نقل هذه العلاقة من مرحلة المواجهة إلى مرحلة الحوار والتفاوض والتعامل مع قضايا سباق التسلح الاستراتيجى والتوغل إلى عدد من الإتفاقيات حول خفضها.

وقد بلغ تيار المحافظون الجدد ذروته فى نهاية السبعينيات حيث توسعت معارضتهم للعلاقات مع الاتحاد

السوفيتي واتفاقيات الحد من الأسلحة الأستراتيجية SALT وكان أخرها قد تم التوصل إليه «جيمي كارتر وبرجنييف عام ١٩٧٩» وإلى جانب معارضتهم لسياسات كارتر «الرخوه» اعتبروا أن استمراره في عملية الوفاق تمثل تنازلا أخلاقيا واستراتيجياً للاتحاد السوفيتي الذي يستخدمها لتوسيع نفوذه واكتساب مواقع على حساب الولايات المتحدة.

ومع اقتراب معركة الرئاسة في نهاية السبعينيات كان المحافظون الجدد قد بلوروا مفاهيمهم ونظرياتهم حول المبادىء الآتية:

١ - أن الاتحاد السوفيتي هو قوة تكمن فيها العدوانية وبصورة لا يمكن تغييرها أو إصلاحها من خلال المفاوضات أو الاتفاقيات وإنما من خلال مواجهته من موضع القوة وممارسة ضغوط جادة ومتماسكة عليه تجبره على تغيير طبيعته، فجوهر الصراع مع الاتحاد السوفيتي يكمن في هياكل نظمه وسياساته وهو بالتالي صراع لا يحل بمجرد تطويعه Mellowing وانما سوف ينتهي بموت أحد النظامين أو تحوله.

٢ - إن مصدر المشكلة بالنسبة للولايات المتحدة هي في القيادة الضعيفة وليس نتيجة ضعف كامن في أمريكا التي مازالت تحتفظ بالقدرة على أن تظل الأمة المسيطرة في العالم إلا أن هذا يتطلب الرجوع إلى القيم التقليدية التي تلهمها وقيادات قوية توقف الاتجاه نحو الاضمحلال.

٣ - إن النضال الأساسي في العالم المعاصر هو بين الحرية والعبودية، وفي هذا النضال فإن أمريكا هي الحاملة لمشعل الحرية بينما



الشيوعية، وبالتحديد الاتحاد السوفيتى هى تجسيد للعبودية.

٤ - إن الدفاع القومى هو الشرط الرئيسى للقوة والمكانة الأمريكية وأنه إذا أريد وقف تراجع وضع أمريكا الدولى فإن القوة العسكرية والبناء العسكرى يجب أن يكون الأولوية المطلقة.

٥ - إن الولايات المتحدة ليست هى المسئولة أو المطالبة بالتكيف مع العالم، إن أمريكا القوية الواثقة من نفسها هى التى ستجعل العالم يتكيف معها (!).

بهذه المفاهيم وقف تيار المحافظين الجدد بكل قوتهم وراء المرشح الجمهورى فى انتخابات عام ١٩٨٠ رونالد ريجان وكانوا وراء نجاحه وبحيث تبنى أجندتهم فى مراجعة سياسة الوفاق مع الاتحاد السوفيتى ووقف محادثات الحد من الأسلحة الاستراتيجية والأهم من ذلك أنه، وخاصة فى عهد ولايته الأولى ١٩٨٠ - ١٩٨٤، قد شن ودخل فى مواجهة أيديولوجية وسياسية وسباق للتسلح وطبق أكبر ميزانية للتيار العسكرى فى تاريخ الولايات المتحدة، وكان طبيعيا أن يحتل عدد من رموز هذا التيار مناصب مؤثرة فى إدارة ريجان من أمثال ريتشارد ابيرل، واليوت ابزمتر، وجن كيركباتريك، وبفعلهم تبلورت مفاهيم استراتيجية مثل مبادرة الدفاع الاستراتيجى. Stratigic Defense Iniutive Sdi والتى اعتبرت من أكثر أدوات إدارة ريجان فى المواجهة مع الاتحاد السوفيتى، واليها وأول خدمة السياسات التى اتبعتها للضغط على الاتحاد السوفيتى، يرجع هذا التيار ويفاخر بأن لهم الفضل فى انتهاء الحرب الباردة بالشكل الذى انتهت إليه ليس فقط بتطويع واحتواء الاتحاد السوفيتى وانما باختفائه من المسرح الدولى.

وفى متابعة أصول ومصادر تيار المحافظين الجدد وتحالفته مع قوى أخرى، من المهم أن نشير إلى ارتباطين أساسيين الأول هو ارتباطه بتيار اليمين المسيحى وشخصياته من أمثال جيرى فالديل وباث روبرتسون وحيث كانوا من الشخصيات المقربة إلى إدارة ريجان والبارزة فى مؤتمراتها، وليس مصادفة أن تكون هذه الشخصيات نفسها من الشخصيات المقربة للرئيس الحالى، ومثلما يرتبط المحافظون الجدد واليمين المسيحى، سيرتبط بالعديد من المنظمات اليهودية المتطرفة كذلك كان الحال فى عهد ريجان مع منظمات مثل بناى بريث الأمر الذى جعل مصالح إسرائيل وأمنها من ركائز إدارة ريجان وسياستها الشرق أوسطية وبفعلها نشأ مفهوم التوافق الاستراتيجيى -Sratigic Consem sus ثم تطوره إلى مفهوم. التحالف الاستراتيجى والذى أصبح الأساس الذى ستبنى عليه العلاقات الأمريكية الإسرائيلية فى الإدارات التالية.

ارتفاع سطوة المحافظين الجدد

غير أن المكانة التى اكتسبها



المحافظون الجدد وفكرهم في عهد إدارة ريجان لم يشأ لها أن تستمر أو تتأصل في عهد إدارة جورج بوش ١٩٨٨ – ١٩٩٢، ذلك أن الرئيس الجديد بخبرته الطويلة في الشئون الدولية ودرايته بقضاياها المعقدة لم يشأ أن يرتبط بفكر المحافظين الجدد وساعد على هذا انتهاء الحرب الباردة ومناخها ووجود الاتحاد السوفيتي الذي كان يشجع ويغذي هذا الفكر، ورغم وجود شخصيات في إدارته تمثل هذا الفكر مثل بول وولفيتز الذي كان وكيلا لوزارة الدفاع لشئون السياسات، إلا أن المناصب المؤثرة في السياسة الخارجية مثل وزارة الخارجية والأمن القومي والبيت الأبيض شغلتها شخصيات متوازنة مثل جيمي بيكر، وبرنت سكوكرفت. ورغم هذا فإن ممثلي هذا التيار ظلوا يرفضون بفكرهم ومشروعاتهم حيث قدم أثنان من ممثليهم وهم بول وولفيتز، وآي لويس ليبي عام ١٩٩١ إلى البنتاجون «دليل السياسات الدفاعية عن الاستراتيجية الأمريكية خلال عقد التسعينيات»، وهو الدليل الذي قام على ثلاث ركائز:

١ – ضمان التفوق العسكري الأمريكي.

٢ – العمل على منع قيام قوة أخرى تنافس الولايات المتحدة في وضعها الدولي العالمي كما خرجت به بعد الحرب الباردة.

٣ – امكانية قيام الولايات المتحدة بعمليات وقائية Preventive strikes ضد أخطار محتملة.

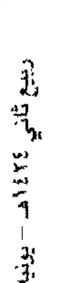
وفي عام ١٩٩٧ جدد هذا التيار جهوده لتقديم مفاهيمه الاستراتيجية والأمنية حيث قدم مشروعا عرف بـ «مشروع القرن الأمريكي الجديد» والذي ركز على وجوب تبني سياسة أمريكية شجاعة تعتمد على السيطرة العسكرية الأمريكية كذلك ظل هذا التيار خلال التسعينيات يطالب بتكثيف القوة العسكرية الأمريكية لضمان استمرار الوضع الأمريكي المتضرر لما بعد الحرب الباردة ولقيادة العالم في القرن الـ ٢١. غير أن إدارة كلينتون لم تستجب لهذه المشروعات حيث كان لها أجندتها وفكرها الخاص الذي كان يركز على النمو الاقتصادي وبناء التحالفات والمنظمات الدولية الاقليمية التي تخدم أهداف الولايات المتحدة التجارية مثل منظمة التجارة العالمية، ومنظمة NAFTA بينها وبين كندا والمكسيك، ومنظمة IPAC.

غير أن فرصة المحافظين الجدد قد حانت وتجددت مع مجيء إدارة جورج بوش في يناير عام ٢٠٠٠ . ذلك أنه لم تمض عدة شهور على تولي الإدارة إلا وكان هذا التيار وممثلوه قد احتلوا مناصب مؤثرة في وزارة الدفاع، والخارجية،

ومجلس الأمن القومى، والبيت الأبيض.. شخصيات من أمثال: دوجلاس فايث دافيد وورمتر، وبول وولفيتز، وريتشارد بيرل، وجون بولتون، واليوت ابرامز وتم جولجن - وقد تعاون هؤلاء كذلك بشكل وثيق مع عدد من مراكز البحث المؤثرة. كما يلاحظ ارتباطهم الوثيق بأعنف الدوائر الإسرائيلية ذات الميول الجابوتنسكية وتقف ميولها متعارضة تماما مع ما يعلنه الرئيس الأمريكى عن رؤيته لدولة فلسطينية، ومما يجدر ذكره فى هذا الشأن فإن شخصيات منهم مثل فايث ووولفيتز وبيرل هم أنفسهم الذين يقول عنهم ادوارد سعيد أنهم «وبشكل علنى طالبوا بضم إسرائيل للضفة الغربية وغزة، ودعوا إلى وقف اتفاقيات أوسلو واعتبروها فى غير صالح إسرائيل، ودعوا إلى الاستمرار فى بناء المستوطنات كما عملوا كمستشارين شخصيين لنيتانياهو خلال حملته الانتخابية عام ١٩٩٦.

وفى تأمل المشروعات التى قدمها هذا التيار خلال التسعينيات مثل مشروع «وبعد السياسات الدفاعية»، «مشروع القرن الأمريكى الجديد»، سوف نكتشف توافقها على الاستراتيجية الأمنية التى تبعتها إدارة بوش الحالية والتى تبلورت فيما عرف «باستراتيجية الأمن القومى»، والتى أعلن عنها فى سبتمبر ٢٠٠٢ وكان أبرز عناصرها : ضمان التفوق العسكرى الأمريكى، وضمان استمرار الهيمنة الأمريكية ومنع أى قوة أو قوى أخرى من أن تنافس الولايات المتحدة على موقعها المنفرد فى العالم، ثم تبنيها لمفهوم الضربات الاستباقية ، وهو المفهوم الذى طبقته عمليا فى أفغانستان والعراق.

وواضح أن أحداث ١١ سبتمبر وما فعلته فى العقلية والتفكير الأمريكى ونظرتها لنفسها والعالم وهزها للمفاهيم الأمنية والتقليدية، قد جاءت لكى تقدم دعماً قوياً لفكر المحافظين الجدد ومنطلقاتهم الاستراتيجية، ويخشى المراقبون أن يأتى الانتصار السريع والسهل الذى حققته العملية العسكرية فى العراق لكى يفتح شهية هؤلاء ويؤكد مكانتهم فى السياسة الخاصة الأمريكية وتوجيهها. غير أنه إذا كان هذا هو انطباع اللحظة الراهنة فإن من يفكرون من المنظور الدائم والطويل لا يرون مستقبلاً لمثل هذا التيار فى السياسة الأمريكية إذ سوف تكتشف أنه يضعها فى مواجهة مع العالم، ويعقد ويؤثر علاقاتها مع حلفائها، ويقوض تدريجيا مصادر قوتها، وسوف يبدو يوما بعد يوم أن هذا التيار يتغذى على ثلاثة عوامل غير طبيعية: الخوف المرضى من الارهاب وأسلحة الدمار الشامل، والسذاجة والتعصب. ■



كيف تفكر أمريكا؟!

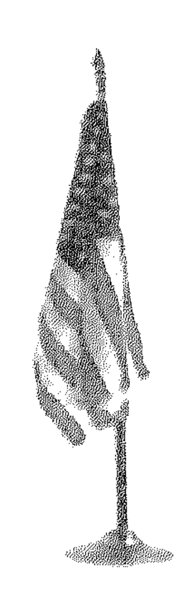
استراتيجية الأمن القومى الأمريكى وآفاق الهيمنة الأمريكية

بقلم
محمود عزمي

تولى جورج بوش ، الأب ، (الرئيس الأمريكى الحادى والأربعون ١٩٨٩ - ١٩٩٣) رئاسة الولايات المتحدة فى ٢٠ يناير ١٩٨٩ . وفى يوم ١٩٩٠/٣/٩ جددت إدارته الحملة الإعلامية المضادة لليبيا متهمة إياها مرة أخرى بتصنيع أسلحة كيميائية فى مصنع «الربطة» .

وفى ١٩٩٠/١/٤ مدد الرئيس بوش العمل بالعقوبات الاقتصادية الأمريكية على ليبيا بحجة : «أنها لا تزال تلجأ إلى الإرهاب الدولى وتدعمه» واعتبر بوش ، فى رسالتين قدمهما إلى الكونجرس بمناسبة تمديد العقوبات ، أن : «التصرفات والسياسات الليبية تشكل تهديدا غير عادى وغير طبيعى للأمن القومى الأمريكى والمصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية فى مجال السياسة الخارجية» .

وفى ١٩٩١/١١/١٤ فاجأت إدارة بوش العالم بإعادة فتح ملف حادث طائرة «بان أمريكا» ، ولمحت إلى احتمال شن عدوان عسكرى على ليبيا . ونجحت



فى استصدار قرار مجلس الأمن رقم ٧٣١ ، يوم ١٩٩٢/١/٢١ ، الذى طالب ليبيا بتسليم المتهمين بتفجير الطائرة المذكورة إلى السلطات الأمريكية والبريطانية . ووقتها حض أحد المسئولين فى إدارة بوش على العمل لإطاحة العقيد القذافى مذكرا بأن وزارة الدفاع الأمريكية قدرت القوة اللازمة لاحتلال ليبيا فى العام ١٩٨١ بنحو ٩٠ ألف جندى

وفى ١٩٩٠/٨/٢ اجتاح العراق الكويت فبدأت بذلك «أزمة الخليج» ، التى تحولت إلى «حرب الخليج» الثانية ، بعد انقضاء مهلة «الفرصة الأخيرة» فى ١٩٩١/١/١٥ ، التى كان الرئيس بوش قد أعلنها غداة صدور قرار مجلس الأمن رقم ٧٦٧ فى ١٩٩٠/١١/٢٩ الذى أتاح «للأمم المتحدة» استخدام القوة العسكرية لتنفيذ قرارات مجلس الأمن الدولى الأحد عشر السابقة المتعلقة بإدانة الاجتياح العراقى للكويت وضرورة الانسحاب غير المشروط من أراضيها إلخ .

وكانت حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ هذه ، التى حقق فيها بوش انتصارا عسكريا متألقا ، تطبيقا واضحا من قبل بوش (الأب) لمبدأ كارتر فى حماية المصالح الحيوية الأمريكية فى منطقة الخليج العربى والشرق الأوسط .

وتمشيا مع سياسة فرض الهيمنة الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط ، بعد انتهاء حرب الخليج الثانية ، وإرساء حق التدخل الأمريكى فى شئون دولها الداخلية بحيث يبدو ذلك أسلوبا طبيعيا لا يثير ردود فعل سياسية من قبل حكومات وشعوب دول المنطقة ، أقدمت الولايات المتحدة (وشاركتها بريطانيا ، ومازالت ، فى التنفيذ) ، يوم ٨ أبريل ١٩٩١ ، على إقامة «منطقة حظر طيران» . (محمية جوية) شمال خط عرض ٣٦ بشمال العراق . وذلك بعد يومين من أمر الولايات المتحدة للعراق بإنهاء كافة النشاطات العسكرية ، بما فيها طلعات الطيران العراقى المضادة للتمرد الكردى الانفصالى على السلطة المركزية العراقية ! ثم فرضت «محمية جوية» ثانية مماثلة ، يوم ١٩٩٢/٨/٢٧ ، فوق المنطقة الواقعة جنوب خط العرض ٣٢ الذى يمر بمدينة النجف فى جنوب العراق لحماية تمرد السكان الشيعة !.

مبدأ مونرو ، مزيد من الاستعمار الاستيطانى وفرض الهيمنة

فى بيان إلى الكونجرس يوم ٢ ديسمبر ١٨٢٣ ، أعلن الرئيس جيمس مونرو (الرئيس الأمريكى الخامس ١٨١٧ - ١٨٢٥) بيانا ، عرف فيما بعد بـ «مبدأ مونرو» ، تضمن فيه ثلاثة توجهات رئيسية للسياسة الخارجية الأمريكية آنذاك كان أولها : أن «العالم الجديد» ، أى القارات الأمريكية ، لم يعد متاحا لمزيد من الاستعمار الأوروبى .

وثانيها : عدم السماح بأى تدخل أوروبى فى شئون حكومات النصف الغربى من الكرة الأرضية ، ومحاولة فرض نظامهم على أية دولة مستقلة منها . وبالتالى فإن الولايات المتحدة سوف تعتبر مثل هذا التدخل تهديدا لسلمها وأمنها الخاصين ومن ثم فإنها ستتصدى لمثل هذه التدخلات الأوروبية . وثالثها : امتناع الولايات المتحدة عن التدخل فى الشئون السياسية الأوروبية . ومن ثم كان «مبدأ مونرو» يقضى ، أساسا ، بتركيز سيطرة الولايات المتحدة الكاملة على القارة الأمريكية الشمالية ، مع التوسع فى الوقت نفسه فى السيطرة على أمريكا الوسطى والجنوبية ضمن جهودها فى السيطرة على «السوق القومى» ، وحمايته من مزاحمة الرأسمالية الأوروبية والآسيوية القادمة من وراء المحيطات التى تفصلها عن بقية العالم .

وقد مثل «مبدأ مونرو» ردا أمريكيا على التوسع الروسى فى منطقة ألاسكا بأقصى شمال قارة أمريكا الشمالية من جهة ، ومن جهة أخرى - أكثر أهمية - تصديا للخطر المفترض من أن دول القارة الأوروبية سوف تتدخل فى أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية لتعيد إلى أسبانيا مستعمراتها المتمردة التى حصل معظمها على استقلالها عام ١٨٢٢ نتيجة احتلال فرنسا النابليونية لاسبانيا وحرب الاستقلال التى أعقبته (١٨٠٤ - ١٨١٤) وما ترتب على ذلك من اضطرابات سياسية .

وفى بداية القرن العشرين تقريبا تولى الرئاسة الأمريكية تيودور روزفلت ، نائب الرئيس مكينلى ، يوم ١٩٠١/٩/١٤ . أثر وفاة الأخير نتيجة إطلاق الرصاص عليه يوم ١٩٠١/٩/٦ . وكان تيودور روزفلت (الرئيس الأمريكى السادس والعشرون / جمهورى / ١٩٠١ - ١٩٠٩) يؤمن ، فى مجال السياسة الخارجية ، بأن الأمم القوية هى التى تبقى ، فى حين أن الأمم الضعيفة تفنى . ولهذا عمل بكل جهد على تطوير القوة العسكرية الأمريكية عامة ، والبحرية منها خاصة، بحيث أصبحت البحرية الأمريكية . فى نهاية عهده ، قوة بحرية رئيسية . ولذلك عمل على شق قناة تربط بين المحيط الأطلنطى - عبر البحر الكاريبى - والمحيط الهادئ . ولهذا وقع ، فى نوفمبر ١٩٠٣ ، معاهدة مع جمهورية بنما فى أمريكا الوسطى ، توفر للولايات المتحدة حقوقا دائمة فى السيطرة على شريط طويل من الأرض عرضه ١٠ أميال (أكثر قليلا من ١٦ كم) لشق القناة المطلوبة . مقابل ١٠ مليون دولار تدفع فورا ورسم سنوى قدره ٢٥٠ ألف دولار بعد تسع سنوات . وقد افتتحت قناة بنما للملاحة فعليا عام ١٩١٣ .

وقد لاحظ روزفلت فى مجال تطور صراع القوى الدولية أن ألمانيا أصبحت تشكل تهديدا كامنا للولايات المتحدة ، خاصة من حيث احتمال توسعها فى البحر الكاريبى وأمريكا اللاتينية (الجنوبية) . ولذلك انتهج سياسة تطوير لمبدأ مونرو أوضحها للمرة الأولى فى خطابه السنوى للكونجرس عام ١٩٠٤ ، حيث قال إنه حيث أن الدول الأوروبية قد تبرر دخلها العسكرى فى شئون دول النصف الغربى للكرة الأرضية بدعوى إهمالها سداد ديونها المستحقة للدول الأوروبية، فإن الولايات المتحدة توضح أن مبدأ مونرو قد حرم التدخل الأوروبى فى شئون دول النصف الغربى للكرة الأرضية ، وليس

تدخل الولايات المتحدة فى الشئون الداخلية لهذه الدول ، وذلك لأنها ستمارس دور قوة بوليس دولى فى هذه المنطقة ضد مثل هذه التداخلات ، وستؤمن فى الوقت نفسه وفاء هذه الدول لالتزاماتها الدولية وتطبيقا لهذه السياسة أجبر روزفلت جمهورية دومينيكان على تعيين مستشار اقتصادى امريكى فى العام ١٩٠٥ ، سرعان ما أصبح بعد ذلك المدير المالى لهذه الدولة الصغيرة القريبة من كوبا ، لحين أن يتم تعويض الدائنين الأجانب عن ديونهم المستحقة! وقد عرف تطوير روزفلت هذا لمبدأ مونرو بـ «نتائج روزفلت المترتبة على مبدأ مونرو» .

هذا وقد أصبحت سياسة التدخل الأمريكى في شئون الدول الأمريكية الأخرى ، المترجمة عمليا بتفسيرين مختلفين ، جزءا من سياسة الجار الطيب التى انتهجها فى الثلاثينات من قبل الرئيس فرانكلين روزفلت (الرئيس الأمريكى الثانى والثلاثين /ديمقراطى / ١٩٣٣ - ١٩٤٥) .

وهكذا ظل «مبدأ مونرو» يشكل المؤثر الرئيسى للسياسة الخارجية الأمريكية قرابة قرن كامل تقريبا .

السياسة الخارجية والأمن القومي الأمريكى ١٩١٤ - ١٩٤٥

ومع بداية القرن العشرين بدأت الرأسمالية الأمريكية ، بعد أن توفرت لها عوامل النمو الصناعى والمالى والعسكرى ، فى التطلع إلى خارج حدودها القارية ، لفتح الأسواق الدولية أمام منتجاتها المتزايدة . ولقد عبر الرئيس ويليام مكينلى (الرئيس الأمريكى الخامس والعشرون / جمهورى/ ١٨٩٧ - ١٩٠١) ، عن هذا التوجه على صعيد السياسة الخارجية الأمريكية فى تصريح له عام ١٩٠١ قال فيه : «إننا وصلنا إلى درجة من فائض الإنتاج ، تتطلب منا أن نفتح لهذا الفائض أسواقا جديدة تستوعبه . لكى لا نواجه مرحلة من الكساد الاقتصادى قد تقضى على نمو وتطور بلادنا» .

وقد شاركت الولايات المتحدة بعد ذلك فى المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ، ولكن دورها السياسى الخارجى بقى محدودا وتغلب عليه سياسة «أنصار العزلة» الذين يرون عدم التورط فى مشكلات سياسية خارج القارتين الأمريكيتين .

ثم نشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، التى سيطرت ألمانيا خلال سنتيها الأوليين (١٩٤٠ - ١٩٤١) على معظم القارة الأوروبية . دون أن يحرك ذلك الولايات المتحدة إلى المشاركة فيها . واقتصر دورها على تقديم بعض المساعدات العسكرية إلى بريطانيا دون مقابل فورى ، وفقا لقانون الإعارة والتأجير الذى أصدره الرئيس فرانكلين روزفلت فى ١٩٤١/٣/٨ ، إلى أن هاجمت اليابان قاعدة «بيرل هاربور» البحرية الأمريكية فى جزر هاواى بالمحيط الهادئ يوم ١٩٤١/١٢/٧ . فاضطرت الولايات المتحدة إلي المشاركة فى الحرب بكامل قدراتها العسكرية والاقتصادية .

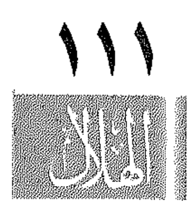
وقد قيل بعد الحرب إن الرئيس روزفلت تغافل عن عمد - رغم علمه المسبق بنوايا اليابان - عن اتخاذ إجراءات فعالة مسبقة ضد الهجوم اليابانى المحتمل حتى يتيح الفرصة لنجاح الهجوم ، وبذلك تتوفر له الظروف السياسية الملائمة للتغلب على «أنصار العزلة» في الكونجرس وإدخال الولايات المتحدة طرفا فى الحرب العالمية الثانية .

مبدأ ترومان ، الاحتواء

خرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية قوية سياسيا وعسكريا واقتصاديا بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخها ، دون أن تلحق أراضيها أو مدنييها أية أضرار مباشرة نظراً لبعدها عن متناول الطائرات والسفن الألمانية أو اليابانية . ومن ثم برز دورها كقطب رئيسى فى التوازن الاستراتيجى العالمى . فى مواجهة المعسكر الاشتراكى بزعامة الاتحاد السوفييتى . وبدأت مرحلة «الحرب الباردة» والتدخلات العسكرية الامريكية الخارجية المباشرة في آسيا (التى بدأت بالحرب الكورية ١٩٥٠ - ١٩٥٣ ثم الحرب الفيتنامية - الأمريكية ١٩٦٥ - ١٩٧٥ التى قتل خلالها ٨٥ ألف أمريكى) . وضمن هذه الأوضاع السياسية والعسكرية طرح الرئيس هارى ترومان (الرئيس الأمريكى الثالث والثلاثون / ديموقراطى / ١٩٤٥ - ١٩٥٣) يوم ١٩٤٧/٣/١٢ ، أمام الكونجرس ، مبدأ جديداً فى السياسية الخارجية الامريكية اقترن باسمه ، هدفه صيانة المصالح الأمريكية . والنفوذ الامريكى المستجد ، عن طريق محاربة امتداد الشيوعية فى جنوب شرق أوروبا (وغيرها من المناطق) ، تحت ستار صيانة السلام العالمى ، لمناسبة حصوله على موافقته لتقديم عون عسكرى وشبه عسكرى لتركيا واليونان قيمته ٤٠٠ مليون دولار ، وكانت تركيا تتعرض وقتئذ لضغوط سوفييتية بسبب الملاحة فى مضيق الدردنيل ، كما كانت اليونان تخوض غمار حرب عالمية يلعب فيها الحزب الشيوعى اليونانى دوراً رئيسياً . وذلك بعد أن أعلنت بريطانيا - صاحبة النفوذ التاريخى فى الشرق الأوسط والبحر المتوسط - أنها لم تعد قادرة على تقدم مساعدات اقتصادية لدول حوض البحر المتوسط .

وهكذا كرس «مبدأ ترومان» بصورة حاسمة انتهاء عصر «العزلة» و «التدخلات العابرة» «وافتتح» عصر المسئولية الأمريكية العالمية . واقترن المبدأ المذكور بسياسة «الاحتواء» التى مارستها الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ، لوقف التغلغل الشيوعى في أوروبا خاصة وكسياسة عالمية عامة . فجاء «مشروع مارشال» (١٩٤٧) ، و «منظمة حلف شمال الأطلسى» (١٩٤٩) ، بمثابة تطبيق اقتصادى وعسكرى أشمل لمبدأ ترومان، وكان التجلى الأمثل لتطبيق «مبدأ ترومان» فى الشرق الأوسط هو تشكيل دولة اسرائيل وتحول الولايات المتحدة إلى مصدر الدعم الرئيسى لبقائها واستمرارها .

وفى ١٩٤٩/٩/٢٣ فجر الاتحاد السوفيتى قنبلته الذرية الأولى . منهيا بذلك الاحتكار النووى الأمريكى . ثم فجر قنبلته الهيدروجينية الأولى فى ١٩٥٣/٨/١٢ . وقد دفع هذان الحدثان النوويان المهمان ، بالإدارات الأمريكية المتتالية إلى إعادة النظر بمرتكزات استراتيجية الأمن القومى الأمريكى التى لحقت بها ، منذ ذلك الحين .



تطورات مستمرة ومتلاحقة ، تجاوبا مع التغييرات فى التكنولوجيا ، ومع التعقد المتزايد فى فهم المشكلات الاستراتيجية ، ارتبط ابرزها بأسماء بعض الرؤساء الأمريكيين .

مبدأ إيزنهاور وملء الفراغ

بعد فشل العدوان الثلاثى على مصر العام ١٩٥٦ أملت الولايات المتحدة في وراثة نفوذ الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية فى الشرق الأوسط . لذلك أعلن الرئيس الأمريكي دوايت ايزنهاور (الرئيس الأمريكى الرابع والثلاثون / جمهورى ١٩٥٣ - ١٩٦١) ورقة عمل بخصوص الخطوط العامة للسياسة الأمريكية الجديدة فى «منطقة الشرق الأوسط» ، بعد أن وافق عليها الكونجرس يوم ١٩٥٧/١/٥ ، عرفت بمشروع أو «مبدأ ايزنهاور» وقد قامت فكرته الرئيسية على ما عرف بنظرية «ملء الفرا غ» فى منطقة الشرق الأوسط للحيلولة دون دخول الاتحاد السوفييتى لشغل مراكز الاستعمار القديم الشاغرة . وذلك بعد أن شكل تزويد الاتحاد السوفييتى لمصر بالأسلحة وفقا لصفقة الأسلحة المصرية التشيكية، التى أعلن عنها يوم ١٩٥٥/٩/٢٧. بداية خطر الوجود السياسى والعسكرى للاتحاد السوفييتى في الشرق الأوسط . والذى عززه الإنذار السوفييتى لدول العدوان الثلاثى (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل) على مصر ، يوم ١٩٥٦/١١/٥ ، بضرورة وضع حد نهائى للعدوان إلا استخدم القوة لسحق المعتدين وضرب لندن وباريس بالصواريخ . وذكر إيزنهاور ، فى ورقته هذه، أنه سوف يستخدم القوة العسكرية لحماية أى دولة مستقلة فى الشرق الأوسط تطلب العون الأمريكى .

وأبرز تطبيقات «مبدأ إيزنهاور» فى الشرق الأوسط كان إنزال نحو ١٥ ألف جندى من قوات مشاة البحرية الأمريكية على شواطىء بيروت بلبنان يوم ١٥ يوليو ١٩٥٨ ، بطلب رسمى مسبق من الرئيس اللبنانى كميل شمعون فى رسالة بعث بها إلى الرئيس إيزنهاور يوم ١٥ يونيو (وكذلك وصول نحو ٢٢٠٠ من قوات المظليين البريطانيين إلى عمان بالأردن)، لردع المد القومى العربى ، المتعاطف مع الرئيس المصرى جمال عبدالناصر، من تهديد البلدين وبقية دول المنطقة العربية بعد إقامة الوحدة المصرية - السورية فى ١٩٥٨/٢/٢٢ ، وحدوث الثورة العراقية بزعامة عبدالكريم قاسم فى ١٩٥٨/٧/١٤.

كما مهد «مبدأ إيزنهاور» الطريق للتدخل العسكرى الأمريكى فى جنوب شرقى آسيا. وأدى إلى حالة استقطاب حادة فى منطقة الشرق الأوسط بين الاتجاهات والنظم الراديكالية (بزعامة عبدالناصر) والاتجاهات والنظم المحافظة المرتبطة بالحليف الأمريكى .وكان من نتائج هذا حرب اليمن (١٩٦٢-١٩٦٧) وحرب ١٩٦٧.

مبدأ نيكسون ، والإنابة المدعومة

ونتيجة لفشل الولايات المتحدة فى فيتنام. بعد نحو ست سنوات من تدخلها

العسكرى هناك ، أعلن الرئيس ريتشارد نيكسون (الرئيس الأمريكى السابع والثلاثون/ جمهورى / ١٩٦٩-١٩٧٤) فى رسالة عن «الوضع العالمى» لعام ١٩٧١ - بإيحاء من مستشاره لشئون الأمن القومى هنرى كيسنجر - عن ضرورة إيكال مهام حربية معينة لبعض «الدول الصديقة» (أساسا دول فى آسيا) ، نيابة عن «الولايات المتحدة» ، والاعتماد على «الشركاء» المحليين لقمع ثورات الشعوب فى العالم كله بدعم مادى وتكنولوجى من الولايات المتحدة . ولذلك عرف فكرته السياسية هذه بـ «مبدأ نيكسون، والإنابة المدعومة».

وهكذا تراجع «مبدأ نيكسون» خطوة إلى الوراء بالنسبة لـ «مبدأ ترومان» الذى طالب الولايات المتحدة ، باعتبارها «قائدة العالم الحر» باحتواء الشيوعية فى العالم كله ، إذا اقتصر «مبدأ نيكسون» على مطالبة دول فى آسيا (كوريا الجنوبية ، الصين الوطنية. فيتنام الجنوبية.. الخ) بأن تضمن أمنها الداخلى والاستعداد للدفاع عن نفسها ضد جميع القوى الدولية الرئيسية تقريبا .

وشهدت منطقة الشرق الأوسط تطبيقا لمبدأ نيكسون فى التحركات «المكوكية» لهنرى كيسنجر من أجل : «أن يقرر الشرق أوسطيون مستقبل الشرق الأوسط» ، برعاية «العراب» الأمريكى بالطبع.

مبدأ كارتر ، «حذاء اليانكى» في الشرق الأوسط

ومع بداية السبعينات ، وخاصة بعد حرب ١٩٧٣ التى قطع خلالها تصدير النفط من الدول العربية، بدأ بعض المستشارين والخبراء الأمريكيين يتحدث بوضوح عن أنه : «إذا تعاظم اعتمادنا على النفط الخارجي، أو تدهورت سيطرتنا فى السياسة الخارجية والنفوذ الدولى ، فإن البديل قد يكون إرسال حملة عسكرية إلى الشرق الأوسط، تجعل فيتنام تبدو - بالمقارنة - كنزهة» . وتصاعدت هذه الاتجاهات فى السياسة الخارجية الأمريكية فى عهد إدارة الرئيس جيمى كارتر (الرئيس الأمريكى التاسع والثلاثون/ ديموقراطى/ ١٩٧٦-١٩٨٠) ، خاصة بعد قيام الثورة الإيرانية فى ١٩٨٩/١/١٦ واحتجاز الرهائن فى السفارة الأمريكية بطهران فى نوفمبر ١٩٧٩ . ثم بدء التدخل العسكرى السوفييتى المباشر فى أفغانستان يوم ١٩٧٩/١٢/٢٧ . ولذلك أعلن الرئيس كارتر، فى خطابه عن أوضاع الاتحاد الأمريكى والسياسة الخارجية يوم ١٩٨٠/١/٢٣ . أن «أية محاولة من قبل قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج الفارسى سوف تعتبر هجوما على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية ، وسوف يتم الرد على مثل هذا الهجوم بأية وسائل ضرورية، بما فى ذلك القوة العسكرية» . وأطلق على هذا الاتجاه الجديد فى السياسة الخارجية الأمريكية اسم «مبدأ كارتر».

وتطبيقا لهذا المبدأ بدأت القيادة العسكرية الأمريكية، منذ ١٩٨٠/٣/١، تشكيل «القوة المشتركة للتدخل الأمريكى السريع»، التى ضمت فى أوائل العام ١٩٨١ (عندما تولى رونالد ريجان الرئاسة الأمريكية) أكثر من ٢٠٠ ألف جندى (بينهم ١٠٠ ألف من القوات البرية ، و٥٠ ألف مشاة البحرية، والباقى من القوات الجوية وأفراد البحرية) ،

وجرى تدريبها وفقا لظروف دولية مشابهة لمنطقة الخليج العربى خاصة والشرق الأوسط عامة . وكذلك جرى تعزيز الوجود العسكرى البحرى الأمريكى فى المحيط الهندى، والبحث عن تسهيلات وقواعد عسكرية فى البلدان المعنية والقريبة منها. وتمت زيادة ميزانية الدفاع الأمريكية عن عام ١٩٨٠ بنسبة ٢٠٪ ، فبلغت ١٠٦ بلايين دولار.

هذا وقد تم فى عهد الرئيس كارتر التوصل إلى اتفاقية جديدة الحد من الأسلحة الاستراتيجية ، وهى «سالت -٢»، مع الاتحاد السوفييتى . وجرى التوقيع عليها مع الرئيس بريجنيف فى فينا يوم ١٩٧٩/٦/١٨.

استراتيجية ريجان ، التطويق والمجابهة

تسلم الرئيس رونالد ريجان (الرئيس الأمريكى الأربعون / جمهورى/١٩٨١-١٩٨٩) السلطة فى ٢٠ يناير عام ١٩٨١ ، ممثلا للتيارات اليمنية والمحافظة فى الطبقة الحاكمة الأمريكية، وملتزما ببرنامج سياسى واضح، قوامه داخليا إقالة عثرة الاقتصاد الأمريكى ، وخارجيا محاولة تطبيق استراتيجية «استعادة عظمة أمريكا» ، أى بسط سيطرتها وهيمنتها فى مختلف أنحاء العالم . ويمكن اختصار هذه الاستراتيجية «استعادة عظمة أمريكا» ، أى بسط سيطرتها وهيمنتها فى مختلف أنحاء العالم . ويمكن اختصار هذه الاستراتيجية فى اعتبار العالم ينقسم إلى لونين فقط : الأبيض «نحن» والأسود «هم» . و«هم» مقصود بها الاتحاد السوفييتى والمعسكر الاشتراكى أولا، ثم كل من لايخضع لابتزاز القوة ولا ينصاع للمصالح الأمريكية، أى حركات التحرر الوطنى والدول الساعية إلى الاستقلال، أو التى تتناقض - ولو جزئيا - مع المخطط الأمريكى للسيطرة على العالم.

واستندت هذه الاستراتيجية بالنسبة إلى الاتحاد السوفييتى، والمعسكر الاشتراكى ، إلى أسلوب التطويق والمجابهة . وعدم اقتصار المجابهة على المجال العسكرى وحده، وإنما تمتد إلى كل الميادين التجارية والغذائية ونقل التكنولوجيا وإثارة الخلافات والصراعات داخل «الكتلة الشرقية» الخ ، وذلك فيما أطلق عليه «استراتيجية التطويق والمجابهة» والسعى ، فى الوقت نفسه ، إلى خلق «سلسلة مترابطة من الأقاليم الاستراتيجية فى العالم» بحيث يقتضى أمن كل منها تحقق الأمن الشامل للمنطقة الأخرى ، فيما عرف باستراتيجية «الترابط الإقليمى» .

والجدير بالذكر أن إدارة ريجان كانت قد أعلنت ، عند تسلمها السلطة ، عن تمسكها بالأفكار الرئيسية التى تضمنها «مبدأ كارتر» وعن تعهدها باستكمال بناء قوة الانتشار السريع ، وذلك انطلاقا من قناعة ذات شقين :

أولهما : إن مصلحة الغرب تحتم الحفاظ على خيار إبقاء أية مواجهة عسكرية بين الشرق والغرب فى نطاق الشرق الأوسط فقط دون تطرقه إلى أوروبا .

ثانيهما : إن الوصول إلى هذا الهدف كان يستلزم احتفاظ الحلفاء الأطلسيين بمكونات مقدرة عسكرية ضاربة فى مسرح الشرق الأوسط ، تمكنهم من مجابهة

الأزمات دون حاجة إلى الاستعانة بالقوات الموجودة على المسرح الأوروبى .

ومن ثم قامت إدارة ريجان بدفع «مبدأ كارتر» إلى حده الأقصى من الناحية العسكرية ، وذلك فى إطار تصعيد التسلح فى شتى المجالات . وكان من نتائج ذلك ، مثلا ، زيادة التحرش السياسى مع الجماهيرية الليبية الذى كان الرئيس كارتر قد بدأه بإغلاق السفارة الأمريكية فى طرابلس عام ١٩٧٩ (التى أحرقها المتظاهرون الليبيون بعد ذلك فى العام ١٩٨٠) وذلك من خلال التحرشات العسكرية مع ليبيا ، التى بدأت بالاشتباك الجوى فوق خليج سرت الليبى ، الذى جرى يوم ١٩٨١/٨/١٩ ، وأسفر عن إسقاط مقاتلتين ليبيتين من طراز « سوخوى -٢٢» . ثم مهاجمة الطائرات الأمريكية لقاعدة صواريخ ليبية مضادة للطائرات فى سرت وتدمير أربعة زوارق بحرية ليبية على امتداد يومى ٢٤ -٢٥ مارس ١٩٨٦ . ثم مهاجمة الطائرات الأمريكية لمنشآت عسكرية ومدنية ليبية فى طرابلس وبنغازى (بما فى ذلك مقر إقامة الرئيس القذافى فى «باب العزيزية» بطرابلس) يوم ١٥ آبريل ١٩٨٦ ، ردا على قنبلة ألقاها مجهول على ملهى «لابيل» الليلى فى برلين الغربية ليلة ١٩٨٦/٤/٥ قتل بسببها جندى آمريكى . وذلك بالإضافة إلى إعلان الإدارة الأمريكية ، فى ١٩٨٦/١٢/٧ ، فرض عقوبات اقتصادية وعسكرية على ليبيا . وقد تمت كل هذه الاعتداءات والإجراءات بدعوى أن ليبيا تشكل «بؤرة» مهمة للإرهاب الدولى يجب ضربها .

ولم تشأ إدارة ريجان أن تنهى ولايتها الثانية قبل أن تجدد تحرشاتها واعتداءاتها على ليبيا ، وتمهد لعدوان جديد عليها بدعوى بناء مصنع للأسلحة الكيميائية فى منطقة «الربطة» على بعد ٦٠ كلم جنوب غرب طرابلس وذلك فى أواخر العام ١٩٨٨ . مستغلة فى ذلك حادث سقوط طائرة ركاب أمريكية تابعة لشركة «بان أمريكان» فوق بلدة «لوكربى» فى اسكتلندا يوم ١٩٨٨/١٢/٢١ . وعشية عقد مؤتمر باريس الدولى بخصوص انتشار الأسلحة الكيميائية ، فى الفترة ٧-١١ يناير ١٩٨٩ ، أسقطت المقاتلات الأمريكية من طراز «ف - ١٤» ، يوم ١٩٨٩/١/٤ ، مقاتلتين ليبيتين من طراز «ميج - ٢٣» أثناء قيامهما بدورية استطلاعية عادية فوق مياه البحر المتوسط بدعوى أن الطائرتين قامتا بتحد عدوانى للقوات الأمريكية التى كانت تقوم بمناورات روتينية فى البحر المتوسط !



الصراع بين الخير والشر

وفى ضوء المواقف السياسية العربية والدولية التى أدانت حادثة إسقاط الطائرتين الليبيتين ، ونتائج مؤتمر باريس ، تراجعت إدارة ريجان عن ضرب مصنع «الربطة» الذى كانت تهدد بتدميره «وتلقين طرابلس درسا» .

والجدير بالتذكير أن الرئيس ريجان وصف الاتحاد السوفييتى ، فى خطاب له يوم ١٩٨٣/٣/٨ بفلوريدا ، بـ «إمبراطورية الشر» . وذلك فى إشارة إلى الفكرة الدينية من أن هناك صراعا بين «الخير» و«الشر» على الأرض . ■



أساطير بيت الكريتلية

تصوير: شيرين شوقى

مرويات قديمة عن الحي المبارك والجبل المقدس، والجامع المطهر

أمانى عبد الحميد

خرافات شعبية حول البيت المسكون والبئر المسحور، والحيات الطيبة

«اسمع يا صاحبى حكايات البيت العتيق بيت الكريتليه» الذى توارثه أجدادى من زمن بعيد..»

هكذا بدأ الشيخ سليمان يسرد للضابط الإنجليزى جاير أندرسون عن معجزات تخرق العادة وتضاهى الخرافة. تحكى تاريخ الحى المبارك وجبله «يشكر» والبركة التى حلت عليه وعلى أهله وظلت تلازمهم. وعن مرويات موروثة كلها خيالات تفوق غرابة قصص ألف ليلة وليلة، عن «البيت المسكون» و«البئر المسحور» و«الحيات الطيبة»

صدر حديثا كتاب «أساطير بيت الكريتلية» لكاتبه جون جاير أندرسون عن دار شرقيات . ورد فيه سرد أربع عشرة أسطورة خرافية، تناقلها أهالى حى السيدة زينب عبر الزمان، بمصاحبة رسومات توضح تفاصيل كل أسطورة ويقترب شكلها من المنمنمات الفارسية القديمة. لذا لم يكن صدور هذا الكتاب ليمر مرور الكرام خاصة أنه يقدم للقارىء المصرى والعربى محاولة جادة لتسجيل كنز ثمين من التراث الشعبى الشفهى، الذى بدأ يأخذ طريقه إلى الزوال والاندثار، برغم كونه جزءا رئيسيا من تاريخ وتراث الأمم المتحضرة.

صدر الكتاب لأول مرة باللغة الإنجليزية خلال فترة الخمسينيات من القرن الماضى فى بريطانيا فى طبعة محدودة ونفدت، لذا فإن تقديمه بعد مضى أكثر من خمسين عاما وقيام تامر الليثى بترجمته هى محاولة تستحق الوقوف أمامها. نظرا لأهمية تلك الحكايات الخرافية فى تكوين الجزء الكبير من ثقافة البسطاء من البشر. بل ومكمن عظمة تلك المرويات الشفهية أنها تحكى كل ما يحتفظ به هؤلاء البسطاء من خيالات، ترتبط فى أذهانهم بمكان ما لتضفى عليه روح القداسة وتحيله إلى محراب بعيد المنال، قريب من القلب، لذا فهى علاقة يشوبها دائما الخرافة والعجيبة حتى تظل مكانة أبطالها منيعة لا ينافسها شىء آخر.

والحكايات التى ورد ذكرها فى الكتاب تشبه أساطير ألف ليلة وليلة ويتخذ بعضها. آيات قرآنية كسند لمرجعيتها التاريخية. تدور حول جبل «يشكر» أعلى جبال مصر المحروسة كما ورد فى الكتاب وجامع «أحمد ابن طولون» ثالث جامع بنى فى مصر الإسلامية بعد جامعى «عمرو بن العاص» و«العسكر» والأكبر مساحة (٦.٥ فدان) والأقدم الباقى على حالته الأصلية، والمبنى على الطراز العباسى ، حيث نشأ «بن طولون» فى مدينة «سامراء» واقتبس تصميم مئذنة جامعة منها كما تدور حول بيت الكريتليه ، وهو عبارة عن بيتين متصلين. أنشأ الأول الحاج «محمد بن سالم بن جلمام الجزار» عام (١٠٤١ هـ ١٦٣١ م)

واشتهر باسم بيت الكريتليه وسكنته سيدة من عائلة تنتمى لجزيرة كريت. أما المنزل الثانى فبناه المعلم عبدالقادر الحداد عام «٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م) باسم امنه بنت سالم . وهى تنتمى إلى نفس العائلة.

أما جامع الأساطير فهو جون جاير أندرسون طبيب بالجيش البريطانى جاء إلى مصر عام ١٩٠٦ ليلتحق بالعمل بالجيش المصرى. وهو آخر من أقام داخل البيتين قبل أن يؤولا كمتحف للحكومة المصرية فى عام ١٩٤٥ . أما الشيخ سليمان الكريتلى آخر سلالة عائلة الكريتيلية . والتى اندثرت بعد وفاته. وهو الخادم الوراثى لضريح. «سيدى هارون الحسينى» وهو شيخ صوفى!

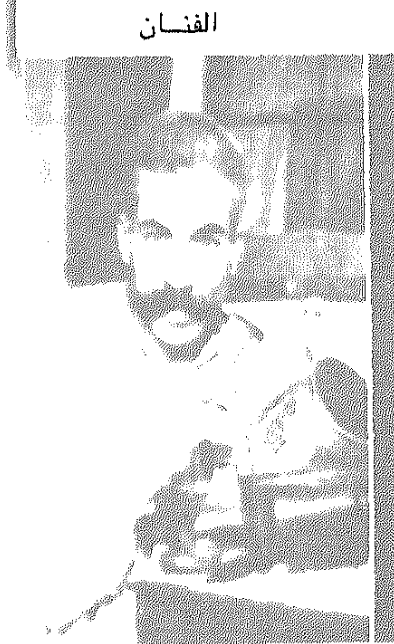
استطاع «أندرسون» أن يقيم معه علاقة صداقة ويستنطقه بالحكايات التى توارثها عن أجداده ويفصح عن الأساطير التى ظل أهل البيت والحى يتداولونها فيما بينهم، يتناقلونها شفاهة أبا عن جد. لكن دون أن يتجرأ أحدهم على تدوينها .

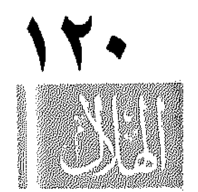
وقام «أندرسون» بتدوينها فى كتاب منذ ستين عاما مضى. وكلف أحد الفنانين من أبناء الحى وهو «عبدالعزيز عبده القاهرى» برسم أساطير بيت المرأة الكريتلية وحفرها على أطباق نحاسية لاتزال معروضة داخل متحف البيت . كما توجد الرسومات الأصلية فى ألبوم يمتلكه متحف «فكتوريا وألبرت» فى «لندن» كان القاسم المشترك فى خلفيات رسومات «عبدالعزيز» هى أربع موتيفات رئيسية . جامع بن طولون ممثلة فى مئذنته الشهيرة ، والبيت بنوافذه وأبوابه المقوسة المميزة، وضريح سيدى هارون الملاصق للمنزل، والشجرة المدببة شعار عائلة «أندرسون» .

والطريف أن مكان الخرافة لايزال مطلا علينا فى قلب القاهرة . الجامع والبيت والضريح فى حى السيدة زينب الشهير. وداخل البيت متحف «جاير أندرسون» الذى تعتبر زيارته ومشاهدة

المؤلف فى البيت ١٩٢٤

الشيـخ


الفنـان



غرفه استكمالا للأساطير المتداولة والمدونة فى الكتاب.

جامع العجائب

هناك مقولة «للإدريسى» أحد المؤلفين المصريين فى القرن السابع الهجرى «١٣ م» وهى «كل من لا يتطلع للعجائب يكون عقله خائب» مقولة تنطبق على شخصية «أندرسون» فهو لم يكن مجرد جامع للتحف والآثار، لكنه أدرك أهمية تدوين الحكايات الخرافية والعجيبة التى كان يسردها الشيخ سليمان الكريتلى. وإن كان قد أهمل أجزاء كبيرة منها كما ذكر فى كتابه «كان الشيخ يميل إلى التكرار وادخال كثير من تاريخ عائلته فى رواياته . لم أحاول أن أقاطع حديثه. وإن اكتفيت بتدوين ما ظننته مثيرا.. ويضيف لم اجمع جزءا كبيرا من هذه الحكايات لكونها تافهة أو مملة أو مكررة فقمت بحذفها».

ونجده يصف نفسه فى كتابه بأنه مستشرق مولع بالشرق قضى معظم أعوام حياته جامعا للتحف منها ٣٦

عاما قضاها فى القاهرة.

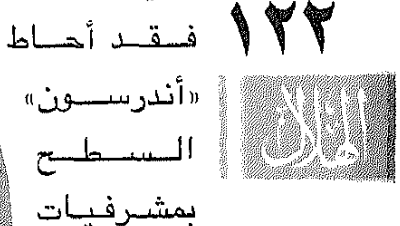
تبدأ قصة ارتباطه ببيت الكريتلية عندما قام بزيارة جامع أحمد بن طولون. وانبهر بالمنطقة المحيطة به ذات الدلالة الدينية الكبيرة حيث تقع مساجد وأضرحة آل البيت «زينب / نفيسه . عائشة / سكينة . رقية» إلا أن إنبهاره اتجه نحو البيت الحجرى الأشبه بالقلعة الحصينة ويلتصق بالجامع. بيت الكريتلية أحد أجمل ما تبقى من نماذج البيوت الإسلامية القديمة. وظل على ولعه بالبيت حتى تكررت زيارته للجامع بعدها بـ ٢٩ عاما عندما شاهده بعد خضوعه لعمليات ترميم واسعة من قبل لجنة حفظ الآثار الإسلامية عام ١٩٣٥ وبالفعل تقدم «أندرسون» بطلب إلى الحكومة المصرية لتسمح له بالإقامة فى البيت خلال الفترة المتبقية من حياته مجانا بدون إيجار فى مقابل أن يعاد الى الدولة المصرية بعد موته معدا ومجهزا بمجموعة من التحف الإسلامية الكبيرة. واعتمد على نفوذه لتأتى الموافقة على طلبه ويصبح البيت ملكا له فى اكتوبر ١٩٣٥ وحتى عام ١٩٤٢ عندما اعتلت صحته واضطر لترك المنزل والسفر إلى انجلترا ووفاته فى «لافنهام» عام ١٩٤٥.

ولع الاقتناء

داخل البيت بدأ رحلته مع الغرائب والعجائب. فاشتهر بغرابة الأطوار واهتماماته المتعددة. وكان يهوى الاقتناء فحرص عى شراء الأثاث ، والمفروشات والأبواب وشبابيك البيوت الإسلامية القديمة المجاور والتى بدأت عمليات إزالتها تنتشر خلال القرن الماضى. كما حرص على شراء الأدوات والأشياء الغريبة من تجار «الروبابيكيا» والعاديات . مثل أدوات الموازين النحاسية والمعدنية والتى كان التجار والباعة الجائلون يستخدمونها فى الماضى. أو إقتناء عدد كبير من كراسى الولادة القديمة وهى كراسى خشبية كانت تستخدم فى عملية توليد النساء وفق طقوس معينة تقوم بها «القابلة» منحوت عليها نقوش وأدعية وتعاويذ، بل قام باستجلاب غرفة نوم كاملة من خارج مصر مثل الغرفة الدمشقية التى استوردها من سوريا من بيت قديم يرجع الى القرن «١٧م» وأعاد

بناءها داخل البيت مرة أخرى. علاوة على قيامه بتأسيس غرف على طرز معمارية وتيمات مختلفة مثل الغرف «الصينية / التركية . الفارسية / الانجليزية. غرف الملكة آن» وحرص على اقتناء مجموعة من القطع الفرعونية، وتوابيت المومياوات . وشواهد القصور يرجع تاريخها الى العصر القبطى والإسلامى والمنسوجات والأيقونات القبطية علاوة على التحف واللوحات الأوروبية.

ومن غرائبه اقتناء مجموعة فى التمائم والاحجبة التى صنعت من الاحجار المختلفة مثل الحجر الصوان والبازلت والتى تستخدم فى حماية الأطفال من الحسد.. وإن كان اهم ما يميز البيت مجموعات من المشربيات التى تحفظ داخلها القلل لتبريد ماء الشرب لها» والمشرفيات التى تطل منها النساء دون أن يراها احد. فقد أحاط «أندرسون» السطح بمشرفيات متميزة بخشب خرط وزخارف وكتابات نسخية مثل «لا إله إلاَّ الله» وغيرها من بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: «وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب» - ١٣ الصف كما حرص على عمل بورتريهات من الجبس لكل الاشخاص الذين يقومون على خدمته حتى وصل عددهم الى ١٥٠٠ قناع جصى تبقى منها ١٥ قناعا فقط. ومعروض منها خمسة بالمتحف داخل حجرة الولادة واشهر تلك الاقنعة كان لخادمه النوبى دبيش الذى عشقه وقام أيضا برسم بورتريه له يتسم بالجمال وعلقه داخل غرفته الخاصة التى خصصها للقراءة ويؤكد لنا نيكولاس وارنر الذى قام بترميم البيت بمشاركة حفيد اندرسون أنه كان شخصا غريب الأطوار يعشق الوحدة ويقدس الحجر والأشياء أكثر من البشر. وولعه بالاقتناء فاق كل تصور. ولم يكن يسمح لأحد من خدمه ان يقيم معه فى البيت. ويرى نيكولاس أن قصر المدة التى أمضاها داخل البيت لم تمنعه من تكوين مجموعات فنية أثرية نادرة يصعب أن يقتنيها شخص عادى طوال حياته. ويذكر ان اندرها واجملها معروض دخل حجرتى العرائس والولادة. الأولى

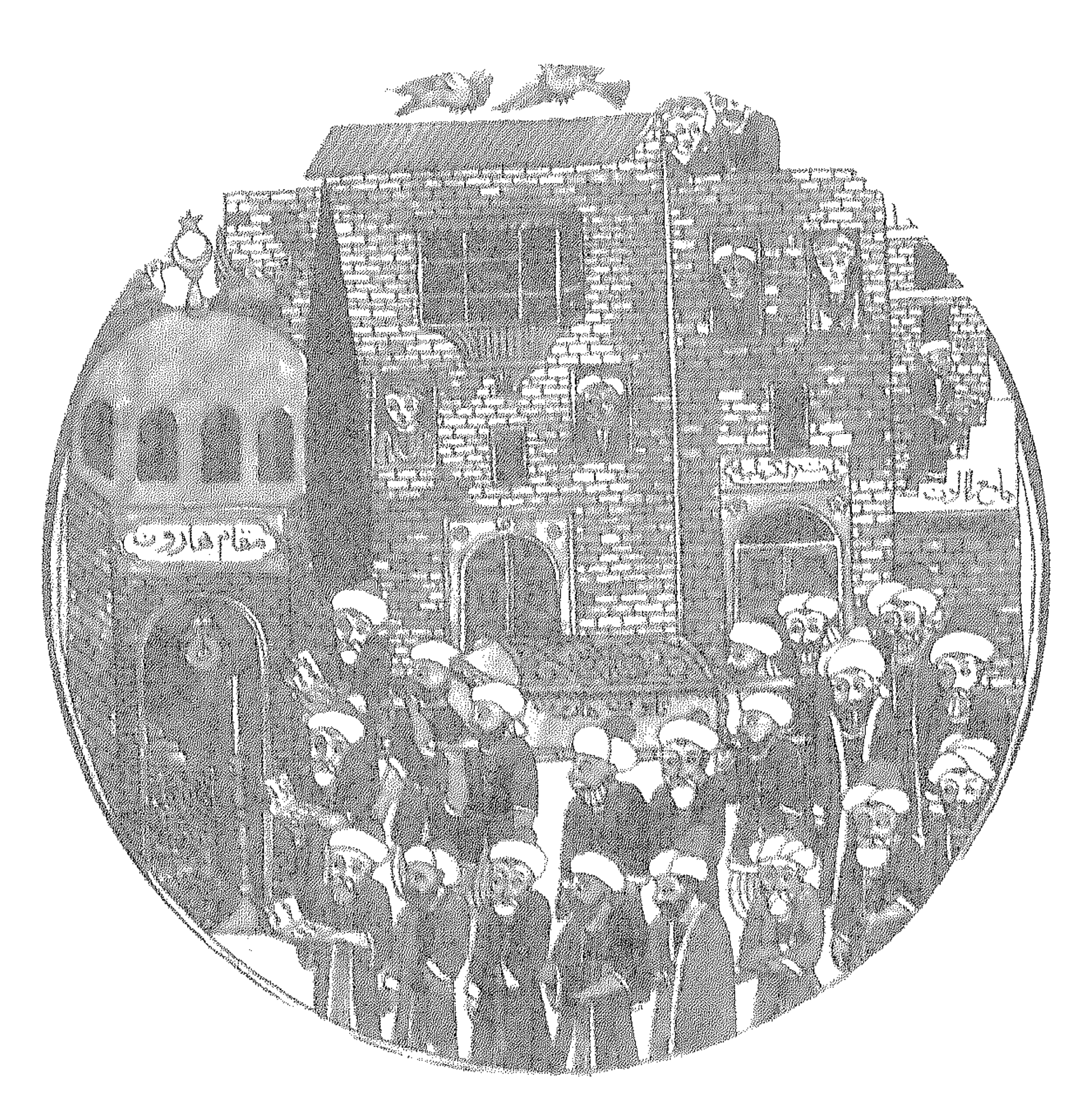




معروضة بها متعلقات يومية كانت النساء تستخدمها مثل القنينات الزجاجية والامشاط المصنوعة من خشب الابنوس ومجموعة ضخمة من الملاعق الخشبية والعاج والصدف. اما الحجرة الثانية فهى الاكثر غرابة وثار حولها جدل كبير حيث تضم مجموعةمن الدمى الصغيرة المصنوعة من العاج والخشب، ومنها ما هو ملفوف بقطعة قماش متهالكة وبالية ، يرى نيكولاس انها عرائس كانت تستخدم فى أعمال السحر والشعوذة وهذا يتنافى مع ما تردد بأنها عرائس يلعب بها الأطفال. بل إن اندرسون كان يهوى اقتناء «طاسات الخضة» النحاسيةالتى حفرت عليها طلاسم سحرية وأدعية وآيات قرآنية حيث كان الناس قديما يعتقدون فى علاقة الطاسات السحرية بشفاء المريض.

أساطير العالم السحري

كل أسطورة أو حكاية تتخذ لها نقطة ارتكاز تقوم عليها داخل العالم



الروحاني السحري. فنجد كثيرا منها ترتكز على خرافة او عالم الجن أو السحر، والشعوذة تدور أحداثها وسط عالم غريب عجيب لا يقبله العقل او العلم الحديث. لكنها تجتمع حول ضرورةوجود العبرة أو الموعظة داخل مضمونها لترشد الإنسان نحو الطريق الصواب.

والأساطير التي دونها أندرسون في كتابه عبارة عن أربع عشرة أسطورة اتخذت من جبل «يشكر» وجامع «أحمد بن طولون» و«بيت الكرتيليه» نقاط ارتكاز لها وداخلها دارت أحداث تلك الأساطير وسط جو من السحر والغموض وإن كانت دائما تدافع عن الخير وتحارب الشر بمختلف صوره.

أربع من تلك الأساطير تحكي عن بركة جبل «يشكر» وتحكي تاريخ الحي المبارك الموجود فيه هذا الجبل والذي تبارك به. فهو الذي رست فوقه سفينة نوح بعد الفيضان وهو نفس الموقع الذي تحكي الأسطورة الثانية ان الله اوحى لإبراهيم بان يذبح ابنه اسماعيل فوقه لكن ملاكا

طاهرا نزل من السماء حاملا كبش فداء فسجد ابراهيم شاكرا ومن هنا جاء اسم الجبل. وبنى عدها أهل الحى اكبر قلعة اسموها قلعه «الكبش» أما الأسطورة الثالثة فهى عن «مصطبة» فرعون العتيقة حيث وقف سيدنا موسى ملك السحرة ليقابل اعوان فرعون الكفرة ويهزمهم. وهو نفس المكان الذى تجلى فيه الله لسيدنا موسى فى صورة شجره مشتعلة ومكانها بنى ابن طولون.. مسجده بعدها بآلاف السنين وبرغم انها اساطير غير صحيحة من الناحية الدينية او التاريخية لكنها تمنح البسطاء قناعات بقدسية المكان الذى يعيشون بجواره وهذا ينطبق على الأساطير التى دارت حول جامع ابن طولون. نفسه كما رواها الشيخ سليمان فتحكى الأسطورة ان السلطان العظيم بنى جامعه عندما سمع عن بركة «يشكر» فأحضر الجزار وذبح اربعة خراف بعث بلحم كل واحد منها الى مكان وقد ظل لحم الخروف الموضوع على جبل «يشكر» «طازجا» لأربعة ايام فى حين فسد الباقى خلال يومين فقط.. فأمر السلطان بتفكيك سفينة «نوح» المستقرة على قمة الجبل واخذ خشبها العتيق ونقشه بالخط الكوفى بآيات قرآنية. وامر بتعليقها على حائط الجامع. اما الأسطورة الاخرى فتحكى انه اثناء البناء ظهر ملك الجان لابن طولون وأرشده على كنز مدفون على أن يصرف المال على جامعه والبنائين وتؤكد الحكاية ان المتبقى من المال لايزال موجودا ومحفوظا فى دهليز طويل ومنسى مردوم يصل بيت الكريتليه بالجامع.

سحر البئر المبارك

وتذكر أسطورة اخرى أن الجد الأعظم لعائلة البيت قرر أن يبنيه حول بئر الوطاويط وذلك البئر المبارك الموجود منذ أيام طوفان نوح . وقيل أن أمير الجان هو الذى أوحى له بأن يبنى بيته فى هذا المكان ودفع ثمن بنائه وزخرفته الفاخرة وأخرى عن الثعبان الطيب الذى سكن البيت ليحميه ويبعد عنه الحيات ويصد الشر والجن والعين. لينام اصحابه أمنين ونجدها فى حكايات البئر التى لا تنتهى خاصة ان بيت الكريتليه من النماذج المعمارية النادرة فى

تصميمات المنازل الإسلامية القديمة ففى الماضى كانت الأسبلة والآبار يتم بناؤها منفصلة وقائمة بذاتها بعيدا عن المنازل يعلوها طابق مخصص للكتاتيب وتعليم القرآن الكريم ولكن هذا البيت النموذج الوحيد داخل القاهرة والذى يحوى البئر داخله كما يؤكد الأثرى احمد سعد مدير متحف أندرسون وبالطبع هذا قد زاد من الأساطير حوله. خاصة ان البئر كان دائما موطنا لعالم الجن ومعقلهم الرئيسى من خلال أساطير القصص الشعبى. فنجد إحدى الأساطير تحكى عن أرملة غنية سكنت البيت مع ابنتها الحسناء «لطيفة» والتى ضاهى جمالها البدور عندما نظرت الى جوف البئر هاج ماؤه وبدأ يفيض خارجه ، وأخذت تطاردها خارج البيت . مندفعة نحو الحارة ومنها الى الخليج القديم. حيث استقرت وسط مائه.. وأطلق أهل الحى على الطريق الذى سلكته المياه سكة بئر الوطاويط» وتحدثت اسطورة اخرى عن سكان البئر سلطان الوطاويط وبناته السبع الحسان نائمات على أسرتهن الذهبية لا يقدر أحد ان يوقظهن ووالدهن ساهر يحميهن بالسحر. وأخرى تؤكد ان بالبئر كنز مدفون مسحور كان سلطان الجان يساعد به الأرامل. واليتامى بأن يضع داخل دلو المياه قطعة ذهب او فضة تفك ضيقهم وتوسع رزقهم.

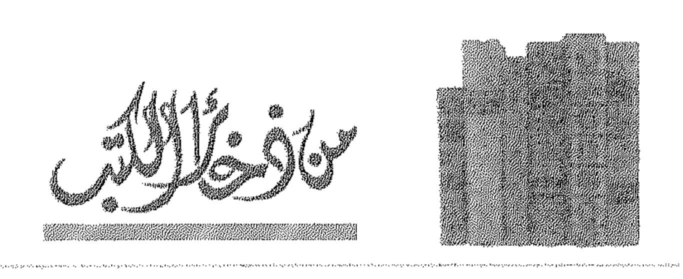
وتسرد الحكايات مزيدا من سحر الوطاويط بانه اذا قام احدهم بزيارة البئر فى ضوء البدر الكامل المنير وألقى بحصاه فى جوف البئر وانصت الى وصولها للقاع بعدها تهدأ الأمواج وتزول الشوائب سيرى حينئذ بعين الفؤاد صورة محبوبة على مرآة وجه الماء.

سيدي هارون

وعن المقام الملاصق لبيت الكرتيلية فهو لسيدى هارون الحسينى يذكر الشيخ سليمان فى روايته انه احد احفاد الرسول عليه السلام. وكان الضريح قد خضع لعملية إعادة بناء خلال عمليات ترميم المنزل فى الثلاثينيات فى القرن الماضى من قبل لجنة حفظ الآثار الإسلامية ووجوده يضفى مزيدا من الأجواء الأسطورية خاصة أن أهالى الحى كانوا يحتفلون بمولده حتى وقت قريب

وبالطبع فإن هناك حكايات كثيرة عن كرامات سيدى هارون أهمها أنه ابن الشهيد الحسين حفيد الرسول الذى استشهد فى مدينة «كربلاء» وأن وجوده اضفى على الحى بهجة وكرامات كثيرة تصل الى حد أنه يشفى من الأمراض ، وينجي من المهالك. ويحمى من الشرور ومن أغرب كراماته حكاية اللص الشرير الذى جاء ليسرق البيت لكن سيدى هارون حفظ البيت أمنا وأفقد اللص بصره وأضل طريقه جزاء على عمله.

وفى ختام سرده لحكايات وأساطير «بيت الكرتيلية» دعا الشيخ «سليمان» قائلا : «والآن يا صاحبى العزيز ها أنذا أكملت لك حكايات البيت التى طلبتها وأكملت لها تاريخ الحى الطويل. ذلك الركن المبارك فى القاهرة المحروسة ..قل ربنا بارك فى حينا وأصحابه وناسه وصلوا معى على أشرف المرسلين خير الأنام وبدر التمام سيدنا محمد عليه أفضل السلام».

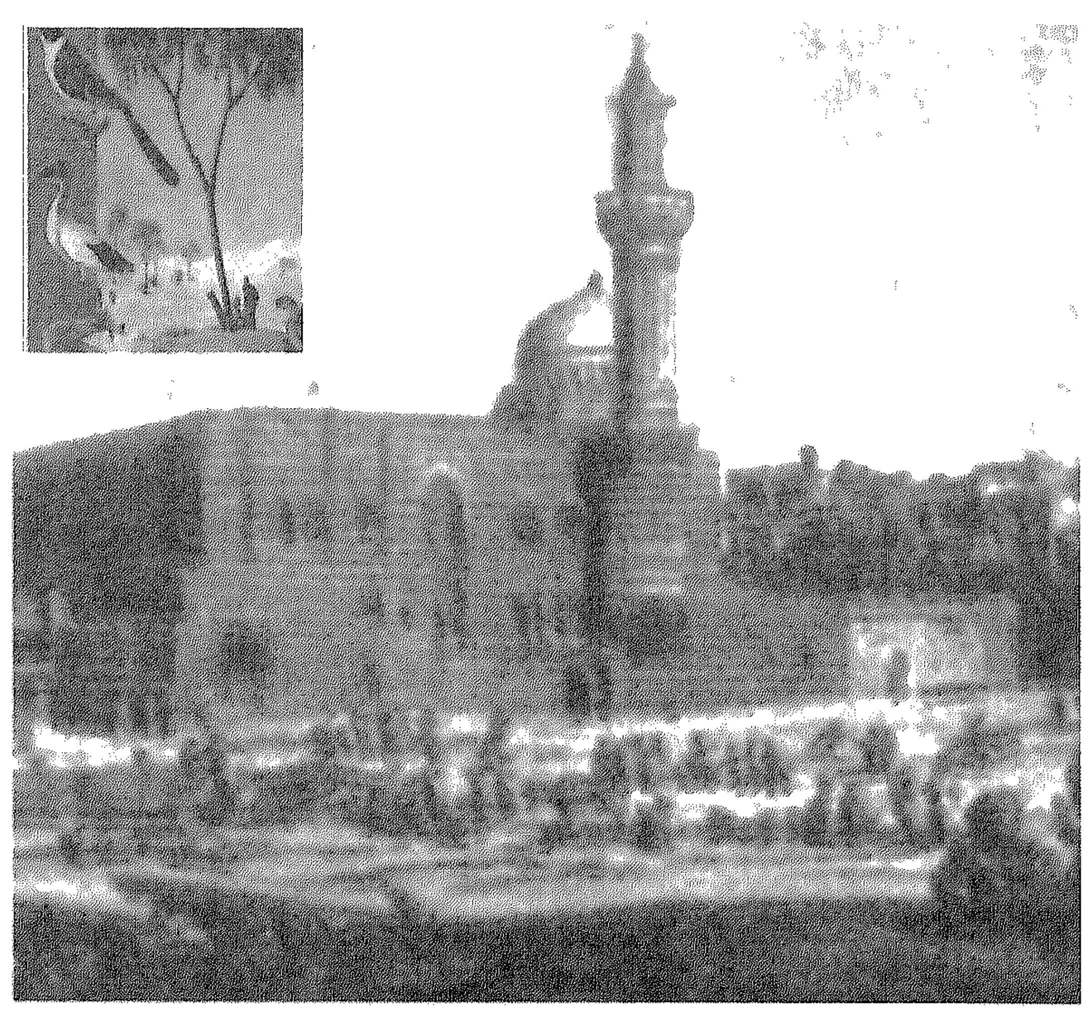


وصف مصر

دائرة معارف مصرية كتبت بأيد فرنسية

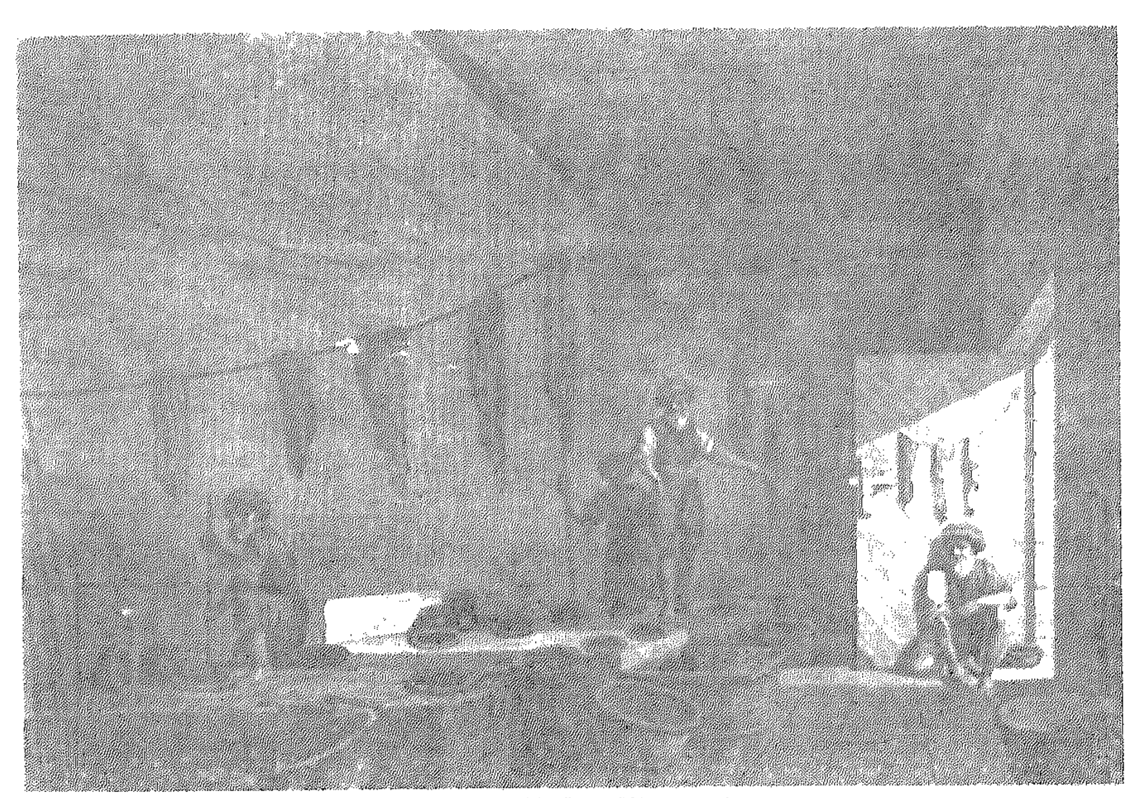
بقلم
د. عبد المنعم الجميعى

ترجع فكرة إصدار هذه الموسوعة الضخمة التى وضعها علماء الحملة الفرنسية تحت عنوان: وصف مصر Desc irption De L' Egypte والتى تعد وبحق إنسيكلوبيديا مصرية. تتحدث عن تاريخ مصر وجغرافيتها وتصف آثارها وتربتها ونيلها وترعها وموارد ثروتها الحيوانية والنباتية والمعدنية، ومناخها وعادات أهلها ترجع إلى الجنرال «كليبر» الذى وجه النظر إلى ذلك فى أمر أصدره بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٧٩٩ إلى ضرورة تأليف لجنة من أعضاء المجمع العلمى لدراسة آثار مصر القديمة وأحوالها، وشئونها الحديثة فقام أعضاء المجمع



آثار مصر الإسلامية كما صورها كتاب «وصف مصر»

بالاشتراك مع لجنة العلوم والفنون بدراسة ذلك الموضوع وتوزيع المهام فيما بينهم، فأحضروا البحوث التى كانوا قد جمعوها عن تاريخ مصر وجغرافيتها، والمذكرات التى كتبوها، والخرائط التى رسموها، والانطباعات التى احتفظوا بها وما وقع تحت أبصارهم من آثار وعمارة وفنون وثروات طبيعية، وما عرفوه من أحوال أهلها وعاداتهم وبدأوا فى العمل على إصدار هذا الكتاب الذى لقيت فكرة تأليفه أشد الترحيب من «بونابرت» القنصل الأول لفرنسا فى ذلك الوقت.

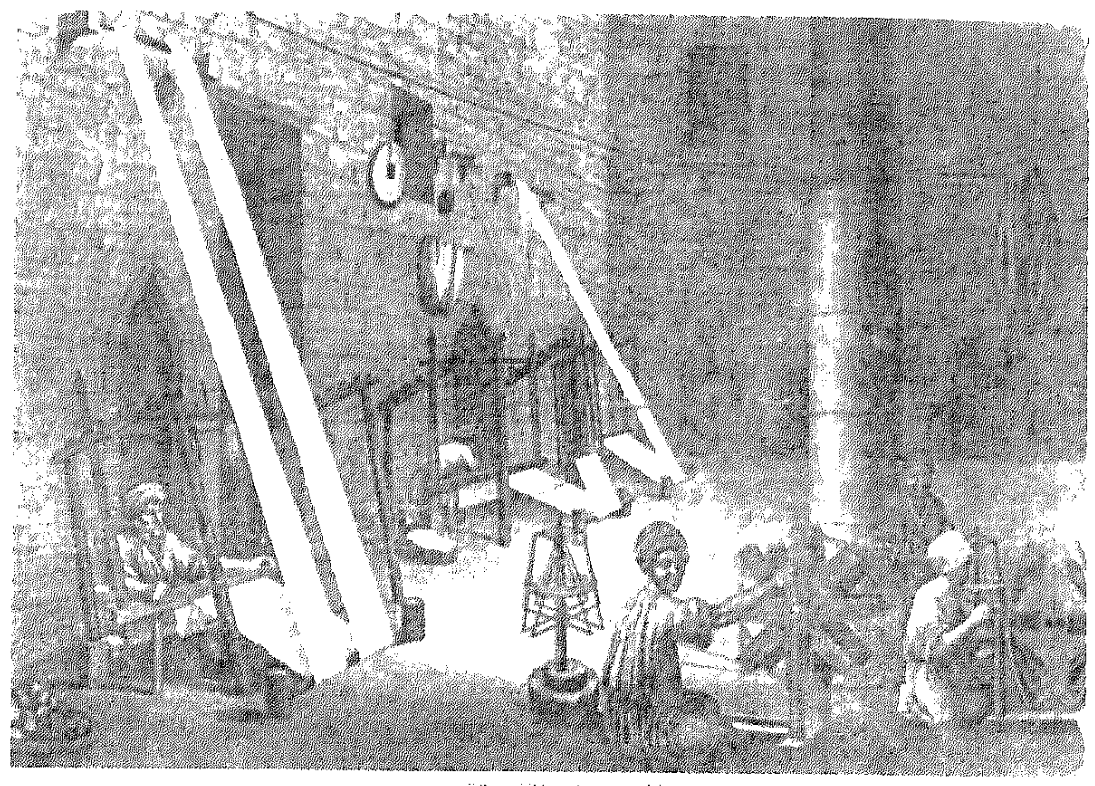


محل صبغ الأقمشة والملابس

وعلى الرغم من رحيل الحملة في عام ١٨٠١م وانقطاع كل صلة لها بمصر فقد استمر العمل في المشروع خاصة أن «نابليون بونابرت» الذي جذبته مصر بحضارتها وتاريخها وجمال طبيعتها والذي كان يرغب في ربط صورته بالشرق كأسطورة جديرة بالتمجيد في ذاكرة الشعب الفرنسي كان حريصاً على استكمال المشروع وظهوره إلى النور، فأصدر قراراً في ٦ فبراير ١٨٠٢ بأن تقوم الحكومة الفرنسية بنشر هذا الكتاب وأن تتكفل الخزانة العامة بجميع نفقاته، وأن يعطى للعلماء المشاركين في تأليفه المكافآت المناسبة. وإلى جانب ذلك. فقد عهد إلى لجنة من ثمانية علماء للإشراف على تبويب الكتاب وإنجاز العمل فيه وتقدير نفقاته، كما كلفوا بتأليف المقدمة التمهيدية له وكان هؤلاء الثمانية: برتوليه، كونتيه، كوستاز، ديجنت، فورييه، جيرار، لانكريه، مونج: وقد حل جومار وجواوا Jollois محل لانكريه وكونتيه بعد فترة، كما ضم دليل وشابرول دي فيلليه ديتراج إلى هذه اللجنة في عام ١٨١٠.

من الفتح العثماني حتى الحملة الفرنسية

وقد استمر العمل في هذا الكتاب على قدم وساق وتم تكليف العالم «فورييه» بكتابة المقدمة بنفسه بعد أن أبدى بعض الملاحظات عليها. وقد اشتملت مقدمة «فورييه» على ذكر ما



المنسوجات اليدوية

كانت عليه مصر من الفتح العثمانى إلى وقت مجىء الحملة، وتناولت علاقات مصر التجارية بغيرها من البلدان، وأوضحت أهمية موقع مصر بالنسبة للتجارة العالمية ثم انتقلت بعد ذلك إلى ذكر تاريخ الحملة حتى عهد «مينو» ثم رحيلها عن مصر . وقد ظهر الجزء الأول من هذه الموسوعة فى عام ١٨٠٩م، وكتب على غلافه أنه طبع بأمر من الإمبراطور نابليون، وحدث ذلك أيضاً على غلاف المجلد الثانى، ثم حالت الظروف السياسية فى فرنسا دون نشر بقية أجزائه فى عهد الإمبراطورية، فظهر آخر أجزاء هذه الطبعة فى عام ١٨٢٢ أى بعد سقوط نابليون. لذلك كتب على غلافها بأنها قد طبعت بأمر من الحكومة. وتتألف هذه الموسوعة من تسعة مجلدات تشتمل على مذكرات علماء الحملة وتقاريرهم ومشاهداتهم ثم أحد عشر مجلدا أخرى تحوى الرسوم والخرائط. وقد أعيد طبع هذا الكتاب فى عهد الملك لويس الثامن عشر فى عام ١٨٢١ وتم الفراغ من طبع أجزائه فى عام ١٨٢٩ وتختلف هذه الطبعة عن الطبعة الأولى فى زيادة عدد الأجزاء حيث تتألف من ستة وعشرين مجلدا مع أنها تحوى نفس الدراسات والبحوث التى شملتها المجلدات التسعة فى الطبعة الأولى ولكن فى مجلدات أصغر حجما. هذا بالإضافة إلى ١١ مجلداً تحوى الرسوم والخرائط وهى المجلدات نفسها التى صدرت مع الطبعة الأولى



مصانع المفروشات

مع اختلافات طفيفة بين الطبعتين تبرز فيما يلى:

١ - إن المجلدين الأولان من الطبعة الأولى أهديا إلى الإمبراطور نابليون. أما الطبعة الثانية فقد قدمت إلى صاحب الجلالة الملك لويس الثامن عشر.

٢ - إن الطبعة الأولى بدأت بمجلدات الدولة الحديثة بينما بدأت الطبعة الثانية بوصف آثار العصور القديمة.

٣ - إن الطبعة الثانية تشتمل على دراسة لم ترد فى الطبعة الأولى وهى عن جامع أحمد بن طولون وحياته وعلى أية حال فإنه يمكن تقسيم موضوعات هذه الموسوعة فى طبعتها الأولى إلى أربعة أقسام: على النحو التالى :

- مجلدات لوصف آثار مصر القديمة، وبها تخطيط دقيق لموقع هذه الآثار وحالتها فى المدن المصرية المختلفة ابتداء من الجنوب عند جزيرة فيلة إلى الشمال حتى الإسكندرية.

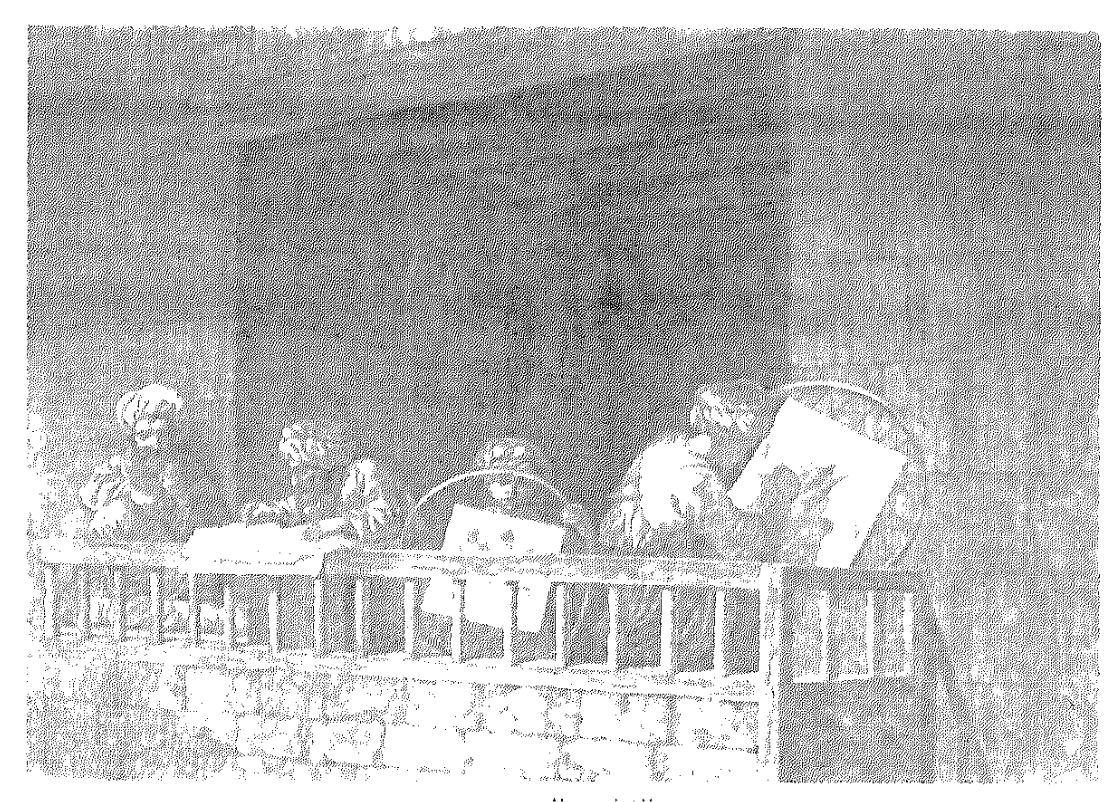
- مجلدان لدراسة تاريخ الدولة القديمة حتى بدايات الفتح الإسلامى.

- ثلاثة مجلدات لدراسة الدولة الحديثة من الفتح الإسلامى حتى وصول الحملة الفرنسية إلى مصر.

- مجلدان لدراسة التاريخ الطبيعى لمصر وبهما دراسات عن طيور وحيوانات ونباتات وأسماك وحشرات مصر.

صور لمختلف الحياة فى مصر

أما عن المجلدات الخاصة بالصور



الفنانون المصريون

والرسوم واللوحات الفنية والمشاهدات فقد شملت مناظر عن مختلف نواحي الحياة في مصر كما شاهدها علماء الحملة ومهندسوها ومصوروها هذا بالإضافة إلى أطلس جغرافي، وهذه يمكن تقسيمها إلى خمسة أقسام هي:

١ - مجلد يشمل تقديم اللوحات وشروح لها.

٢ - خمسة مجلدات لرسوم العصور القديمة.

٣ - مجلدان لرسوم وتوضيحات عن مصر الحديثة.

٤ - مجلدان في ثلاثة أجزاء للتاريخ الطبيعي.

٥ - أطلس جغرافي ويشتمل على خرائط مفصلة للأقاليم المصرية والشامية.

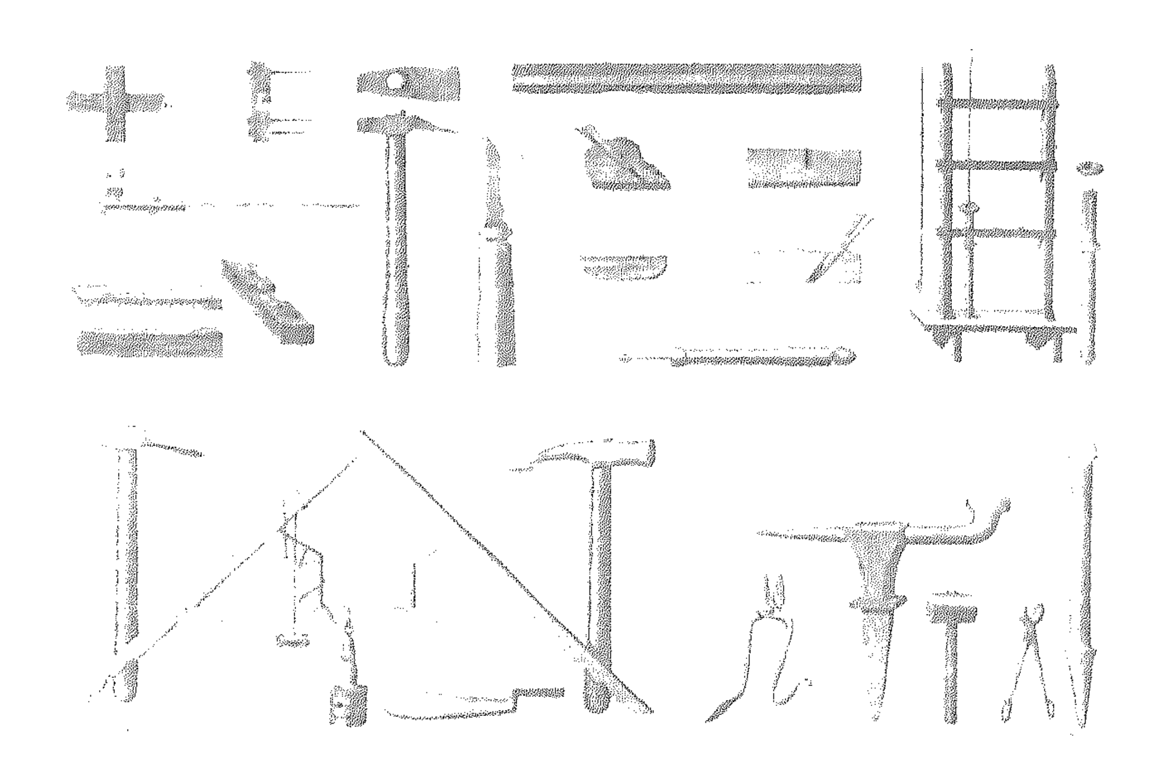
وهذه المجلدات تقدم في مجملها صورة واضحة لحياة المصريين أثناء وجود الحملة تنم عن دقة في استيعاب الحقائق العلمية، وجهد ضخم بذل لتصوير كل جوانب الحضارة المصرية.

وبالرغم من أهمية هذه الموسوعة التي صورت تفاصيل الحياة المصرية وسجلت كل صغيرة وكبيرة في حياة المصريين بوجهة نظر غير مصرية، وقدمت للعالم فيضاً من المعرفة كان في حاجة إليها فإنها ظلت حوالي قرنين من الزمان في حاجة إلى من ينقلها إلى لغة الضاد، ومع ذلك فقد ترددت العديد من المؤسسات الثقافية في الاضطلاع بترجمتها إلى العربية ونشرها إما لقصور إمكاناتها أو خشية المجازفة في الدخول في مشروع ضخم يصعب التنبؤ


صناعة الحبال

بنجاحه . وقد حاول الأستاذ «زهير الشايب» الذى تحمل عبء هذا العمل وحده إقناع بعض هذه المؤسسات الثقافية بالمساهمة فيه ولما لم يجد استجابة واضحة منها أقدم دون أية معاونة مادية أو أدبية من أحد بل بدافع من ضميره الوطنى وحبه لمصر فى ترجمة أجزاء من هذه الموسوعة الضخمة التى تثبت عبقرية علماء الحملة فى استيعاب الحقائق واستقصاء المشاهدات والمعلومات والبيانات الدقيقة التى جمعوها خلال الفترة القصيرة التى قضوها بمصر (١٧٨٩ - ١٨٠١) كما تؤكد ما تتميز به مصر وحضارتها من عظمة وخلود وعلى الرغم من ذلك فقد عانى المترجم الكثير من المصاعب، والظروف العصيبة والبالغة القسوة خلال قيامه بترجمة هذا الكتاب والتى نتجت عن فصله من عمله من مؤسسة صحفية اعتبرته متغيبا بدون إذن لمدة تزيد على عشرة أيام رغم علمها بقيامه بهذا العمل وحصوله على منحة تفرغ من وزارة الثقافة لمدة عام لإتمامه وتحايله فى بعض الوقت للحصول على وقت لإنجاز هذا العمل الوطنى الكبير، ومع كل ذلك فإن قلبه الذى ينبض بحب مصر، وثقته فى تخطى الصعاب مهما كانت حدتها وقسوتها، وقدرته على الصمود والتحدى أمام الملاحقات الشرسة والظروف الإنسانية بالغة القسوة كل ذلك دفعه إلى استكمال مشواره.

يقول المترجم فى مقدمة الجزء الأول من ترجمته أنه يقدم هذا الكتاب خدمة لمصر والمصريين، وأنه على الرغم من أن



الأدوات التى استعملها المصريون فى صناعاتهم المختلفة

وراء هذه المبادرة لترجمة كتاب وصف مصر - ككل مبادرة فردية - دوافعها وأسبابها الخاصة إلا أنها ينبغى أن توضع ضمن إطار أوسع وأشمل من تلك الدوافع والأسباب الخاصة لتربط بذلك الاهتمام الكبير الذى بدأ المفكرون المصريون يولونه لتاريخهم الحديث والمعاصر منذ صدمة يونيو ١٩٦٧م والذى زاد بعد نصر أكتوبر ١٩٧٣م الذى أعاد لمصر بعض توازنها وبعض ثقتها بالنفس، كما أوضح أنه يسعده أن يضع فى داخل هذا الإطار ذلك السفر الضخم الذى لا يفوق شهرته سوى طول إهمالنا له.

حياة المصريين

وقد ركز المترجم عمله فى ترجمة مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة حيث تناولت حياة المصريين فى مختلف مناحيها الاجتماعية والثقافية والحرفية وغيرها فصدر له المجلدات التالية:

١ - دراسات المصريين المحدثون (فبراير ١٩٧٦).

٢ - دراسات عن العرب فى ريف مصر وصحراواتها (مارس ١٩٧٨).

٣ - دراسات عن المدن والأقاليم المصرية (سبتمبر ١٩٧٨).

٤ - موسوعة الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر (الجزء الأول) الزراعة - الصناعات والحرف والتجارة (نوفمبر ١٩٧٨).

٥ - الحياة الاقتصادية فى مصر فى القرن الثامن عشر (الجزء الثانى) النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية (سبتمبر ١٩٧٩).

٦ - موسوعة الموازين والنقود (يناير ١٩٨٠).

٧ - الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين (ابريل ١٩٨١).

٨ - الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين (أغسطس ١٩٨١).

٩ - الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين (يناير ١٩٨٦).

١٠ - وصف مدينة القاهرة.

ومعنى ذلك أن هذه الموسوعة لم يتم ترجمتها كلها بل قام الأستاذ زهير بترجمة الدولة الحديثة فقط أى ما يعادل ثلث هذه الموسوعة، ولم تمهله الأقدار لاستكمال هذا العمل الكبير حيث توفى فى ٢ مايو ١٩٨٢. ويتبقى من يقوم بترجمة الدولة القديمة والتاريخ الطبيعى بالإضافة إلى اللوحات. وحول استكمال ترجمة هذه الموسوعة وإظهارها إلى الوجود. تنوى السيدة عفت الشريف حرم الأديب الراحل، وابنته منى القيام بها بعد أن تغلغل هذا العمل فى عروقهم منذ سنوات طويلة، وفعلا بدأت المسيرة فى هذا الطريق.

والجدير بالذكر أن الذى كتب مقدمة لجزءين التاسع والعاشر هما السيدة روجته حيث شاءت إرادة الله أن يجف المداد فى القلم وأن يتوقف النبع عن الجريان وأن يترك المترجم المجلد التاسع والعاشر مخطوطاً دون أن يكتب لهما المقدمة.

ومما يؤخذ علي كتاب وصف مصر ما يلي:

١ - أن الدراسات التى اشتمل عليها تتجاوز دون نسق منهجى واضح فمثلا نجد دراسة عن ملح النوشادر تعقبها دراسة عن مدينة القصير، وتليها دراسة عن الضرائب على الأطيان الزراعية ثم دراسة عن مقياس النيل ودراسة عن طيبة إلى جانب مقال عن تربية الدجاج وهكذا.

٢ - الخلط فى أحيان كثيرة بين بعض الطقوس الداخلية على المصريين بل وبعض الممارسات الشاذة، والعقائد والعبادات بشكلها الصحيح.

٣ - وجود بعض أشكال الأفكار المسبقة التى لا تنهض على أساس علمى حقيقى خاصة أن بعض هذه الأفكار لدى الأوروبيين عن المصريين فى القرن التاسع عشر لم يقم العلماء بتمحيصها.

٤ - إن الدراسات فى هذه الموسوعة غير متسقة الحجم فبعضها طويل وبعضها متوسط وبعضها الآخر مجرد ملاحظات لا تستغرق أربع أو خمس صفحات لا يوجد رابطة منهجية بينها.

٥ - وجود تفسيرات متباينة بين بعض الدراسات وتكرار فى بعض الأحيان واختلاف فى البنيان العام للكتاب خاصة أن كل مؤلف عمل بمفرده على الرغم من وجود لجنة لضبط هذه الأمور.

٦ - أن لجنة المؤلفين التى شكلت لوضع هذا الكتاب لم تضع فهرسا له كما أنها لم تنشر أى موجز للكتاب يتيح للقارئ السير على هداه وسط هذا الكم الضخم من المعلومات.

٧ - عدم الدقة فى نقل الزخارف الموجودة فى عدد من الآثار الإسلامية خاصة مجموعة السلطان حسن المعمارية، وجامع أحمد بن طولون وجامع سنان باشا.

ومع كل ذلك فخلاصة القول أن هذا الأثر العلمى كان وبلا شك من أعظم أثار الحملة الفرنسية ، وابقاها خلوداً على مر الأيام والعصور كما أن ما قام به المرحوم زهير الشايب من جهود ضخمة فى الترجمة قد أضفى على هذه الدراسات طابعاً منهجياً وأدبيا واضحاً فعمل على تجميع بعض الدراسات المتناثرة ليتكون هذا العقد الثمين، فقدم ترجمة أمينة نصا وروحاً.

ولم يتدخل فى النصوص إلا فى أضيق نطاق، وآثر أن يقدم ترجمة أمينة لاعتقاده أنه قد آن الأوان لنواجه بشجاعة كل ما يقال عنا لأن الأقوياء لا يخشون معرفة ما يقال بشأنهم، وأن الصمت عن ذلك ليس هو الطريقة المثلى، كما حرص المترجم على اختيار عناوين لدراساته بالشكل الذى يتقبله القارىء لا يمكن أن يستسيغ عنواناً لدراسة يبلغ أحياناً حوالى ثلاثة أو أربعة أسطر، يضاف إلى كل ذلك سلاسة أسلوبه فى الترجمة والقدرة على تصوير روح العبارة وشاعرية الأسلوب فى النص الفرنسى بأسلوب عربى رصين والقدرة كذلك على نقل التفاصيل الدقيقة بكل صبر وأناة.

وهكذا قدم زهير الشايب بكل إخلاص عملا هو من أخص خصوصيتها قامت مكتبة الأسرة أخيراً بإعادة نشره خاصة أنه يعد وبحق خير مرجع وأدق مصدر تناول فيه علماء الحملة الفرنسية أحوال مصر منذ قرنين من الزمان تقريباً. ■

كلمات عاشت

● تجتمع المثل العليا كلها فى الكرامة، ولقد فتشت عن مثل أعلى يحقق لصاحبه السعادة. كما تحققها له الكرامة فلم أجد.

العقاد

● الدين يجعلنى أنا والإله على متاعب الحياة، والإلحاد يجعلنى أنا وحدى ضد الله وضد متاعب الحياة وشتان مابين الوضعين.

أحمد أمين

● أن المثقف التام التثقيف، هو أسعد رجل على هذه الأرض، وهو سعيد ما بقى له شعاع عقله، ودفء قلبه، وتفتح بصيرته.

د. أحمد زكي

من أعلام الفن المصرى الحديث

أضواء على إبداع المصور الرائد

أحمد صبرى

١٨٨٩ - ١٩٥٥

بقلم
د. صبرى منصور

أقامت وزارة الثقافة خلال الشهور الماضية بقاعة العروض المتحفية بمتحف محمد محمود خليل معرضا للفنان أحمد صبرى، وهو أحد الروّاد الذين بدأوا مسيرة الإبداع الفنى التشكيلى المصرى الحديث فى بدايات القرن الماضى وكان على رأسهم المثال محمود مختار والمصورون محمود سعيد ومحمد ناجى وراغب عياد. ولا شك فى أن فكرة إقامة المعارض المتحفية لأعمال الفنانين الراحلين من الرواد والمتميزين هى فكرة طيبة، حين تصدر عن رغبة فى تقديم الماضى للأجيال المعاصرة، من خلال تجميع انتاج الفنانين المتناثر هنا وهناك، لتكوين صورة أكثر وضوحا وتكاملا لرؤيتهم وأسلوبهم الفنى، وخاصة أنه لم تتوافر فى مصر المتاحف الخاصة والنوعية.

عازفة العود - ١٩٤٤ ◄



ولللأسف فإن ذلك العرض المتكامل - الذى كان ينتظر رؤيته كل من تداعى إلى سمعه من المهتمين خبر إقامة أول معرض ضخم للفنان الرائد أحمد صبرى - لم يأت بالشكل المنشود للعرض المتحفى - بل جاء يضم نتفا من أعمال بسيطة، ودراسات سريعة وغابت عنه أعمال الفنان التى توضح أسلوبه، وتؤكد استاذيته وكان يمكن بذل جهد أكبر فى تجميع الأعمال المقتناة من الأفراد، بالإضافة إلى استعارة الأعمال الشهيرة الموجودة بمتحف الفن الحديث أو المتاحف الأخرى.

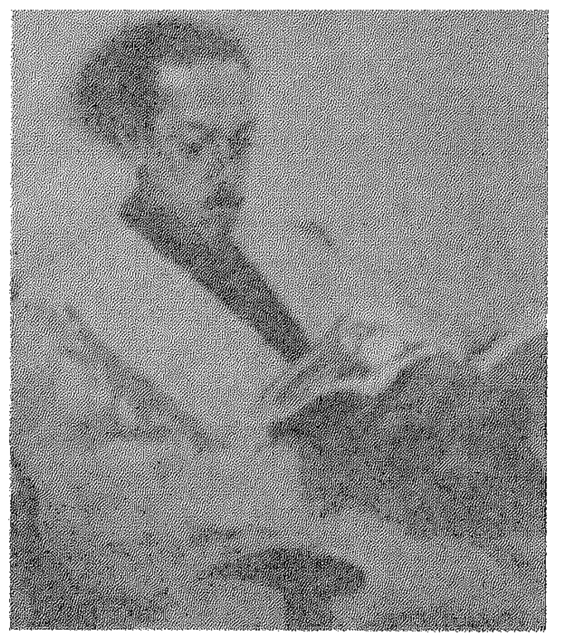
حياة حافلة بالأحداث

لم تكن الحياة التى عاشها أحمد صبرى حياة هادئة مستقرة، بل كانت حافلة بالتغييرات ومليئة بقصص الكفاح والصراع والمعاناة، ففى حى المغربلين بالقاهرة ولد الفنان من أبوين ذوى أصول تركية، وفقد أمه وهو مايزال فى الثانية من العمر، ومالبث أن فقد أباه وهو فى الثامنة، وكره الدراسة فتعثر فيها. ومع ظهور ميوله نحو الرسم والموسيقى التحق بمدرسة الفنون الجميلة بعد إنشائها بثلاث سنوات، حيث لفتت موهبته الفنية المبكرة أنظار أساتذته الأجانب الذين رشحوه لبعثة دراسية إلى فرنسا على نفقة الأمير يوسف كمال مؤسس المدرسة ولكن سفره تأجل بسبب قيام الحرب العالمية الأولى، وأنهى دراسته فى الفنون الجميلة عام ١٩١٦. وحاول أن يكسب عيشه فعمل مدرسا للرسم فى مدرسة مصطفى كامل الابتدائية، ولكنه سرعان ما ترك الوظيفة حين بدأت أعماله تحوز الإعجاب وتجد من يقتنيها، وعندما استطاع تدبير ما يساعده على السفر إلى باريس شد رحاله إليها عام ١٩١٩. والتحق هناك بأكاديمية «شوميير»، ثم انتقل إلى أكاديمية «جوليان» التى كان المثال مختار قد سبقه إليها بسنوات فساعده فى التعرف على ملامح المجتمع الجديد. وحين نضبت مصادره المالية بعد ثلاث سنوات عاد أحمد صبرى إلى مصر ليواجه من جديد نفس الصعاب، ويعانى شظف العيش مما اضطره للعمل عام ١٩٢٣ فى وظيفة رسام للحشرات بوزارة الزراعة، ولكن الحظ يبتسم له حين ينتقل إلى وظيفة رسام بوزارة الأشغال، إذ منحته الوزارة الفرصة للسفر فى بعثة دراسية إلى باريس لاستكمال دراسته الفنية. وفى تلك الفترة حظى الفنان باستقرار نسبى فى حياته، مما ساعده على المضى قدما نحو تجويد أسلوبه الفنى، وإكتساب الخبرات الفنية والمهارات الحرفية التى بلغت ذروتها فى لوحته الشهيرة «الراهبة» والتى عرضت

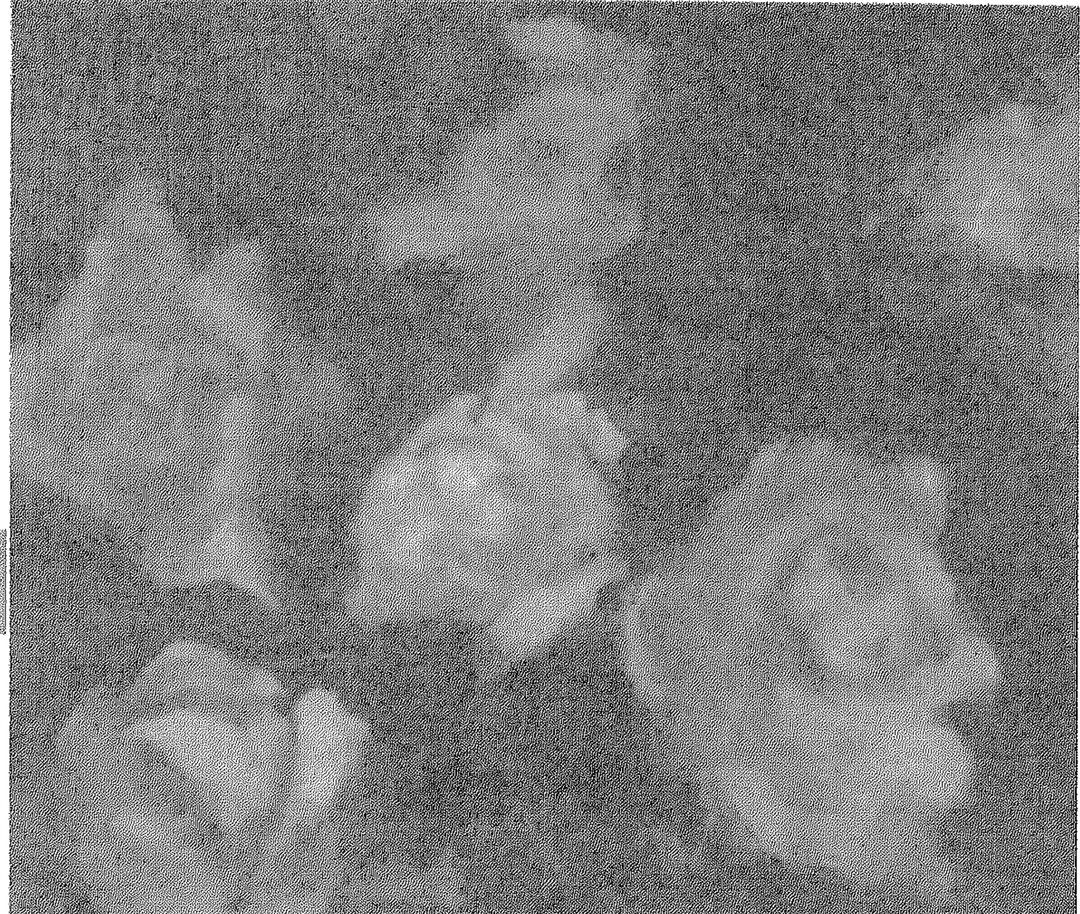




زوجــة الفنــان



توفيق الحكيم



طبيعــة صامتــة

فى معرض «الجران باليه» بباريس عام ١٩٢٩ وقد حصل بها على جائزة الشرف من جمعية الفنون الفرنسية. وحينما عاد إلى مصر فى نفس العام كانت مدرسة الفنون الجميلة العليا قد تم افتتاحها لأول مرة بعد انتقال تبعيتها إلى وزارة المعارف العمومية، وكان جميع أساتذتها من الأجانب. وقد أسند إلى أحمد صبرى مسئولية رئاسة قسم التصوير الحّر الذى أنشئ بهدف رعاية المواهب الفنية للهواة. ثم انتقل الفنان بعد ذلك لرئاسة قسم التصوير النظامى عام ١٩٤٩. وفى سنواته الأخيرة يشاء القدر أن تختتم حياته بمأساة هى من أقسى ما يمكن أن يلاقيه فنان تشكيلى يمثل له البصر نعمة لا تعّوض، فبدأ التدهور التدريجى لإبصاره حتى وصل إلى درجة الظلام الكامل حتى توفى وقد بلغ السادسة والستين من العمر.

ماذا بقي من أسلوب أحمد صبري ؟

سيظل الإتجاه الفنى الذى التزم به الفنان مثيرا للعديد من التساؤلات، فإن هذا الاتجاه لم يتعرض لتبديل أو تغيير أو إضافة منذ بدأ دراسته فى الفنون الجميلة واللافت للنظر أيضا أن موضوعاته التى طرقها فى لوحاته لم يطرأ عليها هى الأخرى تحولات نحو موضوعات جديدة عبر سنوات مشواره الفنى الطويلة.

فالوجوه وهى مجاله الأول الذى صال وجاَل فيه، مستعرضا مهارات فنية وحرفية ورهافة حس فنى لا مثيل لها فى تاريخ الفن المصرى الحديث. ومجموعات الطبيعة الصامتة وما تحفل به من أدوات وخامات متنوعة أجاد فى إظهارها وتجسيد ملامسها وبعض الدراسات لجسد المرأة العارى، وقد عكست قدرة فنية ملحوظة على تقديم معالجات رقيقة لجماليات الجسد الأنثوى، وأخيرا مجموعة من المناظر الطبيعية التى انفردت بمعالجات مختزلة، تقتنص الضوء، وتختصر التفاصيل فى مساحات فنية بليغة.

ولقد تبدت أستاذية أحمد صبرى فى لمسات فرشاته الواثقة، والتى تبنى الشكل بتجاوزاتها المحسوبة والرقيقة، والانتقالات الناعمة بين مناطق الظلال والأضواء، واختياراته لدرجات لونية غاية فى الرهافة والرقة كل ذلك مع تكريس كامل للقواعد الأكاديمية التقليدية المعروفة فى نقل الواقع والتى لم يحد عنها فى إبداعه الفنى، وظل مخلصا لها مؤمنا بأنها الهدف النهائى والغاية المثلى للعمل الفنى. دافعا تلاميذه إلى الإحساس بجماليات الطبيعة ومنطقها الفنى. وعرف عنه الصراحة الشديدة كأستاذ ومعلم بهذه التعاليم طيلة حياته



فلاحة بقسط اللبن - ١٩٣٠



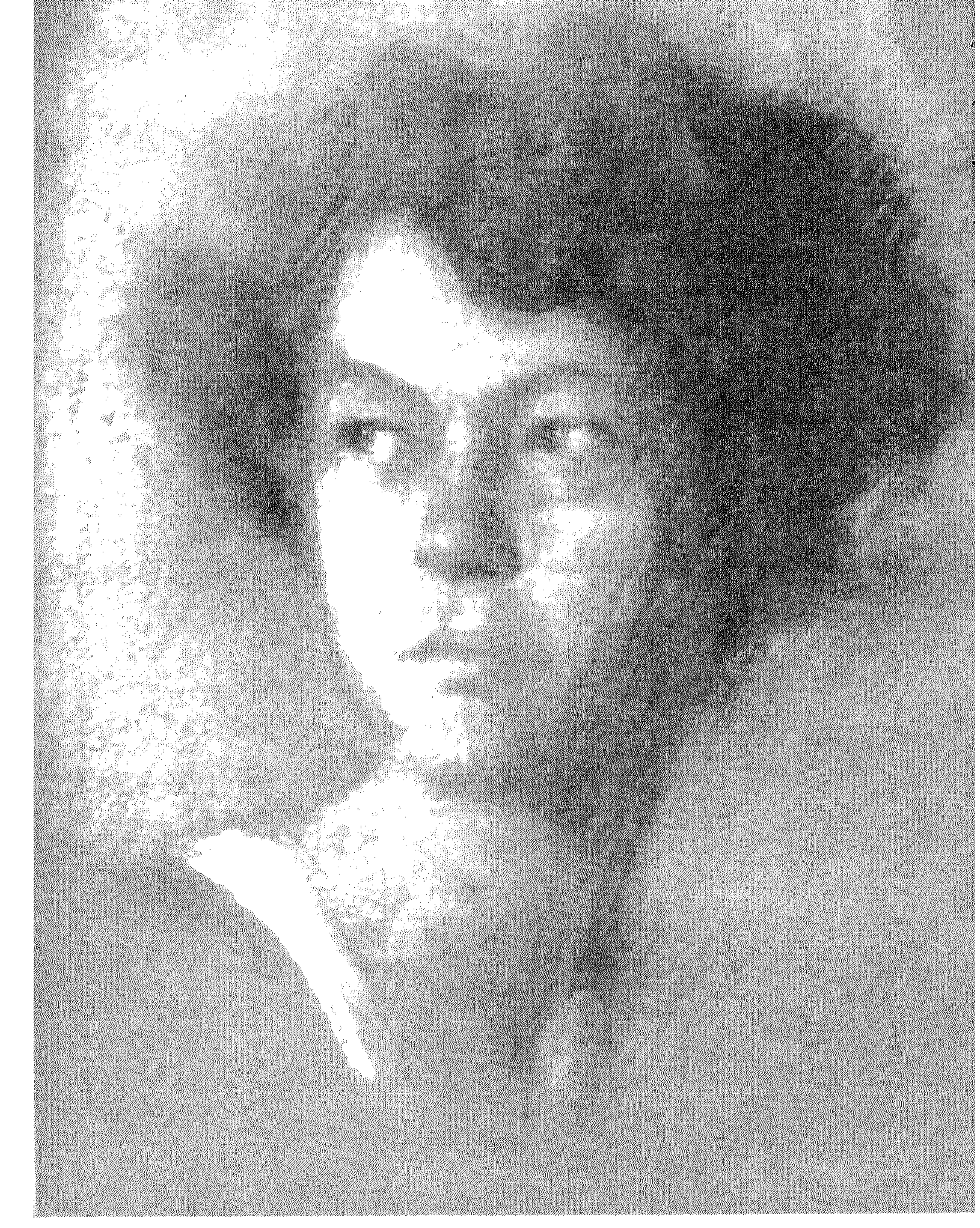
ذات البرقع - ١٩٣٠

كما يجسد إبداعه نموذجا مثاليا لهذا الضرب من التصوير وعلما عليه لم يتخطاه أحد من الأجيال اللاحقة، كما يظل أول مصرى يلج عالم فن التصوير بمفهومه الغربي - وقد كان جديدا على المصريين - ويثبت فيه جدارة فنية ودقة حس تضارع أمهر وأقدر المصورين الأوربيين الأكاديميين وكان المصريون حديثى العهد فى بدايات القرن بالفنون الجميلة، ومازالت هناك أصداء الأعمال الفنية التى صاحبت الحملة الفرنسية على مصر والتى أبهرت المصريين بأسلوبها الواقعى، إلى جانب لوحات الفنانين الأوربيين من المستشرقين التى تصور الشخصيات والأثرياء بأسلوب واقعى أكاديمى، مما أوجد مناخا ثقافيا عاما لدى الكتاب والمفكرين من رجالات التحديث والتنوير واقتناء ملامح النهضة الأوربية بتقدير هذا النوع من الرسم والذى يضاهى الفن الأوروبى ولا يقل عنه اتقانا وروعة فى إظهار التفاصيل الدقيقة وربما يفسر ذلك التوجه الإعجاب الشديد الذى كان يبديه كبار مثقفى تلك الفترة بفن أحمد صبرى من أمثال عباس العقاد وتوفيق الحكيم والمازنى وعبدالرحمن صدقى.

حب مشترك للموسيقى

ويضم إبداع أحمد صبرى تراثا غنيا فى مجال الصورة الشخصية، ولعل أبرز الوجوه التى صورها بأسلوب متميز لوحة صور فيها تلميذه الموهوب حسين بيكار عازفا على العود، وقد كان يجمعهما حبهما المشترك لفن الموسيقى وقدرتهما على العزف، وهناك صورة الكاتب توفيق الحكيم ممسكا لكتاب بين يديه، بالإضافة إلى اللوحات التى قام فيها بتصوير زوجاته الثلاثة وأبنائه وأصدقائه المقربين كما يضم انتاجه تلك الأعمال التى نفذها مستخدما خامة الباستيل التى كانت قريبة إلى نفسه وقدم من خلالها معالجات فنية على قدر كبير من الرقة والنعومة، ممتزجة بجرأة التنفيذ والإعتماد على الخطوط المتجاورة (التهشيرات) لإبراز الشكل وتجسيده.

ويثير إبداع أحمد صبرى تساؤلات لا تجد لها إجابة شافية، وأهمها عن سر عدم تفاعله مع معالم الحداثة الفنية التى كانت تعّج بها باريس خلال السنوات التى قضاها الفنان فيها دارسا فى العشرينات والثلاثينات من القرن الماضى، فمنذ منتصف القرن التاسع عشر وبعد ظهور المدرسة الرومانتيكية التى مهدت الطريق نحو ثورة الفن الحديث وانطلاقه نحو تحطيم الأفكار والمفاهيم التقليدية فى الفن التشكيلى، مما أدى إلى توالد تيارات التجديد، وتوالى المدارس والاتجاهات الفنية منذ أوائل القرن العشرين فكان هناك الاتجاه الانطباعى وما بعده والاتجاه التعبيرى والرمزى والتكعيبى والسيريالى والتجريدى وغيرها من اتجاهات بعضها استمر لفترة وجيزة كالدارية وبعضها نما وتفرع كالتجريدية وقد أسفرت تلك الفترة الحيوية فى تاريخ الفن الأوربى عن قدرة الخيال الانسانى غير المحدودة على الابتكار والتجديد والابداع ولم يظهر من هذا العالم الثرى بالأفكار والمفعم بالتجديد أى انعكاس على إنتاج أحمد صبرى ويبدو أنه كان من شدة إيمانه باختياره الفنى قد صنع لنفسه قوقعة أغلقها على ذاته، معرضا على المشاركة أو التأثر بأية عوامل تبعده عن أسلوبه ومنجهه الفنى، وهو بهذا الإعراض قد اختلف عن زملاء جيله من الفنانين الذين تلمح فى ثنايا أعمالهم لمحات من روح الحداثة ومنهجها، وتلمس تطورا فى رؤيتهم الفنية، واجتيازاً لمرحلة الدراسة الأكاديمية التقليدية إلى مراحل أكثر نضجا ووعيا واستفادة من المفاهيم الفنية الجديدة فمحمود مختار يتخطى مرحلة تماثيل الفلاحات ذات المعالجة التقليدية ويبدع أعماله «نهضة مصر» وتمثالى «سعد زغلول» بالقاهرة والاسكندرية ورائعته «الخماسين» وفيها



عزة كريمة الفنان أحمد صبرى -١٩٥١

من معالم التحديث والتجديد التى تمثلت فى تلخيص الأشكال وإضفاء البعد الرمزى إليها، ومحمود سعيد ينتقل إلى مرحلة امتزجت فيها عناصر رمزية وتعبيرية، ومحمد ناجى يطور أسلوبه مستفيدا من اتجاهات ما بعد التأثيرية، ويوسف كامل يتبنى أسلوب التأثيريين، وراغب عياد يبلور أسلوبا خاصا ذا نكهة تعبيرية. ووسط هذه الكوكبة يظل أحمد صبرى فريدا فى إخلاصه لأسلوبه التقليدى بل يسعى لتجويده وإرساء دعائمه.

والتساؤل الثانى الذى يبحث عن إجابة شافية، فهو عن علاقة أحمد صبرى بدعوة الصحوة الثقافية التى واكبت ثورة ١٩١٩، والتى نبهت الأذهان إلى تاريخ مصر الحضارى العريق، وما يمكن أن يمثله للمصريين من جذور يستمدون منها ملامح أصالتهم وتفرد شخصيتهم فى مواجهة الغرب، ولقد ظهرت أصداء تلك الدعوة فى أعمال باقى جيل الرواد، فالنحت المصرى القديم مثل لمختار مصدر إلهام أساسى، وكذلك لراغب عياد - وبنسب محدودة - لمحمود سعيد ومحمد ناجى وإلى جانب معالم التراث الفنى المصرى القديم، تمثل هؤلاء الفنانون الحياة المصرية الشعبية والريفية المعاصرة، فجسدوا بعضا من ملامحها فى أعمالهم مستكشفين سحرها الخاص ولونها المميز، وذلك فى محاولة لتخليق فن يشى بالروح المصرية، ويتمتع باستقلالية الصياغة التشكيلية. ولكن أحمد صبرى يظل نائيا عن هذه التأثيرات عاذلا نفسه عن التفاعل معها متباعدا عن نتاجئها مفضلا البقاء بعيدا فى صومعته التى أحكم إغلاقها على نفسه، فلن تجد فى أعماله أية إشارات أو تضمينات تراثية أو ملامح مصرية شعبية، فهو قد اختار أسلوبا فنيا صارما لا يحيد عنه، ولا يفصح عن هويته، ومع ذلك فقد باشره بحساسية فنية مرهفة وإتقان شديد.

لوحات غريبة على أسلوب الفنان

ويلفت الإنتباه أن هذا المعرض الذى لم تكن أعماله من مقتنيات متاحف الدولة قد ضم عددا من اللوحات تفاجئ العين بمستوى فنى أدنى بكثير من مستوى فنان قدير ومصور بارع كأحمد صبرى فذلك الفنان الذى يختار درجاته اللونية بحساسية فائقة وخبرة نادرة، وتتمتع خطوطه السريعة الواثقة بالقدرة على التعبير البليغ عن الأشكال، من الصعب أن يصور لوحات مثل لوحة «فلاحة بقسط اللبن» ولوحة «سيدة بالملاية والبرقع» وهما منفذتان بألوان الجواش وفضلا عن أن هذه الخامة لم تكن ضمن الخامات المفضلة للفنان الذى

كان معظم انتاجه من الألوان الزيتية والمائية والباستيل، فإن الرسم يبدو ضعيفا وخاصة رسم الأطراف، كما أن الدرجات اللونية وتدرجاتها ومعالجة الخلفية فى اللوحتين بعيدتان عن أسلوب الفنان، أما لوحة «ورد بلدى» ولوحة «مطالعة على الشيزلونج» وهى منفذتان بالألوان المائية فإنهما بعيدتان عن نعومة ورقة أسلوب الفنان فى مائياته. وهناك رسم بالفحم لفلاحة جالسة تدل خطوطه غير الحساسة ورسم الأطراف الضعيف مع استخدام الظلال الداكنة على بعده عن أسلوب الفنان، كما أنه يتناقض مع رسم آخر «لعازف الربابة» الذى يعد نموذجا مثاليا للرسم السريع (الاسكتش) الذى كان أحمد صبرى أستاذا فى معالجته.



علي سلم سراي كلية الفنون بالزمالك - ١٩٤٨

ولقد أرخت هذه الأعمال فى أوائل الثلاثينات وهى فترة كان الفنان قد بلغ قمة إبداعه، واكتمال مهارته الفنية. ■

كلمات عاشت

● الذين دفئت قلوبهم بالمحبة والجود والصدق والرضى والعدل دفئت أعوامهم بالسلام والبحبوحة والعطر والطمأنينة.

ميخائيل نعيمة

● لقد وجدت أن نصيب الانسان من السعادة يتوقف فى الغالب على رغبته الصادقة فى أن يكون سعيدا.

لنكولن

● إن لكل منا فلسفته الخاصة به، وكلما كانت هذه الفلسفة متفائلة يسرت أمورا وهونت صعابا.

د.ابراهيم مدكور

.. وأخذت نفسى للسير فى الغورية

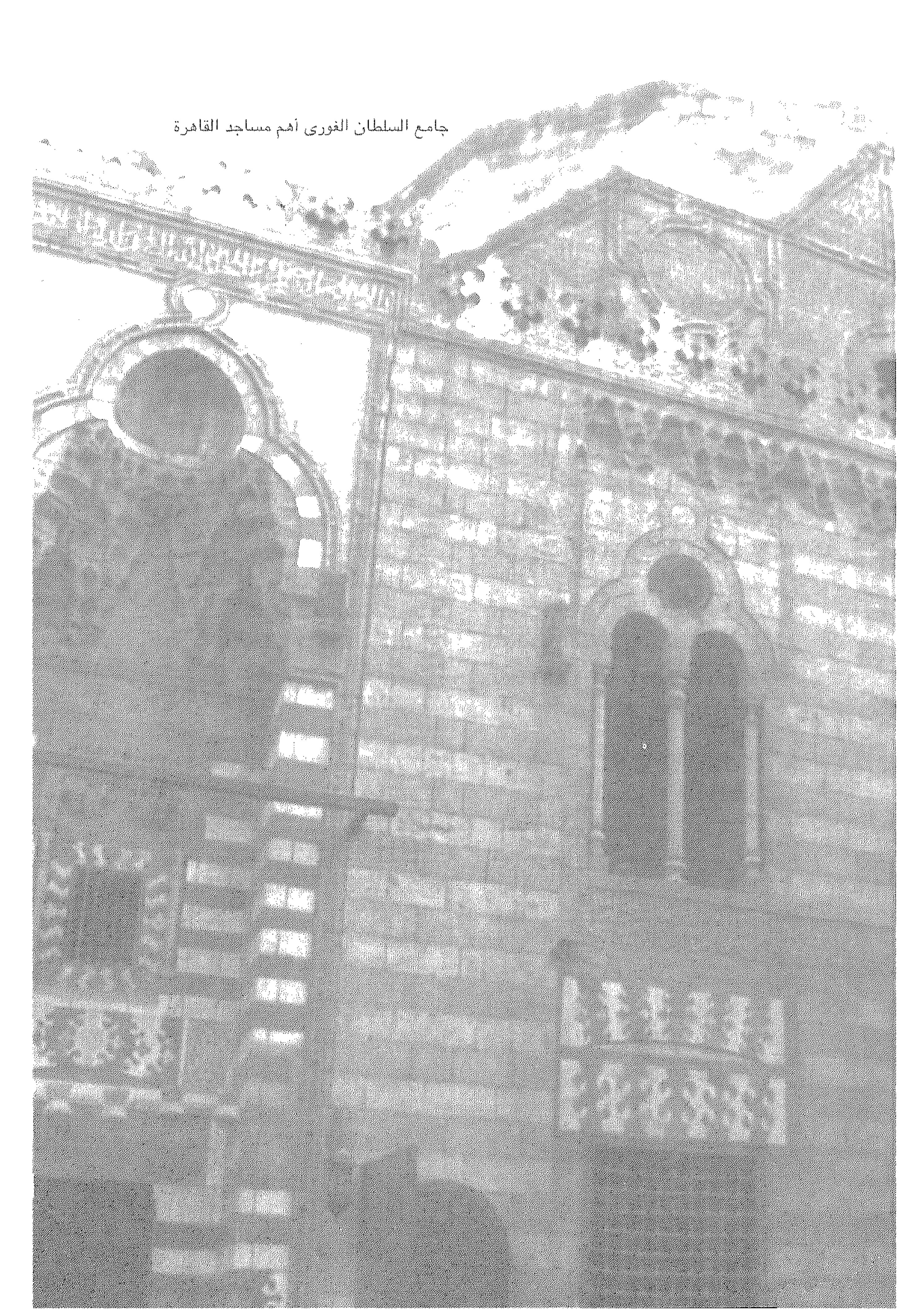
بقلم
صافى ناز كاظم

عبرت بى السيارة الأجرة كوبرى الأزهر إلى الناحية الأخرى ، وحين تلفت عند مدخل شارع الغورية وامتلأت عينى بجامع السلطان الغورى ضاويا وبوابته مفتوحة ، طلبت من السائق التوقف . هذه الغورية قطعة من كبدى ، حين حضر الشاعر محمود درويش إلى القاهرة عام ١٩٧١ ، لتطأ قدمه أول مدينة عربية يدخلها فى حياته قادما من وطنه المحتل ، اخترت له الغورية لألقيه فى أحضانها سيراً وسط زحام الناس وعربات الكارو بالخيل والحمير ، وقلت له هذا المكان هو عبير القاهرة ، استنشقه وخذ منه زادك قبل الرجوع إلى غرفتك فى فندق شبرد

كان هذا الأثر للسلطان الغورى ، المسجد ، الجامع ، المدرسة ، على يمينى وأنا أدخل ، فيما مضى شارع الغورية من شارع الأزهر ، مطفأ ، كابيا ، لا أجرؤ على مجرد التفكير فى ارتقاء درجه المخيف ، بينما تدخل القطط فيه بحثا عن جرذانه المتوالدة بحرية . ها هو بعد الترميم وأنا أدخله أهلا وسهلا أقلب ناظرى بين أرجائه المتألقة . لماذا كان السكوت عن الانقاذ لسنوات طويلة ؟ قيل: الخوف كان يكبل الجميع ، الأوقاف كانت خائفة ، والمحافظة متحفظة ، والآثار تريد دفعة للتحرك ، حتى كان زلزال ١٩٩٢/١٠/١٢ الذى أدت نتائجه إلى الإسراع بقرار الترميم الذى بدأ عام ١٩٩٣ واستمر حتى نهاية ٢٠٠٠ ، تم فك الأثر بكامله وأعيد تركيبه بعد خطوات علمية حريصة ودقيقة وبلغت التكاليف عشرين مليونا من الجنيهات : والله يا بلاش أمام كل هذا الإنجاز المعجز .

* * *

صاحب الأثر هو الملك الأشرف أبو



جامع السلطان الغوري أهم مساجد القاهرة

النصر قانصوة الغورى الجركسى الأصل الذى ولد ، والله أعلم ، عام ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦ م - (الغورى = الجورى .. نسبة إلى چورچيا فى روسيا ، أليس كذلك ؟ ممكن !) - اشتراه الأشرف قايتباى مملوكا ثم أعتقه وعينه فى عدة وظائف حتى نودى به ملكا على مصر يوم الإثنين أول شوال - عيد الفطر - عام ٩٠٦ هـ / أبريل ١٥٠١ م ، وبويع بقلعة الجبل بحضرة الخليفة المستنصر بالله وقضاة المذاهب الأربعة . ظل الغورى سلطانا على مصر ١٥ سنة وتسعة أشهر و٢٥ يوما إلى أن لقى مصرعه بمرج دابق شمال حلب فى قتاله مع السلطان سليم فى ٢٥ رجب ٩٢٢هـ/١٥١٦/٨/٢٤ - (اقترح على من يريد من القراء كتابا مهما وشيقا هو العصر المماليكى فى مصر والشام ، للأستاذ الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ، لأن به معلومات أوسع تبين الشخصية الداهية للسلطان الغورى ، الذى انزوى بعيدا يرقب اقتتال المماليك الآخرين على الملك ، وحين انتهوا من القضاء على بعضهم البعض ، تقدم وقطف السلطة بهدوء ، واتسمت خطواته السياسية بالحكمة حتى جاء أجله المحتوم صريعا فى مقاومته لموجة اتساع الدولة العثمانية ، التى بدأت حكمها لمصر ٢٢ يناير ١٥١٧م، بعد هزيمة المماليك فى الريدانية. وقد ألقى السلطان سليم العثمانى ، حين دخل مصر ، القبض على آخر سلاطين المماليك الشهيد طومان باى ، وشنقه على باب زويلة بين بكاء الناس ونحيبهم) .

☆ ☆ ☆

أنشأ السلطان الغورى المئذنة الشهيرة ذات الرأسين فى الجامع الأزهر، وأنشأ بمكة المكرمة مدرسة ورباطا للمجاورين ودائرة الحجر الشريف ، وبعض أروقة المسجد الحرام وباب إبراهيم، لكن أهم عمائره كان هذا المسجد الذى افتتحه مستهل ربيع الآخر عام ٩٠٩ سبتمبر ١٥٠٣ م - بعد توليه السلطة بعامين تقريبا - وتشمل مجموعة السلطان الغورى : المدرسة - (واحدة للبنين وواحدة للبنات ، منذ ٥٠٠ سنة مدرسة للبنات لها مكانتها قبل عم قاسم أمين وسلالته الفكرية لذا لزم التنويه) - والقبة ، والسبيل ، والكتاب ، والمقعد ، والوكالة . وهذه المجموعة المعمارية للسلطان الغورى يعتبرها الأثريون أكبر وأضخم وأكمل مجموعة أثرية إسلامية على مستوى العالم العربى والإسلامى .

☆ ☆ ☆

كان تسرب المياه من شبكات المرافق + الصرف الصحى + مياه الشرب + المياه الجوفية ، قد أدى إلى ضرر مباشر أثر على أحجار المسجد وخاصة الطابق الأرضى ومكوناته ، وتدهورت حالة المسجد ، كما حدث خلل بالهيكل الإنشائى للبناء وتفككت العقود المطلة على الصحن بسبب تعديات أصحاب المحلات - التى تسمى الحواصل أسفل المسجد - الذين قاموا بإزالات غير مدروسة لبعض الحوائط الحاملة للمسجد ، وتم رصد مظاهر التدهور

بالمسجد قبل البدء فى الترميم ما بين : شروخ فى معظم الحوائط وهبوط بالأرضيات ، وتداعى الحوائط والأقبية بالدور الأرضى بالكامل ، وإزالة بعض الحوائط الحجرية والأكتاف وبنائها بالطوب الأحمر الحديث لتوسعة المحلات ، وتفتت وتكسير بأرضيات البلاط المعصراني وتهالك طبقة الملاط التى تكسو سطح المسجد ، وتدهور أرضيات الرخام والوزرات ، وفقد أجزاء منها ، تدهور وفقد بعض الشبابيك الجصية ذات الزجاج الملون ، معظم الأشرطة النحاسية والمصبعات غطاها صدأ النحاس ، فقد أجزاء من الزخارف النحاسية التى تغطى مصراعى باب المدخل الرئيسى ، وفقد معظم الأبواب الخشبية ، وفقد أجزاء من الزخارف الخشبية المطعمة بالسن من المنبر وكرسى المصحف ، و ... و... إلى آخره

الحمد لله بعد سنوات من العمل الدقيق والدءوب ، ثم الإنقاذ ، وعادت التكبيرات إلى المئذنة ، والصلوات إلى الصحن والإيوانات ، وعاد الخطيب إلى المنبر والتلاوة إلى كرسى المصحف الشريف ، وعادت الروح إلى الأثر العتيق بخطو الناس ودفء الأنفاس . صليت وحمدت الله ثم أخذت نفسى للسير فى شارع الغورية ، بعد أن تم غلق مدخلها من شارع الأزهر ، قلت لن أتلفت إذن خوفا من سيارة أو حصان ، فالشارع قد تحدد لسير المشاة فقط . لكن ما هذا الذى أغوص فيه ؟ تحت قدمى «كلاكيع» أسفلتية ، هابطة وصاعدة ، سوداء دميمة .. أين الرصف الحجرى القديم الذى كان يحمى الناس والبغال من التعثر ؟ المنطقة تدخل ضمن اختصاص موزع بين الآثار والمحافظة والأوقاف ، لاشك أن هذا الابتكار الاسفلتى «الكلاكيعى» من اختصاص البلدية والمحافظة . لن أعكر مزاجي ، إن لم يكن إبلا فماعز ، هى حكمة الرضاء بما تطوله اليد ، ثم إننى أخذت نفسى إلى الغورية احتمى بها من كل وجوه تعكير المزاج .

☆ ☆ ☆

دلفت إلى المدخل المؤدى إلى حوش قدم ، بيت الشيخ إمام - رحمة الله عليه - والفنان محمد على والشاعر أحمد فؤاد نجم ، أطلال يقابلها بيت أبو الدهب الأثرى المرمم . قهوة «حسن بطنجها » لاتزال تسند ظهرها على أطلال منزل الشاعر والموسيقى والرسام . مسجد الفكهانى الأثرى مفتوح كعادته للمصلين. أقاوم حتى لا أعكر مزاجي بملاحظة أن كلاكيع الأسفلت قد قضت تماما على أحجار الرصف المستطيلة الجميلة التى كانت تميز حارة وعطفة حوش قدم ، أخذت نفسى قدما إلى باب زويلة ، يسمونها بوابة المتولي ، وأحيانا المدلي. «المدلّى» غالبا كان المقصود به الشهيد السلطان «طومان باى» الذى شنقه السلطان سليم العثمانلى فى شتاء ١٥١٧م لأنه قاوم اجتياحه لمصر . قررت أن أقرأ الفاتحة وأهبها إلى روحه . أعدت القراءة مرة ثانية لأنى أخطأت وقلت : الفاتحة على روح قايتباى ، بدلا من طومان باى . السوق أمامى به كل

بشائر الفاكهة الجديدة مثل الجوافة ، مع آخر فلول البرتقال أبو سرة ، وأشياء أخرى لطيفة مثل الجزر الأحمر والفول الأخضر الحراتى ومشابك الغسيل الخشب . شيل ، شيل ، عبّى ، عبى ، أحمدك يارب . الساعة الثانية والنصف ولم أصل الظهر . عند الخيامية ، بعد مسجد «الصالح طلائع» سألت الجالس عند زاوية صغيرة عن إمكانية الوضوء والصلاة . اتفضلى . ميضة نظيفة ، أنظف من مكان الوضوء بالجامع الأزهر شخصيا . توضأت براحتى من دون لخمة رغم أكياسى التى امتلأت بالجزر والفول الحراتى والجوافة والليمون والحذاء المريح الذى اشتريته برخص التراب . يبدو أننى صرت فعلاً سيدة مسنة ، وإلا فلماذا كل هذا الإجلال والحفاوة اللذان يعاملنى بهما رواد الزاوية وأصحاب الحوانيت ، إن لم يكن لكبر سنى ؟ تذكرت نادرة من نوادر شقيقتى الكبرى حين سألتنى شبه باكية : هل أبدو عجوزا جداً ؟ وحين طمأنتها : طبعا لأ ، قالت : إذن لماذا كل ما أشاور لتاكسى يقف لى ؟

☆☆☆

زادت حمولتى بالكليمين الفيوميين بعد أن عجزت عن غض بصرى لأهرب من جمالهما ، صناعة مصرية يدوية ، أجمل ما يمكن أن أعطيه هدايا لضيوفى الأصدقاء من كل بلاد العالم ، ليحملوها تذكاراً لبراعة اليد المصرية . «فخراً صنع فى مصر» ، هذه الجملة قرأتها مطبوعة على كيس حلوى «ملوكى» ، ومعها ترجمتها بالإنجليزية تؤكد : «برودلى ميد إن إيجيبت» . «الخيامية» بعدها «المغربلين» ، بعدها «السروجية» ، ولاشك أن هناك «الفحامين» لأننى شاهدت أكثر من حانوت فحم ، هذه كلها مناطق تسمى باسم السلع والصناعات ، لكن الشارع من مدخل الغورية حتى شارع القلعة اسمه «المعز لدين الله» ، مستمرا من مبتداه عند «بوابة الفتوح» آخذا معه «الصاغة» - بكل ما يتفرع منها ، «خان الخليلى» ، «التربيعة» ، «الصنادقية» ، و«الموسكى» الذى يقطعها قبل عبور شارع الأزهر إلى «الغورية» .

فى منطقة «المغربلين» ارتفع أذان العصر وكنت على وضوئى منذ صليت الظهر فى «الخيامية» . أمامى مسجد لم تمتد إليه يد الترميم بعد وبوابته بمستوى الشارع ، يشبه فى نسقه مسجد الغورى : الصحن المربع المكشوف ، تطل عليه الإيوانات التى ترتفع عن أرضيته بمقدار ٣٠ سم تقريبا ، مفروش بالسجاد القيم ، والإيوان المخصص للنساء تقفله ستارة سميكة ، صليت العصر جماعة وعرفت أن اسمه «مسجد الجنابكى» . بحثت عن لافتة الآثار لأتأكد من صحة الاسم فلم أجد ، وحين تجولت بعينى فى الأسقف تذكرت جملة جاءت فى تقرير المختصين بالآثار عن حال مسجد الغورى قبل الترميم : «تعانى الأسقف من الحشرات والطفيليات التى تنمو بالأخشاب، ومن تراكم الأتربة الناعمة التى دخلت فى مسام طبقة

الألوان» . دعوت الله مخلصة أن يمن على المكان الجميل بترميم يعالج «الأسقف الزخرفية والمقرنصات واللوحات الخشبية والأحجبة الجصية ذات الزجاج المعشق مختلف الألوان ، بنفس ألوان الزجاج وعناصره الزخرفية واستكمال الأحجبة الجصية الناقصة مع ترميم الأبواب النحاسية كالباب الرئيسى للمسجد ، وكذلك ترميم كرسى المصحف والمنبر» ، و ... إزالة كل اقتحامات النيون ، وهذه إضافة من عندى!

☆☆☆

عند منطقة «السروجية» مدرسة «وقية جانم البهلوان ، ٨٨٣هـ/١٤٧٨م»

مساجد مساجد مساجد ومدارس مدارس مدارس للبنين والبنات بأموال رجال ونساء ثم يأتى «مثقف» معاصر جاحد ليطلق على كل هذه الحضارة «ظلامية» تهدد «المجتمع المدنى» !

تضوى آثار الثقافة والحضارة الإسلامية على جانبى الشارع الذى يبدو لى الآن بلا نهاية ، يذكرنى كتفى وظهرى بآلامه فأجلس على كرسى فى مقهى وأنا أقول : اسمحوا لى الجلوس بالمشروب ، فيكون الرد : ياستى وعلى حسابنا . استريح والساعة قد بلغت الرابعة عصرا . ألاحظ أن الشارع لم يعد للمشاة فقط كما هو مفروض ، فالدراجات البخارية وعربات النقل الصغيرة تروح وتجيء ، بلا خوذة وبلا أحزمة كما تقتضى التعليمات المرورية: شعب دمه خفيف !

هل كان اليوم استثنائيا ، أم أن أهل هذا الشارع الطويل صاروا لا يتصايحون بأى سباب ناب أو كلمة تجرح بذاءتها الأذن ؟ بل لقد لاحظت أنه لم يكن هناك صياح من أساسه . نعم : نظافة ومودة وتكافل ودين ، كأن الشارع طرقة طويلة فى بيت واحد لعائلة واحدة ، فأى وزن هنا لـ «مثقف» أزعر جاهل - بحق شعبه - يلقى بالكلام على عواهنه من غير علم أو فهم أو تواصل صادق مع نبض الناس ؟

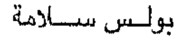
☆☆☆

تماما ، كما قال من سألته عن سيارات الأجرة وقد أنهكنى المسير مع أحمالى الثقيلة ، وجدت ، بعد خطوتين ، نفسى عند ناصية شارع القلعة ، وإذا الدنيا كما أعرفها : زحام زحام زحام وكركبة حافلات فوق سيارات فوق عربات كارو فوق بشر كثيف وصياح عنيف ، فأفقت ، ليت أنى لم أفق ، من رحلتى التى أخذت نفسى فيها للسير فى الغورية ، من مدخلها ، على مدى خمس ساعات غسلت فيها القلب وملأته بالغبطة مؤقتا ، قبل أن تعود نشرات الأخبار لتهطل فيه بصور الإذلال والهوان ، وتسمم البدن بوعيد ديمقراطية الحذاء الثقيل ، واليد «الطرشة»، والتعليمات الوقحة الآمرة بسحق المقاومة ، وتعزيز حق الاحتلال بدك المساكن وقتل الأطفال وخرق جماجم الصحفيين بالرصاص ، وانزال العقوبات بكل دولة ، ذات سيادة ، تجرأت وأعلنت عن رأى مخالف لديكتاتورية «ديمقراطية الولايات المتحدة الأمريكية» ! ■

عفواً أيها الشعراء

بقلم
وديع فلسطين


عبد الغنى العطرى



بولس سلامة

وأقول عفوا لأننى أبيح لنفسى أن أتحدث دون أن أكون منكم، بل دون أن أكون من نقادكم المغاوير! وأحب أن أطمئنكم بأن أحب مطالعاتى هى فى دواوين الشعراء، وأن كثيرين من زملائكم قد صافونى الود ولم ينفروا منى لأننى لست من فصيلتهم، وسيبقى الشعر ديوان العرب مهما تفيهق المتفيهقون وزعموا أنه أخلى مكانه لفن آخر من فنون القول، فاعذرونى إذا تطفلت على ساحتكم!

وأغراض الشعر تتعدد ولا تكاد تنحصر فى أى تصنيف. فمن تلك الأغراض الفخر والهجاء والغزل والتزلف والمديح والحماسة والشكوى إلى آخر الأغراض التى منها يستوحى الشاعر موضوع شعره، وهى أغراض تتسم بالصدق آنا وبالافتقار إلى الصدق فى أحيان أخرى.

ولعل من أصدق الأغراض التى تراءت بصورة صارخة فى شعر بعض الشعراء غرض المعاناة، سواء من المرض أو من العوز أو من المحابس المختلفة ومنها الزج فى الزنازين.

وإذا كان شاعر قد قال:

إذا ما الجرح رم علي فساد
تبين فيه إهمال الطبيب

فإن هذا القول يتطبق أشد انطباق على الشاعر اللبنانى بولس سلامة (١٩٠٢ - ١٩٧٩) الذى عاش نحو ربع قرن مستمرا فى فراشة بسبب خطأ طبى آجرى فى أثنائها أكثر من عشرين جراحة عساه يوفق إلى إصلاح هذا الخطأ دون جدوى. فاستسلم الشاعر لقدره ولم يجد سلواه إلا فى القراءة والكتابة ونظم الملاحم الطوال.. وعندما زرته فى بيته فى بيروت المرة الأولى فى عام ١٩٥٥ استقبلنى فى غرفة نومه قائلا إنها فى واقع الأمر غرفة مكتبه لأنه حول فراشة إلى مكتبة تتكدس مفرداتها إلى جواره، ولأنه ألف جميع كتبه ودواوينه وهو مستلق على فراشة - أو تخته - كما كان يصفه.

ولكن كيف تستطيع مشاغل القراءة والكتابة أن تنسيه المعاناة الشديدة بسبب عجزه عن التحرك حتى داخل هذه الغرفة ، ودع عنك غشيان مجالس الأدب والأدباء فى وسط العاصمة فانتهز الشاعر بولس سلامة مناسبة بلوغه الستين من العمر ونظم ملحمة طويلة من نفس البحر والوزن والقافية عنوانها «عيد الستين» كان مما قاله فيها يصف حالة:

سالت علي حد المباضع مهجتى
فشفارها مصبوغة بدمائي
صُبحي أمر من المساء فعيشتي
موصولة الظلماء بالظلماء
أواه لو كان الرقاد يزورني
لرضيت من دنياي بالاغفاء
لا يلتقي جفناي إلا خلسة
فكأن بينهما قديم عداء
أيوب! ما أيوب! ماذا خطبه
هو قطرة وأنا خضم بلاء
رويت رهيفات المشارط من دمي
أثري المشارط من دمي شركائي
دنياي تختي والأساة صحابتي
والمبضع الرعاف من عشرائي
عشرين حولا في اللظي متقلبا
الشوك دوني ، والهموم غطائي .
وإذا الجريح أتيته لتعوده
فلقد أتيت مقابر الأحياء

وقد ترفقت السماء بالشاعر ، لا على يد طبيب نطاسى، بل بفضل «عذراء لورد» فى فرنسا التى يؤمها كثيرون من المرضى طلبا للشفاء، فصار بولس سلامة - كما رأيته - يسير منتصب القامة يحيط بخاصرته حزام عريض ويتوكأ على عكازة.

أما الشاعر المصرى محمود أبوالوفا (١٩٠١ - ١٩٧٩) الذى عانى فى حياته

كثيرا من شظف العيش فضلا عن هشاشة صحته وساقه المبتورة، فقد جأر بدوره بالشكوى من معاناته، حيث انتهز فرصة صدور رواية «البؤساء» لفيكتور هوجو من ترجمة الشاعر حافظ إبراهيم ـ١٨٧١ - ١٩٣٢) ووجه إلى «صاحب البؤساء» شكواه قائلا:

يا صاحب البؤساء جاءك شاعر
يشكو من الزمن اللئيم العاتي
لم يكفه أني علي عكازة أمشي
فحط الصخر في طرقاتي
ثم انثني يزجي علي مصائبا
سحبا كقطعان الدجي جهمات
في ليلهن فقدت آمالي الألي
صاحبنني مذ لاح فجر حياتي
فغدوت في الدنيا ولا أدري
أمن أحيائها ، أنا أم من الأموت؟
خففت يا هوجو عليك فلم أطل
وبعثتها فصلين من مأساتي
ولو أنني أعطيت بؤسي حقه
وصفا، لصور معرض النكبات.

أما الشاعر السورى الصعلوك فائز سلامة (١٨٩٥ - ١٩٤١) الذى سجل سيرته وعنى بدراسة شعره وجمعه الأديب جورج عيسى، فقد عبر عن معاناة الأديب عموما، وكأنه يقصد نفسه حيث قال:

باع الأديب كتاب الصرف من «طفر»
وعضه الظالمان البرد والسغب
«أرنست أصفر» سل عنه خزانته
ما في خزانته نكل ولا ذهب
والأرمني الذي كانت أنامله
كالمغنطيس إليها النقد ينجذب
جاء الشتاء ولا ثوب أرد به
برد الشتاء، ولا فحم ولا حطب
وليس في غرفتي نار تدفئني
غير التي في ضلوعي كلها لهب!

النويهي يفسر الشعر بلغة الشارع

الدكتور محمد النويهى (١٩١٧ - ١٩٨٠) أستاذ كبير وناقد له باع عريض، وقد عرفته عندما كان يعمل أستاذا فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة. وهو قد جمع بين الثقافتين العربية والإنجليزية لأنه قضى سنوات فى لندن ونال منها شهادة الدكتوراة. وهو وإن يكن استاذا أكاديميا، إلا أنه اتخذ لنفسه مذهبا فى تفسير الشعر الجاهلى (الكلاسيكى حسب وصفه) يعتبر مذهبا شديد الغرابة، بل الشذوذ، لأنه انتهى إلى أن أقرب أسلوب لتفسير الشعر هو لغة العوام، أو لغة الحياة اليومية حسب تعبيره.

فهو يرى أن الشاعر فى الجاهلية كان يستخدم لغة الحياة اليومية فى عصره فى نظم قصائده، ومن ثم يتعين علينا عند دراسة الشعر الجاهلى أن نترجمه إلى هذه اللغة اليومية الدارجة

كي نتذوق ما فيه من جمال ومعان.

وقد طبق الدكتور النويهى هذا المنحى الفريد فى كتابه «الشعر الجاهلى: منهج فى دراسته وتقويمه» على قصيدة للشاعر الجميح الأسدى، وهى قصيدة صور فيها الشاعر مشاجرة بين زوجين، وكان مطلعها:

أمست أمامة صمتا ما تكلمنا
مجنونة ؟ أم أحسّت أهل خروب

وحتى يقرب الناقد هذه القصيدة إلى القارىء، استعار من لغة العوام عبارات أعتذر للقارىء إذا ما استشهدت بها، لأنها شبيهة بالردح فى أزقة القاهرة. فهو يقول: «الست بسلامتها مبوزة خرست ما تنطقش ! مالها كدة ملوية بوزها طوله شبر؟ ما أحناش قد المقام! الله! مالها ياخوية جرى لها أيه الولية دى؟ اتجنت؟ ركبها عفريت. الست بسلامتها قابلت واحد من قرايبها (من عائلة خروب) من وراء ضهرى! الله، الله، اضبط! فهمت .. فهمت! ياستار ياستار! اللهم احفظنا يارب! يا خلق يا هوه من جراءتها ! دى وحش دى والا إيه؟ ياهو! حتاكلنا ياناس، حاتبلعنا بلع! لو كانت بنت أصل صحيح لما تنكرت له. بنت الأكابر، معذورة البنت والله! بس بقى ياست ! ارضى علينا ! ماتتكبريش كده قوى! إخص بقى أمال! اصبرى است وربك يعدلها! إن شاء الله يجى الفرج، بس اصبرى معانا شوية، وبكره الأحوال تبقى معدن. بكره ربنا يعدلها وأشترى لك كيلو لحم بحاله!».

هذه عينة من العبارات التى انتقاها الدكتور النهويهى من أفواه العوام ليشرح قصيدة من الشعر الجاهلى، فليس أبلغ من هذه العبارات فى وصف المشاجرة التى جرت بين الزوجين فى ذلك العصر الجاهلى. فقد تخيل مشاجرة بين زوجين جرت فى حوارى القاهرة وفسر الشعر الجاهلى فى ضوئها!

والغريب أن الدكتور النويهى أهدى كتابه هذا بجزئيه إلى الدكتور طه حسين «أستاذه العظيم»، ولا أدرى ماذا كان رأى طه حسين فى هذا المذهب العجيب الذى ارتأى الناقد تطبيقه على الشعر الجاهلى.

فإذا كانت للكتاب شطحات ، ففى اعتقادى – مع إجلالى الكبير لصداقة الدكتور النويهى، أن هذا المذهب هو من الشطحات.

ولم يسلم الشعراء بدورهم من الشطحات ، ولعل أغرب شطحة هى التى طلع بها على القراء الشاعر اللبنانى الكبير سعيد عقل الذى أصدر ديوانا أسماه «يارا» صاغة باللهجة اللبنانية العامية وبالحروف اللاتينية.

وكان لبنان يقيم حفلا فى ذكرى الشاعر أحمد شوقى (١٨٦٩ - ١٩٣٢) وكانت للشاعر سعيد عقل قصيدة فى هذه المناسبة، وعندما وصل الشاعر إلى قوله: أنا الشعر شوقي، أينا اليوم أشعر؟ نهض شاب من بين الحاضرين ووضع على هامة سعيد عقل تاجا مضفورا من الورق المفضض ايذانا بأنه أمير الشعراء!

بلاد العرب أوطاني

نبهنى الروائى السورى الدكتور عبدالسلام العجيلى إلى أن الأبيات التى نسبتها إلى الشاعر السعودى عبدالله بلخير (١٩١٤ - ٢٠٠٣) نقلا عن مذكراته هى من نظم الشاعر السورى فخرى البارودى «١٨٨٦ - ١٩٦٦) وهى:

بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان
ومن نجد الي يمن
الي مصر فتطوان

وكان الشاعر البارودى قد أشار على المطرب محمد عبدالوهاب أن يغنى هذه الأبيات، ولكن عبدالوهاب اعترض على لفظة «فتطوان» وطلب من الشاعر تعديلها، ولما رفض الشاعر تعديل عبارته، صرف عبدالوهاب النظر عن تلحين الأبيات . وقيل إن عبدالوهاب تعلل بهذه الملاحظة حتى لا يغنى هذه الأبيات أصلا ربما لأنها لم تعجبه.

وفخرى البارودى صاحب سبع صنائع. فهو سياسى وشاعر وموسيقار وكاتب ونديم ومازالت دمشق تتحدث عن سهراته ونوادره . ومارس الصحافة فى العهد التركى فأصدر جريدة شعبية أسماها «حط بالخرج» حفلت بالنكات والمستطرفات والمنادمات.

وكان فخرى البارودى على موعد مع العلامة محمد كرد على «١٨٧٦ - ١٩٥٣) مؤسس مجمع دمشق، ولكن المجمعى نسى الموعد، فوجه اليه البارودى عتابا جاء فيه:

إني لأعجب من وعد يخالفه رئيس مجمعنا العلمي في البلد
مادام «ريسنا» دامت سلامته معلم النشء هادي الناس للرشد
قد بات يخف في ميعاده علنا فلا ملام ولا عتب علي أحد!

الصحفي الأديب عبدالغني العطري

فقدت دوحة الفكر فى سورية الصحفى الأديب عبدالغنى العطرى ، إذ أطاحت به سيارة مسرعة فى ليلة مظلمة فأردته قتيلا فى الثالث والعشرين من فبراير ٢٠٠٣، وكان برغم سنوات عمره الأربع والثمانين (فهو من مواليد ١٩١٩) يواصل العمل يوميا فى مكتبه المتواضع نهارا وليلا، وقد زرته فى هذا المكتب فى إحدى الأمسيات أثناء مشاركتى فى العيد الماسى لمجمع اللغة العربية بدمشق.

وقد نعاه فى الصحف السورية

صديقه الأديب عيسى فتوح مسجلا تاريخ حياته الذى بدأ منذ ما تخرج فى الكلية العلمية الوطنية على يدى علامة دمشق خليل مردم بك (١٨٩٥ - ١٩٥٩) وأصدر وهو مازال فى شرخ الشباب مجلة «الصباح» فبرزت على صفحاتها أقلام أدباء وشعراء ملأوا الدنيا بعد ذلك بثمرات أقلامهم منهم نزار قباني (١٩٢٣ - ١٩٩٨) وخليل تقى الدين (١٩٠٦ - ١٩٨٧) وبديع حقى (١٩٢٠ - ٢٠٠٠) وفؤاد الشايب (١٩١٠ = ١٩٧٠) والشاعر العراقى أحمد الصافى النجفى (١٨٩٦ - ١٩٧٧) والدكتور عبدالسلام العجيلى والدكتور سهيل إدريس اطال الله بقاءهما. ولكن هذه المجلة لم تعمر طويلا، فانتقل إلى جريدة «الأخبار» يتولى رياسة تحريرها ثم حول هذه الجريدة إلى مجلة «الدنيا» التى كانت من أروج المجلات السورية ولاسيما لاهتمامها بالأدب الضاحك. ولكن القيود التى فرضت على الصحافة فى سورية فى زمن الوحدة مع مصر قضت بوقف هذه المجلة.

ولكن كيف لصاحب القلم أن يبقيه فى غمده . فأخذ يواصل المجلات فى الداخل والخارج بنفثات قلمه ، وعكف على إصدار مجموعة من الكتب التى تعد فى جملتها موسوعة عن الأعلام السوريين الذين عرفهم العطرى ومنها «عبقريات شامية» و«عبقريات من بلادى» و«عبقريات وأعلام» و«عبقريات وأعلام مبدعون» و«حديث العبقريات»، هذا عدا مجموعة من الأقاصيص عنوانها «قلب ونار» كتب مقدمتها صديقه محمود تيمور «١٨٩٤ - ١٩٧٣) وكتاب «أدبنا الضحاك» وكتب أخرى منها «دفاع عن الضحك» و«همسات قلب» و«بخلاء معاصرون».

كان عبدالغنى العطرى يمثل فى رأيى مدرسة تخرج الأفذاذ من رجال القلم، وما اهتمامه بالعبقريات التى عاصرها الا لكى يقيم أمام الناشئة أمثله حية على شموخ الفكر وأهمية الإصلاح ودروس الوطنية.

لم أكن فى حاجة إلى موعد مضروب معه لزيارته فى مكتبه الذى تتكدس فيه الكتب والصحف والمجلات، فقد كان بابه مفتوحا يلجه كل قاصد، وما حاجته الى جحافل رجال الامن تحرسه او الى جيوش السكرتيرات الحسناوات «تذب» عنه الزائرين وقد جاءت منيته فى الشارع وهو يسير كواحد من الناس بلا حراسة أو «بودى جارد» وهذا ديدن أصحاب الرسالات الذين لم ينعزلوا عن الشارع ولا نسبوا أنفسهم إلى أرستقراطيات كاذبة. رحم الله عبدالغنى العطرى، فقد ترك وراءه تراثا يحصيه ضمن عباقرة الشام.

■



محمد فريد أبو حديد

بعد ستة وثلاثين عاما من الرحيل

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

«مازال الناس يستلهمون التاريخ ويستمدون منه العبرة كلما ألجأتهم ضرورة فى حاضرهم إلى ذلك..» هكذا كتب محمد فريد أبو حديد (الذى رحل عن عالمنا فى ١٨ مايو ١٩٦٧) فى تقديمه لكتاب توفيق الطويل «قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة» وفى هذه الكلمات

تلخيص بليغ لاهتماماته وتوجهاته .

فقد كانت «الرؤية التاريخية» هى جوهر فكر هذا الأديب المؤرخ المربى (ولد فى أول يوليو ١٨٩٣) الذى لعب دورا كبيرا فى الحياة الثقافية لعصره من خلال المناصب القيادية التى تولاها: مديرا لرقابة الصحف فى ١٩٤٢ ، وكيلا لدار الكتب المصرية فى ١٩٤٣ ، عميدا لمعهد التربية فى ١٩٤٥ ،. مديرا للإدارة العامة للثقافة عام ١٩٤٧ ، مديرا للجامعة الشعبية عام ١٩٥٠ ، وكيلا مساعدا لوزارة المعارف عام ١٩٥٢ ، مستشارا فنيا لنفس الوزارة من ١٩٥٣ - ١٩٥٥ (أنظر يوسف الشارونى) : مع الأدباء، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩) فضلا عن رئاسته تحرير مجلة «الثقافة» (١٩٦٣-١٩٦٥) ، ومساهمته فى إنشاء نادى القصة، واشتغاله فى ١٩٥٥ مستشارا فنيا لوزارة المعارف فى ليبيا والمملكة المغربية، ومشاركته فى إنشاء لجنة التأليف والترجمة والنشر مع أحمد أمين وآخرين، وعضويته بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وحضوره فى الحياة الثقافية منذ تخرجه فى مدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤ ، واشتغل بالتدريس - متدرجا فى جميع وظائفه - لمواد الجغرافيا والترجمة والتاريخ، وحصل على ليسانس الحقوق فى ١٩٢٤ ، وبدأ ينشر فى صحيفة «السفور» وغيرها.

الرؤية التاريخية هى النبع الذى صدر عنه القسم الأكبر من إنتاج أبو حديد فقد كان عاشقا للماضى يرى فيه بذرة للحاضر ومحددا لمسار المستقبل، فى الرواية كتب «ابنة المملوك» و«الملك الضليل» (عن أمرىء القيس) و«زنوبيا» ملكة تدمر (التى خصص لها المؤرخ البريطانى إدوارد جبون فصلا فى كتابه «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها) و«أبو الفوارس عنترة بن شداد» و «الوعاء المرمرى» (عن سيف بن ذى يزن) و«جحا فى جانبولاد» و«آلام جحا» و«المهلهل سيد ربيعة» و«مع الزمان» وكلها مستوحاة من فترات مختلفة من التاريخ العربى والإسلامى، وكتب بالشعر المرسل مسرحيتى «مقتل سيدنا عثمان» و«خسرو، وشيرين»و فى أدب التراجم أخرج «صلاح الدين وعصره: ترجمة حياة» و«السيد عمر مكرم - «ترجمة حياة» و«أمتنا العربية: دراسة تاريخية»، ونقل إلى العربية «فتح العرب لمصر» من تأليف المؤرخ الفريد بتلر (أنظر ملف محمد فريد أبو حديد بقلم

محمد صبرى السيد فى مجلة «القصة» أكتوبر نوفمبر ديسمبر ١٩٩٣).

النفس البشرية واحدة

ويذكر أبو حديد فى حديث أجراه معه فؤاد دوارة (فى نوفمبر ١٩٦٤) أنه تأثر فى كتابة هذه الأعمال التاريخية بالسير ولترسكوت ومآسى شكيسبير التاريخة، ويفسر اتجاهه هذا بقوله «كل جو تاريخى أرى داخله النفس البشرية الخالدة التى استمرت فى الماضى ولاتزال مستمرة فى الحاضر وستستمر فى كل وقت، فقد تختلف الوجوه والملابس والعقائد والعادات ولكن النفس البشرية واحدة فى كل زمان ومكان (فؤاد دوارة، عشرة أدباء يتحدثون، كتاب الهلال، يوليه ١٩٦٥). هكذا سعى - فى معالجته للتاريخ والفولكلور والأسطورة - إلى تبين الثابت وراء المتحول، أو الباقى وراء المتغير.

لم يتوقف أبوحديد عند الماضى - على ولعه به وغوصه على لآلئه - وإنما اتخذ منه منصة وثب إلى الحاضر، فكتب رواية «أزهار الشوك» عن الفوارق الطبقية التى تفصل بين الرجال والنساء، و«أنا الشعب» عن إرهاصات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ويستوقفنا فى هذين العملين - إلى جانب البعد السياسى والاجتماعى - حيوية رسمه لشخوص نسائه خاصة «تعويضة» فى الرواية الأولى. و«فطومة» فى الرواية الثانية. كلتاهما رمز للطاقة الأنثوية المتوفزة المتوقدة المشتعلة حيوية ورغبة وجاذبية. وكلتاهما أيضا تقفان على النقيض من «منى» - محبوبة سيد زهير فى رواية «أنا الشعب» - فهى الأنثى التى ارتفعت بمشاعر البطل إلى مرتبة الإنسانية الرفيعة، ولم تكن مجرد تجسيد لليبيدو الفرويدى الذي يناوش حواسه في علاقته بتعويضة وفطومة.

وفى أدب الرحلات أخرج أبوحديد «أيامى فى ليبيا» عن تجربته هناك عام ١٩٥٥ ومساهمته فى إرساء قواعد النظام التعليمى لذلك القطر العربى الشقيق، وينطق الكتاب بمحبة أبو حديد الغامرة لرفاقه فى العروبة، وحدبه على مصالحهم وحرصه على الأخذ بأيديهم على طريق التطور والتقدم، وقد كان الإيمان بالقومية العربية - وهو ما بلغ ذروته فى الحقبة الناصرية قبل انكسار ١٩٦٧ الأليم - من ثوابت أفكار فريد أبو حديد، وعقيدة لم يتحول عنها حتى يوم مماته.

وهناك كتاباته للمسرح مثل «وردة» وهى مسرحية غنائية مثلتها فرقة عكاشة و«عبدة الشيطان»، و«ميسون الغجرية» وهى أوبرا غنائية، وتعد - إلى جانب مسرحيات أمين الخولى «الراهب المتنكر» وغيرها - من أولى محاولات كتابة المسرح

العربى قبل أن يظهر توفيق الحكيم ومن تلوه.

ترجمة لمسرحيات شيكسبير

وكان أبو حديد - كالعقاد والمازنى وشكرى وعلى أدهم وسائر أدباء ذلك الجيل - من المطلعين فى اللغة الإنجليزية المطلعين على آدابها - فى مختلف عصورها - إطلاع المتعمق الذواقة مما انعكس على كتاب شيكسبير - «روميو وجوليت» وغيرها - بالشعر المرسل، وبلغت تجربته هذه ذروتها فى ترجمته الكاملة لمسرحية «مكبث» مع مقدمة ضافية تناول فيها تجربته في معالجة الشعر المرسل (قارن تجربة باكثير) وما يجبه به الناظم المعاصر من صعوبات وما يتيحه من إمكانات، وفى منظومة الترجمات المتميزة لمسرحية «مكبث» - بأقلام خليل مطران وعامر بحيرى وجبرا إبراهيم جبرا وزاخر غبريال ومحمد مصطفى بدوي - تقف ترجمة أبو حديد فى مكان متميز لما نمت عليه من براعة فى تطويع النظم التفعيلى لشعر شيكسبير المرسل أو نظمه الأبيض (بتعبير المازنى) القائم على استخدام بحر الأيامب الخماسى المكون سطره من خمس تفعيلات كل منها من مقطعين: أولهما غير منبور والثانى منبور، وفيما يلى نموذج من هذه الترجمة (المنظر الخامس من الفصل الخامس) يصور مكبث وقد أتاه نبأ موت زوجته معذبة الضمير شتيتة العقل فيروح يتأمل حياتنا الدنيا المليئة بالصخب والعنف ثم لا معنى، والقطعة من خوالد المسرح الشيكسبيرى: «ليتها قضت بعد حين. عل فيما يكون بعد من الدهر أوان لمثل هذا الحديث، بل غد، بعده غد، وغد، تحبو بتلك الخطى القصار دبيبا، تتوالى يوما فيوما، إلى آخر حرف مسجل للزمان كل أمس لنا أضاء لحمقى، فى طريق يفضى لموت التراب، أيتها الشمعة الضئيلة بعدا لك بعدا! فإنما العيش ظل كخيال يمشى، وكاللاعب المسكين في مسرح يضج ويزهى ساعة قدرت له، ثم لا يسمع من بعدها مدى الأيام، إنها قصة يرددها المعتوه، صوت وهيجة دون معنى».

كذلك نقل أبو حديد إلى العربية قصيدة «سهراب ورستم» للشاعر الإنجليزى ماثيو أرنولد من القرن التاسع عشر بالشعر المرسل أيضا، وهى مستوحاة من ملحمة للشاعر الفارسى الفردوسى تصور بحث سهراب عن أبيه رستم قائد الجيوش الفارسية ومبارزته له (دون أن يعرف أنه أبوه) إلى أن يلقى الابن حتفه فى المبارزة



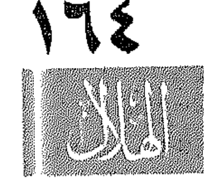
بيد الأب. والقصيدة تأمل فى سخريات القدر، وعلاقات الأبوة والبنوة على نحو يستبق حديث فرويد عن التهديد الأبوى بإخصاء الابن، مع تشبيهات ملحمية (وضع أرنولد فصلا خالدا عن ترجمات هوميروس إلى مختلف اللغات الأوربية) تنقلنا إلى أجواء شعراء المآسى من قدامى الإغريق.

ومن ترجمات أبو حديد - فى أعقاب الحرب العالمية الثانية - كتاب «دعائم السلام» لمؤلفه أ.كار.

وعنى أبو حديد بأدب الأطفال فكان مشرفا على سلسلة «أولادنا» التى تصدرها دار المعارف برسوم لبيكار وترجم لها رواية هـ.ج.ويلز آلة الزمن» (للرواية ترجمة أخرى بقلم المازنى) و«نبوءة المنجم»، وألف لنفس السلسلة قصتى «عمرون شاه» و«كريم الدين البغدادى» فكان - إلى جانب الرائد العظيم كامل كيلانى - من أقدر من كتبوا للطفل بلغة عربية جزلة بليغة تعين الناشىء على تذوق كنوز لغته وتتدرج به فى مدارج النمو والنضج والإدراك. وترجم كتابا عن «فن التعليم» لجابرت هايت مع مقدمة تبسط آراء المترجم فى أصول التربية والتعليم.

كان فريد أبو حديد - على أنه لم يصب الشهرة التى نالها طه حسين والعقاد والمازنى وهيكل واترابهم - موضع تقدير أدباء عصره، ينظرون إليه نظرتهم إلى «زنوبيا» (تجده فى كتاب طه: فصول فى الأدب والنقد، دار المعارف) فقال إنها شغلته عن نفسه وعن شروط القص التى يضعها الأدباء والنقاد «فلم أفكر فى قصص، ولا فى وصف، ولا فى أشخاص، ولا فى حوار، وإنما رأيت نفسا عذبة تتحدث إلىّ حديثا عذبا فأغرقت فى الاستماع لهذا الحديث، وأغرقت فى الاستمتاع بعذوبة هذه النفس، ووجدت فى هذا الإغراق هذه اللذة الممتازة التى أجدها حين أقرأ الآثار الأدبية الرفيعة».

أبحاث متنوعة



ومما يذكر بالخير للمجلس الأعلى للثقافة بقيادة الدكتور جابر عصفور، أنه احتفل فى عام ١٩٩٧ بمرور الذكرى الثلاثين لوفاة أبو حديد فأخرج بهذه المناسبة (بالاشتراك مع الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية) كتابا له لم تجمع محتوياته من قبل هو «دراسات لغوية وأدبية» بتقديم للدكتور محمود فهمى حجازى. ويضم هذا الكتاب أبحاثا ألقاها أبو حديد بمجمع اللغة العربية فى موضوعات مختلفة: موقف اللغة العربية العامية من اللغة الفصحى. اللهجة الليبية وصلتها بالفصحى، نظرات فى جموع الثلاثى، جموع غير الثلاثى، الموضوع والأسلوب فى الأدب. ويدهش قارىء هذا الكتاب، إذ يرى تضلع المؤلف - الذى لم يكن متخصصا فى اللغة، بمعناها الدقيق - فى لغته العربية، وإحاطته الواسعة بتراثها شعرا ونثرا، وكأنما هو يقرأ للغوى أديب

من طبقة على الجارم أو إبراهيم الإبيارى أو شوقى ضيف وسائر إخوان ذلك الطراز.

وأخرجت مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة فى نفس المناسبة كتابا لفريد أبو حديد عنوانه «مقالات مختارة» قدم له محمود فهمى حجازى وأعده للنشر نبيل فرج. وتضم مقالات فى الدوريات الثقافية المصرية (١٩٣٤ - ١٩٦٥): «الثقافة» و«الرسالة» و«الكتاب»، وتغطى موضوعات المقالات رقعة واسعة تشمل - فيما تشمل - روح مصر، ومشايخ الأزهر والسياسة فى القرن الثامن عشر، والخديو إسماعيل، واللغة والشعر، وحلم الإخاء الإنسانى، والزمن بين الفلسفة والشعر، والتفسير الرمزى للأدب، والمذاهب الواقعى فى الأدب، والبحث العلمى والتقدم وغير ذلك من المباحث.

ونتمنى على المجلس الأعلى للثقافة أن يتم صنيعه فيخرج كتابين آخرين: أحدهما يضم شمل مقالات أبو حديد المتفرقة فى بطون الصحف والمجلات ومنها - على سبيل المثال لا الحصر - سلسلة مقالات نشرت فى مجلة «الأدب» (بعد رحيل منشئها الأستاذ الكبير أمين الخولى) تحت عنوان «لمحات من أسرار البيان» عام« ١٩٦٨ - ١٩٦٩ ، وكتاباته الكثيرة على صفحات مجلة «الثقافة» فى إصدارها الأول وإصدارها الثانى، ومقالته «سوط الكاتب والمجتمع» (التى تظهر فى كتاب: فى الفكر والفن فى أدب يوسف السباعى، لعدة أقلام من تقديم غالى شكرى، دار الفكر/ مكتبة الخانجى) ومقدمته لكتاب «معارك بين الآلهة» لمحمد حسنى عبدالله (وقد نشرها نبيل فرج فى مجلة «القصة» يوليو أغسطس سبتمبر ١٩٩٧) وغير ذلك من الشوارد المتفرقات.

والكتاب الثانى يضم مختارات مما كتبه عنه الأدباء والنقاد عبر السنين: بدءا بطه حسين وانتهاء بصافى ناز كاظم، ومرورا بالعقاد ومحمد عطا وأحمد هيكل ومحمد صبرى السيد ومحمد عبدالمنعم خاطر ويوسف الشارونى وزكى نجيب محمود وعز الدين إسماعيل وسمير عوض وإبراهيم عبدالعزيز وصلاح عبدالصبور وطه وادى وعباس خضر ومحمود تيمور وعصام بهى وحلمى سالم وحلمى القاعود وفؤاد دوارة وعبدالقادر القط ومحمود حامد شوكت وعبدالمحسن بدر ونعمات فؤاد ومحمد عبدالحليم عبدالله ويوسف نوفل وشفيع السيد وعزة بدر وعلى شلش وحمدى السكوت (بالإنجليزية).

كان محمد فريد أبو حديد كما كتب عنه صلاح عبدالصبور على صفحات «الأهرام» (١٩٦٧/٥/٢٦) عقب رحيله «أحد الذين جددوا الحياة» لقد بعث الماضى كائنا حيا يمشى على قدمين ويخاطبنا بلسان الطبيعة الإنسانية الباقية، لهذا لاتكاد نشعر أنه قد مرت ثلاثة عقود ونصف على رحيله، وإنما نجده - كلما فتحنا صحائف كتبه - معاصرا وحيا، مشاغله هى مشاغلنا واهتماماته ، مع زيادة هنا - كما هو طبيعى - أو نقص هناك. ■

جاك نيكلسون في دور العمر
بعد إحالته الى التقاعد

نجمات الساعات الثلاث ستريب - كيدمان و مور

الساعات انتصار للموت أم للحياة

بقلم
مصطفى درويش

يبدو أن قصر عرض أفلامنا المصرية على أشهر الصيف الثلاثة ، دون أشهر الفصول الأخرى ، قد أصبح قدرا محتوما .

وإلا فبماذا نفسر اختفاء إنتاجنا من الأفلام طوال أشهر فصلى الشتاء والربيع .

فباستثناء فيلمين من إنتاج التليفزيون ، أحدهما متمسح زورا وبهتانا فى بطولات أبناء مصر ، واسمه «حفار البحر» .

والآخر «عليه العوض» ، وهو فيلم قيل فيه من بين ما قيل أنه ظل حبيس ظلام العلب ، زهاء ستة أعوام ، رغم أن مخرجه «على عبدالخالق» صاحب «أغنية على الممر» و «العار» ، وبطلته النجمة «إلهام شاهين» ، الفائزة فى ختام المهرجان القومى للسينما المصرية الأخير بجائزة أفضل ممثلة رئيسية عن أدائها فى فيلم «الرغبة» ، لصاحبه المخرج على بدرخان



نيكول كيدمان تتقمص شخصية فيرجينيا وولف

باستثنائهما ، قاطع منتجو السينما المصرية ، أهم فصلين فى السنة ، تاركين بتصرفهم هذا ، دور السينما بطول وعرض البلاد ، نهبا للأفلام الأجنبية ، لا سيما ما كان منها من إنتاج ستديوهات هوليوود الكبرى ، المتحكمة فى مسار ومصير السينما العالمية .

فحاليا ، جميع الأفلام المعروضة فى دور السينما ، أمريكية الصنع ، من إنتاج تلك الاستديوهات ، صانعة الأحلام وبعضها كان مرشحا لأكثر من جائزة أوسكار ، ومع ذلك لم يفز بأى منها ، مثل فيلم «الرحلة» - واسمه الأصلى «عن شميدت» - بطولة «جاك نيكلسون» و «كاتى بيتس» .

فكلاهما كان مرشحا لتلك الجائزة التى فاز بها بدلا منهما «آدريان برودى» عن أدائه لدور يهودى معتقل فى أحد المعسكرات النازية فى فيلم «عازف البيانو» لصاحبه «رومان بولانسكى» الفائز هو الآخر بجائزة أوسكار عن أفضل إخراج .

وكاترين زيتا جونز ، عن أدائها لدور «فيلما» قاتلة عشيقها وأختها فى «شيكاغو» .

وبعضها الآخر خرج من مضمار المنافسة ، فائزا بجائزة أو أكثر من جوائز أوسكار ، مثل «شيكاغو» ، الفائز بست جوائز أوسكار ، من بينها جائزة أفضل فيلم .

و «سيد الخواتم - البرجان» الفائز بجائزتى أوسكار أفضل توليف للصوت ، وأفضل مؤثرات مرئية .

و «ثمانية ميل» الفائز بجائزة أوسكار أفضل أغنية «إفقد نفسك» .

و «الساعات» الفائزة إحدى بطلاته الثلاث «نيكول كيدمان» بجائزة أفضل ممثلة رئيسية ، عن أدائها لدور الأديبة الانجليزية «فيرجينيا وولف» التى آثرت أن تنهى حياتها بالانتحار .

صدق وعمق

ومن بين هذه الأفلام ، لن أقف إلا عند «الرحلة» و«ثمانية ميل» و «الساعات» .

والفيلم الأول ، وصاحبه «الكسندر بين» الذى سبق له ، قبل بضعة أعوام إخراج رائعته «انتخاب» ، يعرض بصدق وعمق لطريقة الحياة فى وسط الغرب الأمريكى ، من خلال التناول بأسلوب السهل الممتنع لحياة رجل عجوز (٦٦ عاما) فى أدق تفاصيلها ، فى لحظة فاصلة ، وهو يواجه المستقبل المجهول ، أثر إحالته إلى التقاعد ، ثم فقده شريكة عمره ، التى عاشرته ، زوجة فى الحلال حوالى اثنين وأربعين عاما .

ولقد أدى دور ذلك الرجل العجوز «شميدت» وهو يواجه وحيدا ما يخبئه له الغيب ، الممثل القدير «چاك نيكلسون» الذى يعد ، بحق ، واحدا من أشهر نجوم السينما العالمية ، وأكثرهم حضورا .

نجم النجوم

فمسيرته مع الأطياف ، ترجع إلى أربعين سنة مضت ، ورصيده من الأفلام العلامات كبير .

كما أن رصيده من الترشيح لجوائز أوسكار ، ومن الفوز بها ، لا يعادله فيه أحد من الممثلين ، وذلك على امتداد خمسة وسبعين عاما ، التى هى عمر أوسكار .

فقد فاز بجائزة أوسكار أفضل ممثل ثلاث مرات وقبل شهرين ، كان على وشك الفوز بها ، مرة رابعة ، لولا عازف البيانو، الذى لم يكن فى الحسبان .

ونجم بمثل هذا الرصيد من الأفلام والجوائز ، تقديرا له عن أدائه لأدوار متميزة ، متنوعة ، فى عدد من روائع الفن السابع ، نجم هذا شأنه ، سيصبح ، ولا ريب ، حديثا من أحاديث التاريخ السينمائى ، ستحفظه ذاكرة الأيام .

قصة صعود

والآن إلى الفيلم الثانى «ثمانية ميل» بداية الفيلم من إخراج كورتيس هانسن «صاحب عدد ، لا بأس به ، من الأفلام الممتازة ، من بينها أذكر رائعته عن فساد الشرطة «لوس انجلس ، خاص جدا» المتوجة بجائزتى أوسكار أفضل سيناريو مأخوذ عن عمل أدبى ، وأفضل ممثلة مساعدة «كيم باسنجر» .

وفيه يحكى «هانسن» سيرة حقيقية لشاب «أمينيم» أول مغن أبيض تحدى السود فى عقر دارهم ، حيث غنى بأسلوب الراب الذى استحدثه المغنون

السود ، وظلوا منفردين به ، متميزين فيه ، بلا منازع ، حتى اليوم الذى صعد فيه نجمه ، أى «أمينيم» ، فى هذا النوع الغريب من الغناء .

وأصفه بالغرابة لأن قوامه ارتجال أبيات شعرية ، عامية ، هجائية ، أشبه بالردح المقفى فى حاراتنا الشعبية ، تصاحبها موسيقى ذات إيقاع ثابت ، ونغم عماده التكرار .

وكما هو معروف «فأمينيم» قبل أن يذيع صيته ، عاش فى بيئة فقيرة ، بواحد من أبأس أحياء ديترويت التى كانت ، فى ماض ليس ببعيد ، عاصمة صناعة السيارات وقد جاءته الشهرة ، رغم حياة قاسية مع أم مطلقة أدت دورها «كيم باسنجر» - تعاشر عشيق ، لا يطاق .

وهى لم تجئه إلا بفضل مجالس السود ، الذين كانوا خير رفاق .

ولأنه فى ريعان الشباب ، لايزال ، وأغانيه منتشرة ، لها الصدارة فى قوائم المبيعات ، توقعت أن يقبل شبابنا على مشاهدة الفيلم ، وإن يكون الإقبال منقطع النظير .

خيبة أمل

وكم خاب توقعى ، عندما وجدتنى أقف أمام شباك التذاكر وحيدا ، وأجلس أثناء عرض الفيلم ، فى قاعة خاوية ، دون أنيس.

أما لماذا خاب توقعى بالنسبة لفيلم «أمينيم» كما خاب بالنسبة لفيلم «نيلكسون» ، بفشل كليهما عندنا فشلا ذريعا ، فذلك لارتفاع ثمن تذاكر السينما، على نحو ، لابد وأن يحول بين الشباب وبين الذهاب إلى دور السينما لمشاهدة الأفلام .

والأهم لأعمال الرقيب مقصة بغلظة ، فى كلا الفيلمين ، حتى أصبح فهم المتفرج لفيلم «أمينيم» بالذات ، أمرا عسيرا .

والساعات لم يسلم ، هو الآخر ، من غلظة مقص الرقيب ، لم يشفع له أنه مأخوذ عن رواية فائزة بجائزة بوليتزر وصاحبها الأديب مايكل كاننجهام .

وموسيقاه التصويرية من تأليف «فيليب جلاس» صاحب أوبرا إخناتون الفرعون الملعون .

ومخرجه ليس إلا «ستيفن دالدراى» الذى سبق ترشيحه لجائزة أوسكار أفضل مخرج عن فيلمه الرائع «بيلى إيليوت» (٢٠٠٢) .

وفوق هذا ، فقد كان أى الساعات ، مرشحا لتسع جوائز أوسكار ، بينها جائزتا أفضل فيلم وإخراج وفازت باحداها النجمة نيكول كيدمان .

كل ذلك ، لم يشفع للساعات .

طريق السلامة

فتأخر البت فى أمر الترخيص بعرضه من عدمه ، هو ومقدمته السينمائية ، لا لسبب سوى أن أحد أبطاله «الشاعر ريتشارد» (ادهاريس) مريض بالايدز ، وأن ثمة حبا مثليا بين «كلاريسا فوجان» (ميريل ستريب الفائزة بجائزة أوسكار مرتين) وبين «سالى لستر» (أليسون جانى) وأن «فينسابيل» (ميراندا ريشاردسون) طبعت على شفتى شقيقتها المكتئبة «فيرجنيا وولف» (كيدمان) . قبلة طويلة

أساء الرقيب أو الرقيبة الظن بها ، فعمل على حذفها حتى يبعد عن الرقابة شبهة إباحة أفعال فاضحة .

وكان من نتائج هذا التأخير ، عرض الساعات فجأة ، دون تمهيد له بدعاية مكثفة ، تأخذ شكل إعلان عنه ، في صورة مقدمة سينمائية بمحاسنه ، على نحو يدفع من يشاهده في دور السينما ، إلى ترقب تاريخ عرضه ، ومتابعة أخباره ، حتى إذا ما جاء اليوم الموعود ، سارع إلى مشاهدته ، بعد طول ترقب وانتظار

رغبة الانتحار

وأيا ما كان الأمر في هذا فالفيلم يبدأ، وقبل ظهور العناوين ، «بفرجينيا وولف» . وقد عزمت على الانتحار ، وها هي ذي تكتب رسالة إلى زوجها «ليونارد وولف» (ستيفن ديلان) ، تعتذر فيها عما هي مقدمة عليه ، ثم تسير بخطى ثابتة إلى النهر حيث تغوص فيه ، وقد اثقلت جيوب معطفها بالأحجار ، حتى تختفي نهائيا .

ومع نهاية هذه البداية الفاجعة ، يظهر اسم الفيلم وبعض أسماء المشاركين في إبداعه ، وخاصة نجماته الثلاث «ستريب»، «جوليان مور» و «كيدمان» .

ورغم أن «الساعات» يبدأ بانتحار «فيرجينيا» في «سسكس» عام ١٩٤١ ثم بها ، قبل ذلك بثمانية عشر عاما ، في «ريشموند» حيث تعيش مع زوجها «ليونارد» مكتئبة ، وقد شرعت في كتابة رواية جديدة «مسز دالاوي» رغم ذلك ، فالفيلم لم يستوح أحداثه من مسيرة «فيرجينيا» وإنما اتخذ من معاناتها ، وهي تكتب روايتها الجديدة منطلقا لمعاناة أمرأتين أخريتين «لورا» و «كلاريسا» ، من مكانين وزمانين مختلفين ، لوس انجلس ١٩٥١ ، ونيويورك ٢٠٠١

فهاتان الأمرأتان ، كما رسمت الرواية وسيناريو «دافيد هير» المستوحى منها ، شخصيتهما ، كلتاهما قرأت «مسز دالاوي» ، وتأثرت بفاجعتها ، وبفاجعة مؤلفتها «فيرجينيا» ، تأثرا شديدا .

انتصار الحياة

حتى ان إحداهما «لورا» شرعت ، من فرض تأثرها في الانتحار ، وهي تقرأ الرواية ، إلا أنها ، في نهاية الأمر ، تغلبت على الموت ، انتصارا للحياة .

والفيلم ، مثل الرواية ، يعرض ليوم واحد في حياة بطلاته الثلاث ، بل قل لساعات من هذا اليوم المشحون بالأحداث.

وكم كان رائعا الانتقال السلس بين الأمكنة والأزمنة حيث تمر أحداث اليوم سريعة ، بفضل توليف (مونتاج) «بيتر بويل» اللاهث .

وكما بدأ الفيلم بفاتحة الانتحار ، انتهى بخاتمة لاتعدو أن تكون استمرارا للفاتحة ، نسمع فيها صوت «فيرجينيا» يردد الكلمات التي أنهت بها رسالة الاعتذار لزوجها «ليونارد» عن واقعة الانتحار ، تعبيرا عن حبها له «تدوم بيننا الأعوام ، يدوم الحب ، تدوم الساعات » !! ■

من مرايا الزمن

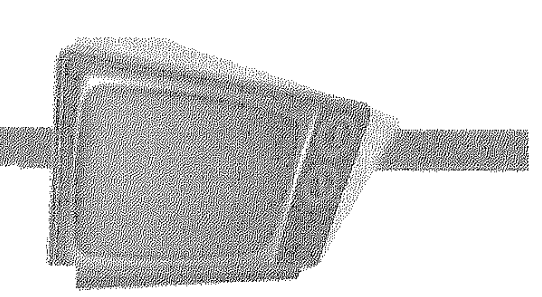
شعر

د. صابر عبد الدايم

طفل يتسلق فى زهو زمن الحرمان
تتداح بعينيه الأفراح وتأتلق الألوان
يأتى الشيخ فيتلو .. في ظل عصاه القرآن !!
لا يملك إلا أن يحفظ ما يكتبه فى اللوح
المحفوظ من النسيان !!
الشيخ ضرير .. يبصر بالأذنين !!
يشهر ما يسرقه الطفل من اللوح المنسوخ على
الوجهين !!
يسترق الشيخ السمع .. وتهوى ضربته فى أى
مكان !!
يشتعل الطفل صراخاً
يقرأ فى نغم أسيان
«بسم الله الرحمان»
يختبيء البرعم فى أحضان الجدران
أنف الشيخ يراه .. وتلقفه الكفان
يقرأ فى صمت مرتعشا
ألا تطغو فى الميزان !!
الشيخ يغمغم .. يشهد فى وجه الطفل عصاه
ويواجهه بالظاهر والمكنون
أخطأت .. فجاء الإدغام بلا غنة !!
ووضعت النار مكان الجنة !!
وختمت الأنفال .. وبسملت وقلت
.. «براءة»
وهجرت الفرض وجبت الأرض
.. تنادى بالسنة !!
أدغمت حروف الحلق بحروف النون !!
وجلعت المد المهموز قصيراً جدا شبه سكون !!
ومزجت الكوثر بالماعون !!

* * *

يندى البرعم .. يكبر .. تشرق فى فمه الآيات
يرفع رايته .. تتحلق فى مجلسه كل الأصوات
.. لكن مازال الشيخ .. عصاه تدب على
الأرض
.. فيتلو .. البرعم فى ظل صداها القرآن
لا يملك إلا أن يحفظ ..
ما يكتبه فى اللوح المحفوظ من النسيان !!





بقلم : مرفت رجب

ومن يهن يسهل الهوان عليه

أنكرت على نفسى إدراك الصوت، غير مصدقة أن يكون برنارد بيفو Bernard Pivot ، صاحب أشهر البرامج الثقافية على الشاشات الفرنسية ، مشاركا فى وصف مباراة لكرة القدم. كنت على مدى السنين شديدة الإعجاب ببرامجه منذ تعرفى على برنامجه Apostrophe أواسط السبعينات من القرن الماضى، وصولا إلى برنامجه الأحدث دوبل جو Double Je ، فقد كان فى البرنامج الأول يعرض أهم الكتب الصادرة، فى فرنسا، يناقش مؤلفيها فى حضور نخبة من جمهرة المثقفين، بينما نجده فى البرنامج الثانى يعرفنا بأفراد ينتقيهم، ممن ينطبق عليهم اسم البرنامج، أى هؤلاء الذين يعيشون بشخصية مضاعفة، إما لأنهم تركوا أوطانهم للعيش فى فرنسا، أو تركوا فرنسا للعيش والعمل المؤقت أو الدائم فى أوطان أخرى..

وحين تابعت البرنامج قبل أسبوع، كان بيفو، كالعهد به دائما، يستأثر بالقدرة على إثارة الدهشة والمتعة وقد امتزجتا إعلاء لتغذية العقل والروح، بحيث لاينتهى البرنامج إلا ليتركك وقد تأكدت من رحابة الكون، وامتلائه بسعى الكادحين الموفقين.

بدأت حلقة Double Je الأخيرة بتقديم بيفو Pivot لأول نجومها الذى مالبث أن ملأ الشاشة مرحا وغبطة تجدها آسرة، وكيف نعجب وهو الذى انتقل من مسقط رأسه فى دولة مالى إلى باريس بفضل تفوقه الدراسى الذى أهله للحصول على منحة جامعية، استعان استثناءها على ماخطر له من مصاريف إضافية بالالتحاق بأحد معاهد الرقص مدربا، مما أكد قدرات السيد موديبو ديار Moudibo Diarra على سلاسة التكيف السريع مع مقتضيات طموحه، ورغم النجاح المطرد الذي حققه فى العمل على أرض فرنسا، نجده يعبر الأطلنطى متجها إلى الولايات المتحدة حيث يقيم حاليا، متفرغا لشئون المركز الجامعى الذى أرساه هناك، يفتح عبره أبواب الاتصالات ببنى وطنه فى مالى وغيرها من الدول الإفريقية، يسهل للمؤهلين منهم فرصا للدراسات العليا فى فروع من العلوم شتى، وكل ذلك بالوسائل الإلكترونية.

هل يملؤنا السرور من الحضور الآسر، أم من الضحكة الإفريقية المجلجلة فى صفاء، أم من عمق الانتماء للوطن والجذور أم من حذق أسئلة السيد «بيفو» من قبيل سؤاله لضيفه المالى، كيف تفاضل بين اللغات التى تتقنها وقد جمعت بين لغة أهلك فى مالى والفرنسية التى أتقنتها ونجحت وسعدت بالعيش بين أهلها فى فرنسا واللغة الإنجليزية التى بدأت فى تعلمها بعد وصولك لأمريكا؟!!، أم من ثراء الشخصية يتكشف فى بساطة الإجابات الدالة، فقد أكد السيد موديبو ديارا أنه يستعمل اللغة الإنجليزية حين يقتضى الكلام محتوى تنفيذيا محددا، ويستعمل اللغة الفرنسية فى معالجة الأفكار، ولكنه ينطق بلغة أهل بلاده فى مالى حين يتصل الأمر بالمشاعر والمسائل الاجتماعية .. أم أن أكثر ما يحفزنا على متابعة مشاهدة البرنامج، هو أن الضيف، صاحب قرارات أقل ماتوصف به، هو الشجاعة؟! أم لأن كل ماطرأ برأسنا من أسئلة طرحت لنتلقى عنها إجابة شافية، ذلك أن السيد موديبو ديارا عرفنا بمفاتيح أسراره، فهو من محبى الحياة، من المندفعين ينهلون من كل أسباب السعادة فيها، ولكنه إزاء العمل والواجب، ينافس الالتزام والتفانى فى بلوغ الغايات.

عالم جميل منتبه

هل آن لنا أن نلتقط الأنفاس فما



أجدر اللحظة بتأمل، لكن هيهات، لن يتركك برنامج دوبل جو Double je ، إذ يبدو أن مقدمه السيد برنارد بيفو مصمم على إثارة موجة التفتيش في الذات والكون، فها هو يقدم لنا ثاني نجوم الحلقة، المطربة الفرنسية إيطالية الأصل Carla Bruni، وخلافا لأي هاجس قد يساوركم من وجه شبه بسطحية أو تفاهة أو قدرة على إثارة السخط والضجر في المعروض على الشاشات من مواد تدعى صلتها بعالم الغناء، فنحن مع كارلا بروني في عالم جميل منتبه، فالمغنية، على جمالها وجمال معاني الأغاني التي تكتبها لنفسها تعرف جيدا لماذا قررت ترك حرفة عرض الأزياء واستبدال الغناء بها، فهي ترى أن عالم الغناء أكثر رحابة، يمكنها من التعبير عن أفكارها ومشاعرها وثمار تأملاتها في الكون ومضاهاة كل جميل في مخلوقاته .. هذه فتاة تعرف أسباب حبها الشديد للغة الفرنسية، وتفهم تماما كيف أن حياتها في أسرة موسرة من عائلات شمال إيطاليا يساعدها على تبين مبررات تكيفها السريع مع المجتمع الفرنسي الذي انتقلت للحياة فيه وهي بعد في السابعة من العمر .. تعرف تماما أسرار الصلة بين ما قرأت في صباها وشبابها من عيون الأدب الفرنسي شعرا ونثرا، وبين إحساسها الآن بأنها فرنسية، كما تعرف بالضبط كيف تشكل وجدانها الفني، فوق ذلك ومعه، من تعرفها الوثيق بالمدارس الفنية الفرنسية عبر العصور، وكلامها أمامنا يشي بنوع تلك المعرفة، فالمسألة ليست مجرد سرد أسماء لامعة في الغناء الشعبي أو الأوبرالي أو النحت أو التصوير أو أو أو .. إنما فيما توردە من أفكار استقرت لديها عن كل ممن أوردت ذكره في إجاباتها الفصيحة المتدفقة على أسئلة محاورها الذي لايفتأ يبدي دهشته من أنها حين قررت التحول إلى الغناء كان قرارها أن يكون غناؤها بالفرنسية وليس بلغتها الأم، وكلنا يعرف ما في الإيطالية من جرس موسيقى محبب حتى لمن لايعرف معنى مفرداتها.. ولايخفى علينا بالطبع أن السيد بيفو يدرك كما أدركنا من متابعتها أن إجابتها ستأتي شهادة عاشق في لغة يعرف مواطن جمالها، وقدرتها على معالجة المعاني بصيغ تقوى على إضافة الجمال إلى الدقة، ولقد سحرتنا كارلا بروني بحضورها الفاتن، كما سحرتنا بكل ماجاء على لسانها من أفكار ترفعها في بساطة إلى مصاف الأعلام المعاصرين.

إرادة من حديد

وقد نظن أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، لكن إمكانات برنارد بيفو

تخالف ظننا على الفور، فها هو ذا ينقلنا إلى مقر الـ Acade'mie francaise وقد أخذ مكانه فى آخر القاعة وفى مواجهة الأديب الفرنسى فرانسوا شينج الذى انتقل إلى فرنسا قبل أكثر من أربعين سنة مبعوثا من موطنه فى الصين فى منحة لدراسة اللغة الفرنسية التى لم يكن يعرف منها كلمة ولكنه الآن، وبعد روائع الشعر والنثر التى كتبها بالفرنسية، يستعد ليأخذ مكانه على المنصة المقابلة له فى قاعة الأكاديمية الفرنسية، التى يشرف بتولى رياستها أواخر هذا العام، ليكون أول أجنبى ينتخب رئيسا للأكاديمية الفرنسية وإذ يحاوره برنارد بيفو نجده يفضى لنا بكل هدوء وأناة كل ما تخفيه هيئته الضئيلة من أمارات نفس عملاقة وإرادة من حديد، فقد اختار السيد شينج أن تكون المنحة التى فاز بها لدراسة اللغة الفرنسية، وليس الإنجليزية لسبب بسيط من وجهة نظره، إذ رأى أن الأجدى له أن يبتعد عن اللغة الإنجليزية لوفرة العالمين بها بين الدارسين فى الصين، بينما يندر بين أهل بلاده من يعرف الفرنسية، إضافة إلى أنه أحب اللغة الفرنسية فى صباه، عن طريق الأعمال الأدبية الفرنسية التى قرأها مترجمة إلى الصينية .. ولم يكن السيد شينج من النوع الذى يمكن أن يقنع بأعباء الدراسة على مشقتها، فقد أضاف إليها أعباء العمل فى حمل الطلبات وتوصيلها إلى الزبائن وحين يتعجب محاوره من هذه القدرة والسيد شينخ على ماهو عليه من ضآلة الجسم، نجد الرجل يرد على السؤال ضاحكا ومذكرا بأنه فى ذلك الوقت كان شابا صغيرا، يتمتع بما يتمتع به الشباب من صحة وعنفوان .. ويحكى الرجل كيف أنه لم يقتنع بأنه أصبح عارفا باللغة الفرنسية، قادرا على الكتابة بها إلا بعد أن أمضى عشرين عاما كاملة، فى الدراسة والعيش فى فرنسا.. والحديث بالطبع يلمس التوصيف الحميم للحضارة، الصينية، وللظروف السياسية والاقتصادية التى جعلته يختار الإقامة الدائمة فى فرنسا، والزواج من فرنسية والإصرار على الاستيعاب الكامل لكل ما من شأنه أن يجعل منه أديبا فرنسيا، يعتز به الفرنسيون ويفخرون بتنصيبه رئيسا لصرحهم الفكرى، الأكاديمية الفرنسية، وعلى طول الخط، ومع تصاعد انبهارنا بالشخصية، يتصاعد فهمنا لولائه وحبه للثقافتين الصينية والفرنسية، فنفهم لماذا اختار لنفسه اسم «فرانسوا» ولماذا احتفظ باسم عائلته الصينى سينج، ويأتى سؤال الاستاذ بيفو فى موضعه تماما، كيف ترى نفسك، ويبتسم السيد فرنسوا تشنج مجيبا :« أنا حوار» ..

شعور بالصدمة والخزي

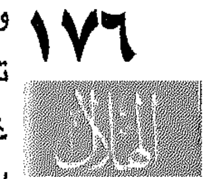
وأرجو أن أكون قد وفقت فى بيان بعض من الأسباب التى شكلت ذلك النوع

المتفرجة

من الغبطة الذى غمرنى مدة مشاهدتى للبرنامج، وكيف يبقى مع المرء ذلك الشعور يدفعه للبحث دوما عن أى برنامج من تقديم برنارد بيفو توقعا لثمار من ذلك النوع مضمونة .. كما لعلى أوفق فى نقل شعور آخر بالصدمة والخزى غمرانى وأنا أشاهد وقائع المباراة الودية التى جرت بين فريقى مصر وفرنسا أوائل شهر ابريل ٢٠٠٣ على أرض استاد باريس، حين أدركت أن أحد المعلقين على المباراة، هو السيد برنارد بيفو، على أغلب الظن.. ولا أظن أن حالى كان يختلف عن حال أى مصرى يتابع وقائع المباراة «المهزلة» التى أدخل فيها لاعبو فرنسا خمسة أهداف سلسة فى شبكة المنتخب المصرى، ذلك أن أسباب غضبنا واحدة وإن تباين لدى كل منا ما لكل من عناصر تلك الأسباب من قوة أو ثقل، فنحن غاضبون من الاستهتار والتسيب وعدم الكفاءة، وغياب اللياقة والاستهانة بالأموال المهدرة على كرة القدم ولاعبيها ومدربيها إذا ما قورنت بالتقتير على غيرها من الأنشطة الرياضية أو حتى العلمية ومهما كانت الملاعمات الاقتصادية مبررة لذلك أم دامغة له بالسفه .. والأهم عندى هنا أن هذه الحفنة المكونة لمجتمع كرة القدم فى بلادنا، أقل ماتوصف به من الأوصاف السلبية تضيف الجهل إلى الغطرسة، ولذلك يأتى نوع الأداء الذى شهده استاد باريس فى ذلك اليوم من هذا المستوى المتردى بلا خجل، والأدهى والأمر، أن كل ذلك يمضى بلا حساب أو عقاب، فالمسألة ليست مسألة مباراة خسرت ، وإنما هى جريمة فى حق مصر وسمعة مصر، خاصة وقد تابعت بنفسى الاهتمام الإعلامى الذى أولته فرنسا لهذه المباراة، فقد بدأت الإشارة إليها قبل أكثر من شهر، وظل الاهتمام يتزايد لدرجة أن جميع النشرات الإخبارية المذاعة فى فرنسا فى يوم المباراة واليوم السابق عليه، كانت تتضمن خبرا ضافيا عن اللقاء المرتقب، بين فريق فرنسا وفريق مصر فى كرة القدم.

أما الوجع الفعلى الذى أصابنا بعد انتهاء المباراة وانتقال الكاميرا من الملعب إلى صفوف المتفرجين، وتركيزها على المعلقين، وتأكدى ساعتئذ أنه فعلا برنارد بيفو، وما صدر منه ومن زميله من عبارات العزاء والإشارة إلى «أن مصر على كل حال بلد ساحر، صاحب حضارة جديرة بكل تقدير!!!!» فأترك لحضراتكم تصوره كما تشاءون.

ليس الوجع لأنها مباراة خسرت، وإنما لأنه فى شأن كرة القدم ليس أول الخسائر وفى هذا الصدد يصدق العنوان «ومن يهن يسهل الهوان عليه» وكذلك



لأننى على الفور بدأت أحاول أن أتصور، لماذا اختار برنارد بيفو أن يشارك فى التعليق على هذه المباراة .

القارىء العزيز يستطيع الآن، وبعد ماقدمت من التفصيل فى الكتابة عن برنامجه .. يستطيع أن يتوقع نوع الأفكار التى قد تكون شكلت توقعاته ليختار، أو يقبل اختياره لإذاعة مثل هذه المباراة، كما أننى أستطيع أن أطمئن إلى أن القارىء العزيز يوافقنى على أن المسألة ليست مسألة كرة قدم وأن أى شىء مرتبط بكل شىء .. ورغم هذا الاطمئنان لا أستطيع أن أفوت التنويه بأن الحفاظ على اللغة العربية واجب قومى ودينى كما علمنا طه حسين ، وكذلك التنويه بأن الخيبة تبدأ حين نسكت على متبجح يسمح لنفسه بالكلام على الملأ ويأتى كلامه وقد زادت مواضع الخطأ اللغوى فيه على مايرد من صواب، ولكنها تستقر حين نقبل من يمثلنا فى أى محفل ثقافى أو علمى أو سياسى، ويتحدث إلى الأجانب بلغة غير العربية لغته الأم فمن هنا تبدأ رحلة التفريط فى كل ماهو وطنى. ■



فى عز الضهر

عرض غير مسرحى .. لا يكشف شيئاً

بقلم
مهدى الحسينى

عادت بنا هذه المسرحية - نصاً وإخراجا - إلى أيام حسنى العطار الذى لم يكن يدعى فكراً ولا فنا ، إلي ما قبل ريادة نعمان عاشور للحركة المسرحية الجديدة التى انطلقت منذ «المغناطيس» و«الناس اللى تحت» اللتين قدمتهما فرقة «المسرح الحر» هذه الفرقة المستقلة .

ونقصد بـ «قبل» هذه ، تلك الأعمال الرائعة التى قدمها العباقرة محمد تيمور وبيرم التونسى وأمين صدقى وبديع خيرى وعزيز عيد والريحانى والكسار ويوسف وهبى ، فهؤلاء كانت تؤرقهم مشاريع إبداعية ووطنية كبيرة .. وأحلام وقضايا وأساليب وطوابع فنية . كما أننا لا نقصد أيضا الفنانين المسرحيين الشعبيين من كبار المشخصين والمرتجلين من أمثال حمام العطار وأحمد العدل والمسيرى ، ولا حتى فنانى الموالد والسوامر والأجران الرائعين باسكتشاتهم الفنية البسيطة العميقة الساخرة الساحرة ، لا .. فالأمر هنا خارج عن كل السياقات السابقة ، كما أنه خال من أى مبادرة أو مغامرة أو جديد . فلا هو عمل مسرحى تجريبى أو تقليدى ، ولا هو عمل تليفزيونى أو سينمائى أو إذاعى أو فيديو كليب .. ولا يصلح أيضا للقراءة ، أى لا ينتمى لأى لون من الفنون التعبيرية أو وسائطها .. أو لغيرها .

المناظر المسرحية .. ونواياها

إذا كان نوايا المسرحية - كما استنتجناها - أن تحكى قصة عاهر بدأت حرفتها فى مرحلة الستينيات (المجيدة) وتحولت بفضل مهنتها إلى نوع رخيص من سيدات الأعمال (تملك بعض العقارات وتأجير المفروش والسمسرة وتهيمن على جانب من بلاج الثغر .. الخ) حيث حاول المؤلف أن يصور من خلالها جانبا من حقبة طويلة مركبة من تاريخ المجتمع المصرى أو فئة من الفئات الطفيلية العالقة بجسده (لم يفلح المؤلف فى هذا المسعى لأنه لا يملك الرؤية الفكرية أو الفنية .. ولا القدرات الإبداعية والتقنية اللازمة لذلك) .

ولكن لم يقدم المصمم سوى مجموعة شاليهات ومبان تطل على البلاج ، وقام بتغيير هذا المنظر إلى مشهد لقسم الشرطة لا لزوم له .

أما الملابس فقد كانت ملائمة تماما .

الموسيقى والغناء

رغم جمال كلمات بهاء جاهين ، فأغنية الافتتاح والختام قد بدتا مثل تيترات المسلسلات التليفزيونية ، ليس لها أى صلة عضوية بموضوع العرض وإن كانت أنبل من فكرته ، كما بدت المؤثرات الموسيقية التى كنا نسمعها طول العرض كموسيقى مسلسلات الإذاعة المصاحبة ، لم تعمق احساساً ولم تصور جواً ، ناهيك عن أى دور درامى لها .

الممثلون .. والأدوار
حسب الظهور

* على عبد الرحيم فى دور شعبان البواب والسمسار والخادم عند المعلمة زينات هو وزوجته فلك نور فى دور الخادمة هندام ، فشعبان هو الغطاء الذهبى (ماركة الجمل) لكل ألوان السقوط التى تمارس فى مملكة «زينات» بينما يبدو تمنع هندام أمراً غير منطقى وسط هذا الكم الهائل من العهر والتسيب والضياع واللامبالاه والزيف . أدى على دوره كإمكانية فنية لم يستغلها المسرح المصرى بعد رغم أنه يحترف التمثيل لأكثر من ٢٥ سنة . كذا قدمت الممثلة فلك دور خادمة الشواطىء التى تحافظ على عفتها وعلى علاقتها بزوجها وعلى عبوديتها للجميع بالمناورة والمداورة وكأنها تمضى على حافة هاوية لا تبغى السقوط فيها ، وقد ساعدها صوتها العريض وتكوينها الجسمانى على آداء هذا الدور المبتور . لقد أشركها وزوجها أصحاب العرض فى مؤامرة حاكها «عرفة» بالاتفاق مع الأبناء الستة أن يختفوا ليصنعوا ما يشبه الصدمة لدى جميع الكبار ، من أين يأتيهما الوعى والدافع اللذين يحفزناهما على هذه المشاركة رغم علمهما بجبروت «زينة» وطغيانها ؟

* سميحة أيوب فى دور المعلمة «زينة» العاهر السابقة والقوادة والحاجة التائبة سيدة الأعمال الطفيلية والصغيرة ، يبدو أن مطامح المؤلف والمخرج كانت تصبو إلى تقديم نموذج مسرحى كبير ، ولكن النموذج الدرامى الكبير لا تتم صياغته على هذا النحو من الكروكية والتعجل والسطحية فقد كان على المؤلف أن يراجع معلمات باب واحد وستة وعشرة فى موانى الاسكندرية اللواتى عقدن صفقات التهريب والمخدرات الكبرى وكانوا على علاقات برجال الادارة والمال والبرلمان ، سيما أن بعض قصصهن منشورة أو معروفة وقد نشرت إحدى مجلاتنا الأسبوعية قصة واحدة من هؤلاء الخطيرات الشهيرات . ومنذ بضعة أسابيع ، علما بأنه حين يكون الفن أفقر من معطيات الواقع فإنه لا يكون فناً . والسؤال هنا : لماذا ارتضت الفنانة صاحبة التاريخ الطويل المزدحم بالمنجزات والأعمال الهامة من علامات المسرح المصرى هذا الدور وتلك المسرحية ؟!





* سلوى خطاب فى دور لولا مومس الشواطىء والليالى ، أكثر إمكانية أدائية أهدرت فى هذا العرض ، سيما وأنها فنانة غير مؤهلة للميلودراما السطحية ولا للكوميديا الفجة الرخيصة ، فى هذا العرض لم تفلح شذرات مونولوجات الميلودراما التى صرخت بها فى مطلع الفصل الثانى فى تقديم موهبتها الحقيقية .

* عمر الحريرى فى دور الصول عرفه الذى عاد من هزيمة يونيو ١٩٦٧ وسينا سيراً على الأقدام لمدة ١١ يوماً يكلله إدانته للذات لأنه لم يشارك فى المعركة (أية معركة

!!؟) والمفروض أنه شخصية ذهانية لكنه أحيانا يبدو غير ذلك ، ذلك لأن الشخصية سيئة الرسم ، فالذهاني له إيقاع غير مرئي وغير محسوس إذ ثبت عند لحظة معينة غائرة في الماضي ، وتلح عليه وتشكل كل تصرفاته ، ولا يستطيع أن يتقن أي عمل منتظم أو فعل مرتب أو مدبر ، تلك الحيلة التي ادارها بإقناع لأولاده الستة أن يتواروا بعيداً ، ريثما يفرخ القلق في صدور ذويهم .. ثم يعيدهم في نهاية المسرحية .. وهكذا لم يستطع عرفة أن يقنعنا بذهانيته المزعومة .

* سامي مغاوري في دور الأحمدي أبو راغب الذي يعمل في بلد عربي ما ، وها هو الآن في إجازته يضع زوجته وابنته وابنه في شقة على البلاج ليمضي في سفريات داخلية كي يسجل الأراضي ويودع الأموال ويجدد تصريح العمل وأمور أخرى تخص زيجته السرية التي كشف عنها قرب نهاية المسرحية وإيفا زوجته نجوان سيدة الأعمال الصاعدة الناضجة والتي تعشق ابن عمها ويكونان معاً وسراً شركة تجارية بأموال جلبها الزوج من الخليج . إلا أن هناك نقص ما في بنية العلاقة بين الأحمدي ونجوان ، فقد كانا في الماضي زوجين عاديين راكدين ، لكن لما حثته زوجته على التحرك في سبيل الثروة ، مضى محققا ومنجزاً وكأنه كان ينتظر الفرصة ، الأمر الذي أدى إلى حرمان نجوان من الدفء الجنسي والاجتماعي والأولاد من الرعاية ، الأمر الذي أدى إلى ظهور ابن العم الفقير الحب القديم في حياتها ، ليؤسسا شركة استثمارية بالأموال التي يلقيها الزوج تحت أقدامها ، بينما يظهر لنا أنه كان يعلم بعلاقة زوجته بحبيبها ، مع ذلك كان لا يتوقف عن السعي وراء المال الذي كان يعطيه للزوجة والاولاد (كيف؟!!) وفجأة بسبب إلحاح زوجته أن يبقى بجانب الأسرة بعد أن اكتفت من المال يعلن أنه كان متزوجا في السر معلنا تخليه عن الأسرة كلها خاصة نجليه المحبين المحبوبين .. ثم يمضي إلى زوجته الجديدة إذن لماذا كان يمول مشروع زوجته وعشيقها حتى آخر لحظة ؟ ولماذا يهجر ابنه وابنته دون ذنب منهما خاصة وان الابنة بالذات كانت منحازة اليه ضد أمها؟ إن الكاتب التليفزيوني الكبير لم يحكم البنية الدرامية باستخدام عنصر السلبية لمسلسله المسرحي. أما عن أداء هذين الممثلين فقد اجتهد في حدود ما أتيح لهما من مادة درامية.

* توفيق عبد الحميد أوصاصه أو مصاصة أو جابر هذا الفتى الذكي اللماح المخدر الضائع. ولكنه لماذا يقرر المؤلف أنه خريج اقتصاد وعلوم سياسية ؟ عادة ما تسعى العاهر الطموح إلى ادخال ابنها أو شقيقها إحدى كليات الادارة خاصة وأنها التي تختار وتنفق ولا يخطر في بالها كليات كالهندسة والطب والاقتصاد، وفي تاريخ الشخصية المروى بطريقة غير درامية بالمره قفزات كثيرة غير منطقية أين ومتى حصل على الثانوية العامة بتفوق؟ وأين ومتى تخرج من كلية الاقتصاد؟ أين كان يستذكر

دروسه ومتى؟ من كان ينفق عليه؟ هل كان يعيش أثناء دراسته فى كنف شقيقته العاهر؟ إذن كيف حقق هذا التفوق ! ثم ذهب إلى أماكن التخدير والمتعة وأقسام الشرطة؟ متى؟ وكيف التقى مع لولا وكيف جمعتهما زينات فى مستعمرتها الصغيرة على البلاج؟ إن القصة غير مقنعة لأنه يعتريها الكثير من التلفيق والتعسف وهذا أمر لا يتعلق بتوفيق فهو فنان يملك ذهنا متوقدا له تاريخ من التجارب والذكريات والقراءات والمشاهدات، ولأنها عناصر لم تستغل فى هذا الدور الخالى المنطق، فانه قد لجأ إلى الزعيق والخطابة خاصة فى مونولوجاته على نحولا يمس القلب ولا العقل.

* داليا مصطفى أو داليا شابة صغيرة متأججة المشاعر حادة الذهن، تحاكم أمها دون مراعاة لحقوق الأم المهجورة من أجل المال وتتعاطف مع الأب الغائب الذى تزوج سرا قضايا كلها لبس وخلل مع ذلك فقد اجتهدت فى أداء دورها الذى يعتبر رغم كل هذا أفضل الادوار كتابة .

* يوسف داود فى دور خربوش رجل الاعمال الطفيلى ولعله بدأ من القاع وله طعم ابن البلد ومهاراته العملية وأسراره الرخيصة، ولكنه كشخصية مسرحية جزء من الاعتباطية التى قذفت به إلى هذا المكان بأمر من المؤلف .

* محمد توفيق فى دور الزبون الذى طارد لولا إلى هنا بعد أن اكتشف ضياع ساعته الثمينة، وهو كما يقول عرفة أنه مليونير يملك الكثير ولكنه شغوف بمومسات الكورنيش. وبغض النظر عن أنه دور خارجى وإيضاحى يمكن الاستغناء عنه فى بنية درامية متينة ، إلا أن الممثل قد أداه على نحو يصوره تماما.

* ماجدة الخطيب أو بثينة زوجةخربوش التى أسند لها المؤلف مونولوجات مطولة لامبرر لها فحجم الدور اكبر من وظيفته الدرامية بما لا يقاس وهذا النوع «يحرق» الفنان أمام جمهوره، لذا رغم الجهد الذى بذلته الممثلة – لا نجدها مقتنعة بدورها غير مشبعة به.

* صبرى عبد المنعم ومحمد العدل أى بائع الفريسكا والضابط دوران لاداعى لهما ولا مبرر، لذا يبدو المجهود المبذول فيهما ضياع للوقت والجهد والمال.

فى البناء الدرامى

علاوة على ما سبق إيضاحه فالملاحظ أن البناء كله يقوم على المصادفة والاعتباطية لاعلى الضرورة الدرامية، فكأن الشاليهات جاءت بالمصادفة وكان من الممكن أن يأتى غيرهم من أنواع أخرى، وبالتالى يتغير موضوع المسرحية، وقصة عرفة نعرفها بالمصادفة حين يسأل زينة عن الساعه .. وهكذا.

فن المونولوج المسرحى

حفلت المسرحية بعدد كبير من المونولوجات ولعل الغرض منها هو (إرضاء)

الممثلين، فضلا عن إزجاء بعض المعلومات والايضاحات والمونولوج الدرامي المسرحي، وأحيانا يسمونه المونولوج الداخلى فن يقوم على البوح بأسرار النفس أى حديث النفس للنفس، شريطة ألا يكون مجرد استرسال أو اسهاب فى كلام كثير يتعلق بالشخصية التى تلقى بالمونولوج وذكرياتها وآرائها ومشاعرها وآمالها وخيالاتها، لا .. ليس هذا هو المونولوج المسرحى لأنه لا يقتصر على العناصر السابقة فحسب بل لابد من أن يتضمن صراعا دراميا ما «أكون أو لا أكون .. تلك هى المسألة» أو بمعنى آخر أن المونولوج يتضمن ثلاث مستويات من الصراع : صراع بين الذات ونقيضها داخل وحدة جدلية هى النفس الانسانية ككل، ثم صراع يمارسه الذات والنقيض معا ضد الوحدة التى جمعتهما سويا وهى الشخصية ، ثم صراع ثالث بين هذا الثالوث وبين ما هو خارج الانسان وما يكتنفه سواء كان المجتمع أو سلطة ما أو الاعداء أو الطبيعة أو فكرة كونية أو ميتافيزيقية مهيمنة ، هذه هى شروط المونولوج الدرامى المسرحى، فهو ليس سطورا مستطيلة من كلام يقوم على التداعى أو المصادفة أو الثرثرة أو مجرد البوح.

حيلة خائبة

أن يعود الأولاد (الغرقى الستة) سيرا على أقدامهم وقد التفوا بالبشاكير وعلى ووجوههم أقنعة مسرحية، ويقدمهم عرفة.. الواحد بعد الآخر ويلقى كل منهم بجملة ما تصل ما انقطع بغيابهم.. ويخاطبهم ذويهم ويتعرفون عليهم فإن مسألتهم هنا انتهت. إذن ما الغرض من حضور الضابط وإعلانه هم العثور على جثث الشباب الستة وتقديمه صورا لجثثهم كى يتم التعرف عليهم؟ ويمضى الضابط دون أن يستكمل الاجراءات المعروفة فى هذه الحالات وأهمها عمل محاضر معاينة كى يقر الأهالى بحقيقة كل جثة ما الغرض إذن ؟

هل هو إرباك المشاهد ؟ أم طرح أسئلة تخص قدرة الحواس والذاكرة الانسانية على المعرفة؟

أم تحويل المسرحية إلى مسرحية تتبع المذهب الطبيعى إلى مذهب اللامعقول أم أن الغرض هو مجرد إثارة إلى عابثة لفضول المتفرج؟ أم الأمر تمهيد لنهاية المسرحية التى لم يمهد لها جيدا؟.

نهاية مصطنعة

لماذا لم تظهر مجموعة الشباب الستة فى بداية العرض كى نتعرف عليهم كشخوص وقضايا وأفكار ومشاعر وأهواء، لماذا لم يظهروا أول العرض فى لحظة عميقة بارقة خاطفة ثم يختفون فيصبحون سؤالا معلقا فى ذهن المشاهد.. أو حلما جميلا أو حضورا مدهشا مفتقداً ؟ إنهم بالنسبة لباقى هذه الشخصيات التالفة قشة الغريق والأمل الغائم، وبالنسبة لنا كجمهورهم سؤال عن الخلاص وعن المستقبل. ان المؤلف كانت نيته أن

يستخدم تقنية الحاضر الغائب مثل «آل روز مير» لإبسن أو «فى انتظار جودو» لصامويل بيكيت.. وغيرهما، ولكن ليس أى شئ لكل شئ فهناك فروق، فـ «جودو» هو المجهول أو القدر أو الميتافيزيقا أو الأمل المستحيل أو الله «GOD». وكما كانت البداية باهتة.. أتت النهاية خائبة، فحين عاد الأولاد من البحر، وفقا للعبة دبرها الصول عرفة – فإننا نشهد مجموعة مصطنعة مسرحيا، ومفتعلة دراميا، ومخيبة للآمال معنويا يغنون أغنية تافهة ويقولون كلاما تافها ويمضون إلى ذويهم دون أن يحدثوا أثرا إيجابيا ولا سلبيا. هل هذا هو جيل المستقبل فى مصر؟ أم هم فقط نبت هذا القطاع من أبناء الطبقة الجديدة ؟ النص لم يحدد عما يتحدث وماذا يريد.

إن الحديث عن القطيعة التى يجب أن تتم مع هذا الماضى الردئ والمهزوم والضائع زينات وعرفة وصاصة والباقين ولكن لحساب من؟ لحساب هذه الشلة الهزيلة التالفة من الأولاد والبنات؟ إنهم هم أيضا مشاريع لشخصيات سيئة كذويهم.. إن رسالة اليأس .. اليأس التام.. هى الرسالة التى تنضح بها هذه المسرحية، فالماضى سئ والمستقبل أسوأ. لا أمل.

وإذا ماتحدث الكاتب عن صراع الأجيال وهى نظرية لنا تحفظات عليها فأى صراع هذا؟ فجيل النكسة أفرخ لنا فقط جيل الكاچوال والتيك أواى والڤيديو كليب!!؟

ولعل القارئ يعلم أن مصر لم تكن كذلك ولم تصبح كذلك ولن تكون فقبل النكسة كان هناك من هم أصحاب مواقف شريفة ونظر بعيد، وبعد النكسة أصبح هناك من يدركون أسبابها والحلول الصحيحة لإزالة آثارها، وقبل اكتوبر ٧٣ وبعده طرح عديدون مناهج نهضوية وطنية لمستقبل هذه الأمة ومازالوا ولست أدرى لماذا اكتفى العرض بتقديم هؤلاء الذين فى عيونهم قذى وفى نفوسهم مرض وفى حياتهم عفن؟ هل لا يرى العرض سوى هؤلاء؟



ولماذا ركز على هذه الجزئية المشوهة واجتهد أن يجمعهم فى بلاچ واحد وفى مسرحية واحدة؟

وألم يفلت من خيال المؤلف شخص أو شخصان صحيحان فيشكلان نقيضا دراميا لهؤلاء الفاسدين الذين اكتفى المؤلف بتقديمهم؟

إذن لماذا نقدم مثل هذه الأعمال ؟ هل هو واجب قسرى أم نفوذ يكتسح المنطق والذوق والعدالة؟ أم مقطوعية لابد من أداءها؟ أم نصيب مخصص من كعكة مسرح الدولة ولابد وأن يأخذها أشخاص بعينهم هم أصحاب القسمة كل موسم وكل عام؟ ■

"المنظمة العربية لحرية الصحافة" حارس تورط فى شهادة الزور!!

بقلم
مصطفى الحسينى

شهدت نقابة الصحفيين المصريين بالقاهرة، بين يومى ٥ و٧ من شهر مايو الماضى ما أسمته الصحافة المصرية «ندوة دولية» موضوعها: «أخلاقيات العمل الصحفى، نحو صحافة حرة ومسئولة». تعاملت صحافة القاهرة الرسمية مع ذلك النشاط وكأن فضله يرجع إلى النقابة التى استضافه مقرها

واقع الأمر، حسب البيان المرفق مع برنامج هذا النشاط والصادر عن «المنظمة العربية لحرية الصحافة» (باللغة الانجليزية ويختلف اختلافا بينا عن «ترجمته» العربية أن ما انعقد كان حلقة أولى من سلسلة من «ورش العمل» تزمع المنظمة المذكورة تنظيمها فى عدد من العواصم العربية إعدادا لمؤتمرها الثانى الذى تتجه إلى عقده فى موعد لاحق من هذا العام. أما نقابة الصحفيين المصريين، فتأتى مشاركتها ضمن ما استنته المنظمة لنفسها من مشاركة نقابات الصحفيين فى البلدان المضيفة لورش العمل تلك، الشاهد، أن تغطية الصحافة القاهرية كادت تغفل الجهة المنظمة الأصلية، لا تذكرها إلا لماما، ويبدو أن هذا السلوك لم يكن مجرد «خطأ مهنى»، فقد كان وصف «الندوة الدولية» هو الأبرز فى عناوين ما نشر من مواد، كان أبرز الأمثلة فى هذا الشأن عنوان فى «الأهرام» (٧ مايو) يقول إن «الندوة الدولية تشيد بحرية الصحافة فى مصر».. يبدو غنيا عن الذكر، لكنه قد يحتاجه أن شيئا من هذا القبيل لم يصدر عن «الندوة»، وأن الإشادة لم ترد إلا فى خطابين ألقاهما اثنان من المشاركين لا يستغرب أن يأتى منهما ذلك، هما نقيب الصحفيين المصريين الأستاذ إبراهيم نافع ورئيس المجلس الأعلى للصحافة فى مصر (وهو مصطفى كمال حلمى). كما وردت «إشادة مواربة فى أولى مداخلات الجلسة الأولى التى قدمها الدكتور أسامة الغزالى حرب، عضو مجلس النقابة المصرية ورئيس تحرير مجلة السياسة الدولية التى تصدر من مؤسسة «الأهرام». كما وردت إشادة مفعمة بالمرارة فى تدخل عرضى وقصير للزميل السورى حسين العودات الذى قال موجها حديثه إلى زملائه المصريين ما معناه أن حالكم فى هذا الشأن أفضل من حال زملائكم فى بقية البلاد العربية. واستكمالا للسجل، ربما أدرجت «الأهرام» كلمة

رئيس المنظمة العربية لحرية الصحافة الزميل إبراهيم نوار، ضمن هذه «الإشادة»، إذ أنه قدم عرضا نقديا موجزا ومركزا لأوضاع حرية الصحافة فى عديد من البلدان العربية التى ذكرها بأسمائها، بينما أغفل تناول أوضاع الصحافة المصرية ، وكان هذا الإغفال محل انتقاد أحد المتحدثين.

ونشرت الأهرام مقتطفات غير قصيرة من مداخلة الغزالى حرب ، دون إشارة إلى ما وجه اليها من نقد استغرق الجزء الأكبر من الجلسة التى تحدث فيها.

أليس هذا كثيرا، فى التعامل مع «ندوة» موضوعها: «أخلاقيات العمل الصحفى: نحو صحافة حرة ومسئولة»؟

مع ذلك، فإن لهذه المعالجة التى تميزت بها «الأهرام»، ميزة كبيرة هى أنها تثبت صواب كل ما وجه إلى أوضاع الصحافة المصرية من انتقادات ، من حيث كون أغلب مؤسساتها التى تسيطر على ما يقدره العارفون بحال الصحافة فى البلاد على ما يزيد على ٩٠٪ من سوق القراءة الصحفية المحلية.

على أن «نقد» ذلك النشاط الذى كان يمكن أن يكون «حدثا» فى تاريخ النقابة المصرية و«يوما» من أيامها لو أنه نظم تنظيما مستقلاً وعومل بما هو جدير به من استقلال، هذا النقد لا يقتصر على «تغول» النقابة المصرية على سجل الجهة الأصلية المنظمة ولا على المعايير الأخلاقية المهنية «مفرطة المرونة» التى اتخذتها الصحافة الرسمية فى التعامل معه، من قبيل تلك الإشادة التى سبق ذكرها بـ «حرية الصحافة المصرية»، بينما نصف المراجع الرسمية حدودها بأنها «هامش»، مجرد هامش، ومن قبيل إضفاء صفة «الدولية» على «الندوة»، التى لم يكن من بين المشاركين فيها من له صفة «دولية» سوى مندوبين، الأرجح أنهما مراقبين، أحدهما من «الاتحاد الدولى للصحفيين» ومقره بروكسل / بلجيكا ويمثل الثانى «الاتحاد الوطنى للصحفيين» فى انجلترا.

النقد يجب أن يتناول أيضا الجهة المنظمة الأصلية لهذا النشاط: المنظمة العربية لحرية الصحافة.

من باب التعريف، نشأت هذه المنظمة فى لندن فى العام ٢٠٠٠ بمبادرة من عدد من الصحفيين المصريين (والعرب) كان الزميل إبراهيم نوار هو أكثرهم فعلا فى تجسيدها وتحقيق وجودها الفعلى، فأصبح - بجدارة واستحقاق - رئيسها الذى تفرغ لها. مجمل مهمة المنظمة هو العمل على حماية حرية الصحافة العربية وتوسيع آفاقها وملاحقة ما يقع بحقها من انتهاكات.

فى حدود ملاحظة هذا الكاتب الذى كان طرفا فى صياغة فكرة هذه المنظمة وفى جهد توفير تمويل أولى غير مشروط لإنشائها، سار نشاط المنظمة على وجه جدير بغرضها على مدى عمرها اليافع، حتى كانت هذه الندوة.

فى تقدير هذا الكاتب وفى ملاحظته، أنه فى الإعداد لهذه «الندوة» أبدى رئيس المنظمة من المرونة واستغرق فى «اللياقة والمواءمة»، إلى الحد الذى أضفى على نشاط جهة مستقلة هى هذه المنظمة ما





يكاد يكون طابعا حكوميا، على أى حال . قصور لجنة صياغة خلاصات «ورشة العمل» عن إصدار بيان احتجاج (اقترح عليها) على التناول المغرق فى الخلل المهنى لأعمالها فى الصحافة الرسمية، كلمة رئيس المنظمة الزميل إبراهيم نوار والتى استثنت الصحافة المصرية من النقد الواجب.

هذه النقطة الأخيرة سبق ذكرها ، لكن الغرض من تكرارها هنا هو التنبية لأمرين أقلهما خطراً أن المجاملة فى شأن حرية الصحافة من جانب منظمة مهمتها ومبرر وجودها حراسة حرية الصحافة، إنما يهدد مصداقية هذه المنظمة.

الأمر الآخر والأخطر والذى هو استطراد على الأول، أنه لو تابعت المنظمة قاعدة مجاملة البلدان التى تستضيف نشاطاتها، كُما فعلت مع مصر، فإنه سيتراكم فى سجلها ما يلغى مبرر وجودها : شهادات منها بأن حال الصحافة فى تلك البلدان بألف خير، حتى ولو كانت شهادات عن طريق إغفال النقد الواجب واللازم، حتى لو كانت شهادات بمفهوم المخالفة.

باختصار، مع قسوة العبارة، لكنها قسوة لازمة، لا تستطيع المنظمة العربية لحرية الصحافة أن تكون حارسا أمينا لتلك الحرية وشاهد زور عليها فى الوقت نفسه. ■

كتاب الهلال

١٨٧

الهلال

ربيع ثانى ١٤٢٤هـ - يونيه ٢٠٠٣م

بيرم التونسى

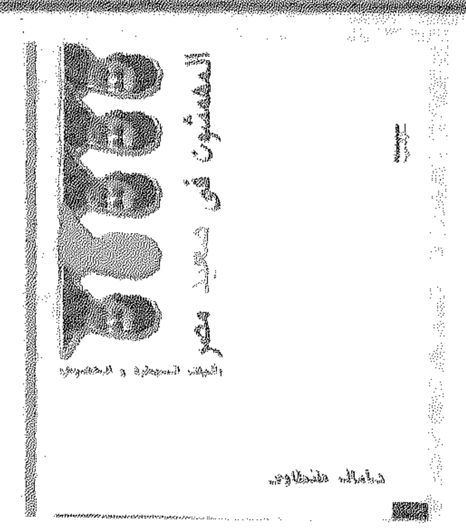
والمسرح الغنائى

بقلم

عبد الغنى داود

يصدر ٥ يونية
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

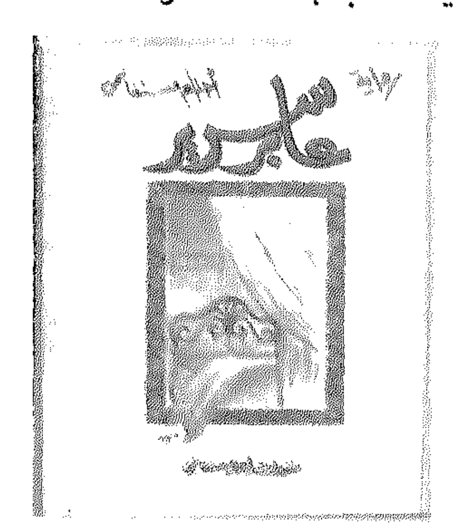


المهمشون في صعيد مصر
(آليات السيطرة والخضوع)
تأليف : د . آمال طنطاوى
دار نشر : ميريت

صدرت دراسة جادة تحاول سبر أغوار قضية التهميش الاجتماعى فى مصر. وذلك من خلال مناقشة مشكلات المهمشين وهمومهم. وانطلقت من مبدأ الاهتمام بتلك القضايا التى تقترن دوما ببنسية المجتمعات وبمدى قدرتها على مواجهة مشكلاتها العامة، وبهموم بعض شرائحها الاجتماعية بخاصة.

والجديد فى الدراسة أنها لم تنظر إلى مجتمع الصعيد متمثلا فى عينة الدراسة محافظة أسيوط على إنه مجتمع يجسد كل ما هو تقليدى فى مقابل مجتمع القاهرة الذى من المفترض أن يمثل كل ما هو حداثي. لكنها تخطت ذلك وسعت إلى دراسة عملية التهميش نفسها لا دراسة جماعة بعينها على اعتبارها ممثلة للجماعات الهامشية .

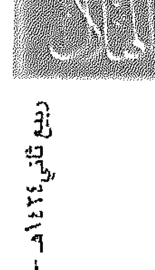
واستطاعت الدراسة أن تجيب على عدة تساؤلات عن مفهوم الهامشية فى علم الاجتماع الغربى وصورته التى انتقلت إلى دراسات العالم الثالث . كما أوضحت آليات السيطرة ومردوداتها الثقافية والسياسية والاقتصادية. مما جعل الدراسة تمثل نقله نوعية فى بحوث علم الاجتماع السياسى على الصعيدين العربى والمصرى. كما أوضح الدكتور محمود الكردى أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب جامعة القاهرة .

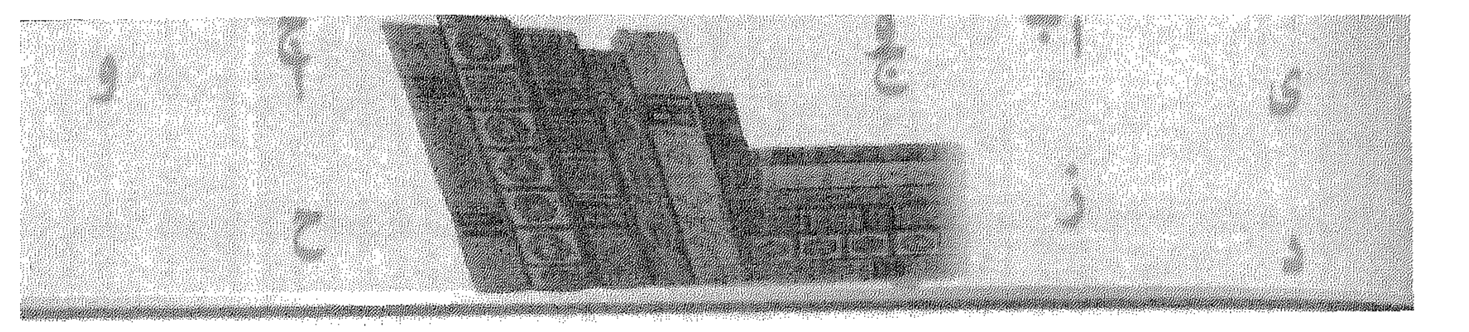


رواية "عابر سرير"
تأليف : أحلام مستغانمى
دار نشر: منشورات أحلام مستغانمى

«عابر سرير» رواية جديدة للروائية الجزائرية أحلام مستغانمى. صدرت مع بدايات العام الحالى لتكمل ثلاثيتها التى





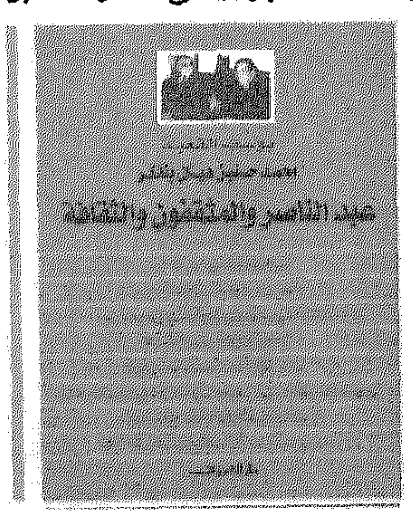


تدور حول مأساة الجزائر وشعبها . وبالطبع لاقت الرواية الجديدة رواجا شعبيا كبيرا كروايتيها السابقتين . «ذاكرة الجسد» عام ١٩٩٣ و«فوضى الحواس» عام ١٩٩٨ . ونفدت أعداد طبعتها الأولى فور صدورها ، وانقسمت الآراء حولها كما حدث من قبل . واستطاعت «مستغانمى» من خلال روايتها الأولى أن تحقق من الشهرة ما لم يتحقق لغيرها . وأن تطبع من كتاب واحد ثمانى عشرة طبعه . الأمر غير المسبوق فى العالم العربى . مما دفعها إلى تأسيس دار نشر يحمل اسمها وتكون روايتها الجديدة أولى تجاربه .

تستكمل «مستغانمى» فى روايتها رؤيتها للواقع المرير الذى يعيشه الجزائر متمثلا فى شخوص يعانون فى ارهاصاته . كل ذلك داخل فانتازيا غريبة ومحيرة . وتستعير شخصية «خالد ابن طوبار» بطل روايتها الأولى « ذاكرة الجسد» لتواصل معه معادلتها الروائية حول مأساة الوطن والمنفى .

ورغم الانتقادات التى تواجهها حول استخدامها لمفردات ذات دلالات جنسية شهوانية .

تصر «مستغانمى»» على إطلاق روايتها الجديدة تحت عنوان إيحائى «عابر سرير» لكنها تعود داخل العمل لتوضح أن السرير هنا ليس بمعناه المبتذل لكن له دلالات وجودية تتصل بلحظتى الولادة والموت وما بينهما فى حياة .. «عابرون فى أسرة عابرة» .



محمد حسنين هيكل يتذكر

إعداد : يوسف القعيد
الناشر: دار الشروق (٢٠٠٣)

ظلت علاقة الزعيم الراحل جمال عبدالناصر بالثقافة والمثقفين موضع جدال ومعارك صحفية منذ رحيله (فى سبتمبر ١٩٧٠) أثيرت خلالها العديد من الآراء والاجتهادات والشهادات المتناقضة التي تدين وتبرئ .

وصدرت فى هذا الشأن بعض الدراسات والشهادات حول هذه القضية الشائكة، ولكنها دراسات وشهادات كانت تأتى من خلال شخصيات لم تكن قريبة من عبدالناصر بالقدر الكافي، أو كانت بعيدة أصلا ، فجاءت شهادتها أما ناقصة أو مجروحة !

ولذلك تأتى أهمية كتاب «عبدالناصر والمثقفون والثقافة» من خلال حوارات يوسف القعيد مع الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل فى أن هيكل من أقرب الكتاب إلى عبدالناصر، بل كان على الأصح - هو الكاتب الوحيد الذى ظل قريبا من عبدالناصر منذ قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى رحيل الزعيم الخالد .

وتحتوى فصول الكتاب على عدة موضوعات أثير حولها الكثير من الجدل مثل قصة توفيق الحكيم مع جمال عبدالناصر وعلاقة نجيب محفوظ به وإحسان عبدالقدوس وعلاقته مع كل من د . طه حسين والعقاد والشاعر نزار قبانى ، وعلاقته مع الفنانين الكبار أمثال: أم كلثوم وعبدالوهاب وعبدالحليم حافظ وسبب اهتمامه بالمطربة عفاف راضى وكيف تمنى أن تصبح «فيروز» أخرى!

وإذا كان هذا الكتاب لم يستطع تغطية كل جوانب الصورة فى علاقة عبدالناصر بالمثقفين مثل رسالة نزار قبانى المباشرة إلى عبدالناصر بعد قصيدته «هوامش على دفتر النكسة» والتى أفرج بعدها عبدالناصر عن منع القصيدة وسمح بدخول الشاعر إلى مصر، وفيلم ميرامار ، كذلك موقف عبدالناصر من فكر سيد قطب ومن الأخوين على ومصطفى أمين ، إن هذا الكتاب قد ركز على القضايا الأكثر إلحاحا خاصة فيما يتعلق بقضية الديمقراطية وحرية الرأى إنها شهادة تاريخية لكاتب كبير اقترب كثيرا من صانع القرار .

ولم يبخل الكاتب الكبير بامداد المؤلف ببعض المستندات مثل صور من رسائل توفيق الحكيم ونزار قبانى لهيكل وإن كنت أعتقد أن هيكل مازال لديه الكثير من التفاصيل التى يمكن أن يرويها لنا بقلمه المهم والذى لم ينس معده أن يضع فى نهايته مجموعة من الصور النادرة لعبدالناصر مع بعض رجال الأدب والفن والفكر فى مصر والعالم .



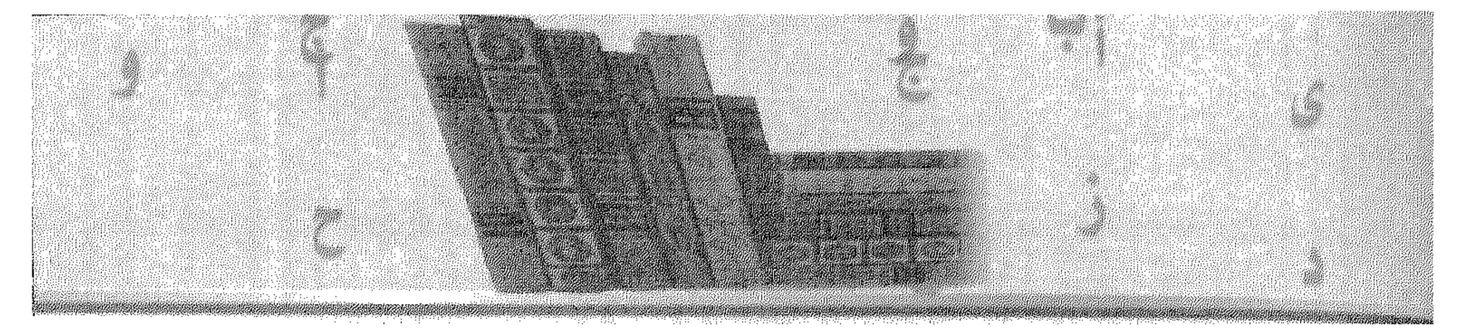
تاريخ السينما التسجيلية في مصر

تأليف: ضياء مرعى

الناشر: مكتبة الاسكندرية

هذا الكتاب موجز من مائتين وثمان وعشرين صفحة لرسالة من ثمانمائة صفحة أعدها صاحبها لمعهد النقد التابع لأكاديمية الفنون .

وحتى يوم مناقشة تلك الرسالة . لم تكن وقائع تاريخ السينما التسجيلية فى

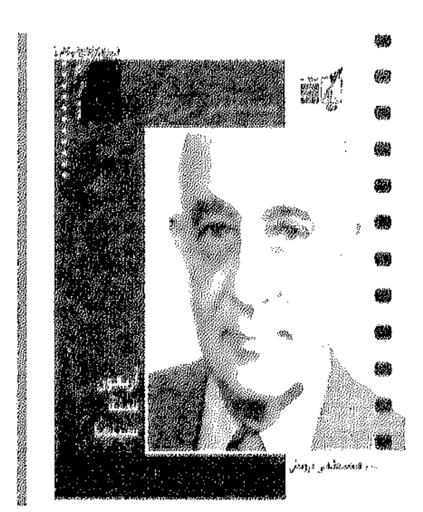


مصر معروفة ، على نحو ناف للجهالة .

فلم تكن ثمة معلومات موثقة عن هذا التاريخ الموغل فى القدم ، ولا دراسات وأبحاث جدية ، من ذلك النوع الذى يعين فى توضيح الرؤية أمام العاملين فى مجال تلك السينما الرائدة .

باختصار كان تاريخ تلك السينما شبه مجهول سواء بالنسبة لصانعيها ، أو المولعين بها، أو الباحثين .

ورغم بعض عيوب شابت الرسالة، من بينها على سبيل التمثيل أن المخرج التسجيلى جون فينى كندى الجنسية ، فى حين أنه فى حقيقة الأمر نيوزيلندى، أى أنه من بلد يفصله عن كندا آلاف الأميال ، رغم ذلك فالرسالة مرجع هائل، ووثيقة وحيدة صحيحة عن السينما التسجيلية فى مصر ، وبوصفها كذلك ، فالكتاب الموجز لها جدير بقراءة كل من يهمه أمر سينما ترتهن بالاهتمام بها ورعايتها نهضة السينما المصرية .



مصطفى درويش .. أربعون سنه سينما

تأليف: مصطفى درويش

أصدار صندوق التنمية الثقافية

«إذا أراد أحد من الناس أن يكتب مسيرته فى الحياة، فهو بين أمرين لا ثالث لهما، أن يقول كل شئ بصراحة وصدق، فإذا لم يقو على ذلك فخير له أن يلجم لسانه..» جملة بليغة كتبها مصطفى درويش لتعبر عن الأسلوب الذى انتهجه فى كتابه «أربعون سنة سينما» الصادر عن صندوق التنمية الثقافية .

فقد كرَّم المهرجان القومى التاسع للسينما المصرية عددا من رموز السينما من ممثلين ومخرجين وكان من ضمنهم الناقد مصطفى درويش عن تاريخه الطويل مع الكتابة السينمائية النقدية والدور الذى لعبه خلال فترة الستينات كرقيب على المصنفات الفنية .

وصدر ضمن فعاليات المهرجان الكتاب الذى بين أيدينا . يستعرض فيه «درويش» محطات حياته ويكشف عن بعض المواقف الشائكة التى تعرض لها خلال عمله كرقيب . خاصة أن تلك الفترة قد شهدت محاولات من قبل وزارة الإعلام للهيمنة على وزارة الثقافة والقضاء عليها ككيان مستقل بدعوى أنها تفتح الباب أمام دعاة اليسار . متمثلين فى رقيبها المنتدب فى مجلس الدولة ، مصطفى درويش .

ويضم الكتاب مختارات من مقالاته التى قام بنشرها فى مجلة الهلال على مدى تاريخه وبعض كتاباته الأخرى فى مجالات (الفن السابع / شئون فلسطينية . المستقبل العربى..) ■

كاتب مغربى .. يفكك أسر الرواية العربية ..!

كائنات محتملة

مكان يبحث عن زمان وفراغ يمتلىء بالوهم

بقلم
عبد المنعم الجداوى

دائماً تجد فى الرواية العربية شيئاً ناقصاً .. لاتدرى ماهو على وجه التحديد..؟ إنه إحساس يتكون فى الوجدان والذهن .. فإذا ماقرأت رواية لكاتب غربى وجدت هذا الشىء بارزا . يشق الذهن، ويقيم فيه..!
هذا الشىء استوفاه الكاتب المغربى «محمد عز الدين التازى» باقتدار فنى. مزج فيه التخطيط الأوربى الواسع الثقافة - بالفن الإنسانى، وروح الشرق..!!



الرواية التى صدرت فى مارس الماضى من سلسلة روايات الهلال. للكاتب المغربى «محمد عز الدين التازى» . لايجب أن تقرأ فقط، لكن على الذين يتصدون لكتابة الرواية العربية أن يتأملوها، ويعكفوا على سطورها سطراً بعد سطر، وأن يدخلوا إلى جوانح شخصياتها . شخصية بعد أخرى، فإذا انتهوا من الشخصيات . أقبلوا على المؤلف فى إصرار على معرفة أسلوبه، وطريقته المبتكرة فى السرد، وجمعه غير المسبوق بين المكان الواحد ، والأزمنة المتعددة من أحداث الحياة فى صميم أعمار الشخصيات، وكأنه جاء بوطن كبير متضارب التيارات. تقطنه الملايين، وتطحنه المتناقضات الموروثة، والوافدة، وتتصايح فيه الأفكار فى القمة .. ثم يهبط بالصراع حارا مجسماً . إلى المقاهى والحانات، والمطاعم الرخيصة، وكل ذلك يقدمه فى عبارات تبدو لك

ساذجة . لكنها تأخذ طريقها إلى الأعماق فى سهولة ويسر. كأنه يقذف المعنى إلى هدفه دون صعوبة، وفى عفوية غير متعمدة..!

فهو يطالعك فى الصفحات الأولى بمدينة أو قرية كبيرة . يؤكد لك أنها على شاطىء بحر أخذت اسمها من زرقة مياهه فاسمها «زرقانة»، وفى براعة يعرضها عليك. يرسمها كما يرسم الفنان لوحته. فإذا بها ذات حوار، وازقة، وشارع هام فيه الأسواق، ويوزعها أحياء للفقراء، ومساكن للأغنياء. وبعد أن يجعل القرية الكبيرة. تملأ وجدانك . بالشكل الذى تختاره أنت من ذكرياتك وماضيك. فلا بد أنك شاهدت وعشت مثل هذه المدينة، وإذا ما اطمأن إلى أنها سكنت فؤادك بدأ يقدم لك الأشخاص الذين يعيشون فيها، وهم يتصارعون يومياً. لكى يظلوا على قيد الحياة، وليس صراعهم كله لليوم. بل إن الغد هو الذى يقلقهم، ويمسك المؤلف بهذا الغد. فيكشف دخيله كل فرد من المتصارعين..!

والقلب بسبب الغد وهمومه. هو نبض الحياة والحداء الذى تسير عليه أمورهم. كلهم يشغلهم الغد. من أول العامل فى المطعم الذى يستقبل الأغراب، والفقراء الذين يستعدون للاغتراب، والذين يملكون ثمن كوب



الشاى ينتظرون الأصدقاء. أو يسمرون مع الورق، والعامل .. يحمل اطباق الطعام للبعض، والشاى للآخرين .. وبعد أن يقدم المؤلف كل هذا للقارىء. يبدأ فى تسريب الشخصيات التى سترافقه مساحة من صفحات الرواية، واحدة تلو أخرى. بشكل لايفطن فيه القارىء، وفجأة يتوقف ليقول للقارىء.. أنه لايكتب رواية، ولا هو المؤلف .. وإذا لم تكن رواية، ولم يكن السارد مؤلفاً. فمن هو..؟

إنه أحد الشخصيات الوافدة على «زرقانه». كان يسمع عنها، وتمنى ذات يوم أن يراها، وأن يزور معالمها، وهى ليس فيها الا معلما واحداً. هو «برج قديم» . يقال إنه أقدم من «زرقانة»، وتشرف عليه وزارة المعارف، وإدارة الآثار، وتدور حوله الأساطير .. وهذا البرج القديم. هو الذى استدعى الراوى، وهو فنان درس فى كلية الفنون الجميلة ، وعشق الرسم ونبغ فيه، وقدم أوراقه إلى الوزارة، مشفوعة برسم «لبرج زرقانة»، وطالب أن يعين للعمل فى ترميم هذا البرج الذى يعشقه ، وكان العمل الذى أهله للحصول على بكالوريوس الهندسة، واستجابت الوزارة . بعد متاعب صغيرة ، لم تفت فى عضده ، وشد الرحال من العاصمة إلى «زرقانة»، وحينما ألقت به حافلة المسافرين . فى



ميدان «زرقانة» حمل متاعة واتجه إلى هذا المطعم الذى يتوسط الميدان فجلس على مائدة ووضع متاعه على الأرض. فجاءه عامل المطعم، وقبل أن يصله أرسل نحوه ابتسامة. نفضت عنه متاعب السفر، فلما وقف أمامه. حدثه كأنه كان معه منذ ساعة فقط، وقال له أنه يمكنه أن يضع متاعه على مقعد بجواره بدلاً من الأرض واعتبر هو ذلك ترحيباً، ودعوة إلى صداقته..!

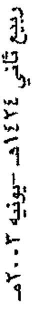
ثم يقول هذا الوافد، ويخط بارز، وبصوت عال: (الوقت منفلت فى زرقانة، ولكل زمنه الذى يحيا فيه، ولربما هى أزمنة يحياها الزرقانيون فى وقت واحد، ولكل زمنه لايلتقى مع أزمنة الآخرين).

بهذه العبارة الجديدة على الرواية العربية، والتى لاتسير كما تسير الروايات، وإنما هى مصائر، وأحلام، وأمان لقلوب شابة، ونفوس عاشقة للحياة وللغد.. هذه المصائر تداخلت بمقادير بعيدة أو قريبة ، ولم تمتزج إلا فى مواضع قليلة، وبقى بين الجميع الخطوط الفاصلة التى كونت وجوده، وتجمعت لتصيغ مايريد، ومالا يريد. لايعطى الا بقدر ما يأخذ، وفى كل الحالات يرنو إلى الغد. يتمناه نهاية لمتاعبه. فإن لم يكن كما يتمنى . لا أقل من أن يكون مرحلة جديدة.

سيان غادر «زرقانة» أو بقى بها .. من أجل ذلك كانت هذه القرية الكبيرة. ليلها قلق، ونهارها صراع .. إن أهلها جميعاً يحكمهم قلق المسافر. حتى وان لم يكن على سفر .. وعامل هذا المقهى أو المطعم يسلمه مفتاح المدينة.. فهو يبحث له عن مكان يقيم فيه، ويختار له من يسكن معه، وتبدأ الصداقات بلا صعوبات. كالجدول الذى يجرى فيه الماء بسهولة ويسر..!

ومن خلال «المروانى»، و«الغرناطى» الذى شاركه السكن وهو بحار متعطل، ومن خلال «عبدالصادق» عامل المطعم. تبدأ الشخصيات تتوالى . فهم يجتمعون فى المقهى قبل أن يذهبوا إلى سكن «الغرناطى» لكى يسهروا، والسهر، والشراب يجعل كل شخصية تطرح هموم اليوم، والغد، وأحلام ما بعد الغد.. كل شخصية تتبع همومها من رسمها، وظروفها، وحتى ملابسها تتلاءم مع مايرفد فى الأعماق من أوهام، وأحلام التى هى فى حقيقتها زوارق صغيرة يسافر بها المتعبون إلى الغد، وكلهم يريدون أن يصلوا. لكن الوصول قلما يتحقق. فالأمواج عاتية، والرياح ليست كما يتمنون، والمجهول لايبالى، والفشل يترصد بالزوارق المعطوب أكثرها..!

انزلاق قصص الشخصيات، والدقيق من وجدانهم، والرفيق من أحاسيسهم.. يجىء إلى خضم الرواية. كالمد والجذر الذى يمارسه بحر «زرقانة» ليل نهار. ينطح صخور الشاطىء، فلا تكاد أنت كقارىء تشعر أن عليك تتبع هذا. أو



تجرى وراء ذاك كما فى الروايات التى نقرأها منذ الثلاثينات، ومن الصفحات الأولى يحمل القارىء لها على عاتقه متاعب البطل، ويسير بها عبر الصفحات. فلا يضعها إلا آخر الرواية. ثم يغمض عينيه ليستريح ..!

فى (كائنات محتملة) وببراعة وضع المؤلف الأحداث حول القارىء ، وليس أمام بصره، وتركها تتحرك .. «المعلم»، و«المروانى»، و«عبدالصادق»، و«فردريكو»، و«الفقيه» ، و«الساحرات»، و«الإمبراطور».. ثم «صلاح التافرواتى» الذى جاء ليرمم «برج الزرقانية» فإذا بها تستحوذ على وجدانه. يعشق أيامها ولياليها، ولا يرى «البرج» ولا يذهب اليه سوى مرة واحدة .. انشغل بترميم الإنسان عن ترميم «البرج»، وبذل من الإخلاص مايستطيع لترميم النفوس المعطوبة، والقلوب الجريحة .. لكنه كان ينفخ فى رماد .. فالأحداث وقحة رهيبة .. خربت النفوس، وجعلت جراح القلوب غائرة .. لاتجدى فيها الأدوية، ولا تنجح فى علاجها المراهم..!

●●●

وفى السهرات يعلن «الغرناطى» أنه سوف يخطب «عشوشة»، قبل أن يهاجر إلى الخارج ليعود بما يحسن به مستقبله. بعد أن ضاقت عليه «رزقانة». والخبر تهتز له الجلسة .. كل منهم يتلقاه فى موقعه بمشاعر مختلفة . «فصلاح» سوف يتحمل أجرة السكن وحده. بعد أن يهاجر «الغرناطى»، و«عبد الصادق» سوف يفقد صديقاً عزيزاً، و«المعلم» يضيع منه من دائما يستمع اليه ويواسيه، والمدرس يوشك أن يبكى لإنه لن يجد من يقدم له الطعام والشراب، والمكان مجاناً، ويحاورون «الغرناطى» فى موقفه من «عشوشة» كيف يخطبها، ويهاجر فى نفس الوقت؟ فيرد أنه سوف يعقد قرانه عليها فى الغد، ولابد من ذهابهم جميعاً معه إلى والدتها بالقرب من «حى الساحرات»، وذهبوا بالفعل إلا «عبدالصادق»، الذى اعتذر بأنه لايمكنه أن يترك المقهى.. لكنه فى الواقع كان يخفى معارضته لهذه الزيجة ، وكتم رأيه حتى لايغضب «الغرناطى». فهو يعرف عن «عشوشة» وأمها مالا يعرفه «الغرناطى» الذى أوصاه أن يرعاها فى غيابه، وأنه سوف يرسل إليها النقود عن طريقه وباسمه لكى يسلمها لها هو و«صلاح» فلم يترك فى «زرقانة» أعز عليه منهما و«عشوشة» ، ورغم انزعاجه من كلام «الغرناطى». لجمعه بينهما وبين «عشوشة» فى جملة. إلا أنه صمت، وبكى وهو يودعه بدموع صادقة.. فالرحلة محفوفة بالمخاطر، وقد لايراه..!

وفى أول سهرة بعد سفر «الغرناطى»، يخيم الحزن على الإخوة، وعلى السهرة، وعلى أدوات السهرة. حتى الكئوس حينما توضع على المائدة، ويزفر «المعلم» فيتكلم عن النيران التى تشوى قلبه على «سعد الدين» ابنه الشاب الذى احتال حتى أخفاه عن عيون المخابرات .. ثم بعث به إلى الخارج فى زورق أتقن صناعته. فهو «نجار» يتحدث إلى الخشب ، ويتحدث

الخشب إليه .. ويشرع في مأساته، وكيف عذبه رجال المخابرات حتى ماقبل الموت. لكي يقول لهم ابن ولده. بعد أن ضبطوا في بيته المنشورات، ولم يكن يعرفها فهي في أوراق ولده .. ورغم مضي السنوات إلا أن آثار التعذيب مازالت بصماتها على جسده، وقد تعطبت ساقه اليمنى عن العمل، ومن أجل ذلك يدور حول نفسه إذا أراد الوقوف، ويترنح، وهو يستمر في سرد همومه، وأمله الذي يتبدد مع الزمن في رؤية ابنه قبل أن يموت إلى حد أنه يبحث عن من يأخذ كل ثروته، مقابل أن يجمع لحظة بينه وبين ولده «سعد الدين»، ومن خلال دموعه يعتذر للصحاب لأنه أحزن سهرتهم بسيرة ولده..!!

●●●

السهرة أدركتها الشيخوخة. بعد سفر «محمد الغرناطي»، وسفر «المرواني» إلى المانيا، وتحققت مخاوف «عبدالصادق» من سلوكيات «عشوشة» وجاءت تطالب بنقود من «صلاح»، و«عبد الصادق» فقد وعدها، ووعدهما، ولكنه لم يرسل، ولم يخاطبهما في التليفون يطمئنه على نجاته، وكانت تطالب بوقاحة إلى حد أنها اتهمتهما باللصوصية، واضطر «صلاح» أن يعطيها مبلغا من ماله الخاص الذي تقاضاه من الحكومة لترميم «البرج» الذي دخله مرة واحد..!

ويموت «المعلم» دون أن ينال أمنيته في رؤية «سعد الدين»، و.. و.. و..! وتتحول «عشوشة» إلى فتاة ليل .. ويقول «عبد الصادق» «لصلاح» لعلك أدركت الآن لماذا تخلفت عن حضور عقد قرانها على «الغرناطي»..!

في الصفحة التي تليها .. يذهب «صلاح» صباحاً إلى المقهى .. فنجد «عبدالصادق» بعد أن ترك لحيته، واتسمت عليه آيات الورع، والتقى، يقول له إنه لايدري إذا كان يجب عليهما أن يذهبا لتشييع جنازة «عشوشة» أم لا..؟

عثر أحد رجال الشرطة على جثتها مذبوحة في طريق بجوار البحر .. وزعمت التحريات أن عصابة لتهريب المخدرات.. قتلتها بعد أن أعطوها ثمن كمية كبرى، فأنكرتها ، ورتبت مع لص أن يتظاهر بخطف الحقيبة منها - لكن الحيلة لم تنطل على العصابة فقتلتها .. واليوم سوف تدفن .. وعليه وحده إذا ظل في «زرقانة» أن يخبر «الغرناطي» أو يدعه في حلمه .. لأنه من اليوم سوف يصعد إلى شيخه في خلوة في الصحراء ليجاوره هناك، فيترك المقهى أمانة بين يديه، وله أن يبيعه، ويأخذ ثمنه..؟



تغرب شمس الرواية، ويميل كل زمن «زرقانة» إلى الأفول، وتحت عنوان (تعليق السارد) تجيء لغة السطور (تلاحظون أيها القراء أن المؤلف قد صنع مصائر كل أبطال الرواية إما بالرمي بهم في دروب الهجرة أو في دروب القتل والموت أو في دروب غامضة كالدرب الذي ذهب فيها «عبدالصادق». المؤلف يقول إن

«زرقانة» هى التى صنعت هذه المصائر، وأنا أقول لو ترك لى أمر صنع مصائر الأبطال لفكرت فى خواتم أخرى محتملة).

شكل رائع من أشكال إمتاع القارىء، ولباقة رفعت عن كاهل القارىء مايعانيه وهو يتابع فى توحد متعب مايعانيه أبطال أو أشخاص المكتوب .. لقد تضافرت فى هذه الرواية أمشاج، وروح الثقافة الغربية مع الوجدان العربى. فانطلقت الرواية العربية من الاغلال التى رسفت فيها طوال النصف الأخير من القرن الماضى، وفكت أسرها من الأشكال التى حبست داخلها وطال عليها الأمد..!

ويعود «الغرناطى» من رحلته، ويعانق «صلاح»، ويرتبك هل يقول له أخبار «عشوشة» أم يقدم له العزاء أولاً، ولكن «الغرناطى» ينقذه من الورطة. إذ يقول له إنه عرف الأخبار فى غربته، وتغلبت متاعب الغربة وأهوالها على فجيعته فى «عشوشة». فالهموم كالأسماك يبتلع كبيرها صغيرها، ويجيء الليل، ويسهران يتكلمان حتى يبدأ الفجر، وينام «الغرناطى» والكلام على شفتيه يروى أهوال ماعاناه فى رحلته .. ويتنفس «صلاح» الصعداء، وكان قد أعد العدة لمغادرة «زرقانة»، وحتى لايضعف إذا استيقظ «الغرناطى»، وعدل عن رغبته لحظة الوداع .. تسلل يحمل متاعه، وأغلق الباب، وهبط يودع «زرقانة» حتى فجرها الذى تخنقه الظلمة، والحوارى ، والقمامة، والكلاب الضالة.. وهدير البحر القادم من بعيد .. ويقترب من «الحافلة التى ستأخذه وحيداً. كما جاء وحيداً .. وأحس أنه تخلص من دموع «الغرناطى»، وقسوة الوداع .. لكنه شعر بكل وعيه.. أن يدا تمسك بملابسه، وتتعلق به كطفل يتمسك بأمه .. كانت «زرقانة» المكان، والمدينة، والزمن.. تحاول أن تعيده .. لكنه أفلح، ومضى..!!

●●●

وتنتهى الرواية المكتوبة.. لكنها لاتنتهى من وجدان القارىء الذى يجد نفسه شاء أو رفض أحد شخصياتها. يبحث هو الآخر عن حصيرة فى «زرقانة»، ويضع الكاتب المقتدر عدة سطور قبل النهاية فيقول (أنا سارد تقليدى، والرواية تجريبية أو حداثية كما يدعى المؤلف وبيننا خصام ، وأنا أنتظر أن يفصل بيننا القراء) هذا الكلام على لسان «صلاح»..!

مرة أخرى أقول إن «محمد عز الدين التازى» جدد شباب الرواية العربية ، وخلع عنها القيود التى كانت ترسف فيها، وفك أسرها من البداية ، والحبكة ، والنهاية .. ليت الذين يكتبون الرواية . أو ينوون كتابتها أن يدرسوا منعطفات (كائنات محتملة) .. فإذا لمسوا أسرارها كتبوا أحسن منها . أو مثلها، وفى الحالتين سوف تكسب الساحة العربية أدبا جديدا..!! ■

قصة
قصيرة



قصة
مصطفى نصر
بريشة
سميحة حسنين

فرح مرسى الحسينى كثيرا لإقامة اذاعة فى الاسكندرية . فقد ظل هو وأصدقاؤه الموسيقيون ومؤلفو الأغانى يحلمون بأن تكون لهم اذاعة قريبة منهم ، تذيع أعمالهم وتغنيهم عن السفر إلى القاهرة لتقديم أعمالهم هناك . لهذا ، دعا مرسى أصدقاءه - هؤلاء - فى بيته للاحتفال بهذا الحدث المهم ، ودعا - أيضا - أحد العاملين فى الاذاعة (وهو مذيع كبير كان يعمل فى اذاعة القاهرة) تحدثوا عن آمالهم فى الاذاعة .

تحدث مرسى طويلا فأشاد بفنانى الاسكندرية من ملحنين ومغنيين ومؤلفى أغان . وقال إنهم لا يقلون مقدرة عن فنانى القاهرة ، بل هم أفضل منهم بكثير .

ثم أمسك مرسى عوده وعزف عليه وغنى أغنية «عش الهوى المهجور» لأحمد صدقى . كان عزفه سيئا وصوته لا تطيق سماعه . وكان يقطع العزف والغناء ليتحدث عن الأغنية . وكيف أوحت المطربة «نجاة على» لمؤلفها «امام الصفطاوى» بكلماتها من خلال ما كانت تمر به من مشكلات أسرية .

ود الحاضرون لو ظل مرسى يحكى طوال الوقت ، ولا يعود لعزفه وغنائه . لكنه أصر إلا أن يأتى على آخر الاغنية . مما جعلهم يتثاءبون ويتمنون أن يمر الوقت سريعا .

ثم عزف سعيد الطويل لحنا من الحانه ، وغنى بصوته الجميل . فصفق الحاضرون طويلا .

لم يرتح مرسى لعزف الطويل وغنائه . ولو أتاحوا له الفرصة لبين لهم عيوب اللحن ونقط الضعف فيه وردد لنفسه : عادة فنانى الاسكندرية السيئة . ألا يعترفوا بفنان منهم إلا إذا جاءت شهادته من القاهرة .

وسعيد الطويل - هذا - عاش فى القاهرة عدة سنوات . غنى فى اذاعتها ومثل ثلاثة أفلام مع ممثلين وممثلات كبار .

ثم قدم مرسى - فى الجلسة - مفاجأته التى ستهد الاسكندرية على من فيها : مغنى شاب اسمه «صبحى شعبان» غنى أغنية من تلحينه . ومرسى - بجواره - يومىء برأسه منتشيا ومستحسنا عزفه وغناءه وتلحينه . بعد كل مقطع يقفز عاليا من شدة التأثر .

قال مؤلف أغان مسن له باع طويل فى هذا المجال :

- صوته حسن لكنه فى حاجة إلى صقل طويل .

ضرب مرسى على صدره قائلا :

- هذه مسئوليتى . سأتولى تدريبه ورعايته وصقله .

ولأن الوقت كان متأخرا ولا يسمح للمعارضة والمناقشة ، فلم يطيلوا فى الاعتراض على قوله خاصة أنهم فى بيته

قبل أن تنتهى الجلسة عرض مسئول الاذاعة أن يشرف سعيد الطويل على ناد تابع للاذاعة ، تقدم فيه ندوات عن الموسيقى والغناء . لكن الرجل أعتذر لمشاغله . وكذلك اعتذر آخرون . لكن مرسى صاح لمسئول الاذاعة :

- إطمئن . سأشرف على النادى وسأعطيه خبرتى وعلمى .

لم يكن الرجل مرتاحا

لمرسى ، فهو يعرف قدراته المحدودة . لكنه اضطر للإذعان عندما لم يجد أحدا ممن كان يريدهم قد تحمس لذلك .

عندما خرجوا تهامسوا . قال أحدهم معلقا على تحمس مرسى لصبحى شعبان:

– الولد خامة طيبة ، لكن تحمس مرسى له – هكذا – سيفسده .

وقال آخر :

– كيف يعلمه العزف وهو لا يجيده ؟!

أصدقاء مرسى – الذين عاشروه طويلا – يعرفونه تمام المعرفة . فقد اتصل فى أول حياته ببعض فرق العوالم فى الاسكندرية . لكن صوته الأجش حال بينه وبين أن يكون مغنيا . كما أنه لم يستطع إجادة العزف على أية آلة موسيقية ليعمل فى فرقة من الفرق . لكنه لم ييأس . فاشترى بعض المجلات التى تهتم بالموسيقى والغناء . وذهب إلى مكتبة البلدية ، قرأ فيها عن حياة الموسيقيين العالميين والعرب . وكان مغرما بتحديد نوع المقامات الموسيقية التى اعتمد الملحن عليها فى تلحين موسيقاه . ورغم أنه يخطىء كثيرا فى تحديد هذه المقامات ، إلا أنه لم يمتنع عن ذلك .

ولا ينكر أحد عليه حماسه الشديد للحنى ومغنى الاسكندرية . وأنه ينفق – احيانا – كل ما يملك على شراء الاسطوانات الموسيقية والكتب والآلات .

أعلن مرسى الحسينى فى النادى التابع للاذاعة : إن صبحى شعبان هو أفضل ملحن فى الاسكندرية وأنه – رغم صغر سنه – فاق كل من سبقه من ملحنين ، بما فيهم سعيد الطويل . وأن على رواد النادى الصغار أن يتعلموا من عبقريته وموهبته .

تعامل معظم رواد النادى الشبان مع صبحى على الأساس الذى وضعه مرسى الحسينى . فقلد البعض صبحى شعبان متمنين أن يصبحوا مثله . ورددوا – حتى فى غياب مرسى صبحى – أن صبحى هو أمل الغناء فى الاسكندرية . بل وفى مصر كلها . ولو كان يعيش فى القاهرة لتفوق على عبد الحليم حافظ وربما على عبد الوهاب فى التلحين .

لكن بعض رواد النادى كانوا يتجاسرون وينتقدون ما يقدمه صبحى . وكان مرسى يثور عليهم ويتهمهم بالجهل . وينتهى الأمر بهم بأن يبتعدوا عن النادى .

أما الملحنون الكبار فقد اعتبروا نشاط النادى أقل من قدراتهم وامكانياتهم . فهم لا يأتون إليه إلا فى الحالات النادرة : مثل استضافة ملحن كبير من القاهرة . أو اقامة حفل كبير تحت رعاية الاذاعة .

وإذا سمعوا مدح مرسى لصبحى ، يمطون شفاههم دون اعتراض . فبعضهم لا يريد أن يفسد

العلاقة بينه وبين مرسى أو صبحى . وآخرون اعتبروا أن الحديث فى موضوع مثل هذا أقل من مستواهم ولا يجب الخوض فيه .

شاعت فى الوسط الفنى أقاويل تحاول تفسير العلاقة بين مرسى وصبحى . فيقول البعض أن صبحى سيتزوج شقيقة مرسى - فلم يكن لمرسى فى ذلك الوقت بنات فى سن الزواج - ويردد آخرون أن صبحى غنى . وينفق على مرسى - ذى المرتب الضئيل ، والاسرة الكبيرة العدد . لكن بعض الخبثاء ادعوا بأن العلاقة بين مرسى وصبحى علاقة غير شريفة .

* * *

استطاع بعض رواد النادى الجدد أن يحققوا نجاحا ملحوظا فى القاهرة ، فاعتمدتهم الاذاعة مغنين فيها ، أو ملحنين أو عازفين . واستضافوا بعضهم فى برامج الاذاعة والتليفزيون ، ونشرت الصحف صورهم وأحاديثهم . فانصب حديث النادى على هؤلاء . وأعلن مرسى أن صبحى أكثر موهبة ومقدرة منهم جميعا لكنهم استطاعوا الوصول لما وصلوا إليه بطرق غير مشروعة وغير شريفة . فهم ينفقون على ملحنى القاهرة الكبار ، ويدعونهم إلى الاسكندرية ليقدموا إليهم الجمبرى والكابوريا . بل وصل الأمر لأن يفتحوا شققا للملحنين ونقاد الموسيقى والغناء ويقدموا إليهم الخمر والنساء .

ويصدق بعض الرواد الصغار هذا فيرد دونه لغيرهم . ويقسمون أن صبحى شعبان هذا فنان كبير لولا ..

* * *

يجلس صبحى شعبان فى النادى كالملك ، ينحنى له الرواد الصغار . يسألونه عن الحانه العظيمة التى تذيعها اذاعة الاسكندرية . وعندما يغنى بعضهم - فى النادى - ينظرون إليه منتظرين رأيه . لكن صبحى غير مؤمن بأى مغنى فى الاسكندرية سواه . فكان يهاجم الأغانى التى تقدم فى النادى بحماس شديد يماثل حماسه فى الهجوم على رواد النادى الذين وصلوا إلى القاهرة . ويؤمن مرسى على قوله قائلا لرواد النادى : لا تنسوا أنه أفضل مغنى فى مصر كلها .

واكتشف مرسى فجأة مغنيا موهوبا ، يستطيع أن يخلف صبحى على عرش الغناء فى الاسكندرية . لم يهتم صبحى وقابل الخبر (الذى أعلنه مرسى فى ابتهاج شديد) قابله فى برود شديد ، وشك فى أن يوجد من يخلفه .

وكان صبحى محقا فى رأيه هذا . فقد ذاب الشاب ولم يقدم اعمالا تبهج مرسى بعد ذلك . بسبب تأثره بما يقدم فى إذاعات القاهرة وتلفزيونها . ولأنه لم يعد يسير على طريقة صبحى شعبان . وأعلن مرسى صراحة أنه كان مخدوعا فيه .

وبعد وقت قصير آخر يكتشف خليفة آخر لصبحى ، ويذوب هؤلاء جميعا ولا يحققون شيئا ، فكيف يصبح ولى العهد

ملكا . والملك مازال يجلس متربعا على عرش الغناء فى الاسكندرية .

* * *

شكا صبحى لمرسى كثرة الذين يتمردون على النادى ويهربون من صولة مرسى إلى القاهرة ، فينتشرون ويحققون نجاحا ملحوظا . فتتحدث الصحف والمجلات عنهم كثيرا . طمأنه مرسى وقال أنت أفضل منهم جميعا وسوف تصير أكثر شهرة وتألقا منهم فى المستقبل .

لم يكتشف مرسى مرور الوقت فقد تعدى صبحى الاربعين وهاجم الشيب شعره . ومازال ينتظر اليوم الذى يتربع فيه على عرش الغناء فى مصر كلها . كما تنبأ له مرسى . لكن ذلك لم يحدث . لذا ، قرر صبحى أن يسافر إلى القاهرة ليفاجيء المسئولين فى الاذاعة بموهبته الجبارة .

دهش صبحى لما رآه . أولاد أتوا إلى نادى الاسكندرية ، ولم يكن مرسى معجبا بهم ، وتنبأ لهم بمستقبل مظلم فى الغناء والموسيقى ، يجدهم



صبحى أمامه وقد صاروا أكثر أهمية . لدرجة أن أحدهم أوصى مسئولى الاذاعة عليه . قال : اهتموا به . أنه صديق قديم لكن اللجنة لم توافق على اعتماده مغنيا . لأن قدرات صوته ضعيفة . واللحن الذى قدمه سيىء ..

الغريب أن ما أخذوه عليه فى اللحن والغناء . كان مرسى يشيد به ويعتبره أهم ما فيه ..

* * *

بينما كان صبحى شعبان يجلس فى قطار العودة إلى الاسكندرية فكر فى الفارق بين جلسات القاهرة وجلسات نادى الاسكندرية التابع للاذاعة . حيث لا يهتمون بأحد سواه .

فى القاهرة لا يذكره أحد . عندما جلس فى قهوة روادها المغنون والملحنون والعازفون . اكتشف أنه مجهول تماما لم يعرفه سوى الذين كانوا روادا لنادى الاسكندرية . وجدهم فى القهوة يثنون على مغنين مازالوا يعيشون فى الاسكندرية ولم يذكره أحدهم بالخير .

فى أول اجتماع للنادى . اعلن صبحى أن الشرفاء واصحاب المواهب الحقيقية ليس لديهم امكانيات الوصول للحنى القاهرة . فهم لا يهتمون إلا بالمواهب الضحلة ، أو لمن يقدم لهم كذا وكذا .

بحث صبحى بين الموجودين . لم يجد رفاق الماضى . كلهم انتقلوا إلى القاهرة يغنون أو يلحنون . وبعضهم اكتفى بدوره كعازف فى فرق القاهرة الكثيرة . لم يتبق من شلة الماضى سوى مرسى الذى يعلن دائما أن صبحى شعبان هو ملك الغناء فى مصر كلها لكن .. ■

الهوس اللذيذ للحنين إلى الماضي

بقلم
محمود قاسم

من المهم أن نعود مرة أخرى إلى ما يكتبه الروائى الفرنسى باتريك بيسون أسبوعياً فى مجلة «لوبوان».

فالموضوع الذى أثاره أخيراً مثير للجدل بالفعل، والغريب أن أحداً من الكتاب، أو الصحفيين، لم ينتبه إليه، ولعل هذا الموضوع يفتح نقاشا حول الأديب الذى يتجه إلى كتابة صفحة، أو عمود، فى إحدى المجلات أو الصحف



أثبت بيسون أنه صاحب قلم متميز ، وأن ما يكتبه في الصحف ليس سوى توظيف بارع لموهبته الأدبية، ولاشك أن بيسون هو واحد من كبار الكتاب الذين استعانت بهم الصحافة في كل الدنيا من أجل الاستفادة من مواهبهم الأدبية، وذلك دون أن تؤثر الكتابة المنتظمة في الصحف والمجلات على لغة الأدب، مثلما حدث لجون شتاينبك، وهيمنجواي، والكثير من الكتاب المعاصرين، خاصة أن في نفس العدد الذى كتب به بيسون مقاله يتضمن اشارة إلى أحدث رواياته الصادرة فى نفس الأسبوع بعنوان «سبب الناس».

الموضوع أن بيسون يحب قراءة واقتناء الجرائد والمجلات القديمة، ويشترى منها دائماً من المكتبات المتخصصة هذا النوع من المطبوعات خاصة الموجودة على ضفتى نهر السين، وغالباً ما يقوم الباعة بعرض هذه المجلات مغلفة بطريقة تغرى المرء لشرائها، وبأثمان عالية جداً وتتراوح أسعار بعض النسخ منها قيمة ٢٠-٣٠يورو، أى قرابة ١٨٠ جنيها مصريا.

هذه الهواية التى تستبد بالكاتب، لها من العشاق والمريدين الكثيرين، خاصة بالنسبة للمجلات، وباعة هذه المجلات يعرفون قيمتها جيداً فكلما صارت المجلة قديمة ارتفع سعرها، وذلك بسبب أن الهواة غالبا ما يجدون أنفسهم ضعفاء، وهم يدفعون الاثمان المرتفعة عن طيب خاطر، من أجل استكمال مجموعاتهم، أو الحصول على عدد ما بالذات من هذه المطبوعات التى صارت أثرية، وقبل أن يستعرض بيسون حالته، نصح قارئ مجلة «لوبوان» بشرائها أسبوعياً، وأن يحتفظ بها لابنائه، فسوف تكون الاعداد، فى المستقبل بمثابة تراث بعد سنوات.. والذى حدث أن بيسون قد استطاع الحصول على العدد الأول من مجلة « qmlle age tenedre» أو الانسة ذات العمر الرقيق القديمة فأثارت لديه الشجن وكتب المقال عن عشق المجلات القديمة..

إذاعة خاصة بالحنين

نحن نتساءل، مثلما فعل بيسون: لماذا هذا الجنون باقتناء المجلات القديمة، فالمجلة التي اشتراها بيسون وخصص عنها مقالا كاملا ليست سوى مجلة موسيقية عادية، أى أنها مجلة شبابية تملؤها «الصور» و«أخبار» المطربين، خاصة النساء.

وقبل أن نتوقف عند مفردى «صور» و«أخبار» نود أن نحكى للقارئ سحر المجلة المقصودة. ففى بداية الستينات ظهر جيل جديد من المطربين فى فرنسا، أحدثوا دوياً كبيراً فى الساحة الغنائية فى أوروبا والعالم، ومنها مصر، ونجحت أغنية بعنوان Les coyains†Salut» للمغنى جيليبر بيكو، مما دفع احدى الموسسات الصحفية إلى اصدار مجلة تعنى بهذا الجيل الجديد من المطربين، ومنهم جونى هاليداى، وكلود فرانسوا، وشيلا، وفرانسواز هاردى، وآخرين.

والذين عاشوا فى الستينات، فى مصر، يعرفون كم ولع الشباب بهذه المجلة التى كانت تاتى إلى الأسواق شهريا، فتنفد تماما. وفى نهاية الستينات صدرت مجلة «الانسة ذات العمر الرقيق» لتكون لسان حال المطربات.

وقد ارتبط نجاح هذه المجلات بلمعان جيل من المطربين، بدأ بريقه ينطفىء فى نهاية السبعينات فتوقفت المجلتان عن الاصدار، ولم يظهر جيل جديد من المطربين يعوض الاختفاء الغامض لشباب الطرب قبل ذلك، والغريب أن فرنسا وسويسرا قد أحستا بهذه الخسارة أخيرا، فقامتا بانشاء محطة اذاعية تحمل اسم «الحنين» nostalgie لا تذيع فيها سوى أغنيات هذا الجيل من المطربين، ليس فى فرنسا وحدها، بل فى كل انحاء العالم.



أذن، فقد توافق عثور بيسون على هذا العدد من المجلة مع حالة خاصة تستبد بأوروبا والعالم، تسمى «الحنين» إلى الماضى من خلال الأغنيات، والاجواء والإبداع الأدبى والسينمائى.

لكن السؤال هو: لماذا المجلات بالذات؟

لا شك أن أى كتاب قديم مهما كانت قيمته. لم يكن له أن يباع بنفس سعر هذا العدد من المجلة، وذلك لعدة أسباب، فالكتاب يمكن طباعته العديد من المرات، أما المجلة فلا يطبع العدد الواحد منها سوى مرة واحدة، وغالباً ما يجُب العدد الجديد زميله الصادر قبله، حتى وان كان عدداً خاصاً من المجلة.

كما أن المجلة تتضمن «الصورة» و«الخبر» -، كثيراً ما تكون الصورة جديدة، حين صدور العدد، لكنها تصبح تاريخا عقب فترة من الوقت، بعد أن تزحف علامات الزمن على الذين ظهروا فى الصورة أو يختفى أصحابها فى أماكن متعددة.

وفى عالم الصحف المجلات، كثيراً ما يكون للخبر الجديد طزاجته، لكنه لا يلبث أن يتحول إلى ذكرى خاصة بعد أن



يمر عليه الزمن، ومن هنا يأتى هوس الحصول على المجلات القديمة. باعتبار أن الهواة لا يمكنهم استرجاع الماضى، أو أشباع الحنين إليه إلا من خلال الحصول على هذه المجلات، والصحف، واقتنائها..

«العروسة» في «الاستوديو»

وإذا كان بيسون قد تحدث في مقاله عن هوس اقتناء المجلات القديمة، فان هذا الهوس معروف فى كل انحاء العالم، ليس فقط لدى الأفراد، بل والمؤسسات المختلفة، فالناس تعشق تراثها وتحاول الاحتفاظ به، وإذا كان الأقدمون قد سجلوا تراثهم بالرسم والنحت والكتابة على جدران المعابد والمسلات، وفى المقابر، فإن إنسان العصر قد سجل أجمل تراثه فى الصحف والمجلات.

وفى مصر هناك سوق خاصة لاشباع الهوس بهذه المجلات، لكننى، قبل الحديث عنه، أود الاشارة إلي تجربة خاصة قمت بها، فعند زيارتى الأولى لأوروبا عام ١٩٨٦، ساقتنى قدماى إلى مكتبة لبيع المجلات القديمة، ولم أكن أعرف لغة أسعارها بعد ورأيت عديداً من المجلات تباع بأرقام فلكية لمجلات سينمائية فرنسية منها «Cini Monde..Cine revu، وغيرها، كنت أقتنى منها المئات، مع فارق واحد، أن المكتبة تضع كل عدد فى كيس سلوفان، وتحافظ عليه مثلما يفعل الأثريون وهم يحافظون على مقتنيات نادرة يعتزون عليها.

التجربة الثانية حدثت لى منذ عدة سنوات قريبة، حين صادقت كاتبا عربياً، كان يأتى إلى مصر كل عام، مع معرض الكتاب، ويتجول لدى باعة الكتب القديمة فى سور الأزبكية، يبحث عن الإعداد القديمة لمجلات فنية من طرازى «العروسة وألاستوديو» وأيضاً «المصور» القديم، ومجلة «إيماج» التى كانت تصدرها دار الهلال.. كان يعمل جاهداً على أقتناء المجموعات الكاملة من بعض هذه المجلات، واكتشفت أن هناك صناعة خاصة بعمل مثل هذه المجموعات، يقوم أصحابها بجمع الاعداد من مصادر مختلفة، ويقومون بتجليدها، وبيعها بأسعار فلكية.

هذه الأسعار تدفع الباعة إلى اعداد المزيد من المجلدات، والبحث عن قدامى الهواة، أو من ورثهم من أجل تحقيق

المزيد من المكاسب، وعرفت أيضاً أن هناك أشخاصاً بأعينهم لديهم مؤسسات متكاملة لجمع هذا التراث، والاحتفاظ به، أو بيعه

يومها اصابني أرق شديد، فقد رأيت بعينّي كيف يخرج تراث مصر بشكل شرعي إلى خارجها خاصة أن الهواة المصريين لا يمكنهم بأي حال من الأحوال شراء هذه المقتنيات بمثل هذه المبالغ، فقد بيعت المجموعة الكاملة لمجلة «العروسة» منذ سبع سنوات، أمام عيني، بمبلغ ٣٥ ألف جنيه، وربما أكثر، حيث تمت الصفقة بالدولار.

وقد فتحت هذه التجربة الاعين إلي تتبعها، ومعرفة أسرارها، ومن خلال الأديب محمد جابر غريب، أحد أشهر باعة الكتب فى سور السيدة زينب، عرفت أن هواة جمع المجلات القديمة، لديهم حاسة رصد خاصة لاستحضار النسخ الكاملة من المجلات، والصحف القديمة، وقد فسر هذا سر الإعلان الذى كانت تنشره صحيفة الوفد طوال الثمانينات عن شخص غير محدد الهوية يطلب إعداد المجلات القديمة وعلى رأسها «الهلال»، المصور، وخاصة الاعداد الخاصة ، ومنها على سبيل المثال العدد الخاص من مجلة «المصور» الصادر عام ١٩٤٢ بمناسبة زفاف الملك فاروق.

ثقافة تجدد نفسها

انه نوع مختلف من الثقافة، والاقتناء، يمكن تسميتها بقراءة القديم جزء منها يعتمد على الاقتناء وهوسه، وجزء آخر يعتمد على إعادة استرجاع الماضى، وقراءته بشكل جديد، فالذين يشترون المجلدات لن يقرأوها بنفس الاستمتاع الذى يحدث للعدد الواحد. أما إعادة قراءة الأمس فتتمثل فى مزج الحاضر بالماضى، والحنين إلى هذا الأخير، وربما رفض للحاضر، ولاشك أن هذا الهوس يزداد يوما وراء آخر، فما كان جديداً البارحة، يعتبر «حنينا» بالغد .

وطالما أن الزمن ينطلق للأمام، وفى زمن تزدهر فيه الصحافة، على الأقل عدداً، فان هذا يؤكد أن كل ما نراه اليوم جديداً سوف تنبث منه رائحة أطلال الماضى فى السنوات القادمة.

وليس غريباً أن هذا الهوس اللذيذ، قد انتقل من الهواة، والباحثين، إلى ذاكرة أكثر اتساعاً، هى دائرة الناس العاديين، وتنبهت صحف كثيرة، ومجلات ، إلي هذا المرض المستبد بالناس نحو النزوع إلى الماضي، فخصصت العديد من الصفحات عن صحافة الماضي، ومنها مجلات «نصف الدنيا» و«أحوال مصرية» و«حواء»، ولعل هذا يفسر نفاد الطبعات الخاصة من مجلة « الهلال» التى صدرت عند « ١٠٠ سنة هلال» « ١٠٠ سنة سينما »، و« ٥٠ سنة ثورة يوليو».

ياالهى.. كم هو جميل.. الأمس البعيد..!!

وكم هو لذيذ.. هوس الحنين إلى الماضى.!!

من رحلة العمر

منير فهمي

لم أكن أتوقع أن تطلب منى مجلة الهلال - ذائعة الصيت - أن أكتب تحت باب «التكوين»، وقد ترددت لسببين، أولهما تفضيلى البعد عن الأضواء وقد اقتربت من السبعين، وثانيهما أننى لم أكتب مذكرات عما قمت به طوال حياتى، سواء الخاصة أو المهنية.

«ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» صدق الله العظيم، وأرجو الصفح إن جاء فيما أكتب إيجابيات قد يأخذها البعض على أنها مديح للذات

ولدت عام ١٩٣٥ ونشأت فى القاهرة فى عائلة محافظة، وكان ترتيبى وسطا، أى الثالث من خمسة أولاد بينهم بنت واحدة تكبرنى مباشرة كان الوالد رحمه الله محام فى البنك العقارى المصرى ثم محام فى قلم قضايا وزارة الأوقاف إلى أن صار وكيلا دائما لتلك الوزارة. الوالدة ربة بيت كانت رحمها الله مفعمة بالثقافة والقراءة والكتابة، وكانت تكتب تحت اسم مستعار للرد على مقالات الراحل الكاتب الكبير توفيق الحكيم عندما اشتهر بأنه عدو المرأة.

فى هذه البيئة المحافظة نشأت متأثراً بتكوين الوالدين، فبالإضافة إلى تعليمى فى مدرستى المنيرة الابتدائية وقصر الدوبارة الثانوية كنت أقرأ فى مكتبة الوالدين سواء الكتب الأدبية أو التاريخ أو القانون وأكثر ما شدنى كتاب المرحوم على باشا عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم». ومن هنا اخترت دراسة القانون وتخرجت فى كلية الحقوق - جامعة القاهرة. وكان من خريجى نفس الدفعة السيد/أحمد ماهر وزير الخارجية والدكتور مفيد شهاب وزير التعليم العالى والبحث العلمى والسيد/أمين المهدى رئيس مجلس الدولة السابق والدكتور مأمون سلامة رئيس جامعة القاهرة السابق والدكتور نعمان جمعة رئيس حزب الوفد وغيرهم. ثم حصلت على دبلومين الدراسات العليا فى الاقتصاد من نفس الجامعة ثم الدكتوراة فى الاقتصاد شجعنى والدى على عدم التوظف فى

الحكومة فاشترى باسمي أسهما في شركة مصر للألبان والأغذية وشركة ادفينا للمنتجات الغذائية قبل تأميمهما تمهيدا لأن أكون عضوا بمجلس إدارة أي منهما بالاضافة إلى مساعدتي في تأسيس مكتب محاماة في شارع طلعت حرب وقد مارست المحاماة بالفعل لمدة سنتين قبل التقدم لمسابقة التعيين في وظيفة ملحق دبلوماسي.

بداية الحياة العملية

بدأت العمل الدبلوماسي عام ١٩٥٨ عملت مع عدد من الزملاء في إدارة الأبحاث وهي الإدارة التي كانت تعمل حينئذ على مدار الساعة وكان بها مجموعة مختارة من الدبلوماسيين من مختلف الدرجات وكان منهم المرحوم السفير كمال الدين خليل والمرحوم السفير صلاح بسيوني والسفير أسامة الباز والسيد/عمرو موسى وزير الخارجية السابق والأمين العام للجامعة العربية حاليا. وبمناسبة تعيين الدكتور مراد غالب وكيلا لوزارة الخارجية عام ١٩٥٩ بعد أن كان مديرا لمكتب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، اختارني للعمل بمكتبه، وقد لمست طوال عملي مع سيادته سعة اطلاعه وثقافته المتنوعة وأدبه الجم وهدوء أعصابه. وكانت تلك الفترة من حياتي الدبلوماسية حافلة بالأحداث ومنها خاصة الوحدة بين مصر وسوريا وانشاء الجمهورية العربية المتحدة وكان الدكتور محمد زكريا إسماعيل من سوريا مديرا لمكتب الدكتور مراد غالب وقد شغل الدكتور زكريا إسماعيل فيما بعد منصب نائب وزير خارجية سوريا ثم الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية. وكان المرحوم الدكتور محمود فوزي وزير خارجية دولة الوحدة كما كان لوزارة الخارجية نائب للوزير – المرحوم حسين ذو الفقار صبري من مصر والدكتور فريد زين الدين من سوريا.. وقد عاصرت في تلك المرحلة ثورة ١٧ تموز في العراق التي أنهت الملكية ووضعت حداً لحلف بغداد. كما عاصرت في تلك الفترة بزوغ حركة عدم الانحياز حيث شاركت في مؤتمر القاهرة التحضيري للحركة الذي عقد في القاهرة في يونيو ١٩٦١ برئاسة المرحوم الدكتور محمود فوزي وزير الخارجية حينئذ، وقمت بإعداد تقرير عن أعماله تلقيت بعده خطاب شكر من وكيل وزارة الخارجية حينئذ المرحوم السفير محمد حافظ إسماعيل.

الحصول على الدكتوراة

وتقدمت أثناء عملي مع الدكتور محمد مراد غالب عندما كان وكيلا لوزارة الخارجية – بطلب للحصول على إحدى البعثات المخصصة لوزارة الخارجية للحصول على درجة الدكتوراة من الجامعات الأمريكية والفرنسية، وكنت أحد من وقع عليهم الاختيار للحصول على



درجة دكتوراة الدولة فى الاقتصاد الدولى من جامعة باريس، وأهلنى لذلك درجاتى فى ليسانس الحقوق وحصولى على دبلومين للدراسات العليا فى الاقتصاد التطبيقى من كلية الحقوق - جامعة القاهرة.. كما وقع الاختيار على زميلى الدكتور سيد أنور أبو على للحصول على درجة الدكتوراة فى القانون الدولى من نفس الجامعة. سافرنا لباريس فى أغسطس ١٩٦١ فى وقت كانت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وفرنسا مقطوعة منذ العدوان الثلاثى على مصر وسوريا - ناهيك عن مساعدات مصر لجبهة التحرير الجزائرية. وهكذا كان وضعى وزميلى فى باريس محل شك السلطات الفرنسية، وقد استفحل الأمر بانفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة فى سبتمبر ١٩٦١، ثم محاكمة الدبلوماسيين الفرنسيين الذين كانوا فى مصر لإنجاز العمل القنصلى وبعثة تصفية الحراسة على أموال الفرنسيين التى أعقبت تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ ثم العدوان الثلاثى على مصر. ولم ينفرج الأمر إلا بعد توقيع اتفاقية ايفيان عام ١٩٦٢ والتى حصلت الجزائر بموجبها على الاستقلال ثم إنهاء محاكمة الدبلوماسيين الفرنسيين أمام المحاكم المصرية.

رحلة التعليم

وبعد استئناف العلاقات الدبلوماسية بين مصر وفرنسا عام ١٩٦٣ طويت صفحة وفتحت أخرى من استكمال الدراسة للحصول على الدكتوراة فى جو أكثر مواتاة لتحصيل العلم، حيث انخرطت في دراسة دبلوم العلوم الاقتصادية ثم دبلوم القانون العام ثم عكفت على إعداد رسالة الدكتوراة فى العلاقات الاقتصادية الدولية، وكان موضوعها «هيئة التنمية الدولية » (التابعة للبنك الدولى) ودورها فى تحقيق التنمية الاقتصادية .

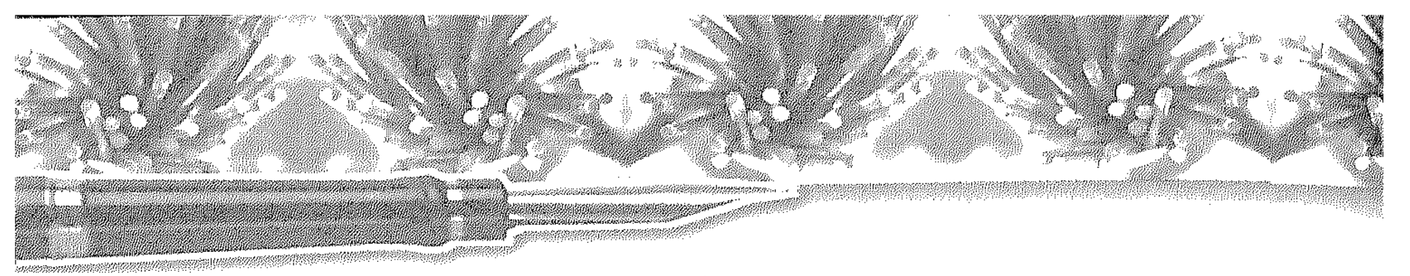
وقد حضر الدكتور فتحى سرور الذى كان المستشار الثقافى بالسفارة المصرية المناقشة العامة لرسالتى وحضر معه المرحوم الدكتور جابر جاد عبد الرحمن الذى كان عميداً لكلية الحقوق بجامعة القاهرة وتصادف وجوده فى باريس، وكان هذا تشريف لى أمام أساتذتى الفرنسيين وزملائى من المصريين، خاصة وقد حصلت على دكتوراة الدولة فى نهاية المناقشة بتقدير جيد جداً.

★★★

وينقسم العمل الدبلوماسى إلى ثلاث تجارب، تختلف كل تجربة عن الأخريات من حيث الخبرة المكتسبة ومن حيث المسئولية من العمل في الديوان العام إلى الدبلوماسية الثنائية إلى دبلوماسية المؤتمرات والمحافل الدولية، ورغم أن بعض الزملاء لم يتسن لهم المرور بتجربة دبلوماسية المؤتمرات والمحافل الدولية، إلا أن حظى كان أوفر بالمرور بالتجارب الثلاث.

دبلوماسية المقر

سبق أن أوضحت أننى اكتسبت خبرة العمل فى إدارة الأبحاث ومكتب وكيل وزارة الخارجية فى الخمسينات وبداية



الستينات وعندما عدت للقاهرة فى نهاية عام ١٩٦٦ بعد حصولى على الدكتوراة الحقت بالعمل بإدارة الهيئات الدولية، وهى إدارة تختص بالأمم المتحدة ونشاط الوكالات المتخصصة وإعداد المذكرات ذات الصلة بالموضوعات الواردة على جدول أعمال كل منها واقتراح المواقف التى تلتزم بها الوفود التى تمثل مصر فى الأجهزة السيادية والتنفيذية لكل منها تمهيدا لعرضها على وزير الخارجية. وأذكر خلال فترة عملى فى تلك الإدارة فى الستينات أن تعرضت مصر للعدوان الإسرائيلى فى يونيو ١٩٦٧، وتم تعبئة الدبلوماسية المصرية منذ ذلك الحين للدفاع عن مواقف مصر لمواجهة العدوان ومتابعة عرض القضية على مجلس الأمن ثم الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى أن صدر قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ فى نوفمبر ١٩٦٧، ثم متابعة مهمة مبعوث السكرتير العام للأمم المتحدة جونارياريخ فى الاتصال بين أطراف النزاع فى الشرق الأوسط لتنفيذ القرار الذى لم يجر تنفيذه بالكامل حتى الآن.

كما كان من المسئوليات التى كلفت بها تنسيق المعونات الفنية التى تحصل عليها مصر من برنامج الأمم المتحدة الانمائى وتقوم الوكالات المتخصصة بتنفيذها فى مصر ضمن خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وقد اكسبتنى هذه المسئولية خبرة كبيرة حول إعداد احتياجات مصر من المعونات الفنية بالتنسيق مع وزارة التخطيط والجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ومختلف الوزارات والجامعات ومراكز البحوث أواخر الستينات ومكتب الممثل المقيم لبرنامج الأمم المتحدة الانمائى فى القاهرة وبعثة مصر الدائمة لدى الأمم المتحدة فى كل من نيويورك وجنيف .

رحلة الدبلوماسية

وبعد أن نقلت للعمل فى كل من واشنطن ونيويورك خلال الفترة من عام ١٩٦٩ إلى ١٩٧٤ عدت للديوان العام حيث كلفت بالعمل فى الإدارة الاقتصادية ومتابعة موضوع الحوار العربى الأوروبى والحوار فيما بين الشمال والجنوب على أثر أزمة الطاقة التى نشأت بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وحظر تصدير البترول عن الدول المؤيدة لإسرائيل، ومطالبة الدول الأوروبية والدول المتقدمة عموما بالحصول على ضمانات لعدم توقف امدادات البترول من الدول المصدرة للبترول واعادة تدوير عائدات البترول لصالح شركات الدول المتقدمة بينما طالبت الدول النامية عموما بانشاء نظام اقتصادى دولى جديد أكثر عدالة وانصافا وعقدت من أجل ذلك دورتان خاصتان للجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٤ و ١٩٧٥ برئاسة السيد عبدالعزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر

حينئذ ورئيسها حاليا.

خبرات العمل

واعتباراً من يونيو ١٩٧٥ طلبني المرحوم إسماعيل فهمي نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية للعمل كمستشار بمكتبه الذي كان يديره حينئذ السفير أسامة الباز. وكان العمل يتناول عرض أهم ما يرد من السفارات والبعثات في الخارج وما تعرضه إدارات الوزارة ووكلاؤها على الوزير ثم إبلاغ توجيهات وتعليمات الوزير لجميع تلك الجهات بالإضافة إلى الاتصالات التي تجرى فيما بين مكتب وزير الخارجية ورئاسة مجلس الوزراء ومكاتب الوزراء فيما يخص عمل ونشاط العلاقات الخارجية، يضاف إلى ذلك إعداد المذكرات اللازمة للمباحثات التي يجريها وزير الخارجية مع أقرانه الذين يزورون مصر، ومتابعة نتائجها مع الوكلاء والمديرين المختصين والوزارات المعنية، ومن خلال عملي هذا اكتسبت خبرة لا تقدر بمال من حيث الاطلاع على احتياجات الدولة وأولوياتها والتي يلزم متابعتها من خلال الاتصالات بالعالم الخارجي سواء عن طريق المباحثات التي تجرى في القاهرة أو في الخارج من خلال سفاراتنا وبعثاتنا المعتمدة في مختلف العواصم والمنظمات والمؤسسات الدولية.

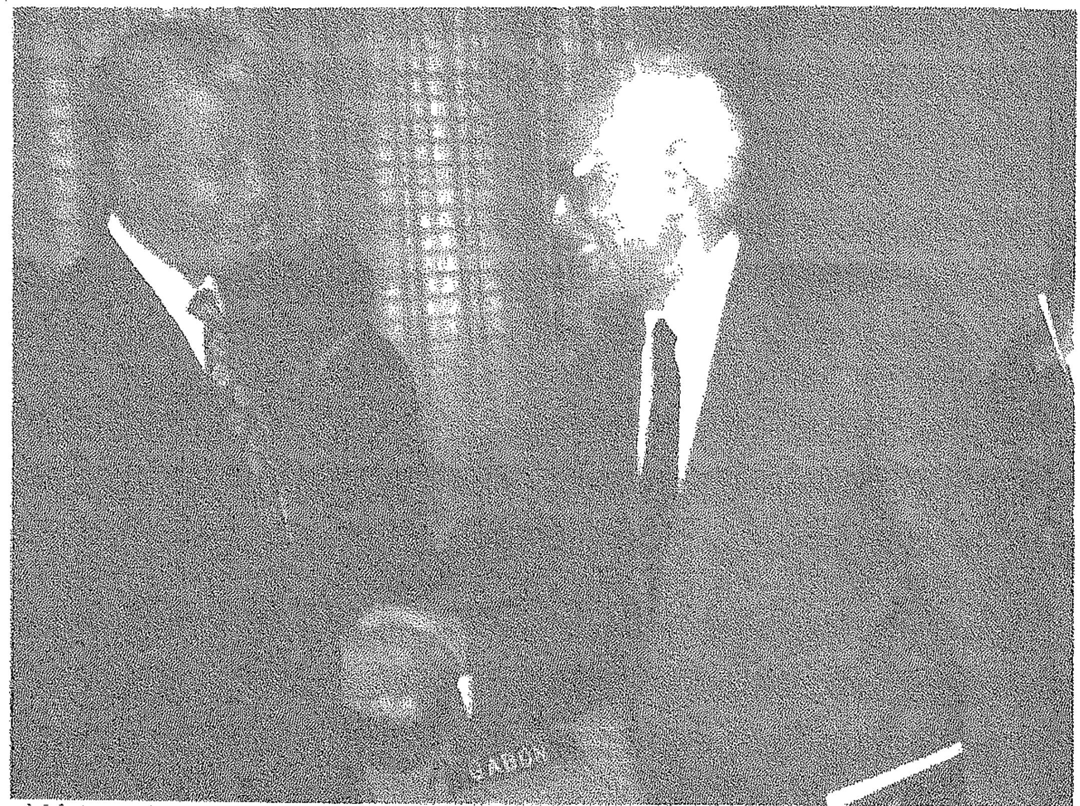
ثم توليت منصب نائب مدير الإدارة الاقتصادية خلال الفترة من ١٩٨٢ حتى ١٩٨٤ حيث شاركت في مباحثات اقتصادية عديدة سواء في مصر أو ضمن وفود مصر في مختلف العواصم سواء مع المجموعة الاقتصادية الأوروبية (الاتحاد الأوروبي حاليا) لمتابعة تنفيذ اتفاقية التعاون بين الجانبين أو اتفاقيات التجارة والتعاون الاقتصادي مع العديد من الدول المتقدمة سواء اشتراكية أو رأسمالية وكلها تصب لصالح تمويل وتنفيذ مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية إضافة إلى المشاركة في وفود مصر في اجتماعات الجات والانكتاد واللجنة الاقتصادية لأفريقيا واللجنة الاقتصادية لغرب آسيا والبنك الإسلامي لتنمية ومنظمة المؤتمر الإسلامي ومنظمة الوحدة الإفريقية وجامعة الدول العربية.

وكنت مديراً لإدارة الهيئات الدولية بدلا من السفير عمرو موسى الذي تم تعيينه عام ١٩٨٩ مندوبا دائماً لمصر لدى الأمم المتحدة في نيويورك. وكان الرئيس حسني مبارك يتولى رئاسة منظمة الوحدة الإفريقية حيث كنت مبعوثا خاصا لسيادته لدى الرؤساء الأفارقة خاصة بالنسبة للنزاع فيما بين موريتانيا والسنغال والأزمة في القرن الإفريقي ومتابعة الاتصالات فيما بين أثيوبيا والصومال وجيبوتي، والنزاع فيما بين ليبيا وتشاد حول إقليم أوزو والحرب الدائرة في أنجولا حيث تم إيفادي لرؤساء زائير وأنجولا .

وقد عاصرت في تلك الفترة انتقال جامعة الدول العربية من تونس إلى القاهرة بعد غياب زاد على عشر سنوات ثم انتخاب الدكتور أحمد عصمت عبد المجيد أمينا عاما للجامعة العربية وحل محله السيد/عمرو موسى الذي ترك موقعه







منير زهران فى لقائه مع نيلسون مانديلا ، عندما كان مانديلا رئيسا للمؤتمر الإفريقى الوطنى - ١٩٩٢

فى نيويورك للسفير الدكتور/نبيل العربى ونقلت، مندوبا دائما لمصر لدى مقر الأمم المتحدة فى جنيف وغيرها من المنظمات الدولية الأخرى التى توجد مقارها فى سويسرا - واستمر قيامى بتلك المهام حتى يوليو ١٩٩٩.

تجربتي في الدبلوماسية الثنائية

يمكن ايجاز تجربتى فى الدبلوماسية الثنائية فى العمل فى إحدى السفارات المصرية المعتمدة فى إحدى عواصم الدول المختلفة وهكذا فقد عملت لفترات قصرت أو طالت فى سفارات مصر فى باريس وواشنطن وبروكسل والرباط وخرجت من عملى فى كل منها بخبرة وتجربة تختلف عن تلك التى اكتسبتها من باقى السفارات فبعد حصولى على الدكتوراه من جامعة باريس طلبت من وزارة الخارجية الانضمام لسفارتنا فى باريس حتى نهاية عام ١٩٦٦ بتكليف محدد، هو متابعة طلب الرئيس ديجول نقل قصر حلف الأطلنطى من باريس الذى انتقل حينئذ لبروكسل ثم متابعة الإجراء العقابى للولايات المتحدة ضد فرنسا بخروج الاستثمارات الأمريكية فى فرنسا واقتراح وزير المالية الفرنسى حينئذ «فاليرى جسكار ديستان» الذى تولى الرئاسة بعد ذلك فى السبعينات باصلاح النظام النقدى الدولى الذى كان مرتبطا بقاعدة الذهب والاستفادة من تجربتى واتصالاتى بمراكز البحث فى

إعداد تلك الدراسات وقد بذلت قصارى جهدى فى إعداد تلك الدراسات التى أوضحت بجلاء حرص فرنسا تحت زعامة الرئيس ديجول بأن يكون لها سياسة دفاعية قوية ومستقلة مع زيادة الاعتماد على الذات والحرص على الاعتماد على الذات أيضا اقتصاديا بعد تجربة سحب الاستثمارات الأمريكية من الاقتصاد الفرنسى فى لمح البصر تاركة انعكاسات اقتصادية واجتماعية فى غاية الخطورة بمالها من تأثير على النظام السياسى فى فرنسا.

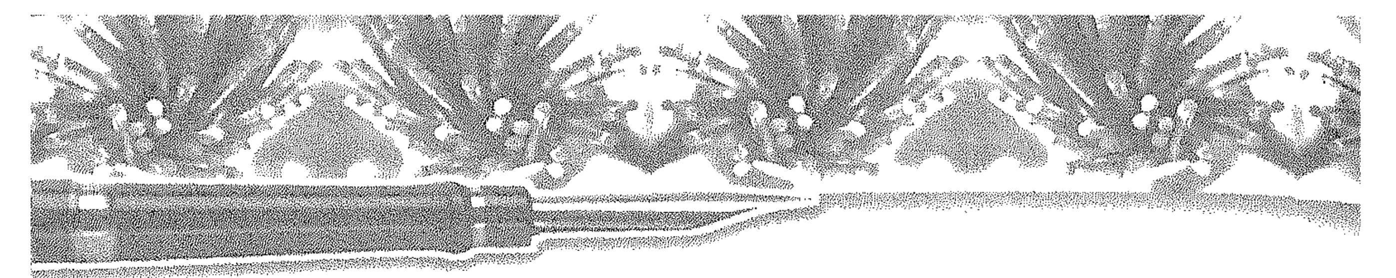
أما تجربتى فى واشنطن: فهى تنقسم إلى مرحلتين: الأولى بنقلى من القاهرة عام ١٩٦٩ للعمل بقسم رعاية المصالح المصرية فى واشنطن التابع لسفارة الهند حيث وافقت الهند منذ عدوان يونيو ١٩٦٧ وقرار الرئيس جمال عبدالناصر قطع العلاقات الدبلوماسية مع واشنطن على رعاية المصالح المصرية فى واشنطن ووافقت سويسرا على رعاية المصالح الأمريكية فى القاهرة.

وكان يرأس قسم رعاية المصالح المصرية فى واشنطن السفير الدكتور أشرف غربال، وقد عملت تحت رئاسته إلى بداية عام ١٩٧٢ حيث نقل للقاهرة ليعمل مع مستشار الأمن القومى برئاسة الجمهورية المرحوم حافظ اسماعيل ثم مستشارا صحفيا للرئيس السادات. وفى الوقت نفسه نقلت من واشنطن إلى وفد مصر الدائم فى نيويورك بعد خفض عدد أعضاء قسمى رعاية المصالح الأمريكية فى القاهرة والمصرية فى واشنطن بعد اتهام القاهرة لبعض الدبلوماسيين الأمريكيين بالتجسس وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وفى نهاية عام ١٩٧٣ تقرر بناء على طلب السفير الدكتور أشرف غربال عودتى إلى واشنطن ضمن أعضاء السفارة المصرية بعد استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

العمل في واشنطن

وهكذا عشت فى واشنطن تجربتين: الأولى فى ظل علاقات مقطوعة رسميا ولكنها فعليا موصولة بفضل كفاءة الدكتور أشرف غربال النادرة ونشاطه الدائب، والثانية بعد استئناف العلاقات الدبلوماسية رسميا ورفع العلم المصرى على السفارة عام ١٩٧٤، حيث عشنا فى تلك الفترة شهر عسل العلاقات التى توجت بزيارة الرئيس نيكسون للقاهرة مرورا بفض الاشتباك الأول وانسحاب القوات الاسرائيلية من غرب القناة إلى ما بعد خط بارليف.

وكان العمل فى واشنطن سواء فى قسم رعاية المصالح المصرية أو بعد استئناف العلاقات بين البلدين مثل خلية النحل على قدر كفاءة المايسترو أشرف غربال الذى أشهد أننى تعلمت منه الكثير سواء من حيث الاتصالات التى كان يثابر عليها أو المحاضرات التى كان يلقيها أو الاستقبالات التى كان يدعو لها ومن ناحيتى فقد كنت حلقة الاتصال مع البنتاجون فى فترة قطع العلاقات مع متابعة موضوعات الطاقة والعلاقات



الاقتصادية بين البلدين وبعد استئناف العلاقات كنت حلقة الاتصال مع الكونجرس الأمريكي بمجلسيه - النواب والشيوخ - في الوقت نفسه الذي كان فيه السفير دائب الاتصال مع الجميع كما كنت على صلات وثيقة مع معهد -American Enfterise I nstitute وهو التنظيم الذى كان يتولى إعداد الدراسات ويقوم باللوبى لصالح شركات البترول فى الكونجرس.

وفى بروكسل عملت كمستشار ثم وزير مفوض بسفارتنا هناك فقد كانت تجربة فريدة من نوعها فقد عملت مع سفيرين مرموقين الأول المرحوم كمال الدين خليل الذى نقل بعد سنة إلى باريس ليحل محل السفير محمد حافظ اسماعيل وقد عين فى بروكسل بدلا منه السفير أحمد توفيق خليل الذى رافقته فى تقديم أوراق اعتماده للملك بودوان ملك البلجيك وإلى الدوق الأكبر لدوقية لكسمبرج وإلى رئيس اللجنة الأوروبية روى جينكنز وهكذا كانت السفارة المصرية فى بروكسل معتمدة لدى كل من بلجيكا ولكسمبرج ومعتمدة كذلك كبعثة دائمة لدى المجموعة الاقتصادية الأوروبية عندما كانت الدول الأعضاء تسعة قبل انضمام أسبانيا والبرتغال واليونان وقبل انضمام السويد وفنلندا والنمسا كما تختص السفارة المصرية فى بروكسل بمتابعة ما يجرى فى حلف الأطلنطى من اجتماعات ومواقف تؤثر على مصر والشرق الأوسط وأخيرا متابعة اتصالات مصر مع مجلس التعاون الجمركى الذى تحول إلى منظمة التعاون الجمركى.

ومن خلال وجودى فى بروكسل كانت العلاقات بمختلف أشكالها تنمو وتزدهر سياسيا واقتصاديا مع كل من بلجيكا ولكسمبرج والمجموعة الاقتصادية الأوروبية.

تجربة المغرب

وفى الرباط بدأت مهمتى عام ١٩٨٥ كرئيس لقسم رعاية المصالح المصرية التابع لسفارة السنغال ثم عندما استؤنفت العلاقات الدبلوماسية بالكامل عام ١٩٨٧ اختارنى الرئيس مبارك سفيرا لدى الملك الحسن الثانى حيث قدمت له أوراق اعتمادى وبقيت هناك حتى يوليو ١٩٨٩ واختلفت تجربتى الثنائية فى المغرب عن باقى التجارب فلم يكن من المتوقع أصلا أن تقطع المملكة المغربية علاقاتها الدبلوماسية مع مصر بعد ترتيب لقاءات بين مسئولين مصريين واسرائيليين فى المغرب ثم تأييد الملك الحسن للرئيس السادات سواء بالنسبة لزيارته للقدس عام ١٩٧٧ أو بالنسبة لاتفاق كامب ديفيد لذلك كان لدى مصر مرارة من التصرف المغربى ثم كان من المتوقع استئناف العلاقات الدبلوماسية بين مصر والمغرب بعد زيارة الرئيس مبارك للرباط عام ١٩٨٤ فى طريق عودته من الولايات المتحدة وبالتالى كان من المنتظر أن أبدأ مهمتى فى الرباط كسفير معتمد وليس كرئيس لقسم رعاية المصالح المصرية إلا أن توقيع معاهدة الاتحاد العربى الأفريقى بين المغرب وليبيا اعتبره البعض صفقة تم فيها تبادل المصالح بين البلدين وفحواها ألا يستأنف المغرب العلاقات الدبلوماسية مع مصر مقابل عدم دعم ليبيا لجبهة البوليساريو

ومع الوقت اتضح أن معاهدة الاتحاد العربي الأفريقي لم تصمد أمام زيارة شيمون بيريز لإيفران ثم فتور العلاقات بين البلدين وقد استوعبت معاهدة اتحاد المغرب العربي التي ضمت جميع دول المغرب العربي بما في ذلك موريتانيا معاهدة الاتحاد العربي الأفريقي.

وهكذا ساهمت في تعزيز العلاقات بين مصر والمغرب بعد أن استؤنفت تلك العلاقات تدريجيا مع جميع الدول العربية على أثر القمة العربية في عمان.

ودعا الملك الحسن الرئيس مبارك لحضور أول قمة عربية تحضرها مصر في الدار البيضاء عام ١٩٨٩ حيث تقرر عودة مصر لشغل مقعدها في جامعة الدول العربية - قبل انتهاء مهمتي كسفير لمصر في الرباط في صيف عام ١٩٨٩.

التجربة مع دبلوماسية المؤتمرات والمحافل الدولية

كان أول عهدي بالدبلوماسية متعددة الأطراف فكان بمناسبة مشاركتي في الاجتماع الوزاري التحضيري الذي عقد في القاهرة في يونيو ١٩٦١ ثم مشاركتي في المؤتمر العام لمنظمة اليونسكو عام ١٩٦٦ ثم رئاستي لوفد مصر في مؤتمر المفوضين لمنظمة الأنتلسات (الاتصالات عن طريق الأقمار الصناعية) الذي عقد في واشنطن عامي ٦٩ و١٩٧٠.

وبعد عملي في قسم رعاية المصالح المصرية في واشنطن نقلت إلى نيويورك كسكرتير أول بوفد مصر الدائم لدى الأمم المتحدة الذي رأسه الدكتور عصمت عبدالمجيد رائد الدبلوماسية الهادئة القائمة على الحوار، وقد شاركت في اجتماعات عديدة في إطار دورات الجمعية العامة واجتماعات مجلس الأمن وخاصة في كل ما يتصل بقضية الشرق الأوسط.

خبرة متعددة

وفي جنيف استكملت خبرتي في الدبلوماسية متعددة الأطراف حيث نقلت كمندوب دائم لدى المنظمات الدولية في جنيف عام ١٩٩١ واستمر عملي هناك حتى يوليو ١٩٩٩ وكانت فترة حافلة بالعمل المتواصل في الاجتماعات الدولية انعكس عليها ضغوط القطب الأوحد بها تفكك الاتحاد السوفيتي في نهاية ١٩٩١ وقد شاهدت ذلك في الاجتماعات الدولية التي رأستها أو رأست وفد مصر فيها سواء في مؤتمر نزع السلاح أو رئاستي لاجتماعات في إطار الانكتاد ولجنة التجارة والتنمية ورئاستي لمجلس الجات والأطراف المتعاقدة لمدة سنتين ورئاستي لاجتماعات مؤتمر نزع السلاح ولجانه واجتماعات في منظمة العمل الدولية والملكية الفكرية ورئاستي لفريق المفاوضين في نهاية جولة أوروجواي وإنشاء المنظمة العالمية للتجارة ثم مشاركتي في أربعة اجتماعات وزارية في هذا الاطار وبزوغ واستفحال ظاهرة العولمة لهيمنة الدول المتقدمة على الاقتصاد الدولي لصالح الشركات عبر القومية وتهميش دور الدول النامية ومحاولة الدول المتقدمة تفكيك التضامن فيما بين الدول النامية ومجموعاتها من خلال العلاقات الثنائية



مع بطرس غالى أمين عام الأمم المتحدة السابق - ١٩٩٦

إما بالتهديد أو الوعيد.

وأخيرا فقد تشرفت بأن أكون ممثلا شخصيا للسيد الرئيس فى مجموعة الخمسة عشر للدول النامية وشاركت فى الاعداد لستة مؤتمرات لقمة المجموعة منذ عام ١٩٩٥ منها مؤتمران للقمة عقدا فى القاهرة عامى ١٩٩٨ وعام ٢٠٠٠ برئاسة الرئيس محمد حسنى مبارك أسفرا عن مواقف مشرقة لدعم المركز التفاوضى للدول النامية سواء بالنسبة لمواجهة أزمة الأسواق المالية التى بدأت فى دول جنوب شرق آسيا منذ صيف عام ١٩٩٧ وإصلاح النظام المالى الدولى أو بالنسبة لاستراتيجية التنمية للدول النامية فى القرن الحادى والعشرين وأولوياتها.

كما كسبت باختيارى عضوا بالمجلس القومى للمرأة لمدة ثلاث سنوات حيث كنت مقررا للجنة العلاقات الخارجية أليست هذه صدفة فأسرة والدتى تنتسب إلى عائلة قاسم أمين.

هذه نبذة عن مسيرة حياتى الشخصية والوظيفية أردت أن أسطرها فى أضيق الحدود، وهى مسيرة أثرت فى تكوينى مع مرور الزمن وتسابق الأحداث، بحيث أضافت كل مرحلة من مراحلها إلى رصيدى ومكنتنى من مواصلة عطائى بمعنى أننى وان كنت قد تعلمت أكاديميا الحد الأدنى الذى أعطانى القدرة على العطاء سواء فى مجال المحاماة، التى عدت إليها بعد أن بلغت سن المعاش والعود أحمد، فإننى كنت أتعلم فى كل مرحلة لكى أصحح من مسارى وأضيف فى المرحلة اللاحقة . والله ولى التوفيق.

• عاطف مصطفى

منصور فهمي ووضع المرأة في الإسلام

وصلتنا هذه الرسالة من الأديب أحمد حسين الطماوى يتناول فيها بالرأى عدد مايو الماضى من الهلال .

● عن موضوع المرأة فى الإسلام لكاتبه شكرى فؤاد قال : جاء فى ص ٢٠٣ أن كتاب منصور صدر باللغة الفرنسية فى باريس - ولم يترجم إلى العربية ، ولم ينشر فى مصر ، والكتاب المذكور ترجمته رفيده فؤاد ، وراجعه هاشم صالح ، ونشرته دار الجمل - كلونيا - ألمانيا وأشتريته من أسواق الكتب فى مصر .

ويقول الأستاذ شكرى فؤاد ص ٢٠٥ إن كتاب منصور فهمى نشر فى طبعة ثانية فى باريس أيضا عام ٢٠٠٢ ، وتفيدنا الترجمة العربية للكتاب ص ١٥٨ أن الكتاب طبع طبعة جديدة فى باريس عام ١٩٩٠ وكتب مقدمتها بالفرنسية محمد حربى ، وهنا يتبين أن الطبعة التى يشير إليها كاتب المقال سنة ٢٠٠٢ هى الطبعة الثالثة .

وقد فصل منصور فهمى من الجامعة لأن كتابه تضمن طعنا فى الإسلام ، ويقول شكرى فؤاد إنه حدثت حول الكتاب «معركة مرت بهدوء ، وكادت تذهب الآن نسيا منسيا» .

ويقول أيضا عن د. منصور فهمى «فلما أدرك مخاطر السبيل الذى سكله آثر الإنسحاب بهدوء ، والإنحناء للعاصفة حتى يمر ونزع فتيل الأزمة قبل أن تصل إلى الرأى العام وجمهور المثقفين» والواقع أن معركة كتاب المرأة المسلمة لم تمر بهدوء ولا نسيتها الأجيال منذ وقوعها .

حملت على الكتاب جريدة المؤيد فى ٢٠ يناير ١٩١٤ ، وعاودت «المؤيد» الهجوم على الكتاب واعتبرت ما جاء فيه حملة مدبرة على نبى الإسلام الكريم فى مارس ١٩١٤ لكن د.طه حسين تعاطف مع الكتاب ، وكذلك أنور الجندى ود. إبراهيم بيومى مدكور .



● عدد مايو ليس عملا دعائيا وإنما دراسات علمية تكشف عن المخططات الأمريكية الصهيونية ضد العرب .



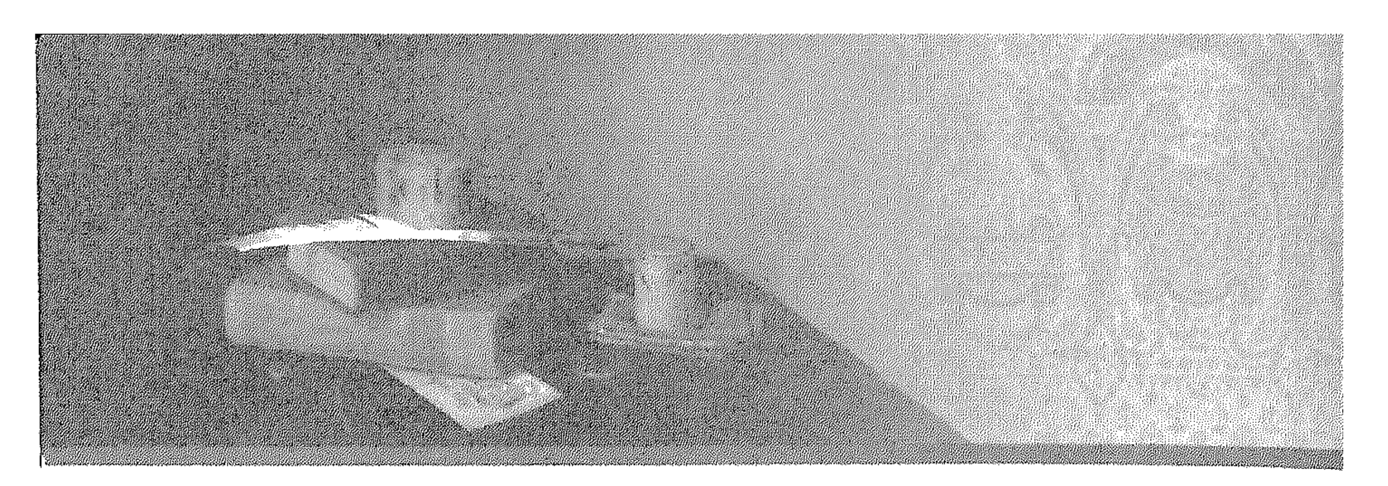
الجنوح إلى السلم أمان

«وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم» أى تسعى للقوة لتخيف الآخر فلا يعتدى عليك والحروب يضطر لها الإنسان ، وأضرارها تمس الشيوخ والنساء والأطفال .

وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ففى الصبر أمان ، «ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين» .

وفى الإسلام الحرابة ممنوعة ، لأنها عدوان ، أما الإرهاب بمعنى الإخافة فمسموح بها لأنه عدم عدوان ، وفى الجنوح إلى السلم أمان ، والتغافل عن الحقائق له حساب وخيم عند الله

مهندس - رستم غالب - القاهرة



وبعد القدس بغداد !

سيسوبعد القدس بغداد — وكم للكفر أبعاد
لأمريكا وأوربا — طموحات ومن هادوا
لهم أمل له عمل — يناسبه وإعداد
فكم هذى مكاسبهم — على الأيام تزداد
ونفقد نحن ما كنا — وكم للفقد أسياد
ننام وغيرنا صاحٍ — له خيل وأجناد
سينتصر الذى يسعى — وما للنصر إخلاد

★

علينا بالقوى دخلوا — ليحتلوا ويصطادوا
وكم قالوا لنا خلوا — لنا عود وما عادوا
نصدقهم وهم كذب — له فى القرب أبعاد
وكم كذبوا على صدق — وكم عن حقنا حادوا
نعانيهم مرارات — ونهواهم ونرتاد
ونحميهم معرات — كأن العار أمجاد

★

لنا كم كان إعداد — ونحن الآن أعداد
على إيقاعهم نحيا — خيالات ونعتاد
على عينى لنا ماض — تلهت عنه أحفاد
وتاهت بين كم ماض — بتيه والهوى زاد
همو لا نحن إرهاب — فكيف تطارد الضاد ؟!
وكيف يقود من قادوا — وهم كفر وإلحاد ؟!
لنا مجد ينادينا — من الماضى وأجداد

حسن أبوالغيط - المصيلحة - منوفية

مشروع حضارى للأمة العربية

فى افتتاحية العدد الماضى «العراق يبعث من جديد» دعا رئيس التحرير النخبة والصفوة فى العالم العربى للقيام بالمراجعة الشاملة لدروس التجارب المريرة الماضية بدءا من نكبة ١٩٤٨ إلى احتلال العراق مؤخرا مرورا بنكسة يونيو ١٩٦٧ .

بعد هذه النكسة ظهرت مشاريع فكرية عربية معاصرة فى مصر وسوريا والمغرب ، تحاول وضع تساؤل ضرورى وهو : كيف يمكن للأمة العربية أن تنهض من كبوتها ، وأختلفت الآراء وتعددت المشروعات ابتداء من «تجديد الفكر العربى فى مصر» لزكى نجيب محمود ،



ودعوة أحمد بهاء الدين إلى اقامة الدولة العصرية ، و«نقد العقل العربى» لمحمد عابد الجابرى .

فهل منعت هذه المشاريع الفكرية من احتلال الولايات المتحدة الأمريكية للعراق ؟ .. وهل وصلت هذه الاجتهادات الفكرية والفلسفية إلى المواطن العربى البسيط على الأرض العربية من الخليج إلى المحيط ؟

إننى أضم صوتى للهلال فى دعوته إلى النخبة والصفوة العربية للمشاركة إيجابيا ، والإسهام فى طرح مشروع حضارى للأمة العربية للخروج من المأزق التاريخى الذى تعيشه الآن .

عمرو عبدالمنعم حمودة
برما - طنطا - غربية

● الهلال : نحن بالفعل نؤكد على هذا المشروع الحضارى وننتظر إسهامات المفكرين والكتاب العرب وسوف ننشر كل ما يصلنا من كتابات جادة تتناول ترسيخ الديمقراطية وحقوق الإنسان من أجل نظام عربى جديد يحفظ للأمة العربية دورها التاريخى والحضارى .

ذكريات .. خبأتها المساءات

عندما تلتقى مقلتانا
ستبتسمان كعادتهما
وسنيثر زهر الجوى
عطره للوجوده
وتؤوب طيور السنونو ..
على سفحنا
لتغنى تمائم شوق
يسافر .. فى عشقنا الخلود
فلتكن ذكريات المساء ..
تعانق فينا
بقايا أخضرار (الورود)
هكذا لم نعد بالصباحات ..
نفرح ..
عند ابتهال الوعود
هكذا حلمنا لايزال يحن لطيف
تدلى
بدفء الدروب ..
لكيما يفك القيود

إننى مثل لحن الهيام ..
ألاطم .. منحدرات الجنادل ..
وحدى ،
وأخشى السدود
فإليك .. شجونى ،
وعمرى ،
وقلبى ،
وعقلى ،
وكلى ،
وبعضى ،
وصمتى ،
وصمت الشرود
وإليك .. حروفى التى علمتنى
ارتجال القصيد ،
لترسل عند الحنين ..
اشتياق الحدود
كيف تنتظرين ..
لجرح قديم على جسرنا ؟!



إننى الآن - يامهجتى -
جئت أمسح دمعاً تناثر ..

فوق الخدود

عبدالناصر أحمد الجوهرى
دكرنس - دقهلية

مساندة العراق الشقيق

لابد لكل منصف أن يتوقف طويلا أمام العدد الماضى ، وأعتبره عددا خاصا عن العراق ، هذا البلد العربى الذى يحتاج معه كتاب مصر ومثقفيها مساندته فى هذه المحنة التى تعرض لها على يد قوات التحالف وليواصل النزيف الذى بدأ للأسف الشديد بحرب الخليج الأولى ضد إيران فى سبتمبر ١٩٨٠ ، ومازال شعبه المنكوب يتجرع الآلام .

إن أكثر ما أعجبنى فى ذلك العدد هو تركيزه على أهمية العراق التاريخية وحضارته المجيدة بأقلام صفوة من كتابنا العرب .

وإذا كان الحديث يركز على حضارة هذا البلد وتاريخه دون أن يلتفت إلى بعض القيادات الزائلة من منطلق أن العراق هو الباقى ، وأن الأهم هو شعبه العريق الذى طالما عانى من بعض حكامه المتجبرين الذين لم يؤمنوا إلا بالحديد والنار .

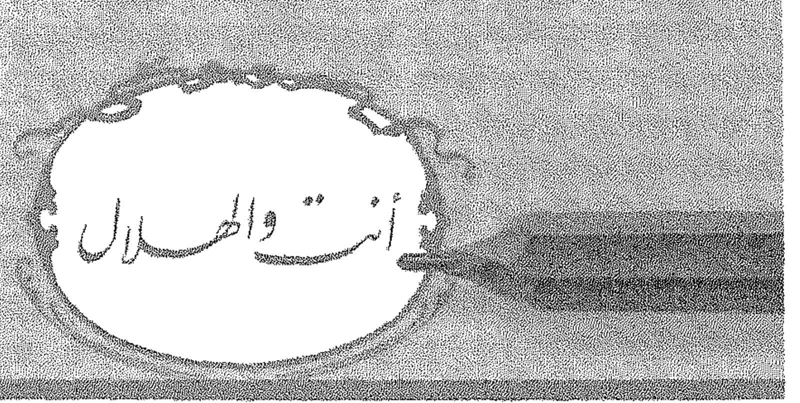
أعجبنى من المقالات «شعراء مصر يحيون العراق» للدكتور البيومى ، ومقال وديع فلسطين عن الشاعرة الجميلة لميعة عباس عمارة ومقال الإعلام والحرب على العراق لجلال أمين والشعر الحر فى العراق للدكتور يوسف عزالدين ... نتمنى أن تواصل الهلال مجلتنا الثقافية الأولى فى الوطن العربى الكتابة عن هذا القطر الشقيق .. نسانده ونقف مع شعبه ليسترد حريته ويعود لمواصلة حضارته العربية الأصلية .

ميار رفقى عبدالرحمن - المنصورة

روح شريد

مـــا الذى أملك فى هذا الوجـــود ؟
حين نبـضـى فى دجى الليل كـمـــا
حين روحى دوحـــة عـــاشت بهـــا
فـغـدت قـفـراً ، وقـاعـاً صـفـصـفـا
حـــينمـــا أدركت أنـى إنمـا
سكنتـهـــا الناس ، يومـــا ، قـبـل أن
كل حب صـــار زيفـــا كـــاذبا
ذاك صـــوتى (عـــبـرة مـهـــراقـة)
ليـست البـســمـة فى عـينى صـدقـا
لـست أبـكى الـنـاس ، كـــلا ، بل أنـا

حين قلبى - رغم من حـولى- وحـيـد
خـفق طيـر ، مـتـعب الروح ، شـريد
ريح نـحس ، نفث شـيطان مـريد
وغـدت سـوداً بهـــا ، حـتى الورود
أنـسج الـوهـم ، على أرض تميـــد
تمسخ الناس أسـودا ، بل قـرود
كل عـدل صـــار حـيـفـاً وجـحـود
هى شـعـرى ، وغنائى ، والقـصـيـد
هل ترى خلف ابتـسامـاتى المزيد ؟
أنثنى . عطفـــا ، على قلب عنيـد



يطلب النور ، وفى الكون ظلام   يرتجى دفء قلوب من جليد
أيها الروح التى عاشت بروحى   دون أن أدرى ، ومن دهر بعيد
هاك شعرى ، إنه وحى ضميرى   إنه نفسى ، وفى جسمى وريد
دعك من أرض بها مات الوفا   ليس قد ثم بها شخص رشيد
وتعالى نتلاقى فى السما   ولتكن رحباً لنا ، دون حدود

أمانى حاتم بسيسو - عمان - الأردن

أين شعراؤنا ؟

كان الشعراء العرب فى الماضى هم الذين يثيرون الحماس فى نفوسنا بل كانوا هم بمثابة الإعلام لقبائلهم وشعوبهم ، حتى قيل إن الشعر ديوان العرب .. فلماذا لم يعد الشعر كما كان فى الماضى ؟

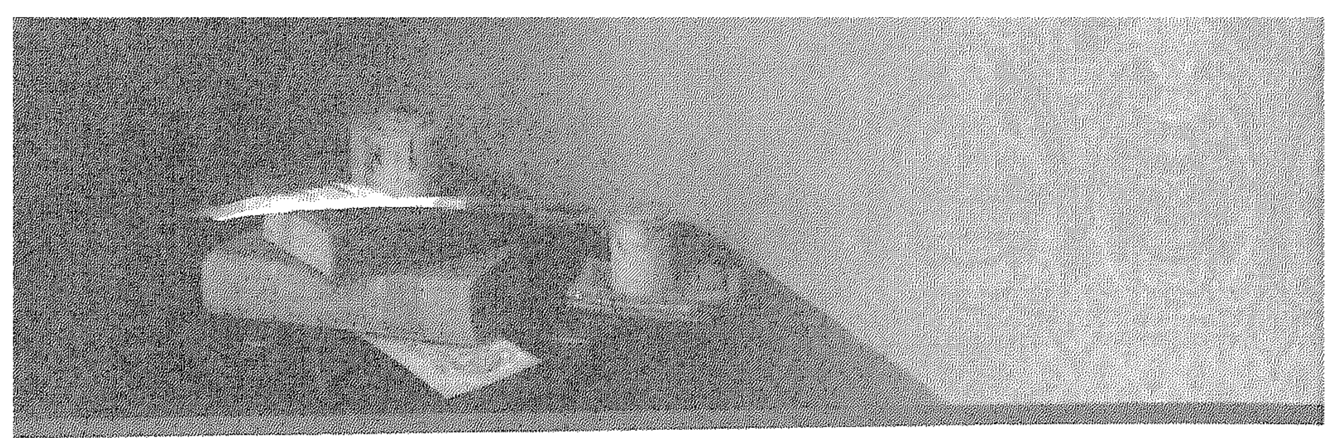
إبراهيم أحمد - أسوان

● الهلال : لقد غلبت أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية ، فانحسر دور الكتاب وبالتالى دور الشعر ، كما أن الرواية طغت فى السنوات الأخيرة فإنصرف الناس إليها ، أيضا عدم الأهتمام باللغة العربية وقواعدها ، فضلا عن ندرة المواهب الحقيقية هو سبب أخر من أسباب قلة الشعراء ، كما أن طغيان مايسمى بشعر الحداثة الذى يهدم قواعد الشعر العربى الأصيل أدى أيضا إلى تراجع النموذج الحقيقى للشعر ، ونتمنى فعلاً أن يعود للشعر دوره فى حياتنا .

هذا ما قالته نظرتها الأولى

مطر يعوى وبحور صامتة
ورحيق أعنف من طوفان العشق
هدأة نهر وقوارب
عد
برق
وعواصف
تعزف وجدى الصاخب
كى تكتمل طقوس البوح ..
وتولد أطياف الحب الهارب
أرقنى الليل برغم مناجاتى
مازال حنينى يسبح ..
فى قلب تائب
كم أرقنى
وكأنى كنت بوجعى الأزلى ..
أجوب كواكب حزنى
لأفتش بين جراحاتى عن أمل غائب
كم أوجعنى أن رهان الحب جحيم
كيف يعانق غدر غدراً ..
دون مخالب
هذا ما قالته نظرتها الأولى

صابر صبرى معوض



رد على مقال د. البيومي

أعجبت بمقال د. محمد البيومى المنشور فى العدد الماضى بعنوان «شعراء مصر يحيون العراق» .

ويقول فى ص ٣٧ «وشعراء الجيل الماضى كانوا أقوى على التعبير الذى يملك عواطف القراء بما يفصح عن مشاعرهم الواضحة دون التواء ... فقد رأيت أن أعرض للقراء الكرام مايحسون به من مشاعر الحب نحو بغداد من خلال ما قاله شعراء الأمس .

ولكننى أقول على سبيل المثال ، جيل الخمسينيات فى معركة العدوان الثلاثى على بورسعيد كانت لبعضهم - إن لم يكن للكثيرين منهم - قصائد أكثر حيوية ونبضا من خلال لغة عربية رصينة .

إن تكريم أستاذنا د. رجب البيومى لنا بعلمه فضل لا ننكره ، ولكم قولة حق لابد نزجيها فى حق بعض شعرنا الأصيل فى المعارك وغيرها مما يشهد بأن هؤلاء المعاصرين الأكفاء يستحقون أن يدخلوا تحت مظلة حماية د. البيومى النقدية وهم كثر .

د. سامى منير عامر
كلية التربية - جامعة الإسكندرية

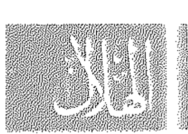
ثلاثة مقاطع للألم

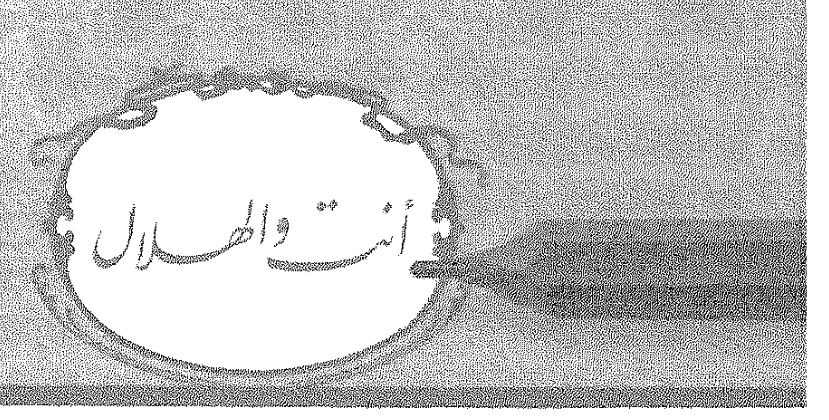
كيف لى
أن أغنى ؟!
وأنا ..
ليس لى ياصاح دار
حائر
سائر فى ذا المدار
والذى جمعته
فى سلتى ..
كان بعضاً من محار !!
كل العصافير التى ..
حطت على شباك بيت لى ..
قد أخبرتنى :
أننى لم أمتلك يوماً ..
وطن !
طائرى ذاك الحزين
طار فوق السحاب
كان يغدو أو يروح
كان إشراقاً فغاب
كان إشراقاً فغاااب !!

محمود المصلى - شربين

الاستعمار الجديد !

ملاحظات مهمة لابد أن تقال ونحن فى هذا المأزق ، وينبغى أن نستفيد ونعى الدرس جيدا .
لمواجهة الغزو السوفييتى فى أفغانستان ظهرت شخصية أسامة بن لادن ، وبعد أن خرج السوفييت أصبح عدوا للأمريكيين وسقطت أفغانستان ومازال ابن لادن حرا طليقاً !
ولمواجهة الثورة الإسلامية فى إيران جاء دور صدام حسين واستمرت حربه مع إيران ثمان





سنوات ، وبعد انتهاء مهمته أصبح العدو الأول لأمريكا وسقطت بغداد بعد الدمار الذى شهدناه جميعا ولم يظهر صدام ، وبدأنا نسمع عن شرائط بصوته تماما كما يحدث مع أسامة بن لادن .. سيناريو مكرر ويستحق أن نتوقف عنده طويلا !
لكن سؤالى هو : إلى متى يتوقف العقل العربى عند كل مايحدث هل يبدأ مفكرونا بالكتابة عن هذه الظاهرة لكى تنبه الشعوب ولا تخدع وننتبه إلى ذلك القادم إلينا لنهب ثروات العرب ؟!

أحمد السيد السري
دمياط - عزبة البرج

إنهم يكذبون في إبريل !

إبريل شهر الكذب ، وكنا قبل هذه السنة نطلق كذبة واحدة فى بداية هذا الشهر .. أما إبريل هذا العام فهناك عشرات الأكاذيب من بينها :

- أن أمريكا تعرف أن أسامة بن لادن وصدام حسين موجودان وتعرف مكانيهما ولكنها لاتعرف مكان المتحف العراقى !
- أن الجنود الأمريكيون يعشقون أى شىء اسمه فلسطين ولهذا كان أول ما احتلوه فى بغداد فندق فلسطين .
- أن أمريكا لن تصلح أنبوب البترول العراقى ما بين كركوك وحيفا فى فلسطين .
- أن الزبيدى رئيس الإدارة المدنية فى عهد صدام خرق القانون الأمريكى وأنه مجرم حرب لأنه عراقى ولا يحمل الجنسية الأمريكية .
- أن أمريكا كانت لاتعرف أن هناك حضارة ومتاحف فى بغداد ، وأن العراق لايزال يخفى أسلحة الدمار الشامل فى الأماكن التى احتلتها القوات الأمريكية .

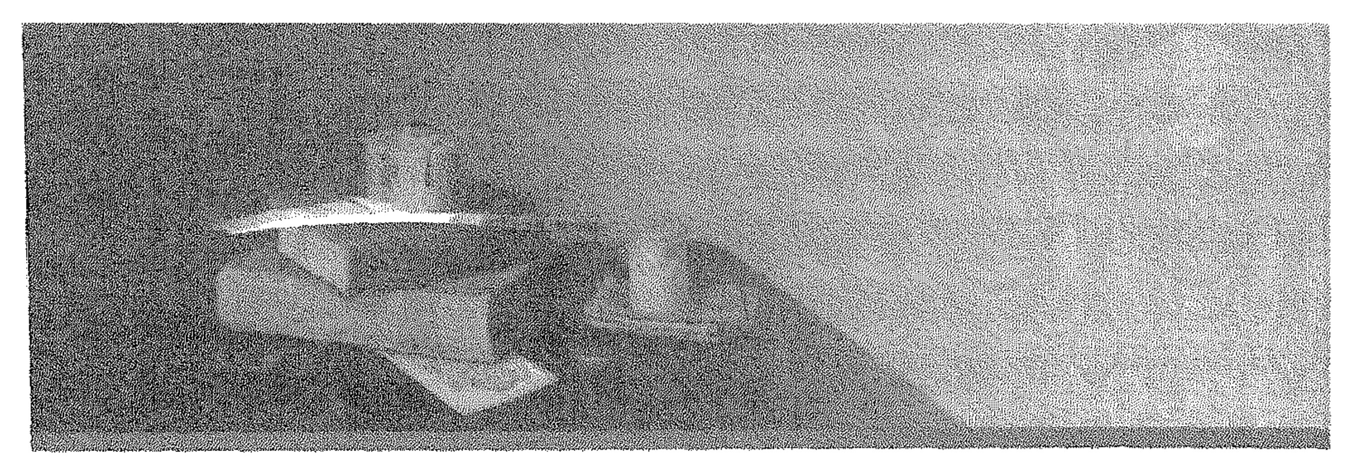
د. جمال العطار: كامب شيزار - الإسكندرية

مع الأصدقاء

مشاركة من الطالبة آيات محمد أحمد - أم الأبطال بنات بعنوان : فلسطين نجتزئ جزءا منها فليست بالفصحى ولا موزونة ، ولكنها دفقة شعورية :

بكاء فلسطين ينادى
يقول وين بلادى
وين الأمة العربية





في ظل حماها أشاكى

وين صلاح الدين

أو دين بلادى

دم دره ينادى

الثأر من الأعادى

......

أتعلمت أصل الكرم

من كتاب تاريخ أجدادى

أرسل لكم وصيتى

ياعرب أنصروا بلادى

● يوسف طويل - الجزائر يطلب الاشتراك فى مجلة الهلال ونرحب بك أيها الصديق ، ويسأل عن باب «لغويات» وهل مازال ينشر بإنتظام ، كما يطلب تصوير كل مانشر منها منذ بدأ أستاذنا الراحل الكريم كمال النجمى يكتبها بقلمه الرشيق .

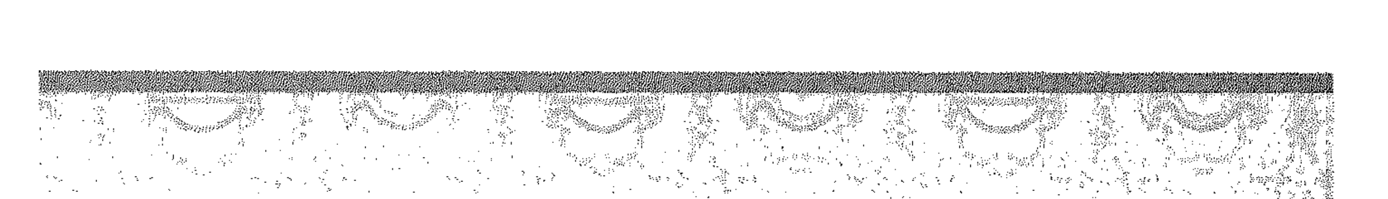
أقول للقارىء العزيز إن لغويات بعد إنقطاع لفترة بدأت تعود لمكانها من جديد ويكتبها الدكتور الطاهر مكى .. أما تزويدك بمانشر من «لغويات» فنفكر جيدا فى أن يستفيد بها قراء الهلال سواء بإعادة نشرها أو جمعها فى كتاب .

● رسائل كثيرة وصلتنا من صلاح جميل سعد - غزة - ش عمر المختار يشيد فيها بمجلة الهلال وكتابها ويطلب بعض الكتب التى صدرت لرئيس التحرير وللكاتب مصطفى درويش ، كما ينوه إلى توقف وصول الصحف والمجلات المصرية لبعض الوقت وهذا سبب له ألما شديدا لأنه لم يستطع قراءة مايكتبه كتاب مصر ومفكريها الذين يحبهم .

ولصلاح أقول بأننا سوف نلبى بعض ما طلبته .

● صديقنا الدائم من الإسكندرية عاصم فريد البرقوقى عاد يكتب لنا وهو يقول : لقد أجمعت شعوب العالم على : لا للحرب ويستشهد بمقولة كاتبنا الكبير نجيب محفوظ «كنت أتصور أن حضارة الإنسان قد أوصلته إلى مرحلة يرتفع فيها فوق نزعاته التدميرية ، لكن يبدو أن العكس هو الصحيح» .

إن مايحدث فى العراق هو ضد منطق الحضارة ، ولن يطول ليل العراق فلابد للصبح أن ينجلى ، ويعود هذا الشعب العريق كما كان يواصل مع أمته العربية مسيرته .



الكلمة الأخيرة

الركض خارج الملعب



بقلم: د. صلاح قنصوه

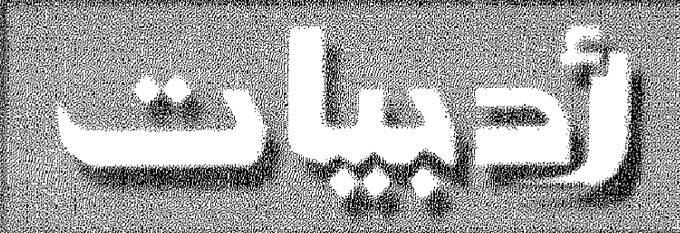
ليس من حق الفريق المغلوب على أمره الذى يفترض أن يدخل مباراة ينافس فيها فريقا آخر أن ينكر عامدا قواعد اللعبة التى يشارك فيها غيره، ويظن نفسه حرا فى اعادة رسم حدود الملعب، فيجعله ضيقا بحيث لا يدخل فى منافسته إلا من يخضع لشروطه. ولا يعترف بالحكم الذى يطبق قواعد دولية. بل ربما يلغى وظيفته ويستبدل به حكما متخيلا ليس متاحا فى الواقع، مثل الماضى القديم، أو العقيدة الدينية عندما يضيق تأويلها عند طائفة معينة، أو حلم الأمة المجيدة ذات الرسالة الخالدة... إلخ .

والنتيجة معلومة سلفا قبل النزول إلى الملعب، بل إن ذلك الفريق لم يتفق بعد على لون الفانلة التى تجمع أعضاؤه ، فهم يتفرقون حتى فى تحديد الانتماء إلى ناد بعينه، وينشغلون فى صراخهم ، لا أقول صراعهم ، فيما بينهم حول ما يصوغ «هويتهم» أو «خصوصيتهم»، ومازالوا يتناوبون الوقوف على خشبة المسرح الجماهيرى أوالاعلامى بحيث يلقى كل منهم «مونولوجه» الخاص الذى لا يسمح بديالوج (حوار) مع غيره ، وحسبب كل منهم اتهام الآخر بالعمالة أو التطرف، أو العلمانية إلى آخر هذه الاتهامات التى تستنفد مدادا غزيرا فى المطابع والكتابات ، وتستهلك طاقة كهربائية هائلة فى الميكروفونات والندوات .

والواقع أن الملعب الحقيقى هو «الوطن» الذى غاب استخدام مفهومه، وأضعناه فى ركضنا خارج الملعب عندما نضع هوان شأننا فى رقبة مؤامرة وتواطؤ من الغرب، أو الكفار الذين يتآمرون على العروبة والإسلام . وعندما نستنيم إلى أحلام يقظة عن ماض تاريخى نجعله المبرر لحقد الأعداء علينا .

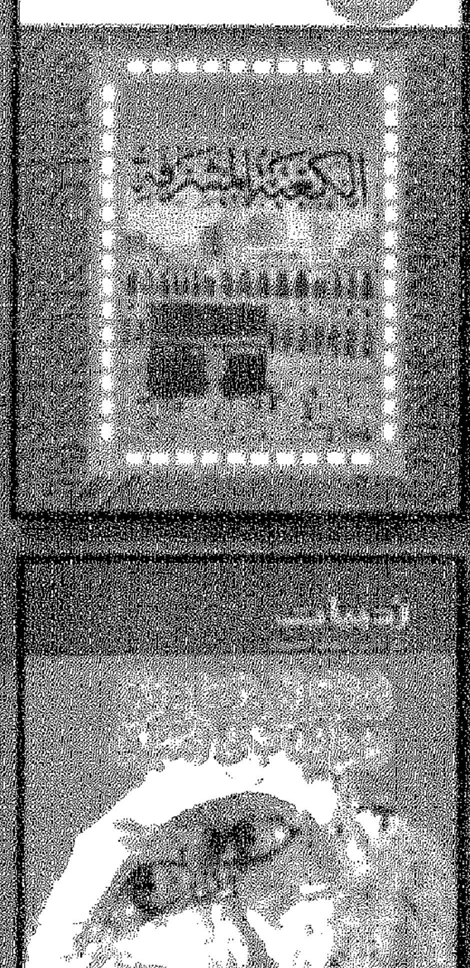
وعندما يؤدى ذلك جميعا إلى العجز عن وضع برنامج محدد المعالم للمستقبل ، أو استراتيجية قابلة للتنفيذ ، أى قائمة على ما يسمى «بدراسة الجدوى» .

الحل الوحيد الذى سبقنا إليه الغرب هو الانطلاق من مفهوم الوطن ، أى الدولة القومية التى لا تنمو أو تزدهر، أو تدخل المنافسة إلا بصعود الرأسمالية الوطنية . فهى وحدها الكفيلة بضمان التطور العلمى والتكنولوجى، والتعددية، والحرية السياسية والفكرية، وتعظيم ممارسات المجتمع المدنى . ■


أدبيات

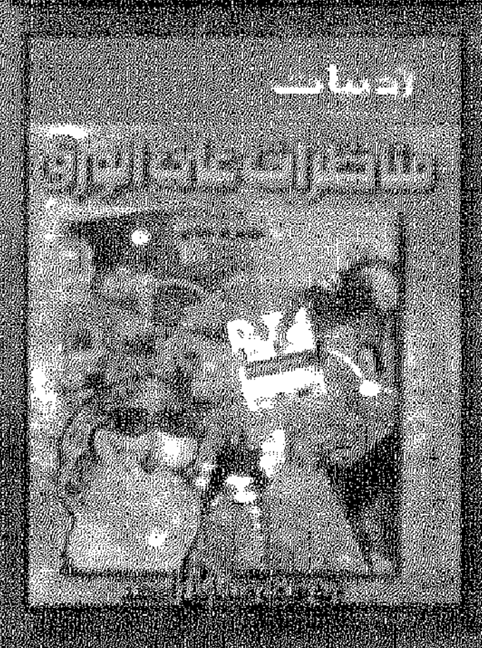

نبع الأدب والثقافة المعاصرة











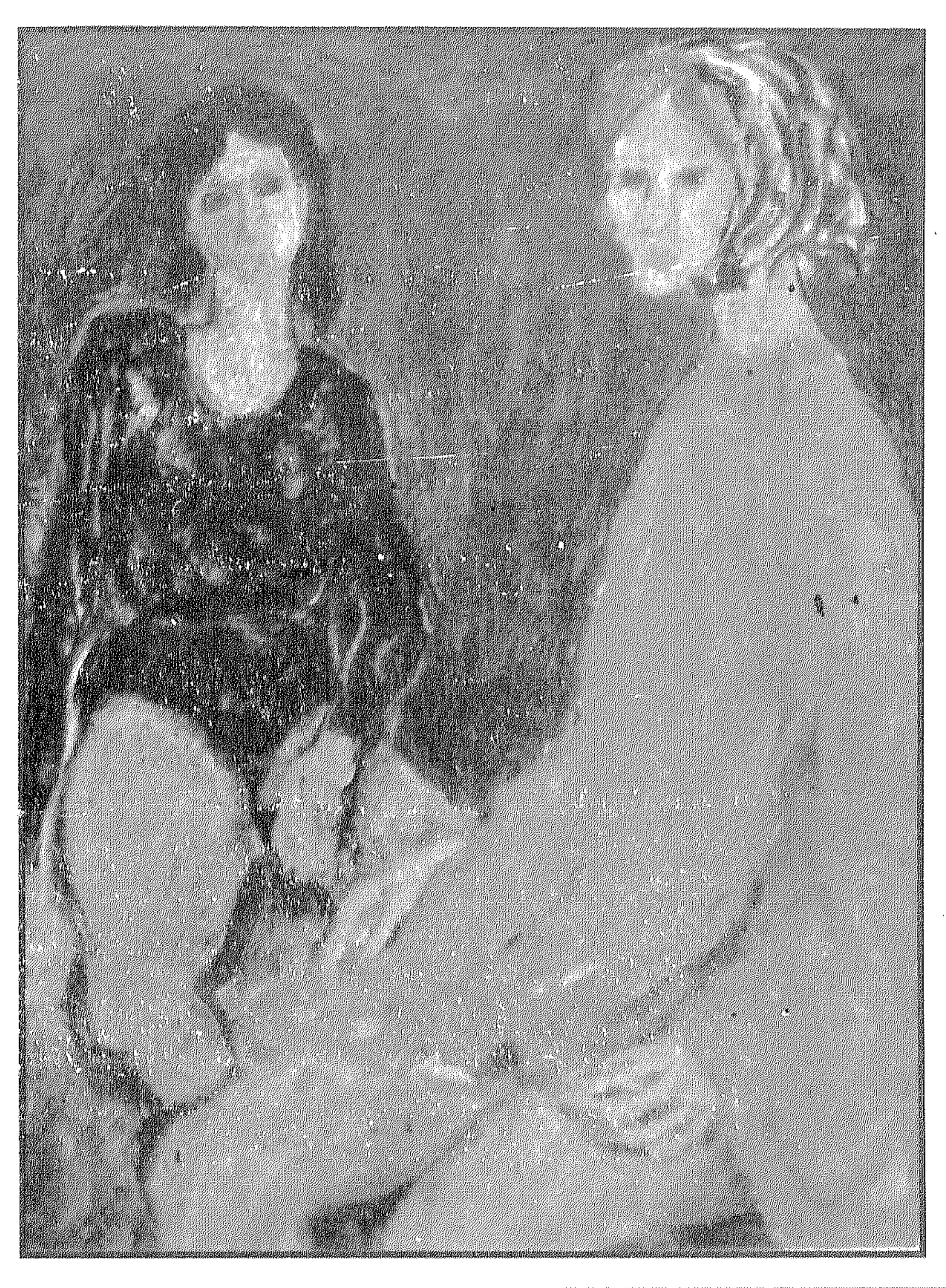
الهلال

مايو ٢٠٠٣ الثمن ٤ جنيهات

لص بغداد وغزو العراق

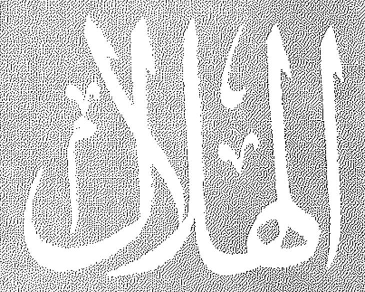
مارد المقاومة يخرج من القمقم

- بلاد بلا تاريخ تحارب التاريخ !
- الحرب وثقافة الهزيمة !



لوحة وفنان

تكوين
للفنان العراقي
رسول علوان



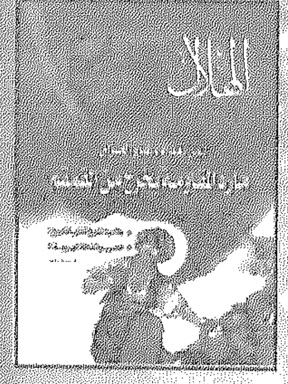
مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الحادي عشر بعد المائة ربيع أول ١٤٢٤ هـ - مايو ٢٠٠٣ م

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
الكاتبات ص.ب. ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
تلكس ٣٦٢٥٤٨٦ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب
عن رسم للفنان
فيكتور امبروس

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وأفريقيا ٣٥ دولارا، باقى دول العالم ٤٥ دولارا.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة



العراق يبعث من جديد

بعد سقوط بغداد. تلك اللحظة التاريخية الفارقة التى نعيشها، لا يمكن للنظام العربى أن يقف عاجزا، أو أن يدور فى حلقات مفرغة، وأن يكتفى بأن تلقى الأنظمة العربية المسئولية على هذا الفريق أو ذاك، وتستثنى نفسها على الدوام.

وعلى المفكرين والمثقفين والخبراء القيام بمراجعة شاملة لدروس التجارب المريرة الماضية، التى مرت بالبلدان العربية، والخروج من هذه المراجعة بخطة عمل، تعالج جذور التخلف الذى أوصلنا لهذه الحالة من الضعف والهوان.

ويلاحظ أنه كلما وقعت هزيمة، نبحث عن أسبابها فى العوامل الخارجية، أو يتهم كل طرف عربى طرفا آخر، ورغم أن ذلك على الأرجح صحيح فى بعض جوانبه، إلا أن البحث فى عوامل القصور الذاتى هو الأجدى والأنفع، والذى يساهم بحق فى علاج أسباب الضعف الذى نعانيه.

والاهتمام بالخارج والتغاضى عن الداخل، هو ما حصل بعد هزيمة ١٩٤٨ فى فلسطين، وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ فى مصر، ولا يجوز أن يحصل عقب هزيمة أبريل ٢٠٠٣ فى العراق.

حقا .. كانت الفرقة والمنازعات الداخلية فى كل بلد عربى، أحد «جنرالات» قوى العدوان، كما كان الانقسام الداخلى «جنرالا» آخر فى خدمة العدو، ولكن الاكتفاء بتبادل الاتهامات ، لا يؤدى لأية نتيجة سوى أنه يزيد من عوامل الضعف والوهن، ويؤكد حالة التخلف، ويخفى حقيقة المرض. وهو ما جرى طوال القرنين الماضيين.

فبعد كل هذه التجارب، حان وقت الإفاقة.. فليس أمام العرب سوى العمل المتواصل بفكر جديد، ومنهج جديد، وعقلية عصرية جديدة..

ولعل اختفاء النظام العراقى، يساهم فى استرداد النظام العربى فاعليته، فلاشك أن احتلال الكويت، أصاب النظام العربى فى مقتل، واليوم لم يعد مقبولا أن يظل العرب فى مقاعد المتفرجين، ولا يقدمون العون الصادق للشعب العراقى.

وهذه إطلالة على ما وقع فى العراق خلال نصف القرن الماضى.. لا نقصد منها النظر إلى الوراء، وإنما من أجل التعرف على مسار التجربة دروسها وقوانينها، ومن ثم طريقة مواجهة المستقبل، ونلمس كيف عانت العراق من العشائر والطغيان وأخيرا الاحتلال الانجلو أمريكى، فقد كانت العراق قبل ثورة ١٩٥٨ جزءا من أحزمة الاستعمار الغربى، وإحدى ركائز حلف بغداد، وعلى وفاق مع جاراتها، إيران الشاه، وتركيا حلف الأطلنطى، أيامها استولى الغرب على نفط العراق، وسكنت المشكلة الكردية، وهدأت عشائر الوسط والجنوب.

وفجأة قامت الثورة كجزء من المد القومى، وكجزء من حركة التحرر الوطنى وانسحبت العراق من حلف بغداد، وأدارت العراق ظهرها للغرب واتجهت نحو العرب، فواجهت حكومات الثورة المتعاقبة الكثير من المصاعب، ولم تنعم تلك الحكومات يوما بالاستقرار ، وقامت حركات التمرد الكردى فى الشمال، وسقطت تلك الحكومات فى الصراع الداخلى، الذى شغلها عن مواجهة تحديات التخلف.

وعانت البلاد من صراعات المدارس الفكرية المختلفة وبين القوى السياسية، ولم تمهلها الأحداث لتجاوز العلاقات العشائرية والأوضاع الطائفية، وتصادمت القوى الحديثة التى كان يقع عليها عبء النهضة، وحيدت بعضها البعض وفقدت تأثيرها على الأحداث.

أما أولئك الثوار الذين حملوا أرواحهم على أكفهم يوم الثورة، فسرعان ما دب الخلاف بينهم، ووقع الصراع بين قطبى الثورة، عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف، ووقف الحزب الشيوعي العراقى وراء قاسم، ووقفت القوى القومية وراء عارف..!

وبعد سقوط قاسم وتولى عارف السلطة فى فبراير ١٩٦٣، قامت القوى القومية بالعمل على تصفية الحزب الشيوعى العراقى. ولم تلبث هذه القوى حتى انقسمت على نفسها، وقام أطرافها بتصفية الحرس القومى الذى أنشأه حزب البعث، ويرجح الكثيرون أن مصرع الرئيس عبدالسلام عارف كان مدبرا، وعاد حزب البعث وأسقط عبدالرحمن عارف، وتولى البعث السلطة منفردا فى ١٧ يوليو ١٩٦٨، ولم تتوقف التصفيات، واستمر نزوح العراقيين الى الخارج، وكان أبرز هذه التصفيات تلك التى أسفرت عن إعدام ما يزيد على ثلث القيادة الحاكمة والتى ضمت عدنان حسين وغانم عبدالجليل وغيرهما.

هذا كان أحد أسباب إشعال الحروب، إحداها ضد إيران والأخرى ضد الكويت.

ورغم كل ما أوقعته هذه الحملة الأمريكية الإنجليزية على الشعب العراقى، ورغم تدمير قواه السياسية ومدنه ومصانعه، ونهب جامعاته ومستشفياته ومتاحفه، فقد خرج الشعب العراقى يعبر عن نفسه فى مظاهرات ترفض كلا من الاحتلال الأجنبى والطغيان والعشائرية.

فإذا كانت قوات الاحتلال خاضت هذه الحرب من أجل التخلص من أسلحة الدمار الشامل التى لم تجد لها أثرا، وإن قامت من أجل إسقاط النظام العربى، فقد سقط!!

أما إذا كانت تسعى إلى تأكيد السيطرة الأمريكية على العالم، أو حتى إلى فرض نظام إقليمى وخريطة جديدة، أو من أجل ثروات العراق البترولية، أو تأمين وجود إسرائيل، وتطبيقا لما جاء فى العهد القديم والذى يروى خروج اليهود مرتين، إحداهما من العراق على يد الأشوريين والكلدانيين، قبل ما يزيد عن ألفين وخمسمائة من السنين، والأخرى من مصر، وجاء فى العهد القديم.. «قطع الرب من إبرام (إبراهيم) ميثاقه.. لنسلك أعط هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير فى الفرات»!

فهذه مسألة أخرى..

والذين يسعون إلى ذلك واهمون، ويجهلون الكثير عن الشعب العراقى، وعمق انتمائه إلى أمته، ويأتى هذا الوهم من تصور أن الموقف من إسرائيل يفرضه نظام حكم بعينه، ويتجاهلون أن هذا الموقف ينبع من الاحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية، ومن غطرسة القوة، ومن قتل النساء والأطفال وهدم البيوت واقتلاع الزرع الذى تمارسه السلطات الإسرائيلية.

أما إذا كان كل ذلك غير صحيح، كما تدعى السلطات الأمريكية والناطقون باسمها من العرب فألا يحق للشعب العراقى بعد صمت المدافع أن يختار نظامه وحكامه؟، وأليس على أولئك الذين تظاهروا فى كل أنحاء العالم، رافضين الحرب ضد العراق، أن يعملوا من أجل إنقاذ العراق، ومساندته فى اختيار حكومته والسيطرة على ثرواته؟!

كما حان الوقت لعودة نحو أربعة ملايين عراقى إلى وطنهم، وهم جميعا، من الصفوة المتعلمة الذين يتمتعون بكفاءة وخبرة عالية، مما سيضيف قوة وقدرة للعراق في مواجهة تحديات المستقبل؟

ونتساءل..

لماذا تلاحق سلطات الاحتلال العلماء العراقيين واستجوابهم؟! وتغريهم بالرحيل من العراق إلى كندا وأمريكا والدول الأوربية، وتحظر عليهم السفر إلى دول عربية و آسيوية؟!!

وستخرج العراق فى النهاية مثل العنقاء من أتون النار والرماد، تجدد قواها، وتسترد عافيتها، وتعود أكثر قوة وعنفوانا وستهزم تلك الغزوة الغاشمة.

فكم مر على العراق من محن؟ وكم مرة تكسرت النصال على النصال، وفى كل مرة يخرج العراق الذى أعطى العالم الحضارة والقانون والرياضيات وأكبر انجازات العالم فى العصر العباسى من محنه أكثر قوة.

بل لقد أعطى العراق وحده الحضارة العربية، ما لا يقل عن ربع تراثها. ■

المحـــــرر

الـــوعى بالتـــاريخ

بقلم
د. مصطفى سويـف

على امتداد الشهور المنقضية من يناير سنة ٢٠٠٠ وحتى مـارس سنة ٢٠٠٣ نشرت على صفحات مجلة الهلال الغراء تسعة عشر مقالا تسرد فى مجموعها قصة القرن العشرين كما عايشتها من خلال رؤية تحكمها عوامل ثلاثة: شخصية ، وقومية ، وعالمية ، وقلت فى مستهل هذه السلسلة إننى أقدمها كشهادة تضم إلى عشرات الشهادات التى تنشر هذه الأيام حول القرن العشرين ، وقلت كذلك انني أدعى بهذه المقالات أننى أحاول التأريخ لفترة من الزمن المصرى أو العالمى بحياد المؤرخ المتخصص ، ولكنى أنصرف باجتهادى إلى بيان الكيفية التى نفذت بها الأحداث العامة إلى نفسى ، كيف قرأتها ، وما هى ، وما هى الشفرة التى اختزنت بها معانى الأحداث فى عقلى ووجدانى ، وأنا أقدّم بذلك وثيقة نفسية اجتماعية أرجو أن تضم فى مقبل الأيام إلى وثائق مماثلة يكتبها غيرى من المهتمين بالهم العام ، كل من زاوية قراءته ، ليتكون من مجموعها سفر يكون بمثابة شروح نفسية اجتماعية على متن التاريخ.



الأرض والثروة هدف المستعمر من قديم الزمان .. هكذا فهم العالم !!

لماذا هذه الشروح ؟

هذا سؤال مهم أبدأ بالإجابة المباشرة عنه، ثم أوضح للقارىء طريقى الذى أسلكه إلى هذه الإجابة وتداعياتها ، وجه الحاجة إلى هذه الشروح أنها هى وحدها التى يمكن أن تكشف عن الدلالات المتكاملة لأحداث التاريخ، لأنها تقدم لنا ما يمكن أن نسميه التاريخ المعاش، هذه هى إجابتى المباشرة، أما عن الطريق إلى هذه الإجابة فيبدأ بمقدمة أولى مؤداها أن التاريخ كما نقرأه فى معظم كتب التاريخ يبدو وكأنه سلاسل من الأحداث تمر مر الكرام فوق رءوس البشر من المواطنين العاديين، لا شىء عن الخبرة البشرية لهؤلاء المواطنين بهذه الأحداث، أعنى خبرة التلقى، وخبرة التأويل أو إدراك الدلالة كما تقع عليهم (أى على غير المشاركين مباشرة فى صنع هذه الأحداث)، وما أدعيه أنه بدون رصد هذه الخبرة وتسجيلها من حيث بُعدها الوجدانى (مقبولة أم مرفوضة) وبعدها الإدراكى (أى معناها) بدون ذلك ستظل كتابة التاريخ مبتورة؛ فلان من الحكام قرر كذا، وفلان الآخر غير كذا، صحيح أن هذين الحاكمين صنعا أو أطلقا طاقة صُنع الأحداث الفلانية، ولكن هذه الأحداث لا تكتمل دلالتها إلا من وقعها على من تلقوها فأثرت فى حياتهم، ومع أن الأحداث تكتسب جزءاً من دلالتها اعتماداً على ما ارتسم فى ذهن صانعها، مع ذلك فإن هذا الذى يرتسم فى ذهن الصانع ليس سوى جزء محدود من الدلالة الحقيقية للأحداث، بينما هى

بطبيعتها دلالة يتكامل فى بناتها قصد منشىء الحدث ووقع الحدث على المتلقى، بعبارة أخرى لابد وأن تقدم الدلالة متكاملة بشقيها ، شق الإنشاء وشق التلقى، والاجتزاء فى هذا الشأن (بذكر شق الإنشاء وحده) يقدم الحقيقة التاريخية منقوصة أو مبتورة.

ويثير هذا الكلام نفسه سؤ الا جديدا: ولماذا نريد أن نعرف الدلالة المتكاملة للأحداث؟ والإجابة أن هذه الدلالة المتكاملة هى وحدها التى تلقى الضوء على حقيقة اتجاهات المواطنين نحو الحدث أو الأحداث، وتوضح مدى التقارب أو التباعد بين قصد صانع الحدث ورؤية متلقى الحدث، ولما كانت اتجاهات المواطنين نحو الحدث تعتبر من أهم محددات ردود أفعالهم (نحو هذا الحدث بعد وقوعه) فإن ما يشكل هذه الاتجاهات (التى تتدرج بين القبول والرفض) هو البداية الحقيقية للطريق إلى التفسير الصادق لما ترتب من ردود أفعال على الحدث، وبدون السعى إلى توفير مكونات هذا التفسير يظل التاريخ تسلسلاً من الأحداث المتتابعة الصماء ، أو بعبارة أخرى يظل تاريخاً ميكانيكيا لا معنى له، وحتى عندما يحاول أحد المؤرخين أن يتطوع بالتفسير فإنه إذا لم يكن مزوداً بما يشهد فعلا برؤية المتلقين للحدث (ثم ردود أفعالهم بناء على هذه الرؤية) يظل تفسيره تخميناً أو فرضاً يعوزه البرهان المقنع. جدير بالذكر فى هذا الصدد أن إحدى المشكلات المنهجية المعقدة التى يواجهها علم التاريخ مشكلة العلّية ، أى الكشف عن علاقات العلة والمعلول أو السبب والنتيجة بين الأحداث المتتابعة، وهنا يمكن القول بأن وفرة الشهادات (من نوع الشهادة التى قدمتها) وإتاحتها للمؤرخين يمكن أن تكون منفذاً لا بأس به (إذا أُحسن استخدامها ضمن منافذ أخرى) لإلقاء الضوء على علاقات السبب والنتيجة بين الأحداث سواء أكانت هذه العلاقات مباشرة (أو قريبة)، أم غير مباشرة (أى بعيدة).

الرسالة الاجتماعية لعلم التاريخ

أتصور أن علم التاريخ، شأنه شأن المنظومات العلمية التى نعرفها جميعا، يمكن أن يكون له أحد توجهين، توجه أكاديمى يكون مطلب الباحث فيه هو اكتشاف الحقيقة ومتعلقاتها، وتوجه تطبيقى، يكون المطلب الرئيسى فيه تطويع مكتشفات الشق الأكاديمى للإفادة العملية فى عدد من مجالات الحياة الاجتماعية، ومهما تكن سعة الخلاف فى الرأى بين الكُتّاب والمفكرين حول حجم هذه الإفادة أو كيفية تحقيقها فالأمر الذى لا شك فيه هو أن مطلب الإفادة العملية نفسه قائم، وممارسته بأقدار متفاوتة تتم على مشهد منا،

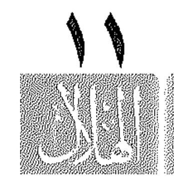
صراحة أحياناً ويوضحناً أحايين أخرى، ورحم الله في هذا المقام الشيخ عبدالرحمن الجبرتي، فهو القائل في مستهل تاريخه: «ولما كان علم التاريخ علماً شريفاً فيه العظة والاعتبار، وبه يقيس العاقل نفسه على من مضى من أمثاله في هذه الدار...» ولا شك في أن الشروح الشهادات التي أشير إليها، وكل ما ييسرها ويدعمها ويؤكد مصداقيتها هذا كله من شأنه أن يتيح الإفادة العملية التي نتكلم عنها، ويزيد من فرض تعظيم حجمها وضمان سلامتها، ويبقى بعد ذلك سؤال مهم حول مدى الموضوعية في شهاداتي التي أقدمها، وفي ما يمكن أن يقدمه (أو ما أرجو أن يقدمه) أمثالي من شهادات في هذا المجال.

موضوعية الشهادة والشهادات المماثلة

كانت مسألة الموضوعية ولازالت وستظل واحدة من ركائز الفكر العلمي أيا كان مجال تفعيله، وقد اهتم بالنظر في هذه المسألة كثيرون من العلماء والمفكرين والفلاسفة وفلاسفة العلوم خاصة، ولا يسمح المقام هنا بالخوض تفصيلاً في مثل هذا الحديث، ولذلك وجب الإيجاز، فقد ناقش أندريه لالاند (أحد كبار أساتذة الفلسفة الفرنسيين في القرن العشرين) هذا المفهوم مناقشة مستفيضة في معجمه ذائع الصيت للمصطلحات الفلسفية، ويمكن تلخيص مناقشته على الوجه التالي: إن ما يوصف بأنه موضوعي تكون له مصداقية بالنسبة لجميع العقول لا بالنسبة لعقل صاحبه فحسب ، والموضوعية منظوراً إليها على هذا النحو مفهوم مركب، وليست مفهوما بسيطا، فهناك موضوعية المدرك مستقلا في وجوده عن كيفية إدراكنا إياه، وهناك موضوعية الناتج الذي نصل إليه نتيجة لاستخدام طرق الاستنباط المنهجي من فرض معين أو من نظرية، أو من مقدمة أو مقدمات بعينها. وجدير بالذكر أنه إذا نظر المؤرخ إلى الشهادة التي قدمتها عن القرن العشرين وضم إليها ما يماثلها من شهادات للغير محاولا أن يمحصها لاستخلاص ما بينها من تقارب أو تكامل وإسقاط ما بينها من تناقض أو تعارض، فسوف تكون حصيلته من ذلك ذخيرة من الحقائق تتعلق بوقع أحداث التاريخ على من وقعت عليهم ، أي تتعلق بدلالة هذه الأحداث ومعانيها بالنسبة لمن خبروها وتأثروا بها في أفعالهم وانفعالاتهم ، وسيتاح له بذلك أن يقدم التاريخ في جدليته: الحدث، وما يترتب على الحدث من دلالات إنسانية هي التي تشكل ردود الأفعال الإنسانية التي من شأنها أن تشارك في تشكيل الحدث التالي.. وهكذا.

من الحاضر إلى المستقبل

والآن، وبعد هذا التقديم عن الرسالة الاجتماعية التطبيقية للتاريخ، وعن



مـسـتـوى الموضـوعـيـة المفـتـرض فى الشـهادات التى أقدمها أنا وأمثالى من المواطنين وما تقوم به هذه الشهادات من دور الشروح على متن التاريخ يأتى دور السؤال الذى هو بيت القصيد: ما هى أوجه الإفادة من دروس التاريخ؟ يحسن بنا النظر إلى التاريخ بنظرة وظيفية، أى من حيث هو منظومة صغرى لها وظيفة معينة (ضمن منظومات فرعية أخرى متعددة) داخل المنظومة الكبرى التى هى مجمل الحياة الاجتماعية، ومن وجهة النظر هذه يبدو أن التاريخ يؤدى عددا من الوظائف الرئيسية فى حياتنا الاجتماعية، وفى مقدمة هذه الوظائف ما يأتى:

١ - فهو سجل لصياغات معينة (كالعقود والمعاهدات.. إلخ) ابتكرت لتنظيم فئات بعينها من النشاطات (كالنشاطات الاقتصادية والتشريعية والسياسية) فى الحاضر الذى وضعت فيه، وفى المستقبل المنظور، ويمكن الرجوع إلى هذا السجل كلما اقتضى الأمر.

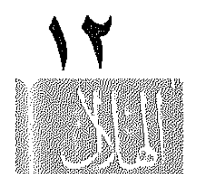
٢ - وهو مستقر لبدايات أفعال (كالخطط والمشروعات التى يمر تنفيذها بمراحل) نواصل السير فى الحاضر وفى المستقبل المنظور لتحقيقها، ومن هذه الزاوية للنظر فهو يضغط علينا فى مسعانا إلى اكتمال ما بدأناه، وفى الوقت نفسه يضغط علينا فى سبيل أن نحافظ على درجة معينة من الاتساق بين خطوتنا فى الحاضر وخُطانا كما خطوناها من قبل.

٣ - وهو مصدر إشعاع لمثيرات المشاعر الإيجابية نحو موضوعات بعينها (مثل موضوعات الانتماء الوطنى / القومى ، أو الانتماء الدينى .. إخ) ويلجأ المواطنون إلى هذا المصدر عادة فى أوقات الأزمات المجتمعية الكبيرة.

وللتاريخ إضافة إلى ذلك وظائف أخرى داخل منظومة الحياة الاجتماعية، لكننى أكتفى فى هذا الموضع بما ذكرت لكى أنتقل بالحديث نقلة أخرى.

الوعى بالتاريخ

يبدو لمن ينظر فى حقيقة الوظائف التى أوردت ذكرها أنها جميعا تدل على أن التاريخ منظومة نستخدمها كآلية نتوجه بها نحو المستقبل لترشيده، بمعنى جعله أكثر انصياعاً لمصالحنا، وموجز القول فى هذا الصدد أننا فى جميع توجهاتنا إلى المستقبل إنما نسعى إليه عبر الماضى، وفى مسعانا هذا يتراوح مطلبنا بين إضفاء معنى على المستقبل، وصياغة هذا المستقبل بصورة نرتضيها، جدير بالذكر هنا أن هذه النقطة على وجه التحديد تعتبر إحدى القواعد الاستراتيجية فى الحياة (الجماعية والفردية) سواء وعينا هذه القاعدة أم لم نكن على وعى بها، وما ندعيه فى هذا المقال هو أننا لا نعى هذه



الحقيقة بما فيه الكفاية، وأن اختلال وعينا بها يعتبر نوعا من الإهدار يضاف إلى أنواع الإهدار الأخرى التى شاع وجودها فى حياتنا الاجتماعية الحديثة ، وفى هذا الشأن يلزمنا مناقشة النقاط الآتية:

أ - إن رفع مستوى الوعى بقاعدة استخدام التاريخ لترشيد المستقبل من شأنه أن يزيد من كفاءة هذا الاستخدام ، ومن استدرار الترشيد المطلوب.

ب - إن توفير الشهادات/ الشروح من النوع الذى أتحدث عنه فى المقال الراهن من شأنه أن يغرى بالعمل على زيادة مصداقية عملية الرجوع إلى التاريخ، وذلك بمزيد من العناية بالرجوع إلى الشهادات التى من شأنها أن تُكسب الأحداث الصماء دلالاتها الاجتماعية المتكاملة فى السياق الذى وقعت فيه، وهذا كفيل بأن يقلل من غموض معانى بعض الأحداث، وكفيل بأن يقلل من فرص الشطح فى تأويلها، أو الأخذ بتفسير شائع لها لمجرد كونه شائعاً، أو الأخذ بالتفسير الرسمى لها (أى التفسير السلطوى) وهو الذى يكرس وجهة نظر صانع الأحداث على حساب دلالاتها المتكاملة.

أحداث العالم الآن

نضرب هنا مثلا ما يحدث حولنا الآن على الصعيد العالمى؛ كيف نفهم هذا الذى حدث ويحدث تحت عنوان «الحرب على العراق»؟ يبدو لى، على ضوء مسيرة العالم (كما عايشتها ورصدت تسلسل أحداثها ووقع هذا التسلسل علينا... إلخ) أن أى محاولة لتحصيل هذا الفهم دون تنبيه إلى هذه الخلفية التاريخية محكوم عليها (أى على هذه المحاولة) بأنها ستكون مبتورة ، وهو ما من شأنه أن يورطنا فى كثير من الأخطاء فى أحكامنا وفى استنتاجاتنا وتنبؤاتنا وتدابيراتنا التى نبنيها على هذه التنبؤات، وربما كان أسوأ هذه الأخطاء جميعا القول بأن هذا الذى نشهده من حرب شنتها الولايات المتحدة على العراق يُعتبر شيئا غريبا على السياسة الأمريكية، وأن أمريكا التى نراها من خلال هذه الحرب وأعقابها ليست أمريكا التى نعرفها، ليست أمريكا المجتمع المفتوح، داعية الديمقراطية وحاملة لواء الحرية، هنا فى هذه الاستنتاجات وأمثالها، يكمن خطأ استراتيجى فى التفكير، ويتمثل هذا الخطأ أساساً فى اجتزاء الأحداث الراهنة، أى فى الوقوف عندها دون النظر إليها على أنها حلقة وثيقة الاتصال بأحداث وقعت ضمن تسلسل طويل يمتد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٥.

هنا بالضبط تأتى أهمية الوعى بالتاريخ، وخاصة إذا كانت وقائع التاريخ تُعرض أمامنا مدعومة بأقدار معقولة من الشهادات/ الشروح (التى تحيل التاريخ الميكانيكى إلى ما يمكن

تسميته التاريخ المعاش)، فأما الوقائع فلنذكر منها المحاولات التى بذلتها الولايات المتحدة للحلول محل بريطانيا فى منطقة الشرق الأوسط العربى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وهى محاولات متعددة حملت أسماء مختلفة نذكر منها على سبيل المثال «النقطة الرابعة»، ومبدأ أيزنهاور، وحلف بغداد.

هذه محاولات عايشها جيلى، وكانت الولايات المتحدة تقدمها (على خلفية الحرب الباردة) فى إطار تبرير محدد هو حماية المنطقة ضد الشيوعية، وكان هذا التبرير يجلب معه (ضمناً لا صراحة) الهيمنة على دول المنطقة، بمعنى السيطرة على قراراتها السياسية، والتحكم فى ثرواتها وفى مقدمتها النفط، وقد استطاعت شعوب المنطقة أن تنفذ ببصيرتها إلى حقيقة ما يراد بها من وراء هذه المحاولات، فقاومتها بطرق متعددة.

ولكن بغض النظر عن تفصيلات قصص المقاومة فالشيء المهم أن المحاولات المشار إليها لم تساعد جماهير المنطقة على أن يروا الولايات المتحدة باعتبارها داعية للديمقراطية ولا للحرية.

فى هذا السياق نفسه ظهرت حركة عدم الانحياز حوالى منتصف الخمسينيات، وقرأناها حينئذ باعتبارها ابتكاراً ممتازا فى عالم السياسة الدولية للابتعاد بالكثير من دول العالم الثالث عن الوقوع فريسة لهيمنة أى من قطبى الصراع فى الحرب الباردة.

لكن الولايات المتحدة لم ترض عن هذه الحركة، وبدا واضحا من ذلك أن أحد المبادىء المسيرة للسياسة الأمريكية الخارجية هو مبدأ «من لم يكن معنا فهو علينا»، وكانت حركة عدم الانحياز هذه أحد العوامل الرئيسية فى الغضب الأمريكى على عدد من الحكومات الوطنية بما فيها حكومة عبدالناصر فى مصر ، وفى هذا السياق (ضمن أمور أخرى كثيرة) جاء ضلوع الحكومة الأمريكية مع إسرائيل فى حرب يونية ١٩٦٧، ومرة أخرى لم يكن ممكنا لنا فى هذا السياق أن نرى الولايات المتحدة على أنها حاملة لواء الحرية، ثم جاءت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣؛ وتدخلت الولايات المتحدة بثقلها العسكرى ثم الاقتصادى فالسياسى إلى جانب إسرائيل، لضبط ميزان المنطقة حسب مقتضيات الاستراتيجية الأساسية الأمريكية، وانتهت الحرب الساخنة، وامتد التدخل الأمريكى فى شئوننا، وكان من أهم أدواته هنرى كسنجر، والبنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، وانتهى الأمر بإعادة صياغة التوجه السياسى الاقتصادى المصرى على النحو الذى ترضى عنه آمريكا، وكان من أهم العلامات على الطريق إلى هذا

الرضى ، زيارة الرئيس نيكسون لمصر فى يونية سنة ١٩٧٤، وزيارة الرئيس السادات إلى القدس فى نوفمبر سنة ١٩٧٧، والتوقيع النهائى على اتفاقية كامب دافيد مع إسرائيل فى مارس سنة ١٩٧٩.

ومرة ثالثة لم يكن للجماهير المصرية (والعربية) أن ترى فى هذا التسلسل للأحداث دليلا على أن الولايات المتحدة هى رسول الديمقراطية وحامى حمى الحرية.

ثم كان ما كان بعد ذلك من أحداث عالمية صحبت تراجع الاتحاد السوفييتى كقوة عظمى، وآذنت بتبلور سريع لعالم ذى قطب أوحد، وانبرت الولايات المتحدة (على امتداد الثمانينيات المتأخرة والتسعينيات) تسرع الخطى إلى تبنى كل من شأنه أن يفصح عن مظاهر الهيمنة، وتأتى الحرب على العراق باعتبارها أحدث الحلقات المتسقة تماما مع هذا السياق، هكذا يلزمنا أن نفهم الدلالة المتكاملة لهذه الحرب على العراق، ولكن هذا الفهم مشروط بالوعى بالتاريخ، والوعى بالتاريخ يقتضى الجمع فى الذهن بين تسلسل الأحداث لا فى ميكانيكيتها ولكن فى جدليتها ، أى من حيث كونها أحداثا أطلقتها قوى معينة، وكان لها فى الوقت نفسه وقع معين على المقصودين بها، فالحدث التاريخى حوار لا يكتمل معناه إلا بالجمع بين صانعه ومتلقيه .

عود على بدء

ونعود الآن إلى نقطة البدء فى هذا الحديث. لماذا هذه الشهادات/ الشروح؟ لأنها مصدر إكساب الأحداث التاريخية دلالاتها ومعانيها، وهى لذلك جزء مهم من الإطار المرجعى للأحداث، وبدون هذا الجزء يرتفع احتمال الغلط والمغالطة فى تفسير تيار الأحداث وما يبنى عليها من استنتاجات وتنبؤات، وهى بهذا وقاء للأمناء من صانعى القرارات والسياسات، وهى فى الوقت نفسه أداة للمواطنين تعينهم على الحكم بمدى مصداقية المؤدين السياسيين. لهذه الأسباب مجتمعة نرى أن من واجب كل من يتوسم فى نفسه الأهلية أن يكتب شهادته عن الفترة التاريخية التى عايشها ، حتى يجد أساتذة التاريخ فيها (بعد التمحيص والمقارنة والغربلة) ما يعينهم على تجلية المعانى الحقيقية للأحداث، وحتى يجد المواطنون فيها (والشباب منهم خاصة) أدوات تعينهم على تحقيق قدر من التربية الذاتية السياسية الرشيدة، التى تسهم فى جعلهم مواطنين فاعلين فى مواجهة كل ما يقرأون وما يسمعون من أغلاط ومغالطات تنهمر عليهم من أدوات الإعلام، ومن كبار السياسيين وصغارهم فى الداخل والخارج. ■



بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

منذ حوالى السنتين وبالتحديد فى مارس ٢٠٠١ كتبت فى هذه المجلة الرائدة عما أسميته «بثقافة الخنوع» ذكرت حينذاك أن ثقافة الخنوع تهدف «بالوعى أو باللاوعى، بسوء النية أو بالسذاجة إلى تطويع الإرادة العربية لكل محاولات تشكيلها - إن لم يكن القضاء عليها - أياً كان مصدر هذه المحاولات، بحيث تصبح إمكانية إنجاز أي تصحيح - ولو نسبى - لميزان القوى المختل بين العرب وخصومهم وهماً بلا جدال» . أضفت أن مروجى ثقافة الخنوع يستندون إلى «الواقعية» حسب زعمهم، وأن «الواقعية قد ظلمت كثيراً مع أن أى باحث علمى أو رجل حركة سياسية لا يستطيع أن يؤسس جهوده إلا على الواقع بعد تحليله وفهمه، غير أن ثمة فارقاً هائلاً بين أن تلوذ بالواقع لتبرير العجز عن المقاومة والتغيير إلى الأفضل ، وبين أن تنطلق منه بخطى راسخة نحو المثالية المنشودة» ..



لم يكن العراقيون الأسرى و المدنيين وحدهم هم الذين تمت تعميتهم !!

من ثقافة الخنوع إلى ثقافة الهزيمة

حديثى اليوم عن «ثقافة الهزيمة» بعد ثقافة الخنوع، وهى لاشك حالة خاصة - لنقل إنها صارخة - من حالات ثقافة الخنوع لأنها فى هذه المرة لا ترتبط بمحاولة تطويع سلمية بعيدة المدى للإرادة العربية وإنما تتزامن مع واحدة من أشرس موجات العدوان على وطننا العربى كما جسدها العدوان العسكرى الأمريكى الأخير الذى انتهى باحتلال العراق .

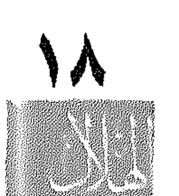
لن أتوقف عند هذا الحدث - أى احتلال العراق - الذى هو مذهل بكل المعايير لأن غايتى هى فضح «ثقافة الهزيمة» ومروجيها . نذكر عندما تصاعدت موجة التحرش والتنديد الأمريكية بالعراق بغير سند من أى قانون أو قرار دوليين أنه بات مؤكداً لدى الغالبية العظمى من المحللين والمراقبين أن العدوان العسكرى الأمريكى على العراق واقع لامحالة ، عند هذا الحد لاحظنا فى عديد من وسائل الإعلام العربية المرئية والمسموعة والمكتوبة أن ثمة سيمفونية رديئة قد بدأ عزفها فى تكرار سخيف لمثلها فى وسائل الإعلام الأمريكية تتحدث عن جبروت القوة العسكرية الأمريكية، والفارق الهائل بينه وبين ما كانت عليه تلك القوة إبان حرب الكويت فى ١٩٩١، وكيف أن هذا الجبروت سوف يفضى لامحالة فى خلال ايام قليلة قدرت بأسبوع على الأكثر إلى

هزيمة عراقية ساحقة .وعندما بدا واضحا أن العراق .الذى يغرب بانتظام وبغير سند من القانون منذ تحرير الكويت في ١٩٩١ لم يخش ذلك الترهيب بدأ العزف على نغمة ضرورة رحيل صدام حسين لينقذ شعبه ويجنبه ويلات حرب لا تبقي ولا تذر..

لم يكلفِ أصحاب المنطق السابق أنفسهم مشقة الحديث عن التهديد الأمريكى غير المشروع للعراق، أو عن القيم العليا التى ينبغى الدفاع عنها حتى ولو كان الانتصار فى معركة الدفاع عن هذه القيم غير ممكن، أو عن أن الشعوب قد تقاوم وتبلي بلاءً حسناً دفاعاً عن تلك القيم ، أو عن أن صدام حسين موجود فى العراق منذ عام ١٩٦٨ بمواصفات نظام حكمه نفسها التى يصفونها الآن باللاديمقراطية بعد سكوت دام ما يزيد على ثلث قرن على ذلك النظام . وفى ثلث القرن هذا تحالف مع نظام صدام حسين معظم أولئك الذين شغلتهم كثيراً مطالبته بالرحيل فى أول موقف غير ملتبس له فى سياسته الخارجية وهو يتصدى لمحاولات الهيمنة الأمريكية، أو عن أن رحيل صدام حسين لن يحمى العراق من الوقوع فى براثن السيطرة الأمريكية وانما سوف يحمى الأمريكيين من تكلفة عالية – ولو نسبياً – للعدوان على العراق .

وعندما بدأ العدوان وغطى الجميع أعينهم وآذانهم كى لا يتابعوا مشهد السقوط السريع والمريع للعراق ليكتشفوا بعد أيام قليلة أن العراق صامد صموداً مذهلاً ، تساءل أنصار ثقافة الهزيمة : وماذا تجدى المقاومة إذا كان مآلها الأخير هو الانكسار أمام ضربات العدو ؟ أليس الإصرار على المقاومة مساوياً للإصرار على تدمير قدرات العراق وتقتيل شعبه ؟ ، لم يسألوا أنفسهم بطبيعة الحال عن سبب المقاومة وهو صد عدوان جائر، ولم يكن ممكنا أن يرتفع منطقهم الخائر العميل إلى مستوى فهم القيم الرفيعة التى حفزت المقاومة دفاعاً عنها بغض النظر عن حسابات التكلفة التى لاتعدو أن تكون طريقة رخيصة للبقاء فى حال كهذه .

ما كان أسعدهم إذن حين دنست أقدام الجنود الأمريكيين شوارع بغداد التاريخ والحضارة ! كانت الشماتة حالهم، وخرج سؤال «ألم نقل لكم؟» من أفواههم كأبغض ما يكون السؤال . وانهمكوا فى همة ونشاط فى تصعيد الحرب النفسية على الأمة فبدأت السخرية من المقاومة العراقية الباسلة،وطرحت التساؤلات المغرضة حول حقيقة ما جرى، وانتشرت النكات



التى تمس شرف المقاتلين على نحو يذكرنا بأجواء ما بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، وكتبت المقالات المستفيضة عن «إعجاز» الانجاز العسكرى الأمريكى فى العراق ، لم يسر أنصار ثقافة الهزيمة بحرف واحد إلى معجزة الصمود العراقى طيلة واحد وعشرين يوماً فى ظل خلل فادح فى ميزان القوى العسكرى، ولم يتطرقوا من قريب أو بعيد إلى الغياب الكامل لأى دعم عربى للعراق على الصعيد الدبلوماسى ناهيك عن الصعيد العسكرى، على العكس من كافة الحالات السابقة التى تعرضت فيها أقطار عربية لعدوان عسكرى خارجي .

ثقافة الهزيمة وثقافة المقاومة

ليس بمقدونا أن نترك ثقافة الهزيمة تعيث فساداً فى أرضنا العربية خاصة وأن القصة لم تنته فصولها بعد. لم يكن هناك مجال لأدنى شك فى أن العراق لن يكون سوى البداية، لكن الكثيرين - وأعترف اننى واحد منهم - لم يكونوا يتوقعون أن تأتى الخطوة التالية بهذه السرعة، فها هى سوريا الآن - ومعها لبنان بكل تأكيد - تتعرض للمسلسل الفج نفسه الذى تعرض له العراق منذ أحداث سبتمبر ٢٠٠١ والذى انتهى باحتلاله عسكرياً، ويحلو لأنصار ثقافة الهزيمة فى هذه المناسبة أن يذكرونا بأن طبيعة النظامين فى سوريا والعراق (قبل الاحتلال) واحدة ، هم بعبارة أخرى يلمحون إلى أن سابقة السقوط السريع لبغداد على عكس كافة التوقعات سوف تتكرر فى دمشق .

لم يعد الصمت ممكناً إذن على ثقافة الهزيمة،ولا يفل الهزيمة سوى المقاومة، ومن حسن الحظ أن التاريخ المعاصر محمل بخبرة شديدة الوضوح مما أسميه بقانون التحرر الوطنى، وجوهره أن أى مشروع استعمارى أو احتلالى لابد أنه سيفضى إلى تناقص مع الشعب الخاضع للاستعمار أو الاحتلال الأمر الذى ينتهي بظهور المقاومة الوطنية لهذا الاحتلال أو ذلك الاستعمار ولو بعد حين، ولم يوجد حتى الآن فى تاريخ العالم المعاصر أى استثناء من هذه القاعدة، وليس لدى سبب واحد يدعونى إلى الاعتقاد بأن الشعب العراقى سوف يكون هو هذا الاستثناء سوف يرد انصار ثقافة الهزيمة بطبيعة الحال بحجج «موضوعية» وحسابات «دقيقة» عن الخلل الفادح فى ميزان القوى بين الولايات المتحدة والعراق، بما يعنى أنه ليس ثمة أمل فى المقاومة وما ستفضى اليه، غير أن التاريخ يقف لهم ولمنطقهم بالمرصاد، فكافة حركات التحرر الوطنى المعاصرة بدأت فى ظل موازين للقوى غير مواتية على الإطلاق، غير أنها

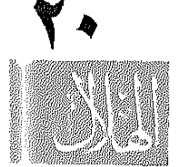
ابدعت من الأسـاليب مـا عـوض الخلل المادى فى مـوازين القـوى الأمـر الذى أوصلها فى نهاية المطاف إلى الاستقلال .

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن مـتطلبـات هـذا الاسـتـقـلال ليـست بالضرورة هزيمة القوات المحتلة، فهذا لم يحـدث إلا على سـبـيل الاسـتـثناء فى حركات التحرر الوطنى المعاصرة، وانما المطلوب هو رفع تكلفة الاحتلال إلى الحد الذى يصـبح فيه عـائده أقل من تكلفـتـه، وهنا لابد للمـحـتل أن يعـيـد حـسـاباته وصـولاً إلـى الجـلاء عن الأراضـى التى يحتلها .

ليست المسألة سـهلة بطبيعة الحـال، غيـر أنهـا ممكنة ، من كـان يصـدق أن مـعـركـة سـتـدور فى «رأس العش » بين قوات مصرية محدودة وقوات إسرائيلية كـبيرة عن أيام قليلة من هزيمة يونيـو ؟ وإن القـوات المصـرية سـوف تنتصـر فى تلك المعركة؟ ومن كـان يصـدق أيضـا أن يسـتـأنف الطيـران الحـربى المصـرى نشـاطه فـوق سـيناء فى يوليـو ١٩٦٨ ؟ وأن تغرق زوارق البـحرية المصرية أكبر قطع الاسطول الإسـرائيلى «إيلات» فى أكـتـوبر ١٩٦٧، وأن تبـدأ حـرب الاسـتنزاف بعد ذلك وتتصـاعد يوماً بعد يوم حتى تصل إلى إنجاز أكتوبر ١٩٧٣ بعـد ست سنوات تقـريبـاً من الهـزيمة الفادحة؟

ومن كـان يصـدق أن القـوات الإسـرائيلية الغـازية للبنان سـوف تضطر إلى الرحـيل من تلقـاء نفسـهـا دون أن يطلب أحد منها ذلك تحت وطأة المقاومة اللبنانيـة الفلسطينيـة بعـد أن ظننا أننا مـقبلون على حـقبـة طويلة من الهـيـمنة الإسرائيلية؟ ومن كان يصدق أن يواصل حـزب الله هذا النهج العظيم ليـجـبـر القوات الإسـرائيلية بدوره على الهـروب بليل من الشريط الجنوبى المحتل فى يوم من أيام مـايو ٢٠٠٠ بعد أن تحـول تحت ضـربات المقـاومـة من شـريط أمن إلى شـريط «مـسـتـهلك للأمن» ؟ ومن كـان يصـدق أن القـوات الإسـرائيليـة مـازالت غـيـر قـادرة على كـسـر إرادة المقـاومـة الفلسـطينيـة بعـد قـرابة ثلاثة أعـوام من البطش الهـمـجى الوحـشى على شـعب فلسطين ؟.

إلى انصـار ثقـافـة الهـزيمة نقـول : مـوتوا بحـقـدكم سـوف يخـيب التـاريخ آمـالكم، وها هـى بوادر الرفض الشـعبى العـراقى للاحـتـلال العـسكرى الأمـريكى تتبلور بسرعة لكى تمهد الطريق لعمليات مـقـاومـة حـقيقية لذلك الاحـتـلال . مـوتوا بحـقـدكم لأن الشـعـوب لاتموت، ولأنهـا لاتحسب حسـاباتها بطريقتكم الرخيصة . ■



● « الحروب تصنع التاريخ ، لكنها غالبا ما تفسده» .

المفكر العربى

عبدالوهاب بدرخان

● «الحرب يغلب فيها الفن على العلم» .

الجنرال رينشارد مايرز

رئيس أركان حرب القوات المسلحة الأمريكية

● «إذا كان ثمة من يفكر أنه يستطيع أن يدير العلاقات الدولية ، كما يدير مزرعته ، فإنه يرتكب خطأ كبيرا » .

ميخائيل جورباتشوف

الرئيس السوفييتى الأسبق



ميخائيل جورباتشوف

● « كان يمكن توفير حياة الأبرياء ، لو أدركت القيادة فى بغداد عدم القدرة على المواجهة» .

محمد الدورى

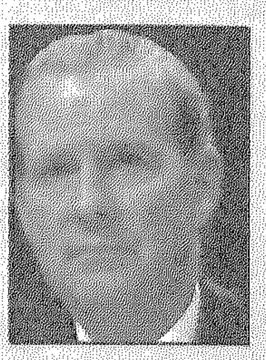
آخر سفراء نظام صدام

لدى الأمم المتحدة

● « نريد أن يصبح العراقيون شعبا محررا ، وليس شعبا مهزوما !» .

جيمس بيكر

وزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق



جيمس بيكر

● «ما نحتاجه الآن ليس فقط تغيير صدام حسين والنظام العراقى ، ولكن أيضا تغيير النظام فى الولايات المتحدة» .

السناتور الأمريكى

جون كيرى

● « نعيش فى عالم يجرى إنتخابات زور تعطينا رئيسا بالزور، يخوض حربا لأسباب زور » .

من كلمة المخرج مايكيل مور

أثناء إستلامه أوسكار أفضل فيلم

● « أشعر أننى ممثلة فاشلة» .

النجمة الأسترالية نيكول كيدمان

الفائزة بأوسكار أفضل ممثلة رئيسية

عن أدائها لدور الأديبة ڤيرجينيا وولف



نيكول كيدمان

● « هزيمة العراق كانت نتيجة طبيعية لأى قوات لاتدافع عن الوطن ، بل تدافع عن نظام » .

ديمترى يازوف

وزير الدفاع الروسى السابق

مستقبل النظام العربى

بقلم
سيد أبو زيد *

أولا : أصبح النظام العربى فى محصلته النهائية مشجبا يعلق عليه جميع الأطراف أخطاءهم وخطاياهم ، والأغلب أن هذا يأتى فى مقدمة الأسباب التى تدعو الأقطار العربية إلى الحفاظ على هذه الرابطة الواهنة التى فقدت كل قدرة على الحركة أو التأثير . ولعل المشاهد المأساوية التى جعلت من المنطقة مسرحا لها خلال العقد الأخير دليل على مدى التردى الذى لحق بالنظام العربى، وحيث بدا ما يحدث وكأنه مسرحية عبثية لا تتسق أحداثها مع أى منطق :

● فلم يكن من المعقول أن تشهد الأراضى الفلسطينية المحتلة كل هذه المذابح اليومية، وأن تسقط اتفاقيات السلام الخاصة بالمسار الفلسطينى تحت سنابك قوات الاحتلال وفي ظل حكومات إسرائيلية متعاقبة، وتحت سمع وبصر الدولة الداعية للسلام ، بل وبتواطىء منها ، ويقبع النظام العربى متظاهرا بالتحرك مقدما لمبادرات سلام لا يكترث بها أحد ، ومناشدا الجلاد ومسانديه الاستجابة لدعوة السلام. وأصبح كل ما يأمله فى الوقت الراهن أن يعلن مايدعى براعى السلام عن خطته الرامية إلى تصفية القضية الفلسطينية،بغض النظر عن فحوى هذه الخطة وأهدافها ، وأى نوع من «البانتوستانات» ستصبح عليه فلسطين إذا ما تحققت رؤية الرئيس الأمريكى.

● ولم يكن من المقبول أن نترك القيادة الفلسطينية محاصرة تحت هذه الضغوط دون سند أو معين، سوى البيانات المؤيدة والشاجبة، وبعض من الأموال تحصل عليها كمعونة بشق الأنفس. ولهذا لم يكن من الغريب أن تبدو هذه القيادة عاجزة، وأن نقبل بشتى الاتهامات التى توجه لها، بل وأن تبادر بالاستجابة لدعاوى إصلاح شأنها.

وكأنه اعتراف منها بما انتهت إليه من فساد مالى وإدارى. وأن يكون هذا التشتت بين فئات تواصل كفاحها المسلح ضد الاحتلال وأخرى وصلت

* مساعد وزير الخارجية السابق

تنازلاتها فى سبيل الوصول إلى التسوية السلمية إلى أن أصبح ظهرها لصيقا بالحائط ولم يعد لديها أى هامش للمناورة أو الحركة .

سقوط العراق

● وجاء سقوط العراق المدوى تعبيرا عن قمة المأساة وشاركت أغلب الدول العربية فى العدوان الأمريكى البريطانى كل على قدر طاقته، فالبعض قد قدم أراضيه كمنطلق للعدوان، والبعض بالتسهيلات الإدارية، والأخرى بالسند الاعلامى.

ولم يخف البعض أمله لدى الدول المعتدية لكى تنتهى من عملياتها فى أقصر وقت ممكن، وعنى أغلبهم بانتقاد القيادة العراقية فى عز المعركة والترويج للمطلب الأمريكى بنصحه بالتنحى، وأثر البعض الصمت البليغ تعبيرا عن الحكمة.

وإن كانت الجامعة العربية - إحقاقا للحق - لم تقف مكتوفة الأيدى، بل أصدرت بيانا قويا وصفه وزير خارجية قطر بما يعنى أنه لا يساوى الحبر الذى كتب به . وكان صادقا فى وصفه إذ لم يكن للبيان أى تأثير أو يلفت نظر أحد أو أعطاه طرف من الأطراف أى اعتبار.

ولعل هذا يذكرنا بلجنة المتابعة العربية الخاصة بالعراق، والتى لم تجد أذانا صاغية بين نيويورك وبغداد.

● ولقد أصبح العراق الآن تحت الاحتلال الأمريكى البريطانى تدنس مراقد أهل البيت الأجلاء فى النجف وكربلاء، وأمراء المؤمنين والخلفاء والأئمة فى بغداد والبصرة والموصل والحلة والناصرية. ويقف النظام العربى يائسا عاجزا عن النطق والحركة.

● وتقف سوريا الآن بين مطرقة الاحتلال الأمريكى البريطانى للعراق وسندان إسرائيل مرشحة لأن تكون الخطوة التالية على خريطة طريق العدوان الذى يستهدف السيطرة على هذه المنطقة.

● لقد فشل النظام العربى فى تقديم دعم حقيقى لليبيا خلال أزمة لوكيربى، كما يترك السودان لمصير الانقسام دون أى تدخل له شأنه يساعدها على مواجهة الضغوط الأمريكية، ولم تجد الصومال لدى النظام العربى ما يجمع من شتاتها أو أن يقيلها من عثرتها.

فاقد الشيء لا يعطيه

ثانيا : أسباب واعتبارات عديدة أفرغت النظام العربى من كل مضمون، ووصلت به إلى حالة من السيولة جعلته عاجزا عن مواجهة التحديات وملاحقة المتغيرات الدولية.

ومقاومة الضغوط الخارجية، فى مقدمتها أن الأداة الرئيسية المنوط بها ضبط إيقاع العمل العربى لم تعد قادرة على القيام بمهمتها، وفى الواقع فإن فاقد الشيء لا يعطيه، فالجامعة العربية أنشئت فى الأساس لكى تكون حاصل جمع تراكمى للأنظمة القائمة، ولا يوجد ثمة إلزام بتنفيذ قراراتها، أو ثمة مساءلة عن مخالفة تلك القرارات، بما يؤدى فى النهاية إلى تكريس أكبر للقطرية.

فهى فى الحقيقة نموذج حى لما يقال عن أن العرب ظاهرة صوتية. فما أكثر بياناتها وقرارتها دون أن يكون لها تأثير على أرض الواقع، وكم يحزن المرء كثيرا على اجتماعات عقدت حتى ساعات متأخرة من الليل للتوصل إلى صيغة مقبول لكلمة أو جملة فى بيان قد لا

يقرؤه الكثيرون بعد صدوره.

لقد كان وجود الدولة القائدة أو مجموعة الدول النواة داخل الجامعة وسيلة مثلى لتفعيلها فى بعض مراحلها، فقد كانت هذه الدول ضامنة لاستصدار القرار المناسب ومتابعة تنفيذه. غير أن هذا الأمر قد أصبح من الصعب تحقيقه بعد أن أصيبت الدول القادرة على القيادة بالوهن، وتركت الساحة خالية للدول الهامشية لكى تصول وتجول فى أروقة الجامعة، وما الذى يمكن أن يفعله أمين عام بحجم عمرو موسى فى مثل هذه الظروف.

ولايمكن اغفال الصدمات الكبرى التى أصيب بها النظام العربى من داخله، فقد تقطعت أوصاله باتجاه مصر المفاجىء إلى عملية السلام وتغييب مصر عن الجامعة العربية على مدار عقد كامل، كما أصيب النظام العربى بالفصام نتيجة لحربى الخليج، إذ لم يكن من السهل ابتلاع حرب مع دولة إسلامية، وكان أشبه بالمستحيل قبول إزالة دولة عربية من الخريطة مهما كانت الأسباب والمقدمات.

العودة إلى ما قبل ١٩٥٨

وكان من سوء الحظ أن تحدث هذه الصدمات فى الوقت الذى دهمتنا فيه متغيرات دولية جذرية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، والذى كان يعطى النظام العربى هامشا من المناورة فى إطار الثنائية القطبية. ووضح أن الأحادية القطبية قد عنيت بتدعيم مواقعها بوجه خاص فى منطقتنا، وكشفت الحرب على العراق حجم الاختراق الذى حدث بهذه المنطقة، ودعونا نضع النقاط على الحروف بالقول أن الأحادية القطبية لا تملك إسرائيل كهراوة لها فى المنطقة فحسب، وإنما فتحت لها أراضى مجموعة دول الخليج لاستخدامها كهراوات مباشرة لها ولحلفائها، وتعاد العراق حاليا إلى أوضاع ما قبل ١٩٥٨ والتى كانت تعتبر القاعدة الأمريكية الرئيسية فى المنطقة.

يحدث هذا فى الوقت الذى تتزايد فيه عوامل الضعف الذاتي العربى، فقد أصبح التقدم على الساحة العالمية يسير بوتيرة أسرع من الخطى العربية، ومن ثم نزداد تخلفا عن الركب العالمى عسكريا واقتصاديا واجتماعيا. أليس من المحزن أن يكون حجم الانتاج الكلى العربى بما فيه من نفط وزراعة وصناعة يزيد قليلا على نصف ما لدى إيطاليا، وأن لا تزيد التجارة البينية والاستثمارات العربية داخل المنطقة على نسبة ٨٪ ، بما يعد دليلا أكيدا على ضعف الهياكل الاقتصادية الداخلية. وأليس من المخزى أيضا أن يكون التسليح العربى كله من الخارج، رغم أنه كانت هناك محاولات لبناء صناعة عسكرية عربية، تلك التى وئدت فى مهدها قصدا وعمدا. ولقد كان التأرجح الحاد بين الاقتصاد المخطط والموجه بما له من بعد اجتماعى، والاقتصاد الحر المنفتح دون قيود أو حدود سببا آخر لإضعاف الكيان العربى.

ولا تقتصر أسباب الضعف على النواحى المادية فقط، إذ ليس بالخبز وحده تحيا الشعوب، وعلينا أن نعترف بأن فجوة حقيقية تتسع بين الأنظمة والشعوب فى المنطقة، يلمؤها مزيج من أجهزة الشرطة والتطرف والفساد، فى غياب مشروع قومى يلتف حوله الجميع يجعلهم قادرين على الصبر والتضحية.

مراكز تنوير لا تنطفىء

ثالثا: لا يمكن أن يتأخر الوقت لأية

بداية على الطريق الصحيح، ونحن لن ننطلق من فراغ بأى حال، فالثابت أن المنطقة العربية هى جزء مهم وحيوى من هذا العالم، يمثل فيما بينه وأمام العالم الخارجى كيانا واحدا اتصل جغرافيا وتاريخيا وبشريا بصورة لا نظير لها، ولم تكن عالة على الفكر والحضارة الإنسانية، بل ووضعت الحروف الأولى لكل العلوم والفنون التى مازال الإنسان على ظهر هذه البسيطة يمارسها ويعمل على تطويرها، وستظل جامعاتنا القديمة فى هليوبولس والاسكندرية والأزهر الشريف وجامعات بغداد ودمشق والزيتونة والقرويين مراكز تنوير لا تنطفىء جذوتها.

والثابت أن الأمة العربية قد وقر فى فؤادها هذا الانتماء بحيث أصبح حقيقة بديهية لا مراء فيها ، وتنظر إلى مصر على أنها بمثابة القلب لهذه المنطقة، وكان هذا قدرها، لم تسع إليه وإنما فرضته ظروف موقعها وموضعها ومواقفها عبر عصور التاريخ، ولم يكن هذا الوضع سهلا ولم يكن محلا للترف، وإنما كانت مسئولية شاقة فى أغلب الأحيان، ومع هذا حملتها مصر راضية بأنها كانت من واجبات الأخوة مهما كان ثمنها، ألم يدخل رمسيس الثانى معركة قادش منذ عدة آلاف من السنين دفاعا عن الأمن العربى وتأمينا لمصر.

مطلوب نظام عربى جديد

نحن فى حاجة إلى نظام عربى جديد، موحد الفكر والرؤى، يتجنب الأسباب الكامنة وراء الشلل الذى أصاب النظام الاقليمى العربى، ويحاول الاقتراب من تطلعات الشعوب العربية فى الوحدة أو على أقل تقدير فى التكامل وتوحيد الصفوف، حتى لو احتاج الأمر فى البداية الاعتماد على مجموعة نواة عربية، أو أن ينتهى الأمرإلى استبعاد دول عربية بعينها من النظام العربى، تلك التى جعلت من نفسها حصان طروادة لضرب هذا النظام.

لقد توصلت الجامعة العربية إلى العديد من المعاهدات والاتفاقات والقرارات التى لو توافرت الإرادة السياسية لدى الدول الأعضاء لتنفيذها أو تفعيلها لكان النظام العربى فى حال أفضل، ولن يتم هذا إلا من خلال عمل جاد ومخلص وهادف، حتى لو تقلصت عضوية الجامعة العربية إلى نصف عدد الأعضاء الحاليين. ولقد حان الوقت لأن تؤخذ بجدية الأفكار التى تقدمت بها دول عربية - ومن بينها ليبيا - لتطوير الجامعة، كما قد حان الوقت لمزيد من التركيز حول خلق مصالح إقتصادية حقيقية بين الدول الأعضاء، من خلال التعجيل بتنفيذ ما اتفق عليه من انشاء السوق العربية المشتركة فى إطار مجلس الوحدة الاقتصادية، واتفاقية تيسير وتنمية التبادل التجارى فى إطار المجلس الاقتصادى والاجتماعى، والعمل بتجرد لحل اشكالية ازدواجية وجود هاتين الهيئتين الاقتصاديتين تحت مظلة الجامعة العربية.

إن الشعوب العربية فى حاجة إلى من ينظم خطواتها على المستوى القومى، ويجعل لكلمتها وزنا، ومن حركتها تأثيرا. إن عقد اجتماع من القيادات العربية الشعبية على مختلف اتجاهاتها على مستوى الوطن العربى قد أصبح ضرورة ملحة من أجل بناء التنظيم العربى الواحد. ■

غزو العراق وانهيار النظام الدولى

بقلم
د. منير زهران

فى هذه المرحلة الحرجة التى تمر بها القضية الفلسطينية من مقاومة الاحتلال الإسرائيلى والممارسات البشعة التى تقوم بها سلطات الاحتلال لقمع انتفاضة الشعب الفلسطينى وإحكام الحصار عليه وسقوط ألوف الشهداء من الرجال والنساء والأطفال وتدمير المنازل والمزارع والبنية التحتية فى الضفة الغربية وقطاع غزة انتهاكا لاحكام القانون الدولى الانسانى ولمرجعية مدريد واتفاق أوسلو، أعدت الولايات المتحدة بالتحالف مع بريطانيا العدة وعبأت الجيوش والأساطيل لاجتياح العراق والاعتداء على استقلاله السياسى وسلامته الاقليمية وذلك منذ صيف عام ٢٠٠٢، وحاولت الحليفتان تلمس الذرائع لتبرير الاعتداء على القطر الشقيق والسيطرة عليه ومقدراته تارة بمحاولة ربط النظام العراقى بتنظيم القاعدة بقيادة اسامة بن لادن والانتقام لأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

وتارة أخرى باتهام العراق بحيازته لأسلحة الدمار الشامل بادعاء استئناف النظام العراقى لبرامج انتاج تلك الأسلحة، بعد مغادرة بعثة الأمم المتحدة للتفتيش عن تلك الأسلحة عام ١٩٩٨.

كما جاءت الحملة الدبلوماسية والاعلامية لكل من الولايات المتحدة وبريطانيا كغطاء لمحاولة تغيير نظام الحكم فى العراق بحجة دكتاتورية النظام وانتهاكه للحريات الأساسية وحقوق الإنسان وسبق اعتداؤه على جيرانه إشارة للحرب العراقية الإيرانية خلال الثمانينات وغزو العراق للكويت عام ١٩٩٠ ثم تحريرها عام ١٩٩١، واستخدام النظام العراقى للأسلحة الكيماوية فى حربه ضد إيران بل وضد المواطنين الأكراد فى العراق. وقد انعكس ذلك فى الخطاب الذى ألقاه الرئيس بوش أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة مع بداية الدورة العادية السابعة والخمسين فى سبتمبر ٢٠٠٢ والذى حمل تهديداً مباشراً للعراق بنزع أسلحة الدمار الشامل بالقوة إذا لم يتم نزعها طواعية.

القرار ١٤٤١

وهكذا تعاونت الولايات المتحدة والمملكة المتحدة فى تقديم مشروع قرار جديد أمام مجلس الأمن وإجراء مشاورات حول صياغة المشروع مع الدول الأعضاء لنزع أسلحة الدمار الشامل فى العراق من خلال بعثة الأمم المتحدة للرصد والتحقق والتفتيش «UNMOVIC» مع اعطاء مهلات زمنية لحكومة العراق للتجاوب والتعاون مع تلك البعثة تحقيقا لهذا الهدف، ونتيجة للمشاورات التى عقدت أمكن تعديل صياغة المشروع بالغاء ما تضمنه المشروع من النص على اللجوء إلى القوة تلقائيا لنزع أسلحة الدمار الشامل الفورى والكامل من العراق. وتهديد العراق بتحمل تبعات وخيمة فى حالة عدم تعاونه «serious conse-quemcas». وهكذا صدر قرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١ فى نوفمبر ٢٠٠٢. وبدأ فريق المفتشين الدوليين عملهم بقيادة هانز بليكس وزير خارجية السويد السابق والدكتور محمد البرادعى المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية، اللذين أوضحا فى تقاريرهما أمام

مجلس الأمن تعاون العراق، بدرجات متفاوتة.

وكان من المفروض أن يقدم المفتشون الدوليون تقريرهم الأخير يوم ٢٧ مارس ٢٠٠٢، إلا أنه بناء على طلب بعض الدول الأعضاء في مجلس الأمن عجل هؤلاء تقريرهم تمهيداً لوضع جدول زمنى بمعرفة المجلس حتى يمكن انهاء مهام التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل فى اطار زمنى محدد. لذلك عرض المفتشون تقريرهم أمام جلسة مجلس الأمن يوم ١٩ مارس ٢٠٠٢ ومساء نفس اليوم وقبل وضع الجدول الزمنى المشار إليه، شنت قوات التحالف الأمريكى البريطانى غارات بالصواريخ والطائرات ضد العاصمة بغداد وتلتها قوات الغزو أرضا انطلاقا من أرض الكويت التى تمركزت فيها مخترقة بذلك المنطقة منزوعة السلاح التى سبق لمجلس الأمن انشاؤها بين الدولتين بعد سحب الأمين العام للأمم المتحدة يوم ١٧ مارس ٢٠٠٣ لقوات حفظ السلام (UNIKOM) التى قرر مجلس الأمن نشائها منذ ١٩٩١ ولم يصدر مجلس الأمن قراراً آخر بسحبها أو تعليقها، كما لم يستجب مجلس الأمن لمشروع قرار بريطانى أمريكى أسبانى يسمح باستخدام القوة ضد العراق فى الوقت الذى طالبت فيه غالبية الدول الأعضاء فى مجلس الأمن باعطاء مزيد من الوقت للمفتشين الدوليين لاستكمال مهامهم.

إعلاء منطق القوة

وهكذا يشهد العالم منذ ١٩ مارس ٢٠٠٣ مرحلة جديدة فى العلاقات الدولية يسودها إعلاء منطق القوة - وإهدار مبادىء وأحكام القانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة التى تقضى بتسوية المنازعات بالطرق السلمية، وعدم التهديد بالقوة أو استخدامها فى العلاقات الدولية. ويذكرنا ذلك بقيام دولتين من الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن بالعدوان على مصر بالاشتراك مع إسرائيل عام ١٩٥٦ بعد تأميم مصر - بقيادة الرئيس الراحل جمال عبدالناصر - لقناة السويس. ويلاحظ فى الحالتين اشتراك بريطانيا - العضو الدائم فى مجلس الأمن - فى العدوان على كل من مصر والعراق الأولى عام ١٩٥٦ والثانية عام ٢٠٠٣. وهو امتداد لتاريخ بريطانيا الاستعمارى فى المنطقة سواء فى مصر أو فى العراق أو فى فلسطين.

انها مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة وزوال الحقبة الاستعمارية بشكلها التقليدى. وبداية القرن الحادى والعشرين، أننا بصدد حقبة جديدة من الاستعمار الجديد وامبريالية انجلو سكسونية للهيمنة على بلدان وشعوب المنطقة التى حباها الله بمواقع استراتيجة وثروات طبيعية وبشرية يسعى الغزاة للسيطرة عليها وتطويعها لخدمة مصالحهما الاقتصادية فى ظل عولمة الاقتصاد والتجارة، وتهميش الدول النامية.

هذه المرحلة تتمثل فى تعبئة وحشد الجيوش والأساطيل وأكثر الأسلحة تقدما وفتكا ودماراً لدولتين تتمتعان بمقعدين دائمين فى مجلس الأمن،



وتتحملان مسئولية خاصة مع باقي الأعضاء الدائمين - في حفظ السلم والأمن الدوليين انتهاكا لأحكام ميثاق الأمم المتحدة، وتقويضا للنظام الدولى الذى تم بناؤه على انقاض أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية التى ذاق الأوروبيون ويلاتها.

وسوف نعرض فيما يلى أولا حكم الميثاق بالنسبة لغزو العراق ثم الموقف في مجلس الأمن، وأخيراً موقف الأمين العام للأمم المتحدة، وننتهى ببعض الملاحظات.

أولاً : الميثاق وغزو العراق

نص ميثاق الأمم المتحدة على عدد من الأهداف والمبادىء والأحكام التى يعتبر غزو العراق انتهاكا صارخا لها، وأهمها ما نصت عليه الديباجة وهى روح الميثاق، من أن شعوب الأمم المتحدة آلت على نفسها «أن تنقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التى في خلال جيل واحد جلبت على الإنسانية مرتين أحزانا يعجز عنها الوصف». وهكذا نعيش ويلات حرب جديدة غير شرعية وتتجدد أحزان الإنسانية. كما نص الميثاق على عدد آخر من الأحكام التى تعتبر الحرب الدائرة فى العراق انتهاكا صارخا لها وخاصة:

١ - تأكيد الحقوق الأساسية للإنسان والمساواة فى الحقوق بين جميع الأمم كبيرها وصغيرها وليست الحرب الدائرة ضد العراق إلا انتهاكا للحقوق الأساسية للإنسان سواء حقوق جماعية مثل حق تقرير المصير أو الحق فى الحياة، وخرقا لمبدأ المساواة فى السيادة فيما بين الدول وهو أحد أركان النظام الدولى الذى أرساه ميثاق الأمم المتحدة.

٢ - تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها من مصادر القانون الدولي، وهكذا لم يكن غزو العراق وخضوعه للاحتلال الأجنبي مرة ثانية، وقتل المدنيين من النساء والأطفال والرجال والشيوخ وترويعهم وهدم منازلهم وتدمير البنية التحتية والمرافق الأساسية بما فى ذلك محطات تحلية المياه وتوليد الكهرباء إلا انتهاكا للعدالة والمساواة ولجميع المواثيق والمعاهدات الدولية بما فى ذلك القانون الدولى والقانون الدولى الإنسانى

٢ - كما يعتبر غزو العراق اعتداء صارخا على استقلال وسيادة العراق ووحدة ترابه الوطنى وسلامته الاقليمية بالمخالفة للغايات والمبادىء التى نص عليها ميثاق الأمم المتحدة الذى أكد ضمن أمور أخرى على الآتى:

أ - أن يسود التسامح العلاقات الدولية، وأن تعيش شعوب الأمم المتحدة فى سلام وحسن جوار.

ب - ضم قوى الشعوب للمحافظة على السلم والأمن الدوليين.

جـ - أن تكفل مبادىء وخطط الأمم المتحدة عدم استخدام القوة المسلحة فى غير المصلحة المشتركة - ووفقا لما يقرره مجلس الأمن باعتبار أن اختصاصه الأصيل هو المحافظة علي السلم والأمن الدوليين.

كما نشير إلى عدد من مقاصد

ومبادىء الميثاق على نحو ما جاء في الفصول الأول والسادس والسابع وأهمها:

١ - نصت المادة الأولى على مقاصد الأمم المتحدة وفيها:

أ - حفظ السلم والأمن الدوليين، وتحقيقا لهذه الغاية تتخذ الأمم المتحدة التدابير الفعالة لمنع الأسباب التى تهدد السلم وإزالتها، وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الاخلال بالسلم، وتنتهج الوسائل السلمية، وفقا لمبادىء العدل والقانون الدولى، لحل المنازعات الدولية التى قد تؤدى إلى الاخلال بالسلم - وتسويتها.

ب - انماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذى يقضى بالتسوية فى الحقوق بين الشعوب، وبأن يكون لكل منها حق تقرير المصير، وكذلك اتخاذ التدابير الأخرى الملائمة لتعزيز السلم العام.

جـ - أن تكون الأمم المتحدة مرجعا لتنسيق أعمال المنظمة وتوجيهها نحو إدراك هذه الغايات المشتركة.

وهكذا ضربت قوات التحالف التى غزت العراق عرض الحائط بتلك المقاصد وتخطت الأمم المتحدة لكى تقصره على تقديم المساعدات الإنسانية للمدنيين وإغاثة المنكوبين من ضحايا هذا العدوان.

٢ - ولقد نصت المادة الثانية من الميثاق على المبادىء التي تعمل الأمم المتحدة وفقا لها، ويهمنا - فى حالة العدوان على العراق - الاشارة إلى المبادىء الآتية:

أ - مبدأ المساواة فى السيادة بين الدول الأعضاء.

ب - مبدأ حسن النية فى القيام بالالتزامات المنبثقة من الميثاق وفى كفالة الحقوق والمزايا المترتبة على العضوية.

جـ - أن يفض جميع الأعضاء منازعاتهم الدولية بالوسائل السلمية على وجه لا يجعل السلم والأمن والعدل الدولى عرضة للخطر.

د - أن يمتنع الأعضاء فى علاقاتهم الدولية عن التهديد باستخدام القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضى والاستقلال السياسى لأى دولة أو على أى وجه لا يتفق مع مقاصد الأمم المتحدة.

هـ - أن يقدم جميع الأعضاء كل ما فى وسعهم من عون إلى الأمم المتحدة فى أى عمل تتخذه وفق الميثاق، كما يمتنعون عن مساعدة أى دولة تتخذ الأمم المتحدة إزاءها عملا من أعمال المنع أو القمع.

و - لا يوجد بالميثاق ما يسوغ للأمم المتحدة أن تتدخل فى الشئون التى تكون من صميم السلطان الداخلى لدولة ما.

٣ - وبالاضافة إلى ما يقضى به الفصل السادس من الميثاق من حل أى نزاع من شأن استمراره أن يعرض حفظ السلم والأمن الدوليين للخطر بالوسائل السلمية (المواد من ٣٣ إلى ٣٨)، فإن الفصل السابع جاء بالأحكام المتعلقة بالأعمال التى يمكن لمجلس الأمن اتخاذها فى حالات تهديد السلم والاخلال به ووقوع العدوان (المواد ٣٩

حتى ٥١).

٤ - تحدد المادة ٥١ من الميثاق ولاية مجلس الأمن فى حالة الاعتداء على دولة عضو فى الأمم المتحدة، حيث تنص على أنه.. «ليس فى هذا الميثاق ما يضعف أو ينتقص من الحق الطبيعى للدول - فرادى أو جماعات، فى الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة»، وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدوليين، والتدابير التى اتخذها الأعضاء استعمالا لحق الدفاع عن النفس تبلغ إلى المجلس فوراً، ولا تؤثر تلك التدابير بأى حال فيما للمجلس بمقتضى سلطته ومسئولياته المستمدة من أحكام هذا الميثاق من الحق فى أن يتخذ فى أى وقت ما يرى ضرورة لاتخاذه من الأعمال لحفظ السلم والأمن الدوليين وإعادته لنصابه «نهاية الاقتباس»!

وبالنسبة لحالة العدوان على العراق، مارس العراق حكومة وشعبا حق الدفاع الشرعى على انفراد، ولم تشاركه فى التصدى للعدوان أى دولة - سواء شقيقة أو صديقة - رغم معاهدة الدفاع العربى المشتركة - التى تعتبر أى اعتداء على أى دولة عربية اعتداء على الدول العربية جميعا، بل انطلقت من أراضى بعض الدول المجاورة للعراق جيوش وأساطيل الدول المشاركة فى العدوان فى الخليج الصواريخ والطائرات المحملة باعتى الأسلحة والذخائر والجيوش التى تشمل أحدث الدبابات والمدافع للاعتداء على العراق وانتهاك سيادته والمساس بترابه الوطنى كما لم يجتمع مجلس الأمن إلا بعد أسبوع من بدء العدوان لمناقشته ولم يصدر عنه أى قرار بإدانته ووقفه بسبب الضغوط التى مارستها الولايات المتحدة وبريطانيا على الدول الاعضاء لعدم تحمل مجلس الأمن لمسئولياته.

ثانياً: مجلس الأمن والعدوان على العراق

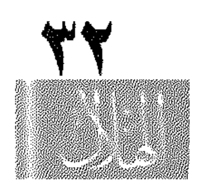
بعد صدور قرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١ فى نوفمبر ٢٠٠٢ بشأن نزع أسلحة الدمار الشامل فى العراق، وإعطاء فرق التفتيش الدولية برئاسة مستر هانز بليكس رئيس فريق المفتشين الدوليين على تلك الأسلحة - وافقت حكومة العراق على استقبال المفتشين الدوليين والتعاون معهم، وأكدت خلو العراق من تلك الأسلحة منذ مغادرة فريق التفتيش الأول unscom للعراق عام ١٩٩٨. ر

لم تحقق التأكيدات اللازمة بشأن عدم وجود أسلحة الدمار الشامل وغيرها من الأصناف المحظورة فى العراق، وأنه لم يعد هناك وقت لعمليات التفتيش التى نقوم بها، وأن الأعمال العسكرية تبدو الآن وشيكة» جاء ذلك صباح نفس اليوم الذى بدأ فيه العدوان الانجلو أمريكى على العراق وهكذا يوضح رئيس المفتشين الدوليين بأنه حتى يوم ١٩ مارس ٢٠٠٣ لم يثبت أو يتأكد

لدى فريق التفتيش وجود أسلحة دمار شامل فى العراق - وهو نفس ما سبق أن أكده الدكتور محمد البرادعى مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية فى تقريره الأخير أمام المجلس والذى يوضح أنه لم يثبت أى دليل على وجود برنامج نووى لغير الأغراض السلمية لدى العراق. وأنه يحتاج إلى عدة أشهر حتى يستكمل مهمته. وكانت هذه هى الذريعة التى استند إليها كل من الرئيس الأمريكي ورئيس الوزراء البريطانى فى شن العدوان على العراق ورغم توغل تلك القوات واحتلال العراق بالكامل لم يتم اكتشاف أى من تلك الأسلحة. ويؤكد ذلك أن إزالة أسلحة الدمار الشامل من العراق كان ذريعة لشن العدوان ونظام الحكم فى العراق وتنصيب نظام آخر يضمن سيطرة المصالح الأمريكية البريطانية فى منطقة الخليج.

كما سجلت روسيا بيان الرئيس بوتين بشأن العراق الصادر يوم ٢٠ مارس ٢٠٠٣، والذى شدد على أن العملية العسكرية ضد العراق تجرى رغم معارضة الرأى العام العالمى وخلافا لمبادىء وقواعد القانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة.

وعندما اجتمع مجلس الأمن يومى ٢٦ و٢٧ مارس ٢٠٠٣ بناء على دعوة جامعة الدول العربية وحركة عدم الانحياز لاجراء مناقشة حول العدوان الأمريكي البريطانى على العراق، ألقيت بيانات من الأمين العام الذى أعرب عن حزنه لبدء العمليات العسكرية وركز على دور الأمم المتحدة لتقديم المعونات الإنسانية للأهالى من المدنيين والنازحين، وطالب باحترام اتفاقيات جنيف وخاصة بالنسبة لمعاملة أسرى الحرب وحماية المدنيين. كما ألقى المندوب المراقب لجامعة الدول العربية بيانا - كرر فيه ما سبق أن أرسله للأمين العام للأمم المتحدة حول بيان مجلس جامعة الدول العربية الذى عقد على المستوى الوزارى فى القاهرة يوم ٢٤ مارس ٢٠٠٣، وأشار بصفة خاصة إلى: إدانة العدوان الأمريكى البريطانى على العراق.. واعتبار هذا العدوان انتهاكا لميثاق الأمم المتحدة ولمبادىء القانون الدولى وخروجا على الشرعية الدولية وتهديداً للأمن والسلم الدوليين وتحديا للمجتمع الدولى والرأى العام العالى، والمطالبة بالانسحاب الفورى وغير المشروط للقوات الأمريكية البريطانية الغازية من الأراضى العراقية، وتحميلها المسئولية المادية والأخلاقية والقانونية عن هذا العدوان، ومطالبة مجلس الأمن باتخاذ قرار بوقف العدوان وسحب القوات الغازية فوراً خارج الحدود الدولية لجمهورية العراق، والتأكيد على احترام سيادة العراق واستقلاله السياسى وحرمة أراضيه وامتناع جميع الدول عن التدخل فى شئونه الداخلية، دعوة الجمعية العامة للأمم المتحدة لعقد جلسة طارئة لبحث العدوان على العراق والمطالبة بوقفه الفورى وسحب القوات المعتدية من جميع الأراضى العراقية واحترام وحدة وحرمة أراضيه فى حالة عدم اتخاذ مجلس الأمن القرار اللازم



لوقف العدوان والانسحاب .

ثالثاً: موقف الأمين العام

بعد اجتماع قادة الولايات المتحدة وبريطانيا وأسبانيا في جزر الأزور يوم ١٦ مارس قرر الأمين العام للأمم المتحدة يوم ١٧ مارس ٢٠٠٣ سحب جميع الموظفين الدوليين العاملين في العراق بما في ذلك فرق التفتيش عن أسلحة الدمار الشامل - نظراً لعدم ضمان سلامة موظفي الأمم المتحدة والعاملين تحت علمها من مختلف وكالات وأجهزة المنظمة الدولية. وهكذا تم سحب فرق التفتيش الدولية للأمم المتحدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية والعاملين في لجنة الأمم المتحدة للرصد والتحقق والتفتيش (UNMOVIC) وبعثة حفظ السلام التي انشئت بعد انسحاب العراق من الكويت في عام ١٩٩١ (UNIKOM) وموظفي الاغاثة الإنسانية والمشرفين علي تنفيذ برنامج النفط مقابل الغذاء.

وقد أخطر الأمين العام مجلس الأمن الذي اجتمع يوم ١٧ مارس ٢٠٠٣. باعتزامه تقديم مشروع تعديل على برنامج «النفط مقابل الغذاء» يخول الأمين العام بعض السلطات للتصرف في جانب من حصيلة مبيعات النفط العراقي لشراء الاحتياجات الضرورية من المواد الغذائية والطبية لصالح الشعب العراقي.

وفي الوقت الذي برر الأمين العام تصرفه بمسئوليته عن حماية وضمان سلامة الموظفين الدوليين - طالما أنه تم اخطاره بذلك، إلا أن تصرف الأمين العام انتقدته العديد من الدول واعتبرت تصرفه خروجا عن صلاحياته باعتبار أن مجلس الأمن هو صاحب الاختصاص الأصيل في هذا الشأن. وربما يرجع السبب في التحايل على مجلس الأمن وتخطيه، توقع أمريكا وبريطانيا عدم امكانية المجلس اتخاذ مثل هذا القرار لعدم أغلبية تسعة أصوات وتفادي ممارسة حق الفيتو من جانب فرنسا أو روسيا أو الصين في حالة اكتمال نصاب التصويت لاصدار قرار من المجلس أي تسعة أصوات. مما كان سيشكل عقبة قانونية إضافية أمام الغزو الأمريكي البريطاني للعراق.

هذا وتجدر الاشارة إلى أنه في بداية أعمال مجلس الأمن الذي عقد بناء على مبادرة من جامعة الدول العربية وحركة عدم الانحياز يوم ١٩ مارس ، ألقى الأمين العام للأمم المتحدة بيانا ذكر فيه أنه يوم حزين للأمم المتحدة أن تفشل الجهود الدبلوماسية في تسوية النزاع حول اتهام العراق بامتلاك أسلحة الدمار الشامل. وأضاف في جلسة المجلس التي عقدت يوم ٢٦ مارس بأن بدء العمليات العسكرية الأمريكية البريطانية يوم ١٩ مارس يشكك في مشروعيتها «its legality is questianable» وبناء على المشاورات التي جرت فيما بين الدول الأعضاء في مجلس الأمن ومنها سوريا - العضو العربي الوحيد بالمجلس - أدخلت تعديلات على مشروع القرار الذي قدمه الأمين العام إلى المجلس بتاريخ ١٩ مارس ٢٠٠٣ حول تعديل برنامج «النفط مقابل الغذاء» وصدر قرار

اجـمـاعى من المجلس يوم ٢٨ مـارس ٢٠٠٣ باعطاء الأمين العـام سلطة اضـافيـة لادارة البرنامج لمدة ٤٥ يومـا. ويمكن تجديد القرار لفترات مماثلة وفقا للحاجة. وقد أعطى قرار مجلس الأمن الصادر يوم ٢٨ مارس الماضى الأمين العام سلطة القيام بعدة مهام - مثل اعادة تقييم العقود التى سبق الموافقة عليها فى لجنة العقوبات التابعة للمجلس بما فى ذلك المسائل الفنية واللوجستية وبدائل المواقع ووسائل التموين . كما منح القرار الأمين العام سلطة التفاوض حول عقود جديدة لمواجهة الاحتياجات الطبية للشعب العراقى. ولم يعف القرار الدول التى احتلت العراق من مسئولياتها فى هذا الشأن ويغطى هذا البرنامج ٦٠٪ من احتياجات الشعب العراقى الذى يبلغ تعداده ٢٧,١ مليون نسمة.

وقد وجه الأمين العام للأمم المتحدة الدعوة لاعضاء مجلس الأمن للاجتماع به يوم ٧ ابريل ٢٠٠٣ - فى اجتماع غير رسمى بعد أن شارف العدوان الأمريكى البريطانى على تحقيق أهداف باحتلال غالبية أراضى العراق وحصار العاصمة بغداد وبعد اعلان الادارة الأمريكية انشاء إدارة مدنية مؤقتة برئاسة الجنرال الأمريكى المتقاعد «JAY GARNER» يكون مقرها المؤقت مدينة أم قصر بعد. وكأن دور الأمم المتحدة ومجلس الأمن - يجب أن يكون مقصوراً على التعامل مع الأمر الواقع لانقاذ المنكوبين وتعبئة الموارد اللازمة لتقديم المساعدات الإنسانية للمدنيين .

وقد عين الأمين العام السيد/ رفيع الدين أحمد الباكستانى الجنسية مستشاراً له لشئون العراق ، وصرح الأمين العام بأنه يعتقد أنه يجب أن يكون للأمم المتحدة دور مهم فى إعادة بناء العراق، وأنه كلف السيد/ رفيع الدين أحمد باعداد عدد من السيناريوهات حول الوضع فى العراق بعد انتهاء الحرب.

ورغم محاولات أمريكا للهيمنة على إعادة أعمار العراق تصالح شركاتها وحرمان الدول التى لم تؤيد غزو العراق من ذلك ، فقد أكدت قمة الاتحاد الأوربى فى منتصف ابريل ٢٠٠٣ على الدور المركزى للأمم المتحدة فى إعادة أعمار العراق بينما ترغب الولايات المتحدة فى أن يقتصر دورها على الإغاثة الإنسانية

* * *

أما بعد يتضح مما تقدم أن دور الأمم المتحدة فى تسوية الأزمة التى تم افتعالها حول العراق كان دوراً مهمشاً، ويعكس ذلك عدم تمكن مجلس الأمن من تحمل مسئولياته وفقا لما نص عليه ميثاق الأمم المتحدة. ويعتبر الغزو الانجلو سكسونى للعراق فى مارس / ابريل ٢٠٠٣ هو الفصل الأخير من هزيمة العراق التى بدأت منذ يناير ١٩٩١ واستمرار حصاره وفرض العقوبات عليه وقصف مواقعه فى شمال وجنوب العراق طوال اثنى عشر عاما بمعرفة الولايات المتحدة وبريطانيا وكان الدور الذى قام به المفتشون الدوليون دوراً تمهيدياً لغزو العراق الأخير، فقد سمحت مهمة المفتشين بالتأكد من خلو العراق من أسلحة الدمار الشامل وإزالة الشكوك حول ذلك، وهو ما طمأن قوات التحالف

الانجلو أمريكية إلى تقليل المخاطر البشرية ازاء امكانية استخدام العراق تلك الأسلحة لمواجهة الغزو المخطط له.
ولم يكن دور الأمم المتحدة إلا الدور الذى ترضى عنه القوة العظمى الوحيدة - بعد فرض الأمر الواقع، إما لتعبئة توزيع المساعدات الإنسانية لانقاذ منكوبى المقاومة العراقية الباسلة وضحايا القصف الجوى للأحياء السكنية واستئثار الولايات المتحدة وشركاتها بعمليات إعادة أعمار العراق من خلال استنزاف ثروات الشعب العراقى النفطية مع حرمان الشركات التابعة للدول التى عارضت الحرب ضد العراق من المشاركة فى إعادة البناء عقابا لها. مع التحكم فى إنتاج وتسعير النفط على المستوى العالمى لصالح شركاتها عبر القومية. وتحجيم دور الأويك.

وهكذا كانت شعارات التحالف لغزو العراق من تحرير وديمقراطية وحقوق الإنسان شعارات زائفة «مكيافيلية» الغاية تبرر الوسيلة، «وكلمة حق يراد بها باطل» عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه. الذى واجه فى القرن الأول الهجرى الفتنة الكبرى وتآمروا عليه ودفن فى العراق، وإذا بالعراق يتعرض للمؤامرة الكبرى للهيمنة عليه في القرن الخامس عشر الهجرى وبداية القرن الحادى والعشرين الميلادى.

وهل لنا أن نستذكر أن الصراع على بترول العراق يرجع إلى الحرب العالمية الأولى مع قرب نهاية الامبراطورية العثمانية ومحاولة ألمانيا والنمسا - من خلال تحالفهما مع تلك الامبراطورية للسيطرة على العراق وثرواته البترولية وقد تصدت لهما بريطانيا والولايات المتحدة، وكانت النتيجة اقتسام غنائم الامبراطورية العثمانية فيما بين هؤلاء الذين انتصروا فى الحرب والتاريخ يعيد نفسه.

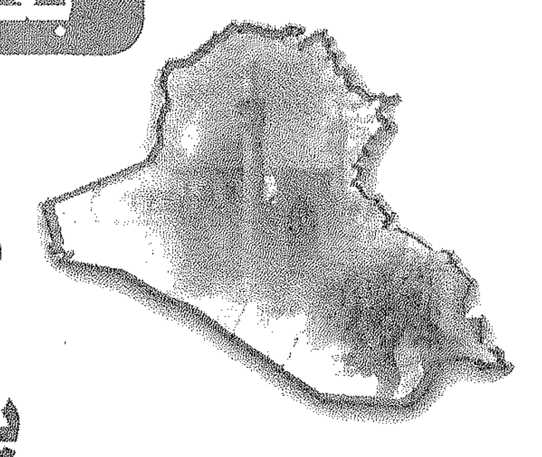
والتاريخ يعيد نفسه

والمخطط الحديث للسيطرة على منابع البترول فى الخليج يرجع إلى بداية السبعينات مع انسحاب بريطانيا من تلك المنطقة وفى ظل إدارة الرئيس نيكسون ووزير خارجيته هنرى كيسنجر، وتبلور هذا المخطط بعد حرب أكتوبر المجيدة على أن يجرى تنفيذه على مراحل منذ بداية الثمانينات فكانت الحرب العراقية الايرانية ثم غزو الكويت وأخيرا غزو العراق. ونحن لا نعلم يقينا ما هى المراحل القادمة لاستكمال المخطط.

التحذير من المخططات الصهيونية الأمريكية والتى سبق تسريبها بتوطيهم اللاجئين الفلسطينيين فى العراق، وتخشى أن تكون «خريطة الطريق» غطاء لذلك.

إذا كانت ذريعة بوش وبلير فى غزو العراق وتدميره واحتلاله هو التخلص من أسلحة الدمار الشامل التى لم يثبت وجودها فأولى بهم ثم أولى أن يذهبوا إلى إسرائيل لنزع أسلحة الدمار الشامل منها ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ومن هنا يلزم تأييد مبادرة سوريا فى مجلس الزمن لنزع أسلحة الدمار الشامل من جميع دول المنطقة والتى هى فى إسرائيل. ■

بغداد الشاعرة

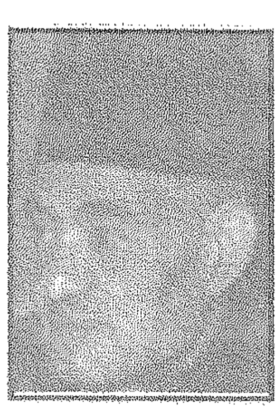




شعراء مصر يحيون العراق

بقلم
د. محمد رجب البيومى


محمود غنيم


على الجارم


د. زكى مبارك

من رأى المظاهرات الصاخبة التى اندفعت فى قلب القاهرة، وعواصم المحافظات وساحات الجامعات تستنكر العدوان الغاشم على العراق، وتعده عدوانا على مصر نفسها لأن العراق شقيق مصر وقد اتحدنا فى الشعور والآلام والآمال ، من رأى هذا الطوفان المزبد الجامش يغلى بالحفيظة والغيظ ، ويترقب يوم الانتقام العاجل أيقن أن الأمة الإسلامية جميعها جسد واحد إذا اشتكى عضو من أعضائه تداعى له الجميع بالحمى والسهر.

بل من رأى المجالس الخاصة في المنازل وقد تلهف المجتمعون على مشهد من مشاهد الحرب الدائرة تنقلها القنوات الفضائية كاشفة ما يدور على أرض العراق من وقائع أظهرت بسالة الجندى العراقي الذى تشتعل الحمية في قلبه فتنسيه نفسه ويهجم وهو الأعزل الضعيف على الدبابات القاذفة باللهيب كما أنه يجود بروحه في سبيل المقدسات الغالية من تراب الوطن الحبيب ، من يرى هؤلاء الجالسين وقد تصاعدت زفرات الألم من الآباء وجرت دموع الحسرة من الأمهات ، لا يشك لحظة أن المصاب ليس مصاب العراق وحده بل مصاب مصر وسائر الأمم العربية ، وكأن القذائف التى أصابت البصرة والنجف وبغداد قد أصابت القاهرة والإسكندرية والمنصورة فالخطب مشترك والعدو واحد والأمل في النصر قريب غير بعيد.

والشعر اليوم قد عبر قدر استطاعته عن مأساة الحرب الدامية في العراق ، ولكن أسلوبه التأثيرى لا يوقد النار فى الشعور ، لأنه خالف النسق العربى الأصيل الذى يهز المشاعر هزا ويرج الأحاسيس رجا ، وشعراء الجيل الماضى كانوا أقدر على التعبير الصادق الذى يملك عواطف القراء بما يفصح عن مشاعرهم الواضحة دون التواء فى رمز غامض أو تصوير متكلف أو شطط يجنح إلى الافتعال ، لذلك رأيت أن أعرض للقراء الكرام ما يحسون به من مشاعر الحب نحو بغداد من خلال ما قاله شعراء الأمس ، فإن تعبيرهم الطبيعى غير المتكلف يروى النفوس ، ويشفى الصدور وليس ضبابا حائرا يعشى الأبصار.

إذا ذكر الذين هتفوا بمجد العراق من أدباء مصر وشعرائها فأول من يطرأ على الذهن من هؤلاء هو الدكتور زكى مبارك فقد زار العراق من قبله أساتذة كبار من أمثال عبدالرزاق السنهورى ومحمود عزمى وأحمد حسن الزيات وعبدالوهاب عزام ، وكلهم تحدث عن ذكرياته بالعراق حديثا يحمل الحب والإخلاص ولكن الدكتور زكى مبارك كان أمة وحده ، وحسب القارئ أنه قضى فى عاصمة الرشيد تسعة أشهر فقط!! أى أقل من عام وقد اتسعت هذه الفترة القصيرة لتأليف ستة كتب عن العراق وأدبه هى ليلى المريضة فى العراق فى ثلاثة أجزاء ووحى بغداد وعبقرية الشريف الرضى، غير ما نظمه من الشعر الوجدانى الرقيق ومما قاله عن أهل مصر «إن المصريين يغدون إلى العراق وليس فى صدورهم ثروة غير الحب، ومن أجل هذا يحبهم العراقيون ، فإن سمعتم أن مصريا شقى فى العراق فاعلموا أنه مصرى مزيف» .

كما قال زكى مبارك عن أهل العراق «إن العراقيين يحبوننا أصدق الحب ، فلتعلموا أننا نحبهم ونتمنى لهم كل خير

وننظر إلى بلادهم نظر الأخوة الصادقة التى لا تضمر غير العطف والصدق».

وحين أزمع على الرحيل أنشد فى النادى العراقى قصيدة رنانة شارفت المائة من الأبيات وقد قال فيها:

ستذكر أرجاء الفراتين شاعرا
تفجر عن مكنونة الدر عصماء
سيسأل قوم من زكى مبارك؟
وجسمى مدفون بصحراء صماء
فإن يسألوا عنى ففى مصر مرقدى
وفوق ثرى بغداد تمرح أهوائى

وفى النقاد من يحسد حين ينقد، فهو ينظر بعين موجعة عوراء، وقد أخذ على زكى مبارك حين راعه تدفق خاطره، وتعداد صوره. وشبوب عاطفته أخذ عليه أنه تغزل فى حسان العراق، وما كان له أن يفعل ذلك وهو مأخذ طائش لأن زكى مبارك تغزل فى حسان مصر بما ملأ قرابة الديوان من شعره، وماعد أحد ذلك عيبا على شاعر يصور ما يحس إن كان لم يذكر اسم الحبيبة تصريحا أو تلميحا بل جعلها (ليلى المريضة فى العراق) ثم ماذا فى هذه الأبيات مما يوجب الملام!

عفا الحب عن بغداد كم بت لاهيا
أكاثر أيامى بليلى وظمياء
فكيف وقعت اليوم فى أسر طفلة
مكحلة بالسحر ملثوغة الراء
أصاول عينيها بعينى والهوى
يشيع الحميا فى عروقى وأعضائى

والذى يقول هذا فى غيد بغداد يقول فى حسناوات مصر الجديدة:

تعالوا ففى مصر الجديدة ما بها
من النرجس الفينان والفل والورد
إذا جلت فيها جولة الفتح أسلمت
مفاتحها فيما تسر وما تبدى
شوارعها عند الأصيل مشارع
لكل محب من حبيب على وعد
وأنفاسها بالليل كالمسك نفحة
وظلماؤها كالخال فى صفحة الخد
تجمع فيها الحسن من كل أمة
كبغداد بين العرب والفرس والكرد

فلنترك زكى مبارك إلى سواه!

صلة مصر بالعراق

وأبدأ بالشاعر الكبير الأستاذ على الجارم وهو من ألمع شعراء العربية فى عصره لأنه شاعر العروبة المتحدث عن آلامها وآمالها ولشعره صولة نافذة إلى القلب إلقاء ومضمونا لذلك كان شوقى رحمه الله يخصه بإلقاء قصائده فى أكثر المحافل الشعرية، وقد زار بغداد ثلاث مرات، لينشد فى كل مرة قصيدة تؤكد صلة مصر بالعراق وقد أفصح عن الحقيقة الصريحة حين قال:

إذا مست البأساء أكناف دجلة
رأيت الأسى فى صفحة النيل والكمدا

ولو كان الجارم بيننا الآن لرأى مصداق قوله فى هذا الغليان المتأجج فى الصدور والغيظ الملتهب فى العروق، فالأسى فى صفحة النيل قد حول ماءه إلى حميم آن، وكم مقلة فى مصر قد اضطربت سهدا حين طرفت عين بغداد من القذى تصديقا لقول الشاعر الكبير:

وإن طرفت عين ببغداد من قذى
فكم مقلة فى مصر قد ملئت سهدا
إخاء على الفصحى توثق عهده

وشدت من الإيمان أركانه شدا

أما قصيدته التى ألقاها بالمؤتمر الطبى بالعراق سنة ١٩٣٨ فلو لم تكن موقعة باسم الجارم ونسبت إلى شاعر عراقى كبير لعبرت عن شعور كل عراقى، وصارت أنشودة جميلة يرددها فى مراحه ، لقد كان الجارم عراقيا فى قصيدته لأنه شاعر عربى مسلم ، يحس ما يحسه أبناء الأمة العربية الأصلاء من روابط الدين واللغة والدم ويحن إلى تاريخ المجد القديم فى عهد الرشيد فيقول مخاطبا بغداد:

يا سطر مجد للعروبة خط
فى لوح الخلود
يا راية الإسلام والإسلام
خفاق البنود
يا مغرب الأمل القديم
ومشرق الأمل الجديد
يا زورة تحيى المنى
إن كنت صادقة فعودى

والجارم شاعر مؤرخ معا وتاريخه لبغداد ينفح بالشاعرية العذبة وليس نظما سرديا كما ينظم سواه ونصيب الوجدان فيه كنصيب الفكر يمتزجان ولا يفترقان فإذا استسلم إلى عاطفته الوجدانية فذكر بغداد دار الفن والطرب فإن مدده فى حديثه مما علم ودرس عن أثر الفنون الجميلة فى نتاج هذا البلد الحبيب ، فالشعراء العظام ، ومجالس الأدب ، وسمر الرشيد وجعفر بن يحيى والقيان الضاحكات! هذه الحقائق الفكرية الخالصة يرفدها الوجدان بتصويره الأخاذ ويمدها الشعر بموسيقاه العذبة والخيال بريشته الأنيقة فيتألف من ذلك مهرجان رائع حافل بالظل والضوء والإيحاء يتجلى فى قوله:

بغداد يا دار النهى
والفن يا بيت القصيد
نبت القريض على ضفافك
بين أفنان الورود
سرق التدلل من عنان
والتفنن من وحيد
بغداد أين البحترى
وأين أين ابن الوليد؟
ومجالس الشعراء فى
بيت ابن يحيى والرشيد؟
أين القيان الضاحكات
يمشين فى وشى البرود
الساهرات مع النجوم
الآنفات من الهجود
يخطرن حتى تعجب
الأغصان من لين القدود
وإذا سفرن فأين
ضوء الشمس من شفق الخدود
يعبثن بالأيام والأيام
أعبث من وليد
خبأ الجمال لهن كنزا
بين سالفة وجيد

هذه عظمة الفن وجماله أما عظمة السلطان وجلاله، حين كان الرشيد سيد العالم، يسعى إليه سفراء الممالك مذعنين، وجنود أمير المؤمنين من حوله فى شلة المحارب وبأس الصنديد يستقبلون الرسل فى عزة وكبرياء فإذا حان وقت الصلاة طهروا جبهاتهم بالسجود ، هذه المعانى التى سجلها

التاريخ فى دقة الباحث رسمها الشاعر بريشة المصور فقال:

كم جاش جيشك بالفواريس
من أساورة وصيد
ملك إذا صورته
عجز الخيال عن الصعود
الرسل تتلو الرسل من
بيض صقالبة وسود
ساروا لقصر الخلد يعشى
طرفهم وهج الحديد
يتعثرون كأنهم
يمشون فى حلق القيود
الجو يسطع بالظبا
والأرض تزخر بالجنود
حتى إذا رجعوا بدا
بجباههم أثر السجود

ويستطيع المؤرخ الدقيق أن يجعل من قصيدة الأستاذ على الجارم عناصر قوية لبحث يكتبه عن عظمة بغداد فى عصر الرشيد وإذا كنت لا أستطيع أن استشهد هنا بجميع ما يدل على هذه العظمة الخالدة فيكفى أن أشير إلى أفكار تتعلق بالناحية العلمية ، فى هذا العصر حين كانت الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات مجالا للبحث النظرى والعملى معا وحين كان الغرب كما قال الجارم:

والغرب ينظر فى جمود
نحو قاتلة الجمود

وحين كان الجاحظ وأمثال الجاحظ يكتبون المجلدات الممتازة فى شتى الفنون، فإذا انتقل الشاعر إلى الحاضر بعد حديثه عن الماضى فإنه يتفاءل كثيرا ، تيمنا بطلائع نهضة تشرئب إلى الصعود سالكة النهج السديد ، ولم ينس أن يذكر العلاقة الوطنية بين العراق ومصر وتغلبه روح الدعابة حين يقول:

أهلوك أهلونا وأبناء
العشيرة والجدود
بين القلوب تشوف
كتشوف الصب العميد
حتى يكاد يحب نخلك
نخل أهلى فى رشيد
شطت منازلنا وما
احتاج الفؤاد إلى بريد

وكل ما ألمعت إليه لا يغنى عن قراءة القصيدة فى ديوان الشاعر الكبير.

قصيدة عن بغداد

أما الشاعر الثالث الذى أخصه بالحديث فهو الأستاذ محمود غنيم وقد تواردت خواطره مع خواطر الأستاذ الجارم فى كثير من المعانى لا لأن الأستاذ غنيم قد احتذاه بل لأن الحقائق التاريخية والأدبية التى أشار إليها الشاعران قاسم مشترك بين دارسى الأدب والتاريخ جميعا مع فرق واضح فى الأسلوب الشعرى إذ يميل الأستاذ الجارم إلى الرصانة الأسلوبية حيث يكون قريبا من شوقى أما الأستاذ محمود غنيم فأقرب الشعراء إلى حافظ ابراهيم وقد يتعمد السهولة المفرطة فى بعض ما يقول حتى لكأنه ينثر ولا ينظم وذلك حينما يطيل القصيدة لمولا لا تحتمله ، كما فى قصيدته عن بغداد إذ بلغت أكثر من ثمانين بيتا، وكان فيما دون ذلك ما يبلغ المراد ، وقد ابتدأ

قصيدته رائعا حيث جعل بغداد فى القديم أم الدنيا ، وهى حقيقة كذلك وأشار بوضوح إلى انكسار الغرب أمام مدينتها الزاهرة المضيئة ، وهذا ما ألم إليه الجارم أيضا ولكن فى إيجاز ونستمع الآن إلى قول الأستاذ محمود غنيم الرائع:

بغداد قرة عين الشرق بغداد
لحن تغنى به الإسلام والضاد
الدهر يعرفها للكون عاصمة
تقوده ، كيفما شاءت فينقاد
إن تبتسم تشرق الدنيا وإن غضبت
ففى السموات إبراق وإرعاد
تزهى الحواضر ما شاءت بحاضرها
وكلها لك يا بغداد أولاد
الغرب يعرف ما أدى بنوك له
الكتب تنطق والأقلام شهاد

وهى نفثة قوية معبرة احتشد لها الشاعر فى المطلع وكان فى طوقه أن يسير على منوالها إذا تريث ، ولكن الخواطر المزدحمة فى صوره تجبره على الاسراع كما نفعل جميعا ، وقد أشاد بالرشيد إشادة جميلة ومن الذى يتحدث عن بغداد ولا يتحدث عن الرشيد وقد أرجع جميع الفتوح العلمية فى الأدب والشعر واللغة والعلم إلى عهده ، ولا أدرى لماذا لا يذكر المأمون وهو فى هذا المجال ذو أثر أقوى من أبيه على أنه لم يجاوز الحق حين قال عن الرشيد:

ينهى ويأمر فى الدنيا وفى يده
بعد المقادير إشقاء وإسعاد
تزجى إليه هدايا الروم لاكرما
إن الضعيف لمن يخشاه وداد
أهاب بالسحب أنى شئت فانسكبى
فكل نبتك لى، يا سحب إيراد
رب القصور قصور العز شامخة
كأنها فى نطاح السحب أطواد
رب الجوارى اللواتى مالهن سوى
عواهل الفرس والرومان أجداد
من كل جارية للشعر راوية
كأنها غصن فى الروض مياد

وهو يشير فى قوله (أهاب بالسحب) إلى ما روى عن الرشيد من أنه رأى سحابة فى الأفق تسير مبتعدة عن بغداد فقال لها: إذهبى ما شئت فحيث أمطرت سيأتينى خراجك ، وقد جاءت صياغة البيت فى حاجة إلى اتئاد ولكنها السهولة التى يختارها غنيم ، وأنا أعرف عنه القوة فى قصائد أخرى ولعله كان يفرق بين الشعر الذى يلقى فى المحفل بدءا والشعر الذى يظهر فى الصحف دون إنشاد سابق فيتعمد إرضاء الأوساط من السامعين بما ينتحيه من السهولة وكذلك كان حافظ!

وقد أجاد الشاعر محمود غنيم كل الإجادة فيما مدح به خلفاء الإسلام فى العصور الزاهرة ، وهى إجادة من تشبع بحب العروبة والإسلام . ومن يحن إلى الماضى الزاهر حنين معجب فخور ، ومن يدعو إلى القوة الباطشة بالأعداء استرجاعا لعهود العزة والاستقلال ، ولعل طلاب المدارس يجدون فى نصوصهم الأدبية ما يبعث فى نفوسهم الحمية ، حين يقرأون قول الشاعر الكبير الأستاذ محمود غنيم:

لنا أوائل سنوا كل مكرمة
شم الأنوف أباة الضيم أمجاد
شادوا المعاقل والآطام شامخة
لله والمجد والعمران ما شادوا
لهم رءوس على الأغماد ثائرة
لكن لها قلل الأبطال أغماد
ينقض كالصقر فوق المدن جيشهم
كأنما هى صيد وهو صياد
فى السلم إن عاهدوا والحرب إن ظفروا
شطرة عن شرعة العدل والإسلام ماحادوا
لا تلمس الأرض منهم بيض أوجههم
إلا وهم لجناب الله سجاد

والبيت الأخير يذكرنى بقول شوقى عن خلفاء الأندلس

فى فتية لا تنال الأرض أوجههم
ولا رءوسهم الا مصلينا

وقد سعدت مصر بزيارة شاعرى العراق الكبيرين جميل صدقى الزهاوى ، ومعروف الرصافى ، إذ جاءها الأول فى سنة ١٩٢٤ ووفد إليها الثانى سنة ١٩٣٦ فرحبت بهما البلاد ترحيبا أخويا نادر المثال واستقبلتهما الصحف أكرم استقبال. ولكن غيوما داكنة قد خيمت فى مختتم زيارة الزهاوى لأنه أخذ ينشر فى جريدة السياسة اليومية قصائد تعبر عن وجهة نظره حينئذ فى الموت والحياة وهى من الجرأة بحيث صادمت الشعور الدينى العام ، وكان من هذه القصائد ما نشره بتاريخ ١٩٢٤/٩/٢٢ بجريدة السياسة تحت عنوان الدمع ينطق وفيها يقول:

وسائلة هل بعد أن يعبث البلى
بأجسادنا نحيا طويلا ونرزق
فقلت مجيبا إننى لست واثقا
بغير الذى حسى له يتحقق
فهيهات أن ترجى الحياة لميت
إليه البلى فى قبره يتطرق
تقولين يفنى الجسم والروح خالد
فهل بخلود الروح عندك موثق

وما كادت القصيدة يتداولها القراء حتى ثار عليها الكثيرون وتقدم أحد علماء الأزهر بكتاب إلى رئيس الوزراء نشرته جريدة الأخبار لأمين الرافعى بتاريخ ١٩٢٤/٩/٢٤ يندد بالقصيدة ويدعو إلى مغادرة الشاعر القاهرة والتنديد بالقصيدة له مبرره قطعا ، ولكن دعوة الشاعر إلى مغادرة البلاد شطط لا مبرر له ، وأذكر أن الأستاذ الكبير العلامة محمد فريد وجدى قد وجه إلى الشاعر على صفحات جريدة السياسة خطابا أخويا قال فيه بأسلوبه المهذب الرائع إنه يقرأ ما تجود به على قراء العربية من نفثات رائعة ويحيى تلك الروح السمحة والعاطفة الرقيقة التى توجد لديك ، ولكنك ذو جرأة لم أجد من ساواك فيها غير الدكتور شبلى شميل رحمه الله إلى أن قال بعد حديث أخوى يضرب المثل الأعلى فى حسن الحوار وجمال التأنى فهل للأستاذ أن يساجلنى البحث فى هذا الموضوع الخطير فيعرض أدلته على نفى الروح وأعرض أدلتى على إثباتها فيشهد القارئون من هذه المعركة القلمية أجمل مشهد من مشاهد النضال العلمى بأسلحته الحديثة».

ولكن الأستاذ الزهاوى رد شاكرا

ومعتذرا وقال إنه مصمم على الرحيل عن مصر ولا يجد وقتا للمناظرة ولعل من المهم أن أذكر أن شيخ العروبة أحمد زكى باشا أقام للزهاوى حفلة تكريم بدار العروبة جمعت أئمة الفضل من أعيان الأدب والسياسة وفى ذلك ما يدل على تقدير الزهاوى والاهتمام بأدبه وإن جاء بعضه مصادما للشعور العام.

أما زيارة الشاعر الكبير الأستاذ معروف الرصافى فقد هب النسيم بها رخاء لم يصادف بلبلة ما ، وقد استقبل استقبالا رائعا ، حيث أقام له الأستاذ الكبير محمود بسيونى رئيس مجلس الشيوخ يومئذ ورئيس الرابطة العربية بمصر حفلة كبرى ترحب به وبالوفد العراقى الذى صحبه ونشر الشاعر المعروف الأستاذ محمود رمزى نظيم قصيدة عامرة ترحب بالشاعر والوفد العراقى وتشيد بعظمة بغداد وتاريخها العربى المجيد ومآبها من مشاهد الطبيعة الساحرة فى دجلة والجسر والرصافة وليالى الصفاء حول الفرات ومجالس الأدب بها فى القديم والحديث وقد ابتدأ الأستاذ محمود رمزى نظيم قصيدته بقوله:

أهلا بسادة بغداد وشاعرها
من شاد بالشعر ركنا من مفاخرها
تهز أعطافها تيها قصائده
بما يصور فيها من خواطرها
هيهات تذهب بغداد وما صنعت
فالله خلد غرا من مآثرها
تلك الرصافة قد عادت مباهجها
والحسن فى الجسر مجد من سرائرها
ونهر دجلة فياض كعادته
فى المجد يربط ماضيها بحاضرها
فكم ليال تغنت فى شواطئه
أصغى الزمان إلى تطريب زامرها

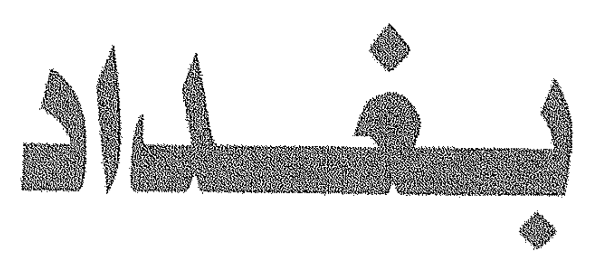
وتمضى القصيدة على هذا المنوال الجيد، وهى تؤكد ما يضمره الشاعر من حب غامر لبلاد الرافدين وتضاف إلى أمثالها الجياد!

وعلى صفحات الرسالة التى رأس تحريرها الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات مقالات وقصائد تشيد بالعراق أدبا وتاريخا وجهادا وأذكر أن قصائد الأستاذ الزهاوى كانت تجلجل على صفحات الرسالة التى وصفت ناظمها بالشاعر الفيلسوف وكان الزيات ذا لباقة حصيفة إذ كان يحذف ما يند به الشاعر من أبيات فى قصائده لا تجرى مع التيار العام! وهو احتياط مشكور ، لأن الرسالة الحبيبة كانت ذات رسالة فى الأدب والدين معا!

لقد طال الحديث ولم أبلغ كل ما أريد من تصوير المشاعر الدافقة نحو العراق وماضيه الزاهر وحاضره المجيد ولعل الشاعر الكبير الأستاذ على الجارم قد أوفى على الغاية حين قال:

حبيب إلى نفسى العراق وأهله
وسالفه الزاهى المجيد وحاضره
إذا شئت مجد العرب فى عنفوانه
فهذى مغانيه وهذى منائره





شعر
محمد التهامي

بغداد.. إن فاضت ببابك دمعتي
سيرى إلى الأحداث شامخة الخطى
أما أنا فدعى الشجون لخاطرى
فلقد أتيتك لا أقول مواسيا
فوجدت عندك ما اشتهيت.. تجلدا
ورأيت حزنك حول بابك هيبة
فالحزن حولك كالخضم تدفقا
حتى الدموع لديك لاح وميضها
ومواكب الشهداء حولك هالة
يتنزلون ويلمسون جدارها
وتموج فى ألق الجلال مشاعر
فالناس والأملاك حين تعانقا
وإذا ببغداد العزيزة قلعة

لا ترحمى ضعفى ولا تتلفتى
فوق اضطراب الحزن فوق المحنة
ودعى العذاب المر يتلف مهجتى
لكن لأنشد فى جوارك سلوتى
حين الجبال تململت فى الوقفة
زادت على ما حوله من هيبة
والصبر عندك كامتناع القمة
كالنور تلمع قطرة فى قطرة
فيها ملائكة تطوف بكعبة
فيصير نورا من جلال اللمة
كم دمعة فيها وكم من قبلة
كاد التراب يذوب فى قدسية
فيها رياض من رياض الجنة

قد مارس الشهداء طعم نعيمهم   ويمارس الأحياء طعم العزة

* * *

بغداد.. يا روح العروبة حرة   لم تحن يوما رأسها لمذلة
كابدت تاريخ النضال أبيه   وكتبت للتاريخ أروع صفحة
ولمعت فى طول البلاد وعرضها   جرحا تضرج فى جبباه حرة
هل تذكرين المجد حين تضوعت   أنفاسه فى يوم مولد طفله
قد كنت يا بغداد كل عبيره   حتى وأنت هناك برعم زهرة
وحكمت حتى فى السحاب فلو مضى   فخراجه مستغفر فى العودة
والمالكون أمام بابك خشع   أعناقهم فيها خضوع البيعة
وأدرت حكم القادرين عدالة   لم تظلمى أحدا ولم تتعنتى
آتاك ربك نعمة فشكرتها   وعلامة الإيمان شكر النعمة

* * *

وتقلبت من حولك الدنيا وكم   من حلوة فيها وكم من مرة
ومشيت يا بنت النعيم على اللظى   ما اهتز عودك فى جلال المشية
سيان هامتك الرفيعة إن مشت   فى خضرة الأيام أو فى الحمرة
وغسلت بالدم تربة لو أنصفوا   وزنوا بساحتها الحصاة بدرة

* * *

بغداد.. قد جاء التتار وكلهم   يأتى لباطله الهزيل بحجة
ولدى العراق بصيحة من شعبه   عند الوغى حجج الدليل المسكت
بغداد.. قد ساقوا إليك بغاثهم   وتوهموك فريسة لن تفلتى
حتى انتفضت وقد لويت رقابهم   فصغيرهم وكبيرهم فى القبضة

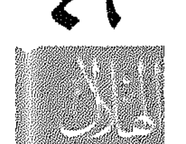
* * *

يا أيها العرب الكثار تجمعوا   قد دقت الغيلان باب القلعة
وأتوا بيأجوج ومأجوج لنا   ويفتشون ببابنا عن فرجة
فى موجة فك الضلال عقالها   والويل كل الويل خلف الموجة
ولنا النجاة إذا ترابط جمعنا   فى صدق إيمان وقوة عزمة
هذا السبيل إلى الخلاص لأمة   لا شئ ينقذها بدون الوحدة
ياويل من خانوا ومن قد هادنوا   والواقفين على دروب الحيرة
هذا التمزق قد أضاع شعوبنا   فى عالم لا وزن فيه لقلة
سيسوقنا سوق الغبار أمامه   حتى يوارينا هناك بحفرة
ويسجل التاريخ عن أوطاننا   فيقول: قد كانوا هناك وكانت

الشاعرة لميعة عباس عمارة

«شاعرة عراقية هام بها الشعراء»

بقلم
وديع فلسطين



فى أمسية من أماسى شهر رمضان لعام ١٩٨٤ دعاني الشيخ صقر بن سلطان القاسمي (١٩٨٤- ١٩٩٣) الشاعر الذي كان حاكماً للشارقة إلي السحور في حديقة غناء في مصر الجديدة كانت تعرف باسم «غرناطة» وقال إن هناك شاعرة من العراق اسمها لميعة عباس عمارة ستكون «بيت القصيد» فى هذه الأمسية وكنت أعرف أطرافا من أخبار هذه الشاعرة، سواء مما كتبه عنها الدكتور بدوي طبانة (١٩١٤-٢٠٠٠) في كتابه «أدب المرأة العراقية» وهو قد كان أستاذاً للميعة في المرحلة الجامعية - أو من مداعبات صالح جودت (١٩١٢ - ١٩٧٦) لها عندما كان يحرر مجلة «الهلال» ولكنني لم أكن قد قرأت لها الآقصائد متناثرة دون أن أظفر بأي ديوان كامل لها .

ودعى إلى هذا السحور مجموعة من الأدباء والشعراء من أصفياء المضيف، منهم محمد عبد الغنى حسن(١٩٠٧ـ١٩٩٢) والشاعر الفلسطينى على هاشم رشيد (١٩١٩ـ١٩٩٥) والأديب الفلسطينى الدكتور كامل السوافيرى (١٩١٧ - ١٩٩٢) وغيرهم. وهلت طلعة الشاعرة وهى تتألق فى ثوب أسود ينم على ذوق رفيع زادها جمالاً ووقارا .وتصدرت المائدة بجلالة ملحوظة وأخذ الحاضرون يستنشدونها شيئا من شعرها،ولم يلبثوا أن أخضعوها لامتحان فى اللغة وآدابها بغية تعجيزها ولكن لميعة سحرت الحاضرين، سواء بشعرها أو بنثرها وأكاد أقول إنها أسكتت الذين أرادوا إحراجها بأسئلتهم «المعقربة» !

سجال بين الشاعرة والنقاد

ولم أحاول فى هذه الندوة أن أزج بنفسى فى هذا المعترك الشعرى - وأنا من الشعر خالى الوفاض - أو اللغوى فلزمت الصمت قانعا بدور السامع أو على الأصح المتفرج على هذا المشهد الرائع وهو سجال بين شاعرة تملك أدواتها فضلاً عن جاذبيتها، وبين نقاد أشداء ولكن لميعة استدرجتنى إلى الكلام قائلة إنها معجبة بربطة العنق التى كنت أتزين بها وكان الشاعر صقر بن سلطان القاسمى قد أسمعنا أبياتا فى ربطة عنق يعتزبها آهديت إليه من أرملة الأنقلابى السورى الزعيم حسنى الزعيم ، وفيها يقول :

أغلي الهدايا لقلبي ربطة العنق
من ذا يحررني منها ومن عنقي
كأنها قيد حبٍ لا يفارقنى
تلوي بلارحمة جيدى ولم تفق
تضمنى ضم من أحببت صورته
في الزهر ،في الموج، فى الآهات، في الأفق

فألهمنى حديث ربطات العنق أن ألفق حكاية قلت فيها إن الربطة التى ترونها مهداة من شابة حسناء قلت لها بعد شكرها :مادمت أردت أن تطوقى عنقي فهل أدلك على طريقة أجمل وأشهى وأرخص لتحقيق هذه الغاية؟ فارتجلت لميعة على الفور بيتين من الشعر صورت فيهما هذه الحكاية الملفقة وإن كانت اكدت أنها حكاية حقيقية حيث قالت:

أهديته ربطة، فارتد يسألني
الطوق تعنين أم تعنين تطويقي ؟
يداك أجمل تعبيراً وأبلغه
لم العناء إذن في زحمة السوق ؟

وأقول أستطراداً إنني رويت هذه الحكاية للأديبة السورية سلمى الحفار الكزبرى التى كانت تقيم فى أسبانيا مع زوجها الدكتور نادر الكربرى سفير سورية فى مدريد فقامت سلمى بإهدائى ربطتى عنق مع رسالة قالت فيها أنها على الرغم من تحذيرات لميعة من المزاحمة فى السوق حرصت على خوض

هذا الزحام نكاية في لميعة !

أعود إلى ندوة السحور لأذكر أن الشاعر الفلسطيني علي هاشم رشيد سجل خواطره عنها في قصيدة قال فيها :

لميعة هل تري تنسين يوما
أتي الشعراء والأدباء ليلاً
للقيا من أتت بالسحر شعراً
ومن نجوي الأحبة كان أحلي
بدعوة «ماجد» فأحاط جمع
بلؤلؤة لبدر قد تجلي
تلفت وهي تتلو مثل ظبي
بهمسة فاح نسرينا وفلاً
وفي العينين من وجد بريقا
وهدب بات فوق الورد ظلاً
وكنا الظامئين وما روينا
فمازلنا بنا للشعر شوق

وفي ندوة أدبية تالية شهدتها أهدت لنا الشاعرة آخر دواوينها المطبوعة بعنوان «لو أنبأني العراف» فبدأت لتوى أستكشف هذه الشخصية الأدبية المتفردة بالحسنيين: حسن المظهر وحسن المخبر

وعندوصول لميعة إلى القاهرة للمرة الأولى أستأجرت شقة مفروشة في منطقة روكسي بمصر الجديدة، فعانت من أوضاعها السيئة أهوالاً وصفتها بقولها :

سكنت يوما شقة مفروشة
كأنها زريبة منكوشة
بقدر ما في مصر من نفوس
فيها من الصرصور والناموس
صراصير علي أختلاف الحجم
تدخل حتي في ثناء الحجم
تدخل حتي في ثناءالجسم
أسرابها تسكن بطن الهاتف
آمنة ليس بها من خائف
وتسكن الطباخ والثلاجة
وباختصار ضمن (أي حاجة)
إلي أن قالت :
حوقلت وانتفضت كالشغاله
ثم بدئنا حملة الزبالة
بنصف شهر من جهود قاسية
ومقرفات أفقدتني العافية
تحسنت أوضاعنا الرذيلة
وأصبحت شوهاتنا جميلة
وحين كدنا أن نقول الحمد
وقد بدأ يخف عنا الجهد
فاجأنا المالك بالإنذار
أن ندفع المزيد في الإيجار !

وتقول لميعة إنها تركت هذه القصيدة ـ وهي طويلة واكتفيت هنا بمقاطع منها ـ قرب الهاتف لكي يقرأها المالك ، وتنازلت عن بقية إيجار الشهر المدفوع مقدما وهربت راجعة إلى لبنان الحرب!

ولدت لميعة عباس عمارة في مدينة كوت العمارة في العراق وزاملت في المرحلة الجامعية عددا من الشعراء منهم بدر شاكر السياب (١٩٢٦ - ١٩٦٤) وبلند الحيدري (١٩٢٦ـ١٩٩٦) وتزوجت بعد تخرجها من مواطن عراقي ينتمي إلى مذهبها الديني وهو الصائبة المندائية

واسمه مبارك ، وأنجبت منه ابنها البكر فأسمته زكي وصارت تعرف باسم «أم زكي مبارك» العراقية وأنجبت بعد ذلك زيدون وابنة .

إعجاب بالسياب

وفي المرحلة الجامعية بدأت لميعة تبرز كشاعرة ،ولم يكن مستغربا أن يقوم الشعر بينها وبين زملائها الشعراء سفيرا للمودات فضلا عن الزمالات . وكان الانجذاب الأكبر إليها من جانب بدر شاكر السياب الذى سجل قصة حبه في ديوان كامل عنوانه «الأساطير» . وكان طبيعياً أن تبادله لميعة هذا الانجذاب . وكان طبيعياً أيضا أن تتصادم هاتان الشخصيتان لاعتبارات بعضها شخصي وبعضها اجتماعي ، فازداد التباعد بينهما وإن كان هذا لم يطفيء جذوة الإعجاب ولو من جانب لميعة . فلما عرفت أن السياب مريض جدا ومشرف على الموت ، لم تستطع أن تمنع عينها من أن تترقرق بالدمع . وعند ذلك ذهب شخص إلى السياب وقال له إن لميعة بكت إشفاقا عليك في مرضك . فكان رد السياب قاتلا ، حيث قال :

وتلك شاعرتي التي كانت لي الدنيا وما فيها
تفرقت الدروب بنا ، نسير لغير ما رجعه
وغيبها ظلام السجن، تؤنس ليلها شمعة
فتذكرني وتبكى ، غير أنى لست



علي هاشم رشيد   بشارة الخوري

أبكيها !

فلما بلغتها هذه الأبيات، وكانت وقتها تجرب ظلام السجون، دفنت كل مشاعر الهوى القديم

وإذا كانت الاعتبارات السياسية تتغول أحيانا حتى على الأدباء والشعراء فلا ينجون من الوشايات التى تزج بهم فى السجون، فإن القيمة الأصيلة للفنان تبقى مستعلية على كل الوشايات ومن هنا اختيرت لميعة لتكون الممثل الدائمة للعراق فى منظمة اليونسكو فى باريس ، ثم وكيلة للملحق الثقافى العراقى فى العاصمة الفرنسية ، كما شغلت منصب مديرة الثقافة والفنون فى الجامعة التكنولوجية ببغداد واختيرت عضوا فى الهيئة الإدارية لاتحاد الأدباء العراقيين وعضوا بالمجمع العلمى السريانى ببغداد.

وعرفت لميعة بعد ذلك إقبالاً من عواصم العالم المختلفة على الاصغاء إليها وهى تنشد شعرها، فشاركت فى ندوات فى معظم البلدان العربية وفى

أمريكا وانجلترا وبلجيكا وفرنسا وغيرها، وكان رسولها دائما هو الشعر وإن كان هذا شجع حتى الكوليج دى فرانس إلى دعوتها للتحدث عن تجربتها الشعرية مع إنشاد نماذج من شعرها وقام بتقديمها المستشرق الفرنسى جاك بيرك. وقد نشرت حتى الآن سبعة دواوين هى «الزاوية الخالية» و«عودة الربيع» و«أغانى عشتار» و«عراقية» و«يسمونه الحب» و«لو أنبانى العراف» و «البعد الأخير» وقد تعددت طبعاتها ، وأحدثها طبعة لبنانية اشتغل كل ديوان منها بغلاف ذى لون مستقل تحمل فى مجموعها ألوان طيف السحاب. ولهذا باتت لميعة تطلق عليها اسم «قوس قزح».

استهلت ديوانها «لو أنبانى العراف» ببيتن هما:

كل أشعاري قبل لقياك سدى
وهباء كل ما كنت كتبت
أطْوِ أشعارى ودَعْها جانباً
وادنُ منيِ ، فأنا اليوم بدأت

وعندما سمعت هذين البيتين منها قلت لها : كان ينبغى أن تقولى «وادن منى، فأنا اليوم ولدت» لأنها كانت فى مولدها على موعد مع هذه العاطفة الجياشة التى تسرى فى معظم شعرها.

***

ظلت لميعة فى حالة عدم استقرار ، فلا تكاد تحط رجالها فى مكان حتى تحزم أمتعتها متوجهة إلى مكان آخر.

ولما أثقلتها أشياؤها ، تركت عندى أوراقها وكتبها، وتركت فى تونس حقائب ملابسها، وحتى الوسام الذى أهدى إليها فى لبنان تركته وديعة عند بعض الأصدقاء ، فارتحل وراءها من لبنان إلى تونس ثم إلى واشنطن وسان فرنسسكو ولم تتسلمه إلا بعد أن استقرت فى مدينة سان دييجو فى ولاية كليفورنيا حيث يقيم ابنها ويدرس هناك.

وعندما منحت هذا الوسام اللبنانى ، كانت الحرب الأهلية فى أوجها، فنظمت قصيدة قالت فيها:

على أي صدر أحط الوسام ؟
ولبنان جرح بقلبى ينام ؟

وفي أمريكا قررت لميعة أن تصدر جريدة متعددة اللغات باسم «المندائى» لتحمل إلى أبناء ملتها من الصابئة المندائية أخبارهم وتعرض قضاياهم وتنشر أدبهم . ولكن الجريدة وجدت الأبواب موصدة فى وجهها فى البلدان العربية فى حين كان قراؤها المعدودون يقيمون فى المهاجر الأمريكية والأسترالية والأوربية ، واضطرت بعد خسائر فادحة إلى وقفها.

وكانت لميعة قد تلقت دعوة لتكريمها فى لندن، وهناك ألفت نفسها فى حشد من الأدباء كان من جملتهم رجل طاعن فى السن بقى يتحدث عن مغامراته النسائية وكأنه دون جوان فقالت له لميعة : واضح أنك ZERO فى النساء !

وانفجر الحاضرون بالضحك لهذه «القفشة» !

تونس البيضاء

وكنت أزور تونس للمشاركة فى مهرجان أقامته مجلة «الفكر» لصاحبها محمد مزالى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ومحررها البشير بن سلامة وزير الثقافة - أطال الله بقاءهما- وذلك بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على إصدار المجلة . وتبارى الأدباء والشعراء المدعوون من البلدان العربية المختلفة فى ارتقاء المنبر والتحدث عن الدور الثقافى الذى اضطلعت به هذه المجلة حتى صارت سفيرة ثقافية لتونس فى كل صقع يتكلم العربية . وعندما حل الدور على لميعة، ألقت قصيدة وصفت فيها تونس الخضراء بتونس البيضاء ، وامتزج إلقاؤها الجميل بشخصيتها الساحرة . وكان بين الحاضرين شاعر تونسى هزته شاعرية لميعة، فارتجل أبياتاً استأذن فى إلقائها فدوت القاعة بالتصفيق ولاسيما لأنه كان يتغزل جهراً فى الشاعرة . وما كان من لميعة إلا أن غادرت المنبر واتجهت نحو الشاعر وصافحته فى لفتة استدرت إعجاب كل الحاضرين، بما فيهم وزير الثقافة الجليل.

فى لبنان سكنت لميعة فترة من الوقت فى دير من الأديرة ، ولكن المعجبين لم يتركوها تنعم بسكينة النفس فى هذا المعتكف الروحى ، فعبرت عن مشاعرها قائلة :

يعلم الله أنني أتعذب
رهبة من مشاعري أترهب
لاتقل لى «أحب» هذا بعينيك
اشتهاء ونزوة سوف تذهب
لست «أيوب» لن تطيق وصالي
هو شىء من الخرافة أقرب
أن ترانى وحشية التوق للحب
وتبقى معى الرقيق المهذب
إبعد الشعلتين - كفيك - عينى
لاتلامس هذا الكيان المتعب
أنا رهن الديرين أنساني الحرمان
جسمى ، ولذتى أن أصلب!

وفي المغرب أطلت لميعة من نافذة حجرتها فى الفندق على شاطىء الأطلسى ، فأوحى إليها هذا المنظر بقصيدة قالت فيها :

وحيدةٌ علي شواطِىء الأطلسى
ليس سوى ذكْرك كان مؤنسى
فى غرفتى ، عفوا ، فليست غرفتى بل محبسى
أرقب من شباكها الأحياء ملء الشاطيء المشمس
عيد لكل اثنين فى مثل جموح الفرس
مجردين ، غير خيطيْن ، بقايا ملبس
من غرفتى أحكى عن الحب أنا وعن هوىً لم ألْمس
كفيلسوفٍ يصف الخَمر التى لم يحْتسِ !

وكان لبنان قد اعتزم في عام ١٩٦٩ إقامة مهرجان كبير فى ذكرى شاعره بشارة الخورى المكنى بالأخطل الصغير (١٨٩٠ - ١٩٦٨) وهو مهرجان دعى للمشاركة فيه شعراء من لبنان والعالم العربى منهم عمر أبوريشة (١٩٠٨ - ١٩٩٠) وعزيز أباظة (١٨٩٨ - ١٩٧٣) وعبدالمنعم الرفاعى (١٩١٧ - ١٩٨٥) وحسن عبدالله القرشى وسعيد عقل ومحمد الفيتورى أطال الله بقاءهم . وكان المهرجان قد دعا شاعر العراق محمد مهدى الجواهرى (١٩٠٢ - ١٩٩٧) للمشاركة فى حفل التأبين ولكنه اعتذر فى آخر لحظة . فاستنجد منظمو المهرجان بلميعة عباس عمارة لتمثل العراق، فلبت الدعوة وألقت قصيدة صادفت استحسان جميع الحاضرين ومنهم رئيس الوزراء صائب سلام (١٩٠٥ - ٢٠٠٠) وفيها قالت:

أغنيك لا أبكيك يخذلنى شعرى
ومازلت ملء الحب واللحن والعطر
وكيف يلم الموت روحاً توزعت
بأرواح كل الناس كالطيب فى العطر
بشارة ، ياعمر الهوي وشبابه
تخيرته أوجاً فلم تبق فى العمر
وبوأتها حواء قلبك لاغوت
ولازغت حب الأرض ضوءاً من البدر

كانت لميعة تلهم الشعراء حينما حلت، وكيف لا وهى تجسم فى شخصيتها وفى لحاظها وفى أنوثتها العارمة كل سحر هاروت وماروت . وإذا أغضيتُ عن قصائد بدر شاكر السياب التى أفرغها فى ديوانه الكامل «أساطير» فلأقنع ببعض من كلام الشعراء ، وهو يغنى عن الاستشهاد بمزيد من هذا الإعجاب العاطفى.

فالشاعر المصرى سعد درويش (؟- ١٩٨٨) الذى عرف لميعة عندما كان يعمل فى العراق، وجه إليها على شاشة التليفزيون (وقد سمعته بأذنى) قصيدة نشرها بعد ذلك فى «جريدة الأهرام» فيها دعوة مفتوحة لكى تؤنس وحدته، وأنا أنتقى منها بعضا من أبياتها:

لميعة يا هوي كل القلوب
نشدتك بالهوي ألا تغيبي
فأنت تركت لي طيفا حميماً
يطالعني علي كل الدروب
بمثلك كنت أحلم في شبابي
فهذي أنت جئت مع المشيب
تري، ماذا يريد الحب مني
وهذا العمر آذن بالغروب؟
وفيك نعومة وبي اشتياق
وأخشي إن ضممتك أن تذوبي
لميعة كنت لي قدراً ووعدا
﴿تـــــــي
رمين القلب بالسهم المصيب
بصوتك هامساً يسري جنوناً
كمسري نسمة الفجر الرطيب
بذاك الشعر منهمراً خضيباً
كشلال تدفق باللهيب
بذاك الكبر في الصدر الغضوب
بذاك الدل في الخصر اللعوب
إلى أن قال:
تعالي نملأ الدنيا غناءً

وأفــراحــاً مع الطيــر الطروب
تعــالي نبــتكر للطيــر لحناً
يـودعنا بـه عند المغــيب !

وعندما قرأت قصيدة سعد درويش فى جريدة الصباح هاتفت لميعة وقلت لها تقبلين أن أكون درويشاً ؟ فقالت أخشي أن يطول انتظارك في الطابور!

أما شاعر الشارقة صقر بن سلطان القاسمى فقد قال فى لميعة:

نشوانة الحسن اخطرى فى أمان
قلوبنا مفروشة للحسان
فامشى عليها خطوة خطوة
في خيلاء التيه والعنفوان
لاتسرعى فالطيب يامنيتى
على خطاك والهوى بمرحان
تبسمى ما أنت إلا الشذا
يرف فى الورد سنى أرجوان
سمراء يا أعذب أنشودة
رددها للحب ثغر الجنان
فداك قلب كاد من وجده
لو لامست أنفاسه الصخر لان
أهواك ، أهوى فيك سحر الصبا
وبسمة مفترة عن جمان
يامن بها من دجلة سمرة
سابية الفتنة فى كل آن
أهوى الهوى فيك ولولاك لم
يحز فى جنبى وخز السنان

وأما الشاعر الفلسطينى على هاشم رشيد الذى وقف نصف ديوانه على التغنى بلميعة ، فقد قال فى إحدى قصائده الكثيرة المنشورة فى ديوانه «على غير موعد»:

بلاغة لاتجاري في عذوبتها



محمد مهدى الجواهرى

محمد الفيتورى

ورقة ذهبت بالعاقل القطن
تحس فى الحرف روحاً هامساً ولها
ذكاء كل فصيح النطق واللسن
كأنما أرضعت شعر الألى سلفوا
كأنما قد سقوها الشعر في اللبن
فتلك خير فتاة فى ملاحتها
وتلك أعذب من غنت على غصن
فأنت شحرورة والقلب روضتها
بأعذب الشعر قد غنت على فنن
مفاتن ليس تحصى هل يرى عجباً
أن تغرق النفس فى بحر من الفتن

***

وبعد ، أليس حديث الشعر والحب أحري بالبشر من خطط التدمير والقتل والحرب؟

عش الصميم

على نخيل البابليين والآشوريين والعباسيين

بقلم

سليم الرافعي

طرابلس - لبنان

يا أيها العش الذى غنى وألهم كل طائر

من أيك تاريخ ترقرق من آشور ومن تماضر

ومقدس الطيف الحميم مقدس أسمى المشاعر

إن الحروف قضية فلتصرخن من المحابر

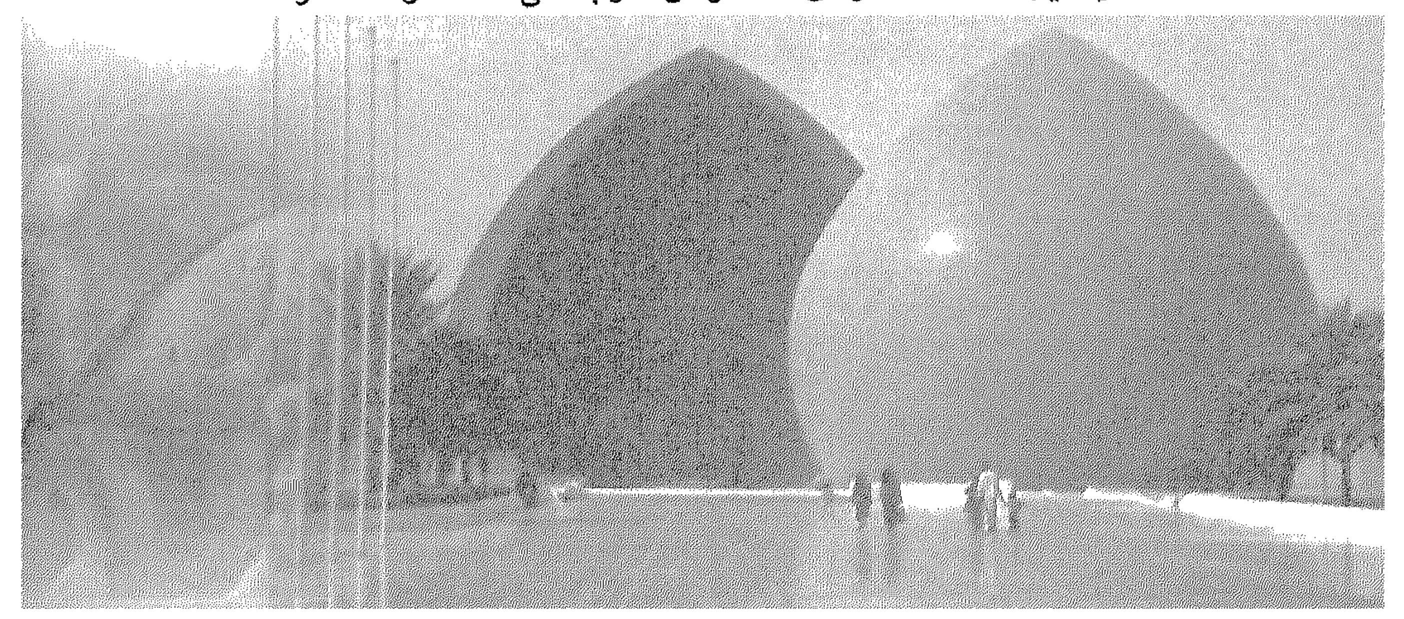
مستنقع الذل احتسى كل الضفادع فى المعاصر

لم يبق غير ثمالة.. ومن الثمالة كاس شاعر

يهذى بما قد سطروه من الفواتح والبواكر

يسقى الجلال من الدماء وليس يسقى بالمنابر

يا أيها الحراس حراس الأوابد فى الحواضر



غضبت عظام الخالدين فهل سمعتم صوت زاجر؟
أنفوا من الموت المعتق في دهاليز المقابر
لا يسمعون سوى الفناء ولا يرون سوى الستائر
من هؤلاء؟ فإننا غرباء عنهم في الأواصر
عظماء يرتعشون من إفك المداهن والمكابر
فلينشروا منهم (حمورابي) وراية (شلمناصر)
أولم يروا عرش الرشيد وقد تألق في الدياجر؟
وصحائف المأمون من فكر الأوائل والأواخر؟
يا أيها الرواد معذرة إذا اضطربت مصائر
في كل أرض صخرة لا تستكين ولا تغادر
إني أقبل هيكلا من عبقريات البصائر
أمضي إليه مصليا بين القواصف والمجازر
ما في الصميم سوى الحقيقة والأصالة في السرائر
تحيا الشعوب عليه.. لا تحيا الشعوب على المظاهر
وتشع منه النار والنور المبارك والأزاهر
عش الصميم.. ولو رسمتك كنت بركان الضمائر





الشعر الحر في العراق

بقلم
د. يوسف عز الدين

من هو الرائد ؟

مازال بعض الكتَّاب المعاصرين جاهلين ريادة الشعر الحر فى العراق بعد أن كثر دعاته لعدم التروى والاطلاع الواسع على جذوره التاريخية مع أننى أصلت هذا الشعر وضربت الأمثلة الكافية فى كتابى (التجديد فى الشعر الحديث) ومن عدم وضوح الرأى الاختلاف فى الشاعرين بدر السياب ونازك الملائكة:

إن هناك اختلافا جوهريا بين الشاعرين فى الثقافة الأدبية والقاعدة الاجتماعية والمكونات الفردية.. وبالرغم من هذه الاختلافات فقد اتفقا فى العوامل النفسية والجذور الروحية بإحساسهما العميق بالشعور إلى إثبات الذات والتنفيس عن عقدة الشعور بالنقص النفسى تجاه الجنس الآخر.

فموت أول حبيبة لبدر وموت أمه وشعوره بالقبح كانت دوافع نفسية لإثبات الذات بالتجديد للفت نظر الأنثى اليه لسد الحرمان العاطفى والظمأ الروحى اللذين كان يعانى منهما.


نازك الملائكة

ويتفق إحساس نازك الداخلى مع الشعور الباطنى لبدر لأنها لم تنل رعاية الرجل وتنعم بالرضا الروحي منه فأرادت اثبات الذات وتحدى الرجل بالتجديد وصقل مواهبها ومواصلة العمل والدراسة لتغمر نفسها الحساسة بالعمل وتنسى ما تحس به أنثى أمام الرجل الذى لم يلتفت إليها، مع أن نازك كانت فى أمن روحى وحنان سابغ من أمها واسرتها فقد اخذت تدرس أمورا متعددة مثل اللغة اللاتينية واللغة الفرنسية والأدب الانكليزى فى المعهد الثقافى البريطاني ودخلت إلى معهد الفنون الجميلة لدراسة العود والعزف وكانت تجيد كل ذلك، لتنسى الفراغ الروحى وشوق الطبيعة الملح فى كيان امرأة ذكية ناضجة، وزادها ثقافة دراستها فى أمريكا لذلك سمت فنيا وارتفعت روحيا وملأت الفراغ النفسى والظمأ الداخلى.

كانت أمها الملاذ الروحى والملجأ النفسى فقد كانت ترتوى من حنانها وحبها ولكن موتها فى الغربة معها وهى وحيدة هز كيانها فقد صاحبتها فى مشهدها الأخير.

قالت تصف هذه المعاناة وهى ترى أمها فى منظر مفزع أسهرها بعدها عدة أشهر طويلة، وكانت مضطرة وهى وحيدة مع أمها المتوفاة فى لندن إلى أن تنهض باعباء الجنازة والدفن وهى أعمال صعبة لم تعتدها قط وقد كانت تفزع منها طيلة حياتها. وكانت فوق ذلك شديدة الحب لأمها بحيث عذبها موتها عذابا شديدا وقد عادت إلى العراق بعد أسبوعين ذابلة حزينة مهزوزة النفس إلى أعماقها، ومرضت بعد ذلك ولجأت إلى طبيب الأعصاب يعالجها من أثر الصدمة.

وكان من حسن حظها أن أرسلت فى بعثة إلى جامعة (وسكونسن) وتعرفت على اساتذة الأدب ريتشارد بلاكمور، وألن داونر، وديلمون شواتز ودرست عليهم فكانت هذه الفترة من الدوافع التى وجهتها نحو النقد، وكان النظام لا يتطلب كتابة أطروحة إنما يعتمد على البحوث التى يقدمها الطالب ففتح أمامها ميدان الكتابة النقدية.

ولما قامت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ آثرت فى حياتها وسعدت بالاتجاهات القومية،

وعندما قلب ظهر المجن للتيار القومى تركت العراق خوفا من التيارات الجديدة وسكنت بيروت، وفى عام ١٩٦٢ م تزوجت أستاذا فاضلا من خيرة الأساتذة هو الدكتور عبدالهادى محبوبة وأنجبت منه (البراق) فعادت الطمأنينة إلى روحها والهدوء العاطفى إلى كيانها وأعصابها.

ملائكة بلا صوت

نازك من أسرة هادئة كريمة عربية من أهل الكاظمية انتقلت إلى بغداد ونزلت بجوار الشاعر الكبير عبد الباقى العمرى(★) ، ولما سألوه عن جيرانه قال إنهم ملائكة بلا صوت ولا ضجيج إنما سكون وهدوء فغلب الاسم على أسرة الجلبى هذا الاسم الجديد.

كان لشهرة الشاعرة الكبيرة أثر فى ابتعاد الرجال عنها، فأحست بهذا التجاهل فتأخرت أمومتها فكانت شديدة الألم وكان الشعر خير معبر عن هذا الألم وفى ديوانها (شظايا ورماد) صدق التجربة العاطفية وروح المراهقة المتأججة وفى (قرارة الموجة) الألم العميق واليأس الحزين رسمت فيه مشاعرها بصدق قالت:

لا تسلني عن سر أدمعي الحري
فبعض الأسرار يأبى الوضوحا
بعضها يؤثر الحياة وراء الحس
لغز وأن يكن مجروحا

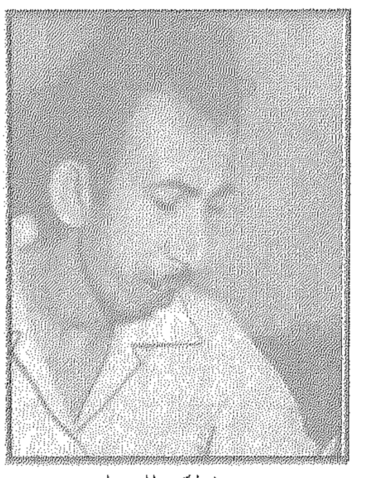
إنها ذات كبرياء واعتزاز بالنفس لاهمالها أنثى متدفقة الحياة، رقيقة المشاعر وهل هناك أسعد للمرأة فى الحياة من وجود من يكملها روحيا ليقضى على متاهة الغربة النفسية فقالت:

سمعت روحي في إغفاءة الظلمة صوتا
لم يكن حلما خرافي الشعور
بعثته رغبة خلف شعوري
كان شيئا ، كان في صمت الدجي صوتك أنت !

والشعر خير معبر عن مشاعرها الرقيقة، هى والشاعرة الرقيقة فدوى طوقان لأن كل منهما متملك المشاعر القوية واللغة الجميلة والمعانى الصادقة تقول نازك فى

القصيدة نفسها:

ذلك الصوت الذى يعرفه سمعى مليا
صوت ماضى الذى مات وما خلف شيئا
غير أشتات احتقار باهت
رسبت فى قعر قلبى الصامت


بدر شاكر السياب

إن إهمال صدق مشاعرها حسبته إهمالا فرسب فى حناياها ولا أظنه إلا هيبة وخوفا من صيتها وسمعتها التى طبقت الآفاق والعرب بصورة عامة يرهبون صاحبات الصيت الواسع وذوات الجمال البارع لشدة غيرتهم والاعتزاز بالرجولة وسوء الظن وفى التاريخ أمثلة عن خوف الرجال من الجميلات والمشهورات.

وخير مثال الشاعرة فدوى طوقان ومى زيادة المعروفة بالجمال فقد هام الرجال بها ولكنهم خافوا منها فقد كتب أحمد داود أحد الذين يحضرون مجلسها بأنه أحد المعجبين بها وقال أنه يرى السعادة كل السعادة فى الاقتران بها لجمال خلقها وجمالها (ولكن كنت أرى نفسى لست فى مستواها العلمى، فلم أقدر على طلب يدها وكان لى أمثال كثيرون يخافون من جمالها ومن مستواها الفكرى العالى).

وهدأت عواطف الشاعرة نازك عندما تزوجت فقد ردت الأمومة إليها الطمأنينة والهدوء إلى روحها وليس من أمر أعز من الأمومة على قلب المرأة السوية وكانت فترة الأمومة فترة راحة للإبداع لأنها انصرفت إلى واجبها فى التربية والعناية بولدها حتى قالت (إننى كنت أحسب أنى انتهيت شعريا إلى الأبد) وقالت: (لا أشعر بدافع يزج بى فى درب القصيد) لكنها لما أدت رسالة الأنوثة تدفق الإبداع هادئا والشعر رخيا سهلا فقد هدأت الثورة والغضب لأنها أخصبت فقالت فى ١٩٧٣ م (إننى أتدفق تدفقا شعريا خصبا لا انقطاع له) قالت فى قصيدة عن العود معبرة عن موسيقى روحها: فى مجموعة شعرها (الصلاة والثورة):

يأخذني من يد أحزاني في رحلة حب صيفية
ويدا بيد أنا والأوتار
نرحل نحو بلاد الأقمار

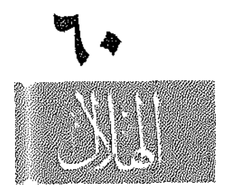
في غاب الأنجم في بيد منسية
ورؤانا تسبح في برك مرجانية
نبحر محمولين علي موجة أغنية

دوافع الابداع عند الشعراء

تختلف دوافع الشعر عند الشعراء بالنسبة للقاعدة الفكرية وأصولهم النفسية فى طفولتهم وشبابهم، وكل هذه الدوافع تقوم على قاعدة واحدة هى الشعور بالنقص - وكل إنسان يحس بهذا الشعور - لأن هذا الشعور هو الذى يدفع إلى الإجادة فى الإبداع ولولاه لما تقدمت العلوم وتطورت الآداب والفنون الجميلة.

وقد كانت نازك الملائكة التى أحست بأنها بعيدة عن حنان الرجال والتقرب إليها أرادت إثبات الذات بشيء تملكه وحدها هو الإبداع الشعرى فوجدت السياب أمامها فى الكلية شاعرا معروفا محبوبا فكانت خصومتها خصومة الأنثى للرجل لتنفس عن مشاعرها المستكنة في اللاباطن المتألم من الرجل وفى المقابل كان السياب يرعف قلبه من إهمال المرأة الذى جرحت كبرياءه وهى الأنثى . فظهر تحديه للشاعرة بإبداعها ليفرغ شحنة الألم الداخلى ضد المرأة متمثلا فى نازك.. ولكن هذه الخصومة أفادت الأدب بالتسامى الفنى.. وكان شعر نازك اصفى ديباجة وأقوى أسلوبا وأعمق أصالة فظهرت مشاعرها المتكلسة فى قوة النسج وجزالة الألفاظ ودقة المعنى والأحاسيس الحبيسة.. أما السياب فقد كان أكثر حرية فى القول وأوسع مجالا فى التعبير عن مشاعره ولا يخشى المؤثرات الاجتماعية التى تؤثر فى نازك إمراة ملتزمة ومحافظة على التقاليد الاجتماعية التى تحسب لكل كلمة حسابها وكان السياب أكثر تجديدا وأوسع قولا فى التطور الفنى.. ولا تنسى أثر العقيدة فى ثنايا الشعر فالشاعرة قومية الفكر مسلمة محافظة على إسلامها وكان السياب شيوعيا يتمتع بحرية الفكر الشيوعى فى القضايا الفكرية والاجتماعية وتقاليد المجتمع.

فارتفعت الأصوات من حولهما وكان كل اتجاه يناصر شاعره فزادت هذه الأصوات من السمعة ويثت له الصيت الواسع وزادت حدة النقاش عند المؤيدين.. والطريف أن سار بدر السياب فى طريق الشاعرة وانضم إلينا فى جمعية المؤلفين والكتاب التى سبقته إليها الشاعرة وأصبحت أحد أعضاء الهيئة الإدارية فى



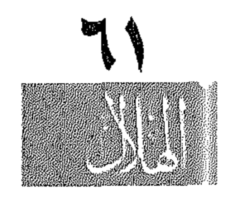
دوراتها.

وانتشرت طريقة التجديد فى كثرة شعرائها مثل عبدالوهاب البياتى وعبد الرزاق عبدالواحد وشاذل طاقة وبلند الحيدرى وحسن البياتى وصلاح نيازى وعبد الجبار البصرى وراضى مهدى السعيد ويوسف الصائغ وحميد سعيد وشفيق الكمالى وسامى مهدى وغيرهم كثير ومنهم الجيد ومنهم الضعيف وأوغل بعضهم بعد ذلك فى الغموض والتعمية والرمز الضبابى والوجودية المزيفة.

هل نازك الملائكة أول من جدد؟

اعتمدت نازك على قصيدتها (الكوليرا) التى انتشرت فى مصر بأنها أول من نظم الشعر الحر فى نظمها للقصيدة وهى قصيدة ممتازة بالمعايير الفنية صادقة العاطفة فقالت (كانت بداية الشعر الحر فى ١٩٤٧ م فى العراق بل من بغداد نفسها زحفت هذه الحركة وامتدت حتى غمرت الوطن العربى كله.. وكانت أول قصيدة حرة الوزن تنتشر قصيدتى المعنونة (الكوليرا) وهى من الوزن المتدارك (الخبب ١) والمقطع الأول من القصيدة هو:

سكن الليل
أصغ إليَّ وقع صدي الأنات
في عمق الظلمة تحت الصمت علي الأموات
صرخات تعلو تضطرب
حزن يتدفق يلتهب
يتعثر فيه صدي الآهات
في كل فؤاد غليان
في الكوخ الساكن أحزان
في كل مكان روح تصرخ في الظلمات
في كل مكان يبكي صوت
هذا ما قد مزقه الموت
الموت الموت الموت
يا أحزان الليل الصارخ ما فعل الموت



ولو اكتفت الشاعرة بهذا المقطع لكانت محقة بعض الحق ففى هذا المقطع عدة تفعيلات ما بين اثنين وست ولكنها لما نظمت المقاطع الأخرى التزمت بهذا المقطع وساوت بينها في عدد السطور والقوافي ولم تخرج عنه لأن جميع الأبيات الأولى فى المقاطع الأخرى متساوية التفعيلات فكل مقطع فيه ثلاثة عشر سطرا وقوافيها منتظمة فى نظام واحد مع أن الشاعرة نفت عن الموشحات الاندلسية والبند هذا التجديد فقالت (الموشح أبعد ما يكون عن الشعر الحر إنما الشعر الحر شعر تفعيلة بينما الموشح شطريا) وهى التى التزمت فى مقاطع القصيدة بكل ما يلتزم به الشعر من طول البيت والقافية وعدد أشطر كل مقطع.. ولعل سبب هذا الرأى ظهور (أزهار ذابلة) للسياب فى ١٩٤٧ م وتأكيد رفائيل رطى فى المقدمة بأن الشاعر جاء بجديد وبذلك غلبت شاعرة أنثى أرادت غلب الرجل الشاعر الذى ينافسها، رجلا وشاعرا.

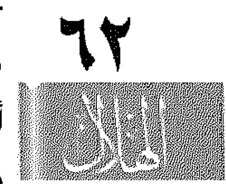
الشاعرة كتبت فى هذه السنة عددا كبيرا من هذا النوع، وكفاها فخرا هذه الكثرة والإصرار على النظم.

ومن نافلة القول أن أقول بأننا هذا الجيل تحيف عندنا ميدان الثقافة العربية لأننا درسنا علوما ولغات جديدة أخذت الحيز الذى كان قد ملأه جيل الرصافى والزهاوى والشبيبى باللغة العربية والعلوم الإسلامية.

وقد درس الزميل الشاعر الدكتور نور الدين صمود قصيدة الكوليرا دراسة مطولة وقال: (لقد تجاهلت نازك أن قصيدتها الكوليرا قائمة على أساس المقطوعة وتحافظ على طول ثابت بين الأسطر، وأوهمت المهتمين بالتاريخ لهذه الحركة من خلال المقطع الأول أن القصيدة من الشعر الحر وأنها أول من كتب شعرا حرا سابقة بذلك بدر شاكر السياب بنصف شهر وتجاهلت تجارب السابقين من أمثال على أحمد باكثير فى تعريبه لمسرحية (روميو وجوليت) لشكسبير شعرا حرا والدكتور نقولا فياض فى قصائده الحرة بديوانه رفيف الاقحوان.

ونفت أن يكون البند شعرا حرا وقال (لتثبت لنفسها الأسبقية فى كتابة الشعر الحر، ولو اكتفت بالإحدى عشرة قصيدة التى كتبتها بطريقة الشعر الحر فى ١٩٤٨ م وهو وقت مبكر بالنسبة لبداية انتشار هذا اللون من الشعر فى العالم العربى لكفاها ذلك فخرا كرائدة من رواد هذه الحركة الشعرية).

ولو اطلع الدكتور صمود على جذور حركة الشعر الحر في كتابى (فى الأدب العربى الحديث، مقالات وبحوث نقدية) المطبوع فى بغداد وبيروت والقاهرة والرياض



لوجد أن الجذور تذهب إلى أوائل القرن العشرين وقد لخصت ذلك فى مقالة لى نشرت فى الشرق الأوسط.

وقالت (إننى أحسست هذا الأسلوب الجديد فى ترتيب تفاعيل الخليل يطلق جناح الشاعر من القافية) وضربت مثلا من قصيدة (جدران وقلال) قالت:

وهناك في الأعماق شيء جامد
حجزت بلادة المساء علي النهار
شيء رهيب بارد
خلف الستار
يدعي جدار

وقال الدكتور صمود (وقد بحثت فى هذا الديوان عن قصيدة تحمل عنوان (جدار وقلال) فلم أعثر عليها كما لم أعثر على المقطع فى قصيدة أخرى فى هذه المجموعة ، والمقطع من الشعر الحر ولكن أين هو ومتى تكلم؟).

وبذلك ينهار الرأى القائل بأن قصيدة الكوليرا أول شعر حر فى الشعر العربى ويصبح بدر أول الذين نظموه فى الأربعينات وانتشر بعدها عند الشعراء ولكن كلا الشاعرين لم يكونا أول من نظم الشعر الحر فقد سبقهما أكثر من شاعر فى العراق أولا والبلاد العربية ثانيا.

وأول من فكر فى التجديد هو جميل صدقى الزهاوى ثم اتسعت الحركة بعد أن جاء أمين الريحانى إلى العراق متأثرا بالشاعر الأمريكى (ولت ويتمن) فرأينا شعرا حرا عند بسيم الذويب و(سمير الكواكب) عبداللطيف السامرائى ومير بصرى وطارق عبدالحافظ وخضر صالح.

كما نشرت الجرائد قصائد لنقولا فياض وشكرى الفضلى على اختلاف فى الاسماء فسمى الشعر الطلق أو الشعر المرسل وسماه (أحدهم) بالشعر الحر والشعر المنثور.

وأقرب إلى فكرة الشعر الحر السياب فقد كان التجديد واضحا فى ذهنه لأنه اتصل بالأدب الأنكليزى اتصالا مباشرا وطلب من رفائيل بطى أحد مشجعى الحركة الجديدة أن يقدم ديوانه فاشار المقدم إلى هذا الجديد فى شعر السياب. ■

عبدالباقى العمرى : شاعر من أهل الموصل سكن بغداد فى القرن التاسع عشر وكان إلى جواره أسره الجلبى من الكاظمية



الإعلام والاعتداء على العراق

ثورة معلومات أم تلويث للمخ؟

بقلم
د. جلال أمين

لاحظت منذ يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أن كثيرا من الناس يقبلون الكثير مما تردده وسائل الإعلام عن الحادث، وعن المتهمين بارتكابه وأهدافهم من ورائه، على الرغم من أن جزءا كبيرا مما تقوله وسائل الإعلام يتعارض تعارضا صارخا مع المنطق السليم، بل ومع بعض البديهيات.

ولاحظت ان هذا الاستعداد للتسليم بما يتعارض مع البديهيات لا يستثنى منه حتى عقلاء الناس ومثقفوهم. فقد رأيت من هؤلاء مثلا، من يقبل كثيرا مما يقال عن أسامة بن لادن مما يصعب أن يقبله العقل، وكذلك عن هوية الأشخاص الذين تنسب إليهم عملية تفجير البرجين فى نيويورك ووزارة الدفاع فى واشنطن ، وما يقال عن أهدافهم من هذه العملية.. الخ، مع الفارق الشاسع بين ما يتطلبه هذا الحادث من قدرات والقدرات المتاحة لهؤلاء الأشخاص.

ثم لاحظت أشياء مماثلة في موقف كثير من الناس من الأحداث الأخيرة في العراق (التي لا أحب أن أسميها حربا لأنها بعيدة كل البعد عن ذلك) فوجدتهم أيضا يصدقون الكثير مما يقال ، ويصعب تصديقه، عن مواقف صدام حسين ودوره، وعن علاقته بالولايات المتحدة. وعن أهداف الإدارة الأمريكية من هذا الاعتداء.. الخ.

وفي الحالين، أي حادث ١١ سبتمبر والهجوم الأمريكي على العراق، كان هؤلاء الذين يصدقون ما لا يجوز في رأيي تصديقه، ممن يجلسون أمام شاشة التليفزيون ساعات طويلة، ويستمعون إلى مختلف القنوات الفضائية وغير الفضائية، ولا يفوتهم تعليق أو تصريح نشرته الصحف ولا أي تفاصيل ، مهما كانت صغيرة ، تتعلق بما يدور من أحداث.

وقد أثار هذا في البداية دهشتي، من أن تكون هذه طريقة تفكير أشخاص يحوزون هذا القدر من المعلومات ، وهو ما ظننت أنه يجب أن يحميهم من اعتناق هذه الأفكار التي أعتقد بخطئها . ثم خطر لي أن الأمر قد لا يكون داعيا للدهشة على الإطلاق، إذ قد تكون كثرة ما يتلقونه من معلومات هي نفسها سببا مهما في الوقوع في الخطأ. وكلما أمعنت في التأمل في هذا الاحتمال قوى ترجيحي لصحته. وسوف أبين للقارىء أسباب ذلك.

نحن مازلنا للأسف الشديد، نتعامل مع ما يرد إلينا من وسائل المعلومات وكأنها في الأساس معلومات محايدة خالية من التحيز ، ونميل إلى التمييز، بأكثر مما ينبغي بين «التعليق» ، الذي نعرف أنه قد يكون متحيزا و«المعلومة» التي نعاملها وكأنها محايدة.

والظاهر أن ميلنا إلى إضفاء هذه الميزة على المعلومة ، أي ميزة الحياد وعدم التحيز، يزداد قوة كلما كانت وسيلة الإعلام التي تبث بها هذه المعلومة أكثر «أبهة» و«فخامة». أو كما قد يحب البعض أن يقول : أكثر «تقدما» . انظر مثلا إلى طريقة تعاملنا مع الكلام المكتوب بخط اليد، في رسالة شخصية مثلا يحملها لنا البريد، وموقفنا من نفس الكلام إذا كان مطبوعا في كتاب أو حتى مكتوبا بالآلة الكاتبة أو الكمبيوتر. إن مجرد التقدم التكنولوجي الذي تتسم به وسيلة ما من وسائل

الإعـــلام يضفى عـــلى الكــــلام الذى يصل الينا من خـلالها درجة أكـبـر من الحيـاد وعـــدم التـحيـز، أو هكذا نظن. هذه الظاهرة فـــى حد ذاتها تستحق التأمل ، وقد يكون مـــن بين أســـبابها شىء شبيه باستعدادنا آحيانا لتصديق الكذبة الكبـيـرة أكـثـر من اسـتـعـدادنا لتصديق كذبة صغيرة، إذ يرفض العقل أن يصـــدق أن يصل الأمـــر بالشـــخص الكاذب إلى هذه الـدرجـة مـــن السفالة ، فـيـسـمح لنفسـه بأن يختـــرع كذبة بهـذا الحـجم . كـــذلك قد نكون عـــلى استعداد لتصديق كذبة تصدر مـــن فـــم رجل يبدو مـحـــترمـا، ويظهر لنا كـــامل الـهندام. وهـو يلقـى عـلينـا نـشـــرة الأخـــبار بمنتـهى الثـقـــة والاطمـــئنان من خلال جـــهاز مبـهـــر كـالتليـفزيون، وأمـــام كل هـــذه الكامـــيرات والأجهزة الفنيـة المعـقـدة، أكـثـر من اسـتـــعـدادنا لتـصــديق رجـــل يقـول نفس الكــــلام بدون ميكروفون، أو أجـهزة تصـوير، وهـو جالس معنا بلحمه ودمه.

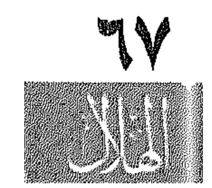
ولكـــن هـــذا الموقف مما تبـثـــه وســـائل الإعـلام هـــو بلاشك موقف لا عقـــلانى بالمـــرة. فالمعلـــومـة التى يبثها إلينا جــهـــاز كجـــهاز التليفزيون، حتى بفـــرض أنها معلومة صحيحة ابتداء ، تمر بمراحل متعددة منذ وقوع الحادث وحتى وصول خبره إلينا، وفى كل مرحلة تزداد المعلومة تلونا وتحيزا ، حتى يكون أثرها النهائى، لدى وصولها إلينا، أبعد ما يكون عن الحياد والموضـــوعية. فحتى بفرض أن المعلومـــة لم تختلق اختلاقا، فإنها تتـأثر أولا بطريقة صياغتها، وهى صياغة قد تكون متحيزة فى اتجاه ضد آخـر، ثم تـخـضـع ثانـيـا مـع غـيـرها من المعـــلومـــات، لعملية اخـتـيار تحـدد ما الذى ســـوف يلقى به إلينا، ومـــا الذى يجرى استبعاده. ثم هناك ثالثا موضع الخبـر من بين الاخبار الأخـرى التى لم يجر اســـتبعادها، هـــل ســـيذاع كخبر أول أو أخـيــر؟.. وهناك رابعـا الفـتـرة الزمنيـة التى تـخـصـص له فى نشـرة الأخبار، هل سيحكى لنا بالتفصيل أم باخـتـصـــار؟.. ثم هناك طريقة إلقـــاء الخبـر ودرجـة الحمـاسـة التى يلقى بها وعـدد المرات التى تتكرر بها إذاعـتـه.. الخ.

المعلومـــــة تصل إلينـا إذن وهـى «ملغمة» أى محملة بالألغام، فـــإذا زاد عـــدد المعلـــومـــات التى تحـــمل تحيزا بعينه عن حد معين. فلابد ان ينتقل هذا التحيز، بدرجـــة أو أخـــرى، إلى متلقى المعلـــومات، وقد يفسد كل هذا ما قد

يؤدى إليه الاستنباط البسيط بين عدد قليل من المعلومات المهمة التى لاشك فى صحتها. وإذا بالمشاهد أو المستمع بدلا من أن يكون ، كما يظن بنفسه ، مجرد متلق لمجموعة من المعلومات المحايدة. قد عرض نفسه لسيل من التحيزات التى تقوم بغسل مخه غسلا ، أو بالأحرى تلويثه.

هكذا أفسر ميل الكثيرين إلى تصديق ما يلقى من مسئولية على أسامة بن لادن عن أحداث ١١ سبتمبر ، بل وإلى تصديق أن مجموعة من المسلمين والعرب الأشرار هم الذين دبروا ونفذوا هذا الحادث ، مع أن هناك عشرات الأسباب الوجيهة للغاية للشك فى هذا وذاك، وتشير فى اتجاه مختلف تماما.. وهكذا أيضا أفسر ميل الكثيرين إلى تصديق إحدى صورتين ذهنيتين لصدام حسين شاع التأكيد على إحداهما أو على الأخرى فى وسائل الإعلام، مع أن هناك عشرات الدلائل على منافاتها للعقل. إحداهما هى صورته كشيطان رجيم، ذى قوة خارقة، وله مطامح وميول للسيطرة لا حد لها، لمجرد إشباع رغبات ذاتية. ناهيك عن تصور ان تصرفات صدام حسين فى مجالات ذات أهمية بالغة فى السياسة الدولية (كالهجوم على إيران ثم على الكويت.. الخ) يمكن أن تكون مجرد نتيجة لهذه الصفات الشخصية لرجل غير طبيعى. هذه هى الصورة التى يميل إلى تصديقها كثير من الكويتيين مثلا، ولكن هناك كثيرين أيضا غيرهم، خاصة فى الولايات المتحدة، ممن يصدقونها ايضا.

والصورة الأخرى هى صورة رجل وطنى مخلص للعروبة والإسلام وكاره لإسرائيل والغرب ولا يهتم بالا باسترداد حقوق الفلسطينيين وتحقيق المجد للعرب.. الخ. وهذه هى الصورة البعيدة بدورها كل البعد عما يمكن ان يقبله العقل، هى التى مال كثيرون إلى تصديقها أثناء حرب الخليج الأولى ثم الثانية. وكاد يعود إليها كثيرون خلال الأيام الأولى من الهجوم الامريكى البريطانى الأخير على العراق.. وكلتا الصورتين لا تستقيمان البتة مع تاريخ الرجل ومجمل تصرفاته، ولا مع مقتضيات السياسة الدولية وقوانينها، ولا مع موقف الولايات المتحدة من صدام حسين



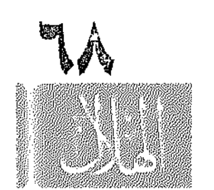
طوال الثلاثين عاما التى حكم فيها العراق أو لعب دورا مهما فى حكمه.

***

إن الخطر من استخدام وسائل الإعلام على هذا النحو ليس هو مجرد أنه يؤدى بالناس إلى اعتناق أفكار خاطئة، ولكنه يصل إلى حد تشكيل عواطف الناس وتوجيه هذه العواطف فى الاتجاه الذى يحقق مصالح المسيطرين على هذه الوسائل. فإذا أضفنا إلى هذا ما أصبحت تتسم به وسائل الإعلام من درجة لا يستهان بها من احتكار ، اذ أصبح يهيمن على أهم ثلاث أو أربع شبكات تليفزيونية مركز واحد من مراكز صناعة الأفكار والاتجاهات السياسية، وآن هناك تداخلا بين هذه الشبكات التليفزيونية، على قلتها، يجعلها تكاد تعبر عن نفس الاتجاه وتصب فى نفس المصالح، فإن الخط الذى يتعرض له مشاهدو التليفزيون (بل وقراء الصحف والمجلات بدرجة متزايدة مع تزايد درجة الاحتكار فى ملكيتها) أصبح خطرا شديدا حقا، اذ أصبح هؤلاء المشاهدون (والقراء) محكومين فى تحديد اتجاه عواطفهم ودرجة التهاب هذه العواطف، بما يناسب المسيطرين على هذه المصالح ويحقق أهدافهم.

***

ها قد بدأ الهجوم العسكرى على العراق وكاد ينتهى، فماذا سمعنا ورأينا، نحن المشاهدين المساكين للتليفزيون والمثبتين كالتماثيل أمام شبكاته المختلفة، التى تقول نفس الكلام ولكن بطرق مختلفة؟ قالوا لنا وبإلحاح. منقطع النظير، إن الهدف من الهجوم هو إحلال نظام ديمقراطى محل نظام ديكتاتورى، فصدق هذا الكلام كثيرون رغم منافاته التامة للعقل ولتاريخ الدول القائمة بالهجوم فى معاملتها لشعوب الدول الأخرى. ثم قيل لنا إن الهجوم قوبل بمقاومة عنيفة، وظلت وسائل الإعلام تكرر إذاعة بيانات لإعلامى عراقى اختير لانه ذو جاذبية شخصية وطريقة مؤثرة فى الكلام تبعث على الثقة مهما كان محتواها منافيا لما كان يجب ان نتوقعه من نتيجة القتال. ثم اختفى هذا الرجل فجأة بنفس السرعة التى ظهر بها، ولا يدرى احد من الذى عهد اليه بهذه المهمة ومن الذى تسبب فى اختفائه إذ كيف يكون صدام

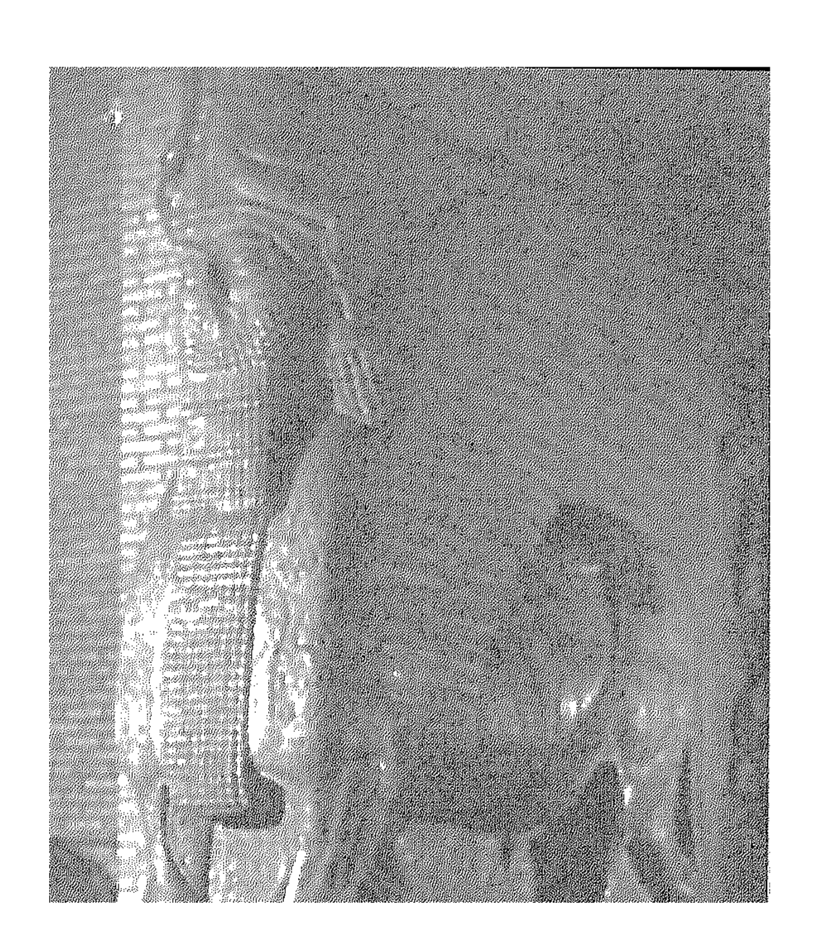


حسين هو الذى طلب منه ذلك بهدف إذكاء روح المقاومة ، مادام صدام حسين نفسه لم تبد منه اى مقاومة ولا أصدر الأوامر اللازمة لجيشه وحرسه بالاستمرار فى المقاومة؟.. ثم رأينا صورا لتمثال ضخم، ظلت الكاميرات مسلطة عليه مددا طويلة أثناء اسقاطه وتحطيمه. وكأن هذا الاسقاط والتحطيم لهذا التمثال الضخم هو الهدف الاساسى من عملية الهجوم كلها، أو كأن المتفرجين والمشاهدين كان لابد أن يكافأوا على صبرهم الطويل على متابعة السير البطىء للقتال فى الأيام الأولى، فكان لابد ان يعرض عليهم مشهد سقوط وتحطيم، ان لم يكن للحاكم المستبد نفسه فلا أقل من سقوط تمثال ضخم له! والله أعلم بحقيقة هؤلاء الذين قاموا بهذا التحطيم والاسقاط ، هل فكروا فى الأمر بمطلق الحرية أم كلفوا بهذا العمل الخطير من بعض القائمين بالهجوم العسكرى؟ خاصة وإن كان من سمات هؤلاء المشتركين فى هذا العمل وطريقة تنفيذهم له ، ما يلقى الكثير من الشك فى تلقائية العمل الذى قاموا به.

ثم فجأة رأينا صور النهب والسرقة ، والله أعلم أيضا بحقيقة هذه الأعمال ومداها ودرجة تلقائيتها. نعم كان من الطبيعى ان تحدث بعض أعمال النهب والسرقة بعد كل هذه السنوات الطوال من المعاناة والعوز والجوع والبطالة، ولكن هل وصل الأمر بالفعل إلى هذا المدى، ام ان هذه الصور هى بالضبط ما يريد القائمون بالهجوم، والمستفيدون منه، غرسه فى أذهان العالم عن الشعب العراقى، والعربى عموما، والاسلامى كله، تأكيدا لما بدأوا غرسه والإلحاح عليه منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١؟

***

إن ما حدث من اعتداء على العراق لم يحدث فقط بالمدافع والبنادق والدبابات ، بل حدث أيضا بأجهزة التصوير ورسائل مندوبى التليفزيون والصحف ووكالات الأنباء. والقتل المادى الذى جرى لآلاف العراقيين لا يقل عنه ظلما وقسوة القتل النفسى الذى جرى لملايين من العرب والمسلمين فى العراق وخارج العراق. وقد اصطلح على تسمية الوسائل التى تم بها هذا النوع الثانى من القتل بـ «وسائل الإعلام» وهى تسمية لا تقل فى درجة تضليلها عما تبثه من سموم. ■



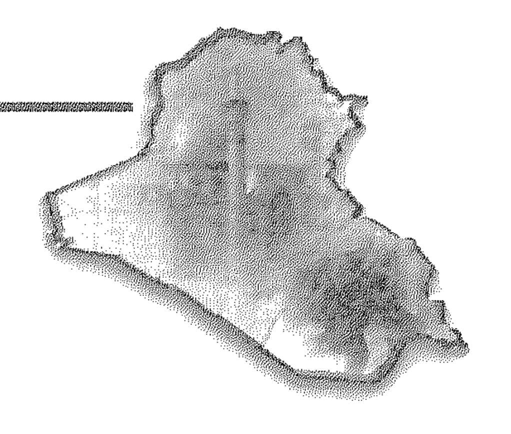
بغداد

مقطعات من قصيدة مطولة

شعر
د. عبد اللطيف عبد الحليم

بغداد، ياطفلة يغازلها الندى، ويغفو بحجرها القمر
توشحت بالنجوم واعتقدت عقد الثريا، تزينه الدرر
اعتصمت بالشباب جبهتها، لا يتمشى في نبضها كبر
ترتشف الحسن والخلود، وهل بغداد إلا الخلود يدخر؟
إني دعتني اليك داعية الحب، وإني بالحب أتمر
شوق قديم، يظل يرفده الى ثراك الأيام والذكر
كم قد رتعنا بظلها زمنا، ليلاته - في صفائها - سحر
دجلة ساج، والكرخ، والأمل العذب وشرخ الشباب والزمر
والنخل ذات الأفنان، راهبة الليل تسلي بشجوها النهر
والعود و«الموصلي»، والوتر المخمور، والشاربون قد سكروا
أضغاث زهر هناك، تنثرها القيان، والود ليس ينتثر
مجامر الزهر في مآرجهم، تأتي اليها الرياض تعتذر
«ذات الأكيراح» ماصحا «حسن» عنها، وشكواه دهره القصر
لكنني قد صحوت معتذرا فرائدي: الخيال والفكر
بغداد دار السلام ماشطحت بنا النوى والعشاق تنتظر
ففي ثرى كربلاء قد سجدت أرواحنا، والدموع تنهمر
أعراقنا بالحسين واشجة، وعند آل النبي منحشر
وبالشريف الرضي مافتئت أشعارنا من هواه تنعصر
شيعة بيت النبي، يشدو بها الشاعر في شعره ويفتخر
ياليت لي نسبة وقد صديت نفسي اليهم وطال بي سفر
وطاف بالنفس في تذكرها الأفق يدمي، والفجر ينتحر

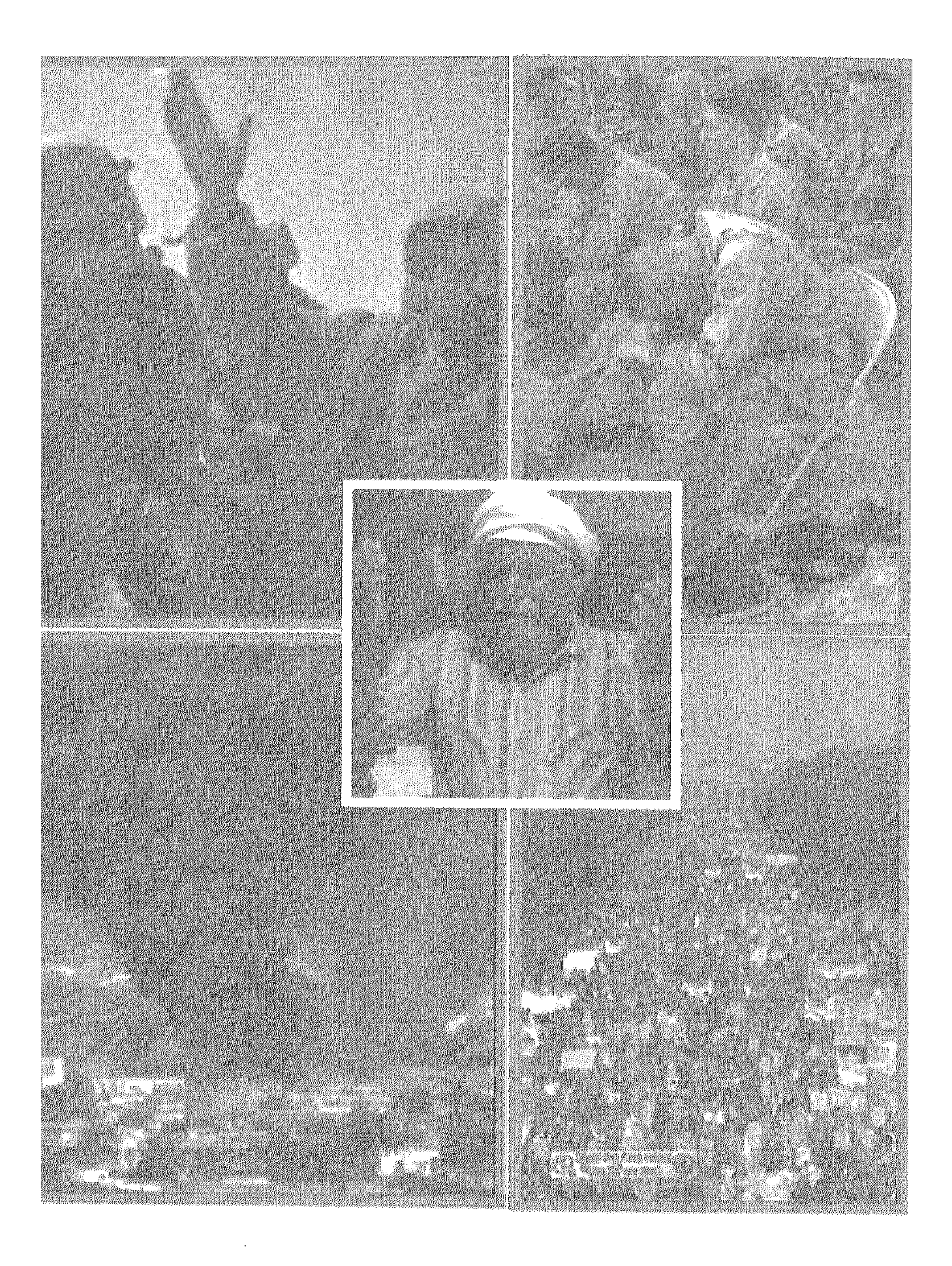
دم الشهيدين والردى قدرهما ضياء الآفاق والغرر
بغداد دار السلام إن لنا شوقا الى الشاعرين يبتدر
مهبط وحى وطيب منتجع حج اليه الهافون واعتمروا
تأخذ علم الخليل، تقتبس من شعر ابن برد، تهزك الصور
وابن جريج الرومى تنظره مصورا لا يخونه النظر
وللشريف الرضى جزالته الفكر فيها كاللفظ مختصر
وللمعرى فى تلبثه، منقبضا فى بغداد مؤتمر
والخلفاء الذين كعبتهم بغداد طاب الورود والصدر
تاريخهم فى بياض أوجههم يضىء وجه الأفاق ان سفروا
العدل سلطانهم ورائدهم الله جل المعبود لا البشر
البأس ضد الأعداء ليس بهم من جبروت ولا بهم بطر
لغير وجه الرحمن ماسجدت جباههم ما تعسف الخطر
تلحفوا بالأمجاد وادثروا تعمموا بالشموس وانزوا
بغداد يا ألف ليلة سلفت رق دجاها وراق لى السمر
وشهرزاد اذا انقضى وطر من سحرها جد بالهوى وطر
يطرق فيك الخيال متشحا بالصمت، تشكو الحروف تنهبر
عذبنى العشق والضنى حفيت أقدامه والأشواك والحجر
جزائر السحر لم تطأ قدم شعابها والمرجان منتثر
والوهج البكر يستفيق ضحى ويستبيه الصفصاف والغدر
ياشهرزاد اليك معتبتى والعتب للشاعرين مغتفر
بغداد إن الأسى يخالجنى والحرف باك والشعر منكسر
الأمل الحلو غال بهجته واحسرتاه: الخلاف والخور
والذل والجبن والقطيعة والحرب ـ كلاما ـ والكذب والنذر
وأين قومى وأين نجدتهم ليسوا بشىء وإن هم كثروا
لسنا من العرب طاب ذكرهم وانتحرت فى عروقنا مضر
وطاردتنا البغاث ليس لنا إلا بماضى التاريخ مفتخر
وفى فلسطين والجراح دم يمشى بها بالمخيلة الصعر
فى كل شبر تنوح أندلس من أرضنا والمنصور يحتضر
شنجول سيف الخذلان فى يده من خشب والأدفونش منتصر
ونحن نبكى ولا ذنوب لنا والمذنبان: الأيام والقدر
بغداد تهفو اليك أفئدة من مصر ترنوا اليك تبتدر
أجنحة الطير بعض رحلتها وزادها النيل ليس يعتكر
تحضن ذوب الإخاء، تشرب من صفوك: صفو الفرات ينهمر
هنا يطيب اللقاء تنسرب الروح حنانا والشعر والصور
هنا تضج القرون، تصرخ فى الروح حياة تجول تنتصر
والغد لى كيف لا يكون وفى يدى منه الآيات والسور
بغداد أشكو اليك قافيتى بغداد إنى أتيت أعتذر .



غزو العراق على الإنترنت

بقلم
د. أحمد محمد صالح

بعد الهجوم الأمريكى البريطانى على العراق ، تحولت مفاهيم مثل العولمة ، والنظام العالمى الجديد ، وحقوق الانسان ، والحرية ، والديمقراطية ، والسلام العالمى ، والشرعية الدولية ، والأمم المتحدة ، والجامعة العربية إلى مفاهيم جوفاء ، لاتحمل أى معنى. فقد تراجع العالم كله على الأقل ١٠٠ سنة إلى الوراء ، ووقفت البشرية كلها على أطراف أصابعها ، تحبس أنفاسها احتجاجاً على الحرب العبثية القائمة على التعصب والعنصرية والغطرسة بين نمطين من الديكتاتورية ، ديكتاتور شرقى كلاسيكى ، يتوارى وراء شعارات دينية وقومية ، وهو متمسك بالسلطة حتى آخر نقطة من دم شعبه ، مثل معظم حكام العرب! وعلى الطرف الآخر ديكتاتور غربى ، نمط جديد من ديكتاتورية القرن الحادى والعشرين ، ديكتاتورية عصر المعلومات ، يتوارى هو الآخر تحت شعارات دينية ، والدعوة لنشر الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ، وعينه على منابع البترول مصدر الطاقة والقوة ، ويأمل فى السيطرة على أمن الطاقة لكل من دول الشرق الأقصى ، وأوروبا الغربية . وكذلك السيطرة على الامتداد الجغرافى الخلفى لأوروبا الغربية ، والذى سيطرت عليه تاريخياً كل من فرنسا وإنجلترا ، ويحلن فيما فشل فيه أبوه ، بإمبراطورية جديدة يفرض فيها إرادته على العالم كله ، ويعيد ترتيب المنطقة العربية لصالح إسرائيل! والضحية فى الحالتين هى الشعوب!

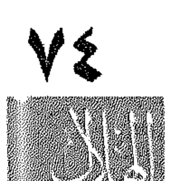


والعجيب أن وكالات الأنباء بثت مؤخراً خبراً يقول إن إدارة بوش تنصت لصوت الصلاة، وتعقد الاجتماعات بهدف الصلاة آناء الليل وأطراف النهار، ولذا ليس من المستغرب أن ترى العاملين فى البيت الأبيض وهم يهرعون وبأيديهم الأناجيل، أثناء قذف بغداد، عاصمة بلاد ما بين النهرين، مهد الحضارة، وأرض الأديان السماوية ، وفيها العديد من المقدسات الدينية فى البصرة والنجف الشريف وكربلاء! وفى إطار الحملة الضخمة التى يقوم بها البيت الأبيض لتصوير «بوش الابن على أنه وكيل للرب! نشرت مجلة نيوزويك على غلافها العنوان التالى : بوش والرب». والملاحظ أيضاً للخطاب العراقى، وللخطاب الأمريكى أثناء الحرب، يجد أن كلا منهما يستخدم نصوصاً دينية لدغدغة المشاعر الدينية بين الناس فى كل طرف ! وينسون أنها لعبة خطيرة، وعواقبها وخيمة، تنذر بحروب دينية طويلة، لأنه لايوجد دين من الأديان يقبل الهزيمة من دين آخر!

ويبدو أن ساحات الحرب فى العراق وحدها غير كافية لتحقيق الأهداف الأمريكية البريطانية، فتوسعت ميادين هذه الحرب إلى عالم الإنترنت ، حيث اشتعلت حرب أخرى بشأن العراق فى فضاء الإنترنت، وتركزت فى ٣ مستويات، المستوى الأول الحرب الإعلامية بين المواقع المؤيدة والمعارضة لكل طرف، وهى صورة مكررة من الحرب الاعلامية والنفسية التى تدور على الفضائيات ، ونتابعها يومياً على شاشات التليفزيون، ونسمعها من الإذاعات المختلفة، فمعظم الفضائيات لها مواقع على الإنترنت، حيث تقدم الأخبار والتحليلات السياسية والعسكرية، مدعمة بالصور وملفات الفيديو، ونرصد أن نصيب الحقيقة فيما تنشره مواقع الإنترنت الاعلامية يتباين من موقع لآخر ، بحسب موقفه من الحرب، وكل موقع استخدم التكنولوچيا فى تكييف المعلومات واستخدامها لتحقق أهدافه التى تخدم موقفه من الحرب! والمستوى الثانى كانت حروب الهاكرز المؤيدة والمعارضة لكل طرف، والمستوى الثالث كانت حرب المظاهرات التى اشتعلت فى منتديات الحوار على الإنترنت! ونركز فى هذه العجالة على المحور الثانى، على أمل مناقشة المستوى الثالث فى مقالات قادمة.

حروب الهاكرز

عبر المؤيدون والمعارضون للحرب على العراق، عن آرائهم بالهجوم على مواقع شبكة المعلومات الدولية الإنترنت وتعطيلها، فتعرضت مواقع أمريكية وبريطانية لحملة تخريب واسعة، طالت فى الأسبوع الأول للحرب، حوالى ألفى موقع، قام المحترفون بتشويه صفحاتها من خلال وضع شعارات مناهضة للحرب فى العراق، ومناوئة للرئيس الأمريكى بوش، وزعمت الأنباء أن مصدر هذه الاختراقات هو ماليزيا واندونيسيا وعدة دول شرق أوسطية! وفى ظل المعلومات المؤكدة التى تلقتها المخابرات المركزية الأمريكية ووكالة التحقيقات الفيدرالية ، التى تشير إلى استعداد تنظيم القاعدة لشن هجوم إلكترونى ضخم ضد شبكة الإنترنت وبعض المؤسسات الاقتصادية الأوروبية والأمريكية، قال متحدث باسم المخابرات الأمريكية إن هناك معلومات لا يرقى إليها الشك تؤكد مشاركة العديد من الجماعات الشرق أوسيطة، وجماعات إسلامية آسيوية على علاقة بتنظيم القاعدة فى التخطيط لهذا الهجوم الذى بدأ بالتزامن مع بدء الحملة العسكرية الأمريكية ضد



العراق! وكان الشيخ محمد عمر بكرى المعروف زعيم جماعة المهاجرين المعروفة بعلاقتها الوثيقة بتنظيم القاعدة قد أعلن فى حوار تليفونى مع مجلة كمبيوتر وورلد أن تنظيم القاعدة والعديد من التنظيمات الإسلامية المرتبطة به تستعد لإعلان الحرب الإلكترونية المقدسة عبر الإنترنت، دفاعاً عن الإسلام والمسلمين ضد الحرب الشعواء التي يشنها عليهم الغرب. وكانت جماعة ماليزيان هاكرز الماليزية التى يتزعمها القرصان الشهير كامل طراز، المعروف باسم ميل هاكر أعلنت قبل الحرب أنها قامت بتصميم خمسة فيروسات خطيرة من نوع «ميجا فيروس» التى تتسم بقدرتها التخريبية الهائلة ، وأنها تستعد بالفعل لإعلان الجهاد الإلكترونى باستخدام هذه الفيروسات إذا أقدمت الولايات المتحدة على شن عدوانها على العراق. وقال زعيم الجماعة كامل طراز إنه قام بتصميم فيروس خاص لاستهداف المواقع العسكرية الأمريكية والبريطانية على شبكة الإنترنت، يحمل الاسم الكودى سيزيدا (Scczda) ، وهو يجمع فى خصائصه التدميرية بين ثلاثة فيروسات سابقة هى نيميدا وسيركام وكليز. مؤكداً أنه انتهى بالفعل من تصميم هذا الفيروس فى شهر أغسطس الماضى، وقام بتجربته فى المعمل الخاص به، وكانت نتائجه التدميرية عظيمة. واعترف طراز بأنه وجماعته على علاقة وثيقة بأعضاء فى تنظيم القاعدة، وأنه استعان بمجموعة من الأصدقاء الباكستانيين والروس فى تصميم هذه الفيروسات، وأنهم شاركوه فى تصميم عدة فيروسات سابقة من بينها فيروسات «بج بير ونضال وشت دوان وبالاباجى»، وبعث طراز برسالة عبر البريد الإلكترونى إلى مجموعة «أى ديفينس وثيقة الصلة بمكتب التحقيقات الفيدرالى» أكد فيها أنه حدد ساعة الصفر لهجومه الفيروسي المرتقب ليكون متزامناً مع العدوان الأمريكي على الشعب العراقى، حتى يدرك العالم كله حجم الكارثة الإنسانية البشعة المترتبة على هذا العدوان. وقال براين كيلى رئيس مجموعة آى ديفينس إنه قدم نص رسالة طراز إلى المسئولين فى وكالة المخابرات المركزية ووكالة التحقيقات الفيدرالية لأن الأمر فى غاية الخطورة، ويجب التعامل معه بكل جدية، ومن ناحية أخرى قال فنسنت جلوتو نائب رئيس شركة مكافى لمكافحة الفيروسات إن شركته تلقت نسخة من رسالة القرصان الماليزى كامل طراز وتعاملت معها بكل جدية، لذلك أصدرت تحذيراً عالى الخطورة إلى جميع عملائها فى مختلف أنحاء العالم، وأكد فنسنت أن خبراء شركة مكافى قاموا بتحليل شفرة الفيروس الدودى المعروف باسم نضال (Nedal) الذى صممه نفس القرصان خلال الأيام القليلة الماضية، واكتشفوا أنه يتضمن العديد من الأسماء والحروف العربية التى يعتقد أنها تخص تنظيم القاعدة!

هذا ويملك عدد كبير من النشطاء المؤيدين والمعارضين للحرب، القدرة على اختطاف أو شل مواقع على الإنترنت للمعسكر المعارض، مخلفين وراءهم، مقبرة من المواقع المشوهة فيما يوصف بأنها عمليات قرصنة إلكترونية. وغالباً مايجرى وصف عمليات طمس مواقع الإنترنت بأنها شكل إلكترونى لكتابة الشعارات على الجدران! ولأن مسرحها هو الشبكة العنكبوتية فإن الرسالة تنتشر على نطاق واسع، لكنها تستمر لمدة قصيرة. والأكثر إثارة للقلق هو عندما يتمكن أحد القراصنة من الوصول إلى الكمبيوتر

الخادم للموقع لأنه المستودع الرئيسى لبيانات الشركة أو الهيئة المستهدفة. وتوقع روبرتو بريتونى مؤسس «زون إتش» وهى شركة إستونية تراقب وتسجل حالات تخريب أو تعطيل المواقع على الإنترنت أن تكون هذه الاحتجاجات الأسلوب الأكثر شيوعاً فى المستقبل. وسجلت الشركة منذ بدء الحرب على العراق مايزيد على ٢٠ ألف حالة من حالات طمس وتعطيل مواقع الإنترنت! وذكر خبراء فى أمن شبكة الإنترنت أن المئات من مواقع الشركات الأمريكية والبريطانية وكذلك المواقع الحكومية تعطلت عندما بدأت الحرب نتيجة لسيل من الرسائل المناهضة للحرب. وقد لاحظ خبراء الشركة تزايد دراماتيكى فى أعداد هجمات القرصنة والاختراق منذ اندلاع الصراع ، ففى الأيام الأولى هبت محاولات عديدة تهدف للدخول على المواقع الحساسة مثل موقع القوات البحرية الأمريكية . وفي تصريح لأحد خبراء الشركة بعد الحادثة السابقة قال فيه: «إن محاولات تشويه واختراق المواقع التى تقوم بها جماعات قرصنة مناصرة للإسلام والمسلمين ومناهضى الحرب ودعاة السلام تعنى بدء عصر جديد من حروب قرصنة الإنترنت». وتقول الشركة فى تعليقها على الموقف إن القراصنة يقتربون الآن أكثر وأكثر من الأهداف والمواقع الحساسة مثل البيت الأبيض الذى شهدت عشرة من مواقعه محاولات اختراق فى الأيام الماضية . ويضيف مدير الشركة جاسون هولواى محذراً من أن مشاركة الأشخاص والأفراد فى هذه الحمى يتزايد بشكل أكبر من الهجمات التى تشنها المؤسسات أو الجماعات، ويضيف أن الهجمات تتخذ أشكالاً عديدة غير الهجوم المباشر، فهناك العديد من الرسائل التى تدعو لمناهضة الحرب وتطالب بالسلام.ويقول أحد الخبراء البريطانيين في علوم الإنترنت إن الحرب الدائرة حالياً فى العراق أفرزت جيلاً جديداً من القراصنة يختلفون بشكل جذرى عن قراصنة التخريب والتدمير التقليديين، فهم دعاة السلام المتحدون مع أنصار الإسلام وأنصار الأقليات فى الولايات المتحدة، المعبرون عن أسفهم وحزنهم من خلال الإنترنت. ويعتبر العديد من العلماء هذا الحدث دليلاً على انعكاس القلاقل السياسية حول العالم على شبكات الإنترنت التى تربط العالم وتجعله قرية صغيرة، فعلى سبيل المثال لا الحصر شهد الصراع الهندى - الباكستانى تبادل الهجمات على المواقع لتشويهها وتعطيل خدماتها من قبل قراصنة البلدين. وأخيراً يشهد العالم صورة جديدة من هذا الصراع تابعة للأزمة فى العراق، فهناك هجمات اختراق وهجمات فيروسية مثل انتشار فيروس دودة الغاندا Ganda worm الذى تم الكشف عنه أول يوم الحرب بعد انتشاره السريع بسبب إقبال سكان العالم على متابعة أخبار الحرب! وعلى الطرف الآخر، وفى غضون ساعات من بداية الحرب شن قراصنة مؤيدون للحرب على مايبدو هجمات على مواقع عربية كثيرة.

هجوم أمريكى على موقع قناة الجزيرة

ومن أبرز ضحايا عمليات القرصنة أثناء حرب العراق ، كان موقع قناة الجزيرة على الإنترنت، «الجزيرة نت»، الأمر الذى حجب محتويات الموقع عن الظهور لبعض الوقت، وذكر الخبراء الفنيون فى شركة «هدرايزون ميديا» التى تدير الموقع ان جميع المؤشرات تشير إلى أن مصدر الهجوم هو قراصنة من الولايات المتحدة. وبدأت هذه الهجمات منذ اليوم الأول لتغطية الموقع لأحداث الحرب

على العراق، والتى خصص لها موقع جديد يحمل نفس عنوان الموقع الأصلى (الجزيرة نت) ليسهل دخول الزائرين إليه. ثم وصلت الهجمة إلى ذروتها فى أعقاب نشر الموقع لصور الأسرى والقتلى الأمريكيين يوم السبت مساء ٢٣ مارس، الأمر الذى أثر على إمكانية الوصول للموقع لعدة ساعات. وأكد خبراء أنه تعرض لعملية قرصنة غير عادية لايمكن أن ينفذها أفراد بل مؤسسات ضخمة تملك إمكانات مادية وتقنية هائلة. ويرى مراقبون أن هذه العملية المنظمة جاءت رداً على تغطية الجزيرة لأخبار الغزو وبثها صور الجنود القتلى والأسرى الأمريكيين والبريطانيين فى العراق، والتى نشرت على موقع الجزيرة نت. وقوبل زائرو الموقع بصور العلم الأمريكى وعبارة تقول «دعوا الحرية تصدح» فى إشارة إلى الحرب. وفوجىء بعض زوار موقع الجزيرة بأنهم يدخلون إلى موقع إباحى عندما كتبوا اسم موقع الجزيرة، ووجد أيضاً من حاولوا الدخول إلى الموقعين العربى والإنجليزى لقناة الجزيرة رسالة كتبت تحت العلامة التى تحمل صورة العلم الأمريكى تقول «تم اقتحامه من قبل الميليشيا الوطنية لقوات الحرية الفضائية» . وتقول الرسالة : «جاءتكم هذه الأنباء من ميليشيات قوات الحرية الفضائية. بارك الله فى قواتنا». وصفت المحطة الهجمات التى استهدفت مواقعها بأنها اعتداء شرير على حرية الصحافة. ويقول الخبراء إن هذه الهجمات تعرف بأسلوب الحرمان من الخدمة، حيث يمطر المخربون الموقع بوابل من المعلومات غير ذات قيمة ، الأمر الذى يحد من مساحة الدخول الحقيقى إلى الموقع. ويذكر أن الجزيرة تعتبر أكثر القنوات العربية تأثيراً فى العالم العربى، وقد أثارت غضب أمريكا وبريطانيا عندما عرضت صور القتلى والأسرى من البلدين ، وبالطبع لن تكون هذه هى آخر جولات الحرب الإلكترونية ، تماماً كما أنها لم تكن الأولى. فلا تزال ماثلة فى الأذهان حادثة اقتحام مجموعة تابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكية (FBI) والاستيلاء على الأجهزة المرتبطة باستضافة موقع الجزيرة فى سبتمبر عام ٢٠٠١، ورفض أكبر شركة برمجيات وأنظمة نشر فى العالم عقداً للشراكة مع الجزيرة نت، متعللة بتعرضها لضغوط رسمية لاتستطيع تحملها.

وامتدت هذه الضغوط إلى مجموعة من كبريات مواقع الإنترنت العالمية الأمريكية التى اعتذرت عن عدم نشر إعلان يتعلق بإطلاق الجزيرة نت موقعها الإنجليزى، متعللة بأنها لاتستطيع تحمل الضغوط التى تعرضت لها من جهات رسمية أيضاً، لدرجة أن يصل الأمر بالشركة المستضيفة للموقع فى الولايات المتحدة إلى أن تطلب صراحة من الجزيرة نت البحث عن مستضيف آخر «خارج الولايات المتحدة بأكملها» فى غضون أيام قليلة! وفيما يبدو أن الضغوطات «الفنية» التى يتعرض لها موقع الجزيرة تتزايد يوماً بعد يوم، وتتناسب فى قوتها مع زيادة أعداد زوار الموقع، والتى وصلت نسبتها خلال الأسبوع الأول للحرب فقط إلى أكثر من ١٠٠٪، مقارنة بالأسبوع السابق للحرب، وهو ما تزيده الإحصائيات التالية وضوحاً: وصل ترتيب الموقع فى قائمة أكثر مواقع العالم حركة على الشبكة العالمية إلى رقم ٤٥ بعد أن كان ترتيبه الـ ٤٤٤ قبل بداية الحرب فى ٢٠/٣. زادت سعة نقل المعلومات (bandwidth) من ٣٥ ميغا/ثانية قبل يوم ٢٠/٣ (بداية الحرب) إلى ١٨٥ ميغا. زاد متوسط عدد الصفحات المشاهدة للزائر الواحد حتى وصلت إلى ٤.٢ صفحة وهو مايزيد على مواقع كثيرة

شهيرة فى عالم الأخبار مثل الـ .C.N.N والتى بلغ متوسط صفحاتها المشاهدة بالنسبة للزائر الواحد ٣.٢ صفحة.

ولم تكن هجمات القراصنة أو «الهاكرز» كما اعتادت لغة الإنترنت على تسميتهم هى ردود الأفعال الغاضبة الوحيدة على شكل ومضمون تغطية المواقع للحرب على العراق. ولم يكن موقع الجزيرة نت الوحيدة الذى تعرض للقرصنة، فقد كانت مواقع أخرى على الجانبين أهدافاً وكذلك مواقع لم تكن لها صلة واضحة بالحرب.

مواقع تعكس أبعاد الصراع

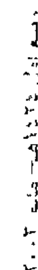
اهتمت وكالات الأنباء بموقع يعرض مذكرات شاب يعيش فى بغداد، ويصف الموقع الإلكترونى كيف تبدو الحياة فى بغداد تحت القصف والغارات، وتأثير ذلك على الحياة اليومية فى العاصمة ووجهات نظر المواطنين العراقيين. ويقدم الموقع واسمه «عزيزى رائد» عرضا مختلفا عن أخبار العمليات العسكرية التى يتلقاها الناس عبر شاشات التليفزيون. ويبدو أن مهندسا معمارياً شابا (٢٩ سنة) يحمل الاسم المستعار «سلام باكس» يتولى نشر هذه الصحيفة الإلكترونية. ويقدم سلام فى موقعه عرضا للأحداث فى العراق منذ العام الماضى وبينها الانتخابات وعمليات الأمم المتحدة الخاصة بالتفتيش عن الأسلحة والاستعدادات للحرب. وقد أخذت شعبية الموقع بالازدياد خلال الأشهر الستة الماضية، لكنها وصلت ذروتها مع بدء العمليات العسكرية الأخيرة. ويقدم سلام عرضا مباشراً للغارات على بغداد ، ويتابع مثلا رحلة طائرات بى ٥٢ التى يعرف أنباء إقلاعها من بريطانيا من الصور التى تعرضها محطات التليفزيون ويتوقع قصفها بعد ست ساعات من ذلك. وقد ساعده على تحديث موقعه استمرار التيار الكهربائى وخطوط الهاتف بالرغم من القصف، حتى وقت كتابة المقال، وأكثر ما يأسر المهتمين بالموقع وصف سلام للأحداث التى تخرب الحياة اليومية للمواطنين العراقيين. فقد كتب سلام أن الحياة توقفت فى بغداد بعد إغلاق الكثير من محالها التجارية ونقص السلع التموينية وارتفاع الأسعار باطراد. وقال : «لم أر مطلقا بغداد فى مثل هذه الحال». ويضيف أن الطرق هادئة وأكبر التجمعات فى الشوارع مكونة من أعضاء حزب البعث الذين اتخذوا مواقع فى الساحات ومفترقات الطرق والخنادق . وقد انتشر نبأ وجود هذا الموقع عن طريق البريد الإلكترونى وغرف النقاش على الإنترنت وإبلاغ المهتمين لبعضهم. لكن شعبية موقع «عزيزى رائد» ارتفعت ارتفاعاً كبيراً ويلقى البعض الشكوك على مصداقيته ويتساءل إذا كان نظام الرئيس العراقى صدام حسين هو المسئول عنه أم أرباب الدعاية الأمريكية.

هذا وتنصب اهتمامات المواقع الالكترونية الأمريكية حالياً على العراق لتقديم وجهة النظر الامريكية من الحرب الدائرة على أرض العراق، سواء لجهة تبرير الحرب وضروراتها لنزع السلاح العراقى، أو لجهة ابراز سير هذه المعارك، بالإضافة إلى مستقبل العراق بعد الحرب الذى انتهى الأمريكيون من الإعداد له على مايبدو فى موقعهم الالكترونية الكثيرة على شبكة الانترنت، والتى يبدو فيها العراق هو الطرف الأضعف، إذ إن له موقعا واحداً هو لوكالة الأنباء العراقية وعنوانه ، www.uruklink.net مقابل عشرات المواقع الأمريكية التى تقدم فيضاً من المعلومات، تسهل للمتابع معرفة كل شىء

عن العراق. والحرب الدائرة على أرضه من وجهة النظر الأمريكية، فيما تبدو الأمم المتحدة آخر من يعلم في مواقعها التي تتحدث عن الوضع العراقي. كما انشأت المؤسسات الأمريكية موقعاً خاصاً للعراق وهو موقع «عراق واتش» فقد انشأه مركز وسكونسن لمراقبة الأسلحة النووية، ويتضمن هذا الموضع معلومات عن الأسلحة المحظورة المشتبه بأن العراق يمتلكها. وظهر موقع جديد يقوم بتسجيل أعداد ضحايا الحرب الانجلو - أمريكية على العراق، وأعلنوا أن عدد زواره بلغ ١٠٠ ألف زائر يومياً. وأضافوا أن المصادر العسكرية الأمريكية والعراقية، وعدداً من وكالات الأنباء تعتبره من المواقع الموثوق بها، وصرح المسئول عن هذا الموقع بقوله «اننا نسجل بأمانة ومسئولية أعداد ضحايا القنابل الأمريكية والبريطانية .. واننا نفعل المستحيل كي لا ننسى أحد الضحايا المدنيين». ويظهر على مدخل الموقع عدد لأكبر واصغر عدد من الضحايا التي تستقي انباؤها من غالبية المواقع الاعلامية العالمية الرصينة. ويشرف على الموقع ١٦ من الاكاديميين والفنانين في الولايات المتحدة وبريطانيا. واطلقه سلوبودا البروفسور في علم النفس بجامعة كيل البريطانية، وعميد داردغان أحد الباحثين المقيمين في لندن. عنوان الموقع : www.iraqbodycount.net . ومن الغريب ان هناك مواقع تقامر على مستقبل صدام! وتسألك عند الدخول هل أصبحت أيام الرئيس صدام حسين معدودة؟ هل تراهن على ذلك؟ إذا كانت الإجابة نعم، فما عليك سوى الدخول إلى عدة مواقع للمقامرة على شبكة الإنترنت، للمراهنة على مستقبل أكثر الأشخاص المطلوب إطاحتهم من الحكم من قبل الولايات المتحدة ، ألا وهو الرئيس العراقي صدام حسين. فقد استقطب أحد مواقع المراهنات، ترايد سبورتس دوت كوم، مبلغاً وصل إلى ١,٢٥ مليون دولار!

عسكرة ألعاب الكمبيوتر

حتى ألعاب الكمبيوتر تمت عسكرتها! تنتشر على الإنترنت لعبة أطلق عليها اسم «حرب الخليج٢». ونشرت وكالة رويترز تقريراً قالت فيه إن اللعبة تعتمد على أن ينتحل اللاعبون شخصية الرئيس الأمريكي جورج بوش، الذي يتلقى نصائح من دونالد رامسفيلد وزير الدفاع وكولن باول وزير الخارجية وكوندوليزا رايس مستشارة الرئيس الأمريكي لشئون الأمن القومي. وتبدأ اللعبة بسقوط بغداد السريع، لكن يعقبه هجوم عراقي بجراثيم الجمرة الخبيثة على إسرائيل، التي ترد بضربة نووية انتقامية، ثم تحدث ثورة في السعودية وانقلاب كردي في شمال العراق. ولدى العثور على جثة صدام حسين، يواجه اللاعبون اختباراً لاختيار واحد من ثلاثة خلفاء متشابهين، مما يستلزم دعماً عسكريا لردع إيران التي تشعر بالقلق من الأحداث الجارية. كما تندلع انتفاضات مناهضة للولايات المتحدة في مصر والاردن ولبنان وسوريا وباكستان، مما يؤدي في نهاية الأمر إلى تهريب رؤوس حربية نووية للجماعات المتشددة. ويقول موقع اللعبة على شبكة الإنترنت www.idleworm.cm إن «هذا التوقع هو النتيجة الأكثر ترجيحاً لأي حرب جديدة في منطقة الخليج». وصمم الموقع ديرموت أوكونور ٣٣ عاماً، في نوفمبر الماضي وهو مبرمج كمبيوتر انتقل من إيرلندا ليعيش في كاليفورنيا قبل ثلاث سنوات. ويقول أوكونور إنه بنى هذه الاحتمالات من لقاءات وتقارير نشرت



في مجلة «اتلانتيك مونثلي»، وصحف واشنطن بوست، ونيويورك تايمز الأمريكيتين، وتايمز أوف لندن، والجارديان البريطانيتين، وصحيفة صنداي هيرالد الاسترالية. وتبدو اللعبة في البداية وكأنها تفاعلية، إلا أنها تقود اللاعبين في طريق محدد سلفا صممه أوكونور لإبراز مخاطر الحرب في المنطقة. ونقلت عنه وكالة رويترز قوله : «هناك نتيجة حتمية واحدة فقط. فقد وجدت أن منح اللاعبين الشعور بإمكانية تجنب الأسوأ أمر غير منطقي». وأضاف أن نحو ٢٠ ألف شخص يلعبون لعبة الحرب يومياً. وقال أوكونور إن «الضغوط المستمرة وأصوات طبول الحرب تطغى على أي تصور أمريكي لما قد يحدث عقب الصراع المبدئي». أضاف أنه يشعر أن لعبته التي ترسم «أسوأ سيناريو» تقدم انعكاسا دقيقا لمخاطر شن هجوم على العراق. وقال : «لا أعرف كيف يمكن لإدارة بوش شن الحرب دون أن تخلف فوضى. لا أعتقد أن ماستحققه الحرب يستأهل المخاطرة».

وقبل اشتعال حرب العراق انتشرت في أسواق العالم لعبة فيديو بالكمبيوتر تمثل الحرب بين القوات الأمريكية والعراق، يدخل فيها اللاعب عدة مستويات، يخطط ويحارب ويغزو، يكتسح مناطق العراق، وتنتهي بمستوى أخير حيث يدخل اللاعب الفائز إلى قصر صدام حسين ويصيبه في مقتل وهو مرتد ملابسه العسكرية. ويشارك قطاع عريض من الأمريكان في ممارسة تلك اللعبة. وقبل ذلك انتشرت في الولايات المتحدة خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر ألعاب كمبيوتر شعبية تمثل حرب أمريكا ضد الإرهاب كما تدعي، وتعلم تلك الألعاب المراهقين كيف يكسبون الحرب ضد الإرهابيين الذين عادة يتميزون بملابس وإشارات وأسماء تحوي انهم من العرب والمسلمين، ولكن لا يعلن عن ذلك صراحة في اللعبة، واللعبة أصبحت شعبية جداً في وزارة الدافع الأمريكية وبين القوات الأمريكية، لدرجة اتخاذ قرار في شحن أجهزة كمبيوتر إلى أفغانستان، حتى يتمكن الجنود الأمريكان من ممارسة اللعبة هناك! والهدف الحقيقي لهذه اللعبة هو حث الشباب الأمريكي على التجنيد في القوات الأمريكية، ويدعي الجيش الأمريكي بأن هناك ٤٧٠٠٠٠ فرد عندهم اللعبة أو يلعبونها الآن. لكن هناك بعض الشكوك في أن يترجم هذا النجاح إلى جذب مجندين أكثر. ويتوافر في تلك الألعاب عامل الواقعية مع الأحداث! وتظهر الكتب والقصص والأفلام التي تحكي المعركة بين الجنود الأمريكيين وبن لادن في الصومال وأفغانستان، وتنتشر ألعاب الكمبيوتر التي تحمل عنوان عاصفة الصحراء التي تعتمد على العمليات العسكرية السرية ضد البنية الدفاعية التحتية للعراق. والمغزى هو الدعاية المتزايدة لعسكرية أمريكا لتعزيز الحرب ضد مايسمى الإرهاب في نظر أمريكا وإضفاء الشرعية على تلك العسكرة. هي الحرب إذن، تتسع ميادينها وتتناثر شظاياها يوما بعد يوم، وتزداد ضراوة كلما ازدادت الحرب على العراق تعقدا، لتطال مبادىء الحرية والديمقراطية والتعددية والدفاع عن الشعوب والاقليات المضطهدة، واحترام القانون وحقوق الإنسان، والتي كثيراً ماانتشى العالم لسماعها، وغيرها من الشعارات التي عاش الناس في أوطان كثيرة يحلمون بها. ■



لغويات

بغداد

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

الكلمة فارسية الأصل، تتكون من مقطعين «بغ» ومعناها الإله أو الملك .

و «داد» ومعناها العطية، إذك فالكلمة تعنى «عطية الله، وهى تذكر وتؤنث، وفيها سبع لغات، أشهرها بغدان، يقول الشاعر :

فيا ليلة خرس الدجاج طويلة
ببغدان ما كانت عن الصبح تنجلي

، وبغداذ يقول أبو العلاء المعرى :

يالهف نفسى على أنى رجعت إلى
هذى البلاد ولم أهلك ببغداذ

وهى تقع على ضفتى نهر دجلة، فى المنطقة التى يقترب فيها دجلة من الفرات، فى نفس الوادى الذى ضم عددا من أعظم عواصم العالم القديم : بابل ونينوى وأور وغيرها، الجانب الذى يقع على الضفة اليمنى يسمى «الكرخ» والذى على اليسرى يسمى «الرصافة»

وقد وضع أساس المدينة مدوراً، وجعل قصر الخليفة فى وسطها، وأحكم حولها سورا له أربعة أبواب، ثم بنى المنصور لابنه المهدى قصرا آخر، كان يسمى «الخلد» يقول طاهر بن المظفر الخازن :

سقى الله صوب الغاديات محلة
ببغداد ببين الخلد والكرخ والجسر
هى البلدة الحسناء خصت لأهلها
بأشياء لم يجمعن مذكن فى مصر
هواء رقيق فى اعتدال وصحة
وماء له طعم ألذ من الخمر

وقد اشتقت من الكلمة أفعال وصفات، يقال تبغدد الرجل إذا أنتسب إلى بغداد، أو تشبه بأهلها فى خصالهم التى اشتهروا بها، تقول العامة فى أعلى الصعيد : هذا الرجل يبغدد على أسرته، أو على نفسه إذا سخا فى الإنفاق عليها، وتسمى المولود بغدادى أملا فى أن يصبح سخيا، وتبغدد على غيره إذا تكبر وافتخر .

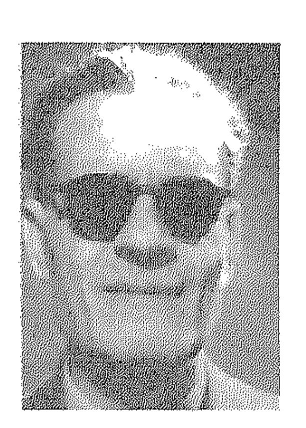
وشهرت بغداد باسم دار السلام ومدينة السلام، وإليها ينسب كوكبة من خيار العلماء فى اللغة والأدب والتاريخ ..






الحرب والثقافة

بقلم
زاهد مطر



طه حسين



محمد حسين هيكل

لأول وهلة ، قد يبدو العنوان للقارىء وكأنه يجمع بين نقيضين ، وله العذر إن تعجب أن نجمع بين الحرب بما تمثله من أدنى غرائز الإنسان والتي يشترك فيها مع الحيوان ، والثقافة التى تمثل أفضل نتاج العقل البشرى من أدب وفن وفلسفة وفكر وأخلاق ، وكلها مما يتميز به البشر عن المخلوقات الأدنى . فإذا أردنا أن نورد سابقة من تاريخنا المعاصر للتداخل بين حديث الثقافة وحديث الحرب ربما تطمئن القارىء إلى أنه من المشروع الجمع بينهما فلدينا مساجلة فلسفية شهيرة على صفحات جريدة «السفور» التى كانت تصدر فى مصر فى الربع الأول من القرن الماضى بين اثنين من كبار مثقفينا ، الدكتور طه حسين من ناحية والدكتور محمد حسين هيكل من الناحية الأخرى حول مشروعية اللجوء للحرب لحل المنازعات بين الدول ، وذلك بمناسبة الحرب العالمية الأولى التى كانت قد بلغت عامها الثالث وارتفعت خسائر الأطراف المتحاربة فيها من البشر والعتاد إلى أرقام لم تعرفها البشرية فى تاريخها الطويل من قبل .

والطريف فى تلك المساجلة أن الدكتور طه حسين كان يبرر الحرب كضرورة لا مفر منها فى لحظات معينة فى العلاقات الإنسانية ، فى حين كان الدكتور هيكل من دعاة السلام ومن أعداء الحروب ، الأمر الذى لفت نظر صديق لهما فكتب معلقا أن مواقف الطرفين لا تلاءم خلفياتهما الثقافية فقد كان من المتوقع أن يكون الشيخ السابق طه حسين من دعاة السلام والوئام، فى حين يكون رجل القانون هو الذى يبرر مبدأ اللجوء للسلاح فى حل المنازعات الدولية .

والتناقض على كل حال من المفروض أن يزول قرب نهاية هذه السطور ، إذا قدر لى أن أنجح فى أن أوصل للقارىء المعنى الذى أقصده من وراءها ، ولكن الذى أود أن أوضحه من البداية أمرين :

أولهما أننى أستخدم كلمة ثقافة فى موضع دأبنا مؤخرا على أن نستخدم فيه إصطلاح «حضارة» فنقول بصمة حضارية، وحوار الحضارات الخ .

ذلك أن الثقافة أقرب فى الدلالة على المعنى الذى سوف أتناوله فى هذه السطور فهى الأكثر إلتصاقا بالإنسان من حيث كونه إنسانا ، والأصدق تعبيرا عن محتواه المعرفى والفكرى والأخلاقى

وقائع الحاضر والماضى

والأمر الثانى هو وأن تزامن هذا الحديث مع مايجرى (حتى وقت كتابة هذه السطور) على أرض العراق الشقيق من قتل ودمار لايعنى أن هذا هو موضوع الحديث الوحيد ، وإن كان قد أوحى به ، فموضوع الثقافة والحرب يغطى بالضرورة وقائع الحاضر والماضى معا ، ومنذ آن كانت على وجه الأرض ثقافة وكانت حروب.

والحق آن التداخل أبعد تاريخنا فى مجرى العلاقات الدولية ، فما من إمبراطورية قامت فى الأرض لأهداف الغلبة وتحقيق المصالح إلا وبحثت لنفسها عن غطاء من المبادىء الثقافية والأخلاقية والقانونية ، مثل السلام الرومانى ، وكم سارت الجيوش تحت رايات خفاقة من الشعارات والرموز الدينية .

إلا انه علىّ آن أبادر فأضيف أن التاريخ فيما أذكر لم يشهد مثل حرب اليوم التى مهدت فيها الثقافة بمفهومها الواسع للمعركة الدائرة بين أكبر قوة عسكرية فى عالمنا المعاصر وبين موطن من المواطن الأولى للحضارة البشرية فى أرض الرافدين وبين النهرين .

بل ومازالت أصداء المواجهات الثقافية تغالب دوى المدافع وأزيز الطائرات التى تنبعث ليل نهار من وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ، فى مدن العالم من أقصى شرقه إلى أقصى غربه .

ولعلنا لا نكون نسينا فى غمرة متابعة الأحداث اليومية والإنفعال بها أن

التمهيد الثقافى لهذه الحرب ربما يكون قد غطى العقد الأخير من القرن الماضى ومطالع هذا القرن ، بحيث جاءت الحرب كمرحلة لا أريد أن أقول أخيرة ، فى حلقات المواجهة العسكرية الممتدة على طول قرون بين الشرق والغرب ، والتى تأخذ شكل دورات تبدأ حلقاتها دائما أو تنتهى بالبحث عن غطاء ثقافى ، إذا أعتبرنا الفكر الاستراتيجى والسياسى من أدوات الثقافة أو أحد فروعها .

وللتذكرة فإن الباحث فى كتابات معلقينا ومحللينا السياسيين خلال تلك الفترة السابقة على الأحداث الأخيرة سيجد أن أطروحة فرانسيس فوكوياما حول نهاية التاريخ ، وكتاب صموئيل هنتنجتون حول حتمية المواجهة بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى ، تحتلان جانبا كبيرا من تلك الكتابات والتحليلات وأن كثيرا من معلقينا أعتبروهما مرجعا يمكن الاعتماد عليه فى تحديد الإطار الفكرى لنظام عالمى جديد يتربع على قمته قطب عالمى واحد .

ويجمع بين المرحلة الحالية التى يشهد العالم اليوم تداعياتها الساخنة ، وبين المرحلة التى سبقتها والتى شهدت عقودا من الحرب الباردة ، إن كليهما تمثل الثقافة بعدا واضحا جليا فيه ، إذ كانت المواجهة فى المرحلة الماضية والتى انتهت بتفكك الأتحاد السوفييتى بين معسكرين يستند كل منهما على نظرية سياسية اقتصادية مختلفة اتخذت شكل العقيدة .

إلا آن الفارق يبقى أنه بينما كان نزاع الأمس بين قطبين كلاهما داخل إطار الحضارة الغربية المستندة على قاعدة الثقافة اليهودية المسيحية cheristian judeo ، أى بين أبناء البيت الواحد حتى ولو تطرف أبناؤه فى مواقعهم جغرافيا ، فإن نزاع اليوم بين ثقافتين مختلفتين وقاعدتين حضاريتين مختلفتين ، مما يعنى أنه قد يؤدى إلى انشقاق أخطر فى القاعدة العالمية للثقافة الإنسانية أو التراث الثقافى الإنسانى برمته .

وهنا ولابد أن يثور التساؤل حول أسباب بقاء هذا التحفز الكامن بين الثقافتين السائدتين على جانبى البحر المتوسط منذ قرون طويلة دون حل ينزع فتيل الصدام والمواجهة الدورية بينهما .

مطامع وهيمنة الدول الكبرى

والسبب الغالب والبديهى لدى المحللين السياسيين المعاصرين لدينا فى الغرب أن تكدس الجانب الأكبر من مخزون الطاقة الاستراتيجى العالمى تحت أرض المنطقة العربية هو الذى يجعلها مطمعا لهيمنة الدول الكبرى التى تحتاج إلى تأمين إمداداتها الاستراتيجية من الطاقة .

وهذا صحيح ، ولكنه لا يمكن أن يمتد بأثر رجعى ليشرح أسباب الصدام والمواجهة طوال القرون التى سبقت إكتشاف البترول فى مطالع القرن

الماضى، فهو من المستجدات على ملف «المسألة الشرقية» وليس من أصولها .

أما تقديرى فإن الأسباب تكاد لا تخرج عن ثلاثة :

أولها : عامل القرب الجغرافى بين قاعدتين ثقافيتين مختلفتين واحدة على شرق البحر المتوسط والأخرى على شاطئه الغربى . وقد كان هذا البحر منذ تاريخ مبكر عاملا من عوامل تسهيل الانتقال بينهما لا حاجز مائيا يفصل بينهما .

ثانيهما : أن البحر المتوسط بشاطئيه يمثل ومازال قلب العالم القديم وقلب الحضارات والأديان الإنسانية العالمية ، وبالتالى أحد الدعامات الأساسية لأى نظام سياسى دولى يراد له البقاء والدوام.

ثالثاً : عالمية العقيدتين المسيحية والإسلامية ونزعتهما إلى التوسع والانتشار من خلال التبشير والغزوات والفتوحات مما يوسع دائرة الصدام وخطوط المواجهة بينهما على امتداد العالم.

ولكن تلك ليست كل الأسباب ، فإنه لايمكن تجاهل التناقض الكامن فى جوهر العقيدتين ، مابين التوحيد فى الإسلام ، والتثليث فى المسيحية ، وهو ماجعل من السهل على من يريد إثارة الفتنة والنعرات الدينية بين الجانبين أن يجد فى كتب التراث ، وللإنصاف بخاصة المسيحى ، ما يحقق غرضه حتى وإن كان يرمى إلى تحقيق أغراض ومصالح لا شأن لها بالدين .

وطبيعى أن ما تشهده المنطقة اليوم من عنف القوة الغاشمة قد يكذب القول بأن العناصر الأساسية فى بناء مجد الأمم معنوية قبل أن تكون مادية ، وأن الأمل فى حوار الحضارات قد تبدد إلى غير رجعة ، وأن النظام العالمى الجديد فى طريقه إلى أن يقام على دعائم من الحديد والنار وحدهما .

وقد يجعلنا نعتقد أن شاعر الحكمة العربية المتنبى كان أصدق فى قوله :

السيف أصدق إنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

منه عندما قال :

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني
لولا العقول لكان أدني ضيغم
أدني إلي شرف من الإنسان

ولكن الحقيقة أن البيت الأول كان من شعر المدح ، وأما الأبيات الثانية فهى من شعر ، الحكمة ، والحكمة تنسخ المدح حتى فى الشعر .

ودعونا ننظر إلى الوقائع نظرة أكثر تدقيقا ، ولنبدأ بالمقارنة بين العناصر المادية والموارد الطبيعية لكل من القوتين المعتدية والمعتدى عليها ، وأنا هنا أعد المنطقة العربية برمتها محلا للعدوان وضحية للطغيان .

وسنجد مع بعض التجاوز أن القوتين، تكادا تكونا متكافئتين بما أتيح

لهما من عناصر القوة المادية والبشرية ، بل على العكس فإن المنطقة العربية تتميز بالموقع الاستراتيجي فى قلب العالم الحضارى والسياسى والعسكرى بالإضافة إلى البعد التاريخى .

قطب النظام العالمي الأوحد

وسنجد أن الفارق الحاسم إذن ليس ماديا وإنما هو أساسا فى المكون الثقافى، فهو الذى مكن أوروبا من قبل ، والولايات المتحدة الأمريكية المتطرفة جغرافيا ووليدة الأمس تاريخيا أن تنمى قدراتها العسكرية وتخترع وتصنع من أسلحة الدمار وغير أسلحة الدمار ما جعلها فى مصاف قوى العالم الكبرى ثم لم تلبث أن صارت اليوم أو توشك أن تصير قطب النظام العالمى الأوحد .

ونحن على الجانب الآخر نملك من مقومات القوة الشاملة ، بشقيها المادى والمعنوى ما لو استطعنا أن نجمع شتاته ومتفرقاته بالمنهج الثقافى السليم فى كل متكامل لكان لهذه المنطقة منذ أواخر القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر شأن آخر فى تاريخ العالم ومجرياته ، ولما أصبحت فراغا سياسيا يغرى كل قوى التاريخ الكبرى بالتحرك بالجيوش والأساطيل لملء هذا الفراغ .

لقد كانت هناك محاولات للنهضة وبخاصة فى مصر خلال القرنين الماضيين، وكانت هناك كتابات تتميز بشمولية النظرة واستشراف آفاق المستقبل مثل كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» للدكتور طه حسين ، وكتاب «الشرق الجديد» للدكتور محمد حسين هيكل ، وكلها تعثرت فى تقديرى بسبب افتقاد القابلية لتسخير روافد المنطقة الثقافية المتعددة فى كل تتولد عنه قوة دافعة من خلال التفاعل interaction بين المكونات ، كما فعل الإمبراطور اليابانى المصلح ميجى ، والمعاصر لتجربة محمد على فى تحديث مصر فى نفس القرن .

ربما كان هذا بسبب رفض العقل العربى لنظرية pluralism التى تجعل من تعدد الروافد والآراء فى المجتمعات الغربية مصدرا لإثراء المكون الثقافى للأمم، أو ربما لارتباط كل دعوات النظر العقلى والتجديد فى الأذهان بتيارات التغريب والمخاوف من الغزو الثقافى الغربى بعد التجربة الطويلة للغزو الاستعمارى التى تعرضت لها المنطقة .

ولو كان الحال غير ذلك لكان هناك شأن أكبر لدعوة الإمام الشيخ محمد عبده فى أواخر القرن التاسع عشر فى رسالة التوحيد إلى أن الإنسان المسلم تهيأ له بمقتضى دينه أمرين عظيمين طالما حرم منهما :

أ - استقلال الإرادة

ب - استقلال الرأى والفكر .

وبهما كانت إنسانيته وبهما أستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها .

ولفهمنا مدلول قوله منذ ماينيف على قرن من الزمان أن الإنسان المسلم «أصبح عبدا لله وحده وسيدا لكل شىء بعده» .

ونحن بعد لا نملك أن نيأس لأن

اليأس إحدى الراحتين والإنسان مكتوب عليه ألا يرتاح فهو قد خلق فى كبد ، وعلينا أن نخرج من التجربة على قسوتها بمحاولة جديدة للنهضة والتحديث نضع أولوياتها طبقا لما يقضى به منطق العقل والحكمة لا خيالات الوهم وشطحات العاطفة .

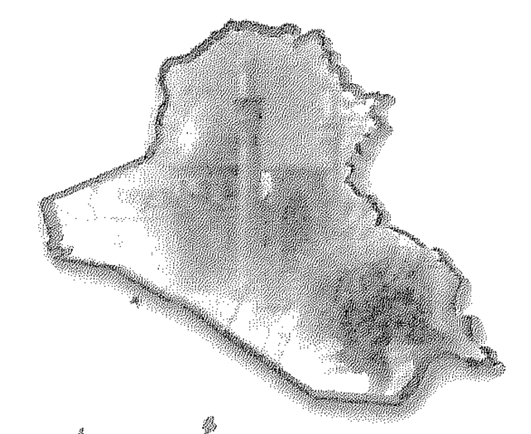
وعلينا ألا ندع استعراض القوة العسكرية فى معركة غير متكافئة أبتداء يزغ قلوبنا ويجعلنا ننحرف عن حقيقة أن الجيوش والطائرات ماهى إلا مكون واحد من مكونات القوة الشاملة ، وإلا لما كان الرأى العام الداخلى والعالمى قوة يحسب لها حساب ، وإلا لما قامت لكل من ألمانيا واليابان قائمة بعد هزيمتهما العسكرية الساحقة فى الحرب العالمية الثانية ، ولاستطاع نابليون أن يقيم نظاما أوروبيا أستنادا على عبقريته العسكرية وحدها ، إلى غير ذلك من عبر التاريخ .

والمهم أن نبدأ من حيث يجب أن تكون البداية ، مكانا وموضعا وتاريخنا بعد ذلك حافل بالتجارب ورصيدنا من الحكمة والتراث لايضاهيه تاريخ أمة أخرى من أمم الأرض .

والمطلوب أن نتجرد من كل الحساسيات حتى نستطيع أن نتعرف أول كل شىء على موطن الداء الذى عاقنا طوال قرون من الزمان عن أن نحسن استغلال مواردنا المادية والمعنوية ، وأحسبه عدم قدرتنا حتى الآن على أن نجمع شتات ميراثنا الثقافى ولا أقول الدينى ، فى كل متكامل ، وبالتالى عدم وضوح الخطوط العامة للشخصية المصرية خاصة والعربية عامة ، واختلاط مفاهيم مثل المواطنة والوطن بدوائر أوسع من الانتماءات الجغرافية والقومية ، إلى حد إبهام الخطوط الفاصلة على أرض الواقع بين كل هذه الإنتماءات .

ولاشك أن الدروس والعبر المستفادة من تجربتنا وتجارب الآخرين تكاد تجمع كلها على أنه لابد ، من حيث المنهج ، لحركة الإصلاح التدرج من مركز للانطلاق أو بؤرة تجميع تصبح مركز إشعاع فى الدوائر الأوسع من حولها ، وأن محاولات الطرح على الواسع ، وأقربها فى أذهان الأجيال المعاصرة محاولات السيد جمال الدين الأفغانى خلال القرن التاسع عشر تنبيه الشرق الإسلامى على اتساعه من غفلته ، كثيرا ما تصطدم فى النهاية بحقيقة أنه لابد وأن يكون لديك نموذج متقدم يصبح مع الوقت مركز إشعاع فيما حوله تستطيع أن تشير إليه إن أردت أن تقنع الناس بأن الإصلاح ليس مجرد أمانى وأوهام ، وهذا صحيح فى تعليم الأفراد كما هو صحيح فى تربية الأمم على حد سواء :

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى
بالقول منك ويقبل التعليم ■



الكذب أحد أركان
السياسة الأمريكية...

أيدولوجية الحرب الأمريكية على العراق

بقلم
جميل مطر

في مقال طويل يستحق القراءة أثار جون ديدون في شهر يناير الماضى فى واحدة من أهم مجلات عروض الكتب التى تصدر فى نيويورك قضية هى بالفعل من أهم القضايا الأمريكية المعلومة، وهى محاولة فهم العقل السياسى الأمريكى. عنوان المقال «أراء مغروسة أو ثابتة». يحكى جون ديدون أن كاتباً أمريكياً كبيراً أدلى بحديث إلى إحدى الصحف الإقليمية التى تصدر فى جامعة من جامعات كاليفورنيا قال فيه «إن أول مالاحظه زائر مثلى تصادف وجوده فى نيويورك يوم١١ سبتمبر كان هذا الإقبال الغريب والغير معهود على كل الكتب التى تحمل عناوين الإسلام والسياسة الخارجية الأمريكية والعراق وأفغانستان . فى كل مكان فى نيويورك على الأقل كان النقاش الجوهرى يدور حول طبيعة الوجود الأمريكى فى العالم، هذا الوجود الذى خلق وضعاً جعل حركات مثل القاعدة تنمو وتنتعش».

ويستطرد الكاتب الكبير فى مقاله فيقول «عندئذ عرفت أن هذه إشارة واعدة للغاية بالنسبة للمستقبل» ثم قال « إلا أن هذه المناقشة حدث لها أمر غريب. حدث أنها اختزلت، أو إذا صح التعبير تقزمت. ففى شهر أكتوبر وأوائل نوفمبر من العام نفسه كان النقاش الجوهرى قد تحول إلى السؤال التالى، ما هو هذا الشئ الخطأ أو المعيب فى العالم الإسلامى الذى يجعله يفشل فى إنتاج ديمقراطية وعلم وتعليم وفى تنوير نفسه، ولا ينجح إلا فى خلق مجتمعات تربى الإرهاب.. وعندما سأله محادثه فى مقابلة صحفية عن الأسباب التى أدت إلى هذا التحول فى جوهر المناقشة فى الولايات المتحدة، أجاب « لا أعرف ولكنى أقول إنه فشل طويل الأمد من جانب قيادتنا السياسية ونخبتنا المثقفة وصناع الرأى فى هذا البلد، جعلنا لا نأخذ هذه المناقشة التى أعقبت مباشرة انفجار ١١ سبتمبر مأخذ الجد وطورناها نحو أتجاه بناء»».

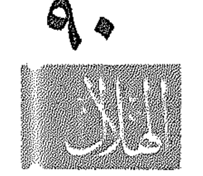
قليلون الآن هم الذين لا يربطون بين ١١ سبتمبر والعدوان على العراق وكثيرون هم الذين بدءوا يتعمقون فى محاولة فهم ظاهرة أخطر وأوسع .محاولة أن جماعات تبدأ بزرع فكرة يتولى مسئولية ريها ورعايتها مؤسسات فائقة القوة والقدرة حتى تصير فكرة مغروسة بعمق يستحيل اقتلاعها إلا بظروف قاهرة . كان الرئيس روزفلت مثلا أول رئيس فى الولايات المتحدة أراد أن تقوم أمريكا برعاية إسرائيل وإقامة دولة لها مكان فلسطين، ومع ذلك كان روزفلت نفسه هو الذى وضع الأساس للعلاقات الأمريكية السعودية. وكان يعرف أن فى السياستين تناقضا ولكنه أخذ بمبدأ أن يبقى صانع السياسة فى أمريكا جميع الخيارات مفتوحة، وكانت نصيحته لمن سيأتون بعده من الرؤساء : «قدم وعوداً معينة فى العلن وقدم نقيضها فى السر»، ورغم ما تحتوى عليه هذه السياسة من مخاطر إلا أنها عادت على الولايات المتحدة بمكاسب طائلة فقد حصلت على ثقة اليهود الغالية وحصلت على النفط من السعودية . ومن التناقض فى السياستين حصلت الولايات المتحدة على عقود لتوريد أسلحة للطرفين بلا حدود. هكذا وضع روزفلت الأساس لسياسات ظلت قائمة إلى الآن تستند إلى وعود فى العلن لا تنفذ ووعود فى السر هى التى تنفذ ستون عاماً مرت والولايات المتحدة تنفذ هذه المبادئ فى الشرق الأوسط .

يقول جون ديدون إن هذه السياسات ربما قاربت نهايتها فقد تطورت الأرضاع الداخلية فى الولايات المتحدة، وحققت الجالية اليهودية فيها أقصى

طموحاتها بحيث صارت قوة رئيسية أو أصبحت عنصراً رئيسياً في صنع السياسة الخارجية الأمريكية. وأصبح من الصعب جداً على رئيس أمريكي أن يتعامل معها على الأسس نفسها التي وضعها روزفلت منذ ستين عاماً، أي وعود في العلن وتناقض في السر ويعترف الكاتب جون ديدون أن نفوذ هذه الأقلية وصل إلي حد أن جعل رئيس جامعة هارفارد إحدى أرقى المراكز العلمية في الولايات المتحدة يوجه إنذاراً إلى أساتذة الجامعة بأن أي انتقادات تخص الحكومة الحالية في إسرائيل قد تؤخذ على أنها أعمال مناهضة للسامية. عقابها الفصل .

لقد وصل الأمر في العلاقة الأمريكية اليهودية إلى أنها أصبحت من المحظورات في المناقشات العلنية وفي الصحف صارت في نيويورك وفي واشنطن موضوعاً لا يثار أو موضوعاً متفجراً ويتعامل معه الأمريكيون العاديون كما يتعاملون مع حقيبة متروكة في حافلة من الحافلات ولا يطالب بها أحد «إننا في أمريكا الآن نجلس في انتظار أن يهدأ الموضوع بأسره من تلقاء نفسه فكلنا نعرف أنه أصبح واحداً من الأفكار المغروسة في العقل الأمريكي ولن تقتلع من جذورها إلا بقوة قاهرة ».

لقد كانت الشهور الأخيرة مسرحاً عرضت فيه حكومة الجمهوريين، والتي يسيطر عليها شلة متهورة في اتجاهاتها اليمينية، عدداً من هذه الأفكار المغروسة حديثا في الفكر الأمريكي ولم تكن هكذا من قبل . إنها المرة الأولى التي يشعر فيها الأمريكيون أن ولاؤهم للوطن مفروض عليهم فرضا وأن الاعتراض على سياسة من سياسات الرئيس بوش أو انتقاد قرار من قراراته يعتبر خيانة للوطن. الفكرة ليست جديدة وقد وجدت دائما في حالات الحروب ولكنها لم تصل في أي وقت من الأوقات إلى أن يجري اتهام للمنتقدين بأنهم خونة وأنهم يهددون سلامة الجنود الأمريكيين في الخارج . بل أن القول بأن من ليس معنا فهو ضدنا، أو بتعبير أدق أنت أما معنا وإما مع الإرهابيين، فهذه ثنائية غريبة كل الغرابة على عقل ما قبل ١١ سبتمبر . وقد اتضح بعد ذلك أن بعض الأفكار التي غرست في ١١ سبتمبر غرست بهدف تبرير عملية إعادة صياغة الدور الصحيح لأمريكا في العالم على كافة المستويات النظرية والأكاديمية والإستراتيجية والواقعية، هذا الدور الصحيح لأمريكا هو بالتحديد المبادرة بشن حرب دائمة «خاطئة» بمعنى أن تعيش أمريكا منذ ١١ سبتمبر في حال تعبئة مستمرة لحرب واقعة أو محتملة . وإذا لم توجد الأسباب لشن حرب

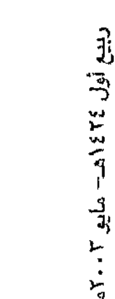


حقيقية فلتخلق الظروف والمسارح والسيناريوهات التى تجعل الناس يعيشون حالة حرب لقد بلغ ذكاء مخططى هذه الأفكار وذكاء مهندسى الحرب الإليكترونية جدا جعل المواطن الأمريكى، بل والمواطن العالمى، غير مدرك تماما إذا كان ما يشاهده على شاشات التليفزيون وفى حياته العادية وفى الاختلافات وفى سياسات الدول وفى الاختلافات بينها حالة حرب حقيقة أم حرب خائلية، روجت لها هذه الجماعة المتهورة حتى صدقتها .

وظيفة سياسية دولية

من هنا لم نعرف كمراقبين أو حتى لو كنا مواطنين وجنود أمريكيين، إن كانت الحرب ضد أفغانستان انتهت بالنصر أم بشئ آخر وإن كان بن لادن حقيقة أو بطلا من أبطال الألعاب الإليكترونية التى تنتجها شركات سونى وغيرها ونحن، حتى الآن، لا نعرف إن كانت حرب الإرهاب مستمرة أو غير مستمرة أم أنها صارت وظيفة سياسية دولية تشتغل فيها أجهزة الأمن فى دول كثيرة. أين الطالبان؟ وهل فعلا تم القضاء عليهم؟ وأين هذه الأصولية الإسلامية الراديكالية العنيفة التى قررت أعظم دولة فى العالم أن تشن عليها حربا بدأتها منذ عامين ولا يبدو أنها ستنتهى ولا يبدو فى الوقت نفسه أنها مستمرة؟ وقد دافع رئيس الأركان الأمريكى فى نوفمبر ٢٠٠٢ فى محاضرة فى معهد بروكنس فقال لقد فقدنا زمام المبادرة فى أفغانستان لأن الطالبان والقاعدة كانتا أسرع فى التأقلم مع التكتيك الأمريكى من قدرة أمريكا على التأقلم مع تكتيك الطالبان والقاعدة. ويبدو لى وإن كان القول مفهوما وقد يكون صريحا إلا أنه لا يفسر الحال الراهن فى حرب غير حقيقية تماماً وغير خائلية أو وهمية تماماً آسمها الحرب فى آفغانستان .

هكذا لعب الكذب دوراً أساسياً فى السياسة الخارجية الأمريكية ولعلنى لا أبالغ إن قلت ،إن الكذب ركن من أركان هذه السياسة أقرأ ما كتبه جون ديدون فى عام ١٩٨٨ عندما قال أنه بعد إبريل ١٩٦١، عندما فشلت مؤامرة خليج الخنازير على كوبا ، ظهرت قياسات الرأى العام فى الولايات المتحدة وقد منحت الرئيس جون كيندى أربع نقاط أكثر مما كان لديه فى شهر إبريل أى قبل حادثة الخنازير وبعد العدوان على جمهورية الدومينيكان فى ١٩٦٥ إرتفعت شعبية ليندون جونسون ٦ نقاط وبعد غزو جرانادا فى ١٩٨٣ زادت شعبية رونالد ريجان أربع نقاط ولم يتذكر أحد فى الولايات المتحدة لا البيت الأبيض ولا أجهزة الإعلام ولا الحزب الديمقراطى أن



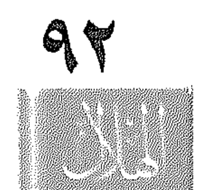
يقوم باستقصاء رأى فى شتاء العام الذى أرسل فيه رونالد ريجان قوات البحرية الأمريكية إلى بيروت فمات منهم مائتان وواحد وأربعون جنديا .

وبعد أربعة عشر عاماً عدنا نجلس أمام شاشات التليفزيون لنشاهد ما يجرى فى مسرح آخر من مسارح .الألعاب الحربية الأمريكية التى يلعبها الكبار بعقلية الصغار هذه المرة كان المسرح فى الشرق الأوسط والشرق الأوسط ليس جرانادا وليس جمهورية الدومينيكان وليس جمهورية هايتى التى ذهب إليها فى التسعينيات ٢١ ألف جندى أمريكى «ليحرروا» هايتى من حكم العسكر ويقيموا ديمقراطية كتلك التى يقول الأمريكيون أنهم يزعمون إقامتها فى العراق. الشرق الأوسط ليس الكاريبى الذى يحب الأمريكيون أن يطلقوا عليه «بحيرتنا» وعلى كل حال سقطت هايتى سقوطاً إذ عم الفساد وأصبح جان برتران اريستيد الرئيس الذى عينته أمريكا بانتخاب ديمقراطى زعيم عصابة يطلقون عليها فى هايتى عائلة لافسال .

حتمية الهيمنة الأمريكية

ولم يأت صيف ٢٠٠٢ إلا وكانت فكرة جديدة قد غرست فى العقل السياسى الأمريكى وصار يقبلها كأى فكرة مغروسة آخرى وهى الذهاب إلى حرب فى العراق إن الفكرة التى غرسوها فى عقل الرئيس بوش أو النظرية التى تحكمت فى فكره وأساليبه على امتداد الشهور الماضيه تحولت بفعل فاعل فى ظل هذه النظرية الثابته إلى ما يعرف بمبدأ بوش، وشكلها الخارجى يأخذ شكل الأحادية الأمريكية الجديدة تتلخص النظرية فى أن سقوط الاتحاد السوفيتى قد فتح الباب أمام حتمية الهيمنة الأمريكية، هذه الهيمنة تمثل عباءة يرتديها الرئيس الأمريكى لتوحى لكل الناس بل لكل الدنيا، أن هذا الرئيس يجسد قوة خيرة مصدرها إشارات سماوية ويعتقد بوش وأعوانه أن كافة الدول ستقتنع بها يوما ما وستطلب منا أن لا نخلعها أبدا ما عدا الدول المارقة بطبيعة الحال فى هذا يقول تشارلز كروفهامر «نحن ندير إمبراطورية فريدة فى طيبتها ونواياها»، فى مقال نشر فى يونيو ٢٠٠١ فى عدد من مجلة وكيلى ستاندراد صوت اليمين المتطرف وقال أيضا نحن بما نكتبه الآن لا نهنئ أنفسنا ولا نشكر فى ذواتنا ولكنها حقيقة تظهر وتتأكد من واقع ترحيب الآخريين بهذه العباءة التى نرتديها وبهذه القوة التى ننفرد بها».

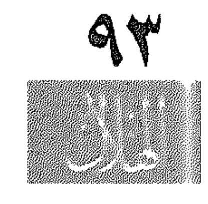
إذا أخذنا فى الاعتبار هذه النظرية الأمريكية التى يؤمن بها الرئيس بوش وبطانته فلعل القارئ يشترك معى فى تخيل جماعة معينة تقف على قمة السلطة الأمريكية هى فى حالة حلم دائم لا تريد أن تفيق منه ، وهى تجد دائماً أو



تخلق ما يدعم هذا الحلم ويضمن استمراره، مثل الإدعاء بأن الرئيس رونالد ريجان أحد الأباء المؤسسين لهذه النظرية تسبب فى انهيار الاتحاد السوفيتى حينما قرر أن يرفع شعار إمبراطورية الشر فى خطابه الشهير وبين هذا الخطاب الذى ألقاه ريجان وأطلق على الإتحاد السوفيتى تعبير إمبراطورية الشر وبين مقال كتبه جيم هوجلاند فى صحيفة الواشنطن بوست فى يونيو ٢٠٠٢ مرت سنوات غير قليلة وكان الحلم مازال يتدعم ويقوى ويكاد يقترب من التحقق ويقول هوجلاند «أن هناك موافقة متزايدة وقبول مطرد فى البيت الأبيض بفكرة الحاجة إلى عملية احتلال شامل ومقيم وليس أن تقوم فرقة غازية بالغة القوة بدخول العراق والبقاء فيها لوقت محدد. إن الوجود الأمريكى فوق أرض العراق سوف يكون القوة أو الطاقة التى ستحول دولة عربية كبرى كالعراق إلى نموذج للمنطقة على اتساعها وتنوعها عراق جديد قد يفيد فى تحقيق أمن أكثر للأمريكيين فى الشرق الأوسط»، ثم كتب من يقول « أن الوقت حان لتبدو الولايات المتحدة ليست كعدو لشعوب المنطقة وإنما كمحرر طبيعى لها وهذا من حقها. صحيح أن نفكر أننا نعيش فى مرحلة مصيرية فى التاريخ، ومن الخطأ أن نفكر أن قوتنا الرهيبة فى هذه اللحظة تغلق الباب فى وجه المصالح الأمريكية فلتكن الخطوة الأولى من جانبنا تدمير صدام حسين وتحرير شعب العراق وبعدها سوف يبدأ فعلا التاريخ دورة جديدة ».

إن الذين سيكتبون تاريخ هذه الشهور السابقة على العدوان الأمريكى على العراق سيميزون بين حكومة غارقة لأذنيها فى نظرية مغروسة تتعلق بأحادية القوة الأمريكية والهيمنة الأمريكية، وبقوى الشر ومحوره فى العراق وإيران وكوريا، وفى ثنائية الخير والشر وثنائية من معنا ومن ليس معنا وبين شعب غير مقتنع بهذه النظرية وغير مؤمن بها. إذ دلت معظم المقالات التى كتبت فى هذه المرحلة عن أن الناس لم تخرج من ١١ سبتمبر بروح الانتقام أو بأى دافع تبشيرى يعتمد على إدعاء أن الأمريكيين هم الأخيار وكل العالم آشرار .

وقد بدا فى وقت من الأوقات أن النخبة الحاكمة الأمريكية ومعها عدد من المفكرين الذين يدورون فى فلكها قد غلبتهم حماسة النظرية فصاروا يتحدثون عن إمكانية استخدام الولايات المتحدة أسلحة ذرية ضد العراق، إذا إحتاج الأمر، على أساس أن العراق يمتلك أسلحة دمار شامل جرثومية أو بيولوجية . وقال أحد المسئولين فى البنتاجون فى ذلك الوقت أن بعض المخابئ التى حفرها وشيدها نظام صدام حسين هى من القوة بحيث لا



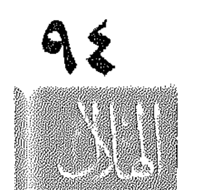
يمكن أن يهدمها أو يقضى عليها إلا أسلحة نووية شديدة القوة . خطورة هذا التوجه فى التعبئة الجماهيرية من أجل الحرب أنه سمح لغوغائية التفكير والتخطيط أن تمتد إلى الحديث عن استخدام أخطر الأسلحة وأشدها فتكا فى حرب هى فى الحقيقة حرب ثانوية إذا قيست بحروب أمريكا العالمية .

الدفاع عن أمن اسرائيل

لغزو العراق أسباب كثيرة ويخدم مصالح أمريكية متعددة ومنها الدفاع عن أمن إسرائيل والسماح لها بأن تكون اليد العليا فى أقليم الشرق الأوسط . إلا أن هذه النظرة البراجماتية إلى السلوك السياسى الأمريكى أثبتت فشلها فى كثير من الأحيان. يدفع إلى هذه البراجماتية اعتقاد الكثير من المفكرين فى شتى أنحاء العالم وبخاصة فى عالمنا العربى أن أمريكا لا علاقة لها بالأيديولوجية وأنه لا يوجد بين قادتها من يبنى سياسته الخارجية على أسس أيديولوجية . هؤلاء يجانبهم الصواب فى كثير من تقديراتهم للسياسة الأمريكية وردود فعلهم . إن مسألة المصالح حقيقية ولكنها ليست كل شئ. الشئ الأهم فى أمريكا كما فى عدد من الدول الأخرى هو الاعتبارات الأيديولوجية . إن الذى يحرك الولايات المتحدة الآن ويحرك سياستها الخارجية ويفسر ما قامت به من حروب فى الآونة الأخيرة وما ستقوم به من حروب فى المستقبل سواء فى سوريا أو فى إيران بوسائل وأشكال متعددة لن يفهم كل هذه التطورات إلا إذا إقتنع بالفكرة الراسخة أو النظرية المغروسة فى العقل السياسى الأمريكى وهى الفكرة القائلة بأن هذه اللحظة التاريخية «هدية» إلى أمريكا من السماء لبناء إمبراطورية طيبة القلب خيرة تسعى لنشر الديمقراطية، تحرر الشعوب من الظلم، وتقضى على الأشرار فى كل مكان إذا اقتنعنا بهذا اقتنعنا فى الوقت نفسه بأن ما حدث فى العراق لم يكن أساساً لمصلحة نفطية فقط أو لمصلحة إسرائيل فقط أو لمصلحة إستراتيجية فقط وإنما هو حلقة فى مسلسل يهدف فى النهاية إلى بناء هذه القوة «الخيرة الطيبة الجديدة التى سيكون على أيديها أو بفضلها خلاص العالم من كافة الشياطين والشرور والحروب الصغيرة ».

مبعوث العناية الإلهية

ما كان يمكن الدولة عظمى آن تفعل ما فعلته حكومة الرئيس بوش مع حلفائها خلال العامين الأخيرين إلا إذا كانت مدفوعة بما تتصوره قوة خارقة عن العادة، آو بمعنى أصح، قوة فوق بشرية ولم يحدث على ما أذكر فى التاريخ السياسى الأمريكى الحديث أن رئيسا أعتمد إلى هذه الدرجة على تأييد جماعة أصولية شديدة التطرف فى الولايات المتحدة يؤمن بأفكارها ،ويندفع بكل قوته لتنفيذ كل ما تطلبه منه. لم



يحدث أن رئيسا استخدم هذه المفردات الدينية الكثيرة بهدف الإساءة إلى ما يتصورهم خصوم الولايات المتحدة وأعدائها، وتوهم بهذه السذاجة أنه مبعوث العناية الإلهية لتنفيذ مخططات الرب على الأرض . ولم يحدث حسبما أذكر أن جاء إلى أمريكا رئيس إلى هذه الدرجة مندفعاً حتى آنه ينسى أنه يردد أقوالاً غير صحيحة ولا أقول أنه كان يكذب عندما تحدث عن عدد حلفاء أمريكا في الحرب ضد العراق، وحدد واحدة من الحلفاء بأنها دولة تقع في المحيط الهادى من صغر حجمها لا تظهر على معظم خرائط العالم بل أن رئيس وزراء أحد هذه الدول «النتوء» وهو رئيس جزر سولومون عندما سئل عن عضويته في هذا التحالف المناهض للعراق قال لم أسمع عنه ولم أعرف أنني عضو في أى حلف في هذا العالم . الرئيس لا يكذب ولكنه يتصور أموراً غير صحيحة ربما لأنه يعتمد أكثر من اللازم على الرؤى والأحلام، أو على الذين يضعون أمامه تصورات وصور ويغرسونها كفكر أو نظرية في عقله، فيجعلونه يتصرف في السياسة الخارجية كما في الداخلية على أساس هذه التصورات وعلى أساس عالم خائلي..

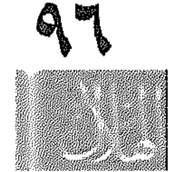
هل كان يستطيع أى عالم أمريكى في العلاقات الدولية أن يتصور أنه سيأتي يوم تشكل فيه الولايات المتحدة حلفاً عالمياً لا يضم من دول أمريكا اللاتينية إلا دولة واحدة هي كولومبيا فقد رفضت البرازيل والأرجنتين وفنزويلا وتشيلي وبقية دول أمريكا اللاتينية رفضوا جميعهم الانضمام إلى الحلف باستثناء كولومبيا وكوستاريكا وبعض الدويلات قليلة العدد وصغيرة الحجم تعيش في البحر الكاريبي وحوله لا أجد معنى لهذا الوضع إلا آن هذه الدول رغم كل هذه الهيمنة الأمريكية أكتشفت أمريكا تحلق في عوالم أخرى غير العالم الواقعي الذي تعيش فيه والذي يربط بينها وبين الولايات المتحدة لم يتصور أحد أن ١٩ دولة تقودهم المكسيك أقرب جيران أمريكا اجتمعت بغرض إدانة التدخل الأمريكي في فنزويلا . وقتها لم يقف بجانب الولايات المتحدة إلا السلفادور شئ ما تغير بعد ١١ سبتمبر في العلاقة بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية تماماً كما تغير بين أمريكا الشمالية وبقية أنحاء العالم . إذ تمكنت إدارة بوش بخيالها الواسع أو بعالمها الخاص الذى تعيش فيه أن تقلب العالم رأساً على عقب من عالم مؤيد للولايات المتحدة ومتعاطف معها في أزمتها بعد ١١ سبتمبر إلى عالم تنتشر فيه الكراهية لها من أقصاه إلى أقصاه . ■

بلاد بلا تاريخ
تحارب التاريخ!

بقلم
محمد يوسف عدس

قذفتنا الإدارة الأمريكية فى عهد الرئيس السابق بل كلينتون بمؤتمرين للسكان أحدهما فى القاهرة والثانى فى بكين .. صحيح أن الأمم المتحدة هى التى قامت بتنظيم المؤتمرين تحت شعارات براقة ولكن المحتوى الموضوعى والتعريفات الغريبة أو المريبة للأسرة والزواج والحرية الشخصية التى عرضت فى المؤتمرين كانت صناعة أمريكية. وقد استشعرت وفود المؤتمرين أن قيما ثقافية دخيلة ومناقضة لقيمها الثقافية والدينية يراد فرضها على شعوب العالم فى «زفة» العولمة الشاملة فقاومت وتحفظت.

حقيقة الأمر أن توجهات المؤتمرين التى نمت عنها التعريفات المريبة لم تكن شيئا مستغربا فى المجتمع الأمريكى بل هى جزء طبيعى من نسيجه الثقافى وانعكاس لمفاهيم الزواج والجنس والحقوق الشخصية كما يتبناها مايسمى بالجناح الليبرالى أو التقدمى الذى يعتبر «بل كلينتون» وحزبه الديمقراطى بعض ممثليه فى الساحة السياسية



لو نجح هذا المؤتمر بدون تحفظات لأصبح لزاما على بلاد مثل بلادنا أن تقوم بتعديل قوانينها الخاصة بتحريم الزنا وتحريم الزواج المثلى، أعنى زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، وكذا القوانين المتعلقة بالشذوذ الجنسى .. فإن أخفقت هذه البلاد فى تعديل قوانينها وصياغة مجتمعاتها على النمط الأمريكى تتعرض للعقوبات الدولية وتحرم من المساعدات.

المثير فى الموضوع حقا هو أن ماقذفتنا به إدارة كلينتون ليس إلا أحد وجهى العملة الأمريكية وأن الوجه الآخر يحمل صورة مختلفة تماما هى إدارة بوش .. أراد كل منهما (كلينتون وبوش) الغزو والهيمنة ولكن اختار الأول سلاحا ناعما من حديقة الشيطان واختار الثانى سلاحا من قاع الجحيم هو الحرب والعدوان العسكرى، ولقد عرفنا ماجرى فى أفغانستان ونشهد الآن مايتعرض له العراق وشعب العراق من كوارث وهى بداية قد تقود العالم إلى كارثة كونية.

والسبب أن إدارة بوش تحكمها أيديولوجية دينية إمبريالية، تمثل الجناح المحافظ المضاد للجناح التقدمى فى الصراع الثقافى المستعر منذ بضعة عقود فى المجتمع الأمريكى.

لهذا الجناح اليمينى الصهيونى فى السياسة الأمريكية الخارجية أجندة عدوانية تحمل عداء رهيبا للإسلام والمسلمين وترى مصالحها فى العالم العربى بالذات مرتبطة أوثق رباط بإسرائيل وبمشروعها التوسعى فى هذه المنطقة.

لهذه النزعة الرسالية النبوئية خلفيات دينية عميقة الجذور تم تناولها من قبل فى عدة مقالات سابقة، ويهمنى هنا أن أضع بين يدى القارىء ملاحظتين: أولهما أن هناك شىء يدور فى المجتمع الأمريكى اسمه الصراع الثقافى، وسنرى أنه صراع مروع يصفه بعض الكتاب بأنه لم يسبق لمجتمع آخر أن تعرض لمثله من حيث العنف والحدة والآثار المدمرة.

والملاحظة الثانية: أننا فى منطقتنا العربية نتأثر بنتائج هذا الصراع وإفرازاته فى السياسة الخارجية الأمريكية وقد ضربت لذلك مثلا بإدارتى كلينتون وبوش.

■ من هنا جاء اهتمامى باستكشاف أبعاد الصراع الثقافى فى



الولايات المتحدة الأمريكية.

جيمس ديفيسون هانتر

عالج الموضوع بشمول واقتدار «جيمس ديفيسون هانتر» في كتاب له بعنوان: «الحرب الثقافية · الصراع من أجل تحديد الهوية الأمريكية».

ربما أول مايصدم القارئ من الحقائق التي يعالجها هذا الكتاب أن الهوية الأمريكية في أزمة!! ومرجع ذلك أن هذه الهوية ليس لها عمق تاريخي، فالمجتمع الأمريكي حديث النشأة، لاماضي له ولا حضارة ضاربة في القدم، مثل الحضارات التي نشأت منذ آلاف السنين على ضفاف النيل أو على ضفاف دجلة والفرات أو في الصين والهند ولاحتى في أوربا. ولكي يعوض الأمريكيون هذا القصور في تاريخهم القومي لجأوا إلى الأساطير الضخمة التي تدور حول قداسة النشأة الأمريكية والرسالة الإلهية التي اختص بها الشعب الأمريكي في صنع مستقبل البشرية.

لذلك نلاحظ أن كل حرب وقعت في التاريخ الأمريكي وصفها الأمريكيون بأنها حرب صليبية مقدسة، وأن هدفها (ليس التوسع الإمبريالي) وإنما القضاء على أبناء الشياطين واستئصال الشر والأشرار من الأرض.

قالوا هذا عن حرب الإبادة التي شنها المستوطنون الأمريكيون على سكان أمريكا الأصليين (الهنود الحمر)،وعن حرب الثورة على الوجود البريطاني، وفي الحرب الأهلية كان الهدف المقدس هو تحرير العبيد، وكان الهدف المقدس في الحرب العالمية الأولى هو جعل العالم آمنا صالحا للديمقراطية، أما في الحرب العالمية الثانية وفي الحربين الكورية والفيتنامية فكان الهدف المقدس هو هزيمة التوسع الشيوعي، وفي حرب الخليج (١٩٩١) كان الهدف المقدس هو القضاء على التوسع الاستغلالي الدكتاتوري للنظام العراقي، وفي أثناء ذلك كله ظل الساسة والصحفيون الأمريكيون يتحدثون عن أمريكا نموذج الحرية والديمقراطية لشعوب العالم، وقائدة النظام العالمي الجديد.

في الخطاب الأمريكي تتوارى المصالح المتناحرة خلف الحديث عن صراع الخير والشر، سواء كان ذلك في السياسة الخارجية أو الداخلية.. وخلال المناقشات والمناظرات السياسية ترتفع نبرة الخصوصية الأمريكية ونبل رسالتها في العالم .. هذه النزعة المثالية سمة مشتركة للجدل الدائر بين طرفي الصراع الثقافي من المحافظين المتدينين والعلمانيين التقدميين على السواء.

يقول «جيمس ديفيسون هانتر» إن هذا النوع من الخطاب مصدره النخبة الدينية التي تلعب دورا أساسيا في تشكيل الحجج والاتهامات التي يتقاذفها الطرفان حيث يتوارى المنطق والعقلانية ويرتفع الكلام الطنان والأحكام المطلقة والنهائية.

■ ولكن لماذا نشهد الآن صداما

ثقافيا بهذه الابعاد فى أمريكا؟

- يقول المؤلف : «ليست الإجابة على هذا السؤال سهلة أو بسيطة بل تحتاج إلى كتاب منفصل»، ولكنه يقدم إلينا بإيجاز أهم الأسباب كما يلى: شهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين تغييرات اجتماعية واقتصادية هائلة .. فقد تحول النظام الاقتصادى من اقتصاد صناعى إلى اقتصاد معلومات، ورأينا توسعا كبيرا فى عدد الذين يكسبون عيشهم من صناعة المعلومات والمعرفة، كما رأينا توسعا مماثلا فى التعليم العالى اعتبارا من عقد الستينات .. وكان لهذا كله تأثير ملحوظ على مركز المرأة فى المجتمع من الناحيتين الاقتصادية والسياسية.

وقد عزز هذا كله تدفق الهجرة القادمة من بلاد العالم لتزاحم المستوطنين البروتستانت الأوائل، حيث تكاثرت أعداد المهاجرين الكاثوليك واليهود والمسلمين كما تزايدت نسبة المجموعات الإثنية من الإفريقيين والهسبانيين القادمين من أمريكا اللاتينية وغيرهم، ومن ثم ارتفعت صيحات التعددية الثقافية، والدعوة إلى مجتمع متعدد الإثنيات.

مع هذه التغييرات فى بنية المجتمع الأمريكى انبثقت الحرب الثقافية على شكل صراع حول إقامة اتفاقات جديدة تحكم العلاقات الاجتماعية المتغيرة وأصبح كل طرف من أطراف الصراع يناضل من أجل تفسير جديد لماضى أمريكا ولرسم أجندة لمستقبلها.

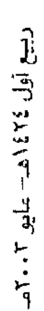
لاينبغى أن نفهم من وجود الصراع الثقافى أنه قائم بين من يدافعون عن الحقيقة وبين آخرين يحاولون تشويهها - وإنما هو خلاف بين مجموعات كل منها يتبنى رؤية مختلفة لهذا العالم وفى ضوء هذه الرؤية يتساءلون: ماهى أمريكا؟ ماذا كانت؟ وماهى الآن .. وماذا ينبغى لها أن تكون؟.

النشطاء فى هذه المجموعات ينتمون إلى الطبقات الوسطى، ولكن يمكن تقسيمهم إلى مجموعتين أساسيتين: مجموعة تصف نفسها بأنها «تقدمية» تجذب إليها فئات ذات تعليم عالٍ من مهن مرموقة يشغلون الشرائح العليا من الطبقة الوسطى، أما المجموعة الثانية فتجتذب الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى غالبيتهم من العمال ويطلق عليهم اسم المحافظين، يجمع هؤلاء شعور مشترك بأنهم يعبرون عن إرادة الله فى تاريخ البشرية وينتمى معظمهم إلى البروتستانتينية.

مظاهر الحرب الثقافية

سوف نلاحظ أن كل طرف يحاول تكذيب مزاعم خصمه ويصمه بالتطرف، ويستخدم كل منهما فى خطابه لغة حادة النبرة، ونورد فيما يلى نماذج من الأوصاف التى يطلقها كل طرف على الطرف الآخر، فماذا يقول التقدميون عن المحافظين:

«المتدينون الحمقى، المتعصبون، المتهوسون الأخلاقيون، مبغضو البشر،



المتشائمون المتشككون فى الدوافع الإنسانية، اللاعقلانيون، أصحاب التفكير الساذج والرسالة الفارغة».

وينسبون إلى المحافظين أن أنشطتهم تعكس أيديولوجية ضيقة الأفق تؤدى إلى تمزيق المجتمع، ويتهمون الثقافة المحافظة بأنها قائمة على الخديعة والتزييف وقتل الشخصية الإنسانية وغمط الحقيقة وعلى إنكار الحرية الشخصية والحرية الدينية، وأن المحافظين - خلال حملاتهم الإعلامية يضخون الخوف والهستيريا والإرهاب إلى ملايين البيوت الأمريكية والمجتمع الأمريكى.

فبماذا يرد المحافظون على خصومهم؟

إنهم يصفون العلمانيين (التقدميين) بأنهم متغطرسون مخادعون غادرون .. وأنهم المثقفون البرابرة الذين لا أخلاق لهم ولادين لهم، الملاحدة أعداء المسيح، ويصفون مذهبهم (العلمانى الإنسانى) بأنه ليس فقط أكبر شر ولكن أكبر فلسفة مضللة .. وأنه دين شيطانى.

ويتهم كل طرف خصمه بأنه سبب كل الأمراض السائدة فى المجتمع الأمريكى، ويحذر كل طرف بأن الطرف الآخر قوة يزداد خطرها فى الحياة الأمريكية.

نقرأ فى إعلان كبير على صفحة كاملة من صحيفة «نيويورك تايمز» تقول فيه جماعة علمانية: «إن الأصوليين الدينيين حركة متطرفة ضد حقوق الإنسان .. أجندتهم واضحة مروعة فهم يخططون للاستيلاء على سلطة الدولة لكى يستخدموها فى إقامة نظام رجعى فى الدين وسلطوى فى السياسة .. وأن جهودهم تتجه بقوة لخلق حركة سياسية جديدة هائلة سوف تؤدى إلى تدمير الحزبين الجمهورى والديمقراطى معا لتنفرد بالتحكم فى مقدرات الولايات المتحدة. وتضيف جماعة أخرى: إن هذا قد أصبح بالفعل واقعا متحققا، فالمحافظون قد سيطروا على الحزب الجمهورى ويسيطرون على العمليات الانتخابية الفيدرالية، وأمريكا على وشك أن تشهد مكارثية دينية وأخلاقية جديدة، إنهم نباتات سامة إذا لم ننتزعها من جذورها فإنها ستنمو كنظام شمولى بأسلوب أمريكى.

فى هذا السياق تصف صحيفة «شيكاغو تريبيون» المحافظين الجدد بأن أنشطتهم حملات صليبية تذكرنا بمحاكم التفتيش الأسبانية، وبالأصولية الإسلامية، ويصف «أنتونى بودستا» القس سواجارات بأنه «لويس فرخان» زعيم أمة الإسلام، وقال آخرون عن القس «جيرى فالويل» بأنه آية الله الخمينى الجديد .. وأن مزج الدين بالدولة الذى يسعى إليه المحافظون الجدد سوف يؤدى إلى مذابح كالتى حدثت فى إيران وأيرلنده ولبنان خلال الحرب الأهلية.

يتصدى لهذه الحملات من اليمين المحافظ رجال أمثال «بل برايت» الذى



يقول : «إننا فى خطر أن نفقد أمتنا إذا تقاعسنا عن أداء واجبنا .. وسنفقد حريتنا الشخصية بل حياتنا نفسها، والسبب واضح وهو سيطرة ونفوذ العلمانيين (التقدميين) فى كل موقع .. إنهم يعملون بشراسة ضد الحرية الحقيقية .. ضد الحياة والأخلاق .. وضد المسيحية .. وضد أمريكا نفسها .. إن التقدميين يتسربلون بعباءة التسامح ولكنهم أعداء التسامح وأعداء الحقيقة».

جبهات القتال فى الحرب الثقافية

تتعدد جبهات القتال فى الحرب الثقافية لتشمل الأسرة والقانون والتعليم والإعلام والانتخابات، ويدور الصراع حول قضايا مثل حق الإجهاض والقتل الرحيم وعقوبة الإعدام .. إلى غير ذلك من قضايا المجتمع الأمريكى الساخنة.

وفى إدارة هذه الحرب يقوم كل طرف برسم استراتيجيات قتال فعالة ويخطط برامج وأنشطة لتوفير الموارد المالية والبشرية، ويتحفز لاستغلال الفرص والأحداث المواتية لشن حملات إعلامية حامية، فهى حرب حقيقية جادة لاهزل فيها.

الأسرة :

دعا الرئيس الأمريكى الأسبق جيمى كارتر إلى مؤتمر وطنى فى البيت الأبيض حول الأسرة حيث استشعر المفكرون أنها مؤسسة آيلة للسقوط فى المجتمع الأمريكى. كان الرئيس كارتر يأمل أن يوفق بين الاتجاهات المتعارضة وأن تصل قيادات المجتمع الأمريكى إلى قيم ومبادىء مشتركة تنقذ الأسرة من الانهيار، وترسم لإعادة بنائها وصيانتها سياسة يلتزم بها الجميع، إلا أن هذا المؤتمر انتهى إلى فشل ذريع ولم يتفق حتى على تعريف الأسرة.

وصفت صحيفة «واشنطون بوست» المؤتمر بأنه كان مسرحا حيا للضجيج الذى أحدثه أنصار حق المرأة فى الإجهاض وأنصار حق الشواذ جنسيا وأنصار قيم الأسرة التقليدية .. كان الجميع يروجون لأفكارهم الخاصة ويهاجمون معارضيهم بشراسة شديدة، وقال آخرون: كان المؤتمر تناطحا بين المصالح المتباينة ولم يكن منبرا للتنوير أو إضاءة للحقائق والمشكلات التى تعصف بالأسرة الأمريكية. وعلقت عليه صحفية من مجلة «نيو ربابليك» قائلة بأن ماحدث لم يكن شيئا مستغربا بل مجرد انعكاس لمحاولة عبثية لبناء سياسة للأسرة فى حين أننا لانملك فهما مشتركا مقبولا من الجميع لماهية الأسرة ولا ماهى الأهداف التى نريد تحقيقها».

طرفا الصراع فى هذه الجبهة - كما فى الجبهات الأخرى - هما المحافظون والتقدميون، فماذا يرى المحافظون على وجه التحديد فى مشكلة الأسرة الأمريكية؟:

يقصد المحافظون بالأسرة الأشخاص الذين يعيشون معا وينتمون

بعضهم إلى بعض بروابط الدم أو الزواج أو التبنى، فى هذه الأسرة الأبوية يعرف كل عضو فيها دوره المحدد ويقوم به برضاء وسعادة، هذا النمط الأسرى هو استمرار للنشأة الفطرية للأسرة وتحقيق للأوامر الإلهية ويمثل بالفعل الانسجام المنشود فى المجتمع، وفى هذا يقول أحد الدعاة البروتستانت: «إن معظم الصراعات داخل الأسرة الحديثة ترجع إلى عدم فهم وإلى رفض كل عضو فى الأسرة الدور الذى رسمه الله له .. ولكى تسير شئون الأسرة كما ينبغى على المرأة أن تستسلم لقيادة زوجها».

أما التقدميون فإنهم يرون أن هذه الأسرة البرجوازية التقليدية التى يسيطر عليها الرجل والتى كانت سائدة منذ القرن التاسع عشر لم تعد صالحة للعصر، فهى مصدر عدم المساواة بين الرجل والمرأة ومصدر لقهر النساء فى المجتمع، وأن القيم التى تحكم هذه الأسرة تقف حجر عثرة فى طريق تحرير المرأة ونمو شخصيتها.

لذلك يطالب التقدميون بمفهوم جديد للأسرة والزواج وتغيير جذرى فى المجتمع .. ويرى المتطرفون منهم ألا يكون الزواج هو الأساس فى بناء الأسرة وإنما مجرد الصحبة والمعاشرة، ولايهم جنس المتعاشرين فقد تقوم الأسرة على أساس علاقة بين رجل وامرأة أو بين رجل ورجل أو بين امرأة وامرأة أخرى، بهذا - فى نظرهم - تتحقق الحرية الشخصية والحرية الجنسية لأفراد المجتمع على السواء.

ومادام مبدأ الحرية الشخصية يسمح للمرأة أن تتصرف فى جسمها كما تهوى وتشتهى فلها مطلق الحرية أن تحتفظ بالجنين الذى ينتج من علاقاتها الجنسية الحرة أو تتخلص منه بالإجهاض، ويتبع ذلك إطلاق حرية أى شخص فى إنهاء حياته الخاصة إذا يئس من الشفاء أو فشل العلاج الطبى فى وقف آلامه، وهذه ما يسمونه بالقتل الرحيم.

يرفض المحافظون كل هذه الدعاوى، ولايقتصر رفضهم على الحملات الإعلامية الدينية والأخلاقية، ولكن يدفع الغضب بعضهم فيقومون بأعمال عنيفة ويهاجمون مستشفيات الإجهاض بالرصاص ويعتدون على أطبائها والعاملين فيها.

الموسيقى والفنون

حول الموسيقى والغناء والأفلام والمطبوعات الإباحية تدور معارك شرسة فى الإعلام وفى الشوارع والمؤسسات. فى سنة ١٩٨٩ ظهر «ألبوم» به أغنية بعنوان: «As Nasty as they wanna be» أثارت ضجة هائلة وجدلا واسعا بين أنصار حرية التعبير وأنصار القيم الدينية والأخلاقية. فى هذه الأغنية تتكرر الكلمة التى تعبر عن الفعل الجنسى مائتى مرة، وترد بها أوصافا للأوضاع الجنسية فى ثمانين موضعا، وتحتوى على كلمات سباب مقذع مائة وخمسين مرة.



وتأتى فرقة «موتلى كرو» لتمثل على المسرح مواقف شيطانية جنونية، وفرقة أخرى تمثل عملية الاستمناء على خشبة المسرح، وشاعت أغنيات تحض على العنف والانتحار.

وقد وصفت هذه الأعمال منظمات نسائية دينية بأنها تلويث مروع للعقل والجسم وأنها أعمال سامة وخطيرة على شباب المجتمع وأطفاله، إلا أن صحفا تبدو محترمة مثل واشنطون بوست والتايم ونيويورك تايمز تعلق على هذه الأعمال بعبارات مشجعة، وتقول إنها تعبير مبرر عن استياء قطاعات كبيرة من الشباب على أوضاع مجتمع سلطوى.

من الأفلام التى أثارت جدلا واسعا فيلم عن السيد المسيح بعنوان «آخر غوايات المسيح، يقول مخرجه، نيكوس كازنتزاكس»:

«إن الهدف من الفيلم هو إبراز إنسانية المسيح وقد اعتوره الشك وأصبح عرضه للشهوة والفخر والغضب والسلطة والخوف من الموت، أما أحداث الفيلم وتفاصيله والاعترافات التى وردت على لسان السيد المسيح فشىء قبيح (لايصح الخوض فيه، ولم يكن يصح أن ينسب إلى نبى عظم).

ومع ذلك قالت عنه مجلة « USA Today» : إنه إنجاز غير عادى، وقالت عنه صحيفة «لوس أنجليس تايمز»: «إنه قطعة باهرة من العمل الفنى شديد العاطفية بالغ الإخلاص والإثارة» .. بل تضيف القول بأن مخرجه قد نجح فى إبراز رسالة المسيح ومعناها»، وقالت عنه واشنطن بوست: «عمل فنى يتمتع بالأمانة والمهابة والوقار .. وعلى درجة عالية من الجمال السينمائى»، وقالت عنه «لوس إنجليس هيرالد إكزاميز»: إنه واحد من أكثر الأفلام جدية وإتقانا وتأثيرا فى المشاعر الدينية».(١).

على الطرف الآخر يقف المحافظون يهاجمون الفيلم بعنف شديد، إذ يعتبرونه حملة مقصودة ضد المسيحية وتجديف فى الدين، وزندقة من أحط الأنواع .. وقد دفع الغضب الشديد إلى احتجاج ومظاهرات بين البروتستانت والكاثوليك على السواء، وخرج ٢٥ ألفا من المتظاهرين فى مسيرة احتجاج أمام مقر الشركة المنتجة للفيلم .. وأعلن «بل برايت» فى الحشود مقاطعة واسعة للفيلم وضرورة سحب كل نسخه من دور السينما، وتعويض الشركة المنتجة من أموال دعا إلى جمعها من جمهور المتطوعين.

وهكذا تتواصل الحرب الثقافية فى مجالات الفنون الأخرى، وتستخدم أسلحة هجومية مختلفة، فإذا جاء من يخالف «التقدميون» فى أذواقهم فإنه يتهم على الفور بأنه عديم الفهم .. أو بأنه إنسان بدائى أو على وجه التحديد إنسان «نياندرتالى» .. وأن هؤلاء ينتمون إلى الفاشية الفكرية .. أو إلى جماعات القتل الأدبى والإرهاب الثقافى.

ويرد المحافظون بأنه لايمكن أن ندع المتسترين تحت شعار حرية التعبير أن يفسدوا حياة المسيحيين ويدمروا القيم الأخلاقية المسيحية، وأنه في دولة ديمقراطية من حق المجتمع أن يقرر بنفسه ماهو فن جميل وماهو مجرد إباحية، ولاينبغي أن يفرض فرد او مجموعة من الأفراد اذواقهم ومعاييرهم الخاصة على المجتمع بأسره.

نلاحظ هنا أنه إذا كان المحافظون المتدينون يتحدثون بغضب دفاعا عن الأخلاق المسيحية من موقع الدفاع عن «المقدس» الديني، فإن أنصار حرية التعبير الفني يجادلون بغضب مماثل من منطلق أن الفن هو دينهم المقدس.

القانون والقضاء

في كل المجالات تتحول قضايا الصراع الثقافي إلى قضايا قانونية تنظر فيها المحاكم بما في ذلك الصراع حول التعريفات، ومن أبرز النماذج التاريخية في هذا المجال اثنان:

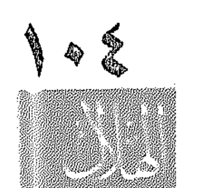
١ - التعريفات المختلفة التي أصدرتها المحاكم الأمريكية عبر العصور لمفهوم الدين.

٢ - التأويلات المختلفة للعلاقة بين الكنيسة والدولة كما ظهرت في القضايا المرفوعة أمام المحاكم.

يصف الكتاب التطور الذي حدث في هاتين الحالتين منذ سنة ١٨٩٠م إلى اليوم عندما تصدت المحكمة العليا لأول مرة لتعريف الدين فكان تعريفا ضيقا قصرته على المسيحية حيث جاء في تعليق القاضي ديفيد بروور: «إن حضارة أمريكا ومؤسساتها مسيحية .. فمنذ اكتشاف هذه القارة حتى الآن كان هناك صوت واحد يؤكد هذا المعنى أن هذه الأمة هي أمة مسيحية».

ولكن المحكمة العليا نفسها سنة ١٩٦١م أدخلت في مفهوم الدين معتقدات أخرى لاعلاقة لها بالايمان بالله كالبوذية والطاوية، بل أدخلت بدائل وظيفية للدين مثل الثقافة الأخلاقية والمذهب المسمى بـ (العلمانية الإنسانية).. جاء هذا التطور موازيا ومعاصرا للتوجه المتنامي في المجتمع الأمريكي نحو التعددية الثقافية، ومن ثم شمل الدين في تعريفه كل الأيديولوجيات اللادينية.

أهمية التعريفات القانونية أنها تمد أطراف الصراع الثقافي بوقود جديد لتدعيم مواقفهم، وهذا يفسر لنا الجهود المتواصلة التي قام بها المثقفون (التقدميون) خلال ثلاثة عقود لاستخلاص اعتراف من القضاء بالمذهب العلماني على أنه دين أو على الأقل بديل وظيفي للدين، وكان هذا يعاكس موقف الأوساط المحافظة خصوصا البروتستانت الإنجيليين لأنه يتحدى المركز الخاص الذي كانت تتمتع



به البروتستانتينية فى القانون الأمريكى.

الحملات الانتخابية والسياسية

جاء فصل الكنيسة عن الدولة فى مرحلة مبكرة ترجع إلى سنة ١٨٠١م برسالة توماس جيفرسون لجمعية البابتيست فى ولاية كونيكتنت .

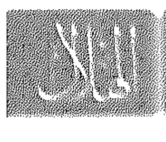
ولكن الجدار الذى أقيم بين الكنيسة والدولة ظل مثار جدل شديد حتى جاء الرئيس ريجان من اليمين الجديد فأحدث انقلابا فى مؤسسة الرئاسة ثم تابعه فى نفس الاتجاه جورج بوش الأب وبلغ ذروته فى إدارة بوش الابن.

خلال هذه الفترة أصبحت القضايا الدينية والأخلاقية التى يروج لها المحافظون جزءا فعالا فى قلب الحملات الانتخابية، واكتسبت أولوية فى خطاب المرشحين من الحزب الجمهورى، بينما تبنى الديمقراطيون أجندة التقدميين فى الحرب الثقافية.

يتحدث كارتر الديمقراطى عن العدالة والأمن السلام فيأتى ريجان الجمهورى ليتحدث عن أمريكا فيقول: إنها أرض القدر .. خلقت بمقتضى خطة إلهية لغاية إلهية .. وأن أمريكا تعانى من جوع روحى .. وأن القانون ينبغى تأسيسه على دين علوى.

وهكذا يكشف لنا الكتاب أن السياسات الانتخابية بقدر ماتتأثر بالحرب الثقافية فإنها تلعب دورا خطيرا فى تعميق العداء بين طرفى هذه الحرب المستعرة فى مثل هذا المناخ لايحتاج المرشح السياسى إلى عبقرية أو شخصية كاريزماتية مثل جون كيندى لكى ينجح فى انتخابات الرئاسة بل يكفى أى شخص ذى مواهب متواضعة مثل بوش الابن لكى يملأ المكان .. لماذا؟ لأن الحرب الثقافية توفر له كل مايحتاجه من لغة وشعارات وعبارات جاهزة للتأثير على الجماهير المبرمجة، وكلما أجاد التمثيل وكان له صوت عميق عريض مثل ريجان كلما عظم تأثيره فى جماهير الناخبين.

رغم كل هذا لايعتقد «جيمس ديفيسون هانتر» أن وجود الحرب الثقافية يحط من قدر الديمقراطية الأمريكية، إنه يعترف أن السياسيين قد أصبحوا رهائن للقضايا والرموز والمصالح المتضاربة فى الحرب الثقافية ولكن الأمر – فى النهاية – يتوقف على استجابة الأفراد والمؤسسات الانتخابية، إنما تتفاقم المشكلة – فى نظره – عندما تنحدر المناقشات والمناظرات الانتخابية إلى مستنقعات تشويه الخصوم وتبادل الاتهامات الشخصية بدلا من التركيز على القضايا التى تهم المجتمع، بذلك يتقلص الأمل أن تنتهى المعارك فى الحرب الثقافية إلى حلول سعيدة، ومن ثم فإن التصدعات التى تقسم أمريكا إلى معسكرات متحاربة تزداد عمقا وتأثيرا فى المجتمع الأمريكى . ■



بغداد

جرحك ياصويحب بعطابة ما يلتم..

بقلم
صافى ناز كاظم



صافي ناز كاظم مع كاهن دير سان جورجيس أقدم أديرة شمال العراق

كان ديوان مظفر النواب «الريل وحمد» دائما أمامى، بحثت عنه اليوم طويلا، فامتلأت يدى بغبار مكتبتى ولم أجده.

«مظفر النواب» شاعر العراق العظيم الذى قابلته لأول مرة عام ١٩٦٩ فى دمشق، وظل رحّالة بين العواصم العربية ولا يمكنه العودة إلى بغداد، إلى «شريعة النواب»، المنسوبة إلى عائلته والمنسوجة فى الغناء الشعبى العراقى. فى دمشق سوريا، وفى القاهرة المصرية، وفى طرابلس ليبيا، على مدى فارق سنوات كان التقائى بمظفر النواب، وكان غناؤه الفاجع ينتشله، حين يبدأه، من لمة الجالسين ليحلق به وحيدا عبر أزمنة الآلام العراقية جاذبا معها نداءات الخلاص البشرى.

غناؤه داويا فى أذنى :

«أضحك إيش لون أضحك ؟
أبكى إيش لون أبكى ؟»

جملة مغزولة بين النحيب والولولة الموسيقية الغائرة كالنصل فى القلب. كتلة شعر وموسيقى وغناء : الشعر مكتوب، واللحن الغنائى ارتجالات لحظية كنت آراها عرضا مسرحيا لا مثيل له. فى ديوانه «الريل وحمد» - الذي يعنى «القطار وحمد» - توجد قصيدته عن شهيد من الشعب - هو كل الشعب - اسمه «صويحب»، ولعله تصغير لاسم عراقي شائع هو «صاحب»، كنت كلما التقيت بمظفر النواب أبادره بمطلعها الصارخ فى الباكيات :

«ميْلنْ ! لا تنجطن كحل فوج الدم!
ميْلنْ ! وردة الخزامة تنجط سم ! »

وهى كلمات أم الشهيد «صويحب» التى ترفض البكاء وتقول ما توضيحه:

«قفن ! لا تسقطن الكحل فوق الدم!
قفن ! حلية الأنف الوردة تنجط السم !»

وكان مظفر ينطلق بآه ملوّعة حين يكمل مقطعها : **«حاه ! شو وسع جرحك يا صويحب»..**

أى «آه! ما أوسع جرحك ياصويحب..»

حتى يصل إلى الحسم القاطع:

«جرح صويحب بعطابة ما

يلتم...»

أى «جرح صويحب لا يلتئم بدواء..»

★★★

- ويعذرني مظفر إذا كانت ذاكرتي قد أخطأت في كلمة مما ذكرت أو أسأت هجاءها لأن الديوان الذى كان أمامي قد تعمد الاختفاء! -

★★★

وربما يبلغ مظفر النواب الآن السابعة والستين من عمره، ولا أعلم بأى مكان هو الآن، وإن كنت على يقين أنه لايزال محروما من العراق، حتى صار بذاته عراقا كاملا مفترشا الدنيا، مخترقا كل الحدود ونقاط التفتيش، مواصلا، كالمتنبيء، الحسم:

«**جرح صويحب بعطابة ما يلتم...**»

★★★

أول سماع لي للغناء العراقى كان فى نيويورك عام ١٩٦٤ حين التقيت بمهاجرين من العراق ظلوا بعد هجرتهم على ولائهم لتراث بلدهم وعاداته من أكل «السمك المسجوف» إلى غناء ناظم الغزالى ومقامات القبنجي. حتى فى الحب يبكون، حتى فى الفرح ينشجون، كأنهم فى مأتم أبدى. وحين زرت العراق لأول مرة فى محرم عام ١٩٦٩ علمونى أن الموت عند العراقى هو الهجرة، هو: النزوح، هو ألا يكون بالعراق يشمه ويحتضنه ويواسيه. كان العراقى إذا انتقل من حى إلى حى، يشكو اغترابه! وعلمونى من أغنياتهم الشعبية:

«**شى مالي والي،**
بو يا اسم الله،
متعذبة بدنياي يابابا
شي مالي والي ..
... ...
بطة وصادتني،
صدقة لـ الله،
بشريعة النواب يا بابا
بطة وصادتنى ...».

وهى طويلة جداً بلحن غاية فى العذوبة، حملتها معى وعلمتها لكل أصدقائى المحبين للغناء، وكان منهم الشاعر الفلسطينى محمود درويش، الذى قال لى إنه كلما حضر حفلا موسيقيا عراقيا طلب منهم غناء «شى مالى والى..» التى صارت تذكره بوقته فى مصر عبر ذبذبات الوجد العراقى!

★★★

وتلك الأغنية التى تعنى: «كى أن ليس لدى حاميا، متعذبة فى دنياى؟»، هى واحدة من أغنيتين شعبيتين عراقيتين

تشعلان القلب حنينا والصدر شوقا وآنينا - والسجع منى غير مقصود - آما الأغنية الآخرى فهى :

«يازارعا بذر الجوش،
ازرع لنا حنة،
وجمالنا غربت،
واويلى،
للشام وما جنّة،
... ...
... ...
يا محبوبى جرحتنى داويني،
جرحك يا قلب خزّن
ولا تسكينة،
يا زارعا بذر الجوش
ازرع لنا حنة ... ...».

و«بذر الجوش» مذكور فى قاموس المنجد باسم «المرزنجوش» و«المردقوش» ويعرفها بانها فارسية وقد تعنى نبات «الزعفران» أو نبات مثله عطرى له فوائد طبية. والأغنية تطلب كذلك زرع «الحنة» بكل ما تعنى «الحنة» من فرح وخير، وهى تحكى عن القلق على قافلة الجمال التى سافرت غربا إلى الشام ولم تعد، «ما جنّة» يعنى «ما جاءت لنا»، وتنطق «يا قلب» بالجيم المصرية «يا جلُب» و«خزّن» يعنى امتلأ بالصديد المؤلم، و«لاتسكينة» ينطقونها «ولا تسشينة»، وتعنى الشكوى أن جرح القلب قد امتلأ بالوجع ولا مواساة يمكن آن تهدىء من الألم! آليس هذا صحيحا تماما:

«جرحك يا جلب خزّن ولا تسشينة»!

★★★

كل خطوة فى العراق تاريخ وتراث إنسانى لا يعوض، منذ السومريين، منذ شريعة حامورابى، منذ الخصب بين النهرين، آرض الحضارة والتاريخ ومنشآ العقائد السامية وشرائع القانون والأخلاق وفقه حقوق الإنسان، متحف التاريخ البشرى بكنائسه الباقية منذ القرن الأول الميلادى، منذ قتل الملك سنحاريب ابنه لأنه اعتنق المسيحية فأقاموا لاستشهاده كنيسة القديس. العراق وبغداد، عاصمة الخلافة العباسية الزاهرة، التى أقامها أبو جعفر المنصور على الشط الغربى لدجلة فى القرن الثامن الميلادى لتشهد على مدى خمسة قرون ما لم ينسه التراث الإنسانى من علوم وفنون وآداب، وليخلدها كل ذلك لتكون، ولتظل «محمية ثقافية» لا يجوز لجاهل أن يخدشها ولا لحمقى أن يدهسوها ويمسوها بأبشع أشكال السوء ...

و ... ...

جرحك يا عراق بعطابة ما يلتم ■



العراق كله محمية ثقافية، كل خطوة أثر، وكل أثر تاريخ . تدميرها جريمة لاتغتفر ضد التراث الحضارى الإنسانى .



إنها متحف لواحدة من أهم الحضارات منذ فجر الجنس البشرى: حضارة السومريين ، حضارة بابل وأور، حضارة مابين النهرين ، حضارة عهودها المتعاقبة حتى بلغت قمتها في عصرها العباسى الذى أسس فى القرن الثامن الميلادى عام ٧٦٢م، عاصمتها بغداد التى معناها: «هبة الله» ، وكنيتها «مدينة السلام» .

عنها قال أبو عمرو بن العلاء : «من أقام ببغداد ومات فيها نقل من جنة إلى جنة» . وقال الرحالة ابن جبير: «لايستكرم البغداديون فى معمور البسيطة مثوى غير مثواهم ، كأنهم لايعتقدون أن لله بلادا أو عباداً سواهم» . وقال أبو القاسم الديلمى : «سافرت إلى الآفاق ودخلت البلدان من حد سمرقند إلى القيروان، ومن سرنديب إلى بلاد الروم، فما وجدت بلداً أفضل ولا أطيب من بغداد.

★★★

نختار لوحات من المتحف البغدادى الذى أقيم عام ١٩٧٠ لتسجيل الحياة البغدادية ومظاهرها الشعبية للحفاظ على الموروث من الحرف والعادات والشخصيات ، ومرجعنا فى شرح اللوحات هو البحاثة العراقى عبد الحميد العلوچى. ص.ك

البلام والبلم

لوحة للفنان فريد أسعد

البلم : هو القارب أو الزورق النهرى الصغير، ومن ينسب اليه يقال له بلام. وقد عرفت بغداد فى أيام العباسيين عدداً كبيراً من البلامة (الملاحين) الذين كانوا يتكسبون بزوارقهم الصغيرة. ففى القرن العاشر الميلادى كان نهر دجلة يتباهى بثلاثين ألف زورق قدر المؤرخون دخل ملاحيها اليومى بتسعين ألف درهم.

وكانت العادة الجارية عند أصحاب الزوارق - على شواطىء دجلة - أن يفصلوا بين النساء والرجال فى زوارقهم عند عبور النهر ، لأن المجتمع البغدادى لم يحبذ اختلاط الجنسين.

وقد راجت مهنة أصحاب الزوارق وصناعتها رواجاً كبيراً يوم كانت جسور بغداد محمولة على الجساريات العائمة. وكانت الزوارق يومذاك تتهادى فوق دجلة مع غروب الشمس فى نزهة نهرية ، وكان بعضها يحمل التنتنه الجميلة التى تعصم الازواج والعشاق من النظرات المتطفلة.



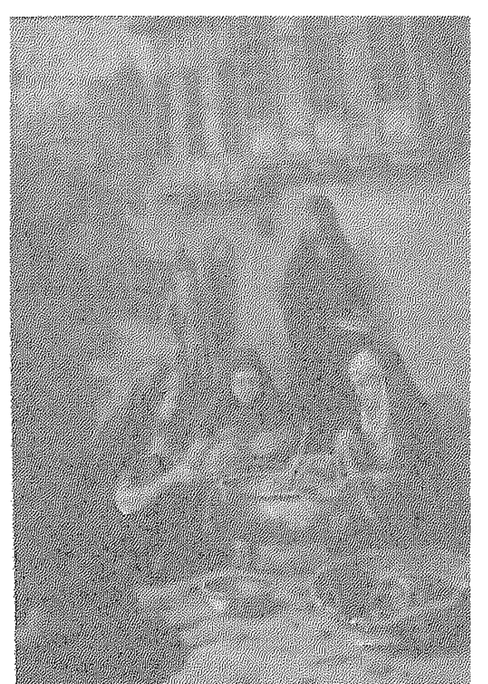
چراخ الخشب لوحة نعمان هادي

تعتبر الچراخه من الصناعات المتحدة بالنجارة لاعتمادها على مادة الخشب . ويتوزع الچراخون البغداديون على جميع فنون الچراخه ، فبينهم من اختص بفن واحد ومن هيمن عليها جميعاً وقد عرفت بغداد منذ عهد بعيد چراخ الخردة كار الذى يمارس نحت القطع الخشبية مخططة وغير مخططة كما عرفت الچراخ المغزلى.

أم الباقلاء
لوحة شاكر الشاوي

ترتبط الباقلاء فى بغداد ببائعها وجوداً وعدما، فإذا كان موسمها الزراعى هزيلا هرب بائعوها إلى مهنة أخرى . وقد شاع فى بغداد طبخها لوحدها لأن البغداديين ولا سيما فقراءهم يميلون إلى ذلك .

وكان ماء الباقلاء هدف الفقراء من البغداديين فى القرن العاشر الميلادى .. إذ كانوا يشترونه ليقتاتوا بالأرغفة التى تنقع فيه، وكانوا يضعون عليها عصير الليمون والسماق المدقوق ناعماً تنشيطاً للشهية.

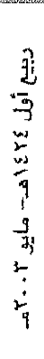


أبو الفرارات لوحة ميسر الفاضلي

الفرارة لعبة تشبه المروحة الكهربائية .. كان الطفل البغدادى يصنعها من الورق الملون ويثبتها فى نهاية قطعة نحيفة من جريد النخيل .. ليحركها الهواء إذا ركض بها.

وفى الربع الأول من القرن العشرين انتشر باعة الفرارات فى انحاء بغداد، وكانوا يتجولون فى أزقة المحلات، ويستدرجون الأطفال إلى شرائها منهم بالأغانى الجميلة والنداءات الجذابة.

واعتاد بائع الفرارات أن يحمل على كتفه عصا طويلة خيطت فى أعلاها سيقان الحلفاء وغرزت فيها الفرارات الملونة.





أم المهافيف لوحة فائق جميل

من بركات النخلة فى بغداد أن تأخذ أم المهافيف مكانها المناسب بين باعة المصنوعات الشعبية. وأم المهافيف امرأة فنانة تنسج من خوص السعف ما يؤدى مهمة المروحة فى أيام الصيف الحارة . وتبيع انتاجها بثمن بخس.

لقد اشتهر المراوحيون (وهم باعة المراوح اليدوية) فى بغداد تحت ظل الخلافة العباسية .

زفة العريس لوحة ماهود أحمد

العريس موضع حفاوة الناس فى كل مكان .. غير أن الزفة البغدادية انفردت بطابع مسرحى لا نظير له، فهى تتخطى العرف الأخلاقى بأغانيها الجريئة التى تواطأت عليها الهوسة والشعبية والفوانيس والسراديج والطبول والمزامير.

وللزفة البغدادية تفاصيل رائعة يتمثل بعضها فى العريس بملابسه النظيفة الأنيقة وبعباءته الفضفاضة وقد تهادى فى مشيته بين صديقيه اللذين يماثلانه قواما وهنداما، ويتمثل بعضهما الآخر فى الكثرة الكاثرة من أصدقائه وهم يمشون خلفه على ضربات الطبل والنقارة ونغمات المزمار.

ومن تقاليد الزفة البغدادية أن يكسر أحد أبناء المحلة عدداً من الاباريق عند خروج العريس من باب المسجد ، وأن يتصايح الزفافة خلال الزفة بقولهم (شايف خير .. ومستاهلها).



الغزالة لوحة نعمان هادي

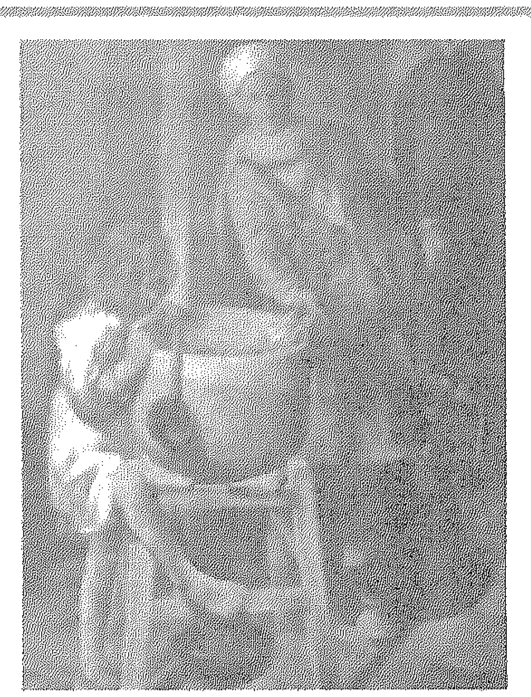
الغزالة ، مع جميع العهـود التى اجتـازتها بغداد، امرأة أحوجتها تكاليف العيش إلى العمل الشريف لتضمن لقمة الخبز، وترتفع بأطفالها أو بنفسها عن العطف اللئيم. وكانت هذه المرأة ومازال تغزل الصوف فى بيتها بمغزلها الخشبى بعد شرائه من بعض البيوت البغدادية التى تتعاطى بيع الصوف.

وقد تقوم الغزالة ببرم الحرير على مغازل خاصة لتبيعه إلى حائكة الفوط.

السقاء لوحة نعمان هادي

كان السقاء البغدادى انساناً نبيلاً يترفع عن اخلاق اللئام.

والذى يجدر بالتنويه هو ان هذا السقاء كان ينفذ تعليمات الرقابة الاجتماعية دون تذمر، فكان يشد فى أعناق حميره الأجراس وصفاقات الحديد والنحاس لتنبيه الضرير والغافل وكان يزود بيوتها وجوامعها وحماماتها ومقاهيها بالماء. وكان من السقائين من يرش الأسواق والطرق بالماء لتبريدها فى أيام الصيف.

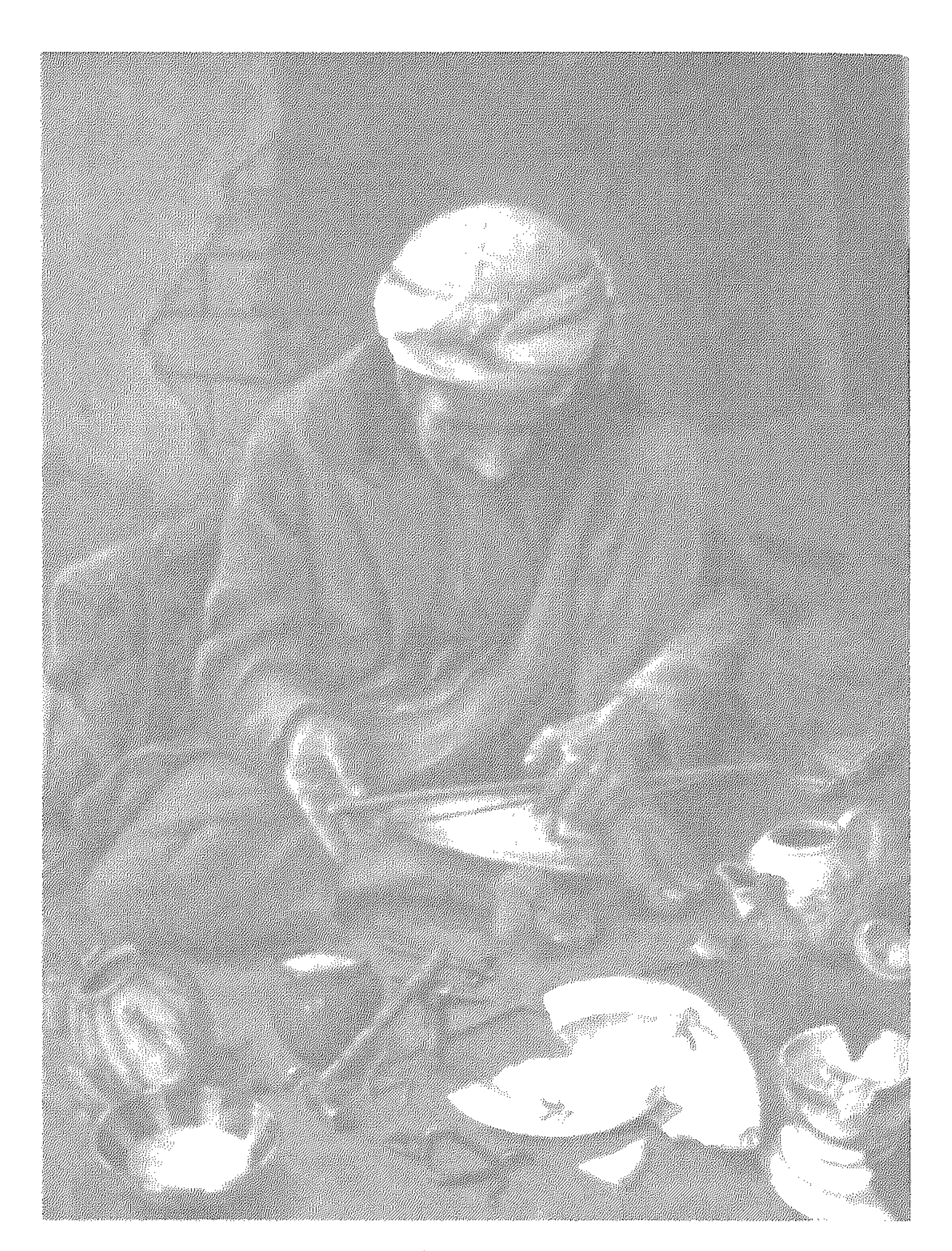


الچلج لوحة ماهود أحمد

كان الچلج (أو الكلك .. أو الرمث وجمعه أرماث) من أشهر وسائل النقل فى العراق القديم فهو وسيلة نهرية استخدمها القدماء فى الحروب والتجارة والاسفار ، وكانوا يجدون فيه خير ملجأ يقيهم من الأمراض والأوبئة.

وكان الجلج يمر ببغداد أو يرسو فيها خلال رحلته الطويلة فى نهر دجلة .

وفى منتصف القرن العشرين اختفى الجلج من مسرح الملاحة النهرية فى بغداد.



خياط الفرفوري
لوحة شاكر الشاوي

من الحرف التى رسخت فى بغداد مع الأيام خياطة الأوانى الزجاجية والخزفية والفخاريات وقد تعاطاها بعض الساعين وراء الرزق . ولربما اتخذ خياط الفرفورى اسماء آخر فى عهد العباسيين لم ينحدر الينا فى كتاب أو حكاية .. وقد يؤكد وجوده عهدئذ ان الزجاج البغدادى كان معروفا. ومن المحتمل جداً أنه كان ممن لم تدع الحاجة اليه لترف الحياة البغدادية واستكفاء البغداديين بالجديد من الآوانى والأوعية الزجاجية بديلاً من المكسور .. ولذلك قال الشاعر : (مثل الزجاجة كسرها لا يجبر).



الحفافة لوحة صلاح جياد

من لوازم الزواج عند البغداديين تجميل العروس وتزيينها لتبدو أشد فتنة وأطغى جمالا فى مواجهة زوجها ليلة الدخلة .. فهى تجلس بين يدى الحفافة صابرة خلال استئصال شعرها من الوجه واليدين والساقين، وتزويقها بالعطور والمساحيق والادهان.

وقد تقوم الحفافة - اضافة إلى ازالة الشعر - بتجميل العروس وتعطيرها.

وكانت الحفافة وماتزال تكحل عينى العروس، وتزين وجهها بالسبداج، وتصبغ شفتيها بالديرم ووجنتيها بالقطن الأحمر ، وتدهن شعرها بعصارة الياسمين.

الحلاق لوحة شاكر الشاوي

لعب الحلاق البغدادى دوراً بارزاً فى الحياة الاجتماعية أيام الخلافة العباسية ، وكانت جماعة الحلاقين تنظم فى نقابة مهنية شملتها رعاية الخليفة الناصر لدين الله العباسى خلال السنوات ١١٨٠ - ١٢٢٥ ميلادية.

واقتحم الحلاق البغدادى أكثر من مكان فى حكايات ألف ليلة وليلة ، ولكنه رغم هذه المنزلة المرموقة اتهم بالحماقة والسخف والثرثرة أسوة بالنداف ومعلم الصبيان.

ومن الحلاقين ، فى بغداد، من كان يمارس مهنته متجولا أو مرتبطاً بالحمامات.



صياد السمك بالكفة لوحة ماهود أحمد

الصـيـاد ، هنا ، رجل احـتـرف الصـيـد بشـبـكة من الخيـوط المتينة تسمى حذافة .. وهو فى قفته التى تنساب فوق نهر دجلة.

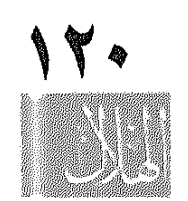
والقفة وعـاء كبير عميق يشبه السلة، يصنع مـن أعواد الرمان أو الصـفـصـاف أو التـوت على هيـئـة الاضـلاع، ويطلى وجـهـه الخارجى بالقير منعاً لتسرب المياه إلى جـوفه . وتسير القفـة فى النهـــر بلا دفة ولا صـارى ويكتفى مـلاحوها بالمجداف وحده ، وقـد اسـتـعـملهـا البـغداديون فى نقل الأشـخـاص والحـيــوانات والبضـائع الخفيفة .. ولكن الصياد البغدادى اســتعان بها على صـــيد الاسماك .

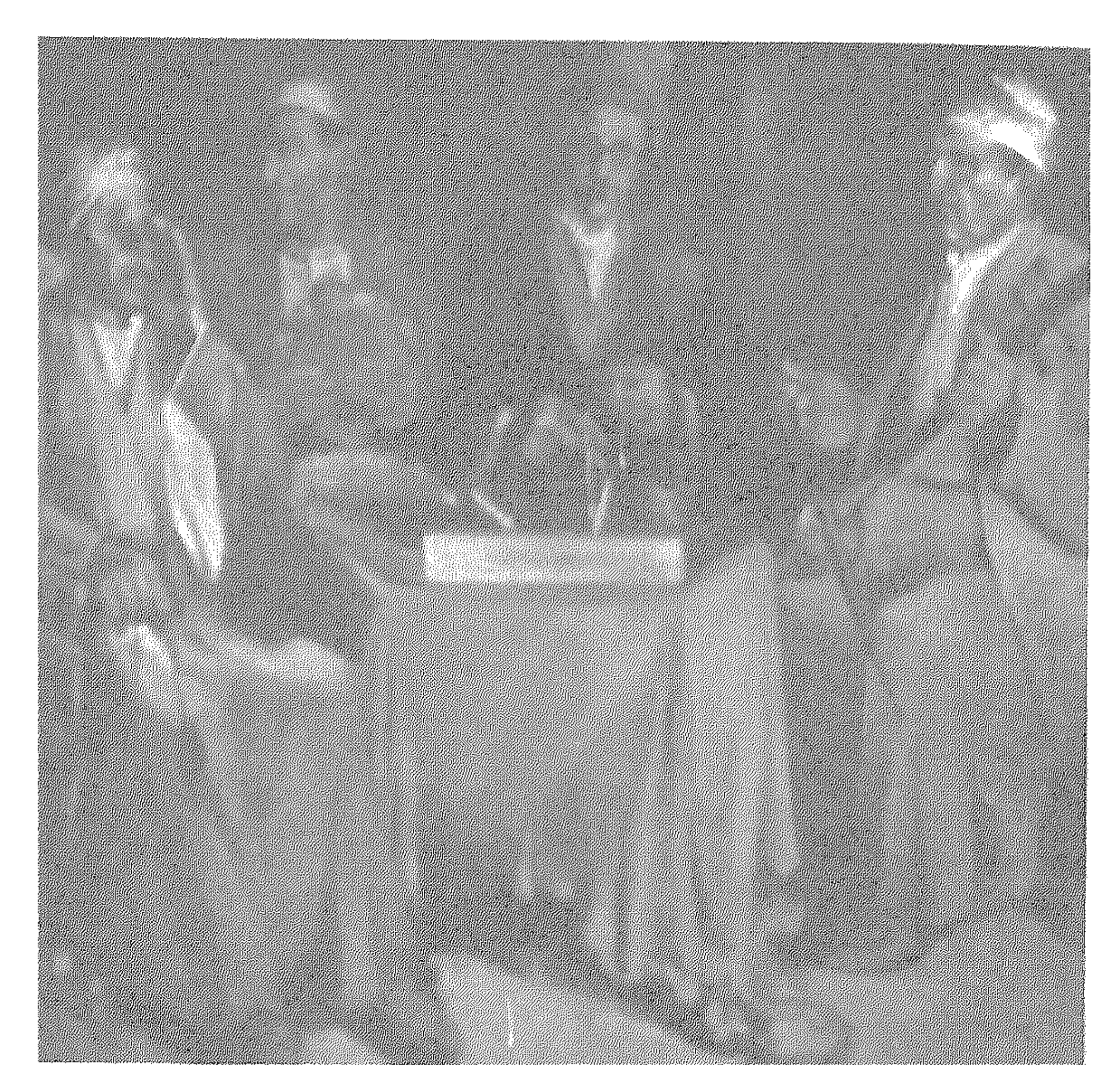


النداف لوحة شاكر الشاوي

ويعتبر النداف البغدادى حلاجا يضرب على القطن بآلة خشبية ذات وتر غليظ يقرعه بأداة غليظة من الخشب تسمى (الچك) وبهذه الآلة يعود القطن القديم منفوشاً نظيفاً. وقد مهر النداف البغدادى فى خياطة المفارش والوسائد والألحفة، وتزيينها بالنقوش والزخارف. ومن هنا قوتها على مزاحمة البطانيات فى أسواق بغداد.

ومازال النداف البغدادى يؤكد وجوده فى بعض انتاج المعامل الحديثة.





الچالغي البغدادي لوحة نعمان هادي

حين ظهرت المقاهى فى بغداد انطلق إلى تخت الغناء فيها رعيل جديد من ذوى الحناجر الذهبية يبكون عراقهم المنكوب بالاحتلال الأجنبى. ويتماوجون بالمقام العراقى وهم يلعنون الحظ العاثر ويؤاسون القلب المفتون . ويعذلون الدهر اللئيم ويصاولون الغزو الأجنبى ..

وعند حلول شهر رمضان المبارك كان الجالغى يقام فى المقاهى البغدادية .. ولا سيما قهوة القيصرية فى شارع المصارف ، وكان المغنى يستغرق جميع المقامات على اختلاف فصولها.

(مثل الزجاجة كسرها لا يجبر).



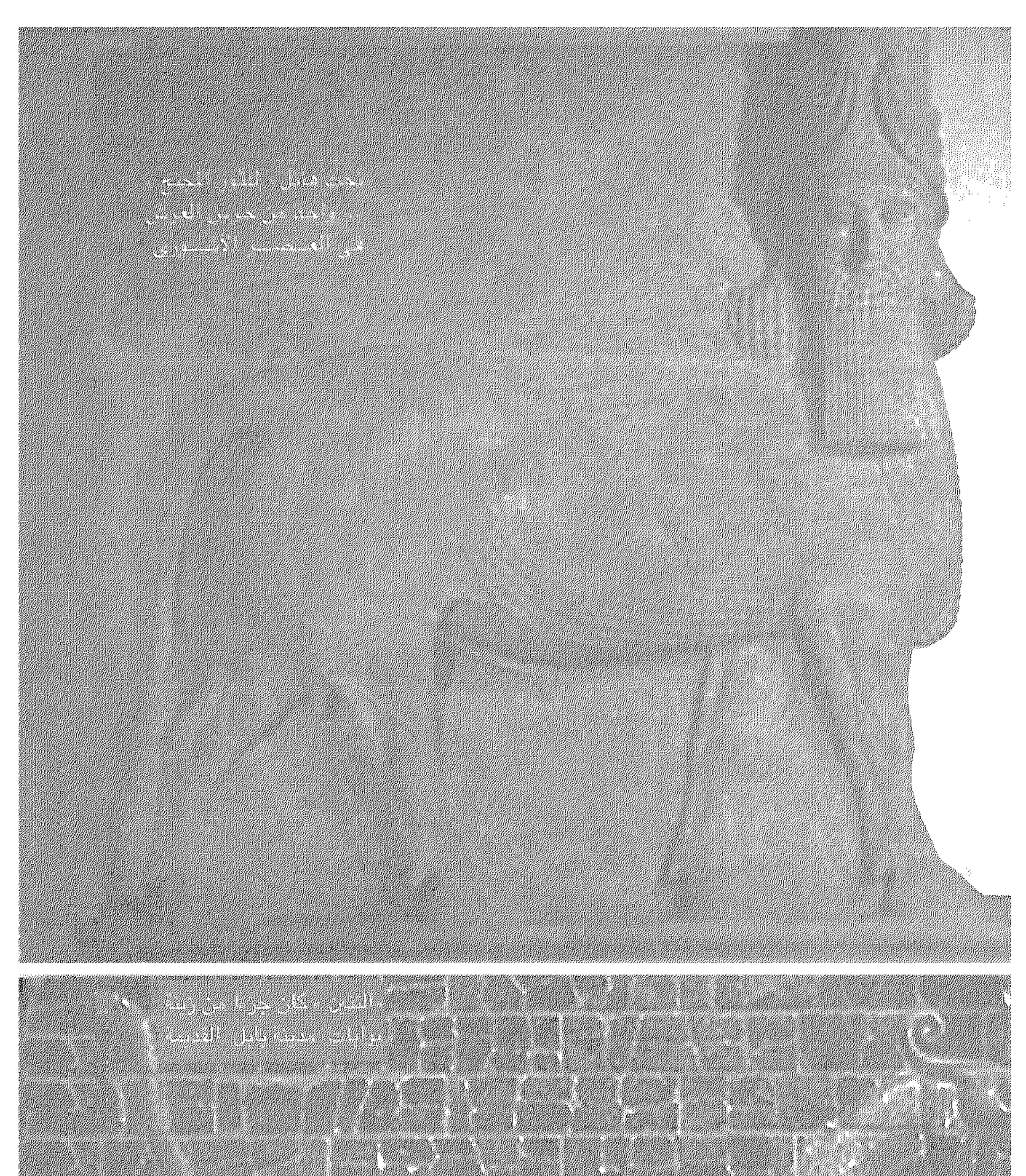
من الحضارات القديمة
حتى حضارة العصر العباسي

بقلم
ا.د.عطية القوصي

العراق.. الوطن العربي العزيز الغالي.. موطن الحضارات.. والمحمية الثقافية الكبري التليدة التاريخ وأصل العروبة ورافد القبائل العربية إلي الجزيرة العربية التي تسمت باسمها.. ومسقط رأس ابراهيم الخليل أبي الأنبياء وحاضرة خلافة العباسيين تتعرض اليوم لعدوان غاشم استهدف القضاء علي هذه المحمية الثقافية وإحتلال أرضها واذلال شعبها واستنزاف مواردها وتحقيق حلم الصهيونية العالمية بتوصيل حدود اسرائيل إلي الفرات ثم إلي النيل.

* استاذ التاريخ الأسلامي - كلية الآداب- جامعة القاهرة





نحت هائل للثور المجنح
.. واحد من حرس العرش
في المعبد الآشوري

التنين . كان جزءا من زينة
بوابات مدينة بابل القديمة

لقد منح الله تعالى أهل العراق الأقدمين خصبا وكفاية ووفر لهم نهرا دجلة والفرات نصيبا كبيرا من الاستقرار في المعيشة والسكن، الأمر الذي ساعد مدنياتهم الأولى على أن تنضج في عصور مبكرة لا تبعد كثيرا عن العصور التي نضجت فيها المدنيات المصرية الأولى وعمل النهران وفروعهما على تيسير الاتصالات والمواصلات المائية وإتاحة فرص الارتقاء بصناعة السفن منذ أواخر فجر التاريخ العراقي القديم في الألف الرابع قبل الميلاد.

وترجع أوائل العصور التاريخية في العراق القديم بعصر بداية الأسرات السومرى ما بين أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد وبين القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد وتعددت مراكز التجمع والتحضر حينذاك في النصف الجنوبي من سهول، بين النهرين وعرفت حضارة الدولة التي قامت هناك باسم الحضارة السومرية وعرف أهلها باسم السومريين وقد عرف هؤلاء السومريون الكتابة المسمارية على ألواح من الطين وتوسعوا في البناء بالطوب اللبن والآجر وقد جرى السومريون على بناء هياكلهم الرئيسية فوق مسطحات عالية إلى جانب بناء المعابد الأرضية العادية.

واحتفظت بعض مدن محمية العراق الثقافية بأطلال بسيطة لمعابد سومرية قديمة.

واستمر عصر بداية الأسرات السومرى أكثر من خمسة قرون، حصلنا على تماثيل منحوتة ترجع إلى تلك الفترة من أحجار الحجر الجيرى والألباستر وقليل منها منحوت من أحجار صلبة.

وحكم الأكاديون العراق بعد السومريين وخلفوا حضارتهم بها في الفترة ما بين سنوات ٢٣٤٠ ق.م - ٢١٨٠ ق.م، وهم ينتسبون إلى عاصمتهم (آكاد) التي أصبحت مركزا لنشاطهم السياسي والحربي بعد استقرارهم بالعراق وقد كان الاكاديون فرعا من الهجرات السامية المتتالية على العراق والشام قبيل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد نزلوا بوسط العراق وسيطر زعماؤهم على بضع مدن سومرية النشأة كانت أهمها مدينة كيش، ونجحوا في إقامة دولة كبيرة مستقرة في العراق حكمته مدة قرن ونصف من الزمان. وتعاقب على حكم كيش عدد من الرؤساء الساميين ثم اغتصب العرش منهم رجل من عامة الساميين يدعى سرجون إتخذ له عاصمة جديدة أسماها «أجاده» ربما كانت هي «آكاد» التي كانت المركز الرئيسي لعبادة الإلهة «عشتار» التي اعتبرها راعيته منذ صغره.

★★★

وحكمت العراق دولة بابل الأولى سنة ١٨٨٠ ق.م، وكان عصب هذه الدولة جماعة من «الأموريين» الذين انتشروا بين المدن المتحضرة في العراق واستقروا فيها وتولوا حكم بعضها مثل مدينة بابل بمعنى باب إيل، اى باب الإله

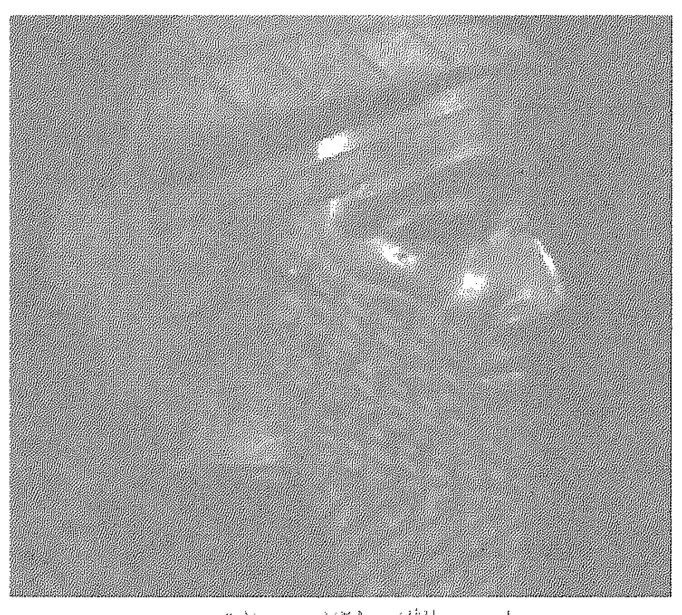


إيل، وهي مـــدينة مندثرة الآن وتقع أطلالهـا جنوبي مـدينة بغـداد على الشاطئ الشرقي للفرات واعتلى زعماء هؤلاء الأموريين الساميين عرش بابل منذ عام ١٨٨٠ ق.م وتعاقب منهم خمسة ملوك في عصرهم الاول ثم وليها سادس ملوكهم وأكثرهم شهرة وهو (حمورابي). وقد حكم حمورابي البلاد سنة ١٧٢٨ ق.م، لمدة ٤٢ عـامـا فـقدر له أن ينهض ببابل من دويلة صغيرة إلى عاصمة دولة كبيرة ذات امكانيات متعددة وأملاك واسعة وشهرة ضخمة وبدأ تشريعاته التي خلدت اسمه في التاريخ منذ العام الثاني من حكمه، وهي تشريعات سجلها رجاله على نصب كثيرة اشتهر منها نصب كبير من الديوريت ارتفاعه ٢.٢٥ مترا، وهو محفوظ بمتحف الآثار العراقية ببغداد ومنه نسخة بمتحف االوفر بباريس.

وقد تعاقب بعد حمورابي على عرش بابل خمسة ملوك شهدت أيامهم صورا مختلفة من الحرب والسلام.

هذا ولقد خلف لنا البابليون على الألواح الطينية بالقلم المسماري قصصا وأساطير سامية كبيرة سجلوها بأسلوبهم الخاص، ومن أشهر تلك الأساطير أسطورة جلجميش وقصة الطوفان وأسطورة صعود إيتانا إلى السماء، وإيتانا ملك من ملوك كيش القدماء كان يلقب بالراعي وأسطورة نشأة الوجود.

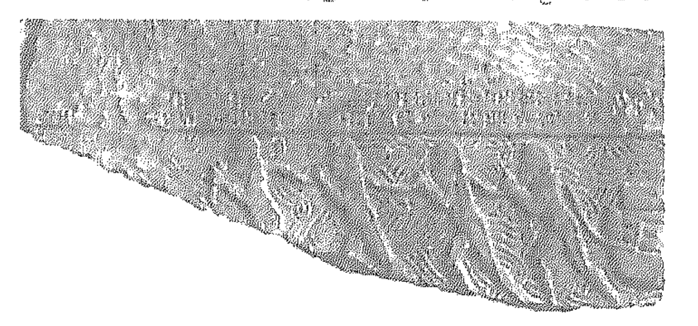
وتعرضت الدولة البابلية في أواخر



سارجون الثاني ٧٢١ - ٧٠٥ ق . م



نقوش توضح أوقات الفيضان في بلاد الرافدين



جنود اشوريون يسحبون مركبا - من عصر سرجون الثاني

أيامها لهجمات جماعات هندو أرية من أواسط آسيا عرفت باسم الكاسيين أو (الكاستيين) وقد حكم هؤلاء أعالى العراق من سنة ١٥٨٠ ق.م حتى أواخر القرن الثانى عشر قبل الميلاد حين قضى العيلاميون (الإيرانيون) على دولتهم فى العراق، غير أن بابل ذات الماضى المجيد لم تكن لتموت بسهولة وإن ترنحت طويلا تحت ضربات خصومها فتحاملت على نفسها حتى نهضت وتزعمها ملوك ناضلوا فى سبيل تحرير أرضهم من ربقة السيطرة العيلامية، ومن هؤلاء الملوك نبوخذ نصر الأول إلا أن هذه النهضة البابلية لم يطل أمدها، إذ تعرضت بابل لهزات عنيفة أتتها من قبل دولة آشور التى نضج كيانها فى المرحلة الثانية من عصرها الوسيط وهزات أخرى أتتها من قبل الآراميين الذين فرضوا وجودهم على العراق فرضا. وقد تغلب الأشوريون على الآراميين وحكموا العراق بمفردهم بعد انتصار شلمانصر مليكهم عليهم فى موقعة قرقر حوالى عام ٨٣٣ ق.م، وقد قام الأشوريون بضم بلاد سوريا إلى دولتهم حتى مدنهم البحرية على ساحل البحر المتوسط كذلك دخل الأشوريون فى حرب مع جارتهم اللدود عيلام وتبادلت الدولتان النصر والهزيمة حتى فت فى عضد عيلام إختلاف حكامها على أنفسهم ثم أتت النهاية السياسية لعيلام على يد جيوش آشوربانيبال فدمر عاصمتها سوسة تدميرا تاما وذكرت نصوص بانيبال أنه استولى على كل كنوزها وأنه لم يدع فى قصور ملوكها شيئا إلا وأمر بحمله معه إلى آشور ووصلت حدود دولة آشور إلى مملكة ليديا فى آسيا الصغرى غير أن دولة آشور أخذت فى الانحلال والضعف بعد موت مليكها سرجون الثانى سنة ٧٠٥ ق.م، وبسبب عوامل النزاع بين أفراد الأسرة الحاكمة.

***

وقد جاءت نهاية الدولة السرجونية الآشورية على يد الكلدانيين البابليين وهى أسرة كلدانية قوية استطاعت أن تستغل تداعى حال الأشوريين وتستعيد السباق البابلية على العراق بداية من سنة ٦٢٦ ق.م وأن ترث ممتلكاتهم فى العراق وخارجها وقد عمل هؤلاء البابليون على السيطرة على بادية الشام وسوريا وفلسطين فى عهد مليكهم نبوخذ نصر الثانى الذى اعتلى العرش (من ٦٠٥ ق.م - ٥٦٢ ق.م) وبدأ هذا الملك بالسيطرة على لبنان وعلى آرشليم (القدس) سنة ٥٩٧ ق.م.

وقد قام نبوخذ نصر بنفى الأسرى اليهود إلى بابل جميعا وعرفت فترة النفى هذه عند اليهود باسم السبى البابلى الأول وقد صحبهم فيها نبيهم حزقيال وخضعت مملكة يهوذا اليهودية للبابليين أحد عشر عاما ثم ثارت ضدهم فعاودت جيوش نبوخذ نصر مهاجمة أورشليم سنة ٥٨٧ ق.م وحاصرتها عامين ثم استولت عليها عام ٥٨٥ ق.م



ودمرتها وأحرقت هيكل سليمان ونقلت خزائنه، ونفت خمسين ألفا من أهلها إلى بابل «لينوحوا عند مياه الفرات » على حد قول التوراة. وتابعت جيوش نبوخذ نصر مهاجمة المدن الفينيقية والسورية، وكانت مدينة صور، أشد هذه المدن مقاومة لها وقد ظلت هذه المقاومة ١٣ عاما انتهت فى النهاية بالاستسلام واعترفت بسيادة البابليين.

وتمثلت أهم عمائر ومعالم بابل الكلدانية فى قصر نبوخذ نصر، وفى برج بابل وفى الحدائق المعلقة ببابل التى هى إحدى عجائب الدنيا السبعة، ثم بوابة عشتار وأسوارها الضخمة.

ولقد جاءت نهاية دولة بابل على يد قورش ملك الفرس. وانتهى دور بابل العراق فى التاريخ القديم كدولة مستقلة فى عام ٥٣٩ ق.م كما انتهى قبلها دور آشور بعد عام ٦١٢ ق.م، ولكن زوال دورهما السياسى لم يستتبعه على الاطلاق زوال تأثيرهما الحضارى فى الشرق والغرب معا. ولقد رأى فيها المؤرخون الاغريق الذين زاروها منذ عصرها الفارسى وخلال عصرها السليوكى صورة تجمعت فيها المفاخر العقلية للعراق القديم كله فتحدثوا عن تراثها الفلكى وتراثها المعمارى كذلك تحدثت بقايا آثار ملوك بابل الحضارة الزاهرة التى كانت عليها بلاد العراق أيام حكمهم وكيف أنهم كانوا سادة الدنيا، وكيف جعلوا من العراق القديم محمية ثقافية خالدة تضم بين ثناياها تاريخ تالد عظيم وحضارة إنسانية زاهرة كانت حلقة من حلقات سلسلة الحضارة الإنسانية نهلت من علومها وفنونها حضارة الاسلام فى العصور الوسطى وحضارة أوروبا فى العصر الحديث.

التراث الاسلامى

وكما شاءت إرادة الله للعراق أن يكون محمية ثقافية لتراث التاريخ القديم وللحضارات القديمة الآشورية والبابلية والكلدانية، شاءت إرادته أن يكون فى العصور الوسطى محمية للتراث الاسلامى، وهو تراث أزهر حضارة عرفتها الانسانية فى تلك العصور وهى الحضارة التى قطف ثمارها الغرب الاوروبى وأقام عليها حضارته فى العصر الحديث.

ولقد دخل العراق، ضمن بقية بلاد الشرق تحت تبعية دولة الفرس الأخمينيين، التى دخلت فى حروب مع اليونانيين ولما انهزم الملك الفارسى (دارا الثالث) من الاسكندر الأكبر المقدونى سنة ٣٣٣ ق.م، ضعفت دولة الفرس وتقسمت إلى ولايات صغيرة حكم كل ولاية منها ملوك عرفوا باسم ملوك الطوائف ظلوا على حكم البلاد مجزأة حتى سنة ٢٣٠ ق.م، وفى هذا التاريخ ظهر ملك فارسى كبير، هو (أردشير بن بابك) استطاع أن يوحد بلاد فارس من جديد ويؤسس فيها دولة حاكمة قوية هى دولة الفرس الساسانية.

وقد جاءت هجرة عرب اليمن إلى العراق أيام حكم ملوك الطوائف وكانوا من قبيلة لخم اليمنية بعد انهيار سد مأرب باليمن إلى غربي الفرات وقد نزل هؤلاء موضع مدينة الحيرة. واستقر هؤلاء العرب حيث هاجروا منتهزين فرصة ضعف الدولة الفارسية أمام حكم ملوك الطوائف وكونوا لهم دويلة صغيرة عربية على أطراف العراق عرفت بمملكة الحيرة أو مملكة المناذرة. لكن دولة الفرس بعد أن قويت وتوحدت تحت حكم ملوك آل ساسان عملت على إجلاء هؤلاء العرب عن حدود دولتهم لكن الملك أردشير آثر في النهاية أن يصطنعهم لنفسه ليكونوا حلفاء له ضد الروم وضد حلفائهم الغساسنة فيقيموا بذلك إمارة حاجزة بينهم وبين الروم مثلما كان وضع العرب الغساسنة في بلاد الشام، ولذلك أبقى الملك الفارسي كتيبة من رجاله الفرس عند ملك الحيرة قوامها ألف رجل يتجددون في كل عام أطلق عليها إسم الأشاهب يستعين بهم ملك الحيرة العربي على الخارجين عن سلطانه من عرب البادية وفي نفس الوقت يضمن ملك الفرس في استمرار ولاء المناذرة العرب له.

ولقد تولى حكم مملكة الحيرة ملوك كان أبرزهم (المنذر الثالث) الذي حكم في الفترة ما بين سنوات ٥٢٠ و٥٥٤م وكان معاصرا لأشهر ملوك الفرس قباذ وابنه كسرى أنوشروان وأشهر ملوك الروم الامبراطور جستنيان وأشهر ملوك الغساسنة الحارث بن جبلة وقد استمرت مملكة الحيرة قائمة حتى الفتح الاسلامي لبلاد العراق وفتح القائد العربي الكبير خالد بن الوليد للعراق، وللحيرة ضمن ما فتح من بلدان العراق، سنة ١٢ هـ (٦٣٣م) وضمها إلى دولة الاسلام.

ودخلت مملكة الحيرة دولة الاسلام بحضارتها التي كانت جزء من الحضارة الفارسية الساسانية آنذاك وكان ملوكها قد تشبهوا بملوك الفرس الساسانيين في حياتهم الخاصة وفي نظام بلاطهم وقد اتصف هؤلاء الملوك بالعلم وحب العلم لذلك قربوا إليهم العلماء والشعراء ومن أشهر شعراء الجاهلية والمخضرمين الذين وفدوا على بلاطهم طرفة بن العبد وابيد بن ربيعة وحاتم الطائي وعنترة بن شداد العبسي، والنابغة الذبياني وغيرهم وقد ترك لنا هؤلاء قصائد شعر خالدة كتب بعض منها ضمن المعلقات السبع التي علقت على جدار الكعبة.

وازدهى العمران في عهد دولة المناذرة ويشهد على ذلك بقايا اثارهم فيما ابتنوه من قصور مثل قصري الخورنق والسدير وقصر الدوسر وقصر المشتى، تلك القصور التي تأثرت بالفن والمعمار الساساني وما صاحبه من نقوش بديعة على جدرانها فضلا عن فخامة مبانيها وتجلت مظاهر جمال أبنية ملوك الحيرة أيضا فيما ابتنوه من كنائس وأديرة ضخمة وبخاصة دير هند بنت النعمان بن المنذر الشهير.

العراق العربية



ولقد جاء الفتح العربى الاسلامى العراق فى عهد خلافة الصديق أبى بكر وتحريرها من التبعية لدولة الفرس فى الساسانيين ولم تستطع قوات الفرس أن تتصدى للقوات الاسلامية الفاتحة بسبب حالة الضعف التى كانت عليها آنذاك والارهاق العسكرى التى خلقها لهم حروبهم مع الروم قبل الإسلام.

★★★

حين شرع الخليفة الصديق أبو بكر حركة الفتوح الاسلامية بدأها بفتح العراق غداة فراغه من حرب المرتدين فعهد إلى قائده الصحابى الجليل المثنى بن حارثة الشيبانى بفتح العراق ثم عهد إلى قائده سيف الله خالد بن الوليد بمعاونة المثنى فى فتح العراق.

وكان يلى أمر العراق القائد الفارسى الكبير هرمز نيابة عن ملك الفرس. ووصلت إلى قوات المسلمين الفاتحة للعراق قوة إضافية بقيادة الصحابى الكبير القعقاع ابن عمرو التيمى وقد نجح ملك القوات فى فتح العراق كله فى عهد خلافة عمر بن الخطاب وكان فضل قيادة القوات الفاتحة آنذاك للصحابى أبى عبيد بن مسعود وللصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص، صاحب الانتصار الحاسم فى معركة القادسية سنة ١٦ هـ (٦٣٧م) وكان فتح المسلمين لبلاد العراق بداية لاسقاط الدولة الفارسية الساسانية جميعها فى يد المسلمين ودخول تلك البلاد فى الإسلام وتبعيتها لدولة الإسلام الكبرى فى عهد الراشدين والأمويين.

وصارت بلاد العراق جزءا عزيزا من أجزاء الدولة الاسلامية وتحول أهلها من الديانة المجوسية الزرادشتية إلى الإسلام ومن الحديث باللغة الفارسية الأعجمية إلى اللغة العربية. وقد قام الفاتحون المسلمون للعراق ببناء المدن الاسلامية على تراب أرضه وهى مدن: البصرة، والكوفة، وواسط، وبغداد، والرصافة، وسامرا، وكربلاء.

وقد بنيت البصرة سنة ١٦ هـ (٦٣٦م) فى خلافة عمر بن الخطاب واختطها القائد عتبة بن غزوان، ولم يكد يمض على تأسيسها عشرون عاما حتى عدت من أهم المراكز التجارية والملاحية فى العالم الإسلامى وخاصة مع بلاد الهند والصين. وحلت البصرة محل ميناء الأبلة على الخليج العربى ولم تلبث أن أصبحت مقصد القوافل ومحط رحال الشرق والغرب، من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى، وباتت البصرة العاصمة الثانية للعراق الجنوبى وظهرت فيها حضارة أدبية وعلمية كثيرة وتأثر علماؤها بتأثير الفلسفة اليونانية ومن أشهر العلماء الذين خرجتهم هذه المدينة: الامام الحسن البصرى، المتوفى سنة ١١٠هـ (٧٢٨م) وتلميذه واصل بن عطاء رئيس جماعة المعتزلة وشعبة بن الحجاج عالم أهل البصرة وأمير المؤمنين فى الحديث، والمتصوفة الكبيرة رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى، وكذلك كان من أشهر علمائها فى علوم اللغة والأدب أبو عمر

عثمان الجاحظ والخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه والأصمعي.

أما الكوفة فقد بناها العرب بعد فتحهم الحيرة في خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ (٦٣٨م) وقد تولى بناءها معا سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان، الصحابيان الجليلان على مقربة من الحيرة حين بعثهما سعد بن أبي وقاص لتخير مكان بنائها. وقد اختط أبو الهياج ابن مالك شوارعها وحاراتها وأسس بوسطها مسجدا جعل دار الامارة إلى جواره وسرعان ما ازدحمت الكوفة بالقبائل العربية النازحة إلى العراق وصارت قصبته أعلى العراق، وكان وإليها يعين ولاة الموصل والرى وهمذان وأذربيجان.

الكوفة جاهزة للخلافة

ولقد اتخذ الامام على بن أبي طالب الكوفة حاضرة لدولته عند توليه الخلافة لوجود شيعته وأنصاره بها ولخصوبة أرضها وكثرة خيراتها واستراتيجية موقعها. ولقد أحب الامام على الكوفة كثيرا حتى أنه قال فيها: الكوفة كنز الإيمان وحجة الاسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء والذى نفسى بيده لينتصرن الله بأهلها فى شرق الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز. وكفى تلك المدينة فخرا أن اتخذها رابع الخلفاء الراشدين عاصمة له وأحبها ودعى لها ولأهلها بالنصر كذلك عاش فى هذه المدينة عدد من آل البيت. وبقربها الأعتاب المقدسة بالنجف حيث يوجد مسجد الإمام على وتتشرف تربتها باحتواء جثمان ابن عم رسول الله الطاهر.

كذلك ينتسب إلى هذه المدينة المطهرة أشهر العلماء الذين ولدوا وعاشوا فيها ومنهم الامام أبى حنيفة النعمان (ت ٨٠هـ) أحد أئمة الفقه السنى وصاحب المذهب المنتسب إليه وهو المذهب الحنفى كما ينتسب إليها أيضا الامام سفيان بن عينية أحد أعلام التابعين وغيرهم.

وتقع كربلاء على بعد ٤٠ كم شمال غربى مدينة الكوفة جنوب غربى العراق على حافة بادية الشام، وهى المكان الذى نزل فيه القائد سيف الله خالد بن الوليد عند فتحه الحيرة، وهى البلدة التى استشهد فيها الامام الحسين سيد الشهداء وسيد شباب أهل الجنة فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ (٦٨٠م)، ودفن جسده بها وأقيم عليه ضريح ومسجد كبير. ويعتبر مشهد الحسين بكربلاء ومشاهد أخرى فى الكوفة والنجف الأشرف من أهم المزارات ذات القدسية والاجلال حيث يتوافد عليها الشيعة من كل مكان ويطلقون عليها اسم العتبات المقدسة وقد اتسعت كربلاء وبنيت فيها المساكن والدور والمساجد ومن أشهر مساجدها بعد مسجد الحسين مسجد القمر، ومسجد العسكر وغيرها.

أما واسط فهى مدينة ينتسب بناؤها إلى الحجاج بن يوسف الثقفى حين كان واليا للعراق وقد بناها فى موقع متوسط بين بغداد، والبصرة أى عاصمة الشمال



وعاصمة الجنوب، ولذلك تسمت بذلك الاسم وقد اتخذها الحجاج عاصمة للعراق أثناء ولايته وولاية بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر أيام خلافة الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ/ ٦٨٤ - ٧٠٤).

بغداد حاضرة الامبراطورية الاسلامية

ولقد جاء بناء مدينة بغداد مواكبا لقيام دولة الخلافة العباسية فى العراق تلك الدولة التى حكمت العالم الاسلامى والعالم بمدة تزيد على الخمسة قرون، من سنة ١٣٢هـ - ٦٥٦هـ / ٧٤٩ - ١٢٥٨م. وقد بنى هذه المدينة الخليفة العباسى الثانى ابو جعفر المنصور ليتخذها حاضرة للامبراطورية الاسلامية الكبرى، التى امتدت حدودها آنذاك من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا، ومن غانا فى افريقيا جنوبا إلى فرغانة فى الروسيا شمالا.

وكان المنصور قد بنى فى أوائل حكمه دولة العباسيين بالعراق مدينة بنواحى الكوفة سماها الهاشمية ولكنه كره الاقامة فيها بسبب حركة تمرد قام بها جماعة خارجية عرفت باسم الراوندية. كذلك كره الاقامة فى الكوفة لتشيع أهلها للعلويين، فخرج بنفسه يبحث له عن موضع يسكنه وأهله وجنده، فوقع اختياره على منطقة خصبة يسهل فيها الاتصال بكافة أرجاء الدولة وتتوافر فيها سبل العيش وتقع وسط العراق وكان موضع هذه المدينة قرية صغيرة كان قد بناها أحد ملوك الفرس على شاطئ نهر دجلة فى أعلى المكان الذى يلتقى فيه مع نهر الفرات.

وتسمت هذه المدينة أول الأمر بمدينة المنصور وأبتدى البناء فيها سنة ١٤٥هـ (٧٦٢م) واستغرق أربع سنوات وجعلها مدورة وجعل قصره والمسجد بوسطها وسميت باسمها القديم بغداد. كذلك تسمت هذه المدينة بأسماء أخرى منها. الزوراء، لا زورار سمتها عن القبلة والكعبة، ودار السلام والروحاء لطيب هوائها والمدورة لإستدارة بنائها وبغداد. وبغداد كلمة فارسية مركبة من مقطعين باغ بمعنى الله، وداد بمعنى عطية، فيكون معناها: عطية الله، أو المدينة التى أعطاها الله أو مدينة الله فهى مدينة مقدسة منذ أن كانت قرية صغيرة.

ولقد أحضر المنصور المهندسين والبنائين والصناع من نجارين وبنائين من البصرة والكوفة وواسط وطبرستان والشام ومصر ليشرعوا فى بنائها وقيل أن عدد هؤلاء بلغ مائة ألف رجل. وجعل المنصور الاشراف على بنائها لقائده الحجاج بن أرطاة وللامام أبى حنيفة النعمان الذى كان ذا معرفة بالهندسة وفن المعمار وسرعان ما ازدحمت بغداد واتسع بناؤها على مر السنين. وأقطع المنصور قطائع خارجها لتخفيف الضغط السكانى على المدينة فعمرت هذه القطائع وازدحمت بالسكان واتصلت بالعاصمة.

واتصل ببغداد بناء مدينة الرصافة التى بنيت شرقى بغداد فى الجهة الشرقية من دجلة المقابلة لبغداد وعرفت ببغداد الشرقية، واتصلت الرصافة

ببغداد وصارتا مدينة واحدة بلغ عدد سكانها بعد عام من انشائها المليون نسمة من السكان وصارت عاصمة العالم.

وقد عاشت بغداد عصرها الذهبى فى العهد العباسى الأول (١٣٢ - ٢٣٢هـ)، وخاصة فى عصر الرشيد والمأمون والمعتصم. وبلغت ذروة الرخاء فى عهودهم وقد تقاطر عليها العلماء والأدباء ورجال الفن من جميع الملل والنحل وجعلوا منها مركزا للثقافة فى الدنيا، وقد خلف أولئك العلماء الكم الكثير من الكتب والأبحاث والمؤلفات فى سائر العلوم والفنون وابتنى خلفاء العباسيين وقواد الفرس والترك الذين تولوا الحكم فيها فى العصر العباسى الثانى، المدارس والمعاهد العلمية والمساجد والدور والقصور التى لاتزال بقاياها قائمة حتى اليوم تشهد على مدى قمة الرقى الحضارى الذى وصلت إليه دولة الاسلام فى العصر العباسى وتتطلب منا نحن أبناء أمة الإسلام الحفاظ على هذا التراث التليد داخل محمية العراق الثقافية وكفانا ما تعرض له هذا التراث على يد برابرة المغول حين داهموا دولة الإسلام وداسوا تحت أقدامهم الدنسة ذلك التراث الخالد، الذى حدثنا عنه ما تبقى من مصادر تاريخية سلمت من عدوان المغول والتتار.

وقد حدثتنا هذه المصادر عن حياة الترف التى كان يعيشها خلفاء العباسيين وكبار رجال الدولة، ويتمثل ذلك فيما إبتنوه من قصور وما كان يحيط هذه القصور من حدائق غناء وبساتين وما تميزت به من فخامة بنائها واتساعها، وأحسن مثل لذلك قصر عيسى بن على العباسى، على نهر الرفيل، المتفرع من دجلة. كذلك قصور البرامكة وزراء العباسيين وقد بنى جعفر ابن يحيى البرمكى قصرا فى الجانب الشرقى من دجلة، كان غاية فى الفخامة والزينة كذلك بنى الخليفة المتوكل العباسى عدة قصور فخمة من بغداد وسامرا منها قصر العروس، وقصر الجعفرى وقصر البرج وقصر التاج وقصر الثريا.

كذلك بنى الخليفة المقتدر دار الشجرة وكان بها شجرة من الفضة زنتها خمسمائة ألف درهم وعليها طيور مصوغة من الفضة تصفر بحركات معينة وهى وسط بركة كبيرة من الماء وقد استقبل الخليفة المقتدر فى قصره المعروف بقصر التاج رسول الامبراطور البيزنطى الذى عدد الكميات الهائلة التى بهذا القصر من الستور والبسط.

أشهر مكتبات بغداد

وبنى الخليفة هارون الرشيد خزانة الحكمة أو بيت الحكمة وأكملها من بعده إبنه المأمون، وكانت من أشهر مكتبات بغداد وقد احتوت هذه الكتب على أعداد كبيرة من الكتب المؤلفة والمترجمة عن الفارسية واليونانية وخصوصا الكتب التى حفظت التراث اليونانى من الضياع وكانت تضم هذه الدار غرفا خاصة للترجمة والنسخ.

سقوط بغداد

ولقد عمرت هذه الحضارة العربية العظيمة محمية العراق خمسة قرون من قرون العصور الوسطى، وفى أعقابها تعرضت لعدوان غاشم جاءها من الشرق

علي يد المغول والتتار، ويصف جوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب ذلك بقوله: «واستولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وخربوها تماما، وخنقوا آخر خلفاء العباسيين المستعصم بالله بأمر هولاكو رئيس الغالبين ونهبوا ما في بغداد من الأموال وحرقوا كتبها التى جمعها قبل هذه الكارثة المريعة محبو العلم وألقوها إلى نهر دجلة فتألف فيها جسر كان يمكن للناس أن يمروا عليه رجالا وركبانا وأصبح ماء دجلة أسودا من مدادها كما روى قطب الدين الحنفي ولكن اولئك الوحوش الضارية الذين أضرموا النار في المباني وأحرقوا الكتب وخربوا كل شيء نالته أيديهم خضعوا لسلطان حضارة المغلوبين بدورهم حتى أن هولاكو الذى خرب بغداد وأمر بجر جثة آخر العباسيين تحت أسوارها، بهرته عجائب حضارة العرب الجديدة في نظره فلم يلبث أن صار من حماتها. وفي المدرسة العربية تمدن المغول واعتنقوا دين العرب وحضارتهم وشملوا متفنني العرب وعلماءهم برعايتهم وأقاموا في بلاد الهند دولة عربية قوية من فورهم ما لأنهم أحلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة ولأن سلطان حضارة العرب لايزال مسيطرا هناك حتى اليوم».

ويواصل لوبون تعليقه على هذا الغزو المغولي الغاشم بقوله:

«أجل قامت بغداد من تحت الأنقاض ولكن الترك استولوا عليها بعد ثلاثة قرون فأصيبت بانحطاط تام فغابت عنها المكتبات ورجال الفن والعلماء.»

***

وما أشبه اليوم بالبارحة، وها هي العراق تتعرض اليوم لعدوان صليبي غاشم جاءها من ناحية الغرب علي غرار عدوان المغول الذي وقع عليها من الشرق وكأن التاريخ يعيد نفسه، وكما استهدف المغول الإسلام وخلافته في الماضي، فصيلبي التاريخ الحديث يستهدفون الإسلام أيضا هذه الأيام متواطئون في ذلك العدوان مع الصهيونية العالمية. لقد جاء هؤلاء ليهدموا محمية ثقافية من محميات الإسلام، ويهدموا بعد ذلك بقية المحميات رغبة منهم في القضاء علي الإسلام والمسلمين أخذا بثأرهم من المسلمين الذين هزموهم في التاريخ الوسيط في حطين وعين جالوت وعكا.

لكن الله ناصر دينه، وقد وعد عباده المسلمين بالنصر، وستظل راية الإسلام خفاقة إلي يوم الساعة.. ولو كره الكافرون.. ولو كره المشركون.. ولو كره الأمريكان والبريطانيون.. ولو كره بوش وشارون. ■





جنكيز خان

سقوط بغداد

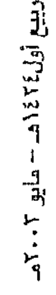
بقلم
د. يوسف زيدان

«إن ما يحدث اليوم هو نفس ما حدث
عندما سقطت بغداد أيام هولاكو»

كنت قد قطعت على نفسى موثقا غليظاً، ألا أكتب حرفا فيما يجرى من حرب فى العراق، نأيا بالكلمات عن الخوض فى أوحال هذا الموضوع الذى لا تجدى معه كلمات.. ولما طلبت (الهلال) المشاركة فى هذا العدد الذى بين أيدينا، قدمت ما يشبه الاعتذار.

فى اليوم نفسه، كانت الحشود الأمريكية والبريطانية تتوالى على حواف العراق، ولا أقول: حدودها! وزعموا فى اللحظة الأولى من اجتياحهم أرض العراق، أنهم أسقطوا (أم قصر).. وكنت ليلتها، بعد الاكتواء بنار النشرات الإخبارية، أقلب الكتب والمتون التراثية التى تجثم فوق رفوف مكتبتى وتثقل روحى بوطء عميم يسمونه التراث العربى.

وقع فى يدى المجلد الثانى عشر من كتاب (الكامل فى التاريخ) لابن الأثير، فقرأت فى صفحته الثامنة والخمسين بعد الثلاثمائة، تحت عنوان (ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام) سنة ٦١٧ هجرية، ما نصه:



يقول ابن الأثير: لقد بقيت عدة .. سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم رجلا وأوخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمى لم تلدنى، وياليتنى مت قبل حدوثها وكنت نسيا منسيا، إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا.. فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم منذ خلق الله تعالى آدم وإلى الآن، لم يبتلوا بمثلها،

لكان صادقاً. فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.. فمن أعظم ما يذكرون من الحوادث، ما فعله بخت نصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس، وما البيت المقدَّس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعيين من البلاد، التى كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟! فإن مدينة واحدة ممن قتلوا ، أكثر من بنى إسرائيل ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم.. ولقد بلى الإسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم، منها هؤلاء التتر قبحهم الله، أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التى يستعظمها كل من سمع بها، ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر، ومنها أن الذى سلم من هاتين الطائفتين - من أهل الإسلام - فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق.

ملاحظة مهمة: كان الله رحيما بابن الأثير، فاختاره إلى جواره سنة ٦٣٠ هجرية، فلم يشهد هذا المؤرخ سقوط بغداد، سنة ٦٥٦ هجرية.. وإلا فما الذى كان سيقوله ابن الأثير عن ذلك، وما الذى كان سيعصف بروحه التى تألمت هذا الألم المجهض، لمجرد بدايات الاجتياح المغولى لمشارق العالم الإسلامى وتدمير جنكيز خان للمملكة الخوارزمية.. وما ذلك، بجانب ما فعله هولاكو بعد ذلك ببغداد؟

ملاحظة أخري مهمة: يورد ابن الأثير بين ثنايا كلامه فى هذا الفصل الذى رأينا فيما سبق مدخله (حوادث سنة ٦١٧ هجرية) إشارة يجب علينا الوقوف عندها طويلاً متأملين .. يقول: نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم، فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم الأمر، لعدم المانع.

وسبب عدمه، أن محمد خوارزمشاه كان قد استولى على البلاد، وقتل ملوكها وأفناهم، وبقى هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم من التتر، لم يبق فى البلاد من يمنعهم ولا من يحميها.

سبب البلاء

دفعتنى هذه الملاحظة الأخيرة، إلى التأمل فيما كان من أمر محمد خوارزمشاه، فوجدته حاكما عربيا شديد المعاصرة ! كان خوارزمشاه قد ملك المنطقة الممتدة من فرغانة إلى بحر آرال، ومن نهر سيحون (سرداريا) إلى أفغانستان، وهى منطقة واسعة تستغرق الرحلة فيها اليوم بالطائرات ، ساعات ، ومع ذلك، دفعه الطيش وسطوة السلطة



إلى الاستيلاء على بغداد، فأرسل لها جيشا سيطر أولا على همذان، ثم انطلق منها قاصداً بغداد.. وفى كردستان.. هبت عاصفة ثلجية شديدة، فبددت شمل الجيش وقتلت الألوف وتخطف الأكراد ما تبقى من فلول الجيش، فلم يعد منهم إلى خوارزم إلا عدد قليل.

ولم يهدأ محمد خوارزمشاه بعد هذه الواقعة، وإنما واصل رعونته وأحلامه التوسعية، ونجح فى استفزاز أقوى قوة عسكرية فى العالم آنذاك: جنكيز خان.. بدأ الأمر باتصال بينهما، وتبادل سفارات، وإبداء الرغبة فى التعاون الدولى بين البلدين: المملكة الخوارزمية، والدولة المغولية التى كان جنكيز خان قد أقامها على أنقاض إمبراطورية الصين التى احتلها، وكان خوارزمشاه يحلم قلبه بامتلاكها.

وبدأ النشاط التجارى بين الدولتين، بقافلة أرسلها جنكيز خان، مع هدايا لخوارزمشاه ورسالة تقول ضمن كلمات تودد: إنه لا يخفى على عظيم شأنك وما بلغت من سلطان، وإنى أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندى مثل أعز أولادى ولا يخفى عليك أيضا أننى ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أعنت لى قبائلهم .. فإن رأيت أن تهيىء للتجار فى الجهتين سبيل التردد والحركة، عمت المنافع وشملت الفوائد.

واعتقد خوارزمشاه أن جنكيز خان أهانه! لأنه وصفه بأنه (مثل أعز أولادى) فأرسل لحاكم مدينة (أوترار) الواقعة على الحدود بينهما، بأن يتم الاستيلاء على القافلة التجارية التى بادر جنكيز خان بإرسالها، وتباع حمولتها (خمسمائة جمل تحمل سلعا تجارية) ويرسل المال إلى خوارزمشاه، ! بل أكثر من ذلك، يقتل جميع أفراد القافلة.. فقتلوا جميعا (كانوا ٤٥٠ رجلاً، كلهم من المسلمين).

وبالطبع، استشاط جنكيز خان غضبا، ولم يصدق أن خوارزمشاه يفعل ذلك، فأرسل له سفارة مؤلفة من ثلاثة رجال أحدهما مسلم والآخران مغوليان، ومعهم خطاب احتجاج على ما جرى من الغدر بالقافلة.. فما كان من خوارزمشاه، إلا أن قتل المبعوث المسلم، وحلق لحية زميليه المغوليين إمعانا فى إذلالهما.

وهكذا اندفع جنكيز خان بجيوشه ليجتاح مشرق العالم الإسلامى، وانتقم لكرامته بقتل كل ما كان حيا فى البلاد التى صادفته: الناس، الحيوان، الشجر.. ومات مئات الألوف من المسلمين.. رجالا ونساء وأطفالا، أما خوارزمشاه نفسه..

فقد هرب!

وتمضى السنون بطيئة، ويتولى مملكة جنكيز خان حفيديه: بركة خان، هولاكو ويستكمل هولاكو ما بدآه جده، ويوغل فى العام الإسلامى ، مخلفا آهرامات من القتلى المسلمين، حيت وصل إلى بغداد.

الانهيار

من العسير تبيان ما تمثله بغداد فى تاريخ الحضارة الإسلامية، فهى تحتل مكانة لا يمكن لمدينة أخرى أن تقاربها، فهى كما يوجز ياقوت الحموى (معجم البلدان ٤٥٦/١): أم الدنيا وسيدة البلاد، ولما سأل ابن العميد، الصاحب بن عباد، عن بغداد بعد عودته من زيارتها، قال: بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد.

أما من حيث مشاركتها فى صياغة التراث العربى، فهى المدينة الأكبر إسهاما والأكثر عطاء عبر قرون طوال، كانت فيها قبلة العلماء ومواطن العلوم والجامعات والمجامع العلمية.. حتى أن التراث العربى يحفل بأعمال علمية لأكثر من ألف مؤلف، كلهم يحملون لقب البغدادى.. وهؤلاء هم الذين خرجوا من بغداد إلى مدن أخرى، فانتسبوا إلى موطنهم الأول، أما الذين وفدوا إليها وأقاموا بها، فلا يكاد عددهم يقع تحت الحصر.

كان صدر هولاكو يوغر ضد المسلمين، وكانت زوجه (طقز خاتون) نسطورية تكره المسلمين كراهية شديدة وتحفزه دوما على النيل منهم.. وكان هولاكو قد وصل بجيوشه بغداد وتدميرها، آملا فى أن تقوم على أنقاض الدولة العباسية.. دولة شيعية فى العراق يكون هذا الوزير الشيعى حاكما لها.. وهو ما لم يحدث أبداً..

١٢٥٨/١/١٨

فى هذا اليوم المشئوم، طوقت جحافل هولاكو مدينة بغداد بعدما سقطت المدن المحيطة بها.. ولن أفيض هنا فى ذكر ما حدث، مكتفيا بالفقرات التالية الواردة فى كتاب الدكتور السيد الباز العرينى (المغول) حيث يقول ما نصه:

أعلن هولاكو عزمه على الاستيلاء على بغداد.. واعتقد الخليفة بأنه سوف يلبى نداءه كل من الأيوبيين فى الشام والمماليك فى مصر، فيهرعون إلى الانضواء تحت العلم الأسود شعار العباسيين ، وسوف تعلن إيران وتركستان التمرد والعصيان على المغول، على أن هذه الآمال كانت خادعة.. أخذت الجيوش المغولية تهبط إلى بغداد، وسيطروا على الموصل، واحتشدت كل

الجيوش يوم ١٨ يناير ١٢٥٨، وخرج جيش الخليفة إليهم، فهاجمه المغول وقتلوا منه أثنى عشر ألف مقاتل.. حل بسكان بغداد من تدهور الروح المعنوية ما لم يحل بغيرها فى سائر المدن، حاول عدد كبير من رجال الحامية الفرار، غير أن المغول أوقعوا بهم.. وفى العاشر من فبراير صدرت الأوامر لجميع سكان بغداد بالخروج من المدينة، وإعلان الإذعان برفع أيديهم إلى أعلا، فصاروا يخرجون إلى المغول طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا قتلهم المغول عن آخرهم.. على أن جانبا من سكان بغداد لم ينفذوا ما صدر إليهم من أوامر، فلما دخل المغول إلى المدينة ، أجروا فيهم مذبحة جماعية، وأشعلوا الحرائق، وظل عساكر المغول ينهبون المدينة ويستبيحونها مدة سبعة أيام، وأمر هولاكو جموع عساكره المرابطة أعلى الأسوار، بالهبوط إلى المدينة والاشتراك فى الإجهاز على كل السكان، ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يوما.. وبلغ عدد ضحايا المغول، نحو ثمانين ألف نسمة (هذا ما يذكره د. العرينى، أما ابن العماد فيؤكد أن مجموع قتلى المسلمين فى بغداد كان مليونا وثمانمائة ألف).

سوريا

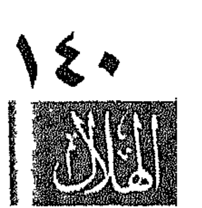
بعد سقوط مدن العراق الواحدة تلو الأخرى، وبعد الانتهاء من بغداد.. توجهت أنظار القوات الغازية إلى سوريا، وأرسل هولاكو إلى الملك الناصر حاكم دمشق رسالة نقل منها ابن العماد الحنبلى فى كتابه (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) هذه السطور التى ينبغى لنا اليوم، أن نتأملها طويلا.. يقول هولاكو فى رسالته لحاكم دمشق: إنا لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم ، قتلناهم.. ووجدوا ما عملوا حاضراً، أحب ملك البسيطة ، ولا تقولن قلاعى المانعات ورجالى المقاتلات ، ولقد بلغنا أن شذرة من العسكر (السلطة العراقية المنهارة) التجأت إليك هاربة وإلى جنابك لائذة:

أين المفر ولا مفر لهارب
ولنا البسيطان الثرى والماء

فساعة وقوفك على كتابنا، تجعل قلاع الشام، سماءها أرضها، وطولها عرضها، والسلام.

وبعد أيام أرسل هولاكو للناصر رسالة ثانية، بدأها بقوله: أما بعد ، فإنا فتحنا بغداد واستأصلنا ملكها وملكها.. ونحن فى طلب الازدياد على ممر الآباد.. أجب ملك البسيطة تأمن شره.

وفى سياق هذه الحملة الإعلامية الشرسة، أرسل هولاكو رسالة ثالثة، يقول فيها للناصر: نحن قد أهلكنا البلاد وأبدنا العباد وقتلنا النسوان والأولاد ،



فأيها الباقون أنتم بمن مضى لاحقون، ونحن جيوش الهلكة مقصودنا الانتقام وملكنا لايرام.. ونحن إليكم صائرون ولكم طالبون، ولكم الهرب وعلينا الطلب (راجع: شذرات الذهب ٥/٢٧٣).

ثم اتجه هولاكو إلى دمشق، وفى طريقه دمر حلب، وحين وصل إلى أسوار دمشق، كان الناصر قد هرب.

الآفاق الحزينة

دخلت الحضارة العربية الإسلامية بعد سقوط بغداد أفقا مأساوياً حزينا لم يخرج منه المسلمون إلى اليوم.. ولا اعتقد أننا وعينا بهذه الواقعة - حتى اليوم - تمام الوعى، ولم ندرك حتى مفرداتها وأخبارها فعلى سبيل المثال، قالوا لنا فى حصص التاريخ، أن هولاكو حين دخل بغداد أمر بألقاء المخطوطات المحفوظة بمكتبات بغداد فى نهر دجلة، حتى يعبر عليها عساكره بخيلهم! ولعمرى ، أى خيل هذه التى ستعبر نهراً فوق مخطوطات؟

واقع الأمر، أن عاصمة الخلافة كانت تحوى مئات الألوف من نوادر المخطوطات العربية التى تمثل (كتاب الحضارة) وتتجلى فيها أيات الإسهامات العلمية العربية فى العصور السابقة.. ويعلم المشتغلون بالمخطوطات أن أخطر ما يهدد المخطوطات : الماء ، فهو يغسل الحبر ويمحو ما هو مكتوب بالمخطوطة، فلا يمكن استرجاعه.

لقد أراد الغزاة محو الحضارة العربية بإلقاء المخطوطات فى النهر، ولم يفكروا فى نهب ثروات البلاد بقدر ما فكروا فى إخماد جذوة الحضارة فيها بهذه الفوضى التى أحدثوا، وبهذا الخراب غير المعلل، وبهذا الإهدار غير المسبوق.

وضاعت الآلاف من المخطوطات مع سقوط بغداد بأيدى المغول، وماتت الحضارة هناك، وغرِّبت المجامع العلمية بالعراق، ولم تشرق بعدها آبداً.. قلبى عليك يا بغداد.. أين أنت اليوم، وأين المخطوطات التى تجمعت فى خزائنك خلال القرون الأخيرة، أين الآن مخطوطة لمتحف العراق التى اعتمدت عليها فى تحقيق كتاب (الشامل فى الصناعة الطبية) لابن النفيس، وكانت أكثر مخطوطات الكتاب اكتمالاً.. أين تلك النسخ التى كتبت بخط مؤلفيها.. أين أصدقاؤنا من الشعراء والكُتّاب والمفكِّرين،، أين المفر.. الدموع تعوقنى عن الاستمرار فى الكتابة. ■

الثائرون فى وجه الاحتلال البريطانى هبوا مطالبين بالاستقلال

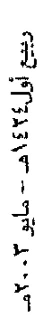
ثورة العشرين

قراءة فى تاريخ الحركة الوطنية العراقية

بقلم

د. على بركات *





ربيع أول ١٤٢٤هـ - مايو ٢٠٠٣م

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) كانت الحركة الوطنية العربية المطالبة بالاستقلال تعانى انقساما واضحا، فالمغرب العربى كان قد خضع للاستعمار الأوربى، فالجزائر وتونس والمغرب قد خضعت للاستعمار الفرنسى، وخضعت مصر للاستعمار البريطانى كما خضعت ليبيا للاستعمار الإيطالى رغم وجود جيوب للمقاومة، وعلى هذا فإن الحركات الوطنية فى المغرب العربى بما فى ذلك مصر كانت موجهة ضد الاستعمار البريطانى والفرنسى والإيطالى.

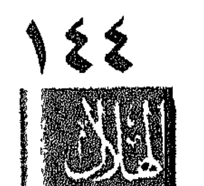
*أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة حلوان



شيوخ العشائر الذين قادوا الثورة

أما المشرق العربى فقد كان لايزال يخضع للسيادة العثمانية وكانت الحركة العربية المناهضة للحكم العثمانى والتى عبرت عن نفسها فى شكل جمعيات أدبية وسياسية تطمح فى البداية فى الحصول على قدر من اللامركزية فى إطار السيادة العثمانية إلا أن وصول الاتحاديين إلى السلطة فى استانبول واتباعهم سياسة تقوم على مركزية الدولة وتتريك ولاياتها وتمجيد العنصر الطورانى الذى ينحدر منه الأتراك ، كل ذلك دفع بالحركة العربية إلى الدعوة إلى الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلال الولايات العربية ، وكان أبرز الجمعيات التى تبنت هذا الاتجاه جمعية العهد العسكرية التى تأسست بشكل سرى فى استانبول عام ١٩١٣ بزعامة عزيز على المصرى ومجموعة من الضباط العرب الذين كانوا يعملون فى الجيش العثمانى، وكان بعضهم من العراقيين من أمثال طه الهاشمى ونورى السعيد وجميل المدفعى وقد اقتصرت عضوية تلك الجمعية على العسكريين مع استثناءات قليلة.

وكان هدف الجمعية هو حصول الأقطار العربية فى المشرق على استقلالها عن العثمانيين ولما كان الضباط العراقيون يتمتعون بثقل عددى ملحوظ فى تلك الجمعية فقد أنشأت الجمعية لها فروعاً فى الموصل وبغداد.



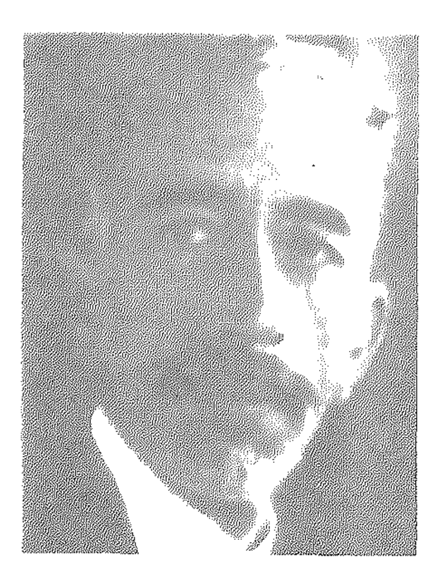
ويرجع زيادة عدد الضباط العراقيين فى الجيش العثمانى إلى أن الدولة العثمانية كانت قد أسست عددا من المدارس العسكرية منذ أواخر القرن التاسع عشر فى العراق ومن الواضح أن السلطات الاتحادية قد أدركت بتحركات الضباط العرب فى الجيش العثمانى فقامت بالقبض على الرائد عزيز على المصرى فى فبراير سنة ١٩١٤ قبل دخول تركيا الحرب.

وعندما بدأت الحرب العالمية الأولى حاولت بريطانيا الاستفادة من سخط العرب على العثمانيين وتشجيعهم على الثورة ضد الأتراك وكان ذلك سوف يرغم تركيا على الاحتفاظ بجزء من قواتها فى مواجهة الثوار العرب، وفى الوقت نفسه فإن قيام الثورة فى شبه جزيرة العرب سوف يحول دون اتصال القوات التركية فى اليمن وعسير والقوات التركية فى بلاد الشام ومعها لا تصبح القوات التركية فى جنوب شبه جزيرة العرب خطرا على القاعدة البريطانية فى عدن، وعلى هذا فقد عقدت السلطات البريطانية عددا من الاتفاقات مع أمراء شبه جزيرة العرب ومن بينهم الأدارسة فى عسير، لكن أخطر تلك الاتفاقات كانت تلك التى عقدتها بريطانيا مع الشريف حسين بن على فى الحجاز وكان بدوره على خلاف مع العثمانيين بسبب مشكلات تتعلق بمستقبله كشريف لمكة وعلى الرغم من أن الحركة العربية فى بلاد الشام كانت أقوى وقادتها أكثر نضجا إلا أن بريطانيا رأت أن تتعامل مع الشريف حسين لقيادة الثورة ضد العثمانيين لأن ذلك كان يحقق لبريطانيا هدفين:

الأول : تفتيت الاجماع الإسلامى عن طريق طرح قيادة إسلامية عربية مناوئة للسلطان العثمانى فى استانبول.

الثانى : أن قيادة الشريف سوف تكون أسلس من زعماء الحركة العربية فى بلاد الشام الذين ينتمون إلى المثقفين وبرجوازية المدن.

وقد أعلنت الثورة ضد العثمانيين فى ١٠ يونيو ١٩١٦ وفى أول وزارة عربية تشكلت برياسة الشريف على أصبح عزيز المصرى وزيرا للحربية ومن ثم شرع فى تشكيل نواة لجيش نظامى إلى جانب قوات القبائل غير النظامية لكن عزيز المصرى ما لبث أن ترك القيادة لجعفر العسكرى ونورى السعيد الذى أصبح نائبا له وكلاهما من الضباط العراقيين، ويرجع ذلك إلى خوف الشريف حسين من أن تصبح القوة الحقيقية فى يد عزيز المصرى وربما أيضا بسبب موقف الإنجليز الذين رأوا



الملك فيصل الأول



الشريف حسين بن على

فى عزيز المصرى قائدا طموحا يصعب ترويضه.

إنجلترا وغزو العراق

وهكذا اختلف موقف عرب المشرق من الإنجليز والفرنسيين أعداء الحركة الوطنية فى المغرب وربما يفسر ذلك لماذا لم تلق القوات البريطانية مقاومة عنيفة من الشعب العراقى عندما بدأت إنجلترا غزو العراق فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٤.

وكان العراق موضع اهتمام السياسة البريطانية منذ بدأ النفوذ البريطانى يستقر فى الهند فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وكان لورد كيزون نائب الملك فى الهند أكثر الساسة البريطانيين اهتماما بالعراق فى مطلع القرن العشرين ويرى أن المصالح البريطانية لا تقتصر على الخليج بل تمتد إلى بغداد، وكان الرحالة والتجار والقناصل البريطانيين قد مهدوا عبر ثلاثة قرون لهذا الغزو من حيث إعداد المعلومات والخرائط ومعرفة أوضاع السكان منذ وصول الإنجليز للبحار الشرقية، وعلى هذا فعندما نزلت القوات البريطانية كان لدى البريطانيين أهداف واضحة فى احتلال العراق واستغلال موارده وثرواته فضلا عن موقعه.

بدأت العمليات العسكرية فى الشرق الأدنى فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٤ أى بعد يومين من إعلان تركيا الحرب ضد بريطانيا عندما نزلت قوات إنجليزية فى شط العرب ثم استولت تلك القوات على البصرة فى ٢١ نوفمبر ثم على القرنة فى ديسمبر وبذلك احتلت بريطانيا جنوب العراق، إلا أن تلك القوات فشلت فى احتلال بغداد ثم هزمت القوات البريطانية هزيمة كبيرة أمام العثمانيين

في كوت العمارة في إبريل سنة ١٩١٦. إلا أن البريطانيين قد تحولوا إلى الهجوم مرة أخرى في النصف الثاني من عام ١٩١٦ واستولوا على كوت العمارة في فبراير ١٩١٧ وعلى بغداد في مارس ومع حلول شهر نوفمبر كان البريطانيون قد استولوا على معظم العراق بعد أن احتلوا الرمادي وتكريت، وقد استغرقت عملية غزو العراق بكامله أربع سنوات، ذلك أن الموصل ومناطق أخرى في الفرات الأعلى قد ظلت بعيدة عن السيطرة البريطانية إلى ما بعد توقيع الهدنة عام ١٩١٨.

وقد بلغت خسائر البريطانيين في الحملة على العراق مائة ألف ما بين قتيل وجريح بسبب المقاومة التي أبداها العثمانيون وبعض العشائر.

وعلى الرغم من أن السلطات البريطانية قد أعلنت غداة الاستيلاء على بغداد بأن القوات البريطانية لم تدخل العراق غازية أو فاتحة بل محررة للعراقيين من نير الحكم التركي، إلا أن البريطانيين سرعان ما أقاموا إدارة استعمارية أصبحت بمقتضاها في يد العسكريين وبذلك حل البريطانيون محل الإدارة العثمانية ، وتسرعت تلك السلطة في اتخاذ سلسلة من الاجراءات تؤكد تكريس الاحتلال العسكري للعراق لأجل غير معروف، وهذا الاتجاه في السياسة البريطانية يتضح فيما يلي:

- محاولة صبغ العراق بالصبغة الهندية وخاصة الجنوب الذي كان هناك اتجاه لضمه إلى إدارة الهند.
- استمالة رؤساء العشائر ومنحهم الاقطاعات لضمان ولائهم للوجود البريطاني وفي هذا الاتجاه خلقت بريطانيا أحد المعوقات لتطور العراق، السياسي والاجتماعي وأوجدت الأساس الذي أصبحت تلعبه العشائر في السياسة العراقية.
- تركيز السلطة في أيدي كبار الموظفين الإنجليز واشراك العراقيين وبشكل تدريجي في الوظائف الثانوية بحجة عدم كفاءتهم، الأمر الذي آثار حفيظة العراقيين.
- تطبيق قدر من الإصلاحات في مجال الطب الوقائي والعلاجي لحماية الموظفين البريطانيين وقوة الاحتلال وان كان الشعب العراقي قد استفاد من تلك الإصلاحات .
- إصلاح النظام الإداري وخاصة الإدارة المالية لضمان تدفق الفائض للخزانة البريطانية.

كل هذه الإجراءات كانت تشير إلى إطالة أمد الاحتلال البريطاني للعراق، وهو ما أكدته قرارات مؤتمر سان ريمو

التى صـدرت فى نهـاية إبريل ١٩٢٠ والتى وضعت العراق وفلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب البريطانى وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى تنفيذاً للمخططات السرية التى جرى وضعها خلال الحرب.

وكان الرأى العام العربى قد أحس بأبعاد المؤامرة التى جرى تدبيرها ضد العرب، ومن ثم جرى عقد المؤتمر السورى فى دمشق فى مارس سنة ١٩٢٠.

واتخذ عددا من المقررات من بينها الاعتراف باستقلال العراق، كما انعقد مؤتمر آخر من مجموع العراقيين الذين كانوا ضمن عناصر الثورة فى بلاد الشام ومن انضم إليهم من قادة الحركة الوطنية فى العراق واتخذوا قراراً مكملا لقرارات المؤتمر السورى فيما يتعلق باستقلال العراق.

مؤتمر سان ريمو

وعلى ذلك فإنه فور إعلان قرارات مؤتمر سان ريمو ومعرفة العراقيين بها فى أوائل مايو سنة ١٩٢٠ اندلعت الثورة ضد الإنجليز فى العراق والتى يمكن أن تحدد لها أكثر من سبب:

أولاً : تنكر الحلفاء لوعودهم ومنها مبادىء ولسون الأربعة عشر والتى جرى إعلانها عند دخول الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا عام ١٩١٧ وأهمها حق تقرير المصير للشعوب التى كانت تخضع للدولة العثمانية، بالإضافة إلى ما أعلنه قادة الغزو البريطانى عقب الاستيلاء على بغداد من أن القوات البريطانية جاءت لتحرير العراق من العثمانيين (ما أشبه الليلة بالبارحة).

ثانيا : نمو الروح القومية والوطنية لدى العراقيين فى إطار تيارات اليقظة التى يشهدها المشرق العربى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وانضواء عناصر من العراقيين فى الجمعيات التى أشرنا إليها وأبرزها جمعية العهد العسكرية.

ثالثاً : النجاح المبدئى الذى حققته الثورة العربية وقيام الحكومة العربية فى دمشق شجع العراقيين على أن تكون لهم دولتهم المستقلة.

رابعاً : الصدى الذى تركته ثورة عام ١٩١٩ فى مصر على المنطقة العربية ومنها العراق وكانت الصحف المصرية والسورية التى تتحدث عن الثورة وأحداثها تصل إلى العراق، وتقرأ باهتمام شديد فى الأوساط العراقية.

خامساً : الدور الذى لعبه العراقيون فى الثورة العربية من الضباط الذين تركوا الجيش العثمانى وانضموا لقوات الثورة أو الذين جرى أسرهم من الجيش

العثمانى ثم أطلق الحلفاء سراحهم، هؤلاء أصبحوا دعاة للثورة ضد الإنجليز ثم مقاتليها بعد قيامها.

سادساً: الدور الذى لعبته القوات البريطانية خلال سنوات الحرب والتى عمقت التناقض بين الشعب العراقى وسلطات الاحتلال ومنها جمع العراقيين لخدمة المجهود الحربى البريطانى واستغلال موارد العراق فى الاتجاه نفسه واستخدام وسائل النقل المختلفة لصالح قوات الاحتلال كما حدث فى مصر.

سابعاً: اتجاه السلطات البريطانية إلى العنف فى مواجهة التحركات السياسية العراقية التى سبقت الثورة ومنها منع الاحتفالات الدينية والتجمعات الجنائزية من قبل العراقيين.

يضاف إلى ذلك أن عمليات غزو العراق من قبل البريطانيين لم تلق من البداية قبولا من الشعب العراقى، على الرغم من كراهية الشعب العراقى للعثمانيين بل أن بعض العشائر قد دخلت فى مواجهات عسكرية وصلت إلى حد الحرب مع القوات البريطانية الغازية رغم السياسة البريطانية التى حاولت احتواء العشائر فى العراق، وقد بدأت الثورة فى شكل تحركات واجتماعات فى المساجد كانت تلقى فيها الخطب والقصائد الشعرية التى تحض على مواجهة الاحتلال وقد أسفرت تلك الاجتماعات عن تفويض خمسة عشر مندوبا تم انتخابهم من أهالى بغداد والكاظمية لمقابلة المندوب البريطانى ارنولد ولسون بعرض مطالب الشعب العراقى عليه، وأهمها الدعوة إلى مؤتمر وطنى يمثل جميع العراقيين لتقرير مصير العراق ونوع الحكم الذى يراه الشعب العراقى واقرار حرية الصحافة ليتمكن الشعب العراقى من التعبير عن نفسه.

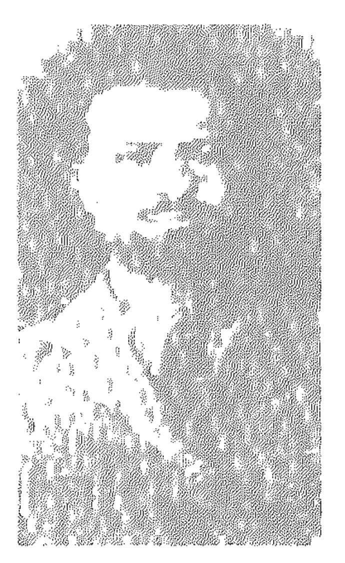
وفى الوقت نفسه استمرت الاتصالات بين قادة الحركة الوطنية فى اتجاه الإعداد للثورة فى حالة رفض السلطات البريطانية للمطالب الوطنية، وخلال تلك التحركات برز بعض أعضاء التنظيمات السرية وخاصة جمعية العهد من أمثال جعفر أبوالحسن ويوسف السويدى ومحمد الصدر.

أسباب الثورة

وكان السبب المباشر للثورة هو قيام السلطات البريطانية بالقبض على الشيخ شعلان أبو الجون شيخ عشيرة الظولم من بنى حجيم بالرميثة بسبب موقفه المناهض للإنجليز ، على أثر ذلك قامت مجموعة من عشيرته بإطلاق سراحه بالقوة بعد اقتحام سراى الحكومة فى ٣



نورى السعيد



جميل المدفعى

يونيو سنة ١٩٢٠، وفى ذلك الهجوم قتل شرطيان وأطلقت النار على دار الحاكم البريطانى الذى اعتصم مع الحامية البريطانية فيها، ثم قام الثوار بعد ذلك بتدمير خط السكة الحديد شمال وجنوب المدينة لمنع وصول الإمدادات البريطانية إليها، وفى تلك الاثناء تحركت عشائر أخرى فى السماوة وحاصرت الحامية البريطانية فى المدينة وبالمثل تم قطع خط السكة الحديد شمال وجنوب المدينة لمنع وصول أى نجدات إليها، ثم هاجم الثوار قطارا قادما من البصرة وأرغموه على التراجع وكان متجها إلى بغداد، وعندما استطاع البريطانيون فك الحصار عن الحامية كانت خسائرهم قد بلغت ثلاثة ضباط و ٣٢٠ جنديا، كما بلغ عدد الجرحى ضابطين و١٥٠ جنديا إلى جانب خسائر الحامية المجاهدة التى بلغت ١٤٨ ما بين قتيل وجريح ولما لم تستطع القوات البريطانية الاستمرار فى المعركة اضطرت إلى الانسحاب فى ٢١ يوليو، وخلال تلك الفترة امتدت الثورة إلى معظم مناطق العراق فشملت الفرات الأوسط ومدن بغداد والكاظمية والنجف وكربلاء حطم خلالها الثوار الخطوط الحديدية وطرق النقل البرى فى كل أنحاء العراق على شاكلة ما حدث فى ثورة ١٩١٩ فى مصر، وكان الهدف من ذلك هو شل حركة الجيوش البريطانية، وإرباكها وإفقادها السيطرة على البلاد حدث ذلك بسبب مشاركة قطاعات واسعة من الشعب العراقى من العشائر ورجال الدين وزعماء الحركة الوطنية فى المدن وجماعات العسكريين من أعضاء الجمعيات القديمة والضباط الذين كانوا يعملون فى الجيش العثمانى مما جعل

السلطات البريطانية تعتقد أن قوات من الجيش التركى تعمل إلى جانب الثوار، وقد برزت أسماء خلال تلك المعارك من أمثال سامى النقشلى وعلى البازركان وعبدالكريم العلاف وغيرهم.

وعلى الرغم من أن القوات البريطانية استطاعت فى النهاية أن تضع حدا للثورة بسبب تفوق آلة الحرب البريطانية واستخدام الطائرات على نطاق واسع لضرب تجمعات الثوار مقابل أسلحة الثوار المتواضعة، فإن الثوار ورجال القبائل استطاعوا أن يلحقو بالقوات البريطانية خسائر فادحة فى الأرواح والمعدات والجوانب المادية وقد استمرت الثورة قرابة خمسة أشهر تكبد البريطانيون خلالها ٢٢٦٩ ما بين قتيل وجريح ومفقود كما قدرت الخسائر المادية بحوالى ٤٠ مليون جنيه استرلينى كما بلغ عدد ضحايا الثوار ٨٠٠٠ ما بين شهيد وجريح.

حكومة عربية مستقلة

وتجدر الإشارة هنا إلى عدم وجود قيادة مركزية للثوار تتولى التخطيط والتوجيه والمتابعة بين المناطق الثائرة وقيادتها قد ساهم فى سرعة تصفية الثورة ، فعلى سبيل المثال لم يتزامن قيام الثورة فى مناطق العراق وألويته المختلفة فعلى سبيل المثال أن أعمال العنف فى الألوية الجبلية ومن بينها الموصل قد بدأت فى عام ١٩١٩ وفى الوقت نفسه استمرت عمليات المواجهة فى بعض المناطق مع البريطانيين إلى ما بعد قيام حكومة عبدالرحمن الكيلانى التى اختارها الإنجليز لسرعة تهدئة الأوضاع فى ٥ أكتوبر ١٩٢٠، واضطرت السلطات البريطانية للدخول مع عناصر الثورة فى تلك المناطق إلى مفاوضات مباشرة كان أهم شروطها أن تكون للعراق حكومة عربية مستقلة وأن يضمن الإنجليز الاستقرار فى تلك المناطق وهى الرميثة والسماوة.

وقد أثبتت أحداث الثورة أن الشعب العراقى كان يتمتع بقدر من الوعى والنضج السياسى والاجتماعى وضح ذلك فى محادثات الزعماء العراقيين مع السلطات البريطانية وخلال البيانات والمنشورات التى أصدرتها عناصر الثورة والحكومات المحلية التى اقيمت فى بعض مدن العراق مثل النجف وكربلاء وداندلى لإدارة شئون تلك المدن بعد سقوط السلطة البريطانية فيها (يشبه ذلك الحكومات التى أقامها الثوار فى بعض المناطق فى ثورة ١٩١٩ مثل جمهورية زفتى)، ورغم التركيبة الإثنية والعرقية المعقدة فلم تر خلال الثورة أى دعوة انفصالية فى أى من أقاليم

العراق.

لقد كانت أبرز نتائج ثورة العشرين كما يسميها العراقيون هو ارغام بريطانيا على تغيير سياستها فى العراق من الحكم العسكرى المباشر إلى شكل من أشكال العلاقة التعاهدية فى معاهدة ١٩٢٢ ثم إلى علاقة أساسها التحالف فى معاهدة ١٩٣٠، عندما بدأت السلطات البريطانية اجراء مشاورات مع مجموعة من الأعيان المعروفين انتهت بتكليف عبدالرحمن الكيلانى نقيب أشراف بغداد بتشكيل حكومة مؤقتة والتى شملت ٩ وزارات إلى جانب ١٢ وزيرا بلا وزارة فى أكتوبر ١٩٢٠ ، ورغم الظروف التى أحاطت بتلك الوزارة فإنها تعد أول حكومة عراقية فى تاريخ العراق الحديث والمعاصر كما أن قيامها كان يعنى اعتراف بريطانيا بوجود الدولة العراقية.

وقد شهدت الفترة التى أعقبت قيام حكومة الكيلانى حوارا حول شكل الحكم انتهى بإجراء النظام الملكى كنظام حكم للعراق ونودى بفيصل بن الحسين ملكا على العراق فى ١١ يوليو ١٩٢١ وأصبحت الخطوة التالية هى تنظيم علاقة الدولة الجديدة ببريطانيا ومن ثم توقيع معاهدة ١٩٢٢ بين بريطانيا والعراق، وفى إطارها أصبحت علاقة بريطانيا بالعراق علاقة تعاهدية غير أن القيود التى تضمنتها تلك المعاهدة جعلت الحركة الوطنية تعمل جاهدة لتغييرها، وخلال الفترة التى أعقبت توقيع معاهدة ١٩٢٢ وحتى عام ١٩٢٦ حاولت السياسة البريطانية استخدام قضية الموصل كورقة ضغط على الحركة الوطنية العراقية فى محاولة لترويضها وكانت قضية الموصل أحد القضايا التى نجحت عصبة الأمم فى حلها لصالح العراق فى مواجهة ادعاءات تركيا، عندما قررت عصبة الأمم بأن الموصل أرض عراقية واعترفت كل من تركيا وبريطانيا بذلك فى معاهدتين منفصلتين وقعتا مع العراق عام ١٩٢٦ واعتبرت الحدود الحالية بمقتضى المعاهدتين حدودا نهائية للعراق.

ومنذ ذلك التاريخ أخذت الحركة الوطنية تعمل على تغيير معاهدة ١٩٢٢ إلى معاهدة تحمل طابع التحالف والندية، ومن ثم وقعت بريطانيا مع العراق معاهدة ١٩٣٠ والتى اتخذت شكل تحالف بين الدولتين وفتحت الطريق لقبول العراق كعضو فى عصبة الأمم سنة ١٩٣٢. ■



العتبات المقدسة في العراق

النجف وكربلاء والكاظم

مقامات الأئمة

بقلم

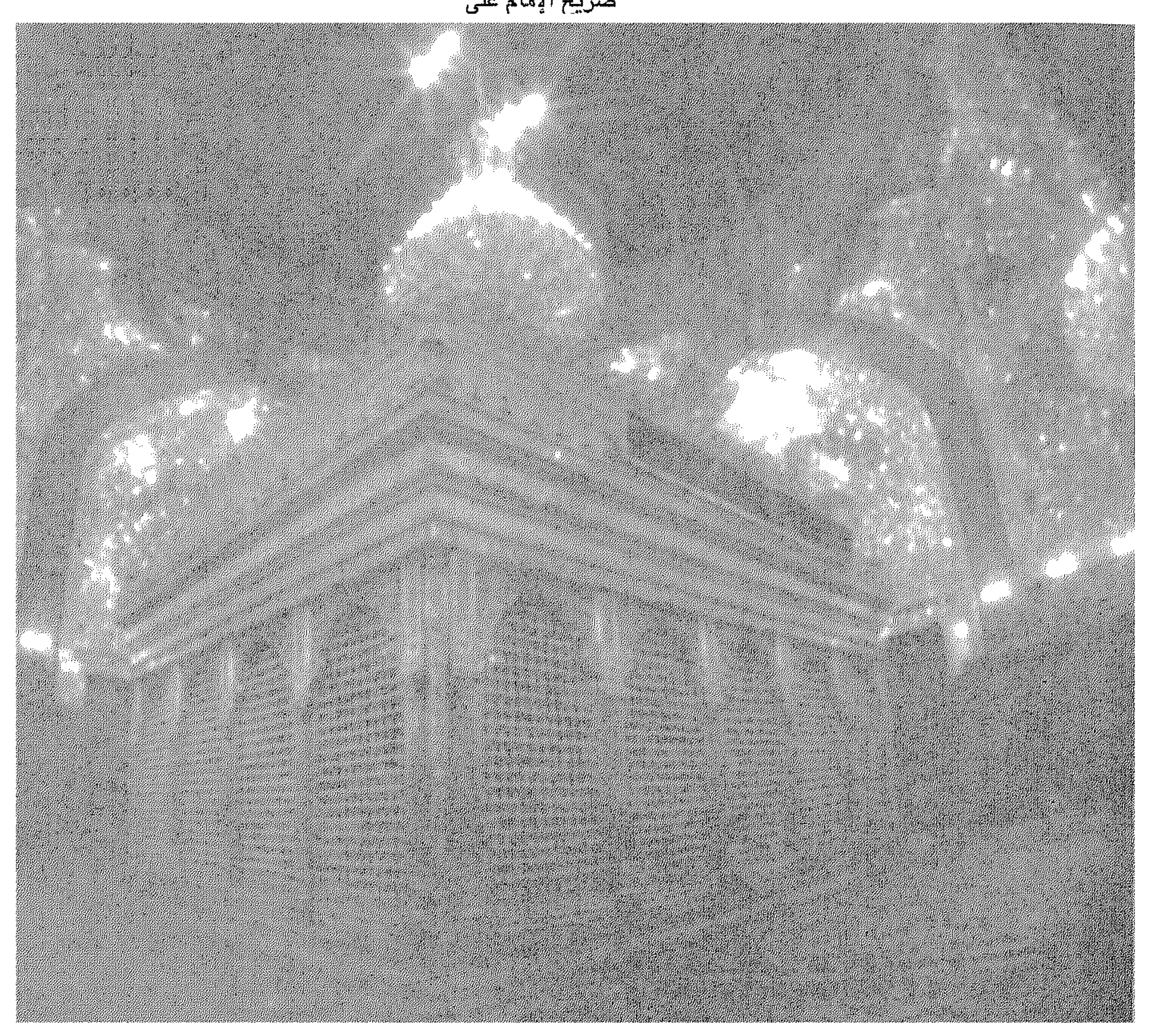
د. هاني فحص (لبنان)

مكان مخيم الامام الحسين وأهل بيته في كربلاء قبل استشهاده

فى معجم البلدان: «النجف بالتحريك.. وهى بظهر الكوفة» تبعد عن الكوفة غربا (١٠ كم) وعن بغداد جنوبا (١٦٠كم) وهى على مقربة من الحيرة، عاصمة المناذرة، وتبعد عن الحلة (بابل) ٦٠ كم جنوبا وعن كربلاء ٨٠ كم جنوبا كذلك.

دفن فيها الإمام على وفيها وادى السلام من أكبر المقابر فى العالم، تحولت إلى جامعة «حوزة علمية دينية» عام ٤٤٩هـ بعد ما احتل «طغرلبك» السلجوقى بغداد وهدم منزل كبير علماء الشيعة الإمامية وأحرق مكتبته، فرحل الشيخ (أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى) ٣٨٥ - ٤٦١هـ إلى

ضريح الإمام على



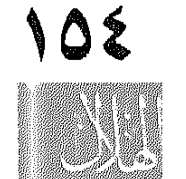
النجف وبنى فيها حوزة علمية على الأساس الذى كان قد أسسه عضد الدولة البويهى عام ٣٧١هـ ، تخرج فيها عدد يصعب إحصاؤه من المجتهدين والعلماء المتخصصين فى سائر العلوم الإسلامية والعربية ، وانفتحت على الحواضر العلمية فى العالم الإسلامى وخاصة مصر وأزهرها. قاد علماؤها ثورتها عام ١٩١٨ - ١٩١٩ ضد الإنجليز ثم قادوا فيها ثورة العشرين إلى جانب الدولة العثمانية رغم وضعها المتراجع.

النجف

تعتمد الحوزة فى النجف دراسة الحلقات آسلوبا وتطورها باستمرار من دون تفريط بحرية اختيار الطالب والأستاذ فى الدراسة والمرجعية أو الاستقلال المالى الذى جعلها عصية على محاولات السلطة لمصادرتها ، ولكن النظام الحالى عمل على تشتيتها وإضعافها وحصارها وحقق نجاحا ملموسا فى ذلك لم يمنعها من الممانعة التى ظهرت ثمراتها فى مقاومتها للعدوان أخيرا. تبلورت فيها تجربة تحديث منذ أواخر الخمسينيات من خلال جمعية منتدى النشر وكلية الفقه التى انفتحت على حقول علمية حديثة وعلى الدراسة الفقهية المقارنة وعلى الجامعات العربية من بغداد إلى القاهرة وعين شمس وقد درس فيها من المصريين الدكتور عبدالله درويش والدكتور حسين نصار ، ونال بعض خريجيها شهادات الدكتوراه من جامعات مصر وغيرها. وقد كانت حوزة النجف ناشطة منذ وقت مبكر فى مجال التقريب بين المذاهب الإسلامية ومحاولات تفادى النكبة فى فلسطين منذ شاركت بشخص مرجعها الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء فى مؤتمر القدس ١٩٣١ وقد أم المؤتمرين أثناءه. وتظاهرت النجف واعتصمت فى مسجد الإمام على أثناء العدوان الثلاثى وسقط فيها شهيدان.. يقع المسجد فى وسطها وهى تتحرك منه وإليه فى كل شئونها ويلتقى فيها طلاب العلم من إيران وباكستان وأفغانستان ولبنان والبحرين والأحساء والقطيف وسوريا وعمان وغيرها.

كربلاء

منحوتة من «كوربابل» آى مجموعة قرى بابلية . وفى رأى الأب أمنستاس الكرملى أنها منحوتة من «كرب - إيل» أى حرم الله، على بعد ٨٠ كم، شمال النجف و٨٠ كم جنوب بغداد غربى الفرات، فتحت بعد القادسية وكانت قاعدة المسلمين قبل تمصير الكوفة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه قتل يزيد بن معاوية الحسين بن على واثنين وسبعين من أصحابه وأهل بيته فيها



مرقد العباس بن علي بن أبي طالب

و ضريحه رضي الله عنه من الداخل

سنة ستين للهجرة وأكمل طريقه إلى المدينة فقتل من أهلها خلقا كثيرا وأباحها لجيشه وأخذ البيعة من الناس على أنهم عبيد ليزيد وانتقل جيشه إلى مكة فقتل من قتل وهدم الكعبة وأحرقها. وحمل رأس الحسين مع السبايا إلى الكوفة ثم إلى الشام حيث وضعه يزيد فى طشت وأخذ ينكثه بخيزرانة وهو يحتسى الخمر متمثلا شعر ابن الزبعرى شماتة بشهداء أحد ويختمه بالقول:

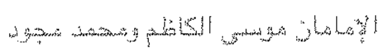
لعبت هاشم بالملك فلا

خبر جاء ولا وحى نزل

وحمل الرأس إلى عسقلان ومنها إلى القاهرة بعد بنائها .. حلت كربلاء مرات عدة محل النجف فى دورها العلمى عندما كانت تتعرض النجف للحروب والأوبئة والمجاعة وشاركتها قيادة وقاعدة فى ثورة العشرين والعقوبات التى تلقتها من الإنجليز عليها.. يزورها كما يزور النجف والكاظمية وسامراء عشرات الآلاف من المسلمين عموما والشيعة خصوصا، من سائر الأقطار الإسلامية ويمدونها بأسباب الحياة والازدهار، ويتوسطها مسجد الإمام الحسين الذى يحتوى ضريحه وأضرحة الشهداء وعلى مقربة منه ضريح أخيه العباس وقريبا من الكوفة دفن الحر بن يزيد الرياحى الذى كان قائد كتيبة فى جيش يزيد جعجعت بالحسين فى البداية ثم انفصل عنها الحر وانحاز إلى الحسين وكان أول الشهداء بين يديه.. وفى أربعين الحسين من كل عام، وأى فى العشرين من صفر، تغص كربلاء بمئات الآلاف فى الزوار من العراق وخارجه.. وأكثر العراقيين يأتونها مشيا على الأقدام ويقيم لهم أهل الطريق مضايف لراحتهم ومئونتهم.. ومنذ أخذت الحكومة تزيد من حصارها وتضييقها على العراقيين عموما وأهالى كربلاء والنجف خصوصا، تحولت هذه الزيارة إلى حركة سياسية ما جعل الدولة تطلق عليها النار فى إحدى السنوات ثم تعمد إلى منعها منذ عقدين من الزمان فى الأقل.

ومن النجف وكربلاء انطلقت حركة مناهضة للشيوعية بعدما عمت فوضى الشيوعيين العراق بأجمعه وهددت أنظمة العلاقات والقيم والأفكار الإيمانية وصدرت فتوى المرجع السيد محسن الحكيم بتحريم العمل مع الشيوعيين فانتبهت الحكومات إلى أهمية دوره ووضعت عينها على النجف التى عاد مرجعها السيد الحكيم فأفتى بحرمة قتال الأكراد فأربك الدولة .. وتذكر الجميع مرجع الشيعة فى أواخر القرن الثامن عشر (الميرزا الشيرازى) الذى أفتى بتحريم التنباك الايرانى بعد اتفاق ناصر الدين شاه القاجارى مع شركة التنباك الانجليزية على حصر التنباك الايرانى فيها ، وخاف ناصر الدين شاه فألغى الاتفاق. وكان ذلك تمهيدا للانخراط فى الثورة الدستورية «المشروطية» التى امتد أفقها من اسطنبول إلى طهران إلى النجف وكربلاء والكاظمية وبغداد وتجاوز الجميع حساسياتهم المذهبية والتقوا على

مرقد سلمان الفارسي رضي الله عنه



الإمامان موسى الكاظم ومحمد مجود

الحرية والديمقراطية والعدالة والوحدة والأصالة المعاصرة أو المعاصرة الأصيلة.

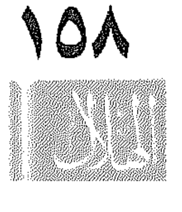
الكاظمية

منسوبة إلى الإمام موسى بن جعفر (الكاظم) لشدة كظمه للغيظ .. بينها وبين الجانب الغربى من بغداد ثلاثة أميال، ومسجدها الذى يحتضن ضريحى الإمامين الكاظم والجواد، لا يعرف تاريخ بنائه سوى أن الطائع العباسى ٣٦٣ - ٣٨١هـ صلى الجمعة إماما فيه أكثر من مرة .. عن الإمام موسى الكاظم يقول إبن شهر آشوب: «كان أفقه أهل زمانه وأحفظهم لكتاب الله وأفصحهم لسانا سليل النبوة وعقيد الخلافة» تضايق هارون الرشيد من مكانته فى الناس وإعراضه عنه، ووشى مسرور به إلى الرشيد الذى أمر السندى بن شاهك بحبسه فحبسه وجعل على حبسه أخته المتدينة فكانت إذا رأته قالت: «خاف قوم تعرضوا لهذا الرجل الصالح» مكث فى السجن أربع سنوات ومات بالسم الذى دسه له السندى، ولخوف السلطة من أثر فعلتها وضعت جنازته على الجسر ليراها الناس ويصدقوا بموته وكونه طبيعيا ، ودفن فى الكاظمية سنة ١٨٣هـ. المحلة التى سميت باسمه ويقال لها «الكاظميين» نظرا لوجود ضريح الإمام الجواد وتغليبا لاسم الجد على اسم الحفيد فى التثنية كما هو معروف لغويا.

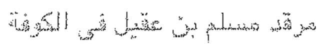
أما الإمام محمد الجواد جار الكاظم فهو حفيده ونجل الإمام على الرضا الذى قرر المأمون نقل الخلافة إليه استمالة للمسلمين المحبين لأهل البيت، فأبى وقبل بولاية العهد، وعندما رآى العباسيون احتفاء المسلمين بذلك أيقنوا أن خلافتهم فى خطر فتدبروا له موتة بالسم، فأصر المأمون على توجهه فزوج ابنته أم الفضل من نجل الرضا أى محمد الجواد الذى كان معروفا من فتوته المبكرة بسعة علمه، وما عتم المأمون أن توفى وخلفه أخوه المعتصم فاستدعى الجواد إلى العراق من خراسان وتآمر عليه مع ابن أخيه جعفر بن المأمون واحتالا لقتله سنة ٢٢٠هـ وعمره ٢٥ سنة فدفن إلى جانب جده ليصبح ضريحاهما مثابة للمسلمين من دون فوارق مذهبية خاصة وأن مقامهما يقع مقابل الأعظمية وقريبا منها، أحد أهم أحياء بغداد السنية وفيها ضريح الإمام أبى حنيفة تلميذ الإمام جعفر الصادق والذى دفع غاليا ثمن حبه لأهل البيت ومناصرته لهم . وقد تميزت الكاظمية بأنها كانت ملتقى للحوار وقد بذل علماؤها عموما وآل الخالص (الشيخ مهدى والشيخ محمد) خصوصا جهودا توحيدية كبيرة كانت لها ثمرات سائغة تذوقتها بغداد وقد عمدوا حوارهم بالجهاد ضد المحتلين وأهل الجور من كل لون.

سامراء

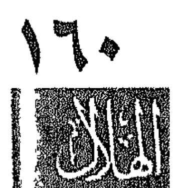
سامراء المدينة بناها المعتصم العباسى سنة ٢٢٠هـ ولم يكن هو الذى وضع اسمها على رأى الكرملى، لأن الاسم ذكره المؤرخ الرومانى «أميانس



الحسن العسكرى وعلى الهادى



مرقد مسلم بن عقيل فى الكوفة



مرقلينس» ت ٣٩٠م «سومرا»، أما مدها سامراء فقد أحدثه العرب والحريرى يقول: الصواب «سرمن رأى» مثل تأبط شرا عرفت فى أيام الساسانيين باسم «الطير هان» وكان فيها دير أصبح بيتا لمال المسلمين وفيها وحولها كانت للنصارى أديرة كثيرة لقربها من دجلة . آهمها «دير مرمارى ودير العذارى».

عندما ضجت بغداد من رقيق المعتصم الأتراك قرر أن يخرج بهم من بغداد فبنى سامراء وجعلها عاصمته ومن بعده خلفاؤه ومنهم المتوكل الذى عظمت عنايته بها فبنى المسجد الجامع الذى تقع على بعد خمسة وعشرين مترا منه المئذنة المشهورة بالملوية.

انتقل إليها المرجع الإسلامى الشيعى رئيس الحوزة العلمية فى النجف الميرزا محمد حسن الشيرازى حيث زاره فيها السيد جمال الدين الأفغانى مؤيدا له فى حركته ضد اتفاق ناصر الدين شاه القاجارى مع إنجلترا على جعل التنباك الإيرانى حكرا على شركة انجليزية وأصدر الشيرازى فتواه المشهورة بتحريم التنباك وأحدث ضجة داخل قصر الشاه وبين نساء القصر وخدمه حيث امتنع الجميع عن تدخين التنباك وخدمة المدخنين وكسروا «الأراجيل» فخاف الشاه وألغى الاتفاق.. واستطاع الشيرازى فى سامراء أن يزيل الحساسية بين السنة الأكثرية وبين الشيعة فى سامراء حتى أقاموا مجالس تعزية بالحسين مشتركة، ما جعل الوالى العثمانى يعجل بتفجير العصبيات والفتن لولا حكمة العلماء من الطرفين.

سكنها الإمام على الهادى عاشر أئمة أهل البيت ودفن فيها سنة ٢٥٤هـ ثم دفن فيها ولده الإمام الحسن العسكرى والد الإمام محمد بن الحسن «المهدى المنتظر» سنة ٢٦٠هـ إلى جوار أبيه فاتخذ الشيعة هذين المرقدين مزارا وأنشأوا العمائر حولهما فازدهرت المدينة ولاتزال بالزوار من كل الأنحاء والأقطار والمجاورين من السنة والشيعة، لأن الجميع اجتمعوا على محبة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذاته وفى أهل بيته والاقتداء بهم .. ولم تخل سامراء من حوزات علمية محدودة على الدوام، كانت تزدهر ويتعاظم دورها عندما يتراجع دور النجف تحت وطأة الأحداث.

سنة ٥٦٤هـ احترق الضريحان فأمر المستنصر بعمارتهما مع المشهد وسنة ١٢٨٥هـ جدد ناصر الدين شاه شباك الضريحين (القفص) وغشى القبة بالذهب والمآذن بالقاشانى أسوة بمشاهد الكاظمية والنجف وكربلاء.. وفى الصحن الثالث من صحون المشهد يقع سرداب الغيبة الذى غاب فيه الإمام الثانى عشر (المهدى) كما يعتقد الشيعة من دون أن يعتقدوا بأنه يخرج منه عندما يخرج ليملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جورا.

إلى هذه المشاهد يوجد فى الكوفة مشهد يضم ضريحى مسلم بن عقيل وهانى بن عروة وهناك مشهد لأبناء وأحفاد الأئمة فى أنحاء متفرقة من العراق. ■

المكان الذي نُحر فيه السبط الحسين في كربلاء على يد الجيش الأموي

مسجد الكوفة

معلقة ماتادور الأبد

"في مئوية لوركا وحوليات الإبادة الجماعية"

شعر
محمد عفيفي مطر

- ١ -

لم تكن تعرف ما يخفى زجاج الأفق الشفاف..
لم تعرف لهاث البرق.. هل كانت غوايات
الفضا المفتوح تغويه فيلهو
أم شهيق الرعد بالنار نصال كسرتها فى
رخام الليل روح الغابرين!
أيها المنشد.. هل أقسمت ألا تنحنى إلا لعشب
الأرض أو قطر الندى،
هل نذرك المعقود أن تجدل من هذا الرخام
روحه الحرة والماء وأن تقتاد نوق البرق والغيم
بحبل من تفاعيلك،
أن تنشد فى رحل قوافيك رمالاً وبلاداً
ثم تعلو لزجاج الأفق كى تمسح من غبشته
هبو دخان ورماد ودم خلفه موت القدامى المنشدين!!
أيها المنشد.. هذا قسم سهل ونذر مستحيل
فعلى أى قوافيك تميل
هبط الصقر على أغصان معناك.. أموت أم صهيل
أم هو المغزل فى صوف السماوات
فعهن ونسيل وفتيل
وخيوط الذهب المطفأ حتى يحجل الطير بها للزغب
المعتم
فى غيم بعيد يتشظى غسقا فى كهرمان فى
تراب فى دخان أم هو الكون يسيل
يتمطى فى هيولاه دوى كدوى العصف قبل الخامسة!!
ساعة الكون على الحافة لما تتهيأ بعد فى
هذا الزجاج المعتم المشروخ بالأسراب
والقافية العليا وإيقاع النداءات،
وفى الأفق نجوم من حصى الكحل،
وغربان لها أجنحة الريح تعالت تلقط
المنثور من جمر الحصى،
تعلو وتهوى فى انتظار الخامسة.
لامع هذا الرخام الأسود المرفوع فى قبو الظلام..
البرق لا يكشف إلا رجفة المعدن فى
أوردة الصمت الذى يسبق رعد الخامسة.
لم يكن للوقت أن يبدأ
هذا أزل من راهن الفعل الذى
لم يكتشف صيغة ماضيه،

عجين برزخ ما بين ماءين،
وطين ذاهل فى أبد القتل
ومكنون على هاوية النطق قبيل الخامسة
إنه الغمر ومكنون الدم المعقود فى عاصفة الظلمة
دقت ساعة الكون تمام الخامسة
وردة هائلة من شفرات الصوت والأصداء والمعدن،
ثورا بامتداد الأفق والريح،
بقرنيه الهلاليين محراثان فى عمق الفضا
يحتفران الملكوت
سككا للكوكب السيار والنجم وروح الفجر
في ألوانه الأولى،
وأخدوداً لمن فى النعش أو من يحملون النعش،
مسرى للتفاعيل إذا لج غناء أو بكاء
إنه الثور الإلهى الذى سدد عينيه إلى كل وميض
من دم أو شفق أو وردة،
كل الحضارات غوايات حرير أرجوان والتواريخ
نجيع نابض فى طرف قرنيه
وقد دقت تمام الخامسة
إنها من أزل البدء وحتى أبد القتل تدق الخامسة
يخرج القرد..
وليداً كان فى مفتتح الرؤية يحبو أم
عجوزاً وقديما قدم الأدهر يصحو
من نعاس الأزل الأول؟!
يطوى وحشة الظلمة فى دهشته الأولى بما
يقطر من شمس الندى فى الشجر العالى أم
الدهشة شمس طلعت فى ظلمات الذاكرة
كى يرى ما قد رأى؟!
هل صخب البحر البعيد
صخب ينبع - من أقمطة النسيان فى أعماقه - موج نداءات،
أم الخطوة نحو البحر ميراث جديد
لدم يقطر حتى أبد القتل؟!
أم البحر ثوانى الساعة الخامسة امتدت
من الكون لكى تفتح فى أحشائه ذاكرة العصف؟!
وهل وزن النشيد
من تفاعيل الصدى والموج؟!
فاسمع أيها المنشد
صقر الموت قد حط على أغصان معناك

وثور بامتداد الريح..
والوقت تمام الخامسة:
يسامر البحر أهله الأقدمين من غرقى الغزو
ومغامرى القراصنة والمخدوعين بالفتح والكشف
وصرعي الأهوء،
كنوز الأسلاب من إبداعات الذهب والفضة
وألهيات المعدن النفيس والخسيس
تتنفس أوانى الطين المحروق بأشكالها وعوالم
صورها التى تأبدت بالنار المتوقدة من أرواح
خالقيها وأوهام تجارها ونشوة الشاربين والطاعمين،
المراكب القديمة - منذ ركب الإنسان البحر - ترقد
بهياكل العظام والاصطرلابات ومسلات التحديد
المطلق لمغناطيسية الشمال وسائر الجهات،
وما المد والجزر إلا شهيق الامتلاء بالإيقاعات وزفير
الأحلام المكتمة فى خزائن الرصاص وأوزان العروض
المجهولة،
فى جوف الظلمة أسواق للموت معقودة وثرثرة
بالملاحم لا تنقطع،
تنفخ مواقد الماء وأفران الزبد دخانها السيال بالرخويات
والغرويات ومخاط العشب ورغويات الرفات الذائب،
هياكل الملوك والأباطرة تدير الجماجم لاستراق السمع
صدئت التيجان والعيون العظمية الفاغرة تحدق فى
ظلمات الأعماق عل صيحة الزينة تتفجر
بحشود الرعايا
ولا يغسل صدأ السيوف إلا الدم، ولا تسترد
التيجان وأرائك العروش شموس جواهرها إلا
برهج الزحف وشحذ السلاح على السلاح
فيا أيها الملوك والأباطرة والحشود المحشودة
دقت الساعة الخامسة
فحدقوا فى الظلام واسترقوا السمع..
امرأة على الشواطىء شاردة
لا تسمع من كل شىء إلا صيحة الوداع الظافرة
وتنهدات السقوط بين أحضان العودة المؤجلة،
ولا تبتل أصداف الأصابع العارية إلا برجفة الحنين
إنها الساعة الخامسة فى دم العناصر كلها
تحل الأنشوطة ليستدير الثور ويسدد عينيه وقرنيه
إلى ومضة الدم وأرجوان القصيدة

تماما فى الخامسة
فى الخامسة تماماً

— ٢ —

من وراء الأفق الشفاف يعلو قمر الرمل نديا
يتنزى خضرة الطحلب يلتف على الجبهة لبلاب الغيوم
ثم يعلو فى سماوات الصحارى فيشف الرمل عن
نهر دم كنت أراه
منذ ما فتحت عينى،
ولم أبصر سواه
نازلاً من نفس الماء خفيفا معشب الخطوة
يستاق إلى الوديان قطعان وعول وفهود من
مسامير الكتابات على الألواح،
يرعى حمر الوحش وأطلاء الغزالات (وكان الموت لم يخلق ولم
يعرف عمود الشعر إلا قصب المستنقعات المنتشى بالريح)
لم أبصر سواه
ينطق المرمر فى كفيه أجناسا من الأحرف
والطير ويشنين الكلام
لوتس تعقده الحية فى التاج وأرض زخرف تنغل
بالخلق فقطعان من الوحش وأسراب صلال تتمشى
فى رواق المرمر المنحوت
(كان الموت لم يخلق.. ولم يعرف عمود
الشعر إلا قلبه المحموم بالرمل وبالظمى)
ولم أبصر سواه
طالعاً من ذاته للأرض
يختط الأقاليم ويحدو رجز التجار فى
البر وفى البحر إلى أرض بخور وبهارات من
القرفة والفلفل والصندل،
ملتفا بمنقوش الحرير،
تاركاً فى ملمس الكشمير والمخمل آيات الحواس الخمس:
ورد كفه.. يتثره اللمس على نبق الصبايا وسهول
الزغب الأصهب، نوار اشتهاءات، وشوك
مرهف بالوجع البكر على جغرافيا الوعد الأمومى،
وورد من دخان
يتعالى من بصيص الجمر، والخضرة فى الروح لبانا وبخوراً
زاكياً يفضح ما يكتمه المرمر فى خلجانه من شهقة
العشق وشمس العشب والكحل
وأحلام العناقيد الجمان

ثم يغفو مثلما يغفو رنين الكأس فى بلوره،
يصحو كما يصحو عمود الصبح مبتلاً براووق الرضاب
واختطاف العنب السكران من تعريشة الوجه الجميل
آه يا مواله الطالع من وقد التفاعيل ووهج الغزل الرائق
والتشبيب
لم أبصر سواه
يحرث الأفلاك بالمخطوط والكاغد، والحبر المصفى
شرر يرفض ما بين أديم الليل والخيل فترفض طيور
وفراشات لها أجنحة من خطه الكوفى والنسخى
والمسند رفت بين أعشاش من الخط
الثمودى على تبر الجبال
آه يا مواله البارق فى همهمة الغيم.. أموت خالق
هذى الرياضيات أم هذى اكتمالات عمود الشعر؟!
لم أبصر سواه
خالعاً شالاً من الذكر على هام القباب
عاقداً من بردة الرحمة بالخلق مناديل النبوات على
مئذنة الكون، ومن دمع العيون
لغة القسطاس فى رد السلالات إلى جنس التراب
ويرى المرأة إذ ترفو رقاعا من فراشات الدم النازف،
ترفو مزقا من زبد الروح،
تلف الرأس بالشال الذى يسقط من مئذنة الكون،
تسجيه على هدهدة الرعدة والفضة فى خلخالها،
ترفو فتوق الفجر..
يصحو حاملاً جثته بين ذراعيه،
ومن أروقة المرمر طوفان دم يعلو..
فيطفو صاعداً فوق مراقى المطر الأدهم
لم أبصر سواه
يحمل الموت على أكتافه.. جثته بين ذراعيه
ولم أبصر سواه
راكضا عبر مفازات التواشيح وأزجال ابن قزمان وطعم
الكتب المحروقة الزخرف والحكمة والفقه،
ولم أبصر سواه
وردة محروقة تسقط من عروة نهدين ومن ظل ضفيرة
وهى فوق العدوة الأخرى من البحر شرود ذاهل ،
حيث تجر الذيل يرفض دم الرمل،
ولم أبصر سواه
لا، ولم أبصر سواه..

- ٣ -

ما الذى جاء بكم من رقم الطين خفافا وثقالا،
ليس هذا موسم الحج ولا عشتار عادت من كهوف
العالم السفلى، من جاء بكم من طلل الوادى قبيلا فقبيلا!
جررت أكفانها الوديان واصطفت سلالات رمِيم فى
انحلال الوقت كى يعجنها الموت المعاد
ليس هذا الذهب المصهور فيضا من مسامير الكتابات على
المرمر والطين..
فمن جاء بكم فى زمن يشوى به الطابوق
والفخار من لحم شعوب وبلاد!!
أم رأيتم فانسللتم أمما من غابر الموت؟!
وهل عشبة جلجامش من بين الهدايا،
أم هى الأفعى التى تلهث ما بين شقوق الذاكرة!
مرأة شاردة بين الزقورات ومن موطىء خفيها يطول النخل،
من فخار نهديها يسيل الدبس والعنبر،
من هفهفة المرط على الرمل ينابيع دم تشخب،
والشاعر يجرى حاملا جثته بين ذراعيه
وشال الموت نضاح على أكتافه،
نوع من الصلب المذاب
ترتخى أحشاؤه فوق عواليه فتنشق السموات
وتنشق بطون الأمهات
علق الأرحام يعدو.. حبله السرى ملتف على أعناقه فى
كرنفال الموت،
طير لاحم من معدن البرق،
سماط البحر ممدود على حاشية الأرض وقد أقعى
قرونا فى ظلام الملح والتوتياء
يختص بمنقوع الرميم
فاتحا أشداقه فى لحظة الخلق الرجيم:
يخرج الماموث قطعانا من الفولاذ،
والأبراج تعلو تحرث الأجواء بالليزر والسحر،
ونفاطون من آلهة الموت،
تعاوى الوحش بالثأر الكظيم
إنه البحر.. وهذا علق الأرحام يعدو..
حبله السرى ملتف على أعناقه فى
كرنفال الزينة العظمى..
خوار جوهر منكتم فى مرمر الثور الأشورى،
جناحاه من الفضة والشذر وعيناه



زجاج الروح
شمس الذهب الخالص تاج من مسامير الكتابات
مضيء وجهه في هالة اللحية بالتمر وبالقمح
وريح العصف تذروه شظايا في شقوق،
الأفق والشاعر يعدو حاملا جثته بين ذراعيه
وشال الموت نضاح على أكتافه
من قصب الأهوار حتى نينوى المرمر يعدو في براري القتل
من أشلائه ينبض شكل الأرض
في قمصانه النخل القتيل
والقوافي قسم سهل ونذر مستحيل،
أم هو البدء الجليل
يتلظى شررا في كهرمان في دخان في تراب
أم هو الكون يسيل!!

— ٦ —

قل لنا يا خازن الانفس والمال، وقد تم تمام القافلة،
بعد أن تستقرىء الأرض شطوطا وأقاليم
أيبقى من سبيل
لم تغلقه علينا السابلة؟!
كم دفنا من حصاد القتل،
كم أبقت لنا الزلزلة الكبرى من الأحياء
أو أبقت لنا من جمرة الحلم ومن برد اليقين؟!
ما الذي يحمله الشاعر من أزمنة لقتل الجماعي وما من
مطر أو نهر يغسل ملح الموت عن عينيه أو قيثاره؟!
يا امرأة المرمر والرمل.. اكشفي وجه الغلام
أنضجت طينته ثم شوت صلصاله الحرب
وفي فخاره ينسل نمل الروح يستل
الغوايات وأشباه التعاليم وأشباه الكلام
أيقظي في فضة الخلخال مكنون الرنين
هدهديه وامسحي عينيه.
لم يبق سوى مرقمه المشحوذ للنقش على الألواح
والصيد السماوي لقطعان الفضاءات
أغنيك، أغني وجهك المكحول بالقشمش والتمر،
أغني طعمك الحريف في الرشاد والسماق،
في مستنقعات القصب المحروق قطعان وعول وفهود من مسامير
الكتابات وفجر من دم الفصحى
وفصحى لا تموت.. ■

من ذخائر الكتب العربية

كتاب الموسيقى الكبير

لأبي نصر محمد بن طرخان الفارابي

أو قران الموسيقى بالفلسفة

بقلم
د. نبيل حنفي محمود

للمؤرخ الشهير وعالم الاجتماع الأشهر: عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢هـ/١٣٣٢م - ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) مقولة مهمة فى مقدمة تاريخه المعروف باسم «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» ، تنص تلك المقولة - التى كثيرا ما استعان بها البعض من المشتغلين بالموسيقى لوصف تطورها الطبيعى - على الآتى : «وهذه الصناعة (أى صناعة الموسيقى) آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع لأنها كمالية فى غير وظيفة من الوظائف إلاّ وظيفة الفراغ، والفرح، وهى أيضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجعه» ، ولعل فيما أصاب الأمة العربية الآن من ضعف وتفكك - يلمس المتابع آثاره الواضحة من ضحالة وإغتراب نكبت بهما موسيقانا العربية المعاصرة - ما يبرهن على صحة ما قال به ابن خلدون قبل ستة قرون، إن ملايين المستمعين العرب ممن تطلق عليهم وسائل الإعلام من أجهزة مرئية ومسموعة العديد من الألحان الحديثة فى هيئة أغنيات أو إعلانات تجارية قد لا يعرفون أن هذه الألحان لا تمت بحال إلى مقامات الموسيقى العربية.

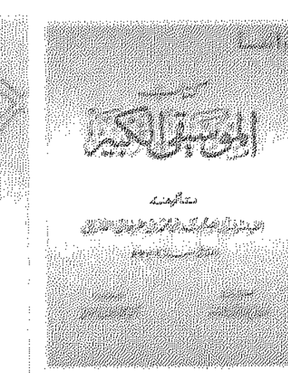


والمقام - وهو مفرد مقامات ويناظر السلم فى الموسيقى الغربية - بمثابة جدول يضم وينظم الأنغام العربية ويعطى الموسيقى العربية هويتها الخاصة، لقد شهدت موسيقانا العربية فى السنوات الأخيرة غزوا حضاريا لم يدهمها مثيل له على امتداد تاريخها الطويل، حتى أن تلك المقامات التى كان عددها قرابة المائة قبل سبعة قرون ، توارى معظمها واندثر من جراء دخول مقامات تركية وشركسية وغربية إلى صناعة الموسيقى العربية، وهو ما أثمر فى آن عدد المقامات العربية المتداولة فعلا بمصر خلال السنوات الأخيرة من القرن العشرين قد أصبح آحاداً لا تجاوز عدد أصابع اليدين، إن ما شهدته الموسيقى العربية من ثراء مقامى فى عصرها الذهبى قرابة منتصف العصر العباسى جاء نتاجا لجهد جيل من عباقرة المفكرين الموسيقيين الذين توالوا على هذه الفترة وكأنهم الشهب اللامعة، نذكر من هؤلاء المفكرين ثلاثة كانت لهم اليد الطولى فى تنظير الموسيقى العربية والكتابة عنها، وهم تبعاً للسياق التاريخى لظهورهم: الكندى (١٨٦هـ/٨٠١م - ٢٥١هـ/٨٦٥م)- الفارابى (٢٦٠هـ/٨٧٤م-٣٣٩هـ/٩٥٠م) وابن سينا (٣٧٠هـ/٩٨٠م-٤٢٨هـ/١٠٣٧م)، ومن الغريب أن هذه الأسماء الثلاثة أضاءت فى الذاكرة العربية والإنسانية قرين فروع من العلم عدة شملت الفلسفة - الطب - الرياضيات - اللغات - الفلك - المنطق والفقه، وكيف لا؟.. وقد واكب ظهورهم وصول شمس الحضارة الإسلامية إلى سمت الفكر الإنساني.

فيلسوف وموسيقار

ولد أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ المعروف بالفارابى فى





آلة « الشاه ورد » .. آله قديمة تشبه القانون

بلدة وسيج من مقاطعة فاراب بخراسان فى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤م، وقد انفرد الحافظ شمس الدين الذهبى بين كل من ترجم لأبى نصر من مؤرخين باسم «أوزلغ» هذا لجدِّ والده ، ولقب بالفارابى نسبة إلى مقاطعة فاراب التى شهدت سنوات صباه التى نبّأت بظهور أحد العباقرة، تلقى الفتى محمد تعليمه الأوّلى فى فاراب حيث توسّم فيه والده - الذى كان قائدا عسكريا - مخايل النجابة والذكاء، فأرسله إلى بغداد التى كانت حاضرة العصر ومنارة العلم، يصف شمس الدين الذهبى رحلة الفارابى مع الدراسة فيقول : «قدم أبو نصر بغداد، فأتقن بها اللغة، وأدرك بها متّى بن يونس الفيلسوف المنطقى، فأخذ عنه، وسار إلى حرّان فلزم يوحنا بين جيلان النصرانى فأخذ عنه، وسار إلى دمشق وإلى مصر، ثم رجع إلى دمشق، وكان مفرطاً فى الذكاء» ، برع الفارابى مثله فى ذلك مثل عباقرة عصره فى عديد من فروع العلم والمعرفة، فبالإضافة إلى ما تردد عن إجادته لسبعين لغة، فإنه أجاد أيضا وصنّف فى الطب والرياضيات والكيمياء وقبل كل ذلك وفوقه الفلسفة التى عرف بها وأعطت لاسمه الشهرة والخلود، بدأ الفارابى إنتاجه الفلسفّى بشرح كتب أرسطو

المنطقية والطبيعية والأخلاقية، والتى ضمت كتب: القياس - البرهان - الجدل - العبارة - المقولات العشرة - المغالطة - الخطابة - الشعر - السماع الطبيعي - السماء والعالم - والآثار العلوية، كذلك قام بشرح كتاب «المَجَسْطِى» فى علم الهيئة لبطليموس الفلكى وجوامع كتاب النواميس لأفلاطون ، وغيرها من كتب علماء اليونان وفلاسفته ، فكان من الطبيعي أن ينتقل بعد ذلك إلى مرحلة التأليف والتصنيف، فتوالت كتبه التى شملت عديدا من فروع العلم، نذكر من هذه الكتب التى وصل إلينا منها القليل ما يلى: إحصاء العلوم - رسالة فى معانى العقل - آثار أهل المدينة الفاضلة - الجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون الإلهى وأرسطو - والرسائل الفارابيّة، ويعد الكثير من الباحثين كتاب «إحصاء العلوم» الذى شمل عرضا مختصراً لكل العلوم المعروفة فى عصر الفارابى أشبه بموسوعة أو دائرة معارف سبقت كل ما عرف من موسوعات عربية أو غير عربية بقرون عدة.

يمكن للمطلع على كتب الفارابى الفلسفية أن يحصر ما أضافه الرجل إلى هذا الفرع المهم من العلوم العقلية فى إنجازين اثنين، يتمثل أولهما فى محاولته التوفيق بين الفلسفة اليونانية والإسلام، وذلك بإثباته أنه ليس هناك خلاف بين طروحات الفلسفة اليونانية وبين معتقدات الشريعة الإسلامية، بينما ينحصر الإنجاز الثانى فى تبشيره بالمدينة الفاضلة التى كان يريدها نموذجاً لدولة مثالية تنشر الفضيلة والعدل فى العالم، على غرار تلك الجمهورية المثالية التى نادى بها أفلاطون فى أثينا قبل حوالى أربعة قرون من ميلاد السيد المسيح ، ولقد طارت تلك الانجازات باسم الفارابى إلى الآفاق، فقرّبه أهل الفكر من رجال الدولة إلى مجالسهم بغية الإفادة من علمه أو المباهاة به كواحد من أفذاذ عصره، وهو عصر تميّز بالثراء المادى والفكرى، إذ يكفى أن نطرح هنا أسماء بعض من قربوا الفارابى إلى مجالسهم، لنعرف قيمة هذه المجالس وما دار فيها، وأول هذه الأسماء هو الأمير أبو الحسن على بن عبدالله بن حمدان التغلبى (٣٠٠هـ/٩١٣م - ٣٥٦هـ/٩٦٧م) .. أمير حلب الذى عرف بسيف الدولة الحمدانى، يقول عنه شمس الدين الذهبى: «كان مقصد الوفود، ومطلع الجود، وكعبة الآمال، ومحطّ الرحال، وكان أديباً شاعراً» ، ثم يضيف الذهبى إلى ذلك واصفا مجلس سيف الدولة بقوله : «إنه لم يجتمع بباب ملك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء» ، وأما ثانى الأسماء فهو الوزير أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخىّ (٢٦٦هـ/٨٧٩م- ٣٤٣هـ/٩٥٤م)، وقد تولى أبو جعفر الوزارة فى خلافة الراضى بالله بن المقتدر لمدة ثلاثة أشهر ونصف فيما بين رجب وشوال من سنة ٣٢٤هـ/٩٣٦م، ثم تولى الوزارة مرة أخرى لمدة ثلاثة وخمسين يوما فى سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م إبّان خلافة المتقى بالله بن المقتدر.

كانت الفلسفة أول ما أثرى به الفارابى مجلس سيف الدولة بدمشق، إذ اتفقت روايات المؤرخين على أن أول لقاء بين الفارابى وسيف الدولة حدث بدمشق فى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، ومن ذلك ما أورده ابن كثير فى تاريخه المعروف «البداية والنهاية» حيث يقول: «فقصد

سيف الدولة ابن حمدان دمشق فأخذها من أصحاب الأخشيد (محمد بن طغج)، ففرح بها فرحا شديداً، واجتمع بمحمد بن محمد بن نصر الفارابى التركى الفيلسوف بها» ، ثم يصف لنا شمس الدين الذهبى ما حدث فى اللقاء الأول بين الفارابى وسيف الدولة بقوله: «فقعد فى الصدر (أى الفارابى) وأخذ يتكلم مع علماء المجلس فى كل فن، ولم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل» ، وعندما سأله الحضور: «من أعلم، أنت أم أرسطو؟، فقال: لو أدركته لكنت أكبر تلاميذه» ، ولم يلبث الفارابى كثيراً حتى أسفر عن ثانى ما أثرى به مجلس سيف الدولة فى دمشق، إذ تجمع كل المصادر التاريخية على أن أبى نصر أذهل الحضور عند سيف الدولة بعزفه على العود.. عزفاً لم يحفظ تاريخ الموسيقى العربية له مثيلا، فقد أجمعت تلك المصادر على أن عزف الفارابى أضحك الحضور فى أوّله.. وأبكاهم فى منتصفه.. ثم ملك عليهم الحواس حتى غلبهم النعاس فى آخره!، ولما لم يكن للوزير أبى جعفر مثل ثقافة سيف الدولة وشاعريته، فإن حذق الفارابى لصناعة الموسيقى.. كان هو ما جمع بين الرجلين، وعندما ملك الفارابى على أبى جعفر عقله وقلبه بثراء قريحته الموسيقية، فإن الوزير تمنّى على الفارابى أن يجمع له علوم الموسيقى فى كتاب، وهو ما أثبته الفارابى فى مفتتح «كتاب الموسيقى الكبير» بقوله: «ذكرت تشوّقك النظر فيما تشتمل عليه صناعة الموسيقى المنسوبة إلى القدماء، وسألتنى أن أُثبته لك فى كتاب أُؤلّفه وأتحرى فيه شرحه وتكشيفه بما يسهُل به على الناظر فيه تناوله» وبالرغم من أن «كتاب الموسيقى الكبير» يعد أهم مؤلفات الفارابى فى الموسيقى، بل يعده البعض أعظم ما صنّفه العرب طوال تاريخهم فى الموسيقى، لكنه لم يكن مؤلفه الوحيد فى الموسيقى، إذ تثبت بعض المصادر وجود مؤلفات أخرى للفارابى فى الموسيقى منها: «كتاب فى إحصاء الايقاع» – «كتاب فى النُّقلة مضافا إلى الإيقاع» و«كلام فى الموسيقى» إلا أن هذه الكتب فقدت جميعها أثناء ما نزل بالحضارة الإسلامية من هجمات وغزوات، فلم يصل إلينا منها سوى «كتاب الموسيقى الكبير» وإشارات إلى أسماء الكتب الأخرى فيما حوته كتب تراجم الأعلام من ترجمة للفارابى، مثل تلك الترجمة التى أوردها موفق الدين أبو العباس أحمد بن أبى أصيبعة (٥٩٦هـ/١٢٠٠م – ٦٦٨هـ/١٢٧٠م) فى كتابه الشهير «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء»، وكذلك تلك القائمة الكاملة التى أثبتها هنرى فارمر فى كتابه « مصادر الموسيقى العربية» لمؤلفات الفارابى فى الموسيقى.

تسجّل أحداث التاريخ ما جناه أهل الفكر من منافع وثروات مقابل اتصالهم بأهل السلطة، ولكن الفارابى الذى تقول لنا كتب التراجم عنه: «وكان زاهداً كزهد الفلاسفة، لا يحتفل بملبس ولا مسكن» نحا فى ذلك نحواً لم يسبقه فيه إلا الأنبياء والأولياء، إذ يصف لنا ابن أبى أصيبعة ما كان من أمر الفارابى إزاء ما يصله به رجال الدولة من هبات يتصاغر لها الكثرة ممن يُظن بهم أنهم أهل فكر فيقول: «ولم يكن الفارابى يتناول من سيف الدولة من جملة ما ينعم به عليه سوى أربعة دراهم فضة فى اليوم يخرجها فيما يحتاجه من ضرورى عيشه، ولم يسكن إلى نحوٍ من أمور الدنيا البتة، ويذكر أنه كان يخرجُ فى الليل إلى الحرّاس يستضىء بمصابيحهم فيما يقرؤه»! ، فكان من الطبيعى أن يخلف لنا رجل كالفارابى ما خلف من مصنفات تنوء بها مجموعة من المفكرين

وليس مفكّر واحد، وهو ما نبّأ عنه ترحاله الدائم من أجل العلم حتى السنة الأخيرة من عمره الذى شارف على الثمانين من السنوات، وقد سجّل ابن أبي أصيبعة ذلك بقوله: «نقلت من خطّ بعض المشايخ، أن أبا نصر الفارابى سافر إلى مصر فى سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م، وعاد إلى دمشق وتوفى بها فى رجب سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م، عند سيف الدولة على بن حمدان فى خلافة الراضى، وصلّى عليه سيف الدولة فى خمسة عشر رجلاً من خاصته

الجزء الأولى : مدخل للصناعة

لا يجد من يتصدى للتعريف بهذا الكتاب خيرا مما قال الفارابى نفسه عن ذلك فى مفتتح الكتاب، يقول الفارابى: «والكتاب.. يشتمل على جزعين، جزء فى المدخل إلى الصناعة، وجزء فى الصناعة نفسها، والقسم الذى فى المدخل إلى الصناعة جعلناه فى مقالتين، والقسم الذى يشتمل على الصناعة نفسها جعلناه ثلاثة فنون : الفن الأول فى أصول الصناعة والأمور العامة منها، وهذا الفن هو الذى نجد جلّ القدماء الذين وقعت إلينا كتبهم والحدّث الذين اقتفوا آثارهم نحوا نحوه فقط، والفن الثانى جعلناه فى الآلات المشهورة عندنا وفى مطابقة ما قد حصل بالأقاويل فى كتاب الأصول على ما هى فى الآلات وإيجادها فيها، وتبين ما اعتيد أن يستخرج من آلة آله، والارشاد إلى أن يستخرج فى كل واحدة من تلك الآلات ما لم تجر به العادة فيها، والفن الثالث فى تأليف أصناف الألحان الجزئية، وكلّ واحد من هذه الفنون الثلاثة فى مقالتين» (ص ٣٨-٣٩).

تدور المقالة الأولى من الجزء الأول بالكتاب - وهو المدخل إلى صناعة الموسيقى - حول الأسس النظرية لهذه الصناعة، ويبدأ الفارابى تلك المقالة بتعريف «اللحن» على أنه قد يكون إما «جماعة نغم مختلفة رتبت ترتيبا محدودا» أو «جماعة نغمٍ ألّفت تأليفا محدودا وقُرنت بها الحروف» (ص ٤٧)، ثم يناقش بعد ذلك دلالات استخدام أىٍّ من التعريفين، لينتقل بعدها إلى هيئات صناعة الموسيقى، فيقول بأنها إما أن تكون «محسوسة للسامعين» أى تؤدى بشكل مناسب وتدرك بالسماع، وإما أن «تصاغ وتركب فقط» دون أن تؤدى بشكل مسموع، ويقرر الفارابى بأن هاتين الهيئتين لصناعة الموسيقى تندرجان فيما أسماه «صناعة الموسيقى العملية»، ويضيف إلى ذلك أن هناك هيئة ثالثة هى «صناعة الموسيقى النظرية»،وهى التى تعنى العلم بالنغم والأصوات والألحان كأحد العلوم الطبيعية (ص٤٩ - ٥١)، فإذا ما بلغ الفارابى فى المقالة الأولى إلى «هيئة أداء الألحان».. فإنه يقول بأنها «مركبة من نُطق أو فعل نُطق. ومن هيئة أخرى فى جسم آخر» (ص ٥٣)،وهو ما يعنى قدرة الأحبال الصوتية فى الحنجرة البشرية على أداء الألحان، أو قدرة الجهاز التنفسى على دفع الهواء فى آلات النفخ، أو استطاعة اليد قرع الأجسام بنظام معين يصدر الأنغام المطلوبة، حتى إذا ما بلغ «هيئة صيغة الألحان».. فانه يقول بأنها تعنى «تمييز ما بين الجيد والردئ من الألحان والملائم وغير الملائم والنغم المتلائمة والمتنافرة، وكيف ينبغى أن ترتب حتى يصير ترتيبها ترتيباً ملائماً للسمع» (ص ٥٥)، ثم ينتقل بعد ذلك إلى «أصناف

الألحـان وغـاياتهـا» فـيـقـول بأن أصناف الألحـان ثلاثة : «أحـدها الألحـان المُلذّة، والثانى الألحان الانفعالية، والثالث الألحان المُخـيّلة» (ص ٦٦)، ويوضح أنه يعنى بالألحـان المُخيّلة تلك الألحـان التى تدفع النفس للتخيل والتصور والتأمل، وعندما يتعرض بعد ذلك لنشأة الألحان الغنائية.. فـانه يقـول بأن وراء ذلك طلب البـعض «بالتـرنّمـات الراحـة واللذة وأن لا يُحسّ بالتعب أو بزمـانه، وبعضٌ طلب بها إنماء الأحوال والانفعالات وتزييدها أو إزالتـها والسلوّ عنها وتنقيصـها، وبعضٌ قصد بها معونة الأقاويل فى التخييل والتفهيم» (ص ٧١)، ويمضى الفارابى فى المقالة الأولى من الجزء الأول من الكتاب ليتحدث بعد ذلك عن نشـأة الآلات الصناعـيـة التى صنعت لتحاكى الأنغام التى تتألف منها هذه الألحـان، فـيـعـدد هنا من الآلات: الرباب - المزامير - العيدان - الدفوف - الصنوج - الطنابير والمعازف، فإذا ما أوفى كل آلة حقها من التقديم، فإنه يكون بذلك قد أكمل حديثه عن كيفية نشوء صناعة الموسيقى ومتى اكتملت، وليكون خـتـام مـقـالته الأولى بالحديث عن تعلم الموسيقى والمبادىء الأولية فى صناعتها.

يمكن لقـارئ هذا العـرض لما حـوته المقالة الأولى من الكتاب أو لقارئ المقالة نفسـهـا أن يسـتـشف منهج الفـارابى فى مـجمل الكتاب، وهو منهج يتسم بشمـول النظرة ومنطقيـة وتسـلسل الأفكار، وتدعم هذا المنهج معـرفة موسـوعية تستند إلى خبرة عملية واضحة بدقائق هذه الصناعة، فإذا ما انتقل الفارابى إلى المقالة الثانية من «المدخل إلى صناعة الموسيقى»... فانه يبدأها بتعريف الألحان الطبيعية للإنسان، فيقول بأنها ألحان سكان المناطق والأقاليم فيما بين خطّى عرض ١٥° و٤٥°، ويقرر بعد ذلك: «وأمـا من خـرج عن مـسـاكن هؤلاء الأمم إلى الجنوب مـثل أجناس الزنوج والسودان، وإلى الشمـال مثل كثـير من أجناس تُرك البـرية من ناحـيـة المشـرق وكثـير من أجناس الصقـالبة من ناحـية المغـرب، فـانهم خـارجـون على المجـرى الطبيعى للإنسان» (ص١٠٩)، أى أن تلك الألحان الطبيـعيـة فى طرح الفـارابى هنا هى ألحـان أهل الشرق كـالعـرب والفرس وترك الأنـاضـول والهنود، ثم يصنّف الأنغام المؤلفة لهذه الألحان الطبيعية إلى أنغام أساسية تشكل أساس تلك الألحان وأسمـاها «أصـول الألحان ومـبـادئهـا»، وأنغـام ثانوية شـأنهـا شـأن «التـزاويق والأصبـاغ» - بنص تعبيره - وهى التى أطلق عليـها اسم «تزييدات الألحان»، ثم ينثنى بعد ذلك للتحدث عن اقتران الأنغام وترتيبها فى الألحان، فيوضح أن اقتران الأنغام إنما يعنى اجتمـاع اثنين منها أو أكثـر، بينمـا يُقصد بترتيب الأنغـام فى الألحـان تقديمـهـا أو تأخيـرها، بعد ذلك يطرح الفارابى مفهومىّ «الحدّة» و«الثقل» كـأداة للتـمـييـز بين الطبـقـات الطبـيـعيـة للأصـوات ، إذ من المعـروف أنه لايقـال «للنغمة إنها ثقيلة أو حادة إلا بالنسبة إلى أخرى، فإن النغمـة المسموعة من نصف الوتر حـادةً بالنسبة إلى النغمة المسموعة من مطلقه (كله)، ثقيلة بالنسبة إلى النغمة المسموعة من ربعه» ، وهو ما يعنى أن ثقل النغـمـة يرجع فى المقـام الأول إلى طول الوتر وغلظه وإرخائه فى الآلات الوترية، أو إلى اتسـاع الثقب وبعده عن فم النافخ فى آلات النفخ، بينمـا تُعزى الحدة إلى قـصـر الوتر ودقّتـه وزيادة شـدّة أو ضـيق الثـقب وقربه من فم النافخ، وحتى يجعل الفارابى من طرحه لمفهومىّ حدة وثقل الأنغام قريبا من مـخيلة قـارئه، فانه يعرض فى سـيـاق حديثه بالمقالة الثانية من جزء الكتاب الأول لواحـدة من أكـثـر الآلات إعطاء للنغم فى

بلاد العرب، وهى آلة «الشاه رُود» «شكل آلة» «الشاه رود» ص ١١٨ والتى تشبه كثيرا آلة «القانون» التى نعرفها الآن، ويقول الفارابى إن أول مبتكر لهذه الآلة هو رجل من أهل صُغد سمرقند يدعى خُليعى بن آحوص ، وأن تاريخ الابتكار يرجع إلى سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م، ويوضح الفارابى هنا مدى قوة الأنغام الصادرة عن هذه الآلة بقوله: «إذا أخذنا أثقل نغمة فيها وقسناها إلى أحدّ نغمة فيها، وجدنا الأحدَّ صياحَ صياحَ صياحَ صياحَ أثقل نغمة فيها، وهو قوة الأثقل الرابعة، وفيما بينهما ثلاث قوى، وهذا أبعد ما أعطتنا هذه الآلة «ص ١١٨)، والصياح هو نغمة النظير الأول الأحدّ بالقوة... والذى يستدل عليه بالنسبة (٢/١) فيما بين نغمة مطلق وتر وصياحها.

عندما أتم الفارابى تمييز الطبقات الطبيعية للأصوات... فإنه انتقل إلى تطبيق ما أرساه من مبادئ على الآلات التى تُصدر أنغام الألحان الطبيعية، فيبدأ بتعريف هذه الآلات بقوله : «وأكمل الألحان الطبيعية التى أُلِّفت وتؤلف هى التى تُؤلف عن النغم الخارجة عن العود ثم من الناى ثم عن الرباب وأما سائر الآخر (أى الآلات الأخرى) فإن جلها تابعة للعود مثل المزامير والمعازف والطنابير الخراسانية» (ص١٢٠)، ولعل مقولة الفارابى تلك تكشف لنا السر فى استخدام كوكبة ملحنّى العصر الذهبى للأغنية العربية – إبان النصف الأول من القرن العشرين – لآلة العود فى تلحين أغنياتهم الخالدة، ثم يقوم الفارابى بإحصاء النغم الطبيعية المستخرجة من العود كنتيجة لتقسيم أوتاره عند مواضع متفق عليها، فيثبت أنها «اثنتان وعشرون نغمة فى كل دور»، ولا يفوته أن يثبت أن الآلات الأخرى كالناى والرباب لايمكن أن تصدر مثل هذا العدد من الأنغام، فإذا ما انتقل بعد ذلك إلى تجنيس الألحان... فانه يرسى أولا القواعد الحاكمة لذلك، وهى القواعد التى تحدد دور كل إصبع من يد العازف فى تجنيس الأنغام الصادرة عن آلة العود، ومن ثم فإنه يثبت عدد «القوى والنغم» التى تصدر عن الآلات الوترية على اطلاقها، ثم يسهب فى تعريف الأبعاد بين «القوى والنغم» مستعيناً على ذلك بحساب النسب والمتواليات العددية، فإذا ما أتم ذلك.. ختم المقالة الثانية من الجزء الأول من الكتاب بالحديث عن «المبادئ النظرية فى الصناعة» و«الكمالات العشر فى الصناعة العملية»، ولا يفوت الفارابى فى ختام الجزء الأول من الكتاب أن يذكّر قارئه بأنه لجأ لتحليل مبادئ الصناعة فى هذا الجزء... بينما سيكون تركيب هذه المبادىء وتجميعها هو منهج الجزء الثانى من الكتاب.

الجزء الثاني : تطبيقات عملية

بدأ الفارابى هذا الجزء بالحديث عن الفن الأول من فنون صناعة الموسيقى والذى أسماه «إسْطَقسات صناعة الموسيقى»، والاسطقس لَفظ أعجمى معرب عن اليونانية ويعنى الأصل أو الجوهر»، وقد قسم الفارابى حديثه عن الفن الأول إلى مقالتين، تناول فى الأول تعريف كل من : «حدوث الصوت والنغم فى الأجسام» – «أسباب الحدة والثقل فى الأصوات» – «البعد بين نغمتين» و«مقادير الأبعاد بقسمة الوتر»، ثم أتبع ذلك بتوضيح مقادير الأبعاد الصوتية الحادثة بالتركيب

والجمع والتنصيف والتقسيم، فإذا ما انتهى من ذلك.. فإنه يكون قد بلغ ختام المقالة الذى جعله عن ترتيب الأجناس وتقسيم أصنافها وإثبات الأعداد الدالة على نغم الأجناس فى جداول، ويطلق لفظ الجنس فى الموسيقى على جميع أصناف المتواليات اللحنية وعلى أصناف الأصول فى الايقاعات اللحنية، ومن الجدير بالذكر هنا.. أن الفارابى فصّل رتب الأجناس إلى رتبتين هما الجنس اللين والجنس القوى، ومن هاتين الرتبتين تتفرع أصناف عدة مثل الجنس اللين المنتظم غير المتتالى – الجنس اللين المنتظم المتتالى – الجنس القوى ذى التضعيف والجنس القوى المتصل، وتعد الأجناس القوية فى ترتيب النغم ابتكاراً عربياً بحتاً، وهى الأكثر استعمالا فى الألحان العربية، وأشهر هذه الأجناس هو جنس «الراست» الذى تلحق به الثالثة الوسط المشهورة باسم «وسطى زلزل»، نسبة إلى منصور زلزل (توفى ١٧٥هـ/٧٩١م) أشهر عازف على العود فى الدولة العباسية، وتقدر وسطى زلزل بنسبة ٢٢/٢٧ من مطلق الوتر.

يدأ الفارابى المقالة الثانية من الفن الأول بالحديث عن أصناف جماعات النغم التامة وترتيب النغم فى هذه الجماعات، فمن ذلك قول الفارابى: «فنغمة (ى) وهى أحدّ نغمتىّ الذى بالكل الأثقل. أسمّيها ا(الوسطى)» (ص ٣٣٦)، وتقع تلك النغمة فى حال التسوية الطبيعية للعود على (دستان) سبابة الوتر الثالث، والدستان لفظ أعجمى معرب وهو مفرد دساتين وهى العلامات التى تستعرض عنق العود والآلات الوترية لتحديد أماكن النغم، وقد جرى العرف على تسمية النغمة (ى) التى عرفها الفارابى باسم (بوسلك)، وهى مقابلة لنغمة (دو) فى التصنيف الغربى، وقد يستغنى عن (الوسطى) بالنغمة التى تليها فى الحدة والتى تسمى (جهاركاه) وتقابل نغمة (رى)، ومن الممكن الاستغناء عن (الوسطى) أيضا بالنغمة الأعلى منها فى الحدة وهى نغمة مطلق الوتر الرابع وتسمى (نواه) وتقابل نغمة (مى)... وهكذا، ولكن العرف جرى على أن النغمة (الوسطى) هى نغمة (جهاركاه) (ص ٣٣٦ – ٣٣٧)، ثم انتقل الفارابى بعد ذلك إلى تعريف مبادئ التمديد، وهو حال النغمة فى الجماعة من حيث مدى امتدادها ثقلا أو حدة على جانبى الجمع المفروض، واتبع ذلك بالحديث عن تمزيج النغم وخلط أبعادها المختلفة التمديدات، فيضع قاعدة لذلك تنصّ على: «إن النغم المختلفة فى الحدة والثقل، قد يمكن أن تخرج من أوتار مختلفة حتى ينفرد كل وتر بنغمة، ويمكن أن تخرج من وتر واحد» (ص ٣٨٩)، ولتعميق معنى القاعدة فى ذهن القارئ... يتبع الفارابى تعريفها بمثال توضيحى يقول فيه: «والنغم إنّما يمكن أن يخلط بعضها ببعض متى كانت من وتر واحد، فمتى أُخرجت نغمة من مطلق وتر، ثم وضع الاصبع على موضع فيه محدود، من قبل أن تنقطع النغمة، صارت النغمة المسموعة مخلوطة من نغمة المطلق، ومن نغمة الجزء الذى وضعت عليه الاصبع» (ص ٣٨٩–٣٩٠)، فإذا ما انتهى من تعريفه لتمزيج وخلط النغم بحديثه عن خلط الأجناس، فانه يحصر أعداد النغم الحادثة من تمزيجات الأجناس فى ثمانية جداول لتبسيط دراستها للدارسين ولتسهيل قسمة الأوتار حال الحاجة إليها، يتابع الفارابى بعد ذلك ما تبقى من موضوعات المقالة الثانية من الفن الأول، فيتحدث عن مبادئ الانتقالات من نغمة إلى نغمة أو من بعد إلى بعد أو من جنس إلى جنس، ويكون حديث الختام فى هذه المقالة هو تعريف أجناس الايقاعات،

فيقول أولا بأن الايقاع: «هو النُّقلةُ على النغم فى أزمنة محدودة المقادير والنسب» (ص٤٣٦)، ثم يفصّل أزمنة الايقاع المختلفة ويقول بأن بدايات النغم فى الأزمنة التى بين النغم إنما تحدد بالنقر أو بالقرع، وهو ما يقوده فى النهاية إلى تقسيم أجناس الايقاعات إلى موصلة ومفصلة،» و«المفصل هو الذى تنفصل فيه أزمنته المتتالية بعضها عن بعض بزمان أكبر من كل زمان يقع فى المتوالية، والموصل هو الذى تنفصل أزمنته المتتالية بعضها عن بعض بزمان آخر أصلاً لا أطول ولا أقصر» (٤٧٨).

يوضح الفارابى مقصده من الفن الثانى بالجزء الثانى من الكتاب وهو الخاص بالآلات المشهورة والنغم المحسوسة فيها، فيقول فى بداية هذا الفن: «وفيه يتبين ما يوجد من الأشياء التى لُخصت فى كتاب الاسطقسات محسوساً فى الآلات المشهورة، وإحصاء ما أُعتيد أن يحسّ فيها، وما قد يمكن أن يوجد منها فى هذه الآلات محسوساً، وإن كانت العادة لم تجر به» (ص ٤٩٣)، والآلات المشهورة يعنى بها الفارابى هنا العود والطنابير والمزامير والرباب والمعازف، وقد تحدث عن تسوية الأوتار فى الوترىّ من هذه الآلات، وعدّد النغم والقوى المتجانسة واتفاقاتها مع مواضع الضبط (الدساتين) لهذه الآلات، وأعطى فى النهاية الأسس العلمية لضبط هذه الآلات وتحديد الأماكن الصحيحة لإصدار النغم منها، أى أن هذه المقالة جاءت كتطبيق عملّى للأمثلة المطروحة فى الفن الأول من الجزء الثانى، وذلك باستخدام الآلات المعروفة حال تأليف الفارابى للكتاب.

إنه لمن البديهى الآن أن يدرك القارئ أن العقل الذى استوعب مبادئ صناعة الموسيقى التى حواها الفن من الجزء الثانى للكتاب، ثم ترجم – هذا العقل – تلك المبادئ فى صورة أنغام مستعينا بالآلات الموسيقية المشهورة على غرار ما أوضحه الفن الثانى، فإن هذا العقل يصبح مؤهلا بمساعدة الفن الثالث من هذا الجزء على أن يصنع من الألحان ما هو قائم على الأصول الصحيحة لتلك الصناعة كما يراها الفارابى ومن سار على نهجه من موسيقيين، وقد قسّم الفارابى الفن الثالث إلى مقالتين وجعل له اسم «فى تأليف الألحان الجزئية»، حيث اشتملت المقالة الأولى على «تعريف صنعة الألحان التى تركّب عن النغم باطلاق وعن الحادثة فى الآلات الصناعية»، أما المقالة الثانية فإنها «اشتملت على تعريف صنعة الألحان التى تتركب عن النغم الحادثة بالتلحينات الإنسانية، وهى التى يقرن بها الحروف التى تركّب منها الألفاظ منظومة على مجرى العادة فى الدلالة بها على المعانى وما بها ، ومنها تحصل هذه الألحان مؤتلفة (ص ٨٧٩) ، لذلك لجأ الفارابى فى المقالة الأولى من الفن الثالث لترتيب الجماعات التامة المنفصلة غير المتغيرة فى جداول تحوى أعداد النغم وملاءمات كل نغمة من نغم تلك الجماعات ومنافراتها، ثم أتبع ذلك بالحديث عن مبادئ الانتقالات ومبانى الألحان، وأوضح أن الانتقال قد «يكون على نغم الجماعة بأسرها وقد يكون على بعض نغم الجماعة» (ص ٩٥٩)، وأما مبانى الألحان فإنه يعرّفها على أنها «هى النغم

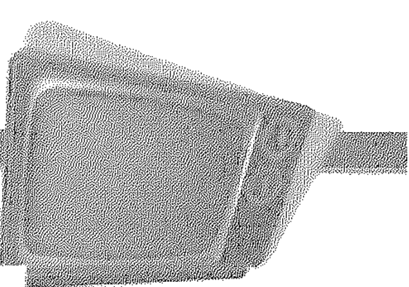


الضرورية التى منها تأتلف الألحان (ص ٩٦١)، ويختم الفارابى تلك المقالة بالحديث عن أصناف الايقاعات وأزمنتها والتغيرات التى تلحق أصولها والايقاعات العربية المشهورة، ويذكر من الايقاعات العربية المشهورة الايقاعات التالية: الهزج وخفيفه - خفيف الرمل - الرمل - الثقيل الثانى - خفيف الثقيل الثانى (الماخورى) - الثقيل الأول وخفيف الثقيل الأول، وأما المقالة الثانية فى الفن الثالث فقد أدارها الفارابى حول الصنف الثانى من الألحان، وهى الألحان التى تتركب من التصويتات الإنسانية المقرونة بالأقاويل ذات المعانى، فيتحدث أولا عن «التصويت الإنسانىّ»... فيقول بأنه «يحدث بسلوك الهواء فى الحلوق وقرعه مقعّرات أجزاء الحلوق وأجزاء سائر الأعضاء التى يسلك فيها مثل أجزاء الفم وأجزاء الأنف» (ص١٠٦٦)، ويقرر هنا بأن أسباب الحدة والثقل للصوت الإنسانى هى نفسها أسباب الحدة والثقل فى النغم المسموعة من المزامير، ثم يرتب بعد ذلك أنواع الأصوات الإنسانية، وينتقل بعدها للحديث عن الحروف المصوّتة وغير المصوّتة، وهو ما يقوده فيما بعد إلى تحديد أجزاء الحروف ونظائرها فى الايقاع، فإذا ما فرغ من ذلك تحدث عن أصناف الأقاويل ، وعرج بعدها إلى صنعة الألحان ، واقتران نغمها بحروف الأقاويل، ثم يتحدث فيما تبقى من المقالة الأخيرة من الكتاب عن أصناف الألحان الإنسانية وترتيباتها ، فيقول عن أصنافها بأنها ثلاثة: الألحان المملوءة النغم - الألحان الفارغة النغم والألحان المخلوطة من فارغة النغم والمملوءة، وفى ترتيبات الألحان يتحدث عن أجزاء الأقاويل واقترانها بفصول الألحان - أوائل الألحان واستهلالاتها- نهايات الألحان ومجازات أجزائها وتزيينات الألحان بفصول النغم الانفعالية، فإذا ما انتهى من ذلك.. فإنه يكون قد أحاط قارئه علماً بأسرار صناعة الموسيقى ، تلك الإحاطة التى إذا ما اكتملت لدى القارئ أدرك سرّ انحطاط صناعة الموسيقى فى زماننا هذا ، وكيف لا ؟... والصناعة أضحت فى معظمها حرفة للجهال والمتفرغين ، ولم تبق فى أرجائها سوى فرقة قليلة من الموهوبين تقبض على «كتاب الموسيقى الكبير» وأمثاله من كتب تراث الموسيقى العربية كالقابض على الجمر فى زمن (يقبض) فيه من لا موهبة لهم الملايين من الجنيهات فى ألحان لقيطة لا هوية لها

كلمة أخيرة

لايفوت قارئ الكتاب أو المتحدث عنه ما بذله محققه الأستاذ / غطاس عبدالملك خشبة من جهد ينبىء حجم الكتاب (١٢١٠ صفحات) بأنه قد استغرق منه سنوات ، وقد استعان المحقق فى مهمته بثلاث نسخ للكتاب ، أولى هذه النسخ مخطوط فى ١٢٣ ورقة محفوظ بمكتبة ليدن تحت رقم ١٤٢٧ ، وثانية هذه النسخ مخطوط فى ٤٦٤ ورقة محفوظ برقم ٢٢ فى مكتبة الآستانة ، أما النسخة الثالثة فإنها نسخة خطية فى ١٢٩ ورقة محفوظة بمكتبة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية تحت رقم ٩٠٥٢ ، وقد راجع المحقق تلك النسخ على ما ورد فى الترجمة الفرنسية للكتاب التى أصدرها البارون رودلف دى أرلانچيه بباريس فيما بين سنتىّ ١٩٣٠ و١٩٣٥م . إن كتاب الموسيقى الكبير لأبى نصر الفارابى يعد أكمل مرجع عربى فى صناعة الموسيقى قدمته لنا دولة الإسلام فى أوج سطوعها بسماء الفكر الإنسانى . ■







النجـــاة

بقلم : مرفت رجب

صرخت المرأة فى وجه محدثها المختفى وراء الكاميرا «أين هى الرفاهية التى تتحدثون عنها؟! أنتم كذّابون مزوِّرون.. من هم الناس الذين تظهرونهم على شاشات التليفزيون؟ أين هؤلاء الأمريكيون المرفهون؟ إنهم أقلية لا تعيش عيشتنا ولا تقاسى ما نقاسى.. انظر حولك.. هل ترى منهم أحدا فى هذا المتجر؟! بالطبع لا.. الكل هنا من أمثالى.. وأنا كما ترى.. انظر ماذا أشترى.. علىّ أن أتغاضى عن معظم الضروريات.. إننى أعمل إثنتى عشرة ساعة فى اليوم، ومع ذلك فالأجر لا يكفى، لا يكفى..!!»

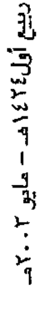
زادت حدة صوت المرأة الغاضبة.. ولم تفلح محاولتها فى كبت الدموع.. فقد انهمرت من عينيها، وأكد اقتراب اللقطة على إحساسنا بغضبها، والعجز!!

كيف النجاة ؟!

كنت - كالعادة - أقلب القنوات، وأتوقف عند أى صوت أو صورة تقترب من واقع ما يجرى فى أرض فلسطين المحتلة.. وكانت الانتفاضة الفلسطينية فى ذروتها.. والوحشية الإسرائيلية فى أقصى مدها الشيطانى .. والسؤال الملح على الذهن دوما.. كيف النجاة؟!

فى ذات الليلة التى وقعت فيها - بالصدفة - على مشهد تلك المرأة الصارخة.. وبينما كنت أنتظر حلول موعد نشرة الأخبار على إحدى القنوات.. تسمرت يدى على محول القنوات حين قرأت على الشاشة عنوان برنامج تسجيلى عن «النفى الذاتى» "Self Exile" وإذا بالكاميرا تنقلنا إلى غابة موحشة.. وبينما تستعرض الكاميرا بعد الغابة عن أماكن العمران، كان مقدم البرنامج يحدثنا عن موضوعه، ذلك أنه قرر أن يعرفنا فى هذا البرنامج على نماذج من شخصيات أمريكية حكمت على نفسها بالنفى، ورأت فى العيش خارج المجتمع الأمريكى طريقا أمثل للنجاة.

وفى أقل من دقيقة انتقل بنا البرنامج إلى ثلاثة أركان قصية من أرض الولايات



المتحدة الأمريكية الشاسعة.. وفى كل ركن رأينا واحدا من أبطال النفى.. ليس فيهم من يقل عمره عن الستين، وليس فيهم من يصطحب أخا أو ابنا أو زوجة وليس فيهم من ينوى الرجوع فيما اتخذ من قرار، ثم بدأ البرنامج ينقلنا إلى قلب حياة كل من أبطاله الثلاثة، وقد عاش معهم أياما وليال، وجعلنا بذلك نراهم ونعيش معهم أفكارهم.. ونتبين لماذا اختار كل منهم أن يعيش بعيدا.. ولأن الحكايات متشابهة، تكاد فى تفاصيلها أن تتطابق، فسأكتفى هنا بحكاية الأستاذ الجامعى الذى اختار أن يعيش فى غابة شبه جليدية، ولأن البرنامج صوره وقت الشتاء.. فقد أتاح لنا التعرف على مهارات الرجل فى التكيف مع تقلبات الطقس القارس وكيف يفضل أن يصرف إليها طاقاته وإبداعاته مفضلا عليها ما يظنه الناس من سهولة ورفاهية حياة المجتمع الأمريكى.. حكى لنا الرجل عن الضغوط التى طالما صارعها والتى كانت تقيد حريته فى البحث العلمى.. فالأرقام الفلكية التى نقرأ عنها مرتبطة بالبحث العلمى، لا يترك للعالم حرية التصرف فيها.. وإنما عليه أن يمتثل ويوجه أبحاثه لتحقيق الأغراض المحددة سلفا.. وعليه فى هذا أن يكرس جهوده فى انتقاء فرق البحث المعينة، من صغار العلماء الذين يتوجهون إلى الجامعات فى أمريكا منخدعين بدعاوى حرية البحث العلمى الذى لا توفره لهم إمكانات بلادهم الفقيرة أو الضعيفة.. يحكى الرجل عن الصراع النفسى الذى ظل يطحنه وهو يتبين مع الأيام أنه بانصياعه لإرادة الشركات التى تمول الأبحاث إنما يرتكب جريمة مضاعفة.. فهو يشارك فى سرقة مواهب صغار العلماء وخداعهم .. كما يشارك فى خيانة ثقة عموم الأمريكيين المنخدعين دوما بفعل الإعلام الأمريكى الكذاب.

ديمقراطية مغشوشة

ولم يخل حديث الرجل من انفجارات غضب حانق، خاصة وهو يتحدث عن الديمقراطية المغشوشة المفروضة قسرا على الشعب الأمريكى، وأكد لنا أن مقولة «صوت لكل مواطن» هى محض خرافة ذلك أن الشركات تشحن العاملين فيها فى السيارات التى تنقلهم إلى صناديق الاقتراع.. ولا يجرؤ أحد على تصويت مخالف لإرادة صاحب العمل.

ليس علىَّ أن أزيد فى التفصيل هنا.. ولكن المهم أن أبطال النفى الثلاثة فى برنامج «النفى الذاتى» أكدوا على أمر واحد.. هو أن الحلم الأمريكى خرافة.. وأن الإدارة لا تعبر إلا عن الحفنة المستغلة، وأنهم باختصار مقتنعون أن بلادهم لا تتمتع بأى حرية.. فهى بلد مستعمر.. يتحكم فيه الصهاينة.. لذلك قرر كل منهم أن يهرب بجلده .. ويعيش وحيدا.. هربا من بطش المستعمرين.

البينة على من ادعى..

ولا أظن القارىء العزيز يندهش من حكاية المرأة الصارخة التى صدَّرت بها الكلام.. فأمثالها بالملايين فى بلادنا.. يتابعون الشاشات ويتعجبون!! من هؤلاء الناس الذين يظهرون فى البرامج والتمثيليات! ما صلتهم بالغالبية العظمى من المصريين؟! والناس فى بلادى لا تعوزها الفطنة.. كما لا تعوزها القدرة على التعبير.. وتعبيرهم يتسم دائما بالايجاز والنفاذ، مع أنهم فى الغالب أميل إلى التلميح، منهم إلى التصريح وربما لذلك لا يلجأون إلى «النفى الذاتى» كما فعل أبطال



البرنامج الثلاثة، وكذلك لا تمتلى بهم المصحات العقلية كما هو الحال فى بلاد العم سام وألف شكر لك يارب.

نحمدك يا الله .. ونسبح بفضلك على شعبنا الأصيل حميته من أن ينخدع بتكرار عرض الزيف على الشاشات، ولم يطل الزيف وعيه الأصيل برغم سيول العبارات المنمقة التى تكذبها الأفعال، نحمدك يا الله أن قويت عزم مئات الألوف من أبناء شعبنا الذين تفجرت من قلوبهم آيات الغضب فخرجوا فى المظاهرات يعلنون كشفهم لكل الأكاذيب، ويبرءون ذمتهم من دم إخوة لهم يُسفك فى العراق وفى فلسطين.

نحمدك يا الله أن كشفت كل الأكاذيب التى يختفى وراءها زعماء إمبراطورية الشر وأشياعهم، وستبقى الأسابيع الثلاثة للاستبسال المعلن لإخوتنا فى العراق نورا يضىء لأبناء العروبة الأصلاء مسار كفاحهم الأبدى.. لن ينسى الناس فى أرجاء الأرض مشاهد كفاح إخوننا فى العراق لأسلحة الإبادة الأمريكية.. ولن ينسى الناس مشاهد الفتك والترويع والإذلال التى مارسها المتشدقون بالديمقراطية.. ولن ينسى الناس أعمال الحصار والقصف الذى تعمده الأمريكيون والبريطانيون ليخرسوا به أى صوت ينطق بحق ويمنعوا به تصوير أفعالهم الإجرامية وأى محاولة لرصد الإبادة المتعمدة للمدنيين الذين ادعوا أنهم جاءوا لتحريرهم.. نحمدك يا الله أن قوضت كل دعائم الإنكار لدى المعتدين.. وتركتهم أمام التاريخ عراة مفضوحين!

نحمدك يا الله أن جعلت المؤتمرات الصحفية لقادة إمبراطورية الشر والكذب دورات مكثفة للمشاهدين فى أنحاء الأرض يتأكدون فيها بالصوت والصورة من عجز قادة غزو الإبادة عن النطق بجملة واحدة مفيدة، أو ظل من دليل على ما يدعون ويفترون نحمدك يا الله أن جعلت فى أبناء شعبنا من الذكاء والفطنة ما يمكنه من قراءة قسمات الوجوه ومعها قراءة ما تنطق به عيون الكذابين قبل أن تتمكن ألسنتهم من النطق بالثرثرة الساكنة فى خانة الخواء.

نحمدك يا الله أن قويت عزم إخوة لنا فى العراق فاستبسلوا.. وصدوا زحف الغزاة رافعى شعارات التحرير الكاذب والديمقراطية المغشوشة.. ومعهم يستبسل المناضلون فى سبيل إظهار الحقيقة بالصوت والصورة لتنقل الشاشات سجلات استماتتهم فى سبيل إظهار الحقيقة، كما تنقل تهافت الآخرين من مرتعشى الإرادة، يواصلون رسالة التضليل والإلهاء المكلفين بها بإذاعة الأفلام والمسلسلات، بينما تسقط على أرض العراق الطاهرة دماء إخوتنا الشجعان ويذهب منهم الشهداء، ومن السماء تطل أرواحهم الطاهرة تلعن الكذابين فى كافة الأنحاء، وتخص باللعنة أولئك الذين سخروا أنفسهم لخدمة أسيادهم من قادة العدوان يفردون لهم أحاديث خاصة تتكرر إذاعتها ونشرها فيتأكد فعل التواطؤ ويتركهم مستأثرين بكل الخزى.

ثمن النجاة

وإذ يفضح المشهد العربى المعاصر شل إرادة السياسة وتهتك ممارسات الاقتصاد ، بينما الأداء الإعلامى يترنح بين أداءات العمالة، ومحاولات ذر الرماد فى العيون، فإن الحقيقة أبدا لا تغيب .. وإذا كان الأمريكيون قد انتقوا عملاءهم وأشياعهم مطابقين للمواصفات، يقتدون بأسيادهم

فيحكمون الفصل بين الكلام والفعل ، فالناس في بلادى أبداً لا ينخدعون، والحوار مع أبسط الناس فى أى حارة أو زقاق يدلك على وعيهم التام بأن إفساد المحاصيل مرتبط بشل الإرادة السياسية، وتشويه الرأسمالية الوطنية،ونفى الأقلام الحرة والبرامج الجيدة فى الصحف الصغيرة والقنوات المشفرة مرتبط بشل الإرادة السياسية وملء الشوارع بالمطاعم والمقاهى الفروع للأصول الأمريكية مرتبط بتشويه الثقافة الوطنية طريقا لإحكام الهيمنة على الاقتصاد ومنه يضيق الخناق على الإرادة السياسية فلا تجد إلى النجاة أى مخرج.

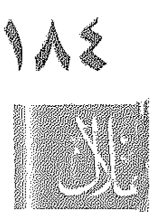
لكن الشعوب العريقة ومنها بناة الحضارة فى مصر والعراق تعرف دائما طريقها للنجاة.. وهى بقدر وعيها بدوافع ومبررات كل من أسهم أو ساند أو روّج أو سكت عن حرب الإبادة التى استهدفت مجد وشموخ إخوتنا فى العراق، وبنفس قدر فهمها لأن كل من يشترى سلعة أمريكية، أو يدخل فى شراكة مع جهة أمريكية، هو بالقطع مشارك فى تمويل آلة الإفناء الأمريكية، تماما بنفس القدر تدرك شعوبنا العريقة - فى مصر والعراق على الأخص - أن نجاتها لن تكون إلا بالامتناع التام عن التعامل مع كل ما هو أمريكي.. ولأن ذلك لا يخفى على منظرى إدارة الإفناء الأمريكية فهم يركزون حملتهم الدعائية الآن على مشاهد النهب والعبث برموز الدولة العراقية وتراثها، ويصرون على تكرارها فى كل نشرات الأخبار والبرامج، ومعها الصفحات الرئيسية من كبريات الصحف العميلة، ذلك أنهم يظنون أنهم بذلك قادرون على تزييف الوعى وتشويه الذاكرة، لعل الناس تتصور أن أبناء العراق هم من عينة تلك الحفنة المضللة المشتراه لتحقيق أغراض الغاصبين الكذابين!

ومع ذلك فإن أحدا لا يستطيع أن يتوهم أن طريق النجاة سهل مفروش بالورود.. فتاريخنا العريق يشهد بأن للحرية الحمراء باباً بكل يد مضرجة يدق، وليس شرطا أن تسيل الدماء فى ساحة حرب، فإن حرب النفس أشد وطأة وإن لم تسل منها الدماء.. وحرب التضليل التى بدأت بمشهد سقوط التمثال وبدء هجمة الرعاع المأجورين فى بغداد تصحبها حرب دعائية موازية تستميت فى محاولة زعزعة ثقة المواطنين فى جدوى المقاطعة، وتحاول إفساد منطقهم بالقول إن مقاطعة السلع الأمريكية تؤثر على مصير العاملين الوطنيين المشتغلين بإنتاجها.. لكنه منطق خائب يضحده ما حدث لمئات الألوف ممن كانوا يعملون فى مصانع القطاع العام التى بيعت والكل يعلم أين ذهبت أموالها ومن الأطراف المستفيدة من بيع الندامة فى صفقات إحكام الخراب.

لا يليق بنا أن نقنع بنموذج المرأة الصارخة فنكتفى بالمكتوم أو المعلن من الصراخ.. ولا يليق بنا أن نقتدى بنموذج النفى الذاتى الذى فرضه العلماء المخاصمون للكذب الفاضح فى المجتمع الأمريكي، لأننا وقد دفعنا الدماء الغالية لإخوتنا فى العراق وفى فلسطين، ثمنا للحقيقة التى تكشفت أبعادها نورا يفقأ عيون المغالطين، لابد أن نقاوم حملات التضليل بكل ما أوتينا من قوة حتى لو قصفوا منا الأقلام أو منعوا عنا حرية الكلام أو سمموا لنا الطعام فإن أى حر أصيل يأبى أن يسهم ولو بقرش فى تغذية آلة الإفناء التى تعيث فى أرض المجد إبادة وإفسادا.. وتظل أرواح الشهداء معلقة بين الأرض والسماء ، تبارك خطى المكافحين على طريق النجاح ، وتلعن السائرين على طريق الندامة. ■



١٨٤



ربيع أول ١٤٢٤هـ – مايو ٢٠٠٣م



شيكاغو

تعرية لطريقة الحياة الامريكية

بقلم
مصطفى درويش

سيداتي.. سادتي

أنتم على وشك مشاهدة حكاية موضوعها القتل الجشع، الفساد، العنف، الاستغلال، الزنا، والخيانة، كل هذه الأشياء العزيزة القريبة إلى قلوبنا.

بهذا الاستهلال المذهل بدأ عرض المسرحية الاستعراضية شيكاغو على خشبة مسرح شوبرت العريق في برودواي بحي مانهاتان حيث شاهدتها قبل عامين وفي زمن كان لايزال العالم ينعم فيه بالسلام.

عبارات طلقات

ومثلما كان الاستهلال بتلك العبارات الطلقات فاتحة في غاية التوفيق لمسرحية أحداثها ترتد إلي عشرينات القرن العشرين المعروفة في الولايات المتحدة بالعشرينات الصاخبة أو الهادرة.

وتدور وجودا وعدما حول نساء عاشقات، قاتلات، لا خلاق لهن، ولا هم يشغل بالهن، سوي تضليل العدالة من أجل الفوز دون حق بحكم يبرئهن من تهمة القتل العمد فضلا عن الحفاظ علي شهرة اكتسبنها بطول وعرض البلاد بفضل صحافة صفراء لا تقيم وزنا إلا لأخبار الجريمة والجنس.

كان الختام هو الآخر مذهلا فبعد ساعتين إلا قليلا مرتا سريعا كالأحلام عبرت بطلتا المسرحية روكس هارت وفيلما كيلي وقد فازتا في نهاية المطاف بالبراءة والشهرة معا، عبرتا بطلتا المسرحية عن سعادتهما قبل ثوان من أدائهما للرقصة الأخيرة بكلمات وجهتها «فيلما» لنا نحن المتفرجين وهي من الفرح تكاد تطير.

شكر ودعاء

وها هي هذه الكلمات كاملة غير منقوصة كما جاءت علي لسان فيلما

شكرا.. شكرا

روكسي وأنا نود أن ننتهز هذه الفرصة كي نعبر عن شكرنا لكم علي ثقتكم بنا وإيمانكم ببراءتنا فرسائلكم وبرقياتكم وعبارات تشجيعكم لنا ساعدتنا علي مواجهة المحنة الرهيبة التي عانينا منها كثيرا تعرفون كم الناس الذين فقدوا ثقتهم في أمريكا.

ولكننا المثل الحي علي بلدنا، كم هو رائع فليحمكم الرب، وليباركم دائما!!

ولأن المسرحية انتقدت بجرأة غير معهودة كل ما هو سلبي في طريقة الحياة الأمريكية إذ لم تترك صغيرة أو كبيرة من سلبيات تلك الحياة إلا وعرتها بأسلوب ساخر فيه من عمق التفكير الشئ الكثير.

سخرية وتعرية

فجنون الشهرة وعبادة المال وتشوه الحياة الزوجية ، وفساد نظام السجون واستهتار الصحافة الصفراء وانهيار الثقة في القضاء كل ذلك عرته المسرحية وسخرت منه.

أقول لأنها انطوت علي هذا القدر الكبير من التعرية والسخرية لم تظفر بالنجاح الذي توقعه لها كبار النقاد والمولعون بفن بوب فوس مصمم رقصاتها ومخرجها وصاحب فيلم «كاباريه» الفائز بثماني جوائز أوسكار (١٩٧٢) من بينها جائزة أفضل إخراج.

وسرعان ما اختفت دون أن تترك أثرا ولتبقي مسرحية منسية زهاء عقدين من عمر الزمان.

والغريب أن أحدا من هوليوود لم يحاول انتاجها سينمائيا طوال هذه المدة الطويلة وذلك رغم ولع أصحاب الأمر والنهي في مصنع أحلام عاصمة السينما، بترجمة مسرحيات برودواي



الموسيقية إلي لغة الفن السابع ولعل خير مثل علي ذلك قصة الحي الغربي وسيدتي الجميلة وهيللو دوللي.

وعلي كل، والقرن الماضي يوشك علي الرحيل عادت شيكاغو إلي برودواي حيث لاقت نجاحا كبيرا.

رقابة رشيدة

وعندما رأيتها في نيويورك قبل سقوط البرجين التوأم بحوالي ستة شهور لم أتصور أنه لن يمر سوي ثمانية عشر شهرا إلا ويكون قد جري ترجمتها إلي لغة السينما، في فيلم أشهده علي شاشة كبيرة وأين؟.. في القاهرة حيث جري الترخيص بعرضه للكبار فقط.

ومع ذلك استخسرت رقابتنا الرشيدة عرضه كاملا فحذفت منه بضع لقطات حماية لنا من أنفسنا وقد جاء عرضه عندنا مواكبا لفوزه بست جوائز أوسكار، من بينها جائزة أفضل فيلم وأفضل ممثلة مساعدة التي فازت بها النجمة الفاتنة كاترين زيتا جونز عن أدائها لدور «فيلما كيلي» الراقصة قاتلة عشيقها وأختها عندما ضبطتهما معا متلبسين بممارسة الفحشاء.

والفيلم يبدأ بها في لقطة حذفتها رقابتنا وهي تقتل في لحظة غضب عشيقها وأختها.

وما أن تنتهي هذه اللقطة المحذوفة حتي تغسل يديها الملطخة بالدماء.

قتل وشهرة ومجد

وهاهي ذي، بفضل ايقاع لاهث في الملهي الليلي حيث يلقي القبض عليها وهي ترقص وتغني «كل هذا الجاز».

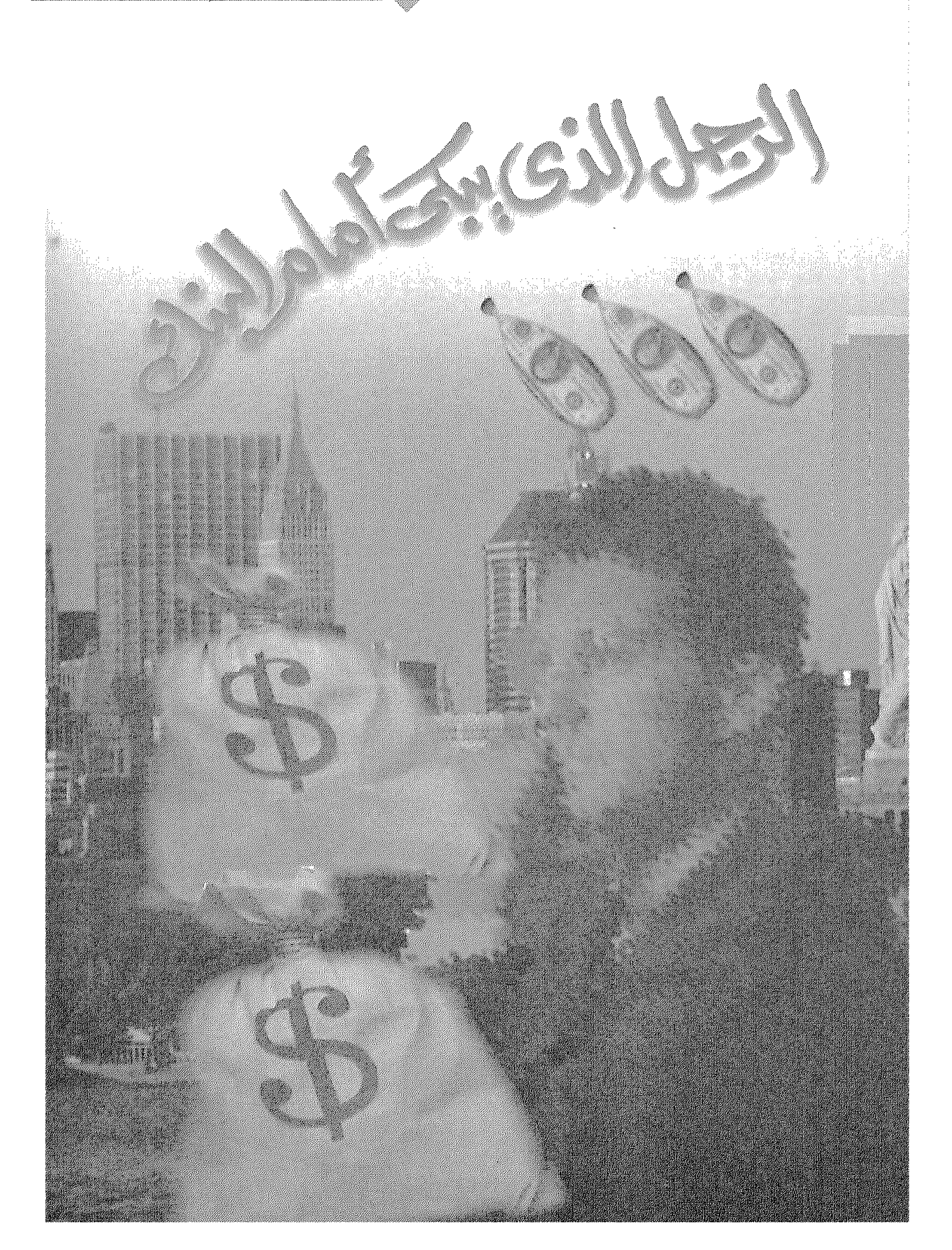
وفي نفس الليلة تقتل «روكسي هارت» رينيه زلتجر - المعجبة بفيلما والمتخذة منها مثلا يحتذي عشيقها فرد كازلي ويلقي القبض عليها هي الأخري.

وداخل السجن حيث يزج بهما مع معبودتها فيلما تتداخل حياة الاثنين وتتشابك مع حياة كل من السجانة ماما مورتن كوين لطيفة والمحامي اللعوب بيلي فلين (ريتشارد جير) وبعد صراع مرير علي الشهرة بين القاتلتين الفاتنتين وبفضل تضليل المحامي لرئيس المحكمة والمحلفين ينتهي الأمر بهما بريئتين معبودتين من الجماهير.

والفيلم بفضل مصمم رقصاته ومخرجه روب مارشال رفيع المستوي فنيا معظم مشاهده تنهض إلي مستوي مشاهد المسرحية المأخوذ عنها وبعضها يتفوق أحيانا.

مسك الختام

ورغم ذلك فالفيلم شابته بضعة عيوب، لعل أهمها حذف استهلال المسرحية الفاضح لسلبيات طريقة الحياة الأمريكية وكلمات فيلما باسمها واسم زميلتها روكسي هارت الموجهة لنا قبل نهاية المسرحية بثوان والتي تعتبر والحق يقال، مسك الختام!! ■


الرجل الذى يبكى أمام البنك

قصة قصيرة: بقلم / محمد السيد سالم

تجلس أمام البنك، تتكوم عند بابه الكبير المدجج بالحراس والنظرات ومشاعر الارتياب.. تضم ركبتيك، تحيط وجهك بيديك، وكل عضلات كتفيك تنقبض وتنبسط، وتنتفض.. من يقترب منك يسمع حفيف تأوهات محمومة، متتابعة، يحس نحيبا مشروخا لا ينقطع، كأنك تعانى صفعات على وجهك، ركلات فى مؤخرتك.. مظهرك لا يزيد عن متشرد، لا يقل عن عاطل يلزمه لدواعى الأمن محضر تحرى، حيث لا أدنى صلة لك بهذا المكان الذى اخترته لتبكى على بابه.. إن مدخل هذا البنك أو غيره، ليس بالمكان المناسب الذى يفجر فيه الإنسان عواطفه، ويمسح بدموعه مدخله الرخامى.

وبصراحة لم يكن مظهرك الباكى عند الباب الكبير شيئا لائقا، فأنت ومهما بكيت لا تزيد عن نقطة زاحفة من طابور نمل. خدش على جدار بالوعة مظلمة، كما أن جلوسك أمام البنك، يعد فى حد ذاته شيئا غريبا، عجيبا، لفت أنظار العملاء، وفضول المارة، وألهب قلق رجال الأمن.. فالحكاية ليست ناقصة، وأخبار السطو المليارى مازالت مشتعلة رغم كل مياه التبريد، وكافة مواد الاحتباس الحرارى.

الساعة كانت حوالى الثانية بعد الظهر، وقت الشمس الحارقة، وضوضاء حركة المرور الهادرة أمام البنك ورغم كل هذا لم تتوقف عن ممارسة حقك فى البكاء أمام البنك، وليس عند ضريح السيدة زينب أو ناحية قرافات باب الوزير.

لم تكن مهما فى البداية، ولكن حين ازدحمت أنظار المارة حولك، وتمهل العملاء فى سيرهم بجانبك، بدأ رجال الأمن وجند الحراسة فى الاستعداد والتأهب خاصة بعد أن تأكدوا أنك لا تحمل سلاحا، لاتملك إلا الدموع.

وفى القاعة الكبرى المكيفة ينعقد اجتماعا طارئا يضم كبار رجال الإدارة، ورجال التفتيش والمراقبة بعد أن ظلوا يختلسون النظر إليك عبر النوافذ العالية.. ولاشك كما أرى أنهم أبلغوا سلطات الأمن أخبار هذا الخطر الذى يبكى أمام أبواب البنك.

أحد المارة يغمغم وهو يرقب فى دهشة

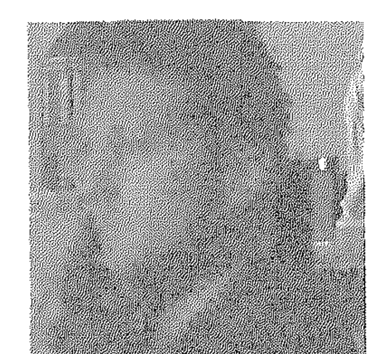
مشهدك الباكى، ويهمس: في سره:

- لعل هذا المسكين يتعرض لأزمة مالية، وأتى سعيا الى قرض لا يزيد عن بضعة جنيهات، ولما وصل ولم يجد إلا ركلات الرفض بسبب هزاله المالى، وضعف كيانه، صعبت عليه نفسه، فاضطر أن يبكى.

يمضى المار، وقبل أن ينعطف نحو اليمين عند الناصية، يستدير نحوك ليراك من زاوية بعيدة. وهو يردد:

- وربما هو متسول، ظن أن مال البنوك السائب، لن يضن عليه بشىء لله، باعتبار أن الحسنة القليلة، يمكن أن تمنع بلاوى كثيرة.. ومع ذلك منعوه من دخول البنك، وتركوا له حرية البكاء عند أبوابه.

بالمصادفة يخرج صحفى من البنك حاملا جريدة تتحدث فى



صفحتها الأولى عن أزمة القروض ومأساة التعثر، ومشكلة ضياع الديون، وكلام كثير قاله كبير البنوك حول هذه الظواهر التى تحدث فى كل زمان ومكان، والتى يكفى أن مثلها قد حدث أيام الفراعنة وظهرت تفاصيله باللغة الهيروغليفية على جدران المعابد ، وقمة المسلات ومؤخرة أبو الهول.. وأن الوضع المالى تحت السيطرة ، والدليل أن الناس لم تمت جوعا فمازالت طوابيرها العامرة تمتد أمام أكشاك العيش فى تكاتف اجتماعى رائع.

يتوقف الصحفى أمام مشهدك الباكى، يتأمل فى حيرة تكومك البائس، يسمع حرارة نحيبك، يسأل عن الحكاية، يخبره رجل بدين من رجال الأمن:

- أن الرجل لاشك مجنون، لأن ما يفعله الآن أمام البنك، لم يحدث من قبل، ليس له مثيل.

- ولم لا تقول أيها جعل هذا الرجل يأتى اليوم، ليبكى أمام البنك هو حزنه الشديد على بلايين البنك، التى انتهت عند مطارات بعيدة، غريبة.

- ولم يفعل ذلك، وهى أساسا ليست أموال أبيه، ولا صلة له بها من بعيد أو قريب.

- كيف هذا.. وهو..

- ولم لا تقولأايها السيد إنه يبكى لسبب آخر، ليس مهما فى حد ذاته، ولكنه كاف لتذكيره بفشله فى الحياة ، بمتاعبه ، بوضعه التافه فى زحام المجتمع والناس.

يتطلع الصحفى الى رجل الأمن البدين، الذى جمدت ملامحه، وتجهم وجهه ويقول فى همس دون أن يرفع عينيه عن الرجل الذى مازال يبكى:

– ولم لا تقول أنه يبكى بسبب شخص سأله صباح اليوم: كيف حالك فتذكر حكاية القروض والديون ، وتنبه لأيام طفولته، ظروفه، حاضره، مستقبله، وراح يستعرض كل الأشياء، كل حياته التى تخلو من ضحكة صافية واحدة.

يضحك رجل الأمن، يهتز بدنه البدين وهو يتلمس فى حذر مكان سلاحه المعلق.

ورغم كل هذا وذاك.. فمازلت ايها الرجل تبكى عند الباب الكبير، تحتوى رأسك بين يديك، وجسدك ينتفض فى تشنجات ملاحقة، وأنات خافتة، كطفل يتيم، ضاع تحت أقدام جموع تمضى فى



كافة الاتجاهات.. بينما يرزح فوقك بناء البنك بكل طوابقه التى تحوى أقساما للتفتيش والمتابعة، ولجانا للمعاينة والمراجعة، وفروعا للعمليات ، ومكاتبا للتحقيقات والمعايير الحسابية. وأشياء أخرى كثيرة، عديدة جعلت البناء مع الوقت يعلو، يتسع ، يتفرع ، يتراكم فوق رأسك، حتى صرت بالكاد تستطيع التنفس، تحتفظ بقدرتك على البكاء، تحت أجهزة تكييف تطن فوقك وتئز قطرات ماء تتساقط فوق رأسك، وعلى سواد الأسفلت، طوابق تعلو فوق رأسك إلى ارتفاع لا نهاية له، وفوقها تمرق طائرات تبتعد وتختفى بين طيات سحاب، وسحاب.

تأتى الأشارة بالهجوم ، الأوامر بالانقضاض، على الفور يتم حصارك أيها الرجل الذى تبكى.. يتقدم نحوك رجل الأمن وجند الحراسة بالأسلحة والهراوات وأجهزة الاتصال فى حذر مشوب بالشدة والإصرار.. يلقون بك داخل سيارة سوداء، تقرفص داخلها بعينيك المطفأتين بقطرات دموع مالحة، لا تجف، تحدق الى لمعان أحذية ثقيلة. تتطلع إلى بناية البنك الشاهقة، الى هدير الناس: نمل يسير فى منعرجات طرقه ومنحنياته من حيث لا يدرى أحد، والى حيث لا يعرف أحد.

تتحرك السيارة بعد أن تصدر عويلا، وتبقى أيها الكومة التى تبكى، تتضاءل فى البعد شيئا فشيئا حتى يغيبك الزحام والغبار والقيظ.■



١٩٢
الهلال
ربيع أول ١٤٢٣هـ - مايو ٢٠٠٢م

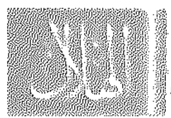
لبيبة هاشم

وفتاة الشرق

بقلم
أحمد حسين الطماوى

فتاة الشرق
مجلة
أدبية تاريخية روائية
لصاحبتها ومحررتها
لبيبة هاشم
السنة الرابعة
مصر ١٩٠٩-١٩١٠

كانت لبيبة هاشم أو لبيبة ماضى فتاة الشرق، لا لأنها أصدرت مجلة «فتاة الشرق» ولكن لأنها تعرف جيدا آداب الشرق وأصوله، وتدرك مثالبه وعيوبه وتعمل ما أمكن على تلافيها، وهى فتاة الشرق التى لم ترغب فى أن تثب بالمرأة وثبا من البيت إلى الشارع، أو من الحجاب إلى السفور، وهى قضية شكلية أريق فيها مداد غزير، وقد عادت المرأة إلى الحجاب بعد سفور طويل، فما انتقص من الحياة شيء، وإنما كانت قضية لبيبة هي تثقيف المرأة وتنويرها وتعليمها فن التربية لتنشىء رجال وأجيال المستقبل، وهى لاتنكر العمل للمرأة، ولكن ذلك يكون بمقتضى، أو إذا دعت الحاجة .. وهى فتاة الشرق التى تنتصر للغتها العربية وتغار عليها بالرغم من ثقافتها الأجنبية، وتعدد اللغات الأوروبية التى تتقنها .. وهى فتاة الشرق التى تدافع عن قضاياه وقيمه، ولم يقع تحت نظرى من كتاباتها مايفيد أنها متفرنجة تلبس قبعة وتتعالى علينا، بل كانت تهاجم الغرب ممثلا فى المدارس الأجنبية فى الشرق، وتحذر من خطورتها، وتنادى بالتوسع فى التعليم الوطنى لنعد أبناءنا كما نريد لا كما يريد الأجنبى



مولدها وثقافتها

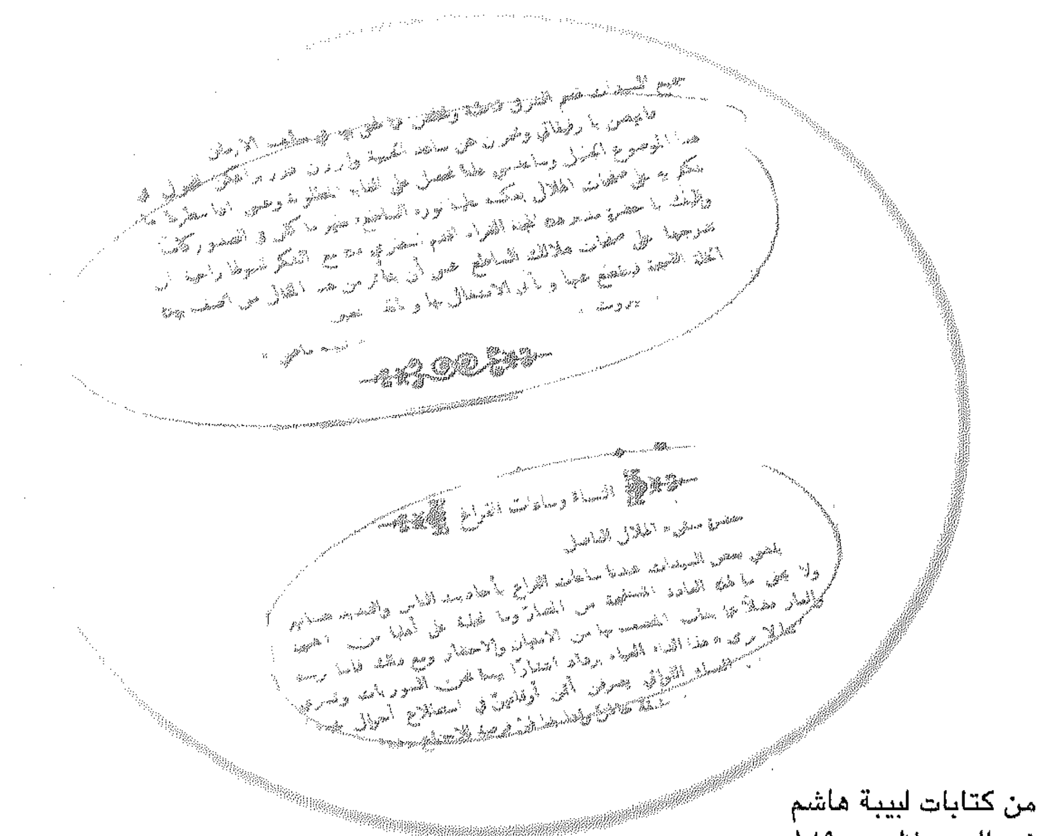
وإذا كان لابد من ترجمة لصاحبتنا، فإن الأقلام لم تختلف في تراجم المعاصرين القريبين مثلما اختلفت فى ترجمة لبيبة هاشم حتى اسمها فيه خلاف،. فبينما يقول يوسف اسعد داغر فى «مصادر الدراسة الأدبية» إنها بنت يوسف ماضى يقول عمر رضا كحاله فى «أعلام النساء» وفيليب طرازى فى «تاريخ الصحافة العربية» جـ٤ إنها بنت ناصيف ماضى، وبينما يقول داغر أنها ولدت فى ١٨٨٢/١٢/١٦ فإن عباس خضر يقول فى «القصة القصيرة فى مصر..» إنها

ولدت سنة ١٨٨٠، ويذهب طرازى إلى أنهـا تعلمت الخط على يد الشيخ إبراهيم البازجي، أما هى فتقول فى مجلتها «فتاة الشرق» إنها تعلمت الخط على يد نجيب هواوينى، ويسجل كل الذين ترجموا لها إنها هاجرت إلى مصر مع اسرتها فى مطلع القرن العشرين، وهو خطأ، حتى سنة وفاتها فيه تباين وخلاف، فبينما يقول عباس خضر إنها توفيت عام ١٩٤٧، يقول داغر إنها رحلت عام ١٩٥٢، ولعل هذا يرجع إلى أنها لم تسجل حياتها بيدها، أو لم يكتب ترجمتها أحد المقربين منها، وكان أسعد داغر المحرر بالأهرام وصاحب «مصر الحديثة المصورة» أحد مساعديها فى تحرير وإدارة فتاتها، ومات بعد سنة ١٩٥٢ ولم يقدم عنها ترجمة وافية، وكانت لها تلميذة وصديقة تدعى «أوليفيا عويضة عبدالشهيد» التى عرفها قراء السفور وفتاة الشرق والثقافة باسم «الزهرة» ولم تترجم لها.

كان أول مقال وقعت عليه (لبيبة ماضى - بيروت) فى «الهلال» عدد أول يونيه ١٨٩٥وكان عن «النساء وأوقات الفراغ» وحملت فيه على النسوة اللائى يقضين أوقات فراغهن فى القيل والقال والمباراة فى الأزياء وتهملن المطالعة والثقافة، والمقال بليغ جيد اللغة مما جعل صاحب الهلال ينشره، وفى منتصف شهر يونيه ١٨٩٥ قرظت «الهلال» روايتها المترجمة «الغادة الانجليزية» ووصفتها بأنها متناسقة الأحداث رشيقة العبارة، وحثت الأدباء على مطالعتها، وما يعنينا من ذلك أنها مارست التأليف والترجمة عام ١٨٩٥، وهذا يجعلنا نميل إلى أنها ولدت قبل ١٨٨٢/١٢/١٦ وقبيل سنة ١٨٨٠ لأنه ليس من المعقول أن تنهض طفلة صغيرة فى الثانية عشرة وستة أشهر من عمرها أو حتى فى الخامسة عشرة بهذين العملين، وربما كانت لها كتابات قبل ذلك!!

وعلى أية حال فإن لبيبة أدخلت مدرسة الراهبات اللعازريات وأتمتها فى مدارس المرسلات الإنجليزية الأمريكية على حد قول يوسف أسعد داغر وهذا كل ماذكر عن تعليمها، والظاهر أنها عكفت على الكتب لتنمى ثقافتها، حتى إذا وثقت فى قلمها أخذت تراسل المجلات المصرية، ففى ١٨٩٦/٧/١٥ نجد مقالا لها عن «فوائد العلوم للنساء» فى مجلة «الثريا» وفى ١٨٩٦/١٠/١٥ نجد قصيدة لها عن زهرة الربيع، وفى عدد ١٨٩٦/١١/١٥ يقول إدوارد جدى صاحب «الثريا»: «أنسنا بلقاء حضرة الكاتبة المجيدة الآنسة لبيبة ماضى صاحبة الرسائل الغراء فى الثريا، قدمت العاصمة لمشاهدة حضرات شقيقيها الأديبين نجيب وخليل ماضى وقضاء فصل الشتاء فى هذا القطر وتفقد آثاره ومعالمه فنحن نرحب بحضرتها ونرجو لها طيب الإقامة» وبناء





من كتابات لبيبة هاشم
فى الهــــلال - ١٨٩٥

على هذا فإن هجرتها إلى مصر كانت فى خريف ١٨٩٦، وكان أخواها قد سبقا إلى القاهرة، أما القول بأنها هاجرت مع الأسرة إلى مصر فى مطلع القرن العشرين فهو خطأ، وقد يقول قائل ربما عادت إلى لبنان بعد الزيارة، وأقول إنها لم تعد بعد هذا التاريخ إلى لبنان إلا زائرة، والدليل أنها في مارس ١٨٩٧ نشرت مقالا وجهته إلى السيدات بمجلة «البيان» اليازجية ذكرت المجلة فى صدره «لحضرة الكاتبة الأديبة السيدة لبيبة ماضي بالقاهرة» وهذا لايعنى أنها فى مصر فقط بل تبين أنها تزوجت فقد ذهبت كلمة «آنسة» وجاءت كلمة «سيدة» وكان زواجها من عبده هاشم الذى اقترن اسمها باسمه وتواصل عطاؤها فى المجلات المصرية مثل «انيس الجليس» و«الضياء» و«المجلة المصرية» و«المقتطف» وغيرها من دوريات مصر.

وفى عام ١٩٠٦ أصدرت مجلتها «فتاة الشرق»، وراحت تتنقل بين مصر ولبنان وتعتلى المنابر وتخطب، وتحث فى خطبها الشبان إلى العمل والنساء إلى النهوض، وولاة الأمور إلى إصلاح التعليم ، وكانت لبيبة هاشم خطيبة مفهومة، فمنذ عام ١٩٠٧ وهى ترتقى المنابر وتخاطب الناس من فوقها، وقد القت خطبا فى زحلة وفى بسكنتا بلبنان وفى جمعية الإحسان السورية، وفى جمعية النهضة المصرية وغير ذلك مما يبين أن الخطابة إحدى أدواتها فى بث أفكارها.

وفى العام الدراسى ١٩١٢/١٩١١ ألقت سلسلة من المحاضرات بالجامعة المصرية فى التربية والتعليم ثم جمعتها فى «كتاب فى التربية» وتناولت فى هذه

المحاضرات «أصول التربية العقلية والجسدية» وبينت الخطة التي يجب أن يسلكها المربون والمعلمون في تقوية أجساد الأولاد وتهذيب أخلاقهم وتثقيف عقولهم، وانتقدت التربية البيتية، والتربية في المدارس الابتدائية لما فيها من سخف وخرافة وتضليل للعقول.

ونظرا لاستطارة صيتها، وعمق ثقافتها في المجالين التعليمي والتربوي عينتها الحكومة السورية عام ١٩٢٠ في وزارة المعارف للتفتش على المدارس، ولكنها لم تلبث كثيرا في هذه الوظيفة، فتركت سوريا وارتحلت إلى «شيلي» بأمريكا الجنوبية وفي سنتياجو العاصمة أصدرت عام ١٩٢٣ مجلة « الشرق والغرب» التي لم تعمر أكثر من عام، وليست هناك أية معلومات عن محتويات هذه المجلة، وفي عام ١٩٢٤ عادت إلى مصر لتشرف على «فتاة الشرق»، ويقول يوسف أسعد داغر «وتولت كريمتها اليس أسعد داغر شئون فتاتها في غيابها». ومع بداية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ توقفت الفتاة، ويبدو أن لبيبة لم تشارك في أنشطة ثقافية فنسيها الناس، وبعد رحيلها التقط بعض مصنفي الكتب أخبارا عن حياتها كيفما تكون فجاءت مفردات سيرتها مضطربة متنافرة.

القاصة الشاعرة

وكانت لبيبة أديبة مبدعة، قاصة وروائية، ومترجمة في هذين المجالين، فقد ترجمت عددا غير قليل من القصص الأوروبية في مجلة «الضياء اليازجية» و«فتاة الشرق» كما ترجمت «الغادة الإنجليزية» كما مر بنا، ووضعت عددا آخر من القصص القصيرة في المجلتين السالفتي الذكر، منها «جزاء الخيانة» و«شهيد المروءة والوفاء» و«حسنات الحب»، و«شيرين»، ورواية «قلب الرجل» وفي الأخير حملت على الرجل فما دفع «حنا سركيس» إلى انتقادها، والانتصار للرجال في مجلة «انيس الجليس» ١٩٠٤.

وقصتها «الفوز بعد الموت» التي نشرتها في الضياء عام ١٨٩٩، وأعادت نشرها في «فتاة الشرق» عام ١٩١٠ تستهلها ببيتين من الشعر، وتضمنها في الوسط بيتين آخرين، وجميعها تأتي في موضعها ولكن مثل هذا يعد مستحبا في القص الحديث، وتحكي قصة شاب صحفي «جبرائيل» من حلب توقفت صحيفته لعدم موافقة مادتها الحكومة القائمة، فهاجر إلى بيروت، وعمل مدرسا، وكان كلما فرغ من عمله جلس إلى نافذته وتجول ببصره في كل اتجاه، فوقع نظره على فتاة جميلة تسكن قصرا في مواجهة البيت الذي يقيم فيه، فلم يمض وقت حتى أحبها وأحبته، ولما طلب يدها من أبيها الثرى لم يجبه على طلبه بسبب فقره، فغادر لبنان إلى مصر حيث التحق بحملة غردون إلى السودان فأسره المهديون وظل

فى الأسر فترة، ولما بلغه قدوم الجيش المصرى الإنجليزى لاسترداد السودان هرب من الأسر وانضم إلى هذا الجيش، وأصيب أثناء المعارك، ونقل إلى المستشفى، وعندما أفاق من الألم فتح عينيه فرأى حبيبته (مارى) التى تركها فى بيروت جاثية قرب سريره، وكانت قد ترهبت زهدا فى الدنيا بعد رحيله وانقطاع أخباره، والتحقت بجمعية الصليب الأحمر لخدمة مرضى الحرب، ولكن جبرائيل يلفظ أنفاسه الأخيرة، فلا يتحقق الفوز إلا عند الموت.

والقصة لطيفة ومسلية، وأسلوبها بديع غير مصطنع، وتحمل مشاعر نبيلة وإحساسات رهيبة، ويتخللها تحليل نفسى للعواطف المحبين من تخيلات وأوهام ويأس وأمل ودهشة، والحوار فيها نابع من ميول العاشقين وكاشف عما يعتمل فى نفسيهما، وتظهر القصة الجو الفكرى زمن الحكم العثمانى لبلاد الشام، فبطل القصة يغلق صحيفته لعدم موافقة آرائه لنظام الحكم، كما تبين أطرافا من الثورة المهدية وأخرى زمن استعادة السودان فيما عرف بحملة دنقلة التى قادها كتشنر عام ١٨٩٦، وقد أوحت هذه الحرب للقصاص بأكثر من قصة مثل «وقعة الخرطوم» و«أسير المتمهدى» ومسرح قصة لبيبة واسع فأبطالها يتحركون بين سوريا ولبنان ومصر والسودان وهى مساحة تصلح لعمل روائى لا لقصة قصيرة، وإذا كانت

أبيات من شعر لبيبة هاشم فى تكريم خليل مطران - ١٩١٣

القصة القصيرة تصور جزئية فى الحياة، فإن كتاب القصص القصيرة فى تلك الفترة لم يكونوا يراعون تعريفها العلمى أو مفهومها الفنى، ومن ثم تأتى وكأنها قصة طويلة مختصرة.

وإلى جانب القص كانت قريحتها تجود بالشعر الرائق الجميل، وقد عثرت على قصيدة لها فى مجلة «الثراء» عن زهرة الربيع وهى وجدانية رومانسية الطابع تناجى فيها زهرة، وفى حفل تكريم خليل مطران بالجامعة المصرية سنة ١٩١٣ جادت قريحتها بالأبيات

التالية فى تهنئته :

لما رأيت النثر غير مجاوبى
ووجدت قدرك فوق در الناثر
حـدثت نفـسى أن أجـرب خاطرى
فى الشعر تهنئة لأفضل شاعر
فنظمت لكنى أردت شواردا
منسوقة من جوهر وزواهر
فسألت زاهرة النجوم ضياءها
والجوهرى سألته كأساورى
فحنا على الأفق يشكو فقره
والجوهرى شكا شكاية خاسر
الأفق قال: لدى الخليل زواهرى
ولديه قال الجوهرى جواهرى

والأبيات من أرق شعر التهانى، وهى أشبه بنجوى نفسية تتوارد فيها الخواطر، وتتابع فيها المشاعر، والمعنى الذى وصلت إليه هو أن شعر الخليل مثل الجوهر والزواهر، وقد وصلت إليه بعد أن حكت قصة نفسية اختلجت فيها عواطفها، ومهما تكن قيمة ما وصلت، فالشعر ليس معنى فقط بقدر ماهو خيال وشعور ووراء تأخذ النفس، وقد تمثل كل هذا فى هذه القطعة البديعة التى تشير إلى أن قائلتها عرفت أسرار الشعر.

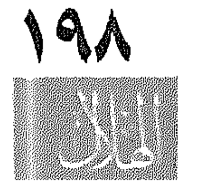
***

لاشك فى أن لبيبة هاشم إن لم تكن أول صوت نسائى يدعو إلى تجمع نسائى منظم فإنها من أوائلهن، جاء فى مجلة «مرآة الحسناء» عدد ١٥ أبريل ١٨٩٧ أن لبيبة ماضى عزمت على إنشاء جمعية علمية أدبية غرضها «تبادل الفوائد وتوسيع نطاق المعارف والسعى وراء تعزيز شأن المرأة فى الشرق» وذكرت المجلة أن الجلسة الأولى ستكون يوم السبت فى غرة شهر مايو ١٨٩٧، وتدعو السيدات الفاضلات إلى الحضور للإطلاع على قوانين الجمعية الأساسية، ويقول سليم سركيس صاحب «مرآة الحسناء» إن هذه العزيمة هى أول خاطر نسائى فى هذا الموضوع على ما أظن.

ولا أدرى إن كانت هذه الجمعية النسائية انعقدت أم لا، ولكن من المؤكد أن هذه الصيحة لم تذهب بددا، فقد كانت ناقوسا نبه النساء المثقفات إلى ضرورة التآلف وتنظيم الصفوف، ومخاطبة المجتمع من خلال جمعية منظمة لها مبادىء وأهداف.

ومهما يكن من أمر فقد سبقت لبيبة ماضى غيرها من النساء اللاتى دعون فيما بعد إلى تكوين جمعيات واتحادات نسائية تدافع عن المرأة وتعلى من قدرها من أمثال هدى شعراوى واستر فهمى وسيزا نبراوى، وعنايات سلطان وغيرهن، لقد كانت الرائدة والملهمة لهذا النوع من العمل الجماعى المنظم.

وكانت لبيبة تطوف أرجاء لبنان، وتجمع النساء وتحضن على تصحيح أوضاعهن، وتتابع حضورها فى التجمعات النسائية لتنشيط المرأة، وتصحح فهمها للرقى والتمدن، وعندما عقدت «جمعية النهضة النسائية» أول اجتماع لها يوم ٢٧ يناير ١٩١٧ بمنزل حرم إسماعيل عاصم المحامى، كانت لبيبة من



المؤسسات، وعندما خطبت أذكت الحماسة في النســاء، وبينت دور الإســلام في الارتقاء بالمرأة المسلمة، وقالت : «تعزز مركز المرأة بعد الإسلام، وزاد نفوذها، واحترامها بما ورد في الشريعة السمحة من النظامات الضامنة لحقوقها، الحافظة لكرامتها، فلا بدع أن بلغت بها أوج المجد والرقى».

وقد كانت التربية هي جوهر دعوة لبيبة هاشم، وفي زعمها أن المرأة تصير سوية كاملة إذا استنارت وتحلت بالفضيلة، ومتى كانت كذلك ساست أولادها ذهنيا وبدنيا وصاروا صالحين للمجتمع، وينتقل هذا الصلاح من جيل إلى جيل، وكأن الأم المربية المستنيرة هي التي تستطيع أن تصنع المجتمع الفاضل أو المدينة الفاضلة، فالتربية هي الأداة التي تقوّم المرأة، وممارستها لها تقوّم الأولاد ومن هنا تهدى رجالا صالحين للمستقبل، هذا ما استطعت أن أفهمه من مقالاتها المتناثرة في دوريات عديدة، وهي أقوال نظرية مقبولة ولكن الظروف لاتساعد كل امرأة على ذلك.

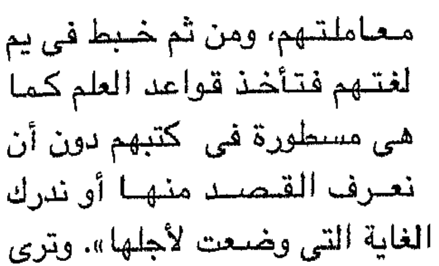
المرأة وفن التربية

وفي سلسلة مقالات كتبتها في «أنيس الجليس» ١٩٠٠ تبين أن هناك تقصيرا في تعليم المرأة واجبات الأمومة، وتدعو إلى وضع مصنف يعلم المرأة فن التربية الذي هو أساس العمران ليمكنها من سياسة أبدان وأذهان أولادها، وتهاجم الدروس الابتدائية التي تتعلمها المرأة في المدارس لأنها لاتمكنها من إعداد رجال للمستقبل، ومما يجدر ذكره أن خليل زينيه أحد كبار محرري الأهرام وضع كتابا عن «العلم والتربية» قبل أن تكتب لبيبة مقالات في «أنيس الجليس»، وإذا كان زينيه لايخص المرأة بكتابه فإنه يتناول تقويم الأخلاق وتهذيب النفوس والتآلف بين أفراد المجتمع ليرتقي عقل المرء ويتسع علمه، وتتنامى ثروته، ويزداد تعلقه بالوطن، ولكن يبدو أن كتاب زينيه لم يرقها وكانت ترغب في كتاب آخر يصلح للمرأة.

ويتواصل كلامها في تنوير المرأة وتثقيفها وصقلها بالتربية الحسنة والتعليم العملي النافع فتقول)(فتاة الشرق ١٩٠٩): «علمنهن الطبخ فهو أنفع لهن من الموسيقى، أفهمنهن ماهية الواجبات العائلية قبل تعليمهن اللغة الإفرنسية فإنهن سيصبحن ربات أسر، أبثثن فيهن روح الميل إلى مطالعة الكتب الأدبية بحيث تجد الفتاة فيها بعد مفارقة المدرسة مدرسة ثانية» ولم تكن لبيبة تجهل قيمة الموسيقى، فإنها كانت تدعو أيضا إلى تربية الذوق لتحقق سعادة الإنسان، وسعادة الإنسان تكون على قدر حسن ذوقه، وتذهب إلى «أن أفضل الوسائل لتربية الذوق هي الموسيقى والتصوير» الأولى «تنمي عواطف الحب والشفقة» والثانية «تساعد على إدراك قدر المحسوسات وكيفية نظامها» فقولها علمنهن الطبخ والواجبات العائلية والتدبير والاقتصاد في الانفاق، والمحافظة على المال وما إليه يعنى ضرورة التمسك بالأسس التي تنهض عليها الأسرة.

مواقف قومية

وقد ظلت لبيبة هاشم زمنا وعبر عدة مقالات تندد بالمرأة السورية واللبنانية



خاصة التى تعرف اللغات الأجنبية وتجهل لغتها العربية، وتنتقد العائلة التى تبذل قصارى جهدها فى تعليم الأبناء اللغات الأوروبية، وتهمل لغة الضاد «الشريفة» حتى إذا شبوا لا يستطيعون إيضاح الأمور إلا باللغات التى تعلموها، وتبين أن هذا النهج فى التعليم سيىء ويجب ملافاته، وترى أن يربى المدرس تلامذته عل يحب لغتهم «حتى إذا ما عثروا على شىء فى سواها يبادرون إلى نفع أبناء وطنهم بترجمتها وتعريبها» ليشدوا أزر اللغة العربية، ولبيبة تنكر إجادة اللغات الأجنبية، ولكن إتقان العربية يجب أن يكون أولا، وهى تقدر فى هذا أن القومية تتكىء على اللغة، علومها وآدابها، أكثر مما تتكىء على شئ آخر.

وتهاجم المدارس الأجنبية فى مقال لها «بفتاة الشرق» ١٩٠٧ وتبين أن الأجانب يدرسون العلوم بلغاتهم «وبطريقة توافق مصلحتهم، غير مهتمين بما يهذب أخلاق الشرقيين ويبث فيهم روح الإقدام».

وتحذر من أن هذه المدارس تجعل الأجانب يسيطرون على أفكار المتعلمين، وتظهر الآثار النفسية لهذه المدارس والأضرار التى تنال من الكرامة الوطنية تقول : «ندخل المدارس الأجنبية فيمتهنا أصحابها ويعاملونا بما فطر عليه الغربى من احتقار الشرقى فتنحنى رءوسنا لدى جبروتهم وتصغر نفوسنا لخشونة معاملتهم، ومن ثم خبط فى يم لغتهم فتأخذ قواعد العلم كما هى مسطورة فى كتبهم دون أن نعرف القصد منها أو ندرك الغاية التى وضعت لأجلها». وترى أن نتوسع فى إنشاء المدارس الوطنية «لنسعى بأنفسنا إلى مافيه مصلحتنا».

ولا ريب أن المدارس الأجنبية، فى ذلك الوقت، كانت تعمل على إضعاف اللسان العربى لدى المتعلمين، وفتور الإحساس بالوطن نظرا لانتمائهم إلى ثقافة الدولة التى يتلقون العلم فى مدارسها، واكتساب العوائد الأوروبية مما يباعد بين أبناء الوطن الواحد، وتنبيه لبيبة إلى مزالق التعليم الأجنبى له أهميته فى تلك الفترة، ويمثل موقفا قوميا.

شرح أبعاد المشروع الصهيونى

وكان لصاحبة «فتاة الشرق» يد طولى فى التنديد بالحركة الصهيونية فى فلسطين، فأخذت المجلة على عاتقها شرح أبعاد المشروع الصهيونى فى إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين، واستفاضت فى ذكر جهود اليهود فى هذا المجال من جمعيات أسسوها، ومؤتمرات عقدوها، وتناولت المجلة منذ عام ١٩٢٩ مقاومة الفلسطينيين للمشروع الصهيونى وأبرزت دور المرأة الفلسطينية والمؤتمر الذى شاركت فيه الفلسطينيات وطالبن فيه بإلغاء وعد بلفور ووقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين وظلت المجلة تتابع مايجرى على الساحة الفلسطينية فترة غير قصيرة.

وهذا الموقف من لبيبة أو من مجلتها يأتلف من مواقفها القومية، وبوائم نزعتها العربية التي تأصلت فيها، ولاجرم فقد كانت تردد على صفحات مجلتها قولها : الأمة العربية أمة كريمة شهد لها التاريخ بأنها أعرق الأمم فى المدنية وأسبقها إلى العلوم والاختراعات .

فتاة الشرق

ومجلة فتاة الشرق هى أكبر أعمالها ومستودع أفكارها وآدابها، ولاتتم الترجمة لها بدونها، وهى ليست أول مجلة نسائية، فقد سبقتها «الفتاة» و«العائلة» و«مرآة الحسناء» و «أنيس الجليس» وغيرها . ولكن فتاة الشرق تمتاز عنها بأنها أطول عمراً وأكثرها مراعاة لتقاليد الشرق.

صدر العدد الأول من «فتاة الشرق» فى ١٥ أكتوبر ١٩٠٦، وقد عرّفتها صاحبتها بأنها مجلة أدبية تاريخية روائية، وبينت فى افتتاحية العدد الأول أن دافعها إلى إصدار مجلتها هو قلة المجلات النسائية، وأوضحت أنها ستضمنها الأفكار النسائية، وخلاصة الأبحاث العلمية التهذيبية، وفور صدورها استقبلتها مجلة «الهلال» فى عدد أول نوفمبر ١٩٠٦ قائلة: «... وأكثر قراء العربية يعرفون اسم السيدة هاشم ولاسيما السيدات لما كانت تنشئه من المقالات الأدبية الاجتماعية والتهذيبية فى المجلات العربية منذ بضع عشرة سنة فضلا عن الكتب واسمها يومئذ «لبيبة ماضى» على أن اسمها الجديد وما رافقه من المشاغل العائلية لم يمنعها من مزاولة الكتابة عن سنوح الفرصة، ثم رأت فى الصحافة العربية فراغا لمجلة نسائية تبحث فى التاريخ الأدب فأنشأت «فتاة الشرق» التى نحن بصددها، والست لبيبة يندر بين سيدات الشرق من تجيد الإنشاء العربى مع الضبط والسهولة مثلها. فضلا عن حسن اختيارها المواضيع ولذلك فنحن نرجو للفتاة الشرقية مستقبلا مجيدا» وفتاة الشرق شهرية سنتها عشرة شهور، ومقسمة إلى أبواب ثابتة مثل باب شهيرات النساء وتدبير المنزل وآداب وعادات وغيرها من الأبواب المفيدة، وقد أفسحت مساحات واسعة للأدب الموضوع والمترجم، ونشرت مادة شعرية وافرة وافاها بها العقاد وأحمد زكى أبو شادى والرصافى والزركلى ورضا الشبيبى وحليم دموسى وعلى العزب، وكتبت وشعرت فيها عدة نساء مثل وردة اليازجى ونبوية موسى والزهرة والكسندرا أفرينوه وعفيفة كرم وملك حفنى ناصف. وعرّفت بالكتب التى صدرت فى زمنها مثل مسرحية السموأل لأنطون الجميل والمساكين للرافعى والنظرات للمنفلوطى وازدهار حلم لمى زيادة.

والعجيب أن صاحبة المجلة لم تشترك فى معركة الحجاب والسفور التى كانت على أشدها زمن ظهورها، ربما لأنها كانت محافظة من جهة، ومن جهة أخرى كانت تعرف أن المرأة لاتتقدم بالسفور أو الحجاب، وإنما تتقدم بالعلم والتربية والثقافة وهو ما ركزت عليه. ■

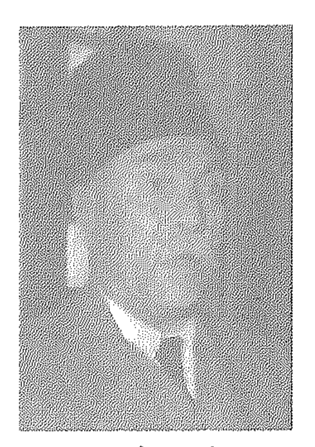
منصور باشا فهمى

وكتابه عن «وضع المرأة فى الاسلام»

بقلم
شكرى فؤاد

شهدت نهاية الربع الأول من القرن العشرين وبداية الربع الثانى منه معركتين حول حرية الفكر والبحث العلمى فى مصر أثارتا كثيرا من الجدل والضجة فى الحياة الأدبية والثقافية والسياسية فى ذلك الوقت. كانت المعركة الأولى حول كتاب الشيخ على عبدالرازق الذى ظهر عام ١٩٢٥ وعنوانه «الإسلام وأصول الحكم» أما الثانية فكانت حول كتاب الدكتور طه حسين الذى ظهر عام ١٩٢٦ وعنوانه «فى الشعر الجاهلى»

وقد أسهمت فى إذكاء نيران المعركتين الملابسات السياسية والحزبية التى احاطت بكل منها بدرجة أو بأخرى فانقسم الرأى العام فى الحالتين بين مؤيد بدون تحفظ ورافض لا يقبل تنازلا عن موقفه، على أن هناك معركة أو أزمة أخرى حول كتاب نشر عام ١٩١٣ لمؤلف لم يكن معروفا فى ذلك الوقت هو الدكتور منصور فهمى (منصور باشا فهمى بعد ذلك) وعنوان كتابه «وضع المرأة فى تراث الحركة الإسلامية عبر تطورها» ولكنها معركة مرت بهدوء وكادت تذهب الآن نسيا


منصور فهمى

منسيا بالرغم مما قابله صاحب الكتاب من مشاكل بسبب كتابه وما لاقاه من عنت لا يقل عما لاقاه الشيخ على عبدالرازق أو الدكتور طه حسين من بعده، ولذلك أسباب لعل أهمها: فى تقديرى أولا أن الكتاب صدر باللغة الفرنسية فى باريس ولم يترجم إلى العربية ولم ينشر فى مصر فظل فى متناول عدد محدود من القراء. ثانيا : أن المعركة دارت بشكل أساسى داخل أروقة الجامعة المصرية وفى دوائر كلية الآداب ومجلسها بشكل خاص. ثالثا أن المؤلف فيما يبدو لم يكن صاحب فكر سياسى يناضل من أجله أو موقف من التطور والإصلاح الاجتماعيين بدافع عنه، بل كان باحثا أكاديميا استهوته مناهج البحث العلمى فى جامعة السربون حيث يدرس واستطاب جو الحرية التى كفلتها له إقامته فى باريس مشيرا إلى ذلك بقوله : «ذكرياتنا حول الحى اللاتينى العزيز والنظم المفيدة التى حولتنا إلى أرواح حرة» فاندفع فى بحثه غير مقدر لعواقب التطرق إلى موضوع تحيط به كثير من المحاذير ، فلما أدراك مخاطر السبيل الذى سكله آثر الانسحاب بهدوء والانحناء للعاصفة حتى تمر فنزع فتيل الأزمة قبل أن تصل إلى الرأى العام وجمهور المثقفين .

سيرته وثقافته

ولد منصور فهمى فى قرية شرنقاش بالدقهلية عام ١٨٨٦ ودرس فى كتاب القرية ثم فى مدرسة المنصورة الابتدائية فلما أتم دراسته الابتدائية انتقل الى القاهرة ليلتحق بإحدى المدارس الفرنسية الخاصة وحصل منها على شهادة البكالوريا عام ١٩٠٦ م فالتحق بكلية الحقوق ولكنه لم يكمل دراسته بعد أن أمضى بها عامين، ذلك أن فكرة انشاء جامعة مصرية كانت قد تحققت،

فأعلن عن إنشاء الجامعة عام ١٩٠٨م ثم رأى القائمون عليها ضرورة تأهيل عدد من المصريين للتدريس بها ليحلوا محل الأساتذة الأجانب، فأعلنت الجامعة في العام نفسه عن مسابقة لاختيار عدد من الدارسين تبعث بهم إلى بعض الجامعات الأوربية للحصول على درجة الدكتوراه ثم يعودون إلى مصر للتدريس بالجامعة المصرية وتقدم منصور فهمى لمسابقة المبعوثين لدراسة الفلسفة في فرنسا، وفاز بها فسافر إلى باريس في سبتمبر ١٩٠٨، حيث قضى خمس سنوات حصل خلالها على عدة شهادات كانت آخرها الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السربون، عن وضع المرأة في الإسلام، وكان طالب البعثة يتلقى من الجامعة اثنا عشر جنيها شهريا لنفقات معيشته، ويتعين عليه بعد عودته أن يقوم بالتدريس في الجامعة لمدة عشر سنوات، وإلا ألزم بتسديد نفقات بعثته ولم يكن يسمح للطالب بالزواج أثناء دراسته (وافق مجلس الجامعة على استثناء طه حسين من هذا الشرط بسبب ظروفه الخاصة).

نشاط سياسي بارز

وعند وصوله إلى باريس شارك في تكوين «الجمعية المصرية» هناك، وكانت «الجمعيات المصرية» هي أبرز صور تنظيمات المصريين في المدن والعواصم الأوربية في ذلك الوقت فأنشئت جمعيات مماثلة في لندن وادنبره وليون وجنيف وغيرها من المدن، وفي غياب وجود سفارات أو قنصليات لمصر في الخارج حينئذ أصبحت كل جمعية عبارة عن رابطة تجمع المصريين يمارسون تحت ستارها نشاطهم السياسي ودعوتهم لقضيتهم الوطنية. يقول مرسى محمود في رسالة بعث بها من باريس إلى الزعيم محمد فريد بتاريخ ١٠/١٠/١٩٠٨ ألفنا جمعية سميناها الجمعية المصرية وقد اعطيناها الصبغة العلمية في الظاهر لأن أكثر اعضائها من إرسالية الجامعة المصرية، وباقى المصريين كما لا يخفى على سعادتكم أموات... وانتخبت رئيسها محسوبكم الفقير مرسى ووكيلها منصور فهمى المكلف بدراسة الفلسفة. ويبدو أن منصور فهمى قد انضم إلى الجمعية باعتبارها ذات صبغة علمية كما يقول مرسى محمود ولم يكن في ذهنه أو في نيته أن يشارك في عمل سياسي. إذ يذكر د. محمد حسين هيكل (هيكل باشا) في مذكراته عندما كان يدرس في باريس على نفقته الخاصة واقعة تبين جانبا من جوانب شخصية منصور فهمى، مجملها أنه

عندمـا بدأت الأنبـاء ترد إليـهم أن الحكومـة المصرية تزمع مـد امـتيـاز شـركـة قناة السـويس آثار الأمـر اهتمام الطلبة ورأوا أن يكون للجمعية رأى يتم إبلاغـه إلى الرأى العـام فى مصر باعتباره رأى الجمعية المصرية فى باريس ولكن بعض مـبـعـوثى الجـامـعـة من الأعـضـاء ومن بينهم منصور فهمى اعترضوا ودفعوا بأنه لا يجـوز بحث هذا الموضـوع فى الجـمـعـيـة لأنه مـوضـوع سـيـاسـى ونظامـهـا يحـرم عليـهم الاشـتـغـال بالسياسة كما أنهم تعهدوا للجامعة قبل ايفادهم ألا يشتغلوا بالسياسة، ووصف هيكل أنه وجد حلا للمشكلة وهو أن الاشتغال بالسياسة المحرم على الجمعية هو الاشتغال بالسياسة الحزبية حتى لا يجر الخلاف الى خصومات داخلها، أما مجرد ابداء الرأى فى أمر انعقد عليه اجماع الأمة فلا يعد اشتغالا بالسياسة «وهل إذا جاءت فرصة اقتضت المصريين أن يقولوا أنهم حريصون على حرية بلادهم، أفيكون مجرد هذا القول اشتغالا بالسياسة؟» وانعقدت الجمعية ودافع هيكل عن وجهة نظره ولكن مبعوثى الجامعة وضمنهم منصور فهمى اعترضوا على بحث الموضوع فانسحبوا من الاجتماع وقرر الباقون بالاجماع رفض مد امتياز شركة القناة، ولا نعرف بعد ذلك نشاطا يذكر له فى الحياة العامة بين المصريين فى باريس.

وضع المرأة فى الإسلام

أما كتاب منصور فهمى الذى آثار الضجة فهو أطروحته التى نال عليها درجةالدكتوراه، وكان المشرف عليها ليفى برول أستاذ علم الاجتماع المرموق، وقد نشر الكتاب للمرة الأولى عام ١٩١٣ فى باريس بعنوان «وضع المرأة فى تراث الحركة الإسلامية عبر تطورها» ثم نشر فى طبعة ثانية فى باريس أيضا عام ٢٠٠٢ بعنوان «وضع المرأة فى الإسلام» وهو كتاب صغير الحجم يقع فى حوالى ١٤٠ صفحة من القطع الصغيرة وقد تناول المؤلف فى تقديمه للكتاب الدافع وراء اختياره لموضوع رسالته والمنهج الذى التزم به والنتائج التى خلص إليها، وكيف تأثر بجو حرية البحث العلمى فى «السربون» فقال: إن غرابة أوضاع المرأة المسلمة صدم الأوربيين منذ وقت طويل عبر عنه نابليون عند بدء حملته على مصر بقوله «إن الشعوب التى سنذهب إليها تعامل المرأة بشكل يختلف عن معاملتنا لها» وأن أول ما يصدم الأوربيين فى وضع المرأة المسلمة هو احتجابها وعزلها عن المجتمع الذى تعيش فيه، ولذلك

كان للموضوع فى نظره أهمية باعتباره أحد هموم البلدان الإسلامية المتقدمة التى ترى ضرورة إصلاح تقاليد وأعراف مجتمعاتها ويضيف المؤلف أن دراسته أثبتت أن عزل المرأة لم يكن السبب وراءه دينيا فقط ولكنه كان أيضا نتيجة التميز الطبقى داخل المجتمع ولذلك استدعى الأمر منه بحث جوانب العقيدة والشريعة والاعراف والتقاليد التى اجتمعت وامتزجت معا فيما يتعلق بموضوع دراسته كما استدعى تناول علاقات الرسول بزوجاته باعتبار الرسول نموذجا يحتذى بسننه وبسلوكه المسلمون.

ثم ينتقل بعد ذلك ليعلن عن سعادته بما تأثر به من حرية البحث العلمى فى السربون فقد ولد مسلما وقضى شبابه فى بلد مسلم ثم جاء إلى باريس فاكتسب تحت اشراف استاذه «ليفى برول» مناهج البحث الاكاديمى، فقام بدراسته وليس أمامه من هدف غير الوصول إلى الحقيقة، وهو يدرك أن هذه الروح النقدية ستعرضه لمؤاخذة من جانب اولئك المسلمين الذين يضفون على التقاليد قداسة واحتراما دينيا «ولكن اردنا أن نكون جادين فى بحثنا بالرغم مما قد يسببه ذلك من جرح لمشاعر من هم أعزاء لدينا».

ثم يقول ان دراسة الوثائق التاريخية انتهت به إلى وجود روابط بين ظاهرة عزل المرأة وتحجبها وبين ظاهرة العبودية فى المجتمعات الإسلامية وأن العزل والاحتجاب كان يهدف أساسا إلى التمييز بين الحرة والأمة وهو ما جعل الإماء أحظى عند الرجال من الحرائر لأن الزوج قبل أن يملك الأمة يكون قد تأمل كل شىء فيها وعرفه على عكس الحال مع الحرة.

احترام التقاليد الدينية

والكتاب بشكل عام دراسة اكاديمية علمية بعيدة عن الأسلوب الخطابى الداعية لتحرير المرأة أو سفورها فهو بحث تاريخى تحليلى استعان فيه يكتب التراث الإسلامى والسيرة واكثر من الاستشهاد لها والاشارة إلى ما تضمنته من وقائع تدعم وجهة نظره ولكن من الواضح أن المؤلف قد انبهر بمناخ الحرية الذى لا يضع على الباحث قيودا أو محاذير وكان قد انتقل إلى هذا المحيط الجديد عليه وهو فى سن الشباب فانساق وراءه دون أن يضع فى اعتباره مدى تقبل المجتمع الذى جاء منه لهذه الحرية التى تكاد لا تعرف حدودا فتناول باستهانة بعض

المسلمات التى تصل إلى درجة التقديس وتضمن الكتاب عبارات لا تتفق مع احترام التقاليد الدينية، من ذلك مثلا أنه عندما يأتى ذكر الرسول يذكره باسمه الأول مجردا من عبارات التوقير والتكريم التى جرى عليها العرف فى المجتمعات الإسلامية كما كان انتقائيا فيما استشهد به من وقائع وردت فى كتب التراث والسيرة خصوصا فى الفصل الخاص بعلاقة الرسول بزوجاته الذى أشار فيه إلى جرأة بعض زوجاته عليه عند مخاطبته خصوصا السيدة عائشة ، ولعل خير ما يوصف به كتابه هو ما قاله الدكتور إبراهيم بيومى مدكور فى تأبينه: «رسالته للدكتوراه فيها منهج قويم ودرس واستيعاب ووقوف على أهم المصادر الإسلامية وأن خرج الحماس ببعض احكامها عن دائرة الموضوعية.. وقد يكون فيما كتب ما يثير نقدا أو يقتضى ملاحظة.. ولكن حرمة البحث العلمى أفسح صدرا وأسمى من أن يعتدى عليها بسبب لفظ أو عبارة.

غضب الجامعة المصرية

بعد أن انتهى منصور فهمى من اعداد رسالته المشار إليها نما الى علم مجلس الجامعة المصرية أن الرسالة تشوه الإسلام وتطعن فى رسوله وأنها تمت تحت اشراف أستاذ يهودى معاد للإسلام والمسلمين فأبرق المجلس إلى باريس طالبا تأجيل مناقشة الرسالة (حتى تعرض على مجلس الجامعة) ولكن المناقشة جرت فى موعدها ونال منصور فهمى درجة الدكتوراه فأبرق المجلس بطلب عودته فورا إلى القاهرة وارسال النسخ الباقية من الرسالة – وكانت الجامعة قد سددت نفقات طباعتها – إلى مجلس الجامعة.

وعاد الدكتور منصور إلى القاهرة فى شهر يونيو ١٩١٣ فالتحق بهيئة التدريس بالجامعة طبقا لتعاقده مع الجامعة قبل ايفاده للبعثة ومر الأمر بهدوء فى البداية ولكن يبدو أنه عندما بدأ يمارس التدريس مع بداية العام الدراسى تنبه البعض إلى وجوده وأثاروا الموضوع من جديد فاضطر مجلس الجامعة إلى فصله فى ديسمبر ١٩١٣.

عمل منصور فهمى بعد الاستغناء عنه من الجامعة سكرتيرا لجمعية الهلال الأحمر وقضى ست سنوات يكافح فى سبيل كسب عيشه، يشعر شعور المطرودين والمحرومين حتى عينته الجامعة مرة أخرى لتدريس الفلسفة بنظام المكافأة عام ١٩٢٠ م ولما مر الأمر دون متاعب او اعتراض أعارته الجامعة فى العام التالى



كعضو منتظم فى هيئة التدريس، وتدرج فى مناصبها من استاذ مساعد إلى إلى وكيل لكلية الآداب، وعندما فصل طه حسين من عمادة كلية الآداب تم تعيين منصور فهمى خلفا له من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٦ ثم عين مديرا لدار الكتب عام ١٩٣٦، ومرة أخرى يحل محل طه حسين كرئيس لجامعة الاسكندرية عام ١٩٤٥ بعد الاستغناء عن طه حسين عقب إقالة حكومة الوفد عام ١٩٤٤.

وكان منصور فهمى عضوا عاملا فى جمعية الهلال الأحمر وجمعية الشبان المسلمين ورابطة الإصلاح الاجتماعى، وعين عضوا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٣٤ ، وفى العام التالى أصبح أمين سر المجمع حتى وفاته عام ١٩٥٩ كما كان عضوا مراسلا للمجمع العلمى العربى بدمشق.

تنوع نشاطه الفكري

لم يؤلف منصور فهمى كتابا بعد رسالته ولكنه اتجه إلى كتابة المقالات والخطابة والاحاديث الإذاعية والمشاركة فى المؤتمرات والندوات واتجه أغلب نشاطه الفكرى نحو الأخلاق والإصلاح الاجتماعى ، ولاشك أن تجربته القاسية مع الجامعة كانت نقطة فاصلة فى حياته حولت نقده الجرىء إلى حذر وحيطة، وثقته بالناس إلى شك وريبه، يقول عنه محمود تيمور فى هذا الصدد «وليس عجيبا أن ترى منصور فهمى بعد أن عرك الحياة فى حقائقها الواقعة قد اصطبغت مبادئه ودعواته ونشاطاته بصبغة المحافظة والاستمساك بمأثور التقاليد وموروث القوميات ، اختط لنفسه خطة واضحة فى توجيه الحركة الفكرية . خطة تأبى الثورة والانتفاضة وتؤثر الهوادة والرفق فى ملاءمة التطور والانتقال من حال إلى حال وتوصى بالتبصر فى ترك ما تترك من القديم وفى قبول ما تأخذ من الجديد».

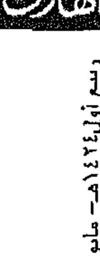
ولكن الملفت للنظر هو موقفه بعد ذلك من المرأة، فمع انه اختتم رسالته فى فقرتها الأخيرة بقوله «إننى لأنحنى امام ذكرى الكاتب المصرى قاسم أمين الذى نذر نفسه كلية لقضية المرأة وتوفى قبل أن يسعد بجنى ثمار عمله الذى سوف تقوده الحركة التقدم الحتمى الى النجاح فى نهاية الأمر». فإنه فى مقالاته وأحاديثه يرى أنه من الباطل والخديعة والتمويه أن تتساوى المرأة مع الرجل فى كل شئون الحياة الاجتماعية وأعمالها وأنه من التملق إليها أن تهون لها الحقوق السياسية والتشريعية والحزبية فتساق إلى

المطالبة بمراكز الحكم والنيابة، ويرى أن الخير للمرأة ألا تخرج من ميدان البيت وما يزيد فى بهجته واشراقه، ومن ميدان الأمومة وتربية الأولاد وتعهدهم بحسن التنشئة ، ومن ميدان الزوجية والسهر على راحة الزوج وأمور الولادة والتمريض وما يتصل به مما تتفوق فيه المرأة على الرجل لاتصاله بطبيعتها وأنه إذا تغلب فوز المرأة بما تصانع من حقوق موهومة فذلك كتغلب الاظلام على الضياء، وكأنما يشعر منصور فهمى بما فى هذا الموقف من تناقض مع موقفه السابق فيقول «قد يرمينى البعض بالتقهقر وبالرجعية المغالية وقد يبدو له فيما ذكرته ما يمثل ذهنية العصور الخوالى التى ذهبت بلا رجعة «ولكن» الباعث الى كتابة ما كتبت لا يرجع إلى سوء تقدير للمرأة وإنما مرده الايمان بالعائلة التى هى الدعامة الكبرى لحياة البشر إذا فسدت يفسد. فعندى أن العائلة هى الركاز الأول فى سلام الإنسان والمرأة، هى عميدة هذا الركاز الأول، وكل أمر يشغلها عن مركزها فى العمادة انما هو تفويت لما تنشده الإنسانية من خير وسلام. وكل خروج بالمرأة الى اعمال المجتمع هو محسوب ومطروح من حساب خصائص العائلة وتراحمها وتساكنها».

منصور فهمي في «المرايا»

واخيرا فلعل كاتبنا الكبير نجيب محفوظ كان قاسيا عليه عندما تناوله فى شخصية ابراهيم عقل استاذ الفلسفة فى كتابه «المرايا» فقال عنه «اهتز الدكتور من جذوره حيال الحملة العاتية ولم يكن ذا طبيعة مقاتلة ولا قبل له بتحدى الرأى العام فضلا عن حرصه على وظيفته وشدة حاجته إليها فأنكر التهمة ودافع عن عقيدته وتوسل بكثيرين لإخماد الفتنة واسترضاء مؤججيها ، ولما التحقت بالجامعة عام ١٩٣٠ وجدته استاذا مساعدا بها والظاهر أن المحنة التى مر بها علمته كيف يركز نشاطه فى دروسه الجامعية وينسحب من الحياة الفكرية خارج جدران الكلية ولاحظنا ان همته يطويها الفتور والملال وان دروسه اقرب إلى التوجيهات العامة منها إلى المحاضرات الدسمة.. لم أكن له احتراما يذكر لعزوفه عن التأليف ولعدم اخلاصه فى عمله..

وفى مطلع العام الدراسى تولى منصبا جامعيا كبيرا «عمادة كلية الآداب خلفا لطه حسين» ولكن اغتال فى سبيله جميع مثله العليا. ■



التكوين

هرولة الحياة (٢)

سناء البيسي

تحدثت في العدد الماضي من الهلال عن بدايات التكوين ومنابع الثقافة وجذوري الفكرية والشخصيات التي أثرت في تكويني الثقافى والفكرى وفي هذه الحلقة استكمل الحديث عن معالم التكوين خاصة فى مجال الصحافة والفكر والآدب ه الثقافة .



أبى .. القدوة فى كل شىء

وحينما أتطلع إلى تكوينى الروحى أجد تعاليم الإسلام فى النشأة كانت سمحة، الوالدان لايتركان فرضا، ولرمضان شهر الصيام تقاليده الحميمة، وللعيدين طقوسهما التى تبدأ فجرا عندما يقف أبى للوضوء مكبرا قبل ذهابه للجامع بصوت مرتفع الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا .. نندس فى أحضانه ليمسح بكفه الجميل على رؤوسنا وهو يتلو أوراده ودعاءه، ويغنى لنا حتى ننام فى سلام: «يانِنَّه ياكبابة ودينى ع البوابة تعجن لى وتخبزلى وتقضيلى الحاجة» ومازلت أذكر مشهدا كان فيه يدور حاملا الشقيقة الصغيرة بثينة على كتفيه تحتضن رأسه وتقبلها ويذكر لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عندما يركع يمتطى ظهره كل من الحسن والحسين .. كان عالماً فى الدين ملماً بالفقه حتى أنه قام بتأليف كتابين فى الصلاة والوضوء والشهادة، وكنت مبهورة فى طفولتى به لدرجة ظننته يطاول بمكانته خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب، وبعدها كنت موقنة بأنه الأحق بأن يكون رئيسا للوزراء أو حتى الملك.. كانت إجاباته حول الأسئلة الدينية الحرجة تهبط أماناً وسلاماً على القلب بلا تزمت ولاتعصب .. مكتبته تضم أئمة كتب التفسير والبلاغة والتاريخ الإسلامى ومجموعة نادرة من المصاحف، ومن معاشرتى لها صار أمر فن الرجوع إلى دقائقها سهلا ميسورا بحكم التعود، ولأننى قد ورثتها بعد رحيله لمكتبتى الخاصة أصبح لها مكانتها المقدسة فأغلفتها المقوّاه السوداء بعناوين محتوياتها مع اسم أبى المذَّهب فى نهاياتها تجعلنى عندما أمد يدى لأى منها لأفتحه مرجعاً أشعر بأننى أحادث أبى أتواصل معه أسلَّم عليه أقرأ له الفاتحة، وأترحم على علم تركه يُنتفع به وابنة تدعو له.

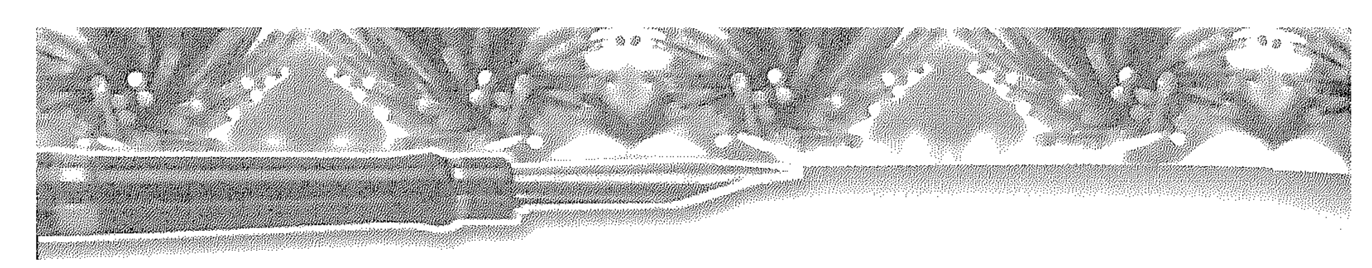
فى منزل الحياة

ولابد وأن من أركان التكوين النفسى والثقافى والاجتماعى ماتصنعه العِشرة مع الآخرين .. سنوات التلاصق الصبَّاحى، وتعاقب رؤساء العمل ، ومئات الحوارات وعشرات المواقف، وشراكة العيش والملح وفنجان الشاى، وزخم الذكريات والضحكات والقفشات والدموع والهموم والأفراح والأتراح، والدخول بحكم الجوار المكتبى وداخل جدران واحدة فى تفاصيل حياة الآخر، ومتابعة نمو الأنجال على الجانبين والشكوى من شريك البيت، والأمانى والأحلام والرد على التليفونات التى تحمل طلبا جهوريا أو نغمة عاطفية.. كلها .. كلها .. لابدوأن تترك ظلالها علينا .. تحيد بنا بعض الشىء.. توجه خُطانا بعض الشىء .. تشارك فى قراراتنا بعض الشىء .. على مدى سنوات العمر ضمتنى حجرة مكتب

واحدة مع الكاتب الساخر محمد عفيفى، ومن بعده اللا متكرر صلاح جاهين، ومن بعدهما الفنان يوسف فرنسيس، والكاتب أحمد بهجت، وفى فترة عملى كمستشارة بالبنك الدولى فى واشنطن شاركت ستة من الفنانين الرجال مكتب العمل، من السادسة صباحا حتى السادسة مساء. ربما فى ذلك ما يجعلنى لا أشعر بغربة فى عالم الرجال، بل أجد بينهم نفسى وأجروميتى وحَدَثى وما أفتقده فى الجلسة النسائية، وكثيرا ماتمنيت فى الصغر أن أكون شاباً لافتاة ،من أجل أن أرتاد أماكن محظورة على أنوثتى أقرأ عن تجاربها المثيرة الغنية بالأحداث ،والمواقف الإنسانية، ومن أجل أن أحمل حقيبتى لأسافر لأى مكان فى أى زمان، ولكى أعود للبيت وقتما أشاء، ولكى أحادث من أريد على أى أرض تتراءى لى دون أن تلاحقنى النظرات والغمزات، ولكى لايستدعى أمرى التوقف أمام المرآة لتهذيب مظهرى وملاءمة ألوانى وغلق فتحة صدرى وتغطية لحم ركبتاى، ولكى يكون الوصف عندما أطير وأحلق وأنتقى وأغطس وأعوم وأتنقل من زهرة لأخرى وأمر بالتجارب الكبرى هو طيش الشباب وليس قلة أدب وعدم تربية وعود الكبريت الذى لا يتوهج إلا مرة واحدة، وربما من هذا المنطلق فضلت ارتداء البدلة والبنطلون فى غالبية المناسبات، وزهدت فى الفستان وأدوات التجميل ووقَّعت لوحاتى باسم «البيسى» بدلا من «سناء لكى يَسعد بى والدى الذى لم ينجب سوى الإناث وإن كان بالنسبة لهن أكثر الآباء حنانا واحتواء وصداقة حتى ظننته أكثر تفهما من أمى رغم ما كانت تكيله لى من عبارات الحب حتى قولها لى ذات يوم لا أنساه : «لاتغيبى كثيرا عن سمعى وعينى .. أنا يابنتى باعشقك»..

بيت العز

بيت العائلة كانت جدرانه كرامة وحدوده كرامة وإطلالته كرامة وأساساته كرامة .. بيت طيب حريص إلى أبعد حد على مشاعر الآخرين .. بيت مهاود سلس التعامل والتناغم والتواصل والألفة والمحبة والصداقة والتآخى مادمت لم تدُس على طرف أى فرد به أو تخدش كرامته ولو من بعيد أو تجرح مشاعره بقصد أو غير قصد، وإلا، فذنبك على جنبك فالتعامل معك لا مؤاخذة قد انقطع، والعودة إلى سابق عهدك به بلا رجعة، والمياه أبداً لن تعود إلى مجاريها، والعودة إذا ما اتصلت على أى نحو فهى فى أضيق الحدود وفى منتهى الحذر فنحن ناس نقدِّر الناس وبالتالى نحب أن نجد المقابل مماثلاً .. ومازلت أذكر عندما جاءت جدتى والدة أمى من المنصورة لتنزل ضيفة علينا، مهابة الجانب، مبجلّة المقام، مرهوبة الإطار ..الكل فى خدمتها. الكل رهن إشارتها . الكل يعمل لها ألف ومليون حساب وحساب، لكنها عندما



أشارت لى بيدها الطيبة الوردية المكتنزة التي ننكفيء لنلثمها صباحاً ومساءً موجهة لى عبارتها التقليدية التى تقولها قبل بدء الصلاة، وامتثل لها أجيال متعاقبة من إناث الإسرة: «وطىّ يابت إفرشى لى السجادة» عندما قالت لى جدتى العظيمة «يابت» هذه صُدمتُ بشدة. تخشبت. انقهرت. انصعقت.. مُتُّ من وجع الكرامة. أصابتني طعنة الاستهزاء فى مقتل. قلبت الكلمة المهينة حالى لأغدو فى لحظات من طفلة وديعة مطيعة لكتلة غضب أعصاب شايطة .. وأتت أمى على صوت نشيجى .. مالك ياروح ماما؟!! قوليلى ياحبيبتى فورا؟! بتعيطى ليه ياست الستات؟!!. قالت لى يابت... وانفردت أمى بجدتى طويلاً وتردد اسمى على لسانها ولأول مرة تحتد أمى فى النقاش لأسمعها تقول لأمها : «أرجوك ياماما، إلا بناتى من فضلك» .. ونادتنى جدتى تأخذنى فى حضنها فيعلو نشيجى لتزداد هى احتواء وندماً، وبعدها صار اسمى على لسانها له من التدليل دلالته.

الأب الروحى

وفى بداية تدريبى الصحفى فى أخبار اليوم بين مجموعة لاتتعدى أصابع اليد الواحدة من صبيان وبنات انتقاها الراحل الكبير الأستاذ مصطفى أمين من بين صفوف المدرج الجامعى بعد أن عقد لنا امتحانا إثر إلقائه إحدى المحاضرات كأستاذ زائر .. وكانت رعايته الأبوية لنا ونحن ندب ونبرطع فى ردهات أخبار اليوم بشرائط الشعر الملونة والجوارب الرياضية القصيرة ،والحذاء المنخفض تكاد تصل إلى حد التدليل، فلا أحد ممن حولنا من الصحفيين الكبار له الحق فى تقويمنا أو عقابنا أو توجيه أى نقد لنا سخطاً أو حتى إعجابا، أو أن يدوس لنا على طرف، فنحن فى كنف الأب الروحى صاحب المكان المسئول عنّا بالكامل فى التدريب والتهذيب والتوجيه والتشجيع، حتى أنه بجلالة قدره كان يهبط لمواقعنا فى الدور الأول من مكانته المرتفعه فى الدور التاسع حاملاً لنا على ذراعيه هرماً من الصحف والمجلات والدوريات ليعلمنا كيف نقرأ مابين السطور السياسية والاجتماعية والفنية والرياضية .. الخ .. حتى أعمدة صفحات الوفيات التى تعكس الوضع الاجتماعى بأشمله، وكان اجتماع يوم الجمعه فى العاشرة صباحا معه بمثابة محاضرة لانظير لها فى عالم الصحافة نحرص عليه كأنه العيد ونستمع فى نهايته لتعليقاته الساخرة وبديهته الحاضرة وتشجيعه للكفاءات وإنصاته للشكاوى بصدر أب واسع الغفران عقابه اللوم الهادىء الذى يهبط على المذنب كالسياط .. مصطفى بيه نرفع سماعة التليفون إليه طول النهار لنسأله ونشكو إليه ونطلب رأيه .. مصطفى بيه الدبابيس خلصت .. مصطفى بيه الأستاذ طنطاوى كشّر فى وشى .. مصطفى بيه ماما قالت لى ما تتأخريش .. مصطفى بيه نفسى أركب طيارة.. وبين أوراقى الخاصة

مازلت محتفظة بقرار من الراحل العظيم بتعييني أول محررة طيران في أخبار اليوم، ليتسنى لي السفر على خطوط الطيران الجديدة لجميع بلاد العالم .. من هذا المنطلق، وتبعا لتلك النشأة في البيت والغيط وقعتُ من طولى عندما أشار لي الكاتب والناقد الراحل جليل بنداري من داخل مكتبه وأنا في انتظار خروج الزميلة والصديقة سناء فتح الله الموجودة عنده.. «تعالى يابتْ لمَّا أقولك» يانهار أغبر .. يا سنة سودة .. كارثة .. بيقول لي أنا أنا أنا يابتْ .. بكيت وانهرت لدرجة الإغماء، ولم أستعد رشدى إلا على يد رجال الإسعاف الذى جاءوا على عجل لإنقاذ الحالة السيئة المتدنية، وكان هناك كنعان حبيبى وزوجى فيما بعد الذى أتى عند سماع الضجة من مكتبه ليتصدى للبندارى ويُفهمه غاضبا أن مش كل البنات زى بعض، ومش كل البنات يتقال لهم يابت.. وروحت بيتنا بقرار عدم العودة للعمل مع ناس بيقولوا لى يابت، وغبت وعدت بعد راحة نفسية طويلة ليأتيني البندارى يطيِّب خاطرى ويؤكد لى أنه لم يقل قوله هذا إلا من باب العشم والمعزة والحب، ورغم اعتذاره ظل لا يفهم سببا لبكائى اللهم إلا إذا كان في مخى حاجة غلط لم يقصدها، ورجانى أن أرسم له لوحات كتابه الجديد كنوع من بناء جسر للمودة بيننا لكننى اعتذرت وأيد والدى قرارى، وابتعدت، وظللت حريصة على وجود المسافة التى لاتجعله يهزر معى رغم حرصى على قراءة كل كلمة نقد يكتبها بأستاذيته..

إنسانة محظوظة

ولست كما كان يقول لى الكاتب الراحل يوسف السباعى متفاخرا بمظهره ورئاساته ومناصبه العديدة وإقبال الدنيا عليه قبل أن يصاب فى مقتل بيد الإرهاب فى قبرص.. كان قولة «أعمل إيه لحظى فأنا واحد وُلدت محظوظا»: أنا بقى واحدة ماشية جنب الحيط حامدة لله وشاكرة فضله وبلا حسد لنفسى، وما يحسد المال إلا أصحابه، وقل أعوذ برب الفلق.. أنا.. وأعوذ بالله من قوله أنا، أُعدُّ نفسى إنسانة محظوظة للقاءاتى وصداقاتى وجيرانى وتلمذتى على خلاصة رجالات الفكر والثقافة والصحافة فى مصر، وليساعدنى المولى فى أن يصدر لى كتاب يحمل تجربتى مع كل منهم.. التقيت أثناء عملى فى أخبار اليوم بالأساتذة التابعى وكامل الشناوى وأنيس منصور وموسى صبرى، وفى الأهرام بمحمد حسنين هيكل، والدكتور بطرس غالى والدكتور لويس عوض، وكان من سكان الطابق الذى يعلونا الدكتور حسين فوزى وتوفيق الحكيم وإحسان عبدالقدوس وصلاح طاهر وعبدالرحمن الشرقاوى.. وكان هناك الأستاذ أحمد بهاء الدين الذى تحتوى أزرار تليفونه الخاص على زرار يحمل اسمى لا يستدعى منه سوى أن يضغط



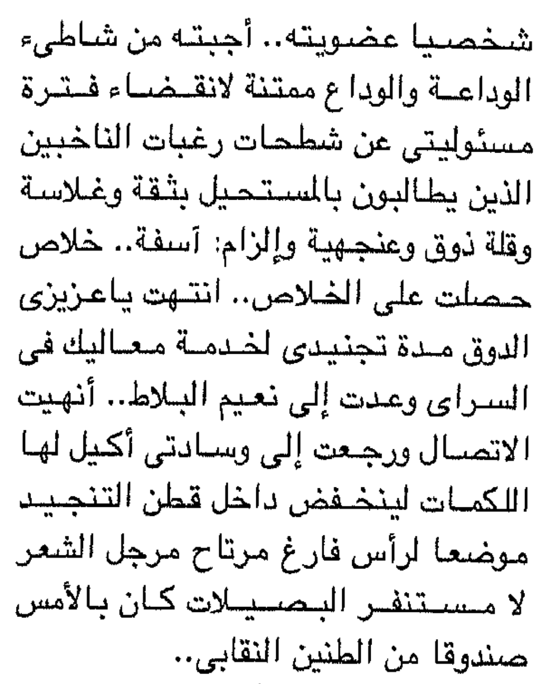
الزواج الجماعي الذى بدعته «نصف الدنيا»

عليه لألبى دعوته على بعد خطوات قُبالتى فأجلس إليه أرتوى.. تابعته من موقعى كتلميذة ومرءوسة وناهلة من بحور ثقافته وأستاذيته، وكان فى تواضعه طوال لجوئى إليه يكاد ينسينى موقعى، وأكاد أشعر بندية صداقته، فهو الذى يلقانى ليحكى وينتظر وقع كلامه على ملامحى مراقبا تجاوبى أسفا لحزنه أو سعادة لفرحه، وأروى له فأجده ملك أدب الإنصات، مبتسما لمشاكلى، مجففا لدموعى، مندهشا لاكتشافى، مشجعا لمشروعى، ممهدا لطموحى، مقوما لشطحاتى، ناقدا لعملى، صندوقا لسرى، سعيدا لفرحى، ناصرا لقضيتى، متحفزا لعدوى، مرحبا بصديقى، ممتنا لشكرى، مقبلا للقائى، سائلا عن غيابى، زائرا لمرضى، آخذا بيد انطلاقى، مرشدا لعثراتى، مقننا لدربى، منقِّبا عن منفذ يخرجنى به من سجن السأم لأتابع نهج تدفق الحياة، بينما يكون هو ساعاتها وأنا فى غفلة الانشغال بذاتى ـ ساكن شرنقة الاكتئاب.. أستاذى.. أحمد بهاء الدين عندما أجلس إلى أوراقى أداعب الذكرى أجده مايزال مسيطرا على قلمى محيطا أبدا بعذوبته ذكرياتى.. كان متابعا لنموى وسطرى ورأيى وحلمى وطموحى وقصة حبى.. شاهدا على زواجى، مواكبا لسلم جهدى، كاشفا لى بضوء عقله عن

نتوءات الطريق.. من بعد غيابه عنا مرضا وموتا أشقى الآن من حمل فدان أسئلة وحده كان المجيب عليها.. المجاهل تتعقد دروبها بعد أن تخلى نافذ البصيرة عن موقع الكشف.. كان حييًا خجولا غير مقتحم، حتى فى مواجهة الموت الذى خجل منه رغم قسوته فعامله معاملة المثل لينا ورقة، ولم يأخذه على حين غِرة بل احتواه على مهل واصطحبه فى تأن..

أحببت الآداب والثقافة

فى مسيرة التكوين عاهدت نفسى ألا يشغلنى العمل السياسى وألا أنتمى لحزب معين فأنا ممتلئة غراما وهياما بالآداب والثقافة، وكان اسم الوزارة فى طفولتى يأتى على لسان والدى فى حديثه مع أمى فأتعجب من كونها تأخذ الأمر بمنتهى البساطة وهو يحكى لها نوادره مع الوزارة التى يذهب إليها كل يوم ويقعد عندها طول النهار.. كنت أعجب لأمى كيف تجلس وتنصت إليه باهتمام وتستغرق فى الضحك ساعة، وساعة تنصحه بأن يمشّى حاله مع الوزارة القاهرة القادرة صاحبة الكلمة المسموعة.. كان اعتقادى أن الوزارة تلك ماهى إلا امرأة خطيرة تسكن حى لاظوغلى، وأن والدى قد أقنع والدتى بطريقته السحرية بمدى أهمية تلك المرأة فى حياته وأنه لا غنى له عنها، وكنت أفكر فى أنه قد اقترن بها وأصبحت الزوجة الجديدة وضُرَّة أمى التى تقبَّلت وضعها مجبرة وذلك لأن بيتنا لن يستطيع العيش إذا لم يطع والدى أوامر أمر الست ـ الوزارة ـ الثرية التى تمنحه مع كل طلعة شهر ما يفتح البيت.. واعتقدت رغم سيطرتها التامة على تحركاته وأحاديثه وآلامه وأفراحه أنها فى النهاية طيبة القلب وتعرف الواجب، فقد منحتْ أبى علاوة عندما أنجب شقيقتى الصغرى بثينة، وأرسلته على حسابها فى مهمة خاصة للخارج، وعاقبتْ من أجله من افترى عليه، ووقفتْ فى صفه عندما قدم مذكرة ضد المدير المتعسف مع الموظفين.. ويشير أبى من شباك الترام إلى مبنى الوزارة فأحسده على أبهة القصر الذى يرتع فيه يوميا مع ضُرَّة أمى، وألومه لأنه يعود من عندها فى بعض الأيام ثائرا عاقدا جبينه.. وعلى درب السياسة كانت علاقتى بالانتخابات يوم أن رشحت نفسى لعضوية مجلس نقابة الصحفيين، ومن وقت ذلك التوتر الذى يخطف النوم من عينى ليلا ليسقطنى فى نهارى لا إراديا فى الغطيط وأنا أقول فى سرى عندما تظللنى أية لافتات متصارعة: «لك الله يا مرشح أينما كنت وإلى أى مقعد تبغى وتروم».. وأبدا لن أنسى نعيم وسادة الراحة بعدما انقضت فترة المجلس الموقر، وشرخ رنين التليفون هدوء فجرى ليأمرنى أحد زملاء المهنة ممن له الفضل فى منحى صوته الكريم فى الانتخابات أن أجد له حلا عاجلا وفوريا لمشكلة حصوله هو وأسرته مجانيا على عضوية شرفية للنادى الأرستقراطى الكبير الذى لا أملك أنا



شخصيا عضويته.. أجبته من شاطىء الوداعة والوداع ممتنة لانقضاء فترة مسئوليتى عن شطحات رغبات الناخبين الذين يطالبون بالمستحيل بثقة وغلاسة وقلة ذوق وعنجهية وإلزام: آسفة.. خلاص حصلت على الخلاص.. انتهت ياعزيزى الدوق مدة تجنيدى لخدمة معاليك فى السراى وعدت إلى نعيم البلاط.. أنهيت الاتصال ورجعت إلى وسادتى أكيل لها اللكمات لينخفض داخل قطن التنجيد موضعا لرأس فارغ مرتاح مرجل الشعر لا مستنفر البصيلات كان بالأمس صندوقا من الطنين النقابى..

مشوار مرهق ومتعب!

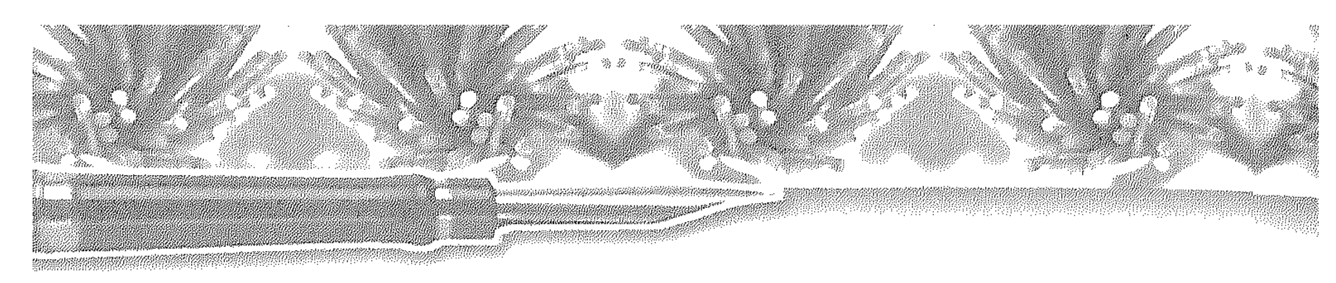
ومعذرة لعدم ترتيب مراحل التكوين فزغم توارد الذكريات يضع النهايات فى سياق الحديث والخواتم فى مستهل البدايات، ويترك هناك ثغرات مفتوحة كأبواب يلهو بها عبث الريح أو كجراح مزمنة لا تلتئم.. مشوار التكوين مرهق ومتعب وطويل تعب لى قلبى. أخذته وارتحلت للمداوى فى مستشفى كليفلاند.. قال الطبيب يامصرية قلبك مشرّخ ومطلوب لإنقاذه شق ومزع ونزع وتسليك وتبديل وتقطيع وترقيع.. نلتقى فى الغد من بعدما تكتبى لنا تعهدا بأنك فوضت أمرك لنا وتذكرى موقعه باسمك ثلاثيا الشخص الذى سيقوم بالاستلام فى حالة إذا ما.. أنا.. فوضت أمرى لربى.. وابنى روح أمه مثلما حملنى إليكم هنا فى آخر الأرض هو من سيقوم بتسلمى منكم سواء على كرسى أو على



الصداقة الممتدة مع النجل الوحيد هشام

ظهرى.. القلب؟! جاءنى خبره من بعد ما فتحتُ عينى حول نزعه وحيدا على ترابيزة التفصيل من أجل ما يعدلوا المايل ويغيرو الهاتك ويسلّكوا المسدود ويلحموا شروخه ويرمموا ما انهار.. دمى؟!.. لم أحقق عوضا عما هدر منه تخوفا من أية عدوى، والنتيجة الخروج من جراحة القلب المفتوح شبحا بقفص صدرى ملضوم بإبرة خيوطها أسلاك ستانلس تيل، وقد يكون

من حظى أو لا يكون هذا حظا من أصله أن من قام بدخول قلبى هو دكتور «فلويد لوب» بالذات الذى لا يؤمن بجراحة التجميل فى مثل تلك العملية الخطرة تخوفا من التلوث.. لذا كانت صدمتى مهولة عندما لاقانى من بعد عودة الروح ونبض القلب ذلك الثعبان الضخم الراقد على صدرى بسيقانه المتشعبة الوارمة والذى سيمكث رابضا فى موضعه طوال ماهو مكتوب لعمرى يشهد بأن فى دماء دكتور لوب الأمريكى إرثا صعيديا يدفعه لأن يخيط أرض الجرح وكأنها قفة بداخلها بلاص مش..! وفى الغربة لم أكن أما ولدت ابنى.. أبدا ابنى من كان لى أمًّا بل وأبا.. سافر مرافقا لى تاركا عمله.. أرهقته. نسيت دورى. عانى الكثير منى. وضعت حملى وألمى وعمرى وتكالى عليه. شاف الويل. أذقته كأس الهلع ووحظ المشيب شاب شعره خلال شهر.. وعدت من رحلتى العلاجية.. من العملية الجراحية الخطيرة التى دخلت فيها جب الآلام المبرحة.. عدت للعجب متفائلة. رجعت جوعانة شغل.. عدت بعزيمة تقلب الضعف قوة.. رجعت أفتح الشباك. رجعت أنظر للأمام أعب الحياة. رجعت أحب الحياة. رجعت كأنى اغتسلت فى نبع صاف. رجعت كأنى كنت فى رحلة حج قدسية. رجعت كأنى تهاديت فوق جمل محمل.. رجعت أسجد لربى. رجعت ممتنة لمن لم يدخّر وسعًا لإنقاذى.. لزميل العمر ورئيسى وربان سفينتى وقبطان مؤسستى.. إبراهيم نافع.. رجعلت لـ«نصف الدنيا» لبناتى وأبنائى لجمع الشمل ودفع الهِمم واستكمال مشوار الانفراد والتفوق الصحفى.. رجعت وهات ياشغل.. ولكن.. جرح القلب أبدا لم يلتئم بل زاد اتساعا.. رحيل شريك العمر الذى مضى معى عمرا لا يحب فيه أن يتعبنى مثقال ذرة.. الذى عندما كنت أجلس لأوراقى ساعات لم يكن يجد غضاضة فى أن يحمل لى صينية طعام يضعها أمامى فى سكون حتى لا يخدش إطار توحدى مع القلم.. الزوج الذى حاولت مرة من باب حب إثبات وجودى كزوجة وأم ومسئولة عن بيت أن أصنع حلوى فى الفرن ولو قالب كيك فنهرنى ودعانى للخروج الفورى من المطبخ قائلا باقتناع: ليس هذا دورك، والكيك موجود فى الفرن على الناصية، وروحى شوفى لك كتاب أو لوحة أو اسمعى لك قطعة موسيقى... رحل ... وكاد يميتنى عجزى عن إعادته لقربى.. بداخلى مازال رغم مضى السنوات بوسعى أن أخاطبه وبوسعه أن يجيبنى ولو فى الرؤى. أخلد للذكرى مستعيدة ذلك الحنان الهائل الذى لا يعود.. كنا متقاربين بشكل يفوق الوصف.. عندما مضى سارع ذكائى ليلحق به.. مشتْ فى ركبه غبطتى. لملم قبل أن يذهب إشراقتى.. أخذ معه الزمان والمكان والوصف والنقد والانطباعات والغيرة والتدفق والالتصاق.. حمل كل ذلك





سناء البيسى بين إبراهيم نافع وبنت الشاطئ

فى حقيبة سفر بلا عودة، ظللت رغم بعد المغيب حتى الآن لا أستطيع أن أبوح بدخيلة نفسى لأحد بتلك الحرية التى كنت أحادثك بها.. فى غيابه الذى طال لا أجد حضورا يشابهه يقوِّينى.. أين منى أن يُذكر اسمى محمولا على منصة لقب زوجة فلان الفلانى ولست أرملتك. من يضع السماعة المشاغبة والتطاول على وضع المرأة عند حده، ففى بيتنا رجل. هذا الجمال فى السماء والسحاب وشروق الشمس وطلعة القمر وطلّة الأحفاد من حولى أشعر أنه لا يكتمل لأنك لا تشاركنى فيه.. كلما أتت نورا الحفيدة بمهارات الطفولة وأشار شقيقها حسين لصورتك تمنيت أن ترجع.. أن تأووب.. ولو للحظة ليس غير... تركت لنا تراثك الفنى الرائد إرثا ومسئولية وعهدا فكنا على العهد حافظين.. أقمت لك أنا وابنك الغالى الوحيد هشام معرضا شاملا لأعمالك كان حدثا ضخما لا يتكرر فى تاريخ الفنون غطت أعمالك فيه جميع جدران متحف الفن الحديث وقصر الفنون بصالاته وردهاته فى وقت واحد... و.. أتانى صوت أستاذى محمد حسنين هيكل بالثناء فكان بلسما وشافيا كأنه الإكسير.. قال لى: أنت إيزيس الجديدة.

■

أشهر الجرائم

تعليقا على مقال د. محمد رجب البيومى فى عدد ابريل الماضى «الجريمة منذ نصف قرن» صدر مؤخرا كتاب عن جريمة ريا وسكينة الشهيرة بالاسكندرية بعنوان «رجال ريا وسكينة».

فهل هناك مرجع يمكن أن نقرأ فيه مثل تلك الجرائم الكبرى مثل جريمة السبع التى رواها بأسلوبه الدكتور البيومى خاصة أن نلك الجريمة كانت من الجرائم الكبرى المروعة؟!

إبراهيم عبدالله
أسيوط

الهلال: اتصلنا بالدكتور رجب البيومى والذى قال لنا بأن هناك كتبا عديدة صدرت عن الجريمة من بينها كتاب الجريمة للدكتور مصطفى السعيد.

والكتاب الذى رجع إليه فى مقاله مؤلفه هو الشيخ الصالح وهو من رجال التربية والتعليم وقد طبع الكتاب طبعتين وهذا النوع من المقالات يبحث عن مصادره فى صفحات الحوادث من الجرائد اليومية التى لاتزال إلى الآن تعرض لنا فواجع مؤسفة!

تعقيبات

من خلال قراءتى لهلال مارس الماضى لدى بعض التعقيبات ففى مقال د. صلاح قنصوه ماذا نقصد بالنقد الثقافى أقول عن نقد الثقافة بالمفهوم الموضح فى المقال فذلك يستلزم بصفة مبدئية شمول الإلمام بكافة جوانبها وبعد ذلك الإلمام الشامل اللازم قبل مرحلة النقد أمرا مستحيلا لاستحالة وجود الكائن البشرى الموسوعى المحيط بسائر جوانب الثقافة فى زمن تتضاعف فيه المعارف البشرية كل ٥ سنوات.

وتعقيبا على ما جاء فى مقال تأثير عصر المعلومات على الأديان بقلم د. أحمد محمد صالح فلابد أن نميز بين ما يلى: البيانات، المعلومات، المعرفة، الحكمة وهى المراتب الأربع من الأدنى إلى الأعلى التى يكتمل بها الصرح المعرفى فليست كل البيانات مفيدة بالضرورة وليست كل المعلومات صحيحة بالضرورة وقد لا تشكل بيانات أو معلومات ما معرفة... إنه بتطور المعلوماتية والاتصالات وزيادة الفجوة الرقمية بين الشعوب وبين الجماعات وجدت ظاهرة الفقر المعلوماتى لدى شعوب العالم الثالث.

ولدى مطالعتى لمقال واحة سيوه بقلم رئيس التحرير أشير إلى أن كلمة فورشيف للتعبير عن المادة التى تستخدم فى البناء فى سيوه واللفظة المستخدمة هناك تنطق وتكتب كارشيفه علما بأن اللهجة السيوية قد انقطعت بها الشقة لآماد طويلة عن اللهجة البربرية أيضا طبعت الجامعة الأمريكية مؤلف لسيدة اسمها فيفيان وهو أحدث نسبيا من كتاب د. أحمد فخرى ويتناول قضايا كثيرة تخص واحة سيوه وسكانها وأصولهم.

عمرو عبدالمتعال - المهندسين - جيزة



ذكرياتى

فيك أودعت مفاتيح حياتى   أسطرى قد زاحمتها كلماتى
فغدوت وصل ماضى بآت   قصتى فوق لسان الحكواتى
وغدى حبك موصولا بذات   فأنا منذ لقاك وإلى يوم وفاتى
فأنا بين يديك قلبى فى صفحاتى   لم تغيبى عنى دوما فى خلايا ذكرياتى

وجدي أبو الريحة - لندن

فضل الهلال

أعجبنى جدا المقال الذى تناول الأستاذ كامل زهيرى، هذه الشخصية المثقفة الجادة وفور قراءتى للمقال رأيتنى أعود إلى عدد الهلال الماسى ٧٥ عاما والذى صدر فى ديسمبر ١٩٦٧ وهو فكرة جيدة للأستاذ كامل ولفت نظرى فى هذا العدد مقال للشيخ مصطفى عبدالرازق يتحدث فيه عن أثر المرأة فى حياة الشيخ محمد عبده وأتعرف معه على ما تناوله مسلسل قاسم أمين من أن الأميرة نازلى فاضل كانت صاحبة صالون أدبى يجمع صفوة قادة الرأى وصفوة أهل العلم والأدب والفن وأنها تعرفت على الشيخ محمد عبده وكان قاضيا بمحكمة الاستئناف العليا ضمن من كانوا يجتمعون بصالونها الأدبى.

وتعرفت على معلومة أخرى تفيد بأن قاسم أمين قد وصف الشيخ محمد عبده فى نفس المقال بأنه نفس خلقت على أحسن شكل زينها صاحبها بالفضائل حتى صارت مثلا فى الجمال يجب أن نضعه دائما أمامنا.

هكذا تبين لى فضل الهلال فيما يقدمه لنا فى مجالات العلم والأدب والفن.

سامي منير - الاسكندرية - كلية التربية

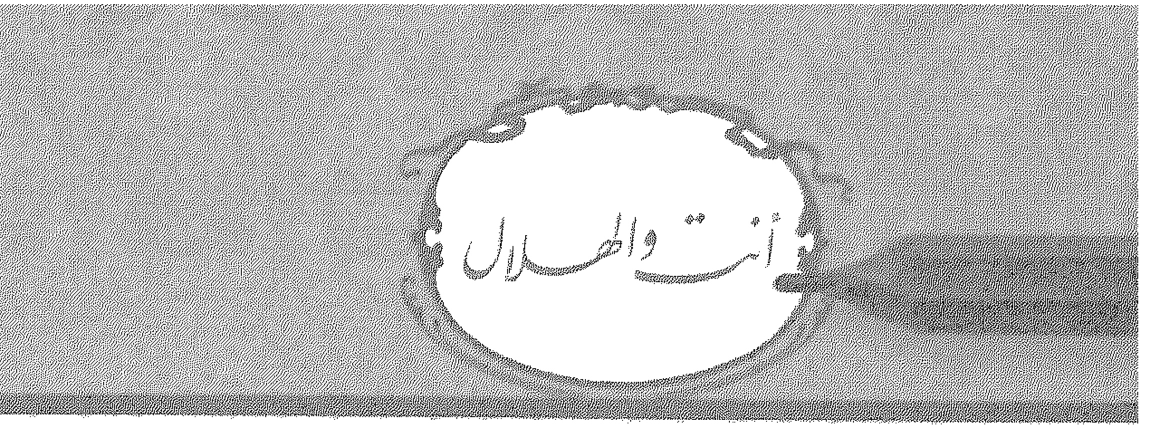


لغويات

الأيام تمر وهلالنا فى تقدم مستمر شكلا وموضوعا وهذه المجلة العريقة كما عودتنا فالتجديد فيها مستمر لا يتوقف وفى كل عدد منأعدادها تضيف لنا كاتبا بارزا يتناول موضوعا يهم كل مثقف وكل محب للغة العربية الرصينة فمازالت الهلال تحافظ على اللغة الفصحى وتعد خير حارس أمين لها.

لقد وصلتم القمة منذ زمن طويل ومازلتم تحتفظون بهذه القمة أعانكم الله ووفقكم فى مسيرتكم الناجحة.

سليم عبدالرحمن سيد - مهندس زراعي
القاهرة - روض الفرج



العراق فى ضميرنا جميعا

أحسنت مجلة الهلال بنشر موضوع عن الموصل للأديبة العراقية سهيلة الحسينى فى هذا الوقت الذى تتعرض فيه العراق والموصل بشكل خاص لمحنة كبرى بعد احتلالها من قبل ما يسمى بقوات التحالف.

نرجو أن تواصل الهلال الغراء إمتاعنا بالعديد من المقالات والدراسات عن العراق من مختلف جوانبه الحضارية والثقافية والتاريخية والسياسية لتظل دائما فى ضمير كل عربى مخلص وحتى تتخلص من هذه الهجمة البربرية الشرسة.

عاطف المغربى
بلقاس دقهلية

الهلال: فى هذا العدد تجد ملفا شاملا وموسعا عن العراق الذى يعيش فى ضمير ووجدان العرب جميعا على الرغم مما تعرض له من نهب لأغلى وأغنى آثار العلماء وبشكل منظم والذى ينهب بتروله وثرواته على مرأى من العالم الذى يتفرج على هذه المأساة المدوية.

الجواهرى والعراق

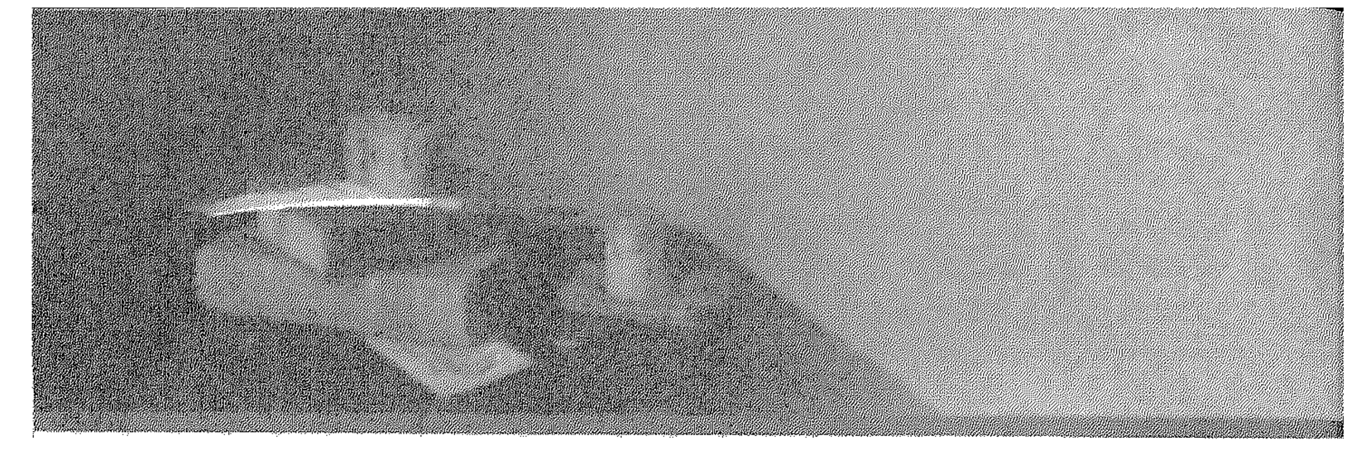
طالعنا فى العدد الاضى قصيدتين لشاعر العراق الكبير محمد مهدى الجواهرى والذى رحل عن عالمنا منذ عدة سنوات وقد قد قرآت بأن هذا الشاعر قد عاش فى المنفى طويلا نظرا لمواقفه السياسية فهل لكم أن تقدموا لنا نبذة عن حياة هذا الشاعر واصداراته الشعرية.

كريم حسن مدكور
مصر الجديدة

- الهلال: الشاعر العراقى الجواهرى من أصول كردية من العراق وله مكانة كبيرة فى تاريخ الشعر العراقى والعربى وقد أدت به مواقفه السياسية الجريئة والحادة إلى أن عاش لسنوات طويلة فى منفى اختيارى فى كل من تشيكو سلوفاكيا وسوريا وغيرها من العواصم الأوربية والعربية.

وقد شارك الجواهرى فى احتفال دار الهلال بالعيد المئوى لمجلة الهلال عام ١٩٩٢ بقصيدة شعرية رائعة ألقاها بنفسه أمام حشد كبير من المثقفين بدار الأوبرا.

صدرت أعماله الشعرية الكاملة فى بيروت كما أصدر ذكرياته فى العراق وفى الدول التى عاش فيها فى مجلد تحت عنوان ذكرياتى روى فيه ذكرياته وانطباعاته بصراحته بأسلوب أدبى رفيع.



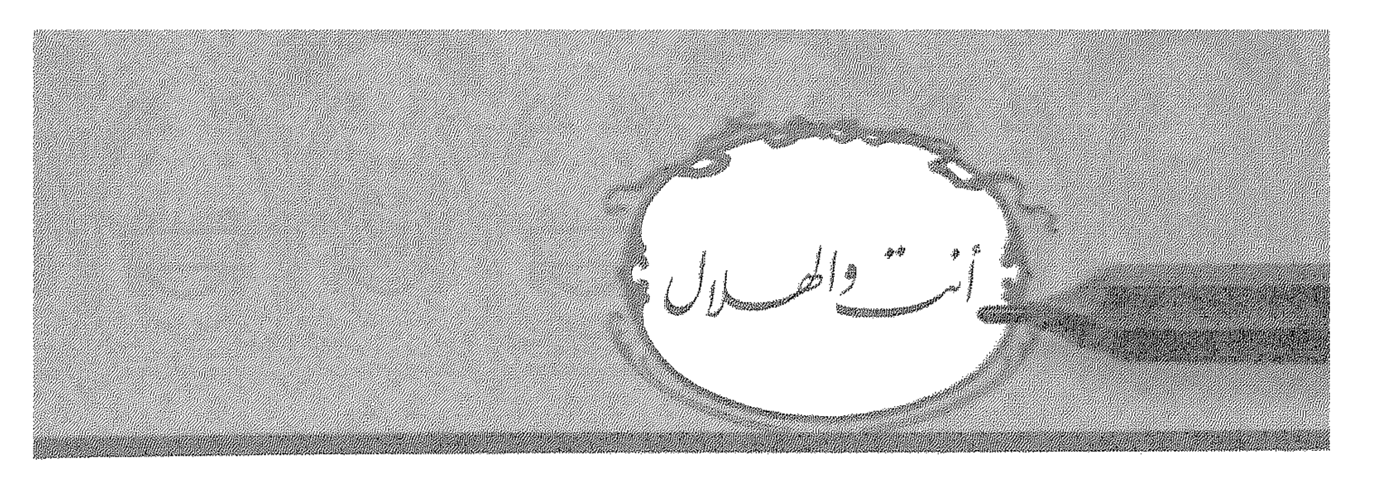
فوق أعتاب الفرات

كيف لى أن أحتمى
من كل وقع للهزيمة؟
والبلاد العاليات
تلبس الآن وجوها
للخيانات القديمة
والشياطين العلوج
ومرت لى.
كل شبر من كيانى
بالنفايات الرجيمة
روعوا القلب على
قبح الجريمة
كلما نام على صدر الأمان
واحتمى داسوه
فى ليل البلاد الفوضوية
تحت أقدام المدافع
روعوه
أيقظوه
كى يغنى للحضارات العقيمة!
روعوه
حطموه
حاوطوا تلك الوليمة!!
حاصروا قلبى زمانا
طالبوا دوما سقوطى
قلت لا خوف علىّ
كنت قد جهزت جيشا
وقفلت الباب خلفى
خارجا من قمة الحزن المميت
لاعنا وجه الحقيقة
لاعنا صوت الرصاص
لاعنا كل قتال الأغبياء
فالفصول والقصيد
والورود والبحار والصباح
والبنات والعصافير
الموانئ اشتعال
وانتحار
فوق أعتاب الفرات!!

محمود أحمد المصلي
شربين - دقهلية

من يقتل الشيطان؟!

هذا البكاء.. لمن تنزى فى التخوم
لكى تكذب كل عين؟!
هل فرت الأعراب فى غور
الهروب
مجددا
وتحالفت قبل الطواف
مع المخاوف.. مرتين؟!
مات القصيد.. على الفرات
وكان مكتوف اليدين
وتمردت فينا الهزائم
من قبائل (حضر موت)
إلى بلاد الرافدين
بعناك يا بغداد - عمدا -
مثلما بعنا (الحسين)



في كربلاء الآن نهر.. من دماء
مهدرا
فلمن نسدد كل دين؟
من يطمس الأكفان من؟
من يطمس الأحزان من؟
من يطمس الأوجاع من؟
من يقتل الشيطان من؟

أو يعطنا شرف القتال
بخوذتين؟!
فترحموا
شاخ الصهيل..
ومات سيدنا الحسين!!

عبدالناصر أحمد الجوهري
دكرنس - المنصورة

أخطاء تحدث

يسعدني أن إبدى إعجابي بمجلة الهلال والاصدارات الأخرى مثل الكتب والروايات واختيار الكتاب وانتقاء الموضوعات والإخراج الفني ولكن تقابلني بعض هنات الأخطاء أضرب لها مثالين ففي عدد فبراير ٢٠٠٣ صفحة ٢٠٧ الصورة المنشورة للدكتور علي باشا ابراهيم هي صورة عبدالخالق باشا ثروت وفي كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ صفحة ٥ التاريخ الهجري لوفاة أسامة بن منقذ سنة ٥٤٨ وصفحته ٥٨٤.

مع أمنياتي بازدهار الهلال

محمد إبراهيم سالم
دسوق غربية

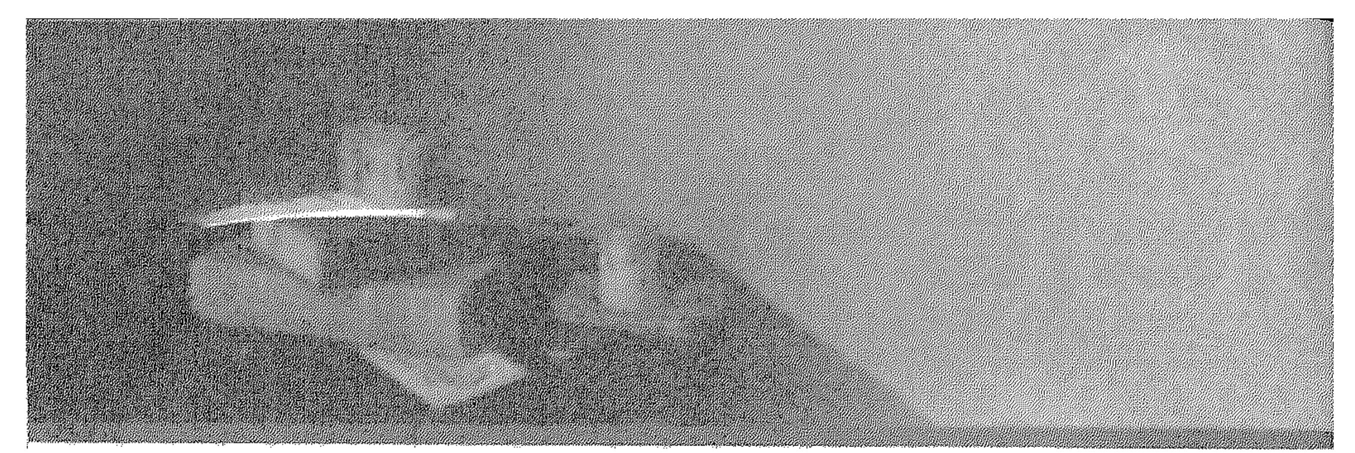
نشكر القارئ العزيز على ملاحظاته القيمة ونعتذر عن هذه الأخطاء التي تحدث بلا قصد.

خطبة بعد الأربعين

حلمت يوما بزوج
يلقى على القصورا
حلمت أن وزيرا
يحبني أو أميرا
عيناه غابات حب

تغري الندى والعبيرا
يحتل روحي سريعا
ويشتري لي الحريرا
لكن حظي كوحل
جاء العريس فقيرا





لا يملك الصب إلا
رداءه والسريرا
وحزنه وطموحا
يبكي السنى والعطورا
دوما يغني ويشدو
يهوى الغنا والصفيرا
كأنه يملك البحر
والسما والأثيرا
إن الغرور بطبعي
ضاع الشباب غرورا
ترددا وانتظارا
تفكرا وزفيرا
رفضت ألف عريس
يوما ركلت النسورا
والآن جاء غراب
ظن الصخور نهورا
ماذا أقول لأهلي؟
جاء العريس أخيرا
قبرا مخيفا يغني
يروم قبرا قريرا

د. هيثم الحويج العمر
دمشق

القصر المنيف

كان ابراهيم عليه السلام أبو الأنبياء خلاصة لما سبقه من أنبياء قيضهم الله لهداية البشرية منذ بدء ظهور الإنسان على ظهر البسيطة.

وكان أيضا بداية لمجموعة من الأنبياء والرسل من نسله الكريم جاءوا من بعده.

كان ابراهيم صاحب هذا القصر المنيف الذى هو الإسلام حاد الذكاء واسع المعرفة ذو عزم شديد وراى سديد حلمه وعلمه يفوقان ما متعة الله به من إلهام كبير كان هو والصالحين من نسله بناة للإسلام بمعنى التسليم بوجود الخالق العظيم وحده رب الناس مرسلا لهم دين الحق والخير والسلام.

وقد ختم الله هذا الدين بنسل اسماعيل ابن ابراهيم ليتولاه محمد بن عبدالله (ص) خاتم الأنبياء ليعلمه للبشر أجمعين بعد نجاح تجربة انتشاره فى أرجاء الدنيا.

وجاء هذا الختام بما هو جدير ليؤكد ويركز على مسئولية كل فرد بفكره وإيمانه واختياره الخاص لطريق الخير والسلام وكان محمدا عليه السلام كما جاء فى حديثه الشريف مكملا لهذا القصر المنيف الذى سماه بيتنا كلبنة صغيرة فيه ثمينة فى المخبر كبيرة فى القيمة مقرة بوحدانية هذا البيت الكبير الذى هو دين الاسلام دين الله الواحد الأحد الذى يشمل الناس جميعا كل منهم فيه حريص على ما يتبعه طرائقهم المختلفة لا يعوقها توحدهم فى الهدف والمضمون والجوهر الواحد قصرا زاهرا باهرا لا ينقضه أحد.

مهندس رستم غالب
القاهرة صديق الهلال

الكلمة الأخيرة

الصحافة والخطر

بقلم : محمود أحمد



أصيب ملايين المشاهدين بالذهول.

وهم يرون بأعينهم على شاشات التليفزيون – قبل يوم واحد من سقوط النظام في بغداد – واقعة إصابة ومصرع الصحفي الأردني طارق أيوب وعدد آخر من الصحفيين العرب والأجانب.

وهي واقعة تجسد جريمة حرب مكتملة الأركان، عرضت تفاصيلها على الملأ .. وبالبث المباشر! لكن لا أحد يعرف إن كان المجتمع الدولي سيقوى على طرحها بهذه الصفة، فالجاني جاء إلى هنا حاملاً لواء «التحرير» ومتلفعا بشعارات تشمل ، فيما تشمل، الحرص على الشفافية في إظهار الحقيقة وحشد لإثبات دعاواه كتائب من المراسلين وأطقم التليفزيون كان قد اختارها قبل فترة طويلة.

أما «الضحايا» فلم يتمتعوا بأي حماية لامن قوات «التحالف ولا من غيرها». اللهم إلا مايفضحه «البث الحي» ولأنهم كانوا موضع شكوك من الأساس، ولأن «تغطياتهم» جاءت مناقضة للسياق المرسوم، فقد اعتبروا «مزعجين» و«غير مرغوب في وجودهم».

لقد كانت الصحافة توصف، قديماً بأنها «مهنة البحث عن المتاعب». ولكن ها هي تتحول إلى مهنة مواجهة الخطر، ومعايشته، بل وتحديه إلى حد «الاستشهاد» من أجل أداء الواجب الذي تفرضه المهنة.. «نقل الحقيقة . بدقة وسرعة».

ولعل مشهد إطلاق النار من جانب القوات الأمريكية على تلك المجموعة من الصحفيين الذين كانوا يقيمون، ويعملون، في أحد فنادق بغداد، قد أثار تساؤلات لدى جمهور مشاهدي التليفزيون .. عن المدى الذي يمكن أن يذهب إليه الصحفي في التضحية من أجل مهنته. ومن أجل أن يقوم بواجبه على أعلى مستوى من الأداء.حتى ولو فقد حياته نفسها!.

ولكن الأمر لايقتصر، في الحقيقة، على ذلك الجانب وحده. وإلا لأصبح أداء هذه المهمة الخطرة معلقا بقدر مايملك الصحفي من شجاعة وثبات في مواجهة الخطر.

وربما أستطيع، من منطلق تجربة شخصية، أن أقدم شهادة في هذا الخصوص.. فقد قدر لي أن أغطي الحرب اللبنانية، بكل أهوالها، لفترة امتدت إلى عشر سنوات. وطوال هذه المدة ، كثيرا ما كنت أواجه تساؤلات الأهل والأصدقاء عما يدعوني للبقاء وسط الخطر .. خاصة وأن بيتي قد تعرض للدمار أكثر من مرة، وكذلك المكتب والسيارة، كما تعرضت مع زملاء آخرين ولمرات عديدة لمواقف كان الموت فيها قريباً حتى ليكاد الإنسان يحس به!

ومع ذلك ، لم أفكر في التخلي عن المهمة ، أو الإفلات من الخطر .. بل إنني – باستثناء حالات قليلة – لم أجد من بين زملائي الصحفيين الذين تواجدوا في بيروت في تلك السنوات الصعبة ، من آثر السلامة وأدار ظهره للخطر.

وأستطيع أن أقرر، من واقع هذه التجربة، أن الصحفي يتملكه في مثل هذه المواقف إحساس .. لا أقول له إنه «مهني» تماماً ولا أقول إنه «إنساني» بحت .. بأن عليه أن يستمر إلى جانب الآخرين الذين يواجهون الخطر نفسه .. كما تتملكه رغبة دفينة في أن يبقى لكي يرى نهاية هذا الفصل المرعب الذي وجد نفسه فيه! هذا بالإضافة إلى «الغريزة» المهنية التي تحفز على التفوق في الأداء.

إنني اليوم، وبعد مرور سنوات كثيرة على هذه التجربة ، كثيراً ما أتساءل بيني وبين نفسي عما دفعني إلى البقاء وسط الخطر ، وبكل هذا العناد. ولكن الإجابة تأتيني كلما حملت إلي الأحداث، عبر وسائل الإعلام المختلفة ، ما ينقله زملاء من وقائع وهم يعيشون وسط الخطر .. وربما يضحون بحياتهم على نحو ماحدث لطارق أيوب !

لكي يروا الحقيقة..